UNIVERSAL
LIBRARY
OU_232598
UNIVERSAL
LIBRARY

* (فهرسة الجزء السادس من تفسير الفخر الرازي) *

صحيفة

٢ * (سورة طه عليه السلام وفيها المسائل الآتية) *
٥ المسئلة الثانية في ابطال قول المشبهة ان الاله جالس على العرش
١٥ المسئلة السادسة في بيان الخلاف في ان موسى كيف عرف ان المنادي هو الله تعالى
١٧ المسئلة التاسعة في بيان استدلال المعتزلة على ان كلام الله تعالى ليس بقديم والجواب عنه
٢٩ الكلام في قوله تعالى رب اشرح لي صدري
٣٢ الفصل الثاني في قوله رب اشرح لي صدري
٣٦ الفصل الثالث في قوله رب اشرح لي صدري
٣٧ الفصل الرابع في قوله رب اشرح لي صدري
٤١ الفصل الخامس في بيان حقيقة شرح الصدر
٤٢ الفصل السادس في معنى الصدر
٤٣ الفصل السابع في بقية الابحاث عن هذه الآية
٤٣ المسئلة الاولى في بيان أن النطق فضيلة عظيمة
٦٠ المسئلة السابعة في بيان استدلال موسى على اثبات الصانع باحوال المخلوقات
٧٦ المسئلة الثانية في بيان عدد سحرة فرعون
١٢٤ المسئلة الثالثة في بيان احتجاج اهل السنة على أن الوجوب لا يتحقق الا بالشرع
١٢٤ * (سورة الانبياء عليهم الصلاة والسلام وفيها المسائل الآتية) *
١٢٥ المسئلة الثالثة في بيان احتجاج المعتزلة على قولهم بحدوث القرآن والجواب عنه
١٣٣ المسئلة الثانية في بيان أن القول بوجود الهين يفضي الى المحال
١٣٨ المسئلة الثانية في بيان الدلالة على انه سبحانه وتعالى لا يسئل عما يفعل
١٤٧ المسئلة الاولى في بيان نبذة من علم الهيئة
١٤٩ المسئلة الثالثة في بيان معنى الفلك في كلام العرب
١٤٩ المسئلة الرابعة في بيان اختلاف الناس في حركات الكواكب
١٥٠ المسئلة السادسة في بيان احتجاج من على بن سينا على أن الكواكب أحياء ناطقة
١٦٥ المسئلة الثانية في بيان كيفية قصة ابراهيم عليه السلام مع النمرود
١٦٦ المسئلة الثانية في بيان ان النار كيف بردت على ابراهيم عليه السلام
١٧١ المسئلة الرابعة في بيان قصة داود وسليمان عليهما السلام
١٧٩ المسئلة الاولى في بيان قصة ايوب عليه السلام
١٨٧ المسئلة الثانية في بيان قصة يونس عليه السلام

صحيفة
١٨٨ المسئلة الثالثة فى بيان احتجاج من يجوز الذنب على الانبياء والجواب عنه
٢٠١ المسئلة الثالثة فى بيان الاختلاف فى كيفية الاعادة
٢٠٦ (سورة الحج وفيها المسائل الآتية)
٢٠٧ المسئلة الخامسة فى بيان احتجاج المعتزلة على قولهم بأن المعدوم شئ والجواب عنه
٢٤٥ المسئلة الثانية فى كون عليه السلام هل تكلم فى أثناء قراءته بقوله تلك الغرانيق العلى أم لا
٢٦٧ (سورة المؤمنون وفيها المسائل الآتية)
٢٧٤ الكلام فى ادوار خلقة الانسان ومراتبها
٣٠٩ (سورة النور وفيها المسائل الآتية)
٣١٠ المسئلة الاولى فى بيان الاختلاف فى ان المواطأة هل يطلق عليها اسم الزنا أم لا
٣٣١ المسئلة الثانية فى بيان حكم تعدد القذف
٣٣٢ المسئلة الثالثة فى بيان ما يبيح القذف
٣٥١ المسئلة الرابعة فى بيان قصة أصحاب الافك
٣٦٦ المسئلة التاسعة فى بيان الخصال التى فضلت بها عائشة سائر أزواج النبى عليه السلام
٣٧٥ المسئلة الثانية فى بيان أقسام العورات وفى بيان حكم النظر الى كل واحد منها
٣٩٣ الكلام على قوله تعالى الله نور السموات والارض وفيه فصول
٣٩٣ الفصل الاول فى اطلاق اسم النور على الله تعالى
٤٠١ الفصل الثانى فى تفسير قوله عليه السلام ان لله سبعين حجاب الحديث
٤٠٢ الفصل الثالث فى شرح كيفية التمثيل
٤٠٦ الكلام فى بيان ادراكات الحيوانات
٤٤٣ (سورة الفرقان وفيها المسائل الآتية)
٤٤٧ الكلام على تزييف مذهب عبدة الاوثان
٤٤٧ الكلام فى احتجاج أهل السنة والمعتزلة فى مسئلة خلق الافعال
٤٤٨ الكلام فى بيان شبه منكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والجواب عنها
٤٥٢ المسئلة الثانية فى بيان احتجاج أهل السنة على أن الجنة مخلوقة الآن
٤٥٣ المسئلة الثانية فى بيان استدلال أهل السنة على ان البنية ليست شرطا للحياة
٤٥٤ المسئلة الثالثة فى بيان احتجاج أهل السنة على ان الثواب غير واجب على الله
٤٦٣ المسئلة الثانية فى بيان الرد على القائلين بالتجسيم

صحيفه

٤٦٤ المسئلة الثانية فى بيان استدلال المعتزلة على عدم جواز رؤية الله تعالى والجواب عنه
٤٧٠ المسئلة الاولى فى بيان احتجاج أهل السنة على أن الله تعالى فاعل للخير والشر
٤٧٢ الكلام فى بيان الحكمة فى نزول القرآن مفرقا منجما
٤٧٧ المسئلة الرابعة فى حكاية أقوال المفسرين فى أصحاب الرس
٤٨٠ المسئلة الرابعة فى بيان وجه الاستدلال بالطل على وجود الصانع
٤٨٣ المسئلة الثالثة فى بيان تقسيم المياه وحكم كل قسم
٥٠٤ (سورة الشعراء)
٥٤١ الكلام على أن المخاطب فى الحقيقة هو القلب وأن سائر الاعضاء مسخرة له
٥٥٠ (سورة النمل وفيها المسائل الآتية)
٥٦٠ الكلام على قصة بلقيس مع سليمان عليه السلام
٥٧٢ الكلام فى ذكر منافع الارض
٥٧٦ الكلام فى الاستدلال على صحة المعاد
٥٨٠ الكلام فى بيان اعجاز القرآن وفى الاستدلال به على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم
٥٨١ الكلام فى بيان صفة الدابة وفى شرح أحوال القيامة
٥٨٥ (سورة القصص وفيها المسائل الآتية)
٥٨٨ الكلام على كيفية ولادة موسى والقائه فى اليم واخذ فرعون له
٥٩٥ المسئلة الخامسة فى بيان استدلال المعتزلة على أن المعاصى لا تنسب الى الله تعالى والجواب عنه
٦٠٨ المسئلة الاولى فى بيان احتجاج المعتزلة على قولهم بحدوث القرآن والجواب عنه
٦٠٣ المسئلة الرابعة فى بيان حكاية أقوال الناس فى عصا موسى عليه السلام
٦٠٩ الكلام فى بيان أن صريح فرعون هل حصل بناؤه أم لا وفى كيفيته
٦٢٦ الكلام فى وصف قارون مع موسى عليه السلام
٦٣٤ المسئلة الاولى فى بيان اختلافهم فى قوله تعالى كل شئ هالك الا وجهه
٦٣٦ المسئلة الثانية فى ترتيب القول بالتجسيم
٦٣٧ (سورة العنكبوت وفيها المسائل الآتية)
٦٣٧ المسئلة الثانية فى بيان حكمة افتتاح بعض السور بحروف التهجى
٦٣٩ المسئلة الخامسة فى بيان الفوائد المعنوية التى فى قوله تعالى أحسب الناس الآية
٦٧٦ المسئلة الثالثة فى بيان ان الصلاة كيف تنهى عن الفحشاء والمنكر

صحيفه

٦٩٤ (سورة الروم وفيها المسائل الآتية)
٦٩٦ الكلام فى حسن خلقة الانسان التى يجب التفكر فيها
٧٠١ المسئلة الاولى فى بيان معنى سبحان الله ولفظه
٧٠٢ المسئلة الثانية فى بيان حكمة تخصيص بعض الاوقات بالامر بالتسبيح فيه
٧٠٣ المسئلة الثالثة فى بيان فضيلة التسبيحة والحمدلة فى المساء والصباح
٧٠٥ الكلام فى الاستدلال بخلق الاشياء من التراب على قدرة الصانع
٧١٩ * (سورة لقمان عليه السلام)*
٧٥ * (سورة السجدة وفيها المسائل الآتية)*
١٥٢ الكلام فى تأويل الاستواء فى قوله تعالى ثم استوى على العرش
٧٦٧ الكلام فى بيان حكمة أفعاله سبحانه وتعالى على سبيل الاجمال
٧٦٨ (سورة الاحزاب وفيها المسائل الآتية)
٧٨٠ الكلام على مسائل فقهية تتعلق بتخيير النساء
٨٠٢ الكلام على ذكر لطائف قوله تعالى انا عرضنا الامانة الآية

* (تمت) *

الجزء السادس من مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير
الكبير للامام محمد الرازى فخر الدين
ابن العلامة ضياء الدين عمر
المشتهر بخطيب الرى
نفع الله به المسلمين
آمين

* (و بهامشه تفسير العلامة أبي السعود) *

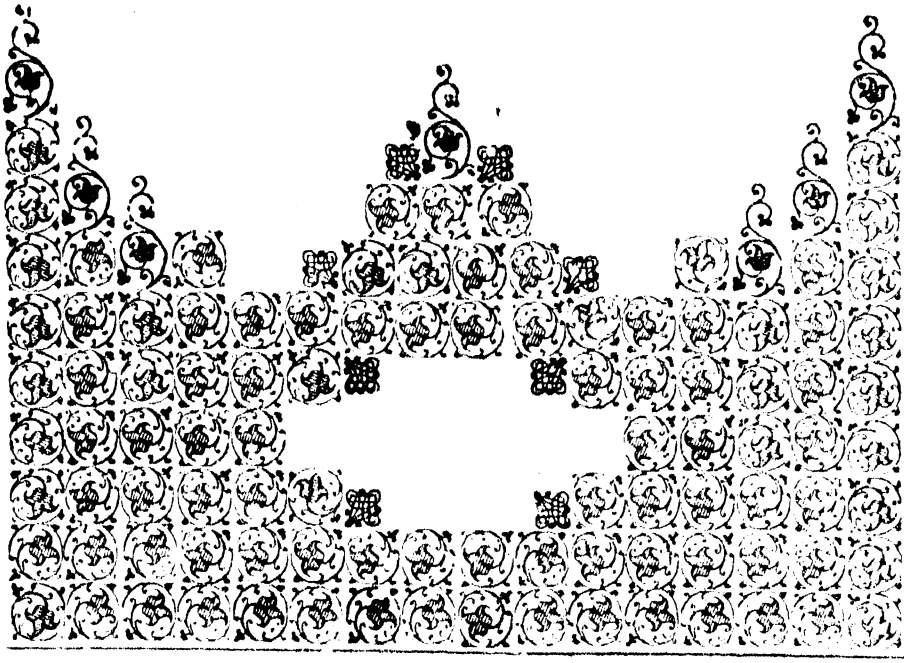

بسم الله الرحمن الرحيم

* (سورة طه مائة وثلاثون وخمس آيات) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى الا تذكرة لمن يخشى تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى الرحمن على العرش استوى له ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى) اعلم ان قوله طه فيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرأ أبو عمرو بفتح الطاء وكسر الهاء وقرأ أهل المدينة بين الفتح والكسر وقرأ ابن كثير وابن عامر بفتح الطاء والهاء وقرأ حمزة والكسائي بكسر الطاء والهاء قال الزجاج وقرئ طه بفتح الطاء وسكون الهاء وكلها لغات قال الزجاج من فتح الطاء والهاء فلان ما قبل الالف مفتوح ومن كسر الطاء والهاء فلأن الكسرة تلائم الحرف مقصور والمقصور يغلب عليه الامالة الى الكسرة (المسئلة الثانية) للمفسرين فيه قولان (أحدهما) انه من حروف التهجي والآخر انه كلمة مفيدة أما على القول الاول فقد تقدم الكلام فيه في أول سورة البقرة والذي زادوه ههنا أمور (أحدها) قال الثعلبي طا شجرة طوبى والهاء الهاوية فكأنه أقسم بالجنة والنار (وثانيها) يحكى عن جعفر الصادق رضي الله عنه الطاء طهارة أهل البيت والهاء هدايتهم (وثالثها) يا مطمع الشفاعة الامة ويا هادي الخلق الى الملة (ورابعها) قال سعيد بن جبير هو افتتاح اسمه الطيب الطاهر الهادي (وخامسها) الطاء من الطهارة والهاء من الهداية كأنه قيل ياطاهرا من الذنوب ويا هاديا الى علام الغيوب (وسادسها) الطاء طول القراء والهاء هيبتهم

* (سورة طه مكية وهي مائة وخمس وثلاثون آية) *

(بسم الله الرحمن الرحيم) (طه) فخمهما قالون وابن كثير وابن عامر وحفص ويعقوب على الاصل والطاء وحده أبو عمرو وورش لاستعلائه وأمالهما الباقون وهو من الفواتح التي يصدر بها السور الكريمة وعليه جمهور المتقنين وقيل معناه يا رجل وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبي الا انه عند سعيد على اللغة النبطية وعند قتادة على السريانية وعند عكرمة على الحبشية وعند الكلبي على لغة عك وقيل عكل وهي لغة يمانية قالوا ان صح فلعل أصله ياهذا فقصروا فيه بقلب الياء طاء وحذف ذا من هذا وما استشهد من قول الشاعر * ان السفاهة طه في خلائقكم * لا قدس الله أخلاق الملاعين *

ليس بنص في ذلك لجواز كونه قسما كما في حم لا ينصرون وقد جوز أن يكون الأصل طاها بصيغة الامر من * في * الوطء فقلبت الهمزة في يطأ ألفا لانفتاح ما قبلها كما في قول من قال لاهناك المرتع وها ضمير الارض على انه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يطأ الارض بقدميه لما كان يقوم في تهجده على احدى

رجايه مبالغة فى المجاهدة ولكن يأباه كتابتهما على صورة الحرف كما تأبى التفسير يا رجل فان الكتابة على صورة الحرف مع كون التلفظ بخلافه من خصائص حروف المعجم وقرئ طه اما على أن اصله طأ فقلبت همزته هاء كما فى أمثال هرقت أو قلبت الهمزة فى يطأ ألفا كما مر ثم بنى منه الامر وألحق به هاء السكت واما على انه اكتفى فى التلفظ بشطرى الاسمين وأقيما مقامهما فى الدلالة على المسميين فكأنهما اسماهما الدالان عليهما وعلى هذا ينبغى أن يحمل قول من قال أو اكتفى بشطرى الكلمتين وعبر عنهما باسمهما والا فالشطران لم يذكرا من حيث انهما مسميان لاسميهما أيضا معبرا عنهما بل من حيث انهما جزآن لهما وقد اكتفى بذكرهما عن ذكرهما ولذلك وقع التلفظ بأنفسهما لا باسميهما بأن يراد بضمير التثنية فى الموضعين الشطران من حيث هما مسميان لا من حيث هما جزآن للاسمين ويراد باسمهما الشطران من حيث هما قائمان مقام الاسمين فالمعنى اكتفى فى التلفظ بشطرى الكلمتين أى الاسمين فعبر عنهما أى عن الشطرين من حيث هما مسميان بهما من حيث هما قائمان مقام الاسمين وأما حمله على معنى انها اكتفى فى الكتابة بشطرى الكلمتين يعنى طا على تقدير كونه أمرا وكونه حرف نداء وها على تقدير كونها كناية عن

فى قلوب الكفار قال الله تعالى سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب (وسابعها) الطاء تسعة فى الحساب والهاء خمسة تكون أربعة عشر ومعناه يا أيها البدر وقد عرفت فيما تقدم أن أمثال هذه الاقوال لا يجب أن يعتمد عليها (القول الثانى) قول من قال انها كلمة مفيدة وعلى هذا القول ذكروا وجهين (أحدهما) معناه يا رجل وهو مروى عن ابن عباس والحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وعكرمة والكلبى رضى الله عنهم ثم قال سعيد بن جبير بلسان النبطية وقال قتادة بلسان السريانية وقال عكرمة بلسان الحبشة وقال الكلبى بلغة عك وأنشد الكلبى لشاعرهم

ان السفاهة طه فى خلائقكم ✻ لا قدس الله أرواح الملاعين

وقد تكلم الناس على هذا القول من وجهين (الاول) انه بمعنى يا رجل فى اللغة حمل عليه لكنه لا يجوز ان ثبت على هذا المعنى الا فى لغة العرب اذا القرآن بهذه اللغة نزل فيحتمل أن تكون لغة العرب فى هذه اللفظة موافقة لسائر اللغات التى حكيناها وأما على غير هذا الوجه فلا يحتمل ولا يصح (الثانى) قال صاحب الكشاف ان كان طه فى لغة عك بمعنى يا رجل فلعلهم تصرفوا فى ياهذا فقلبوا الياء طاء فقالوا طا واختصروا فى هذا واقتصروا على ها فقوله طه بمعنى ياهذا واعترض بعضهم عليه وقال لو كان كذلك لوجب أن يكتب أربعة أحرف طاها (وثانيهما) انه عليه السلام كان يقوم فى تهجده على احدى رجليه فأمر أن يطأ الارض بقدميه معا وكان الاصل طأ فقلبت همزته هاء كما قالوا هياك فى باك وهرقت فى أرقت ويجوز ان يكون الاصل من وطئ على ترك الهمزة فيكون اصله طأ يا رجل ثم أثبت الهاء فيها للوقف والوجهان ذكرهما الزجاج ✻ أما قوله تعالى ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف ان جعلت طه تعديدا لاسماء الحروف فهذا ابتداء كلام وان جعلتها اسما للسورة احتمل أن يكون قوله ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى خبرا عنها وهى فى موضع المبتدا والقرآن ظاهرا وقع موقع المضمر لانها قرآن وأن يكون جوابا لها وهى قسم (المسئلة الثانية) قرئ ما نزل عليه القرآن لتشقى (المسئلة الثالثة) ذكروا فى سبب نزول الآية وجوها (احدها) قال مقاتل ان أبا جهل والوليد بن المغيرة ومطعم بن عدى والنضر بن الحارث قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم انك لتشقى حيث تركت دين آبائك فقال عليه السلام بل بعثت رحمة للعالمين قالوا بل أنت تشقى فأنزل الله تعالى هذه الآية ردا عليهم وتعريفا لمحمد صلى الله عليه وسلم بأن دين الاسلام هو السلام وهذا القرآن هو السلام الى نيل كل فوز والسبب فى ادراك كل سعادة وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها (وثانيها) انه عليه السلام صلى بالليل حتى تورمت قدماه فقال له جبريل عليه السلام ابق على نفسك فان لها عليك حقا أى ما أنزلناه لتهلك نفسك بالعبادة وتذيقها المشقة العظيمة وما بعثت الا بالحنيفية السمحة وروى أيضا انه عليه السلام كان اذا قام من الليل ربط صدره بحبل حتى لا ينام وقال بعضهم كان يقوم

الارض وكونها حرف تنبيه وعدل عن تينك الشطرين فى التلفظ باسمهما فى البطلان كيف وطاوعها على ما ذكر من التقادير ليسا باسمين للحرفين المذكورين بل الاول ﴿ ٤ ﴾ أمر أو حرف نداء والثانى ضمير الارض أو حرف

تنبيه على أن كتابة صورة الحرف والتلفظ بغيره من خواص حروف المعجم كما مر فالحق ما سلف من أنها من الفواتح اما مسرودة على نمط التعديد بأحد الوجهين المذكورين فى مطلع سورة البقرة فلا محل لها من الاعراب وكذا ما بعدها من قوله تعالى (ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى) فانه استئناف مسوق لتسليته عليه الصلاة والسلام عما كان يعتريه من جهة المشركين من التعب فان الشقاء شائع فى ذلك المعنى ومنه أشقى من رائض مهر أى ما أنزلناه عليك لتتعب بالمبالغة فى مكابدة اشدائد فى مقاولة العتاة ومحاورة الطغاة وفرط التأسف على كفرهم به والتحسر على أن يؤمنوا كقوله عز وجل فلعلك باخع نفسك على آثارهم الآية بل للتبليغ والتذكير وقد فعلت فلا عليك ان لم يؤمنوا به بعد ذلك أو لصرفه عليه الصلاة والسلام عما كان عليه من المبالغة فى المجاهدة فى العبادة كما يروى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم بالليل حتى ترم قدماه فقال له جبريل عليه السلام ﴿ معانيه ﴾ أبق على نفسك فان لها عليك حقا

على رجل واحدة وقال بعضهم كان يسهر طول الليل فأراد بقوله لتشقى ذلك قال التاضى هذا بعيد لانه عليه السلام ان فعل شيئا من ذلك فلا بد وأن يكون قد فعله بأمر الله تعالى واذا فعله بأمره فهو من باب السعادة فلا يجوز أن يقال له ما أمرناك بذلك (وثالثها) قال بعضهم يحتمل أن يكون المراد لا تشق على نفسك ولا تعذبها بالاسف على كفر هؤلاء فانا انما أنزلنا عليك القرآن لتذكر به فمن آمن وأصلح فلنفسه ومن كفر فلا يحزنك كفره فما عليك الا البلاغ وهو كقوله تعالى لعلك باخع نفسك الآية ولا يحزنك قولهم (ورابعها) انك لا تلام على كفر قومك كقوله تعالى لست عليهم بمسيطر وما أنت عليهم بوكيل أى ليس عليك كفرهم اذا بلغت ولا تؤاخذ بذنبهم (وخامسها) ان هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة وفى ذلك الوقت كان عليه السلام مقهورا تحت ذل أعدائه فكأنه سبحانه قال له لا تظن انك تبقى على هذه الحالة أبدا بل يعلو أمرك ويظهر قدرك فانا ما أنزلنا عليك مثل هذا القرآن لتبقى شقيا فيما بينهم بل تصير معظما مكرما * وأما قوله تعالى الا تذكرة لمن يخشى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى كلمة الا ههنا قولان (أحدهما) انه استثناء منقطع بمعنى لكن (والثانى) التقدير ما أنزلنا عليك القرآن لتحمل متاعب التبليغ الا ليكون تذكره كما يقال ما شقيت فهنالك بهذا الكلام لتتأذى الا ليعتبر بك غيرك (المسئلة الثانية) انما خص من يخشى بالتذكرة لانهم المنتفعون بها ان كان ذلك عاما فى الجميع وهو كقوله هدى للمتقين وقال سبحانه وتعالى تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا وقال لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون وقال وتنذر به قوما لدا وقال وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين (المسئلة الثالثة) وجه كون القرآن تذكرة انه عليه السلام كان يعظمهم به وببيانه فيدخل تحت قوله لمن يخشى الرسول صلى الله عليه وسلم لانه فى الخشية والتذكرة بالقرآن كان فوق الكل * وأما قوله تعالى تنزيلا ممن خلق الارض والسموات العلى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا فى نصب تنزيلا وجوها (أحدها) تقديره نزل تنزيلا ممن خلق الارض فنصب تنزيلا بمضمر (وثانيها) أن ينصب بأنزلنا لان معنى ما أنزلناه الا تذكرة انزالا تذكرة (وثالثها) أن ينصب على المدح والاختصاص (ورابعها) أن ينصب بيخشى مفعولا به أى انزله الله تعالى تذكرة لمن يخشى تنزيل الله وهو معنى حسن واعراب بين وقرئ تنزيل بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف (المسئلة الثانية) فائدة الانتقال من لفظ التكلم الى لفظ الغيبة أمور (أحدها) ان هذه الصفات لا يمكن ذكرها الا مع الغيبة (وثانيها) انه قال أولا أنزلنا ففخم بالاسناد الى ضمير الواحد المطاع ثم ثنى بالنسبة الى المختص بصفات العظمة والتمجيد فتضاعفت الفخامة من طريقين (وثالثها) يجوز أن يكون أنزلنا حكاية الكلام جبريل عليه السلام والملائكة النازلين معه (المسئلة الثالثة) انه تعالى عظم حال القرآن بأن نسبه الى أنه تنزيل ممن خلق الارض وخلق السموات على علوها وانما قال ذلك لان تعظيم الله تعالى يظهر بتعظيم خلقه ونعمه وانما عظم القرآن ترغيبا فى تدبره والتأمل فى

اى ما أنزلناه عليك لتتعب بنهك نفسك وحملها على الرياضات الشاقة والشدائد الفادحة وما بعثت الا بالحنيفية السمحة وقيل ان أبا جهل والنضر بن الحرث ﴿ ٥ ﴾ قالا لرسول الله صلى الله وسلم انك شقى حيث تركت دين آبائك و ان القرآن نزل عليك لتشقى به فرد ذلك بأنا ما أنزلناه عليك لما قالوا والاول هو الانسب كما يشهد به الاستثناء الآتى هذا واما اسم للقرآن محله الرفع على انه مبتدأ وما بعده خبره والقرآن ظاهر أو قع موقع العائد الى المبتدا كأنه قيل القرآن ما أنزلناه عليك لتشقى أو النصب على اضمار فعل القسم أو الجر بتقدير حرفه وما بعده جوابه وعلى هذين الوجهين يجوز أن يكون اسما للسورة أيضا بخلاف الوجه الاول فانه لا يتبنى على ذلك التقدير لكن لا لأن المبتدأ يبقى حينئذ بلا عائد ولا قائم مقامه فان القرآن صادق على السورة لامحالة اما بطريق الاتحاد بأن يراد به القدر المشترك بين الكل والبعض او باعتبار الاندراج ان أريد به الكل بل لان نفى كون انزاله للشقاء يستدعى سبق وقوع الشقاء مترتبا على انزاله قطعا اما بحسب الحقيقة كما لو أريد به معنى التعب او بحسب زعم الكفرة كما لو أريد به ضد السعادة ولا ريب فى أن ذلك انما يتصور ان نزل ما انزل من قبل وأما انزال السورة الكريمة فليس مما يمكن ترتب الشقاء السابق عليه حتى يتصدى لنفيه عنه أما

معانيه وحقائقه وذلك معتاد فى الشاهد فانه تعظيم حال المرسل ليكون المرسل اليه أقرب الى الامتثال (المسئلة الرابعة) يقال سماء عليا وسموات علا وفائدة وصف السموات بالعلا الدلالة على عظم قدرة من يخلق مثلها فى علوها وبعد مرتقاها أما قوله تعالى الرحمن على العرش استوى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ الرحمن مجرورا صفة لمن خلق والرفع أحسن لانه اما أن يكون رفعا على المدح والتقدير هو الرحمن واما أن يكون مبتدأ مشارا بلامه الى من خلق فان قيل الجملة التى هى على العرش استوى ما محلها اذا جررت الرحمن أو رفعته على المدح قلنا اذا جررت فهو خبر مبتدا محذوف لا غير وان رفعت جاز أن يكون كذلك وأن يكون مع الرحمن خبرين للمبتدا (المسئلة الثانية) المشبهة تعلقت بهذه الآية فى ان معبودهم جالس على العرش وهذا باطل بالعقل والنقل من وجوه (أحدها) انه سبحانه وتعالى كان ولا عرش ولا مكان ولما خلق الخلق لم يحتج الى مكان بل كان غنيا عنه فهو بالصفة التى لم يزل عليها الا أن يزعم زاعم انه لم يزل مع الله عرش (وثانيها) ان الجالس على العرش لابد وأن يكون الجزء الحاصل منه فى يمين العرش غير الحاصل فى يسار العرش فيكون فى نفسه مؤلفا مركبا وكل ما كان كذلك احتاج الى المؤلف والمركب وذلك محال (وثالثها) ان الجالس على العرش اما أن يكون متمكنا من الانتقال والحركة أو لا يمكنه ذلك فان كان الاول فقد صار محلا للحركة والسكون فيكون محدثا لامحالة وان كان الثانى كان كالمربوط بل كان كالزمن بل أسوأ حالا منه فان الزمن اذا شاء الحركة فى رأسه وحدقته أمكنه ذلك وهو غير ممكن على معبودهم (ورابعها) هو ان معبودهم اما أن يحصل فى كل مكان أو فى مكان دون مكان فان حصل فى كل مكان لزمهم أن يحصل فى مكان النجاسات والقاذورات وذلك لا يقوله عاقل وان حصل فى مكان دون مكان افتقر الى مخصص يخصصه بذلك المكان فيكون محتاجا وهو على الله محال (وخامسها) ان قوله ليس كمثله شئ يتناول نفى المساواة من جميع الوجوه بدليل صحة الاستثناء فانه يحسن أن يقال ليس كمثله شئ الا فى الجلوس والا فى المقدار والا فى اللون وصحة الاستثناء تقتضى دخول جميع هذه الامور تحته فلو كان جالسا حصل من يمائله فى الجلوس فحينئذ يبطل معنى الآية (وسادسها) قوله تعالى ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية فاذا كانوا حاملين للعرش والعرش مكان معبودهم فيلزم أن تكون الملائكة حاملين لخالقهم ومعبودهم وذلك غير معقول لان الخالق هو الذى يحفظ المخلوق أما المخلوق فلا يحفظ الخالق ولا يحمله (وسابعها) انه لو جاز أن يكون المستقر فى المكان الها فكيف يعلم ان الشمس والقمر ليس بالله لان طريقنا الى نفى الهية الشمس والقمر انهما موصوفان بالحركة والسكون وما كان كذلك كان محدثا ولم يكن الها فاذا أبطلتم هذا الطريق انسد عليكم باب القدح فى الهية الشمس والقمر (وثامنها) ان العالم كرة فالجهة التى هى فوق بالنسبة الينا هى تحت بالنسبة الى ساكنى ذلك الجانب الآخر من الارض وبالعكس

باعتبار الاتحاد فظاهر وأما باعتبار الاندراج فلان ما له أن يقال هذه السورة ما انزلنا القرآن المشتمل عليها التشقى ولا يخفى أن جعله اخبارا عنها مع انه لا دخل لانزالها ﴿ ١ ﴾ في الشقاء السابق أصلا مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل وقوله تعالى (الا تذكرة) نصب على انه مفعول له لانزلنا لكن لا من حيث انه معلل بالشقاء على معنى ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب بتبليغه الا تذكرة الآية كقولك ما ضربتك للتأديب الا اشفاقا عليك انه يجب في أمثاله أن يكون بين العلتين ملابسة بالسببية والمسببية حتما كما في المثال المذكور وفي قولك ما شاهدتك بالسوء لتتأذى الا زجرا لغيرك فان التأديب في الاول مسبب عن الاشفاق والتأذي في الثاني سبب لزجر الغير وقد عرفت ما بين الشقاء والتذكرة من التنافي ولا يجدي أن يراد به التعب في الجملة المجامع للتذكرة لظهور أن لا ملابسة بينهما بما ذكر من السببية والمسببية وانما يتصور ذلك أن لو قيل مكان الا تذكرة الا تذكيرا لثوابك فان الاجر بقدر التعب ولا من حيث انه بدل من محل لتشقى كما في قوله تعالى ما فعلوه الا قليل لوجوب المجانسة بين البدلين وقد عرفت حالهما بل من حيث انه معطوف عليه بحسب المعنى بعد ﴿ له ﴾ نفيه بطريق الاستدراك المستفاد من الاستثناء المنقطع كأنه قيل ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب في تبليغه ولكن

فلو كان المعبود مختصا بجهة فتلك الجهة وان كانت فوق بعض الناس لكنها تحت بعض آخرين وباتفاق العقلاء لا يجوز أن يقال المعبود تحت جميع الاشياء (وتاسعها) أجمعت الامة على ان قوله قل هو الله أحد من المحكمات لا من المتشابهات فلو كان مختصا بالمكان لكان الجانب الذي منه يلي ما على يمينه غير الجانب الذي منه يلي ما على يساره فيكون مركبا منقسما فلا يكون أحدا في الحقيقة فيبطل قوله قل هو الله أحد (وعاشرها) ان الخليل عليه السلام قال لا أحب الآفلين ولو كان المعبود جسما لكان آفلا أبدا نهارا أو ليلا فكان يندرج تحت قوله لا أحب الآفلين فثبت بهذه الدلائل ان الاستقرار على الله تعالى محال وعند هذا للناس فيه قولان (الاول) انا لا نشتغل بالتأويل بل نقطع بأن الله تعالى منزه عن المكان والجهة ونترك تأويل الآية وروى الشيخ الغزالي عن بعض أصحاب الامام أحمد بن حنبل انه أول ثلاثة من الاخبار قوله عليه السلام الحجر الاسود يمين الله في الارض وقوله عليه السلام قلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن وقوله عليه السلام اني لاجد نفس الرحمن من قبل اليمن واعلم ان هذا القول ضعيف لوجهين (الاول) انه ان قطع بأن الله تعالى منزه عن المكان والجهة فقد قطع بأنه ليس مراد الله تعالى من الاستواء الجلوس وهذا هو التأويل وان لم يقطع بتنزيه الله تعالى عن المكان والجهة بل بقي شاكا فيه فهو جاهل بالله تعالى اللهم الا أن يقول انا قاطع بأنه ليس مراد الله تعالى ما يسبق اليه ظاهره بل مراده به شيء آخر ولكني لا أعين ذلك المراد خوفا من الخطأ فهذا يكون قريبا وهو أيضا ضعيف لانه تعالى لما خاطبنا بلسان العرب وجب أن لا يريد باللفظ الا الموضوع له في لسان العرب واذا كان لا معنى للاستواء في اللغة الا الاستقرار والاستيلاء وقد تعذر حمله على الاستقرار فوجب حمله على الاستيلاء والا لزم تعطيل اللفظ وانه غير جائز (والثاني) وهو دلالة قاطعة على انه لا بد من المصير الى التأويل وهو ان الدلالة العقلية لما قامت على امتناع الاستقرار ودل ظاهر لفظ الاستواء على معنى الاستقرار فاما أن نعمل بكل واحد من الدليلين واما أن نتركهما معا واما أن نرجح النقل على العقل واما ان نرجح العقل ونؤول النقل والاول باطل والا لزم أن يكون الشيء الواحد منزها عن المكان وحاصلا في المكان وهو محال (والثاني) أيضا محال لانه يلزم رفع النقيضين معا وهو باطل (والثالث) باطل لان العقل أصل النقل فانه ما لم يثبت بالدلائل العقلية وجود الصانع وعلمه وقدرته وبعثته للرسل لم يثبت النقل فالقدح في العقل يقتضي القدح في العقل والنقل معا فلم يبق الا أن نقطع بصحة العقل ونشتغل بتأويل النقل وهذا برهان قاطع في المقصود اذا ثبت هذا فنقول قال بعض العلماء المراد من الاستواء الاستيلاء قال الشاعر

قد استوى بشر على العراق ✻ من غير سيف ودم مهراق

فان قيل هذا التأويل غير جائز لوجوه (أحدها) ان الاستيلاء معناه حصول الغلبة بعد العجز وذلك في حق الله تعالى محال (وثانيها) أنه انما يقال فلان استولى على كذا اذا كان

تذكرة (لمن يخشى) وقد جرد التذكرة عن اللام لكونها فعلا للفاعل الفعل المعلل أي لمن من شانه أن يخشى الله عز وعلا ويتأثر بالانذار لرقة قلبه ولين عريكته أو لمن علم الله تعالى انه يخشى بالتخويف وتخصيصها بهم مع عموم التذكرة والتبليغ لانهم المنتفعون بها وقوله تعالى (تنزيلا) مصدر مؤكد لمضمر مستانف مقرر لما قبله أي نزل تنزيلا أو لما تفيده الجملة الاستئنافية فانها متضمنة لأن يقال أنزلناه للتذكرة والاول هو الانسب بما بعده من الالتفات أو منصوب على المدح والاختصاص وقيل هو منصوب بيخشى على المفعولية أي يخشى تنزيلا من الله تعالى. وأنت خبير بأن تعليق الخشية والخوف ونظائرهما بمطلق التنزيل غير معهود نعم قد يعلق ذلك ببعض أجزائه المشتملة على الوعيد ونظائره كما في قوله تعالى يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم وقيل هو بدل من تذكرة لكن لا على انه مفعول لانزلنا اذ لا يعلل الشيء بنفسه ولا بنوعه بل على انه مصدر بمعنى الفاعل واقع موقع الحال من الكاف في عليك أو من القرآن ولا مساغ له الا بأن يكون قيدا لانزلنا بعد تقييده بالقيد الاول وقد عرفت حاله فيما سلف وقرئ تنزيل على انه خبر لمبتدا محذوف ومن في قوله تعالى (ممن خلق الارض والسموات العلى) متعلقة بتنزيلا أو بمضمر هو صفته

له منازع ينازعه وكان المستولى عليه موجودا قبل ذلك وهذا في حق الله تعالى محال لان العرش انما حدث بتخليقه وتكوينه (وثالثها) الاستيلاء حاصل بالنسبة الى كل المخلوقات فلا يبقى لتخصيص العرش بالذكر فائدة والجواب انا اذا فسرنا الاستيلاء بالاقتدار زالت هذه المطاعن بالكلية قال صاحب الكشاف لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك لا يحصل الا مع الملك جعلوه كناية عن الملك فقالوا استوى فلان على البلد يريدون ملك وان لم يقعد على السرير البتة وانما عبروا عن حصول الملك بذلك لانه أصرح وأقوى في الدلالة من أن يقال فلان ملك ونحوه قولك يد فلان مبسوطة يد فلان مغلولة بمعنى انه جواد وبخيل لا فرق بين العبارتين الا فيما قلت حتى ان من لم تبسط يده قط بالنوال أو لم يكن له يد رأسا قيل فيه يده مبسوطة لانه لا فرق عندهم بينه وبين قوله جواد ومنه قوله تعالى وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت ايديهم أي هو بخيل بل يداه مبسوطتان أي هو جواد من غير تصور يد ولا غل ولا بسط والتفسير بالنعمة والتحمل للتسمية من ضيق العطن وأقول انا لو فتحنا هذا الباب لا نفتحت تأويلات الباطنية فانهم أيضا يقولون المراد من قوله فاخلع نعليك الاستغراق في خدمة الله تعالى من غير تصور فعل وقوله يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم المراد منه تخليص ابراهيم عليه السلام من يد ذلك الظالم من غير أن يكون هناك نار وخطاب البتة وكذا القول في كل ما ورد في كتاب الله تعالى بل القانون انه يجب حمل كل لفظ ورد في القرآن على حقيقته الا اذا قامت دلالة عقلية قطعية توجب الانصراف عنه وليت من لم يعرف شيئا لم يخض فيه فهذا تمام الكلام في هذه الآية ومن أراد الاستقصاء في الآيات والاخبار المتشابهات فعليه بكتاب تأسيس التقديس وبالله التوفيق * أما قوله تعالى له ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت الثرى فاعلم انه سبحانه لما شرح ملكه بقوله الرحمن على العرش استوى والملك لا ينتظم الا بالقدرة والعلم لا جرم عقبه بالقدرة ثم بالعلم أما القدرة فهي هذه الآية والمراد انه سبحانه مالك لهذه الاقسام الاربعة فهو مالك لما في السماوات من ملك ونجم وغيرهما ومالك لما في الارض من المعادن والنفلوات ومالك لما بينهما من الهواء ومالك لما تحت الثرى فانه قيل الثرى هو السطح الاخير من العالم فلا يكون تحته شيء فكيف يكون الله مالكا له قلنا الثرى في اللغة التراب الندي فيحتمل أن يكون تحته شيء وهو اما الثور أو الحوت أو الصخرة أو البحر أو الهواء على اختلاف الروايات أما العلم فقوله تعالى وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى وفيه قولان (أحدهما) ان قوله وأخفى بهاء المبالغة وعلى هذا القول نقول انه تعالى قسم الاشياء الى ثلاثة أقسام الجهر والسر والاخفى فيحتمل أن يكون المراد من الجهر القول الذي يجهر به وقد يسر في النفس وان ظهر البعض وقد يسر ولا يظهر على ما قال بعضهم ويحتمل أن يكون المراد بالسر وبالاخفى ما ليس بقول وهذا أظهر فكأنه تعالى بين انه يعلم السر الذي لا يسمع وما هو اخفى منه فكيف لا يعلم الجهر والمقصود منه زجر المكلف عن القبائح

مؤكدة لما فى تنكيره من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية ونسبة التنزيل الى الموصول بطريق الالتفات الى الغيبة بعد نسبته الى نون العظمة لبيان فخامته تعالى بحسب الافعال والصفات ﴿ ٨ ﴾ اثر بيانها بحسب الذات بطريق الابهام ثم التفسير

ظاهرة كانت أو باطنة والترغيب فى الطاعات ظاهرة كانت أو باطنة فعلى هذا الوجه ينبغى أن يحمل السر والاخفى على مافيه ثواب أو عقاب والسر هو الذى يسره المرء فى نفسه من الامور التى عزم عليها والاخفى هو الذى لم يبلغ حد العزيمة ويحتمل أن يفسر الاخفى بما عزم عليه وما وقع فى وهمه الذى لم يعزم عليه ويحتمل مالم يقع فى سره بعد فيكون أخفى من السر ويحتمل أيضا ماسيكون من قبل الله تعالى من الامور التى لم تظهر وان كان الاقرب ما قدمناه مما يدخل تحت الزجر والترغيب (القول الثانى) ان أخفى فعل يعنى انه يعلم أسرار العباد وأخفى عنهم ما يعمله وهو كقوله يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشئ من علمه فان قيل كيف يطابق الجزاء الشرط قلنا معناه ان تجهر بذكر الله تعالى من دعاء أو غيره فاعلم انه غنى عن جهرك واما أن يكون نهيا عن الجهر كقوله واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخفية ودون الجهر من القول وإما تعليما للعباد ان الجهر ليس لاستماع الله تعالى وانما هو لغرض آخر واعلم ان الله تعالى لذاته عالم وانه عالم بكل المعلومات فى كل الاوقات بعلم واحد وذلك العلم غير متغير وذلك العلم من لوازم ذاته من غير أن يكون موصوفا بالحدوث أو الامكان والعبد لا يشارك الرب الا فى السدس الاول وهو أصل العلم ثم هذا السدس بينه وبين عباده أيضا نصفان فخمسة دوانيق ونصف جزء من العلم مسلم له والنصف الواحد لجملة عباده ثم هذا الجزء الواحد مشترك بين الخلائق كلهم من الملائكة المكربية والملائكة الروحانية وحملة العرش وسكان السموات وملائكة الرحمة وملائكة العذاب وكذا جميع الانبياء الذين أولهم آدم وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين وكذا جميع الخلائق كلهم فى علومهم الضرورية والكسبية والحرف والصناعات وجميع الحيوانات فى ادراكاتها وشعوراتها والاهتداء الى مصالحها فى أغذيتها ومضارها ومنافعها والحاصل لك من ذلك الجزء أقل من الذرة المؤلفة ثم انك تحت الذرة عرفت أسرار الهيته وصفاته الواجبة والجائزة والمستحيلة فاذا كنت بهذه الذرة عرفت هذه الاسرار فكيف يكون علمه بخمس دوانيق ونصف أفلا يعلم بذلك العلم أسرار عبوديتك فهذا تحقيق قوله وان تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى بل الحق ان الدينار تمامه له لأن الذى علمته فانما علمته بتعليمه على ماقال أنزله بعلمه وقال الا يعلم من خلق ولهذا مثال وهو الشمس فان ضوءها يجعل العالم مضيئا ولا ينتقص البتة من ضوئها شئ فكذا ههنا فكيف لا يكون عالما بالسر والاخفى فان من تدبر ذاته فى خلق الاشجار وأنواع النبات انها ليس لها فم ولا سائر آلات الغذاء فلا جرم أصولها مركوزة فى الارض تمتص بها الغذاء فيتأدى ذلك الغذاء الى الاغصان ومنها الى العروق ومنها الى الاوراق ثم انه تعالى جعل عروقها كالاطناب التى بها يمكن ضرب الخيام وكما انه لابد من مد الطنب من كل جانب لتبقى الخيمة واقفة كذلك العروق تذهب من كل جانب لتبقى الشجرة واقفة ثم لو نظرت الى كل ورقة وما فيها من العروق الدقيقة المبثوثة فيه ليصل الغذاء منها الى كل

لزيادة تحقيق وتقرير وتخصيص خلقهما بالذكر مع أن المراد خلقهما بجميع ما يتعلق بهما كما يفصح عنه قوله تعالى له ما فى السموات وما فى الارض الآية لاصالتهما واستتباعهما لما عداهما وتقديم الارض لكونه أقرب الى الحس وأظهر عنده ووصف السموات بالعلا وهو جمع العليا تأنيث الاعلى لتأكيد الفخامة مع ما فيه من مراعاة الفواصل وكل ذلك الى قوله تعالى له الاسماء الحسنى مسوق لتعظيم شأن المنزل عز وجل المستتبع لتعظيم شأن المنزل الداعى الى تربية المهابة وادخال الروعة المؤدية الى استنزال المتمردين عن رتبة العتو والطغيان واشتمالهم بنحو الخشية المفضية الى التذكرة والايمان (الرحمن) رفع على المدح أى هو الرحمن وقد عرفت فى صدر سورة البقرة أن المرفوع مدحا فى حكم الصفة الجارية على ماقبله وان لم يكن تابعا له فى الاعراب ولذلك التزموا حذف المبتدإ ليكون فى صورة متعلق ﴿ جانب ﴾ من متعلقاته وقد قرئ بالجر على انه صفة صريحة للموصول وما قيل من أن الاسماء الناقصة لا يوصف منها الا الذى وحده مذهب الكوفيين

جانب من الورقة ليكون ذلك تقريبة لجرم الورقة فلا يمزق سريعا وهي شبه العروق المخلوقة في بدن الحيوان لتكون مسالك للدم والروح فتكون تقوية للبدن ثم انظر الى الاشجار فان أحسنها في المنظر الدلب والخلاف ولا حاصل لهما وأقبحها شجرة التين والعنب وانظر الى منفعتهما فهذه الاشياء واشباهها تظهر انه لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض ﴿ اما قوله تعالى الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى فالكلام فيه على قسمين (الاول) في التوحيد اعلم أن دلائل التوحيد ستأتي ان شاء الله في تفسير قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وانما ذكره ههنا ليبين ان الموصوف بالقدرة والعلم على الوجه الذي تقدم واحد لا شريك له وهو الذي يستحق العبادة دون غيره ولنذكر ههنا نكتا متعلقة بهذا الباب وهي ابحاث (البحث الاول) اعلم أن مراتب التوحيد أربع (أحدها) الاقرار باللسان (والثاني) الاعتقاد بالقلب (والثالث) تأكيد ذلك الاعتقاد بالحجة (والرابع) أن يصير العبد مغمورا في بحر التوحيد بحيث لا يدور في خاطره شيء غير عرفان الاحد الصمد (أما الاقرار باللسان) فان وجد خاليا عن الاعتقاد بالقلب فذلك هو المنافق (وأما الاعتقاد) بالقلب اذا وجد خاليا عن الاقرار باللسان ففيه صور (الصورة الاولى) ان من نظر وعرف الله تعالى وكما عرفه مات قبل ان يمضي عليه من الوقت ما يمكنه التلفظ بكلمة الشهادة فقال قوم انه لا يتم ايمانه والحق انه يتم لانه أدى ما كلف به وعجز عن التلفظ به فلا يبقى مخاطبا ورأيت في الكتب ان ملك الموت مكتوب على جبهته لا اله الا الله لكي اذا رآه المؤمن تذكر كلمة الشهادة فيكفيه ذلك التذكر عن الذكر (الصورة الثانية) ان من عرف الله ومضى عليه من الوقت ما يمكنه التلفظ بالكلمة ولكنه قصر فيه قال الشيخ الغزالي يحتمل أن يقال اللسان ترجمان القلب فاذا حصل المقصود في القلب كان امتناعه من التلفظ جاريا مجرى امتناعه من الصلاة والزكاة وكيف يكون من أهل النار وقد قال عليه السلام يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الايمان وقلب هذا الرجل مملوء من الايمان وقال آخرون الايمان والكفر أمور شرعية نحن نعلم ان الممتنع من هذه الكلمة كافر (الصورة الثالثة) من أقر باللسان واعتقد بالقلب من غير دليل فهو مقلد والاختلاف في صحة ايمانه مشهور (وأما المقام الثالث) وهو اثبات التوحيد بالدليل والبرهان فقد بينا في تفسير قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا انه يمكن اثبات هذا المطلوب بالدلائل العقلية والسمعية واستقصينا القول فيها هناك (أما المقام الرابع) وهو الفناء في بحر التوحيد فقال المحققون العرفان مبتدأ من تفريق ونقض وترك رفض ممكن في جميع صفات هي من صفات الحق للذات المريدة بالصدق منتبه الى الواحد القهار ثم وقوف هذه الكلمات محيطة باقصى نهايات درجات السائرين الى الله تعالى (البحث الثاني) في الاخبار الواردة في التهليل (أولها) عن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل الذكر لا اله الا الله وأفضل

وأيا ما كان فوصفه بالرحمانية أو وصفه بخالقية السموات والارض للاشعار بأن خلقها من آثار رحمته تعالى كما أن قوله تعالى رب السموات والارض وما بينهما الرحمن للايذان بأن ربوبيته تعالى بطريق الرحمة وفيه اشارة الى أن تنزيل القرآن أيضا من أحكام رحمته تعالى كما ينبئ عنه قوله تعالى الرحمن علم القرآن أو رفع على الابتداء واللام للعهد والاشارة الى الموصول والخبر قوله تعالى (على العرش استوى) وجعل الرحمة عنوان الموضوع الذي شأنه أن يكون معلوم الثبوت للموضوع عند المخاطب للايذان بأن ذلك أمر بين لا ستر به غني عن الاخبار به صريحا وعلى متعلقة باستوى قدمت عليه لمراعاة الفواصل والجار والمجرور على الاول خبر مبتدا محذوف كما في قراءة الجر وقد جوز أن يكون خبرا

الدعاء استغفر الله ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعلم انه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات (وثانيها) قال عليه السلام ان الله تعالى خلق ملكا من الملائكة قبل ان خلق السموات والارض وهو يقول أشهد أن لا اله الا الله ما دام يهتز صوته لا يقطعها ولا يتنفس فيها ولا يتمها فاذا أتمها أمر إسرافيل بالنفخ في الصور وقامت القيامة تعظيما لله عز وجل (وثالثها) عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال عليه السلام ما زلت أشفع الى ربي ويشفعني واشفع اليه ويشفعني حتى قلت يا رب شفعني فيمن قال لا اله الا الله قال يا محمد هذه ليست لك ولا لاحد وعزتي وجلالي لأدعن أحدا في النار قال لا اله الا الله (ورابعها) قال سفيان الثوري سألت جعفر بن محمد عن حم عسق قال الحاء حكمه والميم ملكه والعين عظمته والسين سناؤه والقاف قدرته يقول الله جل ذكره بحكمي وملكي وعظمتي وسنائي وقدرتي لأعذبن بالنار من قال لا اله الا الله محمد رسول الله (وخامسها) ان عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قام في السوق فقال لا اله الا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة وبنى له بيتا في الجنة (البحث الثالث) في النكت (أحدها) ينبغي لاهل لا اله الا الله ان يحصلوا أربعة أشياء حتى يكونوا من أهل لا اله الا الله التصديق والتعظيم والحلاوة والحرية فمن ليس له التصديق فهو منافق ومن ليس له التعظيم فهو مبتدع ومن ليس له الحلاوة فهو مراء ومن ليس له الحرية فهو فاجر (وثانيها) قال بعضهم قوله ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة انه لا اله الا الله اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه لا اله الا الله وتواصوا بالحق لا اله الا الله قل انما اعظكم بواحدة لا اله الا الله وقفوهم انهم مسؤلون عن قول لا اله الا الله بل جاء بالحق وصدق المرسلين هو لا اله الا الله يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة هو لا اله الا الله ويضل الله الظالمين عن قول لا اله الا الله (وثالثها) ان موسى بن عمران عليه السلام قال يا رب علمني شيئا اذكرك به قال قل لا اله الا الله قال كل عبادك يقولون لا اله الا الله فقال قل لا اله الا الله قال انما أردت شيئا تخصني به قال يا موسى لو أن السموات السبع ومن فيهن في كفة ولا اله الا الله في كفة لمالت بهن لا اله الا الله (البحث الرابع) في اعرابه قالوا كلمة لا هبنا دخلت على الماهية فانتفت الماهية واذا انتفت الماهية انتفت كل افراد الماهية وأما الله فانه اسم علم للذات المعينة اذ لو كان اسم معنى لكان كليا محتملا للكثرة فلم تكن هذه الكلمة مفيدة للتوحيد فقالوا لا استحقت عمل ان لمشابهتها لها من وجهين (أحدهما) ملازمة الاسماء والاخر تناقضهما فان أحدهما لتأكيد الثبوت والآخر لتأكيد النفي ومن عادتهم تشبيه أحد الضدين بالآخر في الحكم اذا ثبت هذا فنقول لما قالوا ان زيدا ذاهب كان يجب أن يقولوا لا رجلا ذاهب الا أنهم بنوا الامر ما دخل عليه

بعد خبر والاستواء على العرش مجاز عن الملك والسلطان متفرع على الكناية فمن يجوز عليه القعود على السرير يقال استوى فلان على سرير الملك يراد به ملك وان لم يقعد على السرير أصلا والمراد بيان تعلق ارادته الشريفة بايجاد الكائنات وتدبير أمرها بقوله تعالى (له ما في السموات وما في الارض) سواء كان ذلك بالجزئية منهما أو بالحلول فيهما (وما بينهما) من الموجودات الكائنة في الجو دائما كالهواء والسحاب أو اكثريا كالطير أي له وحده دون غيره لا شركة ولا استقلالا كل ما ذكر ملكا وتصرفا واحياء وامانة وايجادا واعداما (وما تحت الثرى) أي ما وراء التراب وذكره مع دخوله تحت ما في الارض لزيادة التقرير روي عن محمد بن كعب انه ما تحت الارضين السبع وعن السدي أن الثرى هو الصخرة التي عليها

من الاسم المفرد على الفتح أما البناء فلشدة اتصال حرف النفي بما دخل عليه كأنهما صارا اسما واحدا وأما الفتح فلانهم قصدوا البناء على الحركة المستحقة توفيقا بين الدليل الموجب للاعراب والدليل الموجب للبناء (الثاني) خبره محذوف والاصل لا اله في الوجود ولا حول ولا قوة لنا وهذا يدل على ان الوجود زائد على الماهية (البحث الخامس) قال بعضهم تصور الثبوت مقدم على تصور السلب فان السلب ما لم يضف الى الثبوت لا يمكن تصوره فكيف قدم ههنا السلب على الثبوت وجوابه انه لما كان هذا السلب من مؤكدات الثبوت لاجرم قدم عليه (القسم الثاني) من الكلام في الآية البحث عن أسماء الله تعالى وفيه ابحاث (البحث الاول) قال عليه السلام اذا كان يوم القيامة نادى مناد أيها الناس انا جعلت لكم نسبا وأنتم جعلتم لانفسكم نسبا انا جعلت أكرمكم عندي أتقاكم وأنتم جعلتم اكرمكم أغناكم فالآن أرفع نسبي وأضع نسبكم أين المتقون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون واعلم ان الاشياء في قسمة العقول على ثلاثة أقسام كامل لا يحتمل النقصان وناقص لا يحتمل الكمال وثالث يقبل الامرين أما الكامل الذي لا يحتمل النقصان فهو الله تعالى وذلك في حقه بالوجوب الذاتي وبعده الملائكة فان من كمالهم انهم لا يعصون الله ما أمرهم ومن صفاتهم انهم عباد مكرمون ومن صفاتهم انهم يستغفرون للذين آمنوا وأما الناقص الذي لا يحتمل الكمال فهو الجمادات والنبات والبهائم واما الذي يقبل الامرين جميعا فهو الانسان تارة يكون في الترقي بحيث يخبر عنه بأنه في مقعد صدق عند مليك مقتدر وتارة في التسفل بحيث يقال ثم رددناه أسفل سافلين واذا كان كذلك استحال أن يكون الانسان كاملا لذاته وما لا يكون كاملا لذاته استحال أن يصير موصوفا بالكمال الى أن تصير منتسبا الى الكامل لذاته لكن الانتساب قسمان قسم يعرض للزوال وقسم لا يكون يعرض للزوال أما الذي يكون يعرض للزوال فلا فائدة فيه ومثاله الصحة والمال والجمال وأما الذي لا يكون يعرض للزوال فعبوديتك لله تعالى فانه كما يمتنع زوال صفة الالهية عنه يمتنع زوال صفة العبودية عنك فهذه النسبة لا تقبل الزوال والمنتسب اليه وهو الحق سبحانه لا يقبل الخروج عن صفة الكمال ثم اذا كنت من بلد أو منتسبا الى قبيلة فانك لا تزال تبالغ في مدح تلك البلدة والقبيلة بسبب ذلك الانتساب العرضي فلان تشتغل بذكر الله تعالى ونعوت كبريائه بسبب الانتساب الذاتي كان أولى فلهذا قال تعالى ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وقال الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى (البحث الثاني) في تقسيم اسماء الله تعالى اعلم ان اسم كل شيء اما أن يكون واقعا عليه بحسب ذاته أو بحسب أجزاء ذاته أو بحسب الامور الخارجة عن ذاته (أما القسم الاول) فقد اختلفوا في انه هل لله تعالى اسم على هذا الوجه وهذه المسئلة مبنية على ان حقيقة الله تعالى هل هي معلومة للبشر أم لا فمن قال انها غير معلومة للبشر قال ليس لذاته المخصوصة اسم لان المقصود من الاسم أن يشار به الى المسمى واذا كانت الذات المخصوصة غير معلومة امتنعت

الارض السابعة (وان تجهر بالقول) بيان لاحاطة علمه تعالى بجميع الاشياء اثر بيان سعة سلطنته وشمول قدرته لجميع الكائنات أي وان تجهر بذكره تعالى ودعائه فاعلم انه تعالى غني عن جهرك (فانه يعلم السر وأخفى) أي ما أسررته الى غيرك وشيئا أخفى من ذلك وهو ما أخطرته ببالك من غير أن تتفوه به أصلا أو ما أسررته لنفسك وأخفى منه وهو ما ستسره فيما سيأتي وتنكيره للمبالغة في الخفاء وهذا اما نهي عن الجهر كقوله تعالى واذكر ربك في نفسك تضرعا وخفية ودون الجهر من القول واما ارشاد للعباد الى أن الجهر ليس لاسماعه سبحانه بل لغرض آخر من تصوير النفس بالذكر وتثبيته فيها ومنعها من الاشتغال بغيره وقطع الوسوسة عنها وحضها بالتضرع والجؤار وقوله تعالى (الله) خبر مبتدا محذوف والجملة استئناف مسوق

الاشارة العقلية اليها فامتنع وضع الاسم لها وقد تكلمنا فى تحقيق ذلك فى تفسير اسم الله وأما الاسم الواقع عليه بحسب أجزاء ذاته فذلك محال لانه ليس لذاته شئ من الاجزاء لأن كل مركب ممكن وواجب الوجود لايكون ممكنا فلا يكون مركبا وأما الاسم الواقع بحسب الصفات الخارجة عن ذاته فالصفات اما أن تكون ثبوتية حقيقية أو ثبوتية اضافية أو سلبية أو ثبوتية مع اضافية أو ثبوتية مع سلبية أو اضافية مع سلبية أو ثبوتية واضافية وسلبية ولما كانت الاضافات الممكنة غير متناهية وكذا السلوب غير متناهية أمكن أن يكون للالهى تعالى أسماء مشتقة لامترادفة غير متناهية فهذا هو التنبيه على المأخذ (البحث الثالث) يقال ان لله تعالى أربعة آلاف اسم ألف لايعلمها الا الله تعالى وألف لايعلمها الا الله والملائكة وألف لايعلمها الا الله والملائكة والانبياء وأما الالف الرابع فان المؤمنين يعلمونه فتسعمائة منها فى التوراة وتسعمائة فى الانجيل وتسعمائة فى الزبور ومائة فى الفرقان تسع وتسعون منها ظاهرة وواحد مكتوم فمن أحصاها دخل الجنة (البحث الرابع) الاسماء الواردة فى القرآن منها مالبس بالمشتق ثناء ومدحا كقولك جاعل وخالق وصانع فاذا قيل فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا صار مدحا وأما الاسم الذى يكون مدحا فيه مالا قرن بغيره صار أبلغ نحو قولنا حى فاذا قيل الحى القيوم أو الحى الذى لايموت كان أبلغ وأما قولنا بديع فانك اذا قلت بديع السموات والارض ازداد المدح ومن هذا الباب ما كان اسم مدح ولكن لايجوز افراده كقولك دليل وكاشف فاذا قيل يادليل المتحيرين و ياكاشف الضر والبلوى جاز ومنه مايكون اسم مدح مفردا أو مقرونا كقولنا الرحمن الرحيم (البحث الخامس) من الاسماء مايكون مقارنتها أحسن كقولك الاول الآخر المبدئ المعيد الظاهر الباطن ومثاله قوله تعالى فى حكاية قول المسيح ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم و بقية الاجوبة قد تقدمت فى تفسير بسم الله الرحمن الرحيم (البحث السادس) فى النكت رأى بشر الحافى كاغدا مكتوبا فيه بسم الله الرحمن الرحيم فرفعه وطيبه بالمسك وبلعه فرأى فى النوم قائلا يقول يابشر طيبت اسمنا فنحن نطيبك فى الدنيا والآخرة (وثانيها) قوله تعالى ولله الاسماء الحسنى وليس حسن الاسماء لذواتها لانها ألفاظ وأصوات بل حسنها لحسن معانيها ثم ليس حسن أسماء الله حسنا يتعلق بالصورة والخلقة فان ذلك محال على من ليس بجسم بل حسن يرجع الى معنى الاحسان مثلا اسم الستار والغفار والرحيم انما كانت حسناء لانها دالة على معنى الاحسان وروى حكيما ذهب اليه قبيح فحسن والقسا الوصية فقال للمحسن أنت حسن والحسن لايليق به الفعل القبيح وقال للآخر انت قبيح والقبيح اذا فعل الفعل القبيح عظم قبحه فنقول للهنا أسماؤك حسنة وصفاتك حسنة فلا تظهر لنا من تلك الاسماء الحسنة والصفات الحسنة الا الاحسان الهنا كفينا قبح أفعالنا وسيرتنا فلا تضم اليه قبح العقاب ووحشة العذاب (وثالثها) قوله عليه السلام اطلبوا الحوائج عند حسان

بيان أن ماذكر من صفات الكمال موصوفها ذلك المعبود بالحق أى ذلك المنعوت بما ذكر من النعوت الجليلة الله عز وجل وقوله تعالى (لا اله الا هو) تحقيق للحق وتصريح بما تضمنه ماقبله من اختصاص الالوهية به سبحانه فان ما أسند اليه تعالى من خلق جميع الموجودات والرحمانية والمالكية للكل والعلم الشامل مما يقتضيه اقتضاء بينا وقوله تعالى (له الاسماء الحسنى) بيان لكون ماذكر من الخالقية والرحمانية والمالكية والعالمية أسماءه وصفاته من غير تعدد فى ذاته تعالى فانه روى أن المشركين حين سمعوا النبى عليه الصلاة والسلام يقول يا الله يارحمن قالوا ينهانا أن نعبد الهين و هو يدعو الها آخر والحسنى تأنيث الاحسن يوصف به الواحدة المؤنثة والجمع من المذكر والمؤنث كأرب أخرى وآياتنا الكبرى

الوجوه الهنا حسن الوجه عرضي أما حسن الصفات والاسماء فذاتي فلا ترد نا عن احسانك خائبين خاسرين (ورابعها) ذكر ان صيادا كان يصيد السمك فصاد سمكة وكان له ابنة فأخذتها ابنته فطرحتها في الماء وقالت انها ماوقعت في الشبكة الا لغفلتها الهنا تلك الصبية رحمت غفلة هاتيك السمكة وكانت تلقيها مرة أخرى في البحر ونحن قد اصطادتنا وسوسة ابليس وأخرجتنا من بحر رحمتك فارحمنا بفضلك وخلصنا منها والقنا في بحار رحمتك مرة أخرى (وخامسها) ذكرت من الاسماء خمسة في الفاتحة وهي الله والرب والرحمن والرحيم والملك فذكرت الالهية وهي اشارة الى القهارية والعظمة فنعلم أن الارواح لا تطيق ذلك القهر والعلو فذكرت بعده أربعة اسماء تدل على اللطف الرب وهو يدل على التربية والمعتاد ان من ربى أحدا فانه لا يهمل أمره ثم ذكر الرحمن الرحيم وذلك هو النهاية في اللطف والرأفة ثم ختم الامر بالملك والملك العظيم لا ينتقم من الضعيف العاجز ولان عائشة قالت لعلي عليه السلام ملكت فاسجح فأنت أولى بأن تعفو عن هؤلاء الضعفاء (وسادسها) عن محمد بن كعب القرظي قال موسى عليه السلام الهي أي خلقك أكرم عليك قال الذي لا يزال لسانه رطبا من ذكري فان فأي خلقك أعلم قال الذي يلتمس الى علمه علم غيره قال فأي خلقك أعدل قال الذي يقضي على نفسه كما يقضي على الناس قال فأي خلقك أعظم جرما قال الذي يتهمني وهو الذي يسألني ثم لا يرضى بما قضيت له الهنا انا لا نتهمك فانا نعلم ان كل ما أحسنت به فهو فضل وكل ما تفعله فهو عدل فلا تؤاخذنا بسوء أعمالنا (وسابعها) قال الحسن اذا كان يوم القيامة نادى منادٍ سيعلم الجمع من أولى بالكرم أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون فيتخطون رقاب الناس ثم يقال أين الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ثم ينادي منادٍ أين الحامدون الله على كل حال ثم تكون التبعة والحساب على من بقي ألهنا فنحن نحمدك وأثنينا عليك بمقدار قدرتنا ومنتهى طاقتنا فاعف عنا بفضلك وارحمنا برحمتك ومن أراد الاستقصاء في الاسماء والصفات فعليه بكتاب لوامع البينات في الاسماء والصفات وبالله التوفيق ✲ قوله تعالى ﴿ وهل أتاك حديث موسى اذ رأى نارا فقال لاهله امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى فلما أتاها نودي يا موسى اني أنا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى) اعلم انه تعالى لما عظم حال القرآن وحال الرسول فيما كلفه اتبع ذلك بما يقوي قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذكر أحوال الانبياء عليهم السلام تقوية لقلبه في الابلاغ كقوله ولا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وبدأ بموسى عليه السلام لان المحنة والفتنة الحاصلة له كانت أعظم ليسلي قلب الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك ويصبره على تحمل المكاره فقال وهل أتاك حديث موسى وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قوله وهل أتاك يحتمل أن يكون هذا أول ما أخبر به من امر موسى عليه السلام فقال وهل أتاك أي لم

وبيان انه أمر مستمر فيما بين الانبياء كابرا عن كابر وقد خوطب به موسى عليه الصلاة والسلام حيث قيل له انني أنا الله لا اله الا انا وبه ختم عليه الصلاة والسلام مقاله حيث قال انما الهكم الله الذي لا اله الا هو وأما ما قيل من أن ذلك لترغيب النبي عليه الصلاة والسلام في الاقتداء بموسى عليه الصلاة والسلام في تحمل أعباء النبوة والصبر على مقاساة الخطوب في تبليغ أحكام الرسالة فإياه أن مساق النظم الكريم لصرفه عليه الصلاة والسلام عن اقتحام المشاق وقوله تعالى (اذ رأى نارا) ظرف الحديث وقيل لمضمر مؤخر أي حين رأى نارا كان كيت وكيت وقيل مفعول لمضمر مقدم أي اذكر وقت رؤيته نارا روي انه عليه الصلاة والسلام استأذن شعيبا عليهما الصلاة والسلام في الخروج الى أمه وأخيه فخرج بأهله وأخذ على غير الطريق مخافة من ملوك الشأم فلما وافى وادي طوى وهو بالجانب الغربي من الطور وليلة وادي ليلة مظلمة شاتية مثلجة وكانت ليلة الجمعة وقد ضل الطريق وتفرقت ماشيته ولاماء عنده وقدح فصلد زنده

فبينما هو فى ذلك اذ رأى نارا على يسار الطريق من جانب الطور (فقال لاهله امكثوا) أى أقيموا مكانكم أمرهم عليه الصلاة والسلام بذلك لئلا يتبعوه فيما عزم عليه عليه الصلاة والسلام من الذهاب الى النار كما هو المعتاد لئلا ينتقلوا الى موضع آخر فانه ما لا يخطر بالبال والخطاب للمرأة والولد والخادم وقيل لها وحدها والجمع اما لاظاهر لفظ الاهل وللتفخيم كما فى قول من قال وان شئت حرمت النساء سواكم * (انى آنست نارا) أى أبصرتها ابصارا بينا لاشبهة فيه وقيل الايناس خاص بابصار ما يؤنس به والجملة تعليل للامر أو للمأمور به (لعلى آتيكم منها) أى أجيئكم من النار (بقبس) أى بشعلة مقتبسة من معظم النار وهى المرادة بالجذوة فى سورة القصص وبالشهاب القبس (أو أجد على النار هدى) هاديا يدلنى على الطريق على أنه مصدر سمى به الفاعل مبالغة أو حذف منه المضاف أى ذا هداية وعلى انه اذا وجد الهادى فقد وجد الهدى وقيل هاديا يهدينى الى أبواب الدين فان أفكار الابرار معمورة بالهمة الدينية فى عامة أحوالهم لا يشغلهم عنها شاغل والاول هو الاظهر لان مساق النظم الكريم لتسلية أهله وقد نص عليه فى سورة القصص

يأتك الى الآن وقد أتاك الآن فتنبه له وهذا قول الكلبى ويحتمل أن يكون قد أتاه ذلك فى الزمان المتقدم فكأنه قال أنسى قد أتاك وهذا قول مقاتل والضحاك عن ابن عباس (المسئلة الثانية) قوله وهل أتاك وان كان على لفظ الاستفهام الذى لا يجوز على الله تعالى لكن المقصود منه تقرير الجواب فى قلبه وهذه الصيغة أبلغ فى ذلك كما يقول المرء لصاحبه هل بلغك خبر كذا فيتطلع السامع الى معرفة ما يومى اليه ولو كان المقصود هو الاستفهام لكان الجواب يصدر من قبل النبى عليه السلام لا من قبل الله تعالى (المسئلة الثالثة) قوله تعالى اذ رأى نارا أى هل أتاك حديثه حين رأى نارا قال المفسرون استأذن موسى عليه السلام شعيبا فى الرجوع الى والدته فاذن له فخرج فولد له ابن فى الطريق فى ليلة شاتية مثلجة وكانت ليلة الجمعة وقد حاد عن الطريق فقدح موسى عليه السلام النار فلم تور المقدحة شيئا فبينما هو فى مزاولة ذلك اذ نظر نارا من بعيد عن يسار الطريق قال السدى ظن انها نار من نيران الرعاة وقال آخرون انه عليه السلام رآها فى شجرة وليس فى لفظ القرآن ما يدل على ذلك واختلفوا فقال بعضهم الذى رآه لم يكن نارا بل تخيله نارا والصحيح انه رأى نارا ليكون صادقا فى خبره اذ الكذب لا يجوز على الانبياء قيل النار أربعة أقسام نار تأكل ولا تشرب وهى نار الدنيا ونار تشرب ولا تأكل وهى نار الشجر لقوله تعالى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا ونار تأكل وتشرب وهى نار المعدة ونار لا تأكل ولا تشرب وهى نار موسى عليه السلام وقيل أيضا النار على أربعة أقسام (أحدها) نار لها نور بلا حرقة وهى نار موسى عليه السلام (وثانيها) حرقة بلا نور وهى نار جهنم (وثالثها) الحرقة والنور وهى نار الدنيا (ورابعها) لا حرقة ولا نور وهى نار الاخبار فلما أبصر النار توجه نحوها فقال لاهله امكثوا فيجوز أن يكون الخطاب للمرأة وولدها والخادم الذى معها ويجوز أن يكون للمرأة وحدها ولكن خرج على ظاهر لفظ الاهل فان الاهل يقع على الجمع وأيضا فقد يخاطب الواحد بلفظ الجماعة تفخيما أى أقيموا فى مكانكم انى آنست نارا أى أبصرت والايناس الابصار البين الذى لا شبهة فيه ومنه انسان العين لانه يتبين به الشئ والانس لظهورهم كما قيل الجن لاستتارهم وقيل هو أيضا ما يؤنس به ولما وجد منه الايناس وكان منتفيا حقيقة نهم أتى بكلمة الى لتوطين أنفسهم ولما كان الايناس بالقبس ووجود الهدى مترقبين متوقعين بنى الامر فيهما على الرجاء والطمع فقال لعلى آتيكم ولم يقطع فيقول انى آتيكم لئلا يعد ما لم يتيقن الوفاء به والنكتة فيه ان قوما قالوا كذب ابراهيم للمصلحة وهو محال لان موسى عليه السلام قبل نبوته احترز عن الكذب فلم يقل آتيكم ولكن قال لعلى آتيكم ولم يقطع فيقول انى آتيكم لئلا يعد ما لم يتيقن الوفاء به والقبس النار المقتبسة فى رأس عود او فتيلة أو غيرهما أو أجد على النار هدى والهدى ما يهتدى به وهو اسم مصدر فكأنه قال أجد على النار ما أهتدى به من دليل أو علامة ومعنى الاستعلاء على النار أن أهل

حيث قيل لعلي آتيكم منها بخبر أوجذوة الآية وكلة أوفى الموضعين لمنع الخلو دون منع الجمع ومعنى الاستعلاء فى قوله تعالى على النار أن اهل النار يستعلون المكان ﴿ ١٥ ﴾ القريب منها أولانها عند الاصطلاء يكتنفونها

النار يستعلون المكان القريب منها ولان المصطلين بها اذا أحاطوا بها كانوا مشرفين عليها فلما أتاها أى أتى النار قال ابن عباس رأى شجرة خضراء من أسفلها الى أعلاها كأنها نار بيضاء فوقف متعجبا من شدة ضوء تلك النار وشدة خضرة تلك الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة تغير ضوء النار فسمع تسبيح الملائكة ورأى نورا عظيما قال وهب فظن موسى عليه السلام انها نار أوقدت فأخذ من دقاق الحطب ليقتبس من لهبها فمالت اليه كأنها تريده فتأخر عنها وهابها ثم لم تزل تطمعه ويطمع فيها ثم لم يكن اسرع من خمودها فكأنها لم تكن ثم رمى موسى ببصره الى فرعها فاذا لخضرته ساطعة فى السماء واذا نور بين السماء والارض له شعاع تكل عنه الابصار فلما رأى موسى ذلك وضع يده على عينيه فنودى يا موسى قال القاضى الذى يروى من ان النار ماكان يورى فهذا جائز وأما الذى يروى من ان النار كانت تتأخر عنه فان كانت النبوة قد تقدمت له جاز ذلك والافهو ممتنع الا أن يكون معجزة لغيره من الانبياء عليهم السلام وفى قوله وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى دلالة على ان فى هذه الحالة أوحى الله اليه وجعله نبيا وعلى هذا الوجه يبعد ماذكروه من تأخر النار عنه وبين فساد ذلك قوله تعالى فلما أتاها نودى يا موسى وان كانت تتأخر عنه حالا بعد حال صح ذلك ولما بقى لفاء التعقيب فائدة قلنا القاضى انما بنى هذا الاعتراض على مذهبه فى ان الارهاص غير جائز وذلك عندنا باطل فبطل قوله وأما التمسك بفاء التعقيب فقريب لان تخلل الزمان القليل فيما بين المجئ والنداء لا يقدح فى فاء التعقيب (المسئلة الرابعة) قرأ أبو عمرو وابن كثير انى بالفتح أى نودى بانى انا ربك والباقون بالكسر أى نودى فقيل يا موسى أولان النداء ضرب من القول فعومل معاملته (المسئلة الخامسة) قال الاشعرى ان الله تعالى اسمعه الكلام القديم الذى ليس بحرف ولا صوت وأما المعتزلة فانهم أنكروا وجود ذلك الكلام فقالوا انه سبحانه خلق ذلك النداء فى جسم من الاجسام كالشجرة أو غيرها لان النداء كلام الله تعالى والله قادر عليه ومتى شاء فعله وأما أهل السنة من أهل ماوراء النهر فقد اثبتوا الكلام القديم الا أنهم زعموا أن الذى سمعه موسى عليه السلام صوت خلقه الله تعالى فى الشجرة واحتجوا بالآية على ان المسموع هو الصوت المحدث قالوا انه تعالى رتب النداء على أنه أتى النار والمرتب على المحدث محدث فالنداء محدث (المسئلة السادسة) اختلفوا فى ان موسى عليه السلام كيف عرف ان المنادى هو الله تعالى فقال أصحابنا يجوز ان يخلق الله تعالى له علما ضروريا بذلك ويجوز أن يعرفه بالمعجزة قالت المعتزلة أما العلم الضرورى ففير جائز لانه لو حصل العلم الضرورى بكون هذا النداء كلام الله تعالى لحصل العلم الضرورى بوجود الصانع العالم القادر لاستحالة أن تكون الصفة معلومة بالضرورة والذات تكون معلومة بالاستدلال ولو كان وجود الصانع تعالى معلوما له بالضرورة لخرج موسى عن كونه مكلفا لان حصول العلم الضرورى ينافى التكليف

قياما وقعودا فيشعرفون عليها ولما كان الاتيان بهما مترقبا غير محقق الوقوع صدر الجملة بكلمة الترجى وهى اما عاملة لفعل قد حذف ثقة بما يدل عليه من الامر بالمكث والاخبار بايناس النار وتفاديا عن التصريح بما يوحشهم واما حال من فاعله أى فاذهب اليها لآتيكم أو كى آتيكم أو راجيا أن آتيكم منها يقبس الآية وقدمر تحقيق ذلك مفصلا فى تفسير قوله تعالى يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون (فلما أتاها) أى النار التى آنسها قال ابن عباس رضى الله عنهما رأى شجرة خضراء أطافت بها من أسفلها الى أعلاها نار بيضاء تتقد كأضوا ما يكون فوقف متعجبا من شدة ضوئها وشدة خضرة الشجرة فلا النار تغير خضرتها ولا كثرة ماء الشجرة تغير ضوأها قالوا النار أربعة أصناف

صنف يأكل ولا يشرب وهى نار الدنيا وصنف يشرب ولا يأكل وهى نار الشجر الاخضر وصنف يأكل ويشرب

وهي نار جهنم وصنف لا يأكل ولا يشرب وهي نار موسى عليه الصلاة والسلام وقالوا أيضا هي أربعة أنواع نوع له نور ولا احراق وهي نار الدنيا ونوع لا نور له ولا احراق وهي نار ﴿ الاشجار ونوع له نور بلا احراق وهي نار

موسى عليه الصلاة والسلام ونوع له احراق بلا نور وهي نار جهنم روي ان الشجرة كانت عوسجة وقيل كانت سمرة (نودي يا موسى) أي نودي فقيل يا موسى (اني أنا ربك) أو عومل النداء معاملة القول لكونه ضربا منه وقرئ بالفتح أي بأني وتكرير الضمير لتأكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وأما ما ظنه الشبهة روي انه لما نودي يا موسى قال عليه الصلاة والسلام من المتكلم فقال الله عز وجل أنا ربك فوسوس اليه ابليس لعلك تسمع كلام شيطان فقال أنا عرفت أنه كلام الله تعالى بأني أسمعه من جميع الجهات بجميع الاعضاء قلت وذلك لان سماع ما ليس من شأنه ذلك من الاعضاء ليس الا من آثار قدرة الخلاق العليم تعالى وتقدس وقيل تلقى عليه الصلاة والسلام كلام رب العزة تلقيا روحانيا ثم تمثل ذلك الكلام لبدنه وانتقل الى الحس المشترك فانتقش به من غير اختصاص ببعض وجهة (فاخلع نعليك) أمر عاد الصلاة والسلام

وبالاتفاق لم يخرج موسى عن التكليف فعلمنا ان الله تعالى عرفه ذلك بالمعجز ثم اختلفوا في ذلك المعجز على وجوه (أولها) منهم من قال نعلم قطعا أن الله تعالى عرفه ذلك بواسطة المعجز ولا حاجة بنا الى ان نعرف ذلك المعجز ما هو (وثانيها) روي ان موسى عليه السلام لما شاهد النور الساطع من الشجرة الى العنان وسمع تسبيح الملائكة وضع يديه على عينيه فنودي يا موسى فقال لبيك اني أسمع صوتك ولا أراك فأين أنت قال أنا معك وامامك وخلفك وتحيطك وأقرب اليك منك ثم ان ابليس اخطر بباله هذا الشك وقال ما يدريك أنك تسمع كلام الله فقال لاني أسمعه من فوق ومن تحتي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي كما أسمعه من قدامي فعلمت انه ليس بكلام المخلوقين ومعنى اطلاقه هذه الجهات اني أسمعه بجميع أجزائي وابعاضي حتى كان كل جارحة مني صارت اذنا (وثالثها) لعله سمع النداء من جماد كالحصى وغيرها فيكون ذلك معجزا (ورابعها) انه رأى النار في الشجرة الخضراء بحيث ان تلك الخضرة ما كانت تطفئ تلك النار وتلك النار ما كانت تضر تلك الخضرة وهذا لا يقدر عليه أحد الا الله سبحانه (المسئلة السابعة) قالوا ان تكرير الضمير في اني أنا ربك كان لتوكيد الدلالة وازالة الشبهة (المسئلة الثامنة) ذكروا في قوله فاخلع نعليك وجوها (أحدها) كأنه تعالى جاد حمار موسى ذلك الامر بخلعهما صيانة للوادي المقدس وكذلك قال عقيبه انك بالوادي المقدس طوى وهذا قول علي رضي الله عنه وقول مقاتل والكلبي والضحاك وقتادة والسدي (والثاني) انما أمر بخلعهما لينال قدميه بركة الوادي وهذا قول الحسن وسعيد بن جبير ومجاهد (وثالثها) أن يحمل ذلك على تعظيم البقعة من ان يطأها الا حافيا ليكون معظما لها وخاضعا عند سماع كلام ربه والدليل عليه أنه تعالى قال بعقيبه انك بالوادي المقدس وهذا يفيد التعليل فكأنه قال تعالى اخلع نعليك لانك بالوادي المقدس طوى وأما أهل الاشارة فقد ذكروا فيها وجوها (أحدها) ان النعل في النوم يفسر بالزوجة والولد فقوله اخلع نعليك اشارة الى ان لا يلتفت خاطره الى الزوجة والولد وأن لا يبقى مشغول القلب بأمرهما (وثانيها) المراد بخلع النعلين ترك الالتفات الى الدنيا والآخرة كأنه أمره بان يصير مستغرق القلب بالكلية في معرفة الله تعالى ولا يلتفت بخاطره الى ما سوى الله تعالى والمراد من الوادي المقدس قدس جلال الله تعالى وطهارة عزته يعني انك لما وصلت الى بحر المعرفة فلا تلتفت الى المخلوقات (وثالثها) ان الانسان حال الاستدلال على الصانع لا يمكنه أن يتوصل اليه الا بمقدمتين مثل أن يقول العالم المحسوس محدث أو ممكن وكل ما كان كذلك فله مدبر ومؤثر وصانع وهاتان المقدمتان يشبهان النعلين لان بهما يتوصل العقل الى المقصود وينتقل من النظر في الخلق الى معرفة الخالق ثم بعد الوصول الى معرفة الخالق وجب أن لا يبقى ملتفتا الى تينك المقدمتين لان قدر الاشتغال بالغير يبقى محروما عن الاستغراق فيه فكأنه قيل له لا تكن مشتغل القلب والخاطر بتينك المقدمتين فانك وصلت الى الوادي المقدس

بذلك لان الحفوة أدخل فى التواضع وحسن الادب ولذلك كان السلف الصالحون يطوفون بالكعبة حافين وقيل ليباشر الوادى بقدميه تبركا به وقيل لما أن نعليه كانا ﴿ ١٧ ﴾ من جلد حمار غير مدبوغ وقيل معناه فرغ قلبك من الأهلى والمال والفناء لترتيب الامر على ماقبلها فان ربوبيته تعالى له عليه الصلاة والسلام من موجبات الامر ودواعيه وقوله تعالى (انك بالواد المقدس) تعليل لوجوب الخلع المأمور به وبيان لسبب ورود الامر بذلك من شرف البقعة وقدسها روى انه عليه الصلاة والسلام خلعهما وألقاهما وراء الوادى (طوى) بضم الطاء غير منون وقرئ منونا وقرى بالكسر منونا وغير منون فمن نونه اوله بالمكان دون البقعة وقيل هو كشنى من الطى مصدر لنودى أو المقدس أى نودى نداءين أو قدس مرة بعد أخرى (وأنا اخترتك) أى اصطفيتك للنبوة والرسالة وقرئ وانا اخترناك بالفتح والكسر والفاء فى قوله (فاستمع) لترتيب الامر أو المأمور به على ماقبلها فان اختياره عليه السلام لما ذكر من موجبات الاستماع والامر به والاتيان

الذى هو بحر معرفة الله تعالى ولجة ألوهيته (المسئلة التاسعة) استدلت المعتزلة بقوله اخلع نعليك على ان كلام الله تعالى ليس بقديم اذ لو كان قديما لكان الله قائلا قبل وجود موسى اخلع نعليك ياموسى ومعلوم ان ذلك سفه فان الرجل فى الدار الحالية اذا قال يازيد افعل يا عمرو لا تفعل مع ان زيدا وعمرا لا يكونان حاضرين بعد ذلك جنونا وسفها فكيف يليق ذلك بالاله سبحانه وتعالى وأجاب أصحابنا عنه من وجهين (الاول) ان كلامه تعالى وان كان قديما الا أنه فى الازل لم يكن أمرا ولا نهيا (والثانى) انه كان أمرا بمعنى انه وجد فى الازل شئ لما استمر الى مالا يزال صار الشخص به مأمورا من غير وقوع التغير فى ذلك الشئ كما ان القدرة تقتضى صحة الفعل ثم انها كانت موجودة فى الازل من غير هذه الصحة فلما استمرت الى مالا يزال حصلت الصحة كذا ههنا وهذا الكلام فيه غموض وبحث دقيق (المسئلة العاشرة) ليس فى الآية دلالة على كراهة الصلاة والطواف فى النعل والصحيح عدم الكراهة وذلك لانا ان علمنا الامر بخلع النعلين بتعظيم الوادى وتعظيم كلام الله كان الامر مقصورا على تلك الصورة وان علمناه بأن النعلين كانا من جلد حمار ميت فجائز ان يكون قد كان محظورا لمس جلد الحمار الميت وان كان مدبوغا فان كان كذلك فهو منسوخ بقوله عليه السلام أيما اهاب دبغ فقد طهر وقد صلى النبى صلى الله عليه وسلم فى نعليه ثم خلعهما فى الصلاة فخلع الناس نعالهم فلما سلم قال مالكم خلعتم نعالكم قالوا خلعت فخلعنا قال فان جبريل أخبرنى ان فيهما قذرا فلم يكره النبى صلى الله عليه وسلم الصلاة فى النعل وأنكر على الخالعين خلعهما وأخبرهم بأنه انما خلعهما لما فيهما من القذر (المسئلة الحادية عشر) قرئ طوى بالضم والكسر منصرفا وغير منصرف فمن نونه فهو اسم الوادى ومن لم ينونه ترك صرفه لانه معدول عن طاوى فهو مثل عمر المعدول عن عامر ويجوز أن يكون اسما للبقعة (المسئلة الثانية عشرة) فى طوى وجوه (الاول) انه اسم للوادى وهو قول عكرمة وابن زيد (والثانى) معناه مرتين نحو مثنى أى قدس الوادى مرتين أو نودى موسى عليه السلام نداءين يقال ناديته طوى اى مثنى (والثالث) طوى أى طيا قال ابن عباس رضى الله عنهما انه مر بذلك الوادى ليلا فطواه فكان المعنى بالوادى المقدس الذى طويته طيا أى قطعته حتى ارتفعت الى اعلاه ومن ذهب الى هذا قال طوى مصدر خرج عن لفظه كأنه قال طويته طوى كما يقال هدنى يهدينى هدى والله أعلم * قوله تعالى (وانا اخترتك فاستمع لما يوحى انى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى) قرأ حمزة وانا اخترتك وقرأ أبى بن كعب وانى اخترتك وههنا مسائل (المسئلة الاولى) معناه اخترتك للرسالة وللكلام الذى خصصتك به وهذه الآية تدل على ان النبوة لا تحصل بالاستحقاق لان قوله وأنا اخترتك يدل على ان ذلك المنصب العلى انما حصل لان الله تعالى اختاره له ابتداء لا لانه استحقه على الله تعالى (المسئلة الثانية) قوله فاستمع لما يوحى فيه نهاية الهيبة والجلالة فكأنه قال لقد جاءك امر عظيم هائل فتأهب له واجعل كل

فى قوله تعالى (لما يوحى) متعلقة باستمع وما موصولة أو مصدرية أى

عقلك وخاطرك مصروفا اليه فقوله وأنا اخترتك يفيد نهاية اللطف والرحمة وقوله فاستمع يفيد نهاية الهيبة فيحصل له من الاول نهاية الرجاء ومن الثاني نهاية الخوف (المسئلة الثالثة) قوله انني أنا الله لا اله الا أنا فاعبدني يدل على ان علم الاصول مقدم على علم الفروع لان التوحيد من علم الاصول والعبادة من علم الفروع وأيضا الفاء في قوله فاعبدني تدل على ان عبادته انما لزمت لالهيته وهذا هو تحقيق العلماء ان الله هو المستحق للعبادة (المسئلة الرابعة) انه سبحانه بعد أن أمره بالتوحيد أولا ثم بالعبادة ثانيا أمره بالصلاة ثالثا احتج اصحابنا بهذه الآية على ان تأخير البيان عن وقت الحاجة جائز من وجهين (الاول) انه أمره بالعبادة ولم يذكر كيفية تلك العبادة فثبت انه يجوز ورود المجمل منفكا عن البيان (الثاني) انه قال واقم الصلاة لذكري ولم يبين كيفية الصلاة قال القاضي لا يمتنع ان موسى عليه السلام قد عرف الصلاة التي تعبد الله تعالى بها شعيبا عليه السلام وغيره من الانبياء فصار الخطاب متوجها الى ذلك ويحتمل انه تعالى بينه له في الحال وان كان المنقول في القرآن لم يذكر فيه الا هذا القدر والجواب أما العذر الاول فانه لا يتوجه في قوله تعالى فاعبدني وأيضا فحمل مثل هذا الخطاب العظيم على فائدة جديدة أولى من حمله على أمر معلوم لان موسى عليه السلام ما كان يشك في وجوب الصلاة التي جاء بها شعيب عليه السلام فلو حملنا قوله واقم الصلاة على ذلك لم يحصل من هذا الخطاب العظيم فائدة زائدة أما لو حملناه على صلاة أخرى لحصلت الفائدة الزائدة قوله لعل الله تعالى بينه في ذلك الموضع وان لم يحكه في القرآن قلنا لا شك ان البيان أكثر فائدة من المجمل فلو كان مذكورا لكان أولى بالحكاية (المسئلة الخامسة) في قوله لذكري وجوه (أحدها) لذكري يعني لتذكرني فان ذكري أن أعبد وأصلي لي (وثانيها) لتذكرني فيه الاشتمال الصلاة على الاذكار عن مجاهد (وثالثها) لاني ذكرتها في الكتب وأمرت بها (ورابعها) لان أذكرك بالمدح والثناء واجعل لك لسان صدق (وخامسها) اذكري خاصة لا تشوبه بذكر غيري (وسادسها) لاخلاص ذكري وطلب وجهي لا لترائي بها ولا لتقصد بها غرضا آخر (وسابعها) لتكون لي ذاكرا غير ناس فعل المخلصين في جعلهم ذكرهم على بال منهم كما قال تعالى لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله (وثامنها) لاوقات ذكري وهي مواقيت الصلاة لقوله تعالى ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا (وتاسعها) أقم الصلاة حين تذكرها اي انك اذا نسيت صلاة فاقضها اذا ذكرتها روى قتادة عن انس رضي الله عنه انه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من نسي صلاة فليصلها اذا ذكرها لا كفارة لها الا ذلك ثم أوأقم الصلاة لذكري قال الخطابي يحتمل هذا الحديث وجهين (أحدهما) انه لا يكفرها غير قضائها والآخر انه لا يلزم في نسيانها غرامة ولا كفارة كما تلزم الكفارة في ترك صوم رمضان من غير عذر وكما يلزم المحرم اذا ترك شيئا من نسكه فدية من اطعام أو دم وانما يصلي ما ترك فقط فان قيل حق العبارة أن يقول أقم الصلاة لذكرها كما قال عليه السلام فليصلها اذا ذكر قلنا قوله

فاستمع للذي يوحى اليك أو لوحي لاباختراتك كافيل لكن لا اقيل من انه من باب التنازع واعمال الاول فلا بد حينئذ من اعادة الضمير مع الثاني بل لان قوله تعالى (انني أنا الله لا اله الا انا) بدل من ما يوحى ولا ريب في أن اختياره عليه الصلاة والسلام ليس لهذا الوحي فقط والفاء في قوله تعالى (فاعبدني) لترتيب المأمور به على ما قبلها فان اختصاص الالوهية به سبحانه وتعالى من موجبات تخصيص العبادة به عز وجل (وأقم الصلاة) خصت الصلاة بالذكر وأفردت بالامر مع اندراجها في الامر بالعبادة لفضلها وانافتها على سائر العبادات بما نيطت به من ذكر المعبود وشغل القلب واللسان بذكره وذلك قوله تعالى (لذكري)

الذكرى معناه للذكر الحاصل بخلق أو بتقدير حذف المضاف أى لذكر صلاتى (المسئلة السادسة) لو فاتته صلوات يستحب أن يقضيها على ترتيب الاداء فلو ترك الترتيب فى قضائها جاز عند الشافعى رحمه الله ولو دخل عليه وقت فريضة وتذكر فائتة نظر ان كان فى الوقت سعة استحب أن يبدأ بالفائتة ولو بدأ بصلاة الوقت جاز وان ضاق الوقت بحيث لو بدأ بالفائتة فات الوقت يجب أن يبدأ بصلاة الوقت حتى لا تفوت ولو تذكر الفائتة بعد ما شرع فى صلاة الوقت أتمها ثم قضى الفائتة ويستحب أن يعيد صلاة الوقت بعدها ولا يجب وقال أبو حنيفة رحمه الله يجب الترتيب فى قضاء الفوائت ما لم تزد على صلاة يوم وليلة حتى قال لو تذكر فى خلال صلاة الوقت فائتة تركها اليوم يبطل فرض الوقت فيقضى الفائتة ثم يعيد صلاة الوقت الا أن يكون الوقت ضيقا فلا تبطل حجة أبى حنيفة رحمه الله الآية والخبر والاثر والقياس أما الآية فقوله تعالى اقم الصلاة لذكرى أى لتذكرها واللام بمعنى عند كقوله أقم الصلاة لدلوك الشمس أى عند دلوكها فمعنى الآية أقم الصلاة المتذكرة عند تذكرها وذلك يقتضى رعاية الترتيب وأما الخبر فقوله عليه السلام من نسى صلاة فليصلها اذا ذكرها والتاء للتعقيب وأيضا روى جابر بن عبد الله قال جاء عمر بن الخطاب رضى الله عنهما الى النبى صلى الله عليه وسلم يوم الخندق فجعل يسب كفار قريش ويقول يا رسول الله ما صليت صلاة العصر حتى كادت تغيب الشمس قال النبى صلى الله عليه وسلم وأنا والله ما صليتها بعد قال فنزل الى البطحاء وصلى العصر بعد ما غابت الشمس ثم صلى المغرب بعدها وهذا الحديث مذكور فى الصحيحين قالت الحنفية والاستدلال به من وجهين (أحدهما) انه عليه الصلاة والسلام قال صلوا كما رأيتمونى أصلى فلما سلى الفوائت على الولاء وجب علينا ذلك (والثانى) ان فعل النبى صلى الله عليه وسلم اذا خرج مخرج البيان للمجمل كان حكمه حكم ذلك المجمل وهذا الفعل خرج بيانا لمجمل قوله تعالى أقيموا الصلاة ولهذا قلنا ان الفوائت اذا كانت فى حد القلة يجب مراعاة الترتيب فيها واذا دخلت فى حد الكثرة يسقط الترتيب وأما الاثر فما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما انه قال من فاتته صلاة فلم يذكرها الا فى صلاة الامام فليمض فى صلاته فاذا قضى صلاته مع الامام يصلى ما فاته ثم ليعد التى صلاها مع الامام وقد يروى هذا مرفوعا الى النبى صلى الله عليه وسلم وأما القياس فهو انهما صلاتان فريضتان جمعهما واحد فى اليوم والليلة فاشبهتا صلاتى عرفة والمزدلفة فلما لم يجب اسقاط الترتيب فيهما وجب أن يكون حكم الفوائت فيما دون اليوم والليلة كذلك حجة الشافعى رحمه الله انه روى فى حديث أبى قتادة انهم لما ناموا عن صلاة الفجر ثم انتبهوا بعد طلوع الشمس أمرهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يقودوا رواحلهم ثم صلاها ولو كان وقت التذكر معينا للصلاة لما جاز ذلك فعلمنا ان ذلك الوقت وقت لتقرر الوجوب عليه لكن لا على سبيل التضييق بل على سبيل التوسع اذا ثبت هذا فنقول ايجاب قضاء الفوائت وايجاب أداء فرض الوقت الحاضر يجرى مجرى التخيير بين الواجبين

أى لتذكرنى فان ذكرى كما ينبغى لا يتحقق الا فى ضمن العبادة والصلاة أولتذكرنى فيها لاشتمالها على الاذكار أولذكرى خاصة لا تشوبه بذكر غيرى أو لاخلاص ذكرى وابتغاء وجهى لا ترائى بها ولا تقصد بها غرضا آخر أولتكون ذاكرا لى غير ناس وقيل لذكرى اياها وأمرى بها فى الكتب اولان أذكرك بالمدح والثناء وقيل لاوقات ذكرى وهى مواقيت الصلاة أولذكر صلاتى لما روى انه عليه الصلاة والسلام قال من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها اذا ذكرها لان الله تعالى يقول وأقم الصلاة لذكرى وقرئ لذكرى بألف التأنيث وللذكرى معرفا وللذكر بالتعريف والتنكير وقوله تعالى

(ان الساعة آتية) تعليل لوجوب العبادة واقامة الصلاة أي كائنة لامحالة وانما عبر عن ذلك بالاتيان تحقيقا لحصوله ايرازها في معرض امر محقق متوجه نحو المخاطبين ﴿ ٢٠ ﴾ (اكاد أخفيها) أي لا أظهرها بأن أقول انها آتية

فوجب أن يكون المكلف مخيرا في تقديم أيهما شاء ولانه لو كان الترتيب في الفوائت شرطا لما سقط بالنسيان ألا ترى انه اذا صلى الظهر والعصر بعرفة في يوم غيم ثم تبين انه صلى الظهر قبل الزوال والعصر بعد الزوال فانه يعيدهما جميعا ولم يسقط الترتيب بالنسيان لما كان شرطا فيهما فههنا أيضا لو كان شرطا فيهما لما كان يسقط بالنسيان ﴿ قوله تعالى (ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى) اعلم انه تعالى لما خاطب موسى عليه السلام بقوله فاعبدني وأقم الصلاة لذكري أتبعه بقوله ان الساعة آتية أكاد أخفيها وما أليق هذا بتأويل من تأول قوله لذكري أي لاذكرك بالامانة والكرامة فقال عقيب ذلك ان الساعة آتية لانها وقت الاثابة ووقت المجازاة ثم قال أكاد أخفيها وفيه سؤالان (السؤال الاول) هو ان كاد نفيه اثبات واثباته نفي بدليل قوله وما كادوا يفعلون أي وفعلوا ذلك فقوله أكاد أخفيها يقتضي انه ما أخفاها وذلك باطل لوجهين (أحدهما) قوله ان الله عنده علم الساعة (والثاني) ان قوله لتجزى كل نفس بما تسعى انما يليق بالاخفاء لا بالاظهار والجواب من وجوه (أحدها) ان كاد موضوع للمقاربة فقط من غير بيان النفي والاثبات فقوله اكاد أخفيها معناه قرب الامر فيه من الاخفاء وأما انه هل حصل ذلك الاخفاء أو ما حصل فذلك غير مستفاد من اللفظ بل من قرينة قوله لتجزى كل نفس بما تسعى فان ذلك انما يليق بالاخفاء لا بالاظهار (وثانيها) ان كاد من الله واجب فمعنى قوله اكاد أخفيها أي أنا أخفيها عن الخلق كقوله عسى أن يكون قريبا أي هو قريب قاله الحسن (وثالثها) قال أبو مسلم أكاد بمعنى أريد وهو كقوله كذلك كدنا ليوسف ومن أمثالهم المتداولة لا أفعل ذلك ولا كاد أي ولا أريد أن افعله (ورابعها) معناه اكاد أخفيها من نفسي وقيل انها كذلك في مصحف أبي وفي حرف ابن مسعود اكاد أخفيها من نفسي فكيف أعلنها لكم قال القاضي هذا بعيد لان الاخفاء انما يصح ممن يصلح له الاظهار وذلك مستحيل على الله تعالى لان كل معلوم معلوم له فالاظهار والاسرار منه مستحيل ويمكن أن يجاب عنه بأن ذلك واقع على التقدير يعني لو صح مني اخفاؤه على نفسي لاخفيته عني والاخفاء وان كان محالا في نفسه الا أنه لا يمتنع أن يذكر ذلك على هذا التقدير مبالغة في عدم اطلاع الغير عليه قال وقد جرب هذا على عادة العرب في مخاطبة بعضهم بعضا يقولون إذا بالغوا في كتمان الشيء كتمته حتى من نفسي فالله تعالى بالغ في اخفاء الساعة فذكره بأبلغ ما تعرفه العرب في مثله (ومنها معها) أكاد صلة في الكلام والمعنى ان الساعة آتية أخفيها قال زيد الخيل

سريع الى الهيجاء مثلك ملاحه ﴿ فما ان يكاد قرنه يتنفس

والمعنى فما ان يتنفس قرنه (وسادسها) قال أبو الفتح التوصلي أكاد أخفيها تأويله أكاد أظهرها وتلخيص هذه اللفظة أكاد أزيل عنها اخفاءها لان أفعل قد يأتي بمعنى السلب والنفي كقولك أعجمت الكتاب وأشكلته أي أزلت عجمته واشكاله واشكيته أي أزلت

ولولا أن ما في الاخبار بذلك من اللطف وقطع الاعذار لما فعلت أو اكاد أظهرها بايقاعها من أخفاه اذا أظهره بسلب خفائه ويؤيده القراءة بفتح الهمزة من خفاه بمعنى أظهره وقيل أخفاه من الاضداد يجيء بمعنى الاظهار والستر وقوله تعالى (لتجزى كل نفس بما تسعى) متعلق بآتية وما بينهما اعتراض أو بأخفيها على المعنى الاخير وما مصدرية أي لتجزى كل نفس بسعيها في تحصيل ما ذكر من الامور المأمور بها وتخصيصه في معرض الغاية لانيانها مع أنه لجزاء كل نفس بما صدر عنها سواء كان سعيا فيما ذكر أو تقاعدا عنه بالمرة أو سعيا في تحصيل ما يضاده للايذان بأن المراد بالذات من اتيانها هو الاثابة بالعبادة وأما العقاب بتركها فمن مقتضيات سوء اختيار العصاة وبأن المأمور به

في قوة الوجوب والساعة في شدة الهول والفظاعة بحيث يوجبان على كل نفس أن تسعى ﴿ شكواه ﴾ في الامتثال بالامر وتجد في تحصيل ما ينجيها من الطاعات وحينئذ تحترز عن اقتراف ما يرديها من المعاصي وعليه مدار الامر

في قوله تعالى وهو الذي خلق السموات والارض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا فان الابتلاء مع شموله لكافة المكلفين باعتبار أعمالهم المتفاوتة الى الحسن والقبيح أيضا لا الى الحسن والاحسن فقط فقد علق بالاخيرين لما ذكر من أن المقصود الاصلي من ابداع تلك البدائع على ذلك النظام الرائع انما هو ظهور كمال احسان المحسنين وان ذلك لكونه على اتم الوجوه الرائقة واكمل الانحاء اللائقة يوجب العمل بموجبه بحيث لا يحيد أحد عن سننه المستبين بل يهتدي كل فرد الى ما يرشد اليه من مطلق الايمان والطاعة وانما التفاوت بينهم في مراتبهما بحسب القوة والضعف وأما الاعراض عن ذلك والوقوع في مهاوي الضلال فبمعزل من الوقوع فضلا عن أن ينتظم في سلك الغاية لذلك الصنع البديع وانما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره من غير صحيح له اومسوغ هذا ويجوز أن يراد بالسعي مطلق العمل (فلا يصدنك عنها) أي عن ذكر الساعة ومراقبتها وقيل عن تصديقها والاول هو الاليق بشأن موسى عليه الصلاة والسلام وان كان النهي بطريق التهييج والالهاب وتقديم الجار والمجرور على قوله تعالى (من لا يؤمن بها) لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر فان ما حقه التقديم اذا

شكواه (وسابعها) قرئ أخفيها بفتح الالف أي أكاد أظهرها من خفاه اذا أظهره أي قرب اظهارها كقوله اقتربت الساعة قال امرؤ القيس

فان تدفنوا الداء لا نخفه * وان تمنعوا الحرب لا نقعد

أي لا نظهره قال الزجاج وهذه القراءة أبين لان معنى اكاد أظهرها يفيد أنه قد أخفاها (وثامنها) أراد أن الساعة آتية اكاد واقطع الكلام ثم قال أخفيها ثم رجع الكلام الاول الى أن الاولى الاخفاء لتجزى كل نفس بما تسعى وهذا الوجه بعيد والله أعلم (السؤال الثاني) ما الحكمة في اخفاء الساعة واخفاء وقت الموت الجواب لان الله تعالى وعد قبول التوبة فلو عرف وقت الموت لاشتغل بالمعصية الى قريب من ذلك الوقت ثم يتوب فيتخلص من عقاب المعصية فتعريف وقت الموت كالاغراء بفعل المعصية وانه لا يجوز أما قوله لتجزى كل نفس بما تسعى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى لما حكم بمجيء يوم القيامة ذكر الدليل عليه وهو انه لولا القيامة لما تميز المطيع عن العاصي والمحسن عن المسيء وذلك غير جائز وهو الذي عناه الله تعالى بقوله أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل المتقين كالفجار (المسئلة الثانية) احتجت المعتزلة بهذه الآية على ان الثواب مستحق على العمل لان الباء للالصاق فقوله بما تسعى يدل على أن الموسر في ذلك الجزاء هو ذلك السعي (المسئلة الثالثة) احتجوا بها على ان فعل العبد غير مخلوق لله تعالى وذلك لان الآية صريحة في اثبات سعي العبد ولو كان الكل مخلوقا لله تعالى لم يكن للعبد سعي البتة أما قوله فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها فالصد المنع وههنا مسائل (المسئلة الاولى) في هذين الضميرين وجهان (أحدهما) قال أبو مسلم لا يصدنك عنها أي عن الصلاة التي أمرتك بها من لا يؤمن بها أي بالساعة فالضمير الاول عائد الى الصلاة والثاني الى الساعة ومثل هذا جائز في اللغة فالعرب تلف الخبرين ثم ترمي بجوابهما جملة ليرد السامع الى كل خبر حقه (وثانيهما) قال ابن عباس فلا يصدنك عن الساعة أي عن الايمان بمجيئها من لا يؤمن بها فالضميران عائدان الى يوم القيامة قال القاضي وهذا أولى لان الضمير يجب عوده الى أقرب المذكورين وههنا الاقرب هو الساعة وما قاله أبو مسلم فانما يصار اليه عند الضرورة ولا ضرورة ههنا (المسئلة الثانية) الخطاب في قوله فلا يصدنك يحتمل ان يكون مع موسى عليه السلام وان يكون مع محمد صلى الله عليه وسلم والاقرب انه مع موسى لان الكلام أجمع خطاب له وعلى كلا الوجهين فلا معنى لقول الزجاج انه ليس بمراد وانما المراد به غيره ذلك لانه ظن ان النبي صلى الله عليه وسلم لما لم يجز عليه مع النبوة أن يصده أحد عن الايمان بالساعة لم يجز أن يكون مخاطبا بذلك وليس الامر كما ظن لانه اذا كان مكلفا بأن لا يقبل الكفر بالساعة من أحد وكان قادرا على ذلك جاز أن يخاطب به وان يكون المراد هو وغيره ويحتمل أيضا أن يكون المراد بقوله فلا يصدنك عنها النهي له عن الميل اليهم ومقاربتهم (المسئلة الثالثة) المقصود نهي موسى عليه السلام عن التكذيب

اخر تبقى النفس مستشرقة له فيتمكن عند وروده لها فضل تمكن ولان في المؤخر نوع طول ربما يخل تقديمه بجزالة النظم الكريم وهذا وان كان بحسب الظاهر نهيا للكافر عن صد ﴿ ٢٢ ﴾ موسى عليه الصلاة والسلام عن الساعة لكنه في الحقيقة نهي له عليه الصلاة والسلام عن الانصداد عنها على ابلغ وجه وآكده فان النهي عن أسباب الشئ ومباديه المؤدية اليه نهي عنه بالطريق البرهاني وابطال للسببية من أصلها كما في قوله تعالى ولا يجرمنكم الخ فان صد الكافر حيث كان سببا لانصداده عليه الصلاة والسلام كان النهي عنه نهيا باصله وموجبه وابطالا له بالكلية ويجوز أن يكون من باب النهي عن المسبب وارادة النهي عن السبب على أن يراد نهيه عليه الصلاة والسلام عن اظهار أين الجانب للكفرة فان ذلك سبب لصدهم اياه عليه الصلاة والسلام كما في قوله لا أرينك ههنا فان المراد به نهي المخاطب عن الحضور لديه فالوجب لرؤيته (واتبع هواه) أي ماتهواه نفسه من اللذات الحسية الفانية (فتردى) أي فتهلك فان الاغفال عنها وعن تحصيل ما ينجي عن اهوالها مستتبع للهلاك لامحالة في محل النصب على جواب النهي أو في محل الرفع انه خبر مبتدا محذوف أي فأنت تردى (وما تلك بيمينك ياموسى) شروع

بالبعث ولكن ظاهر اللفظ يقتضي نهي من لم يؤمن عن صد موسى عليه السلام وفيه وجهان (أحدهما) ان صد الكافر عن التصديق بها سبب للتكذيب فذكر السبب ليدل على المسبب (والثاني) ان صد الكافر مسبب عن رخاوة الرجل في الدين فذكر المسبب ليدل حمله على السبب كقوله لا ارينك ههنا المراد نهيه عن مشاهدته والكون بحضرته فكذا ههنا كأنه قيل لا تكن رخو البال كن في الدين شديدا صلبا (المسئلة الرابعة) الآية تدل على ان تعلم علم الاصول واجب لان قوله فلا يصدنك يرجع معناه الى صلابته في الدين وتلك الصلابة ان كان المراد بها التقليد ثم يتميز المبطل فيه من المحق فلا بد وأن يكون المراد بهذه الصلابة كونه قويا في تقرير الدلائل وازالة الشبهات حتى لا يتمكن الخصم من ازالته عن الدين بل هو يكون متمكنا من ازالة المبطل عن بطلانه (المسئلة الخامسة) قال القاضي قوله فلا يصدنك يدل على ان العباد هم الذين يصدون ولو كان تعالى هو الخالق لافعالهم لكان هو الصاد دونهم فدل ذلك على بطلان القول بالجبر والجواب المعارضة بمسئلة العلم والداعي والله أعلم أما قوله تعالى واتبع هواه فالمعنى ان منكر البعث انما أنكره اتباعا لهواه لا لدليل وهذا من أعظم الدلائل على فساد التقليد لان المقلد متبع للهوى لا للحجة أما قوله فتردى فهو بمعنى ولا يصدنك فتردى وان صدوك وقلبت فليس الا الهلاك بالنار واعلم ان المتوغلين في أسرار المعرفة قالوا المقام مقامان (أحدهما) مقام المحو والفناء عما سوى الله تعالى (والثاني) مقام البقاء بالله والاول مقدم على الثاني لان من أراد أن يكتب شيئا في لوح مشغول بكتابة اخرى فلا سبيل له اليه الا بازالة الكتابة الاولى ثم بعد ذلك يمكن اثبات الكتابة الثانية والحق سبحانه راعى هذا الترتيب الحسن في هذا الباب لانه قال لموسى عليه السلام أولا فاخلع نعليك وهو اشارة الى تطهير السر عما سوى الله تعالى ثم بعد ذلك امره بتحصيل ما يجب تحصيله واصول هذا الباب ترجع الى ثلاثة علم المبدا وعلم الوسط وعلم المعاد فعلم المبدا هو معرفة الحق سبحانه وتعالى وهو المراد بقوله انني أنا الله لا اله الا أنا وأما علم الوسط فهو علم العبودية ومعناها الامر الذي يجب أن يشتغل الانسان به في هذه الحياة الجسمانية وهو المراد بقوله فاعبدني وأقم الصلاة للذكرى ثم في هذا أيضا نعثر لان قوله فاعبدني اشارة الى الاعمال الجسمانية وقوله للذكرى اشارة الى الاعمال الروحانية والعبودية أولها الاعمال الجسمانية وآخرها الاعمال الروحانية وأما علم المعاد فهو قوله ان الساعة آتية اكاد أخفيها ثم انه تعالى افتتح هذه التكاليف بمحض اللطف وهو قوله اني انا ربك واختتمها بمحض القهر وهو قوله فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى تنبيها على ان رحمته سبقت غضبه واشارة الى أن العبد لا بد له في العبودية من الرغبة والرهبة والرجاء والخوف وعند الوقوف على هذه الجملة تعرف ان هذا الترتيب هو النهاية في الحسن والجودة وان ذلك لا يتأتى الا من العالم بكل المعلومات ﴿ قوله تعالى ﴾ (وما تلك بيمينك ياموسى قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش

في حكاية ما كلف به عليه الصلاة والسلام من الامور المتعلقة بالحق اثر حكاية ما أمر به من الشؤون الخاصة بنفسه فالاستفهامية في حيز الرفع بالابتداء وتلك خبره او بالعكس وهو أدخل بحسب المعنى وأوفق بالجواب و يمينك متعلق بمضمر وقع حالا أي وما تلك قارة أو مأخوذة بيمينك والعامل معنى الاشارة كما في قوله عز وعلا وهذا بعلي شيخا وقيل تلك موصولة أي ما التي هي بيمينك وأيا ما كان فالاستفهام ايقاظ وتنبيه له عليه الصلاة والسلام على ما سيبدو له من التعاجيب وتكرير النداء لزيادة التأنيس والتنبيه (قال هي عصاي) نسبها الى نفسه تحقيقا لوجه كونها بيمينه وتمهيد ما يعقبه من الافاعيل المنسوبة اليه عليه الصلاة والسلام وقرئ عصى على لغة هذيل (أتوكأ عليها) أي أعتمد عليها عند الاعياء أو الوقوف على رأس القطيع (وأهش بها) أي اخبط بها الورق وأسقطه (على غنمي) وقرئ أهش بكسر الهاء وكلاهما من هش الخبز يهش اذا انكسر لهشاشته وقرئ بالسين غير المعجمة وهو زجر الغنم وتعديته بعلى لتضمن معنى الانحناء قبال أي ازجرها منحنيا ومقبلا عليها (ولي فيها مآرب أخرى) أي حاجات أخر من هذا الباب مثل ما روي أنه عليه الصلاة والسلام

بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى قال ألقها يا موسى فألقاها فاذا هي حية تسعى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى) اعلم ان قوله وما تلك بيمينك لفلتان فقوله وما تلك اشارة الى العصا وقوله بيمينك اشارة الى اليد وفي هذا نكت (احداها) انه سبحانه لما أشار اليهما جعل كل واحدة منهما معجزا قاهرا و برهانا باهرا ونقله من حد الجمادية الى مقام الكرامة فاذا صار الجماد بالنظر الواحد حيوانا وصار الجسم الكثيف نورانيا لطيفا ثم انه تعالى ينظر كل يوم ثلثمائة وستين نظرة الى قلب العبد فاي عجب لو انقلب قلبه من موت العصيان الى سعادة الطاعة ونور المعرفة (وثانيها) ان بالنظر الواحد صار الجماد ثعبانا يبتلع سحر السحرة فاي عجب لو صار القلب بعد النظر الالهي بحيث يبتلع سحر النفس الامارة بالسوء (وثالثها) كانت العصا في يمين موسى عليه السلام فبسبب بركة يمينه انقلبت ثعبانا و برهانا وقلب المؤمن بين اصبعين من أصابع الرحمن فاذا حصلت ليمين موسى عليه السلام هذه الكرامة والبركة فأي عجب لو انقلب قلب المؤمن بسبب اصبعي الرحمن من ظلمة المعصية الى نور العبودية ثم ههنا سؤالات (الاول) قوله وما تلك بيمينك يا موسى سؤال والسؤال انما يكون لطلب العلم وهو على الله تعالى محال فما الفائدة فيه والجواب فيه فوائد (احداها) ان من أراد أن يظهر من الشيء الحقير شيئا شريفا فانه يأخذه و يعرضه على الحاضرين و يقول لهم هذا ما هو فيقولون هذا هو الشيء الفلاني ثم انه بعد اظهار صفته الفائقة فيه يقول لهم خذوا منه كذا وكذا فالله تعالى لما أراد أن يظهر من العصا تلك الآيات الشريفة كأنه قال بها حية وكضربه البحر حتى انفلق وفي الحجر حتى انفجر منه الماء يعرضه أولا على موسى فكأنه قال له يا موسى هل تعرف حقيقة هذا الذي بيدك وانه خشبة لا تضر ولا تنفع ثم انه قلبه ثعبانا عظيما فيكون بهذا الطريق قد نبه العقول على كمال قدرته ونهاية عظمته من حيث انه أظهر هذه الآيات العظيمة من أهون الاشياء عنده فهذا هو الفائدة من قوله وما تلك بيمينك يا موسى (وثانيها) انه سبحانه لما أطلعه على تلك الانوار المتصاعدة من الشجرة الى السماء وأسمعه تسبيح الملائكة ثم أسمعه كلام نفسه ثم انه مزج اللطف بالقهر فلاطفه أولا بقوله وأنا اخترتك ثم قهر بايراد التكاليف الشاقة عليه وألزمه علم المبدا والوسط والمعاد ثم ختم كل ذلك بالتهديد العظيم تحير موسى ودهش وكاد لا يعرف اليمين من الشمال فقيل له وما تلك بيمينك يا موسى ليعرف موسى عليه السلام ان يمينه هي التي فيها العصا أولا لانه لما تكلم معه أولا بكلام الالهية وتحير موسى من الدهشة تكلم معه بكلام البشر ازالة لتلك الدهشة والحيرة والتكنة فيه انه لما غلبت الدهشة على موسى في الحضرة أراد رب العزة ازالتها فسأله عن العصا وهو أمر لا يقع الغلط فيه كذلك المؤمن اذا مات ووصل الى حضرة ذي الجلال فالدهشة تغلبه والحياء يمنعه عن الكلام فيسأله عن الامر الذي لم يغلط فيه في الدنيا وهو التوحيد فاذا ذكره زالت الدهشة والوحشة عنه (وثالثها) انه تعالى لما عرف موسى كمال الالهية أراد أن يعرفه نقصان البشرية فسأله عن منافع العصا

كان اذا سار ألقاها على عاتقه فعلق بها أدواته من القوس والكنانة والجلاب ونحوها واذا كان في البرية ركزها وعرض الزندين على شعبتيها والقى عليها الكساء واستظل به واذا قصر الرشاء ﴿ ٢٤ ﴾ وصله بها واذا تعرضت لغنمه السباع

فذكر بعضهم افعرفه الله تعالى ان فيها منافع أعظم مما ذكر تنبيها على ان العقول قاصرة عن معرفة صفات الشيء الحاضر فكيف لولا التوفيق والعصمة كيف يمكنهم الوصول الى معرفة اجل الاشياء وأعظمها (ورابعها) فائدة هذا السؤال أن يقرر عنده انه خشبة حتى اذا قلبها ثعبانا لا يخافها (السؤال الثاني) قوله وما تلك بيمينك ياموسى خطاب من الله تعالى مع موسى عليه السلام بلا واسطة ولم يحصل ذلك لمحمد صلى الله عليه وسلم فيلزم أن يكون موسى أفضل من محمد الجواب من وجهين (الاول) انه تعالى كما خاطب موسى فقد خاطب محمدا عليه السلام في قوله فأوحى الى عبده ما أوحى الا أن الفرق بينهما ان الذي ذكره مع موسى عليه السلام أفشاه الى الخلق والذي ذكره مع محمد صلى الله عليه وسلم كان سرا لم يستأهل له أحد من الخلق (والثاني) ان كان موسى تكلم معه وهو مع موسى فأمة محمد صلى الله عليه وسلم يخاطبون الله في كل يوم مرات على ما قال صلى الله عليه وسلم المصلي يناجي ربه والرب يتكلم مع آحاد امة محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة بالتسليم والتكريم والتكليم في قوله سلام قولا من رب رحيم (السؤال الثالث) ما اعراب قوله وما تلك بيمينك ياموسى الجواب قال صاحب الكشاف تلك بيمينك كقوله وهذا بعلي شيخا في انتصاب الحال بمعنى الاشارة ويجوز أن يكون تلك اسما موصولا وصلته بيمينك قال الزجاج معناه وما التي بيمينك قال الفراء معناه ما هذه التي في يمينك واعلم انه سبحانه لما سأل موسى عليه السلام عن ذلك اجاب موسى عليه السلام باربعة أشياء ثلاثة على التفصيل وواحد على الاجمال (الاول) قوله هي عصاي قرأ ابن ابي اسحق هي عصى ومثلها يا بشرى وقرأ الحسن هي عصاي بسكون الياء والنكت ههنا ثلاثة (أحدها) انه قال هي عصاي فذكر العصا ومن كان قلبه مشغولا بالعصا ومنافعها كيف يكون مستغرقا في بحر معرفة الحق ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم عرض عليه الجنة والنار فلم يلتفت الى شيء مما زاغ البصر وما طغى ولما قيل له امدحنا قال لا أحصي ثناء عليك ثم نسي نفسه ونسي ثناءه فقال أنت كما أثنيت على نفسك (وثانيها) لما قال عصاي قال الله سبحانه وتعالى ألقها فلما ألقاها فاذا هي حية تسعى ليعرف ان كل ما سوى الله فالالتفات اليه شاغل وهو كالحية المهلكة لك ولهذا قال الخليل عليه السلام فانهم عدو لي الا رب العالمين وفي الحديث يجاء يوم القيامة بصاحب المال الذي لم يؤد زكاته ويؤتى بذلك المال على صورة شجاع أقرع الحديث بتمامه (وثالثها) انه قال هي عصاي فقدم الجواب الا انه عليه السلام ذكر الوجوه الاخر لانه كان يحب المكالمة معه فجعل ذلك كالوسيلة الى تحصيل هذا الغرض (الثاني) قوله اتوكأ عليها والتوكي والاتكاء واحد كالتوقي والاتقاء معناه أعتمد عليها اذا عييت أو وقفت على رأس القطيع أو عند الطفرة فجعل موسى عليه السلام نفسه متوكئا على العصا وقال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم اتكئ على رحمتي بقوله تعالى يا ايها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين وقال والله يعصمك من الناس فان قيل أليس قوله ومن اتبعك من المؤمنين يقتضي

قائل بها قيل ومن جملة المآرب انها كانت ذات شعبتين ومحجن فاذا طال الغصن حناه بالمحجن واذا اراد كسره لواه بالشعبتين وكانه عليه الصلاة والسلام فهم أن المقصود من السؤال بيان حقيقتها وتفصيل منافعها بطريق الاستقصاء حتى اذا ظهرت على خلاف تلك الحقيقة وبدت منها خواص بديعة علم انها آيات باهرة ومعجزات قاهرة أحدثها الله تعالى وليست من الخواص المترتبة عليها فذكر حقيقتها ومنافعها على التفصيل والاجمال على معنى أنها من جنس العصي مستتبعة لمنافع بنات جنسها يطابق جوابه الغرض الذي فهمه من سؤال العليم الخبير (قال) استئناف مبني على سؤال ينساق اليه الذهن كانه قيل فاذا قال عز وجل فقيل قال (ألقها ياموسى) لترى من شأنها ما لم يخطر ببالك من الامور وتكرير النداء لتأكيد التنبيه (فألقاها) على الارض (فاذا هي حية تسعى) ﴿ كون ﴾ روي انه عليه الصلاة والسلام حين ألقاها انقلبت حية صفراء في غلظ العصا ثم انتفخت وعظمت فذلك

كون محمد يتركا على المؤمنين قلنا قوله ومن اتبعك من المؤمنين معطوف على الكاف فى قوله حسبك الله والمعنى الله حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين (الثالث) قوله وأهش بها على غنمى أى أخبط بها فاضرب أغصان الشجر ليتساقط ورقها على غنمى فتأكله وقال أهل اللغة هش على غنمه يهش بضم الهاء فى المستقبل وهششت الرجل أهش بفتح الهاء فى المستقبل وهش الرغيف يهش بكسر الهاء قاله ثعلب وقرأ عكرمة وأهس بالسين غير المنقوطة والهش زجر الغنم واعلم ان غنمه رعيته فبدأ بمصالح نفسه فى قوله أتوكأ عليها ثم بمصالح رعيته فى قوله وأهش بها على غنمى فكذلك فى القيامة يبدأ بنفسه فيقول نفسى نفسى ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يشتغل فى الدنيا الا باصلاح أمر الامة وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون فلا جرم يوم القيامة يبدأ ايضا بامته فيقول امتى امتى (والرابع) قوله ولى فيها مآرب اخرى أى حوائج ومنافع واحدتها مأربة بفتح الراء وضمها وحكى ابن الاعرابى وقطرب بكسر الراء أيضا والارب بفتح الراء والاربة بكسر الالف وسكون الراء الحاجة وانما قال أخرى لان المآرب فى معنى جماعة فكأنه قال جماعة من الحاجات أخرى واوجاءت اخر لكان صوابا كما قال فعدة من أيام اخر ثم ههنا نكت (احداها) انه لما سمع قول الله تعالى وما تلك بيمينك عرف ان لله فيه أسرارا عظيمة فذكر ما عرف وعبر عن البواقى التى ما عرفها اجمالا لا تفصيلا بقوله ولى فيها مآرب اخرى (وثانيها) ان موسى عليه السلام أحس بانه تعالى انما سأله عن أمر العصا لمنافع عظيمة فقال موسى الهى ما هذه العصا الا كغيرها لكنك لما سألت عنها عرفت أن لى فيها مآرب أخرى ومن جملتها أنك كلمتنى بسببها فوجدت هذا الامر العظيم الشريف بسببها (وثالثها) ان موسى عليه السلام أجمل رجاء أن يسأله ربه عن تلك المآرب فيسمع كلام الله مرة أخرى ويطول أمر المكالمة بسبب ذلك (ورابعها) انه بسبب اللطف انطلق لسانه ثم غلبته الدهشة فانقطع لسانه وتشوش فكره فأجمل مرة أخرى ثم قال وهب كانت ذات شعبتين كالمحجن فاذا طال الغصن حناه بالمحجن واذا حاول كسره لواه بالشعبتين اذا سار وضعها على عاتقه يعلق فيها أدواته من القوس والكنانة والثياب واذا كان فى البرية ركزها وألقى كساءه عليها فكانت ظلا وقيل كان فيها من المعجزات أنه كان يستقى بها فتطول بطول البئر وتصير شعبتاها دلوا ويصير ان شعبتين فى الليالى واذا ظهر عدو حاربت عنه واذا انتهى ثمرة ركزها فاورقت واثمرت وكان يحمل عليها زاده وماءه وكانت تماشيه ويركزها فينبع الماء فاذا رفعها نضب وكانت تقيه الهوام واعلم ان موسى عليه السلام لما ذكر هذه الجوابات أمره الله تعالى بالقاء العصا فقال ألقها يا موسى وفيه نكت (احداها) انه عليه السلام لما قال ولى فيها مآرب اخرى أراد الله أن يعرفه أن فيها مأربة أخرى لا يفطن لها ولا يعرفها وأنها أعظم من سائر مآربه فقال ألقها يا موسى فألقاها فاذا هى حية تسعى (وثانيتها) كان فى رجله شئ وهو النعل وفى يده شئ وهو العصا والرجل آلة الهرب واليد

شبهت بالجان تارة وسميت ثعبانا اخرى وعبر عنها ههنا بالاسم العام للحالين وقيل قد انقلبت من اول الامر ثعبانا وهو الاليق بالمقام كما يفصح عنه قوله عز وجل فاذا هى ثعبان مبين وانما شبهت بالجان فى الجلادة وسرعة الحركة لا فى صغر الجثة وقوله تعالى تسعى اما صفة لحية أو خبر ثان عند من يجوز كونه جملة (قال) استئناف كما سبق (خذها ولا تخف) عن ابن عباس رضى الله عنهما انقلبت ثعبانا ذكرا يبتلع كل شئ من الصخر والشجر فلما رآه كذلك خاف ونفر وملكه ما يملك البشر عند مشاهدة الاهوال والمخاوف من الفزع والنفار وفى عطف النهى على الامر اشعار بأن عدم المنهى عنه مقصود لذاته لا لتحقيق المأمور به فقط وقوله تعالى (سنعيدها سيرتها الاولى) مع كونه استئنافا مسوقا لتعليل الامتثال بالامر

آلة الطلب فقال اولا اخلع نعليك اشارة الى ترك الهرب ثم قال ألقها يا موسى وهو اشارة الى ترك الطلب كأنه سبحانه قال انك مادمت فى مقام الهرب والطلب كنت مشتغلا بنفسك وطالبا لحظك فلا تكون خالصا لمعرفتى فكن تاركا للهرب والطلب لتكون خالصا لى (وثالثها) أن موسى عليه السلام مع علو درجته وكمال منقبته لما وصل الى الحضرة ولم يكن معه الا النعلان والعصا أمره بالقائهما حتى امكنه الوصول الى الحضرة فأنت مع ألف وقر من المعاصى كيف يمكنك الوصول الى جنابه (ورابعتها) أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان مجردا عن الكل مازاغ البصر فلا جرم وجد الكل لعمرك أما موسى لما بقى معه تلك العصا لا جرم أمره بالقاء العصا واعلم ان الكعبى تمسك به فى أن الاستطاعة قبل الفعل فقال القدرة على القاء العصا اما أن توجد والعصا فى يده أو خارجة من يده فان أتته القدرة وهى فى يده فذاك قولنا وان الله ليس بظلام للعبيد واذا أتته وليست فى يده وانما استطاع أن يلقى من يده ما ليس فى يده فذلك محال أما قوله فالقاها فاذا هى حية تسعى ففيه أسئلة (السؤال الاول) ما الحكمة فى قلب العصا حية فى ذلك الوقت الجواب فيه وجوه (أحدها) انه تعالى قلبها حية لتكون معجزة لموسى عليه السلام يعرف بها نبوة نفسه وذلك لانه عليه السلام الى هذا الوقت ما سمع الا النداء والنداء وان كان مخالفا للعادات الا أنه لم يكن معجزا لاحتمال أن يكون ذلك من عادات الملائكة أو الجن فلا جرم قلب الله العصا حية ليصير ذلك دليلا قاهرا والعجب أن موسى عليه السلام قال أتوكأ عليها فصدقه الله تعالى فيه وجعلها متكأ له بأن جعلها معجزة له (وثانيها) ان النداء كان اكراما له فقلب العصا حية مزيدا فى الكرامة ليكون توالى الكلم والكرامات سببا لزوال الوحشة عن قلبه (وثالثها) أنه عرض عليه ليشاهده أولا فاذا شاهده عند فرعون لا يخافه (ورابعها) أنه كان راعيا فقيرا ثم انه نصب للمنصب العظيم فلعله بقى فى قلبه تعجب من ذلك فقلب العصا حية تنبيها على انى لما قدرت على ذلك فكيف يستبعد منى نصرة مثلك فى اظهار الدين (وخامسها) أنه لما قال هى عصاى أتوكأ عليها الى قوله ولى فيها مآرب اخرى فقيل له ألقها فلما القاها وصارت حية فر موسى عليه السلام منها فكأنه قيل له ادعيت أنها عصاك وأن لك فيها مآرب اخرى فلم تفر منها تنبيها على سر قوله ففروا الى الله وقوله قل الله ثم ذرهم (السؤال الثانى) قال ههنا حية وفى موضع آخر ثعبان وجان أما الحية فاسم جنس يقع على الذكر والانثى والصغير والكبير وأما الثعبان والجان فبينهما تنافى لان الثعبان العظيم من الحيات والجان الدقيق وفيه وجهان (أحدهما) أنها كانت وقت انقلابها أحية صغيرة دقيقة ثم تورمت وتزايد جرمها حتى صارت ثعبانا فاريد بالجان أول حالها وبالثعبان مآلها (والثانى) انها كانت فى شخص الثعبان وسرعة حركة الجان والدليل عليه قوله تعالى فلما رآها تهتز كأنها جان (السؤال الثالث) كيف كانت صفة الحية الجواب كان لها عرف كعرف الفرس وكان بين لحييها أربعون ذراعا وابتلعت

معجزة اخرى على يده عليه الصلاة والسلام وايذان بكونها مسخرة له عليه الصلاة والسلام ليكون على طمأنينة من أمره ولا يعتريه شائبة تزلزل عند محاجة فرعون أى سنعيدها بعد الاخذ الى حالتها الأولى التى هى الهيئة العصوية قيل بلغ عليه الصلاة والسلام عند ذلك من الثقة وعدم الخوف الى حيث كان يدخل يده فى فمها ويأخذ بلحييها والسيرة فعلة من السير تجوز بها للطريقة والهيئة وانتصابها على نزع الجار أى الى سيرتها اوعلى أن اعاد منقول من عاده بمعنى عاد اليه أوعلى الظرفية أى سنعيدها فى طريقتها أو على تقدير فعلها وابقاءها حالا من المفعول أى سنعيدها عصا كما كانت من قبل تسير سيرتها الاولى أى سائرة سيرتها الاولى فتنتفع بها كما كنت تنتفع من قبل

كل ما مرت به من الصخور والاشجار حتى سمع موسى صرير القلم في فيها وجوفها * أما قوله تعالى قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الاولى ففيه سؤالات (السؤال الاول) لما نودي موسى وخص بتلك الكرامات العظيمة وعلم انه مبعوث من عند الله تعالى الى الخلق فلم خاف (والجواب من وجوه أحدها) ان ذلك الخوف كان من نفرة الطبع لانه عليه السلام ما شاهد مثل ذلك قط وأيضا فهذه الاشياء معلومة بدلائل العقول وعند الفزع الشديد قد يذهل الانسان عنه قال الشيخ أبو القاسم الانصاري رحمه الله تعالى وذلك الخوف من أقوى الدلائل على صدقه في النبوة لان الساحر يعلم أن الذي أتى به تمويه فلا يخافه البتة (وثانيها) قال بعضهم خافه لانه عليه السلام عرف ما لقي آدم منها (وثالثها) ان مجرد قوله لا تخف لا يدل على حصول الخوف كقوله تعالى ولا تطع الكافرين لا يدل على وجود تلك الطاعة لكن قوله فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا يدل عليه ولكن ذلك الخوف انما ظهر ليظهر الفرق بينه وبين محمد صلى الله عليه وسلم فانه عليه السلام أظهر تعلق القلب بالعصا والنفرة عن الثعبان وأما محمد عليه السلام فما أظهر الرغبة في الجنة ولا النفرة عن النار (السؤال الثاني) متى أخذها بعد انقلابها عصا وقبل ذلك (والجواب) روي أنه أدخل يده بين اسنانها فانقلبت خشبة والقرآن يدل عليه أيضا بقوله سنعيدها سيرتها الاولى وذلك يقع في الاستقبال وأيضا فهذا أقرب للكرامة لانه كما أن انقلاب العصا حية معجزة فكذلك ادخال يده في فيها من غير ضرر معجزة وانقلابها خشبا معجز آخر فيكون فيه توالي المعجزات فيكون أقوى في الدلالة (السؤال الثالث) كيف أخذه أمع الخوف أو بدونه (والجواب) روي مع الخوف ولكنه بعيد لان بعد توالي الدلائل يبعد ذلك واذا علم موسى عليه السلام انه تعالى عند الاخذ سيعيدها سيرتها الاولى فكيف يستمر خوفه وقد علم صدق هذا القول وقال بعضهم لما قال له ربه لا تخف بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه الى أن أدخل يده في فيها وأخذ بلحيتها (السؤال الرابع) ما معنى سيرتها الاولى (والجواب) قال صاحب الكشاف السيرة من السير كالركبة من الركوب يقال سار فلان سيرة حسنة ثم اتسع فيها فنقلت الى معنى المذهب والطريقة (السؤال الخامس) علام انتصب سيرتها (الجواب فيه وجهان أحدهما) بنزع الخافض يعني الى سيرتها (وثانيهما) أن يكون سنعيدها مستقلا بنفسه غير متعلق بسيرتها بمعنى انها كانت أولا عصا فصارت حية فسنجعلها عصا كما كانت فنصب سيرتها بفعل مضمر أي تسير سيرتها الاولى يعني سنعيدها سائرة بسيرتها الاولى حيث كنت تتوكأ عليها ولك فيها المآرب التي عرفتها * قوله تعالى (واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى لنريك من آياتنا الكبرى اذهب الى فرعون انه طغى) اعلم أن هذا هو المعجزة الثانية وفيه مسائل (المسئلة الاولى) يقال لكل ناحيتين جناحان كجناحي العسكر لطرفيه وجناحا الانسان جنباه والاصل المستعار منه جناحا الطائر لانه يحنحهما عند الطيران

أي أدخلها تحت عضدك فان جناحي الانسان جنباه كما أن جناحي العسكر ناحيتاه مستعار من جناحي الطائر وقد سميا جناحين لانه يحنحهما أي يميلهما عند الطيران وقوله تعالى (تخرج) جواب الامر وقوله تعالى (بيضاء) حال من الضمير في وقوله تعالى (من غير سوء) متعلق بمحذوف هو حال من الضمير في بيضاء أي كائنة من غير عيب وقبح كنى به عن البرص كما كنى بالسوأة عن العورة لما أن الطباع تعافه وتنفر عنه روي انه عليه الصلاة والسلام كان آدم فأخرج يده من مدرعته بيضاء لها شعاع كشعاع الشمس تعشى البصر (آية اخرى) أي معجزة أخرى غير العصا وانتصابها على الحالية اما من الضمير في تخرج على انها بدل من الحال الاولى واما من الضمير في بيضاء وقيل من الضمير في الجار والمجرور وقيل هي منصوبة بفعل مضمر نحو خذ أودونك

وقوله تعالى (لنريك من آياتنا الكبرى) متعلق بمضمر ينساق اليه النظم الكريم كأنه قيل فعلنا ما فعلنا من الامر والاظهار لنريك بذلك بعض آياتنا الكبرى على أن الكبرى صفة لآياتنا أو نريك بذلك من آياتنا ما هي كبرى على أن الكبرى مفعول ثان لنريك ومن آياتنا متعلق بمحذوف هو حال من ذلك المفعول وأياما كان فالآية الكبرى عبارة عن العصا واليد جميعا وأما تعلقه بما دل عليه آية أي دللنا بها لنريك الخ أو بقوله تعالى واضمم أو بقوله تخرج أو بما قدر من نحو خذ ودونك كما قال بكل من ذلك قائل فيؤدي الى عراء آية العصا عن جميع الكبر فتدبر (اذهب الى فرعون) تخلص الى ما هو المقصود من تمهيد المقدمات السالفة فصل عما قبله من الاوامر ايذانا بأصالته أي اذهب اليه بما رأيته من الآيات الكبرى وادعه الى عبادتي وحذره نقمتي وقوله تعالى (انه طغى) تعليل للامر أو لوجوب المأمور به أي جاوز الحد في التكبر والعتو والتجبر حتى تجاسر على العظيمة التي هي دعوى الربوبية

وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما الى جناحك الى صدرك والاول أولى لان يدي الانسان يشبهان جناحي الطائر لانه قال تخرج بيضاء ولو كان المراد بالجناح الصدر لم يكن لقوله تخرج معنى واعلم ان معنى ضم اليد الى الجناح ما قال في آية أخرى وأدخل يدك في جيبك لانه اذا أدخل يده في جيبه كان قد ضم يده الى جناحه والله أعلم (المسئلة الثانية) السوء الرداءة والقبح في كل شئ فكني به عن البرص كما كني عن العورة بالسوأة والابرص أبغض شئ الى العرب فكان جديرا بأن يكنى عنه يروى أنه عليه السلام كان شديد الادمة فكان اذا أدخل يده اليمنى في جيبه وادخلها تحت ابطه الايسر وأخرجها كانت تبرق مثل البرق وقيل مثل الشمس من غير برص ثم اذا ردها عادت الى لونها الاول بلا نور (المسئلة الثالثة) بيضاء وآية حالان معا ومن غير سوء من صلة البيضاء كما تقول ابيضت من غير سوء وفي نصب آية وجه آخر وهو أن يكون باضمار نحو خذ ودونك وما أشبه ذلك حذف لدلالة الكلام وقد تعلق بهذا المحذوف لنريك أي خذ هذه الآية أيضا بعد قلب العصا لنريك بهاتين الآيتين بعض آياتنا الكبرى أو لنريك بهما الكبرى من آياتنا أو لنريك من آياتنا الكبرى فعلنا ذلك فان قيل الكبرى من نعت الآيات فلم لم يقل الكبر قلنا بل هي نعت الآية والمعنى لنريك الآية الكبرى ولئن سلمنا ذلك فهو كما قدمنا في قوله مآرب اخرى والاسماء الحسنى (المسئلة الرابعة) قال الحسن اليد أعظم في الاعجاز من العصا لانه تعالى ذكر لنريك من آياتنا الكبرى عقيب ذكر اليد وهذا ضعيف لانه ليس في اليد الا تغير اللون وأما العصا ففيه تغير اللون وخلق الزيادة في الجسم وخلق الحياة والقدرة والاعضاء المختلفة وابتلاع الحجر والشجر ثم عاد عصا بعد ذلك فقد وقع التغير مرة اخرى في كل هذه الامور فكانت العصا أعظم وأما قوله لنريك من آياتنا الكبرى فقد بينا انه عائد الى الكل وانه غير مختص باليد (المسئلة الخامسة) انه سبحانه وتعالى لما أظهر له هذه الاية عقبها بأن أمره بالذهاب الى فرعون وبين العلة في ذلك وهي أنه طغى وانما خص فرعون بالذكر مع ان موسى عليه السلام كان مبعوثا الى الكل لانه ادعى الالهية وتكبر وكان متبوعا فكان ذكره أولى قال وهب قال الله تعالى لموسى عليه السلام اسمع كلامي واحفظ وصيتي وانطلق برسالتي فانك بعيني وسمعي وان معك يدي وبصري وأني ألبستك جنة من سلطاني لتستكمل بها القوة في أمري أبعثك الى خلق ضعيف من خلقي بطر نعمتي وأمن مكري وغرته الدنيا حتى جحد بعثي وأنكر ربوبيتي وأني أقسم بعزتي لولا الحجة والعذر الذي وضعت بيني وبين خلقي لبطشت به بطشة جبار ولكن هان علي وسقط من عيني فبلغه عني رسالتي وادعه الى عبادتي وحذره نقمتي وقل له قولا ليننا لا يغترن بلباس الدنيا فان ناصيته بيدي لا يطرف ولا يتنفس الا بعلمي في كلام طويل قال فسكت موسى سبعة أيام لا يتكلم ثم جاءه ملك فقال أجب ربك فيما أمرك بعبده

* قوله تعالى (قال رب اشرح لى صدرى و يسرلى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى واجعل لى وزيرا من أهلى هرون أخى اشدد به ازرى واشركه فى أمرى كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا انك كنت بنا بصيرا) اعلم ان الله تعالى لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب الى فرعون وكان ذلك تكليفا شاقا فلاجرم سأل ربه أمورا ثمانية ثم ختمها بما يجرى مجرى العلة لسؤال تلك الاشياء (المطلوب الاول) قوله رب اشرح لى صدرى واعلم انه يقال شرحت الكلام أى بينته وشرحت صدره أى وسعته والاول يقرب منه لان شرح الكلام لايحصل الا ببسطه والسبب فى هذا السؤال ماحكى الله تعالى عنه فى موضع آخر وهو قوله و يضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فسأل الله تعالى أن يبدل ذلك الضيق بالسعة وقال رب اشرح لى صدرى فافهم عنك ما أنزلت على من الوحى وقيل شجعنى لاجترئ به على مخاطبة فرعون ثم الكلام فيه يتعلق بامور (أحدها) فائدة الدعاء وشرائطه (وثانيها) ماالسبب فى ان الانسان لايذكر وقت الدعاء من أسماء الله تعالى الا الرب (وثالثها) مامعنى شرح الصدر (ورابعها) بماذا يكون شرح الصدر (وخامسها) كيف كان شرح الصدر فى حق موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم (وسادسها) صفة صدر موسى عليه السلام هل كان منشرحا أولم يكن منشرحا فان كان منشرحا كان طلب شرح الصدر تحصيلا للحاصل وهو محال وان لم يكن منشرحا فهو باطل من وجهين (الاول) انه سبحانه بين له فيما تقدم كل ما يتعلق بالاديان من معرفة الربوبية والعبودية وأحوال المعاد وكل ما يتعلق بشرح الصدر فى باب الدين فقد حصل ثم انه سبحانه تلطف له بقوله وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ثم كلمه على سبيل الملاطفة بقوله وما تلك بيمينك ياموسى ثم أظهر له المعجزات العظيمة والكرامات الجسيمة ثم أعطاه منصب الرسالة بعد ان كان فقيرا وكل ما يتعلق به الاعزاز والاكرام فقد حصل ولو أن ذرة من هذه المناصب حصلت لادون الناس لصار منشرح الصدر فبعد حصولها لكليم الله تعالى يستحيل أن لايصير منشرح الصدر (والثانى) انه لما لم يصر منشرح الصدر بعد هذه الاشياء لم يجز من الله تعالى تفويض النبوة اليه فان من كان ضيق القلب مشوش الخاطر لايصلح للقضاء على ماقال عليه السلام لايقضى القاضى وهو غضبان فكيف يصلح للنبوة التى أقل مراتبها القضاء فهذا مجموع الامور التى لابد من البحث عنها فى هذه الآية (أما البحث الاول) وهو فائدة الدعاء وشرائطه فقد تقدم فى تفسير قوله ربنا لاتؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا الا أنه نذكر منها ههنا بعض الفوائد المتعلقة بهذا الموضع فنقول اعلم ان للكمال مراتب ودرجات واعلاها أن يكون كاملا فى ذاته مكملا لغيره أما كونه كاملا فى ذاته فكل ما كان كذلك كان كماله من لوازم ذاته وكل ما كان كذلك كان كاملا فى الازل ولكنه يستحيل أن يكون مكملا فى الازل لان التكميل عبارة عن جعل الشئ كاملا وذلك لايتحقق الا عند عدم الكمال فانه لو كان حاصلا فى الازل لاستحال التأثير فيه

(قال) استئناف مبنى على سؤال ينساق اليه الذهن كانه قيل فاذا قال عليه الصلاة والسلام حين أمر بهذا الامر الخطير والخطب العسير فقيل قال مستعينا بربه عز وجل (رب اشرح لى صدرى و يسرلى أمرى) لما أمر بما أمر به من الخطب الجليل تضرع الى ربه عزوجل وأظهر عجزه بقوله

فان تحصيل الحاصل محال وتكوين الكائن ممتنع فلاجرم انه سبحانه وان كان كاملا في الازل الا أنه يصير مكملا فيما لا يزال فان قيل اذا كان التكميل من صفات الكمال فحيث لم يكن مكملا في الازل فقد كان عاريا عن صفات الكمال فيكون ناقصا وهو محال قلنا النقصان انما يلزم لو كان ذلك ممكنا في الازل لكنا بينا ان الفعل الازلي محال فالتكميل الازلي محال فعدمه لا يكون نقصانا كما أن قولنا انه لا يقدر على تكوين مثل نفسه لا يكون نقصانا لانه غير ممكن الوجود في نفسه وكقولنا انه لا يعلم عددا مفصلا لحركات أهل الجنة لان كل ماله عدد مفصل فهو متناه وحركات اهل الجنة غير متناهية فلا يكون له عدد مفصل فامتناع ذلك لا لقصور في العلم بل لكونه في نفسه ممتنع الحصول اذا ثبت هذا فنقول انه سبحانه وتعالى لما قصد الى التكوين وكان الغرض منه تكميل الناقصين لان الممكنات قابلة للوجود وصفة الوجود صفة كمال فاقتضت قدرة الله تعالى على التكميل وضع مائدة الكمال للممكنات فاجلس على هذه المائدة بعض المعدومات دون البعض لاسباب (أحدها) أن المعدومات غير متناهية فلو أجلس الكل على مائدة الوجود لدخل ما لا نهاية له في الوجود (وثانيها) انه لو أوجد الكل لما بقي بعد ذلك قادرا على الايجاد لان ايجاد الموجود محال فكان ذلك وان كان كمالا للناقص لكنه يقتضي نقصان الكامل فانه ينقلب القادر من القدرة الى العجز (وثالثها) انه لو دخل الكل في الوجود لما بقي فيه تمييز فلا يتميز القادر عن الموجب والقدرة كمال والايجاب بالطبع نقصان فلهذه الاسباب أخرج بعض الممكنات الى الوجود فان قيل عليه سؤالان (أحدهما) ان الموجودات متناهية والمعدومات غير متناهية والنسبة للمتناهي الى غير المتناهي فتكون أيضا الضيافة ضيافة للاقل وأما الحرمان فانه عدم لا نهاية له وهذا لا يكون وجودا (الثاني) ان البعض الذي خصه بهذه الضيافة ان كان لاستحقاق حصل فيه دون غيره فذلك الاستحقاق ممن حصل وان كان لا لهذا الاستحقاق كان ذلك عبثا وهو محال كما قيل * يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما * وانه لا يليق بأكرم الاكرمين والجواب عن الكل ان هذه الشبهات انما تدور في العقول والخيالات لان الانسان يحاول قياس فعله على فعلنا وذلك باطل لانه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون اذا عرفت هذا فهذا الوجود الفائض من نور رحمته على جميع الممكنات هو الضيافة العامة والمائدة الشاملة وهو المراد من قوله ورحمتي وسعت كل شيء ثم ان الموجودات انقسمت الى الجمادات والى الحيوانات ولا شك ان الجماد بالنسبة الى الحيوان كالعدم بالنسبة الى الوجود لان الجماد لا خبر عنده من وجوده فوجوده بالنسبة اليه كالعدم وعدمه كالوجود وأما الحيوان فهو الذي يميز بين الموجود والمعدوم ويتفاوتان بالنسبة اليه ولان الجماد بالنسبة الى الحيوان آلة لان الحيوانات تستعمل الجمادات في اغراض أنفسها ومصالحها وهي كالعبد المطيع المسخر والحيوان كالمالك المستولي فكانت الحيوانية أفضل من الجمادية فكما أن احسان

ويضيق صدري ولا ينطلق لساني وسأله تعالى أن يوسع صدره ويفسح قلبه ويجعله عليما بشؤن الحق وأحوال الخلق حليما حمولا يستقبل ما عسى يرد عليه من الشدائد والمكاره بجميل الصبر وحسن الثبات ويتلقاها بصدر فسيح وجاش رابط

الله ورحمته اقتضيا وضع مائدة الوجود لبعض المعدومات دون البعض كذلك اقتضيا وضع مائدة الحياة لبعض الموجودات دون البعض فلا جرم جعل بعض الموجودات أحياء دون البعض والحياة بالنسبة الى الجمادية كالنور بالنسبة الى الظلمة والبصر بالنسبة الى العمى والوجود بالنسبة الى العدم فعند ذلك صار بعض الموجودات حيا مدركا للمنافي والملائم واللذة والالم والخير والشر فمن ثم قالت الاحياء عند ذلك يارب الارباب اناوان وجدنا خلعة الوجود وخلعة الحياة وشرفتنا بذلك لكن ازدادت الحاجة لانا حال العدم وحال الجمادية ما كنا نحتاج الى الملائم والموافق وما كنا نخاف المنافي والمؤذي ولما حصل الوجود والحياة احتجنا الى طلب الملائم ودفع المنافي فان لم تمكن لنا قدرة على الهرب والطلب والدفع والجذب لبقينا كالزمن المقعد على الطريق عرضة للآفات وهدفا لسهام البليات فأعطنا من خزائن رحمتك القدرة والقوة التي بها نتمكن من الطلب تارة والهرب أخرى فاقتضت الرحمة التامة تخصيص بعض الاحياء بالقدرة كما اقتضت تخصيص بعض الموجودات بالحياة وتخصيص بعض المعدومات بالوجود فقال القادرون عند ذلك الهنا الجواد الكريم ان الحياة والقدرة بلا عقل لا تكون الا لاحد القسمين اما للحيوانين المقيدين بالسلاسل والاغلال واما للبهائم المستعملة في حمل الاثقال وكل ذلك من صفات النقصان وأنت قد رقيتنا من حضيض النقصان الى أوج الكمال فأفض علينا من العقل الذي هو أشرف مخلوقاتك وأعز مبدعاتك الذي شرفته بقولك بك أهين وبك أثيب وبك أعاقب حتى نفوز من خزائن رحمتك بالخلع الكاملة والفضيلة التامة فاعطاهم العقل وبعث في أرواحهم نور البصيرة وجوهر الهداية فعند هذه الدرجة فازوا بالخلع الاربعة الوجود والحياة والقدرة والعقل فالعقل خاتم الكل والخاتم يجب أن يكون أفضل ألا ترى ان رسولنا صلى الله عليه وسلم لما كان خاتم النبيين كان أفضل الانبياء عليهم الصلاة والسلام والانسان لما كان خاتم المخلوقات الجسمانية كان أفضلها فكذلك العقل لما كان خاتم الخلع الفائضة من حضرة ذي الجلال كان أفضل الخلع وأكملها ثم نظر العقل في نفسه فرأى نفسه كالجفنة المملوءة من الجواهر النفيسة بل كأنها سماء مملوءة من الكواكب الزاهرة وهي العلوم الضرورية البديهية المركوزة في بدائه العقول وصرائح الاذهان وكما ان الكواكب المركوزة في السموات علامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر فكذلك الجواهر المركوزة في سماء العقل كواكب زاهرة يهتدي بها السائرون في ظلمات عالم الاجسام الى أنوار العالم الروحانية وفسحة السموات وأضوائها فلما نظر العقل الى تلك الكواكب الزاهرة والجواهر الباهرة رأى رقم الحدوث على تلك الجواهر وعلى جميع تلك الخلع فاستدل بتلك الارقام على راقم وبتلك النقوش على ناقش وعند ذلك عرف ان النقاش بخلاف النقش والباني بخلاف البناء فانفتح له من أعلى سماء عالم المحدثات روازن الى أضواء لوائح عالم القدم وطالع عالم القدم الازلية

وأن يسهل عليه مع ذلك أمره الذي هو أجل الامور وأعظمها وأصعب الخطوب وأهولها بتوفيق الاسباب ورفع الموانع وفي زيادة كلمة لي مع انتظام الكلام بدونها تأكيد لطلب الشرح والتيسير بابهام المشروح والميسر أولا وتفسيرهما ثانيا وفي تقديمها وتكريرها اظهار مزيد اعتناء

والجلال وكان العقل انما نظر الى أضواء عالم الازلية من ظلمات عالم الحدوث والامكان فغلبته دهشة أنوار الازلية فعميت عيناه فبقى متحيرا فالتجأ بطبعه الى مفيض الانوار فقال رب اشرح لى صدرى فان البحار عميقة والظلمات متكاثفة وفى الطريق قطاع من الاعداء الداخلة والخارجة وشياطين الانس والجن كثيرة فان لم تشرح لى صدرى ولم تكن لى عونا فى كل الامور انقطعت وصارت هذه الخلع سببا لنيل الآفات لا للفوز بالدرجات فهذا هو المراد من قوله رب اشرح لى صدرى ثم قال و يسرلى أمرى وذلك لان كل ما يصدر من العبد من الافعال والاقوال والحركات والسكنات فالم يصر العبد مريدا له استحال أن يصير فاعلا له فهذه الارادة صفة محدثة ولا بد لها من فاعل وفاعلها ان كان هو العبد افتقر فى تحصيل تلك الارادة الى ارادة أخرى ولزم التسلسل بل لا بد من الانتهاء الى ارادة يخلقها مدبر العالم فيكون فى الحقيقة هو الميسر للامور وهو المتمم لجميع الاشياء وتمام التحقيق ان حدوث الصفة لا بد له من قابل وفاعل فعبر عن استعداد القابل بقوله رب اشرح لى صدرى وعبر عن حصول الفاعل بقوله و يسرلى أمرى وفيه التنبيه على أنه سبحانه وتعالى هو الذى يعطى القابل قابليته والفاعل فاعليته ولهذا كان السلف رضى الله عنهم يقولون يا مبتدئا بالنعم قبل استحقاقها ومجموع هذين الكلامين كالبرهان القاطع على ان جميع الحوادث فى هذا العالم واقعة بقضائه وقدره وحكمته وقدرته و يمكن أن يقال أيضا كأن موسى عليه السلام قال الهى لا أكتفى بشرح الصدر ولكن أطلب منك تنفيذ الامر وتحصيل الغرض فلهذا قال و يسرلى أمرى أو يقال انه سبحانه وتعالى أعطاه الخلع الاربع وهى الوجود والحياة والقدرة والعقل فكأنه قال له يا موسى أعطيتك هذه الخلع الاربع فلا بد فى مقابلتها من خدمات أربع لتقابل كل نعمة بخدمة فقال موسى عليه السلام ما تلك الخدمات فقال وأقم الصلاة لذكرى فان فيها أنواعا أربعة من الخدمة القيام والقراءة والركوع والسجود فاذا أتيت بالصلاة فقد قابلت كل نعمة بخدمة ثم انه تعالى لما أعطاه الخلعة الخامسة وهى خلعة الرسالة قال رب اشرح لى صدرى حتى أعرف أنى بأى خدمة أقابل هذه النعمة فقيل له بأن تجتهد فى أداء هذه الرسالة على الوجه المطلوب فقال موسى يا رب ان هذا لا يتأتى منى مع عجزى وضعفى وقلة آلاتى وقوة خصمى فاشرح لى صدرى و يسرلى أمرى (الفصل الثانى) فى قوله رب اشرح لى صدرى اعلم ان الدعاء سبب القرب من الله تعالى وانما اشتغل موسى بهذا الدعاء طلبا للقرب فنفتقر الى بيان أمرين الى بيان ان الدعاء بسبب القرب ثم الى بيان ان موسى عليه السلام طلب القرب بهذا الدعاء أما بيان ان الدعاء بسبب القرب فيدل عليه وجوه (الاول) ان الله تعالى ذكر السؤال والجواب فى كتابه فى عدة مواضع منها أصولية ومنها فروعية أما الاصولية فاولها فى البقرة يسئلونك عن الاهلة قل هى مواقيت للناس والحج (وثانيها) فى بنى اسرائيل و يسئلونك عن الروح

بشان كل من المطلوبين وفضل اهتمام باستدعاء حصولهما واختصاصهما به (واحلل عقدة من لسانى) روى انه كان فى لسانه عليه الصلاة والسلام رتة من جمرة أدخلها فاه فى صغره وذلك أن فرعون حمله ذات يوم فاخذ لحيته فنتفها لما كان فيها من الجواهر

قل الروح من أمر ربي (وثالثها) ويسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا (ورابعها) يسئلونك عن الساعة أيان مرساها وأما الفرعية فستة منها في البقرة على التوالي (أحدها) يسئلونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والاقربين (وثانيها) يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير (وثالثها) يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير (ورابعها) و يسئلونك ماذا ينفقون قل العفو (وخامسها) و يسئلونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير (وسادسها) و يسئلونك عن المحيض قل هو أذى (وسابعها) يسئلونك عن الانفال قل الانفال لله والرسول (وثامنها) ويسئلونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا (وتاسعها) ويستنبؤنك أحق هو قل اى وربي انه لحق (وعاشرها) يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة (والحادية عشر) واذا سألك عبادي عني فاني قريب اذا عرفت هذا فنقول جاءت هذه الاسئلة والاجوبة على صور مختلفة فالاغلب فيها انه سبحانه وتعالى لما ذكر السؤال قال لمحمد صلى الله عليه وسلم قل وفي صورة أخرى جاء الجواب بصيغة فقل مع فاء التعقيب وفي صورة ثالثة ذكر السؤال ولم يذكر الجواب وهو قوله تعالى يسئلونك عن الساعة أيان مرساها وفي صورة رابعة ذكر الجواب ولم يذكر فيه لفظ قل ولا لفظ فقل وهو قوله تعالى واذا سألك عبادي عني فاني قريب ولا بد لهذه الاشياء من الفائدة فنقول أما الاجوبة الواردة بلفظ قل فلا اشكال فيها الان قوله تعالى قل كالتوقيع المحدد في ثبوت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وكالتشريف المحدد في كونه مخاطبا من الله تعالى باداء الوحي والتبليغ وأما الصورة الثانية وهي قوله فقل ينسفها ربي نسفا فالسبب ان قولهم و يسئلونك عن الجبال سؤال اما عن قدمها أو عن وجوب بقائها وهذه المسئلة من أمهات مسائل أصول الدين فلاجرم أمر الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم ان يجيب بلفظ الفاء المفيد للتعقيب كأنه سبحانه قال يا محمد أجب عن هذا السؤال في الحال ولا تقتصر فان الشك فيه كفر ولا تمهل هذا الامر لئلا يقع في الشك والشبهة ثم كيفية الجواب انه قال فقل ينسفها ربي نسفا ولا شك ان النسف ممكن لانه ممكن في حق كل جزء من اجزاء الجبل والحس يدل عليه فوجب أن يكون ممكنا في حق كل الجبل وذلك يدل على انه ليس بقديم ولا واجب الوجود لان القديم لا يجوز عليه التغير والنسف فان قيل انهم قالوا اخبرنا عن الهك أهو ذهب أو فضة أو حديد فقال قل هو الله أحد ولم يقل فقل هو الله أحد مع ان هذه المسئلة من المهمات قلنا انه تعالى لم يحك في هذا الموضع سؤالهم وحرف الفاء من الحروف العاطفة فيستدعي سبق كلام فلما لم يوجد ترك الفاء بخلاف ههنا فانه تعالى حكى سؤالهم فحسن عطف الجواب عليه بحرف الفاء (وأما الصورة الثالثة) فانه تعالى لم يذكر الجواب في قوله يسئلونك عن الساعة أيان مرساها فالحكمة فيه ان معرفة وقت الساعة على التعيين مشتملة على المفاسد التي شرحناها فيما سبق فلهذا لم يذكر الله تعالى ذلك الجواب وذلك يدل على ان من الاسئلة ما لا يجاب عنها

فغضب وأمر بقتله فقالت آسية انه صبي لا يفرق بين الجمر والياقوت فأحضرا بين يديه فأخذ الجمرة فوضعها في فيه قيل و احترقت يده فاجتهد فرعون في علاجها فلم تبرأ ثم لما دعاه قال الى أي رب تدعوني قال الى الذي أبرأ يدي وقد عجزت عنه واختلف في زوال العقدة بكمالها فمن قال به تمسك بقوله تعالى قد أوتيت سؤلك

(وأما الصورة الرابعة) وهي قوله فاني قريب ولم يذكر في جوابه قل ففيه وجوه (أحدها) ذلك يدل على تعظيم حال الدعاء وانه من اعظم العبادات فكانه سبحانه قال يا عبدي أنت انما تحتاج الى الواسطة في غير الدعاء أما في مقام الدعاء فلا واسطة بيني وبينك يدل عليه ان كل قصة وقعت لم تكن معرفتها من المهمات قال لرسوله صلى الله عليه وسلم اذكر لهم تلك القصة كقوله تعالى واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها واذكر في الكتاب موسى واذكر في الكتاب اسمعيل واذكر في الكتاب ادريس ونبئهم عن ضيف ابراهيم ثم قال في قصة يوسف نحن نقص عليك أحسن القصص وفي أصحاب الكهف نحن نقص عليك نبأهم بالحق وماذاك الا لما في هاتين القصتين من العجائب والغرائب والحاصل كأنه سبحانه وتعالى قال يا محمد اذا سئلت عن غيري فكن أنت المجيب واذا سئلت عني فاسكت أنت حتى أكون انا القائل (وثانيها) ان قوله واذا سألك عبادي عني يدل على ان العبد له وقوله فاني قريب يدل على ان الرب قريب من العبد (وثالثها) لم يقل فالعبد مني قريب بل قال انا انه قريب وهذا فيه سر نفيس فان العبد ممكن الوجود فهو من حيث هو هو في مركز العدم وحضيض الفناء فكيف يكون قريبا بل القريب هو الحق سبحانه وتعالى فانه بفضله واحسانه جعله موجودا وقربه من نفسه فالقرب منه لامن العبد فلهذا قال فاني قريب (ورابعها) ان الداعي مادام يبقى خاطره مشغولا بغير الله تعالى فانه لا يكون داعيا لله تعالى فاذا فنى عن الكل وصار مستغرقا بمعرفة الله الاحد الحق امتنع أن يبقى في مقام الفناء عن غير الله مع الالتفات الى غير الله تعالى فلاجرم رفعت الواسطة من البين فلهذا قال فقل اني قريب بل قال فاني قريب فثبت بما تقرر فضل الدعاء وانه من اعظم القربات ثم من شأن العبد اذا اراد أن يتحف مولاه ان لا يتحفه الا بأحسن التحف والهدايا فلا جرم أول ما اراد موسى ان يتحف الحضرة الالهية بتحف الطاعات والعبادات اتحفها بالدعاء فلاجرم قال رب اشرح لي صدري (والوجه الثاني) في بيان فضل الدعاء قوله عليه السلام الدعاء مخ العبادة ثم ان أول شيء أمر الله تعالى به موسى عليه السلام العبادة لان قوله اني انا الله اخبار وليس بأمر انما الامر قوله فاعبدني فلما كان أول ما أورد على موسى من الاوامر هو الامر بالعبادة لاجرم أول ما اتحف به موسى عليه السلام حضرة الربوبية من تحف العبادة هو تحفة الدعاء فقال رب اشرح لي صدري (والوجه الثالث) وهو ان الدعاء نوع من أنواع العبادة فكما انه سبحانه وتعالى أمر بالصلاة والصوم فكذلك امر بالدعاء ويدل عليه قوله تعالى واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب وقال ربكم ادعوني استجب لكم وادعوه خوفا وطمعا ادعوا ربكم تضرعا وخفية هو الحي لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين قل ادعوا أو ادعوا الرحمن واذكر ربك في نفسك تضرعا وخيفة وقال صلى الله عليه وسلم ادعوا يا ذا الجلال والاكرام فبهذه الآيات عرفنا أن الدعاء عبادة قال بعض الجهال الدعاء على خلاف العقل من وجوه

ومن لم يقل به احتج بقوله تعالى هو أفصح مني وقوله تعالى ولا يكاد يبين وأجاب عن الاول بأنه لم يسأل حل عقدة لسانه بالكلية بل حل عقدة تمنع الافهام ولذلك نكرها ووصفها بقوله من لساني أي عقدة كائنة من عقد لساني وجعل قوله تعالى (يفقهوا قولي) جواب الامر وغرضا من الدعاء فيجعلها في الجملة يتحقق ايتاء سؤله عليه الصلاة السلام

(أحدها) انه علام الغيوب يعلم ما في الانفس وما تخفي الصدور فأي حاجة بنا الى الدعاء (وثانيها) ان المطلوب ان كان معلوم الوقوع فلا حاجة الى الدعاء وان كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة فيه (وثالثها) الدعاء يشبه الامر والنهي وذلك من العبد في حق المولى سوء أدب (ورابعها) المطلوب بالدعاء ان كان من المصالح فالحكيم لا يهمله وان لم يكن من المصالح لم يجز طلبه (وخامسها) فقد جاء ان اعظم مقامات الصديقين الرضا بقضاء الله تعالى وقد ندب اليه والدعاء ينافي ذلك لانه اشتغال بالالتماس والطلب (وسادسها) قال عليه السلام رواية عن الله تعالى من شغله ذكري عن مسئلتي أعطيته افضل ما أعطي السائلين فدل على ان الاولى ترك الدعاء والآيات التي ذكرتموها تقتضي وجوب الدعاء (وسابعها) ان ابراهيم عليه السلام لما ترك الدعاء واكتفى بقوله حسبي من سؤالي علمه بحالي استحق المدح العظيم فدل على أن الاولى ترك الدعاء والجواب عن الاول انه ليس الغرض من الدعاء الاعلام بل هو نوع تضرع كسائر التضرعات (وعن الثاني) انه يجري مجرى أن تقول للجائع والعطشان ان كان الشبع معلوم الوقوع فلا حاجة الى الاكل والشرب وان كان معلوم اللاوقوع فلا فائدة فيه (وعن الثالث) ان الصيغة وان كانت صيغة الامر الا أن صورة التضرع والخشوع تصرفه عن ذلك (وعن الرابع) يجوز أن يصير مصلحة بشرط سبق الدعاء (وعن الخامس) انه اذا دعا اظهارا للتضرع ثم رضي بما قدره الله تعالى فذاك أعظم المقامات وهو الجواب عن البقية اذا ثبت انه من العبادات ثم انه تعالى أمره بالعبادة و بالصلاة أمر اورد مجملا لاجرم شرع في أجل العبادات وهو الدعاء (الوجه الرابع) في فضل الدعاء انه سبحانه لم يقتصر في بيان فضل الدعاء على الامر به بل بين في آية أخرى انه يغضب اذا لم يسئل فقال فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون وقال عليه السلام لا يقولن أحدكم اللهم اغفر لي ان شئت ولكن يجزم فيقول اللهم اغفر لي فلهذا السر جزم موسى عليه السلام بالدعاء وقال رب اشرح لي صدري (الوجه الخامس) في فضل الدعاء قوله تعالى وقال ربكم ادعوني استجب لكم وفيه كرامة عظيمة لامتنا لان بني اسرائيل فضلهم الله تفضيلا عظيما فقال في حقهم وأني فضلتكم على العالمين وقال أيضا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين ثم مع هذه الدرجة العظيمة قالوا لموسى عليه السلام ادع لنا ربك يبين لنا ما هي وان الحواريين مع جلالتهم في قولهم نحن انصار الله سألوا عيسى عليه السلام أن يسأل لهم مائدة تنزل من السماء ثم انه سبحانه وتعالى رفع هذه الواسطة في امتنا فقال مخاطبا لهم من غير واسطة ادعوني استجب لكم وقال واسألوا الله من فضله فلهذا السبب لما حصلت هذه الفضيلة لهذه الامة وكان موسى عليه السلام قد عرفها لاجرم قال اللهم اجعلني من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلاجرم رفع يديه ابتداء فقال رب اشرح لي صدري واعلم انه تعالى قال واذا سألك عبادي عني فاني قريب فجعل العباد على سبعة اقسام (أحدها) عبد العصمة ان عبادي

والحق أن ما ذكر لا يدل على بقائها في الجملة أما قوله تعالى هو أفصح مني فلانه عليه الصلاة والسلام قاله قبل استدعاء الحل كما استعرفه على ان أفصحيته منه عليهما الصلاة والسلام لا تستدعي بقاءها أصلا بل تستدعي عدم البقاء لما أن الافصحية توجب ثبوت أصل الفصاحة في المفضول أيضا وذلك مناف للعقدة رأسا وأما قوله تعالى

ليس لك عليهم سلطان وموسى عليه السلام كان مخصوصا بمزيد العصمة واصطنعتك لنفسي فلاجرم طلب زوائد العصمة فقال رب اشرح لي صدري (وثانيها) عبد الصفوة وسلام على عباده الذين اصطفى وموسى عليه السلام كان مخصوصا بمزيد الصفوة ياموسى اني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ولاجرم اراد مزيد الصفوة فقال رب اشرح لي صدري (وثالثها) عبد البشارة فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه وكان موسى عليه السلام مخصوصا بذلك وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى فاراد مزيد البشارة فقال رب اشرح لي صدري (ورابعها) عبد الكرامة ياعبادي لاخوف عليكم وموسى عليه السلام كان مخصوصا بذلك لاتخافا انني معكما فاراد الزيادة عليها فقال رب اشرح لي صدري (وخامسها) عبد المغفرة نبئ عبادي أني انا الغفور الرحيم وكان موسى عليه السلام مخصوصا بذلك رب اغفرلي فغفرله فاراد الزيادة فقال رب اشرح لي صدري (وسادسها) عبد الخدمة اعبدوا ربكم وموسى عليه السلام كان مخصوصا بذلك واصطنعتك لنفسي فطلب الزيادة فيها فقال رب اشرح لي صدري (وسابعها) عبد القربة واذا سألك عبادي عني فاني قريب أجيب دعوة الداع اذا دعاني وموسى عليه السلام كان مخصوصا بالقرب وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجيا فاراد كمال القرب فقال رب اشرح لي صدري (الفصل الثالث) في قوله رب اشرح لي صدري وفيه وجوه (أحدها) انه تعالى لما خاطبه بالاشياء الستة (أحدها) معرفة التوحيد انني انا الله لااله الا انا (وثانيها) أمره بالعبادة والصلاة فاعبدني واقم الصلاة لذكري (وثالثها) معرفة الآخرة ان الساعة آتية (ورابعها) حكمة أفعاله في الدنيا وماتلك بيمينك ياموسى (وخامسها) عرض المعجزات الباهرة عليه لنريك من آياتنا الكبرى (وسادسها) ارساله الى اعظم الناس كفرا وعتوا فكانت هذه التكاليف الشاقة سببا للقهر فأراد موسى عليه السلام جبر هذا القهر بالمعجز فعرفه ان كل من سأله قرب منه فقال رب اشرح لي صدري فاراد جبر القهر الحاصل من هذه التكاليف بالقرب منه فقال رب اشرح لي صدري أو يقال خاف شياطين الانس والجن فدعا ليصل بسبب الدعاء الى مقام القرب فيصير مامونا من غوائل شياطين الجن والانس (وثانيها) ان المراد انه أراد الذهاب الى فرعون وقومه فاراد ان يقطع طمع الخلق عن نفسه بالكلية فعرف ان من دعا ربه قرب به له وقرب به لديه فحينئذ تنقطع الاطماع بالكلية فقال رب اشرح لي صدري (وثالثها) الوجود كالنور والعدم كالظلمة وكل ماسوى الله تعالى فهو عدم محض فكل شئ هالك الا وجهه فالكل كانهم في ظلمات العدم واظلال عالم الاجسام والامكان فقال رب اشرح لي صدري حتى يجلس قلبي في بهي ضوء المعرفة وسادة شرح الصدر والجالس في الضوء لايرى من كان جالسا في الظلمة فحين يجلس في ضوء شرح الصدر لايرى أحدا في الوجود فلهذا عقبه بقوله ويسر لي أمري فان العبد في مقام الاستغراق لايتفرغ لشئ من

ولايكاد يبين في باب غلو اللعين في العتو والطغيان والادل على عدم زوالها أصلا وتكريرها انما يفيد قلتها في نفسها لا قلتها باعتبار كونها بعضها من الكثير وتعلق كلمة من في قوله تعالى من لساني بمحذوف هو صفة لها ليس بمقطوع به بل الظاهر تعلقها بنفس الفعل فان المحلول اذا كان متعلقا بشئ ومتصلا به

المهمات (ورابعها) رب اشرح لى صدرى فان عين العقل ضعيفة فأطلع يا الهى شمس التوفيق حتى أرى كل شئ كما هو وهذا فى معنى قول محمد صلى الله عليه وسلم ارنا الاشياء كما هى واعلم ان شرح الصدر مقدمة لسطوع الانوار الالهية فى القلب والاستماع مقدمة الفهم الحاصل من سماع الكلام فالله تعالى أعطى موسى عليه السلام المقدمة الثانية وهى قوله فاستمع لما يوحى فلاجرم نسج موسى على ذلك المنوال فطلب المقدمة الاخرى فقال رب اشرح لى صدرى ولما آل الامر الى محمد صلى الله عليه وسلم قيل له وقل رب زدنى علما والعلم هو المقصود فلما كان موسى عليه السلام كالمقدمة لمقدم محمد صلى الله عليه وسلم لاجرم أعطى المقدمة ولما كان محمد كالمقصود لاجرم أعطى المقصود فسبحانه ما أدق حكمته فى كل شئ (وسادسها) الداعى له صفتان (احداهما) أن يكون عبد الرب واذا سألك عبادى عنى فانى قريب (وثانيتهما) أن يكون الرب له وقال ربكم ادعونى استجب لكم أضاف نفسه الينا وما اضافنا الى نفسه والمشتغل بالدعاء قد صار كاملا من هذين الوجهين فاراد موسى عليه السلام أن يرتع فى هذا البستان فقال رب اشرح لى صدرى (وسابعها) ان موسى عليه السلام شرفه الله تعالى بقوله وقربناه نجيا فكان موسى عليه السلام قال الهى لما قلت وقربناه نجيا صرت قريبا منك ولكن اريد قربك منى فقال يا موسى أما سمعت قولى واذا سألك عبادى عنى فانى قريب فاشتغل بالدعاء حتى اصير قريبا منك فعند ذلك قال رب اشرح لى صدرى (وثامنها) قال موسى عليه السلام رب اشرح لى صدرى وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم ألم نشرح لك صدرك ثم انه تعالى ما تركه على هذه الحالة بل قال وسراجا منيرا فانظر الى التفاوت فان شرح الصدر هو أن يصير الصدر قابلا للنور والسراج المنير هو أن يعطى النور فالتفاوت بين موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم كالتفاوت بين الآخذ والمعطى ثم نقول الهنا ان ديننا وهو كلمة لا اله الا الله نور والوضوء نور والصلاة نور والقبر نور والجنة نور فبحق أنوارك التى أعطيتنا فى الدنيا لا تحرمنا أنوار فضلك واحسانك يوم القيامة (الفصل الرابع) فى قوله رب اشرح لى صدرى سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شرح الصدر فقال نور يقذف فى القلب فقيل وما أمارته فقال التجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود والاستعداد للموت قبل النزول ويدل على ان شرح الصدر عبارة عن النور قوله تعالى أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه واعلم ان الله تعالى ذكر عشرة أشياء ووصفها بالنور (أحدها) وصف ذاته بالنور الله نور السموات والارض (وثانيها) الرسول قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين (وثالثها) القرآن واتبعوا النور الذى انزل معه (ورابعها) الايمان يريدون ان يطفؤا نور الله بأفواههم (وخامسها) عدل الله وأشرقت الارض بنور ربها (وسادسها) ضياء القمر وجعل القمر فيهن نورا (وسابعها) النهار وجعل الظلمات والنور (وثامنها) البينات انا انزلنا التوراة فيها هدى ونور (وتاسعها) الانبياء نور على نور (وعاشرها)

فكما يتعلق الحل به يتعلق بذلك الشئ أيضا باعتبار ازالته عنه أو ابتداء حصوله منه (واجعل لى وزيرا من أهلى هرون اخى) أى موازرا يعاونى فى تحمل أعباء ما كلفته على أن اشتقاقه من الوزر الذى هو الثقل أو ملجأ أعتصم برأيه على انه من الوزر وهو الملجا وقيل أصله أزير من الازر بمعنى القوة فعيل بمعنى مفاعل كالعشير والجليس

المعرفة مثل نوره كمشكاة فيها مصباح اذا ثبت هذا فنقول كأن موسى عليه السلام قال رب اشرح لى صدرى بمعرفة أنوار جلالك وكبريائك (وثانيها) رب اشرح لى صدرى بالتخلق بأخلاق رسلك وانبيائك (وثالثها) رب اشرح لى صدرى باتباع وحيك وامتثال أمرك ونهيك (ورابعها) رب اشرح لى صدرى بنور الايمان والايقان بالهيتك (وخامسها) رب اشرح لى صدرى بالاطلاع على اسرار عدلك فى قضائك وحكمك (وسادسها) رب اشرح لى صدرى بالانتقال من نور شمسك وقمرك الى انوار جلال عزتك كما فعله ابراهيم عليه السلام حيث انتقل من الكوكب والقمر والشمس الى حضرة العزة (وسابعها) رب اشرح لى صدرى من مطالعة نهارك وليلك الى مطالعة نهار فضلك وليل عدلك (وثامنها) رب اشرح لى صدرى بالاطلاع على مجامع آياتك ومعاقد بيناتك فى أرضك وسمواتك (وتاسعها) رب اشرح لى صدرى فى ان أكون خلف صور الانبياء المتقدمين ومتشبها بهم فى الانقياد لحكم رب العالمين (وعاشرها) رب اشرح لى صدرى بان تجعل سراج الايمان فى قلبى كالمشكاة التى فيها المصباح واعلم ان شرح الصدر عبارة عن ايقاد النور فى القلب حتى يبصر القلب كالسراج وذلك النور كالنار ومعلوم ان من أراد ان يستوقد سراجا احتاج الى سبعة اشياء زند وحجر وحراق وكبريت ومسرجة وفتيلة ودهن فالعبد اذا طلب النور الذى هو شرح الصدر افتقر الى هذه السبعة (فاولها) لابد من زند المجاهدة والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا (وثانيها) حجر التضرع ادعوا ربكم تضرعا وخفية (وثالثها) حراق منع الهوى ونهى النفس عن الهوى (ورابعها) كبريت الانابة وانيبوا الى ربكم ملطخا رؤس تلك الخشبات بكبريت توبوا الى الله (وخامسها) مسرجة الصبر واستعينوا بالصبر والصلاة (وسادسها) فتيلة الشكر لئن شكرتم لازيدنكم (وسابعها) دهن الرضا واصبر لحكم ربك أى ارض بقضاء ربك فاذا صلحت هذه الادوات فلا تعول عليها بل ينبغى ان لا تطلب المقصود الا من حضرته ما يفتح الله للناس من رحمة فلا تمسك لها ثم اطلبها بالخشوع والخضوع وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا فعند ذلك ترفع يد التضرع وتقول رب اشرح لى صدرى فهنالك تسمع قد أوتيت سؤلك يا موسى ثم نقول هذا النور الروحانى المسمى بشرح الصدر أفضل من الشمس الجسمانية لوجوه (أحدها) الشمس تحجبها غمامة وشمس المعرفة لا يحجبها السموات السبع اليه يصعد الكلم الطيب (وثانيها) الشمس تغيب ليلا وتعود نهارا قال ابراهيم عليه السلام لا احب الآفلين اما شمس المعرفة فلا تغيب ليلا ان ناشئة الليل هى أشد وطأ والمستغفرين بالاسحار بل أكمل الخلع الروحانية تحصل فى الليل سبحان الذى اسرى بعبده ليلا (وثالثها) الشمس تفنى اذا الشمس كورت وشمس المعرفة لا تفنى سلام قولا من رب رحيم (ورابعها) الشمس اذا قابلها القمر انكسفت أما ههنا فشمس المعرفة وهى معرفة أشهد ان لا اله الا الله ما لم يقابلها اقرار أشهد ان محمدا رسول الله لم يصل نوره الى

قلبت همزته واوا كقلبها فى موازر ونصبه على انه مفعول ثان لاجعل قدم على الاول الذى هو قوله تعالى هرون اعتناء بشأن الوزارة ولى صلة لجعل أو متعلق بمحذوف هو حال من وزيرا اذ هو صفة له فى الاصل ومن أهلى اما صفة لوزيرا أو صلة لاجعل وقيل مفعوله لى وزيرا وهرون عطف بيان للوزير ومن أهلى كما مر من الوجهين

عالم الجوارح (وخامسها) الشمس تسود الوجوه والمعرفة تبيضها يوم تبيض وجوه وتسود وجوه (وسادسها) الشمس تحرق والمعرفة تنجي من الحرق جزيا مؤمن فان نورك قد اطفأ لهبي (وسابعها) الشمس تصدع والمعرفة تصعد اليه يصعد الكلم الطيب (وثامنها) الشمس منفعتها في الدنيا والمعرفة منفعتها في العقبى والباقيات الصالحات خير (وتاسعها) الشمس في السماء زينة لاهل الارض والمعرفة في الارض زينة لاهل السماء (وعاشرها) الشمس فوقانية الصورة تحتانية المعنى وذلك يدل على الحسد مع التكبر والمعارف الالهية تحتانية الصورة فوقانية المعنى وذلك يدل على التواضع مع الشرف (وحادي عشرها) الشمس تعرف أحوال الخلق وبالمعرفة يصل القلب الى الخالق (وثاني عشرها) الشمس تقع على الولي والعدو والمعرفة لا تحصل الا للولي فلما كانت المعرفة موصوفة بهذه الصفات النفيسة لاجرم قال موسى رب اشرح لي صدري وأما النكت (فاحداها) الشمس سراج استوقدها الله تعالى للفناء كل من عليها فان والمعرفة استوقدها للبقاء فالذي خلقها للفناء اوقرب الشيطان منها الاحترق شهابا رصدا والمعرفة التي خلقها للبقاء كيف يقرب منها الشيطان رب اشرح لي صدري (وثانيتها) استوقد الله الشمس في السماء وانها تزيل الظلمة عن بيتك مع بعدها عن بيتك واوقد شمس المعرفة في قلبك أفلا تزيل ظلمة المعصية والكفر عن قلبك مع قربها منك (وثالثتها) من استوقد سراجا فانه لا يزال يتعهده ويمده والله تعالى هو الموقد لسراج المعرفة ولكن الله حبب اليكم الايمان فلا يمده وهو معنى قوله رب اشرح لي صدري (ورابعتها) اللص اذا رأى السراج يوقد في البيت لا يقرب منه والله قد أوقد سراج المعرفة في قلبك فكيف يقرب الشيطان منه فلهذا قال رب اشرح لي صدري (وخامستها) المجوس أوقدوا نارا فلا يريدون اطفاءها والملك القدوس أوقد سراج الايمان في قلبك فكيف يرضى باطفائه واعلم انه سبحانه وتعالى أعطى قلب المؤمن تسع كرامات (أحدها) الحياة أو من كان ميتا فاحييناه فلما رغب موسى عليه السلام في الحياة الروحانية قال رب اشرح لي صدري ثم النكتة انه عليه السلام قال من أحيا أرضا ميتة فهي له فالعبد لما أحيا أرضا فهي له فالرب لما خلق القلب واحياه بنور الايمان فكيف يجوز أن يكون لغيره فيه نصيب قل الله ثم ذرهم وكما أن الايمان حياة القلب فالكفر موته أموات غير أحياء وما يشعرون (وثانيها) الشفاء ويشفي صدور قوم مؤمنين فلما رغب موسى في الشفاء رفع الايدي قال رب اشرح لي صدري والنكتة انه تعالى لما جعل الشفاء في العسل بقي شفاء أبدا فههنا لما وضع الشفاء في الصدر فكيف لا يبقى شفاء أبدا (وثالثها) الطهارة أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى فلما رغب موسى عليه السلام في تحصيل طهارة التقوى قال رب اشرح لي صدري والنكتة ان الصائغ اذا امتحن الذهب مرة فبعد ذلك لا يدخله في النار فههنا لما امتحن الله قلب المؤمن فكيف يدخله النار ثانيا ولكن الله يدخل في النار قلب الكافر ليميز الله الخبيث من الطيب

وأخي في الوجهين بدل من هرون أو عطف بيان آخر وقيل هما وزيرا من أهل ولي تبيين كما في قوله تعالى ولم يكن له كفوا أحد ورد بأن شرط المفعولين في باب النواسخ صحة انعقاد الجملة الاسمية ولا مساغ لجعل وزيرا مبتدأ ويخبر عنه بما بعده (اشد به أزري وأشركه في أمري) كلاهما على صيغة الدعاء

(ورابعها) الهداية ومن يؤمن بالله يهد قلبه فرغب موسى عليه السلام فى طلب زوائد الهداية فقال رب اشرح لى صدرى والنكتة أن الرسول يهدى نفسك والقرآن يهدى روحك والمولى يهدى قلبك فلما كانت الهداية من الكفر من محمد صلى الله عليه وسلم لاجرم تارة تحصل وأخرى لا تحصل انك لا تهدى من احببت ولكن الله يهدى من يشاء وهداية الروح لما كانت من القرآن فتارة تحصل وأخرى لا تحصل يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا أما هداية القلب فلما كانت من الله تعالى فانها لا تزول لان الهادى لا يزول ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم (وخامسها) الكتابة أولئك كتب فى قلوبهم الايمان فلما رغب موسى عليه السلام فى تلك الكتابة قال رب اشرح لى صدرى وفيه نكت (الاولى) ان الكاغدة ليس لها خطر عظيم واذا كتب فيها القرآن لم يجز احراقها فقلب المؤمن كتب فيه جميع أحكام ذات الله تعالى وصفاته فكيف يليق بالكريم احراقه (الثانية) بشر الحافى اكرم كاغدا فيه اسم الله تعالى فنال سعادة الدارين فاكرام قلب فيه معرفة الله تعالى أولى بذلك (والثالثة) كاغد ليس فيه خط اذا كتب فيه اسم الله الاعظم عظم قدره حتى انه لا يجوز للجنب والحائض ان يمسه بل قال الشافعى رحمه الله تعالى ليس له ان يمس جلد المصحف وقال الله تعالى لا يمسه الا المطهرون فالقلب الذى فيه اكرم المخلوقات ولقد كرمنا بنى آدم كيف يجوز للشيطان الخبيث ان يمسه والله اعلم (وسادسها) السكينة هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين فلما رغب موسى عليه السلام فى طلب السكينة قال رب اشرح لى صدرى والنكتة ان أبا بكر رضى الله عنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان خائفا فلما نزلت السكينة عليه قال لا تحزن فلما نزلت سكينة الايمان فرحوا أن يسمعوا خطاب ان لا تخافوا ولا تحزنوا وأيضا لما نزلت السكينة صار من الخلفاء وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض أى ان يصير واخلفاء الله فى ارضه (وسابعها) المحبة والزينة ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم والنكتة ان من ألقى حبة فى أرض فانه لا يفسدها ولا يحرقها فهو سبحانه وتعالى ألقى حبة المحبة فى أرض القلب فكيف يحرقها (وثامنها) وألف بين قلوبكم والنكتة ان محمدا صلى الله عليه وسلم ألف بين قلوب أصحابه ثم انه ما تركهم غيبة ولا حضورا سلام علينا وعلى عباد الله الصالحين فالرحيم كيف يتركهم (وتاسعها) الطمأنينة ألا بذكر الله تطمئن القلوب وموسى طلب الطمأنينة فقال رب اشرح لى صدرى والنكتة ان حاجة العبد لا نهاية لها فلهذا لو أعطى كل ما فى العالم من الاجسام فانه لا يكتفى لان حاجته غير متناهية والاجسام متناهية والمتناهى لا يصير مقابلا لغير المتناهى بل الذى يكفى فى الحاجة الغير المتناهية الكمال الذى لا نهاية له وما ذاك الا الحق سبحانه وتعالى فلهذا قال ألا بذكر الله تطمئن القلوب ولما عرفت حقيقة شرح الصدر للمؤمنين فاعرف صفات قلوب الكافرين لوجوه (أحدها) فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم (وثانيها) ثم انهم صرفوا صرف الله قلوبهم

أى أحكم به قوتى واجعله شريكى فى أمر الرسالة حتى نتعاون على أدائها كما ينبغى وفصل الاول عن الدعاء السابق لكمال الاتصال بينهما فان شد الازر عبارة عن جعله وزيرا وأما الاشراك فى الامر فحيث كان من أحكام الوزارة توسط بينهما العاطف

(وثالثها) فى قلوبهم مرض (ورابعها) جعلنا قلوبهم قاسية (وخامسها) انا جعلنا على قلوبهم اكنة أن يفقهوه (وسادسها) ختم الله على قلوبهم (وسابعها) أم على قلوب أقفالها (وثامنها) كلا بل ران على قلوبهم (وتاسعها) أولئك الذين طبع الله على قلوبهم الهنا وسيدنا بفضلك واحسانك اغلق هذه الابواب التسعة من خذلانك عنا واجبرنا باحسانك وافتح لنا تلك الابواب التسعة من احسانك بفضلك ورحمتك انك على ما تشاء قدير

(الفصل الخامس) فى حقيقة شرح الصدر ذكر العلماء فيه وجهين (الاول) أن لا يبقى القلب التفات الى الدنيا لا بالرغبة ولا بالرهبة أما الرغبة فهى أن يكون متعلق القلب بالاهل والولد وتحصيل مصالحهم ودفع المضار عنهم وأما الرهبة فهى أن يكون خائفا من الاعداء والمنازعين فاذا شرح الله صدره صغر كل ما يتعلق بالدنيا فى عين همته فيصير كالذباب والبق والبعوض لا تدعوه رغبة اليها ولا تمنعه رهبة عنها فيصير الكل عنده كالعدم وحينئذ يقبل القلب بالكلية نحو طلب مرضاة الله تعالى فان القلب فى المثال كينبوع من الماء والقوة البشرية لضعفها كالينبوع الصغير فاذا فرقت ماء العين الواحدة على الجداول الكثيرة ضعفت الكل فاما اذا انصب الكل فى موضع واحد قوى فسأل موسى عليه السلام ربه أن يشرح له صدره بأن يوقفه على معايب الدنيا وقبح صفاتها حتى يصير قلبه نفورا عنها فاذا حصلت النفرة توجه الى عالم القدس ومنازل الروحانيات بالكلية (الثانى) ان موسى عليه السلام لما نصب لذلك المنصب العظيم احتاج الى تكاليف شاقة منها ضبط الوحى والمواظبة على خدمة الخالق سبحانه وتعالى ومنها اصلاح العالم الجسدانى فكأنه صار مكلفا بتدبير العالمين والالتفات الى أحدهما يمنع من الاشتغال بالآخر ألا ترى ان المشتغل بالابصار يصير ممنوعا عن السماع والمشتغل بالسماع يصير ممنوعا عن الابصار والخيال فهذه القوى متجاذبة متنازعة وان موسى عليه السلام كان محتاجا الى الكل ومن استأنس بجمال الحق استوحش من جمال الخلق فسأل موسى ربه أن يشرح صدره بأن يفيض عليه كالا من القوة لتكون قوته وافية بضبط العالمين فهذا هو المراد من شرح الصدر وذكر العلماء لهذا المعنى أمثلة (المثال الاول) اعلم ان البدن بالكلية كالمملكة والصدر كالقلعة والفؤاد كالقصر والقلب كالتخت والروح كالملك والعقل كالوزير والشهوة كالعامل الكبير الذى يجلب النعم الى البلدة والغضب كالاسفهسالار الذى يشتغل بالضرب والتأديب أبدا والحواس كالجواسيس وسائر القوى كالخدم والعملة والصناع ثم ان الشيطان خصم لهذه البلدة ولهذه القلعة ولهذا الملك فالشيطان هو الملك والهوى والحرص وسائر الاخلاق الذميمة جنوده فأول ما أخرج الروح وزيره وهو العقل فكذا الشيطان أخرج فى مقابلته الهوى فجعل العقل يدعو الى الله تعالى والهوى يدعو الى الشيطان ثم ان الروح أخرج الفطنة اعانة للعقل فأخرج الشيطان فى مقابلة الفطنة الشهوة فالفطنة توفقك على

أى أحكم به قوتى واجعله شريكى فى أمر الرسالة حتى نتعاون على أدائها كما ينبغى وفصل الاول عن الدعاء السابق لكمال الاتصال بينهما فان شد الازر عبارة عن جعله وزيرا وأما الاشراك فى الامر فحيث كان من أحكام الوزارة توسط بينهما العاطف (كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا) غاية للادعية الثلاثة الاخيرة فان فعل كل واحد منهما من التسبيح والذكر مع كونه مكثرا لفعل الآخر ومضاعفا له بسبب انضمامه اليه مكثر له فى نفسه أيضا

معائب الدنيا والشهوة تحرك الى لذات الدنيا ثم ان الروح أمد الفطنة بالفكرة لتقوى الفطنة بالفكرة فتقف على الحاضر والغائب من المعايب على ماقال عليه السلام تفكر ساعة خير من عبادة سنة فاخرج الشيطان فى مقابلة الفكرة الغفلة ثم أخرج الروح الحلم والثبات فان العجلة ترى الحسن قبيحا والقبيح حسنا والحلم يوقف العقل على قبح الدنيا فاخرج الشيطان فى مقابلته العجلة والسرعة فلهذا قال عليه السلام ما دخل الرفق فى شئ الا زانه ولا الخرق فى شئ الا شانه ولهذا خلق السموات والارض فى ستة ايام ليتعلم منه الرفق والثبات فهذه هى الحصومة الواقعة بين الصنفين وقلبك وصدرك هو القلعة ثم ان لهذا الصدر الذى هو القلعة خندقا وهو الزهد فى الدنيا وعدم الرغبة فيها وله سور وهو الرغبة فى الآخرة ومحبة الله تعالى فان كان الخندق عظيما والسور قويا عجز عسكر الشيطان عن تخريبه فرجعوا وراءهم وتركوا القلعة كما كانت وان كان خندق الزهد غير عميق وسور حب الآخرة غير قوى قدر الخصم على استفتاح قلعة الصدر فيدخلها ويبيت فيها جنوده من الهوى والعجب والكبر والبخل وسوء الظن بالله تعالى والنعمة والغيبة فينحصر الملك فى القصر ويضيق الامر عليه فاذا جاء مدد التوفيق وأخرج هذا العسكر من القلعة انفسح الامر وانشرح الصدر وخرجت ظلمات الشيطان ودخلت أنوار هداية رب العالمين وذلك هو المراد بقوله رب اشرح لى صدرى (المثال الثانى) اعلم ان معدن النور هو القلب واشتغال الانسان بالزوجة والولد والرغبة فى مصاحبة الناس والخوف من الاعداء هو الحجاب المانع من وصول نور شمس القلب الى فضاء الصدر فاذا قوى الله بصيرة العبد حتى طالع عجز الخلق وقلة فائدتهم فى الدارين صغروا فى عينه ولا شك فى أنهم من حيث هم عدم محض على ماقال تعالى كل شئ هالك الا وجهه فلا يزال العبد يتامل فيما سوى الله تعالى الى أن يشاهد انهم عدم محض فعند ذلك يزول الحجاب بين قلبه وبين أنوار جلال الله تعالى واذا زال الحجاب امتلأ القلب من النور فذلك هو انشراح الصدر (الفصل السادس) فى الصدر اعلم أنه يجىء والمراد منه القلب أفمن شرح الله صدره للاسلام رب اشرح لى صدرى وحصل ما فى الصدور يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور وقد يجىء والمراد الفضاء الذى فيه الصدر فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور واختلف الناس فى ان محل العقل هل هو القلب أو الدماغ وجمهور المتكلمين على انه القلب وقد شرحنا هذه المسئلة فى سورة الشعراء فى تفسير قوله نزل به الروح الامين على قلبك وقال بعضهم المواد أربعة الصدر والقلب والفؤاد واللب فالصدر مقر الاسلام أفمن شرح الله صدره للاسلام والقلب مقر الايمان ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم والفؤاد مقر المعرفة ما كذب الفؤاد ما رأى ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا واللب مقر التوحيد انما يتذكر أولوا الالباب واعلم أن القلب اول ما يبعث الى هذا العالم يبعث خاليا عن النقوش كاللوح

بسبب تقوية وتاييده اذ ليس المراد بالتسبيح والذكر ما يكون منهما بالقلب أو فى الخلوات حتى لا يتفاوت حاله عند التعدد والانفراد بل ما يكون منهما فى تضاعيف أداء الرسالة او دعوة

الساذج وهو فى عالم البدن كاللوح المحفوظ ثم انه تعالى يكتب فيه بقلم الرحمة والعظمة كل ما يتعلق بعالم العقل من نقوش الموجودات وصور الماهيات وذلك يكون كالسطر الواحد الى آخر قيام القيامة لهذا العالم الاصغر وذلك هو الصورة المجردة والحالة المطهرة ثم ان العقل يركب سفينة التوفيق و يلقيها فى بحار أمواج المعقولات وعوالم الروحانيات فيحصل من مهاب رياح العظمة والكبرياء رخاء السعادة تارة ودبور الادبار أخرى فربما وصلت سفينة النظر الى جانب مشرق الجلال فتسطع عليه أنوار الالهية و يتخلص العقل عن ظلمات الضلالات و ربما توغلت السفينة فى جنوب الجهالات فتنكسر وتغرق فحيثما تكون السفينة فى ملتطم أمواج العزة يحتاج حافظ السفينة الى التماس الانوار والهدايات فيقول هناك رب اشرح لى صدرى واعلم ان العقل اذا أخذ فى الترقى من سفل الامكان الى علو الوجوب كثر اشتغاله بمطالعة الماهيات ومقارفة المجردات والمفارقات ومعلوم ان كل ماهيه فهى اما هى معه أو هى له فان كانت هى معه امتلأت البصيرة من أنوار جلال العزة الالهية فلا يبقى هناك مستطلع المطالعة سائر الانوار فيضمحل كل ما سواه من بصر و بصيرة وان وقعت المطالعة لما هو له حصلت هناك حالة عجيبة وهى انه لو وضعت كرة صافية من البلور فوقع عليها شعاع الشمس فينعكس ذلك الشعاع الى موضع معين فذلك الموضع الذى اليه تنعكس الشعاعات يحترق بجميع الماهيات الممكنة كالبلور الصافى الموضوع فى مقابلة شمس القدس ونور العظمة ومشرق الجلال فاذا وقع للقلب التفات اليها حاصلت للقلب نسبة اليها بأسرها فينعكس شعاع كبرياء الالهية عن كل واحد منها الى القلب فيحترق القلب ومعلوم أنه كلما كان المحرق أكثر كان الاحتراق أتم فقال رب اشرح لى صدرى حتى أقوى على ادراك درجات الممكنات فاصل الى مقام الاحتراق بأنوار الجلال وهذا هو المراد بقوله عليه السلام أرنا الاشياء كما هى فلما شاهد احتراقها بأنوار الجلال قال لا أحصى ثناء عليك

(الفصل السابع) فى بقية الابحاث انما قال رب اشرح لى صدرى ولم يقل رب اشرح صدرى ليظهر ان منفعة ذلك الشرح عائدة الى موسى عليه السلام لا الى الله وأما كيفية شرح صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمفاضلة بينه و بين شرح صدر موسى عليه السلام فنذكره ان شاء الله فى تفسير قوله ألم نشرح لك صدرك والله أعلم بالصواب (المطلوب الثانى) قوله و يسر لى امرى والمراد منه عند أهل السنة خلقها وعند المعتزلة تحريك الدواعى والبواعث بفعل الالطاف المسهلة فان قيل كل ما أمكن من اللطف فقد فعله الله تعالى فأى فائدة فى هذا السؤال قلنا يحتمل أن يكون هناك من الالطاف ما لا يحسن فعلها الا بعد هذا السؤال ففائدة السؤال حسن فعل تلك الالطاف (المطلوب الثالث) قوله واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم ان النطق فضيلة عظيمة و يدل عليه وجوه (أحدها) قوله تعالى خلق الانسان علمه البيان ولم يقل وعلمه البيان لانه

المردة العصاة الى الحق وذلك مما لا ريب فى اختلاف حاله فى حالتى العدد والانفراد فان كلا منهما يصدر عنه بتأييد الآخر من اظهار الحق ما لا يكاد يصدر عنه مثله فى حال الانفراد وكثيرا فى الموضعين

او عطفه عليه لكان مغايرا له أما اذا ترك الحرف العاطف صار قوله علمه البيان كالتفسير لقوله خلق الانسان كانه انما يكون خالقا للانسان اذا علمه البيان وذلك يرجع الى الكلام المشهور من ان ماهية الانسان هي الحيوان الناطق (وثانيها) اتفاق العقلاء على تعظيم أمر اللسان قال زهير

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ✻ فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وقال علي ما الانسان لولا اللسان الا بهيمة مهملة أو صورة ممثلة والمعنى انا لو أزلنا الادراك الذهني والنطق اللساني لم يبق من الانسان الا القدر الحاصل في البهائم وقالوا المرء أصغريه قلبه ولسانه وقال صلى الله عليه وسلم المرء مخبوء تحت لسانه (وثالثها) ان في مناظرة آدم مع الملائكة ما ظهرت الفضيلة الا بالنطق حيث قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم اني أعلم غيب السموات والارض (ورابعها) ان الانسان جوهر مركب من الروح والقالب وروحه من عالم الملائكة فهو يستفيد ابدا صور المغيبات من عالم الملائكة ثم بعد تلك الاستفادة يفيضها على عالم الاجسام وواسطته في تلك الاستفادة هي الفكر الذهني وواسطته في هذه الافادة هي النطق اللساني فكما ان تلك الواسطة أعظم العبادات حتى قيل تفكر ساعة خير من عبادة سنة فكذلك الواسطة في الافادة يجب أن تكون أشرف الاعضاء فقوله رب اشرح لي صدري اشارة الى طلب النور الواقع في الروح وقوله ويسر لي أمري اشارة الى تحصيل ذلك وتسهيل ذلك التحصيل وعند ذلك يحصل الكمال في تلك الاستفادة الروحانية فلا يبقى بعد هذا الا المقام البياني وهو افاضة ذلك الكمال على الغير وذلك لا يكون الا باللسان فلهذا قال واحلل عقدة من لساني (وخامسها) وهو ان العلم أفضل المخلوقات على ما ثبت والجود والاعطاء أفضل الطاعات وليس في الاعطاء أفضل من اليد فاليد لما كانت آلة في العطية الجسمانية قيل اليد العليا خير من اليد السفلى فالعلم الذي هو خير من المال لما كانت آلة اعطائه اللسان وجب أن يكون أشرف الاعضاء ولا شك ان اللسان هو الآلة في اعطاء المعارف فوجب أن يكون أشرف الاعضاء ومن الناس من مدح الصمت لوجوه (احدها) قوله عليه السلام الصمت حكمة وقليل فاعله ويروى ان الانسان تفكر أعضاؤه اللسان ويقلن اتق الله فينا فانك ان استقمت استقمنا وان اعوججت اعوججنا (وثانيها) ان الكلام على أربعة أقسام منه ما ضرره خالص أو راجح ومنه ما يستوي الضرر والنفع فيه ومنه ما نفعه راجح ومنه ما هو خالص النفع أما الذي ضرره خالص أو راجح فواجب الترك والذي يستوي الامران فيه فهو عيب فبقي القسمان الاخيران وتخليصهما عن زيادة الضرر عسر فالاولى ترك الكلام (وثالثها) ان ما من موجود أو معدوم خالق أو مخلوق معلوم أو موهوم الا واللسان يتناوله ويتعرض له باثبات أو نفي فان كل ما يتناوله الضمير يعبر عنه اللسان بحق أو باطل وهذه خاصية لا توجد في سائر الاعضاء فان العين لا تصل الى غير

نعت لمصدر محذوف أو زمان محذوف أي نزهك عما لا يليق بك من الصفات والافعال التي من جملتها ما يدعيه فرعون الطاغية ويقبله منه فئته الباغية من ادعاء الشركة في الالوهية ونصفك بما

لوان والصور والاذان لاتصل الا الى الاصوات والحروف واليد لاتصل الى غير الاجسام وكذا سائر الاعضاء بخلاف اللسان فانه رحب الميدان ليس له نهاية ولاحد فله في الخير مجال رحب وله في الشر سحب وانه خفيف المؤنة سهل التحصيل بخلاف سائر المعاصي فانه يحتاج فيها الى مؤن كثيرة لاتتيسر تحصيلها في الاكثر فلذلك كان الاولى تركه الكلام (ورابعها) قالوا ترك الكلام له أربعة أسماء الصمت والسكوت والانصات والاصاغة فأما الصمت فهو أعمها لانه يستعمل فيما يقوى على النطق وفيما لايقوى عليه ولهذا يقال مال ناطق وصامت وأما السكوت فهو ترك الكلام ممن يقدر على الكلام والانصات سكوت مع استماع ومتى انفك أحدهما عن الآخر لايقال له انصات قال تعالى فاستمعوا له وأنصتوا والاصاغة استماع الى مايصعب ادراكه كالسر والصوت من المكان البعيد واعلم ان الصمت عدم ولافضيلة فيه بل النطق في نفسه فضيلة والرذيلة في محاورته ولولا ماسال كليم الله ذلك في قوله تعالى واحلل عقدة من لساني (المسئلة الثانية) اختلفوا في تلك العقدة التي كانت في لسان موسى عليه السلام على قولين (الاول) كان ذلك التعقد خلقة الله تعالى فسأل الله تعالى ازالته (الثاني) السبب فيه انه عليه السلام لما صباه أخذ لحية فرعون ونتفها فهم فرعون بقتله وقال هذا هو الذي يزول ملكي على يده فقالت آسية انه صبي لايعقل وعلامته ان تقرب منه التمرة والجمرة فقربا اليه فأخذ الجمرة فجعلها في فيه وهؤلاء اختلفوا فمنهم من قال لم تحترق اليد ولا اللسان لان اليد آلة أخذ العصا وهي الحجة واللسان آلة الذكر فكيف يحترق ولان ابراهيم عليه السلام لم يحترق بنار نمرذ وموسى عليه السلام لم يحترق حين ألقي في التنور. فكيف يحترق هناك ومنهم من قال احترق اليد دون اللسان لئلا يحصل حق المواكلة والمماكلة (الثالث) احترق اللسان دون اليد لان الصولة ظهرت باليد أما اللسان فقد خاطبه بقوله يا أبت (والرابع) احترقا معا لئلا تحصل المواكلة والمخاطبة (المسئلة الثالثة) اختلفوا في انه عليه السلام لم طلب حل تلك العقدة على وجوه (أحدها) لئلا يقع في أداء الرسالة خلل البتة (وثانيها) لازالة التنفير لان العقدة في اللسان قد تفضي الى الاستخفاف بقائلها وعدم الالتفات اليه (وثالثها) اظهارا للمعجزة فكما ان حبس لسان زكريا عليه السلام عن الكلام كان معجزا في حقه فكذا اطلاق لسان موسى عليه السلام معجز في حقه (ورابعها) طلب السهولة لان اراد مثل هذا الكلام على مثل فرعون في جبروته وكبره عسر جدا فاذا انضم اليه تعقد اللسان بلغ العسر الى النهاية فسأل ربه ازالة تلك العقدة تخفيفا وتسهيلا (المسئلة الرابعة) قال الحسن رحمه الله ان تلك العقدة زالت بالكلية بدليل قوله تعالى قد أوتيت سؤلك يا موسى وهو ضعيف لانه عليه السلام لم يقل واحلل العقدة من لساني بل قال واحلل عقدة من لساني فاذا حل عقدة واحدة فقد آتاه الله سؤله والحق انه انحل أكثر العقد وبقي منها شيء قليل لقوله حكاية عن فرعون أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولايكاد يبين أي يقارب

يليق بك من صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال تنزيها كثيرا أوزمانا كثيرا من جملته زمان دعوة فرعون وأوان المحاجة معه وأما ماقيل من أن المعنى كي نصلي لك كثيرا ونحمدك ونثني عليك فلا يساعده المقام (انك كنت بنا

أن لا يبين وفى ذلك دلالة على انه كان يبين مع بقاء قدر من الانعقاد فى لسانه وأجيب عنه من وجهين (أحدهما) المراد بقوله ولا يكاد يبين أى لا يأتى ببيان ولا حجة (والثانى) ان كاد بمعنى قرب ولو كان المراد هو البيان اللسانى لكان معناه أنه لا يقارب البيان فكان فيه نفى البيان بالكلية وذلك باطل لانه خاطب فرعون والجمع وكانوا يفقهون كلامه فكيف يمكن نفى البيان أصلا بل انما قال ذلك تمويها ليصرف الوجوه عنه قال أهل الاشارة انما قال واحلل عقدة من لسانى لان حل العقد كلها نصيب محمد صلى الله عليه وسلم وقال تعالى ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن فلما كان ذلك حقا ليتيم أبى طالب لاجرم ما دار حوله والله أعلم (المطلوب الرابع) قوله واجعل لى وزيرا من أهلى واعلم ان طلب الوزير اما أن يكون لانه خاف على نفسه العجز عن القيام بذلك الامر فطلب المعين أو لانه رأى أن للتعاون على الدين والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة مزية عظيمة فى امر الدعاء الى الله ولذلك قال عيسى بن مريم من أنصارى الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين وقال عليه السلام ان لى فى السماء وزيرين وفى الارض وزيرين فالذان فى السماء جبريل وميكائيل والذان فى الارض أبو بكر وعمر وههنا مسائل (المسئلة الاولى) الوزير من الوزر لانه يتحمل عن الملك أوزاره ومؤنه أو من الوزر وهو الجبل الذى يتحصن به لان الملك يعتصم برأيه فى رعيته ويفوض اليه أموره أو من المؤازرة وهى المعاونة والموازرة مأخوذة من ازار الرجل وهو الموضع الذى يشده الرجل اذا استعد لعمل أمر صعب قاله الاصمعى وكان القياس أزيرا فقلبت الهمزة الى الواو (المسئلة الثانية) قال عليه السلام اذا أراد الله بملك خيرا قيض له وزيرا صالحا ان نسى ذكره وان ذكر أعانه وان أراد شرا كفه وكان أنوشروان يقول لا يستغنى أجود السيوف عن الصقل ولا أكرم الدواب عن السوط ولا أعلم الملوك عن الوزير (المسئلة الثالثة) ان قيل الاستعانة بالوزير انما يحتاج اليها الملوك أما الرسول المكلف بتبليغ الرسالة والوحى من الله تعالى الى قوم على التعيين فمن أين ينفعه الوزير وأيضا فانه عليه السلام سأل ربه أن يجعله شريكا له فى النبوة فقال وأشركه فى أمرى فكيف يكون وزيرا والجواب عن الاول ان التعاون على الامر والتظاهر عليه مع مخالصة الود وزوال التهمة له مزية عظيمة فى تأثير الدعاء الى الله تعالى فكان موسى عليه السلام واثقا بأخيه هرون فسأل ربه أن يشد به أزره حتى يتحمل عنه ما يمكن من الثقل فى الابلاغ (المطلوب الخامس) أن يكون ذلك الوزير من أهله أى من أقاربه (المطلوب السادس) أن يكون الوزير الذى من أهله هو أخوه هرون وانما سأل ذلك لوجهين (احدهما) ان التعاون على الدين منقبة عظيمة فأراد أن لا تحصل هذه الدرجة الا لاهله أولان كل واحد منهما كان فى غاية المحبة لصاحبه والموافقة له وقوله هرون فى انتصابه وجهان (أحدهما) انه مفعول الجعل على تقدير اجعل هرون أخى

بصيرا) أى عالما باحوالنا وبأن ما دعوتك به مما يصلحنا ويفيدنا فى تحقيق ما كلفته من اقامة مراسم الرسالة وبأن هرون نعم الرديء فى اداء ما أمرت به والباء متعلقة ببصيرا قدمت عليه لمراعاة الفواصل

ال قد أوتيت سؤلك) أى أعطيت سؤلك فعل بمعنى مفعول كالخبز والاكل بمعنى المخبوز والمأكول

وزيرا لى (والثانى) على البدل من وزيرا وأخى نعت لهرون أو بدل واعلم ان هرون عليه السلام كان مخصوصا بأمور منها الفصاحة لقوله تعالى عن موسى وأخى هرون هو أفصح منى لسانا ومنها انه كان فيه رفق قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ومنها انه كان أكبر سنا منه (المطلوب السابع) قوله اشدد به أزرى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) القراءة العامة اشدد به وأشركه على الدعاء وقرأ ابن عامر وحده اشدد وأشركه على الجزاء والجواب حكاية عن موسى عليه السلام أى أنا أفعل ذلك ويجوز لمن قرأ على لفظ الامر ان يجعل أخى مرفوعا على الابتداء واشدد به خبره ويوقف على هرون (المسئلة الثانية) الازر القوة وآزره قواه قال تعالى فازره أى أعانه قال أبو عبيدة أزرى أى ظهرى وفى كتاب الخليل الازر الظهر (المسئلة الثالثة) انه عليه السلام لما طلب من الله تعالى أن يجعل هرون وزيرا له طلب منه أن يشد به أزره ويجعله ناصرا له لانه لا اعتماد على القرابة (المطلوب الثامن) قوله وأشركه فى أمرى والامر ههنا النبوة وانما قال ذلك لانه عليه السلام علم انه يشد به عضده وهو أكبر منه سنا وأفصح منه لسانا ثم انه سبحانه وتعالى حكى عنه ما لاجله دعا بهذا الدعاء فقال كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا والتسبيح يحتمل أن يكون باللسان وان يكون بالاعتقاد وعلى كلا التقديرين فالتسبيح تنزيه الله تعالى فى ذاته وصفاته وأفعاله عما لا يليق به وأما الذكر فهو عبارة عن وصف الله تعالى بصفات الجلال والكبرياء ولا شك ان النفى مقدم على الاثبات أما قوله تعالى انك كنت بنا بصيرا ففيه وجوه (أحدها) انك عالم بأنا لا نريد بهذه الطاعات الا وجهك ورضاك ولا نريد بها أحدا سواك (وثانيها) كنت بنا بصيرا الان هذه الاستعانة بهذه الاشياء لاجل حاجتى فى النبوة اليها (وثالثها) انك بصير بوجوه مصالحنا فأعطنا ما هو أصلح لنا وانما قيد الدعاء بهذا اجلالا له عن أن يتحكم عليه وتفويضا للامر بالكلية اليه * قوله تعالى (قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ولقد منا عليك مرة أخرى اذ أوحينا الى أمك ما يوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى اذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك الى أمك كى تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى واصطنعتك لنفسى اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى اذهبا الى فرعون انه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) اعلم ان السؤال هو الطلب فعل بمعنى مفعول كقولك خبز بمعنى مخبوز واكل بمعنى مأكول واعلم ان موسى عليه السلام لما سأل ربه تلك الامور الثمانية وكان من المعلوم ان قيامه بما كلف به تكليف لا يتكامل الا باجابته اليها لا جرم أجابه الله تعالى اليها ليكون أقدر على الابلاغ على الحد الذى كلف فقال قد أوتيت سؤلك يا موسى وعد ذلك من النعم العظام عليه لما فيه من وجوه المصالح ثم قال وانا قد منا عليك مرة أخرى فنبه بذلك على أمور (أحدها) كأنه تعالى قال انى راعيت

والايتاء عبارة عن تعلق ارادته تعالى بوقوع تلك المطالب وحصولها له عليه السلام البتة وتقديره اياها حتما فكلها حاصلة له عليه السلام وان كان وقوع بعضها بالفعل مترقبا بعد كتيسير الامر وشد الازر وباعتباره قيل سنشد عضدك بأخيك وقوله تعالى (يا موسى) تشريف له عليه السلام بشرف الخطاب اثر تشريفه بشرف قبول الدعاء وقوله تعالى (ولقد منا عليك) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله وزيادة توطين نفس موسى عليه السلام بالقبول ببيان انه تعالى حيث أنعم عليه بتلك النعم التامة من غير سابقة دعاء منه وطلب فلأن ينعم عليه بمثلها وهو طالب له وداع أولى وأحرى وتصدير بالقسم لكمال الاعتناء بذلك أى وبالله لقد أنعمنا (مرة أخرى) أى فى وقت غير هذا الوقت لا أن ذلك مؤخر عن هذا فان أخرى تأنيث آخر

بمعنى غير والمرة فى الاصل اسم للمرور الواحد ثم أطلق على كل فعله واحدة من الفعلات متعدية كانت أو لازمة ثم شاع فى كل فرد واحد من افراد ما له أفراد متجددة متعددة فصار علما فى ذلك حتى جعل معيارا

لما فى معناه من سائر الاشياء فقيل هذا بناء المرة ويقرب منها ﴿ الكرة والتارة والدفعة والمراد بها هنا الوقت ا

الذى وقع فيه ماسيأتى ذكره من المنن العظيمة الكثيرة وقوله تعالى (اذ أوحينا الى أمك مايوحى) ظرف لمننا والمراد بالايحاء اما الايحاء على لسان نبى فى وقتها كقوله تعالى واذ أوحيت الى الحواريين الآية واما الايحاء بواسطة الملك لاعلى وجه النبوة كما أوحى الى مريم واما الالهام كما فى قوله تعالى وأوحى ربك الى النحل وأما الاراءة فى المنام والمراد بمايوحى ماسيأتى من الامر بقذفه فى التابوت وقذفه فى البحر أيهما ولا تهويلا له وتفخيما لشانه ثم فسر ليكون أقر عند النفس وقيل معناه ماينبغى أن يوحى ولا يخل به لعظم شأنه وفرط الاهتمام به وقيل مالا يعلم الا بالوحى وفيه انه لا يلائم المعنيين الاخيرين للوحى اذ لا تفخيم لشأنه فى أن يكون مما لا يعلم الا بالالهام أو بالاراءة فى المنام وأن فى قوله تعالى (أن اقذفيه فى التابوت) مفسرة لان الوحى من باب القول أو مصدرية حذف منها

مصلحتك قبل سؤالك فكيف لا أعطيك مرادك بعد السؤال (وثانيها) انى كنت قدرت لك فلو منعتك الآن مطلوبك لكان ذلك ردا بعد القبول واساءة بعد الاحسان فكيف يليق بكرمى (وثالثها) انا لما أعطيناك فى الازمنة السالفة كل ما احتجت اليه ورقيناك من حالة نازلة الى درجة عالية دل هذا على أنا نصبناك لمنصب عال ومهم عظيم فكيف يليق بمثل هذه الرتبة المنع من المطلوب وههنا سؤالان (السؤال الاول) لم ذكر تلك النعم بلفظ المنة مع ان هذه اللفظة لفظة مؤذية والمقام مقام التلطف (والجواب) انما ذكر ذلك ليعرف موسى عليه السلام أن هذه النعم التى وصلت اليه ما كان مستحقا لشئ منها بل انما خصه الله تعالى بها بمحض التفضل والاحسان (السؤال الثانى) لم قال مرة أخرى مع أنه تعالى ذكر منا كثيرة والجواب لم يعن بمرة أخرى مرة واحدة من المنن لان ذلك قد يقال فى القليل والكثير واعلم ان المنن المذكورة ههنا ثمانية (المنة الاولى) قوله اذ أوحينا الى أمك مايوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له أما قوله اذ أوحينا فقد اتفق الاكثرون على ان أم موسى عليه السلام ما كانت من الانبياء والرسل فلا يجوز أن يكون المراد من هذا الوحى هو الوحى الواصل الى الانبياء وكيف لا نقول ذلك والمرأة لا تصلح للقضاء والامامة بل عند الشافعى رحمه الله لا تمكن من تزويج نفسها فكيف تصلح للنبوة ويدل عليه قوله تعالى وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم وهذا صريح فى الباب وأيضا الوحى قد جاء فى القرآن لا بمعنى النبوة قال تعالى وأوحى ربك الى النحل وقال واذ أوحيت الى الحواريين ثم اختلفوا فى المراد بهذا الوحى على وجوه (أحدها) المراد رؤيا رأتها أم موسى عليه السلام وكان نأويلها وضع موسى عليه السلام فى التابوت وقذفه فى البحر وأن الله تعالى يرده اليها (وثانيها) ان المراد عزيمة جازمة وقعت فى قلبها دفعة واحدة فكل من تفكر فيما وقع اليه ظهر له الرأى الذى هو أقرب الى الخلاص ويقال لذلك الخاطر انه وحى (وثالثها) المراد منه الالهام لكنا متى بحثنا عن الالهام كان معناه خطور رأى بالبال وغلبة على القلب فيصير هذا هو الوجه الثانى وهذه الوجوه الثلاثة يعترض عليها بأن الالقاء فى البحر قريب من الاهلاك وهو مساو للخوف الحاصل من القتل المعتاد من فرعون فكيف يجوز الاقدام على أحدهما لاجل الصيانة عن الثانى والجواب لعلها عرفت بالاستقراء صدق رؤياها فكان افضاء الالقاء فى البحر الى السلامة أغلب على ظنها من وقوع الولد فى يد فرعون (ورابعها) لعله أوحى الى بعض الانبياء فى ذلك الزمان كشعيب عليه السلام أو غيره ثم ان ذلك النبى عرفها اما مشافهة أو مراسلة واعترض عليه بأن الامر لو كان كذلك لالحقها من أنواع الخوف ما لحقها والجواب ان ذلك الخوف كان من لوازم البشرية كما ان موسى عليه السلام كان يخاف فرعون مع ان الله تعالى كان يأمره بالذهاب اليه مرارا (وخامسها) لعل الانبياء المتقدمين كابراهيم واسحق ويعقوب عليهم السلام أخبروا

الباء أى بأن اقذفيه ومعنى القذف ههنا الوضع وأما فى قوله تعالى (فاقذفيه فى اليم) فالالقاء وهذا التفصيل هو ﴿ بذلك ﴾ المراد بقوله تعالى فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم لا القذف بلا تابوت (فليلقه اليم بالساحل) لما كان القاء البحر اياه بالساحل أمرا الواجب الوقوع لتعلق الارادة الربانية به جعل البحر

كله فوتميز مطيع أمر بذلك وأخرج الجواب مخرج الامر والضمائر كلها لموسى عليه السلام والمقذوف فى البحر والملقى الساحل وان كان هو التابوت اصالة لكن لما كان ﴿ ٤٩ ﴾ المقصود بالذات ما فيه جعل التابوت تبعا له فى ذلك

بذلك وانتهى ذلك الخبر الى تلك المرأة (وسيأتى بقية) لعل الله تعالى بعث اليها ملكا لا على وجه النبوة كما بعث الى مريم فى قوله فتمثل لها بشرا سويا وأما قوله ما يوحى فعناه وأوحينا الى أمك ما يجب أن يوحى وانما وجب ذلك الوحى لان الواقعة واقعة عظيمة ولا سبيل الى معرفة المصلحة فيها الا بالوحى فكان الوحى واجبا أما قوله تعالى أن اقذفيه ففيه مسائل (المسئلة الاولى) أن هى المفسرة لان الوحى بمعنى القول (المسئلة الثانية) القذف مستعمل فى معنى الالقاء والوضع ومنه قوله تعالى وقذف فى قلوبهم الرعب (المسئلة الثالثة) روى أنها اتخذت تابوتا وجعلت فيه قطنا محلوجا ووضعت فيه موسى عليه السلام وقيرت رأسه وشقوقه بالقار ثم ألقته فى النيل وكان يشرع منه نهر كبير فى دار فرعون فبينا هو جالس على رأس البركة مع امرأته آسية اذ بتابوت يجئ به الماء فلما رآه فرعون أمر الغلمان والجوارى باخراجه فاخرجوه وفتحوا رأسه فاذا صبى من أصبح الناس وجها فلما رآه فرعون أحبه وسيأتى تمام القصة فى سورة القصص قال مقاتل ان الذى صنع التابوت حزقيل مؤمن آل فرعون (المسئلة الرابعة) اليم هو البحر والمراد به ههنا نيل مصر فى قول الجميع واليم اسم يقع على البحر وعلى النهر العظيم (المسئلة الخامسة) قال الكسائى الساحل فاعل بمعنى مفعول سمى بذلك لان الماء يسحله أى يقذفه الى أعلاه (المسئلة السادسة) قال صاحب الكشاف الضمائر كلها راجعة الى موسى عليه السلام ورجوع بعضها اليه وبعضها الى التابوت يؤدى الى تنافر النظم فان قيل المقذوف فى البحر هو التابوت وكذلك الملقى الى الساحل قلنا لا بأس بأن يقال المقذوف والملقى هو موسى عليه السلام فى جوف التابوت حتى لا تتفرق الضمائر ولا يحصل التنافر (المسئلة السابعة) لما كان تقدير الله تعالى أن يجرى ماء اليم ويلقى بذلك التابوت الى الساحل سلك فى ذلك سبيل المجاز وجعل اليم كأنه ذو تمييز أمر بذلك ليطيع الامر ويمتثل رسمه فقيل فليلقه اليم بالساحل أما قوله يأخذه عدو لى وعدو له ففيه أبحاث (البحث الاول) قوله يأخذه جواب الامر أى اقذفيه يأخذه (البحث الثانى) فى كيفية الاخذ قولان (أحدهما) ان امرأة فرعون كانت بحيث تستسقى الجوارى فبصرت بالتابوت فأمرت به فأخذت التابوت فيكون المراد من أخذ فرعون التابوت قبوله له واستحبابه اياه (الثانى) ان البحر ألقى التابوت بموضع من الساحل فيه فوهة نهر فرعون ثم أداه النهر الى بركة فرعون فلما رآه أخذه (البحث الثالث) قوله يأخذه عدو لى وعدو له فيه اشكال وهو ان موسى عليه السلام لم يكن ذلك الوقت بحيث يعادى وجوابه اما كونه عدو الله من جهة كفره وعتوه فظاهر وأما كونه عدو الموسى عليه السلام فيحتمل من حيث انه لو ظهر له حاله لقتله ويحتمل انه من حيث يؤل أمره الى ما آل اليه من العداوة (المسئلة الثانية) قوله وألقيت عليك محبة منى وفيه قولان (الاول) وألقيت عليك محبة هى منى قال الزمخشرى منى لا يخلو اما أن يتعلق بألقيت فيكون المعنى على انى أحببتك ومن أحبه الله أحبته

(يأخذه عدو لى وعدو له) جواب للامر بالالقاء وتكرير العدو للمبالغة والتصريح بالامر والاشعار بأن عداوته له مع تحققها لا تؤثر فيه ولا تضره بل تؤدى الى المحبة فان الامر بما هو سبب للهلاك صورة من قذفه فى البحر ووقوعه فى يد عدو الله تعالى وعدوه مشعر بأن هناك لطفا خفيا مندرجا تحت قهر صورى وقيل الاول باعتبار الواقع والثانى باعتبار المتوقع وليس المراد بالساحل نفس الشاطئ بل ما يقابل الوسط وهو ما يلى الساحل من البحر بحيث يجرى ماؤه الى نهر فرعون لما روى أنها جعلت فى التابوت قطنا ووضعته فيه ثم قيرته وألقته فى اليم وكان يشرع منه الى بستان فرعون نهر صغير فدفعه الماء اليه فأتى به الى بركة فى البستان وكان فرعون جالسا مع امرأته آسية بنت مزاحم فأمر به فأخرج ففتح فاذا هو صبى أصبح الناس وجها فأحبه عدو

 الله حبا شديدا لا يكاد يتمالك الصبر عنه وذلك قوله تعالى (وألقيت عليك محبة منى) كلمة من متعلقة بمحذوف هو صفة لمحبة موكدة لما فى تنكيرها من الفخامة الذاتية بالفخامة الاضافية أى محبة عظيمة كائنة منى قد زرعتها فى القلوب بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك ولذلك أحبك عدو الله وآله وقيل هى

متعلقة بألقيت أى أحببتك ومن أحبه الله تعالى أحبته القلوب لامحالة وقوله تعالى (ولتصنع على عينى) متعلق بألقيت معطوف على علة له مضمرة أى ليتعطف ﴿ ٥٠ ﴾ عليك ولتربى بالحنو والشفقة بمراقبتى وحفظى أو بمضمر مؤخر هو عبارة عما قبله من القاء المحبة والجملة مبتدأة أى ولتصنع على عينى فعلت ذلك و قرئ ولتصنع على صيغة الامر بسكون اللام وكسرها وقرئ بفتح التاء و النصب أى وليكون عملك على عين منى لئلا يخالف به عن أمرى (اذ تمشى أختك) ظرف لتصنع على أن المراد به وقت وقع فيه مشيها الى بيت فرعون وما ترتب عليه من القول والرجع الى أمها وتربيتها له بالبر والحنو وهو المصداق لقوله تعالى ولتصنع على عينى اذ لا شفقة أعظم من شفقة الام وصنعها على موجب مراعاته تعالى وقيل هو بدل من اذ أوحينا على أن المراد به زمان متسع متباعد الاطراف وهو الانسب بما سيأتى من قوله تعالى فنجيناك من الغم الخ فان جميع ذلك من المنن الالهية ولا تعلق لشئ منها بالصنع المذكور وأما كونه ظرفا لألقيت كما جوز فربما يوهم أن القاء المحبة لم يحصل قبل ذلك ولا ريب فى أن معظم آثار القائها ظهر عند فتح التابوت (فتقول) أى لفرعون ﴿ من ﴾ وآسية حين رأتهما يطلبان له عليه السلام مرضعة يقبل ثديها وكان لا يقبل ثديا وصيغة المضارع فى الفعلين لحكاية الحال الماضية (هل أدلكم على من يكفله) أى يضمه الى نفسه ويربيه وذلك

القلوب واما أن يتعلق بمحذوف وهذا هو القول الثانى ويكون ذلك المحذوف صفة لمحبة أى وألقيت عليك محبة حاصلة منى واقعة بخلقى فلذلك أحبتك امرأة فرعون حتى قالت قرة عين لى ولك لا تقتلوه يروى انه كانت على وجهه مسحة جمال وفى عينيه ملاحة لا يكاد يصبر عنه من رآه وهو كقوله تعالى سيجعل لهم الرحمن وداقال القاضى هذا الوجه أقرب لانه فى حال صغره لا يكاد يوصف بمحبة الله تعالى التى ظاهرها من جهة الدين لان ذلك انما يستعمل فى المكلف من حيث استحقاق الثواب والمراد ان ماذكرنا من كيفيته فى الخلقة يستحلى ويغتبط به فكذلك كانت حاله مع فرعون وامرأته وسهل الله تعالى له منهما فى التربية مالا مزيد عليه و يمكن أن يقال بل الاحتمال الاول أرجح لان الاحتمال الثانى يحوج الى الاضمار وهو أن يقال والقيت عليك محبة حاصلة منى وواقعة بخلقى وعلى التقدير الاول لا حاجة الى هذا الاضمار بقى قوله انه حال صباه لا يحصل له محبة الله تعالى قلنا لانسلم فان محبة الله تعالى يرجع معناها الى ايصال النفع الى عباده وهذا المعنى كان حاصلا فى حقه فى حال صباه وعلم الله تعالى أن ذلك يستمر الى آخر عمره فلاجرم أطلق عليه لفظ المحبة (المنة الثالثة) قوله ولتصنع على عينى قال القفال لترى على عينى أى على وفق ارادتى ومجاز هذا ان من صنع لانسان شيئا وهو حاضر ينظر اليه صنعه له كما يحب ولا يمكنه أن يفعل ما يخالف غرضه فكذا ههنا وفى كيفية المجاز قولان (الاول) المراد من العين العلم أى ترى على علم منى ولما كان العالم بالشئ يحرسه عن الآفات كان الناظر اليه يحرسه عن الآفات أطلق لفظ العين على العلم لاشتباههما من هذا الوجه (الثانى) المراد من العين الحراسة وذلك لان الناظر الى الشئ يحرسه عما يؤذيه فالعين كأنها سبب الحراسة فاطلق اسم السبب على المسبب مجازا وهو كقوله تعالى انى معكما أسمع وأرى و يقال عين الله عليك اذا دعا لك بالحفظ والحياطة قال القاضى ظاهر القرآن يدل على أن المراد من قوله ولتصنع على عينى الحفظ والحياطة كقوله تعالى اذ تمشى أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك الى أمك كى تقر عينها ولا تحزن فصار ذلك كالتفسير لحياطة الله تعالى له (بقى ههنا بحثان الاول) الواو فى قوله ولتصنع على عينى فيه ثلاثة أوجه (احدها) كأنه قيل ولتصنع على عينى القيت عليك محبة منى ثم يكون قوله اذ تمشى أختك متعلقا بأول الكلام وهو قوله ولقد منناعليك مرة أخرى اذ أوحينا الى أمك مايوحى واذ تمشى أختك (وثانيها) يجوز أن يكون قوله ولتصنع على عينى متعلقا بما بعده وهو قوله اذ تمشى وذكرنا مثل هذين الوجهين فى قوله وليكون من الموقنين (وثالثها) يجوز أن تكون الواو مقحمة أى وألقيت عليك محبة منى لتصنع وهذا ضعيف (الثانى) قرئ ولتصنع بكسر اللام وسكونها والجزم على انه امر وقرئ ولتصنع بفتح التاء والنصب أى وليكون عملك وتصرفك على علم منى (المنة الرابعة) قوله اذ تمشى أختك واعلم ان العامل فى اذ تمشى ألقيت أو تصنع يروى انه لما فشا الخبر بمصر أن آل فرعون أخذوا غلاما فى النيل وكان لا يرتضع

يكون بقبوله ثديها يروى انه فشا الخبر بمصر أن آل فرعون أخذوا غلاما فى النيل لا يرتضع امرأة واضطروا الى تتبع النساء فخرجت أخته مريم لتعرف خبره فجاءتهم ﴿ ٥٢ ﴾ متنكرة فقالت ماقالت وقالوا ماقالوا فجاءت بأمه فقبل

من ثدى كل امرأة يؤتى بها الان الله تعالى قد حرم عليه المراضع غير أمه اضطروا الى تتبع النساء فلما رأت ذلك اخت موسى جاءت اليهم متنكرة فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم ثم جاءت بالام فقبل ثديها فرجع الى أمه بالطف الله تعالى له من هذا التدبير أما قوله تعالى فرجعناك الى أمك أى رددناك وقال فى موضع آخر فرددناه الى أمه وهو كقوله قال رب ارجعون أى ردونى الى الدنيا أما قوله كى تقر عينها ولا تحزن فالمراد ان المقصود من ردك اليها حصول السرور لها وزوال الحزن عنها فان قيل لو قال كى لا تحزن وتقر عينها كان الكلام مفيدا لانه لا يلزم من نفى الحزن حصول السرور لها وأما ما قال أولا كى تقر عينها كان قوله بعد ذلك ولا تحزن فضلا لانه متى حصل السرور وجب زوال الغم لامحالة قلنا المراد انه تقر عينها بسبب وصولك اليها فيزول عنها الحزن بسبب عدم وصول ابن غيرها الى باطنك (والمنة الخامسة) قوله وقتلت نفسا فنجيناك من الغم فالمراد به وقتلت بعد كبرك نفسا وهو الرجل الذي قتله خطأ بأن وكزه حيث استغاثه الاسرائيلى عليه وكان قبطيا فحصل له الغم من وجهين (أحدهما) من عقاب الدنيا وهو اقتصاص فرعون منه على ما حكى الله تعالى عنه فأصبح فى المدينة خائفا يترقب والآخر من عقاب الله تعالى حيث قتله لا بأمر الله فنجاه الله تعالى من الغمين أما من فرعون فخير وفق له المهاجرة الى مدين وأما من عقاب الآخرة فلانه سبحانه وتعالى غفر له ذلك (المنة السادسة) قوله وفتناك فتونا وفيه ابحاث (البحث الاول) فى قوله فتونا وجهان (أحدهما) انه مصدر كالعكوف والجلوس والمعنى وفتناك حقا وذلك على مذهبهم فى تأكيد الاخبار بالمصادر كقوله تعالى وكلم الله موسى تكليما (والثانى) انه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بتاء التأنيث كحجوز وبدور فى حجزة وبدرة أى فتناك ضروبا من الفتن وههنا سؤالان (السؤال الاول) أن الله تعالى عدد أنواع منته على موسى عليه السلام فى هذا المقام فكيف يليق بهذا الموضع قوله وفتناك فتونا الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان الفتنة تشديد المحنة يقال فتن فلان عن دينه اذا اشتدت عليه المحنة حتى رجع عن دينه قال تعالى فاذا اوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله وقال تعالى الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين وقال أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله فالزلزلة المذكورة فى الآية ومس البأساء والضراء هى الفتنة والفتون ولما كان التشديد فى المحنة مما يوجب كثرة الثواب لاجرم عده الله تعالى من جملة النعم (وثانيها) فتناك فتونا أى خلصناك تخليصا من قولهم فتنت الذهب من الفضة اذا أردت تخليصه وسأل سعيد بن جبير ابن عباس عن الفتون فقال نسألك عنها رايا ابن جبير ثم لما أصبح أخذ ابن عباس يقرأ عليه الآيات الواردة فى شأن موسى عليه السلام من ابتداء أمره

ثديها فالفاء فى قوله تعالى (فرجعناك الى أمك) فصيحة معربة عن محذوف قبلها يعطف عليه ما بعدها أى فقالوا ودلينا عليها فجاءت بأمك فرجعناك اليها (كى تقر عينها) بلقائك (ولا تحزن) أى لا يطرأ عليها الحزن بفراقك بعد ذلك والا فزوال الحزن مقدم على السرور المعبر عنه بقرة العين فان التخلية متقدمة على التحلية وقيل ولا تحزن أنت بفقد اشفاقها (وقتلت نفسا) هى نفس القبطى الذى استغاثه الاسرائيلى عليه (فنجيناك من الغم) أى غم قتله خوفا من عقاب الله تعالى بالمغفرة ومن اقتصاص فرعون بالانجا منه بالمهاجرة الى مدين (وفتناك فتونا) أى ابتليناك ابتلاء أو فتونا من الابتلاء على أنه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بالتاء كحجوز فى حجزة وبدور فى بدرة أى خلصناك مرة بعد أخرى وهو اجمال ما ناله

فى سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الالاف والمشى راجلا وفقد الزاد وقد روى أن سعيد بن جبير سأل عنه ابن عباس رضى الله عنهما فقال خلصناك من محنة بعد محنة ولدت فى عام كان يقتل فيه الولدان فهذه فتنة يا ابن جبير وألقته أمه فى البحر وهم فرعون بقتله وقتل قبطيا وآجر نفسه عشر سنين وضل الطريق

وتفرقت غنمه فى ليلة مظلمة وكان يقول عند كل واحدة فهذه فتنة يا ابن جبير ولكن الذى يقتضيه النظم الكريم أن لا تعد اجارة نفسه وما بعدها من تلك الفتون ضرورة أن المراد بها ﴿ ٥٢ ﴾ ما وقع قبل وصوله عليه السلام الى مدين

فذكر قصة فرعون وقتله أولاد بنى اسرائيل ثم قصة القاء موسى عليه السلام فى اليم والتقاط آل فرعون اياه وامتناعه من الارتضاع من الاجانب ثم قصة ان موسى عليه السلام أخذ لحية فرعون ووضعه الجمرة فى فيه ثم قصة قتل القبطى ثم هربه الى مدين وصيرورته أجير الشعيب عليه السلام ثم عوده الى مصر وأنه أخطأ الطريق فى الليلة المظلمة واستئناسه بالنار من الشجرة وكان عند تمام كل واحدة منها يقول هذا من الفتون يا ابن جبير (السؤال الثانى) هل يصح اطلاق اسم الفتان عليه سبحانه اشتقاقا من قوله وفتناك فتونا والجواب لا لانه صفة ذم فى العرف وأسماء الله تعالى توقيفية لا سيما فيما يوهم مالا ينبغى (المنة السابعة) قوله تعالى فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر يا موسى واعلم ان التقدير وفتناك فتونا فخرجت خائفا الى أهل مدين فلبثت سنين فيهم أما مدة اللبث فقال ابو مسلم انها مشروحة فى قوله تعالى ولما توجه تلقاء مدين الى قوله فلما قضى موسى الاجل وهى اما عشرة واما ثمان لقوله تعالى على أن تأجرنى ثمانى حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وقال وهب لبث موسى عليه السلام عند شعيب عليه السلام ثمانيا وعشرين سنة منها عشر سنين مهر امرأته والآية تدل على انه عليه السلام لبث عنده عشر سنين وليس فيها ما ينفى الزيادة على العشر واعلم ان قوله فلبثت سنين فى أهل مدين بعد قوله وفتناك فتونا كالدلالة على ان لبثه فى مدين من الفتون وكذلك كان فانه عليه السلام تحمل بسبب الفقر والغربة محنا كثيرة واحتاج الى ان آجر نفسه أما قوله تعالى ثم جئت على قدر يا موسى فلا بد من حذف فى الكلام لانه على قدر أمر من الامور وذكروا فى ذلك المحذوف وجوها (أحدها) انه سبق فى قضائى وقدرى أن أجعلك رسولا الى فرعون وقت معين عينته لذلك فاجئت الاعلى ذلك القدر لا قبله ولا بعده ومنه قوله انا كل شئ خلقناه بقدر (وثانيها) على مقدار من الزمان يوحى فيه الى الانبياء وهو رأس أربعين سنة (وثالثها) ان القدر هو الموعد فان ثبت أنه تقدم هذا الموعد صح حمله عليه ولا يمتنع ذلك لاحتمال أن شعيبا عليه السلام أو غيره من الانبياء كانوا قد عينوا ذلك الموعد فان قيل كيف ذكر الله تعالى مجئ موسى عليه السلام فى ذلك الوقت من جملة منته عليه قلنا لانه لولا توفيقه لما تهيأ له شئ من ذلك (المنة الثامنة) قوله تعالى واصطنعتك لنفسى والاصطناع اتخاذ الصنعة وهى افتعال من الصنع يقال اصطنع فلان فلانا أى اتخذه صنيعة فان قيل انه تعالى غنى عن الكل فما معنى قوله لنفسى والجواب عنه من وجوه (الاول) ان هذا تمثيل لانه تعالى لما أعطاه من منزلة التقريب والتكريم والتكليم مثل حاله بحال من يراه بعض الملوك لجوامع خصال فيه اهلا لان يكون أقرب الناس منزلة اليه وأشدهم قربا منه (وثانيها) قالت المعتزلة انه سبحانه وتعالى اذا كلف عباده وجب عليه أن يلطف بهم ومن جملة الالطاف ما لا يعلم الا سماعا فلو لم يصطنعه بالرسالة لبقى فى عهدة الواجب فصار موسى عليه السلام كالنائب عن ربه فى اداء ما وجب على الله تعالى فصح أن يقول

(فلبثت سنين فى أهل مدين) اذ لا ريب فى أن الاجارة المذكورة وما بعدها مما وقع بعد الوصول اليهم وقد أشير بذكر لبثه عليه السلام فيهم دون وصوله اليهم الى جميع ما قاساه عليه السلام فى تضاعيف تلك السنين العشر من فنون الشدائد والمكاره التى كل واحد منها فتنة وأى فتنة ومدين بلدة شعيب عليه الصلاة والسلام على ثمانى مراحل من مصر (ثم جئت الى المكان الذى أوانس فيه النار ووقع فيه النداء والجوار وفى كلام التراجى ايذان بأن مجيئه عليه السلام كان بعد اللتيا والتى من ضلال الطريق وتفرق الغنم فى الليلة المظلمة الشاتية وغير ذلك (على قدر) أى تقدير قدرته لان أكلمك وأستنبئك فى وقت قد عينته لذلك فاجئت الاعلى ذلك القدر غير مستقدم ولا مستأخر وقيل على مقدار من الزمان يوحى فيه الى الانبياء عليهم السلام وهو رأس اربعين سنة وقوله تعالى (يا موسى) تشريف له ﴿ واصطنعتك ﴾ عليه الصلاة والسلام وتنبيه على انتهاء الحكاية التى هى تفصيل المرة الاخرى التى وقعت قبل المرة المحكية أولا وقوله تعالى (واصطنعتك لنفسى) تذكير لقوله تعالى وأنا اخترتك وتمهيد لارساله عليه السلام الى فرعون

مؤيدا باخيه حسبما استدعاه بعد تذكير المنن السابغة السابقة تأكيدا لوثوقه عليه السلام بحصول نظائرها اللاحقة وهذا تمثيل لما خوله عز وعلا من الكرامة العظمى بتقريب الملك بعض خواصه واصطناعه لنفسه وترشيحه

واصطنعتك لنفسي قال القفال واصطنعتك أصله من قولهم اصطنع فلان فلانا اذا أحسن اليه حتى يضاف اليه فيقال هذا صنيع فلان وجريح فلان وقوله لنفسي أي لاصرفك في أوامري لئلا تشتغل بغير ما أمرتك به وهو اقامة حجتي وتبليغ رسالتي وأن تكون في حركاتك وسكناتك لي لا لنفسك ولا لغيرك واعلم انه سبحانه وتعالى لما عدد عليه المنن الثمانية في مقابلة تلك الالتماسات الثمانية رتب على ذكر ذلك أمرا ونهيا أما الامر فهو انه سبحانه وتعالى أعاد الامر بالاول فقال اذهب أنت وأخوك بآياتي واعلم أنه سبحانه وتعالى لما قال واصطنعتك لنفسي عقبه بذكر ما له اصطنعه وهو الابلاغ والاداء ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) الباء ههنا بمعنى مع وذلك لانهما لو ذهبا اليه بدون آية معهما لم يلزمه الايمان وذلك من أقوى الدلائل على فساد التقليد (المسئلة الثانية) اختلفوا في الآيات المذكورة ههنا على ثلاثة أقوال (أحدها) انها اليد والعصا لانهما اللذان جرى ذكرهما في هذا الموضع وفي سائر المواضع التي اقتص الله تعالى فيها حديث موسى عليه السلام فانه تعالى لم يذكر في شيء منها انه عليه السلام قد أوتي قبل مجيئه الى فرعون ولا بعد مجيئه حتى ألقى فرعون فالتمس منه آية غيرهاتين الآيتين قال تعالى عنه قال فأت بآية ان كنت من الصادقين فالقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين وقال فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملئه فاذا قيل لهؤلاء كيف يطلق لفظ الجمع على الاثنين أجابوا بوجوه (الاول) ان العصا ما كانت آية واحدة بل كانت آيات فان انقلاب العصا حيوانا آية ثم انها في أول الامر كانت صغيرة لقوله تعالى تهتز كأنها جان ثم كانت تعظم وهذه آية أخرى ثم كانت تصير ثعبانا وهذه آية أخرى ثم ان موسى عليه السلام كان يدخل يده في فيها فاذا كانت تضرب موسى عليه السلام فهذه آية أخرى ثم كانت تنقلب خشبة فهذه آية أخرى وكذلك اليد فان بياضها آية وشعاعها آية اخرى ثم زوالهما بعد حصولهما آية أخرى فصح انهما كانتا آيات كثيرة لا آيتان (الثاني) هب ان العصا أمر واحد لكن فيها آيات كثيرة لان انقلابها حية يدل على وجود اله قادر على الكل عالم بالكل حكيم ويدل على نبوة موسى عليه السلام ويدل على جواز الحشر حيث انقلب الجماد حيوانا فهذه آيات كثيرة ولذلك قال ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا الى قوله فيه آيات بينات مقام ابراهيم فاذا وصف الشيء الواحد بان فيه آيات فالشيئان أولى بذلك (الثالث) من الناس من قال أقل الجمع اثنان على ما عرفت في أصول الفقه (القول الثاني) ان قوله اذهبا بآياتي معناه اني أمدكما بآياتي وأظهر على أيديكما من الآيات ما تزاح به العلل من فرعون وقومه فاذهبا فان آياتي معكما كما يقال اذهب فان جندي معك أي اني أمدك بهم متى احتجت (القول الثالث) ان الله تعالى آتاه العصا واليد وحل عقدة لسانه وذلك أيضا معجز فكانت الآيات ثلاثة هذا هو شرح الامر أما النهي فهو قوله تعالى ولا تنيا في ذكري الونى الفتور والتقصير وقرئ ولا تنيا بكسر حرف المضارعة للاتباع

لبعض أموره الجليلة والعدول عن نون العظمة الواقعة في قوله تعالى وفتناك ونظيره السابقين تمهيد لافراد لفظ النفس اللائق بالمقام فانه أدخل في تحقيق معنى الاصطناع والاستخلاص أي اصطفيتك برسالاتي وبكلامي وقوله تعالى (اذهب أنت وأخوك) أي وليذهب أخوك حسبما استدعيت استئناف مسوق لبيان ما هو المقصود بالاصطناع (بآياتي) أي بمعجزاتي التي أريتكهما من اليد والعصا فانهما وان كانتا اثنتين لكن في كل منهما آيات شتى كما في قوله تعالى فيه آيات بينات مقام ابراهيم فان انقلاب العصا حيوانا آية وكونها ثعبانا عظيما لا يقادر قدره آية أخرى وسرعة حركته مع عظم جرمه آية أخرى وكونه مع ذلك مسخرا له عليه السلام بحيث كان يدخل يده في فمه فلا يضره آية أخرى ثم انقلابها عصا آية أخرى وكذلك اليد فان بياضها في نفسه آية وشعاعها آية ثم رجوعها الى حالتها الاولى آية أخرى والباء للمصاحبة لا للتعدية اذ المراد ذهابهما الى فرعون ملتبسين بالآيات متمسكين بها في اجراء أحكام الرسالة واكمال أمر الدعوة لا مجرد ذهابها وايصالها اليه (ولا تنيا) لا تفترا ولا تقصرا وقرئ لا تنيا بكسر التاء للاتباع (في ذكري) اي بما يليق بي

من الصفات الجليلة والافعال الجميلة عند تبليغ رسالتي والدعاء الي وقيل المعنى لا تنيا في تبليغ رسالتي فان الذكر يقع على جميع العبادات وهو أجلها وأعظمها وقيل لا تنسياني ﴿ ٥٤ ﴾ حيثما تقلبتما واستمدا بذكري العون والتأييد واعلما أن

أمرا من الامور لا يأتي ولا يتسنى الا بذكري (اذهبا الى فرعون) جمعهما في صيغة أمر الحاضر مع غيبة هرون اذ ذاك للتغليب وكذا الحال في صيغة النهي روي انه أوحي الى هرون وهو بمصر أن يتلقى موسى عليهما السلام وقيل سمع باقباله فتلقاه (انه طغى) تعليل لوجوب الامر والفاء في قوله تعالى (فقولا له قولا لينا) لترتيب ما بعدها على طغيانه فان تليين القول مما يكسر سورة عناد العتاة ويلين عريكة الطغاة قال ابن عباس رضي الله عنهما الا تعنفا في قولكما وقيل القول اللين مثل هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فانها دعوة في صورة عرض ومشورة ويرده ما سيجيء من قوله تعالى فقولا انا رسولا ربك الآيتين وقيل كنياه وكان له ثلاث كنى ابو العباس وأبو الوليد وأبو مرة وقيل عداه شبابا لا يهرم ويبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح وملكا لا يزول الا بالموت وقرئ لينا (لعله يتذكر) بما بلغتماه من ذكري ﴿ ايضا ويرغب فيما رغبتماه فيه (أو يخشى) عقابي ومحل الجملة النصب على الحال من ضمير التثنية أي فقولا له قولا لينا راجين أن يتذكر أو يخشى وكلمة أو لتنع الخلو أي باشرا الامر مباشرة من يرجو ويطمع في أن يثمر عمله ولا يجيب سعيه وهم

ثم قيل فيه أقوال (أحدها) المعنى لا تنيا بل اتخذا ذكري آلة لتحصيل المقاصد واعتقدا ان أمرا من الامور لا يتمشى لاحد الا بذكري والحكمة فيه ان من ذكر جلال الله استحقر غيره فلا يخاف أحدا ولان من ذكر جلال الله تقوى روحه بذلك الذكر فلا يضعف في المقصود ولان ذكر الله تعالى لابد وأن يكون ذاكرا لاحسانه وذاكر احسانه لا يفتر في اداء أوامره (وثانيها) المراد بالذكر تبليغ الرسالة فان الذكر يقع على كل العبادات وتبليغ الرسالة من أعظمها فكان جديرا بان يطلق عليه اسم الذكر (وثالثها) قوله ولا تنيا في ذكري عند فرعون وكيفية الذكر هو أن يذكر الفرعون وقومه ان الله تعالى لا يرضى منهم بالكفر ويذكر لهم أمر الثواب والعقاب والترغيب والترهيب (ورابعها) ان يذكرا لفرعون آلاء الله ونعماءه وأنواع احسانه اليه ثم قال بعد ذلك اذهبا الى فرعون انه طغى وفيه سؤالان (الاول) ما الفائدة في ذلك بعد قوله اذهب أنت وأخوك بآياتي قال القفال فيه وجهان (أحدهما) ان قوله اذهب أنت وأخوك بآياتي يحتمل أن يكون كل واحد منهما مأمورا بالذهاب على الانفراد فقيل مرة أخرى اذهبا ليعرفا ان المراد منه ان يشتغلا بذلك جميعا لا أن ينفرد به هرون دون موسى (والثاني) ان قوله اذهب أنت وأخوك بآياتي أمر بالذهاب الى كل الناس من بني اسرائيل وقوم فرعون ثم ان قوله اذهبا الى فرعون أمر بالذهاب الى فرعون وحده (السؤال الثاني) قوله اذهبا الى فرعون خطاب مع موسى وهرون عليهما السلام وهذا مشكل لان هرون عليه السلام لم يكن حاضرا هناك وكذا في قوله تعالى قالا ربنا انا نخاف ان يفرط علينا أو ان يطغى أجاب القفال عنه من وجوه (أحدها) أن الكلام كان مع موسى عليه السلام وحده الا أنه كان متبوع هرون فجعل الخطاب معه خطابا مع هرون وكلام هرون على سبيل التقدير فالخطاب في تلك الحالة وان كان مع موسى عليه السلام وحده الا أنه تعالى أضافه اليهما كما في قوله واذ قتلتم نفسا وقوله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل وحكى ان القائل هو عبد الله بن أبي وحده (وثانيها) يحتمل ان الله تعالى لما قال قد أوتيت سؤلك يا موسى سكت حتى اتى اخاه ثم ان الله تعالى خاطبهما بقوله اذهبا الى فرعون (وثالثها) انه حكى انه في مصحف ابن مسعود وحفصة قال ربنا انا نخاف أي قال موسى أنا وأخي نخاف فرعون أما قوله تعالى فقولا له قولا لينا ففيه سؤالان (الاول) لم أمر الله تعالى موسى عليه السلام باللين مع الكافر الجاحد الجواب لوجهين (الاول) انه عليه السلام كان قد رباه فرعون فأمره أن يخاطبه بالرفق رعاية لتلك الحقوق وهذا تنبيه على نهاية تعظيم حق الابوين (الثاني) ان من عادة الجبابرة اذا غلظ لهم في الوعظ ان يزدادوا عتوا وتكبرا والمقصود من البعثة حصول النفع لا حصول زيادة الضرر فلهذا أمر الله تعالى بالرفق (السؤال الثاني) كيف كان ذلك الكلام اللين الجواب ذكروا فيه وجوها (أحدها) ما حكى الله تعالى بعضه فقال هل لك الى أن تزكى وأهديك الى ربك فتخشى وذكر

يجتهد بطوقه و يحتشد باقصى وسعه وجدوى ارسالهما اليه مع العلم بحاله الزام الحجة وقطع المعذرة (قالا ربنا) سند القول اليهما مع ان القائل حقيقة هو موسى عليه الصلاة والسلام بطريق التغليب ايذانا

أيضا فى هذه السورة بعض ذلك فقال فاتياه فقولا انا رسولا ربك الى قوله والسلام على من اتبع الهدى (وثانيها) ان تعداه شبا بالا يهرم بعده وملكا لا ينزع منه الا بالموت وان يبقى له لذة المطعم والمشرب والمنكح الى حين موته (وثالثها) كنياه وهو من ذوى الكنى الثلاث أبو العباس وأبو الوليد وأبو مرة (ورابعها) حكى عن عمرو بن دينار قال بلغنى انه فرعون عمر أربعمائة سنة وتسع سنين فقال له موسى عليه السلام ان أطعتنى عمرت مثل ما عمرت فاذا مت فلك الجنة واعترضوا على هذه الوجوه الثلاثة الاخيرة (أما الاول) فقيل لو حصلت له هذه الامور الثلاثة فى هذه المدة الطويلة لصار ذلك كالالجاء الى معرفة الله تعالى وذلك لا يصح مع التكليف (وأما الثانى) فلان خطابه بالكنية أمر سهل فلا يجوز أن يجعل ذلك هو المقصود من قوله فقولا له قولا لينا بل يجوز أن يكون ذلك من جملة المراد (وأما الثالث) فالاعتراض عليه كما فى الاول أما قوله تعالى لعله يتذكر أو يخشى فاعلم انه ليس المراد أنه تعالى كان شاكا فى ذلك لان ذلك محال عليه تعالى وانما المراد فقولا له قولا لينا على أن تكونا راجيين لان يتذكر هو أو يخشى واعلم ان أحوال القلب ثلاثة (أحدها) الاصرار على الحق (وثانيها) الاصرار على الباطل (وثالثها) التوقف فى الامرين وان فرعون كان مصرا على الباطل وهذا القسم اردأ الاقسام فقال تعالى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى فيرجع من انكاره الى الاقرار بالحق وان لم ينتقل من الانكار الى الاقرار لكنه يحصل فى قلبه الخوف فيترك الانكار وان كان لا ينتقل الى الاقرار فان هذا خير من الاصرار على الانكار واعلم ان هذا التكليف لا يعلم سره الا الله تعالى لانه تعالى لما علم انه لا يؤمن قط كان ايمانه ضد ذلك العلم الذى يمتنع زواله فيكون سبحانه عالما بامتناع ذلك الايمان واذا كان عالما بذلك فكيف أمر موسى عليه السلام بذلك الرفق وكيف بالغ فى ذلك الامر بتلطيف دعوته الى الله تعالى مع علمه باستحالة حصول ذلك منه ثم هب ان المعتزلة ينازعون فى هذا الامتناع من غير أن يذكروا شبهة قادحة فى هذا السؤال ولكنها سلموا انه كان عالما بانه لا يحصل ذلك الايمان وسلموا ان فرعون لا يستفيد ببعثة موسى عليه السلام الا استحقاق العقاب والرحيم الكريم كيف يليق به أن يدفع سكينا الى من علم قطعا انه يمزق بها بطن نفسه ثم يقول انى ما أردت بدفع السكين اليه الا الاحسان اليه يا أخى العقول قاصرة عن معرفة هذه الاسرار ولا سبيل فيها الا التسليم وترك الاعتراض والسكوت بالقلب واللسان و يروى عن كعب انه قال والذى يحلف به كعب انه لمكتوب فى التوراة فقولا له قولا لينا وسيأتى قلبه فلا يؤمن * قوله تعالى (قالا ربنا انا نخاف ان يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا انى معكما أسمع وأرى فاتياه فقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى انا قد أوحى الينا ان العذاب على من كذب وتولى) اعلم ان قوله قالا ربنا انا نخاف فيه أسئلة (السؤال الاول) قوله قالا ربنا يدل على ان المتكلم بذلك موسى

باصالته فى كل قول وفعل وتبعية هرون عليه السلام له فى كل ما يأتى و يذر و يجوز أن يكون هرون قد قال ذلك بعد تلاقيهما فحكى ذلك مع قول موسى عليه السلام عند نزول الآية كما فى قوله تعالى يا أيها الرسل كلوا من الطيبات فان هذا الخطاب قد حكى لنا بصيغة الجمع مع أن كلا من المخاطبين لم يخاطب الا بطريق الانفراد ضرورة استحالة اجتماعهم فى الوجود فكيف باجتماعهم فى الخطاب (انا نخاف أن يفرط علينا) أى يعجل علينا بالعقوبة ولا يصبر الى اتمام الدعوة واظهار المعجزة من فرط اذا تقدم ومنه الفارط وفرس فارط يسبق الخيل وقرئ يفرط من افرطه اذا حمله على العجلة أى نخاف أن يحمله حامل من الاستكبار أو الخوف على الملك أو غيرهما على المعاجلة بالعقاب (أو أن يطغى) أى يزداد طغيانا الى أن يقول فى شأنك ما لا ينبغى لكمال

جراءته وقساوته واطلاقه من حسن الادب واظهار كلمة أن مع سداد المعنى بدونه لاظهار كمال الاعتناء بالامر والاشعار بتحقق الخوف من كل منهما (قال) استئناف مبنى على السؤال الناشئ من النظم الكريم ولعل اسناد الفعل الى ضمير الغيبة للاشعار بانتقال الكلام من مساق الى مساق آخر فان ما قبله من الافعال

الواردة على صيغة التكلم حكاية لموسى عليه السلام بخلاف ماسياتى من قوله تعالى قلنا لاتخف انك أنت الاعلى فان ماقبله أيضا وارد بطريق الحكاية لرسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم كأنه قيل فاذا قال لهما ربهما عند تضرعهما اليه فقيل قال (لاتخافا) ماتوهمتما من الامرين وقوله تعالى (انني معكما) تعليل لموجب النهى ومزيد تسلية لهما والمراد بالمعية كمال الحفظ والنصرة كما ينبئ عنه قوله تعالى (أسمع وأرى) أى مايجرى بينكما وبينه من قول وفعل فافعل فى كل حال مايليق بهامن دفع ضر وشر وجلب نفع وخير ويجوز أن لايقدر شئ على معنى انى حافظكما سميعا بصيرا والحافظ الناصر اذا كان كذلك فقد تم وبلغت النصرة غايتها (فأتياه) أمرا بأتيانه الذى هو عبارة عن الوصول اليه بعد ما أمرا بالذهاب اليه فلا تكرار وهو عطف على لاتخافا باعتبار تعليله بما بعده (فقولا انا رسولا ربك) أمر بذلك تحقيقا للحق من أول الامر ليعرف الطاغية شأنهما وبنى جوابه عليه وكذا التعرض لربوبيته تعالى له والفاء فى قوله تعالى (فأرسل معنا بنى اسرائيل) لترتيب مابعدها على ما قبلها فان كونهما رسولى ربه مما يوجب ارسالهم معهما والمراد بالارسال اطلاقهم من الاسر والقسر ﴿ هو ﴾ واخراجهم من تحت يده العادية لاتكليفهم أن يذهبوا معهما الى الشأم كما ينبئ عنه قوله تعالى (ولاتعذبهم) أى بابقائهم على ما كانوا عليه من العذاب فانهم كانوا تحت ملكة القبط يستخدمونهم فى الاعمال

وهرون عليهما السلام وهرون لم يكن حاضرا هذا المقال فكيف ذلك وجوابه قد تقدم (السؤال الثانى) ان موسى عليه السلام قال رب اشرح لى صدرى فأجابه الله تعالى بقوله قد أوتيت سؤلك ياموسى وهذا يدل على انه قد انشرح صدره وتيسر أمره فكيف قال بعده انا نخاف فان حصول الخوف يمنع من حصول شرح الصدر والجواب ان شرح الصدر عبارة عن تقويته على ضبط تلك الاوامر والنواهى وحفظ تلك الشرائع على وجه لايتطرق اليه السهو والتحريف وذلك شئ آخر غير زوال الخوف (السؤال الثالث) اما علم موسى وهرون وقد حملهما الله تعالى الرسالة انه تعالى يؤمنهما من القتل الذى هو مقطعة عن الاداء (الجواب) قد أمنا ذلك وان جوزا أن ينالهما السوء من قبل تمام الاداء أو بعده وأيضا فانهما استظهرا بان سألا ربهما مايزيد فى ثبات قلبهما على دعائه وذلك بان يضاف الدليل النقلى الى العقلى زيادة فى اطمئنانهما بنبوته كما قال ولكن ليطمئن قلبى (السؤال الرابع) لما تكرر الامر من الله تعالى بالذهاب فعدم الذهاب واتعلل بالخوف هل يدل على المعصية (الجواب) لو اقتضى الامر الفور لكان ذلك من أقوى الدلائل على المعصية لاسيما وقد أكثر الله تعالى من أنواع التشريف وتقوية القلب وازالة الغم ولكن ليس الامر على الفور فزال السؤال وهذا من أقوى الدلائل على ان الامر لايقتضى الفور اذا ضممت اليه مايدل على ان المعصية غير جائزة على الرسل أما قوله تعالى أن يفرط علينا أو أن يطغى فاعلم ان فى أن يفرط وجوها (احدها) فرط سبق وتقدم ومنه الفارط الذى يتقدم الواردة وفرس فرط يسبق الخيل والمعنى نخاف ان يعجل علينا بالعقوبة (وثانيها) انه مأخوذ من أفرط غيره اذا حمله على العجلة فكان موسى وهرون عليهما السلام خافا من أن يحمله حامل على المعاجلة بالعقوبة وذلك الحامل هو اما الشيطان أو ادعاؤه للربوبية أو حبه للرياسة أو قومه وهم القبط المتمردون الذين حكى الله تعالى عنهم قال الملأ من قومه (وثالثها) يفرط من الافراط فى الاذية أما قوله أو أن يطغى فالمعنى يطغى بالتخطى الى أن يقول فيك مالاينبغى لجراءته عليك واعلم ان من أمر بشئ فحاول دفعه باعذار يذكرها فلا بد وأن يختم كلامه بما هو الاقوى وهذا كما ان الهدهد ختم عذره بقوله وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله فكذا ههنا بدأ موسى بقوله ان يفرط علينا وختم بقوله أو أن يطغى لما أن طغيانه فى حق الله تعالى أعظم من افراطه فى حق موسى وهرون عليهما السلام أما قوله قال لاتخافا انني معكما أسمع وأرى فالمراد لاتخافا مما عرض فى قلبكما من الافراط والطغيان لان ذلك هو المفهوم من الكلام بين ذلك انه تعالى لم يؤمنهما من الرد ولا من التكذيب بالآيات ومعارضة السحرة أما قوله انني معكما فهو عبارة عن الحراسة والحفظ وعلى هذا الوجه يقال الله معك على وجه الدعاء وأكد ذلك بقوله أسمع وأرى فان من يكون مع الغير وناصرا له وحافظا يجوز أن لايعلم كل مايناله وانما يحرسه فيما يعلم فبين سبحانه وتعالى أنه معهما بالحفظ والعلم فى جميع ماينالهما وذلك

الصعبة الفادحة من الحفر ونقل الاحجار وغيرهما من الامور الشاقة و يقتلون ذكور أولادهم عاما دون عام و يستخدمون نساءهم وتوسيط حكم الارسال بين بيان ﴿ ٥٧ ﴾ رسالتهما و بين ذكر المجئ بآية دالة على صحتها لاظهار

هو النهاية في ازالة الخوف قال القفال قوله أسمع وأرى يحتمل أن يكون مقابلا لقوله ان يفرط علينا او ان يطغى والمعنى يفرط علينا بأن لا يسمع منا أو أن يطغى بان يقتلنا فقال الله تعالى انني معكما أسمع كلامه معكما فأسخره للاستماع منكما وأرى أفعاله فلا اتركه حتى يفعل بكما ما تكرهانه واعلم ان هذه الآية تدل على أن كونه تعالى سميعا وبصيرا صفتان زائدتان على العلم لان قوله انني معكما دل على العلم فقوله أسمع وارى لو دل على العلم لكان ذلك تكريرا وهو خلاف الأصل ثم انه سبحانه اعاد ذلك التكليف فقال فأتياه لانه سبحانه وتعالى قال في المرة الاولى لنريك من آياتنا الكبرى اذهب الى فرعون وفي الثانية اذهب أنت وأخوك وفي الثالثة قال اذهبا الى فرعون وفي الرابعة قال ههنا فأتياه فان قيل انه قيل انه تعالى أمرهما في المرة الثانية بأن يقولا له قولا لينا وفي هذه المرة الرابعة أمرهما أن يقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بني اسرائيل وفيه تغليظ من وجوه (أحدها) ان قوله انا رسولا ربك فيه ابحاث (البحث الاول) انقياده اليهما والتزامه لطاعتهما وذلك يعظم على الملك المتبوع (البحث الثاني) قوله فأرسل معنا بني اسرائيل فيه ادخال النقص على ملكه لانه كان محتاجا اليهم فيما يريده من الاعمال من بناء أو غيره (البحث الثالث) قوله ولا تعذبهم (البحث الرابع) قوله قد جئناك بآية من ربك ففائدة في التليين أولا والتغليظ ثانيا قلنا الان الانسان اذا ظهر لجاجه فلا بد له من التغليظ فان قيل أليس كان من الواجب أن يقولا انا رسولا ربك قد جئناك بآية فارسل معنا بني اسرائيل ولا تعذبهم لان ذكر المعجز مقرونا بادعاء الرسالة أولى من تأخيره عنه قلنا بل هذا أولى من تأخيره عنه لانهم ذكروا مجموع الدعاوى ثم استدلوا على ذلك المجموع بالمعجزة أما قوله قد جئناك بآية من ربك ففيه سؤال وهو انه تعالى أعطاه آيتين وهما العصا واليد ثم قال اذهب أنت وأخوك بآياتي وذلك يدل على ثلاث آيات وقال ههنا جئناك بآية وهذا يدل على انها كانت واحدة فكيف الجمع أجاب القفال بأن معنى الآية الاشارة الى جنس الآيات كأنه قال قد جئناك ببيان من عند الله ثم يجوز أن يكون ذلك حجة واحدة أو حججا كثيرة وأما قوله والسلام على من اتبع الهدى فقال بعضهم هو من قول الله تعالى لهما كأنه قال فقولا انا رسولا ربك وقولا له والسلام على من اتبع الهدى وقال آخرون بل كلام الله تعالى قد تم عند قوله قد جئناك بآية من ربك فقوله بعد ذلك والسلام على من اتبع الهدى وعد من قبلهما لمن آمن وصدق بالسلامة له من عقوبات الدنيا والآخرة والسلام بمعنى السلامة كما يقال رضاع و رضاعة واللام وعلى ههنا بمعنى واحد كما قال لهم اللعنة ولهم سوء الدار على معنى عليهم وقال تعالى من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها وفي موضع آخر ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها أما قوله انا قد أوحي الينا ان العذاب على من كذب وتولى فاعلم ان هذه الآية من أقوى الدلائل على ان عقاب المؤمن لا يدوم وذلك لان الالف واللام في قوله العذاب تفيد الاستغراق أو تفيد الماهية وعلى

الاعتناء به مع ما فيه من تهوين الامر على فرعون فان ارسالهم معهما من غير تعرض لنفسه وقومه بفنون التكاليف الشاقة كما هو حكم الرسالة عادة ليس مما يشق عليه كل المشقة ولان في بيان مجئ الآية نوع طول كما ترى فتأخير ذلك عنه مخل بتجاوب أطراف النظم الكريم وأما ما قيل من أن ذلك دليل على أن تخليص المؤمنين من الكفرة أهم من دعوتهم الى الايمان فكلا (قد جئناك بآية من ربك) تقرير لما تضمنه الكلام السابق من دعوى الرسالة وتعليل لوجوب الارسال فان مجيئهما بالآية من جهته تعالى مما يحقق رسالتهما و يقررها و يوجب الامتثال بأمرهما واظهار اسم الرب في موضع الاضمار مع الاضافة الى ضمير المخاطب لتأكيد ما ذكر من التقرير والتعليل وتوحيد الآية مع تعددها لان المراد اثبات الدعوى ببرهانها لا بيان تعدد الحجة وكذلك قوله تعالى ﴿ ٨ ﴾ س قد جئتكم ببينة وقوله تعالى أولو جئتك بشئ مبين وأما قوله تعالى فأت بآية ان كنت من الصادقين فالظاهر أن المراد بها آية من الآيات (والسلام) المستتبع لسلامة الداعرين من الله تعالى والملائكة وغيرهم من المسلمين (على من اتبع الهدى) بتصديق آيات الله تعالى الهادية الى الحق

وفيه من ترغيبه فى اتباعهما على ألطف وجه مالا يخفى (انا قد أوحى الينا) من جهة ربنا (أن العذاب) الدنيوى والاخروى (على من كذب) أى بآياته تعالى (وتولى) أى أعرض عن قبولها وفيه من التلطيف فى الوعيد حيث لم يصرح بحلول العذاب به مالا مزيد عليه (قال) أى فرعون بعد ما أتياه ما أمرا به وانما طوى ذكره للايجاز والاشعار بانهما كما أمرا بذلك سارعا الى الامتثال به من غير تلعثم وبأن ذلك من الظهور بحيث لا حاجة الى التصريح به (فمن ربكما يا موسى) لم يضف الرب الى نفسه ولو بطريق حكاية ما فى قوله تعالى انا رسولا ربك وقوله تعالى قد جئناك بآية من ربك لغاية عتوه ونهاية طغيانه بل أضافه اليهما لما أن المرسل لابد أن يكون ربا للرسول ولانهما قد صرحا بربوبيته تعالى للكل بأن قالا انا رسول رب العالمين كما وقع فى سورة الشعراء والاقتصار ههنا على ذكر ربوبيته تعالى لفرعون لكفايته فيما هو المقصود والفاء لترتيب السؤال على ما سبق من كونهما رسولى ربهما أى اذا كنتما رسولى ربكما وأخبرا من ربكما الذى أرسلكما وتخصيص النداء بموسى عليه السلام مع توجيه الخطاب اليهما لما أنه الاصل فى الرسالة وهرون وزيره ﴿ كان ﴾ واما ما قيل من أن ذلك لانه قد عرف أن له عليه الصلاة والسلام رقة فأراد أن يفجمه فيرده فيما شاهده منه عليه الصلاة والسلام من حسن البيان القاطع لذلك الطمع الفارغ وأما قوله ولا يكادبين فمن غلوه فى الحبث والدعارة كما مر

التقديرين يقتضى انحصار هذا الجنس فيمن كذب وتولى فوجب فى غير المكذب المتولى ان لا يحصل هذا الجنس اصلا وظاهر هذه الآية يقتضى القطع بأنه لا يعاقب أحدا من المؤمنين بترك العمل به فى بعض الأوقات فوجب ان يبقى على أصله فى نفى الدوام لان العقاب المتناهى اذا حصل بعده السلامة مدة غير متناهية صار ذلك العقاب كأنه لا عقاب فلذلك يحسن مع حصول ذلك القدر أن يقال انه لا عقاب وأيضا قوله والسلام على من اتبع الهدى وقد فسرنا السلام بالسلامة فظاهره يقتضى حصول السلامة لكل من اتبع الهدى والعارف بالله قد اتبع الهدى فوجب أن يكون صاحب السلامة

﴿ قوله تعالى (قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذى اعطى كل شئ خلقه ثم هدى قال فما بال القرون الاولى قال علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى الذى جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به ازواجا من نبات شتى كلوا وارعوا انعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى) اعلم انهما عليهما السلام لما قالا انا رسولا ربك قال لهما فمن ربكما يا موسى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ان فرعون كان شديد القوة عظيم الغلبة كثير العسكر ثم ان موسى عليه السلام لما دعاه الى الله تعالى لم يشتغل معه بالبطش والايذاء بل خرج معه فى المناظرة فدل أنه لو شرع أولا فى الايذاء نسب الى الجهل والسفاهة فاستنكف من ذلك وشرع أولا فى المناظرة وذلك يدل على ان السفاهة من غير الحجة شئ ما كان يرتضيه فرعون مع كمال جهله وكفره فكيف يليق ذلك بمن يدعى الاسلام والعلم ثم ان فرعون لما سأل موسى عليه السلام عن ذلك قبل موسى ذلك السؤال واشتغل باقامة الدلالة على وجود الصانع وذلك يدل على فساد التقليد ويدل أيضا على فساد قول التعليمية الذين يقولون نستفيد معرفة الاله من قول الرسول لان موسى عليه السلام اعترف ههنا بان معرفة الله تعالى يجب أن تكون مقدمة على معرفة الرسول وتدل على فساد قول الحشوية الذين يقولون نستفيد معرفة الله والدين من الكتاب والسنة (المسئلة الثانية) تدل الآية على انه يجوز حكاية كلام المبطل لانه تعالى حكى كلام فرعون فى انكاره الاله وحكى شبهات منكرى النبوة وشبهات منكرى الحشر الا أنه يجب انك متى اوردت السؤال فاقرنه بالجواب لئلا يبقى الشك كما فعل الله تعالى فى هذه المواضع (المسئلة الثالثة) دلت الآية على ان المحق يجب عليه استماع كلام المبطل والجواب عنه من غير ايذاء ولا ايحاش كما فعل موسى عليه السلام بفرعون ههنا وكما أمر الله تعالى رسوله فى قوله ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وقال وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله (المسئلة الرابعة) اختلف الناس فى ان فرعون هل كان عارفا بالله تعالى فقيل انه كان عارفا الا انه كان يظهر الانكار تكبرا وتجبرا وزورا وبهتانا واحتجوا عليه بستة أوجه (أحدها) قوله لقد علمت ما انزل هؤلاء الا رب السموات والارض فمتى نصبت التاء فى علمت

(قال) أي موسى عليه الصلاة والسلام مجيبا له (ربنا) اما مبتدأ وقوله تعالى (الذي أعطى كل شيء خلقه) خبره أو هو خبر لمبتدا محذوف والموصول صفته وأياما ﴿ ٥٩ ﴾ كان فلم يريدا بضمير المتكلم أنفسهما فقط حسبما اراد اللعين بل

كان ذلك خطابا من موسى عليه السلام مع فرعون فدل ذلك على ان فرعون كان عالما بذلك وكذا قوله تعالى وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا (وثانيها) انه كان عاقلا والا لم يجز تكليفه وكل من كان عاقلا قد علم بالضرورة انه وجد بعد العدم وكل من كان كذلك افتقر الى مدبر وهذان العلمان الضروريان يستلزمان العلم بوجود المدبر (وثالثها) قول موسى عليه السلام ههنا ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وكلمة الذي تقتضي وصف المعرفة بجملة معلومة فلا بد وأن تكون هذه الجملة قد كانت معلومة له (ورابعها) قوله في سورة القصص في صفة فرعون وقومه وظنوا أنهم الينا لا يرجعون فذلك يدل على انهم كانوا عالمين بالمبدا الا أنهم كانوا منكرين للمعاد (وخامسها) ان ملك فرعون لم يتجاوز القبط ولم يبلغ الشام ولما هرب موسى عليه السلام الى مدين قال له شعيب لا تخف نجوت من القوم الظالمين فمع هذا كيف يعتقد انه اله العالم (وسادسها) انه لما قال ومارب العالمين قال موسى عليه السلام رب السموات والارض وما بينهما قال ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون يعني انا اطلب منه الماهية وهو يشرح الوصف فهو لم ينازع موسى في الوجود بل طلب منه الماهية فدل هذا على اعترافه باصل الوجود ومن الناس من قال انه كان جاهلا به واتفقوا على ان العاقل لا يجوز أن يعتقد في نفسه انه خالق هذه السموات والارضين والشمس والقمر وانه خالق نفسه لانه يعلم بالضرورة عجزه عنها ويعلم بالضرورة انها كانت موجودة قبله فيحصل العلم الضروري بأنه ليس موجدا لها ولا خالقا لها واختلفوا في كيفية جهله بالله تعالى فيحتمل انه كان دهريا نافيا للمؤثر أصلا ويحتمل انه كان فلسفيا قائلا بالعلة الموجبة ويحتمل انه كان من عبدة الكواكب ويحتمل انه كان من الحلولية المجسمة وأما ادعاؤه الربوبية لنفسه فيعني انه يجب عليهم طاعته والانقياد له وعدم الاشتغال بطاعة غيره (المسئلة الخامسة) انه سبحانه حكى عنه في هذه السورة انه قال فمن ربكما يا موسى وقال في سورة الشعراء ومارب العالمين فالسؤال ههنا بمن وهو عن الكيفية وفي سورة الشعراء بما وهو عن الماهية وهما سؤالان مختلفان والواقعة واحدة والاقرب أن يقال سؤال من كان مقدما على سؤال ما لانه كان يقول انى أبا الله والرب فقال فمن ربكما فلما أقام موسى الدلالة على الوجود وعرف انه لا يمكنه أن يقاومه في هذا المقام لظهوره وجلائه عدل الى المقام الثاني وهو طلب الماهية وهذا أيضا مما ينبه على انه كان عالما بالله لانه ترك المنازعة في هذا المقام لعلمه بغاية ظهوره وشرع في المقام الصعب لان العلم بماهية الله تعالى غير حاصل للبشر (المسئلة السادسة) انما قال فمن ربكما ولم يقل فمن الهكما لانه أثبت نفسه ربا في قوله ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين فذكر ذلك على سبيل التعجب كأنه قال له انا ربك فلم تدعي ربا آخر وهذا الكلام شبيه بكلام نمروذ لان ابراهيم عليه السلام لما قال ربي الذي يحيي ويميت قال نمروذ له أنا أحيي وأميت ولم يكن الاحياء والاماتة التي ذكرهما ابراهيم عليه السلام هما الذي عارضه بهما نمروذ

جميع المخلوقات تحقيقا للحق ورد اعليه كما يفصح عنه ما في حيز الصلة اى هو ربنا الذي اعطى كل شيء من الاشياء خلقه أي صورته وشكله اللائق بما نيط به من الخواص والمنافع أو أعطى مخلوقاته كل شيء تحتاج هي اليه وترتفق به وتقديم المفعول الثاني للاهتمام به أو أعطى كل حيوان نظيره في الخلق والصورة حيث زوج الحصان بالحجر والبعير بالناقة والرجل بالمرأة ولم يزوج شيئا من ذلك بخلاف جنسه وقرئ خلقه على صيغة الماضي على أن الجملة صفة للمضاف أو المضاف اليه وحذف المفعول الثاني اما للاقتصار على الاول أي كل شيء خلقه الله تعالى لم يحرمه من عطائه وانعامه أو للاختصار من كونه منويا مدلولا عليه بقرينة الحال أي أعطى كل شيء خلقه الله تعالى ما يحتاج اليه (ثم هدى) أي الى طريق الانتفاع والارتفاق بما اعطاه وعرفه كيف يتوصل الى بقائه وكماله اما اختيارا كما في الحيوانات اوطبعا كما في الجمادات والقوى الطبيعية النباتية والحيوانية ولما كان الخلق الذي هو عبارة عن تركيب الاجزاء وتسوية الاجسام مقدما على الهداية التي هي عبارة عن ايداع القوى المحركة والمدركة في تلك الاجسام وسط

بينهما كلمة التراخي ولقد ساق عليه الصلاة والسلام وجوابه على نمط رائق وأسلوب لائق حيث بين انه تعالى عالم قادر بالذات خالق لجميع الاشياء منعم عليها بجميع ما يليق بها بطريق التفضل وضمنه أن ارساله تعالى اياه الى الطاغية من جملة هداياته تعالى اياه بعد أن هداه الى الحق بالهدايات التكوينية حيث ركب فيه العقل وسائر المشاعر والآلات الظاهرة والباطنة (قال فما بال القرون الاولى) لما شاهد للعين ما نظمه عليه الصلاة والسلام في ذلك الاستدلال من البرهان النير على الطراز الرائع خاف أن يظهر للناس حقيقة مقالاته عليه الصلاة والسلام ويطلان خرافات نفسه ظهورا بينا فأراد أن يصرفه عليه الصلاة والسلام عن سننه الى ما لا يعنيه من الامور التي لا تعلق لها بالرسالة من الحكايات ويشغله عما هو بصدده عسى يظهر فيه نوع غفلة فيتسلق بذلك الى أن يدعي بين يدي قومه نوع معرفة فقال ما حال القرون الماضية والامم الخالية وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصلة فأجاب عليه الصلاة والسلام بأن العلم بأحوالهم مفصلة مما لا ملابسة له بمنصب الرسالة وانما علمها عند الله عز وجل وأما ما قيل من انه سأله عن حال من خلا من القرون وعن شقاء من شقي ﴿ تركيب ﴾ منهم وسعادة من سعد فيأباه قوله تعالى (قال علمها عند ربي) فان معناه انه من الغيوب التي لا يعلمها الا الله تعالى وانما اباعبد لا علم منها الا ما علمنيه من الامور المتعلقة

الا في اللفظ فكذا ههنا لما ادعى موسى ربوبية الله تعالى ذكر فرعون هذا الكلام ومراده اني انا الرب لا اني ربيتك ومعلوم ان الربوبية التي ادعاها موسى لله سبحانه وتعالى غير هذه الربوبية في المعنى وانه لا مشاركة بينهما الا في اللفظ (المسئلة السابعة) اعلم ان موسى عليه السلام استدل على اثبات الصانع بأحوال المخلوقات وهو قوله ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وهذه الدلالة هي التي ذكرها الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم في قوله سبح اسم ربك الاعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى وقال ابراهيم عليه السلام فانهم عدو لي الا رب العالمين الذي خلقني فهو يهدين وان موسى عليه السلام في أكثر الامور يعول على دلائل ابراهيم عليه السلام وسيأتي تقرير ذلك في سورة الشعراء انشاء الله تعالى واعلم انه يشبه أن يكون الخلق عبارة عن تركيب القوالب والابدان والهداية عبارة عن ابداع القوى المدركة والمحركة في تلك الاجسام وعلى هذا التقدير يكون الخلق مقدما على الهداية ولذلك قال فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فالتسوية راجعة الى القالب ونفخ الروح اشارة الى ابداع القوى وقال ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين الى أن قال ثم انشأناه خلقا آخر فظهر ان الخلق مقدم على الهداية والشروع في بيان عجائب حكمة الله تعالى في الخلق والهداية شروع في بحر لا ساحل له ولنذكر منه أمثلة قريبة الى الافهام (أحدها) ان الطبيعي يقول الثقيل هابط والخفيف صاعد وأشد الاشياء ثقلا الارض ثم الماء وأشدها خفة النار ثم الهواء فلذلك وجب أن تكون النار أعلى العنصريات والارض أسفلها ثم انه سبحانه قلب هذا الترتيب في خلقة الانسان فجعل اعلى الاشياء منه العظم والشعر وهما أيبس ما في البدن وهما بمنزلة الارض ثم جعل تحته الدماغ الذي هو بمنزلة الماء وجعل تحته النفس الذي هو بمنزلة الهواء وجعل تحته الحرارة الغريزية التي في القلب التي هي بمنزلة النار فجعل مكان الارض من البدن الاعلى وجعل مكان النار من البدن الاسفل ليعرف ان ذلك بتدبير القادر الحكيم الرحيم لا باقتضاء العلة والطبيعة (وثانيها) انك اذا نظرت الى عجائب النحل في تركيب البيوت المسدسة وعجائب أحوال التبقي والتعوض في اهتدائها الى مصالح أنفسها عرفت ان ذلك لا يمكن الا بالهام مدبر عالم بجميع المعلومات (وثالثها) انه تعالى هو الذي أنعم على الخلائق بما به قوامهم من المطعوم والمشروب والملبوس والمنكوح هداهم الى كيفية الانتفاع بها ويستخرجون الحديد من الجبال والآلي من البحار ويركبون الادوية والدرياقات النافعة ويجمعون بين الاشياء المختلفة فيستخرجون لذات الاطعمة فثبت انه سبحانه هو الذي خلق كل الاشياء ثم أعطاهم العقول التي بها يتوصلون الى كيفية الانتفاع بها وهذا غير مختص بالانسان بل عام في جميع الحيوانات فأعطى الانسان انسانة والحمار حمارة والبعير ناقة ثم هداها لما يديم التناسل وهدى الاولاد لثدي الأمهات بل هذا غير مختص بالحيوانات بل هو حاصل في اعضائها فانه خلق اليد على تركيب خاص وأودع فيها قوة الاخذ وخلق الرجل على

بما أرسلت به ولو كان المسؤل عنه ماذكر من الشقاوة والسعادة لأجيب ببيان ان من اتبع الهدى منهم فقد سلم ومن تولى فقد عذب حسبما تطق به قوله تعالى ﴿ ٦١ ﴾ والسلام الآيتين (في كتاب) أي مثبت في اللوح المحفوظ بتفاصيله

تركيب خاص وأودع فيها قوة المشي وكذا العين والاذن وجميع الاعضاء ثم ربط البعض بالبعض على وجوه يحصل من ارتباطها مجموع واحد وهو الانسان وانما دلت هذه الاشياء على وجود الصانع سبحانه لان اتصاف كل جسم من هذه الاجسام بتلك الصفة اعني التركيب والقوة والهداية اما ان يكون واجبا أو جائزا والاول باطل لانا نشاهد تلك الاجسام بعد الموت منفكة عن تلك التراكيب والقوى فدل على ان ذلك جائز والجائز لابد له من مرجح وليس ذلك المرجح هو الانسان ولا أبواه لان فعل ذلك يستدعي قدرة عليه وعلما بما فيه من المصالح والمفاسد والامران نائيان عن الانسان لانه بعد كمال عقله يعجز عن تغيير شعرة واحدة وبعد البحث الشديد عن كتب التشريح لا يعرف من منافع الاعضاء ومصالحها الا القدر القليل فلا بد أن يكون المتولي لتدبيرها وترتيبها موجودا آخر وذلك الموجود لا يجوز أن يكون جسما لان الاجسام متساوية في الجسمية فاختصاص ذلك الجسم بتلك المؤثرية لابد وأن يكون جائزا وان كان جائزا افتقر الى سبب آخر والدور والتسلسل محالان فلابد من الانتهاء في سلسلة الحاجة الى موجود مؤثر ومدبر ليس بجسم ولا جسماني ثم تأثير ذلك المؤثر اما أن يكون بالذات أو بالاختيار والاول محال لان الموجب لا يميز مثلا عن مثل وهذه الاجسام متساوية في الجسمية فلم اختص بعضها بالصورة الفلكية وبعضها بالصورة العنصرية وبعضها بالنباتية وبعضها بالحيوانية فثبت ان المؤثر والمدبر قادر والقادر لا يمكنه مثل هذه الافعال العجيبة الا اذا كان عالما ثم ان هذا المدبر الذي ليس بجسم ولا جسماني لابد وأن يكون واجب الوجود في ذاته وفي صفاته والا افتقر الى مدبر آخر ويلزم التسلسل وهو محال واذا كان واجب الوجود في قادريته وعالميته والواجب لذاته لا يتخصص ببعض الممكنات دون البعض وجب أن يكون عالما بكل ما صح أن يكون معلوما وقادرا على كل ما صح أن يكون مقدورا فظهر بهذه الدلالة التي تمسك بها موسى عليه السلام ونبه على تقريرها استناد العالم الى مدبر ليس بجسم ولا جسماني وهو واجب الوجود في ذاته وفي صفاته عالم بكل المعلومات قادر على كل المقدورات وذلك هو الله سبحانه وتعالى (المسئلة الثامنة) ان فرعون خاطب الاثنين بقوله فمن ربكما ثم وجه النداء الى أحدهما وهو موسى عليه السلام لانه الاصل في النبوة وهرون وزيره وتابعه واما لان فرعون كان لحبته يعلم الرتة التي في لسان موسى عليه السلام فأراد استنطاقه دون أخيه لما عرف من فصاحته والرتة التي في لسان موسى عليه السلام ويدل عليه قوله أم انا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين (المسئلة التاسعة) في قوله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وجهان (أحدهما) التقديم والتأخير أي اعطى خلقه كل شيء يحتاجون اليه ويرتفقون به (وثانيهما) أن يكون المراد من الخلق الشكل والصورة المطابقة للمنفعة فكأنه سبحانه قال أعطى كل شيء الشكل الذي يطابق منفعته ومصلحته وقرئ خلقه صفة للمضاف او المضاف اليه والمعنى أن كل شيء خلقه الله

ويجوز أن يكون ذلك تمثيلا لتمكنه وتقرره في علم الله عز وجل بما استحفظه العالم وقيده بالكتبة كما يلوح به قوله تعالى ﴿ لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ أي لا يخطئ ابتداء ولا يذهب علمه بقاء بل هو ثابت ابدا فانهما محالان عليه سبحانه وهو على الاول لبيان أن اثباته في اللوح ليس لحاجته تعالى اليه في العلم به ابتداء أو بقاء واظهار ربي في موقع الاضمار للتلذذ بذكره ولزيادة التقرير والاشعار بعلة الحكم فان الربوبية مما يقتضي عدم الضلال والنسيان حتما ولقد أجاب عليه الصلاة والسلام عن السؤال بجواب عبقري بديع حيث كشف عن حقيقة الحق حجابها مع انه لم يخرج عما كان بصدده من بيان شؤنه تعالى ثم تخلص اليه حيث قال بطريق الحكاية عن الله عز وجل لما سيأتي من الالتفات ﴿ الذي جعل لكم الارض مهدا ﴾ على أن الموصول اما مرفوع على المدح أو منصوب عليه أو خبر مبتدا محذوف أي جعلها لكم كالمهد تمهدونها اوذات مهد وهو مصدر سمي به المفعول وقرئ مهادا وهو اسم لما يمهد كالفراش أو جمع مهد أي جعل كل موضع منها مهدا لكل احد منكم ﴿ وسلك لكم فيها سبلا ﴾ اي حصل لكم طرقا ووسطها

بين الجبال والاودية والبرارى تسلكونها من قطر الى قطر لتقضوا منها ما ربكم وتنتفعوا بمنافعها ومرافقها (وأنزل من السماء ماء) هو المطر (فأخرجنا به) اى بذلك الماء وهو عطف ﴿ ٦٢ ﴾ على أنزل داخل تحت الحكاية وانما التفت الى التكلم للتنبيه على ظهور ما فيه من الدلالة على كمال القدرة والحكمة والايذان بأنه لا يتأتى الا من قادر مطاع عظيم الشأن تنقاد لامره وتذعن لمشيئته الاشياء المختلفة كما فى قوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها وقوله تعالى ام من خلق السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة خلا ان ما قبل الالتفات هناك صريح كلامه تعالى وأما ههنا فحكاية عنه تعالى وجعل قوله تعالى فأخرجنا به هو المحكى مع كون ما قبله كلام موسى عليه الصلاة والسلام خلاف الظاهر مع أنه يفوت حينئذ الالتفات لعدم اتحاد المتكلم (ازواجا) أصنافا سميت بذلك لازدواجها واقتران بعضها ببعض (من نبات) بيان أو صفة لازواجا أى كائنة من نبات وكذا قوله تعالى (شتى) أى متفرقة جمع شتيت ويجوز أن ﴿ الكتاب ﴾ يكون صفة لنبات لما انه فى الاصل

لم يخله من اعطائه وانعامه وأما قوله تعالى قال فما بال القرون الاولى فاعلم ان فى ارتباط هذا الكلام بما قبله وجوها (أحدها) ان موسى عليه السلام لما قرر على فرعون أمر المبدا والمعاد قال فرعون ان كان اثبات المبدا فى هذا الحد من الظهور فما بال القرون الاولى ما اثبتوه وتركوه فكان موسى عليه السلام لما استدل بالدلالة القاطعة على اثبات الصانع قدح فرعون فى تلك الدلالة بقوله ان كان الامر فى قوة هذه الدلالة على ما ذكرت وجب على أهل القرون الماضية أن لا يكونوا غافلين عنها فعارض الحجة بالتقليد (وثانيها) ان موسى عليه السلام هدد بالعذاب أولا فى قوله انا قد أوحى الينا ان العذاب على من كذب وتولى فقال فرعون فما بال القرون الاولى فانها كذبت ثم انهم ما عذبوا (وثالثها) وهو الاظهر ان فرعون لما قال فمن ربكما يا موسى فذكر موسى عليه السلام دليلا ظاهرا وبرهانا باهرا على هذا المطلوب فقال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى فخاف فرعون ان يزيد فى تقرير تلك الحجة فيظهر للناس صدقه وفساد طريق فرعون فاراد أن يصرفه عن ذلك الكلام وأن يشغله بالحكايات فقال فما بال القرون الاولى فلم يلتفت موسى عليه السلام الى ذلك الحديث بل قال علمها عند ربى فى كتاب ولا يتعلق غرضى بأحوالهم فلا اشتغل بها ثم عاد الى تتميم كلامه الاول وايراد الدلائل الباهرة على الوحدانية فقال الذى جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا وهذا الوجه هو المعتمد فى صحة هذا النظم ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى قوله علمها عند ربى فى كتاب فان العلم الذى يكون عند الرب كيف يكون فى الكتاب وتحقيقه هو ان علم الله تعالى صفته وصفة الشئ قائمة به فاما أن تكون صفة الشئ حاصلة فى كتاب فذلك غير معقول فذكروا فيه وجهين (الاول) معناه انه سبحانه أثبت تلك الاحكام فى كتاب عنده ليكون ما كتبه فيه يظهر للملائكة فيكون ذلك زيادة لهم فى الاستدلال على انه تعالى عالم بكل المعلومات منزه عن السهو والغفلة ولقائل أن يقول قوله فى كتاب يوهم احتياجه سبحانه وتعالى فى ذلك العلم الى ذلك الكتاب وهذا وان كان غير واجب لامحالة ولكنه لا أقل من انه يوهمه فى أول الامر لاسيما للكافر فكيف يحسن ذكره مع معاند مثل فرعون فى وقت الدعوة (الوجه الثانى) ان تفسير ذلك بأن بقاء تلك المعلومات فى علمه سبحانه كبقاء المكتوب فى الكتاب فيكون الغرض من هذا الكلام تأكيد القول بأن اسرارها معلومة لله تعالى بحيث لا يزول شئ منها عن علمه وهذا التفسير مؤكد بقوله بعد ذلك لا يضل ربى ولا ينسى (المسئلة الثانية) اختلفوا فى قوله لا يضل ربى ولا ينسى فقال بعضهم معنى اللفظين واحد اى لا يذهب عليه شئ ولا يخفى عليه وهذا قول مجاهد والاكثرون على الفرق بينهما ثم ذكروا وجوها (أحدها) وهو الاحسن ما قاله القفال لا يضل عن الاشياء ومعرفتها وما علم من ذلك لم ينسه فاللفظ الاول اشارة الى كونه عالما بكل المعلومات واللفظ الثانى وهو قوله ولا ينسى دليل على بقاء ذلك العلم أبد الآباد وهو اشارة الى نفى التغير (وثانيها) قال مقاتل لا يخطئ ذلك

مصدرى يستوى فيه الواحد والجمع يعنى انها شتى مختلفة فى الطعم والرائحة والشكل والنفع بعضها صالح للناس على اختلاف وجوه الصلاح وبعضها للبهائم فان من تمام نعمته تعالى أن أرزاق عباده لما كان تحصلها بعمل الانعام جعل علفها مما يفضل عن حاجاتهم ولا يليق بكونه طعاما لهم وقوله تعالى (كلوا وارعوا أنعامكم) حال من ضمير فأخرجنا على ارادة القول أى أخرجنا منها أصناف النبات قائلين كلوا وارعوا أنعامكم أى معدة لانتفاعكم بالذات وبالواسطة آذنين فى ذلك (ان فى ذلك) اشارة الى ما ذكر من شئونه تعالى وأفعاله وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته فى الكمال والتنكير فى قوله تعالى (لآيات) للتفخيم كما وكيفا أى لآيات كثيرة جليلة واضحة الدلالة على شئون الله تعالى فى ذاته وصفاته وأفعاله وعلى صحة نبوة موسى وهرون عليهما الصلاة والسلام (لاولى النهى) جمع نهية سمى بها العقل لنهيه عن اتباع الباطل وارتكاب القبائح كما سمى بالعقل والحجر لعقله وحجره عن ذلك أى لذوى العقول الناهية عن الاباطيل التى من جملتها ما يدعيه الطاغية ويقبله منه فئته الباغية وتخصيص كونها آيات

الكتاب ربى ولا ينسى ما فيه (وثالثها) قال الحسن لا يخطئ وقت البعث ولا ينساه (ورابعها) قال أبو عمرو أصل الضلال الغيبوبة والمعنى لا يغيب عن شئ ولا يغيب عنه شئ (وخامسها) قال ابن جرير لا يخطئ فى التدبير فيعتقد فى غير الصواب كونه صوابا واذا عرفه لا ينساه وهذه الوجوه متقاربة والتحقيق هو الاول (المسئلة الثالثة) انه لما سأله عن الاله وقال فمن ربكما يا موسى وكان ذلك مما سبيله الاستدلال أجاب بما هو الصواب بأوجز عبارة وأحسن معنى ولما سأله عن شأن القرون الاولى وكان ذلك مما سبيله الاخبار ولم يأته فى ذلك خبر وكله الى عالم الغيوب واعلم ان موسى عليه السلام لما ذكر الدلالة الاولى وهى دلالة عامة تتناول جميع المخلوقات من الانسان وسائر الحيوانات وأنواع النبات والجمادات ذكر بعد ذلك دلائل خاصة وهى ثلاثة (اولها) قوله تعالى الذى جعل لكم الارض مهدا وفيه ابحاث (البحث الاول) قرأ أهل الكوفة ههنا وفى الزخرف مهدا والباقون قرؤا مهادا فيهما قال أبو عبيدة الذى اختاره مهادا وهو اسم والمهد اسم الفعل وقال غيره المهد الاسم والمهاد الجمع كالفرش والفراش احتج أبو عبيدة بأن الفراش اسم والفرش فعل وقال المفضل هما مصدران لمهدا ذا وطأله فراشا يقال مهد مهدا ومهادا وفرش فرشا وفراشا (البحث الثانى) قال صاحب الكشاف الذى جعل مرفوع لانه خبر مبتدا محذوف أو لانه صفة لربى أو منصوب على المدح وهذا من مظانه ومجازه واعلم انه يجب الجزم بكونه خبر المبتدا المحذوف اذ لو حملناه على الوجهين الباقيين لزم كونه من كلام موسى عليه السلام ولو كان كذلك لفسد النظم بسبب قوله فاخرجنا به ازواجا من نبات شتى على ما سيأتى بيانه ان شاء الله تعالى (البحث الثالث) المراد من كون الارض مهدا انه تعالى جعلها بحيث يتصرف العباد وغيرهم عليها بالقعود والقيام والنوم والزراعة وجميع وجوه المنافع وقد ذكرناه مستقصى فى سورة البقرة فى تفسير قوله تعالى الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء (وثانيها) قوله تعالى وسلك لكم فيها سبلا قال صاحب الكشاف سلك من قوله ما سلككم فى سقر كذلك سلكنا فى قلوب المجرمين أى جعل لكم فيها سبلا ووسطها بين الجبال والاودية والبرارى (وثالثها) قوله وأنزل من السماء ماء والكلام فيه قد مر فى سورة البقرة أما قوله فاخرجنا به أزواجا من نبات شتى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله فأخرجنا فيه وجوه (أحدها) أن يكون هذا من تمام كلام موسى عليه السلام كأنه يقول ربى الذى جعل لكم كذا وكذا فاخرجنا نحن معاشر عباده بذلك الماء بالحراثة أزواجا من نبات شتى (وثانيها) ان عند قوله وأنزل من السماء ماء تم كلام موسى عليه السلام ثم بعد ذلك أخبر الله تعالى عن صفة نفسه متصلا بالكلام الاول بقوله فاخرجنا به ثم يدل على هذا الاحتمال قوله كلوا وارعوا أنعامكم (وثالثها) قال صاحب الكشاف انتقل فيه من لفظ الغيبة الى لفظ المتكلم المطاع للايذان بأنه سبحانه وتعالى مطاع تنفاد الاشياء المختلفة لامره ومثله قوله تعالى وهو الذى أنزل من

فاخذه فعاد عصا وروى انها انقلبت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة نحو فرعون وجعلت تقول يا موسى مرنى بما شئت و يقول فرعون أنشدك الخ ونزع يده ﴿ ٦٦ ﴾ من جيبه فاذا هى بيضاء بياضا نورانيا خارجا

عن حدود العادات قد غلب شعاعه شعاع الشمس يجتمع عليه النظارة تعجبا من أمره ففى تضاعيف كل من الآيتين آيات جمة لكنها لما كانت غير مذكورة صراحة أكدت بقوله تعالى (كلها) كأنه قيل أريناه آياتنا بجميع مستتبعاتها وتفاصيلها قصدا الى بيان انه لم يبق له فى ذلك عذر ما ولا مساغ لعد بقية الآيات التسع منها لما انها انما ظهرت على يده عليه الصلاة والسلام بعد ما غلب السحرة على مهل فى نحو من عشرين سنة كما مر فى تفسير سورة الاعراف ولا ريب فى أن أمر السحرة مترقب بعد وأبعد من ذلك أن يعد منها ما جعل لاهلاكهم لا لارشادهم الى الايمان من فلق البحر وما ظهر بعد مهلكه من الآيات الظاهرة لبنى اسرائيل من نتق الجبل والحجر سواء أريد به الحجر الذى فر بثوبه أو الذى انفجرت منه العيون وكذا ان يعد منها الآيات الظاهرة على يد الانبياء عليهم الصلاة والسلام بناء على أن حكايته عليه الصلاة والسلام اياها لفرعون فى حكم اظهارها بين يديه واراءته اياها

قوله كلها يفيد العموم والله تعالى ما أراه جميع الآيات لان من جملة الآيات ما أظهرها على الانبياء عليهم السلام الذين كانوا قبل موسى عليه السلام والذين كانوا بعده قلنا لفظ الكل وان كان للعموم لكن قد يستعمل فى الخصوص عند القرينة كما يقال دخلت السوق فاشتريت كل شئ أو يقال ان موسى عليه السلام أراه آياته وعدد عليه آيات غيره من الانبياء عليهم السلام فكذب فرعون بالكل أو يقال تكذيب بعض المعجزات يقتضى تكذيب الكل فحكى الله تعالى ذلك على الوجه الذى يلزم ثم انه سبحانه وتعالى حكى عنه انه كذب وأبى قال القاضى الاباء الامتناع وانه لا يوصف به الا من يتمكن من الفعل والترك ولان الله تعالى ذمه بأنه كذب و بأنه أبى ولو لم يقدر على ما هو فيه لم يصح واعلم ان هذا السؤال مر فى سورة البقرة فى قوله الا ابليس أبى واستكبر والجواب مذكور هناك ثم حكى الله تعالى شبهة فرعون وهى قوله أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى وتركيب هذه الشبهة عجيب وذلك لانه التقى فى مسامعهم ما يصيرون به مبغضين له جدا وهو قوله أجئتنا لتخرجنا من أرضنا وذلك لان هذا مما يشق على الانسان فى النهاية وذلك جعله الله تعالى مساويا للقتل فى قوله ان اقتلوا أنفسكم او اخرجوا من دياركم ثم لما صاروا فى نهاية البغض له أورد الشبهة الطاعنة فى نبوته عليه السلام وهى ان ما جئتنا به سحر لا معجز ولما علم ان المعجز انما يميز عن السحر لكون المعجز مما يتعذر معارضته والسحر مما يمكن معارضته قال فلنأتينك بسحر مثله أما قوله تعالى فاجعل بيننا و بينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت فاعلم ان الموعد يجوز أن يكون مصدرا و يجوز أن يكون اسما لمكان الوعد كقوله وان جهنم لموعدهم أجمعين وأن يكون اسما لزمان الوعد كقولك ان موعدهم الصبح والذى فى هذه الآية بمعنى المصدر رأى اجعلوا بيننا و بينك وعدا لا نخلفه لان الوعد هو الذى يصح وصفه بالخلف أما الزمان والمكان آذنين يصح وصفهما بذلك ومما يؤكد ذلك ان الحسن قرأ يوم الزينة بالنصب وذلك لا يليط سائر المكان و الزمان وانما نصب مكانا لانه هو المفعول الثانى للجعل و التقدير اجعل مكانا موعدا لا نخلفه مكانا سوى اما قوله سوى فاعلم انه قرأ عاصم وحمزة وابن عامر سوى بضم السين والباقون بكسرها وهما لغتان مثل طوى وطوى وقرئ أيضا منونا وغير منون وذكروا فى معناه وجوها (أحدها) قال أبو على مكانا تستوى مسافته على الفريقين وهو المراد من قول مجاهد قال قتادة منصفا بيننا (وثانيها) قال ابن زيد سوى أى مستويا لا يحجب العين ما فيه من الارتفاع والانخفاض فسوى على التقدير الاول صفة المسافة وعلى هذا التقدير صفة المكان والمقصود أنهم طلبوا موضعا مستويا لا يكون فيه ارتفاع ولا انخفاض حتى يشاهد كل الحاضرين كل ما يجرى (وثالثها) مكانا يستوى حال النافى الرضاء به (ورابعها) قال الكلبى مكانا سوى هذا المكان الذى نحن فيه الآن ﴿ قوله تعالى (قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى قال

لا ستحالة الكذب عليه عليه الصلاة والسلام فان حكايته عليه الصلاة والسلام اياها لفرعون مما لم يجر ذكره ههنا على أن ماسيأتي من حمل ما اظهره عليه الصلاة ﴿ ٦٧ ﴾ والسلام على السحر والتصدي للمعارضة بالمثل بإباه اباء

لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم واسروا النجوى) اعلم أن في الآية مسائل (المسئلة الاولى) يحتمل أن قوله تعالى قال موعدكم أن يكون من قول فرعون فبين الوقت ويحتمل أن يكون من قول موسى عليه السلام قال القاضي والاول أظهر لانه المطالب بالاجتماع دون موسى عليه السلام وعندي الاظهر انه من كلام موسى عليه السلام لوجوه (أحدها) انه جواب لقول فرعون فاجعل بيننا وبينك موعدا (وثانيها) وهو ان تعيين يوم الزينة يقتضي اطلاع الكل على ماسيقع فتعيينه انما يليق بالمحق الذي يعرف ان الله ناصره لا بالمبطل الذي يعرف أنه ليس معه الا التلبيس (وثالثها) ان قوله موعدكم خطاب للجمع فلو جعلناه من فرعون الى موسى وهرون لزم اما حمله على التعظيم وذلك لا يليق بحال فرعون معهما أو على ان أقل الجمع اثنان وهو غير جائز أما لو جعلناه من موسى عليه السلام الى فرعون وقومه استقام الكلام (المسئلة الثانية) يوم الزينة قرأ بعضهم بضم الميم وقرأ الحسن بالنصب قال الزجاج اذا رفع فعلى خبر المبتدأ والمعنى وقت موعدكم يوم الزينة ومن نصب فعلى الظرف معناه موعدكم يقع يوم الزينة وقوله وأن يحشر الناس ضحى معناه موعدكم حشر الناس ضحى فوضع أن يكون رفعا ويجوز فيه الخفض عطفا على الزينة كأنه قال موعدكم يوم الزينة ويوم يحشر الناس ضحى فان قيل ألستم قلتم في تفسير قوله اجعل بيننا وبينك موعدا ان التقدير اجعل مكان موعد لا نخلفه مكانا سوى فهذا كيف يطابقه الجواب بذكر الزمان قلنا هو مطابق معنى وان لم يطابق لفظا لانهم لا بد لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة في مكان معين مشهور باجتماع الناس في ذلك فبذكر الزمان علم المكان (المسئلة الثالثة) ذكر المفسرون في يوم الزينة وجوها (أحدها) انه يوم عيدلهم يتزينون فيه (وثانيها) قال مقاتل يوم النيروز (وثالثها) قال سعيد بن جبير يوم سوق لهم (ورابعها) قال ابن عباس يوم عاشوراء وانما قال يحشر الناس بالياء والتاء لانهم يجتمعون ذلك اليوم بأنفسهم من غير حاشر لهم وقرئ وأن يحشر الناس بالياء والتاء يريد وأن تحشر الناس يا فرعون وأن يحشر اليوم ويجوز أن يكون فيه ضمير فرعون ذكره بلفظ الغيبة اما على العادة التي تخاطب بها الملوك أو خاطب القوم بقوله موعدكم وجعل ضمير يحشر لفرعون وانما أوعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله تعالى وظهور دينه وكبت الكافر وزهوق الباطل على رؤس الاشهاد في المجمع العالم ليكثر المحدث بذلك الامر العجيب في كل بدو وحضر ويشيع في جميع اهل الوبر والمدر قال القاضي انه عين اليوم بقوله يوم الزينة ثم عين من اليوم وقتا معينا بقوله وأن يحشر الناس ضحى أما قوله فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى فاعلم ان التولي قد يكون اعراضا وقد يكون انصرافا والظاهر ههنا انه بمعنى الانصراف وهو مفارقته موسى عليه السلام على الموعد الذي تواعدوا للاجتماع فقال مقاتل فتولى أي أعرض وثبت على اعراضه عن الحق ودخل

بيننا وينطق بأن المراد بها ماذكرناه قطعا ولولا ذلك لجاز جعل ما فصله عليه الصلاة والسلام من أفعاله تعالى الدالة على اختصاصه بالربوبية وأحكامها من جملة الآيات (فكذب) موسى عليه الصلاة والسلام من غير تردد وتأخر مع ماشاهد في يده من الشواهد الناطقة بصدقه جحودا وعنادا (وأبى) الايمان والطاعة لعتوه واستكباره وقيل كذب بالآيات جميعا وأبى أن يقبل شيئا منها أو أبى قبول الحق وقوله تعالى (قال أجئتنا لتخرجنا من ارضنا بسحرك يا موسى) استئناف مبين لكيفية تكذيبه وإبائه والهمزة لانكار الواقع واستبعاده وادعاء أنه أمر محال والمجئ اما على حقيقته او بمعنى الاقبال على الامر والتصدي له أي اجئتنا من مكانك الذي كنت فيه بعد ما غبت عنا أو أقبلت علينا لتخرجنا من مصر بما اظهرته من السحر فان ذلك

مما لا يصدر عن العاقل لكونه من باب المحال اذا المحال وانما قاله لحمل قومه على غاية المقت لموسى عليه الصلاة والسلام

بهم مع انها ايات للعالمين باعتبار أنهم المنتفعون بها (منها خلقناكم) أى فى ضمن خلق ابيكم آدم عليه الصلاة والسلام منها فان كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه

عليه الصلاة والسلام اذ لم تكن فطرته البديعة مقصورة على نفسه عليه الصلاة والسلام بل كانت انموذجا منطويا على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء اجماليا ستتبعها لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه الصلاة والسلام منها خلقا للكل منها وقيل المعنى خلقنا أبدانكم من النطفة المتولدة من الاغذية المتولدة من الارض بوسايط وقيل ان الملك الموكل بالرحم يأخذ من تربة المكان الذى يدفن فيه المولود فيبددها على النطفة فيخلق من التراب والنطفة (وفيها نعيدكم) بالاماتة وتفريق الاجزاء وايثار كلمة فى على كلمة الى للدلالة على الاستقرار المديد فيها (ومنها نخرجكم تارة اخرى) بتأليف أجزائكم المتفتتة المختلطة بالتراب على الهيئة السابقة ورد الارواح اليها وكون هذا الاخراج تارة اخرى باعتبار أن خلقهم من الارض اخراج لهم منها وان لم يكن على نهج التارة الثانية والتارة فى الاصل اسم للتور الواحد وهو الجريان ثم اطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات المتجددة كما مر فى المرة

السماء ماء فاخرجنا به نبات كل شئ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها أمن خلق السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماء فانبتنا به حدائق ذات بهجة واعلم ان قوله فاخرجنا اما أن يكون من كلام موسى عليه السلام أو من كلام الله تعالى والاول باطل لان قوله بعد ذلك كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لاولى النهى منها خلقناكم وفيها نعيدكم لا يليق بموسى عليه السلام وأيضا فقوله فاخرجنا به أزواجا من نبات شتى لا يليق بموسى لان أكثر ما فى قدرة موسى عليه السلام صرف المياه الى سقى الاراضى وأما اخراج النبات على اختلاف ألوانها وطبائعها فليس من موسى عليه السلام فثبت ان هذا كلام الله تعالى ولا يجوز أن يقال كلام الله ابتداؤه من قوله فاخرجنا به أزواجا من نبات شتى لان الفاء يتعلق بما قبله فلا يجوز جعل هذا كلام الله تعالى وجعل ما قبله كلام موسى عليه السلام فلم يبق الا أن يقال ان كلام موسى عليه السلام ثم عند قوله لا يضل ربى ولا ينسى ثم ابتدئ كلام الله تعالى من قوله الذى جعل لكم الارض مهدا ويكون التقدير هو الذى جعل لكم الارض مهدا فيكون الذى خبر مبتدا محذوف ويكون الانتقال من الغيبة الى الخطاب التفاتا (المسئلة الثانية) ظاهر الآية يدل على أنه سبحانه انما يخرج النبات من الارض بواسطة انزال الماء فيكون للماء فيه اثر وهذا بتقدير ثبوته لا يقدح فى شئ من أصول الاسلام لانه سبحانه وتعالى هو الذى أعطاها هذه الخصوص والطبائع لكن المتقدمين من المتكلمين ينكرونه ويقولون لا تأثير له فيه البتة (المسئلة الثالثة) قوله تعالى أزواجا أى أصنافا سميت بذلك لانها مزدوجة مقرون بعضها مع بعض شتى صفة للازواج جمع شتيت كمريض ومرضى ويجوز أن يكون صفة للنبات والنبات مصدر سمى به النابت كما يسمى بالنبت فاستوى فيه الواحد والجمع يعنى انها شتى مختلفة النفع والطعم والطبع بعضها يصلح للناس وبعضها يصلح للبهائم أما قوله كلوا وارعوا أنعامكم فهو حال من الضمير فى أخرجنا والمعنى أخرجنا أصناف النبات آذنين فى الانتفاع بها مبيحين أن تأكلوا بعضها وتعلفوا بعضها وقد تضمن قوله كلوا سائر وجوه المنافع فهو كقوله ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وقوله ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما وقوله كلوا أمر اباحة ان فى ذلك أى فيما ذكرت من هذه النعم لآيات اى لدلالات لذوى النهى أى العقول والنهية العقل قال أبو على الفارسى النهى يجوز أن يكون مصدرا كالهدى ويجوز أن يكون جمعا أما قوله منها خلقناكم فاعلم أنه سبحانه لما ذكر منافع الارض والسماء بين أنها غير مطلوبة لذاتها بل هى مطلوبة لكونها وسائل الى منافع الآخرة فقال منها خلقناكم وفيه سؤالان (السؤال الأول) ما معنى قوله منها خلقناكم مع انه سبحانه وتعالى خلقنا من نطفة على ما بين ذلك فى سائر الآيات والجواب من وجهين (الاول) انه لما خلق أصلنا وهو آدم عليه السلام من التراب على ما قال كمثل آدم خلقه من تراب لاجرم أطلق ذلك علينا (الثانى) ان تولد الانسان انما هو من النطفة ودم

الطمث وهما يتولدان من الاغذية والغذاء اما حيواني أو نباتي والحيواني ينتهي الى النبات والنبات انما يحدث من امتزاج الماء والتراب فصح انه تعالى خلقنا منها وذلك لاينافي كوننا مخلوقين من النطفة (والثالث) ذكرناه في قوله تعالى هو الذي يصوركم في الارحام خير ابن مسعود ان الله يأمر ملك الارحام أن يكتب الاجل والرزق والارض التي يدفن فيها وانه يأخذ من تراب تلك البقعة ويذره على النطفة ثم يدخلها في الرحم (السؤال الثاني) ظاهر الآية يدل على أن الشيء قد يكون مخلوقا من الشيء وظاهر قول المتكلمين يأباه والجواب ان كان المراد من خلق الشيء من الشيء ازالة صفة الشيء الاول عن الذات واحداث صفة الشيء الثاني فيه فذلك جائز لأنه لا منافاة فيه أما قوله تعالى وفيها نعيدكم فلا شبهة في ان المراد الاعادة الى القبور حتى تكون الارض مكانا وظرفا للكل من مات الا من رفعه الله الى السماء ومن هذا حاله يحتمل أن يعاد اليها أيضا بعد ذلك أما قوله تعالى ومنها نخرجكم تارة أخرى ففيه وجوه (أحدها) وهو الاقرب ومنها نخرجكم يوم الحشر والبعث (وثانيها) ومنها نخرجكم ترابا وطينا ثم نحييكم بعد الاخراج وهذا مذكور في بعض الاخبار (وثالثها) المراد عذاب القبر عن البراء قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الانصار فذكر عذاب القبر وما يخاطب به المؤمن والكافر وانه ترد روحه في جسده ويرد الى الارض وأنه تعالى يقول عند اعادتهم الى الارض اني وعدتهم اني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى واعلم ان الله تعالى عدد في هذه الآيات منافع الارض وهي انه تعالى جعلها لهم فراشا ومهادا يتقلبون عليها وسوى لهم فيها مسالك يترددون فيها كيف أرادوا وأنبت فيها أصناف النبات التي منها أقواتهم وعلف دوابهم وهي أصلهم الذي منه يتفرعون ثم هي كفاتهم اذا ماتوا ومن ثم قال عليه السلام بروا بالارض فانها بكم برة ﴿ قوله تعالى (ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى) اعلم انه تعالى بين انه أرى فرعون الآيات كلها ثم انه لم يقبلها واختلفوا في المراد بالآيات فقال بعضهم أراد كل الادلة ما يتصل بالتوحيد وما يتصل بالنبوة أما التوحيد فاذكر في هذه السورة من قوله ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وقوله الذي جعل لكم الارض مهدا الآية وما ذكر في سورة الشعراء قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والارض الآيات وأما النبوة فهي الآيات التسع التي خص الله بها موسى عليه السلام وهي العصا واليد وفلق البحر والحجر والجراد والقمل والضفادع والدم ونتق الجبل وعلى هذا التقرير معنى أريناه عرفناه صحتها وأوضحنا له وجه الدلالة فيها ومنهم من حمل ذلك على ما يتصل بالنبوة وهي هذه المعجزات وأما أصناف الآيات الى نفسه سبحانه وتعالى مع ان المظهر لها موسى عليه السلام لانه أجراها على يديه كما أضاف نفخ الروح الى نفسه فقال فنفخنا فيها من روحنا مع ان النفخ كان من جبريل عليه السلام فان قيل

بمضمونها واسناد الاراءة الى نون العظمة نظرا الى الحقيقة لا الى موسى نظرا الى الظاهر لتهويل أمر الآيات وتفخيم شأنها واظهار كمال شناعة اللعين وتماديه في المكابرة والعناد أي وبالله لقد بصرنا فرعون أو عرفناه (آياتنا) حين قال لموسى عليه الصلاة والسلام ان كنت جئت بآية فأت بها ان كنت من الصادقين فألقى عصاه فاذا هي ثعبان مبين ونزع يده فاذا هي بيضاء للناظرين وصيغة الجمع مع كونهما اثنتين باعتبار ما في تضاعيفهما من بدائع الامور التي كل منها آية بينة لقوم يعقلون حسبما بين في تفسير قوله تعالى اذهب أنت وأخوك بآياتي وقد ظهر عند فرعون أمور أخر كل واحد منها داهية دهياء فانه روي انه عليه الصلاة والسلام لما ألقاها انقلبت ثعبانا اشعر فاغرا فاه بين لحييه ثمانون ذراعا وضع لحيه الاسفل على الارض

يالاعلى على سور ﴿ ٩ ﴾ س القصر وتوجه نحو فرعون فهرب وأحدث وانهزم الناس مزدحمين فمات منهم خمسة وعشرون ألفا من قومه فصاح فرعون ياموسى أنشدك بالذي أرسلك الا أخذته

فاخذه فعاد عصا وروى انها انقلبت حية ارتفعت ثلاثين ذراعا ثم انحطت مقبلة نحو فرعون وجعلت تقول

يا موسى مرني بما شئت و يقول فرعون أنشدك الخ ونزع يده ﴿ من جيبه فاذا هي بيضاء بياضا نورانيا خارجا

عن حدود العادات قد غلب شعاعه شعاع الشمس يحتمع عليه النظارة تعجبا من أمره ففي تضاعيف كل من الآيتين آيات جمة لكنها لما كانت غير مذكورة صراحة أكدت بقوله تعالى (كلها) كانه قيل أريناه آياتنا بجميع مستتبعاتها وتفاصيلها قصدا الى بيان انه لم يبق له في ذلك عذر ما ولا مساغ لعد بقية الآيات التسع منها لما انها ظهرت على يده عليه الصلاة والسلام بعد ما غلب السحرة على مهل في نحو من عشرين سنة كما مر في تفسير سورة الاعراف ولا ريب في أن أمر السحرة مترقب بعد وأبعد من ذلك أن يعد منها ما جعل لاهلاكهم لا لارشادهم الى الايمان من فلق البحر وما ظهر بعد مهلكه من الآيات الظاهرة لبني اسرائيل من نتق الجبل والحجر سواء أريد به الحجر الذي فر بثوبه أو الذي انفجرت منه العيون وكذا ان يعد منها الآيات الظاهرة على يد الانبياء عليهم الصلاة والسلام بناء على أن حكايته عليه الصلاة والسلام اياها لفرعون في حكم اظهارها بين يديه واراءته اياها

قوله كلها يفيد العموم والله تعالى ما أراه جميع الآيات لان من جملة الآيات ما أظهرها على الانبياء عليهم السلام الذين كانوا قبل موسى عليه السلام والذين كانوا بعده فانا انما نسلم ان لفظ الكل وان كان للعموم لكن قد يستعمل في الخصوص عند القرينة كما يقال دخلت السوق فاشتريت كل شيء أو يقال ان موسى عليه السلام أراه آياته وعدد عليه آيات غيره من الانبياء عليهم السلام فكذب فرعون بالكل أو يقال تكذيب بعض المعجزات يقتضي تكذيب الكل فحكى الله تعالى ذلك على الوجه الذي يلزم ثم انه سبحانه وتعالى حكى عنه انه كذب وأبى قال القاضي الاباء الامتناع وانه لا يوصف به الا من يتمكن من الفعل والترك ولان الله تعالى ذمه بأنه كذب وبأنه أبى ولو لم يقدر على ما هو فيه لم يصح واعلم ان هذا السؤال مر في سورة البقرة في قوله الا ابليس أبى واستكبر والجواب مذكور هناك ثم حكى الله تعالى شبهة فرعون وهي قوله أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى وتركيب هذه الشبهة عجيب وذلك لانه ألقى في مسامعهم ما يصيرون به مبغضين له جدا وهو قوله أجئتنا لتخرجنا من أرضنا وذلك لان هذا مما يشق على الانسان في النهاية ولذلك جعله الله تعالى مساويا للقتل في قوله ان اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ثم لما صاروا في نهاية البغض له أورد الشبهة الطاعنة في نبوته عليه السلام وهي ان ما جئتنا به سحر لا معجز ولما علم ان المعجز انما يميز عن السحر لكون المعجز مما يتعذر معارضته والسحر مما يمكن معارضته قال فلنأتينك بسحر مثله أما قوله تعالى فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت فاعلم ان الموعد يجوز أن يكون مصدرا و يجوز أن يكون اسما لمكان الوعد كقوله وان جهنم لموعدهم أجمعين وأن يكون اسما لزمان الوعد كقوله ان موعدهم الصبح والذي في هذه الآية بمعنى المصدر أي اجعلوا بيننا و بينك وعدا لا نخلفه لان الوعد هو الذي يصح وصفه بالخلف أما الزمان والمكان فذين يصح وصفهما بذلك ومما يؤكد ذلك ان الحسن قرأ يوم الزينة بالنصب وذلك لا يليق بسائر الاكان و الزمان وانما نصب مكانا لانه هو المفعول الثاني للجعل و التقدير اجعل مكانا موعدا لا نخلفه مكانا سوى اما قوله سوى فاعلم انه قرأ عاصم وحمزة وابن عامر سوى بضم السين والباقون بكسرها وهما لغتان مثل طوى وطوى وقرئ أيضا منونا وغير منون وذكروا في معناه وجوها (أحدها) قال أبو علي مكانا تستوي مسافته على الفريقين وهو المراد من قول مجاهد قال قتادة منصفا بيننا (وثانيها) قال ابن زيد سوى أي مستويا لا يحجب العين ما فيه من الارتفاع والانخفاض فسوى على التقدير الاول صفة المسافة وعلى هذا التقدير صفة المكان والمقصود أنهم طلبوا موضعا مستويا لا يكون فيه ارتفاع ولا انخفاض حتى يشاهد كل الحاضرين كل ما يجري (وثالثها) مكانا يستوي حال النافي الرضا به (ورابعها) قال الكلبي مكانا سوى هذا المكان الذي نحن فيه الآن ﴿ قوله تعالى (قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى قال

لاستحالة الكذب عليه عليه الصلاة والسلام فان حكايته عليه الصلاة والسلام اياها لفرعون مما لم يجر ذكره ههنا على أن ماسيأتي من حمل ما اظهره عليه الصلاة والسلام على السحر والتصدي للمعارضة بالمثل يأباه اباء

لهم موسى ويلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم واسروا النجوى) اعلم أن في الآية مسائل (المسئلة الاولى) يحتمل أن قوله تعالى قال موعدكم أن يكون من قول فرعون فبين الوقت ويحتمل أن يكون من قول موسى عليه السلام قال القاضي والاول أظهر لانه المطالب بالاجتماع دون موسى عليه السلام وعندي الاظهر انه من كلام موسى عليه السلام لوجوه (أحدها) انه جواب لقول فرعون فاجعل بيننا وبينك موعدا (وثانيها) وهو ان تعيين يوم الزينة يقتضي اطلاع الكل على ماسيقع فتعيينه انما يليق بالمحق الذي يعرف ان الله لا يبطل المبطل الذي يعرف أنه ليس معه الا التلبيس (وثالثها) ان قوله موعدكم خطاب للجمع فلو جعلناه من فرعون الى موسى وهرون لزم اما حمله على التعظيم وذلك لا يليق بحال فرعون معهما أو على ان أقل الجمع اثنان وهو غير جائز أما لو جعلناه من موسى عليه السلام الى فرعون وقومه استقام الكلام (المسئلة الثانية) يوم الزينة قرأ بعضهم بضم الميم وقرأ الحسن بالنصب قال الزجاج اذا رفع فعلى خبر المبتدأ والمعنى وقت موعدكم يوم الزينة ومن نصب فعلى الظرف معناه موعدكم يقع يوم الزينة وقوله وأن يحشر الناس ضحى معناه موعدكم حشر الناس ضحى فوضع أن يكون رفعا ويجوز فيه الخفض عطفا على الزينة كأنه قال موعدكم يوم الزينة ويوم يحشر الناس ضحى فان قيل أليس قلتم في تفسير قوله اجعل بيننا وبينك موعدا ان التقدير اجعل مكان موعد لانخلفه مكانا سوى فههنا كيف يطابقه الجواب بذكر الزمان قلنا هو مطابق معنى وان لم يطابق لفظا لانهم لابد لهم من أن يجتمعوا يوم الزينة في مكان معين مشهور باجتماع الناس في ذلك المكان فبذكر الزمان علم المكان (المسئلة الثالثة) ذكر المفسرون في يوم الزينة وجوها (أحدها) انه يوم عيدلهم يتزينون فيه (وثانيها) قال مقاتل يوم النيروز (وثالثها) قال سعيد بن جبير يوم سوق لهم (ورابعها) قال ابن عباس يوم عاشوراء وانما قال يحشر فانهم يجتمعون ذلك اليوم بأنفسهم من غير حاشر لهم وقرئ وأن يحشر الناس بالياء والتاء يريد وأن تحشر الناس يا فرعون وأن يحشر اليوم ويجوز أن يكون فيه ضمير فرعون ذكره بلفظ الغيبة اما على العادة التي تخاطب بها الملوك أو خاطب القوم بقوله موعدكم وجعل ضمير يحشر لفرعون وانما أوعدهم ذلك اليوم ليكون علو كلمة الله تعالى وظهور دينه وكبت الكافر وزهوق الباطل على رؤس الاشهاد في المجمع العالم ليكثر المحدث بذلك الامر العجيب في كل بدو وحضر ويشيع في جميع اهل الوبر والمدر قال القاضي انه عين اليوم بقوله يوم الزينة ثم عين من اليوم وقتا معينا بقوله وأن يحشر الناس ضحى أما قوله فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى فاعلم ان التولي قد يكون اعراضا وقد يكون انصرافا والظاهر ههنا انه بمعنى الانصراف وهو مفارقته موسى عليه السلام على الموعد الذي تواعدوا للاجتماع قال مقاتل فتولى أي أعرض وثبت على اعراضه عن الحق ودخل

بينا وينطق بأن المراد بها ماذكرناه قطعا ولا ذلك لجاز جعل ما فصله عليه الصلاة والسلام من أفعاله تعالى الدالة على اختصاصه بالربوبية وأحكامها من جملة الآيات (فكذب) موسى عليه الصلاة والسلام من غير تردد وتأخر مع ماشاهد في يده من الشواهد الناطقة بصدقه جحودا وعنادا (وأبى) الايمان والطاعة لعتوه واستكباره وقيل كذب بالآيات جميعا وأبى أن يقبل شيئا منها أو أبى قبول الحق وقوله تعالى (قال أجئتنا لتخرجنا من ارضنا بسحرك يا موسى) استئناف مبين لكيفية تكذيبه وبائه والهمزة لانكار الواقع واستقباحه وادعاء أنه أمر محال والمجئ اما على حقيقته او بمعنى الاقبال على الامر والتصدي له أي اجئتنا من مكانك الذي كنت فيه بعد ما غبت عنا أو أقبلت علينا لتخرجنا من مصر بما اظهرته من السحر فان ذلك

مما لا يصدر عن العاقل لكونه من باب تحار لذا المحال وانما قاله لحمل قومه على غاية المقت لموسى عليه الصلاة والسلام

بابرازان مراده عليه الصلاة والسلام ليس مجرد انجاء بني اسرائيل من ايديهم بل اخراج القبط من وطنهم وحيازة اموالهم وأملاكهم بالكلية حتى لا يتوجه الى اتباعه أحد ﴿ ٦٨ ﴾ و يبالغوا في المدافعة والمخاصمة وسمى ما اظهره عليه الصلاة والسلام من المعجزة الباهرة سحرا لتجسيرهم على المقابلة ثم ادعى انه يعارضه بمثل ما اتى به عليه الصلاة والسلام فقال (فلنأتينك بسحر مثله) الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها واللام جواب قسم محذوف كانه قيل اذا كان كذلك فوالله لنأتينك بسحر مثل سحرك (فاجعل بيننا و بينك موعدا) أي وعدا كما ينبئ عنه وصفه بقوله تعالى (لا نخلفه) فانه المناسب لا المكان والزمان أي لا نخلف ذلك الوعد (نحن ولا انت) وانما فوض اللعين امر الوعد الى موسى عليه الصلاة والسلام للاحتراز عن نسبته الى ضعف القلب وضيق المجال واظهار الجلادة واراءة أنه متمكن من تهيئة أسباب المعارضة وترتيب آلات المغالبة طال الامد أم قصر كما أن تقديم ضميره على ضمير موسى عليه الصلاة والسلام وتوسيط كلمة النفي بينهما للايذان بمسارعته الى عدم الاخلاف وأن عدم اخلافه لا يوجب عدم اخلافه عليه الصلاة والسلام ولذلك أكد ﴿ عنها ﴾ النفي بتكرير حرفه وانتصاب

تحت قوله فجمع كيده السحرة وسائر من يجتمع لذلك و يدخل فيه الآلات وسائر ما أوردته السحرة ثم أتى دخل تحته أتى الموضع بالسحرة و بالقوم و بالآلات قال ابن عباس كانوا اثنين وسبعين ساحرا مع كل واحد منهم حبل وعصا وقيل كانوا أربعمائة وقيل أكثر من ذلك ثم ضربت لفرعون قبة فجلس فيها ينظر اليهم وكان طول القبة سبعين ذراعا ثم بين تعالى أن موسى عليه السلام قدم قبل كل شيء الوعيد والتحذير مما قالوه وأقدموا عليه فقال و يلكم لا تفتروا على الله كذبا بأن تزعموا بأن الذي جئت به ليس بحق وأنه سحر فيمكنكم معارضتي قال الزجاج يجوز في انتصاب و يلكم أن يكون المعنى ألزمهم الله و يلا ان افتروا على الله كذبا و يجوز على النداء كقوله يا و يلتا أألد وأنا عجوز يا و يلتا من بعثنا من مرقدنا وقوله فيسحتكم بعذاب أي يعذبكم عذابا مهلكا مستأصلا وقرأ حمزة وعاصم والكسائي برفع الياء من الاسحات والباقون بفتحها من السحت والاسحات لغة أهل نجد و بني تميم والسحت لغة أهل الحجاز فكانه تعالى قال من افترى على الله كذبا حصل له أمران (أحدهما) عذاب الاستئصال في الدنيا أو العذاب الشديد في الآخرة وهو المراد من قوله فيسحتكم بعذاب (والثاني) الخيبة والحرمان عن المقصود وهو المراد بقوله وقد خاب من افترى ثم بين سبحانه وتعالى انه لما قال موسى عليه السلام ذلك اعرضوا عن قوله وتنازعوا أمرهم بينهم وفي تنازعوا قولان (أحدهما) تفاوضوا وتشاوروا ليستقروا على شيء واحد (والثاني) قال مقاتل اختلفوا فيما بينهم ثم قال بعضهم دخل في التنازع فرعون وقومه ومنهم من يقول بل هم السحرة وحدهم والكلام محتمل وليس في الظاهر ما يدل على الترجيح وذكروا في قوله وأسروا النجوى وجوها (أحدها) انهم أسروها من فرعون وعلى هذا التقدير فيه وجوه (الاول) قال ابن عباس رضي الله عنهما ان نجواهم قالوا ان غلبنا موسى اتبعناه (والثاني) قال قتادة ان كان ساحرا فسنغلبه وان كان من السماء فله امر (الثالث) قال وهب لما قال و يلكم الآية قالوا ما هذا بقول ساحر (القول الثاني) انهم أسروا النجوى من موسى وفرعون ونجواهم هو قولهم ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم وهو قول السدي (الوجه الثالث) انهم أسروا النجوى من موسى وهرون ومن فرعون وقومه أيضا وكان نجواهم انهم كيف يجب تدبير أمر الحبال والعصى وعلى أي وجه يجب اظهارها فيكون أوقع في القلوب وأظهر للعيوب وهو قول الضحاك * قوله تعالى (قالوا ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما و يذهبا بطريقتكم المثلى فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) القراءة المشهورة ان هذان لساحران ومنهم من ترك هذا القراءة وذكروا وجوها أخر (أحدها) قرأ أبو عمرو وعيسى بن عمر ان هذين لساحران وقالوا هي قراءة عثمان وعائشة وابن الزبير وسعيد بن جبير والحسن رضي الله عنهم واحتج أبو عمرو وعيسى على ذلك بما روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله

(مكانا سوى) بفعل يدل عليه المصدر لا به فانه موصوف أو بانه بدل من موعدا على تقدير مكان مضاف اليه فحينئذ تكون مطابقة الجواب فى قوله تعالى (قال موعدكم يوم ﴿ ٦٩ ﴾ الزينة) من حيث المعنى فان يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه يومئذ أو باضمار مثل مكان موعدكم مكان يوم الزينة كما هو على الاول أو موعدكم موعد يوم الزينة وقرئ يوم بالنصب وهو ظاهر فى أن المراد به المصدر ومعنى سوى منتصفا تستوى مسافته الينا والسيك وهو فى النعت كقولهم قوم عدى فى الشذوذ وقرئ بكسر السين قيل يوم الزينة يوم عاشوراء أو يوم النيروز أو يوم عيد كان لهم فى كل عام وانما خصه عليه الصلاة والسلام بالتعيين لاظهار كمال قوته وكونه على ثقة من أمره وعدم مبالاته بهم لما أن ذلك اليوم وقت ظهور غاية شوكتهم وليكون ظهور الحق وزهوق الباطل فى يوم مشهود على رؤس الاشهاد ويشيع ذلك فيما بين كل حاضر وباد (وأن يحشر الناس ضحى) عطف على يوم أو الزينة وقرئ على البناء للفاعل بالتاء على خطاب

عنها انها سئلت عن قوله ان هذان لساحران وعن قوله ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى فى المائدة وعن قوله لكن الراسخون فى العلم منهم الى قوله والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة فقالت يا ابن أختى هذا خطأ من الكاتب وروى عن عثمان انه نظر فى المصحف فقال أرى فيه لحنا وستقيمه العرب بالسنتها وعن أبى عمرو انه قال انى لاستحيى ان أقرأ ان هذان لساحران (وثانيها) قرأ ابن كثير ان هذان بتخفيف ان وتشديد نون هذان (وثالثها) قرأ حفص عن عاصم ان هذان بتخفيف النونين (ورابعها) قرأ عبد الله بن مسعود وأسروا النجوى أن هذان ساحران بفتح الالف وجزم نونه ساحران بغير لام (وخامسها) عن الاخفش ان هذان لساحران خفيفة فى معنى ثقيلة وهى لغة قوم يرفعون بها ويدخلون اللام ليفرقوا بينها وبين التى تكون فى معنى ما (وسادسها) روى عن أبى بن كعب ما هذان الا ساحران وروى عنه أيضا ان هذان الا ساحران وعن الخليل مثل ذلك وعن أبى أيضا ان ذان الا ساحران فهذه هى القراآت الشاذة المذكورة فى هذه الآية واعلم ان المحققين قالوا هذه القراآت لا يجوز تصحيحها لانها مقولة بطريق الآحاد والقرآن يجب أن يكون منقولا بالتواتر اذ لو جوزنا اثبات زيادة فى القرآن بطريق الآحاد لما أمكننا القطع بأن هذا الذى هو عندنا كل القرآن لانه لما جاز فى هذه القراآت انها مع كونها من القرآن ما نقلت بالتواتر جاز فى غيرها ذلك فثبت أن تجويز كون هذه القراآت من القرآن يطرق جواز الزيادة والنقصان والتغيير الى القرآن وذلك يخرج القرآن عن كونه حجة ولما كان ذلك باطلا فكذلك ما أدى اليه وأما الطعن فى القراءة المشهورة فهو اسوأ مما تقدم من وجوه (أحدها) انه لما كان نقل هذه القراءة فى الشهرة كنقل جميع القرآن فلو حكمنا ببطلانها جاز مثله فى جميع القرآن وذلك يفضى الى القدح فى التواتر والى القدح فى كل القرآن وانه باطل واذا ثبت ذلك امتنع صيرورته معارضا بخبر الواحد المنقول عن بعض الصحابة (وثانيها) ان المسلمين أجمعوا على ان ما بين الدفتين كلام الله تعالى وكلام الله تعالى لا يجوز أن يكون لحنا وغلطا فثبت فساد ما نقل عن عثمان وعائشة رضى الله عنهما ان فيه لحنا وغلطا (وثالثها) قال ابن الانبارى ان الصحابة هم الائمة والقدوة فلو وجدوا فى المصحف لحنا لما فوضوا اصلاحه الى غيرهم من بعدهم مع تحذيرهم من الابتداع وترغيبهم فى الاتباع حتى قال بعضهم اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم فثبت انه لابد من تصحيح القراءة المشهورة واختلف النحويون فيه وذكروا وجوها (الوجه الاول) وهو الاقوى ان هذه لغة لبعض العرب وقال بعضهم هى لغة بلحارث بن كعب والزجاج نسبها الى كنانة وقطرب نسبها الى بلحارث ابن كعب ومراد وخثعم وبعض بنى عذرة ونسبها ابن جنى الى بعض بنى ربيعة أيضا وأنشد الفراء على هذه اللغة

فاطرق اطراق الشجاع ولو يرى * مساغا لنابيه الشجاع لصمما

فرعون وبالياء على أن الضمير له على سنن الملوك أو للموم (فتولى فرعون) أى انصرف عن المجلس (فجمع كيده) أى ما يكاد به من السحرة وأدواتهم (ثم اتى) أى الموعد ومعه

بابرازان مراده عليه الصلاة والسلام ليس مجرد انجاء بني اسرائيل من ايديهم بل اخراج القبط من وطنهم وخيازة اموالهم وأملاكهم بالكلية حتى لا يتوجه الى اتباعه أحد ﴿ و بالغوا في المدافعة والمخاصمة وسمى ما اظهره عليه الصلاة والسلام من المعجزة الباهرة سحرا لتجسيرهم على المقابلة ثم ادعى انه يعارضه بمثل ما اتى به عليه الصلاة والسلام فقال (فلنأتينك بسحر مثله) الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها واللام جواب قسم محذوف كانه قيل اذا كان كذلك فوالله لنأتينك بسحر مثل سحرك (فاجعل بيننا و بينك موعدا) أي وعدا كما ينبئ عنه وصفه بقوله تعالى (لا نخلفه) فانه المناسب لا المكان والزمان أي لا نخلف ذلك الوعد (نحن ولا انت) وانما فوض اللعين امر الوعد الى موسى عليه الصلاة والسلام للاحتراز عن نسبته الى ضعف القلب وضيق المجال واظهار الجلادة واراءة أنه متمكن من تهيئة أسباب المعارضة وترتيب آلات المغالبة طال الامد أم قصر كما أن تقديم ضميره على ضمير موسى عليه الصلاة والسلام وتوسيط كلمة النفي بينهما للايذان بمسارعته الى عدم الاخلاف وأن عدم اخلافه لا يوجب عدم اخلافه عليه الصلاة والسلام ولذلك أكد ﴿ عنها ﴾ النفي بتكرير حرفه ﴿ وانتصاب

تحت قوله فجمع كيده السحرة وسائر من يجتمع لذلك و يدخل فيه الآلات وسائر ما أوردته السحرة ثم أتى دخل تحته أتى الموضع بالسحرة و بالقوم و بالآلات قال ابن عباس كانوا اثنين وسبعين ساحرا مع كل واحد منهم حبل وعصا وقيل كانوا أربعمائة وقيل أكثر من ذلك ثم ضربت لفرعون قبة فجلس فيها ينظر اليهم وكان طول القبة سبعين ذراعا ثم بين تعالى أن موسى عليه السلام قدم قبل كل شئ الوعيد والتحذير مما قالوه وأقدموا عليه فقال و يلكم لا تفتروا على الله كذبا بأن تزعموا بأن الذي جئت به ليس بحق وأنه سحر فيمكنكم معارضتي قال الزجاج يجوز في انتصاب و يلكم أن يكون المعنى ألزمهم الله و يلا ان افتروا على الله كذبا و يجوز على النداء كقوله يا و يلتنا ألا دوا نا عجوز يا و يلنا من بعثنا من مرقدنا وقوله فيسحتكم بعذاب أي يعذبكم عذابا مهلكا مستأصلا وقرأ حمزة وعاصم والكسائي برفع الياء من الاسحات والباقون بفتحها من السحت والاسحات لغة أهل نجد و بني تميم والسحت لغة أهل الحجاز فكانه تعالى قال من افترى على الله كذبا حصل له أمران (أحدهما) عذاب الاستئصال في الدنيا أو العذاب الشديد في الآخرة وهو المراد من قوله فيسحتكم بعذاب (والثاني) الخيبة والحرمان عن المقصود وهو المراد بقوله وقد خاب من افترى ثم بين سبحانه وتعالى انه لما قال موسى عليه السلام ذلك اعرضوا عن قوله وتنازعوا أمرهم بينهم وفي تنازعوا قولان (أحدهما) تفاوضوا وتشاوروا ليستقروا على شئ واحد (والثاني) قال مقاتل اختلفوا فيما بينهم ثم قال بعضهم دخل في التنازع فرعون وقومه ومنهم من يقول بل هم السحرة وحدهم والكلام محتمل وليس في الظاهر ما يدل على الترجيح وذكروا في قوله وأسروا النجوى وجوها (أحدها) انهم أسروها من فرعون وعلى هذا التقدير فيه وجوه (الاول) قال ابن عباس رضي الله عنهما ان نجواهم قالوا ان غلبنا موسى اتبعناه (والثاني) قال قتادة ان كان ساحرا فسنغلبه وان كان من السماء فله امر (الثالث) قال وهب لما قال و يلكم الآية قالوا ما هذا بقول ساحر (القول الثاني) انهم أسروا النجوى من موسى وفرعون ونجواهم هو قولهم ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم وهو قول السدي (الوجه الثالث) انهم أسروا النجوى من موسى وهرون ومن فرعون وقومه أيضا وكان نجواهم انهم كيف يجب تدبير أمر الحبال والعصى وعلى أي وجه يجب اظهارها فيكون أوقع في القلوب وأظهر للعيوب وهو قول الضحاك * قوله تعالى (قالوا ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما و يذهبا بطريقتكم المثلى فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى) وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) القراءة المشهورة ان هذان لساحران ومنهم من ترك هذه القراءة وذكروا وجوها أخر (أحدها) قرأ أبو عمرو وعيسى بن عمر ان هذين لساحران وقالوا هي قراءة عثمان وعائشة وابن الزبير وسعيد بن جبير والحسن رضي الله عنهم واحتج أبو عمرو وعيسى على ذلك بما روى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله

(مكانا سوى) بفعل يدل عليه المصدر لا به فانه موصوف أو بانه بدل من موعدا على تقدير مكان مضاف اليه فحينئذ تكون مطابقة الجواب فى قوله تعالى (قال موعدكم يوم ﴿ ٦٩ ﴾ الزينة) من حيث المعنى فان يوم الزينة يدل على مكان مشتهر باجتماع الناس فيه يومئذ أو باضمار مثل مكان موعدكم مكان يوم الزينة كما هو على الاول أو موعدكم موعد يوم الزينة وقرئ يوم بالنصب وهو ظاهر فى أن المراد به المصدر ومعنى سوى منتصفا تستوى مسافته الينا والسيك وهو فى النعت كقولهم قوم عدى فى الشذوذ وقرئ بكسر السين قيل يوم الزينة يوم عاشوراء أو يوم النيروز أو يوم عيد كان لهم فى كل عام وانما خصه عليه الصلاة والسلام بالتعيين لاظهار كمال قوته وكونه على ثقة من أمره وعدم مبالاته بهم لما أن ذلك اليوم وقت ظهور غاية شوكتهم وليكون ظهور الحق وزهوق الباطل فى يوم مشهود على رؤس الاشهاد ويشيع ذلك فيما بين كل حاضر وباد (وأن يحشر الناس ضحى) عطف على يوم أو الزينة وقرئ على البناء للفاعل بالتاء على خطاب

عنها انها سئلت عن قوله ان هذان لساحران وعن قوله ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى فى المائدة وعن قوله لكن الراسخون فى العلم منهم الى قوله والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة فقالت يا ابن أختى هذا خطأ من الكاتب وروى عن عثمان انه نظر فى المصحف فقال أرى فيه لحنا وستقيمه العرب بالسنتها وعن أبى عمرو انه قال انى لاستحى ان أقرأ ان هذان لساحران (وثانيها) قرأ ابن كثير ان هذان بتخفيف ان وتشديد نون هذان (وثالثها) قرأ حفص عن عاصم ان هذان بتخفيف النونين (ورابعها) قرأ عبد الله بن مسعود وأسروا النجوى أن هذان ساحران بفتح الالف وجزم نونه ساحران بغير لام (وخامسها) عن الاخفش ان هذان لساحران خفيفة فى معنى ثقيلة وهى لغة قوم يرفعون بها ويدخلون اللام ليفرقوا بينها وبين التى تكون فى معنى ما (وسادسها) روى عن أبى بن كعب ما هذان الا ساحران وروى عنه أيضا ان هذان الا ساحران وعن الخليل مثل ذلك وعن أبى أيضا ان ذان الا ساحران فهذه هى القراآت الشاذة المذكورة فى هذه الآية واعلم ان المحققين قالوا هذه القراآت لا يجوز تصحيحها لانها منقولة بطريق الآحاد والقرآن يجب أن يكون منقولا بالتواتر اذ لو جوزنا اثبات زيادة فى القرآن بطريق الآحاد لما أمكننا القطع بأن هذا الذى هو عندنا كل القرآن لانه لما جاز فى هذه القراآت انها مع كونها من القرآن ما نقلت بالتواتر جاز فى غيرها ذلك فثبت أن تجويز كون هذه القراآت من القرآن يطرق جواز الزيادة والنقصان والتغيير الى القرآن وذلك يخرج القرآن عن كونه حجة ولما كان ذلك باطلا فكذلك ما أدى اليه وأما الطعن فى القراءة المشهورة فهو اسوأ مما تقدم من وجوه (أحدها) انه لما كان نقل هذه القراءة فى الشهرة كنقل جميع القرآن فلو حكمنا ببطلانها جاز مثله فى جميع القرآن وذلك يفضى الى القدح فى التواتر والى القدح فى كل القرآن وانه باطل واذا ثبت ذلك امتنع صيرورته معارضا بخبر الواحد المنقول عن بعض الصحابة (وثانيها) ان المسلمين أجمعوا على ان ما بين الدفتين كلام الله تعالى وكلام الله تعالى لا يجوز أن يكون لحنا وغلطا فثبت فساد ما نقل عن عثمان وعائشة رضى الله عنهما ان فيه لحنا وغلطا (وثالثها) قال ابن الانبارى ان الصحابة هم الائمة والقدوة فلو وجدوا فى المصحف لحنا لما فوضوا اصلاحه الى غيرهم من بعدهم مع تحذيرهم من الابتداع وترغيبهم فى الاتباع حتى قال بعضهم اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم فثبت انه لابد من تصحيح القراءة المشهورة واختلف النحويون فيه وذكروا وجوها (الوجه الاول) وهو الاقوى ان هذه لغة لبعض العرب وقال بعضهم هى لغة بلحارث بن كعب والزجاج نسبها الى كنانة وقطرب نسبها الى بلحارث ابن كعب ومراد وخثعم وبعض بنى عذرة ونسبها ابن جنى الى بعض بنى ربيعة أيضا وأنشد الفراء على هذه اللغة

فاطرق اطراق الشجاع ولو يرى * مساغا لنابيه الشجاع لصمما

فرعون وبالياء على أن الضمير له على سنن الملوك أو لليوم (فتولى فرعون) أى انصرف عن المجلس (فجمع كيده) أى ما يكاد به من السحرة وأدواتهم (ثم اتى) أى الموعد ومعه

ما جمعه من كيده وفى كلمة التراخى ايماء الى أنه لم يسارع اليه بل اتاه بعد لأى وتلعثم وقوله تعالى (قال لهم موسى) الخ بطريق الاستئناف المبنى على السؤال يقضى بأن المترقب ﴿ ٧٠ ﴾ من أحواله عليه الصلاة والسلام حينئذ والمحتاج الى السؤال والبيان ليس الا ما صدر عنه عليه الصلاة والسلام من الكلام وأما اتيانه أولا فأمر محقق غنى عن التصريح به كأنه قيل فاذا صنع موسى عليه الصلاة والسلام عند اتيان فرعون بمن جمعه من السحرة فقيل قال لهم بطريق النصيحة (ويلكم لا تفتروا على الله كذبا) بأن تدعوا آياته التى ستظهر على يدى سحرا كما فعل فرعون (فيسحتكم) أى يستأصلكم بسببه (بعذاب) هائل لا يقادر قدره وقرئ يسحتكم من الثلاثى على لغة اهل الحجاز والاسحات لغة بنى تميم ونجد (وقد خاب من افترى) أى على الله كائنا من كان بأى وجه كان فيدخل فيه الافتراء المنهى عنه دخولا اوليا أو وقد خاب فرعون المفترى فلا تكونوا مثله فى الخيبة والجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبلها (فتنازعوا) أى السحرة حين سمعوا كلامه عليه الصلاة والسلام كان ذلك غاظهم فتنازعوا (امرهم) الذى أريد منهم من مغالبته عليه الصلاة والسلام وتشاوروا وتناظروا (بينهم) فى كيفية المعارضة

وأنشد غيره

تزود منا بين أذناه ضربة * دعته الى هابى التراب عقيم

قال الفراء وحكى بعض بنى أسد انه قال هذا خط يدا أخى اعرفه وقال قطرب هؤلاء يقولون رأيت رجلان واشتريت ثوبان قال رجل من بنى ضبة جاهلى

أعرف منه الجيد والعينانا * ومنخرين أشبها ظبيانا

وقوله ومنخرين على اللغة الفاشية وما وراء ذلك على لغة هؤلاء وقال آخر

طاروا علاهن فطر علاها * واشدد بمثنى حقب حقواها

وقال آخر

كان ضريف ناباه اذا ما * أمرهما صرير الاخطبان

قال بعضهم الاخطبان ذكر الصردان فصيرهما واحدا فبقى الاستدلال بقوله صريف ناباه قال وانشدنى يونس لبعض بنى الحرث

كان يمينا سحبل ومصيفه * مراق دم لن يبرح الدهر ثاويا

وأنشدوا أيضا ان أباها وأبا أباها * قد بلغا فى المجد غايتاها

وقال ابن جنى روينا عن قطرب

هنالك أن تبكى بشعشعان * رحب الفؤاد طائل اليدان

ثم قال الفراء وذلك وان كان قليلا أقيس لان ما قبل حرف التثنية مفتوح فينبغى أن يكون ما بعده ألفا ولو كان ما بعده ياء ينبغى أن تنقلب ألفا لانفتاح ما قبلها وقطرب ذكر أنهم يفعلون ذلك فرارا الى الالف التى هى أخف حروف المد هذا أقوى الوجوه فى هذه الآية ويمكن أن يقال أيضا الالف فى هذا من جوهر الكلمة والحرف الذى يكون من جوهر الكلمة لا يجوز تغييره بسبب التثنية والجمع لان ما بالذات لا يزول بالعرض فهذا الدليل يقتضى أن لا يجوز أن يقال ان هذين فلما جوزناه فلا أقل من أن يجوز معه أن يقال ان هذان (الوجه الثانى) فى الجواب أن يقال ان ههنا بمعنى نعم قال الشاعر

ويقلن شيب قد علا * ك وقد كبرت فقلت انه

أى فقلت نعم فالهاء فى انه هاء السكت كما فى قوله تعالى هلك عنى سلطانيه وقال أبو ذؤيب

شاب المفارق ان ان من البلى * شيب القذال مع العذار الواصل

أى نعم ان من البلى فصار كأنه قال نعم هذان لساحران واعترضوا عليه فقالوا اللام لا تدخل فى الخبر على الاستحسان الا اذا كانت ان داخلة فى المبتدا فاما اذا لم تدخل ان على المبتدا فمحل اللام المبتدا اذ يقال لزيد أعلم من عمرو ولا يقال زيد لأعلم من عمرو وأجابوا عن هذا الاعتراض من وجهين (الاول) لانسلم ان اللام لا يحسن دخولها على الخبر والدليل عليه قوله

أم الخليس لعجوز شهربه * ترضى من اللحم بعظم الرقبه

وقال آخر خالى لانت ومن جرير خاله * ينتى العلاء ويكرم الاخوالا

وأنشد قطرب ألم تكن حلفت بالله العلى * ان مطاياك لمن خير المطى

وان رويت ان بالكسر لم يبق الاستدلال الا ان قطربا قال سمعناه مفتوح الهمزة وأيضا فقد أدخلت اللام فى خبرا مسى قال ابن جنى أنشدنا أبو على

مروا عجالى فقالوا كيف صاحبكم * فقال من سئلوا أمسى لمجهودا

وقال قطرب وسمعنا بعض العرب يقول أراك المسالمى وانى رأيته لشيخا وزيد والله لواثق بك وقال كثير

ومازلت من ليلى لدن أن عرفتها * لكالهائم المقصى بكل بلاد

وقال آخر ﴿ ولكننى من حبها لعميد * وقال المعترض هذه الاشعار من الشواذ وانما جاءت كذا لضرورة الشعر وجل كلام الله تعالى من الضرورة وانما تقرر هذا الكلام اذا بينا ان المبتدأ اذا لم يدخل عليه ان وجب ادخال اللام عليه لا على الخبر وتحقيقه ان اللام تفيد تأكيد موصوفية المبتدا بالخبر واللام تدل على حالة من حالات المبتدا وصفة من صفاته فوجب دخولها على المبتدا لان العلة الموجبة لحكم فى محل لابد وأن تكون مختصة بذلك المحل لا يقال هذا مشكل بما اذا دخلت ان على المبتدا فان ههنا يجب ادخال اللام على الخبر مع ان ماذكرتموه حاصل فيه لانا نقول ذلك لاجل الضرورة وذلك لان كلمة ان للتأكيد واللام للتأكيد فلو قلنا ان زيدا قائم لكنا قد أدخلنا حرف التاكيد على حرف التأكيد وذلك ممتنع فلما تعذر ادخالها على المبتدا لاجرم أدخلناها على الخبر فهذه الضرورة وأما اذا لم يدخل حرف ان على المبتدا كانت هذه الضرورة زائلة فوجب ادخال اللام على المبتدا لا يقال اذا جاز ادخال حرف النفى على حرف النفى فى قوله

ما ان رأيت ولا سمعت به * كاليوم طالبى أنيق أجرب

والغرض به تأكيد النفى فلم لا يجوز ادخال حرف التأكيد على حرف التأكيد والغرض به تأكيد الاثبات لانا نقول الفرق بين البابين ان قولك زيد قائم يدل على الحكم بموصوفية زيد بالقيام فاذا قلت ان زيدا قائم فكلمة ان تفيد تأكيد ذلك الحكم فلو ذكرت مؤكدا آخر مع كلمة ان صار عبثا أما لو قلت رأيت فلانا فهذا للثبوت فاذا أدخلت عليه حرف النفى أفاد حرف النفى معنى النفى ولا يفيد التاكيد لانه مستقل بافادة الاصل فكيف يفيد الزيادة فاذا ضممت اليه حرف نفى آخر صار الحرف الثانى مؤكد الاول فلا يكون عبثا فهذا هو الفرق بين البابين فهذا منتهى تقرير هذا الاعتراض وهو عندى ضعيف لان الكل اتفقوا على انه اذا اجتمع النقل والقياس فالنقل أولى ولان هذه العلل فى نهاية الضعف فكيف يدفع بها النقل الظاهر (الوجه الثانى) فى الجواب عن قولهم اللام لا يحسن دخولها على الخبر الا اذا دخلت كلمة ان على المبتدا كما ذكره الزجاج فقال ان وقعت موقع نعم واللام فى موقعها والتقدير نعم هذان لهما ساحران فكانت اللام داخلة على المبتدا لا على الخبر قال وعرضت هذا القول على محمد بن يزيد وعلى اسمعيل ابن اسحق فارتضياه وذكرا أنه أجود ما سمعناه فى هذا قال ابن جنى هذا القول غير صحيح

عليه فيدا فوه وكان نجواهم مانطق به قوله تعالى (قالوا) أى بطريق التناجى والاسرار (ان هذان لساحران) الخ فانه تفسيره ونتيجة لتنازعهم وخلاصة ما استقرت عليه آراؤهم بعد التناظر والتشاور وان مخففة من ان قد أهملت عن العمل واللام فارقة وقرئ بتشديد نون هذان وقيل هى نافية واللام بمعنى الا أى ما هذان الا ساحران وقرئ ان بالتشديد وهذان اسمها على لغة بلحارث ابن كعب فانهم يعربون التثنية تقديرا وقيل اسمها ضمير الشأن المحذوف وهذان لساحران خبرها وقيل ان بمعنى نعم وما بعدها جملة من مبتدا وخبر وفيها أن اللام لا تدخل خبر المبتدا وقيل أصله انه هذان لهما ساحران فحذف الضمير وفيه أن المؤكد باللام لا يليق به الحذف وقرئ ان هذين لساحران وهى قراءة واضحة (يريد ان أن يخرجاكم من أرضكم) أى ارض مصر بالاستيلاء عليها

بسحرهما) الذى أظهراه من قبل (ويذهبا بطريقتكم المثلى) أى بمذهبكم الذى هو أفضل المذاهب وأمثلها لظهار مذهبهما واعلاء دينهما يريدون به ما كان عليه قوم فرعون لاطريقة السحر فانهم ما كانوا يعتقدونه دينا وقيل

لوجوه (الوجه الاول) ان الاصل ان المبتدا انما يجوز حذفه لو كان أمرا معلوما جليا ولولا ذلك لكان فى حذفه مع الجهل به ضرب من تكليف علم الغيب للمخاطب واذا كان معروفا فقد استغنى بمعرفته عن تأكيده باللام لان التأكيد انما يحتاج اليه حيث لم يكن العلم به حاصلا (الوجه الثانى) ان الحذف من باب الاختصار والتأكيد من باب الاطناب فالجمع بينهما غير جائز ولان ذكر المؤكد وحذف التأكيد أحسن فى العقول من العكس (الوجه الثالث) امتناع أصحابنا البصريين من تأكيد الضمير المحذوف العائد على المبتدا فى نحو قولك زيد ضربت فلا يجيزون زيد ضربت نفسه على أن يجعل النفس توكيد الهاء المؤكدة المقدرة فى ضربت أى ضربته لان الحذف لا يكون الا بعد التحقيق والعلم به واذا كان كذلك فقد استغنى عن تأكيده فكذا ههنا (الوجه الرابع) ان جميع النحويين حملوا قول الشاعر أم الحليس لعجوز شهربه على ان الشاعر أدخل اللام على الخبر ضرورة ولو كان ماذهب اليه الزجاج جائزا لما عدل عنه النحويون ولما حملوا الكلام عليه على الاضطرار اذا وجدوا له وجها ظاهرا ويمكن الجواب عن اعتراض ابن جنى أنه انما حسن حذف المبتدا لان فى اللفظ ما يدل عليه وهو قوله هذان أما لو حذف التأكيد فليس فى اللفظ ما يدل عليه فلا جرم كان حذف المبتدا أولى من حذف التأكيد وأما امتناعهم من تأكيد الضمير فى قولهم زيد ضربت نفسه فذلك انما كان لان اسناد الفعل الى المظهر أولى من اسناده الى المضمر فاذا قال زيد ضرب نفسه كان قوله نفسه مفعولا فلا يمكن جعله تأكيدا للضمير فتأكيد المحذوف انما امتنع ههنا لهذه العلة لا لان تأكيد المحذوف مطلقا ممتنع وأما قوله النحويون حملوا قول الشاعر أم الحليس لعجوز شهربه على ان الشاعر أدخل اللام على الخبر ضرورة فلو جاز ما قاله الزجاج لما عدل عنه النحويون فهذا اعتراض فى نهاية السقوط لان ذهول المتقدمين عن هذا الوجه لا يقتضى كونه باطلا فما أكثر ما ذهل المتقدم عنه وأدركه المتأخر فهذا تمام الكلام فى شرح هذا (الوجه الثالث) فى الجواب ان كلمة ان ضعيفة فى العمل لانها تعمل بسبب مشابهة الفعل فوجب كونها ضعيفة فى العمل واذا ضعفت جاز بقاء المبتدا على اعرابه الاصلى وهو الرفع (المقدمة الاولى) انها تشبه الفعل وهذه المشابهة حاصلة فى اللفظ والمعنى أما اللفظ فلانها تركبت من ثلاثة أحرف وانفتح آخرها ولزمت الاسماء كالافعال وأما المعنى فلانها تفيد حصول معنى فى الاسم وهو تأكيد موصوفيته بالخبر كما أنك اذا قلت قام زيد فقولك قام أفاد حصول معنى فى الاسم (المقدمة الثانية) انها لما أشبهت الافعال وجب ان تشبهها فى العمل فذلك ظاهر بناء على الدوران (المقدمة الثالثة) انها لم تنصب الاسم وترفع الخبر فتقريره ان يقال انها لما صارت عاملة فاما ان ترفع المبتدا والخبر معا أو تنصبهما معا أو ترفع المبتدا وتنصب الخبر أو بالعكس والاول باطل لان المبتدا والخبر كانا قبل دخول ان عليهما مرفوعين فلو بقيا كذلك بعد دخولها عليهما

وكانوا أرباب علم فيما بينهم وبأباه أن اخراجهم من أرضهم انما يكون بالاستيلاء عليها تملكا وتصرفا فكيف يتصور حينئذ نقل بنى اسرائيل الى الشأم وحمل الاخراج على اخراج بنى اسرائيل منها مع بقاء قوم فرعون على حالهم مما يجب تنزيه التنزيل عن أمثاله على أن هذه المقالة منهم للاغراء بالمبالغة فى المغالبة والاهتمام بالمناصبة فلا بد أن يكون الانذار والتحذير باشد المكاره وأشقها عليهم ولا ريب فى أن اخراج بنى اسرائيل من بينهم والذهاب بهم الى الشأم وهم آمنون فى ديارهم ليس فيه كثير محذور وقيل الطريقة اسم لوجوه القوم وأشرافهم لما انهم قدوة لغيرهم ولا يخفى أن تخصيص الاذهاب بهم مما لا مزية فيه وقوله تعالى (فاجمعوا كيدكم) تصريح بالمطلوب اثر تمهيد المقدمات والفاء فصيحة أى اذا كان الامر كما ذكر من كونهما ساحرين يريد ان يكم ما ذكر من الاخراج والاذهاب فأزمعوا كيدكم واجعلوه مجمعا عليه بحيث لا يتخلف عنه واحد منكم وائتوا عن قوس واحدة وقرئ ﴿ فاجمعوا ﴾ من الجمع ويعضده قوله تعالى فجمع كيده أى فاجمعوا أدوات سحركم ورتبوها كما ينبغى (ثم ائتوا صفا)

أى مصطفين أمروا بذلك لانه أهيب فى صدور الرائين وأدخل فى استجلاب الرهبة من المشاهدين قيل كانوا سبعين ألفا مع كل منهم حبل وعصا وأقبلوا عليه ﴿ ٧٣ ﴾ اقبالة واحدة وقيل كانوا اثنين وسبعين ساحرا اثنان

لما ظهر له اثر البتة ولانها أعطيت عمل الفعل والفعل لا يرفع الاسمين فلا معنى للاشتراك (والقسم الثانى) أيضا باطل لان هذا أيضا مخالف لعمل الفعل لان الفعل لا ينصب شيئا مع خلوه عما يرفعه (والقسم الثالث) أيضا باطل لانه يؤدى الى التسوية بين الاصل والفرع فان الفعل يكون عمله فى الفاعل أولا بالرفع وفى المفعول بالنصب فلو جعل النصب ههنا كذلك لحصلت التسوية بين الاصل والفرع ولما بطلت الاقسام الثلاثة تعين القسم الرابع وهو انها تنصب الاسم وترفع الخبر وهذا مما ينبه على ان هذه الحروف دخيلة فى العمل لا أصلية لان تقديم المنصوب على المرفوع فى باب العمل عدول عن الاصل فذلك يدل على ان العمل بهذه الحروف ليس بثابت بطريق الاصالة بل بطريق عارض (المقدمة الرابعة) لما ثبت ان تأثيرها فى نصب الاسم بسبب هذه المشابهة وجب جواز الرفع أيضا وذلك لان كون الاسم مبتدا يقتضى الرفع ودخول ان على المبتدا لا يزيل عنه وصف كونه مبتدا لانه يفيد تأكيدا ما كان لازوال ما كان اذا ثبت هذا فنقول وصف كونه مبتدا يقتضى الرفع وحرف ان يقتضى النصب ولكن المقتضى الاول أولى بالاقتضاء من وجهين (أحدهما) ان وصف كونه مبتدأ صفة أصلية للمبتدا ودخول ان عليه صفة عرضية والاصل راجح على العارض (والثانى) ان اقتضاء وصف المبتدا للرفع أصلى واقتضاء حرف ان للنصب صفة عارضة بسبب مشابهتها بالفعل فيكون الاول أولى فثبت بمجموع ما قررنا ان الرفع أولى من النصب فان لم تحصل الاولوية فلا اقل من أصل الجواز ولهذا السبب اذا جئت بخبران ثم عطفت على الاسم اسما آخر جاز فيه الرفع والنصب معا (الوجه الرابع) فى الجواب قال الفراء هذا اصله ذا زيدت الهاء لان ذا كلمة منقوصة فكملت بالهاء عند التنبيه وزيدت الفا للتثنية فصارت هذا ان فاجتمع ساكنان من جنس واحد فاحتيج الى حذف واحد ولا يمكن حذف ألف الاصل لان أصل الكلمة منقوصة فلا تجعل أنقص فحذف ألف التثنية لان النون يدل عليه فلا جرم لم تعمل ان لان عملها فى ألف التثنية وقال آخرون الالف الباقى اما ألف الاصل أو ألف التثنية فان كان الباقى الف الاصل لم يجز حذفها لان العامل الخارجى لا يتصرف فى ذات الكلمة وان كان الباقى ألف التثنية فلا شك انهم أنابوها ألف مناب الاصل وعوض الاصل أصل لا محالة فهذا الالف أصل فلا يجوز حذفه ويرجع حاصل هذا الى الجواب الاول (الوجه الخامس) فى الجواب حكى الزجاج عن قدماء النحويين ان الهاء ههنا مضمرة والتقدير انه هذان لساحران وهذه الهاء كناية عن الامر والشان فهذا ما قيل فى هذا الموضع فأما من خفف فقرأ ان هذان لساحران فهو حسن فان ما بعد الحقيقة رفع واللام بعدها فى الخبر لازمة واجبة وان كانت فى ان الثقيلة جائزة ليظهر الفرق بين ان المؤكدة وان النافية قال الشاعر

وان مالك للمرتجى ان تضعضعت * رحا الحرب أودارت على خطوب

من القبط والباقى من بنى اسرائيل وقيل تسعمائة وثلثمائة من الفرس وثلثمائة من الروم وثلثمائة من من الاسكندرية وقيل خمسة عشر ألفا وقيل بضعة وثلاثين ألفا والله اعلم ولعل الموعد كان مكانا متسعا خاطبهم موسى عليه الصلاة والسلام بما ذكر فى قطر من أقطار وتنازعوا امرهم فى قطر آخر منه ثم أمروا بأن يأتوا وسطه على الوجه المذكور وقد فسر الصف بالمصلى لاجتماع الناس فيه فى الاعياد والصلوات ووجه صحته أن يكون علما لموضع معين من المكان الموعود وأما ارادة مصلى من المصليات بعد تعين المكان الموعود فلا مساغ لها قطعا وقوله تعالى (وقد أفلح اليوم من استعلى) اعتراض تذييلى من قبلهم مؤكد لما قبله من الامرين أى قد فاز بالمطلوب من غلب يريدون بالمطلوب ما وعدهم فرعون من الاجر والتقريب حسبما نطق به قوله تعالى قال

نعم وانكم لمن المقربين ﴿ ١٠ ﴾ س و بمن غلب انفسهم جميعا على طريقة قولهم بعزة فرعون انا لنحن الغالبون او من غلب منهم حثالهم على بذل

متعلقا بنصبها وجملة تضاف اليها لكنها خصت بكون متعلقها فعل المفاجأة والجملة ابتدائية والمعنى فألقوا ففاجأ موسى عليه الصلاة والسلام وقت أن يخيل اليه سعى حبالهم ﴿ ٧٦ ﴾ وعصيهم من سحرهم وذلك انهم كانوا

فعله فلا مانع منه حسا لكي ينكشف الحق (وخامسها) ان موسى عليه السلام لاشك انه كان كارها لذلك ولا شك انه نهاهم عن ذلك بقوله ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب واذا كان الامر كذلك استحال أن يكون قوله أمرا لهم بذلك لان الجمع بين كونه ناهيا وآمرا بالفعل الواحد محال فعلنا ان قوله غير محمول على ظاهره وحينئذ يزول الاشكال (السؤال الثاني) لم قدمهم في الالقاء على نفسه مع ان تقديم استماع الشبهة على استماع الحجة غير جائز فكذا تقديم ايراد الشبهة على ايراد الحجة وجب أن لا يجوز لاحتمال انه ربما أدرك الشبهة ثم لا يتفرغ لادراك الحجة بعده فيبقى حينئذ في الكفر والضلال وليس لاحد أن يقول ان ذلك كان بسبب انهم لما قدموه على أنفسهم فهو عليه السلام قابل ذلك بان قدمهم على نفسه لان أمثال ذلك انما يحسن فيما يرجع الى حظ النفس فأما ما يرجع الى الدليل والشبهة فغير جائز والجواب انه عليه السلام كان قد أظهر المعجزة مرة واحدة فما كان به حاجة الى اظهارها مرة أخرى والقوم انما جاؤا لمعارضته فقال عليه السلام لو انى بدأت باظهار المعجزة أولا لكنت كالسبب في اقدامهم على اظهار السحر وقصد ابطال المعجزة وذلك غير جائز ولكني أفوض الامر اليهم حتى انهم باختيارهم يظهرون ذلك السحر ثم أنا أظهر المعجز الذي يبطل سحرهم فيكون على هذا التقدير سببا لازالة الشبهة وأما على التقدير الاول فانه يكون سببا لوقوع الشبهة فيكان ذلك أولى اما قوله فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن عباس رضي الله عنهما ألقوا حبالهم وعصيهم ميلا من هذا الجانب وميلا من هذا الجانب فخيل الى موسى عليه السلام ان الارض كلها حيات وانها تسعى فخاف فلما قيل له ألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا ألقى موسى عصاه فاذا هي أعظم من حياتهم ثم أخذت تزداد عظما حتى ملأت الوادي ثم صعدت وعلت حتى علقت ذنبها بطرف القبة ثم هبطت فأكلت كل ما عملوا في الميلين والناس ينظرون اليها لا يحسبون الا أنه سحر ثم أقبلت نحو فرعون لتبتلعه فاتحة فاها ثمانين ذراعا فصاح بموسى عليه السلام فأخذها فاذا هي عصى كما كانت ونظرت السحرة فاذا هي لم تدع من حبالهم وعصيهم شيئا الا أكلته فعرفت السحرة أنه ليس بسحر وقالوا أين حبالنا وعصينا ولم تكن سحرا البتة فخروا سجدا وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون (المسئلة الثانية) اختلفوا في عدد السحرة قال القاسم بن سلام كانوا سبعين ألفا مع كل واحد عصا وحبل وقال السدي كانوا بضعة وثلاثين ألفا مع كل واحد عصا وحبل وقال وهب كانوا خمسة عشر ألفا وقال ابن جريج وعكرمة كانوا تسعمائة ثلثمائة من الفرس وثلثمائة من الروم وثلثمائة من الاسكندرية وقال الكلبي كانوا اثنين وسبعين ساحرا اثنان منهم من القبط وسبعون من بني اسرائيل أكرههم فرعون على ذلك واعلم ان الاختلاف والتفاوت واقع في عدد كثير وظاهر القرآن لا يدل على شئ منه والاقوال اذا تعارضت

لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت واهتزت فخيل اليه انها تتحرك وقرئ تخيل بالتاء على اسناده الى ضمير الحبال والعصى وابدال انها تسعى منه بدل اشتمال وقرئ يخيل باسناده اليه تعالى وقرئ تخيل بحذف احدى التائين من تتخيل (فأوجس في نفسه خيفة موسى) أي أضمر فيها بعض خوف من مفاجاته بمقتضى البشرية المجبولة على النفرة من الحيات والاحتراز من ضررها المعتاد من اللسع ونحوه وقيل من أن يخالج الناس شك فلا يتبعوه وليس بذاك كما ستعرفه وتأخير الفاعل لمراعاة الفواصل (قلنا لا تخف) أي ما توهمت (انك أنت الاعلى) تعليل لما يوجبه النهي من الانتهاء عن الخوف وتقرير لغلبته على أبلغ وجه وآكده كما يعرب عنه الاستئناف وحرف التحقيق وتكرير الضمير وتعريف الخبر ولفظ العلو المنبئ عن الغلبة الظاهرة وصيغة التفضيل (وألق ما في يمينك) أي عصاك كما وقع في سورة الاعراف وانما أوثر الابهام تهويلا لامرها وتفخيما لشانها وايذانا بانها

﴿ تساقطت ﴾

ليست من جنس العصى المعهودة المستتبعة للآثار المعتادة بل خارجة عن حدود سائر افراد الجنس مبهمة الكنه مستتبعة لآثار غريبة وعدم مراعاة هذه النكتة عند حكاية الامر فى موضع آخر لايستدعى عدم مراعاتها عند وقوع المحكى هذا وحمل الابهام على التحقير بان يراد لاتبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الذى فى يدك فانه بقدرة الله تعالى يلقفها مع وحدته وكثرتها وصغره وعظمها يأباه ظهور حالها فيما مر مرتين على أن ذلك المعنى انما يليق بما لو فعلت العصا مافعلت وهى على هيئتها الاصلية وقد كان منها ماكان وقوله تعالى (تلقف ماصنعوا) بالجزم جوابا للامر من لقفه اذا ابتلعه والتقمه بسرعة والتأنيث لكون ما عبارة عن العصا أى تبتلع ما صنعوه من الحبال والعصى التى خيل اليك سعيها وخفتها والتعبير عنها بماصنعوا للتحقير والايذان بالتهوين والتزوير وقرئ تلقف بتشديد القاف واسقاط احدى التائين من تتلقف وقرئ بالرفع على الحال أو الاستئناف والجملة الامرية معطوفة على النهى متممة بما فى حيزها لتعليل موجبه ببيان كيفية غلبته عليه الصلاة والسلام وعلوه

تساقطت (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف يقال فى اذا هذه اذا المفاجأة والتحقيق فيها انها اذا الكائنة بمعنى الوقت الطالبة ناصبا لها وجملة تضاف اليها خصت فى بعض المواضع بان تكون ناصبا فعلا مخصوصا وهو فعل المفاجأة والجملة ابتدائية لاغير فتقدير قوله تعالى فاذا حبالهم وعصيهم ففاجأ موسى وقت تخيل سعى حبالهم وعصيهم وهذا تمثيل والمعنى على مفاجأته حبالهم وعصيهم مخيلة اليه السعى اه (المسئلة الرابعة) قرئ عصيهم بالضم وهو الاصل والكسر اتباع نحو دلى ودلى وقسى وقسى وقرئ تخيل بالتاء المثنوطة من فوق باسناد الفعل الى الحبال والعصى وقرئ بالضم بالياء المنقطة من تحت باسناد الفعل الى الكيد والسحر وقال الفراء أى يخيل اليه سعيها (المسئلة الخامسة) الهاء فى عليه يخيل اليه كناية عن موسى عليه السلام والمراد انهم بلغوا فى سحرهم المبلغ الذى صار يخيل الى موسى عليه السلام أنها تسعى كسعى مايكون حيا من الحيات لأنها كانت حية فى الحقيقة و يقال انهم حشوها بما اذا وقعت الشمس عليه يضطرب و يتحرك ولما كثرت واتصل بعضها ببعض فمن رآها كان يظن انها تسعى فأما ماروى عن وهب انهم سحروا أعين الناس وعين موسى عليه السلام حتى تخيل ذلك مستدلا بقوله تعالى فلما ألقوا سحروا أعين الناس و بقوله تعالى يخيل اليه من سحرهم انها تسعى فهذا غير جائز لان ذلك الوقت وقت اظهار المعجزة والادلة وازالة الشبهة فلو صار بحيث لايميز الموجود عن الخيال الفاسد لم يتمكن من اظهار المعجزة فحينئذ يفسد المقصود فان المراد انه شاهد شيئا ولا علم بانه لاحقيقة لذلك الشئ لظن فيها انها تسعى أما قوله تعالى فأوجس فى نفسه خيفة موسى فالايجاس استشعار الخوف أى وجد فى نفسه خوفا فان قيل انه لامزيد فى ازالة الخوف على مافعله الله تعالى فى حق موسى عليه السلام فانه كلمه أولا وعرض عليه المعجزات الباهرة كالعصا واليد ثم انه تعالى صيرها كما كانت بعد أن كانت كاعظم ثعبان ثم انه أعطاه الاقتراحات الثمانية وذكر ما اعطاه قبل ذلك من المنن الثمانية ثم قال له بعد ذلك كله انى معكما أسمع وارى فمع هذه المقدمات الكثيرة كيف وقع الخوف فى قلبه والجواب عنه من وجوه (أحدها) ان ذلك الخوف انما كان لما طبع الآدمى عليه من ضعف القلب وان كان قد علم موسى عليه السلام انهم لايصلون اليه وان الله ناصره وهذا قول الحسن (وثانيها) انه خاف أن تدخل على الناس شبهة فيما يرونه فيظنوا انهم قد سووا موسى عليه السلام و يشتبه ذلك عليهم وهذا التأويل متأكد بقوله لاتخف انك أنت الاعلى وهذا قول مقاتل (وثالثها) انه خاف حيث بدؤا وتأخر القاؤه ان ينصرف بعض القوم قبل مشاهدة مايلقيه قيدوا على اعتقاد الباطل (ورابعها) لعله عليه السلام كان مأمورا بان لايفعل شيئا الا بالوحى فلما تأخر نزول الوحى عليه فى ذلك الوقت خاف ان لاينزل عليه الوحى فى ذلك الوقت فيبقى فى الحجالة (وخامسها) لعله عليه السلام خاف من انه لو أبطل سحر أولئك الحاضرين فلعل فرعون قد أعد اقواما

فان ابتلاع عصاه لاباطيلهم التى منها أوجس فى نفسه ما أوجس مما يقلع مادته بالكلية وهذا كما ترى صريح فى أن خوفه عليه الصلاة والسلام لم يكن مما ذكر من مخالجة الشك للناس وعدم اتباعهم له عليه الصلاة والسلام والاعلل بما يزيله من الوعد

بما يوجب ايمانهم واتباعهم له عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى (ان ما صنعوا) الخ تعليل لقوله تعالى تلقف ما صنعوا وما اما موصولة أو موصوفة أى ان الذى صنعوه أو ان شيئا صنعوه (كيد ساحر) بالرفع على انه خبر لان اى كيد جنس الساحر وتنكيره للتوسل به الى تنكير ما أضيف اليه للتحقير وقرئ بالنصب على أنه مفعول صنعوا وما كافة وقرئ كيد سحر على أن الاضافة للبيان كما فى علم فقه أو على معنى ذى سحر أو على تسمية الساحر سحرا مبالغة وقوله تعالى (ولا يفلح الساحر) أى هذا الجنس (حيث أتى) أى حيث كان وأين أقبل من تمام التعليل وعدم التعرض لشأن العصا وكونها معجزة الهية مع ما فى ذلك من تقوية التعليل للايذان بظهور أمرها والفاء فى قوله تعالى (فألقى السحرة سجدا) كما سلف فصيحة معربة عن محذوفين ينشاق اليهما النظم الكريم غنيين عن التصريح بهما لعدم احتمال تردد موسى عليه السلام فى الامتثال بالامر واستحالة عدم وقوع الملقف الموعود أى فألقاه عليه السلام فوقع ما وقع من الملقف فألقى السحرة سجدا لما تيقنوا أن ذلك ليس من باب السحر وانما هى آية من آيات الله عز وجل روى أن رئيسهم قال كنا نغلب الناس وكانت الآلات ﴿ الجواب ﴾ تبقى علينا فلو كان هذا سحرا فاين ما ألقيناه من الآلات فاستدل بتغير أحوال الاجسام على الصانع القادر العالم و بظهور ذلك على يد موسى عليه

آخرين فيأتيه بهم فيحتاج مرة أخرى الى ابطال سحرهم وهكذا من غير ان يظهر له مقطع وحينئذ لا يتم الامر ولا يحصل المقصود ثم انه تعالى أزال ذلك الخوف بالاجمال أولا و بالتفصيل ثانيا أما الاجمال فقوله تعالى قلنا لا تخف انك أنت الاعلى ودلالته على ان خوفه كان لامر يرجع الى ان أمره لا يظهر للقوم فآمنه الله تعالى بقوله انك انت الاعلى وفيه أنواع من المبالغة (أحدها) ذكر كلمة التأكيد وهى ان (وثانيها) تكرير الضمير (وثالثها) لام التعريف (ورابعها) لفظ العلو وهو الغلبة الظاهرة وأما التفصيل ففوله وألق ما فى يمينك وفيه سؤال وهو انه لم لم يقل وألق عصاك والجواب جاز أن يكون تصغيرا لها أى لا تبال بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العود الفرد الصغير الجرم الذى بيمينك فانه بقدرة الله تعالى يتلقفها على وحدته وكثرتها وصغره وعظمها وجاز أن يكون تعظيما لها أى لا يحتفل بهذه الاجرام الكثيرة فان فى يمينك شيئا أعظم منها كلها وهذه على كثرتها أقل شئ عندها فألقه يتلقفها باذن الله تعالى ويمحقها أما قوله تلقف أى فانك اذا ألقيتها فانها تلقف ما صنعوا قراءة العامة تلقف بالجزم والتشديد أى فالقها تتلقفها وقرأ ابن عامر تلقف بالتشديد وضم الفاء على معنى الحال أى ألقها متلقفة أو بالرفع على الاستئناف وروى حفص عن عاصم بسكون اللام مع التخفيف أى تأخذ بفيها ابتلاعا بسرعة واللقف والتلقف جميعا يرجعان الى هذا المعنى وصنعوا ههنا بمعنى اختلقوا وزوروا والعرب تقول فى الكذب هو كلام مصنوع وموضوع وصحة قوله تلقف انه اذا ألقى ذلك وصارت حية تلقفت ما صنعوا وفى قوله فألقى السحرة سجدا دلالة على أنه ألقى العصا وصارت حية وتلقفت ما صنعوه وفى التلقف دلالة على ان جميع ما ألقوه تلقفته وذلك لا يكون الا مع عظم جسدها وشدة قوتها وقد حكى عن السحرة انهم عند التلقف أيقنوا بان ما جاء به موسى عليه السلام ليس من مقدور البشر من وجوه (أحدها) ظهور حركة العصا على وجه لا يكون مثله بالحيلة (وثانيها) زيادة عظمه على وجه لا يتم ذلك بالحيلة (وثالثها) ظهور الاعضاء عليه من العين والمنخرين والفم وغيرها ولا يتم ذلك بالحيلة (ورابعها) تلقف جميع ما ألقوه على كثرته وذلك لا يتم بالحيلة (وخامسها) عوده خشبة صغيرة كما كانت وشئ من ذلك لا يتم بالحيلة ثم بين سبحانه وتعالى ان ما صنعوا كيد ساحر والمعنى ان الذى معك يا موسى معجزة الهية والذى معهم تمويهات باطلة فكيف يحصل التعارض وقرئ كيد ساحر بالرفع والنصب فمن رفع فعلى ان ما موصولة ومن نصب فعلى انها كافة وقرئ كيد سحر بمعنى ذى سحر أو ذوى سحر أو هم لتوغلهم فى سحرهم كانهم ألسحر بعينه و بذاته أو بين الكيد لانه يكون سحرا وغير سحر كما بين المائة بدرهم ونحوه علم فقه وعلم نحو و بقى سؤالات (السؤال الاول) لم وحد الساحر ولم يجمع الجواب لان القصد فى هذا الكلام الى معنى الجنسية لا الى معنى العدد فلو جمع تخيل ان المقصود هو العدد ألا ترى الى قوله ولا يفلح الساحر حيث أتى أى هذا الجنس (السؤال الثانى) لم نكر أولا ثم عرف ثانيا

الصلاة والسلام على صحة رسالته لاجرم ألقاهم ماشاهدوه على وجوههم وتابوا وآمنوا وأتوا بما هو غاية الخضوع قيل لم يرفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار والثواب والعقاب وعن عكرمة لما خروا سجدا أراهم الله تعالى فى سجودهم منازلهم فى الجنة ولا ينافيه قولهم انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا الخ لان كون تلك المنازل منازلهم باعتبار صدور هذا القول عنهم (قالوا) استئناف كما مر غير مرة (آمنا برب هرون وموسى) تأخير موسى عند حكايه كلا مهم لرعاية الفواصل وقد جوز أن يكون ترتيب كلا مهم أيضا هكذا اما لكبر سن هرون عليه الصلاة والسلام واما للمبالغة فى الاحتراز عن التوهم الباطل من جهة فرعون وقومه حيث كان فرعون ربى موسى عليه الصلاة والسلام فى صغره فلو قدموا موسى عليه الصلاة والسلام لربما توهم اللعين وقومه من أول الامر أن مرادهم فرعون (قال) أى فرعون للسحرة (آمنتم له) أى لموسى عليه الصلاة والسلام واللام لتضمين الفعل معنى الاتباع وقرئ على الاستفهام التوبيخى (قبل أن آذن لكم) أى من غير أن آذن لكم فى الايمان له كما فى قوله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى لأن اذنه لهم فى ذلك واقع بعده أو متوقع (انه) يعنى موسى عليه الصلاة والسلام (لكبيركم) أى فى فنكم وأعلمكم به وأستاذكم (الذى علمكم السحر) فتواطأتم على ما فعلتم أو فعلكم شيئا دون شئ فلذلك غلبكم وهذه شبهة زورها اللعين

الجواب كأنه قال هذا الذى أتوا به قسم واحد من أقسام السحر وجميع أقسام السحر لافائدة فيه ولاشك ان هذا الكلام على هذا الوجه أبلغ (السؤال الثالث) قوله ولا يفلح الساحر حيث أتى يدل على ان الساحر لا يحصل له مقصوده بالسحر خيرا كان أو شرا وذلك يقتضى نفى السحر بالكلية الجواب الكلام فى السحر وحقيقته قد تقدم فى سورة البقرة فلا وجه للاعادة والله أعلم * قوله تعالى (فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هرون وموسى قال آمنتم له قبل ان آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولاصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) اعلم ان فى قوله فألقى السحرة سجدا دلالة على انه ألقى ما فى يمينه وصار حية وتلقف ما صنعوا وظهر الامر فخروا عند ذلك سجدا وذلك لانهم كانوا فى الطبقة العليا من علم السحر فلما رأوا ما فعله موسى عليه السلام خارجا عن صناعتهم عرفوا انه ليس من السحر البتة ويقال قال رئيسهم كنا نغالب الناس بالسحر وكانت الآلات تبقى علينا لو غلبنا فلو كان هذا سحرا فأين ما ألقيناه فاستدلوا بتغير أحوال الاجسام على الصانع العالم القادر وبظهورها على يد موسى عليه السلام على كونه رسولا صادقا من عند الله تعالى فلا جرم تابوا وآمنوا وأتوا بما هو النهاية فى الخضوع وهو السجود أما قوله تعالى فألقى السحرة سجدا فليس المراد منه انهم أجبروا على السجود والالما كانوا محمودين بل التأويل فيه ما قال الاخفش وهو أنهم من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا وقال صاحب الكشاف ما أعجب أمرهم قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم ألقوا رؤسهم بعد ساعة للشكر والسجود فما أعظم الفرق بين الالقاءين وروى انهم لم يرفعوا رؤسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها وعن عكرمة لما خروا سجدا أراهم الله فى سجودهم منازلهم التى يصيرون اليها فى الجنة قال القاضى هذا بعيد لانه تعالى لو أراهم عيانا لصار وا ملجئين وذلك لا يليق به قولهم انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وجوابه لما جاز لابراهيم عليه السلام مع قطعه بكونه مغفورا له أن يقول والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى فلم لا يجوز مثله فى حق السحرة واعلم ان هذه القصة تنبه على اسرار عجيبة من أمور الربوبية ونفاذ القضاء الالهى وقدره فى جملة المحدثات وذلك لان ظهور تلك الادلة كانت برأى من الكل ومسمع فكان وجه الاستدلال فيها جليا ظاهرا وهو انه حدثت أمور فلا بد لها من مؤثر والعلم بذلك ضرورى وذلك المؤثر اما الخلق واما غيرهم والاول بديهى البطلان لان كل عاقل يعلم بالضرورة من نفسه انه لا يقدر على ايجاد الحيوانات وتعظيم جثثها دفعة واحدة ثم يصغرها مرة أخرى كما كانت وهذه العلوم الجلية متى حصلت فى العقل أفادت القطع بانه لا بد من مدبر لهذا العالم فاذا يقول ألا ترى ان أولئك المنكرين جهلوا صحة هذه المقدمات وهذا فى نهاية البعد لانا بينا ان كل واحد منها بحيث لا يمكن ارتياب العاقل فيه واذا عرفوا صحتها لكنهم أصروا على الجهل وكرهوا تحصيل العلم والسعادة لانفسهم وأحبوا تحصيل الجهل

وألقاها على قومه وأراهم أن أمر الايمان منوط باذنه فلما كان ايمانهم بغير اذنه لم يكن معتدا به وانهم من تلامذته عليه الصلاة والسلام فلا عبرة بما أظهروه كما لا عبرة بما أظهروه وذلك لما اعتراه من الخوف من اقتداء الناس بالسحرة فى الايمان بالله تعالى ثم أقبل عليهم بالوعيد المؤكد حيث قال (فلاقطعن) أى فوالله ﴿ ٨٠ ﴾ لاقطعن (أيديكم وأرجلكم من خلاف)

أى اليد اليمنى والرجل اليسرى ومن ابتدائية كأن القطع ابتدأ من مخالفة العضو العضو فان المبتدئ من المعروض مبتدئ من العارض أيضا وهى مع مجرورها فى حيز النصب على الحالية أى لاقطعنها مختلفات وتعيين تلك الحال للايذان بتحقيق الامر وايقاعه لامحالة بتعيين كيفيته المعهودة فى باب السياسة لانها أفظع من غيرها (ولاصلبنكم فى جذوع النخل) أى عليها وايثار كلمة فى للدلالة على ابقائهم عليها زمانا مديدا تشبيها لاستقرارهم عليها باستقرار المظروف فى الظرف المشتمل عليه قالوا وهو أول من صلب وصيغة التفعيل فى الفعلين للتكثير وقد قرئا بالتخفيف (ولتعلمن أينا) يريد به نفسه وموسى عليه الصلاة والسلام لقوله آمنتم له قبل أن آذن لكم واللام مع الايمان فى كتاب الله تعالى لغيره تعالى وهذا اما لقصد توضيع موسى عليه الصلاة والسلام والهزء به لانه لم يكن ﴿ وموسى ﴾ من التعذيب فى شئ واما لاراءة أن ايمانهم لم يكن عن مشاهدة المعجزة ومعاينة البرهان بل كان عن خوف من قبل موسى عليه الصلاة والسلام حيث رأوا ابتلاع عصاه لحبالهم وعصيهم فخافوا على أنفسهم أيضا وقيل يريد

والشقاوة لانفسهم ما أرى ان عاقلا يرضى بذلك لنفسه قط فلم يبق الا أن يقال العقل والدليل لا يكفى بل لابد من مدبر يخلق هذه المقدمات فى القلوب ويخلق الشعور بكيفية ترتيبها وبكيفية استنتاجها للنتيجة حتى انه متى فعل ذلك حصلت النتائج فى القلوب وذلك يدل على ان الكل بقضائه وقدره فانه لا اعتماد على العقول والقلوب فى مجاريها وتصرفاتها ومن طرح التعصب عن قلبه ونظر الى أحوال نفسه فى مجارى افكاره وانظاره ازداد وثوقا بما ذكرناه أما قوله قالوا آمنا برب هرون وموسى فاعلم ان التعليمية احتجوا بهذه الآية وقالوا انهم آمنوا بالله الذى عرفوه من قبل هرون وموسى فدل ذلك على ان معرفة الله لاتستفاد الا من الامام وهذا القول ضعيف بل فى قولهم آمنا برب هرون وموسى فائدتان سوى ما ذكروه (الفائدة الاولى) وهى ان فرعون ادعى الربوبية فى قوله أنا ربكم الاعلى والالهية فى قوله ما علمت لكم من اله غيرى فلو أنهم قالوا آمنا برب العالمين لكان فرعون يقول انهم آمنوا بى لابغيرى فلقطع هذه التهمة اختاروا هذه العبارة والدليل عليه انهم قدموا ذكر هرون على موسى لان فرعون كان يدعى ربوبيته لموسى بناء على أنه رباه فى قوله ألم نربك فينا وليدا فالقوم لما احترزوا عن ايهامات فرعون لاجرم قدموا ذكر هرون على موسى قطعا لهذا الخيال (الفائدة الثانية) وهى انهم لما شاهدوا أن الله تعالى خصهما بتلك المعجزات العظيمة والدرجات الشريفة لاجرم قالوا رب هرون وموسى لاجل ذلك ثم ان فرعون لما شاهد منهم السجود والاقرار خاف أن يصير ذلك سببا لاقتداء سائر الناس بهم فى الايمان بالله تعالى وبرسوله ففى الحال ألقى شبهة أخرى فى النبى فقال آمنتم له قبل ان آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر وهذا الكلام مشتمل على شبهتين (احداهما) قوله آمنتم له قبل ان آذن لكم وتقريره ان الاعتماد على الخاطر الاول غير جائز بل لابد فيه من البحث والمناظرة والاستعانة بالخواطر فلما لم تفعلوا شيئا من ذلك بل فى الحال آمنتم له دل ذلك على ان ايمانكم ليس عن البصيرة بل عن سبب آخر (وثانيها) قوله انه لكبيركم الذى علمكم السحر يعنى انكم تلامذته فى السحر فاصطلحتم على ان تظهروا العجز من أنفسكم ترويجا لامره وتفخيما لشأنه ثم بعد ايراد الشبهة اشتغل بالتهديد تنفيرا لهم عن الايمان وتنفيرا لغيرهم عن الاقتداء بهم فى ذلك فقال لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف قرئ لاقطعن ولاصلبن بالتخفيف والقطع من خلاف أن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى لان كل واحد من العضوين خلاف الآخر فان هذا يد وذاك رجل وهذا يمين وذاك شمال وقوله من خلاف فى محل النصب على الحال أى لاقطعنها مختلفات لانها اذا خالف بعضها بعضا فقد اتصفت بالاختلاف ثم قال ولاصلبنكم فى جذوع النخل فشبه تمكن المصلوب فى الجذع بتمكن الشئ الموعى فى وعائه فلذلك قال فى جذوع النخل والذى يقال فى المشهور ان فى بمعنى على فضعيف ثم قال ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى أراد بقوله اينا نفسه لعنه الله لان قوله أينا يشعر بانه أراد نفسه

ه رب موسى الذين آمنوا به بقولهم آمنا برب هرون وموسى (أشد عذابا وأبقى) أى أدوم (قالوا) غير مكترثين بوعيده (لن نؤثرك) ان تختارك بالايمان والاتباع (على ماجاءنا) من الله على يد موسى عليه الصلاة والسلام (من البينات)

وموسى عليه السلام بدليل قوله آمنتم له وفيه تصلف باقتداره وما ألفه من تعذيب الناس بأنواع العذاب واستضعاف موسى عليه السلام مع الهرب به لان موسى عليه السلام قط لم يكن من التعذيب فى شئ فان قيل ان فرعون مع قرب عهده بمشاهدة انقلاب العصا حية بتلك العظمة التى شرحتموها وذكرتم انها قصدت ابتلاع قصر فرعون وآل الامر الى ان استغاث بموسى عليه السلام من شر ذلك الثعبان فمع قرب عهده بذلك وعجزه عن دفعه كيف يعقل ان يهدد السحرة ويبالغ فى وعيدهم الى هذا الحد ويستهزئ بموسى عليه السلام فى قوله أينا اشد عذابا وأبقى قلنا لم لا يجوز أن يقال انه كان فى اشد الخوف فى قلبه الا أنه كان يظهر تلك الجلادة والوقاحة تمشية لناموسه وترويجا لامره ومن استقرى أحوال أهل العالم علم ان العاجز قد يفعل أمثال هذه الاشياء ومما يدل على صحة ذلك ان كل عاقل يعلم بالضرورة ان عذاب الله أشد من عذاب البشر ثم انه أنكر ذلك وأيضا فقد كان عالما بكذبه فى قوله انه لكبيركم الذى علمكم السحر لانه علم ان موسى عليه السلام ما خالطهم البتة وما لقيهم وكان يعرف من سحرته ان أستاذ كل واحد من هو وكيف حصل ذلك العلم ثم انه مع ذلك كان يقول هذه الاشياء فثبت ان سبيله فى كل ذلك ما ذكرناه وقال ابن عباس رضى الله عنهما كانوا فى أول النهار سحرة وفى آخره شهداء ﴿ قوله تعالى (قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) اعلم انه تعالى لما حكى تهديد فرعون لاولئك المؤمنين حكى جوابهم عن ذلك بما يدل على حصول اليقين التام والبصيرة الكاملة لهم فى أصول الدين فقالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات وذلك يدل على ان فرعون طلب منهم الرجوع عن الايمان والافعل بهم ما أوعدهم فقالوا لن نؤثرك جوابا لما قاله وبينوا العلة وهى ان الذى جاءهم بينات وأدلة والذى يذكره فرعون محض الدنيا ومنافع الدنيا ومضارها لا تعارض منافع الآخرة ومضارها أما قوله والذى فطرنا ففيه وجهان (الاول) ان التقدير لن نؤثرك يا فرعون على ماجاءنا من البينات وعلى الذى فطرنا أى وعلى طاعة الذى فطرنا وعلى عبادته (الوجه الثانى) يجوز أن يكون خفضا على القسم واعلم انهم لما علموا انهم متى اصروا على الايمان فعل فرعون ما أوعدهم به فقالوا اقض ما أنت قاض لا على معنى انهم أمروه بذلك لكن أظهروا ان ذلك الوعيد لا يزيلهم البتة عن ايمانهم وعما عرفوه من الحق علما وعلائم بينوا ما لاجله يسهل عليهم احتمال ذلك فقالوا انما تقضى هذه الحياة الدنيا وقرئ تقضى هذه لحياة الدنيا ووجهها ان الحياة فى القراءة المشهورة منتصبة على الظرف فاتسع فى الظرف باجرائه مجرى المفعول به كقولك فى صمت يوم الجمعة صيم يوم الجمعة والمعنى ان

من المعجزات الظاهرة فان ما ظهر بيده عليه الصلاة والسلام من العصا كان مشتملا على معجزات جمة كما مر تحقيقه فيما سلف فانهم كانوا عارفين بجلائلها ودقائقها (والذى فطرنا) أى خلقنا وسائر المخلوقات وهو عطف على ماجاءنا وتأخيره لان ما فى ضمنه آية عقلية نظرية وما شاهدوه آية حسية ظاهرة وايراده تعالى بعنوان فاطريته تعالى لهم للاشعار بعلة الحكم فان خالقيته تعالى لهم وكون فرعون من جملة مخلوقاته مما يوجب عدم ايثارهم له عليه سبحانه وتعالى وهذا جواب منهم لتوبيخ فرعون بقوله آمنتم له قبل ان آذن لكم وقيل هو قسم محذوف الجواب لدلالة المذكور عليه أى وحق الذى فطرنا لن نؤثرك الخ ولا مساغ لكون المذكور جوابا له عند من يجوز تقديم الجواب أيضا لما أن القسم لا يجاب بلن الا على شذوذ وقوله تعالى

(فاقض ما أنت قاض) جواب ﴿ ١١ ﴾ س عن تهديده بقوله لاقطعن الخ أى فاصنع ما أنت صانعه أو فاحكم ما أنت حاكم به وقوله تعالى (انما تقضى هذه الحياة الدنيا) مع ما بعده تعليل لعدم المبالاة المستفاد مما سبق من الامر بالقضاء أى انما تصنع ما تهواه أو تحكم بما تراه فى هذه الحياة الدنيا فحسب ومالنا

من رغبة فى عذبها ولا رهبة من عذابها (انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا) التى اقترفناها فيها من الكفر والمعاصى ولا يؤاخذنا بها فى الدار الآخرة لا ليتمتعنا بتلك الحياة الفانية حتى نتأثر ﴿ ٨٢ ﴾ بما آوعدتنا به من القطع والصلب وقوله تعالى

(وما أكرهتنا عليه من السحر) عطف على خطايانا أى و يغفر لنا السحر الذى عملناه فى معارضة موسى عليه الصلاة والسلام بإكراهك وحشرك إيانا من المدائن القاصية خصوه بالذكر مع اندراجه فى خطاياهم اظهارا لغاية نفرتهم عنه ورغبتهم فى مغفرته وذكر الاكراه للايذان بأنه مما يجب أن يفرد بالاستغفار منه مع صدوره عنهم بالاكراه وفيه نوع اعتذار لاستجلاب المغفرة وقيل أرادوا الاكراه على تعلم السحر حيث روى ان رؤساءهم كانوا اثنين وسبعين اثنان منهم من القبط والباقى من بنى اسرائيل وكان فرعون أكرههم على تعلم السحر وقيل انه اكرههم على المعارضة حيث روى انهم قالوا لفرعون أرنا موسى نائما ففعل فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا ماهذا بسحر فان الساحر اذا نام بطل سحره فأبى الأأن يعارضوه ويأباه تصديهم للمعارضة على الرغبة والنشاط كما يعرب عنه قولهم أئن لنا لأجرا ان كنا نحن الغالبين وقولهم بعزة فرعون انا لنحن ﴿ لا يموت ﴾ الغالبون (والله خير) أى فى حد ذاته وهو ناظر الى قولهم والذى فطرنا (وأبقى) أى جزاء ثوابا كان أو عذابا أو خير ثوابا وأبقى عذابا وقوله تعالى (انه)

قضاءك وحكمك انما يكون فى هذه الحياة الدنيا وهى كيف كانت فانية وانما مطلبنا سعادة الآخرة وهى باقية والعقل يقتضى تحمل الضرر الفانى للتوصل به الى السعادة الباقية ثم قالوا انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا ولما كان أقرب خطاياهم عهدا ما اظهروه من السحر قالوا وما أكرهتنا عليه من السحر وذكر وا فى ذلك الاكراه وجوها (أحدها) ان الملوك فى ذلك الزمان كانوا يأخذون البعض من رعيتهم و يكلفونهم تعلم السحر فاذا شاخ بعثوا اليه أحدا ليعلمهم ليكون فى كل وقت من يحسنه فقالوا هذا القول لاجل ذلك أى كنا فى التعلم أولا وانت علمتنا ثانيا مكرهين قاله ابن عباس (وثانيها) ان رؤساء السحرة كانوا اثنين وسبعين اثنان من القبط والباقى من بنى اسرائيل فقالوا لفرعون أرنا موسى نائما فرأوه فوجدوه تحرسه عصاه فقالوا ما هذا بساحر الساحر اذا نام بطل سحره فأبى الا أن يعارضوه (وثالثها) قال الحسن ان السحرة حشروا من المدائن ليعارضوا موسى عليه السلام فأحضروا بالحشر وكانوا مكرهين فى الحضور وربما كانوا مكرهين أيضا فى اظهار السحر (ورابعها) قال عمر بن عبيد دعوة السلطان اكراه وهذا ضعيف لان دعوة السلطان اذا لم يكن معها خوف لم تكن اكراها م قالوا والله خير ثوابا لمن أطاعه وأبقى عقابا لمن عصاه وهذا جواب لقوله ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى قال الحسن سبحان الله القوم كفار وهم أشد الكافرين كفرا ثبت فى قلوبهم الايمان فى طرفة عين فلم يتعاظم عندهم ان قالوا اقض ما أنت قاض فى ذات الله تعالى والله ان أحدكم اليوم ليحب القرآن ستين عاما ثم انه يبيع دينه بثمن حقير ثم ختموا هذا الكلام بشرح أحوال المؤمنين وأحوال المجرمين فى عرصة القيامة فقالوا فى المجرمين انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الهاء فى قوله انه ضمير الشأن يعنى ان الامر والشأن كذا وكذا (المسئلة الثانية) استدلت المعتزلة بهذه الآية فى القطع على وعيد أصحاب الكبائر قالوا صاحب الكبيرة مجرم وكل مجرم فان له جهنم لقوله انه من يأت ربه مجرما وكلمة من فى معرض الشرط تفيد العموم بدليل انه يجوز استثناء كل واحد منها والاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل واعترض بعض المتكلمين من أصحابنا على هذا الكلام فقال لانسلم ان صاحب الكبيرة مجرم والدليل عليه انه تعالى جعل المجرم فى مقابلة المؤمن فانه قال فى هذه الآية ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات وقال ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وأيضا فانه قال فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى والمؤمن من صاحب الكبيرة وان عذب بالنار لا يكون بهذا الوصف وفى الخبر الصحيح يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الايمان واعلم ان هذه الاعتراضات ضعيفة اما قوله ان الله تعالى جعل المجرم فى مقابلة المؤمن فهذا مسلم لكن هذا انما ينفع لو ثبت ان صاحب الكبيرة مؤمن ومذهب المعتزلة انه ليس بمؤمن فهذا المعترض كأنه بنى هذا الاعتراض على مذهب نفسه وذلك ساقط قوله ثانيا انه لا يليق بصاحب الكبيرة أن يقال فى حقه ان له جهنم

الى اخر الشرطيتين تعليل من جهتهم لكونه تعالى خيرا وأبقى جزاء وتحقيق له وابطال لما ادعاه فرعون وتصديرهما بضمير الشان للتنبيه على فخامة مضمونهما لان مناط وضع الضمير موضعه ادعاء شهرته المغنية عن ذكره مع مافيه من زيادة التقرير فان الضمير لايفهم منه من أول الامر الا شأن مبهم له خطر فيبقى الذهن مترقبا لما يعقبه فيتمكن عند وروده له فضل تمكن كأنه قيل ان الشأن الخطير هذا أى قوله تعالى (من يأت ربه مجرما) بأن مات على الكفر والمعاصى (فان له جهنم لايموت فيها) فينتهى عذابه وهذا تحقيق لكون عذابه أبقى (ولايحيى) حياة ينتفع بها (ومن يأته مؤمنا) به تعالى وبما جاء من عنده من المعجزات التى من جملتها ماشا هدناه (قد عمل الصالحات) الصالحة كالحسنة جارية مجرى الاسم ولذلك لاتذكر غالبا مع الموصوف وهى كل ما استقام من الاعمال بدليل العقل والنقل (فأولئك) اشارة الى من والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد فى الفعلين السابقين باعتبار لفظها ومافيه من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم أى فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات (لهم) بسبب ايمانهم وأعمالهم الصالحة (الدرجات العلى) أى المنازل الرفيعة وليس فيه مايدل على عدم اعتبار الايمان المجرد عن العمل الصالح فى استتباع الثواب لان مناط الايمان المقرون بالاعمال الصالحة هو الفوز بالدرجات العلى لا بالثواب مطلقا وهل التشاجر الا فيه

لايموت فيها ولايحيى قلنا لانسلم فان عذاب جهنم فى غاية الشدة قال تعالى ربنا انك من تدخل النار فقد أخزيته وأما الحديث فيقال القرآن متواتر فلايعارضه خبر الواحد ويمكن أن يقال ثبت فى أصول الفقه انه يجوز تخصيص القرآن بخبر الواحد والخصم أن يجيب فيقول ذلك يفيد الظن فيجوز الرجوع اليه فى العمليات وهذه المسئلة ليست من العمليات بل من الاعتقاديات فلايجوز المصير اليها ههنا فان اعترض انسان آخر وقال أجمعنا على ان هذه الآية مشروطة بنفى التوبة وبأن لايكون عقابه محبطا بثواب طاعته والقدر المشترك بين الصورتين هو ان لايوجد مايحبط ذلك العقاب ولكن عندنا العفو محبط للعقاب وعندنا ان المجرم الذى لايوجد فى حقه العفو لابد وان يدخل جهنم واعلم ان هذا الاعتراض أيضا ضعيف أما شرط نفى التوبة فلا حاجة اليه لانه قال من يأت ربه مجرما أى حال كونه مجرما والتائب لايصدق عليه انه أتى ربه حال كونه مجرما وأما صاحب الصغيرة فلأنه لايسمى مجرما لان المجرم اسم للذم فلا يجوز اطلاقه على صاحب الصغيرة بل الاعتراض الصحيح أن نقول عموم هذا الوعيد معارض بما جاء بعده من عموم الوعد وهو قوله تعالى ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى وكلا منا فيمن اتى بالايمان والاعمال الصالحة ثم أتى بعد ذلك ببعض الكبائر فان قيل عقاب المعصية يحبط ثواب الطاعة قلنا لم لايجوز أن يقال ثواب الايمان يدفع عقاب المعصية فان قالوا لو كان كذلك لوجب ان لايجوز لعنه واقامة الحد عليه قلنا أما اللعن فغير جائز عندنا وأما اقامة الحد عليه فقد تكون على سبيل المحنة كما فى حق التائب وقد تكون على سبيل التنكيل قالت المعتزلة قوله تعالى والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله فالله تعالى نص على انه يجب عليه اقامة الحد على سبيل التنكيل وكل من كان كذلك استحال أن يكون مستحقا للمدح والتعظيم واذا لم يبق ذلك لم يبق الثواب كما قلنا فدل لنا ذلك على ان عقاب الكبيرة أولى بازالة ثواب الطاعة المتقدمة من الطاعات بدفع عقاب الكبيرة الطارئة هذا منتهى كلامهم فى مسئلة الوعيد قلنا حاصل الكلام يرجع الى ان النص الدال على اقامة الحد عليه على سبيل التنكيل صار معارضا للنصوص الدالة على كونه مستحقا للثواب فلم كان ترجيح أحدهما على الآخر أولى من العكس وذلك لان المؤمن كان ينقسم الى السارق وغير السارق فالسارق ينقسم الى المؤمن والى غير المؤمن فلم يكن لاحدهما مزية على الآخر فى العموم والخصوص فاذا تعارضا تساقطا ثم نقول لانسلم ان كلة من فى افادة العموم قطعية بل ظنية ومسئلتنا قطعية فلايجوز التعويل على ماذكرته وتمام الكلام فيه مذكور فى كتاب المحصول فى الاصول (المسئلة الثالثة) تمسكت المجسمة بقوله انه من يأت ربه مجرما فقالوا الجسم انما يأتى ربه لو كان الرب فى المكان وجوابه ان الله تعالى جعل اتيانهم موضع الوعد اتيانا الى الله مجازا كقول ابراهيم عليه السلام انى ذاهب الى ربى سيهدين (المسئلة الرابعة) الجسم الحى لابد وان يبقى اما حيا

(جنات عدن) بدل من الدرجات العلى أو بيان وقدمر أن عدنا علم لمعنى الاقامة أو لارض الجنة فقوله تعالى (تجرى من تحتها الانهار) حال من الجنات وقوله تعالى (خالدين * ٨٤ * فيها) حال من الضمير فى لهم والعامل معنى الاستقرار أو الاشارة (وذلك) اشارة الى ما أتيح لهم من الفوز بما ذكر من الدرجات العلى ومعنى البعد لما مر من التفخيم (جزاء من تزكى) أى تطهر من دنس الكفر والمعاصى بما ذكر من الايمان والاعمال الصالحة وهذا تحقيق لكون ثوابه تعالى أبقى وتقديم ذكر حال المجرم للمسارعة الى بيان شدة عذابه ودوامه ردا على ما ادعاه فرعون بقوله أينا أشد عذابا وأبقى هذا وقد قيل هذه الآيات الثلاث ابتداء كلام من الله عز وجل قالوا ليس فى القرآن أن فرعون فعل بأولئك المؤمنين ما أوعدهم به ولم يثبت فى الاخبار (ولقد أوحينا الى موسى) حكاية اجمالية لما انتهى اليه أمر فرعون وقومه وقد طوى فى البين ذكر ما جرى عليهم من الآيات المفصلات الظاهرة على يد موسى عليه الصلاة والسلام بعد ما غلب السحرة فى نحو من عشرين سنة حسبما فصل فى سورة الاعراف وتصديرها بالقسم لابراز كمال العناية بمضمونها وأن فى قوله تعالى (أن أسر بعبادى) امامفسرة * وهذا * لان الوحى فيه معنى القول أو مصدرية حذف عنها الجار والتعبير عنهم بعنوان كونهم عباد الله تعالى لاظهار المرحمة والاعتناء بأمرهم والتنبيه على غاية قبح صنيع فرعون بهم حيث استعبدهم وهم عباده عز وجل

أو يصير ميتا فخلوه عن الوصفين محال فعناه فى الآية انه يكون فى جهنم بأسوأ حال لا يموت موتة مريحة ولا يحيا حياة ممتعة ثم ذكر حال المؤمنين فقال ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى واعلم ان قوله قد عمل الصالحات يقتضى أن يكون آتيا بكل الصالحات وذلك بالاتفاق غير معتبر ولا ممكن فينبغى أن يحمل ذلك على اداء الواجبات ثم ذكر ان من أتى بالايمان والاعمال الصالحات كانت له الدرجات العلى ثم فسرها فقال جنات عدن تجرى من تحتها الانهار وفى الآية تنبيه على حصول العفو لاصحاب الكبائر لانه تعالى جعل الدرجات العلى من الجنة لمن أتى ربه بالايمان والاعمال الصالحة فسائر الدرجات التى هى غير عالية لابد وأن تكون لغيرهم وما هم الا العصاة من أهل الايمان أما قوله وذلك جزاء من تزكى فقال ابن عباس يريد من قال لا اله الا الله وأقول لما دلت هذه الآية على أن الدرجات العالية هى جزاء من تزكى أى تطهر عن الذنوب وجب بحكم ذلك الخطاب ان الدرجات التى لا تكون عالية أن لا تكون جزاء من تزكى فهى لغيرهم ممن يكون قد أتى بالمعاصى وعفا الله بفضله ورحمته عنهم واعلم انه ليس فى القرآن ان فرعون فعل بأولئك القوم المؤمنين ما أوعدهم به ولكن ثبت ذلك فى الاخبار * قوله تعالى (ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم وأضل فرعون قومه وما هدى) اعلم ان فى قوله ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادى دلالة على ان موسى عليه السلام فى تلك الحالة كثر مستجيبوه فأراد الله تعالى تمييزهم من طائفة فرعون وخلاصهم فأوحى اليه أن يسرى بهم ليلا والسرى اسم لسير الليل والاسراء مثله فان قيل ما الحكمة فى أن يسرى بهم ليلا قلنا الوجوه (أحدها) أن يكون اجتماعهم لا يشهد من العدو فلا يمنعهم عن استكمال مرادهم فى ذلك (وثانيها) ليكون عائقا عن طلب فرعون وشيعه (وثالثها) ليكون اذا تقارب العسكر ان لا يرى عسكر موسى عسكر فرعون فلا يهابوهم أما قوله فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا ففيه وجهان (الاول) أى فاجعل لهم من قولهم ضرب له فى ماله سهما وضرب اللبن عمله (والثانى) بين لهم طريقا فى البحر بالضرب بالعصا وهو أن يضرب البحر بالعصا حتى ينفلق فعدى الضرب الى الطريق والحاصل انه أريد بضرب الطريق جعل الطريق بالضرب يبسا ثم بين تعالى ان جميع أسباب الامن كان حاصلا فى ذلك الطريق (أحدها) انه كان يبسا قرئ يابسا ويبسا بفتح الياء وتسكين الباء فمن قال يابسا جعله بمعنى الطريق ومن قال يبسا بتحريك الباء فاليبس واليابس شئ واحد والمعنى طريقا اذ يبس ومن قال يبسا بتسكين الباء فهو مخفف عن اليبس والمراد انه ما كان فيه وحل ولا نداوة فضلا عن الماء (وثانيها) قوله لا تخاف دركا ولا تخشى أى لا تخاف أن يدركك فرعون فانى أحول بينك وبينه بالتأخير قال سيبويه قوله لا تخاف رفعه على وجهين (أحدهما) على الحال كقولك غير خائف ولا خاش (والثانى) على الابتداء أى أنت لا تخاف

(فاضرب لهم) أى فاجعل أو فاتخذ لهم (طريقا فى البحر يبسا) أى يابسا على انه مصدر وصف به الفاعل مبالغة وقرئ يبسا وهو اما مخفف منه أو وصف كصعب أو جمع يابس كصحب وصف به الواحد للمبالغة أو لتعدده حسب تعدد الاسباط (لا تخاف دركا) حال من المأمور أى آمنا من ان يدركك العدو أو صفة أخرى لطريقا والعائد محذوف وقرئ لا تخف جوابا للامر (ولا تخشى) عطف على لا تخاف داخل فى حكمه أى ولا تخشى الغرق وعلى قراءة الجزم استئناف أى وأنت لا تخشى أو عطف عليه والالف للاطلاق كما فى قوله تعالى وتظنون بالله الظنونا وتقديم نفى الخوف المذكور للمسارعة الى ازاحة ما كانوا عليه من الخوف العظيم حيث قالوا انا لمدركون (فاتبعهم فرعون بجنوده) أى تبعهم ومعه جنوده حتى لحقوهم يقال اتبعتهم أى تبعتهم وذلك اذا كانوا سبقوك فلحقتهم ويؤيده انه قرئ فأتبعهم من الافتعال

وهذا قول الفراء قال الاخفش والزجاج المعنى لا تخاف فيه كقوله واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس أى لا تجزى فيه نفس وقرأ حمزة لا تخف وفيه وجهان (أحدهما) انه نهى (والثانى) قال أبو على جعله جواب الشرط على معنى ان تضرب لا تخف وعلى هذه القراءة ذكروا فى قوله ولا تخشى ثلاثة أوجه (أحدها) ان يستأنف كأنه قيل وأنت لا تخشى أى ومن شأنك انك آمن لا تخشى (وثانيها) أن لا تكون الالف هى الالف المنقلبة عن الياء التى هى لام الفعل ولكن زائدة للاطلاق من أجل الفاصلة كقوله تعالى وأضلونا السبيلا وتظنون بالله الظنونا (وثالثها) أن يكون مثل قوله ﴿ كأن لم ترى قبلى أسيرا يمانيا ﴾ (وثالثها) قوله ولا تخشى والمعنى انك لا تخاف ادراك فرعون ولا تخشى الغرق بالماء أما قوله فأتبعهم فرعون بجنوده قال ابو مسلم زعم رواة اللغة ان أتبعهم وتبعهم واحد وذلك جائز و يحتمل أن تكون الباء زائدة والمعنى أتبعهم فرعون جنوده كقوله تعالى لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى أسرى بعبده وقال الزجاج قرئ فأتبعهم فرعون و جنوده أى ومعه جنوده وقرئ بجنوده ومعناه الحق جنوده بهم و يجوز أن يكون بمعنى معهم أما قوله فغشيهم فالمعنى علاهم وسترهم وما غشيهم تعظيم للامر أى غشيهم ما لا يعلم كنهه الا الله تعالى وقرئ فغشاهم من اليم ما غشيهم وفاعل غشاهم اما الله سبحانه وتعالى أو ما غشيهم أو فرعون لانه الذى ورط جنوده وتسبب فى هلاكهم أما قوله واضل فرعون قومه وما هدى فاحتج القاضى به وقال لو كان الضلال من خلق الله تعالى لما جاز أن يقال وأضل فرعون قومه بل وجب أن يقال الله تعالى أضلهم ولان الله تعالى ذمه بذلك فكيف يجوز أن يكون خالقا للكفر لان من ذم غيره بشئ لا بد وأن يكون هو غير فاعل لذلك الفعل والا استحق ذلك الذم وقوله وما هدى تهكم به فى قوله وما أهديكم الا سبيل الرشاد ولنذكر القصة وما فيها من المباحث قال ابن عباس رضى الله عنهما لما أمر الله تعالى موسى أن يقطع بقومه البحر وكان موسى عليه السلام و بنو اسرائيل استعاروا من قوم فرعون الحلى والدواب لعيد يخرجون اليه فخرج بهم ليلا وهم ستمائة ألف وثلاثة آلاف وتيف ليس فيهم ابن ستين ولا عشرين وقد كان يوسف عليه السلام عهد اليهم عند موته ان يخرجوا بعظامه معهم من مصر فلم يخرجوا بها فتحيروا القوم حتى دلتهم عجوز على موضع العظام فاخذوها فقال موسى عليه السلام للعجوز احتكمى فقالت أكون معك فى الجنة وذكر ابن عباس أن محمدا صلى الله عليه وسلم وأبا بكر هجموا على رجل من العرب وامرأة ليس لهم الا عنز فذبحوها لهما فقال عليه السلام اذا سمعت برجل قد ظهر بيثرب فأته فلعل الله يرزقك منه خيرا فلما سمع بظهور الرسول صلى الله عليه وسلم أتاه مع امرأته فقال أتعرفنى قال نعم عرفتك فقال له احتكم فقال ثمانون ضائنة فأعطاه اياها وقال له أما ان عجوز بنى اسرائيل خير منك وخرج فرعون فى طلب موسى عليه السلام وعلى مقدمته ألف ألف وخمسمائة ألف سوى الجنبين والقلب فلما انتهى موسى الى البحر قال ههنا أمرت ثم قال موسى عليه السلام للبحر انفرق

وقيل المعنى أتبعهم فرعون نفسه فحذف المفعول الثانى وقيل الباء زائدة والمعنى فأتبعهم فرعون جنوده أى ساقهم خلفهم وأيا ما كان فالفاء فصيحة معربة عن مضمر قد طوى ذكره ثقة بغاية ظهوره وايذانا بكمال مسارعة موسى عليه الصلاة والسلام الى الامتثال بالامر أى ففعل ما أمر به من الاسراء بهم وضرب الطريق وسلوكه فاتبعهم

فرعون بجنوده براو بحرا روى أن موسى عليه الصلاة والسلام خرج بهم أول الليل وكانوا ستمائة وسبعين ألفا فأخبر فرعون بذلك فاتبعهم بعساكره وكانت مقدمته سبعمائة الف فقص أثرهم ﴿ ٨٦ ﴾ فلحقهم بحيث تراءى الجمعان فعند ذلك

ضرب عليه الصلاة والسلام بعصاه البحر فانفلق على اثنى عشر فرقا كل فرق كالطود العظيم فعبر موسى عليه الصلاة والسلام بمن معه من الاسباط سالمين وتبعهم فرعون بجنوده (فغشيهم من اليم ماغشيهم) أى علاهم منه وغمرهم ما غمرهم من الامر الهائل الذى لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه وقيل غشيهم ماسمعت قصته وليس بذاك فان مدار التهويل والتفخيم خروجه عن حدود افهامهم والوصف لاسماع قصته وقرئ فغشاهم من اليم ماغشاهم أى غطاهم ماغطاهم والفاعل هو الله عز وعلا أو ماغشاهم وقيل فرعون لانه الذى ورطهم للهلكة وبأباه الاظهار فى قوله تعالى (وأضل فرعون قومه) أى سلك بهم مسلكا أداهم الى الخيبة والخسران فى الدين والدنيا معاحيث ماتوا على الكفر بالعذاب الهائل الدنيوى المتصل بالعذاب الخالد الاخروى

فأبى فأوحى الله اليه ان اضرب بعصاك البحر فضرب به فانفلق فقال لهم موسى عليه السلام ادخلوا فيه فقالوا كيف وأرضه رطبة فدعا الله فهبت عليه الصبا فجفت فقالوا نخاف الغرق فى بعضنا فجعل بينهم كوى حتى يرى بعضهم بعضا ثم دخلوا حتى جاوزوا البحر فاقبل فرعون الى تلك الطرق فقال قومه له ان موسى قد سحر البحر فصار كما ترى وكان على فرس حصان وأقبل جبريل عليه السلام على فرس أنثى فى ثلاثة وثلاثين من الملائكة فصار جبريل عليه السلام بين يدى فرعون وأبصر الحصان الفرس الحجر فاقتحم بفرعون على أثرها وصاحت الملائكة فى الناس الحقوا الملك حتى اذا دخل آخرهم وكادأولهم أن يخرج التقى البحر عليهم فغرقوا فسمع بنو اسرائيل خفقة البحر عليهم فقالوا ماهذا ياموسى قال قد أغرق الله فرعون وقومه فرجعوا ينظروا اليهم فقالوا ياموسى ادع الله أن يخرجهم لنا حتى ننظر اليهم فدعا فلفظهم البحر الى الساحل وأصابوا من سلاحهم وذكر ابن عباس ان جبريل عليه السلام قال يامحمد لو رأيتنى وانا ادس فرعون فى الماء والطين مخافة أن يتوب فهذا معنى قوله فغشيهم من اليم ماغشيهم وفى القصة ابحاث (البحث الاول) روى فى الاخبار ان موسى عليه السلام لما ضرب بعصاه البحر حصل اثنا عشر طريقا يابسا يتهيأ طروقه وبقى الماء قائما بين الطريق والطريق كالطود العظيم وهو الجبل فأخذ كل سبط من بنى اسرائيل فى طريق من هذه الطرق ومنهم من قال بل حصل طريق واحد وحجة القول الاول الاخبار ومن القرآن قوله تعالى فصار كل فرق كالطود العظيم وذلك لا يحصل الا اذا حصل هناك طرق حتى يكون الماء القائم بين الطريقين كالطود العظيم وحجة القول الثانى ظاهر قوله فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا وذلك يتناول الطريق الواحد وان أمكن حمله على الطرق نظرا الى الجنس (البحث الثانى) روى ان بنى اسرائيل بعد أن أظهر موسى عليه السلام لهم الطريق وبينها لهم تعنتوا وقالوا نريد أن يرى بعضنا بعضا وهذا كالبعيد وذلك ان القوم لما أبصروا نجى فرعون صاروا فى نهاية الخوف والخائف اذا وجد طريق الفرار والخلاص كيف يقف فكيف تعنت البارد (البحث الثانى) ان فرعون كان عاقلا بل كان فى نهاية الدهاء فكيف اختار القاء نفسه الى التهلكة فانه كان يعلم من نفسه ان انفلاق البحر ليس بأمر فعند هذا ذكروا وجهين (أحدهما) أن جبريل عليه السلام كان على الرمكة فتبعه فرس فرعون ولقائل أن يقول هذا بعيد لانه يبعد أن يكون خوض الملك فى أمثال هذه المواضع مقدما على خوض جميع العسكر وماذكروه انما يتم اذا كان الامر كذلك وأيضا فلو كان الامر على ماقالوه لكان فرعون فى ذلك الدخول كالمجبور وذلك مما يزيده خوفا ويحمله على الامساك فى أن لا يدخل وأيضا فأى حاجة لجبريل عليه السلام الى هذه الحيلة وقد كان يمكنه أن يأخذه مع قومه ويرميه فى الماء ابتداء بل الاولى أن يقال انه أمر مقدمة عسكره بالدخول فدخلوا وماغرقوا فغلب على ظنه السلامة فلما دخل الكل أغرقهم الله تعالى (البحث الرابع) ان الذى نقل عن جبريل

وقوله تعالى (وماهدى) أى ما أرشدهم قط الى طريق موصل الى مطلب من المطالب الدينية والدنيوية ﴿ عليه ﴾ تقرير لاضلاله وتأكيد له اذ رب مضل قد يرشد من يضله الى بعض مطالبه وفيه نوع تهكم به فى قوله وما أهديكم الا سبيل الرشاد فان نفى الهداية عن شخص مشعر بكونه ممن يتصور منه الهداية فى الجملة وذلك انما يتصور فى حقه

بطريق التهكم وحمل الاضلال والهداية على ما يختص بالدنيا منهما بإباء مقام بيان سوقه بجنوده الى مساق الهلاك الدنيوي وجعلهما عبارة عن الاضلال ﴿ ٨٧ ﴾ في البحر والانجاء منه مما لا يقبله العقل السليم (يا بني اسرائيل)

عليه السلام انه كان يدسه في الماء والطين خوفا من أن يؤمن فبعيد لان المنع من الايمان لا يليق باللائكة والانبياء عليهم السلام (البحث الخامس) الذي روى ان موسى عليه السلام كلم البحر وقال له انفلق لي لاعبر عليك فقال البحر لا يمر على رجل عاص فهو غير ممتنع على أصولنا لان عندنا البنية ليست شرطا للحياة وعند المعتزلة ان ذلك على لسان الحال لا على لسان المقال والله أعلم * قوله تعالى (يا بني اسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الايمن ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) اعلم انه تعالى لما أنعم على قوم موسى عليه السلام بأنواع النعم ذكرهم اياها ولا شك ان ازالة المضرة يجب أن تكون متقدمة على ايصال المنفعة ولا شك أن ايصال المنفعة الدينية أعظم في كونه نعمة من ايصال المنفعة الدنيوية فلهذا بدأ الله تعالى بقوله أنجيناكم من عدوكم وهو اشارة الى ازالة الضرر فان فرعون كان ينزل بهم من أنواع الظلم كثيرا من القتل والاذلال والاخراج والاتعاب في الاعمال ثم ثنى بذكر المنفعة الدينية وهي قوله وواعدناكم جانب الطور الايمن ووجه المنفعة فيه انه أنزل في ذلك الوقت عليهم كتابا فيه بيان دينهم وشرح شريعتهم ثم ثلث بذكر المنفعة الدنيوية وهي قوله ونزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم ثم زجرهم عن العصيان بقوله ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ثم بين ان من عصى ثم تاب كان مقبولا عند الله بقوله وانى لغفار لمن تاب وهذا بيان المقصود من الآية ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة والكسائي قد أنجيتكم ووعدتكم الى قوله من طيبات ما رزقناكم كلها بالتاء الا قوله ونزلنا عليكم المن والسلوى فانها بالنون وقرأ الباقون كلها بالنون وقرأ نافع وعاصم وواعدناكم وقرأ حمزة والكسائي وواعدتكم (المسئلة الثانية) قال الكلبي لما جاوز موسى عليه السلام ببني اسرائيل البحر قالوا له أليس وعدتنا أن تأتينا من ربنا بكتاب فيه الفرائض والاحكام قال بلى ثم تعجل موسى الى ربه ليأتيهم بالكتاب ووعدهم ان يأتيهم الى أربعين ليلة من يوم انطلق وانما قال وواعدناكم لانه انما واعد موسى أن يؤتيه التوراة لاجلهم وقال مقاتل انما قال واعدناكم لان الخطاب له وللسبعين المختارة والله أعلم (المسئلة الثالثة) قال المفسرون ليس للجبل يمين ولا يسار بل المراد انه طور سيناء عن يمين من انطلق من مصر الى الشام وقرئ الايمن بالجر على الجوار نحو جحر ضب خرب وانتفاع القوم بذلك اما لان الله تعالى انزل التوراة عليهم وفيها شرح دينهم واما لان الله تعالى لما كلم موسى على الطور حصل للقوم بسبب ذلك شرف عظيم (المسئلة الرابعة) قوله كلوا ليس أمر ايجاب بل أمر اباحة كقوله واذا حللتم فاصطادوا (المسئلة الخامسة) في الطيبات قولان (أحدهما) اللذائذ لان المن والسلوى من لذائذ الاطعمة (والثاني) وهو قول الكلبي ومقاتل الحلال لانه شئ أنزله الله تعالى اليهم ولم تمسه يد الآدميين ويجوز الجمع بين الوجهين لان بين المعنيين معنى مشتركا

حكاية لما خاطبهم الله تعالى بعد اغراق فرعون وقومه وانجائهم منهم لكن لا عقيب ذلك بل بعد ما أفاض عليهم من فنون النعم الدينية والدنيوية ما أفاض وقيل هو انشاء خطاب للذين كانوا منهم في عهد النبي عليه الصلاة السلام على معنى انه تعالى قد من عليهم بما فعل بآبائهم أصالة وبهم تبعا ويرده ما سيأتي من قوله تعالى وما أعجلك الآية ضرورة استحالة حمله على الانشاء فالوجه هو الحكاية بتقدير قلنا عطفا على أوحينا أي وقلنا يا بني اسرائيل (قد أنجيناكم من عدوكم) فرعون وقومه حيث كانوا يبغونكم الغوائل ويسومونكم سوء العذاب يذبحون ابناءكم ويستحيون نسائكم وقرئ نجيناكم ونجيتكم (وواعدناكم جانب الطور الايمن) بالنصب على انه صفة للمضاف وقرئ بالجر للجوار أي واعدناكم بواسطة نبيكم اتيان جانبه الايمن نظرا الى السالك من مصر الى الشام أي اتيان موسى عليه الصلاة والسلام للمناجاة وانزال التوراة عليه ونسبت المواعدة اليهم مع كونها لموسى عليه الصلاة والسلام نظرا الى ملابستها اياهم وسراية منفعتها اليهم وايفاء لمقام الامتنان حقه كما في قوله تعالى ولقد خلقناكم ثم صورناكم حيث نسب الخلق

والتصوير الى المخاطبين مع ان المخلوق المصور بالذات هو ادم عليه الصلاة والسلام وقرئ واعدتكم ووعدناكم (ونزلنا عليكم المن والسلوى) أى الترنجبين والسمانى حيث ﴿ كان ينزل عليهم المن وهم فى التيه مثل الثلج من الفجر الى الطلوع لكل انسان صاع ويبعث الجنوب عليهم السمانى فيذبح الرجل منه ما يكفيه كامر مرارا (كلوا) جملة مستأنفة مسوقة لبيان اباحة ما ذكر لهم واتماما للنعمة عليهم (من طيبات ما رزقناكم) أى من لذائذه أو حلالاته وقرئ رزقتكم وفى ابتداء بنعمة الانجاء ثم بالنعمة الدينية ثم بالنعمة الدنيوية من حسن النظم واطف الترتيب مالا يخفى (ولا تطغوا فيه) أى فيما رزقنا كم بالاخلال بشكره والتعدى لما حد لكم فيه كالاسراف والبطر والمنع من المستحق (فيحل عليكم غضبى) وأب للنهى أى فتلزمكم عقوبتى وتجب لكم من حل الدين اذا وجب اداؤه (ومن يحلل عليه غضبى فقد هوى) أى تردى وهلك وقيل وقع فى الهاوية وقرئ فيحل بضم الحاء من حل يحل اذا نزل (وانى لغفار لمن تاب) من الشرك والمعاصى التى من جملتها الطغيان فيما ذكر (وآمن) بما يجب الايمان به (وعمل صالحا) أى عملا صالحا مستقيما عند الشرع والعقل ﴿ فتعين ﴾ وفيه ترغيب لمن وقع منه الطغيان فيما ذكر وحث على التوبة والايمان وقوله تعالى (ثم اهتدى) أى استقام على الهدى اشارة الى ان من لم يستقم عليه بمعزل من الغفران وثم للتراخى الرتبى

وتمام القول فى هذه القصة تقدم فى سورة البقرة (المسئلة السادسة) فى قوله تعالى ولا تطغوا فيه وجوه (أحدها) قال ابن عباس رضى الله عنهما لا تطغوا أى لا يظلم بعضكم بعضا فيأخذه من صاحبه (وثانيها) قال مقاتل والضحاك لا تظلموا فيه انفسكم بأن تتجاوزوا حد الاباحة (وثالثها) قال الكلبى لا تكفروا النعمة أى لا تستعينوا بنعمتى على معاصى فتحرموا عن الشكر ولا تعدلوا عن الحلال الى الحرام (المسئلة السابعة) قرأ الاعمش والكسائى فيحل ومن يحلل كلاهما بالضم وروى الاعمش عن أصحاب عبد الله فيحل بالكسر ومن يحلل بالرفع وقراءة العامة بالكسر فى الكلمتين اما من كسر فمعناه الوجوب من حل الدين يحل اذا وجب أداؤه ومنه قوله تعالى حتى يبلغ الهدى محله والمضموم فى معنى النزول وقوله فقد هوى أى شقى وقيل فقد وقع فى الهاوية يقال هوى يهوى هويا اذا سقط من علو الى سفل (المسئلة الثامنة) اعلم ان الله تعالى وصف نفسه بكونه غافرا وغفورا وغفارا وبأن له غفرانا ومغفرة وعبر عنه بلفظ الماضى والمستقبل والامر أما انه وصف نفسه بكونه غافرا فقوله غافر الذنب وأما كونه غفورا فقوله وربك الغفور ذو الرحمة وأما كونه غفارا فقوله وانى لغفار لمن تاب وأما الغفران فقوله غفرانك ربنا وأما المغفرة فقوله وان ربك لذو مغفرة للناس وأما صيغة الماضى فقوله فى حق داود عليه السلام فغفرنا له ذلك وأما صيغة المستقبل فقوله ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء وقوله ان الله يغفر الذنوب جميعا وقوله فى حق محمد صلى الله عليه وسلم ليغفر لك الله وأما لفظ الاستغفار فقوله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات وفى حق نوح عليه السلام فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا وفى الملائكة ويستغفرون لمن فى الارض واعلم ان الانبياء عليهم السلام كلهم طلبوا المغفرة أما آدم عليه السلام فقال وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وأما نوح عليه السلام فقال والا تغفر لى وترحمنى وأما ابراهيم عليه السلام فقال والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين وطلبها لابيه سأستغفر لك ربى وأما يوسف عليه السلام فقال فى اخوته لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وأما موسى عليه السلام ففى قصة القبطى رب اغفر لى ولاخى وأما داود عليه السلام فاستغفر ربه وأما سليمان عليه السلام رب اغفر لى وهب لى ملكا وأما عيسى عليه السلام وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم وأما محمد صلى الله عليه وسلم فقوله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات وأما الامة فقوله والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا واعلم ان بسط الكلام ههنا أن نبين أولا حقيقة المغفرة ثم نتكلم فى كونه تعالى غافرا وغفورا وغفارا ثم نتكلم فى أن مغفرته عامة ثم نبين ان مغفرته فى حق الانبياء عليهم السلام كيف تعقل مع انه لا ذنب لهم ويتفرع على هذه الجملة استدلال أصحابنا فى اثبات العفو وتقريره ان الذنب اما أن يكون صغيرا أو كبيرا بعد التوبة أو قبل التوبة والقسمان الاولان يقبح من الله عذابهما ويجب عليه التجاوز عنهما وترك القبيح لا يسمى غفرانا

(وما أعجلك عن قومك يا موسى) حكاية لما جرى بينه تعالى وبين موسى عليه الصلاة والسلام من الكلام عند ابتداء مواقاته للميقات بموجب المواعدة المذكورة ﴿ ٨٩ ﴾ أي وقلنا له أي شيء أعجلك منفردا عن قومك وهذا كما ترى

فتعين أن لا يتحقق الغفران الا في القسم الثالث وهو المطلوب فان قيل هذا ناقض صريح الآية لانه أثبت الغفران في حق من استجمع أمورا أربعة التوبة والايمان والعمل الصالح والاهتداء قلنا ان من تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى ثم أذنب بعد ذلك كان تائبا ومؤمنا وآتيا بالعمل الصالح ومهتديا ومع ذلك يكون مذنبا فحينئذ يستقيم كلامنا وههنا نكتة وهي ان العبد له أسماء ثلاثة الظالم والظلوم والظلام فالظالم فنهم ظالم لنفسه والظلوم انه كان ظلوما جهولا والظلام اذا كثر ذلك منه دوام فهو في مقابلة كل واحد من هذه الاسماء اسم فكأنه تعالى يقول ان كنت ظالما فانا غافر وان كنت ظلوما فانا غفور وان كنت ظلاما فانا غفار وانى لغفار لمن تاب وآمن (المسئلة التاسعة) كثر اختلاف المفسرين في قوله تعالى ثم اهتدى وسبب ذلك ان من تاب وآمن وعمل صالحا فلا بد وأن يكون مهتديا فما معنى قوله ثم اهتدى بعد ذكر هذه الاشياء والوجوه المخصصة فيه ثلاثة (أحدها) المراد منه الاستمرار على تلك الطريقة اذا المهتدي في الحال لا يكفيه ذلك في الفوز بالنجاة حتى يستمر عليه في المستقبل و يموت عليه ويؤكده قوله تعالى ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا وكلمة ثم للتراخي في هذه الآية وليست لتباين المرتبتين بل لتباين الوقتين فكأنه تعالى قال الاتيان بالتوبة والايمان والعمل الصالح مما قد يتفق لكل أحد ولا صعوبة في ذلك انما الصعوبة في المداومة على ذلك والاستمرار عليه (وثانيها) المراد من قوله ثم اهتدى أي علم ان ذلك بهداية الله وتوفيقه وبقي مستعينا بالله في ادامة ذلك من غير تقصير عن ابن عباس (وثالثها) المراد من الايمان الاعتقاد المبني على الدليل والعمل الصالح اشارة الى أعمال الجوارح بقي بعد ذلك ما يتعلق بتطهير القلب من الاخلاق الذميمة وهو المسمى بالطريقة في لسان الصوفية ثم انكشاف حقائق الاشياء له وهو المسمى بالحقيقة في لسان الصوفية فهاتان المرتبتان هما المراد تان بقوله ثم اهتدى (المسئلة العاشرة) منهم من قال تجب التوبة عن الكفر أولا ثم الاتيان بالايمان ثانيا واحتج عليه بهذه الآية فانه تعالى قدم التوبة على الايمان واحتج أصحابنا بهذه الآية على ان العمل الصالح غير داخل في الايمان لانه تعالى عطف العمل الصالح على الايمان والمعطوف مغاير للمعطوف عليه * قوله تعالى (وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثري وعجلت اليك رب لترضى) اعلم ان في قوله وما أعجلك عن قومك يا موسى دلالة على انه قد تقدم قومه في المسير الى المكان و يجب أن يكون المراد ما نبه عليه في قوله تعالى وواعدناكم جانب الطور الايمن في هذه السورة وفي سائر السور كقوله وواعدنا موسى ثلاثين ليلة يريد الميقات عند الطور وعلى الآية سؤالات (السؤال الاول) قوله وما أعجلك استفهام وهو على الله محال الجواب انه انكار في صيغة الاستفهام ولا امتناع فيه (السؤال الثاني) ان موسى عليه السلام لا يخلو اما أن يقال انه كان ممنوعا عن ذلك التقدم أو لم يكن ممنوعا عنه فان كان ممنوعا كان ذلك التقدم معصية فيلزم وقوع المعصية

سؤال عن سبب تقدمه على النقباء مسوق لانكار انفراده عنهم لما في ذلك بحسب الظاهر من مخايل اغفالهم وعدم الاعتداد بهم مع كونه مأمورا باستصحابهم واحضارهم معه لا لانكار نفس العجلة الصادرة عنه عليه الصلاة والسلام لكونها نقيصة منافية للعزم اللائق بأولى العزم ولذلك أجاب عليه الصلاة والسلام بنفي الانفراد المنافي لا استصحاب والمعية حيث (قال هم أولاء على أثري) يعني انهم معي وانما سبقتهم بخطا يسيرة ظننت أنها لا تخل بالمعية ولا تقدح في الاستصحاب فان ذلك مما لا يعتد به فيما بين الرفقة أصلا وبعد ما ذكر عليه الصلاة والسلام أن تقدمه ذلك ليس لامر منكر ذكر أنه لامر مرضي حيث قال (وعجلت اليك رب لترضى) عني بمسارعتي الى الامتثال بأمرك واعتنائي بالوفاء

بعهدك وزيادة رب لمزيد ﴿ ١٢ ﴾ * س الضراعة والابتهال رغبة في قبول العذر (قال) استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية اعتذاره عليه الصلاة والسلام وهو السر في وروده على صيغة الغائب لانه التفات من التكلم الى الغيبة لما أن المقدر فيما سبق من الموضعين على صيغة التكلم

كأنه قيل من جهة السامعين فماذا قال له ربه حينئذ فقيل قال (فانا قد فتنا قومك من بعدك) أي ابتليناهم بعبادة العجل من بعدذهابك من بينهم الذين خلفهم مع هرون عليه الصلاة ﴿ ٩٠ ﴾ والسلام وكانوا ستمائة ألف ما نجا منهم

من الانبياء وان قلنا انه ما كان ممنوعا كان ذلك الانكار غير جائز من الله تعالى (والجواب) لعله عليه السلام ما وجد نصا في ذلك الا أنه باجتهاده تقدم فأخطأ في ذلك الاجتهاد فاستوجب العتاب (السؤال الثالث) قال وعجلت والعجلة مذمومة (والجواب) انها ممدوحة في الدين قال تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة (السؤال الرابع) قوله لترضى يدل على انه عليه السلام انما فعل ذلك لتحصيل الرضا لله تعالى وذلك باطل من وجهين (أحدهما) انه يلزم تجدد صفة لله تعالى والآخر أنه تعالى قبل حصول ذلك الرضا وجب أن يقال انه تعالى ما كان راضيا عن موسى لان تحصيل الحاصل محال ولما لم يكن راضيا عنه وجب أن يكون ساخطا عليه وذلك لا يليق بحال الانبياء عليهم السلام (الجواب) المراد تحصيل دوام الرضا كما ان قوله ثم اهتدى المراد دوام الاهتداء (السؤال الخامس) قوله وعجلت اليك يدل على انه ذهب الى الميعاد قبل الوقت الذي عينه الله تعالى له والا لم يكن ذلك تعجيلا ثم ظن ان مخالفة أمر الله تعالى سبب لتحصيل رضاه وذلك لا يليق بأجهل الناس فضلا عن كليم الله تعالى (والجواب) ما ذكرنا ان ذلك كان بالاجتهاد وأخطأ فيه (السؤال السادس) قوله اليك يقتضي كون الله في الجهة لان الى لانتهاء الغاية (الجواب) توافقنا على ان الله تعالى لم يكن في الجبل فالمراد الى مكان وعدك (السؤال السابع) ما أعجلك سؤال عن سبب العجلة فكان جوابه اللائق به أن يقول طلبت زيادة رضاك والشوق الى كلامك وأما قوله هم أولاء على أثري فغير منطبق عليه كما ترى والجواب من وجهين (الاول) ان سؤال الله تعالى يتضمن شيئين (أحدهما) انكار نفس العجلة (والثاني) السؤال عن سبب التقدم فكان أهم الامرين عند موسى عليه السلام بالجواب هذا الثاني فقال لم يوجد مني الا تقدم يسير لا يحتفل به في العادة وليس بيني وبين من سبقته الا تقدم يسير يتقدم بمثله الوفد عن قومهم ثم عقبه بجواب السؤال عن العجلة فقال وعجلت اليك رب لترضى (الثاني) انه عليه السلام لما ورد عليه من هيبة عتاب الله تعالى ما ورد ذهل عن الجواب المنطبق المرتب على حدود الكلام واعلم ان في قوله وما أعجلك عن قومك يا موسى دلالة على انه تعالى أمره بحضور الميقات مع قوم مخصوصين واختلفوا في المراد بالقوم فقال بعضهم هم النقباء السبعون الذين قد اختارهم الله تعالى ليخرجوا معه الى الطور فتقدمهم موسى عليه السلام شوقا الى ربه وقال آخرون القوم جملة بني اسرائيل وهم الذين خلفهم موسى مع هرون وأمره أن يقيم فيهم خليفة له الى أن يرجع هو مع السبعين فقال هم أولاء على أثري يعني بالقرب مني ينتظرونني وعن أبي عمرو ويعقوب أثري بالكسر وعن عيسى بن عمر أثري بالضم وعنه أيضا أولى بالقصر والاثر أفصح من الاثر واما الاثر فمسموع في فرند السيف وهو بمعنى الاثر غريب ﴿ قوله تعالى (قال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري فرجع موسى الى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد

من عبادة العجل الا اثنا عشر ألفا والفاء للترتيب الاخبار بما ذكر من الابتلاء على اخبار موسى عليه الصلاة والسلام بعجلته لكن الاخبار بها سبب موجب للاخبار به بل لما بينهما من المناسبة الصحيحة للانتقال من أحدهما الى الآخر من حيث ان مدار الابتداء المذكور عجلة القوم فانه روى انهم اقاموا على ما وصى به موسى عليه الصلاة والسلام عشرين ليلة بعد ذهابه فحسبوها مع أيامها أربعين وقالوا قد أكملنا العدة وليس من موسى عليه الصلاة والسلام عين ولا أثر (وأضلهم السامري) حيث كان هو المدبر في الفتنة فقال لهم انما أخلف موسى عليه الصلاة والسلام ميعادكم لما معكم من حلي القوم وهو حرام عليكم فكان من أمر العجل ما كان فاخباره تعالى بوقوع هذه الفتنة عند قدومه عليه الصلاة والسلام اما باعتبار تحققها في علمه تعالى ومشيئته واما بطريق التعبير عن المتوقع بالواقع كما في قوله ﴿ ام ﴾ تعالى ونادى أصحاب الجنة ونظائره أو لان السامري كان قد عزم على ايقاع الفتنة عند ذهاب موسى عليه الصلاة والسلام وتصدى لترتيب مبانيها

وتمهيد مبانيها فكانت الفتنة واقعة عند الاخبار بها وقرئ واضلهم السامرى على صيغة التفضيل أى اشدهم ضلالا لانه ضال ومضل والسامرى منسوب الى قبيلة من بنى اسرائيل يقال لها السامرة وقيل كان عجلا من كرمان وقيل من أهل باجرما واسمه موسى بن ظفر وكان منافقا قد أظهر الاسلام وكان من قوم يعبدون البقر (فرجع موسى الى قومه) عند رجوعه المعهود أى بعد ما استوفى الاربعين وأخذ التوراة لاعقيب الاخبار بالفتنة فسببية ما قبل الفاء لما بعدها انما هى باعتبار قيد الرجوع المستفاد من قوله تعالى (غضبان أسفا) لاباعتبار نفيه وان كانت داخلة عليه حقيقة فان كون الرجوع بعد تمام الاربعين أمر مقرر مشهور لا يذهب الوهم الى كونه عند الاخبار بالفتنة كما اذا قلت شايعت الحجاج ودعوت لهم بالسلامة فرجعوا سالمين فان أحدا لا يرتاب فى أن المراد رجوعهم المعتاد لا رجوعهم اثر الدعاء وأن سببية الدعاء باعتبار وصف السلامة لا باعتبار نفس الرجوع والاسف الشديد الغضب وقيل الحزين (قال) استئناف مبنى على سؤال ناشئ من حكاية

أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكنا حملنا اوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك القى السامرى فاخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا الهكم واله موسى فنسى افلا يرون ان لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) اعلم انه تعالى لما قال لموسى وما أعجلك عن قومك وقال موسى فى جوابه وعجلت اليك رب لترضى عرفه الله تعالى ما حدث من القوم بعد أن فارقهم مما كان يبعد أن يحدث لو كان معهم فقال فانا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة لا يجوز أن يكون المراد ان الله تعالى خلق فيهم الكفر لوجهين (الوجه الاول) الدلائل العقلية الدالة على انه لا يجوز من الله أن يفعل ذلك (الثانى) انه قال وأضلهم السامرى ولو كان الله خلق الضلال فيهم لم يكن لفعل السامرى فيه أثر وكان يبطل قوله وأضلهم السامرى وأيضا فلان موسى عليه السلام لما طالبهم بذكر سبب تلك الفتنة قال أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فلو حصل ذلك بخلق الله تعالى لكان لهم أن يقولوا السبب فيه ان الله خلقه فينا لا ما ذكرت فكان يبطل تفهيم موسى عليه السلام وأيضا فقال أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم ولو كان ذلك بخلقه لاستحال أن يغضب عليهم فيما هو الخالق له ولما بطل ذلك وجب أن يكون لقوله فتنا معنى آخر وذلك لان الفتنة قد تكون بمعنى الامتحان يقال فتنت الذهب بالنار اذا امتحنته بالنار لكى يتميز الجيد من الردئ فههنا شدد الله التكليف عليهم وذلك لان السامرى لما أخرج لهم ذلك العجل صاروا مكلفين بأن يستدلوا بحدوث جملة العالم والاجسام على ان لها الها ليس بجسم وحينئذ يعرفون ان العجل لا يصلح للالهية فكان هذا التعبد تشديدا فى التكليف فكان فتنة والتشديد فى التكليف موجود قال تعالى أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون هذا تمام كلام المعتزلة قال الاصحاب ليس فى ظهور صوت عن عجل متخذ من الذهب شبهة أعظم مما فى الشمس والقمر والدليل الذى ينفى كون الشمس والقمر الها أولى بان ينفى كون ذلك العجل الها فحينئذ لا يكون حدوث ذلك العجل تشديدا فى التكليف فلا يصح حمل الآية عليه فوجب حمله على خلق الضلال فيهم قولهم أضاف الاضلال الى السامرى قلنا أليس ان جميع المسببات العادية تضاف الى أسبابها فى الظاهر وان كان الموجد لها هو الله تعالى فكذا ههنا وأيضا قرئ وأضلهم السامرى أى وأشدهم ضلالا السامرى وعلى هذا لا يبقى للمعتزلة الاستدلال ثم الذى يحسم مادة الشغب التمسك بفصل الداعى على ما سبق تقريره فى هذا الكتاب مرارا كثيرة (المسئلة الثانية) المراد بالقوم ههنا هم الذين خلفهم مع هرون عليه السلام على ساحل البحر وكانوا ستمائة ألف افتتنوا بالعجل غير اثنى عشر ألفا (المسئلة الثالثة) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية سعيد بن جبير كان السامرى عجلا من أهل كرمان وقع الى مصر وكان من

رجوعه كذلك كأنه قيل فماذا فعل بهم فقيل قال (ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا) بان يعطيكم التوراة فيها ما فيها من النور والهدى والعهدة لانكار عدم الوعد ونفيه وتقرير وجوده على أبلغ وجه وآكده أى وعدكم بحيث لا سبيل لكم الى

انكاره والفاء فى قوله تعالى (أفطال عليكم العهد) أى الزمان العطف على مقدر والهمزة لانكار المعطوف ونفيه فقط أى أوعدكم ذلك فطال زمان الانجاز فأخطأتم بسببه ﴿ ٩٢ ﴾ (أم أردتم أن يحل) أى يجب (عليكم غضب) شديد لا يقادر قدره كائن (من ربكم) أى من مالك أمركم على الاطلاق (فأخلفتم موعدى) أى وعدكم اياى باثبات على ما امرتكم به الى أن أرجع من الميقات على اضافة المصدر الى مفعوله للقصد الى زيادة تقبيح حالهم فان اخلاف الوعد الجارى فيما بينهم وبينه عليه السلام من حيث اضافته اليه عليه السلام أشنع منه من حيث اضافته اليهم والفاء لترتيب ما بعدها على كل واحد من شقى الترديد على سبيل البدل كأنه أنسيتم الوعد بطول العهد وأخلفتموه خطأ أم أردتم حلول الغضب عليكم فأخلفتموه عمدا وأما جعل الموعد مضافا الى فاعله وحمل اخلافه على معنى وجدان الخلف فيه أى فوجدتم الخلف فى موعدى لكم بالعود بعد الاربعين فمما لا يساعده السباق ولا السياق أصلا (قالوا ما أخلفنا موعدك)

قوم يعبدون البقر والذى عليه الاكثرون انه كان من عظماء بنى اسرائيل من قبيلة يقال لها السامرة قال الزجاج وقال عطاء عن ابن عباس بل كان رجلا من القبط جارا لموسى عليه السلام وقد آمن به (المسئلة الرابعة) روى فى القصة أنهم أقاموا بعد مفارقته عشرين ليلة وحسبوها أربعين مع أيامها وقالوا قد أكملنا العدة ثم كان أمر العجل بعد ذلك والتوفيق بين هذا وبين قوله لموسى عند مقدمه فانا قد فتنا قومك من بعدك من وجهين (الاول) انه تعالى أخبر عن الفتنة المترقبة بلفظ الموجودة الكائنة على عادته (الثانى) ان السامرى شرع فى تدبير الامر لما غاب موسى عليه السلام وعزم على اضلالهم حال مفارقة موسى عليه السلام وكأنه قد رأى الفتنة موجودة (المسئلة الخامسة) انما رجع موسى عليه السلام بعد ما استوفى الاربعين ذا القعدة وعشر ذى الحجة (المسئلة السادسة) ذكروا فى الاسف وجوها (أحدها) انه شدة الغضب وعلى هذا التقدير لا يلزم التكرار لان قوله غضبان يفيد أصل الغضب وقوله أسفا يفيد كماله (وثانيها) قال الاكثرون حزنا وجزعا يقال أسف يأسف أسفا اذا حزن فهو آسف (وثالثها) قال قوم الاسف الغلظ وفرقوا بين الاغتياظ والغضب بأن الله تعالى لا يوصف بالغيظ ويوصف بالغضب من حيث كان الغضب ارادة الاضرار بالمغضوب عليه والغيظ تغير يلحق المغتاظ وذلك لا يصح الا على الاجسام كالضحك والبكاء ثم ان الله تعالى حكى عن موسى عليه السلام انه عاتبهم بعد رجوعه اليهم قالت المعتزلة وهذا يدل على انه ليس المراد من قوله فانا قد فتنا قومك من بعدك أنه تعالى خلق الكفر فيهم والا لما عاتبهم بل يجب أن يعاتب الله تعالى قال الاصحاب وقد فعل ذلك بقوله ان هى الا فتنتك ويجمع تلك المعاتبات أمور (أحدها) قوله ياقوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا وفيه سؤالان (السؤال الاول) قوله ألم يعدكم ربكم هذا الكلام انما يتوجه عليهم لو كانوا معترفين بالله آخر سوى العجل أما لما اعتقدوا أنه لا اله سواه على ما أخبر الله تعالى عنهم انهم قالوا هذا الهكم واله موسى كيف يتوجه عليهم هذا الكلام (الجواب) انهم كانوا معترفين بالاله لكنهم عبدوا العجل على التأويل الذى يذكره عبدة الاصنام (السؤال الثانى) ما المراد بذلك الوعد الحسن (الجواب) ذكروا وجوها (أحدها) ان المراد ما وعدهم من انزال التوراة عليهم ليتفوا على الشرائع والاحكام ويحصل لهم بسبب ذلك مزية فيما بين الناس وهو الذى ذكره الله تعالى فيما تقدم من قوله وواعدناكم جانب الطور الايمن (وثانيها) ان الوعد الحسن هو الوعد الصادق بالثواب على الطاعات (وثالثها) الوعد هو العهد وهو قول مجاهد وذلك العهد هو قوله تعالى ولا تطغوا فيحل عليكم غضبى الى قوله ثم اهتدى والدليل عليه قوله بعد ذلك أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فكأنه قال أفنسيتم ذلك الذى قال الله لكم ولا تطغوا فيه (ورابعها) الوعد الحسن ههنا يحتمل أن يكون وعدا حسنا فى منافع الدين وأن يكون

أى وعدنا اياك الثبات على ما أمرتنا به وايثاره على أن يقال موعدنا على اضافة المصدر الى فاعله للامر آنفا ﴿ فى ﴾ (بملكنا) أى بأن ملكنا أمورنا يعنون أنا لو خلينا وأمورنا ولم يسول لنا السامرى ما سوله مع مساعدة بعض الاحوال لما أخلفنا وقرئ بملكنا بكسر الميم وضمها والكل لغات فى مصدر ملكت الشئ

(ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم) استدراك عما سبق واعتذار عما فعلوا ببيان منشأ الخطا وقرئ حملنا بالتخفيف اى حملنا احمالا من حلى القبط التى استعرناها منهم حين هممنا بالخروج من مصر باسم العرس وقيل كانوا استعاروها لعيد كان لهم ثم لم يردوها اليهم عند الخروج مخافة أن يقفوا على أمرهم وقيل هى ما ألقاه البحر على الساحل بعد اغراقهم فأخذوها ولعل تسميتهم لها أوزارا لانها تبعات وآثام حيث لم تكن الغنائم تحل حينئذ (فقذفناها) أى فى النار رجاء للخلاص عن ذنبها (فكذلك) أى مثل ذلك القذف (ألقى السامرى) أى ما كان معه منها وقد كان أراهم انه أيضا يلقى ما كان معه من الحلى فقالوا واما قالوا على زعمهم وانما كان الذى ألقاه التربة التى أخذها من أثر الرسول كما سيأتى روى أنه قال لهم انما أخر موسى عنكم لما معكم من الاوزار فارأى أن نحفر حفيرة ونسجر فيها نارا ونقذف فيها كل ما معنا ففعلوا (فأخرج) أى السامرى (لهم) للقائلين (عجلا) من تلك الحلى المذابة وتأخيره مع كونه مفعولا صريحا عن الجار والمجرور لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم فان قوله تعالى (جسدا) أى جثة ذا دم ولحم أو جسدا من ذهب لا روح له بدل منه وقوله تعالى (له خوار) أى صوت عجل نعت له (فقالوا) أى السامرى ومن

فى منافع الدنيا أما منافع الدين فهو الوعد بانزال الكتاب الشريف الهادى الى الشرائع والاحكام والوعد بحصول الثواب العظيم فى الآخرة وأما منافع الدنيا فهو انه تعالى قبل اهلاك فرعون كان قد وعدهم أرضهم وديارهم وقد فعل ذلك ثم قال أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فالمراد أفنسيتم ذلك العهد أم تعمدتم المعصية واعلم ان طول العهد يحتمل أمورا (أحدها) أفطال عليكم العهد بنعم الله تعالى من انجائه اياكم من فرعون وغير ذلك من النعم المعدودة المذكورة فى أوائل سورة البقرة وهذا كقوله فطال عليهم الامد فقست قلوبهم (وثانيها) يروى انهم عرفوا ان الاجل أربعون ليلة فجعلوا كل يوم بازاء ليلة وردوه الى عشرين قال القاضى هذا ركيك لان ذلك لا يكاد يشتبه على أحد (وثالثها) ان موسى عليه السلام وعدهم ثلاثين ليلة فلما زاد الله تعالى فيها عشرة أخرى كان ذلك طول العهد وأما قوله أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فهذا لا يمكن اجراؤه على الظاهر لان أحدا لا يريد ذلك ولكن المعصية لما كانت توجب ذلك ومريد السبب مريد للمسبب بالعرض صح هذا الكلام واحتج العلماء بذلك على ان الغضب من صفات الافعال لا من صفات الذات لان صفة ذات الله تعالى لا تتنزل فى شئ من الاجسام أما قوله فأخلفتم موعدى فهذا يدل على موعد كان منه عليه السلام مع القوم وفيه وجهان (أحدهما) ان المراد ما وعدوه من اللحاق به والمجئ على أثره (والثانى) ما وعدوه من الاقامة على دينه الى أن يرجع اليهم من الطور فعند هذا قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا وفى ان قائل هذا الجواب من هو وجهان (الاول) انهم الذين لم يعبدوا العجل فكأنهم قالوا انا ما أخلفنا موعدك بملكنا أى بأمر كنا نملكه وقد يضيف الرجل فعل فريقه الى نفسه كقوله تعالى واذ فرقنا بكم البحر واذ قتلتم نفسا وان كان الفاعل لذلك آباءهم لاجلهم فكأنهم قالوا الشبهة قويت على عبدة العجل فلم نقدر على منعهم عنه ولم نقدر أيضا على مفارقتهم لانا خفنا أن يصير ذلك سببا لوقوع التفرقة وزيادة الفتنة (الوجه الثانى) ان هذا قول عبدة العجل والمراد ان غيرنا أوقع الشبهة فى قلوبنا وفاعل السبب فاعل المسبب ومخلف الوعد هو الذى أوقع الشبهة فانه كان كالمالك لنا فان قيل كيف يعقل رجوع قريب من ستمائة ألف انسان من العقلاء المكلفين عن الدين الحق دفعة واحدة الى عبادة العجل الذى يعرف فساده بالضرورة ثم ان مثل هذا الجمع لما فارقوا الدين وأظهروا الكفر فكيف يعقل رجوعهم دفعة واحدة عن ذلك الدين بسبب رجوع موسى عليه السلام وحده اليهم قلنا هذا غير ممتنع فى حق البله من الناس واعلم ان فى بملكنا ثلاث قراآت قرأ حمزة والكسائى بضم الميم ونافع وعاصم بفتح الميم وأبو عمرو وابن عامر وابن كثير بالكسر أما الكسر والفتح فهما واحد وهما لغتان مثل رطل ورطل وأما الضم فهو السلطان ثم ان القوم فسروا ذلك العذر المجمل فقالوا ولكنا حملنا أوزارا من زينة القوم قرأ حمزة والكسائى وأبو عمرو وعاصم فى رواية أبى بكر حملنا مخففة من الحمل وقرأ ابن كثير ونافع وحفص وابن

افتتن به أول مارآه (هذا الهكم واله موسى فنسى) أى غفل عنه وذهب يطلبه فى الطور وهذا حكاية لنتيجة فتنة السامرى فعلا وقولا من جهته تعالى قصدا الى زيادة تقريرها ثم ترتيب ﴿ ٩٤ ﴾ الانكار عليها لا من جهة القائلين

عامر حملنا مشددة فمن قرأ بالتخفيف فمعناه حملنا مع أنفسنا ما كنا استعرناه من القوم ومن قرأ بالتشديد ففيه وجوه (أحدها) ان موسى عليه السلام حملهم على ذلك أى أمرهم باستعارة الحلى والخروج بها فكأنه ألزمهم ذلك (وثانيها) جعلنا كالضامن لها الى أن نؤديها الى حيث يأمرنا الله (وثالثها) ان الله تعالى حملهم ذلك على معنى انه ألزمهم فيه حكم المغنم أما الاوزار فهى الاثقال ومن ذلك سمى الذنب وزرا لانه ثقل ثم فيه احتمالات (أحدها) انه لكثرتها كانت أثقالا (وثانيها) ان المغانم كانت محرمة عليهم فكان يجب عليهم حفظها من غير فائدة فكانت أثقالا (وثالثها) المراد بالاوزار الآثام والمعنى حملنا آثاما روى فى الخبر ان هرون عليه السلام قال انها نجسة فتطهروا منها وقال السامرى ان موسى عليه السلام انما احتبس عقوبة بالحلى فيجوز أن يكونوا أرادوا هذا القول وقد يقول الانسان للشئ الذى يلزمه رده هذا كله اثم وذنب (ورابعها) ان ذلك الحلى كان القبط يتزينون به فى مجامعهم يجرى فيها الكفر لا جرم انها وصفت بكونها أوزارا كما يقال مثله فى آلات المعاصى أما قوله فقذفناها فذكروا فيه وجوها فى انهم أين قذفوها (الوجه الاول) قذفوها فى حفرة كان هرون عليه السلام أمرهم بجمع الحلى فيها انتظارا لعود موسى عليه السلام (والوجه الثانى) قذفوها فى موضع أمرهم السامرى بذلك (والوجه الثالث) فى موضع جمع فيه النار ثم قالوا فكذلك ألقى السامرى أى فعل السامرى مثل ما فعلنا أما قوله فاخرج لهم عجلا جسدا له خوار فاختلفوا فى انه هل كان ذلك الجسد حيا أم لا فالقول الاول لا لانه لا يجوز اظهار خرق العادة على يد الضال بل السامرى صور صورة على شكل العجل وجعل فيها منافذ ومخارق بحيث تدخل فيها الرياح فيخرج صوت يشبه صوت العجل (والقول الثانى) انه صار حيا وخار كما يخور العجل واحتجوا عليه بوجوه (أحدها) قوله فقبضت قبضة من أثر الرسول ولو لم يصر حيا لما بقى لهذا الكلام فائدة (وثانيها) انه تعالى سماه عجلا والعجل حقيقة فى الحيوان وسماه جسدا وهو انما يتناول الحى (وثالثها) أثبت له الخوار وأجابوا عن حجة الاولين بأن ظهور خوارق العادة على يد مدعى الالهية جائز لانه لا يحصل الالتباس وههنا كذلك فوجب أن لا يمتنع وروى عكرمة عن ابن عباس ان هرون عليه السلام مر بالسامرى وهو يصنع العجل فقال ما تصنع فقال أصنع ما ينفع ولا يضر فادع لى فقال اللهم اعطه ما سأل فلما مضى هرون قال السامرى اللهم انى أسألك أن يخور فخار وعلى هذا التقدير يكون معجزا للنبى أما قوله فقالوا هذا الهكم واله موسى ففيه اشكال وهو ان القوم ان كانوا فى الجهالة بحيث اعتقدوا ان ذلك العجل المعمول فى تلك الساعة هو الخالق للسموات والارض فهم مجانين وليسوا بمكلفين ولان مثل هذا الجنون على مثل ذلك الجمع العظيم محال وان لم يعتقدوا ذلك فكيف قالوا هذا الهكم واله موسى وجوابه لعلهم كانوا من الحلولية فجوزوا حلول الاله أو حلول صفة من صفاته فى ذلك الجسم وان كان ذلك أيضا فى غاية البعد لان ظهور

والاقبل فاخرج لنا والحمل على أن عدولهم الى ضمير الغيبة لبيان أن الاخراج والقول المذكورين للكل لا للعبدة فقط خلاف الظاهر مع انه مخل باعتذارهم فان مخالفة بعضهم للسامرى وعدم افتتانهم يتسويله مع كون الاخراج والخطاب لهم مما يهون مخالفة المعتذرين فافتتانهم بعد ذلك أعظم جناية وأكثر شناعة وأما ما قيل من أن المعتذرين هم الذين لم يعبدوا العجل وان نسبة الاخلاف الى أنفسهم وهم برآء منه من قبيل قولهم بنو فلان قتلوا فلانا مع أن القاتل واحد منهم كأنهم قالوا ما وجد الاختلاف فيما بيننا بأمر كنا نملكه بل تمكنت الشبهة فى قلوب العبدة حيث فعل السامرى ما فعل فأخرج لهم ما أخرج وقال ما قال فلم نقدر على صرفهم عن ذلك ولم نفارقهم مخافة ازدياد الفتنة

فيقضى بفساده سباق النظم الكريم وسياقه وقوله تعالى (أفلا يرون) الخ انكار وتقبيح من جهته تعالى ﴿ الخوار ﴾ لحال الضالين والمضلين جميعا وتسفيه لهم فيما أقدموا عليه من المنكر الذى لا يشتبه بطلانه واستحالته على أحد وهو اتخاذه الها والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام

اى ألا يتفكرون فلا يعلمون (أن لا يرجع اليهم قولا) أى انه لا يرجع اليهم كلاما ولا يرد عليهم جوابا فكيف يتوهمون أنه اله
وقرئ يرجع بالنصب قالوا فالرؤية حينئذ بصرية فان أن الناصبة لا تقع بعد أفعال اليقين أى ألا ينظرون

الخوار لا يناسب الالهية ولكن لعل القوم كانوا فى نهاية البلادة والجلافة وأما قوله فنسى ففيه وجوه (الاول) انه كلام الله تعالى كانه أخبر عن السامرى انه نسى الاستدلال على حدوث الاجسام وان الاله لا يحل فى شىء ولا يحل فيه شىء ثم انه سبحانه بين المعنى الذى يجب الاستدلال به وهو قوله أفلا يرون أن لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا أى لم يخطر ببالهم ان من لا يتكلم ولا يضر ولا ينفع لا يكون الها ولا يكون للاله تعلق به فى الحالية والمحلية (الوجه الثانى) ان هذا قول السامرى وصف به موسى عليه السلام والمعنى ان هذا الهكم واله موسى فنسى موسى ان هذا هو الاله فذهب يطلبه فى موضع آخر وهو قول الاكثرين (الوجه الثالث) فنسى وقت الموعد فى الرجوع أما قوله أن لا يرجع اليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا فهذا استدلال على عدم الهيتها بانها لا تتكلم ولا تنفع ولا تضر وهذا يدل على ان الاله لابد وأن يكون موصوفا بهذه الصفات وهو كقوله تعالى فى قصة ابراهيم عليه السلام لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا وان موسى عليه السلام فى اكثر الامر لا يعول الا على دلائل ابراهيم عليه السلام بقى ههنا بحثان (البحث الاول) قال الزجاج الاختيار أن لا يرجع بالرفع بمعنى أنه لا يرجع وهذا كقوله وحسبوا أن لا تكون فتنة فعموا وصموا بمعنى أنه لا تكون وقرئ بالنصب أيضا على أن أن هذه الناصبة للافعال (البحث الثانى) هذه الآية تدل على وجوب النظر فى معرفة الله تعالى وقال فى آية أخرى ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا وهو قريب فى المعنى من قوله فى ذم عبدة الاصنام ألهم أرجل يمشون بها ولبس المقصود من هذا ان العجل لو كان يكلمهم لكان الها لان الشىء يجوز أن يكون مشروطا بشروط كثيرة ففوات واحد منها يقتضى فوات المشروط ولكن حصول الواحد فيها لا يقتضى حصول المشروط (الثالث) قال بعض اليهود لعلى عليه السلام ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فقال انما اختلفنا عنه وما اختلفنا فيه وأنتم ما جفت أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم لنبيكم اجعل لنا الها كما لهم آلهة * قوله تعالى (ولقد قال لهم هرون من قبل يا قوم انما فتنتم به وان ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى) اعلم ان هرون عليه السلام انما قال ذلك شفقة منه على نفسه وعلى الخلق أما شفقته على نفسه فلانه كان مأمورا من عند الله بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر وكان مأمورا من عند أخيه موسى عليه السلام بقوله اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين فلو لم يشتغل بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر لكان مخالفا لامر الله تعالى ولامر موسى عليه السلام وذلك لا يجوز أوحى الله تعالى الى يوشع بن نون انى مهلك من قومك أربعين ألفا من خيارهم وستين ألفا من شرارهم فقال يارب هؤلاء الاشرار فما بال الاخيار فقال انهم لم يغضبوا لغضبى وقال ثابت البنانى قال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصبح وهمه غير الله تعالى فليس من الله فى شىء ومن أصبح لا يهتم بالمسلمين فليس منهم وعن الشعبى

فلا يبصرون عدم رجعه اليهم قولا من الاقوال وتعليق الابصار بما ذكر مع كونه أمرا عدميا للتنبيه على كمال ظهوره المستغنى لمزيد تشنيعهم وتركيك عقولهم وقوله تعالى (ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا) عطف على لا يرجع داخل معه فى حيز الرؤية أى أفلا يرون انه لا يقدر على أن يدفع عنهم ضرا أو يجلب لهم نفعا أو لا يقدر على أن يضرهم ان لم يعبدوه أو ينفعهم ان عبدوه (ولقد قال لهم هرون من قبل) جملة قسمية مؤكدة لما قبلها من الانكار والتشنيع ببيان عتوهم واستعصائهم على الرسول اثر بيان مكابرتهم لمقتضى العقول اى وبالله لقد نصح لهم هرون ونبههم على كنه الامر من قبل رجوع موسى عليه السلام اليهم وخطابه اياهم بما ذكر من المقالات وقيل من قبل قول السامرى كأنه عليه السلام أول ما أبصره حين طلع من الحفيرة توهم منهم الافتتان به فسارع الى تحذيرهم وقال لهم (يا قوم انما فتنتم به) أى أوقعتم فى الفتنة بالعجل أو أضللتم على توجيه القصر المستفاد من كلمة انما الى نفس الفعل بالقياس الى مقابله الذى يدعيه القوم لا الى قيده المذكور

بالقياس الى قيد آخر على معنى انما فعل بكم الفتنة لا الارشاد الى الحق لا على معنى انما فتنتم بالعجل لا بغيره وقوله تعالى
(وان ربكم الرحمن) بكسر ان عطفا على انما ارشادلهم الى الحق ﴿ ٩٦ ﴾ اثر زجرهم عن الباطل والتعرض لعنوان

عن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد اذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى وقال أبو على الحسن الغورى كنت في بعض المواضع فرأيت زورقا فيها دنان مكتوب عليها لطيف فقلت للملاح ايش هذا فقال أنت صوفى فضولى وهذه خمور المعتضد فقلت له اعطنى ذلك المدرى فقال لغلامه اعطه حتى نبصر ايش يعمل فأخذت المدرى وصعدت الزورق فكنت أكسر دنانا والملاح يصيح حتى بقى واحد فامسكت فجاء صاحب السفينة فأخذنى وجاء بى الى المعتضد وكان سيفه قبل كلامه فلما وقع بصره على قال من أنت قلت المحتسب قال من ولاك الحسبة قلت الذى ولاك الخلافة قال لم كسرت هذه الدنان قلت شفقة عليك اذا لم تصل يدى الى دفع مكروه عنك قال فلم أبقيت هذا الواحد قلت انى لما كسرت هذه الدنان فانى انما كسرتها حمية فى دين الله فلما وصلت الى هذا اعجبت فأمسكت ولو بقيت كما كنت لكسرته فقال اخرج ياشيخ فقد وليتك الحسبة فقلت كنت أفعله لله تعالى فلا أحب أن أكون شرطيا وأما الشفقة على المسلمين فلان الانسان يجب أن يكون رقيق القلب مشفقا على أبناء جنسه وأى شفقة أعظم من أن يرى جماعتها فتون على النار فيمنعهم منها وعن أبى سعيد الخدرى عنه عليه السلام يقول الله تعالى اطلبوا الفضل عند رحماء من عبادى تعيشوا فى أكنافهم فانى جعلت فيهم رحمتى ولا تطلبوها فى القاسية قلوبهم فان فيهم غضبى وعن عبد الله بن أبى أوفى قال خرجت أريد النبي صلى الله عليه وسلم فاذا أبو بكر وعمر معه فجاء صغير فبكى فقال لعمر ضم الصبى اليك فانه ضال فأخذه عمر فاذا امرأة تولول كاشفة عن رأسها جزعا على ابنها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ادرك المرأة فناداها فجاءت فأخذت ولدها وجعلت تبكى والصبى فى حجرها فالتفت فرأت النبي صلى الله عليه وسلم فاستحيت فقال عليه السلام عند ذلك أترون هذه رحيمة بولدها قالوا يارسول الله كفى بهذه رحمة فقال والذى نفسى بيده ان الله أرحم بالمؤمنين من هذه بولدها ويروى انه بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ومعه أصحابه اذ نظر الى شاب على باب المسجد فقال من أراد أن ينظر الى رجل من أهل النار فلينظر الى هذا فسمع الشاب ذلك فولى فقال الهى وسيدى هذا رسولك يشهد على بأنى من أهل النار وأنا أعلم انه صادق فاذا كان الامر كذلك فأسألك أن تجعلنى فداء أمة محمد صلى الله عليه وسلم وتشعل النار بى حتى تبر يمينه ولا تشعل النار باحد آخر فهبط جبريل عليه السلام وقال يا محمد بشر الشاب بأنى قد انقذته من النار بتصديقه لك وفدائه أمتك بنفسه وشفقته على الخلق اذا ثبت ذلك فاعلم ان الامر بالمعروف والشفقة على المسلمين واجب ثم ان هرون عليه السلام رأى القوم متهافتين على النار ولم يبال بكثرتهم ولا بقوتهم بل صرح بالحق فقال ياقوم انما فتنتم به الآية وههنا دقيقة وهى ان الرافضة تمسكوا بقوله عليه السلام لعلى أنت منى بمنزلة هرون من موسى ثم ان هرون ما منعته التقية فى مثل هذا الجمع بل صعد المنبر وصرح

الربوبية والرحمة للاعتناء باستمالتهم الى الحق كما ان التعرض لوصف العجل للاهتمام بالزجر عن الباطل أى ان ربكم المستحق للعبادة هو الرحمن لا غير والفاء فى قوله تعالى (فاتبعونى) لترتيب ما بعدها على ما قبلها من مضمون الجملتين أى اذا كان الامر كذلك فاتبعونى فى اثبات على الدين (وأطيعوا أمرى) هذا واتركوا عبادة ما عرفتم شأنه (قالوا) فى جواب هرون عليه السلام (لن نبرح عليه) على العجل وعبادته (عاكفين) مقيمين (حتى يرجع الينا موسى) جعلوا رجوعه عليه السلام اليهم غاية لعكوفهم على عبادة العجل لكن لا على طريق الوعد بتركها عند رجوعه عليه السلام بل بطريق التعلل والتسويف وقد دسوا تحت ذلك انه عليه السلام لا يرجع بشئ مبين تعويلا على مقالة السامرى روى انهم لما قالوه اعتزلهم هرون عليه السلام فى اثنى عشر ألفا وهم الذين لم يعبدوا العجل فلما رجع موسى عليه السلام ﴿ بالحق ﴾ وسمع الصياح وكانوا يرقصون حول العجل قال للسبعين الذين كانوا معه هذا صوت الفتنة فقال لهم ما قال وسمع منهم ما قالوا وقوله تعالى

(قال) استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية جوابهم لهرون عليه السلام كأنه قيل فاذا قال موسى لهرون عليهما السلام حين سمع جوابهم له وهل رضي بسكوته بعد ما شاهد منهم ما شاهد فقيل قال له وهو مغتاظ قد أخذ بلحيته ورأسه (يا هرون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا) بعبادة العجل و يلغوا من المكابرة الى ان شافهوك بتلك المقالة الشنعاء (ان لا تتبعني) أي أن تتبعني على أن لامزيدة وهو مفعول ثان لمنع وهو عامل

في اذ أي أي شيء منعك حين رؤيتك اضلالهم من أن تتبعني

بالحق ودعا الناس الى متابعة نفسه والمنع من متابعة غيره فلو كانت أمة محمد صلى الله عليه وسلم على الخطا لكان يجب على علي رضي الله عنه أن يفعل ما فعله هرون عليه السلام وأن يصعد على المنبر من غير تقية وخوف وأن يقول فاتبعوني وأطيعوا أمري فلما لم يفعل ذلك علمنا أن الامة كانوا على الصواب واعلم أن هرون عليه السلام سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه لانه زجرهم عن الباطل أولا بقوله انما فتنتم به ثم دعاهم الى معرفة الله تعالى ثانيا بقوله وان ربكم الرحمن ثم دعاهم ثالثا الى معرفة النبوة بقوله فاتبعوني ثم دعاهم الى الشرائع رابعا بقوله وأطيعوا أمري وهذا هو الترتيب الجيد لانه لابد قبل كل شيء من اماطة الاذى عن الطريق وهو ازالة الشبهات ثم معرفة الله تعالى فانها هي الاصل ثم النبوة ثم الشريعة فثبت ان هذا الترتيب على أحسن الوجوه وانما قال وان ربكم الرحمن فخص هذا الموضع باسم الرحمن لانه كان ينبئهم بأنهم متى تابوا قبل الله توبتهم لانه هو الرحمن الرحيم ومن رحمته أن خلصهم من آفات فرعون ثم انهم لجهلهم قابلوا هذا الترتيب الحسن في الاستدلال بالتقليد والجحود فقالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع الينا موسى كأنهم قالوا لانقبل حجتك ولكن نقبل قول موسى وعادة المقلد ليس الا ذاك ﴿ قوله تعالى (قال يا هرون ما منعك اذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعني أفعصيت أمري قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي اني خشيت أن تقول فرقت بين بني اسرائيل ولم ترقب قولي) اعلم ان الطاعنين في عصمة الانبياء عليهم السلام يتمسكون بهذه الآية من وجوه (أحدها) ان موسى عليه السلام اما أن يكون قد أمر هرون باتباعه أو لم يأمره فان أمره فاما أن يكون هرون قد اتبعه أو لم يتبعه فان اتبعه كانت ملامة موسى لهرون معصية وذنبا لان ملامة غير المجرم معصية وان لم يتبعه كان هرون تاركا للواجب فكان فاعلا للمعصية وأما ان قلنا ان موسى عليه السلام ما أمره باتباعه كانت ملامته اياه بترك الاتباع معصية فثبت أن على جميع التقديرات يلزم اسناد المعصية اما الى موسى أو الى هرون (وثانيها) قول موسى عليه السلام أفعصيت أمري استفهام على سبيل الانكار فوجب أن يكون هرون قد عصاه وأن يكون ذلك العصيان منكرا والا لكان موسى عليه السلام كاذبا وهو معصية فاذا فعل هرون ذلك فقد فعل المعصية (وثالثها) قوله يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي وهذا معصية لان هرون عليه السلام قد فعل ما قدر عليه من النصيحة والوعظ والزجر فان كان موسى عليه السلام قد بحث عن الواقعة و بعد أن علم أن هرون قد فعل ما قدر عليه كان الاخذ برأسه ولحيته معصية وان فعل ذلك قبل تعرف الحال كان ذلك ايضا معصية (ورابعها) ان هرون عليه السلام قال لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي فان كان الاخذ بلحيته و برأسه جائزا كان قول هرون لا تأخذ منعا له عما كان له أن يفعله فيكون ذلك معصية وان لم يكن ذلك الاخذ جائزا كان موسى عليه السلام فاعلا للمعصية فهذه أسئلة لطيفة في هذا الباب والجواب عن الكل اناً بينا في سورة البقرة في تفسير قوله تعالى فازلهما

في الغضب لله تعالى والمقاتلة مع من كفر به وقيل المعنى ما حملك على أن لا تتبعني فان المنع عن الشيء مستلزم للحمل على مقابله وقيل ما منعك ان تلحقني وتخبرني بضلالهم فتكون مفارقتك مزجرة لهم وفيه أن نصائح هرون عليه السلام حيث لم تزجرهم عما كانوا عليه فلأن لا تزجرهم مفارقته اياهم عنه أولى والاعتذار بأنهم اذا علموا أنه يلحقه و يخبره بالقصة يخافون رجوع موسى عليه السلام فيزجروا عن ذلك بعزل من حيز القبول كيف لا وهم قد صرحوا بأنهم عاكفون عليه الى حين رجوعه عليه السلام (أفعصيت أمري) أي بالصلابة في الدين والمحاماة عليه فان قوله له عليهما السلام اخلفني متضمن للامر بهما حتما فان الخلافة لا تتحقق الا بمباشرة الخليفة ما كان يباشره ﴿ ١٣ ﴾ س المستخلف لو كان حاضرا والهمزة للانكار التوبيخي والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي ألم تتبعني أو أخالفتني فعصيت أمري (قال يا ابن أم) خص الام بالاضافة استعظاما لحقها وترقيقا لقلبه لانها أقبل من انه كان أخاه لام فان الجمهور على انهما كانا شقيقين (لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي) أي ولا بشعر رأسي روى انه عليه

السلام أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله من شدة غيظه وفرط غضبه لله وكان عليه السلام حديدا متصلبا فى كل شئ فلم يتمالك حين رآهم يعبدون العجل ففعل ما فعل وقوله تعالى (انى خشيت) الخ استئناف سبق لتعليل موجب النهى ببيان الداعى الى ترك المقاتلة وتحقيق انه غير عاص لامره بل ممتثل به أى انى خشيت لو قاتلت بعضهم ببعض وتفانوا وتفرقوا (ان تقول فرقت بين بنى اسرائيل) برأيك مع كونهم أبناء ﴿ ٩٨ ﴾ واحد كما ينبئ عنه ذكرهم بذلك

العنوان دون القوم ونحوه وأراد عليه السلام بالتفريق ما يستتبعه القتال من التفريق الذى لا يرجى بعده الاجتماع (ولم ترقب قولى) يريد به قوله عليه السلام اخلفنى فى قومى وأصلح الخ يعنى انى رأيت أن الاصلاح فى حفظ الدهماء والمداراة معهم الى أن ترجع اليهم فلذلك استأنيتك لتكون أنت المتدارك للامر حسبما رأيت لاسيما وقد كانوا فى غاية القوة وتحرعلى القلة والضعف كما يعرب عنه قوله تعالى ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى (قال) استئناف وقع جوابا عما نشأ من حكاية ما سلف من اعتذار القوم باسناد الفساد الى السامرى واعتذار هرون عليه السلام كأنه قيل فماصنع موسى بعد سماع ما حكى من الاعتذارين واستقرار أصل الفتنة على السامرى فقيل قال مو بخا له هذا

الشيطان عنها أنواعا من الدلائل الجلية فى أنه لا يجوز صدور المعصية من الانبياء وحاصل هذه الوجوه تمسك بظواهر قابلة للتأويل ومعارضة ما يبعد عن التأويل بما يتسارع اليه التأويل غير جائز اذا ثبتت هذه المقدمة فاعلم أن لنا فى الجواب عن هذه الاشكالات وجوها (أحدها) انا وان اختلفنا فى جواز المعصية على الانبياء لكن اتفقنا على جواز ترك الاولى عليهم واذا كان كذلك فالفعل الذى يفعله أحدهما ويمنعه الآخر وأعنى بهما موسى وهرون عليهما السلام لعله كان أحدهما أولى والآخر كان ترك الاولى فلذلك فعله أحدهما وتركه الآخر فان قيل هذا التأويل غير جائز لان كل واحد منهما كان جازما فيما يأتى به فعلا كان أو تركا وفعل المندوب وتركه لا يجزم به قلنا تقييد المطلق بالدليل غير ممتنع فنحن نحمل ذلك الجزم فى الفعل والترك على أن المراد افعل ذلك أو اتركه ان كنت تريد الاصلح وقد يترك ذلك الشرط اذا كان تواطؤهما على رعايته معلوما متقررا (وثانيها) ان موسى عليه السلام أقبل وهو غضبان على قومه فأخذ برأس أخيه وجره اليه كما يفعل الانسان بنفسه مثل ذلك عند الغضب فان الغضبان المتفكر قد يعض على شفتيه و يفتل أصابعه و يقبض على لحيته فاجرى موسى عليه السلام أخاه هرون مجرى نفسه لانه كان أخاه وشريكه فصنع به ما يصنع الرجل بنفسه فى حال الفكر والغضب فاما قوله لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى فلا يمتنع أن يكون هرون عليه السلام خاف من أن يتوهم بنو اسرائيل من سوء ظنهم أنه منكر عليه غير معاون له ثم أخذ فى شرح القصة فقال انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل (وثالثها) ان بنى اسرائيل كانوا على نهاية سوء الظن بموسى عليه السلام حتى ان هرون غاب عنهم غيبة فقالوا لموسى عليه السلام أنت قتلته فلما وعد الله تعالى موسى عليه السلام ثلاثين ليلة وأتمها بعشر وكتب له فى الالواح من كل شئ ثم رجع فرأى فى قومه ما رأى فأخذ برأس أخيه ليدنيه فيتفحص عن كيفية الواقعة فخاف هرون عليه السلام أن يسبق الى قلوبهم ما لا أصل له فقال اشفاقا على موسى لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى لئلا يظن القوم ما لا يليق بك (ورابعها) قال صاحب الكشاف كان موسى عليه السلام رجلا حديدا مجبولا على الحدة والخشونة والتصلب فى كل شئ شديد الغضب لله تعالى ولدينه فلما تمالك حين رأى قومه يعبدون عجلا من دون الله تعالى من بعد ما رأوا من الآيات العظام ان ألقى ألواح التوراة لما غلب على ذهنه من الدهشة العظيمة غضبا لله تعالى وحمية وعنف بأخيه وخليفته على قومه فأقبل عليه اقبال العدو الكاشر واعلم ان هذا الجواب ساقط لانه يقال هب انه كان شديد الغضب ولكن مع ذلك الغضب الشديد هل كان يبقى عاقلا مكلفا أم لا فان بقى عاقلا مكلفا فلا سئلة باقية بتمامها أكثر ما فى الباب انك ذكرت انه أتى بغضب شديد وذلك من جملة المعاصى فقد زدت اشكالا آخر فان قلتم بأنه فى ذلك الغضب لم يبق عاقلا ولا مكلفا فهذا مما لا يرتضيه مسلم البتة فهذه أجوبة من لم يجوز الصغائر وأما من جوزها فلا شك فى سقوط السؤال والله أعلم أما قوله ما منعك

شأنهم (فما خطبك يا سامرى) أى ما شأنك وما مطلوبك مما فعلت خاطبه عليه السلام بذلك ليظهر للناس ﴿ اذ ﴾ بطلان كيده باعترافه و يفعل به و بما صنعه من العقاب ما يكون نكالا للمفتونين به ولمن خلفهم من الامم (قال) أى السامرى مجيبا له عليه السلام (بصرت بما لم يبصروا به) بضم الصاد فيهما وقرئ بكسرها فى الاول وفتحها فى الثانى وقرئ بالتاء على الوجهين على خطاب

موسى عليه السلام وقومه أى علمت مالم يعلمه القوم وفطنت لما لم يفطنوا له أو رأيت مالم يروه وهو الانسب بما سيأتى من قوله وكذلك سولت لى نفسى لاسيما على القراءة بالخطاب فان ادعاء علم مالم يعلمه موسى عليه السلام جرأة عظيمة لا تليق بشأنه ولا بمقامه بخلاف ادعاء رؤية مالم يره عليه السلام فانها ما يقع بحسب ما يتفق وقد كان رأى أن جبريل عليه السلام جاء راكب فرس وكان كلما رفع الفرس ﴿ ٩٩ ﴾ يديه أو رجليه على الطريق اليبس يخرج من تحته النبات

اذ رأيتهم ضلوا أن لا تتبعنى ففيه وجهان (الاول) ان صلة والمراد ما منعك أن تتبعنى (والثانى) أن يكون المراد ما دعاك الى ان لا تتبعنى فأقام منعك مقام دعاك وفى الاتباع قولان (أحدهما) ما منعك من اتباعى بمن أطاعك واللحوق بى وترك المقام بين أظهرهم وهذا قول ابن عباس فى رواية عطاء (والثانى) ان تتبعنى فى وصيتى اذ قلت لك اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين فلم تركت قتالهم وتأديبهم وهذا قول مقاتل ثم قال أفعصيت أمرى ومعناه ظاهر وهذا يدل على ان تارك المأمور به عاص والعاصى مستحق للعقاب لقوله ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها ولقوله ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها فمجموع الآيتين يدل على ان الامر للوجوب فأجاب هرون عليه السلام وقال يا ابن أم قيل انما خاطبه بذلك ليدفعه عنه فيتركه وقيل كان أخاه لامه لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى واعلم انه ليس فى القرآن دلالة على انه فعل ذلك فان النهى عن الشئ لا يدل على كون المنهى فاعلا للمنهى عنه كقوله ولا تطع الكافرين والمنافقين وقوله لئن أشركت ليحبطن عملك والذى فيه انه أخذ برأس أخيه يجره اليه وهذا القدر لا يدل على الاستخفاف به بل قد يفعل ذلك لسائر الاغراض على ما بيناه ومن الناس من يقول انه أخذ ذؤابتيه بيمينه ولحيته بيساره ثم قال انى خشيت أن تقول فرقت بين بنى اسرائيل ولم ترقب قولى ولقائل أن يقول ان قول موسى عليه السلام ما منعك أن لا تتبعنى افعصيت أمرى يدل على انه أمره بشئ فكيف يحسن فى جوابه ان يقال انما لم أمتثل قولك خوفا من أن تقول ولم ترقب قولى فهل يجوز مثل هذا الكلام على العاقل (والجواب) لعل موسى عليه السلام انما أمره بالذهاب اليه بشرط أن لا يؤدى ذلك الى فساد فى القوم فلما قال موسى ما منعك أن لا تتبعنى قال لانك انما أمرتنى باتباعك اذا لم يحصل الفساد فلو جئتك مع حصول الفساد ما كنت مراقبا لقولك * قال الامام أبو القاسم الانصارى الهداية أنفع من الدلالة فان السحرة كانوا أجانب عن الايمان وما رأوا الا آية واحدة فآمنوا وتحملوا العذاب الشديد فى الدنيا ولم يرجعوا عن الايمان وأما قومه فانهم رأوا انقلاب العصا ثعبانا والتقم كل ما جمعه السحرة ثم عاد عصا ورأوا اعتراف السحرة بأن ذلك ليس بسحر وانه أمر الهى ورأوا الآيات التسع مدة مديدة ثم رأوا انفراق البحر الذى عشر طريقا وان الله تعالى أنجاهم من الغرق وأهلك أعداءهم مع كثرة عددهم ثم ان هؤلاء مع ما شاهدوا من هذه الآيات كما خرجوا من البحر ورأوا قوما يعبدون البقر قالوا اجعل لنا الها كما لهم آلهة ولما سمعوا صوتا من عجل عكفوا على عبادته وذلك يدل على انه لا يحصل الغرض بالدلائل بل بالهداية قرأ حمزة والكسائى يا ابن أم بكسر الميم والاضافة ودلت كسرة الميم على الياء والباقون بالفتح وتقديره يا ابن أماه والله أعلم * قوله تعالى (قال فما خطبك يا سامرى قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى قال فاذهب فان لك فى الحياة ان تقول لا مساس

فى الحال فعرف أن له شأنا فأخذ من موطئه حفنة وذلك قوله تعالى (فقبضت قبضة من اثر الرسول) وقرئ من أثر فرس الرسول أى من تربة موطئ فرس الملك الذى أرسل اليك ليذهب بك الى الطور ولعل ذكره بعنوان الرسالة للاشعار بوقوفه على ما لم يقف عليه القوم من الاسرار الالهية تأكيدا لما صدر به مقالته والتنبيه على وقت اخذ ما أخذه والقبضة المرة من القبض اطلقت على المقبوض مرة وقرئ بضم القاف وهو اسم المقبوض كالغرفة والمضغة وقرئ فقبصت قبصة بالصاد المهملة والاول للاخذ بجميع الكف والثانى بأطراف الاصابع ونحوها الخضم والقضم (فنبذتها) أى فى الحلى المذابة فكان ما كان (وكذلك سولت لى نفسى) أى ما فعلته من القبض والنبذ فقوله تعالى ذلك اشارة الى مصدر الفعل المذكور بعده ومحل

كذلك فى الاصل النصب على انه مصدر تشبيهى اى نعت لمصدر محذوف والتقدير سولت لى نفسى تسويلا كائنا مثل ذلك التسويل فقدم على الفعل لافادة القصر واعتبرت الكاف مقحمة لافادة تأكيدا ما أفاده اسم الاشارة من الفخامة فصار نفس المصدر المؤكد لنعته أى ذلك التزيين البديع زينت لى نفسى ما فعلته لا تزيينا أدنى منه ولذلك

فعلته وحاصل جوابه أن مافعله انما صدر عنه بمحض اتباع هوى النفس الامارة بالسوء واغواثها لا بشئ اخر من البرهان العقلي أو الالهام الالهي فعند ذلك (قال) عليه السلام (فاذهب) أي من بين الناس وقوله تعالى (فان لك في الحياة) الخ تعليل لموجب الامر وفي متعلقة بالاستقرار في لك أي ثابت لك في الحياة أو بمحذوف وقع حالا من الكاف والعامل معنى الاستقرار في الظرف المذكور لاعتماده على ماهو مبتدأ معنى ﴿ ١٠٠ ﴾ لا بقوله تعالى (أن تقول لامساس) لمكان أن أي ثابت لك كائنا في الحياة أي مدة حياتك أن تفارقهم مفارقة كلية لكن لا بحسب الاختيار بموجب التكليف بل بحسب الاضطرار الملجئ اليها وذلك انه تعالى رماه بداء عقام لا يكاد يمس أحدا أو يمسه أحد كائنا من كان الا حم من ساعته حمى شديدة فيحامى الناس ويحاموه وكان يصيح بأقصى طوقه لامساس وحرم عليهم ملاقاته ومواجهته ومكالمته ومبايعته وغيرها مما يعتاد جريانه فيما بين الناس من المعاملات وصار بين الناس أوحش من القاتل اللاجئ الى الحرم ومن الوحش النافر في البرية ويقال ان قومه باق فيهم تلك الحالة الى اليوم وقرئ لامساس كقطار وهو علم للمسة ولعل السر في مقابلة جنايته بتلك العقوبة خاصة مابينهما من مناسبة التضاد فانه لما أنشأ الفتنة بما كانت ملابسته سببا لحياة الموات عوقب بما يضاده حيث جعلت ملابسته سببا للحمى التي هي من أسباب موت الاحياء (وان لك موعدا) ﴿ ذكره ﴾ اى في الآخرة (لن تخلفه) أي لن يخلفك الله ذلك الوعد بل ينجزه لك البتة بعد ماعاقبك في الدنيا وقرئ بكسر اللام والاظهر أنه من أخلفت الوعد أي وجدته خلفا وقرئ بالنون على حكاية قوله

وان لك موعدا لن تخلفه وانظر الى الهك الذي ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا انما الهكم الله الذي لا اله الا هو وسع كل شئ علما) اعلم ان موسى عليه السلام لما فرغ من مخاطبة هرون عليه السلام وعرف العذر له في التأخير أقبل على السامري ويجوز أن يكون قد كان حاضرا معهما هرون عليه السلام فلما قطع موسى الكلام مع هرون أخذ في الكلام مع السامري ويجوز أن يكون بعيدا ثم حضر السامري من بعد أو ذهب اليه موسى ليخاطبه فقال موسى عليه السلام ماخطبك ياسامري والخطب مصدر خطب الامر اذا طلبه فاذا قيل لمن يفعل شيئا ماخطبك معناه ماطلبك له والغرض منه الانكار عليه وتعظيم صنعه ثم ذكر السامري عذره في ذلك فقال بصرت بمالم يبصروا به وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرئ بصرت بمالم يبصروا به بالكسر وقرأ حمزة والكسائي بما لم تبصروا بالتاء المعجمة من فوق والباقون بالياء أي بمالم يبصر به بنو اسرائيل (المسئلة الثانية) في الابصار قولان قال أبو عبيدة علمت بمالم يعلموا به ومنه قولهم رجل بصير أي عالم وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما وقال الزجاج في تقريره أبصرته بمعنى رأيته وبصرت به بمعنى صرت به بصيرا عالما وقال آخرون رأيت مالم يروه فقوله بصرت به بمعنى أبصرته وأراد انه رأى دابة جبريل عليه السلام فاخذ من موضع حافر دابته قبضة من تراب ثم قال فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ الحسن قبصة بضم القاف وهي اسم للمقبوض كالغرفة والمضغة وأما القبضة فالمرة من القبض واطلاقها على المقبوض من تسمية المفعول بالمصدر كضرب الامير وقرئ أيضا فقبصت قبضة بالضاد والصاد فالضاد بجميع الكف والصاد باطراف الاصابع ونظيرهما الخضم والقضم الخاء بجميع الفم والقاف بمقدمه قرأ ابن مسعود من أثر فرس الرسول (المسئلة الثانية) عامة المفسرين قالوا المراد بالرسول جبريل عليه السلام وأراد بأثره التراب الذي أخذه من موضع حافر دابته ثم اختلفوا انه متى رآه فقال الاكثرون انما رآه يوم فلق البحر وعن علي رضي الله عنه ان جبريل عليه السلام لما نزل ليذهب بموسى عليه السلام الى الطور أبصره السامري من بين الناس واختلفوا في أن السامري كيف اختص برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته من بين سائر الناس فقال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية الكلبي انما عرفه لانه رآه في صغره وحفظه من القتل حين أمر فرعون بذبح أولاد بني اسرائيل فكانت المرأة تلد وتطرح ولدها حيث لا يشعر به آل فرعون فتأخذ الملائكة الولدان فيربونهم حتى يترعرعوا ويختلطوا بالناس فكان السامري ممن أخذه جبريل عليه السلام وجعل كف نفسه في فيه وارتضع منه العسل واللبن فلم يزل يختلف اليه حتى عرفه فلما رآه عرفه قال ابن جريج فعلى هذا قوله بصرت بمالم يبصروا به بمعنى رأيت مالم يروه ومن فسر الكلمة بالعلم فهو صحيح ويكون المعنى علمت ان تراب فرس جبريل عليه السلام له خاصية الاحياء قال أبو مسلم الاصفهاني ليس في القرآن تصريح بهذا الذي

عز وجل (وانظر الى الهك الذى ظلت عليه عاكفا) أى ظلت مقيما على عبادته فحذفت اللام الاولى تخفيفا وقرئ بكسر الظاء بنقل حركة اللام اليها (لنحرقنه) * ١٠١ * جواب قسم محذوف أى بالنار ويؤيده قراءة لنحرقنه من الاحراق وقيل بالمبرد على انه مبالغة فى حرق اذا برد بالمبرد وبعضده قراءة لنحرقنه (ثم لننسفنه) أى لنذرينه وقرئ بضم السين (فى اليم) رمادا أو مبرودا كأنه هباء (نسفا) بحيث لا يبقى منه عين ولا أثر ولقد فعل عليه السلام ذلك كله حينئذ كما يشهد به الامر بالنظر وانما لم يصرح به تنبيها على كمال ظهوره واستحالة الخلف فى وعده المؤكد باليمين (انما الهكم الله) استئناف مسوق لتحقيق الحق اثر ابطال الباطل بتلوين الخطاب وتوجيهه الى الكل أى انما معبودكم المستحق للعبادة الله (الذى لا اله) فى الوجود لشئ من الاشياء (الا هو) وحده من غير أن يشاركه شئ من الاشياء بوجه من الوجوه التى من جملتها أحكام الالوهية وقرئ الله لا اله الا هو الرحمن رب العرش وقوله تعالى (وسع كل شئ علما) أى وسع علمه كل ما من شأنه أن يعلم بدل من الصلة كأنه قيل انما الهكم الله الذى وسع كل شئ علما لا غيره كائنا ما كان فيدخل فيه العجل دخولا أوليا وقرئ وسع بالتشديد فيكون انتصاب علما على المفعولية لانه على القراءة الاولى فاعل حقيقة وبنقل الفعل الى التعدية الى المفعولين صار الفاعل مفعولا أول كأنه قيل وسع علمه كل شئ وبه تم حديث موسى عليه السلام المذكور لتقرير

ذكره المفسرون فههنا وجه آخر وهو أن يكون المراد بالرسول موسى عليه السلام وبأثره سنته ورسمه الذى أمر به فقد يقول الرجل فلان يقفو أثر فلان ويقبض أثره اذا كان يمتثل رسمه والتقدير ان موسى عليه السلام لما أقبل على السامرى باللوم والمسئلة عن الامر الذى دعاه الى اضلال القوم فى باب العجل فقال بصرت بما لم يبصروا به أى عرفت أن الذى أنتم عليه ليس بحق وقد كنت قبضت قبضة من أثر فرس أيها الرسول أى شيئا من سنتك ودينك فنبذته أى طرحته فعند ذلك أعلمه موسى عليه السلام بما له من العذاب فى الدنيا والآخرة انما أورد بلفظ الاخبار عن غائب كما يقول الرجل لرئيسه وهو مواجه له ما يقول الامير فى كذا وبماذا يأمر الامير وأما دعاؤه موسى عليه السلام رسولا مع جحده وكفره فعلى مثل مذهب من حكى الله تعالى عنه قوله يا أيها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون وان لم يؤمنوا بالانزال واعلم ان هذا القول الذى ذكره أبو مسلم ليس فيه الا مخالفة المفسرين ولكنه أقرب الى التحقيق لوجوه (أحدها) ان جبريل عليه السلام ليس بمشهور باسم الرسول ولم يجر له فيما تقدم ذكر حتى تجعل لام التعريف اشارة اليه فاطلاق لفظ الرسول لارادة جبريل عليه السلام كأنه تكليف بعلم الغيب (وثانيها) انه لا بد فيه من الاضمار وهو قبضة من أثر حافر فرس الرسول والاضمار خلاف الأصل (وثالثها) انه لا بد من التعسف فى بيان أن السامرى كيف اختص من بين جميع الناس برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته ثم كيف عرف ان لتراب حافر فرسه هذا الاثر والذى ذكروه من ان جبريل عليه السلام هو الذى رباه فبعيد لان السامرى ان عرف جبريل حال كمال عقله عرف قطعا ان موسى عليه السلام نبى صادق فكيف يحاول الاضلال وان كان ما عرفه حال البلوغ فأى منفعة لكون جبريل عليه السلام مربيا له حال الطفولية فى حصول تلك المعرفة (ورابعها) انه لو جاز اطلاع بعض الكفرة على تراب هذا شأنه لكان لقائل أن يقول فلعل موسى عليه السلام اطلع على شئ آخر يشبه ذلك فلاجله اتى بالمعجزات ويرجع حاصله الى سؤال من يطعن فى المعجزات ويقول لم لا يجوز أن يقال انهم لاختصاصهم بمعرفة بعض الادوية التى لها خاصية أن تفيد حصول تلك المعجزة أتوا بتلك المعجزة وحينئذ ينسد باب المعجزات بالكلية أما قوله وكذلك سولت لى نفسى فالمعنى فعلت ما دعتنى اليه نفسى وسولت مأخوذ من السؤال فالمعنى لم يدعنى الى ما فعلته أحد غيرى بل اتبعت هواى فيه ثم ان موسى عليه السلام لما سمع ذلك من السامرى أجابه بأن بين حاله فى الدنيا والآخرة وبين حال الهه أما حاله فى الدنيا فقوله فاذهب فان لك فى الحياة أن تقول لا مساس وفيه وجوه (أحدها) ان المراد انى لا أمس ولا أمس قالوا واذا مسه أحد حم الماس والممسوس فكان اذا أراد أحد أن يمسه صاح خوفا من الحمى وقال لا مساس (وثانيها) ان المراد بقوله لا مساس المنع من أن يخالط أحدا أو يخالطه أحد وقال مقاتل ان موسى عليه السلام أخرجه من محلة بنى اسرائيل وقال له اخرج أنت واهلك فخرج طريدا الى البرارى

أمر التوحيد جسيما انطقت به خاتمته وقوله تعالى (كذلك نقص عليك) كلام مستأنف خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام بطريق الوعد الجميل بتنزيل امثال مامر ﴿ ١٠٢ ﴾ من انباء الامم السالفة وذلك اشارة الى اقتصاص

حديث موسى عليه السلام ومافيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته في الفضل ومحل الكاف النصب على انه نعت لمصدر محذوف أي نقص عليك (من أنباء ماقد سبق) من الحوادث الماضية الجارية على الامم الخالية قصصا مثل ذلك القص المار والتقديم للقصر المفيد لزيادة التعيين ومن في قوله تعالى من أنباء في حيز النصب اما على انه مفعول نقص باعتبار مضمونه واما على انه متعلق بمحذوف هو صفة للمفعول كما في قوله تعالى ومنادون ذلك أي جمع دون ذلك والمعنى نقص عليك بعض انباء ماقد سبق أو بعضا كائنا من انباء ماقد سبق وقد مر تحقيقه في تفسير قوله تعالى ومن الناس من يقول الخ وتأخيره عن عليك لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر أي مثل ذلك القص البديع الذي سمعته نقص عليك ماذكر من الانباء لاقصا ناقصا عنه تبصرة لك وتوفيرا لعلمك وتكثيرا لمعجزاتك وتذكيرا للمستبصرين من امتك ﴿ المجرمين ﴾ (وقد آتيناك من لدنا ذكرا) اي كتابا منطويا على هذه الاقاصيص والاخبار حقيقا بالتكفر والاعتبار وكلمة من متعلقة بآتيناك وتنكير ذكرا للتفخيم وتأخيره عن الجار والمجرور لما ان مرجع

* اعترض الواحدي عليه فقال الرجل اذا صار مهجورا فلا يقول هو لامساس وانما يقال له ذلك وهذا الاعتراض ضعيف لان الرجل اذا بقي طريدا فريدا فاذا قيل له كيف حالك فله أن يقول لامساس اى لايماسني أحد ولاأماس أحدا والمعنى اني اجعلك ياسامري في المطرودية بحيث لو أردت أن تخبر غيرك عن حالك لم تقل الا انه لامساس وهذا الوجه أحسن وأقرب الى نظم الكلام من الاول (وثالثها) ماذكره أبو مسلم وهو أنه يجوز في حمله ماأريد مسي النساء فيكون من تعذيب الله اياه انقطاع نسله فلا يكون له ولد يؤنسه فيخليه الله تعالى من زينتي الدنيا اللتين ذكرهما بقوله المال والبنون زينة الحياة الدنيا وقرئ لامساس بوزن فجار وهو اسم علم للمرة الواحدة من المس وأما شرح حاله في الآخرة فهو قوله وان لك موعدا لن تخلفه والموعد بمعنى الوعد أي هذه عقوبتك في الدنيا ثم لك الوعد بالمصير الى عذاب الآخرة فأنت من خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين قرأ أهل المدينة والبكوفة لن تخلفه بفتح اللام أي لن تخلف ذلك الوعد أي سيأتيك به الله ولن يتأخر عنك وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والحسن بكسر اللام أي تجيء اليه ولن تغيب عنه ولن تتخلف عنه وفتح اللام اختيار أبي عبيد كأنه قال موعدا حقا لاخلف فيه وعن ابن مسعود لن نخلفه بالنون فكأنه عليه السلام حكى قول الله تعالى بلفظه كما مر بيانه في قوله لأهب لك واما شرح حال الهه فهو قوله وانظر الى الهك الذي ظلت عليه عاكفا قال الفضل في ظلت انه يقرأ بفتح الظاء وكسرها وكذلك فظلتم تفكهون وأصله ظللت فحذفت اللام الاولى وذلك انما يكون اذا كانت اللام الثانية ساكنة تستخب العرب طرح الاولى ومن كسر الظاء نقل كسرة اللام الساقطة اليها ومن فتحها ترك الظاء على حالها وكذلك يفعلون في المضاعف يقولون مسته ومسسته ثم قال لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم نسفا وفي قوله لنحرقنه وجهان (أحدهما) المراد احراقه بالنار وهذا أحد مايدل على انه صار لحما ودما لأن الذهب لايمكن احراقه بالنار وقال السدي أمر موسى عليه السلام بذبح العجل فذبح فسال منه الدم ثم أحرق ثم نسف رماده وفي حرف ابن مسعود لنذبحنه ولنحرقنه (وثانيهما) لنحرقنه أي لنبردنه بالمبرد يقال حرقه يحرقه اذا برده وهذه القراءة تدل على انه لم ينقلب لحما ولا دما فان ذلك لايصح أن يبرد بالمبرد ويمكن أن يقال انه صار لحما فذبح ثم بردت عظامه بالمبرد حتى صارت بحيث يمكن نسفها قراءة العامة بضم النون وتشديد الراء ومعناه لنحرقنه بالنار وقرأ أبو جعفر وابن محيصن لنحرقنه بفتح النون وضم الراء خفيفة يعني لنبردنه واعلم أن موسى عليه السلام لما فرغ من أبطال مذهب اليه السامري عاد الى بيان الدين الحق فقال انما الهكم أي المستحق للعبادة والتعظيم الله الذي لا اله الا هو وسع كل شيء علما قال مقاتل يعلم من يعبده ومن لايعبده ﴿ قوله تعالى (كذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا من أعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا يوم ينفخ في الصور ونحشر

المجرمين يومئذ زرقا يتخافتون بينهم ان لبثتم الا عشرا نحن أعلم بما يقولون اذ يقول أمثلهم طريقة أن لبثتم الا يوما) اعلم أنه سبحانه وتعالى لما شرح قصة موسى عليه السلام مع فرعون أولا ثم مع السامرى ثانيا أتبعه بقوله كذلك نقص عليك من سائر اخبار الامم وأحوالهم تكثيرا لشأنك وزيادة فى معجزاتك وليكثر الاعتبار والاستبصار للمكلفين بها فى الدين وقد آتيناك من لدنا ذكرا يعنى القرآن كما قال تعالى وهذا ذكر مبارك أنزلناه وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون فالقرآن ذى الذكر ما يأتيهم من ذكر يا أيها الذى نزل عليه الذكر ثم فى تسمية القرآن بالذكر وجوه (أحدها) انه كتاب فيه ذكر ما يحتاج اليه الناس من أمر دينهم ودنياهم (وثانيها) أنه يذكر أنواع آلاء الله تعالى ونعمائه ففيه التذكير والمواعظ (وثالثها) فيه الذكر والشرف لك ولقومك على ما قال وانه لذكر لك ولقومك واعلم أن الله تعالى سمى كل كتبه ذكرا فقال فاسئلوا اهل الذكر وكما بين نعمته بذلك بين شدة الوعيد لمن أعرض عنه ولم يؤمن به من وجوه (أولها) قوله من اعرض عنه فانه يحمل يوم القيامة وزرا والوزر هو العقوبة الثقيلة سماها وزرا تشبيها لها فى ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها الذى يثقل على الحامل وينقض ظهره أو لانها جزاء الوزر وهو الاثم وقرئ يحمل ثم بين تعالى صفة ذلك الوزر من وجهين (أحدهما) انه يكون مخلدا مؤبدا (والثانى) قوله وساء لهم يوم القيامة حملا أى وما اسوأ هذا الوزر حملا أى محمولا وحملا منصوب على التمييز (وثانيها) يوم ينفخ فى الصور فالمراد بيان ان يوم القيامة هو يوم ينفخ فى الصور وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ أبو عمرو ننفخ بفتح النون كقوله ونحشر وقرأ الباقون ينفخ على مالم يسم فاعله ونحشر بالنون لان النافخ ملك التقم الصور والحاشر هو الله تعالى وقرئ يوم ينفخ بالياء المفتوحة على الغيبة والضمير لله تعالى أو لاسرافيل عليه السلام وأما يحشر المجرمين فلم يقرأ به الا الحسن وقرئ فى الصور بفتح الواو جمع صورة (المسئلة الثانية) فى الصور قولان (أحدهما) انه قرن ينفخ فيه يدعى به الناس الى المحشر (والثانى) انه جمع صورة والنفخ نفخ الروح فيه ويدل عليه قراءة من قرأ الصور بفتح الواو والاول أولى لقوله تعالى فاذا نقر فى الناقور والله تعالى يعرف الناس أمور الآخرة بأمثال ما شوهد فى الدنيا ومن عادة الناس النفخ فى البوق عند الاسفار وفى العساكر (المسئلة الثالثة) المراد من هذا النفخ هو النفخة الثانية لان قوله بعد ذلك ونحشر المجرمين يومئذ زرقا كالدلالة على ان النفخ فى الصور كالسبب لحشرهم فهو نظير قوله يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا أما قوله ونحشر المجرمين يومئذ زرقا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة قوله المجرمين يتناول الكفار والعصاة فيدل على عدم العفو عن العصاة وقال ابن عباس رضى الله عنهما يريد بالمجرمين الذين اتخذوا مع الله الها آخر وقد تقدم هذا الكلام (المسئلة الثانية) اختلفوا فى المراد بالزرقة على وجوه (أحدها) قال الضحاك ومقاتل يعنى زرق العيون سود الوجوه وهى زرقة تتشوه بها خلقتهم والعرب تتشاءم بذلك فان قيل أليس ان الله تعالى أخبر انهم

عن ذلك الذكر العظيم الشأن المستتبع لسعادة الدارين وقيل عن الله عزوجل ومن اما شرطية أو موصولة وايا ما كانت فالجملة صفة اذكرا (فانه) اى المعرض عنه (يحمل يوم القيامة وزرا) أى عقوبة ثقيلة فادحة على كفره وسائر ذنوبه وتسميتها وزرا اما لتشبيهها فى ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الذى يفدح الحامل وينقض ظهره أو لانها جزاء الوزر وهو الاثم والاول هو الانسب بما سيأتى من تسميتها حملا وقوله تعالى (خالدين فيه) اى فى الوزر أى فى احتماله المستمر حال من المستكن فى يحمل والجمع بالنظر الى معنى من لما ان الخلود فى النار مما يتحقق حال اجتماع اهلها كما ان الافراد فيما سبق من الضمائر الثلاثة بالنظر الى لفظها (وساء لهم يوم القيامة حملا) أى بئس لهم ففيه ضمير مبهم يفسره حملا والمخصوص بالذم محذوف أى ساء حملا وزرهم واللام للبيان كما فى هيت لك كأنه لما قيل ساء قيل لمن يقال هذا فأجيب لهم واعادة يوم القيامة لزيادة التقرير وتهويل الامر (يوم ينفخ فى الصور) بدل من يوم القيامة أو منصوب باضمار اذكر أو ظرف لمضمر قد حذف للايذان بضيق العبارة عن حصره وبيانه حسبما مر فى تفسير قوله تعالى يوم

يجمع الله الرسل وقوله تعالى يوم نحشر المتقين الى الرحمن وفدا وقرئ ننفخ بالنون على اسناد النفخ الى الامر به تعظيما له وبالياء المفتوحة على ان ضميره لله عز وجل أو لاسرافيل عليه السلام وان لم يجر ذكره لشهرته (ونحشر المجرمين يومئذ) أي يوم اذ ينفخ في الصور وذكره صريحا مع تعين أن الحشر لا يكون الا يومئذ للتهويل وقرئ ويحشر المجرمون (زرقا) أي حال كونهم زرق العيون وانما جعلوا كذلك لان الزرقة اسوأ ﴿ ١٠٤ ﴾ الوان العين وأبغضها الى العرب فان الروم الذين كانوا أعدى عدوهم زرق ولذلك قالوا في صفة العدو أسود الكبد وأصهب السبال وأزرق العين أو عميا لان حدقة الاعمى تزرق وقوله تعالى (يتخافتون بينهم) أي يخفضون أصواتهم ويخفونها لما يملأ صدورهم من الرعب والهول استئناف ببيان ما يأتون وما يذرون حينئذ أو حال أخرى من المجرمين أي يقول بعضهم لبعض بطريق المخافتة (ان لبثتم) أي ما لبثتم في الدنيا (الا عشرا) أي عشر ليال استقصارا لمدة لبثهم فيها لزوالها أو لاستطالتهم مدة الآخرة أو لتأسفهم عليها لما عاينوا الشدائد وأيقنوا انهم استحقوها على اضاعتها في قضاء الاوطار واتباع الشهوات أو في القبور وهو الانسب بحالهم فانهم حين يشاهدون البعث الذي كانوا ينكرونه في الدنيا ويعدونه من قبيل المحالات لا يتمالكون من أن يقولوا ذلك اعترافا به وتحقيقا لسرعة وقوعه كأنهم قالوا ﴿ وان ﴾ قد بعثتم وما لبثتم في القبر الا مدة يسيرة والافحالهم أفظع من أن تمكنهم من الاشتغال بتذكر أيام النعمة والسرور واستقصارها والتأسف عليها (نحن أعلم بما يقولون) وهو مدة لبثهم (اذ يقول امثلهم طريقة) أي أعدلهم رأيا أو عملا (ان لبثتم الا يوما) ونسبة هذا القول الى أمثلهم استرجاع منه تعالى له لكن

يحشرون عميا فكيف يكون أعمى وأزرق قلنا لعله يكون أعمى في حال وأزرق في حال (وثانيها) المراد من الزرقة العمى قال الكلبي زرقا أي عميا قال الزجاج يخرجون بصراء في أول مرة ويعمون في المحشر وسواد العين اذا ذهب تزرق فان قيل كيف يكون أعمى وقد قال تعالى انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار وشخوص البصر من الاعمى محال وقد قال في حقهم اقرأ كتابك والاعمى كيف يقرأ فالجواب ان أحوالهم قد تختلف (وثالثها) قال أبو مسلم المراد بهذه الزرقة شخوص أبصارهم والازرق شاخص لانه لضعف بصره يكون محدقا نحو الشئ يريد ان يتبينه وهذه حال الخائف المتوقع لما يكره وهو كقوله انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار (ورابعها) زرقا عطاشا هكذا رواه ثعلب عن ابن الاعرابي قال لانهم من شدة العطش يتغير سواد عيونهم حتى تزرق ويدل على هذا التفسير قوله تعالى ونسوق المجرمين الى جهنم وردا (وخامسها) حكى ثعلب عن ابن الاعرابي قال طامعين فيما لا ينالونه (الصفة الثالثة) من صفات الكفار يوم القيامة قوله تعالى يتخافتون بينهم ان لبثتم الا عشرا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) يتخافتون أي يتسارون يقال خفت يخفت وخافت مخافتة والتخافت السرار وهو نظير قوله تعالى فلا تسمع الا همسا وانما يتخافتون لانه امتلأت صدورهم من الرعب والهول أو لانهم صاروا بسبب الخوف في نهاية الضعف فلا يطيقون الجهر (المسئلة الثانية) اختلفوا في ان المراد بقوله ان لبثتم اللبث في الدنيا أو في القبر فقال قوم أرادوا به اللبث في الدنيا وهذا قول الحسن وقتادة والضحاك واحتجوا عليه بقوله تعالى قال كم لبثتم في الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين فان قيل اما أن يقال انهم نسوا قدر لبثهم في الدنيا أو ما نسوا ذلك والاول غير جائز اذ لو جاز ذلك لجاز أن يبقى الانسان خمسين سنة في بلدة ينساه والثاني غير جائز لانه كذب وأهل الآخرة لا يكذبون لا سيما وهذا الكذب لا فائدة فيه قلنا فيه وجوه (أحدها) لعلهم اذا حشروا في أول الامر وعاينوا تلك الاهوال فلشدة وقعها عليهم ذهلوا عن مقدار عمرهم في الدنيا وما ذكروا الا القليل فقالوا ليتنا ما عشنا الا تلك الايام القليلة في الدنيا حتى لا نقع في هذه الاهوال والانسان عند الهول الشديد قد يذهل عن أظهر الاشياء وتمام تقريره مذكور في سورة الانعام في قوله ثم لم تكن فتنتهم الا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين (وثانيها) انهم عالمون بمقدار عمرهم في الدنيا الا أنهم لما قابلوا أعمارهم في الدنيا باعمار الآخرة وجدوها في نهاية القلة فقال بعضهم ما لبثنا في الدنيا الا عشرة أيام وقال اعقلهم بل ما لبثنا الا يوما واحدا أي قدر لبثنا في الدنيا بالقياس الى قدر لبثنا في الآخرة كعشرة أيام بل كاليوم الواحد بل كالعدم وانما خص العشرة والواحد بالذكر لان القليل في أمثال هذه المواضع لا يعبر عنه الا بالعشرة والواحد (وثالثها) انهم لما عاينوا الشدائد تذكروا أيام النعمة والسرور وتأسفوا عليها فوصفوها بالقصر لان أيام السرور قصار (ورابعها) ان أيام الدنيا قد انقضت وأيام الآخرة مستقبلة والذاهب

لالكونه أقرب الى الصدق بل لكونه أدل على شدة الهول (و يسالونك عن الجبال) أى عن مال امرها وقد سال عنه رجل من ثقيف وقيل مشركو مكة على طريق الاستهزاء (فقل ينسفها ربى نسفا) أى يجعلها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها والفاء للمسارعة الى الزام السائلين (فيذرها) الضمير اما للجبال باعتبار أجزائها السافلة الباقية بعد النسف وهى مقارها ومراكزها أى فيذر ما انبسط منها ﴿ ١٠٥ ﴾ وساوى سطحه سطوح سائر أجزاء الارض بعد نسف ما نتأ منها ونشز واما للارض المدلول عليها بقرينة الحال لانها الباقية بعد نسف الجبال وعلى التقديرين يذر الكل (قاعا صفصفا) لان الجبال اذا سويت وجعل سطحها مساويا لسطوح سائر أجزاء الارض فقد جعل الكل سطحا واحدا والقاع قيل السهل وقيل المنكشف من الارض وقيل المستوى الصلب منها وقيل ما لا نبات فيه ولا بناء والصفصف الارض المستوية الملساء كان أجزاءه صف واحد من كل جهة وانتصاب قاعا على الحالية من الضمير المنصوب او هو مفعول ثان ليذر على تضمين معنى التصيير وصفصفا اما حال ثانية أو بدل من المفعول الثانى وقوله تعالى (لا ترى فيها) أى فى مقار الجبال او فى الارض على ما مر من التفصيل (عوجا) بكسر العين أى اعوجاجا ما كأنه

وان طالت مدته قليل بالقياس الى الآتى وان قصرت مدته فكيف والامر بالعكس ولهذه الوجوه رجح الله تعالى قول من بالغ فى التقليل فقال اذ يقول أمثلهم طريقة ان لبثتم الا يوما (القول الثانى) ان المراد منه اللبث فى القبر و يعضده قوله تعالى و يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث فأما من جوز الكذب على أهل القيامة فلا اشكال له فى الآية أما من لم يجوز قال ان الله تعالى لما أحياهم فى القبر وعذبهم ثم أماتهم ثم بعثهم يوم القيامة لم يعرفوا أن قدر لبثهم فى القبر كم كان فخطر ببال بعضهم انه فى تقدير عشرة أيام وقال آخرون انه يوم واحد فلما وقعوا فى العذاب مرة أخرى تمنوا زمان الموت الذى هو زمان الخلاص لما نالهم من هول العذاب (المسئلة الثالثة) الاكثرون على ان قوله ان لبثتم الا عشرا أى عشرة ايام فيكون قول من قال ان لبثتم الا يوما أقل وقال مقاتل ان لبثتم الا عشرا أى عشر ساعات كقوله كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضحاها وعلى هذا التقدير يكون اليوم اكثر والله اعلم واعلم انه سبحانه وتعالى بين بهذا القول عظم ما نالهم من الحيرة التى دفعوا عندها الى هذا الجنس من التخافت * قوله تعالى (و يسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا امتا يومئذ يتبعون الداعى لا عوج له وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من اذن له الرحمن و رضى له قولا يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علما وعنت الوجوه للحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما) اعلم انه تعالى لما وصف أمر يوم القيامة حكى سؤال من لم يؤمن بالحشر فقال و يسألونك عن الجبال وفى تقرير هذا السؤال وجوه (أحدها ان قوله يتخافتون وصف من الله تعالى لكل المجرمين بذلك فكأنهم قالوا كيف يصح ذلك والجبال حائلة ومانعة من هذا التخافت (وثانيها) قال الضحاك نزلت فى مشركى مكة قالوا يا محمد كيف تكون الجبال يوم القيامة وكان سؤالهم على سبيل الاستهزاء (وثالثها) لعل قومه قالوا يا محمد انك تدعى ان الدنيا ستنقضى فلو صح ما قلته لوجب أن تبتدى أولا بالنقصان ثم تنتهى الى البطلان لكن أحوال العالم باقية كما كانت فى أول الامر فكيف يصح ما قلته من خراب الدنيا وهذه شبهة تمسك بها اجالينوس فى ان السموات لا تفنى قال لانها لو فنيت لابتدأت فى النقصان أولا حتى ينتهى نقصانها الى البطلان فلما لم يظهر فيها النقصان علمنا ان القول بالبطلان باطل ثم أمر الله تعالى رسوله بالجواب عن هذا السؤال وضم الى الجواب أمورا أخر فى شرح أحوال القيامة واهوالها (الصفة الاولى) قوله فقل ينسفها ربى نسفا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) انما قال فقل مع فاء التعقيب لان مقصودهم من هذا السؤال الطعن فى الحشر والنشر فلاجرم أمره بالجواب مقرونا بفاء التعقيب لان تأخير البيان فى مثل هذه المسئلة

لغاية خفائه من قبيل ما فى المعانى ﴿ ١٤ ﴾ س أى لا تدرك ان تاملت بالمقاييس الهندسية (ولا أمتا) أى نتوا يسيرا استئناف مبين لكيفية ما سبق من القاع الصفصف او حال أخرى أو صفة لقاعا والخطاب لكل أحد ممن تتاتى منه الرؤية وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع ما فيه من طول

ربما يخل تقديمه بتجاوب اطراف النظم الكريم (يومئذ) أي يوم اذ نسفت الجبال على اضافة اليوم الى وقت النسف وهو ظرف لقوله تعالى (يتبعون الداعي) وقيل بدل من يوم القيامة وليس بذاك أي يتبع الناس داعي الله عز وجل الى المحشر وهو اسرافيل عليه السلام يدعو الناس عند النفخة الثانية قائما على صخرة بيت المقدس و يقول أيتها العظام النخرة والاوصال المتفرقة واللحوم المتمزقة قومي الى عرض الرحمن ﴿ ١٠٦ ﴾ فيقبلون من كل أوب الى صوته (لاعوج له) لايعوج له مدعو ولايعدل عنه (وخشعت الاصوات للرحمن) أي خضعت لهيبته (فلا تسمع الاهمسا) أي صوتا خفيا ومنه الهميس لصوت أخفاف الابل وقد فسر الهمس بخفق أقدامهم ونقلها الى المحشر (يومئذ) أي يوم اذ يقع ماذكر من الامور الهائلة (لاتنفع الشفاعة) من الشفعاء أحدا (الا من أذن له الرحمن) أن يشفع له (ورضي له قولا) أي ورضي لاجله قول الشافع في شأنه أو رضي قوله لاجله وفي شأنه وأما من عداه فلا تكاد تنفعه وان فرض صدورها عن الشفعاء المتصدين للشفاعة للناس كقوله تعالى فما تنفعهم شفاعة الشافعين فالاستثناء كما ترى من أعم المفاعيل وأما كونه استثناء من الشفاعة على معنى لاتنفع الشفاعة الا شفاعة من أذن له الرحمن أن يشفع لغيره كما جوزوه فلا سبيل اليه لما أن حكم الشفاعة ممن لم يؤذن له أن لا يملكها ولا تصدر هي عنه أصلا كما في قوله تعالى لا يملكون ﴿ الصخرة ﴾ الشفاعة الا من اتخذ عند الرحمن عهدا وقوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى فالاخبار عنها بمجرد عدم نفعها للمشفوع له ربما يوهم امكان صدورها عمن لم يؤذن له مع اخلاله بمقتضى مقام تهويل اليوم واما قوله تعالى ولا يقبل

الاصولية غير جائز أما في المسائل الفروعية فجائز فلذلك ذكرهناك قل من غير حرف التعقيب (المسئلة الثانية) الضمير في قوله ينسفها عائد الى الجبال والنسف التذرية أي تصير الجبال كالهباء المنثور تذرى تذرية فاذا زالت الجبال زالت الحوائل فيعلم صدق قوله يتخافتون قال الخليل ينسفها أي يذهبها و يطيرها أما الضمير في قوله فيذرها فهو عائد الى الارض فاستغنى عن تقديم ذكرها كما في عادة الناس من الاخبار عنها بالاضمار كقولهم ما على ظهرها أكرم من فلان وقال تعالى ماترك على ظهرها من دابة وانما قال فيذرها قاعا صفصفا ليبين أن ذلك النسف لايزيل الاستواء لانه لايقدر انها لما زالت من موضع الى موضع آخر صارت هناك حائلة هذا كله اذا كان المقصود من سؤالهم الاعتراض على كيفية المخافتة أما لو كان الغرض من السؤال ماذكرنا من انه لانقصان فيها في الحال فوجب أن لاينتهي أمرها الى البطلان كان تقرير الجواب ان بطلان الشئ قد يكون بطلانا يقع توليديا فحينئذ يجب تقديم النقصان على البطلان وقد يكون بطلانا يقع دفعة واحدة وههنا لايجب تقديم النقصان على البطلان فبين الله تعالى انه يفرق تركيبات هذا العالم الجسماني دفعة بقدرته ومشيئته فلا حاجة ههنا الى تقديم النقصان على البطلان (المسئلة الثالثة) انه تعالى وصف الارض ذلك الوقت بصفات (احداها) كونها قاعا وهو المكان المطمئن وقيل مستنقع الماء (وثانيها) الصفصف وهو الذي لانبات عليه وقال أبو مسلم القاع الارض الملساء المستوية وكذلك الصفصف (وثالثها) قوله لاترى فيها عوجا ولا أمتا وقال صاحب الكشاف قد فرقوا بين العوج والعوج فقالوا العوج بالكسر في المعاني والعوج بالفتح في الاعيان فان قيل الارض عين فكيف صح فيها المكسور العين قلنا اختيار هذا اللفظ له موقع بديع في وصف الارض بالاستواء ونفي الاعوجاج وذلك لانك لو عمدت الى قطعة أرض فسويتها و بالغت في التسوية فاذا قابلتها المقاييس الهندسية وجدت فيها أنواعا من العوج خارجة عن الحس البصري قال فذاك بالقدر من الاعوجاج لما لطف جدا ألحق بالمعاني فقيل فيه عوج بالكسر واعلم أن هذه الآية تدل على أن الارض تكون ذلك اليوم كرة حقيقية لان المضلع لابد وأن يتصل بعض سطوحه ببعض لاعلى الاستقامة بل على الاعوجاج وذلك يبطله ظاهر الآية (ورابعها) الامت النتوء اليسير يقال مد حبله حتى ما فيه أمت وتحصل من هذه الصفات الاربع أن الارض تكون ذلك اليوم ملساء خالية عن الارتفاع والانخفاض وأنواع الانحراف والاعوجاج (الصفة الثانية) ليوم القيامة قوله يومئذ يتبعون الداعي لاعوج له وفي الداعي قولان (الاول) ان ذلك الداعي هو النفخ في الصور وقوله لاعوج له أي لايعدل عن أحد دعائه بل يحشر الكل (الثاني) انه ملك قائم على صخرة بيت المقدس ينادي و يقول أيتها العظام النخرة والاوصال المتفرقة واللحوم المتمزقة قومي الى ربك للحساب والجزاء فيسمعون صوت الداعي فيتبعونه و يقال انه اسرافيل عليه السلام يضع قدمه على

منها شفاعة فمعناه عدم الاذن فى الشفاعة لاعدم قبولها بعدوقوعها (يعلم مابين أيديهم) أى ماتقدمهم من الاحوال وقيل من أمر الدنيا (وماخلفهم) ومابعدهم مما يستقبلونه وقيل من أمر الآخرة (ولايحيطون به علما) أى لاتحيط علومهم بمعلوماته تعالى وقيل بذاته أى من حيث اتصافه بصفات الكمال التى من جملتها العلم الشامل وقيل الضمير لاحد الموصولين أولمجموعهما فانهم لايعلمون جميع

ذلك ولاتفصيل ماعلموا منه (وعنت الوجوه) أى ذلت وخضعت خضوع العناة أى الاسارى فى يد الملك القهار ولعلها وجوه المجرمين كقوله تعالى سيئت وجوه الذين كفروا ويؤيده قوله تعالى (وقد خاب من حمل ظلما) قال ابن عباس رضى الله عنهما خسر من أشرك بالله ولم يتب وهو استئناف لبيان مالاجله عنت وجوههم أواعتراض كأنه قيل خابوا وخسروا وقيل حال من الوجوه ومن عبارة عنها مغنية عن ضميرها وقيل الوجوه على العموم فالمعنى حينئذ وقد خاب من حمل منهم ظلما فقوله تعالى (ومن يعمل من الصالحات) الخ. قسيم لقوله تعالى وقد خاب من حمل ظلما لا لقوله تعالى وعنت الوجوه الخ كما أنه كذلك على الوجه الاول أى ومن يعمل بعض الصالحات أو بعضا من الصالحات على أحد الوجهين المذكورين فى تفسير قوله تعالى من أنباء

الصخرة فان قيل هذا الدعاء يكون قبل الاحياء أو بعده قلنا ان كان المقصود بالدعاء اعلامهم وجب أن يكون ذلك بعد الاحياء لان دعاء الميت عبث وان لم يكن المقصود اعلامهم بل المقصود مقصود آخر مثل أن يكون لطفا للملائكة ومصلحة لهم فذلك جائز قبل الاحياء (الصفة الثالثة) قوله وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع الا همسا وفيه وجوه (أحدها) خشعت الاصوات من شدة الفزع وخضعت وخفيت فلا تسمع الا همسا وهو الذكر الخفى قال أبو مسلم وقد علم الانس والجن بان لا ملك لهم سواه فلا يسمع لهم صوت يزيد على الهمس وهو أخفى الصوت ويكاد يكون كلاما يفهم بتحريك الشفتين لضعفه وحق لمن كان الله محاسبه أن يخشع طرفه ويضعف صوته ويختلط قوله ويطول غمه (وثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما والحسن وعكرمة وابن زيد الهمس وطء الاقدام فالمعنى انه لاتسمع الا خفق الاقدام ونقلها الى المحشر (الصفة الرابعة) قوله يومئذ لاتنفع الشفاعة الا من اذن له الرحمن ورضى له قولا قال صاحب الكشاف من يصلح أن يكون مرفوعا ومنصوبا فالرفع على البدل من الشفاعة بتقدير حذف المضاف اليه أى لاتنفع الشفاعة الا شفاعة من اذن له الرحمن والنصب على المفعولية وأقول الاحتمال الثانى أولى لوجوه (الاول) ان الاول يحتاج فيه الى الاضمار وتغيير الاعراب والثانى لايحتاج فيه الى ذلك (والثانى) ان قوله تعالى لاتنفع الشفاعة يراد به من يشفع بها والاستثناء يرجع اليهم فكأنه قال لاتنفع الشفاعة أحدا من الخلق الا شخصا مرضيا (والثالث) وهو أن من المعلوم بالضرورة ان درجة الشافع درجة عظيمة فهى لاتحصل الا لمن اذن الله له فيها وكان عند الله مرضيا فلو حملنا الآية على ذلك صارت جارية مجرى ايضاح الواضحات أما لو حملنا الآية على المشفوع له لم يكن ذلك ايضاح الواضحات فكان ذلك أولى اذا ثبت هذا فنقول المعتزلة قالوا الفاسق غير مرضى عند الله تعالى فوجب أن لايشفع الرسول فى حقه لان هذه الآية دلت على ان المشفوع له لابد وأن يكون مرضيا عند الله واعلم ان هذه الآية من أقوى الدلائل على ثبوت الشفاعة فى حق الفساق لان قوله ورضى له قولا يكفى فى صدقه أن يكون الله تعالى قد رضى له قولا واحدا من أقواله والفاسق قد ارتضى الله تعالى قولا واحدا من اقواله وهو شهادة ان لا اله الا الله فوجب أن تكون الشفاعة نافعة له لان الاستثناء من النفى اثبات فان قيل انه تعالى استثنى عن ذلك النفى بشرطين (أحدهما) حصول الاذن (والثانى) أن يكون قد رضى له قولا فهب ان الفاسق قد حصل فيه أحد الشرطين وهو انه تعالى قد رضى له قولا لكن لم قلتم انه اذن فيه وهذا أول المسئلة قلنا هذا القيد وهو انه رضى له قولا كاف فى حصول الاستثناء بدليل قوله تعالى ولايشفعون الا لمن ارتضى فاكتفى هناك بهذا القيد ودلت هذه الآية على انه لابد من الاذن فظهر من مجموعهما انه اذا رضى له قولا يحصل الاذن فى الشفاعة واذا حصل القيدان حصل الاستثناء وتم المقصود (الصفة الخامسة) قوله يعلم

ماقدسبق (وهومؤمن) فان الايمان شرط فى صحة الطاعات وقبول الحسنات (فلايخاف ظلما) أى منع ثواب مستحق بموجب الوعد (ولاهضما) ولاكسرا منه بنقص أولايخاف جزاء ظلم وهضم اذ لم يصدر عنه ظلم ولاهضم حتى يخافهما وقرئ فلايخف على النهى (وكذلك) عطف على كذلك نقص وذلك اشارة الى انزال ماسبق من

الآيات المتضمنة للوعيد المنبئة عما سيقع من أحوال القيامة واهوالها أى مثل ذلك الانزال (انزلناه) اى القرآن كله واضماره من غير سبق ذكره للايذان بنباهة شانه وكونه مركوزا فى العقول حاضرا فى الاذهان (قرآنا عربيا) ليفهمه العرب ويقفوا على مافيه من النظم المعجز الدال على كونه خارجا عن طوق البشر نازلا من عند خلاق القوى والقدر (وصرفنا فيه من الوعيد) أى كررنا فيه بعض الوعيد أو بعضا من الوعيد حسبما أشير اليه آنفا (لعلهم يتقون) أى كى يتقوا الكفر والمعاصى بالفعل (او يحدث لهم ذكرا) اتعاظا واعتبارا مؤديا بالآخرة الى الاتقاء (فتعالى الله) استعظام له تعالى وشؤنه التى يصرف عليها عباده من الاوامر والنواهى والوعد والوعيد وغير ذلك أى ارتفع بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين فى ذاته وصفاته وأفعاله وأحواله (الملك) النافذ أمره ونهيه الحقيق بان يرجى وعده ويخشى وعيده (الحق) فى ملكوته والوهيته لذاته او الثابت فى ذاته وصفاته (ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك) أى يتم (وحيه) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ألقى اليه جبريل عليه السلام الوحى يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل كلمة لكمال اعتنائه بالتلقى والحفظ فنهى عن ذلك اثر ذكر الانزال بطريق الاستطراد لما أن استقرار الالفاظ فى الاذهان تابع لاستقرار معانيها فيها ور بما يشغل التلفظ بكلمة عن سماع مابعدها وأمر باستفاضة العلم ﴿ فقوله ﴾ واستزادته منه تعالى فقيل (وقل) أى فى نفسك (رب زدنى علما) أى سل الله عزوجل زيادة العلم فانه الموصل الى طلبتك دون الاستعجال وقيل انه نهى عن تبليغ ما كان مجملا قبل أن يأتى بيانه وليس بذاك فان تبليغ

مابين ايديهم وماخلفهم ولا يحيطون به علما وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الضمير فى قوله بين ايديهم عائد الى الذين يتبعون الداعى ومن قال ان قوله لمن اذن له الرحمن المراد به الشافع قال ذلك الضمير عائد اليه والمعنى لا تنفع شفاعة الملائكة والانبياء الا لمن اذن له الرحمن فى ان تشفع له الملائكة والانبياء ثم قال يعلم مابين أيديهم يعنى مابين ايدى الملائكة كما قال فى آية الكرسى وهذا قول الكلبى ومقاتل وفيه تقريع لمن يعبد الملائكة ليشفعوا له قال مقاتل يعلم ما كان قبل ان يخلق الملائكة وما كان منهم بعد خلقهم (المسئلة الثانية) ذكروا فى قوله تعالى يعلم مابين ايديهم وماخلفهم وجوها (أحدها) قال الكلبى مابين ايديهم من أمر الآخرة وماخلفهم من أمر الدنيا (وثانيها) قال مجاهد مابين ايديهم من أمر الدنيا والاعمال وماخلفهم من أمر الآخرة والثواب والعقاب (وثالثها) قال الضحاك يعلم ما مضى ومالم يكن ومتى تكون القيامة (المسئلة الثالثة) ذكروا فى قوله ولا يحيطون به علما وجهين (الاول) انه تعالى بين انه يعلم مابين ايدى العباد وماخلفهم ثم قال ولا يحيطون به علما أى العباد لا يحيطون بمابين ايديهم وماخلفهم علما (الثانى) المراد ولا يحيطون بالله علما والاول أولى لوجهين (أحدهما) ان الضمير يجب عوده الى أقرب المذكورات والاقرب ههنا قوله مابين ايديهم وماخلفهم (وثانيهما) انه تعالى أورد ذلك مورد الزجر ليعلم ان سائر مايقدمون عليه ومايستحقون به الجزاء معلوم لله تعالى (الصفة السادسة) قوله وعنت الوجوه الحى القيوم وقد خاب من حمل ظلما ومعناه ان ذلك اليوم تعنو الوجوه أى تذل و يصير الملك والقهر لله تعالى دون غيره ومن لفظ العنو أخذوا العانى وهو الاسير يقال عنا يعنو عناء اذا صار أسيرا وذكر الله تعالى الوجوه وأراد به المكلفين أنفسهم لان قوله وعنت من صفات المكلفين لا من صفات الوجوه وهو كقوله وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية وانما خص الوجوه بالذكر لان الخضوع بها يبين وفيها يظهر وتفسير الحى القيوم قد تقدم وروى أبو أمامة الباهلى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال اطلبوا اسم الله الاعظم فى هذه السور الثلاث البقرة وآل عمران وطه قال الراوى فوجدنا المشترك فى السور الثلاث الله لا اله الا هو الحى القيوم فبين تعالى على وجه التحذير ان ذلك اليوم لا يصح الامتناع مما يزل بالمرء من المجازاة وان حاله مخالفة لحال الدنيا التى يختار فيها المعاصى و يمتنع من الطاعات أما قوله تعالى وقد خاب من حمل ظلما فالمراد بالخيبة الحرمان أى حرم الثواب من حمل ظلما والمراد به من وافى بالظلم ولم يتب عنه واستدلت المعتزلة بهذه الآية فى المنع من العفو فقالوا قوله وقد خاب من حمل ظلما يعم كل ظالم وقد حكم الله تعالى فيه بالخيبة والعفو ينافيه والكلام على عمومات الوعيد قد تقدم مرارا واعلم انه تعالى لما شرح أحوال يوم القيامة ختم الكلام فيها بشرح أحوال المؤمنين فقال ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما يعنى ومن يعمل شيئا من الصالحات والمراد به الفرائض فكان عمله مقرونا بالايمان وهو كقوله ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات

المجمل وتلاوته قبل البيان مما لا ريب في صحته ومشروعيته (ولقد عهدنا الى ادم) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما سبق من تصريف الوعيد في القرآن وبيان أن أساس بني آدم على العصيان وعرقه راسخ في النسيان مع ما فيه من انجاز الموعود في قوله تعالى كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق يقال عهد اليه الملك وعرم عليه وأوعز اليه وتقدم اليه اذا أمره ووصاه والمعهود محذوف يدل عليه ما بعده ﴿ ١٠٩ ﴾ واللام جواب قسم محذوف أي وأقسم اوو بالله اووتالله

لقد أمرناه و وصيناه (من قبل) أي من قبل هذا الزمان (فنسي) أي العهد ولم يعتن به حتى غفل عنه اوتركه ترك المنسي عنه وقرئ فنسى أي نساه الشياطين (ولم نجد له عزما) تصميم رأي وثبات قدم في الامور اذلو كان كذلك لما ازله الشيطان ولما استطاع أن يغره وقد كان ذلك منه عليه السلام في بدء أمره من قبل أن يجرب الامور ويتولى حارها وقارها ويذوق شريها وأريها * عن النبي عليه الصلاة والسلام لو وزنت أحلام بني آدم بحلم آدم لرجح حلمه وقد قال الله تعالى ولم نجد له عزما وقيل عزما على الذنب فانه أخطأ ولم يتعمد وقوله تعالى ولم نجد ان كان من الوجود العلمي فله عزما مفعولا وقدم الثاني على الاول لكونه ظرفا وان كان من الوجود المقابل للعدم وهو الانسب لان مصب الفائدة هو المفعول

فقوله فلا يخاف في موضع جزم لكونه في موضع جواب الشرط والتقدير فهو لا يخاف ونظيره ومن عاد فينتقم الله منه فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا وقرأ ابن كثير فلا يخف على النهي وهو حسن لان المعنى فليأمن والنهي عن الخوف أمر بالامن والظلم هو أن يعاقب لا على جريمة أو يمنع من الثواب على الطاعة والهضم أن ينقص من ثوابه والهضيمة النقيصة ومنه هضيم الكشح أي ضامر البطن ومنه طلعها هضيم أي لازق بعضه ببعض ومنه انهضم طعامي وقال أبو مسلم الظلم أن ينقص من الثواب والهضم أن لا يوفى حقه من الاعظام لان الثواب مع كونه من اللذات لا يكون ثوابا الا اذا قارنه التعظيم وقد يدخل النقص في بعض الثواب و يدخل فيما يقارنه من التعظيم فنفى الله تعالى عن المؤمنين كلا الامرين * قوله تعالى (وكذلك انزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون او يحدث لهم ذكرا فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه وقل رب زدني علما) اعلم ان قوله وكذلك عطف على قوله كذلك نقص أي ومثل ذلك الانزال وعلى نهجه أنزلنا القرآن كله ثم وصف القرآن بأمرين (أحدهما) كونه عربيا لتفهمه العرب فيقفوا على اعجازه ونظمه وخروجه عن جنس كلام البشر (والثاني) قوله وصرفنا فيه من الوعيد أي كررناه وفصلناه و يدخل تحت الوعيد بيان الفرائض والمحارم لان الوعيد فعل يتعلق فتكريره يقتضي بيان الاحكام فلذلك قال لعلهم يتقون والمراد اتقاء المحرمات وترك الواجبات ولفظ لعل قد تقدم تفسيره في سورة البقرة في قوله والذين من قبلكم لعلكم تتقون أما قوله أو يحدث لهم ذكرا ففيه وجهان (الاول) أن يكون المعنى انا انما أنزلنا القرآن لاجل أن يصير وا متقين أي محترزين عما لا ينبغي أو يحدث القرآن لهم ذكرا يدعوهم الى الطاعات وفعل ما ينبغي وعليه سؤالات (السؤال الاول) القرآن كيف يكون محدثا للذكر (الجواب) لما حصل الذكر عند قراءته اضيف الذكر اليه (السؤال الثاني) لم اضيف الذكر الى القرآن وما اضيفت التقوى اليه (الجواب) ان التقوى عبارة عن أن لا يفعل القبيح وذلك استمرار على العدم الاصلي فلم يجز اسناده الى القرآن أما حدوث الذكر فأمر حدث بعد أن لم يكن فجازت اضافته الى القرآن (السؤال الثالث) كلمة أو للمنافاة ولا منافاة بين التقوى وحدوث الذكر بل لا يصح الاتقاء الا مع الذكر فما معنى كلمة أو (الجواب) هذا كقولهم جالس الحسن أو ابن سيرين أي لا تكن خاليا منهما فكذا ههنا (الوجه الثاني) أن يقال انا أنزلنا القرآن ليتقوا فان لم يحصل ذلك فلا أقل من أن يحدث القرآن لهم ذكرا وشرفا وصيتا حسنا فعلى هذين التقديرين يكون انزاله تقوى ثم انه تعالى لما عظم أمر القرآن اردفه بان عظم نفسه فقال فتعالى الله الملك الحق تنبيها على ما يلزم خلقه من تعظيمه وانما وصفه بالحق لان ملكه لا يزول ولا يتغير وليس بمستفاد من قبل الغير ولا غيره أولى به فلهذا وصف بذلك وتعالى تفاعل من العلو وقد ثبت ان علوه وعظمته وربوبيته بمعنى واحد وهو اتصافه بنعوت

وليس في الاخبار بكون العزم المعدوم له مزيد مزية وله متعلق به قدم على مفعوله لما مر مرارا من الاهتمام بالتقدم والتشويق الى المؤخر أو بمحذوف هو حال من مفعوله المنكر كأنه قيل ولم نصادف له عزما وقوله تعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) شروع في بيان المعهود وكيفية ظهور نسيانه وفقدان عزمه واذ منصوب

على المفعولية بمضمر خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام أي واذكر وقت قولنا لهم وتعليق الذكر بالوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث لما مر مرارا من المبالغة في ايجاب ذكرها فان الوقت مشتمل على تفاصيل الامور الواقعة فيه فالامر بذكره أمر بذكر تفاصيل ما وقع فيه بالطريق البرهاني ولان الوقت مشتمل على أعيان الحوادث فاذا ذكر صارت الحوادث كأنها موجودة في ذهن المخاطب بوجوداتها العينية أي ﴿ ١١٠ ﴾ اذكر ما وقع في ذلك الوقت منا ومنه

حتى يتبين لك نسيانه وفقدان عزمه (فسجدوا الا ابليس) قد سبق الكلام فيه مرارا (أبى) جملة مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ عن الاخبار بعدم سجوده كأنه قيل ما باله لم يسجد فقيل أبى واستكبر ومفعول أبى اما محذوف أي أبى السجود كما في قوله تعالى أبى أن يكون مع الساجدين او غير منوى رأسا بتنزيله منزلة اللازم أي فعل الاباء وأظهره (فقلنا) عقيب ذلك اعتناء بنصحه (يا آدم ان هذا) الذي رأيت ما فعل (عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما) أي لا يكونن سببا لاخراجكما (من الجنة) والمراد نهيهما عن أن يكونا بحيث يتسبب الشيطان الى اخراجهما منها بالطريق البرهاني كما في قولك لا أرينك ههنا والفاء لترتيب موجب النهي على عداوته لهما او على الاخبار بها (فتشقى) جواب للنهي واسناد الشقاء اليه خاصة بعد تعليق الاخراج الموجب له بهما معا لأصالته في الامور واستلزام شقائه ﴿ حتى ﴾ لشقائهما مما فيه من مراعاة الفواصل وقيل المراد بالشقاء التعب في تحصيل مبادي المعاش وذلك من وظائف الرجال (ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) تعليل لما يوجبه النهي

الجلال وانه لا تكيفه الاوهام ولا تقدره العقول وهو منزه عن المنافع والمضار فهو تعالى انما أنزل القرآن لتحترزوا عما لا ينبغي وليقدموا على ما ينبغي وانه تعالى منزه عن التكمل بطاعاتكم والتضرر بمعاصيهم فالطاعات انما تقع بتوفيقه وتيسيره والمعاصي انما تقع عدلا منه وكل ميسر لما خلق له أما قوله ولا تعجل بالقرآن من قبل ان يقضى اليك وحيه ففيه مسائل (المسئلة الاولى) في تعلقه بما قبله وجهان (الوجه الاول) قال أبو مسلم ان من قوله ويسألونك عن الجبال الى ههنا تم الكلام وينقطع ثم قوله ولا تعجل بالقرآن خطاب مستأنف فكأنه قال ويسألونك ولا تعجل بالقرآن (الوجه الثاني) روي انه عليه السلام كان يخاف من أن يفوته منه شئ فيقرأ مع الملك فأمره بان يسكت حال قراءة الملك ثم يأخذ بعد فراغه في القراءة فكأنه تعالى شرح كيفية نفع القرآن للمكلفين وبين انه سبحانه متعال عن كل ما لا ينبغي وانه موصوف بالاحسان والرحمة ومن كان كذلك وجب أن يصون رسوله عن السهو والنسيان في أمر الوحي واذا حصل الامان عن السهو والنسيان قال ولا تعجل بالقرآن (المسئلة الثانية) قوله ولا تعجل بالقرآن يحتمل أن يكون المراد لا تعجل بقراءته في نفسك ويحتمل أن لا تعجل في تأديته الى غيرك ويحتمل في اعتقاد ظاهره ويحتمل في تعريف الغير ما يقتضيه ظاهره وأما قوله من قبل أن يقضى اليك وحيه فيحتمل أن يكون المراد من قبل أن يقضى اليك تمامه ويحتمل أن يكون المراد من قبل أن يقضى اليك بيانه لان هذين الامرين لا يمكن تحصيلهما الا بالوحي ومعلوم انه عليه السلام لا ينهى عن قراءته لكي يحفظه ويؤديه فالمراد اذن ان لا يبعث نفسه ولا يبعث غيره عليه حتى يتبين بالوحي تمامه أو بيانه أو هما جميعا لانه يجب التوقف في معنى الكلام ما لم يأت عليه الفراغ لما يجوز أن يحصل عقيبه من استثناء أو شرط أو غيرهما من المخصصات فهذا هو التحقيق في تفسير الآية وقد ذكر أقوال المفسرين (أحدها) ان هذا كقوله تعالى لا تحرك به لسانك لتعجل به وكان عليه السلام يحرص على أخذ القرآن من جبريل عليه السلام فيعجل بقراءته قبل استتمام جبريل مخافة النسيان فقيل له لا تعجل به الى ان يستتم وحيه فيكون أخذك اياه عن تثبت وسكون والله تعالى يزيدك فهما وعلما وهذا قول مقاتل والسدي ورواه عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما (وثانيها) ولا تعجل بالقرآن فتقرأه على أصحابك قبل أن يوحى اليك بيان معانيه وهذا قول مجاهد وقتادة (وثالثها) قال الضحاك ان أهل مكة وأسقف نجران قالوا يا محمد أخبرنا عن كذا وكذا وقد ضرب لذلك أجلا ثلاثة أيام فأبطأ الوحي عليه وفشت المقالة بأن اليهود قد غلبوا محمدا فأنزل الله تعالى هذه الآية ولا تعجل بالقرآن أي بنزوله من قبل أن يقضى اليك وحيه من اللوح المحفوظ الى اسرافيل ومنه الى جبريل ومنه اليك وقل رب زدني علما (ورابعها) روي الحسن أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت زوجي لطم وجهي فقال بينكما القصاص فنزل قوله ولا تعجل بالقرآن فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القصاص

فان اجتماع أسباب الراحة فيها مما يوجب المبالغة فى الاهتمام بتحصيل مبادى البقاء فيها والجد فى الانتهاء عما يؤدى الى الخروج عنها والعدول عن التصريح بان له عليه السلام فيها تنعما بفنون النعم من المآكل والمشارب وتمتعا بأصناف الملابس البهية والمساكن المرضية مع أن فيه من الترغيب فى البقاء فيها ما لا يخفى الى ماذكر من نفى نقائضها التى هى الجوع والعطش والعرى والضحو لتذكير تلك الامور المنكرة ﴿ ١١١ ﴾ والتنبيه على ما فيها من أنواع الشقوة التى حذره عنها ليبالغ

حتى نزل قوله تعالى الرجال قوامون على النساء وهذا بعيد والاعتماد على التفصيل الاول أما قوله تعالى وقل رب زدنى علما فالمعنى انه سبحانه وتعالى أمره بالفزع الى الله سبحانه فى زيادة العلم التى تظهر بتمام القرآن أو بيان ما نزل عليه (المسئلة الثالثة) الاستعجالى الذى نهى عنه ان كان فعله بالوحى فكيف نهى عنه (الجواب) لعله فعله بالاجتهاد وكان الاولى تركه فلهذا نهى عنه ﴿ قوله تعالى (ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس ابى فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى) اعلم ان هذا هو المرة السادسة من قصة آدم عليه السلام فى القرآن أولها فى سورة البقرة ثم فى الاعراف ثم فى الحجر ثم فى الاسراء ثم فى الكهف ثم ههنا واعلم ان فى تعلق هذه الآية بما قبلها وجوها (أحدها) انه تعالى لما قال كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ثم انه عظم أمر القرآن وبالغ فيه ذكر هذه القصة انجاز اللوعد فى قوله كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق (وثانيها) انه لما قال وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا أردفه بقصة ادم عليه السلام كأنه قال ان طاعة بنى آدم للشيطان وتركهم التحفظ من وساوسه أمر قديم فانا عهدنا الى آدم من قبل أى من قبل هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد وبالغنا فى تنبيههم حيث قلنا له ان هذا عدو لك ولزوجك ثم انه مع ذلك نسى وترك ذلك العهد فأمر البشر فى ترك التحفظ من الشيطان أمر قديم (وثالثها) انه لما قال لمحمد صلى الله عليه وسلم وقل رب زدنى علما ذكر بعده قصة آدم عليه السلام فانه بعدما عهد الله اليه و بالغ فى تجديد العهد وتحذيره من العدو نسى فقد دل ذلك على ضعف القوة البشرية عن التحفظ فيحتاج حينئذ الى الاستعانة بربه فى ان يوفقه لتحصيل العلم و يجنبه عن السهو والنسيان (ورابعها) ان محمدا صلى الله عليه وسلم لما قيل له ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه دل على انه كان فى الجد فى أمر الدين بحيث زاد على قدر الواجب فلما وصفه بالافراط وصف ادم بالتفريط فى ذلك فانه تساهل فى ذلك ولم يتحفظ حتى نسى فوصف الاول بالتفريط والآخر بالافراط ليعلم ان البشر لا ينفك عن نوع زلة (وخامسها) ان محمدا صلى الله عليه وسلم لما قيل له ولا تعجل ضاق قلبه وقال فى نفسه لولا انى أقدمت على ما لا ينبغى والا لما نهيت عنه فقيل له ان كنت فعلت ما نهيت عنه فانما فعلته حرصا منك على العبادة وحفظا لاداء الوحى وان أباك أقدم على ما لا ينبغى للتساهل وترك التحفظ فكان أمرك أحسن من أمره أما قوله تعالى ولقد عهدنا الى ادم من قبل فلا شك ان المراد بالعهد أمر من الله تعالى أو نهى منه كما يقال فى أوامر الملوك ووصاياهم اشار الملك اليه وعهد اليه قال المفسرون عهدنا اليه أن لا يأكل من الشجرة ولا يقربها وفى قوله تعالى من قبل وجوه (أحدها) من قبل هؤلاء الذين صرفنا لهم الوعيد فى القرآن (وثانيها) قال ابن عباس من قبل أن يأكل من الشجرة عهدنا اليه أن لا يأكل منها

فى التحامى عن السبب المؤدى اليها على أن الترغيب قد حصل بما سوغ له من التمتع بجميع ما فيها سوى ما استثنى من الشجرة حسبما نطق به قوله تعالى ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما وقد طوى ذكره ههنا اكتفاء بما ذكر فى موضع آخر واقتصر على ما ذكر من الترغيب المتضمن للترهيب ومعنى أن لا تجوع فيها الخ أن لا يصيبه شئ من الامور الاربعة أصلا فان الشبع والرى والكسوة والسكن قد تحصل بعد عروض أضدادها باعواز الطعام والشراب واللباس والمسكن وليس الامر فيها كذلك بل كل ما وقع فيها شهوة وميل الى شئ من الامور المذكورة تمتع به من غير أن يصل الى حد الضرورة ووجه افراده عليه السلام بما ذكر مما مر آنفا وفصل الظمأ عن الجوع

فى الذكر مع تجانسهما وتقارنهما فى الذكر عادة وكذا حال العرى والضحو المتجانسين لتوفية مقام الامتنان حقه بالاشارة الى نفى كل واحد من تلك الامور نعمة على حيالها ولو جمع بين الجوع والظمأ بما توهم أن نفيهما نعمة واحدة وكذا الحال فى الجمع بين العرى والضحو على منهاج قصة البقرة ولزيادة التقرير بالتنبيه على

أن نفى كل واحد من الامور المذكورة مقصود بالذات مذكور بالاصالة لا أن نفى بعضها مذكور بطريق الاستطراد والتبعية لنفى بعض اخر كما عسى يتوهم لوجمع بين كل من المتجانسين وقرئ انك بالكسر والجمهور على الفتح بالعطف على أن لا تجوع وصحة وقوع الجملة المصدرة بان المفتوحة اسما للمكسورة المشاركة لها فى افادة التحقيق مع امتناع وقوعها خبرا لها لما أن المحذور اجتماع حرفى التحقيق فى مادة واحدة ولا اجتماع ﴿١١٢﴾ فيما نحن فيه لاختلاف مناط التحقيق فيما فى حيزهما بخلاف ما لو وقعت خبرا لهما فان اتحاد المناط حينئذ مما لا ريب فيه بيانه أن كل واحدة من المكسورة والمفتوحة موضوعة لتحقيق مضمون الجملة الخبرية المنعقدة من اسمها وخبرها ولا يخفى أن مرجع خبرية تلك الجملة فى كل منهما الى الحكم الايجابى او السلبى وأن مناط ذلك الحكم خبرها لا اسمها فمدلول كل منهما تحقيق ثبوت خبرها لاسمها لا ثبوت اسمها فى نفسه فاللازم من وقوع الجملة المصدرة بالمفتوحة اسما للمكسورة تحقيق ثبوت خبرها لتلك الجملة المؤولة بالمصدر وأما تحقيق ثبوتها فى نفسها فهو مدلول المفتوحة حتما فلم يلزم اجتماع حرفى التحقيق فى مادة واحدة قطعا وانما لم يجوزوا أن يقال ان أن زيدا قائم حق مع اختلاف المناط بل شرطوا الفصل بالخبر كقولنا ان عندى أن زيدا قائم للتجافى عن صورة الاجتماع والواو العاطفة وان كانت نائبة عن المكسورة ﴿الى﴾ التى يمتنع دخولها على المفتوحة بلا فصل وقائمة مقامها فى اقتضاء معناها واجراء أحكامها على مدخولها لكنها حيث لم تكن حرفا موضوعا للتحقيق لم يلزم من دخولها

(وثالثها) أى من قبل محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وهو قول الحسن أما قوله فنسى فقد تكلمنا فيه على سبيل الاستقصاء فى سورة البقرة ونعيد ههنا منه شيأ قليلا وفى النسيان قولان (أحدهما) المراد ما هو نقيض الذكر وانما عوتب على ترك التحفظ والمبالغة فى الضبط حتى تولد منه النسيان وكان الحسن رحمه الله يقول والله ما عصى قط الا بنسيان (والثانى) أن المراد بالنسيان الترك وانه ترك ما عهد اليه من الاحتراز عن الشجرة وأكل ثمرتها وقرئ فنسى أى فنساه الشيطان وعلى هذا التقدير يحتمل أن يقال أقدم على المعصية من غير تأويل وأن يقال أقدم عليها مع التأويل والكلام فيه قد تقدم فى سورة البقرة وأما قوله ولم نجد له عزما ففيه ابحاث (الاول) الوجود يجوز أن يكون بمعنى العلم ومنه ولم نجد له عزما وأن يكون نقيض العدم كأنه قال وعدمنا له عزما (البحث الثانى) العزم هو التصميم والتصلب ثم قوله ولم نجد له عزما يحتمل ولم نجد له عزما على المقام على المعصية من غير توبة ويحتمل ولم نجد له عزما على ترك المعصية أولم نجد له عزما على التحفظ والاحتراز عن الغفلة أولم نجد له عزما على الاحتياط فى كيفية الاجتهاد إذا قلنا انه عليه السلام انما أخطأ بالاجتهاد وأما قوله واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى فهذا يشتمل على مسائل (احداها) أن المأمورين كل الملائكة أو بعضهم (وثانيتها) انه ما معنى السجود (وثالثتها) ان ابليس هل كان من الملائكة أم لا وان لم يكن فكيف صح الاستثناء وبأى شئ صار مأمورا بالسجود (ورابعتها) ان هذا هل يدل على ان آدم أفضل من محمد صلى الله عليه وسلم أم لا (وخامستها) ان قوله فى صفة ابليس انه أبى كيف لزم الكفر من ذلك الاباء وانه هل كان كافرا ابتداء أو كفر بسبب ذلك واعلم ان هذه المسائل مرت على سبيل الاستقصاء فى سورة البقرة أما قوله وقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ففيه سؤالات (الاول) ما سبب تلك العداوة الجواب من وجوه (أحدها) أن ابليس كان حسودا فلما رأى آثار نعم الله تعالى فى حق آدم عليه السلام حسده فصار عدوا له (وثانيها) ان آدم كان شابا عالما لما قوله وعلم آدم الاسماء كلها وابليس كان شيخا جاهلا لانه أثبت فضله بفضيلة أصله وذلك جهل والشيخ الجاهل أبدا يكون عدوا للشاب العالم (وثالثها) ان ابليس مخلوق من النار وآدم مخلوق من الماء والتراب فبين أصليهما عداوة فبقيت تلك العداوة (السؤال الثانى) لم قال فلا يخرجنكما من الجنة مع أن المخرج لهما من الجنة هو الله تعالى الجواب لما كان بوسوسته هو الذى فعل ما ترتب عليه الخروج صح ذلك (السؤال الثالث) لم أسند الى آدم وحده فعل الشقاء دون حواء مع اشتراكهما فى الفعل الجواب من وجهين (أحدهما) ان فى ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم كما ان فى ضمن سعادته سعادتهم فاختص الكلام باسناده اليه دونها مع المحافظة على رعاية الفاصلة (الثانى) أريد بالشقاء التعب فى طلب القوت وذلك على الرجل دون المرأة وروى انه أهبط

على المفتوحة اجتماع حرفى التحقيق أصلا فالمعنى انك عدم الجوع وعدم الظمأ خلا أنه لم يقتصر على بيان أن الثابت له عليه السلام عدم الظمأ والضحو مطلقا ﴿ ١١٣ ﴾ كما فعل مثله فى المعطوف عليه بل قصد بيان أن الثابت

الى آدم ثورا أحمر وكان يحرث عليه ويمسح العرق عن جبينه أما قوله ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرئ وانك بالفتح والكسر ووجه الفتح العطف على ان لا تجوع فيها فان قيل ان لا تدخل على ان فلا يقال ان ان زيدا منطلق والواو نائبة عن ان وقائمة مقامها فلم أدخلت عليها قلنا الواو لم توضع لتكون أبدا نائبة عن ان انما هى نائبة عن كل عامل فلما لم تكن حرفا موضوعا للتحقيق خاصة كان لم يمتنع اجتماعهما كما امتنع اجتماع ان وان (المسئلة الثانية) الشبع والرى والكسوة والاكتنان فى الظل هى الاقطاب التى يدور عليها أمر الانسان فذكر الله تعالى حصول هذه الاشياء له فى الجنة من غير حاجة الى الكسب والطلب وذكرها بلفظ النفى لاضدادها التى هى الجوع والعرى والظمأ والضحى ليطرق سمعه شيئا من أصناف الشقوة التى حذره منها حتى يبالغ فى الاحتراز عن السبب الذى يوقعه فيها وهذه الاشياء كلها كانها تفسير الشقاء المذكور فى قوله فتشقى * قوله تعالى (فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى

فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) واعلم انه سبحانه بين انه عظم آدم عليه السلام بأن جعله مسجودا للملائكة وبين انه عرفه شدة عداوة ابليس له ولزوجه وانه لعداوته يدعوهم الى المعصية التى اذا وقعت زالت تلك النعم بأسرها ثم انه مع ذلك اتفق منه ومن حواء الاقدام على الزلة ما اتفق والعجب ما روى عن أبى أمامة الباهلى قال لو ان أحلام بنى آدم الى قيام الساعة وضعت فى كفة ميزان ووضع حلم آدم فى الاخرى لرجح حلمه باحلامهم ولكن المكادحة مع قضاء الله تعالى ممتنعة واعلم ان واقعة آدم عجيبة وذلك لان الله تعالى رغبه فى دوام الراحة وانتظام المعيشة بقوله فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ان لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ورغبه ابليس أيضا فى دوام الراحة بقوله هل أدلك على شجرة الخلد وفى انتظام المعيشة بقوله وملك لا يبلى فكان الشئ الذى رغب الله آدم فيه هو الذى رغبه ابليس فيه الا أن الله تعالى وقف ذلك على الاحتراس عن تلك الشجرة وابليس وقفه على الاقدام عليها ثم ان آدم عليه السلام مع كمال عقله وعلمه بأن الله تعالى مولاه وناصره ومربيه وأعلمه بأن ابليس عدوه حيث امتنع من السجود له وعرض نفسه للعنة بسبب عداوته كيف قيل فى الواقعة الواحدة والمقصود الواحد قول ابليس مع علمه بكمال عداوته له وأعرض عن قول الله تعالى مع علمه بأنه هو الناصر والمربى ومن تأمل فى هذا الباب طال تعجبه وعرف آخر الامر ان هذه القصة كالتنبيه على انه لا دافع لقضاء الله ولا مانع منه وان الدليل وان كان فى غاية الظهور ونهاية القوة فانه لا يحصل النفع به الا اذا قضى الله تعالى ذلك وقدره وأما قوله فوسوس اليه الشيطان فقد تقدم فى سورة البقرة انه كيف وسوس و بماذا وسوس فان قيل كيف عدى وسوس تارة باللام فى قوله فوسوس لهما الشيطان وأخرى بالى قلنا قوله فوسوس له

له عليه السلام تحقيق عدمهما فوضع موضع الحرف المصدرى المحض أن المفيدة له كأنه قيل أن لك فيها عدم ظمئك على التحقيق (فوسوس اليه الشيطان) أى أنهى اليه وسوسته أو أسرها اليه (قال) اما بدل من وسوس أو استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ منه كأنه قيل فماذا قال فى وسوسته فقيل قال (يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد) أى شجرة من أكل منها خلد ولم يمت أصلا سواء كان على حاله أو بأن يكون ملكا لقوله تعالى الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين (وملك لا يبلى) أى لا يزول ولا يختل بوجه من الوجوه (فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما) قال ابن عباس رضى الله عنهما عريا عن النور الذى كان الله تعالى ألبسهما حتى بدت فروجهما (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) قدم تفسيره

فى سورة الاعراف (وعصى ﴿ ١٥ ﴾ س آدم ربه) بما ذكر من أكل الشجرة (فغوى) ضل عن مطلوبه الذى هو الخلود أو عن الماموربه أو عن الرشد حيث اغتر بقول العدو وقرئ فغوى من غوى

الفصيل اذا اتخم من اللبن وفى وصفه عليه السلام بالعصيان والغواية مع صغر زلته تعظيم لها وزجر بليغ لاولاده عن أمثالها (ثم اجتباه ربه) أى اصطفاه وقربه اليه بالحمل على التوبة والتوفيق لها من اجتبى الشئ بمعنى جباه لنفسه أى جمعه كقولك اجتمعته أو من جبى الى كذا فاجتبيته مثل جليت على العروس فاجتليتها وأصل الكلمة الجمع وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام مزيد تشريف له عليه السلام (فتاب عليه) أى قبل توبته حين تاب هو وزوجته قائلين ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين وافراده عليه السلام بالاجتباء وقبول التوبة قد مر وجهه (وهدى) أى الى اثبات على التوبة و التمسك بأسباب العصمة (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من الاخبار بأنه تعالى قبل توبته وهداه كأنه قيل فاذا أمره تعالى بعد ذلك فقيل قال له ولزوجته (اهبطا منها جميعا) أى انزلا من الجنة الى الارض وقوله تعالى (بعضكم لبعض عدو) حال من ضمير المخاطب فى اهبطا والجمع لما أنهما أصل الذرية ومنشأ الاولاد أى متعادين فى أمر المعاش كما عليه الناس من التجاذب والتحارب ﴿ فى ﴾ (فاما يأتينكم منى هدى) من كتاب ورسول (فمن اتبع هداى) وضع الظاهر موضع

معناه لاجله وقوله وسوس اليه معناه أنهى اليه الوسوسة كقوله حدث له وأسر اليه ثم بين ان تلك الوسوسة كانت بتطميعه فى أمرين (أحدهما) قوله هل أدلك على شجرة الخلد أضاف الشجرة الى الخلد وهو الخلود لان من أكل منها صار مخلدا بزعمه (الثانى) قوله وملك لا يبلى أى من أكل من هذه الشجرة دام ملكه قال القاضى ليس فى الظاهر ان آدم قبل ذلك منه بل لو وجدت هذه الوسوسة حال كون آدم عليه السلام نبيا لاستحال أن يكون آدم عليه السلام قبل ذلك منه لانه لابد وأن يحصل بين حال التكليف وحال المجازاة فترة بالموت وبالمعنى فآدم لما كان نبيا امتنع أن لا يعلم ذلك قلنا لانسلم أنه لابد من حصول هذه الفترة بين حال التكليف وحال المجازاة ولم لا يجوز أن يقال لا حاجة الى الفترة أصلا وان كان ولابد فيكفى حصول الفترة بغشى أو نوم خفيف ثم ان كان ولابد من حصول الفترة بالموت فلم قلت انى لابد وأن يعلم ذلك أليس قوم منكم يقولون ان موسى عليه السلام انما سأل الرؤية لانه ما كان يعرف امتناعها على الله تعالى فاذا جاز ذلك الجهل فلم لا يجوز هذا الجهل ثم ما الدليل على ان آدم كان نبيا فى ذلك الوقت فان مذهبنا ان واقعة الزلة انما حصلت قبل رسالته لا بعدها ثم ان الذى يدل على ان آدم عليه السلام قبل ذلك قوله تعالى عقيب ذكر الوسوسة فأكلا منها وهذا الترتيب مشعر بالعلية كقولهم زنى ماعز فرجم وسها رسول الله فسجد فان هذه الفاء تدل على أن الرجم كان مسببا للزنا والسجود كان مسببا للسهو فكذلك ههنا يجب أن يكون الاكل كان معللا باستماع قوله هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى وانما يحصل هذا التعليل لو قبل آدم ذلك منه فانه لو رد قوله لما أقدم على الاكل بناء على قوله فثبت أن آدم عليه السلام قبل ذلك من ابليس ثم انه سبحانه بين انهما لما أكلا بدت لهما سوآتهما قال ابن عباس عريا من النور الذى كان الله ألبسهما حتى بدت فروجهما لما جمع فقيل سوآتهما كما قال صغت قلوبكما فان قيل هل كان ظهور سوآتهما كالجزاء على معصيتهما قلنا لا شك ان ذلك كالمعلق على ذلك الاكل لكن يحتمل أن لا يكون عقابا عليه بل انما ترتب عليه لمصلحة أخرى أما قوله وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ففيه اتجاه (الاول) قال صاحب الكشاف طفق يفعل كذا مثل جعل يفعل وأخذ وأنشأ وحكمها حكم كاد فى وقوع الخبر فعلا مضارعا وبينهما وبينه مسافة قصيرة وهى للشروع فى أول الامر وكاد لمقاربته والدنو منه (البحث الثانى) قرئ يخصفان للتكثير والتكرير من خصف النعل وهو أن يخرز عليه الخصاف أى يلزقان الورقة على سوآتهما ليستروها وورق التين أما قوله وعصى آدم ربه فغوى فمن الناس من تمسك بهذا فى صدور الكبيرة عنه من وجهين (الاول) ان العاصى اسم للذم فلا ينطلق الا على صاحب الكبيرة لقوله تعالى ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها ولا معنى لصاحب الكبيرة الا من فعل فعلا يعاقب عليه (والوجه الثانى) ان الغواية والضلالة اسمان مترادفان والغى ضد الرشد ومثل هذا الاسم لا يتناول الا الفاسق المنهمك

المضمر مع الاضافة الى ضميره تعالى لتشريفه والمبالغة فى ايجاب اتباعه (فلا يضل) فى الدنيا (ولا يشقى) فى الآخرة (ومن أعرض عن ذكرى) أى عن الهدى ﴿ ١١٥ ﴾ الذاكر لى والداعى الى (فان له) فى الدنيا (معيشة ضنكا)

فى فسقه أجاب قوم عن الكلام الاول فقالوا المعصية مخالفة الامر والامر قد يكون بالواجب والندب فانهم يقولون أشرت عليه فى أمر ولده فى كذا فعصانى وأمرته بشرب الدواء فعصانى واذا كان الامر كذلك لم يمتنع اطلاق اسم العصيان على آدم لانه كونه تاركا للواجب بل لكونه تاركا للمندوب فأجاب المستدل عن هذا الاعتراض بأنا بينا ان ظاهر القرآن يدل على أن العاصى مستحق للعقاب والعرف يدل على انه اسم ذم فوجب تخصيص اسم العاصى بتارك الواجب ولانه لو كان تارك المندوب عاصيا لوجب وصف الانبياء بأسرهم بأنهم عصاة فى كل حال لانهم لا ينفكون من ترك المندوب فان قيل وصف تارك المندوب بأنه عاص مجاز والمجاز لا يطرد قلنا لما سلمت كونه مجازا فالاصل عدمه أما قوله أشرت عليه فى أمر ولده فى كذا فعصانى وأمرته بشرب الدواء فعصانى قلنا لا نسلم ان هذا الاستعمال مروى عن العرب ولئن سلمنا ذلك ولكنهم انما يطلقون ذلك اذا جزموا على المستشير بأنه لابد وأن يفعل ذلك الفعل وانه لا يجوز الاخلال بذلك الفعل وحينئذ يكون معنى الايجاب حاصلا وان لم يكن الوجوب حاصلا وذلك يدل على ان لفظ العصيان لا يجوز اطلاقه الا عند تحقق الايجاب لكنا اجمعنا على ان الايجاب من الله تعالى يقتضى الوجوب فيلزم أن يكون اطلاق لفظ العصيان على آدم عليه السلام انما كان لكونه تاركا للواجب ومن الناس من سلم ان الآية تدل على صدور المعصية منه لكنه زعم ان المعصية كانت من الصغائر لا من الكبائر وهذا قول عامة المعتزلة وهو أيضا ضعيف لانا بينا ان اسم العاصى اسم للذم ولان ظاهر القرآن يدل على انه يستحق العقاب وذلك لا يليق بالصغيرة وأجاب أبو مسلم الاصفهانى بأنه عصى فى مصالح الدنيا لا فيما يتصل بالتكاليف وكذلك القول فى غوى وهذا أيضا بعيد لان مصالح الدنيا تكون مباحة ومن يفعلها لا يوصف بالعصيان الذى هو اسم للذم ولا يقال فلان هما بغرور وأما التمسك بقوله تعالى فغوى فأجابوا عنه من وجوه (أحدها) انه خاب من نعيم الجنة وذلك لانه لما أكل من تلك الشجرة ليصير ملكه دائما ثم لما أكل زال فلما خاب سعيه وما نجح قيل انه غوى وتحقيقه ان الغى ضد الرشد والرشد هو أن يتوصل بشئ الى شئ يوصل الى المقصود فمن توصل بشئ الى شئ فحصل له ضد مقصوده كان ذلك غيا (وثانيها) قال بعضهم غوى أى بشم من كثرة الاكل قال صاحب الكشاف هذا وان صح على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ألفا فيقول فى فنى وبقى فنا وبقاوهم بنوطى فهو تفسير خبيث واعلم أن الاولى عندى فى هذا الباب والاحسم للشغب أن يقال هذه الواقعة كانت قبل النبوة وقد شرحنا ذلك فى سورة البقرة وههنا بحث لابد منه وهو ان ظاهر القرآن وان دل على ان آدم عصى وغوى لكن ليس لاحد أن يقول ان آدم كان عاصيا غاويا ويدل على صحة قولنا أمور (أحدها) قال العتبى يقال لرجل قطع ثوبا وخاطه قد قطعه وخاطه ولا يقال خائط ولا خياط حتى يكون معاودا لذلك الفعل معروفا به ومعلوم ان هذه الزلة لم تصدر عن آدم عليه السلام الا مرة واحدة

ضيقا مصدر وصف به ولذلك يستوى فيه المذكر والمؤنث وقرئ ضنكى كسكرى وذلك لان مجامع همته ومطامح نظره مقصورة على أعراض الدنيا وهو متهالك على ازديادها وخائف من انتقاصها بخلاف المؤمن الطالب للآخرة مع انه قد يضيق الله تعالى بشؤم الكفر ويوسع ببركة الايمان كما قال تعالى وضربت عليهم الذلة والمسكنة وقال تعالى ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض وقال تعالى ولو أن أهل الكتاب آمنوا الى قوله تعالى لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم وقيل هو الضريع والزقوم فى النار وقيل عذاب القبر (ونحشره) وقرئ بسكون الهاء على لفظ الوقف وبالجزم عطفا على محل فان له معيشة ضنكا لانه جواب الشرط (يوم القيامة أعمى) فاقد البصر كما فى قوله تعالى ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما لا أعمى عن الحجة كما قيل (قال) استئناف كما مر (رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا) أى فى الدنيا وقرئ أعمى بالامالة فى الموضعين وفى

الاول فقط لكونه جديرا بالتغيير لكونه رأس الآية ومحل الوقف (قال كذلك) أى مثل ذلك فعلت أتتك فنسيتها بقوله تعالى (أتتك آياتنا) واضحة نيرة بحيث لا تخفى ﴿ ١١٦ ﴾ على أحد (فنسيتها) أى عميت عنها وتركتها

فوجب أن لا يجوز اطلاق هذا الاسم عليه (وثانيها) ان على تقدير أن تكون هذه الواقعة انما وقعت قبل النبوة لم يجز بعد أن قبل الله توبته وشرفه بالرسالة والنبوة اطلاق هذا الاسم عليه كما لا يقال لمن أسلم بعد الكفر انه كافر بمعنى انه كان كافرا بل وبتقدير أن يقال هذه الواقعة وقعت بعد النبوة لم يجز أيضا أن يقال ذلك لانه عليه السلام تاب عنها وكما ان الرجل المسلم اذا شرب الخمر أو زنى ثم تاب وحسنت توبته لا يقال له بعد ذلك انه شارب خمر أو زان فكذا ههنا (وثالثها) ان قولنا عاص وغاو يوهم كونه عاصيا في أكثر الاشياء وغاويا عن معرفة الله تعالى ولم ترد هاتان اللفظتان في القرآن مطلقتين بل مقرونتين بالقصة التي عصى فيها فكأنه قال عصى في كيت وكيت وذلك لا يوهم التوهم الباطل الذي ذكرناه (ورابعها) انه يجوز من الله تعالى ما لا يجوز من غيره كما يجوز للسيد في عبده وولده عند معصيته من اطلاق القول ما لا يجوز لغير السيد في عبده وولده أما قوله ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى فالمعنى ثم اصطفاه فتاب عليه اى عاد عليه بالعفو والمغفرة وهداه رشده حتى رجع الى الندم والاستغفار وقبل الله منه ذلك روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لو جمع بكاء أهل الدنيا الى بكاء داود كان بكاؤه أكثر ولو جمع كل ذلك الى بكاء نوح لكان بكاء نوح أكثر وانما سمي نوحا لنوحه على نفسه ولو جمع كل ذلك الى بكاء آدم لكان بكاء آدم على خطيئته أكثر وقال وهب انه لما كثر بكاؤه أوحى الله تعالى اليه وأمره بأن يقول لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوأ وظلمت نفسي فاغفر لي انك أنت خير الغافرين فقالها آدم عليه السلام ثم قال قل لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوأ وظلمت نفسي فارحمني انك أنت أرحم الراحمين ثم قال قل لا اله الا أنت سبحانك وبحمدك عملت سوأ وظلمت نفسي فتب علي انك أنت التواب الرحيم قال ابن عباس رضي الله عنهما هذه الكلمات هي التي تلقاها آدم عليه السلام من ربه * قوله تعالى (قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى) اعلم ان على أول هذه الآية سؤالا ان قوله اهبطا اما أن يكون خطابا مع شخصين أو أكثر فان كان خطابا لشخصين فكيف قال بعده فاما يأتينكم مني هدى وهو خطاب الجمع وان كان خطابا لاكثر من شخصين فكيف قال اهبطا وذكروا في جوابه وجوها (أحدها) قال أبو مسلم الخطاب لآدم ومعه ذريته ولابليس ومعه ذريته فلكونهما جنسين صح قوله اهبطا ولاجل اشتمال كل واحد من الجنسين على الكثرة صح قوله فاما يأتينكم (وثانيها) قال صاحب الكشاف لما كان آدم وحواء عليهما السلام اصلا للبشر والسبب اللذين منهما تفرعوا جعلا كأنهما البشر أنفسهم فخوطبا بمخاطبتهم فقال فاما يأتينكم على لفظ الجماعة أما قوله بعضكم لبعض عدو

المنسي الذي لا يذكر أصلا (وكذلك) ومثل ذلك النسيان الذي كنت فعلته في الدنيا (اليوم تنسى) نترك في العمى والعذاب جزاء وفاقا لكن لا أبدا كما قيل بل الى ما شاء الله ثم يزيله عنه فيرى أهوال القيامة ويشاهد مقعده من النار ويكون ذلك له عذابا فوق العذاب وكذا البكم والصم يزيلهما الله تعالى عنهم أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا (وكذلك) أى مثل ذلك الجزاء الموافق للجناية (نجزي من اسرف) بالانهماك في الشهوات (ولم يؤمن بآيات ربه) بل كذبها وأعرض عنها (ولعذاب الآخرة) على الاطلاق أو عذاب النار (أشد وأبقى) اى من ضنك العيش أو منه ومن الحشر على العمى (أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله من قوله تعالى وكذلك نجزي الآية والهمزة للانكار التوبيخي والفاء للعطف

على مقدر يقتضيه المقام واستعمال الهداية باللام اما لتنزيلها منزلة اللازم فلا حاجة الى المفعول ﴿ فقال ﴾ أو لانها بمعنى التبيين والمفعول محذوف وأيا ما كان

فالفاعل هو الجملة بمضمونها ومعناها وضميرلهم

فقال القاضي يكفي في توفية هذا الظاهر حقه أن يكون ابليس والشياطين أعداء للناس والناس أعداء لهم فاذا انضاف الى ذلك عداوة بعض الفريقين لبعض لم يمتنع دخوله في الكلام وقوله فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداى فيه دلالة على أن المراد الذرية وقد اختلفوا في المراد بالهدى فقال بعضهم الرسل وبعضهم قال الآيات والادلة وبعضهم قال القرآن والتحقيق ان الهدى عبارة عن الدلالة فيدخل فيه كل ذلك وفي قوله فلا يضل ولا يشقى دلالة على ان المراد بالهدى الذي ضمن الله على اتباعه ذلك اتباع الادلة واتباعها لا يتكامل الا بأن يستدل بها وبأن يعمل بها ومن هذا حاله فقد ضمن الله تعالى له أن لا يضل ولا يشقى وفيه ثلاثة أوجه (أحدها) لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة (وثانيها) لا يضل ولا يشقى في الآخرة لانه تعالى يهديه الى الجنة ويمكنه فيها (وثالثها) لا يضل ولا يشقى في الدنيا فان قيل المتبع لهدى الله قد يلحقه الشقاء في الدنيا قلنا المراد لا يضل في الدين ولا يشقى بسبب الدين فان حصل الشقاء بسبب آخر فلا بأس ولما وعد تعالى من يتبع الهدى أتبعه بالوعيد فمن أعرض فقال ومن أعرض عن ذكري والذكر يقع على القرآن وعلى سائر كتب الله تعالى على ما تقدم بيانه ويحتمل أن يراد به الادلة وقوله فان له معيشة ضنكا فالضنك أصله الضيق والشدة وهو مصدر ثم يوصف به فيقال منزل ضنك وعيش ضنك فكأنه قال معيشة ذات ضنك واعلم ان هذا الضيق المتوعد به اما أن يكون في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة أو في الدين أو في كل ذلك أو أكثره (أما الاول) فقال به جمع من المفسرين وذلك لان المسلم لتوكله على الله يعيش في الدنيا عيشا طيبا كما قال فلنحيينه حياة طيبة والكافر بالله يكون حريصا على الدنيا طالبا للزيادة أبدا فعيشته ضنك وحالته مظلمة وأيضا فمن الكفرة من ضرب الله عليه الذلة والمسكنة لكفره قال تعالى وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله وقال ولو انهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لاكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم وقال تعالى ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض وقال استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين وقال وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا (واما الثاني) وهو عذاب القبر فهذا قول عبد الله بن مسعود وأبي سعيد الخدري وعبد الله بن عباس ورفعه أبو هريرة الى النبي صلى الله عليه وسلم قال ان عذاب القبر للكافر قال والذي نفسي بيده انه ليسلط عليه في قبره تسعة وتسعون تنينا قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت الآية في الاسود بن عبد العزى المخزومي والمراد ضغطة القبر تختلف فيها اضلاعه (وأما الثالث) وهو الضيق في الآخرة في جهنم فان طعامهم فيها الضريع والزقوم وشراب الحميم والغسلين فلا يموتون فيها ولا يحيون وهذا قول الحسن وقتادة والكلبي (وأما الرابع) وهو الضيق في أحوال الدين فقال ابن عباس رضي الله عنهما المعيشة الضنك هي أن

أغفلوا فلم يفعل الهداية لهم أو فلم يبين لهم ما آل أمرهم كثرة اهلكنا للقرون الاولى وقدم في قوله عز وجل أولم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها الآية وقيل الفاعل الضمير العائد الى الله عز وجل ويؤيده القراءة بنون العظمة وقوله تعالى كم أهلكنا الخ اما معلق للفعل ساد مسد مفعوله أو مفسر لمفعوله المحذوف هكذا قيل والاوجه أن لا يلاحظ له مفعول كأنه قيل ألم يفعل الله تعالى لهم الهداية ثم قيل بطريق الالتفات كم أهلكنا الخ بيانا لتلك الهداية ومن القرون في محل النصب على انه وصف لمميز كم أي كم قرنا كائنا من القرون وقوله تعالى (يمشون في مساكنهم) حال من القرون أو من مفعول أهلكنا أي أهلكناهم وهم في حال أمن وتقلب في ديارهم أو من الضمير في لهم مؤكد للانكار والعامل يهد والمعنى أفلم يهد لهم اهلاكنا للقرون السالفة من أصحاب الحجر وثمود وقريات قوم لوط حال كونهم ماشين في مساكنهم اذا سافروا الى الشأم مشاهدين لآثار هلاكهم مع أن ذلك مما يوجب ان يهتدوا الى الحق

فيعتبر والئلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك وقرئ يمشون على البناء للمفعول أي يمكنون من المشي (ان في ذلك) تعليل للانكار وتقرير للهداية مع عدم اهتدائهم وذلك اشارة الى مضمون قوله تعالى كم أهلكنا الخ ومافيه من معنى البعد للاشعار ببعد منزلته وعلو شأنه في بابه (لآيات) كثيرة عظيمة واضحات الهداية ظاهرات الدلالة على الحق فاذن هو هاد وأيما هاد ويجوز أن تكون كلمة في تجريدية فافهم (لاولى النهى) لذوى العقول الناهية عن القبائح التي من أقبحها ما يتعاطاه كفار مكة من الكفر بآيات الله تعالى والتعامي عنها وغير ذلك من فنون المعاصي وفيه دلالة على أن مضمون الجملة هو الفاعل لا المفعول وقوله تعالى (ولولا كلمة سبقت من ربك) كلام مستأنف سيق لبيان حكمة عدم وقوع مايشعر به قوله تعالى افلم يهد لهم الآية من أن يصيبهم مثل مثل ما أصاب القرون المهلكة أي ولولا الكلمة السابقة وهي العدة بتأخير عذاب هذه الامة الى الآخرة لحكمة تقتضيه ومصلحة تستدعيه (لكان) عقاب جناياتهم (لزاما) أي لازما لهؤلاء الكفرة بحيث لا يتأخر ﴿ حاله ﴾ عن جناياتهم ساعة لزوم ما نزل بأولئك الغابرين وفي التعرض لعنوان

تضيق عليه أبواب الخير فلا يهتدي لشئ منها سئل الشبلي عن قوله عليه السلام اذا رأيتم أهل البلاء فاسألوا الله العافية فقال أهل البلاء هم أهل الغفلات عن الله تعالى فعقوبتهم أن يردهم الله تعالى الى أنفسهم وأي معيشة أضيق وأشد من أن يرد الانسان الى نفسه وعن عطاء قال المعيشة الضنك هي معيشة الكافر لانه غير موقن بالثواب والعقاب (وأما الخامس) وهو أن يكون المراد الضيق في كل ذلك أو أكثره فروى عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال عقوبة المعصية ثلاثة ضيق المعيشة والعسر في الشدة وأن لا يتوصل الى قوته الا بمعصية الله تعالى أما قوله تعالى ونحشره يوم القيامة أعمى ففيه وجوه (أحدها) هذا مثل قوله ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما وكما فسرت الزرقة بالعمى ثم قيل انه يحشر بصيرا فاذا سيق الى المحشر عمي والكلام فيه وعليه قد تقدم في قوله زرقا (وثانيها) قال مجاهد والضحاك ومقاتل يعني أعمى عن الحجة وهي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال القاضي هذا القول ضعيف لان في القيامة لا بد أن يعلمهم الله تعالى بطلان ما كانوا عليه حتى يتميز لهم الحق من الباطل ومن هذا حاله لا يوصف بذلك الا مجازا والمراد به انه كان من قبل ذلك كذلك ولا يليق بهذا قوله وقد كنت بصيرا ولم يكن كذلك في حال الدنيا أقول ومما يؤكد هذا الاعتراض انه تعالى علل ذلك العمى بما ان المكلف نسي الدلائل في الدنيا فلو كان العمى الحاصل في الآخرة عين ذلك النسيان لم يكن للمكلف بسبب ذلك ضرر كما أنه ما كان له في الدنيا بسبب ذلك ضرر واعلم ان تحقيق الجواب عن هذا الاعتراض مأخوذ من أمر آخر وهو أن الارواح الجاهلة في الدنيا المفارقة عن أبدانها على جهالتها تبقى على تلك الجهالة في الآخرة وان تلك الجهالة تصير هناك سببا لاعظم الآلام الروحانية وبين هذه الطريقة وبين طريقة القاضي المبنية على أصول الاعتزال بون شديد (وثالثها) قال الجبائي المراد من حشره أعمى انه لا يهتدي يوم القيامة الى طريق ينال منه خيرا بل يبقى واقفا متحيرا كالاعمى الذي لا يهتدي الى شئ أما قوله قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ففي تقرير هذا الجواب وجهان (أحدهما) انه تعالى انما أنزل به هذا العمى جزاء على تركه اتباع الهدى والاعراض عنه (والثاني) هو ان الارواح البشرية اذا فارقت أبدانها جاهلة ضالة عن الاتصال بالروحانيات بقيت على تلك الحالة بعد المفارقة وعظمت الآلام الروحانية فلهذا علل الله تعالى حصول العمى في الآخرة بالاعراض عن الدلائل في الدنيا ومن فسر المعيشة الضنك بالضيق في الدنيا قال انه تعالى بين ان من أعرض عن ذكره في الدنيا فله المعيشة الضنك في الدنيا والعمى في الآخرة أما قوله وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه فقد اختلفوا فيه فبعضهم قال أشرك وكفر وبعضهم قال أسرف في أن عصى الله وقد بين تعالى المراد بذلك بقوله ولم يؤمن بآيات ربه لان ذلك كالتفسير لقوله أسرف وبين انه يجزي من هذا

الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه السلام تلويح بان ذلك التأخير لتشريفه عليه السلام كما ينبئ عنه قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم والالزام امام صدر لازم ووصف مبالغة واما فعال بمعنى مفعل جعل آلة اللزوم

حاله بما تقدم ذكره من المعيشة الضنك والعمى وبين بعد ذلك ان عذاب الآخرة أشد وأبقى أما الاشد فلعظمه وأما الابقى فلانه غير منقطع * قوله تعالى (أفلم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم ان فى ذلك لآيات لاولى النهى ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء اليل فسبح واطراف النهار لعلك ترضى) اعلم انه تعالى لما بين ان من أعرض عن ذكره كيف يحشر يوم القيامة أتبعه بما لا يعتبر المكلف من الاحوال الواقعة فى الدنيا بمن كذب الرسل فقال أفلم يهد لهم والقراءة العامة أفلم يهد بالياء المعجمة من تحت وفاعله هو قوله كم أهلكنا قال القفال جعل كثرة ما أهلك من القرون مبينا لهم كما جعل مثل ذلك واعظا لهم وزاجرا وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى أفلم نهد لهم بالنون قال الزجاج يعنى أفلم نبين لهم بيانا يهتدون به لو تدبروا وتفكروا وأما قوله كم أهلكنا فالمراد به المبالغة فى كثرة من أهلكه الله تعالى من القرون الماضية وأراد بقوله يمشون فى مساكنهم ان قريشا يشاهدون تلك الآيات العظيمة الدالة على ما كانوا عليه من النعم وما حل بهم من ضرب الهلاك وللمشاهدة فى ذلك من الاعتبار ما ليس لغيره وبين ان فى تلك الآيات آيات لاولى النهى أى لاهل العقول والاقرب ان للنهية مزية على العقل والنهى لا يقال الا فيمن له عقل ينتهى به عن القبائح كما أن لقولنا أولوا العزم مزية على أولوا الحزم فلذلك قال بعضهم أهل الورع وأهل التقوى ثم بين تعالى الوجه الذى لاجله لا ينزل العذاب معجلا على من كذب وكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم فقال ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى وفيه تقديم وتأخير والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما ولا شبهة فى أن الكلمة هى اخبار الله تعالى ملائكته وكتبه فى اللوح المحفوظ ان أمته عليه السلام وان كذبوا فسيؤخرون ولا يفعل بهم ما يفعل بغيرهم من الاستئصال واختلفوا فيما لاجله لم يفعل ذلك بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم لانه علم ان فيهم من يؤمن وقال آخرون علم ان فى نسلهم من يؤمن ولو أنزل بهم العذاب لعمهم الهلاك وقال آخرون المصلحة فيه خفية لا يعلمها الا هو وقال أهل السنة له بحكم الملكية أن يخص من شاء بفضله ومن شاء بعذابه من غير علة اذ لو كان فعله لعلة لكانت تلك العلة ان كانت قديمة لزم قدم الفعل وان كانت حادثة افتقرت الى علة أخرى ولزم التسلسل فلهذا قال أهل التحقيق كل شئ صنيعه لا لعلة وأما الاجل المسمى ففيه قولان (أحدهما) ولولا أجل مسمى فى الدنيا لذلك العذاب وهو يوم بدر (والثانى) ولولا أجل مسمى فى الآخرة لذلك العذاب وهذا أقرب ويكون المراد ولولا كلمة سبقت تتضمن تأخير العذاب الى الآخرة كقوله بل الساعة موعدهم لكان العقاب لازما لهم فيما يقدمون عليه من تكذيب الرسول وأذيتهم له ثم انه تعالى لما أخبر نبيه بأنه لا يهلك أحدا قبل استيفاء أجله أمره بالصبر على ما يقولون ولا شبهة فى أن المراد أن يصبر على ما يكرهه من أقوالهم فيحتمل

لفرط لزومه كما يقال لزاز خصم (وأجل مسمى) عطف على كلمة أى ولولا أجل مسمى لاعمارهم أو لعذابهم وهو يوم القيامة ويوم بدر لما تأخر عذابهم أصلا وفصله عما عطف عليه للمسارعة الى بيان جواب لولا وللاشعار باستقلال كل منهما بنفى لزوم العذاب ومراعاة فواصل الآى الكريمة وقد جوز عطفه على المستكن فى كان العائد الى الاخذ العاجل المفهوم من السياق تنزيلا للفصل بالخبر منزلة التأكيد أى لكان الاخذ العاجل وأجل مسمى لازمين لهم كداب عاد وثمود وأضرابهم ولم ينفرد الاجل المسمى دون الاخذ العاجل (فاصبر على ما يقولون) أى اذا كان الامر على ما ذكر من أن تأخير عذابهم ليس باهمال بل امهال وأنه لازم لهم البتة فاصبر على ما يقولون من كلمات الكفر فان عاقبته عليه السلام بانهم معذبون لا محالة مما يسليه ويحمله على الصبر (وسبح) ملتبسا (بحمد ربك) أى صل وأنت حامد لربك الذى يبلغك الى كمالك على هدايته وتوفيقه أو نزهه تعالى عما ينسبونه

اليه مما لا يليق بشأنه الرفيع حامدا له على ما ميزك بالهدى معترفا بأنه مولى النعم كلها والاول هو الاظهر المناسب لقوله تعالى (قبل طلوع الشمس) الخ فان توقيت التنزيه غير معهود ﴿ ١٢٠ ﴾ فالمراد صلاة الفجر (وقبل غروبها) يعني

أن يكون ذلك قول بعضهم انه ساحر أو مجنون أو شاعر الى غير ذلك ويحتمل أن يكون المراد تكذيبهم له فيما يدعيه من النبوة ويحتمل أيضا تركهم القبول منه لان كل ذلك مما يغمه ويؤذيه فرغبه تعالى في الصبر وبعثه على الادامة على الدعاء الى الله تعالى وابلاغ ما حمل من الرسالة وأن لا يكون ما يقدمون عليه صارفا له عن ذلك ثم قال الكلبي ومقاتل هذه الآية منسوخة بآية القتال ثم قال فسبح بحمد ربك وهو نظير قوله واستعينوا بالصبر والصلاة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) بحمد ربك في موضع الحال أي وأنت حامد لربك على ان وفقك للتسبيح وأعانك عليه (المسئلة الثانية) انما أمر عقيب الصبر بالتسبيح لان ذكر الله تعالى يفيد السلوة والراحة اذ لا راحة للمؤمنين دون لقاء الله تعالى (المسئلة الثالثة) اختلفوا في التسبيح على وجهين فالاكثرون على أن المراد منه الصلاة وهؤلاء اختلفوا على ثلاثة أوجه (أحدها) ان الآية تدل على ان الصلوات الخمس لا زيد ولا أنقص فقال ابن عباس رضي الله عنهما دخلت الصلوات الخمس فيه فقبل طلوع الشمس هو صلاة الفجر وقبل غروبها هو الظهر والعصر لانهما جميعا قبل الغروب ومن آناء الليل فسبح المغرب والعشاء الاخيرة ويكون قوله وأطراف النهار كالتوكيد للصلاتين الواقعتين في طرفي النهار وهما صلاة الفجر وصلاة المغرب كما اختصت في قوله والصلاة الوسطى بالتوكيد (القول الثاني) ان الآية تدل على صلوات الخمس وزيادة أما دلالتها على الصلوات الخمس فلان الزمان اما أن يكون قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها فالليل والنهار داخلان في هاتين العبارتين فأوقات الصلوات الواجبة دخلت فيهما بقي قوله ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى وأطراف النهار للنوافل (القول الثالث) انها تدل على أقل من الخمس فقوله قبل طلوع الشمس للفجر وقبل غروبها للعصر ومن آناء الليل للمغرب والعتمة فيبقى الظهر خارجا والقول الاول أقوى وبالاعتبار أولى هذا كله اذا حملنا التسبيح على الصلاة قال أبو مسلم لا يبعد حمله على التنزيه والاجلال والمعنى اشتغل بتنزيه الله تعالى في هذه الاوقات وهذا القول أقرب الى الظاهر والى ما تقدم ذكره وذلك لانه تعالى صبره أولا على ما يقولون من تكذيبه ومن اظهار الشرك والكفر والذي يليق بذلك ان يأمر بتنزيهه تعالى عن قولهم حتى يكون دائما مظهرا لذلك وداعيا اليه فلذلك قال ما يجمع كل الاوقات (المسئلة الرابعة) أفضل الذكر ما كان بالليل لان الجمعية فيه أكثر وذلك لسكون الناس وهدء حركاتهم وتعطيل الحواس عن الحركات وعن الاعمال ولذلك قال سبحانه وتعالى ان ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا وقال أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ولان الليل وقت السكون والراحة فاذا صرف الى العبادة كانت على الانفس أشق والبدن اتعب فكانت ادخل في استحقاق الاجر والفضل (المسئلة الخامسة) لقائل أن يقول النهار له طرفان فكيف قال وأطراف النهار بل الاولى أن يقول كما قال وأقم الصلاة طرفي النهار وجوابه من الناس من قال أقل الجمع

صلاتي الظهر والعصر لانهما قبل غروبها بعد زوالها وجمعهما لمناسبة قوله تعالى قبل طلوع الشمس وقبل صلاة العصر (ومن آناء الليل) أي من ساعاته جمع انى بالكسر والقصر وأناء بالفتح والمد (فسبح) أي فصل والمراد به المغرب والعشاء وتقديم الوقت فيهما لاختصاصهما بمزيد الفضل فان القلب فيهما أجمع والنفس الى الاستراحة أميل فتكون العبادة فيهما أشق ولذلك قال تعالى ان ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا (وأطراف النهار) تكرير لصلاة الفجر والمغرب ايذانا باختصاصهما بمزيد مزية ومجيئه بلفظ الجمع لامن الالباس كقول من قال * ظهرا هما مثل ظهور الترسين * أو أمر بصلاة الظهر فانه نهاية النصف الاول من النهار وبداية النصف الاخير وجمعه باعتبار النصفين أو لان النهار جنس أو أمر بالتطوع في أجزاء النهار (لعلك ترضى) متعلق بسبح أي سبح في هذه الاوقات رجاء ﴿ اثنان ﴾ أن تنال عنده تعالى ما ترضى به نفسك وقرئ ترضى على صيغة البناء للمفعول من أرضى أي يرضيك ربك

(ولاتمدن عينيك) أى لاتطل نظر هما بطريق الرغبة والميل (الى مامتعنا به) من زخارف الدنيا وقوله تعالى (ازواجا منهم) اى أصنافا من الكفرة مفعول متعنا قدم عليه الجار ﴿ ١٢١ ﴾ والمجرور للاعتناء به أو هو حال من الضمير والمفعول

منهم أى الى الذى متعنا به وهو أصناف وأنواع بعضهم على أنه معنى من التبعيضية أو بعضا منهم على حذف الموصوف كما مر مرارا (زهرة الحيوة الدنيا) منصوب بمحذوف يدل عليه متعنا اى اعطينا أو به على تضمين معناه أو بالبدلية من محل به أو من أزواجا بتقدير مضاف او بدونه او بالذم وهى الزينة والبهجة وقرئ زهرة بفتح الهاء وهى لغة كالجهرة فى الجهرة اوجمع زاهر وصف لهم بأنهم زاهرو الدنيا لتنعمهم و بهاء زيهم بخلاف ماعليه المؤمنون الزهاد (لنفتنهم فيه) متعلق بمتعنا جئ به للتنفير عنه ببيان سوء عاقبته ما لاظهار بهجته حالا أى لنعاملهم معاملة من يبتليهم ويختبرهم فيه أو لنعذبهم فى الآخرة بسببه (ورزق ربك) أى ما ادخر لك فى الآخرة اوما رزقك فى الدنيا من النبوة والهدى (خير) مما منحهم فى الدنيا لانه مع كونه فى نفسه اجل ﴿ ١٦ ﴾ س مايتنافس فيه المتنافسون مأمون الغائلة بخلاف مامنحوه (وأبقى) فانه لايكاد ينقطع نفسه أوأثره أبدا كما عليه زهرة الدنيا (وأمر أهلك بالصلوة) أمر عليه السلام بأن يأمر أهل بيته أوالتابعين له من امته بالصلاة بعد ما أمر هو بها ليتعاونوا على الاستعانة على خصاصتهم ولايهتموا بأمر

اثنان فسقط السؤال ومنهم من قال انما جمع لانه يتكرر فى كل نهار ويعود أما قوله تعالى لعلك ترضى ففيه وجوه (أحدها) أن هذا كما يقول الملك الكبير لفلان اشتغل بالخدمة فلعلك تنتفع به و يكون المراد انى أوصلك الى درجة عالية فى النعمة وهو اشارة الى قوله ولسوف يعطيك ربك فترضى وقوله عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا (وثانيها) لعلك ترضى ماتنال من الثواب (وثالثها) لعلك ترضى ماتنال من الشفاعة و قرأ الكسائى وعاصم لعلك ترضى بضم التاء والمعنى لايختلف لان الله تعالى اذا أرضاه فقد رضيه واذا رضيه فقد أرضاه ﴿ قوله تعالى (ولاتمدن عينيك الى مامتعنا به ازواجا منهم زهرة الحيوة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لانسئلك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة مافى الصحف الاولى ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل ان نذل ونخزى قل كل متربص فتربصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى) اعلم انه تعالى لما صبر رسوله عليه السلام على مايقولون وأمره بان يعدل الى التسبيح أتبع ذلك بنهيه عن مد عينيه الى مامتع به القوم فقال تعالى ولاتمدن عينيك وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى قوله ولاتمدن عينيك وجهان (أحدهما) المراد منه نظر العين وهؤلاء قالوا مد النظر تطويله وأن لايكاد يرده استحسانا للمنظور اليه واعجابا به كما فعل نظارة قارون حيث قالوا ياليت لنا مثل ماأوتى قارون انه لذو حظ عظيم حتى واجههم أولوا العلم والايمان بقولهم و يلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا وفيه أن النظر غير الممدود معفو عنه وذلك كما اذا نظر الانسان الى شئ مرة ثم غض ولما كان النظر الى الزخارف كالمركوز فى الطباع قال ولاتمدن عينيك أى لاتفعل ماأنت معتاده ولقد شدد المتقون فى وجوب غض البصر عن ابنية الظلمة وعدد الفسقة فى اللباس والمركوب وغير ذلك لانهم اتخذوا هذه الاشياء لعيون النظارة فالناظر اليها محصل لغرضهم وكالمقوى لهم على اتخاذها (القول الثانى) قال أبو مسلم الذى نهى عنه بقوله ولاتمدن عينيك ليس هو النظر بل هو الاسف أى لاتأسف على مافاتك مما نالوه من حظ الدنيا (المسئلة الثانية) قال أبو رافع نزل ضيف بالنبى صلى الله عليه وسلم فبعثنى الى يهودى لبيع أو سلف فقال والله لاأفعل ذلك الا برهن فأخبرته بقوله فامرنى ان أذهب بدرعه اليه فنزل قوله تعالى ولاتمدن عينيك وقال عليه السلام ان الله لاينظر الى صوركم ولاالى أموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم والى اعمالكم وقال أبو الدرداء الدنيا دار من لادار له ومال من لامال له ولها يجمع من لاعقل له وعن الحسن لولا حمق الناس لخربت الدنيا وعن عيسى ابن مريم عليه السلام قال لاتتخذوا الدنيا ربا فتتخذكم لها عبيدا وعن عروة بن الزبير انه كان اذا رأى ماعند السلاطين يتلو هذه الآية وقال الصلاة يرحمكم الله أما قوله عز وجل الى مامتعنا به اى ألذذنا به والامتاع

المعيشة ولا يلتفتوا لفت ارباب الثروة (واصطبر عليها) وثابر عليها غير مشتغل بامر المعاش (لانسالك رزقا) أى لا نكلفك أن ترزق نفسك ولا أهلك (نحن نرزقك) واياهم فتفرغ ﴿ ١٢٢ ﴾ بالك بأمر الآخرة (والعاقبة) الحميدة (للتقوى)

أى لاهل التقوى على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه تنبيها على أن ملاك الامر هو التقوى روى انه عليه السلام كان اذا أصاب أهله ضر أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية (وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه) حكاية لبعض اقاويلهم الباطلة التى أمر عليه السلام بالصبر عليها أى هلا يأتينا بآية تدل على صدقه فى دعوى النبوة أو بآية مما اقترحوها بلغوا من المكابرة والعناد الى حيث لم يعدوا ما شاهدوا من المعجزات التى تخر لها صم الجبال من قبيل الآيات حتى اجترؤا على التفوه بهذه العظيمة الشنعاء

(وقوله تعالى (أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الاولى) أى التوراة والانجيل وسائر الكتب السماوية رد من جهته عز وعلا لمقالتهم القبيحة وتكذيب لهم فيما دسوا تحتها من انكار اتيان الآية باتيان القرآن الكريم الذى هو أم الآيات وأس المعجزات واعظمها وأبقاها لان حقيقة المعجزة اختصاص مدعى النبوة بنوع من الامور الخارقة للعادات أى ﴿ منه ﴾

الالذاذ بما يدرك من المناظر الحسنة و يسمع من الاصوات المطربة و يشم من الروائح الطيبة وغير ذلك من الملابس والمناكح يقال أمتعه امتاعا ومتعه تمتيعا والتفعيل يقتضى التكثير أما قوله أزواجا منهم أى أشكالا وأشباها من الكفار وهى من المزاوجة بين الاشياء وهى المشاكلة وذلك لانهم أشكال فى الذهاب عن الصواب وقال ابن عباس رضى الله عنهما أصنافا منهم وقال الكلبى والزجاج رجالا منهم ﴿ أما قوله زهرة الحياة الدنيا ففى انتصابه أربعة أوجه (أحدها) على الذم وهو النصب على الاختصاص أو على تضمين متعنا معنى أعطينا وكونه مفعولا ثانيا له أو على ابداله من محل الجار والمجرور أو على ابداله من أزواجا على تقدير ذوى فان قيل ما معنى الزهرة فعين حركة قلنا معنى الزهرة بعينه وهو الزينة والبهجة كما جاء فى الجهرة قرئ أرنا الله جهرة وأن يكون جمع زاهر وصفها لهم بانهم زهرة هذه الدنيا اصفاء ألوانهم وتهلل وجوههم بخلاف ما عليه الصلحاء من شحوب الالوان والتقشف فى الثياب أما قوله لنفتنهم فيه فذكروا فيه وجوها (أحدها) لنعذبهم به كقوله فلا تعجبك أموالهم وأولادهم انما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا (وثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما اضلالا منى لهم (وثالثها) قال الكلبى ومقاتل تشديدا فى التكليف عليهم لان الاعراض عن الدنيا عند حضورها والاقبال الى الله أشد من ذلك عند عدم حضورها ولذلك كان رجوع الفقراء الى خدمة الله تعالى والتضرع اليه أكثر من تضرع الاغنياء ولان على من أوتى الدنيا ضررا بالغا من التكاليف لولاها لما لزمتهم تلك التكاليف ولان القادر على المعاصى يكون الاجتناب عن المعاصى أشق عليه من العاجز الفقير فمن هذه الجهات تكون الزيادة فى الدنيا تشديدا فى التكليف ثم قال لرسوله ورزق ربك خير وأبقى والاظهر أن المراد أن مطلوبك الذى تجده من الثواب خير من مطلوبهم وأبقى لانه يدوم ولا ينقطع وليس كذلك حال ما أوتوه من الدنيا ويحتمل أن يكون المراد ما أوتيه من يسير الدنيا اذا قرنته باطاعة خير لك من حيث العاقبة وأبقى فذكر الرزق فى الدنيا ووصفه بحسن عاقبته اذا رضى به وصبر عليه ويحتمل ان يكون المراد ما اعطى من النبوة والدرجات الرفيعة وأما قوله وأمر أهلك بالصلاة فمنهم من حمله على اقاربه ومنهم من حمله على كل اهل دينه وهذا أقرب وهو كقوله وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وان احتمل ان يكون المراد من يضمه المسكن اذ التنبيه على الصلاة والامر بها فى اوقاتها ممكن فيهم دون سائر الامة يعنى كما أمرناك بالصلاة فأمر أنت قومك بها أما قوله واصطبر عليها فالمراد كما تأمرهم فحافظ عليها فعلا فان الوعظ بلسان الفعل أتم منه بلسان القول وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية يذهب الى فاطمة وعلى عليهما السلام كل صباح و يقول الصلاة وكان يفعل ذلك أشهرا ثم بين تعالى انه انما يأمرهم بذلك لمنافعهم وانه متعال عن المنافع بقوله لا نسئلك رزقا نحن نرزقك وفيه وجوه (احدها) قال ابو مسلم المعنى انه تعالى انما يريد منه ومنهم العبادة ولا يريد

أمر كان ولا ريب فى أن العلم أجل الامور وأعلاها اذ هو أصل الاعمال ومبدأ الافعال ولقد ظهر مع حيازته لجميع علوم الاولين والآخرين على يد أمى لم يمارس شيئا من العلوم ولم يدارس

أحدا من أهلها أصلا فأى معجزة تراد بعد وروده وأى آية ترام مع وجوده وفى ايراده بعنوان كونه بينة لما فى الصحف الاولى من التوراة والانجيل وسائر الكتب السماوية أى شاهدا بحقية ما فيها من العقائد الحقة وأصول الاحكام التى أجمعت عليها كافة الرسل و بصحة ما تنطق به من أنباء الامم من حيث انه غنى باعجازه عما يشهد بحقيته حقيق باثبات حقية غيره ما لا يخفى من تنويه شأنه وانارة برهانه ومزيد تقريره وتحقيق لاتيانه واسناد الاتيان اليه مع جعلهم اياه ماتيا به للتنبيه على اصالته فيه مع ما فيه من المناسبة البينة والهمزة لانكار الوقوع والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام كانه قيل ألم يأتهم خاصة بينة ما فى الصحف الاولى تقرير لاتيانه وايذانا بأنه من الوضوح بحيث لا يتأتى منهم انكاره أصلا وان اجترؤا على انكار سائر الآيات مكابرة وعنادا وقرئ أولم يأتهم بالياء التحتانية وقرئ الصحف بالسكون تخفيفا وقوله تعالى (ولو أنا اهلكناهم بعذاب) الى آخر الآية جملة مستأنفة سيقت لتقرير ما قبلها من كون القرآن آية بينة لا يمكن انكارها ببيان انهم يعترفون بها يوم القيامة والمعنى لو أنا أهلكناهم فى الدنيا بعذاب مستأصل (من قبله) متعلق بأهلكناهم أو بمحذوف هو صفة لعذاب اى بعذاب كائن من قبل اتيان البينة أو من قبل محمد عليه الصلاة والسلام (لقالوا) أى يوم القيامة (ربنا لولا أرسلت الينا) فى الدنيا (رسولا) مع كتاب

منه ان يرزقه كما يريد السادة من العبيد الخراج وهو كقوله تعالى وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون (وثانيها) لا نسألك رزقا لنفسك ولا لأهلك بل نحن نرزقك ونرزق أهلك ففرغ بالك لامر الآخرة وفى معناه قول الناس من كان فى عمل الله كان الله فى عمله (وثالثها) المعنى انا انما امرناك بالصلاة فليس ذلك لانا ننتفع بصلاتك فعبر عن هذا المعنى بقوله لا نسألك رزقا بل نحن نرزقك فى الدنيا بوجوه النعم وفى الآخرة بالثواب قال عبد الله بن سلام كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا نزل باهله ضيق أو شدة أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية واعلم أنه ليس فى الآية رخصة فى ترك التكسب لانه تعالى قال فى وصف المتقين رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله أما قوله والعاقبة للتقوى فالمراد والعاقبة الجميلة لاهل التقوى يعنى تقوى الله تعالى ثم انه سبحانه بعد هذه الوصية حكى عنهم شبهتهم فكانه من تمام قوله فاصبر على ما يقولون وهى قولهم لولا يأتينا بآية من ربه أوهموا بهذا الكلام انه يكلفهم الايمان من غير آية وقالوا فى موضع آخر فليأتنا بآية كما أرسل الاولون وأجاب الله تعالى عنه بقوله أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الاولى وفيه وجوه (أحدها) ان ما فى القرآن اذا وافق ما فى كتبهم مع ان الرسول صلى الله وسلم لم يشتغل بالدراسة والتعلم وما رأى استاذا البتة كان ذلك اخبارا عن الغيب فيكون معجزا (وثانيها) ان بينة ما فى الصحف الاولى ما فيها من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم و بنبوته و بعثته (وثالثها) ذكر ابن جرير والقفال والمعنى أولم تأتهم بينة ما فى الصحف الاولى من أنباء الامم التى أهلكناهم لما سألوا الآيات وكفروا بها كيف عاجلناهم بالعقوبة فاذا يؤمنهم أن يكون حالهم فى سؤال الآيات كحال أولئك وانما آتاهم هذا البيان فى القرآن فلهذا وصف القرآن بكونه بينة ما فى الصحف الاولى واعلم انه انما ذكر الضمير الراجع الى البينة لانها فى معنى البرهان والدليل ثم بين انه تعالى أزاح لهم كل عذر وعلة فى التكليف فقال ولو أنا اهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا والمراد كان لهم أن يقولوا ذلك فيكون عذرا لهم فأما الآن وقد أرسلناك و بينا على لسانك لهم ما عليهم وما لهم فلا حجة لهم البتة بل الحجة عليهم ومعنى من قبله يحتمل من قبل ارساله و يحتمل من قبل ما أظهره من البينات فان قيل فما معنى قوله ولو أنا أهلكناهم لقالوا والهالك لا يصح أن يقول قلنا المعنى لكان لهم أن يقولوا ذلك يوم القيامة ولذلك قال من قبل أن نذل ونخزى وذلك لا يليق الا بعذاب الآخرة روى ان أبا سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال عليه السلام يحتج على الله تعالى يوم القيامة ثلاثة الهالك فى الفترة يقول لم يأتنى رسول والا كنت أطوع خلقك لك وتلا قوله لولا أرسلت الينا رسولا والمغلوب على عقله يقول لم تجعل لى عقلا انتفع به و يقول الصبى كنت صغيرا لا اعقل فترفع لهم نار و يقال لهم ادخلوها فيدخلها من كان فى علم الله تعالى أنه شقى و يبقى من فى علمه انه سعيد فيقول الله تعالى لهم عصيتم اليوم فكيف برسلى لو أتوكم والقاضى طعن

(فنتبع اياتك) التي جاءنا بها (من قبل أن نذل) بالعذاب في الدنيا (ونخزى) بدخول النار اليوم ولكنا لم نهلكهم قبل اتيانها فانقطعت معذرتهم فعند ذلك قالوا بلى قد جاءنا نذير ﴿ ١٢٤ ﴾ فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شئ (قل) لاولئك الكفرة المتمردين (كل) أي كل واحد منا ومنكم (متربص) منتظر لما يؤول اليه أمرنا وأمركم (فتربصوا) وقرئ فتمتعوا (فستعلمون) عن قريب (من أصحاب الصراط السوى) أي المستقيم قرئ السواء اى الوسط الجيد وقرئ السوء والسوءى والسوى تصغير السوء (ومن اهتدى) من الضلالة ومن في الموضعين استفهامية محلها الرفع بالابتداء خبرها ما بعدها والجملة سادة مسد مفعولى العلم او مفعوله و يجوز كون الثانية موصولة بخلاف الاولى لعدم العائد فتكون معطوفة على محل الجملة الاستفهامية المعلق عنها الفعل على أن العلم بمعنى المعرفة أو على أصحاب او على الصراط وقيل العائد في الاولى محذوف والتقدير من هم أصحاب الصراط عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة طه أعطى يوم القيامة ثواب المهاجرين والانصار وقال لا يقرأها أهل الجنة من القرآن الا سورة طه و يس * سورة الانبياء مكية وهي مائة واثنتا ﴿ وثالثها ﴾ عشرة آية * (بسم الله الرحمن الرحيم) * (اقترب للناس حسابهم) مناسبة هذه الفاتحة الكريمة لما قبلها من الخاتمة الشريفة غنية عن البيان قال ابن عباس رضي الله عنهما المراد

في الخبر وقال لا يحسن العقاب على من لا يعقل واعلم أن في هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الجبائي هذه الآية تدل على وجوب فعل الطف اذ المراد انه يجب أن يفعل بالمكلفين ما يؤمنون عنده ولو لم يفعل لكان لهم أن يقولوا هلا فعلت ذلك بنا لنؤمن وهلا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك وان كان في المعلوم أنهم لا يؤمنون ولو بعث اليهم الرسول لم يكن في ذلك حجة فصح انه انما يكون حجة لهم اذا كان في المعلوم انهم يؤمنون عنده اذا أطاعوه (المسئلة الثانية) قال الكعبي قوله لولا أرسلت الينا رسولا أوضح دليل على انه تعالى يقبل الاحتجاج من عباده وانه ليس قوله لا يسأل عما يفعل كما ظنه أهل الجبر من انا هو جور منا يكون عدلا منه بل نأويله انه لا يقبح منه الا العدل فاذا ثبت انه تعالى يقبل الحجة فلو لم يكونوا قادرين على ما أمروا به لكان لهم فيه أعظم حجة (المسئلة الثالثة) قال أصحابنا الآية تدل على أن الوجوب لا يتحقق الا بالشرع اذ لو تحقق العقاب قبل مجئ الشرع لكان العقاب حاصلا قبل مجئ الشرع والآية تنفي تحقق العقاب قبل مجئ الشرع ثم انه سبحانه ختم السورة بضرب من الوعيد فقال قل كل متربص أي كل منا ومنكم منتظر عاقبة أمره وهذا الانتظار يحتمل أن يكون قبل الموت اما بسبب الامر بالجهاد أو بسبب ظهور الدولة والقوة و يحتمل ان يكون بالموت فان كل واحد من الخصمين ينتظر موت صاحبه و يحتمل أن يكون بعد الموت وهو ظهور أمر الثواب والعقاب فانه يتبرز في الآخرة الحق من المبطل بما يظهر على المحق من أنواع كرامة الله تعالى وعلى المبطل من أنواع اهانته فستعلمون عند ذلك من أصحاب الصراط السوى ومن اهتدى اليه وليس هو بمعنى الشك والترديد بل هو على سبيل التهديد والزجر للكفار والله أعلم

(سورة الانبياء عليهم السلام مائة واثنتا عشرة آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا الا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون) اعلم أن قوله تعالى اقترب للناس حسابهم فيه مسائل (المسئلة الاولى) القرب لا يعقل الا في المكان والزمان والقرب المكاني ههنا ممتنع فتعين القرب الزماني والمعنى اقترب للناس وقت حسابهم (المسئلة الثانية) لقائل أن يقول كيف وصف بالاقتراب وقد عبر بعد هذا القول قريب من ستمائة عام الجواب من ثلاثة أوجه (أحدها) انه مقترب عند الله تعالى والدليل عليه قوله تعالى و يستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون (وثانيها) أن كل آت قريب وان طالت أوقات ترقبه وانما البعيد هو الذي انقرض قال الشاعر

فلا زال ما تهواه أقرب من غد * ولا زال ما تخشاه أبعد من أمس

بالناس المشركون وهو الذى يفصح عنه ما بعده والمراد باقتراب حسابهم اقترابه فى ضمن اقتراب الساعة واسناد الاقتراب
اليه لا الى الساعة مع استتباعها له ولسائر ما فيها من الاحوال والاهوال الفظيعة لانسياق الكلام الى
بيان غفلتهم عنه
واعراضهم عما يذكرهم
ذلك واللام متعلقة
بالفعل وتقديمها على
الفاعل للمسارعة الى
ادخال الروعة فان نسبة
الاقتراب اليهم من
أول الامر مما يسوءهم
ويورثهم رهبة وانزعاجا
من المقترب كما أن تقديم
الجار والمجرور على
المفعول الصريح فى
قوله تعالى هو الذى
خلق لكم ما فى الارض
لتعجيل المسرة لما أن
بيان كون الخلق لاجل
المخاطبين مما يسرهم
ويزيدهم رغبة فيما
خلق لهم وشوقا اليه
وجعلها تأكيدا للاضافة
على أن الاصل المتعارف
فيما بين الاوساط اقترب
حساب الناس ثم اقترب
للناس الحساب ثم اقترب
للناس حسابهم مع انه
تعسف تام بمعزل عما
يقتضيه المقام وانما الذى
يستدعيه حسن النظام
ما قدمناه والمعنى دنا
منهم حساب أعمالهم
السيئة الموجبة للعقاب
وفى اسناد الاقتراب

(وثالثها) ان المعاملة اذا كانت مؤجلة الى سنة ثم انقضى منها شهر فانه لا يقال اقترب الاجل اما اذا كان الماضى أكثر من الباقى فانه يقال اقترب الاجل فعلى هذا الوجه قال العلماء ان فيه دلالة على قرب القيامة ولهذا الوجه قال عليه السلام بعثت أنا والساعة كهاتين ولهذا الوجه قيل انه عليه السلام ختم به النبوة كل ذلك لاجل ان الباقى من مدة التكليف أقل من الماضى (المسئلة الثالثة) انما ذكر تعالى هذا الاقتراب لما فيه من المصلحة للمكلفين فيكون أقرب الى تلافى المذنوب والتحرز عنها خوفا من ذلك والله أعلم (المسئلة الرابعة) انما لم يعين الوقت لاجل أن كتمانه أصلح كما أن كتمان وقت الموت أصلح (المسئلة الخامسة) الفائدة فى تسمية يوم القيامة بيوم الحساب ان الحساب هو الكاشف عن حال المرء فالخوف من ذكره أعظم (المسئلة السادسة) يجب أن يكون المراد بالناس من له مدخل فى الحساب وهم المكلفون دون من لا مدخل له ثم قال ابن عباس المراد بالناس المشركون وهذا من اطلاق اسم الجنس على بعضه للدليل القائم وهو ما يتلوه من صفات المشركين أما قوله تعالى وهم فى غفلة معرضون فاعلم انه تعالى وصفهم بأمرين الغفلة والاعراض أما الغفلة فالمعنى انهم غافلون عن حسابهم ساهون لا يتفكرون فى عاقبتهم مع اقتضاء عقولهم أنه لا بد من جزاء المحسن والمسئ ثم اذا انتبهوا من سنة الغفلة ورقدة الجهالة مما يتلى عليهم من الآيات والنذر أعرضوا وسدوا أسماعهم أما قوله ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن أبى عبلة محدث بالرفع صفة للمحل (المسئلة الثانية) انما ذكر الله تعالى ذلك بيانا لكونهم معرضين وذلك لان الله تعالى يجدد لهم الذكر وقتا فوقتا ويظهر لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة ليكرر على اسماعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون فما يزيدهم ذلك الا لعبا واستخفارا (المسئلة الثالثة) المعتزلة احتجوا على حدوث القرآن بهذه الآية فقالوا القرآن ذكر والذكر محدث فالقرآن محدث بيان ان القرآن ذكر قوله تعالى فى صفة القرآن ان هو الا ذكر للعالمين وقوله وانه لذكر لك ولقومك وقوله ص والقرآن ذى الذكر وقوله انا نحن نزلنا الذكر وقوله ان هو الا ذكر وقرآن مبين وقوله وهذا ذكر مبارك أنزلناه وبيان ان الذكر محدث قوله فى هذا الموضع ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث وقوله فى سورة الشعراء ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث ثم قالوا فصار مجموع هاتين المقدمتين المنصوصتين كالنص فى ان القرآن محدث والجواب من وجهين (الاول) ان قوله ان هو الا ذكر للعالمين وقوله وهذا ذكر مبارك اشارة الى المركب من الحروف والاصوات فاذا ضممنا اليه قوله ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث لزم حدوث المركب من الحروف والاصوات وذلك مما لا نزاع فيه بل حدوثه معلوم بالضرورة وانما النزاع فى قدم كلام الله تعالى بمعنى آخر (الثانى) ان قوله ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث لا يدل على حدوث كل ما كان ذكرا بل على ذكر ما محدث كما ان قول القائل لا يدخل هذه البلد رجل فاضل الا

المنبئ عن التوجه نحوهم الى الحساب مع امكان العكس بأن يعتبر التوجه والاقبال من جهتهم نحوه من تفخيم شانه وتهويل أمره ما لا يخفى لما فيه من تصويره بصورة شئ مقبل عليهم لا يزال يطلبهم ويصيبهم لا محالة ومعنى اقترابه لهم تقاربه ودنوه منهم بعد بعده عنهم فانه فى كل ساعة من ساعات الزمان أقرب اليهم منه فى الساعة السابقة هذا

وأما الاعتذار بان قربه بالاضافة الى ماضى الزمان أو بالنسبة الى الله عز وجل او باعتبار أن كل آت قريب فلا تعلق له بما نحن فيه من الاقتراب المستفاد من صيغة الماضى ولا حاجة اليه فى تحقيق أصل معناه نعم قد يفهم منه عرفا كونه قريبا فى نفسه أيضا فيصار حينئذ الى التوجيه بالوجه الاول دون الاخيرين أما الثانى فلا سبيل الى اعتباره ههنا لان قربه بالنسبة اليه تعالى مما لا يتصور فيه التجدد والتفاوت حتما وانما اعتباره فى قوله تعالى لعل الساعة قريب ونظائره مما لا دلالة فيه على الحدوث وأما الثالث فلا دلالة فيه على القرب حقيقة ولو بالنسبة الى شئ آخر (وهم فى غفلة) أى فى غفلة تامة منه ساهون عنه بالمرة لا انهم غير مبالين به مع اعترافهم بإتيانه بل منكرون له كافرون به مع اقتضاء عقولهم أن الاعمال لابد لها من الجزاء (معرضون) أى عن الآيات والنذر المنبهة لهم عن سنة الغفلة وهما خبران للضمير وحيث كانت الغفلة أمرا جبليا لهم جعل الخبر الاول ظرفا منبئا عن الاستقرار بخلاف الاعراض والجملة حال من الناس وقد جوز كون الظرف حالا من المستكن فى معرضون (ما يأتيهم من ذكر) من طائفة نازلة ﴿ عليه ﴾ من القرآن تذكرهم ذلك اى كل تذكير وتنبيههم عن الغفلة أتم تنبيه كانها نفس الذكر ومن فى قوله تعالى (من ربهم) لابتداء الغاية مجازا متعلقة بيأتيهم أو بمحذوف هو صفة لذكر وأيا ما كان ففيه دلالة على فضله وشرفه وكمال شناعة ما فعلوا به

يبغضونه فانه لا يدل على ان كل رجل يجب أن يكون فاضلا بل على ان فى الرجال من هو فاضل واذا كان كذلك فالآية لا تدل الا على ان بعض الذكر محدث فيصير نظم الكلام هكذا القرآن ذكر وبعض الذكر محدث وهذا لا ينتج شيئا كما ان قول القائل الانسان حيوان وبعض الحيوان فرس لا ينتج شيئا فظهر ان الذى ظنوه قاطعا لا يفيد ظنا ضعيفا فضلا عن القطع أما قوله الا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ان ذلك ذم للكفار وزجر لغيرهم عن مثله لان الانتفاع بما يسمع لا يكون الا بما يرجع الى القلب من تدبر وتفكر واذا كانوا عند استماعه لاعبين حصلوا على مجرد الاستماع الذى قد تشارك البهيمة فيه الانسان ثم أكد تعالى ذمهم بقوله لاهية قلوبهم واللاهية من لهى عنه اذا ذهل وغفل وانما ذكر اللعب مقدما على اللهو كما فى قوله تعالى انما الحياة الدنيا لعب ولهو تنبيها على ان اشتغالهم باللعب الذى معناه السخرية والاستهزاء معلل باللهو الذى معناه الذهول والغفلة فانهم أقدموا على اللعب للهوهم وذهولهم عن الحق والله أعلم بالصواب (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف وهم يلعبون لاهية قلوبهم حالان مترادفان أو متداخلان ومن قرأ لاهية بالرفع فالحال واحدة لان لاهية قلوبهم خبر بعد خبر لقوله وهم أما قوله وأسروا النجوى الذين ظلموا ففيه سؤالان (الاول) النجوى وهى اسم من التناجى لا تكون الا خفية فما معنى قوله وأسروا النجوى (الجواب) معناه بالغوا فى اخفائها وجعلوها بحيث لا يفطن أحد لتناجيهم (السؤال الثانى) لم قال وأسروا النجوى الذين ظلموا (الجواب) أبدل الذين ظلموا من أسروا اشعارا بانهم هم الموسومون بالظلم الفاحش فيما اسروا به أو جاء على لغة من قال أكلونى البراغيث او هو منصوب المحل على الذم أو هو مبتدأ خبره أسروا النجوى قدم عليه والمعنى وهؤلاء اسروا النجوى فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا على فعلهم بانه ظلم أما قوله هل هذا الا بشر مثلكم افتأتون السحر وأنتم تبصرون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف هذا الكلام كله فى محل النصب بدلا من النجوى أى وأسروا هذا الحديث ويحتمل أن يكون التقدير وأسروا النجوى وقالوا هذا الكلام (المسئلة الثانية) انما أسروا هذا الحديث لوجهين (أحدهما) انه كان شبهة التشاور فيما بينهم والتحاور فى طلب الطريق الى هدم أمره وعادة المتشاورين أن يجتهدوا فى كتمان سرهم عن أعدائهم (الثانى) يجوز ان يسروا نجواهم بذلك ثم يقولوا لرسول الله والمؤمنين ان كان ما تدعونه حقا فاخبرونا بما أسررناه (المسئلة الثالثة) انهم طعنوا فى نبوته بأمرين (أحدهما) انه بشر مثلهم (والثانى) ان الذى أتى به سحر وكلا الطعنين فاسد (اما الاول) فلان النبوة تقف صحتها على المعجزات والدلائل لا على الصور اذ لو بعث الملك اليهم لما علم كونه نبيا لصورته وانما كان يعلم بالعلم فاذا ظهر ذلك على من هو بشر فيجب ان يكون نبيا بل الاولى أن يكون المبعوث الى البشر بشرا لان المرء الى القبول من اشكاله اقرب وهو به آنس (واما الثانى) وهو ان ما اتى به الرسول

والتعرض لعنوان الربوبية لتشديد التشنيع (محدث) بالجر صفة لذكر وقرئ بالرفع حملا على محله أى محدث تنزيله بحسب اقتضاء الحكمة وقوله تعالى (الا استمعوه) ﴿ ١٢٧ ﴾ استثناء مفرغ محله النصب على انه حال من مفعول

عليه السلام سحروا نهم يرون كونه سحرا فجهل ايضا لان كل ما اتى به الرسول من القرآن وغيره ظاهر الحال لا تمويه فيه لا تلبيس فيه فقد كان عليه السلام يتحداهم بالقرآن حالا بعد حال مدة من الزمان وهم ارباب الفصاحة والبلاغة وكانوا فى نهاية الحرص على ابطال امره وأقوى الامور فى ابطال امره معارضة القرآن فلو قدروا على المعارضة لامتنع ان لا يأتوا بها لان الفعل عند توفر الدواعى وارتفاع الصارف واجب الوقوع فلما لم يأتوا بها دل ذلك على انه فى نفسه معجزة وانهم عرفوا حاله فكيف يجوز ان يقال انه سحر والحال على ما ذكرناه وكل ذلك يدل على انهم كانوا عالمين بصدقه الا انهم كانوا يموهون على ضعفائهم بمثل هذا القول وان كانوا فيه مكابرين * قوله تعالى (قال ربى يعلم القول فى السماء والارض وهو السميع العليم بل قالوا اضغاث احلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الاولون ما آمنت قبلهم من قرية اهلكناها أفهم يؤمنون) اما قوله قال ربى يعلم القول فى السماء والارض وهو السميع العليم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ قال ربى حكاية لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى قراءة حمزة والكسائى وحفص عن عاصم وقرأ الباقون قل بضم القاف وحذف الالف وسكون اللام (المسئلة الثانية) انه تعالى لما اورد هذا الكلام عقيب ما حكى عنهم وجب أن يكون كالجواب لما قالوه فكانه قال انكم وان أخفيتم قولكم وطعنكم فان ربى عالم بذلك وانه من وراء عقوبته فتوعدوا بذلك لكى لا يعودوا الى مثله (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف فان قلت فهلا قيل يعلم السر لقوله وأسروا النجوى قلت القول عام يشمل السر والجهر فكان فى العلم به العلم بالسر وزيادة فكان آكد فى بيان الاطلاع على نجواهم من أن يقول يعلم السر كما ان قوله تعالى يعلم السر آكد من أن يقول يعلم سرهم فان قلت فلم ترك الأكد فى سورة الفرقان فى قوله قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض قلت ليس بواجب أن يجئ بالآكد فى قوله فى كل موضع ولكن يجئ بالتوكيد مرة وبالآكد مرة أخرى ثم الفرق انه قدم ههنا انهم اسروا النجوى فكانه أراد أن يقول ان ربى يعلم ما أسروه فوضع القول موضع ذلك للمبالغة وثمة قصد وصف ذاته بان قال أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض فهو كقوله علام الغيوب عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة (المسئلة الرابعة) انما قدم السميع على العليم لانه لا بد من سماع الكلام أولا ثم من حصول العلم بمعناه أما قوله بل قالوا اضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الاولون فاعلم انه تعالى عاد الى حكاية قولهم المتصل بقوله هل هذا الا بشر مثلكم أفتأتون السحر ثم قال بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فحكى عنهم ثم هذه الاقوال الخمسة فترتيب كلامهم كانهم قالوا ندعى ان كونه بشرا مانع من كونه رسولا لله تعالى سلمنا انه غير مانع ولكن لا نسلم ان هذا القرآن معجز ثم اما ان يساعد على ان فصاحة القرآن خارجة عن مقدور البشر فلم لا يجوز أن يكون ذلك سحرا وان لم يساعد عليه فان ادعينا كونه فى نهاية الركاكة قلنا انه

يأتيهم باضمار قد أو بدونه على) الخلاف المشهور وقوله تعالى (وهم يلعبون) حال من فاعل استمعوه وقوله تعالى (لاهية قلوبهم) اما حال أخرى منه أو من واو يلعبون والمعنى ما يأتيهم ذكر من ربهم محدث فى حال من الاحوال الا حال استماعهم اياه لاعبين مستهزئين به لاهين عنه او لاعبين به حال كون قلوبهم لاهية عنه لتناهى غفلتهم وفرط اعراضهم عن النظر فى الامور والتفكر فى العواقب وقرئ لاهية بالرفع على انه خبر بعد خبر (وأسروا النجوى) كلام مستأنف مسوق لبيان جناية خاصة اثر حكاية جناياتهم المعتادة والنجوى اسم من التناجى ومعنى اسرارها مع أنها لا تكون الا سرا أنهم بالغوا فى اخفائها واسروا وانفس التناجى بحيث لم يشعر أحد بانهم متناجون وقوله تعالى (الذين ظلموا) بدل من واو أسروا منبئ عن كونهم موصوفين بالظلم الفاحش فيما اسروا به أو هو مبتدأ خبره أسروا النجوى قدم عليه اهتماما به والمعنى هم أسروا النجوى فوضع الموصول موضع الضمير تسجيلا على فعلهم بكونه ظلما أو منصوب على الذم وقوله تعالى (هل هذا الا بشر مثلكم) الخ فى حيز النصب على انه مفعول لقول مضمر هو جواب عن سؤال نشأ مما قبله

كانه قيل ماذا قالوا فى نجواهم فقيل قالوا هل هذا الخ او بدل من أسروا أو معطوف عليه او على أنه بدل من النجوى اى اسروا هذا الحديث وهل بمعنى النفى والهمزة فى ﴿ ١٢٨ ﴾ قوله تعالى (افتأتون السحر) للانكار والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى (وانتم تبصرون) حال من فاعل تأتون مقررة للانكار ومؤكدة للاستبعاد والمعنى ماهذا الا بشر مثلكم أى من جنسكم وما أتى به سحر أتعلمون ذلك فتأتونه وتحضرونه على وجه الاذعان والقبول وأنتم تعاينون انه سحر قالوه بناء على ما ارتكز فى اعتقادهم الزائغ أن الرسول لا يكون الا ملكا وأن كل ما يظهره على يد البشر من الخوارق من قبيل السحر وزل عنهم أن ارسال البشر الى عامة البشر هو الذى تقتضيه الحكمة التشريعية . قاتلهم الله أنى يؤفكون وانما أسروا ذلك لانه كان على طريق توثيق العهد وترتيب مبادى الشر والفساد وتمهيد مقدمات المكر والكيد فى هدم أمر النبوة واطفاء نور الدين والله متم نوره ولو كره الكافرون (قال ربى يعلم القول فى السماء والارض) حكاية من جهته تعالى لما قاله عليه السلام بعد ما أوحى اليه احوالهم وأقوالهم بيانا لظهور أمرهم وانكشاف سرهم وايثار القول المنتظم ﴿ عادة ﴾ للسر والجهر على السر لاثبات علمه تعالى بالسر على النهج البرهانى مع ما فيه من الايذان بأن علمه تعالى بالسر والجهر على وتيرة واحدة لا تفاوت بينهما بالجلاء والخفاء قطعا كما فى علوم الخلق

أضغاث أحلام وان ادعينا انه متوسط بين الركاكة والفصاحة قلنا انه افتراه وان ادعينا انه كلام فصيح قلنا انه من جنس فصاحة سائر الشعراء وعلى جميع هذه التقديرات فانه لا يثبت كونه معجزا ولما فرغوا من تعديد هذه الاحتمالات قالوا فليأتنا بآية كما أرسل الاولون فالمراد أنهم طلبوا آية جلية لا يتطرق اليها شئ من هذه الاحتمالات كالآيات المنقولة عن موسى وعيسى عليهما السلام ثم ان الله تعالى بدأ بالجواب عن هذا السؤال الاخير بقوله ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون والمعنى انهم فى العتو أشد من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات وعهدوا انهم يؤمنون عندها فلما جاءتهم نكثوا وخالفوا فاهلكهم الله فلو أعطيناهم ما يقترحون لكانوا أشد نكثا قال الحسن رحمه الله تعالى انهم لم يجابوا الا ان حكم الله تعالى ان من كذب بعد الاجابة الى ما اقترحه من الآيات فلا بد من أن ينزل به عذاب الاستئصال وقد مضى حكمه فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة بخلافه فلذلك لم يجبهم * قوله تعالى (وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم فاسئلوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء وأهلكنا المسرفين لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون) اعلم انه تعالى اجاب عن سؤالهم الاول وهو قولهم ما هذا الا بشر مثلكم بقوله وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم فبين ان هذه عادة الله تعالى فى الرسل من قبل محمد صلى الله عليه وسلم ولم يمنع ذلك من كونهم رسلا للآيات التى ظهرت عليهم فاذا صح ذلك فيهم فقد ظهر على محمد مثل آياتهم فلا مقال عليه فى كونه بشرا فأما قوله تعالى فاسئلوا أهل الذكر فالمعنى انه تعالى أمرهم أن يسئلوا أهل الذكر وهم أهل الكتاب حتى يعلموهم ان رسل الله الموحى اليهم كانوا بشرا ولم يكونوا ملائكة وانما أحالهم على هؤلاء لانهم كانوا يتابعون المشركين فى معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعالى ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا فان قيل اذا لم يوثق باليهود والنصارى فكيف يجوز أن يأمرهم بان يسألوهم عن الرسل قلنا اذا تواتر خبرهم وبلغ حد الضرورة جاز ذلك كما قد يعمل بخبر الكفار اذا تواتر مثل ما يعمل بخبر المؤمنين ومن الناس من قال المراد بأهل الذكر أهل القرآن وهو بعيد لانهم كانوا طاعنين فى القرآن وفى الرسول الله صلى الله عليه وسلم فاما تعلق كثير من الفقهاء بهذه الآية فى ان للعامى أن يرجع الى فتيا العلماء وفى ان للمجتهد ان يأخذ بقول مجتهد آخر فبعيد لان هذه الآية خطاب مشافهة وهى واردة فى هذه الواقعة المخصوصة ومتعلقة باليهود والنصارى على التعيين ثم بين تعالى انه لم يجعل الرسل قبله جسدا لا يأكلون الطعام وفيه ابحاث (الاول) قوله لا يأكلون الطعام صفة جسد والمعنى وما جعلنا الانبياء ذوى جسد غير طاعمين (الثانى) وحد الجسد لارادة الجنس كانه قال ذوى ضرب من الاجساد (الثالث) انهم كانوا يقولون مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا فاجاب الله بقوله وما جعلناهم جسدا لا يأكلون الطعام فبين تعالى ان هذه

وقرئ قل ربي الخ وقوله تعالى في السماء والارض متعلق بمحذوف وقع حالا من القول أي كائنا في السماء والارض وقوله تعالى (وهو السميع العليم) أي المبالغ في العلم ﴿ ١٢٩ ﴾ بالمسموعات والمعلومات التي من جملتها ما أسروه من النجوى

عادة الله تعالى في الرسل من قبل وانه لم يجعلهم جسدا لا يأكلون بل جسدا يأكلون الطعام ولا يخلدون في الدنيا بل يموتون كغيرهم ونبه بذلك على ان الذي صاروا به رسلا غير ذلك وهو ظهور المعجزات على أيديهم وبراءتهم عن الصفات القادحة في التبليغ أما قوله تعالى ثم صدقناهم الوعد فقال صاحب الكشاف هو مثل قوله واختار موسى قومه سبعين رجلا والاصل في الوعد ومن قومه ومنه صدقوهم المقال ومن نشاء هم المؤمنون قال المفسرون المراد منه انه تقدم وعده جل جلاله بأنه انما يهلك بعذاب الاستئصال من كذب الرسل دون نفس الرسل ودون من صدق بهم وجعل الوفاء بما وعد صدقا من حيث يكشف عن الصدق ومعنى وأهلكنا المسرفين أي بعذاب الاستئصال وليس المراد عذاب الآخرة لانه اخبار عما مضى وتقدم ثم بين تعالى بقوله لقد أنزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم كرما عظيما نعمته عليهم بالقرآن في الدين والدنيا فلذلك قال فيه ذكركم وفيه ثلاثة أوجه (أحدها) ذكركم شرفكم وصيتكم كما قال وانه لذكر لك ولقومك (وثانيها) المراد فيه تذكرة لكم لتحذروا ما لا يحل وترغبوا فيما يجب ويكون المراد بالذكر الوعد والوعيد كما قال وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين (وثالثها) المراد ذكر دينكم ما يلزم وما لا يلزم لتفوزوا بالجنة اذا تمسكتم به وكل ذلك محتمل وقوله أفلا تعقلون كالبعث على التدبر في القرآن لانهم كانوا غفلاء لان الخوض من لوازم الغفلة والتدبر دافع لذلك الخوض ودفع الضرر عن النفس من لوازم العقل فمن لم يتدبر فكأنه خرج عن العقل ﴿ قوله تعالى (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوما آخرين فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسئلون قالوا يا ويلنا انا كنا ظالمين فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين) اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم تلك الاعتراضات وكانت تلك الاعتراضات ظاهرة السقوط لان شرائط الاعجاز لما تمت في القرآن ظهر حينئذ لكل عاقل كونه معجزا وعند ذلك ظهر ان اشتغالهم بايراد تلك الاعتراضات كان لاجل حب الدنيا وحب الرياسة فيها فبالغ سبحانه في زجرهم عن ذلك فقال وكم قصمنا من قرية قال صاحب الكشاف القصم أفظع الكسر وهو الكسر الذي يبين تلاؤم الاجزاء بخلاف الفصم وذكر القرية وانها ظالمة وأراد أهلها توسعا لدلالة العقل على انها لا تكون ظالمة ولا مكلفة ولدلالة قوله تعالى وأنشأنا بعدها قوما آخرين فالمعنى أهلكنا قوما وأنشأنا قوما آخرين وقال فلما أحسوا بأسنا الى قوله قالوا يا ويلنا انا كنا ظالمين وكل ذلك لا يليق الا بأهلها الذين كلفوا بتصديق الرسل فكذبوهم ولولا هذه الدلائل لما جاز منه سبحانه ذكر المجاز لانه يكون ذلك موهما للكذب واختلفوا في هذا الاهلاك فقال ابن عباس المراد منه القتل بالسيوف والمراد بالقرية حضور وهي وسحول قريتان باليمن ينسب اليهما الثياب وفي الحديث كفن رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثوبين سحوليين وروى حضورين بعث الله اليهم نبيا فقتلوه فسلط الله عليهم بختنصر كما سلطه

فيجازيهم بأقوالهم وأفعالهم اعتراض تذييلي مقرر لمضمون ما قبله متضمن للوعيد (بل قالوا أضغاث أحلام) اضراب من جهته تعالى وانتقال من حكاية قولهم السابق الى حكاية قول آخر مضطرب في مسالك البطلان أي لم يقتصروا على أن يقولوا في حقه عليه السلام هل هذا الا بشر وفي حق ما ظهر على يده من القرآن الكريم انه سحر بل قالوا تخاليط الاحلام ثم أضربوا عنه فقالوا (بل افتراه) من تلقاء نفسه من غير أن يكون له أصل أو شبهة أصل ثم قالوا (بل هو شاعر) وما أتى به شعر يخيل الى السامع معاني لا حقيقة لها وهكذا شأن المبطل المحجوج متحير لا يزال يتردد بين باطل وأبطل ويتذبذب بين فاسد وأفسد فالاضراب الاول كما ترى من جهته تعالى والثاني والثالث من قبلهم وقد قيل الكل من قبلهم حيث أضربوا ﴿ ١٧ ﴾ س عن قولهم هو سحر الى انه تخاليط أحلام ثم الى أنه كلام مفترى ثم الى أنه قول شاعر ولا ريب في انه كان ينبغي حينئذ ان يقال قالوا بل أضغاث أحلام والاعتذار بأن بل قالوا مقول لقالوا المضمر قبل قوله تعالى هل هذا الا بشر الخ كأنه قيل واسروا النجوى قالوا هل هذا الى قوله بل أضغاث أحلام وانما صرح بقالوا

بعد بل لبعد العهد مما يجب تنزيه ساحة التنزيل عن امثاله (فليأتنا بآية) جواب شرط محذوف يفصح عنه السياق كأنه قيل وان لم يكن كما قلنا بل كان رسولا من الله تعالى فليأتنا بآية ﴿ ١٣٠ ﴾ (كما أرسل الاولون) أي مثل الآية التي أرسل بها الاولون كالعصا ونظائرها حتى نؤمن به فما موصولة ومحل الكاف الجر على انها صفة لآية ويجوز أن تكون مصدرية فالكاف منصوبة على انها مصدر تشبيهي أي نعت لمصدر محذوف أي فليأتنا بآية اتيانا كائنا مثل ارسال الاولين بها وصحة التشبيه من حيث ان الاتيان بالآية من فروع الارسال بها اي مثل اتيان مترتب على الارسال ويجوز ان يحمل النظم الكريم على انه أريد كل واحد من الاتيان والارسال في كل واحد من طرفي التشبيه لكنه ترك في جانب المشبه ذكر الارسال وفي جانب المشبه به ذكر الاتيان اكتفاء بما ذكر في كل موطن عما ترك في الموطن الآخر حسبما مر في آخر سورة يونس عليه السلام (ما آمنت قبلهم من قرية) كلام مستأنف مسوق لتكذيبهم فيما تنبئ عنه خاتمة مقالهم من الوعد الضمني بالايمان كما أشير اليه وبيان انهم في اقتراح تلك الآيات كالباحث عن حتفه ﴿ السماء ﴾ بظلفه وأن في ترك الاجابة اليه ابقاء عليهم كيف لا ولو أعطوا ما اقترحوا مع عدم ايمانهم قطعا لوجب استئصالهم لجريان سنة الله عز وجل في الامم السالفة على أن المقترحين اذا اعطوا ما اقترحوه

على اهل بيت المقدس فاستأصلهم وروى انه لما أخذتهم السيوف نادى منادٍ من السماء يا ثارات الانبياء فندموا واعترفوا بالخطا وقال الحسن المراد عذاب الاستئصال واعلم ان هذا أقرب لان اضافة ذلك الى الله تعالى أقرب من اضافته الى القاتل ثم بتقدير أن يحمل ذلك على عذاب القتل فالدليل على قول ابن عباس ولعل ابن عباس ذكر حضور بأنها احدى القرى التي أرادها الله تعالى بهذه الآية وأما قوله تعالى فلما أحسوا بأسنا اذا هم منها يركضون فالمعنى لما علموا شدة عذابنا وبطشنا علم حس ومشاهدة ركضوا في ديارهم والركض ضرب الدابة بالرجل ومنه قوله تعالى اركض برجلك فيجوز أن يكونوا ركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين من قريتهم لما أدركتهم مقدمة العذاب ويجوز أن يشبهوا في سرعة عدوهم على أرجلهم بالراكبين الراكضين أما قوله لا تركضوا فقال صاحب الكشاف القول محذوف فان قلت من القائل قلنا يحتمل أن يكون بعض الملائكة ومن ثم من المؤمنين أو يكونوا خلقاء بأن يقال لهم ذلك وان لم يقل أو يقوله رب العزة ويسمعه ملائكته ليتفعهم في دينهم أو يلهمهم ذلك فيحدثون به نفوسهم أما قوله وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم أي من العيش والزفاهية والحال الناعمة والاترافة ابطار النعمة وهي الترفه أما قوله تعالى لعلكم تسئلون فهو تهكم بهم وتوبيخ ثم فيه وجوه (أحدها) أي ارجعوا الى نعمكم ومساكنكم لعلكم تسألون غدا عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة (وثانيها) ارجعوا كما كنتم في مجالسكم حتى تسألكم عبيدكم ومن ينفذ فيه أمركم ونهيكم ويقول لكم بم تأمرون وماذا ترسمون كعادة المخدومين (وثالثها) تسألكم الناس في أنديتكم تعاونوهم في نوازل الخطوب ويستشيرونكم في المهمات ويستعينون بآرائكم (ورابعها) يسألكم الوافدون عليكم والطامعون فيكم اما لانهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رئاء الناس وطلب الثناء أو كانوا بخلاء فقيل لهم ذلك تهكما الى تهكم وتوبيخا الى توبيخ أما قوله تعالى فما زالت تلك دعواهم فقال صاحب الكشاف تلك اشارة الى ياويلنا لانها دعوى كأنه قيل فما زالت تلك الدعوى دعواهم والدعوى بمعنى الدعوة قال تعالى وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين فان قلت لم سميت دعوى قلت لانهم كانوا دعوا بالويل فقالوا يا ويلنا أي ياويل احضر فهذا وقتك وتلك مرفوع أو منصوب اسما أو خبرا وكذلك دعواهم قال المفسرون لم يزالوا يكررون هذه الكلمة فلم ينفعهم ذلك كقوله تعالى فلم يك ينفعهم ايمانهم لما رأوا بأسنا أما قوله حتى جعلناهم حصيدا خامدين فالحصيد الزرع المحصود أي جعلناهم مثل الحصيد شبههم به في استئصالهم كما تقول جعلناهم رمادا أي مثل الرماد فان قيل كيف ينصب جعل ثلاثة مفاعيل قلت حكم الاثنين الاخرين حكم الواحد والمعنى جعلناهم جامعين لهذين الوصفين والمراد انهم أهلكوا بذلك العذاب حتى لم يبق لهم حس ولا حركة وجفوا كما يجف الحصيد وخمدوا كما تخمد النار ﴿ قوله تعالى (وما خلقنا

ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لامحالة وقد سبقت كلمة الحق منه تعالى ان هذه الامة لايعذبون بعذاب الاستئصال فقوله من قرية أي من أهل قرية في محل الرفع على ﴿ ١٣١ ﴾ الفاعلية ومن مزيدة لتاكيد العموم وقوله تعالى

السماء والارض وما بينهما لاعبين لو اردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون) اعلم ان فيه مسائل (المسئلة الاولى) في تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان (الاول) انه تعالى لما بين اهلاك أهل القرية لاجل تكذيبهم أتبعه بما يدل على أنه فعل ذلك عدلا منه ومجازاة على ما فعلوا فقال وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين أي وما سويناهذا السقف المرفوع وهذا المهاد الموضوع وما بينهما من العجائب والغرائب كما تسوى الجبابرة سقوفهم وفروشهم للهو واللعب وانما سويناها الفوائد دينية ودنيوية أما الدينية فليتفكر المتفكرون فيها على ما قال تعالى ويتفكرون في خلق السموات والارض وأما الدنيوية فلما يتعلق بها من المنافع التي لاتعد ولاتحصى وهذا كقوله وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا وقوله ما خلقناهما الا بالحق (والثاني) ان الغرض منه تقرير نبوة محمد صلى الله عليه وسلم والرد على منكريه لانه أظهر المعجزة عليه فان كان محمد كاذبا كان اظهار المعجزة عليه من باب اللعب وذلك منفي عنه وان كان صادقا فهو المطلوب وحينئذ يفسد كل ماذكروه من المطاعن (المسئلة الثانية) قال القاضي عبد الجبار دلت الآية على أن اللعب ليس من قبله تعالى اذ لو كان كذلك لكان لاعبا فان اللاعب في اللغة اسم لفاعل اللعب فنفي الاسم الموضوع للفعل يقتضي نفي الفعل (الجواب) يبطل ذلك بمسئلة الدلمي على ما مر غير مرة أما قوله لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين فاعلم أن قوله لاتخذناه من لدنا معناه من جهة قدرتنا وقيل اللهو الولد بلغة اليمن وقيل المرأة وقيل من لدنا أي من الملائكة لامن الانس رد المن قال بولادة المسيح وعزيرا فما قوله تعالى بل نقذف بالحق على الباطل فاعلم ان قوله بل اضراب عن اتخاذ اللهو واللعب وتنزيه منه لذاته كأنه قال سبحاننا أن نتخذ اللهو واللعب بل من عادتنا وموجب حكمتنا أن نغلب اللعب بالجد ونحض الباطل بالحق واستعار لذلك القذف والدمغ تصوير الابطاله فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا قذف به على جرم رخو فدمغه فأما قوله تعالى ولكم الويل مما تصفون يعني من تمسك بتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم ونسب القرآن الى انه سحر وأضغاث أحلام الى غير ذلك من الاباطيل وهو الذي عناه بقوله مما تصفون ﴿ قوله تعالى (وله من في السموات والارض ومن عنده لايستكبرون عن عبادته ولايستحسرون يسبحون الليل والنهار لايفترون) وفيه مسائل (المسئلة الأولى) في تعلق هذه الآية بما قبلها وجهان (الاول) انه تعالى لما نفى اللعب عن نفسه ونفى اللعب لايصح الا بنفي الحاجة ونفى الحاجة لايصح الا بالقدرة التامة لاجرم عقب تلك الآية بقوله وله من في السموات والارض لدلالة ذلك على كمال الملك والقدرة (الثاني) وهو الاقرب انه تعالى لما حكى كلام الطاعنين في النبوات وأجاب عنها وبين أن غرضهم من تلك المطاعن التمرد وعدم الانقياد بين في هذه الآية انه تعالى منزه عن طاعتهم لانه هو

(أهلكناها) أي باهلاك أهلها لعدم ايمانهم بعد مجيء ما اقترحوه من الآيات صفة لقرية والهمزة في قوله تعالى (أفهم يؤمنون) لانكار الوقوع والفاء للعطف اما على مقدر دخلته الهمزة فأفادت انكار وقوع ايمانهم ونفيه عقيب عدم ايمان الاولين فالمعنى انهم لم تؤمن أمة من الامم المهلكة عند اعطاء ما اقترحوه من الآيات أفهم لم يؤمنوا فهؤلاء يؤمنون لو أجيبوا الى ما سألوا وأعطوا ما اقترحوا مع كونهم اعتى منهم وأطغى واما على ما آمنت على أن الفاء متقدمة على الهمزة في الاعتبار مفيدة لترتيب انكار ووقوع ايمانهم على عدم ايمان الاولين وانما قدمت عليها الهمزة لاقتضائها الصدارة كما هو رأي الجمهور وقوله عز وجل (وما أرسلنا قبلك الا رجالا) جواب لقولهم هل هذا الا بشر الخ متضمن لرد ما دسوا تحت قولهم كما أرسل

الاولون من التعريض بعدم كونه عليه السلام مثل أولئك الرسل صلوات الله تعالى عليهم أجمعين ولذلك قدم عليه جواب قولهم فليأتنا بآية ولانهم قالوا ذلك بطريق التعجيز فلابد من المسارعة الى رده وابطاله كما مر في تفسير قوله تعالى قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين وقوله تعالى ما ننزل الملائكة

الاباطل حق ماكانوا اذا منظرين ولان فى هذا الجواب نوع بسط يخل تقديمه بتجاوب أطراف النظم الكريم والحق أن ما اتخذوه سببا للتكذيب موجب للتصديق فى الحقيقة ﴿ لان مقتضى الحكمة أن يرسل الى البشر البشر والى الملك الملك حسبما ينطق به قوله تعالى قل لو كان فى الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا فان عامة البشر يعزل من استحقاق المفاوضة الملكية لوقوفها على التناسب بين المفيض والمستفيض فبعث الملك اليهم مزاحم للحكمة التى عليها يدور فلك التكوين والتشريع وانما الذى تقتضيه الحكمة أن يبعث الملك منهم الى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين الروحانى والجسمانى ليتلقوا من جانب ويلقوا الى جانب آخر وقوله تعالى (نوحى اليهم) استئناف مبين لكيفية الارسال وصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية المستمرة وحذف المفعول لعدم القصد الى خصوصه والمعنى وما أرسلنا الى الامم قبل ارسالك الى أمتك الا رجالا مخصوصين من أفراد الجنس مستأهلين للاصطفاء والارسال نوحى اليهم بواسطة الملك ما نوحى من الشرائع والاحكام ﴿ تعالى ﴾ وغيرهما من المقصص والاخبار كما نوحى اليك من غير فرق بينهما فى حقيقة الوحى وحقية مدلوله حسبما يحكيه قوله تعالى انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين الى قوله تعالى وكلم الله موسى تكليما كما لا فرق بينك وبينهم

الملائك لجميع المحدثات والمخلوقات ولاجل ان الملائكة مع جلالتهم مطيعون له خائفون منه فالبشر مع نهاية الضعف أولى أن يطيعوه (المسئلة الثانية) قوله وله من فى السموات والارض معناه ان كل المكلفين فى السماء والارض فهم عبيده وهو الخالق لهم والمنعم عليهم بأصناف النعم فيجب على الكل طاعته والانقياد لحكمه (المسئلة الثالثة) دلالة قوله ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته على ان الملك أفضل من البشر من ثلاثة أوجه قد تقدم بيانها فى سورة البقرة (المسئلة الرابعة) قوله ومن عنده المراد بهم الملائكة باجماع الامة ولانه تعالى وصفهم بانهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهذا لا يليق بالبشر وهذه العندية عندية الشرف والرتبة لا عندية المكان والجهة فكأنه تعالى قال الملائكة مع كمال شرفهم ونهاية جلالتهم لا يستكبرون عن طاعته فكيف يليق بالبشر الضعيف التمرد عن طاعته (المسئلة الخامسة) قال الزجاج ولا يستحسرون ولا يتعبون ولا يعيون قال صاحب الكشاف فان قلت الاستحسار مبالغة فى الحسور فكان الابلغ فى وصفهم ان ينفى عنهم أدنى الحسور قلت فى الاستحسار بيان أن ما هم فيه يوجب غاية الحسور وأقصاه وانهم أحقاء بتلك العبادات الشاقة بان يستحسروا فيما يفعلون أما قوله تعالى يسبحون الليل والنهار لا يفترون فالمعنى ان تسبيحهم متصل دائم فى جميع أوقاتهم لا يتخلله فترة بفراغ أو بشغل آخر روى عن عبد الله بن الحرث بن نوفل قال قلت لكعب ارأيت قول الله تعالى يسبحون الليل والنهار لا يفترون ثم قال جاعل الملائكة رسلا أفلا تكون تلك الرسالة مانعة لهم عن هذا التسبيح وأيضا قال أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين فكيف يشتغلون باللعن حال اشتغالهم بالتسبيح فأجاب كعب الاحبار فقال التسبيح لهم كالتنفس لنا فكما أن اشتغالنا بالتنفس لا يمنعنا من الكلام فكذا اشتغالهم بالتسبيح لا يمنعهم من سائر الاعمال فان قيل هذا القياس غير صحيح لان الاشتغال بالتنفس انما لم يمنع من الكلام لان آلة التنفس غير آلة الكلام أما التسبيح واللعن فهما من جنس الكلام فاجتماعهما محال (والجواب) أى استبعاد فى أن يخلق الله تعالى لهم ألسنة كثيرة بعضها يسبحون الله وبعضها يلعنون أعداء الله او يقال معنى قوله لا يفترون انهم لا يفترون عن العزم على ادائه فى أوقاته اللائقة به كما يقال ان فلانا يواظب على الجماعات لا يفتر عنها لا يراد به انه أبدا مشتغل بها بل يراد به انه مواظب على العزم على ادائها فى أوقاتها ﴿ قوله تعالى (أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسأل عما يفعل وهم يسألون أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معى وذكر من قبلى بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحى اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون) اعلم ان الكلام من أول السورة الى ههنا كان فى النبوات وما يتصل بها من الكلام سؤالا وجوابا وأما هذه الآيات فانها فى بيان التوحيد ونفى الاضداد والانداد أما قوله

في البشرية مثالهم لايفهمون انك لست بدعا من الرسل وأن ماأوحى اليك ليس مخالفا لما اوحى اليهم فيقولون مايقولون وقرئ يوحى اليهم بالياء على صيغة المبنى للمفعول جريا على سنن الكبرياء وايذانا بتعين الفاعل وقوله تعالى (فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون) تلوين للخطاب وتوجيه له الى الكفرة لتبكيتهم واستزالهم عن رتبة الاستبعاد والنكير اثر تحقيق الحق على طريقة الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم لانه الحقيق بالخطاب فى أمثال تلك الحقائق الانيقة وأما الوقوف عليها باستخبار من الغير فهو من وظائف العوام والفاء لترتيب مابعدها على ماقبلها وجواب الشرط محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أى ان كنتم لا تعلمون ماذكر فاسألوا أيها الجهلة أهل الكتاب الواقفين على أحوال الرسل السالفة عليهم الصلوات لتزول شبهتكم أمروا بذلك لان اخبار الجم الغفير يوجب العلم لاسيما وهم كانوا يشايعون المشركين فى عداوته عليه السلام ويشاورنهم ففيه من الدلالة على كمال وضوح الامر وقوة شأن النبى عليه السلام مالايخفى (وماجعلناهم جسدا) بيان لكون الرسل عليهم السلام أسوة لسائر أفراد الجنس فى أحكام الطبيعة البشرية اثر بيان كونهم أسوة لهم فى نفس البشرية والجسد جسم الانسان والجن والملائكة ونصبه اما على انه مفعول ثان للجعل لكن لا بمعنى جعله جسدا بعد أن لم يكن كذلك

تعالى أم اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف أم ههنا هى المنقطعة الكائنة بمعنى بل والهمزة قد أذنت بالاضراب عما قبلها والانكار لما بعدها والمنكر هو اتخاذهم آلهة من الارض ينشرون الموتى ولعمرى ان من أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات فان قلت كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة ينشرون وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم بل كانوا فى نهاية البعد عن هذه الدعوى فانهم كانوا مع اقرارهم بالله وبانه خالق السموات والارض منكرين للبعث ويقولون من يحيى العظام وهى رميم فكيف يدعونه للجماد الذى لا يوصف بالقدرة البتة قلت لانهم لما اشتغلوا بعبادتها ولا بد للعبادة من فائدة هى الثواب فاقدامهم على عبادتها يوجب عليهم الاقرار بكونها قادرين على الحشر والنشر والثواب والعقاب فذكر ذلك على سبيل التهكم بهم والتجهيل يعنى اذا كانوا غير قادرين على ان يحيوا ويميتوا ويضروا وينفعوا فاى عقل يجوز اتخاذهم آلهة (المسئلة الثانية) قوله من الارض كقولك فلان من مكة أو من المدينة تريد مكى أو مدنى اذ معنى نسبتها الى الارض الايذان بانها الاصنام التى تعبد فى الارض لان الآلهة على ضربين أرضية وسماوية ويجوز أن يراد آلهة من جنس الارض لانها اما أن تكون منحوتة من بعض الحجارة او معمولة من بعض جواهر الارض (المسئلة الثالثة) النكتة فى هم ينشرون معنى الخصوصية كانه قيل أم اتخذوا آلهة من الارض لا يقدر على الانشار الا هم وحدهم (المسئلة الرابعة) قرأ الحسن ينشرون وهما لغتان أنشر الله الموتى ونشرها أما قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال أهل النحو الا ههنا بمعنى غير أى لو كان يتولاهما ويدبر أمورهما شئ غير الواحد الذى هو فاطرهما لفسدتا ولا يجوز أن يكون بمعنى الاستثناء لانا لو حملناه على الاستثناء لكان المعنى لو كان فيهما آلهة ليس معهم الله لفسدتا وهذا يوجب بطريق المفهوم انه لو كان فيهما آلهة معهم الله ان لا يحصل الفساد وذلك باطل لانه لو كان فيهما آلهة فسواء لم يكن الله معهم أو كان فالفساد لازم ولما بطل حمله على الاستثناء ثبت ان المراد ماذكرناه (المسئلة الثانية) قال المتكلمون القول بوجود الهين يفضى الى المحال فوجب أن يكون القول بوجود الهين محالا انما قلنا انه يفضى الى المحال لانا لو فرضنا وجود الهين فلا بد وأن يكون كل واحد منهما قادرا على كل المقدورات ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادرا على تحريك زيد وتسكينه فلو فرضنا ان أحدهما أراد تحريكه والآخر تسكينه فاما أن يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين أو لا يقع واحد منهما وهو محال لان المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر فلا يمتنع مراد هذا الا عند وجود مراد ذلك وبالعكس فلو امتنعا معا لوجدا معا وذلك محال أو يقع مراد أحدهما دون الثانى وذلك محال أيضا لوجهين (أحدهما) انه لو كان كل واحد منهما قادرا على مالا نهاية له امتنع كون أحدهما أقدر من الآخر بل لا بد وأن

كما هو المشهور من معنى التصيير بل بمعنى جعله كذلك ابتداء على طريقة قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل كما مر في قوله تعالى وجعلنا آية النهار مبصرة وأما حال من الضمير ﴿ ١٣٤ ﴾ والجعل ابداعي وافراده لارادة الجنس المنتظم للكثير أيضا وقيل بتقدير المضاف أي ذوي جسد وقوله تعالى (لا يأكلون الطعام) صفة له أي وما جعلناهم جسدا مستغنيا عن الاكل والشرب بل محتاجا الى ذلك لتحصيل بدل ما يتحلل منه (وما كانوا خالدين) لان ما آل التحلل هو الفناء لا محالة وفي ايثار ما كانوا على ما جعلناهم تنبيه على أن عدم الخلود مقتضى جبلتهم التي أشير اليها بقوله تعالى وما جعلناهم الخ لا بالجعل المستأنف والمراد بالخلود اما المكث المديد كما هو شأن الملائكة أو الابدية وهم معتقدون انهم لا يموتون والمعنى جعلناهم أجسادا متغذية صائرة الى الموت بالآخرة على حسب آجالهم لا ملائكة ولا أجسادا مستغنية عن الاغذية مصونة عن التحلل كالملائكة فلم يكن لها خلود كخلودهم فالجملة مقررة لما قبلها من كون الرسل السالفة عليهم السلام بشرا مثلكم مع ما في ذلك من الرد على قولهم ما لهذا الرسول يأكل الطعام وقوله تعالى ﴿ وهذا ﴾ (ثم صدقناهم الوعد) عطف على ما يفهم من حكاية وحيه تعالى اليهم على الاستمرار التجددي كأنه قيل أوحينا اليهم ما أوحينا ثم صدقناهم في الوعد الذي وعدناهم في تضاعيف الوحي باهلاك أعدائهم (فأنجيناهم ومن نشاء) من المؤمنين

يستويا في القدرة واذا استويا في القدرة استحال أن يصير مراد أحدهما أولى بالوقوع من مراد الثاني والا لزم ترجيح الممكن من غير مرجح (وثانيهما) انه اذا وقع مراد أحدهما دون الآخر فالذي وقع مراده يكون قادرا والذي لم يقع مراده يكون عاجزا والعجز نقص وهو على الله محال فان قيل الفساد انما يلزم عند اختلافهما في الارادة وأنتم لا تدعون وجوب اختلافهما في الارادة بل أقصى ما تدعونه ان اختلافهما في الارادة ممكن فاذا كان الفساد مبنيا على الاختلاف في الارادة وهذا الاختلاف ممكن والمبني على الممكن ممكن فكان الفساد ممكنا لا واقعا فكيف جزم الله تعالى بوقوع الفساد قلنا الجواب من وجهين (أحدهما) لعله سبحانه أجرى الممكن مجرى الواقع بناء على الظاهر من حيث ان الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب (والثاني) وهو الاقوى ان نبين لزوم الفساد لا من الوجه الذي ذكرناه بل من وجه آخر فنقول لو فرضنا الهين لكان كل واحد منهما قادرا على جميع المقدورات فيفضي الى وقوع مقدور من قادرين مستقلين من وجه واحد وهو محال لان اسناد الفعل الى الفاعل لامكانه فاذا كان كل واحد منهما مستقلا بالايجاد فالفعل لكونه مع هذا يكون واجب الوقوع فيستحيل اسناده الى هذا لكونه حاصلا منهما جميعا فيلزم استغناؤه عنهما معا واحتياجه اليهما معا وذلك محال وهذه حجة تامة في مسئلة التوحيد فنقول القول بوجود الالهين يفضي الى امتناع وقوع المقدور لواحد منهما واذا كان كذلك وجب أن لا يقع البتة وحينئذ يلزم وقوع الفساد قطعا أو نقول لو قدرنا الهين فاما ان يتفقا أو يختلفا فان اتفقا على الشئ الواحد فذلك الواحد مقدور لهما ومراد لهما فيلزم وقوعه بهما وهو محال وان اختلفا فاما أن يقع المرادان أو لا يقع واحد منهما أو يقع أحدهما دون الآخر والكل محال فثبت ان الفساد لازم على كل التقديرات فان قلت لم لا يجوز ان يتفقا على الشئ الواحد ولا يلزم الفساد لان الفساد انما يلزم لو اراد كل واحد منهما أن يوجده هو وهذا اختلاف أما اذا أراد كل واحد منهما ان يكون الموجد له أحدهما بعينه فهناك لا يلزم وقوع مخلوق بين خالقين قلت كونه موجدا له اما أن يكون نفس القدرة والارادة أو نفس ذلك الاثر أو أمرا ثالثا فان كان الاول لزم الاشتراك في القدرة والارادة والاشتراك في الموجد وان كان الثاني فليس وقوع ذلك الاثر بقدرة أحدهما وارادته أولى من وقوعه بقدرة الثاني لان لكل واحد منهما ارادة مستقلة بالتأثير وان كان الثالث وهو أن يكون الموجد له أمرا ثالثا فذلك الثالث ان كان قديما استحال كونه متعلق الارادة وان كان حادثا فهو نفس الاثر ويصير هذا القسم هو القسم الثاني الذي ذكرناه واعلم انك لما وقفت على حقيقة هذه الدلالة عرفت ان جميع ما في هذا العالم العلوي والسفلي من المحدثات والمخلوقات فهو دليل على وحدانية الله تعالى بل وجود كل واحد من الجواهر والاعراض دليل تام على التوحيد من الوجه الذي بيناه

لتحقيق حقية القرآن العظيم الذى ذكر فى صدر السورة الكريمة اعراض الناس عما يأتيهم من آياته واستهزاؤهم به وتسميتهم تارة سحرا وتارة أضغاث أحلام وأخرى مفترى وشعرا وبيان علو رتبته اثر تحقيق رسالته صلى الله عليه وسلم ببيان انه كسائر الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام قد صدر بالتوكيد القسمى اظهارا لمزيد الاعتناء بمضمونه وايذانا بكون المخاطبين فى أقصى مراتب النكير أى والله لقد أنزلنا اليكم يا معشر قريش (كتابا) عظيم الشان غير البرهان وقوله تعالى (فيه ذكركم) صفة لكتابا مؤكدة لما أفاده التنكير التفخيمى من كونه جليل المقدار بأنه جميل الآثار مستجلب لهم منافع جليلة أى فيه شرفكم وصيتكم كقوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك وقيل ما تحتاجون اليه فى امور دينكم ودنياكم وقيل فيه ما تطلبون به حسن الذكر من مكارم الاخلاق وقيل فيه موعظتكم وهو الانسب بسياق النظم الكريم وسياقه فان قوله تعالى (أفلا تعقلون) انكار توبيخى فيه بعث لهم على التدبر فى أمر الكتاب والتأمل فيما فى تضاعيفه من فنون المواعظ والزواجر التى من جملتها القوارع السابقة واللاحقة والفاء للعطف على مقدر ينسحب

وهذه الدلالة قد ذكرها الله تعالى فى مواضع من كتابه واعلم ان ههنا ادلة أخرى على وحدانية الله تعالى (أحدها) وهو الاقوى أن يقال لو فرضنا موجودين واجبى الوجود لذاتيهما فلا بد وأن يشتركا فى الوجود ولا بد وأن يمتاز كل واحد منهما عن الآخر بنفسه وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيكون كل واحد منهما مركبا مما به يشارك الاخر ومما به امتاز عنه وكل مركب فهو مفتقر الى جزئه وجزؤه غيره فكل مركب فهو مفتقر الى غيره وكل مفتقر الى غيره ممكن لذاته فواجب الوجود لذاته ممكن الوجود لذاته هذا خلف فاذن واجب الوجود ليس الا الواحد وكل ما عداه فهو ممكن مفتقر اليه وكل مفتقر فى وجوده الى الغير فهو محدث فكل ما سوى الله تعالى محدث ويمكن جعل هذه الدلالة تفسيرا لهذه الآية لانا نماد للناعلى انه يلزم من فرض موجودين واجبين أن لا يكون شئ منهما واجبا واذا لم يوجد الواجب لم يوجد شئ من هذه الممكنات وحينئذ يلزم الفساد فثبت انه يلزم من وجود الهين وقوع الفساد فى كل العالم (وثانيها) انا لو قدرنا الهين لوجب أن يكون كل واحد منهما مشاركا للآخر فى الالهية ولا بد وأن يتميز كل واحد منهما عن الآخر بأمر ما والا لما حصل التعدد فما به الممايزة اما أن يكون صفة كمال أو لا يكون فان كان صفة كمال فالخالى عنه يكون خاليا عن الكمال فيكون ناقصا والناقص لا يكون الها وان لم يكن صفة كمال فالموصوف به يكون موصوفا بما لا يكون صفة كمال فيكون ناقصا ويمكن أن يقال ما به الممايزة ان كان معتبرا فى تحقق الالهية فالخالى عنه لا يكون الها وان لم يكن معتبرا فى الالهية لم يكن الاتصاف به واجبا فيفتقر الى المخصص فالموصوف به مفتقر ومحتاج (وثالثها) أن يقال لو فرضنا الهين لكان لا بد وأن يكونا بحيث يمكن الغير من التمييز بينهما لكن الامتياز فى عقولنا لا يحصل الا بالتباين فى المكان أو فى الزمان أو فى الوجوب والامكان وكل ذلك على الاله محال فيمتنع حصول الامتياز (ورابعها) ان أحد الالهين اما أن يكون كافيا فى تدبير العالم أو لا يكون فان كان كافيا كان الثانى ضائعا غير محتاج اليه وذلك نقص والناقص لا يكون الها (وخامسها) ان العقل يقتضى احتياج المحدث الى الفاعل والامتناع فى كون الفاعل الواحد مدبرا لكل العالم فأما ما وراء ذلك فليس عدد أولى من عدد فيفضى ذلك الى وجود أعداد لا نهاية لها وذلك محال فالقول بوجود الآلهة محال (وسادسها) ان أحد الالهين اما أن يقدر على ان يخص نفسه بدليل يدل عليه ولا يدل على غيره أو لا يقدر عليه والاول محال لان دليل الصانع ليس الا بالمحدثات وليس فى حدوث المحدثات ما يدل على تعيين أحدهما دون الثانى والثانى محال لانه يفضى الى كونه عاجزا عن تعريف نفسه على التعيين والعاجز لا يكون الها (وسابعها) ان أحد الالهين اما ان يقدر على أن يستر شيئا من أفعاله عن الاخر أو لا يقدر فان قدر لزم أن يكون المستور عنه جاهلا وان لم يقدر لزم كونه عاجزا (وثامنها) لو قدرنا الهين لكان مجموع قدرتيهما بينهما أقوى من قدرة كل واحد منهما وحده فيكون كل واحد من

عليه الكلام أى ألا تتفكرون فلا تعقلون أن الامر كذلك أو لا تعقلون شيئا من الاشياء التى من جملتها ماذكر وقوله تعالى (وكم قصمنا من قرية) نوع تفصيل لاجمال قوله تعالى وأهلكنا ﴿ المسرفين وبيان لكيفية اهلاكهم

القدرتين متناهيا والمجموع ضعف المتناهى فيكون الكل متناهيا (وتاسعها) العدد ناقص لاحتياجه الى الواحد والواحد الذى يوجد من جنسه عدد ناقص لان العدد أزيد منه والناقص لايكون الها فالاله واحد لامحالة (وعاشرها) انا لو فرضنا معدوما ممكن الوجود ثم قدرنا الهين فان لم يقدر واحد منهما على ايجاده كان كل واحد منهما عاجزا والعاجز لايكون الها وان قدر أحدهما دون الآخر فهذا الآخر يكون الها وان قدرا جميعا فاما ان يوجد اه بالتعاون فيكون كل واحد منهما محتاجا الى اعانة الآخر وان قدر كل واحد على ايجاده بالاستقلال فاذا أوجده أحدهما فاما أن يبقى الثانى قادرا عليه وهو محال لان ايجاد الموجود محال وان لم يبق فحينئذ يكون الاول قد أزال قدرة الثانى وعجزه فيكون مقهورا تحت تصرفه فلا يكون الها فان قيل الواحد اذا أوجد مقدوره فقد زالت قدرته عنه فيلزمكم العجز قلنا الواحد اذا أوجده فقد نفذت قدرته فنفاذ القدرة لايكون عجزا أما الشريك فانه لما نفذت قدرته لم يبق لشريكه قدرة البتة بل زالت قدرته بسبب قدرة الاول فيكون تعجيزا (الحادى عشر) ان نقرر هذه الدلالة على وجه آخر وهو أن نعين جسما ونقول هل يقدر كل واحد منهما على خلق الحركة فيه بدلا عن السكون وبالعكس فان لم يقدر كان عاجزا وان قدر فنسوق الدلالة الى ان نقول اذا خلق أحدهما فيه حركة امتنع على الثانى خلق السكون فالاول أزال قدرة الثانى وعجزه فلا يكون الها وهذان الوجهان يفيدان العجز نظرا الى قدرتيهما والدلالة الاولى انما تفيد العجز بالنظر الى ارادتيهما (وثانى عشرها) انهما لما كانا عالمين بجميع المعلومات كان علم كل واحد منهما متعلقا بعين معلوم الآخر فوجب تماثل علميهما والذات القابلة لاحد المثلين قابلة للمثل الآخر فاختصاص كل واحد منهما بتلك الصفة مع جواز اتصافه بصفة الآخر على البدل يستدعى مخصصا يخصص كل واحد منهما بعلمه وقدرته فيكون كل واحد منهما عبدا فقيرا ناقصا (وثالث عشرها) ان الشركة عيب ونقص فى الشاهد والفردانية والتوحد صفة كمال ونرى الملوك يكرهون الشركة فى الملك الحقير المختصر أشد الكراهية ونرى انه كلما كان الملك أعظم كانت النفرة عن الشركة أشد فاظنك بملك الله عز وجل وملكوته فلو أراد أحدهما استخلاص الملك لنفسه فان قدر عليه كان المغلوب فقيرا عاجزا فلا يكون الها وان لم يقدر عليه كان فى أشد الغم والكراهية فلا يكون الها (ورابع عشرها) انا لو قدرنا الهين لكان اما ان يحتاج كل واحد منهما الى الآخر أو يستغنى كل واحد منهما عن الآخر أو يحتاج أحدهما الى الآخر والآخر يستغنى عنه فان كان الاول كان كل واحد منهما ناقصا لان المحتاج ناقص وان كان الثانى كان كل واحد منهما مستغنيا عنه والمستغنى عنه ناقص ألا ترى ان البلد اذا كان له رئيس والناس يحصلون مصالح البلد من غير رجوع منهم اليه ومن غير التفات منهم اليه عد ذلك الرئيس ناقصا فالاله هو الذى يستغنى به ولا يستغنى عنه وان احتاج احدهما الى الآخر من غير عكس كان

وسببه وتنبيه على كثرتهم وكم خبرية مفيدة للتكثير محلها النصب على انها مفعول لقصمنا ومن قرية تمييز وفى لفظ القصم الذى هو عبارة عن الكسر بابانة أجزاء المكسور وازالة تأليفها بالكلية من الدلالة على قوة الغضب وشدة السخط مالايخفى وقوله تعالى (كانت ظالمة) فى محل الجر على أنها صفة قرية بتقدير مضاف يلبى عنه الضمير الآتى أى وكثيرا قصمنا من أهل قرية كانوا ظالمين بآيات الله تعالى كافرين بها كدأبكم (وأنشأنا بعدها) أى بعد اهلاكها (قوما آخرين) أى ليسوا منهم نسبا ولا دينا ففيه تنبيه على استئصال الاولين وقطع دابرهم بالكلية وهو السر فى تقديم حكاية انشاء هؤلاء على حكاية مبادى اهلاك أولئك بقوله تعالى (فلما أحسوا بأسنا) أى أدركوا عذابنا الشديد ادراكا تاما كأنه ادراك المشاهد المحسوس (اذا هم منها يركضون) يهربون مسرعين راكضين دوابهم او مشبهين بهم فى فرط الاسراع (لاتركضوا) أى قيل لهم ﴿ المحتاج ﴾ بلسان الحال او بلسان المقال من الملك او ممن ثمة من المؤمنين بطريق الاستهزاء والتوبيخ لاتركضوا (وارجعوا الى ماأترفتم فيه) من التنعم والتلذذ والاترف ابطار النعمة

(ومساكنكم) التى كنتم تفتخرون بها (لعلكم تسئلون) تقصدون للسؤال والتشاور والتدبير فى المهمات والنوازل أو تتفقدون اذا ريثت مساكنكم خالية وتسألون أين أصحابها أو يسألكم الوافدون نوالكم على أنهم كانوا أسخياء ينفقون أموالهم رياء أو بخلاء فقيل لهم ذلك تهكما الى تهكم (قالوا) لما يئسوا من الخلاص بالهرب وأيقنوا بنزول العذاب (ياويلنا) أى هلاكنا (انا كنا ظالمين) ﴿ ١٣٧ ﴾ أى مستوجبين للعذاب وهذا اعتراف منهم بالظلم وباستتباعه للعذاب وندم عليه حين لم ينفعهم ذلك (فما زالت تلك دعواهم) أى فما زالوا يرددون تلك الكلمة وتسميتها دعوى أى دعوة لان المولول كأنه يدعو الويل قائلا ياويل تعال فهذا أوانك (حتى جعلناهم حصيدا) أى مثل الحصيد وهو المحصود من الزرع والنبت ولذلك لم يجمع (خامدين) أى ميتين من خمدت النار اذا طفئت وهو مع حصيدا فى حيز المفعول الثانى للجعل كقولك جعلته حلوا حامضا والمعنى جعلناهم جامعين لمماثلة الحصيد والخمود أو حال من الضمير المنصوب فى جعلناهم أو من المستكن فى حصيدا أو صفة لحصيدا لتعدده معنى لانه فى حكم جعلناهم أمثال حصيد (وما خلقنا السماء والارض) اشارة اجمالية الى أن تكوين العالم وابداع بنى آدم مؤسس ﴿ ١٨ ﴾ س على قواعد الحكم البالغة المستتبعة للغايات الجليلة وتنبيه على أن ما حكى من العذاب الهائل والعقاب النازل باهل القرى من مقتضيات تلك الحكم ومتفرعاتها حسب اقتضاء

المحتاج ناقصا والمحتاج اليه هو الاله واعلم ان هذه الوجوه ظنية اقناعية والاعتماد على الوجوه المتقدمة أما الدلائل السمعية فمن وجوه (أحدها) قوله تعالى هو الاول والآخر والظاهر والباطن فالاول هو الفرد السابق ولذلك لو قال أول عبد اشتريته فهو حر فلو اشترى أولا عبدين لم يحنث لان شرط الاول ان يكون فردا وهذا ليس بفرد فلو اشترى بعد ذلك واحدا لم يحنث أيضا لان شرط الفرد أن يكون سابقا وهذا ليس بسابق فلما وصف الله تعالى نفسه بكونه أولا وجب أن يكون فردا سابقا فوجب أن لا يكون له شريك (وثانيها) قوله تعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو فالنص يقتضى أن لا يكون أحد سواه عالما بالغيب ولو كان له شريك لكان عالما بالغيب وهو خلاف النص (وثالثها) ان الله تعالى صرح بكلمة لا اله الا هو فى سبعة وثلاثين موضعا من كتابه وصرح بالوحدانية فى مواضع نحو قوله والهكم اله واحد وقوله قل هو الله أحد وكل ذلك صريح فى الباب (ورابعها) قوله تعالى كل شئ هالك الا وجهه حكم بهلاك كل ماسواه ومن عدم بعد وجوده لا يكون قديما ومن لا يكون قديما لا يكون الها (وخامسها) قوله تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وهو كقوله ولعلا بعضهم على بعض وقوله اذا لابتغوا الى ذى العرش سبيلا (وسادسها) قوله وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يمسسك بخير فهو على كل شئ قدير ولو كان له شريك لكان ذلك الشريك جالبا للنفع ودافعا للضر فبطل الحصر المذكور فى الآية وقال فى آية اخرى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو وان يردك بخير فلا راد لفضله وقال فى آية اخرى قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله ان أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته (وسابعها) قوله تعالى قل أرأيتم ان أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من اله غير الله يأتيكم به وهذا الحصر يدل على نفى الشريك (وثامنها) قوله تعالى خالق كل شئ فلو وجد الشريك لم يكن خالقا فلم يكن فيه فائدة واعلم ان كل مسئلة لا تتوقف معرفة صدق الرسل عليها فانه يمكن اثباتها بالسمع والوحدانية لا تتوقف معرفة صدق الرسل عليها فلا جرم يمكن اثباتها بالدلائل السمعية واعلم ان من طعن فى دلالة التمانع فسر الآية بان المراد لو كان فى السماء والارض آلهة تقول بالهيتها عبدة الاوثان لزم فساد العالم لانها جمادات لا تقدر على تدبير العالم فيلزم فساد العالم قالوا وهذا أولى لانه تعالى حكى عنهم قوله ام اتخذوا آلهة من الارض هم ينشرون ثم ذكر الدلالة على فساد هذا فوجب أن تختص الدليل به وبالله التوفيق أما قوله تعالى فسبحان الله رب العرش عما يصفون ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) انه سبحانه لما أقام الدلالة القاطعة على التوحيد قال بعده فسبحان الله رب العرش عما يصفون أى هو منزه لاجل هذه الادلة عن وصفهم بأن معه الها وهذا تنبيه على ان الاشتغال بالتسبيح انما ينفع بعد اقامة الدلالة على كونه تعالى منزها وعلى ان طريقة التقليد طريقة مهجورة (المسئلة الثانية) لقائل أن يقول

أعمالهم اياه وأن للمخاطبين المقتدين بآثارهم ذنوبا مثل ذنوبهم أى ماخلقناهما (ومابينهما) من المخلوقات التى لاتحصى أجناسها وأفرادها ولاتحصر أنواعها وآحادها على هذا النمط البديع والاسلوب المنيع خالية عن الحكم والمصالح وانما عبر عن ذلك باللعب واللهو حيث قيل (لاعبين) لبيان كمال تنزهه تعالى عن الخلق الخالى عن الحكمة بتصويره بصورة مالايرتاب أحد فى استحالة صدوره عنه سبحانه ﴿ ١٣٨ ﴾ بل انما خلقناهما ومابينهما لتكون

أى فائدة لقوله فسبحان الله رب العرش عما يصفون ولم لم يكتف بقوله فسبحان الله عما يصفون وجوابه ان هذه المناظرة انما وقعت مع عبدة الاصنام الا أن الدليل الذى ذكره الله تعالى يعم جميع المخالفين ثم انه تعالى بعد ذكر الدليل العام نبه على نكتة خاصة بعبدة الاصنام وهى انه كيف يجوز للعاقل أن يجعل الجماد الذى لايعقل ولايحس شريكا فى الالهية لخالق العرش العظيم وموجد السموات والارضين ومدبر الخلائق من النور والظلمة واللوح والقلم والذات والصفات والجماد والنبات وأنواع الحيوانات أجمعين أما قوله تعالى لايسأل عما يفعل وهم يسألون فاعلم انه مشتمل على بحثين (أحدهما) ان الله تعالى لايسأل عن شئ من أفعاله ولايقال له لم فعلت (والثانى) ان الخلائق مسئولون عن افعالهم أما البحث الاول ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) وجه تعلق هذه الآية بما قبلها ان عمدة من أثبت لله شريكا ليست الاطلب اللمية فى أفعال الله تعالى وذلك لان الثنوية والمجوس وهم الذين أثبتوا الشريك لله تعالى قالوا رأينا فى العالم خيرا وشرا ولذة وألما وحياة وموتا وصحة وسقما وغنى وفقرا وفاعل الخير خير وفاعل الشر شرير ويستحيل أن يكون الفاعل الواحد خيرا وشريرا معا فلابد من فاعلين ليكون أحدهما فاعلا للخير والآخر فاعلا للشر ويرجع حاصل هذه الشبهة الى أن مدبر العالم لو كان واحدا لما خص هذا بالحياة والصحة والغنى وخص ذلك بالموت والألم والفقر فيرجع حاصله الى طلب اللمية فى أفعال الله تعالى فلما كان مدار أمر القائلين بالشريك على طلب اللمية لاجرم انه سبحانه وتعالى بعد أن ذكر الدليل على التوحيد ذكر ما هو النكتة الاصلية فى الجواب عن شبهة القائلين بالشريك لان الترتيب الجيد فى المناظرة أن يقع الابتداء بذكر الدليل المثبت للمطلوب ثم يذكر بعده ما هو الجواب عن شبهة الخصم (المسئلة الثانية) فى الدلالة على انه سبحانه لايسأل عما يفعل أما أهل السنة فانهم استدلوا عليه بوجوه (أحدها) انه لو كان كل شئ معللا بعلة لكانت علية تلك العلة معللة بعلة أخرى ويلزم التسلسل فلابد فى قطع التسلسل من الانتهاء الى ما يكون غنيا عن العلة وأولى الاشياء بذلك ذات الله تعالى وصفاته وكما ان ذاته منزهة عن الافتقار الى المؤثر والعلة وصفاته مبرأة عن الافتقار الى المبدع والمخصص فكذا فاعليته يجب أن تكون مقدسة عن الاستناد الى الموجب والمؤثر (وثانيها) ان فاعليته لو كانت معللة بعلة لكانت تلك العلة اما أن تكون واجبة أو ممكنة فان كانت واجبة لزم من وجوبها وجوب كونه فاعلا وحينئذ يكون موجبا بالذات لافاعلا بالاختيار وان كانت ممكنة كانت تلك العلة فعلا لله تعالى أيضا فتفتقر فاعليته لتلك العلة الى علة أخرى ولزم التسلسل وهو محال (وثالثها) ان علة فاعلية الله تعالى للعالم ان كانت قديمة لزم أن تكون فاعليته للعالم قديمة فيلزم قدم العالم وان كانت محدثة افتقرت الى علة أخرى ولزم التسلسل (ورابعها) ان من فعل فعلا لغرض فاما أن يكون متمكنا من تحصيل ذلك الغرض بدون تلك الواسطة أو لايكون متمكنا منه فان

مبدأ لوجود الانسان وسببا لمعاشه ودليلا يقوده الى تحصيل معرفتنا التى هى الغاية القصوى بواسطة طاعتنا وعبادتنا كما ينطق به قوله تعالى وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا وقوله تعالى وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون وقوله تعالى (لو أردنا أن نتخذ لهوا) استئناف مقرر لما قبله من انتفاء اللعب واللهو أى لو أردنا أن نتخذ ما يتلهى به ويلعب (لاتخذناه من لدنا) أى من جهة قدرتنا أو من عندنا مما يليق بشأننا من المجردات لامن الاجسام المرفوعة والاجرام الموضوعة كديدن الجبابرة فى رفع العروش وتحسينها وتسوية الفروش وتزيينها لكن يستحيل ارادتنا له لمنافاته الحكمة فيستحيل اتخاذنا له قطعا وقوله تعالى (ان كنا فاعلين) جوابه محذوف ثقة بدلالة ماقبله عليه اى ﴿ كان ﴾ ان كنا فاعلين لاتخذناه وقيل ان نافية أى ما كنا فاعلين أى لاتخاذ اللهو لعدم ارادتنا اياه فيكون بيانا لانتفاء التالى لانتفاء المقدم اولارادة اتخاذه

فيكون بيانا لانتفاء المقدم المستلزم لانتفاء التالي وقيل اللهو الولد بلغة اليمن وقيل الزوجة والمراد الرد على النصارى ولا يخفى بعده (بل نقذف بالحق على الباطل) اضراب عن اتخاذ اللهو بل عن ارادته كأنه قيل لكنا لا نريده بل شأننا أن نغلب الحق الذي من جملته الجد على الباطل الذي من قبيله اللهو وتخصيص شأنه هذا من بين سائر شؤنه تعالى بالذكر للتخلص الى ما سيأتي من الوعيد (فيدمغه) ﴿ ١٣٩ ﴾ اي يمحقه بالكلية كما فعلنا بأهل القرى المحكية وقد

كان متمكنا منه كان توسط تلك الواسطة عبثا وان لم يكن متمكنا منه كان عاجزا والعجز على الله تعالى محال أما العجز علينا فغير ممتنع فلذلك كانت أفعالنا معللة بالاغراض وكل ذلك في حق الله تعالى محال (وخامسها) انه لو كان فعله معللا بغرض لكان ذلك الغرض اما أن يكون عائدا الى الله تعالى أو الى العباد والاول محال لانه منزه عن النفع والضرر واذا بطل ذلك تعين ان الغرض لا بد وان يكون عائدا الى العباد ولا غرض للعباد الا حصول اللذات وعدم حصول الآلام والله تعالى قادر على تحصيلها ابتداء من غير شيء من الوسايط واذا كان كذلك استحال أن يفعل شيئا لاجل شيء (وسادسها) هو انه لو فعل فعلا لغرض لكان وجود ذلك الغرض وعدمه بالنسبة اليه اما أن يكون على السواء أو لا يكون فان كان على السواء استحال أن يكون غرضا وان لم يكن على السواء لزم كونه تعالى ناقصا بذاته كاملا بغيره وذلك محال فان قلت وجود ذلك الغرض وعدمه وان كان بالنسبة اليه على السواء اما بالنسبة الى العباد فالوجود أولى من العدم قلنا تحصيل تلك الاولوية للعبد وعدم تحصيلها له اما أن يكون بالنسبة اليه على السوية أو لا على السوية ويعود التقسيم الاول (وسابعها) وهو ان الموجود اما هو سبحانه أو ملكه وملكه ومن تصرف في ملك نفسه لا يقال له لم فعلت ذلك (وثامنها) وهو ان من قال لغيره لم فعلت ذلك فهذا السؤال انما يحسن حيث يحتمل أن يقدر السائل على منع المسؤل منه عن فعله وذلك من العبد في حق الله تعالى محال فانه لو فعل أي فعل شاء فالعبد كيف يمنعه عن ذلك اما بان يهدده بالعقاب والايلام وذلك على الله تعالى محال أو بأن يهدده باستحقاق الذم والخروج عن الحكمة والاتصاف بالسفاهة على ما يقوله المعتزلة وذلك أيضا محال لان استحقاقه للمدح واتصافه بصفات الحكمة والجلال أمور ذاتية له وما ثبت للشيء لذاته يستحيل أن يتبدل لاجل تبدل الصفات العرضية الخارجية فثبت بهذه الوجوه انه لا يجوز أن يقال لله في افعاله لم فعلت هذا الفعل فان كل شيء صنعه ولا علة لصنعه وأما المعتزلة فانهم سلموا انه لا يجوز أن يقال لله لم فعلت هذا الفعل ولكنهم بنوا ذلك على أصل آخر وهو انه تعالى عالم بقبح القبائح وعالم بكونه غنيا عنها ومن كان كذلك فانه يستحيل أن يفعل القبيح واذا عرفنا ذلك عرفنا اجمالا ان كل ما يفعله الله تعالى فهو حكمة وصواب واذا كان كذلك لم يجز للعبد أن يقول لله لم فعلت هذا (أما البحث الثاني) وهو قوله تعالى وهم يسألون فهذا يدل على كون المكلفين مسؤلين عن أفعالهم وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) ان الكلام في هذا السؤال اما في الامكان العقلي أو في الوقوع السمعي أما الامكان العقلي فالخلاف فيه مع منكري التكاليف واحتجوا على قولهم بوجوه (أحدها) قالوا التكليف اما أن يتوجه على العبد حال استواء داعيته الى الفعل والترك أو حال رجحان أحدهما على الآخر والاول محال لان حال الاستواء يمتنع الترجيح وحال امتناع الترجيح يكون التكليف بالترجيح تكليفا بالمحال والثاني محال لان حال الرجحان يكون الراجح واجب الوقوع والمرجوح ممتنع الوقوع

استعير لايراد الحق على الباطل القذف الذي هو الرمي الشديد بالجرم الصلب كالصخرة ولمحقه للباطل الدمغ الذي هو كسر الشيء الرخو الاجوف وهو الدماغ بحيث يشق غشاءه المؤدي الى زهوق الروح تصويرا له بذلك وقرئ فيدمغه بالنصب وهو ضعيف وقرئ فيدمغه بضم الميم (فاذا هو زاهق) أي ذاهب بالكلية وفي اذا الفجائية والجملة الاسمية من الدلالة على كمال المسارعة في الذهاب والبطلان مالا يخفى فكأنه زاهق من الاصل (ولكم الويل مما تصفون) وعيد لقريش بأن لهم أيضا مثل ما لأولئك من العذاب والعقاب ومن تعليلية متعلقة بالاستقرار الذي تعلق به الخبر أو بمحذوف هو حال من الويل أو من ضميره في الخبر وما اما مصدرية أو موصولة أو موصوفة أي واستقر لكم الويل والهلاك من أجل وصفكم له سبحانه بما لا يليق بشأنه الجليل أو بالذي تصفونه أو بشيء تصفونه به من الولد أو كائنا مما تصفونه تعالى به (وله من في السموات والارض) استئناف مقرر لما قبله من خلقه تعالى لجميع مخلوقاته على حكمة

بالغة ونظام كامل وأنه تعالى يحق الحق ويزهق الباطل أي له تعالى خاصة جميع المخلوقات خلقا وملكا وتدبيرا وتصرفا واحياء واماتة وتعذيبا واثابة من غير أن يكون لاحد في ذلك دخل ما استقلالا أو استتباعا (ومن عنده) وهم الملائكة عليهم السلام عبر عنهم بذلك اثر ما عبر عنهم بمن في السموات تنزيلا لهم لكرامتهم عليه عز وعلا وزلفاهم عنده منزلة المقربين عند الملوك بطريق التمثيل وهو مبتدأ خبره ﴿ ١٤٠ ﴾ (لا يستكبرون عن عبادته) أي لا يتعظمون

والتكليف بايقاع ما يكون واجب الوقوع عبث وبايقاع ما هو ممتنع الوقوع تكليف بما لا يطاق (الاول) قالوا كل ما علم الله وقوعه فهو واجب الوقوع فيكون التكليف به عبثا وكل ما علم الله تعالى عدمه كان ممتنع الوقوع فيكون التكليف به تكليفا بما لا يطاق (والثاني) قالوا سؤال العبد اما أن يكون لفائدة أو لا لفائدة فان كان لفائدة فتلك الفائدة ان عادت الى الله تعالى كان محتاجا وهو محال وان عادت الى العبد فهو محال لان سؤاله لما كان سببا لتوجيه العقاب عليه لم يكن هذا نفعا عائدا الى العبد بل ضررا عائدا اليه وان لم يكن في السؤال فائدة كان عبثا وهو غير جائز على الحكيم بل كان اضرارا وهو غير جائز على الرحيم والجواب عنها من وجهين (الاول) ان غرضكم من ايراد هذه الشبهة النافية للتكليف أن تلزمونا نفي التكليف فكأنكم تكلفونا بنفي التكليف وهو متناقض (والثاني) وهو ان مدار كلامكم في هذه الشبهات على حرف واحد وهو ان التكاليف كلها تكاليف بما لا يطاق فلا يجوز من الحكيم أن يوجبها على العباد فيرجع حاصل هذه الشبهات الى انه يقال له تعالى لم كلفت عبادك الا انا قد بينا انه سبحانه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون فظهر بهذا ان قوله لا يسأل عما يفعل كالاصل والقاعدة لقوله وهم يسألون فتأمل في هذه الدقائق العجيبة لتقف على طرف من اسرار علم القرآن واما الوقوع السمعي فللقائل أن يقول ان قوله وهم يسألون وان كان متأكدا بقوله فوربك لنسألنهم أجمعين و بقوله وقفوهم انهم مسؤلون الا انه يناقضه قوله فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جان والجواب ان يوم القيامة يوم طويل وفيه مقامات فيصرف كل واحد من السلب والايجاب الى مقام آخر دفعا للتناقض (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة فيه وجوه (أحدها) انه تعالى لو كان هو الخالق للحسن والقبيح لوجب أن يسأل عما يفعل بل كان يذم بما حقه الذم كما يحمد بما حقه المدح (وثانيها) أنه كان يجب أن لا يسأل عن الامور اذا كان لا فاعل سواه (وثالثها) انه كان لا يجوز أن يسألوا عن عملهم اذ لا عمل لهم (ورابعها) ان أعمالهم لا يمكنهم ان يعدلوا عنها من حيث خلقها وأوجدها فيهم (وخامسها) انه تعالى صرح في كثير من المواضع بأنه يقبل حجة العباد عليه كقوله رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وهذا يقتضي ان لهم عليه الحجة قبل بعثة الرسل وقال ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ونظائر هذه الآيات كثيرة وكلها تدل على ان حجة العبد متوجهة على الله تعالى (وسادسها) قال ثمامة اذا وقف العبد يوم القيامة فيقول الله تعالى ما حملك على معصيتي فيقول على مذهب الجبر يا رب انك خلقتني كافرا وأمرتني بما لا أقدر عليه وحلت بيني و بينه ولا شك انه على مذهب الجبر يكون صادقا وقال الله تعالى هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم فوجب أن ينفعه هذا الكلام فقيل له ومن يدعه يقول هذا الكلام او يحتج فقال ثمامة ألبس اذا منعه الله الكلام والحجة فقد علم انه منعه مما لو لم يمنعه منه

عنها ولا يعدون انفسهم كبيرا (ولا يستحسرون) و لا يكلون ولا يعيون وصيغة الاستفعال المنبئة عن المبالغة في الحسور للتنبيه على أن عباداتهم يثقلها ودوامها حقيقة بأن يستحسر منها ومع ذلك لا يستحسرون لا لافادة نفي المبالغة في الحسور مع ثبوت أصله في الجملة كما أن نفي الظلامية في قوله تعالى وما أنا بظلام للعبيد لافادة كثرة الظلم المفروض تعلقه بالعبيد لا لافادة نفي المبالغة في الظلم مع ثبوت أصل الظلم في الجملة وقيل من عنده معطوف على من الاولى وافرادهم بالذكر مع دخولهم في من في السموات والارض للتعظيم كما في قوله تعالى وجبريل وميكال فقوله تعالى لا يستكبرون حينئذ حال من من الثانية (يسبحون الليل والنهار) أي ينزهونه في جميع الاوقات و يعظمونه و يمجدونه دائما و هو استئناف وقع جوابا عما نشأ مما قبله كأنه قيل ماذا يصنعون في عباداتهم أو كيف يعبدون فقيل يسبحون الخ أو حال من فاعل يستحسرون وكذا قوله ﴿ لا تقطع ﴾ تعالى (لا يفترون) أي لا يتخلل تسبيحهم فترة أصلا

بفراغ أو بشغل آخر (ام اتخذوا آلهة) حكاية لجناية أخرى من جناياتهم بطريق الاضراب والانتقال من فن الى فن آخر من التوبيخ اثر تحقيق الحق ببيان انه تعالى خلق جميع المخلوقات على منهاج الحكمة وأنهم فاطبة تحت ملكوته وقهره وأن عباده مذعنون لطاعته ومثابرون على عبادته منزهون له عن كل مالا يليق بشأنه من الامور التي من جملتها الانداد ومعنى الهمزة في أم المنقطعة انكار ﴿ ١٤١ ﴾ الوقوع لا انكار الواقع وقوله تعالى (من الارض)

لانقطع في بده وهذا نهاية الانقطاع (والجواب) عن هذه الوجوه انها معارضة بمسئلة الداعي وامثلة العلم ثم بالوجوه الثمانية التي بيناقيها انه يستحيل طلب علية أفعال الله تعالى وأحكامه وأما قوله تعالى أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم فاعلم انه سبحانه كرر قوله أم اتخذوا من دونه آلهة استعظاما لكفرهم أي وصفتم الله بأن له شريكا فهاتوا برهانكم على ذلك اما من جهة العقل أو من جهة النقل فانه سبحانه لما ذكر دليل التوحيد أولا وقرر الاصل الذي عليه تخرج شبهات القائلين بالتثنية ثانيا أخذ يطالبهم بذكر شبهتهم ثالثا أما قوله تعالى هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) في تفسيره وفيه أقوال (أحدها) هذا ذكر من معي أي هذا هو الكتاب المنزل على من معي وهذا ذكر من قبلي أي الكتاب المنزل على من تقدمني من الانبياء وهو التوراة والانجيل والزبور والصحف وليس في شئ منها أني أذنت بأن تتخذوا الها من دوني بل ليس فيها الا اني أنا الله لا اله الا أنا كما قال بعد هذا وما أرسلنا من قبلك من رسول الا يوحى اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون وهذا قول ابن عباس واختيار القفال والزجاج (الثاني) وهو قول سعيد ابن جبير وقتادة ومقاتل والسدي ان قوله وذكر من قبلي صفة للقرآن فانه كما يشتمل على أحوال هذه الامة فكذا يشتمل على أحوال الامم الماضية (الثالث) ما ذكره القفال وهو ان المعنى قل لهم هذا الكتاب الذي جئتكم به قد اشتمل على بيان أحوال من معي من المخالفين والموافقين وعلى بيان أحوال من قبلي من المخالفين والموافقين فاختار والانفسكم كان الغرض منه التهديد (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف قرئ هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بالتنوين ومن مفعول منصوب بالذكر كقوله أو اطعام في يوم ذي مسغبة يتيما وهو الاصل والاضافة من اضافة المصدر الى المفعول كقوله غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون وقرئ من معي ومن قبلي بكسر ميم من على ترك الاضافة في هذه القراءة وادخال الجار على مع غريب والعذر فيه أنه اسم هو ظرف بحو قبل وبعد فدخل من عليه كما يدخل على اخواته وقرئ ذكر معي وذكر قبلي وأما قوله بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) انه سبحانه لما ذكر دليل التوحيد وطالبهم بالدلالة على ما ادعوه وبين انه لا دليل لهم البتة عليه لا من جهة العقل ولا من جهة السمع ذكر بعده أن وقوعهم في هذا المذهب الباطل ليس لاجل دليل ساقهم اليه بل ذلك لان عندهم ما هو أصل الشر والفساد كله وهو عدم العلم ثم ترتب على عدم العلم الاعراض عن استماع الحق وطلبه (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف قرئ الحق بالرفع على توسطا لتوكيد بين السبب والمسبب والمعنى ان اعراضهم بسبب الجهل هو الحق لا الباطل أما قوله تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه لا اله الا أنا فاعبدون فاعلم ان يوحى ونوحي قراءتان مشهورتان وهذه الآية مقررة لما سبقها من آيات التوحيد ﴿ قوله تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم

متعلق باتخذوا أو بمحذوف هو صفة لآلهة وأيا ما كان فالمراد هو التحقير لا التخصيص وقوله تعالى (هم ينشرون) أي يبعثون الموتى صفة لآلهة وهو الذي يدور عليه الانكار والتجهيل والتشنيع لا نفس الاتخاذ فانه واقع لا محالة أي بل اتخذوا آلهة من الارض هم خاصة مع حقارتهم وجمادتهم ينشرون الموتى كلا فان ما اتخذوها آلهة بمعزل من ذلك وهم وان لم يقولوا بذلك صريحا لكنهم حيث ادعوا لها الانشار ضرورة أنه من الخصائص الالهية حتما ومعنى التخصيص في تقديم الضمير ما أشير اليه من التنبيه على كمال مباينة حالهم للانشار الموجبة لمزيد الانكار كما في قوله تعالى أفي الله شك وقوله تعالى أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن فان تقديم الجار والمجرور للتنبيه على كمال مباينة أمره تعالى لان يشك فيه ويستهزأ به ويجوز

أن يجعل ذلك من مستتبعات ادعائهم الباطل لان الالوهية مقتضية للاستقلال بالابداء والاعادة فحيث ادعوا للاصنام الالهية

فكأنهم ادعوا لها الاستقلال بالانشار كأنهم جعلوا بذلك مدعين لاصل الانشار (لوكان فيهما آلهة الا الله) ابطال لتعدد الاله باقامة البرهان على انتفائه بل على استحالته وايراد الجمع لوروده اثر انكار اتخاذ الالهة لالان للجمعية مدخلا فى الاستدلال وكذا فرض كونها فيهما والا بمعنى غير على أنها صفة لآلهة ولامساغ للاستثناء لاستحالة شمول ماقبلها لما بعدها وافضائه الى ﴿ ١٤٢ ﴾ فساد المعنى لدلالته حينئذ على أن الفساد لكونها

فيهما بدونه تعالى ولالرفع على البدل لانه متفرع على الاستثناء ومشروط بأن يكون فى كلام غير موجب أى لوكان فى السموات والارض آلهة غير الله كما هو اعتقادهم الباطل (لفسدتا) أى لبطلتا بما فيهما جميعا وحيث انتفى التالى علم انتفاء المقدم قطعا بيان الملازمة أن الالهية مستلزمة للقدرة على الاستبداد بالتصرف فيهما على الاطلاق تغييرا وتبديلا وايجادا واعداما واحياء واماتة فبقاؤهما على ما هما عليه اما بتأثير كل منها وهو محال لاستحالة وقوع المعلول المعين بعلل متعددة واما بتأثير واحد منها فالباقى بمعزل من الالهية قطعا واعلم أن جعل التالى فسادهما بعد وجودهما لما أنه اعتبر فى المقدم تعدد الآلهة فيهما والا فالبرهان يقضى باستحالة التعدد على الاطلاق فانه لو تعدد الاله فان توافق الكل فى المراد تطاردت عليه القدر وان تخالفت تعاوقت فلا يوجد موجود أصلا وحيث انتفى التالى تعين انتفاء ﴿ الله ﴾ المقدم والفاء فى قوله تعالى (فسبحان الله) لترتيب مابعدها على ماقبلها

بامره يعملون يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولايشفعون الالمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزى الظالمين) اعلم انه سبحانه وتعالى لما بين بالدلائل الباهرة كونه منزها عن الشريك والضد والند أردف ذلك ببراءته عن اتخاذ الولد فقال وقالوا اتخذ الرحمن ولدا نزلت فى خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله وأضافوا الى ذلك انه تعالى صاهر الجن على ماحكى الله تعالى عنهم فقال وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ثم انه سبحانه وتعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله سبحانه لان الولد لابد وان يكون شبيها بالوالد فلو كان لله ولد لاشبهه من بعض الوجوه ثم لابد وان يخالفه من وجه آخر وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيقع التركيب فى ذات الله سبحانه وتعالى وكل مركب ممكن فاتخاذه للولد يدل على كونه ممكنا غير واجب وذلك يخرجه عن حد الالهية ويدخله فى حد العبودية ولذلك نزه نفسه عنه أما قوله بل عباد مكرمون فاعلم انه سبحانه لما نزه نفسه عن الولد أخبر عنهم بأنهم عباد والعبودية تنافى الولادة الا أنهم مكرمون مفضلون على سائر العباد وقرئ مكرمون لايسبقونه من سابقته فسبقته أسبقه والمعنى انهم يتبعونه فى قوله ولا يقولون شيئا حتى يقوله فلا يسبق قولهم قوله وكما ان قولهم تابع لقوله فعملهم أيضا كذلك مبنى على أمره لايعملون عملا مالم يؤمروا به ثم انه سبحانه ذكر مايجرى مجرى السبب لهذه الطاعة فقال يعلم مابين أيديهم وماخلفهم والمعنى انهم لما علموا كونه سبحانه عالما بجميع المعلومات علموا كونه عالما بظواهرهم وبواطنهم فكان ذلك داعيا لهم الى نهاية الخضوع وكمال العبودية وذكر المفسرون فيه وجوها (أحدها) قال ابن عباس يعلم ماقدموا وما أخروا من أعمالهم (وثانيها) مابين أيديهم الآخرة وماخلفهم الدنيا وقيل على عكس ذلك (وثالثها) قال مقاتل يعلم ماكان قبل أن يخلقهم ومايكون بعد خلقهم وحقيقة المعنى انهم يتقلبون تحت قدرته فى ملكوته وهو محيط بهم واذا كانت هذه حالتهم فكيف يستحقون العبادة وكيف يتقدمون بين يدى الله تعالى فيشفعون لمن لم يأذن الله تعالى له ثم كشف عن هذا المعنى فقال ولايشفعون الالمن ارتضى أى لمن هو عند الله مرضى وهم من خشيته مشفقون أى من خشيتهم منه فاضيف المصدر الى المفعول ومشفقون خائفون ولايأمنون مكره وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج ساقطا كالحلس من خشية الله تعالى ونظيره قوله تعالى لايتكلمون الا من أذن له الرحمن أما قوله تعالى ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم فالمعنى أن كل من يقول من الملائكة ذلك القول فانا نجازى ذلك القائل بهذا الجزاء وهذا يدل على انهم قالوا ذلك أو ماقالوه وهو قريب من قوله تعالى لئن أشركت ليحبطن عملك وههنا مسائل (المسئلة الاولى) هذه الصفات تدل على العبودية وتنافى الولادة لوجوه (أحدها) انهم لما بالغوا فى الطاعة الى حيث لايقولون قولا ولايعملون عملا الا بامره فهذه صفات للعبيد لاصفات الاولاد (وثانيها) انه سبحانه لما كان عالما باسرار الملائكة وهم لايعلمون أسرار

من ثبوت الوحدانية بالبرهان أى فسبحوه سبحانه اللائق به ونزهوه عما لا يليق به من الامور التى من جملتها ان يكون له شريك فى الالوهية وايراد الجلالة فى موقع الاضمار للاشعار بعلة الحكم فان الالوهية مناط لجميع صفات كماله التى من جملتها تنزهه تعالى عما لا يليق به والتربية المهابة وادخال الروعة وقوله تعالى (رب العرش) صفة للاسم الجليل مؤكدة لتنزهه عز وجل (عما يصفون) متعلق بالتسبيح أى فسبحوه ﴿ ١٤٣ ﴾ عما يصفونه من أن يكون من دونه آلهة (لا يسئل عما يفعل)

الله تعالى وجب أن يكون الاله المستحق للعبادة هو لاهؤلاء الملائكة وهذه الدلالة هى نفس ماذكره عيسى عليه السلام فى قوله تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك (وثالثها) انهم لا يشفعون الا لمن ارتضى ومن يكن الها أوولدا للاله لا يكون كذلك (ورابعها) انهم على نهاية الاشفاق والوجل وذلك ليس الا من صفات العبيد (وخامسها) نبه تعالى بقوله ومن يقل منهم انى اله من دونه فذلك نجزيه جهنم على ان حالهم حال سائر العبيد المكلفين فى الوعد والوعيد فكيف يصح كونهم آلهة (المسئلة الثانية) احتجت المعتزلة بقوله تعالى ولا يشفعون الا لمن ارتضى على ان الشفاعة فى الآخرة لا تكون لاهل الكبائر لانه لا يقال فى أهل الكبائر ان الله يرتضيهم (والجواب) قال ابن عباس رضى الله عنهما والضحاك الا لمن ارتضى أى لمن قال لا اله الا الله واعلم ان هذه الآية من اقوى الدلائل لنا فى اثبات الشفاعة لاهل الكبائر وتقريره هو ان من قال لا اله الا الله فقد ارتضاه تعالى فى ذلك ومتى صدق عليه انه ارتضاه الله تعالى فى ذلك فقد صدق عليه انه ارتضاه الله لان المركب متى صدق فقد صدق لا محالة كل واحد من أجزائه واذا ثبت ان الله قد ارتضاه وجب اندراجه تحت هذه الآية فثبت بالتقرير الذى ذكرناه ان هذه الآية من أقوى الدلائل لنا على ماقرره ابن عباس رضى الله عنهما (المسئلة الثالثة) هذه الآية تدل على أمور ثلاثة (أحدها) تدل على كون الملائكة مكلفين من حيث قال لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون وهم من خشيته مشفقون ومن حيث الوعيد (وثانيها) تدل أيضا على ان الملائكة معصومون لانه قال وهم بأمره يعملون (وثالثها) قال القاضى عبد الجبار قوله كذلك نجزى الظالمين يدل على ان كل ظالم يجزيه الله جهنم كما توعد الملائكة به وذلك يوجب القطع على انه تعالى لا يغفر لاهل الكبائر فى الاخرة (والجواب) أقصى مافى الباب ان هذا العموم مشعر بالوعيد وهو معارض بعمومات الوعد ﴿ قوله تعالى (أولم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شئ حى أفلا يؤمنون وجعلنا فى الارض رواسى أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون) اعلم انه سبحانه وتعالى شرع الآن فى الدلائل الدالة على وجود الصانع وهذه الدلائل أيضا دالة على كونه منزها عن الشريك لانها دالة على حصول الترتيب العجيب فى العالم ووجود الالهين يقتضى وقوع الفساد فهذه الدلائل تدل من هذه الجهة على التوحيد فتكون كالتوكيد لما تقدم وفيها أيضا رد على عبدة الاوثان من حيث ان الاله القادر على مثل هذه المخلوقات الشريفة كيف يجوز فى العقل أن يعدل عن عبادته الى عبادة حجر لا يضر ولا ينفع فهذا وجه تعلق هذه الآية بما قبلها واعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر ههنا ستة أنواع من الدلائل (النوع الاول) قوله أولم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ

استئناف ببيان انه تعالى لقوة عظمته وعزة سلطانه القاهر بحيث ليس لاحد من مخلوقاته أن يناقشه ويسأله عما يفعل من أفعاله اثر بيان أن ليس له شريك فى الالهية (وهم) اى العباد (يسئلون) عما يفعلون تقريرا وتقرير لانهم مملوكون له تعالى مستعبدون ففيه وعيد للكفرة (أم اتخذوا من دونه آلهة) اضراب وانتقال من اظهار بطلان كون ما اتخذوه الهة آلهة حقيقة باظهار خلوها عن خصائص الالهية التى من جملتها الانشار واقامة البرهان القاطع على استحالة تعدد الاله على الاطلاق وتفرده سبحانه بالالوهية الى اظهار بطلان اتخاذهم تلك الآلهة مع عراتها عن تلك الخصائص بالمرة شركاء لله عز سلطانه وتبكيتهم بالجائهم الى اقامة البرهان على دعواهم الباطلة وتحقيق

أن جميع الكتب السماوية ناطقة بحقية التوحيد وبطلان الاشراك والهمزة لانكار الاتخاذ المذكور واستقباحه واستعظامه ومن متعلقة باتخذوا والمعنى بل اتخذوا متجاوزين اياه تعالى مع ظهور شؤنه الجليلة الموجبة لتفرده بالالوهية آلهة مع ظهور خلوهم عن خواص الالوهية بالكلية

(قل) لهم بطريق التبكيت والقام الحجر (هاتوا برهانكم) على ماتدعونه من جهة العقل والنقل فانه لاصحة لقول لادليل عليه فى الامور الدينية لاسيما فى مثل هذا الشأن الخطير ومافى اضافة البرهان الى ضميرهم من الاشعار بأن لهم برهانا ضرب من التهكم بهم وقوله تعالى (هذا ذكر من معى وذكر من قبلى) اثارة لبرهانه واشارة الى أنه مما نطقت به الكتب الالهية قاطبة وشهدت به ألسنة الرسل المتقدمة كافة وزيادة تهييج لهم ﴿ ١٤٤ ﴾ على اقامة البرهان لاظهار كمال عجزهم

أى هذا الوحى الوارد فى شأن التوحيد المتضمن للبرهان القاطع العقلى ذكر أمتى أى عظتهم وذكر الامم السالفة قد أقته فأقيموا أنتم أيضا برهانكم وقيل المعنى هذا كتاب أنزل على امتى وهذا كتاب انزل على أمم الانبياء عليهم السلام من الكتب الثلاثة والصحف فراجعوها وانظروا هل فى واحد منها غير الامر بالتوحيد والنهى عن الاشراك ففيه تبكيت لهم متضمن لاثبات نقيض مدعاهم وقرئ بالتنوين والاعمال كقوله تعالى أو اطعام فى يوم ذى مسغبة يتيما وبه وبمن الجارة على أن مع اسم هو ظرف كقبل وبعد وقوله تعالى (بل أكثرهم لايعلمون الحق) اضراب من جهته تعالى غير داخل فى الكلام الملقن وانتقال من الامر بتبكيتهم بمطالبة البرهان الى بيان أنه لاينجع فيهم المحاجة باظهار حقية الحق وبطلان الباطل فان اكثرهم لايفهمون الحق ولايميزون بينه وبين الباطل (فهم) لاجل ذلك (معرضون) أى ﴿ ومجاهد ﴾ مستمرون على الاعراض عن التوحيد واتباع الرسول لايرعوون عما هم عليه من الغى والضلال وان كررت عليهم البينات والحجج أو معرضون عما القى عليهم من البراهين العقلية والنقلية

ابن كثير ألم بغير الواو والباقون بالواو وادخال الواو يدل على العطف لهذا القول على أمر تقدمه قال صاحب الكشاف قرئ رتقا بفتح التاء وكلاهما فى معنى المفعول كالخلق والنفض أى كانتا مرتوقتين فان قلت الرتق صالح أن يقع موقع مرتوقتين لانه مصدر فمابال الرتق قلت هو على تقدير موصوف أى كانتا شيئا رتقا (المسئلة الثانية) لقائل أن يقول المراد من الرؤية فى قوله تعالى أولم ير الذين كفرا اما الرؤية واما العلم والاول مشكل أما أولا فلان القوم مارأوهما كذلك البتة وأما ثانيا فلقوله سبحانه وتعالى ماأشهدتهم خلق السموات والارض وأما العلم فمشكل لان الاجسام قابلة للفتق والرتق فى أنفسها فالحكم عليها بالرتق أولا وبالفتق ثانيا لاسبيل اليه الا السمع والمناظرة مع الكفار الذين ينكرون الرسالة فكيف يجوز التمسك بمثل هذا الاستدلال (والجواب) المراد من الرؤية هو العلم وماذكروه من السؤال فدفعه من وجوه (أحدها) انا اثبتنا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بسائر المعجزات ثم نستدل بقوله ثم نجعله دليلا على حصول النظام فى العالم وانتفاء الفساد عنه وذلك يؤكد الدلالة المذكورة فى التوحيد (وثانيها) ان يحمل الرتق والفتق على امكان الرتق والفتق والعقل يدل عليه لان الاجسام يصح عليها الاجتماع والافتراق فاختصاصها بالاجتماع دون الافتراق أو بالعكس يستدعى مخصصا (وثالثها) ان اليهود والنصارى كانوا عالمين بذلك فانه جاء فى التوراة أن الله تعالى خلق جوهرة ثم نظر اليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم خلق السموات والارض منها وفتق بينهما وكان بين عبدة الاوثان وبين اليهود نوع صداقة بسبب الاشتراك فى عداوة محمد صلى الله عليه وسلم فاحتج الله تعالى عليهم بهذه الحجة بناء على انهم يقبلون قول اليهود فى ذلك (المسئلة الثالثة) انما قال كانتا رتقا ولم يقل كن رتقا لان السموات لفظ الجمع والمراد به الواحد الدال على الجنس قال الاخفش السموات نوع والارض نوع وقاله ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا ومن ذلك قولهم أصلحنا بين القومين ومررت بنا غنمان اسودان لان هذا القطيع غنم وذلك غنم (المسئلة الرابعة) الرتق فى اللغة السد يقال رتقت الشئ فارتتق والفتق الفصل بين الشيئين الملتصقين قال الزجاج الرتق مصدر والمعنى كانتا ذواتى رتق قال المفضل انما لم يقل كانتا رتقين كقوله وماجعلناهم جسدا لايأكلون الطعام لان كل واحد جسد كذلك فيما نحن فيه كل واحد رتق (المسئلة الخامسة) اختلف المفسرون فى المراد من الرتق والفتق على أقوال (أحدها) وهو قول الحسن وقتادة وسعيد بن جبير ورواية عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهم ان المعنى كانتا شيئا واحدا ملزقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء الى حيث هى وأقر الارض وهذا القول يوجب ان خلق الارض مقدم على خلق السماء لانه تعالى لما فصل بينهما ترك الارض حيث هى وأصعد الاجزاء السماوية قال كعب خلق الله السموات والارض ملتصقتين ثم خلق ريحا توسطتهما ففتقتهما بها (وثانيها) وهو قول أبى صالح

وقرئ الحق بالرفع على انه خبر مبتدا محذوف وسط بين السبب والمسبب تأكيدا للسببية وقوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه أنه ﴿ ١٤٥ ﴾ لا اله الا أنا فاعبدون) استئناف مقرر لما أجمل فيما قبله من كون

ومجاهد ان المعنى كانت السموات مرتتقة فجعلت سبع سموات وكذلك الارضون (وثالثها) وهو قول ابن عباس والحسن وأكثر المفسرين ان السموات والارض كانتا رتقا بالاستواء والصلابة ففتق الله السماء بالمطر والارض بالنبات والشجر ونظيره قوله تعالى والسماء ذات الرجع والارض ذات الصدع ورجحوا هذا الوجه على سائر الوجوه بقوله بعد ذلك وجعلنا من الماء كل شئ حي وذلك لا يليق الا والماء تعلق بما تقدم ولا يكون كذلك الا اذا كان المراد ما ذكرناه فان قيل هذا الوجه مرجوح لان المطر لا ينزل من السموات بل من سماء واحدة وهي سماء الدنيا قلنا انما أطلق عليه لفظ الجمع لان كل قطعة منها سماء كما يقال ثوب اخلاق و برمة اعشار واعلم ان على هذا التأويل يجوز حمل الرؤية على الابصار (ورابعها) قول أبي مسلم الاصفهاني يجوز أن يراد بالفتق الايجاد والاظهار كقوله فاطر السموات والارض وكقوله قال بل ربكم رب السموات والارض الذي فطرهن فأخبر عن الايجاد بلفظ الفتق وعن الحال قبل الايجاد بلفظ الرتق أقول وتحقيقه أن العدم نفي محض فليس فيه ذوات ممتازة وأعيان متباينة بل كأنه أمر واحد متصل متشابه فاذا وجدت الحقائق فعند الوجود والتكون يتميز بعضها عن بعض وينفصل بعضها عن بعض فهذا الطريق حسن جعل الرتق مجازا عن العدم والفتق عن الوجود (وخامسها) ان الليل سابق على النهار لقوله تعالى وآية لهم الليل نسلخ منه النهار وكانت السموات والارض مظلمة أولا ففتقهما الله تعالى باظهار النهار المبصر فان قيل فأي الاقاويل أليق بالظاهر قلنا الظاهر يقتضي ان السماء على ما هي عليه والارض على ما هي عليه كانتا رتقا ولا يجوز كونهما كذلك الا وهما موجود ان والرتق ضد الفتق فاذا كان الفتق هو المفارقة فالرتق يجب أن يكون هو الملازمة و بهذا الطريق صار الوجه الرابع والخامس مرجوحا و يصير الوجه الاول اولى الوجوه و يتلوه الوجه الثاني وهو ان كل واحد منهما كان رتقا ففتقهما بان جعل كل واحد منهما سبعا و يتلوه الثالث وهو انهما كانا صلبين من غير فطور وفرج ففتقهما ليتزل المطر من السماء ويظهر النبات على الارض (المسئلة السادسة) دلالة هذه الوجوه على اثبات الصانع وعلى وحدانيته ظاهرة لان أحدا لا يقدر على مثل ذلك والاقرب انه سبحانه خلقهما رتقا لما فيه من المصلحة للملائكة ثم لما أسكن الله الارض أهلها جعلهما فتقا لما فيه من منافع العباد (النوع الثاني من الدلائل) قوله تعالى وجعلنا من الماء كل شئ حي أفلا يؤمنون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف قوله وجعلنا لا يخلو ما ان يتعدى الى واحد او اثنين فان تعدى الى واحد فالمعنى خلقنا من الماء كل حيوان كقوله والله خلق كل دابة من ماء أو كأنما خلقناه من الماء لفرط احتياجه اليه وحبه له وقلة صبره عنه كقوله خلق الانسان من عجل وان تعدى الى اثنين فالمعنى صيرنا كل شئ حي بسبب من الماء لا بد له منه ومن هذا نحو من في قوله عليه السلام ما أنا من دد ولا الدد مني وقرئ حيا وهو المفعول الثاني

النوحيد مما نطقت به الكتب الالهية وأجمعت عليه الرسل عليهم السلام وقرئ يوحى على صيغة الغائب مبنيا للمفعول وأيا ما كان فصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارا لصورة الوحي (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) حكاية لجناية فريق من المشركين جئ بها لاظهار بطلانها وبيان تنزهه تعالى عن ذلك اثر بيان تنزهه سبحانه عن الشركاء على الاطلاق وهم حي من خزاعة يقولون الملائكة بنات الله تعالى ونقل الواحدي أن قريشا وبعض أجناس العرب جهينة وبني سلمة وخزاعة وبني مليح يقولون ذلك والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن كون جميع ما سواه تعالى مربوبا له تعالى نعمة أو منعما عليه لا براز كمال شناعة مقالتهم الباطلة (سبحانه) أي تنزه بالذات تنزهه اللائق به على أن السبحان ﴿ ١٩ ﴾ س مصدر من سبح أي بعد أو أسبحه تسبيحة على انه علم للتسبيح وهو مقول على السنة العباد أو سبحوه تسبيحه وقوله تعالى (بل عباد) اضراب وابطال لما قالوه كأنه قيل ليست الملائكة كما قالوا بل هم عباد له تعالى (مكرمون) مقربون عنده وقرئ مكرمون بالتشديد وفيه تنبيه على منشأ غلط القوم

وقوله تعالى (لايسبقونه بالقول) صفة أخرى لعباد منبئة عن كمال طاعتهم وانقيادهم لامره تعالى أى لايقولون شيئا حتى يقوله تعالى أو يأمرهم به وأصله لايسبق قولهم ﴿ ١٤٦ ﴾ ﴿ قوله تعالى فاسند السبق اليهم منسوبا اليه تعالى تنزيلا لسبق قولهم قوله تعالى منزلة سبقهم اياه تعالى لمزيد تنزيههم عن ذلك وللتنبيه على غاية استهجان السبق المعرض به للذين يقولون مالا يقوله الله تعالى وجعل القول محلا للسبق واداة له ثم أنيب اللام عن الاضافة للاختصار والتجافى عن التكرار وقرئ لايسبقونه بضم الياء من سابقته فسبقته أسبقه وفيه مزيد استهجان للسبق واشعار بأن من سبق قوله قوله تعالى فقد تصدى لمغالبته تعالى فى السبق فسبقه فغلبه والعياذ بالله تعالى وزيادة تنزيه لهم عما نفى عنهم ببيان أن ذلك عندهم بمنزلة الغلبة بعد المغالبة فانى يتوهم صدوره عنهم (وهم بأمره يعملون) بيان لتبعيتهم له تعالى فى الاعمال اثر بيان تبعيتهم له تعالى فى الاقوال فان نفى سبقهم له تعالى بالقول عبارة عن تبعيتهم له تعالى فيه كأنه قيل هم بامره يقولون وبأمره يعملون لا بغير امره أصلا فالقصر المستفاد من تقديم الجار معتبر بالنسبة الى غير أمره لا الى أمر غيره (يعلم مابين أيديهم وماخلفهم) استئناف وقع تعليلا لما قبله ﴿ يدل ﴾ وتمهيدا لما بعده فانهم لعلمهم باحاطته تعالى بما قدموا وأخروا من الاقوال والاعمال لايزالون يراقبون أحوالهم فلا يقدمون

(المسئلة الثانية) لقائل أن يقول كيف قال وخلقنا من الماء كل حيوان وقد قال والجان خلقناه من قبل من نار السموم وجاء فى الاخبار ان الله تعالى خلق الملائكة من النور قال تعالى فى حق عيسى عليه السلام واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى وقال فى حق آدم خلقه من تراب (والجواب) اللفظ وان كان عاما الا أن القرينة المخصصة قائمة فان الدليل لابد وأن يكون مشاهدا محسوسا ليكون أقرب الى المقصود وبهذا الطريق تخرج عنه الملائكة والجن وآدم وقصة عيسى عليهم السلام لان الكفار لم يروا شيئا من ذلك (المسئلة الثالثة) اختلف المفسرون فقال بعضهم المراد من قوله كل شئ حى الحيوان فقط وقال آخرون بل يدخل فيه النبات والشجر لانه من الماء صار نابتا وصار فيه الرطوبة والخضرة والنور والثمر وهذا القول أليق بالمعنى المقصود كأنه تعالى قال فتقنا السماء لانزال المطر وجعلنا منه كل شئ فى الارض من النبات وغيره حيا حجة القول الاول ان النبات لايسمى حيا قلنا لانسلم والدليل عليه قوله تعالى كيف يحيى الارض بعد موتها أما قوله تعالى أفلا يؤمنون فالمراد أفلا يؤمنون بأن يتدبروا هذه الادلة فيعلموا بها الخالق الذى لايشبه غيره ويتركوا طريقة الشرك (النوع الثالث) قوله تعالى وجعلنا فى الارض رواسى أن تميد بهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) أن تميد بهم كراهة أن تميد بهم أو لئلا تميد بهم فحذف لا واللام الاولى وانما جاز حذف لا لعدم الالتباس كما ترى ذلك فى قوله ليلا يعلم أهل الكتاب (المسئلة الثانية) الرواسى الجبال والراسى هو الداخل فى الارض (المسئلة الثالثة) قال ابن عباس رضى الله عنهما ان الارض بسطت على الماء فكانت تكفأ بأهلها كما تكفأ السفينة لانها بسطت على الماء فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال (النوع الرابع) قوله تعالى وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الفج الطريق الواسع فان قلت فى الفجاج معنى الوصف فالها قدمت على السبل ولم تؤخر كما فى قوله تعالى لتسلكوا منها سبلا فجاجا قلت لم تقدم وهى صفة ولكنها جعلت حالا كقوله لعزة موحشا طلل * قديم الفرق من جهة المعنى ان قوله سبلا فجاجا اعلام بأنه سبحانه جعل فيها طرقا واسعة وأما قوله فجاجا سبلا فهو اعلام بأنه سبحانه حين خلقها جعلها على تلك الصفة فهذه الآية بيان لما أبهم فى الآية الاولى (المسئلة الثانية) فى قوله فيها قولان (أحدهما) انها عائدة الى الجبال أى وجعلنا فى الجبال التى هى رواسى فجاجا سبلا أى طرقا واسعة وهو قول مقاتل والضحاك ورواية عطاء عن ابن عباس وعن ابن عمر قال كانت الجبال منضمة فلما أغرق الله قوم نوح فرقها فجاجا وجعل فيها طرقا (الثانى) انها عائدة الى الارض أى وجعلنا فى الارض فجاجا وهى المسالك والطرق وهو قول الكلبى (المسئلة الثالثة) قوله لعلهم يهتدون معناه لكى يهتدوا اذ الشك لايجوز على الله تعالى (المسئلة الرابعة) فى يهتدون قولان (الاول) ليهتدوا الى البلاد (الثانى) ليهتدوا الى وحدانية الله تعالى بالاستدلال قالت المعتزلة وهذا التاويل

على قول أو عمل بغير امره تعالى (ولا يشفعون الا لمن ارتضى) أن يشفع له مهابة منه تعالى (وهم) مع ذلك (من خشيته) عز وجل (مشفقون) مرتعدون وأصل الخشية الخوف مع التعظيم ولذلك خص بها العلماء والاشفاق الخوف مع الاعتناء فعند تعديته بمن يكون معنى الخوف فيه أظهر وعند تعديته بعلى ينعكس الامر (ومن يقل منهم) أى من الملائكة اذ الكلام فيهم وفى كونهم بمعزل مما قالوا فى حقهم (انى اله من دونه) متجاوزا اياه تعالى (فذلك) الذى فرض قوله فرض محال (نجزيه جهنم) كسائر المجرمين ولا يغنى عنهم ما ذكر من صفاتهم السنية وأفعالهم المرضية وفيه من الدلالة على قوة ملكوته تعالى وعزة جبروته واستحالة كون الملائكة بحيث يتوهم فى حقهم ما توهمه أولئك الكفرة ما لا يخفى (كذلك نجزى الظالمين) مصدر تشبيهى مؤكد لمضمون ما قبله أى مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى الذين يضعون الاشياء فى غير مواضعها ويتعدون أطوارهم وانقص المستفاد من التقديم معتبر بالنسبة الى النقصان دون الزيادة أى لاجزاء انقص منه (أولم ير الذين كفروا) تجهيل لهم بتقصيرهم فى التدبر فى الآيات التكوينية الدالة على استقلاله تعالى بالالوهية وكون جمع ما سواه مقهورا تحت ملكوته والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر وقرئ بغير واو والرؤية قلبية أى ألم يتفكروا ولم يعلموا (ان السموات والارض كانتا) أى جماعتا السموات والارضين كما فى قوله

يدل على أنه تعالى أراد من جميع المكلفين الاهتداء والكلام عليه قد تقدم وفيه قول ثالث وهو ان الاهتداء الى البلاد والاهتداء الى وحدانية الله تعالى يشتركان فى مفهوم واحد وهو أصل الاهتداء فيحمل اللفظ على ذلك المشترك وحينئذ تكون الآية متناولة للامرين ولا يلزم منه كون اللفظ المشترك مستعملا فى مفهوميه معا (النوع الخامس) قوله تعالى وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) سمى السماء سقفا لانها للارض كالسقف للبيت (المسئلة الثانية) فى المحفوظ قولان (أحدهما) انه محفوظ من الوقوع والسقوط اللذين يجرى مثلهما على سائر السقوف كقوله ويمسك السماء أن تقع على الارض الا باذنه وقال ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره وقال تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا وقال ولا يؤده حفظهما (الثانى) محفوظا من الشياطين قال تعالى وحفظناها من كل شيطان رجيم ثم ههنا قولان (أحدهما) انه محفوظ بالملائكة من الشياطين (والثانى) انه محفوظ بالنجوم من الشياطين والقول الاول أقوى لان حمل الآيات عليه مما يزيد هذه النعمة عظما لانه سبحانه كالمتكفل بحفظه وسقوطه على المكلفين بخلاف القول الثانى لانه لا يخاف على السماء من استراق سمع الجن (المسئلة الثالثة) قوله تعالى وهم عن آياتها معرضون معناه عما وضع الله تعالى فيها من الادلة والعبر فى حركاتها وكيفية حركاتها وجهات حركاتها ومطالعها ومغاربها واتصالات بعضها ببعض وانفصالاتها على الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة (المسئلة الرابعة) قرئ عن آيتها على التوحيد والمراد الجنس أى هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمرها والاهتداء بكواكبها وحياة الارض بأمطارها وهم عن كونها آية بينة على وجود الخالق ووحدانيته معرضون (النوع السادس) قوله تعالى وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنه سبحانه لما قال وهم عن آياتها معرضون فصل تلك الآيات ههنا لانه تعالى لو خلق السماء والارض ولم يخلق الشمس والقمر ليظهر بهما الليل والنهار ويظهر بهما من المنافع بتعاقب الحر والبرد لم تتكامل نعم الله تعالى على عباده بل انما يكون ذلك بسبب حركاتها فى أفلاكها فلهذا قال كل فى فلك يسبحون وتقريره أن نقول قد ثبت بالارصاد أن للكواكب حركات مختلفة فمنها حركة تشملها بأسرها آخذة من المشرق الى المغرب وهى حركة الشمس اليومية ثم قال جمهور الفلاسفة وأصحاب الهيئة وههنا حركة أخرى من المغرب الى المشرق قالوا وهى ظاهرة فى السبعة السيارة خفية فى الثابتة واستدلوا عليه بانا وجدنا الكواكب السيارة كلما كان منها أسرع حركة اذا قارن ما هو أبطأ حركة فانه بعد ذلك يتقدمه نحو المشرق وهذا فى القمر ظاهر جدا فانه يظهر بعد الاجتماع بيوم أو يومين من ناحية المغرب على بعد من الشمس ثم يزداد كل ليلة بعدا منها الى أن يقابلها على

تعالى تنزيلا للسبق قولهم قوله تعالى منزلة تبعيتهم اياه تعالى لمزيد تنزيههم عن ذلك وللتنبيه على غاية استهجان السبق المعرض به للذين يقولون مالا يقوله الله تعالى وجعل القول محلا للسبق واداته له ثم أنيب اللام عن الاضافة للاختصار والتجافى عن التكرار وقرئ لايسبقونه بضم الياء من سابقته فسبقته أسبقه وفيه مزيد استهجان للسبق واشعار بأن من سبق قوله قوله تعالى فقد تصدى لمغالبته تعالى فى السبق فسبقه فغلبه والعياذ بالله تعالى وزيادة تنزيه لهم عما نفى عنهم ببيان أن ذلك عندهم بمنزلة الغلبة بعد المغالبة فانى يتوهم صدوره عنهم (وهم بأمره يعملون) بيان لتبعيتهم له تعالى فى الاعمال اثر بيان تبعيتهم له تعالى فى الاقوال فان نفى سبقهم له تعالى بالقول عبارة عن تبعيتهم له تعالى فيه كأنه قيل هم بامره يقولون وبأمره يعملون لا بغير امره أصلا فالقصر المستفاد من تقديم الجار معتبر بالنسبة الى غير أمره لا الى أمر غيره (يعلم مابين أيديهم وماخلفهم) استئناف وقع تعليلا لما قبله ﴿ يدل ﴾ وتمهيدا لما بعده فانهم لعلمهم باحاطته تعالى بما قدموا وأخروا من الاقوال والاعمال لايزالون يراقبون أحوالهم فلا يقدمون

(المسئلة الثانية) لقائل أن يقول كيف قال وخلقنا من الماء كل حيوان وقد قال والجان خلقناه من قبل من نار السموم وجاء فى الاخبار ان الله تعالى خلق الملائكة من النور قال تعالى فى حق عيسى عليه السلام واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى وقال فى حق آدم خلقه من تراب (والجواب) اللفظ وان كان عاما الا أن القرينة المخصصة قائمة فان الدليل لابد وأن يكون مشاهدا محسوسا ليكون أقرب الى المقصود وبهذا الطريق تخرج عنه الملائكة والجن وآدم وقصة عيسى عليهم السلام لان الكفار لم يروا شيئا من ذلك (المسئلة الثالثة) اختلف المفسرون فقال بعضهم المراد من قوله كل شئ حى الحيوان فقط وقال آخرون بل يدخل فيه النبات والشجر لانه من الماء صار ناميا وصار فيه الرطوبة والخضرة والنور والثمر وهذا القول أليق بالمعنى المقصود كأنه تعالى قال فتقنا السماء لانزال المطر وجعلنا منه كل شئ فى الارض من النبات وغيره حيا حجة القول الاول ان النبات لايسمى حيا قلنا لانسلم والدليل عليه قوله تعالى كيف يحيى الارض بعد موتها أما قوله تعالى أفلا يؤمنون فالمراد أفلا يؤمنون بأن يتدبروا هذه الادلة فيعلموا بها الخالق الذى لايشبه غيره ويتركوا طريقة الشرك (النوع الثالث) قوله تعالى وجعلنا فى الارض رواسى أن تميد بهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) أن تميد بهم كراهة أن تميد بهم أو لئلا تميد بهم فحذف لا واللام الاولى وانما جاز حذف لا لعدم الالتباس كما ترى ذلك فى قوله تعالى لئلا يعلم أهل الكتاب (المسئلة الثانية) الرواسى الجبال والراسى هو الداخل فى الارض (المسئلة الثالثة) قال ابن عباس رضى الله عنهما ان الارض بسطت على الماء فكانت تكفأ بأهلها كما تكفأ السفينة لانها بسطت على الماء فأرساها الله تعالى بالجبال الثقال (النوع الرابع) قوله تعالى وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الفج الطريق الواسع فان قلت فى الفجاج معنى الوصف فالها قدمت على السبل ولم تؤخر كما فى قوله تعالى لتسلكوا منها سبلا فجاجا قلت لم تقدم وهى صفة ولكنها جعلت حالا كقوله لعزة موحشا طلل * قديم الفرق من جهة المعنى ان قوله سبلا فجاجا اعلام بأنه سبحانه جعل فيها طرقا واسعة وأما قوله فجاجا سبلا فهو اعلام بأنه سبحانه حين خلقها جعلها على تلك الصفة فهذه الآية بيان لما أبهم فى الآية الاولى (المسئلة الثانية) فى قوله فيها قولان (أحدهما) انها عائدة الى الجبال أى وجعلنا فى الجبال التى هى رواسى فجاجا سبلا أى طرقا واسعة وهو قول مقاتل والضحاك ورواية عطاء عن ابن عباس وعن ابن عمر قال كانت الجبال منضمة فلما أغرق الله قوم نوح فرقها فجاجا وجعل فيها طرقا (الثانى) انها عائدة الى الارض أى وجعلنا فى الارض فجاجا وهى المسالك والطرق وهو قول الكلبى (المسئلة الثالثة) قوله لعلهم يهتدون معناه لكى يهتدوا اذ الشك لايجوز على الله تعالى (المسئلة الرابعة) فى يهتدون قولان (الاول) ليهتدوا الى البلاد (الثانى) ليهتدوا الى وحدانية الله تعالى بالاستدلال قالت المعتزلة وهذا التاويل

على قول أو عمل بغير امره تعالى (ولا يشفعون الا لمن ارتضى) أن يشفع له مهابة منه تعالى (وهم) مع ذلك (من خشيته) عز وجل (مشفقون) مرتعدون وأصل الخشية الخوف مع التعظيم ولذلك خص بها العلماء والاشفاق الخوف مع الاعتناء فعند تعديته بمن يكون معنى الخوف فيه أظهر وعند تعديته بعلى ينعكس الامر (ومن يقل منهم) أى من الملائكة اذ الكلام فيهم وفى كونهم بمعزل مما قالوا فى حقهم (انى اله من دونه) متجاوزا اياه تعالى (فذلك) الذى فرض قوله فرض محال (نجزيه جهنم) كسائر المجرمين ولا يغنى عنهم ما ذكر من صفاتهم السنية وأفعالهم المرضية وفيه من الدلالة على قوة ملكوته تعالى وعزة جبروته واستحالة كون الملائكة بحيث يتوهم فى حقهم ما توهمه أولئك الكفرة ما لا يخفى (كذلك نجزى الظالمين) مصدر تشبيهى مؤكد لمضمون ما قبله أى مثل ذلك الجزاء الفظيع نجزى الذين يضعون الاشياء فى غير مواضعها ويتعدون أطوارهم والقصر المستفاد من التقديم معتبر بالنسبة الى النقصان دون الزيادة أى لاجزاء انقص منه (أولم ير الذين كفروا) تجهيل لهم بتقصيرهم فى التدبر فى الآيات التكوينية الدالة على استقلاله تعالى بالالوهية وكون جمع ما سواه مقهورا تحت ملكوته والهمزة للانكار والواو للعطف على مقدر وقرئ بغير واو والرؤية قلبية أى ألم يتفكروا ولم يعلموا (ان السموات والارض كانتا) أى جماعتا السموات والارضين كما فى قوله

يدل على أنه تعالى أراد من جميع المكلفين الاهتداء والكلام عليه قد تقدم وفيه قول ثالث وهو ان الاهتداء الى البلاد والاهتداء الى وحدانية الله تعالى يشتركان فى مفهوم واحد وهو أصل الاهتداء فيحمل اللفظ على ذلك المشترك وحينئذ تكون الآية متناولة للامرين ولا يلزم منه كون اللفظ المشترك مستعملا فى مفهوميه معا (النوع الخامس) قوله تعالى وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) سمى السماء سقفا لانها للارض كالسقف للبيت (المسئلة الثانية) فى المحفوظ قولان (أحدهما) انه محفوظ من الوقوع والسقوط اللذين يجرى مثلهما على سائر السقوف كقوله ويمسك السماء أن تقع على الارض الا باذنه وقال ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره وقال تعالى ان الله يمسك السموات والارض أن تزولا وقال ولا يؤوده حفظهما (الثانى) محفوظا من الشياطين قال تعالى وحفظناها من كل شيطان رجيم ثم ههنا قولان (أحدهما) انه محفوظ بالملائكة من الشياطين (والثانى) انه محفوظ بالنجوم من الشياطين والقول الاول أقوى لان حمل الآيات عليه مما يزيد هذه النعمة عظما لانه سبحانه كالمتكفل بحفظه وسقوطه على المكلفين بخلاف القول الثانى لانه لا يخاف على السماء من استراق سمع الجن (المسئلة الثالثة) قوله تعالى وهم عن آياتها معرضون معناه عما وضع الله تعالى فيها من الادلة والعبر فى حركاتها وكيفية حركاتها وجهات حركاتها ومطالعها ومغاربها واتصالات بعضها ببعض وانفصالاتها على الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة (المسئلة الرابعة) قرئ عن آياتها على التوحيد والمراد الجنس أى هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمرها والاهتداء بكواكبها وحياة الارض بأمطارها وهم عن كونها آية بينة على وجود الخالق ووحدانيته معرضون (النوع السادس) قوله تعالى وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل فى فلك يسبحون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنه سبحانه لما قال وهم عن آياتها معرضون فصل تلك الآيات ههنا لانه تعالى لو خلق السماء والارض ولم يخلق الشمس والقمر ليظهر بهما الليل والنهار ويظهر بهما من المنافع بتعاقب الحر والبرد لم تتكامل نعم الله تعالى على عباده بل انما يكون ذلك بسبب حركاتها فى أفلاكها فلهذا قال كل فى فلك يسبحون وتقريره أن نقول قد ثبت بالارصاد أن للكواكب حركات مختلفة فمنها حركة تشملها بأسرها آخذة من المشرق الى المغرب وهى حركة الشمس اليومية ثم قال جمهور الفلاسفة وأصحاب الهيئة وههنا حركة أخرى من المغرب الى المشرق قالوا وهى ظاهرة فى السبعة السيارة خفية فى الثابتة واستدلوا عليه بانا وجدنا الكواكب السيارة كلما كان منها أسرع حركة اذا قارن ما هو أبطأ حركة فانه بعد ذلك يتقدمه نحو المشرق وهذا فى القمر ظاهر جدا فانه يظهر بعد الاجتماع بيوم أو يومين من ناحية المغرب على بعد من الشمس ثم يزداد كل ليلة بعدا منها الى أن يقابلها على

قريب من نصف الشهر وكل كوكب كان شرقيا منه على طريقته فى ممر البروج يزداد كل ليلة قربا منه ثم اذا أدركه ستره بطرفه الشرقى وتنكسف تلك الكواكب عنه بطرفه الغربى فعرفنا أن لهذه الكواكب السيارة حركة من المغرب الى المشرق وكذلك وجدنا للكواكب الثابتة حركة بطيئة على توالى البروج فعرفنا أن لها حركة من المغرب الى المشرق هذا ماقالوه ونحن خالفناهم فيه وقلنا ان ذلك محال لان الشمس مثلا لو كانت متحركة بذاتها من المغرب الى المشرق حركة بطيئة ولاشك انها متحركة بسبب الحركة اليومية من المغرب الى المشرق لزم كون الجرم الواحد متحركا حركتين الى جهتين مختلفتين دفعة واحدة وذلك محال لان الحركة الى الجهة تقتضى حصول المتحرك فى الجهة المنتقل اليها فلو تحرك الجسم الواحد دفعة واحدة الى جهتين لزم حصوله دفعة واحدة فى مكانين وهو محال فان قيل لم لا يجوز أن يقال الشمس حال حركتها الى الجانب الشرقى تنقطع حركتها الى الجانب الغربى وبالعكس وأيضا فاذكرتموه ينتقض بحركة الرحى الى جانب والنملة التى تكون عليها تتحرك الى خلاف ذلك الجانب قلنا أما الاول فلا يستقيم على أصولكم لان حركات الافلاك مصونة على الانقطاع عندكم وأما الثانى فهو مثال محتمل وماذكرناه برهان قاطع فلا يتعارضان أما الذى احتجوا به على أن للكواكب حركة من المغرب الى المشرق فهو ضعيف فانه يقال لم لا يجوز أن يقال ان جميع الكواكب متحركة من المشرق الى المغرب الا أن بعضها أبطأ من البعض فيتخلف بعضها عن بعض بسبب ذلك التخلف فيظن أنها تتحرك الى خلاف تلك الجهة مثلا الفلك الاعظم استدارته من أول اليوم الاول الى أول اليوم الثانى دورة تامة وفلك الثوابت استدارته من أول اليوم الاول الى أول اليوم الثانى دورة تامة الا مقدار ثانية فيظن ان فلك الثوابت تحرك من الجهة الاخرى مقدار ثانية ولا يكون كذلك بل ذلك لانه تخلف بمقدار ثانية وعلى هذا التقدير فجميع الجهات شرقية وأسرعها الحركة اليومية ثم يليها فى السرعة فلك الثوابت ثم يليها زحل وهكذا الى أن ينتهى الى فلك القمر فهو أبطأ الافلاك حركة وهذا الذى قلناه مع مايشهد له البرهان المذكور فهو أقرب الى ترتيب الوجود فان على هذا التقدير تكون نهاية الحركة الفلك المحيط وهو الفلك الاعظم ونهاية السكون الجرم الذى هو فى غاية البعد وهو الارض ثم ان كل ما كان أقرب الى الفلك المحيط كان أسرع حركة وما كان منه أبعد كان أبطأ فهذا مانقوله فى حركات الافلاك فى أطوالها وأما حركاتها فى عروضها فظاهرة وذلك بسبب اختلاف ميولها الى الشمال والجنوب اذا ثبت هذا فنقول لو لم يكن للكواكب حركة فى الميل لكان التأثير مخصوصا ببقعة واحدة فكان سائر الجوانب تخلو عن المنافع الحاصلة منه وكان الذى يقرب منه متشابه الاحوال وكانت القوة هناك لكيفية واحدة فان كانت حارة أفنت الرطوبات فاحالتها كلها الى النارية وبالجملة فيكون الموضع المحاذى لممر الكواكب على كيفية وخط مالا يحاذيه على كيفية أخرى وخط

رضى الله عنهما فى رواية عكرمة والحسن البصرى وقتادة وسعيد بن جبير كانتا شيئا واحدا ملتزمين ففصل الله تعالى بينهما ورفع السماء الى حيث هى وأقر الارض وقال كعب خلق الله تعالى السموات والارض ملتصقتين ثم خلق ريحا فتوسطتها ففتقتها وعن الحسن خلق الله تعالى الارض فى موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليها دخان ملتزق بها ثم أصعد الدخان وخلق منه السموات وأمسك الفهر فى موضعها وبسط منها الارض وذلك قوله تعالى كانتا رتقا ففتقناهما وقال مجاهد والسدى كانت السموات مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سموات وكذلك الارض كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع أرضين وقال ابن عباس فى رواية عطاء وعليه أكثر المفسرين ان السموات كانت رتقا مستوية صلبة لا تمطر والارض رتقا لا تنبت ففتق السماء بالمطر والارض بالنبات فيكون المراد بالسموات السماء الدنيا والجمع باعتبار الآفاق أو السموات جميعا على أن لها ﴿ المتوسط ﴾ مدخلا فى الامطار وعلم الكفرة الرتق والفتق بهذا المعنى مما لا ستر به وأما بالمعانى الاول فهم وان لم يعلموهما لكنهم متمكنون من علمهما اما بطريق النظر والتفكر

فان الفتق عارض مفتقر الى مؤثر قديم واما بالاستفسار من العلماء ومطالعة الكتب (وجعلنا من الماء كل شئ حى) أى خلقنا من الماء كل حيوان كقوله تعالى والله خلق كل دابة من ماء وذلك لانه من أعظم مواده أو لفرط احتياجه اليه وانتفاعه به أو صيرنا كل شئ حى من الماء أى بسبب منه لابد له من ذلك وتقديم المفعول الثانى للاهتمام به لا لمجرد أن المفعولين فى الاصل مبتدأ وخبر وحق الخبر عند كونه ظرفا أن يتقدم على المبتدا فان ذلك صحيح محض لامرجح وقرئ حيا على انه صفة كل أو مفعول ثان والظرف يكفى فى الوجه الاول قدم على المفعول للاهتمام به والتشويق الى المؤخر (أفلا يؤمنون) انكار لعدم ايمانهم بالله وحده مع ظهور ما يوجبه حتما من الآيات الآفاقية والانفسية الدالة على تفرده عز وجل بالوهية وعلى كون ما سواه من مخلوقاته مقهورة تحت ملكوته وقدرته والفاء للعطف على مقدر يستدعيه الانكار السابق أى أيعلمون ذلك فلا يؤمنون (وجعلنا فى الارض رواسى) أى جبالا ثوابت جمع راسية من رسا الشئ اذا ثبت ورسخ ووصف جمع المذكر بجمع المؤنث فى غير العقلاء مما لاريب فى صحته كقوله تعالى أشهر معلومات وأياما معدودات (أن تميد بهم) أى كراهة أن تتحرك وتضطرب بهم أو لئلا تميد بهم بحذف اللام ولا لعدم الالباس (وجعلنا فيها) أى فى الارض وتكرير الفعل لاختلاف

المتوسط بينهما على كيفية أخرى فيكون فى موضع شتاء دائم ويكون فيه الهواء والعجاجة وفى موضع آخر صيف دائم يوجب الاحتراق وفى موضع آخر ربيع أو خريف لا يتم فيه النضج ولو لم تكن عودات متتالية وكان الكوكب يتحرك بطيا لكان الميل قليل المنفعة والتأثير شديد الافراط وكان يعرض قريبا مما لو لم يكن ميل ولو كانت الكواكب أسرع حركة من هذه لما كملت المنافع وماتمت وأما اذا كان هناك ميل يحفظ الحركة فى جهة مدة ثم ينتقل الى جهة أخرى بمقدار الحاجة ويبقى فى كل جهة برهة تم بذلك تأثيره بحيث يبقى مصونا عن طرفى الافراط والتفريط وبالجملة فالعقول لا تقف الا على القليل من اسرار المخلوقات فسبحان الخالق المدبر بالحكمة البالغة والقدرة الغير المتناهية (المسئلة الثانية) انه لا يجوز أن يقول وكل فى فلك يسبحون الا ويدخل فى الكلام مع الشمس والقمر النجوم ليثبت معنى الجمع ومعنى الكل فصارت النجوم وان لم تكن مذكورة أولا كأنها مذكورة لعود هذا الضمير اليها والله أعلم (المسئلة الثالثة) الفلك فى كلام العرب كل شئ دائر وجمعه أفلاك واختلف العقلاء فيه فقال بعضهم الفلك ليس بجسم وانما هو مدار هذه النجوم وهو قول الضحاك وقال الاكثرون بل هى أجسام تدور النجوم عليها وهذا أقرب الى ظاهر القرآن ثم اختلفوا فى كيفيته فقال بعضهم الفلك موج مكفوف تجرى الشمس والقمر والنجوم فيه وقال الكلبى ماء مجموع تجرى فيه الكواكب واحتج بأن السباحة لا تكون الا فى الماء قلنا لا نسلم فانه يقال فى الفرس الذى يمد يديه فى الجرى سابح وقال جمهور الفلاسفة وأصحاب الهيئة انها أجرام صلبة لا ثقيلة ولا خفيفة غير قابلة للخرق والالتئام والنمو والذبول فاما الكلام على الفلاسفة فهو مذكور فى الكتب اللائقة به والحق انه لا سبيل الى معرفة صفات السموات الا بالخبر (المسئلة الرابعة) اختلف الناس فى حركات الكواكب والوجوه الممكنة فيها ثلاثة فانه اما أن يكون الفلك ساكنا والكواكب تتحرك فيه كحركة السمك فى الماء الراكد واما أن يكون الفلك متحركا والكواكب تتحرك فيه أيضا اما مخالفا لجهة حركته أو موافقا لجهته اما بحركة مساوية لحركة الفلك فى السرعة والبطء أو مخالفة واما أن يكون الفلك متحركا والكوكب ساكنا أما الرأى الاول فقالت الفلاسفة انه باطل لانه يوجب خرق الافلاك وهو محال وأما الرأى الثانى فحركة الكواكب ان فرضت مخالفة لحركة الفلك فذلك أيضا يوجب الخرق وان كانت حركتها الى جهة الفلك فان كانت مخالفة لها فى السرعة والبطء لزم الانخراق وان استويا فى الجهة والسرعة والبطء فالخرق أيضا لازم لان الكواكب تتحرك بالعرض بسبب حركة الفلك فتبقى حركته الذاتية زائدة فيلزم الخرق فلم يبق الا القسم الثالث وهو أن يكون الكوكب مغروزا فى الفلك واقفا فيه والفلك يتحرك فيتحرك الكوكب بسبب حركة الفلك واعلم ان مدار هذا الكلام على امتناع الخرق على الافلاك وهو باطل بل الحق ان الاقسام الثلاثة ممكنة والله تعالى قادر على كل الممكنات والذى يدل عليه لفظ

المجعولين ولتوفية مقام الامتنان حقه أوفى الرواسى لانها المحتاجة الى الطرق (فجاجا) مسالك واسعة وانما قدم على قوله تعالى (سبلا) وهو وصف ليصير حالا فيفيد أنه تعالى ﴿ ١٥٠ ﴾ حين خلقها خلقها كذلك اوليبدل منها سبلا

فيدل ضمنا على انه تعالى خلقها ووسعها للسابلة مع ما فيه من التوكيد (لعلهم يهتدون) أى الى مصالحهم ومهماتهم (وجعلنا السماء سقفا محفوظا) من الوقوع بقدرتنا القاهرة أومن الفساد والانحلال الى الوقت المعلوم بمشيئتنا أومن استراق السمع بالشهب (وهم عن آياتها) الدالة على وحدانيته تعالى وعلمه وحكمته وقدرته وارادته التى بعضها محسوس وبعضها معلوم بالبحث عنه فى علمى الطبيعة والهيئة (معرضون) لايتدبرون فيها فيبقون على ماهم عليه من الكفر والضلال وقوله تعالى (وهو الذى خلق الليل والنهار والشمس والقمر) اللذين هما آيتاهما بيان لبعض تلك الآيات التى هم عنها معرضون بطريق الالتفات الموجب لتأكيد الاعتناء بفحوى الكلام أى هو الذى خلقهن وحده (كل) أى كل واحد منهما على أن التنوين عوض عن المضاف اليه (فى فلك يسبحون) أى يجرون فى سطح الفلك كالسبح فى الماء والمراد بالفلك الخمس كقولك ﴿ بالغ ﴾ كساهم الخليفة حلة والجملة حال من الشمس والقمر وجاز انفرادهما بها لعدم اللبس والضمير لهما والجمع باعتبار المطالع وجعل الضمير واو العقلاء لان السباحة حالهم (وما جعلنا لبشر من

القرآن أن تكون الافلاك واقفة والكواكب تكون جارية فيها كما تسبح السمكة فى الماء (المسئلة الخامسة) قال صاحب الكشاف كل التنوين فيه عوض عن المضاف اليه أى كلهم فى فلك يسبحون والله أعلم (المسئلة السادسة) احتج أبو على بن سينا على كون الكواكب أحياء ناطقة بقوله يسبحون قال والجمع بالواو والنون لايكون الا للعقلاء وبقوله تعالى والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين والجواب انما جعل واو الضمير للعقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة قال صاحب الكشاف فان قلت الجملة ما محلها قلت النصب على الحال من الشمس والقمر أو لا محل لها لاستئنافها فان قلت لكل واحد من القمرين فلك على حدة فكيف قيل جميعهم يسبحون فى فلك قلت هذا كقوله كساهم الامير حلة وقلدهم سيفا أى كل واحد منهم ﴿ قوله تعالى (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفان مت فهم الخالدون كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزوا أهذا الذى يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون) اعلم انه سبحانه وتعالى لما استدل بالاشياء الستة التى شرحناها فى الفصل المتقدم وكانت تلك الاشياء من أصول النعم الدنيوية أتبعه بما نبه به على ان هذه الدنيا جعلها كذلك لا لتبقى وتدوم أو يبقى فيها من خلقت الدنيا له بل خلقها سبحانه وتعالى للابتلاء والامتحان ولكى يتوصل بها الى الآخرة التى هى دار الخلود فاما قوله تعالى وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ففيه ثلاثة أوجه (أحدها) قال مقاتل ان ناسا كانوا يقولون ان محمدا صلى الله عليه وسلم لايموت فنزلت هذه الآية (وثانيها) كانوا يقدرون انه سيموت فيشمتون بموته فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذا أى قضى الله تعالى أن لايخلد فى الدنيا بشرا فلا أنت ولا هم الا عرضة للموت أفان مت أنت أيبقى هؤلاء لا وفى معناه قول القائل

فقل للشامتين بنا أفيقوا * سيلقى الشامتون كما لقينا

(وثالثها) يحتمل انه لما ظهر انه عليه السلام خاتم الانبياء جاز أن يقدر مقدر انه لايموت اذ لو مات لتغير شرعه فنبه الله تعالى على ان حاله كحال غيره من الانبياء عليهم السلام فى الموت أما قوله تعالى كل نفس ذائقة الموت ففيه ابحاث (الاول) ان هذا العموم مخصوص فانه تعالى نفس لقوله تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك مع ان الموت لايجوز عليه وكذا الجمادات لها نفوس وهى لاتموت والعام المخصوص حجة فيبقى معمولا به فيما عدا هذه الاشياء وذلك يبطل قول الفلاسفة فى أن الارواح البشرية والعقول المفارقة والنفوس الفلكية لاتموت (والثانى) الذوق ههنا لايمكن اجراؤه على ظاهره لان الموت ليس من جنس المطعوم حتى يذاق بل الذوق ادراك خاص فيجوز جعله مجازا عن أصل الادراك وأما الموت فالمراد منه ههنا مقدماته من الآلام العظيمة لان الموت قبل دخوله فى الوجود يمنع ادراكه وحال وجوده يصير الشخص ميتا والميت لايدرك شيئا (والثالث) الاضافة فى ذائقة الموت فى تقدير الانفصال لانه لما يستقبل كقوله غير محلى الصيد وهديا

قبلك الخلد) أى فى الدنيا لكونه مخالفا للحكمة التكوينية والتشريعية (أفان مت) بمقتضى حكمتنا (فهم الخالدون) نزلت حين قالوا نتربص به ريب المنون والفاء ﴿ ١٥١ ﴾ لتعليق الشرطية بما قبلها والهمزة لانكار مضمونها

بالغ الكعبة أما قوله تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) الابتلاء لا يتحقق الا مع التكليف فالآية دالة على حصول التكليف وتدل على انه سبحانه وتعالى لم يقتصر بالمكلف على ما أمر ونهى وان كان فيه صعوبة بل ابتلاه بأمرين (أحدهما) ما سماه خيرا وهو نعم الدنيا من الصحة واللذة والسرور والتمكين من المرادات (والثانى) ما سماه شرا وهو المضار الدنيوية من الفقر والآلام وسائر الشدائد النازلة بالمكلفين فبين تعالى ان العبد مع التكليف يتردد بين هاتين الحالتين لكى يشكر على المنح ويصبر فى المحن فيعظم ثوابه اذا قام بما يلزم (المسئلة الثانية) انما سمى ذلك ابتلاء وهو عالم بما سيكون من أعمال العالمين قبل وجودهم لانه فى صورة الاختبار (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف فتنة مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه (المسئلة الرابعة) احتجت التناسخية بقوله والينا ترجعون فان الرجوع الى موضع مسبوق بالكون فيه (والجواب) انه مذكور مجازا (المسئلة الخامسة) المراد من قوله والينا ترجعون انهم يرجعون الى حكمه ومحاسبته ومجازاته فبين بذلك بطلان قولهم فى نفى البعث والمعاد واستدلت التناسخية بهذه الآية وقالوا ان الرجوع الى موضع مسبوق بالكون فيه وقد كنا موجودين قبل دخولنا فى هذا العالم واستدلت المجسمة بانا أجسام فرجوعنا الى الله تعالى يقتضى كون الله تعالى جسما والجواب عنه قد تقدم فى مواضع كثيرة أما قوله تعالى واذا رآك الذين كفروا ان يتخذونك الا هزوا قال السدى ومقاتل نزلت هذه الآية فى أبى جهل مر به النبى صلى الله عليه وسلم وكان أبو سفيان مع أبى جهل فقال أبو جهل لابى سفيان هذا نبى بنى عبد مناف فقال أبو سفيان وما تنكر أن يكون نبيا فى بنى عبد مناف فسمع النبى صلى الله عليه وسلم قولهما فقال لابى جهل ما أراك تنتهى حتى ينزل بك ما نزل بعمك الوليد بن المغيرة وأما أنت يا أبا سفيان فانما قلت ما قلت حمية فنزلت هذه الآية ثم فسر الله تعالى ذلك بقوله أهذا الذى يذكر آلهتكم والذكر يكون بخير وبخلافه فاذا دلت الحال على أحدهما أطلق ولم يقيد كقولك لرجل سمعت فلانا يذكرك فان كان الذاكر صديقا فهو ثناء وان كان عدوا فهو ذم ومنه قوله تعالى سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم والمعنى انه يبطل كونها معبودة ويقبح عبادتها وأما قوله تعالى وهم بذكر الرحمن هم كافرون فالمعنى انهم يعيبون عليه ذكر آلهتهم التى لا تضر ولا تنفع بالسوء مع انهم يذكر الرحمن الذى هو المنعم الخالق المحيى المميت كافرون ولا فعل أقبح من ذلك فيكون الهزؤ واللعب والذم عليهم يعود من حيث لا يشعرون ويحتمل أن يراد بذكر الرحمن القرآن والكتب والمعنى فى اعادتهم ان الاولى اشارة الى القوم الذين كانوا يفعلون ذلك الفعل والثانية ابانة لاختصاصهم به وأيضا فان فى اعادتها تأكيدا وتعظيما لفعلهم * قوله تعالى (خلق الانسان من عجل سأريكم آياتى فلا يستعجلون ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم

بعد تقرر القاعدة الكلية النافية لذلك بالمرة والمراد بانكار خلودهم ونفيه انكار ما هو مدار له وجودا وعدما من شماتتهم بموته عليه السلام فان الشماتة بما يعتريه ايضا مما لا ينبغى أن يصدر عن العاقل كأنه قيل أفان مت فهم الخالدون حتى يشمتوا بموتك وقوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) أى ذائقة مرارة مفارقتها جسدها برهان على ما أنكر من خلودهم (ونبلوكم) الخطاب اما للناس كافة بطريق التلوين او للكفرة بطريق الالتفات أى نعاملكم معاملة من يبلوكم (بالشر والخير) بالبلايا والنعم هل تصبرون وتشكرون أولا (فتنة) مصدر مؤكد لنبلوكم من غير لفظه (والينا ترجعون) لا الى غيرنا لا استقلالا ولا اشتراكا فنجازيكم جسيما يظهر منكم من الاعمال فهو على الاول وعد ووعيد وعلى الثانى وعيد محض وفيه ايماء الى أن المقصود من هذه الحياة الدنيا الابتلاء والتعريض للثواب والعقاب وقرئ يرجعون بالياء على الالتفات (واذا رآك الذين كفروا) أى المشركون (ان يتخذونك الا هزوا) اى ما يتخذونك الا مهزوا به على معنى قصر معاملتهم معه عليه السلام على اتخاذهم اياه هزوا لا على معنى قصر اتخاذهم على كونه هزوا كما هو المتبادر كأنه قيل ما يفعلون

الخ وقوله تعالى (وهم بذكر الرحمن هم كافرون) فى حيز النصب على الحالية من ضمير القول المقدر والمعنى انهم يعيبون عليه عليه الصلاة والسلام أن يذكر آلهتكم التى لا تضر ولا تنفع بالسوء والحال أنهم بذكر الرحمن المنعم عليهم بما يليق به من التوحيد أو بارشاد الخلق بارسال الرسل وانزال الكتب أو بالقرآن كافرون فهم أحقاء بالعيب والانكار فالضمير الاول مبتدأ خبره كافرون وبذكر متعلق بالخبر والتقدير وهم كافرون بذكر الرحمن والضمير الثانى تأكيد لفظى للاول فوقع الفصل بين العامل ومعموله بالمؤكد وبين المؤكد والمؤكد بالمعمول (خلق الانسان من عجل) جعل لفرط استعجاله وقلة صبره كأنه مخلوق منه تنزيلا لما طبع عليه من الاخلاق منزلة ما طبع منه من الاركان ايذانا بغاية لزومه له وعدم انفكاكه عنه ومن عجلته مبادرته الى الكفر واستعجاله بالوعيد روى انها نزلت فى النضر ﴿ على ﴾ ابن الحرث حين استعجل العذاب بقوله اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر الآية وعن ابن عباس رضى الله عنهما ان المراد بالانسان ادم عليه السلام وانه حين بلغ الروح صدره ولم يبلغ فيه أراد أن يقوم وروى انه لما دخل

ينصرون بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن) أما قوله تعالى خلق الانسان من عجل ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى المراد من الانسان قولان (أحدهما) انه النوع (والثانى) انه شخص معين (أما القول الاول) فتقريره انهم كانوا يستعجلون عذاب الله تعالى وآياته الملجئة الى العلم والاقرار ويقولون متى هذا الوعد فأراد زجرهم عن ذلك فقدم أولا ذم الانسان على افراط العجلة ثم نهاهم وزجرهم كأنه قال لا يبعد منكم أن تستعجلوا فانكم مجبولون على ذلك وهو طبعكم وسجيتكم فان قيل مقدمة الكلام لابد وأن تكون مناسبة للكلام وكون الانسان مخلوقا من العجل يناسب كونه معذورا فيه فلم رتب على هذه المقدمة قوله فلا تستعجلون قلنا لان العائق كلما كان أشد كانت القدرة على مخالفته أكمل فكأنه سبحانه نبه بهذا على ان ترك الاستعجال حالة شريفة عالية مرغوب فيها (أما القول الثانى) وهو ان المراد شخص معين فهذا فيه وجهان (أحدهما) ان المراد آدم عليه السلام وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والسدى والكلبى ومقاتل والضحاك وروى ابن جريج وليث بن أبى سليم عن مجاهد قال خلق الله آدم عليه السلام بعد كل شئ من آخر نهار الجمعة فلما دخل الروح رأسه ولم يبلغ أسفله قال يارب استعجل خلقى قبل غروب الشمس قال ليث فذلك قوله تعالى خلق الانسان من عجل وعن السدى لما نفخ فيه الروح فدخل فى رأسه عطس فقالت له الملائكة قل الحمد لله فقال ذلك فقال الله له يرحمك ربك فلما دخل الروح فى عينيه نظر الى ثمار الجنة ولما دخل الروح فى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه الى ثمار الجنة وهذا هو الذى أورث أولاده العجلة (وثانيهما) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء نزلت هذه الآية فى النضر بن الحرث والمراد بالانسان هو واعلم ان القول الاول أولى لان الغرض ذم القوم وذلك لا يحصل الا اذا حملنا لفظ الانسان على النوع (المسئلة الثانية) من المفسرين من أجرى هذه الآية على ظاهرها ومنهم من قلبها أما الاولون فلهم فيها أقوال (أحدها) قول المحققين وهو أن قوله خلق الانسان من عجل اى خلق عجولا وذلك على المبالغة كما قيل للرجل الذكى هو نار تشتعل والعرب قد تسمى المرء بما يكثر منه فتقول ما أنت الا اكل ونوم وما هو الا اقبال وادبار قال الشاعر

أما اذا ذكرت حتى اذا غفلت * فانما هى اقبال وادبار

وهذا الوجه مما أكد بقوله تعالى وكان الانسان عجولا قال المبرد خلق الانسان من عجل أى من شانه العجلة كقوله خلقكم من ضعف أى ضعفاء (وثانيها) قال أبو عبيد العجل الطين بلغة حمير وأنشدوا * والنخل ينبت بين الماء والعجل * (وثالثها) قال الاخفش من عجل أى من تعجيل من الامر وهو قوله كن (ورابعها) من عجل أى من ضعف عن الحسن أما الذين قلبوها فقالوا المعنى خلق العجل من الانسان كقوله ويوم يعرض الذين كفروا

عجلته فى الامور والاظهر أن المراد به الجنس وان كان خلقه عليه السلام سار يا الى أولاده وقيل العجل الطين بلغة حمير ولا تقريب له ههنا وقوله تعالى (سأريكم آياتى) تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المستعجلين بطريق التهديد والوعيد أى سأريكم نقماتى فى الآخرة كعذاب النار وغيره (فلا تستعجلون) بالاتيان بها والنهى عما جبلت عليه نفوسهم ليقعدوها عن مرادها (ويقولون متى هذا الوعد) أى وقت مجىء الساعة التى كانوا يوعدون وانما كانوا يقولونه استعجالا لمجيئه بطريق الاستهزاء والانكار كما يرشد اليه الجواب لا طلبا لتعيين وقته بطريق الالزام كما فى سورة الملك (ان كنتم صادقين) أى فى وعدكم بأنه يأتينا والخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام والمؤمنين الذين يتلون الآيات الكريمة المنبئة

على النار أى تعرض النار عليهم والقول الاول أقرب الى الصواب وأبعد الاقوال هذا القلب لانه اذا أمكن حمل الكلام على معنى صحيح وهو على ترتيبه فهو أولى من أن يحمل على انه مقلوب وأيضا فان قوله خلقت العجلة من الانسان فيه وجوه من المجاز فالفائدة فى تغيير النظم الى ما يجرى مجراه فى المجاز (المسئلة الثالثة) لقائل أن يقول القوم استعجلوا الوعد على وجه التكذيب ومن هذا حاله لا يكون مستعجلا على الحقيقة قلنا استعجالهم على هذا الوجه أدخل فى الذم لانه اذا ذم المرء على استعجال الامر المعلوم فبأن يذم على استعجال ما لا يكون معلوما له كان أولى وأيضا فان استعجالهم بما توعدهم من عقاب الآخرة أو هلاك الدنيا يتضمن استعجال الموت وهم عالمون بذلك فكانوا مستعجلين فى الحقيقة أما قوله تعالى سأريكم آياتى فلا تستعجلون فقد اختلفوا فى المراد بالآيات على أقوال (أحدها) أنها هى الهلاك المعجل فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ولذلك قال فلا تستعجلون أى انها ستأتى لا محالة فى وقتها (وثانيها) انها أدلة التوحيد وصدق الرسول (وثالثها) انها آثار القرون الماضية بالشام واليمن والاول أقرب الى النظم أما قوله تعالى ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين فاعلم ان هذا هو الاستعجال المذموم المذكور على سبيل الاستهزاء وهو كقوله ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب فبين تعالى انهم يقولون ذلك لجهلهم وغفلتهم ثم انه سبحانه ذكر فى رفع هذا الحزن عن قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهين (الاول) أن بين ما لصاحب هذا الاستهزاء من العقاب الشديد فقال لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون قال صاحب الكشاف جواب لو محذوف وحين مفعول به ليعلم أى لو يعلمون الوقت الذى يسألون عنه بقولهم متى هذا الوعد وهو وقت صعب شديد تحيط بهم فيه النار من قدام ومن خلف فلا يقدرون على دفعها عن أنفسهم ولا يجدون أيضا ناصرا ينصرهم لقوله تعالى فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم به هو الذى هونه عليهم وانما حسن حذف الجواب لان ما تقدم يدل عليه وهذا أبلغ ومثله ولو يرى الذين ظلموا اولو ترى اذ يتوفى الذين كفروا ولو أن قرآنا سيرت به الجبال وانما خص الوجوه والظهور لان مس العذاب لهما أعظم موقعا ولكثرة ما يستعمل ذكرهما فى دفع المضرة عن النفس ثم انه تعالى لما بين شدة هذا العذاب بين ان وقت مجيئه غير معلوم لهم بل تأتيهم الساعة بغتة وهم لها غير محتسبين ولا لامرها مستعدين فتبهتهم أى تدهمهم حائرين واقفين لا يستطيعون حيلة فى ردها ولا عما يأتيهم منها مصرفا ولا هم ينظرون أى لا يمهلون لتوبة ولا معذرة واعلم ان الله تعالى انما لم يعلم المكلفين وقت الموت والقيامة لما فيه من المصلحة لان المرء مع كتمان ذلك أشد حذرا وأقرب الى التلافى ثم انه سبحانه ذكر الوجه الثانى فى دفع الحزن عن قلب رسوله فقال ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم

(لو يعلم الذين كفروا) استئناف مسوق لبيان شدة هول ما يستعجلونه وفظاعة ما فيه من العذاب وأنهم انما يستعجلونه لجهلهم بشأنه وايثار صيغة المضارع فى الشرط وان كان المعنى على المضى لافادة استمرار عدم العلم فان المضارع المنفى الواقع موقع الماضى ليس بنص فى افادة انتفاء استمرار الفعل بل يفيد استمرار انتفائه أيضا بحسب المقام كما فى قولك لو تحسن الى لشكرتك فان المعنى ان انتفاء الشكر لاستمرار انتفاء الاحسان لالانتفاء استمرار الاحسان ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما فى حيز الصلة على علة استعجالهم وقوله تعالى (حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم) مفعول يعلم وهو عبارة عن الوقت الموعود الذى كانوا يستعجلونه واضافته الى الجملة الجارية مجرى الصفة التى حقها أن تكون معلومة الانتساب الى الموصوف عند المخاطب أيضا مع انكار الكفرة لذلك للايذان بانه من الظهور بحيث لا حاجة له الى الاخبار به وانما حقه الانتظام فى سلك المسلمات المفروغ عنها وجواب لو محذوف أى لو لم يستمر عدم علمهم بالوقت الذى يستعجلونه بقولهم متى هذا الوعد من الحين الذى تحيط بهم النار فيه من كل جانب وتخصيص الوجوه والظهور بالذكر بمعنى القدام والخلف لكونهما أشهر الجوانب واستلزام الاحاطة بهما الاحاطة بالكل بحيث لا يقدرون على دفعها ﴿ قادرا ﴾

ما كانوا به يستهزؤن والمعنى ولقد استهزئ برسل من قبلك يا محمد كما استهزأ بك قومك فحاق أى نزل وأحاط بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤن أى عقوبة استهزائهم وحاق وحق بمعنى كزال وزل وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم والمعنى فكذلك يحيق بهؤلاء وبال استهزائهم * قوله تعالى (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتى الارض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون) اعلم انه تعالى لما بين ان الكفار فى الآخرة لا يكفون عن وجوههم النار بسائر ما وصفهم به أتبعه بأنهم فى الدنيا أيضا ولا ان الله تعالى يحرسهم و يحفظهم لما بقوا فى السلامة فقال لرسوله قل لهؤلاء الكفار الذين يستهزؤن و يغترون بما هم عليه من يكلؤكم بالليل والنهار وهذا كقول الرجل لمن حصل فى قبضته ولا مخلص له منه الى أين مفرك منى هل لك محيص عنى والكالئ الحافظ وأما قوله من الرحمن ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فى معناه وجوه (أحدها) من يكلؤكم من الرحمن أى بما يقدر على انزاله بكم من عذاب تستحقونه (وثانيها) من بأس الله فى الآخرة (وثالثها) من القتل والسبى وسائر ما أباحه الله للكفر هم فبين سبحانه انه لا حافظ لهم ولا دافع عن هذه الامور ولو أنزلها بهم ولولا تفضله بحفظهم لما عاشوا ولما متعوا بالدنيا (المسئلة الثانية) انما خص ههنا اسم الرحمن بالذكر تلقينا للجواب حتى يقول العاقل أنت الكالئ يا الهنا لكل الخلائق برحمتك كما فى قوله ما غرك بربك الكريم انما خص اسم الكريم بالذكر تلقينا للجواب (المسئلة الثالثة) انما ذكر الليل والنهار لان لكل واحد من الوقتين آفات تختص به والمعنى من يحفظكم بالليل اذا نمتم وبالنهار اذا تصرفتم فى معايشكم أما قوله بل هم عن ذكر ربهم معرضون فالمعنى انه تعالى مع انعامه عليهم ليلا ونهارا بالحفظ والحراسة فهم عن ذكر ربهم الذى هو الدلائل العقلية والنقلية واطائف القرآن معرضون فلا يتأملون فى شئ منها ليعرفوا انه لا كالئ لهم سواه و يتركوا عبادة الاصنام التى لا حظ لها فى حفظهم ولا فى الانعام عليهم أما قوله تعالى أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون فاعلم ان الميم صلة يعنى ألهم آلهة تكلؤهم من دوننا والتقدير ألهم آلهة من دوننا تمنعهم وتم الكلام ثم وصف آلهتهم بالضعف فقال لا يستطيعون نصر أنفسهم وهذا خبر مبتدا محذوف أى فهذه الآلهة لا تستطيع حماية أنفسها عن الآفات وحماية النفس أولى من حماية الغير فاذا لم تقدر على حماية نفسها فكيف تقدر على حماية غيرها وفى قوله ولا هم منا يصحبون قولان (الاول) قال المازنى أصحبت الرجل اذا منعته فقوله ولا هم منا يصحبون من ذلك لا من الصحبة (والثانى) ان الصحبة ههنا بمعنى النصرة والمعونة وكلها سواء فى المعنى يقال صحبك الله ونصرك الله و يقال للمسافر فى صحبة الله وفى حفظ الله فالمعنى ولا هم منا فى نصرة ولا اعانة والحاصل ان من لا يكون

بانفسهم من جانب من جوانبهم (ولاهم ينصرون) من جهة الغير فى دفعها الخ لما فعلوا ما فعلوا من الاستعجال و يجوز أن يكون يعلم متروك المفعول منزلا منزلة اللازم أى لو كان لهم علم لما فعلوه وقوله تعالى حين الخ استئناف مقرر لجهلهم ومبين لاستمراره الى ذلك الوقت كأنه قيل حين يرون ما يرون يعلمون حقيقة الحال (بل تأتيهم) عطف على لا يكفون أى لا يكفونها بل تأتيهم أى العدة أو النار أو الساعة (بغتة فتبهتهم) أى تغلبهم أو تحيرهم وقرئ الفعلان بالتذكير على أن الضمير للوعد أو الحين وكذا الهاء فى قوله تعالى (فلا يستطيعون ردها) بتأويل الوعد بالنار أو العدة والحين بالساعة و يجوز عوده الى النار وقيل الى البغتة أى لا يستطيعون ردها عنهم بالكلية (ولاهم ينظرون) أى يمهلون ليستريحوا طرفة عين وفيه تذكير لا مهالهم فى الدنيا (ولقد استهزئ برسل من قبلك) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن استهزائهم به عليه السلام فى ضمن الاستعجال وعدة ضمنية بانه يصيبهم مثل ما أصاب المستهزئين بالرسل السالفة عليهم الصلاة والسلام

قادرا على دفع الآفات ولا يكون ممحوا من الله بالاعانة كيف يقدر على شئ ثم بين سبحانه تفضله عليهم مع كل ذلك بقوله بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر يعنى ما حملهم على الاعراض الا الاغترار بطول المهلة يعنى طالت أعمارهم فى الغفلة فنسوا عهدنا وجهلوا موقع نعمتنا واغتروا بذلك أما قوله تعالى أفلا يرون أنا نأتى الارض ننقصها فالمعنى أفلا يرى هؤلاء المشركون بالله المستعجلون بالعذاب آثار قدرتنا فى اتيان الارض من جوانبها أخذا الواحد بعد الواحد وفتح البلاد والقرى مما حول مكة وزيدها فى ملك محمد صلى الله عليه وسلم ونميت رؤساء المشركين المتعنين بالدنيا ونقص من الشرك باهلاك أهله أما كان لهم فى ذلك عبرة فيؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم و يعلموا أنهم لا يقدرون على الامتناع من أمر الله وارادته فيهم ولا يقدرون على مغالبته ثم أفهم الغالبون أى فهؤلاء هم الغالبون أم نحن وهو استفهام بمعنى التقرير والتقريع والمعنى بل نحن الغالبون وهم المغلوبون وقد مضى الكلام فى هذه الآية فى سورة الرعد وفى تفسير النقصان وجوه (أحدها) قال ابن عباس ومقاتل والكلبى رضى الله عنهم ننقصها بفتح البلدان (وثانيها) قال ابن عباس فى رواية أخرى يريد نقصان أهلها و بركتها (وثالثها) قال عكرمة تخريب القرى عند موت أهلها (ورابعها) بموت العلماء وهذه الرواية ان صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يعدل عنها والا فالاظهر من الاقاويل ما يتعلق بالغلبة فلذلك قال أفهم الغالبون والذى يليق بذلك انه ينقصها عنهم و يزيدها فى بلاد الاسلام قال القفال نزلت هذه الآية فى كفار مكة فكيف يدخل فيها العلماء والفقهاء فبين تعالى ان كل ذلك من العبر التى لو استعملوا عقلهم فيها لاعرضوا عن جهلهم * قوله تعالى (قل انما أنذركم بالوحى ولا يسمع الصم الدعاء اذا ما ينذرون ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا انا كنا ظالمين ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) اعلم انه سبحانه لما كرر فى القرآن الادلة وبالغ فى التنبيه عليها على ما تقدم أتبعه بقوله قل انما أنذركم بالوحى أى بالقرآن الذى هو كلام ربكم فلا تظنوا أن ذلك من قبلى بل الله آتيكم به وأمرنى بانذاركم فاذا قمت بما ألزمنى ربى فلم يقع منكم القبول والاجابة فالوبال عليكم يعود ومثلهم من حيث لم ينتفعوا بما سمعوا من انذاره مع كثرته وتواليه بالصم الذين لا يسمعون اصلا اذ الغرض بالانذار ليس السماع بل التمسك به فى اقدام على واجب وتحرز عن محرم ومعرفة بالحق فاذا لم يحصل هذا الغرض صار كأنه لم يسمع قال صاحب الكشاف قرئ ولا تسمع الصم الدعاء بالتاء والياء أى لا تسمع أنت أو لا يسمع رسول الله أو لا يسمع الصم من أسمع فان قلت الصم لا تسمع دعاء البشر كما لا يسمعون دعاء المنذر فكيف قال اذا ما ينذرون قلت اللام فى الصم اشارة الى هؤلاء المنذرين كأنه للعهد لا للجنس والاصل ولا يسمعون الدعاء اذا ما ينذرون فوضع الظاهر موضع المضمر للدلالة على تصامهم وسدهم

وتصديرها بالقسم لزيادة تحقيق مضمونها وتنوين الرسل للتفخيم والتكثير ومن متعلقة بمحذوف هو صفة له أى و بالله لقد استهزئ برسل أولى شأن خطير وذوى عدد كثير كائنين من زمان قبل زمانك على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه (فحاق) أى أحاط عقيب ذلك أو نزل أو حل أو نحو ذلك

فان معناه يدور على الشمول واللزوم ولا يكاد يستعمل الا في الشر والحيق ما يشتمل على الانسان من مكروه فعله وقوله تعالى (بالذين سخروا منهم) أي من أولئك الرسل ﴿ ١٥٦ ﴾ عليهم السلام متعلق بحاق وتقديمه على فاعله الذي هو قوله تعالى (ما كانوا به يستهزؤن) للمسارعة الى بيان لحوق الشر بهم وما اما موصولة مفيدة للتهويل والضمير المجرور عائد اليها والجار متعلق بالفعل وتقديمه عليه لرعاية الفواصل أي فاحاط بهم الذي كانوا يستهزؤن به حيث أهلكوا لاجله واما مصدرية فالضمير المجرور راجع حينئذ الى جنس الرسول المدلول عليه بالجمع كما قالوا ولعل ايثاره على الجمع للتنبيه على أنه يحيق بهم جزاء استهزائهم بكل واحد واحد منهم عليهم السلام لا جزاء استهزائهم بكلهم من حيث هو كل فقط أي فنزل بهم جزاء استهزائهم على وضع السبب موضع المسبب ايذانا بكمال الملابسة بينهما أو عين استهزائهم ان أريد بذلك العذاب الاخروي بناء على تجسم الاعمال فان الاعمال الظاهرة في هذه النشأة بصور عرضية تبرز في النشأة الآخرة بصور جوهرية مناسبة لها في الحسن والقبح وعلى ذلك بنى الوزن وقدمر تفصيله في سورة الاعراف وفي قوله تعالى انما بغيكم على أنفسكم الآية الى آخرها (قل) ﴿ ويكون ﴾ خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم اثر تسليته بما ذكر من مصير أمرهم الى الهلاك وأمره عليه السلام بان يقول لأولئك

أسماعهم اذا أنذروا أي هم على هذه الصفة من الجراءة والجسارة على التصامم عن آيات الانذار ثم بين تعالى أن حالهم سيتغير الى أن يصيروا بحيث اذا شاهدوا اليسير مما أنذروا به فعنده يسمعون و يعتذرون و يعترفون حين لا ينفعون وهذا هو المراد بقوله ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك ليقولن يا ويلنا انا كنا ظالمين وأصل النفح من الريح اللينة والمعنى ولئن مستهم شيء قليل من عذاب الله كرائحة من الشيء دون جسمه لتنادوا بالويل واعترفوا على أنفسهم بالظلم قال صاحب الكشاف في المس والنفحة ثلاث مبالغات لفظ المس ومافي النفح من معنى القلة والمزارة يقال نفحته الدابة وهو مع يسير ونفحه بعطية رضخه ولفظ المرة ثم بين سبحانه وتعالى ان جميع ما ينزل بهم في الآخرة لا يكون الا عدلا فهم وان ظلموا أنفسهم في الدنيا فلن يظلموا في الآخرة وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى ونضع الموازين القسط وصفها الله تعالى بذلك لان الميزان قد يكون مستقيما وقد يكون بخلافه فبين ان تلك الموازين تجرى على حد العدل والقسط وأكد ذلك بقوله فلا تظلم نفس شيئا وههنا مسائل (المسئلة الاولى) معنى وضعها احضارها قال الفراء القسط صفة الموازين وان كان موحدا وهو كقولك للقوم أنتم عدل وقال الزجاج ونضع الموازين ذوات القسط وقوله ليوم القيامة قال الفراء في يوم القيامة وقيل لاهل يوم القيامة (المسئلة الثانية) في وضع الموازين قولان (أحدهما) قال مجاهد هذا مثل والمراد بالموازين العدل ويروى مثله عن قتادة والضحاك والمعنى بالوزن القسط بينهم في الاعمال فمن أحاطت حسناته بسيئاته ثقلت موازينه يعني ان حسناته تذهب بسيئاته ومن أحاطت سيئاته بحسناته فقد خفت موازينه أي ان سيئاته تذهب بحسناته حكاه ابن جرير هكذا عن ابن عباس رضي الله عنهما (الثاني) وهو قول أئمة السلف انه سبحانه يضع الموازين الحقيقية فتوزن بها الاعمال وعن الحسن هو ميزان له كفتان ولسان وهو بيد جبريل عليه السلام ويروى ان داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان فلما رآه غشي عليه فلما أفاق قال يا الهي من الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات فقال يا داود اني اذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة ثم على هذا القول في كيفية وزن الاعمال طريقان (أحدهما) أن توزن صحائف الاعمال (والثاني) يجعل في كفة الحسنات جواهر بيض مشرقة وفي كفة السيئات جواهر سود مظلمة فان قيل أهل القيامة اما أن يكونوا عالمين بكونه سبحانه وتعالى عادلا غير ظالم أو لا يعلمون ذلك فان علموا ذلك كان مجرد حكمه كافيا في معرفة أن الغالب هو الحسنات أو السيئات فلا يكون في وضع الميزان فائدة البتة وان لم يعلموا لم تحصل الفائدة في وزن الصحائف لاحتمال انه سبحانه جعل احدى الصحيفتين أثقل أو أخف ظلما فثبت ان وضع الميزان على كلا التقديرين خال عن الفائدة وجوابه على قولنا قوله تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون وأيضا ففيه ظهور حال الولي من العدو وفي مجمع الخلائق فيكون لاحد القبيلين في ذلك أعظم السرور وللآخر أعظم الغم

المستهزئين بطريق التفريع والتبكيت (من يكلؤكم) اى يحفظكم بالليل والنهار من الرحمن أى من بأسه الذى تستحقون نزوله ليلا أو نهارا وتقديم الليل لما أن الدواهى أكثر فيه وقوعا وأشد وقعا وفى التعرض لعنوان الرحمانية

و يكون ذلك بمنزلة نشر الصحف وغيره اذا ثبت هذا فنقول الدليل على وجود الموازين الحقيقية ان حمل هذا اللفظ على مجرد العدل مجاز وصرف اللفظ عن الحقيقة الى المجاز من غير ضرورة غير جائز لاسيما وقد جاءت الاحاديث الكثيرة بالاسانيد الصحيحة فى هذا الباب (المسئلة الثالثة) قال قوم ان هذه الآية يناقضها قوله تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا والجواب انه لا يكرمهم ولا يعظمهم (المسئلة الرابعة) انما جمع الموازين لكثرة من توزن أعمالهم وهو جمع تفخيم ويجوز أن يرجع الى الموزونات أما قوله تعالى وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها فالمعنى انه لا ينقص من احسان محسن و لا يزاد فى اساءة مسئ وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ مثقال حبة على كان التامة كقوله تعالى وان كان ذو عسرة وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما آتينا بها وهى مفاعلة من الاتيان بمعنى المجازاة والمكافاة لانهم أتوه بالاعمال وأتاهم بالجزاء وقرأ حميد أثبنا بها من الثواب وفى حرف ابى جئنا بها (المسئلة الثانية) لم أنث ضمير المثقال قلنا لاضافته الى الحبة كقولهم ذهبت بعض أصابعه (المسئلة الثالثة) زعم الجبائى ان من استحق مائة جزء من العقاب فأتى بطاعة يستحق بها خمسين جزأ من الثواب فهذا الاقل يحبط بالاكثر و يبقى الاكثر كما كان واعلم ان هذه الآية تبطل قوله لان الله تعالى تمدح بان اليسير من الطاعة لا يسقط ولو كان الامر كما قال الجبائى لسقطت الطاعة من غير فائدة (المسئلة الرابعة) قالت المعتزلة قوله فلا تظلم نفس شيئا فيه دلالة على ان مثل ذلك لو ابتدأه الله تعالى لكان قد ظلم فدل هذا الوجه على انه تعالى لا يعذب من لا يستحق ولا يفعل المضار فى الدنيا الا للمنافع والمصالح (والجواب) الظلم هو التصرف فى ملك الغير وذلك فى حق الله تعالى محال لانه المالك المطلق ثم الذى يدل على استحالة الظلم عليه عقلا ان الظلم عند الخصم مستلزم للجهل أو الحاجة المحالين على الله تعالى ومستلزم المحال محال فالظلم على الله تعالى محال وأيضا فان الظالم سفيه خارج عن الالهية فلو صح منه الظلم لصح خروجه عن الالهية فحينئذ يكون كونه الها من الجائزات لا من الواجبات وذلك يقدح فى الهيته (المسئلة الخامسة) ان قيل الحبة أعظم من الخردلة فكيف قال حبة من خردل قلنا الوجه فيه أن تفرض الخردلة كالدينار ثم تعتبر الحبة من ذلك الدينار والغرض المبالغة فى ان شيئا من الاعمال صغيرا كان أو كبيرا غير ضائع عند الله تعالى أما قوله تعالى وكفى بنا حاسبين فالغرض منه التحذير فان المحاسب اذا كان فى العلم بحيث لا يمكن أن يشتبه عليه شئ وفى القدرة بحيث لا يعجز عن شئ حقيق بالعاقل أن يكون فى أشد الخوف منه و يروى عن الشبلى رحمه الله تعالى انه رؤى فى المنام فقيل له ما فعل الله بك فقال حاسبونا فدققوا * ثم منوا فأعتقوا * قوله تعالى (و لقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفانتم له منكرون) اعلم انه سبحانه لما تكلم فى دلائل التوحيد

ايذان بان كائنهم ليس الا رحمته العامة و بعد ما أمر عليه السلام بما ذكر من السؤال على الوجه المذكور حسبما تقتضيه حالهم لانهم بحيث لولا أن الله تعالى يحفظهم فى الملوين لحل بهم فنون الآفات فهم أحقاء بان يكلفوا الاعتراف بذلك فيو بخوا على ما هم عليه من الاشراك أضرب عن ذلك بقوله تعالى (بل هم عن ذكر ربهم معرضون) ببيان أن لهم حالا أخرى مقتضية لصرف الخطاب عنهم هى أنهم لا يخطرون ذكره تعالى ببالهم فضلا أن يخافوا باسه و يعد واما كانوا عليه من الامن والدعة حفظا وكلاءة حتى يسألوا عن الكالئ على طريقة قول من قال * عوجوا فحيوا النعمى ذمنة الدار * ماذا تحيون من نؤى وأحجار * وفى تعليق الاعراض بذكره تعالى وايراد اسم الرب المضاف الى ضميرهم المنبئ عن كونهم تحت ملكوته وتدبيره وتربيته تعالى من الدلالة على كونهم فى الغاية القاصية من الضلالة والغى ما لا يخفى وكلمة أم فى قوله تعالى (أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا) منقطعة وما فيها من معنى بل للاضراب والانتقال عما قبله من بيان أن جهلهم بحفظه تعالى اياهم لعدم خوفهم الناشئ عن اعراضهم عن ذكر ربهم بالكلية

الى توبيخهم باعتمادهم على الهتهم واسنادهم الحفظ اليها والهمزة لانكار ان يكون لهم آلهة تقدر على ذلك والمعنى بل ألهم الهة تمنعهم من العذاب تجاوز منعنا أو حفظنا أو من عذاب كائن ﴿ ١٥٨ ﴾ من عندنا فهم معولون عليها واثقون بحفظها وفى توجيه الانكار والنفى الى وجود الآلهة الموصوفة بما ذكر من المنع لا الى نفس الصفة بأن يقال أم تمنعهم آلهتهم الخ من الدلالة على سقوطها عن مرتبة الوجود فضلا عن رتبة المنع مالا يخفى وقوله عز وعلا (لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون) استئناف مقرر لما قبله من الانكار وموضح لبطلان اعتقادهم أى هم لا يستطيعون أن ينصروا أنفسهم ولا يصحبون بالنصر من جهتنا فكيف يتوهم أن ينصروا غيرهم وقوله تعالى (بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر) اضراب عما توهموا ببيان أن الداعى الى حفظهم تمتيعنا اياهم بما قدر لهم من الاعمار أو عن الدلالة على بطلانه ببيان ما أوهمهم ذلك وهو أنه تعالى متعهم بالحياة الدنيا وأمهلهم حتى طالت أعمارهم فحسبوا أن لا يزالوا كذلك وأنه بسبب ما هم عليه ولذلك عقب بما يدل على انه طمع فارغ وأمل كاذب ﴿ وكنا ﴾ حيث قيل (أفلا يرون) أى ألا ينظرون فلا يرون (انا نأتى الارض) أى أرض الكفرة (ننقصها من أطرافها) فكيف يتوهمون انهم ناجون من بأسنا وهو تمثيل وتصوير لما يخرب به الله عز وجل من ديارهم على أيدى المسلمين

والنبوة والمعاد شرع فى قصص الانبياء عليهم السلام تسلية للرسول عليه السلام فيما يناله من قومه وتقوية لقلبه على أداء الرسالة والصبر على كل عارض دونها وذكر ههنا منها قصصا (القصة الاولى) قصة موسى عليه السلام ووجه الاتصال انه تعالى لما أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول انما أنذركم بالوحى أتبعه بان هذه عادة الله تعالى فى الانبياء قبله فقال ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين واختلفوا فى المراد بالفرقان على أقوال (أحدها) انه هو التوراة فكان فرقانا اذ كان يفرق به بين الحق والباطل وكان ضياء اذ كان لغاية وضوحه يتوصل به الى طرق الهدى وسبل النجاة فى معرفة الله تعالى ومعرفة الشرائع وكان ذكرى أى موعظة أو ذكر ما يحتاجون اليه فى دينهم ومصالحهم أو الشرف أما الواو فى قوله وضياء فروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قرأ ضياء بغير واو وهو حال من الفرقان وأما القراءة المشهورة فالمعنى آتيناهم الفرقان وهو التوراة وآتيناه ضياء وذكرى للمتقين والمعنى انه فى نفسه ضياء وذكرى أو آتيناهما بما فيه من الشرائع والمواعظ ضياء وذكرى (القول الثانى) ان المراد من الفرقان ليس التوراة ثم فيه وجوه (أحدها) عن ابن عباس رضى الله عنهما الفرقان هو النصر الذى أوتى موسى عليه السلام كقوله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يعنى يوم بدر حين فرق بين الحق وغيره من الاديان الباطلة (وثانيها) هو البرهان الذى فرق به دين الحق عن الاديان الباطلة عن ابن زيد (وثالثها) فلق البحر عن الضحاك (ورابعها) الخروج عن الشبهات قال محمد بن كعب واعلم انه تعالى انما خصص الذكرى بالمتقين لما فى قوله هدى للمتقين أما قوله تعالى الذين يخشون ربهم بالغيب فقال صاحب الكشاف محل الذين جر على الوصفية أو نصب على المدح أو رفع عليه وفى معنى الغيب وجوه (أحدها) يخشون عذاب ربهم فيأتمرون بأوامره وينتهون عن نواهيه وايمانهم بالله غيبى استدلالى فالعباد يعملون لله فى الغيب والله لا يغيب عنه شئ عن ابن عباس رضى الله عنهما (وثانيها) يخشون ربهم وهم غائبون عن الآخرة وأحكامها (وثالثها) يخشون ربهم فى الخلوات اذا غابوا عن الناس وهذا هو الاقرب والمعنى ان خشيتهم من عقاب الله لازم لقلوبهم الا أن ذلك مما يظهرونه فى الملا دون الخلا وهم من عذاب الساعة وسائر ما يجرى فيها من الحساب والسؤال مشفقون فيعدلون بسبب ذلك الاشفاق عن معصية الله تعالى ثم قال وكما أنزلت عليهم الفرقان فكذلك هذا القرآن المنزل عليك وهو معنى قوله وهذا ذكر مبارك بركته كثرة منافعه وغزارة علومه وقوله أفأنتم له منكرون فالمعنى انه لا انكار فى انزاله وفى عجائب ما فيه فقد آتينا موسى وهرون التوراة ثم هذا القرآن معجز لاشتماله على النظم العجيب والبلاغة البديعة واشتماله على الادلة العقلية وبيان الشرائع فمثل هذا الكتاب مع كثرة منافعه كيف يمكنكم انكاره

* القصة الثانية لابراهيم عليه السلام * قوله تعالى (ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل

وكنا به عالمين اذ قال لابيه وقومه ماهذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين) اعلم ان قوله تعالى ولقد آتينا ابراهيم رشده فيه مسائل (المسئلة الاولى) في الرشد قولان (الاول) انه النبوة واحتجوا عليه بقوله وكنا به عالمين قالوا لانه تعالى انما يخص بالنبوة من يعلم من حاله انه في المستقبل يقوم بحقها و يجتنب مالا يليق بها و يحترز عما ينفر قومه من القبول (والثاني) انه الاهتداء لوجوه الصلاح في الدين والدنيا قال تعالى فان آنستم منهم رشدا فادفعوا اليهم أموالهم وفيه قول ثالث وهو ان تدخل النبوة والاهتداء تحت الرشد اذ لا يجوز أن يبعث نبي الا وقد دله الله تعالى على ذاته وصفاته ودله أيضا على مصالح نفسه ومصالح قومه وكل ذلك من الرشد (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا في ان الايمان مخلوق لله تعالى بهذه الآية فانه لو كان الرشد هو التوفيق والبيان فقد فعل الله تعالى ذلك بالكفار فيجب أن يكون قد آتاهم رشدهم أجاب الكعبي بان هذا يقال فيمن قبل لا فيمن رد وذلك كمن أعطى المال لولدين فقبله أحدهما وثمره ورده الآخر أو أخذه ثم ضيعه فيقال أغنى فلان ابنه فيمن أثمر المال ولا يقال مثله فيمن ضيع (والجواب عنه) هذا الجواب لا يتم الا اذا جعلنا قبوله جزأ من مسمى الرشد وذلك باطل لان المسمى اذا كان مركبا من جزأين ولا يكون أحدهما مقدور الفاعل لم يجز اضافة ذلك المسمى الى ذلك الفاعل فكان يلزم أن لا يجوز اضافة الرشد الى الله تعالى بالمفعولية لكن النص وهو قوله ولقد آتينا ابراهيم رشده صريح في أن ذلك الرشد انما حصل من الله تعالى فبطل ماقالوه (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف قرئ رشده كالعدم والعدم و معنى اضافته اليه انه رشد مثله وانه رشد له بيان أما قوله تعالى من قبل ففيه وجوه (أحدها) آتينا ابراهيم نبوته واهتداءه من قبل موسى عليه السلام عن ابن عباس وابن جرير (وثانيها) في صغره قبل بلوغه حين كان في السرب وظهرت له الكواكب فاستدل بها وهذا على قول من حمل الرشد على الاهتداء والا لزمه أن يحكم بنبوته عليه السلام قبل البلوغ عن مقاتل (وثالثها) يعني حين كان في صلب آدم عليه السلام حين أخذ الله ميثاق النبيين عن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية الضحاك أما قوله تعالى وكنا به عالمين فالمراد انه سبحانه علم منه أحوالا بديعة وأسرارا عجيبة وصفات قدر ضيها حتى أهله لان يكون خليلا له وهذا كقولك في رجل كبير أنا عالم بفلان فان هذا الكلام في الدلالة على تعظيمه أدل مما اذا شرحت جلال كماله أما قوله تعالى اذ قال لأبيه وقومه فقال صاحب الكشاف اذا ما أن تتعلق بآتينا أو برشده أو بمحذوف أي اذكر من أوقات رشده هذا الوقت أما قوله ماهذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) التمثال اسم للشئ المصنوع مشبها بخلق من خلق الله تعالى وأصله من مثلت الشئ بالشئ اذا شبهته به واسم ذلك الممثل تمثال (المسئلة الثانية) ان القوم كانوا عباد أصنام على صور

غلبتهم كما مر في قوله تعالى أفمن كان على بينة من ربه وقوله تعالى قل أفاتخذتم من دونه أولياء وفي التعريف تعريض بان المسلمين هم المتعينون للغلبة المعرفون بها (قل انما أنذركم) بعد ما بين من جهته تعالى غاية هول مايستعجله المستعجلون ونهاية سوء حالهم عند اتيانه ونعى عليهم جهلهم بذلك واعراضهم عن ذكر ربهم الذي يكلؤهم من طوارق الليل والنهار وغير ذلك من مساوى أحوالهم أمر عليه السلام بان يقول لهم انما أنذركم ماتستعجلونه من الساعة (بالوحي) الصادق الناطق باتيانها وفظاعة مافيها من الاهوال أي انما شأني أن انذركم بالاخبار بذلك لا بالاتيان بها فانه من احكام الحكمة التكوينية والتشريعية اذ الايمان برهاني لا عياني وقوله تعالى (ولا يسمع الصم الدعاء) اما من تتمة الكلام الملقن تذييل له بطريق الاعتراض قد أمر عليه السلام بان يقوله لهم تو بيخا وتقريعا وتسجيلا عليهم بكمال الجهل والعناد واللام للجنس المنتظم للمخاطبين انتظاما أوليا أو للعهد فوضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالتصام وتقييد نفي السماع بقوله تعالى (اذا ما ينذرون) مع أن الصم لا يسمعون الكلام انذارا كان أو تبشيرا لبيان كمال

شدة الصمم كما أن إيثار الدعاء الذى هو عبارة عن الصوت والنداء على الكلام لذلك فان الانذار غادة يكون بأصوات عالية مكررة مقارنة لهيآت دالة عليه فاذا لم يسمعوها يكون صممهم ﴿ في غاية لا غاية وراءها واما من جهته تعالى

على طريقة قوله تعالى بل هم عن ذكر ربهم معرضون ويؤيده القراءة على خطاب النبى عليه الصلاة والسلام من الاسماع بنصب الصم والدعاء كأنه قيل قل لهم ذلك وأنت بمعزل من اسماعهم وقرئ بالياء أيضا على أن الفاعل هو عليه السلام وقرئ على البناء للمفعول أى لا يقدر أحد على اسماع الصم وقوله تعالى (ولئن مستهم نفحة من عذاب ربك) بيان لسرعة تأثرهم من مجئ نفس العذاب اثر بيان عدم تأثرهم من مجئ خبره على نهج التوكيد القسمى أى وبالله لئن أصابهم أدنى اصابة أدنى شئ من عذابه تعالى كما ينبئ عنه المس والنفحة بجوهرها وبنائها فان أصل النفح هبوب رائحة الشئ (ليقولن ياويلنا انا كنا ظالمين) ليدعن على أنفسهم بالويل والهلاك ويعترفن عليها بالظلم وقوله تعالى (ونضع الموازين القسط) بيان لما سيقع عند اتيان

مخصوصة كصورة الانسان أو غيره فجعل عليه السلام هذا القول منه ابتداء كلامه لينظر فيما عساهم يوردونه من شبهة فيبطلها عليهم (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف لم يبن للعاكفين مفعولا وأجراه مجرى ما لا يتعدى كقولك فاعلون للعكوف أو واقفون لها قال فان قلت هلا قيل عليها عاكفون كقوله يعكفون على أصنام لهم قلت لو قصد التعدية لعداه بصلته التى هى على أما قوله قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين فاعلم ان القوم لم يجدوا فى جوابه الا طريقة التقليد الذى يوجب مزيد النكير لانهم اذا كانوا على خطا من أمرهم لم يعصمهم من هذا الخطا ان آباءهم أيضا سلكوا هذا الطريق فلا جرم أجابهم ابراهيم عليه السلام بقوله لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين فبين ان الباطل لا يصير حقا بسبب كثرة المتمسكين به فلما حقق عليه السلام ذلك عليهم ولم يجدوا من كلامه مخلصا ورأوه ثابتا على الانكار قوى القلب فيه وكانوا يستبعدون أن يجرى مثل هذا الانكار عليهم مع كثرتهم وطول العهد بمذهبهم فعند ذلك قالوا له أجئتنا بالحق ام أنت من اللاعبين موهمين بهذا الكلام انه يبعد أن يقدم على الانكار عليهم جادا فى ذلك فعنده عدل صلى الله عليه وسلم الى بيان التوحيد ﴿ قوله تعالى (قال بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم) اعلم ان القوم لما أوهموا انه انما يمازح بما خاطبهم به فى أصنامهم أظهر عليه السلام ما يعلمون به انه مجد فى اظهار الحق الذى هو التوحيد وذلك بالقول أولا وبالفعل ثانيا أما الطريقة القولية فهى قوله بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن وهذه الدلالة تدل على أن الخالق الذى خلقها لمنافع العباد هو الذى يحسن أن يعبد لان من يقدر على ذلك يقدر على أن يضر وينفع فى الدار الاخرة بالعقاب والثواب فيرجع حاصل هذه الطريقة الى الطريقة التى ذكرها لأبيه فى قوله يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا قال صاحب الكشاف الضمير فى فطرهن للسموات والارض أو للتماثيل وكونه للتماثيل أدخل فى الاحتجاج عليهم أما قوله وأنا على ذلكم من الشاهدين ففيه وجهان (الاول) ان المقصود منه المبالغة فى التأكيد والتحقيق كقول الرجل اذا بالغ فى مدح أحد أو ذمه أشهد أنه كريم أو ذميم (والثانى) انه عليه السلام عنى بقوله وأنا على ذلكم من الشاهدين ادعاء انه قادر على اثبات ما ذكره بالحجة وانى لست مثلكم فأقول ما لا أقدر على اثباته بالحجة كما لم تقدروا على الاحتجاج لمذهبكم ولم تزيدوا على أنكم وجدتم عليه آباءكم وأما الطريقة الفعلية فهى قوله وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فان القوم لما لم ينتفعوا بالدلالة العقلية عدل الى ان أراهم عدم الفائدة فى عبادتها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف قرأ معاذ بن جبل رضى الله عنه وبالله وقرئ تولوا بمعنى تتولوا

ما أنذروه أى نقيم الموازين العادلة التى توزن بها صحائف الاعمال وقيل وضع الموازين تمثيل لارصاد ﴿ ويقويها ﴾ الحساب السوى والجزاء على حسب الاعمال وقدمر تفصيل ما فيه من الكلام فى سورة الاعراف

وافراد القسط لانه مصدر وصف به مبالغة (ليوم القيامة) التى كانوا يستعجلونها أى لجزائه اولاجل أهله أوفيه كما فى قولك جئت لخمس خلون من الشهر (فلا تظلم نفس) ﴿ ١٦١ ﴾ من النفوس (شيئا) حقا من حقوقها أوشيئا ما من الظلم بل يوفى كل ذى حق حقه ان خيرا فخير وان شرا فشر والفاء لترتيب انتفاء الظلم على وضع الموازين (وان كان) أى العمل المدلول عليه بوضع الموازين (مثقال حبة من خردل) أى مقدار حبة كائنة من خردل أى وان كان فى غاية القلة والحقارة فان حبة الخردل مثل فى الصغر وقرئ مثقال حبة بالرفع على أن كان تامة (أتينا بها) أى أحضرنا ذلك العمل المعبر عنه بمثقال حبة الخردل للوزن والتأنيث لاضافته الى الحبة وقرئ آتينا بها أى جازينا بها من الايتاء بمعنى المجازاة والمكافأة او المؤاتاة لانهم أتوا بالاعمال وأتاهم بالجزاء وقرئ أتينا من الثواب وقرئ بنا بها (وكفى بنا حاسبين) اذ لامزيد على علمنا وعدلنا (ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين) نوع تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم الى ﴿ ٢١ ﴾ س قوله تعالى وأهلكنا المسرفين واشارة الى كيفية انجائهم وأهلاك أعدائهم وتصديره بالتوكيد القسمى

ويقويها قوله فتولوا عنه مدبرين فان قلت ما الفرق بين الباء والتاء قلت ان الباء هى الاصل والتاء بدل من الواو المبدل منها والتاء فيها زيادة معنى وهو التعجب كأنه تعجب من تسهيل الكيد على يده لان ذلك كان أمرا مقنوطا منه لصعوبته (المسئلة الثانية) ان قيل لماذا قال لأكيدن أصنامكم والكيد هو الاحتيال على الغير فى ضرر لايشعر به وذلك لايأتى فى الاصنام (وجوابه) قال ذلك توسعا لما كان عندهم ان الضرر يجوز عليها وقيل المراد لأكيدنكم فى أصنامكم لانه بذلك الفعل قد أزل بهم الغم (المسئلة الثالثة) فى كيفية أول القصة وجهان (أحدهما) قال السدى كانوا اذا رجعوا من عيدهم دخلوا على الاصنام فسجدوا لها ثم عادوا الى منازلهم فلما كان هذا الوقت قال آزر لابراهيم عليه السلام لوخرجت معنا فخرج معهم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال انى سقيم اشتكى رجلى فلما مضوا وبقى ضعفاء الناس نادى وقال تالله لاكيدن أصنامكم واحتج هذا القائل بقوله تعالى قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم (وثانيها) قال الكلبى كان ابراهيم عليه السلام من اهل بيت ينظرون فى النجوم وكانوا اذا خرجوا الى عيدهم لم يتركوا الامر يضا فلما هم ابراهيم بالذى هم به من كسر الاصنام نظر قبل يوم العيد الى السماء فقال لاصحابه انى أشتكى غدا فذلك قوله فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم وأصبح من الغد معصوبا رأسه فخرج القوم لعيدهم ولم يتخلف أحد غيره فقال أما والله لاكيدن أصنامكم وسمع رجل منهم هذا القول فحفظه عليه ثم ان ذلك الرجل أخبر غيره وانتشر ذلك فى جماعة فلذلك قال تعالى قالوا سمعنا فتى يذكرهم واعلم ان كلا الوجهين ممكن ثم تمام القصة ان ابراهيم عليه السلام لما دخل بيت الاصنام وجد بين صنما مصطفة وثم صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب وكان فى عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسرها كلها بفاس فى يده حتى لم يبق الا الكبير ثم علق الفاس فى عنقه أما قوله تعالى فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم لعلهم اليه يرجعون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ان قيل لم قال فجعلهم جذاذا وهذا جمع لا يليق الا بالناس (جوابه) من حيث اعتقدوا فيها انها كالناس فى انها تعظم و يتقرب اليها ولعل كان فيهم من يظن انها تضر و تنفع (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف جذاذا قطعا من الجذ وهو القطع وقرئ بالكسر والفتح وقرئ جذذا جمع جذيذ وجذذا جمع جذة (المسئلة الثالثة) ان قيل ما معنى الاكبير الهم قلنا يحتمل الكبير فى الخلقة و يحتمل فى التعظيم و يحتمل فى الامرين وأما قوله لعلهم اليه يرجعون فيحتمل رجوعهم الى ابراهيم عليه السلام ويحتمل رجوعهم الى الكبير (أما الاول) فتقريره من وجهين (الاول) ان المعنى أنهم لعلهم يرجعون الى مقالة ابراهيم و يعدلون عن الباطل (والثانى) انه غلب على ظنه انهم لا يرجعون الا اليه لما تسامعوه من انكاره لدينهم وسبه لآلهتهم فيكتهم بما أجاب به من قوله بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم أما اذا قلنا الضمير راجع الى الكبير ففيه وجهان (الاول) ان المعنى لعلهم

لاظهار كمال الاعتناء بمضمونه والمراد بالفرقان هو التوراة وكذا بالضياء والذكر أي وبالله لقد آتينا هما وحيا ساطعا وكتابا جامعا بين كونه فارقا بين الحق والباطل وضياء ﴿ ١٦٢ ﴾ يستضاء به في ظلمات الجهل والغواية وذكرا يتعظ به الناس وتخصيص المتقين بالذكر لانهم المستضيئون بأنواره المغتنمون لمغانم آثاره أو ذكرا مما يحتاجون اليه من الشرائع والاحكام وقيل الفرقان النصر وقيل فلق البحر والاول هو اللائق بمساق النظم الكريم فانه لتحقيق أمر القرآن المشارك لسائر الكتب الالهية لاسيما التوراة فيما ذكر من الصفات ولان فلق البحر هو الذي اقترح الكفرة مثله بقولهم فليأتنا بآية كما أرسل الاولون وقرئ ضياء بغير واو على انه حال من الفرقان وقوله تعالى (الذين يخشون ربهم) أي عذابه مجرور المحل على انه صفة مادحة للمتقين أو بدل أو بيان أو منصوب أو مرفوع على المدح (بالغيب) حال من المفعول أي يخشون عذابه تعالى وهو غائب عنهم غير مشاهد لهم ففيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون بالانذار ما لم يشاهد واما أنذروه وقيل من الفاعل (وهم من الساعة مشفقون) أي خائفون منها بطريق الاعتناء وتقديم ﴿ يشهدون ﴾ الجار لمراعاة الفواصل وتخصيص اشفاقهم

يرجعون اليه كما يرجع الى العالم في حل المشكلات فيقولون ما لهؤلاء مكسورة ومالك صحيحا والفاس على عاتقك وهذا قول الكلبي وانما قال ذلك بناء على كثرة جهالاتهم فلعلهم كانوا يعتقدون فيها انها تجيب وتتكلم (والثاني) انه عليه السلام قال ذلك مع علمه انهم لا يرجعون اليه استهزاء بهم وان قياس حال من يسجد له ويؤهل للعبادة أن يرجع اليه في حل المشكلات (المسئلة الرابعة) ان قيل أولئك الاقوام اما أن يقال انهم كانوا عقلاء أو ما كانوا عقلاء فان كانوا عقلاء وجب أن يكونوا عالمين بالضرورة ان تلك الاصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تنفع ولا تضر فأي حاجة في اثبات ذلك الى كسرها أقصى ما في الباب أن يقال القوم كانوا يعظمونها كما يعظم الواحد منا المصحف والمسجد والمحراب وكسرها لا يقدح في كونها معظمة من هذا الوجه وان قلنا انهم ما كانوا عقلاء وجب أن لا تحسن المناظرة معهم ولا بعثة الرسل اليهم (والجواب) انهم كانوا عقلاء وكانوا عالمين بالضرورة انها جمادات ولكن لعلهم كانوا يعتقدون فيها انها تماثيل الكواكب وانها طلسمات موضوعة بحيث ان كل من عبدها انتفع بها وكل من استخف بها نالته منها ضرر شديد ثم ان ابراهيم عليه السلام كسرها مع انه علم انه ما نالته منها البتة ضرر فكان فعله دالا على فساد مذهبهم من هذا الوجه أما قوله تعالى قالوا من فعل هذا بآلهتنا انه لمن الظالمين أي من فعل هذا الكسر والخطم الشديد الظلم معدود في الظلمة اما لجراءته على الآلهة الحقيقة بالتوقير والاعظام واما لانهم رأوا افراطا في كسرها وتماديا في الاستهانة بها أما قوله تعالى قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال الزجاج ارتفع ابراهيم على وجهين (أحدهما) على معنى يقال هو ابراهيم (والثاني) على النداء على معنى يقال له يا ابراهيم قال صاحب الكشاف والصحيح انه فاعل يقال لان المراد الاسم دون المسمى (المسئلة الثانية) ظاهر الآية يدل على ان القائلين جماعة لا واحد فكانهم كانوا من قبل قد عرفوا منه وسمعوا ما يقوله في آلهتهم فغلب على قلوبهم انه الفاعل ولو لم يكن الا قولهم ما هذه التماثيل الى غير ذلك لكفى * قوله تعالى (قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسئلوهم ان كانوا ينطقون فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) اعلم ان القوم لما شاهدوا كسر الاصنام وقيل ان فاعله ابراهيم عليه السلام قالوا فيما بينهم فاتوا به على أعين الناس قال صاحب الكشاف على أعين الناس في محل الحال أي فأتوا به مشاهدا أي بمرأى منهم ومنظر فان قلت ما معنى الاستعلاء في على قلت هو وارد على طريق المثل أي يثبت اتيانه في الاعين ثبات الراكب على المركوب أما قوله تعالى لعلهم يشهدون ففيه وجهان (أحدهما) انهم كرهوا أن يأخذوه بغير بينة فأرادوا أن يجيئوا به على أعين الناس لعلهم

يشهدون عليه بما قاله فيكون حجة عليه بما فعل وهذا قول الحسن وقتادة والسدي وعطاء وابن عباس رضي الله عنهم (وثانيهما) وهو قول محمد بن اسحق أي يحضرون فيبصرون ما يصنع به فيكون ذلك زاجرا لهم عن الاقدام على مثل فعله وفيه قول ثالث وهو قول مقاتل والكلبي ان المراد مجموع الوجهين فيشهدون عليه بفعله ويشهدون عقابه أما قوله تعالى قالوا أأنت فعلت هذا فاعلم ان في الكلام حذفا وهو فاتوا به وقالوا أأنت فعلت طلبوا منه الاعتراف بذلك ليقدموا على ايذائه فظهر منه ما انقلب الامر عليهم حتى تمنوا الخلاص منه فقال بل فعله كبيرهم هذا وقد علق الناس على رقبته لكي يورد هذا القول فيظهر جهلهم في عبادة الاوثان فان قيل قوله بل فعله كبيرهم كذب (والجواب) للناس فيه قولان (أحدهما) وهو قول كافة المحققين انه ليس بكذب وذكروا في الاعتذار عنه وجوها (أحدها) ان قصد ابراهيم عليه السلام لم يكن الى أن ينسب الفعل الصادر عنه الى الصنم وانما قصد تقرير نفسه واثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط أأنت كتبت هذا وصاحبك أمي لا يحسن الخط ولا يقدر الا على خرمشة فاسدة فقلت له بل كتبته أنت كان قصدك بهذا الجواب تقريره للكم مع الاستهزاء به لا نفيه عنك واثباته للامي أو المخرمش لان اثباته والامر دائر بينهما للعاجز منهما استهزاء به واثبات للقادر (وثانيها) ان ابراهيم عليه السلام غاظته تلك الاصنام حين أبصرها مصطفة مزينة وكان غيظه من كبيرها أشد لما رأى من زيادة تعظيمهم له فاسند الفعل اليه لانه هو السبب في استهانته بها وحطمه لها والفعل كما يسند الى مباشره يسند الى الحامل عليه (وثالثها) أن يكون حكاية لما يلزم على مذهبهم كأنه قال لهم ما تنكرون أن يفعله كبيرهم فان من حق من يعبد ويدعي الهاأن يقدر على هذا وأشد منه وهذه الوجوه الثلاثة ذكرها صاحب الكشاف (ورابعها) انه كناية عن غير مذكور أي فعله من فعله وكبيرهم هذا ابتداء الكلام ويروى عن الكسائي انه كان يقف عند قوله بل فعله ثم يبتدئ كبيرهم هذا (وخامسها) انه يجوز أن يكون فيه وقف عند قوله كبيرهم ثم يبتدئ فيقول هذا فاسئلوهم والمعنى بل فعله كبيرهم وعني نفسه لان الانسان أكبر من كل صنم (وسادسها) أن يكون في الكلام تقديم وتأخير كأنه قال بل فعله كبيرهم هذا ان كانوا ينطقون فاسئلوهم فتكون اضافة الفعل الى كبيرهم مشروطا بكونهم ناطقين فلما لم يكونوا ناطقين امتنع ان يكونوا فاعلين (وسابعها) قرأ محمد بن السميفع فعله كبيرهم أي فلعل الفاعل كبيرهم (القول الثاني) وهو قول طائفة من أهل الحكايات ان ذلك كذب واحتجوا بما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لم يكذب ابراهيم الا ثلاث كذبات كلها في ذات الله تعالى قوله اني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم هذا وقوله لسارة هي أختي وفي خبر آخران أهل الموقف اذا سألوا ابراهيم الشفاعة قال اني كذبت ثلاث كذبات ثم قرروا قولهم من جهة العقل وقالوا الكذب

أشير اليه بهذا ايذانا بغاية وضوح أمره (ذكر) يتذكر به من يتذكر وصف بالوصف الاخير للتوراة لمناسبة المقام وموافقته للامر في صدر السورة الكريمة (مبارك) كثير الخير غزير النفع يتبرك به (أنزلناه) اما صفة ثانية لذكر أو خبر آخر (أفأنتم له منكرون) انكار لانكارهم بعد ظهور كون انزاله كايتاء التوراة كأنه قيل أبعد أن علمتم أن شأنه كشأن التوراة في الايتاء والايحاء أنتم منكرون لكونه منزلا من عندنا فان ذلك بعد ملاحظة حال التوراة مما لا مساغ له أصلا (ولقد آتينا ابراهيم رشده) أي الرشد اللائق به وبأمثاله من الرسل الكبار وهو الاهتداء الكامل المستند الى الهداية الخاصة الحاصلة بالوحي والاقتدار على اصلاح الامة باستعمال النواميس الالهية وقرئ رشده وهما لغتان كالحزن والحزن (من قبل) أي من قبل ايتاء موسى وهرون التوراة وتقديم ذكر ايتائها لما بينه وبين انزال القرآن من الشبه التام وقيل من

قبل استنبائه أو قبل بلوغه وبأباه المقام (وكنا به عالمين) أى بأنه اهل لما آتيناه وفيه من الدليل على انه تعالى عالم بالجزئيات مختار فى أفعاله مالا يخفى (اذ قال لابيه وقومه) ظرف ﴿ ١٦٤ ﴾ لآتينا على انه وقت متسع وقع فيه الايتاء وما ترتب

عليه من أفعاله وأقواله وقيل مفعول لمضمر مستأنف وقع تعليلا لما قبله أى اذكر وقت قوله لهم (ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون) لتقف على كمال رشده وغاية فضله وانتحال اسم لشئ مصنوع مشبه بخلق من خلائق الله تعالى وهذا تجاهل منه عليه السلام حيث سألهم عن أصنامهم بما الذى يطلب به بيان الحقيقة أو شرح الاسم كأنه لا يعرف أنها ما دام احاطته بأن حقيقتها حجر أو شجر اتخذوها معبودا وعبر عن عبادتهم لها بطلق العكوف الذى هو عبارة عن اللزوم والاستمرار على الشئ لغرض من الاغراض قصدا الى تصغيرها واذلالها او توبيخهم على اجلالها واللام فى لها للاختصاص دون التعدية والاجئ بكلمة على والمعنى أنتم فاعلون العكوف لها وقد يجوز تضمين العكوف معنى العبادة كما ينبئ عنه قوله تعالى (قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين) أجابوا بذلك لما ان ما كل سؤاله عليه السلام الاستفسار عن ﴿ فتأفف ﴾ سبب عبادتهم لها كما ينبئ عنه وصفه

ليس قبيحا لذاته فان النبى عليه السلام اذا هرب من ظالم واختفى فى دار انسان وجاء الظالم وسأل عن حاله فانه يجب الكذب فيه واذا كان كذلك فأى بعد فى أن يأذن الله تعالى فى ذلك لمصلحة لا يعرفها الا هو واعلم ان هذا القول مرغوب عنه أما الخبر الاول وهو الذى رووه فلان يضاف الكذب الى رواته أولى من أن يضاف الى الانبياء عليهم الصلاة والسلام والدليل القاطع عليه انه لو جاز أن يكذبوا لمصلحة و بأذن الله تعالى فيه فلم يجوز هذا الاحتمال فى كل ما أخبروا عنه وفى كل ما أخبر الله تعالى عنه وذلك يبطل الوثوق بالشرائع وتطرق التهمة الى كلها ثم ان ذلك الخبر لو صح فهو محمول على المعاريض على ما قال عليه السلام ان فى المعاريض لمندوحة عن الكذب فأما قوله تعالى انى سقيم فلعله كان به سقم قليل واستقصاء الكلام فيه يجئ فى موضعه وأما قوله بل فعله كبيرهم فقد ظهر الجواب عنه أما قوله لسارة انها أختى فالمراد انها أخته فى الدين واذا أمكن حمل الكلام على ظاهره من غير نسبة الكذب الى الانبياء عليهم السلام فحينئذ لا يحكم بنسبة الكذب اليهم الا زنديق أما قوله تعالى فرجعوا الى أنفسهم فقالوا انكم أنتم الظالمون ففيه وجوه (الاول) ان ابراهيم عليه السلام لما نبههم بما أورده عليهم على قبح طريقهم تنبهوا فعلموا ان عبادة الاصنام باطلة وانهم على غرور وجهل فى ذلك (والثانى) قال مقاتل فرجعوا الى أنفسهم فلاموها وقالوا انكم أنتم الظالمون لابراهيم حيث تزعمون انه كسرها مع ان الناس بين يدى الصنم الكبير (وثالثها) المعنى انكم أنتم الظالمون لانفسكم حيث سألتم منه عن ذلك حتى أخذ يستهزئ بكم فى الجواب والاقرب هو الاول أما قوله تعالى ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون فقال صاحب الكشاف نكسه قلبه فجعل أسفله أعلاه وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى المعنى وجوه (أحدها) ان المراد استقاموا حين رجعوا الى أنفسهم وأتوا بالفكرة الصالحة ثم انتكسوا فقلبوا عن تلك الحالة فأخذوا المجادلة بالباطل وان هؤلاء مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق آلهة معبودة (وثانيها) قلبوا على رؤسهم حقيقة لفرط اطراقهم خجلا وانكسارا وانخذالا مما بهتهم به ابراهيم فأحاروا جوابا الا ما هو حجة عليهم (وثالثها) قال ابن جريج ثم نكسوا على رؤسهم فى الحجة عليهم لابراهيم حين جادلهم أى قلبوا فى الحجة واحتجوا على ابراهيم بما هو الحجة لابراهيم عليهم فقالوا لقد علمت ما هؤلاء ينطقون فاقروا بهذه للحيرة التى لحقتهم قال والمعنى نكست حجتهم فاقيم الخبر عنهم مقام الخبر عن حجتهم (المسئلة الثانية) قرئ نكسوا بالتشديد ونكسوا على لفظ ما لم يسم فاعله أى نكسوا أنفسهم على رؤسهم وهى قراءة رضوان بن عبد المعبود أما قوله تعالى قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون فالمعنى ظاهر قال صاحب الكشاف أف صوت اذا صوت به علم ان صاحبه متضجر وأن ابراهيم عليه السلام أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم و بعد وضوح الحق وزهوق الباطل

عليه السلام اياهم بالعكوف لها كأنه قال ماهي هل تستحق ماتصنعون من العكوف عليها فلما لم يكن لهم ملجأ يعتد به التجؤا الى التقليد فابطله عليه السلام على طريقة التوكيد القسمي حيث (قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم) الذين سنوا لكم هذه السنة الباطلة (في ضلال) عجيب لا يقادر قدره (مبين) أي ظاهر بين بحيث لا يخفى على أحد من العقلاء كونه كذلك ومعنى كنتم مطلق استقرارهم على الضلال لا استقرارهم الماضي الحاصل قبل زمان الخطاب المتناول لهم ولآبائهم أي والله لقد كنتم مستقرين على ضلال عظيم ظاهر لعدم استناده الى دليل ما والتقليد انما يجوز فيما يحتمل الحقية في الجملة (قالوا) لما سمعوا مقالته عليه السلام استبعادا لكون ما هم عليه ضلالا وتعجبا من تضليله عليه السلام اياهم بطريق التوكيد القسمي وترددا في كون ذلك منه عليه السلام على وجه الجد (أجئتنا بالحق) أي بالجد (أم أنت من اللاعبين) فتقول ما تقول على وجه المداعبة والمزاح وفي ايراد الشق الاخير بالجملة الاسمية الدالة على الثبات فتأفف بهم ثم يحتمل انه قال لهم ذلك وقد عرفوا صحة قوله ويحتمل انه قال لهم ذلك وقد ظهرت الحجة وان لم يعقلوا وهذا هو الاقرب لقوله أفتعبدون ولقوله أفلا تعقلون ❊ قوله تعالى (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين ونجيناه ولوطا الى الارض التي باركنا فيها للعالمين) اعلم انه تعالى لما بين ما أظهره ابراهيم عليه السلام من دلائل التوحيد وابطال ما كانوا عليه من عبادة التماثيل أتبعه بما يدل على جهلهم وانهم قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم وههنا مسائل (المسئلة الاولى) ليس في القرآن من القائل لذلك والمشهور أنه نمروذ بن كنعان بن سنجاريب بن نمروذ بن كوش بن حام بن نوح وقال مجاهد سمعت ابن عمر يقول انما أشار بتحريق ابراهيم عليه السلام رجل من الكرد من اعراب فارس وروى ابن جريج عن وهب عن شعيب الجبائي قال ان الذي قال حرقوه رجل اسمه هبرين فخسف الله تعالى به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة (المسئلة الثانية) أما كيفية القصة فقال مقاتل لما اجتمع نمروذ وقومه لاحراق ابراهيم حبسوه في بيت وبنوا بنيانا كالحظيرة وذلك قوله قالوا ابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم ثم جمعوا له الحطب الكثير حتى ان المرأة لو مرضت قالت ان عافاني الله لاجمعن حطبا لابراهيم ونقلوا له الحطب على الدواب أربعين يوما فلما اشتعلت النار اشتدت وصار الهواء بحيث لو مر الطير في أقصى الهواء لاحترق ثم أخذوا ابراهيم عليه السلام ورفعوه على رأس البنيان وقيدوه ثم اتخذوا منجنيقا ووضعوه فيه مقيدا مغلولا فصاحت السماء والارض ومن فيها من الملائكة الا الثقلين صيحة واحدة أي ربنا ليس في أرضك أحد يعبدك غير ابراهيم وانه يحرق فيك فأذن لنا في نصرته فقال سبحانه ان استغاث بأحد منكم فاغيثوه وان لم يدع غيري فانا أعلم به وأنا وليه فخلوا بيني وبينه فلما أرادوا القاءه في النار أتاه خازن الرياح فقال ان شئت طيرت النار في الهواء فقال ابراهيم عليه السلام لا حاجة لي اليكم ثم رفع رأسه الى السماء وقال اللهم أنت الواحد في السماء وأنا الواحد في الارض ليس في الارض أحد يعبدك غيري حسبنا الله ونعم الوكيل وقيل انه حين ألقي في النار قال لا اله الا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك ثم وضعوه في المنجنيق ورموا به النار فأتاه جبريل عليه السلام وقال يا ابراهيم هل لك حاجة قال أما اليك فلا قال فاسأل ربك قال حسبي من سؤالي علمه بحالي فقال الله تعالى يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم وقال السدي انما قال ذلك جبريل عليه السلام قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية مجاهد ولو لم يتبع بردا سلاما لمات ابراهيم من بردها قال ولم يبق يومئذ في الدنيا نار الا طفئت ثم قال السدي فأخذت الملائكة بضبعي ابراهيم وأقعدوه في الارض فاذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس ولم تحرق النار منه الا وثاقه وقال المنهال بن عمرو أخبرت ان ابراهيم عليه السلام لما ألقي في النار كان فيها اما أربعين يوما أو خمسين يوما وقال ما كنت أياما أطيب عيشا مني

ايذان بحقانه عندهم (قال) عليه السلام اضرابا عما بنوا عليه مقالتهم من اعتقاد كونها أربابا لهم كما يفصح عنه قولهم نعبد أصناما فنظل لها

عاكفين كأنه قيل ليس الامر كذلك (بل ربكم رب السموات والارض الذى فطرهن) وقيل هو اضراب عن كونه لاعبا باقامة البرهان على ما ادعاه وضميرهن للسموات والارض ﴿ ١٦٦ ﴾ وصفه تعالى بايجادهن اثر وصفه

اذ كنت فيها وقال ابن اسحق بعث الله ملك الظل فى صورة ابراهيم فقعد الى جنب ابراهيم يونسه وأتاه جبريل بقميص من حرير الجنة وقال يا ابراهيم ان ربك يقول أما علمت ان النار لا تضر أحبابى ثم نظر نمروذ من صرح له وأشرف على ابراهيم فرآه جالسا فى روضة ورأى الملك قاعدا الى جنبه وما حوله نار تحرق الحطب فناداه نمروذ يا ابراهيم هل تستطيع أن تخرج منها قال نعم قال قم فاخرج فقام يمشى حتى خرج منها فلما خرج قال له نمروذ من الرجل الذى رأيته معك فى صورتك قال ذاك ملك الظل أرسله ربى ليونسنى فيها فقال نمروذ انى مقرب الى ربك قربانا لما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك فانى ذابح له أربعة آلاف بقرة فقال ابراهيم عليه السلام لا يقبل الله منك ما دمت على دينك فقال نمروذ لا أستطيع ترك ملكى ولكن سوف أذبحها له ثم ذبحها له وكف عن ابراهيم عليه السلام وروى هذه القصة على وجه آخر وهى انهم بنوا لابراهيم بنيانا والقوه فيه ثم أوقدوا عليه النار سبعة أيام ثم أطبقوا عليه ثم فتحوا عليه من الغد فاذا هو غير محترق يعرق عرقا فقال لهم هاران أبو لوط ان النار لا تحرقه لانه سحر النار ولكن اجعلوه على شئ وأوقدوا تحته فان الدخان يقتله فجعلوه فوق بئر وأوقدوا تحته فطارت شرارة فوقعت فى لحية أبى لوط فأحرقته (المسئلة الثالثة) انما اختاروا المعاقبة بالنار لانها أشد العقوبات ولهذا قيل ان كنتم فاعلين أى بان كنتم تنصرون آلهتكم نصرا شديدا فاختاروا أشد العقوبات وهى الاحراق أما قوله تعالى قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال أبو مسلم الاصفهانى فى تفسير قوله تعالى قلنا يا نار كونى بردا المعنى انه سبحانه جعل النار بردا وسلاما لان هناك كلاما كقوله أن يقول له كن فيكون أى يكونه وقد احتج عليه بان النار جماد فلا يجوز خطابه والاكثرون على انه وجد ذلك القول ثم هؤلاء لهم قولان (أحدهما) وهو قول السدى ان القائل هو جبريل عليه السلام (والثانى) وهو قول الاكثرين ان القائل هو الله تعالى وهذا هو الاليق الاقرب بالظاهر وقوله النار جماد فلا يكون فى خطابها فائدة قلنا لم يجوز أن يكون المقصود من ذلك الامر مصلحة عائدة الى الملائكة (المسئلة الثانية) اختلفوا فى ان النار كيف بردت على ثلاثة أقوال (أحدها) ان الله تعالى أزال عنها ما فيها من الحر والاحراق وأبقى ما فيها من الاضاءة والاشراق والله على كل شئ قدير (وثانيها) ان الله تعالى خلق فى جسم ابراهيم كيفية مانعة من وصول أذى النار اليه كما يفعل بخزنة جهنم فى الآخرة وكما انه ركب بنية النعامة بحيث لا يضرها ابتلاع الحديدة المحماة وبدن السمندل بحيث لا يضره المكث فى النار (وثالثها) انه سبحانه خلق بينه وبين النار حائلا يمنع من وصول أثر النار اليه قال المحققون والاول أولى لان ظاهر قوله يا نار كونى بردا ان نفس النار صارت باردة حتى سلم ابراهيم من تاثيرها لان النار بقيت كما كانت فان قيل النار جسم موصوف بالحرارة واللطافة فاذا كانت الحرارة جزأ من مسمى النار امتنع كون النار باردة فاذا

تعالى بربوبيته تعالى لهن تحقيقا للحق وتنبيها على أن ما لا يكون كذلك بمعزل من الربوبية أى أنشأهن بما فيهن من المخلوقات التى من جملتها أنتم وآباؤكم وما تعبدونه من غير مثال يحتذيه ولا قانون ينتحيه ورجع الضمير الى التماثيل ادخل فى تضليلهم وأظهر فى الزام الحجة عليهم لما فيه من التصريح المغنى عن التأمل فى كون ما يعبدونه من جملة المخلوقات (وأنا على ذلكم) الذى ذكرته من كون ربكم رب السموات والارض فقط دون ما عداه كائنا ما كان (من الشاهدين) أى العالمين به على سبيل الحقيقة المبرهنين عليه فان الشاهد على الشئ من تحققه وحققه وشهادته على ذلك ادلاؤه بالحجة عليه واثباته بها كأنه قال وأنا ابين ذلك وأبرهن عليه (وتالله) وقرئ بالباء وهو الاصل والتاء بدل من الواو التى هى بدل من الاصل وفيها تعجب (لأكيدن أصنامكم) أى لاجتهدن فى كسرها وفيه ايذان بصعوبة الانتهاز وتوقفه ﴿ وجب ﴾ على استعمال الحيل وانما قاله عليه السلام

سراوقيل سمعه رجل واحد (بعد أن تولوا مدبرين) من عبادتها الى عيدكم وقرئ تولوا من التولى بحذف احدى التاءين ويعضدها قوله تعالى فتولوا عنه ﴿ مدبرين والفاء فى قوله تعالى (فجعلهم) فصيحة أى فولوا فجعلهم (جذاذا) أى قطاعا فعال بمعنى مفعول من الجذ الذى هو القطع كالحطام من الحطم الذى هو الكسر وقرئ بالكسر وهى لغة أو جمع جذيذ كخفاف وخفيف وقرئ بالفتح وجذذا جمع جذيذ وجذذا جمع جذة روى أن آزر خرج به فى يوم عيدلهم فبدؤا ببيت الاصنام فدخلوه فسجدوا لها ووضعوا بينها طعاما خرجوا به معهم وقالوا الى أن نرجع بركت الآلهة على طعامنا فذهبوا وبقى ابراهيم عليه السلام فنظر الى الاصنام وكانت سبعين صنما مصطفا وثمة صنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب وفى عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسر الكل بفأس كانت فى يده ولم يبق الا الكبير وعلق الفاس فى عنقه وذلك قوله تعالى (الا كبيرا لهم) أى للاصنام (لعلهم اليه) أى الى ابراهيم عليه السلام (يرجعون) فيحاجهم بما سيأتى فيحجهم ويبكتهم وقيل يرجعون الى الكبير فيسألونه عن الكاسر لان من شأن المعبود أن يرجع اليه فى الملمات وقيل يرجعون الى الله تعالى وتوحيده عند تحققهم عجز آلهتهم عن دفع مايصيبهم وعن الاضرار بمن كسرهم (قالوا) أى حين رجعوا من عيدهم ورأوا مارأوا (من فعل هذا بآلهتنا)

وجب أن يقال المراد من النار الجسم الذى هو أحد أجزاء مسمى النار وذلك مجاز فلم كان مجازكم أولى من المجازين الآخرين قلنا المجاز الذى ذكرناه يبقى معه حصول البرد وفى المجازين اللذين ذكرتموهما لايبقى ذلك فكان مجازنا أولى أما قوله تعالى كونى بردا وسلاما على ابراهيم فالمعنى ان البرد اذا افرط أهلك كالحر بل لابد من الاعتدال ثم فى حصول الاعتدال ثلاثة أوجه (أحدها) انه يقدر الله تعالى بردها بالمقدار الذى لايؤثر (وثانيها) ان بعض النار صار بردا وبقى بعضها على حرارته فتعادل الحر والبرد (وثالثها) انه تعالى جعل فى جسمه مزيد حر فسلم من ذلك البرد بل قد انتفع به والله تعالى أعلم وههنا سؤالات (السؤال الاول) أو كل النار زالت وصارت بردا الجواب ان النار هو اسم الماهية فلابد وأن يحصل هذا البرد فى الماهية ويلزم منه عمومه فى كل افراد الماهية وقيل بل اختص بتلك النار لان الغرض انما تعلق ببرد تلك النار وفى النار منافع للخلق فلا يجوز تعطيلها والمراد خلاص ابراهيم عليه السلام لا ايصال الضرر الى سائر الخلق (السؤال الثانى) هل يجوز ماروى عن الحسن من انه سلام من الله تعالى على ابراهيم عليه السلام (الجواب) الظاهر كما انه جعل النار بردا جعلها سلاما عليه حتى يخلص فالذى قاله يبعد وفيه تشتيت الكلام المرتب (السؤال الثالث) أفيجوز ماروى من انه اولم يقل وسلاما لاتى البرد عليه (والجواب) ذلك بعيد لان برد النار لم يحصل منها وانما حصل من جهة الله تعالى فهو القادر على الحر والبرد فلا يجوز أن يقال كان البرد يعظم لولا قوله سلاما (السؤال الرابع) أفيجوز ماقيل من انه كان فى النار أنعم عيشا منه فى سائر أحواله (والجواب) لايمتنع ذلك لما فيه من مزيد النعمة عليه وكمالها ويجوز أن يكون انما صار أنعم عيشا هناك لعظم ماناله من السرور بخلاصه من ذلك الامر العظيم ولعظم سروره بظفره باعدائه وبما أظهره من دين الله تعالى أما قوله تعالى وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين أى أرادوا أن يكيدوه فما كانوا الا مغلوبين غالبوه بالجدال فلقنه الله تعالى الحجة البينة ثم عدلوا الى القوة والجبروت فنصره وقواه عليهم ثم انه سبحانه أتم النعمة عليه بان نجاه ونجى لوطا معه وهو ابن أخيه وهو لوط بن هاران الى الارض التى باركنا فيها للعالمين وفى الاخبار ان هذه الواقعة كانت فى حدود بابل فنجاه الله تعالى من تلك البقعة الى الارض المباركة ثم قيل انها مكة وقيل أرض الشام لقوله تعالى الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله والسبب فى بركتها أما فى الدين فلان أكثر الانبياء عليهم السلام بعثوا منها وانتشرت شرائعهم وآثارهم الدينية فيها وأما فى الدنيا فلان الله تعالى بارك فيها بكثرة الماء والشجر والثمر والخصب وطيب العيش وقيل مامن ماء عذب الا وينبع أصله من تحت الصخرة التى ببيت المقدس ﴿ قوله تعالى (ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بامرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين) اعلم انه تعالى بعد ذكره لانعامه على ابراهيم وعلى لوط بان

على طريقة الانكار والتوبيخ والتشنيع وانما عبروا عنها باذ كروا ولم يشيروا اليها بهؤلاء وهي بين أيديهم مبالغة في التشنيع وقوله تعالى (انه لمن الظالمين) استئناف مقرر لما قبله وقيل ﴿ ١٦٨ ﴾ من موصولة وهذه الجملة في حيز الرفع

نجاهما الى الارض المباركة أتبعه بذكر غيره من النعم وانما جمع بينهما الان في كون لوط معه مع ما كان بينهما من القرابة والشركة في النبوة مزيد انعام ثم انه سبحانه ذكر النعم التي أفاضها على ابراهيم عليه السلام ثم النعم التي أفاضها على لوط اما الاول فمن وجوه (أحدها) ووهبنا له اسحق و يعقوب نافلة واعلم ان النافلة العطية خاصة وكذلك النفل و يسمى الرجل الكثير العطايا نوفلا ثم للمفسرين ههنا قولان (الاول) انه ههنا مصدر من وهبنا له مصدر من غير لفظه ولا فرق بين ذلك و بين قوله ووهبنا له هبة أي وهبنا هما له عطية وفضلا من غير أن يكون جزاء مستحقا وهذا قول مجاهد وعطاء (والثاني) وهو قول أبي ابن كعب وابن عباس وقتادة والفراء والزجاج ان ابراهيم عليه السلام لما سأل الله ولدا قال رب هب لي من الصالحين فأجاب الله دعاءه ووهب له اسحق وأعطاه يعقوب من غير دعائه فكان ذلك نافلة كالشيء المتطوع به من الآدميين فكأنه قال ووهبنا له اسحق اجابة لدعائه ووهبنا له يعقوب نافلة على ما سأل كالصلاة النافلة التي هي زيادة على الفرض وعلى هذا النافلة يعقوب خاصة (والوجه الاول) أقرب لانه تعالى جمع بينهما ثم ذكر قوله نافلة فاذا صلح أن يكون وصفا لهما فهو أولى (النعمة الثانية) قوله تعالى وكلا جعلنا صالحين أي وكلا من ابراهيم واسحق و يعقوب أنبياء مرسلين هذا قول الضحاك وقال آخرون عاملين بطاعة الله عز وجل مجتنبين محارمه والوجه الثاني أقرب لان لفظ الصلاح يتناول الكل لانه سبحانه قال بعد هذه الآية وأوحينا اليهم فعل الخيرات فلو حملنا الصلاح على النبوة لزم التكرار واحتج أصحابنا بهذه الآية على ان أفعال العباد مخلوقة لله تعالى لان قوله وكلا جعلنا صالحين يدل على ان ذلك الصلاح من قبله أجاب الجبائي بانه لو كان كذلك لما وصفهم بكونهم صالحين و بكونهم أئمة و بكونهم عابدين ولما مدحهم بذلك ولما أثنى عليهم واذا بطل ذلك فلا بد من التأويل وهو من وجهين (الاول) أن يكون المراد انه سبحانه آتاهم من لطفه وتوفيقه ما صلحوا به (والثاني) أن يكون المراد انه سماهم بذلك كما يقال زيد فسق فلانا وضلله وكفره اذا وصفه بذلك وكان مصدقا عند الناس وكما يقال في الحاكم زكى فلانا وعدله وجرحه اذا حكم بذلك واعلم ان هذه الوجوه مخلة اما اعتمادهم على المدح والذم (فالجواب) المعهود ان نعارضه بمسئلتي الداعي والعلم وأما الحمل على اللطف فباطل لان فعل الالطاف عام في المكلفين فلا بد في هذا التخصيص من مزيد فائدة وأيضا فلان قوله جعلته صالحا كقوله جعلته متحركا فحمله على تحصيل شيء سوى الصلاح ترك للظاهر وأما الحمل على التسمية فهو أيضا مجاز اقصى ما في الباب انه قد يصار اليه عند الضرورة في بعض المواضع وههنا لا ضرورة الا أن يرجعوا مرة أخرى الى فصل المدح و الذم فحينئذ نرجع أيضا الى مسئلتي الداعي والعلم (النعمة الثالثة) قوله تعالى وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وفيه قولان (أحدهما) أي جعلناهم أئمة يدعون الناس الى دين الله تعالى والخيرات بأمرنا واذننا (والثاني) قول

على أنها خبرها والمعنى الذي فعل هذا الكسر والحطم بالهتنا انه معدود من جملة الظلمة اما لجرأته على اهانتها وهي حقيقة بالاعظام أو لافراطه في الكسر والحطم وتماديه في الاستهانة بها أو بتعريض نفسه للهلكة (قالوا) أي بعض منهم مجيبين للسائلين (سمعنا فتى يذكرهم) أي يعيبهم فلعله فعل ذلك بها فقوله تعالى يذكرهم اما مفعول ثان لسمع لتعلقه بالعين أو صفة لفتى مصححة لتعلقه به هذا اذا كان القائلون سمعوه عليه السلام بالذات يذكرهم وان كانوا قد سمعوا من الناس انه عليه السلام يذكرهم بسوء فلا حاجة الى المصحح (يقال له ابراهيم) صفة أخرى لفتى أي يطلق عليه هذا الاسم (قالوا) أي السائلون (فأتوا به على أعين الناس) أي بمرأى منهم بحيث يكون نصب أعينهم في مكان مرتفع لا يكاد يخفى على أحد (لعلهم يشهدون) أي يحضرون عقوبته وقيل لعلهم يشهدون بفعله ﴿ ابى ﴾ أو بقوله ذلك فالضمير حينئذ ليس للناس بل لبعض منهم مبهم أو معهود (قالوا) استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية قولهم كأنه قيل فاذا فعلوا به عليه السلام بعد ذلك هل أتوا به أو لا فقيل أتوا به ثم قالوا

فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم) اقتصارا على حكاية مخاطبتهم اياه عليه السلام للتنبيه على ان اتيانهم به ومسارعتهم الى ذلك أمر محقق غنى عن البيان (قال بل فعله ﴿ ١٦٩ ﴾ كبيرهم هذا) مشيرا الى الذى لم يكسره سلك عليه السلام مسلكا نعريضيا يؤديه الى مقصده الذى هو الزامهم الحجة على ألطف وجه وأحسنه بحملهم على التأمل فى شأن آلهتهم مع مافيه من التوقى من الكذب حيث أبرز الكبير قولا فى معرض المباشر للفعل باسناده اليه كما ابرزه فى ذلك المعرض فعلا بجعل الفأس فى عنقه وقد قصد اسناده اليه بطريق التسبيب حيث كانت تلك الاصنام غاظته عليه السلام حين ابصرها مصطفة مرتبة للعبادة من دون الله سبحانه وكان غيظ كبيرها أكبر وأشد حسب زيادة تعظيمهم له فاسند الفعل اليه باعتبار أنه الحامل عليه وقيل هو حكاية لما يقود الى تجويزه مذهبهم كانه قال لهم ماتنكرون أن يفعله كبيرهم فان من حق من يعبد ويدعى الهيا أن يقدر على ماهو أشد من ذلك ويحكى انه عليه السلام قال فعله كبيرهم هذا غضب أن تعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها فيكون تمثيلا أراد به ﴿ ٢٢ ﴾ س عليه السلام تنبيههم على غضب الله تعالى عليهم لاشراكهم بعبادته الاصنام وأما ماقيل من انه عليه

أبى مسلم ان هذه الامامة هى النبوة والاول أولى لئلا يلزم التكرار واحتج أصحابنا بهذه الآية على أمرين (أحدهما) على خلق الافعال بقوله وجعلناهم أئمة وتقريره مامضى (والثانى) على ان الدعوة الى الحق والمنع عن الباطل لايجوز الا بأمر الله تعالى لان الامر لولم يكن معتبرا لما كان فى قوله بأمرنا فائدة (النعمة الرابعة) قوله تعالى وأوحينا اليهم فعل الخيرات وهذا يدل على انه سبحانه خصهم بشرف النبوة وذلك من أعظم النعم على الاب قال الزجاج حذف الهاء من اقامة الصلاة لان الاضافة عوض عنه وقال غيره الاقام والاقامة مصدر قال أبو القاسم الانصارى الصلاة أشرف العبادات البدنية وشرعت لذكر الله تعالى والزكاة اشرف العبادات المالية وجمعوهما التعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله واعلم انه سبحانه وصفهم أولا بالاصلاح لانه أول مراتب السائرين الى الله تعالى ثم ترقى فوصفهم بالامامة ثم ترقى فوصفهم بالنبوة والوحى واذا كان الصلاح الذى هو العصمة أول مراتب النبوة دل ذلك على ان الانبياء معصومون فان المحروم عن أول المراتب أولى بان يكون محروما عن النهاية ثم انه سبحانه كما بين أصناف نعمه عليهم بين بعد ذلك اشتغالهم بعبوديته فقال وكانوا لنا عابدين كانه سبحانه وتعالى لما وفى بعهد الربوبية فى الاحسان والانعام فهم أيضا وفوا بعهد العبودية وهو الاشتغال بالطاعة والعبادة (القصة الثالثة) قصة لوط عليه السلام ﴿ قوله تعالى (ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث انهم كانوا قوم سوء فاسقين وادخلناه فى رحمتنا انه من الصالحين) اعلم انه سبحانه بعد بيان ما انعم به على ابراهيم عليه السلام أتبعه بذكر نعمه على لوط عليه السلام لما جمع بينهما من قبل وههنا مسئلتان (المسئلة الاولى) فى الواو فى قوله ولوطا قولان (أحدهما) وهو قول الزجاج انه عطف على قوله وأوحينا اليهم (والثانى) قول أبى مسلم انه عطف على قوله آتينا ابراهيم رشده ولابد من ضمير فى قوله ولوطا فكانه قال وآتينا لوطا فاضمر ذكره (المسئلة الثانية) فى أصناف النعم وهى أربعة وجوه (أحدها) الحكم أى الحكمة وهى التى يجب فعلها أو الفصل بين الخصوم وقيل هى النبوة (وثانيها) العلم واعلم ان ادخال التنوين عليهما يدل على علو شان ذلك العلم وذلك الحكم (وثالثها) قوله ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث والمراد أهل القرية لانهم هم الذين يعملون الخبائث دون نفس القرية ولان الهلاك بهم نزل فنجاه الله تعالى من ذلك ثم بين سبحانه وتعالى بقوله انهم كانوا قوم سوء فاسقين ما اراد بالخبائث وأمرهم فيما كانوا يقدمون عليه ظاهر (ورابعها) قوله وادخلناه فى رحمتنا انه من الصالحين وفى تفسير الرحمة قولان (الاول) انه النبوة أى انه لما كان صالحا للنبوة ادخله الله فى رحمته لكى يقوم بحقها عن مقاتل (الثانى) انه الثواب عن ابن عباس والضحاك ويحتمل أن يقال انه عليه السلام لما آتاه الله الحكم والعلم وتخلص عن جلساء السوء فتحت عليه أبواب المكاشفات وتجلت له أنوار الالهية وهى

السلام لم يقصد نسبة الفعل الصادر عنه الى الصنم بل انما قصد تقريره لنفسه واثباته لها على اسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه من الزامهم الحجة وتبكيتهم ومثل ذلك بما لو قال ﴿ ١٧٠ ﴾ لك أمى فيما كتبته بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط أأنت كتبت هذا فقلت له بل أنت كتبته كان قصدك تقرير الكتابة لنفسك مع الاستهزاء بالسائل لانفيها عنك واثباتها له فيمزل من التحقيق لان خلاصة المعنى فى المثال المذكور مجرد تقرير الكتابة لنفسك وادعاء ظهور الامر مع الاستهزاء بالسائل وتجهيله فى السؤال لابتنائه على أن صدورها عن غيرك محتمل عنده مع استحالته عندك ولاريب فى ان مراده عليه السلام من اسناد الكسر الى الصنم ليس مجرد تقريره لنفسه ولا تجهيلهم فى سؤالهم لابتنائه على احتمال صدوره عن الغير عندهم بل انما مراده عليه السلام توجيههم نحو التأمل فى أحوال اصنامهم كما ينبئ عنه قوله (فاسألوهم ان كانوا ينطقون) اى ان كانوا ممن يمكن أن ينطقوا وانما لم يقل عليه السلام ان كانوا يسمعون او يعقلون مع ان السؤال موقوف على السمع والعقل ايضا لما ان نتيجة السؤال هو الجواب وان عدم نطقهم اظهر وتبكيتهم بذلك ادخل وقد حصل ذلك اولا حسبما نطق به قوله تعالى (فرجعوا ﴿ سليمان ﴾ الى (انفسهم) اى

بحر لا ساحل له وهى الرحمة فى الحقيقة (القصة الرابعة) قصة نوح عليه السلام ﴿ قوله تعالى (ونوحا اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا انهم كانوا قوم سوء فاغرقناهم اجمعين) أما قوله تعالى اذ نادى من قبل ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) لاشبهة فى ان المراد من هذا النداء دعاؤه على قومه بالعذاب ويؤكده حكاية الله تعالى عنه ذلك تارة على الاجمال وهو قوله فدعا ربه انى مغلوب فانتصر وتارة على التفصيل وهو قوله وقال نوح رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا ويدل عليه أيضا ان الله تعالى أجابه بقوله فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم وهذا الجواب يدل على ان الانجاء المذكور فيه كان هو المطلوب فى السؤال فدل هذا على ان نداءه ودعاءه كان بان ينجيه مما يلحقه من جهتهم من ضروب الاذى بالتكذيب والرد عليه وبان ينصره عليهم وأن يهلكهم فلذلك قال بعده ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا (المسئلة الثانية) أجمع المحققون على ان ذلك النداء كان بأمر الله تعالى لانه لو لم يكن بأمره لم يؤمن ان يكون الصلاح أن لا يجاب اليه فيصير ذلك سببا لنقصان حال الانبياء ولان الاقدام على امثال هذه المطالب لو لم يكن بالامر لكان ذلك مبالغة فى الاضرار وقال آخرون انه عليه السلام لم يكن ماذونا له فى ذلك وقال أبو أمامة لم يتحسر أحد من خلق الله تعالى كحسرة آدم ونوح فحسرة آدم على قبول وسوسة ابليس وحسرة نوح على دعائه على قومه فأوحى الله تعالى اليه أن لا تتحسر فان دعوتك وافقت قدرى أما قوله تعالى فنجيناه وأهله من الكرب العظيم فالمراد بالاهل ههنا أهل دينه وفى تفسير الكرب وجوه (أحدها) انه العذاب النازل بالكفار وهو الغرق وهو قول أكثر المفسرين (وثانيها) انه تكذيب قومه اياه ومالقى منهم من الاذى (وثالثها) انه مجموع الامرين وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما وهو الاقرب لانه عليه السلام كان قد دعاهم الى الله تعالى مدة طويلة وكان قد نال منهم كل مكروه وكان الغم يتزايد بسبب ذلك وعند أعلام الله تعالى اياه انه يغرقهم وأمره باتخاذ الفلك كان أيضا على غم وخوف من حيث لم يعلم من الذى يتخلص من الغرق ومن الذى يغرق فازال الله تعالى عنه الكرب العظيم بان خلصه من جميع ذلك وخلص جميع من آمن به معه أما قوله تعالى ونصرناه من القوم فقراءة ابى بن كعب ونصرناه على القوم ثم قال المبرد تقديره ونصرناه من مكروه القوم وقال تعالى فمن ينصرنا من بأس الله أى يعصمنا من عذابه قال أبو عبيدة من بمعنى على وقال صاحب الكشاف انه نصر الذى مطاوعه انتصر وسمعت هذا يدعو على سارق اللهم انصرهم منه أى اجعلهم منتصرين منه أما قوله تعالى انهم كانوا قوم سوء فالمعنى انهم كانوا قوم سوء لاجل ردهم عليه وتكذيبهم له فاغرقناهم أجمعين فبين ذلك الوجه الذى به خلصه منهم (القصة الخامسة) قصة داود وسليمان عليهما السلام * قوله تعالى (وداود وسليمان اذ يحكمان فى الحرث اذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين ففهمناها

راجعوا عقولهم وتذكروا ان مالا يقدر على دفع المضرة عن نفسه ولا على الاضرار بمن كسره بوجه من الوجوه يستحيل ان يقدر على دفع مضرة عن غيره اوجلب منفعة له فكيف يستحق ان يكون معبودا (فقالوا)

سليمان وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ولسليمان الريح عاصفة تجرى بامره الى الارض التى باركنا فيها وكنا بكل شئ عالمين ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين) اعلم ان قوله تعالى وداود وسليمان وأيوب وزكريا وذا النون كله نسق على ماتقدم من قوله ولقد آتينا ابراهيم رشده من قبل ومن قوله ولوطا آتيناه حكما وعلما واعلم ان المقصود ذكر نعم الله تعالى على داود وسليمان فذكر أولا النعمة المشتركة بينهما ثم ذكر مايختص به كل واحد منهما من النعم أما النعمة المشتركة فهى القصة المذكورة وهى قصة الحكومة ووجه النعمة فيها ان الله تعالى زينهما بالعلم والفهم فى قوله وكلا آتينا حكما وعلما ثم فى هذا تنبيه على ان العلم أفضل الكمالات وأعظمها وذلك لان الله تعالى قدم ذكره ههنا على سائر النعم الجليلة مثل تسخير الجبال والطير والريح والجن واذا كان العلم مقدما على أمثال هذه الاشياء فاظنك بغيرها وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن السكيت النفش ان تنتشر الغنم بالليل ترعى بلا راع وهذا قول جمهور المفسرين وعن الحسن انه يجوز ذلك ليلا ونهارا (المسئلة الثانية) أكثر المفسرين على ان الحرث هو الزرع وقال بعضهم هو الكرم والاول اشبه بالعرف (المسئلة الثالثة) احتج من قال أقل الجمع اثنان بقوله تعالى وكنا لحكمهم شاهدين مع ان المراد داود وسليمان (جوابه) ان الحكم كما يضاف الى الحاكم فقد يضاف الى المحكوم له فاذا أضيف الحكم الى المتحاكمين كان المجموع أكثر من الاثنين وقرئ وكنا لحكمهما شاهدين (المسئلة الرابعة) فى كيفية القصة وجهان (الاول) قال اكثر المفسرين دخل رجلان على داود عليه السلام (أحدهما) صاحب حرث والآخر صاحب غنم فقال صاحب الحرث ان غنم هذا دخلت حرثى وما أبقت منه شيئا فقال داود عليه السلام اذهب فان الغنم لك فخرجا فمرا على سليمان فقال كيف قضى بينكما فاخبراه فقال لو كنت انا القاضى لقضيت بغير هذا فاخبر بذلك داود عليه السلام فدعاه وقال كيف كنت تقضى بينهما فقال ادفع الغنم الى صاحب الحرث فيكون له منافعها من الدر والنسل والوبر حتى اذا كان الحرث من العام المستقبل كهيئته يوم أكل دفعت الغنم الى أهلها وقبض صاحب الحرث حرثه (الثانى) قال ابن مسعود وشريح ومقاتل رحمهم الله ان راعيا نزل ذات ليلة بجنب كرم فدخلت الاغنام الكرم وهو لا يشعر فأكلت القضبان وأفسدت الكرم فذهب صاحب الكرم من الغد الى داود عليه السلام فقضى له بالغنم لانه لم يكن بين ثمن الكرم وثمن الغنم تفاوت فخرجوا ومروا بسليمان فقال لهم كيف قضى بينكما فاخبراه به فقال غير هذا أرفق بالفريقين فاخبر داود عليه السلام بذلك فدعا سليمان وقال له بحق الابوة والبنوة الا أخبرتنى بالذى هو ارفق بالفريقين فقال تسلم الغنم الى صاحب الكرم حتى يرتفق بنمائها وينعمل الراعى فى اصلاح الكرم حتى يصير كما كان ثم ترد الغنم الى صاحبها فقال

اى قال بعضهم لبعض فيما بينهم (انكم انتم الظالمون) اى بهذا السؤال لانه كان على طريقة التوبيخ المستتبع للمؤاخذة او بعبادة الاصنام لا من ظلمتموه بقولكم انه لمن الظالمين او انتم الظالمون بعبادتها لا من كسرها (ثم نكسوا على رؤسهم) اى انقلبوا الى المجادلة بعدما استقاموا بالمراجعة شبه عودهم الى الباطل بصيرورة اسفل الشئ اعلاه وقرئ نكسوا بالتشديد ونكسوا على البناء للفاعل اى نكسوا انفسهم (لقد علمت ماهؤلاء ينطقون) على ارادة القول اى قائلين والله لقد علمت ان ليس من شأنهم النطق فكيف تامرنا بسؤالهم على أن المراد استمرار نفى النطق لا نفى استمراره كما توهمه صيغة المضارع (قال) مبكتا لهم (افتعبدون) أى أتعملون ذلك فتعبدون (من دون الله) أى متجاوزين عبادته تعالى (مالا

ينفعكم شيئا) من النفع (ولا يضركم) فان العلم بحاله المنافية للالوهية مما يوجب الاجتناب عن عبادته قطعا (أف لكم ولما تعبدون من دون الله) تضجر منه عليه السلام من اصرارهم على الباطل البين واظهار الاسم

الجليل فى موضع الاضمار لمزيد استقباح مافعلوا وأف صوت المتضجر ومعناه قبحا وتنسا واللام لبيان المتأفف له (أفلا تعقلون) أى ألا تتفكرون فلا تعقلون قبح ﴿ ١٧٢ ﴾ صنيعكم (قالوا) أى قال بعضهم لبعض لما عجزوا عن

داود عليه السلام انما القضاء ماقضيت وحكم بذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما حكم سليمان بذلك وهو ابن احدى عشرة سنة وههنا أمور لابد من البحث عنها (السؤال الاول) هل فى الآية دلالة على انهما عليهما السلام اختلفا فى الحكم أم لا فان أبا بكر الاصم قال انهما لم يختلفا البتة وانه تعالى بين لهما الحكم لكنه بينه على لسان سليمان عليه السلام (الجواب) الصواب انهما اختلفا والدليل اجماع الصحابة والتابعين رضى الله عنهم على ماروينا وأيضا فقد قال الله تعالى وكنا لحكمهم شاهدين ثم قال ففهمناها سليمان والفاء للتعقيب فوجب أن يكون ذلك الحكم سابقا على هذا التفهيم وذلك الحكم السابق اما أن يقال اتفقا فيه أو اختلفا فيه فان اتفقا فيه لم يبق لقوله ففهمناها سليمان فائدة وان اختلفا فيه فذلك هو المطلوب (السؤال الثانى) سلمنا انهما اختلفا فى الحكم ولكن هل كان الحكمان صادرين عن النص أو عن الاجتهاد (الجواب) الامر ان جائزان عندنا وزعم الجبائى انهما كانا صادرين عن النص ثم انه تارة يبنى ذلك على ان الاجتهاد غير جائز من الانبياء وأخرى على ان الاجتهاد وان كان جائزا منهم فى الجملة ولكنه غير جائز فى هذه المسئلة (أما المأخذ الاول) فقد تكلمنا فيه فى الجملة فى كتابنا المسمى بالمحصول فى الاصول ولنذكر ههنا أصول الكلام من الطرفين احتج الجبائى على ان الاجتهاد غير جائز من الانبياء عليهم السلام بامور (أحدها) قوله تعالى قل مايكون لى ان أبدله من تلقاء نفسى ان أتبع الا مايوحى الى وقوله تعالى وما ينطق عن الهوى (وثانيها) ان الاجتهاد طريقه الظن وهو قادر على ادراك اليقين فلا يجوز مصيره الى الظن كالمعاين للقبلة لايجوز له ان يجتهد (وثالثها) ان مخالفة الرسول توجب الكفر لقوله تعالى فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ومخالفة المظنون والمجتهدات لاتوجب الكفر (ورابعها) لو جاز أن يجتهد فى الاحكام لكان لايقف فى شئ منها ولما وقف فى مسئلة الظهار واللعان الى ورود الوحى دل على ان الاجتهاد غير جائز عليه (وخامسها) أن الاجتهاد انما يجوز المصير اليه عند فقد النص لكن فقدان النص فى حق الرسول كالممتنع فوجب أن لايجوز الاجتهاد منه (وسادسها) لو جاز الاجتهاد من الرسول لجاز أيضا من جبريل عليه السلام وحينئذ لايحصل الامان بان هذه الشرائع التى جاء بها أهى من نصوص الله تعالى أو من اجتهاد جبريل (والجواب) عن الاول ان قوله تعالى قل مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ان أتبع الا مايوحى الى لايدل على قولكم لانه وارد فى ابدال آية بآية لانه عقيب قوله قال الذين لايرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو أبدله ولامدخل للاجتهاد فى ذلك وأما قوله تعالى وما ينطق عن الهوى فبعيد لان من يجوز له الاجتهاد يقول ان الذى اجتهد فيه هو عن وحى على الجملة وان لم يكن كذلك على التفصيل وان الآية واردة فى الاداء عن الله تعالى لافى حكمه الذى يكون بالعقل (والجواب) عن الثانى ان الله تعالى اذا قال له اذا غلب على ظنك كون الحكم معللا فى الاصل بكذا ثم غلب على ظنك

المحاجة وضاقت عليهم الحيل وعيت بهم العلل وهكذا دين المبطل المحجوج اذا قرعت شبهته بالحجة القاطعة وافتضح لايبقى له مفزع الا المناصبة (حرقوه) فانه أشد العقوبات (وانصروا آلهتكم) بالانتقام لها (ان كنتم فاعلين) أى لنصر أولشئ يعتد به قيل القائل نمروذ بن كنعان بن سنجاريب ابن نمروذ بن كوش بن حام بن نوح وقيل رجل من أكراد فارس اسمه هيون وقيل هدير خسفت به الارض ويروى انهم لما أجمعوا على احراقه عليه السلام بنوا له حظيرة بكوثى قرية من قرى الانباط وذلك قوله تعالى قالوا ابنوا له بنيانا فالقوه فى الجحيم فجمعوا له صلاب الحطب من أصناف الخشب مدة أربعين يوما فاوقدوا نارا عظيمة لايكاد يحوم حولها أحد حتى ان كانت الطير لتمر بها وهى فى أقصى الجو فتحترق من شدة وهجها ولم يكد أحد يحوم حولها فلم يعلموا كيف يلقونه عليه السلام ﴿ قيام ﴾ فيها فاتى ابليس وعلمهم عمل المنجنيق فعملوه وقيل صنعه لهم رجل من الاكراد فخسف الله تعالى به الارض فهو يتجلجل فيها الى يوم القيامة ثم عمدوا الى

ابراهيم عليه السلام فوضعوه فيه مغلولا فرموا به فيها فقال له جبريل عليهما السلام هل لك حاجة قال أما اليك فلا قال فاسأل ربك قال حسبي من سؤالي علمه ﴿ ١٧٣ ﴾ بحالي فجعل الله تعالى ببركة قوله الحظيرة روضة وذلك

قيام ذلك المعنى في صورة أخرى فاحكم بذلك فههنا الحكم مقطوع به والظن غير واقع فيه بل في طريقه (والجواب) عن الثالث انا لانسلم ان مخالفة المجتهدات جائز مطلقا بل جواز مخالفتها مشروط بصدورها عن غير المعصوم والدليل عليه انه يجوز على الامة أن يجمعوا اجتهادا ثم يمتنع مخالفتهم وحال الرسول أوكد (والجواب) عن الرابع لعله عليه السلام كان ممنوعا من الاجتهاد في بعض الانواع أو كان مأذونا مطلقا لكنه لم يظهر له في تلك الصورة وجه الاجتهاد فلاجرم انه توقف (والجواب) عن الخامس لم لايجوز أن يحبس النص عنه في بعض الصور فحينئذ يحصل شرط جواز الاجتهاد (والجواب) عن السادس ان هذا الاحتمال مدفوع باجماع الامة على خلافه فهذا هو الجواب عن شبه المنكرين والذي يدل على جواز الاجتهاد عليهم وجوه (أحدها) انه عليه السلام اذا غلب على ظنه ان الحكم في الاصل معلل بمعنى ثم علم أو ظن قيام ذلك المعنى في صورة اخرى فلابد وان يغلب على ظنه أن حكم الله تعالى في هذه الصورة مثل ما في الاصل وعنده مقدمة يقينية وهي ان مخالفة حكم الله تعالى سبب لاستحقاق العقاب فيتولد من هاتين المقدمتين ظن استحقاق العقاب لمخالفة هذا الحكم المظنون وعند هذا اما أن يقدم على الفعل والترك معا وهو محال لاستحالة الجمع بين النقيضين أو يتركهما وهو محال لاستحالة الخلو عن النقيضين أو يرجح المرجوح على الراجح وهو باطل ببديهة العقل او يرجح الراجح على المرجوح وذلك هو العمل بالقياس وهذه النكتة هي التي عليها التعويل في العمل بالقياس وهي قائمة أيضا في حق الانبياء عليهم السلام وهذا يتوجه على جواز الاجتهاد من جبريل عليه السلام (وثانيها) قوله تعالى فاعتبروا أمر للكل بالاعتبار فوجب اندراج الرسول عليه السلام فيه لانه امام المعتبرين وأفضلهم (وثالثها) ان الاستنباط أرفع درجات العلماء فوجب أن يكون للرسول فيه مدخل والا لكان كل واحد من آحاد المجتهدين أفضل منه في هذا الباب فان قيل هذا انما يلزم لو لم تكن درجة اعلى من الاعتبار وليس الامر كذلك لانه كان يستدرك الاحكام وحيا على سبيل اليقين فكان أرفع درجة من الاجتهاد الذي ليس فصاراه الا الظن قلنا لايمتنع أن لايجد النص في بعض المواضع فلو لم يمكن من الاجتهاد لكان أقل درجة من المجتهد الذي يمكنه أن يعرف ذلك الحكم من الاجتهاد وأيضا قد بينا ان الله تعالى لما أمره بالاجتهاد كان ذلك مفيد اللقطع بالحكم (ورابعها) قال عليه السلام العلماء ورثة الانبياء فوجب أن يثبت للانبياء درجة الاجتهاد ليرث العلماء عنهم ذلك هذا تمام القول في هذه المسئلة (وخامسها) انه تعالى قال عفا الله عنك لم اذنت لهم فذلك الاذن ان كان باذن الله تعالى استحال أن يقول لم أذنت لهم وان كان بهوى النفس فهو غير جائز وان كان بالاجتهاد فهو المطلوب (المأخذ الثاني) قال الجبائي لو جوزنا الاجتهاد من الانبياء عليهم السلام ففي هذه المسئلة يجب أن لايجوز لوجوه (أحدها) أن الذي وصل الى صاحب الزرع من درّ الماشية ومن منافعها مجهول المقدار فكيف يجوز في الاجتهاد

قوله تعالى (قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم) أي كوني ذات برد وسلام أي ابردي بردا غير ضار وفيه مبالغات جعل النار المسخرة لقدرته تعالى مأمورة مطاوعة واقامة كونى ذات برد مقام ابردي ثم حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه وقيل نصب سلاما بفعله أي وسلنا سلاما عليه روى أن الملائكة أخذوا بضبعي ابراهيم وأقعدوه على الارض فاذا عين ماء عذب وورد أحمر ونرجس ولم تحرق النار منه الا وثاقه وروى انه عليه السلام مكث فيها أربعين يوما أو خمسين وقال ما كنت أطيب عيشا مني اذ كنت فيها قال ابن يسار وبعث الله تعالى ملك الظل فقعد الى جنبه يؤنسه فنظر نمرود من صرحه فأشرف عليه فرآه جالسا في روضة مونقة ومعه جليس على أحسن ما يكون من الهيئة والنار محيطة

به فناداه يا ابراهيم هل تستطيع أن تخرج منها قال نعم قال فقم فاخرج فقام يمشي فخرج منها فاستقبله نمروذ وعظمه وقال من الرجل الذي رأيته معك قال ذلك ملك الظل

أرسله ربي ليؤنسني فقال اني مقرب الى الهك قربانا فما رأيت من قدرته وعزته فيما صنع بك فقال عليه السلام لا يقبل الله منك مادمت على دينك هذا قال لا استطيع تركه لملكي ﴿ ١٧٤ ﴾ ولكن سوف أذبح له أربعة آلاف بقرة فذبحها

وكف عن ابراهيم عليه السلام وكان اذ ذاك ابن ست عشرة سنة وهذا كما ترى من ابدع المعجزات فان انقلاب النار هواء طيبا وان لم يكن بدعا من قدرة الله عز وجل لكن وقوع ذلك على هذه الهيئة مما يخرق العادات وقيل كانت النار على حالها لكنه تعالى دفع عنه عليه السلام أذاها كما تراه في السنبل كما يشعر به ظاهر قوله تعالى على ابراهيم (وأرادوا به كيدا) مكرا عظيما في الاضرار به (فجعلناهم الاخسرين) أي أخسر من كل خاسر حيث عاد سعيهم في اطفاء نور الحق برهانا قاطعا على انه عليه السلام على الحق وهم على الباطل وموجبا لارتفاع درجته واستحقاقهم لاشد العذاب (ونجيناه ولوطا) الى الارض التي باركنا فيها للعالمين) أي من العراق الى الشام وبركاته العامة أن اكثر الانبياء بعثوا فيه فانتشرت في العالمين شرائعهم التي هي مبادي الكمالات والخيرات الدينية والدنيوية وقيل كثرة النعم ﴿ منافع ﴾

جعل احدهما عوضا عن الآخر (وثانيها) ان اجتهاد داود عليه السلام ان كان صوابا لزم أن لا ينقض لان الاجتهاد لا ينقض بالاجتهاد وان كان خطأ وجب أن يبين الله تعالى توبته كسائر ما حكاه عن الانبياء عليهم السلام فلما مدحهما بقوله وكلا آتينا حكما وعلما دل على انه لم يقع الخطأ من داود (وثالثها) لو حكم بالاجتهاد لكان الحاصل هناك ظنا لا علما لان الله تعالى قال وكلا آتينا حكما وعلما (ورابعها) كيف يجوز أن يكون عن اجتهاد مع قوله ففهمناها سليمان (والجواب) عن الاول ان الجهالة في القدر لا تمنع من الاجتهاد كالجعالات وحكم المصراة (وعن الثاني) لعله كان خطأ من باب الصغائر (وعن الثالث) بينا ان من تمسك بالقياس فالظن واقع في طريق اثبات الحكم فاما الحكم فمقطوع به (وعن الرابع) انه اذا تامل واجتهد فاداه اجتهاده الى ما ذكرنا كان الله تعالى فهمه من حيث بين له طريق ذلك فهذا جملة الكلام في بيان انه لا يمتنع أن يكون اختلاف داود وسليمان عليهما السلام في ذلك الحكم انما كان بسبب الاجتهاد وأما بيان انه لا يمتنع أيضا أن يكون اختلافهما فيه بسبب النص فطريقه أن يقال ان داود عليه السلام كان مامورا من قبل الله تعالى في هذه المسئلة بالحكم الذي حكم به ثم انه سبحانه نسخ ذلك بالوحي الى سليمان عليه السلام خاصة وأمره أن يعرف داود ذلك فصار ذلك الحكم حكمهما جميعا فقوله ففهمناها سليمان أي أوحينا اليه فان قيل هذا باطل لوجهين (الاول) لما أنزل الله تعالى الحكم الاول على داود وجب أن ينزل نسخه أيضا على داود لا على سليمان (الثاني) ان الله تعالى مدح كلا منهما على الفهم ولو كان ذلك على سبيل النص لم يكن في فهمه كثير مدح انما المدح الكثير على قوة الخاطر والحذاقة في الاستنباط (السؤال الثالث) اذا أتممتم أنه يجوز أن يكون اختلافهما لاجل النص وأن يكون لاجل الاجتهاد فاي القولين اولى (والجواب) الاجتهاد أرجح لوجوه (احدها) انه روى في الاخبار الكثيرة ان داود عليه السلام لم يكن قد بت الحكم في ذلك حتى سمع من سليمان ان غير ذلك أولى وفي بعضها ان داود عليه السلام ناشده لكي يرد ما عنده وكل ذلك لا يليق بالنص لانه لو كان نصا لكان يظهره ولا يكتمه (السؤال الرابع) بينوا انه كيف كان طريق الاجتهاد (الجواب) ان وجه الاجتهاد فيه ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما من ان داود عليه السلام قوم قدر الضرر بالكرم فكان مساويا لقيمة الغنم فكان عنده ان الواجب في ذلك الضرر أن يزال بمثله من النفع فلا جرم سلم الغنم الى المجني عليه كما قال أبو حنيفة رحمه الله في العبد اذا جنى على النفس يدفعه المولى بذلك أو يفديه وأما سليمان عليه السلام فان اجتهاده أدى الى انه يجب مقابلة الاصول بالاصول والزوائد بالزوائد فاما مقابلة الاصول بالزوائد فغير جائز لانه يقتضي الحيف والجور ولعل منافع الغنم في تلك السنة كانت موازية لمنافع الكرم فحكم به كما قال الشافعي رضي الله عنه فيمن غصب عبدا فابق من يده انه يضمن القيمة لينتفع بها المغصوب منه بازاء ما فوته الغاصب من

والغصب الغالب روى انه عليه السلام نزل بفلسطين ولوط عليه السلام بالمؤتفكة وبينهما مسيرة

يوم وليلة (ووهبنا له اسحق و يعقوب نافلة) أى عطية فهى حال منهما او ولد ولد أو زيادة على ما سأل وهو اسحق فتختص بيعقوب ولا لبس فيه للقرينة الظاهرة (وكلا) أى كل واحد من هؤلاء الاربعة

منافع العبد فاذا ظهر تراد (السؤال الخامس) على تقدير ان ثبت قطعا ان تلك المخالفة كانت مبنية على الاجتهاد فهل تدل هذه القصة على ان المصيب واحد أو الكل مصيبون (الجواب) أما القائلون بان المصيب واحد ففيهم من استدل بقوله تعالى ففهمناها سليمان قال ولو كان الكل مصيبا لم يكن لتخصيص سليمان عليه السلام بهذا التفهيم فائدة وأما القائلون بان الكل مصيبون ففيهم من استدل بقوله وكلا آتينا حكما وعلما ولو كان المصيب واحدا ومخالفه مخطئا لما صح أن يقال وكلا آتينا حكما وعلما واعلم ان الاستدلالين ضعيفان (أما الاول) فلان الله تعالى لم يقل انه فهمه الصواب فيحتمل انه فهمه الناسخ ولم يفهم ذلك داود عليه السلام لانه لم يبلغه وكل واحد منهما مصيب فيما حكم به على ان اكثر ما فى الآية انها دالة على ان داود وسليمان عليهما السلام ما كانا مصيبين وذلك لا يوجب أن يكون الامر كذلك فى شرعنا (وأما الثانى) فلانه تعالى لم يقل ان كلا آتيناه حكما وعلما بما حكم به بل يجوز أن يكون اتيناه حكما وعلما بوجوه الاجتهاد وطرق الاحكام على انه لا يلزم من كون كل مجتهد مصيبا فى شرعهم أن يكون الامر كذلك فى شرعنا (السؤال السادس) لو وقعت هذه الواقعة فى شرعنا ما حكمها (الجواب) قال الحسن البصرى هذه الآية محكمة والقضاة بذلك يقضون الى يوم القيامة واعلم ان كثيرا من العلماء يزعمون انه منسوخ بالاجماع ثم اختلفوا فى حكمه فقال الشافعى رحمه الله ان كان ذلك بالنهار لا ضمان لان لصاحب الماشية تسييب ماشيته بالنهار وحفظ الزرع بالنهار على صاحبه وان كان ليلا يلزمه الضمان لان حفظها بالليل عليه وقال أبو حنيفة رحمه الله لا ضمان عليه ليلا كان او نهارا اذا لم يكن متعديا بالارسال لقوله صلى الله عليه وسلم جرح العجماء جبار واحتج الشافعى رحمه الله بما روى عن البراء بن عازب انه قال كانت ناقة ضارية فدخلت حائطا فافسدته فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقضى ان حفظ الحوائط بالنهار على أهلها وان حفظ الماشية بالليل على أهلها وان على أهل الماشية ما أصابت ماشيتهم بالليل وهذا تمام القول فى هذه الآية ثم ان الله تعالى ذكر بعد ذلك من النعم التى خص بها داود عليه السلام أمرين (الاول) قوله تعالى وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تفسير هذا التسبيح وجهان (أحدهما) ان الجبال كانت تسبح ثم ذكروا فيه وجوها (أحدها) قال مقاتل اذا ذكر داود عليه السلام ربه ذكرت الجبال والطير معه (وثانيها) قال الكلبى اذا سبح داود أجابته الجبال (وثالثها) قال سليمان بن حيان كان داود عليه السلام اذا وجد فترة أمر الله تعالى الجبال فسبحت فيزداد نشاطا واشتياقا (القول الثانى) وهو اختيار بعض أصحاب المعانى انه يحتمل أن يكون تسبيح الجبال والطير بمثابة قوله تعالى وان من شئ الا يسبح بحمده وتخصيص داود عليه السلام بذلك انما كان بسبب انه عليه السلام كان يعرف ذلك ضرورة فيزداد يقينا وتعظيما

لا بعضهم دون بعض (جعلنا صالحين) بأن وفقناهم للصلاح فى الدين والدنيا فصاروا كاملين (وجعلناهم أئمة) يقتدى بهم فى أمور الدين اجابة لدعائه عليه السلام بقوله ومن ذريتى (يهدون) أى الامة الى الحق (بأمرنا) لهم بذلك وارسالنا اياهم حتى صاروا مكملين (وأوحينا اليهم فعل الخيرات) ليحثوهم عليه فيتم كمالهم بانضمام العمل الى العلم وأصله أن تفعل الخيرات ثم فعلا الخيرات وكذا قوله تعالى (واقام الصلاة وايتاء الزكاة) وهو من عطف الخاص على العام دلالة على فضله وانافته وحذفت تاء الاقامة المعوضة من احدى الالفين لقيام المضاف اليه مقامه (وكانوا لنا) خاصة دون غيرنا (عابدين) لا يخطر ببالهم غير عباد تنا

(ولوطا) قيل هو منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى (آتيناه) أى وآتينا لوطا وقيل باذكر (حكما) أى حكمة او نبوة او فصلا فى الخصوم بالحق (وعلما) بما ينبغى علمه للانبياء عليهم السلام (ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث) أى اللواطة وصفت بصفة اهلها

واسندت اليها على حذف المضاف واقامتها مقامه كما يؤذن به قوله تعالى (انهم كانوا قوم سوء فاسقين) فانه كالتعليل له (وأدخلناه فى رحمتنا) أى فى أهل رحمتنا اوفى جنتنا (انه من الصالحين) الذين سبقت لهم منا الحسنى

(ونوحا) أى اذكر نوحا أى خبره وقوله تعالى (اذ نادى) أى دعا الله تعالى على قومه بالهلاك ظرف للمضاف المقدر أى اذكر نبأه الواقع وقت دعائه (من قبل) أى من قبل هؤلاء المذكورين (فاستجبنا له) أى دعاءه الذى من جملته قوله انى مغلوب فانتصر (فنجيناه وأهله من الكرب العظيم) وهو الطوفان وقيل اذية قومه وأصل الكرب الغم الشديد (ونصرناه) نصرا مستتبعا للانتقام والانتصار ولذلك قيل (من القوم الذين كذبوا بآياتنا) وحمله على فانتصر بإباه ما ذكر من دعائه عليه السلام فان ظاهره يوجب اسناد الانتصار اليه تعالى مع مافيه من تهويل الامر قوله تعالى (انهم كانوا قوم سوء) تعليل لما قبله وتمهيد لما بعده من قوله تعالى (فأغرقناهم أجمعين) فان الاصرار على تكذيب الحق والانهماك فى الشر والفساد مما يوجب الاهلاك قطعا (وداود وسليمان) اما عطف على نوحا معمول ﴿ واذكر ﴾ لعامله واما المضمر معطوف على ذلك العامل بتقدير المضاف وقوله تعالى (اذ يحكمان) ظرف للمضاف المقدر وصيغة المضارع حكاية للحال الماضية لاستحضار صورتها أى اذكر خبرهما وقت حكمهما

والقول الاول أقرب لانه لاضرورة فى صرف اللفظ عن ظاهره وأما المعتزلة فقالوا لو حصل الكلام من الجبل لحصل اما بفعله أو بفعل الله تعالى فيه (والاول) محال لان بنية الجبل لاتحتمل الحياة والعلم والقدرة ومالايكون حيا عالما قادرا يستحيل منه الفعل (والثانى) أيضا محال لان المتكلم عندهم من كان فاعلا للكلام لا من كان محلا للكلام فلو كان فاعل ذلك الكلام هو الله تعالى لكان المتكلم هو الله تعالى لا الجبل فثبت انه لايمكن اجراؤه على ظاهره فعندهذا قالوا فى وسخرنا مع داود الجبال يسبحن ومثله قوله تعالى يا جبال أوبى معه معناه تصرفى معه وسيرى بأمره ويسبحن من السبح الذى هو السباحة خرج اللفظ فيه على التكثير ولولم يقصد التكثير لقيل يسبحن فلما كثر قيل يسبحن معه أى سيرى وهو كقوله ان لك فى النهار سبحا طويلا أى تصرفا ومذهبا اذا ثبت هذا فنقول ان سيرها هو التسبيح لدلالته على قدرة الله تعالى وعلى سائر ماتنزه عنه واعلم ان مدار هذا القول على ان بنية الجبل لاتقبل الحياة وهذا ممنوع وعلى أن التكلم من فعل الله وهو أيضا ممنوع (المسئلة الثانية) أما الطير فلا امتناع فى أن يصدر عنها الكلام ولكن أجمعت الامة على ان المكلفين اما الجن أو الانس أو الملائكة فيمتنع فيها أن تبلغ فى العقل الى درجة التكليف بل تكون على حالة كحال الطفل فى أن يؤمر وينهى وان لم يكن مكلفا فصار ذلك معجزة من حيث جعلها فى الفهم بمنزلة المراهق وأيضا فيه دلالة على قدرة الله تعالى وعلى تنزهه عما لايجوز فيكون القول فيه كالقول فى الجبال (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف يسبحن حال بمعنى مسبحات أو استئناف كان قائلا قال كيف سخرهن فقال يسبحن والطير اما معطوف على الجبال واما مفعول معه فان قلت لم قدمت الجبال على الطير قلت لان تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل فى الاعجاز لانها جماد والطير حيوان ناطق اما قوله وكنا فاعلين فالمعنى انا قادرون على ان نفعل هذا وان كان عجبا عندكم وقيل نفعل ذلك بالانبياء عليهم السلام (الانعام الثالث) قوله تعالى وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اللبوس اللباس قال الليث لكل حالة لبوسها (المسئلة الثانية) ليحصنكم قرئ بالنون والياء والتاء وتخفيف الصاد وتشديدها فالنون لله عز وجل والتاء للصنعة أو للبوس على تأويل الدرع والياء لله تعالى أو لداود أو للبوس (المسئلة الثالثة) قال قتادة أول من صنع الدرع داود عليه السلام وانما كانت صفائح قبله فهو أول من سردها واتخذها حلقا ذكر الحسن ان لقمان الحكيم عليه السلام حضره وهو يعمل الدرع فأراد أن يسأل عما يفعل ثم سكت حتى فرغ منها ولبسها على نفسه فقال الصمت حكمة وقليل فاعله قالوا ان الله تعالى ألان الحديد له يعمل منه بغير نار كانه طين (المسئلة الرابعة) البأس ههنا الحرب وان وقع على السوء كله والمعنى ليمنعكم ويحرسكم من بأسكم أى من الجرح والقتل والسيف والسهم والرمح (المسئلة الخامسة) فيه دلالة على ان أول من عمل الدرع داود ثم تعلم الناس منه

فتوارث الناس عنه ذلك فعمت النعمة بها كل المحاربين من الخلق الى آخر الدهر فلزمهم شكر الله تعالى على النعمة فقال فهل أنتم شاكرون أى اشكروا الله على ما يسر عليكم من هذه الصنعة واعلم انه سبحانه لما ذكر النعم التى خص داود بها ذكر بعده النعم التى خص بها سليمان عليه السلام وقال قتادة ورث الله تعالى سليمان من داود ملكه ونبوته وزاده عليه أمرين سخر له الريح والشياطين (الانعام الاول) قوله تعالى ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره أى جعلناها طائعة منقادة له بمعنى انه ان أرادها عاصفة كانت عاصفة وان أرادها لينة كانت لينة والله تعالى مسخرها فى الحالتين فان قيل العاصف الشديدة الهبوب وقد وصفها الله تعالى بالرخاوة فى قوله رخاء حيث أصاب فكيف يكون الجمع بينهما (والجواب) من وجهين (الاول) انها كانت فى نفسها رخية طيبة كالنسيم فاذا مرت بكرسيه أبعدت به فى مدة يسيرة على ما قال غدوها شهر ورواحها شهر وكانت جامعة بين الامرين رخاء فى نفسها وعاصفة فى عملها مع طاعتها لسليمان عليه السلام وهبوبها على حسب ما يريد وحكم آية الى آية ومعجزة الى معجزة (الثانى) انها كانت فى وقت رخاء وفى وقت عاصفا لاجل هبوبها على حكم ارادته (المسئلة السادسة) قرئ الريح والرياح بالرفع والنصب فبهما فالرفع على الابتداء والنصب للعطف على الجبال فان قيل قال فى داود وسخرنا مع داود الجبال وقال فى حق سليمان ولسليمان الريح فذكره فى حق داود عليه السلام بكلمة مع وفى حق سليمان عليه السلام باللام وراعى هذا الترتيب أيضا فى قوله ياجبال أوبى معه والطير وقال فسخرنا له الريح تجرى بأمره فما الفائدة فى تخصيص داود عليه السلام بلفظ مع وسليمان باللام قلنا يحتمل ان الجبل لما اشتغل بالتسبيح حصل له نوع شرف فما أضيف اليه بلام التمليك أما الريح فلم يصدر عنه الا ما يجرى مجرى الخدمة فلا جرم أضيف الى سليمان بلام التمليك وهذا اقناعى أما قوله الى الارض التى باركنا فيها للعالمين أى الى المضى الى بيت المقدس قال الكلبى كانت تسير من اصطخر الى الشام يركب عليها سليمان وأصحابه أما قوله وكنا بكل شئ عالمين أى علمنا بالاشياء صح منا أن ندبر هذا التدبير فى رسلنا وفى خلقنا وأن نفعل هذه المعجزات القاهرة (الانعام الثانى) قوله تعالى ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المراد انهم يغوصون له فى البحار فيستخرجون الجواهر ويتجاوزون ذلك الى الاعمال والمهن وبناء المدن والقصور واختراع الصنائع العجيبة كما قال يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان وأما الصناعات فكاتخاذ الحمام والنورة والطواحين والقوارير والصابون (المسئلة الثانية) قوله ومن الشياطين من يغوصون له يعنى وسخرنا لسليمان من الشياطين من يغوصون له فيكون فى موضع النصب نسقا على الريح قال الزجاج ويجوز أن يكون فى موضع رفع من وجهين (احدهما) النسق على الريح وأن يكون المعنى ولسليمان الريح وله من يغوصون له من الشياطين ويجوز أن يكون رفعا على

(اذ نفشت) أى تفرقت وانتشرت (فيه غنم القوم) ليلا بلا راع فرعته وافسدته ظرف للحكم (وكنا لحكمهم) أى لحكم الحاكمين والمتحاكمين اليهما فان الاضافة لمجرد الاختصاص المنتظم لاختصاص القيام واختصاص الوقوع وقرئ لحكمهما (شاهدين) حاضرين علما والجملة اعتراض مقرر للحكم ومفيد لمزيد الاعتناء بشأنه (ففهمناها سليمان) عطف على حكما فانه فى حكم الماضى وقرئ فافهمناها والضمير للحكومة أو الفتيا روى أنه دخل على داود عليه السلام رجلان فقال أحدهما ان غنم هذا دخلت فى حرثى ليلا فافسدته فقضى له بالغنم فخرج فمر على سليمان عليه السلام فاخبراه بذلك فقال غير هذا أرفق بالفريقين فسمعه داود فدعاه فقال له بحق النبوة والابوة الا أخبرتنى بالذى أرفق بالفريقين فقال أرى أن تدفع الغنم الى صاحب

الارض لينتفع بدرها ونسلها وصوفها ﴿٢٣﴾ س والحرث الى أرباب الغنم ليقوموا عليه حتى يعود الى ما كان ثم يتراد فقال القضاء ما قضيت وأمضى الحكم بذلك والذى عندى أن حكمهما عليهما السلام كان بالاجتهاد فان قول سليمان عليه

القول بذلك ولما ناشده داود عليهما السلام لاظهار ما عنده بل وجب عليه أن يظهره بدا وحرم عليه كتمه ومن ضرورته أن يكون القضاء السابق أيضا كذلك ضرورة استحالة نقض حكم النص بالاجتهاد بل أقول والله تعالى أعلم ان رأى سليمان عليه السلام استحسان كما ينبئ عنه قوله أرفق بالفريقين ورأى داود عليه السلام قياس كما أن العبد اذا جنى على النفس يدفعه المولى عند أبي حنيفة الى المجني عليه أو يفديه ويبيعه في ذلك أو يفديه عند الشافعي وقد روي أنه لم يكن بين قيمة الحرث وقيمة الغنم تفاوت وأما سليمان عليه السلام فقد استحسن حيث جعل الانتفاع بالغنم بازاء ما فات من الانتفاع بالحرث من غير أن يزول ملك المالك عن الغنم وأوجب على صاحب الغنم أن يعمل في الحرث الى أن يزول الضرر الذي أتاه من قبله كما قال أصحاب الشافعي فيمن غصب عبدا وأبق منه انه يضمن القيمة وينتفع بها المغصوب منه بازاء ما فوته الغاصب من المنافع فاذا

الابتداء ويكون له هو الخبر (المسئلة الثالثة) يحتمل أن يكون من يغوص منهم هو الذي يعمل سائر الاعمال ويحتمل انهم فرقة أخرى ويكون الكل داخلين في لفظة من وان كان الاول هو الاقرب (المسئلة الرابعة) ليس في الظاهر الا أنه سخرهم لكنه قد روي انه تعالى سخر كفارهم دون المؤمنين وهو الاقرب من وجهين (أحدهما) اطلاق لفظ الشياطين (والثاني) قوله وكنا لهم حافظين فان المؤمن اذا سخر في أمر لا يجب أن يحفظ لئلا يفسد وانما يجب ذلك في الكافر (المسئلة الخامسة) في تفسير قوله وكنا لهم حافظين وجوه (أحدها) انه تعالى وكل بهم جمعا من الملائكة أو جمعا من مؤمني الجن (وثانيها) سخرهم الله تعالى بان حبب اليهم طاعته وخوفهم من مخالفته (وثالثها) قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد وسلطانه مقيم عليهم يفعل بهم ما يشاء عن قبل وعن أي شئ كانوا يحفوظين قلنا فيه ثلاثة أوجه (أحدها) انه تعالى كان يحفظهم عليه السلام لئلا يذهبوا ويتركوه (وثانيها) قال الكلبي كان يحفظهم من أن يهيجوا أحدا في زمانه (وثالثها) كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا فكان دأبهم انهم يعملون بالنهار ثم يفسدونه في الليل (المسئلة السادسة) سأل الجبائي نفسه وقال كيف يتهيأ هذه الاعمال وأجسامهم رقيقة لا يقدرون على عمل الثقيل وانما يمكنهم الوسوسة وأجاب بانه سبحانه كثف أجسامهم خاصة وقواهم وزاد في عضلهم ليكون ذلك معجزا لسليمان عليه السلام فلما مات سليمان رد هم الله الى الخلقة الاولى لانه لو تقدم على الخلقة الثانية صار شهادة على الناس ولوادعى متنبي النبوة وجعله دلالة لكان كمعجزات الرسل فيصير ردهم الى خلقتهم الاولى واعلم ان هذا الكلام ساقط من وجوه (أحدها) لم قلت ان الجن من الاجسام ولم لا يجوز وجود نحو ليس بمتحيز ولا قائم بالمتحيز ويكون الجن منهم فان قلت لو كان الامر كذلك لكان مثلا الباري تعالى قلت هذا ضعيف لان الاشتراك في لوازم الموجبة لا يدل على الاشتراك في الملزومات فكيف اللوازم السلبية سلمنا انه جسم لكن لم لا يجوز حصول القدرة على هذه الاعمال الشاقة في الجسم اللطيف والكامد بناء على ان البنية شرط وليس في يده الا الاستدراء اللطيف سلمنا انه لا بد من تكثيف أجسامهم لكن لم قلت بأنه لا بد من ردها الى الخلقة الاولى بعد موت سليمان عليه السلام فان قال لئلا يفضي الى التلبيس قلنا التلبيس غير لازم لان المتنبي اذا جعل ذلك معجزة لنفسه فالمدعو ان يقول لم لا يجوز أن يقال ان قوة أجسادهم كانت معجزة لنبي آخر قبلك ومع قيام هذا الاحتمال لا يمكن المتنبي من الاستدلال به واعلم ان أجسام هذا العالم اما كثيفة أو لطيفة أما الكثيف فأكثف الاجسام الحجارة والحديد وقد جعلهما الله تعالى معجزة لداود عليه السلام فأنطق الحجر ولين الحديد وكل واحد منهما كما يدل على التوحيد والنبوة يدل على صحة الحشر لانه لما قدر على احياء الحجارة فأي بعد في احياء العظام الرميمة واذا قدر على أن يجعل في اصبع داود عليه السلام قوة النار مع كون الاصبع في نهاية اللطافة فأي بعد في ان يجعل التراب اليابس جسما حيوانيا والعطف

الاشياء في هذا العالم الهواء والنار وقد جعلهما الله معجزة لسليمان عليه السلام أما الهواء فقوله تعالى فسخرنا له الريح وأما النار فلأن الشياطين مخلوقون منها وقد سخرهم الله تعالى فكان يأمرهم بالغوص في المياه والنار تنطفئ بالماء وهم ما كان يضرهم ذلك وذلك يدل على قدرته على اظهار الضد من الضد ﴿ (القصة السادسة) قصة أيوب عليه السلام ﴿ قوله تعالى (وأيوب اذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) اعلم ان في امر أيوب عليه السلام ما ذكره الله تعالى من شأنه ههنا وفي غيره من القرآن من العبر والدلائل ما ليس في غيره لانه تعالى مع عظيم فضله أنزل به من المرض العظيم ما أنزله مما كان عبرة له ولغيره ولسائر من سمع بذلك وتعريفالهم أن الدنيا مزرعة الآخرة وأن الواجب على المرء أن يصبر على ما ناله من البلاء فيها ويجتهد في القيام بحق الله تعالى ويصبر على حالتي الضراء والسراء وفيه مسائل (المسألة الاولى) قال وهب بن منبه كان أيوب عليه السلام رجلا من الروم وهو أيوب بن انوص وكان من ولد عيص بن اسحق وكانت أمه من ولد لوط وكان الله تعالى قد اصطفاه وجعله نبيا وكان مع ذلك قد أعطاه من الدنيا حظا وافرا من النعم والدواب والبساتين وأعطاه أهلا وولدا من رجال ونساء وكان رحيما بالمساكين وكان يكفل الايتام والارامل ويكرم الضيف وكان معه ثلاثة نفر قد آمنوا به وعرفوا فضله قال وهب وان لجبريل عليه السلام بين يدي الله تعالى مقاما ليس لاحد من الملائكة مثله في القربة والفضيلة وهو الذي يتلقى الكلام فاذا ذكر الله عبدا بخير تلقاه جبريل عليه السلام ثم تلقاه ميكائيل عليه السلام ثم من حوله من الملائكة المقربين فاذا شاع ذلك فيهم يصلون عليه ثم صلت ملائكة السموات ثم ملائكة الارض وكان ابليس لم يحجب عن شيء من السموات وكان يقف فيهن حيثما أراد ومن هناك وصل الى آدم عليه السلام حتى أخرجه من الجنة ولم يزل على ذلك حتى رفع عيسى عليه السلام فحجب عن أربع فكان يصعد بعد ذلك الى ثلاث الى زمان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فحجب عند ذلك عن جميع السموات الا من استرق السمع قال فسمع ابليس تجارب الملائكة بالصلاة على أيوب فأدركه الحسد فصعد سريعا حتى وقف من السماء موقفا كان يقفه فقال يارب انك أنعمت على عبدك أيوب فشكرك وعافيته فحمدك ثم لم تجربه بشدة ولا بلاء وأنا لك زعيم لئن ضربته بالبلاء ليكفرن بك فقال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ماله فانقض الملعون حتى وقع الى الارض وجمع عفاريت الشياطين وقال لهم ماذا عندكم من القوة فاني سلطت على مال أيوب قال عفريت أعطيت من القوة ما ان شئت تحولت اعصارا من نار فأحرقت كل شيء آتي عليه فقال ابليس فأت الابل ورعاءها فذهب ولم يشعر الناس حتى ثار من تحت الارض اعصار من نار لا يدنو منها شيء الا احترق فلم يزل يحرقها ورعاءها حتى أتى على آخرها فذهب ابليس على شكل بعض أولئك الرعاة الى أيوب فوجده قائما يصلي فلما

أن داود عليه السلام لم يكن بت الحكم في ذلك حتى سمع من سليمان ما سمع وأما حكم المسئلة في شريعتنا فعند أبي حنيفة رحمه الله لا ضمان ان لم يكن معها سائق أو قائد وعند الشافعي يجب الضمان ليلا لانها رارا وقوله تعالى (وكلا آتينا حكما وعلما) لدفع ما عسى يوهمه تخصيص سليمان عليه السلام بالتفهيم من عدم كون حكم داود عليه السلام حكما شرعيا أي وكل واحد منهما آتيناه حكما وعلما كثيرا لا سليمان وحده وهذا انما يدل على أن خطأ المجتهد لا يقدح في كونه مجتهدا وقيل بل على أن كل مجتهد مصيب وهو مخالف لقوله تعالى ففهمناها سليمان ولولا النقل لاحتمل توافقهما على أن قوله تعالى ففهمناها سليمان لاظهار ما تفضل عليه في صغره فانه عليه السلام كان حينئذ ابن احدى عشرة سنة (وسخرنا مع داود الجبال) شروع في بيان ما يختص بكل منهما من كراماته تعالى اثر بيان كرامته العامة لهما (يسبحن) أي يقدسن الله عز وجل معه بصوت يمثل له أو يخلق الله تعالى فيها الكلام وقيل يسرن معه من السباحة وهو حال من الجبال أو استئناف مبين لكيفية التسخير ومع متعلقة بالتسخير

وقيل بالتسبيح وهو بعيد (والطير) عطف على الجبال أو مفعول معه وقرئ بالرفع على الابتداء والخبر محذوف أى والطير مسخرات وقيل على العطف على الضمير فى يسبحن وفيه ضعف لعدم التأكيد والفصل (وكنا فاعلين) أى من شأننا أن نفعل أمثاله فليس ذلك ببدع منا وان كان بديعا عندكم (وعلمناه صنعة لبوس) أى عمل الدرع وهو فى الأصل اللباس قل قائلهم عم البس لكل حالة لبوسها اما نعيما واما بوسها وقيل كانت صفائح فحلقها وسردها (لكم) متعلق بعلمنا او بمحذوف هو صفة لبوس (لتحصنكم) أى اللبوس بتأويل الدرع وقرئ بالتاء على ان الضمير لداود عليه السلام أو للبوس وقرئ بنون العظمة وهو بدل اشتمال من لكم باعادة الجار مبين لكيفية الاختصاص والمنفعة المستفادة من لام لكم (من بأسكم) قيل من حرب عدوكم وقيل من وقع السلاح فيكم (فهل أنتم شاكرون) أمر وارد على صورة الاستفهام للمبالغة أو التقريع (ولسليمان الريح) أى وسخرنا له الريح وايراد اللام ههنا دون الاول للدلالة على مابين التسخيرين من التفاوت فان تسخير ما سخر له عليه السلام من الريح وغيرها كان بطريق الانقياد الكلى له والامتثال بامره ونهيه والمقهورية

فرغ من الصلاة فقال يا أيوب هل تدرى ما صنع ربك الذى اختبرته بابلاك ورعائها فقال أيوب انها ماله اعارنيه وهو أولى به اذا شاء نزعه قال ابليس فان ربك أرسل عليها نارا من السماء فاحترقت ورعاؤها كلها وتركت الناس مبهوتين متعجبين منها فمن قائل يقول ما كان أيوب يعبد شيئا وما كان الا فى غرور ومن قائل يقول لو كان الله أيوب يقدر على شئ لمنع من وليه ومن قائل آخر يقول بل هو الذى فعل ما فعل ليشمت عدوه به و يفجع به صديقه فقال أيوب عليه السلام الحمد لله حين أعطانى وحين نزع منى عريانا خرجت من بطن أمى وعريانا أعود فى التراب وعريانا أحشر الى الله تعالى ولو علم الله فيك أيها العبد خيرا لنقل روحك مع تلك الارواح وصرت شهيدا وأجرى فيك ولكن الله علم منك شرا فاخرك فرجع ابليس الى أصحابه خاسئا فقال عفريت آخر عندى من القوة ما اذا شئت صحت صوتا لا يسمعه ذو روح الا خرجت روحه فقال ابليس فأت الغنم ورعاءها فانطلق فصاح بها فماتت ومات رعاؤها فخرج ابليس متمثلا بقهرمان الرعاة الى أيوب فقال له ما قال الاول ورد عليه أيوب الرد الاول فرجع ابليس صاغرا فقال عفريت آخر عندى من القوة ما اذا شئت تحولت ريحا عاصفة فلم يبق من كل شئ أتيت عليه قال فاذهب الى الحرث والثيران فاتاهم فأهلكهم ثم رجع ابليس متمثلا حتى جاء أيوب وهو يصلى فقال مثل قوله الاول فرد عليه أيوب الرد الاول فجعل ابليس يصيح أمواليا فشيئا حتى أتى على جميعها فلما رأى ابليس صبره على ذلك وقف لموقف الذى كان يقفه عند الله تعالى وقال يا ألهى هل أنت مسلطى على ولده فانها الفتنة المضلة فقال الله تعالى انطلق فقد سلطتك على ولده وأتى أولاد أيوب فى قصرهم فلم يزل يزلزله بهم من قواعده حتى قلب القصر عليهم ثم جاء الى أيوب متمثلا بالمعلم وهو جريح مشدوخ الرأس يسيل دمه ودماغه فقال لو رأيت بنيك كيف انقلبوا منكوسين على رؤسهم تسيل أدمغتهم من أنوفهم لقطع قلبك فلم يزل يقول هذا و يرققه حتى رق أيوب عليه السلام وبكى وقبض قبضة من التراب ووضعها على رأسه فاغتنم ذلك ابليس ثم لم يلبث أيوب عليه السلام حتى استغفر واسترجع فصعد ابليس ووقف موقفه وقال يا ألهى انما يهون على أيوب خطر المال والولد لعلمه انك تعيد له المال والولد فهل أنت مسلطى على جسده وانى لك زعيم لو ابتليته فى جسده ليكفرن بك فقال تعالى انطلق فقد سلطتك على جسده وليس لك سلطان على عقله وقلبه ولسانه فانتفض عدو الله سرورا فوجد أيوب عليه السلام ساجدا لله تعالى فأتاه من قبل الارض فنفخ فى منخره نفخة اشتعل منها جسده وخرج به من فرقه الى قدمه ثآليل وقد وقعت فيه حكة لا يملكها وكان يحك باظفاره حتى سقطت اظفاره ثم حكها بالمسوح الخشنة ثم حكها بالفخار والحجارة ولم يزل يحكها حتى تقطع لحمه وتغير ونتن فأخرجه أهل القرية وجعلوه على كناسة وجعلوا له عريشا ورفضه الناس كلهم غير امرأته رحمة بنت افرايم بن يوسف عليه السلام فكانت تصلح أموره ثم ان وهبا طول فى الحكاية الى ان قال ان أيوب عليه السلام أقبل على الله تعالى

مستغنيا

مستغيثا متضرعا اليه فقال يارب لاى شئ خلقتنى ياليتنى كنت حيضة القتنى أمى ويا ليتنى كنت عرفت الذنب الذى أذنبته والعمل الذى عملت حتى صرفت وجهك الكريم عنى ألم أكن للغريب دارا وللمسكين قرارا وللبتيم وليا وللارملة قيما الهى أنا عبد ذليل ان أحسنت فالمن لك وان أسأت فبيدك عقوبتى جعلتنى للبلاء غرضا وللفتنة نصبا وسلطت على مالوسلطته على جبل لضعف من حمله الهى تقطعت أصابعى وتساقطت لهواتى وتناثر شعرى وذهب المال وصرت أسأل اللقمة فيطعمنى من يمن بها على ويعيرنى بفقرى وهلاك أولادى قال الامام أبو القاسم الانصارى رحمه الله وفى جملة هذا الكلام ليتك لوكرهتنى لم تخلقنى ثم قال ولوكان ذلك صحيحا لاغتنمه ابليس فان قصده ان يحمله على الشكوى وأن يخرجه عن حلية الصابرين والله تعالى لم يخبر عنه الاقوله انى مسنى الضر وأنت ارحم الراحمين ثم قال انا وجدناه صابرا نعم العبد انه أواب واختلف العلماء فى السبب الذى قال لاجله انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين وفى مدة بلائه (فالرواية الاولى) روى ابن شهاب عن أنس رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أيوب عليه السلام بقى فى البلاء ثمانى عشرة سنة فرفضه القريب والبعيد الارجلين من اخوانه كانا يغدوان ويروحان اليه فقال أحدهما للآخر ذات يوم والله لقد أذنب أيوب ذنبا ما أذنبه أحد من العالمين فقال له صاحبه وماذاك فقال منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه الله تعالى ولم يكشف ما به فلما راحا الى أيوب لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك لايوب عليه السلام فقال أيوب ما أدرى ما تقولان غير ان الله تعالى يعلم انى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله عز وجل فارجع الى بيتى فاكفر عنهما كراهية أن يذكرا الله الا فى حق وفى رواية أخرى ان الرجلين لما دخلا عليه وجدا ريحا فقالا لوكان لايوب عند الله خير ما بلغ الى هذه الحالة قال فاشق على أيوب شئ مما ابتلى به أشد مما سمع منهما فقال اللهم ان كنت تعلم انى لم ابت شبعانا وأنا أعلم بمكان جائع فصدقنى فصدقه وهما يسمعان ثم خر أيوب عليه السلام ساجدا ثم قال اللهم انى لا أرفع رأسى حتى تكشف ما بى قال فكشف الله ما به (الرواية الثانية) قال الحسن رحمه الله مكث أيوب عليه السلام بعدما ألقى على الكناسة سبع سنين وأشهرا ولم يبق له مال ولا ولد ولا صديق غير امرأته رحمة صبرت معه وكانت تأتيه بالطعام وتحمد الله تعالى مع أيوب وكان أيوب مواظبا على حمد الله تعالى والثناء عليه والصبر على ما ابتلاه فصرخ ابليس صرخة جزعا من صبر أيوب فاجتمع جنوده من أقطار الارض وقالوا له ما خبرك قال أعيانى هذا العبد الذى سألت الله أن يسلطنى عليه وعلى ماله وولده فلم أدع له مالا ولا ولدا ولم يزدد بذلك الا صبرا وحمد الله تعالى ثم سلطت على جسده فتركته ملقى فى كناسة وما يقر به الا امرأته وهو مع ذلك لا يفتر عن الذكر والحمد لله فاستعنت بكم لتعينونى عليه فقالوا له أين مكرك أين حيلك الذى أهلكت به من مضى قال بطل ذلك كله فى أيوب فأشيروا على قالوا ادليت آدم حين أخرجته من الجنة من أين أتيته

والاقتداء به فى عبادة الله عز وعلا (عاصفة) حال من الريح والعامل فيها الفعل المقدر أى وسخرنا له الريح حال كونها شديدة الهبوب من حيث انها كانت تبعد بكرسيه فى مدة يسيرة من الزمان كما قال تعالى غدوها شهر ورواحها شهر وكانت رخاء فى نفسها طيبة وقيل كانت رخاء تارة وعاصفة أخرى حسب ارادته عليه السلام وقرئ الريح بالرفع على الابتداء والخبر هو الظرف المقدم وعاصفة حينئذ حال من ضمير المبتدا فى الخبر والعامل ما فيه من معنى الاستقرار وقرئ الرياح نصبا ورفعا (تجرى بامره) بمشيئته حال ثانية أو بدل من الاولى أو حال من ضميرها (الى الارض التى باركنا فيها) وهى الشام رواحا بعد ما سار به منه بكرة قال الكلبى كان سليمان عليه السلام وقومه يركبون عليها من اصطخر الى الشام والى حيث شاء ثم يعود الى منزله (وكنا بكل شئ عالمين) فنجريه

حسبما تقتضيه الحكمة (ومن الشياطين) أى وسخرنا له من الشياطين (من يغوصون له) فى البحار ويستخرجون له من نفائسها وقيل من رفع على الابتداء وخبره ما قبله والاول هو الاظهر (ويعملون عملا دون ذلك) أى غير ما ذكر من بناء المدن والقصور

واختراع الصنائع الغريبة لقوله تعالى يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل الآية وهؤلاء اما الفرقة الاولى أو غيرها والعموم كلمة من كأنه قيل ومن يعملون وجمع الضمير الراجع اليها باعتبار معناها بعد ما رشح جانبه بقوله تعالى ومن الشياطين

روى أن المسخر له عليه السلام كفارهم لا مؤمنوهم لقوله تعالى ومن الشياطين وقوله تعالى (وكنا لهم حافظين) أى من أن يزيغوا عن أمره أو يفسدوا على ما هو مقتضى جبلتهم قيل وكل بهم جمعا من الملائكة جمعا من مؤمنى الجن وقال الزجاج كان يحفظهم من أن يفسدوا ما عملوا وكان دأبهم أن يفسدوا بالليل ما عملوه بالنهار (وأيوب) الكلام فيه كما مر فى قوله تعالى وداود وسليمان أى واذكر خبر أيوب (اذ نادى ربه أنى) أى بأنى (مسنى الضر) وقرئ بالكسر على اضمار القول أو تضمين النداء معناه والضر شائع فى كل ضرر وبالضم خاص بما فى النفس من مرض وهزال ونحوهما (وأنت أرحم الراحمين) وصفه تعالى بغاية الرحمة بعد ما ذكر نفسه بما يوجبها واكتفى به عن عرض المطلب لطفا فى السؤال وكان

قال من قبيل امرأته قالوا فشأنك بأيوب من قبل امرأته فانه لا يستطيع أن يعصيها لانه لا يقر به أحد غيرها قال أصبتم فانطلق حتى أتى امرأته فتمثل لها فى صورة رجل فقال أين يعلك يا أمة الله قالت هو هذا يحك قروحه وتتردد الدواب فى جسده فلما سمعها طمع أن يكون ذلك كله جزعا فوسوس اليها وذكرها ما كان لها من النعم والمال وذكرها جمال أيوب وشبابه قال الحسن رحمه الله فصرخت فلما صرخت علم أنها قد جزعت فأتاها بسخلة وقال ليذبح هذه لى أيوب ويبرأ قال فجاءت تصرخ الى أيوب يا أيوب حتى متى يعذبك ربك الا يرحمك أين المال أين الماشية أين الولد أين الصديق أين اللون الحسن أين جسمك الذى قد بلى وصار مثل الرماد وتردد فيه الدواب اذبح هذه السخلة واستشرح فقال أيوب عليه السلام أتاك عدو الله ونفخ فيك فاجبته ويلك اترين ما تبكين عليه مما تذكرين مما كنا فيه من المال والولد والصحة من أعطانا ذلك قالت الله قال فكم متعنا به قالت ثمانين سنة قال فمنذ كم ابتلانا الله بهذا البلاء قالت منذ سبع سنين وأشهر قال ويلك والله ما أنصفت ربك ألا صبرت فى البلاء ثمانين سنة كما كنا فى الرخاء ثمانين سنة والله لئن شفانى الله لاجلدنك مائة جلدة أمرتينى ان أذبح لغير الله وحرام على ان أذوق بعد هذا شيئا من طعامك وشرابك الذى تأتينى به فطردها فذهبت فلما نظر أيوب فى شأنه وليس عنده طعام ولا شراب ولا صديق وقد ذهبت امرأته خر ساجدا وقال رب انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فقال ارفع رأسك فقد استجبت لك اركض برجلك فركض برجله فنبعت عين فاغتسل منها فلم يبق فى ظاهر بدنه دابة الا سقطت منه ثم ضرب برجله مرة أخرى فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق فى جوفه داء الا خرج وقام صحيحا وعاد اليه شبابه وجماله حتى صار أحسن ما كان ثم كسى حلة فلما قام جعل يلتفت فلا يرى شيئا مما كان له من الاهل والولد والمال الا وقد ضعفه الله تعالى حتى صار أحسن مما كان حتى ذكر ان الماء الذى اغتسل منه تطاير على صدره جرادا من ذهب قال فجعل يضمه بيده فأوحى الله اليه يا أيوب ألم أغنك قال بلى ولكنها بركتك فمن يشبع منها قال فخرج حتى جلس على مكان مشرف ثم ان امرأته قالت هب انه طردنى أفاتركه حتى يموت جوعا وأنا كله السباع لارجعن اليه فلما رجعت ما رأت تلك الكناسة ولا تلك الحال واذا بالامور قد تغيرت فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكى وذلك بعين أيوب عليه السلام وهابت صاحب الخلة ان تأتيه وتسأله عنه فأرسل اليها أيوب عليه السلام ودعاها وقال ما تريدين يا أمة الله فبكت وقالت أردت ذلك المبتلى الذى كان ملقى على الكناسة فقال لها أيوب عليه السلام ما كان منك فبكت وقالت يعلى فقال اتعرفينه اذا رأيتيه قالت وهل يخفى على أحد يراه فتبسم وقال انا هو فعرفته بضحكه فاعتنقته ثم قال انك أمرتينى ان أذبح سخلة لا بليس وانى أطعت الله وعصيت الشيطان ودعوت الله تعالى فرد على ما ترين (الرواية الثالثة) قال الضحاك ومقاتل بقى فى البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ساعات وقال وهب رحمه

عليه السلام روميا من ولد عيص بن اسحق استنباه الله تعالى وكثر أهله وماله فابتلاه الله تعالى بهلاك أولاده بهدم بيت عليهم وذهاب أمواله والمرض فى بدنه ثمانى عشرة سنة أو ثلاث عشرة ﴿ الله ﴾

الله بقى فى البلاء ثلاث سنين فلما غلب أيوب ابليس لعنه الله ذهب ابليس الى امرأته على هيئة ليست كهيئة بنى آدم فى العظم والجسم والجمال على مركب ليس كمراكب الناس وقال لها أنت صاحبة أيوب قالت نعم قال فهل تعرفينى قالت لا قال انا اله الارض انا صنعت بأيوب ماصنعت وذلك انه عبد اله السماء وتركنى فاغضبنى ولو سجد لى سجدة واحدة رددت عليك وعليه جميع مالكما من مال وولد فان ذلك عندى قال وهب وسمعت انه قال لو أن صاحبك أكل طعاما ولم يسم الله تعالى لعوفى مما هو فيه من البلاء وفى رواية أخرى بل قال لها اوشئت فاسجدى لى سجدة واحدة حتى ارد عليك المال والولد واعافى زوجك فرجعت الى أيوب فأخبرته بما قال لها فقال لها أيوب اتاك عدو الله ليفتنك عن دينك ثم أقسم لئن عافانى الله لاجلدنك مائة جلدة وقال عند ذلك مسنى الضر يعنى من طمع ابليس فى سجودى له وسجود زوجتى ودعائه اياها واياى الى الكفر (الرواية الرابعة) قال وهب كانت امرأة أيوب عليه السلام تعمل للناس وتأتيه بقوته فلما طال عليه البلاء سئمها الناس فلم يستعملوها فالتمست ذات يوم شيئا من الطعام فلم تجد شيئا فجزت قرنا من رأسها فباعته برغيف فأتته به فقال لها أين قرنك فأخبرته بذلك فحينئذ قال مسنى الضر (الرواية الخامسة) قال اسمعيل السدى لم يقل أيوب مسنى الضر الا لاشياء ثلاث (أحدها) قول الرجلين له لو كان عملك الذى كنا نرى لله تعالى لما أصابك الذى أصابك (وثانيها) كان لامرأته ثلاث ذوائب فعمدت الى احداها وقطعتها وباعتها فاعطوها بذلك خبزا ولحما فجاءت الى أيوب عليه السلام فقال من أين هذا فقالت كل فانه حلال فلما كان من الغد لم تجد شيئا فباعت الثانية وكذلك فعلت فى اليوم الثالث وقالت كل فانه حلال فقال لا آكل مالم تخبرينى فاخبرته فبلغ ذلك من أيوب ما الله به عليم وقيل انما باعت ذوائبها لان ابليس تمثل لقوم فى صورة بشر وقال لئن تركتم أيوب فى قريتكم فانى أخاف أن يعدى اليكم ما به من العلة فأخرجوه الى باب البلد ثم قال لهم ان امرأته تدخل فى بيوتكم وتعمل وتمس زوجها أما تخافون أن تعدى اليكم علته فحينئذ لم يستعملها احد فباعت ضفيرتها (وثالثها) حين قالت له امرأته ما قالت فحينئذ دعا (الرواية السادسة) قيل سقطت دودة من فخذه فرفعها وردها الى موضعها وقال قد جعانى الله تعالى طعمة لك فعضته عضة شديدة وقال مسنى الضر فاوحى الله تعالى اليه لولا انى جعلت تحت كل شعرة منك صبرا لما صبرت (المسئلة الثانية) اعلم ان المعتزلة قد طعنوا فى هذه القصة من وجوه (أحدها) قال الجبائى ذهب بعض الجهال الى أن ما كان به من المرض كان فعلا للشيطان سلطه الله عليه لقوله تعالى حكاية عنه مسنى الشيطان بنصب وعذاب وهذا جهل أما أولا فلانه لو قدر على احداث الامراض والاسقام وضدهما من العافية لتهيأ له فعل الاجسام ومن هذا حاله يكون الها وأما ثانيا فلان الله تعالى أخبر عنه وعن جنوده بانه قال وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى والواجب تصديق خبر الله تعالى دون الرجوع الى

بنت افرايم بن يوسف قالت له يوما لو دعوت الله تعالى فقال كم كانت مدة الرخاء فقالت ثمانين سنة فقال استحيى من الله تعالى أن أدعوه وما بلغت مدة بلائى مدة رخائى وروى ان ابليس أتاها على هيئة عظيمة فقال أنا اله الارض فعلت بزوجك ما فعلت لانه تركنى وعبد اله السماء فلو سجد لى سجدة لرددت عليه وعليك جميع ما أخذت منكما وفى رواية لو سجدت لى سجدة لرجعت المال والولد وعافيت زوجك فرجعت الى أيوب وكان ملقى فى الكناسة لا يقرب منه أحد فأخبرته بالقصة فقال عليه السلام كأنك افتتنت بقول اللعين لئن عافانى الله عز وجل لأضربنك مائة سوط وحرام على أن أذوق بعد هذا شيئا من طعامك وشرابك فطردها فبقى طريحا فى الكناسة لا يحوم حوله أحد من الناس فعند ذلك خر ساجدا فقال رب انى مسنى الضر وانت ارحم الراحمين فقيل له ارفع رأسك فقد استجبت لك اركض برجلك فركض فنبعت من تحته عين ماء فاغتسل منها فلم يبق فى ظاهر بدنه دابة الا سقطت ولا جراحة الا برئت ثم ركض مرة أخرى فنبعت عين أخرى فشرب منها فلم يبق فى جوفه داء الا خرج وعاد صحيحا ورجع اليه شبابه وجماله

ثم كسى حلة وذلك قوله تعالى (فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر) فلما قام جعل يلتفت فلا يرى شيئا مما كان له من الاهل والمال الا وقد ضاعفه الله تعالى وذلك قوله تعالى (وآتيناه أهله ومثلهم معهم) وقيل كان ذلك بأن ولد له ضعف ما كان ثم ان امرأته قالت في نفسها هب انه طردني أفأتركه حتى يموت جوعا ويأكله السباع لارجعن اليه فلما رجعت ما رأت تلك الكناسة ولا تلك الحال وقد تغيرت الامور فجعلت تطوف حيث كانت الكناسة وتبكي وهابت صاحب الحلة أن تأتيه وتسأل عنه فأرسل اليها أيوب ودعاها فقال ما تريدين يا أمة الله فبكت وقالت أريد ذلك المبتلى الذي كان ملقى على الكناسة فقال لها ما كان منك فبكت وقالت بعلي قال أتعرفينه اذا رأيته قالت وهل يخفى على فتبسم فقال أنا ذلك فعرفته فضحكه فاعتنقته

(رحمة من عندنا وذكرى للعابدين) أي آتيناه ما ذكر لرحمتنا أيوب وتذكرة لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر فيثابوا كما أثيب أو لرحمتنا العابدين الذين من جملتهم أيوب وذكرنا اياهم بالاحسان وعدم نسياننا اياهم (واسمعيل ﴿ في ﴾ وادريس وذا الكفل) أي واذكرهم وذا الكفل الياس وقيل يوشع بن نون وقيل زكريا سمي به لانه كان ذا حظ من الله تعالى أو تكفل منذ أو ضعف عمل أنبياء زمانه وثوابهم فان الكفل يجيء بمعنى النصيب والكفالة والضعف

ما يروى عن وهب بن منبه رضي الله عنه واعلم ان هذا الاعتراض ضعيف لان المذكور في الحكاية أن الشيطان نفخ في منخره فوقعت الحكة فيه فلم قلتم ان القادر على النفخة التي تولد مثل هذه الحكة لابد وأن يكون قادرا على خلق الاجسام وهل هذا الا محض التحكم وأما التمسك بالنص فضعيف لانه انما يقدم على هذا الفعل متى علم انه لو أقدم عليه لما منعه الله تعالى عنه وهذه الحالة لم تحصل الا في حق أيوب عليه السلام على ما دلت الحكاية عليه من انه استأذن الله تعالى فأذن له فيه ومتى كان كذلك لم يبق بين ذلك النص وبين هذه الحكاية مناقضة (وثانيها) قالوا ما روي انه عليه السلام لم يسأل الا عند أمور مخصوصة فبعيد لان الثابت في العقل انه يحسن من المرء أن يسأل في ذلك ربه ويفزع اليه كما يحسن منه المداواة واذا جاز أن يسأل ربه عند الغم مما يراه من اخوانه وأهله جاز أيضا أن يسأل ربه من قبل نفسه فان قيل أفلا يجوز انه تعالى تعبده بان لا يسأل الكشف الا في آخر أمره قلنا يجوز ذلك بان يعلمه بان انزال ذلك به مدة مخصوصة من مصالحه ومصالح غيره لا محالة فعلم عليه السلام انه لا وجه للمسألة في هذا الامر الخاص فاذا قرب الوقت جاز أن يسأل ذلك من حيث يجوز أن يدوم ويجوز أن ينقضي (وثالثها) قالوا انتهاء ذلك المرض الى حد التنفير عنه غير جائز لان الامراض المنفرة من القبول غير جائزة على الانبياء عليهم السلام فهذا جملة ما قيل في هذه الحكاية (المسئلة الثالثة) قال صاحب الكشاف قوله تعالى أني مسني الضر أي نادى ربه اني مسني الضر وقرئ اني بالكسر على اضمار القول أو لتضمين النداء معناه والضر بالفتح الضرر في كل شيء وبالضم الضرر في النفس من مرض وهزال (المسئلة الرابعة) انه عليه السلام أضف في السؤال حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة وذكر به بغاية الرحمة ولم يصرح بالمطلوب فمن قبل أليس أن الشكوى تقدح في كونه صابرا (الجواب) قال سفيان بن عيينة رحمه الله من شكا الى الله تعالى فانه لا يعد ذلك جزعا اذا كان في شكواه راضيا بقضاء الله تعالى اذ ليس من شرط الصبر استحلاء البلاء ألم تسمع قول يعقوب عليه السلام انما أشكو بثي وحزني الى الله أما قوله وأنت أرحم الراحمين فالدليل على انه سبحانه أرحم الرحمين أمور (أحدها) ان كل من رحم غيره فاما أن يرحمه طلبا للثناء في الدنيا أو الثواب في الآخرة أو دفعا للرقة الجنسية عن الطبع وحينئذ يكون مطلوب ذلك الراحم منفعة تعود أما الحق سبحانه فانه يرحم عباده من غير وجه من هذه الوجوه ومن غير أن يعود اليه من تلك الرحمة زيادة ولا نقصان من الثناء ومن صفات الكمال فكان سبحانه ارحم الراحمين (وثانيها) ان كل من يرحم غيره فلا يكون ذلك الا بمعونة رحمة الله تعالى لان من أعطى غيره طعاما أو ثوبا أو دفع عنه بلاء فلولا انه سبحانه خلق المطعوم والملبوس والادوية والاغذية والا لما قدر أحد على اعطاء ذلك الشيء ثم بعد وصول تلك العطية اليه فلولا انه سبحانه جعله سببا للراحة لما حصل النفع بذلك فاذا رحمة العباد مسبوقة برحمة الله تعالى وملحوقة برحمته بل رحمتهم فيما بين الطرفين كالقطرة

(كل) أى كل واحد من هؤلاء (من الصابرين) أى على مشاق التكاليف وشدائد النوب والجملة استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من الامر بذكرهم (وأدخلناهم ﴿ ١٨٥ ﴾ فى رحمتنا) أى فى النبوة أو فى نعمة الآخرة (انهم من الصالحين) أى الكاملين فى الصلاح الكامل الذى لا يحوم حوله شائبة الفساد وهم الانبياء فان صلاحهم معصوم من كدر الفساد (وذا النون) أى واذكر صاحب الحوت وهو يونس عليه السلام (اذ ذهب مغاضبا) أى مراغما لقومه لما رأى من طول دعوته اياهم وشدة شكيمتهم وتمادى اصرارهم مهاجرا عنهم قبل أن يؤمر وقيل وعدهم بالعذاب فلم يأتهم ليعادهم بتوبتهم ولم يعرف الحال فظن أنه كذبهم فغضب من ذلك وهو من بناء المبالغة للمبالغة أولانه أغضبهم بالمهاجرة لخوفهم لحوق العذاب عندها وقرئ مغضبا (فظن أن لن نقدر عليه) أى ان نضيق عليه أو لن نقضى عليه بالعقوبة من القدر ويؤيده أنه قرئ مشددا أو لن نعمل فيه قدرتنا وقيل هو تمثيل لحاله بحال من يظن ان لن نقدر عليه أى نعامله معاملة من يظن ان لن نقدر عليه

فى البحر فوجب أن يكون تعالى هو أرحم الراحمين (وثالثها) ان الله تعالى اولم يخلق فى قلب العبد تلك الداعى والارادات لاستحال صدور ذلك الفعل عنه فكان الراحم هو الحق سبحانه من حيث انه هو الذى أنشأ تلك الداعية فثبت انه أرحم الراحمين فان قيل كيف يكون أرحم الراحمين مع انه سبحانه ملأ الدنيا من الآفات والاسقام والامراض والآلام وسلط البعض على البعض بالذبح والكسر والايذاء وكان قادرا على أن يغنى كل واحد عن ايلام الآخر وايذائه (والجواب) ان كونه سبحانه ضارا لاينا فى كونه نافعا بل هو الضار النافع فاضراره ليس لدفع مشقة وانتفاعه ليس لجلب منفعة بل لايسأل عما يفعل أما قوله تعالى فاستجبنا له فانه يدل على انه دعا به لكن هذا الدعاء قد يجوز أن يكون واقعا منه على سبيل التعريض كما يقال ان رأيت أو أردت أو أحببت فافعل كذا ويجوز أن يكون على سبيل التصريح وان كان الاليق بالادب وبدلالة الآية هو الاول ثم انه سبحانه بين انه كشف ما به من ضر وذلك يقتضى عادته الى ما كان فى بدنه وأحواله وبين الله تعالى انه آتاه أهله ويدخل فيه من ينسب اليه من زوجة وولد وغيرهما ثم فيه قولان (أحدهما) وهو قول ابن مسعود وابن عباس وقتادة ومقاتل والكلبى وكعب رضى الله عنهم ان الله تعالى أحيا له أهله يعنى أولاده باعيانهم (والثانى) روى الليث رضى الله عنه قال أرسل مجاهد الى عكرمة وسأله عن الآية فقال قيل له ان أهلك لك فى الآخرة فان شئت عجلناهم لك فى الدنيا وان شئت كانوا لك فى الآخرة وآتيناك مثلهم فى الدنيا فقال يكونون لى فى الاخرة وأوتى مثلهم فى الدنيا والقول الاول أولى لان قوله وآتيناه أهله يدل بظاهره على انه تعالى أعادهم فى الدنيا وأعطاه معهم مثلهم أيضا وأما قوله وذكرى للعابدين ففيه دلالة على انه تعالى فعل ذلك لكى يتفكر فيه فيكون داعية للعابدين فى الصبر والاحتساب وانما خص العابدين بالذكر لانهم يختصون بالانتفاع بذلك (القصة السابعة) * قوله تعالى (واسمعيل وادريس وذا الكفل كل من الصابرين وأدخلناهم فى رحمتنا انهم من الصالحين) اعلم انه تعالى ذكر صبر أيوب عليه السلام وانقطاعه اليه أتبعه بذكر هؤلاء فانهم كانوا أيضا من الصابرين على الشدائد والمحن والعبادة أما اسمعيل عليه السلام فلانه صبر على الانقياد للذبح وصبر على المقام ببلد لازرع فيه ولاضرع ولابناء وصبر فى بناء البيت فلاجرم أكرمه الله تعالى وأخرج من صلبه خاتم النبيين وأما ادريس عليه السلام فقد تقدمت قصته فى سورة مريم عليها السلام قال ابن عمر رضى الله عنهما بعث الى قومه داعيا لهم الى الله تعالى فأبوا فاهلكهم الله تعالى ورفع ادريس الى السماء الرابعة وأما ذو الكفل ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فيها بحثان (الاول) قال الزجاج الكفل فى اللغة الكساء الذى يجعل على عجز البعير والكفل أيضا النصيب واختلفوا فى أنه لم سمى بهذا الاسم على وجوه (أحدها) وهو قول المحققين انه كان له ضعف عمل الانبياء عليهم السلام فى زمانه وضعف ثوابهم (وثانيها) قال ابن عباس

س قوله تعالى يحسب أن ماله أخلده أى نعامله معاملة من يحسب ذلك وقيل خطرة شيطانية سبقت الى وهمه فسميت ظنا للمبالغة وقرئ بالياء مخففا ومثقلا مبنيا للفاعل ومبنيا للمفعول (فنادى) الفاء فصيحة أى فكان ماكان

من المساهمة والتقام الحوت فنادى (فى الظلمات) أى فى الظلمة الشديدة المتكاثفة أو فى ظلمات بطن الحوت والبحر والليل وقيل ابتلع حوته حوت أكبر منه فحصل فى ظلمتى بطنى الحوتين وظلمتى البحر والليل (أن لا اله الا أنت)

أى بأنه لا اله الا أنت على أن أن مخففة من أن وضمير الشان محذوف أو أى لا اله الا انت على أنها مفسرة (سبحانك) أنزهك تنزيها لائقا بك من أن يعجزك شئ أو أن يكون ابتلائى بهذا بغير سبب من جهتى (انى كنت من الظالمين) لانفسهم بتعريضها لهلكة حيث بادرت الى المهاجرة (فاستجبنا له) أى دعاءه الذى دعاه فى ضمن الاعتراف بالذنب على ألطف وجه وأحسنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء الا استجيب له (ونجيناه من الغم) بان قذفه الحوت الى الساحل بعد اربع ساعات كان فيها فى بطنه وقيل بعد ثلاثة أيام وقيل الغم غم الالتقام وقيل الخطيئة (وكذلك) أى مثل ذلك الانجاء الكامل (ننجى المؤمنين) من غموم دعوا الله تعالى فيها بالاخلاص لانجاء أدنى منه وفى الامام نجى فلذلك أخفى الجماعة

رضى الله عنهما فى رواية ان نبيا من أنبياء بنى اسرائيل آتاه الله الملك والنبوة ثم أوحى الله اليه انى أريد قبض روحك فاعرض ملكك على بنى اسرائيل فمن تكفل لك أنه يصلى بالليل حتى يصبح ويصوم بالنهار فلا يفطر ويقضى بين الناس فلا يغضب فادفع ملكك اليه فقام ذلك النبى فى بنى اسرائيل وأخبرهم بذلك فقام شاب وقال أنا أتكفل لك بهذا فقال فى القوم من هو أكبر منك فاقعد ثم صاح الثانية والثالثة فقام الرجل وقال أتكفل لك بهذه الثلاث فدفع اليه ملكه و وفى بما ضمن فحسده ابليس فأتاه وقت ما يريد أن يقيل فقال انى لى غريما قد مطلنى حتى وقد دعوته اليك فأرسل معى من يأتيك به فأرسل معه وقعد حتى فاتته القيلولة وعاد الى صلاته وصلى ليله الى الصباح ثم أتاه من الغد عند القيلولة فقال ان الرجل الذى استأذنت له هو فى موضع كذا فلا تبرح حتى آتيك به فذهب وبقى هو منتظرا حتى فاتته القيلولة ثم أتاه فقال له هرب منى فمضى ذو الكفل الى صلاته فصلى ليلته حتى أصبح فأتاه ابليس وعرفه نفسه وقال له حسدتك على عصمة الله اياك فاردت أن أخرجك حتى لا تفى بما تكفلت به فشكره الله تعالى على ذلك وبناه فسمى ذا الكفل وعلى هذا فالمراد بالكفل هنا الكفالة (وثالثها) قال مجاهد لما كبر اليسع عليه السلام قال لو انى استخلفت رجلا على الناس فى حياتى حتى أنظر كيف يعمل فجمع الناس وقال من يتقبل منى حتى استخلفه بثلاث يصلى بالليل و يصوم بالنهار و يقضى فلا يغضب وذكر على كرم الله وجهه نحو ما ذكره ابن عباس رضى الله عنه من فعل ابليس وتفويه عليه القيلولة ثلاثة أيام وزاد أن ذا الكفل قال للبواب فى اليوم الثالث قد غلب على النعاس فلا تدعن أحدا يقرب هذا الباب حتى أنام فانى قد ضاق على النعاس فجاء ابليس فلم يأذن له البواب فدخل من كوة فى البيت وتسور فيها فاذا هو يدق الباب من داخل فاستيقظ الرجل وعاتب البواب فقال أما من قبلى فلم تؤت فقام الى الباب فاذا هو معلق وابليس على صورة شيخ معه فى البيت فقال له أتنام والخصوم على الباب فعرفه فقال أنت ابليس قال نعم أعيتنى فى كل شئ ففعلت هذه الافعال لاغضبك فعصمك الله منى فسمى ذا الكفل لانه وفى بما تكفل به (المسئلة الثانية) قال أبو موسى الاشعرى رضى الله عنه ومجاهد ذو الكفل لم يكن نبيا ولكن كان عبدا صالحا وقال الحسن والاكثرون انه من الانبياء عليهم السلام وهذا أولى الوجوه (أحدها) ان ذا الكفل يحتمل أن يكون نبيا وأن يكون اسما والاقرب أن يكون مفيدا لان الاسم اذا أمكن حمله على ما يفيد فهو أولى من اللقب أذا ثبت هذا فنقول الكفل هو النصيب والظاهر ان الله تعالى انما سماه بذلك على سبيل التعظيم فوجب أن يكون ذلك الكفل هو كفل الثواب فهو انما سمى بذلك لان عمله وثواب عمله كان ضعف عمل غيره وضعف ثواب غيره ولقد كان فى زمنه أنبياء على ما روى ومن ليس بنبى لا يكون أفضل من الانبياء (وثانيها) انه تعالى قرن ذكره بذكر اسمعيل وادريس والغرض ذكر الفضلاء من عباده ليتأسى بهم وذلك يدل على نبوته (وثالثها) ان

النون الثانية فانها تخفى مع حروف الفم وقرئ بتشديد الجيم على أن أصله ننجى فحذفت الثانية كما ﴿ السورة ﴾ حذفت التاء فى تظاهرون وهى وان كانت فاء فحذفها أوقع من حذف حرف المضارعة التى لمعنى ولا يقدح فيه اختلاف حركتى النونين فان الداعى الى الحذف اجتماع المثلين

مع تعذر الادغام وامتناع الحذف فى تنجانى لخوف اللبس وقيل هو ماض مجهول اسند الى ضمير المصدر وسكن آخره تخفيفا وردبانه لايسند الى المصدر والمفعول مذكور والماضى لايسكن ﴿ ١٨٧ ﴾ آخره (وزكريا) أى واذكر خبره (اذنادى ربه)

السورة ملقبة بسورة الانبياء فكل من ذكره الله تعالى فيها فهو نبى (المسئلة الثالثة) قيل ان ذا الكفل زكريا وقيل يوشع وقيل الياس ثم قالوا خمسة من الانبياء سماهم الله تعالى باسمين اسرائيل ويعقوب الياس وذو الكفل عيسى والمسيح يونس وذو النون محمد وأحمد وأما قوله تعالى كل من الصابرين أى على القيام بأمر الله تعالى واحتمال الاذى فى نصرة دينه وقوله وأدخلناهم فى رحمتنا قال مقاتل الرحمة النبوة وقال آخرون بل يتناول جميع أعمال البر والخير (القصة الثامنة) قصة يونس عليه السلام * قوله تعالى (وذا النون اذذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات أن لااله الاانت سبحانك انى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين) اعلم ان ههنا مسائل (المسئلة الاولى) انه لاخلاف فى ان ذا النون هو يونس عليه السلام لان النون هو السمكة وقد ذكرنا ان الاسم اذا دار بين أن يكون لقبا محضا و بين أن يكون مفيدا فحمله على المفيد أولى خصوصا اذا علمت الفائدة التى يصلح لها ذلك الوصف (المسئلة الثانية) اختلفوا فى وقوعه عليه السلام فى بطن السمكة كان قبل اشتغاله بأداء رسالة الله تعالى أو بعده (أما القول الاول) فقال ابن عباس رضى الله عنه كان يونس عليه السلام وقومه يسكنون فلسطين فغزاهم ملك وسبى منهم تسعة أسباط ونصفا وبقى سبطان ونصف فأوحى الله تعالى الى شعيب النبى عليه السلام أن اذهب الى رميل الملك وقل له حتى يوجه نبيا قويا أمينا فانى ألقى فى قلوب أوليائك أن يرسلوا معه بنى اسرائيل فقال له الملك فمن ترى وكان فى مملكته خمسة من الانبياء فقال يونس بن متى فانه قوى أمين فدعا الملك يونس وأمره أن يخرج فقال يونس هل أمرك الله باخراجى قال لا قال فهل سماني لك قال لا قال فههنا أنبياء غيرى فألحوا عليه فخرج مغاضبا للملك ولقومه فأتى بحر الروم فوجد قوما هيؤا سفينة فركب معهم فلما لججت السفينة تكفأت بهم وكادوا أن يغرقوا فقال الملاحون ههنا رجل عاص أو عبد آبق لان السفينة لاتفعل هذا من غير ريح الا وفيها رجل عاص ومن رسمنا انا اذا بلينا بمثل هذا البلاء أن نقترع فمن وقعت عليه القرعة ألقيناه فى البحر ولأن يغرق احد خير من أن تغرق السفينة فاقترعوا ثلاث مرات فوقعت القرعة فيها كلها على يونس عليه السلام فقال أنا الرجل العاصى والعبد الآبق وألقى نفسه فى البحر فجاء حوت فابتلعه فأوحى الله تعالى الى الحوت لاتؤذ منه شعرة فانى جعلت بطنك سجنا له ولم أجعله طعاما لك ثم لما نجاه الله تعالى من بطن الحوت نبذه بالعراء كالفرخ المنتوف ليس عليه شعر ولا جلد فنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين يستظل بها ويأكل من ثمرها حتى اشتد فلما يبست الشجرة حزن عليها يونس عليه السلام فقيل له أتحزن على شجرة ولم تحزن على مائة ألف أو يزيدون حيث لم تذهب اليهم ولم تطلب راحتهم ثم أوحى الله اليه وأمره أن يذهب اليهم فتوجه يونس عليه السلام نحوهم حتى دخل أرضهم وهم منه غير بعيد فأتاهم يونس عليه السلام وقال لملكهم ان الله تعالى ارسلنى

وقال (رب لاتذرنى فردا أى وحيدا بلا ولد يرثنى (وأنت خير الوارثين) فحسبى أنت ان لم ترزقنى وارثا (فاستجبنا له) أى دعاءه (ووهبنا له يحيى وقد مر بيان كيفية الاستجابة والهبة فى سورة مريم (وأصلحنا له زوجه) أى أصلحناها للولادة بعد عقرها أو أصلحناها لمعاشرة بتحسين خلقها وكانت حردة وقوله تعالى (انهم كانوا يسارعون فى الخيرات) تعليل لما فصل من فنون احسانه تعالى المتعلقة بالانبياء المذكورين أى كانوا يبادرون فى وجوه الخيرات مع ثباتهم واستقرارهم فى أصل الخير وهو السر فى ايثار كلمة فى على كلمة الى المشعرة بخلافى المقصود من كونهم خارجين عن أصل الخيرات متوجهين اليها كما فى قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة (ويدعوننا رغبا ورهبا) ذوى رغب ورهب أو راغبين فى الثواب راجين للاجابة أو فى الطاعة وخائفين العقاب أو المعصية أو للرغب والرهب (وكانوا لنا خاشعين) أى مخبتين متضرعين أو دائمى الوجل والمعنى انهم نالوا من الله تعالى ما نالوا بسبب اتصافهم بهذه الخصال الحميدة (والتى أحصنت فرجها) أى اذكر خبر التى أحصنته على الاطلاق من الحلال

والحرام والتعبير عنها بالوصول لتفخيم شأنها وتنزيهها عما زعموه فى حقها آثرذى اثير (فنفخنا فيها) أى أحيينا عيسى فى جوفها (من روحنا) من الروح الذى هو من أمرنا وقيل فعلنا النفخ فيها من جهة روحنا جبريل عليه السلام (وجعلناها وابنها) أى قصتهما أوحالهما (آية للعالمين) فان من تأمل حالهما تحقق كمال قدرته عز وجل فالمراد بالآية ماحصل بهما من الآية التامة مع تكاثر آيات كل واحد منهما وقيل أريد بالآية الجنس الشامل لما لكل واحد منهما من الآيات المستقلة وقيل المعنى وجعلنا هما آية وابنها آية فحذفت الاولى لدلالة الثانية عليها (ان هذه) أى ملة التوحيد والاسلام أشير اليها بهذه تنبيها على كمال ظهور أمرها فى الصحة والسداد (أمتكم) أى ملتكم التى يجب ان تحافظوا على حدودها وتراعوا حقوقها ولاتخلوا بشئ منها والخطاب للناس قاطبة (أمة واحدة) نصب على الحالية من أمتكم أى غير مختلفة فيما بين الانبياء عليهم السلام اذلا مشاركة لغيرها فى صحة الاتباع ولا احتمال لتبدلها وتغيرها كفروع الشرائع المتبدلة حسب تبدل الامم والاعصار وقرئ أمتكم بالنصب على البدلية من اسم ان وأمة

اليك لترسل معى بنى اسرائيل فقالوا ماندرى ماتقول ولو علمنا انك صادق لفعلنا ولقد أتينا كم فى ديارك وسبينا كم فلو كان كما تقول لمنعنا الله عنكم فطاف ثلاثة أيام يدعوهم الى ذلك فأبوا عليه فأوحى الله تعالى اليه قل لهم ان لم تؤمنوا جاءكم العذاب فابلغهم فابوا فخرج من عندهم فلما فقدوه ندموا على فعلهم فانطلقوا يطلبونه فلم يقدروا عليه ثم ذكروا أمرهم وأمر يونس للعلماء الذين كانوا فى دينهم فقالوا انظروا واطلبوه فى المدينة فان كان فيها فليس مما ذكر من نزول العذاب شئ وان كان قد خرج فهو كما قال فطلبوه فقيل لهم انه خرج العشى فلما أيسوا أغلقوا باب مدينتهم فلم يدخلها بقرهم ولا غنمهم وعزلوا الوالدة عن ولدها وكذا الصبيان والامهات ثم قاموا ينتظرون الصبح فلما انشق الصبح رأوا العذاب ينزل من السماء فشقوا جيوبهم ووضعت الحوامل مافى بطونها وصاح الصبيان وثغت الانعام والبقر فرفع الله تعالى عنهم العذاب فبعثوا الى يونس عليه السلام فآمنوا به وبعثوا معه بنى اسرائيل فعلى هذا القول كانت رسالة يونس عليه السلام بعد مانبذه الحوت ودليل هذا القول قوله تعالى فى سورة الصافات فنبذناه بالعراء وهو سقيم وأنبتنا عليه شجرة من يقطين وارسلناه الى مائة ألف أو يزيدون وفى هذا القول رواية أخرى وهى ان جبريل عليه السلام قال ليونس عليه السلام انطلق الى أهل نينوى وأنذرهم ان العذاب قد حضرهم فقال يونس عليه السلام ائتمس دابة فقال الامر أعجل من ذلك فغضب وانطلق الى السفينة وباقى الحكاية كما مرت الى أن التقمه الحوت فانطلق الى أن وصل الى نينوى فأقام هناك (أما القول الثانى) وهو ان قصة الحوت كانت بعد عامة أهل نينوى وتبليغه رسالة الله اليهم فانهم لما لم يؤمنوا وعدهم بالعذاب فلما كشف العذاب عنهم بعد ما توعدهم به خرج منهم مغاضبا ثم ذكروا فى سبب الخروج والغضب أمورا (أحدها) انه استحى أن يكون بين قوم قد جربوا عليه الكذب (وثانيها) أنه كان من عادتهم قتل الكاذب (وثالثها) انه دخلته الانفة (ورابعها) لما لم ينزل العذاب باوائك وأكثر العلماء على القول بأن قصة الحوت وذهاب يونس عليه السلام مغاضبا بعد أن ارسله الله تعالى اليهم وبعد رفع العذاب عنهم (المسئلة الثالثة) احتج القائلون بجواز الذنب على الانبياء عليهم السلام بهذه الآية من وجوه (أحدها) ان أكثر المفسرين على أنه ذهب يونس مغاضبا لربه ويقال هذا قول ابن مسعود وابن عباس والحسن والشعبى وسعيد بن جبير ووهب واختيار ابن قتيبة ومحمد بن جرير فاذا كان كذلك فيلزم ان مغاضبته لله تعالى من اعظم الذنوب ثم على تقدير أن هذه المغاضبة لم تكن مع الله تعالى بل كانت مع ذلك الملك أو مع القوم فهو أيضا كان محظورا لان الله تعالى قال فاصبر لحكم ربك ولاتكن كصاحب الحوت وذلك يقتضى أن ذلك الفعل من يونس كان محظورا (وثانيها) قوله تعالى فظن أن لن نقدر عليه وذلك يقتضى كونه شاكا فى قدرة الله تعالى (وثالثها) قوله انى كنت من الظالمين والظلم من أسماء الذم لقوله تعالى ألا لعنة الله على الظالمين

واحدة بالرفع على الخبرية وقرئتا بالرفع على أنهما خبران (وأنا ربكم) لا اله لكم غيري (فاعبدون) خاصة لا غير وقوله تعالى (وتقطعوا أمرهم بينهم) التفات الى الغيبة لينعى عليه ما أفسدوه من التفرق

الظالمين (ورابعها) أنه لو لم يصدر منه الذنب فلم عاقبه الله بأن ألقاه في بطن الحوت (وخامسها) قوله تعالى في آية أخرى فالتقمه الحوت وهو مليم والمليم هو ذو الملامة ومن كان كذلك فهو مذنب (سادسها) قوله ولا تكن كصاحب الحوت فان لم يكن صاحب الحوت مذنبا لم يجز النهي عن التشبه به وان كان مذنبا فقد حصل الغرض (وسابعها) انه قال ولا تكن كصاحب الحوت وقال فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل فلزم أن لا يكون يونس من أولي العزم وكان موسى من أولي العزم ثم قال في حقه لو كان ابن عمران حيا ما وسعه الا اتباعي وقال في يونس لا تفضلوني على يونس بن متى وهذا خارج عن تفسير الآية (والجواب) عن الاول انه ليس في الآية من غاضبه لكنا نقطع على انه لا يجوز على نبي الله أن يغاضب ربه لان ذلك صفة من يجهل كون الله مالكا للامر والنهي والجاهل بالله لا يكون مؤمنا فضلا عن أن يكون نبيا وأما ما روي أنه خرج مغاضبا لامر يرجع الى الاستعداد وتناول النفل فما يرتفع حال الانبياء عليهم السلام عنه لان الله تعالى اذا أمرهم بشيء فلا يجوز أن يخالفوه لقوله تعالى وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم وقوله فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم الى قوله ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت فاذا كان في الاستعداد مخالفة لم يجز أن يقع ذلك منهم واذا ثبت انه لا يجوز صرف هذه المغاضبة الى الله تعالى وجب أن يكون المراد أنه خرج مغاضبا لغير الله والغالب انه انما يغاضب من يعصيه فيما يأمره به فيحتمل قومه أو الملك أو هما جميعا ومعنى مغاضبته لقومه أنه اغضبهم بمفارقته لخوفهم حلول العذاب عليهم عندها وقرأ ابو شرف مغضبا أما قوله مغاضبة القوم أيضا كانت محظورة لقوله تعالى ولا تكن كصاحب الحوت قلنا لا نسلم أنها كانت محظورة فان الله تعالى أمره بتبليغ تلك الرسالة اليهم وما أمره بان يبقى معهم أبدا فظاهر الامر لا يقتضي التكرار فلم يكن خروجه من بينهم معصية وأما الغضب فلا نسلم انه معصية وذلك لانه لما لم يكن منهيا عنه قبل ذلك فظن ان ذلك جائز من حيث انه لم يفعله الا غضبا لله تعالى وأنفة لدينه وبغضا للكفر وأهله بل كان الاولى له أن يصابر وينتظر الاذن من الله تعالى في المهاجرة عنهم ولهذا قال تعالى ولا تكن كصاحب الحوت كان الله تعالى أراد لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل المنازل وأعلاها (والجواب) عن الشبهة الثانية وهي التمسك بقوله تعالى فظن أن لن نقدر عليه أن نقول من ظن عجز الله تعالى فهو كافر ولا خلاف انه لا يجوز نسبة ذلك الى آحاد المؤمنين فكيف الى الانبياء عليهم السلام فاذن لا بد فيه من التأويل وفيه وجوه (أحدها) فظن أن لن نقدر عليه أي لن نضيق عليه وهو كقوله تعالى الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر أي يضيق ومن قدر عليه رزقه أي ضيق وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه أي ضيق ومعناه أن لن نضيق عليه واعلم ان على هذا التأويل تصير الآية حجة لنا وذلك لان يونس عليه السلام ظن انه

الى الغيبة لينعى عليه ما أفسدوه من التفرق في الدين وجعل أمره قطعا موزعة وينهى قبائح أفعالهم الى الآخرين كأنه قيل ألا ترون الى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله الذي أجمعت عليه كافة الانبياء عليهم السلام (كل) أي كل واحدة من الفرق المتقطعة أو كل واحد من آحاد كل واحدة من تلك الفرق (الينا راجعون) بالبعث لا الى غيرنا فنجازيهم حينئذ بحسب أعمالهم وايراد اسم الفاعل للدلالة على الثبات والتحقق وقوله تعالى (فمن يعمل من الصالحات) الخ تفصيل للجزاء أي فمن يعمل بعض الصالحات أو بعضا من الصالحات (وهو مؤمن) بالله ورسله (فلا كفران لسعيه) أي لا حرمان لثواب عمله ذلك عبر عن ذلك بالكفران الذي هو ستر النعمة وجحودها لبيان كمال نزاهته تعالى عنه بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من القبائح وابراز الاثابة

في معرض الامور الواجبة عليه تعالى ونفى نفي الجنس للمبالغة في التنزيه وعبر عن العمل بالسعي لاظهار الاعتداد به (وانا له) أي

لسعيه (كاتبون) أى مثبتون فى صحائف أعمالهم لانغادر من ذلك شيئا (وحرام على قرية) اى ممتنع على أهلها غير منصور منهم وقرئ حرم وهى لغة كالحل والحلال ﴿ ١٩٠ ﴾ (أهلكناها) قدرناهلاكها أوحكمنابه

مخيران شاء أقام وان شاء خرج وأنه تعالى لايضيق عليه فى اختياره وكان فى المعلوم ان الصلاح فى تأخر خروجه وهذا من الله تعالى بيان لما يجرى مجرى العذر له من حيث خرج لاعلى تعمد المعصية لكن لظنه ان الامر فى خروجه موسع يجوز أن يقدم و يؤخر وكان الصلاح خلاف ذلك (وثانيها) أن يكون هذا من باب التمثيل بمعنى فكانت حاله ممثلة بحالة من ظن أن لن نقدر عليه فى خروجه من قومه من غير انتظار لامر الله تعالى (وثالثها) ان تفسر القدرة بالقضاء فالمعنى فظن أن لن نقضى عليه بشدة وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك والكلبى ورواية العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهم واختيار الفراء والزجاج قال الزجاج نقدر بمعنى نقدر يقال قدر الله الشئ قدرا وقدره تقديرا فالقدر بمعنى التقدير وقرأ عمر بن عبد العزيز والزهرى فظن أن لن نقدر عليه بضم النون والتشديد من التقدير وقرأ عبيد بن عمر بالتشديد على المجهول وقرأ يعقوب يقدر عليه بالتخفيف على المجهول وروى انه دخل ابن عباس رضى الله عنهما على معاوية رضى الله عنه فقال معاوية لقد ضر بنى أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم أجد لنفسى خلاصا الا اليك فقال وماهى قال يظن نبى الله أن لن يقدر الله عليه فقال ابن عباس رضى الله عنهما هذا من القدر لامن القدرة (ورابعها) فظن أن لن نقدر أى فظن أن لن نفعل لان بين القدرة والفعل مناسبة فلا يبعد جعل أحدهما مجازا عن الآخر (وخامسها) انه استفهام بمعنى التوبيخ معناه أفظن أن لن نقدر عليه عن ابن زيد (وسادسها) ان على قول من يقول هذه الواقعة كانت قبل رسالة يونس عليه السلام كان هذا الظن حاصلا قبل الرسالة ولا يبعد فى حق غير الانبياء والرسل أن يسبق ذلك الى وهمه بوسوسة الشيطان ثم انه يرده بالحجة والبرهان (والجواب) عن الثالث وهو التمسك بقوله انى كنت من الظالمين فهو أن نقول انا لو حملناه على ماقبل النبوة فلا كلام ولو حملناه على مابعدها فهى واجبة التأويل لانا لو أجريناها على ظاهرها لوجب القول بكون النبى مستحقا للعن وهذا لايقوله مسلم واذا وجب التأويل فنقول لاشك انه كان تاركا للافضل مع القدرة على تحصيل الافضل فكان ذلك ظلما (والجواب) عن الرابع انا لانسلم أن ذلك كان عقوبة اذ الانبياء لايجوز أن يعاقبوا بل المراد به المحنة لكن كثيرا من المفسرين يذكرون فى كل مضرة تفعل لاجل ذنب انها عقوبة (والجواب) عن الخامس ان الملامة كانت بسبب ترك الافضل (المسئلة الرابعة) قال صاحب الكشاف فى الظلمات أى فى الظلمة الشديدة المتكاثفة فى بطن الحوت كقوله تعالى ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات وقوله يخرجونهم من النور الى الظلمات ومنهم من اعتبر أنواعا مختلفة من الظلمات فان كان النداء فى الليل فهناك ظلمة الليل والبحر و بطن الحوت وان كان فى النهار أضيف اليه ظلمة أمعاء الحوت أو أن حوتا ابتلع الحوت الذى هو فى بطنه أو لان الحوت اذا عظم غوصه فى قعر البحر كان مافوقه من البحر ظلمة فى ظلمة أما قول من قال ان الحوت الذى ابتلعه غاص فى الارض السابعة فان

لغاية طغيانهم وعتوهم وقوله تعالى (أنهم لايرجعون) فى حيز الرفع على أنه مبتدأ خبره حرام أوفاعل له ساد مسد خبره والجملة لتقرير مضمون ماقبلها من قوله تعالى كل الينا راجعون وما فى أن من معنى التحقيق معتبر فى النفى المستفاد من حرام لافى النفى أى ممتنع البتة عدم رجوعهم الينا للجزاء لان عدم رجوعهم المحقق ممتنع وتخصيص امتناع عدم رجوعهم بالذكر مع شمول الامتناع لعدم رجوع الكل جميعا نطق به قوله تعالى كل الينا راجعون لانهم المنكرون للبعث والرجوع دون غيرهم وقيل ممتنع رجوعهم الى التوبة على أن لاصلة وقرئ انهم لايرجعون بالكسر على انه استئناف تعليلى لما قبله فحرام خبر مبتدأ محذوف أى حرام عليها ذلك وهو ماذكر فى الآية السابقة من العمل الصالح المشفوع بالايمان والسعى المشكور ثم علل بقوله تعالى انهم لايرجعون عما هم عليه من الكفر فكيف لايمتنع ذلك و يجوز حمل المفتوحة

ثبت ذلك بخبر فلا كلام وان قيل بذلك ليكى يقع نداؤه فى الظلمات فاقدمناه يغنى عن ذلك أما قوله ان لا اله الا أنت فالمعنى بانه لا اله الا أنت أو بمعنى أى *عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء الا استجيب له وعن الحسن ما نجاه الله تعالى الا باقراره على نفسه بالظلم أما قوله سبحانك فهو تنزيه عن كل النقائص ومنها العجز وهذا يدل على انه ما كان مراده من قوله فظن أن لن نقدر عليه انه ظن العجز وانما قال سبحانك لان تقديره سبحانك أن تفعل ذلك جورا أو شهوة للانتقام أو عجزا عن تخليصى عن هذا الحبس بل فعلته بحق الالهية و بمقتضى الحكمة أما قوله انى كنت من الظالمين فالمعنى ظلمت نفسى بفرارى من قومى بغير اذنك كأنه قال كنت من الظالمين وأنا الآن من التائبين النادمين فاكشف عنى المحنة يدل عليه قوله فاستجبنا له وفيه وجه اخر وهو انه عليه السلام وصفه بقوله لا اله الا أنت بكمال الربوبية ووصف نفسه بقوله انى كنت من الظالمين بضعف البشرية والقصور فى أداء حق الربوبية وهذا القدر يكفى فى السؤال على ما قال المتنبى

وفى النفس حاجات وفيك فطانة * سكوتى كلام عندها وخطاب

وروى عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال لما أراد الله حبس يونس عليه السلام أوحى الى الحوت أن خذه ولا تخدش له لحما ولا تكسر له عظما فاخذه وهوى به الى أسفل البحر فسمع يونس عليه السلام حسا فقال فى نفسه ما هذا فأوحى الله اليه هذا تسبيح دواب البحر قال فسبح فسمعت الملائكة تسبيحه فقالوا مثله وأما قوله فنجيناه من الغم أى من غمه بسبب كونه فى بطن الحوت و بسبب خطيئته وكما أنجينا يونس عليه السلام من كرب الحبس اذ دعانا كذلك ننجى المؤمنين من كربهم اذا استغاثوا بنا روى سعد بن ابى وقاص عن النبى صلى الله عليه وسلم قال دعوة ذى النون فى بطن الحوت لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين ما دعا بها عبد مسلم قط وهو مكروب الا استجاب الله دعاءه قال صاحب الكشاف قرئ ننجى ونجى ونجى والنون لا تدغم فى الجيم ومن تمحل لصحته فجعله فعل وقال نجى النجاء المؤمنين فارسل الياء وأسنده الى مصدره ونصب المؤمنين بالنجاء فتعسف بارد التعسف *(القصة التاسعة) قصة زكريا عليه السلام *قوله تعالى (وزكريا اذ نادى ربه رب لا تذرنى فردا وأنت خير الوارثين فاستجبنا له ووهبنا له يحيى واصلحنا له زوجه انهم كانوا يسارعون فى الخيرات و يدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) اعلم أنه تعالى بين انقطاع زكريا عليه السلام الى ربه تعالى لما مسه الضر بتفرده وأحب من يؤنسه و يقويه على أمر دينه ودنياه و يكون قائما مقامه بعد موته فدعا الله تعالى دعاء مخلص عارف بانه قادر على ذلك وان انتهت الحال به و بزوجته من كبر وغيره الى اليأس من ذلك بحكم العادة وقال ابن عباس رضى الله عنهما كان سنة مائة وسن زوجته تسعا وتسعين أما قوله وأنت خير الوارثين ففيه وجهان (أحدهما) انه عليه السلام انما

من الهلاك حتى اذا قامت القيامة يرجعون الينا و يقولون يا ويلنا الخ وعلى الثانى غاية للحرمة أى يستمر امتناع رجوعهم الى التوبة حتى اذا قامت القيامة يرجعون اليها حين لا تنفعهم التوبة وعلى الثالث غاية لعدم الرجوع عن الكفر أى لا يرجعون عنه حتى اذا قامت القيامة يرجعون عنه حين لا ينفعهم الرجوع و يأجوج ومأجوج قبيلتان من الانس قالوا الناس عشرة أجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج والمراد بفتحها فتح سدها على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه وقرئ فتحت بالتشديد (وهم) أى يأجوج ومأجوج وقيل الناس (من كل حدب) أى نشز من الارض وقرئ جدث وهو القبر (ينسلون) أى يسرعون واصله مقاربة الخطو مع الاسراع وقرئ بضم السين (واقترب الوعد الحق) عطف على فتحت والمراد به ما بعد النفخة الثانية من البعث والحساب والجزاء لا النفخة

الاولى (فاذاهى شاخصة أبصار الذين كفروا) جواب الشرط واذا للمفاجاة تسد مسد الفاء الجزائية كما فى قوله تعالى اذاهم يقنطون فاذا دخلتها الفاء فظاهرت على وصل الجزاء ﴿ بالشرط والضمير للقصة اومبهم يفسره مابعده (ياويلنا) على تقدير قول وقع حالا من الموصول أى يقولون ياويلنا تعال فهذا أوان حضورك وقيل هو الجواب للشرط (قد كنا فى غفلة) تامة (من هذا) الذى دهمنا من البعث والرجوع اليه تعالى للجزاء ولم نعلم أنه حق (بل كنا ظالمين) اضراب عما قبله من وصف أنفسهم بالغفلة أى لم نكن غافلين عنه حيث نبهنا عليه بالآيات والنذر بل كنا ظالمين بتلك الآيات والنذر مكذبين بها أوظالمين لانفسنا بتعريضها للعذاب الخالد بالتكذيب وقوله تعالى (انكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم) خطاب لكفار مكة وتصريح بمآل أمرهم مع كونه معلوما مما سبق على وجه الاجمال مبالغة فى الانذار وازاحة الاعتذار وما تعبدون عبارة عن أصنامهم لانها التى يعبدونها كما يفصح عنه كلمة ما وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين تلا الآية وقال له ابن الزبعرى خصمتك ورب ﴿ اما ﴾

ذكره فى جملة دعائه على وجه الثناء على ربه ليكشف عن علمه بان مآل الامور الى الله تعالى (والثانى) كأنه عليه السلام قال ان لم ترزقنى من يرثنى فلا أبالى فانك خير وارث وأما قوله تعالى فاستجبنا له أى فعلنا ماأراده لاجل سؤاله وفى ذلك اعظام له فلذلك تقول العلماء بازالاستجابة ثواب لما فيه من الاعظام وأما قوله تعالى ووهبنا له يحيى فهو كالتفسير للاستجابة وفى تفسير قوله وأصلحنا له زوجه ثلاثة أقوال (أحدها) أصلحها للولادة بان أزال عنها المانع بالعادة وهذا أليق بالقصة (والثانى) انه أصلحها فى أخلاقها وقد كانت على طريقة من سوء الخلق وسلاطة اللسان توذيه وجعل ذلك من نعمه عليه (والثالث) أنه سبحانه جعلها مصلحة فى الدين فان صلاحها فى الدين من أكبر اعوانه فى كونه داعيا الى الله تعالى فكأنه عليه السلام سأل ربه المعونة على الدين والدنيا بالولد والاهل جميعا وهذا كأنه أقرب الى الظاهر لانه اذا قيل أصلح الله فلانا فالاظهر فيه مايتصل بالدين واعلم ان قوله ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه يدل على ان الواو لاتفيد الترتيب لان اصلاح الزوج مقدم على هبة الولد مع انه تعالى أخره فى اللفظ وبين تعالى مصداق ماذكرناه فقال انهم كانوا يسارعون فى الخيرات وأراد بذلك زكريا وولده وأهله فبين أنه آتاهم ماطلبوه وعضد بعضهم ببعض من حيث كانت طريقتهم أنهم يسارعون فى الخيرات والمسارعة فى طاعة الله تعالى من أكبر مايمدح المرء به لانه يدل على حرص عظيم على الطاعة أما قوله تعالى ويدعوننا رغبا ورهبا قرئ رغبا ورهبا وهو كقوله يحذر الاخرة ويرجو رحمة ربه والمعنى انهم ضموا الى فعل الطاعات والمسارعة فيها أمرين (أحدهما) الفزع الى الله تعالى ليكان الرغبة فى ثوابه والرهبة من عقابه (والثانى) الخشوع وهو المخافة الثابتة فى القلب فيكون الخاشع هو الحذر الذى لايتبسط فى الامور خوفا من الاثم * (القصة العاشرة) قصة مريم عليها السلام * قوله تعالى (والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين) اعلم ان التقدير واذكر التى أحصنت فرجها ثم فيه قولان (أحدهما) انها أحصنت فرجها احصانا كليا من الحلال والحرام جميعا كما قالت ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا (والثانى) من نفخة جبريل عليه السلام حيث منعته من جيب درعها قبل أن تعرفه والاول أولى لانه الظاهر من اللفظ وأما قوله فنفخنا فيها من روحنا فنقائل أن يقول نفخ الروح فى الجسد عبارة عن احيائه قال تعالى فاذا سويته ونفخت فيه من روحى أى أحييته واذا ثبت ذلك كان قوله فنفخنا فيها من روحنا ظاهر الاشكال لانه يدل على احياء مريم عليها السلام (والجواب) من وجوه (أحدها) معناه فنفخنا الروح فى عيسى فيها أى أحييناه فى جوفها كما يقول الزمار نفخت فى بيت فلان أى فى المزمار فى بيته (وثانيها) فعلنا النفخ فى مريم عليها السلام من جهة روحنا وهو جبريل عليه السلام لانه نفخ فى جيب درعها فوصل النفخ الى جوفها ثم بين تعالى باخصر الكلام ماخص به مريم وعيسى عليهما السلام من الآيات فقال وجعلناها وابنها آية للعالمين

أمامريم فآياتها كثيرة (أحدها) ظهور الحبل فيها من غير ذكر فصار ذلك آية ومعجزة خارجة عن العادة (وثانيها) ان رزقها كان يأتيها به الملائكة من الجنة وهو قوله تعالى أنى لك هذا قالت هو من عند الله (وثالثها ورابعها) قال الحسن انها لم تلتقم ثديا يوما فط وتكلمت هي أيضا في صباها كما تكلم عيسى عليه السلام وأما آيات عليه السلام فقد تقدم بيانها فبين سبحانه انه جعلهما آية للناس يتدبرون فيما خصابه من الآيات ويستدلون به على قدرته وحكمته سبحانه وتعالى فان قيل هلا قيل آيتين كما قال وجعلنا الليل والنهار آيتين قلنا الان حالهما يجوز عصمها آية واحدة وهي ولادتها اياه من غير فحل وههنا آخر القصص ۞ قوله تعالى (ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون وتقطعوا أمرهم بينهم كل الينا راجعون) قال صاحب الكشاف الامة الملة وهو اشارة الى ملة الاسلام أي ان ملة الاسلام هي ملتكم التي يجب أن تكونوا عليها يشار اليها ملة واحدة غير مختلفة وأنا الهكم الواحد فاعبدون ونصب الحسن أمتكم على البدل من هذه ورفع أمة خبرا وعنه رفعهما جميعا خبرين أونوى بالثاني المبتدأ أما قوله تعالى وتقطعوا أمرهم بينهم والاصل وتقطعتم الا أن الكلام صرف الى الغيبة على طريق الالفات كأنه يتأل عنهم ما أفسدوه الى آخرين ليقبح عندهم فعلهم وقول لهم ألا ترون الى عظيم ما ارتكب هؤلاء والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا كما تتوزع الجماعة الشيء ويقسمونه فيصير لهذا نصيب ولذا نصيب تمثيلا لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقا وأحزابا ثم أما قوله تعالى كل الينا راجعون فقد توعدهم بان هؤلاء الفرق المختلفة اليه يرجعون فهو يحاسبهم ويجازيهم وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال تفرقت بنو اسرائيل على احدى وسبعين فرقة فهلكت سبعون وخلصت فرقة وان امتي ستفترق على اثنين وسبعين فرقة فتهلك احدى وسبعون فرقة وتخلص فرقة واحدة فقالوا يارسول الله من تلك الفرقة الناجية قال الجماعة الجماعة فتبين بهذا الخبر أن المراد بقوله تعالى وأن هذه أمتكم الجماعة المتمسكة بما بينه الله تعالى في هذه السورة من التوحيد والنبوات وأن في قول الرسول صلى الله عليه وسلم في الناجية انها الجماعة اشارة الى أن هذه أشار بها الى أمة الايمان والا كان قوله في تعريف الفرقة الناجية انها الجماعة لغوا والا فرقة تمسكت بباطل أو بحق الا وهي جماعة من حيث العدد وطعن بعضهم في صحة هذا الخبر فقال ان أراد بالثنتين والسبعين فرقة أصول الاديان فلم يبلغ هذا القدر وان أراد الفروع فانها تتجاوز هذا القدر الى أضعاف ذلك وقيل أيضا قد روى ضد ذلك وهو انها كلها ناجية الا فرقة واحدة (والجواب) المراد ستفترق أمتي في حال ما وليس فيه دلالة على افتراقها في سائر الاحوال لا يجوز أن يزيد وينقص ۞ قوله تعالى (فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون وحرام على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون حتى اذا فتحت ياجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق فاذا هي

أشياطين التي أمرتهم بذلك ولا ما روى أن ابن الزبعرى قال هذا شيء لآلهتنا خاصة أم لكل من عبد من دون الله فقال عليه السلام بل لكل من عبد من دون الله تعالى اذ ليس شيء منها نصا في عموم كلها كما أن الاول نص في خصوصه بها وشمول حكم النص لا يقتضي شموله بطريق العبارة بل يكفي في ذلك شموله لهم بطريق دلالة النص بجامع الشركة في المعبودية من دون الله تعالى فلعله عليه السلام بعد ما بين مداول النظم الكريم بما ذكر وعدم دخول المذكورين في حكمه بطريق العبارة بين عدم دخولهم فيه بطريق الدلالة أيضا تأكيد اللرد والزام ونكيرا للتبكيت والافحام لكن لا باعتبار كونهم معبودين لهم كما هو زعمهم فان اخراج بعض المعبودين عن حكم منبيء عن الغضب على العبدة والمعبودين مما يوهم الرخصة في عبادته في الجملة بل بتحقيق الحق وبيان

أنهم ليسوا من المعبودية في شيء حتى يتوهم دخولهم في الحكم المذكور دلالة

قوله لاشتراكهم الخ كذا في النسخ ولعله سقطت منه كلمة مع والاصل لاشتراكهم مع الاصنام اه بموجب شركتهم للاصنام في المعبودية من دون الله تعالى وانما معبودهم الشياطين ﴿ ١٩٤ ﴾ التي أمرتهم بعبادتهم كما نطق به قوله تعالى

سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن الآية فهم الداخلون في الحكم المذكور لاشتراكهم الاصنام في المعبودية من دونه تعالى دون المذكورين عليهم السلام وهذا هو الوجه في التوفيق بين الاخبار المذكورة وأما تعميم كلمة ما للعقلاء أيضا وجعل ما سيأتي من قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الخ بيانا للتجوز أو التخصيص فمما لا يساعده السباق والسياق كما يشهد به الذوق السليم والحصب ما يرمى به وقرئ بكسر الصاد وصفة به بالمصدر للمبالغة (أنتم لها واردون) استئناف أو بدل من حصب جهنم واللام معوضة من على للدلالة على الاختصاص وأن ورودهم لاجلها والخطاب لهم ولما يعبدون تغليبا (لو كان هؤلاء) أي أصنامهم (آلهة) كما يزعمون (ما وردوها) وحيث تبين ورودهم اياها تعين امتناع كونها ﴿ لشئ ﴾ آلهة بالضرورة وهذا كما ترى صريح في أن المراد بما يعبدون هي الاصنام لان المراد اثبات نقيض ما يدعونه وهم انما يدعون الهية الاصنام لا الهية الشياطين حتى

شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين) اعلم انه سبحانه لما ذكر أمر الامة من قبل وذكر تفرقهم وانهم اجمع راجعون الى حيث لا أمر الا له أتبع ذلك بقوله فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه بين ان من جمع بين أن يكون مؤمنا و بين أن يعمل الصالحات فيدخل في الاول العلم والتصديق بالله ورسوله وفي الثاني فعل الواجبات وترك المحظورات فلا كفران لسعيه أي لابطلان الثواب عليه وهو كقوله تعالى ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا فان كفران مثل في حرمان الثواب والشكر مثل في اعطائه وقوله فلا كفران المراد به الجنس ليكون في نهاية المبالغة لان نفي الماهية يستلزم نفي جميع افرادها وأما قوله تعالى وانا له كاتبون فالمراد وانا لسعيه كاتبون فقيل المراد حافظون فالمجازي عليه وقيل كاتبون اما في أم الكتاب أو في الصحف التي تعرض يوم القيامة والمراد بذلك ترغيب العباد في الحسنات طاعة لله تعالى أما قوله وحرام على قرية أهلكناها انهم لا يرجعون فاعلم ان قوله وحرام خبر فلا بد له من مبتدا وهو اما قوله أنهم لا يرجعون أو شئ آخر أما الاول فالمعنى ان عدم رجوعهم حرام أي ممتنع واذا كان عدم رجوعهم ممتنعا كان رجوعهم واجبا فهذا الرجوع اما أن يكون المراد منه الرجوع الى الآخرة أو الى الدنيا (أما الاول) فيكون المعنى ان رجوعهم الى الحياة في الدار الآخرة واجب ويكون الغرض منه ابطال قول من ينكر البعث وتحقيق ما تقدم انه لا كفران لسعي أحد فانه سبحانه سيعطيه الجزاء على ذلك يوم القيامة وهو أولى أي مسلمين بحر (وأما الثاني) فيكون المعنى ان رجوعهم الى الدنيا واجب لكن المعلوم انهم لا يرجعون الى الدنيا فعند هذا ذكر المفسرون وجهين (الاول) ان الحرام قد يجئ بمعنى الواجب والدليل عليه الآية والاستعمال والشعر أما الآية فقوله تعالى من تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا وترك الشرك واجب وليس بحرام وأما الشعر فقول الخنساء

وان حراما لا أرى الدهر باكيا ﴿ على شجوه الا بكيت على عمرو

يعني وان واجبا وأما الاستعمال فلان تسمية أحد الضدين باسم الآخر مجاز مشهور وقد قال تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها اذا ثبت هذا فالمعنى انه واجب على أهل كل قرية أهلكناها انهم لا يرجعون ثم ذكروا في تفسير الرجوع أمرين (أحدهما) انهم لا يرجعون عن الشرك ولا يتوبون عنه وهو قول مجاهد والحسن (وثانيها) لا يرجعون الى الدنيا وهو قول قتادة ومقاتل (الوجه الثاني) أن يترك قوله وحرام على ظاهره و يجعل لا في قوله لا يرجعون صلة زائدة كما انه صلة في قوله ما منعك ان لا تسجد والمعنى وحرام على قرية أهلكناها رجوعهم الى الدنيا وهو كقوله فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون أو يكون المعنى وحرام عليهم رجوعهم عن الشرك وترك الايمان وهذا قول طائفة من المفسرين هذا كله اذا جعلنا قوله وحرام خبرا لقوله أنهم لا يرجعون أما اذا جعلناه خبرا

لشئ آخر فالتقدير وحرام على قرية أهلكناها ذاك وهو المذكور فى الآية المتقدمة من العمل الصالح والسعى المشكور غير المكفور ثم علل فقال انهم لا يرجعون عن الكفر فكيف لا يمتنع ذلك هذا على قراءتهم بالكسر والقراءة بالفتح يصح حملها أيضا على هذا أى انهم لا يرجعون أما قوله تعالى حتى اذا فتحت يأجوج وماجوج وهم من كل حدب ينسلون واقترب الوعد الحق فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ان حتى متعلقة بحرام فاما على تأويل ابى مسلم فالمعنى ان رجوعهم الى الآخرة واجب حتى ان وجوبه يبلغ الى حيث انه اذا فتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق فاذا هى شاخصة أبصار الذين كفروا والمعنى انهم يكونون أول الناس حضورا فى محفل القيامة فحتى متعلقة بحرام وهى غاية له ولكنه غاية من جنس الشئ كقولك دخل الحاج حتى المشاة وحتى ههنا هى التى يحكى بعدها الكلام والكلام المحكى هو هذه الجملة من الشرط والجزاء أعنى قوله اذا فتحت يأجوج ومأجوج واقترب الوعد الحق فهنالك تحقق شخوص أبصار الذين كفروا فان قيل الشرط هو مجموع فتح يأجوج ومأجوج واقتراب الوعد الحق والجزاء هو شخوص أبصار الذين كفروا وذلك غير جائز لان الشرط انما يحصل فى آخر أيام الدنيا والجزاء انما يحصل فى يوم القيامة والشرط والجزاء لابد وأن يكونا متقاربين قلنا التفاوت القليل يجرى مجرى المعدوم وأما على التأويلات الباقية فالمعنى ان امتناع رجوعهم لا يزول حتى تقوم القيامة (المسئلة الثانية) قوله حتى اذا فتحت المعنى فتح سد يأجوج ومأجوج فحذف المضاف وادخلت علامة التأنيث فى فتحت لما حذف المضاف لان يأجوج ومأجوج مؤنثان بمنزلة القبيلتين وقيل حتى اذا فتحت جهة يأجوج (المسئلة الثالثة) هما قبيلتان من جنس الانس يقال الناس عشرة اجزاء تسعة منها يأجوج ومأجوج يخرجون حين يفتح السد (المسئلة الرابعة) قيل السد يفتحه الله تعالى ابتداء وقيل بل اذا جعل الله تعالى الارض دكا زالت الصلابة عن اجزاء الارض فحينئذ ينفتح السد أما قوله تعالى وهم من كل حدب ينسلون فسوف أتكلم على الكلام والمعنى اذا فتحت يأجوج واقترب الوعد الحق شخصت أبصار الذين كفروا والحدب النشز من الارض ومنه حدبة الارض ومنه حدبة الظهر وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما من كل جدث ينسلون اعتبارا بقوله فاذا هم من الاجداث الى ربهم ينسلون وقرئ بضم السين ونسل وعسل أسرع ثم فيه قولان قال أكثر المفسرين انه كناية عن يأجوج ومأجوج وقال مجاهد هو كناية عن جميع المكلفين أى يخرجون من قبورهم من كل موضع فيحشرون الى موقف الحساب والاول هو الوجه والالتفات النظم وأن يأجوج ومأجوج اذا كثروا على ماروى فى الخبر فلا بد من ان ينشروا فيظهروا قبالهم على الناس من كل موضع مرتفع أما قوله تعالى واقترب الوعد الحق فلا شبهة ان الوعد المذكور هو يوم القيامة أما قوله فاذا هى فاعلم ان اذا هى ههنا للمفاجاة

الكلام اليه عند بيان ماسيق له النظم الكريم بطريق العبارة حيث سأل ابن الزبعرى عن حال سائر المعبودين وكان الاقتصار على الجواب الاول مما يوهم الرخصة فى عبادتهم فى الجملة لانهم المعبودون عندهم أجيب ببيان أن المعبودين هم الشياطين وأنهم داخلون فى حكم النص لكن بطريق الدلالة لا بطريق العبارة لئلا يلزم التدافع بين الخبرين (وكل) أى من العبدة والمعبودين (فيها خالدون) لاخلاص لهم عنها (لهم فيها زفير) أى أنين وتنفس شديد وهو مع كونه من أفعال العبدة أضيف الى الكل للتغليب ويجوز أن يكون الضمير للعبدة لعدم الالباس وكذا فى قوله تعالى (وهم فيها لا يسمعون) أى لا يسمع بعضهم زفير بعض لشدة الهول وفظاعة العذاب وقيل لا يسمعون مايسرهم من الكلام (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى) شروع فى بيان حال المؤمنين اثر شرح حال الكفرة حسبما جرت به سنة التنزيل من شفع الوعد بالوعيد وايراد الترغيب مع الترهيب أى سبقت لهم منا فى التقدير الخصلة الحسنى التى هى أحسن الخصال وهى السعادة وقيل التوفيق

للطاعة أو سبقت لهم كلمتنا بالبشرى بالثواب على الطاعة وهو الاولين مع خفائهما ليسا من مقدورات المكلفين فالجملة مع مابعدها تفصيل للاجمل فى قوله تعالى فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وانا له كاتبون كما أن ماقبلها من قوله تعالى انكم وما تعبدون الخ تفصيل للاجمل فى قوله تعالى وحرام الخ (أولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة وما فيه من معنى البعد للاشعار بعلو درجتهم وبعد منزلتهم فى الشرف والفضل أو لتنويه بذكرهم من أجل الجملة (عنها) أى عن جهنم (مبعدون) لهم فى الخلد وبأنهم بين النار ومايرى أن عليا رضى الله تعالى عنه خطب يوما فقرأ هذه الآية ثم قال أنا منهم وأبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح رضوان الله تعالى عنهم أجمعين ثم أقيمت الصلاة فلم يجر رداءه

فسمى الموعد وعد اتجوزا وهى تقع فى المجازاة سادة مسد الفاء كقوله اذاهم يقنطون فاجابت اذا مابعدها تعاونتا على وصل الجزاء باشرط فيتاكد ولو قيل اذاهى شاخصة أو فهى شاخصة كان سديدا أما فاطة هى فقد ذكر النحويون فيها ثلاثة أوجه (أحدها) أن تكون كناية عن الابصار والمعنى فاذا ابصار الذين كفروا شاخصة أبصارهم كنى عن الابصار ثم اظهر (والثانى) أن تكون عمادا ولا يصلح فى موضعها هو فيكون كقوله انه أنا الله وشبه فاها بمعنى الابصار وجاز التأنيث لان الابصار مؤنثة وجاز التذكير للعباد وقول الفراء وقال سيبويه الضمير القصة بمعنى فاذا القصة شاخصة يعنى ان القصة ان أبصار الذين كفروا تشخص عند ذلك ومعنى الكلام ان القيامة اذا قامت شخصت أبصار هؤلاء من شدة الاهوال فلا تكاد تطرف من شدة ذلك اليوم ومن توقع مايلقى فهم يقولون يا ويلنا قد كنا فى غفلة من هذا يعنى فى الدنيا حيث كذبنا وقلنا انه غير كائن بل كنا ظالمين أنفسنا بتلك المقالة وتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وعباده المؤمنين وسلم انه لابد قبل قوله يا ويلنا من حذف والتقدير يقولون يا ويلنا ۞ قوله تعالى (انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خالدون لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون) اعلم أن قوله انكم خطاب لمشركى مكة وعبدتهم الذين أمارة الله تعالى وما تعبدون من دون الله روى انه عليه السلام لما نزل الخصوصا وما تعبدون الخ فى المسجد وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما فجاء ابن الزبعرى فعرض له النضر بن الحارث فكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأفحمه ثم قال لهم انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم الآية فأقبل عبد الله ابن الزبعرى فرآهم يتهامسون فقال لهم ما وصفكم فقيل له الوليد بن المغيرة يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد الله أما والله لو وجدته لخصمته فدعوه فقال ابن الزبعرى أأنت قلت ذاك قال نعم فقد خصمناك ورب الكعبة أليس اليهود عبدوا عزيرا والنصارى عبدوا المسيح وبنو مليح عبدوا الملائكة فروى فى ذلك روايتان (احداهما) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سكت ولم يجب فضحك القوم فنزل قول الله تعالى ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون وقالوا آلهتنا خير أم هو ماضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون ونزل فى عيسى والملائكة ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية هذا قول ابن عباس (الرواية الثانية) انه عليه السلام أجاب وقال بل هم عبدوا الشياطين التى أمرتهم بذلك فانزل الله سبحانه ان الذين سبقت لهم منا الحسنى الآية يعنى عزيرا والمسيح والملائكة واعلم ان سؤال ابن الزبعرى ساقط من وجوه (أحدها) أن قوله انكم خطاب مشافهة وكان ذلك مع مشركى مكة وهم كانوا يعبدون الاصنام فقط (وثانيها) انه لم يقل ومن تعبدون بل قال وما تعبدون وكلمة ما لا تتناول العقلاء أما قوله تعالى والسماء وما بناها وقوله لا أعبد ما تعبدون فهو محمول على الشئ ونظيره ههنا أن يقال انكم والشئ الذى تعبدون من دون الله لكن

و يقول (لا يسمعون حسيسها) ليس بنص فى كون الموصول عبارة عن طائفة مخصوصة والحسيس ﴿ لفظ ﴾ صوت يحس به أى لا يسمعون صوتها سمعا ضعيفا كما هو المعهود عند كون المصوت

بعيدا وان كان صوته فى غاية الشدة لأنهم لايسمعون صوتها الخفى فى نفسه فقط والجملة بدل من مبعدون أو حال من ضميره مسوقة للمبالغة فى انقاذهم منها وقوله تعالى (وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون) بيان لفوزهم بالمطالب اثر بيان خلاصهم من المهالك والمعاطب أى دائمون فى غاية التنعم وتقديم الظرف للقصر والاهتمام به وقوله تعالى (لايحزنهم الفزع الاكبر) بيان لنجاتهم من الافزاع بالكلية بعد بيان نجاتهم من النار لانهم اذا لم يحزنهم أكبر الافزاع لا يحزنهم ماعداه بالضرورة عن الحسن رضى الله عنه انه الانصراف الى النار وعن الضحاك حين يطبق على النار وقيل حين يذبح الموت فى صورة كبش أملح وقيل النفخة الاخيرة لقوله تعالى ففزع من فى السموات ومن الارض وليس بذاك فان الآمن من ذلك الفزع من استثناه الله تعالى بقوله الا من شاء الله لاجميع المؤمنين الموصوفين بالاعمال الصالحة على ان الاكثرين على ان ذلك فى النفخة الاولى دون الاخيرة كما سيأتى فى سورة النمل (وتتلقاهم الملائكة) أى تستقبلهم مهنئين لهم (هذا يومكم) على ارادة القول أى قائلين هذا اليوم يومكم (الذى كنتم توعدون) فى الدنيا وتبشرون

لفظ الشئ لايفيد العموم فلا يتوجه سؤال ابن الزبعرى (وثانيها) ان من عبد الملائكة لايدعى انهم آلهة وقال سبحانه لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها (ورابعها) هب انه ثبت العموم لكنه مخصوص بالدلائل العقلية والسمعية فى حق الملائكة والمسيح وعزير لبراءتهم من الذنوب والمعاصى ووعد الله اياهم بكل مكرمة وهذا هو المراد من قوله سبحانه ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون (وخامسها) الجواب الذى ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو انهم كانوا يعبدون الشياطين فان قيل الشياطين عقلاء ولفظ ما لايتناولهم فكيف قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك قلنا كأنه عليه السلام قال لو ثبت لكم انه يتناول العقلاء فسؤالكم أيضا غير لازم من هذا الوجه وأما ماقيل انه عليه السلام سكت عند ايراد ابن الزبعرى هذا السؤال فهو خطأ لانه لا أقل من انه عليه السلام كان ينبه لهذه الاجوبة التى ذكرها المفسرون لانه عليه السلام كان أعلم منهم باللغة وبتفسير القرآن فكيف يجوز أن تظهر هذه الاجوبة لغيره ولا يظهر شئ منها له عليه السلام فان قيل جوزوا أن يسكت عليه السلام انتظارا للبيان قلنا لما كان البيان حاضرا معه لم يجز عليه السكوت لكى لا يوهم فيه الانقطاع عن سؤالهم ومن الناس من أجاب عن سؤال ابن الزبعرى فقال ان الله تعالى يصور لهم فى النار ملكا على صورة من عبدوه وحينئذ تبقى الآية على ظاهرها واعلم ان هذا ضعيف من وجهين (الاول) أن القوم لم يعبدوا تلك الصورة وانما عبدوا شيئا آخر لم يحصل معهم فى النار (الثانى) وهو أن الملك لا يصير حصب جهنم فى الحقيقة وان صح أن يدخلها فان خزنة النار يدخلونها مع انهم ليسوا حصب جهنم (المسئلة الثانية) الحكمة فى أنهم قرنوا بآلهتهم أمور (أحدها) انهم لا يزالون لمقارنتهم فى زيادة غم وحسرة لانهم ماوقعوا فى ذلك العذاب الا بسببهم والنظر الى وجه العدو باب من العذاب (وثانيها) ان القوم قدروا انهم يشفعون لهم فى الآخرة فى دفع العذاب فاذا وجدوا الامر على عكس ماقدروا لم يكن شئ أبغض اليهم منهم (وثالثها) ان القاءها فى النار يجرى مجرى الاستهزاء بعبادها (ورابعها) قيل ماكان منها حجرا أو حديدا يحمى ويلقى بعبادها وماكان خشبا يجعل جمرا يعذب بها صاحبها أما قوله تعالى حصب جهنم فالمراد يقذفون فى نار جهنم فشبههم بالحصباء التى يرمى بها الشئ فلما رمى بهم كرمى الحصباء جعلهم حصب جهنم تشبيها قال صاحب الكشاف الحصب الرمى وقرئ بسكون الصاد وصفا بالمصدر وقرئ حطب وحضب بالضاد المنقوطة متحركا وساكنا أما قوله تعالى أنتم لها واردون فانما جاء بحرف اللام فى لها لتقدمها على الفعل تقول أنت لزيد ضارب كقوله تعالى والذين هم لامانا تهم وعهدهم والذين هم لفروجهم أى أنتم فيها داخلون والمعنى انه لابد وأن تردوها ولا معدل لكم عن دخولها أما قوله تعالى لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها فاعلم ان قوله انكم وماتعبدون من دون الله بالاصنام أليق لدخول لفظة ما وهذا الكلام بالشياطين أليق لقوله هؤلاء ويحتمل أن يريد الشياطين والاصنام فيغلب

بأن يذكروا بعبارة العقلاء ونبه الله تعالى على ان من يرمى الى النار لا يمكن أن يكون الها وههنا سؤال وهو ان قوله لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها لكنهم وردوها فهم ليسوا آلهة حجة وهذه الحجة اما أن يكون ذكرها لنفسه أو لغيره فان ذكرها لنفسه فلا فائدة فيه لانه كان عالما بأنها ليست آلهة وان ذكرها لغيره فاما أن يذكرها لمن يصدق بنبوته أو لمن يكذب بنبوته فان ذكرها لمن صدق بنبوته فلا حاجة الى هذه الحجة لان كل من صدق بنبوته لم يقل بالهية هذه الاصنام وان ذكرها لمن كذب بنبوته فذلك المكذب لا يسلم أن تلك الآلهة يردون النار ويكذبونه في ذلك فكان ذكر هذه الحجة ضائعا كيف كان وأيضا فقائلون بالهية هؤلاء لم يعتقدوا فيها كونها مدبرة للعالم والا لكانوا مجانين بل اعتقدوا فيها كونها تماثيل الكواكب أو صور الشفعاء وذلك لا يمنع من دخولها في النار وأجيب عن ذلك بأن المفسرين قالوا المعنى لو كان هؤلاء يعني الاصنام آلهة على الحقيقة ما وردوها أي ما دخل عابدوها النار ثم انه سبحانه وصف ذلك العذاب بأمور ثلاثة (أحدها) الخلود فقال وكل فيها خالدون يعني العابدين والمعبودين وهو تفسير قوله انكم وما تعبدون من دون الله (وثانيها) قوله لهم فيها زفير قال الحسن الزفير هو النهيب أي يرتفعون بسبب لهب النار حتى اذا ارتفعوا ورجوا الخروج ضربوا بمقامع الحديد فهووا الى أسفلها سبعين خريفا قال الخليل الزفير أن يملأ الرجل صدره غما ثم يتنفس قال أبو مسلم وقوله لهم عام لكل معذب ويتناول لهم زفيرا من شدة ما يلاقيهم والضمير في قوله وهم فيها لا يسمعون يرجع الى المعبودين أي لا يسمعون صراخهم وشكواهم ومعناه انهم لا يغيثونهم وشبهه سمع الله لمن حمده أي أجاب الله دعاءه (وثالثها) قوله وهم فيها لا يسمعون وفيه وجهان (أحدهما) أنه يحمل على الاصنام خاصة على ما حكيناه عن أبي مسلم (والثاني) انها محمولة على الكفار ثم هذا يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) ان الكفار يحشرون صما كما يحشرون عميا زيادة في عذابهم (وثانيها) انهم لا يسمعون ما ينفعهم لانهم انما يسمعون أصوات المعذبين أو كلام من يتولى تعذيبهم من الملائكة (وثالثها) قال ابن مسعود ان الكفار يجعلون في توابيت من نار والتوابيت في توابيت أخر فلذلك لا يسمعون شيئا والاول ضعيف لان أهل النار يسمعون كلام أهل الجنة فلذلك يستغيثون بهم على ما ذكره الله تعالى في سورة الاعراف ۞ قوله تعالى (ان الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الاكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون) اعلم أن من الناس من زعم ان ابن الزبعرى لما أورد ذلك السؤال على الرسول صلى الله عليه وسلم بقي ساكتا حتى أنزل الله تعالى هذه الآية جوابا عن سؤاله لان هذه الآية كالاستثناء من تلك الآية وأما نحن فقد بينا فساد هذا القول وذكرنا ان سؤاله لم يكن واردا وانه لا حاجة في دفع سؤاله الى نزول هذه الآية واذا ثبت هذا لم يبق ههنا الا أحد أمرين

كافة المؤمنين الموصوفين بالايمان والاعمال الصالحة لا من ذكر من المسيح وعزير والملائكة عليهم السلام خاصة كما قيل (يوم تطوى السماء) يكون العظمة منصوب باذكر وقيل ظرف لقوله تعالى لا يحزنهم الفزع وقيل بتتلقاهم وقيل حال مقدرة من الضمير المحذوف في توعدون والطي ضد النشر وقيل النحو وقرئ تطوى بالياء والبناء للمفعول (كطي السجل) وهي الصحيفة أي طيا كطي الطومار وقرئ السجل كالقلم والدلو وبالكسر والسجل على وزن العدل وهما لغتان واللام في قوله تعالى ((للكتب) متعلقة بمحذوف هو حال من السجل أو صفته له على رأي من يجوز حذف الموصول مع بعض صلته أي كطي السجل كائنا للكتب أو الكائن للكتب فان الكتب عبارة عن الصحائف وما كتب فيها فسجلها بعض اجزائها وبه يتعلق الطي حقيقة وقرئ للكتاب وهو اما ۞ الاول ۞ مصدر واللام للتعليل أي كما يطوى الطومار للكتابة أو اسم كالامام فاللام كما ذكر أولا وقيل السجل اسم ملك يطوى كتب أعمال بني آدم اذا رفعت اليه وقيل هو

كاتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم (كما بدأنا أول خلق نعيده) أى نعيد ما خلقناه مبتدأ اعادة مثل بدئنا اياه فى كونها ايجادا بعد العدم أو جمعا من الاجزاء المتبددة ﴿ ١٩٩ ﴾ والمقصود بيان صحة الاعادة بالقياس على المبدا الشمول الامكان الذاتى المصحح للمقدورية وتناول القدرة لهما على السواء وماكافة أو مصدرية وأول مفعول لبدأنا أو لفعل يفسره نعيده أو موصولة والكاف متعلقة بمحذوف يفسره نعيده أى نعيد مثل الذى بدأناه وأول خلق ظرف لبدأنا أو حال من ضمير الموصول المحذوف (وعدا) مصدر مؤكد لفعله ومقرر لنعيده أو منتصب به لانه عدة بالاعادة (علينا) أى علينا انجازه (انا كنا فاعلين) لما ذكر لاستحالة (ولقد كتبنا فى الزبور) هو كتاب داود عليه السلام وقيل هو اسم لجنس ما أنزل على الانبياء عليهم السلام (من بعد الذكر) أى التوراة وقيل اللوح المحفوظ أى وبالله لقد كتبنا فى كتاب داود بعد ما كتبنا فى التوراة أو كتبنا فى جميع الكتب المنزلة بعد ما كتبنا وأثبتنا فى اللوح المحفوظ (أن الارض يرثها عبادى الصالحون) أى عامة

(الاول) ان يقال ان عادة الله تعالى انه متى شرح عقاب الكفار أردفه بشرح ثواب الابرار فلهذا السبب ذكر هذه الآية عقيب تلك الآية فهى عامة فى حق كل المؤمنين (الثانى) ان هذه الآية نزلت فى تلك الواقعة لتكون كالتاكيد فى دفع سؤال ابن الزبعرى ثم من قال العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وهو الحق أجراها على عمومها فتكون الملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام داخلين فيها لا أن الآية مختصة بهم ومن قال العبرة بخصوص السبب خصص قوله ان الذين بهؤلاء فقط أما قوله تعالى سبقت لهم منا الحسنى فقال صاحب الكشاف الحسنى الخصلة المفضلة والحسنى تانيث الاحسن وهى اما السعادة واما البشرى بالثواب واما التوفيق للطاعة والحاصل ان مثبتى العفو حملوا الحسنى على وعد العفو ومنكرى العفو حملوه على وعد الثواب ثم انه سبحانه وتعالى شرح من أحوال ثوابهم أمورا خمسة (أحدها) قوله أولئك عنها مبعدون فقال أهل العفو معناه أولئك عنها مخرجون واحتجوا عليه بوجهين (الاول) قوله وان منكم الا واردها أثبت الورود وهو الدخول فدل على أن هذا الابعاد هو الاخراج (الثانى) ان ابعاد الشئ عن الشئ لا يصح الا اذا كانا متقاربين لانهما لو كانا متباعدين استحال ابعاد أحدهما عن الآخر لان تحصيل الحاصل محال واحتج القاضى عبد الجبار على فساد هذا القول الاول بامور (أحدها) أن قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى يقتضى ان الوعد بثوابهم قد تقدم فى الدنيا وليس هذا حال من يخرج من النار لوضوح ذلك (وثانيها) أنه تعالى قال أولئك عنها مبعدون وكيف يدخل فى ذلك من وقع فيها (وثالثها) قوله تعالى لا يسمعون حسيسها وقوله لا يحزنهم الفزع الاكبر يمنع من ذلك (والجواب) عن الاول لانسلم أن المراد من قوله ان الذين سبقت لهم منا الحسنى هو أن الوعد بثوابهم قد تقدم ولم لا يجوز أن يكون المراد من الحسنى تقدم الوعد بالعفو سلمنا ان المراد من الحسنى تقدم الوعد بالثواب لكن لم قلتم ان الوعد بالثواب لا يليق بحال من يخرج من النار فان عندنا المحابطة باطلة ويجوز الجمع بين استحقاق الثواب والعقاب (وعن الثانى) انا بينا أن قوله أولئك عنها مبعدون لا يمكن اجراؤه على ظاهره الا فى حق من كان فى النار (وعن الثالث) أن قوله لا يسمعون حسيسها مخصوص بما بعد الخروج أما قوله لا يحزنهم الفزع الاكبر فالفزع الاكبر هو عذاب الكفار وهذا بطريق المفهوم يقتضى أنهم يحزنهم الفزع الاصغر فان لم يدل عليه فلا أقل من أن لا يدل على ثبوته ولا على عدمه (الوجه الثانى) فى تفسير قوله أولئك عنها مبعدون ان المراد الذين سبقت لهم منا الحسنى لا يدخلون النار ولا يقربونها البتة وعلى هذا القول بطل قول من يقول ان جميع الناس يردون النار ثم يخرجون الى الجنة لان هذه الآية مانعة منه وحينئذ يجب التوفيق بينه وبين قوله وان منكم الا واردها وقد تقدم (الصفة الثانية) قوله تعالى لا يسمعون حسيسها والحسيس الصوت الذى يحس وفيه سؤالان (الاول) أى وجه فى أن

المؤمنين بعد اجلاء الكفار وهذا وعد منه تعالى باظهار الدين واعزاز أهله وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن

المراد أرض الجنة كما ينبئ عنه قوله تعالى وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة حيث نشاء وقيل الارض المقدسة يرثها أمة محمد ﷺ ٢٠٠ ﷺ صلى الله عليه وسلم (ان فى هذا) أى فيما ذكر فى السورة الكريمة من الاخبار والمواعظ البالغة والوعد والوعيد والبراهين القاطعة الدالة على التوحيد وصحة النبوة (لبلاغا) أى كفاية أو سبب بلوغ الى البغية (لقوم عابدين) أى قوم هممهم العبادة دون العادة (وما أرسلناك) بما ذكر وبامثاله من الشرائع والاحكام وغير ذلك من الامور التى هى مناط لسعادة الدارين (الا رحمة للعالمين) هو فى حيز النصب على انه استثناء من أعم العلل أو من أعم الاحوال أى ما أرسلناك بما ذكر لعلة من العلل الا رحمتنا الواسعة للعالمين قاطبة أو ما أرسلناك فى حال من الاحوال الا حال كونك رحمة لهم فان ما بعثت به سبب لسعادة الدارين ومنشأ لانتظام مصالحهم فى النشاتين ومن لم يغتنم مغانم آثاره فانما فرط فى نفسه وحرمة حقه لانه تعالى حرمه مما يسعده وقيل كونه رحمة فى حق الكفار أمنهم من الخسف والمسخ والاستئصال حسبما ينطق به قوله تعالى وما كان الله ليعذبهم ﷺ السلام ﷺ

لا يسمعوا حسيسها من البشارة ولو سمعوه لم يتغير حالهم قلنا المراد تاكيد بعدهم عنها الان من لم يدخلها وقرب منها قد يسمع حسيسها (السؤال الثانى) أليس ان أهل الجنة يرون أهل النار فكيف لا يسمعون حسيس النار (الجواب) اذا حملناه على التاكيد زال هذا السؤال (الصفة الثالثة) قوله وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون والشهوة طلب النفس للذة يعنى نعيمها مؤبد قال العارفون النفوس شهوة والقلوب شهوة والارواح شهوة وقال الجنيد سبقت العناية فى البداية فظهرت الولاية فى النهاية (الصفة الرابعة) قوله لا يحزنهم الفزع الاكبر وفيه وجوه (أحدها) انها النفخة الاخيرة لقوله تعالى ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الارض (وثانيها) انه الموت قالوا اذا استقر أهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار بعث الله تعالى جبريل عليه السلام ومعه الموت فى صورة كبش أملح فيقول لاهل الدارين أتعرفون هذا فيقولون لا فيقول هذا الموت ثم يذبحه ثم ينادى يا أهل الجنة خلود ولا موت أبدا وكذلك لاهل النار واحتج هذا القائل بان قوله لا يحزنهم الفزع الاكبر انما ذكر بعد قوله وهم فيها خالدون فلا بد وأن يكون لاحدهما تعلق بالآخر والفزع الاكبر الذى هو ينافى الخلود هو الموت (وثالثها) قال سعيد بن جبير هو اطباق النار على أهلها فيفزعون لذلك فزعة عظيمة قال القاضى عبد الجبار الاولى فى ذلك انه الفزع من النار عند مشاهدتها لانه لا فزع أكبر من ذلك فاذا بين تعالى أن ذلك لا يحزنهم فقد صح ان المؤمن آمن من أهوال يوم القيامة وهذا ضعيف لان عذاب النار على مراتب فعذاب الكفار أشد من عذاب الفساق واذا كانت مراتب التعذيب بالنار متفاوتة كانت مراتب الفزع منها متفاوتة فلا يلزم من نفى الفزع الاكبر نفى الفزع من النار (الصفة الخامسة) قوله وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون قال الضحاك هم الحفظة الذين كتبوا أعمالهم وأقوالهم ويقولون لهم مبشرين هذا يومكم الذى كنتم توعدون ✿ قوله تعالى (يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون ان فى هذا لبلاغا لقوم عابدين وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) اعلم ان التقدير لا يحزنهم الفزع الاكبر يوم نطوى السماء أو وتتلقاهم الملائكة يوم نطوى السماء وقرئ يوم تطوى السماء على البناء للمفعول والسجل يوزن العدل والسجل يوزن الدلو وروى فيه الكسر وفى السجل قولان (أحدهما) انه اسم للطومار الذى يكتب فيه والكتاب أصله المصدر كالبناء ثم يوقع على المكتوب ومن جمع فمعناه للمكتوبات أى لما يكتب فيه من المعانى الكثيرة فيكون معنى طى السجل للكتاب كون السجل ساترا لتلك الكتابة ومخفيا لها لان الطى ضد النشر الذى يكشف والمعنى نطوى السماء كما يطوى الطومار الذى يكتب فيه (القول الثانى) أنه ليس اسما للطومار ثم قال ابن عباس رضى الله عنهما السجل اسم ملك يطوى كتب بنى آدم اذا رفعت اليه وهو مروى عن على عليه

السلام وروى أبو الجوزاء عن ابن عباس رضى الله عنهما انه اسم كاتب كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا بعيد لان كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا معروفين وليس فيهم من سمى بهذا وقال الزجاج هو الرجل بلغة الحبشة وعلى هذه الوجوه فهو علم ونحو ما يقال كطى زيد الكتاب واللام فى للكتاب زائدة كما فى قوله ردف لكم واذا قلنا المراد بالسجل الطومار فالمصدر وهو الطى مضاف الى المفعول والفاعل محذوف والتقدير كطى الطاوى السجل وهذا الاخير هو قول الاكثرين أما قوله تعالى كما بدأنا أول خلق نعيده ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الفراء انقطع الكلام عند قوله للكتاب ثم ابتدأ فقال كما بدأنا ومنهم من قال انه تعالى لما قال وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذى كنتم توعدون عقبه بقوله يوم نطوى السماء كطى السجل للكتاب فوصف اليوم بذلك ثم وصفه بوصف آخر فقال كما بدأنا أول خلق نعيده (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف رحمه الله أول خلق مفعول نعيد الذى يفسره نعيده والكاف مكفوفة بما والمعنى نعيد أول الخلق كما بدأناه تشبيها للاعادة بالابتداء فان قلت ما بال الخلق منكرا قلت هو كقولك أول رجل جاءنى زيد تريد أول الرجال ولكنك وحدته ونكرته ارادة تفصيلهم رجلا رجلا فكذلك معنى أول خلق أول الخلق بمعنى أول الخلائق لان الخلق مصدر لا يجمع (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى كيفية الاعادة فمنهم من قال ان الله تعالى يفرق أجزاء الاجسام ولا بعدمها ثم انه يعيد تركيبها فذلك هو الاعادة ومنهم من قال انه تعالى يعدمها بالكلية ثم انه يوجدها بعينها مرة أخرى وهذه الآية تدل على هذا الوجه لانه سبحانه شبه الاعادة بالابتداء ولما كان الابتداء ليس عبارة عن تركيب الاجزاء المتفرقة بل عن الوجود بعد العدم وجب أن يكون الحال فى الاعادة كذلك واحتج القائلون بالمذهب الاول بقوله تعالى والسموات مطويات بيمينه وهذا يدل على ان السموات حال كونها مطوية تكون موجودة و بقوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض وهذا يدل على ان اجزاء الارض باقية لكنها جعلت غير الارض أما قوله تعالى وعدا علينا ففيه قولان (أحدهما) ان وعدا مصدر مؤكد لان قوله نعيده عدة للاعادة (الثانى) أن يكون المراد حقا علينا بسبب الاخبار عن ذلك وتعلق العلم بوقوعه مع أن وقوع ما علم الله وقوعه واجب ثم انه تعالى حقق ذلك بقوله انا كنا فاعلين أى لم نفعل ذلك لامحالة وهو تأكيد لما ذكره من الوعد أما قوله تعالى ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ حمزة بضم الزاى والباقون بفتحها يعنى زبورا كالحلوب والركوب يقال زبرت الكتاب أى كتبته والزبور بضم الزاى جمع زبر كقشر وقشور ومعنى القراءتين واحد لان الزبر هو الكتاب (المسئلة الثانية) فى الزبور والذكر وجوه (أحدها) وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد والكلبى ومقاتل وابن زيد الزبور هو الكتب المنزلة والذكر الكتاب الذى هو أم الكتاب فى السماء لان فيها كتابة كل ما سيكون

(قل انما يوحى الى انما الهكم اله واحد) اى ما يوحى الى الا أنه لا اله لكم الا اله واحد لانه المقصود الاصلى من البعثة وأما ماعداه فمن الاحكام المتفرعة عليه فانما الاولى لقصر الحكم على الشئ كقولك انما يقوم زيد أى ما يقوم الا زيد والثانية لقصر الشئ على الحكم كقولك انما زيد قائم أى ليس له الا صفة القيام (فهل أنتم مسلمون) أى مخاصون العبادة لله تعالى مخصصون الهيته تعالى والفاء للدلالة على أن ما قبلها موجب لما بعدها قالوا فيه دلالة على أن صفة الوحدانية تصح أن يكون طريقها السمع

قطعا للتسلسل وحينئذ يعود الالزام ثم نقول لم لا يجوز أن يكون رحمة للكافر بمعنى تأخير عذاب الاستئصال عنه قوله أولا لما كان رحمة للجميع على حد واحد وجب أن يكون رحمة للكفار من الوجه الذى كان رحمة للمؤمنين قلنا ليس فى الآية أنه عليه السلام رحمة للكل باعتبار واحد أو باعتبارين مختلفين فدعواك بكون الوجه واحدا تحكم قوله نعم الدنيا كانت حاصلة للكفار من قبل قلنا نعم ولكنه عليه السلام لكونه رحمة للمؤمنين لما بعث حصل الخوف للكفار من نزول العذاب فلما اندفع ذلك عنهم بسبب حضوره كان ذلك رحمة فى حق الكفار (المسئلة الثالثة) تمسكوا بهذه الآية فى أنه أفضل من الملائكة قالوا لان الملائكة من العالمين فوجب بحكم هذه الآية أن يكون عليه السلام رحمة للملائكة فوجب أن يكون أفضل منهم (والجواب) انه معارض بقوله تعالى فى حق الملائكة ويستغفرون للذين آمنوا وذلك رحمة منهم فى حق المؤمنين والرسول عليه السلام داخل فى المؤمنين وكذا قوله تعالى ان الله وملائكته يصلون على النبى ❊ قوله تعالى (قل انما يوحى الى أنما الهكم اله واحد فهل أنتم مسلمون فان تولوا فقل آذنتكم على سواء وان أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون وان أدرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون) اعلم أنه تعالى لما أورد على الكفار الحجج فى ان لا اله سواه من الوجوه التى تقدم ذكرها وبين أنه أرسل رسوله رحمة للعالمين أتبع ذلك بما يكون انذارا وانذارا فى مجاهدتهم والاقدام عليهم فقال قل انما يوحى الى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف انما يقصر الحكم على شئ أو يقصر الشئ على حكم كقولك انما زيد قائم أو انما يقوم زيد وقد اجتمع المثالان فى هذه الآية لان انما يوحى الى مع فاعله بمنزلة انما يقوم زيد وأنما الهكم اله واحد بمنزلة انما زيد قائم وفائدة اجتماعهما الدلالة على ان الوحى الى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقصور على اثبات وحدانية الله تعالى وفى قوله فهل أنتم مسلمون أن الوحى الوارد على هذا السنن يوجب أن تخلصوا التوحيد له وأن تتخلصوا من نسبة الانداد وفيه أنه يجوز اثبات التوحيد بالسمع فان قيل لو دلت انما على الحصر لزم أن يقال انه لم يوح الى الرسول شئ الا التوحيد ومعلوم ان ذلك فاسد قلنا المقصود منه المبالغة أما قوله فان تولوا فقل آذنتكم على سواء فقال صاحب الكشاف آذن منقول من اذن اذا علم ولكنه كثر استعماله فى الحرى مجرى الانذار ومنه قوله فأذنوا بحرب من الله ورسوله اذا عرفت هذا فنقول المفسرون ذكروا فيه وجوها (أحدها) قال أبو مسلم الايذان على السوء الدعاء الى الحرب مجاهرة لقوله تعالى فانبذ اليهم على سواء وفائدة ذلك أنه كان يجوز أن يقدر على من أشرك من قريش أن حالهم مخالف لسائر الكفار فى المجاهدة فعرفهم بذلك انهم كالكفار فى ذلك (وثانيها) ان المراد فقد اعلمتكم ما هو الواجب عليكم من التوحيد وغيره على سواء فلم أفرق فى الابلاغ والبيان بينكم لانى بعثت معلما والغرض منه ازاحة

(قال رب احكم بالحق) حكاية لدعائه عليه الصلاة والسلام وقرئ قل رب على صيغة الامر أى اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضى لتعجيل العذاب والتشديد عليهم وقد استجيب دعاؤه عليه السلام حيث عذبوا ببدر أى تعذيب وقرئ رب احكم بضم الباء ورب أحكم على صيغة التفضيل ورب أحكم من الاحكام (وربنا الرحمن) مبتدأ وخبر أى كثير الرحمة على عباده وقوله تعالى (المستعان) أى المطلوب منه المعونة خبر آخر للمبتدا واضافة الرب فيما سبق الى ضميره عليه السلام خاصة لما أن الدعاء من الوظائف الخاصة به عليه السلام كما أن اضافته ههنا الى ضمير الجمع المنتظم للمؤمنين أيضا لما أن الاستعانة من الوظائف العامة لهم

العذر لئلا يقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا (وثالثها) على سواء على اظهار واعلان (ورابعها) على مهل والمراد انى لا أعاجل بالحرب الذى آذنتكم به بل أمهل وأؤخر رجاء الاسلام منكم أما قوله وان أدرى أقريب أم بعيد ما توعدون ففيه وجهان (أحدهما) أقريب أم بعيد ما توعدون من يوم القيامة ومن عذاب الدنيا ثم قيل نسخه قوله واقترب الوعد الحق يعنى منهما فان مثل هذا الخبر لا يجوز نسخه (وثانيهما) المراد ان الذى آذنهم فيه من الحرب لا يدرى هو قريب أم بعيد لئلا يقدر انه يتأخر كأنه تعالى أمره بأن ينذرهم بالجهاد الذى يوحى اليه أن يأتيه من بعد ولم يعرفه الوقت فلذلك امره أن يقول انه لا يعلم قربه أم بعده تبين بذلك ان السورة مكية وكان الامر بالجهاد بعد الهجرة (وثالثها) أن ما يوعدون به من غلبة المسلمين عليهم كائن لا محالة ولا بد أن يلحقهم بذلك الذل والصغار وان كنت لا أدرى متى يكون وذلك لان الله تعالى لم يطلعنى عليه أما قوله تعالى انه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون فالمقصود منه الامر بالاخلاص وترك النفاق لانه تعالى اذا كان عالما بالضمائر وجب على العاقل أن يبالغ فى الاخلاص أما قوله تعالى وان أدرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين ففيه وجوه (أحدها) لعل تأخير العذاب عنكم (وثانيها) لعل ابهام الوقت الذى ينزل بكم العذاب فيه فتنة لكم أى بلية واختبار لكم ليرى صنعكم وهل تحدثون توبة ورجوعا عن كفركم أم لا (وثالثها) قال الحسن لعل ما أنتم فيه من الدنيا بلية لكم والفتنة البلوى والاختبار (ورابعها) لعل تأخير الجهاد فتنة لكم اذا أنتم دمتم على كفركم لان ما يؤدى الى الضرر العظيم يكون فتنة وانما قال لا أدرى لتجويز أن يؤمنوا فلا يكون تبقيتهم فتنة بل ينكشف عن نعمة ورحمة (وخامسها) أن يكون المراد وان أدرى لعل ما بينت وأعلمت وأوعدت فتنة لكم لانه زيادة فى عذابكم ان لم تؤمنوا الان المعرض عن الايمان مع البيان حالا بعد حال يكون عذابه أشد واذا متعه الله تعالى بالدنيا يكون ذلك كالحجة عليه أما قوله تعالى قال رب احكم بالحق ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ قل رب احكم بالحق على الاكتفاء بالكسرة ورب احكم على الضم ورب أحكم على أفعل التفضيل ورب احكم من الاحكام (المسئلة الثانية) رب احكم بالحق فيه وجوه (أحدها) أى رب اقض بينى وبين قومى بالحق أى بالعذاب كأنه قال اقض بينى وبين من كذبنى بالعذاب وقال قتادة أمره الله تعالى ان يقتدى بالانبياء فى هذه الدعوة وكانوا يقولون ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق فلا جرم حكم الله تعالى عليهم بالقتل يوم بدر (وثانيها) افصل بينى وبينهم بما يظهر الحق للجميع وهو أن تنصرنى عليهم أما قوله تعالى ورب نا الرحمن المستعان على ما تصفون ففيه وجهان (أحدهما) أى من الشرك والكفر وما تعارضون به دعوتى من الاباطيل والتكذيب كأنه سبحانه قال قل داعيا لى رب احكم بالحق وقل متوعدا للكفار ورب نا الرحمن المستعان على ما تصفون قرأ ابن عامر بالياء المنقوطة من تحت أى قل لاصحابك المؤمنين ورب نا الرحمن المستعان على ما يصف

(على ما تصفون) من الحال فانهم كانوا يقولون ان الشوكة تكون لهم وان راية الاسلام تحقق ثم تركدوان المتوعد به لو كان حقا لنزل بهم الى غير ذلك مما لا خير فيه فاستجاب الله عز وجل دعوة رسوله عليه السلام فخيب آمالهم وغير أحوالهم ونصر أولياءه عليهم فاصابهم يوما بدر ما أصابهم والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبله وقرئ يصفون بالياء التحتانية (وعن النبى عليه السلام من قرأ اقترب حاسبه الله تعالى حسابا يسيرا وصافحه وسلم عليه كل نبى ذكر اسمه فى القرآن

الكفار من الاباطيل أى من العون على دفع اباطيلهم (وثانيها) كانوا يطمعون أن تكون لهم الشوكة والغلبة فكذب الله ظنونهم وخيب آمالهم ونصر رسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وخذلهم قال القاضى انما ختم الله هذه السورة بقوله قل رب احكم بالحق لانه عليه السلام كان قد بلغ فى البيان الغاية لهم و بلغوا النهاية فى أذيته وتكذيبه فكان قصارى أمره تعالى بذلك تسليته له وتعريفا ان المقصود مصلحتهم فاذا أبوا الا التمادى فى كفرهم فعليك بالانقطاع الى ربك ليحكم بينك و بينهم بالحق اما بتعجيل العقاب بالجهاد أو بغيره واما بتأخير ذلك فان أمرهم وان تأخر فاهو كائن قريب وما روى انه عليه السلام كان يقول ذلك فى حروبه كالدلالة على انه تعالى أمره أن يقول هذا القول كالاستعجال للامر بمجاهدتهم و بالله التوفيق وصلاته على خير خلقه محمد النبى وآله وصحبه وسلم تسليما آمين

* (سورة الحج سبعون وست آيات وهى مكية الا ثلاث آيات هذان خصمان الى قوله صراط الحميد) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(يا ايها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شئ عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما ارضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد) اعلم انه تعالى أمر الناس بالتقوى فدخل فيه أن يتقى كل محرم ويتقى ترك كل واجب وانما دخل فيه الامر ان لان المتقى انما يتقى ما يخافه من عذاب الله تعالى فيدع لاجله المحرم و يفعل لاجله الواجب ولا يكاد يدخل فيه النوافل لان المكلف لا يخاف بتركها العذاب وانما يرجو بفعلها الثواب فاذا قال اتقوا ربكم فالمراد اتقوا عذاب ربكم أما قوله ان زلزلة الساعة شئ عظيم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) الزلزلة شدة حركة الشئ قال صاحب الكشاف ولا تخلو الساعة من أن تكون على تقدير الفاعلة لها كأنها هى التى تزلزل الاشياء على المجاز الحكمى فتكون الزلزلة مصدرا مضافا الى فاعله أو على تقدير المفعول فيها على طريقة الاتساع فى الظرف واجرائه مجرى المفعول به كقوله تعالى بل مكر الليل والنهار وهى الزلزلة المذكورة فى قوله اذا زلزلت الارض زلزالها (المسئلة الثانية) اختلفوا فى وقتها فعن علقمة والشعبى ان هذه الزلزلة تكون فى الدنيا وهى التى يكون معها طلوع الشمس من مغربها وقيل هى التى تكون معها الساعة وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث الصور انه قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات نفخة الفزع ونفخة الصعقة ونفخة القيام لرب العالمين وان عند نفخة الفزع يسير الله الجبال وترجف الراجفة تتبعها الرادفة قلوب يومئذ واجفة وتكون الارض كالسفينة تضربها الامواج أو كالقنديل المعلق ترجرجه الرياح وقال مقاتل وابن زيد هذا فى أول يوم من أيام الآخرة واعلم انه ليس فى اللفظ دلالة على شئ من هذه الاقسام لان هذه

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(يا ايها الناس اتقوا ربكم) خطاب يعم حكمه المكافين عند النزول ومن سينتظم فى سلكهم بعد من الموجودين القاصرين عن رتبة التكليف والحادثين بعد ذلك الى يوم القيامة وان كان خطاب المشافهة مختصا بالفريق الاول على الوجه الذى مر تقريره فى مطلع سورة النساء ولفظ الناس ينتظم الذكور والاناث حقيقة وأما صيغة جمع المذكر فواردة على نهج التغليب لعدم تناولها للاناث حقيقة الا عند الحنابلة والمأمور به مطلق التقوى الذى هو التجنب عن كل ما يؤثم من فعل وترك و يندرج فيه الايمان بالله واليوم الآخر حسبما ورد به الشرع اندراجا أوليا والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية والتربية مع الاضافة الى ضمير المخاطبين لتأييد الامر وتأكيد ايجاب الامتثال به ترهيبا وترغيبا اى احذروا عقوبة مالك أموركم ومربيكم وقوله تعالى (ان زلزلة الساعة شئ عظيم) تعليل لوجوب الامر بذكر بعض عقوباته ﴿ الاضافة ﴾ الهائلة فان ملاحظة عظمها وهولها وفظاعة ما هى من مباديه ومقدماته من الاحوال والاهوال ألتى لا مفر منها سوى التدرع

الاضافة تصح وان كانت الزلزلة قبلها وتكون من اماراتها واشراطها وتصح اذا كانت فيها ومعها كقولنا آيات الساعة وأمارات الساعة (المسئلة الثالثة) روى ان هاتين الآيتين نزلتا بالليل والناس يسيرون فنادى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمع الناس حوله فقرأهما عليهم فلم ير باكيا أكثر من تلك الليلة فلما أصبحوا لم يحطوا السرج ولم يضربوا الخيام ولم يطبخوا القدور والناس بين باك وجالس حزين متفكر فقال عليه السلام أتدرون أى ذلك اليوم هو قالوا الله ورسوله اعلم قال ذلك يوم يقول الله لآدم عليه السلام قم فابعث بعث النار من ولدك فيقول آدم ومابعث النار يعنى من كم كم فيقول الله عز وجل من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون الى النار وواحد الى الجنة فعند ذلك يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى فكبر ذلك على المؤمنين وبكوا وقالوا فمن ينجو يا رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام أبشروا وسددوا وقاربوا فان معكم خليقتين ماكانا فى قوم الا كثرتاه يأجوج ومأجوج ثم قال انى لارجو ان تكونوا ربع أهل الجنة فكبروا ثم قال انى لارجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبروا وحمدوا الله ثم قال انى لارجو أن تكونوا ثلثى أهل الجنة ان أهل الجنة مائة وعشرون صفا ثمانون منها أمتى ومامسلمون فى الكفار الا كالشامة فى جنب البعير أو كالشعرة البيضاء فى الثور الاسود ثم قال ويدخل من أمتى سبعون ألفا الى الجنة بغير حساب فقال عمر سبعون ألفا قال نعم ومع كل واحد سبعون ألفا فقام عكاشة بن محصن فقال يارسول الله ادع الله ان يجعلنى منهم فقال أنت منهم فقام رجل من الانصار فقال مثل قوله فقال سبقك بها عكاشة فخاض الناس فى السبعين ألفا فقال بعضهم هم الذين ولدوا على الاسلام وقال بعضهم هم الذين آمنوا وجاهدوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخبروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قالوا فقال هم الذين لايكتوون ولايكوون ولايسترقون ولايتطيرون وعلى ربهم يتوكلون (المسئلة الرابعة) انه سبحانه أمر الناس بالتقوى ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة ووصفها بأهول صفة والمعنى ان التقوى تقتضى دفع مثل هذا الضرر العظيم عن النفس ودفع الضرر عن النفس معلوم الوجوب فيلزم أن تكون التقوى واجبة (المسئلة الخامسة) احتجت المعتزلة بقوله تعالى ان زلزلة الساعة شئ عظيم وصفها بانها شئ مع أنها معدومة واحتجوا أيضا بقوله تعالى ان الله على كل شئ قدير فالشئ الذى قدر الله عليه اما ان يكون موجودا أو معدوما والاول محال والالزم كون القادر قادرا على ايجاد الموجود واذا بطل هذا ثبت ان الشئ الذى قدر الله عليه معدوم فالمعدوم شئ واحتجوا أيضا بقوله تعالى ولاتقولن لشئ انى فاعل ذلك غدا أطلق اسم الشئ فى الحال على مايصير مفعولا غدا والذى يصير مفعولا غدا يكون معدوما فى الحال فالمعدوم شئ والله اعلم (والجواب) عن الاول ان الزلزلة عبارة عن الاجسام المتحركة وهى جواهر قامت بها أعراض وتحقق ذلك فى المعدوم محال فالزلزلة يستحيل أن تكون شيئا حال عدمها فلابد

العنيف بطريق التكرير بحيث يزيل الاشياء من مقارها ويخرجها عن مراكزها واضافتها الى الساعة اما اضافة المصدر الى فاعله على المجاز الحكمى كأنها هى التى تزلزل الاشياء أو اضافته الى الظرف اما باجرائه مجرى المفعول به اتساعا أو بتقدير فى كما فى قوله تعالى بل مكر الليل والنهار وهى زلزلة مذكورة فى قوله تعالى اذا زلزلت الارض زلزالها عن الحسن انها تكون يوم القيامة وعن ابن عباس رضى الله عنهما زلزلة الساعة قيامها وعن علقمة والشعبى انها قبل طلوع الشمس من مغربها فاضافتها الى الساعة حينئذ لكونها من اشراطها وفى التعبير عنها بالشئ ايذان بان العقول قاصرة عن ادراك كنهها والعبارة ضيقة لاتحيط بها الا على وجه الابهام وقوله تعالى (يوم ترونها) منتصب بما بعده قدم عليه اهتماما

به والضمير للزلزلة أى وقت رؤيتكم اياها ومشاهدتكم لهول مطلعها (تذهل كل مرضعة) أى مباشرة للارضاع (عما أرضعت) أى تغفل وتذهل مع دهشة عما هى بصدد ارضاعه من طلفها الذى ألقمته ثديها والتعبير عنه بما دون من لتأكيد

من التأويل بالاتفاق و يكون المعنى انها اذا وجدت صارت شيئا وهذا هو الجواب عن البواقى (المسئلة السادسة) وصف الله تعالى الزلزلة بالعظيم ولاعظيم أعظم مما عظمه الله تعالى أما قوله تعالى يوم ترونها فهو منصوب بتذهل أى تذهل فى ذلك اليوم والضمير فى ترونها يحتمل ان يرجع الى الزلزلة وأن يرجع الى الساعة لتقدم ذكرهما والاقرب رجوعه الى الزلزلة لان مشاهدتها هى التى توجب الخوف الشديد واعلم انه سبحانه وتعالى ذكر من أهوال ذلك اليوم أمورا ثلاثة (أحدها) قوله تذهل كل مرضعة عما أرضعت أى تذهلها الزلزلة والذهول الذهاب عن الامر مع دهشة فان قيل لم قال مرضعة دون مرضع قلت المرضعة هى التى فى حال الارضاع وهى ملقمة ثديها الصبى والمرضع شأنها أن ترضع وان لم تباشر الارضاع فى حال وصفها به فقيل مرضعة ليدل على ان ذلك الهول اذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته من فيه لما يلحقها من الدهشة وقوله عما أرضعت أى عن ارضاعها أو عن الذى أرضعته وهو الطفل فتكون ما بمعنى من على هذا التأويل (وثانيها) قوله وتضع كل ذات حمل حملها والمعنى انها تسقط ولدها لتمام أو لغير تمام من هول ذلك اليوم وهذا يدل على ان هذه الزلزلة انما تكون قبل البعث قال الحسن تذهل المرضعة عن ولدها بغير فطام وأقت الحوامل ما فى بطونها لغير تمام وقال الفراء يحتمل أن يقال من ماتت حاملا أو مرضعة تبعث حاملا أو مرضعة تضع حملها من الفزع و يحتمل أن يكون المراد من ذهول المرضعة ووضع الحمل على جهة المثل كما قد تأول قوله يوم يجعل الولدان شيبا (وثالثها) قوله وترى الناس سكارى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ وترى بالضم تقول أريتك قائما وأريتك قائما والناس بالنصب والرفع أما النصب فظاهر وأما الرفع فلانه جعل الناس اسم ما لم يسم فاعله وأنثه على تأويل الجماعة وقرئ سكرى وسكارى وهو نظير جوعى وعطشى فى جوعانة وعطشان سكارى وسكارى نحو كسالى وكسالى وعن الاعمش سكرى وسكرى بالضم وهو غريب (المسئلة الثانية) المعنى وتراهم سكارى على التشبيه وما هم بسكارى على التحقيق ولكن ما أرهقهم من هول عذاب الله تعالى هو الذى اذهب عقولهم وطيّر تمييزهم وقال ابن عباس والحسن وتراهم سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب فان قلت لم قيل أولا ترون ثم قيل ترى على الافراد قلنا لان الرؤية أولا علقت بالزلزلة فجعل الناس جميعا رائين لها وهى معلقة آخرا بكون الناس على حال السكر فلابد وأن يجعل كل واحد منهم رائيا لسائرهم (المسئلة الثالثة) ان قيل اتقولون ان شدة ذلك اليوم تحصل لكل أحد أو لاهل النار خاصة قلنا قال قوم ان الفزع الاكبر وغيره يختص بأهل النار وان أهل الجنة يحشرون وهم آمنون وقيل بل يحصل لكل لانه سبحانه لا اعتراض لاحد عليه فى شئ من أفعاله وليس لاحد عليه حق قوله تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم و يتبع كل شيطان مريد كتب عليه انه من تولاه فانه يضله و يهديه الى عذاب السعير) وفيه مسائل (المسئلة

وقيل ما مصدرية أى تذهل عن ارضاعها والاول أدل على شدة الهول وكمال الانزعاج وقرئ تذهل من الاذهال مبنيا للمفعول أو مبنيا للفاعل مع نصب كل أى تذهلها الزلزلة (وتضع كل ذات حمل حملها) أى تلقى جنينها لغير تمام كأن المرضعة تذهل عن ولدها لغير فطام وهذا ظاهر على قول علقمة والشعبى وأما على ما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما فقد قيل انه تمثيل لتهويل الامر وفيه أن الامر حينئذ اشد من ذلك وأعظم وأهول مما وصف واطم وقيل ان ذلك يكون عند النفخة الثانية فانهم يقومون على ما صعقوا فى النفخة الاولى فتقوم المرضعة على ارضاعها والحامل على حملها ولا ريب فى أن قيام الناس من قبورهم بعد النفخة الثانية لا قبلها حتى يتصور ما ذكر (وترى الناس) بفتح التاء والراء على خطاب كل أحد من المخاطبين برؤية الزلزلة والاختلاف بالجمعية والافراد لما أن المرئى فى الاول ﴿الاولى﴾ هى الزلزلة التى يشاهدها الجميع وفى الثانى حال من عدا المخاطب منهم فلابد من افراد المخاطب على وجه يعم كل واحد منهم لكن من غير اعتبار اتصافه بتلك الحالة فان المراد بيان تأثير الزلزلة فى المرئى

لا فى الرائى باختلاف مشاعره لان مداره حيثية رؤيته للزلزلة لا لغيرها كأنه قيل و يصير الناس سكارى الخ وانما أوثر على ما فى التنزيل الايذان بكمال ظهور ﴿ ٢٠٩ ﴾ تلك الحالة فيهم و بلوغها من الجلاء الى حد لا يكاد يخفى على أحد أى

الاولى) فى كيفية النظم وجهان (الاول) اخبر تعالى فيما تقدم عن أهوال يوم القيامة وشدتها ودعا الناس الى تقوى الله ثم بين فى هذه الآية قوما من الناس الذى ذكروا فى الاول وأخبر عن مجادلتهم (الثانى) انه تعالى بين انه مع هذا التحذير الشديد بذكر زلزلة الساعة وشدائدها فان من الناس من يجادل فى الله بغير علم ثم فى قوله ومن الناس وجهان (الاول) انهم الذين ينكرون البعث و يدل عليه قوله أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة الى آخر الآية وأيضا فان ما قبل هذه الآية فى وصف البعث وما بعدها فى الدلالة على البعث فوجب أن يكون المراد من هذه المجادلة هو المجالة فى البعث (والثانى) انها نزلت فى النضر بن الحرث كان يكذب بالقرآن و يزعم انه أساطير الاولين و يقول ما يأتيكم به محمد كما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما (المسئلة الثانية) هذه الآية بمفهومها تدل على جواز المجادلة الحقة لان تخصيص المجادلة مع عدم العلم بالدلائل يدل على ان المجادلة مع العلم جائزة فالمجادلة الباطلة هى المراد من قوله ماضر بودلك الاجدلا والمجادلة الحقة هى المراد من قوله وجادلهم بالتى هى أحسن (المسئلة الثالثة) فى قوله و يتبع كل شيطان مريد قولان (أحدهما) يجوز أن يريد شياطين الانس وهم رؤساء الكفار الذين يدعون من دونهم الى الكفر (والثانى) أن يكون المراد بذلك ابليس و جنوده قال الزجاج المريد والمارد المرتفع الاملس يقال صخرة مرداء أى ملساء و يجوز أن يستعمل فى غير الشيطان اذا جاوز حده مثله أما قوله كتب عليه ففيه وجهان (أحدهما) ان الكتبة عليه مثل أى كأنما كتب اضلال من تولاه عليه ورقم به اظهور ذلك فى حاله (والثانى) كتب عليه فى أم الكتاب واعلم ان هذه الهاء بعد ذكر من يجادل وبعد ذكر الشيطان يحتمل أن يكون راجعا الى كل واحد منهما فان رجع الى من يجادل فانه يرجع الى لفظه الذى هو موحد فكأنه قال كتب على من يتبع الشيطان أنه من تولى الشيطان أضله عن الجنة وهداه الى النار وذلك زجر منه تعالى فكأنه تعالى قال كتب على من هذا حاله انه يصير أهلا لهذا الوعيد فان رجع الى الشيطان كان المعنى و يتبع كل شيطان مريد قد كتب عليه أنه من يقبل منه فهو فى ضلال وعلى هذا الوجه أيضا يكون زجرا عن اتباعه وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال القاضى عبد الجبار اذا قيل المراد بقوله كتب عليه قضى عليه فلا جائز أن يرد الا الى من يتبع الشيطان لانه تعالى لا يجوز أن يقضى على الشيطان أنه يضل و يجوز أن يقضى على من يقبله بقوله قد أضله عن الجنة وهداه الى النار قال أصحابنا رحمهم الله لما كتب ذلك عليه فلو لم يقع لانقلب خبر الله الصدق كذبا وذلك محال ومستلزم المحال محال فكان لا وقوعه محالا (المسئلة الثانية) دلت الآية على ان المجادل فى الله ان كان لا يعرف الحق فهو مذموم معاقب فيدل على أن المعارف ليست ضرورية (المسئلة الثالثة) قال القاضى فيه دلالة على ان المجادلة فى الله ليست من خلق الله تعالى

أيراهم كل أحد (سكارى) أى كأنهم سكارى (وماهم بسكارى) حقيقة (ولكن عذاب الله شديد) فيرهتهم هوله و يطير عقولهم و يسلب تمييزهم فهو الذى جعلهم كما وصفوا وقرئ ترى بضم التاء وفتح الراء مسندا الى المخاطب من أريتك قائما أو رؤيتك قائما والناس منصوب أى تظنهم سكارى وقرئ برفع الناس على اسناد الفعل المجهول اليه والتأنيث على تأويل الجماعة وقرئ ترى بضم التاء وكسر الراء أى ترى الزلزلة الخلق جميع الناس سكارى وقرئ سكرى وسكرى كعطشى وجوعى اجراء للسكر مجرى العلل (ومن الناس) كلام مبتدأ جئ به اثر بيان عظم شأن الساعة المنبئة عن البعث بيانا لحال بعض المنكرين لها ومحل الجار الرفع على الابتداء اما بحمله على المعنى أو بتقدير ما يتعلق به كمن مرارا

 و بعض الناس أو و بعض س كائن من الناس (من يجادل فى الله) أى فى شأنه تعالى و يقول فيه مالا يعرفه من الاباطيل وقوله تعالى (بغير علم) حال من ضمير يجادل موضحة

لما يشعر بها المجادلة من الجهل أى ملابسا بغير علم روى انها نزلت فى النضر بن الحرث وكان جدلا يقول الملائكة
بنات الله والقرآن أساطير الاولين ولا بعث بعد الموت وهى عامة له ﴿ ٢١٠ ﴾ ولاضرابه من العتاة المتمردين (ويتبع)

أى فيما يتعاطاه من المجادلة أو فى كل ما يأتى وما يذر من الامور الباطلة التى من جملتها ذلك (كل شيطان مريد) عات متمرد متجرد للفساد وأصله العرى المنبئ عن التجرد ومنه الشجر المجرد له كالشعر ولعله ماخوذ من تجرد المصارعين عند المصارعة قال الزجاج المريد والمارد المرتفع الاماس والمراد اما رؤساء الكفرة الذين يدعون من دونهم الى الكفر واما ابليس وجنوده وقوله تعالى (كتب عليه) اى على الشيطان صفة أخرى له وقوله تعالى (أنه) فاعل كتب والضمير للشان أى رقم به ظهور ذلك من حاله أن الشان (من تولاه) أى اتخذه وليا وتبعه (فانه يضله) بالفتح على أنه خبر مبتدا محذوف أو مبتدأ خبره محذوف والجملة جواب الشرط ان جعلت من شرطية وخبرها ان جعلت موصولة متضمنة لمعنى الشرط أى من تولاه فشأنه أنه يضله عن طريق الجنة أو طريق الحق او فحق أنه يضله قطعا وقيل فانه ﴿ الحث ﴾ معطوف على أنه وفيه من التعسف مالا يخفى وقيل وقيل مما لا يخلو عن التعجل والتأويل

وبارادته والا لما كانت مضافة الى اتباع الشيطان وكان لا يصح القول بان الشيطان يضله بل كان الله تعالى قد أضله (والجواب) المعارضة بمسئلة العلم وبمسئلة الداعى (المسئلة الرابعة) قرئ أنه بالفتح والكسر فمن فتح فلان الاول فاعل كتب والثانى عطف عليه ومن كسر فعلى حكاية المكتوب كما هو كأنما كتب عليه هذا الكلام كما يقول كتبت ان الله هو الغنى الحميد أو على تقدير قيل أو على ان كتب فيه معنى القول ﴿ قوله تعالى (يا أيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الارحام ما نشاء الى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بان الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شئ قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور) القراءة قرأ الحسن من البعث بالتحريك ونظيره الحلب والطرد فى الحلب وفى الطرد ومخلقة وغير مخلقة بجر التاء والراء وقرأ ابن أبى عبلة بنصبهما القراءة المعروفة بالنون فى قوله لنبين وفى قوله ونقر وفى قوله ثم نخرجكم طفلا ابن أبى عبلة بالياء فى هذه الثلاثة أما القراءة بالنون ففيها وجوه (أحدها) القراءة المشهورة (وثانيها) روى السيرافى عن داود عن يعقوب ونقر بفتح النون وضم القاف والراء وهو من قر الماء اذا صبه وفى رواية أخرى عنه كذلك الا أنه ينصب الراء (وثالثها) ونقر ونخرجكم بنصب الراء والجيم أما القراءة بالياء ففيها وجوه (أحدها) يقر ويخرجكم بفتح القاف والراء والجيم (وثانيها) يقر ويخرجكم بضم القاف والراء والجيم (وثالثها) بفتح الياء وكسر القاف وضم الراء أبو حاتم ومنكم من يتوفى بفتح الياء أى يتوفاه الله تعالى ابن عمر والاعمش العمر باسكان الميم القراءة المعروفة ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر وفى حرف عبد الله ومنكم من يتوفى ومنكم من يكون شيوخا بغير القراءة المعروفة وربت أبو جعفر وربأت أى ارتفعت وروى العمرى عنه بتليين الهمزة وقرئ وأنه باعث * المعانى اعلم انه سبحانه لما حكى عنهم الجدال بغير العلم فى اثبات الحشر والنشر وذمهم عليه فهو سبحانه أورد الدلالة على صحة ذلك من وجهين (أحدهما) الاستدلال بخلقة الحيوان أولا وهو موافق لما أجمله فى قوله قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وقوله فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فكأنه سبحانه وتعالى قال ان كنتم فى ريب مما وعدناكم من البعث فتذكروا فى خلقتكم الاولى لتعلموا أن القادر على خلقكم أولا قادر على خلقكم ثانيا ثم انه سبحانه ذكر من مراتب الخلقة الاولى أمورا سبعة (المرتبة الاولى) قوله فانا خلقناكم من تراب وفيه وجهان (أحدهما) انا خلقنا أصلكم وهو آدم عليه السلام من تراب لقوله كمثل آدم خلقه من تراب وقوله منها خلقناكم (والثانى) ان خلقة الانسان من المنى ودم

وقرئ فانه بالكسر على انه خبر لمن أو جواب لها وقرئ بالكسر فيهما على حكاية المكتوب كما هو مثل ما في قولك كتبت ان الله يأمر بالعدل والاحسان أو على اضمار القول أو تضمين الكتب معناه على رأى من يراه (ويهديه الى عذاب السعير) يحمله على مباشرة ما يؤدى اليه من السيآت (يا أيها الناس) اثر ما حكى أحوال المجادلين بغير علم وأشير الى ما يؤل اليه أمرهم أقيمت الحجة الدالة على تحقق ما جادلوا فيه من البعث (ان كنتم في ريب من البعث) من امكانه وكونه مقدورا لله تعالى أو من وقوعه وقرئ من البعث بالتحريك كالجلب في الجلب والتعبير عن اعتقادهم في حقه بالريب مع التنكير المنبئ عن القلة مع أنهم جازمون باستحالته وايراد كلمة الشك مع تقرر حالهم في ذلك وايثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال ان ارتبتم في البعث فقد مر تحقيقه في تفسير قوله تعالى وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا (فانا خلقناكم) أي فانظروا الى مبدا خلقكم ليزول ريبكم فانا خلقناكم أي خلقنا كل فرد منكم (من تراب) في ضمن خلق آدم منه خلقا اجماليا فان خلق كل فرد من أفراد البشر له حظ من خلقه عليه السلام اذ لم تكن فطرته الشريفة مقصورة على نفسه بل كانت انموذجا منطويا

الطمث وهما انما يتولدان من الاغذية والاغذية اما حيوان أو نبات وغذاء الحيوان ينتهي قطعا للتسلسل الى النبات والنبات انما يتولد من الارض والماء فصح قوله انا خلقناكم من تراب (المرتبة الثانية) قوله ثم من نطفة والنطفة اسم للماء القليل أي ماء كان وهو ههنا ماء الفحل فكأنه سبحانه يقول أنا الذي قلبت ذلك التراب اليابس ماء لطيفا مع انه لا مناسبة بينهما البتة (المرتبة الثالثة) قوله ثم من علقة والعلقة قطعة الدم الجامدة ولا شك أن بين الماء وبين الدم الجامد مباينة شديدة (المرتبة الرابعة) قوله ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الارحام ما نشاء فالمضغة للحمة الصغيرة قدر ما يمضغ والمخلقة المسواة الملساء السالمة من النقصان والعيب يقال خلق السواك والعود اذا سواه وملسه من قولهم صخرة خلقاء اذا كانت ملساء ثم المفسرين فيه أقوال (أحدها) أن يكون المراد من تمت فيه أحوال الخلق ومن لم تتم كأنه سبحانه قسم المضغة الى قسمين (أحدهما) تامة الصور والحواس والتخاطيط (وثانيهما) الناقصة في هذه الامور فبين ان بعدان صيره مضغة منها ما خلقه انسانا تاما بلا نقص ومنها ما ليس كذلك وهذا قول قتادة والضحاك فكان تعالى يخلق المضغ متفاوتة منها ما هو كامل الخلقة أملس من العيوب ومنها ما هو على عكس ذلك فتبع ذلك التفاوت تفاوت الناس في خلقهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم ونقصانهم (وثانيها) المخلقة الولد الذي يخرج حيا وغير المخلقة السقط وهو قول مجاهد (وثالثها) المخلقة المصورة وغير المخلقة أي غير المصورة وهو الذي يبقى لحما من غير تخطيط وتشكيل واحتجوا بما روى علقمة عن عبد الله قال اذا وقعت النطفة في الرحم بعث الله ملكا وقال يا رب مخلقة أو غير مخلقة فان قال غير مخلقة مجتها الارحام دما وان قال مخلقة قال يا رب فما صفتها أذكر أم انثى ما رزقها ما أجلها أشقي أم سعيد فيقول الله سبحانه انطلق الى أم الكتاب فاستنسخ منه صفة هذه النطفة فينطلق الملك فينسخها فلا يزال معه حتى يأتي على آخر صفتها (ورابعها) قال القفال التخليق مأخوذ من الخلق فاتتابع عليه الاطوار وتوارد عليه الخلق بعد الخلق فذاك هو المخلق لتتابع الخلق عليه قالوا فاتم فهو المخلق ومالم يتم فهو غير المخلق لانه لم يتوارد عليه التخليقات والقول الاول أقرب لانه تعالى قال في أول الآية فانا خلقناكم واشار الى الناس فيجب أن تحمل مخلقة وغير مخلقة على من سيصير انسانا وذلك يبعد في السقط لانه قد يكون سقطا ولم يتكامل فيه الخلقة فان قيل هلا حملتم ذلك على السقط لاجل قوله ونقر في الارحام ما نشاء وذلك كالدلالة على أن فيه ما لا يقره في الرحم وهو السقط قلنا ان ذلك لا يمنع من صحة ما ذكرنا في كون المضغة مخلقة وغير مخلقة لانه بعد أن تم خلقة البعض ونقص خلقة البعض لا يجب أن يتكامل ذلك بل فيه ما يقره الله في الرحم وفيه ما لا يقره وان كان قد أظهر فيه خلقة الانسان فيكون من هذا الوجه قد دخل فيه السقط أما قوله تعالى لنبين لكم ففيه وجهان (أحدهما) نبين لكم ان تغيير

على قطرة سائر أفراد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لجريان آثارها على الكل فكان خلقه عليه السلام من التراب خلقا للكل منه كما مر تحقيقه مرارا (ثم من نطفة) أى ثم خلقنا كم خلقا تفصيليا من نطفة أى من منى من النطف الذى هو الصب (ثم من علقة) أى قطعة من الدم جامدة متكونة من المنى (ثم من مضغة) أى قطعة من اللحم متكونة من العلقة وهى فى الاصل مقدار ما يمضغ (مخلقة) بالجر صفة مضغة أى مستبينة الخلق مصورة (وغير مخلقة) أى لم يستبن خلقها وصورتها بعد والمراد تفصيل حال المضغة وكونها أو لا قطعة لم يظهر فيها شئ من الاعضاء ثم ظهرت بعد ذلك شيئا فشيئا وكان مقتضى الترتيب السابق المبنى على التدرج من المبادى البعيدة الى القريبة أن يقدم غير المخلقة على المخلقة وانما أخرت عنها لانها عدم الملكة هذا وقد فسرنا بالمسواة وغير المسواة وبالتامة والساقطة وليس بذاك وفى جعل كل واحدة من هذه المراتب مبدأ لخلقهم لاخلق ما بعدها من المراتب كما فى قوله تعالى ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة الآية مزيد دلالة ﴿ الموجود ﴾ على عظيم قدرته تعالى وكسر لسورة استبعادهم (لنبين لكم) متعلق بخلقناو ترك المفعول

المضغة الى المخلقة هو باختيار الفاعل المختار ولولا لما صار بعضه مخلقا وبعضه غير مخلق (وثانيها) التقدير ان كنتم فى ريب من البعث فانا أخبرناكم أنا خلقناكم من كذا وكذا لنبين لكم ما يزيل عنكم ذلك الريب فى أمر بعثكم فان القادر على هذه الاشياء كيف يكون عاجزا عن الاعادة أما قوله تعالى ونقر فى الارحام ما نشاء الى أجل مسمى فالمراد منه من يبلغه الله تعالى حد الولادة والاجل المسمى هو الوقت المضروب للولادة وهو آخر ستة أشهر أو تسعة أو أربع سنين أو كما شاء وقدر الله تعالى فان كتب ذلك صار أجلا مسمى (المرتبة الخامسة) قوله ثم نخرجكم طفلا وانما وحد الطفل لان الغرض الدلالة على الجنس ويحتمل أن يخرج كل واحد منكم طفلا كقوله والملائكة بعد ذلك ظهير (المرتبة السادسة) قوله ثم لتبلغوا أشدكم والاشد كمال القوة والعقل والتميز وهو من ألفاظ الجموع التى لم يستعمل لها واحد وكأنها شدة فى غير شئ واحد فبنيت لذلك على لفظ الجمع والمراد والله أعلم ثم سهل فى تربيتكم وأعنيتكم أمورا لتبلغوا أشدكم فنبه بذلك على الاحوال التى بين خروج الطفل من بطن أمه وبين بلوغ الاشد ويكون بين الحالتين وسايط وذكر بعضهم انه ليس بين حال الطفولية وبين ابتداء حال بلوغ الاشد واسطة حتى جوز أن يبلغ فى السن ويكون طفلا كما يكون غلاما ثم يدخل فى الاشد (المرتبة السابعة) قوله ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا والمعنى أن منكم من يتوفى على فطرته وكماله ومنكم من يرد الى أرذل العمر وهو الهرم والخرف فيصير كما كان فى أول طفوليته فى ضعف البنية وسخف العقل وقليل الفهم فان قيل كيف قال لكيلا يعلم من بعد علم شيئا مع انه يعلم بعض الاشياء كالطفل قلنا المراد انه يزول عقله فيصير كأنه لا يعلم شيئا لان مثل ذلك قد يذكر فى النفى لاجل المبالغة ومن الناس من قال هذه الحالة لا تحصل للمؤمنين لقوله تعالى ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهو ضعيف لان معنى قوله ثم رددناه أسفل سافلين هو دلالة على الذم فلم اراد به ما يجرى مجرى العقوبة ولذلك قال الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون فهذا تمام الاستدلال بحال خلقة الحيوان على صحة البعث (الوجه الثانى) الاستدلال بحال خلقة النبات على ذلك وهو قوله سبحانه وتعالى وترى الارض هامدة وهمودها يبسها وخلوها عن النبات والخضرة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت والاهتزاز الحركة على سرور فلا يكاد يقال اهتز فلان لكيت وكيت الا اذا كان الامر من المحاسن والمنافع فقوله اهتزت وربت أى تحركت بالنبات وانتفخت أما قوله وأنبتت من كل زوج بهيج فهو مجاز لان الارض ينبت منها والله تعالى هو المنبت لذلك لكنه يضاف اليها توسعا ومعنى من كل زوج بهيج من كل نوع من أنواع النبات من زرع وغرس والبهجة حسن الشئ ونضارته والبهيج بمعنى المبهج قال المبرد وهو الشئ المشرق الجيد ثم انه سبحانه لما قرر هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب، والنتيجة وذكر أمورا خمسة (أحدها) قوله ذلك بأن الله هو الحق والحق هو

لتفخيمه كما وكيفا أى خلقنا كم على هذا النمط البديع لنبين لكم بذلك مالا تحصره العبارة من الحائق والدقائق التى من جملتها سر البعث فان من تأمل فيما ذكر ﴿ ٢١٣ ﴾ من الخلق التدريجى تاملا حقيقيا جزم جزما ضروريا

الموجود الثابت فكأنه سبحانه بين ان هذه الوجوه دالة على وجود الصانع وحاصلها راجع الى ان حدوث هذه الاعراض المتنافية وتواردها على الاجسام يدل على وجود الصانع (وثانيها) قوله تعالى وأنه يحيى الموتى فهذا تنبيه على انه لما لم يستبعد من الاله ايجاد هذه الاشياء فكيف يستبعد منه اعادة الاموات (وثالثها) قوله وأنه على كل شئ قدير يعنى ان الذى يصح منه ايجاد هذه الاشياء لابد وأن يكون واجب الاتصاف لذاته بالقدرة ومن كان كذلك كان قادرا على جميع الممكنات ومن كان كذلك فانه لابد وان يكون قادرا على الاعادة (ورابعها) قوله وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور والمعنى انه لما أقام الدلائل على ان الاعادة فى نفسها ممكنة وأنه سبحانه وتعالى قادر على كل الممكنات وجب القطع بكونه قادرا على الاعادة فى نفسها واذا ثبت الامكان والصادق أخبر عن وقوعه فلابد من القطع بوقوعه واعلم ان تحرير هذه الدلالة على الوجه النظرى أن يقال الاعادة فى نفسها ممكنة والصادق أخبر عن وقوعها فلابد من القطع بوقوعها أما بيان الامكان فالدليل عليه ان هذه الاجسام بعد تفرقها قابلة لتلك الصفات التى كانت قائمة بها حال كونها حية عاقلة والبارئ سبحانه عالم بكل المعلومات قادر على كل المقدورات الممكنة وذلك يقتضى القطع بامكان الاعادة لما قلنا ان تلك الاجسام بعد تفرقها قابلة لتلك الصفات لانها لو لم تكن قابلة لها فى وقت لما كانت قابلة لها فى شئ من الاوقات لان الامور الذاتية لاتزول ولو لم تكن قابلة لها فى شئ من الاوقات لما كانت حية عاقلة فى شئ من الاوقات لكنها كانت حية عاقلة فوجب أن تكون قابلة أبدا لهذه الصفات وأما ان البارئ سبحانه يمكنه تحصيل ذلك الممكن فلانه سبحانه عالم بكل المعلومات فيكون عالما بأجزاء كل واحد من المكلفين على التعيين وقادرا على كل الممكنات فيكون قادرا على ايجاد تلك الصفات فى تلك الذوات فثبت ان الاعادة فى نفسها ممكنة وأنه سبحانه يمكنه تحصيل ذلك الممكن فثبت ان الاعادة ممكنة فى نفسها فاذا أخبر الصادق عن وقوعها فلابد من القطع بوقوعها فهذا هو الكلام فى تقرير هذا الاصل فان قيل فأى منفعة لذكر مراتب خلقة الحيوانات وخلقة النبات فى هذه الدلالة قلنا انها تدل على انه سبحانه قادر على كل الممكنات وعالم بكل المعلومات ومتى صح ذلك فقد صح كون الاعادة ممكنة فان الخصم لاينكر المعاد الا بناء على انكار أحد هذين الاصلين ولذلك فان الله تعالى حيث أقام الدلالة على البعث فى كتابه ذكر معه كونه قادرا عالما كقوله قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم فقوله قل يحييها الذى أنشأها بيان للقدرة وقوله وهو بكل خلق عليم بيان للعلم والله أعلم * قوله تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذلك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبد) اقرأ ثانى عطفه بكسر العين الحسن وحده بفتح العين ليضل قرئ بضم الياء وفتحها اقرأ المعروفة ونذيقه بالنون وقرأ زيد بن

بان من قدر على خلق البشر أولا من تراب لم يشم رائحة الحياة قط وانشائه على وجه مصحح لتوليد مثله مرة بعد أخرى بتصريفه فى أطوار الخلقة وتحويله من حال الى حال مع مابين تلك الاطوار والاحوال من المخالفة والتباين فهو قادر على اعادته بل هو أهون فى القياس نظرا الى الفاعل والقابل وقرئ ليبين بطريق الالتفات وقوله تعالى (ونقر فى الارحام مانشاء) استئناف مسوق لبيان حالهم بعد تمام خلقهم وعدم نظم هذا وما عطف عليه فى سلك الخلق المعلل بالتبيين مع كونهما من متمماته ومن مبادى التبيين أيضا لما أن دلالة الاول على كمال قدرته تعالى على جميع المقدورات التى من جملتها البعث المبحوث عنه أجلى وأظهر أى ونحن نقر فى الارحام بعد ذلك مانشاء أن نقره فيها (الى أجل مسمى) هو وقت الوضع وأدناه ستة أشهر وأقصاه سنتان وقيل أربع سنين وفيه اشارة الى أن بعض مافى الارحام لايشاء الله تعالى اقراره فيها بعد تكامل خلقه فتسقطه والتعرض للازلاق

لايناسب المقام لان الكلام فيما جرى عليه المشركون وهذا صريح فى أن المراد بغير المخلقة ليس من ولد ناقصا أو معيبا وأن ما فصل الى هنا هى الاطوار المتواردة على المولود ﴿ ٢١٤ ﴾ قبل الولادة وقرئ يقر بالياء ونقر

على وأدقه المعانى فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى أن المراد بقوله ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد من هم على وجوه (أحدها) قال أبو مسلم الآية الاولى وهى قوله ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد واردة فى الاتباع المقلدين وهذه الآية واردة فى المتبوعين المقلدين فان كلا المجادلين جادل بغير علم وان كان أحدهما تبعا والاخر متبوعا وبين ذلك قوله ولا هدى ولا كتاب منير فان مثل ذلك لا يقال فى المقلد وانما يقال فيمن يخاصم بناء على شبهة فان قيل كيف يصح ما قلتم والمقلد لا يكون مجادلا قلنا قد يجادل تصويبا لتقليده وقد يورد الشبهة الظاهرة اذا تمكن منها وان كان معتمده الاصلى هو التقليد (وثانيها) ان الآية الاولى نزلت فى النضر بن الحرث وهذه الآية فى أبى جهل (وثالثها) ان هذه الآية نزلت ايضا فى النضر وهو قول ابن عباس رضى الله عنهما وفائدة التكرير المبالغة فى الذم وأيضا ذكر فى الآية الاولى اتباعه للشيطان تقليدا بغير حجة وفى الثانية مجادلته فى الدين واضلاله غيره بغير حجة والوجه الاول أقرب لما تقدم (المسئلة الثانية) الآية دالة على ان الجدال مع العلم والهدى والكتاب المنير حق حسن على ما مر تقريره (المسئلة الثالثة) المراد بالعلم العلم الضرورى وبالهدى الاستدلال والنظر لانه يهدى الى المعرفة وبالكتاب المنير الوحى والمعنى أنه يجادل من غير مقدمة ضرورية ولا نظرية ولا سمعية وهو كقوله ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وقوله ائتونى بكتاب من قبل هذا أما قوله ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله فاعلم ان ثنى العطف عبارة عن الكبر والخيلاء كتصعير الخد ولى الجيد وقوله ليضل عن سبيل الله فاما القراءة بضم الياء فدلالة على ان هذا المجادل فعل الجدال وأظهر التكبر لكى يتبعه غيره فيضله عن طريق الحق فجمع بين الضلال والكفر واضلال الغير وأما القراءة بفتح الياء فالمعنى أنه لما أدى جداله الى الضلال جعل كأنه غرضه ثم انه سبحانه وتعالى شرح حاله فى الدنيا والآخرة اما فى الدنيا فيوم بدر ورويتا عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها نزلت فى النضر بن الحرث وانه قتل يوم بدر وأما الذين لم يخصصوا هذه الآية بواحد معين قالوا المراد بالخزى فى الدنيا ما أمر المؤمنون بذمه ولعنه ومجاهدته وأما فى الآخرة فقوله ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ثم بين تعالى أن هذا الخزى المعجل وذلك العقاب المؤجل لاجل ما قدمت يداه قالت المعتزلة هذه الآية تدل على مطالب (الاول) دلت الآية على أنه انما وقع فى ذلك العقاب بسبب عمله وفعله فلو كان فعله خلقا لله تعالى لكان حين ما خلقه الله سبحانه وتعالى استحال منه أن ينفك عنه وحين ما لا يخلقه الله تعالى استحال منه أن يتصف به فلا يكون ذلك العقاب بسبب فعله فاذا عاقبه عليه كان ذلك محض الظلم وذلك على خلاف النص (الثانى) ان قوله بعد ذلك وأن الله ليس بظلام للعبيد دليل على أنه سبحانه انما لم يكن ظالما بفعل ذلك العذاب لاجل أن المكلف فعل فعلا استحق به ذلك العقاب وذلك يدل على انه لو عاقبه لا بسبب فعل يصدر من جهته

و يقر بضم القاف من قررت الماء اذا صببته (ثم نخرجكم) أى من بطون أمهاتكم بعد اقراركم فيها عند تمام الاجل المسمى (طفلا) أى حال كونكم أطفالا والافراد باعتبار كل واحد منهم أو بارادة الجنس المنتظم للواحد والمتعدد وقرئ يخرجكم بالياء وقوله تعالى (ثم لتبلغوا أشدكم) علة لنخرجكم معطوفة على علة أخرى له مناسبة لها كأنه قيل ثم نخرجكم لتكبروا شيئا فشيئا ثم لتبلغوا كمالكم فى القوة والعقل والتمييز وقيل التقدير ثم نمهلكم لتبلغوا الخ وما قيل انه معطوف على نبين محل بجزالة النظم الكريم هذا وقد قرئ ما قبله من الفعلين بالنصب حكاية وغيبة فهو حينئذ عطف على نبين مثلهما والمعنى خلقناكم على التدريج المذكور لغايتين مترتبتين عليه احداهما أن تبين شؤننا والثانية أن نقركم فى الارحام ثم نخرجكم صغارا ثم لتبلغوا أشدكم وتقديم التبيين على ما بعده مع أن حصوله بالفعل ﴿ لكان ﴾ بعد الكل للايذان بأنه غاية الغايات ومقصود بالذات

لكان ظالما وهذا يدل على انه لا يجوز تعذيب الاطفال بكفر آبائهم (الثالث) أنه سبحانه تمدح بانه لا يفعل الظلم فوجب أن يكون قادرا عليه خلافا لما يقوله النظام وان يصح ذلك منه خلافا لما يقوله أهل السنة (الرابع) وهو أن لا يجوز الاستدلال بهذه الآية على أنه تعالى لا يظلم لان عندهم صحة نبوة النبى صلى الله عليه وسلم موقوفة على نفى الظلم فلو أثبتنا ذلك بالدليل السمعى لزم الدور (والجواب) عن الكل المعارضة بالعلم والداعى ﴿ قوله تعالى (ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير) القراءة قرئ خاسر الدنيا والآخرة بالنصب والرفع فالنصب على الحال والرفع على انه خبر مبتدا محذوف وفى حرف عبد الله من ضره بغير لام واعلم انه تعالى لما بين حال المظهرين للشرك المجادلين فيه على ما ذكرنا عقبه بذكر المنافقين فقال ومن الناس من يعبد الله على حرف وفى تفسير الحرف وجهان (الاول) ما قاله الحسن وهو أن المرء فى باب الدين معتمده القلب واللسان فهما حرفا الدين فاذا وافق أحدهما الآخر فقد تكامل فى الدين واذا أظهر بلسانه الدين لبعض الاغراض وفى قلبه النفاق جاز أن يقال فيه على وجه الذم يعبد الله على حرف (الثانى) قوله على حرف أى على طرف من الدين لا فى وسطه وقلبه وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب فى دينهم لا على سكون وطمأنينة كالذى يكون على طرف من العسكر فان أحس بغنيمة قر واطمأن والا فر وطار على وجهه وهذا هو المراد فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه لان الثبات فى الدين انما يكون لو كان الغرض منه اصابة الحق وطاعة الله والخوف من عقابه فاما اذا كان غرضه الخير المعجل فانه يظهر الدين عند السراء ويرجع عنه عند الضراء فلا يكون الا منافقا مذموما وهو مثل قوله تعالى مذبذبين بين ذلك وكقوله فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم (المسئلة الثانية) قال الكلبى نزلت هذه الآية فى أعراب كانوا يقدمون على النبى صلى الله عليه وسلم بالمدينة مهاجرين من باديتهم فكان أحدهم اذا صح بها جسمه ونتجت فرسه مهرا حسنا وولدت امرأته غلاما وكثر ماله وماشيته رضى به واطمأن اليه وان أصابه وجع وولدت امرأته جارية أو أجهضت رماكه وذهب ماله وتأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان وقال له ما جاءتك هذه الشرور الا بسبب هذا الدين فينقلب عن دينه وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد وقتادة (وثانيها) وهو قول الضحاك نزلت فى المؤلفة قلوبهم منهم عيينة بن بدر والاقرع بن حابس والعباس بن مرداس قال بعضهم لبعض ندخل فى دين محمد فان أصبنا خيرا عرفنا انه حق وان أصبنا غير ذلك عرفنا أنه باطل (وثالثها) قال أبو سعيد الخدرى أسلم رجل من اليهود فذهب بصره وماله وولده فقال يا رسول الله أقلنى فانى لم أصب من دينى هذا خيرا ذهب بصرى وولدى

لبيان حال اتصافهم بالكمال واستقلالهم بمبدئية الآثار والافعال والاشد من ألفاظ الجموع التى لم يستعمل لها واحد كالاسدة والقتود وكأنها حين كانت شدة فى غير شئ بنيت على لفظ الجمع (ومنكم من يتوفى) أى بعد بلوغ الاشد أو قبله وقرئ يتوفى مبنيا للفاعل أى يتوفاه الله تعالى (ومنكم من يرد الى أرذل العمر) وهو الهرم والخرف وقرئ بسكون الميم وايراد الرد والتوفى على صيغة المبنى للمفعول للجرى على سنن الكبرياء لتعين الفاعل (لكيلا يعلم من بعد علم) أى علم كثير (شيئا) أى شيا من الاشياء أو شيئا من العلم مبالغة فى انتقاص علمه وانتكاس حاله أى ليعود الى ما كان عليه فى أوان الطفولية من ضعف البنية وسخافة العقل وقلة الفهم فينسى ما علمه وينكر ما عرفه ويعجز عما قدر عليه وفيه من التنبيه

على صحة البعث ما لا يخفى (وترى الارض هامدة) حجة أخرى على صحة البعث والخطاب لكل أحد ممن يتاتى منه الرؤية وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار وهى بصرية وهامدة حال من الارض أى ميتة يابسة من همدت النار اذا صارت رمادا (فاذا أنزلنا عليها الماء) أى المطر (اهتزت) تحركت

بالنبات (وربت) انتفخت وازدادت وقرئ ربأت أي ارتفعت (وأنبتت من كل زوج) أي صنف (بهيج) حسن رائق يسر ناظره (ذلك بان الله هو الحق) كلام مستأنف

من العالمين الانساني والنباتي لبيان ان ذلك من آثار الوهيته تعالى وأحكام شؤنه الذاتية والوصفية والفعلية وأن ماينكرون وجوده بل امكانه من اتيان الساعة والبعث من أسباب تلك الآثار العجيبة التي يشاهدونها في الانفس والآفاق وبادي صدور هاعنه تعالى وفيه من الايذان بقوة الدليل واصالة المدلول في التحقق واظهار بطلان انكاره مالا يخفى فان انكار تحقق السبب مع الجزم بتحقق المسبب مما يقضي ببطلانه بديهة العقول والمراد بالحق هو الثابت الذي يحق ثبوته لاتحالة لكونه لذاته لاالثابت مطلقا وذلك اشارة الى ماذكر من خلق الانسان على أطوار مختلفة وتصريفه في أحوال متباينة واحياء الارض بعد موتها وما فيه من معنى البعد الايذان ببعد منزلته في الكمال وهو مبتدأ خبره الجار والمجرور

ومعالى فقال صلى الله عليه وسلم ان الاسلام لايقال ان الاسلام ليسبك كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة فنزلت هذه الآية وأما قوله وان أصابته فتنة انقلب على وجهه ففيه سؤالات (الاول) كيف قال وان أصابته فتنة انقلب على وجهه والخير أيضا فتنة لانه امتحان وقال تعالى ونبلوكم بالشر والخير فتنة (والجواب) مثل هذا كثير في اللغة لان النعمة بلاء وابتلاء قوله فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ولكن انما يطلق اسم البلاء على مايثقل على الطبع والمنافق ليس عنده الخير الا الخير الدنيوي وليس عنده الشر الا الشر الدنيوي لانه لادين له فلذلك وردت الآية على مايعتقدونه وان كان الخير كله فتنة لكن أكثر مايستعمل فيما يشتد ويثقل (السؤال الثاني) اذا كانت الآية في المنافق فما معنى قوله انقلب على وجهه وهو في الحقيقة لم يسلم حتى ينقلب ويرتد (والجواب) المراد انه أظهر بلسانه خلاف ماكان أظهره فصار يذم الدين عند الشدة وكان من قبل يمدحه وذلك انقلاب في الحقيقة (السؤال الثالث) قال مقاتل الخير هو ضد الشر فلما قال فان أصابه خير اطمأن به كان يجب أن يقول وان أصابه شر انقلب على وجهه (الجواب) لما كانت الشدة ليست بمحمدة لم يقل تعالى وان أصابه شر بل وصفه بالايقاع فيه القبيح أما قوله تعالى خسر الدنيا والآخرة فذلك لانه يخسر في الدنيا العز والكرامة واصابة الغنيمة وأهلية الشهادة والامامة والقضاء ولايبقى ماله ودمه مصونا وأما في الآخرة ففوته الثواب الدائم ويحصل له العقاب الدائم وذلك هو الخسران المبين أما قوله تعالى يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه فالاقرب انه المشرك الذي يعبد الاوثان وهذا كالدلالة على أن الآية لم ترد في اليهودي لانه ليس ممن يدعو من دون الله الاصنام والاقرب انها واردة في المشركين الذين انقطعوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه النفاق وبين تعالى أن ذلك هو الضلال البعيد وأراد به عظم ضلالهم وكفرهم ويحتمل أن يعني بذلك بعد ضلالهم عن الصواب لان جميعه وان كان يشترك في أنه خطأ فبعضه أبعد من الحق من البعض واستعير الضلال البعيد من ضلال من أبعد في التيه ضلالا وطالت وبعدت مسافة ضلاله أما قوله تعالى يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اختلفوا في تفسيره على وجهين (أحدهما) ان المراد رؤساؤهم الذين كانوا يفزعون اليهم لانه يصح منهم أن يضروا وحجة هذا القول ان الله تعالى بين في الآية الاولى ان الاوثان لاتضرهم ولاتنفعهم وهذه الآية تقتضي كون المذكور فيها ضارا نافعا فلو كان المذكور في هذه الآية هو الاوثان لزم التناقض (القول الثاني) ان المراد الوثن وأجابوا عن التناقض بأمور (أحدها) انها لاتضر ولاتنفع بانفسها ولكن عبادتها سبب الضرر وذلك يكفي في اضافة الضرر اليها كقوله تعالى رب انهن أضللن كثيرا من الناس فاضاف الاضلال اليهم من حيث كانوا سببا للضلال فكذا ههنا نفى الضرر عنهم في الآية الاولى بمعنى كونها فاعلة واضاف الضرر اليهم في هذه الآية بمعنى ان عبادتها سبب الضرر (وثانيها)

أي ذلك الصنع البديع حاصل بسبب أنه تعالى هو الحق وحده في ذاته وصفاته وأفعاله المحقق ﴿ كائنه ﴾ لماسواه من الاشياء (وأنه يحيي الموتى) أي شأنه وعادته احياؤها

وحاصله انه تعالى قادر على احيائها بدا واعادة والالما احيا النطفة والارض الميتة مرارا بعد مرارا وما تفيده صيغة المضارع من التجدد انما هو باعتبار تعلق القدرة ومتعلقها ﴿ ٢١٧ ﴾ لا باعتبار نفسها (وأنه على كل شئ قدير) أى مبالغ فى القدرة والالما أوجد هذه الموجودات الفائقة للحصر التى من جملتها ما ذكر وأما الاستدلال على ذلك بان قدرته تعالى لذاته الذى نسبتد الى الكل سواء فلما دلت المشاهدة على قدرته على احياء بعض الاموات لزم اقتداره على أحياء كلها فنشوءه الغفول عما سيق له النظم الكريم من بيان كون الآثار الخاصة المذكورة من فروع القدرة العامة التامة ومسبباتها وتخصيص احياء الموتى بالذكر مع كونه من جملة الاشياء المقدور عليها للتصريح بما فيه النزاع والدفع فى نحور المنكرين وتقديمه لابراز الاعتناء به (وان الساعة آتية) أى فيما سيأتى وايثار صيغة الفاعل على الفعل للدلالة على تحقق اتيانها وتقرره البتة لاقتضاء الحكمة اياه لاحالة وتعليله بان التغير من مقدمات الانصرام وطلائعه مبنى على ماذكر من الغفول وقوله تعالى

كأنه سبحانه وتعالى بين فى الآية الاولى انها فى الحقيقة لا تضر ولا تنفع ثم قال فى الآية الثانية لو سلمنا كونها ضارة نافعة لكن ضررها أكثر من نفعها (وثالثها) كان الكفار اذا انصفوا علموا انه لا يحصل منها نفع ولا ضرر فى الدنيا ثم انهم فى الآخرة يشاهدون العذاب العظيم بسبب عبادتها فكأنهم يقولون لها فى الآخرة ان ضرركم اعظم من نفعكم (المسئلة الثانية) اختلف النحويون فى اعراب قوله لمن ضره أقرب أما قوله لبئس المولى ولبئس العشير فالمولى هو الولى والناصر والعشير الصاحب والمعاشر واعلم ان هذا الوصف بالرؤساء أليق لان ذلك لا يكاد يستعمل فى الاوثان فبين تعالى انهم يعدلون عن عبادة الله تعالى الذى يجمع خير الدنيا والآخرة الى عبادة الاصنام والى طاعة الرؤساء ثم ذم الرؤساء بقوله لبئس المولى والمراد ذم من انتصر بهم والتجأ اليهم * قوله تعالى (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار ان الله يفعل ما يريد من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله يهدى من يريد) اعلم انه سبحانه لما بين فى الآية السابقة حال عبادة المنافقين وحال معبودهم بين فى هذه الآية صفة عبادة المؤمنين وصفة معبودهم أما عبادتهم فقد كانت على الطريق الذى لا يمكن صوابه وأما معبودهم فلا يضر ولا ينفع وأما المؤمنون فعبادتهم حقيقية ومعبودهم يعطيهم اعظم المنافع وهو الجنة ثم بين كمال الجنة التى تجمع بين الزرع والشجر وأن تجرى من تحتها الانهار وبين تعالى انه يفعل ما يريد بهم من انواع الفضل والاحسان زيادة على أجورهم كما قال تعالى فيوفيهم اجورهم ويزيدهم من فضله واحتج أصحابنا فى خلق الافعال بقوله سبحانه ان الله يفعل ما يريد قالوا أجمعنا على انه سبحانه يريد الايمان ولفظة ما للعموم فوجب أن يكون فاعلا للايمان لقوله ان الله يفعل ما يريد أجاب الكعبى عنه بان الله تعالى يفعل ما يريد أن يفعله لا ما يريد أن يفعله غيره (والجواب) ان قوله ما يريد أعم من قولنا ما يريد أن يفعله ومن قولنا ما يريد أن يفعله غيره فالتقييد خلاف النص أما قوله من كان يظن ان لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فالهاء الى ماذا يرجع فيه وجهان (الاول) وهو قول ابن عباس والكلبى ومقاتل والضحاك وقتادة وابن زيد والسدى واختيار الفراء والزجاج انه يرجع الى محمد صلى الله عليه وسلم يريد أن من ظن ان لن ينصر الله محمدا صلى الله عليه وسلم فى الدنيا باعلاء كلمته واظهار دينه وفى الآخرة باعلاء درجته والانتقام ممن كذبه والرسول صلى الله عليه وسلم وان لم يجر له ذكر فى الآية ففيها ما يدل عليه وهو ذكر الايمان فى قوله ان الله يدخل الذين آمنوا والايمان لا يتم الا بالله ورسوله فيجب البحث ههنا عن أمرين (أحدهما) انه من الذى كان يظن ان الله تعالى لا ينصر محمدا صلى الله عليه وسلم (والثانى) انه ما معنى قوله فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع أما الاول فذكر وا فيه وجوها (أحدها) كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطؤن ما وعد

ريب فيها) اما خبر ثان لان ﴿ ٢٨ ﴾ س أو حال من ضمير الساعة فى الخبر ومعنى نفى الريب عنها انها فى ظهور ها ووضوح دلائلها التكوينية والتنزيلية بحيث ليس فيها مظنة أن يرتاب فى اتيانها حسبما مر فى مطلع سورة البقرة الجملة عطف على المجرور بالباء كما قبلها

من الجملتين داخلة مثلهما فى حيز السببية وكذا قوله عزوجل (وان الله يبعث من فى القبور) لكن لا من حيث ان اتيان الساعة وبعث الموتى مؤثران فيما ذكر من أفاعيله تعالى ﴿ ٢١٨ ﴾ تأثير القدرة فيها بل من حيث ان كلا منهما سبب

داع له عزوجل بموجب رأفته بالعباد المبنية على الحكم البالغة الى ما ذكر من خلقهم ومن احياء الارض الميتة على نمط بديع صالح للاستشهاد به على مكانهما ليتأملوا فى ذلك ويستدلوا به على وقوعهما لا محالة ويصدقوا بما ينطق بهما من الوحى المبين وينالوا به السعادة الابدية ولولا ذلك لما فعل تعالى ما فعل بل لما خلق العالم رأسا وهذا كما ترى من أحكام حقيته تعالى فى أفعاله وابتنائها على الحكم الباهرة كأن ما قبله من أحكام حقيته تعالى فى صفاته وكونها فى غاية الكمال وقد جعل اتيان الساعة وبعث من فى القبور لكونهما من روادف الحكمة كناية عن كونه تعالى حكيما كأنه قيل ذلك بسبب أنه تعالى قادر على احياء الموتى وعلى كل شئ يتعلق به القدرة وأنه حكيم لا يخلف ميعاده وقد وعد بالساعة والبعث فلا بد أن يفى بما وعد وأنت خبير بان ما له الاستدلال بحكمته تعالى على اتيان الساعة والبعث وليس الكلام فى ذلك بل انما هو فى سببيتهما للامر من خلق ﴿ فى ﴾ الانسان واحياء الارض فتأمل وكن على الحق المبين وقيل قوله تعالى وأن الساعة آتية ليس معطوفا على المجرور بالباء ولا داخلا فى حيز السببية بل هو خبر والمبتدأ محذوف لفهم المعنى والتقدير

الله رسوله من النصر فنزلت هذه الآية (وثانيها) قال مقاتل نزلت فى نفر من أسد وغطفان قالوا نخاف ان الله لا ينصر محمدا فينقطع الذى بيننا وبين حلفائنا من اليهود فلا يميرونا (وثالثها) ان حساده واعداءه كانوا يتوقعون ان لا ينصره الله وان لا يعليه على اعدائه فى شاهدوا ان الله نصره غاظهم ذلك (وأما البحث الثانى) فاعلم ان فى لفظ السبب قولين (أحدهما) أنه الحبل وهؤلاء اختلفوا فى السماء فمنهم من قال هو سماء البيت ومنهم من قال هو السماء فى الحقيقة فقالوا المعنى من كان يظن ان لن ينصره الله ثم يغيظه انه لا يظفر بمطلوبه فليستقص وسعه فى ازالة ما يغيظه بان يفعل ما يفعل من بلغ منه الغيظ كل مبلغ حتى مد حبلا الى سماء بيته فاختنق فلينظر أنه ان فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذى يغيظه وعلى هذا القول اختلفوا فى القطع فقال بعضهم سمى الاختناق قطعا لان المختنق يقطع نفسه بحبس مجاريه وسمى فعله كيدا لانه وضعه موضع الكيد حيث لم يقدر على غيره أو على سبيل الاستهزاء الا أنه لم يكد به محسوده وانما كاد به نفسه والمراد ليس فى يده الا ما لا يذهب ما يغيظ وهذا قول الكلبى ومقاتل وقال ابن عباس رضى الله عنهما يشد الحبل فى عنقه وفى سقف البيت ثم ليقطع الحبل حتى يختنق و يهلك هذا كله اذا حملنا السماء على سقف البيت وهو قول كثير من المفسرين وقال آخرون المراد منه نفس السماء فانه يمكن حمل الكلام على نفس السماء فهو أولى من حمله على سماء البيت لان ذلك لا يفهم منه الا مقيدا ولان الغرض ليس الامر بان يفعل ذلك بل الغرض أن يكون ذلك صارفا له عن الغيظ الى طاعة الله تعالى واذا كان كذلك فكل ما كان المذكور أبعد من الامكان كان أولى بان يكون هو المراد ومعلوم ان مد الحبل الى سماء الدنيا والاختناق به أبعد فى الامكان من مده الى سقف البيت لان ذلك ممكن أما الذين قالوا السبب ليس هو الحبل فقد ذكروا وجهين (الاول) كانه قال فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع بذلك السبب المسافة ثم لينظر فانه يعلم ان مع تحمل المشقة فيما ظنه خاسر الصفقة كان لم يفعل شيئا وهو قول أبى مسلم (والثانى) كانه قال فليطلب سببا يصل به الى السماء فليقطع نصر الله لنبيه ولينظر هل يتهيأ له الوصول الى السماء بحيلة وهل يتهيأ له أن يقطع بذلك نصر الله عن رسوله فاذا كان ذلك ممتنعا كان غيظه عديم الفائدة واعلم ان المقصد على كل هذه الوجوه معلوم فانه زجر للكفار عن الغيظ فيما لا فائدة فيه وهو فى معنى قوله فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الارض أو سلما فى السماء مبينا بذلك انه لا حيلة له فى الآيات التى اقترحوها (القول الثانى) ان الهاء فى قوله لن ينصره الله راجع الى من فى أول الآية لانه المذكور ومن حق الكناية ان ترجع الى مذكور اذا أمكن ذلك ومن قال بذلك حمل النصرة على الرزق وقال أبو عبيدة وقف علينا سائل من بنى بكر فقال من ينصرنى نصره الله أى من يعطينى اعطاه الله فكانه قال من كان يظن ان لن يرزقه الله فى الدنيا والآخرة فلهذا الظن يعدل عن التمسك بدين محمد صلى الله عليه وسلم كما وصفه تعالى

والامر ان الساعة آتية وأن الثانية معطوفة على الاولى وقيل المعنى ذلك لتعلموا بان الله هو الحق الآيتين (ومن الناس من يجادل فى الله) هو أبو جهل ﴿ ٢١٩ ﴾ بن هشام حسبما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وقيل هو

فى قوله وان أصابته فتنة انقلب على وجهه فليبالغ غاية الجزع وهو الاختناق فان ذلك لا يغلب لقسمته ويجعله مرزوقا أما قوله وكذلك انزلناه آيات بينات فمعناه ومثل ذلك الانزال انزلنا القرآن كله آيات بينات أما قوله وأن الله يهدى من يريد فقد احتج أصحابنا به فقالوا المراد من الهداية اما وضع الادلة أو خلق المعرفة والاول غير جائز لانه تعالى فعل ذلك فى حق كل المكلفين ولان قوله يهدى من يريد دليل على ان الهداية غير واجبة عليه بل هى متعلقة بمشيئته سبحانه ووضع الادلة عند الخصم واجب فبقى أن المراد منه خلق المعرفة قال القاضى عبد الجبار فى الاعتذار هذا يحتمل وجوها (أحدها) يكلف من يريد لان من كلف أحدا شيئا فقد وصفه له وبينه له (وثانيها) ان يكون المراد يهدى الى الجنة والاثابة من يريد ممن آمن وعمل صالحا (وثالثها) ان يكون المراد أن الله تعالى يلطف بمن يريد ممن علم انه اذا زاده هدى ثبت على ايمانه كقوله تعالى والذين اهتدوا زادهم هدى وهذا الوجه هو الذى اشار الحسن اليه بقوله ان الله يهدى من قبل لامن لم يقبل والوجهان الاولان ذكرهما أبو على (والجواب) عن الاول ان الله تعالى ذكر ذلك بعد بيان الادلة والجواب عن الشبهات فلا يجوز حمله على محض التكليف وأما الوجهان الاخيران فقد فوبان لانهما عندك واجبان على الله تعالى وقوله يهدى من يريد يقتضى عدم الوجوب ﴿ قوله تعالى (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شئ شهيد ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ومن يهن الله فما له من مكرم ان الله يفعل ما يشاء) القراءة قرئ حق بالضم وقرئ حقا أى حق عليه العذاب حقا وقرئ مكرم بفتح الراء بمعنى الاكرام واعلم انه تعالى لما قال وأن الله يهدى من يريد أتبعه فى هذه الآية ببيان من يهديه ومن لا يهديه واعلم ان المسلم لا يخالفه فى المسائل الاصولية الا طبقات ثلاثة (أحدها) الطبقة المشاركة له فى نبوة نبيه كالخلاف بين الجبرية والقدرية فى خلق الافعال البشرية والخلاف بين مثبتى الصفات والرؤية ونفاتها (وثانيها) الذين يخالفونه فى النبوة ولكن يشاركونه فى الاعتراف بالفاعل المختار كالخلاف بين المسلمين واليهود والنصارى فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعيسى وموسى عليهما السلام (وثالثها) الذين يخالفونه فى الاله وهؤلاء هم السوفسطائية المتوقفون فى الحقائق والدهرية الذين لا يعترفون بوجود مؤثر فى العالم والفلاسفة الذين يثبتون مؤثرا موجبا لا مختارا فاذا كانت الاختلافات الواقعة فى اصول الاديان محصورة فى هذه الاقسام الثلاثة ثم لا يشك ان اعظم جهات الخلاف هو من جهة القسم الاخير منها وهذا القسم الاخير باقسامه الثلاثة لا يوجدون فى العالم المتظاهرين بعقائدهم ومذاهبهم بل يكونون مستترين أما القسم الثانى وهو الاختلاف الحاصل بسبب الانبياء عليهم السلام فتقسيمه أن يقال القائلون بالفاعل المختار اما أن يكونوا معترفين بوجود

من يتصدى لاضلال الناس واغوائهم كائنا من كان كما أن الاول من يقلدهم على أن الشيطان عبارة عن المضل المغوى على الاطلاق (بغير علم) متعلق بمحذوف وقع حالا من ضمير يجادل اى كائنا بغير علم والمراد بالعلم العلم الضرورى كما أن المراد بالهدى فى قوله تعالى (ولا هدى) هو الاستدلال والنظر الصحيح الهادى الى المعرفة (ولا كتاب منير) وحى مظهر للحق أى يجادل فى شأنه تعالى من غير تمسك بمقدمة ضرورية ولا بحجة نظرية ولا ببرهان سمعى كما فى قوله تعالى ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وأما ما قيل من أن المراد به المجادل الاول والتكرير للتأكيد والتمهيد لما بعده من بيان انه لا سند له من الاستدلال أو وحى فلا يساعده النظم الكريم كيف لا وان وصفه باتباع

كل شيطان موصوف بما ذكر يغنى عن وصفه بالعراء عن الدليل العقلى والسمعى (ثانى عطفه) حال أخرى من فاعل يجادل أى عاطفا لجانبه وطاويا كشحه معرضا متكبرا فان ثنى العطف كناية عن التكبر وقرئ بفتح العين أى مانعا لتعطفه (ليضل عن سبيل الله) متعلق بيجادل فان غرضه الاضلال عنه وان لم يعترف بأنه اضلال والمراد به اما الاخراج

من الهدى الى الضلال فالمفعول من يجادله من المؤمنين او الناس جميعا بتغليب المؤمنين على غيرهم واما التثبيت على الضلال او الزيادة عليه مجازا فالمفعول هم الكفرة خاصة وقرئ ﴿ ٢٢٠ ﴾ بفتح الياء وجعل ضلاله غاية لجداله من حيث

ان المراد به الضلال المبين الذى لا هداية له بعده مع تمكنه منها قبل ذلك (له فى الدنيا خزى) جملة مستأنفة مسوقة لبيان نتيجة ما سلكه من الطريقة أى يثبت له فى الدنيا بسبب ما فعله خزى وهو ما أصابه يوم بدر من القتل والصغار (ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق) أى النار المحرقة (ذلك) أى ما ذكر من العذاب الدنيوى والاخروى وما فيه من معنى البعد للايذان بكونه فى الغاية القاصية من الهول والفظاعة وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بما قدمت يداك) أى بسبب ما اقترفته من الكفر والمعاصى واسناده الى يديه لما أن الاكتساب عادة يكون بالايدى والالتفات لتأكيد الوعيد وتشديد التهديد ومحل أن فى قوله عز وعلا (وأن الله ليس بظلام للعبيد) الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أى والامر أنه تعالى ليس بمعذب لعبيده بغير ذنب من قبلهم والتعبير عن ذلك بنفى الظلم مع أن تعذيبهم بغير ذنب ليس بظلم قطعا ﴿ جميعا ﴾ على ما تقرر من قاعدة أهل السنة فضلا عن كونه ظلما بالغا قد مر تحقيقه فى سورة آل عمران والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون ما قبلها وأما ما قيل من أن محل أن هو الجر بالعطف

الانبياء أولا يكونوا معترفين بذلك أما المعترفون بذلك فاما أن يكونوا اتباعا لمن كان نبيا فى الحقيقة أو لمن كان متنبئا أما اتباع الانبياء عليهم السلام فهم المسلمون واليهود والنصارى وفرقة أخرى بين اليهود والنصارى وهم الصابئون وأما اتباع المتنبئ فهم المجوس وأما المنكرون للانبياء على الاطلاق فهم عبدة الاصنام والاوثان وهم المسمون بالمشركين ويدخل فيهم البراهمة على اختلاف طبقاتهم فثبت ان الاديان الحاصلة بسبب الاختلافات فى الانبياء عليهم السلام هى هذه الستة التى ذكرها الله تعالى فى هذه الآية قال قتادة ومقاتل الاديان ستة واحد لله تعالى وهو الاسلام وخمسة للشيطان وتمام الكلام فى هذه الآية قد تقدم فى سورة البقرة أما قوله ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال الزجاج هذا خبر لقول الله تعالى ان الذين آمنوا كما تقول ان أخاك ان الدين عليه لكثير قال جرير

ان الخليفة ان الله سربله * سربال ملك به ترجى الخواتيم

(المسئلة الثانية) الفصل مطلق فيحتمل الفصل بينهم فى الاحوال والاماكن جميعا فلا يجازيهم جزاء واحدا بغير تفاوت ولا يجمعهم فى موطن واحد وقيل يفصل بينهم يقضى بينهم أما قوله تعالى ان الله على كل شئ شهيد فالمراد أنه يفصل بينهم وهو عالم بما يستحقه كل منهم فلا يجرى فى ذلك الفصل ظلم ولا حيف أما قوله سبحانه وتعالى ألم تر أن الله يسجد له ففيه أسئلة (السؤال الاول) ما الرؤية ههنا (الجواب) انها العلم أى ألم تعلم ان الله يسجد له من فى السموات ومن فى الارض وانما عرف ذلك بخبر الله لانه رآه (السؤال الثانى) ما السجود ههنا فنا فيه وجوه (أحدها) قال الزجاج أجود الوجوه فى سجود هذه الامور انها تسجد مطيعة لله تعالى وهو كقوله ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين أن تقول له كن فيكون وان منها لما يهبط من خشية الله وان من شئ الا يسبح بحمده وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والمعنى ان هذه الاجسام لما كانت قابلة لجميع الاعراض التى يحدثها الله تعالى فيها من غير امتناع البتة اشبهت الطاعة والانقياد وهو السجود فان قيل هذا التأويل يبطله قوله وكثير من الناس فان السجود بالمعنى الذى ذكرته عام فى كل الناس فاسناده الى كثير منهم يكون تخصيصا من غير فائدة والجواب من وجوه (أحدها) ان السجود بالمعنى الذى ذكرناه وان كان عاما فى حق الكل الا أن بعضهم تمرد وتكبر وترك السجود فى الظاهر فهذا الشخص وان كان ساجدا بذاته لكنه متمرد بظاهره أما المؤمن فانه ساجد بذاته وبظاهره فلاجل هذا الفرق حصل التخصيص بالذكر (وثانيها) أن نقطع قوله وكثير من الناس عما قبله ثم فيه ثلاثة أوجه (الاول) أن نقول تقدير الآية ولله يسجد من فى السموات ومن فى الارض ويسجد له كثير من الناس فيكون السجود الاول بمعنى الانقياد والثانى بمعنى الطاعة والعبادة وانما فعلنا ذلك لانه قامت الدلالة على انه لا يجوز استعمال اللفظ المشترك فى معنييه

جميعا (الثانى) أن يكون قوله وكثير من الناس مبتدأ وخبره محذوف وهو مثاب لان خبر مقابله يدل عليه وهو قوله حق عليه العذاب (والثالث) أن يبالغ فى تكثير المحقوقين بالعذاب فيعطف كثير على كثير ثم يخبر عنهم بحق عليهم العذاب كأنه قيل وكثير من الناس وكثير حق عليهم العذاب (وثالثها) أن من يجوز استعمال اللفظ المشترك فى مفهوميه جميعا يقول المراد بالسجود فى حق الاحياء العقلاء العبادة وفى حق الجمادات الانقياد ومن ينكر ذلك يقول ان الله تعالى تكلم بهذه اللفظة مرتين فعنى بها فى حق العقلاء الطاعة وفى حق الجمادات الانقياد (السؤال الثالث) قوله ولله يسجد من فى السموات ومن فى الارض لفظه لفظ العموم فيدخل فيه الناس فلم قال مرة اخرى وكثير من الناس (الجواب) لو اقتصر على ما تقدم لأوهم ان كل الناس يسجدون كما أن كل الملائكة يسجدون فبين ان كثيرا منهم يسجدون طوعا ودون كثير منهم فانه يمتنع عن ذلك وهم الذين حق عليهم العذاب (القول الثانى) فى تفسير السجود أن كل ماسوى الله تعالى فهو ممكن لذاته والممكن لذاته لا يترجح وجوده على عدمه الا عند الانتهاء الى الواجب لذاته كما قال وان الى ربك المنتهى وكما أن الامكان لازم للممكن حال حدوثه وبقائه فافتقاره الى الواجب حاصل حال حدوثه وحال بقائه وهذا الافتقار الذاتى اللازم للماهية ادل على الخضوع والتواضع من وضع الجبهة على الارض فان ذلك علامة وضعية للافتقار الذاتى وقد يتطرق اليها الصدق والكذب أما نفس الافتقار الذاتى فانه ممتنع التغير والتبدل فجميع الممكنات ساجدة بهذا المعنى لله تعالى أى خاضعة متذللة معترفة بالفاقة اليه والحاجة الى تخليقه وتكوينه وعلى هذا تأولوا قوله وان من شئ الا يسبح بحمده وهذا قول القفال رحمه الله (القول الثالث) ان سجود هذه الاشياء سجود ظلها كقوله تعالى يتفيؤا ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون وهو قول مجاهد وأما قوله وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب فقال ابن عباس فى رواية عطاء وكثير من الناس يوحده وكثير حق عليه العذاب ممن لا يوحده وروى عنه أيضا انه قال وكثير من الناس فى الجنة وهذه الرواية تؤكد ما ذكرنا أن قوله وكثير من الناس مبتدأ وخبره محذوف وقال آخرون الوقف على قوله وكثير من الناس ثم استأنف فقال وكثير حق عليه العذاب أى وجب بإبائه وامتناعه من السجود وأما قوله تعالى ومن يهن الله فماله من مكرم فالمعنى ان الذين حق عليهم العذاب ليس لهم أحد يقدر على ازالة ذلك الهوان عنهم فيكون مكرما لهم ثم بين بقوله ان الله يفعل ما يشاء انه الذى يصح منه الاكرام والهوان يوم القيامة بالثواب والعقاب والله أعلم * قوله تعالى (هذان خصمان اختصموا فى ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما ارادوا ان يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار

المذبذبين اثر بيان حال المجاهرين أى ومنهم من يعبده تعالى على طرف من الدين لاثبات له فيه كالذى يتحرف الى طرف الجيش فان أحس بظفر قر والا فر (فان أصابه خير) أى دنيوى من الصحة والسعة (اطمأن به) أى ثبت على ما كان عليه ظاهر الا أنه اطمأن به اطمئنان المؤمنين الذين لا يلويهم عنه صارف ولا يثنيهم عاطف (وان أصابته فتنة) أى شئ يفتتن به من مكروه يعتريه فى نفسه أو أهله أو ماله (انقلب على وجهه) روى انها نزلت فى أعاريب قدموا المدينة وكان أحدهم اذا صح بدنه ونتجت فرسه مهرا سريا وولدت امرأته ولدا سويا وكثر ماله وماشيته قال ما أصبت منذ دخلت فى ديني هذا الا خيرا وطمأن وأن كان الامر بخلافه قال ما أصبت الا شرا وانقلب وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ان يهوديا أسلم فأصابته مصائب فتشاءم بالاسلام فأتى النبى عليه الصلاة والسلام فقال أقلنى فقال عليه السلام ان الاسلام لا يقال فنزلت وقيل نزلت فى المؤلفة قلوبهم (خسر الدنيا والآخرة) فقدهما

وضيعهما بذهاب عصمته وحبوط عمله بالارتداد وقرئ خاسر بالنصب على الحال والرفع على الفاعلية ووضع الظاهر موضع الضمير تنصيصا على خسرانه اوعلى انه خبر مبتدا محذوف (ذلك) أى ما ذكر من الخسران ومافيه من معنى البعد للايذان بكونه فى غاية ما يكون (هو الخسران المبين) الواضح كونه خسرانا اذلا خسران مثله (يدعو من دون الله) استئناف مبين لعظم الخسران أى يعبد متجاوزا عبادة الله تعالى (مالا يضره) اذا لم يعبده (ومالا ينفعه) ان عبده أى جمادا ليس من شأنه الضر والنفع كما يلوح به تكرير كلمة ما (ذلك) الدعاء (هو الضلال البعيد) عن الحق والهدى مستعار من ضلال من أبعد فى التيه ضلالا عن الطريق (يدعوا لمن ضره أقرب من نفعه استئناف مسوق لبيان مال دعائه المذكور وتقرير كونه ضلالا بعيدا مع ازاحة ماعسى يتوهم من نفى الضرر عن معبوده بطريق المباشرة نفيه عنه بطريق التسبيب أيضا فالدعاء بمعنى القول واللام داخلة على الجملة الواقعة مقولا له ومن مبتدأ وضره مبتدأ ثان خبره أقرب والجملة صلة للمبتدأ الاول وقوله تعالى (لبئس المولى ولبئس

يحلون فيها من اساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد) القراءة روى عن الكسائى خصمان بكسر الخاء وقرئ قطعت بالتخفيف كان الله يقدر لهم نيرانا على مقادير جثثهم تشتمل عليهم كما تقطع الثياب الملبوسة قرأ الاعمش كلما أرادوا ان يخرجوا منها من غم ردوا فيها الحسن يصهر بتشديد الهاء للمبالغة وقرئ ولؤلؤا بالنصب على تقدير ويؤتون لؤلؤا كقوله وحور اعينا ولؤلؤا بقلب الهمزة الثانية واوا واعلم انه سبحانه لما بين ان الناس قسمان منهم من يسجد لله ومنهم من حق عليه العذاب ذكر ههنا كيفية اختصامهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج من قال اقل الجمع اثنان بقوله هذان خصمان اختصموا (والجواب) الخصم صفة وصف بها الفوج أو الفريق فكأنه قيل هذان فوجان أو فريقا يختصمان فقوله هذان للفظ واختصموا للمعنى كقوله ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا (المسئلة الثانية) ذكروا فى تفسير الخصمين وجوها (أحدها) المراد طائفة المؤمنين وجماعتهم وطائفة الكفار وجماعتهم وان كل الكفار يدخلون فى ذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما يرجع الى أهل الاديان الستة فى ربهم أى فى ذاته وصفاته (وثانيها) روى ان أهل الكتاب قالوا نحن أحق بالله وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم وقال المؤمنون نحن أحق بالله آمنا بمحمد وآمنا بنبيكم وبما أنزل الله من كتاب وانتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسدا فهذه خصومتهم فى ربهم (وثالثها) روى قيس بن عبادة عن أبى ذر الغفارى رحمه الله انه كان يحلف بالله ان هذه الاية نزلت فى ستة نفر من قريش تبارزوا يوم بدر حمزة وعلى وعبيدة بن الحرث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة وقال على رضى الله عنه أنا أول من يجثو للخصومة بين يدى الله تعالى يوم القيامة (ورابعها) قال عكرمة هما الجنة والنار قالت النار خلقنى الله لعقوبته وقالت الجنة خلقنى الله لرحمته فقص الله من خبرهما على محمد صلى الله عليه وسلم ذلك والاقرب هو الاول لان السبب وان كان خاصا فالواجب حمل الكلام على ظاهره وقوله هذان كالاشارة الى من تقدم ذكرهم أهل الاديان الستة وأيضا ذكر صنفين اهل طاعته وأهل معصيته ممن حق عليه العذاب فوجب أن يكون رجوع ذلك اليهما فمن خص به مشركى العرب او اليهود من حيث قالوا فى كتابهم ونبيهم ما حكيناه فقد أخطأ وهذا هو الذى يدل على أن قوله ان الله يفصل بينهم أراد به الحكم لان ذكر التخاصم يقتضى ان الواقع بعده يكون حكما فبين الله تعالى حكمه فى الكفار وذكر من احوالهم امورا ثلاثة (أحدها) قوله قطعت لهم ثياب من نار والمراد بالثياب احاطة النار بهم كقوله لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش عن أنس وقال سعيد بن جبير من نحاس أذيب بالنار أخذا من قوله تعالى سرابيلهم من قطران واخرج الكلام بلفظ الماضى كقوله تعالى ونفخ فى الصور وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد لان ما كان من أمر الآخرة فهو كالواقع (وثانيها) قوله يصب من فوق

﴿ رؤسهم ﴾

العشير) جواب لقسم مقدر هو وجوابه خبر للمبتدأ الاول وايثار من على ما مع كون معبودة جماد اوايراد صيغة التفضيل مع خلوه عن النفع بالمرة للمبالغة فى تقبيح حاله والامعان فى ذمه أى يقول ذلك الكافر يوم القيامة بدعاء وصراح حين يرى تضرره بمعبوده ودخوله النار بسببه ولا يرى منه أثر النفع أصلا لمن ضره أقرب من نفعه والله لبئس الناصر هو ولبئس الصاحب هو فكيف بما هو ضرر محض عار عن النفع بالكلية ويجوز أن يكون يدعو الثانى اعادة للاول لا تأكيدا له فقط بل وتمهيدا لما بعده من بيان سوء حال معبوده اثر بيان سوء حال عبادته بقوله تعالى ذلك هو الضلال البعيد كأنه قيل من جهته تعالى بعد ذكر عبادته لما لا يضره ولا ينفعه يدعو ذلك ثم قيل لمن ضره أقرب من نفعه والله لبئس المولى ولبئس العشير فكلمة من وصيغة التفضيل للتهكم به وقيل اللام زائدة ومن مفعول يدعو ويؤيده القراءة بغير لام أى يعبد من ضره أقرب من نفعه وايراد كلمة من وصيغة التفضيل تهكم به أيضا والجملة القسمية مستأنفة

رؤسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود الحميم الماء الحار قال ابن عباس رضى الله عنهما لو سقطت منه قطرة على جبال الدنيا لأذابتها يصهر أى يذاب أى اذا صب الحميم على رؤسهم كان تأثيره فى الباطن نحو تأثيره فى الظاهر فيذيب امعائهم واحشاءهم كما يذيب جلودهم وهو أبلغ من قوله وسقوا ماء حميما فقطع امعاءهم (وثالثها) قوله ولهم مقامع من حديد لمقامع السياط وفى الحديث لو وضعت مقمعة منها فى الارض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها وأما قوله كلما أرادوا ان يخرجوا منها من غم اعيدوا فيها فاعلم ان الاعادة لا تكون الا بعد الخروج والمعنى كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم فخرجوا اعيدوا فيها ومعنى الخروج ما روى عن الحسن ان النار تضربهم بلهبها فترفعهم حتى اذا كانوا فى أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفا وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق والحريق الغليظ من النار العظيم الاهلاك ثم انه سبحانه ذكر حكمه فى المؤمنين من أربعة أوجه (أحدها) المسكن وهو قوله ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار (وثانيها) الحلية وهو قوله يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير فبين تعالى انه موصلهم فى الآخرة الى ما حرمه عليهم فى الدنيا من هذه الامور وان كان من أحله لهم أيضا شاركهم فيه لان المحلل للنساء فى الدنيا يسير بالاضافة الى ما سيحصل لهم فى الآخرة (وثالثها) الملبوس وهو قوله ولباسهم فيها حرير (ورابعها) قوله وهدوا الى الطيب من القول وفيه وجوه (احدها) أن شهادة أن لا اله الا الله هو الطيب من القول لقوله ومثل كلمة طيبة وقوله اليه يصعد الكلم الطيب وهو صراط الحميد لقوله وانك لتهدى الى صراط مستقيم (وثانيها) قال السدى وهدوا الى الطيب من القول هو القرآن (وثالثها) قال ابن عباس رضى الله عنهما فى رواية عطاء هو قولهم الحمد لله الذى صدقنا وعده (ورابعها) أنهم اذا ساروا الى الدار الآخرة هدوا الى البشارات التى تأتيهم من قبل الله تعالى بدوام النعيم والسرور والسلام وهو معنى قوله والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار وعندى فيه وجه خامس وهو أن العلاقة البدنية جارية مجرى الحجاب للارواح البشرية فى الاتصال بعالم القدس فاذا فارقت أبدانها انكشف الغطاء ولاحت الانوار الالهية وظهور تلك الانوار هو المراد من قوله وهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد والتعبير عنها هو المراد من قوله وهدوا الى الطيب من القول ﴿ قوله سبحانه وتعالى (ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) اعلم انه تعالى بعد ان فصل بين الكفار والمؤمنين ذكر عظم حرمة البيت وعظم كفر هؤلاء فقال ان الذين كفروا بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام وذلك بالمنع من الهجرة والجهاد لانهم كانوا يأتون ذلك وفيه اشكال وهو أنه كيف عطف المستقبل وهو قوله ويصدون عن سبيل الله على الماضى وهو

(ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات) استئناف جئ به لبيان كمال حسن حال المؤمنين العابدين له تعالى وأن الله عز وجل يتفضل عليهم بما لا غاية وراءه من أجل

وقوله تعالى (تجرى من تحتها الانهار) صفة لجنات فان أريد بها الاشجار المتكاثفة الساترة لما تحتها فجريان الانهار من تحتها ظاهر وان اريد بها الارض فلا بد من تقدير مضاف أى من تحت اشجارها وان جعلت عبارة عن مجموع الارض والاشجار فاعتبار التحتية بالنظر الى الجزء الظاهر المصحح لاطلاق اسم الجنة على الكل كما مر تفصيله فى اوائل سورة البقرة وقوله تعالى (ان الله يفعل ما يريد) تعليل لما قبله وتقرير له بطريق التحقيق أى يفعل البتة كل ما يريده من الافعال المتقنة اللائقة المبنية على الحكم الرائقة التى من جملتها اثابة من آمن به وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم عقاب من أشرك به وكذب برسوله عليه السلام ولما كان هذا من آثار نصرته تعالى له عليه السلام عقب بقوله عز وعلا (من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة) تحقيقا لها وتقريرا لثبوتها على أبلغ وجه وآكده ﴿ الشافعى ﴾

قوله كفروا (والجواب) عنه من وجهين (الاول) انه يقال فلان يحسن الى الفقراء ويعين الضعفاء لا يراد به حال ولا استقبال وانما يراد استمرار وجود الاحسان منه فى جميع ازمنته واوقاته فكأنه قيل ان الذين كفروا من شأنهم الصد عن سبيل الله ونظيره قوله الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله (وثانيهما) قال أبو على الفارسى التقدير ان الذين كفروا فيما مضى وهم الآن يصدون ويدخل فيه انهم يفعلون ذلك فى الحال والمستقبل أما قوله والمسجد الحرام يعنى ويصدونهم أيضا عن المسجد الحرام قال ابن عباس رضى الله عنهما نزلت الآية فى ابى سفيان بن حرب واصحابه حين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية عن المسجد الحرام عن ان يحجوا ويعتمروا وينحروا الهدى فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم قتالهم وكان محرما بالعمرة ثم صالحوه على أن يعود فى العام القابل أما قوله الذى جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ابو على الفارسى اى جعلناه للناس منسكا ومتعبدا وقوله سواء العاكف فيه والباد رفع على انه خبر مبتدأ مقدم أى العاكف والبادى فيه سواء وتقدير الآية المسجد الحرام الذى جعلناه للناس منسكا فالعاكف والبادى فيه سواء وقرأ عاصم ويعقوب سواء بالنصب بايقاع الجعل عليه لان الجعل يتعدى الى مفعولين والله أعلم (المسئلة الثانية) العاكف المقيم به الحاضر والبادى الطارئ من البدو وهو النازع اليه من غربته وقال بعضهم يدخل فى العاكف القريب اذا جاور ولزمه للتعبد وان لم يكن من أهله (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى أنهما فى أى شئ يستويان قال ابن عباس رضى الله عنهما فى بعض الروايات انهما يستويان فى سكنى مكة والنزول بها فليس أحدهما أحق بالمنزل الذى يكون فيه من الآخر الا أن يكون واحد سبق الى المنزل وهو قول قتادة وسعيد بن جبير ومن مذهب هؤلاء ان كراء دور مكة وبيعها حرام واحتجوا عليه بالآية والخبر أما الآية فهى هذه قالوا ان أرض مكة لا تملك فانها لو ملكت لم يستو العاكف فيها والبادى فلما استويا ثبت ان سبيله سبيل المساجد وأما الخبر فقوله عليه السلام مكة مباح لمن سبق اليها وهذا مذهب ابن عمر وعمر بن عبد العزيز ومذهب ابى حنيفة واسحق الحنظلى رضى الله عنهم وعلى هذا المراد بالمسجد الحرام الحرم كله لان اطلاق لفظ المسجد الحرام والمراد منه البلد جائز بدليل قوله تعالى سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام وههنا قد دل الدليل وهو قوله العاكف لان المراد منه المقيم اقامة واقامته لا تكون فى المسجد بل فى المنازل فيجب أن يقال ذكر المسجد واراد مكة (القول الثانى) المراد جعل الله الناس فى العبادة فى المسجد سواء ليس للمقيم أن يمنع البادى وبالعكس قال عليه السلام يا بنى عبد مناف من ولى منكم من أمور الناس شيئا فلا يمنعن عن أحد طاف بهذا البيت أو صلى أية ساعة من ليل أو نهار وهذا قول الحسن ومجاهد وقول من أجاز بيع دور مكة وقد جرت مناظرة بين الشافعى واسحق الحنظلى بمكة وكان اسحق لا يرخص فى كراء بيوت مكة واحتج

غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه فمن كان يغيظه ذلك من أعاديه وحساده ويظن أن لن يفعله تعالى بسبب مدافعته بعض الامور ومباشرة ما يرده من المكايد فليبالغ في استفراغ المجهود وليجاوز في الجد كل حد معهود

الشافعي رحمه الله بقوله تعالى الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق فاضيفت الدار الى مالكها والى غير مالكها وقال عليه السلام يوم فتح مكة من أغلق بابه فهو آمن وقال صلى الله عليه وسلم هل ترك لنا عقيل من ربع وقد اشترى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما دار السجن أترى أنه اشتراها من مالكها أو من غير مالكها قال اسحق فعلمت أن الحجة قد لزمتني تركت قولي أما الذي قالوه من حمل لفظ المسجد على مكة بقرينة قوله العاكف فضعيف لان العاكف قد يراد به الملازم للمسجد المعتكف فيه على الدوام أو في الاكثر فلا يلزم ما ذكروه ويحتمل ان يراد بالعاكف المجاور للمسجد المتمكن في كل وقت من التعبد فيه فلا وجه لصرف الكلام عن ظاهره مع هذه الاحتمالات أما قوله ومن يرد فيه بالحاد بظلم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ يرد بفتح الياء من الورود ومعناه من أتى فيه بالحاد وعن الحسن ومن يرد الحاده بظلم والمعنى ومن يرد ايقاع الحاد فيه فالاضافة صحيحة على الاتساع في الظرف كمكر الليل والنهار ومعناه ومن يرد أن يلحد فيه ظالما (المسئلة الثانية) الالحاد العدول عن القصد وأصله الحاد الحافر وذكر المفسرون في تفسير الالحاد وجوها (أحدها) انه الشرك يعني من جاء الى حرم الله ليشرك به عذبه الله تعالى وهو احدى الروايات عن ابن عباس وقول عطاء بن ابي رباح وسعيد بن جبير وقتادة ومقاتل (وثانيها) قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت في عبد الله بن سعد حيث استسلم النبي صلى الله عليه وسلم فارتد مشركا وفي قيس بن ضبابة وقال مقاتل نزلت في عبد الله بن خطل حين قتل الانصاري وهرب الى مكة كافرا فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله يوم الفتح كافرا (وثالثها) قتل ما نهى الله تعالى عنه من الصيد (ورابعها) دخول مكة بغير احرام وارتكاب ما لا يحل للمحرم (وخامسها) أنه الاحتكار عن مجاهد وسعيد بن جبير (وسادسها) المنع من عمارته (وسابعها) عن عطاء قول الرجل في المبايعة لا والله وبلى والله وعن عبد الله بن عمر انه كان له فسطاطان أحدهما في الحل والآخر في الحرم فاذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل فقيل له فقال كنا نحدث أن من الالحاد فيه أن يقول الرجل لا والله وبلى والله (وثامنها) وهو قول المحققين ان الالحاد بظلم عام في كل المعاصي لان كل ذلك صغر أم كبر يكون هناك أعظم منه في سائر البقاع حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه لو أن رجلا بعدن هم بأن يعمل سيئة عند البيت اذاقه الله عذابا أليما وقال مجاهد تضاعف السيئات فيه كما تضاعف الحسنات فان قيل كيف يقال ذلك مع ان قوله تذقه من عذاب أليم غير لائق بكل المعاصي قلنا لانسلم فان كل عذاب يكون أليما الا أنه تختلف مراتبه على حسب اختلاف المعصية (المسئلة الثالثة) الباء في قوله بالحاد فيه قولان (أحدهما) وهو الاولى وهو اختيار صاحب الكشاف ان قوله بالحاد بظلم حالان مترادفان ومفعول يرد متروك ليتناول كل متناول كأنه قال ومن يرد فيه مرادا ما عادلا عن القصد ظالما نذقه من عذاب أليم يعني ان الواجب على من كان فيه ان يضبط نفسه ويسلك طريق

فقصارى أمره وعاقبة مكره أن يختنق حنقا مما يرى من ضلال مساعيه وعدم انتاج مقدماته ومباديه (فليمدد بسبب الى السماء) فليمدد حبلا الى سقف بيته (ثم ليقطع) أي ليختنق من قطع اذا اختنق لانه يقطع نفسه بحبس مجاريه وقيل ليقطع الحبل بعد الاختناق على أن المراد به فرض القطع وتقديره كما أن المراد بالنظر في قوله تعالى (فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ) تقدير النظر وتصويره أي فليصور في نفسه النظر هل يذهبن كيده ذلك الذي هو أقصى ما انتهت اليه قدرته في باب المضادة والمضارة ما يغيظه من النصرة كلا ويجوز أن يراد فلينظر الآن أنه ان فعل ذلك هل يذهب ما يغيظه وقيل المعنى فليمدد حبلا الى السماء المظلة وليصعد عليه ثم ليقطع الوحي وقيل ليقطع المسافة حتى يبلغ عنانها فيجتهد

دفع نصره وياباه س أن مساق النظم الكريم بيان أن الامور المفروضة على تقدير وقوعها يعزل من اذهاب ما يغيظ ومن البين أن لا معنى لفرض وقوع الامور الممتنعة وترتيب الامر بالنظر عليه لاسيما قطع الوحي فان فرض وقوعه

يخل بالمرام قطعا وقيل كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطئون ماوعد الله رسوله عليه الصلاة والسلام من النصر وآخرون من المشركين ﴿ يريدون اتباعه عليه السلام ويخشون أن

أن لا يثبت أمره فنزلت وقد فسر النصر بالرزق فالمعنى ان الارزاق بيد الله تعالى لا تنال الا بمشيئته تعالى فلا يدع العبد من الرضا بقسمته فمن ظن أن الله تعالى غير رازقه ولم يصبر ولم يستسلم فليبلغ غاية الجزع وهو الاختناق فان ذلك لا يغلب القسمة ولا يرده مرزوقا (وكذلك) أي مثل ذلك الانزال البديع المنطوي على الحكم البالغة (أنزلناه) أي القرآن الكريم كله وقوله تعالى (آيات بينات) أي واضحات الدلالة على معانيها الرائقة حال من ضمير المنصوب مبينة للأمر اليد بذلك (وان الله يهدي) به ابتداء أو يثبت على الهدى أو يزيد فيه (من يريد) هدايته أو تثبيته أو زيادته فيها ومحل الجملة اما الجر على حذف الجار المتعلق بمحذوف مؤخر أي ولان الله يهدي من يريد أنزله كذلك أو الرفع على انه خبر لمبتدا محذوف أي والامر أن الله يهدي من يريد هدايته (ان الذين آمنوا) اي بما ذكر من الآيات ﴿ فكانوا ﴾ البينات بهداية الله تعالى أو بكل ما يجب أن يؤمن به فيدخل فيه ما ذكر دخولا أوليا (والذين هادوا والصابئون والنصارى والمجوس) قيل هم قوم

السداد والعدل في جميع مايهم به ويقصده (الثاني) قال أبو عبيدة مجازه ومن يرد فيه الحاد أو الباء من حروف الزوائد (المسئلة الرابعة) لما كان الالحاد بمعنى الميل من أمر الى أمر بين الله تعالى ان المراد بهذا الالحاد مايكون ميلا الى الظلم فلهذا قرن الظلم بالالحاد لانه لامعصية كبرت أم صغرت الا وهو ظلم ولذلك قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم أما قوله تعالى نذقه من عذاب أليم فهو بيان الوعيد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) من قال الآية نزلت في ابن خطل قال المراد بالعذاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتله يوم الفتح ولا وجه للتخصيص اذا امكن التعميم بل يجب أن يكون المراد العذاب في الآخرة لانه من أعظم ما يتوعد به (المسئلة الثانية) ان هذه الآية تدل على ان الهم يستحق العذاب بارادته للظلم كما يستحقه على عمل جوارحه (المسئلة الثالثة) ذكروا قولين في خبر ان المذكور في أول الآية (الاول) التقدير ان الذين كفروا ويصدون ومن يرد فيه بالحاد نذقه من عذاب فهو عائد الى كلتا الجملتين (الثاني) أنه محذوف لدلالة جواب الشرط عليه تقديره ان الذين كفروا ويصدون عن المسجد الحرام نذيقهم من عذاب أليم وكل من ارتكب فيه ذنبا وكذلك ﴿ قوله تعالى (واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود واذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على مارزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق) اعلم ان قوله واذ بوأنا أي واذكر حين جعلنا لابراهيم مكان البيت مباءة أي مرجعا يرجع اليه للعمارة والعبادة وكان قد رفع البيت الى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حمراء فأعلم الله تعالى ابراهيم عليه السلام مكانه بريح أرسلها فكشفت ماحوله فبناه على وضعه الاول وقيل أمر ابراهيم بان يأتي موضع البيت فيبنى فانطلق فخفي عليه مكانه فبعث الله تعالى على قدر البيت الحرام في العرض والطول غمامة وفيها رأس يتكلم وله لسان وعينان فقال يا ابراهيم ابن على قدري وحيالي فأخذ في البناء وذهبت السحابة وههنا سؤالات (السؤال الاول) لاشك أن أن هي المفسرة فكيف يكون النهي عن الشرك والامر بتطهير البيت تفسير التبوئة (الجواب) انه سبحانه لما قال جعلنا البيت مرجعا لابراهيم فكأنه قيل ما معنى كون البيت مرجعا له فأجيب عنه بأن معناه أن يكون بقلبه موحدا لرب البيت عن الشرك والنظير وبقالبه مشتغلا بتنظيف البيت عن الاوثان والاصنام (السؤال الثاني) ان ابراهيم لما لم يشرك بالله فكيف قال أن لا تشرك بي (الجواب) المعنى لا تجعل في العبادة لي شريكا ولا تشرك بي غرضا آخر في بناء البيت (السؤال الثالث) البيت ما كان معمورا قبل ذلك فكيف قال وطهر بيتي (الجواب) لعل ذلك المكان كان صحراء وكانوا يرمون اليها الاقذار فامر ابراهيم ببناء البيت في ذلك المكان وتطهيره من الاقذار أو كانت معمورة

يعبدون النار وقيل الشمس والقمر وقيل هم قوم من النصارى اعتزلوا عنهم ولبسوا المسوح وقيل أخذوا من ديني نصارى شيئا ومن دين اليهود شيئا وهم القائلون بان للعالم أصلين نورا وظلمة (والذين أشركوا) هم عبدة الاصنام وقوله تعالى (ان الله يفصل بينهم يوم القيامة) في حيز الرفع على أنه خبر لان السابقة وتصدير طرفي الجملتين بحرف التحقيق لزيادة التقرير والتاكيد أي يقضي بين المؤمنين وبين الفرق الخمس المتفقة على ملة الكفر باظهار الحق من المبطل وتوفية كل منهما حقه من الجزاء باثابة الاول وعقاب الثاني بحسب استحقاق أفراد كل منهما وقوله تعالى (ان الله على كل شئ شهيد) تعليل لما قبله من الفصل أي عالم بكل شئ من الاشياء ومراقب لاحواله ومن قضيته الاحاطة بتفاصيل ما صدر عن كل فرد من أفراد الفرق المذكورة واجراء جزائه اللائق به عليه وقوله تعالى (ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الارض) الخ بيان لما يوجب الفصل المذكور من اعمال الفرق المذكورة مع الاشارة الى كيفيته

فكانوا قد وضعوا فيها أصناما فأمره الله تعالى بتخريب ذلك البناء ووضع بناء جديد وذلك هو التطهير من الاوثان أو يقال المراد انك بعد أن تبنيه فطهره عما لا ينبغي من الشرك وقول الزور وأما قوله للطائفين والقائمين فقال ابن عباس رضي الله عنهما للطائفين بالبيت من غير أهل مكة والقائمين أي المقيمين بها والركع السجود أي من المصلين من الكل وقال آخرون القائمون هم المصلون لان المصلي لا بد وأن يكون في صلاته جامعا بين القيام والركوع والسجود والله أعلم أما قوله تعالى وأذن في الناس بالحج ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن محيصن وآذن بمعنى أعلم (المسئلة الثانية) في المأمور به قولان (أحدهما) وعليه أكثر المفسرين انه هو ابراهيم عليه السلام قالوا والمفرغ ابراهيم عليه السلام من بناء البيت قال سبحانه وأذن في الناس بالحج قال يا رب وما يبلغ صوتي قال علي الاذان وعلي البلاغ فصعد ابراهيم عليه السلام الصفا وفي رواية أخرى أبا قبيس وفي رواية أخرى على المقام قال ابراهيم كيف أقول قال جبريل عليه السلام قل لبيك اللهم لبيك فهو أول من لبى وفي رواية أخرى انه صعد الصفا فقال يا ايها الناس ان الله كتب عليكم حج البيت العتيق فسمعه ما بين السماء والارض فما ترى شئ سمع صوته الا أقبل يلبي يقول لبيك اللهم لبيك وفي رواية أخرى ان الله يدعوكم الى حج البيت الحرام ليثيبكم به الجنة ويخرجكم من النار فاجابه يومئذ من كان في اصلاب الرجال وارحام النساء وكل من وصل اليه صوته من حجر أو شجر ومدر وأكمة وتراب قال تجاهد فما حج انسان ولا يحج أحد حتى تقوم الساعة الا وقد أسمعه ذلك النداء فمن أجاب مرة حج مرة ومن أجاب مرتين أو أكثر فالحج مرتين أو أكثر على ذلك المقدار وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال لما أمر ابراهيم عليه السلام بالاذان تواضعت له الجبال وخفضت وارتفعت له القرى قال القاضي عبد الجبار يبعد قولهم انه أجابه الصخر والمدر لان الاعلام لا يكون الا لمن يؤمر بالحج دون الجماد فاما من يسمع من أهل المشرق والمغرب نداءه فلا يمتنع اذا قواه الله تعالى ورفع الموانع ومثل ذلك قد يجوز في زمان الانبياء عليهم السلام (القول الثاني) ان المأمور به قوله وأذن هو محمد صلى الله عليه وسلم وهو قول الحسن واختيار أكثر المعتزلة واحتجوا عليه بأن ما جاء في القرآن وأمكن حمله على أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو المخاطب به فهو أولى وتقدم قوله واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت لا يوجب أن يكون قوله واذن يرجع اليه اذ قد بينا أن معنى قوله واذ بوأنا أي واذكر يا محمد اذ بوأنا فهو في حكم المذكور فاذا قال تعالى وأذن فاليه يرجع الخطاب وعلى هذا القول ذكروا في تفسير قوله تعالى واذن وجوها (أحدها) ان الله تعالى أمر محمدا صلى الله عليه وسلم بأن يعلم الناس بالحج (وثانيها) قال الجبائي أمره الله تعالى أن يعلن التلبية فيعلم الناس أنه حاج فيحجوا معه قال وفي قوله يأتوك دلالة على ان المراد أن يحج فيقتدى به (وثالثها) انه ابتداء فرض الحج من الله تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم أما قوله يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ففيه

كونه بطريق التعديب والاثابة والاكرام والاهانة اثر بيان ما يوجبه من كونه تعالى شهيدا على جميع الاشياء التي من جملتها أحوالهم وأفعالهم والمراد بالرؤية العلم عبر عنه بها اشعارا بظهور المعلوم والخطاب لكل أحد ممن يتأتى منه

الرؤية بناء على انه من الجلاء بحيث لا يخفى على أحد والمراد بالسجود هو الانقياد التام لتدبيره تعالى بطريق الاستعارة المبنية على تشبيهه بأكمل أفعال المكلف في باب الطاعة ايذانا بكونه في أقصى مراتب التسخر والذلال لا سجود الطاعة الخاصة بالعقلاء سواء جعلت كلمة من عامة لغيرهم أيضا وهو الانسب بالمقام لافادته شمول الحكم لكل ما فيهما بطريق القرار فيهما أو بطريق الجزئية منهما فيكون قوله تعالى (والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب) افراد الهما بالذكر لشهرتها واستبعاد ذلك منها اعادة أو جعلت خاصة بالعقلاء لعدم شمول سجود الطاعة لكلهم حسبما ينبئ عنه قوله تعالى (وكثير من الناس) فانه مرتفع بفعل مضمر يدل عليه المذكور أي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعباده ومن قضيته انتفاء ذلك عن بعضهم وقيل هو مرفوع على الابتداء حذف خبره ثقة بدلالة خبر قسيمه عليه نحو حق له الثواب والاول هو الاولى لما فيه من الترغيب في السجود والطاعة وقد جوز أن يكون من الناس خبرا له أي من الناس الذين هم الناس على الحقيقة وهم الصالحون والمتقون وأن يكون قوله تعالى (وكثير) مطوفا على كثير الاول للايذان بغاية الكثرة ثم يخبر عنهم باستحقاق العذاب كأنه قيل

مسائل (المسئلة الاولى) الرجال المشاة واحدهم راجل كشيام ونائم وقرئ رجال بضم الراء مخففا وثقله و رجال كعجال عن ابن عباس رضي الله عنهما وقوله وعلى كل ضامر أي ركبانا والضمور الهزال ضمر يضمر ضمورا والمعنى ان الناقة صارت ضامرة لطول سفرها وانما قال يأتين أي جماعة الابل وهي الضوامر لان قوله وعلى كل ضامر معناه على ابل ضامرة فجعل الفعل بمعنى كل ولو قال يأتي على اللفظ صح وقرئ يأتون صفة للرجال والركبان والفج الطريق بين الجبلين ثم استعمل في سائر الطرق اتساعا والعميق البعيد قرأ ابن مسعود معيق يقال بئر بعيدة العمق والمعق (المسئلة الثانية) المعنى وأذن ليأتوك رجالا وعلى كل ضامر أي وأذن ليأتوك على هاتين الصفتين أو يكون المراد وأذن فانهم يأتوك على هاتين الصفتين (المسئلة الثالثة) بدأ الله بذكر المشاة تشريفا لهم و روى سعيد ابن جبير باسناده عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان الحاج الراكب له بكل خطوة تخطوها راحلته سبعون حسنة وللماشي سبعمائة حسنة من حسنات الحرم قيل يا رسول الله وما حسنات الحرم قال الحسنة بمائة ألف حسنة (المسئلة الرابعة) انما قال يأتوك رجالا لانه هو المنادي فمن أتى بمكة حاجا فكأنه أتى ابراهيم عليه السلام لانه يجيب نداءه أما قوله ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ففيه مسائل (المسئلة الاولى) انه تعالى لما أمر بالحج في قوله وأذن في الناس بالحج ذكر حكمة ذلك الامر في قوله ليشهدوا منافع لهم واختلفوا فيها فبعضهم حملها على منافع الدنيا وهي أن يتجروا في أيام الحج وبعضهم حملها على منافع الآخرة وهي العفو والمغفرة عن محمد الباقر عليه السلام وبعضهم حملها على الامرين جميعا وهو الاولى (المسئلة الثانية) انما نكر المنافع لانه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات (المسئلة الثالثة) كنى عن الذبح والنحر بذكر اسم الله تعالى لان أهل الاسلام لا ينفكون عن ذكر اسم الله اذا ذبحوا واذا نحروا وفيه تنبيه على ان الغرض الاصلي فيما يتقرب به الى الله تعالى أن يذكر اسم الله تعالى وان يخالف المشركين في ذلك فانهم كانوا يذبحون لها النصب والاوثان قال مقاتل اذا ذبحت فقل بسم الله والله أكبر اللهم منك واليك وتستقبل القبلة و زاد الكلبي فقل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين قال القفال وكان المتقرب بها وبارافة دمائها متصورا بصورة من يفدي نفسه بما يعادلها فكأنه يبذل تلك الشاة بدل مهجته طلبا لمرضاة الله تعالى واعترافا بأن تقصيره كاد يستحق مهجته (المسئلة الرابعة) أكثر العلماء صاروا الى أن الايام المعلومات عشر ذي الحجة والمعدودات ايام التشريق وهذا قول مجاهد وعطاء وقتادة والحسن و رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس واختيار الشافعي وأبي حنيفة رحمهم الله واحتجوا بانها معلومة عند الناس لحرصهم على علمها من أجل أن وقت الحج في آخرها ثم المنافع أوقات من العشر معروفة كيوم عرفة والمشعر الحرام وكذلك الذبائح لها وقت منها وهو يوم النحر وقال ابن عباس في رواية عطاء انها يوم النحر

وكثير وكثير من الناس (حق عليه العذاب) أى بكفره واستعصاله وقرئ حق بالضم وحقا أى حق عليه العذاب حقا (ومن يهن الله) بان كتب عليه الشقاوة حسبما علمه من صرف اختياره الى الشر (فماله من مكرم) يكرمه بالسعادة وقرئ بفتح الراء على أنه مصدر ميمى (ان الله يفعل مايشاء) من الاشياء التى من جملتها الاكرام والاهانة (هذان) تعيين لطرفى الخصام وازاحة لما عسى يتبادر الى الوهم من كونه بين كل واحدة من الفرق الست وبين البواقى وتحرير لمحله أى فريق المؤمنين وفريق الكفرة المنقسم الى الفرق الخمس (خصمان) اى فريقان مختصمان وانما قيل (اختصموا فى ربهم) حملا على المعنى أى اختصموا فى شانه عز وجل وقيل فى دينه وقيل فى ذاته وصفاته والكل من شؤنه تعالى فان اعتقاد كل من الفريقين بحقية ماهو عليه وبطلان ماعليه صاحبه و بناء أقواله وأفعاله عليه خصومة للفريق الآخر وان لم يجر بينهما التحاور والخصام وقيل تخاصمت اليهود و المؤمنون فقالت اليهود نحن أحق بالله وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم وقال المؤمنون نحن أحق بالله منكم امنا بمحمد و بنبيكم و بما أنزل الله من كتاب وانتم تعرفون كتابنا ونبينا ثم كفرتم به حسدا فنزلت (فالذين كفروا) تفصيل لما أجمل فى قوله تعالى يفصل بينهم يوم القيامة (قطعت لهم) أى

وثلاثة ايام بعده وهو اختيار أبى مسلم قال لانها كانت معروفة عند العرب بعدها وهى أيام النحر وهو قول أبى يوسف ومحمد رحمهما الله أما قوله بهيمة الانعام فقال صاحب الكشاف البهيمة مبهمة فى كل ذات أربع فى البر والبحر فبينت بالانعام وهى الابل والبقر والضأن والمعز أما قوله تعالى فكلوا منها فمن الناس من قال انه أمر وجوب لان أهل الجاهلية كانوا لا يأكلون منها ترفعا على الفقراء فامر المسلمون بذلك لما فيه من مخالفة الكفار ومساواة الفقراء واستعمال التواضع وقال الاكثرون انه ليس على الوجوب ثم قال العلماء من أهدى أوضحى فحسن أن يأكل النصف ويتصدق بالنصف لقوله تعالى فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ومنهم من قال يأكل الثلث ويدخر الثلث ويتصدق بالثلث ومذهب الشافعى رحمه الله ان الاكل مستحب والاطعام واجب فان أطعم جميعها أجزأه وان أكل جميعها لم يجزه هذا فيما كان تطوعا فأما الواجبات كالنذور والكفارات والجبرانات لنقصان مثل دم القران ودم التمتع ودم الاساءة ودماء القلم والحلق فلا يأكل منها أما قوله وأطعموا البائس الفقير فلا شبهة فى انه أمر ايجاب والبائس الذى أصابه بؤس أى شدة والفقير الذى أضعفه الاعسار وهو مأخوذ من فقار الظهر قال ابن عباس البائس الذى ظهر بؤسه فى ثيابه وفى وجهه والفقير الذى لا يكون كذلك فتكون ثيابه نقية ووجهه وجه غنى أما قوله ثم ليقضوا تفثهم قال الزجاج ان أهل اللغة لا يعرفون التفث الا من التفسير وقال المبرد أصل التفث فى كلام العرب كل قاذورة تلحق الانسان فيجب عليه نقضها والمراد ههنا قص الشارب والاظفار ونتف الابط وحلق العانة والمراد من القضاء ازالة التفث وقال القفال قال نفطويه سألت أعرابيا فصيحا ما معنى قوله ثم ليقضوا تفثهم فقال ما أفسر القرآن ولكنا نقول للرجل ما أتفثك وما أدرنك ثم قال القفال وهذا أولى من قول الزجاج لان القول قول المثبت لا قول النافى أما قوله وليوفوا نذورهم فقرئ بتشديد الفاء ثم يحتمل ذلك ما أوجبه الدخول فى الحج من أنواع المناسك و يحتمل أن يكون المراد ما أوجبوه بالنذر الذى هو القول وهذا القول هو الاقرب فان الرجل اذا حج أو اعتمر فقد يوجب على نفسه من الهدى وغيره ما لولا ايجابه لم يكن الحج يقتضيه فأمر الله تعالى بالوفاء بذلك أما قوله وليطوفوا بالبيت العتيق فالمراد الطواف الواجب وهو طواف الافاضة والزيارة اما كون هذا الطواف بعد الوقوف ورمى الجمار والحلق ثم هو فى يوم النحر أو بعده ففيه تفصيل وسمى البيت بالعتيق لوجوه (أحدها) العتيق القديم لانه أول بيت وضع للناس عن الحسن (وثانيها) لانه أعتق من الجبابرة فكم من جبار سار اليه ليهدمه فمنعه الله تعالى وهو قول ابن عباس وقول ابن الزبير ورووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما قصده ابرهة فعل به ما فعل فان قيل فقد تسلط الحجاج عليه (فالجواب) قلنا ما قصد التسلط على البيت وانما تحصن به عبد الله بن الزبير فاحتال لاخراجه ثم بناه (وثالثها) لم يملك قط عن ابن عيينة (ورابعها) أعتق من الغرق عن مجاهد (وخامسها) بيت

قدرت على مقادير جثثهم وقرئ بالتخفيف (ثياب من نار) اى نيران هائلة تحيط بهم احاطة الثياب بلابسها (يصب من فوق رؤسهم الحميم) أى الماء الحار الذى انتهت حرارته قال ابن عباس ❊ ٢٣٠ ❊ رضى الله عنهما لو قطرت قطرة منها على جبال الدنيا لاذابتها والجملة مستأنفة أو خبر ثان للموصول أو حال من ضمير لهم (يصهر به) اى يذاب (ما فى بطونهم) من الامعاء والاحشاء وقرئ يصهر بالتشديد (والجلود) عطف على ما وتأخيرها عنها لمراعاة الفواصل أو للاشعار بغاية شدة الحرارة بايهام أن تأثيرها فى الباطن أقدم من تأثيرها فى الظاهر مع أن ملابستها على العكس والجملة حال من الحميم (ولهم) للكفرة أى لتعذيبهم وأجلهم (مقامع من حديد) جمع مقمعة وهى آلة القمع (كلما ارادوا أن يخرجوا منها) أى أشرفوا على الخروج من النار ودنوا منه حسبما يروى أنها تضربهم بلهيبها فترفعهم حتى اذا كانوا فى أعلاها ضربوا بالمقامع فهووا فيها سبعين خريفا (من غم) أى من غم شديد من غمومها وهو بدل اشتمال من الهاء باعادة الجار ولرابط محذوف كما أشير اليه أو مفعول له للخروج (اعيدوا فيها) أى فى قعرها بان ردوا من أعاليها الى أسافلها من غير ان يخرجوا ❊ انه ❊ منها (وذوقوا) على تقدير قول معطوف على أعيدوا أى وقيل لهم ذوقوا (عذاب الحريق) أى الغليظ من النار

كريم من قولهم عتاق الطير والخيل واعلم ان اللام فى ليقضوا وليوفوا وليطوفوا لام الامر وفى قراءة ابن كثير ونافع والاكثرين تخفيف هذه اللامات وفى قراءة أبى عمرو تحريكها بالكسر ❊ قوله تعالى (ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه واحلت لكم الانعام الا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب) قال صاحب الكشاف ذلك خبر مبتدا محذوف أى الامر والشان ذلك كما يقدم الكاتب جملة من كلامه فى بعض المعانى فاذا أراد الخوض فى معنى آخر قال هذا وقد كان كذا والحرمة ما لا يحل هتكه وجميع ما كلفه الله تعالى بهذه الصفة من مناسك الحج وغيرها يحتمل أن يكون عاما فى جميع تكاليفه ويحتمل أن يكون خاصا فيما يتعلق بالحج وعن زيد بن أسلم الحرمات خمس الكعبة الحرام والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام والمشعر الحرام وقال المتكلمون ولا تدخل النوافل فى حرامات الله تعالى فهو خير له عند ربه أى فالتعظيم خير له للعلم بانه يجب القيام بمراعاتها وحفظها وقوله عند ربه يدل على الثواب المدخر لانه لا يقال عند ربه فيما قد حصل من الخيرات قال الاصم فهو خير له من التهاون بذلك ثم انه تعالى عاد الى بيان حكم الحج فقال وأحلت لكم الانعام فقد كان يجوز أن يظن ان الاحرام اذا حرم الصيد وغيره فالانعام أيضا تحرم فبين الله تعالى ان الاحرام لا يؤثر فيها فهى محللة واستثنى منه ما يتلى فى كتاب الله من المحرمات من النعم وهو المذكور فى سورة المائدة وهو قوله تعالى غير محلى الصيد وأنتم حرم وقوله حرمت عليكم وقوله ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ثم انه سبحانه لما حث على تعظيم حرماته وحد من يعظمها اتبعه بالامر باجتناب الاوثان وقول الزور لان توحيد الله تعالى وصدق القول أعظم الخيرات وانما جمع الشرك وقول الزور فى سلك واحد لان الشرك من باب الزور لان المشرك زاعم أن الوثن تحق له العبادة فكأنه قال فاجتنبوا عبادة الاوثان التى هى رأس الزور واجتنبوا قول الزور كله ولا تقربوا منه شيئا لتماديه فى القبح والسماجة وما ظنك بشئ من قبيله عبادة الاوثان وسمى الاوثان رجسا لا للنجاسة لكن لان وجوب تجنبها أو كد من وجوب تجنب الرجس ولان عبادتها أعظم من التلوث بالنجاسات ثم قال الاصم انما وصفها بذلك لان عادتهم فى المتقربات أن يتعمدوا سقوط الدماء عليها وهذا بعيد وقيل انه انما وصفها بذلك استحقارا واستخفافا وهذا أقرب وقوله من الاوثان بيان للرجس وتمييز له كقوله عندى عشرون من الدراهم لان الرجس لما فيه من الابهام يتناول كل شئ فكأنه قال فاجتنبوا الرجس الذى هو الاوثان وليس المراد أن بعضها ليس كذلك والزور من الزور والازورار وهو الانحراف كما أن الافك من أفكه اذا صرفه والمفسرون ذكروا فى قول الزور وجوها (أحدها) أنه قولهم هذا حلال وهذا حرام وما أشبه ذلك من افترائهم (وثانيها) شهادة الزور عن النبى صلى الله عليه وسلم

انه صلى الصبح فلما سلم قام قائما واستقبل الناس بوجهه وقال عدلت شهادة الزور الاشراك بالله وتلا هذه الآية (وثالثها) الكذب والبهتان (ورابعها) قول أهل الجاهلية فى تلبيتهم لبيك لاشريك لك الا شريك هو لك تملكه وما ملك أما قوله تعالى حنفاء لله فقد تقدم ذكر تفسير ذلك وأنه الاستقامة على قول بعضهم والميل الى الحق على قول البعض والمراد فى هذا الموضع ماقيل من أنه الاخلاص فكأنه قال تمسكوا بهذه الامور التى أمرت ونهيت على وجه العبادة لله وحده لا على وجه اشراك غير الله به ولذلك قال غير مشركين به وهذا يدل على أن الواجب على المكلف أن ينوى بما يأتيه من العبادة الاخلاص فبين تعالى مثلين للكفر لامزيد عليهما فى بيان أن الكافر ضار بنفسه غير منتفع بها وهو قوله ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق قال صاحب الكشاف ان كان هذا تشبيها مركبا فكأنه قيل من أشرك بالله فقد أهلك نفسه اهلاكا ليس وراءه هلاك بان صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير فتفرقت اجزاؤه فى حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المهالك البعيدة وان كان تشبيها مفرقا فقد شبه الايمان فى علوه بالسماء والذى ترك الايمان وأشرك بالله كالساقط من السماء والاهواء التى تتوزع أفكاره بالطير المختطفة والشيطان الذى يطرحه فى وادى الضلالة بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهاوى المتلفة وقرئ بكسر الخاء والطاء وبكسر الفاء مع كسرهما وهى قراءة الحسن وأصلها تختطفه وقرئ الرياح ثم انه سبحانه أكد ما تقدم فقال ذلك ومن يعظم شعائر الله واختلفوا فقال بعضهم يدخل فيه كل عبادة وقال بعضهم بل المناسك فى الحج وقال بعضهم بل المراد الهدى خاصة والاصل فى الشعائر الاعلام التى بها يعرف الشئ فاذا فسرنا الشعائر بالهدايا فتعظيمها على وجهين (أحدهما) أن يختارها عظام الاجسام حسانا جساما سمانا غالية الاثمان ويترك المكاس فى شرائها فقد كانوا يتغالون فى ثلاثة ويكرهون المكاس فيهن الهدى والاضحية والرقبة روى عن ابن عمر رضى الله عنهما عن أبيه انه أهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشترى بثمنها بدنا فنهاه عن ذلك وقال بل أهدها وأهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة بدنة فيها جمل لابى جهل فى أنفه برة من ذهب (والوجه الثانى) فى تعظيم شعائر الله تعالى أن يعتقد أن طاعة الله تعالى فى التقرب بها واهداءها الى بيته المعظم أمر عظيم لابد وأن يحتفل به ويتسارع فيه فانها من تقوى القلوب أى فان تعظيمها من افعال ذوى تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات ولا يستقيم المعنى الا بتقديرها لانه لابد من راجع من الجزاء الى من ارتبط به وانما ذكرت القلوب لان المنافق قد يظهر التقوى من نفسه ولكن لما كان قلبه خاليا عنها لا جرم لا يكون مجدا فى أداء الطاعات اما المخلص الذى تكون التقوى متمكنة فى قلبه فانه يبالغ فى أداء الطاعات على سبيل الاخلاص فان قال قائل ما الحكمة فى أن الله تعالى بالغ فى تعظيم

بيان لحسن حال المؤمنين اثر بيان سوء حال الكفرة وقد غير الاسلوب فيه باسناد الادخال الى الله عز وجل وتصدير الجملة بحرف التحقيق ايذانا بكمال مباينة حالهم لحال الكفرة واظهارا لمزيد العناية بامر المؤمنين ودلالة على تحقق مضمون الكلام (يحلون فيها) على البناء للمفعول بالتشديد من التحلية وقرئ بالتخفيف من الاحلاء بمعنى الالباس أى يحليهم الملائكة بأمره تعالى وقرئ يحلون من حليت المرأة اذا لبست حليتها ومن فى قوله تعالى (من أساور) اما للتبعيض أى بعض أساور وهى جمع اسورة جمع سوار أو للبيان لما أن ذكر التحلية مما ينبئ عن الحلى المبهم وقيل زائدة وقيل نعت لمفعول محذوف ليحلون فانه بمعنى يلبسون (من ذهب) بيان للاساور (ولؤلؤا) عطف على محل من أساور أو على المفعول المحذوف أو منصوب بفعل مضمر يدل عليه يحلون أى يؤتون وقرئ بالجر عطفا على أساور وقرئ لؤلؤا بقلب الهمزة الثانية واوا ولوليا بقلبها ياء بعد قلبهما واوا ولياليا بقلبهما ياء (ولباسهم فيها حرير) غير الاسلوب حيث لم يقل ويلبسون فيها حريرا لكن لا للدلالة على أن الحرير ثيابهم المعتادة أو لمجرد المحافظة على هيئة الفواصل

بل للايذان بان ثبوت اللباس لهم امر محقق غنى عن البيان اذ لا يمكن عراؤهم عنه وانما المحتاج الى البيان آن لباسهم ماذا بخلاف الاساور واللؤلؤ فانها ليست من اللوازم الضرورية فجعل ﴿ ٢٣٢ ﴾ بيان تحليتهم بها مقصودا بالذات

ولعل هذا هو الباعث الى تقديم بيان التحلية على بيان حال اللباس (وهدوا الى الطيب من القول) وهو قولهم الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبوأ من الجنة الآية (وهدوا الى صراط الحميد) أى المحمود نفسه أو عاقبته وهو الجنة ووجه تأخير هذه الهداية عن ذكر الهداية الى القول المذكور المتأخر عن دخول الجنة المتأخر عن الهداية الى طريقها لرعاية التفاصل وقيل المراد بالحميد الحق المستحق لذاته لغاية الحمد وهو الله عز وجل وصراطه الاسلام ووجه التأخير حينئذ أن ذكر الحمد يستدعى ذكر المحمود (ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله) ليس المراد به حالا ولا استقبالا وانما هو استمرار الصد ولذلك حسن عطفه على الماضى كما فى قوله تعالى الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله وقيل هو حال من فاعل

ذبح الحيوانات هذه المبالغة فالجواب * قوله تعالى (لكم فيها منافع الى أجل مسمى ثم محلها الى البيت العتيق ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الانعام فالهكم اله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) أعلم ان قوله تعالى لكم فيها منافع الى أجل مسمى لا يليق الا بأن تحمل الشعائر على الهدى الذى فيه منافع الى وقت النحر ومن يحمل ذلك على سائر الواجبات يقول لكم فيها أى فى التمسك بها منافع الى أجل ينقطع التكليف عنده والاول هو قول جمهور المفسرين ولا شك انه أقرب وعلى هذا القول فالمنافع مفسرة بالدر والنسل والاوبار وركوب ظهورها فاما قوله الى أجل مسمى ففيه قولان (أحدهما) ان لكم أن تنتفعوا بهذه البهائم الى أن تسموها ضحية وهديا فاذا فعلتم ذلك فليس لكم أن تنتفعوا بها وهذا قول ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والضحاك وقال آخرون لكم فيها أى فى البدن منافع مع تسميتها هديا بان تركبوها ان احتجتم اليها وأن تشربوا ألبانها اذا اضطررتم اليها الى أجل مسمى يعنى الى أن تنحروها هذه هى الرواية الثانية عن ابن عباس رضى الله عنهما وهو اختيار الشافعى وهذا القول أولى لانه تعالى قال لكم فيها منافع أى فى الشعائر ولا تسمى شعائر قبل أن تسمى هديا وروى أبو هريرة انه عليه السلام مر برجل يسوق بدنة وهو فى جهد فقال عليه السلام اركبها فقال يا رسول الله انها هدى فقال اركبها ويلك وروى جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال اركبوا الهدى بالمعروف حتى تجدوا ظهرا واحتج أبو حنيفة رحمه الله على أنه لا يملك منافعها بان لا يجوز له أن يؤجرها للركوب فلو كان مالكا لمنافعها لملك عقد الاجارة عليها كمنافع سائر المملوكات هذا ضعيف لان أم الولد لا يمكنه بيعها ويمكنه الانتفاع بها فكذا ههنا أما قوله تعالى ثم محلها الى البيت العتيق فالمعنى ان لكم فى الهدايا منافع كثيرة فى دنياكم ودينكم وأعظم هذه المنافع محلها الى البيت العتيق أى وجوب نحرها أو وقت وجوب نحرها منتهية الى البيت كقوله هديا بالغ الكعبة وبالجملة فقوله محلها يعنى حيث يحل نحرها وأما البيت العتيق فالمراد به الحرم كله ودليله قوله تعالى فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا أى الحرم كله فالنحر على هذا القول كل مكة ولكنها تنزهت عن الدماء الى منى ومنى من مكة قال عليه السلام كل فجاج مكة منحر وكل فجاج منى منحر قال القفال هذا انما يختص بالهدايا التى بلغت منى فاما الهدى المتطوع به اذا عطب قبل بلوغ مكة فان محله موضعه أما قوله تعالى ولكل أمة جعلنا منسكا ليذكروا اسم الله فالمعنى شرعنا لكل أمة من الامم السالفة من عهد ابراهيم عليه السلام الى من بعده ضربا من القربان وجعل العلة فى ذلك أن يذكروا اسم الله تقدست أسماؤه على المناسك وما كانت العرب تذبحه للصنم يسمى العتر والعتيرة كالذبح والذبيحة وقرأ أهل الكوفة الا عاصما منسكا بكسر السين وقرأ الباقون بالفتح وهو مصدر بمعنى النسك والمكسور بمعنى الموضع

كفروا أى وهم يصدون وخبر ان محذوف لدلالة آخر الآية الكريمة عليه فان من ألحد فى الحرم حث عوقب ﴿ أما ﴾ بالعذاب الأليم فلأن يعاقب من جمع اليه الكفر والصد عن سبيل الله باشد من ذلك أحق وأولى (والمسجد الحرام)

لف على سبيل الله قيل المراد به مكة بدليل وصفه بقوله تعالى (الذى جعلناه للناس) أى كائنا من كان من غير
ق بين مكى وآفاقى (سواء العاكف فيه ﴿ ٢٣٣ ﴾ والباد) أى المقيم الطارئ وسواء أى مستويا مفعول

ثان لجعلناه والعاكف مرتفع به واللام متعلق به ظرف له وفائدة وصف المسجد الحرام بذلك زيادة تشنيع الصادين عنه وقرئ سواء بالرفع على أنه خبر مقدم والعاكف مبتدأ والجملة مفعول ثان للجعل وقرئ العاكف بالجر على انه بدل من الناس (ومن يرد فيه) مما ترك مفعوله ليتناول كل متناول كأنه قيل ومن يرد فيه مرادا ما (بالحاد) يعدول عن القصد (بظلم) بغير حق وهما حالان مترادفان أو الثانى بدل من الاول باعادة الجار أو صلة له أى ملحدا بسبب الظلم كالاشراك واقتراف الآثام (نذقه من عذاب أليم) جواب لمن (واذ بوأنا) يقال بوأه منزلا أى أنزله فيه ولما لزمه جعل الثانى مباءة للاول قيل (لابراهيم مكان البيت) وعليه مبنى قول ابن عباس رضى الله عنهما جعلناه أى اذكر وقت جعلنا مكان البيت مباءة له عليه السلام أى

اما قوله تعالى فالهكم اله واحد ففى كيفية النظم وجهان (أحدهما) ان الاله واحد وانما اختلفت التكاليف باختلاف الازمنة والاشخاص لاختلاف المصالح (الثانى) فالهكم اله واحد فلا تذكروا على ذبائحكم غير اسم الله فله اسلموا أى اخلصوا له الذكر خاصة بحيث لا يشوبه اشراك البتة والمراد الانقياد لله تعالى فى جميع تكاليفه ومن انقاد له كان مخبتا فلذلك قال بعده و بشر المخبتين والمخبت المتواضع الخاشع قال أبو مسلم حقيقة المخبت من صار فى خبت من الارض يقال أخبت الرجل اذا صار فى الخبت كما يقال انجد وأشأم واتهم والخبت هو المطمئن من الارض والمفسرون فيه عبارات (أحدها) المخبتين المتواضعين عن ابن عباس وقتادة (وثانيها) المجتهدين فى العبادة عن الكلبى (وثالثها) المخلصين عن مقاتل (ورابعها) المطمئنين الى ذكر الله تعالى والصالحين عن مجاهد (وخامسها) هم الذين لا يظلمون واذا ظلموا لم ينتصروا عن عمرو بن أوس ثم وصفهم الله تعالى بقوله الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم فيظهر عليهم الخوف من عقاب الله تعالى والخشوع والتواضع لله ثم لذلك الوجل أثران (أحدهما) الصبر على المكاره وذلك هو المراد بقوله والصابرين على ما أصابهم وعلى ما يكون من قبل الله تعالى لانه الذى يجب الصبر عليه كالامراض والمحن والمصائب فاما ما يصيبهم من قبل الظلمة فالصبر عليه غير واجب بل ان أمكنه دفع ذلك لزمه الدفع ولو بالمقاتلة (والثانى) الاشتغال بالخدمة واعز الاشياء عند الانسان نفسه وماله أما الخدمة بالنفس فهى الصلاة وهو المراد بقوله والمقيمى الصلاة وأما الخدمة بالمال فهو المراد من قوله ومما رزقناهم ينفقون قرأ الحسن والمقيمى الصلاة بالنصب على تقدير النون وقرأ ابن مسعود والمقيمين الصلاة على الاصل ﴿ قوله تعالى (والبدن جعلنا ها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صوافّ فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم و بشر المحسنين) اعلم أن قوله تعالى والبدن فيه مسائل (المسئلة الاولى) البدن جمع بدنة كخشب وخشبة سميت بذلك اذا أهديت للحرم لعظم بدنها وهى الابل خاصة ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم الحق البقر بالابل حين قال البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة ولانه قال فاذا وجبت جنوبها وهذا يختص بالابل فانها تنحر قائمة دون البقر وقال قوم البدن الابل والبقر التى يتقرب بها الى الله تعالى فى الحج والعمرة لانه انما سمى بذلك لعظم البدن فالاولى دخولها فيه أما الشاة فلا تدخل وان كانت تجوز فى النسك لانها صغيرة الجسم فلا تسمى بدنة (المسئلة الثانية) قرأ الحسن والبدن بضمتين كثمر فى جمع ثمرة وابن أبى اسحق بالضمتين وتشديد النون على لفظ الوقف وقرئ بالنصب والرفع كقوله والقمر قدرناه منازل والله أعلم (المسئلة الثالثة) اذا قال لله على بدنة هل يجوز له نحرها فى غير مكة قال أبو حنيفة

رجع اليه للعمارة ﴿ ٣٠ ﴾ س والعبادة وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع من الحوادث قدم بيانه غير مرة وقيل اللام زائدة

ومكان ظرف كما فى اصل الاستعمال أى أنزلناه فيه قيل رفع البيت الى السماء أيام الطوفان وكان من ياقوتة حم فاعلم الله تعالى ابراهيم عليه السلام مكانه بريح أرسلها يقال لها الهجوج كنست ماحوله فبنى

على أسه القديم روى أن الكعبة الكريمة بنيت خمس مرات احداها بناء الملائكة وكانت من ياقوتة حمراء ثم رفعت أيام الطوفان والثانية بناء ابراهيم عليه السلام والثالثة بناء قريش فى الجاهلية وقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا البناء والرابعة بناء ابن الزبير والخامسة بناء الحجاج وقد أوردنا ما فى هذا الشأن من الاقاويل فى تفسير قوله تعالى واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت وأن فى قوله تعالى (أن لا تشرك بى شيئا) مفسرة لوأنا من حيث انه متضمن لمعنى نعبدنا لان التبوئة للعبادة أو مصدرية موصولة بما نهى وقدم تحقيقه فى أوائل سورة هود أى فعلنا ذلك لئلا تشرك بى فى العبادة شيئا (وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود) أى وطهر بيتى من الاوثان والاقذار لمن يطوف به ويصلى فيه ولعل التعبير عن الصلاة بأركانها للدلالة على ان كل واحد منها مستقل باقتضاء ذلك فكيف وقد اجتمعت وقرئ يشرك ﴿ كذلك ﴾ بالياء (وأذن فى الناس) أى نادفيهم وقرئ آذن (بالحج)

ومحمد رحمهما الله يجوز وقال أبو يوسف رحمه الله لا يجوز الا بمكة وتفقوا فيمن نذر هديا ان عليه ذبحه بمكة ولو قال لله على جزور انه يذبحه حيث شاء وقال أبو حنيفة رحمه الله البدنة بمنزلة الجزور فوجب أن يجوز له نحرها حيث يشاء بخلاف الهدى فانه تعالى قال هديا بالغ الكعبة فجعل بلوغ الكعبة من صفة الهدى واحتج أبو يوسف رحمه الله بقوله تعالى والبدن جعلناها لكم من شعائر الله فكان اسم البدنة يفيد كونها قربة فكان كاسم الهدى أجاب أبو حنيفة رحمه الله بانه ليس كل ما كان ذبحه قربة اختص بالحرم فان الاضحية قربة وهى جائزة فى سائر الاماكن أما قوله تعالى جعلناها لكم فاعلم انه سبحانه لما خلق البدن وأوجب أن تهدى فى الحج جاز أن يقول جعلناها لكم من شعائر الله أما قوله لكم فيها خير فالكلام فيه ما تقدم فى قوله لكم فيها منافع واذا كان قوله لكم فيها خير كان ترغيب فالاولى أن يراد به الثواب فى الآخرة وما أخلق العاقل بالحرص على شئ شهد الله تعالى بان فيه خيرا وبان فيه منافع أما قوله فاذكروا اسم الله عليها ففيه حذف أى اذكروا اسم الله على نحرها قال المفسرون هو أن يقال عند النحر أو الذبح بسم الله والله أكبر اللهم منك وليك أما قوله صوافن فالمعنى قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن وقرئ صوافن من صفون الفرس وهو أن تقوم على ثلاث وتصيب الرابعة على طرف سنبكه فان البدنة تعقل احدى يديها فتقوم على ثلاث وقرئ صوافى أى خوالص لوجه الله تعالى لا تشركوا بالله فى التسمية على نحرها أحدا كما كان يفعله المشركون وعن عمرو بن عبيد صوافيا بالتنوين عوضا عن حرف الاطلاق عند الوقف عن بعضهم صوافى بحذف النون كقول العرب أعط القوس باريها ولا يبعد أن تكون الحكمة فى اصفانها ظهور كثرتها للناظرين فتقوى نفوس المحتاجين ويكون التقرب بنحرها عند ذلك أعظم أجرا وأقرب الى ظهور التكبير واعلاء اسم الله وشعائر دينه وأما قوله فاذا وجبت جنوبها فاعلم ان وجوب الجنوب وقوعها على الارض من وجب الحائط وجبة اذا سقط ووجبت الشمس وجبة اذا غربت والمعنى اذا سقطت على الارض وذلك عند خروج الروح منها فكلوا منها وقد ذكرنا اختلاف العلماء فيما يجوز أكله منها وأطعموا القانع والمعتر القانع السائل يقال قنع يقنع قنوعا اذا سأل قال أبو عبيد هو الرجل يكون مع القوم يطلب فضلهم ويسأل معروفهم ونحوه قال الفراء والمعنى الثانى القانع هو الذى لا يسأل من القناعة يقال قنع يقنع قناعة اذا رضى بما قسم له وترك السؤال أما المعتر فقيل انه المتعرض بغير سؤال وقيل انه المتعرض بالسؤال قال الازهرى قال ابن الاعرابى يقال عروت فلانا وأعررته وعرته واعتريته اذا أتيته تطلب معروفه ونحوه قال أبو عبيد والاقرب ان القانع هو الراضى بما يدفع اليه من غير سؤال والحاح والمعتر هو الذى يتعرض ويطلب ويعتريهم حالا بعد حال فيفعل ما يدل على انه لا يقنع بما يدفع اليه أبدا وقرأ الحسن والمعترى وقرأ أبو رجاء القنع وهو الراضى لا غير يقال قنع فهو قنع وقانع أما قوله

عوة الحج والامر به روى انه عليه السلام صعد أبا قبيس فقال يا أيها الناس حجوا بيت ربكم فاسمعه الله تعالى من أصلاب الرجال وأرحام النساء فيما بين ﴿ المشرق والمغرب ممن سبق في علمه تعالى أن يحج وقيل الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بذلك في حجة الوداع وبأباه كون السورة مكية (يأتوك) جواب الامر (رجالا) أي مشاة جمع راجل كقيام جمع قائم وقرئ بضم الراء وتخفيف الجيم وتشديده ورجالى كجالى (وعلى كل ضامر) عطف على رجالا أي وركبانا على كل بعير مهزول أتعبه بعد الشقة فهزله أو زاد هزاله (يأتين) صفة ضامر محمولة على المعنى وقرئ يأتون على أنه صفة للرجال والركبان أو استئناف فيكون الضمير للناس (من كل فج) طريق واسع (عميق) بعيد وقرئ معيق يقال بئر بعيدة العمق وبعيدة المعق بمعنى كالجذب والجبذ (ليشهدوا) متعلق بيأتوك لا بأذن أي ليحضروا (منافع) عظيمة الخطر كثيرة العدد أو نوعا من المنافع الدينية والدنيوية المختصة بهذه العبادة واللام في قوله تعالى (لهم) متعلق بمحذوف هو صفة لمنافع أي منافع كائنة لهم (ويذكروا اسم الله)

كذلك سخرناها لكم فلعلكم انها أجسم وأعظم وأقوى من السباع وغيرها مما يمتنع علينا التمكن منه فالله تعالى جعل الابل والبقر بالصفة التي يمكننا تصريفها على ما نريد وذلك نعمة عظيمة من الله تعالى في الدين والدنيا ثم لما بين تعالى هذه النعمة قال بعده لعلكم تشكرون والمراد لكي تشكروا قالت المعتزلة هذا يدل على انه سبحانه أراد من جميعهم أن يشكروا وقد علم هذا على انه يريد كل ما أمر به ممن أطاع وعصى لانا بقوله أهل السنة من أنه تعالى لم يرد ذلك الامن المعلوم انه يطيع والكلام عليه قد تقدم غير مرة أما قوله تعالى لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ففيه مسائل (المسئلة الاولى) لما كانت عادة الجاهلية على ما روى في القربان انهم يلوثون بدمائها ولحومها الوثن وحيطان الكعبة بين تعالى ما هو المقصد من النحر فقال لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم فبين أن الذي يصل اليه تعالى ويرتفع اليه من صنع المهدي من قوله ونحره وما شاكله من فرائضه هو تقوى الله دون نفس اللحم والدم ومعلوم ان شيئا من الاشياء لا يوصف بأنه يناله سبحانه فالمراد وصول ذلك الى حيث يكتب يدل عليه قوله اليه يصعد الكلم الطيب (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة دلت هذه الآية على أمور (أحدها) ان الذي ينتفع به المرء فعله دون الجسم الذي ينتفع بنحره (وثانيها) انه سبحانه غني عن كل ذلك وانما المراد أن يجتهد العبد في امتثال أوامره (وثالثها) انه لما لم ينتفع بالاجسام التي هي اللحوم والدماء وانتفع بتقواه وجب أن تكون تقواه فعلا له والا لكانت تقواه بمنزلة اللحوم (ورابعها) انه لما شرط القبول بالتقوى وصاحب الكبيرة غير متق فوجب أن لا يكون عمله مقبولا وانه لا ثواب له (والجواب) اما الاولان فظاهران وأما الثالث فمعارض بالدلائل والعلم وأما الرابع فصاحب الكبيرة وان لم يكن متقيا مطلقا ولكنه متق فيما أتى به من الطاعة على سبيل الاخلاص فوجب أن تكون طاعته مقبولة وعند هذا تنقلب الآية حجة عليهم (المسئلة الثالثة) كلهم قرؤا ينال الله ويناله بالياء الا يعقوب فانه قرأ بالتاء في الحرفين فمن أنث فقدره الى اللفظ ومن ذكر فللحائل بين الاسم والفعل ثم قال كذلك سخرها لكم والمراد انه انما سخرها كذلك لتكبروا الله وهو التعظيم بما فعله عند النحر وقبله وبعده على ما هدانا ودلنا عليه وبينه لنا ثم قال بعده على وجه الوعد لمن امتثل أمره وبشر المحسنين كما قال من قبل وبشر المخبتين والمحسن هو الذي يفعل الحسن من الافعال ويتمسك به فيصير محسنا الى نفسه بتوفير الثواب عليه ﴿ قوله تعالى (ان الله يدافع عن الذين آمنوا ان الله لا يحب كل خوان كفور أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلوة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور) اعلم انه تعالى لما بين

عند اعداد الهدايا والضحايا وذبحها وفي جعله غاية للاتيان ايذان بانه الغاية القصوى دون غيره وقيل

هو كناية عن الذبح لانه لاينفك عنه (فى أيام معلومات) هى أيام النحر كما ينبئ عنه قوله تعالى (على ما رزقهم من بهيمة الانعام) فان المراد بالذكر ما وقع عند الذبح وقيل ✽ ٢٣٦ ✽ هى عشر ذى الحجة وقد علق الفعل بالمرزوق و بيا

بالبهيمة تحريضا على التقرب وتنبيها على الذكر (فكلوا منها) التفات الى الخطاب والفاء فصيحة عاطفة لمدخولها على مقدر قد حذف للاشعار بانه أمر محقق غير محتاج الى التصريح به كما فى قوله تعالى فانفجرت أى فاذكروا اسم الله على ضحاياكم وكلوا من لحومها والامر للاباحة وازاحة ما كانت عليه أهل الجاهلية من التحرج فيه أو للندب الى مواساة الفقراء ومساواتهم (وأطعموا البائس) أى الذى أصابه بؤس وشدة (الفقير) المحتاج وهذا الامر للوجوب وقد قيل به فى الاول أيضا (ثم ليقضوا تفثهم) أى ليؤدوا ازالة وسخهم أو ليحلقوها بقص الشارب والاظفار ونتف الابط والاستحداد عند الاحلال (وليوفوا نذورهم) ما ينذرون من البر فى حجهم وقيل مواجب الحج وقرئ بفتح الواو وتشديد الفاء (وليطوفوا) طواف الركن الذى به يتم التحلل فانه قرينة قضاء التفث وقيل طواف الوداع (بالبيت العتيق) أى القديم فانه ✽ ديارهم ✽ أول بيت وضع للناس أو المعتق من تسلط الجبابرة فكأين من

ما يلزم فى الحج ومناسكه وما فيه من منافع الدنيا والآخرة وقد ذكرنا من قبل ان الكفار صدوهم اتبع ذلك ببيان ما يزيل الصدو يؤمن معه التمكن من الحج فقال ان الله يدافع عن الذين آمنوا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ أبو جعفر وشيبة ونافع بالالف ومثله ولولا دفع الله وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بغير ألف فيهما وقرأ حمزة والكسائى وعاصم ان الله يدافع بالالف ولولا دفع بغير ألف فمن قرأ يدافع فمعناه يبالغ فى الدفع عنهم وقال الخليل يقال دفع الله المكروه عنك دفعا ودافع عنك دفاعا والدفاع أحسنهما (المسئلة الثانية) ذكر ان الله يدافع عن الذين آمنوا ولم يذكر ما يدفعه حتى يكون أفخم وأعظم وأعم وان كان فى الحقيقة انه يدافع بأس المشركين فلذلك قال بعده ان الله لايحب كل خوان كفور فنبه بذلك على انه يدفع عن المؤمنين كيد من هذا صفته (المسئلة الثالثة) قال مقاتل ان الله يدافع كفار مكة عن الذين آمنوا بمكة هذا حين أمر المؤمنين بالكف عن كفار مكة قبل الهجرة حين آذوهم فاستأذنوا النبى صلى الله عليه وسلم فى قتلهم سرا فنهاهم (المسئلة الرابعة) هذه الآية بشارة للمؤمنين باعلائهم على الكفار وكف بوائقهم عنهم وهى كقوله لن يضروكم الا أذى وقوله انا لننصر رسلنا والذين آمنوا وقال انهم لهم المنصورون وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب أما قوله تعالى ان الله لايحب كل خوان كفور فالمعنى انه سبحانه انما جعل العلة فى انه يدافع عن الذين آمنوا ان الله لايحب صدهم وهو الخوان الكفور أى خوان فى امانة الله كفور لنعمته ونظيره قوله لاتخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم قال مقاتل أقروا بالصانع وعبدوا غيره فأى خيانة أعظم من هذا ✽ أما قوله تعالى أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ أهل المدينة والبصرة وعاصم فى رواية حفص أذن بضم الالف والباقون بفتحها أى أذن الله لهم فى القتال وقرأ أهل المدينة وعاصم يقاتلون بنصب التاء وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائى أذن بنصب الالف ويقاتلون بكسر التاء قال الفراء والزجاج يعنى أذن الله للذين يحرصون على قتال المشركين فى المستقبل ومن قرأ بفتح التاء فالتقدير أذن للذين يقاتلون فى القتال (المسئلة الثانية) فى الآية محذوف والتقدير أذن للذين يقاتلون فى القتال فحذف المأذون فيه لدلالة يقاتلون عليه أما قوله بانهم ظلموا فالمراد انهم أذنوا فى القتال بسبب كونهم مظلومين وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديدا وكانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين مضروب ومشجوج يتظلمون اليه فيقول لهم أصبروا فانى لم أومر بقتال حتى هاجر فأنزل الله تعالى هذه الآية وهى أول آية أذن فيها بالقتال بعد ما نهى عنه فى نيف وسبعين آية وقيل نزلت فى قوم خرجوا مهاجرين فاعترضهم مشركو مكة فاذن فى مقاتلتهم أما قوله وان الله على نصرهم لقدير فذلك وعد منه تعالى بنصرهم كما يقول المرء لغيره ان أطعتنى فانا قادر على مجازاتك لايعنى بذلك القدرة بل يريد أنه سيفعل ذلك أما قوله تعالى الذين أخرجوا من

جبار سار اليه ليهدمه فقصمه الله عز وجل وأما الحجاج الثقفي فانما قصد اخراج ابن الزبير رضي الله عنهما منه لا التسلط

عليه (ذلك) أي الامر ذلك وهذا وأمثاله يطلق للفصل بين الكلامين أو بين وجهي كلام واحد (ومن يعظم حرمات الله) أي أحكامه وسائر ما لا يحل هتكه بالعلم بوجوب مراعاتها والعمل بموجبه وقيل الحرم وما يتعلق بالحج من التكاليف وقيل الكعبة والمسجد الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام (فهو خير له) أي فالتعظيم خير له ثوابا عند ربه) أي في الاخرة والتعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضمير من لتشريفه والاشعار بعلة الحكم (وأحلت لكم الانعام) وهي الازواج الثمانية على الاطلاق فقوله تعالى (الا ما يتلى عليكم) أي الا ما يتلى عليكم آية تحريمه استثناء متصل منها على أن ما عبارة عما حرم منها لعارض كالميتة وما أهل به لغير الله تعالى والجملة اعتراض جيء به تقريرا لما قبله من الامر بالاكل والاطعام ودفعا لما عسى يتوهم أن الاحرام يحرمه كما يحرم الصيد وعدم الاكتفاء ببيان عدم كونها من ذلك القبيل بحمل الانعام على ما ذكر من الضحايا والهدايا المعهودة خاصة لئلا يحتاج الى الاستثناء المذكور اذ ليس فيها ما حرم لعارض قطعا لمراعاة حسن التخلص الى ما بعده

ديارهم بغير حق فاعلم انه تعالى لما بين انهم انما أذنوا في القتال لاجل انهم ظلموا فبين ذلك الظلم بقوله الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله فبين تعالى ظلمهم لهم بهذين الوجهين (أحدهما) انهم أخرجوهم من ديارهم (والثاني) انهم أخرجوهم بسبب انهم قالوا ربنا الله وكل واحد من الوجهين عظيم في الظلم فان قيل كيف استثنى من غير حق قولهم ربنا الله وهو من الحق قلنا تقدير الكلام انهم أخرجوا بغير موجب سوى التوحيد الذي ينبغي أن يكون موجب الاقرار والتمكين لا موجب الاخراج والتسيير ومثله هل تنقمون منا الا أن آمنا بالله ثم بين سبحانه بقوله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت ان اعادته جل جلاله أن يحفظ دينه بهذا الامر قرأ نافع لهدمت بالتخفيف وقرأ الباقون بالتشديد وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما المراد بهذا الدفاع الذي أضافه الى نفسه (الجواب) هو اذنه لاهل دينه بمجاهدة الكفار فكأنه قال تعالى ولولا دفاع الله أهل الشرك بالمؤمنين من حيث يأذن لهم في جهادهم وينصرهم على أعدائهم لاستولى أهل الشرك على أهل الاديان وعطلوا ما يبنونه من مواضع العبادة ولكنه دفع عن هؤلاء بان أمر بقتال أعداء الدين ليتفرغ أهل الدين للعبادة وبناء البيوت لها ولهذا المعنى ذكر الصوامع والبيع والصلوات وان كانت لغير أهل الاسلام وذكر المفسرون وجوها أخر (أحدها) قال الكلبي يدفع الله بالنبيين على المؤمنين وبالمجاهدين عن القاعدين عن الجهاد (وثانيها) روى ابو الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال يدفع الله بالمحسن عن المسيء وبالذي يصلي عن الذي لا يصلي وبالذي يتصدق عن الذي لا يتصدق وبالذي يحج عن الذي لا يحج وعن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ان الله يدفع بالمسلم الصالح عن مائة من أهل بيته ومن جيرانه ثم تلا هذه الآية (وثالثها) قال الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما يدفع بدين الاسلام وباهله عن أهل الذمة (ورابعها) قال مجاهد يدفع عن الحقوق بالشهود وعن النفوس بالقصاص (السؤال الثاني) لماذا جمع الله بين مواضع عبادات اليهود والنصارى وبين مواضع عبادة المسلمين (الجواب) لاجل ما سألت عنه اختلفوا على وجوه (أحدها) قال الحسن المراد بهذه المواضع أجمع مواضع المؤمنين وان اختلفت العبارات عنها (وثانيها) قول الزجاج ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم في شرع كل نبي المكان الذي يصلى فيه فلولا ذلك الدفع لهدم في زمن موسى الكنائس التي كانوا يصلون فيها في شرعه وفي زمن عيسى الصوامع وفي زمن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم المساجد فعلى هذا انما دفع عنهم حين كانوا على الحق قبل التحريف وقبل النسخ (وثالثها) بل المراد لهدمت هذه الصوامع في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم لانها على كل حال يجرى فيها ذكر الله تعالى فليست بمنزلة عبادة الاوثان (السؤال الثالث) ما الصوامع والبيع والصلوات والمساجد (الجواب) ذكروا فيها وجوها (أحدها) الصوامع للنصارى والبيع لليهود والصلوات للصابئين والمساجد

من قوله تعالى (فاجتنبوا الرجس من الاوثان) فانه مترتب على مايفيده قوله تعالى ومن يعظم حرمات الله من وجوب مراعاتها والاجتناب عن هتكها ولما كان بيان حل الانعام من دواعى ﴿ ٢٣٨ ﴾ التعاطى لامن مبادى الاجتناب

عقب بما يوجب الاجتناب عنه من الحرمات ثم أمر بالاجتناب عما هو أقصى الحرمات كأنه قيل ومن يعظم حرمات الله فهو خير له والانعام ليست من الحرمات فانها محللة لكم الا ما يتلى عليكم آية تحريمه فانه مما يجب الاجتناب عنه فاجتنبوا ما هو معظم الامور التى يجب الاجتناب عنها وقوله تعالى (واجتنبوا قول الزور) تعميم بعد تخصيص فان عبادة الاوثان رأس الزور وكأنه لما حث على تعظيم الحرمات أتبع ذلك ردا لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب ونحوهما والافتراء على الله تعالى بانه حكم بذلك وقيل شهادة الزور لما روى انه عليه السلام قال عدلت شهادة الزور الاشراك بالله تعالى ثلاثا وتلا هذه الآية والزور من الزور وهو الانحراف كالافك المأخوذ من الافك الذى هو القلب والصرف فان الكذب منحرف مصروف عن الواقع وقيل هو قول أهل الجاهلية فى تلبيتهم لبيك ﴿ قوله ﴾ لاشريك لك الاشريك هو لك تملكه وما ملك (حنفاء لله) مائلين عن كل دين

للمسلمين عن أبى العالية رضى الله عنه (وثانيها) الصوامع للنصارى وهى التى يتوحدون فيها والبيع لهم أيضا وهى التى يبنونها فى البلد والصلوات لليهود قال الزجاج وهى بالعبرانية صلوتا (وثالثها) الصوامع للصابئين والبيع للنصارى والصلوات لليهود عن قتادة (ورابعها) انها باسرها أسماء المساجد عن الحسن أما الصوامع فلان المسلمين قد يتخذون الصوامع وأما البيع فاطلق هذا الاسم على المساجد على سبيل التشبيه وأما الصلوات فالمعنى انه لولا ذلك الدفع لانقطعت الصلوات ولخربت المساجد (السؤال الرابع) الصلوات كيف تهدم خصوصا على تأويل من تأوله على صلاة المسلمين (الجواب) من وجوه (أحدها) المراد بهدم الصلاة ابطالها واهلاك من يفعلها كقولهم هدم فلان احسان فلان اذا قابله بالكفر دون الشكر (وثانيها) بل المراد مكان الصلوات لانه الذى يصح هدمه كقوله واسئل القرية أى أهلها (وثالثها) لما كان الاغلب فيما ذكر مما يصح أن يهدم جاز ضم ما لا يصح أن يهدم اليه كقولهم متقلدا سيفا ورمحا وان كان الرمح لا يتقلد (السؤال الخامس) قوله يذكر فيها اسم الله كثيرا مختص بالمساجد أو عائد الى الكل (الجواب) قال الكلبى ومقاتل عائد الى الكل لان الله تعالى يذكر فى هذه المواضع كثيرا والاقرب انه مختص بالمساجد تشريفا لها بان ذكر الله يحصل فيها كثيرا (السؤال السادس) لم قدم الصوامع والبيع فى الذكر على المساجد (الجواب) لانها أقدم فى الوجود وقيل أخرها فى الذكر كما فى قوله ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ولان أول الفكر آخر العمل فلما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الرسل وأمته خير الامم لاجرم كانوا آخرهم ولذلك قال عليه السلام نحن الآخرون السابقون أما قوله تعالى ولينصرن الله من ينصره فقال بعضهم من ينصره يتلق الجهاد بالقبول نصرة لدين الله تعالى وقال آخرون بل المراد من يقوم بسائر دينه وانما قالوا ذلك لان نصرة الله على الحقيقة لا تصح وانما المراد من نصرة الله نصرة دينه كما يقال فى ولاية الله وعداوته مثل ذلك وفى قوله ولينصرن الله من ينصره وعد بالنصر لمن هذه حاله ونصر الله تعالى للعبد أن يقويه على أعدائه حتى يكون هو الظافر ويكون قائما بايضاح الادلة والبينات ويكون بالاعانة على المعارف والطاعات وفيه ترغيب فى الجهاد من حيث وعدهم النصر ثم بين تعالى انه قوى على هذه النصرة التى وعدها المؤمنين وانه لا يجوز عليه المنع وهو معنى قوله عزيز لان العزيز هو الذى لا يضام ولا يمنع مما يريده ثم انه سبحانه وتعالى وصف الذين أذن لهم فى القتال فى الآية الاولى فقال الذين ان مكناهم فى الارض والمراد من هذا التمكين السلطنة ونفاذ القول على الخلق لان المتبادر الى الفهم من قوله مكناهم فى الارض ليس الا هذا ولانا لو حملناه على أصل القدرة لكان كل العباد كذلك وحينئذ يبطل ترتب الامور الاربعة المذكورة عليه فى معرض الجزاء لانه ليس كل من كان قادرا على الفعل أتى بهذه الاشياء اذا ثبت هذا فنقول المراد بذلك هم المهاجرون لان قوله الذين ان مكناهم صفة لمن تقدم وهو

زائع الى الدين الحق مخلصين لله تعالى (غير مشركين به) أى شيئا من الاشياء فيدخل فى ذلك الاوثان دخولا أوليا وهما حالان من واو فاجتنبوا (ومن يشرك بالله) جملة مبتدأة مؤكدة لما قبلها من الاجتناب عن الاشراك واظهار الاسم الجليل لاظهار كمال قبح الاشراك (فكأنما خر من السماء) لانه سقط من أوج الايمان الى حضيض الكفر (فتخطفه الطير) فان الاهواء المردية تتوزع أفكاره وفرئ فتخطفه بفتح الخاء وتشديد الطاء وبكسر الخاء والضاء وبكسر التاء مع كسرهما وأصلهما تختطفه (أو تهوى به الريح) أى تسقطه وتقذفه (فى مكان سحيق) بعيد فان الشيطان قد طوح به فى الضلالة وأو للتخيير كما فى أو كصيب أو للتنويع ويجوز أن يكون من باب التشبيه المركب فيكون المعنى ومن يشرك بالله فقد هلكت نفسه هلاكا شبيها بهلاك أحد الهالكين (ذلك) أى الامر ذلك أو امتثلوا ذلك (ومن يعظم شعائر الله) أى الهدايا فانها من معالم الحج وشعائره تعالى كما ينبئ عنه والبدن جعلناها لكم من شعائر الله وهو الاوفق لما بعده وتعظيمها اعتقاد أن التقرب بها من أجل القربات وأن يختارها حسانا سمانا غالية الاثمان روى أنه عليه الصلاة والسلام أهدى مائة بدنة فيها جمل لابى جهل فى

قوله الذين أخرجوا من ديارهم والانصار ما أخرجوا من ديارهم فيصير معنى الآية ان الله تعالى وصف المهاجرين بانه ان مكنهم من الارض وأعطاهم السلطنة فانهم أتوا بالامور الاربعة وهى اقامة الصلاة وايتاء الزكاة والامر بالمعروف والنهى عن المنكر لكن قد ثبت ان الله تعالى مكن الائمة الاربعة من الارض وأعطاهم السلطنة عليها فوجب كونهم آتين بهذه الامور الاربعة واذا كانوا آمرين بكل معروف وناهين عن كل منكر وجب أن يكونوا على الحق فمن هذا الوجه دلت هذه الآية على امامة الاربعة ولا يجوز حمل الآية على على رضى الله عنه وحده لان الآية دالة على الجمع وفى قوله ولله عاقبة الامور دلالة على ان الذى تقدم ذكره من سلطنتهم وملكهم كائن لا محالة ثم ان الامور ترجع الى الله تعالى بالعاقبة فانه سبحانه هو الذى لا يزول ملكه أبدا وهو أيضا يؤكد ماقلناه ﴿ قوله تعالى (وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين وكذب موسى فامليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) اعلم انه تعالى لما بين فيما تقدم اخراج الكفار المؤمنين من ديارهم بغير حق وأذن فى مقاتلتهم وضمن للرسول والمؤمنين النصرة وبين ان لله عاقبة الامور أردفه بما يجرى مجرى التسلية للرسول صلى الله عليه وسلم فى الصبر على ما هم عليه من ايذائه واذية المؤمنين بالتكذيب وغيره فقال وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم سائر الامم أنبياءهم وذكر الله سبعة منهم فان قيل ولم قال وكذب موسى ولم يقل قوم موسى (فالجواب) من وجهين (الاول) ان موسى عليه السلام ما كذبه قومه بنو اسرائيل وانما كذبه غير قومه وهم القبط (الثانى) كأنه قيل بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم وكذب موسى أيضا مع وضوح آياته وعظم معجزاته فما ظنك بغيره أما قوله تعالى فأمليت للكافرين يعنى أمهلتهم الى الوقت المعلوم عندى ثم أخذتهم بالعقوبة فكيف كان نكيرا ستفهام تقرير أى فكيف كان انكارى عليهم بالعذاب أليس كان واقعا قطعا ألم أبدلهم بالنعمة نقمة وبالكثرة قلة وبالحياة موتا وبالعمارة خرابا ألست أعطيت الانبياء جميع ماوعدتهم من النصرة على أعدائهم والتمكين لهم فى الارض فينبغى أن تكون عادتك يا محمد الصبر عليهم فانه تعالى انما يمهل للمصلحة فلا بد من الرضا والتسليم وان شق ذلك على القلب واعلم ان بدون ذلك يحصل التسلية لمن حاله دون حال الرسول عليه السلام فكيف بذلك مع منزلته لكنه فى كل وقت يصل اليه من جهتهم ما يزيده غما فاجرى الله عادته بان يصبره حالا بعد حال وقد تقدم ذكر هؤلاء المكذبين وباى جنس من عذاب الاستئصال هلكوا وههنا بحث وهو ان هذه الآية تدل على انه سبحانه يفعل به وبقومه كل ما فعل بهم وبقومهم الاعذاب الاستئصال فانه لا يفعله بقوم

أنفه برة من ذهب وأن عمر رضى الله عنه أهدى نجيبة طلبت منه بثلثمائة دينار (فانها) أى فان تعظيمها (من تقوى القلوب) أى من أفعال ذوى تقوى القلوب فحذفت هذه المضافات ﴿ ٢٤٠ ﴾ والعائد الى من أو فان تعظيمها ناشئ من تقوى القلوب وتخصيصها بالاضافة لانها مراكز التقوى التى اذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها فى سائر الاعضاء (لكم فيها) أى فى الهدايا (منافع) هى درها ونسلها وصوفها وظهرها (الى أجل مسمى) هو وقت نحرها والتصدق بلحمها والاكل منه (ثم محلها) أى وجوب نحرها أو وقت نحرها منتهية (الى البيت العتيق) اى الى مايليه من الحرم وثم للتراخى الزمانى أو الرتبى أى لكم فيها منافع دنيوية الى وقت نحرها ثم منافع دينية أعظمها فى انفع محلها اى وجوب نحرها أو وقت وجوب نحرها الى البيت العتيق أى منتهية اليه هذا وقد قيل المراد بالشعائر مناسك الحج ومعالمه والمعنى لكم فيها منافع بالاجر والثواب فى قضاء المناسك واقامة شعائر الحج الى أجل مسمى هو انقضاء أيام الحج ثم محلها أى محل الناس من احرامهم الى البيت العتيق اى منتهيه اليه بان يطوفوا به طواف الزيارة ﴿ مشيد ﴾ يوم النحر بعد قضاء المناسك فاضافة المحل اليها لادنى ملابسة (ولكل امة) اى لكل أهل دين (جعلنا منسكا) أى متعبدا وقربانا يتقربون به الى الله عز وجل وقرئ بكسر السين اى موضع نسك وتقديم الجار والمجرور على الفعل للتخصيص أى لكل امة من الامم جعلنا منسكا لا لبعض منهم دون بعض

محمد صلى الله عليه وسلم وان كان قد مكنهم من قتل أعدائهم وتثبتهم قال الحسن السبب فى تأخر عذاب الاستئصال عن هذه الامة ان ذلك العذاب مشروط بامرين (أحدهما) ان عند الله حد من الكفر من بلغه عذبه ومن لم يبلغه لم يعذبه (والثانى) ان الله لا يعذب قوما حتى يعلم ان أحدا منهم لا يؤمن فاما اذا حصل الشرطان وهو أن يبلغوا ذلك الحد من الكفر وعلم الله ان أحدا منهم لا يؤمن فحينئذ يأمر الانبياء فيدعون على أممهم فيستجيب الله دعاءهم فيعذبهم بعذاب الاستئصال وهو المراد من قوله حتى اذا استيأس الرسل أى من اجابة القوم وقوله لنوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن واذا عذبهم الله تعالى فانه ينجى المؤمنين لقوله فلما جاء أمرنا أى بالعذاب نجيناهود واعلم ان الكلام فى هذه المسئلة قد تقدم فلا فائدة فى الاعادة فان قيل كيف يوصف ماينزله بالكفار من الهلاك بالعذاب المعجل بانه نكير قلنا اذا كان زاد غالغيره وصاد عاله عن مثل ماأوجب ذلك صار نكيرا أما قوله فكأين من قرية أهلكناها ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال بعضهم المراد من قوله فكأين نكم على وجه التكثير وقيل أيضا معناه ورب قرية والاول أولى لانه أوكد فى الزجر فكأنه تعالى لما بين حال قوم من المكذبين وانه عجل اهلاكهم أتبعه بما دل على ان لذلك أمثالا وان لم يذكر مفصلا (المسئلة الثانية) قرأ ابن كثير وأهل الكوفة والمدينة أهلكناها بالنون وقرأ أبو عمرو ويعقوب أهلكتها وهو اختيار أبى عبيد قوله فى الآية الاولى فامليت للكافرين ثم أخذتهم (المسئلة الثالثة) قوله اهلكناها اى اهلها ودل قوله وهى ظالمة على ماذكرنا ويحتمل ان يكون المراد اهلاك نفس القرية فيدخل تحت اهلاكها اهلاك من فيها لان العذاب النازل اذا بلغ أن يهلك القرية فتصير منهدمة حصل بهلاكها هلاك من فيها وان كان الاول أقرب أما قوله وهى خاوية على عروشها ففيه سؤالان (السؤال الاول) مامعنى هذه اللفظة فقال صاحب الكشاف كل مرتفع أظلك من سقف بيت أو خيمة أو ظلة فهو عرش والخاوى الساقط من خوى النجم اذا سقط والخالى من خوى المنزل اذا خلا من أهله فان فسرنا الخاوى بالساقط كان المعنى انها ساقطة على سقوفها أى خرت سقوفها على الارض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف وان فسرناه بالخالى كان المعنى انها خالية عن الناس مع بقاء عروشها وسلامتها قال ويمكن أن يكون خبرا بعد خبر كأنه قيل هى خاوية وهى على عروشها بمعنى أن السقوف سقطت على الارض فصارت فى قرار الحيطان وبقيت الحيطان قائمة فهى مشرفة على السقوف الساقطة وبالجملة فالآية دالة على انها بقيت محلا للاعتبار (السؤال الثانى) مامحل هاتين الجملتين من الاعراب أعنى وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها الجواب (الاولى) فى محل النصب على الحال (والثانية) لا محل لها لانها معطوفة على أهلكناها وهذا الفعل ليس له محل قال أبو مسلم المعنى فكأين من قرية أهلكناها وهى كانت ظالمة وهى الآن خاوية أما قوله وبئر معطلة وقصر

(ليذكروا اسم الله) خاصة دون غيره ويجعلوا نسيكتهم لوجهه الكريم على الجعل به تنبيها على أن المقصود الاصلى من المناسك تذكر المعبود (على ما رزقهم من بهيمة الانعام) عند ذبحها وفيه تنبيه على أن القربان يجب أن يكون من الانعام والخطاب فى قوله تعالى (فالهكم اله واحد) للكل تغليبا والفاء للترتيب مابعدها على ماقبلها فان جعله تعالى لكل أمة من الامم منسكا مما يدل على وحدانيته تعالى وانما قيل اله واحد ولم يقل واحد لما أن المراد بيان أنه تعالى واحد فى ذاته كما أنه واحد فى الهيته للكل والفاء فى قوله تعالى (فله أسلموا) لترتيب مابعدها من الامر بالاسلام على وحدانيته تعالى وتقديم الجار والمجرور على الامر للنصر أى فاذا كان الهكم الها واحدا فأخلصوا له التقرب أو اذكروا جعلوه لوجهه خاصة ولا تشوبوه بالشرك (وبشر المخبتين) تجريد للخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم أى المتواضعين او المخلصين فان الاخبات من الوظائف الخاصة

مشيد ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ الحسن معطلة من أعطله بمعنى معطلة ومعنى المعطلة انها عامرة فيها الماء ويمكن الاستقاء منها الا انها عطلت أى تركت لايستقى منها لهلاك أهلها وفى المشيد قولان (أحدهما) انه المجصص لان الجص بالمدينة يسمى الشيد (والثانى) انه المرفوع المطول والمعنى انه تعالى بين ان القرية مع تكاثف بنائهم لها واغتباطهم بها جعلت لاجل كفرهم بهذا الوصف وكذلك البئر التى كانوا عطلوها وصارت شربهم صارت معطلة بلاشارب ولاوارد والقصر الذى أحكموه بالجص وطولوه صار ظاهرا حاليا بلاساكن وجعل ذلك تعالى عبرة لمن اعتبر وتدبر وفيه دلالة على أن تفسير على بمع أولى لان التقدير وهى خاوية مع عروشها ومعلوم أنها اذا كانت كذلك كانت أدخل فى الاعتبار وهو كقوله تعالى وانكم لتمرون عليهم مصبحين والله أعلم بالصواب (المسئلة الثانية) روى أبو هريرة رضى الله عنه ان هذه البئر نزل عليها صالح مع أربعة آلاف نفر ممن آمن به ونجاهم الله تعالى من العذاب وهم بحضرموت وانما سميت بذلك لان صالحا حين حضرها مات ثم بنى بلدة عند البئر اسمها حاضورا بناها قوم صالح وأسروا عليها حاسر بن جلاس وجعلوا وزيره سنجاريب وأقاموا بها زمانا ثم كفروا وعبدوا صنما وأرسل الله تعالى اليهم حنظلة بن صفوان فقتلوه فى السوق فأهلكهم الله تعالى وعطل بئرهم وخرب قصورهم قال الامام أبو القاسم الانصارى وهذا عجيب لانى زرت قبر صالح بالشام ببلدة يقال لها عكة فكيف يقال انه بحضرموت أما قوله تعالى أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فالمقصود منه ذكر مايتكامل به ذلك الاعتبار لان الرؤية لها حظ عظيم فى الاعتبار وكذلك استماع الاخبار فيه مدخل ولكن لايكمل هذان الامران الا بتدبر القلب لان من عاين وسمع ثم لم يتدبر ولم يعتبر لم ينتفع البتة واو تفكر فيما سمع لانتفع فلهذا قال فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور كأنه قال لاعمى فى ابصارهم فانهم يرون بها لكن العمى فى قلوبهم حيث لم ينتفعوا بما أبصروه وههنا سؤالات (السؤال الاول) قوله أفلم يسيروا فى الارض هل يدل على الامر بالسفر (الجواب) يحتمل أنهم ماسافروا فحثهم على السفر ليروا مصارع من أهلكهم الله بكفرهم ويشاهدوا آثارهم فيعتبروا ويحتمل أن يكونوا قد سافروا ورأوا ذلك ولكن لم يعتبروا فجعلوا كأن لم يسافروا ولم يروا (السؤال الثانى) مامعنى الضمير فى قوله فانها لاتعمى الابصار (والجواب) هذا الضمير ضمير القصة والشان يجئ مؤنثا ومذكرا وفى قراءة ابن مسعود فانه ويجوز أن يكون ضميرا مبهما يفسره الابصار (السؤال الثالث) أى فائدة فى ذكر الصدور مع ان كل احد يعلم ان القلب لايكون الا فى الصدر (الجواب) ان المتعارف ان العمى يمكانه الحدقة فلما أريد اثباته للقلب على خلاف المتعارف احتيج الى زيادة بيان كما تقول ليس المضاء للسيف ولكنه للسائف الذى بين فكيك فقولك الذى بين فكيك تقرير

بهم (الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) ﴿ ٣١ ﴾ س منه تعالى لاشراق اشعة جلاله عليها (والصابرين على ما أصابهم) من مشاق التكاليف ومؤنات النوائب (والمقيمى الصلوة) فى أوقاتها وقرئ بنصب الصلاة على تقدير

النون وقرئ والمقيمين الصلاة على الاصل (ومما رزقناهم ينفقون) في وجوه الخيرات (والبدن) بضم الباء وسكون الدال وقرئ بضمهما وهما جمعا بدنة وقيل الاصل ضم الدال ﴿ ٢٤٢ ﴾ كخشب وخشبة والتسكين تخفيف منه وقرئ

لما ادعيته للسان وتثبيت لان محل المضاء هو هو لا غير وكانك قلت ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك سهوا ولكني تعمدته على اليقين وعندي فيه وجد آخر وهو أن القلب قد يجعل كناية عن الخاطر والتدبر كقوله تعالى ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب وعند قوم ان محل التفكر هو الدماغ فالله تعالى بين ان محل ذلك هو الصدر (السؤال الرابع) هل تدل الآية على ان العقل هو العلم وعلى ان محل العلم هو القلب (الجواب نعم) لان المقصود من قوله قلوب يعقلون بها العلم و قوله يعقلون بها كالدلالة على ان القلب آلة لهذا التعقل فوجب جعل القلب محلا للتعقل و يسمى الجهل بالعمى لان الجاهل لكونه متحيرا يشبه الاعمى قوله تعالى ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها والي المصير قل يا ايها الناس انما أنا لكم نذير مبين) اعلم انه تعالى لما حكى من عظم ما هم عليه من التكذيب أنهم يستهزئون باستعجال العذاب فقال و يستعجلونك بالعذاب وفي ذلك دلالة على انه عليه السلام كان يخوفهم بالعذاب ان استمروا على كفرهم ولان قولهم لو ما تأتينا بالملائكة يدل على ذلك فقال تعالى ولن يخلف الله وعده لان الوعد بالعذاب اذا كان في الآخرة دون الدنيا فاستعجاله يكون كالخلف ثم بين ان العاقل لا ينبغي أن يستعجل عذاب الآخرة فقال وان يوما عند ربك يعني فيما يناهم من العذاب وشدته كألف سنة لو بقي معذب في كثرة الآلام وشدتها فبين سبحانه أنهم لو عرفوا حال عذاب الآخرة وأنه بهذا الوصف لما استعجلوه هذا قول أبي مسلم وهو أولى الوجوه (الوجه الثاني) ان المراد طول أيام الآخرة في المحاسبة و يرجع معنا الى قريب مما تقدم وذلك ان الايام القصيرة اذا مرت في الشدة كانت مستطيلة فكيف تكون الايام المستطيلة اذا مرت في الشدة ثم ان العذاب الذي يكون طول أيامها الى هذا الحد لا ينبغي للعاقل أن يستعجله (والوجه الثالث) ان اليوم الواحد وألف سنة بالنسبة اليه على السواء لانه القادر الذي لا يعجزه شيء فذاك لم يستعجل المهل يوم فلا يستعجل أيضا المهال ألف سنة أملوناه وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة فظالمناها وكم من قرية أخرت اهلاكهم مع استمرارهم على ظلمهم فاعتبروا بذلك ثم أخيرا ثم أخذتهم بان أنزلت العذاب بهم مع ذلك فعلناهم مدخرا ذا صاروا الى وهو تفسير قوله والى المصير فان قيل فلم قال فيما قبل فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة وقال ههنا وكأين من قرية أمليت لها الاولى بالفاء وهذه بالواو قلنا الاولى وقعت بدلا عن قوله فكيف كان نكير وأما هذه فحكمها حكم ما تقدمها من الجملتين المعطوفتين بالواو أعني قوله ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون أو قوله قل يا ايها الناس انما أنا لكم نذير مبين فالمعنى انه تعالى أمر رسوله بأن يديم لهم التخويف والانذار وأن لا يصده ما يكون منهم من الاستعجال للعذاب على سبيل الهزؤ عن ادامة التخويف والانذار وأن يقول لهم انما بعثت للانذار فاستهزاؤكم بذلك

لما ادعيته للسان وتثبيت لان محل المضاء هو هو لا غير وكانك قلت ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك سهوا ولكني تعمدته على اليقين وعندي فيه وجد آخر وهو أن القلب قد يجعل كناية عن الخاطر والتدبر كقوله تعالى ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب وعند قوم ان محل التفكر هو الدماغ فالله تعالى بين ان محل ذلك هو الصدر (السؤال الرابع) هل تدل الآية على ان العقل هو العلم وعلى ان محل العلم هو القلب (الجواب نعم) لان المقصود من قوله قلوب يعقلون بها العلم و قوله يعقلون بها كالدلالة على ان القلب آلة لهذا التعقل فوجب جعل القلب محلا للتعقل و يسمى الجهل بالعمى لان الجاهل لكونه متحيرا يشبه الاعمى قوله تعالى ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها والي المصير قل يا ايها الناس انما أنا لكم نذير مبين) اعلم انه تعالى لما حكى من عظم ما هم عليه من التكذيب أنهم يستهزئون باستعجال العذاب فقال و يستعجلونك بالعذاب وفي ذلك دلالة على انه عليه السلام كان يخوفهم بالعذاب ان استمروا على كفرهم ولان قولهم لو ما تأتينا بالملائكة يدل على ذلك فقال تعالى ولن يخلف الله وعده لان الوعد بالعذاب اذا كان في الآخرة دون الدنيا فاستعجاله يكون كالخلف ثم بين ان العاقل لا ينبغي أن يستعجل عذاب الآخرة فقال وان يوما عند ربك يعني فيما يناهم من العذاب وشدته كألف سنة لو بقي معذب في كثرة الآلام وشدتها فبين سبحانه أنهم لو عرفوا حال عذاب الآخرة وأنه بهذا الوصف لما استعجلوه هذا قول أبي مسلم وهو أولى الوجوه (الوجه الثاني) ان المراد طول أيام الآخرة في المحاسبة و يرجع معنا الى قريب مما تقدم وذلك ان الايام القصيرة اذا مرت في الشدة كانت مستطيلة فكيف تكون الايام المستطيلة اذا مرت في الشدة ثم ان العذاب الذي يكون طول أيامها الى هذا الحد لا ينبغي للعاقل أن يستعجله (والوجه الثالث) ان اليوم الواحد وألف سنة بالنسبة اليه على السواء لانه القادر الذي لا يعجزه شيء فذاك لم يستعجل المهل يوم فلا يستعجل أيضا المهال ألف سنة أملوناه وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة فظالمناها وكم من قرية أخرت اهلاكهم مع استمرارهم على ظلمهم فاعتبروا بذلك ثم أخيرا ثم أخذتهم بان أنزلت العذاب بهم مع ذلك فعلناهم مدخرا ذا صاروا الى وهو تفسير قوله والى المصير فان قيل فلم قال فيما قبل فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة وقال ههنا وكأين من قرية أمليت لها الاولى بالفاء وهذه بالواو قلنا الاولى وقعت بدلا عن قوله فكيف كان نكير وأما هذه فحكمها حكم ما تقدمها من الجملتين المعطوفتين بالواو أعني قوله ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون أو قوله قل يا ايها الناس انما أنا لكم نذير مبين فالمعنى انه تعالى أمر رسوله بأن يديم لهم التخويف والانذار وأن لا يصده ما يكون منهم من الاستعجال للعذاب على سبيل الهزؤ عن ادامة التخويف والانذار وأن يقول لهم انما بعثت للانذار فاستهزاؤكم بذلك

النون وقرئ والمقيمين الصلاة على الاصل (ومما رزقناهم ينفقون) في وجوه الخيرات (والبدن) بضم الباء وسكون الدال وقرئ بضمهما وهما جمعا بدنة وقيل الاصل ضم الدال كخشب وخشبة والتسكين تخفيف منه وقرئ بتشديد النون على لفظ الوقف وانما سميت بها الابل لعظم بدنها فأخوذة من بدن بدانة وحيث شاركها البقرة في الاجزاء عن سبعة بقوله صلى الله عليه وسلم البدنة عن سبعة والبقرة عن سبعة جعلا في الشريعة جنسا واحدا واتصاله بمضمر يفسره (جعلناها لكم) وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ والجملة خبره وقوله تعالى (من شعائر الله) أي من أعلام دينه التي شرعها الله تعالى مفعول ثان للجعل ولكم ظرف لغو متعلق به وقوله تعالى (لكم فيها خير) أي منافع دينية ودنيوية جملة مستأنفة مقررة لما قبلها (فاذكروا اسم الله عليها) بأن تقولوا عند ذبحها الله أكبر لا اله الا الله والله أكبر اللهم منك واليك (صوافّ) أي قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن وقرئ صوافن من صفن الفرس اذا قام على ثلاث وعلى طرف سنبك الرابعة لان البدنة تعقل احدى يديها فتقوم على ثلاث وقرئ صوافنا بابدال التنوين من حرف الاطلاق عند الوقف وقرئ صوافي أي ﴿ لا ﴾ خوالص لوجه الله عز وجل وصواف على لغة من

يديها فتقوم على ثلاث وقرئ صوافنا بابدال التنوين من حرف الاطلاق عند الوقف وقرئ صوافي أي ﴿ لا ﴾ خوالص لوجه الله عز وجل وصواف على لغة من

يسكن الياء على الاطلاق كما في قوله * لعلى أرى باق على الحدثان * (فاذا وجبت جنوبها) سقطت على الارض وهو كناية عن الموت (فكلوا منها وأطعموا ﴿ ٢٤٣ ﴾ القانع) أى الراضى بما عنده و بما يعطى من غير مسئلة ويؤيده أنه قرئ القنع أو السائل من قنع اليه قنوعا اذا خضع له فى السؤال (والمعتر) أى المتعرض للسؤال وقرئ المعترى يقال عره وعراه واعتره واعتراه (كذلك) مثل ذلك التسخير البديع المفهوم من قوله تعالى صوافى (سخرناها لكم) مع كمال عظمها ونهاية قوتها فلا تستعصى عليكم حتى تأخذونها منقادة فتقتلونها وتحبسونها صافة قوائمها ثم تطعنون فى لباتها (لعلكم تشكرون) لتشكروا انعامنا عليكم بالتقرب والاخلاص (لن ينال الله) أى لن يبلغ مرضاته ولن يقع منه موقع القبول (لحومها) لتصدق بها (ولا دماؤها) المهراقة بالنحر من حيث انها لحوم ودماء (ولكن يناله التقوى منكم) ولكن يصيبه تقوى قلوبكم التى تدعوكم الى الامتثال بأمره تعالى وتعظيمه والتقرب اليه والاخلاص له وقيل كان أهل الجاهلية يلطخون الكعبة بدماء قرابينهم فهم به المسلمون فنزلت (كذلك سخرها لكم) تكرير للتذكير والتعليل بقوله (لتكبروا الله) أى لتعرفوا

لا ينعى منه * قوله تعالى (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم والذين سعوا فى اياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم) اعلم انه تعالى لما بين الرسول صلى الله عليه وسلم أنه يجب أن يقول لهم أنا نذير مبين أردف ذلك بأن أمره بوعدهم ووعيدهم لان الرجل انما يكون منذرا بذكر الوعد للمطيعين والوعيد للعاصين فقال والذين آمنوا وعملوا الصالحات فجمع بين الوصفين وهذا دليل على ان العمل الصالح خارج عن مسمى الايمان وبه يبطل قول المعتزلة ويدخل فى الايمان كل ما يجب من الاعتقاد بالقلب والاقرار باللسان ويدخل فى العمل الصالح أداء كل واجب وترك كل محظور ثم بين سبحانه ان من جمع بينهما فالله تعالى يجمع له بين المغفرة والرزق الكريم أما المغفرة فاما أن تكون عبارة عن غفران الصغائر أو عن غفران الكبائر بعد التوبة أو عن غفرانها قبل التوبة والاولان واجبان عند الخصم وأداء الواجب لا يسمى غفرانا فبقى الثالث وهو دلالته على العفو عن أصحاب الكبائر من أهل القبلة وأما الرزق الكريم فهو واشارة الى الثواب وكرمه يحتمل أن يكون للصفات السلبية وهو ان الانسان هناك يستغنى عن المكاسب وتحمل المشاق والذل فيها وارتكاب المآثم والدناءة بسببها وأن يكون للصفات الثبوتية وهو أن يكون رزقا كثيرا دائما خالصا عن شوائب الضرر مقرونا بالتعظيم والتبجيل والاولى حمل الكريم دالا على كل هذه الصفات فهذا شرح حال المؤمنين وأما حال الكفار فقال والذين سعوا فى آياتنا معاجزين والمراد اجتهدوا فى ردها والتكذيب بها حيث سموها سحرا وشعرا وأساطير الاولين ويقال لمن بذل جهده فى أمر انه سعى فيه توسعا عن حيث بلغ فى بذل الجهد النهاية كما اذا بلغ الماشى نهاية طاقته فيقال له سعى وذكر الآيات واراد التكذيب بها مجازا قال صاحب الكشاف يقال سعى فى أمر فلان اذا أصلحه أو أفسده بسعيه أما المعاجز فيقال عاجزته أى طلبت فى اعجازه واختلفوا فى المراد هل معاجزين لله أو الرسول والمؤمنين والاقرب هو الثانى لانهم ان أنكروا الله استحال منهم أن يطمعوا فى اعجازه وأثبتوه فيبعد أن يعتقدوا انهم يعجزونه ويغلبونه ويصح منهم أن يظنوا ذلك فى الرسول بالحيل والمكايد أما الذين قالوا المراد معاجزين لله فقد ذكروا وجوها (أحدها) المراد بمعاجزين مغالبين مفوتين لربهم من عذابهم وحسابهم حيث جحدوا البعث (وثانيها) انهم يثبطون غيرهم عن التصديق بالله ويثبطونهم بسبب الترغيب والترهيب (وثالثها) يعجزون الله بادخال الشبه فى قلوب الناس (والجواب) عن الاول ان من جحد أصل الشئ لا يوصف بأنه مغالب لمن يفعل ذلك الشئ ومن تأول الآية على ذلك فيجب أن يكون مراده انهم ظنوا مغالبة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما كان يقوله من أمر الحشر والنشر (والجواب) عن الثانى والثالث أن المغالبة فى الحقيقة ترجع الى الرسول وألامة لا الى الله تعالى أما قوله تعالى أولئك أصحاب الجحيم فالمراد انهم يدومون فيها وشبههم من حيث الدوام بالصاحب فان قيل انه عليه السلام فى هذه الآية بشر

عظمته باقتداره على مالا يقدر عليه غيره فوحدوه بالكبرياء وقيل هو التكبير عند الاحلال او الذبح (على ماهداكم) أي أرشدكم الى طريق تسخيرها وكيفية التقرب بها وما مصدرية ﴿ ٢٤٤ ﴾ أو موصولة أي على هدايته إياكم أو على ماهداكم اليه وعلى متعلقة بكبروا لتضمنه معنى الشكر (وبشر المحسنين) أي المخلصين في كل ما يأتون وما يذرون في أمور دينهم (ان الله يدافع عن الذين آمنوا) كلام مستأنف مسوق لتوطين قلوب المؤمنين ببيان ان الله تعالى ناصرهم على أعدائهم بحيث لا يقدرون على صدهم عن الحج ليتفرغوا الى أداء مناسكه وتصديره بكلمة التحقيق لابراز الاعتناء التام بمضمونه وصيغة المفاعلة اما للمبالغة أو للدلالة على تكرر الدفع فانها قد تجرد عن وقوع الفعل المتكرر من الجانبين فيبقى تكريره كما في الممارسة أي يبالغ في دفع غائلة المشركين وضررهم الذي من جملته الصد عن سبيل الله مبالغة من يغالب فيدافعها عنهم مرة بعد أخرى حسبما تجدد منهم القصد الى الاضرار بالمسلمين كما في قوله تعالى كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله وقرئ يدفع ﴿ رسول ﴾ والمفعول محذوف وقوله تعالى (ان الله لا يحب كل خوان كفور) تعليل لما في ضمن الوعد الكريم من

المؤمنين أو لانذار الكافرين ثانيا فكان القياس أن يقال قل يا أيها الناس انما أنا لكم بشير ونذير فالكلام مسوق الى المشركين ويا أيها الناس نداء لهم وهم الذين قيل فيهم أفلم يسيروا في الارض ووصفوا بالاستعجال وانما ألقى ذكر المؤمنين وثوابهم في البين زيادة لغيظهم وايذائهم قوله تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وان الظالمين لفي شقاق بعيد وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وان الله لهادي الذين آمنوا الى صراط مستقيم ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين) أما قوله تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته ففيه مسائل (المسئلة الاولى) من الناس من قال الرسول هو الذي حدث وأرسل والنبي هو الذي لم يرسل ولكنه ألهم أو رأى في النوم ومن الناس من قال ان كل رسول نبي وليس كل نبي يكون رسولا وهو قول الكلبي والفراء وقالت المعتزلة كل رسول نبي وكل نبي رسول ولا فرق بينهما واحتجوا على فساد القول الاول بوجوه (أحدها) هذه الآية فانها دالة على ان النبي قد يكون مرسلا وكذا قوله تعالى وما أرسلنا في قرية من نبي (وثانيها) ان الله تعالى خاطب محمدا مرتين بالنبي ومرة بالرسول فدل على انه لا منافاة بين الامرين وعلى القول الاول المنافاة حاصلة (وثالثها) انه تعالى نص على أنه خاتم النبيين (ورابعها) ان اشتقاق لفظ النبي اما من النبا وهو الخبر أو من قولهم نبا اذا ارتفع والمعنيان لا يحصلان الا بقبول الرسالة (أما القول الثاني) فاعلم ان شيئا من تلك الوجوه لا يبطله بل هذه الآية دالة عليه لانه عطف النبي على الرسول وذلك يوجب المغايرة وهو من باب عطف العام على الخاص بقال في موضع آخر وكم أرسلنا من نبي في الاولين وذلك يدل على انه كان نبيا فجعله الله مرسلا وهو يدل على قولنا وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم كم المرسلون فقال ثلثمائة وثلاثة عشر فقيل وكم الانبياء فقال مائة ألف واربعة وعشرون ألفا الجم الغفير اذا ثبت هذا فنقول ذكروا في الفرق بين الرسول والنبي أمورا (أحدها) ان الرسول من الانبياء من جمع الى المعجزة الكتاب المنزل عليه والنبي غير الرسول من لم ينزل عليه كتاب وانما أمر أن يدعو الى كتاب من قبله (والثاني) ان من كان صاحب المعجزة وصاحب الكتاب ونسخ شرع من قبله فهو الرسول ومن لم يكن مستجمعا لهذه الخصال فهو النبي غير الرسول وهؤلاء يلزمهم أن لا يجعلوا اسحق ويعقوب وأيوب ويونس وهرون وداود وسليمان رسلا لانهم ما جاؤا بكتاب ناسخ (والثالث) ان من جاءه الملك ظاهرا وامره بدعوة الخلق فهو الرسول ومن لم يكن كذلك بل رأى في النوم كونه رسولا وأخبره أحد من الرسل بانه

لوعيد للمشركين وايذان بان دفعهم بطريق القهر والحزى ونفى المحبة كناية عن البغض أى ان الله يبغض كل خوان فى أماناته تعالى وهى أوامره ونواهيه أوفى جميع الامانات التى هى معظمها كفور لنعمته وصيغة المبالغة فيهما للبيان أنهم كذلك لاتقييد البغض بغاية الخيانة والكفر أو للمبالغة فى نفى المحبة على اعتبار النفى أولا وايراد معنى المبالغة ثانيا (أذن) أى رخص وقرئ على البناء للفاعل أى أذن الله تعالى (للذين يقاتلون) أى يقاتلهم المشركون والمأذون فيه محذوف لدلالة المذكور عليه فان مقاتلة المشركين اياهم دالة على مقاتلتهم اياهم دلالة بينة وقرئ على صيغة المبنى للفاعل أى يريدون أن يقاتلوا المشركين فيما سيأتى ويحرصون عليه فدلالته على المحذوف أظهر (بانهم ظلموا) أى بسبب أنهم ظلموا وهم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم كان المشركون يؤذونهم وكانوا يأتونه عليه السلام بين مضروب ومشجوج ويتظلمون اليه فيقول عليه السلام لهم اصبروا فانى لم أومر بالقتال حتى هاجروا فأنزلت وهى أول آية نزلت فى القتال بعدما

رسول الله فهو النبى الذى لايكون رسولا وهذا هو الاولى (المسئلة الثانية) ذكر المفسرون فى سبب نزول هذه الآية ان الرسول صلى الله عليه وسلم لما رأى اعراض قومه عنه وشق عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به تمنى فى نفسه أن يأتيهم من الله ما يقارب بينه وبين قومه وذلك لحرصه على ايمانهم فجلس ذات يوم فى نادى من أندية قريش كثير أهله واحب يومئذ ان لايأتيه من الله شئ ينفرون عنه وتمنى ذلك فانزل الله تعالى سورة والنجم اذا هوى فقرأها رسول صلى الله عليه وسلم حتى بلغ قوله أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ألقى الشيطان على لسانه تلك الغرانيق العلى منها الشفاعة ترتجى فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قراءته فقرأ السورة كلها فسجد وسجد المسلمون لسجوده وسجد جميع من فى المسجد من المشركين فلم يبق فى المسجد مؤمن ولا كافر الا سجد سوى الوليد بن المغيرة وأبى أحيحة سعيد بن العاصى فانهما أخذا حفنة من التراب من البطحاء ورفعاها الى جبهتيهما وسجدا عليها لانهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود وتفرقت قريش وقد سرهم ما سمعوا وقالوا قد ذكر محمد آلهتنا باحسن الذكر فلما أمسى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام فقال ماذا صنعت تلوت على الناس ما لم أتك به عن الله وقلت ما لم أقل لك فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنا شديدا وخاف من الله خوفا عظيما حتى نزل قوله تعالى وما أرسلنا من قبلك من رسول ولانبى الا اذا تمنى القى الشيطان فى أمنيته الآية هذا رواية عامة المفسرين الظاهرين وأما اهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول أما القرآن فوجوه (أحدها) قوله تعالى ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين (وثانيها) قوله قل ما يكون لى ان أبدله من تلقاء نفسى ان أتبع الا ما يوحى الى (وثالثها) قوله وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى فلو انه قرأ عقيب هذه الآية تلك الغرانيق العلى لكان قد ظهر كذب الله تعالى فى الحال وذلك لايقوله مسلم (ورابعها) قوله تعالى وان كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا اليك لتفترى علينا غيره واذا لاتخذوك خليلا وكلمة كاد عند بعضهم معناه قرب أن يكون الامر كذلك مع انه لم يحصل (وخامسها) قوله ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن اليهم شيئا قليلا وكلمة لولا تفيد انتفاء الشئ لانتفاء غيره فدل على أن ذلك الركون القليل لم يحصل (وسادسها) قوله كذلك لنثبت به فؤادك (وسابعها) قوله سنقرئك فلا تنسى ✲ وأما السنة فهى ما روى عن محمد بن اسحق بن خزيمة انه سئل عن هذه القصة فقال هذا وضع من الزنادقة وصنف فيه كتابا وقال الامام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ثم اخذ يتكلم فى أن رواة هذه القصة مطعون فيهم وايضا فقد روى البخارى فى صحيحه ان النبى عليه السلام قرأ سورة والنجم وسجد فيها المسلمون والمشركون والانس والجن وليس فيه حديث الغرانيق وروى هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها البتة

وقوله تعالى (الذين أخرجوا من ديارهم) فى حيز الجر على انه صفة للموصول الاول أو بيان له أو بدل منه او فى محل النصب على المدح أو فى محل الرفع باضمار مبتدا والجملة مرفوعة على المدح والمراد بديارهم مكة المعظمة (بغير حق) متعلق بأخرجوا أى أخرجوا بغير ما يوجب اخراجهم وقوله تعالى (الا أن يقولوا ربنا الله) بدل من حق اى بغير موجب سوى التوحيد الذى ينبغى ان يكون موجبا للاقرار والتمكين دون الاخراج والتسيير لكن لا على الظاهر بل على طريقة قول النابغة * ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم * بهن فلول من قراع الكتائب * وقيل الاستثناء منقطع (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) بتسليط المؤمنين على الكافرين فى كل عصر وزمان وقرئ دفاع (لهدمت) خربت باستيلاء المشركين على اهل الملل وقرئ هدمت بالتخفيف (صوامع) للرهبانية (وبيع) للنصارى (وصلوات) أى وكنائس لليهود

حديث الغرانيق وأما المعقول فمن وجوه (أحدها) ان من جوز على الرسول صلى الله عليه وسلم تعظيم الاوثان فقد كفر لان من المعلوم بالضرورة ان أعظم سعيه كان فى نفى الاوثان (وثانيها) انه عليه السلام ما كان يمكنه فى أول الامر أن يصلى ويقرأ القرآن عند الكعبة آمنا اذى المشركين له حتى كانوا ربما مدوا أيديهم اليه وانما كان يصلى اذا لم يحضروها ليلا أو فى أوقات خلوة وذلك يبطل قولهم (وثالثها) ان معاداتهم للرسول كانت أعظم من أن يقروا بهذا القدر من القراءة دون أن يقفوا على حقيقة الامر فكيف أجمعوا على أنه عظم آلهتهم حتى خروا سجدا مع انه لم يظهر عندهم موافقته لهم (ورابعها) قوله فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته وذلك لان احكام الآيات بازالة ما يلقيه الشيطان عن الرسول اقوى من نسخه بهذه الآيات التى تبقى الشبهة معها فاذا أراد الله احكام الآيات فلا يلبس ما ليس بقرآن قرآنا فبأن يمنع الشيطان من ذلك أصلا أولى (وخامسها) وهو اقوى الوجوه انا لو جوزنا ذلك ارتفع الامان عن شرعه وجوزنا فى كل واحد من الاحكام والشرائع أن يكون كذلك ويبطل قوله تعالى يا ايها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس فانه لا فرق فى العقل بين النقصان عن الوحى وبين الزيادة فيه فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الاجمال ان هذه القصة موضوعة اكثر ما فى الباب ان جمعا من المفسرين ذكروها لكنهم ما بلغوا حد التواتر وخبر الواحد لا يعارض الدلائل القطعية والعقلية المتواترة ولنشرع الآن فى التفصيل فنقول التمنى جاء فى اللغة لامرين (أحدهما) تمنى القلب (والثانى) القراءة قال الله تعالى ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى أى الا قراءة لان الامى لا يعلم القرآن من المصحف وانما يعلمه قراءة وقال حسان

تمنى كتاب الله أول ليلة * وآخرها لاقى حمام المقادر

قيل انما سميت القراءة أمنية لان القارئ اذا انتهى الى آية رحمة تمنى حصولها واذا انتهى الى آية عذاب تمنى ان لا يبتلى بها وقال أبو مسلم التمنى هو التقدير وتمنى هو تفعل من منيت والمنية وفاة الانسان فى الوقت الذى قدره الله تعالى ومن الله لك أى قدر لك وقال رواة اللغة الامنية القراءة واحتجوا ببيت حسان وذلك راجع الى الاصل الذى ذكرناه فان التالى مقدر للحروف يذكرها شيئا فشيئا فالحاصل من هذا البحث أن الامنية اما القراءة واما الخاطر أما اذا فسرناها بالقراءة ففيه قولان (الاول) انه تعالى اراد بذلك ما يجوز أن يسهو الرسول صلى الله عليه وسلم فيه ويشتبه على القارئ دون ما رووه من قوله تلك الغرانيق العلى (الثانى) المراد منه وقوع هذه الكلمة فى قراءته ثم اختلف القائلون بهذا على وجوه (الاول) ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يتكلم بقوله تلك الغرانيق العلى ولا الشيطان تكلم به ولا أحد تكلم به لكنه عليه السلام لما قرأ سورة والنجم اشتبه

سميت بها لانها يصلى فيها وقيل أصلها صلوثا بالعبرية فعربت (ومساجد) للمسلمين (يذكر فيها اسم الله كثيرا) أى ذكرا كثيرا أو وقتا كثيرا صفة مادحة للمساجد خصت بها دلالة على فضلها وفضل أهلها وقيل صفة للاربع وليس كذلك فان بيان ذكر الله عز وجل فى الصوامع والبيع او الكنائس بعد انتساخ شرعيتها مما لا يقتضيه المقام ولا يرتضيه الافهام (ولينصرن الله من ينصره) أى وبالله لينصرن الله من ينصر أولياءه أو من ينصر دينه ولقد أنجز الله عز سلطانه وعده حيث سلط المهاجرين والانصار على صناديد العرب واكاسرة العجم وقياصرة الروم وأورثهم أرضهم وديارهم (ان الله لقوى) على كل ما يريده من مراداته التى من جملتها نصرهم (عزيز) لا يمانعه شئ ولا يدافعه (الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلوة وآتوا الزكوة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) وصف من الله عز وجل للذين أخرجوا من ديارهم بما سيكون منهم من حسن السيرة عند تمكينه تعالى اياهم فى الارض واعطائه اياهم زمام الاحكام منبئ عن عدة كريمة على أبلغ وجه وألطفه عن عثمان رضى الله عنه هذا والله ثناء قبل بلاء يريد أنه تعالى أثنى عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا قالوا وفيه

الامر على الكفار فحسبوا بعض الفاظه مارووه من قولهم تلك الغرانيق العلى وذلك على حسب ما جرت العادة به من توهم بعض الكلمات على غير ما يقال وهذا الوجه ذهب اليه جماعة وهو ضعيف لوجوه (أحدها) أن التوهم فى مثل ذلك انما يصح فيما قد جرت العادة بسماعه فأما غير المسموع فلا يقع ذلك فيه (وثانيها) أنه لو كان كذلك لوقع هذا التوهم لبعض السامعين دون البعض فان العادة مانعة من اتفاق الجم العظيم فى الساعة الواحدة على خيال واحد فاسد فى المحسوسات (وثالثها) لو كان كذلك لم يكن مضافا الى الشيطان (الوجه الثانى) قالوا ان ذلك الكلام كلام شيطان الجن وذلك بان تلفظ بكلام من تلقاء نفسه أوقعه فى درج تلك التلاوة فى بعض وقفاته ليظن انه من جنس الكلام المسموع من الرسول صلى الله عليه وسلم قالوا والذى يؤكده أنه لا خلاف فى أن الجن والشياطين متكلمون فلا يمتنع أن يأتى الشيطان بصوت مثل صوت الرسول عليه السلام فيتكلم بهذه الكلمات فى أثناء كلام الرسول عليه السلام وعند سكوته فاذا سمع الحاضرون تلك الكلمة بصوت مثل صوت الرسول وما رأوا شخصا آخر ظن الحاضرون انه كلام الرسول ثم هذا لا يكون قادحا فى النبوة لما لم يكن فعلا له وهذا أيضا ضعيف فانك اذا جوزت أن يتكلم الشيطان فى أثناء كلام الرسول صلى الله عليه وسلم بما يشتبه على كل السامعين كونه كلاما للرسول بقى هذا الاحتمال فى كل ما يتكلم به الرسول فيفضى الى ارتفاع الوثوق عن كل الشرع فان قيل هذا الاحتمال قائم فى الكل ولكنه لو وقع لوجب فى حكمة الله تعالى أن يشرح الحال فيه كما فى هذه الواقعة ازالة للتلبيس قلنا لا يجب على الله ازالة الاحتمالات كما فى المتشابهات واذا لم يجب على الله ذلك تكن الاحتمال من الكل (الوجه الثالث) أن يقال المتكلم بذلك بعض شياطين الانس وهم الكفرة فانه عليه السلام لما انتهى فى قراءة هذه السورة الى هذا الموضع وذكر اصنامهم آلهتهم وقد علموا من عادته انه يعيبها فقال بعض من حضر تلك الغرانيق العلى فاشتبه الامر على القوم لكثرة غط القوم وكثرة صياحهم وطلبهم تغليطه واخفاء قراءته ولعل ذلك كان فى صلاته لانهم كانوا يترقبون منه فى حال صلاته ويسمعون قراءته ويلغون فيها وقيل انه عليه السلام كان اذا تلا القرآن على قريش توقف فى فصول الآيات فالقى بعض الحاضرين ذلك الكلام فى تلك الوقفات فتوهم القوم انه من قراءة الرسول صلى الله عليه وسلم ثم اضاف الله تعالى ذلك الى الشيطان لانه بوسوسته يحصل أولا ولانه سبحانه جعل ذلك المتكلم فى نفسه شيطانا وهذا أيضا ضعيف لوجهين (أحدهما) انه لو كان كذلك لكان يجب على الرسول صلى الله عليه وسلم ازالة الشبهة وتصريح الحق وتبكيت ذلك القائل واظهار ان هذه الكلمة عند صدورت (وثانيهما) لو فعل ذلك لكان ذلك أولى بالنقل فان قيل انما لم يفعل الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك لانه كان قد أدى السورة بكمالها الى الامة من دون هذه الزيادة فلم يكن ذلك مؤديا الى التلبيس كما لم يؤد سهوه فى الصلاة بعد

بدل من قوله من ينصره (ولله) خاصة (عاقبة الامور) فان مرجعها الى حكمه وتقديره فقط وفيه تأكيد للوعد باظهار أوليائه واعلاء كلمته (وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم متضمنة للوعد الكريم باهلاك من يعاديه من الكفرة وتعيين لكيفية نصره تعالى له الموعود بقوله تعالى ولينصرن الله من ينصره وبيان لرجوع عاقبة الامور اليه تعالى وصيغة المضارع في الشرط مع تحقق الكذيب لان المقصود تسليته عليه السلام عما يترتب على التكذيب من الحزن المتوقع أي وان تحزن على تكذيبهم اياك فاعلم انك لست باوحدي في ذلك فقد كذبت قبل تكذيب قومك اياك قوم نوح (وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين) أي رسلهم ممن ذكر ومن لم يذكر وانما حذف لكمال ظهور المراد أولان المراد نفس الفعل أي فعلت ﴿ ايمان ﴾ التكذيب قوم نوح الى آخره

أن وصفها الى اللبس قلنا ان القرآن لم يكن مستقرا على حالة واحدة في زمان حياته لانه كان تأتيه الآيات فيلحقها بالسور فلم يكن تأدية تلك السورة بدون هذه الزيادة سببا لزوال اللبس وأيضا فلو كان كذلك لما استحق العتاب من الله تعالى على ما رواه القوم (الوجه الرابع) هو ان المتكلم بهذا هو الرسول صلى الله عليه وسلم ثم هذا يحتمل ثلاثة أوجه فانه اما أن يكون قال هذه الكلمة سهوا أو قسرا او اختيارا (أما الوجه الاول) وهو انه عليه السلام قال هذه الكلمة سهوا فكما يروى عن قتادة ومقاتل انهما قالا انه عليه السلام كان يصلي عند المقام فنعس وجرى على لسانه هاتان الكلمتان فلما فرغ من السورة سجد وسجد كل من في المسجد وفرح المشركون بما سمعوه واتاه جبريل عليه السلام فاستقرأه فلما انتهى الى الغرانيق قال لم اتك بهذا فحزن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أن نزلت هذه الآية وهذا ضعيف أيضا لوجوه (أحدها) انه لو جاز هذا السهو لجاز في سائر المواضع وحينئذ تزول الثقة عن الشرع (وثانيها) ان الساهي لا يجوز أن يقع منه مثل هذه الالفاظ المطابقة لوزن السورة وطريقتها ومعناها فانا نعلم بالضرورة ان واحدا لو أنشد قصيدة لمجاراة بسهو حتى يتفق منه بيت شعر في وزنها ومعناها وطريقتها (وثالثها) هب انه تكلم بذلك سهوا فكيف لم ينتبه لذلك حين قرأها على جبريل عليه السلام وذلك ظاهر (أما الوجه الثاني) وهو انه عليه السلام تكلم بذلك قسرا وهو الذي قال قوم ان الشيطان أجبر النبي صلى الله عليه وسلم على ان يتكلم بهذا فهذا أيضا فاسد لوجوه (أحدها) ان الشيطان لو قدر على ذلك في حق النبي عليه السلام لكان اقتداره علينا أكثر فوجب أن يزيل الشيطان الناس عن الدين ولجاز في أكثر ما يتكلم به الواحد منا أن يكون ذلك باجبار الشياطين (وثانيها) ان الشيطان لو قدر على هذا الاجبار لارتفع الامان عن الوحي اقيام هذا الاحتمال (وثالثها) انه باطل بدلالة قوله تعالى حاكيا عن الشيطان وما كان لي عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم وقال تعالى انه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه وقال الا عبادك منهم المخلصين ولا شك انه عليه السلام كان سيد المخلصين (أما الوجه الثالث) وهو انه عليه السلام تكلم بذلك اختيارا فههنا وجهان (أحدهما) أن نقول ان هذه الكلمة باطلة (والثاني) أن نقول انها ليست كلمة باطلة أما على الوجه الاول فذكروا فيه طريقين (الاول) قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية عطاء ان شيطانا يقال له الابيض أتاه على صورة جبريل عليه السلام وألقى عليه هذه الكلمة فقرأها فلما سمع المشركون ذلك أعجبهم فجاء جبريل عليه السلام فاستعرضه فقرأها فلما بلغ الى تلك الكلمة قال جبريل عليه السلام أنا ما جئتك بهذه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم انه أتاني ات على صورتك فالقاها على لساني (الطريق الثاني) قال بعض الجهال انه عليه السلام لشدة حرصه على

وكذب موسى) غير النظم الكريم بذكر المفعول وبناء العفل له لالان قومه بنو اسرائيل وهم لم يكذبوه وانما كذبه القبط لان ذلك انما يقتضى عدم ذكرهم بعنوان كونهم قوم موسى لا بعنوان آخر على أن بنى اسرائيل أيضا قد كذبوه مرة بعد أخرى حسبما ينطق به قوله تعالى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ونحو ذلك من الآيات الكريمة بل للايذان بان تكذيبهم له كان فى غاية الشناعة لكون آياته فى كمال الوضوح وقوله تعالى (فامليت للكافرين) أى أمهلتهم حتى انصرمت حبال آجالهم والفاء لترتيب امهال كل فريق من فرق المكذبين على تكذيب ذلك الفريق لا لترتيب امهال الكل على تكذيب الكل ووضع الظاهر موضع الضمير العائد الى المكذبين لذمهم بالكفر والتصريح بمكذبى موسى عليه السلام حيث لم يذكر وافيما قبل صريحا (ثم أخذتهم) أى أخذت كل فريق من فرق المكذبين بعد انقضاء مدة املائه وامهاله (فكيف كان نكير) أى انكارى عليهم بالاهلاك أى فكان ذلك فى غاية مايكون من الهول والفظاعة وقوله تعالى ﴿ ٣٢ ﴾ س (فكأين من قرية) منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى (أهلكناها) أى فاهلكنا كثيرا من القرى باهلاك أهلها والجملة بدل من قوله تعالى فكيف كان نكير أو مرفوع على الابتداء وأهلكناها خبره أى فكثير من القرى أهلكناها وقرئ أهلكتها على وفق قوله تعالى فأمليت للكافرين

ايمان القوم أدخل هذه الكلمة من عند نفسه ثم رجع عنها وهذان القولان لا يرغب فيهما مسلم البتة لان الاول يقتضى انه عليه السلام ما كان يميز بين الملك المعصوم والشيطان الخبيث والثانى يقتضى انه كان خائنا فى الوحى وكل واحد منهما خروج عن الدين (أما الوجه الثانى) وهو ان هذه الكلمة ليست باطلة فههنا أيضا طرق (الاول) أن يقال الغرانيق هم الملائكة وقد كان ذلك قرآنا منزلا فى وصف الملائكة فلما توهم المشركون انه يريد آلهتهم نسخ الله تلاوته (الثانى) ان يقال المراد منه الاستفهام على سبيل الانكار فكأنه قال أشفاعتهن ترتجى (الثالث) أن يقال انه ذكر الاثبات وأراد النفى كقوله تعالى يبين الله لكم أن تضلوا أى لا تضلوا كما قد يذكر النفى ويراد به الاثبات كقوله تعالى قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا والمعنى أن تشركوا وهذان الوجهان الاخيران يعترض عليهما بانه لو جاز ذلك بناء على هذا التأويل فلم لا يجوز أن يظهروا كلمة الكفر فى جملة القرآن أو فى الصلاة بناء على هذا التأويل ولكن الاصل فى الدين أن لا يجوز عليهم شئ من ذلك لان الله تعالى قد نصبهم حجة واصطفاهم للرسالة فلا يجوز عليهم ما يطعن فى ذلك أو ينفر ومثل ذلك فى التنفير أعظم من الامور التى حثه الله تعالى على تركها كنحو القطاطة والكنابة وقول الشعر فهذه الوجوه المذكورة فى قوله تلك الغرانيق العلا قد ظهر على القطع كذبها فهذا كله اذا فسرنا التمنى بالتلاوة وأما اذا فسرناها بالخاطر وتمنى القلب فالمعنى أن النبى صلى الله عليه وسلم متى تمنى بعض ما يتمناه من الامور وسوس الشيطان اليه بالباطل ويدعوه الى ما لا ينبغى ثم ان الله تعالى ينسخ ذلك ويبطله ويهديه الى ترك الالتفات الى وسوسته ثم اختلفوا فى كيفية تلك الوسوسة على وجوه (أحدها) انه يتمنى ما يتقرب به الى المشركين من ذكر آلهتهم بالثناء قالوا انه عليه السلام كان يحب أن يتألفهم وكان يردد ذلك فى نفسه فعند ما لحقه التعاس زاد تلك الزيادة من حيث كانت فى نفسه وهذا أيضا خروج عن الدين وبيانه ما تقدم (وثانيها) ما قال مجاهد من انه عليه السلام كان يتمنى انزال الوحى عليه على سرعة دون تأخير فنسخ الله ذلك بأن عرفه بان انزال ذلك بحسب المصالح فى الحوادث والنوازل وغيرها (وثالثها) يحتمل انه عليه السلام عند نزول الوحى كان يتفكر فى تأويله ان كان مجملا فيلقى الشيطان فى جملته ما لم يرده فبين تعالى انه ينسخ ذلك بالابطال ويحكم ما أراده الله تعالى بادلته وآياته (ورابعها) معنى الآية اذا تمنى اذا أراد فعلا مقربا الى الله تعالى ألقى الشيطان فى فكره ما يخالفه فيرجع الى الله تعالى فى ذلك وهو كقوله تعالى ان الذين اتقوا اذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون وكقوله واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله ومن الناس من قال لا يجوز حمل الامنية على تمنى القلب لانه لو كان كذلك لم يكن ما يخطر ببال رسول الله عليه وسلم فتنة للكفار وذلك يبطله قوله تعالى ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية

ثم آخذتهم فكيف كان نكير (وهي ظالمة) جملة حالية من مفعول أهلكناوقوله تعالى (فهي خاوية) عطف على أهلكناها الاعلى وهي ظالمة لانها حال والاهلاك ﴿ ٢٥٠ ﴾ ليس في حال خوائها فعلى الاول لامحل له من الاعراب كالمعطوف عليه وعلى الثاني في محل الرفع لعطفه على الخبر والحواء اما بمعنى السقوط من خوى انجم اذا سقط فالمعنى فهي ساقطة حيطانها (على عروشها) أي سقوفها بيان تعطل بانها انخرت سقوفها ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف واسناد السقوط على العروش اليها لتنزيل الحيطان منزلة كل البنيان لكونها عمدة فيه واما بمعنى الخلو من خوى المنزل اذا خلا من أهله فالمعنى فهي خالية مع بقاء عروشها وسلامتها فتكون على بمعنى مع ويجوز أن يكون على عروشها خبرا بعد خبر أي فهي خالية وهي على عروشها أي قائمة مشرفة على عروشها على معنى أن السقوف سقطت الى الارض وبقيت الحيطان قائمة فهي مشرفة على السقوف الساقطة واسناد الاشراف الى الكل مع كونه حال الحيطان لما مر آنفا (وبئر معطلة) عطف على قرية أي وكم بئر عامرة في البوادي تركت لايستقى منها لهلاك أهلها وقرئ بالتخفيف من أعطله بمعنى عطله ﴿ القرآن ﴾ (وقصر مشيد) مرفوع البنيان أو مجصص أخلينا عن ساكنيه وهذا يؤيد كون معنى خاوية على عروشها خالية مع بقاء عروشها وقيل المراد بالبئر بئر بسفح جبل بحضرموت وبالقصر قصر مشرف على قلته كانا لقوم

قلوبهم (والجواب) لايبعد انه اذا قوى الظن اشتغل الخاطر به فحصل السهو في الافعال الظاهرة بسببه فيصير ذلك فتنة للكفار فهذا آخر القول في هذه المسئلة (المسئلة الثالثة) يرجع حاصل البحث الى ان الغرض من هذه الآية بيان ان الرسل الذين أرسلهم الله تعالى وان عصمهم عن الخطايا لم يعصمهم من جواز السهو ووسوسة الشيطان بل سالمهم في جواز ذلك كحال سائر البشر فالواجب أن لايتبعوا الا فيما يفعلونه عن وحي فذلك هو المحكم وقال أبو مسلم معنى الآية انه لم يرسل نبيا الا اذا تمنى كأنه قيل وما أرسلنا الى البشر ملكا ما أرسلنا اليهم نبيا الا منهم وما أرسلنا نبيا خلا عند تلاوته الوحي من وسوسة الشيطان وألقى في خاطره ما يضاد الوحي ويشغله عن حفظه فيثبت الله تعالى على الوحي وعلى حفظه ويعلم صواب ذلك وبطلان ما يكون من الشيطان قال وفيما تقدم من قبل ما يقوي هذا التأويل فكأنه تعالى أمره أن يقول للكافرين انا نذيركم لكن لا من البشر لان الملائكة لم يرسل الله تعالى الى ملك بل أرسل رجلا قد يوسوس الشيطان اليهم فان قيل هذا انما يصح لو كان السهو لايجوز على الملائكة فان كانت الملائكة أعظم درجة من الانبياء لزم من استيلائهم بالوسوسة على الانبياء استيلاؤهم بالوسوسة على الملائكة قلنا لم انه سبحانه وتعالى شرح على هذه الوسوسة أي ذلك يحتمل (الاول) كيفية ازالتها وذلك هو قوله تعالى فينسخ الله ما يلقي الشيطان فالمراد ازالة وازالة تغيره فهو النسخ اللغوي لا النسخ الشرعي المستعمل في الاحكام اما قوله ثم يحكم الله آياته فاذا حمل الثاني على القرآن فالمراد به آيات القرآن واذا حمل على احكام الملة التي لايجوز فيها السهو (البحث الثاني) انه تعالى بين أن تلك الوسوسة ثم انه سبحانه شرح أن ما يلقي حق الكفار أو لاثم في حق المؤمنين ثانيا أما حق الكفار فهو قوله ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة والمراد به تشديد التعبد لان عند ما يظهر من الرسول صلى الله عليه وسلم لاشتباه في القرآن سهو أو لزمهم البحث عن ذلك فيميز الله سهوه من العمد ويعلمون ان العمد سواب وان السهو قد لايكون صوابا أما قوله للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ففيه سؤالان (السؤال الاول) لم قال فتنة للذين في قلوبهم مرض ولم يقل لهم بذلك (الجواب) لانهم مع كفرهم يحتاجون الى ذلك التدبر وأما المؤمنون فقد تقدم علمهم بذلك فلا يحتاجون الى التدبر (السؤال الثاني) ما مرض القلب (الجواب) انه الشك والشبهة وهم المنافقون كما قال في قلوبهم مرض وأما القاسية قلوبهم فهم المشركون المصرون على جهلهم ظاهرا وباطنا ﴿ اما قوله تعالى وانا لظالمين ففي شقاق بعيد يريد أن هؤلاء المنافقين والمشركين فأصله وانهم فوضع الظاهر موضع المضمر قضاء عليهم بالظلم والشقاق والمشاقة والعداوة والمباعدة ﴿ وأما في حق المؤمنين فهو قوله وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك وفي الكناية ثلاثة أوجه (أحدها) انها عائدة الى نسخ ما ألقاه الشيطان عن الكلبي (وثانيها) انه الحق أي

حنظلة بن صفوان من بقايا قوم صالح فلما قتلوا أهلكهم الله تعالى وعطلهما (أفلم يسيروا في الارض) حثهم على أن يسافروا ليروا مصارع المهلكين فيعتبروا وهم ﴿ ٢٥١ ﴾ وان كانوا قد سافروا فيها ولكنهم حيث لم يسافروا للاعتبار

القرآن عن مقاتل (وثالثها) ان تمكن الشيطان من ذلك الالقاء هو الحق أما على قولنا فلانه سبحانه وتعالى أي شيء فعل فقد تصرف في ملكه وملكه فكان حقا وأما على قول المعتزلة فلانه سبحانه حكيم فتكون كل أفعاله صوابا فؤمنوا به فتخبت له قلوبهم أي تخضع وتسكن لعلمهم بان المقضي كائن وكل ميسر لما خلق له وان الله لهادي الذين آمنوا الى أن يتأولوا ما يتشابه في الدين بالتأويلات الصحيحة و يطلبوا ما اشكل منه من المجمل الذي تقتضيه الاصول المحكمة حتى لا تلحقهم حيرة ولا تعتريهم شبهة وقرئ لهاد الذين آمنوا بالتنوين وما بين سبحانه حال الكافرين أو ثم حال المؤمنين ثانيا عاد الى شرح حال الكافرين مرة أخرى فقال ولا يزال الذين كفروا في مرية منه أي من القرآن أو من الرسول وذلك يدل على ان الاعصار الى قيام الساعة لا تخلو من هذا وصفه أما قوله تعالى حتى تأتيهم الساعة بغتة أي فجأة من دون أن يشعروا ثم جعل الساعة غاية للكفرهم وانهم يؤمنون عند اشراط الساعة على وجه الالجاء واختلف في المراد باليوم العقيم وفيه قولان (أحدهما) انه يوم بدر وانما وصف يوم الحرب بالعقيم لوجوه أربعة (أحدها) ان أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كأنهن عقم لم يلدن (وثانيها) ان المقاتلين يقال لهم أبناء الحرب فاذا قتلوا وصف يوم الحرب بالعقيم على سبيل المجاز (وثالثها) هو الذي لا خير فيه يقال ريح عقيم اذا لم تنشئ مطرا ولم تلقح شجرا (ورابعها) انه لا مثل له في عظم أمره وذلك لقتال الملائكة فيه (القول الثاني) انه يوم القيامة وانما وصف بالعقيم لوجوه (أحدها) انهم لا يرون فيه خيرا (وثانيها) انه لا ليل فيه فيستمر كاستمرار المرأة على تعطل الولادة (وثالثها) ان كل ذات حمل تضع حملها في ذلك اليوم فكيف يحصل الحمل فيه وهذا القول أولى لانه لا يجوز أن يقول الله تعالى ولا يزال الذين كفروا ويكون المراد يوم بدر لان من المعلوم انهم في مرية بعد يوم بدر فان قيل لما ذكر الساعة فلو حملتم اليوم العقيم على يوم القيامة لزم التكرار قلنا ليس كذلك لان الساعة من مقدمات القيامة واليوم العقيم هو نفس ذلك اليوم وعلى ان الامر لو كان كما قاله لم يكن تكرارا الا في أول ذكر الساعة وفي الثاني ذكر عذاب ذلك اليوم و يحتمل أن يكون المراد بالساعة وقت موت كل أحد و بعذاب يوم عقيم القيامة أما قوله الملك يومئذ لله فمن أقوى ما يدل على أن اليوم العقيم هو ذلك اليوم وأراد بذلك انه لا ملك في ذلك اليوم سواه فهو بخلاف أيام الدنيا التي ملك الله الامور غيره و بين انه الحاكم بينهم لا حاكم سواه وذلك زجر عن معصيته ثم بين كيف يحكم بينهم وانه يصير المؤمنين الى جنات النعيم والكافرين في العذاب المهين وقد تقدم وصف الجنة والنار فان قيل التنوين في يومئذ عن أي جملة ينوب قلنا تقديره الملك يوم يؤمنون أو يوم تزول مرية عنهم لقوله تعالى ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة * قوله تعالى (والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وان الله لهو خير الرازقين ليدخلنهم مدخلا يرضونه

جعلوا غير مسافرين فحثوا على ذلك والفاء لعطف ما بعدها على مقدر يقتضيه المقام أي أغفلوا فلم يسيروا فيها (فتكون لهم) بسبب ما شاهدوه من مواد الاعتبار ومظان الاستبصار (قلوب يعقلون بها) ما يجب أن يعقل من التوحيد (أو آذان يسمعون بها) ما يجب أن يسمع من الوحي أو من أخبار الامم المهلكة ممن يجاورهم من الناس فانهم أعرف منهم بحالهم (فانها لا تعمى الابصار) الضمير للقصة أو مبهم يفسره الابصار وفي تعمى ضمير راجع اليه وقد أقيم الظاهر مقامه (ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) أي ليس الخلل في مشاعرهم وانما هو في عقولهم باتباع الهوى والانهماك في الغفلة وذكر الصدور للتأكيد ونفي توهم المجاز وفضل التنبيه على أن العمى الحقيقي ليس التعارف الذي يختص بالبصر قيل لما نزل قوله تعالى ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى قال ابن أم مكتوم يا رسول الله أنا في الدنيا أعمى أفأكون في الآخرة أعمى فنزلت (ويستعجلونك بالعذاب) كانوا منكرين لمجيء العذاب المتوعد به أشد الانكار وانما كانوا يستعجلون به استهزاء برسول الله صلى الله عليه وسلم وتعجيزا له على زعمهم فحكى عنهم ذلك بطريق

التخطئة والاستنكار فقوله تعالى (ولن يخلف الله وعده) اما جملة حالية جيء بها لبيان بطلان انكارهم لمجيئه في ضمن استعجالهم به واظهار خطئهم فيه كأنه ﴿ ٢٥٢ ﴾ قيل كيف ينكرون مجيء العذاب الموعود والحال أنه تعالى لا يخلف وعده أبدا وقد سبق الوعد فلا بد من مجيئه حتما أو اعتراضية مبينة لما ذكر وقوله تعالى (وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون) جملة مستأنفة ان كانت الاولى حالية ومعطوفة عليها ان كانت اعتراضية سيقت لبيان خطئهم في الاستعجال المذكور ببيان كمال سعة ساحة حلمه تعالى ووقاره واظهار غاية ضيق عطنهم المستتبع لكون المدة القصيرة عنده تعالى مدادا طوالا عندهم حسبما ينطق به قوله تعالى انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا ولذلك يرون مجيئه بعيدا ويتخذونه ذريعة الى انكاره ويجترؤن على الاستعجال به ولا يدرون أن معيار تقدير الامور كلها وقوعا واخبارا ما عنده تعالى من المقدار وقراءة يعدون على صيغة الغيبة أي يعده المستعجلون أوفق لهذا المعنى وقد جعل الخطاب في القراءة المشهورة لهم أيضا بطريق الالتفات لكن الظاهر أنه للرسول عليه السلام ومن معه من المؤمنين وقيل المراد بوعده تعالى ما جعل لهلاك كل أمة من موعد معين وأجل مسمى كما في قوله تعالى ﴿ ارادة ﴾ ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب فتكون الجملة الاولى حالية كانت أو اعتراضية مبينة لبطلان الاستعجال به ببيان استحالة مجيئه قبل

وان الله لعليم حليم ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغي عليه لينصرنه الله ان الله لعفو غفور ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وان الله سميع بصير ذلك بأن الله هو الحق وان ما يدعون من دونه هو الباطل وان الله هو العلي الكبير) اعلم انه تعالى لما ذكر ان الملك له يوم القيامة وانه يحكم بينهم ويدخل المؤمنين الجنات أتبعه بذكر وعده الكريم للمهاجرين وأفردهم بالذكر تفخيما لشأنهم فقال عز من قائل والذين هاجروا واختلفوا فيمن أريد بذلك فقال بعضهم من هاجر الى المدينة طالبا لنصرة الرسول صلى الله عليه وسلم وتقربا الى الله تعالى وقال آخرون بل المراد من جاهد فخرج مع الرسول صلى الله عليه وسلم أو في سراياه لنصرة الدين ولذلك ذكر القتل بعده ومنهم من حمله على الامرين واختلفوا من وجه آخر فقال قوم المراد قوم مخصوصون روى مجاهد أنها نزلت في طوائف خرجوا من مكة الى المدينة للهجرة فتبعهم المشركون فقاتلوهم وظاهر الكلام للعموم ثم انه سبحانه وتعالى وصفهم برزقهم ومسكنهم أما الرزق فقوله تعالى ليرزقنهم الله رزقا حسنا وان الله لهو خير الرازقين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لا شبهة في ان الرزق الحسن هو نعيم الجنة وقال الاصم انه العلم والفهم كقول شعيب عليه السلام ورزقني منه رزقا حسنا فهذا في الدنيا وفي الآخرة الجنة وقال الكلبي رزقا حسنا حلالا وهو الغنيمة وهذان الوجهان ضعيفان لانه تعالى جعله جزاء على هجرتهم في سبيل الله بعد القتل والموت وبعدهما لا يكون الا نعيم الجنة (المسئلة الثانية) لا بد من شرط اجتناب الكبائر في كل وعد في القرآن لان هذا المهاجر لو ارتكب كبيرة لكان حكمه في المشيئة على قولنا وخرج عن أن يكون أهلا للجنة قطعا على قول المعتزلة فان قيل فما فضله على سائر المؤمنين في الوعد ان كان كما قلتم قلنا فضلهم يظهر لان ثوابهم أعظم وقد قال تعالى لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل فعلوم أن من هاجر مع الرسول صلى الله عليه وسلم وفارق دياره وأهله لتقويته ونصرة دينه مع شدة قوة الكفار وظهور صولتهم صار فعله كالسبب لقوة الدين وعلى هذا الوجه عظم محل الانصار حتى صار ذكرهم والثناء عليهم تاليا لذكر المهاجرين لما آووه ونصروه (المسئلة الثالثة) اختلفوا في معنى قوله وان الله لهو خير الرازقين مع العلم بأن كل الرزق من عنده على وجوه (أحدها) التفاوت انما كان بسبب انه سبحانه مختص بان يرزق ما لا يقدر عليه غيره (وثانيها) أن يكون المراد أنه الاصل في الرزق وغيره انما يرزق بما تقدم من الرزق من جهة الله تعالى (وثالثها) أن غيره ينقل الرزق من يده الى يد غيره لانه يفعل نفس الرزق (ورابعها) ان غيره اذا رزق فانما يرزق لانتفاعه به اما لاجل أن يخرج عن الواجب واما لاجل أن يستحق به حمدا أو ثناء واما لاجل دفع الرقة الجنسية فكان الواحد منا اذا رزق فقد طلب العوض أما الحق سبحانه فان كماله صفة ذاتية له فلا يستفيد من شيء كمالا زائدا فكان الرزق الصادر منه لمحض الاحسان (وخامسها) أن غيره انما يرزق لو حصل في قلبه

نته الموعود والجملة الاخيرة بيانا للبطلان ببيان ابتنائه على استطالة ما هو قصير عنده تعالى على الوجه الذى مر بيانه فلا يكون فى النظم الكريم حينئذ تعرض لانكارهم الذى هو دسوم تحت الاستجمال بل يكون الجواب مبنيا على ظاهر مقالهم

ارادة ذلك الفعل وتلك الارادة من الله فالرازق فى الحقيقة هو الله تعالى (وسادسها) أن المرزوق يكون تحت منة الرازق ومنة الله تعالى أسهل تحملا من منة الغير فكان هو خير الرزقين (وسابعها) أن الغير اذا رزق فلولا أن الله تعالى أعطى ذلك الانسان أنواع الحواس وأعطاه السلامة والصحة والقدرة على الانتفاع بذلك الرزق لما أمكنه الانتفاع به ورزق الغير لابد وأن يكون مسبوقا برزق الله وملحوقا به حتى يحصل الانتفاع وأما رزق الله تعالى فانه لاحاجة به الى رزق غيره فثبت انه سبحانه خير الرازقين (المسئلة الرابعة) قالت المعتزلة الآية تدل على أمور ثلاثة (أحدها) أن الله تعالى قادر (وثانيها) أن غير الله يصح منه أن يرزق ويملك ولولا كونه قادرا فاعلا لما صح ذلك (وثالثها) أن الرزق لا يكون الا حلالا قوله خير الرازقين دلالة على كونهم ممدوحين (والجواب) لانزاع فى كون العبد قادرا فان عندنا القدرة مع الداعى مؤثرة فى الفعل بمعنى الاستلزام وأما الثالث فبحث لفظى وقد سبق الكلام فيه (المسئلة الخامسة) لما قال تعالى ثم قتلوا أو ماتوا فسوى بينهما فى الوعد ظن قوم أن حال المقتول فى الجهاد والميت على فراشه سواء وهذا ان أخذوه من الظاهر فلا دلالة فيه لان الجمع بينهما فى الوعد لا يدل على تفضيل ولا تسوية كما أن الجمع بين المؤمنين لا يدل على ذلك وان أخذوه من دليل آخر فهو حق فانه روى أنس ان النبى صلى الله عليه وسلم قال المقتول فى سبيل الله تعالى والمتوفى فى سبيل الله بغير قتل هما فى الخير والاجر شريكان ولفظ الشركة مشعر بالتسوية والا فلا يبقى لتخصيصهما بالذكر فائدة وروى أيضا ان طوائف من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قالوا يا رسول الله هؤلاء الذين قتلوا قد علمنا ما أعطاهم الله من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فقالنا ان متنا معك فأنزل الله تعالى هاتين الآيتين وهذا يدل على التسوية لانهم ما طلبوا مقدار الاجر فلولا التسوية لم يكن الجواب مفيدا أما المسكن فقوله تعالى ليدخلنهم مدخلا يرضونه وان الله لعليم حليم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ مدخلا بضم الميم وهو من الادخال ومن قرأ بالفتح فالمراد الموضع (المسئلة الثانية) قيل فى المدخل الذى يرضونه ان خيمة من درة بيضاء لا فصم فيها ولا وصم لها سبعون ألف مصراع وقال أبو القاسم القشيرى هو أن يدخلهم الجنة من غير مكروه تقدم وقال ابن عباس رضى الله عنهما انما قال يرضونه لانهم يرون فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيرضونه ولا يبغون عنها حولا ونظيره قوله تعالى ومساكن ترضونها وقوله فى عيشة راضية وقوله ارجعى الى ربك راضية مرضية وقوله مساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر (المسئلة الثالثة) ان قيل ما معنى وان الله لعليم حليم وما تعلقه بما تقدم قلنا يحتمل انه عليم بما يستحقونه ففعله بهم ويزيدهم ويحتمل أن يكون المراد انه عليم بما يرضونه فيعطيهم ذلك فى الجنة وأما الحليم فالمراد انه لحلمه لا يعجل بالعقوبة فيمن يقدم على المعصية بل يمهل لتقع منه التوبة فيستحق منه الجنة أما

و يكتفى فى رد انكارهم ببيان عاقبة من قبلهم من أمثالهم هذا وحمل المستعجل به على عذاب الآخرة وجعل اليوم عبارة عن يوم العذاب المستطال لشدته أو عن أيام الآخرة الطويلة حقيقة أو المستطالة لشدة عذابها مما لا يساعده سياق النظم الجليل ولا سياقه فان كلا منهما ناطق بان المراد هو العذاب الدنيوى وأن الزمان الممتد هو الذى مر عليهم قبل حلوله بطريق الاملاء والامهال لا الزمان المقارن له ألا يرى الى قوله تعالى (وكأين من قرية) الخ فانه كما سلف من قوله تعالى وأمليت للكافرين ثم أخذتهم صريح فى أن المراد هو الاخذ العاجل الشديد بعد الاملاء المديد أى وكم من أهل قرية فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه فى الاعراب ورجع الضمائر والاحكام مبالغة فى التعميم والتهويل (أمليت لها) كما أمليت لهؤلاء حتى أنكروا مجىء ما وعد وامن العذاب واستعجلوا به استهزاء برسلهم كما فعل هؤلاء (وهى ظالمة) جملة حالية مفيدة لكمال حلمه تعالى ومشعرة بطريق التعريض بظلم المستعجلين أى أمليت لها والحال انها ظالمة مستوجبة لتعجيل العقوبة كدأب هؤلاء

(ثم أخذتها) بالعذاب والنكال بعد طول الاملاء والامهال وقوله تعالى (والى المصير) اعتراض تذييلى مقرر لما قبله ومصرح بما أفاده ذلك بطريق التعريض من أن مآل أمر المستعجلين ﴿ ٢٥٤ ﴾ أيضا ما ذكر من الاخذ الوبيل أى الى حكمى مرجع الكل جميعا لا الى أحد غيرى لا استقلالا ولا اشتركة فافعل بهم ما أفعل مما يليق باعمالهم (قل يا أيها الناس انما أنا لكم نذير مبين) أنذركم انذارا بينا بما أوحى من أنباء الامم المهلكة من غير أن يكون لى دخل فى اتيان ما توعدونه من العذاب حتى تستعجلونى به والاقتصار على الانذار مع بيان حال الفريقين بعده مما أشير اليه من أن مساق الحديث للمشركين وعقابهم وانما ذكر المؤمنون وثوابهم زيادة فى غيظهم (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة) لما اندرس منهم من الذنوب (ورزق كريم) هى الجنة والكريم من كل نوع ما يجمع فضائله ويجوز كمالاته (والذين سعوا فى آياتنا معاجزين) أى سابقين أو مسابقين فى زعمهم وتقديرهم طامعين أن كيدهم الاسلام يتم لهم وأصله من عاجزه وعجزه فاعجزه اذا سابقه فسبقه لان كلا من المتسابقين يريد اعجاز الآخر عن اللحاق به وقرئ معجزين أى مثبطين الناس عن

قوله ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله ان الله لعفو غفور ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله ذلك قد مضى الكلام فيه فى هذه الآية فى هذه السورة وقال الزجاج أى الامر ما قصصنا عليك من انجاز الوعد للمهاجرين الذين قتلوا أو ماتوا (المسئلة الثانية) قوله ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه معناه قاتل من كان يقاتله ثم كان المقاتل مبغيا عليه بان اضطر الى الهجرة ومفارقة الوطن وابتدئ بالقتال قال مقاتل نزلت فى قوم من المشركين لقوا قوما من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم فقتال بعضهم بعض ان أصحاب محمد يكرهون القتال فى الشهر الحرام فحملوا عليهم فناشدهم المسلمون ان يكفوا عن قتالهم لحرمة الشهر فابوا وقاتلوهم فذلك بغيهم عليهم وثبت المسلمون لهم فنصروا عليهم فوقع فى أنفس المسلمين من القتال فى الشهر الحرام ما وقع فأنزل الله تعالى هذه الآية وعفا عنهم وغفر لهم وههنا سؤالات (السؤال الاول) أى تعلق لهذه الآية بما قبلها (الجواب) كأنه سبحانه وتعالى قال مع اكرامى لهم فى الآخرة بهذا الوعد لا ادع نصرتهم فى الدنيا على من بغى عليهم (السؤال الثانى) هل يرجع ذلك الى المهاجرين خاصة أو اليهم والى المؤمنين (الجواب) الاقرب انه يعود الى الفريقين فانه تقدم ذكرهما وبين ذلك قوله تعالى لينصرنه الله و بعد القتل والموت لا يمكن ذلك فى الدنيا (السؤال الثالث) ما المراد بالعقوبة المذكورة (الجواب) فيه وجهان (أحدهما) المراد ما فعله مشركو مكة مع المهاجرين بمكة من طلب آثارهم ورد بعضهم الى غير ذلك فبين تعالى ان من عاقب هؤلاء الكفار بمثل ما فعلوا فسينصره عليهم و هذه النصرة المذكورة تقوى تأويل من تأوله على مجاهدة الكفار لا على القصاص لان ظاهر النص لا يليق الا بذلك (والجواب الثانى) ان هذه الآية فى القصاص والجراحات وهى آية مدنية عن الضحاك (السؤال الرابع) لم سمى ابتداء فعلهم بالعقوبة (الجواب) أطلق اسم العقوبة على الاول لتعلق الذى بينه و بين الثانى كقوله تعالى وجزاء سيئة سيئة مثلها يخادعون الله وهو خادعهم (السؤال الخامس) أى تعلق لقوله وان الله لعفو غفور بما تقدم (الجواب) فيه وجوه (أحدها) ان الله تعالى ندب المعاقب الى العفو عن الجانى بقوله فمن عفا وأصلح فأجره على الله وان تعفوا أقرب للتقوى ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور فلما ليات بهذا المندوب فهو نوع اساءة فكأنه سبحانه قال انى قد عفوت عن هذه الاساءة وغفرتها فانى أنا الذى أذنت لك فيه (وثانيها) انه سبحانه وان ضمن له النصر على الباغى لكنه عرض مع ذلك بما كان أولى به من العفو والمغفرة فلوح بذكرهاتين الصفتين (وثالثها) انه سبحانه دل بذكر العفو والمغفرة على انه قادر على العقوبة لانه لا يوصف بالعفو الا القادر على ضده (السؤال السادس) أى تعلق لقوله ذلك بان الله يولج الليل فى النهار و يولج النهار فى الليل بما قبله (والجواب) من وجهين (أحدهما) ذلك أى ذلك النصر بسبب انه قادر ومن آيات قدرته البالغة كونه خالقا

الايمان على انه حال مقدرة (أولئك) الموصوفون بما ذكر من السعى والمعاجزة (أصحاب الجحيم) أى ملازموا النار الموقدة وقيل هو اسم دركة من دركاتها ﴿ (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى) الرسول من بعثه الله تعالى بشريعة جديدة يدعو الناس اليها والنبى يعمه ومن بعثه لتقرير شريعة سابقة كانبياء بنى اسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ولذلك شبه عليه السلام علماء أمته بهم فالنبى أعم من الرسول ويدل عليه أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن الانبياء فقال مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا قيل فكم الرسل منهم فقال ثلثمائة وثلاثة عشر جما غفيرا وقيل الرسول من جمع الى المعجزة كتابا منزلا عليه والنبى غير الرسول من لا كتاب له وقيل الرسول من يأتيه الملك بالوحى والنبى يقال له ولمن يوحى اليه فى المنام (الا اذا تمنى) أى هيأ فى نفسه ما يهواه (ألقى الشيطان فى أمنيته) فى تشهيه ما يوجب اشتغاله بالدنيا كما قال عليه السلام وانه ليغان على قلبى فاستغفر الله فى اليوم سبعين مرة (فينسخ الله ما يلقى الشيطان) فيبطله بما يذهب به بعصمته عن الركون اليه وارشاده الى ما يزيحه (ثم يحكم الله آياته) أى يثبت آياته الداعية الى الاستغراق فى شؤن الحق وصيغة

الليل والنهار ومتصرفا فيهما فوجب أن يكون قادرا عالما بما يجرى فيهما واذا كان كذلك كان قادرا على النصر مصيبا فيه (وثانيها) المراد انه سبحانه مع ذلك النصر ينعم فى الدنيا بما يفعله من تعاقب الليل والنهار وولوج أحدهما فى الآخر (السؤال السابع) ما معنى ايلاج الليل فى النهار وايلاج النهار فى الليل (الجواب) فيه وجهان (أحدهما) يحصل ظلمة هذا فى مكان ضياء ذلك بغيبوبة الشمس وضياء ذلك فى مكان ظلمة هذا بطلوعها كما يضئ البيت بالسراج ويظلم بفقده (وثانيهما) انه سبحانه يزيد فى أحدهما ما ينقص من الآخر من الساعات (السؤال الثامن) أى تعلق لقوله وان الله سميع بصير بما تقدم (الجواب) المراد انه كما يقدر على ما لا يقدر عليه غيره فكذلك يدرك المسموع والمبصر ولا يجوز المنع عليه ويكون ذلك كالتحذير من الاقدام على ما لا يجوز فى المسموع والمبصر (السؤال التاسع) ما معنى قوله ذلك بان الله هو الحق وأى تعلق له بما تقدم (الجواب) فيه وجهان (أحدهما) المراد ان ذلك الوصف الذى تقدم ذكره من القدرة على هذه الامور انما حصل لاجل ان الله هو الحق أى هو الموجود الواجب لذاته الذى يمتنع عليه التغير والزوال فلا جرم أتى بالوعد والوعيد (ثانيهما) ان يفعل من عباده ما هو الحق وما يفعل من عبادة غيره فهو الباطل كما قال ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة (السؤال العاشر) أى تعلق لقوله وأن الله هو العلى الكبير بما تقدم (والجواب) معنى العلى القاهر المقتدر الذى لا يغلب فنبه بذلك على أنه القادر على الضر والنفع دون سائر من يعبد من غير ذلك فى عبادته زاجرا عن عبادة غيره وأما الكبير فهو العظيم فى قدرته وسلطانه وذلك أيضا يفيد كمال القدرة (المسئلة الثالثة) قوله لينصرنه الله اخبار عن الغيب فانه وجد مخبره كما أخبر فكان من المعجزات (المسئلة الرابعة) قال الشافعى رحمه الله من حرق حرقناه ومن غرق غرقناه وقال أبو حنيفة رحمه الله بل يقتل بالسيف واحتج الشافعى رحمه الله بهذه الآية فان الله تعالى جوز للمظلوم أن يعاقب بمثل ما عوقب به ووعده النصر عليه (المسئلة الخامسة) قرأ نافع وابن عامر تدعون بالتاء ههنا وفى لقمان وفى المؤمنين وفى العنكبوت وقرأ ابن كثير وأبو عمرو كلها بالياء على الخبر والعرب قد تنصرف من الخطاب الى الاخبار ومن الاخبار الى الخطاب ﴿ قوله تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة ان الله لطيف خبير له ما فى السموات وما فى الارض وان الله لهو الغنى الحميد ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الارض والفلك تجرى فى البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الارض الا باذنه ان الله بالناس لرؤف رحيم وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ان الانسان لكفور) اعلم انه تعالى لما دل على قدرته من قبل بما ذكره من ولوج الليل فى النهار ونبه به على نعمه أتبعه بانواع أخر من الدلائل على قدرته ونعمته وهى ستة (أولها) قوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الارض مخضرة ان الله لطيف خبير وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا

والخشية والاذعان لما فيه من الاوامر والنواهي ورجع الضميرين لاسيما الثاني الى تمكين الشيطان من القاء مما لا وجد
(وان الله لهادي الذين آمنوا) أي في الامور الدينية خصوصا في المداحض والمشكلات التي من جملتها ماذكر
(الى صراط مستقيم) هو النظر الصحيح الموصل الى الحق الصريح والجملة اعتراض مقرر لما قبله (ولا يزال الذين كفروا
في مرية) أي في شك وجدال (منه) أي من القرآن وقيل من الرسول ﴿ ٢٥٨ ﴾ صلى الله عليه وسلم والاول هو

الواو في قوله لكل أمة لانه لا تعلق لهذا الكلام بما قبله فلا جرم حذف العاطف (المسئلة
الثانية) في المنسك أقوال (أحدها) قال ابن عباس عيد يذبحون فيه (وثانيها) قربانا ولفظ
المنسك مختص بالذبائح عن مجاهد (وثالثها) مألفا يألفونه اما مكانا معينا أو زمانا معينا
لاداء الطاعات (ورابعها) المنسك هو الشريعة والمنهاج وهو قول ابن عباس في رواية
عطاء واختيار القفال وهو الاقرب لقوله تعالى لكل أمة جعلنا منكم شرعة ومنهاجا
ولان المنسك ماخوذ من النسك وهي العبادة واذا وقع الاسم على كل عبادة فلا وجه
للتخصيص فان قيل هلا حملتموه على الذبح لان المنسك في العرف لا يفهم منه الا الذبح
وهلا حملتموه على موضع العبادة أو على وقتها (الجواب) عن الاول لا نسلم أن المنسك في
العرف مخصوص بالذبح والدليل عليه ان سائر ما يفعل في الحج يوصف بانه مناسك ولانه
قال عليه السلام خذوا عني مناسككم (وعن الثاني) ان قوله هم ناسكوه أليق بالعبادة
منه بالوقت والمكان (المسئلة الثالثة) زعم قوم ان المراد من قوله هم ناسكوه من كان في زمن
الرسول صلى الله عليه وسلم متمسكا بشرع كالهود والنصارى ولا يمتنع أن يريد كل من تعبد
من الامم سواء بقيت آثارهم أو لم تبق لان قوله هم ناسكوه كالوصف للامم وان لم يعبدوا في
الحال أما قوله تعالى فلا ينازعنك في الامر فقرئ فلا ينازعنك أي اثبت في دينك ثباتا
لا يطمعون أن يخدعوك ليزيلوك عنه وأما قوله فلا ينازعنك ففيه قولان (أحدهما) وهو
قول الزجاج انه نهى لهم عن منازعتهم كما تقول لا يضارنك فلان أي لا تضار به (والثاني)
أن المراد أن علمهم اتباعك وترك مخالفتك وقد استقر الامر الآن على شرعك وعلى انه ناسخ
لكل ما عداه فكانه تعالى نهى كل امة بقيت منها بقية أن تستمر على تلك العادة وألزمهم ان
تتحول الى اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فلذلك قال وادع الى ربك أي لا تخص بالدعاء
امة دون امة فكلهم أمتك فادعهم الى شريعتك فانك على هدى مستقيم والهدى يحتمل
نفس الدين ويحتمل أدلة الدين وهو أولى كانه قال ادعهم الى هذا الدين فانك من حيث
الدلالة على طريقة واضحة وهذا قال وان جادلوك والمعنى فان عدلوا عن النظر في هذه
الادلة الى طريقة المراء والتمسك بالعادة فقد بينت وأظهرت ما يلزمك فقل الله اعلم بما
تعملون لانه ليس بعد ايضاح الادلة الا هذا الجنس الذي يجري مجرى الوعيد والتحذير من
حكم يوم القيامة الذي يتردد بين جنة وثواب لمن قبل وبين نار وعقاب لمن رد وانكر فقال
الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون فتعرفون حينئذ الحق من الباطل والله
أعلم * قوله تعالى (ألم تعلم ان الله يعلم ما في السماء والارض ان ذلك في كتاب ان ذلك على الله
يسير ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير واذا
تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون
عليهم آياتنا قل افأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير) اعلم انه
تعالى لما قال من قبل الله يحكم بينكم يوم القيامة أتبعه بما به يعلم انه سبحانه عالم بما يستحقه

الاظهر بشهادة ما سبق من قوله تعالى ثم يحكم الله آياته وقوله تعالى انه الحق من ربك فيؤمنوا به وما ألحق من قوله تعالى وكذبوا بآياتنا وأما تجويز كون الضمير لما ألقى الشيطان في امنيته فما لا مساغ له لان ذلك ليس من هناتهم التي تستمر الى الامد المذكور بل انما هي مريتهم في شأن القرآن ولا يجدي حمل من على السببية دون الابتدائية لان مريتهم المستمرة كما أنها ليست مبتدأة من ذلك ليست ناشئة منه ضرورة أنها مستمرة منهم من اول نزول القرآن الكريم (حتى تأتيهم الساعة) أي القيامة نفسها كما يؤذن به قوله تعالى (بغتة) أي فجأة فانها الموصوفة بالاتيان كذلك لا أشراطها وقيل الموت (أو يأتيهم عذاب يوم عقيم) (أي يوم لا يوم بعده كأن كل يوم يلد ما بعده من الايام فالا يوم بعده يكون عقيما والمراد به الساعة أيضا كانه قيل أو يأتيهم عذابها فوضع ﴿ كل ﴾ ذلك موضع ضميرها لمزيد التهويل ولا سبيل الى حمل الساعة على أشراطها لما عرفته وأما ما قيل من أن المراد يوم حرب يقتلون فيه كيوم بدر سمي به لان أولاد النساء يقتلون فيه فيصرن كانهن عقم لم يلدن أولان المقاتلين أبناء الحرب فاذا قتلوا صارت عقيما أي ثكلى فوصف اليوم بوصفها اتساعا أو لانه لا خير لهم فيه

ومنه الريح العقيم لما لم ينشئ مطرا ولم يلقح شجرا أولانه لا مثل له لقتال الملائكة عليهم السلام فيه فما لا يساعده سياق النظم الكريم أصلا كيف لا وان تخصيص الملك والتصرف الكلي فيه بالله عز وجل ثم بيان ما يقع فيه من حكمه تعالى بين الفريقين باثواب والعذاب الاخرو بين يقضي بأن المراد به يوم القيامة قضاء بينا لا ريب فيه (الملك) أي السلطان القاهر والاستيلاء التام والتصرف على الاطلاق (يومئذ لله) ✻ ٢٥٩ ✻ وحده بلا شريك أصلا بحيث لا يكون فيه لاحد

تصرف من التصرفات في أمر من الامور لا حقيقة ولا مجازا ولا صورة ولا معنى كما في الدنيا فان للبعض فيها تصرفا صوريا في الجملة وليس التوبين نائبا عما تدل عليه الغاية من زوال مريتهم كما قيل ولا عما يستلزمه ذلك من ايمانهم كما قيل لما أن القيد المعتبر مع اليوم حيث وسط بين طرفي الجملة يجب أن يكون مدار الحكم بهما أعني كون الملك لله عز وجل وما يتفرع عليه من الاثابة والتعذيب ولا ريب في أن ايمانهم أو زوال مريتهم ليس مما له تعلق ما بما ذكر فضلا عن المدار يته له فلا سبيل الى اعتبار شئ منهما مع اليوم قطعا وانما الذي يدور عليه ما ذكر اتيان الساعة التي هي منتهى تصرفات الخلق جل جلاله فاذن هو نائب عن نفس الجملة الواقعة غاية لمريتهم فالمعنى الملك يوم اذ تأتيهم

كل أحد منهم فيقع الحكم منه بينهم بالعدل لا بالجور فقال لرسوله ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والارض وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قوله ألم تعلم هو على لفظ الاستفهام لكن معناه تقوية قلب الرسول صلى الله عليه وسلم والوعد له وايعاد الكافرين بأن كل فعلهم محفوظ عند الله لا يضل عنه ولا ينسى (المسئلة الثانية) الخطاب مع الرسول صلى الله عليه وسلم والمراد سائر العباد ولان الرسالة لا تثبت الا بعد العلم بكونه تعالى عالما بكل المعلومات اذ لو لم يثبت ذلك لجاز أن يشتبه عليه الكاذب بالصادق فحينئذ لا يكون اظهار المعجز دليلا على الصدق واذا كان كذلك استحال لا يكون الرسول عالما بذلك فثبت ان المراد أن يكون خطابا مع الغير أما قوله ان ذلك في كتاب ففيه قولان (أحدهما) وهو قول أبي مسلم ان معنى الكتاب الحفظ والضبط والشد يقال كتبت المزادة اكتبها اذا خرزتها فحفظت بذلك ما فيها ومعناه ومعنى الكتاب بين الناس حفظ ما يتعاملون به فالمراد من قوله ان ذلك في كتاب انه محفوظ عنده (والثاني) وهو قول الجمهور ان كل ما يحدثه الله في السموات والارض فقد كتبه في اللوح المحفوظ قالوا وهذا أولى لان القول الاول وان كان صحيحا نظرا الى الاشتقاق لكن الواجب حمل اللفظ على المتعارف ومعلوم ان الكتاب هو ما تكتب فيه الامور فكان حمله عليه أولى فان قيل فقد يوهم ذلك ان علمه مستفاد من الكتاب وأيضا فأي فائدة في ذلك الكتاب (والجواب) عن الاول ان كتبه تلك الاشياء في ذلك الكتاب مع كونها مطابقة للموجودات من ادل الدلائل على انه سبحانه غني في علمه عن ذلك الكتاب (وعن الثاني) ان الملائكة ينظرون فيه ثم يرون الحوادث داخلة في الوجود على وفقه فصار ذلك دليلا لهم زائدا على كونه سبحانه عالما بكل المعلومات أما قوله ان ذلك على الله يسير فمعناه ان كتبه جملة الحوادث مع انها من اغيب مما يتعذر على الخلق لكنها بحيث متى أرادها الله تعالى كانت فعبر عن ذلك بأنه يسير وان كان هذا الوصف لا يستعمل الا فينا من حيث تسهل وتصعب علينا الامور وتعالى الله عن ذلك ثم بين سبحانه ما يقدم الكفار عليه مع عظيم نعمه ووضوح دلائله فقال ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم فبين ان عبادتهم لغير الله تعالى ليست مأخوذة عن دليل سمعي وهو المراد من قوله ما لم ينزل به سلطانا ولا عن دليل عقلي وهو المراد من قوله وما ليس لهم به علم واذا لم يكن كذلك فهو عن تقليد أو جهل او شبهة فوجب في كل قول هذا شأنه أن يكون باطلا فمن هذا الوجه يدل على ان الكافر قد يكون كافرا وان لم يعلم كونه كافرا ويدل أيضا على فساد التقليد أما قوله وما للظالمين من نصير ففيه وجهان (أحدهما) أنهم ليس لهم أحد ينصرهم من الله كما قد تتفق النصرة في الدنيا (والثاني) ما لهم في كفرهم ناصر بالحجة فان الحجة ليست الا الحق واحتجت المعتزلة بهذه الآية في نفي الشفاعة والكلام عليه معلوم أما قوله تعالى واذا تتلى عليهم آياتنا بينات يعني من تقدم ذكره وهذه الآيات هي القرآن ووصفها بأنها بينات لكونها متضمنة

الساعة أو عذابها لله تعالى وقوله تعالى (يحكم بينهم) جملة مستأنفة وقعت جوابا عن سؤال نشأ من الاخبار بكون الملك يومئذ لله كأنه قيل فاذا يصنع بهم حينئذ فقيل يحكم بين فريقي المؤمنين به والممارين فيه بالمجازاة وقوله تعالى (فالذين آمنوا) الخ تفسير للحكم المذكور وتفصيل له أي فالذين آمنوا بالقرآن الكريم ولم يمتروا فيه (وعملوا الصالحات) امتثالا بما أمروا في تضاعيفه (في جنات

النعيم) أى مستقرون فيها (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا) أى اصروا على ذلك واستمروا (فأولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما فى حيز الصلة من الكفر والتكذيب وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الشر والفساد أى أولئك الموصوفون بما ذكر من الكفر والتكذيب وهو مبتدأ وقوله تعالى (لهم عذاب) جملة اسمية من مبتدأ وخبر مقدم عليه وقعت خبرا لاولئك أولهم خبر لاولئك وعذاب مرتفع ﴿ ٢٦٠ ﴾ على الفاعلية بالاستقرار فى الجار والمجرور لاعتماده على المبتدأ وأولئك مع خبره على الوجهين خبر للموصول وتصدير بها للدلالة على أن تعذيب الكفار بسبب أعمالهم السيئة كأن تجريد خبر الموصول الاول عنها للايذان بان اثابة المؤمنين بطريق التفضيل لا ايجاب الاعمال الصالحة اياها وقوله تعالى (مهين) صفة لعذاب مؤكدة لما أفاده التنوين من الفخامة وفيه من المبالغة من وجوه شتى ما لا يخفى (والذين هاجروا فى سبيل الله) أى فى الجهاد حسبما يلوح به قوله تعالى (ثم قتلوا اوماتوا) أى فى تضاعيف المهاجرة ومحل الموصول الرفع على الابتداء وقوله تعالى (ليرزقنهم الله) جواب لقسم محذوف والجملة خبره ومن منع وقوع الجملة القسمية جوابها خبرا للمبتدأ يضمر قولا هو الخبر والجملة محكية به وقوله تعالى (رزقا حسنا) اما مفعول ثان على أنه من باب الرعى والذبح أى مرزوقا حسنا أو مصدر مؤكد والمراد به ﴿ قال ﴾ ما لا ينقطع أبدا من نعيم الجنة وانما سوى بينهما فى الوعد لاستوائهما فى القصد وأصل العمل على أن مراتب الحسن متفاوتة فيجوز تفاوت حال المرزوقين حسب تفاوت الارزاق الحسنة وروى أن بعض أصحاب النبى عليه السلام قالوا يا نبى الله هؤلاء الذين قتلوا فى سبيل الله قد علمنا

للدلائل العقلية وبيان الاحكام فبين انهم مع جهلهم اذا نبهوا على الادلة وعرضت عليهم المعجزة ظهر فى وجوههم المنكر والمراد دلالة الغيظ والغضب قال صاحب الكشاف المنكر القبيح من التهجم والفجور والنشوز او الانكار كالمكرم بمعنى الاكرام وقرئ تعرف على ما لم يسم فاعله وللمفسرين فى المنكر عبارات (احداها) قال الكلبى تعرف فى وجوههم الكراهية للقرآن (وثانيها) قال ابن عباس رضى الله عنهما التجهم والدفع (وثالثها) قال مقاتل انكروا أن يكون من الله تعالى أما قوله تعالى يكادون يسطون فقال الخليل والفراء والزجاج السطو شدة البطش والوثوب والمعنى يهمون بالبطش والوثوب تعظيما لانكار ما خوطبوا به فحكى تعالى عظيم تمردهم على الانبياء والمؤمنين ثم أمر رسوله بان يقابلهم بالوعيد فقال قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار قال صاحب الكشاف قوله من ذلكم أى من غيظكم على الناس وسطوكم عليهم أو مما أصابكم من الكراهة والضجر بسبب ما تلى عليكم فقوله من ذلكم فيه وجهان (أحدهما) المراد ان الذى ينالكم من النار التى تكادون تقتحمونها بسوء فعالكم أعظم مما نالكم عند تلاوة هذه الآيات من الغضب ومن هذا الغم (والثانى) أن يكون المراد بشر من ذلكم ما تهمون به فيمن يحاجكم فان أكبر ما ينالكم فيه الهلاك ثم بعده مصيرهم الى الجنة وأنتم تصيرون الى النار الدائمة ان لا فرج لكم عنها وأما النار فقال صاحب الكشاف قرئ النار بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف كأنه قائلا يقول ما شر من ذلك فقيل النار أى هو النار وبالنصب على الاختصاص وبالجر على البدل من شر ثم بين سبحانه انه وعدها الذين كفروا اذا ماتوا على كفرهم وهو بئس المصير قال صاحب الكشاف وعدها الله استئناف كلام ويحتمل أن تكون النار مبتدأ ووعدها خبرا ﴿ قوله تعالى ﴾ (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره ان الله لقوى عزيز) اعلم أنه سبحانه لما بين من قبل انهم يعبدون من دون الله ما لا حجة لهم فيه ولا علم ذكر فى هذه الآية ما يدل على ابطال قولهم أما قوله تعالى ضرب مثل ففيه سؤالان (السؤال الاول) الذى جاء به ليس بمثل فكيف سماه مثلا (والجواب) لما كان المثل فى الاكثر نكتة عجيبة غريبة جاز أن يسمى كل ما كان كذلك مثلا (السؤال الثانى) قوله ضرب يفيد فيما مضى والله تعالى هو المتكلم بهذا الكلام ابتداء (الجواب) اذا كان ما يورد من الوصف معلوما من قبل جاز ذلك فيه ويكون ذكره بمنزلة اعادة أمر قد تقدم أما قوله فاستمعوا له أى تدبروه حق تدبره لان نفس السماع لا ينفع وانما ينفع التدبر واعلم أن الذباب لما كان فى غاية الضعف احتج الله تعالى به على ابطال قولهم من وجهين (الاول) قوله ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له قرئ يدعون بالياء والتاء ويدعون مبنيا للمفعول ولن أصل فى نفى المستقبل الا أنه ينفيه نفيا مؤكدا فكأنه سبحانه

ما أعطاهم الله تعالى من الخير ونحن نجاهد معك كما جاهدوا فانا نان متنا معك فنزلت وقيل نزلت فى طوائف خرجوا من مكة الى المدينة للهجرة فتبعهم المشركون فقاتلوهم (وان الله لهو خير الرازقين فانه يرزق بغير حساب مع أن ما يرزقه لا يقدر عليه أحد غيره والجملة اعتراض تذييلى مقرر لما قبله وقوله تعالى (ليدخلنهم مدخلا يرضونه) بدل من قوله تعالى ليرزقنهم الله أو استئناف مقرر لمضمونه ومدخلا ﴿ ٢٦١ ﴾ اما اسم مكان أريد به الجنة فهو مفعول ثان للادخال او مصدر ميمى أكد به فعله قال ابن عباس رضى الله عنهما انما قيل يرضونه لما أنهم يرون فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فيرضونه (وان الله لعليم) بأحوالهم واحوال معاديهم (حليم) لا يعاجلهم بالعقوبة (ذلك) خبر مبتدا محذوف أى الامر ذلك والجملة لتقرير ما قبله والتنبيه على أن ما بعده كلام مستانف (ومن عاقب بمثل ما عوقب به) أى لم يزد فى الاقتصاص وانما سمى الابتداء بالعقاب الذى هو جزاء الجناية للمشاكلة أو لكونه سببا له (ثم بغى عليه) بالمعاودة الى العقوبة (لينصرنه الله) على من بغى عليه لا محالة (ان الله لعفو غفور) أى مبالغ فى العفو والغفران فيعفو عن المنتصر ويغفر له ما صدر عنه من ترجيح الانتقام على العفو والصبر المندوب اليهما بقوله تعالى ولمن صبر وغفر ان ذلك أى ما ذكر من الصبر والغفر لمن عزم الامور فان فيه حثا بليغا على العفو والمغفرة فانه تعالى مع كمال قدرته لما كان يعفو ويغفر فغيره أولى بذلك وتنبيها على أنه تعالى قادر على العقوبة اذ لا يوصف بالعفو الا القادر على ضده (ذلك) اشارة الى النصر وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبته ومحله الرفع على الابتداء خبره قوله تعالى (بان الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) أى بسبب

قال ان هذه الاصنام وان اجتمعت لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها فكيف يليق بالعاقل جعلها معبودا فقوله ولو اجتمعوا له نصب على الحال كانه قال يستحيل أن يخلقوا الذباب حال اجتماعهم فكيف حال انفرادهم (والثانى) ان قوله وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه كانه سبحانه قال اترك أمر الخلق والايجاد واتكلم فيما هو أسهل منه فان الذباب ان سلب منها شيئا فهى لا تقدر على استنقاذ ذلك الشئ من الذباب واعلم ان الدلالة الاولى صالحة لان يتمسك بها فى نفى كون المسيح والملائكة آلهة أما الثانية فلا فان قيل هذا الاستدلال اما ان يكون لنفى كون الاوثان خالقة عالمة حية مدبرة أو لنفى كونها مستحقة للتعظيم (والاول) فاسد لان نفى كونها كذلك معلوم بالضرورة فاى فائدة فى اقامة الدلالة عليه (وأما الثانى) فهذه الدلالة لا تفيده لانه لا يلزم من نفى كونها حية أن لا تكون معظمة فان جهات التعظيم مختلفة فالقوم كانوا يعتقدون فيها انها طلسمات موضوعة على صورة الكواكب أو انها تماثيل الملائكة والانبياء المتقدمين وكانوا يعظمونها على ان تعظيمها يوجب تعظيم الملائكة وأولئك الانبياء المتقدمين (والجواب) اما كونها طلسمات موضوعة على الكواكب بحيث يحصل منها الاضرار والانتفاع فهو يبطل بهذه الدلالة فانها لما لم تنفع نفسها فى هذا القدر وهو تخليص النفس عن الذبابة فلان لا تنفع غيرها أولى وأما انها تماثيل الملائكة والانبياء المتقدمين فقد تقرر فى العقل ان تعظيم غير الله تعالى ينبغى أن يكون أقل من تعظيم الله تعالى والقوم كانوا يعظمونها غاية التعظيم وحينئذ كان يلزم التسوية بينها وبين الخالق سبحانه فى التعظيم فمن ههنا صاروا مستحقين الذم واللام أما قوله تعالى ضعف الطالب والمطلوب ففيه قولان (أحدهما) المراد منه الصنم والذباب فالصنم كالطالب من حيث انه لو طلب أن يخلقه و يستنقذ منه ما استلبه لعجز عنه والذباب بمنزلة المطلوب (الثانى) ان الطالب من عبد الصنم والمطلوب نفس الصنم أو عبادتها وهذا أقرب لان كون الصنم طالبا ليس حقيقة بل هو على سبيل التقدير أما ههنا فعلى سبيل التحقيق لكن المجاز فيه حاصل لان الوثن لا يصح أن يكون ضعيفا لان الضعف لا يجوز الا على من يصح ان يقوى وههنا وجه ثالث وهو أن يكون معنى قوله ضعف الامن حيث القوة ولكن اظهر ورجح هذا المذهب كما يقال للمرء عند المناظرة ما أضعف هذا المذهب وما أضعف هذا الوجه أما قوله ما قدروا الله حق قدره أى ما عظموه حق تعظيمه حيث جعلوا هذه الاصنام على نهاية خساستها شريكة له فى المعبودية وهذه الكلمة مفسرة فى سورة الانعام وهو قوى لا يتعذر عليه فعل شئ وعزيز لا يقدر أحد على مغالبته فاى حاجة الى القول بالشريك قال الكلبى فى هذه الآية ونظيرها فى سورة الانعام انها نزلت فى جماعة من اليهود وهم مالك بن الصيف وكعب بن الاشرف وكعب بن أسد وغيرهم لعنهم الله حيث قالوا انه سبحانه لما فرغ من خلق السموات والارض أعيا من خلقها فاستلقى واستراح ووضع احدى رجليه على الاخرى فنزلت هذه الآية تكذيبا

أنه تعالى من شأنه وسنته تغليب بعض مخلوقاته على بعض والمداولة بين الاشياء المتضادة وعبر عن ذلك بادخال أحد الملوين في الآخر بان يزيد فيه ما ينقص عن الآخر او بتحصيل أحدهما في مكان الآخر لكونه أظهر المواد وأوضحها (وان الله سميع) بكل المسموعات التي من جملتها قول المعاقب (بصير) بجميع المبصرات ومن جملتها أفعاله (ذلك) أي الاتصاف بما ذكر من كمال القدرة والعلم وما فيه من معنى البعد للامر آنفا ﴿ ٢٦٢ ﴾ وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بان الله هو الحق)

الواجب لذاته الثابت في نفسه وصفاته وأفعاله وحده فان وجوب وجوده ووحدته يقتضيان كونه مبدأ لكل ما يوجد من الموجودات عالما بكل المعلومات أو اثابت الهية فلا يصلح لها الا من كان عالما قادرا (وأن ما يدعون من دونه) الها وقرئ على البناء للمفعول على أن الواو لما فانه عبارة عن الآلهة وقرئ بالتاء على خطاب المشركين (هو الباطل) أي المعدوم في حد ذاته أو الباطل الوهيته (وان الله هو العلي) على جميع الاشياء (الكبير) عن أن يكون له شريك لا شئ أعلى منه شانا وأكبر سلطانا (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء) استفهام تقرير كما يفصح عنه الرفع في قوله تعالى (فتصبح الارض مخضرة) بالعطف على انزل وايثار صيغة الاستقبال للاشعار بتجدد أثر الانزال واستمراره أو لاستحضار صورة الاخضرار (ان الله لطيف) يصل لطفه أو علمه الى كل ما جل ودق (خبير) بما يليق من التدابير الحسنة ظاهرا وباطنا ﴿ على ﴾ (له ما في السموات وما في الارض) خلقا وملكا وتصرفا (وان الله لهو الغني) عن كل شئ (الحميد) المستوجب للحمد بصفاته وأفعاله (ألم تر أن الله سخر لكم ما في الارض) أي جعل ما فيها من الاشياء مذللة لكم معدة لمنافعكم تتصرفون فيها كيف

لهم ونزل قوله تعالى وما مستنا من لغوب واعلم ان منشأ هذه الشبهات هو القول بالتشبيه فيجب تنزيه ذات الله تعالى عن مشابهة سائر الذوات خلاف ما يقوله المشبهة وتنزيه صفاته عن مشابهة سائر الصفات خلاف ما يقوله الكرامية وتنزيه أفعاله عن مشابهة سائر الافعال أعني الغرض والداعي واستحقاق المدح والذم خلاف ما تقوله المعتزلة قال الامام ابو القاسم الانصاري رحمه الله فهو سبحانه جبار النعت عزيز الوصف فالاوهام لا تصوره والافكار لا تقدره والعقول لا تمثله والازمنة لا تدركه والجهات لا تحويه ولا تحده صمدي الذات سرمدي الصفات * قوله تعالى (الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس ان الله سميع بصير يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم والى الله ترجع الامور) اعلم انه سبحانه لما قسم ما يتعلق بالالهيات ذكر ههنا ما يتعلق بالنبوات قال مقاتل قال الوليد بن المغيرة أأنزل عليه الذكر من بيننا فانزل الله تعالى هذه الآية وههنا سؤالان (السؤال الاول) كلمة من للتبعيض فقوله الله يصطفي من الملائكة رسلا يقتضي أن تكون الرسل بعضهم لا كلهم وقوله جاعل الملائكة رسلا يقتضي كون كلهم رسلا فوقع التناقض (والجواب) جاز أن يكون المذكور ههنا من كان رسلا الى بني آدم وهم اكابر الملائكة كجبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل والحفظة صلوات الله عليهم وأما كل الملائكة فبعضهم رسل الى البعض فزال التناقض (السؤال الثاني) قال في سورة الزمر لو اراد الله ان يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء فدل على ان ولده يجب أن يكون مصطفى وهذه الآية دلت على ان بعض الملائكة وبعض الناس من المصطفين فيلزم بمجموع الآيتين اثبات الولد (والجواب) ان قوله لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى يدل على ان كل ولد مصطفى ولا يدل على ان كل مصطفى ولد فلا يلزم من دلالة هذه الآية على وجود مصطفى كونه ولدا وفي هذه الآية وجه آخر وهو ان المراد تبكيت من عبد غير الله تعالى من الملائكة كانه سبحانه أبطل في آية الاولى قول عبدة الاوثان وفي هذه الآية أبطل قول عبدة الملائكة فبين ان علو درجة الملائكة ليس لكونهم آلهة بل لان الله تعالى اصطفاهم فلكان عبادتهم فكانه تعالى بين انهم ما قدروا الله حق قدره ان جعلوا الملائكة معبودين مع الله ثم بين سبحانه بقوله ان الله سميع بصير انه يسمع ما يقولون ويرى ما يفعلون ولذلك أتبعه بقوله يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم فقال بعضهم ما تقدم في الدنيا وما تاخر وقال بعضهم ما بين أيديهم أمر الآخرة وما خلفهم أمر الدنيا ثم أتبعه بقوله والى الله ترجع الامور فقوله يعلم ما بين أيديهم اشارة الى العلم التام وقوله والى الله ترجع الامور اشارة الى القدرة التامة والتفرد بالالهية والحكم ومجموعهما يتضمن نهاية الزجر عن الاقدام على المعصية * قوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء

شئتم فلا أصلب من الحجر ولا أشد من الحديد ولا أهيب من النار وهى مسخرة لكم وتقديم الجار والمجرور على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم لتعجيل المسرة والتشويق الى المؤخر (والفلك) عطف على ما أو على اسم أن وقرئ بالرفع على الابتداء (تجرى فى البحر بأمره) حال من الفلك على الاول وخبر على الاخيرين (و يمسك السماء أن تقع على الارض) أى من أن تقع أو كراهة أن تقع بأن خلقها على

هيئة متداعية الى الاستمساك (الا باذنه) أى بمشيئته وذلك يوم القيامة وفيه رد لاستمساكها بذاتها فانها مساوية فى الجسمية لسائر الاجسام القابلة للميل الهابط فتقبله كقبول غيرها (ان الله بالناس لرؤف رحيم) حيث هيأ لهم أسباب معاشهم وفتح عليهم أبواب المنافع وأوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات التكوينية والتنزيلية (وهو الذى أحياكم) بعد أن كنتم جمادا عناصر ونطفا حسبما فصل فى مطلع السورة الكريمة (ثم يميتكم) عند مجئ آجالكم (ثم يحييكم) عند البعث (ان الانسان لكفور) أى جحود للنعم مع ظهورها وهذا وصف الجنس بوصف بعض أفراده (لكل أمة) كلام مستأنف جئ به لزجر معاصريه عليه السلام من أهل الاديان السماوية عن منازعته عليه السلام ببيان حال ما تمسكوا به من الشرائع واظهار خطئهم فى النظر أى لكل أمة معينة من الامم الخالية والباقية (جعلنا) أى شرعنا وعينا (منسكا) أى شريعة خاصة لا لامة أخرى منهم على معنى عينا كل شريعة لامة معينة من الامم بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها الى شريعة أخرى لا استقلالا ولا اشتراكا وقوله تعالى (هم ناسكوه) صفة لمنسكا مؤكدة لقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور على الفعل والضمير لكل أمة باعتبار خصوصها أى تلك الامة المعينة ناسكوه

على الناس فاقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير) اعلم انه سبحانه لما تكلم فى الالهيات ثم فى النبوات أتبعه بالكلام فى الشرائع وهو من أربعة أوجه (أولها تعيين المأمور (وثانيها) أقسام المأمور به (وثالثها) ذكر ما يوجب قبول تلك الاوامر (ورابعها) تأكيد ذلك التكليف (أما النوع الاول) وهو تعيين المأمور فهو قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا وفيه قولان (أحدهما) المراد منه كل المكلفين سواء كان مؤمنا أو كافرا لان التكليف بهذه الاشياء عام فى كل المكلفين فلا معنى للتخصيص المؤمنين بذلك (والثانى) ان المراد بذلك المؤمنون فقط أما أولا فلان اللفظ صريح فيه واما ثانيا فلان قوله بعد ذلك هو اجتباكم وقوله هو سماكم المسلمين وقوله وتكونوا شهداء على الناس كل ذلك لا يليق الا بالمؤمنين أقصى ما فى الباب أن يقال لما كان ذلك واجبا على الكل فاى فائدة فى تخصيص المؤمنين لكنا نقول تخصيصهم بالذكر لا يدل على نفى ذلك عما عداهم بل قد دلت هذه الآية على كونهم على التخصيص مامورين بهذه الاشياء ودلت سائر الآيات على كون الكل مامورين بها و يمكن أن يقال فائدة التخصيص انه لما جاء الخطاب العام مرة بعد اخرى ثم انه ما قبله الا المؤمنون خصهم الله تعالى بهذا الخطاب ليكون ذلك كالتحريض لهم على المواظبة على قبوله وكالتشريف لهم فى ذلك الاقرار والتخصيص (أما النوع الثانى) وهو المامور به فقد ذكر الله أمورا أربعة (الاول) الصلاة وهو المراد من قوله اركعوا واسجدوا وذلك لان أشرف أركان الصلاة هو الركوع والسجود والصلاة هى المختصة بهذين الركنين فكان ذكرهما جاريا مجرى ذكر الصلاة ذكر ابن عباس رضى الله عنهما أن الناس فى أول اسلامهم كانوا يركعون ولا يسجدون حتى نزلت هذه الآية (الثانى) قوله واعبدوا ربكم وذكروا فيه وجوها (احدها) اعبدوه ولا تعبدوا غيره (وثانيها) واعبدوا ربكم فى سائر المامورات والمنهيات (وثالثها) افعلوا الركوع والسجود وسائر الطاعات على وجه العبادة لانه لا يكفى أن يفعل فانه ما لم يقصد به عبادة الله تعالى لا ينفع فى باب الثواب فلذلك عطف هذه الجملة على الركوع والسجود (الثالث) قوله تعالى وافعلوا الخير قال ابن عباس رضى الله عنهما يريد به صلة الرحم ومكارم الاخلاق والوجه عندى فى هذا الترتيب أن الصلاة نوع من أنواع العبادة والعبادة نوع من أنواع فعل الخير لان فعل الخير ينقسم الى خدمة المعبود الذى هو عبارة عن التعظيم لامر الله والى الاحسان الذى هو عبارة عن الشفقة على خلق الله و يدخل فيه البر والمعروف والصدقة على الفقراء وحسن القول للناس فكأنه سبحانه قال كلفتكم بالصلاة بل كلفتكم بما هو اعم منها وهو العبادة بل كلفتكم بما هو أعم من العبادة وهو فعل الخيرات أما قوله تعالى لعلكم تفلحون فقيل معناه لتفلحوا والفلاح الظفر بنعيم الآخرة وقال الامام أبو القاسم الانصارى لعل كلمة للترجية فان الانسان قلما يخلو فى أداء فريضة من تقصير

والعاملون به لا امة أخرى فالامة التى كانت من مبعث موسى عليه السلام الى مبعث عيسى عليه السلام منسكهم التوراة هم تاسكوها والعاملون بها لاغيرهم والتى كانت من مبعث عيسى الى مبعث النبى عليهما السلام منسكهم الانجيل هم تاسكوه والعاملون به لاغيرهم وأما الامة الموجودة عند مبعث النبى عليه السلام ومن بعدهم من الموجودين الى يوم القيامة فهم أمة واحدة منسكهم الفرقان ليس الا كما مر فى تفسير قوله تعالى لكل جعلنا ﴿ ٢٦٤ ﴾ منكم شرعة ومنهاجا واو الفاء فى قوله تعالى (فلا ينازعنك فى الامر) لترتيب النهى أو موجبه على ماقبلها فان تعيينه تعالى لكل أمة من الامم التى من جملتهم هذه الامة شريعة مستقلة بحيث لاتتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها موجب لطاعة هؤلاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم منازعتهم اياه فى أمر الدين زعما منهم أن شريعتهم ما عين لآبائهم الاولين من التوراة والانجيل فانها شريعة لمن مضى من الامم قبل انتساخها وهؤلاء أمة مستقلة منسكهم القرآن المجيد فحسب والنهى اما على حقيقته أو كناية عن نهيه عليه السلام عن الالتفات الى نزاعهم المبنى على زعمهم المذكور وأما جعله عبارة عن نهيه عليه السلام عن منازعتهم فلا يساعده المقام وقرئ فلا ينازعنك على تهييجه عليه السلام والمبالغة فى تثبيته وأياما كان فمحل النزاع ماذكرناه وتخصيصه بأمر المناسك وجعله عبارة عن قول الخزاعيين وغيرهم ﴿ خصكم ﴾ للمسلمين مالكم تأكلون ماقتلتم ولا تأكلون ماقتله الله تعالى مما لاسبيل اليه أصلا كيف لا وانه يستدعى أن يكون أكل الميتة وسائر ما يدينونه من الاباطيل من جملة المناسك التى جعلها الله تعالى لبعض الامم ولا يرتاب فى بطلانه عاقل (وادع) أى وادعهم

وليس هو على يقين من أن الذى أتى به هل هو مقبول عند الله تعالى والعواقب أيضا مستورة وكل ميسر لما خلق له (الرابع) قوله تعالى وجاهدوا فى الله حق جهاده قال صاحب الكشاف فى الله أى فى ذات الله ومن اجله يقال هو حق عالم وجد عالم أى عالم حقا وجدا ومنه حق جهاده وههنا سؤالات (السؤال الاول) ماوجه هذه الاضافة وكان القياس حق الجهاد فيه أو حق جهادكم فيه كما قال وجاهدوا فى الله حق جهاده (والجواب) الاضافة تكون بادنى ملابسة واختصاص فلما كان الجهاد مختصا بالله من حيث انه مفعول لوجهه ومن أجله صحت الاضافة اليه (السؤال الثانى) ماهذا الجهاد (الجواب) فيه وجوه (أحدها) أن المراد قتال الكفار خاصة ومعنى حق جهاده أن لا يفعل الا عبادة لارغبة فى الدنيا من حيث الاسم أو الغنيمة (والثانى) أن يجاهدوا آخرا كما جاهدوا أولا فقد كان جهادهم فى الاول أقوى وكانوا فيه أثبت نحو صنعهم يوم بدر روى عن عمر رضى الله عنه انه قال لعبد الرحمن بن عوف أما علمت انا كنا نقرأ وجاهدوا فى الله حق جهاده فى آخر الزمان كما جاهدتموه فى أوله فقال عبد الرحمن ومتى ذاك يا امير المؤمنين قال اذا كانت بنو أمية الامراء وبنو المغيرة الوزراء واعلم انه بعيد أن تكون هذه الزيادة من القرآن والاالنقل كنقل نظائره ولعله ان صح ذلك عن الرسول فانما قاله كالتفسير للآية وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قرأ وجاهدوا فى الله حق جهاده كما جاهد تم أول مرة فقال عمر من الذى أمرنا بجهاده فقال فيلمان من قريش مخزوم وعبد شمس فقال صدقت (والثالث) قال ابن عباس حق جهاده لاتخافوا فى الله لومة لائم (والرابع) قال الضحاك واعملوا لله حق عمله (والخامس) استفرغوا وسعكم فى احياء دين الله واقامة حقوقه بالحرب باليد واللسان وجميع ماتمكن وردوا أنفسكم عن الهوى والميل (والوجه السادس) قال عبد الله بن المبارك حق جهاده مجاهدة النفس والهوى ولما رجع رسول الله صلى الله عليه من غزوة تبوك قال رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر والاولى أن يحمل ذلك على كل التكاليف فكل ما امر به ونهى عنه فالمحافظة عليه جهاد (السؤال الثالث) هل يصح ماتقل عن مقاتل والكلبى ان هذه الآية منسوخة بقوله فاتقوا الله ما استطعتم كما ان قوله اتقوا الله حق تقاته منسوخ بذلك (الجواب) هذا بعيد لان التكليف مشروط بالقدرة لقوله تعالى لا يكلف الله نفسا الا وسعها فكيف يقول الله وجاهدوا فى الله على وجه لا تقدرون عليه وكيف وقد كان الجهاد فى الاول مضيقا حتى لا يصح أن يفر الواحد من عشرة ثم خفف الله بقوله الآن خفف الله عنكم أفيجوز مع ذلك أن يوجبه على وجه لا يطاق حتى يقال انه منسوخ (النوع الثالث) بيان مايوجب قبول هذه الاوامر وهو ثلاثة (الاول) قوله هو اجتباكم ومعناه ان التكليف تشريف من الله تعالى للعبد فلما خصكم بهذا التشريف فقد خصكم باعظم التشريفات واختاركم لخدمته والاشتغال بطاعته فاى رتبة أعلى من هذا وأى سعادة فوق هذا ويحتمل فى اجتباكم

أووادع الناس كافة على أنهم داخلون فيهم دخولا أوليا (الى ربك) الى توحيده وعبادته حسبما بين لهم فى منسكهم وشريعتهم (انك لعلى هدى مستقيم) أى طريق موصل الى الحق سوى والمراد به اما الدين والشريعة أو أدلتها (وان جادلوك) بعد ظهور الحق بما ذكر من التحقيق ولزوم الحجة عليهم (فقل) لهم على سبيل الوعيد (الله أعلم بما تعملون) من الاباطيل التى من جملتها المجادلة (الله يحكم بينكم) ﴿ ٢٦٥ ﴾ يفصل بين المؤمنين منكم والكافرين (يوم القيامة) بالثواب والعقاب كما فصل فى الدنيا بالحجج والآيات (فيما كنتم فيه تختلفون) من أمر الدين (ألم تعلم) استئناف مقرر لمضمون ما قبله والاستفهام للتقرير أى قد علمت (أن الله يعلم ما فى السماء والارض) فلا يخفى عليه شئ من الاشياء التى من جملتها ما يقولونه الكفرة ومايعملونه (ان ذلك) أى ما فى السماء والارض (فى كتاب) هو اللوح قد كتب فيه قبل حدوثه فلا يهمنك أمرهم مع علمنا به وحفظنا له (ان ذلك) أى ما ذكر من العلم والاحاطة به واثباته فى اللوح أو الحكم بينكم (على الله يسير) فان علمه وقدرته مقتضى ذاته فلا يخفى عليه شئ ولا يعسر عليه مقدور (ويعبدون من دون الله) حكاية لبعض أباطيل المشركين واحوالهم الدالة على كمال سخافة عقولهم وركاكة آرائهم من بناء أمر دينهم على غير مبنى من دليل سمعى أو عقلى واعراضهم ﴿ ٣٤ ﴾ س عما ألقى عليهم من سلطان بين هو أساس الدين وقاعدته أشد اعراض أى يعبدون متجاوزين عبادة الله (مالم ينزل به) أى بجواز عبادته (سلطانا) أى حجة (وما ليس لهم به) أى بجواز عبادته (علم) من ضرورة العقل أو استدلاله (وما للظالمين) أى الذين ارتكبوا مثل هذا الظلم العظيم الذى يقضى ببطلانه وكونه ظلما بديهة العقول (من نصير)

خصكم بالهداية والمعونة والتيسير أما قوله تعالى وما جعل عليكم فى الدين من حرج فهو كالجواب عن سؤال يذكر وهو ان التكليف وان كان تشريفا واجبا كما ذكرتم لكنه شاق شديد على النفس فاجاب الله تعالى عنه بقوله وما جعل عليكم فى الدين من حرج روى أن أبا هريرة رضى الله عنه قال كيف قال الله تعالى وما جعل عليكم فى الدين من حرج مع انه منعنا عن الزنا والسرقة فقال ابن عباس رضى الله عنهما بلى ولكن الاصر الذى كان على بنى اسرائيل وضع عنكم وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما الحرج فى أصل اللغة (الجواب) روى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال لبعض هتيل ما تعدون الحرج فيكم قال الضيق وعن عائشة رضى الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال الضيق (السؤال الثانى) ما المراد من الحرج فى الآية (الجواب) قيل هو الاتيان بالرخص فمن لم يستطع أن يصلى قائما فليصل جالسا ومن لم يستطع ذلك فليوم وأبيح للصائم الفطر فى السفر والقصر فيه وأيضا فانه سبحانه لم يبتل عبده بشئ من الذنوب الا وجعل له مخرجا منها اما بالتوبة أو بالكفارة وعن ابن عمر رضى الله عنهما انه من جاءته رخصة فرغب عنها كلف يوم القيامة أن يحمل ثقل تبن حتى يقضى بين الناس وعن النبى صلى الله عليه وسلم اذا اجتمع أمران فاصبهما الى الله تعالى أيسرهما وعن كعب أعطى الله هذه الامة ثلاثا لم يعطهن الا الانبياء جعلهم شهداء على الناس وما جعل عليهم فى الدين من حرج وقال ادعونى أستجب لكم (السؤال الثالث) استدلت المعتزلة بهذه الآية فى المنع من تكليف مالا يطاق فقالوا لما خلق الله الكفر والمعصية فى الكافر والعاصى ثم نهاه عنهما كان ذلك من أعظم الحرج وذلك منفى بصريح هذا النص (والجواب) لما أمره بترك الكفر وترك الكفر يقتضى انقلاب علمه جهلا فقد أمر الله المكلف بقلب علم الله جهلا وذلك من أعظم الحرج ولما استوى القدمان زال السؤال (الوجه الثانى) لقبول التكليف قوله ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى نصب الملة وجهان (أحدهما) وهو قول الفراء أنها منصوبة بمضمون ما تقدمها كأنه قيل وسع دينكم توسعة ملة أبيكم ابراهيم ثم حذف المضاف وأقام المضاف اليه مقامه (والثانى) أن يكون منصوبا على المدح العظيم أى أعنى بالدين ملة أبيكم ابراهيم واعلم ان المقصود من ذكر هذا تنبيه على ان هذه التكاليف والشرائع هى شريعة ابراهيم عليه الصلاة والسلام والعرب كانوا محبين لابراهيم عليه السلام لانهم من أولاده فكان التنبيه على ذلك كالسبب لصيرورتهم منقادين لقبول هذا الدين وههنا سؤالات (السؤال الاول) لم قال ملة أبيكم ابراهيم ولم يدخل فى الخطاب المؤمنين الذين كانوا فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يكن من ولده (والجواب) من وجهين (أحدهما) لما كان أكثرهم من ولده كان رسول ورهطه وجميع العرب يجاز ذلك (وثانيهما) وهو قول الحسن ان الله تعالى جعل حرمة ابراهيم عليه السلام على المسلمين كحرمة الوالد على ولده ومنه قوله تعالى النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم فجعل حرمته

يساعدهم بنصرة مذهبهم وتقرير رأيهم أو بدفع العذاب الذي يعتريهم بسبب ظلمهم (واذا تتلى عليهم آياتنا) عطف على يعبدون وما بينهما اعتراض وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار التجددي (بينات) أي حال كونها واضحات الدلالة على العقائد الحقة والاحكام الصادقة أو على بطلان ما هم عليه من عبادة الاصنام أو على كونها من عند الله عز وجل (تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر) ﴿ ٢٦٦ ﴾ أي الانكار كالتكرم بمعنى الاكرام أو التقطيب من التجهم والبسور أو الشر الذي يقصدونه بظهور مخايله من الاوضاع والهيئات وهو الانسب بقوله تعالى (يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا) أي يثبون ويبطشون بهم من فرط الغيظ والغضب لاباطيل أخذوها تقليدا وهل جهالة أعظم وأطم من أن يعبدوا ما لا يوهم صحة عبادته شيأ ما أصلا بل يقضي ببطلانها العقل والنقل ويظهر والمن يهديهم الى الحق المبين بالسلطان المبين مثل هذا المنكر الشنيع كلا وبئس وضع الذين كفروا موضع الضمير (قل) ردا عليهم وتقنيطا مما يقصدونه من الاضرار بالمسلمين (أفأنبئكم) أي أخاطبكم فأخبركم (بشر من ذلكم) الذي فيكم من غيظكم على التالين وسطوتكم بهم أو مما تبغونهم من الغوائل أو مما أصابكم من الضجر بسبب ما تلوه عليكم (النار) أي هو النار على أنه جواب لسؤال مقدر كأنه قيل ما هو وقيل هو مبتدأ خبره قوله تعالى ﴿ على ﴾ (وعدها الله الذين كفروا) وقرئ النار بالنصب على الاختصاص وبالجر بدلا من شر فتكون الجملة الفعلية استئنافا كالوجه الاول أو حالا من النار باضمار قد (وبئس المصير) النار (يا أيها الناس ضرب مثل) أي بين لكم حال مستغربة أو قصة بديعة رائعة حقيقة بأن تسمى مثلا وتسير في الامصار والاعصار

كحرمة الوالد على الوالد وحرمة نسائه كحرمة الوالدة على ما قال تعالى وأزواجه أمهاتهم (السؤال الثاني) هذا يقتضي أن تكون ملة محمد كملة ابراهيم عليهما السلام سواء فيكون الرسول ليس له شرع مخصوص ويؤكده قوله تعالى أن اتبع ملة ابراهيم (الجواب) هذا الكلام انما وقع مع عبدة الاوثان فكأنه تعالى قال عبادة الله وترك الاوثان هي ملة ابراهيم فأما تفاصيل الشرائع فلا تعلق لها بهذا الموضع (السؤال الثالث) ما معنى قوله تعالى هو سماكم المسلمين من قبل (الجواب) فيه قولان (أحدهما) ان الكناية راجعة الى ابراهيم عليه السلام فان لكل نبي دعوة مستجابة وهو قول ابراهيم عليه الصلاة والسلام ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك فاستجاب الله تعالى له فجعلها أمة محمد صلى الله عليه وسلم وروي انه عليه الصلاة والسلام أخبر بأن الله تعالى سيبعث محمدا بمثل ملته وانه سيسمي أمته بالمسلمين (والثاني) ان الكناية راجعة الى الله تعالى في قوله هو اجتباكم فروى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما انه قال ان الله سماكم المسلمين من قبل أي في كل الكتب وفي هذا أي في القرآن وهذا الوجه أقرب لانه تعالى قال ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فبين انه سماهم بذلك لهذا الغرض وهذا لا يليق الا بالله ويدل عليه أيضا قراءة أبي بن كعب الله سماكم والمعنى انه سبحانه في سائر الكتب المتقدمة على القرآن وفي القرآن أيضا بين فضلكم على الامم وسماكم بهذا الاسم الاكرم لاجل الشهادة المذكورة فلما خصكم الله بهذه الكرامة فاعبدوه ولا تردوا تكاليفه وهذا هو العلة الثالثة الموجبة لقبول التكليف وأما الكلام في انه كيف يكون الرسول شهيدا علينا وكيف تكون أمته شهداء على الناس فقد تقدم في سورة البقرة وبينا انه أخذ منه ما يدل على ان اجماع حجة (النوع الرابع) شرح ما يجري مجرى المؤكد لما مضى وهو قوله فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ويجب صرفها الى المفروضات لانها هي المعهودة واعتصموا بالله أي بدلائله العقلية والسمعية ولطافه وعصمته قال ابن عباس سلوا الله العصمة عن كل المحرمات وقال الفقال اجعلوا الله عصمة لكم مما تحذرون هو مولاكم سيدكم والمتصرف فيكم فنعم المولى ونعم النصير فكأنه سبحانه قال أنا مولاك بل أنا ناصرك وحسبك واعلم ان المعتزلة احتجوا بهذه الآيات من وجوه (أحدها) ان قوله لتكونوا شهداء على الناس يدل على انه سبحانه أراد الايمان من الكل لانه تعالى لا يجعل الشهيد على عباده الا من كان عدلا مرضيا فاذا أراد أن تكونوا شهداء على الناس فقد أراد أن تكونوا جميعا صالحين عدولا وقد علمنا أن منهم فاسقا فدل ذلك على ان الله تعالى أراد من الفاسق كونه عدلا (وثانيها) قوله واعتصموا بالله وكيف يمكن الاعتصام به مع ان الشر لا يوجد الا منه (وثالثها) قوله فنعم المولى لانه لو كان كما يقوله أهل السنة من انه خلق أكثر عباده ليخلق فيهم الكفر والفساد ثم يعذبهم لما كان نعم المولى بل كان لا يوجد من شرار الموالي أحدا لا وهو شر منه فكان يجب أن يوصف بأنه بئس المولى وذلك باطل فدل

أوجعل لله مثل أي مثل في استحقاق العبادة وأريد بذلك ماحكى عنهم من عبادتهم للاصنام (فاستمعوا له) أي للمثل نفسه استماع تدبر وتكفر أو فاستمعوا لاجله ما أقول فقوله تعالى (ان الذين تدعون من دون الله) الخ بيان للمثل وتفسير له على الاول وتعليل لبطلان جعلهم الاصنام مثل الله سبحانه في استحقاق العبادة على الثاني وقرئ بياء الغيبة مبنيا للفاعل ومبنيا للمفعول والراجع الى الموصول ﴿ ٢٦٧ ﴾ على الاولين محذوف (لن يخلقوا ذبابا) أي لن يقدروا على خلقه أبدا مع صغره وحقارته فان لن بما فيها من تأكيد النفي دالة على مناقاة ما بين المنفي والمنفي عنه (ولو اجتمعوا له) أي لخلقه وجواب لو محذوف لدلالة ما قبله عليه والجملة معطوفة على شرطية أخرى محذوفة ثقة بدلالة هذه عليها أي لو لم يجتمعوا عليه ان يخلقوه ولو اجتمعوا له ان يخلقوه كما مر تحقيقه مرارا وهما في موضع الحال كأنه قيل لن يخلقوا ذبابا على كل حال (وان يسلبهم الذباب شيئا) بيان لعجزهم عن الامتناع عما يفعل بهم الذباب بعد بيان عجزهم عن خلقه أي ان يأخذ الذباب منهم شيئا (لا يستنقذوه منه) مع غاية ضعفه وقد جهلوا غاية التجهيل في اشراكهم بالله القادر على جميع المقدورات المتفرد بايجاد كافة الموجودات تماثيل هي أعجز الاشياء وبين ذلك بانها لا تقدر على أقل الاحياء وأذلها ولو اتفقوا عليه بل لا تقوى على مناومة هذا الاقل الاذل وتعجز عن ذبه عن نفسها واستنقاذ ما يختطفه منها قيل كانوا يطيبونها بالطيب والعسل ويغلقون عليها الابواب فيدخل الذباب من الكوى فيأكله (ضعف الطالب والمطلوب) أي عابد الصنم ومعبوده أو الذباب الطالب لما يسلبه من الصنم من الطيب والصنم المطلوب منه ذلك أو الصنم والذباب كأنه يطلبه ليستنقذ منه ما يسلبه ولو حققت وجدت الصنم أضعف من الذباب بدرجات وعابده

على انه سبحانه ما أراد من جميعهم الا الصلاح فان قيل لم لا يجوز أن يكون نعم المولى للمؤمنين خاصة كما انه نعم النصير لهم خاصة قلنا انه تعالى مولى المؤمنين والكافرين جميعا فيجب أن يقال انه نعم المولى للمؤمنين وبئس المولى للكافرين فان ارتكبوا ذلك فقد ردوا القرآن والاجماع وصرحوا بشتم الله تعالى (ورابعها) ان قوله سماكم المسلمين من قبل يدل على اثبات الاسماء الشرعية وانها من قبل الله تعالى لانها لو كانت لغة لما أضيفت الى الله تعالى على وجه الخصوص (والجواب) عن الاول وهو قوله كونه تعالى مريدا لكونه شاهد ايستلزم كونه مريدا لكونه عدلا فنقول ان كانت ارادة الشئ مستلزمة لارادة لوازمه فارادة الايمان من الكافر توجب أن تكون مستلزمة لارادة جهل الله تعالى فيلزم كونه تعالى مريدا لجهل نفسه وان لم يكن ذلك واجبا سقط الكلام وأما قوله واعتصموا بالله فيقال هذا أيضا وارد عليكم فانه سبحانه خلق الشهوة في قلب الفاسق وأكدها وخلق المشتهى وقربه منه ورفع المانع ثم سلط عليه الشياطين من الانس والجن وعلم انه لا محالة يقع في الفجور والضلال وفي الشاهد كل من فعل ذلك فانه يكون بئس المولى فان صح قياس الغائب على الشاهد فهذا لازم عليكم وان بطل سقط كلامكم بالكلية ثم تفسير سورة الحج ويتلوه تفسير سورة المؤمنين والحمد لله رب العالمين

﴿ سورة المؤمنون مائة وثمان عشرة آية مكية ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) اعلم انه سبحانه حكم بحصول الفلاح لمن كان مستجمعا لصفات سبع وقبل الخوض في شرح تلك الصفات لا بد من بحثين (البحث الاول) ان قد نقيضة لما فقد تثبت المتوقع ولا تنفيه ولا شك ان المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة وهي الاخبار باثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه (البحث الثاني) الفلاح الظفر بالمراد وقيل البقاء في الخير وأفلح دخل في الفلاح كأبشر دخل في البشارة ويقال أفلحه صيره الى الفلاح وعليه قراءة طلحة بن مصرف أفلح على البناء للمفعول وعنه أفلحوا على لغة أكلوني البراغيث أو على الابهام والتفسير (الصفة الاولى) قوله المؤمنون وقد تقدم القول في الايمان في سورة البقرة (الصفة الثانية) قوله الذين هم في صلاتهم خاشعون واختلفوا في الخشوع فمنهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات ومنهم من جمع بين الامرين وهو الاولى

على انه سبحانه ما أراد من جميعهم الا الصلاح فان قيل لم لا يجوز أن يكون نعم المولى للمؤمنين خاصة كما انه نعم النصير لهم خاصة قلنا انه تعالى مولى المؤمنين والكافرين جميعا فيجب أن يقال انه نعم المولى للمؤمنين وبئس المولى للكافرين فان ارتكبوا ذلك فقد ردوا القرآن والاجماع وصرحوا بشتم الله تعالى (ورابعها) ان قوله سماكم المسلمين من قبل يدل على اثبات الاسماء الشرعية وانها من قبل الله تعالى لانها لو كانت لغة لما أضيفت الى الله تعالى على وجه الخصوص (والجواب) عن الاول وهو قوله كونه تعالى مريدا لكونه شاهد ايستلزم كونه مريدا لكونه عدلا فنقول ان كانت ارادة الشئ مستلزمة لارادة لوازمه فارادة الايمان من الكافر توجب أن تكون مستلزمة لارادة جهل الله تعالى فيلزم كونه تعالى مريدا لجهل نفسه وان لم يكن ذلك واجبا سقط الكلام وأما قوله واعتصموا بالله فيقال هذا أيضا وارد عليكم فانه سبحانه خلق الشهوة في قلب الفاسق وأكدها وخلق المشتهى وقربه منه ورفع المانع ثم سلط عليه الشياطين من الانس والجن وعلم انه لا محالة يقع في الفجور والضلال وفي الشاهد كل من فعل ذلك فانه يكون بئس المولى فان صح قياس الغائب على الشاهد فهذا لازم عليكم وان بطل سقط كلامكم بالكلية ثم تفسير سورة الحج ويتلوه تفسير سورة المؤمنين والحمد لله رب العالمين

﴿ سورة المؤمنون مائة وثمان عشرة آية مكية ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(قد افلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم للزكاة فاعلون والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) اعلم انه سبحانه حكم بحصول الفلاح لمن كان مستجمعا لصفات سبع وقبل الخوض في شرح تلك الصفات لا بد من بحثين (البحث الاول) ان قد نقيضة لما فقد تثبت المتوقع ولا تنفيه ولا شك ان المؤمنين كانوا متوقعين لمثل هذه البشارة وهي الاخبار باثبات الفلاح لهم فخوطبوا بما دل على ثبات ما توقعوه (البحث الثاني) الفلاح الظفر بالمراد وقيل البقاء في الخير وأفلح دخل في الفلاح كأبشر دخل في البشارة ويقال أفلحه صيره الى الفلاح وعليه قراءة طلحة بن مصرف أفلح على البناء للمفعول وعنه أفلحوا على لغة أكلوني البراغيث أو على الابهام والتفسير (الصفة الاولى) قوله المؤمنون وقد تقدم القول في الايمان في سورة البقرة (الصفة الثانية) قوله الذين هم في صلاتهم خاشعون واختلفوا في الخشوع فمنهم من جعله من أفعال القلوب كالخوف والرهبة ومنهم من جعله من أفعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات ومنهم من جمع بين الامرين وهو الاولى

أجهل من كل جاهل وأضل من كل ضال (ماقدروا الله حق قدره) أي ماعرفوه حق معرفته حيث اشركوا به وسموا باسمه ماهو أبعد الاشياء عنه مناسبة (ان الله لقوى) على خلق الممكنات بأسرها وافناء الموجودات عن آخرها (عزيز) غالب على جميع الاشياء وقد عرفت حال آلهتهم المقهورة لاذلها العجزة من أولها وآخرها تعليل لما قبلها من نفي معرفتهم له تعالى (الله يصطفى من الملائكة رسلا) توسطون بينه تعالى وبين الانبياء ﴿٢٦٨﴾ عليهم السلام بالوحى (ومن الناس) ومن المختصون بالنفوس الزكية المؤيدون بالقوة القدسية المتعلقون بكلا العالمين الروحانى والجسمانى يتلقون من جانب ويلقون الى جانب ولا سوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل الى جناب الحق فيدعونهم اليه تعالى بما أنزل عليهم ويعلمونهم شرائعه وأحكامه كانه تعالى لما قرر وحدانيته فى الالوهية ونفى أن يشاركه فيها شئ من الاشياء بين أن له عبادا مصطفين للرسالة يتوسل باجابتهم والاقتداء بهم الى عبادته عز وجل وهو أعلى الدرجات وأقصى الغايات لمن عداه من الموجودات تقريرا للنبوة وتزييفا لقولهم لوشاء الله لانزل ملائكة وقولهم ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى وقولهم الملائكة بنات الله وغير ذلك من الاباطيل (ان الله سميع بصير) عليم بجميع المسموعات والمبصرات فلا يخفى عليه شئ من الاقوال والافعال (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم والى الله ترجع) الامور) لا الى أحد غيره لا استقلالا ولا اشتراكا ولا استقلالا (يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا) أى فى صلواتكم أمرهم بهما لما أنهم ما كانوا يفعلونهما أول الاسلام أو صلوا عبر عن الصلاة بهما لانهما أعظم أركانها أو اخضعوا لله تعالى وخروا له سجدا (واعبدوا ربكم) بسائر ما تعبدكم به (وافعلوا الخير) وتحروا ما هو خير وأصلح فى كل ما تأتون وما تذرون كنوافل الطاعات

فالخشوع فى صلاته لابد وأن يحصل له مما يتعلق بالقلب من الافعال نهاية الخضوع والتذلل للمعبود ومن التروك أن لا يكون ملتفت الخاطر الى شئ سوى التعظيم ومما يتعلق بالجوارح أن يكون ساكنة مطرقا ناظرا الى موضع سجوده ومن التروك أن لا يلتفت يمينا ولا شمالا ولكن الخشوع الذى يرى على الانسان ليس الا مايتعلق بالجوارح فان مايتعلق بالقلب لا يرى قال الحسن وابن سيرين كان المسلمون يرفعون أبصارهم الى السماء فى صلاتهم وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك فلما نزلت هذه الآية طأطأ وكان لا يجاوز بصره مصلاه فاقول قبل فهل تقولون ان ذلك واجب الصلاة قلنا انه عندنا واجب ويدل عليه أمور (أحدها) قوله تعالى أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها والتدبر لا يتصور بدون الوقوف على المعنى وكذا قوله تعالى ورتل القرآن ترتيلا معناه قف على عجائبه ومعانيه (وثانيها) قوله تعالى وأقم الصلاة لذكرى وظاهر الامر الوجوب والغفلة تضاد الذكر فكل غفلة فى جميع صلاته كيف يكون مؤديا لصلاة الذكر (وثالثها) قوله تعالى ولا تكن من الغافلين وظاهره النهى للتحريم (ورابعها) قوله حتى تعلموا ما تقولون تعليل نهى السكران وهو مضر فى الغافل المستغرق الهم بالدنيا (وخامسها) قوله عليه السلام انما الخشوع لمن تسكن وتواضع وكل ذلك للحضور وقوله عليه السلام من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله الا بعدا وصلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء وقال عليه السلام كم من قائم حظه من قيامه التعب والنصب وما أراد به الا الغافل وقال أيضا ليس للعبد من صلاته الا ما عقل (وسادسها) قال الغزالى رحمه الله انما صلى يناجى ربه كما ورد به الخبر والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة وبيانه ان الانسان اذا أدى الزكاة حال الغفلة فقد حصل المقصود منها على بعض الوجوه وهو كسر الحرص واغناء الفقير وكذا الصوم قاهر للقوى كاسر لسطوة الهوى التى هى عدو الله تعالى فلا يبعد أن يحصل منه مقصود مع الغفلة وكذا الحج أفعال شاقة وفيه من المجاهدة ما يحصل به الابتلاء سواء كان القلب حاضرا أو لم يكن اما الصلاة فليس فيها الا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود أما الذكر فانه مناجاة مع الله تعالى فاما أن يكون المقصود منه كونه مناجاة أو المقصود مجرد الحروف والاصوات ولا شك فى فساد هذا القسم فان تحريك اللسان بالهذيان ليس فيه غرض صحيح فثبت ان المقصود منه المناجاة وذلك لا يتحقق الا اذا كان اللسان معبرا عما فى القلب من التضرعات فأى سؤال فى قوله اهدنا الصراط المستقيم وكان القلب غافلا عنه بل أقول لو حلف انسان وقال والله لاشكرن فلانا وأثنى عليه وأسأله حاجة ثم جرت الالفاظ الدالة على هذه المعانى على لسانه فى اليوم لم يبر فى يمينه ولو جرى على لسانه فى ظلمة الليل وذلك الانسان حاضر وهو لا يعرف حضوره ولا يراه لا يصير بارا فى يمينه ولا يكون كلامه خطابا معه ما لم يكن حاضرا بقلبه ولو جرت هذه الكلمات على لسانه وهو حاضر فى بياض النهار اما أن المتكلم غافل لكونه مستغرق الهم بفكر من الافكار ولم يكن له قصد

﴿ توجيه ﴾

صلة الارحام ومكارم الاخلاق (لعلكم تفلحون) أى افعلوا هذه كلها وأنتم راجون بها الفلاح غير متيقنين له واثقين بأعمالكم والآية آية سجدة عند الشافعى رحمه الله اظاهر ما فيها من الامر بالسجود ولقوله عليه الصلاة والسلام فضلت سورة الحج بسجدتين من لم يسجدهما فلا يقرأها (وجاهدوا فى الله) أى لله تعالى ولاجله أعداء دينه الظاهرة كأهل الزيغ والباطنة كالهوى والنفس وعنه عليه الصلاة والسلام انه ﴿ ٢٦٩ ﴾ رجع من غزوة تبوك فقال رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر (حق جهاده) أى جهادا فيه حقا خالصا لوجهه فعكس وأضيف الحق الى الجهاد مبالغة كقولك هو حق عالم وأضيف الجهاد الى الضمير اتساعا أو لانه مختص به تعالى من حيث انه مفعول لوجهه و من أجله (هو اجتباكم) أى هو اختاركم لدينه ونصرته لاغيره وفيه تنبيه على ما يقتضى الجهاد ويدعو اليه (وما جعل عليكم فى الدين من حرج) أى ضيق بتكليف ما يشق عليكم اقامته اشارة الى أنه لا مانع لهم عنه ولا عذر لهم فى تركه أو الى الرخصة فى اغفال بعض ما أمرهم به حيث يشق عليهم لقوله عليه الصلاة والسلام اذا أمرتكم بشئ فأتوا منه ما استطعتم وقيل ذلك بأن جعل لهم من كل ذنب مخرجا بأن رخص لهم فى المضايق وفتح لهم باب التوبة وشرع لهم الكفارات فى حقوقه والارش والديات فى حقوق العباد (ملة أبيكم ابراهيم) نصب على المصدر بفعل دل عليه مضمون ما قبله بحذف المضاف أى وسع عليكم دينكم توسعة ملة أبيكم أو على الاغراء أو على الاختصاص وانما جعله اباهم لانه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كالاب لامته من حيث انه سبب لحياتهم الابدية ووجودهم على الوجه المعتد به فى الآخرة ولان أكثر العرب كانوا من ذريته عليه الصلاة والسلام فغلبوا على غيرهم (هو سماكم المسلمين من قبل) فى الكتب المتقدمة (وفى هذا) أى فى

توجيه الخطاب عليه عند نطقه لم يصر بارائى يمينه ولا شك ان المقصود من القراءة والاذكار الحمد والثناء والتضرع والدعاء والمخاطب هو الله تعالى فاذا كان القلب محجوبا بحجاب الغفلة وكان غافلا عن جلال الله وكبريائه ثم ان لسانه يتحرك بحكم العادة فالبعد ذلك عن القبول وأما الركوع والسجود فالمقصود منهما التعظيم وجاز أن يكون تعظيما لله تعالى مع أنه غافل عنه لجاز أن يكون تعظيما الصنم الموضوع بين يديه وهو غافل عنه ولانه اذا لم يحصل التعظيم لم يبق الا مجرد حركة الظهر والرأس وليس فيها من المشقة ما يصير لاجله عماد الدين وفاصلا بين الكفر والايمان ويقدم على الحج والزكاة والجهاد وسائر الطاعات الشاقة ويجب الثقل بسببه على الخصوص وبالجملة فكل عاقل يقطع بان مشاهدة الخواص العظيمة ليس اعمالها الظاهرة الا أن يضاف اليها مقصود هذه المناجاة فذات هذه الاعتبارات على ان الصلاة لا بد فيها من الحضور (وسابعها) أن الفقهاء اختلفوا فيما يتوبه بالسلام عند الجماعة والانفراد هل ينوى الحضور أو الغيبة والحضور معا فاذا احتيج الى التدبر فى معنى السلام الذى هو آخر الصلاة فلان يحتاج الى التدبر فى معنى التكبير والتسبيح التى هى الاشياء المقصودة من الصلاة بالطريق الاولى واحتج المخالف بأن اشتراط الخضوع والخشوع على خلاف اجماع الفقهاء فلا يلتفت اليه (والجواب) من وجوه (أحدها) الحضور عندنا ليس شرطا للاجزاء بل شرط للقبول والمراد من الاجزاء أن لا يجب القضاء والمراد من القبول حكم الثواب والفقهاء انما يبحثون عن حكم الاجزاء لا عن حكم الثواب وعرضنا فى هذا المقام هذا ومثاله فى الشاهد من استعار ملك ثوب انسان ورده على الوجه الاحسن فقد خرج عن العهدة واستحق المدح ومن رماه المالك على وجه الاستخفاف خرج عن العهدة ولكنه استحق الذم كذا من عظم الله تعالى حال ادائه العبادة صار مقيما للفرض مستحقا للثواب ومن استهان بها صار مقيما للفرض ظاهرا لكنه استحق الذم (وثانيها) انا نمنع هذا الاجماع أما المتكلمون فقد اتفقوا على انه لا بد من الحضور والخشوع واحتجوا عليه بأن السجود لله تعالى طاعة والصنم كفر وكل واحد منهما يماثل الآخر فى ذاته ولوازمه فلا بد من أمر لاجله صار السجود فى احدى الصورتين طاعة وفى الاخرى معصية قالوا وما ذاك الا القصد والارادة والمراد من القصد ايقاع تلك الافعال لداعية الامتثال وهذه الداعية لا يمكن حصولها الا عند الحضور فلهذا اتفقوا على انه لا بد من الحضور أما الفقهاء فقد ذكر الفقيه أبو الليث رحمه الله فى تنبيه الغافلين أن تمام القراءة أن يقرأ بغير لحن وان يقرأ بالتفكر وأما الغزالى رحمه الله فانه نقل عن أبى طالب المكى عن بشر الحافى انه قال من لم يخشع فسدت صلاته وعن الحسن رحمه الله كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهى الى العقوبة أسرع وعن معاذ بن جبل من عرف من على يمينه وشماله متعمدا وهو فى الصلاة فلا صلاة له وروى أيضا مسندا قال عليه السلام ان العبد ليصلى الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها وانما يكتب للعبد من

القرآن والضمير لله تعالى ويؤيده أنه قرئ الله سماكم أولا براهيم وتسميتهم بالمسلمين فى القران وان لم تكن منه عليه الصلاة والسلام كانت بسبب تسميته من قبل فى قوله ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وقيل وفى هذا تقديره وفى هذا بيان تسمية اياكم المسلمين (ليكون الرسول) يوم القيامة متعلق بسماكم (شهيدا عليكم) بأنه بلغكم فيدل على قبول شهادته لنفسه اعتمادا على عصمته أو بطاعة من أطاع ﴿ ٢٧٠ ﴾ وعصيان من عصى (وتكونوا شهداء على الناس) بتبليغ الرسل اليهم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) أى فتقربوا الى الله بأنواع الطاعات وتخصيصهما بالذكر لانافتهما وفضلهما (واعتصموا بالله) أى ثقوا به فى مجامع أموركم ولا تطلبوا الاعانة والنصرة الامنه (هو مولاكم) ناصركم ومتولى أموركم (فنعم المولى ونعم النصير) هو اذ لامثل له فى الولاية والنصرة بل لاولى ولانصير فى الحقيقة سواه عز وجل عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الحج أعطى من الاجر كحجة حجها وعمرة اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقى

* سورة المؤمنون مكية *

وهى عند البصريين مائة وتسع عشرة آية وعند الكوفيين مائة وثمانى عشرة آية

* بسم الله الرحمن الرحيم *

(قد أفلح المؤمنون) الفلاح الفوز بالمرام والنجاة من المكروه وقيل البقاء فى الخير والافلاح الدخول فى ذلك كالابشار الذى هو الدخول فى البشارة وقد يجئ متعديا ﴿ لفروجهم ﴾ بمعنى الادخال فيه وعليه قراءة من قرأ على البناء للمفعول وكلمة قد ههنا لافادة ثبوت ماكان متوقع الثبوت من قبل لامتوقع الاخبار به ضرورة أن المتوقع من حال المؤمنين ثبوت الفلاح لهم لا الاخبار بذلك فالمعنى قد فازوا بكل خير

صلاته ماعقل منها وقال عبد الواحد بن زيد أجمعت العلماء على انه ليس للعبد من صلاته الا ماعقل وادعى فيه الاجماع اذا ثبت هذا فنقول هب ان الفقهاء بأسرهم حكموا بالجواز أليس الاصوليون وأهل الورع ضيقوا الامر فيها فهلا أخذت بالاحتياط فان بعض العلماء اختار الامامة فقيل له فى ذلك فقال أخاف ان تركت الفاتحة أن يعاتبنى الشافعى وان قرأتها مع الامام أن يعاتبنى أبو حنيفة فاخترت الامامة طلبا للخلاص عن هذا الاختلاف والله أعلم (الصفة الثالثة) قوله تعالى والذين هم عن اللغو معرضون وفى اللغو أقوال (أحدها) انه يدخل فيه كل ماكان حراما أو مكروها أو كان مباحا ولكن لايكون بالمرء اليه ضرورة وحاجة (وثانيها) انه عبارة عن كل ماكان حراما فقط وهذا التفسير أخص من الاول (وثالثها) انه عبارة عن المعصية فى القول والكلام خاصة وهذا أخص من الثانى (ورابعها) انه المباح الذى لاحاجة اليه واحتج هذا القائل بقوله تعالى لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم فكيف يحمل ذلك على المعاصى التى لابد فيها من المؤاخذة واحتج الاولون بأن اللغو انما سمى لغوا بما أنه يلغى وكل مايقتضى الدين الغاءه كان أولى باسم اللغو فوجب أن يكون كل حرام لغوا ثم اللغو قد يكون كفر القوله لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه وقد يكون كذبا كقوله لاتسمع فيها لاغية وقوله لايسمعون فيها لغوا ولا تأثيما ثم انه سبحانه وتعالى مدحهم بأنهم يعرضون عن هذا اللغو والاعراض عنه هو بأن لايفعله ولا يرضى به ولا يخالط من يأتيه وعلى هذا الوجه قال تعالى واذا مروا باللغو مروا كراما واعلم انه سبحانه وتعالى لما وصفهم بالخشوع فى الصلاة أتبعه الوصف بالاعراض عن اللغو ليجمع لهم الفعل والترك الشاقين على الانفس اللذين هما قاعدتا بناء التكليف وهو أعلم (الصفة الرابعة) قوله تعالى والذين هم للزكاة فاعلون وفى الزكاة قولان (أحدهما) قول أبى مسلم ان فعل الزكاة يقع على كل فعل محمود مرضى كقوله قد أفلح من تزكى وقوله فلا تزكوا أنفسكم ومن جملته ما يخرج من حق المال وانما سمى بذلك لانها تطهر من الذنوب لقوله تعالى تطهرهم وتزكيهم بها (والثانى) وهو قول الاكثرين انه الحق الواجب فى الاموال خاصة وهذا هو الاقرب لان هذه اللفظة قد اختصت فى الشرع بهذا المعنى فان قيل انه لايقال فى الكلام الفصيح انه فعل الزكاة قلنا قال صاحب الكشاف الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى فالعين القدر الذى يخرجه المزكى من النصاب الى الفقير والمعنى فعل المزكى الذى هو التزكية وهو الذى أراده الله تعالى فيجعل المزكين فاعلين له ولايسوغ فيه غيره لانه مامن مصدر الا يعبر عن معناه بالفعل و يقال لمحدثه فاعل يقال للضارب فاعل الضرب وللقاتل فاعل القتل وللمزكى فاعل الزكاة وعلى هذا الكلام كله يجوز أن يراد بالزكاة العين و يقدر مضاف محذوف وهو الاداء فان قيل ان الله تعالى هناك لم يفصل بين الصلاة والزكاة فلم فصل ههنا بينهما بقوله والذين هم عن اللغو معرضون قلنا لان الاعراض عن اللغو من متممات الصلاة (الصفة الخامسة) قوله تعالى والذين هم

ونجوا من كل ضير حسبما كان ذلك متوقعا من حالهم فان ايمانهم وما تفرع عليه من أعمالهم الصالحة من دواعي الفلاح وموجب الوعد الكريم خلا أنه ان أريد بالافلاح حقيقة الدخول في الفلاح الذي لا يتحقق الا في الآخرة فالاخبار به على صيغة الماضي للدلالة على تحققه لا محالة بتنزيله منزلة الثابت وان أريد كونهم بحال تستتبعه البتة فصيغة الماضي في محلها وقرئ افلحوا على الابهام والتفسير أو على أكلوني البراغيث وقرئ افلح بضمة اكتفى بها عن الواو وكما في قول من قال ولو أن الاطبا كان حولي والمراد بالمؤمنين اما المصدقون بما علم ضرورة أنه من دين نبينا صلى الله عليه وسلم من التوحيد والنبوة والبعث والجزاء ونظائرها فقوله تعالى (الذين هم في صلوتهم خاشعون) وما عطف عليه صفات مخصصة لهم وأما الآتون بفروعه أيضا كما ينبئ عنه اضافة الصلاة اليهم فهي صفات موضحة أو مادحة لهم حسب اعتبار ما ذكر في حيز الصلة من المعاني مع الايمان اجمالا أو تفصيلا كما مر في أوائل سورة البقرة والخشوع الخوف والتذلل أي خائفون من الله عز وجل متذللون له ملزمون أبصارهم مساجدهم روي انه عليه الصلاة والسلام كان اذا صلى رفع بصره الى السماء فلما نزلت رمى بصره نحو مسجده وأنه رأى مصليا يعبث بلحيته فقال لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه (والذين هم عن اللغو) أي عما لا يعنيهم من الاقوال والافعال (معرضون) أي في عامة أوقاتهم كما ينبئ عنه الاسم الدال على الاستمرار فيدخل في ذلك اعراضهم عند حال اشتغالهم بالصلاة دخولا أوليا ومدار اعراضهم عنه ما فيه من الحالة الداعية الى الاعراض عنه لا مجرد الاشتغال بالجد في أمور الدين كما قيل فان ذلك ربما يوهم أن لا يكون في اللغو نفسه ما يزجرهم عن تعاطيه

لفروجهم حافظون الا على أزواجهم او ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين وفيه سؤالات (السؤال الاول) لم لم يقل الا عن أزواجهم (الجواب) قال الفراء معناه الا من أزواجهم وذكر صاحب الكشاف فيه ثلاثة أوجه (أحدها) انه في موضع الحال أي الا والين على أزواجهم أو قوامين عليهن من قولك كان فلان على فلانة ونظيره كان زياد على البصرة أي واليا عليها ومنه قولهم فلانة تحت فلان ومن ثم سميت المرأة فراشا والمعنى أنهم لفروجهم حافظون في كافة الاحوال الا في حال تزوجهم أو تسريهم (وثانيها) انه متعلق بمحذوف يدل عليه غير ملومين كأنه قيل يلامون الا على أزواجهم أي يلامون على كل مباشرة الا على ما أطلق لهم فانهم غير ملومين عليه وهو قول الزجاج (وثالثها) أن تجعله صلة لحافظين (السؤال الثاني) هلا قيل من ملكت (الجواب) لانه اجتمع في السرية وصفان (أحدهما) الانوثة وهي مظنة نقصان العقل والآخر كونها بحيث تباع وتشترى كسائر السلع فلاجتماع هذين الوصفين فيها جعلت كأنها ليست من العقلاء (السؤال الثالث) هذه الآية تدل على تحريم المتعة على ما روي عن القاسم بن محمد (الجواب) نعم وتقريره انها ليست زوجة له فوجب أن لا تحل له وانما قلنا انها ليست زوجة له لانها لا يتوارثان بالاجماع ولو كانت زوجة له لحصل التوارث لقوله تعالى ولكم نصف ما ترك أزواجكم واذا ثبت انها ليست بزوجة له وجب أن لا تحل له لقوله تعالى الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم وهو أعلم (السؤال الرابع) أليس لا يحل له في الزوجة وملك اليمين الاستمتاع في أحوال كحال الحيض وحال العدة وفي الامة حال تزويجها من الغير وحال عدتها وكذا الغلام داخل في ظاهر قوله تعالى أو ما ملكت أيمانهم (والجواب) من وجهين (أحدهما) ان مذهب أبي حنيفة رحمه الله ان الاستثناء من النفي لا يكون اثباتا واحتج عليه بقوله عليه السلام لا صلاة الا بطهور ولا نكاح الا بولي فان ذلك لا يقتضي حصول الصلاة بمجرد حصول الطهور وحصول النكاح بمجرد حصول الولي وفائدة الاستثناء صرف الحكم لا صرف المحكوم به فقوله والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم معناه انه يجب حفظ الفروج عن الكل الا في هاتين الصورتين فانى ما ذكرت حكمهما لا بالنفي ولا بالاثبات (الثاني) أنا ان سلمنا ان الاستثناء من النفي اثبات فغايته انه عام دخله التخصيص بالدليل فيبقى فيما وراءه حجة أما قوله تعالى فأولئك هم العادون يعني الكاملون في العدوان المتناهون فيه (الصفة السادسة) قوله تعالى والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون قرأ نافع وابن كثير لاماناتهم واعلم أنه يسمى الشيء المؤتمن عليه والمعاهد عليه امانة وعهدا ومنه قوله تعالى ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى اهلها وقال وتخونوا أماناتكم وانما تؤدى العيون دون المعاني فكان المؤتمن عليه الامانة في نفسها والعهد ما عقده على نفسه فيما يقرب به الى ربه ويقع أيضا على ما أمر الله تعالى به كقوله الذين قالوا ان الله عهد الينا والراعي القائم على الشيء لحفظ واصلاح كراعي الغنم وراعي الرعية

وهوأبلغ من أن يقال لا يلهون من وجوه جعل الجملة اسمية و بناء الحكم على الضمير والتعبير عنه بالاسم وتقديم الصلة عليه واقامة الاعراض مقام الترك ليدل على تباعدهم عنه رأسا مباشرة وتسببا وميلا وحضورا فان أصله أن يكون فى عرض غيرعرضه (والذين هم الزكوة فاعلون) وصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع فى الصلاة للدلالة على أنهم بلغوا الغاية القاصية من القيام بالطاعات البدنية والمالية والتجنب عن المحرمات وسائر ماتوجب المروءة اجتنابه وتوسيط حديث الاعراض بينهما لكمال ملابسته بالخشوع فى الصلاة والزكاة مصدر لانه الامر الصادر عن الفاعل لا المحل الذى هو موقعه ومعنى الفعل قدمر تحقيقه فى تفسير قوله تعالى فان لم تفعلوا وان تفعلوا ويجوز أن يراد بها العين على تقدير المضاف (والذين هم لفروجهم حافظون) ممسكون لها فالاستثناء فى قوله تعالى (الاعلى أزواجهم) من نفى الارسال الذى ينبئ عنه الحفظ أى لايرسلونها على أحد الاعلى أزواجهم وفيه ايذان بان قوتهم الشهوية داعية لهم الى ما لا يخفى وأنهم حافظون لها من استيفاء مقتضاها وبذلك يتحقق كمال العفة ويجوز أن تكون على بمعنى من واليه ذهب الفراء كما فى قوله تعالى اذا اكتالوا على الناس أى حافظون لها من كل أحد الامن أزواجهم وقيل هى متعلقة بمحذوف وقع حالا من ضمير ﴿ حافظون ﴾ أى حافظون لها فى جميع الاحوال الاحال كونهم والين اوقوامين على أزواجهم وقيل بمحذوف يدل عليه غير ملومين كأنه قيل يلامون على كل مباشر الا على ما أطلق لهم فانهم غير ملومين وجعل الحفظ على القصر عليهن لا يكون المعنى حافظون فروجهم على الازواج لا يتعداهن ثم يقال غير حافظين الا عليهن تأكيدا على تأكيد تكلف على تكلف

ويقال من راعى هذا الشئ أى متوليه واعلم ان الامانة تتناول كل ماتركه يكون داخلا فى الخيانة وقدقال تعالى يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم فمن ذلك العبادات التى المرء مؤتمن عليها وكل العبادات تدخل فى ذلك لانها اما أن تخفى أصلا كالصوم وغسل الجنابة واسباغ الوضوء أو تخفى كيفية اتيانه بها وقال عليه السلام أعظم الناس خيانة من لم يتم صلاته وعن ابن مسعود رضى الله عنه أول ماتفقدون من دينكم الامانة وآخر ماتفقدون الصلاة ومن جملة ذلك مايلتزمه بفعل أو قول فيلزمه الوفاء به كالودائع والعقود ومايتصل بهما ومن ذلك الاقوال التى يحرم بها العبيد والنساء لانه مؤتمن فى ذلك ومن ذلك ان يراعى امانته فلا يفسدها بغصب أو غيره وأما العهد فانه يدخل فيه العقود والايمان والنذور فبين سبحانه ان مراعاة هذه الامور والقيام بها معتبر فى حصول الفلاح (الصفة السابعة) قوله والذين هم على صلواتهم يحافظون وانما أعاد تعالى ذكرها لان الخشوع والمحافظة متغايران غير متلازمين فان الخشوع صفة للمصلى فى حال الاداء لصلاته والمحافظة انما تصح حال مالم يؤدها بكمالها بل المراد بالمحافظة التعهد لشروطها من وقت وطهارة وغيرهما والقيام على أركانها واتمامها حتى يكون ذلك دأبه فى كل وقت ثم لما ذكر الله تعالى مجموع هذه الامور قال أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون وههنا سؤالات (السؤال الاول) لم سمى مايجدونه من الثواب والجنة بالميراث مع انه سبحانه حكم بأن الجنة حقهم فى قوله ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة (الجواب) من وجوه (الاول) ماروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو أبين ما يقال فيه وهو أنه لامكلف الا أعد الله له فى النار مايستحقه ان عصى وفى الجنة مايستحقه ان أطاع وجعل لذلك علامة فاذا آمن منهم البعض ولم يؤمن البعض صار منزل من لم يؤمن كالمنقول الى المؤمنين وصار مصيرهم الى النار الذى لابد معه من حرمان الثواب لكونهم فسمى ذلك ميراثا لهذا الوجه وقد قال الفقهاء انه لافرق بين ماملكه الميت وبين مايقدر فيه الملك فى انه يورث عنه كذلك قالوا فى الدية التى تجب بالقتل انها تورث مع انه ماملكها على التحقيق وذلك يشهد بماذكرنا فان قيل انه تعالى وصف كل الذى يستحقونه ارثا وعلى ماقلتم يدخل فى الارث ماكان يستحقه غيرهم لو أطاع قلنا لا يمتنع انه تعالى جعل ماهو منزلة لهذا المؤمن بعينه منزلة لذلك الكافر لو أطاع لانه عند ذلك كان يزيد فى المنازل فاذا آمن هذا عدل بذلك اليه (وثانيها) ان انتقال الجنة اليهم بدون محاسبة ومعرفة بمقاديره شبه انتقال المال الى الوارث (وثالثها) ان الجنة كانت مسكن أبينا آدم عليه السلام فاذا انتقلت الى أولاده صار ذلك شبيها بالميراث (السؤال الثانى) كيف حكم على الموصوفين بالصفات السبع بالفلاح مع انه تعالى ماتمم ذكر العبادات الواجبة كالصوم والحج والطهارة (والجواب) ان قوله والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون يأتى على جميع الواجبات من الافعال والتروك كما قدمنا والطهارات دخلت فى جملة

(وما ملكت أيمانهم) أي سراريهم عبر عنهن بما اجراء لهن لملوكيتهن مجرى غير العقلاء أو لانوثتهن المنبئة عن القصور (قوله تعالى (فانهم غير ملومين) تعليل لما يفيده الاستثناء من عدم حفظ فروجهم منهن أي فانهم غير ملومين على عدم حفظها منهن (فمن ابتغى وراء ذلك) الذي ذكر من الحد المتسع وهو أربع من الحرائر وما شاء من الاماء (فاولئك هم العادون) الكاملون في العدوان المتناهون فيه وليس فيه ما يدل حتما على تحريم المتعة حسبما نقل عن القاسم بن

المحافظة على الصلوات الخمس لكونها من شرائطها (السؤال الثالث) أفيدل قوله تعالى أولئك هم الوارثون على انه لا يدخلها غيرهم (الجواب) ان قوله هم الوارثون يفيد الحصر لكنه يجب ترك العمل به لانه ثبت ان الجنة يدخلها الاطفال والمجانين وأولاد الزنا والحور العين ويدخلها الفساق من أهل القبلة بعد العفو لقوله تعالى ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء (السؤال الرابع) أفكل الجنة هو الفردوس (الجواب) الفردوس هو الجنة بلسان الحبشة وقيل بلسان الروم وروى أبو موسى الاشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال الفردوس مقصورة الرحمن فيها الانهار والاشجار وروى أبو أمامة عنه عليه السلام انه قال سلوا الله الفردوس فانها أعلى الجنان وان أهل الفردوس يسمعون أطيط العرش (السؤال الخامس) هل تدل الآية على ان هذه الصفات هي التي لها ولاجلها يكونون مؤمنين أم لا (الجواب) ادعى القاضي ان الامر كذلك بناء على مذهبه ان الايمان اسم شرعي موضوع لاداء كل الواجبات وعندنا ان الآية لا تدل على ذلك لان قوله قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون مثل قد أفلح الناس الازكياء العدول فان هذا لا يدل على أن الزكاة والعدالة داخلان في مسمى الناس فكذا ههنا (السؤال السادس) روي انه عليه الصلاة والسلام قال لما خلق الله تعالى جنة عدن قال لها تكلمي فقالت قد أفلح المؤمنون وقال كعب خلق الله آدم بيده وكتب التوراة بيده وغرس شجرة طوبى بيده ثم قال لها تكلمي فقالت قد أفلح المؤمنون وروي انه عليه السلام قال اذا أحسن العبد الوضوء وصلى الصلاة لوقتها وحافظ على ركوعها وسجودها ومواقيتها قالت حفظك الله كما حافظت على وشفعت لصاحبها واذا أضاعها قالت أضاعك الله كما ضيعتني وتلف كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها (الجواب) أما كلام الجنة فالمراد به انها أعدت للمؤمنين فصار ذلك كالقول منها وهو كقوله تعالى قالتا أتينا طائعين وأما انه تعالى خلق الجنة بيده فالمراد تولي خلقها لا أنه وكله الى غيره وأما ان الصلاة تثني على من قام بحقها فهو في الجواز أبعد من كلام الجنة لان الصلاة حركات وسكنات ولا يصح عليها أن تتصور وتتكلم فالمراد منه ضرب المثل كما يقول القائل للمنعم ان احسانك الى ينطق بالشكر (السؤال السابع) هل تدل الآية على ان الفردوس مخلوقة (الجواب) قال القاضي دل قوله تعالى أكلها دائم على أنها غير مخلوقة فوجب تاويل هذه الآية كأنه تعالى قال اذا كان يوم القيامة يخلق الله الجنة ميراثا للمؤمنين أو واذا خلقها تقول على مثال ما تاونا عليه قوله تعالى ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة وهذا ضعيف لانه ليس اضمار ما ذكره في هذه الآية أولى من ان يضمر في قوله أكلها دائم ان أكلها دائم يوم القيامة واذا تعارض هذان الظاهران فنحن نتمسك في ان الجنة مخلوقة بقوله تعالى أعدت للمتقين ✻ قوله تعالى (ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك

محمد فانه قال انها ليست زوجة له فوجب أن لا تحل له أما أنها ليست زوجة له فلانهما لا يتوارثان بالاجماع ولو كانت زوجة له لحصل التوارث لقوله تعالى ولكم نصف ما ترك أزواجكم فوجب أن لا تحل لقوله تعالى الا على أزواجهم لان لهم أن يقولوا انها زوجة له في الجملة وأما ان كل زوجة ترث فهم لا يسلمونها واما ما قيل من أنه ان أريد لو كانت زوجة حال الحياة لم يفد وان أريد بعد الموت فالملازمة ممنوعة فليس له معنى محصل نعم لو عكس لكان له وجه (والذين هم لاماناتهم وعهدهم) لما يؤتمنون عليه ويعاهدون من جهة الحق أو الخلق (راعون) أي قائمون عليها حافظون لها على وجه الاصلاح وقرئ لاماناتهم (والذين هم على صلواتهم) المفروضة عليهم (يحافظون) يواظبون عليها ويؤدونها في أوقاتها ولفظ الفعل فيه لما في الصلاة من التجدد والتكرر وهو السر في جمعها وليس فيه تكرير لما أن الخشوع في الصلاة غير المحافظة عليها وفصلهما الايذان بان كلا منهما فضيلة مستقلة على حيالها ولو قرنا في الذكر لربما توهم أن مجموع الخشوع والمحافظة فضيلة واحدة (أولئك) اشارة الى

المؤمنين باعتبار اتصافهم بما ذكر من الصفات وايثارها على الاضمار للاشعار بامتيازهم بها عن غيرهم ونزولهم منزلة المشار اليه حسا وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد طبقتهم وبعد درجتهم فى الفضل والشرف أولئك المنعوتون بالنعوت الجليلة المذكورة (هم الوارثون) أى الاحقاء بان يسموا وراثا دون من عداهم ممن ورث رغائب الاموال والذخائر وكرائمها (الذين يرثون الفردوس) بيان لما يرثونه وتقييد ﴿ ٢٧٤ ﴾ للوارثة بعد اطلاقها وتفسيرها بعد ابهامها تفخيما لشأنها ورفعا لمحلها وهى استعارة لاستحقاقهم الفردوس باعمالهم حسبما يقتضيه الوعد الكريم للمبالغة فيه وقيل انهم يرثون من الكفار منازلهم فيها حيث فوتوها على أنفسهم لانه تعالى خلق لكل انسان منزلا فى الجنة ومنزلا فى النار (هم فيها) أى فى الفردوس والتانيث لانه اسم للجنة أو لطبقتها العليا وهو البستان الجامع لاصناف الثمر روى أنه تعالى بنى جنة الفردوس لبنة من ذهب ولبنة من فضة وجعل خلالها المسك الاذفر وفى رواية ولبنة من مسك مذرى وغرس فيها من جيد الفاكهة وجيد الريحان (خالدون) لا يخرجون منها أبدا والجملة اما مستأنفة مقررة لما قبلها واما حال مقدرة من فاعل يرثون أو مفعوله اذ فيها ذكر كل منهما ومعنى الكلام لا يموتون ولا يخرجون منها (ولقد خلقنا الانسان) شروع فى بيان مبدا خلق الانسان وتقلبه فى أطوار الخلقة وأدوار الفطرة بيانا اجماليا اثر بيان ﴿ وكان ﴾ حال بعض أفراده السعداء واللام جواب قسم والواو ابتدائية وقيل عاطفة على ما قبلها والمراد بالانسان الجنس أى وبالله لقد خلقنا جنس الانسان فى ضمن خلق آدم عليه السلام

الله أحسن الخالقين ثم انكم بعد ذلك لميتون ثم انكم يوم القيامة تبعثون) اعلم انه سبحانه لما أمر بالعبادات فى الآية المتقدمة والاشتغال بعبادة الله تعالى لا يصح الا بعد معرفة الاله الخالق لاجرم عقبها بذكر ما يدل على وجوده وانصافه بصفات الجلال والوحدانية فذكر من الدلائل أنواعا (النوع الاول) الاستدلال بتقلب الانسان فى ادوار الخلقة واكوان الفطرة وهى تسعة (المرتبة الاولى) قوله سبحانه وتعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين والسلالة الخلاصة لانها تسل من بين الكدر فعالة وهو بناء يدل على القلة كالقلامة والقمامة واختلف أهل التفسير فى الانسان فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومقاتل المراد منه ادم عليه السلام فآدم سل من الطين وخلقت ذريته من ماء مهين ثم جعلنا الكناية راجعة الى الانسان الذى هو ولد آدم والانسان شامل لآدم عليه السلام وولده وقال آخرون الانسان ههنا ولد آدم والطين ههنا اسم آدم عليه السلام والسلالة هى الاجزاء الطينية المبثوثة فى أعضائه التى لما اجتمعت وحصلت فى اوعية المنى صارت منيا وهذا التفسير مطابق لقوله تعالى و بدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين وفيه وجه آخر وهو ان الانسان انما يتولد من النطفة وهى انما تتولد من فضل الهضم الرابع وذلك انما يتولد من الاغذية وهى اما حيوانية واما نباتية والحيوانية تنتهى الى النباتية والنبات انما يتولد من صفو الارض والماء فالانسان بالحقيقة يكون متولدا من سلالة من طين ثم ان تلك السلالة بعد ان تواردت على اطوار الخلقة وادوار الفطرة صارت منيا وهذا التأويل مطابق للفظ ولا يحتاج فيه الى التكلفات (المرتبة الثانية) قوله تعالى ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ومعنى جعل الانسان نطفة انه خلق جوهر الانسان أولا طينا ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة فى أصلاب الآباء فقذفه الصلب بالجماع الى رحم المرأة فصار الرحم قرارا مكينا لهذه النطفة والمراد بالقرار موضع القرار وهو المستقر فسماه بالمصدر ثم وصف الرحم بالمكانة التى هى صفة المستقر فيها كقولك طريق سائر أو لمكانتها فى نفسها لانها تكنت من حيث هى وأحرزت (المرتبة الثالثة) قوله تعالى ثم خلقنا النطفة علقة أى حولنا النطفة عن صفاتها الى صفات العلقة وهى الدم الجامد (المرتبة الرابعة) قوله تعالى فخلقنا العلقة مضغة أى جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أى قطعة لحم كأنها مقدار ما يمضغ كما عرفه وهى مقدار ما يغترف وسمى التحويل خلقا لانه سبحانه يفنى بعض اعراضها ويخلق اعراضا غيرها فسمى خلق الاعراض خلقا لها وكأنه سبحانه وتعالى يخلق فيها اجزاء زائدة (المرتبة الخامسة) قوله فخلقنا المضغة عظاما أى صيرناها كذلك وقرأ ابن عامر عظما والمراد منه الجمع كقوله والملك صفا صفا (المرتبة السادسة) قوله تعالى فكسونا العظام لحما وذلك لان اللحم يستر العظم فجعله كالكسوة لها (المرتبة السابعة) قوله تعالى ثم أنشأناه خلقا آخر أى خلقا مباينا للخلق الاول مباينة ما أبعدها حيث جعله حيوانا وكان جمادا وناطقا وكان أبكم وسميعا وكان أصم وبصيرا

خلقا اجماليا حسبما تحققته فى سورة الحج وغيرها ولما كونه مخلوقا من سلالات جعلت نطفا بعد أدوار وأطوار فبعيد (من سلالة) السلالة ما سل من الشئ واستخرج منه فان فعالة اسم لما يحصل من الفعل فتارة تكون مقصودا منه كالخلاصة وأخرى غير مقصود منه كالقلامة والكناسة والسلالة من قبيل الاول فانها مقصودة بالسل ومن ابتدائية متعلقة بالخلق ومن فى قوله تعالى (من طين) بيانية متعلقة بمحذوف ﴿ ٢٧٥ ﴾ وقع صفة لسلالة أى خلقناه من سلالة كائنة من طين

وكان أكمه وأودع باطنه وظاهره بل كل عضو من أعضائه وكل جزء من أجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة لا يحيطها وصف الواصفين ولا شرح الشارحين وروى العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال هو تصريف الله اياه بعد الولادة فى اطواره فى زمن الطفولية وما بعدها الى استواء الشباب وخلق الفهم والعقل وما بعده الى أن يموت ودليل هذا القول انه عقبه بقوله ثم انكم بعد ذلك لميتون وهذا المعنى مروى أيضا عن ابن عباس وابن عمر وانما قال أنشأناه لانه جعل انشاء الروح فيه واتمام خلقه انشاء له قالوا فى الآية دلالة على بطلان قول النظام فى ان الانسان هو الروح لا البدن فانه سبحانه بين ان الانسان هو المركب من هذه الصفات وفيها دلالة أيضا على بطلان قول الفلاسفة الذين يقولون ان الانسان شئ لا ينقسم وانه ليس بجسم أما قوله فتبارك الله أى فتعالى الله فان البركة يرجع معناها الى الامتداد والزيادة وكل ما زاد على الشئ فقد علاه ويجوز أن يكون المعنى والبركات والخيرات كلها من الله تعالى وقيل أصله من البروك وهو الثبات فكأنه قال وبقاؤه والدوام والبركات كلها عنده فهو المستحق للتعظيم والثناء وقوله أحسن الخالقين أى أحسن المقدرين تقديرا فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين عليه وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة لولا أن غير الله تعالى قد يكون خالقا لفعله اذا قدره لما جاز القول بانه أحسن الخالقين كما لو لم يكن فى عباده من يحكم ويرحم لم يجز أن يقال فيه أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين والخلق فى اللغة هو كل فعل وجد من فاعله مقدرا الا على سهو وغفلة والعباد قد يفعلون ذلك على هذا الوجه قال الكعبى هذه الآية وان دلت على ان العبد خالق الا أن اسم الخالق لا يطلق على العبد الا مع القيد كما انه يجوز أن يقال رب الدار ولا يجوز أن يقال رب بلا اضافة ولا يقول العبد لسيده هو رب ولا يقال انما قال الله تعالى ذلك لانه سبحانه وصف عيسى عليه السلام بانه يخلق من الطين كهيئة الطير لا ناجيب عنه من وجهين (أحدهما) ان ظاهر الآية يقتضى انه سبحانه أحسن الخالقين الذين هم جمع فحمله على عيسى خاصة لا يصح (الثانى) انه اذا صح وصف عيسى بانه يخلق صح وصف غيره من المصورين أيضا بأنه يخلق وأجاب أصحابنا بان هذه الآية معارضة بقول الله تعالى الله خالق كل شئ فوجب حمل هذه الآية على انه أحسن الخالقين فى اعتقادكم وظنكم كقوله تعالى وهو أهون عليه أى هو أهون عليه فى اعتقادكم وظنكم (والجواب) الثانى هو أن الخالق هو المقدر لان الخلق هو التقدير والآية تدل على انه سبحانه أحسن المقدرين والتقدير يرجع معناه الى الظن والحسبان وذلك فى حق الله سبحانه محال فتكون الآية من المتشابهات (والجواب الثالث) ان الآية تقتضى كون العبد خالقا بمعنى كونه مقدرا لكن لم قلت بانه خالق بمعنى كونه موجدا (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة الآية تدل على ان كل ما خلقه حسن وحكمة وصواب والا لما جاز وصفه بانه أحسن الخالقين واذا كان كذلك وجب أن لا يكون خالقا للكفر والمعصية فوجب أن يكون

ويجوز أن تتعلق بسلالة على أنها بمعنى مسلولة فهى ابتدائية كالاولى وقيل المراد بالانسان آدم عليه السلام فانه الذى خلق من صفوة سلت من الطين وقد وقفت على التحقيق (ثم جعلناه) أى الجنس باعتبار أفراده المغايرة لآدم عليه السلام أو جعلنا نسله على حذف المضاف ان أريد بالانسان آدم عليه السلام (نطفة) بان خلقناه منها أو ثم جعلنا السلالة نطفة والتذكير بتأويل الجوهر أو المسلول أو الماء (فى قرار) أى مستقر وهو الرحم عبر عنها بالقرار الذى هو مصدر مبالغة وقوله تعالى (مكين) وصف لها بصفة ما استقر فيها مثل طريق سائر أو بمكانتها فى نفسها فانها مكنت بحيث هى وأحرزت (ثم خلقنا النطفة علقة) أى دما جامدا بأن أحلنا النطفة البيضاء علقة حمراء (فخلقنا العلقة مضغة)

أى قطعة لحم لا استبانة ولا تمايز فيها (فخلقنا المضغة) أى غالبها ومعظمها أو كلها (عظاما) بأن صلبناها وجعلناها عمودا للبدن على هيآت وأوضاع مخصوصة تقتضيها الحكمة ((فكسونا العظام) المعهودة (لحما) من بقية المضغة أو مما أنبتنا عليها بقدرتنا مما يصل اليها أى كسونا كل عظم من تلك العظام ما يليق به من اللحم على مقدار لائق به وهيئة

ماء بقدر فقد اختلفوا فى السماء فقال الاكثرون من المفسرين انه تعالى ينزل الماء فى الحقيقة من السماء وهو الظاهر من اللفظ ويؤكده قوله وفى السماء رزقكم وما توعدون وقال بعضهم المراد السحاب وسماه سماء لعلوه والمعنى ان الله تعالى أصعد الاجزاء المائية من قعر الارض الى البحار ومن البحار الى السماء حتى صارت عذبة صافية بسبب ذلك التصعيد ثم ان تلك الذرات تأتلف وتتكون ثم ينزله الله تعالى على قدر الحاجة اليه ولولا ذلك لم ينتفع بتلك المياه لتفرقها فى قعر الارض ولابماء البحار لملوحته ولانه لاحيلة فى اجراء مياه البحار على وجه الارض لان البحار هى الغاية فى العمق واعلم ان هذه الوجوه انما يحملها من ينكر الفاعل المختار فاما من أقر به فلا حاجة به الى شئ منها أما قوله تعالى بقدر فمعناه بتقدير يسلمون معه من المضرة ويصلون الى المنفعة فى الزرع والغرس والشرب أو بمقدار ما علمنا من حاجاتهم ومصالحهم أما قوله فاسكناه فى الارض قيل معناه جعلناه ثابتا فى الارض قال ابن عباس رضى الله عنهما أنزل الله تعالى من الجنة خمسة انهار سيحون وجيحون ودجلة والفرات والنيل ثم يرفعها عند خروج يأجوج ومأجوج ويرفع أيضا القرآن أما قوله وانا على ذهاب به لقادرون أى كما قدرنا على انزاله فكذلك نقدر على رفعه وازالته قال صاحب الكشاف وقوله على ذهاب به من أوقع النكرات وآخرها للفصل والمعنى على وجد من وجوه الذهاب به وطريق من طرقه وفيه ايذان بكمال اقتدار المذهب وانه لايعسر عليه شئ وهو أبلغ فى الايعاد من قوله قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين ثم انه سبحانه لما نبه على عظيم نعمته بخلق الماء ذكر بعده النعم الحاصلة من الماء فقال فانشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب وانما ذكر تعالى النخيل والاعناب لكثرة منافعهما فانهما يقومان مقام الطعام ومقام الادام ومقام الفواكه رطبا ويابسا وقوله لكم فيها فواكه كثيرة أى فى الجنات فكما ان فيها النخيل والاعناب ففيها الفواكه الكثيرة وقوله ومنها تأكلون قال صاحب الكشاف يجوز أن يكون هذا من قولهم فلان يأكل من حرفة يحترفها ومن صنعة يعملها يعنون انها طعمته ووجهته التى منها يحصل رزقه كأنه قال وهذه الجنات وجوه ارزاقكم ومعايشكم منها تتعيشون أما قوله تعالى وشجرة تخرج من طور سيناء فهو عطف على جنات وقرئت مرفوعة على الابتداء أى ومما أنشأنا لكم شجرة قال صاحب الكشاف طور سيناء وصور سينين لايخلوا ما ان يضاف فيه الطور الى بقعة اسمها سيناء وسينون واما ان يكون اسما للجبل مركبا من مضاف ومضاف اليه كامرئ القيس وبعلبك فمن اضاف فمن كسر سين سيناء فقد منع الصرف للتعريف والعجمة أو التأنيث لانها بقعة وفعلاء لايكون ألفه للتأنيث كعلباء وحرباء ومن فتح لم يصرفه لان ألفه للتأنيث كصحراء وقيل هو جبل فلسطين وقيل بين مصر وأيلة ومنه نودى موسى عليه السلام وقرأ الاعمش سينا على القصر أما قوله تعالى تنبت بالدهن فهو فى موضع الحال أى تنبت وفيها الدهن كما يقال

هى خمسة أنهار سيحون نهر الهند وجيحون نهر بلخ ودجلة والفرات نهر العراق والنيل نهر مصر أنزلها الله تعالى من عين واحدة من عيون الجنة فاستودعها الجبال وأجراها فى الارض وجعل فيها منافع للناس فى فنون معايشهم ومن ابتدائية متعلقة بانزلنا وتقديمها على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر والعدول عن الاضمار لان الانزال لايعتبر فيه عنوان كونها طرائق بل مجرد كونها جهة العلو (بقدر) بتقدير لائق لاستجلاب منافعهم ودفع مضارهم أو بمقدار ما علمنا من حاجاتهم ومصالحهم (فاسكناه فى الارض) أى جعلناه ثابتا قارا فيها (وانا على ذهاب به) أى ازالته بالافساد أو التصعيد أو التغوير بحيث يتعذر استنباطه (لقادرون) كما كنا قادرين على انزاله وفى تنكير ذهاب ايماء الى كثرة طرقه ومبالغة فى الابعاد به ولذلك جعل أبلغ من قوله ﴿ ركب ﴾ تعالى قل أرأيتم ان أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين (فانشأنا لكم به) أى بذلك الماء (جنات من نخيل وأعناب لكم فيها) فى الجنات (فواكه كثيرة) تتفكهون بها (ومنها) من الجنات (تأكلون) تغذيا أو ترزقون وتحصلون معايشكم من قولهم فلان يأكل من حرفته ويجوز

ان يعود الضميران للنخيل والاعناب اى لكم فى ثمراتها انواع من الفواكه الرطب والعنب والتمر والزبيب والعصير والدبس وغير ذلك وطعام تأكلونه (وشجرة) بالنصب عطف على جنات وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف دل عليه ما قبله أى ومما أنشئ لكم به شجرة وتخصيصها بالذكر من بين سائر الاشجار لاستقلالها بمنافع معروفة قيل هى أول شجرة نبتت بعد الطوفان وقوله تعالى (تخرج من طور سيناء) ﴿٢٧٩﴾ وهو جبل موسى عليه السلام بين مصر وأيلة وقيل بفلسطين

ركب الامير بجنده أى ومعه الجند وقرئ تنبت وفيه وجهان (أحدهما) ان أنبت بمعنى نبت قال زهير

رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم * قطينا لهم حتى اذا أنبت البقل

(والثانى) ان مفعوله محذوف أى تنبت زيتونها وفيه الزيت قال المفسرون وانما أضافهما الله تعالى الى هذا الجبل لان منهما تشعبت فى البلاد وانتشرت ولان معظمهما هناك أما قوله وصبغ للآكلين فعطف على الدهن أى ادام للآكلين والصبغ والمصباغ ما يصطبغ به أى يصبغ به الخبز وجملة القول انه سبحانه وتعالى نبه على احسانه بهذه الشجرة لانها تخرج هذه الثمرة التى يكثر بها الانتفاع وهى طرية ومدخرة وبان تعصر فيظهر الزيت منها ويعظم وجوه الانتفاع به (النوع الرابع) الاستدلال باحوال الحيوانات * قوله تعالى (وان لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون وعليها وعلى الفلك تحملون) اعلم انه سبحانه وتعالى ذكر ان فيها عبرة مجملا ثم أردفه بالتفصيل من أربعة أوجه (أحدها) قوله نسقيكم مما فى بطونها والمراد منه جميع وجوه الانتفاع بألبانها ووجه الاعتبار فيه انها تجتمع فى الضروع وتتخلص من بين الفرث والدم باذن الله تعالى فتستحيل الى طهارة والى لون وطعم موافق للشهوة وتصير غذاء فمن استدل بذلك على قدرة الله وحكمته كان ذلك معدودا فى النعم الدينية ومن انتفع به فهو فى نعمة الدنيا وأيضا فهذه الالبان التى تخرج من بطونها الى ضروعها تجدها شرابا طيبا واذا بحثت لم تجد لها أثرا وذلك يدل على عظيم قدرة الله تعالى قال صاحب الكشاف وقرئ تسقيكم بتاء مفتوحة أى تسقيكم الانعام (وثانيها) قوله ولكم فيها منافع كثيرة وذلك بيعها والانتفاع باثمانها وما يجرى ذلك (وثالثها) قوله ومنها تأكلون يعنى كما تنتفعون بها وهى حية تنتفعون بها بعد الذبح أيضا بالاكل (ورابعها) قوله وعليها وعلى الفلك تحملون لان وجه الانتفاع بالابل فى المحمولات على البر بمنزلة الانتفاع بالفلك فى البحر ولذلك جمع بين الوجهين فى انعامه لكى يشكر على ذلك ويستدل به واعلم انه سبحانه وتعالى لما بين دلائل التوحيد أردفها بالقصص كما هو العادة فى سائر السور وهى ههنا * (القصة الاولى) قصة نوح عليه السلام * قوله تعالى (ولقد ارسلنا نوحا الى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا الا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لانزل ملائكة ما سمعنا بهذا فى آبائنا الاولين ان هو الا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين) قال قوم ان نوحا كان اسمه يشكر ثم سمى نوحا لوجوه (أحدها) لكثرة ما ناح على نفسه حين دعا على قومه بالهلاك فاهلكهم بالطوفان فندم على ذلك (وثانيها) لمراجعة ربه فى شأن ابنه (وثالثها) انه مر بكلب مجذوم فقال له اخسأ يا قبيح فعوتب على ذلك فقال الله له أعبتنى اذ خلقته أم عبت الكلب وهذه الوجوه متكلفة لما ثبت ان الاعلام لا تفيد صفة فى

و يقال له طور سينين فاما ان يكون الطور اسم الجبل وسيناء اسم البقعة أضيف اليها أو المركب منهما علم له كامرئ القيس ومنع صرفه على قراءة من كسر السين للتعريف والعجمة أو التأنيث على تأويل البقعة لا للالف لانه فيعال كديماس من السناء بالمد وهو الرفعة أو بالقصر وهو النور أو ملحق بفعلال كعلباء من السين اذ لا فعلاء بالف التانيث بخلاف سيناء فانه فيعال ككيسان أو فعلاء كصحراء اذ لا فعلال فى كلامهم وقرئ بالكسر والقصر والجملة صفة لشجرة وتخصيصها بالخروج منه مع خروجها من سائر البقاع أيضا لتعظيمها ولانه المنشأ الاصلى لها وقوله تعالى (تنبت بالدهن) صفة اخرى لشجرة والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا منها أى تنبت ملتبسة به ويجوز كونها صلة

معدية أى تنبته بمعنى تتضمنه وتحصله فان النبات حقيقة صفة للشجرة لا للدهن وقرئ تنبت من الافعال وهو اما من الانبات بمعنى النبات كما فى قول زهير * رأيت ذوى الحاجات حول بيوتهم * قطينا لهم حتى اذا أنبت البقل * أو على تقدير تنبت زيتونها ملتبسا بالدهن وقرئ على البناء للمفعول وهو كالاول وتمر بالدهن وتخرج بالدهن (وصبغ للآكلين) معطوف على الدهن جار على اعرابه

عطف احد وصفي الشيء على الآخر أي تنبت بالشيء الجامع بين كونه دهنا يدهن به ويسرج منه وكونه اداما يصبغ فيه الخبز أي يغمس فيه للائتدام وقرئ وصباغ كدباغ في دبغ (وان لكم في الانعام لعبرة) بيان للنعم الفائضة عليهم من جهة الحيوان اثر بيان النعم الواصلة اليهم من جهة الماء والنبات وقد بين أنها مع كونها في نفسها نعما يتنفعون بها على وجوه شتى عبرة لابد من أن يعتبروا بها ويستدلوا باحوالها على عظيم ✻ ٢٨٠ ✻ قدرة الله عز وجل وسابغ رحمته ويشكروه ولا يكفروه وخص هذا بالحيوان لما أن محل العبرة فيه أظهر مما في النبات وقوله تعالى (نسقيكم مما في بطونها) تفصيل لما فيها من مواقع العبرة وما في بطونها عبارة اما عن الالبان فمن تبعيضية والمراد ببطون الجوف أو عن العلف الذي يتكون منه اللبن فمن ابتدائية والبطون على حقيقتها وقرئ بفتح النون وبالتاء أي تسقيكم الانعام (ولكم فيها منافع كثيرة) غير ما ذكر من أصوافها واشعارها (ومنها تأكلون) فتنتفعون باعيانها كما تنتفعون بما يحصل منها (وعليها) أي على الانعام فان الحمل عليها لا يقتضي الحمل على جميع أنواعها بل يتحقق بالحمل على البعض كالابل ونحوها وقيل المراد هي الابل خاصة لانها هي المحمول عليها عندهم والمناسب للفلك فانها سفائن البر قال ذو الرمة ✻ سفينة بر تحت خدي زمامها ✻ فالضمير فيه كما في قوله تعالى وبعولتهن أحق ✻ يحتمل ✻ بردهن (وعلى الفلك تحملون) أي في البر والبحر وفي الجمع بينها وبين الفلك في ايقاع الحمل عليها مبالغة في تحملها للحمل وهو الداعي الى تاخير ذكر هذه المنفعة مع كونها من المنافع الحاصلة منها عن ذكر منفعة الاكل المتعلقة بعينها (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه) شروع في بيان اهمال الامم السابقة وتركهم النظر والاعتبار فيما عدد

المسمى أما قوله اعبدوا الله فالمعنى انه سبحانه أرسله بالدعاء الى عبادة الله تعالى وحده ولا يجوز ان يدعوهم الى ذلك الا وقد دعاهم الى معرفته أولا لان عبادة من لا يكون معلوما غير جائزة وانما يجوز ويجب بعد المعرفة أما قوله ما لكم من اله غيره فالمراد أن عبادة غير الله لا تجوز اذ لا اله سواه ومن حق العبادة أن تحسن لمن أنعم بالخلق والاحياء وما بعدهما فاذا لم يصح ذلك الا منه تعالى فكيف يعبد ما لا يضر ولا ينفع وقرئ غيره بالرفع على المحل وبالجر على اللفظ ثم انه لما لم ينفع فيهم هذا الدعاء واستمروا على عبادة غير الله تعالى حذرهم بقوله أفلا تتقون لان ذلك زجر ووعيد بانتفاء التقوى لينصرفوا عما هم عليه ثم انه سبحانه حكى عنهم شبههم في انكار نبوة نوح عليه السلام (الشبهة الاولى) قولهم ما هذا الا بشر مثلكم وهذه الشبهة تحتمل وجهين (أحدهما) أن يقال انه لما كان مساويا لسائر الناس في القوة والفهم والعلم والغنى والفقر والصحة والمرض امتنع كونه رسولا لله لان الرسول لابد وأن يكون عظيما عند الله تعالى وحبيبا له والحبيب لابد وان يختص عن غير الحبيب بمزيد الدرجة والمعرة فلما فقدت هذه الاشياء علمنا انتفاء الرسالة (والثاني) أن يقال هذا الانسان مشارك لكم في جميع الامور ولكنه أحب الرياسة والمتبوعية فلم يجدا بهما سبيلا الا بادعاء النبوة فصار ذلك شبهة لهم في القدح في نبوته فهذا الاحتمال متاكد بقوله تعالى خبرا عنهم يريد أن يتفضل عليكم أي يريد أن يطلب الفضل عليكم ويرأسكم كقوله تعالى وتكون لكما الكبرياء في الارض (الشبهة الثانية) قولهم ولو شاء الله لانزل ملائكة وشرحه أن الله تعالى لو شاء ارشاد البشر لوجب أن يسلك الطريق الذي يكون أشد افضاء الى المقصود ومعلوم ان بعثة الملائكة أشد افضاء الى هذا المقصود من بعثة البشر لان الملائكة لعلو شانهم وشدة سطوتهم وكثرة علومهم فالخلق ينقادون اليهم ولا يشكون في رسالتهم فلما لم يفعل ذلك علمنا انه ما أرسل رسولا البتة (الشبهة الثالثة) قولهم ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين وقوله بهذا اشارة الى نوح عليه السلام أو الى ما كلموه به من الحث على عبادة الله تعالى أي ما سمعنا بمثل هذا الكلام أو بمثل هذا الذي يدعى وهو بشر أنه رسول الله وشرح هذه الشبهة انهم كانوا أقواما لا يعولون في شيء من مذاهبهم الا على التقليد الرجوع الى قول الآباء فلما لم يجدوا في نبوة نوح عليه السلام هذه الطريقة حكموا بفسادها قال القاضي يحتمل أن يريدوا بذلك كونه رسولا مبعوثا لانه لا يمتنع فيما تقدم من زمان آبائهم أنه كان زمان فترة ويحتمل أن يريدوا بذلك دعاءهم الى عبادة الله تعالى وحده لان آباءهم كانوا على عبادة الاوثان (الشبهة الرابعة) قولهم ان هو الا رجل به جنة والجنة الجنون أو الجن فان جهال العوام يقولون في المجنون زال عقله بعمل الجن وهذه الشبهة من باب الترويج على العوام فانه عليه الصلاة والسلام كان يفعل افعالا على خلاف عاداتهم فأولئك الرؤساء كانوا يقولون للعوام انه مجنون ومن كان مجنونا فكيف يجوز أن يكون رسولا (الشبهة الخامسة) قولهم فتربصوا به حتى حين وهذا

من النعم الفائتة للحصر وعدم تذكرهم بتذكير رسلهم وما حاق بهم لذلك من فنون العذاب تحذير المخاطبين وتقديم قصة نوح عليه السلام على سائر القصص مما لا يخفى وفي ايرادها اثر قوله تعالى وعلى الفلك تحملون من حسن الموقع ما لا يوصف والواو ابتدائية واللام جواب قسم محذوف وتصدير القصة به لاظهار كمال الاعتناء بمضمونها أي و بالله لقد أرسلنا نوحا الخ ونسبه الكريم وكيفية بعثه ❁ ٢٨١ ❁ وكيفية نبوته فيما بينهم قدم تفصيله في سورة الاعراف وسورة هود (فقال) معطفا عليهم ومستميلا لهم الى الحق (يا قوم اعبدوا الله) أي اعبدوه وحده كما يفصح عنه قوله تعالى في سورة هود أن لا تعبدوا الا الله وترك التقييد به للايذان بانها هي العبادة فقط وأما العبادة بالاشراك فليست من العبادة في شيء رأسا وقوله تعالى (ما لكم من اله غيره) استئناف مسوق لتعليل العبادة المأمور بها أو تعليل الامر بها وغير بالرفع صفة لاله باعتبار محله الذي هو الرفع على أنه فاعل أو مبتدأ خبره لكم أو نحو وف ولكم للتخصيص والتبيين أي ما لكم في الوجود أو في العالم اله غيره تعالى وقرئ بالجر باعتبار لفظة (أفلا تتقون) أي أفلا تتقون أنفسكم عذابه الذي يستوجبه ما أنتم عليه من ترك عبادته تعالى كما يفصح عنه قوله تعالى اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم وقوله تعالى عذاب يوم ❁ ٣٦ ❁ س أليم وقيل أفلا تخافون أن ترفضوا عبادة الله الذي هو ربكم الخ وليس بذاك وقيل أفلا تخافون أن يزيل عنكم نعمه الخ وفيه ما فيه والهمزة لانكار الواقع واستقباحه والفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أتعرفون ذلك أي مضمون قوله تعالى ما لكم من اله غيره فلا تتقون عذابه

يحتمل أن يكون متعلقا بما قبله أي انه مجنون فاصبروا الى زمان حتى يظهر عاقبة أمره فان أفاق والا فاقتلوه ويحتمل أن يكون كلاما مستأنفا وهو أن يقولوا لقومهم اصبروا فانه ان كان نبيا حقا فالله ينصره ويقوي أمره فحينئذ نتبعه وان كان كاذبا فالله يخذله ويبطل أمره فحينئذ نستريح منه فهذه مجموع الشبه التي حكاها الله تعالى عنهم واعلم انه سبحانه ما ذكر الجواب عنها لركاكتها ووضوح فسادها وذلك لان كل عاقل يعلم أن الرسول لا يصير رسولا الا لانه من جنس الملك وانما يصير كذلك بان يتميز من غيره بالمعجزات فسواء كان من جنس الملك أو من جنس البشر فعند ظهور المعجز عليه يجب أن يكون رسولا بل جعل الرسول من جملة البشر اولى لما مر بيانه في السور المتقدمة وهو أن الجنسية مظنة الالفة والمؤانسة وأما قولهم يريد أن يتفضل عليكم فان أرادوا به ارادته لاظهار فضله حتى يلزمهم الانقياد لطاعته فهذا واجب على الرسول وان ارادوا به أن يرتفع عليهم على سبيل التجبر والتكبر والانقياد فالانبياء منزهون عن ذلك وأما قولهم ما سمعنا بهذا فهو استدلال بعدم التقليد على عدم وجود الشيء وهو في غاية السقوط لان وجود التقليد لا يدل على وجود الشيء فعدمه من اين يدل على عدمه وأما قولهم به جنة فقد كذبوا لانهم كانوا يعلمون بالضرورة كمال عقله وأما قولهم فتربصوا به فضعيف لانه ان ظهرت الدلالة على نبوته وهي المعجزة وجب عليهم قبول قوله في الحال ولا يجوز توقيف ذلك الى ظهور دولته لان الدولة لا تدل على الحقية وان لم يظهر المعجز لم يجز قبول قوله سواء ظهرت الدولة أو لم تظهر ولما كانت هذه الاجوبة في نهاية الظهور لا جرم تركها الله سبحانه ❁ قوله تعالى (قال رب انصرني بما كذبون فأوحينا اليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فاذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرقون فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين وقل رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ان في ذلك لآيات وان كنا لمبتلين) أما قوله رب انصرني بما كذبون ففيه وجوه (أحدها) ان في نصرها اهلاكهم فكأنه قال أهلكهم بسبب تكذيبهم اياي (وثانيها) انصرني بدل ما كذبوني كما تقول هذا بذاك أي بدل ذاك ومكانه والمعنى أبدلني من غم تكذيبهم سلوة النصر عليهم (وثالثها) انصرني بانجاز ما وعدتهم من العذاب وهو ما كذبوه فيه حين قال لهم اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ولما أجاب الله دعاءه قال فاوحينا اليه أن اصنع الفلك باعيننا أي بحفظنا وكلئنا كان معه من الله حافظا يكلؤه بعينه لئلا يتعرض له ولا يفسد عليه مفسد عمله ومنه قولهم عليه من الله عين كالئة وهذه الآية دالة على فساد قول المشبهة في تمسكهم بقوله عليه السلام ان الله خلق آدم على صورته لان ثبوت الاعين يمنع من ذلك واختلفوا في انه عليه السلام كيف صنع الفلك فقيل انه كان نجارا وكان عالما بكيفية اتخاذها وقيل ان جبريل عليه السلام علمه عمل السفينة ووصف له كيفية اتخاذها

بسبب اشراككم به فى العبادة مالا يستحق الوجود لولا ايجاد الله تعالى اياه وفضلا عن استحقاق العبادة فالمنكر عدم الاتقاء مع تحقق ما يوجبه أو الانلاحظون ذلك فلا تتقونه فالمنكر كلا الامرين فالمبالغة حينئذ فى الكمية وفى الاول فى الكيفية (فقال الملأ) أى الاشراف (الذين كفروا من قومه) وصف الملأ بذلك مع اشتراك الكل فيه للايذان بكمال عراقتهم فى الكفر وشدة شكيمتهم فيه أى قالوا ﴿ ٢٨٢ ﴾ لعوامهم (ماهذا الا بشر مثلكم) أى فى الجنس والوصف من غير فرق بينكم وبينه وصفوه عليه السلام بذلك مبالغة فى وضع رتبته العالية وحطها عن منصب النبوة (يريد أن يتفضل عليكم) أى يريد أن يطلب الفضل عليكم ويتقدمكم بادعاء الرسالة مع كونه مثلكم وصفوه بذلك اغضابا للمخاطبين عليه عليه السلام واغرابهم على معاداته عليه السلام وقوله تعالى (ولو شاء الله لأنزل ملائكة) بيان لعدم رسالة البشر على الاطلاق على زعمهم الفاسد بعد تحقيق بشرية محمد عليه السلام أى لو شاء الله تعالى ارسال الرسل لارسل رسلا من الملائكة لما قيل لانزل لان ارسال الملائكة لايكون الا بطريق الانزال فجعل السببية مطلق الارسال المفهوم من الجواب لا نفس مضمونه كما فى قوله تعالى ولو شاء لهداكم ونظائره (ماسمعنا بهذا) أى بمثل هذا الكلام الذى هو الامر بعبادة الله خاصة وترك عبادة ماسواه وقيل بمثل نوح عليه السلام فى دعوى النبوة (فى آبائنا ﴿ وسبعون ﴾ الاولين) أى الماضين قبل بعثته عليه السلام قالوه اما لكونهم وآبائهم فى فترة متطاولة واما لفرط غلوهم فى التكذيب والعناد وانهماكهم فى الغى والفساد وأيا ما كان فقولهم هذا ينبغى أن يكون هو الصادر عنهم

وهذا هو الاقرب لقوله باعيننا ووحينا أما قوله فاذا جاء أمرنا فاعلم ان لفظ الامر كما هو حقيقة فى طلب الفعل بالقول على سبيل الاستعلاء فكذا هو حقيقة فى الشأن العظيم والدليل عليه انك اذا قلت هذا أمر يبقى الذهن يتردد بين المفهومين وذلك يدل على كونه حقيقة فيهما وتمام تقرير مذكور فى كتاب المحصول فى الاصول ومن الناس من قال انما سماه أمرا على سبيل التعظيم والتفخيم مثل قوله ثم قال لها وللارض ائتيا طوعا أو كرها أما قوله وفار التنور فاختلفوا فى التنور فالاكثرون على انه هو التنور المعروف روى انه قيل لنوح اذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب أنت ومن معك فى السفينة فلما نبع الماء من التنور اخبرته امرأته فركب وقيل كان تنور آدم وكان من حجارة فصار الى نوح واختلف فى مكانه فعن الشعبى فى مسجد الكوفة عن يمين الداخل عما يلى باب كندة وكان نوح عليه السلام عمل السفينة فى وسط المسجد وقيل بالشام بموضع يقال له عين وردة وقيل بالهند (والقول الثانى) أن التنور وجه الارض عن ابن عباس رضى الله عنهما (والثالث) انه أشرف موضع فى الارض أى أعلاه عن عكرمة (والرابع) وفار التنور أى طلع الفجر عن على رضى الله عنه وقيل ان فوران التنور كان عند طلوع الفجر (والخامس) هو مثل قولهم حمى الوطيس (والسادس) انه الموضع المنخفض من السفينة الذى يسيل الماء اليه عن الحسن رحمه الله والقول الاول هو الصواب لان العدول عن الحقيقة الى المجاز من غير دليل لايجوز واعلم ان الله تعالى جعل فوران التنور علامة لنوح عليه السلام حتى يركب عنده السفينة فلما انجاه ونجاه من آمن به من قومه أما قوله فاسلك فيها أى ادخل فيها يقال سلك فيه أى دخل فيه وسلك غيره وأسلكه من كل زوجين اثنين أى من كل زوجين من الحيوان الذى يحضره فى الوقت اثنين الذكر والانثى لكى لاينقطع نسل ذلك الحيوان وكل واحد منهما زوج لانه تقرر فى اللغة العامة من ان الزوج هو الاثنان روى انه لم يحمل الا ما يلد ويبيض وقرئ من كل بالتنوين أى من كل أمة زوجين واثنين تأكيد وزيادة بيان أما قوله وأهلك الا من سبق عليه القول منهم أى وأدخل أهلك واحفظهم على انا يستدل فى المضار بقال تعالى لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت واعلم ان هذه الآية تدل على أمرين (أحدهما) انه سبحانه أمره بادخال سائر من آمن به وان لم يكن من أهله وقيل المراد باهله من آمن دون من يحمل به نسبا أو سببا هذا ضعيف والمجاز اسناد قوله الا من سبق عليه القول (والثانى) انه قال ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا يعنى كنعان فانه سبحانه لما أخبره باهلاكهم وجب أن ينهاه عن أن يسأله فى بعضهم لانه ان أجابه اليه فقد صير خبره الصدق كذبا وان لم يجبه اليه كان ذلك تحقير الشان نوح عليه السلام فلذلك قال انهم مغرقون أى الغرق نازل بهم لامحالة أما قوله فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك قال ابن عباس رضى الله عنهما كان فى السفينة ثمانون انسانا نوح وامرأته سوى التى غرقت وثلاثة بنين سام وحام ويافث وثلاث نسوة لهم واثنان

فى مبادى دعوته عليه السلام كما ينبئ عنه الفاء فى قوله تعالى فقال الملأ الخ وقيل معناه ما سمعنا به عليه السلام أنه نبى فالمراد بآبائهم الاولين الذين مضوا قبلهم فى زمن نوح عليه السلام وقولهم المذكور هو الذى صدر عنهم فى أواخر أمره عليه السلام وهو المناسب لما بعده من حكاية دعائه عليه السلام وقولهم (ان هو) أى ما هو (الا رجل به جنة) أى جنون أو جن يخبلونه ولذلك يقول ما يقول (فتربصوا به) ﴿ ٢٨٣ ﴾ أى احتملوه واصبروا عليه وانتظروا (حتى حين) لعله يفيق

ويعون انسانا فكل الخلائق نسل من كان فى السفينة * أما قوله فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين ففيه مسائل (المسئلة الاولى) انما قال فقل ولم يقل فقولوا لان نوحا كان نبيا لهم وامامالهم فكان قوله قولا لهم مع ما فيه من الاشعار بفضل النبوة واظهار كبرياء الربوبية وأن رتبة تلك المخاطبة لا يترقى اليها الاملك أو نبى (المسئلة الثانية) قال قتادة علمكم الله أن تقولوا عند ركوب السفينة بسم الله مجراها ومرساها وعند ركوب الدابة سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وعند النزول وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين قال الانصارى وقال لنبينا وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق وقال فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان كأنه سبحانه أمرهم أن لا يكونوا عن ذكره وعن الاستعاذة به فى جميع أحوالهم غافلين (المسئلة الثالثة) هذه مبالغة عظيمة فى تقبيح صورتهم حيث أتبع النهى عن الدعاء لهم الامر بالجد على اهلاكهم والنجاة منهم كقوله تعالى فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين وانما جعل سبحانه استواءهم على السفينة نجاة من الغرق لانه سبحانه كان عرفه انه بذلك ينجيه ومن تبعه فيصح أن يقول نجانا من حيث جعله آمنا بهذا الفعل ووصف قومه بأنهم الظالمون لان الكفر منهم ظلم لانفسهم لقوله ان الشرك لظلم عظيم ثم انه سبحانه بعد أن أمره بالحمد على اهلاكهم أمره بان يدعو لنفسه فقال وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وقرئ منزلا بمعنى انزالا أو موضع انزال كقوله ليدخلنهم مدخلا يرضونه واختلفوا فى المنزل على قولين (أحدهما) ان المراد هو نفس السفينة فمن ركبها خلصته مما جرى على قومه من الهلاك (والثانى) ان المراد أن ينزله الله بعد خروجه من السفينة من الارض منزلا مباركا والاول أقرب لانه أمر بهذا الدعاء فى حال استقراره فى السفينة فيجب أن يكون المنزل ذلك دون غيره ثم بين سبحانه بقوله وأنت خير المنزلين ان الانزال فى الامكنة قد يقع من غير الله كما يقع من الله تعالى وان كان هو سبحانه خير من أنزل لانه يحفظ من أنزله فى سائر أحواله ويدفع عنه المكاره بحسب ما يقتضيه الحكم والحكمة ثم بين سبحانه ان فيما ذكر من قصة نوح وقومه لآيات ودلالات وعبرا فى الدعاء الى الايمان والزجر عن الكفر فان اظهار تلك المياه العظيمة ثم الاذهاب بها لا يقدر عليه الا القادر على كل المقدورات وظهور تلك الواقعة على وفق قول نوح عليه السلام يدل على المعجز العظيم وافناء الكفار وبقاء الارض لاهل الدين والطاعة من أعظم أنواع العبر أما قوله ان كنا لمبتلين فيمكن أن يكون المراد وان كنا لمبتلين فيما قبل ويحتمل أن يكون وان كنا لمبتلين فيما بعد وهذا هو الاقرب لانه كالحقيقة فى الاستقبال واذا حمل على ذلك احتمل وجوها (أحدها) أن يكون المراد المكلفين فى المستقبل أى فيجب فيمن كلفناه أن يعتبر بهذا الذى ذكرناه (وثانيها) أن يكون المراد لمعاقبين لمن سلك فى تكذيب الانبياء مثل طريقة قوم نوح (وثالثها) أن يكون المراد كالمعاقب من كتب بالغرق وغيره فقد نمتحن بالغرق من

وما فيه محمول حينئذ على ترامى أحوالهم فى المكابرة والعناد واضرابهم عما وصفوه عليه السلام به من البشرية وارادة التفضل الى وصفه عليه السلام بما ترى وهم يعرفون أنه عليه السلام أرجح الناس عقلا وأرزنهم قولا وعلى الاول على تناقض مقالاتهم الفاسدة قاتلهم الله أنى يؤفكون (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية كلام الكفرة كأنه قيل فاذا قال عليه السلام بعد ما سمع منهم هذه الاباطيل فقيل قال لما رآهم قد أصروا على الكفر والتكذيب وتمادوا فى الغواية والضلال حتى يئس من ايمانهم بالكلية وقد أوحى الله اليه انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن (رب انصرنى) باهلاكهم بالمرة فانه حكاية اجمالية لقوله عليه السلام رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا الخ (بما كذبون) أى بسبب تكذيبهم اياى أو بدل تكذيبهم (فاوحينا اليه) عند ذلك (أن اصنع الفلك) أن مفسرة لما فى الوحى من معنى القول (باعيننا) ملتبسا بحفظنا وكلاءتنا كأنه معه عليه السلام منه عز وعلا حفاظا وحراسا يكلؤنه باعينهم من التعدى أو من الزيغ فى الصنعة (ووحينا) وأمرنا وتعليمنا لكيفية صنعها والفاء فى قوله تعالى (فاذا جاء أمرنا) لترتيب

مضمون ما بعدها على تمام صنع الفلك والمراد بالامر العذاب كما فى قوله تعالى لا عاصم اليوم من امر الله لا الامر بالركوب كما قيل و بمجيئه كمال اقترابه وابتداء ظهوره أى اذا جاء اثر تمام الفلك عذابنا وقوله تعالى (وفار التنور) عطف بيان لمجئ الامر روى انه قيل له عليه السلام اذا فار الماء من التنور اركب أنت ومن معك وكان تنور آدم عليه السلام فصار الى نوح عليه السلام فلما نبع منه الماء أخبرته امرأته فركبوا واختلف

أى فى موضعه عن يمين الداخل من باب كندة اليوم وقيل كان فى عين وردة من الشام وقدمر تفصيله فى تفسير سورة هود عليه السلام (فاسلك فيها) أى ادخل فيها يقال سلك فيه أى دخل فيه وسلكه فيه أى أدخله فيه ومنه قوله تعالى ما سلككم فى سقر (من كل) أى من كل أمة (زوجين) أى فردين مزدوجين كما يعرب عنه قوله تعالى (اثنين) فانه نص فى الفردين دون الجمعين أو الفريقين وقرئ بالاضافة على أن المعمول اثنين أى من كل أمتى زوجين وهما أمة الذكر وأمة الانثى كالجمال والنوق والضأن والمعز والرمك وهذا صريح فى ان الامر كان قبل صنعة الفلك وفى سورة هود حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين فالوجه أن يحمل اما على أنه حكاية لامر آخر تجيزى وردعند فوران التنور الذى نيط به الامر التعليقى اعتناء بشأن الكلام المور به أو على أن ذلك هو الامر السابق بعينه لكن لما كان الامر التعليقى قبل تحقق المعلق به فى حق ايجاب المأمور به بمنزلة العدم جعل كأنه انما حدث عند تحققه فحكى على صورة التنجيز وقدمر فى تفسير قوله تعالى واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم (وأهلك) منصوب بفعل معطوف على

لم يكذب على وجه المصلحة لا على وجه التعذيب لكى لا يقدر ان كل الغرق يجرى على وجه واحد * (القصة الثانية) قصة هود أو صالح عليهما السلام قوله تعالى (ثم أنشأنا من بعدهم قرنا آخرين فارسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من اله غيره أفلا تتقون وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحيوة الدنيا ماهذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون أيعدكم أنكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيى وما نحن بمبعوثين ان هو الا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين قال رب انصرنى بما كذبون قال عما قليل ليصبحن نادمين فاخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين) اعلم ان هذه القصة هى قصة هود عليه السلام فى قول ابن عباس رضى الله عنهما وأكثر المفسرين واحتجوا عليه بحكاية الله تعالى قول هود عليه السلام واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ونحن قصة هود عقيب قصة نوح فى سورة الاعراف وسورة هود والشعراء وقال بعضهم المراد بهم صالح وثمود لان قومه الذين كذبوه هم الذين هلكوا بالصيحة اما كيفية الدعوى فكما تقدم فى قصة نوح عليه السلام وههنا سؤالات (السؤال الاول) حق أرسل أن يتعدى بالى كما خولته التى هى وجه وانفذ وبعث فلم عدى فى القرآن بالى تارة وبفى أخرى كقوله تعالى كذلك أرسلناك فى أمة وما أرسلنا فى قريتها فارسلنا فيهم رسولا اى فى عاد وفى موضع آخر الى عاد أخاهم هودا (الجواب) لم يعد فى كما عدى بالى ولكن الامة أو القرية جعلت موضعا للارسال وعلى هذا المعنى جاء بعث فى قوله ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا (السؤال الثانى) هل يصح ما قاله بعضهم ان قوله أفلا تتقون غير موصول بالاول وانما قالوا لهم بعد ان كذبوه وردوا عليه بعد اقامة الحجة عليهم فعند ذلك قال لهم مخوفا اياهم عليه أفلا تتقون هذه النار بعقد خوفه العذاب الذى أنذر تكم به (الجواب) يجوز أن يكون موصولا بالكلام الاول بان رآهم معرضين عن عبادة الله مشتغلين بعبادة الاوثان فنصاهم الى عبادة الله وحذرهم من العقاب بسبب اقبالهم على عبادة الاوثان ثم اعلم ان الله تعالى حكى صفات أولئك القوم ثم حكى كلامهم أما الصفات فثلاثة هى شر الصفات (أولها) الكفر بالخالق سبحانه وهو المراد من قوله كفروا (وثانيها) الكفر بيوم القيامة وهو المراد من قوله وكذبوا بلقاء الآخرة (وثالثها) الانهماس فى حب الدنيا وشهواتها وهو المراد من قوله وأترفناهم فى الحياة الدنيا أى نعمناهم فان قيل ذكر الله مقالة قوم هود فى جوابه فى سورة الاعراف وسورة هود بغير واو وقال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك فى سفاهة قالوا ما نراك الا بشرا مثلنا وههنا مع الواو فاى فرق بينهما قلنا الذى بغير واو على تقدير سؤال سائل قال فما قال قومه فقيل له كيت وكيت وأما الذى مع الواو فعطف لما قالوه على ما قاله ومعناه انه اجتمع فى هذه الواقعة هذا

فاسلك لا بالعطف على زوجين أو اثنين على القراءتين لادائه الى اختلال المعنى أى واسلك أهلك والمراد به امرأته و بنوه وتأخير الامر بادخالهم عما ذكر من ادخال الازواج فيها لكونه عريقا فيما أمر به من الادخال فانه محتاج الى مزاولة الاعمال منه عليه السلام بل الى معاونة من أهله وأتباعه وأماهم فانما يدخلونها باختيارهم بعد ذلك ولان فى المؤخر ضرب تفصيل بذكر الاستثناء وغيره فتقديمه ﴿ ٢٨٥ ﴾ يؤدى الى الاخلال بتجاوب أطراف النظم الكريم (الا من سبق عليه القول منهم) أى القول باهلاك الكفرة وانما جئ بعلى لكون السابق ضارا كما جئ باللام فى قوله تعالى ان الذين سبقت لهم منا الحسنى لكونه نافعا (ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا) بالدعاء لانجائهم (انهم مغرقون) تعليل للنهى أولما ينبئ عنهم من عدم قبول الدعاء أى انهم مقضى عليهم بالاغراق لامحالة لظلمهم بالاشراك وسائر المعاصى ومن هذا شانه لايشفع له ولا يشفع فيه كيف لا وقد أمر بالحمد على النجاة منهم بهلاكهم بقوله تعالى (فاذا استويت أنت ومن معك) أى من أهلك وأشياعك (على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين) على طريقة قوله تعالى فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين (وقل رب انزلنى فى السفينة أو منها (منزلا مباركا) أى انزالا أو موضع انزال يستتبع خيرا كثيرا وقرئ منزلا أى موضع نزول (وأنت خير المنزلين) أمر عليه السلام بان يشفع دعاءه بما يطابقه من ثنائه عز وجل توسلا به الى الاجابة وافراده عليه السلام بالامر مع شركة الكل فى الاستواء والنجاة لاظهار فضله عليه السلام والاشعار بان فى دعائه وثنائه مندوحة عما عداه (ان فى ذلك) الذى ذكر مما فعل به عليه السلام وبقومه (لآيات)

الكلام الحق وهذا الكلام الباطل * وأما شبهات القوم فشيئان (أولهما) قولهم ماهذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون وقد مر شرح هذه الشبهة فى القصة الاولى وقوله مما تشربون أى من مشروبكم أو حذف منه لدلالة ماقبله عليه وهو قوله ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون فجعلوا اتباع الرسول خسرانا ولم يجعلوا عبادة الاصنام خسرانا أى لئن كنتم أعطيتموه الطاعة من غير أن يكون لكم بازائها منفعة فذلك هو الخسران (وثانيهما) انهم طعنوا فى صحة الحشر والنشر ثم طعنوا فى نبوته بسبب اتيانه بذلك أما الطعن فى صحة الحشر فهو قولهم أيعدكم أنكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما انكم مخرجون معادون احياء للمجازاة ثم لم يقتصروا على هذا القدر حتى قرنوا به الاستبعاد العظيم وهو قولهم هيهات هيهات لما توعدون ثم أكدوا الشبهة بقولهم ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ولم يريدوا بقولهم نموت ونحيا الشخص الواحد بل أرادوا ان البعض يموت والبعض يحيا وانه لا اعادة ولا حشر فلذلك قالوا وما نحن بمبعوثين ولما فرغوا من الطعن فى صحة الحشر بنوا عليه الطعن فى نبوته فقالوا ما أتى بهذا الباطل فقد افترى على الله كذبا ثم لما قرروا الشبهة الطاعنة فى نبوته قالوا وما نحن له بمؤمنين لان القوم كالتبع لهم واعلم ان الله تعالى ما أجاب عن هاتين الشبهتين الظهور فسادهما (أما الشبهة الاولى) فقد تقدم بيان ضعفها (وأما الثانية) فلانهم استبعدوا الحشر ولا يستبعد الحشر لوجهين (الاول) انه سبحانه لما كان قادرا على كل الممكنات عالما بكل المعلومات وجب أن يكون قادرا على الحشر والنشر (والثانى) وهو انه لولا الاعادة لكان تسليط القوى على الضعيف فى الدنيا ظلما وهو غير لائق بالحكيم على ماقرره سبحانه فى قوله ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى وههنا مسائل (المسئلة الاولى) ثنى انكم للتوكيد وحسن ذلك الفصل مابين الاول والثانى بالظرف ومخرجون خبر عن الاول وفى قراءة ابن مسعود وكنتم ترابا وعظاما مخرجون (المسئلة الثانية) قرئ هيهات بالفتح والكسر كلاهما بتنوين وبلا تنوين وبالسكون على لفظ الوقف (المسئلة الثالثة) هى فى قوله ان هى الا حياتنا الدنيا ضمير لا يعلم مايعنى به الا بما يتلوه من بيانه وأصله ان الحياة الا حياتنا الدنيا ثم وضع هى موضع الحياة لان الخبر يدل عليه ومنه * هى النفس ماحملتها تتحمل * والمعنى لا حياة الا هذه الحياة ولان ان النافية دخلت على هى التى فى معنى الحياة الدالة على الجنس فنفتها فوازنت لا التى نفت مابعدها فى الجنس واعلم أن ذلك الرسول لما يئس من قبول الاكابر والاصاغر فزع الى ربه وقال رب انصرنى بما تكذبون وقد تقدم تفسيره فاجابه الله تعالى فيما سأل وقال عما قليل ليصبحن نادمين والاقرب أن يكون المراد بان يظهر لهم علامات الهلاك فعند ذلك يحصل منهم الحسرة والندامة على ترك القبول ويكون الوقت وقت ايمان اليأس فلا ينتفعون بالندامة وبين تعالى الهلاك الذى أنزله عليهم بقوله فاخذتهم الصيحة بالحق وذكروا خبرا كثيرا وقرئ منزلا أى موضع نزول (وأنت خير المنزلين) أمر عليه السلام بان يشفع دعاءه بما يطابقه من ثنائه عز وجل توسلا به الى الاجابة وافراده عليه السلام بالامر مع شركة الكل فى الاستواء والنجاة لاظهار فضله عليه السلام والاشعار بان فى دعائه وثنائه مندوحة عما عداه (ان فى ذلك) الذى ذكر مما فعل به عليه السلام وبقومه (لآيات)

جليلة يستدل بها اولوا الابصار و يعتبر بها ذوو الاعتبار (وان كنا لمبتلين) ان مخففة من ان واللام فارقة بينها و بين النافية وضمير الشان محذوف اى وان الشان كنا مصيبين قوم نوح بلاء عظيم وعقاب شديد أو مختبرين بهذه الآيات عبادنا لننظر من يعتبر و يتذكر كقوله تعالى وانا لقادرون كنا هاهنا آية فهل من مدكر (ثم أنشانا من بعدهم) أى من بعد اهلاكهم (قرنا آخرين) هم عاد حسبما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وعليه أكثر المفسرين وهو ﴿ ٢٨٦ ﴾ الاوفق بما هو المعهود فى سائر السور الكريمة من ايراد قصتهم اثر قصة قوم نوح وقيل هم ثمود (فارسلنا فيهم) جعلوا موضعا للارسال كما فى قوله تعالى كذلك أرسلناك فى أمة ونحوه لاغاية له كما فى مثل قوله تعالى ولقد أرسلنا نوحا الى قومه اللايذان من أول الامر بان من أرسل اليهم ليس من غيرهم بل انما نشأ فيما بين أظهرهم كما ينبئ عنه قوله تعالى (رسولا منهم) أى من جملتهم نسبا فانهما عليهما السلام كانا منهم وأن فى قوله تعالى (أن اعبدوا الله) مفسرة لارسلنا لتضمنه معنى القول أى قلنا لهم على لسان الرسول اعبدوا الله تعالى وقوله تعالى (ما لكم من اله غيره) تعليل للعبادة المأمور بها أو للا مر بها أو وجوب الامتثال به (أفلا تتقون) أى عذابه الذى يستدعيه ما أنتم عليه من الشرك والمعاصى والكلام فى العطف كالذى مر فى قصة نوح عليه السلام (وقال الملأ من قومه) حكاية لقولهم الباطل اثر حكاية القول الحق الذى ﴿ وهو ﴾ ينطق به حكاية ارسال الرسول بطريق العطف على أن المراد حكاية مطلق تكذيبهم له عليه السلام اجمالا لا حكاية ما جرى بينه عليه السلام و بينهم من المحاورة والمقاولة تفصيلا حتى يحكى بطريق الاستئناف المبنى على السؤال

فى الصيحة وجوها (أحدها) ان جبريل عليه السلام صاح بهم وكانت الصيحة عظيمة فماتوا عندها (وثانيها) الصيحة هى الرجفة عن ابن عباس رضى الله عنهما (وثالثها) الصيحة هى نفس العذاب والموت كما يقال فيمن يموت دعى فأجاب عن الحسن (ورابعها) انه العذاب المصطلم قال الشاعر

صاح الزمان بآل برمك صيحة ﴿ خروا لشدتها على الاذقان

والاول أولى لانه هو الحقيقة وأما قوله بالحق فمعناه أنه دمرهم بالعدل من قولك فلان يقضى بالحق اذا كان عادلا فى قضاياه وقال المفضل بالحق أى بما لا يدفع كقوله وجاءت سكرة الموت بالحق أما قوله فجعلناهم غثاء فالغثاء حميل السيل مما بلى واسود من الورق والعيدان ومنه قوله تعالى فجعله غثاء أحوى وأما قوله تعالى فبعدا للقوم الظالمين ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قوله بعدا وسحقا ودمرا ونحوها مصادر موضوعة مواضع أفعالها وهى من جملة المصادر التى قال سيبويه نصبت بافعال لا يستعمل اظهارها ومعنى بعدا بعدوا أى هلكوا يقال بعد بعدا و بعدا نحو رشد رشدا ورشدا والله أعلم (المسئلة الثانية) قوله بعدا بمنزلة اللعن الذى هو التبعيد من الخير والله تعالى ذكر ذلك على وجه الاستخفاف والاهانة لهم وقد نزل بهم العذاب الا بذلك على أن الذى ينزل بهم فى الآخرة من البعد من النعيم والثواب أعظم مما حل بهم حالا ليكون ذلك غير قلبى يحيى بعدهم ﴿ القصة الثالثة قوله تعالى (ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون) اعلم أنه سبحانه يقص القصص فى القرآن تارة على سبيل التفصيل كما تقدم وأخرى على سبيل الاجمال كههنا وقيل المراد قصة لوط وشعيب وأيوب ويوسف عليهم السلام فلما قال ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين فالمعنى انه ما أخلى الديار من مكلفين أنشأهم و بانيهم حتى التكليف حتى قاموا متام من كان قبلهم فى عمارة الدنيا أما قوله ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون فيحتمل فى هذا الاجل أن يكون المراد آجال حياتها وتكليفها و يحتمل آجال موتها وهلاكها وان كان الاظهر فى الاجل اذا اطلق أن يراد به وقت الموت فبين ان كل أمة لها آجال مكتوبة فى الحياة والموت لا يتقدم ولا يتأخر منبها بذلك على أنه عالم بالاشياء قبل كونها فلا توجد الا على وفق العلم ونظيره قوله تعالى ان أجل الله اذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون وههنا مسئلتان (المسئلة الاولى) قال أصحابنا هذه الآية تدل على ان المقتول ميت باجله اذ لو قتل قبل أجله لكان قد تقدم الاجل أو تأخر وذلك ينافيه هذا النص (المسئلة الثانية) قال الكعبى المراد من قوله ما تسبق من أمة أى لا يتقدمون الوقت المؤقت لعذابهم ان لم يؤمنوا ولا يتأخرون عنه ولا يستأصلهم الا اذا علم منهم انهم لا يزدادون الا عنادا وانهم لا يلدون مؤمنا وانه لا نفع فى بقائهم لغيرهم ولا ضرر على أحد فى هلاكهم

كما ينبئ عنه ماسياتى من حكاية سائر الامم أى وقال الاشراف من قومه (الذين كفروا) فى محل الرفع على أنه صفة للملا وصفوا بذلك ذمالهم وتنبيها على غلوهم فى الكفر وتاخيره عن من قومه لعطف قوله تعالى (وكذبوا بلقاء الآخرة) وما عطف عليه على الصلة الاولى أى كذبوا بلقاء ما فيها من الحساب والثواب والعقاب أو بعادهم الى الحياة الثانية بالبعث (وأترفناهم) ونعمناهم ﴿ ٢٨٧ ﴾ فى الحياة الدنيا) بكثرة الاموال والاولاد أى قالوا والأعقابهم مضلين لهم وهو كقول نوح عليه السلام انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا أما قوله تعالى ثم أرسلنا رسلنا تترى فالمعنى انه كما أنشانا بعضهم بعد بعض أرسل اليهم الرسل على هذا الحد قرأ ابن كثير تترى منونة والباقون بغير تنوين وهو اختيار أكثر أهل اللغة لانها فعلى من المواترة وهى المتابعة وفعلى لا ينون كالدعوى والنقوى والتاء بدل من الواو فانه مأخوذ من الوتر وهو الفرد قال الواحدى تترى على القراءتين مصدر أو اسم أقيم مقام الحال لان المعنى متواترة أما قوله تعالى كلما جاء أمة رسولها كذبوه يعنى انهم سلكوا فى تكذيب أنبيائهم مسلك من تقدم ذكره ممن أهلكه الله بالغرق والصيحة فلذلك قال فاتبعنا بعضهم بعضا أى بالهلاك وجعلناهم أحاديث يمكن أن يكون المراد جمع الحديث ومنه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعنى انه سبحانه بلغ فى اهلاكهم مبلغا صاروا معه أحاديث فلا يرى منهم عين ولا أثر ولم يبق منهم الا الحديث الذى يذكر ويعتبر به ويمكن أيضا أن يكون جمع أحدوثة مثل الاضحوكة والاعجوبة وهى ما يتحدث به الناس تلهيا وتعجبا ثم قال فبعدا للقوم لا يؤمنون على وجه الدعاء والذم والتوبيخ ودل بذلك على انهم كما أهلكوا عاجلا فهلاكهم بالتعذيب آجلا على التأبيد مترقب وذلك وعيد شديد * (القصة الرابعة) قصة موسى عليه السلام قوله تعالى (ثم أرسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا وسلطان مبين الى فرعون وملائه فاستكبروا وكانوا قوما عالين فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون فكذبوهما فكانوا من المهلكين ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون) اختلفوا فى الآيات فقال ابن عباس رضى الله عنهما هى الآيات التسع وهى العصا واليد والجراد والقمل والضفادع والدم وانفلاق البحر والسنون ونقص من الثمرات وقال الحسن قوله بآياتنا أى بديننا وحجج بان المراد بالآيات لو كانت هى المعجزات والسلطان المبين أيضا هو المعجز فحينئذ يلزم عطف الشئ على نفسه والاقرب هو الاول لان لفظ الآيات اذا ذكر فى الرسل فالمراد منها المعجزات وأما الذى احتجوا به (فالجواب) عنه من وجوه (أحدها) ان المراد بالسلطان المبين يجوز أن يكون أشرف معجزاته وهو العصا لانه قد تعلقت بها معجزات شتى من انقلابها حية وتلقفها ما أتت به السحرة وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها بها وكونها حارسا وشعبة وشجرة مثمرة ورواء ورشاء فلاجل انفراد العصا بهذه الفضائل أفردت بالذكر كقوله جبريل وميكال (وثانيها) يجوز أن يكون المراد بالآيات نفس تلك المعجزات وبالسلطان المبين كيفية دلالتها على الصدق وذلك لانها وان شاركت سائر آيات الانبياء فى كونها آيات فقد فارقتها فى قوة دلالتها على قوة موسى عليه السلام (وثالثها) أن يكون المراد بالسلطان المبين استيلاء موسى عليه السلام عليهم فى الاستدلال على وجود الصانع واثبات النبوة وانه ما كان يقيم لهم قدرا ولا وزنا واعلم ان الآية تدل على ان معجزات موسى عليه السلام كانت معجزات هرون عليه السلام

(ما هذا الا بشر مثلكم) أى فى الصفات والاحوال وايثار مثلكم على مثلنا للمبالغة فى تهوين أمره عليه السلام وتوهينه (يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون) تقرير للمماثلة وما خبرية والعائد الى الثانى منصوب محذوف أو مجرور قد حذف مع الجار لدلالة ما قبله عليه (ولئن أطعتم بشرا مثلكم) أى فيما ذكر من الاحوال والصفات أى ان امتثلتم باوامره (انكم اذا) أى على تقدير الاتباع (لخاسرون) عقولكم ومغبونون فى آرائكم حيث أذللتم أنفسكم انظر كيف جعلوا اتباع الرسول الحق الذى يوصلهم الى سعادة الدارين خسرا دون عبادة الاصنام التى لا خسران وراءها قاتلهم الله أنى يؤفكون واذا واقع بين اسم ان وخبرها التأكيد مضمون الشرط والجملة جواب لقسم محذوف قبل ان الشرطية المصدرة باللام الموطئة أى و بالله لئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون (أيعدكم) استئناف مسوق لتقرير ما قبله من زجرهم عن اتباعه عليه السلام بانكار وقوع ما يدعوهم الى الايمان به واستبعاده) أنكم اذا متم) بكسر الميم من مات يمات وقرئ بضمها من مات يموت (وكنتم ترابا وعظاما) نخرة مجردة عن اللحوم والاعصاب أى كان بعض أجزائكم من اللحم ونظائره ترابا وبعضها عظاما وتقديم التراب لعراقته فى الاستبعاد وانقلابه من الاجزاء البادية أو كان

متقدمو ثم تراباصرفا ومتاخرو ثم عظاما وقوله تعالى (انكم) تاكيد للاول لطول الفصل بينه وبين خبره الذى هو قوله تعالى (مخرجون) أى من القبور أحياء كما كنتم وقيل أنكم مخرجون مبتدأ واذا متم خبره على معنى اخراجكم اذا متم ثم أخبر بالجملة عن أنكم وقيل رفع أنكم مخرجون بفعل هو جزاء الشرط كأنه قيل اذا متم وقع اخراجكم ثم أوقعت الجملة الشرطية خبرا عن أنكم والذى تقتضيه جزالة النظم الكريم هو الاول وقرئ أبعد كم اذا متم الخ ﴿ ٢٨٨ ﴾ (هيهات هيهات) تكريرا تأكيد البعد أى بعد الوقوع أو الصحة (لما توعدون) وقيل اللام لبيان المستبعد ما هو كما فى هيت لك كأنهم لما صوتوا بكلمة الاستبعاد قيل لماذا هذا الاستبعاد فقيل لما توعدون وقيل هيهات بمعنى البعد وهو مبتدأ خبره لما توعدون وقرئ بالفتح منونا للتنكير وبالضم منونا على انه جمع هيهة وغير منون تشبيها بقبل وبالكسر على الوجهين وبالسكون على لفظ الوقف وابدال التاء هاء (ان هى الا حياتنا الدنيا) أصله ان الحياة الا حياتنا فاقيم الضمير مقام الاولى لدلالة الثانية عليها حذرا من التكرار واشعارا باغنائها عن التصريح كما فى * هى النفس تحمل ما حملت * وهى العرب يقول ما شاءت وحيث كان الضمير بمعنى الحياة الدالة على الجنس كانت ان النافية بمنزلة لا النافية للجنس وقوله تعالى (نموت ونحيى) جملة مفسرة لما ادعوه من أن الحياة هى الحياة الدنيا أى يموت بعضنا ويولد بعض الى انقراض العصر (وما نحن بمبعوثين) بعد الموت ﴿ مريم ﴾ (ان هو) أى ما هو (الا رجل افترى على الله كذبا) فيما يدعيه من ارساله وفيما يعدنا من أن الله يبعثنا (وما نحن له بمؤمنين) بمصدقين فيما يقوله (قال) أى هود عليه السلام عند يأسه من ايمانهم بعد ما سلك فى دعوتهم كل مسلك متضرعا الى الله عز وجل (رب انصرنى) عليهم وانتقم لى منهم (بما كذبون) أى بسبب تكذيبهم اياى

أيضا وان النبوة كما انها كانت مشتركة بينهما فكذلك المعجزات ثم انه سبحانه وتعالى حكى عن فرعون وقومه صفتهم ثم ذكر شبهتهم اما صفتهم فامران (أحدهما) الاستكبار والانفة (والثانى) انهم كانوا قوما عالين أى رفيعى الحال فى أمور الدنيا ويحتمل الاقتدار بالكثرة والقوة وأما شبهتهم فهى قولهم انؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون قال صاحب الكشاف لم يقل مثلينا كما قال انكم اذا مثلهم ولم يقل أمثالهم وقال كنتم خير أمة ولم يقل أخيار أمة كل ذلك لان الايجاز أحب الى العرب من الاكثار والشبهة مبنية على أمرين (أحدهما) كونهما من البشر وقد تقدم الجواب عنه (والثانى) أن قوم موسى وهرون كانوا كالخدم والعبيد لهم قال أبو عبيدة العرب تسمى كل من دان لملك عابدا له ويحتمل أن يقال انه كان يدعى الالهية فادعى أن الناس عباده وأن طاعتهم له عبادة على الحقيقة ثم بين سبحانه انه لما خطرت هذه الشبهة ببالهم صرحوا بالتكذيب وهو المراد من قوله فكذبوهما ولما كان ذلك التكذيب كالعلة لكونهم من المهلكين لاجرم رتبه عليه بفاء التعقيب فقال وكانوا ممن حكم الله عليهم بالغرق فان حصول الغرق لم يكن حاصلا عقيب التكذيب انما الحاصل عقيب التكذيب حكم الله تعالى بكونهم كذلك فى الوقت اللائق به أما قوله ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون فقال القاضى معناه سبحانه خص موسى عليه السلام بالكتاب الذى هو التوراة لا لذلك التكذيب لكن لكى يهتدوا به فلما أصروا على الكفر مع البيان العظيم استحقوا أن يهلكوا واعترض صاحب الكشاف عليه فقال لا يجوز أن يرجع الضمير فى اعلهم الى فرعون وملائه لان التوراة انما أوتيها بنو اسرائيل بعد اغراق فرعون وملائه بدليل قوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى بل المعنى الصحيح ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يعملون بشرائعها ومواعظها فذكر موسى والمراد اال موسى كما يقال هاشم وثقيف والمراد قومهما * (القصة الخامسة) قصة عيسى وقصة مريم عليهما السلام قوله تعالى (وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين) اعلم أن ابن مريم هو عيسى عليه السلام جعله الله تعالى آية بان خلقه من غير ذكر وأنطقه فى المهد فى الصغر وأجرى على يديه ابراء الاكمه والابرص واحياء الموتى وأما مريم فقد جعلها الله تعالى آية لانها حملته من غير ذكر وقال الحسن تكلمت مريم فى صغرها كما تكلم عيسى عليه السلام وهو قولها هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب ولم تلقم ثديا قط قال القاضى ان ثبت ذلك فهو معجزة لزكريا عليه السلام لانها لم تكن نبية قلنا القاضى انما قال ذلك لان عنده الارهاص غير جائز وكرامات الاولياء غير جائزة وعندنا هما جائزان فلا حاجة الى ما قال والاقرب انه جعلهما آية بنفس الولادة لانه ولد من غير ذكر وولدته من دون ذكر فاشتركا جميعا فى هذا الامر العجيب الخارق للعادة والذى يدل على ان هذا التفسير أولى وجهان (أحدهما) انه تعالى قال وجعلنا ابن

واصرارهم عليه (قال) تعالى اجابة لدعائه وعدة بالقبول (عما قليل) اى عن زمان قليل وما مزيدة بين الجار والمجرور لتاكيد معنى العلة كم زيدت فى قوله تعالى فبما رحمة من الله أو نكرة موصوفة أى عن شئ قليل (ليصبحن نادمين) على ما فعلوا من التكذيب وذلك عند معاينتهم للعذاب (فأخذتهم الصيحة) لعلهم حين أصابتهم الريح العقيم أصيبوا فى تضاعيفها بصيحة هائلة أيضا وقد روى أن شداد بن عاد حين ﴿ ٢٨٩ ﴾ أتم بناء ارم سار اليها باهله فلما دنا منها بعث الله عليهم صيحة من السماء ففهلكوا وقيل الصيحة نفس العذاب والموت وقيل هى العذاب المصطلم قال قائلهم * صاح الزمان بآل برمك * صيحة خروا لشدتها على الاذقان (بالحق) متعلق باخذ أى بالامر الثابت الذى لادفاع له أو بالعدل من الله تعالى أو بالوعد الصدق (فجعلناهم غثاء) أى كغثاء السيل وهو حمله (فبعدا للقوم الظالمين) اخبار أو دعاء وبعدا من المصادر التى لايكاد يستعمل ناصبها والمعنى بعدوا بعدا أى هلكوا واللام لبيان من قيل له بعدا ووضع الظاهر موضع الضمير للتعليل (ثم أنشأنا من بعدهم) أى بعد هلاكهم (قرونا آخرين) هم قوم صالح ولوط وشعيب عليهم السلام وغيرهم (ما تسبق من أمة أجلها) أى ما تتقدم أمة من الامم المهلكة الوقت الذى عين لهلاكهم أى ما تهلك أمة قبل مجئ أجلها (وما يستأخرون) ذلك الاجل بساعة ﴿ ٣٧ ﴾ س وقوله تعالى (ثم أرسلنا رسلنا) عطف على أنشأنا لكن لا على معنى أرسالهم متراخ عن افناء القرون المذكورة جميعا بل على معنى أن ارسال كل رسول متأخر عن انشاء قرن مخصوص بذلك الرسول كانه قيل ثم أنشانا من بعدهم قرونا آخرين قد أرسلنا الى كل قرن منهم رسولا خاصا به والفصل بين المعطوفين

مريم وأمه آية لان نفس الاعجاز ظهر فيهما لانه ظهر على يدهما وهذا أولى من أن يحمل على الآيات التى ظهرت على يده نحو احياء الموتى وذلك لان الولادة فيها وفيهما آية فيهما وكذلك ان نطقا فى المهد وما عدا ذلك من الآيات ظهر على يده لا انه اية فيه (الثانى) انه تعالى قال آية ولم يقل ايتين وحمل هذا اللفظ على الامر الذى لايتم الا بمجموعهما أولى وذلك هو أمر الولادة لا المعجزات التى كان عيسى عليه السلام مستقلا بها أما قوله تعالى وآويناهما الى ربوة ذات قرار وأى جعلناهما أو اهما الربوة والربوة والرباوة فى رابيهما الحركات الثلاث وهى الارض المرتفعة ثم قال قتادة وأبو العالية هى ايلياء أرض بيت المقدس وقال أبو هريرة رضى الله عنه انها الرملة وقال الكلبى وابن زيد هى بمصر وقال الاكثرون انها دمشق وقيل مثاقل والضحاك هى غوطة دمشق وانفراد المستقر من أرض مستوية مبسوطة ومن قرارة ذات ثمار وماء يعنى انه لاجل الثمار يستقر فيها ساكنوها والمعين الماء الظاهر الجارى على وجه الارض فنبه سبحانه على كمال نعمه عليهما بهذا اللفظ على اختصار ثم من العين قولان (أحدهما) انه مفعول لانه اذا ورد يدرك بالعين من غير اذا أدركه بعينه وقال الفراء والزجاج ان ثبت سمعه فهو للماء ون وان كان أصله من الماعون والماعون فاعول عند قال ابو على والمعين السهل الذى يتقاد لا تعاصى والساعون ماشون على سعيهم ثم قالوا وسبب الايواء انها فرت بابنها عيسى الى الربوة وهى بيت المقدس ثنتى عشرة سنة وانما ذهب بهما الى عمها يوسف ثم رجعت الى أهلها بعد أن ماتوا وهيهنا آخر القصص والله أعلم * قوله تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا انى بما تعملون عليم وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون فذرهم فى غمرتهم حتى حين أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون) اعلم ان ظاهر قوله يا أيها الرسل خطاب مع كل رسول وذلك غير ممكن لان الرسل انما أرسلوا متفرقين فى أزمنة متفرقة مختلفة فكيف يمكن توجيه هذا الخطاب اليهم فلهذا الاشكال اختلفوا فى تأويله على وجوه (أحدها) ان المعنى الاعلام بأن كل رسول فهو فى زمانه نودى بهذا المعنى ووصى به ليعتقد السامع ان أمرا نودى له جميع الرسل ووصوا به حقيق بان يؤخذ به ويعمل عليه (وثانيها) ان المراد نبينا عليه الصلاة والسلام لانه ذكر ذلك بعد انقضاء اخبار الرسل وانما ذكر على صيغة الجمع كما يقال للواحد أيها القوم كفوا عنى أذاكم ومثله الذين قال لهم الناس وهو نعيم بن مسعود كانه سبحانه لما خاطب محمدا صلى الله عليه وسلم بذلك بين أن الرسل بأسرهم لو كانوا حاضرين مجتمعين لما خوطبوا الا بذلك ليعلم رسولنا ان هذا التثقيل ليس عليه فقط بل هو لازم على جميع الانبياء عليهم السلام (وثالثها) وهو قول محمد بن جرير ان المراد به عيسى عليه السلام لانه انما ذكر ذلك بعد ما ذكر مكانه الجامع للطعام والشراب ولانه روى ان عيسى عليه السلام كان يأكل من غزل أمه والقول الاول أقرب لانه أوفق للفظ

بالجملة المعترضة التاطقة بعدم تقدم الامم اجلها المضروب لهلاكهم للمسارعة الى بيان هلاكهم على وجه اجمالى (تترى) أى متواترين واحدا بعد واحد من الوتر وهو الفرد والتاء بدل من الواو كما فى توجل و يتقوا والالف للتأنيث باعتبار أن الرسل جماعة وقرئ بالتنوين على أنه مصدر بمعنى الفاعل وقع حالا وقوله تعالى (كلما جاء أمة رسولها كذبوه) استئناف مبين لمجئ كل رسول لامته ولما صدر عنهم عند تبليغ الرسالة ﴿ ٢٩٠ ﴾ والمراد بالمجئ اما التبليغ واما حقيقة المجئ الايذان بانهم كذبوه فى أول الملاقاة واضافة الرسول الى الامة مع اضافة كلهم فيما سبق الى نون العظمة لتحقيق أن كل رسول جاء أمته الخاصة به لان كلهم جاؤا كل الامم والاشعار بكمال شناعتهم وضلالهم حيث كذبت كل واحدة منهم رسولها المعين لها وقيل لان الارسال لائق بالمرسل والمجئ بالمرسل اليهم (فأتبعنا بعضهم بعضا) فى الهلاك حسبما تبع بعضهم بعضا فى مباشرة أسبابه التى هى الكفر والتكذيب وسائر المعاصى (وجعلناهم أحاديث) لم يبق منهم الا حكايات يعتبر بها المعتبرون وهو اسم جمع للحديث او جمع أحدوثة هى ما يتحدث به تلهيا كاعاجيب جمع اعجوبة وهى ما يتعجب منه أى جعلناهم أحاديث يتحدث بها تلهيا وتعجبا (فبعدا لقوم لا يؤمنون) اقتصر ههنا على وصفهم بعدم الايمان حسبما اقتصر على حكاية تكذيبهم اجمالا وأما القرون الاولون فحيث نقل عنهم ما مر من الغلو وتجاوز الحد فى الكفر ﴿ ماهم ﴾ والعدوان وصفوا بالظلم (ثم ارسلنا موسى وأخاه هرون بآياتنا) هى الآيات التسع من اليد والعصا والجراد والقمل والضفادع والدم ونقص الثمرات والطاعون ولامساغ لعد فلق البحر منها اذ المراد هى الآيات التى كذبوها واستكبروا عنها (وسلطان

الآية وقد روى عن أم عبد الله أخت شداد بن أوس انها بعثت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح من لبن فى شدة الحر عند فطره وهو صائم فرده الرسول اليها وقال من أين لك هذا فقالت من شاة لى ثم رددته وقلت من أين هذه الشاة فقالت اشتريتها بمالى فأخذه ثم انها جاءته وقالت يا رسول الله لم رددته فقال عليه السلام بذلك أمرت الرسل أن لا يأكلوا الا طيبا ولا يعملوا الا صالحا أما قوله تعالى من الطيبات ففيه وجهان (الاول) انه الحلال وقيل طيبات الرزق حلال وصاف وقوام فالحلال الذى لا يعصى الله فيه والصافى الذى لا ينسى الله فيه والقوام ما يمسك النفس و يحفظ العقل (والثانى) انه المستطاب المستلذ من المآكل والفواكه فبين تعالى انه وان ثقل عليهم بالنبوة و بما ألزمهم القيام بحقها فقد أباح لهم أكل الطيبات كما أباح لغيرهم واعلم انه سبحانه كما قال للمرسلين يا أيها الرسل كلوا من الطيبات قال للمؤمنين يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واعلم أن تقديم قوله كلوا من الطيبات على قوله واعملوا صالحا كالدلالة على ان العمل الصالح لا بد وان يكون مسبوقا بأكل الحلال فاما قوله انى بما تعملون عليم ففيه وجهان (الاول) انه تحذير من مخالفة ما أمرهم به واذا كان ذلك تحذيرا للرسل مع علو شأنهم فبان يكون تحذيرا لغيرهم أولى أما قوله وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون فقد فسرناه فى سورة الانبياء وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) المعنى انه كما يجب اتفاقهم على أكل الحلال والاعمال الصالحة فكذلك هم متفقون على التوحيد وعلى الاتقاء من معصية الله تعالى فان قيل لما كانت شرائعهم مختلفة فكيف يكون دينهم واحدا قلنا المراد من الدين ما لا يختلفون فيه من معرفة ذات الله تعالى وصفاته وأما الشرائع فان الاختلاف فيها لا يسمى اختلافا فى الدين فكما يقال فى الحائض والطاهر من النساء ان دينهن واحد وان افترق تكليفهما فكذا ههنا و يدل على ذلك قوله وأنا ربكم فاتقون فكأنه نبه بذلك على ان الدين الجميع واحد فيما يتصل بمعرفة الله تعالى واتقاء معاصيه فلا مدخل للشرائع وان اختلفت فى ذلك (المسئلة الثانية) قرئ ان الكسر على الاستئناف وان بمعنى ولان وان مخففة من الثقيلة وأنتم مرفوعة بها أما قوله تعالى فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا فالمعنى فان أمم الانبياء عليهم السلام تقطعوا أمرهم بينهم وفى قوله فتقطعوا معنى المبالغة فى شدة اختلافهم والمراد بأمرهم ما يتصل بالدين أما قوله زبرا فقرئ زبرا جمع زبور أى كتبا مختلفة يعنى جعلوا دينهم أديانا وزبرا قطعا استعيرت من زبر الفضة والحديد وزبرا مخففة البتة كرسل فى رسل قال الكلبى ومقاتل والضحاك يعنى مشركى مكة والمجوس واليهود والنصارى أما قوله تعالى كل حزب بما لديهم فرحون فمعناه ان كل فريق منهم مغتبط بما اتخذه دينا لنفسه معجب به يرى المحق أنه الرابح وان غيره المبطل الخاسر ولما ذكر الله تعالى تفرق هؤلاء فى دينهم أتبعه بالوعيد وقال فذرهم فى غمرتهم حتى حين الخطاب لنبينا صلى الله عليه وسلم يقول فدع هؤلاء الكفار فى جهلهم وغمرة الماء الذى يغمر القامة فكان

مبين) أى حجة واضحة ملزمة للخصم وهى اما العصا وافرادها بالذكر مع اندراجها فى الآيات لما أنها أم آياته عليه الصلاة والسلام وأولاها وقد تعلقت بها معجزة شق من انقلابها ثعبانا وتلقفها لما افكته السحرة حسبما فصل فى تفسير سورة طه واما العرض لانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بضربها وحراستها وصيرورتها شعبة وشجرة خضراء مثمرة ودلوا ورشاء وغير ذلك مما ظهر منها من قبل ومن بعد فى غير مشهد فرعون وقومه فغير ملائم لمقتضى المقام واما نفس الآيات كقوله * الى الملك القرم وابن الهمام الخ عبر عنها بذلك على طريقة العطف تنبيها على جمعها المتوانين جليلين وتنزيلا لتغايرهما منزلة التغاير الذاتى الى فرعون وملائه) أى أشراف قومه خصوا بالذكر لان ارسال بنى اسرائيل منوط بآرائهم لا بآراء أعقابهم (فاستكبروا) عن الانقياد وتمردوا (وكانوا قوما عالين) متكبرين متمردين (فقالوا) بعطف على استكبروا وما بينهما اعتراض مقرر للاستكبار أى كانوا قوما عادتهم الاستكبار والتمرد فى قالوا فيما بينهم بطريق المناصحة (أنؤمن لبشرين مثلنا) ثنى البشر لانه يطلق على الواحد كقوله تعالى بشرا سويا كما يطلق على الجمع كما فى قوله تعالى فاما ترين من البشر أحدا ولم يثن المثل نظرا الى كونه فى حكم المصدر وهذه القصص كما ترى تدل على أن مدار

ماهم فيه من الجهل والحيرة صار غامرا سائر اعتقاداتهم وعن على رضى الله عنه فى عمراتهم حتى حين وذكروا فى الحين وجوها (أحدها) الى حين الموت (وثانيها) الى حين المعاينة (وثالثها) الى حين العذاب والعادة فى ذلك أن يذكر الكلام والمراد به الحالة التى تقترن بها الحسرة والندامة وذلك يحصل اذا عرفهم الله بطلان ما كانوا عليه وعرفهم سوء مقلبهم ويحصل أيضا عند المحاسبة فى الآخرة ويحصل عند عذاب القبر والمسألة فيجب أن يحمل على كل ذلك وما كان القوم فى نعم عظيمة فى الدنيا جاز أن يضاف اليهم تلك النعم كالثواب المعجل لهم على أديانهم فبين سبحانه ان الامر بخلاف ذلك فقال أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات قرئ نمدهم ونسارع بالياء والفاعل هو الله سبحانه وفى المعنى وجهان (أحدهما) ان هذا الامداد ليس الا استدراجا حالهم فى المعاصى واستجرارا لهم فى زيادة الاثم وهم يحسبونه مسارعة فى الخيرات وبل الاستدراك لقوله أيحسبون يعنى بل هم اشباه البهائم لافطنة لهم ولا شعور حتى يتفكروا فى ذلك أهو استدراج ام مسارعة فى الخير وهذه الآية كقوله ولا تعجبك أموالهم وأولادهم روى عن يزيد بن ميسرة ان حتى الله تعالى الى نبى من الانبياء أيفرح عبدى أن أبسط له الدنيا وهو أبعد له منى ويجزع ان أقبض عنه الدنيا وهو أقرب له منى ثم تلا أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين وعن الحسن لما اتى عمر بسوار كسرى فاخذه ووضعه فى يد سراقة فبلغ منكبه فقال عمر اللهم انى قد علمت ان نبيك عليه الصلاة والسلام كان يحب أن يصيب المال لينفقه فى سبيلك فزويت ذلك عنه نظرا منك لابى بكر كان يحب ذلك اللهم لا يكن ذلك مكرا منك بعمر ثم تلا أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين (الوجه الثانى) وهو أنه سبحانه انما أعطاهم هذه النعم ليكونوا فارغى البال متمكنين من الاشتغال بكلف الحق فاذا أعرضوا عن الحق والحالة هذه كان لزوم الحجة عليهم اقوى فلذلك قال بل لا يشعرون * قوله تعالى (ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون والذين هم بآيات ربهم يؤمنون والذين هم بربهم لا يشركون والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم الى ربهم راجعون أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون) اعلم انه تعالى لما قدم من تقدم ذكره بقوله أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات ثم قال بل لا يشعرون بين بعده صفات من يسارع فى الخيرات ويشعر بذلك وهى أربعة (الصفة الاولى) قوله ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون والاشفاق يتضمن الخشية مع زيادة رقة وضعف فمنهم من قال جمع بينهما للتأكيد ومنهم من حمل الخشية على العذاب والمعنى الذين هم من عذاب ربهم مشفقون وهو قول الكلبى ومقاتل ومنهم من حمل الاشفاق على أثره وهو الدوام فى الطاعة والمعنى الذين هم من خشية ربهم دائمون فى طاعته جادون فى طلب مرضاته والتحقيق أن من بلغ فى الخشية الى حد الاشفاق وهو كمال الخشية كان فى نهاية الخوف من سخط الله عاجلا ومن عقابه آجلا فكان فى نهاية الاحتراز عن المعاصى

شبه المنكرين للنبوة قياس حال الانبياء على أحوالهم بناء على جهلهم بتفاصيل شؤن الحقيقة البشرية وتباين طبقات أفرادها فى مراقى الكمال ومهاوى النقصان بحيث يكون بعضها فى أعلى عليين وهم المختصون بالنفوس الزكية المؤيدون بالقوة القدسية المتعلقون لصفاء جواهرهم بكلا العالمين الروحانى والجسمانى يتلقون من جانب ويلقون الى جانب ولا يعوقهم التعلق بمصالح الخلق عن التبتل

الى جناب الحق و بعضها فى أسفل سافلين كأولئك الجهلة الذين هم كالانعام بل هم أضل سبيلا (ووهبنا) يعنى بنى اسرائيل (لنا عابدون) أى خادمون منقادون لنا كالعبيد وكأنهم قصدوا بذلك التعريض بشأنهما عليهما الصلاة والسلام وحط رتبتهما العلية عن منصب الرسالة من وجه آخر غير البشرية واللام فى لنا متعلقة بعابدون قدمت عليه رعاية للفواصل والجملة حال من فاعل نؤمن مؤكدة لانكار الايمان لهما بناء على ﴿ ٢٩٢ ﴾ زعمهم الفاسد المؤسس على قياس الرياسة الدينية على الرياسات الدنيوية الدائرة على التقدم فى نيل الحظوظ الدنية من المال والجاه كدأب قريش حيث قالوا لو كان خيرا ما سبقونا اليه وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم وجههم بان مناط الاصطفاء للرسالة هو السبق فى حيازة مذكر من النعوت العلية واحراز الملكات السنية جبلة واكتسابا (فكذبوهما) أى فتمادوا على تكذيبهما وأصروا واستكبروا استكبارا (فكانوا من المهلكين) بالغرق فى بحر فلزم (ولقد آتينا) أى بعد اهلاكهم وانجاء بنى اسرائيل من هلكتهم (موسى الكتاب) أى التوراة وحيث كان ايتاؤه عليه الصلاة والسلام اياها لارشاد قومه الى الحق كما هو شان الكتب الالهية جعلوا كأنهم أوتوها فقيل (لعلهم يهتدون) أى الى طريق الحق بالعمل بما فيها من الشرائع والاحكام وقيل أريد آتينا قوم موسى فحذف المضاف وأقيم ﴿ الاكرام ﴾ المضاف اليه مقامه كما فى قوله تعالى على خوف من فرعون وملئهم اى من آل فرعون وملئهم ولا سبيل الى عود الضمير الى فرعون وقومه لظهور أن التوراة انما نزلت بعد اغراقهم لبنى اسرائيل وأما الاستشهاد على ذلك بقوله

(الصفة الثانية) قوله والذين هم بآيات ربهم يؤمنون واعلم أن آيات الله تعالى هى المخلوقات الدالة على وجوده والايمان بها هو التصديق بها والتصديق بها ان كان بوجودها فذلك معلوم بالضرورة وصاحب هذا التصديق لا يستحق المدح وان كان بكونها آيات ودلائل على وجود الصانع فذلك مما لا يتوصل اليه الا بالنظر والفكر وصاحبه لا بد وأن يصير عارفا بوجود الصانع وصفاته واذا حصلت المعرفة بالقلب حصل الاقرار باللسان فظاهر ان ذلك هو الايمان (الصفة الثالثة) قوله والذين هم بربهم لا يشركون وليس المراد من الايمان بالتوحيد ونفى الشريك لله تعالى لان ذلك داخل فى قوله والذين هم بآيات ربهم يؤمنون بل المراد نفى الشرك الخفى وهو أن يكون مخلصا فى العبادة لا يقدم عليها الا لوجه الله تعالى وطلبا لرضوانه (الصفة الرابعة) قوله والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم يعطون ما أعطوا من المال فى كل حق يلزم ايتاؤه سواء كان ذلك من حق الله تعالى كالزكاة والكفارة وغيرها أو من حقوق الآدميين كالودائع والديون وأصناف المضاف وا معلوم بين ان ذلك لا ينفع اذا فعلوه وقلوبهم وجلة لان من يقدم على العبادة وهو وجل من تقصير واخلال بشئ مما يجب أو يكون لاجل ذلك الوجل مجتهدا فى ان يوفيه حقه (روى) أن عائشة رضى الله عنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أهو الذى يزنى ويشرب الخمر ويسرق وهو على ذلك يخاف الله تعالى فقال عليه الصلاة والسلام لا يا بنة الصديق ولكنه الرجل يصلى ويصوم ويتصدق وهو على ذلك يخاف الله تعالى واعلم ان ترتيب هذه الصفات فى نهاية الحسن لان الصفة الاولى دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز عما لا ينبغى (والصفة الثانية) دلت على ترك الالتفات بالغير فى جميع الطاعات (والصفة الثالثة) دلت على ان المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتى بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير وذلك هو نهاية مقامات الصديقين رزقنا الله سبحانه الوصول اليها فان قيل أليس قولون ان قوله وقلوبهم وجلة يرجع الى يؤتون أو يرجع الى كل ما تقدم من الخصال فالاول الاولى أن يرجع الى الكل لان العطية ليست بذلك أولى من سائر الاعمال اذ المراد أن يؤدى ذلك على وجل من تقصيره فيكون مبالغا فى توفيته حقه فاما اذا قرئ والذين يأتون ما أتوا فاتوه فيدل ظاهرا على ان المراد بذلك أى شئ أتوه وفعلوه من تحرز عن معصية واقدام على ايمان وعمل فانهم يقدمون عليه مع الوجل ثم انه سبحانه بين علة ذلك الوجل وهى علمهم بانهم الى ربهم راجعون أى للجزاء والمساءلة ونشر الصحف وتتبع الاعمال وان هناك لا تنفع الندامة فليس الا الحكم القاطع من جهة مالك الملك ثم انه سبحانه لما ذكر هذه الصفات للمؤمنين المخلصين قال بعده أولئك يسارعون فى الخيرات وفيه وجهان (أحدهما) ان المراد يرغبون فى الطاعات أشد الرغبة فيبادرونها لئلا تفوت عن وقتها ولكيلا تفوتهم دون الاختزام (والثانى) انهم يتعجلون فى الدنيا أنواع النفع ووجوه

تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى فما لا سبيل اليه ضرورة أن ليس المراد بالقرون الاولى ما يتناول قوم فرعون بل من قبلهم من الامم المهلكة خاصة كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط كما سيأتي في سورة القصص (وجعلنا ابن مريم وامه اية) وابهة آية دالة على عظيم قدرتنا بولادته منهما من غير مسيس بشر فالآية أمر واحد نسب اليهما أو جعلنا ابن مريم آية بان تكلم في المهد فظهرت منه معجزات جمة وأمه آية بانها ولدته من غير

الاكرام كما قال فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة وآتيناه أجره في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين لانهم اذا سورع لهم بها فقد سارعوا في نيلها وتعجلوها وهذا الوجه أحسن طبقا للآية المتقدمة لان فيه اثبات مانفى عن الكفار للمؤمنين وقرئ يسرعون في الخيرات أما قوله وهم لها سابقون فالمعنى فاعلون السبق لاجلها أو سابقون الناس لاجلها أو وهم لها سابقون أي يأتونها قبل الآخرة حيث عجلت لهم في الدنيا ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر والمعنى وهم لها كما يقال أنت لها وهي لك ثم قال سابقون أي وهم سابقون * قوله تعالى (ولا نكلف نفسا الا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون) بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون لا تجأروا اليوم انكم منا لا تنصرون) اعلم انه سبحانه لما ذكر كيفية أعمال المؤمنين المخلصين ذكر حكمين من أحكام عمال العباد (فالاول) قوله لا نكلف نفسا الا وسعها وفي الوسع قولان (أحدهما) انه عبارة عن المقدور (والثاني) انه ما لا حرج فيه وهو قول المعتزلة ومقاتل والضحاك والكلبي واحتجوا عليه بان الوسع اسم وسعا لا يتسع عليه فعله ولا يضيق ولا يضر فيبين ان اولئك المخاطبين لم يكلفوا الا ما علموا قال مقاتل من لم يستطع أن يصلي قائما فليصل جالسا ومن لم يستطع جالسا فليصل الا ما لا كلف نفسا الا وسعها واسندت المعتزلة في أن تكليف ما لا يطاق وقد تقدم القول فيه (الثاني) قوله ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون ونظيره قوله هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق وقوله لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها واعلم انه تعالى شبه الكتاب بمن يصدر عنه البيان فان الكتاب لا ينطق لكنه يسر بما فيه كما يسر وينطق الناطق اذا كان محقا فان قيل هؤلاء الذين يعرض عليهم ذلك الكتاب اما أن يكونوا محقين الكذب على الله تعالى أو مجوزين ذلك عليه فان أحالوه عليه فانهم يصدقونه في كل ما يقول سواء وجد الكتاب أولم يوجد وان جوزوه عليه لم يثقوا بذلك الكتاب لتجويزهم انه سبحانه كتب فيه خلاف ما حصل فعلى التقديرين لا فائدة في ذلك الكتاب قلنا يفعل الله ما يشاء وعلى انه لا يبعد أن يكون ذلك مصلحة للمكلفين من الملائكة وأما قوله وهم لا يظلمون فنظيره قوله ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا فقالت المعتزلة الظلم اما ان يكون بالزيادة في العقاب أو بالنقصان من الثواب أو بان يعذب على ما لم يعلم او بان يكلفهم ما لا يطيقون فتكون الآية دالة على كون العبد موجدا لفعله والا لكان تعذيبه عليه ظلما ودالة على انه سبحانه لا يكلف ما لا يطاق (والجواب) انه لما كلف أبا لهب أن يؤمن والايمان يقتضي تصديق الله تعالى في كل ما أخبر عنه ومما أخبر عنه ان ابا لهب لا يؤمن فقد كلفه بان يؤمن بانه لا يؤمن فيلزمكم كل ما ذكرتموه وأما قوله تعالى بل قلوبهم في غمرة من هذا ففيه قولان (أحدهما) انه راجع الى الكفار وهم الذين يليق بهم قوله بل قلوبهم في غمرة من هذا ولا يليق ذلك بالمؤمنين اذا المراد في غمرة من هذا الذي بيناه في القرآن أو من هذا الكتاب الذي ينطق

مسيس فحذفت الاولى لدلالة الثانية عليها والتعبير عنهما بما ذكر من العنوانين وهما كونه عليه الصلاة والسلام ابنها وكونها أمه عليها الصلاة والسلام للايذان من اول الامر بحيثية كونهما ايتين تستبد عليه الصلاة والسلام اليهما مع أن انسب الى الآباء دالة على ان لا أب له أي جعلنا ابن مريم وحدها من غير أن يكون له أب وامه التي ولدته خاصة من غير مشاركة الاب آية وتقديمه عليه الصلاة والسلام لاصالته فيما ذكر من كونه آية كما أن تقديم أمه في قوله تعالى وجعلناها وابنها آية للعالمين لاصالتها فيما نسب اليها من الاحصان والنفخ (وآويناهما الى ربوة) أي أرض مرتفعة قيل هي ايلياء أرض بيت المقدس فانها مرتفعة وانها أكبد الارض وأقرب

الارض الى السماء بثمانية عشر ميلا على ما يروى عن كعب وقيل دمشق وغوطتها وقيل فلسطين والرملة وقيل مصر فان قراها على الرباوقرئ بكسر الراء وضمها ورباوة بالكسر والضم (ذات قرار) مستقر من أرض منبسطة سهلة يستقر عليها ساكنوها وقيل ذات ثمار وزروع لاجلها يستقر فيها ساكنوها (ومعين) أي وماء معين ظاهر جار فعيل من معن الماء اذا جرى وأصله الابعاد في المشي أو من المعون وهو النفع لانه نفاع او مفعول من عانه اذا أدركه

بالعين فانه لظهوره يدرك بالعيون وصف ماؤها بذلك للايذان بكونه جامعا لفنون المنافع من الشرب وسقى مايسقى من الحيوان والنبات بغير كلفة والتنزه بمنظره المونق (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات) حكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه الاجمال لما خوطب به كل رسول فى عصره جئ بها اثر حكاية ابواء عيسى عليه السلام وأمه الى الربوة ايذانا بأن ترتيب مبادى التنعم لم يكن من خصائصه عليه السلام بل ﴿٢٩٤﴾ اباحة الطيبات شرع قديم جرى

عليه جميع الرسل عليهم السلام ووصوا به أى وقلنا لكل رسول كل من الطيبات واعمل صالحا فعبر عن تلك الاوامر المتعددة المتعلقة بالرسل بصيغة الجمع عند الحكاية اجمالا للايجاز وفيه من الدلالة على بطلان ماعليه الرهبانية من رفض الطيبات مالا يخفى وقيل حكاية لما ذكر لعيسى عليه السلام وامه عند ايوائهما الى الربوة ليقتديا بالرسل فى تناول مارزقا وقيل نداء وخطاب له والجمع للتعظيم وعن الحسن ومجاهد وقتادة والسدى والكلبى رحمهم الله تعالى أنه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحده على دأب العرب فى مخاطبة الواحد بلفظ الجمع وفيه ابانة لفضله وقيامه مقام الكل فى حيازة كمالاتهم والطيبات مايستطاب ويستلذ من مباحات المآكل والفواكه حسبما ينبئ عنه سياق النظم الكريم فالامر للترفيه (وعملوا صالحا) أى عملا ﴿ بامور ﴾ صالحا فانه المقصود منكم والنافع عند ربكم (انى بما تعملون) من الاعمال الظاهرة والباطنة (عليم) فاجازيكم عليه (وان هذه) استئناف داخل فيما خوطب به الرسل عليهم السلام على الوجه المذكور مسوق لبيان أن ملة الاسلام والتوحيد مما أمر به كافة الرسل عليهم السلام وألامم وانما اشير اليها بهذه للتنبيه على كمال ظهور أمرها فى الصحة والسداد

بالحق أو من هذا الذى هو وصف المشفقين ولهم أى لهؤلاء الكفار أعمال من دون ذلك أى أعمال سوى ذلك أى سوى جهلهم وكفرهم ثم قال بعضهم أراد أعمالهم فى الحال وقال بعضهم بل أراد المستقبل وهذا أقرب لان قولهم لها عاملون الى الاستقبال أقرب وانما قال هم لها عاملون لانها مثبتة فى علم الله تعالى وفى حكمه وفى اللوح المحفوظ فوجب أن يعملوها ليدخلوا بها النار لما سبق لهم من الله من الشقاوة (القول الثانى) وهو اختيار أبى مسلم ان هذه الآيات من صفات المشفقين كأنه سبحانه قال بعد وصفهم ولا نكلف نفسا الا وسعها ونهايته ما أتى به هؤلاء المشفقون ولدينا كتاب يحفظ أعمالهم ينطق بالحق وهم لا يظلمون بل نوفر عليهم ثواب كل اعمالهم بل قلوبهم فى غمرة من هذا وهو أيضا وصف لهم بالحيرة كأنه قال وهم مع ذلك الوجل والخوف كالمتحيرين فى جعل أعمالهم مقبولة أو مردودة ولهم اعمال من دون ذلك أى لهم أيضا من النوافل ووجوه البر سوى ما هم عليه اما اعمالا قد عملوها فى الماضى أو سيعملونها فى المستقبل ثم انه سبحانه رجع بقوله حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب الى وصف الكفار واعلم ان قول أبى مسلم أولى لانه اذا أمكن رد الكلام الى ما يتصل به من ذكر المشفقين كان أولى من رده الى ما بعد منه خصوصا وقد يرغب المرء فى فعل الخير بان يذكر ان أعماله محفوظة كما قد يحذر بذلك من الشر وقد يوصف المرء بشدة فكره فى أمر آخرته بان قلبه فى غمرة ويرادانه قد استولى عليه الفكر فى قبول عمله أورده وفى انه هل أداه كما يجب أو قصر فان قيل فالمراد بقوله من هذا وهو اشارة الى ماذا قلنا هو اشارة الى اشفاقهم ووجلهم مع انهما مستولیان على قلوبهم أو قوله تعالى حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب فقال صاحب الكشاف حتى هذه هى التى يبتدأ بعدها الكلام والكلام الجملة الشرطية واعلم انه لا شبهة أن الضمير فى مترفيهم راجع الى من تقدم ذكره من الكفار لان العذاب لا يليق الا بهم وفى هذا العذاب وجهان (احدهما) اراد بالعذاب ما نزل بهم يوم بدر (والثانى) انه عذاب الآخرة ثم بين سبحانه ان المنعمين منهم اذا نزل بهم العذاب يجأرون أى يرتفع صوتهم بالاستغاثة والضجيج لشدة ما هم عليه ويقال لهم على وجه التبكيت لا تجأروا اليوم انكم منا لا تنصرون فلا يدفع عنكم ما يراد نزاله بكم دل بذلك سبحانه على انهم سيتهيون يوم القيامة الى هذه الدرجة من الحسرة والندامة وهو كالباعث لهم فى الدنيا على ترك الكفر والاقدام على الايمان والطاعة فانهم الآن ينتفعون بذلك *قوله تعالى (قد كانت اياتى تتلى عليكم فكنتم على اعقابكم تنكصون مستكبرين به سامرا تهجرون أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الاولين أولم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن بل اتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين) اعلم انه سبحانه لما بين فيما قبل انه لا ينصر أولئك الكفار أتبعه بعلة ذلك وهى انه متى تليت آيات الله عليهم انوا

وانتظامها بسبب ذلك فى سلك الامور المشاهدة (امتكم) أى ملتكم وشريعتكم أيها الرسل (أمة واحدة) أى ملة وشريعة متحدة فى أصول الشرائع التى لاتتبدل بتبدل الاعصار وقيل هذه اشارة الى الامم المؤمنة للرسل والمعنى ان هذه جماعتكم جماعة واحدة متفقة على الايمان والتوحيد فى العبادة (وأنا ربكم) من غير أن يكون لى شريك فى الربوبية وضمير المخاطب فيه وفى قوله تعالى (فاتقون) أى فى شق العصا والمخالفة ﴿ ٢٩٥ ﴾ بالاخلال بمواجب ماذكر من اختصاص الربوبية بى

بأمور ثلاثة (أحدها انهم كانوا على اعقابهم ينكصون وهذا مثل يضرب فيمن تباعد عن الحق كل التباعد وهو قوله فكنتم على اعقابكم تنكصون أى تنفرون عن تلك الآيات وعمن يتلوها كما يذهب الناكص على عقبيه بالرجوع الى ورائه (وثانيها) قوله مستكبرين به والهاء فى به الى ماذا تعود فيه وجوه (أولها) الى البيت العتيق أو الحرم كانوا يقولون لايظهر علينا أحدلانا أهل الحرم والذى يسوغ هذا الاضمار شهرتهم بالاستكبار بالبيت وان لم يكن لهم مفخرة الا أنهم ولاته والقائمون به (وثانيها) المراد مستكبرين بهذا التراجع والتباعد (وثالثها) ان تتعلق الباء بسامرا أى يسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه وهذا هو الامر الثالث الذى يأتون به عند تلاوة القرآن عليهم وكانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحرا وشعرا وسب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويهجرون والسامر نحو الحاضر فى الاطلاق على الجمع وقرئ سمرا وسامر ايهجرون من أهجر فى منطقه اذا افحش والهجر بالفتح الهذيان والهجر بالضم الفحش أو من هجر الذى هو مبالغة فى هجر اذا هذى ثم انه سبحانه لما وصف حالهم رد عليهم بان بين أن اقدامهم على هذا الامر لابد وأن يكون لاحد أمور أربعة (أحدها) ان لايتأملوا فى دليل نبوته وهو المراد من قوله أفلا يتدبرون القرآن فبين ان القول الذى هو القرآن كان معروفا لهم وقد مكنوا من التأمل فيه من حيث كان مباينا لكلام العرب فى الفصاحة ومبرأ عن التناقض فى طول عمره ومن حيث ينبه على مايلزمهم معرفة الصانع ومعرفة الوحدانية فلم لايتدبرون فيه ليتركوا الباطل ويرجعوا الى الحق (وثانيها) ان يعتقدوا ان مجئ الرسل أمر على خلاف العادة وهو المراد من قوله أم جاءهم مالم يأت آباءهم الاولين وذلك لانهم عرفوا بالتواتر أن الرسل كانت تتواتر على الامم وتظهر المعجزات عليها وكانت الامم بين مصدق ناج وبين مكذب هالك بعذاب الاستئصال أفادعاهم ذلك الى تصديق الرسول (وثالثها) أن لايكونوا عالمين بديانته وحسن خصاله قبل ادعائه للنبوة وهو المراد من قوله أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون نبه سبحانه بذلك على انهم عرفوا منه قبل ادعائه الرسالة كونه فى نهاية الامانة والصدق وغاية الفرار من الكذب والاخلاق الذميمة فكيف كذبوه بعد أن اتفقت كلمتهم على تسميته بالامين (ورابعها) ان يعتقد وا فيه الجنون فيقولوا انما حمله على ادعاء الرسالة جنونه وهو المراد من قوله أم يقولون به جنة وهذا أيضا ظاهر الفساد لانهم كانوا يعلمون بالضرورة انه اعقل الناس والمجنون كيف يمكنه ان يأتى بمثل ماأتى به من الدلائل القاطعة والشرائع الكاملة ولقد كان من المبغضين له عليه السلام من سماه بذلك وفيه وجهان (أحدهما) انهم نسبوه الى ذلك من حيث كان تطمع فى انقياد هم له وكان ذلك من أبعد الامور عندهم فنسبوه الى الجنون لذلك (والثانى) انهم قالوا ذلك ايهاما لعوامهم لكى لاينقادوا له فاورد واذلك مورد الاستحقار

للرسل والامم جميعا على أن الامر فى حق الرسل للتهييج والالهاب وفى حق الامم للتحذير والايجاب والفاء لترتيب الامر أو وجوب الامتثال به على ماقبله من اختصاص الربوبية به تعالى واتحاد الامة فان كلا منهما موجب للاتقاء حتما وقرئ وأن هذه بفتح الهمزة على حذف اللام أى ولان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون اى ان تتقوا فاتقون كما مر فى قوله تعالى وايای فارهبون وقيل على العطف على ما أى انى عليم بان أمتكم أمة الخ وقيل على حذف فعل عامل فيه أى واعلموا أن هذه أمتكم الخ وقرئ وان هذه على انها مخففة من أن (فتقطعوا أمرهم) حكاية لما ظهر من أمم الرسل بعدهم من مخالفة الامر وشق العصا والضمير المدل عليه الامة من أربابها أولها على التفسيرين والفاء لترتيب عصيانهم على الامر لزيادة تقبيح حالهم أى تقطعوا أمر دينهم مع اتحاده وجعلوه قطعا متفرقة وأديانا مختلفة (بينهم زبرا) أى قطعا جمع زبور بمعنى الفرقة ويؤيده قراءة زبرا بالفتح الباء جمع زبرة وهو حال من أمرهم أو من واو تقطعوا أو مفعول ثان له فانه متضمن لمعنى جعلوا وقيل كتبا فيكون مفعولا ثانيا

أوحالا من امرهم على تقدير المضاف أى مثل زبر وقرئ بتخفيف الباء كرسل فى رسل (كل حزب) من أولئك المتحزبين (بما لديهم) من الدين الذى اختاروه (فرحون) معجبون معتقدون أنه الحق (فذرهم فى غمرتهم) شبه ما هم فيه من الجهالة بالماء الذى يغمر القامة لانهم مغمورون فيها الاعبون بها وقرئ غمراتهم والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والفاء لترتيب الامر بالترك على ما قبله من كونهم فرحين بما لديهم فان انهما ﴿ ٢٩٦ ﴾ كهم فيما هم فيه واصرارهم عليه

من تخايل كونهم مطبوعا على قلوبهم أى اتركهم على حالهم (حتى حين) هو حين قتلهم او موتهم على الكفر أو عذابهم فهو وعيد لهم بعذاب الدنيا والآخرة وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى له عن الاستعجال بعذابهم والجزع من تأخيره وفى التنكير والابهام ما لا يخفى من الهول (أيحسبون أنما نمدهم به) أى تعطيهم اياه ونجعله مددا لهم فما موصولة وقوله تعالى (من مال وبنين) بيان لها وتقديم المال على البنين مع كونهم أعز منه قد مر وجهه فى سورة الكهف لا خبر لان وانما الخبر قوله تعالى (نسارع لهم فى الخيرات) على حذف الراجع الى الاسم أى أيحسبون أن الذى نمدهم به من المال والبنين نسارع به لهم فيما فيه خيرهم واكرامهم على أن الهمزة لانكار الواقع واستقباحه وقوله تعالى (بل لا يشعرون) عطف على مقدر ﴿ الطريق ﴾ ينساق اليه الكلام أى كلا لا نفعل ذلك بل هم لا يشعرون بشئ أصلا كالبهائم لا فطنة لهم ولا شعور ليتأملوا ويعرفوا أن ذلك الامداد استدراج لهم واستجرار الى زيادة الاثم وهم يحسبونه مسارعة لهم فى الخيرات وقرئ بمدهم على الغيبة وكذلك يسارع ويسرع ويحتمل أن يكون فيهما

لهم انه سبحانه بعد أن عد هذه الوجوه ونبه على فسادها قال بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون من حيث تمسكوا بالتقليد ومن حيث علموا انهم لو اقروا بمحمد صلى الله عليه وسلم لزالت مناصبهم ولاضمحلت رياساتهم فلذلك كرهوه فان قيل قوله وأكثرهم فيه دليل على ان فيهم لا يكرهون الحق قلنا كان فيهم من يترك الايمان انفة من توبيخ قومه وان يقولوا ترك دين آبائه لا كراهة للحق كما حكى عن أبى طالب ثم بين سبحانه ان الحق لا يتبع الهوى بل الواجب على المكلف أن يطرح الهوى ويتبع الحق فبين سبحانه ان اتباع الهوى يؤدى الى الفساد العظيم فقال ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن وفى تفسيره وجوه (الاول) ان القوم كانوا يرون ان الحق فى اتخاذ آلهة مع الله تعالى لكن لو صح ذلك لوقع الفساد فى السموات والارض على ما قررناه فى دليل التمانع فى قوله لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا (والثانى) ان أهواءهم فى عبادة الاوثان وتكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وهما منشأ المفسدة والحق هو الاسلام فلو اتبع الاسلام قولهم لعلم الله حصول الفساد عند بقاء هذا العالم وذلك يقتضى تخريب العالم وافناءه (والثالث) ان آراءهم كانت متناقضة فلو اتبع الحق اهواءهم لوقع التناقض ولاختل نظام العالم (والرابع) ان التقدير أما جاءهم بل أتيناهم بذكرهم ذليل انه القرآن والادلة وقيل بل شرفناهم وفخرهم بالرسول وكلا القولين متقاربان لان فى مجئ الرسول بيان الادلة وفى مجئ الادلة بيان الرسول فأحدهما مقرون بالآخر وقيل الذكر هو الوعظ والتحذير وقيل هو الذى كانوا يتمنونه ويقولون لو أن عندنا ذكرا من الاولين لكنا عباد الله المخلصين وقرئ بذكراهم ثم بين سبحانه انه عليه الصلاة والسلام لا يطمع فيهم حتى يكون ذلك سببا للنفرة فقال أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وقرئ خراجا قال أبو عمرو ابن العلاء الخرج ما تبرعت به والخراج ما لزمك أداؤه والوجه ان الخرج أخص من الخراج كقولك خراج القرية وخرج الكردة زيادة اللفظ لزيادة المعنى ولذلك حسنت قراءة من قرأ خرجا فخراج ربك يعنى أم تسألهم على هدايتهم قليلا من عطاء الخلق فالكثير من عطاء الخالق خير فنبه سبحانه بذلك على ان هذه التهمة بعيدة عنه فلا يجوز أن ينفروا عن قبول قوله لاجلها فنبه سبحانه بهذه الآيات على انهم غير معذورين البتة وانهم محجوبون من جميع الوجوه قال الجبائى دل قوله تعالى وهو خير الرازقين على ان أحدا من العباد لا يقدر على مثل نعمه ورزقه ولا يساويه فى الافضال على عباده ودل أيضا على ان العباد قد يرزق بعضهم بعضا ولولا ذلك لما جاز أن يقول وهو خير الرازقين * قوله تعالى (وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا فى طغيانهم يعمهون) اعلم انه سبحانه وتعالى لما زيف طريقة القوم أتبعه ببيان صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فقال وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم لان ما دل الدليل على صحته فهو فى باب الاستقامة أبلغ من

الطريق المستقيم وان الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الاطراط ناكبون أي عادلون عن هذا الطريق لان طريق الاستقامة واحدة ومايخالفه فكثير كما قاله تعالى ولورحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر لفبه وجوه (أحدها) المراد ضرر الجوع وبه أرمضار الدنيا (وثانيها) المراد ضرر القتل والسبي (وثالثها) انه ضرر الآخرة وعذابها بين انهم قد بلغوا في التمرد والعناد المبلغ الذي لا يرجع فيه الى دار الدنيا بانهم لو ردوا لعادوا لما نسوا عند شدة لجاجهم فيما هم عليه من الكفر أما قوله تعالى للجواني ملعبانهم يعمهون فالعمه التعادي في ضلالهم وهم متحيرون ﴿ قوله تعالى (ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد اذا هم فيه مبلسون هو الذي أنشأ لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون وهو الذي ذرأكم في الارض واليه تحشرون وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون) اختلفوا في قوله ولقد أخذناهم بالعذاب على وجوه (أحدها) انها لما أسلم ثمامة بن أثال الحنفي وحمل باليمامة منع الميرة عن أهل مكة فأخذهم الله بالسنين حتى أكلوا الجلود والميتة فجاء أبو سفيان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ألست تزعم انك بعثت رحمة للعالمين ثم قتلت الآباء بالسيف والابناء بالجوع فادع الله يكشف عنا هذا القحط فدعا فكشف عنهم وأنزل الله هذه الآية والمعنى أخذناهم بالجوع فما أطاعوا (وثانيها) هو الذي نالهم يوم بدر من القتل والاسر يعني ان ذلك مع شدته ما دعاهم الى الايمان عن الاصم (وثالثها) المراد من عذب من الامم الخوالي فما استكانوا أي متكبرون لربهم عن الحسن (ورابعها) ان شدة الدنيا أقرب الى المكلف من شدة الآخرة فاذا لم يؤثر فيهم شدة الدنيا فشدة الآخرة كذلك وهذا يدل على انهم لو ردوا لعادوا للكفر واعلم أما قوله تعالى حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد ففيه وجهان (أحدهما) حتى اذا فتحنا عليهم باب الجوع الذي هو أشد من القتل والاسر (والثاني) اذا عذبوا بنار جهنم فحينئذ يبلسون كقوله ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون لا يفترعنهم وهم فيه مبلسون والابلاس اليأس من كل خير وهل الكون مع الحصر وههنا سؤالات (السؤال الاول) ماوزن استكان (الجواب) استفعل من الكون أي انتقل من كون الى كون كما قيل استحال اذا انتقل من حال الى حال ويجوز أن يكون افتعل من السكون اشبعت فتحة عينه (السؤال الثاني) لم جاء استكانوا بلفظ الماضي ويتضرعون بلفظ المستقبل (الجواب) لان المعنى امتحانهم فما وجدنا منهم عقيب المحنة استكانة وما من عادة هؤلاء أن يتضرعوا حتى يفتح عليهم باب العذاب الشديد وقرئ فتحنا (السؤال الثالث) العطف لا يحسن الامع المجانسة فاي مناسبة بين قوله وهو الذي أنشأ لكم السمع والابصار و بين ماقبله (الجواب) كانه سبحانه لما بين مبالغة اولئك الكفار في الاعراض عن سماع الادلة ورؤية العبر والتأمل في الحقائق قال للمؤمنين وهو الذي اعطاكم هذه الاشياء ووفقكم عليها تنبيها على ان من لم يستعمل

الاشراك (والذين يؤتون ما آتوا) أي يعطون ما أعطوه من الصدقات وقرئ يأتون ما أتوا أي يفعلون ما فعلوه من الطاعات وأيا ما كان فصيغة الماضي في الصلة الثانية للدلالة على التحقق كما أن صيغة المضارع في الاولى للدلالة على الاستمرار (وقلوبهم وجلة) حال من فاعل يؤتون أو يأتون أي يؤتون ما آتوا أو يفعلون من العبادات ما فعلوه والحال أن قلوبهم خائفة أشد الخوف (أنهم الى ربهم راجعون) أي من أن رجوعهم اليه عز وجل على أن مناط الوجل أن لا يقبل منهم ذلك وأن لا يقع على الوجه اللائق فيؤاخذ به حينئذ لا مجرد رجوعهم اليه تعالى وقيل لان مرجعهم اليه تعالى والموصولات الاربعة عبارة عن طائفة واحدة متصفة بما ذكر في حيز صلاتها

من الاوصاف الاربعة لا عن ﴿ ٣٨ ﴾ س طوائف كل واحدة منها متصفة بواحد من الاوصاف المذكورة كأنه قيل ان الذين هم من خشية ربهم مشفقون وبآيات ربهم يؤمنون الخ وانما كرر الموصول ايذانا باستقلال كل واحدة من تلك الصفات بفضيلة باهرة على حيالها وتنزيلا لاستقلالها منزلة استقلال الموصوف بها (أولئك) اشارة اليهم باعتبار اتصافهم بها وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد

رتبتهم فى الفضل أى أولئك المنعوتون بما فصل من النعوت الجليلة خاصة دون غيرهم (يسارعون فى الخيرات) أى فى نيل الخيرات التى من جملتها الخيرات العاجلة الموعودة على الاعمال الصالحة كما فى قوله تعالى فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة وقوله تعالى وآتيناه أجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين فقد أثبت لهم ما نفى عن أضدادها خلا انه غير الاسلوب حيث لم يقل أولئك نسارع ﴿ ٢٩٨ ﴾ لهم فى الخيرات بل أسند المسارعة اليهم ايماء الى كمال استحقاقهم نيل الخيرات بمحاسن أعمالهم وايثار كلمة فى على كلمة الى للايذان بانهم متقلبون فى فنون الخيرات لا أنهم خارجون عنها متوجهون اليها بطريق المسارعة كما فى قوله تعالى وسارعوا الى مغفرة من ربكم وجنة الآية (وهم لها سابقون) أى اياها سابقون واللام لتقوية العمل كما فى قوله تعالى هم لها عاملون أى ينالونها قبل الآخرين حيث عجلت لهم فى الدنيا وقيل المراد بالخيرات الطاعات والمعنى يرغبون فى الطاعات والعبادات أشد الرغبة وهم لاجلها فاعلون السبق أو لاجلها سابقون الناس والاول هو الاولى (ولا نكلف نفسا الا وسعها) جملة مستانفة سيقت للتحريض على ما وصف به السابقون من فعل الطاعات المؤدى الى نيل الخيرات ببيان سهولته وكونه غير خارج عن حد الوسع والطاقة أى عادتنا جارية على أن لا نكلف نفسا من النفوس الا ما فى وسعها على أن المراد استمرار النفى بمعونة المقام ﴿ من ﴾ لانفى الاستمرار كما مر مرارا أو للترخيص فيما هو قاصر عن درجة أعمال أولئك الصالحين ببيان أنه تعالى لا يكلف عباده الا ما فى وسعهم فان لم يبلغوا فى فعل الطاعات مراتب السابقين فلا عليهم بعد أن يبذلوا طاقتهم ويستفرغوا

هذه الاعضاء فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها كما قال تعالى فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ اذ كانوا يجحدون بآيات الله تنبيها على ان حرمان أولئك الكفار وجدان هؤلاء المؤمنين ليس الا من الله واعلم انه سبحانه بين عظيم نعمه من وجوه (أحدها) باعطاء السمع والابصار والافئدة وخص هذه الثلاثة بالذكر لان الاستدلال موقوف عليها ثم بين انه يقل منهم الشاكرون قال ابو مسلم ليس المراد ان لهم شكرا وان قل لكنه كما يقال للكفور الجاحد للنعمة ما أقل شكر فلان (وثانيها) قوله وهو الذى ذرأكم فى الارض قيل فى التفسير خلقكم قال أبو مسلم ويحتمل بسطكم فيها ذرية بعضكم من بعض حتى كثركم كقوله تعالى ذرية من حملنا مع نوح فنقول هو الذى جعلكم فى الارض متناسلين ويحشركم يوم القيامة الى دار لا حاكم فيها سواه فجعل حشرهم الى ذلك الموضع حشرا اليه لا بمعنى المكان (وثالثها) قوله وهو الذى يحيى ويميت أى نعمة الحياة وان كانت من أعظم النعم فهى منقطعة وانه سبحانه وان أنعم بها فالمقصود منها الانتقال الى دار الثواب (ورابعها) قوله وله اختلاف الليل والنهار ووجه النعمة بذلك معلوم ثم انه سبحانه حذر من ترك النظر فى هذه الامور فقال أفلا تعقلون لان ذلك دلالة الزجر والتهديد وقرئ أفلا تعقلون * قوله تعالى (بل قالوا مثل ما قال الاولون قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل ان هذا الا أساطير الاولين) اعلم انه سبحانه لما أوضح القول فى دلائل التوحيد عقبه بذكر المعاد فقال بل قالوا مثل ما قال الاولون فى انكار البعث مع وضوح الدلائل ونبه بذلك على انهم انما أنكروا ذلك تقليدا للاولين وذلك يدل على فساد القول بالتقليد ثم حكى الشبهة عنهم من وجهين (أحدهما) قولهم أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون وهو مشهور (وثانيهما) قولهم لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل كانهم قالوا ان هذا الوعد كما وقع منه عليه الصلاة والسلام فقد وقع قبله من سائر الانبياء ثم لم يوجد مع طول العهد فظنوا ان الاعادة تكون فى دار الدنيا ثم قالوا لما كان كذلك فهو من أساطير الاولين والاساطير جمع اسطار والاسطار جمع سطر أى ما كتبه الاولون مما لا حقيقة له وجمعا اسطورة أو فق * قوله تعالى (قل لمن الارض ومن فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فانى تسحرون بل أتيناهم بالحق وانهم لكاذبون) اعلم أنه يمكن أن يكون المقصود من هذه الآيات الرد على منكرى الاعادة وان يكون المقصود الرد على عبدة الاوثان وذلك لان القوم كانوا مقرين بالله تعالى فقالوا ما نعبد الاصنام لتقربنا الى الله زلفى ثم انه سبحانه احتج عليهم بأمور ثلاثة (أحدها) قوله قل لمن الارض ومن فيها ووجه الاستدلال به على الاعادة أنه تعالى لما كان خالقا للارض ولمن فيها

وسعهم قال مقاتل من لم يستطع القيام فليصل قاعدا ومن لم يستطع القعود فليومئ وقوله تعالى (ولدينا كتاب) الخ تتمة لما قبله ببيان أحوال ما كلفوه من الاعمال وأحكامها المترتبة عليها من الحساب والثواب والعقاب والمراد بالكتاب صحائف الاعمال التي تقرؤنها عند الحساب حسبما يعرب عنه قوله تعالى (ينطق بالحق) كقوله تعالى هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون أي ﴿ ٢٩٩ ﴾ عندنا كتاب قد أثبت فيه أعمال كل أحد على ما هي عليه أو أعمال

من الاحياء وخالقا لحياتهم وقدرتهم وغيرها فوجب أن يكون قادرا على ان يعيدهم بعد ان أفناهم ووجه الاستدلال به على نفي عبادة الاوثان من حيث ان عبادة من خلقكم وخلق الارض وكل ما فيها من النعم هي الواجبة دون عبادة ما لا يضر ولا ينفع وقوله أفلا تذكرون معناه الترغيب في التدبر ليعلموا بطلان ما هم عليه (وثانيها) قوله من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ووجه الاستدلال على الامرين كما تقدم وانما قال أفلا تتقون تنبيها على ان اتقاء عذاب الله لا يحصل الا بترك عبادة الاوثان والاعتراف بجواز الاعادة (وثالثها) قوله تعالى قل من بيده ملكوت كل شئ اعلم انه سبحانه لما ذكر الارض أولا والسماء ثانيا عم الحكم ههنا فقال من بيده ملكوت كل شئ ويدخل في الملكوت الملك والملك على سبيل المبالغة وقوله وهو يجير ولا يجار عليه يقال اجرت فلانا على فلان اذا أغثته منه ومنعته يعني وهو يغيث من يشاء ممن يشاء ولا يغيث أحد منه أحدا أما قوله تعالى فانى تسحرون فالمعنى أنى تخدعون عن توحيده وطاعته والخادع هو الشيطان والهوى ثم بين تعالى بقوله بل أتيناهم بالحق انه قد بالغ في الحجاج عليهم بهذه الآيات وغيرها وهم مع ذلك كاذبون وذلك كالتوعد والتهديد وقرئ أتيتهم واتيتهم بالضم والفتح وههنا سؤالات (السؤال الاول) قرئ قل لله في الجواب الاول باللام لا غير وقرئ الله في الاخيرين بغير اللام في مصاحف أهل الحرمين والكوفة والشأم وباللام في مصاحف أهل البصرة فما الفرق (الجواب) لا فرق في المعنى لان قولك من ربه وان هو في معنى واحد (السؤال الثاني) كيف قال ان كنتم تعلمون ثم حكى عنهم سيقولون لله وفيه تناقض (الجواب) لا تناقض لان قوله ان كنتم تعلمون لا ينفي علمهم بذلك وقد يقال مثل ذلك في الحجاج على وجه التأكيد لعلمهم والبعث على اعترافهم بما هو رد من ذلك * قوله تعالى (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون قل رب اما ترينى ما يوعدون رب فلا تجعلنى في القوم الظالمين وانا على أن نريك ما نعدهم لقادرون ادفع بالتى هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون) اعلم انه سبحانه ادعى أمرين (أحدهما) قوله ما اتخذ الله من ولد وهو كالتنبيه على ان ذلك من قول هؤلاء الكفار فان جماعة منهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله (والثاني) قوله وما كان معه من اله وهو قولهم باتخاذ الاصنام آلهة ويحتمل ان يريد به ابطال قول النصارى والثنوية ثم انه سبحانه وتعالى ذكر الدليل المعتمد بقوله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض والمعنى لانفرد على كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه واستبد به ولرأيتم ملك كل واحد منهم متميزا عن ملك الآخر ولغلب بعضهم على بعض كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متميزة وهم متغالبون وحيث لم تروا أثر التمايز في الممالك والتغالب فاعلموا أنه اله واحد بيده ملكوت كل شئ فان قيل اذا لا يدخل الاعلى كلام

السابقين والمقتصدين جميعا لأنه أثبت فيه أعمال الاولين وأهمل أعمال الآخرين ففيه قطع معذرتهم أيضا وقوله بالحق متعلق بينطق أي يظهر الحق المطابق للواقع على ما هو عليه ذاتا ووصفا وبينه للناظر كما يبينه الناطق ويظهره للسامع فيظهر هناك جلائل أعمالهم ودقائقها ويرتب عليها أجزيتها ان خيرا فخير وان شرا فشر وقوله تعالى (وهم لا يظلمون) بيان لفضله تعالى وعدله في الجزاء اثر بيان لطفه في التكليف وكتب الاعمال أي لا يظلمون في الجزاء بنقص ثواب أو بزيادة عذاب بل يجزون بقدر أعمالهم التي كلفوها ونطقت بها صحائفها بالحق وقد جوز أن يكون تقريرا لما قبله من التكليف وكتب الاعمال أي لا يظلمون بتكليف ما ليس في وسعهم ولا بعدم كتب بعض أعمالهم التي من جملتها أعمال المقتصدين بناء على قصورها عن درجة أعمال السابقين بل يكتب كل منها على مقاديرها وطبقاتها والتعبير عما ذكر من الامور بالظلم مع أن شيئا منها ليس بظلم على ما تقرر من أن الاعمال الصالحة لا توجب أصل الثواب فضلا عن ايجاب مرتبة معينة منه حتى تعد الاثابة بما دونها نقصا وكذلك الاعمال السيئة لا توجب درجة معينة

من العذاب حتى بعد التعذيب بما فوقها زيادة وكذا تكليف ما فى الوسع وكتب الاعمال ليسا مما يجب عليه سبحانه حتى يعد تركهما ظلما لكمال تنزيه ساحة السبحان عنها بتصويرها بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى وتسميتها باسمه وقوله تعالى (بل قلوبهم فى غمرة من هذا) اضراب عما قبله والضمير للكفرة لا للكل كما قبله أى بل قلوب الكفرة فى غفلة غامرة لها من هذا الذى بين فى القرآن من أن لديه تعالى كتابا ينطق بالحق ✽ ٣٠٠ ✽ ويظهر لهم أعمالهم السيئة على رؤس الاشهاد فيجزون بها كما ينبئ عنه ما سيأتى من قوله تعالى قد كانت آياتى تتلى عليكم الخ وقيل مما عليه أولئك الموصوفون بالاعمال الصالحة (ولهم أعمال سيئة كثيرة (من دون ذلك) الذى ذكر من كون قلوبهم فى غفلة عظيمة مما ذكر وهى فنون كفرهم ومعاصيهم التى من جملتها ما سيأتى من طعنهم فى القرآن حسبما ينبئ عنه قوله تعالى مستكبرين به سامرا تهجرون وقيل متخطية لما وصف به المؤمنون من الاعمال الصالحة المذكورة وفيه انه لا مزية فى وصف أعمالهم الخبيثة بالتخطى للاعمال الحسنة للمؤمنين وقيل متخطية عما هم عليه من الشرك ولا يخفى بعده لعدم جريان ذكره (هم لها عاملون) مستمرون عليها معتادون فعلها ضارون بها لا يكادون يرحونها (حتى إذا أخذنا مترفيهم) أى متنعميهم وهم الذين أمدهم الله تعالى بما ذكر ✽ الشياطين ✽ من المال والبنين وحتى مع ما بعدها غاية لاعمالهم المذكورة مبدأ لما بعدها من مضمون الشرطية أى لا يزالون يعملون أعمالهم الى حيث إذا أخذنا رؤساءهم (بالعذاب) قيل هو القتل والاسر يوم بدر وقيل هو الجوع الذى أصابهم حين دعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله اللهم اشدد وطأتك على

هو جزاء وجواب فكيف وقع قوله اذا هم جزاء وجوابا ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل قلنا الشرط محذوف وتقديره ولو كان معه آلهة يدل عليه حذف الدلالة قوله وما كان معه من اله عليه ثم انه سبحانه نزه نفسه عن قولهم بقوله سبحان الله عما يصفون من اثبات الولد والشريك أما قوله عالم الغيب والشهادة فقرئ بالجر صفة لله وبالرفع خبر مبتدا محذوف والمعنى انه سبحانه هو المختص بعلم الغيب والشهادة دون غيره وان علم الشهادة قلن يسلم معها الغيب والشهادة التى يعلمها ما يتكامل بها النفع الامع العلم بالغيب وذلك كالوعد لهم فلذلك قال فتعالى عما يشركون ثم أمره سبحانه بالانقطاع اليه وان يدعو بقوله رب اما ترينى ما يوعدون رب فلا تجعلنى فى القوم الظالمين قال صاحب الكشاف ما والنون مؤكدتان أى ان كان ولابد من أن ترينى ما تعدهم من العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة فلا تجعلنى قرينا لهم ولا تعذبنى بعذابهم فان قيل كيف يجوز أن يجعل الله نبيه المعصوم مع الظالمين حتى يطلب أن لا يجعله معهم قلنا يجوز أن يسأل العبد ربه ما علم أنه يفعله وان يستعيذه به مما علم انه لا يفعله اظهارا للعبودية وتواضعا لربه وما أحسن قول الحسن لا يقول الصديق وليتكم ولست بخيركم مع انه كان يعلم انه خيرهم ولكن المؤمن يهضم نفسه وانما ذكر مرتين مرة قبل الشرط ومرة قبل الجزاء مبالغة فى التضرع أما قوله تعالى وانا على أن نريك ما نعدهم لقادرون ففيه قولان (أحدهما) انهم كانوا ينكرون الوعد بالعذاب يضحكون منه فقيل لهم أن الله قادر على انجاز ما وعد ويحتمل عذاب الدنيا وآخر اعن اباء عليه السلام فلذلك قال بعضهم هو فى أهل النهى بعضهم فى الكفار الذين قتلوا يعنى الرسول صلى الله عليه وسلم (والثانى) ان المراد عذاب الآخرة أما قوله ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون فالمراد منه ان الاولى به عليه السلام أن يعامل به الكفار فأمر باحتمال ما يكون منهم من التكذيب وضروب الاذى وان يدفعه بالكلام الجميل كالسلام وبيان الادلة على أحسن الوجوه وبين له انا اعلم بحالهم منه عليه السلام وانه سبحانه لما لم يقطع بعد عنهم فينبغى أن يكون هو عليه السلام مواظبا على هذه الطريقة قال صاحب الكشاف قوله ادفع بالتى هى أحسن السيئة أبلغ من أن يقال بالحسنة السيئة لما فيه من التفضيل والعفو الصفح عن اساءتهم ومقابلتها بما أمكن من الاحسان حتى اذا اجتمع الصفح والاحسان وبذل الطاقة فيه كانت حسنة مضاعفة بازاء السيئة وقيل هذه الآية منسوخة بآية السيف وقيل محكمة لان المدارا محثوث عليها مما تؤدى الى نقصان دين أو مروءة ✽ قوله تعالى (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت كلا انها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون) اعلم انه سبحانه لما أدب رسوله بقوله ادفع بالتى هى أحسن السيئة أتبعه بما يقوى على ذلك وهو الاستعاذة بالله من أمرين (أحدهما) من همزات

مضر واجعلها عليهم سنين كسني يوسف فقحطوا حتى أكلوا الكلاب والجيف والعظام المحرقة والاولاد والحق أنه العذاب الاخروى اذهو الذى يفاجئون عنده الجؤار فيجابون بالرد والاقناط عن النصر وأما عذاب يوم بدر فلم يوجد لهم عنده جؤار حسبما ينبئ عنه قوله تعالى ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون فان المراد بهذا العذاب ماجرى عليهم يوم بدر من القتل والاسر حتما ﴿ ٣٠١ ﴾ واما عذاب الجوع فان أباسفيان وان تضرع فيه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن لم يرد عليه بالاقناط حيث روى أنه عليه الصلاة والسلام قد دعا بكشفه فكشف عنهم ذلك (اذاهم يجأرون) أى فاجؤا الصراخ بالاستغاثة من الله عز وجل كقوله تعالى فاليه تجأرون وهو جواب الشرط وتخصيص مترتبهم بما ذكر من الاخذ بالعذاب ومفاجأة الجؤار مع عمومه لغيرهم أيضا لغاية ظهور انعكاس حالهم وانتكاس أمرهم وكون ذلك أشق عليهم ولانهم مع كونهم ممتنعين محميين بحماية غيرهم من المنعة والحشم حين توا ما لقوا من الحالة الفظيعة فلأن يلقاها من عداهم من الحماة والخدم أولى وأقدم (لاتجأروا اليوم) على اضمار القول مسوقا لردهم وتبكيتهم واقناطهم مما علقوا به أطماعهم الفارغة من الاغاثة والاعانة من جهته تعالى

الشياطين والهمزات جمع الهمزة وهو الدفع والتحريك لشديد وهو كالهز والازو منه مهماز الرائض وهمزاته هو كيده بالوسوسة و يكون ذلك منه فى الرسول بوجهين (أحدهما) بالوسوسة والآخر بان يبعث أعداءه على ايذائه وكذلك القول فى المؤمنين لان الشيطان يكيدهم بهذين الوجهين ومعلوم ان من ينقطع الى الله تعالى ويسأله أن يعيذه من الشيطان فانه يجب أن يكون متذكرا لمتابعته فيما يأتى ويذر فيكون نفس هذا الانقطاع الى الله تعالى داعية الى التمسك بالطاعة وزاجرا عن المعصية قال الحسن كان عليه السلام يقول بعد استفتاح الصلاة لا اله الا الله ثلاثا الله أكبر ثلاثا اللهم انى أعوذ بك من همزات الشياطين همزه ونفثه ونفخه فقيل يارسول الله وما همزه قال الموتة التى تأخذ ابن آدم أى الجنون الذى يأخذ ابن آدم قيل فما نفثه قال الشعر قيل فما نفخه قال الكبر (وثانيها) قوله وأعوذ بك رب أن يحضرون وفيه وجهان (أحدهما) أن يحضرون عند قراءة القرآن لكى يكون متذكرا فيقل سهوه وقال آخرون بل استعاذ بالله من نفس حضورهم لانه الداعى الى وسوستهم كما يقول المرء أعوذ بالله من خصومتك يا أعوذ بالله من لقائك و روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد استكى اليه رجل ارقا يجده فقال اذا أردت النوم فقل أعوذ بالله و بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه ومن شر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون أما قوله حتى اذا جاء أحدهم الموت ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف حتى متعلق بيصفون أى لا يزالون على سوء الذكر الى هذا الوقت والآية فاصلة بينهما على وجه الاعتراض والتأكيد للاغضاء عنهم مستعينا بالله على الشيطان ان يستزله عن الحلم والله أعلم (المسئلة الثانية) اختلفوا فى قوله حتى اذا جاء أحدهم الموت فالاكثرون على انه راجع الى الكفار وقال الضحاك كنت جالسا عند ابن عباس فقال من لم يزك ولم يحج سأل الرجعة عند الموت فقال واحد انما يسأل ذلك الكفار فقال ابن عباس رضى الله عنهما أنا أقرأ عليك به قرآنا وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا حضر الانسان الموت جمع كل شئ كان يمنعه من حقه بين يديه فعنده يقول رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت والاقرب هو الاول اذا عرف المؤمن منزلته فى الجنة فاذا شاهد هما لعله أكثرهما ولو لذلك لكان أدونهم ثوابا يتمنى بفقدما يفقد من منزلة غيره وأما ماذكره ابن عباس رضى الله عنهما من قوله وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فهو اخبار عن حال الحياة فى الدنيا لا عن حال الثواب فلا يلزم على ماذكرنا (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى وقت مسئلة الرجعة فالاكثرون على انه يسأل فى حال المعاينة لانه عندها يضطر الى معرفة الله تعالى والى انه كان عاصيا ويصير ملجأ الى أنه لا يفعل القبيح بان يعلم الله تعالى انه لو رامه لمنع منه ومن هذا حاله يصير كالممنوع من القبائح بهذا الالجاء فعند ذلك يسأل الرجعة و يقول رب

وتخصيص اليوم بالذكر اتهويل له والايذان بتفويتهم وقت الجؤار وقد جوز كونه جواب الشرط وأنت خبير بان المقصود الاصلى فى الجملة الشرطية هو الجواب فيؤدى ذلك الى أن يكون مفاجأتهم الى الجؤار غير مقصود أصلى وقوله تعالى (انكم منا لاتنصرون) تعليل للنهى عن الجؤار ببيان عدم افادته ونفعه أى لا يلحقكم من جهتنا نصرة تجيركم مما دهمكم وقيل لاتغاثون

ولا تمنعون منا ولا يساعده سياق النظم الكريم لان جؤارهم ليس الى غيره تعالى حتى يرد عليهم بعدم منصوريتهم من قبله ولا سياقه فان قوله تعالى (قد كانت اياتى تتلى عليكم) الخ صريح فى أنه تعليل لما ذكر من عدم لحوق النصر من جهته تعالى بسبب كفرهم بالآيات ولو كان النصر المنفى متوهما من الغير لعلل بعجزه وذله أو بعزة الله تعالى وقوته أى قد كانت آياتى تتلى عليكم فى الدنيا (فكنتم على أعقابكم تنكصون) أى تعرضون ﴿ ٣٠٢ ﴾ عن سماعها أشد الاعراض فضلا عن تصديقها والعمل بها والنكوص الرجوع قهقرى (مستكبرين به) أى بالبيت الحرام أو بالحرم والاضمار قبل الذكر لاشتهاره استكبارهم وافتخارهم بانهم خدامه وقوامه أو بكتابى الذى عبر عنه بآياتى على تضمين الاستكبار معنى التكذيب أو لان استكبارهم على المسلمين قد حدث بسبب استماعه ويجوز أن تتعلق الباء بقوله تعالى (سامرا) أى تسمرون بذكر القرآن وبالطعن فيه حيث كانوا يجتمعون حول البيت بالليل يسمرون وكانت عامة سمرهم ذكر القرآن وتسميته سحرا وشعرا والسامر كالحاضر فى الاطلاق على الجمع وقيل هو مصدر جاء على لفظ الفاعل وقرئ سمرا وسمارا وان تتعلق بقوله تعالى (تهجرون) من الهجر بالفتح بمعنى الهذيان أو الترك أى تهذون فى شان القرآن أو تتركونه أو من الهجر بالضم وهو الفحش ويؤيده قراءة تهجرون من أهجر فى منطقه اذا افحش فيه وقرئ تهجرون من هجر الذى هو مبالغة ﴿ وحده ﴾ فى هجرا ذا هذى (أفلم يدبروا القول) الهمزة لانكار الواقع واستقباحه والفاء للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام أى أفعلوا ما فعلوا من النكوص والاستكبار والهجر فلم يتدبروا القرآن ليعرفوا بما فيه من الاعجاز

ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت وقال آخرون بل يقول ذلك عند معاينة النار فى الآخرة ولعل هذا القائل انما ترك ظاهر هذه الآية لما أخبر الله تعالى فى كتابه عن أهل النار فى الآخرة انهم يسألون الرجعة لكن ذلك مما لا يمنع أن يكونوا سائلين الرجعة فى حال المعاينة والله تعالى يقول حتى اذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون فعلق قولهم هذا بحال حضور الموت وهو حال المعاينة فلا وجه لترك هذا الظاهر (المسئلة الرابعة) اختلفوا فى قوله سبحانه وتعالى ارجعون من المراد به فقال بعضهم الملائكة الذين يقبضون الارواح وهم جماعة فلذلك ذكره بلفظ الجمع وقال آخرون بل المراد هو الله تعالى لان قوله رب يمنع من أن يقول يارب واتى بلفظ الجمع للتعظيم كما يخاطب العظيم بلفظه فيقول فعلنا وصنعنا وقال الشاعر ✲ فان شئت حرمت النساء سواكم * ومن يقول بالاول يجعل ذكر الرب للقسم فكانه عند المعاينة قال بحق الرب ارجعون وههنا سؤالات (السؤال الاول) كيف يسألون الرجعة وقد علموا صحة الدين بالضرورة ومن الدين ان لا رجعة (الجواب) انه وان كان كذلك فلا يمتنع ان يسألوه لان الاستعانة بهذا الجنس من المسئلة تحسن وان علم انه لا يقع فأما ارادته للرجعة فلا يمتنع أيضا على سبيل ما يفعله المتمنى (السؤال الثانى) ما معنى قوله لعلى أعمل صالحا أفيجوز أن يسأل الرجعة مع الشك (الجواب) ليس المراد بلعل الشك فانه فى هذا الوقت باذل للجهد فى العزم على الطاعة ان أعطى ما سأل بل هو مثل من قصر فى حق نفسه وعرف سوء عاقبة ذلك التقصير فيقول مكنونى من التدارك لعلى أتدارك فيقول هذه الكلمة مع كونه جازما بانه سيتدارك ويحتمل أيضا ان الامر المستقبل اذا لم يعرفوه أوردوا الكلام الموضوع للترجى والظن دون اليقين فقد قال تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه (السؤال الثالث) ما المراد بقوله فيما تركت (الجواب) قال بعضهم فيما خلفت من المال ليصير عند الرجعة مؤديا لحق الله تعالى منه والمعقول من قوله تركت التركة وقال آخرون بل المراد اعمل صالحا فيما قصرت فيدخل فيه العبادات البدنية والمالية والحقوق وهذا أقرب كانهم تمنوا الرجعة ليصلحوا ما افسدوه ويطيعوا فى كل ما عصوا (السؤال الرابع) ما المراد بقوله كلا الجواب فيه قولان (أحدهما) انه كالجواب لهم فى المنع مما طلبوا كما يقال لطالب الامر المستبعد هيهات روى انه عليه السلام قال لعائشة رضى الله عنها اذا عاين المؤمن الملائكة قالوا نرجعك الى دار الدنيا فيقول الى دار الهموم والاحزان لا بل قدوما على الله وأما الكافر فيقال له نرجعك فيقول ارجعون فيقال له الى أى شئ ترغب الى جمع المال أو غرس الغراس أو بناء البنيان أو شق الانهار فيقول لعلى أعمل صالحا فيما تركت فيقول الجبار كلا (الثانى) يحتمل أن يكون على وجه الاخبار بانهم يقولون ذلك وان هذا الخبر حق فكانه قال حقا انها كلمة هو قائلها والاقرب الاول أما قوله انها كلمة هو قائلها ففيه وجهان (الاول) انه لا يخليها ولا يسكت عنها استيلاء الحسرة عليه (الثانى) انه قائلها

وحده ولا يجاب اليها ولا يسمع منه أما قوله تعالى ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون فالبرزخ هو الحاجز والمانع كقوله في البحرين بينهما برزخ لا يبغيان أي فهؤلاء صائرون الى حالة مانعة من التلاقي حاجزة عن الاجتماع وذلك هو الموت وليس المعنى انهم يرجعون يوم البعث انما هو اقناط كلي لما علم انه لا رجعة يوم البعث الا الى الآخرة ﴿ قوله تعالى (فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون) اعلم انه سبحانه لما قال ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون ذكر أحوال ذلك اليوم فقال فاذا نفخ في الصور وفيه ثلاثة أقوال (أحدها) ان الصور آلة اذا نفخ فيها يظهر صوت عظيم جعله الله تعالى علامة لخراب الدنيا ولاعادة الاموات روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه قرن ينفخ فيه (وثانيها) ان المراد من الصور مجموع الصور والمعنى فاذا نفخ في الصور أرواحها وهو قول الحسن فكان يقرأ بفتح الواو والفتح والكسر عن أبي رزين وهو حجة لمن فسر الصور بجمع صورة (وثالثها) ان النفخ في الصور استعارة والمراد منه البعث والحشر والاول أولى للخبر وفي قوله ثم نفخ فيه أخرى دلالة على انه ليس المراد نفخ الروح والاحياء لان ذلك لا يتكرر أما قوله فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن المعلوم انه سبحانه اذا أعادهم فالانساب ثابتة لان المعاد هو الولد والوالد فلا يجوز أن يكون المراد نفي النسب في الحقيقة بل المراد نفي حكمه وذلك من وجوه (أحدها) ان من حق النسب أن يقع به التعاطف والتراحم كما يقال في الدنيا اسئلك بالله والرحم أن تفعل كذا ففي سبحانه ذلك من حيث ان كل أحد من أهل النار يكون مشغولا بنفسه وذلك يمنعه من الالتفات الى النسب وهكذا الحال في الدنيا لان الرجل متى وقع في الامر العظيم من الآلام ينسى ولده ووالده (وثانيها) ان من حق النسب أن يحصل به التفاخر في الدنيا وان يسأل بعضهم عن كيفية نسب البعض وفي الآخرة لا يتفرغون لذلك (وثالثها) ان يجعل ذلك استعارة عن الخوف الشديد فكل امرئ مشغول بنفسه عن بنيه وأخيه وفصيلته التي تؤويه فكيف بسائر الامور قال ابن مسعود رضي الله عنه يؤخذ العبد والامة يوم القيامة على رؤس الاشهاد وينادي مناد ألا ان هذا فلان فمن له عليه حق فليات الى حقه فتفرح المرأة حينئذ أن يثبت لها حق على أمها أو أختها أو ابيها أو أخيها أو ابنها أو زوجها فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون وعن قتادة لا شئ أبغض الى الانسان يوم القيامة من أن يرى من يعرفه مخافة أن يثبت له عليه شئ ثم تلا يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وعن الشعبي قال قالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله أما تتعارف يوم القيامة أسمع الله تعالى يقول فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فقال عليه الصلاة والسلام ثلاث مواطن تذهل فيها كل نفس حين يرمى الى كل انسان كتابه وعند الموازين وعلى

قديمة له تعالى لا يكاد ينسى انكاره وأن مجئ القرآن على طريقته فمن أين ينكرونه وقيل أم جاءهم من الأمن من عذابه تعالى ما لم يأت آباءهم الاولين كاسمعيل عليه السلام وأعقابه من عدنان وقحطان ومضر وربيعة وقس والحرث ابن كعب وأسد بن خزيمة وتميم ابن مرة وتبع وضبة بن ادعامنوا به تعالى وبكتبه ورسله وأطاعوه (أم لم يعرفوا رسولهم) اضراب وانتقال من التوبيخ بما ذكر الى التوبيخ بوجه آخر والهمزة لانكار الوقوع أيضا أي بل ألم يعرفوه عليه السلام بالامانة والصدق وحسن الاخلاق وكمال العلم مع عدم التعلم من أحد وغير ذلك مما حازه من الكمالات اللائقة بالانبياء عليهم السلام (فهم له منكرون) أي جاحدون بنبوته فجحودهم بها مترتب على عدم معرفتهم بشأنه عليه السلام ومن ضرورة انتفاء المبني بطلان ما بني عليه أي فهم غير عارفين له عليه السلام فهو تأكيد لما قبله (أم يقولون به جنة) انتقال الى توبيخ آخر والهمزة لانكار الواقع كالاولى أي بل أيقولون به جنة أي جنون مع أنه أرجح الناس عقلا وأثقبهم ذهنا وأتقنهم رأيا وأوفرهم رزانة وقد روعي في هذه التوبيخات الاربعة التي اثنان منها متعلقان بالقرآن

والباقيان به عليه السلام الترقي من الادنى الى الاعلى حيث و بخوا أولا بعد التدبر وذلك يتحقق مع كون القول غير متعرض له بوجه من الوجوه ثم و بخوا بشيء اوا تصف به القول اكان سبب العدم تصديقهم به و بخوا بما يتعلق بالرسول عليه الصلاة والسلام من عدم معرفتهم به عليه الصلاة والسلام وذلك يتحقق بعدم المعرفة بخبره لا شرثم بما لو كان فيه عليه الصلاة والسلام ذلك لندح في رسالته عليه الصلاة والسلام (بل جاءهم بالحق) اضراب ﴿٣٠٤﴾ عما يدل عليه ما سبق أي ليس الامر كما زعموا في حق القرآن والرسول عليه الصلاة والسلام بل جاءهم عليه الصلاة والسلام بالحق أي الصدق الثابت الذي لا محيد عنه أصلا ولا مدخل فيه للباطل بوجه من الوجوه (وأكثرهم للحق) من حيث هو حق أي حق كان لا لهذا الحق فقط كما ينبئ عنه الاظهار في موقع الاضمار (كارهون) لما في جبلتهم من الزيغ والانحراف المناسب للباطل ولذلك كرهوا هذا الحق الابلج وزاغوا عن الطريق الانهج وتخصيص اكثرهم بهذا الوصف لا يقتضي الا عدم كراهة الباقين لكل حق من الحقوق وذلك لا ينافي كراهتهم لهذا الحق المبين فتأمل وقيل تقييد الحكم بالاكثر لان منهم من ترك الايمان استنكافا من توبيخ قومه أو لقلة فطنته وعدم تفكره لا لكراهة الحق وأنت خبير بان التعرض لعدم كراهة بعضهم للحق مع اتفاق الكل على الكفر به مما لا يساعد المقام أصلا (ولو اتبع الحق أهواءهم) استئناف مسوق لبيان أن أهواءهم ﴿بها﴾ الزائغة التي ما كرهوا الحق الا لعدم موافقته اياها مقتضية للطامة أي لو كان ما كرهوه من الحق الذي من جملته ما جاء به عليه السلام موافقا لأهوائهم الباطلة (لفسدت السموات والارض ومن فيهن) وخرجت عن الصلاح والانتظام بالكلية لان مناط النظام ليس الا ذلك وفيه من تنويه شأن الحق والتنبيه على سمو مكانه

جسر جهنم وطعن بعض الملحدة فقال قوله ولا يتساءلون وقوله ولا يسأل حميم حميما ناقض فواو أقبل بعضهم على بعض يتساءلون وقوله يتعارفون بينهم (الجواب) عنه من وجوه (أحدها) ان يوم القيامة مقداره خمسون ألف سنة ففيه أزمنة وأحوال مختلفة فيتعارفون و يتساءلون في بعضها و يتحيرون في بعضها لشدة الفزع (وثانيها) انه اذا نفخ في الصور نفخة واحدة شغلوا بأنفسهم عن التساؤل فاذا نفخ فيه أخرى أقبل بعضهم على بعض وقالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن (وثالثها) المراد لا يتساءلون بحقوق النسب (ورابعها) ان قوله لا يتساءلون صفة للكفار وذلك لشدة خوفهم وأما قوله فاقبل بعضهم على بعض يتساءلون فهو صفة أهل الجنة اذا دخلوها واعلم انه سبحانه قد بين ان بعد النفخ في الصور تكون المحاسبة وشرح أحوال السعداء والاشقياء وقيل انا بين سبحانه انه ليس في الآخرة ما تقوم الموازين وخفتها وجب أن يكون كل مكلف لابد وان يكون من أهل الجنة وأهل الفلاح أو من أهل النار فيبطل بذلك القول بان فيهم من لا يستحق الثواب ولا العقاب أو من تساوى له الثواب والعقاب ثم انه سبحانه شرح حال الاشقياء بقوله فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون وفي الموازين أقوال (أحدها) انها استعارة من العدل (وثانيها) ان الموازين هي الاعمال الحسنة فمن أتى بما قدر بخير فهو الفائز الظافر ومن أتى بما لا وزن له كقوله تعالى والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا فهو خالد في جهنم قال ابن عباس رضي الله عنهما الموازين جمع موزون وهي الموزونات من الاعمال أي الصالحات التي لها وزن وقدر عند الله تعالى من قوله فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا أي قدرا (وثالثها) انه ميزان له لسان وكفتان يوزن فيه الحسنات في أحسن صوره والسيآت في أقبح صورة فمن ثقلت حسناته سبق الى الجنة ومن ثقلت سيآته فالى النار وتمام الكلام في هذا الباب قد تقدم في سورة الانبياء عليهم السلام وأما الاشقياء فقد وصفهم الله تعالى بامور أربعة (أحدها) انهم خسروا أنفسهم قال ابن عباس رضي الله عنهما غبنوها بان صارت منازلهم للمؤمنين وقيل امتنع انتفاعهم بأنفسهم لكونهم في العذاب (وثانيها) قوله في جهنم خالدون ودلالته على خلود الكفار في النار بينة قال صاحب الكشاف في جهنم خالدون بدل من خسروا أنفسهم أو خبر بعد خبر لاولئك أو خبر مبتدا محذوف (وثالثها) قوله تلفح وجوههم النار قال ابن عباس رضي الله عنهما أي تضربهم وتاكل لحومهم وجلودهم قال الزجاج اللفح والنفح واحد الا أن اللفح اشد تأثيرا (ورابعها) قوله وهم فيها كالحون والكلوح ان تتقلص الشفتان و يتباعدا عن الاسنان كما ترى الرؤس المشوية وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تشويه النار فتتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تبلغ سرته وقرئ كلحون ثم انه سبحانه لما شرح عذابهم حكى ما يقال لهم عند ذلك تقريعا وتوبيخا وهو قوله تعالى ألم تكن آياتي تتلى عليكم ثم انكم كنتم تكذبون

مالايخفى واماماقيل لواتبع الحق الذى جاء به عليه السلام اهواءهم وانقلب شركا لجاء الله تعالى بالقيامة ولاهلك العالم ولم يؤخر ففيه أنه لايلائم فرض مجيئه عليه السلام به وكذا ماقيل لوكان فى الواقع الهان لايناسب المقام وأماماقيل لواتبع الحق أهواءهم لخرج عن الالهية فمما لااحتمال له أصلا (بل أتيناهم بذكرهم) انتقال من تشنيعهم بكراهة الحق الذى به يقوم العالم الى تشنيعهم بالاعراض عما جبل عليه كل نفس من الرغبة فيما فيه خيرها والمراد بالذكر القرآن الذى هو فخرهم وشرفهم حسبما ينطق به قوله تعالى وانه لذكر لك ولقومك أى بل أتيناهم بفخرهم وشرفهم الذى كان يجب عليهم أن يقبلوا عليه أكمل اقبال (فهم) بما فعلوه من النكوص (عن ذكرهم) أى فخرهم وشرفهم بمناسبة (معرضون) لاعن غير ذلك مما لايوجب الاقبال عليه والاعتناء به وفى وضع الظاهر موضع الضمير من يدتشنيع لهم وتقريع والفاء لترتيب مابعدها من اعراضهم عن ذكرهم على ماقبلها من ايتاء ذكرهم لا لترتيب الاعراض على الايتاء مطلقا فان المستتبع لكون اعراضهم اعراضا عن ذكرهم هو ايتاء ذكرهم لا الايتاء مطلقا وفى اسناد الاتيان بالذكر الى نون العظمة بعد اسناده الى ضميره عليه الصلاة والسلام تنويه لشأنه س النبى عليه الصلاة والسلام وتنبيه على كونه بمثابة عظيمة منه عزوجل وفى ايراد القرآن الكريم عند نسبته اليه عليه السلام بعنوان الحقية وعند نسبته اليه تعالى بعنوان الذكر من النكتة السرية والحكمة العبقرية مالايخفى فان التصريح بحقيته المستلزمة لحقية من جاء به هو الذى يقتضيه مقام حكاية ماقاله المبطلون فى شأنه وأما التشريف فانما يليق به تعالى لاسيما رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد المشرفين وقيل المراد

بهامع وضوحها فلاجرم صرتم مستحقين لما أنتم فيه من العذاب الاليم قالت المعتزلة الآية تدل على انهم انما وقعوا فى ذلك العذاب لسوء افعالهم ولو كان فعل العباد بخلق الله تعالى لما صح ذلك (والجواب) ان القادر على الطاعة والمعصية ان صدرت المعصية عنه لامرجح البتة كان صدورها عنه اتفاقيا لا اختياريا فيجب أن لايستحق العقاب وان كان لمرجح فذلك المرجح ليس من فعله والالزم التسلسل فحينئذ يكون صدور تلك الطاعة عنه اضطراريا لا اختياريا فوجب ان لايستحق الثواب وقوله تعالى (قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا اخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون قال اخسؤا فيها ولاتكلمون انه كان فريق من عبادى يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكرى وكنتم منهم تضحكون انى جزيتهم اليوم بما صبروا انهم هم الفائزون) اعلم انه سبحانه لما قال ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ذكروا مايجرى مجرى الجواب عنه وهو من وجهين (الاول) قولهم ربنا غلبت علينا شقوتنا وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف غلبت علينا ملكتنا من قولك غلبنى فلان على كذا اذا أخذ منك والشقاوة سوء العاقبة قرئ شقوتنا وشقاوتنا بفتح الشين وكسرها قال أبو مسلم الشقوة من الشقاء كالجلب والجلب والمصدر الجرى وقد يجئ لفظ فعله والمراد به الهيئة والحال فيقول جلست جلسة حسنة وركبة وقعدة وذلك من الهيئة وتقول عاش فلان عيشة طيبة ومات ميتة كريمة وهذا هو المثال والهيئة فعلى هذا المراد من الشقوة حال الشقاء (المسئلة الثانية) قال الجبائى المراد ان طلبنا اللذات المحرمة وحرصنا على العمل القبيح ماكان الا هذه الشقاوة تأثيرها فى خلق السبب وليس هذا باعتذار منهم لعلمهم بان لاعذر لهم فيه ولكنه اعتراف بقيام حجة الله تعالى عليهم فى سوء صنيعهم فكأنك حملت الشقاوة على طلب تلك اللذات المحرمة وطلب تلك اللذات حصل باختيارهم أولا باختيارهم فان حصل باختيارهم فذلك الاختيار محدث فان استغنى عن المؤثر فلم لايجوز فى كل الحوادث ذلك وحينئذ يلتد عليك باب اثبات الصانع وان افتقر الى محدث فحدثه اما العبد أو الله تعالى فان كان هو العبد فذلك باطل لوجوه (أحدها) انه قدرة العبد صالحة للفعل والترك فان توقف صدور تلك الارادة عنها الى مرجح آخر عاد الكلام فيه ولزم التسلسل وان لم يتوقف على المرجح فقد حدثت رجحان أحد طرفى الممكن على الآخر لالمرجح وذلك يسد باب اثبات الصانع (وثانيها) ان العبد لايعلم كيفية تلك الافعال ولا كيفيتها والجاهل بالشئ لايكون محدثا له والا لبطلت دلالة الاحكام والاتقان على العلم (والثانى) ان أحدا فى الدنيا لايرضى بأن يختار الجهل بل لايقصد الا تحصيل العلم فالكافر ماقصد الا تحصيل العلم فان كان الموجد لفعله هو نفسه وجب أن لايحصل الا ماقصد ايقاعه لكنه لم يقصد الا العلم فكيف حصل الجهل فثبت ان الموجد للدواعى والبواعث هو الله تعالى ثم ان الداعية ان كانت سائقة الى الخير كانت

بالذكر ماتنوه بقولهم لوأن عندنا ذكرا من الاولين وقيل وعظهم وأيد ذلك انه قرئ بذكراهم والتشنيع على الاولين اشد فان الاعراض عن وعظهم ليس في مثابة اعراضهم عن شرفهم أوعن ذكرهم الذي يتمنونه في الشناعة والقباحة (أم تسألهم) انتقال من توبيخهم بما ذكر الى التوبيخ بوجه آخر كأنه قيل أم يزعمون أنك تسألهم على ادا الرسالة (خرجا) أي جعلا لاجل ذلك لايؤمنون بك ﴿ ٣٠٦ ﴾ وقوله تعالى (فخراج ربك خير)

أي رزقه في الدنيا وثوابه في الآخرة تعليل لنفي السؤال المستفاد عن انكارأن لاتسألهم ذلك فان مارزقك الله تعالى في الدنيا والعقبى خير لك من ذلك وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام من تأهيل الحكم وتشريف عليه الصلاة والسلام مالايخفى والخراج بالذال المعجمة يقال لكل ماتخرجه الى غيرك الخراج غالب في العشر يؤخذ على الارض وقيل الخراج مايوضع على الرؤس والخراج على الارض وقيل الخراج أخص من الخراج من النعم الكريم استعار بالكرم للغزارة واللزوم لدوامه وخراج الله تعالى فخراج ربك خراجا (وهو خير الرازقين) تقرير لخيرية خراجه تعالى (وانك لتدعوهم الى صراط مستقيم) تشهد العقول السليمة باستقامته ليس فيه شائبة اعوجاج توهم انتهاءهم لك بوجه من الوجوه وقد ألزمهم الله عز وعلا وأزاح عللهم في هذه الآيات ﴿ تلك ﴾ حيث حصر أقسام مايؤدي الانكار والاتهام وبين انتفاء ماعدا كراهتهم للحق وقلة فطنتهم (وان الذين لايؤمنون بالآخرة) وصفوا بذلك تشنيعا لهم بما هم عليه من الانهماك في الدنيا وزعمهم أن لاحياة الا الحياة الدنيا واشعارا بعلة الحكم فان الايمان بالآخرة وخوف مافيها من الدواهي من أقوى الدواعي الى طلب

سعادة وان كانت سائقة الى الشر كانت شقاوة (الوجه الثاني) انهم في الجواب قولهم وكنا قوما ضالين وهذا الضلال الذي جعلوه كالعلة في اقدامهم على التكذيب ان كان هو نفس ذلك التكذيب لزم تعليل الشئ بنفسه والباطل ذلك لم يبق الا أن يكون ذلك الضلال عبارة عن شئ آخر ترتب عليه فعلهم وما ذاك الا خلق الداعي الى الضلال ثم ان القوم لما أوردوا هذين العذرين قال لهم سبحانه اخسؤا فيها ولاتكلمون وهذا هو صريح قولنا في ان التذلة مع الله تعالى غير جائزة بل لايسأل عما يفعل قال القاضي في قوله ربنا غلبت علينا شقوتنا دليل على انه لاعذر لهم الا الاعتراف فلو كان كفرهم من خلقه تعالى وبارادته وعلى ذلك كانوا يأتون بذكر وا ذلك أجدر والى العذر أقرب فنقول قد بينا ان الذي ذكروه ليس كذلك ولكنهم متى رأوا أن لاعذر لهم فلا جرم قال لهم اخسؤا فيها ولاتكلمون أما قوله ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون فالمعنى أخرجنا من هذه النار الى دار الدنيا فان عدنا الى الاعمال السيئة فانا ظالمون فان قيل كيف يجوز أن يطلبوا ذلك وقد علموا ان عقابهم دائم فلنا يجوز أن يلحقهم السهو عن ذلك في أحوال شدة العذاب فيسألون الرجعة ويحتمل أن يكون مع علمهم بذلك يسألون ذلك على وجه اللهوث والاسترواح أما قوله اخسؤا فيها ولاتكلمون فالخسء الزجر والتجرو كما يزجر الكلاب اذا زجرت يقال خسأ الكلب وخسأ بغسه اما قوله ولاتكلمون فليس هذا نهيا له عن التكلم في الآخرة بل المراد لاتكلمون في رفع العذاب فانه لايرفع ولاتخفف قال هو آخر كلام يتكلمون به ثم لاكلام بعد ذلك الا الشهيق والزفير والنباح كعواء الكلاب لاينتهون ولايفهمون وعن ابن عباس رضي الله عنهما انهم يمكثون مائتي سنة عواء ثم يقولون ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فيجابون حينئذ أنه اذا دعي الله وحده كفرتم فينادون أفانا ثابات اقض علينا ربك فيجابون بكم ماكثون فينادون أقمنا العمر بها أخرجنا فيجابون أولم تكونوا أقسمتم من قبل ماكم من زوال فينادون أفحاسبة أخرجنا نعمل صالحا فيجابون أولم نعمركم مايتذكر فيه من تذكر فينادون أفلا سبيل الى مرجعنا فيجابون اخسؤا فيها ثم بين سبحانه وتعالى ان فزعهم أمر يتصل بالمؤمنين وهو قوله انه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا أنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا قرئ سخريا في صف تعالى أحد ما فعلوا بعدوا من الخير هو ملخا اوله المؤمنين وفي حرف أبي أنه كان فريق بالفتح بمعنى لانه وفرأ نافع وأهل المدينة وأهل الكوفة غير عاصم بضم السين في جميع القرآن قرأ الباقون بالكسر هنا وفي ص قال الخليل وسيبويه هما لغتان كندي وتميم وقال الكسائي والفراء الكسر بمعنى الاستهزاء بالعمل والضم بمعنى السخرية قال مقاتل ان رؤساء قريش مثل أبي جهل وعتبة وأبي بن خلف كانوا يستهزؤن بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويضحكون بالفقراء منهم مثل بلال وخباب وعمار وصهيب والمعنى اتخذتموهم هزوا حتى أنسوكم بتشاغلكم بهم على

الحق وسلوك سبيله (عن الصراط) أى عن جنس الصراط (لناكبون) لعادلون فضلا عن الصراط المستقيم او عن الصراط المستقيم الذى تدعوهم اليه دلائل العقول أدل على كمال ضلالهم وغاية غيهم لما انه لا شئ أعز كونا مما هم عليه مما لا يطلق عليه اسم الصراط ولو كان معوجا بل اجتماعهم وكشفنا ما بهم من ضر) أى فحق وجب للجوا التمادوا (فى طغيانهم) افراطهم فى الكفر والاستكبار ✽ ٣٠٧ ✽ وعداوة الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين

تلك المسئلة ذكرنا وأما كذبك بموتهم ثم منهم ثم بين مجامع ما يقتضى فيهم الاسف والحسرة بأوصاف ما جازى به المؤمنين فقال فى جزيتهم اليوم باصبرهم انهم هم الفائزون فرأحمزة والكسائى انهم بالكسر والباقون بالفتح فالكسر استئناف أى فقد فازوا حيث صبروا فجوزوا وصبرهم أحسن الجزاء والفتح على تعليل ومنع المفعول الثانى من جزيت ويجوز أن تكون نصبا باضمار الخافض أى جزيتهم الجنة بصبرهم انهم هم الفائزون ✽ وقوله تعالى (قال كم لبثتم فى الارض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسئل العادين قال ان لبثتم الا قليلا لو انكم كنتم تعلمون أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم) اعلم ان فى هذه الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف فى مصاحف أهل الكوفة قال وهو ضمير الله أو الملوك بسؤالهم من الملائكة وقل فى مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشام وهو ضمير الملك أو بعض رؤسائه اهل النار (المسئلة الثانية) الغرض من هذا السؤال التبكيت والتوبيخ فقد كانوا ينكرون البعث فى الآخرة أصلا ولا يعترفون الا بهذه الحياة الدنيا ويظنون ان بعد الموت يدوم الفناء ولا اعادة فلما حصلوا فى النار وايقنوا انهم لا بد وأن يعادوا فيها مخلدون سألهم كم لبثتم فى الارض تنبيها لهم على ان ما ظنوه دائما طويلا فهو يسير بالاضافة الى ما أنكروه فحينئذ تحصل لهم الحسرة على ما كانوا يعتمدونه فى الدنيا من حيث أنه خلاف مطلوب الغرض السؤال بل الغرض ما ذكرناه فيل كيف يصح جوابهم أن يقولوا لبثنا يوما أو بعض يوم ولا يقع من أهل النار الكذب قلنا انهم نسوا ذلك لكثرة ما هم فيه من الانهوار وقد اعترفوا بهذا النسيان حيث قالوا فاسأل العادين قال ابن عباس رضى الله عنهما أنساهم ما كانوا فيه من العذاب بين النفختين وقيل مرادهم بقولهم لبثنا يوما أو بعض يوم تصغير لبثهم وتحقيرا بالاضافة الى ما وقعوا فيه وعرفوه من أليم العذاب والله أعلم (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى ان السؤال عن أى لبث وقع فقال بعضهم لبثهم احياؤهم فى الدنيا ويكون المراد انهم أسهوا حين تكاسلوا من العلم والعمل فأجابوا بأن قدر لبثهم كان يسيرا بناء على ان الله تعالى أعلمهم ان الدنيا متاع قليل وان الآخرة هى دار القرار وهذا القائل احتج على قوله بأنهم كانوا يزعمون ان لا حياء سواها فلما أحياهم الله تعالى فى النار وعذبوا سئلوا عن ذلك توبيخا لانه الى التوبيخ أقرب وقال آخرون بل المراد لبثهم فى حال الموت واحتجوا على قولهم بأمرين (الاول) ان قوله فى الارض يفيد الكون فى القبر ومن كان حيا فالاقرب أن يقال انه على الارض وهذا ضعيف لانه ولا تفسدوا فى الارض (الثانى) قوله تعالى ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة ثم بين سبحانه انهم كذبوا فى ذلك وأخبر عن المؤمنين قولهم لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث (المسئلة الرابعة) احتج من أنكر عذاب القبر بهذه الآية فقال قوله كم لبثتم فى الارض يتناول زمان كونهم أحياء فوق الارض وزمان كونهم أمواتا

(يعمهون) أى عامهين عن الهدى رمى الله لنا أعمانا حين أكلوا الطعن جاء أبو سفيان الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له أنشدك الله والرحم ألست تزعم انك بعثت رحمة للعالمين قال بلى فقال قتلت الآباء بالسيف والابناء بالجوع فنزلت والنعى وكشفنا عنهم ما أصابهم من القحط والضر ال برحمتنا اياهم وجدوا الخصب لارتدوا الى ما كانوا عليه من أذاة فراط الكفر والاستكبار ولذهب عنهم هذا القلق والابلاس وقد كان كذلك وقوله تعالى (ولقد أخذناهم بالعذاب) استئناف مسوق لبيان ستشنادا على مضمون الشرطية والمراد بالعذاب ما نالهم يوم بدر من القتل والاسر وما أصابهم من فنون العذاب التى

من جملتها القحط المذكور واللام جواب قسم محذوف أى و بالله لقد أخذناهم العذاب (فاستكانوا لربهم) بذلك أى لم يخضعوا ولم يتذللوا على أنه اما استفعال من الكون لان الخاضع ينتقل من كون الى كون أو افتعال من السكون قد أشبعت فتحته كمنتزاح فى منتزح بل أقاموا على ما كانوا عليه من العتو والاستكبار وقوله تعالى (وما يتضرعون) اعتراض مقرر لمضمون ما قبله اى وليس من عادتهم التضرع

اليه تعالى (حتى اذا فتحنا عليهم بابا ذا عذاب شديد) هو عذاب الآخرة كما ينبئ عنه التهويل بفتح الباب والوصف بالشدة وقرئ فتحنا بالتشديد (اذا هم فيه مبلسون) أي متحيرون آيسون من كل خير أي محناهم بكل محنة من القتل والاسر والجوع وغير ذلك فاجؤتهم منهم بين مقاد وتوجه الى الاسلام وقنوط أما أظهر وأبوسفيان فليس من الاستكانة له تعالى والتضرع اليه تعالى في شيء والما هو نوع خنوع الى أن يتم ﴿ ٣٠٨ ﴾ غرضه فحاله كما قيل اذا جاع ضعف واذا شبع طغا

وأكثرهم مقرون على ذلك الى أن يراعذاب الآخرة فحينئذ يبلسون وقيل المراد بالباب الجوع فانه أشد وأعم من القتل والاسر والمعنى أخذناهم أولا بما جرى عليهم يوم بدر من قتل صناديدهم وأسرهم فما وجد منهم تضرع واستكانة حتى فتحنا عليهم باب الجوع الذي هو أطم وأتم فأبلسوا الساعة وخضعت رقابهم وجاءك اعتاهم وأشدهم شكيمة في العناد يستعطفك والوجه هو الاول (وهو الذي أنشأ لكم السمع والابصار) تشاهدوا بها الآيات التنزيلية والتكوينية (والافئدة) لتتفكروا بها مما تشاهدونه وتعتبروا اعتبارا لائقا (قليلا ما تشكرون) أي شكرا قليلا غير معتد به تشكرون تلك النعم الجليلة لما أن العمدة في الشكر صرف تلك القوى التي هي في أنفسها نعم باهرة الى ما خلقت هي له وأنتم تخلون بذلك اخلالا عظيما

(وهو الذي ذرأكم في الارض) أي خلقكم وبثكم فيها بالتناسل (واليه تحشرون) أي تجمعون يوم القيامة ﴿ من ﴾ بعد تفرقكم لا الى غيره فكلكم لا تؤمنون به ولا تشكرونه (وهو الذي يحيي ويميت) من غير أن يشاركه في ذلك شيء من الاشياء (وله) خاصة (اختلاف الليل والنهار) أي هو المؤثر في اختلافهما أي تعاقبهما واختلافهما ازديادا وانتقاصا أو لامره وقضائه

وبين الارض فلو كانوا معذبين في القبر لعلموا ان مدة مكثهم في الارض طويلة فكانوا يقولون لبثنا يوما أو بعض يوم (والجواب) من وجهين (أحدهما) ان الجواب لا بد وان يكون بحسب السؤال ولما سئلوا عن موت لا حياة بعده التي الآخرة وذلك لا يكون الا بعد عذاب القبر و (ثانيهما) يحتمل أن يكونوا سئلوا عن قدر اللبث الذي اجتمعوا فيه فلا يدخل في ذلك تقدم موت بعضهم على البعض فيصح أن يكون جوابهم لبثنا يوما أو بعض يوم عند أنفسنا اما قوله تعالى سأل السائلين فقيه وجوه (أحدها) المراد بهم الحفظة وانهم كانوا يحصون الاعمال وأوقات الحالات و يحسبون أوقات موتهم وتقدم من تقدم وتأخر من تأخر وهو معنى قول عكرمة فاسئل العادين أي الذين يحسبون (وثانيها) فاسئل الملائكة الذين يعدون أيام الدنيا وساعاتها (وثالثها) أن يكون المعنى سل من يعرف عدد ذلك فانا قد نسيناه (ورابعها) قرئ العادين بالتخفيف أي الظلمة فانهم يقولون مثل قولنا (وخامسها) قرئ العاديين أي القدماء المعمرين فانهم يستقصرونها فكيف بنا ونحن اما قولهم لبثنا الا قليلا فلعلمهم انهم قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم على معنى انا لبثنا في الدنيا قليلا فكانه قيل لهم صدقتم فيها لبثتم فيها الا قليلا الا انها انقضت ومضت فتظهر ان الغرض من هذا السؤال تعريف قلة أيام الدنيا في مقابلة أيام الآخرة فاما قوله تعالى ان لبثتم كنتم تعلمون فبين في هذا الوجه أنه أراد انه قيل لو علمتم البعث والحشر لكنكم لما أنكرتم ذلك كنتم تعدونه قليلا ثم بين تعالى ما هو في الحقيقة أحضهم بقوله أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف عبثا حال أي عابثين كقولك لاعبين أو مفعول به أي ما خلقناكم للعبث (المسئلة الثانية) انه سبحانه لما شرح صفات القيامة ختم الكلام فيها باقامة الدلالة على وجودها وهي انه لولا القيامة لما تميز المطيع من العاصي والصديق من الزنديق وحينئذ يكون خلق هذا العالم عبثا وأما الرجوع الى الله تعالى فالمراد الى حيث لا ملك ولا حاكم سواه لانه رجوع من مكان الى مكان محال ذلك على الله تعالى ثم انه تعالى نزه نفسه عن العبث بقوله تعالى فتعالى الله الملك الحق والملك هو المالك الاشياء الذي لا يبيد ولا يزول ملكه وقدرته وأما الحق فهو الذي يحق له الملك لان كل شيء منه وإليه وهو الثابت الذي لا يزول ملكه و بين انه لا اله سواه وان ما عداه فصيره الى الفناء وما يفنى لا يكون الها و بين انه تعالى رب العرش الكريم قال أبو مسلم والعرش ههنا السموات بما فيها من العرش الذي تطوف به الملائكة و يجوز أن يعني به الملك العظيم وقال الاكثرون المراد هو العرش حقيقة وانما وصفه بالكريم لان الرحمة تنزل منه والخير والبركة ولنسبته الى أكرم الاكرمين كما يقال بيت كريم اذا كان مما كنوه كراما وقرئ الكريم بالرفع ونحوه ذو العرش المجيد ﴿ قوله تعالى (ومن يدع مع الله الها آخر لا برهان له به فانما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) اعلم انه سبحانه لما بين انه هو الملك الحق لا اله الا هو أتبعه بأن

اختلافهما (أفلا تعقلون) أي الا تتفكرون فلا تعقلون أو أتتفكرون فلا تعقلون بالنظر والتأمل أن الكل منا وان قدرتنا تعم جميع الممكنات التي من جملتها البعث وقرئ يعقلون على أن الالتفات الى الغيبة حكاية سوء حال المخاطبين لغيرهم وقيل على أن الخطاب الاول لغالب المؤمنين وليس بذاك (بل قالوا) عطف على مضمر يقتضيه المقام أي فلم يعقلوا بل قالوا (مثل ما قال الاولون) ﴿ ٣٠٩ ﴾ أي آباؤهم ومن دان بدينهم (قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا

من ادعى الهيا آخر فقد ادعى باطلا من حيث لا برهان لهم فيه ونبه بذلك على ان كل ما لا برهان فيه لا يجوز اثباته وذلك يوجب صحة النظر وفساد التقليد ثم ذكر ان من قال بذلك فجزاؤه العقاب العظيم بقوله ومن يحاسبه عنر به كأنه قال ان عقابه بلغ الى حيث لا يقدر أحد على حسابه الا الله تعالى وقرئ أنه لا يفلح بفتح الهمزة ومعناه حسابه عدم الفلاح جعل فاتحة السورة عدم أفلح المؤمنون وخاتمتها انه لا يفلح الكافرون فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة ثم أمر الرسول صلى الله وسلم بأن يقول رب اغفر وارحم ويثني عليه بانه خير الراحمين وقد تقدم بيان انه سبحانه خير الراحمين فان قيل كيف تتصل هذه الخاتمة بما قبلها قلنا لانه سبحانه لما شرح أحوال الكفار في جهلهم في الدنيا وعذابهم في الآخرة أمر بالانقطاع الى الله تعالى والالتجاء الى دلائل غفرانه ورحمته فانهما هما العاصمان عن كل الآفات والمخافات وروى ان أول سورة قد أفلح وآخرها من كنوز العرش من عمل بثلاث آيات من أولها واتعظ بأربع من آخرها فقد نجا وأفلح والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب والحمد لله وحده وصلاته على خير خلقه سيدنا محمد وآله وأصحابه وأزواجه وعترته وأهل بيته

﴿ سورة النور مدنية كلها وهي ثنتان وقيل أربع وستون آية ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

(سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون) قرأ العامة سورة بالرفع وقرأ طلحة بن مصرف بالنصب أما الذين قرؤا بالرفع فالوجه ورقالوا الابتداء بالنكرة لا يجوز والتقدير هذه سورة أنزلناها ونقول سورة أنزلناها مبتدأ موصوف والخبر محذوف أي فيما أوحينا اليك سورة أنزلناها وقال الاخفش لا يبعد الابتداء بالنكرة فسورة مبتدأ وأنزلناها خبره ومن نصب فعلى معنى الفعل يعني اتبعوا سورة أو انزل سورة أو أنزلنا سورة وأما معنى السورة ومعنى الانزال فقد تقدم فان قيل الانزال انما يكون من صعود الى نزول فهذا يدل على انه تعالى في جهة قلنا (الجواب) من وجوه (أحدها) ان جبريل عليه السلام كان يحفظها من اللوح المحفوظ ينزلها عليه صلى الله عليه وسلم فلهذا جاز ان يقال أنزلناها توسعا (وثانيها) ان الله تعالى أنزلها من أم الكتاب في السماء الدنيا دفعة واحدة ثم أنزلها بعد ذلك نجوما على لسان جبريل عليه السلام (وثالثها) معنى أنزلناها أي أعطيناها الرسول كما يقول العبد اذا كلم سيده رفعت اليه حاجتي كذلك يكون من السيد الى العبد الانزال قال الله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه أما قوله وفرضناها فالمشهور قراءة التخفيف وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتشديد اما قراءة التخفيف فالفرض هو القطع والتقدير قال الله تعالى فنصف ما فرضتم أي قدرتم ان الذي فرض عليك القرآن أي قدر ثم ان السورة لا يمكن فرضها لانها قد دخلت في الوجود وتحصيل الحاصل محال فوجب أن يكون المراد وفرضنا ما بين فيها وانما قال ذلك

(لمبعوثون) تفسير لما قبله من المبهم وتفصيل لما فيه من الاجمال وقدم الكلام فيه (لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا) أي البعث (من قبل) متعلق بالفعل من حيث اسناده الى آبائهم لا اليهم أي ووعد آباؤنا من قبل أو بمحذوف وقع حالا من آباؤنا أي كائنين من قبل (ان هذا) أي ما هذا (الا أساطير الاولين) أي أكاذيبهم التي سطروها جمع اسطورة كأحدوثة وأعجوبة وقيل جمع اسطار جمع سطر (قل لمن الارض ومن فيها) من المخلوقات تغليبا للعقلاء على غيرهم (ان كنتم تعلمون) جوابه محذوف ثقة بدلالة الاستفهام عليه أي ان كنتم تعلمون شيئا ما فأخبروني به فان ذلك كاف في الجواب وفيه من المبالغة في وضوح الامر وفي تجهيلهم ما لا يخفى أو ان كنتم تعلمون ذلك فأخبروني وفيه

استهانة بهم وتقرير لجهلهم ولذلك أخبر بجوابهم قبل ان يجيبوا حيث قيل (سيقولون لله) لان بديهة العقل تضطرهم الى الاعتراف بانه تعالى خالقها (قل) أي عند اعترافهم بذلك تبكيتا لهم (أفلا تذكرون) اي أتعلمون ذلك أو أتقولون ذلك فلا تتذكرون أن من فطر الارض ومافيها ابتداء قادر على اعادتها ثانيا فان البدء ليس بأهون من الاعادة بل الامر بالعكس في قياس العقول وقرئ تتذكرون على الاصل (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم

اعبد الرب تنويها بشان العرش ورفعا لمحله عن ان يكون تبعا للسموات وجنودا وذكر اولقد روعى فى الامر بالسؤال الترقى من الادنى الى الاعلى (سيقولون لله) باللام نظرا الى معنى السؤال فان قولك من ربه ولمن هو فى معنى واحد وقرئ هو وما بعده بغير لام نظرا الى لفظ السؤال (قل) الخ اما انهم وتوبيخا (أفلا تتقون) أى أتعلمون ذلك ولا تتقون أنفسكم عقابه بعد العمل بموجب علم حيث تكفرون به وتنكرون البعث ﴿ ٣١٠ ﴾ وتثبتون له شريكا فى الربوبية (قل بيده ملكوت كل شئ) مما ذكر ومالم يذكر أى ملكه التام القاهر وقيل خزائنه (وهو يجير) أى يغيث غيره اذا شاء (ولا يجار عليه) أى ولا يغيث أحد عليه أى لا يمنع أحد منه بالنصر عليه (ان كنتم تعلمون) أى شيئا ما أو ذلك فاجيبونى على ماسبق (سيقولون لله) أى لله ملكوت كل شئ وهو الذى يجير ولا يجار عليه (قل فنى تسحرون) أ فمن أين تخدعون وتصرفون عن الرشد مع علمكم به الى ما أنتم عليه من الغى فان من لا يكون مسحورا مخبل العقل لا يكون كذلك (بل أتيناهم بالحق الذى لا محيد عنه من التوحيد والوعد بالبعث (وانهم لكاذبون) فيما قالوا من الشرك وانكار البعث (ما اتخذ الله من ولد) كما يقوله النصارى والقائلون ان الملائكة بنات الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا (وما كان معه من اله) يشاركه فى الالوهية كما يقوله عبدة الاوثان وغيرهم (اذن لذهب كل اله بما خلق) ﴿ وساء ﴾ جواب لمحاجتهم وجزاء الشرط قد حذف لدلالة ماقبله عليه أى لو كان معه الهة كما يزعمون لذهب كل واحد منهم بما خلقه واستبد به وامتاز ملكه عن ملك الآخرين ووقع بينهم التغالب والتحارب كما هو الجارى فيما بين الملوك (ولعلا بعضهم على بعض) فلم يكن بيده وحده ملكوت

لان أكثر مافى هذه السورة من باب الاحكام والحدود فذلك حقيقها بهذا الكلام وأما قراءة التشديد فقال الفراء التشديد للمبالغة والتكثير اما المبالغة فمن حيث انها حدود وأحكام فلا بد من المبالغة فى ايجابها ليحصل الانقياد لقبولها وأما التكثير فلوجهين (أحدهما) ان الله تعالى بين فيها أحكاما مختلفة (وثانى) انه سبحانه وتعالى أوجبها على كل المكلفين الى آخر الدهر أما قوله وأنزلنا فيها آيات بينات ففيه وجوه (أحدها) انه سبحانه ذكر فى أول السورة أنواعا من الاحكام والحدود فى آخرها دلائل التوحيد فقوله وفرضناها اشارة الى الاحكام التى بينها الا ان قوله وأنزلنا فيها آيات بينات اشارة الى ما بين من دلائل التوحيد والذى يؤكد هذا التأويل قوله لعلكم تذكرون فان الاحكام والشرائع ما كانت معلومة لهم ليؤمروا بتذكرها أما دلائل التوحيد فقد كانت كالمعلومة لهم لظهورها فأمروا بتذكرها (وثانيها) قال أبو مسلم يجوز أن تكون الآيات البينات ماذكر فيها من الحدود والشرائع كقوله رب اجعل لى آية قال آيتك أن لا تكلم الناس ثلاث ليال سويا سأل ربه أن يفرض عليهم عملا (وثالثها) قال القاضى ان السورة كما اشتملت على جمل الواجبات فقد اشتملت على كثير من البالجات بأن بينها الله تعالى ولما كان بيانه سبحانها مفصلا وصف الآيات بأنها بينات أما قوله تعالى لعلكم تذكرون فقرئ بتشديد الذال وتخفيفها ومعنى لعل قد تقدم فى سورة البقرة قال القاضى لعل بمعنى كى وهذا يدل على انه سبحانه أراد من جميعهم أن يتذكروا والجواب) انه سبحانه وأراد ذلك من الكل لما قوى دواعيهم الى جانب الطاعة ولولم توجد تلك القوية لزم وقوع الفعل المرجح ولو جاز ذلك لما جاز الاستدلال بالامكان والحدوث على وجود المرجح ويلزم نفى الصانع واذا كان كذلك وجب حمل لعل على سائر الوجوه المذكورة فى سورة البقرة واعلم انه سبحانه ذكر فى هذه السورة أحكاما كثيرة (الحكم الاول) * قوله تعالى (الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) اعلم ان قوله تعالى الزانية والزانى رفعهما على الابتداء والخبر محذوف عند الخليل وسيبويه على معنى فيما فرض الله عليكم الزانية والزانى أى فاجلدوهما ويجوز ان يكون الخبر فاجلدوا وانما دخلت الفاء لكون الالف واللام بمعنى الذى وتضمنه معنى الشرط تقديره التى زنت والذى زنى فاجلدوهما كما تقول من زنا فاجلدوه وقرئ بالنصب على اضمار فعل يفسره الظاهر وقرئ والزان بلا ياء واعلم ان الكلام فى هذه الآية على نوعين (أحدهما) ما يتعلق بالشرعيات (والثانى) ما يتعلق بالعقليات ونحن نأتى على البابين بقدر الطاقة ان شاء الله تعالى (النوع الاول) الشرعيات واعلم ان الزنا حرام وهو من الكبائر ويدل عليه أمور (أحدها) ان الله تعالى قرنه بالشرك وقتل النفس فى قوله تعالى والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما وقال ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة

كل شئ وهو باطل لا يقول به عاقل قطع قيام البرهان على استناد جميع الممكنات الى واجب الوجود واحد بالذات (سبحان الله عما يصفون) أي يصفونه من أن يكون له أنداد وأولاد (عالم الغيب والشهادة) بالجر على أنه بدل من الجلالة وقيل صفة لها قرئ بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف وأيا ما كان فهو دليل اخر على انتفاء الشريك بناء على توافقهم في تفرده تعالى بذلك ولذلك رتب عليه بالفاء قوله ﴿ ٣١١ ﴾ تعالى (فتعالى عما يشركون) فان تفرده تعالى بذلك

وسلم سبيلا (وثانيها) انه تعالى وجب المائة فيها بكمالها بخلاف حد القذف وشرب الخمر وشرع فيه الرجم ونهى المؤمنين عن الرأفة وأمر بشهود الطائفة للتشهير وأوجب كون تلك الطائفة من المؤمنين لان الفاسق من صلحاء قومه أخجل (وثالثها) ما روى حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال يا معشر الناس اتقوا الزنا فان فيه ست خصال ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة أما التي في الدنيا فيذهب البهاء ويورث الفقر وينقص العمر وأما التي في الآخرة فسخط الله سبحانه وتعالى وسوء الحساب وعذاب النار وعن عبد الله قال قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم عند الله قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم اى قال وأن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك قلت ثم أي قال وأن تزني بحليلة جارك فأنزل الله تعالى تصديقها والذين لا يدعون مع الله الها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون واعلم انه يجب البحث في هذه الآية عن أمور (أحدها) عن ماهية الزنا (وثانيها) عن أحكام الزنا (وثالثها) عن الشرائط المعتبرة في كون الزنا موجبا لتلك الاحكام (ورابعها) عن الطريق الذي به يعرف حصول الزنا (وخامسها) ان المخاطبين بقوله فاجلدوهم من هم (وسادسها) ان الرجم والجلد المامور بهما في الزنا كيف يكون حالهما (البحث الاول) عن ماهية الزنا قال بعض أصحابنا انه عبارة عن ايلاج فرج في فرج مشتهى طبعا محرم قطعا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا في ان اللواط هل يتعلق عليها اسم الزنا أم لا فقال قائلون نعم واحتج عليه بالنص والمعنى اما النص فاروى أبو موسى الاشعري رضي الله عنه انه عليه الصلاة والسلام قال اذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان وأما المعنى فهو ان اللواط مثل الزنا صورة ومعنى أما الصورة فلان الزنا عبارة عن ايلاج فرج في فرج مشتهى طبعا محرم قطعا واللواط أيضا فرج لان القبل انما سمي فرجا لما فيه من الانفراج وهذا المعنى حاصل في الدبر أكثر مما في القبل لان في العرف لا تسمى اللواطة زنا ولكن هذا لا يقدح في أصل اللغة كما يقال هذا طبيب وليس بعالم مع ان الطب علم وأما المعنى فلان الزنا قضاء للشهوة من محل مشتهى طبعا على جهة الحرام المحض وهذا موجود في اللواط لان القبل والدبر يشتهيان لانهما يشتركان في المعاني التي هي متعلق الشهوة من الحرارة واللين وضيق المدخل ولذلك فانا نرى الغلمان لا يفرق بين المحلين واذا ثبت هذا فالفرق هو الشرع في التحريم والتحليل فهذا حجة من قال اللواط داخل تحت اسم الزنا وأما الاكثرون من أصحابنا فقد سلموا ان اللواط غير داخل تحت اسم الزنا واحتجوا عليه بوجوه (أحدها) العرف المشهور من ان هذا لواط وليس بزنا وبالعكس والاصل عدم التغيير (وثانيها) لو حلف لا يزني فلاط لا يحنث (وثالثها) ان الصحابة اختلفوا في حكم اللواط وكانوا عالمين باللغة فلو سمي اللواط زنا لأغناهم نص الكتاب في حد الزنا عن الاختلاف والاجتهاد وأما الحديث فهو محمول على الاثم بدليل قوله عليه الصلاة والسلام اذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان وقال عليه الصلاة والسلام اليدان تزنيان والعينان

موجب لتعاليه عن أن يكون له شريك (قل رب أما ترينى) أي ان كان لا بد من أن ترني (ما يوعدون) من العذاب الدنيوي المستأصل وأما العذاب الاخروي فلا يناسبه المقام (رب فلا تجعلني في القوم الظالمين) أي قرينا لهم فيما هم فيه من العذاب وفيه ايذان بكمال فظاعة ما وعدوه من العذاب وكونه بحيث يجب أن يستعيذ منه من لا يكاد يمكن أن يحيق به ورد لانكارهم اياه واستعجالهم به على طريقة الاستهزاء به وقيل أمر به عليه الصلاة والسلام هضما لنفسه وقيل لان شؤم الكفرة قد يحيق بمن وراءهم كقوله تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة وروي انه تعالى أخبر نبيه عليه الصلاة والسلام بان له في أمته نقمة ولم يطلعه على وقتها فامره بهذا الدعاء وتكرير النداء وتصدير

كل من الشرط والجزاء به لابراز كمال الضراعة والابتهال (وانا على أن نريك ما نعدهم) من العذاب (لقادرون) ولكنا نؤخره لعلمنا بان بعضهم أو بعض أعقابهم سيؤمنون أو لانا لا نعذبهم وأنت فيهم وقيل قد أراه ذلك وهو ما أصابهم يوم بدر أو فتح مكة ولا يخفى بعده فان المتبادر أن يكون ما يستحقونه من العذاب الموعود عذابا هائلا مستاصلا لا يظهر على يديه عليه الصلاة والسلام للحكمة الداعية اليه (ادفع بالتي هي أحسن السيئة) وهو الصفح عنها

والاحسان فى مقابلتها لكن لابحيث يؤدى الى وهن فى الدين وقيل هى كلمة التوحيد والسيئة الشرك وقيل هو الامر بالمعروف والسيئة المنكر وهو أبلغ من ادفع بالحسنة السيئة لما فيه من التنصيص على التفضيل وتقديم الجار والمجرور على المفعول فى الموضعين للاهتمام (نحن أعلم بما يصفون) اى بما يصفونك به أو بوصفهم اياك على خلاف ما أنت عليه وفيه وعيد لهم بالجزاء والعقوبة وتسلية لرسول الله صلى الله ﷺ ٣١٢ ﷺ عليه وسلم وارشاد له عليه السلام الى تفويض أمره اليه تعالى (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين) أى وساوسهم المغرية على خلاف ما أمرت به من المحاسن التى من جملتها دفع السيئة بالحسنة وأصل الهمز النخس ومنه مهماز الرائض شبه حثهم الناس على المعاصى بهمز الرائض الدواب على الاسراع أو الوثب والجمع للمرات أو لتنوع الوساوس أو لتعدد المضاف اليه (وأعوذ بك رب أن يحضرون) أمر عليه السلام بان يعوذ به تعالى من حضورهم بعد ما أمر بالعوذ به من همزاتهم للمبالغة فى التحذير من ملابستهم واعادة الفعل مع تكرير النداء لاظهار كمال الاعتناء بالمأمور به وعرض نهايته الاستعاذة فى الاستعاذة اى أعوذ بك من أن يحضرونى ويحومواحولى فى حال من الاحوال وتخصيص حال الصلاة وقراءة القرآن كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما وحال حلول الاجل كما روى عن عكرمة رحمه الله لانها ﷺ الاحصان ﷺ أحرى الاحوال بالاستعاذة منها (حتى اذا جاء أحدهم الموت) حتى هى التى يبتدأ بها الكلام دخلت على الجملة الشرطية وهى مع ذلك غاية لما قبلها متعلقة بيصفون وما بينهما اعتراض مؤكد للاغضاء بالاستعاذة به تعالى من

تزنيان وأما التماس فبعيد لان الفرج وان كان سمى فرجا لما فيه من الانفراج فلا يجب أن يسمى كل ما فيه انفراج بالفرج والا لكان الفم والعين فرجا وأيضا فهم سموا النجم نجما لظهوره ثم ما سموا كل ظاهر نجما سموا الجنين جنينا لاستتاره وما سموا كل مستتر جنينا واعلم أن الشافعى رحمه الله فى فعل اللواط قولان أصحهما عليه حد الزنا ان كان محصنا رجم وان لم يكن محصنا جلد مائة وغرب عاما (وثانيهما) يقتل الفاعل والمفعول به سواء كان محصنا أو لم يكن محصنا لما روى ابن عباس رضى الله عنهما انه عليه الصلاة والسلام قال من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به ثم فى كيفية قتله أوجه (أحدها) تحرق بقيته كالمرتد (وثانيها) يرجم بالحجارة وهو قول مالك وأحمد واسحق (وثالثها) يهدم عليه جدار روى ذلك عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه (ورابعها) يرمى من شاهق جبل حتى يموت روى ذلك عن على رضى الله عنه وانما ذكرنا هذه الوجوه لان الله تعالى عذب قوم لوط بكل ذلك قال تعالى فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل وعند أبى حنيفة رحمه الله لا يحد الولى بل يعذر اما المفعول به فان كان عاقلا بالغا طائعا فان قلنا على الفاعل القتل فبقتل المفعول به على سفة قتل الفاعل للغير وان قلنا على الفاعل حد الزنا فعلى المفعول به مائة جلدة وتغريب عام محصنا كان أو غير محصن وقيل ان كانت امرأة محصنة فعليها الرجم وليس بصحيح لانها لا تصير محصنة بالتمكين فى الدبر فلا يلزمها حد المحصنات كما لو كان المفعول به ذكرا خلافا للشافعى رحمه الله على وجوب الحد من وجوه (الاول) ان اللواط اما أن يساوى الزنا فى الماهية أو يساويه فى لوازم هذه الماهية واذا كان كذلك وجب الحد (بيان الاول) قوله عليه الصلاة والسلام اذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان فالفظ الدال على كون اللائط زانيا واللفظ الدال بالمطابقة على ماهية دال بالالتزام على حصول جميع لوازمها ودلالة المطابقة والالتزام مشتركان فى أصل الدلالة فاللفظ الدال على حصول الزنا دال على حصول جميع لوازم ثم نعود هنا ان تحقق مسمى الزنا فى اللواط دخل تحت قوله الزانية والزانى فاجلدوا وان لم يتحقق مسمى الزنا وجب أن يتحقق لوازم مسمى الزنا لما ثبت ان اللفظ الدال على تحقق ماهية دال على تحقق جميع تلك اللوازم ترك العمل به فى حق الماهية فوجب أن يبقى معمولا به فى الدلالة على جميع تلك اللوازم لكن من لوازم الزنا وجوب الحد فوجب أن يتحقق ذلك فى اللواط اكثر ما فى الباب انه ترك العمل بذلك فى قوله عليه الصلاة والسلام اذا أتت المرأة المرأة فهما زانيتان لكن لا يلزم من ترك العمل هناك تركه ههنا (الثانى) ان اللائط يجب قتله فوجب أن يقتل رجما (بيان الاول) قوله عليه السلام من عمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل منهما والمفعول به (وبيان الثانى) انه لما وجب قتله وجب أن يكون زانيا والا لما جاز قتله لقوله عليه السلام لا يحل دم امرئ مسلم الا لاحدى ثلاث وههنا لم يوجد كفر بعد ايمان ولا قتل نفس بغير حق فلو لم يوجد الزنا بعد الاحصان لوجب ان لا يقتل واذا ثبت انه وجد الزنا بعد

الشياطين أن يزلوه عليه الصلاة والسلام عن الحلم و يغروه على الانتقام لكن لا بمعنى أنه العامل فيه لفساد المعنى بل بمعنى أنه معمول لمحذوف يدل عليه ذلك وتعلقها بكاذبون ﴿ ٣١٣ ﴾ في غاية البعد لفظا ومعنى أي يستمرون على الوصف

الاحصان وجب الرجم لهذا الحديث (الثالث) نقيس اللواط على الزنا والجامع ان الطبع داع اليه لما فيه من الالتذاذ وهو قبيح فيناسب الزاجر والحد يصلح زاجرا عنه قالوا والفرق من وجهين (أحدهما) انه وجد في الزنا داعيات فكان وقوعه أكثر فساد افكانت الحاجة الى الزاجر أتم (الثاني) ان الزنا يقتضي فساد الانساب (والجواب) الغاؤهما بوطء العجوز الشوهاء واحتج أبو حنيفة رحمه الله بوجوه (أحدها) اللواط ليس بزنا على ما تقدم فوجب أن لا يقتل لقوله عليه الصلاة والسلام لا يحل دم امرئ مسلم الا احدى ثلاث (وثانيها) ان اللواط لا يساوي الزنا في الحاجة الى شرع الزاجر ولا في الجناية فلا يساويه في الحد بيان عدم المساواة في الحاجة ان اللواطة وان كانت يرغب فيها الفاعل لكن لا يرغب فيها المفعول طبعا بخلاف الزنا فان الداعي حاصل من الجانبين وأما عدم المساواة في الجناية فلان في الزنا اضاعة النسب ولا كذلك اللواط اذا ثبت هذا فوجب أن لا يساويه في العقوبة لان الدليل ينفي شرع الحد لكونه ضررا ترك العمل به في الزنا فوجب أن يبقى في اللواط على الاصل (وثالثها) ان الحد كالبدل عن المهر فلما لم يتعلق باللواط المهر فكذا الحد (والجواب) عن الاول ان اللواط وان لم يكن مساويا للزنا في ماهيته لكنه يساويه في الاحكام (وعن الثاني) ان اللواط وان كان لا يرغب فيه المفعول لكن ذلك بسبب اشتداد رغبة الفاعل لان الانسان حريص على ما منع (وعن الثالث) انه لا بد من الجامع والله أعلم (المسئلة الثانية) أجمعت الامة على حرمة اتيان البهائم والشافعي رحمه الله في حقوبته أقوال (أحدها) يجب به حد الزنا فيرجم المحصن و يجلد غير المحصن و يغرب (والثاني) انه يقتل محصنا كان أو غير محصن لما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه فقيل لابن عباس ما شأن البهيمة فقال ما أراه قال ذلك الا انه كره أن يؤكل لحمها وقد عمل بها ذلك العمل (والقول الثالث) وهو الاصح وهو قول أبي حنيفة ومالك والثوري وأحمد رحمهم الله ان عليه التعزير لان اللواط شرع للزجر عما تميل النفس اليه وهذا الفعل لا تميل النفس اليه وضعفوا حديث ابن عباس رضي الله عنهما لضعف اسناده وان ثبت فهو معارض بما روي انه عليه السلام نهى عن ذبح الحيوان الا لاكله (المسئلة الثالثة) السحق من النسوان واتيان الميتة والاستمناء باليد لا يشرع فيها الا التعزير (البحث الثاني) عن أحكام الزنا واعلم انه كان في أول الاسلام عقوبة الزاني الحبس الى الممات في حق الثيب والاذى بالكلام في حق البكر قال الله تعالى واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهد واعليهن أربعة منكم فان شهدوا فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا واللذان يأتيانها منكم فآذوهما فان تابا وأصلحا فاعرضوا عنهما ثم نسخ ذلك فجعل حد الزنا على الثيب الرجم وحد البكر الجلد والتغريب ولنذكرهاتين المسئلتين (المسئلة

المذكور حتى اذا جاء أحدهم أي أحد كان الموت الذي لا مرد له وظهرت له أحوال الآخرة (قال) تحسرا على ما فرط فيه من الايمان والطاعة (رب ارجعون) أي ردني الى الدنيا والواو لتعظيم المخاطب وقيل لتكرير قوله ارجعني كما قيل في قفا نبك ونظائره (لعلي اعمل صالحا فيما تركت) أي في الايمان الذي تركته لم ينظمه في سلك الرجاء كسائر الاعمال الصالحة بان يقول لعلي أؤمن فاعمل الح للاشعار بانه أمر مقرر الوقوع غني عن الاخبار بوقوعه قطعا فضلا عن كونه مرجو الوقوع أي لعلي أعمل في الايمان الذي آتي به البتة عملا صالحا وقيل فيما تركته من المال أو من الدنيا وعنه عليه الصلاة والسلام اذا عاين المؤمن الملائكة قالوا أترجع الى الدنيا فيقول الى دار الهموم والاحزان بل قدوما الى الله تبارك وتعالى وأما الكافر فيقول ارجعون (كلا) ردع عن طلب الرجعة واستبعادا لهم ﴿ ٤٠ ﴾ س (انها) أي قوله رب أرجعون الخ (كلمة هو قائلها) لا محالة لتسلط الحسرة عليه (ومن ورائهم) أي

امامهم والضمير لاحدهم والجمع باعتبار المعنى لانه فى حكم كلهم كما أن الافراد فى الضمائر الاول باعتبار اللفظ (برزخ) حائل
بينهم وبين الرجعة (الى يوم يبعثون) يوم القيامة ﴿ ٣١٤ ﴾ وهو اقناط كلى عن الرجعة الى الدنيا لما علم انه لا رجعة

الاولى) الخوارج انكروا الرجم واحتجوا فيه بوجوه (أحدها) قوله تعالى فعليهن نصف ما على المحصنات فلو وجب الرجم على المحصن لوجب نصف الرجم على الرقيق لكن الرجم لا نصف له (وثانيها) ان الله سبحانه ذكر فى القرآن أنواع المعاصى من الكفر والقتل والسرقة ولم يستقص فى أحكامها كما استقصى فى بيان أحكام الزنا الا ترى أنه تعالى نهى عن الزنا بقوله ولا تقربوا الزنا ثم توعد عليه ثانيا بالنار كما فى كل المعاصى ثم ذكر الجلد ثالثا ثم خص الجلد بوجوب احضار المؤمنين رابعا ثم خصه بالنهى عن الرأفة عليه بقوله ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله خامسا ثم أوجب على من رمى مسلما بالزنا ثمانين جلدة سادسا ولم يجعل ذلك على من رماه بالقتل والكفر وهما أعظم منه ثم قال سابعا ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا ثم ذكر ثامنا من رمى زوجته بما يوجب اللعان واستحقاق غضب الله تعالى ثم ذكر تاسعا ان الزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك ثم ذكر عاشرا ان ثبوت الزنا مخصوص بالشهود الاربعة فمع المبالغة فى استقصاء أحكام الزنا قليلا وكثيرا لا يجوز اهمال ما هو أجل أحكامها وأعظم آثارها ومعلوم ان الرجم لو كان مشروعا لكان أعظم الآثار فحيث لم يذكره الله تعالى فى كتابه دل على انه غير واجب (وثالثها) قوله تعالى الزانية والزانى فاجلدوا يقتضى وجوب الجلد على كل الزناة وايجاب الرجم على البعض بخبر الواحد يقتضى تخصيص عموم الكتاب بخبر الواحد وهو غير جائز لان الكتاب قاطع فى متنه وخبر الواحد غير قاطع فى متنه والمقطوع راجح على المظنون واحتج الجمهور من المجتهدين على وجوب رجم المحصن لما ثبت بالتواتر انه عليه الصلاة والسلام فعل ذلك قال أبو بكر الرازى روى الرجم أبو بكر وعمر وعلى وجابر بن عبد الله وأبو سعيد الخدرى وأبو هريرة وبريدة الاسلمى وزيد بن خالد فى آخرين من الصحابة وبعض هؤلاء الرواة روى خبر رجم ماعز وبعضهم خبر اللخمية والغامدية وقال عمر رضى الله عنه لولا أن يقول الناس زاد عمر فى كتاب الله لاثبته فى المصحف (والجواب) عما احتجوا به أولا انه مخصوص بالجلد فان قيل فيلزم تخصيص القرآن بخبر الواحد قلنا بل بالخبر المتواتر لما بينا الرجم منقول بالتواتر وأيضا فقد بينا فى أصول الفقه ان تخصيص القرآن بخبر الواحد جائز (والجواب) عن الثانى انه لا يستبعد تجدد الاحكام الشرعية بحسب تجدد المصالح فلعل المصلحة التى تقتضى وجوب الرجم حدثت بعد نزول تلك الآيات (والجواب) عن الثالث انه نقل عن على رضى الله عنه انه كان يجمع بين الجلد والرجم وهو اختيار أحمد واسحق وداود واحتجوا عليه بوجوه (أحدها) ان عموم هذه الآية يقتضى وجوب الجلد والخبر المتواتر يقتضى وجوب الرجم ولا منافاة فوجب الجمع (وثانيها) قوله عليه السلام البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة و رجم بالحجارة (وثالثها) روى أبو بكر الرازى فى أحكام القرآن عن ابن جريج عن ابن الزبير عن جابر ان رجلا زنى بامرأة فامر به النبى صلى الله عليه وسلم فجلد ثم أخبر النبى صلى الله عليه

يوم البعث الى الدنيا وانما الرجعة يومئذ الى الحياة الاخروية (فاذا نفخ فى الصور) قيام الساعة وهى النفخة الثانية التى يقع عندها البعث والنشور وقيل المعنى فاذا نفخ فى الاجساد أرواحها على أن الصور جمع الصورة لا القرن ويؤيده القراءة بفتح الواو وبه مع كسر الصاد (فلا انساب بينهم) تنفعهم لزوال التراحم والتعاطف من فرط الحيرة واستيلاء الدهشة بحيث يفر المرء من أخيه وأمه وابيه وصاحبته وبنيه أو لا انساب يفخرون بها (يومئذ) كما هى بينهم اليوم (ولا يتساءلون) أى لا يسأل بعضهم بعضا لاشتغال كل منهم بنفسه ولا يناقضه قوله تعالى فاقبل بعضهم على بعض يتساءلون لان هذا عند ابتداء النفخة الثانية وذلك بعد ذلك (فمن ثقلت موازينه) موزونات حسناته من العقائد والاعمال أى فمن كانت له عقائد صحيحة وأعمال صالحة يكون لها وزن وقدر عند الله تعالى (فاولئك هم المفلحون) الفائزون بكل مطلوب ﴿ وسلم ﴾ الناجون من كل مهروب

(ومن خفت موازينه) اى ومن لم يكن له من العقائد والاعمال ماله وزن وقدر عنده تعالى وهم الكفار لقوله تعالى فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا وقدم تفصيل ما فى هذا ﴿ ٣١٥ ﴾ المقام من الكلام فى تفسير سورة الاعراف (بما كانوا

وسلم انه كان محصنا فامر به فرجم (ورابعها) روى ان عليا رضى الله عنه جلد شراحة الهمدانية ثم رجمها وقال جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم واعلم ان أكثر المجتهدين متفقون على ان المحصن يرجم ولا يجلد واحتجوا عليه بامور (أحدها) قصة العسيف فانه عليه السلام قال يا أنيس اغد الى امرأة هذا فان اعترفت فارجمها ولم يذكر الجلد ولو وجب الجلد مع الرجم لذكره (وثانيها) ان قصة ماعز رويت من جهات مختلفة ولم يذكر فى شئ منها مع الرجم جلد ولو كان الجلد معتبرا مع الرجم لجلده النبى عليه السلام ولوجلده لنقل كما نقل الرجم اذ ليس أحدهما بالنقل أولى من الآخر وكذا فى قصة الغامدية حين أقرت بالزنا فرجمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن وضعت ولو جلدها لنقل ذلك (وثالثها) ما روى الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس رضى الله عنهم قال قال عمر رضى الله عنه قد خشيت أن يطول بالناس زمان حتى يقول قائل لا نجد الرجم فى كتاب الله تعالى فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله تعالى وقد قرأنا الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجمنا بعده فأخبر أن الذى فرضه الله تعالى هو الرجم ولو كان الجلد واجبا مع الرجم لذكره (أما الجواب) عن التمسك بالآية فهو أنها مخصوصة فى حق المحصن وتخصيص عموم القرآن بالخبر المتواتر غير ممتنع وأما قوله عليه السلام الثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة فلعل ذلك كان قبل قوله يا أنيس اغد الى امرأة هذا فان اعترفت فارجمها وأما أنه عليه السلام جلد امرأة ثم رجمها فلعله عليه السلام ما علم احصانها فجلدها ثم لما علم احصانها رجمها وهو الجواب عن فعل على رضى الله عنه وبهذا يمكن من التكلف فى هذه الاجوبة والله اعلم (المسئلة الثانية) قال الشافعى رحمه الله يجمع بين الجلد والتغريب فى حد البكر وقال أبو حنيفة رحمه الله يجلد وأما التغريب فمفوض الى رأى الامام وقال مالك يجلد الرجل ويغرب ويجلد المرأة ولا تغرب حجة الشافعى رحمه الله حديث عبادة انه عليه السلام قال خذوا عنى خذوا عنى قد جعل الله لهن سبيلا البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة ورجم بالحجارة ويدل ايضا عليه ما روى أبو هريرة رضى الله عنه وزيد بن خالد أن رجلا جاء الى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ان ابنى كان عسيفا على هذا وزنى بامرأته فافتديت منه بوليدة ومائة شاة ثم أخبرنى أهل العلم ان على ابنى جلد مائة وتغريب عام وان على امرأة هذا الرجم فاقض بيننا فقال عليه الصلاة والسلام والذى نفسى بيده لاقضين بينكما بكتاب الله أما الغنم والوليدة فرد عليك وأما ابنك فان عليه جلد مائة وتغريب عام ثم قال لرجل من أسلم اغد يا أنيس الى امرأة هذا فان اعترفت فارجمها واحتج أبو حنيفة رحمه الله على نفى التغريب بوجوه (أحدها) ان ايجاب التغريب يقتضى نسخ الآية ونسخ القرآن بخبر الواحد لا يجوز وقرروا النسخ من ثلاثة اوجه (الاول) ان سبحانه رتب الجلد على فعل الزنا بافاء وحرف الفاء

الذين خسروا أنفسهم ضيعوها بتضييع زمان استكمالها وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها واسم الاشارة فى الموضعين عبارة عن الموصول وجمعه باعتبار معناه كما ان افراد الضميرين فى الصلتين باعتبار لفظه (فى جهنم خالدون) بدل من الصلة أو خبر ثان لاولئك (تلفح وجوههم النار) تحرقها واللفح كالنفح الا أنه اشد تأثيرا منه تخصيص الوجوه بذلك لانها أشرف الاعضاء فبيان حالها ازجر عن المعاصى المؤدية الى النار وهو السر فى تقديمها على الفاعل (وهم فيها كالحون) من شدة الاحتراق والكلوح تقلص الشفتين عن الاسنان وقرئ كلحون (ألم تكن آياتى تتلى عليكم) على اضمار القول أى يقال لهم تعنيفا وتوبيخا وتذكيرا لما به استحقوا ما ابتلوا به من العذاب ألم تكن آياتى تتلى عليكم فى الدنيا (فكنتم بها تكذبون) حينئذ (قالوا ربنا غلبت علينا) أى ملكتنا (شقوتنا) التى أفترقناها بسوء اختيارنا كما ينبئ عنه اضافتها الى انفسهم وقرئ شقوتنا

بالفتح وشقاوتنا أيضا بالفتح والكسر (وكنا) بسبب ذلك (قوما ضالين) عن الحق ولذلك فعلنا ما فعلنا من التكذيب وهذا كما ترى اعتراف منهم بان ما أصابهم قد أصابهم بسوء صنيعهم وأما ما قيل من أنه اعتذار منهم بغلبة ما كتب عليهم من الشقاوة الازلية فمع أنه باطل في نفسه لما أنه لا يكتب عليهم من السعادة والشقاوة الا ما علم الله تعالى أنهم يفعلونه باختيارهم ضرورة أن العلم تابع للمعلوم يرده قوله تعالى (ربنا اخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون) أي أخرجنا من النار وارجعنا الى الدنيا فان عدنا بعد ذلك الى ما كنا عليه من الكفر والمعاصي فانا متجاوزون الحد في الظلم ولو كان اعتقادهم انهم مجبورون على ما صدر عنهم لما ساغ الرجعة الى الدنيا ولما وعدوا الايمان والطاعة بل قولهم فان عدنا صريح في أنهم حينئذ على الايمان والطاعة وانما الموعود على تقدير الرجعة الى الدنيا الثبات عليهما لا احداثهما (قال اخسؤا فيها) أي اسكتوا في النار سكوت هوان وذلوا وانزجروا انزجار الكلاب اذا زجرت من خسأت الكلب اذا زجرته فخسأ أي انزجر (ولا تكلمون) أي باستدعاء الاخراج من النار والرجع الى الدنيا وقيل لا تكلمون في رفع العذاب ويرده التعليل الآتي

للجزاء الا ان أئمة اللغة قالوا اليمين بغير الله ذكر شرط وجزاء وفسروا الشرط بالذي دخل عليه كلمة ان والجزاء بالذي دخل عليه حرف الفاء والجزاء اسم لما يقع به الكفاية مأخوذ من قولهم جازيناه أي كافأناه وقال عليه السلام تجزيك ولا تجزي أحدا بعدك أي تكفيك ومنه قول القائل اجترت الابل بالعشب عن الماء وانما تقع الكفاية بالجلد اذا لم يجب معه شئ آخر فايجاب شئ آخر يقتضي نسخ كونه كافيا (الثاني) ان المذكور في الآية لما كان هو الجلد فقط كان ذلك هو كمال الحد فلو جعلنا النفي معتبرا مع الجلد لكان الجلد بعض الحد لا كل الحد فيفضي الى نسخ كونه كل الحد (الثالث) ان بتقدير كون الجلد بكمال الحد فانه يتعلق بذلك رد الشهادة ولو جعلناه بعض الحد لزال ذلك الحكم فثبت ان ايجاب التغريب يقتضي نسخ الآية (وثانيها) قال ابو بكر الرازي لو كان النفي مشروعا مع الجلد لوجب على النبي صلى الله عليه وسلم عند تلاوة الآية توقيف الصحابة عليه لئلا يعتقدوا عند سماع الآية ان الجلد هو كمال الحد ولو كان كذلك لكان اشتهاره مثل اشتهار الآية فلما لم يكن خبر النفي بهذه المنزلة بل كان وروده من طريق الاحاد علم انه غير معتبر (وثالثها) ما روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال في الامة اذا زنت فاجلدوها فان زنت فاجلدوها ثم بيعوها ولو بضفير وفي رواية اخرى فليجلدوها الحد ولا تثريب عليه ووجه الاستدلال به انه لو كان النفي ثابتا لذكره مع الجلد (ورابعها) انه اما أن يشرع التغريب في حق الامة أو لا يشرع ولا جائز أن يكون مشروعا لانه يلزم منه الاضرار بالسيد من غير جناية صدرت وهو غير جائز ولانه قال صلى الله عليه وسلم بيعوها ولو بضفير ولو وجب نفيها لما جاز بيعها لان المكنة من تسليمها الى المشتري لا تبقى بالنفي ولا جائز ان لا يكون مشروعا لقوله تعالى فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب (وخامسها) ان التغريب لو كان مشروعا في حق الرجل لكان اما ان يكون مشروعا في حق المرأة أو لا يكون والثاني باطل لان التساوي في الجناية قد وجد في حقهما وان كان مشروعا في حق المرأة فاما أن يكون مشروعا في حقها وحدها أو مع ذي محرم والاول غير جائز لنص والمعقول أما النص فقوله عليه السلام لا يحل لامرأة أن تسافر من غير ذي محرم وأما المعقول فهو أن الشهوة غالبة في النساء والانزجار بالدين انما يكون في الخواص من الناس فان الغالب لعدم الزنا من النساء بوجود الحفاظ من الرجال وحيائهن من الاقارب وبالتغريب تخرج المرأة من أيدي القرباء والحفاظ ثم يقل حياؤها بعدها عن معارفها فينفتح عليها الزنا فربما كانت فقيرة فيشتد فقرها في السفر فيصير مجموع ذلك سببا لفتح باب هذه الفاحشة العظيمة عليها ولا جائز أن يقال انا نغرب بها مع الزوج أو المحرم لان عقوبة غير الجاني لا تجوز لقوله تعالى ولا تزر وازرة وزر أخرى (وسادسها) ما روى عن عمر انه غرب ربيعة بن أمية بن خلف في الخمر الى خيبر فلحق بهرقل فقال عمر لا اغرب

وقيل لاتكلمون رأساوهو اخر كلام يتكلمون به ثم لا كلام بعد ذلك الشهيق والزفير والعواء كعواء الكلب لايفهمون ولايفهمون ويرده الخطابات الآتية قطعا ﴿ ٣١٧ ﴾ وقوله تعالى (أنه) تعليل لما قبله من الزجر عن الدعاء

بعدها أحدا ولم يستثن الزنا وروى عن علي رضي الله عنه انه قال في البكرين اذا زنيا يجلدان ولاينفيان وان نفيهما من الفتنة وعن ابن عمر أن أمة له زنت فجلدها ولم ينفها ولو كان النفي معتبرا في حد الزنا لما خفي ذلك على اكابر الصحابة (وسابعها) ماروى أن شيخا وجد على بطن جارية يحنث بها فخر بته فأتي به الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال اجلدوه مائة فقيل انه أضعف من ذلك فقال خذوا عثكالا فيه مائة شمراخ فاضربوه بها وخلوا سبيله ولو كان النفي واجبا لافاه فان قيل انما لم ينفه لانه كان ضعيفا عاجزا عن الحركة قلنا كان ينبغي أن يكتري له دابة من بيت المال ينفى عليها فان قيل كان عسى يضعف عن الركوب قلنا من قدر على الزنا كيف لايقدر على الاستمساك (وثامنها) ان التغريب نظير القتل لقوله تعالى ان اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم فنزلهما منزلة واحدة فاذا لم يشرع القتل في زنا البكر وجب أن لايشرع أيضا نظيره وهو التغريب (والجواب) عن الاول انه ليس في كلام الله تعالى الا ادخال حرف الفاء على الامر بالجلد فاما ان الذي دخل عليه هذا الحرف فانه يسمى جزاء فليس هذا من كلام الله ولا من كلام رسوله بل هو قول بعض الادباء فلا يكون حجة أما قوله ثانيا لو كان النفي مشروعا لما كان الجلد كل الحد فنقول لانزاع في انه زال امر مالان اثبات كل شئ لااقل من ان يقضي زوال عدمه الذي كان الاأن الزائل ههنا ليس حكما شرعيا بل الزائل محض البراءة الاصلية ومثل هذه الازالة لايمتنع اثباتها بخبر الواحد وانما قلنا ان الزائل محض العدم الاصلي وذلك لان ايجاب الجلد مفهوم مشترك بين ايجاب الجلد مع ايجاب التغريب وبين ايجابه مع نفي التغريب والقدر المشترك بين القسمين لااشعار له بواحد من القسمين فاذن ايجاب الجلد لااشعار فيه البتة لابايجاب التغريب ولابعدم ايجابه الا ان نفي التغريب كان معلوما بالعقل نظرا الى البراءة الاصلية فاذا جاء خبر الواحد ودل على وجوب التغريب فما أزال البتة شيئا من مداولات اللفظ الدال على وجوب الجلد بل ازال البراءة الاصلية فأما كون الجلد وحده مجزيا وكونه وحده كمال الحد وتعلق رد الشهادة عليه فكل ذلك تابع لنفي وجوب الزيادة فلما كان ذلك النفي معلوما بالعقل جاز قبول خبر الواحد فيه كما ان الفروض لو كانت خمسا لتوقف على ادائها الخروج عن عهدة التكليف وقبول الشهادة ولو زيد فيها شئ آخر لتوقف الخروج عن العهدة وقبول الشهادة على أداء تلك الزيادة مع انه يجوز اثباته بخبر الواحد والقياس فكذا ههنا أما لو قال الله تعالى الجلد كمال الحد وعلمنا انها وحدها متعلق رد الشهادة فلا يقبل ههنا في اثبات الزيادة خبر الواحد لان نفي وجوب الزيادة ثبت بدليل شرعي متواتر (والجواب) عن الثاني انه لو صح ذكره لوجب في كل ماخصص آية عامة ان يبلغ في الاشتهار مبلغ تلك الآية ومعلوم انه ليس كذلك (والجواب) عن الثالث ان قوله ثم يعوها لايفيد التعقيب فلعلها تنفى ثم بعد النفي تباع (والجواب) عن الرابع انه معارض بما روى الترمذي في جامعه انه عليه السلام جلد وغرب وأن ابابكر جلد وغرب

أي ان الشان وقرئ بالفتح أي لان الشان (كان فريق من عبادي) وهم المؤمنون وقيل هم الصحابة وقيل أهل الصفة رضوان الله تعالى عليهم اجمعين (يقولون) في الدنيا (ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخريا) أي اسكتوا عن الدعاء بقولكم ربنا الخ لانكم كنتم تستهزؤن بالداعين بقولهم ربنا آمنا الخ وتتشاغلون باستهزائهم (حتى أنسوكم) أي الاستهزاء بهم (ذكري) من فرط اشتغالكم باستهزائهم (وكنتم منهم تضحكون) وذلك غاية الاستهزاء وقوله تعالى (اني جزيتهم اليوم) استئناف لبيان حسن حالهم وانهم انتفعوا بما آذوهم بما صبروا بسبب صبرهم على أذيتكم وقوله تعالى (انهم هم الفائزون) ثاني مفعولي الجزاء أي جزيتهم فوزهم بمجامع مرادا تهم مخصوصين به وقرئ بكسر الهمزة على انه تعليل للجزاء وبيان لكونه في غاية مايكون من الحسن

(قال) أي الله عز وجل أو الملك المأمور بذلك تذكيرا لما لبثوا فيما سالوا الرجوع اليه

من الدنيا بعد التنبيه على استحالته بقوله اخسئوا فيها الخ وقرئ قل على الامر للملك (كم لبثتم فى الارض) التى تدعون أن ترجعوا اليها (عدد سنين) تمييز لكم (قالوا) ﴿ ٣١٨ ﴾ لبثنا يوما أو بعض يوم) استقصارا لمدة لبثهم فيها (فاسأل العادين) أى المتمكنين من العد فانا نعدهم ناما من العذاب بمعزل من ذلك أو الملائكة العادين لاعمار العباد وأعمالهم وقرئ العادين بالتخفيف أى المتعدين فانهم أيضا يقولون ما نقول كانهم الاتباع يسمون الرؤساء بذلك لظلمهم اياهم باضلالهم وقرئ العاديين أى القدماء المعمرين فانهم أيضا يستقصرون مدة لبثهم (قال) أى الله تعالى او الملك وقرئ قل كما سبق (ان لبثتم الا قليلا) تصديقا لهم فى ذلك (لو أنكم كنتم تعلمون) أى تعلمون شيئا أو لو كنتم من أهل العلم والجواب محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه أى لعلمتم يومئذ قلة لبثكم فيها كما علمتم اليوم ولعملتم بموجبه ولم تخلدوا اليها (أفحسبتم انما خلقناكم عبثا) أى ألم تعلموا شيئا فحسبتم أنما خلقناكم بغير حكمة بالغة حتى أنكرتم البعث فعبثا حال من نون العظمة أى عابثين أو مفعول له أى انما خلقناكم للعبث (وانكم الينا لا ترجعون) عطف على ﴿ واحد ﴾ انما فان خلقكم بغير بعث من قبيل العبث وانما خلقناكم لنعيدكم ونجازيكم على اعمالكم وقرئ ترجعون بفتح

(والجواب) عن الخامس ان للشافعى رحمه الله فى تغريب العبد قولين (أحدهما) لا يغرب لانه عليه السلام قال اذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولم يأمر بالتغريب ولان التغريب للعرة ولا معرة على العبد فيه لانه ينقل من يد الى يد ولان منافعه للسيد ففى نفيه اضرار بالسيد (والثانى) وهو الاصح انه يغرب لقوله تعالى فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ولا ينظر الى ضرر المولى كما يقتل العبد بسبب الردة ويجلد العبد فى الزنا والقذف وان تضرر به المولى فعلى هذا كم يغرب فيه قولان (أحدهما) يغرب نصف سنة لانه يقبل التنصيف كما يجلد نصف حد الاحرار (والثانى) يغرب سنة لان التغريب المقصود منه الايحاش وذلك معنى يرجع الى الطبع فيستوى فيه الحر والعبد كمدة الايلاء او العنة (والجواب) عن السادس ان المرأة لا تغرب وحدها بل مع محرم فان لم يتبرع المحرم بالخروج معها اعطى اجرته من بيت المال وان لم يكن لها محرم تغرب مع النساء الثقات كما يجب عليها الخروج الى الحج معهن قوله التغريب يفتح عليها باب الزنا قلنا لا نسلم فان أكثر الزنا بالالف والمؤانسة وفراغ القلب وأكثر هذه الاشياء تبطل بالغربة فان الانسان يقع فى الوحشة والتعب والنصب فلا يتفرغ للزنا (والجواب) عن السابع أى استبعاد فى ان يكون الانسان الذى يعجز عن ركوب الدابة يقدر على الزنا (والجواب) عن الثامن انه ينتقض بالتغريب اذا وقع على سبيل التعزير والله أعلم (المسئلة الثالثة) اتفقت الامة على ان قوله سبحانه وتعالى الزانية والزانى يفيد الحكم فى كل الزناة لكنهم اختلفوا فى كيفية تلك الدلالة فقال قائلون لفظ الزانى يفيد العموم والمختار أنه ليس كذلك ويدل عليه أمور (أحدها) ان الرجل اذا قال لبست الثوب أو شربت الماء لا يفيد العموم (وثانيها) انه لا يجوز تأكيده بما يؤكد به الجمع فلا يقال جاءنى الرجل أجمعون (وثالثها) لا ينعت بنعوت الجمع فلا يقال جاءنى الرجل الفقراء وتكلم الفقيه الفضلاء فاما قولهم أهلك الناس الدرهم البيض والدينار الصفر فمجاز بدليل انه لا يطرد وأيضا فان كان الدينار الصفر حقيقة وجب أن يكون الدينار الاصفر مجازا كما ان الدنانير الصفر لما كانت حقيقة كان الدنانير الاصفر مجازا (ورابعها) ان الزانى جزئى من هذا الزانى فايجاب جلد هذا الزانى ايجاب جلد الزانى فلو كان ايجاب جلد الزانى ايجابا لجلد كل زان لزم أن يكون ايجاب جلد هذا الزانى ايجاب جلد كل زان ولما لم يكن كذلك بطل ما قالوه فان قيل لم لا يجوز أن يقال اللفظ المطلق انما يفيد العموم بشرط العراء عن لفظ التعيين او يقال اللفظ المطلق وان اقتضى العموم الا ان لفظ التعيين يقتضى الخصوص قلنا اما الاول فباطل لان العدم لا دخل له فى التأثير اما الثانى فلانه يقتضى التعارض وهو خلاف الاصل (وخامسها) ان يقال الانسان هو الضحاك فلو كان المفهوم من قولنا الانسان هو كل الانسان لنزل ذلك منزلة ما يقال كل انسان هو الضحاك وذلك متناقض لانه يقتضى حصر الانسانية فى كل واحد من الناس ومعنى الحصر هو أن يثبت فيه لا فى غيره فيلزم ان يصدق على كل

التاء من الرجوع (فتعالى الله) استعظام له تعالى ولشؤنه التى تصرف عليها عبادة من البدء والاعادة والاثابة والعقاب بموجب الحكمة البالغة أى ارتفع ﴿ ٣١٩ ﴾ بذاته وتنزه عن مماثلة المخلوقين فى ذاته وصفاته واحواله وأفعاله وعن خلو افعاله عن الحكم والمصالح والغايات الحميدة (الملك الحق) الذى يحق له الملك على الاطلاق ايجادا واعداما بدأ واعادة احياء واماتة عقابا واثابة وكل ماسواه مملوك له مقهور تحت ملكوته (لااله الاهو) فان كل ماعداه عبيده (رب العرش الكريم) فكيف بما تحته ومحاط به من الموجودات كائنا ما كان ووصفه بالكرم اما لانه منه ينزل الوحى الذى منه القرآن الكريم او الخير والبركة والرحمة او لنسبته الى اكرم الاكرمين وقرئ الكريم بالرفع على انه صفة الرب كما فى قوله تعالى ذو العرش المجيد (ومن يدع مع الله الها آخر) يعبده افرادا او اشراكا (لا برهان له به) صفة لازمة لالهها كقوله تعالى يطير بجناحيه جئ بها للتاكيد وبناء الحكم عليه تنبيها على أن التدين بالادليل

واحد من اشخاص الناس انه هو الضحاك لاغير واحتج المخالف بوجهين (الاول) انه يجوز الاستثناء منه لقوله تعالى ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات والاستثناء يخرج من الكلام مالولاه لدخل تحته (الثانى) ان الالف واللام للتعريف وليس ذلك لتعريف الماهية فان ذلك قد حصل باصل الاسم ولا لتعريف واحد بعينه فانه ليس فى اللفظ دلالة عليه ولا لتعريف بعض مراتب الخصوص فانه ليس بعض المراتب اولى من بعض فوجب حمله على تعريف الكل (والجواب) عن الاول أن ذلك الاستثناء مجاز بدليل انه لايصح أن يقال رأيت الانسان الا المؤمنين وعن الثانى انه يشكل بدخول الالف واللام على صيغة الجمع فان جعلتها هناك للتاكيد فكذا ههنا ومن الناس من قال ان قوله تعالى الزانية والزانى وان كان لايفيد العموم بحسب اللفظ لكنه يفيده بحسب القرينة وذلك من وجهين (الاول) ان ترتيب الحكم على الوصف المشتق يفيد كون ذلك الوصف علة لذلك الحكم لاسيما اذا كان الوصف مناسبا وههنا كذلك فيدل ذلك على ان الزنا علة لوجوب الجلد فيلزم أن يقال اينما تحقق الزنا يتحقق وجوب الجلد ضرورة ان العلة لاتنفك عن المعلول (الثانى) ان المراد من قوله الزانية والزانى اما أن يكون كل الزناة أو البعض فان كان الثانى صارت الآية مجملة وذلك يمنع من امكان العمل به لكن العمل به مأمور به لان الواجب الا به فهو واجب فوجب حمله على العموم حتى يمكن العمل به والله اعلم (البحث الثالث) فى الشرائط المعتبرة فى كون الزنا موجبا للرجم تارة والجلد أخرى فنقول اجمعوا على ان كون الزنا موجبا لهذين الحكمين مشروط بالعقل وبالبلوغ فلا يجب الرجم والجلد على الصبى والمجنون وهذان الشرطان ليسا من خواص هذين الحكمين بل هما معتبران فى كل العقوبات اما كونهما موجبين للرجم فلا بد مع العقل والبلوغ من أمور أخر (الشرط الاول) الحرية واجمعوا على ان الرقيق لايجب عليه الرجم البتة (الشرط الثانى) التزوج بنكاح صحيح فلا يحصل الاحصان بالاصابة بملك اليمين ولا بوطء الشبهة ولا بالنكاح الفاسد (الشرط الثالث) الدخول ولا بد منه لقوله عليه السلام الثيب بالثيب وانما تصير ثيبا بالوطء وههنا مسئلتان (المسئلة الاولى) هل يشترط أن تكون الاصابة بالنكاح بعد البلوغ والحرية والعقل فيه وجهان (أحدهما) لايشترط حتى لو أصاب عبد أمة بنكاح صحيح أو فى حال الجنون والصغر ثم كمل حاله فزنى يجب عليه الرجم لانه وطء يحصل به التحليل للزوج الاول فيحصل به الاحصان كالوطء فى حال الكمال ولان عقد النكاح يجوز أن يكون قبل الكمال فكذلك الوطء (والثانى) وهو الاصح وهو ظاهر النص وقول أبى حنيفة رحمه الله يشترط أن تكون الاصابة بالنكاح بعد البلوغ والحرية والعقل لانه لما شرط أكمل الاصابات وهو أن يكون بنكاح صحيح شرط أن يكون تلك الاصابة فى حال الكمال (المسئلة الثانية) هل يعتبر الكمال فى الطرفين أو يعتبر فى كل واحد منهما كماله بنفسه دون صاحبه فيه قولان (أحدهما) معتبر فى الطرفين حتى لو وطئ الصبى بالغة حرة

عليه باطل فكيف بما شهدت بديهة العقول بخلافه أو اعتراض بين الشرط والجزاء كقولك من احسن الى زيد لاحق منه بالاحسان فالله مثيبه (فانما حسابه عند ربه) فهو مجازله على

قدر مايستحقه (انه لايفلح الكافرون) اى ان الشان الخ وقرئ بالفتح على انه تعليل اوخبر ومعناه حسابه عدم الفلاح والاصل حسابه أنه لايفلح هو فوضع الكافرون موضع الضمير ﴿٣٢٠﴾ لان من يدع فى معنى الجمع وكذلك حسابه انه

لايفلح فى معنى حسابهم انهم لايفلحون * بدئت السورة الكريمة بتقرير فلاح المؤمنين وختمت بنفى الفلاح عن الكافرين ثم امر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاستغفار والاسترحام فقيل (وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين) ايذانا بأنهما من أهم الامور الدينية حيث أمر به من قد غفر له ماتقدم من ذنبه وماتاخر فكيف بمن عداه * عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة المؤمنين بشرته الملائكة بالروح والريحان وماتقر به عينه عند نزول ملك الموت وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال لقد أنزلت على عشر ايات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ قد أفلح المؤمنون أن اولها وآخرها حتى ختم العشر وروى من كنوز الجنة من عمل بثلاث آيات من أولها واتعظ باربع من آخرها فقد نجا وأفلح

عاقلة فانه لايحصنها وهو قول أبى حنيفة ومحمد (والثانى) يعتبر فى كل واحد منهما كماله بنفسه وهو قول أبى يوسف رحمه الله (حجة القول الاول) انه وطء لايفيد الاحصان لاحد الوطئين فلا يفيد فى الآخر كوطء الامة (حجة القول الثانى) انه لايشترط كونهما على صفة الاحصان وقت النكاح وكذا عند الدخول (الشرط الرابع) الاسلام ليس شرطا فى كون الزنا موجبا للرجم عند الشافعى رحمه الله وأبى يوسف وقال أبو حنيفة رحمه الله شرطا احتج الشافعى بامور (احدها) قوله عليه السلام فاذا قبلوا الجزية فانبؤهم ان لهم ماللمسلمين وعليهم ماعلى المسلمين ومن جملة ماعلى المسلم كونه بحيث يجب عليه الرجم عند الاقدام على الزنا فوجب أن يكون الذمى كذلك لتحصل التسوية (وثانيها) حديث مالك عن نافع عن ابن عمر أنه عليه السلام رجم يهوديا ويهودية زنيا فاما أن يقال انه عليه السلام حكم بذلك بشريعته أو بشريعة من قبله فان كان الاول فالاستدلال به بين وان كان الثانى فكذلك لانه صار شرعا له (وثالثها) ان زنا الكافر مثل زنا المسلم فيجب عليه مثل مايجب على المسلم وذلك لان الزنا محرم قبيح فيناسب الزجر وايجاب الرجم يصلح زاجرا له ولايبقى الا التفاوت بالكفر والايمان والكفر وان كان لايوجب تغليظ الجناية فلا يوجب تخفيفها واحتج أبو حنيفة رحمه الله بوجوه (أحدها) التمسك بعموم قوله الزانية والزانى وجب العمل به فى حق المسلم ولايجب فى الذمى لمعنى مفقود فى الذمى ووجه الفرق ان القتل بالاحجار عقوبة عظيمة فلا يجب الا بجناية عظيمة والجناية تعظم بكفران النعم فى حق الجانى عقلا وشرعا أما العقل فلان المعصية كفران النعمة وكلما كانت النعم أكثر وأعظم كان كفرانها أعظم وأقبح وأما الشرع فلان الله تعالى قال فى حق نساء النبى صلى الله عليه وسلم يانساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين فلما كانت نعم الله تعالى فى حقهن أكثر كان العذاب فى حقهن أكثر وقال فى حق الرسول اذا كدت تركن اليهم شيئا قليلا اذا لاذقناك ضعف الحياة وضعف الممات واذا عظمت معصيته لان النعمة فى حقه أعظم وهى نعمة النبوة ومن المعلوم أن نعم الله تعالى فى حق المسلم المحصن اكثر منها فى حق الذمى فكانت معصية المسلم أعظم فوجب أن تكون عقوبته أشد (وثانيها) ان الذمى لم يزن بعد الاحصان فلا يجب عليه القتل (بيان الاول) قوله عليه السلام من اشرك بالله طرفة عين فليس بمحصن (بيان الثانى) ان المسلم الذى لايكون محصنا لايجب عليه القتل لقوله عليه السلام لايحصل دم امرئ مسلم الا لاحدى ثلاث واذا كان المسلم كذلك وجب أن يكون الذمى كذلك لقوله عليه السلام اذا قبلوا عقد الجزية فاعلمهم ان لهم ماللمسلمين وعليهم ماعلى المسلمين (وثالثها) أجمعنا على ان احصان القذف يعتبر فيه الاسلام فكذا احصان الرجم والجامع ماذكرنا من كمال النعمة (والجواب) عن الاول انه خص عنه الثيب المسلم فكذا الثيب الذمى وماذكروه من حديث زيادة النعمة على المؤمنين فنقول نعمة الاسلام حصلت بكسب العبد فيصير ذلك كالخدمة الزائدة وزيادة الخدمة ان لم تكن سببا

للعذر فلا اقل من أن لا تكون سببا لزيادة العقوبة وعن الثانى لانسلم ان الذمى مشرك سلمناه لكن الاحصان قد يراد به التزوج لقوله تعالى والذين يرمون المحصنات وفى التفسير فاذا أحصن يعنى فاذا تزوجن اذا ثبت هذا فنقول الذمى الثيب محصن بهذا التفسير فوجب رجمه لقوله صلى الله عليه وسلم أو زنا بعد احصان رتب الحكم فى حق المسلم على هذا الوصف فدل على كون الوصف علة والوصف قائم فى حق الذمى فوجب كونه مستلزما للحكم بالرجم وعن الثالث ان حد القذف لدفع العار كرامة للمقذوف والكافر لا يكون محلا للكرامة وصيانة العرض بخلاف ما هههنا والله اعلم أما ما يتعلق بالجلد ففيه مسائل (المسئلة الاولى) اتفقوا على ان الرقيق لا يرجم واتفقوا على انه يجلد وثبت بنص الكتاب ان على الاماء نصف ما على المحصنات من العذاب فلا جرم اتفقوا على ان الامة تجلد خمسين جلدة أما العبد فقد اتفق الجمهور على انه يجلد أيضا خمسين لان أهل الظاهر فانهم قالوا عموم قوله الزانية والزانى يقتضى وجوب المائة على العبد والامة الا أنه ورد النص بالتنصيف فى حق الامة فلو قسنا العبد عليها كان ذلك تخصيصا لعموم الكتاب بالقياس وانه غير جائز ومنهم من قال الامة اذا تزوجت فعليها خمسون جلدة واذا لم تتزوج فعليها المائة لظاهر قوله تعالى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة وذكروا ان قوله فاذا أحصن أى تزوجن فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب (المسئلة الثانية) قال الشافعى وأبو حنيفة رحمهما الله الذمى يجلد وقال مالك رحمه الله لا يجلد لنا وجوه (أحدها) عموم قوله الزانية والزانى (وثانيها) قوله عليه السلام اذا زنت أمة أحدكم فليجلدها وقوله أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم ولم يفرق بين الذمى والمسلم (وثالثها) انه عليه السلام رجم اليهوديين فذلك الرجم ان كان من شرع محمد صلى الله عليه وسلم فقد حصل المقصود وان كان من شرعهم فلما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم صار ذلك من شرعه وحقيقة هذه المسئلة ترجع الى ان الكفار مخاطبون بفروع الشرائع (البحث الرابع) فيما يدل على صدور الزنا منه اعلم ان ذلك لا يحصل الا من أحد ثلاثة أوجه اما بان يراه الامام بنفسه أو بان يقر أو بان يشهد عليه الشهود أما الوجه (الاول) وهو ما اذا رآه الامام قال الامام محيى السنة فى كتاب التهذيب لا خلاف ان على القاضى أن يمتنع عن القضاء بعلم نفسه مثل ما اذا ادعى رجل على آخر حقا وأقام عليه بينة والقاضى يعلم انه قد أبرأه أو ادعى انه قتل أباه وقت كذا وقد رآه القاضى حيا بعد ذلك أو ادعى نكاح امرأة وقد سمعه القاضى طلقها لا يجوز أن يقضى به وان أقام عليه شهودا وهل يجوز للقاضى أن يقضى بعلم نفسه مثل ان ادعى عليه أنفا وقد رآه القاضى أقرضه أو سمع المدعى عليه أقر به فيه قولان أصحهما وبه قال أبو يوسف ومحمد والمزنى رحمهم الله انه يجوز له أن يقضى بعلمه لانه لما جاز له أن يحكم بشهادة الشهود وهو من قولهم على ظن فلأن يجوز بما رآه وسمعه وهو منه على علم اولى قال الشافعى رحمه الله فى كتاب الرسالة أقضى بعلمى وهو أقوى من شاهدين أو بشاهدين وشاهد وامرأتين

مبتدا محذوف أى هذه سورة وانما أشير اليها مع عدم سبق ذكرها لانها باعتبار كونها فى شرف الذكر فى حكم الحاضر المشاهد وقوله تعالى (أنزلناها) مع ما عطف عليه صفات لها مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة من حيث الذات بالفخامة من حيث الصفات وأما كونها مبتدأ محذوف الخبر على أن يكون التقدير فيما أوحينا اليك سورة أنزلناها فيأباه أن مقتضى المقام بيان شان هذه السورة الكريمة لا أن فى جملة ما أوحى الى النبى عليه الصلاة والسلام سورة شأنها كذا وكذا وحملها على السورة الكريمة بمعونة المقام يوهم أن غيرها من السور الكريمة ليست على تلك الصفات وقرئ بالنصب على اضمار فعل يفسره أنزلناها فلا محل له حينئذ من الاعراب أو على تقدير اقرأ ونحوه أو دونك عند من يسوغ

أولتعدد الفرائض أو لكثرة المفروض عليهم من السلف والخلف (وأنزلنا فيها) أى فى تضاعيف السورة (آيات بينات) ان أريد بها الآيات التى نيطت بها الاحكام المفروضة وهو الاظهر فكونها فى السورة ظاهر ومعنى كونها بينات ووضوح دلالاتها على أحكامها الاعلى معانيها على الاطلاق فانها اسوة لسائر الآيات فى ذلك وتكرير أنزلنا مع استلزام انزال السورة لانزالها لابراز كمال العناية بشانها وان أريد جميع الآيات فالظرفية باعتبار اشتمال الكل على كل واحد من أجزائه وتكرير أنزلنا مع أن جميع الآيات عين السورة وانزالها عين انزالها لاستقلالها بعنوان رائق داع الى تخصيص انزالها بالذكر اباذة لخطرها ورفعا لمحلها كقوله تعالى ونجيناهم من عذاب غليظ بعد قوله تعالى نجيناهودا والذين آمنوا معه برحمة منا (لعلكم تذكرون) بحذف احدى التاءين وقرئ بادغام الثانية فى الذال أى ﴿ لواقر ﴾

وهو أقوى من شاهد ويمين او بشاهد ويمين وهو أقوى من النكول ورد اليمين (والقول الثانى) لايقضى بعلمه وهو قول ابن أبى ليلى لان انتفاء التهمة شرط فى القضاء ولم يوجد هذا فى المال أما فى العقوبات فينظر ان كان ذلك من حقوق العباد كالقصاص وحد القذف هل يحكم فيه بعلم نفسه يرتب على المال ان قلنا هناك لايقضى فههنا أولى والافقولان والفرق ان مبنى حقوق الله تعالى على المساهلة والمسامحة ولافرق على القولين أن يحصل العلم للقاضى فى بلد ولايته وزمان ولايته أوفى غيره وقال أبو حنيفة رحمه الله ان حصل له العلم فى بلد ولايته أوفى زمان ولايته له أن يقضى بعلمه والافلا فنقول العلم لايختلف باختلاف هذه الاحوال فوجب أن لايختلف الحكم باختلافها والله اعلم (الطريق الثانى) الاقرار قال الشافعى رحمه الله الاقرار بالزنا مرة واحدة يوجب الحد وقال أبو حنيفة رحمه الله بل لابد من الاقرار أربع مرات فى أربع مجالس وقال أحمد لابد من الاقرار أربع مرات لكن لافرق بين أن يكون فى أربع مجالس أوفى مجلس واحد حجة الشافعى رحمه الله أمران (الاول) قصة العسيف فانه قال عليه السلام فان اعترفت فارجمها وذلك دليل على ان الاعتراف مرة واحدة كاف (الثانى) انه لما أقر بالزنا وجب الحد عليه لقوله عليه السلام اقض بالظاهر والاقرار مرة واحدة يوجب الظهور لاسيما ههنا وذلك لان الصارف عن الاقرار بالزنا قوى لما أنه سبب العار فى الحال والالم الشديد فى المآل والصارف عن الكذب أيضا قايم وعند اجتماع الصارفين يقوى الانصراف فثبت انه انما أقدم على هذا الاقرار لكونه صادقا واذا ظهر اندرج تحت الحديث وتحت الآية أو نقيسه على الاقرار بالقتل والردة واحتج أبو حنيفة رحمه الله بوجوه (أحدها) قصة ماعز والاستدلال بها من وجوه (الاول) انه عليه السلام أعرض عنه فى المرة الاولى ولو وجب عليه الحد لم يعرض عنه لان الاعراض عن اقامة حد الله تعالى بعد كمال الحجة لايجوز (الثانى) انه عليه السلام قال لك شهدت على نفسك أربع مرات ولو كان الواحد مثل الاربع فى ايجاب الحد كان هذا القول لغوا (والثالث) روى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال لماعز بعد ما اقر ثلاث مرات لو أقررت الرابعة لرجمك رسول الله (والرابع) عن بريدة الاسلمى قال كنا معشر أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم نقول لم يقر ماعز أربع مرات ما رجمه رسول الله صلى الله عليه وسلم (وثانيها) انهم قاسوا الاقرار على الشهادة فكما انه لايقبل فى الزنا الا أربع شهادات فكذا فى الاقرار به والجامع السعى فى كتمان هذه الفاحشة (وثالثها) ان الزنا لاينفى الا بأربع شهادات أو باربع أيمان فى اللعان فجاز أيضا أن لايثبت الا بالاقرار أربع مرات وبه يفارق سائر الحقوق فانها تثبت بيمين واحد فجاز أيضا أن يثبت باقرار واحد (والجواب عن الاول انه ليس فى الحديث الا انه عليه السلام حكم بالشهادات الاربع وذلك لاينافى جواز الحكم بالشهادة الواحدة (وعن الثانى) ان الفرق بينهما ان المقذوف

لو أقر بالزنا مرة لسقط الحد عن القاذف ولولا أن الزنا ثابت لما سقط كما لو شهد اثنان بالزنا لا يسقط الحد عن القاذف حيث لم يثبت به الزنا والله اعلم (والطريق الثالث) الشهادة وقد أجمعوا على انه لابد من أربع شهادات ويدل عليه قوله تعالى فاستشهدوا عليهن أربعة منكم والكلام فيه سيأتي ان شاء الله تعالى في قوله ثم لم يأتوا باربعة شهداء (البحث الخامس) في ان المخاطب بقوله تعالى فاجلد وا من هو أجمعت الامة على ان المخاطب بذلك هو الامام ثم احتجوا بهذا على وجوب نصب الامام قالوا لانه سبحانه أمر باقامة الحد وأجمعوا على أنه لا يتولى اقامته الا الامام وما لا يتم الواجب المطلق الا به وكان مقدورا للمكلف فهو واجب فكان نصب الامام واجبا وقدم بيان هذه الدلالة في قوله والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما بقي ههنا ثلاث مسائل (المسئلة الاولى) قال الشافعي رحمه الله السيد يملك اقامة الحد على مملوكه وهو قول ابن مسعود وابن عمر وفاطمة وعائشة وعند أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد وزفر رحمهم الله لا يملك وقال مالك يحده المولى في الزنا وشرب الخمر والقذف ولا يقطعه في السرقة وانما يقطعه الامام وهو قول الليث واحتج الشافعي رحمه الله بوجوه (أحدها) قوله عليه السلام أقيموا الحدود على ما ملكت ايمانكم وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال عليه السلام اذا زنت أمة أحدكم فليجلدها وفي رواية أخرى فليجلدها الحد قال ابو بكر الرازي لا دلالة في هذه الاخبار لان قوله أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم هو كقوله الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ومعلوم ان المراد منه رفعه الى الامام لاقامة الحد والمخاطبون باقامة الحد هم الائمة وسائر الناس مخاطبون برفع الامر اليهم حتى يقيموا عليهم الحدود فكذلك قوله أقيموا الحدود على ما ملكت أيمانكم على هذا المعنى وأما قوله اذا زنت أمة احدكم فليجلدها فانه ليس كل جلد حدا لان الجلد قد يكون على وجه التعزير فاذا عزرنا فقد وفينا بمقتضى الحديث (والجواب) ان قوله أقيموا الحدود أمر باقامة الحد فحمل هذا اللفظ على رفع الواقعة الى الامام عدول عن الظاهر أقصى ما في الباب انه ترك الظاهر في قوله فاجلدوا لكن لا يلزم من ترك الظاهر هناك تركه ههنا أما قوله فليجلدها المراد هو التعزير فباطل لان الجلد المذكور عقيب الزنا لا يفهم منه الا الحد (وثانيها) ان السلطان لما ملك اقامة الحد عليه فسيده به أولى لان تعلق السيد بالعبد أقوى من تعلق السلطان به لان الملك أقوى من عقد البيعة وولاية السادة على العبيد فوق ولاية السلطان على الرعية حتى اذا كان للامة سيد وأب فان ولاية النكاح للسيد دون الاب ثم ان الاب مقدم على السلطان في ولاية النكاح فيكون السيد مقدما على السلطان بدرجات فكان أولى ولان السيد يملك من التصرفات في هذا المحل ما لا يملكه الامام فثبت ان المولى أولى (وثالثها) أجمعنا على ان السيد يملك التعزير فكذا الحد لان كل واحد نظير الآخر وان كان أحدهما مقدرا والآخر غير مقدر واحتج أبو بكر الرازي على مذهب أبي حنيفة بوجوه

حقها أن تكون على ذكر منهم بحيث متى مست الحاجة اليها استحضروها (الزانية والزاني) شروع في تفصيل ما ذكر من الآيات البينات وبيان أحكامها والزانية هي المرأة المطاوعة للزنا الممكنة منه كما تنبئ عنه الصيغة لا المزنية كرها وتقديمها على الزاني لانها الاصل في الفعل لكون الداعية فيها أوفر ولو لا تمكينها منه لم يقع ورفعهما على الابتداء والخبر قوله تعالى (فاجلد وا كل واحد منهما مائة جلدة) والفاء لتضمن المبتدا معنى الشرط اذ اللام بمعنى الموصول والتقدير التي زنت والذي زنى كما في قوله تعالى والذان يأتيانها منكم فآذوهما وقيل الخبر محذوف أي فيما أنزلنا أو فيما فرضنا الزانية والزاني أي حكمهما وقوله تعالى فاجلدوا الخ بيان لذلك الحكم وكان هذا عاما في حق المحصن وغيره وقد نسخ في حق المحصن قطعا ويكفينا في تعيين الناسخ القطع بانه عليه الصلاة والسلام قد رجم ماعزا

عليها فجازت الزيادة بها على الكتاب وروى عن على رضى الله عنه جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل نسخ بآية منسوخة التلاوة هى الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم وبإباه ماروى عن على رضى الله عنه (ولا تأخذكم بهما رأفة) وقرئ بفتح الهمزة وبالمد أيضا على فعالة أى رحمة ورقة (فى دين الله) فى طاعته واقامة حده وتعطلوه أو تسامحوا فيه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها (ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) من باب التهييج والالهاب فان الايمان بهما يقتضى الجد فى طاعته تعالى والاجتهاد فى اجراء أحكامه وذكر اليوم الآخر لتذكير ما فيه من العقاب فى مقابلة المسامحة والتعطيل (وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين) أى ليحضره زيادة فى التنكيل فان التفضيح قد ينكل أكثر مما ينكل التعذيب

(أحدها) قال قوله تعالى فى الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة لا شك انه خطاب مع الأئمة دون عامة الناس فالتقدير فاجلدوا أيها الأئمة والحكام كل واحد منهما مائة جلدة ولم يفرق فى هذه الآية بين المحدودين من الاحرار والعبيد فوجب أن تكون الأئمة هم المخاطبون باقامة الحدود على الاحرار والعبيد دون الموالى (وثانيها) انه لو جاز للمولى أن يسمع شهادة الشهود على عبد بالسرقة فيقطعه فلو رجعوا عن شهادتهم لوجب أن يتمكن من تضمين الشهود لان تضمين الشهود يتعلق بحكم الحاكم بالشهادة لانه لو لم يكن يحكم بشهادتهم لم يضمنوا شيئا فكان يصير حاكما لنفسه بايجاب الضمان عليهم وذلك باطل لانه ليس لاحد من الناس ان يحكم لنفسه فعلمنا ان المولى لا يملك استماع البينة على عبده بذلك ولا قطعه (وثالثها) ان المالك بما لا يستوفى الحد بكماله لشفقته على ملكه واذا كان متهما وجب أن لا يفوض اليه (والجواب) عن الاول ان قوله فاجلد والبس بصريحه خطابا مع الامام لكن بواسطة انه لما انعقد الاجماع على ان غير الامام لا يتولاه حملنا ذلك الخطاب على الامام وههنا لم ينعقد الاجماع على ان غير الامام لا يتولاه لانه عين النزاع (والجواب) عن الثانى قال محيى السنة فى كتاب التهذيب هل يجوز للمولى قطع يد عبده بسبب السرقة أو قطع الطريق فيه وجهان أصحهما أنه يجوز نص عليه فى رواية ابو يعلى المازوى عن ابن عمر أنه قطع عبدا له سرق وكما يجلده فى الزنا وشرب الخمر (والثانى) لا بل القطع الى الامام بخلاف الجلد لان المولى يملك جنس الجلد وهو التعزير ولا يملك جنس القطع ثم قال وكل حد يقيمه المولى على عبده انما يقيمه اذا ثبت باعتراف العبد فان كانت عليه بينة فهل يسمع المولى الشهادة فيه وجهان (أحدهما) يسمع لانه ملك الاقامة بالاعتراف فيملك بالبينة كالامام (والثانى) لا يسمع بل ذلك الى الحكام (والجواب) عن الثالث انه منقوض بالتعزير (المسئلة الثانية) اذا فقد الامام فليس لآحاد الناس اقامة هذه الحدود بل الاولى أن يعينوا واحدا من الصالحين ليقوم به (المسئلة الثالثة) الخارجى المتغلب هل له اقامة الحدود قال بعضهم له ذلك وقال آخرون ليس له ذلك لان اقامة الحد من جهة من لم يلزمنا أن نزيل ولايته أبعد من ان نفوض ذلك الى رجل من الصالحين (البحث السادس) فى كيفية اقامة الحد أما الجلد فاعلم ان المذكور فى الآية هو الجلد وهذا مشترك بين الجلد الشديد والجلد الخفيف والجلد على كل الاعضاء أو على بعض الاعضاء فحينئذ لا يكون فى الآية اشعار بشئ من هذه القيود بل مقتضى الآية أن يكون الآتى بالجلد كيف كان خارجا عن العهدة لانه اتى بما أمر به فوجب أن يخرج عن العهدة قال صاحب الكشاف وفى لفظ الجلد اشارة الى أنه لا ينبغى ان يتجاوز الالم الى اللحم ولان الجلد ضرب الجلد يقال جلده كقولك ظهره وبطنه ورأسه الا أنا لما عرفنا ان المقصود منه الزجر والزجر لا يحصل الا بالجلد الخفيف لا جرم تكلم العلماء فى صفة الجلد على سبيل القياس ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) المحصن

والطائفة فرقة يمكن أن تكون حافة حول شئ من الطوف وأقلها ثلاثة كما روى عن قتادة وعن ابن عباس رضى الله عنهما أربعة الى أربعين وعن الحسن عشرة والمراد جمع يحصل به التشهير والزجر

يجلد مع ثيابه ولا يجرد ولكن ينبغى أن يكون بحيث يصل الالم اليه و ينزع من ثيابه الحشو والفرو روى أن اباعبيدة بن الجراح أتى برجل فى حد فذهب الرجل ينزع قميصه وقال ما ينبغى لجسدى هذا المذنب أن يضرب وعليه قميص فقال أبو عبيدة لا تدعوه ينزع قميصه فضرب به عليه أما المرأة فلا خلاف فى أنه لا يجوز تجريدها بل يربط عليها ثيابها حتى لا تنكشف و يلى ذلك منها امرأة (المسئلة الثانية) لا يمد ولا يربط بل يترك حتى يتقى يديه و يضرب الرجل قائما والمرأة جالسة قال أبو يوسف رحمه الله ضرب ابن أبى ليلى المرأة القاذفة قائمة فخطأه أبو حنيفة (المسئلة الثالثة) يضرب بسوط وسط لا جديد يجرح ولا خلق لم يؤلم و يضرب ضربا بين ضربين لا شديد ولا واه روى أبو عثمان الهندى قال أتى عمر برجل فى حد ثم جئ بسوط فيه شدة فقال أريد ألين من هذا فاتى بسوط فيه لين فقال أريد أشد من هذا فاتى بسوط بين السوطين فرضى به (المسئلة الرابعة) تفرق السياط على أعضائه ولا يجمعها فى موضع واحد واتفقوا على أنه يتقى المهالك كالوجه والبطن والفرج و يضرب على الرأس عند الشافعى رحمه الله وقال أبو حنيفة رحمه الله لا يضرب على الرأس وهو قول على حجة الشافعى رحمه الله قال أبو بكر اضرب على الرأس فان الشيطان فيه وعن عمر انه ضرب صبيغ بن عسيل على رأسه حين سأل عن الذاريات على وجه التعنت حجة أبى حنيفة رحمه الله أجمعنا على انه لا يضرب على الوجه فكذا الرأس والجامع الحكم والمعنى أما الحكم فلأن الشين الذى يلحق الرأس بتأثير الضرب كالذى يلحق الوجه بدليل ان الموضحة وسائر الشجاج حكمها فى الرأس والوجه واحد وفارقا سائر البدن لان الموضحة فيما سوى الرأس والوجه انما يجب فيها حكومة ولا يجب فيها أرش الموضحة الواقعة فى الرأس والوجه فوجب استواء الرأس والوجه فى وجوب صونهما عن الضرب وأما المعنى فهو انما منع من ضرب الوجه لما كان فيه من الجناية على البصر وذلك موجود فى الرأس لان ضرب الرأس يظلم منه البصر ور بما حدث منه الماء فى العين ور بما حدث منه اختلاط العقل أجاب أصحابنا عليه بان الفرق بين الوجه والرأس ثابت لان الضربة اذا وقعت على الوجه فعظم الجبهة رقيق فر بما انكسر بخلاف عظم القفا فانه فى نهاية الصلابة وأيضا فالعين فى نهاية اللطافة فالضرب عليها يورث العمى وأيضا فالضرب على الوجه يكسر الانف لانه من غضروف لطيف و يكسر الاسنان لانها عظام لطيفة و يقع على الخدين وهما لحمان قريبان من الدماغ والضربة عليهما فى نهاية الخطر لسرعة وصول ذلك الاثر الى جرم الدماغ وكل ذلك لم يوجد فى الضرب على الرأس (المسئلة الخامسة) لو فرق سياط الحد تفريقا لا يحصل به التنكيل مثل أن يضرب كل يوم سوطا أو سوطين لا يحسب وان ضرب كل يوم عشرين أو أكثر يحسب والاولى أن لا يفرق (المسئلة السادسة) ان وجب الحد على الحبلى لا يقام حتى تضع روى عمران بن الحصين ان امرأة من جهينة أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى حبلى من الزنا فقالت يا نبى الله

(الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك) حكم مؤسس على الغالب المعتاد جئ به لزجر المؤمنين عن نكاح الزوانى بعد زجرهم عن الزنا بهن وقد رغب بعض من ضعفة المهاجرين فى نكاح موسرات كانت بالمدينة من بقايا المشركين فاستأذنوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى ذلك فنفروا عنه ببيان أنه من أفعال الزناة وخصائص المشركين كأنه قيل الزانى لا يرغب الا فى نكاح احدهما والزانية لا يرغب فى نكاحها الا أحدهما فلا تحوموا حوله كى لا تنتظموا فى سلكهما أو تتسموا بسمتهما فايراد الجملة الاولى مع أن مناط التنفير هى الثانية اما للتعريض بقصرهم الرغبة على من حيث استأذنوا فى نكاحهن أو لتأكيد العلاقة بين الجانبين مبالغة فى الزجر والتنفير وعدم التعرض فى الجملة

الثانية للشركة للتنبيه على أن مناط الزجر والتنفير هو

لتنفير عن الزانية بنظمها في سلك المشركة (وحرم ذلك) أي نكاح الزواني (على المؤمنين) لما أن فيه من التشبه بالفسقة والتعرض للتهمة والتسبب لسوء المقالة والطعن في النسب واختلال أمر المعاش وغير ذلك من المفاسد مالا يكاد يليق باحد من الادانى والارذل فضلا عن المؤمنين ولذلك عبر عن التنزيه بالتحريم مبالغة في الزجر وقيل النفي بمعنى النهى وقد قرئ به والتحريم على حقيقته والحكم اما مخصوص بسبب النزول أو منسوخ بقوله تعالى وأنكحوا الايامى منكم فانه متناول للمسافحات ويؤيده ماروى انه صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك فقال أوله سفاح وآخره نكاح والحرام لا يحرم الحلال وما قيل من أن المراد بالنكاح هو الوطء بين البطلان (والذين يرمون المحصنات) بيان لحكم القاذف اذا نسبن الى الزنا بعد بيان حكم الزانى ويعتبر في الاحصان ههنا مع مدلوله الوضعى

أصبت حدا فاقمه علي فدعا نبي الله وليها فقال احسن اليها فاذا وضعت فائتني بها ففعل فأمر بها نبي الله صلى الله عليه وسلم فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها ولان المقصود التأديب دون الاتلاف (المسئلة السابعة) ان وجب الجلد على المريض نظر فان كان به مرض يرجى زواله من صداع أو ضعف أو ولادة يؤخر حتى يبرأ كما أو أقيم عليه حدا وقطع لا يقام عليه حد آخر حتى يبرأ من الاول وان كان به مرض لا يرجى زواله كالسل والزمانة فلا يؤخر ولا يضرب بالسياط فانه يموت وليس المقصود موته وذلك لا يختلف سواء كان زناه في حال الصحة ثم مرض أو في حال المرض بل يضرب بعثكال عليه مائة شمراخ فيقوم ذلك مقام مائة جلدة كما قال تعالى في قصة أيوب عليه السلام وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث وعند أبي حنيفة رحمه الله يضرب بالسياط لما روى ان رجلا مقعدا أصاب امرأة فأمر النبي صلى الله عليه وسلم فأخذوا مائة شمراخ فضربوه بها ضربة واحدة ولان الصلاة واذا كانت تختلف باختلاف حاله فالحد أولى بذلك (المسئلة الثامنة) يقام الحد في وقت اعتدال الهواء فان كان في حال شدة حر أو برد نظران كان الحد رجما يقام عليه كما يقام في المرض لان المقصود قتله وقيل ان كان الرجم ثبت عليه باقراره فيؤخر الى اعتدال الهواء وزوال المرض الذي يرجى زواله لانه ربما رجع عن اقراره في خلال الرجم وقد أثر الرجم في جسمه فتعين شدة الحر والبرد والمرض على اهلاكه بخلاف ما لو ثبت بالبينة لانه لا يسقط وان كان الحد جلدا لم يجز اقامته في شدة الحر والبرد كما لا يقام في المرض أما الرجم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الشافعي رحمه الله ومالك رحمه الله يجوز للامام أن يحضر رجمه وأن لا يحضر وكذا الشهود لا يلزمهم الحضور وقال أبو حنيفة رحمه الله ان ثبت الزنا بالبينة وجب على الشهود أن يبدؤا بالرجم ثم الامام ثم الناس وان ثبت باقراره بدأ الامام ثم الناس حجة الشافعي رحمه الله ان النبي صلى الله عليه وسلم أمر برجم ماعز والغامدية ولم يحضر رجمهما (المسئلة الثانية) ان ثبت الزنا باقراره فمتى رجع ترك ووقع به بعض الحد أو لم يقع وبه قال أبو حنيفة رحمه الله والثوري وأحمد واسحق وقال الحسن وابن أبي ليلى وداود لا يقبل رجوعه وعن مالك رحمه الله روايتان حجة القول الاول ان ماعزا لما مسته الحجارة وهرب فقال عليه السلام هلا تركتموه (المسئلة الثالثة) يحفر للمرأة الى صدرها حتى لا تنكشف ويرمى اليها ولا يحفر للرجل لما روى أبو سعيد الخدري أن ماعزا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله اني اصبت فاحشة فأقم على الحد فرده النبي عليه السلام مرارا ثم سأل قومه فقالوا لا نعلم به باسا فامر ان نرجمه فانطلقنا به الى بقيع الغرقد فما أوثقناه ولا حفرنا له قال فرميناه بالعظام والمدر والخزف قال فاشتد واشتددنا خلفه حتى أتى عرض الحرة وانتصب لنا فرميناه بجلاميد الحرة حتى سكت وجه الاستدلال انه قال فما أوثقناه ولا حفرنا له ولانه هرب ولو كان في حفرة لما أمكنه ذلك (المسئلة الرابعة) اذا

﴿ مات ﴾

مات فى الحد يغسل و يكفن و يصلى عليه و يدفن فى مقابر المسلمين فهذا ما اردنا ذكره من بيان الاحكام الشرعية المتعلقة بهذه الآية (أما المباحث) العقلية فاعلم ان من الناس من قال لاشك ان البدن مركب من أجزاء كثيرة فاما أن يقوم بكل جزء حياة وعلم وقدرة على حدة أو يقوم بكل الاجزاء حياة واحدة وعلم واحد وقدرة واحدة والثانى محال لاستحالة قيام العرض الواحد بالمحال الكثيرة فتعين الاول واذا كان كذلك كان كل جزء من اجزاء البدن حيا على حدة وعالما على حدة وقادرا على حدة واذا ثبت هذا فنقول الزانى هو الفرج لا الظهر فكيف يحسن من الحكيم ان يأمر بجلد الظهر ولانه ربما كان الانسان حال اقدامه على الزنا مجيفا نحيفا ثم يسمن بعد ذلك فكيف يجوز ايلام تلك الاجزاء الزائدة مع انها كانت بريئة عن فعل الزنا فان قال قائل هذا مدفوع من وجهين (الاول) وهو أنه ليس كل واحد من أجزاء البدن فاعلا على حدة وحيا على حدة وذلك محال بل الحياة والعلم والقدرة تقوم بالجزء الواحد ثم توجب حكم الحية والعالمية والقادرية لمجموع الاجزاء فيكون المجموع حيا واحدا عالما واحدا قادرا واحدا وعلى هذا التقدير يزول السؤال (الثانى) أن يقال الذى هو الفاعل والمحرك والمدرك شئ ليس بجسم ولا جسمانى وانما هو مدبر لهذا البدن وعلى هذا التقدير أيضا يزول السؤال (والجواب) أما الاول فضعيف وذلك لان العلم اذا قام بجزء واحد فاما أن يحصل بمجموع الاجزاء عالمية واحدة فيلزم قيام الصفة الواحدة بالمحال الكثيرة وهو محال أو يقوم بكل جزء عالمية على حدة فيعود المحذور المذكور وأما الثانى فنى نهاية البعد لانه اذا كان الفاعل للقبيح هو ذلك المباين فلم يضرب هذا الجسد واعلم ان المقصود من أحكام الشرع رعاية المصالح ونحن نعلم ان شرع الحد يفيد الزجر فكان المقصود حاصلا والله أعلم أما قوله تعالى ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) الرأفة الرقة والرحمة وقراءة العامة بسكون الهمزة وقرئ رأفة بفتح الهمزة ورآفة على فعالة (المسئلة الثانية) يحتمل أن يكون المراد أن لا تأخذكم رأفة بان يعطل الحد أو ينقص منه والمعنى لا تعطلوا حدود الله ولا تتركوا اقامتها للشفقة والرحمة وهذا قول مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير واختيار الفراء والزجاج و تحتمل أن لا تأخذكم رأفة بان يخفف الجلد وهو قول سعيد بن المسيب والحسن وقتادة و يحتمل كلا الامرين والاول أولى لان الذى تقدم ذكره الامر بنفس الجلد ولم يذكر صفته فما يعقبه يجب أن يكون راجعا اليه وكفى برسول الله اسوة فى ذلك حيث قال لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها ونبه بقوله فى دين الله على ان الدين اذا أوجب أمرا لم يصح استعمال الرأفة فى خلافه أما قوله تعالى ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فهو من باب التهييج والتهاب الغضب لله تعالى ولدينه قال الجبائى تقدير الآية ان كنتم مؤمنين فلا تتركوا اقامة الحدود وهذا يدل على ان الاشتغال باداء الواجبات من الايمان بخلاف ما تقوله المرجئة (والجواب) ان الرأفة

عن صلابة الآلة وايلام المرمى و بعده عن الرامى ايذان بشدة تاثيره فيهن و كونه رجما بالغيب والمراد به رميهن بالزنا لا غير وعدم التصريح به للاكتفاء بايرادهن عقيب الزوانى ووصفهن بالاحصان الدال بالوضع على نزاهتهن عن الزنا خاصة فان ذلك بمنزلة التصريح بكون رميهن به لا محالة ولا حاجة فى ذلك الى الاستشهاد باعتبار الاربعة من الشهداء على أن فيه مؤنة بيان تأخر نزول الآية عن قوله تعالى فاستشهدوا عليهن أربعة ولا بعدم وجوب الحد بالرمى بغير الزنا على أن فيه شبهة المصادرة كأنه قيل والذين يرمون العفائف المنزهات عما رمين به من الزنا (ثم لم يأتوا بأربعة شهداء) يشهدون عليهن بما رموهن به وفى كلمة ثم اشعار بجواز تأخير الاتيان بالشهود كما أن فى كلمة لم اشارة الى تحقق العجز عن الاتيان بهم

تقرره خلافا لأن اجتماع الشهود لابد منه عند الاداء خلافا للشافعى رحمه الله تعالى فانه جوز التراخى بين الشهادات كما بين الرمى والشهادة و يجوز أن يكون

لا تحصل الا اذا حكم الانسان بطبعه ان الاولى أن لا تقام تلك الحدود وحينئذ يكون منكرا للدين فيخرج عن الايمان فى الحديث يؤتى بوان نقص من الحد سوطا فيقال له لم فعلت ذاك فيقول رحمة لعبادك فيقال له أنت أرحم بهم منى فيؤمر به الى النار ويؤتى بمن زاد سوطا فيقال له لم فعلت ذلك فيقول لينتهوا عن معاصيك فيقول أنت احكم به منى فيؤمر به الى النار أما قوله تعالى وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله تعالى وليشهد عذابهما طائفة أمر وظاهره للوجوب لكن الفقهاء قالوا يستحب حضور الجمع والمقصود اعلان اقامة الحد لما فيه من مزيد الردع ولما فيه من رفع التهمة عن المجلود وقيل أراد بالطائفة الشهود لانه يجب حضورهم ليعلم بقاؤهم على الشهادة (المسئلة الثانية) اختلفوا فى أقل الطائفة على أقوال (أحدها) انه رجل واحد وهو قول النخعى ومجاهد واحتجا بقوله تعالى وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا (وثانيها) انه اثنان وهو قول عكرمة وعطاء واحتجا بقوله تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين وكل ثلاثة فرقة والخارج من الثلاثة واحد أو اثنان والاحتياط يوجب الاخذ بالاكثر (وثالثها) انه ثلاثة وهو قول الزهرى وقتادة قالوا الطائفة هى الفرقة التى يمكن أن تكون حلقة كانها الجماعة الحافة حول الشئ وهذه الصورة أقل ما لابد فى حصولها هو الثلاثة (ورابعها) انه أربعة بعدد شهود الزنا وهو قول ابن عباس والشافعى رضى الله عنهم (وخامسها) انه عشرة وهو قول الحسن البصرى لان العشرة هى العدد الكامل (المسئلة الثالثة) تسميته عذابا يدل على انه عقوبة ويجوز ان يسمى عذابا لانه يمنع المعاودة كما سمى نكالا لذلك ونبه تعالى بقوله من المؤمنين على ان الذين يشهدون يجب أن يكونوا بهذا الوصف لانهم اذا كانوا كذلك عظم موقع حضورهم فى الزجر وعظم موقع اخبارهم عما شاهدوا فيخاف المجلود من حضورهم الشهرة فيكون ذلك أقوى فى الازجار والله أعلم * (الحكم الثانى) قوله تعالى (الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها الا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين) قرئ لا ينكح بالجزم على النهى وقرئ وحرم بفتح الحاء ثم ان فى الآية سؤالات (السؤال الاول) قوله الزانى لا ينكح الا زانية أو مشركة ظاهره خبر ثم انه ليس الامر كما يشعر به هذا الظاهر لانا نرى ان الزانى قد ينكح المؤمنة العفيفة والزانية قد ينكحها المؤمن العفيف (السؤال الثانى) انه قال وحرم ذلك على المؤمنين وليس كذلك فان المؤمن يحل له التزوج بالمرأة الزانية (والجواب) اعلم ان المفسرين لاجل هذين السؤالين ذكروا وجوها (أحدها) وهو أحسنها ما قاله القفال وهو ان اللفظ وان كان عاما لكن المراد منه الاعم الاغلب وذلك لان الفاسق الخبيث الذى من شأنه الزنا والفسق لا يرغب فى نكاح الصوالح من النساء وانما يرغب فى فاسقة خبيثة مثله أو فى مشركة والفاسقة الخبيثة لا يرغب فى نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها وانما يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة والمشركين

وافترائهم بعجزهم عن الاتيان بالشهداء لقوله تعالى فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون وانتصاب ثمانين كانتصاب المصادر ونصب جلدة على التمييز وتخصيص رميهن بهذا الحكم مع أن حكم رمى المحصنين أيضا كذلك لخصوص الواقعة وشيوع الرمى فيهن (ولا تقبلوا لهم شهادة) عطف على اجلدوا داخل فى حكمه تتمة له لما فيه من معنى الزجر لانه مؤلم للقلب كما أن الجلد مؤلم للبدن وقد اذى المقذوف بلسانه فعوقب باهدار منافعه جزاء وفاقا واللام فى لهم متعلقة بمحذوف هو حال من شهادة قدمت عليها لكونها نكرة ولو تأخرت عنها لكانت صفة لها وفائدتها تخصيص الرد بشهادتهم الناشئة عن أهليتهم الثابتة لهم عند الرمى وهو السر فى قبول شهادة الكافر المحدود فى القذف بعد التوبة والاسلام لانها ليست ناشئة عن اهليته السابقة بل عن أهلية حدثت له بعد اسلامه فلا يتناولها الرد فتدبر ودع عنك ما قيل ﴿ فهذا ﴾ من أن المسلمين لا يعبؤن بسبب الكفار فلا يلحق المقذوف بقذف الكافر من الشين

فهذا على الاعم الاغلب كما يقال لايفعل الخير الا الرجل التقى وقد يفعل بعض الخير من ليس بتقى فكذا ههنا وأما قوله وحرم ذلك على المؤمنين فالجواب من وجهين (أحدهما) ان نكاح المؤمن الممدوح عند الله الزانية ورغبته فيها وانخراطه بذلك فى سلك الفسقة المتسمين بالزنا محرم عليه لما فيه من التشبه بالفساق وحضور مواضع التهمة والتسبب لسوء المقالة فيه والغيبة ومجالسة الخاطئين كم فيها من التعرض لاقتراف الآثام فكيف بمزاوجة الزواني والفجار (الثانى) وهو ان صرف الرغبة بالكلية الى الزواني وترك لرغبة فى الصالحات محرم على المؤمنين لان قوله الزانى لاينكح الا زانية معناه ان الزانى لايرغب الا فى الزانية فهذا الحصر محرم على المؤمنين ولايلزم من حرمة هذا الحصر حرمة التزوج بالزانية فهذا هو المعتمد فى تفسير الآية (الوجه الثانى) ان الالف واللام فى قوله الزانى وفى قوله وحرم ذلك على المؤمنين وان كان للعموم ظاهر لكنه ههنا مخصوص بأقوام الذين نزلت هذه الآية فيهم قال مجاهد وعطاء بن أبى رباح وقتادة قدم المهاجرون المدينة وفيهم فقراء ليس لهم أموال ولا عشائر وبالمدينة نساء بغايا يكرين انفسهن وهن يومئذ أخصب أهل المدينة ولكل واحدة منهن علامة على بابها كعلامة البيطار ليعرف انها زانية وكان لايدخل عليها الا الزان أو مشرك فرغب فى كسبهن ناس من فقراء المسلمين وقالوا نتزوج بهن الى أن يغنينا الله عنهن فاستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية فتقدير الآية أولئك الزواني لاينكحون الا تلك الزانيات وتلك الزانيات لاينكحهن الا أولئك الزواني وحرم نكاحهن باعيانهن على المؤمنين (الوجه الثالث) فى الجواب ان قوله الزانى لاينكح الا زانية وان كان خبرا فى الظاهر لكن المراد النهى والمعنى ان كل من كان زانيا فلا ينبغى أن ينكح الا زانية وحرم ذلك على المؤمنين وهكذا كان الحكم فى ابتداء الاسلام وعلى هذا الوجه ذكروا قولين (أحدهما) ان ذلك الحكم باق الى الآن حتى يحرم على الزانى والزانية التزوج بالعفيفة والعفيف وبالعكس ويقال هذا مذهب أبى بكر وعمر وعلى وابن مسعود وعائشة ثم فى هؤلاء من يسوى بين الابتداء والدوام فيقول كما لايحل للمؤمن أن يتزوج بالزانية فكذلك لايحل له اذا زنت تحته أن يقيم عليها ومنهم من يفصل لان فى جملة مايمنع من التزويج مالايمنع من دوام النكاح كالاحرام والعدة (والقول الثانى) ان هذا الحكم صار منسوخا واختلفوا فى ناسخه فمن الجبائى ناسخه هو الاجماع وعن سعيد بن المسيب انه منسوخ بعموم قوله تعالى فانكحوا ماطاب لكم من النساء وأنكحوا الايامى قال المحققون هذان الوجهان ضعيفان (أما الاول) فلانه ثبت فى أصول الفقه ان الاجماع لاينسخ ولاينسخ به أيضا فالاجماع الحاصل عقيب الخلاف لايكون حجة والاجماع فى هذه المسئلة مسبوق بمخالفة أبى بكر وعمر وعلى فكيف يصح وأما قوله تعالى فانكحوا ماطاب لكم فهو لايصلح ان يكون ناسخا لانه لابد من أن يشترط فيه أن لايكون هناك مانع من النكاح من سبب أو نسب أو غيرهما والقائل أن يقول لايدخل

فالمعنى لا تقبلوا منهم شهادة من الشهادات حال كونها حاصلة لهم عند الرمى (أبدا) أى مدة حياتهم وان تابوا وأصلحوا لما عرفت من أنه تمثيل لبعد كأنه قيل فاجلدوهم وردوا شهادتهم أى فاجمعوا لهم الجلد والرد فيبقى كما كان أصله (وأولئك هم الفاسقون) كلام مستأنف مقرر لما قبله ومبين لسوء حالهم عند الله عز وجل ومافى اسم الاشارة من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الشر والفساد أى أولئك هم المحكوم عليهم بالفسق والخروج عن الطاعة والتجاوز عن الحدود الكاملون فيه كأنهم هم المستحقون لاطلاق اسم الفاسق عليهم لاغيرهم من الفسقة وقوله تعالى (الا الذين تابوا) استثناء من الفاسق كما ينبئ عنه التعليل الآتى ومحل المستثنى النصب لانه عن موجب وقوله تعالى (من بعد ذلك) لتهويل المتوب عنه أى

رحيم) تعليل لما يفيده الاستثناء من العفو عن المؤاخذة بموجب تعالى بما فرط منهم ولا ينظمهم في سلك الفاسقين لانه تعالى مبالغ في المغفرة والرحمة هذا وقد علق الشافعي رحمه الله الاستثناء بالنهي فحل المستثنى حينئذ الجر على البدلية من الضمير في لهم وجعل الابد عبارة عن مدة كونه قاذفا فتنتهي بالتوبة فتقبل شهادته بعدها (والذين يرمون أزواجهم) بيان لحكم الرامين لازواجهم خاصة بعد بيان حكم الرامين لغيرهن لكن لا بان يكون هذا مخصصا للمحصنات بالاجنبيات ليلزم بقاء الآية السابقة ظنية فلا يثبت بها الحد فان من شرائط التخصيص أن لا يكون المخصص متراخي النزول بل يكون ناسخا لعمومها ضرورة تراخي نزولها كما سيأتي فتبقى الآية السابقة قطعية الدلالة فيما بقي بعد النسخ لما بين في موضعه أن دليل النسخ غير معلل (ولم يكن لهم شهداء) يشهدون بما رموهن به من الزنا وقرئ بتأنيث الفعل (الا أنفسهم) بدل من شهداء أو صفة لها على أن ﴿ يدك ﴾ الا بمعنى غير جعلوا من جملة الشهداء ايذانا من أول الامر بعدم الغاء قولهم بالمرة ونظمه في سلك الشهادة في الجملة وبذلك

فبه تزويج الزانية من المؤمن كما لا يدخل فيه تزويجها من الاخ وابن الاخ ونقول ان للزنا تأثيرا في الفرقة ما ليس لغيره ألا ترى انه اذا قذفها بالزنا يتبعها بالفرقة على بعض الوجوه ولا يجب مثل ذلك في سائر ما يوجب الحد ولان من حق الزنا ان يورث العار ويؤثر في الفراش ففارق غيره ثم احتج هؤلاء الذين يدعون هذا النسخ بانه سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن رجل زنى بامرأة فهل له أن يتزوجها فاجازه ابن عباس وشبهه بمن سرق ثم شجرة ثم اشتراه وعن النبي صلى الله عليه وسلم انه سئل عن ذلك فقال أوله سفاح وآخره نكاح والحرام لا يحرم الحلال (الوجه الرابع) أن يحمل النكاح على الوطء والمعنى ان الزاني لا يطأ حين يزني الا زانية أو مشركة وكذا الزانية وحرم ذلك على المؤمنين أي وحرم الزنا على المؤمنين وعلى هذا تأويل أبي مسلم قال الزجاج هذا التأويل فاسد من وجهين (الاول) انه ما ورد النكاح في كتاب الله تعالى الا بمعنى التزويج ولم يرد البتة بمعنى الوطء (الثاني) ان ذلك يخرج الكلام عن الفائدة لانا نقول المراد ان الزاني لا يطأ الا الزانية فلا اشكال عائد لانا نرى ان الزاني قد يطأ العفيفة حين يتزوج بها ولو قلنا المراد ان الزاني لا يطأ الا الزانية حين يكون وطؤه زنا فهذا الكلام لا فائدة فيه وهذا آخر الكلام في هذا المقام (السؤال الثالث) أي فرق بين قوله الزاني لا ينكح الا زانية وبين قوله الزانية لا ينكحها الا زان (الجواب) الكلام الاول يدل على ان الزاني لا يرغب الا في نكاح الزانية وهذا لا يمنع من أن يرغب في نكاح الزانية غير الزاني فلا جرم بين ذلك بالكلام الثاني (السؤال الرابع) لم قدمت الزانية على الزاني في الآية المتقدمة وههنا بالعكس (الجواب) سيقت تلك الآية لعقوبتها على جنايتها والمرأة هي المادة في الزنا وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه لانه هو الراغب والطالب (الحكم الثالث) القذف * قوله تعالى (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون الا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فان الله غفور رحيم) اعلم ان ظاهر الآية لا يدل على الشيء الذي به رموا المحصنات وذكر الرمي لا يدل على الزنا فقدير ميها بسرقة وشرب خمر وكفر بل لا بد من قرينة دالة على التعيين وقد أجمع العلماء على ان المراد الرمي بالزنا وفي الآية اقوال تدل عليه (أحدها) تقدم ذكر الزنا (وثانيها) انه تعالى ذكر المحصنات وهن العفائف فدل ذلك على ان المراد بالرمي رميهن بضد العفاف (وثالثها) قوله ثم لم يأتوا بأربعة شهداء يعني على صحة ما رموهن به ومعلوم ان هذا العدد من الشهود غير مشروط الا في الزنا (ورابعها) انعقاد الاجماع على انه لا يجب الجلد بالرمي لغير الزنا فوجب أن يكون المراد هو الرمي بالزنا اذا عرفت هذا فالكلام في هذه الآية يتعلق بالرمي والرامي والمرمي (البحث الاول) في الرمي وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الفاظ القذف تنقسم الى صريح وكناية وتعريض فالصريح أن يقول يا زانية أو زنيت أو زنى قبلك أو دبرك ولو قال زنى يدك فيه وجهان (أحدهما) انه كناية كقوله زنى

يدك لان حقيقة الزنا من الفرج فلايكون من سائر البدن الا المعونة (والثانى) وهو الاصح انه صريح لان الفعل انما يصدر من جملة البدن والفرج آلة فى الفعل أما الكنايات فمثل أن يقول يافاسقة يافاجرة ياخبيثة ياموا جرة يابنة الحرام أو امرأتى لاتريد لامس وبالعكس فهذا لايكون قذفا الا أن يريده وكذلك لو قال لعربى يانبطى فهذا لايكون قذفا الا أن يريده فان أراد به القذف فهو قذف لام المقول له والا فلا فان قال عنيت به نبطى الدار واللسان وادعت ام المقول له انه أراد القذف فالقول قوله مع يمينه أما التعريض فليس بقذف وان أراده وذلك مثل قوله يا ابن الحلال أما انا فما زنيت وليست امى زانية وهذا قول الشافعى وأبى حنيفة وأبى يوسف ومحمد وزفر وابن شبرمة والثورى والحسن ابن صالح رحمهم الله وقال مالك رحمه الله يجب الحد فيه وقال أحمد واسحق هو قذف فى حال الغضب دون حال الرضا لنا ان التعريض بالقذف محتمل للقذف ولغيره فوجب أن لايجب الحد لان الاصل براءة الذمة فلا يرجع عنه بالشك وأيضا فلقوله عليه السلام ادرؤا الحدود بالشبهات ولان الحدود شرعت على خلاف النص الناقل للضرر والايذاء الحاصل بالتصريح فوق الحاصل بالتعريض واحتج المخالف بما روى الاوزاعى عن الزهرى عن سالم عن ابن عمر قال كان عمر يضرب الحد فى التعريض وروى أيضا ان رجلين استبا فى زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال أحدهما للآخر والله ما أنا بزان ولا امى بزانية فاستشار عمر الناس فى ذلك فقال قائل مدح أباه وأمه وقال آخرون قد كان لابيه وأمه مدح غير هذا فجلده عمر ثمانين جلدة (والجواب) ان فى مشاورة عمر الصحابة فى حكم التعريض دلالة على انه لم يكن عندهم فيه توقيف وانهم قالوا رأيا واجتهادا (المسئلة الثانية) فى تعدد القذف اعلم انه اما أن يقذف شخصا واحدا مرارا أو يقذف جماعة فان قذف واحدا مرارا نظر ان كان أراد بالكل زنية واحدة بان قال زنيت بعمرو فانه مرارا لايجب الا حد واحد ولو أنشأ الثانى بعد ما حد الاول عزر للثانى وان قذفها بزنيات مختلفة بان قال زنيت بزيد ثم قال زنيت بعمرو فهل يتعدد الحد أم لا فيه قولان (أحدهما) يتعدد اعتبارا باللفظ ولانه من حقوق العباد فلا يقع فيه التداخل كالديون (والثانى) وهو الاصح يتداخل فلا يجب فيه الا حد واحد لانهما حدان من جنس واحد لمستحق واحد فوجب أن يتداخل كحدود الزنا ولو قذف زوجته مرارا فالاصح انه يكتفى بلعان واحد سواء قلنا يتعدد الحد أو لا يتعدد أما اذا قذف جماعة معدودين نظر ان قذف كل واحد بكلمة يجب عليه لكل واحد حد كامل وعند أبى حنيفة رحمه الله لايجب عليه الا حد واحد واحتج أبو بكر الرازى على قول أبى حنيفة بالقرآن والسنة والقياس أما القرآن فهو قوله تعالى والذين يرمون المحصنات والمعنى ان كل أحد يرمى المحصنات وجب عليه الجلد وذلك يقتضى ان قاذف جماعة من المحصنات لايجلد أكثر من ثمانين فمن أوجب على قاذف جماعة المحصنات أكثر من حد واحد فقد خالف

وهو مبتدأ وقوله تعالى (أربع شهادات) خبره أى فشهادتهم المشروعة أربع شهادات (بالله) متعلق بشهادات لقربها وقيل بشهادة لتقدمها وقرئ أربع شهادات بالنصب على المصدر والعامل فشهادة على انه اما خبر لمبتدا محذوف أى فالواجب شهادة أحدهم واما مبتدأ محذوف الخبر أى فشهادة أحدهم واجبة (انه لمن الصادقين) أى فيما رماها به من الزنا وأصله على أنه الخ فحذف الجار وكسرت ان وعلق العامل عنها للتأكيد (والخامسة) أى الشهادة الخامسة للاربع المتقدمة أى الجاعلة لها خمسا بانضمامها اليهن وافرادها عنهن مع كونها شهادة أيضا لاستقلالها بالفحوى ووكادتها فى افادة ما يقصد بالشهادة من تحقيق الخبر واظهار الصدق وهى مبتدأ خبره (أن لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين) فيما رماها به من الزنا فاذا لاعن الزوج حبست الزوجة حتى تعترف فترجم أو تلاعن (ويدرأ عنها العذاب) أى العذاب الدنيوى وهو الحبس المغيا على أحد الوجهين بالرجم

الآية وأما السنة فاروى عكرمة عن ابن عباس ان هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك بن سحماء فقال النبي عليه السلام البينة أوحد في ظهرك فلم يوجب النبي صلى الله وسلم على هلال اما حدا واحدا مع قذفه لامرأته وشريك بن سحماء الى أن نزلت آية اللعان فاقيم اللعان في الزوجات مقام الحد في الاجنبيات وأما القياس فهو ان سائر ما يوجب الحد اذا وجد منه مرارا لم يجب الا حد واحد كمن زنى مرارا أو شرب مرارا أو سرق مرارا فكذا ههنا المعنى الجامع دفع مزيد الضرر (والجواب) عن الاول ان قوله والذين صيغة جمع وقوله المحصنات صيغة جمع والجمع اذا قوبل بالجمع يقابل الفرد بالفرد فيصير المعنى كل من رمى محصنا واحدا وجب عليه الحد وعند ذلك يظهر وجه تمسك الشافعي رحمه الله بالآية ولان قوله والذين يرمون المحصنات فاجلدوهم يدل على ترتيب الجلد على رمي المحصنات وترتيب الحكم على الوصف لاسيما اذا كان مناسبا فانه مشعر بالعلية فدلت الآية على ان رمي المحصنين من حيث انه هذا المسمى يوجب الجلد اذا ثبت هذا فنقول اذا قذف واحدا صار ذلك القذف موجبا للحد فاذا قذف الثاني وجب أن يكون القذف الثاني موجبا للحد أيضا ثم موجب القذف الثاني لا يجوز أن يكون هو الحد الاول لان ذلك قد وجب بالقذف الاول وايجاب الواجب محال فوجب أن يحد بالقذف الثاني حدا ثانيا أقصى ما في الباب أن يورد على هذه الدلالة حدود الزنا لكنا نقول ترك العمل هناك بهذا الدليل لان حد الزنا أغلظ من حد القذف وعند ظهور الفارق يتعذر الجمع وأما السنة فلا دلالة فيها على هذه المسئلة لانه قذفهما بلفظ واحد ولنا في هذه المسئلة تفصيل سياتي ان شاء الله وأما القياس ففاسد لان حد القذف حق الآدمي بدليل انه لا يحد الا بمطالبة المقذوف وحقوق الآدمي لا تتداخل بخلاف حد الزنا فانه حق الله تعالى هذا كله اذا قذف جماعة كل واحد منهم بكلمة على حدة أما اذا قذفهم بكلمة واحدة فقال أنتم زناة أو زنيتم ففيه قولان (أصحهما) وهو قوله في الجديد يجب لكل واحد حد كامل لانه من حقوق العباد فلا يتداخل ولانه أدخل على كل واحد منهم مضرة فصار كما لو قذفهم بكلمات وفي القديم لا يجب لكل الا حد واحدا عتبارا باللفظ فان اللفظ واحد والاول أصح لانه أوفق لمفهوم الآية فعلى هذا لو قال لرجل يا ابن الزانيين يكون قذفا لأبويه بكلمة واحدة فعليه حدان (المسئلة الثالثة) فيما يبيح القذف القذف ينقسم الى محظور ومباح وواجب وجملة الكلام انه اذا لم يكن ثم ولد يريد نفيه فلا يجب وهل يباح أم لا ينظر ان رآها بعينه تزني أو أقرت هي على نفسها ووقع في قلبه صدقها أو سمع ممن يثق بقوله أو لم يسمع لكنه استفاض فيما بين الناس ان فلانا يزني بفلانة وفد رآه الزوج يخرج من بيتها أو رآه معها في بيت فانه يباح له القذف لتأكد التهمة ويجوز أن يمسكها ويستر عليها الماروى ان رجلا قال يا رسول الله ان لي امرأة لا ترد يد لامس قال طلقها قال اني أحبها قال فامسكها أما اذا

الذي هو أشد العذاب (أن تشهد أربع شهادات بالله انه) ﴿ ٣٣٢ ﴾ أي الزوج (لمن الكاذبين) أي فيما رماني به من الزنا (والخامسة) بالنصب عطفا على أربع شهادات (أن غضب الله عليها ان كان) أي الزوج (من الصادقين) أي فيما رماني به من الزنا وقرئ والخامسة بالرفع على الابتداء وقرئ أن بالتخفيف في الموضعين ورفع اللعنة والغضب وقرئ ان غضب الله وتخصيص الغضب بجانب المرأة للتغليظ عليها لما أنها مادة الفجور ولان النساء كثيرا ما يستعملن اللعن فربما يجترئن على التفوه به لسقوط وقعه عن قلوبهن بخلاف غضبه تعالى روي أن آية القذف لما نزلت قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فقام عاصم ابن عدي الانصاري رضي الله عنه فقال جعلني الله فداك ان وجد رجل مع امرأته رجلا فاخبر جلد ثمانين وردت شهادته وفسق وان ضربه بالسيف قتل وان سكت سكت على غيظ والى أن يجيء بأربعة شهداء فقد قضى الرجل حاجته ومضى اللهم افتح ﴿ ٣٣٣ ﴾ وخرج فاستقبله هلال بن أمية أو عويمر فقال ماوراءك قال شر وجدت على امرأتي خولة وهي بنت

سمعه ممن لا يوثق بقوله أو استفاض من بين الناس ولكن الزوج لم يره معها أو بالعكس لم يحل له قذفها لانه قد يذكره من لا يكون ثقة فينتشر ويدخل بيتها خوفا من قاصد أو اسرقة أو لطلب فجور فتأبى المرأة قال الله تعالى ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم أما اذا كان ثم ولد يريد نفيه نظر فان تيقن انه ليس منه بان لم يكن وطئها الزوج أو وطئها لكنها أتت به لاقل من ستة أشهر من وقت الوطء أو لاكثر من أربع سنين يجب عليه نفيه باللعان لانه ممنوع من استلحاق نسب الغير كما هو ممنوع من نفي نسبه لما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ايما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شئ ولم يدخلها الله جنته فلما حرم على المرأة أن تدخل على قوم من ليس منهم كان الرجل أيضا كذلك أما ان احتمل أن يكون منه بان أتت به لاكثر من ستة أشهر من وقت الوطء ودون أربع سنين نظر ان لم يكن قد استبرأها بحيضة او استبرأها وأتت به لدون ستة أشهر من وقت الاستبراء لا يحل له القذف والنفي وان اتهمها بالزنا قال النبي صلى الله عليه وسلم ايما رجل جحد ولده وهو ينظر اليه احتجب الله منه يوم القيامة وفضحه على رؤس الاولين والآخرين فان استبرأها وأتت به لاكثر من ستة أشهر من وقت الاستبراء يباح له القذف والنفي والاولى ان لا يفعل لانها قد ترى الدم على الحبل وان أتت امرأته بولد لا يشبهه بان كانا ابيضين فاتت به اسود نظر ان لم يكن يتهمها بالزنا فليس له نفيه لما روى أبو هريرة رضي الله عنه ان رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم ان امرأتي ولدت غلاما اسود فقال هل لك من ابل قال نعم قال ما ألوانها قال حمر قال فهل فيها ورق قال نعم قال فكيف ذاك قال نزعه عرق قال فلعل هذا نزعه عرق وان كان يتهمها بزنا أو يتهمها برجل وأتت بولد يشبهه هل يباح له نفيه فيه وجهان (أحدهما) لا لان العرق ينزع (والثاني) له ذلك لان التهمة قد تاكدت بالشبهة (البحث الثاني) في الرامي وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اذا قذف الصبي أو المجنون امرأته أو اجنبيا فلا حد عليهما ولا لعان لا في الحال ولا بعد البلوغ لقوله عليه الصلاة والسلام رفع القلم عن ثلاث ولكن يعزران للتاديب ان كان لهما تمييز فلو لم تتفق اقامة التعزير على الصبي حتى بلغ قال القفال يسقط التعزير لانه كان للزجر عن اساءة الادب وقد حدث زاجر اقوى وهو البلوغ (المسئلة الثانية) الاخرس اذا كانت له اشارة مفهومة او كتابة معلومة وقذف بالاشارة أو بالكتابة لزمه الحد وكذلك يصح لعانه بالاشارة والكتابة وعند أبي حنيفة رحمه الله لا يصح قذف الاخرس ولا لعانه وقول الشافعي رحمه الله أقرب الى ظاهر الآية لان من كتب أو أشار الى القذف فقد رمى المحصنة وألحق العار بها فوجب اندراجه تحت الظاهر ولانا نقيس قذفه ولعانه على سائر الاحكام (المسئلة الثالثة) اختلفوا فيما اذا قذف العبد حرا فقال الشافعي وأبو حنيفة ومالك وأبو يوسف ومحمد وزفر وعثمان البتي عليه أربعون جلدة روى الثوري عن جعفر بن محمد عن أبيه ان عليا رضي الله عنه قال يجلد العبد في القذف أربعين

عليه وسلم فكلم خولة فانكرت فنزلت فلا عن بينهما والفرقة الواقعة باللعان في حكم التطليقة البائنة عند أبي حنيفة ومحمد رحمهما الله ولا يتابد حكمها حتى اذا أكذب الرجل نفسه بعد ذلك فحد جاز له أن يتزوجها وعند أبي يوسف وزفر والحسن بن زياد والشافعي رحمهم الله هي فرقة بغير طلاق توجب تحريما مؤبدا ليس لهما اجتماع بعد ذلك أبدا (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم) التفات الى خطاب الرامين والمرميات بطريق التغليب لتوفية مقام الامتنان حقه وجواب لولا محذوف اتهويلا له والاشعار بضيق العبارة عن حصره كأنه قيل ولولا تفضله تعالى عليكم ورحمته وأنه تعالى مبالغ في قبول التوبة حكيم في جميع أفعاله وأحكامه التي من جملتها ما شرع لكم من حكم اللعان لكان ما كان مما لا يحيط به نطاق البيان ومن جملته أنه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك لوجب على الزوج حد القذف مع أن الظاهر صدقه لانه أعرف بحال زوجته وأنه لا يفتري عليها لاشتراكهما

في الفضاحة وبعد ما شرع لهم ذلك لو جعل شهاداته موجبة لحد الزنا ﴿٣٣٤﴾ عليها لفات النظر لها ولو جعل شهاداتها

موجبة لحد القذف عليه لفات النظر له ولا ريب في خروج الكل عن سنن الحكمة والفضل والرحمة فجعل شهادات كل منهما مع الجزم بكذب أحدهما حتما دائرة لما توجه اليه من العائلة الدنيوية وقد ابتلى الكاذب منهما في تضاعيف شهاداته من العذاب بما هو أتم مما در أته عنه وأطم وفي ذلك من أحكام الحكم البالغة وآثار الفضل والرحمة ما لا يخفى أما على الصادق فظاهر وأما على الكاذب فهو امهاله والستر عليه في الدنيا ودرء الحد عنه وتعريضه للتوبة حسبما ينبئ عنه التعرض لعنوان توابيته سبحانه ما أعظم شأنه وأوسع رحمته وأدق حكمته (ان الذين جاؤا بالافك) أي بابلغ ما يكون من الكذب والافتراء وقيل هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك وأصله الافك وهو القلب لانه مأفوك عن وجهه وسننه والمراد به ما أفك به الصديقة أم المؤمنين رضي الله عنها وفي لفظ المجيء اشارة الى أنهم ﴿المحصنات﴾ اظهروه من عند أنفسهم من غير أن يكون له أصل وذلك أن رسول الله صلى

وعن عبد الله بن عمر انه قال أدركت أبا بكر وعمر وعثمان ومن بعدهم من الخلفاء وكلهم يضربون المملوك في القذف أربعين وقال الاوزاعي يجلد ثمانين وهو مروي عن ابن مسعود وروي انه جلد عمر بن عبد العزيز العبد في الفرية ثمانين ومدار المسئلة على حرف واحد وهو ان هذه الآية صريحة في ايجاب الثمانين فمن رد هذا الحد الى أربعين فطريقه ان الله تعالى قال فاذا أحصن فان اتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب فنص على ان حد الامة في الزنا نصف حد الحرة ثم قاسوا العبد على الامة في تنصيف حد الزنا ثم قاسوا تنصيف حد قذف العبد على تنصيف حد الزنا في حقه فرجع حاصل الامر الى تخصيص عموم الكتاب بهذا القياس (المسئلة الرابعة) اتفقوا على دخول الكافر تحت عموم قوله والذين يرمون المحصنات لان الاسم يتناوله ولا مانع فالیهودي اذا قذف المسلم يجلد ثمانين والله أعلم (البحث الثالث) في المرمي وهي المحصنة قال أبو مسلم اسم الاحصان يقع على المتزوجة وعلى العفيفة وان لم تتزوج لقوله تعالى في مريم والتي أحصنت فرجها وهو مأخوذ من منع الفرج فاذا تزوجت منعته الامن زوجها وغير المتزوجة تمنعه كل أحد ويتفرع عليه مسائل (المسئلة الاولى) ظاهر الآية يتناول جميع القبائل سواء كانت مسلمة أو كافرة وسواء كانت حرة أو رقيقة الا ان الفقهاء قالوا شرائط الاحصان خمسة الاسلام والعقل والبلوغ والحرية والعفة من الزنا وانما اعتبرنا الاسلام لقوله عليه السلام من أشرك بالله فليس بمحصن وانما اعتبرنا العقل والبلوغ لقوله عليه السلام رفع القلم عن ثلاث وانما اعتبرنا الحرية لان العبد ناقص الدرجة فلا يعظم عليه التعيير بالزنا وانما اعتبرنا العفة عن الزنا لان الحد مشروع لتكذيب القاذف فاذا كان المقذوف زانيا فالقاذف صادق في القذف وكذلك اذا كان المقذوف وطئ امرأة بشبهة او نكاح فاسد لان فيه شبهة الزنا كما فيه شبهة الحل فكما ان احدى الشبهتين اسقطت الحد عن الواطئ فكذا الاخرى تسقطه عن قاذفه أيضا ثم نقول من قذف كافرا أو مجنونا أو صبيا أو مملوكا أو من قد رمى امرأة فلا حد عليه بل يعزر للاذى حتى لو زنى في عنفوان شبابه مرة ثم تاب وحسن حاله وشاخ في الصلاح لا يحد قاذفه وكذلك لو زنى كافرا ورقيق ثم أسلم وعتق وصلح حاله فقذفه قاذف لا حد عليه بخلاف ما لو زنى في حال صغره أو جنونه ثم بلغ أو افاق فقذفه قاذف يحد لان فعل الصبي والمجنون لا يكون زنا ولو قذف محصنا فقبل أن يحد القاذف بزنا المقذوف سقط الحد عن قاذفه لان صدور الزنا يورث ريبة في حاله فيما مضى لان الله تعالى كريم لا يهتك ستر عبده في أول ما يرتكب المعصية فيظهوره يعلم انه كان متصفا به من قبل روي ان رجلا زنى في عهد عمر فقال والله ما زنيت الا هذه فقال عمر كذبت ان الله لا يفضح عبده في أول مرة وقال المزني وأبو ثور الزنا الطاري لا يسقط الحد عن القاذف (المسئلة الثانية) قال الحسن البصري قوله والذين يرمون المحصنات يقع على الرجل والنساء وسائر العلماء انكروا ذلك لان لفظ

المحصنات جمع لمؤنث فلا يتناول الرجال بل الاجماع دل على انه لا فرق فى هذا الباب بين المحصنين والمحصنات (المسئلة الثالثة) رمى غير المحصنات لا يوجب الحد بل يوجب التعزير الا أن يكون المقذوف معروفا بما قذف به فلا حد هناك ولا تعزير فهذا مجموع الكلام فى تفسير قوله سبحانه والذين يرمون المحصنات * أما قوله سبحانه ثم لم يأتوا باربعة شهداء ففيه بحثان (البحث الاول) اعلم الله تعالى حكم فى القاذف اذا لم يأت باربعة شهداء بثلاثة أحكام (أحدها) جلد ثمانين (وثانيها) بطلان الشهادة (وثالثها) الحكم بفسقه الى أن يتوب واختلف أهل العلم فى كيفية ثبوت هذه الاحكام بعد اتفاقهم على وجوب الحد عليه بنفس القذف عند عجزه عن اقامة البينة على الزنا فقال قائلون قد بطلت شهادته ولزمه سمة الفسق قبل اقامة الحد عليه وهو قول الشافعى والليث بن سعد وقال أبو حنيفة ومالك وأبو يوسف ومحمد وزفر شهادته مقبولة مالم يحد قال أبو بكر الرازى وهذا مقتضى قولهم انه غير موسوم بسمة الفسق مالم يقع به الحد لانه لو لزمته سمة الفسق لما جازت شهادته اذ كانت سمة الفسق مبطلة لشهادة من وسم بها ثم احتج أبو بكر على صحة قول أبى حنيفة رحمه الله بامور (أحدها) قوله سبحانه والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا باربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ظاهر الآية يقتضى ترتب وجوب الحد على مجموع القذف والعجز عن اقامة الشهادة فلو علقنا هذا الحكم على القذف وحده قدح ذلك فى كونه معلقا على الامرين وذلك بخلاف الآية وأيضا فوجوب الجلد حكم مرتب على مجموع أمرين فوجب أن لا يحصل بمجرد حصول أحدهما كما لو قال لامرأته ان دخلت الدار وكلمت فلانا فأنت طالق فأتت بأحد الامرين دون الآخر لم يوجد الجزاء فكذا ههنا (وثانيها) ان القاذف لا يحكم عليه بالكذب بمجرد قذفه واذا كان كذلك وجب أن لا ترد شهادته بمجرد القذف * بيان الاول من ثلاثة أوجه (الاول) ان مجرد قذفه لو أوجب كونه كاذبا لوجب أن لا تقبل بعد ذلك بينته على الزنا اذ قد وقع الحكم بكذبه والحكم بكذبه فى قذفه حكم ببطلان شهادة من شهد بصدقه فى كون المقذوف زانيا ولما أجمعوا على قبول بينته ثبت انه لم يحكم عليه بالكذب بمجرد قذفه (الثانى) ان قاذف امرأته بالزنا لا يحكم بكذبه بنفس قذفه والا لما جاز ايجاب اللعان بينه وبين امرأته ولما امر بأن يشهد بالله انه لصادق فيما رماها به من الزنا مع الحكم بكذبه ولما قال النبى صلى الله عليه وسلم بعد ما لاعن بين الزوجين الله يعلم ان أحدكما كاذب فهل منكما تائب فاخبر ان أحدهما بغير تعيين هو الكاذب ولم يحكم بكذب القاذف وفى ذلك دليل على ان نفس القذف لا يوجب كونه كاذبا (الثالث) قوله تعالى لولا جاؤا عليه باربعة شهداء فاذا لم يأتوا بالشهداء فاولئك عند الله هم الكاذبون فلم يحكم بكذبهم بنفس القذف فقط فثبت بهذه الوجوه ان القاذف غير محكوم عليه بكونه كاذبا بمجرد القذف واذا كان كذلك وجب أن لا تبطل شهادته بمجرد القذف لانه كان عدلا ثقة والصادر عنه غير معارض ولما كان يجب أن يبقى على

فى غزوة غزاها قبل غزوة بنى المصطلق فخرج سهمى فخرجت معه عليه السلام بعد نزول آية الحجاب فحملت فى هودج فسرنا حتى اذا فقلنا ودنونا من المدينة نزلنا منزلا ثم نودى بالرحيل فقمت ومشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأنى أقبلت الى رحلى فلمست صدرى فاذا عقدى من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمسته فحبسنى ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى وهم يحسبون أنى فيه لخفتى فلم يستنكروا خفة الهودج وذهبوا بالبعير ووجدت عقدى بعدما استمرت الجيش فجئت منازلهم وليس فيها داع ولا مجيب فتيممت منزلى وظننت أنى سيفقدونى ويعودون فى طلبى فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمى من وراء الجيش فلما رآنى عرفنى

ستيقظت باسترجاعه فخمرت وجهى بجلبابى ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فقمت اليها فركبتها وانطلق يقود فى الراحلة حتى أتينا الجيش

عدالته فوجب أن يكون مقبول الشهادة (وثالثها) قوله عليه الصلاة والسلام المسلمون عدول بعضهم على بعض الا المحدود فى قذف أخبر النبى صلى الله عليه وسلم ببقاء عدالة القاذف مالم يحد (ورابعها) ماروى عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قصة هلال بن أمية لما قذف امرأته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله يجلد هلال وتبطل شهادته فى المسلمين فاخبر ان بطلان شهادته متعلق بوقوع الجلد به وذلك يدل على ان مجرد القذف لا يبطل الشهادة (وخامسها) ان الشافعى رحمه الله زعم ان شهود القذف اذا جاؤا متفرقين قبلت شهادتهم فان كان القذف قد أبطل شهادته فواجب أن لا يقبلها بعد ذلك وان شهد معه ثلاثة لانه قد فسق بقذفه ووجب الحكم بكذبه وفى قبول شهادتهم اذا جاؤا متفرقين ما يلزمه أن لا تبطل شهادتهم بنفس القذف وأما وجه قول الشافعى رحمه الله فهو ان الله تعالى رتب على القذف مع عدم الاتيان بالشهداء الاربعة أمورا ثلاثة معطوفا بعضها على بعض بحرف الواو وحرف الواو لا يقتضى الترتيب فوجب أن لا يكون بعضها مرتبا على البعض فوجب أن لا يكون رد الشهادة مرتبا على اقامة الحد بل يجب أن يثبت رد الشهادة سواء أقيم الحد عليه أو ما اقيم والله أعلم (البحث الثانى) فى كيفية الشهادة على الزنا قال الله تعالى واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم وقال تعالى والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا باربعة شهداء وقال سعد بن عبادة يا رسول الله أرأيت ان وجدت مع امرأتى رجلا أمهله حتى آتى باربعة شهداء قال نعم ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) الاقرار بالزنا هل يثبت بشهادة رجلين فيه قولان (أحدهما) لا يثبت الا باربعة كفعل الزنا (والثانى) يثبت بخلاف فعل الزنا لان الفعل يغمض الاطلاع عليه فاحتيط فيه باشتراط الاربع والاقرار أمر ظاهر فلا يغمض الاطلاع عليه (المسئلة الثانية) اذا شهدوا على فعل الزنا يجب أن يذكروا الزانى ومن زنى بها لانه قد يراه على جارية له فيظن انها اجنبية ويجب أن يشهدوا انا رأينا ذكره يدخل فى فرجها دخول المرود فى المكحلة فاو شهدوا مطلقا انه زنى لا يثبت لانهم ربما يرون المفاخذة زنا بخلاف ما لو قذف انسانا فقال زنيت يجب الحد ولا يستفسر ولو أقر على نفسه بالزنا هل يشترطان يستفسر فيه وجهان (أحدهما) نعم كالشهود (والثانى) لا يجب كما فى القذف (المسئلة الثالثة) قال الشافعى رحمه الله لا فرق بين أن يجئ الشهود متفرقين أو مجتمعين وقال أبو حنيفة رحمه الله اذا شهدوا متفرقين لا يثبت وعليهم حد القذف حجة الشافعى رحمه الله من وجوه (الاول) ان الاتيان باربعة شهداء قدر مشترك بين الاتيان بهم مجتمعين أو متفرقين واللفظ الدال على ما به الاشتراك لا اشعار له بما به الامتياز فالآتى بهم متفرقين يكون عاملا بالنص فوجب أن يخرج عن العهدة (الثانى) كل حكم يثبت بشهادة الشهود اذا جاؤا مجتمعين يثبت اذا جاؤا متفرقين كسائر الاحكام بل هذا أولى لانهم اذا جاؤا متفرقين كان أبعد عن التهمة وعن أن يتلقن

اذ هجمت عليهم فخاض الناس فى حديثى فهلك من هلك وقوله تعالى (عصبة منكم) خبران أى جماعة وهى من العشرة الى الاربعين وكذا العصابة وهم عبد الله بن أبى وزيد بن رفاعة وحسان ابن ثابت ومسطح بن اثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم وقوله تعالى (لا تحسبوه شرا لكم) استئناف خوطب به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعائشة وصفوان رضى الله عنهم تسلية لهم من أول الامر والضمير للافك (بل هو خير لكم) لاكتسابكم به الثواب العظيم وظهور كرامتكم على الله عز وجل بانزال ثمانى عشرة آية فى براءة ساحتكم وتعظيم شأنكم وتشديد الوعيد فيمن تكلم فيكم والثناء على من ظن بكم خيرا (لكل امرئ منهم) أى من أولئك العصبة (ما اكتسب من الاثم) بقدر ما خاض فيه (والذى تولى كبره) أى معظمه وقرئ بضم الكاف وهى لغة فيه (منهم) من العصبة وهو ابن أبى فانه بدأ به وأذاعه بين الناس عداوة لرسول الله صلى ﴿ بعضهم الله عليه وسلم وقيل هو وحسان ومسطح فانهما شايعاه بالتصريح به فافراد الموصول حينئذ باعتبار

الفوج أو الفريق أو نحوهما (له عذاب عظيم) أي في الآخرة أو في الدنيا أيضا فانهم جلدوا وردت شهادتهم وصاروا بني مطرودا مشهودا عليه بالنفاق وحسان أعمى وشل اليدين ومسطح مكفوف البصر وفي التعبير عنه بالذي أو تكرير الاسناد وتنكير العذاب ووصفه بالعظم من تهويل الخطب ما لا يخفى (لولا اذ سمعتموه) تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وذويه الى الخائضين بطريق الالتفات لتشديد ما في لولا التحضيضية من التوبيخ ثم العدول عنه الى الغيبة في قوله تعالى (ظن المؤمنون والمؤمنات بانفسهم خيرا) لتأكيد التوبيخ والتشنيع لكن لا بطريق الاعراض عنهم وحكاية جنايتهم لغيرهم على وجه المباثة بل بالتوسل بذلك الى وصفهم بما يوجب الاتيان بالمحضض عليه ويقتضيه اقتضاء تاما ويزجرهم عن ضده زجرا بليغا فان كون وصف الايمان مما يحملهم على احسان الظن

بعضهم من بعض فلذلك قلنا اذا وقعت ريبة للقاضي في شهادة الشهود فرقهم ليظهر على عورة ان كانت في شهادتهم (الثالث) انه لا يشترط أن يشهد وا معا في حالة واحدة بل اذا اجتمعوا عند القاضي وكان يقدم واحد بعد آخر ويشهد فانه تقبل شهادتهم فكذا اذا اجتمعوا على بابه ثم كان يدخل واحد بعد واحد حجة أبي حنيفة رحمه الله من وجهين (الاول) ان الشاهد الواحد لما شهد فقد قذفه ولم يأتوا بأربعة من الشهداء فوجب عليه الحد لقوله تعالى والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء أقصى ما في الباب انهم عبروا عن ذلك القذف بلفظ الشهادة وذلك لا عبرة به لانه يؤدي الى اسقاط حد القذف رأسا لان كل قاذف لا يعجزه لفظ الشهادة فيجعل ذلك وسيلة الى اسقاط الحد عن نفسه ويحصل مقصوده من القذف (الثاني) ما روي ان المغيرة بن شعبة شهد عليه بالزنا عند عمر بن الخطاب أربعة أبو بكرة ونافع ونفيع وقال زياد وكان رابعهم رأيت استا تنبو ونفسا يعلو ورجلها على عاتقه كاذني حمار ولا أدري ما وراء ذلك فجلد عمر الثلاثة ولم يسأل هل معهم شاهد آخر فلو قبل بعد ذلك شهادة غيرهم لتوقف لان الحدود مما يتوقف فيها ويحتاط (المسئلة الرابعة) لو شهد على الزنا أقل من الرابعة لا يثبت الزنا وهل يجب حد القذف على الشهود فيه قولان (أحدهما) لا يجب لانهم جاؤا بمجيء الشهود ولانا لو حددنا لانسد باب الشهادة على الزنا لان كل واحد لا يأمن ان لا يوافقه صاحبه فيلزمه الحد (والقول الثاني) وهو الاصح وبه قال أبو حنيفة رحمه الله يجب عليهم الحد والدليل عليه الوجهان المذكوران في المسئلة الثالثة (المسئلة الخامسة) اذا قذف رجل رجلا فجاء باربعة فساق فشهدوا على المقذوف بالزنا قال أبو حنيفة رحمه الله يسقط الحد عن القاذف ولا يجب الحد على الشهود وقال الشافعي رحمه الله في أحد قوليه يحدون وجه قول أبي حنيفة قوله والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا باربعة شهداء وهذا قد أتى باربعة شهداء فلا يلزمه الحد ولان الفاسق من أهل الشهادة وقد وجدت شرائط شهادة الزنا من اجتماعهم عند القاضي الا أنه لم تقبل شهادتهم لاجل التهمة فكما اعتبرنا التهمة في نفي الحد عن المشهود عليه فكذلك وجب اعتبارها في نفي الحكم عنهم ووجه قول الشافعي رحمه الله انهم غير موصوفين بالشرائط المعتبرة في قبول الشهادة فخرجوا عن ان يكونوا شاهدين فبقوا محض القاذفين وههنا آخر الكلام في تفسير قوله تعالى ثم لم يأتوا باربعة شهداء أما قوله تعالى فاجلدوهم ثمانين جلدة ففيه مسائل (المسئلة الاولى) المخاطب بقوله فاجلدوهم هو الامام على ما بيناه في آية الزنا وأما مالك على مذهب الشافعي أو رجل صالح ينصبه الناس عند فقد الامام (المسئلة الثانية) خص من عموم هذه الآية صور (أحدها) الوالد يقذف ولده أو أحدا من نوافله فلا يجب عليه الحد كما لا يجب عليه القصاص بقتله (الثالثة) القاذف اذا كان عبدا فلو اجب جلد أربعين وكذا المكاتب وأم الولد ومن بعضه حر وبعضه رقيق فحدهم حد العبيد (الثالثة) من قذف

ويكفهم عن اساءته بانفسهم س أي بابناء جنسهم النازلين منزلة أنفسهم كقوله تعالى ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وقوله تعالى ولا تلمزوا أنفسكم مما لا ريب فيه فاخلالهم بموجب ذلك الوصف أقبح وأشنع والتوبيخ عليه ادخل

رقيقة عفيفة أو من زنت في قديم الايام ثم تابت فهي بموجب اللغة محصنة ومع ذلك لايجب الحد بقذفها (المسئلة الثالثة) قالوا أشد الضرب في الحدود ضرب الزنا ثم ضرب شرب الخمر ثم ضرب القاذف لان سبب عقوبته محتمل للصدق والكذب الا انه عوقب صيانة للاعراض وزجرا عن هتكها (المسئلة الرابعة) قال مالك والشافعي حد القذف يورث فاذا مات المقذوف قبل استيفاء الحد وقبل العفو يثبت لوارثه حد القذف وكذلك اذا كان الواجب بقذفه التعزير فانه يورث عنه وكذا لو أنشأ القذف بعد موت المقذوف ثبت لوارثه طلب الحد وعند أبي حنيفة رحمه الله حد القذف لايورث ويسقط بالموت حجة الشافعي رحمه الله ان حد القذف هو حق الآدمي لانه يسقط بعفوه ولايستوفى الا بطلبه ويحلف فيه المدعى عليه اذا أنكر واذا كان حق الآدمي وجب أن يورث لقوله عليه السلام ومن ترك حقا فلورثته حجة أبي حنيفة رحمه الله انه لو كان موروثا لكان للزوج أو للزوجة فيه نصيب ولا حق ليس فيه معنى المال والوثيقة فلا يورث كالو كالقذف والمضاربة (الجواب) عن الاول ان الاصح عند الشافعية انه يرثه جميع الورثة كالمال وفيه وجه ثان أنه يرثه كلهم الا الزوج والزوجة لان الزوجية ترتفع بالموت ولان المقصود من الحد دفع العار عن النسب وذلك لايلحق الزوج والزوجة (المسئلة الخامسة) اذا قذف انسان انسانا بين يدي الحاكم أو قذف امرأته برجل بعينه والرجل غائب فعلى الحاكم أن يبعث الى المقذوف ويخبره بان فلانا قذفك وثبت لك حد القذف عليه كما لو ثبت له مال على آخر وهو لايعلم يلزمه اعلامه وعلى هذا النص بعث النبي صلى الله عليه وسلم أنيسا ليخبر هلال فلانا انه قذفها بابن ولم يبعثه يفحص عن زناها قال الشافعي رحمه الله وليس للامام اذا رمى رجل بزنا أن يبعث اليه فيساله عن ذلك لان الله تعالى قال ولاتجسسوا وأراد به اذا لم يكن القاذف معينا مثل أن قال رجل بين يدي الحاكم الناس يقولون ان فلانا زنى فلا يبعث الحاكم اليه فيسأله أما قوله تعالى ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا فاختلف الفقهاء فيه فقال اكثر الصحابة والتابعين انه اذا تاب قبلت شهادته وهو قول الشافعي رحمه الله وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والحسن بن صالح رحمهم الله لاتقبل شهادة المحدود في القذف اذا تاب وهذه المسئلة مبنية على أن قوله الا الذين تابوا هل عاد الى جميع الاحكام المذكورة أو اختص بالجملة الاخيرة فعند أبي حنيفة رحمه الله الاستثناء المذكور عقيب الجمل الكثيرة مختص بالجملة الاخيرة وعند الشافعي رحمه الله يرجع الى الكل وهذه المسئلة قد لخصناها في أصول الفقه ونذكرها ههنا مايليق بهذا الموضع ان شاء الله تعالى احتج الشافعي رحمه الله على ان شهادته مقبولة بوجوه (أحدها) قوله عليه السلام التائب من الذنب كمن لاذنب له ومن لاذنب له مقبول الشهادة فالتائب يجب أن يكون أيضا مقبول الشهادة (وثانيها) ان الكافر يقذف فيتوب عن الكفر وتقبل شهادته بالاجماع فالقاذف المسلم اذا تاب عن القذف وجب أن تقبل شهادته لان القذف مع

فايجابه لما ذكر واضح والتوبيخ خاص بالمؤمنين وان كان مطلق الايمان الشامل لما يظهره المنافقون أيضا فايجابه له عن حيث انهم كانوا يحترزون عن اظهار ماينافي مدعاهم فالتوبيخ حينئذ متوجه الى الكل وتوسيط الظرف بين لولا وفعلها للتخصيص التحضيضي باول زمان سماعهم وقصر التوبيخ على تاخير الاتيان بالمحضض عليه عن ذلك الآن والتردد فيه ليفيد أن عدم الاتيان به رأسا في غاية ماليكون من القباحة والشناعة أي كان الواجب أن يظن المؤمنون والمؤمنات أول ماسمعوه من اخترعه بالذات أو بالواسطة من غير تلعثم وتردد بشانهم من آحاد المؤمنين خيرا (وقالوا) في ذلك الآن (هذا افك مبين) أي ظاهر مكشوف كونه افكا فكيف بالصديقة ابنة الصديق أم المؤمنين حرمة رسول الله صلى الله عليه وسلم (لولا جاؤا عليه باربعة شهداء) اما من تمام القول المحضض عليه مسوق لحث السامعين على الزام المسمعين وتكذيبهم اثر تكذيب ماسمعوه منهم بقولهم هذا افك مبين وتوبيخهم على تركه اى هلا جاء الخائضون باربعة شهداء

يشهدون على ماقالوا (فاذلم يأتوا) بهم وانما قيل ﴿ (بالشهداء) لزيادة التقرير (فاولئك) اشارة الى الخائضين

الاسلام أهون حالا من القذف مع الكفر فان قيل المسلمون لا يألمون بسبب الكفار لانهم شهروا بعداوتهم والطعن فيهم بالباطل فلا يلحق المقذوف بقذف الكافر من الشين والشناآن مايلحقه بقذف مسلم مثله فشدد على القاذف من المسلمين زجرا عن الحاق العار والشناآن وأيضا فالتائب من الكفر لايجب عليه الحد والتائب من القذف لايسقط عنه الحد قلنا هذا الفرق مبني بقوله عليه السلام أنبئهم ان لهم ماللمسلمين وعليهم ماعلى المسلمين (وثالثها) أجمعنا على ان التائب عن الكفر والقتل والزنا مقبول الشهادة فكذا التائب عن القذف لان هذه الكبيرة ليست اكبر من نفس الزنا (ورابعها) أن أبا حنيفة رحمه الله يقبل شهادته اذا تاب قبل الحد مع أن الحد حق المقذوف فلا يزول بالتوبة فلأن تقبل شهادته اذا تاب بعد اقامة الحد وقد حسنت حالته وزال اسم الفسق عنه كان أولى (وخامسها) ان قوله الا الذين تابوا استثناء مذكور عقيب جمل فوجب عوده اليها بأسرها ويدل عليه أمور (أحدها) أجمعنا على انه لو قال عبده حر وامرأته طالق ان شاء الله فانه يرجع الاستثناء الى الجميع فكذا فيما نحن فيه فان قيل الفرق ان قوله ان شاء الله يدخل لرفع حكم الكلام حتى لايثبت فيه شئ والاستثناء المذكور بحرف الاستثناء لايجوز دخوله لرفع حكم الكلام رأسا ألا ترى انه يجوز أن يقول أنت طالق ان شاء الله فلا يقع شئ ولو قال أنت طالق الا طلاقا كان الطلاق واقعا والاستثناء باطلا لاستحالة دخوله لرفع حكم الكلام بالكلية فثبت انه لايلزم من رجوع قوله ان شاء الله الى جميع ماتقدم صحة رجوع الاستثناء بحرفه الى جميع ماتقدم قلنا هذا فرق في غير محل الجمع لان ان شاء الله جاز دخوله لرفع حكم الكلام بالكلية فلاجرم جاز رجوعه الى جميع الجمل المذكورة والاجاز دخوله لرفع بعض الكلام فوجب جواز رجوعه الى جميع الجمل على هذا الوجه حتى يقتضي أن يخرج من كل واحد من الجمل المذكورة بعضه (وثانيها) ان الواو للجمع المطلق فقوله فاجلدوهم ثمانين جلدة ولاتقبلوا لهم شهادة ابدا وأولئك هم الفاسقون صار الجمع كانه ذكر معا لاتقدم للبعض على البعض فلما دخل عليه الاستثناء لم يكن رجوع الاستثناء الى بعضها اولى من رجوعه الى الباقي اذ لم يكن لبعضها على بعض تقدم في المعنى البتة فوجب رجوعه الى الكل ونظيره على قول أبي حنيفة رحمه الله قوله تعالى اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم فان فاء التعقيب ماد خلت على غسل الوجه بل على مجموع هذه الامور من حيث ان الواو لاتفيد الترتيب فكذا ههنا كلمة الا ماد خلت على واحد بعينه لان حرف الواو لايفيد الترتيب بل دخلت على المجموع فان قيل الواو قد تكون للجمع على ماذكرت وقد تكون للاستئناف وهي في قوله فاولئك هم الفاسقون لانها انما تكون للجمع فيما يختلف معناه ونظمه جملة واحدة فيصير الكل كالمذكور معا مثل آية الوضوء فان الكل أمر واحد كانه قال فاغسلوا هذه الاعضاء فان الكل قد تضمنه لفظ الامر واما آية القذف فان ابتداءها أمر وآخرها خبر فلا يجوز أن

وما فيه من معنى البعد للايذان بعلو رتبتهم في الفساد وبعد منزلتهم في الشر أي أولئك المفسدون (عند الله) أي في حكمه وشرعه المؤسس على الدلائل الظاهرة المتقنة (هم الكاذبون) الكاملون في الكذب المشهود عليهم بذلك المستحقون لاطلاق الاسم عليهم دون غيرهم ولذلك رتب عليه الحد خاصة واما كلام مبتدأ مسوق من جهته تعالى للاحتجاج على كذبهم بكون ماقالوه قولا لايساعده الدليل أصلا (ولولا فضل الله عليكم) خطاب للسامعين والمسمعين جميعا (ورحمته في الدنيا) من فنون النعم التي من جملتها الامهال للتوبة (والآخرة) من ضروب الآلاء التي من جملتها العفو والمغفرة بعد التوبة (لمسكم) عاجلا (فيما أفضتم فيه) بسبب ماخضتم فيه من حديث الافك والابهام لتهويل أمره والاستهجان بذكره يقال أفاض في الحديث وخاض واندفع وهضب بمعنى (عذاب عظيم) يستحقر دونه التوبيخ والجلد (اذ تلقونه) بحذف احدى التاءين ظرف للمس أي لمسكم ذلك العذاب العظيم وقت تلقيكم اياه من المخترعين (بالسنتكم) والتلقي

وفى الثالث معنى الحذق والمهارة وقرئ تتلقونه على الاصل وتلقونه من لقيد وتلقونه بكسر حرف المضارعة وتلقونه من القاء بعضهم على بعض وتلقونه وتالقونه من الولق والالق وهو الكسب وتثقفونه من ثقفته اذا طلبته فوجدته وتثقفونه أى تتبعونه (وتقولون بافواهكم مالیس لكم به علم) أى تقولون قولا مختصا بالافواه من غير أن يكون له مصداق ومنشأ فى القلوب لانه ليس تعبيرا عن علم به فى قلوبكم كقوله تعالى يقولون بافواههم ما ليس فى قلوبهم (وتحسبونه هينا) سهلا لاتبعة له أو ليس له كثير عقوبة (وهو عند الله) والحال انه عنده عز وجل (عظيم) لايقادر قدره فى الوزر واستجرار العذاب (ولولا اذ سمعتموه) من المخترعين اوالمشايعين لهم (قلتم) تكذيبا لهم وتهويلا لما ارتكبوه (مايكون لنا) مايمكننا (أن نتكلم بهذا) ومايصدر عنا ذلك

يظمهما جملة واحدة وكان الواو والاستئناف فيختص الاستثناء به قلنا لم لايجوز أن تجعل الجمل الثلاث مجموعها جزاء الشرط كانه قيل ومن قذف المحصنات فاجلدوهم وردوا شهادتهم وفسقوهم أى فاجمعوا لهم الجلد والرد والفسق الا الذين تابوا عن القذف وأصلحوا فان الله يغفر لهم فيتقبلون غير مجلودين ولا مردودين ولا مفسقين (وثالثها) ان قوله واولئك هم الفاسقون عقيب قوله ولاتقبلوا لهم شهادة أبدا يدل على ان العلة فى عدم قبول تلك الشهادة كونه فاسقا لان ترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية لاسيما اذا كان الوصف مناسبا وكونه فاسقا يناسب أن لايكون مقبول الشهادة اذا ثبت ان العلة لرد الشهادة ليست الا كونه فاسقا ودل الاستثناء على زوال الفسق فقد زالت العلة فوجب أن يزول الحكم لزوال العلة (ورابعها) ان مثل هذا الاستثناء موجود فى القرآن قال الله تعالى انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله الى قوله الا الذين تابوا ولاخلاف ان هذا الاستثناء راجع الى ماتقدم من أول الآية وان التوبة حاصلة لهؤلاء جميعا وكذلك قوله لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى الى قوله فلم تجدوا ماء فتيمموا وصار التيمم لمن وجب عليه الاغتسال كما انه مشروع لمن وجب عليه الوضوء وهذا الوجه ذكره أبو عبيد فى اثبات مذهب الشافعى رحمه الله واحتج أصحاب أبى حنيفة على ان حكم الاستثناء مختص بالجملة الاخيرة بوجوه (أحدها) ان الاستثناء من الاستثناء يختص بالجملة الاخيرة فكذا فى جميع الصور طردا للباب (وثانيها) ان المقتضى لعموم الجمل المتقدمة قائم والمعارض وهو الاستثناء يكفى فى تصحيحه تعلقه بجملة واحدة لان بهذا القدر يخرج الاستثناء عن أن يكون لغوا فوجب تعليقه بالجملة الواحدة فقط (وثالثها) ان الاستثناء لو رجع الى كل الجمل المتقدمة لوجب انه اذا تاب ان لايجلد وهذا باطل بالاجماع فوجب أن يختص الاستثناء بالجملة الاخيرة (والجواب) عن الاول ان الاستثناء من النفى اثبات ومن الاثبات نفى فالاستثناء عقيب الاستثناء لو رجع الى الاستثناء الاول والى المستثنى فبقدر مانفى من أحدهما اثبت فى الآخر فيجبر الناقص بالزائد ويصير الاستثناء الثانى عديم الفائدة فلهذا السبب قلنا فى الاستثناء من الاستثناء انه يختص بالجملة الاخيرة (والجواب) عن الثانى انا بينا ان واو العطف لاتقتضى الترتيب فلم يكن بعض الجمل متأخرا فى التقدير عن البعض فلم يكن تعليق البعض أولى من تعليقه بالباقى فوجب تعليقه بالكل (والجواب) عن الثالث انه ترك العمل به فى حق البعض فلم يترك العمل به فى حق الباقى واحتج أصحاب أبى حنيفة رحمه الله فى المسئلة بوجوه من الاخبار (احدها) ماروى ابن عباس رضى الله عنهما فى قصة هلال بن امية حين قذف امرأته بشريك بن سحماء فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بحد هلال وتبطل شهادته فى المسلمين فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ان وقوع الجلد به يبطل شهادته من غير شرط التوبة فى قبولها (وثانيها) ان قوله عليه السلام المسلمون عدول بعضهم على بعض الا محدود فى قذف ولم يشترط فيه وجود التوبة منه

بوجه من الوجوه وحاصله نفي وجود التكلم به لانفي وجوده على وجه الصحة والاستقامة والانبغاء وهذا

(وثالثها) ماروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاتجوز شهادة محدود في الاسلام قالت الشافعية هذا معارض بوجوه (أحدها) قوله عليه السلام اذا علمت مثل الشمس فاشهد والامر للوجوب فاذا علم المحدود وجبت عليه الشهادة ولو لم تكن مقبولة لما وجبت لانها تكون عبثا (وثانيها) قوله عليه السلام نحن نحكم بالظاهر وههنا قد حصل الظهور لان دينه وعقله وعفته الحاصلة بالتوبة تفيد ظن كونه صادقا (وثالثها) ماروى عن عمر بن الخطاب انه ضرب الذين شهدوا على المغيرة ابن شعبة وهم أبو بكرة ونافع ونفيع ثم قال لهم من أكذب نفسه قبلت شهادته ومن لا يفعل لم أجز شهادته فاكذب نافع ونفيع أنفسهما وتابا وكان يقبل شهادتهما واما أبو بكرة فكان لا يقبل شهادته وما أنكر عليه أحد من الصحابة فيه فهذا تمام الكلام في هذه المسئلة اما قوله تعالى وأولئك هم الفاسقون فاعلم انه يدل على أمرين (الاول) ان القذف من جملة الكبائر لان اسم الفسق لا يقع الا على صاحب الكبيرة (الثاني) انه اسم لمن يستحق العقاب لانه لو كان مشتقا من فعله لكانت التوبة لا تمنع من دوامه كما لا تمنع من وصفه بانه ضارب وبانه رام الى غير ذلك وأما قوله تعالى الا الذين تابوا فاعلم انهم اختلفوا في ان التوبة عن القذف كيف تكون قال الشافعي رحمه الله التوبة منها اكذابه نفسه واختلف اصحابه في معناه فقال الاصطخري يقول كذبت فيما قلت فلا أعود لمثله وقال أبو اسحق لا يقول كذبت لانه ربما يكون صادقا فيكون قوله كذبت كذبا والكذب معصية والاتيان بالمعصية لا يكون توبة عن معصية أخرى بل يقول القذف باطل ندمت على ما قلت ورجعت عنه ولا أعود اليه أما قوله وأصلحوا فقال أصحابنا انه بعد التوبة لا بد من مضي مدة عليه في حسن الحال حتى تقبل شهادته وتعود ولايته ثم قدروا تلك المدة بسنة حتى تمر عليه الفصول الاربع التي تتغير فيها الاحوال والطباع كما يضرب للعنين أجل سنة وقد علق الشرع أحكاما بالسنة من الزكاة والجزية وغيرهما واما قوله تعالى فان الله غفور رحيم فالمعنى انه لكونه غفورا رحيما يقبل التوبة وهذا يدل على أن قبول التوبة غير واجب عقلا اذ لو كان واجبا لما كان في قبوله غفورا رحيما لانه اذا كان واجبا فهو انما يقبله خوفا وقهرا لعله بانه لو لم يقبله لصار سفيها ولخرج عن حد الالهية أما اذا لم يكن واجبا فقبله فهناك تتحقق الرحمة والاحسان وبالله التوفيق

(الحكم الرابع) حكم اللعان * قوله تعالى (والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين والخامسة ان لعنة الله عليه ان كان من الكاذبين ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين والخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين ولولا فضل الله عليكم ورحمته وان الله تواب حكيم) اعلم انه سبحانه لما ذكر أحكام قذف الاجنبيات عقبه باحكام قذف الزوجات ثم هذه الآية مشتملة على ابحاث (البحث الاول) في سبب نزوله

اشارة الى ماسمعوه وتوسيط الظرف بين لولا وقلتم لما مر من تخصيص التحضيض باول وقت السماع وقصر التوبيخ واللوم على تأخير القول المذكور عن ذلك الآن ليفيد انه المحتمل للوقوع المفتقر الى التحضيض على تركه وأما ترك القول نفسه رأسا فمما لا يتوهم وقوعه حتى يحضض على فعله ويلام على تركه وعلى هذا ينبغي أن يحمل ماقيل ان المعنى انه كان الواجب عليهم أن ينقادوا أول ماسمعوا بالافك عن التكلم به فلما كان ذكر الوقت أهم وجب التقديم وأما ماقيل من أن ظروف الاشياء منزلة أنفسها لوقوعها فيها وأنها لا تنفك عنها فلذلك يتسع فيها ما لا يتسع في غيرها فهي ضابطة قد يعتمل فيما اذا وضع الظرف موضع المظروف بأن جعل مفعولا صريحا للفعل مذكورا كما في قوله تعالى واذكروا اذ جعلكم خلفاء أو مقدرا كعامة الظروف المنصوبة باضمار اذكروا وأما ههنا فلا حاجة اليها اصلا لما تحققت أن مناط التقديم توجيه التحضيض اليه وذلك يتحقق في جميع متعلقات الفعل كما في قوله تعالى فلولا ان كنتم

وذكروا فيه وجوها (أحدها) قال ابن عباس رحمهما الله لما نزل قوله تعالى والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء قال عاصم بن عدي الأنصاري ان دخل منا رجل بيته فوجد رجلا على بطن امرأته فان جاء بأربعة رجال يشهدون بذلك فقد قضى الرجل حاجته وخرج وان قتله قتل به وان قال وجدت فلا تأتي تلك المرأة ضرب وان سكت سكت على غيظ اللهم افتح وكان لعاصم هذا ابن عم يقال له عويمر وله امرأة يقال لها خولة بنت قيس فأتى عويمر عاصما فقال لقد رأيت شريك بن سحماء على بطن امرأتي خولة فاسترجع عاصم وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ما أسرع ما ابتليت بهذا في أهل بيتي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وماذاك فقال اخبرني عويمر ابن عمي بأنه رأى شريك بن سحماء على بطن امرأته خولة وكان عويمر وخولة وشريك كلهم بنو عم عاصم فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم جميعا وقال لعويمر اتق الله في زوجتك وابنة عمك ولا تفتذفها فقال يا رسول الله أقسم بالله اني رأيت شريكا على بطنها واني ما قربتها منذ أربعة أشهر وانها حبلى من غيري فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم اتقي الله ولا تخبري الا بما صنعت فقالت يا رسول الله ان عويمرا رجل غيور وانه رأى شريكا يطيل النظر الي ويتحدث فحملته الغيرة على ما قال فأنزل الله تعالى هذه الآية فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نودي الصلاة جامعة فصلى العصر ثم قال لعويمر قم وقل أشهد بالله ان خولة لزانية واني لمن الصادقين ثم قال في الثانية قل أشهد بالله اني رأيت شريكا على بطنها واني لمن الصادقين ثم قال في الثالثة قل أشهد بالله انها حبلى من غيري واني لمن الصادقين ثم قال في الرابعة قل أشهد بالله انها لزانية واني ما قربتها منذ أربعة أشهر واني لمن الصادقين ثم قال في الخامسة قل لعنة الله على عويمر يعني نفسه ان كان من الكاذبين فيما قال ثم قال اقعد وقال لخولة قومي فقامت وقالت أشهد بالله ما أنا بزانية وانزوجي عويمرا من الكاذبين وقالت في الثانية أشهد بالله ما رأى شريكا على بطني وانه لمن الكاذبين وقالت في الثالثة أشهد بالله اني حبلى منه وانه لمن الكاذبين وقالت في الرابعة اشهد بالله انه ما رآني على فاحشة قط وانه لمن الكاذبين وقالت في الخامسة غضب الله على خولة ان كان عويمر من الصادقين في قوله ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما (وثانيها) قال ابن عباس رضي الله عنهما في رواية الكلبي ان عاصما ذات يوم رجع الى أهله فوجد شريك بن سحماء على بطن امرأته فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتمام الحديث كما تقدم (وثالثها) ما روى عكرمة عن ابن عباس لما نزل والذين يرمون المحصنات قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار لو وجدت رجلا على بطنها فاني ان جئت بأربعة من الشهداء يكون قد قضى حاجته وذهب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم فقالوا يا رسول الله لا تلمه فانه رجل غيور فقال سعد يا رسول الله والله اني لأعرف انها من الله وأنها حق ولكني عجبت منه فقال عليه السلام

تعالى تنزيها له سبحانه عن أن يصعب عليه أمثاله ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه أو تنزيه له تعالى عن أن تكون حرمة نبيه فاجرة فان فجورها تنفير عنه ومخل بمقصود الزواج فيكون تقريرا لما قبله وتمهيدا لقوله تعالى (هذا بهتان عظيم) لعظمة البهوت عليه واستحالة صدقه فان حقارة الذنوب وعظمها باعتبار متعلقاتها (يعظكم الله) أي ينصحكم (ان تعودوا لمثله) أي كراهة أن تعودوا أو يزجركم من ان تعودوا أو في أن تعودوا من قولك وعظته في كذا فتركه (أبدا) أي مدة حياتكم (ان كنتم مؤمنين) فان الايمان وازع عنه لاستحالة وفيه تهييج وتفريع (ويبين الله لكم الآيات) الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب دلالة واضحة لتتعظوا وتتأدبوا بها أي يبينها كذلك أي مبينة ظاهرة الدلالة على معانيها لأنه يبينها بعد ان لم تكن

كذلك وهذا كما في قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل أي خلقهما صغيرا وكبيرا ومنه قولك ضيق ﴿ فان ﴾ فم الركية ووسع أسفلها واظهار الاسم الجليل في موقع الاضمار

فان الله يابى الاذلك قال فلم يلبثوا الا يسيرا حتى جاء ابن عم له يقال له هلال بن أمية وهو أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم فقال يارسول الله انى وجدت مع امرأتى رجلا رأيت بعينى وسمعت باذنى فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ماجاء به فقال هلال والله يارسول الله انى لأرى الكراهة فى وجهك مما أخبرتك به والله يعلم انى لصادق وماقلت الا حقا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اما البينة واما اقامة الحد عليك فاجتمعت الانصار فقالوا ابتلينا بما قال سعد فبيناهم كذلك اذ نزل عليه الوحى وكان اذا نزل عليه الوحى ارتد وجهه وعلا جسده حمرة فلما سرى عنه قال عليه السلام أبشر ياهلال فقد جعل الله لك فرجا قال قد كنت أرجو ذلك من الله تعالى فقرأ عليهم هذه الآيات فقال عليه السلام ادعوها فدعيت فجاءت هلالا فقال عليه السلام الله يعلم ان أحدكما كاذب فهل منكما تائب وأمر باللاعنة فشهد هلال أربع شهادات بالله انه لمن الصادقين فقال عليه السلام له عند الخامسة اتق الله ياهلال فان عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة فقال والله لايعذبنى الله عليها كما لم يجلدنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهد الخامسة ثم قال رسول الله أتشهدين فشهدت أربع شهادات بالله انه لمن الكاذبين فلما أخذت فى الخامسة قال لها اتقى الله فان الخامسة هى الموجبة فتفكرت ساعة وهمت بالاعتراف ثم قالت والله لأفضحن قومى وشهدت الخامسة ان غضب الله عليها ان كان من الصادقين ففرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما ثم قال انظروها ان جاءت به أبيجح أصهب أحمس الساقين فهو لهلال وان جاءت به خدلج الساقين أورق جعدا فهو لصاحبه فجاءت به أورق خدلج الساقين فقال عليه السلام لولا الايمان لكان لى ولها شان قال عكرمة لقد رأيته بعد ذلك أميرا بمصر من الامصار ولايدرى من أبوه (البحث الثانى) مايتعلق بالقراءة قرئ ولم تكن بالتاء لان الشهداء جماعة أولانهم فى معنى الانفس ووجه من قرأ أربع أن ينصب لانه فى حكم المصدر والعامل فيه المصدر الذى هو شهادة أحدهم وهى مبتدأ محذوف الخبر فتقديره فواجب شهادة أحدهم أربع شهادات وقرئ ان لعنة الله وان غضب الله على تخفيف ان ورفع مابعدها وقرئ ان غضب الله على فعل الغضب وقرئ بنصب الخامستين على معنى يشهد الخامسة (البحث الثالث) مايتعلق بالاحكام والنظر فيه يتعلق باطراف (الطرف الاول) فى موجب اللعان وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه اذا رمى الرجل امرأته بالزنا يجب عليه الحد ان كانت محصنة والتعزير ان لم تكن محصنة كما فى رمى الاجنبية لايختلف موجبهما غير انهما يختلفان فى المخلص ففى قذف الاجنبى لايسقط الحد عن القاذف الا باقرار المقذوف أو ببينة تقوم على زناها وفى قذف الزوجة يسقط عنه الحد بأحد هذين الامرين أو باللعان وانما اعتبر الشرع اللعان فى هذه الصورة دون الاجنبيات لوجهين (الاول) انه لامعرة عليه فى زنا الاجنبية والاولى له ستره أما اذا زنى بزوجته فيلحقه العار والنسب الفاسد فلا يمكنه الصبر عليه وتوفيقه على البينة كالمتعذر

فأنى يمكن صدق ماقيل فى حق حرمة من أصطفاه لرسالاته وبعثه الى كافة الخلق ليرشدهم الى الحق ويزكيهم ويطهرهم تطهيرا واظهار الاسم الجليل ههنا لتأكيد استقلال الاعتراض التذييلى والاشعار بعلة الالوهية للعلم والحكمة (ان الذين يحبون) أى يريدون ويقصدون (أن تشيع الفاحشة) أى تنتشر الخصلة المفرطة فى القبح وهى الفرية والرمى بالزنا أو نفس الزنا فالمراد بشيوعها شيوع خبرها أى يحبون شيوعها ويتصدون مع ذلك لاشاعتها وانما لم يصرح بها اكتفاء بذكر المحبة فانها مستتبعة له لامحالة (فى الذين آمنوا) متعلق بتشيع أى تشيع فيما بين الناس وذكر المؤمنين لانهم العمدة فيهم أو بمضمر هو حال من الفاحشة فالموصول عبارة عن المؤمنين خاصة أى يحبون أن تشيع الفاحشة كائنة فى حق المؤمنين وفى

حقهم (لهم) بسبب ماذكر (عذاب اليم فى الدنيا) من الحد وغيره مما يتفق من البلايا الدنيوية ولقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبى وحسانا ومسطحا حد القذف وضرب صفوان حسانا ضربة بالسيف

فلا جرم خص الشرع هذه الصورة باللعان (الثاني) ان الغالب في المتعارف من أحوال الرجل مع امرأته انه لا يقصدها بالقذف الا عن حقيقة فاذا رماها فنفس الرمي يشهد بكونه صادقا الا أن شهادة الحال ليست بكاملة فضم اليها ما يقويها من الايمان كشهادة المرأة لما ضعفت قويت بزيادة العدد والشاهد الواحد يتقوى باليمين على قول كثير من الفقهاء (المسئلة الثانية) قال أبو بكر الرازي كان حد قاذف الاجنبيات والزوجات الجلد والدليل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم لهلال بن أمية حين قذف امرأته بشريك ابن سحماء ائتني بأربعة يشهدون لك والا فحد في ظهرك فثبت بهذا ان حد قاذف الزوجات كان كحد قاذف الاجنبيات الا أنه نسخ عن الازواج الجلد باللعان وروى نحو ذلك في الرجل الذي قال أرأيتم لو أن رجلا وجد مع امرأته رجلا فان تكلم جلد تموه وان قتل قتلتموه وان سكت سكت على غيظ فدلت هذه الاخبار على ان حد قاذف الزوجة كان الجلد وان الله نسخه باللعان (المسئلة الثالثة) قال الشافعي رحمه الله اذا قذف الزوج زوجته فالواجب هو الحد ولكن المخلص منه باللعان كما أن الواجب بقذف الاجنبية الحد والمخلص منه بالشهود فاذا نكل الزوج عن اللعان يلزمه الحد للقذف فاذا لاعن ونكلت عن اللعان يلزمها حد الزنا وقال أبو حنيفة رحمه الله اذا نكل الزوج عن اللعان حبس حتى يلاعن وكذا المرأة اذا نكلت حبست حتى تلاعن حجة الشافعي وجوه (أحدها) ان الله تعالى قال في أول السورة والذين يرمون المحصنات يعني غير الزوجات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ثم عطف عليه حكم الازواج فقال والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم الآية فكما ان مقتضى قذف الاجنبيات الاتيان بالشهود أو الجلد فكذا موجب قذف الزوجات الاتيان باللعان أو الحد (وثانيها) قوله تعالى ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله والالف واللام الداخلان على العذاب لا يفيدان العموم لانه لم يجب عليها جميع أنواع العذاب فوجب صرفهما الى المعهود السابق والمعهود السابق هو الحد لانه تعالى ذكر في أول السورة وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين والمراد منه الحد واذا ثبت ان المراد من العذاب في قوله ويدرأ عنها العذاب هو الحد ثبت انها لو لم تلاعن لحدت وانها باللعان دفعت الحد فان قيل المراد من العذاب هو الحبس قلنا قد بينا ان الالف واللام للمعهود المذكور وأقرب المذكورات في هذه السورة العذاب بمعنى الحد وأيضا فلو حملناه على الحد لا تصير الآية مجملة أما لو حملناه على الحبس تصير الآية مجملة لان مقدار الحبس غير معلوم (وثالثها) قال الشافعي رحمه الله ومما يدل على بطلان الحبس في حق المرأة انها تقول ان كان الرجل صادقا فحدوني وان كان كاذبا فخلوني فما بالي والحبس وليس حبسي في كتاب الله ولا سنة رسوله ولا الاجماع ولا القياس (ورابعها) ان الزوج قذفها وأبيات بالمخرج من شهادة غيره أو شهادة نفسه فوجب عليه الحد لقوله تعالى والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا

جلتها ما في الضمائر من المحبة المذكورة (وأنتم لا تعلمون) ما يعلمه تعالى بل انما تعلمون ما ظهر لكم من الاقوال والافعال المحسوسة فابنوا أموركم على ما تعلمونه وعاقبوا في الدنيا على ما تشاهدونه من الاحوال الظاهرة والله سبحانه هو المتولي للسرائر فيعاقب في الآخرة على ما تكنه الصدور هذا اذا جعل العذاب الاليم في الدنيا عبارة عن حد القذف أو منتظماله كما أطبق عليه الجمهور أما اذا أبقي على اطلاقه يراد بالمحبة نفسها من غير أن يقارنها التصدي للاشاعة وهو الانسب بسياق النظم الكريم فيكون ترتيب العذاب عليها تنبيها على أن عذاب من يباشر الاشاعة ويتولاها أشد وأعظم ويكون الاعتراض الذيلي أعني قوله تعالى والله يعلم وأنتم لا تعلمون تقريرا لثبوت العذاب الاليم لهم وتعليلا له (ولولا فضل الله عليكم ورحمته) تكرير للمنة بترك المعاجلة بالعقاب للتنبيه على كمال عظم الجريرة (وأن الله رؤف رحيم) عطف على فضل الله واظهار ﴿ بارعة ﴾ الاسم الجليل لتربية المهابة والاشعار باستتباع صفة الالوهية للرأفة والرحمة وتغيير سبكه وتصديره

بأربعة شهداء فاجلدوهم واذا ثبت ذلك فى حق الرجل ثبت فى حق المرأة لانه لاقائل بالفرق (وخامسها) قوله عليه السلام لخولة فارجم أهون عليك من غضب الله وهو نص فى الباب حجة أبى حنيفة رحمه الله أما فى حق المرأة فلانها ما فعلت سوى انها تركت اللعان وهذا الترك ليس بينة على الزنا ولا اقرارا منها به فوجب أن لا يجوز رجمها لقوله عليه السلام لا يحل دم امرئ مسلم الحديث واذا لم يجب الرجم اذا كانت محصنة لم يجب الجلد فى غير المحصن لانه لاقائل بالفرق وأيضا فالمكول ليس بصريح فى الاقرار فلم يجز اثبات الحد به كاللفظ المحتمل للزنا وغيره (المسئلة الرابعة) قال الجمهور اذا قال لها يا زانية وجب اللعان وقال مالك رحمه الله لا يلاعن الا أن يقول رأيتك تزنى أو ينفى حملها وولدا منها حجة الجمهور أن عموم قوله والذين يرمون المحصنات يتناول الكل ولانه لا تفاوت فى قذف الاجنبية بين الكل فكذا فى حق قذف الزوجة (الطرف الثانى) الملاعن قال الشافعى رحمه الله من صح يمينه صح لعانه فيجرى اللعان بين الرقيقين والذميين والمحدودين وكذا اذا كان أحدهما رقيقا أو كان الزوج مسلما والمرأة ذمية وقال أبو حنيفة رحمه الله لا يصح فى صورتين (احداهما) أن تكون الزوجة ممن لا يجب على قاذفها الحد اذا كان أجنبيا نحو أن تكون الزوجة مملوكة أو ذمية (والثانى) أن يكون أحدهما من غير أهل الشهادة بأن يكون محدودا فى قذف أو عبدا أو كافرا ثم زعم ان الفاسق والاعمى مع انهما ليسا من أهل الشهادة يصح لعانهما وجه قول الشافعى رحمه الله ان ظاهر قوله تعالى والذين يرمون أزواجهم يتناول الكل ولا معنى للتخصيص والقياس أيضا ظاهر من وجهين (الاول) ان المقصود دفع العار عن النفس ودفع الولد الزنا عن النفس وكما يحتاج غير المحدود اليه فكذا المحدود محتاج اليه (والثانى) اجمعنا على أنه يصح لعان الفاسق والاعمى وان لم يكونا من أهل الشهادة فكذا القول فى غيرهما والجامع هو الحاجة الى دفع عار الزنا ووجه قول ابى حنيفة رحمه الله النص والمعنى أما النص فما روى عبد الله بن عمرو بن العاص انه عليه السلام قال أربع من النساء ليس بينهن وبين أزواجهن ملاعنة اليهودية والنصرانية تحت المسلم والحرة تحت المملوك والمملوكة تحت الحر أما المعنى فنقول أما فى الصورة الاولى فلانه كان الواجب على قاذف الزوجة والاجنبية الحد بقوله والذين يرمون المحصنات ثم نسخ ذلك عن الازواج وأقيم اللعان مقامه فلما كان اللعان مع الازواج قائما مقام الحد فى الاجنبيات لم يجب اللعان على من لا يجب عليه الحد اوقد فهما أجنبى وأما فى الصورة الثانية فالوجه فيه ان اللعان شهادة فوجب أن لا يصح الا من أهل الشهادة وانما قلنا ان اللعان شهادة لوجهين (الاول) قوله تعالى ولم يكن لهم شهداء الا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله فسمى الله تعالى لعانهما شهادة كما قال واستشهدوا شهيدين من رجالكم وقال فاستشهدوا عليهن أربعة منكم (الثانى) انه عليه السلام حين لاعن بين

المبالغة فيها على الدوام والاستمرار لا بيان حدوث تعلق رأفته ورحمته بهم كما أنه المراد بالمعطوف عليه وجواب لو لا محذوف لدلالة ما قبله عليه (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان) أى لا تسلكوا مسالكه فى كل ما تأتون وما تذرون من الافاعيل التى من جملتها اشاعة الفاحشة وحبها وقرئ خطوات بسكون الطاء وبفتحها أيضا (ومن يتبع خطوات الشيطان) وضع الظاهر ان موضع ضمير يبهما حيث لم يقل ومن يتبعها أو ومن يتبع خطواته لزيادة التقرير والمبالغة فى التنفير والتحذير (فانه يأمر بالفحشاء والمنكر) علة للجزاء وضعت موضعه كأنه قيل فقد ارتكب الفحشاء والمنكر لان دأبه المستمر أن يأمر بهما فمن اتبع خطواته فقد امتثل بأمره قطعا والفحشاء ما أفرط قبحه كالفاحشة والمنكر ما ينكره الشرع وضمير انه

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته) بما من جملته هاتيك البيانات والتوفيق للتوبة الماحصة للذنوب وشرع الحدود المكفرة لها (مازكا) أى ماطهر من دنسها وقرئ مازكى بالتشديد أى ماطهر الله تعالى ومن فى قوله تعالى (منكم) بيانية وفى قوله تعالى (من أحد) زائدة وأحد فى حيز الرفع على الفاعلية على القراءة الاولى وفى محل النصب على المفعولية على القراءة الثانية (أبدا) لالى نهاية (ولكن الله يزكى) يطهر (من يشاء) من عباده بافاضة آثار فضله ورحمته عليه وحمله على التوبة ثم قبولها منه كما فعل بكم (والله سميع) مبالغ فى سمع الاقوال التى من جملتها ماأظهروه من التوبة (عليم) بجميع المعلومات التى من جملتها نياتهم وفيه حث لهم على الاخلاص فى التوبة واظهار الاسم الجليل للايذان باستدعاء الالوهية للسمع والعلم مع مافيه من تاكيد استقلال الاعتراض التذييلى (ولايأتل) أى لايحلف افتعال من ﴿ وهو ﴾ الالية وقيل لايقصر من الالو والاول هو الاظهر لنزوله فى شأن الصديق رضى الله

الزوجين أمرهما باللعان بلفظ الشهادة ولم يقتصر على لفظ اليمين اذ ثبت ان اللعان شهادة وجب أن لاتقبل من المحدود فى القذف لقوله تعالى ولاتقبلوا لهم شهادة أبدا واذا ثبت ذلك فى المحدود ثبت فى العبد والكافر امالاجماع على انهما ليسا من أهل الشهادة أولانه لاقائل بالفرق أجاب الشافعى رحمه الله بان اللعان ليس شهادة فى الحقيقة بل هو يمين لانه لايجوز أن يشهد الانسان لنفسه ولانه لوكان شهادة لكانت المرأة تأتى بثمان شهادات لانها على النصف من الرجل ولانه يصح من الاعمى والفاسق ولايجوز شهادتهما فان قيل الفاسق والفاسقة قد يتوبان قلنا وكذلك العبد قد يعتق فتجوز شهادته ثم أكد الشافعى رحمه الله ذلك بان العبد اذا عتق تقبل شهادته فى الحال والفاسق اذا تاب لاتقبل شهادته فى الحال ثم ألزم أبا حنيفة رحمه الله بان شهادة أهل الذمة مقبولة بعضهم على بعض فينبغى أن يجوز اللعان بين الذمى والذمية وهذا كله كلام الشافعى رحمه الله ثم قال بعد ذلك وتختلف الحدود بمن وقعت له ومعناه ان الزوج ان لم يلاعن تنصف حد القذف عليه لرقه وان لاعن ولم تلاعن اختلف حدها باحصانها وعدم احصانها وحريتها ورقها (الظرف الثالث) الاحكام المرتبة على اللعان قال الشافعى رحمه الله يتعلق باللعان خمسة أحكام درء الحد ونفى الولد والفرقة والتحريم المؤبد ووجوب الحد عليها وكلها تثبت بمجرد لعانه ولايفتقر فيه الى لعانها ولاالى حكم الحاكم فان حكم الحاكم به كان تنفيذا منه لايقاعها للفرقة فلنتكلم فى هذه المسائل (المسئلة الاولى) اختلف المجتهدون فى وقوع الفرقة باللعان على أربعة أقوال (أحدها) قال عثمان البتى لأرى ملاعنة الزوج امرأته تقتضى شيئا يوجب أن يطلقها (وثانيها) قال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد لاتقع الفرقة بفراغهما من اللعان حتى يفرق الحاكم بينهما (وثالثها) قال مالك والليث وزفر رحمهم الله اذا فرغا من اللعان وقعت الفرقة وان لم يفرق الحاكم (ورابعها) قال الشافعى رحمه الله اذا أكمل الزوج الشهادة والالتعان فقد زال فراش امرأته ولاتحل له أبدا التعنت أولم تلتعن حجة عثمان البتى وجوه (أحدها) ان اللعان ليس بصريح ولاكناية عن الفرقة فوجب أن لايفيد الفرقة كسائر الاقوال التى لااشعار لها بالفرقة لان أكثر مافيه أن يكون الزوج صادقا فى قوله وهو لايوجب تحريما ألاترى انه لوقامت البينة عليها لم يوجب ذلك تحريما فاذا كان كاذبا والمرأة صادقة يثبت انه لادلالة فيه على التحريم (وثانيها) لو تلاعنا فيما بينهما لم يوجب الفرقة فكذا لو تلاعنا عند الحاكم (وثالثها) ان اللعان قائم مقام الشهود فى قذف الاجنبيات فكما انه لافائدة فى احضار الشهود هناك الا اسقاط الحد فكذا اللعان لاتاثير له الا اسقاط الحد (ورابعها) اذا كذب الزوج نفسه فى قذفه اياها ثم حد لم يوجب ذلك فرقة فكذا اذا لاعن لان اللعان قائم مقام درء الحد قال وأما تفريق النبى صلى الله عليه وسلم بين المتلاعنين فكان ذلك فى قصة العجلانى وكان قد طلقها ثلاثا بعد اللعان فلذلك فرق بينهما وأما قول أبى حنيفة

وهو أن الحاكم يفرق بينهما فلا بد من بيان أمرين (أحدهما) انه يجب على الحاكم أن يفرق بينهما ودليله ماروى سهل بن سعد في قصة العجلاني مضت السنة في المتلاعنين أن يفرق بينهما ثم لا يجتمعان أبدا (والثاني) ان الفرقة لا تحصل الا بحكم الحاكم واحتجوا عليه بوجوه (أحدها) روى في قصة عويمر انهما لما فرغا قال عويمر كذبت عليها يا رسول الله ان أمسكتها هي طالق ثلاثا فطلقها ثلاثا قبل ان يامره رسول الله صلى الله عليه وسلم والاستدلال بهذا الخبر من وجوه (أحدها) انه لو وقعت الفرقة باللعان لبطل قوله كذبت عليها ان أمسكتها لان امساكها غير ممكن (وثانيها) ماروى في هذا الخبر انه طلقها ثلاث تطليقات فانفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنفيذ الطلاق انما يمكن لو لم تقع الفرقة بنفس اللعان (وثالثها) ماقال سهل بن سعد في هذا الخبر مضت السنة في المتلاعنين أن يفرق بينهما ولا يجتمعان أبدا ولو كانت الفرقة واقعة باللعان استحال التفريق بعدها (وثانيها) قال أبو بكر الرازي قول الشافعي رحمه الله خلاف الآية لانه لو وقعت الفرقة بلعان الزوج للاعنت المرأة وهي أجنبية وذلك خلاف الآية لان الله تعالى انما أوجب اللعان بين الزوجين (وثالثها) ان اللعان شهادة لا يثبت حكمه الا عند الحاكم فوجب أن لا يوجب الفرقة الا بحكم الحاكم كما لا يثبت المشهود به الا بحكم الحاكم (ورابعها) اللعان تستحق به المرأة نفسها كما يستحق المدعي بالبينة فلما لم يجز أن يستحق المدعي مدعاه الا بحكم الحاكم وجب مثله في استحقاق المرأة نفسها (وخامسها) ان اللعان لا اشعار فيه بالتحريم لان أكثر ما فيه انها زنت ولو قامت البينة على زناها أو هي أقرت بذلك فذاك لا يوجب التحريم فكذا اللعان واذا لم يوجد فيها دلالة على التحريم وجب ان لا تقع الفرقة به فلا بد من احداث التفريق اما من قبل الزوج أو من قبل الحاكم أما قول مالك وزفر فحجته انهما لو تراضيا على البقاء على النكاح لم يخليا بل يفرق بينهما فدل على ان اللعان قد اوجب الفرقة أما قول الشافعي رحمه الله فله دليلان (الاول) قوله تعالى ويدرأ عنها العذاب ان تشهد الآية فدل هذا على انه لا تأثير للعان للمرأة الا في دفع العذاب عن نفسها وان كل ما يجب باللعان من الاحكام فقد وقع بلعان الزوج (الثاني) ان لعان الزوج وحده مستقل بنفي الولد فوجب أن يكون الاعتبار بقوله في الالحاق لا بقولها ألا ترى انها في لعانها تلحق الولد به ونحن ننفيه عنه فيعتبر نفي الزوج لا الحاق المرأة ولهذا اذا أكذب الزوج نفسه ألحق به الولد وما دام يبقى مصرا على اللعان فالولد منفي عنه اذا ثبت ان لعانه مستقل بنفي الولد وجب أن يكون مستقلا بوقوع الفرقة لان الفرقة لو لم تقع لم ينتف الولد لقوله عليه السلام الولد للفراش فما دام يبقى الفراش التحق به فلما انتفى الولد عنه بمجرد لعانه وجب انه يزول الفراش عنه بمجرد لعانه وأما الاخبار التي استدل بها أبو حنيفة رحمه الله فالمراد بها ان النبي عليه السلام أخبر عن وقوع الفرقة وحكم بها وذلك لا ينافي أن يكون المؤثر في الفرقة شيئا آخر وأما الاقيسة التي ذكرها

و يعضده قراءة من قرأ ولا يتال (أولوا الفضل منكم) في الدين وكفى به دليلا على فضل الصديق رضي الله تعالى عنه (والسعة) في المال (أن يؤتوا) أي على ان لا يؤتوا وقرئ بتاء الخطاب على الالتفات (أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله) صفات لموصوف واحد جئ بها بطريق العطف تنبيها على ان كلا منها علة مستقلة لاستحقاقه الايتاء وقيل لموصوفات أقيمت هي مقامها وحذف المفعول الثاني لغاية ظهوره أي على ان لا يؤتوهم شيئا (وليعفوا) ما فرط منهم (وليصفحوا) بالاغضاء عنه وقد قرئ الامران بتاء الخطاب على وفق قوله تعالى (الا تحبون أن يغفر الله لكم) أي بمقابلة عفوكم وصفحكم واحسانكم الى من أساء اليكم (والله غفور رحيم) مبالغ في المغفرة والرحمة مع كمال قدرته على المؤاخذة وكثرة ذنوب العباد الداعية اليها وفيه ترغيب عظيم في العفو ووعد كريم بمقابلته كأنه قيل ألا تحبون أن يغفر الله لكم فهذا من موجباته روى أنه عليه الصلاة والسلام

لا انزعها ابدا (ان الذين يرمون المحصنات) اى العفائف مما رمين به من الفاحشة (الغافلات) عنها على الاطلاق بحيث لم يخطر ببالهن شئ منها ولا من مقدماتها اصلا ففيها من الدلالة على كمال النزاهة ما ليس في المحصنات اى السليمات الصدور النقيات القلوب عن كل سوء (المؤمنات) اى المتصفات بالايمان بكل ما يجب ان يؤمن به من الواجبات والمحظورات وغيرها ايمانا حقيقيا تفصيليا كما ينبئ عنه تأخير المؤمنات عما قبلها مع اصالة وصف الايمان فانه للايذان بان المراد بها المعنى الوصفي المعرب عما ذكر لا المعنى الاسمي الصحيح لاطلاق الاسم في الجملة كما هو المتبادر على تقدير التقديم والمراد بها عائشة الصديقة رضي الله عنها والجمع باعتبار ان رميها رمي لسائر أمهات المؤمنين لاشتراك الكل في العصمة والنزاهة والانتساب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في قوله تعالى ﴿ بطلان ﴾ كذبت قوم نوح المرسلين ونظائره وقيل امهات المؤمنين فيدخل فيهن الصديقة دخولا أوليا واما ما قيل من ان المراد

قدارها على ان اللعان شهادة وليس الامر كذلك بل هو يمين على ما بينا وأما قوله اللعان لا اشعار فيه بوقوع الحرمة قلنا بينته على نفي الولد مقبولة ونفي الولد يتضمن نفي حلية النكاح والله أعلم (المسئلة الثانية) قال مالك والشافعي وأبو يوسف والثوري واسحق والحسن المتلاعنان لا يجتمعان أبدا وهو قول علي وعمر وابن مسعود وقال أبو حنيفة ومحمد اذا أكذب نفسه وحد زال تحريم العقد وحللته بنكاح جديد حجة الشافعي رحمه الله أمور (أحدها) قوله عليه السلام للملاعن بعد اللعان لا سبيل لك عليها ولم يقل حتى تكذب نفسك ولو كان الاكذاب غاية لهذه الحرمة لردها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى هذه الغاية كما قال في المطلقة بالثلاث فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره (وثانيها) ما روي عن علي وعمر وابن مسعود انهم قالوا لا يجتمع المتلاعنان أبدا وهذا قد روي أيضا مرفوعا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم (وثالثها) ما روى الزهري عن سهل بن سعد في قصة العجلاني مضت السنة انهما اذا تلاعنا فرق بينهما ثم لا يجتمعان أبدا حجة أبي حنيفة رحمه الله قوله تعالى وأحل لكم ما وراء ذلكم وقوله فانكحوا ما طاب لكم (المسئلة الثالثة) اتفق أهل العلم على ان الولد قد ينفى عن الزوج باللعان وحكي عن بعض من شذ أنه لا ينتفي نسبه باللعان واحتج بقوله عليه السلام الولد للفراش وهذا ضعيف لان الاخبار الدالة على ان النسب ينتفي باللعان كالمتواترة فلا يعارضها هذا الواحد (المسئلة الرابعة) قال الشافعي رحمه الله لو أتى أحدهما ببعض كلمات اللعان لا يتعلق به الحكم وقال أبو حنيفة رحمه الله أكثر كلمات اللعان تعمل عمل الكل اذا حكم به الحاكم والظاهر مع الشافعي لانه يدل على انها لا تدرأ العذاب عن نفسها الا بتمام ما ذكره الله تعالى ومن قال بخلاف ذلك فانما يقوله بدليل منفصل (الطرف الرابع) في كيفية اللعان والآية دالة عليها صريحا فاذا رجل يشهد أربع شهادات بالله بأن يقول أشهد بالله اني لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا ثم يقول في المرة الرابعة وعليه لعنة الله ان كان من الكاذبين و يتعلق بلعان الزوج تلك الاحكام الخمسة على قول الشافعي رحمه الله ثم المرأة اذا أرادت اسقاط حد الزنا عن نفسها عليها ان تلاعن ولا يتعلق بلعانها الا هذا الحكم الواحد ثم ههنا فروع (الفرع الاول) أجمعوا على ان اللعان كالشهادة فلا يثبت الا عند الحاكم (الثاني) قال الشافعي رحمه الله يقام الرجل حتى يشهد والمرأة قاعدة وتقام المرأة حتى تشهد والرجل قاعد و يأمر الامام من يضع يده على فيه عند الانتهاء الى اللعنة والغضب و يقول له اني أخاف ان لم تكف صادقا ان تبوء بلعنة الله (الثالث) اللعان بمكة بين المقام والركن و بالمدينة عند المنبر و بيت المقدس في مسجده وفي غيرها في المواضع المعظمة ولعان المشرك كغيره في الكيفية وأما الزمان فيوم الجمعة بعد العصر ولا بد من حضور جماعة من الاعيان أقلهم أربعة (الطرف الخامس) في سائر الفوائد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج أصحابنا بهذه الآية على

بطلان قول الخوارج فى ان الزنا والقذف كفر من وجهين (الاول) ان الرامى ان صدق فهى زانية وان كذب فهو قاذف فلابد على قولهم من وقوع الكفر من أحدهما وذلك يكون ردة فيجب على هذا ان تقع الفرقة واللعان أصلا وأن تكون فرقة الردة حتى لايتعلق بذلك توارث البتة (الثانى) ان الكفر اذا ثبت عليها باللعان فالواجب ان تقتل لا أن تجلد أو ترجم لان عقوبة المرتد مباينة للحد فى الزنا (المسئلة الثانية) الآية دالة على بطلان قول من يقول ان وقوع الزنا يفسد النكاح وذلك لانه يجب اذا رماها بالزنا أن يكون قوله هذا كأنه معترف بفساد النكاح حتى يكون سبيله سبيل من يقر بانها أخته من الرضاع أو بانها كافرة ولو كان كذلك لوجب أن تقع الفرقة بنفس الرمى من قبل اللعان وقد ثبت بالاجماع فساد ذلك (المسئلة الثالثة) قالت المعتزلة دلت الآية على ان القاذف مستحق للعن الله تعالى اذا كان كاذبا وانه قد فسق وكذلك الزانى والزانية يستحقان غضب الله تعالى وعقابه والاولى بحسن منها ان يلعنا أنفسهما كما لايجوز ان يدعو أحدر به أن يلعن الاطفال والمجانين واذا صح ذلك فقد استحق العقاب والعقاب يكون دائما كالثواب ولايجتمعان فثوابهما أيضا محبط فلا يجوز اذا لم يتوبا أن يدخلا الجنة لان الامة مجمعة على ان من دخل الجنة من المكلفين فهو مثاب على طاعاته وذلك يدل على خلود الفساد فى النار قال أصحابنا لانسلم أن كونه مغضوبا عليه يفسد ينافى كونه مرضيا عنه لجهة ايمانه اوسلمناه فلم نسلم ان الجنة لايدخلها الا مستحق الثواب والاجماع ممنوع (المسئلة الرابعة) انما خصت الملاعنة بأن تخمس بغضب الله تغليظا عليها لانها هى أصل الفجور ومنبعه بخيلائها واطماعها ولذلك كانت مقدمة فى آية الجلد واعلم انه سبحانه لما بين حكم الرامى للمحصنات والازواج على ماذكرنا وكان فى ذلك من الرحمة والنعمة مالاخفاء فيه لانه تعالى جعل باللعان للمرء سبيلا الى مراده ولها سبيلا الى دفع العذاب عن نفسها ولهما السبيل الى التوبة والانابة فلاجل هذا بين تعالى بقوله ولولا فضل الله عليكم ورحمته عظم نعمه فيما بينه من هذه الاحكام وفيما أمهل وأبقى ومكن من التوبة ولاشبهة فى ان فى الكلام حذفا اذ لابد من جواب الا أن تركه يدل على انه أمر عظيم لايكتنه ورب مسكوت عنه أبلغ من منطوق به (الحكم الخامس) قصة الافك * قوله تعالى (ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم لاتحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) الكلام فى هذه الآية من وجهين (أحدهما) تفسيره (والثانى) سبب نزوله أما التفسير فاعلم ان الله تعالى ذكر فى هذه الآية ثلاثة أشياء (أولها) انه حكى الواقعة وهو قوله ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم والافك أبلغ مايكون من الكذب والافتراء وقيل هو البهتان وهو الامر الذى لاتشعر به حتى يفجأك وأصله الافك وهو القلب لانه قول مأفوك عن وجهه وأجمع المسلمون على ان المراد ماأفك به على عائشة وانما وصف الله تعالى ذلك

أن العقوبات المترتبة على رمى هؤلاء عقوبات مختصة بالكفار والمنافقين ولاريب فى ان رمى غير أمهات المؤمنين ليس بكفر فيجب أن يكون المراد اياهن على أحد الوجهين فانهن قد خصصن من بين سائر المؤمنات فجعل رميهن كفرا ابرازا لكرامتهن على الله عز وجل وحماية لحمى الرسالة من أن يحوم حوله أحد بسوء حتى ان ابن عباس رضى الله عنهما جعله اغلظ من سائر أفراد الكفر حين سئل عن هذه الآيات فقال من أذنب ذنبا ثم تاب منه قبلت توبته الا من خاض فى أمر عائشة رضى الله عنها وهل هو منه رضى الله عنه الا التهويل أمر الافك والتنبيه على أنه كفر غليظ (لعنوا) بما قالوه فى حقهن (فى الدنيا والآخرة) حيث يلعنهم اللاعنون من المؤمنين والملائكة أبدا (ولهم) مع ماذكر من اللعن الابدى (عذاب عظيم) هائل لايقادر قدره لغاية عظيم ما اقترفوه من الجناية قوله تعالى (يوم تشهد عليهم) الخ اما متصل بما قبله مسوق لتقرير العذاب المذكور بتعيين وقت حلوله وتهويله ببيان ظهور جنايتهم

الكذب بكونه افكا لان المعروف من حال عائشة خلاف ذلك لوجوه (أحدها) ان كونها زوجة للرسول صلى الله عليه وسلم المعصوم يمنع من ذلك لان الانبياء مبعوثون الى الكفار ليدعوهم و يستعطفوهم فوجب أن لا يكون معهم ما يتفرهم عنهم و كون الانسان بحيث تكون زوجته مسافحة من أعظم المنفرات فان قيل كيف جاز أن تكون امرأة النبي كافرة كامرأة نوح ولوط ولم يجز أن تكون فاجرة وأيضا فلو لم يجز ذلك لكان الرسول اعرف الناس بامتناعه ولو عرف ذلك لما ضاق قلبه ولما سال عائشة عن كيفية الواقعة قلنا (الجواب) عن الاول ان الكفر ليس من المنفرات أما كونها فاجرة فمن المنفرات (والجواب) عن الثاني انه عليه السلام كثيرا ما كان يضيق قلبه من أقوال الكفار مع علمه بفساد تلك الاقوال قال تعالى ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فكان هذا من هذا الباب (وثانيها) ان المعروف من حال عائشة قبل تلك الواقعة انما هو الصون والبعد عن مقدمات الفجور ومن كان كذلك كان اللائق احسان الظن به (وثالثها) أن القاذفين كانوا من المنافقين واتباعهم وقد عرف ان كلام العدو والمفتري ضرب من الهذيان فلمجموع هذه القرائن كان ذلك القول معلوم الفساد قبل نزول الوحي أما العصبة فقيل انها الجماعة من العشرة الى الاربعين وكذلك العصابة واعصوصبوا اجتمعوا وهم عبد الله بن أبي ابن سلول رأس النفاق وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح ابن اثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم أما قوله منكم فالمعنى ان الذي أتوا بالكذب في أمر عائشة جماعة منكم أيها المؤمنون لان عبد الله كان من جملة من حكم له بالايمان ظاهرا (ورابعها) انه سبحانه شرح حال المقذوفة ومن يتعلق بها بقوله لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم والصحيح ان هذا الخطاب ليس مع القاذفين بل مع من قذفوه وآذوه فان قيل هذا مشكل لوجهين (أحدهما) انه لم يتقدم ذكرهم (والثاني) ان المقذوفين هما عائشة وصفوان فكيف تحمل عليهما صيغة الجمع في قوله لا تحسبوه شرا لكم (والجواب عن الاول) انه تقدم ذكرهم في قوله منكم (وعن الثاني) ان المراد من لفظ الجمع كل من تأذى بذلك الكذب واغتم ومعلوم انه صلى الله عليه وسلم تأذى بذلك وكذلك أبو بكر ومن يتصل به فان قيل فمن أي جهة يصير خيرا لهم مع انه مضرة في العاجل قلنا لوجوه (أحدها) انهم صبروا على ذلك الغم طلبا لمرضاة الله تعالى فاستوجبوا به الثواب وهذه طريقة المؤمنين عند وقوع الظلم بهم (وثانيها) انه لولا اظهارهم للافك كان يجوز أن تبقى التهمة كامنة في صدور البعض وعند الاظهار انكشف كذب القوم على مر الدهر (وثالثها) انه صار خيرا لهم لما فيه من شرفهم و بيان فضلهم من حيث نزلت ثمان عشرة آية كل واحدة منها مستقلة ببراءة عائشة وشهد الله تعالى بكذب القاذفين ونسبهم الى الافك وأوجب عليهم اللعن والذم وهذا غاية الشرف والفضل (ورابعها) صيرورتها بحال تعلق الكفر والايمان بقدحها ومدحها فان الله تعالى لما نص على

الموجبة له مع سائر جناياتهم المستتبعة لعقوباتها على كيفية هائلة ﴿ ٣٥٠ ﴾ وهيئة خارقة للعادات فيوم ظرف في الجار والمجرور المتقدم من معنى الاستقرار لا العذاب وان اغضينا عن وصفه لاخلاله بجزالة المعنى واما منقطع عنه مسوق لتهويل اليوم بتهويل ما يجري فيه على أنه ظرف لفعل مؤخر قد ضرب عنه الذكر صفحا للايذان بقصور العبارة عن تفصيل ما يقع فيه من الطامة التامة والداهية العامة كأنه قيل يوم تشهد عليهم (ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) يكون من الاحوال والاهوال ما لا يحيط به حيطة المقال على أن الموصول المذكور عبارة عن جميع أعمالهم السيئة وجناياتهم القبيحة لا عن جناياتهم المعهودة فقط ومعنى شهادة الجوارح المذكورة بها أنه تعالى ينطقها بقدرته فتخبر كل جارحة منها بما صدر عنها من أفاعيل صاحبها لا ان كلا منها يخبر بجناياتهم المعهودة فحسب والموصول المحذوف عبارة عنها وعن فنون العقوبات المترتبة عليها كافة لا عن احدهما خاصة ففيه من ضروب ﴿ كون ﴾ التهويل بالاجمال والتفصيل ما لا مزيد عليه وجعل الموصول المذكور عبارة عن خصوص جناياتهم المعهودة وحمل

كون تلك الواقعة افكا وبالغ فى شرحه فكل من يشك فيه كان كافرا قطعا وهذه درجة
الية ومن الناس من قال قوله تعالى لاتحسبوه شرا لكم خطاب مع القاذفين وجعله
ه تعالى خيرا لهم من وجوه (أحدها) انه صار ما نزل من القرآن مانعا لهم من الاستمرار
ليه فصار مقطعة لهم عن ادامة هذا الافك (وثانيها) صار خيرا لهم من حيث كان هذا
لذكر عقوبة معجلة كالكفارة (وثالثها) صار خيرا لهم من حيث تاب بعضهم عنده واعلم
ن هذا القول ضعيف لانه تعالى خاطبهم بالكاف ولما وصف أهل الافك جعل الخطاب
لهاء بقوله تعالى لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم ومعلوم ان نفس ما اكتسبوه لا
كون عقوبة فالمراد لهم جزاء ما اكتسبوه من العقاب فى الآخرة والمذمة فى الدنيا والمعنى
ى قدر العقاب يكون مثل قدر الخوض أما قوله والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم
فيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ كبره بالضم والكسر وهو عظمه (المسئلة الثانية)
قال الضحاك الذى تولى كبره حسان ومسطح فجلدهما صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله
عذرها وجلد معهما امرأة من قريش وروى ان عائشة رضى الله عنها ذكرت حسانا
وقالت أرجو له الجنة فقيل أليس هو الذى تولى كبره فقالت اذا سمعت شعره فى مدح
الرسول رجوت له الجنة وقال عليه الصلاة والسلام ان الله يؤيد حسانا بروح القدس فى
شعره وفى رواية أخرى وأى عذاب أشد من العمى ولعل الله جعل ذلك العذاب العظيم
ذهاب بصره والاقرب فى الرواية ان المراد به عبد الله بن أبى ابن سلول فانه كان منافقا
يطلب ما يكون قدحا فى الرسول عليه السلام وغيره كان تابعا له فيما كان يأتى وكان فيهم
من لا يتهم بالنفاق (المسئلة الثالثة) المراد من اضافة الكبر اليه انه كان مبتدئا بذلك
القول فلاجرم حصل له من العقاب مثل ما حصل لكل من قال ذلك لقوله عليه الصلاة
والسلام من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة وقيل سبب
تلك الاضافة شدة الرغبة فى اشاعة تلك الفاحشة وهو قول أبى مسلم (المسئلة الرابعة) قال
الجبائى قوله تعالى لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم أى عقاب ما اكتسب ولو كانوا
لا يستحقون على ذلك عقابا لما جاز أن يقول تعالى ذلك وفيه دلالة على ان من لم يتب منهم
صار الى العذاب الدائم فى الآخرة لان مع استحقاق العذاب لا يجوز استحقاق الثواب
(والجواب) ان الكلام فى المحابطة قد مر غير مرة فلا وجه للاعادة والله أعلم أما سبب
النزول فقد روى الزهرى عن سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن أبى وقاص
وعبيد الله بن عبد الله بن عقبة بن مسعود كلهم رووا عن عائشة قالت كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم اذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فايتهن خرج اسمها خرج بها معه قالت
فاقرع بيننا فى غزوة غزاها قبل غزوة بنى المصطلق فخرج فيها اسمى فخرجت مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم وذلك بعد نزول آية الحجاب فحملت فى هودج فلما انصرف رسول الله
صلى الله عليه وسلم وقرب من المدينة نزل منزلا ثم أذن بالرحيل فقمت حين أذنوا بالرحيل

للدلالة على استمرارهم عليها فى الدنيا وتقديم عليهم على الفاعل للمسارعة الى بيان كون الشهادة ضارة لهم مع ما فيه من التشويق الى المؤخر كما مر مرارا وقوله تعالى (يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق) أى يوم اذ تشهد جوارحهم باعمالهم القبيحة يعطيهم الله تعالى جزاءهم الثابت الذى يحق أن يثبت لامحالة وافيا كاملا كلام مبتدأ مسوق لبيان ترتيب حكم الشهادة عليها متضمن لبيان ذلك المبهم المحذوف على وجه الاجمال ويجوز أن يكون يوم تشهد ظرفا ليوفيهم ويومئذ بدلا منه وقيل هو منصوب على أنه مفعول لفعل مضمر أى اذكر يوم تشهد وقرئ يوم يشهد بالتذكير للفصل (ويعلمون) عند معاينتهم الاهوال والخطوب حسبما نطق به القرآن الكريم (ان الله هو الحق) الثابت الذى يحق أن يثبت لامحالة

فى ذاته وصفاته وأفعاله التى من جملتها كلماته التامات المنبئة عن الشؤن التى يشاهدونها منطبقة عليها (المبين) المظهر للاشياء كما هى فى أنفسها أو الظاهر أنه هو الحق وتفسيره بظهور ألوهيته تعالى وعدم مشاركة الغير له فيها وعدم قدرة

ومشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شانى وأقبلت الى رحلى فلمست صدرى فاذا عقد لى من جزع اظفار قد انقطع فرجعت والتمست عقدى وحبسنى طلبه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونى فحملوا هودجى وهم يحسبون انى فيه لخفتى فانى كنت جارية حديثة السن فظنوا انى فى الهودج وذهبوا بالبعير فلما رجعت لم أجد فى المكان أحدا فجلست وقلت لعلهم يعودون فى طلبى فبينا وقد كان صفوان بن المعطل يكث فى العسكر يتبع ل أمتعة الناس فيحمله الى المنزل الآخر لئلا يذهب منهم شئ فلما رآنى عرفنى وقال ماخلفك عن الناس فاخبرته الخبر فنزل وتنحى حتى ركبت ثم قاد البعير واتقدنى الناس حين نزلوا وماج الناس فى ذكرى فبينا الناس كذلك ذهجمت عليهم فتكلم الناس وخاضوا فى حديثى وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ولحقنى وجع ولم أر منه عليه السلام ماعهدته من اللطف الذى كنت أعرف منه حين اشتكى انما يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقول كيف تيكم فذاك الذى يريبنى ولا أشعر بعد بشر حتى نقهت فخرجت فى بعض الليالى مع أم مسطح لنهم لنا ثم أقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتى حين فرغنا من شأننا فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت تعس مسطح فانكرت ذلك وقلت أتسبين رجلا شهد بدرا فقالت وما بلغك الخبر فقلت وما هو فقال لى فهداك من الوامنات الغافلات ثم أخبرتنى بقول أهل الافك فازددت مرضا على مرضى فرجعت أبكى ثم دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال كيف تيكم فقلت أتاذن لى أن آتى أبوى فاذن لى فجئت أبوى وقلت لامى يا أمه ماذا يتحدث الناس قالت يابنية هونى عليك فوالله لقلما كانت امرأة وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا أكثرن عليها ثم قالت ألم يكونى علمت ماقيل حتى الآن فاقمت أبكى فبكيت تلك الليلة ثم أصبحت أبكى فدخل على أبى وأنا أبكى فقال لامى مايبكيها قالت لم لكن علمت ماقيل فيها حتى الآن فاقبل يبكى ثم قال اسكن يابنية ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب رضى الله عنه واسامة ابن زيد واستشارهما فى فراق أهله فقال أسامة يارسول الله هم أهلك ولا نعلم الا خيرا وأما على فقال لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وان الجارية تصدقك فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة وسألها عن أمرى قالت بريرة يارسول الله والذى بعثك بالحق ان رأيت عليها أمرا قط أكثر من انها جارية حديثة السن تنام عن عجين اهلها حتى تاتى الداجن فتأكله فقام النبى صلى الله عليه وسلم خطيبا على المنبر فقال يامعشر المسلمين من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى اهلى يعنى عبد الله بن ابى فوالله ماعلمت على اهلى الا خيرا ولقد ذكروا رجلا ماعلمت عليه الا خيرا وما كان يدخل على اهلى الا معى فقام سعد بن معاذ فقال اعذرك يارسول الله منه ان كان من الاوس ضربت عنقه وان كان من اخواننا من الخزرج فامرتنا فعلنا ه فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن احتدته الحمية فقال لسعد بن معاذ كذبت والله لا تقدر على قتله فقام

عدله كذلك ولو تتبعت مافى الفرقان المجيد من آيات الوعيد الواردة فى حق كل كفار مريد وجبار عنيد لا يجد شيئا منها فوق هاتيك القوارع المشحونة بفنون التهديد والتشديد وماذاك الا لاظهار منزلة النبى صلى الله عليه وسلم فى علو الشان والنباهة وابراز رتبة الصديقة رضى الله عنها فى العفة والنزاهة وقوله تعالى (الخبيثات) الخ كلام مستأنف مسوق على قاعدة السنة الالهية الجارية فيما بين الخلق على موجب ان الله تعالى ملكا يسوق الأهل الى الاهل أى الخبيثات من النساء (للخبيثين) من الرجال أى مختصات بهم لا يكدن يتجاوزنهم الى غيرهم على ان اللام الاختصاص (والخبيثون) أيضا (للخبيثات) لان المجانسة من دواعى الانضمام (والطيبات) منهن (للطيبين) منهم (والطيبون) أيضا (للطيبات) منهن بحيث لا يختصون يجاوزونهن الى من عداهن وحيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أطيب الاطيبين وخيرة ﴿ اسيد ﴾ الاولين والآخرين تبين كون الصديقة رضى الله عنها

سيدبن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ وقال كذبت لعمر الله لنقتلنه وانك لمنافق تجادل عن المنافقين فثار الحيان الاوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فلم يزل يخفضهم حتى سكتوا قالت ومكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أبواي يظنان ان البكاء فالق كبدي فبيناهما جالسان عندي وأنا أبكي اذ دخل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس قالت ولم يجلس عندي منذ قيل في ما قيل ولقد لبث شهرا لا يوحى اليه في شأني شيء ثم قال أما بعد ياعائشة فانه بلغني عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى وان كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي اليه فان العبد اذا تاب الله عليه قالت فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته فاض دمعي ثم قلت لابي أجب عني رسول الله فقال والله ما أدري ما أقول فقلت لامي أجيبي عني رسول الله فقالت والله لا أدري ما أقول فقلت وأنا جارية حديثة السن ما أقرأ من القرآن كثيرا اني والله لقد عرفت انكم قد سمعتم بهذا حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به فان قلت لكم اني بريئة لا تصدقوني وان اعترفت لكم بأمر والله يعلم اني بريئة لتصدقوني والله لا أجد لي ولكم مثلا الا كما قال العبد الصالح أبو يوسف ولم أذكر اسمه فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون قالت ثم تحولت واضطجعت على فراشي وأنا والله أعلم ان الله تعالى يبرئني ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحيا يتلى فشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله في بأمر يتلى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله في النوم رؤيا يبرئني الله بها قالت فوالله ما قام رسول الله من مجلسه ولا خرج من اهل البيت أحد حتى أنزل الله الوحي على نبيه فأخذه ما كان يأخذه عند نزول الوحي حتى انه لينحدر عنه مثل الجمان من العرق في اليوم الشاتي من ثقل الوحي فسجي بثوب ووضعت وسادة تحت رأسه فوالله ما فزعت ولا باليت لعلمي ببراءتي وأما أبواي فوالله ما سري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننت ان نفسي أبوي ستخرجان فرقا من أن يأتي الله بتحقيق ما قال الناس فلما سري عنه وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها ان قال ابشري ياعائشة أما والله لقد برأك الله فقلت بحمد الله لا بحمدك ولا بحمد أصحابك فقالت أمي قومي اليه فقلت والله لا أقوم اليه ولا أحمد أحدا الا الله الذي أنزل براءتي فأنزل الله تعالى ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم العشر آيات فقال أبو بكر والله لا أنفق على مسطح بعد هذا وكان ينفق عليه لقرابته منه وفقره فأنزل الله تعالى ولا يأتل أولوا الفضل منكم الى قوله الا تحبون أن يغفر الله لكم فقال أبو بكر بلى والله اني لاحب أن يغفر الله لي فرجع النفقة على مسطح قالت فلما نزل عذري قام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فذكر ذلك وتلا القرآن فلما نزل ضرب عبد الله بن أبي ومسطحا وحمنة وحسان الحد * واعلم انه سبحانه وتعالى لما ذكر القصة وذكر حال المقذوفين والقاذفين عقبها بما يليق بهما من الآداب والزواجر وهي أنواع (الاول) قوله تعالى (لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون

مبرؤن مما يقولون) على أن الاشارة الى أهل البيت المنتظمين للصديقة انتظاما أوليا وقيل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم والصديقة وصفوان وما في اسم الاشارة من معنى البعد للايذان بعلو رتبة المشار اليهم وبعد منزلتهم في الفضل أي أولئك الموصوفون بعلو الشان مبرؤن مما تقوله أهل الافك في حقهم من الاكاذيب الباطلة وقيل الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال والنساء أي مختصة ولائقة بهم لا ينبغي أن تقال في حق غيرهم وكذا الخبيثون من الفريقين احقاء بان يقال في حقهم خبائث القول والطيبات من الكلم للطيبين من الفريقين مختصة وحقيقة بهم وهم احقاء بان يقال في شأنهم طيبات الكلم أولئك الطيبون مبرؤن مما يقول الخبيثون في حقهم فآله تنزيه الصديقة أيضا وقيل خبيثات القول مختصة بالخبيثين من فريق الرجال والنساء لا تصدر عن غيرهم والخبيثون من الفريقين مختصون بخبائث القول متعرضون لها والطيبات من الكلام للطيبين

من الفريقين أي مختصة بهم لا تصدر عن غيرهم

الخبيثون من الخبائث أى لايصدر عنهم مثل ذلك فالآية تعزيه القائلين سبحانك هذا بهتان عظيم (لهم مغفرة) عظيمة لما لايخلو عنه البشر من الذنوب (ورزق كريم) هو الجنة (يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم) اثر ما فصل الزواجر عن الزنا وعن رمى العفائف عنه شرع فى تفصيل الزواجر عما عسى يؤدى الى أحدهما من مخالطة الرجال بالنساء ودخولهم عليهن فى أوقات الخلوات وتعليم الآداب الجميلة والافاعيل المرضية المستتبعة لسعادة الدارين ووصف البيوت بغاية بيوتهم خارج مخرج العادة التى هى سكنى كل أحد فى ملكه والافالآجر والمعير أيضا منهيان عن الدخول بغير اذن وقرئ بيوتا غير بيوتكم بكسر الياء لاجل الياء (حتى تستأنسوا) أى تستأذنوا من يملك الاذن من أصحابها من الاستئناس بمعنى الاستعلام من آنس الشئ اذا أبصره فان المستأنس مستعلم للحال مستكشف أنه هل يؤذن له أو من الاستئناس الذى (لانا) هو خلاف الاستيحاش لما أن المستأذن مستوحش خائف أن لايؤذن له

والمؤمنات بانفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين) وهذا من جملة الآداب التى كان يلزمهم الاتيان بها ولولا معناه هلا وذلك كثير فى اللغة اذا كان يليه الفعل كقوله لولا أخرتنى وقوله فلولا كانت قرية آمنت فاما اذا وليه الاسم فليس كذلك كقوله لولا أنتم لكنا مؤمنين وقوله ولولا فضل الله عليكم ورحمته والمراد كان الواجب على المؤمنين اذ سمعوا قول القاذف أن يكذبوه ويشتغلوا باحسان الظن ولايسرعوا الى التهمة فيمن عرفوا فيه الطهارة وههنا سؤالات (السؤال الاول) هلا قيل لولا اذ سمعتموه ظننتم بانفسكم خيرا وقلتم فلم عدل عن الخطاب الى الغيبة وعن المضمر الى الظاهر (الجواب) ليبالغ فى التوبيخ بطريقة الالتفات وفى التصريح بلفظ الايمان دلالة على أن الاشتراك فيه يقتضى أن لايظن بالمسلمين الا خيرا لان دينه يحكم بكون المعصية منشأ للضرر وعقله يهديه الى وجوب الاحتراز عن الضرر وهذا يوجب حصول الظن باحتراز عن المعصية فاذا وجد هذا المقتضى للاحتراز ولم يوجد فى مقابلته راجح يساويه فى القوة وجب احسان الظن وحرم الاقدام على الطعن (السؤال الثانى) ما المراد من قوله بانفسهم الجواب فيه وجهان (الاول) المراد أن يظن بعضهم ببعض خيرا ونظيره قوله ولاتلمزوا أنفسكم وقوله فاقتلوا أنفسكم وقوله اذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم ومعناه أى بامثالكم من المؤمنين الذين هم كانفسكم روى ان أبا أيوب الانصارى رضى الله عنه قال لام أيوب أما ترين مايقال فقالت لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرم رسول الله سوأ قال لا قالت ولو كنت بدل عائشة ما خنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعائشة خير منى وصفوان خير منك وقال ابن زيد ذلك معاتبة للمؤمنين اذ المؤمن لايغير بامه ولا الام بابنها وعائشة رضى الله عنها هى أم المؤمنين (والثانى) انه جعل المؤمنين كالنفس الواحدة فيما يجرى عليها من الامور فاذا جرى على أحدهم مكروه فكانه جرى على جميعهم عن النعمان بن بشير قال عليه السلام مثل المسلمين فى تواصلهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا وجع بعضه بالسهر والحمى وجع كله وعن أبى بردة قال عليه السلام المؤمنون للمؤمنين كالبنيان يشد بعضه بعضا (السؤال الثالث) مامعنى قوله هذا افك مبين وهل يحل لمن يسمع مالايعرفه أن يقول ذلك (الجواب) من وجهين (الاول) كذلك يجب ان يقول لكنه يخبر بذلك عن قول القاذف الذى لايستند الى امارة ولا عن حقيقة الشئ الذى يعلمه (الثانى) ان ذلك واجب فى أمر عائشة لان كونها زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم المعصوم عن جميع المنفرات كالدليل القاطع فى كون ذلك كذبا قال أبو بكر الرازى هذا يدل على ان الواجب فيمن كان ظاهره العدالة أن يظن به خيرا ويوجب أن يكون عقود المسلمين وتصرفاتهم محمولة على الصحة والجواز ولذلك قال اصحابنا فيمن وجد رجلا مع امرأة اجنبية فاعترفا بالتزويج انه لايجوز تكذيبهما بل يجب تصديقهما وزعم مالك انه يحدهما ان لم يقيما بينة على النكاح ومن ذلك ايضا ماقال اصحابنا رضى الله عنهم فيمن باع درهما ودينارا بدرهمين ودينارين انه يخالف بينهما

لانا قد أمرنا بحسن الظن بالمؤمنين فوجب حمله على ما يجوز وهو المخالفة بينهما وكذلك اذا باع سيفا محلى فيه مائة درهم بمائتي درهم انا نجعل المائة بالمائة والفضل بالسيف وهو يدل أيضا على قول أبي حنيفة رحمه الله في ان المسلمين عدول ما لم يظهر منهم ريبة لانا مأمورون بحسن الظن وذلك يوجب قبول الشهادة ما لم يظهر منه ريبة توجب التوقف عنها أوردها قال تعالى ان الظن لا يغني من الحق شيئا * (النوع الثاني) قوله تعالى (لولا جاؤا عليه بأربعة شهداء فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون) وهذا من باب الزواجر والمعنى هلا أتوا على ما ذكروه بأربعة شهداء يشهدون على معاينتهم فيما رموها به فاذ لم يأتوا بالشهداء أي حين لم يقيموا بينة على ما قالوا فأولئك عند الله أي في حكمه هم الكاذبون فان قيل أليس اذا لم يأتوا بالشهداء فانه يجوز كونهم صادقين كما يجوز كونهم كاذبين فلم جزم بكونهم كاذبين والجواب من وجهين (الاول) ان المراد بذلك الذين رموا عائشة خاصة وهم كانوا عند الله كاذبين (الثاني) المراد فأولئك عند الله في حكم الكاذبين فان الكاذب يجب زجره عن الكذب والقاذف ان لم يأت بالشهود فانه يجب زجره فلما كان شأنه شأن الكاذب في الزجر لاجرم أطلق عليه لفظ الكاذب مجازا * (النوع الثالث) قوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم) وهذا من باب الزواجر أيضا ولولا ههنا لامتناع الشئ لوجود غيره ويقال أفاض في الحديث واندفع وخاض وفي المعنى وجهان (الاول) ولولا اني قضيت ان أتفضل عليكم في الدنيا بضروب النعم التي من جملتها الامهال للتوبة وأن أترحم عليكم في الآخرة بالعفو والمغفرة لعاجلتكم بالعقاب على ما خضتم فيه من حديث الافك (والثاني) ولولا فضل الله عليكم ورحمته لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم في الدنيا والآخرة معا فيكون فيه تقديم وتأخير والخطاب للقذفة وهو قول مقاتل وهذا الفضل هو حكم الله تعالى من تأخيره العذاب وحكمه بقبول التوبة لمن تاب * (النوع الرابع) قوله (اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم) وهذا أيضا من الزواجر قال صاحب الكشاف اذ ظرف لمسكم أو لافضتم ومعنى تلقونه يأخذه بعضكم من بعض يقال تلقى القول وتلقيه وتلقفه ومنه قوله تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات وقرئ على الاصل تتلقونه واذ تلقونه بادغام الذال في التاء وتلقونه من لقيه بمعنى لقفه وتلقونه من القائه بعضهم على بعض وتلقونه وتألقونه من الولق والالق وهو الكذب وتلقونه محكية عن عائشة وعن سفيان سمعت أمي تقرأ اذ تلقفونه وكان أبو هريرة يقرأ يحرف عبد الله بن مسعود واعلم ان الله تعالى وصفهم بارتكاب ثلاثة آثام وعلق مس العذاب العظيم بها (أحدها) تلقي الافك بألسنتهم وذلك أن الرجل كان يلقى الرجل فيقول له ما وراءك فيحدثه بحديث الافك حتى شاع واشتهر فلم يبق بيت ولا ناد الا طار فيه فكأنهم سعوا في اشاعة الفاحشة وذلك من العظائم (وثانيها) انهم كانوا

قد أذن له استأنس (وتسلموا على أهلها) ﴿ ٣٥٥ ﴾ عند الاستئذان روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ان التسليم أن يقول السلام عليكم أأدخل ثلاث مرات فان أذن له دخل والا رجع (ذلكم) أي الاستئذان مع التسليم (خير لكم) من أن تدخلوا بغتة أو على تحية الجاهلية حيث كان الرجل منهم اذا أراد أن يدخل بيتا غير بيته يقول حييتم صباحا حييتم مساء فيدخل فربما أصاب الرجل مع امرأته في لحاف وروى أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم أستأذن على أمي قال له نعم قال ليس لها خادم غيري أأستأذن عليها كلما دخلت قال عليه الصلاة والسلام أتحب أن تراها عريانة قال لا قال عليه الصلاة السلام فاستأذن (لعلكم تذكرون) متعلق بمضمر أي أمرتم به أو قيل لكم هذا كي تتذكروا وتتعظوا وتعملوا بموجبه (فان لم تجدوا فيها أحدا) أي ممن يملك الاذن على أن من لا يملكه من النساء والولدان وجد انه كفقده انه أو أحدا أصلا على أن مدلول النص الكريم عبارة هو النهي عن دخول البيوت الخالية لما فيه من الاطلاع على ما يعتاد الناس اخفاءه مع أن التصرف في ملك الغير محظور مطلقا

العلة فلأن يحرم عند انضمام ما هو أقوى منه اليه أعنى الاطلاع على العورات أولى (فلا تدخلوها) واصبروا (حتى يؤذن لكم) أى من جهة من يملك الاذن عند اتيانه ومن فسره بقوله حتى يأتى من يأذن لكم أو حتى تجدوا من يأذن لكم فقد أبرز القطعى فى معرض الاحتمال ولما كان جعل النهى مغيا بالاذن مما يوهم الرخصة فى الانتظار على الابواب عقبه بقابل فى تكرير الاستئذان ولو بعد الرد فدفع ذلك بقوله تعالى (وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا) أى ان أمرتم من جهة أهل البيت بالرجوع سواء كان الامر ممن يملك الاذن أولا فارجعوا ولا تلحوا بتكرير الاستئذان كما فى الوجه الاول ولا تلجوا بالاصرار على الانتظار الى أن يأتى الاذن كما فى الثانى فان ذلك مما يجلب الكراهة فى قلوب الناس ويقدح فى المروأة أى قدح (هو) أى الرجوع (ازكى لكم) أى أطهر مما لا يخلو عنه اللج والعناد والوقوف على الابواب من دنس الدناءة والرذالة ﴿ تنبيه ﴾ (والله بما تعملون عليم) فيعلم ما تأتون وما

يتكلمون بما لا علم لهم به وذلك يدل على انه لا يجوز الاخبار الا مع العلم فاما الذى لا يعلم صدقه فالاخبار عنه كالاخبار عما علم كذبه فى الحرمة ونظيره قوله ولا تقف ما ليس لك به علم فان قيل ما معنى قوله بأفواهكم والقول لا يكون الا بالفم قلنا معناه ان الشئ المعلوم يكون علمه فى القلب فيترجم عنه باللسان وهذا الافك ليس الا قولا يجرى على ألسنتكم من غير أن يحصل فى القلب علم به كقوله يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم (وثالثها) انهم كانوا يستصغرون ذلك وهو عظيم من العظائم ويدل على أمور ثلاثة (الاول) يدل على ان القذف من الكبائر لقوله وهو عند الله عظيم (الثانى) نبه بقوله وتحسبونه هينا على ان عظم المعصية لا يختلف بظن فاعلها وحسبانه بل ربما كان ذلك مؤكدا لعظمها من حيث جهل كونها عظيما (الثالث) الواجب على المكلف فى كل محرم أن يستعظم الاقدام عليه اذ لا يأمن انه من الكبائر وقيل لا صغيرة مع الاصرار ولا كبيرة مع الاستغفار * (النوع الخامس) قوله تعالى (ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم) وهذا من باب الآداب أى هلا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا وانما وجب عليهم الامتناع منه لوجوه (أحدها) ان المقتضى لكونهم تاركين لهذا الفعل قائم وهو العقل والدين ولم يوجد ما يعارضه فوجب أن يكون ظن كونهم تاركين للمعصية أقوى من ظن كونهم فاعلين لها فلو انه أخبر عن صدور المعصية لكان قد رجح المرجوح على الراجح وهو غير جائز (وثانيها) وهو انه يتضمن ايذاء الرسول وذلك سبب للعن لقوله تعالى ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة (وثالثها) انه سبب لايذاء عائشة وايذاء أبويها ومن يتصل بهم من غير سبب عرف اقدامهم عليه ولا جناية عرف صدورها عنهم وذلك حرام (ورابعها) انه اقدام على ما يجوز أن يكون سببا للضرر مع الاستغناء عنه والعقل يقتضى التباعد عنه لان القاذف بتقدير كونه صادقا لا يستحق الثواب على صدقه بل يستحق العقاب لانه أشاع الفاحشة وبتقدير كونه كاذبا فانه يستحق العقاب العظيم ومثل ذلك مما يقتضى صريح العقل الاحتراز عنه (وخامسها) انه تضييع للوقت بما لا فائدة فيه وقال عليه الصلاة والسلام من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه (وسادسها) ان فى اظهار محاسن الناس وستر مقابحهم تخلقا باخلاق الله تعالى وقال عليه السلام تخلقوا باخلاق الله فهذه الوجوه توجب على العاقل انه اذا سمع القذف أن يسكت عنه وأن يجتهد فى الاحتراز عن الوقوع فيه فان قيل كيف جاز الفصل بين أولا وبين قلتم بالظرف قلنا الفائدة فيه انه كان الواجب عليهم أن يحترزوا أولا ما سمعوا بالافك عن التكلم به * أما قوله سبحانك هذا بهتان عظيم ففيه سؤالان (الاول) كيف يليق سبحانك بهذا الموضع (الجواب) من وجوه (الاول) المراد منه التعجب من عظم الامر وانما استعمل فى معنى التعجب لانه يسبح الله عند رؤية العجيب من صانعه ثم كثر حتى استعمل فى كل متعجب منه (الثانى) المراد تنزيه الله تعالى عن ان تكون زوجة

رون مما كلفتموه فيجاز بكم عليه (ليس عليكم جناح ان تدخلوا) أى بغير استئذان (بيوتا غير مسكونة)

نبيه فاجرة (الثالث) أنه منزه عن أن يرضى بظلم هؤلاء الفرقة المفترين (الرابع) أنه منزه عن أن لا يعاقب هؤلاء القذفة الظلمة (السؤال الثانى) لم أوجب عليهم أن يقولوا هذا بهتان عظيم مع انهم ما كانوا عالمين بكونه كذبا قطعا والجواب من وجهين (الاول) انهم كانوا متمكنين من العلم بكونه بهتانا لان زوجة الرسول لا يجوز أن تكون فاجرة (الثانى) انهم لما جزموا به مع انهم ما كانوا ظانين له بالقلب كان اخبارهم عن ذلك الجزم كذبا ونظيره قوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون * (النوع السادس) قوله تعالى (يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم) وهذا من باب الزواجر والمعنى يعظكم الله بهذه المواعظ التى بها تعرفون عظم هذا الذنب وأن فيه الحد والنكال فى الدنيا والعذاب فى الآخرة لكى لا تعودوا الى مثل هذا الفعل أبدا وأبدهم ما داموا أحياء مكلفين وقد دخل تحت ذلك من قال ومن سمع فلينكر لان حالهما سواء فى أن فعلا ما لا يجوز وان كان من أقدم عليه أعظم ذنبا فبين ان الغرض بما عرفهم من هذه الطريقة أن لا يعودوا الى مثل ما تقدم منهم (وههنا مسائل المسئلة الاولى) استدلت المعتزلة بقوله ان كنتم مؤمنين على ان ترك القذف من الايمان وعلى ان فعل القذف لا يبقى معه الايمان لان المعلق على الشرط عدم عند عدم الشرط (والجواب) هذا معارض بقوله ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم أى منكم أيها المؤمنون فدل ذلك على ان القذف لا يوجب الخروج عن الايمان واذا ثبت التعارض حملنا هذه الآية على التهييج فى الاتعاظ والانزجار (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة دلت هذه الآية على أنه تعالى أراد من جميع من وعظه مجانبة مثل ذلك فى المستقبل وان كان فيهم من لا يقطع فى هذا الوجه تدل على انه تعالى يريد من كلهم الطاعة وان عصوا لان قوله يعظكم الله أن تعودوا معناه لكى لا تعودوا والمثله وذلك دلالة الارادة (والجواب) عنه قد تقدم مرارا (المسئلة الثالثة) هل يجوز أن يسمى الله تعالى واعظا لقوله يعظكم الله أن تعودوا الاظهر أنه لا يجوز كما لا يجوز أن يسمى معلما لقوله الرحمن علم القرآن أما قوله تعالى ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم فالمراد من الآيات ما به يعرف المرء ما ينبغى أن يتمسك به ثم بين أنه لكونه عليما حكيما يؤثر بما يجب أن يبينه ويجب أن يطاع لاجل ذلك لان من لا يكون عالما لا يجب قبول تكليفه لانه قد يأمر بما لا ينبغى ولان المكلف اذا أطاعه فقد لا يعلم انه أطاعه وحينئذ لا يبقى للطاعة فائدة وأما من كان عالما لكنه لا يكون حكيما فقد يأمره بما لا ينبغى فاذا أطاعه المكلف فقد يعذب المطيع وقد يثيب العاصى وحينئذ لا يبقى للطاعة فائدة وأما اذا كان عليما حكيما فانه لا يأمر الا بما ينبغى ولا يهمل جزاء المستحقين فلهذا ذكرهاتين الصفتين وخصهما بالذكر وههنا سؤالات (الاول) الحكيم هو الذى لا يأتى بما لا ينبغى وانما يكون كذلك لو كان عالما بقبح القبيح وعالما بكونه غنيا عنه فيكون العليم داخلا فى الحكيم فكان ذكر الحكيم مغنيا عنه هذا على قول المعتزلة وأما على

أى غير موضوعة لسكنى طائفة مخصوصة فقط بل ليتمتع بها من يضطر اليها كائنا من كان من غير أن يتخذها سكنا كالربط والخانات والحوانيت والحمامات ونحوها فانها معدة لمصالح الناس كافة كما ينبئ عنه قوله تعالى (فيها متاع لكم) فانه صفة للبيوت أو استئناف جار مجرى التعليل لعدم الجناح أى فيها حق تمتع لكم كالاستكنان من الحر والبرد وايواء الامتعة والرحال والشراء والبيع والاغتسال وغير ذلك مما يليق بحال البيوت وداخليها فلا بأس بدخولها بغير استئذان من داخليها من قبل ولا ممن يتولى أمرها ويقوم بتدبيرها من قوام الرباطات والخانات وأصحاب الحوانيت ومتصرفى الحمامات ونحوهم ويروى أن أبا بكر رضى الله عنه قال يا رسول الله ان الله تعالى قد أنزل عليك آية فى الاستئذان وانا نختلف فى تجارتنا فتنزل هذه الخانات أفلا ندخلها الا باذن فنزلت وقيل هى الخربات يتبرز فيها والمتاع التبرز والظاهر أنها من جملة ما ينتظمه البيوت لا أنها المرادة

قول أهل السنة والجماعة فالحكمة هي العلم فقط فذكر العليم الحكيم يكون تكرارا محضا (الجواب) يحمل ذلك على التأكيد (السؤال الثاني) قالت المعتزلة دلت الآية على أنه انما يجب قبول بيان الله تعالى لمجرد كونه عالما حكيما والحكيم هو الذي لا يفعل القبائح فتدل الآية على أنه لو كان خالقا للقبائح لما جاز الاعتماد على وعده ووعيده (والجواب) الحكيم عندنا هو العليم وانما يجوز الاعتماد على قوله لكونه عالما بكل المعلومات فان الجاهل لا اعتماد على قوله البتة (السؤال الثالث) قالت المعتزلة قوله يبين الله لكم أي لاجلكم وهذا يدل على ان افعاله معللة بالاغراض ولان قوله لكم لا يجوز حمله على ظاهره لانه ليس الغرض نفس ذواتهم بل الغرض حصول انتفاعهم وطاعتهم وايمانهم فدل هذا على أنه تعالى يريد الايمان من الكل (والجواب) المراد أنه سبحانه فعل بهم ما لو فعله غيره لكان ذلك غرضا * (النوع السابع) قوله تعالى (ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون) اعلم انه سبحانه لما بين ما على أهل الافك وما على من سمع منهم وما ينبغي أن يتمسكوا به من اداب الدين اتبعه بقوله ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة ليعلم ان من أحب ذلك فقد شارك في هذا الذم كما شارك فيه من فعله ومن لم ينكره وليعلم أن أهل الافك كما عليهم العقوبة فيما أظهروه فكذلك يستحقون العقاب بما أسروه من محبة اشاعة الفاحشة في المؤمنين وذلك يدل على وجوب سلامة القلب للمؤمنين كوجوب كف الجوارح والقول عما يضر بهم وههنا مسائل (المسئلة الاولى) معنى الاشاعة الانتشار يقال في هذا العقار سهم شائع اذا كان في الجميع ولم يكن منفصلا وشاع الحديث اذا ظهر في العامة (المسئلة الثانية) لا شك ان ظاهر قوله ان الذين يحبون يفيد العموم وأنه يتناول كل من كان بهذه الصفة ولا شك ان هذه الآية نزلت في قذف عائشة الا ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فوجب اجراؤها على ظاهرها في العموم ومما يدل على انه لا يجوز تخصيصها بقذفة عائشة قوله تعالى في الذين آمنوا فانه صيغة جمع ولو أراد عائشة وحدها لم يجز ذلك والذين خصصوه بقذفة عائشة منهم من حمله على عبد الله بن أبي لانه هو الذي سعى في اشاعة الفاحشة قالوا معنى الآية ان الذين يحبون والمراد عبد الله أن تشيع الفاحشة أي الزنا في الذين آمنوا أي في عائشة وصفوان (المسئلة الثالثة) روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال اني لاعرف قوما يضربون صدورهم ضربا يسمعه أهل النار وهم الهمازون اللمازون الذين يلتمسون عورات المسلمين ويهتكون ستورهم ويشيعون فيهم من الفواحش ما ليس فيهم وعنه عليه الصلاة والسلام لا يستر عبد مؤمن عورة عبد مؤمن الا ستره الله يوم القيامة ومن أقال مسلما صفقته اقال الله عثرته يوم القيامة ومن ستر عورته ستر الله عورته يوم القيامة وعنه عليه الصلاة والسلام المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجرين من هجر ما نهى الله عنه وعن عبد الله بن عمر عنه عليه الصلاة والسلام قال من ستره أن

على عورات (قل للمؤمنين) شروع في بيان أحكام كلية شاملة للمؤمنين كافة يندرج فيها حكم المستاذنين عند دخولهم البيوت اندراجا أوليا وتلوين الخطاب وتوجيهه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفويض ما في حيزه من الاوامر والنواهي الى رأيه عليه الصلاة والسلام لانها تكاليف متعلقة بأمور جزئية كثيرة الوقوع حقيقة بأن يكون الآمر بها والمتصدي لتدبيرها حافظا ومهيمنا عليهم ومفعول الامر أمر آخر قد حذف تعويلا على دلالة جوابه عليه أي قل لهم غضوا (يغضوا من أبصارهم) عما يحرم ويقتصروا به على ما يحل (ويحفظوا فروجهم) الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم وتقييد الغض بمن التبعيضية دون الحفظ لما في أمر النظر من السعة وقيل المراد بالحفظ ههنا خاصة هو الستر (ذلك) أي ما ذكر من الغض والحفظ (ازكى لهم) أي أطهر لهم من دنس الريبة (ان الله خبير بما يصنعون) لا يخفى ﴿ ز حزح ﴾ عليه شيء مما يصدر عنهم من الافاعيل التي من جملتها اجالة النظر واستعمال سائر

يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ويحب أن يؤتى الى الناس ما يحب أن يؤتى اليه وعن أنس قال قال عليه الصلاة والسلام لا يؤمن العبد حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه من الخير (المسئلة الرابعة) اختلفوا فى عذاب الدنيا فقال بعضهم اقامة الحد عليهم وقال بعضهم هو الحد واللعن والعداوة من الله والمؤمنين ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبى وحسانا ومسطحا وقعد صفوان لحسان فضربه ضربة بالسيف فكف بصره وقال الحسن عنى به المنافقين لانهم قصدوا أن يغموا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن اراد غم رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كافر وعذابهم فى الدنيا هو ما كانوا يتعبون فيه وينفقون لمقاتلة أوليائهم مع أعدائهم وقال أبو مسلم الذين يحبون هم المنافقون يحبون ذلك فأوعدهم الله تعالى العذاب فى الدنيا على يد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمجاهدة لقوله جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم والاقرب ان المراد بهذا العذاب ما استحقوه بافكهم وهو الحد واللعن والذم وأما عذاب الآخرة فلا شك انه فى القبر عذابه وفى القيامة عذاب النار أما قوله والله يعلم وأنتم لا تعلمون فهو حسن الموقع بهذا الموضع لان محبة القلب كامنة ونحن لا نعلمها الا بالامارات أما الله سبحانه فهو لا يخفى عليه شئ فصار هذا الذكر نهاية فى الزجر لان من أحب اشاعة الفاحشة وان بالغ فى اخفاء تلك المحبة فهو يعلم أن الله تعالى يعلم ذلك منه وان علمه سبحانه بذلك الذى أخفاه كعلمه بالذى أظهره ويعلم قدر الجزاء عليه (المسئلة الخامسة) الآية تدل على أن العزم على الذنب العظيم عظيم وان ارادة الفسق فسق لانه تعالى علق الوعيد بمحبة اشاعة الفاحشة (المسئلة السادسة) قال الجبائى دلت الآية على ان كل قاذف لم يتب من قذفه فلا ثواب له من حيث استحق هذا العذاب الدائم وذلك يمنع من استحقاق ضده الذى هو الثواب فمن هذا الوجه تدل على ما نقوله فى الوعيد واعلم ان حاصله يرجع الى مسئلة المحابطة وقد تقدم الكلام عليه (المسئلة السابعة) قالت المعتزلة ان الله تعالى بالغ فى ذم من أحب اشاعة الفاحشة فلو كان تعالى هو الخالق لافعال العباد لما كان مشيع الفاحشة الا هو فكان يجب أن لا يستحق الذم على اشاعة الفاحشة الا هو لانه هو الذى فعل تلك الاشاعة وغيره لم يفعل شيئا منها والكلام عليه أيضا قد تقدم (المسئلة الثامنة) قال أبو حنيفة رحمه الله المصابة بالفجور لا تستنطق لان استنطاقها اشاعة للفاحشة وذلك ممنوع منه ﴿ (النوع الثامن) قوله تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته وان الله رؤف رحيم) وفيه وجوه (أحدها) ان جوابه محذوف وكأنه قال لهلكتم أو لعذبكم الله واستأصلكم لكنه رؤف رحيم قال ابن عباس الخطاب لحسان ومسطح وحمنة ويجوز أن يكون الخطاب عاما (والثانى) جوابه فى قوله ما زكى منكم من أحد أبدا (والثالث) جوابه لكانت الفاحشة تشيع فتعظم المضرة وهو قول أبى مسلم والاقرب ان جوابه محذوف لان قوله من بعد ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد

للمؤمنات يغضضن من أبصارهن) فلا ينظرن الى ما لا يحل لهن النظر اليه (و يحفظن فروجهن) بالتستر أو التصون عن الزنا وتقديم الغض لان النظر يزيد الزنا و رائد الفساد (ولا يبدين زينتهن) كالحلى وغيرها مما يتزين به وفيه من المبالغة فى النهى عن ابداء مواضعها ما لا يخفى (الا ما ظهر منها) عند مزاولة الامور التى لا بد منها عادة كالخاتم والكحل والخضاب ونحوه فان فى ستره حرجا بينا وقيل المراد بالزينة مواضعها على حذف المضاف أو ما يعم المحاسن الخلقية والتزيينية والمستثنى هو الوجه والكفان لانها ليست بعورة (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) ارشاد الى كيفية اخفاء بعض مواضع الزينة بعد النهى عن ابدائها وقد كانت النساء على عادة الجاهلية يسدلن خمرهن من خلفهن فتبدو نحورهن وقلائدهن من جيوبهن

وسعها فامرن بارسال خمرهن الى جيوبهن سترا لما يبدوا منها وقد ضمن الضرب معنى الالقاء فعدى بعلى وقرئ بكسر الجيم كما تقدم (ولا يبدين زينتهن)

المنظور (الا لبعولتهن) فانهم المقصودون بالزينة ولهم أن ينظروا الى جميع بدنهم حتى الموضع المعهود (أو آبائهن أو اباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بني اخوانهن أو بني أخواتهن) لكثرة المخالطة الضرورية بينهم وبينهن وقلة توقع الفتنة من قبلهم لما في طباع الفريقين من النفرة عن مماسة القرائب ولهم أن ينظروا منهن ما يبدو عند المهنة والخدمة وعدم ذكر الاعمام والاخوال للمأن الاحوط أن يستترن عنهم حذارا من أن يصفوهن لابنائهم (أو نسائهن) المختصات بهن بالصحبة والخدمة من حرائر المؤمنات فان الكوافر لا يتحرجن عن وصفهن للرجال (أو ما ملكت أيمانهن) أي من الاماء فان عبد المرأة بمنزلة الاجنبي منها وقيل من الاماء والعبد لما روى انه عليه الصلاة والسلام أتى فاطمة رضي الله عنها بعبد وهبه لها وعليها ثوب اذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها واذا غطت رجليها لم يبلغ رأسها فقال عليه الصلاة والسلام انه ليس عليك باس انما هو أبوك وغلامك (أو التابعين غير

كالمنفصل من الاول فلا يجب أن يكون جوابا للاول خصوصا وقد وقع بين الكلامين كلام آخر والمراد أنه اولا انعامه بان يتوب ويمهل ويمكن من التلافي لهلكوا ولكنه لرأفته لا يدع ما هو للعبد اصلح وان جنى على نفسه * (النوع التاسع) قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم) قرئ خطوات بضم الطاء وسكونها والخطوات جمع خطوة وهو من خطا الرجل يخطو خطوا فاذا أردت الواحدة قلت خطوة مفتوحة الاول والجمع بفتح أوله و يضم والمراد بذلك السيرة والطريقة والمعنى لا تتبعوا آثار الشيطان ولا تسلكوا مسالكه في الاصغاء الى الافك والتلقي له واشاعته الفاحشة في الذين آمنوا والله تعالى وان خص بذلك المؤمنين فنهيه لكل المكلفين وهو قوله ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ومعلوم ان كل المكلفين ممنوعون من ذلك وانما قلنا انه تعالى خص المؤمنين بذلك لانه توعدهم على اتباع خطواته بقوله ومن يتبع خطوات الشيطان وظاهر ذلك أنهم لم يتبعوه ولو كان المراد به الكفار لكانوا قد اتبعوه فكأنه سبحانه لما بين ما على أهل الافك من الوعيد أدب المؤمنين أيضا بأن خصهم بالذكر لينشددوا في ترك المعصية لئلا يكون حالهم كحال أهل الافك والفحشاء والفاحشة ما أفرط قبحه والمنكر ما تنكره النفوس فتنفر عنه ولا ترتضيه أما قوله ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا فقرأ يعقوب وابن محيصن ما زكى بالتشديد واعلم ان الزكي من بلغ في طاعة الله مبلغ الرضا ومنه يقال زكى الزرع فاذا بلغ المؤمن من الصلاح في الدين الى ما يرضاه الله تعالى سمي زكيا ولا يقال زكى الا اذا وجد زكيا كما لا يقال لمن ترك الهدى هداه الله تعالى مطلقا بل يقال هداه فلم يهتد واحتج أصحابنا في مسئلة المخلوق بقوله ولكن الله يزكي من يشاء فقالوا التزكية كالتسويد والتحمير فكما أن التسويد تحصيل السواد فكذا التزكية تحصيل الزكاء في المحل قالت المعتزلة ههنا أويلان (أحدهما) حمل التزكية على فعل الالطاف (والثاني) حملها على الحكم بكون العبد زكيا قال أصحابنا الوجهان على خلاف الظاهر ثم نقيم الدلالة العقلية على بطلانهما أيضا (أما الوجه الاول) فيدل على فساده وجوه (أحدها) ان فعل اللطف هل يرجح الداعي أو لا يرجحه فان لم يرجحه البتة لم يكن به تعلق فلا يكون لطفا وان رجحه فنقول المرجح لابد وأن يكون منتهيا الى حد الوجوب فانه مع ذلك القدر من الترجيح اما أن يمتنع وقوع الفعل عنده أو يمكن أو يجب فان امتنع كان مانعا لا داعيا وان أمكن أن يكون وأن لا يكون فكل ما يمكن لا يلزم من فرض وقوعه محال فليفرض تارة واقعا وأخرى غير واقع فامتياز وقت الوقوع عن وقت اللاوقوع اما أن يتوقف على انضمام قيد اليه أو لا يتوقف فان توقف كان المرجح هو المجموع الحاصل بعد انضمام هذا القيد فلا يكون

أولى الاربة من الرجال) أي أولى الحاجة الى النساء وهم الشيوخ لهم والممسوحون وفي المجبوب والخصي خلاف وقيل هم البله الذين يتبعون الناس لفضل طعامهم ﴿ ٣٦١ ﴾ ولا يعرفون شيئا من أمور النساء وقرئ غير بالنصب على الحالية (أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) لعدم تميزهم من الظهور بمعنى الاطلاع أو لعدم بلوغهم حد الشهوة من الظهور بمعنى الغلبة والطفل جنس وضع موضع الجمع اكتفاء بدلالة الوصف (ولا يضربن بارجلهن ليعلم ما يخفين) اي ما يخفينه من الرؤية (من زينتهن) أي ولا يضربن بارجلهن الارض ليتقعقع خلخالهن فيعلم أنهن ذوات خلخال فان ذلك مما يورث الرجال ميلا اليهن و يوهم أن لهن ميلا اليهم وفي النهي عن ابداء صوت الحلي بعد النهي عن ابداء عينها من المبالغة في الزجر عن ابداء مواضعها مالا يخفى (وتوبوا الى الله جميعا) تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الى الكل بطريق التغليب لا براز كمال العناية بما في حيزه من أمر التوبة وأنها من معظمات المهمات

الحاصل أولا مرجحا وان لم يتوقف كان اختصاص أحد الوقتين بالوقوع والآخر باللاوقوع ترجيحا للممكن من غير مرجح وهو محال وأما ان كان اللطف مرجحا موجبا كان فاعل اللطف فاعلا للملطوف فيه فكان تعالى فاعلا لفعل العبد (الثاني) أنه تعالى قال ولكن الله يزكي من يشاء علق التزكية على المشيئة وفعل اللطف واجب والواجب لا يتعلق بالمشيئة (الثالث) انه علق التزكية على الفضل والرحمة وخلق الالطاف واجب فلا يكون متعلقا بالفضل والرحمة (وأما الوجه الثاني) وهو الحكم بكونه زكيا فذلك واجب لانه اولم يحكم به لكان كذبا والكذب على الله تعالى محال فكيف يجوز تعليقه بالمشيئة فثبت ان قوله ولكن الله يزكي من يشاء نص في الباب أما قوله والله سميع عليم فالمراد انه يسمع أقوالكم في القذف وأقوالكم في اثبات البراءة عليم بما في قلوبكم من محبة اشاعة الفاحشة أو من كراهيتها واذا كان كذلك وجب الاحتراز عن معصيته * قوله تعالى (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا اولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم) اعلم انه تعالى كما أدب أهل الافك ومن سمع كلامهم كما قدمنا ذكره فكذلك ادب أبا بكر لما حلف أن لا ينفق على مسطح أبداقال المفسرون نزلت الآية في أبي بكر حيث حلف ان لا ينفق على مسطح وهو ابن خالة ابي بكر وقد كان يتيما في حجره وكان ينفق عليه وعلى قرابته فلما نزلت الآية قال لهم أبو بكر قوموا فاستم مني ولست منكم ولا يدخلن على أحد منكم فقال مسطح انشدك الله والاسلام وأنشدك القرابة والرحم أن لا تحوجنا الى أحد فما كان لنا في أول الامر من ذنب فقال لمسطح ان لم تتكلم فقد ضحكت فقال قد كان ذلك تعجبا من قول حسان فلم يقبل عذره وقال انطلقوا أيها القوم فان الله لم يجعل لكم عذرا ولا فرجا فخرجوا لا يدرون أين يذهبون وأين يتوجهون من الارض فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره بان الله تعالى قد أنزل على كتابا ينهاك فيه أن تخرجهم فكبر أبو بكر وسره وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية عليه فلما وصل الى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم قال بلى يارب اني احب أن يغفر لي وقد تجاوزت عما كان فذهب أبو بكر الى بيته وأرسل الى مسطح وأصحابه وقال قيلت ما أنزل الله على الرأس والعين وانما فعلت بكم ما فعلت اذ سخط الله عليكم اما اذ عفا عنكم فمرحبا بكم وجعل له مثلي ما كان له قبل ذلك اليوم وههنا مسائل

(المسئلة الاولى) ذكروا في قوله ولا يأتل وجهين (الاول) وهو المشهور انه من ائتلى اذا حلف افتعل من الالية والمعنى لا يحلف قال أبو مسلم هذا ضعيف لوجهين (أحدهما) ان ظاهر الآية على هذا التأويل يقتضي المنع من الحلف على الاعطاء وهم أرادوا المنع من الحلف على ترك الاعطاء فهذا المتأول قد أقام الثنى مكان الايجاب وجعل المنهي عنه مأمورا به (وثانيهما) انه قلما يوجد في الكلام افتعلت مكان افعلت وانما يوجد مكان فعلت وهنا آليت من الالية افعلت فلا يقال افتعلت كما لا يقال من الزمت التزمت ومن أعطيت

اعتطيت ثم قال فى يأتل ان أصله ياتلى ذهبت الياء للجزم لانه نهى وهو من قولك ما آلوت فلانا نصحا ولم آل فى أمرى جهدا أى ما قصرت ولا يال ولا يأتل واحد فالمراد لا تقصروا فى ان تحسنوا اليهم ويوجد كثيرا افتعلت مكان فعلت تقول كسبت واكتسبت وصنعت واصطنعت ورضيت وارتضيت فهذا التأويل هو الصحيح دون الاول ويروى هذا التأويل أيضا عن أبى عبيدة أجاب الزجاج عن السؤال الاول بان لا تحذف فى اليمين كثيرا قال الله تعالى ولا تجعلوا الله عرضة لايمانكم أن تبروا يعنى ان لا تبروا وقال امرؤ القيس

فقلت يمين الله أبرح قاعدا * ولو قطعوا رأسى اليك وأوصالى

أى لا أبرح وأجابوا عن السؤال الثانى ان جميع المفسرين الذين كانوا قبل أبى مسلم فسروا اللفظة باليمين وقول كل واحد منهم حجة فى اللغة فكيف الكل وبعضده قراءة الحسن ولا يتال (المسئلة الثانية) أجمع المفسرون على ان المراد من قوله أولوا الفضل أبو بكر وهذه الآية تدل على انه رضى الله عنه كان افضل الناس بعد الرسول الله صلى الله عليه وسلم لان الفضل المذكور فى هذه الآية اما فى الدنيا واما فى الدين والاول باطل لانه تعالى ذكره فى معرض المدح له والمدح من الله تعالى بالدنيا غير جائز ولانه لو كان كذلك لكان قوله والسعة تكريرا فتعين أن يكون المراد منه الفضل فى الدين فلو كان غيره مساويا له فى الدرجات فى الدين لم يكن هو صاحب الفضل لان المساوى لا يكون فاضلا فلما اثبت الله تعالى له الفضل مطلقا غير مقيد بشخص دون شخص وجب أن يكون أفضل الخلق ترك العمل به فى حق الرسول الله صلى الله عليه وسلم فيبقى معمولا به فى حق غيره فان قيل نمنع اجماع المفسرين على اختصاص هذه الآية بابى بكر قلنا كل من طالع كتب التفسير والاحاديث علم ان اختصاص هذه الآية بابى بكر بالغ الى حد التواتر فلو جاز منعه لجاز منع كل متواتر وأيضا فهذه الآية دالة على ان المراد منها أفضل الناس واجمعت الامة على ان الافضل اما أبو بكر أو على فاذا بينا انه ليس المراد عليا تعين الآية لابى بكر وانما قلنا انه ليس المراد منه عليا لوجهين (الاول) ان ما قبل هذه الآية وما بعدها يتعلق بابنة أبى بكر فيكون حديث على فى البين سجحا (الثانى) انه تعالى وصفه بانه من اولى السعة وان عليا لم يكن من اولى السعة فى الدنيا فى ذلك الوقت فثبت ان المراد منه أبو بكر قطعا واعلم ان الله تعالى وصف ابا بكر فى هذه الآية بصفات عجيبة دالة على علو شأنه فى الدين (أحدها) انه سبحانه كنى عنه بلفظ الجمع والواحد اذا كنى عنه بلفظ الجمع دل على علو شأنه كقوله تعالى انا نحن نزلنا الذكر انا أعطيناك الكوثر فانظر ان الشخص الذى كنى الله سبحانه مع جلاله بصيغة الجمع كيف يكون علو شانه (وثانيها) وصفه بانه صاحب الفضل على الاطلاق من غير تقييد لذلك بشخص دون شخص والفضل يدخل فيه الافضال وذلك يدل على انه رضى الله عنه كان فاضلا على الاطلاق كان مفضلا على الاطلاق (وثالثها) ان الافضال افادة ما ينبغى لا لعوض فمن يهب السكين لمن يقتل نفسه لا يسمى مفضلا لانه أعطى ما لا ينبغى ومن أعطى ليستفيد منه عوضا اما مالا أو مدحا أو ثناء فهم

لكنتم تفعلونه فى الجاهلية فانه وان وجب بالاسلام لكن يجب الندم عليه والعزم على تركه كلما خطر بباله وفى تكرير الخطاب بقوله تعالى (أيها المؤمنون) تأكيد للايجاب وايذان بان وصف الايمان موجب للامتثال حتما وقرئ أيه المؤمنون (لعلكم تفلحون) تفوزون بذلك بسعادة الدارين (وأنكحوا الايامى منكم) بعد ما زجر تعالى عن السفاح ومباديه القريبة والبعيدة أمر بالنكاح فانه مع كونه مقصودا بالذات من حيث كونه مناطا لبقاء النوع خير مزجرة عن ذلك وأيامى مقلوب ايايم جمع ايم وهو من لا زوج له من الرجال والنساء بكرا كان أو ثيبا كما يفصح عنه قول من قال فان تنكحى أنكح وان تأيمى * وان كنت افتى منكم اتايم * أى أتزوجوا من لا زوج له من الاحرار والحرائر (والصالحين من عبادكم وامائكم) على أن الخطاب للاولياء والسادات واعتبار الصلاح فى الارقاء لان من

ل نوع تفريط فى اقامة مواجب التكاليف كما ينبغى وناهيك بقوله عليه السلام شيبتنى سورة هود لما فيها من قوله عز وجل فاستقم كما أمرت لاسيما اذا كان المأمور به ﴿ الكف عن الشهوات وقيل توبوا عما

بذلك فقال وسيجنبها الاتقى الذى يؤتى ماله يتزكى وما لاحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى وقال فى حق على انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قطريرا فعلى أعطى للخوف من العقاب وأبو بكر ما أعطى الا لوجه ربه الاعلى فدرجة أبى بكر أعلى فكانت عطيته فى الافضل أتم وأكمل (ورابعها) انه قال أولوا الفضل منكم فكلمة من للتميز فكانه سبحانه ميزه عن كل المؤمنين بصفة كونه أولى الفضل والصفة التى بها يقع الامتياز يستحيل حصولها فى الغير والا لما كانت ميزة له بعينه فدل ذلك على ان هذه الصفة حاصلة فيه لا فى غيره البتة (وخامسها) أمكن حمل الفضل على طاعة الله تعالى وخدمته وقوله والسعة على الاحسان الى المسلمين فكانه كان مستجمعا للتعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله وهما من أعلى مراتب الصديقين وكل من كان كذلك كان الله معه لقوله ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ولاجل اتصافه بهاتين الصفتين قال له لا تحزن ان الله معنا (وسادسها) انما يكون الانسان موصوفا بالسعة لو كان جوادا بذولا ولقد قال عليه الصلاة والسلام خير الناس من ينفع الناس فدل على انه خير الناس من هذه الجهة ولقد كان رضى الله عنه جوادا بذولا فى كل شئ ومن جوده انه كما أسلم بكرة اليوم جاء بعثمان بن عفان وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وعثمان بن مظعون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ان أسلموا على يده وكان جوده فى التعليم والارشاد الى الدين والبذل بالدنيا كما هو مشهور فيحق له أن يوصف بانه من أهل السعة وأيضا فهب ان الناس اختلفوا فى انه هل كان اسلامه قبل اسلام على أو بعده ولكن اتفقوا على ان عليا حين أسلم لم يشتغل بدعوة الناس الى دين محمد صلى الله عليه وسلم وان أبا بكر اشتغل بالدعوة فكان أبو بكر أول الناس اشتغالا بالدعوة الى دين محمد ولا شك ان أجل المراتب فى الدين هذه المرتبة فوجب أن يكون أفضل الناس بعد الرسول صلى الله عليه وسلم أبو بكر من هذه الجهة ولانه عليه السلام قال من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة فوجب أن يكون لابى بكر مثل أجر كل من يدعو الى الله فيدل على الافضلية من هذه الجهة أيضا (وسابعها) ان الظلم من ذوى القربى أشد قال الشاعر

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة * على المرء من وقع الحسام المهند

وأيضا فالانسان اذا أحسن الى غيره فاذا قابله ذلك الغير بالاساءة كان ذلك أشد عليه مما اذا صدرت الاساءة من الاجنبى والجهتان كانتا مجتمعتين فى حق مسطح ثم انه آذى أبا بكر بهذا النوع من الايذاء الذى هو أعظم أنواع الايذاء فانظر أين مبلغ ذلك الضرر فى قلب أبى بكر ثم انه سبحانه أمره بان لا يقطع عنه بره وأن يرجع معه الى ما كان عليه من الاحسان وذلك من أعظم أنواع المجاهدات ولا شك ان هذا أصعب من مقاتلة الكفار لان هذا مجاهدة مع النفس وذلك مجاهدة مع الكافر ومجاهدة النفس أشق ولهذا قال عليه الصلاة والسلام رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر (وثامنها) ان الله تعالى

بذلك فقال وسيجنبها الاتقى الذى يؤتى ماله يتزكى وما لاحد عنده من نعمة تجزى الا ابتغاء وجه ربه الاعلى وقال فى حق على انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قطريرا فعلى أعطى للخوف من العقاب وأبو بكر ما أعطى الا لوجه ربه الاعلى فدرجة أبى بكر أعلى فكانت عطيته فى الافضل أتم وأكمل (ورابعها) انه قال أولوا الفضل منكم فكلمة من للتميز فكانه سبحانه ميزه عن كل المؤمنين بصفة كونه أولى الفضل والصفة التى بها يقع الامتياز يستحيل حصولها فى الغير والا لما كانت ميزة له بعينه فدل ذلك على ان هذه الصفة حاصلة فيه لا فى غيره البتة (وخامسها) أمكن حمل الفضل على طاعة الله تعالى وخدمته وقوله والسعة على الاحسان الى المسلمين فكانه كان مستجمعا للتعظيم لامر الله تعالى والشفقة على خلق الله وهما من أعلى مراتب الصديقين وكل من كان كذلك كان الله معه لقوله ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ولاجل اتصافه بهاتين الصفتين قال له لا تحزن ان الله معنا (وسادسها) انما يكون الانسان موصوفا بالسعة لو كان جوادا بذولا ولقد قال عليه الصلاة والسلام خير الناس من ينفع الناس فدل على انه خير الناس من هذه الجهة ولقد كان رضى الله عنه جوادا بذولا فى كل شئ ومن جوده انه كما أسلم بكرة اليوم جاء بعثمان بن عفان وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وعثمان بن مظعون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ان أسلموا على يده وكان جوده فى التعليم والارشاد الى الدين والبذل بالدنيا كما هو مشهور فيحق له أن يوصف بانه من أهل السعة وأيضا فهب ان الناس اختلفوا فى انه هل كان اسلامه قبل اسلام على أو بعده ولكن اتفقوا على ان عليا حين أسلم لم يشتغل بدعوة الناس الى دين محمد صلى الله عليه وسلم وان أبا بكر اشتغل بالدعوة فكان أبو بكر أول الناس اشتغالا بالدعوة الى دين محمد ولا شك ان أجل المراتب فى الدين هذه المرتبة فوجب أن يكون أفضل الناس بعد الرسول صلى الله عليه وسلم أبو بكر من هذه الجهة ولانه عليه السلام قال من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة فوجب أن يكون لابى بكر مثل أجر كل من يدعو الى الله فيدل على الافضلية من هذه الجهة أيضا (وسابعها) ان الظلم من ذوى القربى أشد قال الشاعر

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة * على المرء من وقع الحسام المهند

وأيضا فالانسان اذا أحسن الى غيره فاذا قابله ذلك الغير بالاساءة كان ذلك أشد عليه مما اذا صدرت الاساءة من الاجنبى والجهتان كانتا مجتمعتين فى حق مسطح ثم انه آذى أبا بكر بهذا النوع من الايذاء الذى هو أعظم أنواع الايذاء فانظر أين مبلغ ذلك الضرر فى قلب أبى بكر ثم انه سبحانه أمره بان لا يقطع عنه بره وأن يرجع معه الى ما كان عليه من الاحسان وذلك من أعظم أنواع المجاهدات ولا شك ان هذا أصعب من مقاتلة الكفار لان هذا مجاهدة مع النفس وذلك مجاهدة مع الكافر ومجاهدة النفس أشق ولهذا قال عليه الصلاة والسلام رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر (وثامنها) ان الله تعالى

صلاح له منهم بمعزل من ان يكون خليقا بان يعتنى مولاه بشأنه ويشفق عليه ويتكلف فى نظم مصالحه بما لا بد منه شرعا وعادة من بذل المال والمنافع بل حقه أن لا يستبقيه عنده وأما عدم اعتبار الصلاح فى الاحرار والحرائر فلان الغالب فيهم الصلاح على انهم مستبدون فى التصرفات المتعلقة بانفسهم وأموالهم فاذا عزموا النكاح فلا بد من مساعدة الاولياء لهم اذ ليس عليهم فى ذلك غرامة حتى يعتبر فى مقابلتها غنيمة عائدة اليهم عاجلة أو اجلة وقيل المراد هو الصلاح للنكاح والقيام بحقوقه (ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) ازاحة لما عسى يكون وازعا من النكاح من فقر احد الجانبين أى لا يمنعن فقر الخاطب أو المخطوبة من المناكحة فان فى فضل الله عز وجل غنية عن المال فانه غاد ورائح يرزق من يشاء من حيث لا يحتسب أو وعد منه سبحانه بالاغناء لقوله عليه الصلاة والسلام اطلبوا الغنى فى هذه الآية لكنه مشروط بالمشيئة كما فى قوله تعالى وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء (والله واسع) غنى ذو سعة لا يرزؤه اغناء الخلائق اذ لا نفاد لنعمته ولا غاية لقدرته ومع ذلك

عن مبادى النكاح وأسبابها الى ماهو أولى لهم وأحرى بهم بعد بيان جواز مناكحة الفقراء أى ليجتهد فى العفة وقمع الشهوة (الذين لايجدون نكاحا) اى اسباب نكاح أولا يتمكنون مما ينكح به من المال (حتى يغنيهم الله من فضله) عدة كريمة بالتفضل عليهم بالغنى واطف لهم فى استعفافهم وتقوية قلوبهم وايذان بأن فضله تعالى أولى بالاعفاء وأدنى من الصلحاء (والذين يبتغون الكتاب) بعد ماأمر بانكاح صالحى المماليك الاحتراء بالانكاح أمر بكتابة من يستحقها منهم والكتاب مصدر كاتب كالمكاتبة أى الذين يطلبون المكاتبة (مما ملكت ايمانكم) عبدا كان أوأمة وهى أن يقول المولى لمملوكه كاتبتك على كذا درهما تؤديه الى وتعتق ويقول المملوك قبلته أو نحو ذلك فان أداه اليه عتق قالوا معناه كتبت ذلك على نفسى أن تعتق منى اذا وفيت بالمال وكتبت لى على نفسك أن تفى بذلك ﴿ حملها ﴾ أوكتبت عليك الوفاء بالمال وكتبت على العتق عنده والتحقيق أن المكاتبة

لما أمر أبابكر بذلك لقبه بأولى الفضل وأولى السعة كانه سبحانه يقول له أنت افضل من أن تقابل اساءته بشئ وأنت أوسع قلبا من أن تقيم للدنيا وزنا فلا يليق بفضلك وسعة قلبك أن تقطع برك عنه بسبب ماصدر منه من الاساءة ومعلوم ان مثل هذا الخطاب يدل على نهاية الفضل والعلو فى الدين (وتاسعها) ان الالف واللام يفيدان العموم فالالف واللام فى الفضل والسعة يدلان على أن كل الفضل وكل السعة لابى بكر كما يقال فلان هو العالم يعنى قد بلغ فى الفضل الى أن صار كانه كل العالم وماعداه كالعدم وهذا أيضا منقبة عظيمة (وعاشرها) قوله وليعفوا وليصفحوا وفيه وجوه (منها) ان العفو قرينة التقوى وكل من كان أقوى فى العفو كان أقوى فى التقوى ومن كان كذلك كان أفضل لقوله تعالى ان أكرمكم عند الله أتقاكم (ومنها) ان العفو والتقوى متلازمان فلهذا السبب اجتمعا فيه أما التقوى فلقوله تعالى وسيجنبها الاتقى وأما العفو فلقوله تعالى وليعفوا وليصفحوا (وحادى عشرها) انه سبحانه قال لمحمد صلى الله عليه وسلم فاعف عنهم واصفح وقال فى حق أبى بكر وليعفوا وليصفحوا فمن هذا الوجه يدل على ان أبابكر كان ثانى اثنين لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى جميع الاخلاق حتى فى العفو والصفح (وثانى عشرها) قوله ألا تحبون ان يغفر الله لكم فانه سبحانه ذكره بكناية الجمع على سبيل التعظيم وأيضا فانه سبحانه علق غفرانه له على اقدامه على العفو والصفح فلما حصل الشرط منه وجب ترتيب الجزاء عليه ثم قوله يغفر الله لكم بصيغة المستقبل وانه غير مقيد بشئ دون شئ فدلت الآية على انه سبحانه قد غفر له فى مستقبل عمره على الاطلاق وكان من هذا الوجه ثانى اثنين للرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر ودليلا على صحة امامته رضى الله عنه فان امامته لو كانت على خلاف الحق لما كان مغفورا له على الاطلاق ودليلا على صحة ماذكره الرسول صلى الله عليه وسلم فى خبر بشارة العشرة بان أبابكر فى الجنة (وثالث عشرها) انه سبحانه وتعالى لما قال ألا تحبون أن يغفر الله لكم وصف نفسه بكونه غفورا رحيما والغفور مبالغة فى الغفران فعظم أبابكر حيث خاطبه بلفظ الجمع الدال على التعظيم وعظم نفسه سبحانه حيث وصفه بمبالغة الغفران والتعظيم اذا عظم نفسه ثم عظم مخاطبه فالعظمة الصادرة منه لاجله لابد وأن تكون فى غاية العظمة ولهذا قلنا بانه سبحانه لما قال انا أعطيناك الكوثر وجب ان تكون العطية عظيمة فدلت الآية على ان أبابكر ثانى اثنين للرسول صلى الله عليه وسلم فى هذه المنقبة أيضا (ورابع عشرها) انه سبحانه لما وصفه بانه أولو الفضل والسعة على سبيل المدح وجب أن يقال انه كان خاليا عن المعصية لان الممدوح الى هذا الحد لايجوز أن يكون من أهل النار ولو كان عاصيا لكان كذلك لقوله تعالى ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها واذا ثبت انه كان خاليا عن المعاصى فقوله يغفر الله لكم لايجوز أن يكون المراد غفران معصية لان المعصية التى لا تكون لا يمكن غفرانها واذا ثبت انه لا يمكن حمل الآية على ذلك وجب

حملها على وجه آخر فكأنه سبحانه قال والله أعلم ألا تحبون أن يغفر الله لكم لاجل تعظيمكم هؤلاء القذفة العصاة فيرجع حاصل الآية الى انه سبحانه قال يا أبا بكر ان قبلت هؤلاء العصاة فانا أيضا أقبلهم وان رددتهم فانا أيضا اردهم فكأنه سبحانه أعطاه مرتبة الشفاعة في الدنيا فهذا ما حضرنا في هذه الآية والله أعلم (فان قيل) هذه الآية تقدح في فضيلة أبي بكر من وجه آخر وذلك لانه نهاه عن هذا الحلف فدل على صدور المعصية منه (قلنا الجواب) عنه من وجوه (أحدها) ان النهي لا يدل على وقوعه قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ولا تطع الكافرين والمنافقين ولم يدل ذلك على انه عليه الصلاة والسلام أطاعهم بل دلت الاخبار الظاهرة على صدور هذا الحلف منه ولكن على هذا التقدير لا تكون الآية دالة على قولكم (وثانيها) هب انه صدر عنه ذلك الحلف فلم قلتم انه كان معصية وذلك لان الامتناع من التفضل قد يحسن خصوصا فيمن يسيء الى من أحسن اليه أو في حق من يتخذه ذريعة الى الافعال المحرمة لا يقال فاولم تكن معصية لما جاز أن ينهى الله عنه بقوله ولا يأتل أولوا الفضل لانا نقول هذا النهي ليس نهي زجر وتحريم بل هو نهي عن ترك الاولى كأنه سبحانه قال لابي بكر اللائق بفضلك وسعة همتك أن لا تقطع هذا فكان هذا ارشادا الى الاولى لا منعا عن المحرم (المسئلة الثالثة) أجمعوا على ان المراد من قوله أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله مسطح لانه كان قريبا لابي بكر وكان من المساكين وكان من المهاجرين واختلفوا في الذنب الذي وقع منه فقال بعضهم قذف كما فعله عبد الله بن أبي فانه عليه الصلاة والسلام حده وانه تاب عن ذلك وقال ابن عباس رضي الله عنهما كان تاركا للنكر ومظهرا للرضا وأي الامرين كان فهو ذنب (المسئلة الرابعة) احتج أصحابنا بهذه الآية على بطلان المحابطة وقالوا انه سبحانه وصفه بكونه من المهاجرين في سبيل الله بعد ان أتى بالقذف وهذه صفة مدح فدل على أن ثواب كونه مهاجرا لم يحبط باقدامه على القذف (المسئلة الخامسة) أجمعوا على ان مسطحا كان من البدريين وثبت بالرواية الصحيحة انه عليه الصلاة والسلام قال لعل الله نظر الى أهل بدر فقال افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم فكيف صدرت الكبيرة منه بعد ان كان بدريا (والجواب) انه لا يجوز أن يكون المراد منه افعلوا ما شئتم من المعاصي فيأمر بها أو يقيمها لانا نعلم بالضرورة ان التكليف كان باقيا عليهم فلو حملناه على ذلك لاقتضى زوال التكليف عنهم ولانه لو كان كذلك لما جاز أن يحد مسطح على ما فعل ويلعن فوجب حمله على أحد أمرين (الاول) انه تعالى اطلع على أهل بدر وقد علم توبتهم وانابتهم فقال افعلوا ما شئتم من النوافل من قليل أو كثير فقد غفرت لكم وأعطيتكم الدرجات العالية في الجنة (الثاني) يحتمل أن يكون المراد انهم يوافون بالطاعة فكأنه قال قد غفرت لكم لعلمي بأنكم تموتون على التوبة والانابة فذكر حالهم في الوقت وأراد العاقبة (المسئلة السادسة) العفو والصفح عن المسيء حسن مندوب اليه وربما وجب ذلك ولو لم يدل عليه

هم للعقد الحاصل من مجموع الايجاب والقبول لسائر العقود الشرعية المنعقدة بالايجاب والقبول ولا ريب في ان ذلك لا يصدر حقيقة الا من المتعاقدين وليس وظيفة كل منهما في الحقيقة الا الاتيان بأحد شطريه مع باعما يتم من قبله و يصدر عنه من الفعل الخاص به من غير تعرض لما يتم من قبل صاحبه و يصدر عنه من فعله الخاص به الا أن كلا من ذينك الفعلين كان بحيث لا يمكن تحققه في نفسه الا منوطا بتحقق الآخر ضرورة أن التزام العتق بمقابلة البدل من جهة المولى لا يتصور تحققه وتحصله الا بالتزام البدل من طرف العبد كما أن عقد البيع الذي هو تمليك المبيع بالثمن من جهة البائع لا يمكن تحققه الا بتملكه به من جانب المشتري لم يكن بد من تضمين أحدهما الآخر وقت الانشاء فكما أن قول البائع بعت انشاء لعقد البيع على معنى أنه ايقاع لما يتم من قبله أصالة ولما يتم من قبل المشتري ضمنا ايقاعا متوقفا على رأيه توقفا شبيها بتوقف عقد الفضولي كذلك قول المولى كاتبتك على كذا انشاء لعقد الكتابة أي ايقاع لما يتم من قبله من التزام العتق بمقابلة البدل أصالة ولما يتم من قبل العبد من التزام البدل ضمنا ايقاعا متوقفا

على قبوله فاذا قبل تم العقد ومحل الموصول الرفع على الابتداء خبره (فكاتبوهم) والفاء لتضمنه معنى الشرط أو النصب على أنه مفعول لمضمر يفسره هذا والامر فيه للندب لان

فلا تجب كغيرها ويجوز حالا ومؤجلا ومنجما وغير منجم وعند الشافعي رحمه الله لا يجوز الا مؤجلا منجما وقد فصل في موضعه (ان علتم فيهم خيرا) أي أمانة ورشدا وقدرة على أداء البدل بتحصيله من وجه حلال وصلاحا لا يؤذي الناس بعد العتق واطلاق العنان (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) أمر للموالي ببذل شيء من أموالهم وفي حكمه حط شيء من مال الكتابة ويكفي في ذلك أقل ما يتمول وعن علي رضي الله عنه حط الربع وعن ابن عباس رضي الله عنهما الثلث وهو مذهب عندنا وعند الشافعي للوجوب ويرده قوله عليه الصلاة والسلام المكاتب عبد ما بقي عليه درهم اذ لو وجب الحط لسقط عنه الباقي حتما وأيضا لو وجب الحط لكان وجوبه معلقا بالعقد فيكون العقد موجبا ومسقطا معا وأيضا فهو عقد معاوضة فلا يجبر على الحط كالبيع وقيل معنى آتوهم أقرضوهم وقيل هو أمر لهم بأن ينفقوا عليهم ﴿ فقالت ﴾ بعد أن يؤدوا و يعتقوا واضافة المال اليه تعالى ووصفه بأنه

الا هذه الآية لكني الاترى الى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم فعلق الغفران بالعفو والصفح وعنه عليه الصلاة والسلام من لم يقبل عذر المتنصل كاذبا كان أو صادقا فلا يرد على حوضي يوم القيامة وعنه عليه الصلاة والسلام أفضل اخلاق المسلمين العفو وعنه أيضا ينادي مناد يوم القيامة الا من كان له على الله أجر فليقم فلا يقوم الا أهل العفو ثم تلا فمن عفا وأصلح فأجره على الله وعنه عليه الصلاة والسلام أيضا لا يكون العبد فاضلا حتى يصل من قطعه و يعفو عمن ظلمه و يعطي من حرمه (المسئلة السابعة) في هذه الآية دلالة على ان اليمين على الامتناع من الخير غير جائز وانما يجوز اذا جعلت داعية للخير لا صارفة عنه (المسئلة الثامنة) مذهب جمهور الفقهاء أن من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها أنه ينبغي له أن يأتي الذي هو خير ثم يكفر عن يمينه وقال بعضهم انه يأتي بالذي هو خير وذلك كفارته واحتج ذلك القائل بالآية والخبر أما الآية فهي ان الله تعالى أمر أبا بكر بالحنث ولم يوجب عليه كفارة وأما الخبر فما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وذلك كفارته وأما دليل قول الجمهور فامور (أحدها) قوله تعالى ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته وقوله ذلك كفارة أيمانكم اذا حلفتم وذلك عام في الحانث في الخير وغيره (وثانيها) قوله تعالى في شان أيوب حين حلف على امرأته أن يضربها وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث وقد علمنا ان الحنث كان خيرا من تركه وامره الله بضرب لا يبلغ منها ولو كان الحنث فيها كفارتها لما أمر بضربها بل كان يحنث بلا كفارة (وثالثها) قوله عليه الصلاة والسلام من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليأت الذي هو خير وليكفر عن يمينه (أما الجواب) عما ذكره أولا فهو انه تعالى لم يذكر أمر الكفارة في قصة أبي بكر لا نفيا ولا اثباتا لان حكمه كان معلوما في سائر الآيات (والجواب) عما ذكره ثانيا في قوله وليات الذي هو خير وذلك كفارته فهناك تكفير الذنب لا الكفارة المذكورة في الكتاب وذلك لانه ممنوع عن نقض الايمان فأمر ههنا بالحنث والتوبة وأخبر ان ذلك يكفر ذنبه الذي ارتكبه بالحلف (المسئلة التاسعة) روى القاسم بن محمد عن عائشة رضي الله عنها انها قالت فضلت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بعشر خصال تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرا دون غيري وأبواي مهاجران وجاء جبريل عليه السلام بصورتي في حريرة وأمره أن يتزوج بي وكنت أغتسل معه في اناء واحد وجبريل عليه السلام ينزل عليه بالوحي وأنا معه في لحاف واحد تزوجني في شوال و بنى بي في ذلك الشهر وقبض بين سحري ونحري وأنزل الله تعالى عذري من السماء ودفن في بيتي وكل ذلك لم يساوني غيري فيه وقال بعضهم برأ الله أربعة بأربعة برأ يوسف عليه السلام بلسان الشاهد وشهد شاهد من أهلها و برأ موسى عليه السلام من قول اليهود بالحجر الذي ذهب بثوبه و برأ مريم بانطاق ولدها و برأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر وروى انه لما قربت وفاة عائشة جاء ابن عباس يستاذن عليها

فقالت يجيء الآن فيثنى على فخبره ابن الزبير فقال ما أرجع حتى تأذن لى فأذنت له فدخل فقالت عائشة أعوذ بالله من النار فقال ابن عباس يا أم المؤمنين مالك والنار وقد أعاذك الله منها وأنزل براءتك تقرأ فى المساجد وطيبك فقال الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات كنت أحب نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه ولم يحب صلى الله عليه وسلم الا طيبا وأنزل بسببك التيمم فقال فتيمموا صعيدا طيبا وروى ان عائشه وزينب تفاخرتا فقالت زينب انا التى أنزل ربى تزويجى وقالت عائشة أنا التى برأنى ربى حين حملنى ابن المعطل على الراحلة فقالت لها زينب ما قلت حين ركبتيها قالت قلت حسبى الله ونعم الوكيل فقالت قلت كلمة المؤمنين ﴿ قوله تعالى (أن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم يوم تشهد عليهم السنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون ان الله هو الحق المبين) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اختلفوا فى قوله ان الذين يرمون المحصنات الغافلات هل المراد منه كل من كان بهذه الصفة أو المراد منه الخصوص أما الاصوليون فقالوا الصيغة عامة ولا مانع من اجرائها على ظاهرها فوجب حمله على العموم فيدخل فيه قذفة عائشة وقذفة غيرها ومن الناس من خالف فيه وذكر وجوها (أحدها) ان المراد قذفة عائشة قالت عائشة رميت وأنا غافلة وانما بلغنى بعد ذلك فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم عندى اذ أوحى الله اليه فقال أبشرى وقرأ ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات (وثانيها) ان المراد جملة ازواج رسول الله صلى الله عليه وسلم وانهن اشرفهن خصصن بأن من قذفهن فهذا الوعيد لاحق به واحتج هؤلاء بأمور (الاول) ان قاذف سائر المحصنات تقبل توبته لقوله تعالى فى أول السورة والذين يرمون المحصنات الى قوله وأولئك هم الفاسقون الا الذين تابوا وأما القاذف فى هذه الآية فانه لا تقبل توبته لانه سبحانه قال لعنوا فى الدنيا والآخرة ولم يذكر الاستثناء وأيضا فهذه صفة المنافقين فى قوله ملعونين أينما ثقفوا (الثانى) ان قاذف سائر المحصنات لا يكفر والقاذف فى هذه الآية يكفر لقوله تعالى يوم تشهد عليهم السنتهم وأيديهم وأرجلهم وذلك صفة الكفار والمنافقين كقوله و يوم يحشر أعداء الله الى النار الايات الثلاث (الثالث) انه قال ولهم عذاب عظيم والعذاب العظيم يكون عذاب الكفر فدل على ان عقاب هذا القاذف عقاب الكفر وعقاب قذفة سائر المحصنات لا يكون عقاب الكفر (الرابع) روى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه كان بالبصرة يوم عرفة وكان يسئل عن تفسير القرآن فسئل عن تفسير هذه الآية فقال من أذنب ذنبا ثم تاب قبلت توبته الا من خاض فى أمر عائشة أجاب الاصوليون عنه بأن الوعيد المذكور فى هذه الآية لا بد وأن يكون مشروطا بعدم التوبة لان الذنب سواء كان كفرا أو فسقا فاذا حصلت التوبة عنه صار مغفورا فزال السؤال ومن الناس من ذكر فيه قولا آخر وهو أن هذه الآية نزلت فى مشركى مكة حين كان بينهم و بين رسول الله عهد فكانت المرأة اذا

أيام للحث على الامتثال بالامر بتحقيق ﴿ المامور به كما فى قوله تعالى وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فان ملاحظة وصول المال اليهم من جهته تعالى مع كونه هو المالك الحقيقى له من أقوى الدواعى الى صرفه الى الجهة المأمور بها وقيل هو أمر باعطاء سهمهم من الصدقات فالامر الوجوب حتما والاضافة والوصف لتعيين المأخذ وقيل هو أمر ندب لعامة المسلمين باعانة المكاتبين بالتصدق عليهم و يحمل ذلك للمولى وان كان غنيا لتبدل العنوان حسبما ينطق به قوله عليه الصلاة والسلام فى حديث بريرة هو لها صدقة ولنا هدية (ولا تكرهوا فتياتكم) أى اماءكم فان كلا من الفتى والفتاة كناية مشهورة عن العبد والامة وعلى ذلك مبنى قوله عليه الصلاة والسلام ليقل أحدكم فتاى وفتاتى ولا يقل عبدى وأمتى ولهذه العبارة فى هذا المقام باعتبار مفهومها الاصلى حسن موقع ومزيد مناسبة لقوله تعالى (على البغاء) وهو الزنا من حيث صدوره عن النساء لا عن اللاتى يتوقع منهن ذلك غالبا دون من عداهن من العجائز والصغائر وقوله تعالى (ان أردن تحصنا) ليس لتخصيص النهى بصورة ارادتهن التعفف عن الزنا واخراج ما عداها من حكمه كما اذا كان الاكراه بسبب كراهتهن الزنا

ل للمحافظة على عادتهم المستمرة حيث كانوا يكرهونهن على البغاء وهن يردن التعفف عنه مع وفور شهوتهن الامرة بالفجور وقصورهن في معرفة الامور الداعية الى المحاسن الزاجرة عن تعاطي القبائح فان عبد الله بن أبي كانت له ست جوار يكرههن على الزنا وضرب عليهن ضرائب فشكت اثنتان منهن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت وفيه من زيادة تقبيح حالهم وتشنيعهم على ما كانوا عليه من القبائح مالا يخفى فان من له أدنى مروأة لا يكاد يرضى بفجور من يحويه حرمه من امائه فضلا عن أمرهن به أو اكراههن عليه لاسيما عند ارادتهن التعفف فتأمل ودع عنك ما قيل من أن ذلك لان الاكراه لا يتأتى الا مع ارادة التحصن وما قيل من أنه ان جعل شرطا للنهي لا يلزم من عدمه جواز الاكراه لجواز أن يكون ارتفاع النهي لامتناع المنهي عنه فانهما يعرلان من التحقيق وايثار كلمة ان على اذا مع تحقق الارادة في مورد النص حتما للايذان بوجوب الانتهاء عن الاكراه عند كون ارادة التحصن

خرجت الى المدينة مهاجرة فذفها المشركون من أهل مكة وقالوا انما خرجت لتفجر فزنت فيهم والقول الاول هو الصحيح (المسئلة الثانية) ان الله تعالى ذكر فيمن يرمي المحصنات الغافلات المؤمنات ثلاثة أشياء (أحدها) كونهم ملعونين في الدنيا والآخرة وهو وعيد شديد واحتج الجبائي بان التقييد باللعن عام في جميع القذفة ومن كان ملعونا في الدنيا فهو ملعون في الآخرة والملعون في الآخرة لا يكون من أهل الجنة وهو بناء على المحابطة وقد تقدم القول فيه (وثانيها) قوله يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ونظيره قوله وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا وعندنا البتة ليست شرطا للحياة فيجوز أن يخلق الله تعالى في الجوهر الفرد علما وقدرة وكلاما وعند المعتزلة لا يجوز ذلك فلا جرم ذكروا في تأويل هذه الآية وجهين (الاول) انه سبحانه يخلق في هذه الجوارح هذا الكلام وعندهم المتكلم فاعل الكلام فتكون تلك الشهادة من الله تعالى في الحقيقة الا أنه سبحانه أضافها الى الجوارح توسعا (الثاني) انه سبحانه يبني هذه الجوارح على خلاف ما هي عليه ويلجئها أن تشهد على الانسان وتخبر عنه باعماله قال القاضي وهذا أقرب الى الظاهر لان ذلك يفيد انها تفعل الشهادة (وثالثها) قوله تعالى يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ولا شبهة في أن نفس دينهم ليس هو المراد لان دينهم هو عملهم بل المراد جزاء عملهم والدين بمعنى الجزاء مستعمل كقولهم كما تدين تدان وقيل الدين هو الحساب كقوله ذلك الدين القيم أي الحساب الصحيح ومعنى قوله الحق أي ان الذي توفيهم من الجزاء هو القدر المستحق لانه الحق وما زاد عليه هو الباطل وقرئ الحق بالنصب صفة للدين وهو الجزاء وبالرفع صفة لله وأما قوله ويعلمون ان الله هو الحق المبين فمن الناس من قال انه سبحانه انما سمى بالحق لان عبادته هي الحق دون عبادة غيره أو لانه الحق فيما يأمر به دون غيره ومعنى المبين يؤيد ما قلنا لان المحق فيما يخاطب به هو المبين من حيث يبين الصحيح بكلامه دون غيره ومنهم من قال الحق من أسماء الله تعالى ومعناه الموجود لان نقيضه الباطل وهو المعدوم ومعنى المبين المظهر ومعناه أن بقدرته ظهر وجود الممكنات فمعنى كونه حقا انه الموجود لذاته ومعنى كونه مبينا انه المعطي وجود غيره * قوله تعالى (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرؤن مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم) اعلم ان الخبيثات يقع على الكلمات التي هي القذف الواقع من أهل الافك ويقع أيضا على الكلام الذي هو كالذم واللعن ويكون المراد من ذلك لا نفس الكلمة التي هي من قبل الله تعالى بل المراد مضمون الكلمة ويقع أيضا على الزواني من النساء وفي هذه الآية كل هذه الوجوه محتملة فان حملناها على القذف الواقع من أهل الافك كان المعنى الخبيثات من قول أهل الافك للخبيثين من الرجال وبالعكس والطيبات من قول منكري الافك للطيبين من الرجال وبالعكس وان حملناها على الكلام الذي هو كالذم واللعن فالمعنى ان الذم واللعن معدان للخبيثين من الرجال والخبيثون منهم معرضون للعن والذم وكذا القول في الطيبات وأولئك اشارة الى الطيبين وانهم مبرؤن مما يقول الخبيثون من خبيثات الكلمات وان

حملناه على الزاني فالمعنى الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال وبالعكس على معنى قوله تعالى الزاني لاينكح الازانية والطيبات من النساء للطيبين من الرجال والمعنى ان مثل ذلك الرمي الواقع من المنافقين لايليق الا بالخبيثات والخبيثين لا بالطيبات والطيبين كالرسول صلى الله عليه وسلم وأزواجه فان قيل فعلى هذا الوجه يلزم أن لايتزوج الرجل العفيف بالزانية (والجواب) ماتقدم في قوله الزاني لاينكح الازانية وقوله أولئك مبرؤن يعني الطيبات والطيبين مما يقوله أصحاب الافك سوى قول من حمله على الكلمات فكأنه قال الطيبون مبرؤن مما يقوله الخبيثون ومتى حمل أولئك على هذا الوجه كان لفظه كمعناه في أنه جمع ومتى حملته على عائشة وصفوان وهما اثنان فكيف يعبر عنهما بلفظ الجمع فجوابه من وجهين (الاول) ان ذلك الرمي قد تعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم وبعائشة وصفوان فبرأ الله تعالى كل واحد منهم من التهمة اللائقة به (الثاني) ان المراد به كل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم فكأنه تعالى برأهن من هذا الافك لكي لايقدح فيهن أحد كما أقدموا على عائشة ونزه الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك عن أمثال هذا الامر وهذا أبين كأنه تعالى بين ان الطيبات من النساء للطيبين من الرجال ولا أحد اطيب ولا أطهر من الرسول فأزواجه اذن لايجوز أن يكن الا طيبات ثم بين تعالى ان لهم مغفرة يعني براءة من الله ورسوله ورزق كريم في الآخرة ويحتمل أن يكون ذلك خبرا مقطوعا به فيعلم بذلك ان أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام هن معه في الجنة وقد وردت الاخبار بذلك ويحتمل أن يكون المراد بشرط اجتناب الكبائر والتوبة والاول أولى لانا انما نحتاج الى الشرط اذا لم نكن حمل الآية عليه ماذا نكون فلا وجه لاطلاق الشرط وهذا يدل على ان عائشة رضي الله عنها تصير في الجنة بخلاف مذهب الرافضة الذين يكفرونها بل بكل حرب يوم الجمل فانهم يردون بذلك نص القرآن فان قيل اتقطع بانها من أهل الجنة اغراء لها بالقبيح فنقول أليس ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعلمه الله تعالى بانه من أهل الجنة ولم يكن ذلك اغراء لها بالقبيح وكذا العشرة المبشرة بالجنة وكذا سائر الصحابة رضي الله عنهم أجمعين (تمت قصة أهل الافك والحكم السادس) في الاستئذان * قوله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فان لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ماتبدون وماتكتمون) اعلم انه تعالى عدل عما يتصل بالرمي والقذف وما يتعلق بهما من الحكم الى مايليق به لان أهل الافك انما وجدوا السبيل الى بهتانهم من حيث اتفقت الخلوة فصارت كأنها طريق التهمة فأوجب الله تعالى أن لايدخل المرء بيت غيره الا بعد الاستئذان والسلام لان في الدخول لا على هذا الوجه وقوع التهمة وفي ذلك من المضرة مالا خفاء به فقال ياأيها الذين آمنوا الخ وفي الآية

فيد للاكراه لكن لاباعتبار أنه مدار للنهي عنه بل باعتبار أنه المعتاد فيما بينهم كما قبله جيء به تشنيعا لهم فيما هم عليه من احتمال الوزر الكبير لاجل النزر الحقير أي لاتفعلوا ما أنتم عليه من اكراههن على البغاء لطلب المتاع السريع الزوال الوشيك الاضمحلال فالمراد بالابتغاء الطلب المقارن لنيل المطلوب واستيفائه بالفعل فهو الصالح لكونه غاية للاكراه مترتبا عليه لا المطلق المتناول لطلب السابق الباعث عليه (ومن يكرههن) الخ جملة مستأنفة سيقت لتقرير النهي وتأكيد وجوب العمل به ببيان خلاص المكرهات عن عقوبة المكره عليه عبارة ورجوع غائلة الاكراه الى المكرهين اشارة أي ومن يكرههن على ما ذكر من البغاء (فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم) أي لهن كما وقع في مصحف ابن مسعود وعليه قراءة ابن عباس رضي الله تعالى عنهم وكما ينبئ عنه

قوله تعالى من بعد اكراههن أى كونهن مكرهات على أن الاكراه مصدر من المبنى للمفعول فان توسيطه بين اسم ان وخبرها للايذان بان ذلك هو السبب للمغفرة والرحمة ﴿ ٣٧٠ ﴾ وكان الحسن البصرى رحمه الله اذا قرأ هذه الآية يقول لهن والله لهن والله وفى تخصيصها بهن وتعيين مدارها مع سبق ذكر المكرهين أيضا فى الشرطية دلالة بينة على كونهم محرومين منها بالكلية كأنه قيل للمكره واظهور هذا التقدير اكتفى به عن العائد الى اسم الشرط فتجوز يزعمهما انهم بشرط التوبة استحلا أو معهن اخلال جزالة النظم الجليل وهوين لامر النهى فى مقام التهويل وما جنهن الى المغفرة المنبئة عن سابقة الاثم اما باعتبار أنهن وان كن مكرهات لا يخلون فى تضاعيف الزنا عن شائبة مطاوعة ما بحكم الجبلة البشرية واما باعتبار أن الاكراه قد يكون قاصرا عن حد الالجاء المزيل للاختيار بالمرة واما لغاية تهويل أمر الزنا وحث المكرهات على التثبت فى النجاة عنه والتشديد فى تحذير المكرهين ببيان أنهن حيث كن عرضة للعقوبة لولا أن تداركهن المغفرة والرحمة مع قيام العذر فى حقهن فحال من يكرههن فى استحقاق العذاب ﴿ فانه ﴾

سؤالات (السؤال الاول) الاستئناس عبارة عن الانس الحاصل من جهة المجالسة قال تعالى ولا مستأنسين لحديث وانما يحصل ذلك بعد الدخول والسلام فكان الاولى تقديم السلام على الاستئناس فلم جاء على العكس من ذلك (والجواب) عن هذا من وجوه (أحدها) ما روى عن ابن عباس وسعيد بن جبير انهما وحتى تستأذنوا فاخطأ الكاتب وفى قراءة أبى حتى تستأذنوا لكم والتسليم خير لكم من تحية الجاهلية والدمور وهو الدخول بغير اذن واشتقاقه من الدمار وهو الهلاك كان صاحبه دامر اعظم ما ارتكب وفى الحديث من سبقت عينه استئذانه فقد دمر واعلم ان هذا القول من ابن عباس فيه نظر لانه يقتضى الطعن فى القرآن الذى نقل بالتواتر ويفضى صحة القرآن الذى لم ينقل بالتواتر وفتح هذين البابين بطرق الشك الى كل القرآن وانه باطل (وثانيها) ما روى عن الحسن البصرى انه قال ان فى الكلام تقديما وتأخيرا والمعنى حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا وذلك لان السلام مقدم على الاستئناس وفى قراءة عبد الله حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا وهذا أيضا ضعيف لانه خلاف الظاهر (وثالثها) ان يجرى الكلام على ظاهره ثم فى تفسير الاستئناس وجوه (الاول) حتى تستأنسوا بالاذن وذلك لانهم اذا استأذنوا وسلموا آنس أهل البيت ودخلوا بغير اذن لاستوحشوا وشق عليهم (الثانى) تفسير الاستئناس بالاستعلام والاستكشاف اشتقاقا من آنس الشئ اذا أبصره ظاهرا مكشوفا والمعنى حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال هل يراد دخولكم ومنه قولهم استأنس هل ترى أحدا واستأنست فلم أر أحدا أى تعرفت واستعلمت فان قيل واذا حمل على الانس ينبغى أن يتقدم السلام كما روى أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول السلام عليكم أأدخل فلنا المستأذن ربه بم يسلم أحد فى الدنيا فلا معنى لسلامه والحالة هذه والاقرب أن يستعلم بالاستئذان هل هناك من يأذن فاذا أذن ودخل صاروا جهله فيسلم عليه (والثالث) أن يكون اشتقاق الاستئناس من الانس وهو أن ينصرف هل ثم انسان ولا شك ان هذا مقدم على السلام (والرابع) لو سلمنا ان الاستئناس انما يقع بعد السلام ولكن الواو لا توجب الترتيب فتقديم الاستئناس على السلام فى اللفظ لا يوجب تقديمه عليه فى العمل (السؤال الثانى) ما الحكمة فى ايجاب الاستئذان (والجواب) تلك الحكمة هى التى نبه الله تعالى عليها فى قوله ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فدل بذلك على ان الذى لاجله حرم الدخول الاعلى هذا الشرط هو كون البيوت مسكونة اذ لا يأمن من يهجم عليها بغير استئذان أن يهجم على ما لا يحل له أن ينظر اليه من عورة أو على ما لا يحب القوم أن يعرفه غيرهم من الاحوال وهذا من باب العلل المنبه عليها بالنص ولانه تصرف فى ملك الغير فلا بد وان يكون برضاه والاشبه الغصب (السؤال الثالث) كيف يكون الاستئذان (الجواب) استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أألج فقال عليه الصلاة والسلام لامرأة يقال لها روضة قومى الى هذا فعلميه

(ولقد أنزلنا اليكم آيات

فانه لايحسن ان يستاذن فولى له يقول السلام عليكم أأدخل فسمعها الرجل فقالها فقال ادخل فدخل وسال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اشياء وكان يجيب فقال هل فى العلم مالاتعلم فقال عليه الصلاة والسلام لقد آتانى الله خيرا كثيرا وان من العلم مالايعلمه الا الله وتلا ان الله عنده علم الساعة الى آخره وكان أهل الجاهلية يقول الرجل منهم اذا دخل بيتا غير بيته حييتم صباحا وحييتم مساء ثم يدخل فربما أصاب الرجل مع امرأته فى لحاف واحد فصد الله تعالى عن ذلك وعلم الاحسن والاجمل وعن مجاهد حتى تستانسوا هو التنحنح وقال عكرمة هو التسبيح والتكبير ونحوه (السؤال الرابع) كم عدد الاستئذان (الجواب) روى أبو هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستئذان ثلاث بالاولى يستنصتون وبالثانية يستصلحون وبالثالثة يأذنون أو يردون وعن جندب قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع وعن أبى سعيد الخدرى قال كنت جالسا فى مجلس من مجالس الانصار فجاء أبو موسى فزعا فقلنا له مافزعك فقال أمرنى عمر أن آتيه فاتيته فاستاذنت ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت فقال مامنعك أن تاتينى فقلت قد جئت فاستاذنت ثلاثا فلم يؤذن لى وقد قال عليه الصلاة والسلام اذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع فقال لتأتينى على هذا ببينة أو لاعاقبنك فقال أبى لايقوم معك الا أصغر القوم قال فقام أبو سعيد فشهد له وفى بعض الاخبار أن عمر قال لابى موسى انى لم اتهمك ولكنى خشيت أن يتقول الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن قتادة الاستئذان ثلاث الاولى يسمع الحى والثانى ليتأهبوا والثالث ان شاؤا أذنوا وان شاؤا ردوا واعلم ان هذا من محاسن الاداب لان فى أول مرة ربما منعهم بعض الاشغال من الاذن وفى المرة الثانية ربما كان هناك مايمنع أو يقتضى المنع أو يقتضى التساوى فاذا لم يجب فى الثالثة يستدل بعدم الاذن على مانع ثابت وربما وجب ذلك كراهة قربه من الباب فلذلك يسن له الرجوع وذلك يقول يجب الاستئذان ثلاثا أن لايكون متصلا بل يكون بين كل واحدة والاخرى وقتا فاما مرع الباب بعنف والصياح بصاحب الدار فذلك حرام لانه يتضمن الايذاء والايحاش وكفى بقصة بنى أسد زاجرة ومانزل فيها من قوله تعالى ان الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لايعقلون (السؤال الخامس) كيف يقف على الباب (الجواب) روى أن أبا سعيد استأذن على الرسول صلى الله عليه وسلم وهو مستقبل الباب فقال عليه الصلاة والسلام لاتستأذن وأنت مستقبل الباب وروى أنه عليه الصلاة والسلام كان اذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الايمن أو الايسر فيقول السلام عليكم وذلك لان الدور لم يكن عليها حينئذ ستور (السؤال السادس) ان كلمة حتى للغاية والحكم بعد الغاية يكون بخلاف ماقبلها فقوله لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستانسوا يقتضى جواز الدخول بعد الاستئذان وان لم يكن من

أى وبالله لقد أنزلنا اليكم فى هذه السورة الكريمة آيات مبينات لكل مايكم حاجة الى بيانه من الحدود وسائر الاحكام والآداب وغير ذلك مما هو من مبادى بيانها على أن اسناد التبين اليها مجازى أو آيات واضحات تصدقها الكتب القديمة والعقول السليمة على أن مبينات من بين بمعنى تبين ومنه المثل قد بين الصبح لذى عينين وقرئ على صيغة المفعول أى التى بينت وأوضحت فى هذه السورة من معانى الاحكام والحدود وقد جوز أن يكون الاصل مبينا فيها الاحكام فاتسع فى الظرف باجرائه مجرى المفعول (ومثلا من الذين خلوا من قبلكم) عطف على آيات أى وأنزلنا مثلا كائنا من قبيل أمثال الذين مضوا من قبلكم من القصص العجيبة والامثال المضروبة لهم فى الكتب السابقة والكلمات الجارية على ألسنة الانبياء عليهم السلام فينتظم

من المحرمات والمكروهات وسائر مايخل بمحاسن الآداب فهى عبارة عما سبق من الآيات والمثل لظهور كونها من المواعظ التى الذكر ومدار العطف هو الغاير العنوانى المنزل منزلة التغاير الذاتى وقد خصت الآيات بالبينات الحدود والاحكام والموعظة بما وعظ به من قوله تعالى ولاتأخذكم بهما رأفة فى دين الله وقوله تعالى لولا اذ سمعتموه وغير ذلك من الآيات الواردة فى شان الآداب وانما قيل (للمتقين) مع شمول الموعظة للكل حسب شمول الانزال لقوله تعالى أنزلنا اليكم حث المخاطبين على الاعتناء بالانتظام فى سلك المتقين ببيان أنهم المقتنون لآثارها المقتبسون من أنوارها فحسب وقيل المراد بالآيات المبينات والمثل والموعظة جميع مافى القرآن المجيد من الآيات والامثال والمواعظ فقوله تعالى (الله نور السموات والارض) الخ حينئذ استئناف مسوق لتقرير مافيها من البيان مع الاشعار بكونه

صاحب لبيت اذن فما قولكم فيه (الجواب) من وجوه (أحدها) ان الله تعالى جعل الغاية الاستئناس لا الاستئذان والاستئناس يحصل الا اذا حصل الاذن بعد الاستئذان (وثانيها) انا لما علمنا بالنص ان الحكمة فى الاستئذان ان لايدخل الانسان على غيره بغير اذنه فاذا رأى مايسوءه وعلمنا ان هذا المقصود لايحصل الا بعد حصول الاذن علمنا ان الاستئناس انما يحصل به الاذن وجب أن لايكون كافيا (وثالثها) ان قوله تعالى فان لم تجدوا فيها أحدا ولا تدخلوها حتى يؤذن لكم فحظر الدخول الا باذن فدل على ان الاذن مشروط باباحة الدخول فى الآية الاولى فان قيل اذا ثبت انه لابد من الاذن فهل يقوم مقامه غيره أم لا فنا روى أبو هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال رسول الرجل الى الرجل اذنه وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى عليه الصلاة والسلام قال اذا دعى أحدكم فجاء مع الرسول فان ذلك له اذن وهذا الخبر يدل على معنيين (أحدهما) ان الاذن محذوف من قوله حتى تستأنسوا وهو المراد منه (وثانيهما) ان الدعاء اذن اذا جاء مع الرسول وانه لايحتاج الى الاستئذان ثانيا وقال بعضهم ان من قد جرت العادة له باباحة الدخول فهو غير محتاج الى استئذان (السؤال السابع) ماحكم من اطلع على دار غيره بغير اذنه (الجواب) قال الشافعى رحمه الله لو فقئت عينه فهى هدر وتمسك بما روى سهل بن سعد قال اطلع رجل فى حجر من حجر النبى صلى الله عليه وسلم ومعه مدرى يحك بها رأسه فقال لو علمت أنك تنظر الى لطعنت بها فى عينك انما الاستئذان قبل النظر وروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال من اطلع فى دار قوم بغير اذنهم ففقؤا عينه فقد هدرت عينه قال أبو بكر الرازى هذا الخبر يرد لو رود على خلاف قياس الاصول فانه لاخلاف أنه لو دخل داره بغير اذنه ففقأ عينه كان ضامنا وكان عليه القصاص ان كان عامدا والارش ان كان مخطئا ومعلوم أن الداخل قد اطلع وزاد على الاطلاع فظاهر الحديث مخالف لما حصل عليه الاتفاق فان صح فمعناه من اطلع فى دار قوم ونظر الى حرمهم ونسائهم فوقع فلم يمتنع فذهبت عينه فى حال المخالفة فهى هدر فاما اذا لم يكن الا النظر ولم يقع فيه ممانعة ولانهى ثم جاء انسان ففقأ عينه فهذا جان يلزمه حكم جنايته اظاهر قوله تعالى العين بالعين الى قوله والجروح قصاص واعلم ان التمسك بقوله تعالى والعين بالعين فى هذه المسئلة ضعيف لانا أجمعنا على ان هذا النص مشروط بما اذا لم تكن العين مستحقة فانها لو كانت مستحقة لم يلزم القصاص فلم قلت ان من اطلع فى دار انسان لم تكن عينه مستحقة وهذا أول المسئلة أما قوله انه لو دخل لم يجز فقء عينه فكذا اذا نظر قلنا الفرق بين الامرين ظاهر لانه اذا دخل علم القوم دخوله عليهم فاحترزوا عنه وتستروا فاما اذا نظر فقد لا يكونون عالمين بذلك فيطلع منهم على مالا يجوز الاطلاع عليه فلا يبعد فى حكم الشرع أن يبالغ ههنا فى الزجر حسما لباب هذه المفسدة وبالجملة فرد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا القدر من الكلام غير جائز (السؤال الثامن)

في غاية الكمال على الوجه الذي ستعرفه وأما على الاول فلتحقيق ان بيانه تعالى ليس مقصورا على ماورد في السوره الكريمة بل هو شامل لكل مايحق بيانه من

لما يتم انه لابد من الاذن فهل يكفي الاذن كيف كان أو لابد من اذن مخصوص (الجواب) ظاهر الآية يقتضي قبول الاذن مطلقا سواء كان الآذن صبيا أو امرأة او عبدا أو ذميا فانه لا يعتبر في هذا الاذن صفات الشهادة وكذلك قبول أخبار هؤلاء في الهدايا ونحوها (السؤال التاسع) هل يعتبر الاستئذان على المحارم (الجواب) نعم عن عطاء بن يسار أن رجلا سال النبي صلى الله عليه وسلم فقال أستاذن على أختي فقال النبي عليه الصلاة والسلام نعم أتحب ان تراها عريانة وسال رجل حذيفة أستاذن على أختي فقال ان لم تستاذن عليها رأيت ما يسوءك وقال عطاء سالت ابن عباس رضي الله عنهما أستاذن على أختي ومن أنفق عليها فقال نعم ان الله تعالى يقول واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستاذنوا كما استاذن الذين من قبلهم وليعلم في بيان من كان أجنبيا أو ذا رحم محرم واعلم ان ترك الاستئذان على المحارم وان كان غير جائز لانه أسهل لجواز النظر الى شعرها وصدرها وساقها ونحوها من الاعضاء والتحقيق فيه أن المنع من الهجوم على الغير ان كان لاجل ان ذلك الغير ربما كان مشتغلا بما يكره اطلاع الغير عليه وجب أن يعم في الكل حتى لا يكون له أن يدخل على الزوجة والامة الا باذن (السؤال العاشر) اذا عرض أمر في دار من حريق أو هجوم سارق أو ظهور منكر فهل يجب الاستئذان (الجواب) كل ذلك مستثنى بالدليل فهذا جملة الكلام في الاستئذان واما السلام فهو من سنة المسلمين التي أمروا بها وأمان للقوم وهو تحية أهل الجنة ومجلبة للمودة ونافي للحقد والضغينة عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام ونفخ فيه الروح عطس فقال الحمد لله فحمد الله باذن الله فقال له ربه يرحمك ربك يا آدم اذهب الى هؤلاء الملائكة وهم ملأ منهم جلوس فقل السلام عليكم فلما فعل ذلك رجع الى ربه فقال هذه تحيتك وتحية ذريتك وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حق المسلم على المسلم ست يسلم عليه اذا لقيه ويجيبه اذا دعاه وينصح له بالغيب ويشمته اذا عطس ويعوده اذا مرض ويشهد جنازته اذا مات وعن ابن عمر قال قال رسول الله عليه الصلاة والسلام ان سركم أن يسل الغل من صدوركم فأفشوا السلام بينكم أما قوله تعالى ذلكم خير لكم فالمعنى فيه ظاهر اذ المراد أن فعل ذلك خير لكم وأولى لكم من الهجوم بغير اذن لعلكم تذكرون أي لكي تتذكروا هذا التاديب فتتمسكوا به ثم قال فان لم تجدوا فيها أي في البيوت أحدا فلا تدخلوها لان العلة في الصورتين واحدة وهي جواز أن يكون هناك أحوال مكتومة يكره اطلاع الداخل عليها ثم قال وان قيل لكم ارجعوا فارجعوا وذلك لانه كما يكون الدخول قد يكرهه صاحب الدار فكذا الوقوف على الباب قد يكرهه فلا جرم كان الاولى والازكى له أن يرجع ازالة للايحاش والايذاء ولما ذكر الله تعالى حكم الدور المسكونة ذكر بعده حكم

الدنيا والآخرة وغير ذلك مما له مدخل في البيان وانه واقع منه تعالى على أتم الوجوه وأكملها حيث عبر عنه بالتنوير الذي هو أقوى مراتب البيان وأجلاها وعبر عن المنور بنفس النور تنبيها على قوة التنوير وشدة التأثير وايذانا بانه تعالى ظاهر بذاته وكل ما سواه ظاهر بإظهاره كما أن النور منير بذاته وما عداه مستنير به وأضيف النور الى السموات والارض للدلالة على كمال شيوع البيان المستعار له وغاية شموله لكل ما يليق به من الامور التي لها مدخل في ارشاد الناس بوساطة بيان شمول المستعار منه لجميع ما يقبله ويستحقه من الاجرام العلوية والسفلية فانهما قطران للعالم الجسماني الذي لا مظهر للنور الحسي سواه أو على شمول البيان لاحوالهما وأحوال ما فيهما من الموجودات اذ ما من موجود الا وقد بين من أحواله ما يستحق

البيان اما تفصيلا أو اجمالا كيف لا ولا ريب في بيان كونه دليلا على

وجود الصانع وصفاته وشاهد بصحة البعث أو على تعلق البيان باهلهما كما قال ابن عباس رضى الله عنهما هادى أهل السموات والارض فهم بنوره يهتدون وبهداه من حيرة الضلالة ينجون هذا وأما حمل التنوير على اخراجه تعالى للماهيات من العدم الى الوجود اذهو الاصل فى الاظهار كما أن الاعدام هو الاصل فى الاخفاء أو على تزيين السموات بالنيرين وسائر الكواكب وما يفيض عنها من الانوار أو بالملائكة عليهم السلام وتزيين الارض بالانبياء عليهم السلام والعلماء والمؤمنين أو بالنبات والاشجار أو على تدبيره تعالى لامورهما وأمور ما فيهما فمما لا يلائم المقام ولا يساعده حسن النظام (مثل نوره) أى نور الهداية منه تعالى على الاشياء المستنيرة به وهو القرآن المبين كما يعرب عنه ما قبله من وصف آياته بالانزال والتبيين وقد صرح بكونه نورا أيضا فى قوله تعالى وأنزلنا اليكم نورا مبينا وبه قال ابن عباس رضى الله عنهما والحسن وزيد بن أسلم رحمهم الله تعالى وجعله عبارة عن الحق وان شاع استعارته له كاستعارة الظلمة للباطل يأباه مقام بيان شأن الآيات ووصفها بما ذكر من التبيين مع

الدور التى هى غير مسكونة فقال ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة وذلك لان المنع من الدخول الاباذن زائل عنها واختلف المفسرون فى المراد من قوله بيوتا غير مسكونة على أقوال (أحدها) وهو قول محمد بن الحنفية انها الخانات والرباطات وحوانيت البياعين والمتاع المنفعة كالاستكنان من الحر والبرد وايواء الرحال والسلع والشراء والبيع روى ان أبا بكر قال يارسول الله ان الله قد أنزل علينا آية فى الاستئذان وانا نختلف فى تجاراتنا بين هذه الخانات أفلا ندخلها الاباذن فنزلت هذه الآية (ثانيها) أنها الخربات يتمرز فيها واللماع البرز (وثالثها) الاسواق (ورابعها) انها الحمامات والاولى أن يقال انه لا يمتنع دخول الجميع تحت الآية فيحمل الكل ولعلة فى ذلك انها اذا كانت كذلك فهى مأذون بدخولها من جهة العرف فكذلك نقول انها لو كانت غير مسكونة ولكنها كانت مغصوبة فانه لا يجوز للداخل أن يدخل فيها لكن الظاهر من حال الخانات انها موضوعة لدخول الداخل وأما قوله والله يعلم ما تبدون وما تكتمون فهو وعيد للذين يدخلون الخربات والدور الخالية من أهل الريبة (الحكم السابع) حكم النظر ﴿ قوله تعالى (قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك ازكى لهم ان الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بارجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) اعلم انه تعالى قال قل للمؤمنين وانما خصهم بذلك لان غيرهم لا يلزمه غض البصر عما لا يحل له وحفظ الفرج عما لا يحل له لان هذه الاحكام كالفرع للاسلام والمؤمنون مأمورون بها ابتداء والكفار مأمورون قبلها بما تصير هذه الاحكام تابعة له وان كان حالهم كحال المؤمنين فى استحقاق العقاب على تركها لكن المؤمن يمكن من هذه الطاعة من دون مقدمة والكافر لا يمكن الا بتقديم مقدمة من قبله وذلك لا يمنع من لزوم التكاليف له واعلم انه سبحانه أمر الرجال بغض البصر وحفظ الفرج وأمر النساء بمثل ما أمر به الرجال وزاد فيهن أن لا يبدين زينتهن الا لاقوام مخصوصين أما قوله تعالى يغضوا من أبصارهم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الاكثرون من ههنا للتبعيض والمراد غض البصر عما يحرم والاقتصار به على ما يحل وجوز الاخفش أن تكون من زيدة ونظيره قوله ما لكم من اله غيره وما منكم من أحد عنه حاجزين وأباه سيبويه فان قيل كيف دخلت فى غض البصر دون حفظ الفرج قلنا دلالة على ان أمر النظر أوسع ألا ترى ان المحارم لا بأس بالنظر الى شعورهن وصدورهن وكذا الجوارى المستعرضات وأما أمر الفرج فضيق وكذلك فرقا

عدم سبق ذكر الحق ولان المعتبر فى مفهوم النور هو الظهور والاظهار كما هو شان القرآن الكريم وأما الحق فالمعتبر فى مفهومه من حيث هو حق هو الظهور لا الاظهار والمراد بالمثل الصفة العجيبة أى صفة نوره العجيبة

أن أيبح النظر الا ما استثنى منه وحظر الجماع الا ما استثنى منه ومنهم من قال يغضوا من ابصارهم أى ينقصوا من نظرهم فالبصر اذا لم يكن من عمله فهو مغضوض ممنوع عنه وعلى هذا من ليست بزائدة ولا هى للتبعيض بل هى من صلة الغض يقال غضضت من فلان اذا نقصت من قدره (المسئلة الثانية) اعلم ان العورات على أربعة أقسام عورة الرجل مع الرجل وعورة المرأة مع المرأة وعورة المرأة مع الرجل وعورة الرجل مع المرأة فاما الرجل مع الرجل فيجوز له أن ينظر الى جميع بدنه الا عورته وعورته ما بين السرة والركبة والسرة والركبة ليستا بعورة وعند أبى حنيفة رحمه الله الركبة عورة وقال مالك الفخذ ليست بعورة والدليل على انها عورة ما روى عن حذيفة أن النبى صلى الله عليه وسلم مر به فى المسجد وهو كاشف عن فخذه فقال عليه السلام غط فخذك فانها من العورة وقال على رضى الله عنه لا تبرز فخذك ولا تنظر الى فخذ حى ولا ميت فان كان فى نظره الى وجهه او الى بدنه شهوة أو خوف فتنة بان كان امرد لا يحل النظر اليه ولا يجوز للرجل مضاجعة الرجل وان كان كل واحد منهما فى جانب من الفراش لما روى أبو سعيد الخدرى انه عليه الصلاة والسلام قال لا يفضى الرجل الى الرجل فى ثوب واحد ولا تفضى المرأة الى المرأة فى ثوب واحد وتكره المعانقة وتقبيل الوجه الا لولده شفقة وتستحب المصافحة لما روى أنس قال قال رجل يا رسول الله الرجل منا يلقى أخاه أو صديقه أينحنى له قال لا قال ايلتزمه ويقبله قال لا قال أفيأخذ بيده ويصافحه قال نعم اما عورة المرأة مع المرأة فكعورة الرجل مع الرجل فلها النظر الى جميع بدنها الا ما بين السرة والركبة وعند خوف الفتنة لا يجوز والا يجوز المضاجعة والمرأة الذمية هل يجوز لها النظر الى بدن المسلمة قيل يجوز كالمسلمة مع المسلمة والاصح انه لا يجوز لانها أجنبية فى الدين والله تعالى يقول أو نسائهن وليست الذمية من نسائنا أما عورة المرأة مع الرجل فالمرأة اما ان تكون أجنبية او ذات رحم محرم او مستمتعة فان كانت اجنبية فاما ان تكون حرة أو أمة فان كانت حرة فجميع بدنها عورة ولا يجوز له أن ينظر الى شئ منها الا الوجه والكفين لانها تحتاج الى ابراز الوجه بالبيع والشراء والى اخراج الكف للاخذ والعطاء ونعنى بالكف ظهرها وبطنها الى الكوعين وقيل ظهر الكف عورة واعلم انا ذكرنا انه لا يجوز النظر الى شئ من بدنها ويجوز النظر الى وجهها وكفيها وفى كل واحد من القولين استثناء اما قوله يجوز النظر الى وجهها وكفيها فاعلم انه على ثلاثة أقسام لانه اما أن لا يكون فيه غرض ولا فيه فتنة واما أن يكون فيه فتنة ولا غرض فيه واما أن يكون فيه فتنة وغرض أما القسم الاول فاعلم انه لا يجوز أن يتعمد النظر الى وجه الاجنبية لغير غرض وان وقع بصره عليها بغتة يغض بصره لقوله تعالى قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم وقيل يجوز مرة واحدة اذا لم يكن محل فتنة وبه قال أبو حنيفة رحمه الله ولا يجوز أن يكرر النظر اليها لقوله تعالى ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا ولقوله عليه السلام يا على

(كمشكاة) أى كصفة كوة غير نافذة فى الجدار فى الانارة والتنوير (فيها مصباح) سراج ضخم ثاقب وقيل المشكاة الانبوبة فى وسط القنديل والمصباح الفتيلة المشتعلة (المصباح فى زجاجة) أى قنديل من الزجاج الصافى الازهر وقرئ بفتح الزاى وكسرها فى الموضعين (الزجاجة كأنها كوكب درى) متلألئ وقد شبه بالدر فى صفائه وزهرته ودرارى الكواكب عظامها الاشهوة وقرئ درئ بدال مكسورة وراء مشددة وياء ممدودة بعدها همزة على أنه فعيل من الدرء وهو الدفع أى مبالغ فى دفع الظلام بضوئه أو فى دفع بعض أجزاء ضيائه لبعض عند البريق واللمعان وقرئ بضم الدال والباقى على حاله وفى اعادة المصباح والزجاجة معرفين اثر سبقهما منكرين والاخبار عنهما بما بعدهما مع انتظام الكلام بان يقال كمشكاة فيها مصباح فى زجاجة كأنها كوكب درى من تفخيم شانهما ورفع مكانهما بالتفسير اثر الابهام والتفصيل

صفة لزجاجة والاسم مغنية عن الرابط كأنه قيل فيها مصباح هو فى زجاجة هى كأنها كوكب درى (يوقد من شجرة) أى يبتدأ ايقاد المصباح من شجرة (مباركة) أى كثيرة المنافع بان رويت ذبالته بزيتها وقيل انما وصفت بالبركة لانها تنبت فى الارض التى بارك الله تعالى فيها للعالمين (زيتونة) بدل من شجرة وفى ابهامها ووصفها بالبركة ثم الابدال منها تفخيم لشانها وقرئ توقد بالتاء على أن الضمير القائم مقام الفاعل للزجاجة دون المصباح وقرئ توقد على صيغة الماضى من التفعل أى ابتداء ثقوب المصباح منها وقرئ توقد بحذف احدى التاءين من تتوقد على اسناده الى الزجاجة (لاشرقية ولاغربية) تقع الشمس عليها حينا دون حين بل بحيث تقع عليها طول النهار كالتى على قلة أو صحراء واسعة فتقع الشمس عليها حائنى الطلوع والغروب وهذا قول ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد

لاتتبع النظرة النظرة فان لك الاولى وليست لك الآخرة وعن جابر قال سالت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظر الفجاة فامرنى ان اصرف بصرى ولان الغالب ان الاحتراز عن الاولى لايمكن فوقع عفوا قصدا ولم يقصد (اما القسم الثانى) وهو أن يكون فيه غرض ولافتنة فيه فذاك أمور (أحدها) بان يريد نكاح امرأة فينظر الى وجهها وكفيها روى أبو هريرة رضى الله عنه ان رجلا أراد ان يتزوج امرأة من الانصار فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم انظر اليها فان فى أعين الانصار شيئا وقال عليه الصلاة والسلام اذا خطب أحدكم المرأة فلا جناح عليه أن ينظر اليها اذا كان انما ينظر اليها للخطبة وقال المغيرة بن شعبة خطبت امرأة فقال عليه السلام نظرت اليها فقلت لا قال فانظر فانه أحرى أن يدوم بينكما فكل ذلك يدل على جواز النظر الى وجهها وكفيها للشهوة اذا أراد أن يتزوجها ويدل عليه أيضا قوله تعالى لاتحل لك النساء من بعد ولا ان تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن ولا يعجبه حسنهن الا بعد رؤية وجوههن (وثانيها) اذا أراد شراء جارية فله أن ينظر الى مالیس بعورة منها (وثالثها) انه عند المبايعة ينظر الى وجهها منا ملاحتى يعرفها عند الحاجة اليه (ورابعها) ينظر اليها عند تحمل الشهادة ولا ينظر الى غير الوجه لان المعرفة تحصل به (أما القسم الثالث) وهو أن نظر اليها لشهوة فذلك محظور قال عليه الصلاة والسلام العينان تزنيان وعن جابر قال سالت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظرة الفجاة فامرنى ان أصرف بصرى وقال مكحول النوراء النظرة تزرع فى القلب الشهوة ورب شهوة أورثت حزنا طويلا (أما الكلام التانى) وهو انه لايجوز للاجنبى النظر الى بدن الاجنبية فمما استثنى منه صور (أحدها) يجوز الطبيب الماهر ان ينظر اليها لمعالجة كما يجوز للخان ان ينظر الى وجه المخطوبة وموضع ضرورة (وثانيها) يجوز أن يتعمد النظر الى فرج الزنا بين لتحمل الشهادة على الزنا وكذلك ينظر الى فرجها لتحمل شهادة الولادة والى ثدى المرضعة لتحمل الشهادة على الرضاع وقال أبو سعيد الاصطخرى لايجوز للرجل أن يقصد النظر فى هذه المواضع لان الزنا مندوب الى ستره وفى الولادة والرضاع تقبل شهادة النساء فلا حاجة الى نظر الرجال لشهادة (وثالثها) لو وقعت فى غرق أو حرق فله أن ينظر الى بدنها لتخليصها أما اذا كانت الاجنبية أمة فقال بعضهم عورتها ما بين السرة والركبة وقال آخرون عورتها ما لايبين للمهنة فيخرج منه ان رأسها وساعديها وساقيها ونحرها وصدرها ليس بعورة فى ظهرها وبطنها وما فوق ساعديها الخلاف المذكور ولايجوز لمسها ولا لها لمسه بحال لا لمجامعة ولا لتحمل ولا لغيره لان اللمس أقوى من النظر بدليل ان الانزال باللمس يفطر الصائم وبالنظر لايفطره وقال أبو حنيفة رحمه الله يجوز أن يمس من الامة ما يحل النظر اليه اما ان كانت المرأة ذات محرم له بنسب أو رضاع أو صهرية فعورتها معه ما بين السرة والركبة كعورة الرجل وقال آخرون بل عورتها ما لايبدو عند المهنة وهو قول أبى حنيفة رحمه الله فأما

سائر التفاصيل فسيأتي ان شاء الله تعالى في تفسير الآية اما اذا كانت المرأة مستمتعا كالزوجة والامة التي يحل له الاستمتاع بها فيجوز له أن ينظر الى جميع بدنها حتى الى فرجها غير انه يكره أن ينظر الى الفرج وكذا الى فرج نفسه لانه روى أنه يورث الطمس وقيل لا يجوز النظر الى فرجها ولا فرق بين أن تكون الامة قنة أو مدبرة أو أم ولد أو مرهونة فان كانت مجوسية أو مرتدة أو وثنية أو مشتركة بينه وبين غيره أو متزوجة أو مكاتبة فهي كالاجنبية روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا زوج أحدكم جاريته عبده أو أجيره فلا ينظر الى ما دون السرة وفوق الركبة وأما عورة الرجل مع المرأة نظران كان أجنبيا منها فعورته معها ما بين السرة والركبة وقيل جميع بدنه الا الوجه والكفين كهي معه والاول أصح بخلاف المرأة في حق الرجل لان بدن المرأة في ذاته عورة بدليل انه لا تصح صلاتها مكشوفة البدن وبدن الرجل بخلافه ولا يجوز لها قصد النظر عند خوف الفتنة ولا تكرير النظر الى وجهه لما روى عن أم سلمة انها كانت عند النبي صلى الله عليه وسلم وميمونة اذ أقبل ابن أم مكتوم فدخل عليها فقال عليه الصلاة والسلام احتجبا منه فقلت يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا فقال عليه الصلاة والسلام أفعمياوان أنتما ألستما تبصرانه وان كان محرما لها فعورته معها ما بين السرة والركبة وان كان زوجها أو سيدها الذي يحل له وطؤها فلها أن تنظر الى جميع بدنه غير أنه يكره النظر الى الفرج كهو معها ولا يجوز للرجل أن يجلس عار في بيت خال وله ما يستر عورته لانه روى انه عليه الصلاة والسلام سئل عنه فقال الله أحق أن يستحيى منه وروى انه عليه الصلاة والسلام قال اياكم والتعري فان معكم من لا يفارقكم الا عند الغائط وحين يفضي الرجل الى أهله والله أعلم (المسئلة الثالثة) سئل الشبلي عن قوله يغضوا من أبصارهم فقال أبصار الرؤس عن المحرمات وأبصار القلوب عما سوى الله تعالى وأما قوله تعالى و يحفظوا فروجهم فالمراد به عما لا يحل وعن أبي العالية انه قال كل ما في القرآن من قوله يحفظوا فروجهم و يحفظن فروجهن من الزنا الا التي في النور يحفظوا فروجهم و يحفظن فروجهن أن لا ينظر اليها أحد وهذا ضعيف لانه تخصيص من غير دلالة والذي يقتضيه الظاهر أن يكون المعنى حفظها عن سائر ما حرم الله عليه من الزنا والمس والنظر وعلى انه ان كان المراد حظر النظر فالمس والوطء أيضا مرادان بالآية اذهما أغلظ من النظر فنص الله تعالى على النظر لكان في مفهوم الخطاب ما يوجب حظر الوطء والمس كما ان قوله تعالى ولا تقل لهما أف اقتضى حظر ما فوق ذلك من السب والضرب أما قوله تعالى ذلك أزكى لهم أي تمسكهم بذلك أزكى لهم وأطهر لانه من باب ما يزكون به و يستحقون الثناء والمدح، يمكن أن يقال انه تعالى خص في الخطاب المؤمنين لما أراده من تزكيتهم بذلك ولا يليق ذلك بالكافر أما قوله تعالى وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن و يحفظن فروجهن فالقول فيه على ما تقدم فان قيل فلم قدم غض الابصار على حفظ الفروج قلنا لان

اضوأ وقيل لا نابتة في شرق المعمورة ولا في غربها بل في وسطها وهو الشام فان زيوتها أجود ما يكون وقيل لا في مضحى تشرق الشمس عليها دائما فتحرقها ولا في مقناة تغيب عنها دائما فتتركها نيا وفي الحديث لا خير في شجرة ولا في نبات في مقناة ولا خير فيهما في مضحى (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار) اي هو الصفاء والانارة بحيث يكاد يضيء بنفسه من غير مساس نار أصلا وكلمة لو في أمثال هذه المواقع ليست لبيان انتفاء شيء في الزمان الماضي لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظ لها جواب قد حذف ثقة بدلالة ما قبلها عليه ملاحظة قصدية الاعند القصد الى بيان الاعراب على القواعد الصناعية بل هي لبيان تحقق ما يفيده الكلام السابق من الحكم الموجب أو المنفي على كل حال

فروض من الاحوال المقارنة له اجمالا من بادحالها على أبعدها عند اما الوجود المانع كما في قوله تعالى أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة واما لعدم الشرط كما في هذه الآية الكريمة

ليظهر بثبوته او انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع ماعداه من الاحوال بطريق الاولوية ان التي هي مجمع
ما يناقيه من وجود المانع أو عدم الشرط ﴿ ٣٧٨ ﴾ فلان يتحقق بدون ذلك أولى ولذلك لايذكر معه شئ آخر

النظر بريد الزنا وراثد الفجور والبلوى فيه اشد وأكثر ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه أما قوله تعالى ولا يبدين زينتهن الاماظهر منها فمن الاحكام التي تختص بها النساء في الاغلب وانما قلنا في الاغلب لانه محرم على الرجل أن يبدي زينته حليا ولباسا الى غير ذلك للنساء الاجنبيات لما فيه من الفتنة وههنا مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا في المراد بزينتهن واعلم ان الزينة اسم يقع على محاسن الخلق التي خلقها الله تعالى وعلى سائر ما يتزين به الانسان من فضل لباس أو حلى وغير ذلك وأنكر بعضهم وقوع اسم الزينة على الخلقة لانه لا يكاد يقال في الخلقة انها من زينتها وانما يقال ذلك فيما تكتسبه من كحل وخضاب وغيره والاقرب ان الخلقة داخلة في الزينة ويدل عليه وجهان (الاول) ان الكثير من النساء ينفردن بخلقتهن عن سائر ما يعد زينة فاذا حملناه على الخلقة وفينا العموم حققه ولا يمنع دخول ماعدا الخلقة فيه أيضا (الثاني) ان قوله وليضربن بخمرهن على جيوبهن يدل على ان المراد بالزينة مايعم الخلقة وغيرها فكأنه تعالى منعهن من اظهار محاسن خلقتهن بأن أوجب سترها بالخمار وأما الذين قالوا الزينة عبارة عما سوى الخلقة فقد حصروها في أمور ثلاثة (أحدها) الاصباغ كالكحل والخضاب بالوسمة في حاجبيها والغمزة في خديها والحناء في كفيها وقدميها (وثانيها) الحلي كالخاتم والسوار والخلخال والدملج والقلادة والاكليل والوشاح والقرط (وثالثها) الثياب قال الله تعالى خذوا زينتكم عند كل مسجد وأراد الثياب (المسئلة الثانية) اختلفوا في المراد من قوله الاماظهر منها اما الذين حملوا الزينة على الخلقة فقال القفال معنى الآية الامايظهره الانسان في العادة الجارية وذلك في النساء الوجه والكفان وفي الرجل الاطراف من الوجه واليدين والرجلين فامر وا بستر مالا تؤدي الضرورة الى كشفه ورخص لهم في كشف ما اعتيد كشفه وأدت الضرورة الى اظهاره اذ كانت شرائع الاسلام حنيفية سهلة سمحة ولما كان ظهور الوجه والكفين كالضروري لاجرم اتفقوا على انهما ليسا بعورة أما القدم فليس ظهوره بضروري فلاجرم اختلفوا في انه هل هو من العورة أم لا فيه وجهان الاصح انه عورة كظهر القدم وفي صوتها وجهان أصحهما انه ليس بعورة لان نساء النبي صلى الله عليه وسلم كن يروين الاخبار للرجال وأما الذين حملوا الزينة على ماعدا الخلقة قالوا انه سبحانه انما ذكر الزينة لانه لا خلاف انه يحل النظر اليها حال مالم تكن متصلة باعضاء المرأة فلما حرم الله سبحانه النظر اليها حال اتصالها ببدن المرأة كان ذلك مبالغة في حرمة النظر الى أعضاء المرأة وعلى هذا القول يحل النظر الى زينة وجهها من الوشمة والغمزة وزينة بدنها من الخضاب والخواتيم وكذا الثياب والسبب في تجويز النظر اليها ان تسترها فيه حرج لان المرأة لا بد لها من مناولة الاشياء بيديها والحاجة الى كشف وجهها في الشهادة والمحاكمة والنكاح (المسئلة الثالثة) اتفقوا على تخصيص قوله ولا يبدين زينتهن الاماظهر منها بالحرائر دون الاماء والمعنى فيه ظاهر وهو ان الامة مال فلا بد من الاحتياط

من سائر الاحوال ويكتفى عنه بذكر الواو العاطفة للجملة على نظيرتها المقابلة لها المتناولة لمجمع الاحوال المغايرة لها عند تعددها وهذا معنى قولهم انها لاستقصاء الاحوال على سبيل الاجمال وهذا أمر مطرد في الخبر الموجب والمنفي فانك اذا قلت فلان جواد يعطي ولو كان فقيرا او بخيلا لايعطي ولو كان غنيا تريد بيان تحقق الاعطاء في الاول وعدم تحققه في الثاني في جميع الاحوال المفروضة والتقدير يعطي لو لم يكن فقيرا ولو كان فقيرا ولا يعطي لو لم يكن غنيا ولو كان غنيا فالجملة مع ما عطفت هي عليه في حيز النصب على الحالية من المستكن في الفعل الموجب أو المنفي أي يعطي أو لا يعطي كائنا على جميع الاحوال وتقدير الآية الكريمة يكاد زيتها يضيء لو مسته نار ولو لم تمسسه نار أي يضيء كائنا على كل حال من وجود الشرط وعدمه وقد حذفت الجملة الاولى حسبما هو المطرد في الباب لدلالة الثانية عليها دلالة واضحة (نور) خبر مبتدا ﴿ في ﴾ ظروف وقوله تعالى (على نور) متعلق

محذوف هو صفته لما مؤكدة لما افادة التنكير من الفخامة والجملة فذلكة للتمثيل وتصريح بما حصل منه وتمهيد لما يعقبه أي ذلك النور الذي عبر به عن القرآن ومثلت صفته العجيبة الشان بما فصل من صفة المشكاة

في بيعها وشرائها وذلك لا يمكن الا بالنظر اليها على الاستقصاء بخلاف الحرة أما قوله تعالى وليضربن بخمرهن على جيوبهن فالخمر واحده خمار وهي المقنع قال المفسرون ان نساء الجاهلية كن يشددن خمرهن من خلفهن وان جيوبهن كانت من قدام فكان يتكشف نحورهن وقلائدهن فامرن أن يضربن مقانعهن على الجيوب ليتغطى بذلك اعناقهن ونحورهن وما يحيط به من شعر وزينة من الحلي في الاذن والنحر وموضع العقدة منها وفي لفظ الضرب مبالغة في الالقاء والباء للالصاق وعن عائشة رضي الله عنها ما رأيت خيرا من نساء الانصار لما نزلت هذه الآية قامت كل واحدة منهن الى مرطها فصدعت منه صدعة فاختمرت فاصبحن على رؤسهن الغربان وقرئ جيوبهن بكسر الجيم لاجل الياء وكذلك بيوتا غير بيوتكم فاما قوله تعالى ولا يبدين زينتهن فاعلم انه سبحانه لما تكلم في مطلق الزينة تكلم بعد ذلك في الزينة الخفية التي نهاهن عن ابدائها للاجانب وبين ان هذه الزينة الخفية يجب اخفاؤها عن الكل ثم استثنى اثنتي عشرة صورة (أحدها) أزواجهن (وثانيها) آباؤهن وان علون من جهة الذكران والاناث كآباء الآباء وآباء الامهات (وثالثها) آباء أزواجهن (ورابعها وخامسها) أبناؤهن وأبناء بعولتهن ويدخل فيه أولاد الاولاد وان سفلوا من الذكران والاناث كبني البنين وبني البنات (وسادسها) اخوانهن سواء كانوا من الاب أو من الام أو منهما (وسابعها) بنو اخوانهن (وثامنها) بنو أخواتهن وهؤلاء كلهم محارم وههنا سؤالات (السؤال الاول) أفيحل لذوي المحرم في المملوكة والكافرة ما لا يحل له في المؤمنة (الجواب) اذا ملك المرأة وهي من محارمه فله أن ينظر منها الى بطنها وظهرها لا على وجه الشهوة بل لامر يرجع الى مزية الملك على اختلاف بين الناس في ذلك (السؤال الثاني) كيف القول في العم والخال (الجواب) القول الظاهر انهما كسائر المحارم في جواز النظر وهو قول الحسن البصري قال لان الآية لم يذكر فيها الرضاع وهو كالنسب وقال في سورة الاحزاب لا جناح عليهن في آبائهن الآية ولم يذكر فيها البعولة ولا ابناءهم وقد ذكروا ههنا وقد ذكرا بعض لينبه على الجملة قال الشعبي انما لم يذكرهما الله تعالى لانهما يصفانهما لابنهما والخال كذلك ومعناه ان سائر القرابات تشارك الاب والابن في المحرمية الا العم والخال وابناءهما فاذا رآها الاب فربما وصفها لابنه وليس بمحرم فيقرب تصورها بالوصف من نظره اليها وهذا أيضا من الدلالات البليغة على وجوب الاحتياط عليهن في التستر (السؤال الثالث) ما السبب في اباحة نظر هؤلاء الى زينة المرأة (الجواب) لانهم مخصوصون بالحاجة الى مداخلتهن ومخالطتهن وقلة توقع الفتنة بجهاتهن ولما في الطباع من النفرة عن مجالسة الغرائب وتحتاج المرأة الى صحبتهم في الاسفار للنزول والركوب (وتاسعها) قوله تعالى أو نسائهن وفيه قولان (أحدهما) المراد والنساء اللاتي هن على دينهن وهذا قول أكثر السلف قال ابن عباس رضي الله عنهما ليس للمسلمة أن تتجرد بين نساء أهل الذمة ولا تبدي للكافرة الا ما تبدي

نور عظيم كائن على نور كذلك لا على أنه عبارة عن نور واحد معين أو غير معين فوق نور آخر مثله ولا عن مجموع نورين اثنين فقط بل على نور متضاعف من غير تحديد لتضاعفه بحد معين وتحديد مراتب تضاعف ما مثل به من نور المشكاة بما ذكر لكونه أقصى مراتب تضاعفه عادة فان المصباح اذا كان في مكان متضايق كالمشكاة كان أضوأ له وأجمع لنوره بسبب انضمام الشعاع المنعكس منه الى أصل الشعاع بخلاف المكان المتسع فان الضوء ينبث فيه وينتشر والقنديل اعون شيء على زيادة الانارة وكذلك الزيت وصفاؤه وليس وراء هذه المراتب مما يزيد نورها اشراقا ويمده باضاءة مرتبة اخرى عادة هذا وجعل النور عبارة عن النور المشبه مما لا يليق بشان التنزيل الجليل (يهدي الله لنوره) أي يهدي هداية خاصة موصلة الى المطلوب حتما لذلك النور المتضاعف العظيم الشان واظهاره في مقام الاضمار لزيادة تقريره وتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الاضافية الناشئة

الهداية وملاكها ليس الا مشيئته تعالى وأن ظواهر الاسباب دونها بمعزل من الافضاء الى المطالب (ويضرب الله الامثال للناس) في تضاعيف الهداية حسبما يقتضي حالهم فان له دخلا عظيما في باب الارشاد لانه ابراز للمعقول في هيئة المحسوس وتصوير لاوابد المعاني بصور المأنوس ولذلك مثل نوره المعبر به عن القرآن المبين بنور المشكاة واظهار الاسم الجليل في مقام الاضمار للايذان باختلاف حال ما أسند اليه تعالى من الهداية الخاصة وضرب الامثال الذي هو من قبيل الهداية العامة كما يفصح عنه تعليق الاولى بمن يشاء والثانية بالناس كافة (والله بكل شيء عليم) معقولا كان أو محسوسا ظاهرا كان أو باطنا ومن قضيته أن تتعلق مشيئة هدايته من يليق بها ويستحضرها من الناس دون من عداهم لمخالفته الحكمة التي عليها مبنى التكوين والتشريع وان تكون ابصارهم فهومهم العامة على فنون مختلفة وطرائق شتى حسبما تقتضيه

الاجانب الا أن تكون أمة لها لقوله تعالى أو ما ملكت أيمانهن وكتب عمر الى أبي عبيدة أن ينهى نساء أهل الكتاب من دخول الحمام مع المؤمنات (وثانيهما) المراد بنسائهن جميع النساء وهذا هو المذهب وقول السلف محمول على الاستحباب والاولى (وعاشرها) قوله تعالى أو ما ملكت أيمانهن وظاهر الكلام يشمل العبيد والاماء واختلفوا فمنهم من أجرى الآية على ظاهرها وزعم انه لا بأس عليهن في أن يظهرن لعبيدهن من زينتهن ما يظهرن لذوي محارمهن وهو مروي عن عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما واحتجوا بهذه الآية وهو ظاهر وبما روى أنس انه عليه الصلاة والسلام أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها وعليها ثوب اذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها واذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بها قال انه ليس عليك بأس انما هو أبوك وغلامك وعن مجاهد كان أمهات المؤمنين لا يحتجبن عن مكاتبهن ما بقي عليه درهم وعن عائشة رضي الله عنها انها قالت لذكوان انك اذا وضعتني في القبر وخرجت فأنت حر وروى ان عائشة رضي الله عنها كانت تمتشط والعبد ينظر اليها وقال ابن مسعود ومجاهد والحسن وابن سيرين وسعيد بن المسيب رضي الله عنهم ان العبد لا ينظر الى شعر مولاته وهو قول أبي حنيفة رحمه الله واحتجوا عليه بأمور (أحدها) قوله عليه الصلاة والسلام لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفرا فوق ثلاث الا مع ذي محرم والعبد ليس بذي محرم منها فلا يجوز أن يسافر بها واذا لم يجز له السفر بها لم يجز له النظر الى شعرها كالحر الاجنبي (وثانيها) ان ملكها للعبد لا يحلل ما يحرم عليه قبل الملك اذ ملك النساء للرجال ليس كملك الرجال للنساء فانهم لم يختلفوا في انها لا تستبيح بملك العبد منه شيئا من التمتع كما يملكه الرجل من الامة (وثالثها) ان العبد وان لم يجز له أن يتزوج بمولاته الا أن ذلك التحريم عارض كمن عنده أربع نسوة فانه لا يجوز له التزوج بغيرهن فلما لم تكن هذه الحرمة مؤبدة كان العبد بمنزلة سائر الاجانب اذا ثبت هذا ظهر ان المراد من قوله أو ما ملكت أيمانهن الاماء فان قيل الاماء دخلن في قوله نسائهن فأي فائدة في الاعادة قلنا الظاهر انه عنى بنسائهن وما ملكت أيمانهن من في صحبتهن من الحرائر والاماء وبيانه انه سبحانه ذكر أولا أحوال الرجال بقوله ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن الى آخر ما ذكر فجاز أن يظن ظان ان الرجال مخصوصون بذلك اذ كانوا ذوي المحارم أو غير ذوات المحارم ثم عطف عليه ذكر الاماء بقوله أو ما ملكت أيمانهن لئلا يظن ان الاباحة مقصورة على الحرائر من النساء اذ كان ظاهر قوله أو نسائهن يقتضي الحرائر دون الاماء كقوله شهيدين من رجالكم على الاحرار لاضافتهم الينا كذلك قوله أو نسائهن على الحرائر ثم عطف عليهن الاماء فأباح لهن مثل ما أباح في الحرائر (وحادي عشرها) قوله تعالى أو التابعين غير أولي الاربة من الرجال وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قيل هم الذين يدخلون لينالوا من فضل طعامكم ولا حاجة بهم الى النساء لانهم لله لا يعرفون من أمرهن شيئا أو شيوخ صلحاء اذا كانوا معهن غضوا

أبصارهم ومعلوم ان الخصي والعنين من وشاكلهما قد لا يكون له اربة في نفس الجماع ويكون له أربة قوية فيما عداه من التمتع وذلك يمنع من أن يكون هو المراد فيجب أن يحمل المراد على من المعلوم منه انه لا اربة له في سائر وجوه التمتع اما لفقد الشهوة واما لفقد المعرفة واما لفقر والمسكنة فعلى هذه الوجوه الثلاثة اختلف العلماء فقال بعضهم هم الفقراء الذين بهم الفاقة وقال بعضهم المعتوه والابله والصبي وقال بعضهم الشيخ وسائر من لا شهوة له ولا يمتنع دخول الكل في ذلك وروى هشام بن عروة عن زينب بنت أم سلمة عن أم سلمة ان النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها وعندها مخنث فاقبل على اخي أم سلمة فقال يا عبد الله ان فتح الله لكم غدا الطائف دللتك على بنت غيلان فانها تقبل بأربع وتدبر بثمان فقال عليه الصلاة والسلام لا يدخلن عليكم هذا فأباح النبي عليه الصلاة والسلام دخول المخنث عليهن حتى ظن انه من غير أولي الاربة فلما علم انه يعرف أحوال النساء وأوصافهن علم انه من أولي الاربة فحجبه وفي الخصي والمجبوب ثلاثة أوجه (أحدها) استباحة الزينة الباطنة معهما (والثاني) تحريمها عليهما (والثالثة) تحريمها على الخصي دون المجبوب (المسئلة الثانية) الاربة الفعلة من الارب كالمشية والجلسة من المشي والجلوس والارب الحاجة والولوع بالشئ والشهوة له والاربة الحاجة في النساء والاربة العقل ومنه الاريب (المسئلة الثالثة) في غير قراءتان قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر غير بالنصب على الاستثناء أو الحال يعني أو التابعين عاجزين عنهن والقراءة الثانية بالخفض على الوصفية (وثاني عشرها) قوله تعالى أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الطفل اسم للواحد لكنه وضع ههنا موضع الجمع لانه يفيد الجنس ويبين ما بعده انه يراد به الجمع ونظيره قوله تعالى ثم نخرجكم طفلا (المسئلة الثانية) الظهور على الشئ على وجهين (الاول) العلم به كقوله تعالى انهم ان يظهروا عليكم يرجموكم أي ان يشعروا بكم (والثاني) الغلبة له والصولة عليه كقوله فأصبحوا ظاهرين فعلى الوجه الاول يكون المعنى أو الطفل الذين لم يتصوروا عورات النساء ولم يدروا ما هي من الصغر وهو قول ابن قتيبة وعلى الثاني الذين لم يبلغوا ان يضيقوا تيان النساء وهو قول الفراء والزجاج (المسئلة الثالثة) ان الصغير الذي لم يتنبه لصغره على عورات النساء فلا عورة للنساء معه وان تنبه لصغره ولم اهتمه لزم أن تستر عنه المرأة ما بين سرتها وركبتها وفي لزوم ستر ما سواه وجهان (أحدهما) لا يلزم لان القلم غير جار عليه (والثاني) يلزم كالرجل لانه يشتهى والمرأة قد تشتهيه وهو معنى قوله أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء واسم الطفل شامل له الى ان يحتلم واما الشيخ ان بقيت له شهوة فهو كالشاب وان لم يبق له شهوة ففيه وجهان (أحدهما) ان الزينة الباطنة معه مباحة والعورة معه ما بين السرة والركبة (الثاني) ان جميع البدن معه عورة الا الزينة الظاهرة وهينا آخر الصور التي استثناها الله تعالى قال الحسن هؤلاء وان اشتركوا

آلهتهم والجملة اعتراض تذييلي مقرر لما قبله واظهار الاسم الجليل لتأكيد استقلال الجملة والاشعار بعلة الحكم وبما ذكر من اختلاف حال المحكوم به ذاتا وتعلقا (بيوت) أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه الماذكر شان القرآن الكريم في بيانه للشرائع والاحكام ومباديها وغاياتها المترتبة عليها من الثواب والعقاب وغير ذلك من أحوال الآخرة وأهوالها وأشير الى كونه في غاية ما يكون من التوضيح والاظهار حيث مثل بما فصل من نور المشكاة وأشير الى أن ذلك النور مع كونه في أقصى مراتب الظهور انما يهتدي بهداه من تعلقت مشيئة الله تعالى بهدايته دون من عداه عقب ذلك بذكر الفريقين وتصوير بعض أعمالهم المعربة عن كيفية حالهم في الاهتداء وعدمه والمراد بالبيوت المساجد كلها حسبما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما وقيل هي المساجد التي بناها نبي من أنبياء الله تعالى الكعبة التي بناها ابراهيم واسمعيل عليهما السلام وبيت المقدس الذي بناه داود وسليمان عليهما السلام ومسجد المدينة ومسجد قبا اللذان بناهما رسول صلى الله عليه وسلم وتنكيرها للتفخيم والمراد بالاذن في رفعها الامر ببنائها رفيعة لا كسائر البيوت وقيل هو الامر برفع

مقدارها بعبادة الله تعالى فيهما فيكون عطف الذكر عليه من قبيل العطف التفسيري وأياما كان ففي التعبير عنه بالاذن تلويح بأن اللائق بحال المأمور أن يكون متوجها الى ﴿ ٣٨٢ ﴾ المأمور به وورود الامر به ناويا بالتحقيقه كأنه مستأذن

في ذلك فيقع الامر به موقع الاذن فيه والمراد بذكر اسمه تعالى مايعم جميع أذكاره تعالى وكلمة في متعلقة بقوله (يسبح له) وقوله تعالى (فيها) تكرير لها للتأكيد والتذكير لما بينهما من الفاصلة وللايذان بأن تقديم للاهتمام لالقصر التسبيح على الوقوع في البيوت فقط وأصل التسبيح التنزيه والتقديس يستعمل باللام وبدونها ايضا كما في قوله تعالى سبح اسم ربك الاعلى قالوا أريد به الصلوات المفروضة كما ينبئ عنه تعيين الاوقات بقوله تعالى (بالغدو والآصال) أي بالغدوات والعشايا على أن الغدو اما جمع غداة كقنى في جمع قناة كقاض أو مصدر أطلق على الوقت حسبما ينعرب به اقترانه بالآصال وهو جمع اصيل وهو العشي وهو شامل لاوقات ماعدا صلاة الفجر المؤداة بالغداة ويجوز أن يراد به نفس التنزيه على أنه عبارة عما يقع منه في اثناء الصلوات وأوقاتها الزيادة شرفه وانافته على سائر أفراده اوعما يقع في جميع الاوقات

في جواز رؤية الزينة الباطنة فهم على اقسام ثلاثة فأولهم الزوج وله حرمة ليست لغيره يحل له كل شئ منها والحرمة الثانية للابن والاب والاخ والجد وابي الزوج وكل ذي محرم والرضاع كالنسب يحل لهم ان ينظروا الى الشعر والصدر والساقين والذراع واشباه ذلك والحرمة الثالثة هي للتابعين غير اولي الاربة من الرجال وكذا مملوك المرأة فلا بأس أن تقوم المرأة الشابة بين يدي هؤلاء في درع وخمار صفيق بغير ملحفة ولا يحل لهؤلاء أن يروا منها شعرا ولا بشرا والستر في هذا كله أفضل ولا يحل للشابة أن تقوم بين يدي الغريب حتى تلبس الجلباب فهذا ضبط هؤلاء المراتب أما قوله تعالى ولا يضربن بارجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن فقال ابن عباس وقتادة كانت المرأة تمر بالناس وتضرب برجلها ليسمع قعقعة خلخالها ومعلوم ان الرجل الذي يغلب عليه شهوة النساء اذا سمع صوت الخلخال يصير ذلك داعية له زائدة في مشاهدتهن وقد علل تعالى ذلك بأن قال ليعلم ما يخفين من زينتهن فنبه به على ان الذي لاجله نهى عنه أن يعلم زينتهن من الحلي وغيره وفي الآية فوائد (الفائدة الاولى) لما نهى عن اسماع الصوت الدال على وجود الزينة فلا يدل على المنع من اظهار الزينة أولى (الثانية) ان المرأة منهية عن رفع صوتها بالكلام بحيث يسمع ذلك الاجانب اذ كان صوتها اقرب الى الفتنة من صوت خلخالها ولذلك كرهوا اذان النساء لانه يحتاج فيه الى رفع الصوت والمرأة منهية عن ذلك (الثالثة) تدل الآية على حظر النظر الى وجهها بشهوة اذ كان ذلك أقرب الى الفتنة أما قوله سبحانه وتعالى وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ففيه مسائل (المسئلة الاولى) في التوبة وجهان (أحدهما) ان تكاليف الله تعالى في كل باب لا يقدر العبد الضعيف على مراعاتها وان ضبط نفسه واجتهد ولا ينفك من تقصير يقع منه فلذلك وصى المؤمنين جميعا بالتوبة والاستغفار وتأميل الفلاح اذا تابوا واستغفروا (والثاني) قال ابن عباس رضي الله عنهما توبوا مما كنتم تفعلونه في الجاهلية لعلكم تسعدون في الدنيا والآخرة فان قيل قد صحت التوبة بالاسلام والاسلام يجب ما قبله فما معنى هذه التوبة قلنا قال بعض العلماء ان من أذنب ذنبا ثم تاب عنه لزمه كلما ذكره أن يجدد عنده التوبة لانه يلزمه أن يستمر على ندمه الى أن يلقى ربه (المسئلة الثانية) قرئ أيه المؤمنون بضم الهاء ووجهه انها كانت مفتوحة لوقوعها قبل الالف فلما سقطت الالف لالتقاء الساكنين اتبعت حركتها حركة ما قبلها والله أعلم (المسئلة الثالثة) تفسير لعل قد تقدم في سورة البقرة في قوله اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون والله أعلم (الحكم الثامن) ما يتعلق بالنكاح * قوله تعالى (وأنكحوا الايامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم) اعلم انه تعالى لما أمر من قبل بغض الابصار وحفظ الفروج بين من بعد ان الذي أمر به انما هو فيما لا يحل فبين تعالى بعد ذلك طريق الحل فقال وأنكحوا الايامى منكم وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الايامى والايامى

أصلهما ايايم يتايم فقلبا وقال النضر بن شميل الايم في كلام العرب كل ذكر لا أنثى معه وكل أنثى لا ذكر معها وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما في رواية الضحاك تقول زوجوا أياماكم بعضكم من بعض وقال الشاعر

فان تنكحي انكح وان تأيمي * وان كنت افتى منكموا أتأيم

(المسئلة الثانية) قوله تعالى وأنكحوا الايامى أمر وظاهر الامر للوجوب على ما بيناه مرارا فيدل على ان الولى يجب عليه تزويج موليته واذا ثبت هذا وجب أن لا يجوز النكاح الا بولى اما الان كل من أوجب ذلك على الولى حكم بانه لا يصح من المولية واما الان المولية لو فعلت ذلك لفونت على الولى التمكن من أداء هذا الواجب وانه غير جائز واما لتطابق هذه الآية مع الحديث وهو قوله عليه الصلاة والسلام اذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه الا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير قال أبو بكر الرازى هذه الآية وان اقتضت بظاهرها الايجاب الا انه أجمع السلف على انه لم يرد به الايجاب ويدل عليه أمور (أحدها) انه لو كان ذلك واجبا لورد النقل بفعله من النبي صلى الله عليه وسلم ومن السلف مستفيضا شائعا لعموم الحاجة اليه فلما وجدنا عصر النبي صلى الله عليه وسلم وسائر الاعصار بعده قد كان في الناس أيامى من الرجال والنساء فلم ينكروا عدم تزويجهن ثبت انه ما أريد به الايجاب (وثانيها) أجمعنا على ان الايم الثيب لو أبت التزوج لم يكن للولى اجبارها عليه (وثالثها) اتفاق الكل على انه لا يجبر على تزويج عبده وأمته وهو معطوف على الايامى فدل على انه غير واجب في الجميع بل ندب في الجميع (ورابعها) ان اسم الايامى ينتظم فيه الرجال والنساء وهو في الرجال ما اريد به الاولياء دون غيرهم كذلك في النساء (والجواب) ان جميع ما ذكرته تخصيصات تطرقت الى الآية والعام بعد التخصيص يبقى حجة فوجب أن يبقى حجة فيما اذا التمست المرأة الايم من الولى التزويج وجب وحينئذ ينتظم وجه الكلام (المسئلة الثالثة) قال الشافعي رحمه الله الآية تقتضى جواز تزويج البكر البالغة بدون رضاها لان الآية والحديث يدلان على أمر الولى بتزوجها ولولا قيام الدلالة على انه لا يزوج الثيب الكبيرة بغير رضاها لكان جائزا له تزويجها أيضا بغير رضاها عموم الآية قال أبو بكر الرازى قوله تعالى وأنكحوا الايامى لا يختص بالنساء دون الرجال على ما بينا فلما كان الاسم شاملا للرجال والنساء وقد ثبت في الرجال تزويجهم باذنهم وجب استعمال ذلك الضمير في النساء وأيضا فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم باستئمار البكر بقوله البكر تستأمر في نفسها واذنها صماتها وذلك أمر وان كان في صورة الخبر فثبت انه لا يجوز تزويجها الا باذنها (والجواب) اما الاول فهو تخصيص للنص وهو لا يقدح في كونه حجة والفرق ان الايم من الرجال يتولى أمر نفسه فلا يجب على الولى تعهد أمره بخلاف المرأة فان احتياجها الى من يصلح أمرها في التزويج أظهر وأيضا فلفظ الايامى لا يتناول الرجال والنساء فاذا أطلق لم يتناول الا النساء وانما يتناول الرجال اذا قيد

فيه المباشرة الاعمال والاشتغال بالاشغال وقرئ والايصال وهو الدخول في الاصيل وقوله تعالى (رجال) فاعل يسبح وتأخيره عن الظروف لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر ولان في وصفه نوع طول فيخل تقديمه بحسن الانتظام وقرئ يسبح على البناء للمفعول باسناده الى أحد الظروف ورجال مرفوع بما ينبئ عنه حكاية الفعل من غير تسمية الفاعل على طريقة قوله * ليبك يزيد ضارع لخصومة * كأنه قيل من يسبح له فقيل يسبح له رجال وقرئ تسبح بتأنيث الفعل مبنيا للفاعل لان جمع التكسير قد يعامل معاملة المؤنث ومبنيا للمفعول على أن يسند الى أوقات الغدو والآصال بزيادة الباء وتجعل الاوقات مسبحة مع كونها مسبحا فيها أو يسند الى ضمير التسبيحة أى تسبح له التسبيحة على المجاز المسوغ لاسناده الى

تبتهن كما خرجوا قراءة أبي جعفر ليجزى قوما أى ليجزى الجزاء قوما بل هذا أولى من ذلك اذ ليس ههنا مفعول صريح تلهيهم تجارة) صفة لرجال مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة مفيدة لكمال تبتلهم

(وأما الثانى) ففى تخصيص الآية بخبر الواحد كلام مشهور (المسئلة الرابعة) قال أبو حنيفة رحمه الله لهم والاخ بليان تزويج البنت الصغيرة ووجه الاستدلال بالآية كما تقدم (المسئلة الخامسة) قال الشافعى رحمه الله الناس فى النكاح قسمان منهم من تتوق نفسه فى النكاح فيستحب له أن ينكح ان وجد أهبة النكاح سواء كان مقبلا على العبادة اولم يكن كذلك ولكن لايجب أن ينكح وان لم يجد أهبة النكاح يكسر شهوته بالصوم لما روى عبدالله بن مسعود رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر واحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فان الصوم له وجاء أما الذى لاتتوق نفسه الى النكاح فان كان ذلك لعلة به من كبر أومرض أوعجز يكره له أن ينكح لانه يلتزم مالا يمكنه القيام بحقه وكذلك اذا كان لايقدر على النفقة وان لم يكن به عجز وكان قادرا على القيام بحقه لم يكره له النكاح لكن الافضل أن يتخلى لعبادة الله تعالى وقال أبو حنيفة رحمه الله النكاح أفضل من التخلى للعبادة وحجة الشافعى رحمه الله وجوه (أحدها) قوله تعالى وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين مدح يحيى عليه السلام بكونه حصورا والحصور الذى لايأتى النساء مع القدرة عليهن ولا يقال هو الذى لايأتى النساء مع العجز عنهن لان مدح الانسان بما يكون عيبا غير جائز واذا ثبت انه مدح فى حق يحيى وجب أن يكون مشروعا فى حقنا لقوله تعالى أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده ولايجوز حمل الهدى على الاصول لان التقليد فيها غير جائز فوجب حمله على الفروع (وثانيها) قوله عليه الصلاة والسلام استفيموا ولن تحصوا واعلموا ان أفضل أعمالكم الصلاة وتمسك أيضا بما روى عنه عليه الصلاة والسلام انه قال افضل أعمال أمتى قراءة القرآن (وثالثها) ان النكاح مباح لقوله عليه الصلاة والسلام أحب المباحات الى الله تعالى النكاح ويحمل الاحب على الاصلح فى الدنيا لئلا يقع التناقض بين كونه أحب وبين كونه مباحا والمباح ماستوى طرفاه فى الثواب والعقاب والمندوب ماترجح وجوده على عدمه فتكون العبادة أفضل (ورابعها) ان النكاح ليس بعبادة بدليل انه يصح من الكافر والعبادة لاتصح منه فوجب أن تكون العبادة أفضل منه لقوله تعالى وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون والاشتغال بالمقصود أولى (وخامسها) ان الله تعالى سوى بين التسرى والنكاح ثم التسرى مرجوح بالنسبة الى العبادة ومساوى المرجوح مرجوح فالنكاح مرجوح وانما قلنا انه سوى بين التسرى والنكاح لقوله تعالى فان خفتم أن لاتعدلوا فواحدة أوماملكت أيمانكم وذكر كلمة أو للتخيير بين الشيئين والتخيير بين الشيئين امارة التساوى كقول الطبيب للمريض كل الرمان أو التفاح واذا ثبت الاستواء فالتسرى مرجوح ومساوى المرجوح مرجوح فالنكاح يجب أن يكون مرجوحا (وسادسها) ان العائلة أشق فتكون أكثر ثوابا بيان انها أشق ان ميل الطباع الى النكاح أكثر ولولا ترغيب الشرع لما رغب أحد فى النوافل واذا ثبت انها أشق وجب ان تكون أكثر ثوابا لقوله عليه الصلاة والسلام أفضل العبادات أحمزها وقوله صلى الله عليه وسلم لعائشة أجرك على

الى الله تعالى واستغفارهم فيما حكى عنهم من التسبيح من غير صارف يلوبهم ولاعاطف يذبهم كائنا ما كان وتخصيص التجارة بالذكر لكونها أقوى الصوارف عندهم وأشهرها أى لايشغلهم نوع من أنواع التجارة (ولابيع) أى ولافرد من أفراد البياعات وان كان فى غاية الربح وافراده بالذكر مع اندراجه تحت التجارة للايذان بانافته على سائر انواعها لان ربحه متيقن ناجز وربح ماعداه متوقع فى ثانى الحال عند البيع فلم يلزم من نفى الهاء ما عداه نفى الهائه ولذلك كررت كلمة لاالتى هى تأكيده وقد نقل عن الواقدى ان المراد بالتجارة هو الشراء لانه أصلها وسببه وهو قيل هو الجلب لانه الغالب فيها ومنه يقال تجر فى كذا أى جلبه (عن ذكر الله) بالتسبيح والتحميد (واقام الصلاة) أى اقامتها المواقيتها من غير تأخير وقد أسقطت التاء

وعدوا * أى عدة الامر (وايتاء الزكاة) أى المال الذى فرض اخراجه للمستحقين وايراده ههنا وان لم يكن مما يفعل فى البيوت لكونه قرينة لاتفارق اقامة الصلاة فى عامة المواضع ماقيه من التنبيه على أن محاسن اعمالهم غير منحصرة فيما يقع فى المساجد وكذلك قوله تعالى (يخافون) الخ فانه صفة ثانية لرجال أوحال من مفعول لاتلهيهم وأياما كان فليس خوفهم مقصورا على كونهم فى المساجد وقوله تعالى (يوما) مفعول ليخافون لاظرف له وقوله تعالى (تتقلب فيه القلوب والابصار) صفة ليوما أى تضطرب وتتغير فى أنفسها من الهول والفزع وتشخص كما فى قوله تعالى واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر أو تتغير أحوالها وتتقلب فتتفرقه القلوب بعد أن كانت مطبوعا عليها وتبصر الابصار بعد أن كانت عمياء أو تتقلب القلوب بين توقع النجاة ﴿ ٤٩ ﴾ س وخوف الهلاك والابصار من أى ناحية يؤتى كتابهم (ليجزيهم الله) متعلق بمحذوف يدل عليه ماحكى من أعمالهم المرضية أى يفعلون ماذكر ليجزيهم الله

قد نصبك (وسابعها) لوكان النكاح مساويا للنوافل فى الثواب مع ان النوافل أشق منه لما كانت النوافل مشروعة لانه اذا حصل طريقان الى تحصيل المقصود وكانا فى الافضاء الى المقصود سيين وكان أحدهما شاقا والآخر سهلا فان العقلاء يستقبحون تحصيل ذلك المقصود بالطريق الشاق مع الممكنة من الطريق السهل ولما كانت النوافل مشروعة علمنا أنها أفضل (وثامنها) لوكان الاشتغال بالنكاح أولى من النافلة لكان الاشتغال بالحراثة والزراعة أولى من النافلة بالقياس على النكاح والجامع كون كل واحد منهما سببا لبقاء هذا العالم ومحصلا لنظامه (وتاسعها) أجمعنا على انه يقدم واجب العبادة على واجب النكاح فيقدم مندوبها على مندوبه لاتحاد السبب (وعاشرها) ان النكاح اشتغال بتحصيل اللذات الجسمية الداعية الى الدنيا والنافلة قطع العلائق الجسمانية واقبال على الله تعالى فاين أحدهما من الآخر ولذلك قال عليه الصلاة والسلام حبب الى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة فرجح الصلاة على النكاح حجة أبى حنيفة رحمه الله تعالى من وجوه (الاول) ان النكاح يتضمن صون النفس عن الزنا فيكون ذلك دفعا للضرر عن النفس والنافلة جلب النفع ودفع الضرر أولى من جلب النفع (الثانى) ان النكاح يتضمن العدل والعدل أفضل من العبادة لقوله عليه الصلاة والسلام لعدل ساعة خير من عبادة ستين سنة (الثالث) النكاح سنة مؤكدة لقوله عليه الصلاة والسلام من رغب عن سنتى فليس منى وقال فى الصلاة وانها خير موضوع فمن شاء فليستكثر ومن شاء فليستقل فوجب أن يكون النكاح أفضل (المسئلة السادسة) قوله تعالى وأنكحوا الايامى وان كانت تتناول جمع الايامى بحسب الظاهر لكنهم اجمعوا على انه لابد فيها من شروط وقد تقدم شرحها فى قوله وأحل لكم ماوراء ذلكم أما قوله تعالى منكم فقد حمله كثير من المفسرين على ان المراد هم الاحرار لينفصل الحر من العبد وقال بعضهم بل المراد بذلك من يكون تحت ولاية المأمور من الولد أو القريب ومنهم من قال الاضافة تفيد الحرية والاسلام أما قوله تعالى والصالحين من عبادكم وامائكم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ظاهره انه أيضا أمر للسادة بتزويج هذين الفريقين اذا كانوا صالحين وانه لافرق بين هذا الامر وبين الامر بتزويج الايامى فى باب الوجوب لكنهم اتفقوا على انه اباحة أو ترغيب فاما أن يكون واجبا فلا وفرقوا بينه وبين تزويج الايامى بأن فى تزويج العبد التزام مؤنة وتعطيل خدمة وذلك ليس بواجب على السيد وفى تزويج الامة استفادة مهر وسقوط نفقة وليس ذلك بلازم على المولى (المسئلة الثانية) انما خص الصالحين بالذكر لوجوه (الاول) ليحصن دينهم ويحفظ عليهم صلاحهم (الثانى) لان الصالحين من الارقاء هم الذين مواليهم يشفقون عليهم يتزلونهم منزلة الاولاد فى المودة فكانوا مظنة للوصية بشأنهم والاهتمام بهم وتقبل الوصية فيهم وأما المفسدون منهم فحالهم عند مواليهم على عكس ذلك (الثالث) أن يكون المراد الصلاح لامر النكاح حتى

يقوم العبد بما يلزم لها وتقوم الامة بما يلزم للزوج (الرابع) أن يكون المراد الصلاح فى نفس النكاح بأن لا تكون صغيرة فلا تحتاج الى النكاح (المسئلة الثالثة) ظاهر الآية يدل على ان العبد لا يتزوج بنفسه وانما يجوز أن يتولى المولى تزويجه لكن ثبت بالدليل انه اذا أمره بأن يتزوج جاز ان يتولى تزويج نفسه فيكون توليه باذنه بمنزلة أن يتولى ذلك نفس السيد فأما الاماء فلا شبهة فى ان المولى يتولى تزويجهن خصوصا على قول من لا يجوز النكاح الا بولى أما قوله تعالى ان يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله ففيه مسئلتان (الاولى) الاصح ان هذا ليس وعدا من الله تعالى باغناء من يتزوج بل المعنى لا تنظروا الى فقر من يخطب اليكم أو فقر من تريدون تزويجها فى فضل الله ما يغنيهم والمال غاد ورائح وليس فى الفقر ما يمنع من الرغبة فى النكاح فهذا معنى صحيح وليس فيه ان الكلام قصد به وعد الغنى حتى لا يجوز أن يقع فيه خلف وروى عن قدماء الصحابة ما يدل على انهم رأوا ذلك وعدا عن أبى بكر قال أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح ينجز لكم ما وعدكم من الغنى وعن عمر وابن عباس مثله قال ابن عباس التمسوا الرزق بالنكاح وشكا رجل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحاجة فقال عليك بالباءة وقال طلحة بن مطرف تزوجوا فانه أوسع لكم فى رزقكم وأوسع لكم فى أخلاقكم ويزيد الله فى مروءتكم فان قيل فنحن نرى من كان غنيا فيتزوج فيصير فقيرا قلنا الجواب عنه من وجوه (أحدها) ان هذا الوعد مشروط بالمشيئة كما فى قوله تعالى وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم والمطلق محمول على المقيد (وثانيها) ان اللفظ وان كان عاما الا أنه يكون خاصا فى بعض المذكورين دون البعض وهو فى الايامى الاحرار الذين يملكون فيستغنون بما يملكون (وثالثها) أن يكون المراد الغنى بالعفاف فيكون المعنى وقوع الغنى بملك البضع والاستغناء به عن الوقوع فى الزنا (المسئلة الثانية) من الناس من استدل بهذه الآية على ان العبد والامة يملكان لان ذلك راجع الى كل من تقدم فتقتضى الآية بيان ان العبد قد يكون فقيرا وقد يكون غنيا فان دل ذلك على الملك ثبت انهما يملكان ولكن المفسرون تأولوه على الاحرار خاصة فكأنهم قالوا هو راجع الى الايامى أما اذا فسرنا الغنى بالعفاف فالاستدلال به على ذلك ساقط أما قوله والله واسع عليم فالمعنى انه سبحانه فى الافضال لا ينتهى الى حد تنقطع قدرته على الافضال دونه لانه قادر على المقدورات التى لا نهاية لها وهو مع ذلك عليم بمقادير ما يصلحهم من الافضال والرزق

*قوله (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله) اعلم انه سبحانه لما ذكر تزويج الحرائر والاماء ذكر حال من يعجز عن ذلك فقال وليستعفف أى وليجتهد فى العفة كأن المستعفف طالب من نفسه العفاف وحاملها عليه و أما قوله لا يجدون نكاحا فالمعنى لا يتمكنون من الوصول اليه يقال لا يجد المرء الشئ اذا لم يتمكن منه قال الله تعالى فمن لم يجد فصيام شهرين والمراد به بالاجماع من لم يتمكن ويقال فى أحدنا هو غير

حسبما وعدلهم بمقابلة حسنة واحدة عشر أمثالها الى سبعمائة ضعف (ويزيدهم من فضله) أى يتفضل عليهم باشياء لم توعدلهم بخصوصياتها أو بمقادير هاولم تخطر ببالهم كيفياتها ولا كمياتها بل انما وعدت بطريق الاجمال فى مثل قوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة وقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عنه عز وجل أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وغير ذلك من المواعيد الكريمة التى من جملتها قوله تعالى (والله يرزق من يشاء بغير حساب) فانه تذييل مقرر للزيادة ووعد كريم بأنه تعالى يعطيهم غير أجزية أعمالهم من الخيرات ما لا يفى به الحساب وأما عدم سبق الوعد بالزيادة ولو اجمالا وعدم خطورها ببالهم ولو بوجه ما فيأباه نظمها فى سلك الغاية والموصول عبارة عمن ذكرت صفاتهم الجميلة كأنه قيل والله يرزقهم بغير حساب ووضعه موضع ضميرهم للتنبيه بما فى حيز الصلة ﴿ واجد ﴾ على أن مناط الرزق المذكور محض مشيئته تعالى لا أعمالهم المحكمة كما أنها المناط لما سبق من الهداية لنوره تعالى لا لتظاهر

الاسباب والايدان بانهم ممن شاء الله تعالى أن يرزقهم كما انهم ممن شاء الله تعالى أن يهديهم لنوره حسبما يعرب عنه ما فصل من أعمالهم الحسنة فان جميع ما ذكر من الذكر والتسبيح واقام الصلاة وايتاء الزكاة وخوف اليوم الآخر وأهواله ورجاء الثواب مقتبس من القرآن العظيم الذى هو المعنى بالنور وبه يتم بيان أحوال من اهتدى بهداه على أوضح وجه وأجلاه هذا وقد قيل قوله تعالى فى بيوت الخ من تمة التمثيل وكلمة فى متعلقة بمحذوف هى صفة لمشكاة أى كائنة فى بيوت وقيل المصباح وقيل لزجاجة وقيل متعلقة بيوقد والكل مما لا يليق بشان التنزيل الجليل كيف لا وان ما بعد قوله تعالى ولو لم تمسسه نار على ما هو الحق أو ما بعد قوله تعالى نور على نور على ما قيل الى قوله تعالى بكل شئ عليم كلام متعلق بالمثل قطعا فتوسيطه بين أجزاء التمثيل مع كونه من قبيل الفصل بين الشجر ولحائه بالاجنبى يؤدى الى كون ذكر حال المنتفعين بالتمثيل المهديين بنور القرآن الكريم بطريق الاستتباع والاستطراد مع كون

واجدا للماء وان كان موجودا اذا لم يمكنه أن يشتريه ويجوز أن يراد بالنكاح ما يتكلح به من المال فبين سبحانه تعالى ان من لا يتمكن من ذلك فليطلب التعفف وليتنظر ان يغنيه الله من فضله ثم يصل الى بغيته من النكاح فان قيل أظليس ملك اليمين يقوم مقام نفس النكاح قلنا لكن من لم يجد المهر والنفقة فبأن لا يجد ثمن الجارية أولى والله أعلم (الحكم التاسع) فى الكتابة * قوله تعالى (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت ايمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) اعلم انه تعالى لما بعث السيد على تزويج الصالحين من العبيد والاماء مع الرق رغبهم فى أن يكاتبوهم اذا طلبوا ذلك ليصيروا أحرارا فيتصرفوا فى أنفسهم كالاحرار فقال والذين يبتغون الكتاب وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قوله والذين يبتغون مرفوع على الابتداء أو منصوب بفعل مضمر يفسره فكاتبوهم كقولك زيدا فاضرب به ودخلت الفاء لتضمن معنى الشرط (المسئلة الثانية) الكتاب والكتابة كالعتاب والعتابة وفى اشتقاق لفظ الكتابة وجوه (أحدها) ان أصل الكلمة من الكتب وهو الضم والجمع ومنه الكتيبة سميت بذلك لانها تضم النجوم بعضها الى بعض وتضم ماله الى ماله (وثانيها) يحتمل أن يكون اللفظ مأخوذا من الكتاب ومعناه كتبت ذلك على نفسى ان تعتق منى اذا وفيت بالمال وكتبت لى على نفسك أن تفى لى بذلك أو كتبت لى كتابا عليك بالوفاء بالمال وكتبت على العتق وهذا ما ذكره الازهرى (وثالثها) انما سمى بذلك لما يقع فيه من التأجيل بالمال المعقود عليه لانه لا يجوز أن يقع على مال هو فى يد العبد حين يكاتب لان ذلك مال لسيده اكتسبه فى حال ما كانت يد السيد غير مقبوضة عن كسبه فلا يجوز لهذا المعنى أن يقع هذا العقد حالا ولكنه يقع مؤجلا ليكون متمكنا من الاكتساب وغيره حين ما انقبضت يد السيد عنه ثم من آداب الشريعة أن يكتب على من عليه المال المؤجل كتاب فسمى لهذا المعنى هذا العقد كتابا لما يقع فيه من الاجل قال تعالى لكل أجل كتاب (المسئلة الثالثة) قال محيى السنة الكتابة أن يقول لمملوكه كاتبتك على كذا ويسمى مالا معلوما يؤديه فى نجمين أو اكثر ويبين عدد النجوم وما يؤدى فى كل نجم ويقول اذا أديت ذلك المال فانت حر أو ينوى ذلك بقلبه ويقول العبد قبلت وفى هذا الضبط ابحاث (البحث الاول) قال الشافعى رحمه الله ان لم يقل بلسانه أو لم ينو بقلبه اذا أديت ذلك المال فأنت حر لم يعتق وقال أبو حنيفة ومالك وأبو يوسف ومحمد وزفر رحمهم الله لا حاجة الى ذلك حجة أبى حنيفة رحمه الله أن قوله تعالى فكاتبوهم خال عن هذا الشرط فوجب أن تصح الكتابة بدون هذا الشرط واذا صحت الكتابة وجب أن يعتق بالاداء للاجماع حجة الشافعى رحمه الله أن الكتابة ليست عقد معاوضة محضة لان ما فى يد العبد فهو ملك السيد والانسان لا يمكنه بيع ملكه بملكه بل قوله كاتبتك كتابة فى العتق فلا بد فيه من لفظ العتق أو نيته (البحث الثانى) لا تجوز الكتابة الحالة عند الشافعى وتجوز عند أبى حنيفة وجه قول الشافعى رحمه الله أن العبد

ان حال أضدادهم مقصودا بالذات ومثل هذا مما لا عهد به فى كلام الناس فضلا أن يحمل عليه الكلام المعجز

(والذين كفروا) عطفه على ماينساق اليه ماقبله كأنه قيل الذين آمنوا أعمالهم حالا وما لا كما وصف والذين كفروا (أعمالهم) اى أعمالهم التى هى من أبواب

الحاج وعمارة البيت واغاثة الملهوفين وقرى الاضياف ونحو ذلك مما لو قارنه الايمان لاستتبع الثواب كما فى قوله تعالى مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد الآية (كسراب) وهو مايرى فى الفلوات من لمعان الشمس عليها وقت الظهيرة فيظن أنه ماء يسرب أى يجرى (بقيعة) متعلق بمحذوف هو صفة لسراب أى كائن فى قاع وهى الارض المنبسطة المستوية وقيل هى جمع قاع كجيرة جمع جار وقرئ بقيعات بتاء مجرودة كديمات اما على أنها جمع قيعة أو على أن الاصل قيعة قد أشبعت فتحة العين فولد منها ألف (يحسبه الظمآن ماء) صفة أخرى لسراب وتخصيص الحساب بالظمآن مع شموله لكل من يراه كائنا من كان من العطشان والريان لتكميل التشبيه بتحقيق شركة طرفيه فى وجه الشبه الذى هو المطلع المطمع والمقطع المؤنس (حتى اذا جاءه) أى اذا جاء العطشان ماحسبه ماء وقيل موضعة (لم يجده) (الكتابة

لا يتصور له ملك يؤديه فى الحال واذا عقد حالا توجهت المطالبة عليه فى الحال فاذا عجز عن الاداء لم يحصل مقصود العقد كما لو اسلم فى شئ لا يوجد عند المحل لا يصح بخلاف مالو أسلم الى معسر فانه يجوز لانه حين العقد يتصور أن يكون له ملك فى الباطن فالعجز لا يتحقق عن أدائه وجه قول أبى حنيفة رحمه الله أن قوله تعالى فكاتبوهم مطلق يتناول الكتابة الحالة والمؤجلة وأيضا لما كان مال الكتابة بدلا عن الرقبة كان بمنزلة أثمان السلع المبيعة فيجوز عاجلا وآجلا وأيضا أجمعوا على جواز العتق معلقا على مال حال فوجب أن تكون الكتابة مثله لانه بدل عن العتق فى الحالين الا ان فى أحدهما العتق معلق على شرط الاداء وفى الآخر معجل فوجب أن لا يختلف حكمهما (المبحث الثالث) قال الشافعى رحمه الله تعالى لا تجوز الكتابة على أقل من نجمين يروى ذلك عن على وعثمان وابن عمر روى ان عثمان رضى الله عنه غضب على عبده فقال لاضيقن الامر عليك ولاكاتبنك على نجمين ولو جاز على أقل من ذلك لكاتبه على الاقل لان التضييق فيه أشد وانما شرطنا التنجيم لانه عقد ارفاق ومن شرط الارفاق التنجيم ليتيسر عليهم الاداء وقال أبو حنيفة رحمه الله تجوز الكتابة على نجم واحد لان ظاهر قوله فكاتبوهم ليس فيه تقييد (المسئلة الرابعة) تجوز كتابة المملوك عبدا كان أو أمة و يشترط عند الشافعى رحمه الله أن يكون عاقلا بالغا فاذا كان صبيا أو مجنونا لا تصح كتابته لان الله تعالى قال والذين يبتغون الكتاب ولا يتصور الابتغاء من الصبى والمجنون وعند أبى حنيفة رحمه الله تجوز كتابة الصبى و يقبل عنه المولى (المسئلة الخامسة) يشترط أن يكون المولى مكلفا مطلقا فان كان صبيا أو مجنونا أو محجورا عليه بالسفه لا تصح كتابته كما لا يصح بيعه ولان قوله فكاتبوهم خطاب فلا يتناول غير العاقل وعند أبى حنيفة رحمه الله تصح كتابة الصبى باذن الولى (المسئلة السادسة) اختلف العلماء فى ان قوله فكاتبوهم أمر ايجاب أو أمر استحباب فقال قائلون هو أمر ايجاب فيجب على الرجل ان يكاتب مملوكه اذا سأله ذلك بقيمته أو أكثر اذا علم فيه خيرا ولو كان بدون قيمته لم يلزمه وهذا قول عمرو بن دينار وعطاء واليه ذهب داود بن على و محمد ابن جرير واحتجوا عليه بالآية والاثر أما الآية فظاهر قوله تعالى فكاتبوهم لانه أمر وهو الايجاب و يدل عليه أيضا سبب نزول الآية فانها نزلت فى غلام لحويطب بن عبد العزى يقال له صبيح سأل مولاه أن يكاتبه فأبى عليه فنزلت الآية فكاتبه على مائة دينار و وهب له منها عشرين دينارا وأما الاثر فما روى أن عمر أمر أنسا ان يكاتب سيرين أبا محمد ابن سيرين فأبى فرفع عليه الدرة وضربه وقال فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وحلف عليه ليكاتبنه ولو لم يكن ذلك واجبا لكان ضربه بالدرة ظلما وما أنكر على عمر أحد من الصحابة فجرى ذلك مجرى الاجماع وقال أكثر الفقهاء انه أمر استحباب وهو ظاهر قول ابن عباس والحسن والشعبى واليه ذهب مالك وأبو حنيفة والشافعى والثورى واحتجوا عليه بقوله عليه الصلاة والسلام لا يحل مال امرئ مسلم الا بطيب من نفسه وانه لا فرق أن يطلب

الكتابة أو يطلب عتقه ممن يتعقه فى الكفارة فكما لا يجب ذلك فكذا الكتابة وهذه طريقة المعاوضات أجمع وههنا سؤالان (السؤال الاول) كيف يصح أن يبيع ماله قلنا اذا ورد الشرع به فيجب أن يجوز كما اذا علق عتقه على مال يكتسبه فيؤديه أو يؤدى عنه صار سببا لعتقه (السؤال الثانى) هل يستفيد العبد بعقد الكتابة مالا يملكه لولا الكتابة قلنا نعم لانه لو دفع اليه الزكاة ولم يكاتب لم يحل له أن يأخذها واذا صار مكاتبا حل له واذا دفع الى مولاه حل له سواء أدى فعتق أو عجز فعاد الى الرق و يستفيد أيضا ان الكتابة تبعثه على الجد والاجتهاد فى الكسب فلولاها لم يكن ليفعل ذلك و يستفيد المولى الثواب لانه اذا باعه فلا ثواب واذا كاتبه ففيه ثواب و يستفيد أيضا الولاء لانه لو عتق من قبل غيره لم يكن له ولاء واذا عتق بالكتابة فالولاء له فورد الشرع بجواز الكتابة لما ذكرناه من الفوائد أما قوله تعالى ان علمتم فيهم خيرا فذكروا فى الخير وجوها (أحدها) ماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم ان علمتم لهم حرفة فلا تدعوهم كلا على الناس (وثانيا) قال عطاء الخير المال وتلا كتب عليكم اذا حضر أحدكم الموت ان ترك خيرا أى ترك مالا قال و يلغى ذلك عن ابن عباس (وثالثها) عن ابن سيرين قال اذا صلى وقال النخعى وفاء وصدقا وقال الحسن صلاحا فى الدين (ورابعها) قال الشافعى رحمه الله المراد بالخير الامانة والقوة على الكسب لان المقصود من الكتابة فلما يحصل الا بهما فانه ينبغى أن يكون كسوبا يحصل المال و يكون أمينا يصرفه فى نجومه ولا يضيعه فاذا فقد الشرطان أو احدهما لا يستحب أن يكاتبه والاقرب انه لا يجوز حمله على المال لوجهين (الاول) أن المفهوم من كلام الناس اذا قالوا فلان فيه خيرا فما يريدون به الصلاح فى الدين واو أراد المال لقال ان علمتم لهم خيرا لانه انما يقال لفلان له مال ولا يقال فيه مال (الثانى) أن العبد لا مال له بل المال لسيده فالاولى أن يحمل على ما يعود على كتابته بالتمام وهو الذى ذكره الشافعى رحمه الله وهو أن يتمكن من الكسب و يوثق به بحفظ ذلك لان كل ذلك مما يعود على كتابته بالتمام ودخل فيه تفسير النبى صلى الله عليه وسلم الخير لانه عليه الصلاة والسلام فسره بالكسب وهو داخل فى تفسير الشافعى رحمه الله أما قوله وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اختلفوا فى المخاطب بقوله وآتوهم على وجوه (أحدها) انه هو المولى يحط عنه جزأ من مال الكتابة أو يدفع اليه جزأ مما أخذ منه وهؤلاء اختلفوا فى قدره فمنهم من جعل الخيار له قال يجب أن يحط قدرا يقع به الاستغناء وذلك يختلف بكثرة المال وقلته ومنهم من قال يحط ربع المال روى عطاء بن السائب عن أبى عبد الرحمن انه كاتب غلاما له فترك له ربع مكاتبته وقال ان عليا كان يأمرنا بذلك و يقول هو قول الله تعالى وآتوهم من مال الله الذى آتاكم فان لم يفعل فالسبع لما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما انه كاتب عبدا له بخمس وثلاثين ألفا ووضع عنه خمسة آلاف و يروى ان عمر كاتب عبدا له فجاء بنجمه فقال له اذهب فاستعن به على أداء مال الكتابة فقال المكاتب لو تركته الى آخر نجم

ماء وبيان أحوال الكفرة بطريق التمثيل وقوله تعالى (ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب) بيان لبقية أحوالهم العارضة لهم بعد ذلك بطريق التكملة لئلا يتوهم أن قصارى أمرهم هو الخيبة والقنوط فقط كما هو شان الظمآن و يظهر أنه يعتريهم بعد ذلك من سوء الحال مالا قدر عنده للخيبة أصلا فليست الجملة معطوفة على لم يجده شيئا بل على ما يفهم منه بطريق التمثيل من عدم وجدان الكفرة من أعمالهم المذكورة عينا ولا اثرا كما فى قوله تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا كيف لا وان الحكم بأن أعمال الكفرة كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا حكم بانها بحيث يحسبونها فى الدنيا نافعة لهم فى الآخرة حتى اذا جاؤها لم يجدوها شيئا كأنه قيل حتى اذا جاء الكفرة يوم القيامة أعمالهم التى أنوا فى الدنيا يحسبونها نافعة لهم فى الآخرة لم يجدوها شيئا ووجدوا الله أى حكمه وقضاءه عند المجئ وقيل عند العمل فوفاهم أى أعطاهم وافيا كاملا

فقال انى آخاف ان لا ادرك ذلك ثم قرأ هذه الآية وكان ابن عمر يوخره الى آخر النجوم مخافة أن يعجز (وثانيها) المراد وآتوهم سهمهم الذى جعله الله لهم من الصدقات فى قوله وفى الرقاب وعلى هذا فالخطاب لغير السادة وهو قول الحسن والنخعى و رواية عطاء عن ابن عباس وأجمعوا على انه لا يجوز للسيد أن يدفع صدقته المفروضة الى مكاتب نفسه (وثالثها) ان هذا أمر من الله تعالى للسادة والناس أن يعينوا المكاتب على كتابته بما يمكنهم وهذا قول الكلبى وعكرمة والمقاتلين والنخعى وقال عليه الصلاة والسلام من أعان مكاتبا على فك رقبته أظله الله تعالى فى ظل عرشه وروى أن رجلا قال للنبى صلى الله عليه وسلم علمنى عملا يدخلنى الجنة قال لان كنت أقصرت الخطبة لقد أعظمت المسئلة اعتق النسمة وفك الرقبة فقال ليسا واحدا فقال لا عتق النسمة أن تنفرد بعتقها وفك الرقبة أن تعين فى ثمنها قالوا ويؤكد هذا القول وجوه (أحدها) أنه أمر باعطائه من مال الله تعالى وما أطلق عليه هذه الاضافة فهو ما كان سببه الصدقة وصرفه فى وجوه القرب (وثانيها) أن قوله من مال الله الذى آتاكم هو الذى قد صح ملكه للمالك وأمر باخراج بعضه ومال الكتابة ليس بدين صحيح لانه على عبده والمولى لا يثبت له على عبده دين صحيح (وثالثها) أن ما آتاه الله فهو الذى يحصل فى يده و يمكنه التصرف فيه وما سقط عقيب العقد لم يحصل له عليه يد ملك فلا يستحق الصفة بانه من مال الله الذى آتاه فان قيل ههنا وجهان يفسدان صحة هذا التأويل (أحدهما) انه كيف يحل لمولاه اذا كان غنيا أن يأخذ من مال الصدقة (والثانى) ان قوله وآتوهم معطوف على قوله فكاتبوهم فيجب أن يكون المخاطب فى الموضعين واحدا وعلى هذا التأويل يكون المخاطب فى الآية الاولى السادات وفى الثانية سائر المسلمين قلنا أما الاول فجوابه أن تلك الصدقة تحل لمولاه وكذلك اذا لم تف الصدقة بجميع النجوم وعجز عن اداء الباقى كان للمولى ما أخذه لانه لم يأخذه بسبب الصدقة ولكن بسبب عقد الكتابة كمن اشترى الصدقة من الفقير أو ورثها منه يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام فى حديث بريرة هو لها صدقة ولنا هدية (والجواب) عن الثانى انه قد يصح الخطاب لقوم ثم يعطف عليه بمثل لفظه خطابا لغيرهم كقوله تعالى واذا طلقتم النساء فالخطاب للازواج ثم خاطب الاولياء بقوله فلا تعضلوهن وقوله مبرأون مما يقولون والقائلون غير المبرئين فكذا ههنا قال للسادة فكاتبوهم وقال لغيرهم وآتوهم أو قال لهم ولغيرهم (المسئلة الثانية) قال الشافعى رحمه الله يجب على المولى ابتداء المكاتب وهو أن يحط عنه جزأ من مال الكتابة أو يدفع اليه جزأ مما أخذ منه وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابه انه مندوب اليه لكنه غير واجب حجة الشافعى رحمه الله ظاهر قوله وآتوهم من مال الله الذى آتاكم والامر للوجوب فقيل عليه ان قوله فكاتبوهم وقوله آتوهم أمران وردا فى صورة واحدة فلم جعلت الاول ندبا والثانى ايجابا وأيضا فقد ثبت أن قوله وآتوهم ليس خطابا مع الموالى بل مع عامة المسلمين حجة أبى حنيفة رحمه الله من حيث

على كفر موجب للعقاب قطعا وافراد الضميرين الراجعين الى الذين كفروا اما لارادة الجنس كالظمآن الواقع فى التمثيل واما للحمل على كل واحد منهم وكذا افراد ما يرجع الى أعمالهم هذا وقد قيل نزلت فى عتبة بن ربيعة بن امية كان قد تعبد فى الجاهلية ولبس المسوح والقس الدين فلما جاء الاسلام كفر (او كظلمات) عطف على كسراب وكلمة أو للتنويع اثر ما مثلت أعمالهم التى كانوا يعتمدون عليها أقوى اعتماد ويفتخرون بها فى كل واد ونادبما ذكر من حال السراب مع زيادة حساب وعقاب مثلت أعمالهم القبيحة التى ليس فيها شائبة خيرية يغتر بها المغترون بظلمات كائنة (فى بحر لجى) أى عميق كثير الماء منسوب الى اللج وهو معظم ماء البحر وقيل الى اللجة وهى أيضا معظمه (يغشاه) صفة أخرى للبحر أى يستره ويغطيه بالكلية (موج)

وقوله تعالى (من فوقه موج) جملة من مبتدأ وخبر محله الرفع على أنها صفة لموج أو الصفة هى الجار والمجرور (المسئلة الثانية) وموج الثانى فاعل له لاعتماده على الموصوف والكلام فيه كما مر فى قوله تعالى نور على نور

أي يغشاه أمواج متراكمة متراكبة بعضها على بعض وقوله تعالى (من فوقه سحاب) صفة لموج الثاني على أحد الوجهين المذكورين أي من فوق ذلك الموج سحاب ظلماني ستر أضواء النجوم وفيه إيماء الى غاية تراكم الامواج وتضاعفها حتى كأنها بلغت السحاب (ظلمات) خبر مبتدا محذوف أي هي ظلمات (بعضها فوق بعض) أي متكاثفة متراكمة وهذا بيان لكمال شدة الظلمات كأن قوله تعالى نور على نور بيان لغاية قوة النور خلا أن ذلك متعلق بالمشبه وهذا بالمشبه به كما يعرب عنه مابعده وقرئ بالجر على الابدال من الاولى وقرئ باضافة السحاب اليها (اذا أخرج) أي من ابتلى بها واضماره من غير ذكره لدلالة المعنى عليه دلالة واضحة (يده) وجعلها بمرأى منه قريبة من عينه لينظر اليها (لم يكد يراها) وهي أقرب شيء منه فضلا عن أن يراها (ومن لم يجعل الله له نورا) الخ اعتراض تذييلي جيء به لتقرير ما أفاده التمثيل من كون أعمال الكفرة كما فصل

السنة والقياس أما السنة فلما روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده انه عليه الصلاة والسلام قال ايما عبد كاتب على مائة أوقية فاداها الا عشر اواق فهو عبد فلو كان الحط واجبا السقط عنه بقدره وعن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت جاءتني بريرة فقالت يا عائشة اني قد كاتبت أهلي على تسع أواق في كل عام أوقية فاعينيني ولم تكن قضت من كتابتها شيئا فقالت عائشة رضي الله عنها ارجعي الى أهلك فان أحبوا ان أعطيهم ذلك جميعا و يكون ولاؤك لي فعلت فابوا فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال لا يمنعك ذلك منها ابتاعي وأعتقي فانما الولاء لمن أعتق وجه الاستدلال انها ماقضت من كتابتها شيئا وأرادت عائشة أن تؤدي عنها كتابتها بالكلية وذكرته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وترك رسول الله النكير عليها ولم يقل انها تستحق أن يحط عنها بعض كتابتها فثبت قولنا وأما القياس فمن وجهين (الاول) لو كان الايتاء واجبا لكان وجوبه متعلقا بالعقد فيكون العقد موجبا له ومسقطا له وذلك محال لتنافي الاسقاط والايجاب (الثاني) لو كان الحط واجبا لما احتاج الى أن يضع عنه بل كان يسقط القدر المستحق كمن له على انسان دين ثم حصل لذلك الآخر على الاول مثله فانه يصير قصاصا ولو كان كذلك لكان قدر الايتاء اما أن يكون معلوما أو مجهولا فان كان معلوما وجب أن تكون الكتابة بألفين فبعتق اذا ادى ثلاثة آلاف والكتابة أربعة آلاف وذلك باطل لان أداء جميعها مشروط فلا يعتق باداء بعضها ولانه عليه السلام قال المكاتب عبد مابقي عليه درهم وان كان مجهولا صارت الكتابة مجهولة لان الباقي بعد الحط مجهول فيصير بمنزلة من كاتب عبده على ألف درهم الا شيئا وذلك غير جائز والله أعلم (الحكم العاشر) الاكراه على الزنا * قوله تعالى (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم) اعلم انه تعالى لما بين مايلزم من تزويج العبيد والاماء وكتابتهم اتبع ذلك بالنهي من اكراه الاماء على الفجور وههنا مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا في سبب نزولها على وجوه (الاول) كان لعبد الله بن أبي المنافق ست جوار معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة يكرههن على البغاء وضرب عليهن ضرائب فشكت ثنتان منهن الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية (وثانيها) ان عبد الله بن أبي اسر رجلا يراود الاسير جارية عبد الله وكانت الجارية مسلمة فامتنعت الجارية لاسلامها واكرهها ابن أبي على ذلك رجاء أن تحمل من الاسير فيطلب فداء ولده فنزلت (وثالثها) روى أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال جاء عبد الله بن أبي الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه جارية من اجمل النساء تسمى معاذة فقال يارسول الله هذه لا يتام فلان أفلا نأمرها فتزنا فيصيبون من منافعها فقال عليه الصلاة والسلام لما اعاد الكلام فنزلت الآية قال جابر بن عبد الله جاءت جارية لبعض الناس فقالت ان سيدي يكرهني على البغاء فنزلت الآية (المسئلة الثانية) الاكراه انما يحصل متى حصل التخويف بما يقتضي تلف النفس فاما

في أن ذلك لعدم هدايته تعالى اياهم لشؤمه وايراد الموصول للاشارة بما في حيز الصلة الى علة الحكم وانهم ممن لم يهد الله تعالى هدايتهم أي ومن

من نور) أى فالله هداية مامن أحد أصلا وقوله تعالى (ألم تر) الخ استيناف خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام للايذان بأنه تعالى قد أفاض عليه عليه الصلاة والسلام أعلى مراتب النور وأجلاها وبين له من أسرار الملك والملكوت أدقها وأخفاها والهمزة للتقرير أى قد علمت علما يقينيا شبيها بالمشاهدة فى القوة والرصانة بالوحى الصريح والاستدلال الصحيح (ان الله يسبح له) أى ينزهه تعالى على الدوام فى ذاته وصفاته وأفعاله عن كل مالا يليق بشانه الجليل من نقص أو خلل (من فى السموات والارض) أى ما فيهما اما بطريق الاستقرار فيهما من العقلاء وغيرهم كائنا ما كان أو بطريق الجزئية منهما تنزيها معنويا تفهمه العقول السليمة فان كل موجود من الموجودات الممكنة مركبا كان أو بسيطا فهو من حيث ماهيته ووجوده وأحواله يدل على وجود صانع واجب الوجود متصف بصفات الكمال مقدس عن كل مايليق بشان من شؤنه الجليلة ﴿ ضعيف مقدنه على كمال قوة تلك الدلالة وغاية

بالبسير من الخوف فلا تصير مكرهة فحال الاكراه على الزنا كحال الاكراه على كلمة الكفر والنص وان كان مختصا بالاماء الا أن حال الحرائر كذلك (المسئلة الثالثة) العرب تقول للمملوك فتى وللمملوكة فتاة قال تعالى فلما جاوزا قال لفتاه وقال تراود فتاها وقال مما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات وفى الحديث ليقل أحدكم فتاى وفتاتى ولا يقل عبدى وأمتى (المسئلة الرابعة) البغاء الزنا يقال بغت تبغى بغاء فهى بغى (المسئلة الخامسة) الذى نقول به أن المعلق بكلمة ان على الشئ عدم عند عدم ذلك الشئ والدليل عليه اتفاق أهل اللغة على أن كلمة ان للشرط واتفاقهم على ان الشرط ما ينتفى الحكم عند انتفائه ومجموع هاتين المقدمتين النقليتين يوجب الحكم بان المعلق بكلمة ان على الشئ عدم عند عدم ذلك الشئ واحتج المخالف بهذه الآية فقال انه سبحانه علق المنع من الاكراه على البغاء على ارادة التحصن بكلمة ان فلو كان الامر كما ذكرتموه لزم أن لا ينتفى المنع من الاكراه على الزنا اذا لم توجد ارادة التحصن وذلك باطل فانه سواء وجدت ارادة التحصن أو لم توجد فان المنع من الاكراه على الزنا حاصل (والجواب) لانزاع ان ظاهر الآية يقتضى جواز الاكراه على الزنا عند عدم ارادة التحصن ولكنه فسد ذلك لامتناعه فى نفسه لانه متى لم توجد ارادة التحصن فى حقها لم تكن كارهة للزنا وحال كونها غير كارهة للزنا يمتنع اكراهها على الزنا فامتنع ذلك لامتناعه فى نفسه وذاته ومن الناس من ذكر فيه جوابا آخر وهو أن غالب الحال ان الاكراه لا يحصل الا عند ارادة التحصن والكلام الوارد على سبيل الغالب لا يكون له مفهوم الخطاب كما أن الخلع يجوز فى غير حالة الشقاق ولكن لما كان الغالب وقوع الخلع فى حالة الشقاق لا جرم لم يكن لقوله تعالى فان خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به مفهوم ومن هذا القبيل قوله واذا ضربتم فى الارض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا والقصر لا يختص بحال الخوف ولكنه سبحانه اجراه على سبيل الغالب فكذا ههنا (والجواب) الثالث معنا اذا أردن تحصنا لان القصة التى وردت الآية فيها كانت كذلك على ما روينا أن جارية عبد الله بن أبى اسلمت وامتنعت عليه طلبا للعفاف فاكرهها فنزلت الآية موافقة لذلك نظيره قوله تعالى وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا أى واذا كنتم فى ريب (المسئلة السادسة) انه تعالى لما منع من اكراههن على الزنا ففيه ما يدل على أن لهم اكراههن على النكاح فليس لها أن تمتنع على السيد اذا زوجها بل له أن يكرهها على ذلك وهذه الدلالة دلالة الخطاب أما قوله ان أردن تحصنا أى تعففا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا يعنى كسبهن وأولادهن أما قوله ومن يكرههن فان الله من بعد اكراههن غفور رحيم فاعلم انه ليس فى الآية انه تعالى غفور رحيم للمكره أو للمكرهة لاجرم ذكروا فيه وجهين (أحدهما) فان الله غفور رحيم بهن لان الاكراه ازال الاثم والعقوبة لان الاكراه عذر للمكرهة المكره فلا عذر له فيما فعل (الثانى) المراد فان الله غفور رحيم بالمكره بشرط التوبة وهو

ضعيف لان على التفسير الاول لاحاجة الى هذا الاضمار وعلى التفسير الثانى يحتاج اليه * قوله تعالى (ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين) اعلم انه سبحانه لما ذكر فى هذه السورة هذه الاحكام وصف القرآن بصفات ثلاثة (أحدها) قوله ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات أى مفصلات وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائى وحفص عن عاصم مبينات بكسر الياء على معنى انها تبين للناس كما قال بلسان عربى مبين أو تكون من بين بمعنى تبين ومنه المثل قد بين الصبح لذى عينين (وثانيها) قوله ومثلا من الذين خلوا من قبلكم وفيه وجهان (أحدهما) انه تعالى يريد بالمثل ماذكر فى التوراة والانجيل من اقامة الحدود فأنزل فى القرآن مثله وهو قول الضحاك (والثانى) قوله ومثلا أى شبها من حالهم بحالكم فى تكذيب الرسل يعنى بينا لكم ما أحللنا بهم من العقاب لتردعكم على الله تعالى فجعلنا ذلك مثلا لكم لتعلموا انكم اذا شاركتموهم فى المعصية كنتم مثلهم فى استحقاق العقاب وهو قول مقاتل (وثالثها) قوله وموعظة للمتقين والمراد به الوعيد والتحذير من فعل المعاصى ولاشبهة فى انه موعظة للكل لكنه تعالى خص المتقين بالذكر لان العلة التى ذكرناها فى قوله هدى للمتقين وههنا آخر الكلام فى الاحكام القول فى الالهيات اعلم انه تعالى ذكر مثلين (أحدهما) فى بيان ان دلائل الايمان فى غاية الظهور (والثانى) فى بيان ان أديان الكفرة فى نهاية الظلمة والخفاء أما المثل الاول فهو * قوله سبحانه وتعالى (الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كانها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شئ عليم) اعلم أن الكلام فى هذه الآية مرتب على فصول

* (الفصل الاول) * فى اطلاق اسم النور على الله تعالى اعلم ان لفظ النور موضوع فى اللغة لهذه الكيفية الفائضة من الشمس والقمر والنار على الارض والجدران وغيرها وهذه الكيفية يستحيل أن تكون الها لوجوه (أحدها) أن هذه الكيفية ان كانت عبارة عن الجسم كان الدليل الدال على حدوث الجسم دالا على حدوثها وان كانت عرضا حتى ثبت حدوث الجسم لزم حدوث جميع الاعراض القائمة به ولكن هذه المقدمة انما ثبت بعد اقامة الدلالة على أن الحلول على الله تعالى محال (وثانيها) انا سواء قلنا النور جسم أو أمر حال فى الجسم فهو منقسم لانه ان كان جسما فلا شك فى انه منقسم واما كان حالا فيه فالحال فى المنقسم منقسم وعلى التقديرين فالنور منقسم وكل منقسم فانه يفتقر فى تحققه الى تحقق أجزائه وكل واحد من أجزائه غيره وكل مفتقر فهو فى تحققه مفتقر الى غيره والمفتقر الى الغير ممكن لذاته محدث بغيره فالنور محدث فلا يكون الها (وثالثها) أن هذا النور المحسوس لو كان هو الله لوجب أن لا يزول هذا النور لامتناع الزوال على الله تعالى (ورابعها) أن هذا النور المحسوس يقع بطلوع الشمس والكواكب وذلك على

من أفراد الاعراض والاعيان عاقل ناطق ومخبر صادق بعلو شأنه تعالى وعزة سلطانه وتخصيص التنزيه بالذكر مع دلالة ما فيهما على اتصافه تعالى بنعوت الكمال أيضا لما أن مساق الكلام لقبيح حال الكفرة فى اخلالهم بالتنزيه بجعلهم الجمادات شركاء له فى الالوهية ونسبتهم اياه الى اتخاذ الولد تعالى عن ذلك علوا كبيرا وحمل التسبيح على ما يليق بكل نوع من أنواع المخلوقات بان يراد به معنى مجازى شامل لتسبيح العقلاء وغيرهم حسبما هو المتبادر من قوله تعالى كل قد علم صلاته وتسبيحه يرده أن بعضا من العقلاء وهم الكفرة من الثقلين لا يسبحونه بذلك المعنى قطعا وانما تسبيحهم ماذكر من الدلالة التى يشاركهم فيها غير العقلاء أيضا وفيه مزيد تخطئة لهم وتعيير ببيان أنهم

ولطف تدبير مبدعها حسبما يعرب عنه التقييد بقوله تعالى (صافات) أى تسبحه تعالى حال كونها صافات أجنحتها فان اعطاءه تعالى لها جرام الثقيلة ما تتمكن به من الوقوف فى الجو والحركة كيف تشاء من الاجنحة والاذناب الخفيفة وارشاده الى كيفية استعمالها بالقبض والبسط حجة نيرة واضحة المكنون وآية بينة لقوم يعقلون دالة على كمال قدرة الصانع المجيد وغاية حكمة المبدئ المعيد وقوله تعالى (كل قد علم صلاته وتسبيحه) بيان لكمال عراقة كل واحد مما ذكر فى التنزيه ورسوخ قدمه فيه بتمثيل حاله بحال من يعلم ما يصدر عنه من الافاعيل فيفعلها عن قصد ونية لا عن اتفاق بلا روية وقد أدمج فى تضاعيفه الاشارة الى أن لكل واحد من الاشياء المذكورة مع ما ذكر من التنزيه حاجة ذاتية اليه تعالى واستفاضة منه لما يليهم بلسان استعداده وتحقيقه أن كل واحد ✻ والحسن من الموجودات الممكنة فى حد ذاته بمعزل من استحقاق الوجود لكنه

الله محال (وخامسها) ان هذه الانوار لو كانت أزلية لكانت اما أن تكون متحركة أو ساكنة لا جائز أن تكون متحركة لان الحركة معناها الانتقال من مكان الى مكان فالحركة مسبوقة بالحصول فى المكان الاول والازلى يمتنع أن يكون مسبوقا بالغير فالحركة الازلية محال ولا جائز أن تكون ساكنة لان السكون لو كان أزليا لكان ممتنع الزوال لكن السكون جائز الزوال لانا نرى الانوار تنتقل من مكان الى مكان فدل ذلك على حدوث الانوار (وسادسها) ان النور اما أن يكون جسما أو كيفية قائمة بالجسم والاول محال لانا قد نعقل الجسم جسما مع الذهول عن كونه نيرا ولان الجسم قد يستنير بعد ان كان مظلما فثبت الثانى لكن الكيفية القائمة بالجسم محتاجة الى الجسم والمحتاج الى الغير لا يكون الها وبمجموع هذه الدلائل يبطل قول المانوية الذين يعتقدون أن الاله سبحانه هو النور الاعظم وأما المجسمة المعترفون بصحة القرآن فيحتج عليهم بفساد قولهم بوجهين (الاول) قوله ليس كمثله شئ ولو كان نورا بطل ذلك لان الانوار كلها متماثلة (الثانى) ان قوله تعالى مثل نوره صريح فى انه ليس ذاته نفس النور بل النور مضاف اليه وكذا قوله يهدى الله لنوره من يشاء فان قيل قوله الله نور السموات يقتضى ظاهره انه فى ذاته نور وقوله مثل نوره يقتضى أن لا يكون هو فى ذاته نورا وبينهما تناقض قلنا نظير هذه الآية قولك زيد كرم وجود ثم تقول يغشى الناس بكرمه وجوده وعلى هذا الطريق لا تناقض (الثالث) قوله سبحانه وتعالى وجعل الظلمات والنور وذلك صريح فى أن ماهية النور مجعولة لله تعالى فيستحيل أن يكون الاله نورا فثبت أنه لا بد من التأويل والعلماء ذكروا فيه وجوها (أحدها) أن النور سبب للظهور والهداية لما شاركت النور فى هذا المعنى صح اطلاق اسم النور على الهداية وهو كقوله تعالى الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور وقوله أفمن كان ميتا فاحييناه وجعلنا له نورا وقال ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا فقوله الله نور السموات والارض أى ذو نور السموات والارض والنور هو الهداية ولا تحصل الا لاهل السموات والحاصل أن المراد الله هادى أهل السموات والارض وهو قول ابن عباس والاكثرين رضى الله عنهم (وثانيها) المراد انه مدبر السموات والارض بحكمة بالغة وحجة نيرة فوصف نفسه بذلك كما يوصف الرئيس العالم بانه نور البلد فانه اذا كان مدبرهم تدبيرا حسنا فهو لهم كالنور الذى يهتدى به الى مسالك الطرق قال جرير * وأنت لنا نور وغيث وعصمة * وهذا اختيار الاصم والزجاج (وثالثها) المراد ناظم السموات والارض على الترتيب الاحسن فانه قد يسمى بالنور على النظام يقال ما أرى لهذا الامر نورا (ورابعها) معناه منور السموات والارض ثم ذكروا فى هذا القول ثلاثة أوجه (أحدها) انه منور السماء بالملائكة والارض بالانبياء (والثانى) منورها بالشمس والقمر والكواكب (والثالث) انه زين السماء بالشمس والقمر والكواكب وزين الارض بالانبياء والعلماء وهو مروى عن ابى ابن كعب

والحسن وأبي العالية والاقرب هو القول الاول لان قوله في آخر الآية يهدي الله لنوره من يشاء يدل على أن المراد بالنور الهداية الى العلم والعمل واعلم أن الشيخ الغزالي رحمه الله صنف في تفسير هذه الآية الكتاب المسمى بمشكاة الانوار وزعم أن الله نور في الحقيقة بل ليس النور الا هو وأنا أنقل محصل ماذكره مع زوائد كثيرة تقوى كلامه ثم ننظر في صحته وفساده على سبيل الانصاف فقال اسم النور انما وضع للكيفية الفائضة من الشمس والقمر والنار على ظواهر هذه الاجسام الكثيفة فيقال استنارت الارض ووقع نور الشمس على الثوب ونور السراج على الحائط ومعلوم أن هذه الكيفية انما اختصت بالفضيلة والشرف لان المرئيات تصير بسببها ظاهرة متجلية ثم من المعلوم انه كما يتوقف ادراك هذه المرئيات على كونها مستنيرة فكذا يتوقف على وجود العين الباصرة اذ المرئيات بعد استنارتها لا تكون ظاهرة في حق العميان فقد ساوى الروح الباصرة النور الظاهر في كونه ركنا لا بد منه للظهور ثم يرجع عليه في أن الروح الباصرة هي المدركة وبها الادراك وأما النور الخارج فليس بمدرك ولا به الادراك بل عنده الادراك فكان وصف الاظهار بالنور الباصر أحق منه بالنور المبصر فلا جرم أطلقوا اسم النور على نور العين المبصرة فقالوا في الخفاش ان نور عينه ضعيف وفي الاعمش انه ضعف نور بصره وفي اعمى انه فقد نور البصر اذا ثبت هذا فنقول ان الانسان بصير او بصيرة فالبصر هو العين الظاهرة المدركة للاضواء والالوان والبصيرة هي القوة العاقلة وكل واحد من الادراكين يقتضي ظهور المدرك فكل واحد من الادراكين نور الا أنهم عدد والنور العين عيو بالم يحصل شيء منها في نور العقل والغزالي رحمه الله تعالى ذكر منها سبعة ونحن جعلناها عشرين (الاول) أن القوة الباصرة لا تدرك نفسها ولا تدرك ادراكها ولا تدرك آلتها أما انها لا تدرك نفسها ولا تدرك ادراكها فلان القوة الباصرة وادراك القوة الباصرة ليسا من الامور المبصرة بالعين الباصرة وأما آلتها فهي العين والقوة الباصرة بالعين لا تدرك العين وأما القوة العاقلة فانها تدرك نفسها وتدرك ادراكها وتدرك آلتها في الادراك وهي القلب والدماغ فثبت أن نور العقل أكمل من نور البصر (الثاني) أن القوة الباصرة لا تدرك الكليات والقوة العاقلة تدركها ومدرك الكليات وهو القلب أشرف من مدرك الجزئيات اما أن القوة الباصرة لا تدرك الكليات فلان القوة الباصرة لو أدركت كل ما في الوجود فهي ما أدركت الكل لان الكل عبارة عن كل ما يمكن دخوله في الوجود في الماضي والحاضر والمستقبل وأما ان القوة العاقلة تدرك الكليات فلانا نعرف أن الاشخاص الانسانية مشتركة في الانسانية ومتمايزة بخصوصياتها وما به المشاركة غير ما به الممايزة فالانسانية من حيث هي انسانية أمر مغاير لهذه المشخصات فقد عقلنا الماهية الكلية وأما ان ادراك الكليات أشرف فلان تلك الكليات ممتنع التغير وادراك الجزئيات واجب التغير ولان ادراك الكلي

وكثير من الناس أي وتسبح الطير تسبيحا خاصا بها حال كونها صافات أجنحتها وقوله تعالى كل قد علم صلاته

انقطع ما بينه وبين العناية الربانية من العلاقة لانعدام بالمرة وقد عبر عن تلك الاستفاضة المعنوية بالصلاة التي هي الدعاء والابتهال لتكميل التمثيل وافادة المزايا المذكورة فيما مر على التفصيل وتقديمها على التسبيح في الذكر لتقدمها عليه في الرتبة هذا ويجوز أن يكون العلم على حقيقته ويراد به مطلق الادراك وبما ناب عنه التنوين في كل أنواع الطير وافرادها بالصلاة والتسبيح ما ألهمه الله تعالى كل واحد منها من الدعاء والتسبيح المخصوصين به لكن لا على أن يكون الطير معطوفا على كلمة من مرفوعا برافعها فانه يؤدي الى أن يراد بالتسبيح معنى مجازي شامل للتسبيح المقالي الحالي من العقلاء وغيرهم وقد عرفت ما فيه بل بفعل مضمر اريد به التسبيح المخصوص بالطير معطوف على المذكور كما مر في قوله

وتسبيحه أى دعاءه وتسبيحه اللذين ألهمهما الله عزوجل اياه ابيان كمال رسوخه فيهما وأن صدورهما عنه ليس بطريق الاتفاق بلا روية بل عن علم وايقان من غير اخلال بشئ منهما ﴿ ٣٩٦ ﴾ حسبما ألهمه الله تعالى فان الهامه تعالى لكل

نوع من أنواع المخلوقات علوما دقيقة لايكاد يهتدى اليه جهابذة العقلاء مما لاسبيل الى انكاره أصلا كيف لاوان القنفذ مع كونه أبعد الاشياء من الادراك قالوا انه يحس بالشمال والجنوب قبل هبوبها فيغير المدخل الى جحره حتى روى انه كان بقسطنطينية قبل الفتح الاسلامى رجل قد أثر بسبب أنه كان ينذر الناس بارياح قبل هبوبها وينتفعون بانذاره بترك أمور سفائنهم وغيرها وكان السبب فى ذلك انه كان يقتنى فى داره قنفذا يستدل باحواله على ماذكر وتخصيص تسبيح الطير بهذا المعنى باذكر لما أن أصواتها اظهر وجودا وأقرب حملا على التسبيح وقوله تعالى (والله عليم بما يفعلون) أى ما يفعلونه اعتراض مقرر لمضمون ماقبله واما على الوجه الاول عبارة عما ذكر من الدلالة الشاملة لجميع الموجودات من العقلاء وغيرهم والتعبير عنها بالفعل مسندا الى ضمير العقلاء لما مر غير مرة وعلى الثانى

يتضمن ادراك الجزئيات الواقعة تحته لان ماثبت للماهية ثبت لجميع افرادها ولاينعكس فثبت ان الادراك العقلى أشرف (الثالث) الادراك الحسى غير منتج والادراك العقلى منتج فوجب ان يكون العقل اشرف اما كون الادراك الحسى غير منتج فلان من أحس بشئ لايكون ذلك الاحساس سببا لحصول احساس آخر له بل لو استعمل له الحس مرة اخرى لأحس به مرة أخرى ولكن ذلك لايكون انتاج الاحساس لاحساس آخر وأما أن الادراك العقلى منتج فلانا اذا عقلنا أمورا ثم ركبناها فى عقولنا توسلنا بتركيبها الى اكتساب علوم أخر وهكذا كل تعقل حاصل فانه يمكن التوسل به الى تحصيل تعقل آخر الى مالانهاية له فثبت أن الادراك العقلى أشرف (الرابع) الادراك الحسى لايتسع للامور الكثيرة والادراك العقلى يتسع لها فوجب أن يكون الادراك العقلى أشرف أما أن الادراك الحسى لايتسع لها فلان البصر اذا توالى عليه ألوان كثيرة عجز عن تمييزها فادرك لونا كانه حاصل من اختلاط تلك الالوان السمع اذا توالت عليه كلمات كثيرة التبست عليه تلك الكلمات ولم يحصل التميز واما أن الادراك العقلى متسع لها فلان كل من كان تحصيله للعلوم أكثر كانت قدرته على كسب الجديد أسهل وبالعكس وذلك يوجب الحكم بان الادراك العقلى أشر (الخامس) القوة الحسية اذا ادركت المحسوسات القوية فى ذلك الوقت تعجز عن ادراك الضعيفة فان من سمع الصوت الشديد فى تلك الحالة لايمكنه أن يسمع الصوت الضعيف والقوة العقلية لايشغلها معقول عن معقول (السادس) القوى الحسية تضعف بعد الاربعين وتضعف عند كثرة الافكار التى هى موجبة لاستيلاء النفس على البدن الذى هو موجب لخراب البدن والقوى العقلية تقوى بعد الاربعين وتقوى عند كثرة الافكار الموجبة لخراب البدن فدل ذلك على استغناء القوة العقلية عن هذه الآلات واحتياج القوى الحسية اليها (السابع) القوة الباصرة لاتدرك المرئى مع القرب القريب ولامع البعد البعيد والقوة العقلية لايختلف حالها بحسب القرب والبعد فانها ترتقى الى مافوق العرش وتنزل الى ماتحت الثرى فى اقل من لحظة واحدة بل تدرك ذات الله وصفاته مع كونه منزها عن القرب والبعد والجهة فكانت القوة العقلية أشرف (الثامن) القوة الحسية لاتدرك من الاشياء الاظواهرها فاذا أدركت الانسان فهى فى الحقيقة مادركت الانسان لانها مادركت الا السطح الظاهر من جسمه والا اللون القائم بذلك السطح وبالاتفاق فليس الانسان عبارة عن مجرد السطح واللون فالقوة الباصرة عاجزة عن النفوذ فى الباطن أما القوة العاقلة فان باطن الاشياء وظاهرها بالنسبة اليها على السواء فانها تدرك البواطن والظواهر وتغوص فيها وفى اجزائها فكانت القوة العاقلة نورا بالنسبة الى الباطن والظاهر أما القوة الباصرة فهى بالنسبة الى الظاهر نور وبالنسبة الى الباطن ظلمة فكانت القوة العاقلة أشرف من القوة الباصرة (التاسع) ان مدرك القوة العاقلة هو الله تعالى وجميع افعاله ومدرك

القوة الباصرة هو الالوان والاشكال فوجب أن تكون نسبة شرف القوة العاقلة الى شرف القوة الباصرة كنسبة شرف ذات الله تعالى الى شرف الالوان والاشكال (العاشر) القوة العاقلة تدرك جميع الموجودات والمعدومات والماهيات التى هى معروضات الموجودات والمعدومات ولذلك فان أول حكمه أن الوجود والعدم لايجتمعان ولايرتفعان وذلك مسبوق لامحالة بتصور مسمى الوجود ومسمى العدم فكانه بهذين التصورين قد أحاط بجميع الامور من بعض الوجوه وأما القوة الباصرة فانها لاتدرك الا الاضواء والالوان وهما من أخس عوارض الاجسام والاجسام أخس من الجواهر الروحانية فكان متعلق القوة الباصرة أخس الموجودات وأما متعلق القوة العاقلة فهو جميع الموجودات والمعدومات فكانت القوة العاقلة أشرف (الحادى عشر) القوة العاقلة تقوى على توحيد الكثير وتكثير الواحد والقوة الباصرة لاتقوى على ذلك أما أن القوة العاقلة تقوى على توحيد الكثير فذلك لانها تضم الجنس الى الفصل فيحدث منها طبيعة نوعية واحدة وأما انها تقوى على تكثير الواحد فلانها تأخذ الانسان وهى ماهية واحدة فتقسمها الى مفهوماتها والى عوارضها اللازمة وعوارضها المفارقة ثم تقسم مقوماته الى الجنس وجنس الجنس والفصل وفصل الفصل وجنس الفصل وفصل الجنس والى سائر الاجزاء المقومة التى لاتعد من الاجناس ولامن الفصول ثم لاتزال تأتى بهذا التقسيم فى كل واحد من هذه الاقسام حتى تنتهى من تلك المركبات الى البسائط الحقيقية ثم تعتبر فى العوارض اللازمة أن تلك العوارض مفردة أو مركبة ولازمة بوسائط أو بوسط أو بغير وسط فالقوة العاقلة كانها نفذت فى اعماق الماهيات وتغلغلت فيها وميزت كل واحد من أجزائها عن صاحبه وأنزلت كل واحد منها فى المكان اللائق به فاما القوة الباصرة فلا تطلع على أحوال الماهيات بل لاترى الا أمرا واحدا ولاتدرى ماهو وكيف هو فظهر أن القوة العاقلة أشرف (الثانى عشر) القوة العاقلة تقوى على ادراكات غير متناهية والقوة الحاسة لاتقوى على ذلك بيان الاول من وجوه (الاول) القوة العاقلة يمكنها أن تتوسل بالمعارف الحاضرة الى استنتاج المجهولات ثم انها تجعل تلك النتائج مقدمات فى نتائج أخرى لاالى نهاية وقد عرفت أن القوة الحاسة لاتقوى على الاستنتاج أصلا (الثانى) أن القوة العاقلة تقوى على تعقل مراتب الاعداد ولانهاية لها (الثالث) أن القوة العاقلة يمكنها أن تعقل نفسها وأن تعقل انها عقلت وكذا الى غير النهاية (الرابع) النسب والاضافات غير متناهية وهى معقولة لامحسوسة فظهر أن القوة العاقلة أشرف (الثالث عشر) الانسان بقوته العاقلة يشارك الله تعالى فى ادراك الحقائق وبقوته الحاسة يشارك البهائم والنسبة معتبرة فكانت القوة العاقلة أشرف (الرابع عشر) القوة العاقلة غنية فى ادراكها العقلى عن وجود المعقول فى الخارج والقوة الحاسة محتاجة فى ادراكها الحسى الى

أما عبارة عنها وعن التسبيح الخاص إما الطير معا أو عن تسبيح الطير فقط فالفعل على حقيقته واسناده الى ضمير العقلاء لما مر والاعتراض حينئذ مقرر لتسبيح الطير فقط ﴿ ٣٩٧ ﴾ وعلى الاولين تسبيح الكل هذا وقد قيل ان الضمير فى قوله تعالى قد علم الله عز وجل وفى صلاته وتسبيحه لكل أى قد علم الله تعالى صلاة كل واحد مما فى السموات والارض وتسبيحه فالاعتراض حينئذ مقرر لمضمونه على الوجهين لكن لاعلى أن تكون ما عبارة عما تعلق به علمه تعالى من صلاته وتسبيحه بل عن جميع أحواله العارضة له وأفعاله الصادرة عنه وهما داخلتان فيها دخولا أوليا (ولله ملك السموات والارض) لاالغير لانه الخالق لهما ولما فيهما من الذوات والصفات وهو المتصرف فى جميعها ايجادا واعداما بدأ وعادة وقوله تعالى (والى الله) أى اليه تعالى خاصة لاالى غيره (المصير) أى رجوع الكل بالفناء والبعث بيان لاختصاص الملك به تعالى فى المعاد اثر بيان اختصاصه به تعالى فى المبدأ واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتربية المهابة والاشعار بعلة الحكم (الم تر أن الله يزجى سحابا)

الازجاء سوق الشئ برفق وسهولة غلب فى سوق شئ يسير أو غير معتد به ومنه

باسرها ممكنة لذواتها والممكن لذاته يستحق العدم من ذاته والوجود من غيره والعدم هو الظلمة الحاصلة والوجود هو النور فكل ماسوى الله مظلم لذاته مستنير بانارة الله تعالى وكذا جميع معارفها بعد وجودها حاصل من وجود الله تعالى فالحق سبحانه هو الذى أظهرها بالوجود بعد ان كانت فى ظلمات العدم وافاض عليها أنوار المعارف بعد ان كانت فى ظلمات الجهالة فلا ظهور لشئ من الاشياء الا باظهاره وخاصة النور اعطاء الاظهار والتجلى والانكشاف وعند هذا يظهر ان النور المطلق هو الله سبحانه وان اطلاق النور على غيره مجاز اذ كل ماسوى الله فانه من حيث هو هو ظلمة محضة لانه من حيث انه هو عدم محض بل الانوار اذا نظرنا اليها من حيث هى هى فهى ظلمات لانها من حيث هى هى ممكنات والممكن من حيث هو هو معدوم والمعدوم مظلم فالنور اذا نظر اليه من حيث هو هو ظلمة فاما اذا التفت اليها من حيث ان الحق سبحانه أفاض عليها نور الوجود فبهذا الاعتبار صارت أنوارا فثبت انه سبحانه هو النور وان كل ماسواه فليس بنور الا على سبيل المجاز ثم انه رحمه الله تكلم بعد هذا فى أمرين (الاول) انه سبحانه لم أضاف النور الى السموات والارض وأجاب فقال قد عرفت ان السموات والارض مشحونة بالانوار العقلية والانوار الحسية أما الحسية فما يشاهد فى السموات من الكواكب والشمس والقمر وما يشاهد فى الارض من الاشعة المنبسطة على سطوح الاجسام حتى ظهرت به الالوان المختلفة ولولاها لم يكن للالوان ظهور بل وجود وأما الانوار العقلية فالعالم الاعلى مشحون بها وهى جواهر الملائكة والعالم الاسفل مشحون بها هى القوى النباتية والحيوانية والانسانية وبانور الانسانى السفلى ظهر نظام عالم الاسفل كما بالنور الملكى ظهر نظام عالم العلو وهو المعنى بقوله تعالى ليستخلفنهم فى الارض وقال ويجعلكم خلفاء الارض فاذا عرفت هذا عرفت ان العالم باسره مشحون بالانوار الظاهرة البصرية والباطنة العقلية ثم عرفت ان السفلية فائضة بعضها من بعض فيضان النور من السراج فان السراج هو الروح النبوى ثم ان الانوار النبوية القدسية مقتبسة من الارواح العلوية اقتباس السراج من النور وان العلويات مقتبسة بعضها من بعض وان بينها ترتيبا فى المقامات ثم ترتقى جملتها الى نور الانوار ومنبعها الاول وان ذلك هو الله وحده لاشريك له فاذن الكل نوره فلهذا قال الله نور السموات والارض (السؤال الثانى) فاذا كان الله هو النور فلم احتيج فى اثباته الى البرهان أجاب فقال ان معنى كونه نور السموات والارض معروف بالنسبة الى النور الظاهر البصرى فاذا رأيت خضرة الربيع فى ضياء النهار فلست تشك فى انك ترى الالوان فربما ظننت انك لا ترى مع الالوان غيرها فانك تقول لست أرى مع الخضرة غير الخضرة الا انك عند غروب الشمس تدرك تفرقة ضرورية بين اللون حال وقوع الضوء عليه وحال عدمه ووقوعه عليه فلا جرم تعرف ان النور معنى غير اللون يدرك مع الالوان الا انه كان لشدة اتحاده به لا يدرك ولشدة ظهوره يخفى وقد يكون

اليه قيل الاخبار بوجوده فيه الايذان بظهور أمره ﴿ ٤٠٠ ﴾ واستغنائه عن التصريح به وقرئ بالمد بمعنى الرفعة والعلو وبادغام الدال فى السين وبرق بفتح الراء على أنه جمع برقة وهى مقدار من البرق كالغرفة وبضمها للاتباع لضمة الباء (يذهب بالابصار) أى يخطفها من فرط الاضاءة وسرعة ورودها وفى اطلاق الابصار مزيد تهويل لامره وبيان لشدة تأثيره فيها كأنه يكاد يذهب بها لو عند الاغماض وهذا من أقوى الدلائل على كمال القدرة من حيث انه توليد للضد من الضد وقرئ يذهب من الاذهاب على زيادة الباء (يقلب الله الليل والنهار) بالمعاقبة بينهما أو بنقص أحدهما وزيادة الآخر أو بتغيير أحوالهما بالحر والبرد وغيرهما مما يقع فيهما من الامور التى من جملتها ماذكر من ازجاء السحاب وما ترتب عليه (ان فى ذلك) اشارة الى ما فصل آنفا وما فيه من معنى قرب البعد مع المشار اليه للايذان بعلو رتبته وبعد منزلته (لعبرة) أى لدلالة واضحة على وجود الصانع القديم ووحدته وكمال قدرته واحاطة علمه بجميع الاشياء ونفاذ مشيئته وتنزهه ﴿ الظهور ﴾ عما لا يليق بشانه العلى (لأولى الابصار) الكل من له بصر (والله خلق كل دابة) أى كل حيوان يدب على الارض

ومرئ خالق كل دابة بالاضافة (من ماء) هو جزء مادته أو ماء مخصوص هو النطفة فيكون تنزيلا للغالب منزلة الكل لان من الحيوانات ما يتولد لا عن نطفة وقيل من ماء متعلق بدابة وليست صلة لخلق (فمنهم

الظهور سبب الخفاء اذا عرفت هذا فاعلم انه كما ظهر كل شئ للبصر بالنور الظاهر فقد ظهر كل شئ للبصيرة الباطنة بالله ونوره حاصل مع كل شئ لا يفارقه ولكن بقي ههنا تفاوت وهو ان النور الظاهر يتصور أن يغيب بغروب الشمس و يحجب فحينئذ يظهر انه غير اللون وأما النور الالهي الذي به يظهر كل شئ لا يتصور غيبته بل يستحيل تغيره فيبقى مع الاشياء دائما فانقطع طريق الاستدلال بالتفرقة ولو تصورت غيبته لانهدمت السموات والارض ولادرك عنده من التفرقة ما يحصل العلم الضروري به ولكن لما تساوت الاشياء كلها على نمط واحد في الشهادة على وجود خالقها وان كل شئ يسبح بحمده لا بعض الاشياء وفي جميع الاوقات لا في بعض الاوقات ارتفعت التفرقة وخفي الطريق اذ الطريق الظاهر معرفة الاشياء بالاضداد فالاضد له ولا تغير له بتشابه أحواله فلا يبعد ان يخفى و يكون خفاؤه لشدة ظهوره وجلائه فسبحان من اختفى عن الخلق لشدة ظهوره واحتجب عنهم باشراق نوره واعلم ان هذا الكلام الذي رويناه عن الشيخ الغزالي رحمه الله كلام مستطاب ولكن يرجع حاصله بعد التحقيق الى ان معنى كونه سبحانه نورا انه خالق للعالم وانه خالق للقوى المدركة وهو المعنى من قولنا معنى كونه نور السموات والارض انه هادي أهل السموات والارض فلا تفاوت بين ما قاله و بين الذي نقلناه عن المفسرين في المعنى والله أعلم

(الفصل الثاني) في تفسير قوله عليه الصلاة والسلام ان لله سبعين حجابا من نور وظلمة لو كشفها لاحرقت سبحات وجهه كل ما أدرك بصره وفي بعض الروايات سبعمائة وفي بعضها سبعون ألفا فاقول لما ثبت ان الله سبحانه وتعالى منجل في ذاته كان الحجاب الاضافة الى المحجوب لا محالة والمحجوب لا بد وأن يكون محجوبا اما بحجاب مركب من نور وظلمة واما بحجاب مركب من نور فقط أو بحجاب مركب من ظلمة فقط والمحجوبون بالظلمة المحضة فهم الذين بلغوا في الاشتغال بالعلائق البدنية الى حيث لم يلتفت خاطرهم الى انه هل يمكن الاستدلال بوجود هذه المحسوسات على وجود واجب الوجود أم لا وذلك لانك قد عرفت أن ما سوى الله تعالى من حيث هو هو مظلم وانما كان مستنيرا من حيث استفادة النور من حضرة الله تعالى فمن اشتغل بالجسمانيات من حيث هي هي وصار ذلك الاشتغال حائلا له عن الالتفات الى جانب النور كان حجابه محض الظلمة ولما كانت أنواع الاشتغال بالعلائق البدنية خارجة عن الحد والحصر فكذا أنواع الحجب الظلمانية خارجة عن الحد والحصر (القسم الثاني) المحجوبون بالحجب الممزوجة من النور والظلمة اعلم ان من نظر الى هذه المحسوسات فاما أن يعتقد فيها انها غنية عن المؤثر أو يعتقد فيها انها محتاجة فان اعتقد انها غنية فهذا حجاب ممزوج من نور وظلمة (أما النور) فلانه تصور ماهية الاستغناء عن الغير وذلك من صفات جلال الله تعالى وهو من صفات النور (وأما الظلمة) فلانه اعتقد حصول ذلك الوصف في هذه الاجسام مع ان ذلك الوصف لا يليق بهذا

من يمشي على بطنه) كالحية وتسمية حركتها مشيا مع كونها زحفا بطريق الاستعارة أو المشاكلة (ومنهم من يمشي على رجلين) كالانس والطير (ومنهم من يمشي على أربع) كالنعم والوحش وعدم التعرض لما يمشي على أكثر من أربع كالعناكب ونحوها من الحشرات لعدم الاعتداد بها وتذكير الضمير في منهم لتغليب العقلاء والتعبير عن الاصناف بكلمة من لموافق التفصيل الاجمال والترتيب لتقديم ما هو أعرف في القدرة (يخلق الله ما يشاء) مما ذكر ومما لم يذكر بسيطا كان أو مركبا على ما يشاء من الصور والاعضاء والهيأت والحركات والطبائع والقوى والافاعيل مع اتحاد العنصر واظهار الاسم الجليل في موضع الاضمار لتفخيم شان الخلق المذكور والايذان بأنه من أحكام الالوهية (ان الله على كل شئ قدير) فيفعل ما يشاء

التعليلي (لقد انزلنا آيات مبينات) أي لكل ما يليق بيانه من الاحكام الدينية والاسرار التكوينية (والله يهدي من يشاء) أن يهديه بتوفيقه للنظر الصحيح فيها وارشاده ﴿ ٤٠٢ ﴾ الى التأمل في مطاويها (الى صراط مستقيم) موصل

الى حقيقة الحق والفوز بالجنة (ويقولون آمنا بالله وبالرسول) شروع في بيان أحوال بعض من لم يشأ الله هدايته الى الصراط المستقيم قال الحسن نزلت في المنافقين الذين كانوا يظهرون الايمان ويسرون الكفر وقيل نزلت في بشر المنافق خاصم يهوديا فدعاه الى كعب بن الاشرف واليهودي يدعوه الى النبي عليه الصلاة والسلام وقيل في المغيرة بن وائل خاصم عليا رضي الله عنه في أرض وماء فدعى أن يحاكمه الى الرسول عليه الصلاة والسلام وأيا ما كان فصيغة الجمع لايذان بان للمسائل طائفة يساعدونه ويشايعونه في تلك المقالة كما يقال بنو فلان قتلوا فلانا والقاتل واحد منهم (وأطعنا) أي أطعنا هما في الامر والنهي (ثم يتولى) عن قبول حكمه (فريق منهم من بعد ذلك) أي من بعدما صدر عنهم ما صدر من الايمان بالله وبالرسول والطاعة لهما على التفصيل وما في ذلك من معنى

الوصف وهذا ظلمة فثبت ان هذا حجاب ممزوج من نور وظلمة ثم أصناف هذا القسم كثيرة فان من الناس من يعتقد ان الممكن غني عن المؤثر ومنهم من يسلم ذلك لكنه يقول المؤثر فيها طبائعها أو حركاتها أو اجتماعها وافتراقها أو نسبتها الى حركات الافلاك أو الى محركاتها وكل هؤلاء من هذا القسم (القسم الثالث) الحجب النورية المحضة واعلم انه لاسبيل الى معرفة الحق سبحانه الا بواسطة تلك الصفات السلبية والاضافية ولانهاية لهذه الصفات ولمراتبها فالعبد لايزال يكون مترقيا فيها فان وصل الى درجة وبقي فيها كان استغراقه في مشاهدة تلك الدرجة حجابا له عن الترقي الى ما فوقها ولما كان لانهاية لهذه الدرجات كان العبد أبدا في السير والانتقال وأما حقيقته المخصوصة فهي محتجبة عن الكل فقد اشرنا الى كيفية مراتب الحجب وأنت تعرف انه عليه الصلاة والسلام انما حصرها في سبعين ألفا تقريبا لا تحديدا فانها لانهاية لها في الحقيقة

(الفصل الثالث في شرح كيفية التمثيل) اعلم انه لابد في التشبيه من أمرين المشبه والمشبه به واختلف الناس ههنا في ان المشبه أي شيء هو وذكروا وجوها (أحدها) هو قول جمهور المتكلمين ونصره القاضي ان المراد الهدى التي هي الآيات البينات والمعنى ان هداية الله تعالى قد بلغت في الظهور والجلاء الى أقصى الغايات وصارت في ذلك بمنزلة المشكاة التي تكون فيها زجاجة صافية وفي الزجاجة مصباح يتقد بزيت بلغ النهاية في الصفاء فقيل لم شبه بذلك مع علمك بضوء الشمس أبلغ من ذلك بكثير قلنا انه سبحانه أراد أن يصف النور الكامل الذي يلوح وسط الظلمة لان الغالب على أوهام الخلق وعقولهم انما هو الشبهات التي هي كالظلمات وهداية الله تعالى فيما بينها كالضوء الكامل الذي يظهر فيما بين الظلمات وهذا المقصود لايحصل من ضوء الشمس لان ضوءها اذا ظهر امتلأ العالم من النور الخالص واذا غاب امتلأ العالم من الظلمة الخالصة فلا جرم كان ذلك المثل ههنا أليق وأوفق واعلم ان الامور التي اعتبرها الله تعالى في هذا المثال مما توجب كمال الضوء (فاولها) المصباح لان المصباح اذا لم يكن في المشكاة تفرقت اشعته اما اذا وضع في المشكاة اجتمعت اشعته فكانت أكثر انارة والذي يحقق ذلك ان المصباح اذا كان في بيت صغير فانه يظهر من ضوئه أضعاف ما يظهر في البيت الكبير (وثانيها) ان المصباح اذا كان في زجاجة صافية فان الاشعة المنفصلة عن المصباح تنعكس من بعض جوانب الزجاجة الى البعض لما في الزجاجة من الصفاء والشفافية وبسبب ذلك يزداد الضوء والنور والذي يحقق ذلك ان شعاع الشمس اذا وقع على الزجاجة الصافية تضاعف الضوء الظاهر حتى انه يظهر فيما يقابله مثل ذلك الضوء فان انعكست تلك الاشعة من كل واحد من جوانب الزجاجة الى الجانب الآخر كثرت الانوار والاضواء وبلغت النهاية الممكنة (وثالثها) ان ضوء المصباح يختلف بحسب اختلاف ما يتقد به فاذا كان ذلك الدهن صافيا خالصا كانت حالته بخلاف حالته اذا كان كدرا وليس في

البعد للايذان بكونه أمرا معتدا به واجب المراعاة (وما أولئك) اشارة الى القائلين لا الى الفريق المتولى منهم فقط لعدم اقتضاء نفى الايمان عنهم نفيه عن الاولين بخلاف العكس فان نفيه عن القائلين مقتض لنفيه عنهم على أبلغ وجه وآكده وما فيه من معنى البعد للاشعار ببعد مرتبتهم فى الكفر والفساد أى وما أولئك الذين يدعون الايمان والطاعة ثم يتولى بعضهم الذين يشاركونهم فى العقد والعمل (بالمؤمنين) أى المؤمنين حقيقة كما يعرب عنه اللام أى ليسوا بالمؤمنين المعهودين بالاخلاص فى الايمان والثبات عليه (واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم) أى الرسول (بينهم) لانه المباشر حقيقة للحكم وان كان ذلك حكم الله حقيقة وذكر الله تعالى لتفخيمه عليه السلام والايذان بجلالة محله عنده تعالى (اذا فريق منهم معرضون) أى فاجأ فريق منهم الاعراض عن المحاكمة اليه عليه السلام لكون الحق عليهم وعلمهم بانه عليه السلام يحكم بالحق عليهم وهو شرح للتولى ومبالغة فيه (وان يكن لهم الحق) لا عليهم (يأتوا اليه مذعنين) منقادين لجزمهم بانه عليه السلام يحكم لهم والى صلة ليأتوا فان الاتيان

الادهان التى توقد مما يظهر فيه من الصفاء مثل الذى يظهر فى الزيت فرب ما يبلغ فى الصفاء والرقة مبلغ المنوع زيادة بياض فيه وشعاع يتردد فى اجزائه (ورابعها) ان هذا الزيت يختلف بحسب اختلاف شجره فاذا كانت لا شرقية ولا غربية بمعنى انها كانت بارزة للشمس فى كل حالاتها يكون زيتونها اشد نضجا فكان زيته أكثر صفاء وأقرب الى أن يتميز صفوه من كدره لان زيادة الشمس تؤثر فى ذلك فاذا اجتمعت هذه الامور الاربعة وتعاونت صار ذلك الضوء خالصا كاملا فيصلح ان يجعل مثلا لهداية الله تعالى (وثانيها) ان المراد من النور فى قوله مثل نوره القرآن ويدل عليه قوله تعالى قد جاءكم من الله نور وهو قول الحسن وسفيان بن عيينة وزيد بن أسلم (وثالثها) ان المراد هو الرسول لانه المرشد ولانه تعالى قال فى وصفه وسراجا منيرا وهو قول عطاء وهذان القولان داخلان فى القول الاول لان من جملة أنواع الهداية انزال الكتب وبعثة الرسل قال تعالى فى صفة الكتب وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان وقال فى صفة الرسل رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل (ورابعها) ان المراد منه ما فى قلب المؤمنين من معرفة الله تعالى ومعرفة الشرايع ويدل عليه ان الله تعالى وصف الايمان بانه نور والكفر بانه ظلمة فقال أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه وقال تعالى ليخرج الناس من الظلمات الى النور وحاصله انه حمل الهدى على الاهتداء والمقصود من التمثيل ان ايمان المؤمن قد بلغ فى الصفاء عن الشبهات والامتياز عن ظلمات الضلالات مبلغ السراج المذكور وهو قول ابى بن كعب وابن عباس قال أبى مثل نور المؤمن وهكذا كان يقرأ وقيل انه كان يقرأ مثل نور من آمن به وقال ابن عباس مثل نوره فى قلب المؤمن (وخامسها) ما ذكره الشيخ الغزالى رحمه الله وهو انا بينا ان القوى المدركة أنواع ومراتب القوى المدركة الانسانية خمسة (أحدها) القوة الحساسة وهى التى تتلقى ما تورده الحواس الخمس وكأنها أصل الروح الحيوانى وأوله اذ به يصير الحيوان حيوانا وهو موجود للصبى الرضيع (وثانيها) القوة الخيالية وهى التى تستثبت ما أورده الحواس وتحفظه مخزونا عندها لتعرضه على القوة العقلية التى فوقها عند الحاجة اليه (وثالثها) القوة العقلية المدركة للحقائق الكلية (ورابعها) القوة الفكرية وهى التى تأخذ المعارف العقلية فتؤلفها تأليفا فتستنتج من تأليفها علما بمجهول (وخامسها) القوة القدسية التى تختص بها الانبياء عليهم الصلاة والسلام وبعض الاولياء وتتجلى فيها لوائح الغيب وأسرار الملكوت واليه الاشارة بقوله تعالى وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان لكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا واذا عرفت هذه القوى فهى بجملتها أنوار اذ بها تظهر أصناف الموجودات وان هذه المراتب الخمسة يمكن تشبيهها بالامور الخمسة التى ذكرها الله تعالى وهى المشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت اما الروح

والمجئ يعديان بالى أو لمذعنين على تضمين معنى الاسراع والاقبال كما فى قوله تعالى فأقبلوا اليه يزفون والتقديم للاختصاص (أفى قلوبهم مرض) انكار واستقباح ﴿ ٤٠٤ ﴾ لاعراضهم المذكور وبيان لمنشئه بعد

استقصاء عدة من القبائح المحققة فيهم والمتوقعة منهم وتزييد المنشئية بينها فان الاستفهام ليس نفس ماولى الهمزة وأم من الامور الثلاثة بل هو منشئيتها له كما سلف أى أذلك أى اعراضهم المذكور لانهم مرضى القلوب بكفرهم ونفاقهم (أم ارتابوا) فى أمر نبوته عليه السلام مع ظهور حقيتها (أم) لانهم (يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله) ثم أضرب عن الكل وأبطلت منشئيته وحكم بان المنشأ شئ آخر من شنائعهم حيث قيل (بل أولئك هم الظالمون) أى ليس ذلك الشئ مما ذكر أما الاولان فلانه لو كان لشئ منهما لاعرضوا عنه عليه السلام عند كون الحق لهم ولما أتوا اليه عليه السلام مذعنين لحكمه لتحقق نفاقهم وارتيابهم حينئذ أيضا وأما الثالث فلانتفائه رأسا حيث كانوا لا يخافون الحيف أصلا لمعرفتهم بتفاصيل أحواله عليه السلام فى الامانة والثبات على الحق بل ﴿ الامثلة ﴾ لانهم هم الظالمون يريدون

الحساس فاذا نظرت الى خاصيته وجدت أنواره خارجة من عدة ثقب كالعينين والاذنين والمخرين وأوفق مثال له من عالم الاجسام المشكاة (وأما الثانى) وهو الروح الحيوانى فتجد له خواص ثلاثة (الاولى) انه من طينة العالم السفلى الكثيف لان الشئ المتخيل ذو قدر وشكل وحيز ومن شان العلائق الجسمانية أن تحجب عن الانوار العقلية المحضة التى هى المعقولات الكلية المجردة (الثانية) ان هذا الخيال الشفيف اذا صفا ورق وهذب صار مرآة للمعانى العقلية ومؤديا لانوارها وغير حائل عن اشراق نورها والدليل فان المعبر يستدل بالصور الخيالية على المعانى العقلية كما استدل بالشمس على الملك وبالعمر على الوزير ونحو يختم فروج الناس وأفواههم على انه مؤذن يؤذن قبل الصبح (والثالثة) ان الخيال فى بداية الامر محتاج اليه جدا ليضبط بها المعارف العقلية ولا تضرب عنها المثالات الخيالية الجالبة للمعارف العقلية وأنت لا تجد شيأ من الاجسام يشبه الخيال فى هذه الصفات الثلاثة الا الزجاجة فانها فى الاصل من جوهر كثيف ولكن صفا ورق حتى صار لا يحجب نور المصباح بل يؤديه على وجهه ثم يحفظه عن الانطفاء بالرياح العاصفة (وأما الثالث) وهو القوة العقلية فهى القوة على ادراك الماهيات الكلية والمعارف الالهية فلا يخفى عليك وجه تمثيله بالمصباح وقد عرفت هذا حيث بينا كون الانبياء سراجا منيرة (وأما الرابع) وهو الفكرية فمن خواصها انها تأخذ ماهية واحدة ثم تقسمها الى قسمين كقولنا الموجود اما واجب واما ممكن ثم تجعل كل قسم مرة أخرى قسمين وهكذا الى أن تكثر الشعب بالتقسيمات العقلية ثم تفضى بالآخرة الى نتائج وهى ثمراتها ثم تعود فتجعل تلك الثمرات بذورا لاشتهاء حتى تتادى الى ثمرات لا نهاية لها فبالحرى أن يكون مثاله من هذا العالم الشجرة واذا كانت ثمارها مادة لتزيد أنوار المعارف ونباتها فبالحرى أن لا يمثل بشجرة السفرجل والتفاح بل بشجرة الزيتون خاصة لان اب ثمرتها هو الزيت الذى هو مادة المصابيح وله من بين سائر الادهان خاصية زيادة الاشراق وقلة الدخان واذا كانت الماشية التى يكثر درها ونسلها والشجرة التى تكثر ثمرتها تسمى مباركة فالذى لا يتناهى الى حد محدود اولى أن يسمى شجرة مباركة واذا كانت شعب الافكار العقلية المحضة مجردة عن لواحق الاجسام فبالحرى أن تكون لا شرقية ولا غربية (وأما الخامس) وهو القوة القدسية النبوية فهى فى نهاية الشرف والصفاء فان القوة الفكرية تنقسم الى ما يحتاج الى تعليم وتنبيه والى ما لا يحتاج اليه ولا بد من وجود هذا القسم قطعا للتسلسل فبالحرى ان يعبر عن هذا القسم بكماله وصفائه وشدة استعداده بانه يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار فهذا المثال موافق لهذا القسم ولما كانت هذه الانوار مرتبة بعضها على بعض فالحس هو الاول وهو كالمقدمة للخيال والخيال كالمقدمة للعقل فبالحرى أن تكون المشكاة كالظرف للزجاجة التى هى كالظرف للمصباح (وسادسها) ما ذكره أبو على بن سينا فانه نزل هذه

أن يظلموا من له الحق عليهم و يتم لهم جحوده فيأبون المحاكمة اليه عليه الصلاة والسلام لعلمهم بانه عليه الصلاة والسلام تقضى عليهم بالحق فتناط النفي المستفاد ﴿ ٤٠٥ ﴾ من الاضراب في الاولين هو وصف منشئيتهما للاعراض فقط مع تحققهما في نفسهما وفي الثالث هو الاصل والوصف جميعا هذا وقد خص الارتياب بالله منشأ صحيحا لعروضه لهم في الجملة والمعنى أم ارتابوا بان رأوا منه عليه الصلاة والسلام تهمة فزالت ثقتهم و يقينهم به عليه الصلاة والسلام فحدثت حينئذ نفس الارتياب ومنشئيته معا فتأمل فيما ذكر على التفصيل ودع عنك ماقيل واقيل حسبما يقتضيه النظر الجليل (انما كان قول المؤمنين) بالنصب على أنه خبر كان وأن مع ما في حيزها اسمها وقرئ بالرفع على العكس والاول أقوى صناعة لان الاولى للاسمية ماهو أوغل في التعريف وذلك هو الفعل المصدر بان اذ لاسبيل اليه للتنكير بخلاف قول المؤمنين فانه يحتمله كما اذا اعتزلت عنه الاضافة لكن قراءة الرفع أفيد بحسب المعنى وأوفى لمقتضى المقام لما أن مصب الفائدة وموقع البيان في الجمل هو الخبر فالاخق بالخبرية ماهو أكثر افادة وأظهر

الامثلة الخمسة على مراتب ادراكات النفس الانسانية فقال لاشك ان النفس الانسانية قابلة للمعارف الكلية والادراكات المجردة ثم انها في أول الامر تكون خالية عن جميع هذه المعارف فهناك تسمى عقلا هيولانيا وهي المشكاة وفي المرتبة الثانية يحصل فيها العلوم البديهية التي يمكن التوصل بتركيباتها الى اكتساب العلوم النظرية ثم ان امكنه الانتقال ان كانت ضعيفة فهي الشجرة وان كانت أقوى من ذلك فهي الزيت وان كانت شديدة القوة جدا فهي الزجاجة التي تكون كانها الكوكب الدري وان كانت في النهاية القصوى وهي النفس القدسية التي للانبياء فهي التي يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار (وفي المرتبة الثالثة) يكتسب من العلوم الفطرية الضرورية العلوم النظرية الا أنها لاتكون حاضرة بالفعل ولكنها تكون بحيث متى شاء صاحبها استحضارها اقتدر عليه وهذا يسمى عقلا بالفعل وهو المصباح (وفي المرتبة الرابعة) أن تكون تلك المعارف الضرورية والنظرية حاصلة بالفعل و يكون صاحبها كانه ينظر اليها وهذا يسمى عقلا مستفادا وهو نور على نور لان الملكة نور وحصول ماعليه الملكة نور آخر ثم زعم ان هذه العلوم التي تحصل في الارواح البشرية انما تحصل من جوهر روحاني يسمى بالعقل الفعال وهو مدبر ماتحت كرة القمر وهو النار (وسابعها) قول بعض الصوفية هو انه سبحانه شبه الصدر بالمشكاة والقلب بالزجاجة والمعرفة بالمصباح وهذا المصباح انما توقد من شجرة مباركة وهي الهامات الملائكة لقوله تعالى ينزل الملائكة بالروح من أمره وقوله نزل به الروح الامين على قلبك وانما شبه الملائكة بالشجرة المباركة لكثرة منافعهم وانما وصفها بانها لاشرقية ولاغربية لانها روحانية وانما وصفهم بقوله يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار لكثرة علومها وشدة اطلاعها على أسرار ملكوت الله تعالى والظاهر ههنا ان المشبه غير المشبه به (وثامنها) قال مقاتل مثل نوره أي مثل نور الايمان في قلب محمد صلى الله عليه وسلم كمشكاة فيها مصباح فالمشكاة نظير صلب عبد الله والزجاجة نظير جسد محمد صلى الله عليه وسلم والمصباح نظير الايمان في قلب محمد أو نظير النبوة في قلبه (وتاسعها) قال قوم المشكاة نظير ابراهيم عليه السلام والزجاجة نظير اسمعيل عليه السلام والمصباح نظير جسد محمد صلى الله عليه وسلم والشجرة النبوة والرسالة (وعاشرها) ان قوله مثل نوره يرجع الى المؤمن وهو قول أبي بن كعب وكان يقرأها مثل نور المؤمن وهو قول سعيد بن جبير والضحاك واعلم ان القول الاول هو المختار لانه تعالى ذكر قبل هذه الآية ولقد أنزلنا اليكم آيات فاذا كان المراد بقوله مثل نوره أي مثل هداه و بيانه كان ذلك مطابقا لما قبله ولانا لما فسرنا قوله الله نور السموات والارض بانه هادي أهل السموات والارض فاذا فسرنا قوله مثل نوره بان المراد مثل هداه كان ذلك مطابقا لما قبله (الفصل الرابع) في بقية المباحث المتعلقة بهذه الآية وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المشكاة الكوة في الجدار غير النافذة هذا هو القول المشهور وذكروا فيه وجوها أخر (أحدها)

دلالة على الحدوث وأوفر اشتمالا على نسب خاصة بعيدة من الوقوع فى الخارج وفى ذهن السامع ولا ريب فى أن ذلك ههنا فى أن مع ما فى حيزها أتم وأكمل فاذا هو أحق بالجريرة ﴿ ٤٠٦ ﴾ وأما ما تفيده الاضافة من النسبة الاجمالية فحيث كانت قليلة الجدوى سهلة الحصول خارجا وذهنا كان حقها أن تهمل ملاحظة مجملة وتجعل عنوانا للموضوع فالمعنى انما كان مساق قول المؤمنين (اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم) أى الرسول عليه الصلاة والسلام (بينهم) أى وبين خصومهم سواء كانوا منهم أو من غيرهم (أن يقولوا سمعنا وأطعنا) أى خصوصية هذا القول المحكى عنهم لا قولا آخر أصلا وأما قراءة النصب فمعناها انما كان قول المؤمنين أى انما كان قولا لهم عند الدعوة خصوصية قولهم المحكى عنهم ففيه من جعل أخص النسبتين وأبعدهما وقوعا وحضورا فى الاذهان وأحقهما بالبيان مفروغا عنها عنوانا للموضوع وابرازا هو بخلافها فى معرض القصد الاصلى مالا يخفى وقرئ ليحكم على بناء الفعل للمفعول مسندا الى مصدره مجاوبا لقوله تعالى اذا دعوا أى ليفعل الحكم كما فى

قال ابن عباس وأبو موسى الاشعرى المشكاة القائم الذى فى وسط القنديل الذى يدخل فيه الفتيلة وهو قول مجاهد والقرظى (والثانى) قال الزجاج هى ههنا قصبة القنديل من الزجاجة التى توضع فيها الفتيلة (الثالث) قال الضحاك انها الحلقة التى يعلق بها القنديل والاول هو الاصح (المسئلة الثانية) زعموا ان المشكاة هى الكوة بلغة الحبشة قال الزجاج المشكاة من كلام العرب ومثلها المسكاة وهى الدقيق الصغير (المسئلة الثالثة) قال بعضهم هذه الآية من المتلو والتقدير مثل نوره كمصباح فى مشكاة لان المشبه به هو الذى يكون معدنا للنور ومنبعا له وذلك هو المصباح لا المشكاة (المسئلة الرابعة) المصباح السراج وأصله من الضوء ومنه الصبح (المسئلة الخامسة) قرئ زجاجة الزجاجة بالضم والفتح والكسر (أما درى) قرئ بضم الدال وكسرها وفتحها (أما الضم) ففيه ثلاثة أوجه (الاول) ضم الدال وتشديد الراء والياء من غير همز وهو القراءة المعروفة ومعناه انه يشبه الدر لصفائه ولمعانه وقال عليه الصلاة والسلام انكم ترون أهل الدرجات العلى كما ترون الكوكب الدرى فى أفق السماء (والثانى) انه كذلك الا انه بالهمز وهو قراءة حمزة وعاصم فى رواية أبى بكر وسار بعض أهل العربية الى انه لحن قال سيبويه وهذا أضعف اللغات وهو مأخوذ من الضوء والتلألؤ وليس بمنسوب الى الدر قال أبو على وجه هذه القراءة انه فعيل من الدرء بمعنى الدفع وانه صفة وانه فى الصفة مثل المرئ فى الاسم (والثالث) ضم الدال وتخفيف الراء والياء من غير مد ولا همز (أما الكسر) ففيه وجهان (الاول) درئ بكسر الدال وتشديد الراء والمد والهمز وهى قراءة أبى عمرو والكسائى قال الفراء هو فعيل من الدرء وهو الدفع كالسكير والفسيق فكان ضوءه يدفع بعضه بعضا من لمعانه (الثانى) بكسر الدال وتشديد الراء من غير همز ولا مد وهى قراءة ابن كثير وعتبة بن حماد عن نافع (أما الفتح) ففيه وجوه أربعة (الاول) بفتح الدال وتشديد الراء والمد والهمز عن الاعمش (الثانى) بفتح الدال وتشديد الراء من غير مد ولا همز عن الحسن ومجاهد وقتادة (الثالث) بفتح الدال وتخفيف الراء مهموزا من غير مد ولا ياء عن عاصم (الرابع) كذلك الا انه غير مهموز وبياء خفيفة بدل الهمزة * أما قوله توقد فالقراءة المعروفة توقد بالفتحات الاربعة مع تشديد القاف بوزن تفعل وعن الحسن ومجاهد وقتادة كذلك الا أنه بضم الدال وذكر صاحب الكشاف يوقد بفتح الياء المنقوطة من تحت بنقطتين والواو والقاف وتشديدها ورفع الدال قال وحذف التاء لاجتماع حرفين زائدين وهو غريب وعن سعيد بن جبير بياء مضمومة واسكان الواو وفتح القاف مخففة ورفع الدال وعن نافع وحفص كذلك الا أنه بالتاء وعن عاصم بياء مضمومة وفتح الواو وتشديد القاف وفتحها وعن أبى عمر وكذلك الا انه بالتاء وعن طلحة توقد بتاء مضمومة وواو ساكنة وكسر القاف وتخفيفها (المسئلة السادسة) قوله كأنها كوكب درى أى ضخم مضىء ودرارى النجوم عظامها واتفقوا على ان المراد به كوكب من الكواكب

قوله تعالى لقد تقطع بينكم أى وقع التقطع بينكم (وأولئك) اشارة الى المؤمنين باعتبار صدور القول المذكور عنهم ومافيه من معنى البعد للاشعار بعلو ﴿ ٤٠٧ ﴾ رتبتهم و بعد منزلتهم فى الفضل أى أولئك المنعوتون بماذكر من النعت الجميل (هم المفلحون) أى هم الفائزون بكل مطلب والناجون من كل محذور (ومن يطع الله ورسوله) استيناف جئ به لتقرير مضمون ماقبله من حسن حال المؤمنين وترغيب من عداهم فى الانتظام فى سلكهم أى ومن يطعهما كائنا من كان فيما أمر وابه من الاحكام الشرعية اللازمة والمتعدية وقيل فى الفرائض والسنن والاول هو الانسب بالمقام (ويخش الله ويتقه) باسكان القاف المبنى على تشبيه بكتف وقرئ بكسر القاف والهاء وباسكان الهاء أى ويخش الله على مامضى من ذنوبه ويتقه فيما يستقبل (فاولئك) الموصوفون بماذكر من الطاعة والخشية والاتقاء (هم الفائزون) بالنعيم المقيم لامن عداهم (وأقسموا بالله) حكاية لبعض آخر من اكاذيبهم مؤكد بالايمان الفاجرة وقوله تعالى (جهد أيمانهم) نصب على أنه مصدر مؤكد لفعله الذى هو فى حيز النصب على أنه حال من فاعل أقسموا أى أقسموا به تعالى

المضيئة كالزهرة والمشترى والثوابت التى فى العظم الاول (المسئلة السابعة) قوله من شجرة مباركة أى من زيت شجرة مباركة أى كثيرة البركة والنفع وقيل هى أول شجرة نبتت بعد الطوفان وقد بارك فيها سبعون نبيا منهم الخليل وقيل المراد زيتون الشام لانها هى الارض المباركة فلهذا جعل الله هذه شجرة مباركة (المسئلة الثامنة) اختلفوا فى معنى وصف الشجرة بانها لاشرقية ولاغربية على وجوه (أحدها) قال الحسن انها شجرة الزيت من الجنة اذلو كانت من شجر الدنيا لكانت اما شرقية أوغربية وهذا ضعيف لانه تعالى انما ضرب المثل بما شاهدوه وهم ماشاهدوا شجر الجنة (وثانيها) ان المراد شجرة الزيتون فى الشام لان وسط الدنيا فلا يوصف شجرها بانها شرقية أوغربية وهذا أيضا ضعيف لان من قال الارض كرة لم يثبت المشرق والمغرب موضعين معينين بل لكل بلد مشرق ومغرب على حدة ولان المثل مضروب لكل من يعرف الزيت وقد يوجد فى غير الشام كوجوده فيها (وثالثها) انها شجرة تلتف بها الاشجار فلا تصيبها الشمس فى شرق ولاغرب ومنهم من قال هى شجرة يلتف بها ورقها التفافا شديدا فلا تصل الشمس اليها سواء كانت الشمس شرقية أوغربية وليس فى الشجرة مايورق غصته من أوله الى آخره مثل الزيتون فى الزمان وهذا أيضا ضعيف لان الغرض صفاء الزيت وذلك لايحصل الا بكمال نضج الزيتون وذلك انما يحصل فى العادة بوصول اثر الشمس اليه لا بعدم وصوله (ورابعها) قال ابن عباس المراد الشجرة التى يبرز على جبل عال أو صحراء واسعة فتطلع الشمس عليها طالعة الطلوع والغروب وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة واختيار الفراء والزجاج قالا ومعناه لاشرقية وحدها ولاغربية وحدها ولكنها شرقية وغربية وهو كما يقال فلان لامسافر ولامقيم اذا كان يسافر ويقيم وهذا القول هو المختار لان الشجرة متى كانت كذلك كان زيتها فى نهاية الصفاء وحينئذ يكون مقصودا التمثيل أكمل وأتم (وخامسها) المشكاة صدر محمد صلى الله عليه وسلم والزجاجة قلبه والمصباح مافى قلبه صلى الله عليه وسلم من الدين توقد من شجرة مباركة يعنى واتبعوا ملة أبيكم ابراهيم صلوات الله عليه فالشجرة هى ابراهيم عليه السلام ثم وصف ابراهيم فقال لاشرقية ولاغربية أى لم يكن يصلى قبل المشرق ولاقبل المغرب كاليهود والنصارى بل كان عليه الصلاة والسلام يصلى الى الكعبة (المسئلة التاسعة) وصف الله تعالى زيتها بانه يكاد يضئ ولو لم تمسسه نار لان الزيت اذا كان خالصا صافيا ثم رؤى من بعيد رى كأن له شعاعا فاذا مسه النار ازداد ضوأ على ضوء كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم فاذا جاءه العلم ازداد نورا على نور وهدى على هدى قال يحيى بن سلام قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يبين له لموافقته له وهو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله وقال كعب الاحبار المراد من الزيت نور محمد صلى الله عليه وسلم أى يكاد نوره يبين للناس قبل أن يتكلم وقال الضحاك يكاد محمد صلى الله عليه وسلم يتكلم بالحكمة قبل الوحى وقال عبد الله بن رواحة

يجهدون أيمانهم جهدا ومعنى جهد اليمين بلوغ غايتها بطريق الاستعارة من قولهم جهد نفسه اذا بلغ أقصى وسعها وطاقتها أى جاهدين بالغين أقصى مراتب اليمين فى الشدة ﴿ ٤٠٨ ﴾ والوكادة وقيل هو مصدر مؤكد لأقسموا أى أقسموا اقسام اجتهاد فى اليمين قال مقاتل من حلف بالله لقد اجتهد فى اليمين (لئن أمرتهم) أى بالخروج الى الغزو لاعن ديارهم وأموالهم كما قيل لانه حكاية لما كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم أينما كنت نكن معك لئن خرجت خرجنا وان أقمت أقمنا وان أمرتنا بالجهاد جاهدنا وقوله تعالى (ليخرجن) جواب لأقسموا بطريق حكاية قولهم لاحكاية قولهم وحيث كانت مقالتهم هذه كاذبة ويمينهم فاجرة أمر عليه السلام برد هاحيث قيل (قل) أى ردا عليهم وزجرا لهم عن التفوه بها واظهارا لعدم القبول لكونهم كاذبين فيها (لاتقسموا) أى على مابنئ عنه كلامكم من الطاعة وقوله تعالى (طاعة معروفة) خبر مبتداء محذوف والجملة تعليل للنهى أى لاتقسموا على ماتدعون من الطاعة لان طاعتكم طاعة نفاقية واقعة باللسان فقط من غير مواطأة من القلب وانما عبر عنها بمعروفة ﴿ الاولى ﴾ لاذان بان كونها كذلك مشهور معروف لكل أحد وقرئ

لولم تكن فيه آيات مبينة * كانت بديهته تنبيك بالخبر

(المسئلة العاشرة) قوله تعالى نور على نور المراد ترادف هذه الانوار واجتماعها قال أبى ابن كعب المؤمن بين أربع خلال ان أعطى شكر وان ابتلى صبر وان قال صدق وان حكم عدل فهو فى سائر الناس كالرجل الحى الذى يمشى بين الاموات يتقلب فى خمس من النور كلامه نور وعمله نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره الى النور يوم القيامة قال الربيع سألت أبا العالية عن مدخله ومخرجه فقال سره وعلانيته (المسئلة الحادية عشرة) قال الجبائى دلت الآية على ان كل من جهل فمن قبله أتى والافالادلة واضحة ولو نظروا فيها لعرفوا قال أصحابنا هذه الآية صريح مذهبنا فانه سبحانه بعد ان بين ان هذه الدلائل بلغت فى الظهور والوضوح الى هذا الحد الذى لايمكن الزيادة عليه قال يهدى الله لنوره من يشاء يعنى وضوح هذه الدلائل لايكفى ولاينفع مالم يخلق الله الايمان ولايمكن أن يكون المراد من قوله يهدى الله ايضاح الادلة والبيانات لانا لو حملنا النور على ايضاح الادلة لم يجز حمل الهدى عليه أيضا والاخرج الكلام عن الفائدة فلم يبق الا حمل الهدى ههنا على خلق العلم أجاب أبو مسلم بن بحر عنه من وجهين (الاول) ان قوله يهدى الله لنوره من يشاء محمول على زيادات الهدى الذى هو كالضد للخذلان الحاصل للضال (الثانى) انه سبحانه يهدى لنوره الذى هو طريق الجنة من يشاء وشبهه بقوله يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات وزيف القاضى عبد الجبار هذين الجوابين (أما الاول) فلان الكلام المتقدم هو فى ذكر الآيات المزالة فاذا حملناه على الهدى دخل الكل فيه واذا حملناه على الزيادة لم يدخل فيه الا البعض واذا حمل على طريق الجنة لايكون داخلا فيه أصلا لا من حيث المعنى ولا من حيث اللفظ ولما زيف هذين الجوابين قال الاولى أن يقال انه تعالى هدى بذلك البعض دون البعض وهم الذين بلغهم حد التكليف واعلم ان هذا الجواب أضعف من الجوابين الاولين لان قوله يهدى الله لنوره من يشاء يفهم منه ان هذه الآيات مع وضوحها لاتكفى وهذا لايتناول الصبى والمجنون فسقط ماقالوه (المسئلة الثانية عشرة) قوله تعالى ويضرب الله الامثال للناس والمراد المكلفين من الناس وهو النبى ومن بعث اليه فانه سبحانه ذكر ذلك فى معرض النعمة العظيمة واستدلت المعتزلة به فقالوا انما يكون ذلك نعمة عظيمة لو أمكنهم الانتفاع به ولو كان الكل بخلق الله تعالى لما تمكنوا من الانتفاع به وجوابه ماتقدم ثم بين انه سبحانه بكل شئ عليم وذلك كالوعيد لمن لايعتبر ولايتفكر فى امثاله ولاينظر فى أدلته فيعرف وضوحها وبعدها عن الشبهات * قوله تعالى (فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لاتلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله واقام الصلوة وايتاء الزكوة يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار ليجزيهم الله أحسن ماعملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب) اعلم ان فى الآية مسائل (المسئلة

الاولى) قوله تعالى فى بيوت أذن الله يقتضى محذوفا يكون فيها وذكروا فيه وجوها (أحدها) ان التقدير كمشكاة فيها مصباح فى بيوت اذن الله وهو اختيار كثير من المحققين اعترض أبو مسلم بن بحر الاصفهانى عليه من وجهين (الاول) ان المقصود من ذكر المصباح المثل وكون المصباح فى بيوت أذن الله لايزيد فى هذا المقصود لان ذلك لايزيد المصباح انارة واضاءة (الثانى) ان ماتقدم ذكره فيه وجوه تقتضى كونه واحدا كقوله كمشكاة وقوله فيها مصباح وقوله فى زجاجة وقوله كانها كوكب درى ولفظ البيوت جمع ولايصح كون هذا الواحد فى كل البيوت (والجواب) عن الاول ان المصباح الموضوع فى الزجاجة الصافية اذا كان فى المساجد كان أعظم وأضخم فكان أضوأ وكان التمثيل به أتم وأكمل (وعن الثانى) أنه لما كان القصد بالمثل هو الذى له هذا الوصف فيدخل تحته كل مشكاة فيها مصباح فى زجاجة توقد من الزيت وتكون الفائدة فى ذلك أن ضوأها يظهر فى هذه البيوت بالليالى عند الحاجة الى عبادة الله تعالى ولو أن رجلا قال الذى يصلح لخدمتى رجل يرجع الى علمه وكفايته وقناعته يلتزم بيته لكان وان ذكره بلفظ الواحد فالمراد النوع فكذا ماذكره الله سبحانه فى هذه الآية (وثانيها) التقدير توقد من شجرة مباركة بيوت أذن الله أن ترفع (وثالثها) وهو قول أبى مسلم انه راجع الى قوله ومثلا من الذين خلوا من قبلكم أى ومثلا من الذين خلوا من قبلكم فى بيوت أذن الله أن ترفع ويكون المراد بالذين خلوا الانبياء والمؤمنين والبيوت المساجد وقد اقتص الله أخبار الانبياء عليهم الصلاة والسلام وذكر أماكنهم فسماها محاريب بقوله اذ تسوروا المحراب ودخل عليها زكريا المحراب فيقول وقد أنزلنا اليكم آيات مبينات وأنزلنا أقاصيص من بعث قبلكم من الانبياء والمؤمنين فى بيوت أذن الله أن ترفع (ورابعها) قول الجبائى انه كلام مستأنف لاتعلق له بما تقدم والتقدير صلوا فى بيوت أذن الله أن ترفع (وخامسها) وهو قول الفراء والزجاج انه لاحذف فى الآية بل فيه تقديم وتأخير كانه قال يسبح فى بيوت اذن الله أن ترفع رجال صفتهم كيت وكيت وأما قول أبى مسلم فقد اعترض عليه القاضى من وجهين (الاول) ان قوله ومثلا من الذين خلوا من قبلكم المراد منه من خلا من المكذبين للرسل لتعلقه بما تقدم من الاكراه على الزنا ابتغاء الدنيا فلا يليق ذلك بوصف هذه البيوت لانها بيوت أذن الله أن يذكر فيها اسمه (الثانى) ان هذه الآية صارت منقطعة عن تلك الآية بما تخلل بينهما من قوله تعالى الله نور السموات والارض وأما قول الجبائى فقبل الاضمار لايجوز المصير اليه الا عند الضرورة وعلى التاويل الذى ذكره الفراء والزجاج لاحاجة اليه فلا يجوز المصير اليه فان قيل على قول الزجاج يتوجه عليه اشكال أيضا لان على قوله يصير المعنى فى بيوت أذن الله يسبح له فيها فيكون قوله فيها تكرارا من غير فائدة فلم قلتم ان تحمل مثل هذه الزيادة أولى من تحمل ذلك النقصان قلنا الزيادة لاجل التاكيد كثيرة فكان المصير اليها

مما لايساعده المقام (ان الله خبير بما تعملون) من الاعمال الظاهرة والباطنة التى من جملتها ماتظهرونه من الاكاذيب المؤكدة بالأيمان الفاجرة وماتضمرونه فى قلوبكم من الكفر والنفاق والعزيمة على مخادعة المؤمنين وغيرهم من فنون الشر والفساد والجملة تعليل للحكم بان طاعتهم طاعة نفاقية مشعر بان مدار شهرة أمرها فيما بين المؤمنين اخباره تعالى بذلك ووعيدلهم بانه تعالى مجازيهم بجميع أعمالهم السيئة التى منها نفاقهم (قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) كرر الامر بالقبول لابراز كمال العناية به والاشعار باختلافهما من حيث ان المقبول فى الاول نهى بطريق الرد والتقريع كما فى قوله تعالى اخسؤا فيها ولاتكلمون وفى الثانى امر بطريق التكليف والتشريع واطلاق الطاعة المامور بها عن وصف الصحة والاخلاص ونحوهما ﴿ ٥٢ ﴾ س بعد وصف طاعتهم بما ذكر للتنبيه على أنها

ليست من الطاعة فى شئ اصلا وقوله تعالى (فان تولوا) خطاب للمأمورين بالطاعة من جهته تعالى واردلتأكيد الامر بها والمبالغة فى ايجاب الامتثال به والحمل عليه بالترهيب والترغيب لما أن تغيير الكلام المسبوق لمعنى من المعانى وصرفه عن سننه المسلوك ينبئ عن اهتمام جديد بشانه من المتكلم ويستجلب مزيد رغبة فيه من السامع كما أشير اليه فى تفسير قوله تعالى ولو جئنا بمثله مددا لاسيما اذا كان ذلك بتغيير الخطاب بالواسطة الى الخطاب بالذات فان فى خطابه تعالى اياهم بالذات بعد أمره تعالى اياهم بوساطته عليه السلام وتصديه لبيان حكم الامتثال بالامر والتولى عنه اجمالا وتفصيلا من المزيد مما ذكر من التاكيد والمبالغة ما لا غاية وراءه وتوهم أنه داخل تحت القول المامور به كما تقدم من جهته تعالى وأنه أبلغ فى التبكيت تعكيس الامر والفاء لترتيب ما بعدها على تبليغه عليه السلام للمامور به اليهم وعدم التصريح به للايذان بغاية ظهور مسارعته عليه السلام الى تبليغ ما أمر به وعدم الحاجة الى الذكر أى ان تتولوا عن الطاعة اثر ما أمرتم بها (فانما عليه) أى فاعلموا أنما عليه عليه السلام (ماحمل) أى أمر به من

أولى (المسئلة الثانية) اكثر المفسرين قالوا المراد من قوله فى بيوت المساجد وعن عكرمة فى بيوت قال هى البيوت كلها والاول اولى لوجهين (الاول) ان فى البيوت ما لا يمكن أن يوصف بان الله تعالى أذن أن ترفع (الثانى) انه تعالى وصفها بالذكر والتسبيح والصلاة وذلك لا يليق الا بالمساجد ثم القائلين بان المراد هو المساجد قولان (احدهما) ان المراد أربع مساجد الكعبة بناها ابراهيم واسمعيل عليهما الصلاة السلام وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ومسجد المدينة بناه النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ومسجد قباء الذى أسس على التقوى بناه النبى صلى الله عليه وسلم وعن الحسن هو بيت المقدس يسرج فيه عشرة آلاف قنديل (والثانى) ان المراد هو جميع المساجد والاول ضعيف لانه تخصيص بلا دليل فالاولى حمل اللفظ على جميع المساجد قال ابن عباس رضى الله عنهما المساجد بيوت الله فى الارض وهى تضئ لاهل السماء كما تضئ النجوم لاهل الارض (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى المراد من قوله أن ترفع على اقوال (أحدها) المراد من رفعها بناؤها لقوله بناها رفع سمكها فسواها وقوله واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وعن أبن عباس رضى الله عنهما فى المساجد أمر الله أن تبنى (وثانيها) ترفع اى تعظم وتطهر عن الانجاس وعن اللغو من الاقوال عن الزجاج (وثالثها) المراد مجموع الامرين (والقول الثانى) أولى لان قوله فى بيوت أذن الله أن ترفع ظاهره انها كانت بيوتا قبل الرفع فاذن الله أن ترفع (المسئلة الرابعة) اختلفوا فى المراد من قوله ويذكر فيها اسمه فالقول الاول انه عام فى كل ذكر (والثانى) ان يتلى فيها كتابه عن ابن عباس (والثالث) لا يتكلم فيها بما لا ينبغى والاول أولى لعموم اللفظ (المسئلة الخامسة) قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم يسبح بفتح الباء والباقون بكسرها فعلى القراءة الاولى يكون الفعل ممتدا الى آخر الظروف الثلاثة أعنى له فيها بالغدو والآصال ثم قال الزجاج رجال مرفوع لانه لما قال يسبح له فيها فكانه قيل من يسبح فقيل يسبح رجال (المسئلة السادسة) اختلفوا فى هذا التسبيح فالاكثرون حملوه على نفس الصلاة ثم اختلفوا فمنهم من حمله على كل الصلوات الخمس ومنهم من حمله على صلاتى الصبح والعصر فقال كانتا واجبتين فى ابتداء الحال ثم زيد فيهما ومنهم من حمله على التسبيح الذى هو تنزيه الله تعالى عما لا يليق به فى ذاته وفعله واحتج عليه بان الصلاة والزكاة قد عطفهما على ذلك من حيث قال عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة وهذا الوجه أظهر (المسئلة السابعة) الآصال جمع أصل والاصل جمع أصيل وهو العشى وانما وحد الغدو لانه فى الاصل مصدر لا يجمع والاصيل اسم جمع قال صاحب الكشاف بالغدو أى باوقات الغدوات وقرئ والايصال وهو الدخول فى الاصيل يقال آصل كاعتم وأظهر قال ابن عباس رحمهما الله تعالى ان صلاة الضحى لفى كتاب الله تعالى مذكورة وتلا هذه الآية وروى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ما من أحد

التبليغ وقد شاهدتموه عند قوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول (وعليكم ما حملتم) أي ما أمرتم به من الطاعة ولعل التعبير عنه بالتحميل للاشعار بثقله وكونه مؤنة باقية ﴿ ٤١١ ﴾ في عهدتهم بعد كأنه قيل وحيث توليتم عن ذلك فقد بقيتم تحت ذلك الحمل الثقيل وقوله تعالى ما حمل محمول على المشاكلة (وان تطيعوه) أي فيما أمركم به من الطاعة (تهتدوا) الى الحق الذي هو المقصد الاصلي الموصل الى كل خير والمنجي من كل شر وتأخيره عن بيان حكم التولي لما في تقديم الترهيب من تأكيد الترغيب وتقريبه مما هو من بابه من الوعد الكريم وقوله تعالى (وما على الرسول الا البلاغ المبين) اعتراض مقرر لما قبله من أن غائلة التولي وفائدة الاطاعة مقصورتان عليهم واللام اما للجنس المنتظم له عليه السلام انتظاما أوليا أو للعهد أي ما على جنس الرسول كائنا من كان أو ما عليه عليه السلام الا التبليغ الموضح لكل ما يحتاج الى الايضاح أو الواضح على أن المبين من أبان بمعنى بان وقد علمتم أنه قد فعله بالامر به عليه وانما بقي ما حملتم وقوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم) استئناف مقرر لما في قوله تعالى وان تطيعوه تهتدوا من الوعد الكريم ومعرب

يغدو ويروح الى المسجد يوئره على ما سواه الا وله عند الله نزل يعده له في الجنة وفي رواية سهل بن سعد مرفوعا من غدا الى المسجد وراح لم يعلم خيرا أو ليتعلمه كان كمثل المجاهد في سبيل الله يرجع غانما (المسئلة الثامنة) اختلفوا في قوله تعالى لا تلهيهم تجارة فقال بعضهم نفى كونهم تجارا وباعة أصلا وقال بعضهم بل اثبتهم تجارا وباعة وبين انهم مع ذلك لا يشغلهم عنها شاغل من ضروب منافع التجارات وهذا قول الاكثرين قال الحسن أما والله ان كانوا ليتجرون ولكن اذا جاءت فرائض الله لم يلههم عنها شئ قاموا بالصلاة والزكاة وعن سالم نظر الى قوم من أهل السوق تركوا بياعاتهم وذهبوا الى الصلاة فقال هم الذين قال تعالى لا تلهيهم تجارة وعن ابن مسعود مثله واعلم أن هذا القول أولى من الاول لانه لا يقال ان فلانا لا تلهيه التجارة عن كيت وكيت الا وهو تاجر وان احتمل الوجه الاول وههنا سؤالات (السؤال الاول) لما قال لا تلهيهم تجارة دخل فيه البيع فلم اعاد ذكر البيع قلنا (الجواب) عنه من وجوه (الاول) أن التجارة جنس يدخل تحته انواع الشراء والبيع الا أنه سبحانه خص البيع بالذكر لانه في الالهاء أدخل لان الربح الحاصل في البيع يقين ناجز والربح الحاصل في الشراء شك ومستقبل (الثاني) ان البيع يقتضي تبديل العرض بالنقد والشراء بالعكس والرغبة في تحصيل النقد أكثر من العكس (الثالث) قال الفراء التجارة لاهل الجلب يقال اتجر فلان في كذا اذا جلبه من غير بلده والبيع ما باعه على يديه (السؤال الثاني) لم خص الرجال بالذكر (والجواب) لان النساء اسن من أهل التجارات والجماعات (المسئلة التاسعة) اختلفوا في المراد بذكر الله تعالى فقال قوم المراد الثناء على الله تعالى والدعوات وقال آخرون المراد الصلوات فان قيل فما معنى قوله واقام الصلاة قلنا عنه جوابان (أحدهما) قال ابن عباس رضي الله عنهما المراد باقام الصلاة اقامتها لمواقيتها (والثاني) يجوز أن يكون قوله واقام الصلاة تفسيرا لذكر الله فهم يذكرون الله قبل الصلاة وفي الصلاة (المسئلة العاشرة) قد ذكرنا في أول تفسير سورة البقرة في قوله ويقيمون الصلاة أن اقام الصلاة هو القيام بحقها على شروطها والوجه في حذف الهاء ما قاله الزجاج يقال اقمت الصلاة اقامة وكان الاصل اقواما ولكن قلبت الواو ألفا فاجتمع ألفان فحذفت احداهما لالتقاء الساكنين فبقي اقمت الصلاة اقاما فادخلت الهاء عوضا من المحذوف وقامت الاضافة ههنا في التعويض مقام الهاء المحذوفة قال وهذا اجماع من النحويين (المسئلة الحادية عشرة) اختلفوا في الصلاة فمنهم من قال هي الفرائض ومنهم من ادخل فيه النفل على ما حكيناه في صلاة الضحى عن ابن عباس والاول أقرب لانه الى التعريف اقرب وكذلك القول في الزكاة أن المراد المفروض لانه المعروف في الشرع المسمى بذلك وقال ابن عباس رضي الله عنهما المراد من الزكاة طاعة الله تعالى والاخلاص وكذا في قوله وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وقوله ما زكا منكم من أحد وقوله تطهرهم وتزكيهم بها وهذا ضعيف لما تقدم

عنه بطريق التصريح وبين بتفاصيل ما أجمل فيه من فنون السعادات الدينية والدنيوية التي هي من آثار الاهتداء ومتضمن لما هو المراد بالطاعة التي يناط بها الاهتداء والمراد بالذين آمنوا كل من اتصف بالايمان بعد الكفر على الاطلاق من أي طائفة كان وفي أي وقت كان لا من آمن من طائفة المنافقين فقط ولا من آمن بعد نزول الآية الكريمة فحسب ضرورة عموم الوعد الكريم لكل ذلك فالخطاب في منكم لعامة الكفرة لا للمنافقين خاصة ومن تبعيضية (وعملوا الصالحات) عطف على آمنوا داخل معه في حيز الصلة وبه يتم تفسير الطاعة التي أمرناه ورتب عليها ما نظم في سلك الوعد الكريم كما أشير إليه وتوسيط التعرض بين المعطوفين لاظهار أصالة الايمان وعراقته في استتباع الآثار والاحكام ولابد أن يكون أول ما طلب منهم وأهم ما يجب عليهم وأما تأخيره عنهما في قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما فلان من هناك بيانية والضمير للذين معه عليه السلام من خلص المؤمنين ولا ريب في أنهم جامعون بين الايمان والاعمال الصالحة مثابرون عليهما فلا بد من ورود بيانهم بعد ذكر نعوتهم الجليلة

ولانه تعالى علق الزكاة بالايتاء وهذا لا يحمل الا على ما يعطى من حقوق المال (المسئلة الثانية عشرة) انه سبحانه بين أن هؤلاء الرجال وان تعبدوا بذكر الله والطاعات فانهم مع ذلك موصوفون بالوجل والخوف فقال يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والابصار وذلك الخوف انما كان لعلمهم بانهم ما عبدوا الله حق عبادته واختلفوا في المراد بتقلب القلوب والابصار على اقوال (فالقول الاول) ان القلوب تضطرب من الهول والفزع وتشخص الابصار لقوله واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر (الثاني) أنها تتغير أحوالها فتفقه القلوب بعد أن كانت مطبوعا عليها لا تفقه وتبصر الابصار بعد أن كانت لا تبصر فكانهم انقلبوا من الشك الى الظن ومن الظن الى اليقين ومن اليقين الى المعاينة لقوله وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وقوله لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك (الثالث) أن القلوب تتقلب في ذلك اليوم طمعا في الجنة وحذرا من الهلاك والابصار تتقلب من أي ناحية يؤمر بهم أمن ناحية اليمين أم من ناحية الشمال ومن أي ناحية يعطون كتابهم أمن قبل الايمان أم من قبل الشمائل والمعتزلة لا يرضون بهذا التاويل فانهم قالوا ان أهل الثواب لا خوف عليهم البتة في ذلك اليوم وأهل العقاب لا يرجون العفو لكنا بينا فساد هذا المذهب غير مرة (الرابع) أن القلوب تزول عن أماكنها فتبلغ الحناجر والابصار تصير زرقا قال الضحاك يحشر الكافر وبصره حديد وتزرق عيناه ثم يعمى ويقال القلب من الخوف حيث لا يجد مخلصا حتى يقع في الحنجرة فهو قوله اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين (الخامس) قال الجبائي المراد بتقلب القلوب والابصار تغيرها انيا بسبب ما ينالها من العذاب فتكون مرة بهيئة ما تضج بالنار ومرة بهيئة ما تحرق قال ويجوز أن يريد به تقلبها على جمر جهنم وهو معنى قوله تعالى ونقلب افئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة (المسئلة الثالثة عشرة) قوله ليجزيهم الله أحسن ما عملوا أي يفعلون هذه القربات ليجزيهم الله ويثيبهم على أحسن ما عملوا وفيه وجوه (الاول) المراد بالاحسن الحسنات اجمع وهي الطاعات فرضها ونفلها قال مقاتل انما ذكر الاحسن تنبيها على انه لا يجازيهم على مساوي أعمالهم بل يغفرها لهم (الثاني) انه سبحانه يجزيهم جزاء أحسن ما عملوا على الواحد عشرا الى سبعمائة (الثالث) قال القاضي المراد بذلك أن تكون الطاعات منهم مكفرة لمعاصيهم وانما يجزيهم الله تعالى باحسن الاعمال وهذا مستقيم على مذهبه في الاحباط والموازنة أما قوله تعالى ويزيدهم من فضله فالمعنى انه تعالى يجزيهم باحسن الاعمال ولا يقتصر على قدر استحقاقهم بل يزيدهم من فضله على ما ذكره تعالى في سائر الآيات من التضعيف فان قيل فهذا يدل على ان لفعل الطاعة اثرا في استحقاق الثواب لانه تعالى ميز الجزاء عن الفضل وأنتم لا تقولون بذلك فان عند كم العبد لا يستحق على ربه شيئا قلنا نحن نثبت الاستحقاق لكن بالوعد فذاك القدر هو المستحق والزائد عليه هو الفضل ثم قال والله يرزق من يشاء بغير حساب نبه به

بكالها هذا ومن جعل الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام وللامة عموما على أن من تبعيضية أوله عليه السلام ولمن معه من المؤمنين خصوصا على أنها بيانية فقد نأى عما يقتضيه سياق النظم الكريم وسياقه بمنازل وأبعد

على كمال قدرته وكمال جوده ونفاذ مشيئته وسعة احسانه فكان سبحانه لما وصفهم بالجد والاجتهاد في الطاعة ومع ذلك يكونون في نهاية الخوف فالحق سبحانه يعطيهم الثواب العظيم على طاعاتهم ويزيدهم الفضل الذي لا حد له في مقابلة خوفهم * قوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة تحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) اعلم انه سبحانه لما بين حال المؤمن وأنه في الدنيا يكون في النور وبسببه يكون متمسكا بالعمل الصالح ثم بين انه في الآخرة يكون فائزا بالنعيم المقيم والثواب العظيم اتبع ذلك بان بين أن الكافر يكون في الآخرة في أشد الخسران وفي الدنيا في أعظم أنواع الظلمات وضرب لكل واحد منهما مثلا أما المثل الدال على خيبته في الآخرة فهو قوله والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة قال الازهري السراب ما يترائى للعين وقت الضحى الاكبر في الفلوات شبيه الماء الجاري وليس بماء ولكن الذي ينظر اليه من بعيد يظنه ماء جاريا يقال سرب الماء يسرب سروبا اذا جرى فهو سارب أما الآل فهو ما يترائى للعين في أول النهار في رى الناظر الصغير كبيرا وظاهر كلام الخليل أن الآل والسراب واحد وأما القيعة فقال الفراء هو جمع قاع مثل جار وجيرة والقاع المنبسط المستوى من الارض وقال صاحب الكشاف القيعة بمعنى القاع وقال الزجاج الظمآن قد يخفف همزه وهو الشديد العطش ثم وجه التشبيه أن الذي يأتي به الكافر ان كان من افعال البر هو لا يستحق عليه ثوابا مع أنه يعتقد أن له ثوابا عليه وان كان من أفعال الاثم فهو يستحق عليه عقابا مع انه يعتقد أنه يستحق عليه ثوابا فكيف كان فهو يعتقد أن له ثوابا عند الله تعالى فاذا وافى عرصات القيامة ولم يجد الثواب بل وجد العقاب العظيم عظمت حسرته وتناهى غمه فيشبه حاله حال الظمآن الذي تشتد حاجته الى الماء فاذا شاهد السراب تعلق قلبه به ويرجو به النجاة ويقوى طمعه فاذا جاءه وأيس مما كان يرجوه فيعظم ذلك عليه وهذا المثل في غاية الحسن قال مجاهد السراب عمل الكافر وأتيانه اياه موته ومفارقة الدنيا فان قيل قوله حتى اذا جاءه يدل على كونه شيئا وقوله لم يجده شيئا مناقض له قلنا الجواب عنه من وجوه ثلاثة (الاول) المراد معناه انه لم يجده شيئا نافعا كما يقال فلان ما عمل شيئا وان كان قد اجتهد (الثاني) حتى اذا جاءه اى جاء موضع السراب لم يجد السراب شيئا فاكتفى بذكر السراب عن ذكر موضعه (الثالث) الكناية للسراب لان السراب يرى من بعيد بسبب الكثافة كانه ضباب وهباء واذا قرب منه رق وانتثر وصار كالهواء أما قوله و وجد الله عنده فوفاه حسابه أي وجد عقاب الله الذي توعد به الكافر عند ذلك فغير ما كان فيه من ظن النفع العظيم الى تيقن الضرر العظيم أو وجد بانية الله عنده يأخذونه فيقبلون به الى جهنم فيستقونه الحميم والغساق

عما يليق بشانه عليه السلام بمراحل (ليستخلفنهم في الارض) جواب للقسم اما بالاضمار أو بتنزيل وعده تعالى منزلة القسم لتحقق انجازه لامحالة أي ليجعلنهم خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك في مماليكهم وخلفا من الذين لم يكونوا على حالهم من الايمان والاعمال الصالحة (كما استخلف الذين من قبلهم) هم بنو اسرائيل استخلفهم الله عز وجل في مصر والشام بعد اهلاك فرعون والجبابرة أو هم ومن قبلهم من الامم المؤمنة التي أشير اليهم في قوله تعالى ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله جاءتهم رسلهم بالبينات الى قوله تعالى فأوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الارض من بعدهم ومحل الكاف النصب على انه مصدر تشبيهي مؤكد للفعل بعد تأكيده بالقسم وما مصدرية اى ليستخلفنهم استخلافا كائنا كاستخلافه تعالى للذين من قبلهم وقرئ كما استخلف على البناء

للمفعول فليس العامل فى الكاف حينئذ الفعل المذكور بل مايدل هوعليه من فعل مبنى هو للمفعول جارمنه مجرى المطاوع فان استخلافه تعالى اياهم مستلزم لكونهم مستخلفين فيها استخلافا أى مستخلفية كائنة كمستخلفية من قبلهم وقدمر تحقيقه فى قوله تعالى كما سئل موسى من قبل ومن هذا القبيل قوله تعالى وأنبتها نباتا حسنا على أحد الوجهين أى فنبتت نباتا حسنا وعليه قول من قال *

وعضة دهر يا ابن مروان *لم تدع من المال الامسحت أومجلف *

أى فلم يبق الامسحت الخ (وليمكنن لهم دينهم) عطف على ليستخلفنهم منتظم معه فى سلك الجواب وتأخيره عنه كونه أجل الرغائب الموعودة وأعظمها الما أن النفوس الى الحظوظ العاجلة اميل فتصدير المواعيد بها فى الاستمالة ادخل والمعنى ليجعلن دينهم ثابتا مقررا بحيث يستمرون على العمل باحكامه ويرجعون اليه فى كل مايأتون ومايذرون والتعبير عن ذلك بالتمكين الذى هوجعل الشئ مكانا لآخر يقال مكن له فى الارض أى جعلها مقرا له ومنه قوله تعالى انا مكناله فى الارض ونظائره وكلمة فى للايذان بان

وهم الذين قال الله تعالى فيهم عاملة ناصبة و يحسبون انهم يحسنون صنعا وقدمنا الى ماعملوا من عمل وقيل نزلت فى عتبة بن ربيعة بن أمية كان قد تعبد ولبس المسوح والتمس الدين فى الجاهلية ثم كفر فى الاسلام أما قوله والله سريع الحساب فذلك لانه سبحانه عالم بجميع المعلومات فلايشق عليه الحساب وقال بعض المتكلمين معناه لايشغله محاسبة واحد عن آخر كنحن ولو كان يتكلم بآلة كما يقوله المشبهة لما صح ذلك (واما المثل الثانى) فهو قوله أو كظلمات فى بحر لجى وفى لفظة أو ههنا وجوه (أحدها) اعلم أن الله تعالى بين ان أعمال الكفار ان كانت حسنة فمثلها السراب وان كانت قبيحة فهو الظلمات (وثانيها) تقدير الكلام أن اعمالهم اما كسراب بقيعة وذلك فى الآخرة واما كظلمات فى بحر وذلك فى الدنيا (وثالثها) الآية الاولى فى ذكر أعمالهم وأنهم لايتحصلون منها على شئ والآية الثانية فى ذكر عقائدهم فانها تشبه الظلمات كما قال يخرجهم من الظلمات الى النور أى من الكفر الى الايمان يدل عليه قوله تعالى ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور وأما البحر اللجى فهو ذو اللجة التى هى معظم الماء الغمر البعيد القعر وفى اللجى لغتان كسر اللام وضمها واما تقرير المثل فهو أن البحر اللجى يكون قعره مظلما جدا بسبب غمورة الماء فاذا تراد فت عليه الامواج ازدادت الظلمة فاذا كان فوق الامواج سحاب بلغت الظلمة النهاية القصوى فالواقع فى قعر هذا البحر اللجى يكون فى نهاية شدة الظلمة ولما كانت العادة فى اليد أنها من أقرب مايراها ومن أبعد مايظن انه لايراها فقال تعالى لم يكد يراها و بين سبحانه بهذا بلوغ تلك الظلمة الى اقصى النهايات ثم شبه به الكافر فى اعتقاده وهو ضد المؤمن فى قوله تعالى نور على نور وفى قوله يسعى نورهم بين ايديهم وبايمانهم ولهذا قال أبى بن كعب الكافر يتقلب فى خمس من الظلم كلامه وعمله ومدخله ومخرجه ومصيره الى النار وفى كيفية هذا التشبيه وجوه اخر (أحدها) أن الله تعالى ذكر ثلاثة أنواع من الظلمات ظلمة البحر وظلمة الامواج وظلمة السحاب وكذا الكافر له ظلمات ثلاثة ظلمة الاعتقاد وظلمة القول وظلمة العمل عن الحسن (وثانيها) شبه اقلبه وبصره وسمعه بهذه الظلمات الثلاث عن ابن عباس (وثالثها) أن الكافر لايدرى ولايدرى انه لايدرى و يعتقد انه يدرى فهذه المراتب الثلاث تشبه تلك الظلمات (ورابعها) أن هذه الظلمات متراكمة فكذا الكافر اشدة اصراره على كفره قد تراكمت عليه الضلالات حتى ان اظهر الدلائل اذا ذكرت عنده لايفهمها (وخامسها) قلب مظلم فى صدر مظلم فى جسد مظلم أما قوله ظلمات بعضها فوق بعض فروى عن ابن كثير انه قرأ سحاب وقرأ ظلمات بالجر على البدل من قوله أو كظلمات وعنه أيضا انه قرأ سحاب ظلمات كما يقال سحاب رحمة وسحاب عذاب على الاضافة وقراءة الباقين سحاب ظلمات كلاهما بالرفع والتنوين وتمام الكلام عند قوله سحاب ثم ابتدأ ظلمات أى ماتقدم ذكره ظلمات بعضها فوق بعض أما قوله لم يكد يراها ففيه قولان (أحدهما) أن كاد ففيه اثبات واثباته نفى فقوله وماكادوا يفعلون نفى فى

اللفظ ولكنه اثبات فى المعنى لانهم فعلوا ذلك وقوله عليه الصلاة والسلام كاد الفقر أن يكون كفرا اثبات فى اللفظ لكنه نفى فى المعنى لانه لم يكفر فكذا ههنا قوله لم يكد يراها معناه أنه رآها (والثانى) ان كاد معناه المقاربة فقوله لم يكد يراها معناه لم يقارب الوقوع ومعلوم أن الذى لم يقارب الوقوع لم يقع أيضا وهذا القول هو المختار والاول ضعيف لوجهين (الاول) أن مايكون أقل من هذه الظلمات فانه لايرى فيه شئ فكيف مع هذه الظلمات (الثانى) أن المقصود من هذا التمثيل المبالغة فى جهالة الكفار وذلك انما يحصل اذا لم توجد الرؤية البتة مع هذه الظلمات أما قوله ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور فقال أصحابنا انه سبحانه لما وصف هداية المؤمن بانها فى نهاية الجلاء والظهور عقبها بان قال يهدى الله نوره من يشاء ولما وصف ضلالة الكافر بانها فى نهاية الظلمة عقبها بقوله ومن لم يجعل الله له نورا فماله من نور والمقصود من ذلك أن يعرف الانسان أن ظهور الدلائل لايفيد الايمان وظلمة الطريق لاتمنع منه فان الكل مربوط بخلق الله تعالى وهدايته وتكوينه وقال القاضى المراد بقوله ومن لم يجعل الله له نورا اى فى الدنيا بالالطاف فماله من نور أى لايهتدى فيتحير و يحتال ومن لم يجعل الله له نورا أى مخلصا فى الآخرة وفوزا بالثواب فماله من نور والكلام عليه تزييفا وتقريرا معلوم ﴿ قوله تعالى ﴾ (ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والارض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون ولله ملك السموات والارض والى الله المصير) اعلم انه سبحانه لما وصف أنوار قلوب المؤمنين وظلمات قلوب الجاهلين أتبع ذلك بدلائل التوحيد (فالنوع الاول) ماذكره فى هذه الآية ولاشبهة فى أن المراد ألم تعلم لان التسبيح لاتتناوله الرؤية بالبصر و يتناوله العلم بالقلب وهذا الكلام وان كان ظاهره استفهاما فالمراد التقرير والبيان فنبه تعالى على مايلزم من تعظيمه بان من فى السموات يسبح له وكذلك من فى الارض وأعلم أنه اما أن يكون المراد من التسبيح دلالة هذه الاشياء على كونه تعالى منزها عن النقائص موصوفا بنعوت الجلال واما ان يكون المراد منه أنها تنطق بالتسبيح وتتكلم به واما أن يكون المراد منه فى حق البعض الدلالة على التنزيه وفى حق الباقين النطق باللسان والقسم الاول أقرب لان القسم الثانى متعذر لان فى الارض من لايكون مكلفا لايسبح بهذا المعنى والمكلفون منهم من لايسبح أيضا بهذا المعنى كالكفار أما القسم الثالث وهو أن يقال ان من فى السموات وهم الملائكة يسبحون باللسان وأما الذين فى الارض فمنهم من يسبح باللسان ومنهم من يسبح على سبيل الدلالة فهذا يقتضى استعمال اللفظ الواحد فى الحقيقة والمجاز معا وهو غير جائز فلم يبق الا القسم الاول وذلك لان هذه الاشياء مشتركة فى أن اجسامها وصفاتها دالة على تنزيه الله سبحانه وتعالى وعلى قدرته وآلهيته وتوحيده وعدله فسمى ذلك تنزيها على وجه التوسع فان قيل فالتسبيح بهذا المعنى حاصل لجميع المخلوقات فاوجه تخصيصه ههنا بالعقلاء قلنا لان خلقة العقلا أشد دلالة على وجود

فى الارض وتقديم صلة التمكين على مفعوله الصريح للمسارعة الى بيان كون الموعود من منافعهم تشويقا لهم اليه و ترغيبا لهم فى قبوله عند وروده ولان فى توسيطها بينه و بين وصفه أعنى قوله تعالى (الذى ارتضى لهم) وفى تأخيرها عنه من الاخلال بجزالة النظم الكريم مالا يخفى وفى اضافة الدين اليهم وهو دين الاسلام ثم وصفه بارتضائه لهم تأليف لقلوبهم ومزيد ترغيب فيه وفضل تثبيت عليه (وليبدلنهم) بالتشديد وقرئ بالتخفيف من الابدال (من بعد خوفهم) أى من الاعداء (أمنا) حيث كان أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة عشر سنين بل أكثر خائفين ثم هاجروا الى المدينة وكانوا يصبحون فى السلاح و يمسون كذلك حتى قال رجل منهم مايأتى علينا يوم نأمن فيه فقال عليه الصلاة والسلام

لاتعبرون الايسيرا حتى يجلس الرجل منكم فى الملاء العظيم محتبيا ليس معه حديدة فانزل الله عز وجل

وقوعه مالايخفى وقيل المراد الخوف من العذاب والامن منه فى الآخرة (يعبدوننى) حال من الموصول الاول مفيدة لتقييد الوعد بالثبات على التوحيد أواستئناف ببيان المقضى للاستخلاف وما انتظم معه فى سلك الوعد (لايشركون بى شيئا) حال من الواو أى يعبدوننى غير مشركين بى فى العبادة شيئا (ومن كفر) أى اتصف بالكفر بان ثبت واستمر عليه ولم يتأثر بما مر من الترهيب والترغيب فان الاصرار عليه بعد مشاهدة دلائل التوحيد كفر مستأنف زائد على الاصل وقيل كفر بعد الايمان وقيل كفر هذه النعمة العظيمة والاول هو الانسب بالمقام (بعد ذلك) أى بعد ذلك الوعد الكريم بما فصل من المطالب العالية المستوجبة لغاية الاهتمام بتحصيلها والسعى الجميل فى حيازتها (فاولئك) البعداء عن النائهون فى تيه الغواية والضلال (هم الفاسقون) الكاملون

الصانع سبحانه لان العجائب والغرائب فى خلقهم اكثر وهى العقل والنطق والفهم أما قوله تعالى والطير صافات فلقائل أن يقول ماوجه اتصال هذا بما قبله (والجواب) انه سبحانه لما ذكر أن اهل السموات وأهل الارض يسبحون ذكر ان الذين استقروا فى الهواء الذى هو بين السماء والارض وهو الطير يسبحون وذلك لان اعطاء الجرم الثقيل القوة التى بها يقوى على الوقوف فى جو السماء صافة باسطة اجنحتها بما فيها من القبض والبسط من أعظم الدلائل على قدرة الصانع المدبر سبحانه وجعل طيرانها سجودا منها له سبحانه وذلك يؤكد ماذكرناه من أن المراد من التسبيح دلالة هذه الاحوال على التنزيه لا النطق اللسانى أما قوله كل قد علم صلاته وتسبيحه ففيه ثلاثة أوجه (الاول) المراد كل قد علم الله صلاته وتسبيحه قالوا ويدل عليه قوله سبحانه والله عليم بما يفعلون وهو اختيار جمهور المتكلمين (والثانى) أن يعود الضمير فى الصلاة والتسبيح على لفظ كل أى انهم يعلمون مايجب عليهم من الصلاة والتسبيح (والثالث) أن تكون الهاء راجعة على ذكر الله يعنى قد علم كل مسبح وكل مصل صلاة الله التى كلف اياها وعلى هذين التفسيرين فقوله والله عليم استيناف وروى عن ابى ثابت قال كنت جالسا عند محمد بن جعفر الباقر رضى الله عنه فقال لى أتدرى ماتقول هذه العصافير عند طلوع الشمس وبعد طلوعها قال لا قال فانهن يقدسن ربهن ويسألنه قوت يومهن واستبعد الكلبى ذلك فقالوا الطير لو كانت عارفة بالله تعالى لكانت كالعقلاء الذين يفهمون كلامنا واشاراتنا لكنها ليست كذلك فانا نعلم بالضرورة انها أشد نقصانا من الصبى الذى لايعرف هذه الامور فبان يمتنع ذلك فيها أولى واذا ثبت انها لاتعرف الله تعالى استحال كونها مسبحة له بالنطق فثبت انها لاتسبح الله الا بلسان الحال على ماتقدم تقريره قال بعض العلماء اذا شاهد ان الله تعالى الهم الطيور وسائر الحشرات اعمالا لطيفة يعجز عنها أكثر العقلاء واذا كان كذلك فلم لايجوز أن يلهمها معرفته ودعاءه وتسبيحه وبيان انه سبحانه ألهمها الاعمال اللطيفة من وجوه (أحدها) احتيالها فى كيفية الاصطياد فتأمل فى العنكبوت كيف يأتى بالحيل اللطيفة فى اصطياد الذباب ويقال ان الدب يستلقى فى مر الثور فاذا رام نطحه شبث ذراعيه بقرنيه ولايزال ينهز مابين ذراعيه حتى يثخنه وانه يرمى بالحجارة ويأخذ العصا ويضرب الانسان حتى يتوهم انه مات فيتركه ور بما عاود يتشممه وينجس نفسه ويصعد الشجر أخف صعود ويهشم الجوز بين كفيه تعريضا بالواحدة وصدمة بالاخرى ثم ينفخ فيه فيذر قشره ويستف لبه ويحكى عن الفار فى سرقته أمور عجيبة (وثانيها) أمر النحل وما لها من الرياسة وبناء البيوت المسدسة التى لايمكن من بنائها افاضل المهندسين (وثالثها) انتقال الكراكى من طرف من اطراف العالم الى الطرف الآخر طلبا لما يوافقها من الاهوية ويقال ان من خواص الخيل ان كل واحد منها يعرف صوت الفرس الذى قابله وقتاما والكلاب فتصايح بالعية المعروفة لها والفهد اذا سقى أو شرب من

الدواء المعروف بخانق الفهد عمدا الى زبل الانسان فاكله والتماسيح تفتح افواهها الطائر يقع عليها كالعقعق وينظف مابين اسنانها وعلى رأس ذلك الطير كالشوك فاذا هم التمساح بالقيام ذلك الطير تأذى من ذلك الشوك فيفتح فاه فيخرج الطائر والسلحفاة تتناول بعد أكل الحية صعترا جبليا ثم تعود وقد عوفيت من ذلك وحكى بعض الثقاة المجربين للصيد انه شاهد الحبارى تقاتل الافعى وتنهزم عنه الى بقلة فتتناول منها ثم تعود ولا يزال ذلك دأبه فكان ذلك الشيخ قاعدا فى كمن فأثر فعل القنصة حيث كانت البقلة قريبة من مكمنه فلما اشتغل الحبارى بالافعى قلع البقلة فعادت الحبارى الى منبتها فقدته واخذت تدور حول منبتها دورانا متتابعا حتى خرميتا فعلم الشيخ انه كان يتعالج باكلها من اللسعة وتلك البقلة كانت هى الجرجير البرى وأما ابن عرس فيستظهر فى قتال الحية باكل السذاب فان النكهة السذابية مما تنفر منها الافعى والكلاب اذا دودت بطونها أكلت سنبل القمح واذا جرحت اللقالق بعضها بعضا داوت جراحها بالصعتر الجبلى (ورابعها) القنا فقد تحس بالشمال والجنوب قبل الهبوب فتغير المدخل الى جحرها وكان بالقسطنطينية رجل قد أثرى بسبب انه كان ينذر بالرياح قبل هبوبها وينتفع الناس بانذاره وكان السبب فيه صار قنفذا فى داره يفعل الصنيع المذكور فيستدل به والخطاف صانع جيد فى اتخاذ العش من الطين وقد علم الخشب فان اعوزه الطين ابتل وتمرغ فى التراب ليحمل جناحاه قدرا من الطين واذا أفرخ بالغ فى تعهد الفراخ ويأخذ ذرقها بمنقاره ويرميها عن العش ثم يعلمها القاء الذرق نحو طرف العش واذا دنا الصائد من مكان فراخ القبجة ظهرت له القبجة وقربت منه مطمعة له ليتبعها ثم تذهب الى جانب آخر سوى جانب فراخها وناقر الخشب قلما يقع على الارض بل على الشجر ينقر الموضع الذى يعلم أن فيه دودا والغرانيق تصعد فى الجو جدا عند الطيران فان حجب بعضها عن بعض ضباب او سحاب احدثت على اجنحتها خفيفا مسموعا يلزم به بعضها بعضا فاذا نامت على جبل فانها تضع رؤسها تحت أجنحتها الا القائد فانه ينام مكشوف الرأس فيسرع انتباهه واذا سمع حرسا صاح وحال النمل فى الذهاب الى مواضعها على خط مستقيم يحفظ بعضها أمر عجيب واعلم أن الاستقصاء فى هذا الباب مذكور فى كتاب طبائع الحيوان والمقصود أن الاكياس من العقلاء يعجزون على أمثال هذه الحيل فاذا جاز ذلك فلم لا يجوز أن يقول انها ملهمة من عند الله تعالى بمعرفته والثناء عليه وان كانت غير عارفة بسائر الامور التى يعرفها الناس ولله در شهاب الاسلام السمعانى حيث قال جل جناب الجلال * عن أن يوزن بميزان الاعتزال * أما قوله سبحانه ولله ملك السموات والارض والى الله المصير فهو مع وجازته فيه دلالة على تمام علم المبدأ والمعاد فقوله ولله ملك السموات والارض تنبيه على أن الكل منه لان كل ماسواه ممكن ومحدث والممكن والمحدث لا يوجدان الا عند الانتهاء الى القديم الواجب فدخل فى هذه

تعالى فان تولوا الخ وترغيبه تعالى اياهم فى الطاعة بقوله تعالى وان تطيعوه تهتدوا الخ ووعده تعالى اياهم على الايمان والعمل الصالح بما فصل من الاستخلاف وما يتلوه من الرغائب الموعودة ووعيده على الكفر مما يوجب الامر بالايمان والعمل الصالح والنهى عن الكفر فكأنه قيل فآمنوا واعملوا صالحا وأقيموا أو فلا تكفروا وأقيموا وعطفه على أطيعوا الله مما لا يليق بجزالة النظم الكريم (وأطيعوا الرسول) أمرهم الله سبحانه وتعالى بالذات بما أمرهم به بواسطة الرسول عليه الصلاة والسلام من طاعته التى هى طاعته تعالى فى الحقيقة تأكيدا للامر السابق وتقريرا لمضمونه على أن المراد بالطاع فيه جميع الاحكام الشرعية المنتظمة للاداب المرضية أيضا أى وأطيعوه فى كل ما يأمركم به وينهاكم عنه أو تكميلا لما قبله

أى وأطيعوه فى سائر ما يأمركم به الخ وقوله تعالى (لعلكم ترحمون) متعلق على الامر الاخير المشتمل على جميع الاوامر وعلى الثانى بالاوامر الثلاثة أى افعلوا ما ذكر من الايتاء والاطاعة راجين أن ترحموا (لا تحسبن الذين كفروا) لما بين حال من أطاعه عليه الصلاة والسلام وأشير الى فوزه بالرحمة المطلقة المستتبعة لسعادة الدارين عقب ذلك ببيان حال من عصاه عليه الصلاة والسلام وما آل أمره فى الدنيا والآخرة بعد بيان تناهيه فى الفسق تكميلا لامر الترغيب والترهيب والخطاب اما لكل أحد ممن يصلح له كائنا من كان واما للرسول عليه الصلاة والسلام على منهاج قوله تعالى فلا تكونن من المشركين ونظائره للايذان بان الحسبان المذكور من القبح والمحذورية بحيث ينهى عنه من يمتنع صدوره عنه فكيف بمن يمكن ذلك منه ومحل الموصول النصب على أنه مفعول أول للحسبان وقوله تعالى (معجزين) ثانيهما وقوله تعالى (فى الارض) ظرف لمعجزين لكن لافادة كون اعجازهم فى الارض لا فى السماء مثلا فان ذلك مما لا يحتاج الى البيان بل لافادة شمول عدم الاعجاز لجميع أجزائها أى لا تحسبنهم معجزين الله عز وجل عن القضية جميع الاجرام والاعراض وأفعال العباد وأقوالهم وخواطرهم وأما قوله والى الله المصير فهو عبارة تامة فى معرفة المعاد وهو أنه لا بد من مصير الكل اليه سبحانه وله وجه آخر وهو أن الوجود يبدأ من الاشرف فالاشرف نازلا الى الاخس فالاخس ثم يأخذ من الاخس فالاخس مترقيا الى الاشرف فالاشرف فانه يكون جسما ثم بصيرا موصوفا بالنباتية ثم الحيوانية ثم الانسانية ثم الملكية ثم ينتهى الى واجب الوجود لذاته فالاعتبار الاول هو قوله ولله ملك السموات والارض والثانى هو قوله والى الله المصير ﴿ قوله تعالى (ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالابصار يقلب الله الليل والنهار ان فى ذلك لعبرة لاولى الابصار) اعلم أن هذا هو النوع الثانى من الدلائل وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قوله ألم تر بعين عقلك والمراد التنبيه والازجاء السوق قليلا قليلا ومنه البضاعة المزجاة التى يزجيها كل أحد وازجاء السير فى الابل الرفق بها حتى يسير شيئا فشيئا ثم يؤلف بينه قال الفراء بين لا يصلح الا مضافا الى اسمين فازاد وانما قال بينه لان السحاب واحد فى اللفظ ومعناه الجمع والواحد سحابة قال الله تعالى وينشئ السحاب الثقال والتأليف ضم شئ الى شئ أو يجمع بين قطع السحاب فيجعلها سحابا واحدا ثم يجعله ركاما أى مجتمعا والركم جعل شئ فوق شئ حتى تجعله مركوما والودق المطر وقوله يخرج من خلاله من شقوقه ومخارجه الماء من خلاله من شقوقه ومخارجه قال ابن عباس وعن مجاهد القطر وعن أبى مسلم الاصفهانى الثانية) اعلم أن قوله يزجى سحابا يحتمل أنه سبحانه ينشئه شيئا بعد شئ ويحتمل أن يغيره من سائر الاجسام لا فى حالة واحدة فعلى الوجه الاول يكون نفس السحاب محدثا ثم انه سبحانه يؤلف بين اجزائه وعلى الثانى يكون المحدث من قبل الله تعالى تلك الصفات التى باعتبارها صارت تلك الاجسام سحابا وفى قوله ثم يؤلف بينه دلالة على وجودها متقدما متفرقا اذ التأليف لا يصح الا بين متعددين ثم انه سبحانه يجعله ركاما وذلك بتركب بعضها على البعض وهذا مما لا بد منه لان السحاب انما يحمل الكثير من الماء اذا كان بهذه الصفة وكل ذلك من عجائب خلقه دلالة ملكه واقتداره قال أهل الطبائع أن تكون السحاب والمطر والثلج والبرد والطل والصقيع فى أكثر الامر يكون من تكاثف البخار وفى الاقل من تكاثف الهواء أما الاول فالبخار الصاعد ان كان فى الهواء من الحرارة ما يحلل ذلك البخار فحينئذ يخلص فى الهواء من الحرارة ما يحلل ذلك البخار ويقلب هواء وأما ان كان البخار كثيرا ولم يكن الى الطبقة الباردة من الهواء أو لا تبلغ فى صعودها أو لا يكون فان لم يكن البرد هناك قويا تكاثفت وتقاطر فالبخار المجتمع هو السحاب والمتقاطر هو المطر والديمة والوابل انما يكون من ذلك البخار بذلك القدر من البرد واجتمع

أمثال هذه الغيوم واما ان كان البرد شديدا فلا يخلو اما أن يصل البرد الى الاجزاء البخارية قبل اجتماعها وانحلالها حبات كبارا أو بعد صيرورتها كذلك فان كان على الوجه الاول نزل ثلجا وان كان على الوجه الثانى نزل بردا وأما اذا لم تبلغ الابخرة الى الطبقة الباردة فهى اما أن تكون كثيرة أو تكون قليلة فان كانت كثيرة فهى قد تنعقد سحابا اما طرا وقد لا تنعقد أما الاول فذلك لاحد أسباب خمسة (أحدها) اذا منع هبوب الرياح عن تصاعد تلك الابخرة (وثانيها) أن تكون الرياح ضاغطة اياها الى الاجتماع بسبب وقوف جبال قدام الريح (وثالثها) أن تكون هناك رياح متقابلة متصادمة فتمنع صعود الابخرة حينئذ (ورابعها) أن يعرض للجزء المتقدم وقوف لثقله وبطء حركته ثم يلتصق به سائر الاجزاء الكثيرة المدد (وخامسها) لشدة برد الهواء القريب من الارض وقد نشاهد البخار يصعد فى بعض الجبال صعودا يسيرا حتى كانه مكبة موضوعة على وهدة ويكون الناظر اليها فوق تلك الغمامة والذين يكونون تحت الغمامة يمطرون والذين يكونون فوقها يكونون فى الشمس وأما اذا كانت الابخرة القليلة الارتفاع قليلة لطيفة فاذا ضربها برد الليل كثفها وعقدها ماء محسوسا فنزل نزولا متفرقا لا يحس به الا عند اجتماع شئ يعتد به فان لم يجمد كان طلا وان جمد كان صقيعا ونسبة الصقيع الى الطل نسبة الثلج الى المطر وأما تكون السحاب من انقباض الهواء فذلك عند ما يبرد الهواء وينقبض وحينئذ يحصل منه الاقسام المذكورة (والجواب) أنا لما دللنا على حدوث الاجسام وتوسلنا بذلك الى كونه قادرا مختارا يمكنه أيجاد الاجسام لم يمكنا القطع بما ذكرتموه لاحتمال انه سبحانه خلق أجزاء السحاب دفعة لا بالطريق الذى ذكرتموه وأيضا فهب أن الامر كما ذكرتم ولكن الاجسام بالاتفاق يمكنها فى ذواتها فلا بد لها من مؤثر ثم انها متماثلة فاختصاص كل واحد منها بصفته المعينة من الصعود والهبوط واللطافة والكثافة والحرارة والبرودة لا بد له من مخصص فاذا كان هو سبحانه خالقا تلك الطبائع وتلك الطبائع مؤثرة فى هذه الاحوال وخالق السبب خالق المسبب فكان سبحانه هو الذى يزجى سحابا لانه هو الذى خلق تلك الطبائع المحركة لتلك الابخرة من باطن الارض الى جو الهواء ثم ان تلك الابخرة اذا ترادفت فى صعودها والتصق بعضها بالبعض فهو سبحانه هو الذى جعلها ركاما فثبت على جميع التقديرات ان وجه الاستدلال بهذه الاشياء على القدرة والحكمة ظاهر بين أما قوله سبحانه وينزل من السماء من جبال فيها من برد ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) فى هذه الآية قولان (أحدهما) أن فى السماء جبالا من برد خلقها الله تعالى كذلك ثم ينزل منها ما شاء وهذا القول عليه أكثر المفسرين قال مجاهد والكلبى جبال من برد فى السماء (والقول الثانى) ان السماء هو الغمام المرتفع على رؤس الناس سمى بذلك لسموه وارتفاعه وانه تعالى أنزل من هذا الغيم الذى هو سماء البرد وأراد بقوله من جبال السحاب العظام لانها اذا عظمت أشبهت جبالا كما يقال فلان يملك

الموصول والمفعول الاول محذوف لكونه عبارة عن أنفسهم كأنه قيل لا يحسبن الكافرون أنفسهم معجزين فى الارض وأما جعل معجزين مفعولا أول وفى الارض مفعولا ثانيا فيعزل من المطابقة لمقتضى المقام ضرورة أن مصب الفائدة هو المفعول الثانى ولا فائدة فى بيان كون المعجزين فى الارض وقدم فى قوله تعالى انى جاعل فى الارض خليفة وقوله تعالى (ومأواهم النار) معطوف على محذوف هو خبر لمبتدأ محذوف أى ولبئس المصير هى أى النار والجملة اعتراض تذييلى مقرر لمضمون الجملة النهى لان المقصود بالنهى عن الحسبان نفى الحسبان كأنه قيل ليس الذين كفروا معجزين ومأواهم الخ او على جملة مقدرة وقعت تعليلا للنهى كأنه قيل لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الارض فانهم مدركون ومأواهم الخ وقيل الجملة المقدرة بل هم مقهورون فتدبر (ولبئس المصير) جواب لقسم مقدر والمخصوص بالذم محذوف

لما قبله وفي ايراد النار بعنوان كونها مأوى ومصيرا لهم أثر في فوتهم بالهرب في الارض كل مهرب من الجزالة مالا يخفى ورأيت
فلله در شأن التنزيل (يا أيها الذين آمنوا) رجوع ﴿ ٤٢٠ ﴾ الى بيان تتمة الاحكام السابقة بعد تمهيد ما يوجب

جبالا من مال ووصفت بذلك توسعا وذهبوا الى أن البرد ماء جامد خلقه الله تعالى في السحاب ثم أنزله الى الارض وقال بعضهم انما سمى الله ذلك الغيم جبالا لانه سبحانه خلقها من البرد وكل جسم شديد متحجر فهو من الجبال ومنه قوله تعالى واتقوا الذي خلقكم والجبلة الاولين ومنه فلان مجبول على كذا قال المفسرون والاول أولى لان السماء اسم لهذا الجسم المخصوص فجعله اسما للسحاب بطريقة الاشتقاق مجازا وكما يصح أن يجعل الله الماء في السحاب ثم ينزله بردا فقد يصح أن يكون في السماء جبال من برد واذا صح في القدرة كلا الامرين فلا وجه لترك الظاهر (المسئلة الثانية) قال أبو علي الفارسي قوله تعالى من السماء من جبال فيها من برد فمن الاولى لابتداء الغاية لان ابتداء الانزال من السماء والثانية للتبعيض لان ما ينزله الله بعض تلك الجبال التي في السماء والثالثة للتبيين لان جنس تلك الجبال جنس البرد ثم قال ومفعول الانزال محذوف والتقدير وينزل من السماء من جبال فيها من برد الا انه حذف للدلالة عليه أما قوله فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء فالظاهر انه راجع الى البرد ومعلوم من حاله أنه قد يضر ما يقع عليه من حيوان ونبات فبين سبحانه أنه يصيب به من يشاء على وفق المصلحة ويصرفه أي يصرف ضرره عمن يشاء بان لا يسقط عليه ومن الناس من حمل البرد على الحجر وجعل نزوله جاريا مجرى عذاب الاستيصال وذلك بعيد أما قوله تعالى يكاد سنا برقه يذهب بالابصار ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ يكاد سنا برقه على الادغام وقرئ برقه جمع برقة وهي المقدار من البرق وبرقه بضمتين للاتباع كما قيل في جمع فعلة فعلات كظلمات وسناء برقه على المد والمقصور بمعنى الضوء والممدود بمعنى العلو والارتفاع من قولك سنى للمرتفع ويذهب بالابصار على زيادة الباء كقوله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة عن أبي جعفر المدني (المسئلة الثانية) وجه الاستدلال بقوله يكاد سنا برقه يذهب بالابصار ان البرق الذي يكون صفته ذلك لا بد وأن يكون نارا عظيمة خالصة والنار ضد الماء والبرد فظهوره من البرد يقتضي ظهور الضد من الضد وذلك لا يمكن الا بقدرة قادر حكيم (المسئلة الثالثة) اختلف النحويون في ذلك فقال ذهبت بزيد الى الدار فهل يجب أن تكون ذاهبا معه الدار فالمنكرون احتجوا بهذه الآية أما قوله يقلب الله الليل والنهار ففيه وجوه ... فيهما ويجيء أحدهما بعد الآخر وهو كقوله وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة ... ج أحدهما في الآخر وأخذ أحدهما من الآخر ومنها تغير أحوالهما في ا ... مار لا يمتنع في مثل ذلك أن يريد تعالى معاني الكل لانه في الانعام والاع ... قوله تعالى ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار فالمعنى ان فيما تقد ... ؛ فمن هذا الوجه يدل على ان الواجب على المرء أن يتدبر و ... لى فساد التقيد * قوله تعالى (والله خلق كل دابة م ...

الا مثال بالاوامر والنواهي الواردة فيها وفي الاحكام اللاحقة من التمثيلات والترغيب والترهيب والوعيد والخطاب اما للرجال خاصة والنساء داخلات في الحكم بدلالة النص أو للفريقين جميعا بطريق التغليب روي أن غلاما لاسماء بنت أبي مرثد دخل عليها في وقت كرهته فنزلت وقيل أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم مدلج بن عمرو ساري وكان غلاما صغيرة ليدعو عمر صه فدخل قد انكشف ال عمر دت ا

يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق

الله على كل شئ قدير لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم) اعلم أن هذا هو النوع الثالث من الدلائل على الوحدانية وذلك لانه لما استدل أولا باحوال السماء والارض وثانيا بالآثار العلوية استدل ثالثا باحوال الحيوانات واعلم أن على هذه الآية سؤالات (السؤال الاول) لم قال الله تعالى والله خلق كل دابة من ماء مع ان كثيرا من الحيوانات غير مخلوقة من الماء أما الملائكة فهم أعظم الحيوانات عددا وهم مخلوقون من النور وأما الجن فهم مخلوقون من النار وخلق الله آدم من التراب لقوله خلقه من تراب وخلق عيسى من الريح لقوله فنفخنا فيه من روحنا وأيضا نرى ان كثيرا من الحيوانات متولد لا عن النطفة (والجواب) من وجوه (أحدها) وهو الاحسن لما قاله القفال وهو ان قوله من ماء صلة كل دابة وليس هو من صلة خلق والمعنى ان كل دابة متولدة من الماء فهى مخلوقة لله تعالى (وثانيها) ان أصل جميع المخلوقات الماء على ما روى أول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر اليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم من ذلك الماء خلق النار والهواء والنور ولما كان المقصود من هذه الآية بيان أصل الخلقة وكان الاصل الاول هو الماء لاجرم ذكره على هذا الوجه (وثالثها) ان المراد من الدابة التى تدب على وجه الارض ومسكنهم هناك فيخرج عنه الملائكة والجن ولما كان الغالب جدا من هذه الحيوانات كونهم مخلوقين من الماء اما لانها متولدة من النطفة واما لانها لا تعيش الا بالماء لاجرم أطلق لفظ الكل تنزيلا للغالب منزلة الكل (السؤال الثانى) لم نكر الماء فى قوله من ماء وجاء معرفا فى قوله وجعلنا من الماء كل شئ حى (والجواب) انما جاء ههنا منكرا لان المعنى أنه خلق كل دابة من نوع من الماء يخص بتلك الدابة وانما جاء معرفا فى قوله وجعلنا من الماء كل شئ حى لان المقصود هناك كونهم مخلوقين من هذا الجنس وههنا بيان أن ذلك الجنس ينقسم الى أنواع كثيرة (السؤال الثالث) قوله فمنهم لغير العقلاء وكذلك قوله من فلم استعمله فى غير العقلاء (والجواب) انه تعالى ذكر الا يعقل مع من يعقل وهم الملائكة والانس والجن فغلب اللفظ اللائق بمن يعقل لان جعل الشريف أصلا والخسيس تبعا أولى من العكس ويقال فى الكلام من ثبلان لرجل وبعير (السؤال الرابع) لم سمى الزاحف على البطن مشيا وبين صحة هذا السؤال أن الصبى قد يوصف بانه يحبو ولا يقال انه يمشى وان زحف على حد ما تزحف الحية (والجواب) هذا على سبيل الاستعارة كما قالوا فى الامر المستمر قد مشى هذا الامر مسلما فلان لا يمشى له أمر أو على طريق المشاكلة لذلك الزاحف مع الماشين (السؤال) خلقها الله تعالى يستوفى القسمة لانا نجد ما يمشى على أكثر من أربع مثل العناكب والكلبى جبال الات بل مثل الحيوان الذى له أربعة وأربعون رجلا الذى يسمى دخال الناس سمى بذلك) القسم الذى ذكرتم كالنادر فكان ملحقا بالعدم ولان الفلاسفة يقولون من جبال الهند كثيرة فاعتماده اذا مشى على أربع جهاته لا غير فكانه يمشى على

لا أنفسها (من قبل صلاة الفجر) لظهور أنه وقت القيام من المضاجع وطرح ثياب النوم وليس ثياب اليقظة ومحله النصب على أنه بدل من ثلاث مرات أو الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف أى أحدها من قبل الخ (وحين تضعون ثيابكم) أى ثيابكم التى تلبسونها فى النهار وتخلعونها لاجل القيلولة وقوله تعالى (من الظهيرة) وهى شدة الحر عند انتصاف النهار بيان للحين والتصريح بمدار الامر أعنى وضع الثياب فى هذا الحين دون الاول والآخر لما أن التجرد عن الثياب فيه لاجل القيلولة لقلة زمانها كما ينبئ عنها ايراد الحين مضافا الى فعل حادث مقتض ووقوعها فى النهار الذى هو مئنة لكثرة الورود والصدور ومظنة لظهور الاحوال وبروز الامور ليس من التحقق والاطراد بمنزلة ما فى الوقتين المذكورين واطراده فيهما أمر معروف لا يحتاج الى التصريح به (ومن بعد صلاة العشاء) ضرورة أنه

عن اللباس والالتحاف باللحاف وليس المراد بالقبلية والبعدية المذكورتين مطلقهما المتحقق فى الوقت الممتد المتخلل بين الصلاتين كما فى قوله تعالى وان كنت من قبله لمن الغافلين وقوله تعالى من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى بل مايعرض منهما لطرفى ذلك الوقت الممتد المتصلين بالصلاتين المذكورتين اتصالا عاديا وقوله تعالى (ثلاث عورات) خبر مبتدأ محذوف وقوله تعالى (لكم) متعلق بمحذوف هو صفة لثلاث عورات أى كائنة لكم والجملة استئناف مسوق لبيان علة وجوب الاستيذان أى هن ثلاث أوقات يختل فيها التستر عادة والعورة فى الاصل هو الخلل الذى غلب فى الخلل الواقع فيما بينهم حفظه ثم عبر به عن كل خلل أطلقت و يعنى بعض المشتملة على الاوقات عليها مبالغة كأنها نفس العورة وقرئ ثلاث عورات بالنصب بدلا من ثلاث مرات (ليس عليكم ولا عليهم) أى على المماليك والصبيان (جناح) أى اثم فى الدخول بغير استئذان لعدم مايوجبه من مخالفة الامر والاطلاع على العورات (بعدهن) أى بعد كل واحدة من تلك العورات الثلاث وهى الاوقات المتخللة بين كل اثنتين منهن وايرادها بعنوان البعدية

أربع ولان قوله تعالى يخلق الله مايشاء كالتنبيه على سائر الاقسام (السؤال السادس) لم جاءت الاجناس الثلاثة على هذا الترتيب (والجواب) قد قدم ماهو أعجب وهو الماشى بغير آلة مشى من أرجل أو قوائم ثم الماشى على رجلين ثم الماشى على أربع واعلم أن قوله يخلق الله مايشاء تنبيه على ان الحيوانات كما اختلفت بحسب كيفية المشى فكذا هى مختلفة بحسب أمور أخر فلنذكر ههنا بعض تلك التقسيمات (التقسيم الاول) الحيوانات قد تشترك فى أعضاء وقد تتباين بأعضاء أما الشركة فمثل اشتراك الانسان والفرس فى أن لهما لحما وعصبا وعظما وأما التباين فاما أن يكون فى نفس العضو أو فى صفته أما التباين فى نفس العضو فعلى وجهين (أحدهما) أن لا يكون العضو حاصلا للآخر وان كانت أجزاؤه حاصلة للثانى كالفرس والانسان فان الفرس له ذنب والانسان ليس له ذنب ولكن أجزاء الذنب ليست الا العظم والعصب واللحم والجلد والشعر وكل ذلك حاصل للانسان (والثانى) أن لا يكون ذلك العضو حاصلا للثانى لا بذاته ولا باجزائه مثل أن للسلحفاة صدفا يحيط به وليس للانسان ذلك وكذا للسمك فلوس والقنفذ شوك وليس شئ منهما للانسان وأما التباين فى صفة العضو فاما أن يكون من باب الكمية أو الكيفية أو الوضع أو الفعل أو الانفعال أما الذى فى الكم فاما أن يتعلق بالمقدار مثل ان عين البوم كبيرة وعين العقاب صغيرة أو بالعدد مثل ان أرجل ضرب من العناكب ستة وأرجل ضرب آخر ثمانية أو عشرة والذى فى الكيف فكاختلافها فى الالوان والاشكال والصلابة واللين والذى فى الوضع فمثل اختلاف وضع ثدى الفيل فانه يكون قريبا من الصدر وثدى الفرس فانه عند السرة وأما الذى فى الفعل فمثل كون أذن الفيل صالحا للذب مع كونه آلة للسمع وليس كذلك فى الانسان وكون أنفه آلة للقبض دون أنف غيره وأما الذى فى الانفعال فمثل كون عين الخفاش سريعة التحير فى الضوء وعين الخطاف بخلاف ذلك (التقسيم الثانى) الحيوان اما أن يكون مائيا بمعنى ان مسكنه الاصلى هو الماء أو أرضيا أو يكون مائيا ثم يصير أرضيا أما الحيوانات المائية فتغير أحوالها من وجوه (الاول) انه اما أن يكون مكانه وغذاؤه نفسه مائيا فله بدل التنفس فى الهواء التنشق المائى فهو يقبل الماء الى باطنه ثم يرده ولا يعيش اذا فارقه والسمك كله كذلك ومنه مامكانه وغذاؤه مائى ولكنه يتنفس الهواء مثل السلحفاة المائية ومنه مامكانه وغذاؤه مائى وليس يتنفس ولا يستنشق أصلا من الصدف لا تظهر للهواء ولا تستدخل الماء الى باطنها (الوجه الثانى) الحيوانات المائية بعضها مأواها مياه الانهار الجارية وبعضها مياه الآبار الضفادع وبعضها ماواها مياه البحر (الوجه الثالث) منها لجية ومنها طينية ومنها صخرية (الوجه الرابع) الحيوان المنتقل فى الماء منه مايمشى على أجنحته كالسمك ومنه مايعتمد فى السباحة على رجليه ورأسه وفى السباحة على أجنحته

مع أنكل وقت من تلك الاوقات قبل عورة من العورات كأنها بعد أخرى منهن لتوفيه حق التكليف والترخيص
الذى هو عبارة عن رفعه اذ الرخصة ﴿ ٤٢٣ ﴾ انما تتصور فى فعل يقع بعد زمان وقوع الفعل المكلف والجملة

ومنه ما يمشى فى قعر الماء كالسرطان ومنه ما يزحف مثل ضرب من السمك لاجناح له
وكالدود أما الحيوانات البرية فتغير أحوالها أيضا من وجهين (الاول) أن منها ما يتنفس
من طريق واحد كالغم والخيشوم ومنها ما لا يتنفس كذلك بل على نحو آخر من مسامه
مثل الزنبور والنحل (الثانى) أن الحيوانات الارضية منها ما له مأوى معلوم ومنها ما مأواه
كيف اتفق الأن بلد فيقيم للحضانة واللواتى لها مأوى فبعضها مأواه شق و بعضها حفر
و بعضها مأواه قلة رابية و بعضها مأواه وجه الارض (الثالث) الحيوان البرى كل طائر
منه ذو جناح فانه يمشى برجليه ومن جملة ذلك ما مشيه صعب عليه كالخطاف الكبير
الاسود والخفاش وأما الذى جناحه جلد أو غشاء فقد يكون عديم الرجل كضرب من
الحيات الحبشية يطير (الرابع) الطير يختلف فبعضها يتعايش معا كالكراكى و بعضها
يؤثر التفرد كالعقاب وجميع الجوارح التى تتنازع على الطعم لاحتياجها الى الاحتيال
فى تصيد و منا فستها فيه ومنها ما يتعايش زوجا و يكون معا كالقطا ومنه ما يجتمع تارة
و ينفرد أخرى والحيوانات المنفردة قد تكون مدنية وقد تكون برية صرفة وقد تكون
بستانية والانسان من بين الحيوان هو الذى لا يمكنه أن يعيش وحده فان أسباب حياته
ومعيشته تتم بالمشاركة المدنية والنحل والنمل و بعض الغرانيق يشارك الانسان فى ذلك
لكن النحل والكراكى تطيع رئيسا واحدا والنمل له اجتماع ولا رئيس (الخامس) الطير
منه آكل لحم ومنه لاقط حب ومنه آكل عشب وقد يكون لبعض الطير طعم معين كالنحل
فان غذاءه زهر والعنكبوت فان غذاءه الذباب وقد يكون بعضه متفق الطعم (اما القسم
الثالث) وهو الحيوان الذى يكون تارة مائيا وأخرى بريا فيقال انه حيوان يكون
فى البحر و يعيش فيه ثم انه يبرز الى البر و يبقى فيه (التقسيم الثالث) الحيوان منه ما هو
انسى بالطبع كالانسان ومنه ما هو انسى بالمولد كالهرة والفرس ومنه ما هو انسى بالقسر
كالمعهد ومنه ما لا يأنس كالنمر والمستأنس بالقسر منه ما يسرع استئناسه و يبقى
مستأنسا كالفيل ومنه ما يبطئ كالاسد و يشبه أن يكون من كل نوع صنف انسى
وصنف وحشى حتى من الناس (التقسيم الرابع) من الحيوان ما هو مصوت ومنه
ما لا صوت له وكل مصوت فانه يصير عند الاغتلام وحركة شهوة الجماع أشد تصويتا
الا الانسان وأيضا لبعض الحيوان شبق يشتد كل وقت كالديك ومنه عفيف له وقت
واحد (التقسيم الخامس) بحسب الاخلاق بعض الحيوانات هادئ الطبع قليل
مسالم مثل البقر و بعضه شديد الجهل حاد الغضب كالخنزير البرى و بعضها حليم خدوع
كما خلقها الله تعالى ردئ الحركات مغتال كالحية و بعضها جرئ قوى شهم كبير النفس
كالكلبى جبال الاسد ومنها قوى مغتال وحشى كالذئب و بعضها محتال مكار ردئ
الناس سمى بذلك و بعضها غضوب شديد الغضب سفيه الا أنه ملق متودد كالكلب
بقوله من جبال السكيس مستأنس كالفيل والقرد و بعضها حسود مشتاه بجماله كالطاوس

على القراءتين مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها بالطرد والعكس وقد جوز على القراءة الاولى كونها فى محل الرفع على أنها صفة أخرى لثلاث عورات وأما على القراءة الثانية فهى مستأنفة لا غير اذ لو جعلت صفة لثلاث عورات وهى بدل من ثلاث مرات لكان التقدير ليستأذنكم هؤلاء فى ثلاث عورات لا اثم فى ترك الاستيذان بعدهن وحيث كان انتفاء الاثم حينئذ معلوم يعلمه السامع الابهذا الكلام لم يتسن ابرازه فى معرض الصفة بخلاف قراءة الرفع فان انتفاءه ثم حينئذ معلوم من صدر الكلام وقوله تعالى (طوافون عليكم) استئناف لبيان العذر المرخص فى ترك الاستئذان وهى المخالطة الضرورية وكثرة المداخلة وفيه دليل على تعليل الاحكام وكذا فى الفرق بين الاوقات الثلاثة و بين غيرها بكونها عورات (بعضكم على بعض) أى بعضكم طائف على بعض طوافا كثيرا أو بعضكم يطوف على بعض (كذلك) اشارة

الى مصدر الفعل الذي بعده وفائدته من معنى البعد لما فيه من تفخيم شأن المشار اليه والايذان ببعد منزلته وكونه من الوضوح بمنزلة المشار اليه حسا أي مثل ذلك

على الاحكام أي بمنزلها بينة واضحة الدلالات عليها الا أنه تعالى يبينها بعد أن لم تكن كذلك والكاف مقحمة وقدم تفصيله في قوله تعالى وكذلك جعلناكم أمة وسطا ولكم متعلق بيبين وتقديمه على المفعول الصريح لما مر مرارا من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر وقيل يبين علل الاحكام وليس بواضح مع أنه مؤد الى تخصيص الآيات بما ذكر ههنا (والله عليم) مبالغ في العلم بجميع المعلومات فيعلم أحوالكم (حكيم) في جميع أفاعيله فيشرع لكم ما فيه صلاح أمركم معاشا ومعادا (واذا بلغ الاطفال منكم الحلم) لما بين فيما مر آنفا حكم الاطفال في أنه لاجناح عليهم في ترك الاستئذان فيما عدا الاوقات الثلاثة عقب ببيان حالهم بعد البلوغ دفعا لما عسى يتوهم أنهم وان كانوا اجانب ليسوا كسائر الاجانب بسبب اعتيادهم الدخول أي اذا بلغ الاطفال الاحرار الاجانب

و بعضها شديد التحفظ كالجمل والحمار (التقسيم السادس) من الحيوان ماتناسله بان تلد أنثاه حيوانا و بعضها ماتناسله بان تلد أنثاه دودا كالنحل والعنكبوت فانها تلد دودا ثم ان أعضاءه تستكمل بعد و بعضها تناسله بان تبيض أنثاه بيضا واعلم أن العقول قاصرة عن الاحاطة باحوال أصغر الحيوانات على سبيل الكمال ووجه الاستدلال بها على الصانع ظاهر لانه لو كان الامر بتركيب الطبائع الاربع فذلك بالنسبة الى الكل على السوية فاختصاص كل واحد من هذه الحيوانات ببعضائها وقواها ومقادير أبدانها وأعمارها وأخلاقها لابد وأن يكون بتدبير مدبر قاهر حكيم سبحانه وتعالى عما يقول الجاحدون وأحسن كلام في هذا الموضع قوله سبحانه يخلق الله مايشاء ان الله على كل شئ قدير لانه هو القادر على الكل والعالم بالكل فهو المطلع على أحوال هذه الحيوانات فأى عقل يقف عليها وأى خاطر يصل الى ذرة من أسرارها بل هو الذي يخلق مايشاء كما يشاء ولاينعه منه مانع ولادافع وأما قوله لقد أنزلنا آيات مبينات فالاولى حمله على كل الادلة والعبر لما كان القرآن كالمشتمل على كل ذلك صح أن يكون هو المراد أما قوله والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم فاستدلال أصحابنا به كما تقدم (والجواب) أجاب القاضي عنه بأن المراد يهدي من بلغه حد التكليف دون غيره أو يكون المراد من أطاعه واستحق الثواب فيهديه الى الجنة على ماتقدم في نظائره وجوابنا عن هذا الجواب أيضا كما تقدم في نظائره والله أعلم * قوله تعالى (و يقولون آمنا بالله و بالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين واذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون) اعلم أنه سبحانه لما ذكر دلائل التوحيد أتبعه بذم قوم اعترفوا بالدين بالسنتهم ولكنهم لم يقبلوه بقلوبهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال مقاتل نزلت هذه الآية في بشر المنافق وكان قد خاصم يهوديا في أرض وكان اليهودي يجره الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم بينهما وجعل المنافق يجره الى كعب بن الاشرف و يقول ان محمدا يحيف علينا وقد مضت قصتهما في سورة النساء وقال الضحاك نزلت في المغيرة بن وائل كان بينه و بين علي بن ابي طالب أرض فتقاسما فوقع الى علي منها مالا يصيبه الماء الا بشقة فقال المغيرة يعني أرضك فبعها اياه وتقابضا فقيل للمغيرة أخذت سبخة لا ينالها الماء فقال لعلي اقبض أرضك فانما اشتريتها ان رضيتها ولم أرضها فلا ينالها الماء فقال علي بل اشتريتها ورضيتها وقبضتها وعرفت حالها لاأقبلها منك ودعاه الى أن يخاصمه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال المغيرة أما محمد فلست آتيه ولا أحاكم اليه فانه يبغضني وأنا أخاف أن يحيف علي فنزلت هذه الآية وقال الحسن نزلت هذه الآية في المنافقين الذين كانوا يظهرون الايمان و يسرون الكفر (المسئلة

الثانية) قوله و يقولون آمنا الى قوله وما أولئك بالمؤمنين يدل على ان الايمان لايكون بالقول اذلوكان به لماصح أن ينفى كونهم مؤمنين وقد فعلوا ماهو ايمان فى الحقيقة فان قيل انه تعالى حكى عن كلهم انهم يقولون آمنا ثم حكى عن فريق منهم التولى فكيف يصح ان يقول فى جميعهم وماأولئك بالمؤمنين معان الذى تولى منهم هو البعض قلنا ان قوله وماأولئك بالمؤمنين راجع الى الذين تولوا لاالى الجملة الاولى وأيضا فلو رجع الى الاول يصح ويكون معنى قوله ثم يتولى فريق منهم أى يرجع هذا الفريق الى الباقين منهم فيظهر بعضهم لبعض الرجوع عما أظهروه ثم بين سبحانه أنهم اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون وهذا ترك للرضا بحكم الرسول ونبه بقوله تعالى وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين على انهم انما يعرضون متى عرفوا الحق لغيرهم أوشكوا فاما اذا عرفوه لانفسهم عدلوا عن الاعراض بل سارعوا الحكم واذعنوا ببذل الرضا وفى ذلك دلالة على انه ليس بهم اتباع الحق وانما يريدون النفع المعجل وذلك أيضا نفاق أما قوله تعالى أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ففيه سؤالات (السؤال الاول) كلمة أن للاستفهام وهو غير جائز على الله تعالى (والجواب) اللفظ استفهام ومعناه الخبر كما قال جرير ﴿ ألستم خير من ركب المطايا ﴾ (السؤال الثانى) انهم لوخافوا أن يحيف الله عليهم فقد ارتابوا فى الدين واذا ارتابوا ففى قلوبهم مرض فالكل واحد فاى فائدة فى التعديد (الجواب) قوله افى قلوبهم مرض اشارة الى النفاق وقوله أم ارتابوا اشارة الى أنه حدث هذا الشك والريب بعد تقرير الاسلام فى القلب وقوله أم يخافون أن يحيف الله عليهم اشارة الى أنهم بلغوا فى حب الدنيا الى حيث يتركون الدين بسببه (السؤال الثالث) هب ان هذه الثلاثة متغايرة ولكنها متلازمة فكيف دخل عليها كلمة أم (الجواب) الاقرب أنه تعالى ذمهم على كل واحد من هذه الاوصاف فكان فى قلوبهم مرض وهو النفاق وكان فيها شك وارتياب وكانوا يخافون الحيف من الرسول عليه الصلاة والسلام وكل واحد من ذلك كفر ونفاق ثم بين تعالى بقوله بل أولئك هم الظالمون بطلان ماهم عليه لان الظلم يتناول كل معصية كما قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم اذالمرء لايخلو من أن يكون ظالما لنفسه أوظالما لغيره ويمكن أن يقال ايضا لماذكر تعالى فى الاقسام كونهم خائفين من الحيف أبطل ذلك بقوله بل أولئك هم الظالمون أى لايخافون أن يحيف الرسول عليه الصلاة والسلام عليهم لمعرفتهم بأمانته وصيانته وانما هم ظالمون يريدون ان يظلموا من له الحق عليهم وهم له جحود وذلك شئ لايستطيعونه فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يأبون المحاكمة اليه ﴿ قوله تعالى (انما كان قول المؤمنين اذا دعوا الى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون ومن يطع الله ورسوله و يخشى الله و يتقه فأولئك هم الفائزون وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لاتقسموا طاعة معروفة

النصب على أنه نعت لمصدر مؤكد للفعل السابق والموصول عبارة عمن قيل لهم لاتدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا الآية وصفهم بكونهم قبل هؤلاء باعتبار ذكرهم لاباعتبار بلوغهم قبل بلوغهم كما قيل لما أن المقصود بالتشبيه بيان كيفية استئذان هؤلاء وزيادة ايضاحه ولايتأتى ذلك الابتشبيهه باستئذان المعهودين عند السامع ولاريب فى أن بلوغهم قبل بلوغ هؤلاء مما لايخطر ببال أحد وان كان الامر كذلك فى الواقع وانما المعهود المعروف ذكرهم قبل ذكرهم أى فليستأذنوا استئذانا كائنا مثل استئذان المذكورين قبلهم بان يستأذنوا فى جميع الاوقات ويرجعوا ان قيل لهم ارجعوا حسبما فصل فيما سلف (كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم) الكلام فيه كالذى سبق والتكرير

النساء) أى العجائز اللاتى قعدن عن الحيض والحمل (اللاتى لا يرجون نكاحا) أى لا يطمعون فيه لكبرهن (فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن) أى الثياب الظاهرة كالجلباب ونحو والقناع فيه لان اللام فى القواعد بمعنى اللاتى أو للوصف بها (غير متبرجات بزينة) غير مظهرات لزينة مما أمر باخفائه فى قوله تعالى ولا يبدين زينتهن وأصل التبرج التكلف فى اظهار ما يخفى من قولهم سفينة بارجة لاغطاء عليها والبرج سعة العين بحيث يرى بياضها محيطا بسوادها كله الا أنه خص بكشف المرأة زينتها ومحاسنها للرجال (وان يستعففن) بترك الوضع (خير لهن) من الوضع لبعده من التهمة (والله سميع) مبالغ فى سمع جميع ما يسمع فيسمع ما يجرى بينهن وبين الرجال من المقاولة (عليم) فيعلم مقاصد هن وفيه

ان الله خبير بما تعملون قل اطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وان تطيعوه تهتدوا وما على الرسول الا البلاغ المبين) اعلم أنه تعالى لما حكى قول المنافقين وما قالوه وما فعلوه أتبعه بذكر ما كان يجب أن يفعلوه وما يجب أن يسلكه المؤمنون فقال تعالى انما كان قول المؤمنين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ الحسن قول المؤمنين بالرفع والنصب أقوى لان أولى الاسمين بكونه اسما لكان أوغلهما فى التعريف وأن يقولوا أوغل لانه لا سبيل عليه للتنكير بخلاف قول المؤمنين (المسئلة الثانية) قوله انما كان قول المؤمنين معناه كذلك يجب أن يكون قولهم وطريقتهم اذا دعوا الى حكم كتاب الله ورسوله أن يقولوا سمعنا واطعنا فيكون اتيانهم اليه وانقيادهم له سمعا وطاعة ومعنى سمعنا اجبنا على تأويل قول المسلمين سمع الله لمن حمده أى قبل واجاب ثم قال ومن يطع الله ورسوله أى فيما ساءه وسره ويخشى الله فيما صدر عنه من الذنوب فى الماضى ويتقه فيما بقى من عمره فاولئك هم الفائزون وهذه الآية على ايجازها حاوية لكل ما ينبغى للمؤمنين أن يفعلوه أما قوله واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن أمرتهم ليخرجن فقال مقاتل من حلف بالله فقد أجهد فى اليمين ثم لما بين الله تعالى كراهية المنافقين لحكم رسول الله فقالوا والله لئن أمرتنا ان نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا ون أمرتنا بالجهاد جاهدنا ثم انه تعالى أمر رسوله أن ينهاهم عن هذا القسم بقوله قل لا تقسموا ولو كان قسمهم كما يجب لم يجز النهى عنه لان من حلف على القيام بالبر والواجب لا يجوز أن ينهى عنه واذا ثبت ذلك ثبت أن قسمهم كان لنفاقهم وأن باطنهم خلاف ظاهرهم ومن نوى الغدر لا الوفاء فقسمه لا يكون الا قبيحا أما قوله طاعة معروفة فهو اما خبر مبتدأ محذوف أى المطلوب منكم طاعة معروفة لا ايمان كاذبة أو مبتدأ خبره محذوف أى طاعة معروفة أمثل من قسمكم بما لا تصدقون فيه وقيل معناه دعوا القسم ولا تغتروا به وعليكم طاعة معروفة فتمسكوا بها وقرأ اليزيدى طاعة معروفة بالنصب على معنى أطيعوا طاعة ان الله خبير بما تعملون أى بصير لا يخفى عليه شئ من سرائركم وانه فاضحكم لا محالة ومجازيكم على نفاقكم أما قوله قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان تولوا فانما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم فاعلم انه تعالى صرف الكلام عن الغيبة الى الخطاب على طريقة الالتفات وهو أبلغ فى تبكيتهم فان تولوا يعنى ان تولوا عن طاعة الله وطاعة رسوله فانما على الرسول ما حمل من تبليغ الرسالة وعليكم ما حملتم من الطاعة وان تطيعوه تهتدوا أى تصيبوا الحق وان عصيتموه فانما على الرسول الا البلاغ المبين والبلاغ بمعنى التبليغ والمبين الواضح والموضح لما بكم اليه الحاجة وعن نافع انه قرأ فانما عليه ما حمل بفتح الحاء والتخفيف أى فعليه اثم ما حمل من المعصية ﴿ قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات

ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم

وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لايشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) اعلم ان تقدير النظم بلغ أيها الرسول وأطيعوه أيها المؤمنون فقد وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات أي الذين جمعوا بين الايمان والعمل الصالح أن يستخلفهم في الارض فيجعلهم الخلفاء والغالبين والملكين كما استخلف عليها من قبلهم في زمن داود وسليمان عليهما السلام وغيرهما وانه يمكن لهم دينهم وتمكينه ذلك هو ان يؤيدهم بالنصرة والاعزاز ويبدلهم من بعد خوفهم من العدو أمنا بأن ينصرهم عليهم فيقتلوهم ويأمنوا بذلك شرهم فيعبدونني آمنين لايشركون بي شيئا ولايخافون غير كفر أي من بعد هذا الوعد وارتد فأولئك هم الفاسقون واعلم ان هذه الآية مشتملة على بيان أكثر المسائل الاصولية الدينية فلنشر الى معاقدها (المسئلة الاولى) قوله تعالى وعد الله الذين آمنوا منكم يدل على أنه سبحانه متكلم لان الوعد نوع من أنواع الكلام والموصوف بالنوع موصوف بالجنس ولانه سبحانه ملك مطاع والملك المطاع لابد وأن يكون بحيث يمكنه وعد أوليائه ووعيد اعدائه فثبت انه سبحانه متكلم (المسئلة الثانية) الآية تدل على انه سبحانه يعلم الاشياء قبل وقوعها خلافا لهشام بن الحكم فانه قال لايعلمها قبل وقوعها ووجه الاستدلال به انه سبحانه أخبر عن وقوع شئ في المستقبل اخبارا على التفصيل وقد وقع المخبر مطابقا للخبر ومثل هذا الخبر لايصح الا مع العلم (المسئلة الثالثة) الآية تدل على انه سبحانه حي قادر على جميع الممكنات لانه قال ليستخلفنهم في الارض وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا وقد فعل كل ذلك وصدور هذه الاشياء لايصح الا من القادر على كل المقدورات (المسئلة الرابعة) الآية تدل على انه سبحانه هو المستحق للعبادة لانه قال يعبدونني وقالت المعتزلة الآية تدل على أن فعل الله تعالى معلل بالغرض لان المعنى لكي يعبدوني وقالوا أيضا الآية دالة على انه سبحانه يريد العبادة من الكل لان من فعل فعلا لغرض فلابد وأن يكون مريدا لذلك الغرض (المسئلة الخامسة) دلت الآية على انه تعالى منزه عن الشريك لقوله لايشركون بي شيئا وذلك يدل على نفي الاله الثاني وعلى انه لايجوز عبادة غير الله تعالى سواء كان كوكبا كما تقوله الصابئة أو صنما كما تقوله عبدة الاوثان (المسئلة السادسة) دلت الآية على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لانه أخبر عن الغيب في قوله ليستخلفنهم في الارض وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا وقد وجد هذا المخبر موافقا للخبر ومثل هذا الخبر معجز والمعجز دليل الصدق فدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم (المسئلة السابعة) دلت الآية على ان العمل الصالح خارج عن مسمى الايمان خلافا للمعتزلة لانه عطف العمل الصالح على الايمان والمعطوف خارج عن المعطوف عليه (المسئلة الثامنة) دلت الآية على امامة الائمة الاربعة وذلك لانه تعالى وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الحاضرين في زمان محمد صلى الله عليه وسلم

كانت هؤلاء الطوائف يتحرجون من مؤاكلة الاصحاء حذارا من استقذارهم اياهم وخوفا من تأذيهم بافعالهم وأوضاعهم فان الاعمى ربما سبقت يده الى ماسبقت اليه عين اكيله وهو لايشعر به والاعرج يتفسح في مجلسه فيأخذ أكثر من موضعه فيضيق على جليسه والمريض لايخلو عن حالة توذي قرينه وقيل كانوا يدخلون على الرجل لطلب العلم فاذا لم يكن عنده مايطعمهم ذهب بهم الى بيوت آبائهم وأمهاتهم أو الى بعض من سماهم الله عز وجل في الآية الكريمة فكانوا يتحرجون من ذلك ويقولون ذهب بنا الى بيت غيره ولعل أهله كارهون لذلك وكذا كانوا يتحرجون من الاكل من أموال الذين كانوا اذا خرجوا الى الغزو خلفوا هؤلاء الضعفاء في بيوتهم ودفعوا اليهم مفاتيحها واذنوا لهم ان يأكلوا مما فيها مخافة ان لايكون

أذنهم عن طيب نفس منهم وكان غيرهؤلاء أيضا ﴿ يتحرجون من الاكل فى بيوت غيرهم فقيل لهم

ليس على الطوائف المعدودة (ولا على أنفسكم) أى عليكم وعلى من يماثلكم فى الاحوال من المؤمنين حرج (ان تأكلوا) أى تأكلوا انتم وهم معكم وتعميم الخطاب للطوائف المذكورة أيضا بأباء ماقبله ومابعده فان الخطاب فيهما لغير أولئك الطوائف حتما (من بيوتكم) أى البيوت التى فيها أزواجكم وعيالكم فيدخل فيها بيوت الاولاد لان بيتهم كبيته لقوله عليه الصلاة والسلام أنت ومالك لابيك وقوله عليه الصلاة والسلام ان أطيب مال الرجل من كسبه وان ولده من كسبه (أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم) وقرئ بكسر الهمزة والميم وبكسر الاولى وفتح الثانية (أو بيوت اخوانكم أو بيوت اخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت اخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ماملكتم مفاتحه) من البيوت التى تملكون

وهو المراد بقوله ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وأن يمكن لهم دينهم المرضى وأن يبدلهم بعد الخوف أمنا ومعلوم أن المراد بهذا الوعد بعد الرسول هؤلاء لان استخلاف غيره لايكون الا بعده ومعلوم انه لانبى بعده لانه خاتم الانبياء فاذن المراد بهذا الاستخلاف طريقة الامامة ومعلوم أن بعد الرسول الاستخلاف الذى هذا وصفه انما كان فى ايام أبى بكر وعمر وعثمان لان فى ايامهم كانت الفتوح العظيمة وحصل التمكين وظهور الدين والامن ولم يحصل ذلك فى أيام على رضى الله عنه لانه لم يتفرغ لجهاد الكفار لاشتغاله بمحاربة من خالفه من أهل الصلاة فثبت بهذا دلالة على صحة خلافة هؤلاء فان قيل الآية متروكة الظاهر لانها تقتضى حصول الخلافة لكل من آمن وعمل صالحا ولم يكن الامر كذلك نزلناه عنه لكن لم لايجوز أن يكون المراد من قوله ليستخلفنهم هو انه تعالى يسكنهم فى الارض ويمكنهم من التصرف لان المراد منه خلافة الله تعالى ومما يدل عليه قوله كما استخلف الذين من قبلهم واستخلاف من كان قبلهم لم يكن بطريق الامامة فوجب أن يكون الامر فى حقهم أيضا كذلك نزلناه عنه لكن ههنا مايدل على انه لايجوز حمله على خلافة رسول الله لان من مذهبكم انه عليه الصلاة والسلام لم يستخلف أحدا وروى عن على عليه السلام انه قال اتركم كما تركم رسول الله نزلناه عنه لكن لم لايجوز أن يكون المراد منه على عليه السلام والواحد قد يعبر عنه بلفظ الجمع على سبيل التعظيم كقوله تعالى انا أنزلناه فى ليلة القدر وقال فى حق على عليه السلام والذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون نزلناه ولكن نحمله على الائمة الاثنى عشر (والجواب) عن الاول أن كلمة من للتبعيض فقوله منكم يدل على أن المراد بهذا الخطاب بعضهم (وعن الثانى) أن الاستخلاف بالمعنى الذى ذكرتموه حاصل لجميع الخلق فالمذكور ههنا فى معرض البشارة لابد وأن يكون مغايرا له وأما قوله تعالى كما استخلف الذين من قبلهم فالذين كانوا قبلهم قد كانوا خلفاء تارة بسبب النبوة وتارة بسبب الامامة والخلافة حاصلة فى الصورتين (وعن الثالث) انه وان كان من مذهبنا انه عليه الصلاة والسلام لم يستخلف أحدا بالتعيين ولكنه قد استخلف بذكر الوصف والامر بالاختيار فلا يمتنع فى هؤلاء الائمة الاربعة انه تعالى يستخلفهم وأن الرسول استخلفهم على هذا الوجه قالوا فى أبى بكر ياخليفة رسول الله فالذى قيل انه عليه السلام لم يستخلف أريد به على وجه التعيين واذا قيل استخلف فالمراد على طريقة الوصف والامر (وعن الرابع) أن حمل لفظ الجمع على الواحد مجاز وهو خلاف الاصل (وعن الخامس) انه باطل لوجهين (أحدهما) قوله تعالى منكم يدل على ان هذا الخطاب كان مع الحاضرين وهؤلاء الائمة ماكانوا حاضرين (الثانى) انه تعالى وعدهم القوة والشوكة والنفاذ فى العالم ولم يوجد ذلك فيهم فثبت بهذا صحة امامة الائمة الاربعة وبطل قول الراوضة الطاعنين على أبى بكر وعمر وعثمان وعلى بطلان قول الخوارج الطاعنين على عثمان وعلى ولنرجع الى التفسير أما قوله ليستخلفنهم

فلقائل أن يقول أى القسم المتلقى باللام والنون فى ليستخلفنهم فلنا هو محذوف تقديره وعدهم والله ليستخلفنهم أو نزل وعد الله فى تحققه منزلة القسم فتلقى بما يتلقى به القسم كانه قال أقسم الله ليستخلفنهم أما قوله كما استخلف الذين من قبلهم يعنى كما استخلف هرون ويوشع وداود وسليمان وتقدير النظم ليستخلفنهم استخلافا كاستخلاف من قبلهم من هؤلاء الانبياء عليهم السلام وقرئ كما استخلف بضم التاء وكسر اللام وقرئ بالفتح أما قوله تعالى وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم فالمعنى انه يثبت لهم دينهم الذى ارتضى لهم وهو الاسلام وقرأ ابن كثير وعاصم ويعقوب وليبدلنهم من الابدال بالتخفيف والباقون بالتشديد وقد ذكرنا الفرق بينهما فى قوله تعالى بدلناهم جلودا غيرها أما قوله يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ففيه دلالة على ان الذين عناهم لا يتغيرون عن عبادة الله تعالى الى الشرك وقال الزجاج يجوز أن يكون فى موضع الحال على معنى وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات فى حال عبادتهم واخلاصهم لله ليفعلن بهم كيت وكيت ويجوز أن يكون استئنافا على طريق الثناء عليهم أما قوله ومن كفر بعد ذلك أى جحد حق هذه النعم فأولئك هم الفاسقون أى العاصون * قوله تعالى (وأقيموا الصلاة آتوا الزكوة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الارض ومأواهم النار ولبئس المصير) أما تفسير اقامة الصلاة وايتاء الزكاة وتفسير لعل وتفسير الرحمة فالكل قد تقدم مرارا وأما قوله لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الارض فالمعنى لا تحسبن يا محمد الذين كفروا سابقين فائتين حتى يعجزونى عن ادراكهم وقرئ لا يحسبن ايها المعجمة من تحتها وفيه أوجه (أحدها) أن يكون معجزين فى الارض هما المفعولان والمعنى لا يحسبن الذين كفروا أحدا يعجز الله فى الارض حتى يطمعوهم فى مثل ذلك (وثانيها) أن يكون فيه ضمير الرسول صلى الله عليه وسلم لتقدم ذكره فى قوله وأطيعوا الرسول والمعنى لا يحسبن الذين كفروا معجزين (وثالثها) أن يكون الاصل ولا يحسبنهم الذين كفروا معجزين ثم حذف الضمير الذى هو المفعول الاول وأما قوله ومأواهم النار ولبئس المصير فقال صاحب النظم لا يحتمل أن يكون متصلا بقوله لا تحسبن لان ذلك نفى وهذا ايجاب فهو اذن معطوف بالواو على مضمر قبله تقديره لا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الارض بل هم مقهورون ومأواهم النار * قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح ان يضعن ثيابهن غير

مفتح وجمع المفتاح مفاتيح وقرئ مفتاحه (أو صديقكم) أى أو بيوت صديقكم وان لم يكن بينكم وبينهم قرابة نسبية فانهم أرضى بالتبسط واسر به من كثير من الاقرباء روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان الصديق أكبر من الوالدين ان الجهنميين لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والامهات بل قالوا فما لنا من شافعين ولا صديق حميم والصديق يقع على الواحد والجمع كالخليط والقطين واضرابهما وهذا فيما اذا علم رضاء صاحب البيت بصريح الاذن أو بقرينة دالة عليه ولذلك خصص هؤلاء بالذكر لاعتيادهم التبسط فيما بينهم وقوله تعالى (ليس عليكم جناح ان تأكلوا جميعا أو أشتاتا) كلام مستانف مسوق لبيان حكم آخر من جنس ما بين قبله حيث كان فريق من المؤمنين كبنى ليث بن عمرو من كنانة يتحرجون أن يأكلوا

طعامهم منفردين وكان الرجل منهم لا ياكل و يمكث بومه حتى يجد ضيفا ياكل معه فان لم يجد

من يؤاكله لم يأكل شيا

ير بما قعد الرجل والطعام

بين يديه لا يتناوله من

الصباح الى الرواح

ور بما كانت معه الابل

الحفل فلا يشرب من

البانها حتى يجد من

يشار به فاذا أمسى ولم يجد

أحدا أكل وقيل كان

الغنى منهم يدخل على

الفقير من ذوى قرابته

وصداقته فيدعوه الى

طعامه فيقول انى اتحرج

ان آكل معك وأنا غنى

وأنت فقير وقيل كان

قوم من الانصار لا يأكلون

اذا نزل بهم ضيف الا مع

ضيفهم فرخص لهم

فى ان يأكلوا كيف شاؤا

وقيل كانوا اذا اجتمعوا

ليأكلوا طعاما عزلوا

للاعمى وأشباهه طعاما

على حدة فبين الله

تعالى ان ذلك ليس

بواجب وقوله تعالى

جميعا حال من فاعل

تاكلوا واشتاتا عطف

عليه داخل فى حكمه

وهو جمع شت على

انه صفة كالحق يقال

أمر شت أى متفرق

أو على انه فى الاصل

مصدر

متبرجات بزينة وان يستعففن خير لهن والله سميع عليم) اعلم ان فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال القاضى قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم وان كان ظاهره الرجال فالمراد به الرجال والنساء لان التذكير يغلب على التأنيث فاذا لم يميز فيدخل تحت قوله يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الكل و يبين ذلك قوله تعالى الذين ملكت أيمانكم لان ذلك يقال فى الرجال والنساء والاولى عندى ان الحكم ثابت فى النساء بقياس جلى وذلك لان النساء فى باب حفظ العورة أشد حالا من الرجال فهذا الحكم لما ثبت فى الرجال فثبوته فى النساء بطريق الاولى كما انا ثبت حرمة الضرب بالقياس الجلى على حرمة التأفيف (المسئلة الثانية) ظاهر قوله الذين ملكت أيمانكم يدخل فيه البالغون والصغار وحكى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان المراد الصغار واحتجوا بان الكبير من المماليك ليس له أن ينظر من المماليك الا الى ما يجوز للحر أن ينظر اليه قال ابن المسيب لا يغرنكم قوله وما ملكت أيمانكم لا ينبغى للمرأة أن ينظر عبدها الى قرطها وشعرها وشئ من محاسنها وقال آخرون بل البالغ من المماليك له أن ينظر الى شعر مالكته وما شاكله وظاهر الآية يدل على اختصاص عبيد المؤمنين والاطفال من الاحرار باباحة ما حظره الله تعالى من قبل على جماعة المؤمنين بقوله لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم فانه أباح لهم الا فى الاوقات الثلاثة وجوز دخولهم مع من لم يبلغ بغير اذن ودخول الموالى عليهم بقوله تعالى ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم أى يطوف بعضكم على بعض فيما عدا الاوقات الثلاثة وأكد ذلك بان أوجب على من بلغ الحلم الجرى على سنة من قبلهم من البالغين فى الاستيذان فى سائر الاوقات وألحقهم بمن دخل تحت قوله لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها (المسئلة الثالثة) قوله ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ان أريد به العبيد والاماء اذا كانوا بالغين فغير ممتنع أن يكون أمرا لهم فى الحقيقة وان أريد الذين لم يبلغوا الحلم لم يجز أن يكون أمرا لهم و يجب أن يكون أمر النابان نا مرهم بذلك ونبعثهم عليه كما أمرنا بامر الصبى وقد عقل الصلاة أن يفعلها لا على وجه التكليف لهم لكنه تكليف لنا لما فيه من المصلحة لنا ولهم بعد البلوغ ولا يبعد أن يكون لفظ الامر وان كان فى الظاهر متوجها عليهم الا أنه يكون فى الحقيقة متوجها على المولى كقولك للرجل ليخفك أهلك وولدك فظاهر الامر لهم وحقيقة الامر له بفعل ما يخافون عنده (المسئلة الرابعة) قال ابن عباس رضى الله عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث غلاما من الانصار الى عمر ليدعوه فوجده نائما فى البيت فدفع الباب وسلم فلم يستيقظ عمر فعاد ورد الباب وقام من خلفه وحركه فلم يستيقظ فقال الغلام اللهم أيقظه لى ودفع الباب ثم ناداه فاستيقظ وجلس ودخل الغلام فانكشف من عمر شئ وعرف عمر أن الغلام رأى ذلك منه فقال وددت ان الله نهى ابناءنا ونساءنا وخدمنا أن لا يدخلوا علينا فى هذه الساعات الا باذن ثم انطلق معه الى الرسول صلى

﴿ الله ﴾

شروع فى بيان الآداب التى تجب رعايتها عند مباشرة ما رخص فيه اثر بيان الرخصة فيه (بيوتا) أى من البيوت المذكورة (فسلموا على أنفسكم) أى على أهلها الذين بمنزلة أنفسكم لما بينكم وبينهم من القرابة الدينية والنسبية الموجبة لذلك (تحية من عند الله) أى ثابتة بامره مشروعة من لدنه ويجوز أن يكون صلة للتحية فانها طلب الحياة التى هى من عنده تعالى وانتصابها على المصدرية لانها بمعنى التسليم (مباركة) مستتبعة لزيادة الخير والثواب ودوامهما (طيبة) تطيب بها نفس المسلم وعن أنس رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال متى لقيت أحدا من أمتى فسلم عليه يطل عمرك واذا دخلت بيتك فسلم عليهم يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فانها صلاة الابرار الاوابين (كذلك يبين الله لكم الآيات) تكرير لتأكيد

الله عليه وسلم فوجده قد نزل عليه يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم فحمد الله تعالى عمر عند ذلك فقال عليه السلام وما ذاك يا عمر فاخبره بما فعل الغلام فتعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم من صنعه وتعرف اسمه ومدحه وقال ان الله يحب الحليم الحيى العفيف المتعفف ويبغض البذى الجرئ السائل الملحف فهذه الآية احدى الآيات المنزلة بسبب عمر وقال بعضهم نزلت فى أسماء بنت أبى مرثد قالت انا الندخل على الرجل والمرأة ولعلهما يكونان فى لحاف واحد وقيل دخل عليها غلام لها كبير فى وقت كرهت دخوله فيه فاتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ان خدمنا وغلماننا يدخلون علينا فى حال نكره فنزلت الآية (المسئلة الخامسة) قال ابن عمر ومجاهد قوله ليستأذنكم عنى به الذكور دون الاناث لان قوله الذين ملكت أيمانكم صيغة الذكور لا صيغة الاناث وعن ابن عباس رضى الله عنهما هى فى الرجال والنساء يستأذنون على كل حال بالليل والنهار والصحيح انه يجب اثبات هذا الحكم فى النساء لان الانسان كما يكره اطلاع الذكور على أحواله فقد يكره أيضا اطلاع النساء عليها ولكن الحكم يثبت فى النساء بالقياس لا بظاهر اللفظ على ما قدمناه (المسئلة السادسة) من العلماء من قال الامر فى قوله ليستأذنكم على الندب والاستحباب ومنهم من قال انه على الايجاب وهذا أولى لما ثبت ان ظاهر الامر للوجوب * اما قوله تعالى والذين لم يبلغوا الحلم منكم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ ابن عمر الحلم بالسكون (المسئلة الثانية) اتفق الفقهاء على أن الاحتلام بلوغ واختلفوا اذا بلغ خمس عشرة سنة ولم يحتلم فقال أبو حنيفة رحمه الله لا يكون الغلام بالغا حتى يبلغ ثمانى عشرة سنة ويستكملها وفى الجارية سبع عشرة سنة وقال الشافعى وأبو يوسف ومحمد رحمهم الله فى الغلام والجارية خمس عشرة سنة قال أبو بكر الرازى قوله تعالى والذين لم يبلغوا الحلم منكم يدل على بطلان قول من جعل حد البلوغ خمس عشرة سنة اذا لم يحتلم لان الله تعالى لم يفرق بين من بلغها وبين من قصر عنها بعد أن لا يكون قد بلغ الحلم وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم من جهات كثيرة رفع القلم عن ثلاث عن النائم حتى يستيقظ وعن المجنون حتى يفيق وعن الصبى حتى يحتلم ولم يفرق بين من بلغ خمس عشرة سنة وبين من لم يبلغها فان قيل فهذا الكلام يبطل التقدير أيضا بثمانى عشرة سنة أجاب بانا قد علمنا بالعادة فى البلوغ خمس عشرة سنة وكل ما كان مبنيا على طريق العادات فقد يجوز الزيادة فيه والنقصان منه وقد وجدنا من بلغ فى ثنتى عشرة سنة وقد بينا ان الزيادة على المعتاد جائزة كالنقصان منه فجعل أبو حنيفة رحمه الله الزيادة كالنقصان وهى ثلاث سنين وقد حكى عن أبى حنيفة رحمه الله تسع عشرة سنة للغلام وهو محمول على استكمال ثمانى عشرة سنة والدخول فى التاسعة عشرة حجة الشافعى رحمه الله ما روى ابن عمر أنه عرض على النبى صلى الله عليه وسلم يوم أحد وله بار بع عشرة سنة فلم يجزه وعرض عليه يوم الخندق وله خمس عشرة سنة فاجازه اعترض أبو بكر الرازى عليه فقال هذا الخبر مضطرب

لان أحدا كان في سنة ثلاث والخندق في سنة خمس فكيف يكون بينهما سنة ثم مع ذلك فان الاجازة في القتال لاتعلق لها بالبلوغ لانه قد يرد البالغ لضعفه و يؤذن غير البالغ لقوته واطاقته حمل السلاح و يدل على ذلك انه عليه الصلاة والسلام ما سأله عن الاحتلام والسن (البحث الثاني) اختلفوا في الانبات هل يكون بلوغا فابو حنيفة وأصحابه ما جعلوه بلوغا والشافعي رحمه الله جعله بلوغا فان أبو بكر الرازي رحمه الله ظاهر قوله والذين لم يبلغوا الحلم منكم ينفي أن يكون الانبات بلوغا اذا لم يحتلم كما نفى كون خمس عشرة سنة بلوغا وكذلك قوله عليه السلام وعن الصبي حتى يحتلم حجة الشافعي رحمه الله تعالى ما روى عطية القرظي أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتل من أنبت من قريظة واستحياء من لم ينبت قال فنظروا الى فلم أكن قد أنبت فاستبقاني قال أبو بكر الرازي هذا الحديث لا يجوز اثبات الشرع به و بمثله لوجوه (أحدها) ان عطية هذا مجهول لا يعرف الا من هذا الخبر لا سيما مع اعتراضه على الآية والخبر في نفي البلوغ الا بالاحتلام (وثانيها) أنه مختلف الالفاظ ففي بعضها انه أمر بقتل من جرت عليه الموسى وفي بعضها من اخضر عذاره ومعلوم أنه لا يبلغ هذه الحال الا وقد تقدم بلوغه ولا يكون قد جرت عليه الموسى الا وهو رجل كبير فجعل الاثبات وجري الموسى عليه كناية عن بلوغ القدر الذي ذكرنا من السن وهي ثماني عشرة سنة فاكثر (وثالثها) ان الانبات يدل على القوة البدنية فالامر بالقتل لذلك لا للبلوغ قال الشافعي رحمه الله هذه الاحتمالات مردودة بما روى ان عثمان بن عفان رضي الله عنه سئل عن غلام فقال هل اخضر عذاره وهذا يدل على ان ذلك كان كالامر المتفق عليه فيما بين الصحابة (البحث الثالث) يروى عن قوم من السلف انهم اعتبروا في البلوغ أن يبلغ الانسان في طوله خمسة أشبار روى عن علي عليه السلام انه قال اذا بلغ الغلام خمسة أشبار فقد وقعت عليه الحدود و يقتص له و يقتص منه وعن ابن سيرين عن أنس قال أتى أبو بكر بغلام قد سرق فأمر به فشبر فنقص أنملة فحلى عنه وهذا المذهب أخذ به الفرزدق في قوله

ما زال مذ عقدت يداه ازاره * وسما فادرك خمسة الاشبار

وأكثر الفقهاء لا يقولون بهذا المذهب لان الانسان قد يكون دون البلوغ و يكون طويلا وفوق البلوغ و يكون قصيرا فلا عبرة به (المسئلة الثالثة) قال أبو بكر الرازي دلت هذه الآية على ان من لم يبلغ وقد عقل يؤمر بفعل الشرائع و ينهى عن ارتكاب القبائح فان الله أمرهم بالاستئذان في هذه الاوقات وقال عليه السلام مروهم بالصلاة وهم ابناء سبع واضربوهم عليها وهم ابناء عشر وعن ابن عمر رضي الله عنه قال نعلم الصبي الصلاة اذا عرف يمينه من شماله وعن زين العابدين انه كان يامر الصبيان أن يصلوا الظهر والعصر جميعا والمغرب والعشاء جميعا فقيل له يصلون الصلاة لغير وقتها فقال هذا خير من أن يتهاونوا عنها وعن ابن مسعود رضي الله عنه اذا بلغ الصبي عشر سنين كتبت له الحسنات ولا تكتب عليه السيآت حتى يحتلم ثم قال أبو بكر الرازي انما يؤمر بذلك على

الاحكام المحتمة به وتفخيمها (لعلكم تعقلون) أي ما في تضاعيفها من الشرائع والاحكام وتعملون بموجبها وتحوزون بذلك سعادة الدارين وفي تعليل هذا التبيين بهذه الغاية القصوى بعد تذييل الاولين بما يوجبهما من الجزالة ما لا يخفى (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله) استئناف جيء به في أواخر الاحكام السابقة تقريرا لها وتأكيدا لوجوب مراعاتها

جه التعليم و لبعاده و يقرن عليه فيكون أسهل عليه بعد البلوغ و أقل نفورا منه
ك ذلك يجنب شرب الخمر ولحم الخنزير وينهى عن سائر المحظورات لانه لو لم يمنع منه
الصغر لصعب عليه الامتناع بعد الكبر وقال الله تعالى قوا أنفسكم وأهليكم نارا
ى فى التفسير أدبوهم وعلموهم (المسئلة الرابعة) قال الاخفش يقال فى الحلم حلم الرجل
ح اللام يحلم حلما بضم اللام ومن الحلم حلم بضم اللام يحلم حلما بكسر اللام أما قوله تعالى
ث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء
ث عورات لكم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله ثلاث مرات يعنى ثلاث أوقات
ه تعالى فسرهن بالاوقات وانما قيل ثلاث مرات للاوقات لانه أراد مرة فى كل وقت
هذه الاوقات لانه يكفيهم أن يستاذنوا فى كل واحد من هذه الاوقات مرة واحدة ثم
الاوقات فقال من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة
شاء يعنى الغالب فى هذه الاوقات الثلاثة أن يكون الانسان متجردا عن الثياب
شوف العورة (المسئلة الثانية) قوله ثلاث عورات قرأ أهل الكوفة ثلاث بالنصب على
دل من قوله ثلاث مرات وكانه قال فى أوقات ثلاث عورات لكم فلما حذف المضاف
رب المضاف اليه باعرابه وقراءة الباقين بالرفع أى هى ثلاث عورات فارتفع لانه خبر
أ محذوف قال القفال فكان المعنى ثلاث انكشفات والمراد وقت الانكشاف
سئلة الثالثة) العورة الخلل ومنه اعور الفارس واعور المكان والاعور المختل العين
ى الله تعالى كل واحدة من تلك الاحوال عورة لان الناس يختل حفظهم وتستهم
ا (المسئلة الرابعة) الآية دالة على ان الواجب اعتبار العلل فى الاحكام اذا أمكن
ه تعالى نبه على العلة فى هذه الاوقات الثلاثة من وجهين (أحدهما) بقوله تعالى ثلاث
رات لكم (والثانى) بالتنبيه على الفرق بين هذه الاوقات الثلاثة وبين ماعداها بانه
ل ذلك الالعلة التكشف فى هذه الاوقات الثلاثة وانه لا يؤمن وقوع التكشف فيها
يس كذلك ماعداها هذه الاوقات (المسئلة الخامسة) من الناس من قال ان قوله تعالى
يها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها فهذا يدل
ى ان الاستئذان واجب فى كل حال وصار ذلك منسوخا بهذه الآية فى غير هذه الاحوال
لاثة ومن الناس من قال الآية الاولى أريد بها المكلف لانه خطاب لمن آمن وما ذكره
تعالى فى هذه الآية فهو فيمن ليس بمكلف فقيل فيه ان فى بعض الاحوال لا يدخل
ن وفى بعضها بغير اذن فلا وجه لحمل ذلك على النسخ لان ما تناوله الآية الاولى من
طفلين لم تتناوله الآية الثانية أصلا فان قيل بتقدير ان يكون قوله تعالى الذين ملكت
كم يدخل فيه من قد بلغ فالنسخ لازم قلنا لا يجب ذلك أيضا لان قوله يا أيها الذين
لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم لا يدخل الامن يملك البيوت لحق هذه الاضافة واذا
ذلك لم يدخل تحته العبيد والاماء فلا يجب النسخ أيضا على هذا القول فاما ان حمل

الواقع خبرا للمبتدأ مع تضمنه له قطعا تقريرا لما قبله و تمهيد الما بعده وايذانا بانه حقيق بان يجعل قرينا للايمان لهما من تظافرا فى سلكه فقوله تعالى (واذا كانوا معه على أمر جامع) الخ معطوف على آمنوا داخل معه فى حيز الصلة أى انما الكاملون فى الايمان الذين آمنوا بالله وسوله عن صميم قلوبهم وأطاعوهما فى جميع الاحكام التى من جملتها ما فصل من قبل من الاحكام المتعلقة بعامة أحوالهم المطردة فى الوقوع وأحوالهم الواقعة بحسب الاتفاق كما اذا كانوا معه عليه الصلاة والسلام على أمر مهم يجب اجتماعهم فى شانه كالجمعة والاعياد والحروب وغيرها من الامور الداعية الى اجتماع اولى الآراء والتجارب ووصف الامر بالجمع للمبالغة وقرئ أمر جميع (لم يذهبوا) أى وتكميلا لها ببيان بعض آخر من جنسها وانما ذكر

من المجمع مع كون ذلك الامر مما لا يوجب حضورهم لا محالة كما عند اقامة الجمعة ولقاء العدو بل يسوغ التخلف عنه (حتى يستاذنوه) عليه الصلاة والسلام في الذهاب لا على أن نفس الاستئذان غاية لعدم الذهاب بل الغاية هي الاذن المنوط برأيه عليه الصلاة السلام والاقتصار على ذكره لانه الذي يتم من قبلهم وهو المعتبر في كمال الايمان لا الاذن ولا الذهاب المترتب عليه واعتباره في ذلك لما أنه كالمصداق لصحته والمميز للخلص فيه عن المنافق فان ديدنه التسلل للفرار ولتعظيم ما في الذهاب بغير اذنه عليه الصلاة والسلام من الجناية وللتنبيه على ذلك عقب بقوله تعالى (ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله) فقضى بان المستأذنين هم المؤمنون بالله ورسوله كما حكم في الاول بان الكاملين في الايمان هم الجامعون بين الايمان بهما وبين الاستئذان وفي أولئك تفخيم شان

الكلام على صغار المماليك فالقول فيه أبين (المسئلة السادسة) قال أبو حنيفة رحمه الله لم يصر أحد من العلماء الى أن الامر بالاستئذان منسوخ وروى عطاء عن ابن عباس انه قال ثلاث آيات من كتاب الله تركهن الناس ولا أرى أحدا يعمل بهن قال عطاء حفظت اثنتين ونسيت واحدة وقرأ هذه الآية وقوله يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وذكر سعيد بن جبير ان الآية الثالثة قوله واذا حضر القسمة أولوا القربى الآية أما قوله تعالى ليس عليكم ولا عليهم جناح بعد هن طوافون عليكم بعضكم على بعض ففيه سؤالات (السؤال الاول) أتقولون في قوله ليس عليكم ولا عليهم جناح انه يقتضي الاباحة على كل حال (الجواب) قد بينا ان ذلك هو في الصغار خاصة فباح لهم الدخول للخدمة بغير الاذن في غير الاوقات الثلاثة وباح لنا تمكينهم من ذلك والدخول عليهم أيضا (السؤال الثاني) فهل يقتضي ذلك اباحة كشف العورة لهم (الجواب) لا وانما أباح تعالى ذلك من حيث كانت العادة أن لا تكشف العورة في غير تلك الاوقات فمتى كشفت المرأة عورتها مع ظن دخول الخدم اليها فذلك يحرم عليها فان كان الخادم ممن يتناسى التكليف فيحرم عليه الدخول أيضا اذا ظن ان هناك كشف عورة فان قيل أليس الناس من جوز للبالغ من المماليك أن ينظر الى شعر مولاته قلنا من جوز ذلك أخرج الشعر من أن يكون عورة لحق الملك كما يخرج من أن يكون عورة لحق الرحم اذا العورة تنقسم ففيه ما يكون عورة على كل حال وفيه ما يختلف حاله بالاضافة فيكون عورة الاجنبي غير عورة مع غيره على ما تقدم ذكره (السؤال الثالث) اتقولون هذه الاباحة مقصورة على الخدم دون غيرهم (الجواب) نعم وفي قوله ليس عليكم ولا عليهم جناح بعد دلالة على ان هذا الحكم يختص بالصغار دون البالغين على ما تقدم ذكره وقد نص تعالى على ذلك من بعد فقال واذا بلغ الاطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم والمراد من تجدد منه البلوغ يجب أن يكون بمنزلة من تقدم بلوغه في وجوب الاستئذان فهذا معنى قوله كما استأذن الذين من قبلهم وقد يجوز أن يظن ظان ان من خدم في حال الصغر فاذا بلغ يجوز له ان لا يستأذن ويفارق حاله حال من لم يخدم ولم يعلم فبين تعالى انه كما حظر على البالغين الدخول الا بالاستئذان فكذلك على هؤلاء اذا بلغوا وان تقدمت لهم خدمة أوثبت فيهم ملك لهن (السؤال الرابع) الامر بالاستئذان هو مختص بالمملوك ومن لم يبلغ الحلم أو يتناول الكل من ذوي الرحم والاجنبي وأيضا لو كان المملوك من ذوي الرحم هل يجب عليه الاستئذان (الجواب) أما الصورة الاولى فهم اما بالعموم قوله تعالى لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا أو بالقياس على المملوك ومن لم يبلغ الحلم بطريق الاولى وأما الصورة الثانية فيجب عليه الاستئذان لعموم الآية (السؤال الخامس) ما محل ليس عليكم (الجواب) اذا رفعت ثلاث عورات كان ذلك في محل الرفع على الوصف والمعنى هن ثلاث عورات مخصوصة

ستئذان واذا تصبت لم يكن له محل وكان كلاما مقررا للامر بالاستئذان فى تلك
حوال خاصة (السؤال السادس) مامعنى قوله طوافون عليكم (الجواب) قال
راء والزجاج انه كلام مستانف كقولك فى الكلام انما هم خدمكم وطوافون
كم والطوافون الذين يكثرون الدخول والخروج والتردد وأصله من الطواف والمعنى
وف بعضكم على بعض بغير اذن (السؤال السابع) بم ارتفع بعضكم (الجواب)
بتداء وخبره على بعض على معنى طائف على بعض وانما حذف لان طوافون
ل عليه أما قوله والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا ففيه مسائل (المسئلة
ولى) قال ابن السكيت امرأة قاعد اذا قعدت عن الحيض والجمع قواعد واذا أردت
ود قلت قاعدة وقال المفسرون القواعد هن اللواتى قعدن عن الحيض والولد من
سبر ولا مطمع لهن فى الازواج والاولى أن لا يعتبر قعودهن عن الحيض لان ذلك
طمع والرغبة فيهن باقية فالمراد قعودهن عن حال الزوج وذلك لا يكون الا اذا بلغن
السن بحيث لا يرغب فيهن الرجال (المسئلة الثانية) قوله تعالى فى النساء لا يرجون
وله الا أن يعفون (المسئلة الثالثة) لا شبهة انه تعالى لم يأذن فى أن يضعن ثيابهن أجمع
يه من كشف كل عورة فلذلك قال المفسرون المراد بالثياب ههنا الجلباب
رد والقناع الذى فوق الخمار وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قرأ أن يضعن
ن بعض ثيابهن وعن السدى عن شيوخه أن يضعن خمرهن عن رؤسهن وعن بعضهم انه قرأ
ن يضعن من ثيابهن وانما خصهن الله تعالى بذلك لان التهمة مرتفعة عنهن وقد بلغن
ا المبلغ فلو غلب على ظنهن خلاف ذلك لم يحل لهن وضع الثياب ولذلك قال وأن
ففن خير لهن وانما جعل ذلك أفضل من حيث هو أبعد من المظنة وذلك يقتضى
عند المظنة يلزمهن أن لا يضعن ذلك كما يلزم مثله فى الشابة (المسئلة الرابعة) حقيقة
تبرج تكلف اظهار ما يجب اخفاؤه من قولهم سفينة بارج لاغطاء عليها والتبرج سعة
عين التى يرى بياضها محيطا بسوادها كله لا يغيب منه شئ الا انه اختص بان تتكشف
رأة للرجال بابداء زينتها واظهار محاسنها * قوله تعالى (ليس على الاعمى حرج ولا على
لاعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت
كم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت اخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم
بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتحه أو
ديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو أشتاتا فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم
يسة من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون) اعلم ان فى هذه
ية مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى المراد من رفع الحرج عن الاعمى والاعرج
لمريض فقال ابن زيد المراد انه لا حرج عليهم ولا اثم فى ترك الجهاد وقال الحسن

المستاذنين ما لا يخفى (فاذا استأنوك) بيان لما هو وظيفته عليه الصلاة والسلام فى هذا الباب اثر بيان ما هو وظيفة المؤمنين وأن الاذن عند الاستئذان ليس بامر محتوم بل هو مفوض الى رأيه عليه الصلاة والسلام والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أى بعد ما تحقق أن الكاملين فى الايمان هم المستاذنون فاذا استاذنوك (لبعض شانهم) أى لبعض أمرهم المهم وخطبهم الملم (فاذن لمن شئت منهم) لما علمت فى ذلك من حكمة ومصلحة (واستغفر لهم الله) فان الاستئذان وان كان لعذر قوى لا يخلو عن شائبة تقديم أمر الدنيا على أمر الآخرة (ان الله غفور) مبالغ فى مغفرة فرطات العباد (رحيم) مبالغ فى افاضة آثار الرحمة عليهم والجملة تعليل للمغفرة الموعودة فى ضمن الامر بالاستغفار لهم (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم) استئناف مقرر لمضمون ما قبله والالتفات لابراز مزيد الاعتناء

لاتقيسوا دعاءه عليه الصلاة والسلام اياكم على دعاء بعضكم بعضا في حال من الاحوال وأمر من الامور التي من جملتها المساهلة فيه والرجوع عن مجلسه عليه الصلاة والسلام بغير استئذان فان ذلك من المحرمات وقيل لاتجعلوا دعاءه عليه الصلاة والسلام ربه كدعاء صغيركم كبيركم يجيبه مرة ويرده أخرى فان دعاءه مستجاب لامرد له عند الله عز وجل وتقرير الجملة حينئذ لما قبلها اما من حيث ان استجابته تعالى لدعائه عليه الصلاة والسلام مما يوجب امتثالهم باوامره عليه الصلاة والسلام ومتابعتهم له في الورود والصدور أكمل ايجاب واما من حيث انها موجبة للاحتراز عن التعرض لسخطه عليه الصلاة والسلام المؤدي الى مايوجب هلاكهم من دعائه عليه الصلاة

نزلت الآية في ابن أم مكتوم وضع الله الجهاد عنه وكان أعمى وهذا القول ضعيف لانه تعالى عطف عليه قوله أن تأكلوا فنبه بذلك على انه انما رفع الحرج في ذلك وقال الاكثرون المراد منه ان القوم كانوا يحظرون الاكل مع هؤلاء الثلاثة وفي هذه المنازل فالله تعالى رفع ذلك الحظر وازاله واختلفوا في انهم لاى سبب اعتقدوا ذلك الحظر أما في حق الاعمى والاعرج والمريض فذكروا فيه وجوها (أحدها) انهم كانوا لا يأكلون مع الاعمى لانه لا يبصر الطعام الجيد فلا يأخذه ولا مع الاعرج لانه لا يتمكن من الجلوس فعلى أربا كل لقمة يأكل غيره لقمتين وكذا المريض لانه لا يتأتى له أن يأكل كما يأكل الصحيح قال الفراء فعلى هذا التأويل تكون على بمعنى في بمعنى ليس عليكم في مواكلة هؤلاء حرج (وثانيها) أن العميان والعرجان والمرضى تركوا مواكلة الاصحاء أما الاعمى فقال اني لا أرى شيئا فربما آخذ الاجود وأترك الارذ وأما الاعرج والمريض فخشيا أن يفسدا طعام على الاصحاء لامور تعتري المرضى ولاجل أن الاصحاء يتكرهون منهم ولاجل أن المريض ربما حمله الشره على أن يتعلق نظره وقلبه بلقمة الغير وذلك مما يكره ذلك الغير فلهذه الاسباب احترزوا عن مواكلة الاصحاء فالله تعالى أطلق لهم في ذلك (وثالثها) روى الزهري عن سعيد بن المسيب وعبيد الله بن عبد الله في هذه الآية أن المسلمين كانوا اذا غزوا خلفوا زمناءهم وكانوا يسلمون اليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما في بيوتنا فكانوا يتحرجون من ذلك وقالوا لا ندخلها وهم غائبون فنزلت هذه الآية رخصة لهم وهذا قول عائشة رضي الله عنها فعلى هذا معنى الآية نفي الحرج عن الزمنى في اكلهم من بيت من يدفع اليهم المفتاح اذا خرج الى الغزو (ورابعها) نقل عن ابن عباس ومقاتل بن حيان نزلت هذه الآية في الحرث بن عمرو وذلك انه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غازيا وخلف مالك بن زيد على أهله فلما رجع وجده مجهودا فسأله عن حاله فقال تحرجت أن آكل من طعامك بغير اذنك وأما في حق سائر الناس فذكر واوجهين (الاول) كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوي العاهات الى بيوت أزواجهم وأولادهم وقراباتهم واصدقائهم فيطعمونهم منها فلما نزل قوله تعالى لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة أي يعافعند ذلك امتنع الناس أن يأكل بعضهم من طعام بعض فنزلت هذه الآية (الثاني) قال قتادة كانت الانصار في أنفسها قرازة وكانت لا تأكل من هذه البيوت اذا استغنوا قال السدي كان الرجل يدخل بيت أبيه أو بيت أخيه أو أخته فتحفه المرأة بشئ من الطعام فيتحرج لانه ليس رب البيت فانزل الله تعالى هذه الرخصة (المسئلة الثانية) قال الزجاج الحرج في اللغة الضيق ومعناه في الدين الاثم (المسئلة الثالثة) انه سبحانه أباح الاكل للناس من هذه المواضع وظاهر الآية يدل على ان اباحة الاكل لا تتوقف على الاستئذان واختلف العلماء فيه فنقل عن قتادة ان الاكل مباح ولكن لا يجمل وجمهور العلماء أنكروا ذلك

ثم اختلفوا على وجوه (الاول) كان ذلك فى صدر الاسلام ثم نسخ ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام لايحل مال امرئ مسلم الا عن طيب نفس منه ومما يدل على هذا النسخ قوله لاتدخلوا بيوت النبى الا ان يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه وكان فى أزواج النبى صلى الله عليه وسلم من لهن الآباء والاخوة والاخوات فعم بالنهى عن دخول بيوتهن الا بعد الاذن فى الدخول وفى الاكل فان قيل انما اذن تعالى فى هذا لان المسلمين لم يكونوا يمنعون قراباتهم هؤلاء من أن يأكلوا من بيوتهم حضروا أو غابوا فجاز أن يرخص فى ذلك قلنا لو كان الامر كذلك لم يكن لتخصيص هؤلاء الاقارب بالذكر معنى لان غيرهم كهم فى ذلك (الثانى) قال أبو مسلم الاصفهانى المراد من هؤلاء الاقارب اذا لم يكونوا مؤمنين وذلك لانه تعالى نهى من قبل عن مخالطتهم بقوله لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ثم انه سبحانه أباح فى هذه الاية ماحظره هناك قال ويدل عليه ان فى هذه السورة أمر بالتسليم على أهل البيوت فقال حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها وفى بيوت هؤلاء المذكورين لم يأمر بذلك بل أمر أن يسلموا على أنفسهم والحاصل أن المقصود من هذه الآية اثبات الاباحة فى الجملة لاثبات الاباحة فى جميع الاوقات (الثالث) انه لما علم بالعادة أن هؤلاء اقوم تطيب أنفسهم باكل من يدخل عليهم والعادة كالاذن فى ذلك فيجوز أن يقال خصهم الله بالذكر لان هذه العادة فى الاغلب توجد فيهم ولذلك ضم اليهم الصديق ولما علمنا أن هذه الاباحة انما حصلت فى هذه السورة لاجل حصول الرضا فيها فلا حاجة الى القول بالنسخ (المسئلة الرابعة) ان الله تعالى ذكر أحد عشر موضعا فى هذه الآية (أولها) قوله ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم وفيه سؤال وهو أن يقال أى فائدة فى أباحة أكل الانسان طعامه فى بيته وجوابه المراد فى بيوت أزواجكم وعيالكم اضافه اليهم لان بيت المرأة كبيت الزوج وهذا قول الفراء وقال ابن قتيبة اراد بيوت أولادهم فنسب بيوت الاولاد الى الآباء لان الولد كسب والده وماله كماله قال عليه الصلاة والسلام ان أطيب ما أكل الرجل من كسبه وان ولده من كسبه والدليل على هذا انه سبحانه وتعالى عدد الاقارب ولم يذكر الاولاد لانه اذا كان سبب الرخصة هو القرابة كان الذى هو أقرب منهم أولى (وثانيها) بيوت الآباء (وثالثها) بيوت الامهات (ورابعها) بيوت الاخوان (وخامسها) بيوت الاخوات (وسادسها) بيوت الاعمام (وسابعها) بيوت العمات (وثامنها) بيوت الاخوال (وتاسعها) بيوت الخالات (وعاشرها) قوله تعالى أو ماملكتم مفاتحه وقرئ مفتاحه وفيه وجوه (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما وكيل الرجل وقيمه فى ضيعته وماشيته لابأس عليه أن يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته وملك المفاتح كونها فى يده وفى حفظه (الثانى) قال الضحاك يريد الزمنى الذين كانوا يحرسون للغزاة (الثالث) المراد بيوت المماليك لان مال العبد لمولاه قال الفضل المفاتح واحدها مفتح بفتح الميم وواحد المفاتيح مفتح بالكسر

بعضا باسمه ورفع الصوت والنداء من وراء الحجرات ولكن يلقبه المعظم مثل يارسول الله يانبى الله مع غاية التوقير والتفخيم والتواضع وخفض الصوت وبما يناسب المقام فان قوله تعالى (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم) الخ وعيد لمخالفى أمره عليه الصلاة والسلام فيما ذكر من قبل فتوسيط ماذكر بينهما مما لاوجه له والتسلل الخروج من البين على التدريج والخفية وقد للتحقيق كما أن رب تجئ للتكثير حسبما بين فى مطلع سورة الحجر أى يعلم الله الذين يخرجون من الجماعة قليلا قليلا على خفية (لواذا) أى ملاوذة بأن يستتر بعضهم ببعض حتى يخرج أو بأن يلوذ بمن يخرج بالاذن اراءة أنه من أتباعه وقرئ بفتح اللام وانتصابه على الحالية من ضمير يتسللون أى ملاوذين أو على أنه

مصدر مؤكد

لاتقيسوا دعاءه عليه الصلاة والسلام اياكم على دعاء بعضكم بعضا فى حال من الاحوال وأمر من الامور التى من جملتها المساهلة فيه والرجوع عن مجلسه عليه الصلاة والسلام بغير استئذان فان ذلك من المحرمات وقيل لاتجعلوا دعاءه عليه الصلاة والسلام ربه كدعاء صغيركم كبيركم يجيبه مرة ويرده أخرى فان دعاءه مستجاب لامرد له عند الله عز وجل وتقرير الجملة حينئذ لما قبلها اما من حيث ان استجابته تعالى لدعائه عليه الصلاة والسلام مما يوجب امتثالهم باوامره عليه الصلاة والسلام ومتابعتهم له فى الورود والصدور أكمل ايجاب واما من حيث انها موجبة للاحتراز عن التعرض لسخطه عليه الصلاة والسلام المؤدى الى مايوجب هلاكهم من دعائه عليه الصلاة

نزلت الآية فى ابن أم مكتوم وضع الله الجهاد عنه وكان أعمى وهذا القول ضعيف لانه تعالى عطف عليه قوله أن تأكلوا فنبه بذلك على انه انما رفع الحرج فى ذلك وقال الاكثرون المراد منه ان القوم كانوا يحظرون الاكل مع هؤلاء الثلاثة وفى هذه المنازل فالله تعالى رفع ذلك الحظر وازاله واختلفوا فى انهم لاى سبب اعتقدوا ذلك الحظر أما فى حق الاعمى والاعرج والمريض فذكروا فيه وجوها (أحدها) انهم كانوا لايأكلون مع الاعمى لانه لايبصر الطعام الجيد فلا يأخذه ولا مع الاعرج لانه لايتمكن من الجلوس فالى أن يأكل لقمة يأكل غيره لقمتين وكذا المريض لانه لايتأتى له أن ياكل كما يأكل الصحيح قال الفراء فعلى هذا التأويل تكون على بمعنى فى يعنى ليس عليكم فى مواكلة هؤلاء حرج (وثانيها) أن الاعميان والعرجان والمرضى تركوا مواكلة الاصحاء أما الاعمى فقال انى لاأرى شيئا فربما آخذ الاجود وأترك الاردأ وأما الاعرج والمريض فلانهما أن يفسدا طعام على الاصحاء لامور تعترى المرضى ولاجل أن الاصحاء يتكرهون منهم ولاجل أن المريض ربما حمله الشره على أن يتعلق نظره وقلبه بلقمة الغير وذلك مما يكره ذلك الغير فلهذه الاسباب احترزوا عن مواكلة الاصحاء فالله تعالى أطلق لهم فى ذلك (وثالثها) روى الزهرى عن سعيد بن المسيب وعبيد الله بن عبد الله فى هذه الآية أن المسلمين كانوا اذا غزوا خلفوا زمناءهم كانوا يسلمون اليهم مفاتيح أبوابهم ويقولون لهم قد أحللنا لكم أن تأكلوا مما فى بيوتنا فكانوا يتحرجون من ذلك وقالوا لاندخلها وهم غائبون فنزلت هذه الآية رخصة لهم وهذا قول عائشة رضى الله عنها فعلى هذا معنى الآية نفى الحرج عن الزمنى فى اكلهم من بيت من يدفع اليهم المفتاح اذا خرج الى الغزو (ورابعها) نقل عن ابن عباس ومقاتل بن حيان نزلت هذه الآية فى الحرث بن عمرو وذلك انه خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غازيا وخلف مالك بن زيد على أهله فلما رجع وجده مجهودا فسأله عن حاله فقال تحرجت أن آكل من طعامك بغير اذنك وأما فى حق سائر الناس فذكروا وجهين (الاول) كان المؤمنون يذهبون بالضعفاء وذوى العاهات الى بيوت أزواجهم وأولادهم وقراباتهم واصدقائهم فيطعمونهم منها فلما نزل قوله تعالى لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة أى يبعا فعند ذلك امتنع الناس أن ياكل بعضهم من طعام بعض فنزلت هذه الآية (الثانى) قال قتادة كانت الانصار فى أنفسها قزازة وكانت لاتاكل من هذه البيوت اذا استغنوا قال السدى كان الرجل يدخل بيت أبيه أو بيت أخيه أو أخته فتحفه المرأة بشئ من الطعام فيتحرج لانه ليس رب البيت فانزل الله تعالى هذه الرخصة (المسئلة الثانية) قال الزجاج الحرج فى اللغة الضيق ومعناه فى الدين الاثم (المسئلة الثالثة) انه سبحانه أباح الاكل للناس من هذه المواضع وظاهر الآية يدل على ان اباحة الاكل لاتتوقف على الاستئذان واختلف العلماء فيه فنقل عن قتادة ان الاكل مباح ولكن لايحمل وجمهور العلماء أنكروا ذلك

ثم اختلفوا على وجوه (الاول) كان ذلك فى صدر الاسلام ثم نسخ ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام لايحل مال امرئ مسلم الا عن طيب نفس منه ومما يدل على هذا النسخ قوله لاتدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه وكان فى أزواج النبى صلى الله عليه وسلم من لهن الآباء والاخوة والاخوات فعم بالنهى عن دخول بيوتهن الا بعد الاذن فى الدخول وفى الاكل فان قيل انما اذن تعالى فى هذا لان المسلمين لم يكونوا يمنعون قراباتهم هؤلاء من أن يأكلوا من بيوتهم حضروا أو غابوا فجاز أن يرخص فى ذلك قلنا لو كان الامر كذلك لم يكن لتخصيص هؤلاء الاقارب بالذكر معنى لان غيرهم كهم فى ذلك (الثانى) قال أبو مسلم الاصفهانى المراد من هؤلاء الاقارب اذا لم يكونوا مؤمنين وذلك لانه تعالى نهى من قبل عن مخالطتهم بقوله لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ثم انه سبحانه أباح فى هذه الآية ماحظره هناك قال ويدل عليه ان فى هذه السورة أمر بالتسليم على أهل البيوت فقال حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها وفى بيوت هؤلاء المذكورين لم يأمر بذلك بل أمر أن يسلموا على أنفسهم والحاصل أن المقصود من هذه الآية اثبات الاباحة فى الجملة لاثبات الاباحة فى جميع الاوقات (الثالث) انه لما علم بالعادة أن هؤلاء القوم تطيب أنفسهم باكل من يدخل عليهم والعادة كالاذن فى ذلك فيجوز أن يقال خصهم الله بالذكر لان هذه العادة فى الاغلب توجد فيهم ولذلك ضم اليهم الصديق ولما علمنا أن هذه الاباحة انما حصلت فى هذه السورة لاجل حصول الرضا فيها فلا حاجة الى القول بالنسخ (المسئلة الرابعة) ان الله تعالى ذكر أحد عشر موضعا فى هذه الآية (أولها) قوله ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم وفيه سؤال وهو أن يقال أى فائدة فى أباحة أكل الانسان طعامه فى بيته وجوابه المراد فى بيوت أزواجكم وعيالكم اضافه اليهم لان بيت المرأة كبيت الزوج وهذا قول الفراء وقال ابن قتيبة اراد بيوت أولادهم فنسب بيوت الاولاد الى الآباء لان الولد كسب والده وماله كماله قال عليه الصلاة والسلام ان أطيب ما أكل الرجل من كسبه وان ولده من كسبه والدليل على هذا انه سبحانه وتعالى عدد الاقارب ولم يذكر الاولاد لانه اذا كان سبب الرخصة هو القرابة كان الذى هو أقرب منهم أولى (وثانيها) بيوت الآباء (وثالثها) بيوت الامهات (ورابعها) بيوت الاخوان (وخامسها) بيوت الاخوات (وسادسها) بيوت الاعمام (وسابعها) بيوت العمات (وثامنها) بيوت الاخوال (وتاسعها) بيوت الخالات (وعاشرها) قوله تعالى أو ماملكتم مفاتحه وقرئ مفتاحه وفيه وجوه (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما وكيل الرجل وقيمه فى ضيعته وماشيته لابأس عليه أن يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته وملك المفاتح كونها فى يده وفى حفظه (الثانى) قال الضحاك يريد الزمنى الذين كانوا يحرسون للغزاة (الثالث) المراد بيوت المماليك لان مال العبد لمولاه قال الفضل المفاتح واحدها مفتح بفتح الميم وواحد المفاتيح مفتيح بالكسر

ثم اختلفوا على وجوه (الاول) كان ذلك فى صدر الاسلام ثم نسخ ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام لايحل مال امرئ مسلم الا عن طيب نفس منه ومما يدل على هذا النسخ قوله لاتدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه وكان فى أزواج النبى صلى الله عليه وسلم من لهن الآباء والاخوة والاخوات فعم بالنهى عن دخول بيوتهن الا بعد الاذن فى الدخول وفى الاكل فان قيل انما اذن تعالى فى هذا لان المسلمين لم يكونوا يمنعون قراباتهم هؤلاء من أن يأكلوا من بيوتهم حضروا أو غابوا فجاز أن يرخص فى ذلك قلنا لو كان الامر كذلك لم يكن لتخصيص هؤلاء الاقارب بالذكر معنى لان غيرهم كهم فى ذلك (الثانى) قال أبو مسلم الاصفهانى المراد من هؤلاء الاقارب اذا لم يكونوا مؤمنين وذلك لانه تعالى نهى من قبل عن مخالطتهم بقوله لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ثم انه سبحانه أباح فى هذه الآية ماحظره هناك قال ويدل عليه ان فى هذه السورة أمر بالتسليم على أهل البيوت فقال حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها وفى بيوت هؤلاء المذكورين لم يأمر بذلك بل أمر أن يسلموا على أنفسهم والحاصل أن المقصود من هذه الآية اثبات الاباحة فى الجملة لاثبات الاباحة فى جميع الاوقات (الثالث) انه لما علم بالعادة أن هؤلاء القوم تطيب أنفسهم باكل من يدخل عليهم والعادة كالاذن فى ذلك فيجوز أن يقال خصهم الله بالذكر لان هذه العادة فى الاغلب توجد فيهم ولذلك ضم اليهم الصديق ولما علمنا أن هذه الاباحة انما حصلت فى هذه السورة لاجل حصول الرضا فيها فلا حاجة الى القول بالنسخ (المسئلة الرابعة) ان الله تعالى ذكر أحد عشر موضعا فى هذه الآية (أولها) قوله ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم وفيه سؤال وهو أن يقال أى فائدة فى أباحة أكل الانسان طعامه فى بيته وجوابه المراد فى بيوت أزواجكم وعيالكم اضافه اليهم لان بيت المرأة كبيت الزوج وهذا قول الفراء وقال ابن قتيبة اراد بيوت أولادهم فنسب بيوت الاولاد الى الآباء لان الولد كسب والده وماله كماله قال عليه الصلاة والسلام ان أطيب ما أكل الرجل من كسبه وان ولده من كسبه والدليل على هذا انه سبحانه وتعالى عدد الاقارب ولم يذكر الاولاد لانه اذا كان سبب الرخصة هو القرابة كان الذى هو أقرب منهم أولى (وثانيها) بيوت الآباء (وثالثها) بيوت الامهات (ورابعها) بيوت الاخوان (وخامسها) بيوت الاخوات (وسادسها) بيوت الاعمام (وسابعها) بيوت العمات (وثامنها) بيوت الاخوال (وتاسعها) بيوت الخالات (وعاشرها) قوله تعالى أو ماملكتم مفاتحه وقرئ مفتاحه وفيه وجوه (الاول) قال ابن عباس رضى الله عنهما وكيل الرجل وقيمه فى ضيعته وماشيته لابأس عليه أن يأكل من ثمر ضيعته ويشرب من لبن ماشيته وملك المفاتح كونها فى يده وفى حفظه (الثانى) قال الضحاك يريد الزمنى الذين كانوا يحرسون للغزاة (الثالث) المراد بيوت المماليك لان مال العبد لمولاه قال الفضل المفاتح واحدها مفتح بفتح الميم وواحد المفاتيح مفتيح بالكسر

بعضا باسمه ورفع الصوت والنداء من وراء الحجرات ولكن يلقبه المعظم مثل يارسول الله يانبى الله مع غاية التوقير والتفخيم والتواضع وخفض الصوت وبما يناسب المقام فان قوله تعالى (قد يعلم الله الذين يتسللون منكم) الخ وعيد لمخالفى أمره عليه الصلاة والسلام فيما ذكر من قبل فتوسيط ماذكر بينهما مما لاوجه له والتسلل الخروج من البين على التدريج والخفية وقد للتحقيق كما أن رب تجئ للتكثير حسبما بين فى مطلع سورة الحجر أى يعلم الله الذين يخرجون من الجماعة قليلا قليلا على خفية (لواذا) أى ملاوذة بأن يستتر بعضهم ببعض حتى يخرج أو بأن يلاوذ بمن يخرج بالاذن اراءة أنه من أتباعه وقرئ بفتح اللام وانتصابه على الحالية من ضمير يتسللون أى ملاوذين أو على أنه مصدر مؤكد

لفعل مضمر هو الحال في الحقيقة أي يلوذون لواذا والفاء في قوله تعالى ﴿فليحذر الذين يخالفون

عن أمره﴾ لترتيب الحذر أو الأمر به على ما قبلها من علمه تعالى بأحوالهم فانه مما يوجب الحذر البتة اي يخالفون أمره بترك مقتضاه ويذهبون سمتا خلاف سمته وعن اما لتضمنه معنى الاعراض أو حمله على معنى يصدون عن أمره ودين المؤمنين من خالفه عن الامر اذا صد عنه دونه وحذف المفعول لما أن المقصود بيان المخالف والمخالف عنه والضمير لله تعالى لانه الآمر حقيقة أو للرسول عليه الصلاة والسلام لانه المقصود بالذكر ﴿أن تصيبهم فتنة﴾ أي محنة في الدنيا ﴿أو يصيبهم عذاب أليم﴾ أي في الآخرة وكلمة أو لمنع الخلو دون الجمع واعادة الفعل صريحا للاعتناء بالتهديد والتحذير واستدل به على ان الامر للايجاب فان ترتيب العذابين على مخالفه كما يعرب عنه التحذير عن اصابتهما

(الحادي عشر) قوله أو صديقكم والمعنى أو بيوت اصدقائكم والصديق يكون واحدا وجمعا وكذلك الخليط والقطين والعدو ويحكى عن الحسن انه دخل داره واذا حلقة من اصدقائه وقد أخرجوا سلالا من تحت سريره فيها الخبيص وأطايب الاطعمة وهم مكبون عليها يأكلون فتهللت اسارير وجهه سرورا وضحك وقال هكذا وجدناهم يريد كبراء الصحابة وعن ابن عباس رضي الله عنهما الصديق أكثر من الوالدين لان أهل جهنم لما استغاثوا لم يستغيثوا بالآباء والامهات بل بالاصدقاء فقالوا مالنا من شافعين ولا صديق حميم وحكى ان أعرابيا لربيع بن خيثم في الله دخل منزله في حال غيبته فانبسط الى جاريته حتى قدمت اليه ما أكل فلما عاد أخبرته بذلك فلسره ذلك فقال ان صدقت فانت حرة (المسئلة الخامسة) احتج أبو حنيفة رحمه الله بهذه الآية على ان من سرق من ذي رحم محرم انه لا يقطع لاباحة الله تعالى لهم بهذه الآية الاكل من بيوتهم ودخولها بغير اذنهم فلا يكون ماله محرزا منهم فان قيل فيلزم أن لا يقطع اذا سرق من مال صديقه قلنا من أراد سرقة ماله لا يكون صديقا له أما قوله تعالى ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعا أو اشتاتا فقال أكثر المفسرين نزلت الآية في بني ليث بن عمرو وهم حي من كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده يمكث يومه فان لم يجد من يواكله لم يأكل شيئا وربما كانت معه الابل الحفل فلا يشرب من البانها حتى يجد من يشاربه فاعلم الله تعالى ان الرجل اذا أكل وحده لا حرج عليه هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما وقال عكرمة وأبو صالح رحمهما الله كانت الانصار اذا نزل بواحد منهم ضيف لم يأكل الا وضيفه معه فرخص الله لهم أن يأكلوا كيف شاؤا مجتمعين ومتفرقين وقال الكلبي كانوا اذا اجتمعوا يأكلوا طعاما عزلوا للاعمى طعاما على حدة وكذلك للزمن والمريض فبين الله لهم أن ذلك غير واجب وقال آخرون كانوا ياكلون فرادى خوفا من أن يحصل عند الجمعة ما ينفر أو يؤذي فبين الله تعالى انه غير واجب وقوله جميعا نصب على الحال وأشتاتا جمع شت وشتى جمع شتيت وشتان تثنية شت قاله المفضل وقيل الشت مصدر بمعنى التفرق ثم يوصف به ويجمع أما قوله تعالى فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم فالمعنى انه تعالى جعل أنفس المسلمين كالنفس الواحدة على مثال قوله تعالى ولا تقتلوا أنفسكم قال ابن عباس فان لم يكن أحد فعلى نفسه ليقل السلام علينا من قبل ربنا واذا دخل المسجد فليقل السلام على رسول الله وعلينا من ربنا قال قتادة وحدثنا أن الملائكة ترد عليه قال القفال وان كان في البيت أهل الذمة فليقل السلام على من اتبع الهدى وقوله تحية نصب على المصدر كانه قال فحيوا تحية من عند الله أي مما أمركم الله به قال ابن عباس رضي الله عنهما من قال السلام عليكم معناه اسم الله عليكم وقوله مباركة طيبة قال الضحاك معنى البركة فيه تضعيف الثواب وقال الزجاج أعلم الله سبحانه أن السلام مبارك ثابت لما فيه من الاجر والثواب وانه اذا أطاع الله فيه أكثر خيره وأجزل أجره كذلك

يوجب وجوب الامتثال به حتما ﴿ ٤٣٩ ﴾ (ألا ان لله ما فى السموات والارض) من الموجودات بأسرها خلقا وملكا وتصرفا ايجادا واعداما بدأ واعادة (قد يعلم ما أنتم عليه) أيها المكلفون من الاحوال والاوضاع التى من جملتها الموافقة والمخالفة والاخلاص والنفاق (و يوم يرجعون اليه) عطف على ما أنتم عليه أى يعلم يوم يرجع المنافقون المخالفون للامر اليه تعالى للجزاء والعقاب وتعليق علمه تعالى بيوم رجوعهم لا يرجعهم لزيادة تحقيق علمه تعالى بذلك وغاية تقريره لما أن العلم بوقت وقوع شئ مستلزم للعلم بوقوعه على أبلغ وجه وآكده وفيه اشعار بأن علمه تعالى لنفس رجوعهم من الظهور بحيث لا يحتاج الى البيان قطعا و يجوز أن يكون الخطاب أيضا خاصا بالمنافقين على طريقة الالتفات وقرئ يرجعون مبنيا للفاعل (فينبئهم بما عملوا) من الاعمال السيئة التى من جملتها

يبين الله لكم الآيات أى يفصل الله شرائعه لكم لعلكم تعقلون لتفهموا عن الله أمره ونهيه وروى حميد عن أنس قال خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى فى شئ فعلته لم فعلته ولا قال لى فى شئ تركته لم تركته وكنت واقفا على رأس النبى صلى الله عليه وسلم أصب الماء على يديه فرفع رأسه الى وقال ألا أعلمك ثلاث خصال تنتفع بهن قلت بابى وأمى أنت يا رسول الله بلى فقال من لقيت من أمتى فسلم عليهم يطل عمرك واذا دخلت بيتا فسلم عليهم يكثر خير بيتك وصل صلاة الضحى فانها صلاة الاوابين * قوله تعالى (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله واذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ان الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله فاذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم واستغفر لهم الله ان الله غفور رحيم لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ألا ان لله ما فى السموات والارض قد يعلم ما أنتم عليه و يوم يرجعون اليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شئ عليم) وفى الاية مسائل (المسئلة الاولى) قرئ على أمر جميع ثم ذكروا فى قوله على أمر جامع وجوها (أحدها) أن الامر الجامع هو الامر الموجب الاجتماع عليه فوصف الامر بالجمع على سبيل المجاز وذلك نحو مقاتلة عدو أو تشاور فى خطب مهم أو الامر الذى يعم ضرره ونفعه وفى قوله اذا كانوا معه على أمر جامع اشارة الى انه خطب جليل لا بد لرسول الله صلى الله عليه وسلم من أرباب التجارب والآراء ليستعين بتجاربهم فمفارقة أحدهم فى هذه الحالة مما يشق على قلبه (وثانيها) عن الضحاك فى أمر جامع الجمعة والاعياد وكل شئ تكون فيه الخطبة (وثالثها) عن مجاهد فى الحرب وغيره (المسئلة الثانية) اختلفوا فى سبب نزوله قال الكلبى كان صلى الله عليه وسلم يعرض فى خطبته بالمنافقين و يعيبهم فينظر المنافقون يمينا وشمالا فاذا لم يرهم أحد انسلوا وخرجوا ولم يصلوا وان أبصرهم أحد ثبتوا وصلوا خوفا فنزلت هذه الآية فكان بعد نزول هذه الآية لا يخرج المؤمن لحاجته حتى يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان المنافقون يخرجون بغير اذن (المسئلة الثالثة) قال الجبائى هذا يدل على استئذانهم الرسول من ايمانهم ولولا ذلك لجاز أن يكونوا كاملى الايمان وان تركوا الاستئذان وذلك يدل على ان كل فرض لله تعالى واجتنب محرم من الايمان (والجواب) هذا بناء على أن كلمة انما للحصر وأيضا فالمنافقون انما تركوا الاستئذان استخفافا ولا نزاع فى انه كفر أما قوله تعالى ان الذين يستأذنونك الى قوله ان الله غفور رحيم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) ان الذين يستأذنونك المعنى تعظيما لك ورعاية للادب أولئك هم الذين يؤمنون بالله ورسوله أى يفعلون بموجب الايمان ومقتضاه قال الضحاك ومقاتل المراد عمر بن الخطاب رضى الله

عنه وذلك لانه استأذن فى غزوة تبوك فى الرجوع الى أهله فاذن له وقال له انطلق فوالله ما أنت بمنافق يريد أن يسمع المنافقين ذلك الكلام فلما سمعوا ذلك قالوا مابال محمد اذا استأذنه أصحابه أذن لهم واذا استأذناه لم يأذن لنا فوالله ماراه يعدل وقال ابن عباس رضى الله عنهما ان عمر استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العمرة فاذن له ثم قال يا أبا حفص لاتنسنا من صالح دعائك وفى قوله أستغفر لهم الله وجهان (أحدهما) أن يستغفر لهم تنبيها على ان الاولى أن لايقع الاستئذان منهم وان أذن لان الاستغفار يدل على الذنب وربما ذكر عند بعض الرخص (الثانى) يحتمل انه تعالى أمره بان يستغفر لهم مقابلة على تمسكهم بآداب الله تعالى فى الاستئذان (المسئلة الثانية) قال قتادة نسخت هذه الآية قوله تعالى لم أذنت لهم (المسئلة الثالثة) الآية تدل على انه سبحانه فوض الى رسوله بعض أمر الدين ليجتهد فيه برأيه أما قوله تعالى لاتجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا ففيه وجوه (أحدها) وهو اختيار المبرد والقفال ولاتجعلوا أمره اياكم ودعاءه لكم كما يكون من بعضكم لبعض اذ كان أمره فرضا لازما والذى يدل على هذا قوله عقيب هذا فليحذر الذين يخالفون عن أمره (وثانيها) لاتنادوه كما ينادى بعضكم بعضا يا محمد يا أبا القسم ولكن قولوا يارسول الله يانبى الله عن سعيد بن جبير (وثالثها) لاترفعوا أصواتكم فى دعائه وهو المراد من قوله ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله عن ابن عباس (ورابعها) احذروا دعاء الرسول عليكم اذا أسخطتموه فان دعاءه موجب ليس كدعاء غيره والوجه الاول أقرب الى نظم الآية أما قوله تعالى قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا فالمعنى يتسللون قليلا قليلا ونظير تسلل تدرج وتدخل واللواذ الملاوذة وهى أن يلوذ هذا بذلك وذلك بهذا يعنى يتسللون عن الجمعة على سبيل الخفية واستتار بعضهم ببعض ولواذا حال أى ملاوذين وقيل كان بعضهم يلوذ بالرجل اذا استأذن فيؤذن له فينطلق الذى لم يؤذن له معه وقرئ لواذا بفتح ثم اختلفوا على وجوه (أحدها) قال مقاتل كان المنافقون ثقل عليهم خطبة النبى صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة فيلوذون ببعض أصحابه و يخرجون من غير استيذان (وثانيها) قال مجاهد يتسللون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن كتابه وعن ذكره وقوله قد يعلم الله معناه التهديد بالمجازاة أما قوله فليحذر الذين يخالفون عن أمره ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الاخفش عن صلة والمعنى يخالفون أمره وقال غيره معناه يعرضون عن أمره و يميلون عن سنته فدخلت عن لتضمين المخالفة معنى الاعراض (المسئلة الثانية) كما تقدم ذكر الرسول فقد تقدم ذكر الله تعالى لكن المقصد هو الرسول فاليه ترجع الكناية وقال أبو بكر الرازى الاظهر انها لله تعالى لانه يليه وحكم الكناية رجوعها الى مايليها دون ماتقدمها (المسئلة الثالثة) الآية تدل على ان ظاهر الامر للوجوب ووجه الاستدلال به أن نقول تارك

مخالفة الامر فيترتب عليه مايليق به من التوبيخ والجزاء وقدم وجه التعبير عن الجزاء بالتنبيه فى قوله تعالى انما بغيكم على أنفسكم الآية (والله بكل شئ عليم) لايعزب عنه مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النور أعطى من الاجر عشر حسنات بعدد كل مؤمن ومؤمنة فيما مضى وفيما بقى والله سبحانه وتعالى أعلم

قوله فان قيل لانسلم الخ كذا بالاصل وهي عبارة مختلة فحقها لانسلم ان تارك المأمور به مخالف للامر لان موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه ومخالفته عبارة عن الاخلال بذلك لانانفسر موافقة الامر بتفسيرين أحدهما الخ فتكون لمخالفة كذلك اه * (سورة الفرقان مكية وهي ﴿ ٤٤١ ﴾ سبع وسبعون آية) * (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(تبارك الذي نزل الفرقان)

المأمور به مخالف لذلك الامر ومخالف الامر مستحق للعقاب فتارك المأمور به مستحق للعقاب ولامعنى للوجوب الاذلك انما قلنا ان تارك المأمور به مخالف لذلك الامر لان موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه والمخالفة ضد الموافقة فكانت مخالفة الامر عبارة عن الاخلال بمقتضاه فثبت ان تارك المأمور به مخالف وانما قلنا ان مخالف الامر مستحق للعقاب لقوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم فامر مخالف هذا الامر بالحذر عن العقاب والامر بالحذر عن العقاب انما يكون بعد قيام المقتضى لنزول العقاب فثبت أن مخالف أمر الله تعالى أو أمر رسوله قد وجد في حقه مايقتضي نزول العذاب فان قيل لانسلم أن تارك المأمور به مخالف للامر قوله موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه ومخالفته عبارة عن الاخلال بمقتضاه قلنا لانسلم أن موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه فما الدليل عليه ثم انانفسر موافقة الامر بتفسيرين (أحدهما) أن موافقة الامر عبارة عن الاتيان بما يقتضيه الامر على الوجه الذي يقتضيه الامر فان الامر لو اقتضاه على سبيل الندب وأنت تأتي به على سبيل الوجوب كان ذلك مخالفة للامر (الثاني) أن موافقة الامر عبارة عن الاعتراف بكون ذلك الامر حقا واجب القبول فمخالفته تكون عبارة عن انكار كونه حقا واجب القبول سلمنا ان ماذكرته يدل على أن مخالفة الامر عبارة عن ترك مقتضاه لكنه معارض بوجوه أخر وهو أنه لو كان ترك المأمور به مخالفة للامر لكان ترك المندوب لامحالة مخالفة لامر الله تعالى وذلك باطل والالاستحق العقاب على مابينتموه في المقدمة الثانية سلمنا ان تارك المأمور به مخالف للامر فلم قلت ان مخالف الامر مستحق للعقاب لقوله تعالى فليحذر الذين يخالفون عن أمره قلنا لانسلم أن هذه الآية دالة على أمر من يكون مخالفا للامر بالحذر بل هي دالة على الامر بالحذر عن مخالفة الامر فلا يجوز أن يكون كذلك سلمنا ذلك لكنها دالة على أن المخالف عن الامر يلزمه الحذر فلم قلت ان مخالف الامر لايلزمه الحذر فان قلت لفظة عن صلة زائدة فنقول الاصل في الكلام لاسيما في كلام الله تعالى أن لايكون زائدا سلمنا دلالة الآية على أن مخالف أمر الله تعالى مأمور بالحذر عن العذاب فلم قلت انه يجب عليه الحذر عن العذاب أقصى مافي الباب انه ورد الامر به لكن لم قلت ان الامر للوجوب وهذا أول المسئلة فان قلت هب انه يدل على وجوب الحذر لكن لابد وأن يدل حسن الحذر وحسن الحذر انما يكون عند قيام المقتضي لنزول العذاب قلت لانسلم أن حسن الحذر مشروط بقيام المقتضي لنزول العذاب بل الحذر يحسن عند احتمال نزول العذاب ولهذا يحسن الاحتياط عندنا بمجرد الاحتمال قائم لان هذه المسئلة احتمالية لاقطعية سلمنا دلالة على وجود مقتضي نزول العقاب لكن لافي كل أمر بل في أمر واحد لان قوله عن أمره لايفيد الا أمرا واحدا وعندنا ان أمرا واحدا يفيد الوجوب فلم قلت ان كل أمر كذلك سلمنا أن كل

البركة النماء والزيادة حسية كانت أو معنوية وكثرة الخير دوامه أيضا ونسبتها الى عز وجل على المعنى الاول وهو الاليق بالمقام باعتبار تعاليه مما سواه في ذاته وصفاته وأفعاله التي من جملتها تنزيل القرآن الكريم المعجز الناطق بعلو شانه تعالى وسمو صفاته وابتناء أفعاله على أساس الحكم والمصالح وخلوها عن شائبة الخلل بالكلية وصيغة التفاعل للمبالغة فيما ذكر فان مالا يتصور نسبته اليه سبحانه حقيقة من الصنع كالتكبر ونحوه لاتنسب اليه تعالى الا باعتبار غايتها وعلى المعنى الثاني باعتبار كثرة مايفيض منه على مخلوقاته لاسيما على الانسان من فنون الخيرات التي من جملتها تنزيل القرآن المنطوي على جميع الخيرات الدينية والدنيوية والصيغة حينئذ يجوز أن تكون لافادة نماء تلك الخيرات

غيرها من الصيغ فى حقه تعالى والفرقان مصدر فرق بين الشيئين أي فصل بينهما سمى به القرآن لغاية فرعه بين الحق والباطل باحكامه أو بين المحق والمبطل باعجازه ﴿ ٤٤٢ ﴾ أو لكونه مفصولا بعضه من نفسه أو فى انزاله (على عبده) محمد صلى الله تعالى عليه وسلم وايراده عليه الصلاة والسلام بذلك العنوان لتشريفه والايذان بكونه عليه الصلاة و السلام فى أقصى مراتب العبودية والتنبيه على أن الرسول لايكون الا عبدا للمرسل ردا على النصارى (ليكون) غاية للتنزيل أي نزله عليه ليكون هو عليه الصلاة والسلام أو الفرقان (للعالمين) من الثقلين (نذيرا) اى منذرا أو انذارا مبالغة أو ليكون تنزيله انذارا وعدم التعرض للتبشير لانسياق الكلام على أحوال الكفرة وتقديم اللام على عاملها لمراعاة الفواصل وابراز تنزيل الفرقان فى معرض الصلة التى حقها أن تكون معلومة الثبوت للموصول عند السامع مع انكار الكفرة له لاجرائه مجرى المعلوم المسلم تنبيها على كمال قوة دلائله وكونه بحيث لايكاد يجهله أحد كقوله تعالى لاريب فيه (الذى له ملك السموات والارض) أي له خاصة دون غيره لا استقلالا ولا اشتراكا كالسلطان القاهر والاستيلاء الباهر ﴿ ساقط عليهما المستلزمان للقدرة التامة والتصرف الكلى فيهما وفيما فيهما ايجادا واعداما واحياء واماتة وأمرا

أمر كذلك لكن الضمير فى قوله عن أمره يحتمل عوده الى الله تعالى وعوده الى الرسول والآية لاتدل الا على أن الامر للوجوب فى حق أحدهما فلم قلتم انه فى حق الآخر كذلك (الجواب) قوله لم قلتم ان موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه قلنا الدليل عليه أن العبد اذا امتثل أمر السيد حسن أن يقال ان هذا العبد موافق للسيد و يجرى على وفق أمره ولو لم يمتثل أمره يقال انه ما وافقه بل خالفه وحسن هذا الاطلاق معلوم بالضرورة من أهل اللغة فثبت أن موافقة الامر عبارة عن الاتيان بمقتضاه قوله الموافقة عبارة عن الاتيان بما يقتضيه الامر على الوجه الذى يقتضيه الامر قلنا لما سلمتم أن موافقة الامر لاتحصل الا عند الاتيان بمقتضى الامر فنقول لاشك أن مقتضى الامر هو الفعل لان قوله افعل لايدل الا على اقتضاء الفعل واذا لم يوجد الفعل لم يوجد مقتضى الامر فلا توجد الموافقة فوجب حصول المخالفة لانه ليس بين الموافقة والمخالفة واسطة قوله الموافقة عبارة عن اعتقاد كون ذلك الامر حقا واجب القبول قلنا هذا لايكون موافقة للامر بل يكون موافقة للدليل الدال على أن ذلك الامر حق فان موافقة الشئ عبارة عن الاتيان بما يقتضى تقرير مقتضاه فاذا دل الدليل على حقية الشئ كان الاعتراف بحقيته يقتضى تقرير مقتضى ذلك الدليل أما الامر فلما اقتضى دخول الفعل فى الوجود كانت موافقة عبارة عما يقرر ذلك الدخول وادخاله فى الوجود يقتضى تقرير دخوله فى الوجود فكانت موافقة الامر عبارة عن فعل مقتضاه قوله لو كان كذلك لكان تارك المندوب مخالفا فوجب أن يستحق العقاب قلنا هذا الالزام انما يصح أن لو كان المندوب مأمورا به وهو ممنوع قوله لم لايجوز أن يكون قوله فليحذر أمرا بالحذر عن المخالفة لا أمرا للمخالف بالحذر قلنا لو كان كذلك لصار التقدير فليحذر المتسللون لواذا عن الذين يخالفون أمره وحينئذ يبقى قوله أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ضائعا لان الحذر ليس فعلا يتعدى الى مفعولين قوله كلمة عن ليست زائدة قلنا ذكر اختلاف الناس فيها فى المسئلة الاولى قوله لم قلتم ان قوله فليحذر يدل على وجوب الحذر عن العقاب قلنا الا ندعى وجوب الحذر ولكن لا أقل من جواز الحذر وذلك مشروط بوجود ما يقتضى وقوع العقاب قوله لم قلت ان الآية تدل على أن كل مخالف للامر يستحق العقاب قلنا لانه تعالى رتب نزول العقاب على المخالفة فوجب أن يكون معللا فيلزم عمومه لعموم العلة قوله هب أن أمر الله أو أمر رسوله للوجوب فلم قلتم ان الامر كذلك قلنا لانه لاقائل بالفرق والله أعلم (المسئلة الرابعة) من الناس من قال لفظ الامر مشترك بين الامر القولى و بين الشان والطريق كما يقال أمر فلان مستقيم واذا ثبت ذلك كان قوله تعالى عن أمره يتناول قول الرسول وفعله وطريقته وذلك يقتضى أن كل ما فعله عليه الصلاة والسلام يكون واجبا علينا وهذه المسئلة مبنية على أن الكناية فى قوله عن أمره راجعة الى النبى صلى الله عليه وسلم أما لو كانت راجعة الى الله تعالى فلم يجب

وتهيأ حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ومحله الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف والجملة مستأنفة مقررة لما قبلها أو على أنه نعت للموصول الاول أو بيان له أو بدل منه وما بينهما ايس باجنبي لان تمام صلته

ساقط بالكلية وتمام تقرير ذلك ذكرناه في أصول الفقه والله أعلم أما قوله تعالى أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم فالمراد أن مخالفة الامر توجب أحد هذين الامرين والمراد بالفتنة العقوبة في الدنيا وبالعذاب الاليم عذاب الآخرة وانما رددنا الله تعالى حال ذلك المخالف بين هذين الامرين لان ذلك المخالف قد يموت من دون عقاب الدنيا وقد يعرض له ذلك في الدنيا فلهذا السبب أورده تعالى على سبيل الترديد ثم قال الحسن الفتنة هي ظهور نفاقهم وقال ابن عباس رضي الله عنهما القتل وقيل الزلازل والاهوال وعن جعفر بن محمد يسلط عليهم سلطان جائر أما قوله تعالى ألا ان لله ما في السموات والارض فذاك كالدلالة على قدرته تعالى عليهما وعلى ما بينهما وما فيهما واقتداره على المكلف فيما يعامل به من المجازاة بثواب أو بعقاب وعلمه بما يخفيه و يعلنه وكل ذلك كالزجر عن مخالفة أمره اما قوله تعالى قد يعلم ما أنتم عليه فانما أدخل قد لتوكيد علمه بما هم عليه من المخالفة في الدين والنفاق و يرجع توكيد العلم الى توكيد الوعيد وذلك لان قد اذا دخلت على المضارع كانت بمعنى ربما فوافقت ربما في خروجها الى معنى التكثير كما في قول الشاعر

فان يمس مهجور الفناء فربما * أقام به بعد الوفود وفود

والخطاب والغيبة في قوله تعالى قد يعلم ما أنتم عليه و يوم يرجعون اليه يجوز أن يكونا جميعا للمنافقين على طريق الالتفات و يجوز أن يكون ما أنتم عليه عاما و يرجعون للمنافقين وقد تقدم في غير موضع أن الرجوع اليه هو الرجوع الى حيث لا حكم الا له ولا وجه لاعادته والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد النبي الامي وعلى اله وصحبه وسلم

﴿ سورة الفرقان سبع وسبعون آية مكية ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

قوله تعالى (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا الذي له ملك

السموات والارض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شئ فقدره تقديرا)

اعلم ان الله سبحانه وتعالى تكلم في هذه السورة في التوحيد والنبوة وأحوال القيامة وفي ختمها بذكر صفات العباد المخلصين الموقنين ولما كان اثبات الصانع واثبات صفات جلاله يجب أن يكون مقدما على الكل لاجرم افتتح الله هذه السورة بذلك فقال تبارك الذي نزل الفرقان على عبده وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الزجاج تبارك تفاعل من البركة والبركة كثرة الخير و زيادته وفيه معنيان أحدهما تزايد خيره وتكاثره وهو المراد من قوله وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها (والثاني) تزايد عن كل شئ وتعالى عنه في ذاته وصفاته وأفعاله وهو المراد من قوله ليس كمثله شئ وأما تعاليه عن كل شئ في ذاته فيحتمل أن يكون المعنى جل بوجوب وجوده وقدمه عن جواز الفناء والتغير عليه وأن يكون المعنى جل بفردانيته ووحدانيته عن مشابهة شئ من الممكنات وأما تعاليه عن كل شئ في صفاته فيحتمل أن يكون المعنى جل أن يكون علمه ضروريا أو كسبيا أو تصورا

ومعلومية مضمونه للكفرة مما لا ريب فيه لقوله تعالى قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله ونظائره أو مدح له تعالى بالرفع أو بالنصب (ولم يتخذ ولدا) كما يزعم الذين يقولون في حق المسيح والملائكة ما يقولون فسبحان الله عما يصفون وهو معطوف على ما قبله من الجملة الظرفية ونظمه في سلك الصلة للايذان بان مضمونه من الوضوح والظهور بحث لا يكاد يجهله جاهل لاسيما بعد تقرير ما قبله (ولم يكن له شريك في الملك) أي ملك السموات والارض وهو أيضا عطف على الصلة وافراده بالذكر مع أن ما ذكر من اختصاص ملكهما به تعالى مستلزم له قطعا للتصريح ببطلان زعم الثنوية القائلين بتعدد الآلهة والدرء في نحورهم وتوسيط نفي اتخاذ الولد بينهما للتنبيه على استقلاله وأصالته والاحتراز عن توهم كونه تتمة للاول

(وخلق كل شئ) أي أحدث كل موجود من الموجودات احداثا جاريا على سنن التقدير حسبما اقتضته ارادته

الية على الحكم البالغة بان خلق

كلامنها من مواد مخصوصة على صنو معينه و رتب فيه قوى وخواص مختلفة الآثار والاحكام (فقدره) أى هيأه لما أراد به من الخصائص والافعال اللائقة به (تقديرا) بديعا لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه كتهيئة

الانسان للفهم والادراك والنظر والتدبر فى أمور المعاش والمعاد واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الاعمال المختلفة وهكذا أحوال سائر الانواع وقيل أريد بالخلق مطلق الايجاد والاحداث مجازا من غير ملاحظة معنى التقدير وان لم يخل عنه فى نفس الامر فالمعنى أوجد كل شئ فقدره فى ذلك الايجاد تقديرا وأما ما قيل من أنه سمى احداثه تعالى خلقا لانه تعالى لا يحدث شيأ الا على وجه التقدير من غير تفاوت ففيه أن ارتكاب المجاز بحمل الخلق على مطلق الاحداث لتجريده عن معنى التقدير فاعتباره فيه بوجه من الوجوه محل بالمرام قطعا وقيل المراد بالتقدير الثانى هو التقدير للبقاء الى الاجل المسمى وايا ما كان فالجملة جارية مجرى التعليل لما قبلها من الجمل المنتظمة مثلها فى سلك الصلة فان خلقه تعالى لجميع الاشياء على ذلك النمط البديع كما يقتضى استقلاله تعالى باتصافه بصفات الالوهية يقتضى أيضا انتظام كل ما سواه كائنا ما كان تحت ملكوته القاهرة بحيث ﴿ وعار

أو تصديقا وفى قدرته أن يحتاج الى مادة ومدة ومثال وجلب غرض ومنال واما فى أفعاله فجل أن يكون الوجود والبقاء وصلاح حال الوجود الا من قبله وقال آخرون أصل الكلمة تدل على البقاء وهو مأخوذ من بروك البعير ومن بروك الطير على الماء سميت البركة بركة لثبوت الماء فيها والمعنى انه سبحانه وتعالى باق فى ذاته أزلا وأبدا ممتنع التغير وباق فى صفاته ممتنع التبدل ولما كان سبحانه وتعالى هو الخالق لوجوه المنافع والمصالح والمبقى لها وجب وصفه سبحانه بانه تبارك وتعالى (المسئلة الثانية) قال أهل اللغة كلمة الذى موضوعة للاشارة الى الشئ عند محاولة تعريفه بقضية معلومة وعند هذا يتوجه الاشكال وهو أن القوم ما كانوا عالمين بانه سبحانه هو الذى نزل الفرقان فكيف حسن ههنا لفظ الذى وجوابه أنه لما قامت الدلالة على كون القرآن معجزا ظهر بحسب الدليل كونه من عند الله فلقوة الدليل وظهوره أجراه سبحانه وتعالى مجرى المعلوم (المسئلة الثالثة) لا نزاع ان الفرقان هو القرآن ووصف بذلك من حيث انه سبحانه فرق به بين الحق والباطل فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم و بين الحلال والحرام أو لانه فرق فى النزول كما قال وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث وهذا التأويل أقرب لانه قال نزل الفرقان ولفظة نزل تدل على التفريق وأما لفظة أنزل فتدل على الجمع ولذلك قال فى سورة آل عمران نزل عليك الكتاب بالحق وأنزل التوراة والانجيل (واعلم) انه سبحانه وتعالى لما قال أولا تبارك ومعناه كثرة الخير والبركة ثم ذكر عقيبه أمر القرآن دل ذلك على ان القرآن منشأ الخيرات وأعم البركات لكن القرآن ليس الا منبعا للعلوم والمعارف والحكم فدل هذا على ان العلم أشرف المخلوقات وأعظم الاشياء خيرا و بركة (المسئلة الرابعة) لا نزاع ان المراد من العبد ههنا محمد صلى الله عليه وسلم عن ابن الزبير على عباده وهم رسول الله وأمته كما قال لقد أنزلنا اليكم قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وقوله ليكون للعالمين نذيرا فالمراد ليكون هذا العبد نذيرا للعالمين وقول من قال انه راجع الى الفرقان فاضاف الانذار اليه كما أضاف الهداية اليه فى قوله ان هذا القرآن يهدى فبعيد وذلك لان المنذر والنذير من صفات الفاعل للتخويف واذا وصف به القرآن فهو مجاز وحمل الكلام على الحقيقة اذا أمكن هو الواجب * ثم قالوا هذه الآية تدل على أن (الاول) ان العالم كل ما سوى الله تعالى و يتناول جميع المكلفين من الجن والانس والملائكة لكنا أجمعنا أنه عليه السلام لم يكن رسولا الى الملائكة فوجب أن لا يثبت رسولا الى الجن والانس جميعا و يبطل بهذا قول من قال انه كان رسولا الى البعض كل البعض (الثانى) أن لفظ العالمين يتناول جميع المخلوقات فدلت الآية على انه نبى للخلق الى يوم القيامة فوجب أن يكون خاتم الانبياء والرسل (الثالث) قالت المعتزلة لما دلت الآية على انه سبحانه أراد الايمان وفعل الطاعات من الكل لانه انما بعث الكل ليكون نذيرا للكل وأراد من الكل الاشتغال بالحسن والاعراض عن

لا يشذ عنها شئ من ذلك قطعا

ما كان كذلك كيف يتوهم كونه ولدا له سبحانه أو شريكا فى ملكه (واتخذوا من دونه آلهة) بعد ما بين حقيقة الحق فى مطلع السورة الكريمة يذكر تنزيله تعالى للفرقان العظيم على رسوله صلى الله عليه وسلم ووصفه تعالى بصفات الكمال وتنزيهه عما لا يليق بشأنه الجليل عقب ذلك بحكاية أباطيل المشركين فى حق

وعارضهم أصحابنا بقوله تعالى ولقد ذرأنا لجهنم الاية (الرابع) لقائل أن يقول ان قوله تبارك كما دل على كثرة الخير والبركة لابد وأن يكون المذكور عقيبه ما يكون سببا لكثرة الخير والمنافع والانذار يوجب الغم والخوف فكيف يليق هذا لهذا الموضع (جوابه) ان هذا الانذار يجرى مجرى تاديب الولد وكما أنه كلما كانت المبالغة فى تاديب الولد أكثر كان الاحسان اليه أكثر لما أن ذلك يؤدى فى المستقبل الى المنافع العظيمة فكذا ههنا كلما كان الانذار كثيرا كان رجوع الخلق الى الله أكثر فكانت السعادة الاخروية أتم وأكثر وهذا كالتنبيه على انه لا التفات الى المنافع العاجلة وذلك لانه سبحانه لما وصف نفسه بانه الذى يعطى الخيرات الكثيرة لم يذكر الا منافع الدين ولم يذكر البتة شيأ من منافع الدنيا * ثم انه سبحانه وصف ذاته باربع انواع من صفات الكبرياء (أولها) قوله الذى له ملك السموات والارض وهذا كالتنبيه على الدلالة على وجوده سبحانه لانه لا طريق الى اثباته الا بواسطة احتياج أفعاله اليه فكان تقديم هذه الصفة على سائر الصفات كالامر الواجب وقوله له ما فى السموات والارض اشارة الى احتياج هذه المخلوقات اليه سبحانه بزمان حدوثها وزمان بقائها فى ماهيتها وفى وجودها وانه سبحانه هو المتصرف فيها كيف يشاء (وثانيها) قوله ولم يتخذ ولدا فبين سبحانه انه هو المعبود أبدا ولا يصح أن يكون غيره معبودا ووارثا للملك عنه فتكون هذه الصفة كالمؤكدة لقوله تبارك ولقوله الذى له ملك السموات والارض وهذا كالرد على النصارى (وثالثها) قوله ولم يكن له شريك فى الملك والمراد انه هو المنفرد بالالهية واذا عرف العبد ذلك انقطع خوفه ورجاؤه عن الكل ولا يبقى مشغول القلب الا برحمته واحسانه وفيه الرد على الثنوية والقائلين بعبادة النجوم والقائلين بعبادة الاوثان (ورابعها) قوله وخلق كل شئ فقدره تقديرا وفيه سؤالات (الاول) هل فى قوله وخلق كل شئ دلالة على انه سبحانه خالق لاعمال العباد (والجواب) نعم من وجهين الاول ان [illegible] خلق كل شئ يتناول جميع الاشياء فيتناول أفعال العباد والثانى وهو أنه تعالى [illegible] نفى الشريك ذكر ذلك والتقدير أنه سبحانه لما نفى الشريك كان قائلا قال ههنا ما دلالة [illegible] يعترفون بنفى الشركاء والانداد ومع ذلك يقولون انهم يخلقون أفعال أنفسهم فذكر [illegible] فى هذه الآية لتكون معينة فى الرد عليهم قال القاضى الآية لا تدل عليه لوجوه [illegible] بركتها) انه سبحانه صرح بكون العبد خالقا فى قوله واذ تخلق من الطين كهيئة الطير [illegible] قوله وتبارك الله أحسن الخالقين (وثانيها) انه سبحانه تمدح بذلك فلا يجوز أن يريد به [illegible] أو الفساد (وثالثها) انه سبحانه تمدح بانه قدر تقديرا ولا يجوز ان يريد به الا الحسن [illegible] أن يكون مقدورا دون غيره فثبت بهذه الوجوه انه لابد من التأويل لو دلت الآية بظاهرها عليه [illegible] ولا دلالة فيها البتة لان الخلق عبارة عن التقدير فهو لا يتناول الا ما يظهر فيه [illegible] وذلك انما يظهر فى الاجسام لا فى الاعراض * والجواب اما قوله واذ تخلق وقوله

المنزل سبحانه والمنزل والمنزل عليه على الترتيب واظهار بطلانها والاضمار من غير جريان ذكرهم للثقة بدلالة ما قبلة من نفى الشريك عليهم أى اتخذوا لانفسهم متجاوزين الله تعالى الذى ذكر بعض شؤنه الجليلة من اختصاص ملك السموات والارض به تعالى وانتفاء الولد والشريك عنه وخلق جميع الاشياء وتقديرها أبدع تقدير آلهة (لا يخلقون شيأ) أى لا يقدرون على خلق شئ من الاشياء أصلا (وهم يخلقون) كسائر المخلوقات وقيل لا يقدرون على أن يختلقوا شيأ وهم يختلقون حيث تختلقهم عبدتهم بالنحت والتصوير وقوله تعالى (ولا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا) لبيان ما لم يدل عليه ما قبله من مراتب عجزهم وضعفهم فان بعض المخلوقين العاجزين عن الخلق ربما يملك دفع الضر وجلب النفع فى الجملة كالحيوان

[illegible] لا يقدرون على التصرف فى ضر ما يدفعوه عن أنفسهم ولا فى نفع ما حتى يجلبوه اليهم فكيف يملكون [illegible] لغيرهم وتقديم ذكر الضر لان دفعه مع كونه أهم فى نفسه أول مراتب النفع وأقدمها والتنصيص [illegible] تعالى (ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا)

أى لايقدرون على التصرف فى شئ منها بغاية الاحياء واحياء الموتى وبقتهم بعد بيان عجزهم فانهم لايقدرون من هذه الامور من دفع الضر وجلب النفع للتصريح بعجزهم عن كل واحد مما ذكر على التفصيل والتنبيه على أن الاله يجب أن يكون قادرا على جميع ذلك وفيه ﴿ ايذان بغاية جهلهم وسخافة عقولهم كأنهم غير عارفين بانتفاء مانفى عن آلهتهم من الامور المذكورة مفتقرون الى التصريح بذلك (وقال الذين كفروا ان هذا الا افك) شروع فى حكاية أباطيلهم المتعلقة بالمنزل والمنزل عليه معا وابطالها والموصول اما عبارة عن غلاتهم فى الكفر والطغيان وهم النضر بن الحرث وعبد الله بن أمية ونوفل بن خويلد ومن ضامهم وروى عن الكلبى ومقاتل أن القائل هو النضر بن الحرث والجمع لمشايعة الباقين له فى ذلك واما عن كلهم ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما فى حيز الصلة والايذان بان مانفوهوا به كفر عظيم وفى كلمة هذا حط لرتبة المشار اليه اى ماهذا الا اكذب مصروف عن وجهه (افتراه) يريدون أنه اختلقه رسول الله صلى الله عليه وسلم (وأعانه عليه) أى على اختلاقه (قوم آخرون) يعنون اليهود بان يلقوا اليه أخبار الامم الدارجة وهو يعبر عنها بعبارته وقيل هما جبر ويسار كانا يصنعان السيف ﴿ الجلالى ﴾ بمكة ويقرآن التوراة والانجيل وقيل هو عابس وقدم تفصيله فى سورة النحل (فقد جاؤا ظلما) منصوب بجاء وأتى يستعملان فى معنى فعل

أحسن الخالقين فهما معارضان بقوله الله خالق كل شئ وبقوله هل من خالق غير الله واما قوله لايجوز التمدح بخلق الفساد قلنا لم لايجوز أن يقع التمدح به نظرا الى تقادير القدرة والى ان صفة الايجاد من العدم والاعدام من الوجود ليست الا له وأما قوله الخلق لايتناول الا الاجسام فنقول لو كان كذلك لكان قوله خلق كل شئ خطأ لانه يقتضى اضافة الخلق الى جميع الاشياء مع انه لايصح فى العقل اضافته اليها (السؤال الثانى) فى الخلق معنى التقدير فقوله وخلق كل شئ فقدره تقديرا معناه وقدر كل شئ فقدره تقديرا (والجواب) المعنى أحدث كل شئ احداثا يراعى فيه التقدير والتسوية فقدره تقديرا وهيأه لما يصلح له مثاله انه خلق الانسان على هذا الشكل المقدر المستوى الذى تراه فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به فى باب الدين والدنيا وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدرة بامثلة الحكمة والتدبير فقدره لامر ما ومصلحة ما مطابقا لما قدر غير مختلف عنه (السؤال الثالث) هل فى قوله فقدره تقديرا دلالة على مذهبكم (الجواب) نعم وذلك من وجوه (أحدها) ان التقدير فى حقنا يرجع الى الظن والحسبان اما فى حقه سبحانه فلا معنى له الا العلم به والاخبار عنه وذلك متفق عليه بيننا وبين المعتزلة فلما علم فى الشئ الفلانى انه لايقع فلو وقع الشئ لزم انقلاب علمه جهلا وانقلاب خبره الصدق كذبا وذلك محال والمفضى الى المحال محال فاذن وقوع ذلك الشئ محال والمحال غير مراد فذلك الشئ غير مراد وانه مأمور به فثبت ان الامر والارادة لايتلازمان وظهر ان السعيد من سعد فى بطن أمه والشقى من شقى فى بطن أمه (وثانيها) انه عند حصول القدرة والداعية الخالصة ان وجب الفعل كان فعل العبد يوجب فعل الله تعالى وحينئذ يبطل قول المعتزلة وان لم يجب فان استغنى عن المرجح فقد وقع الممكن لاعن مرجح وتجويزه يسد باب اثبات الصانع وان لم يستغن عن المرجح فالكلام يعود فى ذلك المرجح ولاينقطع الا عند الانتهاء الى واجب الوجود (وثالثها) ان فعل العبد لو وقع بقدرته لما وقع الا الشئ الذى أراد تكوينه وايجاده لكن الانسان لايريد الا العلم والحق فلا يحصل له الا الجهل والباطل فلو كان الامر بقدرته لما كان كذلك فان قيل انما كان لانه اعتقد شبهة أوجبت له ذلك الجهل قلنا ان اعتقد تلك الشبهة لشبهة أخرى لزم التسلسل وهو محال فلابد من الانتهاء الى جهل أول ووقع فى قلب الانسان لابسبب جهل سابق بل الانسان أحدثه ابتداء من غير موجب وذلك محال لان الانسان قط لا يرضى لنفسه بالجهل ولا يحاول تحصيل الجهل لنفسه بل لا يحاول الا العلم فوجب أن لا يحصل له الا ما قصده وأراده وحيث لم يكن كذلك علمنا ان الكل بقضاء سار وقدرنا فذ وهو المراد من قوله وخلق كل شئ فقدره تقديرا ❊ قوله تعالى (واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيأ وهم يخلقون ولايملكون لانفسهم ضرا ولانفعا ولايملكون موتا ولاحياة ولانشورا) اعلم انه سبحانه وتعالى لما وصف نفسه بصفات

لايقادر قدره حيث جعلوا الحق البحت الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه افكا مفترى من قبل البشر وهو من جهة نظمه الرائق وطرزه الفائق بحيث لواجتمعت الانس والجن على مباراته لعجزوا عن الاتيان بمثل آية من آياته ومن جهة اشتماله على الحكم الخفية والاحكام المستتبعة للسعادات الدينية والدنيوية والامور الغيبية بحيث لاينالها عقول البشر ولايفى بفهمه القوى والقدر (وزورا) أى كذبا كبيرا لايبلغ غايته حيث نسبوا اليه عليه الصلاة والسلام ماهو برئ منه والفاء لترتيب ما بعدها على ماقبلها لكن لاعلى أنهما أمران متغايران ان حقيقة يقع أحدهما عقيب الآخر أو يحصل بسببه بل على أن الثانى هو عين الاول حقيقة وانما الترتيب بحسب التغاير الاعتبارى وقد تحقيق ذلك المعنى فان ماجاؤه من الظلم والزور هو عين ماحكى عنهم لكنه لما كان مغايرا له فى المفهوم وأظهر منه بطلانا رتب عليه بالفاء ترتيب اللازم على الملزوم تهويلا لامره (وقالوا أساطير الاولين) بعدما جعلوا الحق الذى لامحيد عنه افكا مختلقا باعانة البشر بنوا على

الجلال والعزة والعلو أردف ذلك بتزييف مذهب عبدة الاوثان وبين نقصانها من وجوه (أحدها) انها ليست خالقة للاشياء والاله يجب أن يكون قادرا على الخلق والايجاد (وثانيها) انها مخلوقة والمخلوقة محتاج والاله يجب أن يكون غنيا (وثالثها) انها لاتملك لأنفسها ضرا ولانفعا ومن كان كذلك فهو لايملك لغيره أيضا نفعا ومن كان كذلك فلا فائدة فى عبادته (ورابعها) انها لاتملك موتا ولاحياة ولانشورا أى لاتقدر على الاحياء والاماتة فى زمان التكليف وثانيا فى زمان المجازاة ومن كان كذلك كيف يسمى الها وكيف يحسن عبادته مع ان حق من يحق له العبادة ان ينعم بهذا النعم المخصوصة وههنا سؤالات (الاول) قوله واتخذوا من دونه آلهة هل يختص بعبدة الاوثان أو يدخل فيه النصارى وعبدة الكواكب وعبدة الملائكة (والجواب) قال القاضى بعيد أن يدخل فيه النصارى لانهم لم يتخذوا من دون الله آلهة على الجمع فالاقرب ان المراد به عباد الاصنام ويجوز أن يدخل فيه من عبد الملائكة لان معبودهم كثرة ولقائل أن يقول قوله واتخذوا صيغة جمع وقوله آلهة جمع والجمع اذا قوبل بالجمع يقابل المفرد بالمفرد فلم يكن كون معبود النصارى واحدا مانعا من دخوله تحت هذا اللفظ (السؤال الثانى) احتج بعض أصحابنا بقوله واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيئا وهم يخلقون على ان فعل العبد مخلوق لله تعالى فقال ان الله تعالى عاب هؤلاء الكفار من حيث عبدوا مالايخلق شيئا وذلك يدل على ان من خلق يستحق أن يعبد فلو كان العبد خالقا لكان معبودا الها أجاب الكعبى عنه بالانطلاق اسم الخالق الاعلى الله تعالى وقال بعض أصحابنا فى الخلق انه الاحداث لابعلاج وفكر وتعب ولايكون ذلك الا لله تعالى ثم قال وقد قال تعالى ألهم أرجل يمشون بها فى وصف الاصنام أفيدل ذلك على أن كل من له رجل يستحق أن يعبد فاذا قالوا لاقيل فكذلك ماذكرتم وقد قال تعالى فتبارك الله أحسن الخالقين هذا كله كلام الكعبى والجواب قوله لايطلق اسم الخالق على العبد قلنا بل يجب ذلك لان الخلق فى اللغة هو التقدير والتقدير يرجع الى الظن والحسبان فوجب أن يكون اسم الخالق حقيقة فى العبد مجازا فى الله تعالى فكيف يمكنكم منع اطلاق لفظ الخالق على العبد واما قوله تعالى ألهم ارجل يمشون بها فالعيب انما وقع عليهم بالعجز فلا جرم ان كل من تحقق العجز فى حقه من بعض الوجوه لم يحسن عبادته وأما قوله تعالى فتبارك الله أحسن الخالقين فقد تقدم الكلام عليه واعلم أن هذه الآية لايقوى استدلال أصحابنا بها لقال ان العيب لايحصل الا بمجموع أمرين أحدهما انهم ليسوا بخالقين والثانى أنهم يخلقون والعبد وان كان خالقا الا أنه مخلوق فلزم أن لايكون الها معبودا (السؤال الثالث) هل تدل هذه الآية على البعث الجواب نعم لانه تعالى ذكر النشور ومعناه ان المعبود يجب أن يكون قادرا على ايصال الثواب الى المطيعين والعقاب الى العصاة فمن لايكون كذلك وجب أن لايصلح للالهية * قوله تعالى (وقال الذين كفروا ان هذا

الفاسد كعبدة الاعانة والاساطير جمع اسطار أو اسطورة كاحدوثة وهى ماسطره المتقدمون من الخرافات (اكتتبها) أى كتبها لنفسه على الاسناد المجازى أو استكتبها وقرئ على البناء للمفعول

لانه عليه الصلاة والسلام أمي وأصله اكتتبها له كاتب فحذف اللام وأفضى الفعل الى الضمير فصار اكتتبها اياه كاتب ثم حذف الفاعل لعدم تعلق الغرض العلمي بخصوصه وبنى الفعل للضمير المتفصل فاستتر فيه (فهي تملى عليه) أى تلقى عليه تلك الاساطير بعدا كتتابها ﴿ ٤٤٨ ﴾ لتحفظها من أفواه من يمليها عليه من ذلك

الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاؤا ظلما وزورا وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض انه كان غفورا رحيما وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) اعلم انه سبحانه تكلم أولا فى التوحيد وثانيا فى الرد على عبدة الاوثان وثالثا فى هذه الآية تكلم فى مسئلة النبوة وحكى سبحانه شبههم فى انكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم (الشبهة الاولى) قولهم ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ونظيره قوله تعالى انما يعلمه بشر واعلم انه يحتمل أن يريدوا به انه كذب فى نفسه ويحتمل أن يريدوا به انه كذب فى اضافته الى الله تعالى ثم ههنا بحثان (الاول) قال أبو مسلم الافتراء افتعال من فريت وقد يقال فى تقدير الاديم فريت الاديم فاذا أريد قطع الافساد قيل افريت وافتريت وخلقت واختلقت ويقال فيمن شتم امرأ بما ليس فيه افترى عليه (الثانى) قال الكلبى ومقاتل نزلت فى النضر بن الحرث فهو الذى قال هذا القول وأعانه عليه قوم آخرون يعنى عداس مولى حويطب بن عبد العزى ويسار غلام عامر بن الحضرمى وجبر مولى عامر وهؤلاء الثلاثة كانوا من أهل الكتاب وكانوا يقرؤن التوراة ويحدثون أحاديث منها فلما أسلموا وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتعهدهم فمن أجل ذلك قال النضر ما قال واعلم ان الله تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله فقد جاؤا ظلما وزورا وفيه ابحاث (الاول) ان هذا القدر انما يكفى جوابا عن الشبهة المذكورة لانه قد علم كل عاقل انه عليه السلام تحداهم بالقرآن وهم النهاية فى الفصاحة وقد بلغوا فى الحرص على ابطال أمره كل غاية حتى أخرجهم ذلك الى ما وصفوه به فى هذه الآيات فلو أمكنهم ان يعارضوه لفعلوا ولكان ذلك أقرب الى أن يبلغوا مرادهم فيه مما أوردوه فى هذه الآية وغيرها ولو استعان محمد عليه السلام فى ذلك بغيره لأمكنهم أيضا أن يستعينوا بغيرهم لان محمدا صلى الله عليه وسلم كأولئك المنكرين فى معرفة اللغة وفى المكنة من الاستعانة فلما لم يفعلوا ذلك والحالة هذه علم ان القرآن قد بلغ النهاية فى الفصاحة وانتهى الى حد الاعجاز ولما تقدمت هذه الدلالة مرات وكرات فى القرآن وظهر بسببها سقوط هذا السؤال ظهر ان اعادة هذا السؤال بعد تقدم هذه الادلة الواضحة لا يكون الا للتمادى فى الجهل والعناد فلذلك اكتفى الله فى الجواب بقوله فقد جاؤا ظلما وزورا (البحث الثانى) قال الكسائى قوله تعالى فقد جاؤا ظلما وزورا أى أتوا ظلما وكذبا وهو كقوله لقد جئتم شيئا ادا فانتصب كل بوقوع المجئ عليه وقال الزجاج انتصب بنزع الخافض أى جاؤا بالظلم والزور (البحث الثالث) ان الله تعالى وصف كلامهم بانه ظلم وبأنه زور أما انه ظلم فلانهم نسبوا الفعل القبيح الى من كان مبرأ عنه فقد وضعوا الشئ فى غير موضعه وذلك هو

المكتتب لكونه أميا لا يقدر على أن يتلقاها منه بالقراءة أو تملى على الكاتب على أن معنى اكتتبها أرادا كتتابها أو استكتابها ورجع الضمير المجرور اليه عليه الصلاة والسلام لاسناد الكتابة فى ضمن الاكتتاب اليه عليه الصلاة والسلام (بكرة وأصيلا) أى دائما أو خفية قبل انتشار الناس وحين يأوون الى مساكنهم انظر الى هذه الرتبة من الجراءة العظيمة قاتلهم الله أنى يؤفكون (قل) لهم ردا عليهم وتحقيقا للحق (أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض) وصفه تعالى باحاطة علمه بجميع المعلومات الجلية والخفية للايذان بانطواء ما أنزله على أسرار معطوية عن عقول البشر مع ما فيه من التعريض بمجازاتهم المحكية التى هى من جملة معلوماته تعالى أى ليس ذلك مما يفترى ويفتعل باعادنة قوم وكتابة آخرين من الاحاديث الملفقة وأساطير الاولين بل هو أمر سماوى أنزله الله الذى لا يعزب عن علمه شئ من الاشياء وأودع فيه فنون الحكم ﴿ و
والاسرار على وجه بديع لا يحوم حوله الافهام حيث اعجزكم

طبة بفصاحته و بلاغته واخبركم بمغيبات مستقبلة وأمور مكنونة لايهتدى اليها ولايوقف عليها الا بتوفيق العليم الخبير وقد جعلتموه افكا مفترى من قبيل الاساطير واستوجبتم بذلك أن يصب عليكم سوط العذاب

وأما الزور فلانهم كذبوا فيه وقال أبو مسلم الظلم تكذيبهم الرسول والرد عليه والزور كذبهم عليه (الشبهة الثانية لهم) قوله تعالى وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا وفيه ابحاث (البحث الاول) الاساطير ما سطره المتقدمون كاحاديث رستم واسفنديار جمع اسطار أو اسطورة كاحدوثة اكتتبها انتسخها محمد من أهل الكتاب يعنى عامرا و يسارا وجبرا ومعنى اكتتب ههنا أمر أن يكتب له كما يقال احتجم واقتصد اذا أمر بذلك فهى تملى عليه أى تقرأ عليه والمعنى انها كتبت له وهو أمى فهى تلقى عليه من كتابه ليحفظها لان صورة الالقاء على الحافظ كصورة الالقاء على الكاتب اما قوله بكرة وأصيلا قال الضحاك ما يملى عليه بكرة يقرؤه عليكم عشية وما يملى عليه عشية يقرؤه عليكم بكرة (البحث الثانى) قال الحسن قوله فهى تملى عليه بكرة وأصيلا كلام الله ذكره جوابا عن قولهم كأنه تعالى قال ان هذه الآيات تملى عليه الوحى حالا بعد حال فكيف ينسب الى أنه أساطير الاولين وأما جمهور المفسرين فقد اتفقوا على ان ذلك من كلام القوم وأرادوا به ان أهل الكتاب أملوا عليه فى هذه الاوقات هذه الاشياء ولاشك ان هذا القول أقرب لوجوه أحدها شدة تعلق هذا الكلام بما قبله فكأنهم قالوا اكتتب أساطير الاولين فهى تملى عليه وثانيها ان هذا هو المراد بقولهم وأعانه عليه قوم آخرون وثالثها انه تعالى أجاب بعد ذلك عن كلامهم بقوله قل أنزله الذى يعلم السر قال صاحب الكشاف وقول الحسن انما يستقيم أن لو فتحت الهمزة للاستفهام الذى فى معنى الانكار وحق الحسن أن يقف على الاولين وأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والارض انه كان غفورا رحيما (وفيه ابحاث البحث الاول) فى بيان ان هذا كيف يصلح أن يكون جوابا عن تلك الشبهة وتقريره ماقدمنا انه عليه السلام تحداهم بالمعارضة وظهر عجزهم عنها ولو كان عليه السلام أتى بالقرآن بان استعان باحد لكان من الواجب عليهم أيضا أن يستعينوا باحد فيأتوا بمثل هذا القرآن فلما عجز واعنه ثبت أنه وحى الله وكلامه فلهذا قال قل أنزله الذى يعلم السر وذلك لان القادر على تركيب ألفاظ القرآن لابد وأن يكون عالما بكل المعلومات ظاهرها وخافيها من وجوه أحدها أن مثل هذه الفصاحة لايتأتى الا من العالم بكل المعلومات (وثانيها) ان القرآن مشتمل على الاخبار عن الغيوب وذلك لايتأتى الا من العالم بكل المعلومات (وثالثها) ان القرآن مبرأ عن النقص وذلك لايتأتى الا من العالم على ماقال تعالى ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا (ورابعها) اشتماله على الاحكام التى هى مصالح العالم ونظام العباد وذلك لايكون الا من العالم بكل المعلومات (وخامسها) اشتماله على أنواع العلوم وذلك لايتأتى الا من العالم بكل المعلومات فلما دل القرآن من هذه الوجوه على انه ليس الا كلام العالم بكل المعلومات لاجرم اكتفى فى جواب شبههم بان قال أنزله الذى يعلم السر (البحث الثانى) اختلفوا فى المراد بالسر فمنهم من قال المعنى

صبا فقوله تعالى (انه كان غفورا رحيما) تعليل لما هو المشاهد من تأخير العقوبة أى انه تعالى ازلا وأبدا مستمر على المغفرة والرحمة المستتبعين للتأخير فلذلك لايعجل بعقوبتكم على ماتقولون فى حقه مع كمال استيجابه اياها وغاية قدرته تعالى عليها (وقالوا مال هذا الرسول) شروع فى حكاية جنايتهم المتعلقة بخصوصية المنزل عليه وما استفهامية بمعنى انكار الوقوع ونفيه مرفوعة على الابتداء خبرها مابعدها من الجار والمجرور وفى هذا تصغير لشأنه عليه الصلاة والسلام وتسميته عليه الصلاة والسلام رسولا بطريق الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام كما قال فرعون ان رسولكم الذى أرسل اليكم وقوله تعالى (يأكل الطعام) حال من الرسول والعامل فيها ماعمل فى الجار من معنى الاستقرار أى أى شئ وأى سبب حصل لهذا الذى يدعى الرسالة

(ويمشى فى الاسواق) لابتغاء الارزاق كانفعاله على توجيه الانكار

قد استبعد تحققه لانتفاء سببه بل لوجود سبب عدمه خلا أن استبعاد المسبب وانكار السبب ونفيه فى عدم الايمان وعدم الرجاء بطريق التحقيق و فى الاكل والمشى بطريق التهكم والاستهزاء فانهم لايستبعدونهما ولاينكرون سببهما حقيقة بل هم معترفون بوجود هما و تحقق سببهما وانما الذى يستبعدونه الرسالة المنافية لهما على زعمهم يعنون أنه ان صح ما يدعيه فالاله لم يخالف حالنا وهل هو الا لعمههم وركاكة عقولهم وقصور انظارهم على المحسوسات فان تميز الرسل عمن عداهم ليس بأمور جسمانية وانما هو بامور روحانية كما أشير اليه بقوله تعالى قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد (لولا أنزل اليه ملك) أى على صورته وهيئته (فيكون معه نذيرا) تنزل منهم من اقتراح أن يكون ملكا مستغنيا عن الاكل والشرب الى اقتراح أن يكون معه ملك يصدقه و يكون رداله فى الانذار وهو يعبر عنه ﴿ لك ﴾ ويفسره مايقوله للعامة وقوله تعالى (أو يلقى اليه كنز) تنزل من تلك المرتبة

ان العالم بكل سر فى السموات والارض هو الذى يمكنه انزال مثل هذا الكتاب وقال أبو مسلم المعنى انه انزله من يعلم السر فلو كذب عليه لانتقم منه لقوله تعالى ولو تقول علينا بعض الاقاويل لاخذنا منه باليمين وقال آخرون المعنى أنه يعلم كل سر خفى فى السموات والارض ومن جملته ماتسرونه أنتم من الكيد لرسوله مع علمكم بأن مايقوله حق ضرورة وكذلك باطن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وبراءته مما تتهمونه به وهو سبحانه مجازيكم ومجاز على ماعلم منكم وعلم منه (البحث الثالث) انما ذكر الغفور الرحيم فى هذا الموضع لوجهين الاول قال أبو مسلم المعنى انه انما انزله لاجل الانذار فوجب أن يكون غفورا رحيما غير مستعجل فى العقوبة الثانى انه تنبيه على انهم استوجبوا بمكايدتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صبا ولكن صرف ذلك عنهم كونه غفورا رحيما يمهل ولا يعجل (الشبهة الثالثة) وهى فى نهاية الركاكة ذكروا له صفات خمسة فزعموا أنها تخل بالرسالة احداها قولهم مال هذا الرسول يأكل الطعام وثانيتها قولهم و يمشى فى الاسواق يعنى انه لما كان كذلك فمن اين له الفضل علينا وهو مثلنا فى هذه الامور وثالثتها قولهم لولا انزل اليه ملك فيكون معه نذيرا يصدقه أو يشهد له و يرد على من خالفه ورابعتها قولهم أو يلقى اليه كنز أى من السماء فينفقه فلا يحتاج الى التردد لطلب المعاش وخامستها قولهم او تكون له جنة يأكل منها قرأ حمزة والكسائى ناكل منها بالنون وقرأ الباقون بالياء والمعنى ان لم يكن لك كنز فلا اقل من أن تكون كواحد من الدهاقين فيكون لك بستان تأكل منه وسادستها قولهم ان تتبعون الا رجلا مسحورا وقد تقدمت هذه القصة فى آخر سورة بنى اسرائيل فاجاب الله تعالى عن هذه الشبهة من وجوه أحدها قوله انظر كيف ضربوا لك الامثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا وفيه أبحاث الاول ان هذا كيف يصلح أن يكون جوابا عن تلك الشبهة وبيانه ان الذى يتميز الرسول به عن غيره هو المعجزة وهذه الاشياء التى ذكروها لا يقدح شئ منها فى المعجزة فلا يكون شئ منها قادحا فى النبوة فكأنه تعالى قال انظر كيف اشتغل القوم بضرب هذه الامثال التى لا فائدة فيها لاجل انهم لما ضلوا واردوا القدح فى نبوتك لم يجدوا الى القدح فيه سبيلا البتة اذ الطعن عليه انما يكون بما يقدح فى المعجزات التى ادعاها لا بهذا الجنس من القول وفيه وجه آخر وهو انهم لما ضلوا لم يبق فيهم استطاعة قبول الحق وهذا انما يصح على مذهبنا وتقريره بالعقل ظاهر وذلك لان الانسان اما ان يكون مستوى الداعى الى الحق والباطل واما أن يكون داعيته الى أحدهما أرجح من داعيته الى الثانى فان كان الاول فحال الاستواء يمتنع الرجحان فيمتنع الفعل وان كان الثانى فحال رجحان احد الطرفين يكون بحصول الطرف الآخر ممتنعا فثبت ان حال رجحان الضلالة فى قلبه استحال منه قبول الحق وما كان محالا لم يكن عليه قدرة فثبت انهم لما ضلوا ما كانوا مستطيعين قوله تعالى ﴿ تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك جنات تجرى من تحتها الانهار و يجعل

أفتراح أن يلقى اليه من السماء كنز يستظهر به ولا يحتاج الى طلب المعاش و يكون دليلا على صدقه وقوله تعالى أو تكون له جنة يأكل منها) تنزل من ذلك الى اقتراح ماهو ايسر منه وأقرب من الوقوع وقرئ نأكل بنون الحكاية وفيه مزيد مكابرة وفرط تحكم (وقال الظالمون) هم القائلون الاولون وانما وضع المظهر موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بالظلم وتجاوز الحد فيما قالوه لكونه اضلالا خارجا عن حد الضلال مع مافيه من نسبته عليه الصلاة والسلام الى المسحورية أى قالوا للمؤمنين (أن تتبعون) أى ما تتبعون (الا رجلا مسحورا) قد سحر فغلب على عقله وقيل ذا سحر وهى الرئة أى بشرا لا ملكا على أن الوصف لزيادة التقرير والاول هو الانسب بحالهم (انظر كيف ضربوا لك الامثال) استعظام للاباطيل التى اجترؤا على التفوه بها وتعجيب منها أى انظر كيف قالوا فى حقك تلك الاقاويل العجيبة الخارجة عن العقول الجارية لغرابتها مجرى الامثال واخترعوا لك تلك الصفات والاحوال الشاذة البعيدة من الوقوع (فضلوا) أى عن طريق المحاجة حيث لم يأتوا بشئ يمكن صدوره عمن له أدنى عقل وتميز فبقوا متحيرين (فلا يستطيعون) الى القدح فى نبوتك بأن يجدوا قولا يستقرون عليه وان

ك قصورا بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا و زفيرا واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا) اعلم ان هذا هو الجواب الثانى عن تلك الشبهة فقوله تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك أى من الذى ذكروه من نعم الدنيا كالكنز والجنة وفسر ذلك الخير بقوله جنات تجرى من تحتها الانهار و يجعل لك قصورا نبه بذلك سبحانه قادر على أن يعطى الرسول كل ماذكروه ولكنه تعالى يدبر عباده بحسب المصالح اوعلى وفق المشيئة ولا اعتراض لاحد عليه فى شئ من افعاله فيفتح على واحد ابواب المعارف والعلوم و يسد عليه ابواب الدنيا وفى حق الآخر بالعكس وماذاك الا أنه فعال لما يريد وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال ابن عباس خير من ذلك مما عيروك بفقده الجنة لانهم عيروك بفقد الجنة الواحدة وهو سبحانه قادر على ان يعطيك جنات كثيرة وقال فى رواية عكرمة خيرا من ذلك أى من المشى فى الاسواق وابتغاء المعاش (المسئلة الثانية) قوله ان شاء معناه انه سبحانه قادر على ذلك لا أنه تعالى شاك لان الشك لا يجوز على الله تعالى وقال قوم ان ههنا بمعنى اذا أى قد جعلنا لك فى الآخرة جنات و بنينا لك قصورا وانما أدخل ان تنبيها للعباد على انه لا ينال ذلك الا برحمته وانه معلق على محض مشيئته وانه ليس لاحد من العباد على الله حق لا فى الدنيا ولا فى الآخرة (المسئلة الثالثة) القصور جماعة قصر وهو المسكن الرفيع و يحتمل أن يكون لكل جنة قصر فيكون مسكنا ومتنزها و يجوز أن يكون القصور مجموعه والجنات مجموعه وقال مجاهد ان شاء جعل لك جنات فى الآخرة وقصورا فى الدنيا (المسئلة الرابعة) اختلف القراء فى قوله و يجعل فرفع ابن كثير وابن عامر وعاصم اللام وجزمه الآخرون فمن جزم فلان المعنى ان شاء يجعل لك جنات و يجعل لك قصورا ومن رفع فعلى الاستئناف والمعنى سيجعل لك قصورا هذا قول الزجاج قال الواحدى و بين القراءتين فرق فى المعنى فمن جزم فالمعنى ان شاء يجعل لك قصورا فى الدنيا ولا يحسن الوقوف على الانهار ومن رفع حسن له الوقوف على الانهار واستأنف و يجعل أى و يجعل لك قصورا فى الآخرة وفى مصحف ابى وابن مسعود تبارك الذى ان شاء يجعل (المسئلة الخامسة) عن طاوس عن ابن عباس قال بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس و جبريل عليه السلام عنده قال جبريل عليه السلام هذا ملك قد نزل من السماء استأذن ربه فى زيارتك فلم يلبث الا قليلا حتى جاء الملك فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ان الله يخيرك بين ان يعطيك مفاتيح كل شئ لم يعطها احدا قبلك ولا يعطيه احدا بعدك من غير ان ينقصك مما ادخر لك شيئا فقال عليه السلام بل يجمعها جميعا لى فى الآخرة فنزل قوله تبارك الذى ان شاء الآية وعن ابن عباس قال عليه السلام عرض على جبريل بطحاء مكة ذهبا فقلت بل شبعة وثلاث [illegible] ذلك اكثر لذكرى ومسئلتى لربى وفى رواية صفوان بن سليم عن عبد الوهاب

كان باطلا فى نفسه اوفضلوا عن الحق ضلالا مبينا فلا يجدون طريقا موصلا اليه فان من اعتاد استعمال أمثال هذه الاباطيل لا يكاد يهتدى الى استعمال المقدمات الحقة ﴿ ٤٥٢ ﴾ (تبارك الذى) أى تكاثر وتزايد خيره الذى (ان شاء جعل لك) فى الدنيا عاجلا شيئا (خيرا) لك (من ذلك) الذى اقترحوه من أن تكون لك جنة تأكل منها بأن يعجل لك مثل ماوعدك فى الآخرة وقوله تعالى (جنات تجرى من تحتها الانهار) بدل من خير اومحقق لخيريته مما قالوا لان ذلك كان مطلقا عن قيد التعدد وجريان الانهار (و يجعل لك قصورا) عطف على محل الجزاء الذى هو جعل وقرئ بالرفع عطفا على نفسه لان الشرط اذا كان ماضيا جاز فى جزائه الرفع والجزم كما فى قول القائل * وان أتاه خليل يوم مسئلة * يقول لاغائب مالى ولاحرم ويجوز أن يكون استئنافا بوعد ما يكون له فى الآخرة وقرئ بالنصب على أنه جواب بالواو وتعليق ذلك بمشيئته تعالى للايذان بان عدم جعلها بمشيئته المبنية على الحكم والمصالح وعدم التعرض لجواب الاقتراحيين الاولين للتنبيه على خروجهما عن دائرة العقل واستغنائهما عن الجواب لظهور بطلانهما ومنافاتهما للحكمة التشريعية ﴿ جهلا ﴾ وانما الذى له وجه فى الجملة هو

قال عليه السلام اشبع يوما واجوع ثلاثا فاحمدك اذا شبعت واتضرع اليك اذا جعت وعن الضحاك لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفاقة حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك فنزل جبريل عليه السلام معزيا له وقال ان الله يقرؤك السلام و يقول وما ارسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام الآية قال فبينما جبريل عليه السلام والنبى صلى الله عليه وسلم يتحدثان اذ فتح باب من أبواب السماء لم يكن فتح قبل ذلك ثم قال أبشر يا محمد هذا رضوان خازن الجنة قد اتاك بالرضا من ربك فسلم عليه وقال ان ربك يخيرك بين أن تكون نبيا ملكا و بين أن تكون نبيا عبدا ومعه سفط من نور يتلألأ ثم قال هذه مفاتيح خزائن الدنيا فاقبضها من غير ان ينقصك الله مما اعد لك فى الآخرة جناح بعوضة فنظر النبى صلى الله عليه وسلم الى جبريل كالمستشير فاومأ بيده أن تواضع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل نبيا عبدا قال فكان عليه السلام بعد ذلك لم يأكل متكأ حتى فارق الدنيا اما قوله تعالى بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا فهذا جواب ثالث عن تلك الشبهة كأنه سبحانه قال ليس ما تعلقوا به شبهة علمية فى نفس المسئلة بل الذى حملهم على تكذيبك تكذيبهم بالساعة استبعادا لا للاستعداد لها و يحتمل أن يكون المعنى أنهم يكذبون بالساعة فلا يرجون ثوابا ولا عقابا ولا يتحملون كلفة النظر والفكر فلهذا لا ينتفعون بما يورد عليهم من الدلائل ثم قال وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا وفيه مسائل (الاولى) قال أبو مسلم وأعتدنا أى جعلناها عتيدا ومعدة لهم والسعير النار الشديدة الاستعار وعن الحسن انه اسم من اسماء جهنم (المسئلة الثانية) احتج أصحابنا على ان الجنة مخلوقة بقوله تعالى اعدت للمتقين وعلى ان النار التى هى دار العقاب مخلوقة بهذه الآية وهى قوله واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا وقوله اعتدنا اخبار عن فعل وقع فى الماضى فدلت الآية على ان دار العقاب مخلوقة قال الجبائى يحتمل وأعتدنا النار فى الدنيا و بها نعذب الكفار والفساق فى قبورهم و يحتمل نار الآخرة و يكون معنى وأعتدنا أى سنعتدها لهم كقوله ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار وأعلم ان هذا السؤال فى نهاية السقوط لان المراد من السعير اما نار الدنيا واما نار الآخرة فان كان الاول فاما أن يكون المراد أنه تعالى يعذبهم فى الدنيا بنار الدنيا او يعذبهم فى الآخرة بنار الدنيا والاول باطل لانه تعالى ما عذبهم بالنار فى الدنيا والثانى أيضا باطل لانه لم يقل أحد من الامة انه تعالى يعذب الكفرة فى الآخرة بنيران الدنيا فثبت ان المراد نار الآخرة وثبت انها معدة وحمل الآية على ان الله سيجعلها معدة ترك للظاهر من غير دليل وعلى ان الحسن قال السعير اسم من أسماء جهنم فقوله واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا صريح فى انه تعالى اعد جهنم (المسئلة الثالثة) احتج أصحابنا بهذه الآية على ان السعيد من سعد فى بطن امه فقالوا ان الذين اعد الله تعالى لهم السعير واخبر عن ذلك وحكم به ان صاروا مؤمنين من اهل الثواب انقلب حكم الله بكونهم من اهل السعير كذبا وانقلب بذلك علمه

اقتراح الاخير فانه غير منافٍ للحكمة بالكلية فان بعض الانبياء عليهم الصلاة والسلام قد أوتوا فى الدنيا مع نبوة ملكا عظيما (بل كذبوا بالساعة) اضراب عن توبيخهم بحكاية جنايتهم السابقة وانتقال منه الى توبيخهم بحكاية جنايتهم الاخرى للتخلص الى بيان مالهم فى الآخرة بسببها من فنون العذاب بقوله تعالى (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا) الخ أى أعتدنا لهم نارا عظيمة شديدة الاشتعال شأنها كيت وكيت بسبب تكذيبهم بها على مايشعر به وضع الموصول موضع ضميرهم أو لكل من كذب بها كائنا من كان وهم داخلون فى زمرتهم دخولا أوليا ووضع الساعة موضع ضميرها للمبالغة فى التشنيع ومدار اعتداد السعير لهم وان لم يكن مجرد تكذيبهم بالساعة بل مع تكذيبهم بسائر ماجاء به الشريعة الشريفة لكن الساعة لما كانت هى العلة القريبة لدخولهم السعير أشير الى سببية تكذيبها لدخولها وقيل هو عطف على وقالوا مالهذا الخ على معنى بل أتوا بأعجب من ذلك حيث كذبوا بالساعة وأنكروها والحال أنا قد أعتدنا لكل من كذب بها سعيرا

جهلا وهذا الانقلاب محال والمؤدى الى المحال محال فصيرورة أولئك مؤمنين من أهل الثواب محال فثبت ان السعيد لاينقلب شقيا والشقى لاينقلب سعيدا ثم انه سبحانه وتعالى وصف السعير بصفات احداها قوله اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) السعير مذكر ولكن جاء ههنا مؤنثا لانه تعالى قال رأتهم وقال سمعوا لها وانما جاء مؤنثا على معنى النار (المسئلة الثانية) مذهب أصحابنا ان البنية ليست شرطا فى الحياة فالنار على ماهى عليه يجوز ان يخلق الله الحياة والعقل والنطق فيها وعند المعتزلة ذلك غير جائز وهؤلاء المعتزلة ليس لهم فى هذا الباب حجة الا استقراء العادات ولو صدق ذلك لوجب التكذيب بانخراق العادات فى حق الرسل فهؤلاء قولهم متناقض بل انكار العادات لايليق الا بأصول الفلاسفة فعلى هذا قال اصحابنا قول الله تعالى فى صفة النار اذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا يجب اجراؤه على الظاهر لانه لامتناع فى أن تكون النار حية رائية مغتاظة على الكفار اما المعتزلة فقد احتاجوا الى التأويل وذكروا فيه وجوها أحدها قالوا معنى رأتهم ظهرت لهم من قولهم دورهم تتراءى وتتناظر وقال عليه السلام ان المؤمن والكافر لاتتراءى نارا هما أى لاتتقابلان لما يجب على المؤمن من مجانبة الكافر والمشرك ويقال دور فلان متناظرة أى متقابلة وثانيها ان أن النار لشدة اضطرامها وغليانها صارت ترى الكفار وتطلبهم وتتغيظ عليهم وثالثها قال الجبائى ان الله تعالى ذكر النار وأراد الخزنة الموكلة بتعذيب أهل النار لان الرؤية تصح منهم ولاتصح من النار فهو كقوله واسأل القرية أراد أهلها (المسئلة الثالثة) لقائل أن يقول التغيظ عبارة عن شدة الغضب وذلك لايكون مسموعا فكيف قال الله تعالى سمعوا لها تغيظا وزفيرا والجواب عنه من وجوه أحدها أن التغيظ وان لم يسمع فانه قد يسمع مايدل عليه من الصوت وهو كقوله رأيت غضب الامير على فلان اذا رأى مايدل عليه وكذلك يقال فى المحبة فكذا ههنا والمعنى سمعوا لها صوتا يشبه صوت المتغيظ وهو قول الزجاج وثانيها المعنى علموا لها تغيظا وسمعوا لها زفيرا وهذا قول قطرب وهو كقول الشاعر متقلدا سيفا ورمحا وثالثها المراد تغيظ الخزنة (المسئلة الرابعة) قال عبيد بن عمير ان جهنم لتزفر زفرة لايبقى أحد الا وتر عدفرائصه حتى ان ابراهيم عليه السلام يجثو على ركبتيه ويقول نفسى نفسى (الصفة الثانية للسعير) قوله تعالى واذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا واعلم أن الله سبحانه لما وصف حال الكفار حين مايكونون بعيد من جهنم وصف حالهم عند مايلقون فيها نعوذ بالله منه بما لاشئ أبلغ منه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى ضيقا قراءتان التشديد والتخفيف وهو قراءة ابن كثير (المسئلة الثانية) نقل فى تفسير الضيق أمور قال قتادة ذكر لنا عبد الله بن عمر قال ان جهنم تضيق على الكافر كضيق الزج على الرمح وسئل النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال والذى نفسى بيده انهم يستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط قال الكلبى

لم الزامهم على التكذيب بها وعدم خوفهم مما أعد لمن كذب بها من أنواع العذاب أعجب من القول السابق

قبله من الجواب المبنى على التحقيق المنبئ عن الوعد بالجنات فى الآخرة مسوق لبيان أن ذلك لا يجدى نفعا ولا يحلى بطائل على طريقة قول من قال * عوجو النعم ﴿ ٤٥٤ ﴾ فحيوا دمنة الدار * ماذا تحيون من نؤى وأحجار * والمعنى انهم لا يؤمنون بالساعة فكيف يقتنعون بهذا الجواب وكيف يصدقون بتحجيل مثل ما وعدك فى الآخرة وقيل المعنى بل كذبوا بها فقصرت أنظارهم على الحظوظ الدنيوية وظنوا أن الكرامة ليست الا بالمال وجعلوا فقرك ذريعة الى تكذيبك وقوله تعالى (اذا رأتهم) الخ صفة للسعير أى اذا كانت منهم بمرأى الناظر فى البعد كقوله عليه الصلاة والسلام لا تتراءى ناراهما أى لا تتقاربان بحيث تكون احداهما بمرأى من الاخرى على المجاز كأن بعضها يرى البعض ونسبة الرؤية اليها الا اليهم للايذان بأن التغيظ والزفير منها لهيجان غضبها عليهم عند رؤيتها اياهم حقيقة أو تمثيلا ومن فى قوله تعالى (من مكان بعيد) اشعار بأن بعد ما بينها وبينهم من المسافة حين رأتهم خارج عن حدود البعد المعتاد فى المسافات المعهودة وفيه مزيد تهويل لأمرها قال الكلبى والسدى من مسيرة عام وقيل من مسيرة مائة سنة (سمعوا لها تغيظا وزفيرا) أى صوت تغيظ على تشبيه صوت غليانها بصوت

الاسفلون يرفعهم اللهيب والاعلون يخفضهم الداخلون فيزدحمون فى تلك الابواب الضيقة قال صاحب الكشاف الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة ولذلك وصف الله الجنة بأن عرضها السموات والارض وجاء فى الاحاديث ان لكل مؤمن من القصور والجنان كذا وكذا ولقد جمع الله على أهل النار انواع البلاء حيث ضم الى العذاب الشديد الضيق (المسئلة الثالثة) قالوا فى تفسير قوله تعالى مقرنين فى الاصفاد ان أهل النار مع ما هم فيه من العذاب الشديد والضيق الشديد يكونون مقرنين فى السلاسل قرنت أيديهم الى اعناقهم وقيل يقرن مع كل كافر شيطانه فى سلسلة وفى أرجلهم الاصفاد ثم انه سبحانه حكى عن اهل النار انهم حين مايشاهدون هذا النوع من العقاب الشديد دعوا ثبورا والثبور الهلاك ودعاؤهم ان يقولوا واثبوراه أى بأن يقولوا يا ثبور هذا حينك وزمانك وروى انس مرفوعا اول من يكسى حلة من النار ابليس فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه ذريته وهو يقول يا ثبوراه و ينادون يا ثبورهم حتى يردوا النار اما قوله لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا أى يقال لهم ذلك وهم احقاء بأن يقال لهم ذلك وان لم يكن ثمة قول ومعنى وادعوا ثبورا كثيرا انكم وقعتم فيما ليس ثبوركم منه واحدا انما هو ثبور كثير اما لان العذاب انواع والوان لكل نوع منها ثبورا لشدته وفظاعته أولانهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها أولان ذلك العذاب دائم خالص عن الشوب فلهم فى كل وقت من الاوقات التى لا نهاية لها ثبور أولانهم ربما يجدون بسبب ذلك القول نوعا من الخفة فان المعذب اذا صاح وبكى وجد بسببه نوعا من الخفة فيزجرون عن ذلك ويخبرون بان هذا الثبور سيزداد كل يوم ليزداد حزنهم وغمهم نعوذ بالله منه قال الكلبى نزل هذا كله فى حق أبى جهل والكفار الذين ذكروا تلك الشبهات * قوله تعالى (قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا لهم فيها مايشاؤن خالدين كان على ربك وعدا مسؤلا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم انه تعالى لما وصف حال العقاب المعد للمكذبين بالساعة اتبعه بما يؤكد الحسرة والندامة فقال لرسوله قل أذلك خير أم جنة الخلد ان يلتمسوها بالتصديق والطاعة فان قيل كيف يقال العذاب خير أم جنة الخلد وهل يجوز أن يقول العاقل السكر أحلى ام الصبر قلنا هذا يحسن فى معرض التقريع كما اذا اعطى السيد عبده مالا فتمرد وأبى واستكبر فيضربه ضربا وجيعا و يقوله على سبيل التوبيخ هذا أطيب أم ذاك (المسئلة الثانية) احتج اصحابنا بقوله وعدا المتقون على أن الثواب غير واجب على الله تعالى لان من قال السلطان وعد فلانا أن يعطيه كذا فانه يحمل ذلك على التفضيل فاما لو كان ذلك الاعطاء واجبا لا يقال انه وعده به أما المعتزلة فقد احتجوا به أيضا على مذهبهم قالوا لانه سبحانه اثبت ذلك الوعد للموصوفين بصفة التقوى وترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية فكذا يدل هذا على أن ذلك الوعد انما حصل معللا بصفة التقوى والتفضيل غير

﴿ تمت ﴾

ناطق وزفيره وهو صوت يسمع من جوفه هذا وان الحياة لما لم تكن مشروطة عندنا بالبنية أمكن أن يخلق الله تعالى
الحياة فترى وتتغيظ وتزفر وقيل ان ذلك لزيانيتها فنسب اليها على حذف المضاف (واذا

ألقوا منها مكانا) نصب على الظرفية ومنها حال منه لانه فى الاصل صفة له (ضيقا) صفة لمكانا مفيدة لزيادة شدة فان الكرب مع الضيق كما أن الروح مع السعة وهو السر فى وصف الجنة بان عرضها السموات والارض وعن ابن عباس وابن عمر رضى الله تعالى عنهم تضيق جهنم عليهم كما يضيق الزج على الرمح وسئل النبى عليه الصلاة والسلام عن ذلك فقال والذى نفسى بيده انهم ليستكرهون فى النار كما يستكره الوتد فى الحائط قال الكلبى الاسفلون يرفعهم اللهب والاعلون يحطهم الداخلون فيزدحمون فيها وقرئ ضيقا بسكون الياء (مقرنين) حال من مفعول ألقوا اى اذا ألقوا منها مكانا ضيقا حال كونهم مقرنين قد قرنت أيديهم الى أعناقهم بالجوامع وقيل مقرنين مع الشياطين فى السلاسل كل كافر مع شيطان وفى أرجلهم الاصفاد (دعوا هنالك)

تخص بالمتقين فوجب أن يكون المختص بهم واجبا (المسئلة الثالثة) قال أبو مسلم جنة الخلد هى التى لا ينقطع نعيمها والخلد والخلود سواء كالشكر والشكور قال الله تعالى ان هذا كان لكم جزاء ولا شكورا فان قيل الجنة اسم لدار الثواب وهى مخلدة فاى فائدة فى قوله جنة الخلد قلنا الاضافة قد تكون للتمييز وقد تكون لبيان صفة الكمال كما يقال لله الخالق البارئ وماهنا من هذا الباب * أما قوله كانت لهم جزاء ومصيرا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) المعتزلة احتجوا بهذه الآية على اثبات الاستحقاق من وجهين الاول أن اسم الجزاء لا يتناول الا المستحق فاما الوعد بمحض التفضيل فانه لا يسمى جزاء والثانى لو كان المراد من الجزاء الامر الذى يصيرون اليه بمجرد الوعد فحينئذ لا يبقى بين قوله جزاء وبين قوله مصيرا تفاوت فيصير ذلك تكرارا من غير فائدة قال أصحابنا رحمهم الله لا نزاع فى كونه جزاء انما النزاع فى أن كونه جزاء ثبت بالوعد أو بالاستحقاق وليس فى الآية ما يدل على التعيين (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة الآية تدل على ان الله تعالى لا يعفو عن صاحب الكبيرة من وجهين الاول أن صاحب الكبيرة يستحق العقاب فوجب أن لا يكون مستحقا للثواب لان الثواب هو النفع الدائم الخالص عن شوب الضرر والعقاب هو الضرر الدائم الخالص عن شوب النفع والجمع بينهما محال وما كان ممتنع الوجود امتنع أن يحصل استحقاقه فاذن متى ثبت استحقاق العقاب وجب أن يزول استحقاق الثواب فنقول لو عفا الله عن صاحب الكبيرة لكان اما ان يخرجه من النار ولا يدخله الجنة وذلك باطل بالاجماع لانهم أجمعوا على أن المكلفين يوم القيامة اما أن يكونوا من أهل الجنة أو من أهل النار لانه تعالى قال فريق فى الجنة وفريق فى السعير واما ان يخرجه من النار و يدخله الجنة وذلك باطل لان الجنة حق المتقين لقوله تعالى كانت لهم جزاء ومصيرا فجعل الجنة لهم ومختصة بهم و بين انها انما كانت لهم لكونها جزاء لهم على أعمالهم فكانت حقا لهم واعطاء حق الانسان لغيره لا يجوز ولما بطلت الاقسام ثبت أن العفو غير جائز (اجاب) اصحابنا لم لا يجوز ان يقال المتقون يرضون بادخال الله أهل العفو فى الجنة فحينئذ لا يمتنع دخولهم فيها الوجه الثانى قالوا المتقى فى عرف الشرع مختص بمن اتقى الكفر والكبائر وانا وان اختلفنا فى أن صاحب الكبيرة هل يسمى مؤمنا أم لا لكنا اتفقنا على انه لا يسمى متقيا ثم قال فى وصف الجنة انها كانت لهم جزاء ومصيرا وهذا للحصر والمعنى انها مصير للمتقين لا لغيرهم واذا كان كذلك وجب أن لا يدخلها صاحب الكبيرة قلنا اقصى ما فى الباب ان هذا عموم صريح فى الوعيد فنخصه بآيات الوعد (المسئلة الثالثة) لقائل ان يقول ان الجنة ستصير للمتقين جزاء ومصيرا لكنها بعد ما صارت كذلك فلم قال الله تعالى كانت لهم جزاء ومصيرا جوابه من وجهين الاول ان وعد الله فهو فى تحققه كأنه قد كان والثانى انه كان مكتوبا فى اللوح قبل أن يخلقهم ويكون ذلك بأزمنة متطاولة ان الجنة جزاؤهم ومصيرهم *أما قوله تعالى لهم فيها ما يشاؤن

الى ذلك المكان الهائل والحالة الفظيعة (ثبورا) أى يتمنون هلاكا وينادونه يا ثبوراه تعالى فهذا حينك تثبور (لا تدعوا اليوم

الهلاك المنجي أو قليلا وتصويرا لحالهم بحال من يقال له ذلك من غير أن يكون هناك قول ولا خطاب أي دعوه حال كونهم احقاء بان يقال لهم ذلك واما مستأنف وقع جوابا عن سؤال ينسحب عليه الكلام كأنه قيل فاذا يكون عند دعائهم المذكور فقيل يقال لهم ذلك اقناطا مما علقوا به أطماعهم من الهلاك وتنبيها على أن عذابهم الملجئ لهم الى استدعاء الهلاك بالمرة أبدى لاخلاص لهم منه أي لا تقتصروا على دعاء ثبور واحد (وادعوا ثبورا كثيرا) أي بحسب كثرة الدعاء المتعلق به لا بحسب كثرته في نفسه فان ما يدعونه ثبور واحد في حد ذاته لكنه كلما تعلق به دعاء من تلك الادعية الكثيرة صار كأنه ثبور مغاير لما تعلق به دعاء آخر منها وتحقيقه لا تدعوه دعاء واحدا وادعوه أدعية كثيرة فان لكل داع ما نواه من العدد بحسب شدته وطول مدته مستوجب لتكرير الدعاء في كل آن وهذا أدل على فظاعة العذاب مما جعل تعدد الدعاء وتجدده لتعدد العذاب بتعدد أنواعه وألوانه أو لتعدده

خالدين فهو نظير قوله ولكم فيها ما تشتهي الانفس وفيه مسائل (المسئلة الاولى) لقائل ان يقول أهل الدرجات النازلة اذا شاهدوا الدرجات العالية لابد وان يريدوها فاذا سألوها ربهم فان اعطاهم اياها لم يبق بين الناقص والكامل تفاوت في الدرجة وان لم يعطها قدح ذلك في قوله لهم فيها ما يشاؤن وأيضا فالاب اذا كان ولده في درجات النيران وأشد العذاب اذا اشتهى أن يخلصه الله تعالى من ذلك العذاب فلابد وان يسأل ربه ان يخلصه منه فان فعل الله تعالى ذلك قدح في أن عذاب الكافر مخلد وان لم يفعل قدح ذلك في قوله ولكم فيها ما تشتهي انفسكم وفي قوله لهم فيها ما يشاؤن وجوابه ان الله تعالى يزيل ذلك الخاطر عن قلوب أهل الجنة بل يكون اشتغال كل واحد منهم بما فيه من اللذات شاغلا عن الالتفات الى حال غيره (المسئلة الثانية) شرط نعيم الجنة ان يكون دائما اذ لو انقطع لكان مشوبا بضرب من الغم ولذلك قال المتنبي

اشد الغم عندي في سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

ولذلك اعتبر الخلود فيه فقال لهم فيها ما يشاؤن خالدين (المسئلة الثالثة) قوله تعالى لهم فيها ما يشاؤن كالتنبيه على أن حصول المرادات بأسرها لا يكون الا في الجنة فما في غيرها فلا يحصل ذلك بل لابد في الدنيا من أن تكون راحاتها مشوبة بالجراحات ولذلك قال عليه السلام من طلب ما لم يخلق اتعب نفسه ولم يرزق فقيل وما هو يا رسول الله فقال سرور يوم ﴿ اما قوله كان على ربك وعدا مسؤلا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) كلمة على للوجوب قال عليه السلام من نذر وسمى فعليه الوفاء بما سمى فقوله كان على ربك يفيد أن ذلك واجب على الله تعالى والواجب هو الذي لو لم يفعل لاستحق تاركه بفعله الذم أو انه الذي يكون عدمه ممتنعا فان كان الوجوب على التفسير الاول كان تركه محالا لان تركه لما استلزم استحقاق الذم واستحقاق الله تعالى الذم محال ومستلزم المحال محال كان ذلك الترك محالا والمحال غير مقدور فلم يكن لله تعالى قادرا على أن لا يفعل فيلزم أن يكون ملجأ الى الفعل وان كان الوجوب على التفسير الثاني وهو ان يقال الواجب ما يكون عدمه ممتنعا يكون القول بالالجاء لازما فلم يكن الله قادرا فان قيل انه ثبت بحكم الوعد فنقول لو لم يفعل لانقلب خبره الصدق كذبا وعلمه جهلا وذلك محال والمؤدي الى المحال محال فالترك محال فيلزم أن يكون ملجأ الى الفعل والملجأ الى الفعل لا يكون قادرا ولا يكون مستحقا للثناء والمدح هذا تمام السؤال (وجوابه) أن فعل الشئ متقدم على الاخبار عن فعله وعن العلم بفعله فيكون ذلك الفعل فعلا لا على سبيل الالجاء فكان قادرا ومستحقا للثناء والمدح (المسئلة الثانية) قوله وعدا يدل ان الجنة حصلت بحكم الوعد لا بحكم الاستحقاق وقد تقدم تقريره (المسئلة الثالثة) قوله مسؤلا ذكروا فيه وجوها أحدها ان المكلفين سألوه بقولهم ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك وثانيها أن المكلفين سألوه بلسان الحال لانهم لما تحملوا المشقة الشديدة في طاعته كان ذلك قائما مقام

ذ الجلود كما لا يخفى وأما ما قيل من أن المعنى انكم وقعتم فيما ليس ثبورا في واحدا بما هو ثبور كثير اما لان العذاب ع وألوان كل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته أو لانهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها فلا غاية لهلاكهم فلا يلائم المقام كيف لا وهم انما يدعون هلا كا ينهى عذابهم وينجيهم منه فلا بد أن يكون الجواب اقناطا لهم من ذلك ببيان استحالته ودوام ما يوجب استدعاءه من العذاب الشديد وتقييد النهى والامر باليوم لمزيد التهويل والتفظيع والتنبيه على أنه ليس كسائر الايام المعهودة (قل) تقريعا لهم توبيخا لهم وتحسيرا على ما فاتهم (أذلك) اشارة الى ما ذكر من السعير باعتبار اتصافها بما فصل من الاحوال الهائلة وما فيه من معنى البعد للاشعار بكونها في الغاية القاصية من الهول والفظاعة أي قل لهم أذلك الذي ذكر من السعير التي أعتدت لمن كذب بالساعة وشانها كيت وكيت وشأن أهلها ذيت وذيت (خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون) أي وعدها المتقون واضافة الجنة الى الخلد للمدح

سؤال قال المتنبي

وفي النفس حاجات وفيك فطانة * سكوتي كلام عندها وخطاب

ثالثها الملائكة سألوا الله تعالى ذلك بقولهم ربنا وأدخلهم جنات عدن ورابعها وعدا مسؤلا أي واجبا يقال لاعطينك ألفا وعدا مسؤلا أي واجبا وان لم تسأل قاله الفراء وسائر الوجوه اقرب من هذا لان سائر الوجوه اقرب الى الحقيقة وما قاله الفراء مجاز وخامسها مسؤلا أي من حقه ان يكون مسؤلا لانه حق واجب اما بحكم الاستحقاق على قول المعتزلة أو بحكم الوعد على قول أهل السنة * قوله تعالى (ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا فقد كذبوكم بما تقولون فما يستطيعون صرفا ولا نصرا ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرا) اعلم ان قوله تعالى ويوم نحشرهم راجع الى قوله واتخذوا من دونه الهة ثم ههنا مسائل (المسئلة الاولى) نحشرهم فنقول كلاهما بالنون والياء وقرئ يحشرهم بكسر الشين (المسئلة الثانية) ظاهر قوله وما يعبدون انها الاصنام وظاهر قوله فيقول أأنتم أضللتم عبادي انه من عبد من الاحياء كالملائكة والمسيح وغيرهما لان الاضلال وخلافه منهم يصح فلاجل هذا اختلفوا فمن الناس من حمله على الاوثان فان قيل لهم الوثن جماد فكيف خاطبه الله تعالى وكيف قدر على الجواب فعند ذلك ذكروا وجهين احدهما ان الله تعالى يخلق فيهم الحياة فعند ذلك يخاطبهم فيردون الجواب وثانيهما ان يكون ذلك الكلام لا بالقول اللساني بل على سبيل لسان الحال كما ذكر بعضهم في تسبيح الموات وكلام الايدي والارجل وكما قيل سل الارض من شق أنهارك وغرس اشجارك فان لم تجبك جوابا اجابتك اعتبارا وأما الاكثرون فزعموا أن المراد هو الملائكة وعيسى وعزير عليهم السلام قالوا ويؤكد هذا القول بقوله تعالى ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون واذا قيل لهم لفظة ما لا تستعمل في العقلاء أجابوا عنه من وجهين الاول لانسلم ان كلمة ما لا يعقل بدليل انهم قالوا من لا يعقل والثاني أريد به الوصف كأنه قيل ومعبودهم وقوله تعالى والسماء وما بناها ولا انتم عابدون ما أعبد لا يستقيم الا على احد هذين الوجهين وكيف كان فالسؤال ساقط (المسئلة الثالثة) حاصل الكلام ان الله تعالى يحشر المعبودين ثم يقول لهم أأنتم أوقعتم عبادي في الضلال عن طريق الحق أم هم ضلوا عنه أنفسهم قالت المعتزلة وفيه كسر بين لقول من يقول ان الله يضل عباده في الحقيقة لانه لو كان الامر كذلك لكان الجواب الصحيح أن يقولوا الهنا هو نحن ثالث غيرهما هو الحق وهو انك انت ربنا فلما لم يقولوا ذلك بل نسبوا اضلالهم الى انفسهم علمنا ان الله تعالى لا يضل أحدا

يز عن جنات الدنيا والمراد ﴿ ٥٨ ﴾ س بالمتقين المتصفون بمطلق التقوى لا بالمرتبة الثانية أو الثالثة

قط (كانت) تلك الجنة (لهم) في علم الله تعالى أو في اللوح المحفوظ

اولان ماوعده الله تعالى فهو كائن لامحالة فحكى تحققه ووقوعه (جزاء) على اعمالهم حسبما مر من الوعد الكر
(ومصيرا) ينقلبون اليه (لهم فيها مايشاؤن) اى مايشاؤنه من فنون الملاذ والمشتهيات وأنواع التنـ

كما فى قوله تعالى ولكم فيها ماتشتهى أنفسكم ولعل كل فريق منهم يقتنع بما أتيح له من درجات النعيم ولاتمتد اعناق همهم الى مافوق ذلك من المراتب العالية فلا يلزم الحرمان ولاتساوى مراتب أهل الجنان (خالدين) حال من الضمير المستكن فى الجار والمجرور لاعتماده على المبتدأ وقيل من فاعل يشاؤن (كان) أى مايشاؤنه وقيل الوعد المدلول عليه بقوله تعالى وعدا مسؤلا (على ربك وعدا مسؤلا) أى موعودا حقيقا بان يسأل و يطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون أو مسؤلا يسأله الناس فى دعائهم ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك أو الملائكة بقولهم ربنا وأدخلهم جنات عدن التى وعدتهم وما فى على من معنى الوجوب لامتناع الخلف فى وعده تعالى ولا يلزم منه الالجاء الى الانجاز فان تعلق الارادة بالموعود متقدم على الوعد الموجب للانجاز وفى التعرض لعنوان الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام ﴿خليلا﴾ من تشريفه والاشعار بانه عليه

من عباده فان قيل لانسلم ان المعبودين ماتعرضوا لهذا القسم بل ذكروه فانهم قالوا ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وهذا تصريح بان ضلالهم انما حصل لاجل مافعل الله بهم و هو انه سبحانه وتعالى متعهم وآباءهم بنعيم الدنيا قلنا لو كان الامر كذلك لكان يلزمهم أن يصير الله محجوبا فى بدأ أولئك المعبودين ومعلوم انه ليس الغرض ذلك بل الغرض أن يصير الكافر محجوبا مفحما ملزما هذا تمام تقرير المعتزلة فى الآية أجاب اصحابنا بان القدرة على الضلال ان لم تصلح للاهتداء فالاضلال من الله تعالى وان صلحت له لم يترجح مصدريتها للاضلال على مصدريتها للاهتداء الا لمرجح من الله تعالى وعند ذلك يعود السؤال وأما ظاهر هذه الآية فهو وان كان لهم لكنه معارض بسائر الظواهر المطابقة لقولنا (المسئلة الرابعة) ظاهر الآية يدل على أن هذا السؤال من الله تعالى وان احتمل أن يكون ذلك من الملائكة بأمر الله تعالى * بقى على الآية سؤالات (الاول) ما فائدة التهم وهم وهلا قيل أأضللتم عبادى هؤلاء أم ضلوا السبيل الجواب ليس السؤال عن الفعل ووجوده لانه اولا وجوده لما توجه هذا العتاب وانما هو عن فاعله فلا بد من ذكره وايلائه حرف الاستفهام حتى يعلم أنه المسؤل عنه (السؤال الثانى) انه سبحانه كان عالما فى الازل بحال المسؤل عنه فما فائدة هذا السؤال الجواب هذا استفهام على سبيل التقريع للمشركين كما قال لعيسى أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله ولان أولئك المعبودين لما برؤا أنفسهم وأحالوا ذلك الضلال عليهم صار تبرؤ المعبودين عنهم أشد فى حسرتهم وحيرتهم (السؤال الثالث) قال تعالى أم هم ضلوا السبيل والقياس ان يقال ضل عن السبيل الجواب الاصل ذلك الا أن الانسان اذا كان متناهيا فى التفريط وقلة الاحتياط يقال ضل السبيل أما قوله سبحانك فاعلم انه سبحانه حكى جوابهم وفى قوله سبحانك وجوه أحدها أنه تعجب منهم فقد تعجبوا مما قيل لهم لانهم ملائكة لا وانبياء معصومون فأبعدهم عن الاضلال الذى هو مختص بابليس وحزبه وثانيها انهم لما نطقوا بسبحانك ليدلوا على انهم المسبحون المقدسون المؤمنون بذلك فكيف يليق بحالهم لهم ان يضلوا عباده وثالثها قصدوا به تنزيهه عن الانداد سواء كان وثنا أو نبيا أو ملكا ورابعها قصدوا تنزيهه ان يكون مقصوده من هذا السؤال استفادة علم أو ايذاء من كان بريئا عن الجرم بل انه انما سألهم تقريعا للكفار وتوبيخا لهم اما قوله ماكان ينبغى لنا ان نتخذ من دونك من أولياء ففيه مسائل (المسئلة الاولى) القراءة المعروفة ان نتخذ بفتح النون وكسر الخاء وعن أبى جعفر وابن عامر برفع النون وفتح الخاء على مالم يسم فاعله قال الزجاج اخطأ من قرأ ان نتخذ بضم النون لان من انما تدخل فى هذا الباب فى الاسماء اذا كانت مفعولا أولا ولا تدخل على مفعول الحال تقول ما اتخذت من أحد وليا ولا يجوز ما اتخذت أحدا من ولى قال صاحب الكشاف اتخذ يتعدى الى مفعول واحد كقولك اتخذ وليا والى مفعولين كقولك اتخذ فلانا وليا قال الله تعالى واتخذ الله ابراهيم

لاة والسلام هو الفائز الرذى أثير بمغانم الوعد الكريم مالا يخفى (و يوم يحشرهم) نصب على أنه مفعول لمضمر مقدم
وف على قوله تعالى قل أذلك الخ أى والذكر لهم بعد التقريع والتحسير يوم يحشرهم الله عز وجل

يلا والقراءة الاولى من المتعدى الى واحد وهو من أولياء والاصل ان تتخذ أولياء
يدت من لتأكيد معنى النفى والثانية من المتعدى الى مفعولين فالاول ما بنى له الفعل
الثانى من أولياء من للتبعيض أى لا تتخذ بعضنا أولياء وتنكير اولياء من حيث انهم
ولياء مخصوصون وهم الجن والاصنام (المسئلة الثانية) ذكروا فى تفسير هذه الآية
وجوها أولها وهو الاصح الاقوى ان المعنى اذا كنا لا نرى أن نتخذ من دونك أولياء
فكيف ندعو غيرنا الى ذلك وثانيها ما كان ينبغى لنا أن نكون أمثال الشياطين فى توليهم
الكفار كما يوليهم الكفار قال تعالى فقاتلوا أولياء الشيطان يريد الكفرة وقال والذين
كفروا اولياؤهم الطاغوت عن أبى مسلم وثالثها ما كان لنا أن نتخذ من دون رضاك من
أولياء أى لما علمنا أنك لا ترضى بهذا ما فعلناه والحاصل انه حذف المضاف واقيم المضاف
اليه مقامه ورابعها قالت الملائكة انهم عبيدك فلا ينبغى لعبيدك أن يتخذوا من دون
لك وليا ولا حبيبا فضلا عن أن يتخذ عبد عبدا آخر الها لنفسه وخامسها أن على قراءة أبى
جعفر الاشكال زائل فان قيل هذه القراءة غير جائزة لانه لا مدخل لهم فى أن يتخذهم غيرهم
أولياء قلنا المراد انا لا نصلح لذلك فكيف ندعوهم الى عبادتنا وسادسها ان هذا قول
الاصنام وانها قالت لا يصح منا أن نكون من العابدين فكيف يمكننا ادعاؤنا أنا من
المعبودين (المسئلة الثالثة) الآية تدل على انه لا تجوز الولاية والعداوة الا باذن الله
فكل ولاية مبنية على ميل النفس ونصيب الطبع فذاك على خلاف الشرع * اما قوله
تعالى ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا) ففيه مسائل (المسئلة
الاولى) معنى الآية انك يا الهنا أكثرت عليهم وعلى آبائهم من النعم وهى توجب الشكر
والايمان لا الاعراض والكفران والمقصود من ذلك بيان أنهم ضلوا من عند انفسهم
لا باضلالنا فانه لولا عنادهم الظاهر والانهماك ظهور هذه الحجة لا يمكن الاعراض عن طاعة
الله تعالى وقال آخرون ان هذا الكلام كالرمز فيما صرح به موسى عليه السلام فى قوله
ان هى الا فتنتك وذلك لان المجيب قال الهى انت الذى أعطيته جميع مطالبه من الدنيا
حتى صار كالغريق فى بحر الشهوات واستغراقه فيها صار صادا له عن التوجه الى طاعتك
والاشتغال بخدمتك فان هى الا فتنتك (المسئلة الثانية) الذكر ذكر الله والايمان به
والقرآن والشرائع أو ما فيه حسن ذكرهم فى الدنيا والآخرة (المسئلة الثالثة) قال أبو
عبيدة يقال رجل بور و رجلان بور و رجال كذلك الانثى ومعناه هالك وقد يقال
رجل بائر وقوم بور وهو مثل هائر وهو ر والبوار الهلاك وقد احتج أصحابنا بهذه الآية
مسئلة القضاء والقدر ولا شك ان المراد منه وكانوا من الذين حكم عليهم فى الآخرة
عذاب والهلاك فالذى حكم الله عليه بعذاب الآخرة وعلم ذلك وأثبته فى اللوح
محفوظ وأطلع الملائكة عليه لو صار مؤمنا لصار الخبر الصدق كذبا ولصار العلم جهلا
وجود ذلك الكتابة المثبتة فى اللوح المحفوظ باطلة ولصار اعتقاد الملائكة جهلا وكل ذلك
كون

وتعليق التذكير باليوم مع ان المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث الهائلة قدمر وجهه غير مرة أو على أنه ظرف لمضمر مؤخر قد حذف للتنبيه على كمال هوله وفظاعة ما فيه والايذان بقصور العبارة عن بيانه أى يوم يحشرهم يكون من الاحوال والاهوال ما لا يفى ببيانه المقال وقرئ بنون العظمة بطريق الالتفات من الغيبة الى التكلم وبكسر الشين أيضا (وما يعبدون من دون الله) أريد به ما يعم العقلاء وغيرهم اما لان كلمة ما موضوعة للكل كما ينبئ عنه أنك اذا رأيت شبحا من بعيد تقول ما هو أو لانه أريد به الوصف لا الذات كأنه قيل ومعبوديهم أو لتغليب الاصنام على غيرها تنبيها على أنهم مثلها فى السقوط عن رتبة المعبودية أو اعتبارا لغلبة عبدتها أو أريد به الملائكة والمسيح وعزير بقرينة السؤال والجواب أو الاصنام ينطقها الله

كلم بلسان الحال كما قيل فى شهادة الايدى والارجل (فيقول) أى الله عز وجل للمعبودين اثر حشر الكل تقريعا
م الـ تبكيتا لهم وقرئ بالنون كما عطف عليه وقرئ هذا بالياء

والاول بالنون على طريق الالتفات الى الغيبة (أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء) بان دعوتموهم الى عبادتكم كما فى قوله تعالى أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله (أم هم ضلوا السبيل) أى عن السبيل بأنفسهم لاخلالهم بالنظر الصحيح واعراضهم عن المرشد فحذف الجار وأوصل الفعل الى المفعول كقوله تعالى وهو يهدى السبيل والاصل الى السبيل أو للسبيل وتقديم الضميرين على الفعلين لان المقصود بالسؤال هو المتصدى للفعل لانفسه (قالوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية السؤال كأنه قيل فاذا قالوا فى الجواب فقيل قالوا (سبحانك) تعجبا مما قيل لهم لانهم اما ملائكة معصومون أو جمادات لاقدرة لها على شئ أو اشعارا بأنهم الموسومون بتسبيحه تعالى وتوحيده فكيف يتأتى منهم اضلال عباده أو تنزيها له تعالى عن الانداد (ما كان ينبغى لنا) أى ما صح وما استقام لنا (أن نتخذ من دونك) أى متجاوزين اياك (من أولياء) نعبدهم لما بنا من الحالة المنافية له فانى يتصور ان نحمل غيرنا على أن يتخذ وليا غيرك فضلا أن يتخذنا وليا أو أن نتخذ من دونك أولياء أى أتباعا فان الولى كما يطلق على المتبوع يطلق على التابع كالمولى ﴿ الثواب يطلق على الاسفل ومنه أولياء الشياطين أى أتباعه وقرئ على

محال ومستلزم المحال محال فصدور الايمان منه محال فدل على أن السعيد لا يمكنه أن ينقلب شقيا والشقى لا يمكنه أن ينقلب سعيدا ومن وجه آخر وهو انهم ذكروا ان الله تعالى آتاهم اسباب الضلال وهو اعطاء المرادات فى الدنيا واستغراق النفس فيها ودلت الآية على أن ذلك السبب بلغ مبلغا يوجب البوار فان ذكر البوار عقيب ذلك السبب يدل على أن البوار انما حصل لاجل ذلك السبب فرجع حاصل الكلام الى انه تعالى فعل بالكافر ما صار معه بحيث لا يمكنه ترك الكفر وحينئذ ظهر أن السعيد لا ينقلب شقيا وان الشقى لا ينقلب سعيدا ﴿ اما قوله تعالى فقد كذبوكم بما تقولون فاعلم انه قرئ يقولون بالياء والتاء فعنى من قرأ بالتاء فقد كذبوكم بقولكم انهم آلهة أى كذبوكم فى قولكم انهم آلهة ومن قرأ بالياء المنقوطة من تحت فالمعنى أنهم كذبوكم بقولكم سبحانك ومثاله قولك كتبت بالقلم ﴿ ان قوله فما يستطعون صرفا ولا نصرا فاعلم انه قرئ يستطيعون بالياء والتاء أيضا يعنى فما تستطيعون أنتم يا أيها الكفار صرف العذب عنكم وقيل الصرف التوبة وقيل الحيلة من قولهم انه ليتصرف أى يحتال أو فما تستطيع آلهتكم أن يصرفوا عنكم العذاب وان يحتالوا لكم ﴿ أما قوله تعالى ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا ففيه مسئلتان (المسئلة الاولى) قرئ يذقه بالياء وفيه ضمير الله تعالى أو ضمير الظلم (المسئلة الثانية) أن المعتزلة تمسكوا بهذه الآية فى القطع بوعيد اهل الكبائر وقالوا ثبت أن من للعموم فى معرض الشرط وثبت أن الكافر ظالم لقوله ان الشرك لظلم عظيم والفاسق ظالم لقوله ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون فثبت بهذه الآية أن الفاسق لا يعفى عنه بل يعذب لا محالة والجواب انا لا نسلم ان كلمة من فى معرض الشرط للعموم والكلام فيه مذكور فى أصول الفقه سلمنا انه للعموم ولكن قطعا أم ظاهرا ودعوى القطع ممنوعة فانا نرى فى العرف العام المشهور استعمال صيغ العموم مع أن المراد هو الاكثر أو لان المراد أقوام معينون والدليل عليه قوله تعالى ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ثم ان كثيرا من الذين كفروا قد آمنوا فلا بد فيه الا أن يقال قوله الذين كفروا وان كان يفيد العموم لكن المراد منه الغالب أو المراد منه أقوام مخصوصون وعلى التقديرين ثبت أن استعمال الفاظ العموم فى الاغلب عرف ظاهر واذا كان كذلك كانت دلالة هذه الصيغ على العموم دلالة ظاهرة لا قاطعة وذلك لا ينفى تجويز العفو سلمنا دلالته قطعا ولكنا أجمعنا على أن قوله ومن يظلم منكم مشروط بأن لا يوجد ما يزيله وعند هذا نقول هذا مسلم لكن لم قلت بأن لم يوجد ما يزيله فان العفو عندنا أحد الامور التى تزيله وذلك هو أحد الثلاثة أول المسئلة سلمنا دلالته على ما قال ولكنه معارض بآيات الوعد كقوله ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا فان قيل آيات الوعيد أولى لان السارق يقطع على سبيل التنكيل ومن لم يكن مستحقا للعقاب لا يجوز قطع يده على سبيل التنكيل فاذا ثبت انه مستحق للعقاب ثبت أن استحقاق

البناء للمفعول من المتعدى الى مفعولين كما فى قوله تعالى واتخذ الله ابراهيم خليلا ومفعوله الثانى من أولياء على أن من للتبعيض أى أن تتخذ بعض أولياء وهى على الاول مزيدة وتنكير أولياء من حيث انهم أولياء مخصوصون وهم الجن والاصنام (ولكن متعتهم وآباءهم) استدراك مسوق لبيان أنهم هم الضالون بعد بيان تنزههم عن اضلالهم وقدنعى عليهم سوء صنيعهم حيث جعلوا أسباب الهداية أسبابا للضلالة أى ما أضللناهم ولكنك متعتهم وآباءهم بانواع النعم ليعرفوا حقها ويشكروها فاستغرقوا فى الشهوات وانهمكوا فيها (حتى نسوا الذكر) أى غفلوا عن ذكرك أو عن التذكر فى الآئك والتدبر فى آياتك فجعلوا أسباب الهداية بسوء اختيارهم ذريعة الى الغواية (وكانوا) أى فى قضائك المبنى على علمك الازلى المتعلق بما سيصدر عنهم فيما لا يزال باختيارهم من الاعمال السيئة (قوما بورا) أى هالكين على أن بورا مصدر وصف به الفاعل مبالغة ولذلك يستوى فيه الواحد والجمع أو جمع بائر كعوذ فى جمع عائذ والجملة اعتراض

الثواب أحبط لما بينا أن الجمع بين الاستحقاقين محال قلنا لانسلم أن السارق يقطع على سبيل التنكيل الا ترى انه لو تاب فانه يقطع لا على سبيل التنكيل بل على سبيل المحنة نزلنا عن هذه المقامات ولكن قوله تعالى ومن يظلم منكم انه خطاب مع قوم مخصوصين معينين فهب انه لا يعفو عنهم فلم قلت انه لا يعفو عن غيرهم اما قوله تعالى وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق فيه مسائل (المسئلة الاولى) هذا جواب عن قولهم اما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق بين الله تعالى ان هذه عادة مستمرة من الله فى كل رسله فلا وجه لهذا الطعن (المسئلة الثانية) حق الكلام ان يقال الا أنهم بفتح الالف لانه متوسط والمكسورة لا تليق الا بالابتداء فلاجل هذا ذكروا وجوها احدها قال الزجاج الجملة بعد الا صفة لموصوف محذوف والمعنى وما أرسلنا قبلك أحدا من المرسلين الا آكلين وماشين وانما حذف لان فى قوله من المرسلين دليلا عليه ونظيره قوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم على معنى وما منا أحد وثانيها قال الفراء انها صلة لاسم متروك اكتفى بقوله من المرسلين عنه والمعنى الا من أنهم كقوله وما منا الا له مقام معلوم أى من له مقام معلوم وكذلك قوله وان منكم الا واردها أى الا من يردها فعلى قول الزجاج الموصوف محذوف وعلى قول الفراء الموصول هو المحذوف ولا يجوز حذف الموصول وتبقية الصلة عند البصريين وثالثها قال ابن الانبارى تكسران بعد الاستثناء باضمار واو على تقدير الا وانهم ورابعها قال بعضهم المعنى الا قيل انهم (المسئلة الثالثة) قرئ يمشون على البناء للمفعول أى يمشيهم حوائجهم أو الناس ولو قرئ يمشون لكان أوجه لولا الرواية اما قوله تعالى وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ففيه مسائل (المسئلة الاولى) فيه أقوال (أحدها) ان هذا فى رؤساء المشركين وفقراء الصحابة فاذا رأى الشريف الوضيع قد أسلم قبله أنف ان يسلم فأقام على كفره لئلا يكون الوضيع السابقة والفضل عليه ودليله قوله تعالى لو كان خيرا ما سبقونا اليه وهذا قول الكلبى والفراء والزجاج (وثانيها) ان هذا عام فى جميع الناس روى أبو الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ويل للعالم من الجاهل وويل للسلطان من الرعية وويل للرعية من السلطان وويل للمالك من المملوك وويل للشديد من الضعيف وللضعيف من الشديد بعضهم لبعض فتنة وقرأ هذه الآية (وثالثها) ان هذا فى أصحاب البلاء والعافية هذا يقول لم لم اجعل مثله فى الخلق والخلق وفى العقل وفى العلم وفى الرزق وفى الاجل وهذا قول ابن عباس والحسن (ورابعها) هذا احتجاج عليهم فى تخصيص محمد بالرسالة مع مساواته اياهم فى البشرية وصفاتها فابتلى المرسلين بالمرسل اليهم وانواع اذاهم على ما قال ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا اذى كثيرا والمرسل اليهم يتأذون أيضا من المرسل بسبب الحسد وصيرورته مكلفا بالخدمة وبذل النفس والمال بعد أن كان رئيسا مخدوما والاولى حمل الآية على الكل لان بين

بلى مقرر لمضمون ما قبله وقوله تعالى (فقد كذبوكم) حكاية لاحتجاجه تعالى على العبدة بطريق تلوين الخطاب وصرفه عن المعبودين عند تمام

جوابهم وتوجيهه الى العبدة مبالغة فى تقريعهم وتبكيتهم على تقدير قول مرتب على الجواب أى فقال الله تعالى عند ذلك فقد كذبوكم المعبودون أيها الكفرة ﴿ ٤٦٢ ﴾ (بما تقولون) أى فى قولكم انهم آلهة وقيل فى قولكم هؤلاء أضلونا وبأباه أن تكذيبهم فى هذا القول لا تعلق له بما بعده من عدم استطاعتهم للصرف والنصر أصلا وانما الذى يستتبعه تكذيبهم فى زعمهم أنهم آلهتهم وناصروهم وأيا ما كان فالباء بمعنى فى أو هى صلة للتكذيب على أن الجار والمجرور بدل اشتمال من الضمير المنصوب وقرئ بالياء أى كذبوكم بقولهم سبحانك الآية (فما تستطيعون) أى ما تملكون (صرفا) أى دفعا للعذاب عنكم بوجه من الوجوه كما يعرب عنه التنكير أى لا بالذات ولا بالواسطة وقيل حيلة من قولهم انه ليتصرف فى أموره أى يحتال فيها وقيل توبة (ولا نصرا) أى فردا من أفراد النصر لا من جهة أنفسكم ولا من جهة غيركم والفاء لترتيب عدم الاستطاعة على ما قبلها من التكذيب لكن لا على معنى أنه لولاه لوجدت الاستطاعة حقيقة بل فى زعمهم حيث كانوا يزعمون أنهم يدفعون عنهم العذاب وينصرونهم وفيه ضرب تهكم بهم ﴿ ولا ﴾

وقرئ يستطيعون على صيغة الغيبة أى ما يستطيع آلهتكم

الجميع قدرا مشتركا (المسئلة الثانية) قال اصحابنا الآية تدل على القضاء والقدر لانه تعالى قال وجعلنا بعضكم لبعض فتنة قال الجبائى هذا الجعل هو بمعنى التعريف كما يقال فيمن سرق ان فلانا لص جعله لصا وهذا التأويل ضعيف لانه تعالى أضاف الجعل الى وصف كونه فتنة لا الى الحكم بكونه كذلك بل العقل يدل على أن المراد غير ما ذكره وذلك لان فاعل السبب فاعل للمسبب فمن خلقه الله تعالى على مزاج الصفراء والحرارة وخلق الغضب فيه ثم خلق فيه الادراك الذى يطلعه على الشئ المغضب فمن فعل هذا المجموع كان هو الفاعل للغضب لا محالة وكذا القول فى الحسد وسائر الاخلاق والافعال وعند هذا يظهر أنه سبحانه هو الذى جعل البعض فتنة للبعض سلمنا ان المراد ما قاله الجبائى ان المراد من الجعل هو الحكم ولكن المجعول ان انقلب لزم من انقلابه انقلاب حكم الله تعالى من الصدق الى الكذب وذلك محال فانقلاب ذلك الجعل محال فانقلاب المجعول أيضا محال وعند ذلك يظهر القول بالقضاء والقدر (المسئلة الثالثة) الوجه فى تعلق هذه الآية بما قبلها ان القوم لما طعنوا فى الرسول صلى الله عليه وسلم بانه يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق وبأنه فقير كانت هذه الكلمات جارية مجرى الخرافات فانه لما قامت الدلالة على النبوة لم يكن لشئ من هذه الاشياء أثر فى القدح فيها فكان النبى صلى الله عليه وسلم يتأذى منهم من حيث انهم كانوا يستهزئونه ومن حيث انهم كانوا يذكرون الكلام المعوج الفاسد وما كانوا يفهمون الجواب الجيد فلاجرم صبره الله تعالى على كل تلك الاذية وبين انه جعل الخلق بعضهم فتنة للبعض ✲ أما قوله تعالى أتصبرون وكان ربك بصيرا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) قالت المعتزلة لو كان المراد من قوله وجعلنا بعضكم لبعض فتنة الخبر لما ذكر عقيبه أتصبرون لان أمر العاجز غير جائز (المسئلة الثانية) المعنى أتصبرون على البلاء فقد علمتم ما وعد الله الصابرين وكان ربك بصيرا أى هو العالم بمن يصبر ومن لا يصبر فيجازى كلا منهم بما يستحقه من ثواب وعقاب (المسئلة الثالثة) قوله أتصبرون استفهام والمراد منه التقرير وموقعه بعد ذكر الفتنة موقع ايكم بعد الابتلاء فى قوله ليبلوكم أيكم أحسن عملا ✲ قوله تعالى (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا) اعلم أن قوله تعالى وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا هو الشبهة الرابعة لمنكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وحاصلها لم لم ينزل الله الملائكة حتى يشهدوا أن محمدا محق فى دعواه أو نرى ربنا حتى يخبرنا بأنه أرسله الينا وتقرير هذه الشبهة أن من أراد تحصيل شئ وكان له الى تحصيله طريقان أحدهما يفضى اليه قطعا والآخر قد يفضى وقد لا يفضى فالحكيم يجب عليه فى حكمته ان يختار فى تحصيل ذلك المقصود الطريق الاقوى والاحسن

أن يصرفوا عنكم العذاب أو يحتالوا لكم ولأن ينصروكم وترتب مابعد الفاء على ماقبلها كما مر بيانه (ومن يظلم منكم) أيها المكافون كدأب هؤلاء حيث ركبوا متن المكابرة والعناد واستمروا على ماهم عليه من الفساد وتجاوزوا في اللجاج كل حد معتاد (نذقه) في الآخرة (عذابا كبيرا) لايقادر قدره وهو عذاب النار وقرئ يذقه على أن الضمير لله سبحانه وتعالى وقيل لمصدر الفعل الواقع شرطا وتعميم الظلم لايستلزم اشتراك الفاسق للكافر في اذاقة العذاب الكبير فان الشرط في اقتضاء الجزاء مقيد بعدم المزاحم وفاقا وهو التوبة والاحباط بالطاعة اجماعا وبالعفو عندنا (وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون في الاسواق) جواب عن قولهم مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الاسواق والجملة الواقعة بعد الا صفة لموصوف قد حذف ثقة بدلالة الجار والمجرور عليه وأقيمت هي مقامه كما في قوله تعالى وما منا الا له مقام معلوم والمعنى ما أرسلنا أحدا قبلك من المرسلين الا آكلين ماشين وقيل هي حال والتقدير الا وانهم ليأكلون الخ وقرئ يمشون على البناء للمفعول أي يمشيهم حوائجهم أو الناس

ولاشك أن انزال الملائكة ليشهدوا بصدق محمد صلى الله عليه وسلم أكثر افضاء الى المقصود فلو أراد الله تعالى تصديق محمد صلى الله عليه وسلم لفعل ذلك وحيث لم يفعل ذلك علمنا انه ما أراد تصديقه هذا حاصل الشبهة ثم ههنا مسائل (الاولى) قال الفراء قوله تعالى وقال الذين لايرجون لقاءنا معناه لايخافون لقاءنا ووضع الرجاء في موضع الخوف لغة تهامية اذا كان معه جحد ومثله قوله تعالى مالكم لاترجون لله وقارا أي لاتخافون له عظمة وقال القاضي لاوجه لذلك لان الكلام مبني أمكن حمله على الحقيقة لم يجز حمله على المجاز ومعلوم أن من حال عباد الاصنام انهم كما لايخافون العقاب لتكذيبهم بالمعاد فكذلك لايرجون لقاءنا ووعدنا على الطاعة من الجنة والثواب ومعلوم أن من لايرجو ذلك لايخاف العقاب أيضا فالخوف تابع لهذا الرجاء (المسئلة الثانية) المجسمة تمسكوا بقوله تعالى لقاءنا انه جسم وقالوا اللقاء هو الوصول يقال هذا الجسم لقي ذلك أي وصل اليه واتصل به وقال تعالى فالتقى الماء على أمر قد قدر فدلت الآية على انه سبحانه جسم والجواب على طريقين الاول طريق بعض أصحابنا قال المراد من اللقاء هو الرؤية وذلك لان الرائي يصل برؤيته الى حقيقة المرئي فسمي اللقاء أحد انواع الرؤية والنوع الآخر الاتصال والمماسة فدلت الآية من هذا الوجه على جواز الرؤية الطريق الثاني وهو كلام المعتزلة قال القاضي تفسير اللقاء برؤية البصر جهل باللغة فيقال في الدعاء لقاك الله الخير وقد يقول القائل لم ألق الامير وان رآه من بعد أو حجب عنه ويقال في الضرير لقي الامير اذا أذن له ولم يحجب وقد يلقاه في الليلة الظلماء ولا يراه بل المراد من اللقاء ههنا الوصير الى حكمه حيث لاحكم لغيره في يوم لاتملك نفس لنفس شيئا الا أنه رؤية البصر نعلم أن هذا الكلام ضعيف لانا لانفسر اللقاء برؤية البصر بل نفسره بمعنى مشترك بين رؤية البصر وبين الاتصال والمماسة وهو الوصول الى الشئ وقد بينا أن الرائي يصل رؤيته الى المرئي واللفظ بالموضوع لمعنى مشترك بين معان كثيرة ينطلق على كل واحد من تلك المعاني فيصح قوله لقاك الخير ويصح قول الاعمى لقيت الامير ويصح قول البصير لقيته بمعنى رأيته وما لقيته بمعنى ما وصلت اليه واذا ثبت هذا فنقول قوله وقال الذين لايرجون لقاءنا مذكور في معرض الذم لهم فوجب ان يكون رجاء اللقاء حاصلا ومسمى اللقاء مشترك بين الوصول المكاني وبين الوصول بالرؤية وقد تعذر الاول فتعين الثاني وقوله المراد من اللقاء الوصول الى حكمه صرف للفظ عن ظاهره بغير دليل فثبت دلالة الآية على صحة الرؤية بل على وجوبها بل على ان انكارها ليس الا من دين الكفار (المسئلة الثالثة) قوله لولا أنزل معناه هلا انزل قال الكلبي ومقاتل نزلت هذه الآية في أبي جهل والوليد وأصحابهم الذين كانوا منكرين للنبوة والبعث * اما قوله تعالى لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا فاعلم أن هذا هو الجواب عن تلك الشبهة وفيه مسائل (المسئلة الاولى) في تقرير كونه جوابا وذلك من وجوه (أحدها) أن القرآن لما

(وجعلنا بعضكم) تلوين للخطاب بتعميمه لسائر الرسل عليهم الصلاة والسلام بطريق التغليب والمراد بهذا البعض كفار الامم فان اختصاصهم بالرسل وتبعيتهم لهم مصحح لأن يعدوا بعضا منهم وبما فى قوله تعالى (لبعض) رسلهم لكن لا على معنى جعلنا مجموع البعض الاول (فتنة) أى ابتلاء ومحنة لمجموع البعض الثانى ولا على معنى جعلنا كل فرد من أفراد البعض الاول فتنة لكل فرد من أفراد البعض الثانى ولا على معنى جعلنا بعضا منهم من الاولين فتنة لبعض منهم من الآخرين ضرورة أن مجموع الرسل من حيث هو مجموع غير مفتون بمجموع الامم ولا كل فرد منهم بكل فرد من الامم ولا بعض مبهم من الاولين ببعض مبهم من الآخرين بل على معنى جعلنا كل بعض معين من الامم فتنة لبعض معين من الرسل كأنه قيل وجعلنا كل أمة مخصوصة من الامم الكافرة فتنة لرسولها المعين المبعوث اليها وانما لم يصرح بذلك تعويلا على شهادة الحال هذا وأما تعميم الخطاب لجميع المكلفين وابقاء البعضين على العموم والابهام على معنى وجعلنا بعضكم أيها الناس فتنة لبعض آخر منكم فيأباه قوله تعالى (أتصبرون) فانه غاية للجعل المذكور ومن البين أن ليس ابتلاء كل أحد من آحاد الناس مغيا بالصبر بل بما يناسب حاله على أن الاقتصار على ذكره من غير تعرض لمعادل له مما يدل على أن الكلام بحال المفتونين والمتوقع صدوره عنهم هو الصبر لا غير فلا بد أن يكون المراد بهم الرسل فيحصل به تسليته الصلاة والسلام فالمعنى جرت سنتنا بموجب حكمتنا على ابتلاء المرسلين بامتهم

ظهر كونه معجزا فقد ثبتت دلالة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فبعد ذلك يكون اقتراح امثال هذه الآيات لا يكون الا محض الاستكبار والتعنت (وثانيها) ان نزول الملائكة لو حصل لكان أيضا من جملة المعجزات ولا يدل على الصدق الخصوص كونه بنزول الملك بل لعموم كونه معجزا فيكون قبول ذلك المعجز ورد ذلك المعجز الآخر ترجيحا لاحد المثلين على الآخر من غير مزيد فائدة ومرجح وهو محض الاستكبار والتعنت (وثالثها) انهم بتقدير أن يروا الرب ويسألوه عن صدق محمد صلى الله عليه وسلم وهو سبحانه يقول نعم هو رسولى فذلك لا يزيد فى التصديق على اظهار المعجز على يد محمد صلى الله عليه وسلم لانا بينا أن المعجز يقوم مقام التصديق بالقول اذ لا فرق وقد ادعى النبوة بين أن يقول اللهم ان كنت صادقا فاحى هذا الميت فيحييه الله تعالى والعادة لم تجر بمثله وبين أن يقول له صدقت واذا كان التصديق الحاصل بالقول أو الحاصل بالمعجز سببين فى كونه تصديقا للمدعى كان تعيين أحدهما محض الاستكبار والتعنت (ورابعها) وهو انا نعتقد أن الله سبحانه وتعالى يفعل بحسب المصالح على ما يقوله المعتزلة أو نقول ان الله تعالى يفعل بحسب المشيئة على ما يقوله أصحابنا فان كان الاول لم يجز لهم أن يعينوا المعجز اذ ربما كان اظهار ذلك المعجز مشتملا على مفسدة لا يعرفها الا الله تعالى وكان التعيين استكبارا وعتوا من حيث انه لما ظنه مصلحة قطع بكونه مصلحة فمن قال ذلك فقد اعتقد فى نفسه انه عالم بكل المعلومات وذلك استكبار عظيم وان كان الثانى وهو قول اصحابنا فليس للعبد ان يقترح على ربه فانه سبحانه يفعل ما يريد فكان الاقتراح استكبارا وعتوا وخروجا عن حد العبودية الى مقام المنازعة والمعارضة وخامسها وهو أن المقصود من بعثة الانبياء الاحسان الى الخلق فالملك الكبير اذا أحسن الى بعض الضعفاء رحمة عليه فاخذ ذلك الضعيف الى اللجاج والنزاع ويقول لا أريد هذا بل أريد ذاك حسن أن يقال ان هذا المكدى قد استكبر فى نفسه وعتا عتوا شديدا من حيث لا يعرف قدر نفسه ومنتهى درجته فكذا ههنا وسادسها يمكن أن يكون المراد ان الله تعالى قال لو علمت أنهم ما ذكروا هذا السؤال لاجل الاستكبار والعتو الشديد لاعطيتهم مقترحهم ولكنى علمت انهم ذكروا هذا الاقتراح لاجل الاستكبار والتعنت فلو اعطيتهم مقترحهم لما انتفعوا فلاجرم لا أعطيهم ذلك وهذا التأويل يعرف من اللفظ (وسابعها) لعلهم سمعوا من أهل الكتاب ان الله تعالى لا يرى فى الدنيا وانه تعالى لا ينزل الملائكة فى الدنيا على عوام الخلق ثم حلفوا ايمانهم على ذلك على سبيل التعنت أو على سبيل الاستهزاء (المسئلة الثانية) قالت المعتزلة الآية دلت على أن الله تعالى لا تجوز رؤيته لان رؤيته لو كانت جائزة لكان سؤالها عتوا واستكبارا قالوا وقوله لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا ليس الا لاجل سؤال الرؤية حتى لو انهم اقتصروا على نزول الملائكة لما خوطبوا بذلك والدليل عليه ان الله تعالى ذكر أمر الرؤية فى آية أخرى على حدة وذكر الاستعظام و

و بمناصبتهم لهم العداوة وايذائهم لهم وأقاويلهم الخارجة من حدود الانصاف لنعلم صبركم وقوله تعالى (وكان ربك بصيرا) وعد كريم للرسول عليه الصلاة ﴿ ٤٦٥ ﴾ والسلام بالاجزال لصبره الجميل مع مزيد تشريف له

قوله ان نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وذكر نزول الملائكة على حدة فى آية أخرى فلم يذكر الاستعظام وهو قولهم لولا انزل علينا الملائكة وهل نرى الملائكة فثبت بهذا ان الاستكبار والعتو فى هذه الآية انما حصل لاجل سؤال الرؤية واعلم أن الكلام على ذلك قد تقدم فى سورة البقرة والذى نريده ههنا انا بينا ان قوله وقال الذين لا يرجون لقاءنا يدل على الرؤية واما الاستكبار والعتو فلا يمكن أن يدل ذلك على أن الرؤية مستحيلة لان من طلب شيئا محالا لا يقال انه عتا واستكبر ألا ترى انهم لما قالوا اجعل لنا آلها كما لهم آلهة لم يثبت لهم بطلب هذا المحال عتوا واستكبارا بل قال انكم قوم تجهلون بل العتو والاستكبار لا يثبت الا اذا طلب الانسان ما لا يليق به ممن فوقه أو كان لا يقابه ولكنه يطلبه على سبيل التعنت وبالجملة فقد ذكرنا وجوها كثيرة فى تحقيق معنى الاستكبار والعتو سواء كانت الرؤية ممتنعة أو ممكنة ومما يدل عليه ان موسى لما سأل الرؤية ما وصفه الله تعالى بالاستكبار والعتو لانه عليه السلام طلب الرؤية شوقا وهؤلاء طلبوها امتحانا وتعنتا لاجرم وصفهم بذلك فثبت فساد ما قاله المعتزلة (المسئلة الثالثة) قال قال فى أنفسهم لانهم أضمروا الاستكبار فى قلوبهم واعتقدوه كما قال ان فى صدورهم الا كبر ماهم ببالغيه وقوله وعتوا عتوا كبيرا أى تجاوزوا الحد فى الظلم يقال عتا فلان وقد وصف العتو بالكبر فبالغ فى افراطه يعنى انهم لم يجترؤا على هذا القول العظيم الا لانهم بلغوا غاية الاستكبار واقصى العتو أما قوله تعالى يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا فهو جواب لقولهم لولا انزل علينا الملائكة فبين تعالى ان الذى سألوه سيوجد ولكنهم يلقون منه ما يكرهون وههنا مسائل (المسئلة الاولى) ذكروا فى انتصاب يوم وجهين الاول أن العامل ما دل عليه لا بشرى أى يوم يرون الملائكة يمنعون البشرى ويومئذ للتكرير الثانى ان التقدير اذكر يوم يرون الملائكة (المسئلة الثانية) اختلفوا فى ذلك اليوم فقال ابن عباس يريد عند الموت وقال الباقون يريد يوم القيامة (المسئلة الثالثة) انما يقال للكافر لا بشرى لان الكافر وان كان ضالا مضلا الا انه يعتقد فى نفسه انه كان هاديا مهتديا فكان يطمع فى ذلك الثواب العظيم ولانهم ربما عملوا ما رجوا فيه النفع كنصرة المظلوم وعطية الفقير وصلة الرحم ولكنه أبطلها بكفره فبين سبحانه انهم فى اول الامر يشافهون بما يدل على نهاية اليأس والخيبة وذلك هو النهاية فى الايلام وهو المراد من قوله و بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون (المسئلة الرابعة) حق الكلام ان يقال يوم يرون الملائكة لا بشرى لهم لكنه قال لا بشرى للمجرمين وفيه وجهان أحدهما أنه ظاهر فى موضع ضمير والثانى انه عام فقد تناولهم وغيرهم قالت المعتزلة تدل الآية على القطع بوعيد الفساق وعدم العفو لان قوله لا بشرى للمجرمين نكرة فى سياق النفى فيعم جميع انواع البشرى فى جميع الاوقات بدليل ان من أراد تكذيب هذه القضية قال بل له بشرى فى الوقت الفلانى فلما كان ثبوت

عليه الصلاة والسلام بالالتفات الى اسم الرب مضافا الى ضميره صلى الله عليه وسلم (وقال الذين لا يرجون لقاءنا) شروع فى حكاية بعض آخر من أقاويلهم الباطلة وبيان بطلانها اثر ابطال اباطيلهم السابقة والجملة معطوفة على قوله تعالى وقالوا ما لهذا الرسول الخ ووضع الموصول موضع الضمير للتنبيه بما فى حيز الصلة على أن ما يحكى عنهم من الشفاعة بحيث لا يصدر عمن يعتقد المصير الى الله عز وجل ولقاء الشئ عبارة عن مصادفته من غير أن يمنع مانع من ادراكه بوجه من الوجوه والمراد بلقائه تعالى اما الرجوع اليه تعالى بالبعث والحشر أو لقاء حسابه تعالى كما فى قوله تعالى انى ظننت أنى ملاق حسابيه وبعدم رجائهم اياه عدم توقعهم له أصلا لانكارهم البعث والحساب بالكلية لا عدم أملهم حسن اللقاء ولا عدم خوفهم سوء اللقاء لان عدمهما غير

ستلزم لما هم عليه من العتو والاستكبار وانكار البعث والحساب رأسا اى وقال الذين لا يتوقعون رجوع الينا أو حسابنا المؤدى الى سوء العذاب

البشرى فى وقت من الاوقات يذكر لتكذيب هذه القضية علمنا أن قوله تعالى لا بشرى يقتضى نفى جميع أنواع البشرى فى كل الاوقات ثم انه سبحانه أكد هذا النفى بقوله حجرا محجورا والعفو من الله أعظم البشرى والخلاص من النار بعد دخولها من أعظم البشرى وشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم من أعظم البشرى فوجب أن لا يثبت ذلك لاحد من المجرمين والكلام على التمسك بصيغ العموم قد تقدم غير مرة قال المفسرون المراد بالمجرمين ههنا الكفار بدليل قوله انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة (المسئلة الخامسة) فى تفسير قوله حجرا محجورا ذكر سيبويه فى باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بافعال متروك اظهارها نحو معاذ الله وقعدك الله وعمرك الله وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو أو هجوم نازلة ونحو ذلك يضعونها موضع الاستعاذة قال سيبويه يقول الرجل للرجل يفعل كذا وكذا فيقول حجرا وهى من حجره اذا منعه لان المستعيذ طالب من الله أن يمنع المكروه فلا يلحقه فكان المعنى أسئل الله أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا ومجيئه على فعل أو فعل فى قراءة الحسن تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد فان قيل لم ثبت انه من باب المصادر فما معنى وصفه بكونه محجورا قلنا جاءت هذه الصفة لتأكيد معنى الحجر كما قالوا ذيل ذابل فالذيل الهوان وموت مائت وحرام محرم (المسئلة السادسة) اختلفوا فى ان الذين يقولون حجرا محجورا من هم على ثلاثة أقوال القول الاول انهم هم الكفار وذلك لانهم كانوا يظلمون نزول الملائكة ويقترحونه ثم اذا رأوهم عند الموت ويوم القيامة كرهوا لقاءهم وفروا منهم لانهم لا يلقونهم الا بما يكرهون فقالوا عند رؤيتهم ما كانوا يقولونه عند لقاء العدو ونزول الشدة القول الثانى أن القائلين هم الملائكة ومعناه حراما محرما عليكم الغفران والجنة والبشرى أى جعل الله ذلك حراما عليكم ثم اختلفوا على هذا القول فقال بعضهم ان الكفار اذا خرجوا من قبورهم قالت الحفظة لهم حجرا محجورا وقال الكلبى الملائكة على أبواب الجنة يبشرون المؤمنين بالجنة ويقولون للمشركين حجرا محجورا وقال عطية اذا كان يوم القيامة يلقى الملائكة المؤمنين بالبشرى فاذا رأى الكفار ذلك قالوا انهم يبشروننا فيقولون حجرا محجورا القول الثالث وهو قول الفقال والواحدى وروى عن الحسن ان الكفار يوم القيامة اذا شاهدوا ما يخافونه فيتعوذون منه ويقولون حجرا محجورا فتقول الملائكة لا يعيذ من شر هذا اليوم اما قوله تعالى وقدمنا فقد استدلت المجسمة بقوله وقدمنا الآية على أن القدوم لا يصح الا على الاجسام وجوابه انه لما قامت الدلالة على امتناع القدوم عليه لان القدوم حركة والموصوف بالحركة محدث ولذلك استدل الخليل عليه السلام بافول الكواكب على حدوثها وثبت ان الله عز وجل لا يجوز أن يكون محدثا فوجب تأويل لفظ القدوم وهو من وجوه أحدها وقدمنا الى ما عملوا من عمل أى وقصدنا الى أعمالهم فان القادم الى شئ قاصد له فالقصد هو المؤثر فى القدوم اليه واطلق المسبب

الذى تستوجبه مقالتهم (لولا أنزل علينا الملائكة) اى هلا أنزلوا علينا ليخبرونا بصدق محمد عليه الصلاة والسلام وقيل هلا أنزلوا علينا بطريق الرسالة وهو الانسب لقولهم ﴿ (أو نرى ربنا) من حيث ان كلا القولين ناشئ عن غاية غلوهم فى المكابرة والعتو حسبما يعرب عنه قوله تعالى (لقد استكبروا فى أنفسهم) أى فى شانها حتى اجترؤا على التفوه بمثل هذه العظيمة الشنعاء (وعتوا) اى تجاوزوا الحد فى الظلم والطغيان (عتوا كبيرا) بالغا أقصى غاياته حيث أملوا نيل مرتبة المفاوضة الالهية من غير توسط الرسول والملك كما قالوا ولا يكلمنا الله ولم يكتفوا بما عاينوا من المعجزات القاهرة التى تخرلها صم الجبال فذهبوا فى الاقتراح كل مذهب حتى منتهم أنفسهم الخبيثة أمانى لا تكاد تدنو اليها أحداق الامم ولا تمتد اليها أعناق الهمم ولا ينالها الا أولوا العزائم الماضية من الانبياء عليهم الصلاة والسلام واللام جواب قسم محذوف أى والله لقد استكبروا الآية وفيه من الدلالة على غاية قبح ما هم عليه والاشعار بالتعجب من استكبارهم وعتوهم ما لا يخفى (يوم يرون الملائكة) استئناف مسوق لبيان ما يلقونه عند مشاهدتهم لما اقترحوه من نزول الملائكة عليهم السلام بعد استعظامه وبيان كونه فى غاية ﴿ على ﴾ ما يكون من الشناعة وانما قيل

يوم يرون دون أن يقال يوم ينزل الملائكة ايذانا من أول الامر بان رؤيتهم ليست على طريق الاجابة الى ما اقترحوه بل على وجه آخر غير معهود و يوم منصوب على الظرفية بما يدل عليه قوله تعالى (لا بشرى يومئذ للمجرمين) فانه فى معنى لا يبشر يومئذ المجرمون والعدول الى نفى الجنس للمبالغة فى نفى البشرى وما قيل من انه بمعنى يمنعون البشرى أو بعد مونها تهويل للخطب فى مقام التهويل فان منع البشرى وفقدانها مشعران بأن هناك بشرى يمنعونها أو يفتقدونها وأين هذا من نفيها بالكلية وحيث كان نفيها كناية عن اثبات ضدها كما أن نفى المحبة فى مثل قوله تعالى و الله لا يحب الكافرين كناية عن البغض والمقت دل على ثبوت الندرى لهم على أبلغ وجه وأكده وقيل منصوب بفعل مقدر يؤكده بشرى على أن لا غير نافية للجنس وقيل منصوب على المفعولية بمضمر مقدم عليه أى اذكر يوم رؤيتهم الملائكة و يومئذ على كل حال تكرير للتاكيد والتهويل مع ما فيه من الايذان بأن تقديم الظرف للاهتمام لا لقصر نفى البشرى على ذلك

على السبب مجازا وثانيها المراد قدوم الملائكة الى موضع الحساب فى الآخرة ولما كانوا بأمره يقدمون جاز أن يقول وقدمنا على سبيل التوسع ونظيره قوله فلما آسفونا انتقمنا منهم وثالثها ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها فلما أبادالله أعمالهم وافسدها بالكلية صارت شبيهة بالمواضع التى يقدمها الملك فلاجرم قال وقدمنا اما قوله الى ما عملوا من عمل يعنى الاعمال التى اعتقدوها برا وظنوا انها تقربهم الى الله تعالى المعنى الى ما عملوا من أى عمل كان اما قوله فجعلناه هباء منثورا فالمراد أبطلناه وجعلناه بحيث لا يمكن الانتفاع به كالهباء المنثور الذى لا يمكن القبض عليه ونظيره قوله تعالى كسراب بقيعة وكرماد اشتدت به الريح وكعصف مأكول قال أبو عبيدة والزجاج الهباء مثل الغبار يدخل من الكوة مع ضوء الشمس وقال مقاتل انه الغبار الذى يستطير من حوافر الدواب اما قوله أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا فاعلم انه سبحانه لما بين حال الكفار فى الخسار الكلى والخيبة التامة شرع وصف أهل الجنة تنبيها على ان الحظ كل الحظ فى طاعة الله تعالى * وههنا سؤالات (الاول) كيف يكون أصحاب الجنة خيرا مستقرا من أهل النار ولا خير فى النار ولا يقال فى العسل هو أحلى من الخل (الجواب) من وجوه الاول ما تقدم فى قوله أذلك خير أم جنة الخلد والثانى يجوز أن يريد انهم فى غاية الخير لان مستقره خير من النار كقول الشاعر

ان الذى سمك السماء بنى لنا * بيتا دعائمه أعز وأطول

الثالث التفاضل الذى ذكر بين المنزلتين انما يرجع الى الموضع والموضع من حيث انه موضع لا شرف فيه الرابع هذا التفاضل واقع على هذا التقدير أى لو كان لهم مستقر فيه خير لكان مستقر أهل الجنة خيرا منه (السؤال الثانى) الآية دلت على أن مستقرهم غير مقيلهم فكيف ذلك والجواب من وجوه (الاول) ان المستقر مكان الاستقرار والمقيل زمان القيلولة فهذا اشارة الى انهم من المكان فى أحسن مكان ومن الزمان فى أطيب زمان (الثانى) ان مستقر أهل الجنة غير مقيلهم فانهم يقيلون فى الفردوس ثم يعودون الى مستقرهم (الثالث) أن بعد الفراغ من المحاسبة والذهاب الى الجنة يكون الوقت وقت القيلولة قال ابن مسعود لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة فى الجنة واهل النار فى النار وقرأ ابن مسعود ثم ان مقيلهم لالى الجحيم وقال سعيد بن جبير ان الله تعالى اذا أخذ فى فصل القضاء قضى بينهم بقدر ما بين صلاة الغداة الى انتصاف النهار فيقيل اهل الجنة فى الجنة وأهل النار فى النار وقال مقاتل يخفف الحساب على أهل الجنة حتى يكون بمقدار نصف يوم من أيام الدنيا ثم يقيلون من يومهم ذلك فى الجنة (السؤال الثالث) كيف يصح القيلولة فى الجنة والنار وعندكم ان أهل الجنة فى الآخرة لا ينامون وأهل النار أبدا فى عذاب يعرفونه وأهل الجنة فى نعيم يعرفونه والجواب قال الله تعالى ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا وليس فى الجنة بكرة وعشى لقوله تعالى لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ولانه اذا لم يكن

وقت فقط فان ذلك مخل بتفظيع حالهم وللمجرمين تبيين على أنه مظهر وضع موضع الضمير تسجيلا بالاجرام وما هم عليه من الكفر وحمله على العموم بحيث يتناول فساق

المؤمنين ثم الالتجاء فى اخراجهم عن الحرمان الكلى الى أن نفى البشرى حينئذ لا تستلزم نفيه فى جميع الاوقات فيجوز أن يبشروا بالعفو والشفاعة فى وقت آخر بمعزل عن الحق بعيد ﴿ ٤٦٨ ﴾ ﴿ (ويقولون) عطف على ماذكر من الفعل المنفى

هناك شمس لم يكن هناك نصف النهار ولا وقت القيلولة بل المراد منه بيان أن ذلك الموضع أطيب المواضع وأحسنها كما ان موضع القيلولة يكون أطيب المواضع والله أعلم ﴿ قوله تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتى ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا لقد أضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى وكان الشيطان للانسان خذولا) اعلم أن هذا الكلام مبنى على ما استدعوه من انزال الملائكة فبين سبحانه أنه يحصل ذلك فى يوم له صفات (الصفة الاولى) ان فى ذلك اليوم تشقق السماء بالغمام وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله اذا السماء انفطرت يدل على التشقق وقوله هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام يدل على الغمام فقوله تشقق السماء بالغمام جامع لمعنى الآيتين ونظيره قوله تعالى وفتحت السماء فكانت أبوابا وقوله فهى يومئذ واهية (المسئلة الثانية) قرأ أبو عمرو وأهل الكوفة بتخفيف الشين ههنا وفى سورة ق والباقون بالتشديد قال أبو عبيدة الاختيار التخفيف كما يخفف تساءلون ومن شدد فمعناه تتشقق (المسئلة الثالثة) قال الفراء المراد من قوله بالغمام أى عن الغمام لان السماء لا تتشقق بالغمام بل عن الغمام وقال القاضى لا يمتنع أن يجعل تعالى الغمام بحيث تشقق السماء باعتماده عليه وهو كنزول السماء منتظر به (المسئلة الرابعة) لا يبعد أن يكون لهذا التشقق تعلق بنزول الملائكة فقبل الملائكة فى أيام الانبياء عليهم السلام كانوا ينزلون من مواضع مخصوصة والسماء على انصالها ثم فى ذلك اليوم تتشقق السماء فاذا انشقت خرج من أن يكون حائلا بين الملائكة وبين الارض فتنزل الملائكة الى الارض (المسئلة الخامسة) قوله ونزل الملائكة صيغة عموم ويتناول الكل وان السماء مقر الملائكة فاذا تشققت وجب أن ينتقلوا الى الارض ثم تمثل منازل تشقق سماء الدنيا فينزل أهلها وهم أكثر من سكان الدنيا كذلك تتشقق سماء سماء ثم ينزل الكروبيون وحملة العرش ثم ينزل الرب تعالى وروى الضحاك عن ابن عباس قال تتشقق كل سماء وينزل سكانها فيحيطون بالعالم ويصيرون سبع صفوف حول العالم واعلم أن نزول الرب بالذات باطل قطعا لان النزول حركة والموصوف بالحركة محدث والاله لا يكون محدثا وأما نزول الملائكة الى الارض فعليه سؤال وذلك انه ثبت أن الارض بالقياس الى سماء الدنيا كحلقة فى فلاة فكيف بالقياس الى الكرسى والعرش فلائكة هذه المواضع باسرها كيف تتسع لهم الارض جميعا فلعل الله تعالى يزيد فى طول الارض وعرضها ويبلغها مبلغا يتسع لكل هؤلاء ومن المفسرين من قال الملائكة يكونون فى الغمام منه والله تعالى يسكن الغمام فوق أهل القيامة ويكون ذلك الغمام مقر الملائكة قال الحسن والغمام سترة بين السماء والارض تعرج الملائكة فيه بنسخ أعمال بنى آدم والمحاسبة تكون فى الارض (المسئلة السادسة) اما نزول الملائكة فظاهر ومعنى تنزيلا توكيد

المنبئ عن كمال فظاعة مايحيق بهم من الشر وغاية هول مطلعه ببيان أنهم يقولون عند مشاهدتهم له (حجرا محجورا) وهى كلمة يتكلمون بها عند لقاء عدو وموتور وهجوم نازلة هائلة يضعونها موضع الاستعاذة حيث يطلبون من الله تعالى أن يمنع المكروه فلا يلحقهم وكان المعنى نسأل الله تعالى أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجرا وكسر الحاء تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد كما فى قعدك وعمرك وقد جرى حجرا بالضم والمعنى أنهم يطلبون نزول الملائكة عليهم السلام ويقترحونه وهم اذا رأوهم كرهوا رؤيتهم أشد كراهة وفزعوا منهم فزعا شديدا وقالوا اما كانوا يقولونه عند نزول خطب شنيع وحلول بأس شديد فطبع ومحجورا صفة لحجرا واردة للتاكيد كما قالوا ذيل ذابل وليل أليل وقيل يقولها الملائكة اقناطا للكفرة يعنى حراما محرما عليكم الغفران أو الجنة أو البشرى أى جعل الله تعالى ذلك حراما عليكم وليس بواضح (وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) ﴿ للتنزيل ﴾ بيان لحال ما كانوا يعملونه فى الدنيا من صلة

للنزول ودلالة على اسراعهم فيه (المسئلة السابعة) الالف واللام فى الغمام ليس للعموم فهو للعهود والمراد ماذكروه فى قوله هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة (المسئلة الثامنة) قرئ ونزل الملائكة ونتزل الملائكة ونزل الملائكة ونزلت الملائكة ونزل الملائكة على حذف النون الذى هو غاء الفعل من نزل قراءة أهل مكة (الصفة الثانية لذلك اليوم) قوله الملك يومئذ الحق للرحمن قال الزجاج الحق صفة للملك وتقديره الملك الحق يومئذ للرحمن ويجوز الحق بالنصب على تقدير أعنى ولم يقرأ به ومعنى وصفه بكونه حقا انه لا يزول ولا يتغير فان قيل مثل هذا الملك لم يكن قط الا للرحمن فما الفائدة فى قوله يومئذ قلنا الان فى ذلك اليوم لا مالك سواه لا فى الصورة ولا فى المعنى فتخضع له الملوك وتعنو له الوجوه وتذل له الجبابرة بخلاف سائر الايام واعلم ان هذه الآية دالة على فساد قول المعتزلة فى أنه يجب على الله الثواب والعوض وذلك لانه لو وجب لاستحق الذم بتركه فكان مخافا من ان لا يفعل فلم يكن مالكا مطلقا وأيضا قوله الملك يومئذ للرحمن يفيد انه ليس لغيره ملك وذلك لا يتم على قول المعتزلة لان كل من استحق عليه شيئا فانه يكون مالكا له ولا يكون هو سبحانه مالكا لذلك المستحق ولانه سبحانه اذا استحق على أحد شيأ أمكنه أن يعفو عنه اما غيره اذا استحق عليه شيأ فانه لا يصح ابراؤه عنه فكانت العبودية ههنا أتم ولان من كفر بالله الى آخر عمره ثم فى آخر عمره عرف الله خضع ومات فهو سبحانه لو أعطاه ألف ألف سنة أنواع النعيم وارادبعد ذلك أن لا يعطيه لحظة واحدة صار سعيها وهذا نهاية العبودية والذل فكيف يليق بهذا حال ان يقال انه الملك يومئذ الحق للرحمن وأيضا كل من فعل فعلا اولم يفعله كان مستوجبا الذم وكان بذلك الفعل مكتسبا للكمال وبتركه مكتسبا للنقصان فلم يكن مالكا بل فقيرا مستحقا ثبت أن قوله سبحانه الملك يومئذ الحق للرحمن غير لائق باصول المعتزلة (الصفة الثالثة) قوله وكان يوما على الكافرين عسيرا فالمعنى ظاهر لانه تعالى عالم بالاحوال قادر على كل ما يريده وأما غيره فانه لكل فى بعض الاوقات عجز ولجام القهر وكان فى نهاية العسر على الكافر (الصفة الرابعة) قوله ويوم يعض الظالم على يديه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الالف واللام فى الظالم فيه قولان أحدهما انه للعموم والثانى أنه للمعهود والقائلون بالمعهود على قولين الاول قال ابن عباس المراد عقبة بن أبى معيط بن أمية بن عبد شمس كان لا يقدم من سفر الا صنع طعاما يدعوا اليه جيرانه من أهل مكة ويكثر مجالسة الرسول ويعجبه حديثه فصنع طعاما ودعا الرسول فقال صلى الله عليه وسلم ما آكل من طعامك حتى تأتى بالشهادتين ففعل فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم من طعامه فبلغ هذا أمية بن خلف فقال صبوت يا عقبة وكان خليله فقال انما ذكرت ذلك ليأكل من طعامى فقال لا أرضى أبدا حتى تاتيه فتبزق فى وجهه وتطأ على عنقه ففعل فقال عليه السلام لا القاك خارجا من مكة الا علوت رأسك بالسيف فنزل ويوم يعض الظالم على يديه ندامة يعنى عقبة يقول يا ليتنى لم أتخذ أمية خليلا

فقدم الى اشيائهم وقصد ماتحت أيديهم فانحى عليها بالافساد والتحريق ومزقها كل تمزيق بحيث لم يدع لها عينا ولا أثرا أى عمدنا اليها وأبطلناها أى أظهرنا بطلانها بالكلية من غير أن يكون هناك قدوم ولا شئ يقصد تشبيهه به والهباء شبه غبار يرى فى شعاع الشمس يطلع من الكوة من الهبوة وهى الغبار ومنثورا صفته شبه به أعمالهم المحبطة فى الحقارة وعدم الجدوى ثم بالمنثور منه فى الانتشار بحيث لا يمكن نظمه أو مفعول ثالث من حيث انه كالخبر بعد الخبر كما فى قوله تعالى كونوا قردة خاسئين (أصحاب الجنة) هم المؤمنون المشار اليهم فى قوله تعالى قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون الخ (يومئذ) أى يوم اذ يكون ماذكر من عدم التبشير وقولهم حجرا محجورا وجعل أعمالهم هباء منثورا (خير مستقرا) المستقر المكان الذى يستقر فيه فى أكثر الاوقات للتجالس والتحادث (وأحسن مقيلا) المقيل المكان الذى يؤوى اليه للاستراحة بالازواج والتمتع بمغازلتهن سمى بذلك لما أن التمتع به يكون وقت القيلولة غالبا وقيل

لانه يفرغ من الحساب فى منتصف ذلك اليوم فيقيل أهل الجنة فى الجنة واهل النار فى النار وفى وصفه بزيادة الحسن حصول الخيرية بعطفه على المستقر ومن الى أنه مزين بفنون ﴿ ٤٧٠ ﴾ الزين والزخارف والتفضيل المعتبر فيها

اما الارادة الزيادة على الاطلاق أى هم فى أقصى مايكون من خيرية المستقر وحسن المقيل واما بالاضافة الى مالكفرة المتنعمين فى الدنيا أوالى مالهم فى الآخرة بطريق التهكم بهم كما مر فى قوله تعالى قل أذلك خير الآية هذا وقد جوز أن يراد باحدهما المصدر أو الزمان اشارة الى أن مكانهم وزمانهم أطيب مايتخيل من الامكنة والازمنة (ويوم تشقق السماء) أى تتفتح واصله تتشقق فحذفت احدى التاءين كما فى تلظى وقرئ بادغام التاء فى الشين (بالغمام) بسبب طلوع الغمام منها وهو الغمام الذى ذكر فى قوله تعالى هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة قيل هو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة ولم يكن الا لبنى اسرائيل (ونزل الملائكة تنزيلا) أى تنزيلا عجيبا غير معهود قيل تنشق سماء و ينزل الملائكة خلال ذلك الغمام بصحائف أعمال العباد

لقد أضلنى عن الذكر أى صرفنى عن الذكر وهو القرآن والايمان بعد اذ جاءنى مع محمد عليه السلام فأسر عقبة يوم بدر فقتل صبرا ولم يقتل يومئذ من الاسارى غيره وغير النضر ابن الحرث الثانى قالت الرافضة هذا الظالم هو رجل بعينه وان المسلمين غيروا اسمه وكتموه وجعلوا فلانا بدلا من اسمه وذكروا فاضلين من أصحاب رسول الله واعلم ان اجراء اللفظ على العموم ليس لنفس اللفظ لانا بينا فى أصول الفقه أن الالف واللام اذا دخلا على الاسم المفرد لايفيد العموم بل انما يفيده للقرينة من حيث ان ترتيب الحكم على الوصف مشعر بعلية الوصف فدل ذلك على ان المؤثر فى الحض على اليدين كونه ظالما وحينئذ يعم الحكم لعموم علته وهذا القول أولى من التخصيص بصورة واحدة لان هذا الذى ذكرناه يقتضى العموم ونزوله فى واقعة أخرى خاصة لاينافى أن يكون المراد هو العموم حتى يدخل فيه تلك الصورة وغيرها ولان المقصود من الآية زجر الكل عن الظلم وذلك لايحصل الا بالعموم وأما قول الرافضة فذلك لايتم الا بالطعن فى القرآن واثبات النقصان فيه وبدن ولانزاع فى انه كفر (المسئلة الثانية) استدلت المعتزلة بقوله و يوم يعض الظالم على يديه قالوا الظالم يتناول الكافر والفاسق فدل على أن الله تعالى لايعفو عن صاحب الكبيرة والكلام عليه تقدم (المسئلة الثالثة) قوله يعض الظالم على يديه قال الضحاك يأكل يديه الى المرفق ثم تنبت فلا يزال هكذا كلما أكلها نبتت وقال أهل التحقيق هذه اللفظة مشعرة بالتحسر والندم يقال عض أنامله وعض على يديه (المسئلة الرابعة) كما بينا ان الظالم غير مخصوص بشخص واحد بل يعم جميع الظلمة فكذا المراد بقوله فلانا ليس شخصا واحدا بل كل من أطيع فى معصية الله واستشهد القفال بقوله وكان الكافر على ربه ظهيرا و يقول الكافر يالينتى كنت ترابا يعنى به جماعة الكفار (المسئلة الخامسة) قرئ يا ويلتى بالياء وهو الاصل لان الرجل ينادى و يلته وهى هلكته يقول لها تعالى فهذا أوانك وانما قلبت الياء ألفا كما فى صحارى وعذارى (المسئلة السادسة) قوله عن الذكر أى عن ذكر الله أو القرآن وموعظة الرسول و يجوز أن يريد نطقه بشهادة الحق وغيرته على الاسلام والشيطان اشارة الى خليله سماه شيطانا لانه أضله كما يضل الشيطان ثم خذله ولم ينفعه فى العاقبة أو أراد ابليس فانه هو الذى حمله على ذلك فصار خليلا لذلك المضل ومخالفة الرسول ثم خذله أو أراد الجنس وكل من تشيطن من الجن والانس و يحتمل أن يكون وكان الشيطان حكاية كلام الظالم وان يكون كلام الله ﴿ قوله تعالى ﴾ (وقال الرسول يارب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا) اعلم أن الكفار لما أكثروا من الاعتراضات الفاسدة ووجوه التعنت ضاق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم وشكاه الى الله تعالى وقال يارب ان قومى اتخذوا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) أكثر المفسرين انه قول واقع من الرسول صلى الله عليه وسلم وقال أبو مسلم بل المراد أن الرسول عليه

وقرئ ونزلت الملائكة ونتزل ونزل على صيغة المتكلم من الانزال والتنزيل ونزل الملائكة ﴿ السلام ﴾ وأنزل الملائكة ونزل

السلام يقول فى الآخرة وهو كقوله فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا والاول أولى لانه موافق للفظ ولان ماذكره الله تعالى من قوله وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم ولا يليق الا اذا كان وقع ذلك القول منه (المسئلة الثانية) ذكروا فى المهجور قولين الاول انه من الهجران أى تركوا الايمان به ولم يقبلوه وأعرضوا عن استماعه الثانى انه من أهجر أى مهجورا فيه ثم حذف الجار ويؤكده قوله تعالى مستكبرين به سامرا تهجرون ثم هجرهم فيه انهم كانوا يقولون انه سحر وشعر وكذب وهجر أى هذيان وروى أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال من تعلم القرآن وعلق مصحفا لم يتعهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيمة متعلقا به يقول رب العالمين عبدك هذا اتخذنى مهجورا اقض بينى وبينه ثم انه تعالى قال مسليا رسوله عليه الصلاة والسلام ومعزيا له وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين بين بذلك له أسوة بسائر الرسل فليصبر على مايلقاه من قومه كما صبروا ثم فيه مسائل (المسئلة الاولى) احتج أصحابنا بهذه الآية على انه تعالى خالق الخير والشر لان قوله تعالى جعلنا لكل نبي عدوا يدل على أن تلك العداوة من جعل الله ولاشك أن تلك العداوة كفر قال الجبائى المراد من الجعل التبيين فانه تعالى لما بين انهم اعداؤه جاز أن يقول جعلناهم اعداءه كما اذا بين الرجل ان فلانا لص يقال جعله لصا كما يقال فى الحاكم عدل فلانا وفسق فلانا وجرحه قال الكعبى انه تعالى لما أمر الانبياء بعداوة الكفار وعداوتهم الكفار تقتضى عداوة الكفار لهم فلهذا جاز أن يقول وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين لانه سبحانه هو الذى حمله ودعاه الى ما استعقب تلك العداوة وقال أبو مسلم يحتمل فى العدو أنه البعيد لا القريب اذ المعاداة المباعدة كما أن النصر القرب والمظاهرة وقد جعل الله تعالى بين المؤمنين والكافرين والجواب عن الاول ان التبيين لا يسمونه البتة جعلا لان من بين لغيره وجود الصانع وقدمه لا يقال انه جعل الصانع وجعل قدمه والجواب عن الثانى أن الذى أمره الله تعالى به هل له تأثير فى وقوع العداوة فى قلوبهم أو ليس له تاثير فان كان الاول فقد تم الكلام لان عداوتهم للرسول صلى الله عليه وسلم كفر فاذا أمر الله الرسول بماله أثر فى تلك العداوة فقد أمره بماله اثر فى وقوع الكفر وان لم يكن فيه تاثير البتة كان منقطعا عنه بالكلية فيمتنع اسناده اليه وهذا هو الجواب عن قول أبى مسلم (المسئلة الثانية) لقائل أن يقول ان قول محمد عليه السلام يارب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا فى المعنى كقول نوح عليه السلام رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى الا فرارا وكأن المقصود من هذا انزال العذاب فكذا ههنا فكيف يليق هذا بمن وصفه الله بالرحمة فى قوله وما أرسلناك الا رحمة للعالمين جوابه ان نوحا عليه السلام لما ذكر ذلك دعا عليهم واما محمد عليه الصلاة والسلام فلما ذكر هذا دعا عليهم بل انتظر فلما قال تعالى وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين كان ذلك

والحق صفته وللرحمن خبره ويومئذ ظرف لثبوت الخبر للمبتدا وفائدة التقييد أن ثبوت الملك المذكور له تعالى خاصة يومئذ وأما فيما عداه من أيام الدنيا فيكون لغيره أيضا تصرف صورى فى الجملة وقيل الملك مبتدأ والحق خبره وللرحمن متعلق بالحق أو بمحذوف على التبيين أو بمحذوف هو صفة للحق ويومئذ معمول للملك وقيل الخبر يومئذ والحق نعت للملك وللرحمن على ماذكروا أياما كان فالجملة معناها عاملة فى الظرف أى ينفرد الله تعالى بالملك يوم تشقق وقيل الظرف منصوب بما ذكر فالجملة حينئذ استئناف مسوق لبيان أحواله وأهواله وايراده تعالى بعنوان الرحمانية للايذان بان اتصافه تعالى بغاية الرحمة لا يهون الخطب على الكفرة لعدم استحقاقهم للرحمة كما فى قوله تعالى يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم والمعنى ان الملك

فى يومئذ للرحمن (وكان) ذلك اليوم مع كون الملك فيه لله تعالى المبالغ فى الرحمة لعباده (يوما على الكافرين عسيرا) شديدا لهم وتقديم الجار والمجرور لمراعاة

الفواصل وأما للمؤمنين فيكون يسيرا بفضل الله تعالى وقد جاء في الحديث أنه يهون يوم القيامة على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا والجملة اعتراض تذييلي مقرر لما قبله (ويوم يعض الظالم على يديه) عض اليدين والانامل وأكل البنان وحرق الاسنان ونحوها كنايات عن الغيظ والحسرة لانها من روادفهما والمراد بالظالم اما عقبة ابن أبي معيط على ماقيل من انه كان يكثر مجالسة النبي صلى الله عليه وسلم فدعاه عليه الصلاة والسلام يوما الى ضيافته فابى عليه الصلاة والسلام أن يأكل من طعامه حتى ينطق بالشهادتين ففعل وكان أبي بن خلف صديقه فعاتبه فقال صبأت فقال لا ولكن أبى أن يأكل من طعامي وهو في بيتي فاستحييت منه فشهدت له فقال اني لا أرضى منك الا ان تأتيه فتطأ قفاه وتبزق في وجهه فاتاه فوجده ساجدا في دار الندوة ففعل ذلك فقال عليه الصلاة والسلام لا ألقاك خارجا من مكة الا علوت رأسك بالسيف فاسر يوم بدر فامر عليا رضي الله عنه فقتله وقيل قتله عاصم بن ثابت الانصاري وطعن عليه الصلاة والسلام أبيا يوم أحد في المبارزة فرجع الى مكة ومات واما جنس الظالم وهو داخل فيه دخولا أوليا وقوله تعالى (يقول الخ) حال من فاعل يعض وقوله تعالى (يالتني) الخ محكي به ويا اما لمجرد التنبيه من غير قصد الى تعيين المنبه أو المنادى محذوف أي يا هؤلاء ليتني (اتخذت مع الرسول سبيلا) أي طريقا واحدا منجيا من هذه الورطات وهو

كالامر له بالصبر على ذلك وترك الدعاء عليهم فظهر فرق (المسئلة الثالثة) قوله جعلنا صيغة العظماء والعظيم اذا ذكر نفسه بكل معرض من التعظيم وذكرانه يعطي فلا بد وان تكون تلك العطية عظيمة كقوله وانا آتيناك سبعا من المثاني وقوله انا أعطيناك الكوثر فكيف يليق بهذه الصيغة ان تكون تلك العطية هي العداوة التي هي منشأ الضرر في الدين والدنيا وجوابه ان خلق العداوة سبب لازدياد المشقة التي هي موجب لمزيد الثواب والله أعلم (المسئلة الرابعة) يجوز أن يكون العدو واحدا وجمعا كقوله فانهم عدو لي وبينا في التفسير أن عدو الرسول صلى الله عليه وسلم أبو جهل اما قوله وكفى بربك هاديا ونصيرا فالباء زائدة يعني كفى ربك وهاديا ونصيرا منصوبان على الحال هاديا الى مصالح الدين والدنيا ونصيرا على الاعداء وانظر يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين * قوله تعالى (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا) اعلم ان هذا هو الشبهة الخامسة لمنكري نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وهي أن مكذبيه قالوا ان كنت رسولا من عند الله فهلا أتيتنا بالقرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة جملة على موسى والانجيل على عيسى والزبور على داود وعن ابن جريج بين أوله وآخره ثنتان أو ثلاث وعشرون سنة وأجاب الله بقوله كذلك لنثبت به فؤادك والكاف تتعلق بما بعده وفي بيان هذا الجواب من وجوه أحدها انه عليه السلام لم يكن من أهل القراءة والكتابة فلو انزل عليه ذلك جملة واحدة كان لا يضبطه ويختار عليه غلطا وسهوا واما نزلت التوراة جملة لانها مكتوبة يقرؤها موسى وثانيها ان من كان الكتاب عنده قريبا اعتنى بالكتاب وتساهل في الحفظ فلهذا تعالى ما أعطاه الكتاب دفعة واحدة بل كان ينزل عليه وظيفة ليكون حفظه له أكمل فيكون أبعد له عن النسيان لوفرة التحصيل وثالثها انه تعالى لو أنزل الكتاب جملة واحدة على الخلق لنزلت الشرائع باسرها دفعة واحدة على الخلق فكان يثقل عليهم ذلك اما اذا نزل مفرقا منجما لا جرم نزلت التكاليف قليلا قليلا فكان تحملها أسهل ورابعها انه لو شاهد جبريل حالا بعد حال يقوى قلبه بمشاهدته فكان أقوى على أداء ما حمل وعلى المواظبة على عوارض النبوة وعلى احتمال أذية قومه وعلى الجهاد وخامسها انه لما تم شيء من الاعجاز فيه مع كونه منجما ثبت كونه معجزا فانه لو كان ذلك مقدورا للبشر لوجب أن يأتوا بمثله منجما مفرقا وسادسها كان القرآن ينزل بحسب أسئلتهم والوقائع الواقعة فكانوا يزدادون بصيرة لان بسبب ذلك كان ينضم الى الفصاحة الاخبار عن الغيوب وسابعها ان القرآن لما نزل منجما مفرقا وهو عليه السلام كان يتحداهم من أول الامر فكأنه تحداهم بكل واحد من نجوم القرآن فلما عجزوا عنه كان عجزهم عن معارضة الكل أولى فبهذا الطريق ثبت في فؤاده ان القوم عاجزون عن المعارضة لا محالة وثامنها

ريق الحق ولم تتشعب بى طرق الضلالة أو حصلت فى صحبته عليه الصلاة والسلام طريقا ولم أكن ضالا الا طريق لى قط
ويلتا) بقلب ياء المتكلم الفا كما فى صحارى ومدارى وقرئ على الاصل ياويلتى أى هلكتى تعالى واحضرى

السفارة بين الله تعالى وبين أنبيائه وتبليغ كلامه الى الخلق منصب عظيم فيحتمل أن
يقال انه تعالى لو أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم دفعة واحدة لبطل ذلك المنصب
على جبريل عليه السلام فلما أنزله مفرقا منجما بقى ذلك المنصب العالى عليه فلاجل ذلك
جعله الله سبحانه وتعالى مفرقا منجما اما قوله كذلك ففيه وجهان الاول انه من تمام كلام
المشركين أى جملة واحدة كذلك أى كالتوراة والانجيل وعلى هذا لايحتاج الى اضمار
فى الآية وهو ان يقول أنزلناه مفرقا لنثبت به فؤادك الثانى انه كلام الله تعالى ذكره
جوابا لهم أى كذلك أنزلناه مفرقا فان قيل ذلك فى كذلك يجب أن يكون اشارة الى شئ
تقدمه والذى تقدم فهو انزاله جملة فكيف فسر به كذلك أنزلناه مفرقا قلنا لان قولهم
لانزل عليه جملة واحدة معناه لم نزل مفرقا فذلك اشارة اليه اما قوله تعالى ورتلناه ترتيلا
فى الترتيل فى الكلام أن يأتى بعضه على أثر بعض على تؤدة وتمهل وأصل الترتيل فى
الاسنان وهو تفليجها يقال ثغر رتل ومرتل وهو ضد المتراص ثم انه سبحانه وتعالى لما بين
فساد قولهم بالجواب الواضح قال ولا يأتونك بمثل من الجنس الذى تقدم ذكره من
شبهات الاجتنالك بالحق الذى يدفع قولهم كما قال تعالى بل نقذف بالحق على الباطل
فيدمغه فاذا هو زاهق و بين أن الذى يأتى به أحسن تفسيرا لاجل مافيه من المزية فى
البيان والظهور ولما كان التفسير هو الكشف عما يدل عليه الكلام وضع موضع معناه
فقالوا تفسير هذا الكلام كيت وكيت كما قيل معناه كذا * أما قوله الذين
يحشرون على وجوههم الى جهنم ففيه مسائل (المسئلة الاولى) عن أبى هريرة عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم يحشر الناس على ثلثة أصناف صنف على الدواب وصنف
على الاقدام وصنف على الوجوه وعنه عليه السلام ان الذى أمشاهم على أرجلهم قادر
على أن يمشيهم على وجوههم (المسئلة الثانية) الاقرب أنه صفة للقوم الذين أوردوا هذه
الاسئلة على سبيل التعنت وان كان غيرهم من أهل النار يدخل معهم (المسئلة الثالثة)
قوله بعضهم على انهم يمشون فى الآخرة مقلوبين وجوههم الى القرار وأرجلهم الى فوق
روى ذلك عن الرسول صلى الله عليه وسلم وقال آخرون المراد انهم يحشرون ويسحبون
على وجوههم وهذا أيضا مروى عن الرسول عليه الصلاة والسلام وهو أولى وقال
بعض صوفية الدين تعلقت قلوبهم بما سوى الله فاذا ماتوا بقى ذلك التعلق فعبر عن تلك الحالة
بانهم يحشرون على وجوههم الى جهنم ثم بين تعالى انهم شر مكانا من أهل الجنة وأضل
سبيلا وطريقا والمقصود منه الزجر عن طريقهم والسؤال عليه كما ذكرناه على قوله أصحاب
الجنة يومئذ خير مستقرا وقد تقدم الجواب عنه واعلم أنه تعالى بعد أن تكلم فى التوحيد
وفى الانداد واثبات النبوة والجواب عن شبهات المنكرين لها وفى احوال القيامة شرع
فى ذكر القصص على السنة المعلومة (القصة الاولى) * قوله تعالى (ولقد آتينا موسى
الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيرا فقلنا اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا

فهذا أى هلكتى تعالى
واحضرى فهذا أوانك
(ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا)
يريد من أضله فى الدنيا
فان فلانا كناية عن
الاعلام كما أن الهن كناية
عن الاجناس وقيل
فلان كناية عن علم ذكور
من يعقل وفلانة عن علم
اناثهم وقيل فلانة كناية
عن نكرة من يعقل من
الذكور وفلانة عمن يعقل
من الاناث و الفلان
والفلانة من غير العاقل
ويختص فل بالنداء
الا فى ضرورة كما فى قوله
* فى لجة أمسك فلانا
عن فل * وقوله * خذا
حذرك انى عن فل وفلان
وليس فل مرخما من
فلان خلافا للفراء
واختلفوا فى لام فل
وفلان فقيل واو وقيل
ياء هذا ان أريد بالظالم
عقبة وفلان كناية عن
أبى وان أريد به الجنس
فهو كناية عن علم كل
من يضله كائنا من كان
من شياطين الانس
والجن وهذا التمنى منه
وان كان مسوقا لابراز
الندم والحسرة لكنه

ن لنوع تعلل واعتذار * ٦٠ * س لتوريك جنايته الى الغير وقوله تعالى (لقد أضلنى عن الذكر) تعليل
ه المذكور وتوضيح لتعلله وتصديره باللام القسمية للمبالغة فى بيان خطائه واظهار ندمه وحسرته أى والله لقد أضلنى
ذكر الله تعالى أو عن القرآن أو عن موعظة الرسول عليه الصلاة والسلام أو كلمة الشهادة (بعد اذ جاءنى) وتمكنت منه

وقوله تعالى (وكان الشيطان للانسان خذولا) أى مبالغا فى الخذلان حيث يواليه حتى يؤديه الى الهلاك ثم يتركه ولا ينفعه اعتراض مقرر لمضمون ماقبله امامن جهته تعالى ﴿ ٤٧٤ ﴾ اومن تمام كلام الظالم على أنه سمى خليله شيطانا بعد وصفه بالاضلال الذى هو أخص الاوصاف الشيطانية أوعلى أنه اراد بالشيطان ابليس لانه الذى حمله على مخالة الضالين ومخالفة الرسول الهادى عليه الصلاة والسلام بوسوسته واغوائه لكن وصفه بالخذلان يشعر بأنه كان يعده فى الدنيا ويمنيه بانه ينفعه فى الآخرة وهو أوفق بحال ابليس (وقال الرسول) عطف على قوله تعالى وقال الذين لا يرجون لقاءنا ومابينهما اعتراض مسوق لاستعظام ماقالوه وبيان مايحيق بهم فى الآخرة من الاهوال والخطوب وايراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة لتحقيق الحق والرد على نحورهم حيث كان ماحكى عنهم قدحا فى رسالته عليه الصلاة والسلام أى قالوا كيت وكيت وقال الرسول اثر ماشاهد منهم غاية العتو ونهاية الطغيان بطريق البث الى ربه عز وجل (يارب ان قومى) يعنى الذين حكى عنهم ماحكى من الشنائع (اتخذوا هذا القرآن) الذى من جملته هذه الآيات الناطقة ﴿ الرس ﴾ بما يحيق بهم فى الآخرة من فنون العقاب كما ينبئ عنه كلمة الاشارة (مهجورا) أى متروكا بالكلية ولم يؤمنوا به ولم يرفعوا اليه رأسا ولم يتأثروا بوصيده وفيه تلويح بان من حق المؤمن أن يكون كثير التعاهد

فدمرناهم تدميرا) اعلم أنه تعالى لما قال وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا أتبعه بذكر جماعة من الانبياء وعرفه بمانزل بمن كذب من أممهم فقال ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه اخاه هرون وزيرا والمعنى لست يا محمد باول من أرسلناه فكذب وآتيناه الآيات فرد فقد آتينا موسى التوراة وقوينا عضده بأخيه هرون ومع ذلك فقد رد وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كونه وزيرا لايمنع من كونه شريكا له فى النبوة فلا وجه لقول من قال فى قوله فقلنا اذهبا انه خطاب لموسى عليه السلام وحده بل يجرى مجرى قوله اذهبا الى فرعون انه طغى فان قيل ان كونه وزيرا كالمنافى لكونه شريكا بل يجب ان يقال انه لما صار شريكا خرج عن كونه وزيرا قلنا لامناقاة بين الصفتين لانه لايمتنع أن يشركه فى النبوة ويكون وزيرا وظهيرا ومعينا له (المسئلة الثانية) قال الزجاج الوزير فى اللغة الذى يرجع اليه ويتحصن برأيه والوزر مايعتصم به ومنه كلا لاوزر أى لامعتصم ولاملجأ قال القاضى ولذلك لايوصف تعالى بان له وزيرا ولايقال فيه أيضا بانه وزير لان الالتجاء اليه فى المشاورة والرأى على هذا الحد لايصح (المسئلة الثالثة) دمرناهم أهلكناهم اهلاكا فان قيل الفاء للتعقيب والاهلاك لم يحصل عقيب ذهاب موسى وهرون اليهم بل بعد مدة مديدة قلنا التعقيب محمول ههنا على الحكم لاعلى الوقوع وقيل انه تعالى أراد اختصار القصة فذكر حاشيتيها أولها وآخرها لانها المقصود من القصة بطولها أعنى الزام الحجة ببعثة الرسل واستحقاق التدمير بتكذيبهم (المسئلة الرابعة) قوله تعالى اذهبا الى القوم الذين كذبوا بآياتنا ان حملنا تكذيب الآيات على تكذيب آيات الالهية فلا اشكال وان حملناه على تكذيب آيات النبوة فالافظ وان كان للماضى الآن المراد هو المستقبل (القصة الثانية) قصة نوح عليه السلام * قوله تعالى (وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما) اعلم انه تعالى انما قال كذبوا الرسل اما لانهم كانوا من البراهمة المنكرين لكل الرسل أولانه كان تكذيبهم لواحد منهم تكذيبا للجميع لان تكذيب الواحد منهم لايمكن الا بالقدح فى المعجز وذلك يقتضى تكذيب الكل أولان المراد بالرسل وان كان نوحا عليه السلام وحده ولكنه كما يقال فلان يركب الافراس اما قوله أغرقناهم فقال الكلبى أمطر الله عليهم السماء أربعين يوما وأخرج ماء الارض أيضا فى تلك الاربعين فصارت الارض بحرا واحدا وجعلناهم أى وجعلنا اغراقهم أوقصتهم آية وأعتدنا للظالمين أى لكل من سلك سبيلهم فى تكذيب الرسل عذابا أليما ويحتمل أن يكون المراد قوم نوح (القصة الثالثة) * قوله تعالى (وعادا وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا وكلا ضربنا له الامثال وكلا تبرنا تتبيرا) فى الآية مسائل (المسئلة الاولى) عطف عادا على هم فى وجعلناهم أوعلى الظالمين لان المعنى ووعدنا الظالمين (المسئلة الثانية) قرئ وثمود على تأويل القبيلة واما على المنصرف فعلى تأويل الحى أولانه اسم للاب الاكبر (المسئلة الثالثة) قال أبو عبيدة

رآن كيلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم فانه روى عنه عليه الصلاه والسلام أنه قال من تعلم القرآن وعلق مصحفا لم يتعاهده ولم ينظر فيه جاء يوم القيامة متعلقا به يقول يارب العالمين عبدك هذا اتخذني مهجورا اقض بيني وبينه وقيل هو من هجر اذا هذى أى جعلوه مهجورا فيه اما على زعمهم الباطل واما بان هجروا فيه اذا سمعوه كما يحكى عنهم من قولهم لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه وقد جوز أن يكون المهجور بمعنى الهجر كالمجلود والمعقول فالمعنى اتخذوه هجرا وهذيانا وفيه من التحذير والتخويف مالا يخفى قال الانبياء عليهم الصلاة والسلام اذا شكوا الى الله تعالى قومهم عجل لهم العذاب ولم ينتظروا وقوله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين) تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحمل له على الاقتداء بمن قبله من الانبياء عليهم الصلاة والسلام أى كما جعلنا لك أعداء من المشركين يقولون ما يقولون ويفعلون ما يفعلون من الاباطيل جعلنا لكل نبي من الانبياء الذين هم أصحاب الشريعة والدعوة اليها عدوا من مجرمي قومهم فاصبر كما صبروا وقوله تعالى (وكفى بربك هاديا ونصيرا) وعد كريم له عليه الصلاة والسلام بداية الى كافة مطالبه والنصر على أعدائه أى كفاك مالك أمرك ومبلغك الى الكمال هاديا لك الى ما به وصلك الى غاية الغايات التي من جملتها تبليغ الكتاب أجله واجراء أحكامه في أكناف الدنيا الى يوم القيامة ونصيرا لك على

رس هو البئر غير المطوية قال أبو مسلم في البلاد موضع يقال له الرس فجائز أن يكون ذلك لوادي سكنا لهم والرس عند العرب الدفن ويسمى به الحفر يقال رس الميت اذا دفن وغيب في الحفرة وفي التفسير انه البئر وأى شئ كان أخبر الله تعالى عن أهل الرس بالهلاك انتهى (المسئلة الرابعة) ذكر المفسرون في أصحاب الرس وجوها أحدها كانوا قوما من عبدة الاصنام أصحاب آبار ومواش فبعث الله تعالى اليهم شعيبا عليه السلام فدعاهم الى الاسلام فتمادوا في طغيانهم وفي ايذائه فبينما هم حول الرس خسف الله بهم وبدارهم وثانيها الرس قرية بفلج اليمامة قتلوا نبيهم فهلكوا وهم بقية ثمود وثالثها هم أصحاب النبي حنظلة بن صفوان كانوا مبتلين بالعنقاء وهي أعظم ما يكون من الطير سميت بذلك لطول عنقها وكانت تسكن في جبلهم الذي يقال له فتخ وهي تنقض على صبيانهم وتخطفهم ان أعوزها الصيد فدعا عليها حنظلة فأصابتها الصاعقة ثم انهم قتلوا حنظلة فهلكوا ورابعها هم أصحاب الاخدود والرس هو الاخدود وخامسها الرس انطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار وقيل كذبوه ورسوه في بئر أى دسوه فيها وسادسها عن علي عليه السلام انهم كانوا قوما يعبدون شجرة الصنوبر وانما سموا أصحاب الرس لانهم رسوا نبيهم في الارض وسابعها أصحاب الرس قوم كانت لهم قرى على شاطئ نهر يقال له الرس من بلاد المشرق فبعث الله تعالى اليهم نبيا من ولد يهودا بن يعقوب فكذبوه فلبث فيهم زمنا فشكى الى الله تعالى منهم فحفروا بئرا ورسوه فيها وقالوا نرجو أن يرضى عنا الهنا وكانوا عامة يومهم يسمعون انين نبيهم يقول الهي وسيدي ترى ضيق مكاني وشدة كربي وضعف قلبي وقلة حيلتي فعجل قبض روحي حتى مات فأرسل الله تعالى ريحا عاصفة شديدة الحمرة فصارت الارض من تحتهم جمرا كبريتا متوقدا وأظلتهم سحابة سوداء فذابت أبدانهم كما يذوب الرصاص وثامنها روى ابن جرير عن الرسول صلى الله عليه وسلم ان الله بعث نبيا الى أهل قرية فلم يؤمن به من أهلها أحد الا عبد أسود ثم عدوا على الرسول فحفروا له بئرا فالقوه فيها وأطبقوا عليه حجرا ضخما وكان ذلك العبد يحتطب فيشتري له طعاما وشرابا ويرفع الصخرة ويدليه فكان ذلك ما شاء الله فاحتطب يوما فلما أراد أن يحملها وجه نوما فاضطجع فضرب الله على اذنه سبع سنين نائما ثم انتبه وتمطى وتحول لشقه الآخر فنام سبع سنين أخرى ثم هب فحمل حزمته فظن انه نام ساعة من نهار فجاء الى القرية فباع حزمته واشترى طعاما وشرابا وذهب الى الحفرة فلم يجد أحدا وكان قومه قد استخرجوه وآمنوا به وصدقوه وكان ذلك النبي يسألهم عن الاسود فيقولون لا ندري حاله حتى قبض الله النبي وقبض ذلك الاسود فقال عليه السلام ان ذلك الاسود لاول من يدخل الجنة (واعلم) أن القول ما قاله أبو مسلم وهو أن شيئا من هذه الروايات غير معلوم لقرآن ولا بخبر قوى الاسناد ولكنهم كيف كانوا فقد أخبر الله تعالى عنهم انهم أهلكوا بسبب كفرهم (المسئلة الخامسة) قال النخعي القرن أربعون سنة وقال علي عليه السلام

جميع من يعاديك (وقال الذين كفروا) حكاية لاقتراحهم الخاص بالقرآن الكريم بعد حكاية اقتراحهم في حقه عليه الصلاة والسلام والقائلون هم القائلون أولا وإيرادهم بعنوان الكفر لذمهم به والاشعار بعلة الحكم (لولا نزل عليه القرآن) التنزيل مصدر محول عن معنى التدريج ﴿ ٤٧٦ ﴾ كما في قوله تعالى يسئلك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء ويجوز أن يراد به الدلالة على كثرة المنزل في نفسه أي هلا أنزل كله (جملة واحدة) كما كان الثلاثة ويصلان هذه الكلمة لحقاء مما لا يكاد يخفى على أحد فان الكتب المتقدمة لم يكن شاهدا صحتها ودليل كونها من عند الله تعالى اعجازها وأما القرآن الكريم فبينة صحته وآية كونه من عند الله تعالى نظمه المعجز الباقي على مر الدهور المتحقق في كل جزء من أجزائه المقدرة بمقدار أقصر السور حسبما وقع به التحدي ولا ريب في أن مايدور عليه ذلك الاعجاز هو المطابقة لما تقتضيه الاحوال ومن ضرورة تغيرها وتجددها تغير مايطابقها حتما على أن فيه فوائد جمة فدا شير الى بعض منها بقوله تعالى (كذلك لنثبت به فؤادك) فانه استئناف وارد من جهته تعالى لرد مقالتهم الباطلة وبيان الحكمة في التنزيل التدريجي ومحل الكاف النصب على انها صفة لمصدر مؤكد لمضمر معلل بما بعده وذلك اشارة الى مابهم من تلا مهم أي ﴿ تعالى ﴾ مثل ذلك التنزيل المفرق الذي قدحوا فيه واقترحوا خلافه نزلناه لا تنزيلا

بل سبعون سنة وميل مائة وعشرون (المسئلة السادسة) قوله بين ذلك اى بين ذلك المذكور وقد يذكر الذاكر أشياء مختلفة ثم يشير اليها بذلك ويحسب الحاسب اعدادا متكاثرة ثم يقول فذلك كيت وكيت على معنى فذلك المحسوب أو المعدود أما قوله وكلا ضربنا له الامثال فالمراد بيناتهم وازحنا عللهم فلما كذبوا تبرناهم تتبيرا ويحتمل وكلا ضربنا له الامثال بان أجبناهم عما أوردوه من الشبه في تكذيب الرسل كما أورده قومك يا محمد فلما لم ينجع فيهم تبرناهم تتبيرا فحذر تعالى بذلك قوم محمد صلى الله عليه وسلم في الاستمرار على تكذيبه لئلا ينزل بهم مثل الذي نزل بالقوم عاجلا واجلا (المسئلة السابعة) كلا الاول منصوب بما دل عليه ضربنا له الامثال وهو انذرنا أو حذرنا وانما تبرنا لانه فارغ له (المسئلة الثامنة) التتبير التفتيت والتكسير ومنه التبر وهو كسار الذهب والفضة والزجاج القصة الرابعة * قوله تعالى (ولقد اتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورا) واعلم انه تعالى أراد بالقرية سدوم من قرى قوم لوط عليه السلام وكانت خمسا وأهلك الله تعالى أربعا منها وبقيت واحدة ومطر السوء الحجارة يعني ان قريشا مروا مرارا كثيرة في متاجرهم الى الشام على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء أفلم يكونوا في مرورهم ينظرون الى آثار عذاب الله تعالى ونكاله بل كانوا قوما كفرة لا يرجون نشورا وذكروا في تفسير يرجون وجوها أحدها وهو الذي قاله القاضي وهو الاقوى انه محمول على حقيقة الرجاء لان الانسان لا يتحمل متاعب التكاليف ومشاق النظر والاستدلال الا لارجاء ثواب الآخرة فاذا لم يؤمن بالآخرة لم يرج ثوابها فلا يتحمل تلك المشاق والمتاعب وثانيهما معناه لا يتوقعون نشورا فوضع الرجاء موضع التوقع لانه انما يتوقع العاقبة من يؤمن وثالثها معناه لا يخافون على اللغة التهامية وهو ضعيف والاول هو الحق * قوله تعالى (واذا راوك ان يتخذونك الا هزوا اهذا الذي بعث الله رسولا ان كاد ليضلنا عن الهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ارايت من اتخذ الهه هواه أفانت تكون عليه وكيلا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون او يعقلون ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا) اعلم انه سبحانه لما بين مبالغة المشركين في انكار نبوته وفي ايراد الشبهات في ذلك بين بعد ذلك انهم اذا رأوا الرسول اتخذوه هزوا فلم يقتصروا على ترك الايمان به بل زادوا عليه بالاستهزاء والاستحقار ويقول بعضهم لبعض أهذا الذي بعث الله رسولا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف ان الاولى نافية والثانية مخففة من الثقيلة واللام هي الفارقة بينهما (المسئلة الثانية) جواب اذا هو ما ضمر من القبيل يعني واذا رأوك مستهزئين قالوا أبعث الله هذا رسولا وقوله ان يتخذونك جملة اعترضت بين اذا وجوابها (المسئلة الثالثة) اتخذوه هزوا في معنى مستهزأ به والمعنى اتخذوه موضع هزء وعن أبي (المسئلة الرابعة) عن ابن الله

تعالى أخبر عن المشركين انهم متى رأوا الرسول أتوا بنوعين من الافعال أحدهما انهم يستهزؤن به وفسر ذلك الاستهزاء بقوله أهذا الذى بعث الله رسولا وذلك جهل عظيم لان الاستهزاء اما ان يقع بصورته أو بصفته أما الاول فباطل لانه عليه الصلاة والسلام كان أحسن منهم صورة وخلقة و بتقدير انه لم يكن كذلك لكنه عليه السلام ما كان يدعى التميز عنهم بالصورة بل بالحجة وأما الثانى فباطل لانه عليه السلام ادعى التميز عنهم فى ظهور المعجز عليه دونهم وانهم ما قدروا على القدح فى حجته ودلالته فى الحقيقة هم الذين يستحقون ان يهزأ بهم ثم انهم لوقاحتهم قلبوا القضية واستهزؤا بالرسول عليه السلام وذلك يدل على انه ليس للمبطل فى كل الاوقات الا السفاهة والوقاحة وثانيهما انهم كانوا يقولون فيه ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان صبرنا عليها وذلك يدل على أمور (الاول) انهم سموا ذلك اضلالا وذلك يدل على انهم كانوا مبالغين فى تعظيم آلهتهم وفى استعظام صنيعه صلى الله عليه وسلم فى صرفهم عنه وذلك يدل على انهم كانوا يعتقدون أن هذا هو الحق فمن هذا الوجه يبطل قول أصحاب المعارف فى انه لا يكفر الا من يعرف الدلائل لانهم جهلوه ثم نسبهم الله تعالى الى الكفر والضلال وقولهم لولا ان صبرنا عليها يدل أيضا على ذلك (الثانى) يدل هذا القول منهم على جد الرسول عليه السلام واجتهاده فى صرفهم عن عبادة الاوثان ولولا ذلك لما قالوا ان كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا ان صبرنا عليها وهكذا كان عليه السلام فانه فى أول الامر بالغ فى ايراد الدلائل والجواب عن الشبهات وتحمل ما كانوا يفعلونه من أنواع السفاهة وسوء الادب (الثالث) أن هذا يدل على اعتراف القوم بانهم لم يعترضوا البتة على دلائل الرسول صلى الله عليه وسلم وما عارضوها الا بمحض الجحود والتقليد لان قولهم لولا ان صبرنا عليها اشارة الى الجحود والتقليد ولو ذكروا اعتراضا على دلائل الرسول عليه السلام لكان ذكر ذلك أولى من ذكر مجرد الجحود والاصرار الذى هو دأب الجهال وذلك يدل على أن القوم كانوا مقهورين تحت حجته عليه السلام وانه ما كان فى أيديهم الا مجرد الوقاحة (الرابع) الآية تدل على أن القوم صاروا فى ظهور حجته عليه السلام عليهم كالمجانين لانهم استهزؤا به أولا ثم وصفوه بأنه كاد يضلنا عن آلهتنا لولا أن قابلناه بالجحود والاصرار فهذا الكلام الاخير يدل على أن القوم سلموا له قوة الحجة وكمال العقل والكلام الاول وهو السخرية والاستهزاء لا يليق الا بالجاهل العاجز فالقوم لما جمعوا بين هذين الكلامين دل ذلك على انهم كانوا كالمتحيرين فى أمره فتارة بالوقاحة يستهزؤن منه وتارة يصفونه بما لا يليق الا بالعالم الكامل ثم انه سبحانه لما حكى عنهم هذا الكلام زيف طريقتهم فى ذلك من ثلاثة أوجه (اولها) قوله وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا لانهم لما وصفوه بالاضلال فى قولهم ان كاد ليضلنا بين تعالى انه سيظهر لهم من المضل ومن الضال عنده مشاهدة العذاب الذى لا مخلص لهم منه فهو وعيد شديد لهم على التعامى والاعراض عن الاستدلال والنظر

متعلقة بامور حادثة من الاقاويل والافاعيل ومن قضية تجددها تجدد ما يتعلق بها كالاقتراحات الواقعة من الكفرة الداعية الى حكايتها وابطالها و بيان ما يؤول اليه حالهم فى الآخرة على أنهم فى هذا الاقتراح كالباحث عن حتفه بظلفه حيث أمروا بالاتيان بمثل نوبة من نوب التنزيل فظهر عجزهم عن المعارضة وضاقت عليهم الارض بما رحبت فكيف لو تحدوا بكلمة وقوله تعالى (ورتلناه ترتيلا) عطف على ذلك المضمر وتنكير ترتيلا للتفخيم أى كذلك نزلناه ورتلناه ترتيلا بديعا لا يقادر قدره ومعنى ترتيله تفريقه آية بعد آية قاله النخعى والحسن وقتادة وقال ابن عباس رضى الله عنهما بيناه بيانا فيه ترتيل وتثبيت وقال السدى فصلناه تفصيلا وقال مجاهد جعلناه بعضه فى اثر بعض وقيل هو الامر بتبيل قراءته بقوله تعالى ورتل القرآن ترتيلا وقيل قرأناه عليك بسكان جبريل عليه السلام شيأ بعد شيء فى عشرين أو فى ثلاث وعشرين سنة على تؤدة وتمهل (ولا يأتونك بمثل) من الامثال التى من جملتها ما حكى من اقتراحاتهم القبيحة

الخارجة عن دائرة العقول الجارية لذلك مجرى الامثال أى لا يأتونك بكلام عجيب هو مثل فى البطلان يريدون القدح فى حقك وحق القرآن (الا جئناك) فى مقابلته (بالحق) أى بالجواب الحق الثابت الذى ينحى عليه بالابطال و يحسم مادة القيل والقال كما مر من الاجوبة الحقة ﴿ ٤٧٨ ﴾ القالعة لعروق أسئلتهم الشنيعة الدامغة لها بالكلية وقوله تعالى (وأحسن تفسيرا) عطف على الحق أى جئناك باحسن تفسيرا أوعلى محل بالحق أى آتيناك الحق وأحسن تفسيرا أى بيانا وتفصيلا على معنى أنه فى غاية مايكون من الحسن فى حد ذاته لان ما يأتون به له حسن فى الجملة وهذا أحسن منه كما مر والاستثناء مفرغ محله النصب على الحالية أى لا يأتونك بمثل الا حال اتياننا اياك الحق الذى لامحيد عنه وفيه من الدلالة على المسارعة الى ابطال ما أتوا به وتثبيت فؤاده عليه الصلاة والسلام مالا يخفى وهذا بعبارته ناطق ببطلان جميع الاسئلة وبصحة جميع الاجوبة و باشارته منبئ عن بطلان السؤال الاخير وصحة جوابه اذ لولا أن تنزيل القرآن على التدريج لما أمكن ابطال تلك الاقتراحات الشنيعة ولما حصل تثبيت فؤاده عليه الصلاة والسلام من تلك الحيثية هذا وقد جوز أن يكون المثل عبارة عن الصفة الغريبة التى كانوا يقترحون كونه عليه الصلاة والسلام عليها من مقارنة الملك والاستغناء عن الاكل والشرب وحيازة الكنز والجنة ونزول القرآن عليه جملة واحدة على معنى لا يأتونك بحال عجيبة يقترحون اتصافك بها قائلين هلا كان على هذه الحالة إلا أعطيناك نحن

(وثانيها) قوله تعالى أرأيت من اتخذ الهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا والمعنى انه سبحانه بين ان بلوغ هؤلاء فى جهالتهم واعراضهم عن الدلائل انما كان لاستيلاء التقليد عليهم وانهم اتخذوا أهواءهم آلهة فكل مادعاهم الهوى اليه انقادوا له سواء منع الدليل منه أولم يمنع ثم ههنا ابحاث (الاول) قوله أرأيت كلمة تصلح للاعلام والسؤال وههنا هى تعجيب من جهل من هذا وصفه ونعته (الثانى) قوله اتخذ الهه هواه معناه اتخذ الهه مايهواه أو الهايهواه وقيل هو مقلوب ومعناه اتخذ هواه الهه وهذا ضعيف لان قوله اتخذ الهه هواه يفيد الحصر أى لم يتخذ لنفسه الها الا هواه وهذا المعنى لا يحصل عند القلب قال ابن عباس الهوى الهه يعبده وقال سعيد بن جبير كان الرجل من المشركين يعبد الصنم فاذا رأى أحسن منه رماه وأخذ الآخر وعبده (الثالث) قوله أفأنت تكون عليه وكيلا أى حافظا تحفظه من اتباع هواه أى لست كذلك (الرابع) نظير هذه الآية قوله تعالى لست عليهم بمسيطر وقوله وما أنت عليهم بجبار وقوله لا اكراه فى الدين قال الكلبى نسخها آية القتال (وثالثها) قوله أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون أم ههنا منقطعة معناه بل تحسب وذلك يدل على أن هذه المذمة أشد من التى تقدمتها حيث حقت بالاضراب عنها اليها وهى كونهم مسلوبى الاسماع والعقول لانهم لشدة عنادهم لا يصغون الى الكلام واذا سمعوه لا يتفكرون فيه فكانه ليس لهم عقل ولا سمع البتة فعند ذلك شبههم بالانعام فى عدم انتفاعهم بالكلام وعدم اقدامهم على التدبر والتفكر واقبالهم على اللذات الحاضرة الحسية واعراضهم عن طلب السعادات الباقية العقلية وهاهنا سؤالات (السؤال الاول) لم قال أم تحسب أن أكثرهم فحكم بذلك على الاكثر دون الكل والجواب لانه كان فيهم من يعرف الله تعالى و يعقل الحق الا انه ترك الاسلام لمجرد حب الرياسة لا للجهل (السؤال الثانى) لم جعلوا أضل من الانعام الجواب من وجوه (أحدها) ان الانعام تنقاد لاربابها وللذى يعلفها و يتعهدها وتميز بين من يحسن اليها و بين من يسىء اليها وتطلب ماينفعها وتجتنب مايضرها وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يميزون بين احسانه اليهم و بين اساءة الشيطان اليهم الذى هو عدو لهم ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ولا يحترزون من العقاب الذى هو أعظم المضار (وثانيها) ان قلوب الانعام كانها تكون خالية عن العلم فهى خالية عن الجهل الذى هو اعتقاد المعتقد على خلاف ماهو عليه مع التصميم واما هؤلاء فقلوبهم كما خلت عن العلم فقد اتصفت بالجهل فانهم لا يعلمون ولا يعلمون انهم لا يعلمون بل هم مصرون على انهم يعلمون (وثالثها) أن عدم علم الانعام لا يضر باحد أما جهل هؤلاء فانه منشأ للضرر العظيم لانهم يصدون الناس عن سبيل الله و يبغونها عوجا (ورابعها) أن الانعام لا تعرف شيئا ولكونهم عاجزين عن الطلب وأما هؤلاء الجهال فانهم ليسوا عاجزين عن الطلب والمحرو عن طلب المراتب العالية اذا عجز عنه لا يكون فى استحقاق الذم كالقادر عليه التارك له

ن الاحوال الممكنة مايحق لك فى حكمتنا ومشيئتنا أن نعطاه وماهو أحسن تكشيفا لما بعثت عليه ودلالة على صحته وهو الذى أنت عليه فى الذات والصفات و يأباه الاستثناء المذكور فان المتبادر منه أن يكون ما اعطاه الله تعالى من الحق مترتبا على أتوابه من الاباطيل دامغالها ولاريب ﴿ فى أن ما آتاه الله تعالى من الملكات السنية اللائقة بالرسالة

اسوء اختياره (وخامسها) أن البهائم لاتستحق عقابا على عدم العلم أما هؤلاء فانهم يستحقون عليه أعظم العقاب (وسادسها) أن البهائم تسبح الله تعالى على مذهب بعض الناس على ماقال وان من شئ الا يسبح بحمده وقال ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات الى قوله والدواب وقال والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه واذا كان كذلك فضلال الكفار أشد وأعظم من ضلال هذه الانعام (السؤال الثالث) انه سبحانه لما نفى عنهم السمع والعقل فكيف ذمهم على الاعراض عن الدين وكيف بعث الرسول اليهم فان من شرط التكليف العقل (الجواب) ليس المراد انهم لايعقلون بل انهم لاينتفعون بذلك العقل فهو كقول الرجل لغيره اذا لم يفهم انما أنت اعمى وأصم ﴿ قوله تعالى (ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا وهو الذى جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا وهو الذى ارسل الرياح بشرى بين يدى رحمته وانزلنا من السماء ماطهورا لنحيى به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا انعاما وأناسى كثيرا) اعلم انه تعالى لما بين جهل المعرضين عن دلائل الله تعالى وفساد طريقهم فى ذلك ذكر بعده أنواعا من الدلائل الدالة على وجود الصانع (النوع الاول) الاستدلال بحال الظل فى زيادته ونقصانه وتغيره من حال الى حال وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله ألم تر فيه وجهان أحدهما انه من رؤية العين والثانى انه من رؤية القلب يعنى العلم فان حملناه على رؤية العين فالمعنى ألم تر الى الظل كيف مده ربك وان كان تخريج لفظه على عادة العرب أفصح وان حملناه على العلم وهو اختيار الزجاج فالمعنى ألم تعلم وهذا أولى وذلك أن الظل اذا جعلناه من المبصرات فأثر قدرة الله تعالى فى تمديده غير مرئى بالاتفاق ولكنه معلوم من حيث ان كل متغير جائز وكل جائز فله مؤثر فحمل هذا اللفظ على رؤية القلب أولى من هذا الوجه (المسئلة الثانية) المخاطب بهذا الخطاب وان كان هو الرسول عليه السلام بحسب ظاهر اللفظ ولكن الخطاب عام فى المعنى لان المقصود من الآية بيان نعم الله تعالى بالظل وجميع المكلفين مشتركون فى انه تجب تنبيههم لهذه النعمة وتمكنهم من الاستدلال بها على وجود الصانع (المسئلة الثالثة) الناس أكثروا فى تأويل هذه الآية والكلام الملخص يرجع الى وجهين الاول ان الظل هو الامر المتوسط بين الضوء الخالص وبين الظلمة الخالصة وهو مابين ظهور الفجر الى طلوع الشمس وكذا الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأفنية الجدران وهذه الحالة أطيب الاحوال لان الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس وأما الضوء الخالص وهو الكيفية الفائضة من الشمس فهى لقوتها تبهر الحس البصرى وتفيد السخونة القوية وهى مؤذية فاذن أطيب الاحوال هو الظل ولذلك وصف الجنة به فقال ظل ممدود واذا ثبت هذا فنقول انه سبحانه بين انه من النعم العظيمة والمنافع الجليلة ثم ان الناظر الى الجسم الملون وقت الظل كأنه لايشاهد شيئا سوى الجسم وسوى اللون

قد أتاه من أول الامر لا بمقابلة ماحكى عنهم من الاقتراحات لاجل دمغها وابطالها (الذين يحشرون على وجوههم الى جهنم) أى يحشرون كائنين على وجوههم يسحبون عليها و يجرون الى جهنم وقيل مقلوبين وجوههم على قفاهم وأرجلهم الى فوق روى عنه عليه الصلاة والسلام يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أثلاث ثلث على الدواب وثلث على وجوههم وثلث على أقدامهم يفسلون نسلا وأماما قيل متعلقة قلوبهم بالسفليات متوجهة وجوههم اليها فبعيد لان هول ذلك اليوم ليس بحيث يبقى لهم عنده تعلق بالسفليات أو توجه اليها فى الجملة ومحل الموصول ان النصب أو الرفع على الذم أو الرفع على الابتداء وقوله تعالى (أولئك) بدل منه أو بيان له وقوله تعالى (شر مكانا وأضل سبيلا) خبر له واسم الاشارة مبتدأ ثان وشر والجملة خبر للموصول ووصف السبيل بالضلال من باب الاسناد المجازى للمبالغة والمفضل عليه الرسول عليه الصلاة والسلام على منهاج قوله تعالى قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه كانه قيل ان حالهم على الافتراحات تحقير مكانه عليه الصلاة والسلام بتضليل

سبيله ولا يعلمون حالهم ليعلموا أنهم شر مكانا وأضل سبيلا وقيل هو متصل بقوله تعالى أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا (ولقد آتينا موسى الكتاب) مستأنفة سيقت قلنا كيد مامر من التسلية والوعد بالهداية والنصر في قوله تعالى وكفى بربك هاديا ونصيرا بحكاية ما جرى بين من ذكر ﴿ ٤٨٠ ﴾ من الانبياء عليهم الصلاة والسلام وبين قومهم حكاية اجمالية كافية فيما هو المقصود واللام جواب القسم محذوف أي وبالله لقد آتينا موسى التوراة أي أنزلناها عليه بالآخرة (وجعلنا معه) الظرف متعلق بجعلنا وقوله تعالى (أخاه) مفعول أول له وقوله تعالى (هرون) بدل من أخاه أو عطف بيان له على عكس ما وقع في سورة طه وقوله تعالى (وزيرا) مفعول ثان له وقدم ثمة معنى الوزير أي جعلناه في أول الامر وزيرا له (فقلنا) لهما حينئذ (اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا) هم فرعون وقومه والآيات هي المعجزات التسع أو المفصلات الظاهرة على يدي موسى عليه السلام ولم يوصف القوم لهما عند ارسالهما اليهم بهذا الوصف ضرورة تأخر تكذيب الآيات عن اظهارها التأخر عن ذهابهما المتأخر عن الامر به بل انما وصفوا بذلك عند الحكاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بيانا للعلة استحقاقهم لما يحكى بعده من التدمير أي فذهبا اليهم فاريا هم آياتنا كلها فكذبوها تكذيبا مستمرا (فدمرناهم) ﴿ النهار ﴾ اثر ذلك التكذيب المستمر (تدميرا) عجيبا هائلا لا يقادر قدره ولا يدرك كنهه فاقتصر على حاشيتي القصة اكتفاء بما المقصود وحمل

ونقول الظل ليس أمرا ثالثا ولا يعرف ولا يعرف به الا انه اذا طلعت الشمس ووقع ضوءها على الجسم زال ذلك الظل فلولا الشمس ووقوع ضوئها على الاجرام لما عرف ان للظل وجودا وماهية لان الاشياء انما تعرف باضدادها فلولا الشمس لما عرف الظل ولولا الظلمة لما عرف النور فكأنه سبحانه وتعالى لما أطلع الشمس على الارض وزال الظل فحينئذ ظهر للعقول أن الظل كيفية زائدة على الجسم واللون فلهذا قال سبحانه ثم جعلنا الشمس عليه دليلا أي خلقنا الظل أولا بما فيه من المنافع واللذات ثم انا هدينا العقول الى معرفة وجوده بان أطلعنا الشمس فكانت الشمس دليلا على وجود هذه النعمة ثم قبضناه أي ازلنا الظل لا دفعة بل يسيرا يسيرا فانه كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد نقصان الظل في جانب المغرب ولما كانت الحركات المكانية لا توجد دفعة بل يسيرا يسيرا فكذا زوال الاظلال لا يكون دفعة بل يسيرا يسيرا ولان قبض الظل لو حصل دفعة لاختلت المصالح ولكن قبضها يسيرا يسيرا يفيد معه أنواع مصالح العالم والمراد بالقبض الازالة والاعدام هذا أحد التاويلين (التاويل الثاني) وهو انه سبحانه وتعالى لما خلق الارض والسماء وخلق الكواكب والشمس والقمر وقع الظل على الارض ثم انه سبحانه خلق الشمس دليلا عليه وذلك لان بحسب حركات الاضواء تتحرك الاظلال فانهما متعاقبان متلازمان لا واسطة بينهما فبمقدار ما يزداد أحدهما ينقص الآخر وكما أن المهتدي يهتدي بالهادي والدليل و يلازمه فكذا الاظلال كأنها مهتدية وملازمة للاضواء فلهذا جعل الشمس دليلا عليها واما قوله ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا فاما ان يكون المراد منتهاء الاظلال يسيرا يسيرا الى غاية نقصانها فسمي ازالة الاظلال قبضا لها أو يكون المراد من قبضها يسيرا قبضها عند قيام الساعة وذلك بقبض أسبابها وهي الاجرام التي تلقي الاظلال وقوله يسيرا هو كقوله ذلك حشر علينا يسير فهذا هو التأويل الملخص (المسئلة الرابعة) وجه الاستدلال به على وجود الصانع المحسن أن حصول الظل أمر نافع للاحياء والعقلاء اما حصول الضوء الخالص أو الظلمة الخالصة فهو ليس من باب المنافع فحصول ذلك الظل اما ان يكون من الواجبات أو من الجائزات والاول باطل والا لما تطرق التغير اليه لان الواجب لا يتغير فوجب أن يكون من الجائزات فلا بد له في وجوده بعد العدم وعدمه بعد الوجود من صانع قادر مدبر محسن يقدره بالوجد التام وماذاك الا من يقدر على تحريك الاجرام العلوية وتدبير الاجسام الفلكية وترتيبها على الوصف الاحسن والترتيب الاكمل وما هو الا الله سبحانه وتعالى فان قيل الظل عبارة عن عدم الضوء عما شانه ان يضيء فكيف استدل بالامر العدمي على ذاته وكيف عده من النعم قلنا الظل ليس عدما محضا بل هو اضواء مخلوطة بظلم والتحقيق أن الظل عبارة عن الضوء الثاني وهو أمر وجودي وفي تحقيقه و بسطه كلام دقيق يرجع فيه الى كتبنا العقلية (النوع الثاني) قوله تعالى وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل

قوله تعالى فدمرناهم على معنى فحكمنا بتدميرهم مع كونه تعسفا ظاهرا مما وجه له اذ لا فائدة يعتد بها فى حكاية الحكم بتدمير قد وقع وانقضى والتعرض فى مطلع القصة لابتناء الكتاب مع أنه كان بعد مهلك القوم ولم يكن له مدخل فى هلاكهم كسائر الآيات للابذان من أول الامر ببلوغه ﴿ ٤٨١ ﴾ عليه الصلاة والسلام غاية الكمال ونيله نهاية الآمال

النهار ونشورا اعلم انه تعالى شبه الليل من حيث انه يستر الكل و يغطى كالباس الساتر للبدن ونبه على ما فيه من النفع بقوله والنوم سباتا والسبات الراحة وجعل النوم سباتا لانه سبب للراحة قال أبو مسلم السبات الراحة ومنه يوم السبت لما جرت به العادة من الاستراحة فيه و يقال للعليل اذا استراح من تعب العلة مسبوت وقال صاحب الكشاف السبات الموت والمسبوت الميت لانه مقطوع الحياة قال وهذا كقوله وهو الذى يتوفاكم بالليل وانما قلنا ان تفسيره بالموت أولى من تفسيره بالراحة لان النشور فى مقابلته يأباه قال أبو مسلم وجعل النهار نشورا هو بمعنى الانتشار والحركة كما سمى تعالى نوم الانسان وفاة فقال الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها كذلك وفرق بين القيام من النوم والقيام من الموت فى التسمية بالنشور وهذه الآية مع دلالتها على قدرة الخالق فيها اظهار لنعمه على خلقه لان الاحتجاب بستر الليل كفيه لكثير من الناس من فوائد جمة ودنيوية والنوم واليقظة شبيهان بالموت والحياة وعن لقمان أنه قال لابنه كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتحشر (النوع الثالث) قوله وهو الذى أرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته وقد تقدم تفسيره فى سورة الاعراف ثم فيه مسائل (المسئلة الاولى) قرئ الريح والرياح قال الزجاج وفى نشرا خمسة أوجه بفتح النون وبضمها و بضم النون والشين و بالباء الموحدة مع ألف المؤنث و بشرا بالتنوين قال أبو مسلم من قرأ بشرا أراد جمع بشير مثل قوله تعالى ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات واما بالنون فهو فى معنى قوله والناشرات نشرا وهى الرياح والرحمة الغيث والماء والمطر (المسئلة الثانية) قوله وأنزلنا من السماء ماء طهورا نص فى انه تعالى ينزل الماء من السماء لا من السحاب وقول من يقول السحاب سماء ضعيف لان ذلك بحسب الاشتقاق واما بحسب وضع اللغة فالسماء اسم لهذا السقف المعلوم فصرفه عن ذلك ترك للظاهر (المسئلة الثالثة) اختلفوا فى ان الطهور ما هو قال كثير من العلماء الطهور ما يتطهر به كالفطور ما يفطر به والسحور ما يتسحر به وهو مروى أيضا عن ثعلب وأنكر صاحب الكشاف ذلك وقال ليس فعول من التفعيل فى شئ والطهور على وجهين فى العربية صفة واسم غير صفة فالصفة قولك ماء طهور كقولك طاهر والاسم قولك طهور لما يتطهر به كالوضوء والوقود لما يتوضأ به و يوقد به الناريحة القول الاول قوله عليه السلام التراب طهور المسلم ولو لم يجد الماء عشر حجج ولو كان معنى الطهور الطاهر لكان معناه التراب طاهر للمسلم وحينئذ لا ينتظم الكلام وكذا قوله عليه السلام طهور اناء أحدكم اذا ولغ الكلب فيه أن يغسله سبعا ولو كان الطهور الطاهر لكان معناه طاهر اناء أحدكم وحينئذ لا ينتظم الكلام ولانه تعالى قال وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به فبين أن المقصود من الماء انما هو التطهر به فوجب أن يكون المراد من كونه طهورا انه هو المطهر به لانه تعالى ذكره فى معرض الانعام فوجب حمله على الوصف الاكمل ولا شك أن المطهر أكمل من الطاهر (المسئلة الرابعة)

التى هى انجاء بنى اسرائيل من ملكة فرعون وارشادهم الى طريق الحق بما فى التوراة من الاحكام اذ به يحصل تأكيد الوعد بالهداية على الوجه الذى مر بيانه وقرئ فدمرتهم وفدمرهم وفدمرنهم على التأكيد بالنون الثقيلة (وقوم نوح) منصوب بمضمر يدل عليه قوله تعالى فدمرناهم أى ودمرنا قوم نوح وقيل عطف على مفعول فدمرناهم وليس من ضرورة ترتب تدميرهم على ما قبله ترتب تدميرهؤلاء عليه لاسيما وقد بين سببه بقوله تعالى (لما كذبوا الرسل) أى نوحا ومن قبله من الرسل أو نوحا وحده لان تكذيبه تكذيب للكل لاتفاقهم على التوحيد والاسلام وقيل هو منصوب بمضمر يفسره قوله تعالى (أغرقناهم) وانما بنى ذلك على تقدير كون كلمة لما ظرف زمان وأما على تقدير كونها حرف وجود وجود فلا لانه حينئذ جواب ﴿ ٦١ ﴾ س لها وجواب لما لا يفسر ما قبله مع أنه محل بعطف المنصوبات الآتية على قوم نوح لما أن اهلاكهم ليس بالاغراق فالوجه ما تقدم وقوله تعالى اغرقناهم استئناف مبين لكيفية تدميرهم (وجعلناهم) أى جعلنا اغراقهم أو قصتهم (للناس آية) أى آية عظيمة

يعتبر بها كل من شاهدها أو سمعها وهي مفعول ثان لجعلناها وللناس ظرف لغوله أو متعلق بمحذوف وقع حالا من آية اذ لو تأخر عنها لكان صفة لها (أعتدنا للظالمين) أي لهم والاظهار في موضع الاضمار للايذان بجلاء زهم الحد في الكفر والتكذيب (عذابا أليما) هو عذاب الآخرة اذ لا عبرة بالعذاب الدنيوي في الاخبار باعتداد العذاب الذي قد أخبر به قوما

من قبل أو بجمع الفاعلين الباقين الذين لم يعتبروا بما جرى عليهم من العذاب فيدخل في زمرتهم قريش دخولا أوليا ويحتمل العذاب الدنيوي والاخروي (وعادا) عطف على قوم نوح وقيل على المفعول الاول لجعلناها وقيل على محل الظالمين اذ هو في معنى وعدنا الظالمين وكلاهما بعيد (وثمود) الكلام فيه وفيما بعده كما فيما قبله وقرئ وثمودا على تأويل الحي أو على أنه اسم الاب الاقصى (وأصحاب الرس) هم قوم يعبدون الاصنام فبعث الله تعالى اليهم شعيبا عليه السلام فكذبوه فبينما هم حول الرس وهي ابئر التي لم تطو بعد اذا نهارت فخسف بهم وبديارهم وقيل الرس قرية بفلج اليمامة كان فيها بقايا ثمود فبعث اليهم نبي فقتلوه فهلكوا قيل هو الاخدود وقيل بئر بانطاكية قتلوا فيها حبيبا النجار وقيل هم أصحاب حنظلة بن صفوان النبي عليه السلام ابتلاهم الله تعالى بطير عظيم كان فيها من كل لون كأنه وسموها عنقاء لطول عنقها وكانت تسكن جبلهم الذي يقال له فتخ أو دمخ فتنقض على صبيانهم فتخطفهم فدعا عليها حنظلة عليه السلام فأصابتها الصاعقة ثم انهم قتلوه عليه السلام فأهلكوا

اعلم ان الله تعالى ذكر من منافع الماء أمرين أحدهما ما يتعلق بالنبات والثاني ما يتعلق بالحيوان اما أمر النبات فقوله لنحيي به بلدة ميتا وفيه سؤالات (السؤال الاول) لم قال لنحيي به بلدة ميتا ولم يقل ميتة (الجواب) لان البلدة في معنى البلد في قوله فسقناه الى بلد ميت (السؤال الثاني) ما المراد من حياة البلد وموتها (الجواب) الناس يسمون مالا عمارة فيه من الارض مواتا وسقيها المقتضي لعمارتها احياء لها (السؤال الثالث) ان جماعة الطبائعيين وكذا الكعبي من المعتزلة قالوا ان بطبع الارض والماء وتأثير الشمس فيهما يحصل النبات وتمسكوا بقوله تعالى لنحيي به بلدة ميتا فان الباء في به تقتضي أن للماء تأثيرا في ذلك (الجواب) الظاهر وان دل عليه لكن المتكلمون تركوه لقيام الدلالة على فساد الطبع واما أمر الحيوان فقوله سبحانه ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسي كثيرا وفيه سؤالات (السؤال الاول) لم خص الانسان والانعام ههنا بالذكر دون الطير والوحش مع انتفاع الكل بالماء (الجواب) لان الطير والوحش تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب بخلاف الانعام لانها قنية الاناسي وعامة منافعهم متعلقة بها فكان الانعام عليهم بسقي أنعامهم كالانعام عليهم بسقيهم (السؤال الثاني) ما معنى تنكير الانعام والاناسي ووصفهما بالكثير (الجواب) معناه ان أكثر الناس يجتمعون في البلاد القريبة من الاودية والانهار ومنافع المياه فهم غنية في شرب الماء عن المطر وكثير منهم نازلون في البوادي فلا يجدون الماء للشرب الا عند نزول المطر وذلك قوله لنحيي به بلدة ميتا يريد بعض بلاد هؤلاء المتباعدين عن مظان الماء ويحتمل في كثيرا أن يرجع الى قوله ونسقيه لان الحي يحتاج الى الماء حالا بعد حال وهو مخالف للنبات الذي يكفيه من الماء قدر معين حتى لو زيد عليه بعد ذلك لكان الى الضرر أقرب والحيوان يحتاج اليه حالا بعد حال مادام حيا (السؤال الثالث) لم قدم احياء الارض وسقي الانعام على سقي الاناسي (الجواب) لان حياة الاناسي بحياة أرضهم وحياة أنعامهم فقسم ما هو سبب حياتهم ومعيشتهم على سقيهم لانهم اذا ظفروا بما يكون سقيا لارضهم ومواشيهم فقد ظفروا أيضا بسقياهم وأيضا فقوله تعالى ولقد صرفناه بينهم معناه صرف المطر كل سنة الى جانب آخر واذا كان كذلك فلا يسقي الكل منه بل يسقي كل سنة الناسي كثيرا منه (السؤال الرابع) ما الاناسي الجواب قال الفراء والزجاج الانسي والاناسي كالكرسي والكراسي ولم يقل كثيرين لانه قد جاء جمعا مفردا ويرد به الكثرة كقوله وقرونا بين ذلك كثيرا وحسن أولئك رفيقا واعلم ان الفقهاء قد استنبطوا أحكام المياه من قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا ونحن نشير الى معاقد تلك المسائل فنقول ههنا نظران أحدهما ان الماء مطهر والثاني ان غير الماء من هو مطهر أم لا (النظر الاول) ان نقول الماء اما أن لا يتغير أو يتغير فالقسم الاول وهو الذي لا يتغير فهو طاهر في ذاته مطهر لغيره الا الماء المستعمل فانه عند الشافعي طاهر وليس بمطهر وقال مالك والثوري يجوز الوضوء به وقال أبو حنيفة في رواية أبي يوسف

ى قوم كذبوا رسولهم فرسوه فى بئر (وقرونا) أى أهل قرون قبل القرن أربعون سنة وقيل سبعون وقيل مائة وقيل مائة
شروب (بين ذلك) أى بين ذلك المذكور من الطوائف والامم وقد ذكر التاكر أشياء مختلفة ثم يشير اليها بذلك ويحسب
كسب أعدادا متكاثرة ثم يقول فذلك كيت ۞ ٤٨٢ ۞ وكمت على ذلك المذكور وذلك المحسوب (كثيرا) لا يعلم

نجس فهو هنا مسائل (المسئلة الاولى) فى بيان انه ليس بمطهر ودليلنا قوله عليه السلام
لا يغتسل أحدكم فى الماء الدائم وهو جنب ولو بقى الماء كما كان طاهرا مطهرا لما كان
للمنع منه معنى ومن وجه القياس ان الصحابة كانوا يتوضؤن فى الاسفار وما كانوا
يجمعون تلك المياه مع علمهم باحتياجهم بعد ذلك الى الماء ولو كان ذلك الماء مطهرا لجاوه
ليوم الحاجة واحتج مالك بالآية والخبر والقياس اما الآية ففى وجهين (الاول) قوله تعالى
وأنزلنا من السماء ماء طهورا وقوله و ينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به فدلت
الآية على حصول وصف المطهرية للماء والاصل فى الثابت بقاؤه فوجب الحكم ببقاء هذه
الصفة للماء بعد صيرورته مستعملا وأيضا قوله طهورا يقتضى جواز التطهر به مرة بعد
أخرى (والثانى) انه أمر بالغسل مطلقا فى قوله فاغسلوا واستعمال كل الماء مما يسمى غسل
لانه لا معنى للغسل الا امرار الماء على العضو قال الشاعر

۞ فيا حسنها اذ يغسل الدم كلمها ۞ فمن اغتسل بالماء المستعمل فقد أتى بالغسل
فوجب أن يكون مجزئا له لانه أتى بما أمر به فوجب أن يخرج عن العهدة (وأما السنة)
فاروى انه عليه السلام توضأ فمسح رأسه بفضل ما فى يده وعنه عليه السلام أنه توضأ
فاخذ من بلل لحيته فمسح به رأسه وعن ابن عباس انه عليه السلام اغتسل فرأى لمعة
فى جسده لم يصبها الماء فأخذ شعرة عليها بلل فأمرها على تلك اللمعة (وأما القياس) فانه
ماء طاهر لاقى جسدا طاهرا فأشبه ما اذا لاقى حجارة أو حديدا وكذا الماء المستعمل
فى الكرة الرابعة والمستعمل فى التبرد والتنظف ولانه لا خلاف انه اذا وضع الماء على
أعلى وجهه وسقط به فرض ذلك الموضع ثم نزل ذلك الماء بعينه الى بقية الوجه فانه يجزيه
مع أن ذلك الماء صار مستعملا فى أعلى الوجه (المسئلة الثانية) الدليل على أن الماء
المستعمل طاهر قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا ومن السنة انه عليه السلام
أخذ من بلل لحيته ومسح به رأسه وقال خلق الماء طهورا لا ينجسه شئ الا ما غير طعمه
أو ريحه أو لونه وقال الشافعى انه عليه السلام توضأ ولا شك انه أصابه ما تساقط منه ولم
ينقل انه غير ثوبه ولا انه غسله ولا أحد من المسلمين فعل ذلك فثبت انهم أجمعوا على انه ليس
بنجس ولانه ماء طاهر فى جسما طاهرا فأشبه ما اذا لاقى حجارة (المسئلة الثالثة) الماء
المستعمل اما ان يكون مستعملا فى اعضاء الوضوء وفى غسل الجنابة اما المستعمل
فى اعضاء الوضوء فاما أن يكون مستعملا فيما كان فرضا وعبادة أو فيما كان فرضا ولا
يكون عبادة أو فيما كان عبادة ولا يكون فرضا أو فيما لا يكون فرضا ولا عبادة أما
القسم الاول وهو المستعمل فيما كان فرضا وعبادة فهو غير مطهر باتفاق أصحاب
الشافعى وأما القسم الثانى فهو كالماء الذى استعملته المرأة التى تحت الزوج المسلم
أى فى غسل حيضها ليحل للزوج غشيانها وأما القسم الثالث فهو كالماء المستعمل
فى الكرة الثانية والثالثة والماء المستعمل فى تجديد الوضوء والماء المستعمل

مقدارها الله العليم الخبير
ولعل الاكتفاء فى شؤن
تلك القرون بهذا البيان
الاجمالى لما أن كل قرن
منها لم يكن فى الشهرة
وغرابة القصة بمثابة
الامم المذكورة (وكلا)
منصوب بمضمر يدل عليه
ما بعده فان ضرب المثل
فى معنى التذكير والتحذير
والمحذوف الذى عوض
عنه التنوين عبارة اما عن
الامم التى لم يذكر أسباب
اهلاكهم واما عن الكل
فان ما حكى عن قوم نوح
وقوم فرعون تكذيبهم
الايات والرسل لاعدم
انتهائهم من الامثال المضروبة
أى ذكرنا وأنذرنا كل
واحد من المذكورين
(ضربنا له الامثال) أى
بينا له القصص العجيبة
الزاجرة عما هم عليه من
من الكفر والمعاصى
بواسطة الرسل (وكلا)
أى كل واحد منهم
لا بعضهم دون بعض
(تبرنا تتبيرا) عجبا ها هنا
لما أنهم لم يتأثروا بذلك
ولم يرفعوا له رأسا وتمادوا
على ما هم عليه من الكفر
والعدوان وأصل

تتبيرا بمعنى قال الزجاج كل شئ كسرته وفتتته فقد تبرته ومنه التبر لفتات الذهب والفضة (فقد أتوا) جملة مستأنفة
مسوقة لبيان مشاهدتهم لآثار هلاك بعض الامم المتبرة وعدم اتعاظهم بها وتصديرها بالقسم لمزيد تقرير مضمونها أى
وبالله لقد أتى قريش

في متاجرهم الى الشام (على القرية التي أمطرت) أي أهلكت بالحجارة وهي قرى قوم لوط وكانت خمس قرى ما نجا منها الا واحدة كان أهلها لا يعملون العمل الخبيث وأما البواقي فاهلكها الله تعالى بالحجارة وهي المرادة بقوله تعالى (مطر السوء) وانتصابه اما على أنه مصدر مؤكد بحذف الزوائد كما قيل في أنبته الله تعالى نباتا حسنا أي امطار السوء أو على أنه مفعول ثان اذ المعنى اعطيت او أوليت مطر السوء (أفلم يكونوا يرونها) توبيخ لهم على تركهم التذكر عند مشاهدة ما يوجبه والهمزة لانكار نفي استمرار رؤيتهم لها وتقرير استمرارها حسب استمرار ما يوجبها من اتيانهم عليها لا لانكار استمرار نفي رؤيتهم وتقرير رؤيتهم لها في الجملة [illegible] حواء على [illegible] المقام أي ألم يكونوا ينظرون اليها فلم يكونوا يرونها أو أكانوا ينظرون اليها فلم يكونوا يرونها في مرار مرورهم ليتعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب فالمنكر في الاول ترك النظر وعدم الرؤية معا وفي الثاني عدم الرؤية مع تحقق النظر الموجب لها وقوله تعالى (بل كانوا لا يرجون نشورا) اما اضراب عما قبله من عدم رؤيتهم لآثار ما جرى على أهل القرى من العقوبة وبيان لكون عدم اتعاظهم بسبب انكارهم لكون ذلك عقوبة لمعاصيهم لا لعدم رؤيتهم لآثارها خلا أنه اكتفى عن التصريح ﴿ احدها ﴾ بانكارهم ذلك بذكر ما يستلزمه من انكارهم للجزاء الاخروي الذي هو الغاية من خلق العالم وقد كنى عن ذلك بعدم رجاء النشور أي عدم توقعه كأنه قيل بل كانوا

في الاغسال المسنونة ولاصحاب الشافعي في هذين القسمين وجهان وأما القسم الرابع فهو كالماء المستعمل في الكرة الرابعة وفي التبرد والتنظف فذلك باتفاق أصحاب الشافعي غير مستعمل وهو طاهر مطهر اما الماء المستعمل في غسل الثياب فاذا غسل ثوبا من نجاسة وطهر بغسلة واحدة يستحب أن يغسله ثلاثا فالمنفصل في الكرة الثانية والثالثة مطهر على الاصح (القسم الثاني) الماء الذي يتغير نقول الماء اذا تغير فاما أن يتغير بنفسه أو بغيره أما الاول فكالمتغير بطول المكث فيجوز الوضوء به لانه عليه السلام كان يتوضأ من بئر بضاعة وكان ماؤها كأنه نقاعة الحناء أما التغير بسبب غيره فذلك الغير اما أن لا يكون متصلا به أو يكون متصلا به اما الذي لا يكون متصلا به فهو كما لو وقع بقرب الماء جيفة فصار الماء متغيرا بسببها فهو أيضا مطهر وأما اذا تغير بسبب شيء متصل به فذلك المتصل اما أن يكون طاهرا أو نجسا (القسم الاول) اذا كان طاهرا فهو اما أن لا يخالطه أو يخالطه فان لم يخالطه فهو كالماء المتغير بسبب وقوع الدهن والطيب والعود والعنبر والكافور الصلب فيه وهذا أيضا مطهر كما لو كان بقرب الماء جيفة ولان الطهورية ثبتت بقوله وأنزلنا من السماء ماء طهورا والاصل [illegible] الثابت باقيا وأما التغير بسبب شيء يخالطه فذلك المخالط اما أن لا يمكن صون الماء عنه أو يمكن [illegible] الذي لا يمكن فكالمتغير بالتراب والطحلب والاوراق التي [illegible] وهذا أيضا مطهر لان الطهورية ثبتت بالاية [illegible] ما جعل عليكم في الدين من حرج وكذا لو جرى الماء في طريقه على معدن زرنيخ أو نورة أو كحل أو وقع شيء منها فيه أو نبع من معادنها اما اذا تغير الماء بسبب مخالطة ما يستغني الماء عنه نظر ان كان التغير قليلا بحيث لا يضاف الماء اليه بأن وقع فيه زعفران فاصفر قليلا أو دقيق فابيض قليلا جاز الوضوء به على الصحيح من المذهب لانه لم يسلبه اطلاق اسم الماء واما ان كان التغير كثيرا فان استحدث اسما جديدا كالمرقة لم يجز الوضوء به بالاتفاق وان لم يستحدث اسما جديدا فعند الشافعي لا يجوز الوضوء به وعند أبي حنيفة يجوز (حجة الشافعي) من وجوه أحدها انه عليه السلام توضأ ثم قال هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة الا به فذلك الوضوء ان كان واقعا بالماء المتغير وجب أن لا يجوز الا به وبالاتفاق ليس الامر كذلك فثبت انه كان بماء غير متغير وهو المطلوب (ثانيها) انه اذا اختلط ماء الورد بالماء ثم توضأ الانسان به فيحتمل ان بعض الاعضاء قد انغسل بماء الورد دون الماء واذا كان كذلك فقد وقع الشك في حصول الوضوء وكان تيقن الحدث قائما والشك لا يعارض اليقين فوجب أن يبقى على الحدث بخلاف ما اذا كان قليلا لا يظهر أثره فانه صار كالمعدوم اما اذا ظهر أثره علمنا انه باق فيتوجه ما ذكر (وثالثها) ان الوضوء تعبد لا يعقل معناه فانه لو توضأ بماء الورد لا يصح وضوءه ولو توضأ بالماء الكدر المتعفن صح وضوءه وما لا يعقل معناه وجب الاقتصار فيه على مورد النص وترك القياس (حجة أبي حنيفة) وجوه

كرون النشور المستتبع للجزاء الاخروى ولايرون لنفس من النفوس نشورا أصلا مع تحققه حتما وشموله للناس
وما واطراده وقوعا وكيف يعترفون بالجزاء الدنيوى فى حق طائفة خاصة مع عدم الاطراد والملازمة بينه وبين
لمعاصى حتى يذكروا و يتعظوا بما شاهدوه ﴿ ٤٨٥ ﴾ من آثار الهلاك وانما يحملونه على الاتفاق واما انتقال

أحدها قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا دلت الآية على كون الماء مطهرا
والاصل فى الثابت بقاؤه فوجب بقاء هذه الصفة بعد التغير بالمخالطة (وثانيها) قوله تعالى
فاغسلوا أمر بمطلق الغسل وقد أتى به فوجب أن يخرج عن العهدة وقد بينا تقريره هذا
وجه فيما تقدم (وثالثها) قوله تعالى فلم تجدوا ماء فتيمموا على جواز التيمم بعدم
جدان الماء وواجد هذا الماء المتغير واجد للماء لان الماء المتغير ماء مع صفة التغير
الموصوف موجود حال وجود الصفة فوجب أن لايجوز له التيمم (ورابعها) قوله عليه
السلام فى البحر هو الطهور ماؤه الطهور ظاهره يقتضى جواز الطهارة به وان خالطه غيره لان
النبى صلى الله عليه وسلم أطلق ذلك (وخامسها) انه عليه السلام أباح الوضوء بسؤر
الهر وسؤر الحائض وان خالطه شئ من لعابهما (وسادسها) لاخلاف فى جواز الوضوء
بماء المد والسيول مع تغيرلونه بمخالطة الطين ومايكون فى الصحارى من الحشيش
والنبات ومن أجل مخالطة ذلك يرى تارة متغيرا الى السواد وأخرى الى الحمرة والصفرة
فصار ذلك أصلا فى جميع ماخالط الماء اذا لم يغلب عليه فيسلبه اسم الماء (الاسم الثانى)
اذا كان المخالط للماء شيأ نجسا فى الناس من زعم أن الماء لاينجس مالم يتغير بالنجاسة
سواء كان قليلا أو كثيرا وهو قول الحسن البصرى والنخعى ومالك وداود والبصريين
الشيخ القاضى فى كتاب الاحياء وقال أبو بكر الرازى مذهب اصحابنا ان كل ماتيقنا فيه
جزأ من النجاسة أوغلب على الظن ذلك لم يجز استعماله ولايختلف على هذا حكم ماء
البحر وماء البئر والغدير والراكد والجارى لان ماء البحر اذا وقعت فيه نجاسة لم يجز
استعمال الماء الذى فيه النجاسة وكذلك الماء الجارى وأما اعتبار أصحابنا للتغير الذى
اذا حرك أحد طرفيه لم يتحرك الطرف الآخر فانما هو كلام فى جهة تغليب الظن فى بلوغ
النجاسة الواقعة فى أحد طرفيه الى الطرف الآخر وليس هو كلامنا فى أن بعض المياه
الذى فيه النجاسة قد يجوز استعمالها و بعضها لايجوز استعماله هذا كله كلام أبى بكر
(وأقول) من الناس من فرق بين القليل والكثير فعن عبد الله بن عمر اذا كان الماء
أربعين قلة لم ينجسه شئ وعن ابن عباس رضى الله عنهما الحوض لايغتسل فيه جنب الا
أن يكون فيه أربعون غرباوهو قول محمد بن كعب القرظى وقال مسروق وابن سيرين
اذا كان الماء كثيرا لاينجسه شئ وقال سعيد بن جبير الماء الراكد لاينجسه شئ اذا كان
قدر ثلاث قلال (وقال الشافعى) اذا كان الماء قلتين بقلال هجر لم ينجسه الا ماغير طعمه
أو ريحه أولونه وان كان أقل ينجس لظهور النجاسة فيه واعلم انه يمكن التمسك لنصرة
قول مالك بوجوه أحدها قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا ترك العمل به فى الماء
الذى تغير لونه أوطعمه أو ريحه لظهور النجاسة فيه فيبقى فيما عداه على الاصل (وثانيها)
قوله عليه السلام خلق الله الماء طهورا لاينجسه شئ الا ماغير طعمه أولونه أو ريحه وهو
نص فى الباب (وثالثها) قوله تعالى فاغسلوا وجوهكم والمتوضئ بهذا الماء قد غسل

من التوبيخ بما ذكر من ترك التذكر الى التوبيخ بما هو أعظم منه من عدم توقع النشور (واذا رأوك ان يتخذونك الا هزوا) أى ما يتخذونك الا مهزوأ به على معنى قصر امرهم عند عليه الصلاة والسلام على اتخاذهم اياه عليه الصلاة والسلام هزوا الاعلى معنى قصر اتخاذهم على كونه هزوا كما هو المتبادر من ظاهر العبارة كأنه قيل ما يفعلون بك الا اتخاذك هزوا وقد مر تحقيق فى قوله تعالى ان أتبع الا ما يوحى الى من سورة الانعام وقوله تعالى (أهذا الذى بعث الله رسولا) محكى بعد قول مضمر هو حال من فاعل يتخذونك أى يستهزؤن بك قائلين أهذا الذى الخ والاشارة للاستحقار وابراز بعث الله رسولا فى معرض التسليم بجعله صلة للموصول الذى هو صفته عليه الصلاة والسلام مع كونهم فى غاية التكير لبعثه عليه الصلاة والسلام بطريق التهكم

والاستهزاء والا لقالوا أبعث الله هذا رسولا أو أهذا الذى يزعم أنه بعثه الله رسولا (ان كاد) ان مخففة من ان وضمير الشان محذوف أى انه كاد (ليضلنا عن آلهتنا) أى ليصرفنا عن عبادتها صرفا كليا بحيث يعدنا عنها لا عن عبادتها فقط والعدول الى الاضلال لغاية

ضلالهم بادعاء أن عبادتهما طريق سوى (لولا أن صبرنا عليها) ثبتنا عليها واستمسكنا بعبادتها ولولا في أمثال هذا الكلام تجري مجرى التقييد للحكم المطلق من حيث المعنى كما أشير اليه في قوله تعالى ولقد همت به الخ وهذا اعتراف منهم بأنه عليه الصلاة والسلام قد بلغ ﴿ ٤٨٦ ﴾ من الاجتهاد في الدعوة الى الحق واظهار المعجزات واقامة الحجج والبينات الى حيث شارفوا أن يتزلزوا دينهم لولا فرط لجاجهم وغاية عنادهم يروى أنه من قول أبي جهل (وسوف يعلمون) جواب من جهته تعالى لآخر كلامهم ورد لما ينبئ عنه من نسبته عليه الصلاة والسلام الى الضلال في ضمن الاضلال أي سوف يعلمون البتة وان تراخى (حين يرون العذاب) الذي يستوجبه كفرهم وعنادهم (من أضل سبيلا) وفيه مالا يخفى من الوعيد والتنبيه على أنه تعالى لا يهملهم وان امهلهم (أرأيت من اتخذ الهه هواه) تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من شناعة حالهم بعد حكاية فنائحهم من الاقوال والافعال وبيان ما هم من المصير وتأل وتنبيه على ان ذلك من الغرابة بحيث يجب أن يرى ويتعجب منه والهه مفعول ثان لاتخذ قدم على الاول للاعتناء به لانه الذي يدور عليه أمر التعجيب ومن توهم انهما على الترتيب بناء على تساويهما في التعريف ﴿ ذلك فقد زل منه أن المفعول الثاني في هذا الباب هو المتلبس بالحالة الحادثة أي أرأيت من جعل هواه الها لنفسه من غير

وجهه فيكون آتيا بما أمر به فيخرج عن العهدة (ورابعها) أن من شأن كل مختلطين كان أحدهما غالبا على الآخر أن يكيف المغلوب بكيفية الغالب فالقطرة من الخل لو وقعت في الماء الكثير بطلت صفة الخلية عنها واتصفت بصفة الماء وكون أحدهما غالبا على الآخر انما يعرف بغلبة الحواص والآثار المحسوسة وهي الطعم أو اللون أو الريح فلا جرم مهما ظهر طعم النجاسة أو لونها أو ريحها كانت النجاسة غالبة على الماء وكان الماء مستهلكا فيها فلا جرم يغلب حكم النجاسة فاذا لم تظهر شئ من ذلك كان الغالب هو الماء وكانت النجاسة مستهلكة فيه فيغلب حكم الطهارة (وخامسها) ماروى عن عمر توضأ من جرة نصرانية مع أن نجاسة أواني النصارى معلومة بظن قريب من العلم وذلك يدل على أن عمر لم يعول الا على عدم التغير (وسادسها) أن تقدير الماء بمقدار معلوم لو كان معتبرا كالقلتين عند الشافعي وعشر في عشر عند أبي حنيفة رضي الله عنه لكان أولى المواضع بالطهارة مكة والمدينة لانه لا تكثر المياه هناك لا الجارية ولا الراكدة الكثيرة ومن أول عصر الرسول صلى الله عليه وسلم الى آخر عصر الصحابة لم ينقل انهم خلصوا في تقدير المياه بالاقادير المعينة ولا انهم سألوا عن كيفية حفظ المياه عن النجاسات وكانت أواني مياههم يتعاطاها الصبيان والاماء الذين لا يحترزون عن النجاسات (وسابعها) اصغاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الاناء للهرة وعدم منعهم الهرة من شرب الماء من أوانيهم بعد أن كانوا يرون انها تأكل الغائرة ولم يكن في بلادهم حياض تلغ السنانير فيها وكانت لا تنزل الابار (وثامنها) أن الشافعي نص على ان غسالة النجاسات طاهرة اذا لم تغير نجسة اذا تغيرت وأي فرق بين أن يلاقي الماء النجاسة بالورود عليها أو بورودها عليه وأي معنى لقول القائل ان قوة الورود تدفع النجاسة مع أن قوة الورود لم تمنع المخالصة (وتاسعها) انهم كانوا يستنجون على أطراف المياه الجارية القليلة ولا خلاف ان مذهب الشافعي اذا وقع بول في ماء جار ولم يتغير أنه يجوز الوضوء به وان كان قليلا وأي فرق بين الجاري والراكد وليت شعري الحوالة على عدم التغير أولى أو على قوة الماء بسبب الجريان (وعاشرها) اذا وقع بول في قلتين ثم فرقنا فكل كوز يؤخذ منه فهو طاهر على قول الشافعي ومعلوم أن البول منتشر فيه وهو قليل فأي فرق بينه اذا وقع ذلك القدر من الماء ابتداء وبينه اذا وقع في قلة ليس عندنا نصاب غيرها (وحادي عشرها) أن الحمامات لم تزل في الاعصار الخالية يتوضأ فيها المتنشفون ويغسلون الايدي والاواني في ذلك القليل من الماء من تلك الحياض مع علمهم بان الايدي الطاهرة والنجسة كانت تتوارد عليها ولو كان التقدير بالقلتين معتبرا لاشتهر ذلك ولبلغ ذلك الى حدا التواتر لان الامر الذي تشتد حاجة الجمهور اليه يجب بلوغ نقله الى حد التواتر ولما لم يكن ذلك علمنا أنه غير معتبر (وثاني عشرها) أنا لو حكمنا بنجاسة الماء فلا يمكننا أن نحكم بنجاسة الماء ان كان في غاية الكثرة مثل ماء الاودية العظيمة والغدران الكبار فان

لحظه وبنى عليه أمر دينه معرضا عن استماع الحجة الباهرة والبرهان المنير بالكلية على معنى انظر اليه وتعجب
نه وقوله تعالى (أفانت تكون عليه وكيلا) انكار واستبعاد لكونه عليه الصلاة والسلام حفيظا عليه زاجره
عما هو عليه من الضلال ومرشده الى الحق ﴿ ١٨٧ ﴾ طوعا أو كرها وافناء لغاية الانكار على ماعليه

ذلك باجماع باطل فلا بد من التقدير بمقدار معين وقد نقلنا عن الناس تقديرات مختلفة
فليس بعضها اولى من بعض فوجب التعارض والتساقط اما تقدير أبي حنيفة بعشر
في عشر فمعلوم انه مجرد تحكم وأما تقدير الشافعي بالقلتين بناء على قوله عليه السلام اذا
بلغ الماء القلتين لم يحمل خبثا فضعيف أيضا لان الشافعي لما روى هذا الخبر قال أخبرني
الرجل فيكون الراوي مجهولا ويكون الحديث مرسلا وهو عنده ليس بحجة وأيضا زعم
كثير من المحدثين انه موقوف على ابن عمر رضي الله عنه سلمنا صحة الرواية لكنه احالة
المجهول على مجهول لان القلة غير معلومة فانها تصلح للكوز والجرة ولكل ما نقل باليد
وهو أيضا اسم لهامة الرجل ولقلة الجبل سلمنا كون القلة معلومة لكن في متن الخبر
اضطراب فانه روى اذا بلغ الماء قلتين وروى اذا بلغ قلة وروى أربعين قلة وروى اذا
بلغ قلتين أو ثلاثا وروى اذا بلغ كوزين سلمنا صحة المتن ولكنه متروك الظاهر لان قوله
لم يحمل خبثا لا يمكن اجراؤه على ظاهره فان الخبث اذا ورد عليه فقد حمله سلمنا امكان
اجرائه على ظاهره لكن الخبث على قسمين خبث شرعي وخبث حقيقي والاسم اذا دار
بين المسمى اللغوي والمسمى الشرعي كان حمله على المسمى اللغوي أولى لان الاسم حقيقة
في المسمى اللغوي مجاز في المسمى الشرعي دفعا للاشتراك والنقل واذا كان كذلك وجب
حمله عليه والمسمى اللغوي للخبث المستقذر بالطبع قال عليه السلام ما استخبثته العرب
فهو حرام اذا ثبت هذا فنقول معنى قوله لم يحمل خبثا أي لا يصير مستقذرا طبعا ونحن
نقول بموجبه لكن لم قلت انه لا ينجس شرعا سلمنا أن المراد من الخبث النجاسة الشرعية
لكن قوله لم يحمل خبثا أي يضعف عن حمله ومعنى الضعف تأثره فيكون هذا دليلا على
ضرورته نجسا لا على بقائه طاهرا (لا يقال) الجواب عن هذه المسئلة أن يقال ان الشافعي
وان لم يذكر اسم الراوي في بعض المواضع فقد ذكره في سائر المواضع فخرج عن كونه
مرسلا ولان سائر المحدثين قد عينوا اسم الراوي قوله انه موقوف على ابن عمر قلنا لا نسلم
ان يحيى بن معين قال انه جيد الاسناد فقيل له ان ابن علية وقفه على ابن عمر فقال ان كان
ابن علية وقفه فحماد بن سلمة رفعه وقوله القلة مجهولة قلنا لا نسلم لان ابن جريج قال في
روايته بقلال هجر ثم قال وقد شاهدت قلال هجر فكانت القلة تسع قربتين أو قربتين
شيأ قوله في متنه اضطراب قلنا لا نسلم لانا وأنتم تواطئنا على أن سائر المقادير غير معتبرة
في ما ذكرناه معتبرا قوله انه متروك الظاهر قلنا اذا حملناه على الخبث الشرعي اندفع
وذلك أولى لان حمل كلام الشرع على الفائدة الشرعية أولى من حمله على المعنى
العقلي لا سيما وفي حمله على المعنى العقلي يلزم التعطيل قوله المراد أنه يضعف عن حمله قلنا
في بعض الروايات أنه قال اذا كان الماء قلتين لم ينجس ولانه عليه السلام جعل
القلتين شرطا لهذا الحكم والمعلق على الشرط عدم عند عدم الشرط وعلى ما ذكروه
في القلتين فائدة (لا نقول) لاشك أن هذا الخبر بتقدير الصحة يقتضي تخصيص عموم

من احاله الوجبة له
كأنه قيل أبعد ما شاهدت
غلوه في طاعة الهوى
وعتوه عن اتباع الهدى
تقسره على الايمان
شاء أو أبى وقوله تعالى
(أم تحسب أن أكثرهم
يسمعون أو يعقلون)
اضراب وانتقال عن
الانكار المذكور الى انكار
حسبانه عليه الصلاة
والسلام لهم ممن يسمع
أو يعقل حسبما ينبئ عنه
جده عليه الصلاة
والسلام في الدعوة
واهتمامه بالارشاد
والتذكير لكن لا على أنه
لا يقع كالاول بل على
أنه لا ينبغي أن يقع أي بل
أتحسب أن أكثرهم
يسمعون ما تتلو عليهم
من الآيات حق السماع
أو يعقلون ما في
تضاعيفها من المواعظ
الزاجرة عن القبائح
الداعية الى المحاسن
فتعنى بشأنهم وتطمع
في ايمانهم وضمير أكثرهم
الى وجهه باعتبار معناها
كما أن الافراد في الضمائر
الاول باعتبار لفظها
وضمير الفعلين لا كثرلا

يف هواليه وقوله تعالى (ان هم الا كالانعام) الخ جملة مستأنفة مسوقة لتقرير التكير وتأكيده وحسم مادة
بان بالمرة أي ماهم في عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات

وانتفاء التدبر فيما يشاهدونه من الدلائل والمعجزات الاكالبهائم التي هي مثل في الغفلة وعلم في الضلالة (بل هم أضل) منها (سبيلا) لما أنها تنقاد لصاحبها الذي يعلفها و يتعهدها وتعرف من يحسن اليها ممن يسيء اليها وتطلب ماينفعها وتجتنب مايضرها وتهتدي لمراعيها ومشاربها ﴿ ٤٨٨ ﴾ وتأوي الى معاطنها وهؤلاء لاينقادون لربهم وخالقهم ورازقهم ولا يعرفون احسانه اليهم من اساءة الشيطان الذي هو أعدى عدوهم ولا يطلبون الثواب الذي هو اعظم المنافع ولا يتقون العقاب الذي هو أشد المضار والمهالك ولا يهتدون للحق الذي هو الشرع الالهي والمورد العذب الروي ولانها انما تحقد على مستحقيها لاكتسابها الخير بتعاطي باطلا مستوجبا لاضداده الشر بخلاف هؤلاء حيث مهدوا قواعد الباطل وردوا عليها أحكام الشرور وبنوا أحكام جهالاتهم وضلالاتهم مقصورة على أنفسها لاتتعدى الى أحد وجهالة هؤلاء مؤدية الى ثوران الفتنة والفساد وصد الناس عن سنن السداد وهيجان الهرج والمرج فيما بين العباد ولانها غير معطلة لقوة من القوى المودعة بل صارفة لها الى ما خلقت هي له فلا تقصير من قبلها في طلب الكمال وأما هؤلاء فهم معطلون لقواهم العقلية مضيعون للفطرة الاصلية التي فطر الناس عليها مستحقون بذلك ﴿ عليه أعظم العقاب وأشد

قوله تعالى وأنزلنا من السماء ماء طهورا وعموم قوله ولكن يريد ليطهركم وعموم قوله فاغسلوا وجوهكم وعموم قوله صلى الله عليه وسلم خلق الماء طهورا لاينجسه شيء وهذه المخصص لابد وأن يكون بعيدا عن الاحتمال والاشتباه وقلال هجر مجهولة وقول ابن جريج القلة تسع قربتين أو قربتين وشيئا ليس بحجة لان القلة كما انها مجهولة فكذا القربة مجهولة فانها قد تكون كبيرة وقد تكون صغيرة ولان الروايات أيضا مختلفة فتارة قال اذا بلغ الماء قلتين وتارة أربعين قلة وتارة كرين فاذا تدافعت وتعارضت لم يجز تخصيص عموم الكتاب والسنة الظاهرة البعيدة عن الاحتمال بمثل هذا الخبر هذا تمام الكلام في نصرة قول مالك واحتج من حكم بنجاسة الماء الذي تقع النجاسة فيه بوجوه (أولها) قوله تعالى و يحرم عليهم الخبائث والنجاسات من الخبائث وقال تعالى انما حرم عليكم الميتة والدم وقال في الخمر رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ومر عليه السلام بقبرين فقال انهما ليعذبان وما يعذبان في كبير أحدهما كان لا يستتر من البول والآخر كان يمشي بالنميمة ثم استدعى بالعسيب الرطب فشقه نصفين وغرز في كل قبر واحدة وقال لعله يخفف عنهما مالم ييبسا فلولا نجاسة الماء لوجب تحريم استعماله بل ما يجري مجراه من النجاسة أكثر مافي الباب أن الدلائل الدالة على كون الماء طهارته تفيد جواز الطهارة به ولكن تلك الدلائل مبيحة والدلائل التي ذكرناها حاظرة والمبيح والحاظر اذا اجتمعا فالغلبة للحاظر ألا ترى ان الجارية بين رجلين لو كان لاحدهما منها مائة جزء وللآخر جزء واحد كان جهة الحظر فيها أولى من جهة الاباحة وأيضا غير جائز واحد منهما وطؤها وكذا ههنا (وثانيها) قوله عليه السلام لايبولن أحدكم في الماء الدائم لم يفصل فيه بين الجاري وغيره فيذكر من الطلاق من غير فرق بين الذكر والانثى والكبير (وثالثها) قوله عليه السلام اذا استيقظ أحدكم من منامه فليغسل يده ثلاثا قبل ان يدخلها الاناء فانه لايدري أين باتت يده فأمر بغسل اليد احتياطا من نجاسة قد أصابته من موضع الاستنجاء ومعلوم انه متى اذا أدخلت الماء لم تغيره ولولا انها تفسده ما كان للامر بالاحتياط منها معنى (ورابعها) قوله عليه السلام اذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا يدل بمفهومه على انه اذا لم يبلغ قلتين وجب أن يحمل الخبث أجاب مالك عن الوجه الاول فقال لانزاع في أنه يحرم استعمال النجاسة ولكن الجزء القليل من النجاسة المائعة اذا وقع في الماء لم يظهر فيه لونه ولا طعمه ولا رائحته فلم قلتم ان تلك النجاسة بقيت ولم لايجوز أن يقال انها انقلبت عن صفتها وتقريره ماقدمناه وأما قوله عليه السلام لايبولن أحدكم في الماء الدائم فلم قلتم ان هذا النهي ليس الا لما ذكرتموه بل لعل النهي انما كان لانه ربما شرب به انسان وذلك مما ينفر طبعه عنه وليس الكلام في نفرة الطبع وأما قوله اذا استيقظ أحدكم من منامه فليغسل يده ثلاثا فقد أجمعنا على أن هذا الامر استحباب فالمرتب عليه كيف يكون أمر ايجاب ثم بتقدير أن يكون أمر ايجاب فلم قلتم انه لم يوجه ذلك الايجاب الا لما ذكرتموه وأما قوله

عليه السلام اذا بلغ الماء قلتين فقد سبق الكلام عليه ثم بعد النزول عن كل ماقلناه فهو تمسك بالمفهوم والنصوص التى ذكرناها منطوقة والمنطوق راجح على المفهوم والله أعلم (النظر الثانى) فى ان غير الماء هل هو طهور أم لا فقال الاصم والاوزاعى يجوز الوضوء بجميع المايعات وقال أبو حنيفة يجوز الوضوء بنبيذ التمر فى السفر وقال أيضا تجوز ازالة النجاسة بجميع المائعات التى تزيل اعيان النجاسات وقال الشافعى رضى الله عنه الطهورية مختصة بالماء على الاطلاق ودليله صورة الحدث قوله تعالى فان لم تجدوا ماء فتيمموا أوجب التيمم عند عدم الماء ولو جاز الوضوء بالخل أو نبيذ التمر لما وجب التيمم عند عدم الماء وأما فى صورة الخبث فلان الخل لو أفاد طهارة الخبث لكان طهورا لانه لامعنى للطهور الا المطهر ولو كان طهورا لوجب أن يجوز به طهارة الحدث لقوله عليه السلام لايقبل الله صلاة أحدكم حتى يضع الطهور مواضعه وكلمة حتى لانتهاء الغاية فوجب انتهاء عدم القبول عند استعمال الطهور وانتهاء عدم القبول يكون بحصول القبول فلو كان الخل طهورا لحصل باستعماله قبول الصلاة وحيث لم يحصل علمنا أن الطهورية فى الخبث أيضا مختصة بالماء ﴿ قوله تعالى (ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فابى أكثر الناس الا كفورا ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أنهم اختلفوا فى أن الهاء فى قوله ولقد صرفناه الى أى شئ يرجع وذكروا فيه ثلاثة أوجه (أحدها) وهو الذى عليه الجمهور انه يرجع الى المطر ثم من هؤلاء من قال معنى صرفناه أنا أجرينا ه فى الانهار حتى انتفعوا بالشرب والزراعات وأنواع المعاش به وقال آخرون معناه انه سبحانه ينزله فى مكان دون مكان وفى عام دون عام ثم فى العام الثانى يقع بخلاف ماوقع فى العام الاول قال ابن عباس ماعام بأكثر مطرا من عام ولكن الله يصرفه فى الارض ثم قرأ هذه الآية وروى ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال مامن عام بامطر من عام ولكن اذا عمل قوم بالمعاصى حول الله ذلك الى غيرهم فاذا عصوا جميعا صرف الله ذلك الى القفاقى (وثانيها) وهو قول أبى مسلم أن قوله صرفناه راجع الى المطر والرياح والسحاب والاظلال وسائر ماذكر الله تعالى من الادلة (وثالثها) ولقد صرفناه أى هذا القول بين الناس فى القرآن وسائر الكتب والصحف التى أنزلت على الرسل وهو ذكر انشاء السحاب وانزال القطر ليتفكروا ويستدلوا به على الصانع والوجه الاول أقرب لانه أقرب المذكورات الى الضمير (المسئلة الثانية) قال الجبائى قوله تعالى ليذكروا يدل على أنه تعالى مريد من الكل ان يتذكروا ويشكروا ولو أراد منهم أن يكفروا ويعرضوا الماصح ذلك وذلك يبطل قول من قال ان الله تعالى مريد للكفر ممن يكفر قال ودل قوله فابى أكثر الناس الا كفورا على قدرتهم على فعل هذا التذكر ادلو لم يقدروا والمجاز أن يقال أبوا أن يفعلوه كما لايقال فى الزمن أبى أن يسعى وقال الكعبى قوله ولقد صرفناه بينهم ليذكروا حجة

تعالى (كيف مد الظل) أى كيف أنشأ الظل أى مظل كان من جبل أو بناء أو شجر عند ابتداء طلوع الشمس ممتدا لانه تعالى مده بعد أن لم يكن كذلك كما بعد نصف النهار الى غروبها فان ذلك مع خلوه عن التصريح يكون تفسه بانشائه تعالى واحداثه بأباه سياق النظم الكريم وأما ماقيل من أن المراد بالظل مابين طلوع الفجر وطلوع الشمس وانه أطيب الاوقات فان الظلمة الخالصة تنفر عنها الطباع وشعاع الشمس يسخن الجو ويبهر البصر ولذلك وصف به الجنة فى قوله تعالى وظل ممدود غير سديد اذ لاريب فى أن المراد تنبيه الناس على عظيم قدرة الله عز وجل وبالغ حكمته فيما يشاهدونه فلابد أن يراد بالظل مايتعارفونه من حالة مخصوصة يشاهدونها فى موضع يحول بينه وبين الشمس جسم كثيف مخالف لها

على مايطالعه من الآثار والصنائع بل مطمح أنظاره معرفة شؤن الصانع المجيد وقوله تعالى (ولو شاء لجعله ساكنا) جملة اعترضت بين المعطوفين للتنبيه من أول الامر على أنه لامدخل فيما ذكر من المد للاسباب العادية وانما المؤثر فيه المشيئة والقدرة و مفعول المشيئة محذوف على القاعدة ﴿ ٤٩٠ ﴾ المستمرة من وقوعها شرطا وكون مفعولها مضمون الجزاء أى ولو شاء سكونه لجعله ساكنا أى ثابتا على حاله من الطول والامتداد وانما عبر عن ذلك بالسكون لما أن مقابله الذى هو تغير حاله حسب تغير الاوضاع بين الظل وبين الشمس يرى رأى العين حركة وانتقالا وحاصله أنه لايعتريه اختلاف حال بان لاتنسخه الشمس وانما التعليل بان يجعل الشمس مقيمة على وضع واحد فداره العقول عما سبق إلى النظم الكريم ونظيره صريحا من بيان كمال قدرته القاهرة وحكمته الباهرة بالنسبة إلى جميع الامور الحادثة إليه تعالى بالذات وانقطاع الاسباب العادية عن رتبة السببية والتأثير بالكلية وقصرها على مجرد الدلالة على وجود المسببات لابذكر قدرته تعالى على بعض الخوارق كاقامة الشمس فى مقام واحد على أنها أعظم من ابقاء الظل على حاله فى الدلالة على ماذكر من كمال القدرة والحكمة لكونه فروعها ومستتبعاتها فهى أولى وأحق بالايراد فى معرض البيان ﴿ الارسال ﴾ وقوله تعالى (ثم جعلنا الشمس عليه دليلا) عطف على مدد داخل فى حكمه أى جعلناها علامة يستدل باحوالها المتغيرة على أحواله من غير أن يكون بينهما سببية وتاثير قطعا

على من زعم أن القرآن و بال على الكافرين وأنه لم يرد بانزاله ان يؤمنوا لان قوله ليذكروا عام فى الكل وقوله وأبى أكثر الناس يقتضى أن يكون هذا الاكثر داخلا فى ذلك العام لانه لايجوز أن يقال أنزلناه على قريش ليؤمنوا فابى أكثر بنى تميم الاكفورا واعلم أن الكلام عليه قد تقدم مرارا (المسئلة الثالثة) قوله فابى أكثر الناس الاكفورا المراد كفران النعمة وجحودها من حيث لايتفكرون فيها ولايستدلون بها على وجود الصانع و قدرته واحسانه وقيل المراد من الكفر هو الكفر وذلك الكفر انما حصل لانهم يقولون مطرنا بنوء كذا لان من جحد كون النعم صادرة من المنعم وأضاف مثل هذه النعمة الى الافلاك والكواكب فقد كفر واعلم أن التحقيق أن من جعل الافلاك والكواكب مستقلة باقتضاء هذه الاشياء فلاشك فى كفره وأما من قال الصانع تعالى جبلها على خواص وصفات تقتضى هذه الحوادث فعله لايبلغ خطؤه الى حد الكفر (المسئلة الرابعة) قالوا الآية دلت على أن خلاف معلوم الله مقدور له لان كلمة لو دلت على أنه تعالى ماشاء أن يبعث فى كل قرية نذيرا ثم انه تعالى أخبر عن كونه قادرا على ذلك فدل ذلك على ان خلاف معلوم الله مقدور له ﴿ أما قوله تعالى ولوشئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا فالاقوى أن المراد من ذلك تعظيم النبى صلى الله عليه وسلم وذلك لوجوه (أحدها) كانه تعالى بين انه مع قدرته على بعثة رسول ونذير فى كل قرية خصه بارسالة وفضله بها الى الكل وانما أتبعه بقوله فلاتطع الكافرين أى لاتوافقهم (وثانيها) المراد لمشئنا لخففنا عنك أعباء الرسالة الى كل العالم ولبعثنا فى كل قرية نذيرا ولكنا قصرنا الامر عليك وأجللناك وفضلناك على سائر الرسل فابن هذا الاجلال باتشديد فى الدين (وثالثها) الآية تقتضى مزيد العطف بالعطف لانها تدل على القدرة على أن يبعث فى كل قرية نذيرا مثل محمد وانه لحاجة باكثرة الالهية الى محمد انبثة وقوله ولو يدل على انه سبحانه لايفعل ذلك فيكون النظر الى الاول يحصل التأديب وبالنظر الثانى يحصل الاعزاز أما قوله فلاتطع الكافرين فالمراد نهيه عن طاعتهم ودلت هذه الآية على أن النهى عن الشئ لايقتضى كون المنهى عنه مشتغلا به وأما قوله وجاهدهم به جهادا كبيرا فقال بعضهم المراد بذل الجهد فى الاداء والدعاء وقال بعضهم المراد القتال وقال آخرون كلاهما والاقرب الاول لان السورة مكية والامر بالقتال ورد بعد الهجرة بزمان وانما قال جهادا كبيرا لانه لو بعث فى كل قرية نذيرا لوجب على كل نذير مجاهدة قريته فاجتمعت على رسول الله تلك المجاهدات وكثر جهاده من أجل ذلك وعظم فقال له وجاهدهم بسبب كونك نذيرا كافة القرى جهادا كبيرا جاعلا كل مجاهدة * قوله تعالى (وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا) اعلم أن هذا هو النوع الرابع من دلائل التوحيد و قوله مرج البحرين أى خلاهما وأرسلهما يقال مرجت الدابة اذا خليتها ترعى وأصل المرج

حسبما نطق به الشرطية المعترضة والالتفات الى نون العظمة لما في الجعل المذكور العاري عن التأثير مع ما يشاهد بين الشمس والظل من الدوران لمطرد المنبئ عن السببية مزيد دلالة على عظم القدرة ودقة الحكمة وهو السر في ايراد كلمة التراخي

قوله تعالى (ثم قبضناه) عطف على مدخول ... من حكمه وثم التراخي الزماني لما أر في بيان كون القبض

الارسال والخلط ومنه قوله تعالى فهم في أمر مريج سمي الماءين الكبيرين الواسعين بحرين قال ابن عباس مرج البحرين اي أرسلهما في مجاريهما كما ترسل الخيل في المرج وهما يلتقيان وقوله هذا عذب فرات والمقصود من الفرات البالغ في العذوبة حتى يصير الى الحلاوة والاجاج نقيضه وانه سبحانه بقدرته يفصل بينهما ويمنعهما التمازج جعل من عظيم اقتداره برزخا حائلا من قدرته وههنا سؤالات (السؤال الاول) ما معنى قوله وحجرا محجورا الجواب هي الكلمة التي يقولها المتعوذ وقد فسرناها وهي ههنا واقعة على سبيل المجاز كأن كل واحد من البحرين يتعوذ من صاحبه ويقول له حجرا محجورا كما قال لا يبغيان أي لا يبغي أحدهما على صاحبه بالممازجة فانتفاء البغي كالتعوذ وههنا جعل كل واحد منهما في صورة الباغي على صاحبه فهو يتعوذ منه وهي من احسن الاستعارات (السؤال الثاني) لا وجود للبحر العذب فكيف ذكره الله تعالى ههنا (لا يقال) هذا مدفوع من وجهين لاول ان المراد منه الاودية العظام كالنيل وجيحون الثاني انه جعل في البحار مواضع يكون أحدهما بينه عذبا والآخر ملحا (لانا نقول) أما الاول فضعيف لان هذه الاودية ليس فيها ماء ملح والبحار ليس فيها ماء عذب فلم يحصل البتة موضع التعجب وأما الثاني فضعيف لان موضع الاستدلال لا بد وأن يكون معلوما فاما بمحض التجويز فلا يحسن الاستدلال لانا نقول المراد من البحر العذب هذه الاودية ومن الاجاج البحار الكبار وجعل بينهما برزخا أي حائلا من الارض ووجه الاستدلال ههنا بين لان العذوبة والملوحة ان كانت بسبب طبيعة الارض أو الماء فلا بد من الاستواء وان لم يكن كذلك فلا بد من قادر حكيم يخص كل واحد من الاجسام بصفة خاصة معينة * قوله تعالى (وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا) واعلم أن هذا هو النوع الخامس من دلائل التوحيد وفيه بحثان (الاول) ذكروا في هذا الماء قولين أحدهما انه الماء الذي خلق منه أصول الحيوان وهو الذي عناه بقوله والله خلق كل دابة من ماء والثاني أن المراد النطفة لقوله خلق من ماء دافق من ماء مهين (البحث الثاني) المعنى انه تعالى قسم البشر قسمين ذوي نسب أي ذكورا ينسب اليهم فيقال فلان بن فلانة بنت فلان وذوات صهر أي اناثا يصاهرن ونحوه قوله تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى وكان ربك قديرا حيث خلق من النطفة الواحدة نوعين من البشر الذكر والانثى * قوله تعالى (ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا قل ما أسألكم عليه من اجر الا من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا) واعلم أنه تعالى لما شرح دلائل التوحيد عاد الى تعجيب قريتهم في عبادة الاوثان وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قيل المراد بالكافر أبو جهل لان الآية نزلت فيه والاولى حمله على العموم لان خصوص السبب لا يقدح في عموم

والمد مرتبين دائرين على قطب مصالح المخلوقات مزيد دلالة على الحكمة الربانية ويجوز أن تكون التراخي الرتبي أي أزلناه بعدما أنشأنا ممتدا ومحوناه بمحض قدرتنا وشيئتنا عند ايقاع شعاع الشمس موقعه من غير أن يكون له تاثير في ذلك أصلا وانما عبر عنه بالقبض المنبئ عن جمع المنبسط وطيها أنه قد عبر عن احداثه بالمد الذي هو البسط طولا وقوله تعالى (اليسا) لتنصيص على كون مرجعه اليه تعالى كما أن حدوثه منه عز وجل قبضا يسيرا) أي على مهل قليلا قليلا حسب ارتفاع دليله على وتيرة معينة مطردة مستتبعة لمصالح المخلوقات ومرافقها وقيل ان الله تعالى حين بنى السماء كالقبة المضروبة ودحا الارض تحتها ألقت القبة ظلها على الارض لعدم الغير وذلك مده تعالى اياه واو شاء لجعله ساكنا مستقرا على تلك الحالة

خلق الشمس وجعلها على ذلك الظل أي سلطها عليه ونصبها دليلا ستوعاله كما يتبع الدليل في الطريق فهو يزيدها وينقص ويمتد ويقلص ثم نسخه بها بقبضه قبضا سهلا يسيرا غير عسير أو قبضا سهلا عند قيام الساعة بقبض أسبابه وهي الاجرام التي تلقي الظل فيكون قد ذكر اعدامه باعدام أسبابه

كما ذكر انشاؤه بانشائها ووصفه بالبسر على طريقة قوله تعالى ذلك حشر علينا يسير وصيغة الماضي للدلالة على تحقق الوقوع (وهو الذي جعل لكم الليل لباسا) بيان لبعض بدائع آثار قدرته تعالى وحكمته وروائع أحكام رحمته ونعمته الفائضة على الخلق وتلوين الخطاب لتوفية مقام الامتنان ﴿ ٤٩٢ ﴾ حقه واللام متعلقة بجعل وتقديمها على مفعوله للاعتناء ببيان كون ما يعقبه من منافعهم وفي تعقيب بيان أحوال الظل ببيان أحكام الليل الذي هو ظل الارض من لطف المسلك مالا مزيد عليه أي هو الذي جعل لكم الليل كاللباس يستركم بظلامه كما يستركم اللباس (والنوم سباتا) أي وجعل النوم الذي يقع في الليل غالبا قطعا عن الافاعيل المخصصة بحال اليقظة عبر عنه بالسبات الذي هو الموت لما بينهما من المشابهة التامة في انقطاع أحكام الحياة وعليه قوله تعالى وهو الذي يتوفاكم بالليل وقوله تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها (وجعل النهار نشورا) اي زمان بعث من ذلك السبات كبعث الموتى على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه أو نفس البعث على طريق المبالغة وفيه اشارة الى أن النوم واليقظة انموذج للموت والنشور وعن لقمان عليه السلام يا بني كما تنام فتوقظ كذلك تموت وتنشر (وهو الذي أرسل الرياح) وقرئ بالنون حيد على أن المراد هو الجنس (بشرا) ﴿ عليه ﴾ تخفيف بشر جمع بشور أي مبشرين وقرئ بشرى وقرئ نشرا بالنون جمع نشور أي ناشرات للسحاب وقرئ بالتخفيف بفتح النون أيضا

المعظ ولانه أوفق بظاهر قوله ويعبدون من دون الله (المسئلة الثانية) ذكروا في الظهير وجوها (أحدها) ان الظهير بمعنى المظاهر كالعون بمعنى المعاون وفعيل بمعنى مفاعل غير غريب والمعنى ان الكافر يظاهر الشيطان على ربه بالعداوة فان قيل كيف يصح في الكافر أن يكون معاونا للشيطان على ربه بالعداوة قلنا انه تعالى ذكر نفسه وأراد رسوله كقوله ان الذين يؤذون الله (وثانيها) يجوز أن يريد بالظهير الجماعة كقوله والملائكة بعد ذلك ظهير كما جاء الصديق والخليط وعلى هذا التفسير يكون المراد بالكافر الجنس وأن بعضهم مظاهر لبعض على اطفاء نور الله تعالى قال تعالى واخوانهم يمدونهم في الغي (وثالثها) قال أبو مسلم الاصفهاني الظهير من قولهم ظهر فلان بحاجتي اذا نبذها وراء ظهره وهو من قوله تعالى واتخذتموه وراءكم ظهريا ويقال فلان يستهين بالشيء يبذه وراء ظهره وقياس العربية أن يقال مظهور أي مستخف به متروك وراء الظهر فقيل فيه ظهير في معنى مظهور ومعناه هين على الله أن يكفر الكافر وهو تعالى مستهين بكفره أما قوله تعالى وما أرسلناك الا مبشرا ونذيرا فتعلق ذلك بما تقدم هو ان الكفار يطلبون العون على الله تعالى وعلى رسوله والله تعالى بعث رسوله لنفعهم لانه بعثه ليبشرهم على الطاعة وينذرهم على المعصية فيستحقوا الثواب ويحترزوا عن العقاب فلا جهل أعظم ممن جهل من استفرغ جهده في ايذاء شخص استفرغ جهده في اصلاح مهماته دنيا ودينا ولا يسألهم على ذلك البتة اجرا أما قوله الا من شاء فذكروا فيه وجوها متقاربة أحدها لا يسألهم على الاداء والدعاء أجرا الا أن يشاؤا أن يتقربوا بالانفاق في الجهاد وغيره فيتخذوا به سبيلا الى رحمة ربهم ونيل ثوابه (وثانيها) قال القاضي معناه لا اسألكم عليه أجرا لنفسي وأسألكم أن تطلبوا الاجر لأنفسكم باتخاذ السبيل الى ربكم (وثالثها) قال صاحب الكشاف مثال قوله الا من شاء والمراد الافعل من شاء واستثناؤه عن الاجر قول ذي شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال ما أطلب منك ثوابا على ما سعيت الا أن تحفظ هذا المال ولا تضيعه فليس حفظك المال لنفسك من جنس الثواب ولكن صورة هو بصورة الثواب وسماه باسمه فافاد فائدتين احداهما قلع شبهة الطمع في الثواب من أصله كأنه يقول لك ان كان حفظك لمالك ثوابا فاني أطلب الثواب والثانية اظهار الشفقة البالغة وان حفظك لمالك يجري مجرى الثواب العظيم الذي توصله الى ومعنى اتخاذهم الى الله سبيلا تقربهم اليه وطلبهم عنده الزلفى بالايمان والطاعة وقيل المراد التقرب بالصدقة والنفقة في سبيل الله أما قوله وتوكل على الحي الذي لا يموت فالمعنى انه سبحانه لما بين ان الكفار مظاهرون على ايذائه فامره بان لا يطلب منهم أجرا البتة أمره بان يتوكل عليه في دفع جميع المضار وفي جلب جميع المنافع وانما قال على الحي الذي لا يموت لان من توكل على الحي الذي يموت عذامات المتوكل عليه صار المتوكل ضائعا أما هو سبحانه وتعالى فانه حي لا يموت فلا يضيع المتوكل

على أنه مصدر وصف به مبالغة وقوله تعالى (بين يدى رحمته) استعارة بديعة اى قدام المطر والالتفات
فى نون العظمة فى قوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء طهورا) لاسرار كمال العناية بالانزال لانه نتيجة ماذكر من
ارسال الرياح أى أنزلنا بعظمتنا بارتيا ﴿ ٤٩٣ ﴾ من اوساط الرياح من جهة الفوق ماء بليغا فى الطهارة وماقيل

عليه البتة أما تولهوسبح بحمده فمنهم من حمله على نفس التسبيح بالقول ومنهم من حمله على
الصلاة ومنهم من حمله على التنزيه لله تعالى عما لايليق به فى توحيده وعدله وهذا هو
الظاهر ثم قال وكفى به بذنوب عباده خبيرا وهذه كلمة يراد بها المبالغة يقال كفى بالعلم جمالا
وكفى بالادب مالا وهو بمعنى حسبك اى لاتحتاج معه الى غيره لانه خبير باحوالهم قادر
على مكافاتهم وذلك وعيد شديد كانه قال ان أقدمتم على مخالفة أمره كفاكم عليه
مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة * قوله تعالى (الذى خلق السموات والارض
مابينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسئل به خبيرا واذا قيل لهم اسجدوا
للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا) اعلم أنه سبحانه لما أمر الرسول بأن
يتوكل عليه وصف نفسه بامور (أولها) بانه حى لايموت وهو قوله وتوكل على الحى الذى
لايموت (وثانيها) انه عالم بجميع المعلومات وهو قوله وكفى به بذنوب عباده خبيرا (وثالثها)
انه قادر على كل الممكنات وهو المراد من قوله الذى خلق السموات والارض فقوله الذى
خلق متصل بقوله الحى الذى لايموت لانه سبحانه لما كان هو الخالق للسموات والارضين
ولكل مابينهما ثبت انه هو القادر على جمع وجوه المنافع ودفع المضار وان النعم كلها من
جهته فحينئذ لايجوز التوكل الا عليه * وفى الآية سؤالات (السؤال الاول) الايام عبارة
عن حركات الشمس فى السموات فقبل السموات لاأيام فكيف قال الله خلقهما فى ستة أيام
الجواب يعنى فى مدة مقدارها هذه المدة لايقال الشئ الذى يقدر بمقدار محدود ويقبل
الزيادة والنقصان والتجزئة لايكون عدما محضا بل لابد وأن يكون موجودا فيلزم من
وجوده وجود مدة قبل وجود العالم وذلك يقتضى قدم الزمان لانا نقول هذا معارض
بنفس الزمان لان المدة المتوهمة المحتملة لعشرة أيام لاتحتمل خمسة أيام والمدة المتوهمة
التى تحتمل خمسة أيام لاتحتمل عشرة أيام فيلزم أن يكون للمدة مدة أخرى فلم يلزم هذا
يلزم ماقلتموه وعلى هذا نقول لعل الله سبحانه خلق المدة أولا ثم خلق السموات والارض
فيها بمقدار ستة أيام ومن الناس من قال فى ستة أيام من أيام الآخرة وكل يوم ألف سنة
وهو بعيد لان التعريف لابد وأن يكون بأمر معلوم لابامر مجهول (السؤال الثانى)
لم قدر الخلق والايجاد بهذا التقدير الجواب اما على قولنا فالمشيئة والقدرة كافية
فى التخصيص قالت المعتزلة بل لابد من داعى حكمة وهو ان تخصيص خلق العالم بهذا
المقدار أصلح للمكلفين وهذا بعيد لوجهين أحدهما ان حصول تلك الحكمة اما أن
يكون واجبا لذاته اوجائزا فان كان واجبا وجب أن لايتغير فيكون حاصلا فى كل
الازمنة فلا يصلح أن يكون سببا لتخصيص زمان معين وان كان جائزا افتقر حصول تلك
الحكمة فى ذلك الوقت الى مخلص آخر ولزم التسلسل والثانى أن التفاوت بين كل
واحد مما لايصل اليه خاطر المكلف وعقله فحصول ذلك التفاوت لما لم يكن مشعورا به
لم يقدح فى حصول المصالح واعلم انه يجب على المكلف سواء كان على قولنا أو على

انه مايكون طاهرا
فى نفسه ومطهرا لغيره
فهو شرح لبلاغته
فى الطهارة كما ينبئ عنه
قوله تعالى وينزل عليكم
من السماء ماء ليطهركم به
فان الطهور فى العربية
اما صفة كما تقول ماء
طهور أو اسم كما فى قوله
عليه الصلاة والسلام
التراب طهور المؤمن
وقد جاء بمعنى الطهارة
كما فى قولك تطهرت
طهورا حسنا كقولك
وضوأ حسنا ومنه قوله
عليه الصلاة والسلام
لاصلاة الا بطهور
ووصف الماء به اشعار
بتمام النعمة فيه وتتميم
للنعمة فيما بعده فان الماء
الطهور أهنأ وأنفع
مما خالطه مايزيل
طهوريته وتنبيه على
أن ظواهرهم لما كانت
مما ينبغى أن يطهروها
فبواطنهم أحق بذلك
وأولى (لنحيى به) اى
بما أنزلنا من الماء الطهور
(بلدة ميتا) بانبات النبات
والتذكير لان البلدة بمعنى
البلد ولانه غير جار على
الفعل كسائر أبنية المبالغة

رى مجرى الجامد والمراد به الفصعة من الارض عامرة كانت أو غامرة (ونسقيه) اى ذلك الماء الطهور عند
بانه فى الاودية أو اجتماعه فى الحياض والمنافع أو الآبار (مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا) اى أهل البوادى
ن يعيشون بالحياء ولذلك نكر الانعام والاناسى وتخصيصهم بالذكر لان أهل القرى والامصار يقيمون

بقرب الانهار والمنابع فيهم و بمالهم من الانعام غنية عن سقيا السماء وسائر الحيوانات تبعد في طلب الماء فلا يعوزها الشرب غالبا مع أن مساق الآيات الكريمة كما هو للدلالة على عظم القدرة فهو لتعداد أنواع النعمة والانعام حيث كانت فنية للانسان وعامة ✽ ٤٩٤ ✽ منافعهم ومعايشهم منوطة بها قدم سقيها على

سقيهم كما قدم عليها احيء الارض فانه سبب لحياتها ونعشها وقرئ نسقيه وأسقى وسقى لغتان وقرئ أسقاه جعل له سقيا وأناسي جمع انسي أو انسان كظرابي في ظربان على أن أصله أناسين قلبت نونه ياء وقرئ أناسي بالتخفيف بحذف ياء أفاعيل كأباعيم في أباعيم (ولقد صرفناه) اي وبالله لقد كررنا هذا القول الذي هو ذكر انشاء السحاب وانزال القطر بانواعه من الدلايات الجلية في القرآن وغيره من الكتب السماوية (بينهم) أي بين الناس من المتقدمين والمتأخرين (ليذكروا) ليتفكروا ويعرفوا بذلك كمال قدرته تعالى وواسع رحمته في ذلك ويقوموا بشكر نعمته حق قيامها وقيل الضمير للمطر وتصريفه بينهم انزاله في بعض البلاد دون غيرها أو في بعض الاوقات دون بعض أو جعله تارة وابلا واخرى طلا وحينا ديمة ووقتا

قول المعتزلة أن يقطع الطمع عن أمثال هذه الادلة فانه بحر لا ساحل له من ذلك تقدير الملائكة الذين هم أصحاب النار بتسعة عشر وحملة العرش بالثمانية وشهور السنة باثني عشر والسموات بالسبع وكذا الارض وكذا القول في عدد الصلوات ومقادير النصب في الزكوات وكذا مقادير الحدود والكفارات فالاقرار بان كل ما قاله الله تعالى حق هو الدين وترك البحث عن هذه الاشياء هو الواجب وقد نص عليه تعالى في قوله وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا ايمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون ويقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك الا هو هذا هو الجواب أيضا في أنهم لا يحيطون بخلقها وهو قادر على ذلك وعن سعيد بن جبير انه انما خلقها في ستة أيام وهو يقدر على أن يخلقها في لحظة تعليما لخلقه الرفق والتثبت قيل ثم خلقها يوم الجمعة فجمعها الله تعالى عيدا للمسلمين (السؤال الثالث) ما معنى قوله ثم استوى على العرش ولا يجوز حمله على الاستيلاء والقدرة لان الاستيلاء والقدرة في أوصاف الله لم تزل ولم يصح دخول ثم في الجواب الاستقرار غير جائز لانه يقتضي التغير الذي هو سمات الحدوث ويقتضي التركيب والبعضية وكل ذلك على الله محال بل المراد ثم خلق العرش ورفعه وهو مستول كقوله تعالى وليبلوكم حتى نعلم فان المراد حتى يجاهد المجاهدون ونحن بهم عالمون فان قيل فعلى هذا التفسير يلزم أن يكون خلق العرش بعد خلق السموات وليس كذلك لقوله تعالى وكان عرشه على الماء قلنا كلمة ثم ما دخلت على خلق العرش بل على رفعه على السموات (السؤال الرابع) كيف اعراب قوله الرحمن فاسئل به خبيرا الجواب الذي خلق مبتدا والرحمن خبره أو هو صفة الحي أو الرحمن خبر مبتدا محذوف ولهذا أجاز الزجاج وغيره أن يكون الوقف على قوله على العرش ثم يبتدئ بالرحمن أي هو الرحمن الذي لا ينبغي السجود والتعظيم الا له ويجوز أن يكون الرحمن مبتدأ وخبره قوله فاسئل به خبيرا (السؤال الخامس) ما معنى قوله فاسئل به خبيرا الجواب ذكروا فيه وجوها أحدها قال الكلبي معناه فاسئل خبيرا به وقوله به يعود الى ما ذكرنا من خلق السماء والارض والاستواء على العرش والباء من صلة الخبير وذلك الخبير هو الله عز وجل لانه لا دليل في العقل على كيفية خلق الله السموات والارض فلا يعلمها أحد الا الله تعالى وعن ابن عباس أن ذلك الخبير هو جبريل عليه السلام وانما قدم لرؤس الآي وحسن النظم وثانيها قال الزجاج قوله به معناه عنه والمعنى فاسئل عنه خبيرا وهو قول الاخفش ونظيره قوله سال سائل بعذاب واقع وقال علقمة بن عبيدة

فان تسألوني بالنساء فانني ✽ بصير بادواء النساء طبيب

(وثالثها) قال ابن جرير الباء في قوله به صلة والمعنى فسئله خبيرا وخبيرا نصب على الحال

رحمة والاول هو الاظهر (فأبى أكثر الناس) ممن سلف وخلف (الا كفورا) اي لم يفعل ✽ ورابعها الاكفران النعمة ودلالة لاكثرات لها أو الاجحودها بان يقولوا مطرنا بنوء كذا ولا يذكروا

صنع الله تعالى ورحمته ومن لا يرى الامطار الا من الانواء فهو كافر بخلاف من يرى أن الكل بخلق الله تعالى والانواء
مارات لجعله تعالى (ولو شئنا لبعثنا فى كل قرية نذيرا) نبيا ينذر أهلها فيخف عليك أعباء النبوة لكن لم نشأ
ك فلم نفعله بل قصرنا الامر عليك حسبما ﴿ ٤٩٥ ﴾ ينطق به قوله تعالى ليكون للعالمين نذيرا اجلالا لك

وتعظيما وتفضيلا لك على سائر الرسل (فلا تطع الكافرين) اى فقابل ذلك بالثبات والاجتهاد فى الدعوة واظهار الحق والتشدد معهم كأنه نهى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن المداراة معهم والتلطف فى الدعوة لما أنه عليه الصلاة والسلام كان يود أن يدخلوا فى الاسلام ويجتهد فى ذلك بتأليف قلوبهم أشد الاجتهاد (وجاهدهم به) اى بالقرآن بتلاوة ما فى تضاعيفه من المواعظ والزواجر والمواعظ وتدبر أحوال الامم المكذبة (جهادا كبيرا) فان دعوة كل العالمين على الوجه المذكور جهاد كبير لا يقادر قدره كما لا يخفى وقيل الضمير المجرور لترك الطاعة المفهوم من النهى عن الطاعة وأنت خبير بأن مجرد ترك الطاعة يتحقق بلا دعوة أصلا وليس فيه شائبة الجهاد فضلا الكبير اللهم الا أن تجعل الباء للملابسة ليكون

وجاهدهم بما ذكر من أحكام القرآن الكريم ملابسا بترك طاعتهم كأنه قيل فجاهدهم بالشدة والعنف
عمة والمداراة كما فى قوله تعالى يا ايها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ

ورابعها) أن قوله به يجرى مجرى القسم كقوله واتقوا الله الذى تساءلون به أما قوله
اذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن فهو خبر عن قوم قالوا هذا القول ويحتمل
انهم جهلوا الله تعالى ويحتمل انهم وان عرفوه لكنهم جحدوه ويحتمل انهم وان اعترفوا به
لكنهم جهلوا ان هذا الاسم من أسماء الله تعالى وكثير من المفسرين على هذا القول
الاخير قالوا الرحمن اسم من أسماء الله مذكور فى الكتب المتقدمة والعرب ما عرفوه
قال مقاتل ان أبا جهل قال ان الذى يقول محمد شعر فقال عليه السلام الشعر غير هذا
وهذا الاكلام الرحمن قال أبو جهل نخ نخ لعمرى والله انه لكلام الرحمن الذى باليمامة
يعلمك فقال عليه السلام الرحمن الذى هو اله السماء ومن عنده يأتينى الوحى فقال يا آل
كعب من يعذرنى من محمد يزعم أن الله واحد وهو يقول الله يعلمنى والرحمن ألستم تعلمون
انهما اثنان ثم قال ربكم الله الذى خلق هذه الاشياء أما الرحمن فهو مسيلمة قال القاضى
والاقرب أن المراد انكارهم لله لا الرسم لان هذه اللفظة عربية وهم كانوا يعلمون انها
تفيد المبالغة فى الانعام ثم ان قلنا بانهم كانوا منكرين لله كل قولهم وما الرحمن سؤال
طالب عن الحقيقة وهو يجرى مجرى قول فرعون وما رب العالمين وان قلنا بانهم كانوا
مقرين بالله لكنهم جهلوا كونه تعالى مسمى بهذا الاسم كان قولهم وما الرحمن سؤالا عن
الاسم أما قوله أنسجد لما تأمرنا فالمعنى للذى تأمرنا بسجوده على قوله أمرتك بالخير
أو لامرك لنا وقرئ يأمرنا بالياء كان بعضهم قال لبعض أنسجد لما يأمرنا محمد أو يأمرنا
المسمى بالرحمن ولا نعرف ما هو وزادهم أمره نفورا ومن حقه أن تكون باعثا على الفعل
والقبول قال الضحاك فسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلى
وعثمان يومئذ مشركون وعمرو بن عنبسة ولما رآهم المشركون يسجدون تباعدوا فى ناحية
المسجد مستهزئين فهذا هو المراد من قوله وزادهم نفورا أى فزادهم سجودهم نفورا
قوله تعالى (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا وهو الذى
جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا) اعلم أنه سبحانه لما حكى عن
الكفار مزيد النفرة عن السجود ذكر ما لو تفكروا فيه وجوب السجود والعبادة
للرحمن فقال تبارك الذى جعل فى السماء بروجا اما تبارك فقد تقدم القول فيه وأما
البروج فهى منازل السيارات وهى مشهورة سميت بالبروج التى هى القصور العالية
لظهورها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها واشتقاق البروج من التبرج لظهوره وفيه قول
آخر عن ابن عباس رضى الله عنهما أن البروج هى الكواكب العظام والاول أولى
لقوله تعالى وجعل فيها أى فى البروج فان قيل لم لا يجوز أن يكون قوله فيها راجعا الى
السماء دون البروج قلنا لان البروج أقرب فعود الضمير اليها أولى والسراج الشمس
لقوله تعالى وجعل الشمس سراجا وقرئ سرجا وهى الشمس والكواكب الكبار فيها
كالحسن والاعمش وقمرا منيرا وهى جمع ليلة قمراء كأنه اقبل وذا قمرا منيرا لان الليالى

عليهم وقد جعل الضمير لما دل عليه قوله تعالى ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا من كونه عليه الصلاة والسلام نذير كافة القرى لانه لو بعث في كل قرية نذيرا لوجب على كل نذير مجاهدة قريته فاجتمعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المجاهدات كلها فكبر من أجل ✻ ٤٩٦ ✻ ذلك جهاده وعظم فقيل له عليه الصلاة والسلام وجاهدهم بسبب كونك نذيرا كافة القرى جهادا كبيرا جامعا لكل مجاهدة وأنت خبير بأن بيان سبب كبر المجاهدة بحسب الكمية ليس فيه مزيد فائدة فانه بين بنفسه وانما اللائق بالمقام بيان سبب كبرها وعظمها في الكيفية

(وهو الذي مرج البحرين) اى خلاهما متجاورين متلاصقين بحيث لا يمتاز جان من مرج دابته اذا خلاها (هذا عذب فرات) قامع للعطش لغاية عذوبته (وهذا ملح أجاج) بليغ الملوحة وقرئ ملح فلعل تخفيف مالح كبرد بارد (وجعل بينهما برزخا) حاجزا غير مرئي من قدرته كما في قوله تعالى بغير عمد ترونها (وحجرا محجورا) وتنافرا مفرطا كأن كلا منهما يتعوذ من الآخر بتلك المقالة وقيل حدا محدودا وذلك كدجلة تدخل البحر وتشقه وتجري في خلاله فراسخ لا يتغير طعمها وقيل المراد بالبحر العذاب النهر العظيم وبالملح البحر الكبير وبالبرزخ ما بينهما من الارض فيكون أثر القدرة في الفصل ✻ فقيل

تكون قراءة بالقمر فاضافه اليها ولا يبعد أن يكون القمر بمعنى القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب ✻ وأما الخلفة ففيها قولان (الاول) انها عبارة عن كون الشيئين بحيث أحدهما يخلف الآخر ويأتي خلفه يقال فلان خلفة واختلاف اذا اختلف كثيرا الى متبرزه والمعنى جعلهما ذوى خلفة أى ذوى عقبة يعقب هذا ذاك وذاك هذا قال ابن عباس رضي الله عنهما جعل كل واحد منهما يخلف صاحبه فيما يحتاج أن يعمل فيه فمن فرط في عمل في أحدهما قضاه في الآخر قال أنس بن مالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب وقد فاتته قراءة القرآن بالليل يا ابن الخطاب لقد أنزل الله فيك آية وتلا وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر ما فاتك من النوافل بالليل فاقضه في نهارك وما فاتك من النهار فاقضه في ليلك (القول الثاني) وهو قول مجاهد وقتادة والكسائي يقال لكل شيئين اختلفا هما خلفان فقوله خلفة أى مختلفين وهذا أسود وهذا أبيض وهذا طويل وهذا قصير والقول الاول أقرب أما قوله تعالى أن يذكر فقراءة العامة بالتشديد وقراءة حمزة بالتخفيف وعن أبي بن كعب يتذكر والمعنى لينظر الناظر في اختلافهما فيعلم انه لابد في انتقالهما من حال الى حال من ناقل ومغير وفي قوله أن يذكر راجع الى كل ما تقدم من النعم بين تعالى ان الذين قالوا وما الرحمن لو تفكروا في هذه النعم وتذكروها لاستدلوا بذلك على عظيم قدرته ولشكروا الشاكر على النعمة فيهما من السكون بالليل والتصرف بالنهار كما قال تعالى ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله أو ليكونا وقتين للذكرين والشاكرين من عباده في أحدهما ورد من العباد قام به في الآخر والشكور مصدر شكر يشكر شكورا

✻ قوله تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما الذين يبيتون لربهم سجدا وقياما والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما انها ساءت مستقرا ومقاما والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) اعلم أن قوله وعباد الرحمن مبتدأ خبره في آخر السورة كأنه قيل وعباد الرحمن الذين هذه صفاتهم أولئك يجزون الغرفة ويجوز أن يكون خبره الذين يمشون واعلم انه سبحانه خص اسم العبودية بالمشتغلين بالعبودية فدل ذلك على أن هذه الصفة من أشرف صفات المخلوقات وقرئ وعباد الرحمن واعلم انه سبحانه وصفهم بتسعة أنواع من الصفات (الصفة الاولى) قوله الذين يمشون على الارض هونا وهذا وصف سيرتهم بالنهار وقرئ يمشون هونا حال أو صفة للمشى بمعنى هينين أو بمعنى مشيا هينا ان في وضع المصدر موضع الصفة مبالغة والهون الرفق واللين ومنه الحديث أحبب حبيبك هونا ما وقوله المؤمنون هينون لينون والمعنى أن مشيهم يكون في لين وسكينة ووقار وتواضع ولا يضربون بأقدامهم أشرا وبطرا ولا يتبخترون لاجل الخيلاء كما لا يمشون في الارض مرحا وعن زيد بن أسلم التمست تفسير هونا فلم أجد فرأيت في التوراة واختلاف الصفة

يل لى هم الذين لا يريدون الفساد فى الارض وعن ابن زيد لا يتكبرون ولا يتجبرون لا يريدون علوا فى الارض (الصفة الثانية) قوله تعالى واذا خاطبهم الجاهلون قالوا لاما معناه لانجاهلكم ولاخير بيننا ولاشر أى نسلم منكم تسليما فاقيم السلام مقام لتسليم ثم يحتمل أن يكون مرادهم طلب السلامة والسكوت ويحتمل أن يكون المراد لتنبيه على سوء طريقتهم لكى يمتنعوا و يحتمل أن يكون مرادهم العدول عن طريق لمعاملة ويحتمل أن يكون المراد اظهار الحلم فى مقابلة الجهل قال الاصم قالوا سلاما أى سلام توديع لاتحية كقول ابراهيم لابيه سلام عليك ثم قال الكلبى وأبو العالية سختها آية القتال ولا حاجة الى ذلك لان الاغضاء عن السفهاء وترك المقابلة مستحسن لعقل والشرع وسبب لسلامة العرض والورع (الصفة الثالثة) قوله والذين يبيتون بهم سجدا وقياما (واعلم) انه تعالى لما ذكر سيرتهم فى النهار من وجهين أحدهما ترك يذاء وهو المراد من قوله يمشون على الارض هونا والآخر تحمل التأذى وهو المراد ن قوله واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما فكأنه شرح سيرتهم مع الخلق فى النهار فبين ى هذه الآية سيرتهم فى الليالى عند الاشتغال بخدمة الخالق وهو قوله تتجافى جنوبهم ن المضاجع ثم قال الزجاج كل من أدركه الليل فيل بات و بلمن كما يقال بات فلان قلقا مغتما يبيتون لربهم أن يكونوا فى ليليهم مصلين ثم اختلفوا فقال بعضهم من قام شيأ من رآن فى صلاة وان قل فقد بات ساجدا وقائما وقيل ركعتين بعد المغرب وأربعا بعد عشاء الاخيرة والاولى انه وصف لهم باحياء الليل أو أكثره يقال فلان يظل صائما يبيت قائما قال الحسن يبيتون لله على أقدامهم ويفترشونه وجوههم تجرى دموعهم لى خدودهم خوفا من ربهم الصفة الرابعة) قوله والذين يقولون ربنا اصرف عنا ذاب جهنم ان عذابها كان غراما قال ابن عباس رضى الله عنهما يقولون فى سجودهم قيامهم هذا القول وقال الحسن خشعوا بالنهار وتعبوا بالليل فرقا من عذاب جهنم قوله غراما أى هلاكا وخسرانا ملحا لازما ومنه الغريم لملازمه و يقال فلان غرم بالنساء اذا كان مولعا بهن وسأل نافع بن الازرق عن ابن عباس عن الغرام فقال هو وجع وعن محمد بن كعب فى غراما انه سأل الكفار ثم نعمد فأدوها اليه فاغرمهم دخلهم النار واعلم أنه تعالى وصفهم باحياء الليل ساجدين وقائمين ثم عقبه بذكر دعوتهم ذه ايذانا بانهم مع اجتهادهم خائفون مبتهلون الى الله فى صرف العذاب عنهم كقوله ذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة اما قوله تعالى انها ساءت مستقرا ومقاما فقوله ساءت حكم بئست وفيها ضمير مبهم تفسيره مستقرا والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت قرا ومقاما هى ومستقرا حال أو تمييز فان قيل دلت الآية على انهم سألوا الله تعالى صرف عنهم عذاب جهنم لعلتين احداهما ان عذابها كان غراما وثانيهما انها ساءت قرا ومقاما فما الفرق بين الوجهين وأيضا فما الفرق بين المستقر والمقام قلنا المتكلمون

والهيئات بسهولة أو هو النطفة (فجعله نسبا وصهرا) أى قسمه قسمين ذوى نسب أى ذكورا ينتسب اليهم وذوات صهر أن اناثا يصاهر بهن كقوله تعالى فجعل منه الزوجين الذكر والانثى (وكان ربك قديرا) مبالغا فى القدرة حيث قدر على أن يخلق من مادة واحدة بشرا ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة وجعله قسمين متقابلين ور بما خلق من نطفة واحدة توأمين ذكر وانثى (و يعبدون من دون الله) الذى شأنه ما ذكر (ما لا ينفعهم ولا يضرهم) أى ما ليس من شأنه النفع والضر أصلا وهو الصنم أو كل ما يعبد من دونه تعالى اذ ما من مخلوق يستقل بالنفع والضر (وكان الكافر على ربه) الذى ذكرت آثار ربوبيته (ظهيرا) يظاهر الشيطان بالعداوة والشرك والمراد بالكافر الجنس أو أبو جهل

هينا مهينا لاعتداده به ﴿ ٦٣ ﴾ س عنده تعالى من قولهم ظهرت به اذا نبذته خلف ظهرك فيكون كقوله ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم (وما أرسلناك الا مبشرا) للمؤمنين (ونذيرا) للكافرين (قل) لهم (ما أسألكم) أى على تبليغ الرسالة الذى ينبئ عنه الارسال (من أجر) من جهتكم (الا من

شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا) أى الافعل من يريد أن يتقرب اليه تعالى ويطلب الزلفى عنده بالايمان والطاعة حسبما أدعوهم اليهما فصور ذلك بصورة الاجر من حيث انه مقصود ✽ ٤٩٨ ✽ الاتيان به واستثنى منه قولا كليا لشائبة الطمع

ذكروا أن عقاب الكافر يجب أن يكون مضرة خالصة عن شوائب النفع دائمة فقوله ان عذابها كان غراما اشارة الى كونه مضرة خالصة عن شوائب النفع وقوله انها ساءت مستقرا ومقاما اشارة الى كونها دائمة ولاشك فى المغايرة اما الفرق بين المستقر والمقام فيحتمل أن يكون المستقر للعصاة من اهل الايمان فانهم يستقرون فى النار ولا يقيمون فيها واما الاقامة فللكفار واعلم أن قوله انها ساءت مستقرا ومقاما يمكن ان يكون من كلام الله تعالى ويمكن ان يكون حكاية لقولهم (الصفة الخامسة) قوله والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما قرئ يقتروا بكسر التاء وضمها ويقتروا بضم الياء وتخفيف القاف وكسر التاء وأيضا بضم الياء وفتح القاف وكسر التاء وتشديدها وكلها لغات والقتر والاقتار والتقتير التضييق الذى هو نقيض الاسراف والاسراف مجاوزة الحد فى النفقة وذكر المفسرون فى الاسراف والتقتير وجوها (أحدها) وهو الاقوى انه تعالى وصفهم بالقصد الذى هو بين الغلو والتقصير بمثله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط وعن وهب بن الورد قال اعلم ما الشىء الذى لا سرف فيه قال ما سترك عن الشمس وأكنك من المطر فقال له فما الطعام الذى لا سرف فيه قال ما سد الجوعة فقال له فما فى اللباس قال ما ستر عورتك ووقاك من البرد وروى أن رجلا صنع طعاما فى املاكه وأرسل الى الرسول عليه السلام فقال حتى اجيبوا ثم صنع الثانية فأرسل اليه فقال خلق فى شىء فجاء وأفلت ثم صنع الثالثة فأرسل اليه فقال ريا ولا خير فيه (وثانيها) وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك ان الاسراف الانفاق فى معصية الله تعالى والاقتار منع حق الله تعالى قال مجاهد لو انفق رجل مثل أبى قبيس ذهبا فى طاعة الله تعالى لم يكن سرفا ولو انفق صاعا فى معصية الله تعالى كان سرفا وقال الحسن لم يقتروا فى معاصى الله ولم يمسكوا عما ينبغى وذلك قد يكون فى الامساك عن حق الله وهو أقبح التقتير وقد يكون مما لا ينبغى ولكن يكون مندوبا مثل ترجل الغنى الكثير المال اذا منع الفقراء من انفاقه (وثالثها) المراد بالاسراف مجاوزة الحد فى التنعم والتوسع فى الدنيا وان كان من حلال فان ذلك مكروه لانه يؤدى الى الخيلاء والاقتار هو التضييق فالاكل فوق الشبع بحيث يمنع النفس عن العبادة اسراف وان أكل بقدر الحاجة فذلك هو القوام بين هذين الوصفين وصف أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا لا يأكلون طعاما للتنعم واللذة ولا يلبسون ثوبا للجمال والزينة ولكن كانوا يأكلون ما يسد جوعتهم ويعينهم على عبادة ربهم ويلبسون ما يستر عوراتهم ويصونهم من الحر والبرد وهو مسئلتان (المسئلة الاولى) القوام قال ثعلب القوام بالفتح العدل والاستقامة وبالكسر ما يدوم عليه الامر ويستقر قال صاحب الكشاف القوام العدل بين الشيئين لاستقامة الطرفين واعتدالهما ونظير القوام من الاستقامة السواء من الاستواء وقرئ قواما

واظهار الغاية الشفقة عليهم حيث جعل ذلك مع كون نفعه عائدا اليهم عائدا اليه عليه الصلاة والسلام وقيل الاستثناء منقطع أى لكن من شاء أن يتخذ الى ربه سبيلا فليفعل (وتوكل على الحى الذى لا يموت) فى الاستكفاء عن شرورهم والاغناء عن أجورهم فانه الحقيق بان يتوكل عليه دون الاحياء الذين من شأنهم الموت فانهم اذا ماتوا ضاع من توكل عليهم (وسبح بحمده) وتزهه عما صفته المتصفون بما لا يليق به من الكفران طالبا لمزيد الانعام بالشكر على سوابغه (وكفى به بذنوب عباده) ما ظهر منها وما بطن (خبيرا) اى مطلعا عليها بحيث لا يخفى عليه شىء منها فيجزيهم جزاء وافيا (الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى على العرش) قد سلف تفسيره ومحل الموصول الجر على أنه صفة أخرى للحى وصف بالصفة الفعلية بعد وصفه بالابدية التى هى من الصفات الذاتية والاشارة الى اتصافه ✽ بالكسر ✽ بالعلم الشامل لتقرير وجوب التوكل عليه تعالى وتاكيده فان من أنشأ هذه الاجرام العظام على هذا النمط الفائق والنسق الرائق بتدبير متين وترتيب رصين فى أوقات معينة مع كمال قدرته على ابداعها دفعة لحكم

جليلة وغايات جميلة لاتقف على تفاصيلها العقول أحق من يتوكل عليه وأولى من يفوض الامر اليه (الرحمن) مرفوع على المدح هو الرحمن وهو فى الحقيقة وصف آخر للحى كما قرئ بالجر بعيد لزيادة تأكيد ماذكر من وجوب

بالكسر وهو مايقام به الشئ يقال انت قوامنا يعنى مايقام به الحاجة لايفضل منها ولاينقص (المسألة الثانية) المنصوبان أعنى بين ذلك قواما جائزان يكونا خبرين معا وان يجعل بين ذلك لغوا وقواما مستقرا وان يكون الظرف خبرا وقواما حالا مؤكدة قال الفراء وان شئت جعلت بين ذلك اسم كان كما تقول كان دون هذا كافيا يريد أقل من ذلك فيكون معنى بين ذلك أى كان الوسط من ذلك قواما أى عدلا وهذا التأويل ضعيف لان القوام هو الوسط فيصير التأويل وكان الوسط وسطا وهذا لغو ﴿ (الصفة السادسة) قوله تعالى (والذين لايدعون مع الله الها آخر ولايقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ولايزنون ومن يفعل ذلك يلق اثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا) اعلم انه سبحانه وتعالى ذكر ان من صفة عباد الرحمن الاحتراز عن الشرك والقتل والزنا ثم ذكر بعد ذلك حكم من فعل هذه الاشياء من العقاب ثم استثنى من جملتهم التائب وههنا سؤالات (السؤال الاول) انه تعالى قبل ذكر هذه الصفة نزه عباد الرحمن عن الامور الخفيفة فكيف يليق بعد ذلك أن يظهرهم عن الامور العظيمة مثل الشرك والقتل والزنا أليس انه لو كان الترتيب بالعكس منه كان أولى (الجواب) ان الموصوف بتلك الصفات السالفة قد يكون متمسكا بالشرك تديناً ومقدما على قتل الموؤدة تديناً وعلى الزنا تديناً فبين تعالى أن المرء لايصير بتلك الخصال وحدها من عباد الرحمن حتى يضاف الى ذلك كونه مجانبا لهذه الكبائر واجاب الحسن رحمه الله من وجه آخر فقال المقصود من ذلك التنبيه على الفرق بين سيرة المسلمين وسيرة الكفار كانه قال وعباد الرحمن هم الذين لايدعون مع الله الها آخر وأنتم تدعون ولايقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق وانتم تقتلون الموؤدة ولايزنون وانتم تزنون (السؤال الثانى) مامعنى قوله ولايقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق ومعلوم انه من يحل قتله لايدخل فى النفس المحرمة فكيف يصح هذا الاستثناء الجواب المقتضى لحرمة القتل قائم أبدا وجواز القتل انما ثبت بالمعارض فقوله حرم الله اشارة الى المقتضى وقوله الا بالحق اشارة الى المعارض (السؤال الثالث) باى سبب يحل القتل (الجواب) بالردة وبالزنا بعد الاحصان وبالقتل قودا على مافى الحديث وقيل وبالمحاربة وبالبينة وان لم يكن لما شهدت به حقيقة (السؤال الرابع) منهم من فسر قوله ولايقتلون النفس التى حرم الله الا بالحق بالردة فهل يصح ذلك (الجواب) لفظ القتل عام فيتناول الكل وعن ابن مسعود قلت يارسول الله أى الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال ان تقتل ولدك خشية ان يأكل معك قلت ثم أى قال ان تزنى بحليلة جارك فانزل الله تصديقه (السؤال الخامس) مالائام الجواب فيه وجوه أحدها أن الاثام جزاء الاثم يونزالوبال والنكال وثانيها وهو قول ابى مسلم ان الاثام والاثم واحد والمراد ههنا جزاء الاثام

التوكل عليه تعالى وان لم يتبعه فى الاعراب لما تقرر من أن المنصوب والمرفوع مدحا وان خرجا عن التبعية قبلهما صورة حيث لم يتبعاه فى الاعراب وبذلك سميا قطعا لكنهما تابعان له حقيقة ألا يرى كيف التزموا حذف الفعل والابتداء فى النصب والرفع رواما تصوير كل منهما بصورة متعلق من متعلقات ماقبله وتنبيها على شدة الاتصال بينهما وقدم تمام التحقيق فى تفسير قوله عزوجل الذين يؤمنون بالغيب الآية وقيل الموصول مبتدأ والرحمن خبره وقيل الرحمن بدل من المستكن فى استوى (فاسئل به) أى بتأصيل ماذكر اجمالا من الخلق والاستواء لابنفسهما فقط اذ بعد بيانهما لايبقى الى السؤال حاجة ولا فى تعديته بالباء فائدة فانها مبنية على تضمينه معنى الاعتناء المستدعى لكون المسؤل أمرا خطيرا مهتما بشانه غير حاصل للسائل وظاهر أن نفس الخالق

الاستواء بعد الذكر ليس كذلك وماقيل من أن التقدير ان شككت فيه فاسئل به خبيرا على أن الخطاب له عليه الصلاة السلام والمراد غيره بمعزل من السداد بل التقدير ان شئت تحقيق ماذكر أو تفصيل ماذكر فاسئل معنيا به (خبيرا) بتنظيم شان محيطا بظواهر الامور

و بواطنها وهو الله سبحانه يطلعك على جلية الامر وقبل فاسئل به من وجده فى الكتب المتقدمة ليصدقك فيه فلا حاجة حينئذ الى ماذكرنا وقيل الضمير الرحمن والمعنى ان أنكروا ۞ ٥٠٠ ۞ اطلاقه على الله تعالى فاسئل عنه من يخبرك من أهل الكتاب ليعرفوا مجىء ما يرادفه فى كتبهم وعلى هذا يجوز أن يكون الرحمن مبتدأ وما بعده خبرا وقرئ فسل (واذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن) سألوه لما أنهم ما كانوا يعلمونه على الله تعالى أو لانهم ظنوا أن الرادبه غيره تعالى ولذلك قالوا (أنسجد لما تأمرنا) أى للذى تأمرنا بسجوده أو لامرك ايانا من غير أن نعرف أن المسجود ماذا وقيل لانه كان معربا لم يسمعوه وقرئ يأمرنا بياء الغيبة على أنه قول بعضهم لبعض ((وزادهم)) أى الامر بسجود الرحمن (نفورا) عن الايمان (تبارك الذى جعل فى السماء بروجا) هى البروج الاثنا عشر سميت به وهى القصور العالية لانها للكواكب السيارة كالمنازل الرفيعة لسكانها واشتقاقه من البرج لظهوره (وجعل فيها سراجا) هى الشمس لقوله تعالى وجعل الشمس سراجا وقرئ سرجا وهى الشمس والكواكب الكبار (وقمرا منيرا) مضيئا بالليل وقرئ قمرا أى ذا قمر وهى جمع قمراء ولما أن الليالى بالقمر تكون قمراء ۞ يبشرهم ۞ أضيف اليها ثم حذف وأجرى حكمه على المضاف اليه القائم مقامه كما فى قول حسان رضى الله عنه * يردن يصفق بالرحيق السلسل *

وأطلق اسم الشئ على اجزائه وثالثها وهو الحسنى الاتام اسم من أسماء جهنم وقال مجاهد أثاما واد فى جهنم وقرأ ابن مسعود آثاما أى شديدا يقال يوم ذو أثام لليوم العصيب أما قوله يضاعف له العذاب يوم القيامة و يخلد فيه مهانا ففيه مسائل (المسئلة الاولى) يضاعف بدل من يلق لانهما فى معنى واحد وقرئ يضعف ونضعف له العذاب بالنون ونصب العذاب وقرئ بالرفع على الاستئناف أو على الحال وكذلك يخلد ويخلد على البناء للمفعول مخففا ومثقلا من الخلاد والتخليد وقرئ ويخلد بالتاء على الالفات (المسئلة الثانية) سبب تضعيف العذاب أن الشرك اذا ارتكب العاصى مع الشرك عذب على الشرك وعلى العاصى جميعا فتضاعف العقوبة لتضاعف المعاقب عليه وهذا يدل على ان الكفار مخاطبون بفروع الشرائع (المسئلة الثالثة) قال القاضى بين الله تعالى ان التضاعف لا يكون حاصلا فى كل العاصى بقوله و يخلد فيه أى ويخلد فى ذلك التضعف ثم ان ذلك التضعف انما حصل بسبب العقاب على المعاصى فوجب ان يكون عقاب هذه المعاصى فى حق الكافر دائما وذلك يدل على ان وجب أن يكون فى حق المؤمن كذلك لان حاله فيما يستحق به من تعظيم سواء عمل مع غيره او منفردا والجواب لم لا يجوز أن يكون الاتيان بالشئ مع غيره فى مزيد القبح اترى أن الشيئين قد يكون كل واحد منهما فى نفسه حسنا وان كان الجمع بينهما قبيحا وقد يكون كل واحد منهما قبيحا و يكون الجمع بينهما اقبح فكذا ههنا (المسئلة الرابعة) قوله و يخلد فيه مهانا اشارة الى ما ثبت أن العقاب هو المضرة الخالصة المقرونة بالذلال والاهانة كما ان الثواب هو المنفعة الخالصة المقرونة بالتعظيم أما قوله تعالى الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما ففيه مسائل (المسئلة الاولى) دلت الآية على أن التوبة مقبولة والاستثناء لا يدل على ذلك لانه اثبت انه يضاعف له العذاب ضعفين فيكفى لصحة هذا الاستثناء أن لا يضاعف للتائب العذاب ضعفين وانما الدال عليه قوله فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات (المسئلة الثانية) نقل عن ابن عباس انه قال توبة القاتل غير مقبولة وزعم ان هذه الآية منسوخة بقوله تعالى ومن يقتل مؤمنا متعمدا وقالوا نزلت الغليظة بعد اللينة بمدة يسيرة وعن الضحاك ومقاتل بعد سنين وقد تقدم الكلام فى ذلك فى سورة النساء (المسئلة الثالثة) فان قيل العمل الصالح يدخل فيه التوبة والايمان فكان ذكرهما قبل ذكر العمل الصالح حشوا قلنا افردهما بالذكر لعلو شأنهما ولما كان لابد معهما من سائر الاعمال لا جرم ذكر عقيبهما العمل الصالح (المسئلة الرابعة) اختلفوا فى المراد بقوله فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات على وجوه (أحدها) قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة ان التبديل انما يكون فى الدنيا فيبدل الله تعالى قبائح أعمالهم فى الشرك بمحاسن الاعمال فى الاسلام فيبدلهم بالشرك ايمانا و بقتل المؤمنين قتل المشركين و بالزناعفة واحصانا وكانه تعالى

أى ماء بردى ويحتمل أن يكون بمعنى القمر كالرشد والرشد والعرب والعرب (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة) أى ذوى خلفة يخلف كل منهما ﴿ ٥٠١ ﴾ الآخر بان يقوم مقامه فيما ينبغى أن يعمل فيه أو بأن

يبشرهم بانه يوفيهم لهذه الاعمال الصالحة ثم يتوجيها بما الثواب (وثانيها) قال الزجاج السيئة بعينها لاتصير حسنة ولكن التأويل أن السيئة تمحى بالتوبة وتكتب الحسنة مع التوبة والكافر يحبط الله عمله ويثبت عليه السيئات (وثالثها) قال قوم ان الله تعالى يمحو السيئة عن العبد ويثبت له بدلها الحسنة بحكم هذه الآية وهذا قول سعيد بن المسيب ومكحول يحتجون بما روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال ليتمنين أقوام أنهم أكثروا من السيئات قيل من هم يارسول الله قال الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات وعلى هذا القول التبديل فى الآخرة (ورابعها) قال القفال والقاضى انه تعالى يبدل العقاب بالثواب فذكرهما يراد ما يستحق بهما واذا حمل على ذلك كانت الاضافة الى الله حقيقة ومن الاتابة لاتكون الامن الله تعالى اما قوله تعالى ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا فنبين السؤالان (السؤال الاول) ما فائدة هذا التكرير الجواب من وجهين (الاول) أن هذا ليس بتكرير لان الاول لما كان فى تلك الخصال بين تعالى أن جميع الذنوب تزال بها فى صحة التوبة منها (الثانى) ان التوبة الاولى رجوع عن الشرك والمعاصى والتوبة الثانية رجوع الى الله تعالى للجزاء والمكافاة كقوله تعالى اليه توكلت واليه متاب اى مرجعى (السؤال الثانى) هل تكون التوبة الا الى الله تعالى فما فائدة قوله فانه يتوب الى الله متابا (الجواب) من وجوه الاول) ماتقدم من أن التوبة الاولى الرجوع عن المعصية والثانية الرجوع الى حكم الله تعالى وثوابه (الثانى) معناه ان من تاب الى الله فقد أتى بتوبة مرضية لله مكفرة للذنوب محصلة للثواب العظيم (الثالث) قوله ومن تاب يرجع الى الماضى فانه سبحانه ذكر ان من أتى بهذه التوبة فى الماضى على سبيل الاخلاص فقد وعده بانه سيوفقه للتوبة فى المستقبل وهذا من أعظم البشارات * (الصفة السابعة) قوله تعالى (والذين لايشهدون الزور واذا مروا باللغو مروا كراما) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الزور يحتمل اقامة الشهادة الباطلة ويكون المعنى انهم لايشهدون شهادة الزور فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه ويحتمل حضور مواضع الكذب كقوله تعالى فاعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ويحتمل حضور كل موضع يجرى فيه مالاينبغى ويدخل فيه اعياد المشركين ومجامع الفساق لان من خالط أهل الشر ونظر الى افعالهم وحضر مجامعهم فقد شاركهم فى تلك المعصية لان الحضور وانظر دليل الرضا به بل هو سبب لوجوده والزيادة فيه لان الذى حملهم على فعله استحسان النظارة ورغبتهم فى النظر اليه وقال ابن عباس رضى الله عنهما المراد مجالس الزور التى تقولون فيها الزور على الله تعالى وعلى رسوله وقال محمد بن الحنفية الزور الغناء واعلم أن كل هذه الوجوه محتملة ولكن استعماله فى الكذب أكثر (المسئلة الثانية) الاصح أن اللغو كل مايجب أن يلغى ويترك ومنهم من فسر اللغو بكل مالايس بطاعة وهو ضعيف لان المباحات لاتعد لغوا فقوله واذا مروا باللغو

يعتبرا كقوله تعالى واختلاف الليل والنهار وهى اسم للحالة من خلف كاركبة والجلسة من ركب وجلس (ان أراد أن يذكر) أى يتذكر الآلاء عز وجل ويتفكر فى بدائع صنعه فيعلم أنه لابد لها من صانع حكيم واجب الذات رحيم نعما (أو أراد شكورا) أى أن يشكر الله تعالى على ماتيسر لهما من النعم أو يكون وفين للذاكرين من فاتته ورد فى أحدهما تداركه فى الآخر وقرئ أن يذكر من ذكر بمعنى تذكر (وعباد الرحمن) كلام مستأنف مسوق لبيان أوصاف خلص عباد الرحمن وأحوالهم الدنيوية والاخروية تعديدا لحسان التائبين عن عبادته والسجود له والاضافة للتشريف وهو مبتدأ خبره مابعده من الموصول وماعطف عليه وقيل هو مابعده فى آخر السورة الكريمة من الجملة المصدرة باسم الاشارة وقرئ عباد الرحمن اى عبيده المقبولون (الذين يمشون على الارض هونا) أى بسكينة وتواضع وهونا مصدر وصف به ونصبه اما على أنه حال من فاعل يمشون أو على أنه نعت لمصدره أى يمشون هينين ليبى الجانب من غير مظاطة أو مشيا هينا وقوله تعالى (واذا خاطبهم الجاهلون) أى السفهاء كما فى قول من قال

ألا لا يجهلن أحد علينا * فنجهل فوق جهل الجاهلينا * (قالوا سلاما) بيان لحالهم فى المعاملة مع غيرهم اثر بيان حالهم فى أنفسهم أى اذا خاطبوهم بالسوء ۞ ٥٠٢ ۞ قالوا تسليما منكم ومتاركة لا خير بيننا وبينكم ولا شر وقيل سدادا من القول يسلمون به من الاذية والاثم وليس فيه تعرض لمعاملتهم مع الكفرة حتى يقال نسختها آية القتال كما نقل عن أبى العالية وقوله تعالى (والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما) بيان لحالهم فى معاملتهم مع ربهم أى يكونون ساجدين لربهم وقائمين اى يحيون الليل كلا أو بعضا بالصلاة وقيل من قرأ شيأ من القرآن فى صلاة وان قل فقد بات ساجدا وقائما وقيل هما الركعتان بعد المغرب والركعتان بعد العشاء وتقديم السجود على القيام لرعاية الفواصل (والذين يقولون) أى فى اعقاب صلواتهم اوفى عامة اوقاتهم (ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ان عذابها كان غراما) اى شرا دائما وهلاكا لازما وفيه مزيد مدح لهم ببيان انهم مع حسن معاملتهم مع الخلق واجتهادهم فى عبادة الحق يخافون العذاب ويتوسلون الى الله تعالى فى صرفه عنهم غير مخلفين باعمالهم كقوله تعالى والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة انهم ۞ الضحى ۞ الى ربهم راجعون (انها ساءت مستقرا ومقاما) تعليل لاستدعائهم المذكور بسوء حالها فى نفسها اثر تعليله بسوء حال عذابها وقد جوز أن يكون تعليلا للاولى وليس بذاك وساءت فى حكم بئست وفيها ضمير مبهم يفسره مستقرا

أى باهل اللغو (المسئلة الثالثة) لاشبهة فى أن قوله مروا كراما معناه انهم يكرمون انفسهم عن مثل حال اللغو واكرامهم اياها لا يكون الا بالاعراض وبالاكبار وبترك المعاونة والمساعدة ويدخل فيه الشرك والغو فى القرآن وشتم الرسول والخوض فيما لا يعنى وأصل الكلمة من قولهم ناقة كريمة اذا كانت تعرض عند الحلب تكرما كانها لا تبالى بما يحلب منها للغزارة فاستعير ذلك للصفح عن الذنب وقال الليث يقال تكرم فلان عما يشينه اذا تنزه واكرم نفسه عنها وتفسير هذه الآية قوله واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين وعن الحسن لم تسفههم المعاصى وقيل اذا سمعوا من الكفار الشتم والاذى أعرضوا وقيل اذا ذكر النكاح كنوا عنه ۞ (الصفة الثامنة) قوله تعالى (والذين اذا ذكروا بايات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) قال صاحب الكشاف قوله لم يخروا عليها صما وعميانا ليس بنفى للخرور وانما هو اثبات له ونفى للصمم والعمى كما يقال لا يلقانى زيد مسلما هو نفى للسلام لا للقاء والمعنى انهم اذا ذكروا بها أكبوا عليها حرصا على استماعها وأقبلوا على الذكر بها وهم فى اكبابهم عليها سامعون باذان واعية مبصرون بعيون راعية لا كالذين يذكرون بها فتراهم مكبين عليها مقبلين على من يذكرها مظهرين الحرص الشديد على استماعها وهم كالصم والعميان حيث لا يفهمونها ولا يبصرون ما فيها كالمنافقين ۞ (الصفة التاسعة) قوله تعالى (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم ذرياتنا بالف على الجمع وحذفها الباقون على التوحيد والذرية تكون واحدا وجمعا (المسئلة الثانية) انه لا شبهة أن المراد أن يكون قرة أعين لهم فى الدين لا فى الامور الدنيوية من المال والجمال ثم ذكروا فيه وجهين أحدهما انهم سألوا أزواجا وذرية فى الدنيا يشاركونهم فاحبوا أن يكونوا معهم فى التمسك بطاعة الله تعالى فيقوى طمعهم فى أن يحصلوا معهم فى الجنة فيتكامل سرورهم فى الدنيا بهذا الطمع وفى الآخرة عند حصول الثواب والثانى أنهم سألوا أن يلحق الله أزواجهم وذرياتهم بهم فى الجنة ليتم سرورهم بهم (المسئلة الثالثة) فان قيل من فى قوله من أزواجنا ماهى قلنا يحتمل أن يكون بيانية كانه قيل هب لنا قرة أعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله من أزواجنا وهو من قولهم رأيت منك أسدا أى أنت أسد وأن تكون ابتدائية على معنى هب لنا من جهتهم ما تقر به عيوننا من طاعة وصلاح فان قيل لم قال قرة أعين فنكر وقال قلنا أما التنكير فلاجل تنكير القرة لان المضاف لا سبيل الى تنكيره الا بتنكير المضاف اليه كأنه قال هب لنا منهم سرورا وفرحا وانما قال أعين دون عيون لانه أراد أعين المتقين وهى قليلة بالاضافة الى عيون غيرهم قال تعالى وقليل من عبادى الشكور (المسئلة الرابعة) قال الزجاج اقر الله عينك أى صادف فؤادك ما يحبه وقال الفضل فى قرة العين ثلاثة أقوال أحدها رد دمعتها وهى الى تكون مع

والمخصوص بالذم محذوف معناه ساءت مستقرا ومقاما هي وهذا الضمير هو الذي ربط الجملة باسم ان وجعلها خبرا لها قيل ويجوز أن يكون ساءت بمعنى أحزنت وفيها ضمير اسم ان ومستقرا حال او تمييز وهو بعيد خال عما في الاول من المبالغة في بيان سوء حالها ﴿ ٥٠٣ ﴾ وكذا جعل التعليلين من جهته تعالى (والذين اذا انفقوا

الضحك والسرور ودمعة الحزن حارة والثاني نومها لانه يكون مع ذهاب الحزن والوجع والثالث حصول الرضا (المسئلة الخامسة) قوله واجعلنا للمتقين اماما الاقرب انهم سألوا الله تعالى أن يبلغهم في الطاعة المبلغ الذي يشار اليهم ويقتدى بهم قال بعضهم في الآية ما يدل على الرياسة في الدين يجب أن تطلب ويرغب فيها قال الخليل عليه الصلاة والسلام واجعل لي لسان صدق في الآخرين وقيل نزلت هذه الآيات في العشرة المبشرين بالجنة (المسئلة السادسة) احتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى قالوا لان الامامة في الدين لا تكون الا بالعلم والعمل فدل على أن العلم والعمل انما يكون بجعل الله تعالى وخلقه وقال القاضي المراد من السؤال الالطاف التي اذا كثرت صاروا مختارين لهذه الاشياء فيصيرون ائمة والجواب أن تلك الالطاف مفعولة لا محالة فيكون سؤالها عبثا (المسئلة السابعة) قال الفراء قال اماما ولم يقل أئمة كما قال الاثنين انا رسول رب العالمين ويجوز ان يكون المعنى اجعل كل واحد منا اماما كما قال يخرجكم طفلا وقال الاخفش الامام جمع واحد تام كصائم وصيام وقال القفال وعندي الامام اذا ذهب به مذهب الاسم وحد كانه قيل اجعلنا حجة للمتقين ومثله البينة يقال هؤلاء بينة فلان واعلم انه سبحانه وتعالى لما عدد صفات المتقين المخلصين بين بعد ذلك انواع احسانه اليهم وهي مجموعة في أمرين المنافع والتعظيم * (اما المنافع) فهي قوله (أولئك يجزون الغرفة بما صبروا) والمراد أولئك يجزون الغرفات والدليل عليه قوله وهم في الغرفات آمنون وقال لهم غرف من فوقها غرف والغرفة في اللغة العلية وكل بناء عال فهو غرفة والمراد به الدرجات العالية وقال المفسرون الغرفة اسم الجنة فالمعنى يجزون الجنة وهي جنات كثيرة وقرأ بعضهم أولئك يجزون في الغرفة وقوله بما صبروا فيه بحثان (البحث الاول) احتج بالآية من ذهب الى ان الجنة بالاستحقاق فقال الباء في قوله بما صبروا تدل على ذلك ولو كان حصولها بالوعد لما صدق ذلك (البحث الثاني) ذكر السبر ولم يذكر المصبور عنده ليعم كل نوع فيدخل فيه صبرهم على مشاق الفكر والاستدلال في معرفة الله تعالى وعلى مشاق الطاعات وعلى مشاق ترك الشهوات وعلى مشاق اذى المشركين وعلى مشاق الجهاد والفقر ورياضة النفس فلا وجه لقول من يقول المراد الصبر على الفقر خاصة لان هذه الصفات اذا حصلت مع الغنى استحق من يختص بها الجنة كما يستحقه بالفقر (وثانيهما التعظيم) وهو قوله تعالى (يلقون فيها تحية وسلاما) وقرئ يلقون كقوله ولقاهم نضرة وسرورا يلقون كقوله يلق اثاما والتحية الدعاء بالتعمير والسلام الدعاء بالسلامة فيرجع حاصل التحية الى كون نعيم الجنة باقيا غير منقطع ويرجع السلام الى كون ذلك النعيم خالصا عن شوائب الضرر ثم هذه التحية والسلام يمكن أن يكون من الله تعالى لقوله سلام قولا من رب رحيم ويمكن أن يكون من الملائكة لقوله والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم ويمكن أن يكون من بعضهم على بعض * أما قوله (خالدين فيها حسنت

لم يسرفوا) لم يجاوزوا حد الكرم (ولم يقتروا) ولم يضيقوا تضييق الشحيح وقيل الاسراف هو الانفاق في المعاصي والقتر منع الواجبات والقتر وقرئ بكسر التاء مع فتح الياء وبكسر هما مخففة ومشددة مع ضم الياء (وكان بين ذلك) اي بين ما ذكر من الاسراف والقتر (قواما) وسطا وعدلا سمي به لاستقامة الطرفين كما سمي به سواء لاستوائهما وقرئ بالكسر وهو ما يقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص وهو خبر ثان او حال مؤكدة او هو الخبر وبين ذلك لغو وقد جوز ان يكون اسم كان على انه مبني لاضافته الى غير متمكن ولا يخفى ضعفه فانه بمعنى الوسط فيكون كالاخبار بشيء عن نفسه (والذين لا يدعون مع الله الها آخر) شروع في بيان اجتنابهم عن المعاصي بعد بيان اتيانهم بالطاعات وذكر نفي الاسراف والقتر تحقيق

معنى الاقتصاد والتصريح بوصفهم بنفي الاشراك مع ظهور ايمانهم لاظهار كمال الاعتناء بالتوحيد والاخلاص وتهويل امر القتل والزنا بنظمهما في سلكه وللتعرض بما كان عليه الكفرة من قريش وغيرهم أي لا يعبدون معه

تعالى الها آخر (ولا يقتلون النفس التي حرم الله) أي حرمها بمعنى حرم قتلها فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه مبالغة في التحريم (الا بالحق) أي لا يقتلونها بسبب من الاسباب الا بسبب الحق المزيل منها وعصمتها اولا يقتلون قتلا ما الا فعلا ملتبسا بالحق أولا يقتلونها في حال ﴿ ٥٠٤ ﴾ من الاحوال الا حال كونهم ملتبسين بالحق (ولا يزنون) أي الذين لا يفعلون شيئا من هذه العظائم القبيحة التي جمعهن الكفرة حيث كانوا مع اشراكهم به سبحانه مداومين على قتل النفوس المحرمة التي من جملتها الموؤدة مكبين على الزنا لا يرعوون عنه اصلا (ومن يفعل ذلك) أي ما ذكر كما هو دأب الكفرة المذكورين (يلق) في الآخرة وقرئ يلق مشددا مجزوما (أثاما) وهو جزاء الاثم كأنه نكال ونكال بمعنى ومثل هو اثم أي يلق جزاء الاثم والتنوين على التعظيم وقرئ أيما أي شدائد يقال يوم ذو أيام لليوم الصعب (يضاعف له العذاب يوم القيامة) بدل من يلق لاتحاد معناهما في المعنى كقوله ومن يأت ربه مؤمنا قد عمل الصالحات (ويخلد فيه) أي في ذلك العذاب المضاعف (مهانا) ذليلا ﴿ السماء ﴾ مستحقرا جامعا للعذاب الجسماني والروحاني وقرئ يخلد ويخلد مبنيا للمفعول من الاخلاد والتخليد وقرئ تخلد بالتاء على الالتفات المنبئ عن شدة الغضب

مستقرا ومقاما) فالمراد انه سبحانه لما وعد بالمنافع أولا وبالتعظيم ثانيا بين أن من صفتهما الدوام وهو المراد من قوله خالدين فيها ومن صفتهما الخلوص أيضا وهو المراد من قوله حسنت مستقرا ومقاما وهذا في مقابلة قوله ساءت مستقرا ومقاما أي ما أسوأ ذلك وما أحسن هذا ﴿ اما قوله) قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما) فاعلم انه سبحانه لما شرح صفات المتقين وشرح حال ثوابهم أمر رسوله أن يقول قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم فدل بذلك على انه تعالى غني عن عباداتهم وأنه تعالى انما كلفهم ليتفعوا بطاعتهم وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال الخليل ما أعبأ به فلان أي ما أصنع به كأنه يستقله و يستحقره وقال أبو عبيدة ما أعبأ به أي وجوده وعدمه عندي سواء وقال الزجاج معناه أي لا وزن لكم عندربكم والعبء في اللغة الثقل وقال أبو عمرو بن العلاء ما يبالي بكم ربي (المسئلة الثانية) في ما قولان أحدهما أنها مضمنة لمعنى الاستفهام وهي في محل النصب وهي عبارة عن المصدر كأنه قيل وأي عبء يعبأ بكم لولا دعاؤكم والثاني ان تكون ما نافية (المسئلة الثالثة) ذكروا في قوله لولا دعاؤكم وجهين أحدهما لولا دعاؤه اياكم الى الدين أراد اضاعتكم والدعاء على هذا مصدر مضاف الى المفعول وثانيهما أن الدعاء مضاف الى الفاعل وعلى هذا التقدير ذكروا فيه وجوها أحدها لولا دعاؤكم آلهة كما تدعونه يوم القيامة كقوله هاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين وثانيها لولا دعاؤكم ربكم بالايمان والطاعة كقوله تعالى حكاية عن نوح يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى وثالثها لولا دعاؤكم معه آلهة كقوله ورابعها لولا استغفاركم وخامسها ما خلقتكم وسادسها ما عبأ بكم لولا أن تسألوني ما عصيتكم وتستغفرني فاغفر لكم أما عند الذين قالوا ان المعنى لولا أنكم تعبدونه لما عذبكم فانهم قالوا انما خلقتهم ليعبدوني فاذا لم يعبدوني فقد خالفتم غرضي فلا أبقي عليكم فسوف يلزمكم أثر كفركم وهو عذاب الآخرة وأما عند الذين قالوا لولا دعاؤكم الى الايمان لما عذبتكم فانهم قالوا ان من عادتي أن أحسن الى من يطيعني ولا أعذبه فاذا عصيت فسوف أعذبك فما أحملك على معاصيك فان دعوتك الى الايمان لا وجه لها في الحكمة فقالوا لا نأتي بالايمان على الاطلاق وهم عابدون ومكذبون عاصون فجمعوا بما وجد في جانبهم من العبادة والتكذيب وقرئ فقد كذب الكافرون فسوف يكون العذاب لزاما وقرئ لزاما بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت والوجاب ترك اسم كان غير متوقع به بعد ما علم أنه مما توعد به لاجل الابهام ويتناول ما لا يحيط به الوصف ثم قيل هذا العذاب في الآخرة وقيل كان يوم بدر وهو قول مجاهد رحمه الله والله أعلم ﴿ تم تفسير هذه السورة والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الامي وآله وصحبه أجمعين

﴿ سورة الشعراء مكية الا الأربع آيات فانها مدنية وهي والشعراء يتبعهم الغاوون الى آخرها وهي مائتان اوست اوسبع وعشرون آية ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طسم تلك آيات الكتاب المبين لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ان نشأ ننزل عليهم من

مضاعفة العذاب لانضمام المعاصي الى الكفر كما يفصح عنه قوله تعالى (الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا) وذكر الموصوف لجريان الصالح والصالحات مجرى الاسم للاعتناء به والتنصيص على مغايرته الاعمال السابقة (فاولئك) اشارة الى الموصول والجمع باعتبار معناه كما أن الافراد في الافعال الثلاثة باعتبار لفظه أي أولئك الموصوفون بالتوبة والايمان والعمل الصالح (يبدل الله سيئاتهم حسنات) بان يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ويثبت مكانها لواحق طاعتهم أو يبدل بملكة المعصية ودواعيها في النفس ملكة الطاعة بان يزيل الاولى ويأتي بالثانية وقيل بان يوفقه لاضداد ما سلف منه أو بان يثبت له بدل كل عقاب ثوابا وقيل يبدلهم بالشرك ايمانا وبقتل المسلمين قتل المشركين وبالزنا عفة واحصانا (وكان الله غفورا رحيما) اعتراض تذييلي مقرر لما قبله من المحو والاثبات (ومن تاب) أي عن المعاصي بتركها بالكلية والندم عليها (وعمل صالحا) يتلافى به ما فرط منه أو خرج عن المعاصي ودخل في الطاعات (فانه) بما فعل (يتوب

السماء آيه فظلت أعناقهم لها خاضعين) الظاء اشارة الى طرب قلوب العارفين والسين سرور المحبين والميم مناجاة المريدين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ قتادة باخع نفسك على الاضافة وقرئ فظلت أعناقهم لها خاضعة (المسئلة الثانية) البخع ان يبلغ بالذبح البخاع وهو الخرم النافذ في ثقب الفقرات وذلك أقصى حد الذبح ولعل الاشفاق (المسئلة الثالثة) قوله طسم تلك آيات الكتاب المبين معناه آيات هذه السورة تلك آيات الكتاب المبين وتمام تقريره مامر في قوله تعالى ذلك الكتاب ولا شبهة في أن المراد بالكتاب هو القرآن والمبين وان كان في الحقيقة هو المتكلم فقد يضاف الى الكلام من حيث يتبين به عند النظر فيه فان قيل القوم لما كانوا كفارا فكيف تكون آيات القرآن مبينة لهم ما يلزمهم وانما يتبين بذلك الاحكام قلنا ألفاظ القرآن من حيث تعذر عليهم أن يأتوا بمثله يمكن أن يستدل به على فاعل مخالف لهم كما يستدل بسائر ما لا يقدر العباد على مثله فهو دليل التوحيد من هذا الوجه ودليل النبوة من حيث الاعجاز ويعلم به بعد ذلك انه اذا كان من عند الله تعالى فهو دلالة الاحكام أجمع واذا ثبت هذا صارت آيات القرآن كافية في كل الاصول والفروع اجمع ولما ذكر الله تعالى انه بين الامور قال بعده لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين منبها بذلك على أن الكتاب وان بلغ في البيان كل غاية فغيرهم خل لهم في الايمان لما انه سبق حكم الله بخلافه فلا تبالغ في الحزن والاسف على ذلك لانك ان بالغت فيه كنت بمنزلة من يقتل نفسه ثم لا ينفع بذلك أصلا فصبره وعزاه وعرفه ان غمه وحزنه لا نفع فيه كما ان وجود الكتاب على بيانه ووضوحه لا نفع لهم فيه ثم بين تعالى انه قادر على أن ينزل آية يذلون عندها ويخضعون فان قيل كيف صح مجيء خاضعين خبرا عن الاعناق قلنا أصل الكلام فظلوا لها خاضعين فذكرت الاعناق لبيان موضع الخضوع ثم ترك الكلام على أصله ولما وصفت بالخضوع الذي هو للعقلاء قيل خاضعين كقوله لي ساجدين وقيل أعناق الناس رؤساؤهم ومقدموهم شبهوا بالاعناق كما يقال هم الرؤس والصدور وقيل هم جماعات الناس يقال جاءنا عنق من الناس لفوج منهم (المسئلة الرابعة) نظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الكهف فلعلك باخع نفسك وقوله فلا تذهب نفسك عليهم حسرات * قوله تعالى (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا فسيأتيهم انبؤا ما كانوا به يستهزؤن أولم يروا الى الارض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله ما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين من تمام قوله ان نشأ ننزل عليهم فنبه تعالى على انه مع قدرته على أن يجعلهم مؤمنين بالالجاء رحيم بهم من حيث يأتيهم حالا بعد حال بالقرآن وهو الذكر ويكرره عليه وهم مع ذلك على حد واحد في الاعراض والاستهزاء ثم عند ذلك زجر وتوعد فقال المرء اذا استمر على كفره فليس ينفع فيه الا الزجر الشديد فلذلك قال فقد كذبوا أي

الله) أي يرجع اليه تعالى (متابا) أي عظيم الشأن مرضيا عنده تعالى ما حيا للعقاب ذاهبا للثواب أو يتوب متابا الى الله تعالى الذي يحب التوابين ويحسن اليهم أو فانه يرجع اليه تعالى ثوابه مرجعا بذا تعمم بعد تخصيص (والذين لا يشهدون الزور) لا يقيمون

الشهادة الكاذبة أولا يحضرون محاضر الكذب فان مشاهدة الباطل مشاركة فيه (واذا مروا) على طريق الاتفاق (باللغو) أى ما يجب أن يلغى ويطرح مما لا خير فيه (مروا كراما) معرضين) عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه ومن ذلك الاغضاء عن الفواحش والصفح عن الذنوب والكناية عما يستهجن التصريح به (والذين اذا ذكروا بآيات ربهم) الخطاب بها على المواعظ والاحكام (لم يخروا عليها صما وعميانا) أى أكبوا عليها سامعين بآذان واعية مجتهدين لها بعيون واعية وعبر عن ذلك بنفى الضد تعريضا بحال الكفرة والمنافقين وفيه الضمير للمعاصى المدلول عليها باللغو (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين) توفيقهم للطاعة وحيازة الفضائل فان المؤمن اذا ساعده أهله فى طاعة الله عز وجل وشاركوه فيها يسر بهم قلبه وتقر بهم عينه لما يشاهده من مشايعتهم له فى مناهج الدين وتوقع لحوقهم به فى الجنة حسبما وعد بقوله تعالى الحقنا بهم ذريتهم ومن ابتدائية أو بيانية وقرئ وذرياتنا وتنكير الاعين لارادة تنكير القرة تعظيما وتقليلها لان المراد أعين المتقين ولا ريب فى قلتها نظرا الى غيرها (واجعلنا للمتقين اماما) أى اجعلنا بحيث يقتدون بنا فى اقامة مراسم الدين بافاضة العلم والتوفيق للعمل وتوحيده للدلالة على الجنس وعدم الالتباس كقوله تعالى ثم يخرجكم طفلا أولان المراد واجعل كل واحد منا

بلغوا النهاية فى رد آيات الله تعالى فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزؤن وذلك اما عند نزول العذاب عليهم فى الدنيا أو عند المعاينة أو فى الآخرة فهو كقوله تعالى ولتعلمن نبأه بعد حين وقد جرت العادة فيمن يسئ أن يقال له سترى حالك من بعد على وجه الوعيد ثم انه تعالى بين انه مع انزاله القرآن حالا بعد حال قد أظهر أدلة تحدث حالا بعد حال فقال أولم يروا الى الارض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم والزوج هو الصنف والكريم صفة لكل ما يرضى ويحمد فى بابه يقال وجد كريم اذا كان مرضيا فى حسنه وجماله وكتاب كريم اذا كان مرضيا فى فوائده ومعانيه والنبات الكريم والمرضى فيما يتعلق به من المنافع وفى وصف الزوج بالكريم وجهان (أحدهما) ان النبات على نوعين نافع وضار فذكر سبحانه كثرة ما أنبت فى الارض من جميع أصناف النبات النافع وترك ذكر الضار (والثانى) أنه يعم جميع النبات نافعه وضاره ووصفهما جميعا بالكرم وفيه على انه ما أنبت شيئا الا وفيه فائدة وان بعض منافعها قد تكون أعظم فقوله ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين فهو كقوله هدى للمتقين والمعنى ان فى ذلك دلالة لمن يتفكر ويتدبر وما كان أكثرهم مؤمنين أى مع كل ذلك يستمر أكثرهم على كفرهم فاما قوله وان ربك لهو العزيز الرحيم فانما قدم ذكر العزيز على ذكر رحيم لانه لو لم يقدمه لكان ربما قيل انه رحمهم لعجزه عن عقوبتهم فأزال هذا الوهم بذكر العزيز وهو الغالب القاهر ومع ذلك فانه رحيم بعباده فان الرحمة اذا كانت عن القدرة الكاملة كانت أعظم وقعا والمراد انهم مع كفرهم وقدرة الله على أن يعجل عقابهم لم يترك رحمتهم بما تقدم ذكره من خلق كل زوج كريم من النبات ثم من اعطاء الصحة والعقل والهداية (المسئلة الثانية) انه تعالى وصف الكفار بالاعراض أولا وبالتكذيب ثانيا وبالاستهزاء ثالثا وهذه درجات من أخذ يترقى فى الشقاوة فانه يعرض أولا ثم يصرح بالتكذيب ثانيا ثم يبلغ فى التكذيب والانكار الى حيث يستهزئ به ثالثا (المسئلة الثالثة) فان قلت ما معنى الجمع بين كم وكل ولم لم يقل كم أنبتنا فيها من زوج كريم قلت قد دل كل على الاحاطة بأزواج النبات على سبيل التفصيل وكم على ان هذا المحيط منكا مفرط الكثرة فهذا معنى الجمع ربه على كمال قدرته فان قلت لم عين ذكر الازواج ودل عليها بكلمتى الكثرة والاحاطة وكانت بحيث لا يحصيها الا علام الغيوب فكيف قال ان فى ذلك لآية وهلا قال لآيات قلت فيه وجهان (أحدهما) أن يكون ذلك مشارا به الى مصدر أنبتنا فكأنه قال ان فى ذلك الانبات لآية أى آية (والثانى) أن يراد ان فى كل واحد من تلك الازواج لآية (المسئلة الرابعة) احتجت المعتزلة على خلق القرآن بقوله تعالى وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث فقالوا الذكر هو القرآن لقوله تعالى وهذا ذكر مبارك وبين فى هذه الآية أن الذكر محدث فيلزم من هاتين الآيتين ان القرآن محدث وهكذا الاستدلال بقوله تعالى الله نزل أحسن الحديث كتابا وبقوله فبأى حديث بعده يؤمنون واذا ثبت انه محدث فله خالق فيكون مخلوقا لا محالة

اما أولانهم كنفس واحدة لاتحاد طريقتهم واتفاق كلمتهم كذا قالوا وأنت خبير بان مدار الكل صدور هذا الدعاء اما عن الكل بطريق المعية وانه محال لاستحالة ﴿ ٥٠٧ ﴾ اجتماعهم فى عصر واحد فاظنك باجتماعهم فى مجلس واحد واتفاقهم على كلمة واحدة واما عن كل واحد منهم بطريق تشريك غيره فى استدعاء الامامة وانه ليس بثابت جزما بل الظاهر صدوره عنهم بطريق الانفراد وأن عبارة كل واحد منهم عند الدعاء وأجعلنى للمتقين اماما خلا انه حكيت عبارات الكل بصيغة المتكلم مع الغير لقصد الى الايجاز على طريقة قوله تعالى يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا وأبقى اماما على حاله وقيل الامام جمع آم بمعنى قاصد كصيام جمع صائم ومعناه قاصدين لهم مقتدين بهم واعادة الموصول فى المواقع السبعة مع كفاية ذكر الصلات بطريق العطف على صلة الموصول الاول للايذان بأن كل واحد مما ذكر فى حيز صلة الموصولات المذكورة وصف جليل على حياله له شان خطير حقيق بان يفرد له موصوف مستقل ولايجعل شئ من ذلك تتمة لغيره

(والجواب) ان كل ذلك يرجع الى هذه الالفاظ ونحن نسلم حدوثها انما ندعى قدم أمر آخر وراء هذه الحروف وليس فى الآية دلالة على ذلك * قوله تعالى (واذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون) اختلف أهل السنة فى النداء الذى سمعه موسى عليه السلام من الله تعالى هل هو كلامه القديم أو هو ضرب من الاصوات فقال أبو الحسن الاشعرى المسموع هو الكلام القديم وكما أن ذاته تعالى لاتشبه سائر الاشياء مع أن الدليل دل على انها معلومة ومرئية فكذا كلامه منزه عن مشابهة الحروف والاصوات مع انه مسموع قال أبو منصور الماتريدى الذى سمعه موسى عليه السلام كان نداء من جنس الحروف والاصوات وذلك لان الدليل لما دل على أن أعراض الجوهر والعرض ولابد من علة مشتركة بينهما الصحة أو الوجود ولاعلة الا الوجود حكمنا بان كل موجود يصح أن يرى ولم يثبت عندنا أنا نسمع الاصوات والاجسام حتى يحكم بانه لابد من مشترك بين الجسم والصوت فلم يلزم صحة كون كل موجود مسموعا فظهر الفرق اما المعتزلة فقد اتفقوا على أن ذلك المسموع ما كان الا حروفا وأصواتا فعند هذا قالوا ان ذلك النداء وقع على وجه علم موسى عليه السلام أنه من قبل الله تعالى فصار معجزا علم به أن الله خالقه فلم يحتج مع ذلك الى واسطة وكفى فى الوقت أن حمله الرسالة التى هى ان ائت القوم الظالمين لان فى بدأ البعثة يجب أن يامره بالدعاء الى التوحيد ثم بعد أمره بالاحكام ولايجوز أن يامره تعالى بذلك الا بعد أن يعرفه أنه ستظهر عليه المعجزات اذا طلب ذلك أما قوله تعالى ان ائت القوم الظالمين فاعلم أنه تعالى سجل عليهم بالظلم وهذا الاسم من وجهين من وجه ظلمهم أنفسهم بكفرهم ومن وجه ظلمهم لبنى اسرائيل أما قوله قوم فرعون فقد عطف قوم فرعون على القوم الظالمين عطف بيان كان القوم الظالمين وقوم فرعون لفظان يدلان على معنى واحد وأما قوله أما يتقون فقرئ ألا يتقون بكسر النون بمعنى أفلا تتقونني فحذفت النون لاجتماع النونين والياء للاكتفاء بالكسرة وقوله ألا يتقون كلام مستأنف اتبع تعالى ارساله اليهم للانذار والتسجيل عليهم بالظلم تعجيب موسى عليه السلام من حالهم فى الظلم والعسف وعز أنفسهم العواقب قلة خوفهم ويحتمل أن يكون ألا يتقون حالا من الضمير فى الظالمين أى يظلمون غير متقين الله وعقابه فادخلت همزة الانكار على الحال ووجه ثالث هو أن يكون المعنى الا يا ناس اتقون كقوله ألا يسجدوا وأما من قرأ ألا تتقون على الخطاب فعلى طريقة الالتفات اليهم وصرف وجوههم بالانكار والغضب عليهم كما يرى من يشكو من ركب جناية والجانى حاضر فاذا اندفع فى الشكاية وحمى غضبه قطع مباثة صاحبه وأقبل على الجانى يوبخه ويعنفه به ويقول له الا تتقى الله الا تستحيى من الناس فان قلت فما الفائدة فى هذا الالتفات والخطاب مع موسى عليه السلام فى وقت المناجاة والتفت اليهم غائبين لايشعرون قلت اجراء ذلك فى تكليم المرسل اليهم فى معنى اجرائه بحضرتهم والقائه الى مسامعهم

بسبط العاطف بين الموصولات لتنزيل الاختلاف العنوانى منزلة الاختلاف الذاتى كما فى قوله * لى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتائب فى المزدحم (أولئك) اشارة الى المتصفين بما فصل فى حيز صلة الموصولات الثمانية اتصافهم به وفيه دلالة على انهم متميزون بذلك

أكمل تميز منتظمون بسببه فى سلك الامور المشاهدة وفيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتهم فى الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (يجزون الغرفة) والجملة مستأنفة لا محل لها من الاعراب مبينة لمالهم فى الاخرة من السعادة الابدية اثر بيان مالهم فى الدنيا من الاعمال السنية والغرفة الدرجة العالية من المنازل وكل بناء مرتفع عال أى يثابون أعلى منازل الجنة وهى اسم جنس أريد به الجمع كقوله تعالى وهم فى الغرفات آمنون وقرئ هى اسم من أسماء الجنة (بما صبروا) أى بصبرهم على الشاق من مضض الطاعات ورفض الشهوات وتحمل المجاهدات (ويلقون فيها) من جهة الملائكة (تحية وسلاما) أى يحييهم الملائكة ويدعون لهم بطول الحياة والسلامة من الآفات أو يعطون البقية والتخليد مع السلامة من كل آفة وقيل يحيى بعضهم بعضا ويسلم عليه وقرئ يلقون من لقى (خالدين فيها) لا يموتون ولا يخرجون (حسنت مستقرا ومقاما) الكلام فيه كالذى مر فى مقابله (قل) أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يبين للناس أن الفائزين بتلك النعماء الجليلة التى يتنافس فيها المتنافسون انما نالوها بما عدد من محاسنهم ولولاها لم يعتد بهم أصلا أى قل لهم كافة ﴿ موسى ﴾ مشافهة لهم بما صدر عن جنسهم من خبر وشر (ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم) أى عبء يعبأ بكم وأى اعتداد يعتد به لولا عبادتكم له تعالى حسبما مر تفصيله فان ما خلق له الانسان

لانه مبلغهم ومنهيه اليهم وله فيه لطف وحث على زيادة التقوى وكم من آية نزلت فى شان الكافرين وفيها أو فر نصيب للمؤمنين تدبرها واعتبارا بمواردها ﴿ قوله تعالى (قال رب انى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فارسل الى هرون ولهم على ذنب فاخاف أن يقتلون) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن الله تعالى لما أمر موسى عليه السلام بالذهاب الى قوم فرعون طلب موسى عليه السلام ان يبعث معه هرون اليهم ثم ذكر الامور الداعية له الى ذلك السؤال وحاصلها انه لو لم يكن هرون لاختل المصلحة المطلوبة من بعثة موسى عليه السلام وذلك من وجهين الاول ان مرعون ربما كذبه والتكذيب سبب لضيق القلب وضيق القلب سبب لتعسر الكلام على من يكون فى لسانه حبسة لان عند ضيق القلب تقبض الروح والحرارة الغريزية الى باطن القلب واذا انقبضت الى الداخل وخلا منهما الخارج ازدادت الحبسة فى اللسان فالاذى من التكذيب سبب لضيق القلب وضيق القلب سبب للحبسة فلهذا السبب بدأ بخوف التكذيب ثم ثنى بضيق الصدر ثم ثلث بعدم انطلاق اللسان وأما هرون فهو أفصح لسانا منى وليس فى حقه هذا المعنى فحكى ارساله لانتفاء لسانى أن لهم عندى ذنبا فاخاف أن يبادروا الى قتلى وحينئذ لا يحصل المقصود من البعثة وأما هرون فليس كذلك فيحصل المقصود من البعثة (المسئلة الثانية) قرئ يضيق وينطلق بالرفع لانهما معطوفان على خبران وبالنصب لعطفهما على صلة أن والمعنى أخاف أن يكذبون وأخاف أن يضيق صدرى وأخاف أن لا ينطلق لسانى والفرق أن الرفع يفيد ثلاث حالات فى طلب ارسال هرون والنصب يفيد علة واحدة وهى الخوف من هذه الامور الثلاثة فان قلت الخوف امر حاصل لتوقع مكروه سيقع وعدم انطلاق اللسان كان حاصلا فكيف جاز تعلق الخوف به قلت قد بينا ان التكذيب الذى سيقع يوجب ضيق القلب وضيق القلب يوجب زيادة احتباس ذلك الزيادة ما كانت حاصلة فى الحال بل كانت متوقعة فجاز تعلق الخوف عليها أما قوله تعالى فارسل الى هرون فليس فى الظاهر ذكر من الذى يرسل اليه وفى الخبر أن الله تعالى أرسل موسى عليه السلام الى قابيل الذى ان موسى عليه السلام سار بأهله الى مصر والتقى بهرون وهو لا يعرفه فقال أنا موسى فعانقه وأمره أن ينطلق معه الى فرعون لاداء الرسالة فصاحت أمهما لخوفها عليهما فذهبا اليه ويحتمل أن يكون المراد أرسل اليه جبريل لان رسول الله الى الانبياء جبريل عليه السلام فلما كان هو متعينا لهذا الامر حذف ذكره لكونه معلوما وأيضا ليس فى الظاهر انه يرسل لماذا لكن فحوى الكلام يدل على انه طلبه للمعونة فيما سأل كما يقال اذانا بتك نائبة فارسل الى فلان أى ليعينك فيها وليس فى الظاهر انه التمس كون هرون نبيا معه لكن قوله فقولا انا رسول رب العالمين يدل عليه وما قوله ولهم على ذنب فاراد بالذنب قتله القبطى وقد ذكر الله تعالى هذه القصة مشروحة فى سورة القصص واعلم انه ليس فى التماس

معرفته تعالى وطاعته والافهو وسائر البهائم سواء وقال الزجاج معناه أي وزن يكون لكم عنده وقيل معناه مايصنع بكم ربي لولا دعاؤه اياكم الى الاسلام وقيل ﴿ ٥٠٩ ﴾ مايصنع بعذابكم لولا دعاؤكم معه آلهة ويجوز أن تكون

موسى عليه السلام أن يضم اليه هرون مايدل على انه استعفى من الذهاب الى فرعون بل مقصوده فيما سأل أن يقع ذلك الذهاب على أقوى الوجوه في الوصول الى المراد واختلفوا فقال بعضهم انه وان كان نبيا فهو غير عالم بانه يقبل حتى يؤدي الرسالة لانه انما أمر بذلك بشرط التمكين وهذا قول الكعبي وغيره من البغداديين لانهم يجوزون دخول الشرط في تكليف الله تعالى العبد والذي ذهب اليه الاكثرون ان ذلك لايجوز لانه تعالى اذا أمر فهو عالم بما يتمكن منه المأمور به وقات تمكنه فاذا علم انه غير متمكن منه فانه لايامره به واذا صح هذا فالاقرب في الانبياء انهم يعلمون اذا حملهم الله تعالى الرسالة انه تعالى يمكنهم من أدائها وانهم سيقبلون الى ذلك الوقت ومثل ذلك لايكون اغراء في الانبياء ويجوز أن يكون اغراء في غيرهم (المسئلة الثالثة) لقائل أن يقول قول موسى عليه السلام ولهم علي ذنب فهذا يدل على صدور الذنب منه جوابه لاوالمراد لهم علي ذنب في زعمهم * قوله تعالى (قال كلا فاذهبا بآياتنا انا معكم مستمعون فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين أن أرسل معنا بني اسرائيل) اعلم أن موسى عليه السلام طلب أمرين الاول أن يدفع عنه شرهم والثاني أن يرسل معه اخاه هرون فأجابه الله تعالى الى الاول بقوله كلا ومعناه ارتدع ياموسى عما ظننت وأجابه الى الثاني بقوله فاذهبا أي اذهب أنت والذي طلبته وهو هرون قال قبل كلام عضد قوله فاذهبا قلنا على الفعل الذي يدل عليه كلا كانه قال ارتدع ياموسى عما تظن فاذهب أنت وهرون وأما قوله انا معكم مستمعون فمن مجاز الكلام يريد انا نكلؤكما وننصركما ناصر الظهير لكما على عدوه اذا حضر واستمع مايجري بينكما فاظهر كما عليه وأعلاكما وأكسر شوكته عنكما وانما جعلنا الاستماع مجازا لان الاستماع عبارة عن الاصغاء وذلك على الله تعالى محال واما قوله انا رسول رب العالمين ففيه سؤال وهو انه هلا ثنى الرسول كما ثنى في قوله انا رسولا ربك جوابه من وجوه (أحدها) ان الرسول اسم للماهية من غير بيان ان تلك الماهية واحدة أو كثيرة والالف واللام لايفيد ان الا الواحدة لا الاستغراق بدليل انك تقول الانسان هو الضحاك ولاتقول كل انسان هو الضحاك ولا أيضا هذا الانسان هو الضحاك واذا ثبت أن لفظ الرسول لايفيد الا الماهية وثبت أن الماهية محمولة على الواحد وعلى الاثنين ثبت صحة قوله انا رسول رب العالمين (وثانيها) أن الرسول قد يكون بمعنى الرسالة قال الشاعر

لقد كذب الواشون ماذهبت عندهم * بسر ولا ارسلتهم برسول

فيكون المعنى انا ذو رسالة رب العالمين (وثالثها) انهما لاتفاقهما على شريعة واحدة واتحادهما بسبب الاخوة كأنهما رسول واحد (ورابعها) المراد كل واحد منا رسول (وخامسها) ماقاله بعضهم انه انما قال ذلك لابلفظ التثنية لكونه هو الرسول خاصة وقوله انا معكم في قوله تعالى انا أرسلناه وهو ضعيف وأما قوله أن أرسل معنا بني اسرائيل فالمراد من هذا الارسال التخلية والاطلاق كقولك أرسل البازي يريد خلهم يذهبوا معنا * قوله

مانافية وقوله تعالى (فقد كذبتم) بيان لحال الكفرة من المخاطبين كأن مافبله بيان لحال المؤمنين منهم أي فقد كذبتم بما أخبرتكم به وخالفتموه أيها الكفرة وام تعملوا عمل أولئك المذكورين وقيل فقد قصرتم في العبادة من قولهم كذب القتال اذا لم يبالغ فيه وقرئ فقد كذب الكافرون أي الكافرون منكم لعموم الخطاب للفريقين وفائدته الايذان بان مناط فوز أحدهما وخسران الآخر مع الاتحاد الجنسي صحيح الاشتراك في الفوز ليس الا الاختلاف فيهما في العمل (فسوف يكون لزاما) أي يكون جزاء التكذيب أو أثره لازما يحيق بكم لامحالة حتى يكبكم في النار كما تعرب عنه الفاء الدالة على لزوم مابعدها لما قبلها وانما أضمر من غير ذكر للايذان بغاية ظهوره وتهويل أمره وللتنبيه على أنه مما لايكتنهه البيان وقيل

يكون العذاب لزاما وعن مجاهد رحمه الله هو القتل يوم بدر وأنه لوزم بين القتلى وقرئ لزاما بالفتح بمعنى اللزوم كالثبات والثبوت * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الفرقان لقي الله تعالى وهو مؤمن بان الساعة آتية لاريب فيها وأدخل الجنة بغير نصب * (سورة الشعراء مكية الا قوله والشعراء الى آخرها وهي مائتان

وست أوسبع وعشرون آية) * (بسم الله الرحمن الرحيم) * (طسم) بتفخيم الالف وبامالتهما واظهار النون وبادغامها فى الميم وهو امامسرود على نمط التعديد بطريق التحدى على أحد الوجهين المذكورين فى فاتحة سورة البقرة فلامحل له من الاعراب واما اسم ﴿ ٥١٠ ﴾ للسورة كماعليه اطباق الاكثر فمحله الرفع على أنه

تعالى (قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين) اعلم أن فى الكلام حذفا وهو انهما اتياه وقالا ماأمر الله به فعند ذلك قال فرعون ماقال [illegible] انطلقا الى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب ان ههنا انسانا يزعم انه رسول رب العالمين فقال ائذن له لعلنا نضحك منه وأدبا اليه الرسالة فعرف موسى عليه السلام فعدد عليه نعمه أولا ثم اساءة موسى اليه ثانيا أما النعم فهى قوله ألم نربك فينا وليدا والوليد الصبى لقرب عهده من الولادة ولبثت فينا من عمرك وعن أبى عمرو بسكون الميم سنين قال لبث فيهم ثلاثين سنة وقيل وكز القبطى وهو ابن اثنى عشرة سنة وقيل ابن عشرة سنة وقيل ابن خمسة عشر سنة وقيل ابن عشرين سنة والله أعلم بصحيح ذلك وعن الشعبى فعلتك بالكسر وهى قتله الخطأ لانه قتله بالوكزة وهو ضرب من القتل وأما الفعلة فلانها وكزة واحدة عدد عليه نعمة من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال ووبخه باجرى على يده من قتل خباز وعظم ذلك فقوله فعلت فعلتك التى فعلت وأنا قرأته وأنت من الكافرين ففيه وجوه (أحدها) يجوز أن يكون حالا أى قتلته وأنت بذلك من الكافرين بحسبى (وثانيها) وأنت اذذاك من كفرهم الساعة وقد افترى عليه أو جهل أمره لانه كان يسترهم بالتقية فان الكفر غير جائز على الانبياء قبل النبوة (وثالثها) وأنت من الكافرين نعمائى وأنت ممن عادته كفران النعم ومن كان هذا حاله لم يستبعد منه قتل خواص ولى نعمته (ورابعها) وأنت من الكافرين بفرعون والهيته أو من الذين يكفرون بدينهم فقد كانت لهم آلهة يعبدونها يشهد بذلك قوله تعالى ويذرك والهتك * قوله تعالى (فعلتها اذا وأنا من الضالين ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل) اعلم أن فرعون لما ذكر التربية وذكر القتل وقد كانت تربيته له معلومة ظاهرة لاجرم أن موسى عليه السلام ما أنكرها ولم يشتغل بالجواب عنها لانه تقرر فى العقول ان الرسول الى الغير اذا كان معه معجز وحجة لم يتغير حاله بان يكون المرسل اليه أنعم عليه أولم يفعل ذلك فصار قول فرعون لما قاله غير مؤثر البتة ومثل هذا الكلام الاعراض عنه أولى ولكن أجاب عن القتل بما لا شئ أبلغ منه فى الجواب وهو قوله فعلتها اذا وأنا من الضالين والمراد بذلك الذاهلين عن معرفة مايؤول اليه من القتل لانه فعل الوكزة على وجه التأديب ومثل ذلك ربما حسن وان أدى الى القتل فبين له أنه فعله على وجه لا يجوز معه أن يؤاخذه أو يعده منه كافرا أو كافر النعمة فاما قوله ففررت منكم لما خفتكم فالمراد انى فعلت ذلك الفعل وأنا ذاهل عن كونه مهلكا وكان منى فى حكم السهو فلما استحق التخويف الذى يوجب الفرار ومع ذلك ففررت منكم عند وعلمكم ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فبين بذلك انه لا نعمة له عليه فى باب تلك الفعلة بل بان يكون مسيئا فيه أقرب من حيث خوف تخويفا أوجب الفرار ثم بين نعمة الله تعالى عليه بعد الفرار فكأنه قال أسأتم وأحسن الله الى بان وهب لى حكما وجعلنى من المرسلين واختلفوا فى

خبر لمبتدأ محذوف وهو أظهر من الرفع على الابتداء وقدمر وجهه فى مطلع سورة يونس عليه السلام أو النصب بتقدير فعل لائق بالمقام نحو اذكر أو اقرأ أو تلك فى قوله تعالى (تلك آيات الكتاب المبين) اشارة الى السورة سواء كان طسم مسرودا على نمط التعديد أو اسما للسورة حسبما مر تحقيقه هناك ومافى اسم الاشارة من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلة المشار اليه فى الفخامة ومحله الرفع على أنه مبتدأ خبره مابعده وعلى تقدير كون طسم مبتدأ فهو مبتدأ ثان أو بدل من الاول والمراد بالكتاب القرآن وبالمبين الظاهر اعجازه على أنه من ابان بمعنى بان أو المبين للاحكام الشرعية ومايتعلق بها أو الفاصل بين الحق والباطل والمعنى هى آيات مخصوصة منه مترجمة باسم مستقل والمراد ببيان كونها بعضا منه وصفها بما اشتهر به الكل من النعوت الفاضلة (لعلك باخع نفسك) أى قاتل وأصل البخع أن يبلغ بالذبح البخاع ﴿ الحكيم ﴾ وهو عرق مستبطن الفقار وذلك أقصى حد الذبح وقرئ باخع نفسك على الاضافة ولعل للاشفاق أى اشفق على نفسك

أن تقتلها حسرة على مافاتك من اسلام قومك (أن لا يكونوا مؤمنين) أى لعدم ايمانهم بذلك الكتاب المبين او خيفة أن لا يؤمنوا به وقوله تعالى (ان نشأ) الخ ﴿ ٥١١ ﴾ استئناف مسوق لتعليل مافهم من الكلام من النهى عن التحسر المذكور ببيان أن ايمانهم ليس مما تعلقت به مشيئة الله تعالى حتما فلا وجه للطمع فيه والتألم من فواته ومفعول المشيئة محذوف لكونه مضمون الجزاء أعنى قوله تعالى (ننزل عليهم من السماء آية) أى ملجئة لهم الى الايمان فاسرة عليه وتقديم الظرفين على المفعول الصريح للامر مرارا من الاهتمام بالتقدم والتشويق الى المؤخر (فظلت أعناقهم لها خاضعين) أى منقادين وأصله فظلوا لها خاضعين فاقحمت الاعناق لزيادة التقرير ببيان موضع الخضوع وترك الخبر على حاله وقيل لما وصفت الاعناق بصفات العقلاء اجريت مجراهم فى الصيغة أيضا كما فى قوله تعالى رأيتهم لى ساجدين وقيل أريد بها الرؤساء والجماعات من قولهم جاءنا عنق من الناس أى فوج منهم وقرئ خاضعة وقوله تعالى فظلت عطف على ننزل باعتبار محله

الحكم والاقرب انه غير النبوة لان المعطوف غير المعطوف عليه والنبوة مفهومة من قوله وجعلنى من المرسلين فالمراد بالحكم العلم ويدخل فى العلم العقل والرأى والعلم بالدين الذى هو التوحيد وهذا أقرب لانه لايجوز أن يبعثه تعالى الامع كماله فى العقل والرأى والعلم بالتوحيد وقوله فوهب لى ربى حكما كالتنصيص على أن ذلك الحكم من خلق الله تعالى وقالت المعتزلة المراد منه الالطاف وهو ضعيف جدا لان الالطاف مفعولة فى حق الكل من غير بخس ولا تقصير فالتخصيص لابد فيه من فائدة فاما قوله وتلك نعمة تمنها على ان عبدت بنى اسرائيل فهو جواب قوله ألم نربك فينا وليدا يقال عبدت الرجل وأعبدته اذا اتخذته عبدا فان قيل كيف يكون ذلك جوابه ولا تعلق بين الامرين قلنا بيان التعلق من وجوه (أحدها) انه انما وقع فى يده وفى تربيته لانه قصد تعبيد بنى اسرائيل وذبح أبنائهم وكأنه عليه السلام قال له كنت مستغنيا عن تربيتك لو لم يكن منك ذلك الظلم المتقدم علينا وعلى اسلافنا (وثانيها) ان هذا الانعام المتأخر صاره معارضا بذلك الظلم العظيم على أسلافنا واذا تعارضا تساقطا (وثالثها) مافاته الحسن انك استعبدتهم وأخذت أموالهم ومنها أنفقت على فلا نعمة على لك بالتربية (ورابعها) المراد أن الذى تولى تربيتى هم الذين قد استعبدتهم فلا نعمة لك على لان التربية كانت من قبل أمى وسائر من هو من قومى ليس لك الا انك ما قتلتنى ومثل هذا لا يعد انعاما (وخامسها) انك كنت تدعى أن بنى اسرائيل عبيدك ولامنة للمولى على العبد فى أن يطعمه ويعلمه مايحتاج اليه واعلم أن فى الآية دلالة على أن كفر الكافر لايبطل نعمته على من يحسن اليه ولا يبطل منته لان موسى عليه السلام انما أبطل ذلك بوجه آخر على ما بينا واختلف العلماء فقال بعضهم اذا كان كافرا لايستحق الشكر على نعمه على الناس انما يستحق الاهانة بكفره فلو استحق الشكر بانعامه والشكر لايوجد الا مع التعظيم فيلزم كونه مستحقا للاهانة والتعظيم معا واستحقاق الجمع بين الضدين محال وقال آخرون لايبطل الشكر بالكفر وانما يبطل بالكفر الثواب والمدح الذى يستحقه على الايمان والآية تدل على هذا القول الثانى (المسئلة الثانية) قال صاحب الكشاف انما جمع الضمير فى منكم وخفتكم مع افراده فى تمنها وعبدت لان الخوف والفرار لم يكونا منه وحده ولكن منه ومن ملائه المؤتمرين بقتله بدليل قوله ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك وأما الامتنان فمنه وحده وكذلك التعبيد فان قلت تلك اشارة الى ماذا وأن عبدت ما محلها من الاعراب قلت تلك اشارة الى خصلة شنعاء مبهمة لايدرى ماهى الا بتفسيرها وهى أن عبدت فان أن عبدت عطف بيان ونظيره قوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين والمعنى تعبيدك بنى اسرائيل نعمة تمنها على وقال الزجاج ويجوز أن يكون أن فى موضع نصب والمعنى انما صارت نعمة على لان عبدت بنى اسرائيل أى اولم تفعل ذلك لكفانى أهلى ﴿ قوله تعالى (قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين قال

قوله تعالى (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين) بيان لشدة شكيمتهم وعدم ارعوائهم عما كانوا عليه من الكفر والتكذيب بغير ماذكر من الآية الملجئة لصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحرص على اسلامهم وقطع رجائه عنه ومن الاولى مزيدة لتأكيد العموم والثانية لابتداء الغاية مجازا

متعلقة بيأتيهم او بمحذوف هو صفة لذكر وأياما كان ففيه دلالة على فضله وشرفه وشناعة ما فعلوا به والتعرض لعنوان الرحمة لتغليظ شناعتهم وتهويل جنايتهم فان الاعراض ﴿ ٥١٢ ﴾ عما يأتيهم من جنابه عز وجل على الاطلاق

شنيع قبيح وعما ياتهم بموجب رحمته تعالى لمحض منفعتهم أشنع وأقبح أى ما ياتيهم من موعظة من المواعظ التنزيلية أو من طائفة نازلة من القرآن تذكرهم أكمل تذكير وتنبههم عن الغفلة اتم تنبيه كأنها نفس الذكر من جهته تعالى بمقتضى رحمته الواسعة مجدد نزوله حسبما اقتضته الحكمة والمصلحة الا جددوا اعراضا عنه على وجه التكذيب والاستهزاء والاصرار على ما كانوا عليه من الكفر والضلال والاستئناف مفرغ من أتم الاحوال محله النصب على الحالية من مفعول يأتيهم باضمار قد أو بدونه على الخلاف المشهور اى ما ياتيهم من ذكر فى حال من الاحوال الا حال كونهم معرضين عنه (فقد كذبوا) أى كذبوا بالذكر الذى ياتيهم تكذيبا صريحا مقارنا للاستهزاء به ولم يكتفوا بالاعراض عنه حيث جعلوه تارة سحرا وأخرى أساطيرا وأخرى شعرا والفاء فى قوله تعالى (فسيأتيهم) لترتيب ما بعدها على ما قبلها والسين تاكيد ﴿ وآثاره ﴾ مضمون الجملة وتقريره أى فسيأتيهم البتة من غير خلف أصلا (أنباء ما كانوا به يستهزؤن) عدل عما يقتضيه سائر ما سلف من الاعراض والتكذيب للايذان بانهما كانا مقارنين للاستهزاء كما اشير اليه حسبما وقع فى قوله تعالى وما ياتيهم

لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الاولين قال ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون قال رب المشر[illegible] وما بينهما ان كنتم تعقلون قال لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين قال أولو جئتك بشئ مبين قال فأت به ان كنت من الصادقين) اعلم ان فرعون لم يقل لموسى وما رب العالمين الا وقد دعاه موسى الى طاعة رب العالمين بين ذلك ما تقدم من قوله وأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين فلا يدعند دخولهما عليه انهما قالا ذلك فعند ذلك قال فرعون وما رب العالمين ثم ههنا بحثان (الاول) ان فرعون يحتمل أن يقال انه كان عارفا بالله ولكنه قال ما طلبا للملك والرياسة وقد ذكر الله تعالى فى كتابه ما يدل على انه كان عارفا بالله وهو قوله قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والارض فاذا قرئ بفتح التاء من علمت فالمراد أن فرعون علم ذلك وذلك يدل على انه كان عارفا بالله لكنه كان يستأكل قومه بما يظهر من الهيبة والقراءة الاخرى برفع التاء من علمت فهى تقتضى أن موسى عليه السلام هو الذى عرف ذلك وأيضا فان فرعون ان لم يكن عارفا لم يجز من الله تعالى بعثة الرسول اليه وان كان عارفا فهو يعلم بالضرورة انه ما كان موجودا ولا حيا ولا عالما ثم سيأتى كذلك وبالضرورة يعلم أن كل ما كان كذلك فلا بد له من مؤثر فلا بد وان يتولد من هذين العلمين علم ثالث باقتداره فى تركيبه وفى حياته وعقله الى مؤثر موجد ويحتمل أن يقال انه كان على مذهب الدهرية من ان لا فلك واجبة الوجود فى ذواتها ومتحركة لذواتها وان حركاتها أسباب لحصول الحوادث فى هذا العالم أو يقال انه كان من الفلاسفة القائلين بالعلة الموجبة لا بالفاعل المختار لكنه اعتقد انه يجوز اقالة الله فهل قيمه من حيث استعبدهم وملك زمامهم زعم أنه رب العالمين ويحتمل أن يقال انه كان على مذهب الحلولية القائلين بان ذات الاله يتدرع بجسد انسان معين حتى يكون الاله سبحانه لذلك الجسد بمنزلة روح كل انسان بالنسبة الى جسده وبهذه التقديرات كان يسمى نفسه الها (البحث الثانى) وهو انه قال لموسى عليه السلام وما رب العالمين واعلم أن السؤال بما طلب لتعريف حقيقة الشئ وتعريف حقيقة الشئ اما أن يكون بنفس تلك الحقيقة أو بشئ من أجزائها أو بامر خارج عنها أو بما يتركب من الداخل والخارج أما تعريفها بنفسها فمحال لان المعرف معلوم قبل المعرف فلو عرف الشئ بنفسه لزم أن يكون معلوما قبل ان يكون معلوما وهو محال وأما تعريفها بالامور الداخلة فيها فههنا فى حق واجب الوجود محال لان التعريف بالامور الداخلة لا يمكن الا اذا كان المعرف مركبا وواجب الوجود يستحيل ان يكون مركبا لان كل مركب فهو محتاج الى كل واحد من أجزائه وكل واحد من اجزائه فهو غيره فكل مركب محتاج الى غيره وكل ما احتاج الى غيره فهو ممكن لذاته وكل مركب فهو ممكن فما ليس بممكن يستحيل أن يكون مركبا فواجب الوجود ليس بمركب واذا لم يكن مركبا استحال تعريفه باجزائه ولما بطل هذان القسمان ثبت انه لا يمكن تعريف ماهية واجب الوجود الا بلوازمه

وآثاره ثم ان اللوازم قد تكون خفية وقد تكون جلية ولا يجوز تعريف الماهية باللوازم الخفية بل لا بد من تعريفها باللوازم الجلية وأظهر آثار ذات واجب الوجود هو هذا العالم المحسوس وهو السموات والارض وما بينهما فقد ثبت انه لا جواب البتة لقول فرعون ومارب العالمين الا ما قاله موسى عليه السلام وهو أنه رب السموات والارض وما بينهما فاما قوله ان كنتم موقنين فمعناه ان كنتم موقنين باستناد هذه المحسوسات الى موجود هو واجب الوجود فاعرفوا أنه لا يمكن تعريفه الا بما ذكرته لانكم لما سلمتم انتهاء هذه المحسوسات الى الواجب لذاته وثبت أن الواجب لذاته فرد مطلق وثبت أن الفرد المطلق لا يمكن تعريفه الا بآثاره وثبت أن تلك الآثار لا بد وأن تكون أظهر آثاره وأبعدها عن الخفاء وما ذاك الا السموات والارض وما بينهما فان أيقنتم بذلك لزمكم أن تقطعوا بأنه لا جواب عن ذلك السؤال الا هذا الجواب ولما ذكر موسى عليه السلام هذا الجواب الحق قال فرعون لمن حوله ألا تستمعون وانما ذكر ذلك على سبيل التعجب من جواب موسى يعني انا أطلب منه الماهية وخصوصية الحقيقة وهو يجيبني بالفاعلية والمؤثرية وتمام الاشكال أن تعريف الماهية بلوازمها لا يفيد الوقوف على نفس تلك الماهية وذلك لانا اذا قلنا في الشيء انه الذي يلزمه اللازم الفلاني فهذا المذكور اما أن يكون معرفا لمجرد كونه أمرا ما يلزمه ذلك اللازم أو لخصوصية تلك الماهية التي عرضت لها هذه الملزومية والاول محال لان كونه أمرا يلزمه ذلك اللازم جعلناه كاشفا فلو كان المكشوف هو هذا القدر لزم كون الشيء معرفا لنفسه وهو محال والثاني محال لان العلم بأنه أمر ما يلزمه اللازم الفلاني لا يفيد العلم بخصوصية تلك الماهية الملزومة لانه لا يمتنع في العقل اشتراك الماهيات المختلفة في لوازم متساوية فثبت أن التعريف بالوصف الخارجي لا يفيد معرفة نفس الحقيقة فلم يكن كونه رب السموات والارض وما بينهما جوابا عن قوله ومارب العالمين فأجاب موسى عليه السلام بأن قال ربكم ورب آبائكم الاولين وكأنه عدل عن التعريف بخالقية السماء والارض الى التعريف بكونه تعالى خالقنا ولآبائنا وذلك لانه لا يمتنع أن يعتقد أحد أن السموات والارضين واجبة لذواتها فهي غنية عن الخالق والمؤثر ولكن لا يمكن أن يعتقد العاقل في نفسه وأبيه وأجداده كونهم وأجبين لذواتهم لما أن المشاهدة دلت على انهم وجدوا بعد العدم ثم عدموا بعد الوجود وما كان كذلك استحال أن يكون واجبا لذاته وما لم يكن واجبا لذاته استحال وجوده الا لمؤثر فكان التعريف بهذا الاثر اظهر فلهذا عدل موسى عليه السلام من الكلام الاول اليه فقال فرعون ان رسولكم الذي أرسل اليكم لمجنون يعني المقصود من سؤال ما طلب الماهية وخصوصية الحقيقة والتعريف بهذه الآثار الخارجية لا يفيد البتة تلك الخصوصية فهذا الذي يدعي الرسالة مجنون لا يفهم السؤال فضلا عن أن يجيب عنه فقال موسى عليه السلام رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون فعدل الى طريق ثالث

واما لانهم بمشاهدتها يقفون على حقيقة حال القرآن كما يقفون على الاحوال الخافية عنهم باستماع الانباء وفيه تهويل له لان النبأ لا يطلق الا على خبر خطير له وقع عظيم اى فسيأتيهم لا محالة مصداق ما كانوا يستهزؤن به قبل من غير أن يتدبروا في أحواله ويقفوا عليها (أولم يروا) الهمزة للانكار التوبيخي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى أعملوا ما فعلوا من الاعراض عن الآيات والتكذيب والاستهزاء بها ولم ينظروا (الى الارض) اى الى عجائبها الزاجرة عما فعلوا الداعية الى الاقبال على ما أعرضوا عنه والى الايمان به وقوله تعالى (كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم) استئناف مبين لما في الارض من الآيات الزاجرة عن الكفر الداعية الى الايمان وكم خبرية منصوبة بما بعدها على المفعولية والجمع بينها وبين كل لافادة

الاحاطة والكثرة معا ومن زوج اى ﴿ ٦٥ ﴾ س صنف كل شيء مرضيه ومحموده اى كثيرا من كل صنف مرضي كثير المنافع أنبتنا فيها وتخصيص انباته بالذكر دون ما عداه من الاصناف لاختصاصه بالدلالة على القدرة والنعمة معا ويحتمل أن يراد به جميع أصناف النبات نافعها وضارها ويكون وصف الكل

بالكرم للتنبيه على انه تعالى ما أنبت شيئا الا وفيه فائدة كما نطق به قوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا فان الحكيم لا يكاد يفعل فعلا الا وفيه حكمة بالغة وان ﴿ ٥١٤ ﴾ غفل عنها الغافلون ولم يتوصل الى معرفة كنهها العاقلون (ان فى ذلك) اشارة الى مصدر أنبتنا أو الى كل واحد من تلك الازواج وأياما كان ففيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلته فى الفضل (لآية) اى آية عظيمة دالة على كمال قدرة منبتها وغاية وفور علمه وحكمته ونهاية سعة رحمته موجبة للايمان وازعة عن الكفر (وما كان أكثرهم) اى أكثر قوم عليه الصلاة والسلام (مؤمنين) قيل اى فى علم الله تعالى وقضائه حيث علم أزلا أنهم سيصرفون فى الايزال اختيارهم الذى عليه يدور أمر التكليف الى جانب الشر ولا يتدبرون فى هذه الآيات العظام وقال سيبويه كان صلة والمعنى وما أكثرهم مؤمنين وهو الانسب بمقام بيان عتوهم وغلوهم فى المكابرة والعناد مع تعاضد موجبات الايمان من جهته تعالى وأما نسبة كفرهم الى علمه تعالى وقضائه فربما يتوهم منها كونهم معذورين فيه بحسب الظاهر لان ما أشير اليه من التحقيق مما خفى على مهرة العلماء ﴿ قلنا ﴾ المتقنين كأنه قيل ان فى ذلك لآية باهرة موجبة للايمان وما أكثرهم مؤمنين مع ذلك لغاية تماديهم فى الكفر والضلالة وانهماكهم فى الغى والجهالة ونسبة عدم الايمان الى أكثرهم لان منهم من سيؤمن (وان ربك لهو العزيز)

أوضح من الكل وذلك لانه أراد بالمشرق مطلوع الشمس وظهور النهار وأراد بالمغرب غروب الشمس وزوال النهار والامر ظاهر فى ان هذا التدبير المستمر على الوجه العجيب لا يتم الا بتدبير مدبر وهذا بعينه طريقة ابراهيم عليه السلام مع نمرود فانه استدل أولا بالاحياء والاماتة وهو الذى ذكره موسى عليه السلام ههنا بقوله ربكم ورب آبائكم الاولين فأجابه نمرود بقوله أنا أحيى وأميت فقال ان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر وهو الذى ذكره موسى عليه السلام ههنا بقوله رب المشرق والمغرب وأما قوله ان كنتم تعقلون فكأنه عليه السلام قال ان كنت من العقلاء عرفت انه لا جواب عن سؤالك الا ما ذكرت لانك طلبت منى تعريف حقيقته بنفس حقيقته وقد ثبت انه لا يمكن تعريف حقيقته بنفس حقيقته ولا بأجزاء حقيقته فلم يبق الا أن أعرف حقيقته بآثار حقيقته وأنا قد عرفت حقيقته بآثار حقيقته فقد ثبت أن كل من كان عاقلا يقطع بأنه لا جواب عن هذا السؤال الا ما ذكرته واعلم انا قد بينا فى سورة الانعام فى تفسير قوله تعالى وهو القاهر فوق عباده ان حقيقة الاله سبحانه من حيث هى هى غير معقولة للبشر واذا كان كذلك استحال من موسى عليه السلام أن يذكر ما تعرف به تلك الحقيقة اذ من علم بتلك الخصوصية لا يقدح فى صحة رسالته فكان حاصل كلام موسى عليه السلام أن ادعاء رسالة رب العالمين توقف صحته على اثبات أن للعالمين ربا وآلها ولا تتوقف على العلم بخصوصية الرب تعالى وماهيته المعينة فكان موسى عليه السلام يقيم الدلالة على اثبات القدر المحتاج اليه فى صحة دعوى الرسالة وفرعون يطالبه ببيان الماهية وموسى عليه السلام كان يعرض عن سؤاله لعلمه بانه لا تعلق لذلك السؤال نفيا ولا اثباتا فى هذا المطلوب فهذا تمام القول فى هذا البحث والله أعلم ثم ان موسى عليه السلام لما خشن فى آخر الكلام بقوله ان كنتم تعقلون فعند ذلك قال فرعون لئن اتخذت الها غيرى لاجعلنك من المسجونين فانه لما عجز عن الحجاج عدل الى التخويف فعند ذلك ذكر موسى عليه السلام كلاما مجملا لا يعلق قلبه به فيعدل عن وعيده فقال أولو جئتك بشئ مبين اى هل تستجيز أن تسجننى مع اقتدارى على أن آتيك بأمر بين فى باب الدلالة على وجود الله تعالى وعلى أنى رسوله فعند ذلك قال فأت به ان كنت من الصادقين وههنا فروع (الفرع الاول) الآية تدل على انه تعالى ليس بجسم لانه لو كان جسما وله صورة لكان جواب موسى عليه السلام يذكر حقيقته ولكان كلام فرعون لازما له لعدوله عن الجواب الحق (الثانى) الواجب على من يدعو غيره الى الله تعالى أن لا يجيب عن السفاهة لان موسى عليه السلام لما قال له فرعون انه مجنون لم يعدل عن ذكر الدلالة وكذلك لما توعده أن يسجنه (الثالث) انه يجوز للمسؤل أن يعدل فى حجته من مثال الى مثال لايضاح الكلام ولا يدل ذلك على الانقطاع (الرابع) ان قيل كيف قطع الكلام بما لا تعلق له بالاول وهو قوله أولو جئتك بشئ مبين والمعجز لا يدل على الله تعالى كدلالة سائر ما تقدم

الغالب على كل ما يريد من الامور التى من جملتها الانتقام من هؤلاء (الرحيم) المبالغ فى الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يؤاخذهم بغتة بما اجترؤا عليه من العظائم الموجبة لفنونا العقوبات وفى التعرض لوصف الربوبية مع الاضافة الى ضميره عليه الصلاة والسلام من تشريفه والعدة الخفية بالانتقام من الكفرة ما لا يخفى (واذ نادى ربك موسى)

قلنا بل يدل ما اراد أن يظهره من انقلاب العصا حية على الله تعالى وعلى توحيده وعلى انه صادق فى الرسالة فالذى ختم به كلامه أقوى من كل ما تقدم وأجمع (الخامس) فان قيل كيف قال رب السموات والارض وما بينهما على التثنية والمرجوع اليه مجموع جوابه أريد ما بين الجهتين فان قيل ذكر السموات والارض وما بينهما قد استوعب الخلائق كلهم فما معنى ذكرهم وذكر آبائهم بعد ذلك وذكر المشرق والمغرب جوابه قد عم أولا ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم لان أقرب الاشياء من العاقل نفسه ومن ولد منه وما شاهد من انتقاله من وقت ميلاده الى وقت وفاته من حالة الى حالة أخرى ثم خصص المشرق والمغرب لان طلوع الشمس من أحد الحافتين وغروبها على تقدير مستقيم فى فصول السنة من أظهر الدلائل (السادس) فان قيل لم قال لاجعلنك من المسجونين ولم يقل لاسجننك مع انه أخصر (جوابه) لانه لو قال لاسجننك لا يفيد الا صيرورته مسجونا اما قوله لاجعلنك من المسجونين فمعناه أنى أجعلك واحد ممن عرفت حالهم فى سجونى وكان من عادته أن يأخذ من يريد أن يسجنه فيطرحه فى بئر عميقة فرد لا يبصر فيها ولا يسمع فكان ذلك أشد من القتل (السابع) الواو فى قوله أو لو جئتك واو الحال دخلت عليها همزة الاستفهام معناه أتفعل بى ذلك ولو جئتك بشئ مبين اى جائيا بالمعجزة * قوله تعالى (فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين قال الملاء حوله ان هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فاذا تأمرون قالوا أرجه وأخاه وابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل سحار عليم) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قرأ الاعمش بكل ساحر عليم (المسئلة الثانية) اعلم أن قوله أو لو جئتك بشئ مبين يدل على أن الله تعالى قبل أن أتى المصاعرفه بأنه يصيرها ثعبانا ولولا ذلك لما قال ما قال فلما ألقى عصاه ظهر ما وعده الله به فصارت ثعبانا مبينا والمراد انه تبين للناظرين أنه ثعبان بحركاته وبسائر العلامات روى انها انقلبت حيه ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة الى فرعون وجعلت تقول يا موسى مرنى بما شئت ويقول فرعون يا موسى أسئلك بالذى أرسلك الا أخذتها فعادت عصا فان قيل كيف قال ههنا ثعبان مبين وفى آية أخرى فاذا هى حية تسعى وفى آية ثالثة كأنها جان والجان مائل الى الصغر والثعبان مائل الى الكبر جوابه أما الحية فهى اسم الجنس ثم انها لكبرها صارت ثعبانا وشبهها بالجان لخفتها وسرعتها فصح الكلامان ويحتمل انه شبهها بالشيطان لقوله تعالى والجان خلقناه من قبل من نار السموم ويحتمل انها كانت أولا صغيرة كالجان ثم عظمت فصارت ثعبانا ثم ان موسى عليه السلام لما أتى بهذه الآية قال له فرعون هل غيرها قال نعم فاراه يده ثم أدخلها جيبه ثم أخرجها فاذا هى بيضاء بيضاء الوادى من شدة بياضها من غير برص لها شعاع كشعاع الشمس فعند هذا أراد فرعون تعمية هذه الحجة على قومه فذكر فيها أمورا ثلاثة (أحدها) قوله ان هذا لساحر عليم وذلك لان الزمان كان

كلام مستأنف مسوق لتقرير ما قبله من اعراضهم عن كل ما يأتيهم من الآيات التنزيلية وتكذيبهم بها اثر بيان اعراضهم عما يشاهدونه من الآيات التكوينية واذ منصوب على المفعولية بمضمر خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام اى واذكر لاولئك المعرضين المكذبين وقت ندائه تعالى اياه عليه الصلاة والسلام وذكرهم بما جرى على قوم فرعون بسبب تكذيبهم اياه زجرا لهم عما هم عليه من التكذيب وتحذيرا من أن يحيق بهم مثل ما حاق باضرابهم المكذبين الظالمين حتى يتضح لك أنهم لا يؤمنون بما يأتيهم من الآيات لكن لا بقياس حال هؤلاء بحال أولئك فقط بل بمشاهدة اصرارهم على ما هم عليه بعد سماع الوحى الناطق بقصتهم وعدم اتعاظهم بذلك كما يلوح به تكرير قوله تعالى ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين

تقييد كل قصة وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت مع ان المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قدم سره مرارا (أن ائت) بمعنى اى ائت على أن أن مفسرة او بأن ائت على أنها مصدرية

حذف منها الجار (القوم الظالمين) اى بالكفر والمعاصى واستعباد بنى اسرائيل وذبح أبنائهم وليس هذا مطلع ماورد فى خبر النداء وانما هو مافصل فى سورة طه من قوله تعالى انى أنا ربك الى قوله لنريك من آياتنا الكبرى وايراد ماجرى فى قصة واحدة من المقالات بعبارات شتى وأساليب مختلفة قدم * ٥١٦ * تحقيقه فى أوائل سورة الاعراف عند قوله تعالى

قال أنظرنى (قوم فرعون) بدل من الاول أو عطف بيان له جىء به للايذان بانهم علم فى الظلم كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون والاقتصار على ذكر قومه للايذان بشهرة أن نفسه اول داخل فى الحكم (ألا يتقون) استئناف جىء به اثر ارساله عليه الصلاة والسلام اليهم الانذار تعجيبا من غلوهم فى الظلم وافراطهم فى العدوان وقرئ بتاء الخطاب على طريقة الالتفات المنبئ عن زيادة الغضب عليهم كأن ذكر ظلمهم أدى الى مشافهتهم بذلك وهم وان كانوا حينئذ غيبا لكنهم فدأجروا مجرى الحاضرين فى كلام المرسل اليهم من حيث انه مبلغه اليهم واسماعه مبتدأ اسماعهم مع مافيه من مزيد الحث على التقوى لمن تدبر وتأمل وقرئ بكسر النون اكتفاء بعزياء المتكلم وقد جوز أن يكون بمعنى ألا يا ناس اتقون نحو أن لا يسجدوا (قال) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية مامضى كأنه قيل فاذا قال موسى * البذل

زمان السحرة وكان عند كثير منهم ان الساحر قد يجوز أن ينتهى بسحره الى هذا الحد فلهذا رو ج عليهم هذا القول وثانيها قوله يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره وهذا يجرى مجرى التنفير عنه لئلا يقبلوا قوله والمعنى يريدان يخرجكم من أرضكم بما يلقيه بينكم من العداوات فيفرق جمعكم ومعلوم ان مفارقة الوطن أصعب الامور فنفرهم عنه بذلك وهذا نهاية مايفعله المبطل فى التنفير عن المحق (وثالثها) قوله لهم فماذا تامرون اى فاى رأيكم فيه وما الذى أعلمه يصدر من نفسه أنى متبع لرأيكم ومنقاد لقولكم ومثل هذا الكلام يوجب جذب القلوب وانصرافها عن العدو فعند هذه الكلمات اتفقوا على جواب واحد وهو قوله أرجه قرى أرجئه بالهمز والتخفيف وهما لغتان يقال أرجأته وأرجيته اذا أخرته والمعنى أخره ومناظرته لوقت اجتماع السحرة وقيل احبسه وذلك محتمل لانك اذا حبست الرجل عن حاجته فقد أخرته روى أن فرعون أراد قتله ولم يمكن يصل اليه فقالوا له لاتفعل فانك ان قتلته أدخلت على الناس فى أمره شبهة ولكن أرجئه وأخاه الى أن تحشر السحرة ليناظروه فلا يثبت له عليك حجة ثم اشاروا عليه بانفاذ حاشرين يجمعون السحرة ظنا منهم بانهم اذا كثروا غلبوه وكشفوا حاله وعارضوا قوله ان هذا ساحر عليم بقولهم بكل سحار عليم فجاؤا بكلمة الاحاطة وبصيغة المبالغة ليطيبوا قلبه وليسكنوا بعض قلقه قال صاحب الكشاف فان قلت قوله تعالى قال للملإ حوله ما العامل فى حوله قلت هو منصوب نصبين نصب فى اللفظ ونصب فى المحل والعامل فى النصب اللفظى مايقدر فى الظرف والعامل فى النصب المحلى هو النصب على الحال * قوله تعالى (فجمع السحرة لميقات يوم معلوم وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لاجرا ان كنا نحن الغالبين قال نعم وانكم اذا لمن المقربين) وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) اليوم المعلوم يوم الزينة وميقاته وقت الضحى لانه الوقت الذى وقته لهم موسى عليه السلام من يوم الزينة فى قوله موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى والميقات ماوقت به اى حدد من مكان و زمان ومنه مواقيت الاحرام (المسئلة الثانية) اعلم ان القوم لما أشاروا بتأخير أمره و بان يجمع له السحرة ليظهر عند حضورهم فساد قول موسى عليه السلام رضى فرعون بما قالوه وعمى عما شاهده وحب الشئ يعمى و يصم فجمع السحرة ثم أراد أن تقع تلك المناظرة يوم عيدهم ليكون ذلك بمحضر الخلق العظيم وكان موسى عليه السلام يطلب ذلك لتظهر حجته عليهم عند الخلق العظيم وكان هذا أيضا من لطف الله تعالى فى ظهور أمر موسى عليه السلام أما قوله وقيل للناس هل أنتم مجتمعون فالمراد أنهم بعثوا على الحضور ليشاهدوا ما يكون من الجانبين وأما قوله لعلنا نتبع السحرة فالمراد انا نرجو أن يكون الغلبة لهم فنتبعهم فلما جاء السحرة ابتدأوا بطلب الجزاء وهو اما المال واما الجاه فبذل لهم ذلك وأكده بقوله وانكم اذا لمن المقربين لان نهاية مطلوبهم

عليه السلام فقيل قال متضرعا الى الله عز وجل (رب انى أخاف أن يكذبون) من اوالامر

و يضيق صدرى ولاينطلق لسانى) معطوفان على أخاف (فارسل) اى جبريل عليه السلام (الى هرون) يكون معى وأتعاضد به فى تبليغ الرسالة رتب عليه الصلاة والسلام استدعاءه ذلك على الامور الثلاثة خوف التكذيب وضيق الصدر وازدياد ما كان ﴿ ٥١٧ ﴾ فيه عليه الصلاة والسلام من حبسة اللسان بانقباض الروح الى باطن القلب عند ضيقه بحيث لاينطلق لانها اذا اجتمعت تمس الحاجة الى معين يقوى قلبه و ينوب منابه اذا اعتراه حبسة حتى لاتختل دعوته ولاتنقطع حجته وليس هذا من التعلل والتوقف فى تلقى الامر فى شئ وانما هو استدعاء لما يعينه على الامتثال به وتمهيد عذر فيه وقرئ و يضيق ولا ينطلق بالنصب عطفا على يكذبون فيكونان من جملة ما يخاف منه (ولهم على ذنب) اى تبعة ذنب فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه أو سمى باسمه والمراد به قتل القبطى وتسميته ذنبا بحسب زعمهم كما ينبئ عنه قوله لهم وهذا اشارة الى قصة مبسوطة فى غير موضع (فاخاف) اى ان أتيتهم وحدى (أن يقتلون) بمقابلته قبل أداء الرسالة كما ينبغى وليس هذا أيضا تعللا وانما هو استدفاع للبلية المتوقعة قبل وقوعها

البذل ورفع المنزلة فبذل كلا الامرين ✻ قوله تعالى (قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون فألقى موسى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون فالقى السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهرون) اعلم أنهم لما اجتمعوا كان لابد من أن يبدأ موسى أو يبدأوا ثم انهم تواضعوا له فقدموه على أنفسهم وقالوا اما أن تلقى واما أن نكون أول من ألقى فلما تواضعوا له تواضع هو أيضا لهم فقدمهم على نفسه وقال ألقوا ما أنتم ملقون فان قيل كيف جاز لموسى عليه السلام أن يأمر السحرة بالقاء الحبال والعصى وذلك سحر وتلبيس وكفر والامر بمثله لايجوز الجواب لاشبهة فى أن ذلك ليس بامر لان مراد موسى عليه السلام منهم كان أن يؤمنوا به ولايقدموا على ما يجرى مجرى المغالبة واذا ثبت هذا وجب تاويل صيغة الامر وفيه وجوه أحدها ذلك الامر كان مشروطا والتقدير ألقوا ما أنتم ملقون ان كنتم محقين كما فى قوله فأتوا بسورة من مثله ان كنتم صادقين (وثانيها) لما تعين ذلك طريقا الى كشف الشبهة صار جائزا (وثالثها) أن هذا ليس بامر بل هو تهديد اى ان فعلتم ذلك أتينا بما يبطله كقول القائل ائن رميتنى لافعلن ولاصنعن ثم يفوق له السهم فيقول له ارم فيكون ذلك منه تهديدا (ورابعها) ما ذكرنا انهم لما تواضعوا له وقدموه على أنفسهم فهو قدمهم على نفسه على رجاء أن يصير ذلك التواضع سببا لقبول الحق ولقد حصل ببركة ذلك التواضع ذلك المطلوب وهذا تنبيه على أن اللائق بالمسلم فى كل الاحوال التواضع لان مثل موسى عليه السلام لما لم يترك التواضع مع أولئك السحرة فبأن يفعل الواحد منا أولى أما قوله تعالى فألقوا حبالهم وعصيهم فروى عن ابن عباس أنهم لما ألقوا حبالهم وعصيهم وقد كانت الحبال مطلية بالزئبق والعصى مجوفة مملوءة من الزئبق فلما حميت اشتدت حركتها فصارت كأنها حيات تدب من كل جانب من الارض فهاب موسى عليه السلام ذلك وقيل له ألق ما فى يمينك فالقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين ثم فتحت فاها فابتلعت كل ما رموه من حبالهم وعصيهم حتى أكلت الكل ثم أخذ موسى عصاه فاذا هى كما كانت فلما رأت السحرة ذلك قالت لفرعون كنا نسحر الناس فاذا غلبناهم بقيت الحبال والعصى وكذلك ان غلبونا ولكن هذا حق فسجدوا وآمنوا برب العالمين واعلم أن فى الآثار اختلافا فمنهم من كثر الحبال والعصى ومنهم من توسط والله أعلم بعدد ذلك والذى يدل القرآن عليه أنها كثيرة من حيث حشروا من كل بلد ولان الامر بلغ عند فرعون وقومه فى العظم مبلغا يبعد أن يدخر عنه ما يمكن من جمع السحرة وأما قوله وقالوا بعزة فرعون انا لنحن الغالبون فالمراد أنهم أظهروا ما يجرى مجرى القطع على أنهم يغلبون وكل ذلك لما ظهر ان أقوى لامر موسى عليه السلام أما قوله فألقى موسى عصاه فاذا هى تلقف ما يأفكون فالمراد من قوله ما يأفكون ما يقلبونه عن وجهه وحقيقته بسحرهم وكيدهم فيخيلون حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى وسمى تلك الاشياء افكا مبالغة أما قوله فالقى السحرة

له تعالى (قال كلا فاذهبا بآياتنا) حكاية لاجابته تعالى الى الطلبتين الدفع المفهوم من الردع عن الخوف م أخيه المفهوم من توجيه الخطاب اليهما بطريق التغليب فانه معطوف على مضمر ينبئ عنه الردع كأنه ارتدع يا موسى عما تظن

فاذهب أنت ومن استدعيته وفي قوله بآياتنا رمز الى انها تدفع مايخافه وقوله تعالى (انا معكم مستمعون) تعليل للردع عن الخوف ومزيد تسلية لهما بضمان كمال الحفظ والنصرة كقوله تعالى انني معكما أسمع وأرى وحيث كان الموعود بمحضر من فرعون اعتبر ههنا ﴿ ٥١٨ ﴾ في المعية وقيل أجري مجرى الجماعة وباباه ماقبله

ومابعده من ضمير التثنية اى سامعون مايجرى بينكما وبينه فنظهر كما عليه مثل حاله تعالى بحال ذي شوكة قد حضر مجادلة قوم يستمع مايجرى بينهم ليبدأ وليا ه او يظهرهم على أعدائهم مبالغة في الوعد بالاعانة أو استعير الاستماع الذي هو بمعنى الاصغاء للسمع الذي هو ادراك الحروف والاصوات وهو خبر ثان او خبر وحده ومعكم ظرف لغوو الفاء في قوله تعالى (فأتيا فرعون فقولا انا رسول رب العالمين) لترتيب مابعدها على ماقبلها من الوعد الكريم وليس هذا مجرد تأكيد للامر بالذهاب لان معناه الوصول الى المأتي لا مجرد التوجه اليه كالذهاب وافراد الرسول اما باعتبار رسالة كل منهما أولاتحاد مطلبهما اولانه مصدر وصف به وأن في قوله تعالى (أن أرسل معنا بني اسرائيل) مفسرة لتضمن الارسال المفهوم من الرسول معنى القول ومعنى ارسالهم تخليتهم وشأنهم ليذهبوا معهما الى الشام (قال) اى فرعون لموسى عليه السلام ﴿ أول ﴾ بعد ماأتياه وقالا له ماأمرا به يروى أنهما انطلقا الى باب فرعون فلم يؤذن لهما سنة حتى قال البواب لفرعون ان ها هنا انسانا يزعم أنه رسول

ساجدين فلما رأوا سجدا لانهم كانوا في الطبقة العالية من علم السحر فلا جرم كانوا عالمين بمنتهى السحر فلما رأوا ذلك وشاهدوه خارجا عن حد السحر علموا أنه ليس بسحر وما كان ذلك الا ببركة تحققهم في علم السحر ثم انهم عند ذلك لم يتمالكوا ان رموا بانفسهم الى الارض ساجدين كانهم أخذوا فطرحوا طرحا فان قيل فاعل الالقاء ماهو لو صرح به هو الله تعالى بما حصل في قلوبهم من الدواعي الجازمة الحالية عن المعارضات ولكن الاولى أن لانقدر فاعلا لان أتى بمعنى خر وسقط أما قوله رب موسى وهرون فهو عطف بيان لرب العالمين لان فرعون كان يدعي الربوبية فأرادوا عزله ومعنى اضافته اليهما في ذلك المقام أنه الذي دعا موسى وهرون عليهما السلام اليه ﴿ قوله تعالى (قال آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولاصلبنكم أجمعين قالوا لاضير انا الى ربنا منقلبون انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين) لما أنهم لما آمنوا باجمعهم لم يأمن فرعون أن يقول الناس ان هؤلاء السحرة على كثرتهم وتظاهرهم لم يؤمنوا الا عن معرفة بصحة أمر موسى عليه السلام فيسلكون مثل طريقهم فليس على القوم ولا بأس في استفهم عن موسى عليه السلام من وجوه (أولها) قوله آمنتم له قبل أن آذن لكم وهذا فيه ايهام ان مسارعتكم الى الايمان به دالة على انكم كنتم ماثلين اليه وذلك يطرق التهمة اليهم فلعلهم فصروا في السحر حياله (وثانيها) قوله انه لكبيركم الذي علمكم السحر وهذا تصريح بما رمز به أولا وغرضه منذ أهم فعلوا ذلك عن مواطأة بينهم وبين موسى عليه السلام وقصروا في السحر ليظهر أمر موسى عليه السلام والا فقد قووا السحرة أن يفعلوا مثل ما فعل موسى عليه السلام وهذه شبهة قوية لمن يقبل تغيير من يقبل قوله (وثالثها) قوله فلسوف تعلمون وهو وعيد مطلق وتهديد شديد (ورابعها) قوله لاقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولاصلبنكم أجمعين وهذا هو الوعيد المفصل وقطع اليد والرجل من خلاف هو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى والصلب معلوم وليس في الاهلاك أقوى من ذلك وليس في الآية أنه فعل ذلك أولم يفعل ثم انهم أجابوا عن هذه الكلمات من وجهين (الاول) قولهم لاضير انا الى ربنا منقلبون الضر والضير واحد وليس المراد ان ذلك ان وقع لم يضر وانما عنوا بالاضافة الى ماعرفوه من دار الجزاء (واعلم) ان قولهم انا الى ربنا منقلبون فيه نكتة شريفة وهي انهم قد بلغوا في حب الله تعالى أنهم ما أرادوا شيأ سوى الوصول الى حضرته وأنهم ما آمنوا رغبة في ثواب أو رهبة من عقاب وانما مقصودهم محض الوصول الى مرضاته والاستغراق في أنوار معرفته وهذا أعلى درجات الصديقين (الجواب الثاني) قولهم انا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا فهو اشارة منهم الى الكفر والسحر وغيرهما والطمع في هذا الموضع يحتمل اليقين كقول ابراهيم والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين ويحتمل الظن لان المرء لا يعلم ما سيجيء من بعد أما قوله أن كنا

رب العالمين فقال ائذن له لعلنا نضحك فأديا اليه الرسالة فعرف موسى عليه السلام فقال عند ذلك (ألم نربك فينا) فى حجرنا ومنازلنا (وليدا) اى طفلا عبر عنه بذلك لقرب عهده بالولادة (ولبثت فينا من عمرك سنين) قيل لبثت فيهم ثلاثين سنة ثم خرج الى مدين ﴿ ٥١٩ ﴾ وأقام بها عشر سنين ثم عاد اليهم يدعوهم الى الله

أول المؤمنين فالمراد لأن كنا أول المؤمنين من الجماعة الذين حضروا ذلك الموقف أو يكون المراد من السحرة خاصة أو من رعية فرعون أو من أهل زمانهم وقرئ ان كنا بالكسر وهو من الشرط الذى يجئ به المدل ونظيره قول القائل لمن يؤخر جعله ان كنت عملت لك فوفنى حقى * قوله تعالى (وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادى انكم متبعون فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين ان هؤلاء لشرذمة قليلون وانهم لنا لغائظون وانا لجميع حاذرون فأخرجناهم من جنات وعيون وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بنى اسرائيل فأتبعوهم مشرقين فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى انا لمدركون قال كلا ان معى ربى سيهدين) قرئ أسر يقطع الهمزة ووصلها وسر لما ظهر أمر موسى عليه السلام بما شاهدوه من الآية أمره الله تعالى بأن يخرج بنى اسرائيل لما كان فى المعلوم من تدبير الله تعالى فى موسى وتخليصه من القوم وتمليكه بلادهم وأموالهم ولم يأمن وقد جرت تلك الغلبة الظاهرة أن يقع من فرعون بنى اسرائيل ما يؤدى الى الاستيصال فلذلك أمره الله تعالى أن يسرى بنى اسرائيل وهم الذين آمنوا وكانوا من قوم موسى ولاشبهة ان فى الكلام حذفا وهو انه أسرى بهم كما أمره الله تعالى ثم ان قوم موسى عليه السلام قالوا لقوم فرعون ان لنا فى هذه الليلة عيدا ثم استعاروا منهم حليهم وحللهم بهذا السبب ثم خرجوا بتلك الاموال فى الليل الى جانب البحر فلما سمع ذلك فرعون أرسل فى المدائن حاشرين ثم انه قوى نفسه ونفس أصحابه بان وصف قوم موسى بوصفين من أوصاف الذم ووصف قوم نفسه بصفة المدح أما وصف قوم موسى عليه السلام بالذم (فالصفة الاولى) قوله ان هؤلاء لشرذمة قليلون والشرذمة الطائفة القليلة ومنه قولهم ثوب شراذم للذى بلى وتقطع قطعا ذكرهم بالاسم الدال على القلة ثم جعلهم قليلا بالوصف ثم جمع القليل فجعل كل حزب منهم قليلا واختار جمع السلامة الذى هو للقلة ويجوز أن يريد بالقلة الذلة لا قلة العدد والمعنى انهم لقلتهم لا يبالى بهم ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم ثم اختلف المفسرون فى عدد تلك الشرذمة فقال ابن عباس رضى الله عنهما كانوا ستمائة ألف مقاتل لا شاب فيهم دون عشرين سنة ولا شيخ يوفى على الستين سوى الحشم وفرعون يقللهم لكثرة من معه وهذا الوصف قد يستعمل فى الكثير عند الاضافة الى ما هو أكثر منه فروى ان فرعون خرج على فرس أدهم حصان وفى عسكره على لون فرسه سبعمائة الف (الصفة الثانية) قوله وانهم لنا لغائظون يعنى يفعلون افعالا تغيظنا وتضيق صدورنا واختلفوا فى تلك الافعال على وجوه (أحدها) ما تقدم من أمر الحلى وغيره (وثانيها) خروج بنى اسرائيل عن عبودية فرعون واستقلالهم بانفسهم (وثالثها) مخالفتهم لهم فى الدين وخروجهم عليهم (ورابعها) ليس الا انهم لم يتخذوا فرعون الها فما الذى وصف فرعون به قومه فهو قوله وانا لجميع حذرون وفيه ثلاث قراآت حذرون

عز وجل ثلاثين سنة ثم بنى بعد الغرق خمسين سنة وقيل وكزا القبطى وهو ابن اثنتى عشرة سنة وفر منهم على اثر ذلك والله أعلم (وفعلت فعلتك التى فعلت) يعنى قتل القبطى بعد ما عدد عليه نعمته من تربيته وتبليغه مبلغ الرجال وبخه بما جرى عليه من قتل خبازه وعظم ذلك وفظعه وقرئ فعلتك بكسر الفاء لانها كانت نوعا من القتل (وأنت من الكافرين) اى بنعمتى حيث عمدت الى قتل رجل من خواصى أو أنت حينئذ ممن تكفرهم الآن وقد افترى عليه عليه الصلاة والسلام أو جهل أمره عليه الصلاة والسلام حيث كان يعاشرهم بالتقية والا فأين هو عليه الصلاة والسلام من مشاركتهم فى الدين فالجملة حينئذ حال من احدى التاءين ويجوز أن يكون حكما مبتدأ عليه بانه من الكافرين بالهيته أو ممن يكفرون فى دينهم

ث كانت لهم آلهة يعبدونها أو من الكافرين بالنعم المعتادين لعظمها ومن اعتاد ذلك لا يكون مثل هذه ناية بدعا منه (قال) مجيبا له مصدقا له فى القتل ومكذبا فيما نسبه اليه من الكفر (فعلتها اذا وانا من الضالين) من الجاهلين وقد

قرئ كذلك لا من الكافرين كما زعمت افتراء اى من الفلطين فعل الجهلة والسفهاء أو من المخطئين لانه لم يتعمد قتله بل أراد تأديبه أو الذاهبين عما يؤدى اليه الوكز أو الناسين كقوله تعالى أن تضل احداهما فتذكر احداهما الاخرى (ففررت منكم) الى ربى (لما خفتكم) أن تصيبونى بمضرة وتؤاخذونى بما لا أستحقه ﴿ ٥٢٠ ﴾ بجنايتى من الغاب (فوهب لى ربى حكما)

اى حكمة أو نبوة (وجعلنى من المرسلين) ردأ ولا بذلك ما وبخه به قدحا فى نبوته ثم كر على ما عده عليه من النعمة ولم يصرح برده حيث كان صدقا غير قادح فى دعواه بل نبه على أن ذلك كان فى الحقيقة نقمة فقال (وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى اسرائيل) اى تلك التربية نعمة تمن بها على ظاهرا وهى فى الحقيقة تعبيدك بنى اسرائيل وقصدك ايهم بذبح أبنائهم فانه السبب فى وقوعى عندك وحصولى فى تربيتك وقيل انه مقدر بهمزة الانكار اى أو تلك نعمة تمنها على وهى أن عبدت بنى اسرائيل ومحل ان عبدت الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف او بدل من نعمة والجر باضمار الباء او النصب بحذفها وقيل تلك اشارة الى خصلة شنعاء مبهمة وأن عبدت عطف بيان لها والمعنى تعبيدك بنى اسرائيل نعمة تمنها على وتوبيخ الخطاب فى تمنها وجمعه فيما قبله لان المنة منه خاصة والخوف والفرار منه ومن ملائه (قال فرعون) لما سمع منه ﴿ كالمعلوم عليه الصلاة والسلام تلك المقالة المتينة وشاهد تصلبه فى أمره وعدم تأثره بما قدمه من

وحاذرون وحادرون بالدال غير المعجمة * واعلم أن الصفة اذا كانت جارية على الفعل وهى اسم الفاعل واسم المفعول كالضارب والمضروب أفادت الحدوث واذا لم تكن كذلك وهى المشبهة أفادت الثبوت فمن قرأ حذرون ذهب الى انا قوم من عادتنا الحذر واستعمال الحزم ومن قرأ حاذرون فكانه ذهب الى معنى انا قوم ما عهدنا أن نحذر الا عصرنا هذا وأما من قرأ حادرون بالدال غير المعجمة فكانه ذهب الى نفى الحدر أصلا لان الحادر هو المشمر فاراد انا قوم أقوياء أشداء أو أراد انا مدججون فى السلاح والغرض من هذه المعاذير أن لا يتوهم أهل المدائن انه منكسر من قوم موسى أو خائف منهم أما قوله تعالى فاخرجناهم فالمراد انا جعلنا فى قلوبهم داعية الخروج فاستوجبت الداعية الفعل فكان الفعل مضافا الى الله تعالى لامحالة وأما قوله من جنات وعيون وكنوز فقال مجاهد سماها كنوزا لانهم لم ينفقوا منها فى طاعة الله تعالى والمقام الكريم يريد المنازل الحسنة والمجالس البهية والمعنى انا أخرجناهم من بساتينهم التى فيها عيون الماء وكنوز الذهب والفضة والمواضع التى كانوا ينتفعون فيها فنسلمها الى بنى اسرائيل أما قوله كذلك فيحتمل ثلاثة أوجه النصب على أخرجناهم مثل ذلك الاخراج الذى وصفناه والجر على أنه وصف لمقام كريم اى مقام كريم مثل ذلك المقام الذى كان لهم والرفع على انه خبر ابتداء محذوف اى الامر كذلك أما قوله فأتبعوهم اى فلحقوهم وقرئ فاتبعوهم مشرقين داخلين فى وقت الشروق من شرقت الشمس شروقا اذا طلعت أما قوله فلما تراءى الجمعان اى رأى بعضهم بعضا قال اصحاب موسى انا لمدركون اى للحقون وقالوا لموسى اوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا كانوا يذبحون ابناءنا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا يدركوننا اى فى هذه الساعة فيقتلوننا وقرئ فلما تراءت الفئتان انا لمدركون بتشديد الدال وكسر الراء من ادرك الشئ اذا تابع نفى ومنه قوله تعالى بل ادارك علمهم فى الآخرة قال الحسن جهلوا علم الاخرة والمعنى انا لمتتابعون فى الهلاك على ايديهم حتى لا يبقى منا احد فعند ذلك قال لهم كلا وذلك كالنفى لما توهموه ثم قوى نفوسهم بامرين احدهما ان معى ربى وهذا دلالة النصرة والتكفل بالمعونة (والثانى) قوله سيهدين والهدى هو طريق النجاة والخلاص واذا دله على طريق نجاته وهلاك أعدائه فقد بلغ النهاية فى النصرة * قوله تعالى (فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وأزلفنا ثم الآخرين وأنجينا موسى ومن معه اجمعين ثم أغرقنا الآخرين ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) اعلم أنه تعالى لما حكى عن موسى عليه السلام قوله ان معى ربى سيهدين بين تعالى بعد كيف هداه ونجاه وأهلك أعداءه بذلك التدبير الجامع لنعم الدين والدنيا فقال وأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق ولا شبهة فى ان المراد فضرب فانفلق لا

كالمعلوم من الكلام اذ لا يجوز أن ينفلق من غير ضرب ومع ذلك يأمره بالضرب لانه كالعبث ولانه تعالى جعله من معجزاته التى ظهرت بالعصا ولان انفلاقه بضربه أعظم فى النعمة عليه وأقوى لعلمهم ان ذلك انما حصل لمكان موسى عليه السلام واختلفوا فى البحر روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان موسى عليه السلام لما انتهى الى البحر مع بنى اسرائيل أمرهم أن يخوضوا البحر فامتنعوا الا يوشع بن نون فانه ضرب دابته وخاض فى البحر حتى عبر ثم رجع اليهم فأبوا أن يخوضوا فقال موسى للبحر انفرق لى فقال ما امرت بذلك ولا يعبر على العصاة فقال موسى يارب قد أبى البحر أن ينفرق فقيل له اضرب بعصاك البحر فضربه فانفرق فكان كل فرق كالطود العظيم أى كالجبل العظيم وصار فيه اثنا عشر طريقا لكل سبط منهم طريق فقال كل سبط قتل اصحابنا فعند ذلك دعا موسى عليه السلام ربه فجعلها مناظر كهيئة الطبقات حتى نظر بعضهم الى بعض على أرض يابسة وعن عطاء بن السائب أن جبريل عليه السلام كان بين بنى اسرائيل وبين آل فرعون وكان يقول لبنى اسرائيل ليلحق آخركم باولكم ويستقبل القبط فيقول رويدكم ليلحق آخركم وروى أن موسى عليه السلام قال عند ذلك يامن كان قبل كل شئ والمكون لكل شئ والكائن بعد كل شئ فأما قوله فكان كل فرق كالطود العظيم فالفرق الجزء المنفرق منه وقرئ كل فلق والمعنى واحد والطود الجبل المتطاول أى المرتفع فى السماء وهو معجز من وجوه (أحدها) ان تفرق ذلك الماء معجز (وثانيها) ان اجتماع ذلك الماء فرق كل طرف منه حتى صار كالجبل من المعجزات أيضا لانه كان لا يمتنع فى الماء الذى ازيل بذلك التفريق أن يبدده الله تعالى حتى يصيره كأنه لم يكن فلما جمع على الطرفين صار موكدا لهذا الاعجاز (وثالثها) انه ان ثبت ماروى فى الخبر انه تعالى أرسل على فرعون وقومه من الرياح والظلمة ما حيرهم فاحتبسوا القدر الذى يتكامل معه عبور بنى اسرائيل فهو معجز ثالث (ورابعها) أن جعل الله فى تلك الجدران المائية كوى ينظر منها بعضهم الى بعض فهو معجز رابع (وخامسها) أن ابقى الله تعالى تلك المسالك حتى قرب منها آل فرعون وطمعوا ان يتخلصوا من البحر كما تخلص قوم موسى عليه السلام فهو معجز خامس ✻ اما قوله تعالى وازلفنا ثم الآخرين ففيه بحثان (البحث الاول) قال ابن عباس وابن جريج وقتادة والسدى وازلفنا أى وقربنا ثم أى حيث انفلق البحر للآخرين قوم فرعون ثم فيه ثلاثة أوجه (أحدها) قربناهم من بنى اسرائيل (وثانيها) قربنا بعضهم من بعض وجمعناهم حتى لا ينجو منهم أحد (وثالثها) قدمناهم الى البحر ومن الناس من قال وأزلفنا أى حبسنا فرعون وقومه عند طلبهم موسى عليه السلام بأن أظلمنا عليهم الدنيا بسحابة وقفت عليهم فوقفوا حيارى وقرئ وأزلقنا بالقاف أى أزللنا أقدامهم والمعنى اذهبنا عزمهم ويحتمل أن يجعل الله طريقهم فى البحر على خلاف ما جعله لبنى اسرائيل يبسا

رسوله منكرا الا أن يكون للعالمين رب سواه حسبما يعرب عنه قوله أنا ربكم الاعلى وقوله ما علمت لكم من اله غيرى وينطق به وعيده عند تمام اجوبته عليه الصلاة والسلام (قال) موسى عليه السلام مجيبا له (رب السموات والارض وما بينهما) بتعيين ما أراد بالعالمين وتفصيله لزيادة التحقيق والتقرير وحسم مادة تزوير اللعين وتشكيكه بحمل العالمين على ما تحت مملكته (ان كنتم موقنين) أى ان كنتم موقنين بالاشياء محققين لها علم ذلك أو ان كنتم موقنين بشئ من الاشياء فهذا أولى بالايقان لظهوره وانارة دليله (قال) أى فرعون عند سماع جوابه عليه الصلاة والسلام خوفا من تأثيره فى قلوب قومه واذعانهم له (لمن حوله) من أشراف قومه قال ابن عباس رضى الله عنهما كانوا خمسمائة عليهم الاساور وكانت للملوك خاصة (ألا تستمعون)

رأيا لهم أن ما سمعوه ﴿ ٦٦ ﴾ س من جوابه عليه الصلاة والسلام مع كونه مما لا يليق بأن يعتد به أمر حقيق بأن يتعجب منه كأنه قال الا تستمعون ما يقوله فاستمعوه وتعجبوا منه حيث يدعى خلاف أمر محقق لا اشتباه فيه بدديه ربوبية نفسه (قال) عليه الصلاة

والسلام تصريحا بما كان مندرجا تحت جوابيه السابقين (ربكم ورب ابائكم الاولين) وحطاله من ادعاء الربوبية الى مرتبة المربوبية (قال) أى فرعون لما واجهه موسى عليه السلام بما ذكر غاظه ذلك وخاف من تأثر قومه منه فأراهم أن ما قاله عليه الصلاة والسلام مما لا يصدر عن العقلاء صدالهم عن قبوله فقال مؤكدا لمقالته الشنعاء بحرفى التأكيد (ان رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون) ليغتنهم بذلك ويصرفهم عن قبول الحق وسماه رسولا بطريق الاستهزاء وأضافه الى مخاطبيه ترفعا من أن يكون مرسلا الى نفسه (قال) عليه الصلاة والسلام (رب المشرق والمغرب وما بينهما) قاله عليه الصلاة والسلام تكميلا لجوابه الاول وتفسيرا له وتنبيها على جهلهم وعدم فهمهم لمعنى ما قاله فان بيان ربوبيته تعالى للسموات والارض وما بينهما وان كان متضمنا لبيان ربوبيته تعالى للخافقين وما بينهما لكن لما لم يكن فيه تصريح باستناد حركات السموات وما فيها وتغيرات أحوالها وأوضاعها وكون الارض تارة مظلمة وأخرى منورة الى الله تعالى ارشدهم الى طريق معرفة ربوبيته تعالى لما ذكر فان ذكر المشرق والمغرب منبئ عن شروق الشمس ﴿ وامر ﴾ وغروبها المنوطين بحركات السموات وما فيها على نمط بديع يترتب عليه هذه الاوضاع الرصينة وكل ذلك أمور جادة مفتقرة الى محدث

وأزلقهم (البحث الثانى) انه تعالى أضاف ذلك الازلاف الى نفسه مع أن اجتماعهم هنالك فى طلب موسى كفر (أجاب) الجبائى عنه من وجهين الاول ان قوم فرعون تبعوا بنى اسرائيل وبنو اسرائيل انما فعلوا ذلك بامر الله تعالى فلما كان مسيرهم بتدبيره وهؤلاء تبعوا ذلك أضافه الى نفسه توسعا وهذا كما يتعب أحدنا فى طلب غلام له فيجوز أن يقول اتعبنى الغلام لما حدث ذلك عند فعله (الثانى) قيل وأزلفنا ثم الآخرين أى أزلفناهم الى الموت لاجل انهم فى ذلك الوقت قربوا من أجلهم وأنشد

وكل يوم مضى أو ليلة سلفت ❊ فيها النفوس الى الآجال تزدلف

وأجاب الكعبى عنه من وجهين الاول انه تعالى لما حلم عنهم وترك البحر لهم يبسا وطمعوا فى عبوره جازت الاضافة كما لو جل يسفه عليه صاحبه مرارا فيحلم عنه فاذا تمادى فى غيه وأراه قدرته عليه قال له انا أحوجتك الى هذا وصيرتك اليد تحلى لا يريد بذلك انه أراد ما فعل (الثانى) يحتمل انه أزلفهم أى جمعهم ليغرقهم عند ذلك ولئلا يصلوا الى موسى وقومه (والجواب) عن الاول ان الذى فعله بنو اسرائيل هل له أثر فى استجلاب داعية قوم فرعون الى الذهاب خلفهم أو ليس له أثر فيه فان كان الاول فقد حصل المقصود لان لفعل الله تعالى أثرا فى حصول الداعية المستلزمة لذلك الازلاف وان لم يكن له فيه أثر البتة فقد زال التعلق فوجب أن لا تحسن الاضافة واما اذا تعب أحدنا فى طلب غلام له فانما يجوز أن يقول اتعبنى ذلك الغلام لما أن فعل ذلك الغلام صار كالمؤثر فى حصول ذلك التعب لانه من فعل ذلك الفعل فالظاهر انه يصير معلوما للسيد ومتى علمه صار علمه داعيا له الى ذلك التعب ومؤثرا فيه فصحت الاضافة وبالجملة فعندنا القادر لا يمكنه الفعل الا بالداعى فالداعى مؤثر فى صيرورة القادر مؤثرا فى ذلك الفعل فلاجرم حسنت الاضافة (والجواب) عن الثانى وهو انه أزلفهم ليغرقهم فهو انه تعالى ما أزلفهم بل هم بأنفسهم ازدلفوا ثم حصل الغرق بعده فكيف يجوز اضافة هذا الازلاف الى الله تعالى اما على قولنا فلانه جائز لانه تعالى هو الذى خلق الداعية المستعقبة لذلك الازدلاف (والجواب) عن الثالث وهو ان حلمه تعالى عنهم حملهم على ذلك فنقول ذلك الحلم هل له أثر فى استجلاب هذه الداعية أم لا وباقى التقرير كما تقدم (والجواب) عن الرابع هو بعينه الجواب عن الثانى والله أعلم ❊ اما قوله تعالى وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ثم أغرقنا الآخرين فالمعنى انه تعالى جعل البحر يبسا فى حق موسى وقومه حتى خرجوا منه وأغرق فرعون وقومه لانه لما تكامل دخولهم البحر انطبق الماء عليهم فغرقوا فى ذلك الماء ❊ اما قوله تعالى ان فى ذلك لآية فالمعنى ان الذى حدث فى البحر آية عجيبة من الآيات العظام الدالة على قدرته لان أحدا من البشر لا يقدر عليه وعلى حكمته من حيث وقع ما كان مصلحة فى الدين والدنيا وعلى صدق موسى عليه السلام من حيث كان معجزة له وعلى اعتبار المعتبرين به أبدا فيصير تحذيرا من الاقدام على مخالفة أمر الله تعالى

قادر عليم حكيم لأكذوات السموات والارض التى ربما يتوهم جهلة المتوهمين باستمرارها استغناءها عن الموجد المتصرف
(ان كنتم تعقلون) أى ان كنتم تعقلون شيئا ﴿ ٥٢٣ ﴾ من الاشياء أوان كنتم من أهل العقل علمتم أن الامر

وأمر رسوله ويكون فيه اعتبار لمحمد صلى الله عليه وسلم فانه قال عقيب ذلك وما كان أكثرهم مؤمنين وفى ذلك تسلية له فقد كان يغتم بتكذيب قومه مع ظهور المعجزات عليه فنبهه الله تعالى بهذا الذكر على ان له اسوة بموسى وغيره فان الذى ظهر على موسى من هذه المعجزات العظام التى تبهر العقول لم يمنع من أن أكثرهم كذبوه وكفروا به مع مشاهدتهم لما شاهدوه فى البحر وغيره فكذلك انت يا محمد لا تعجب من تكذيب أكثرهم لك واصبر على ايذائهم فلعلهم أن يصلحوا ويكون فى هذا الصبر تأكيدا لحجة عليهم واما قوله وان ربك لهو العزيز الرحيم فتعلقه بما قبله ان القوم مع مشاهدة هذه الآية الباهرة كفروا ثم انه تعالى كان عزيزا قادرا على ان يهلكهم ثم انه تعالى ما أهلكهم بل أفاض عليهم أنواع رحمته فدل ذلك على كمال رحمته وسعة جوده وفضله ﴿ (القصة الثانية) قصة ابراهيم عليه السلام قوله تعالى (واتل عليهم نبأ ابراهيم اذ قال لابيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون فانهم عدو لى الا رب العالمين) اعلم انه تعالى ذكر فى أول السورة شدة حزن محمد صلى الله عليه وسلم بسبب كفر قومه ثم انه ذكر قصة موسى عليه السلام ليعرف محمد أن مثل تلك المحنة كانت حاصلة لموسى ثم ذكر عقيبها قصة ابراهيم عليه السلام ليعرف محمد أيضا أن حزن ابراهيم عليه السلام بهذا السبب كان أشد من حزنه لان من عظيم المحنة على ابراهيم عليه السلام ان يرى اباه وقومه فى النار وهو لا يمكن من انقاذهم الا بقدر الدعاء والتنبيه فقال لهم ما تعبدون وكان ابراهيم عليه السلام يعلم انهم عبدة أصنام ولكنه سألهم ليريهم أن ما يعبدونه ليس ممن استحق العبادة فى شئ كما تقول لتاجر الرقيق ما مالك وانت تعلم أن ماله الرقيق ثم تقول الرقيق جمال وليس بمال فاجابوا ابراهيم عليه السلام بقولهم نعبد أصناما فنظل لها عاكفين والعكوف الاقامة على الشئ وانما قالوا فنظل لانهم كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل وعلم انه كان يكفيهم فى الجواب أن يقولوا نعبد أصناما ولكنهم ضموا اليه زيادة على الجواب وهى قولهم فنظل لها عاكفين وانما ذكروا هذه الزيادة اظهارا لما فى نفوسهم من الابتهاج والافتخار بعبادة الاصنام فقال ابراهيم عليه السلام منبها على فساد مذهبهم هل يسمعونكم اذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون قال صاحب الكشاف لابد فى يسمعونكم من تقدير حذف المضاف معناه هل يسمعون دعاءكم وقرأ قتادة هل يسمعونكم أى هل يسمعونكم الجواب عن دعائكم وهل يقدرون على ذلك وتقرير هذه الحجة التى ذكرها ابراهيم عليه السلام ان الغالب من حال من يعبد غيره ان يلتجئ اليه فى المسئلة ليعرف مراده اذا سمع دعاءه ثم يستجيب له فى بذل منفعة أو دفع مضرة فقال لهم فاذا كان من تعبدونه لا يسمع دعاءكم حتى يعرف مقصودكم ولو عرف ذلك لما صح أن

كما قلته وفيه ايذان بغاية وضوح الامر بحيث لا يشتبه على من له عقل فى الجملة وتلويح بانهم بمعزل من دائرة العقل وانهم المتصفون بما رموه عليه السلام به من الجنون (قال) لما سمع اللعين منه عليه الصلاة والسلام تلك المقالات المبنية على أساس الحكم البالغة وشاهد شدة حزمه وقوة عزمه على تمشية أمره وانه ممن لا يجارى فى حلبة المحاورة ضرب صفحا عن المقاولة بالانصاف ورنا بجانبه الى عدوة الجور والاعتساف فقال مظهرا لما كان يضمره عند السؤال والجواب (لئن اتخذت الها غيرى لاجعلنك من المسجونين) لم يقتنع منه عليه الصلاة والسلام بترك دعوى الرسالة وعدم التعرض له حتى كلفه عليه الصلاة والسلام أن يتخذه الها لغاية عتوه وغلوه فيما فيه من دعوى الالوهية وهذا صريح فى أن تعجبه وتعجيبه من الجواب الاول ونسبته عليه الصلاة والسلام الى الجنون فى الجواب الثانى كان لنسبته عليه الصلاة والسلام الربوبية الى غيره وأما ما قيل من أن سؤاله كان عن حقيقة المرسل وتعجبه من جوابه كان لعدم مطابقته له لكونه بذكر أحواله فلا يساعده النظم

الكريم ولاحال فرعون ولامقاله واللام فى المسجونين للعهد أى لاجعلنك ممن عرفت أحوالهم فى سجونى حيث كان يطرحهم فى هوة عميقة حتى يموتوا وذلك لم يقل لاسجننك ﴿ ٥٢٤ ﴾ ﴿ (قال أو لو جئتك بشئ مبين) أى أتفعل بى ذلك

يبذل النفع أو يدفع الضرر فكيف تستجيزون أن تعبدوا ماهذا وصفه فعند هذه الحجة القاهرة لم يجد أبوه وقومه مايدفعون به هذه الحجة فعدلوا الى أن قالوا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون وهذا من أقوى الدلائل على فساد التقليد ووجوب التمسك بالاستدلال اذ لو قلبنا الامر فجعلنا التقليد وذمنا الاستدلال لكان ذلك مدحا لطريقة الكفار التى ذمها الله تعالى وذما لطريقة ابراهيم عليه السلام التى مدحها الله تعالى فأجابهم ابراهيم عليه السلام بقوله أفرأيتم ماكنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الاقدمون أراد به أن الباطل لايتغير بأن يكون قديما أو حديثا ولابان يكون فى فاعليه كثرة أو قلة * أما قوله فانهم عدو لى الا رب العالمين ففيه أسئلة (السؤال الاول) كيف يكون الصنم عدوا مع انه جماد جوابه من وجوه (أحدها) انه تعالى قال فى سورة مريم فى صفة الاوثان كلا سيكفرون بعبادتهم و يكونون عليهم ضدا فقيل فى تفسيره ان الله يحيى ماعبدوه من الاصنام حتى يقع منهم التوبيخ لهم والبراءة منهم وعلى هذا الوجه ان الاوثان ستصير أعداء لهؤلاء الكفار فى الآخرة فاطلق ابراهيم عليه السلام لفظ العداوة عليهم على هذا التأويل (وثانيها) ان الكفار لما عبدوها وعظموها ورجوها فى صنع المنافع ودفع المضار نزلت منزلة الاحياء العقلاء فى اعتقاد الكفار ثم انها صارت أسبابا لانقطاع الانسان عن السعادة ووصوله الى الشقاوة فلما زلت هذه الاصنام منزلة الاحياء وجرت مجرى الدائم للمنفعة والجالب للمضرة لاجرم جرت مجرى الاعداء فلاجرم أطلق ابراهيم عليه السلام عليها لفظ العدو (وثالثها) المراد من قوله فانهم عدو لى عداوة من يعبدها فان قيل فلم لم يقل ان من يعبد الاصنام عدو لى ليكون الكلام حقيقة جوابه لان الذى تقدم ذكره ماعبدوه دون العابدين (السؤال الثانى) لم قال فانهم عدو لى ولم يقل فانها عدو لكم جوابه انه عليه السلام صور المسئلة فى نفسه على معنى انى فكرت فى أمرى فرأيت عبادتى لها عبادة للعدو فاجتنبتها وأراهم انها نصيحة نصح بها نفسه فاذا تفكروا قالوا مانصحنا ابراهيم الا بما نصح به نفسه فيكون ذلك ادعى للقبول (السؤال الثالث) لم لم يقل فانهم اعدائى جوابه العدو والصديق يجيئان فى معنى الواحد والجماعة قال

وقوم على ذوى مرة * أراهم عدوا وكانوا صديقا

ومنه قوله تعالى وهم لكم عدو وتحقيق القول فيه ماتقدم فى قوله انا رسول رب العالمين (السؤال الرابع) ماهذا الاستثناء جوابه انه استثناء منقطع كأنه قال لكن رب العالمين * قوله تعالى (الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى و يسقين واذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) اعلم انه تعالى لما حكى عنه انه استثنى رب العالمين حكى عنه أيضا ماوصفه به مما يستحق العبادة لاجله ثم حكى عنه ماسأله عنه اما الاوصاف فاربعة (أولها) قوله الذى خلقنى فهو يهدين واعلم انه سبحانه أثنى على نفسه بهذين الامرين فى قوله الذى خلق فسوى

يزيد به المعجزة فانها جامعة بين الدلالة على وجود الصانع وحكمته و بين الدلالة على صدق دعوى من ظهرت على يده والتعبير عنها بالشئ للتهويل فالوا نواوفى أو لو جئتك للحال دخلت عليها همزة الاستفهام أى جئتا بشئ مبين وقد سلف مرارا أنها للعطف وأن كلمة لو ليست لانتفاء الشئ فى الزمان الماضى لانتفاء غيره فيه فلا يلاحظها جواب قد حذف تعويلا على دلالة ماقبلها عليه ملاحظة قصدية الا عند القصد الى بيان الاعراب على القواعد الصناعية بل هى لبيان تحقق مايفيده الكلام السابق من الحكم الموجب أو المنفى على كل حال مفروض من الاحوال المقارنة له على الاجمال بادخالها على أبعدها منه وأشدها منافاة له ليظهر بثبوته أو انتفائه معه ثبوته أو انتفاؤه مع ماعداه من الاحوال بطريق الاولوية لما أن الشئ متى تحقق مع المنافى القوى فلأن يتحقق ﴿ والذى ﴾ مع غيره اولى ولذلك لايذكر معه شئ من سائر الاحوال و يكتفى عنه بذكر العاطف للجملة على نظيرتها المقابلة لها الشاملة لجميع الاحوال المغايرة

لها عند تعددها ليظهر ماذكر من تحقق الحكم على جميع الاحوال فانك اذاقلت فلان جواد يعطى ولوكان فقيرا تريد بيان تحقق الاعطاء منه على كل حال من أحواله المفروضة فتعلق الحكم بايعدها منه ليظهر بتحققه معه تحققه مع ماعداه من الاحوال التى ﴿ ٥٢٥ ﴾ لامنافاة بينها وبين الحكم بطريق الاولوية الصحيحة

والذى قدر فهدى واعلم أن الخلق والهداية بهما يحصل جميع المنافع لكل من يصح الانتفاع عليه فلنتكلم فى الانسان فنقول انه مخلوق من قالب هو من عالم الخلق والجسمانيات ومن قلب هو من عالم الامر والروحانيات وتركيب البدن الذى هو من عالم الخلق مقدم على اعطاء القلب الذى هو من عالم الامر على ماأخبرعنه سبحانه فى قوله فاذاسويته ونفخت فيه من روحى فالتسوية اشارة الى تعديل المزاج وتركيب الامشاج ونفخ الروح اشارة الى اللطيفة الربانية النورانية التى هى من عالم الامر وأيضا قال وقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ولما تمم مراتب تغيرات الاجسام قال ثم أنشأناه خلقا آخر وذلك اشارة الى الروح الذى هو من عالم الملائكة ولاشك أن الهداية انما تحصل من الروح فقد ظهر بهذه الآيات ان الخلق مقدم على الهداية اما تحقيقه بحسب المباحث الحقيقية فهو ان بدن الانسان انما يتولد عند امتزاج المنى بدم الطمث وهما انما يتولدان من الاغذية المتولدة من تركب العناصر الاربعة وتفاعلها فاذا امتزج المنى بالدم فلا يزال مافيهما من الحار والبارد والرطب واليابس متفاعلا ومافى كل واحد منهما من القوى كاسرا سورة كيفية الآخر فحينئذ يحصل من تفاعلهما كيفية متوسطة تستحر بالقياس الى البارد وتستبرد بالقياس الى الحار وكذا القول فى الرطب واليابس وحينئذ يحصل الاستعداد لقبول قوى مدبرة لذلك المركب فبعضها قوى نباتية وهى التى تجذب الغذاء ثم تمسكه ثم تهضمه ثم تدفع الفضلة المؤذية ثم تقيم تلك الاجزاء بدل ماتحلل منها ثم تزيد فى جوهر الاعضاء طولا وعرضا ثم يفضل عن تلك المواد فضلة يمكن أن يتولد عنها مثل ذلك ومنها قوى حيوانية بعضها مدركة كالحواس الخمس والخيال والحفظ والذكر وبعضها فاعلة اما آمرة كالشهوة والغضب أو مأمورة كالقوى المركوزة فى العضلات ومنها قوى انسانية وهى اما مدركة أو عاملة والقوى المدركة هى القوى القوية على ادراك حقائق الاشياء الروحانية والجسمانية والعلوية والسفلية ثم انك اذا فتشت عن كل واحدة من مركبات هذا العالم الجسمانى ومفرداتها وجدت لها أشياء تلائمها وتكمل حالها واشياء تنافرها وتفسد حالها ووجدت فيها قوى جاذبة للملائم دفاعة للمنافى فقد ظهر أن صلاح الحال فى هذه الاشياء لايتم الا بالخلق والهداية اما الخلق فبتصييره موجودا بعد ان كان معدوما وأما الهداية فبتلك القوى الجاذبة للمنافع والدفاعة للمضار * فثبت أن قوله خلقنى فهو يهدين كلمة جامعة حاوية لجميع المنافع فى الدنيا والدين ثم ههنا دقيقة وهو انه قال خلقنى فذكره بلفظ الماضى وقال يهدين ذكره بلفظ المستقبل والسبب فى ذلك ان خلق الذات لايتجدد فى الدنيا بل لما وقع بقى الى الامد المعلوم أما هدايته تعالى فهى مما يتكرر كل حين وأوان سواء كان ذلك هداية فى المنافع الدنيوية وذلك بان يحكم الحواس بتميز المنافع عن المضار أوفى المنافع الدينية وذلك بان يحكم العقل تميز الحق عن الباطل والخير عن الشر فبين بذلك انه

الاكتفاء بذكر العاطف عن تفصيلها كانك قلت فلان جواد يعطى لولم يكن فقيرا ولوكان فقيرا أى يعطى حال كونه غنيا وحال كونه فقيرا فالحال فى الحقيقة كلتا الجملتين المتعاطفتين لاالمذكورة على أن الواو للحال وتصدير المجئ بما ذكر من كلمة ايدون ان ليس لبيان استبعاده فى نفسه بل بالنسبة الى فرعون والمعنى افعل بى ذلك حال عدم مجئ بشئ مبين وحال مجئ به (قال فأت به ان كنت من الصادقين) أى فيما يدل عليه كلامك من أنك تأتى بشئ مبين موضح لصدق دعواك أوفى دعوى الرسالة وجواب الشرط محذوف لدلالة ماقبله عليه (فألقى عصاه فاذاهى ثعبان مبين) أى ظاهر ثعبانيته لأنه شئ يشبهه واشتقاق الثعبان من ثعبت الماء فانثعب أى فجرته فانفجر وقدمر بيان كيفية الحال فى سورة الاعراف

وسورة طه (ونزع يده) من جيبه (فاذاهى بيضاء للناظرين) قيل لما رأى فرعون الآية الاولى وقال هل لك برهانا فاخرج يده فقال ماهذه قال فرعون يدك فما فيها شئ فادخلها فى ابطه ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشى الابصار

ويشد الافق (قال للملاحوله) اى مستقرين حوله فهو ظرف وقع موقع الحال (ان هذا لساحر عليم) فائق في فن السحر (يريد أن يخرجكم) قسرا (من أرضكم بسحره فماذا تأمرون) بهره سلطان المعجزة وحيره حتى حطه عن ذروة ادعاء الربوبية الى حضيض الخضوع ﴿ ٥٢٦ ﴾ لعبيده في زعمه والامتثال بأمرهم أوالى

سبحانه هو الذي خلقه بسائر ما تكامل به خلقه في الماضي دفعة واحدة وانه يهديه الى مصالح الدين والدنيا بضروب الهدايات في كل لحظة ولمحة (وثانيها) قوله والذي هو يطعمني ويسقين وقد دخل فيه كل ما يتصل بمنافع الرزق وذلك لانه سبحانه اذا خلق له الطعام وملكه فلو لم يكن معه ما يمكن به من أكله والاغتذاء به نحو الشهوة والقوة والتميز لم تكمل هذه النعمة وذكر الطعام والشراب ونبه بذكرهما على ماعداهما (وثالثها) قوله واذا مرضت فهو يشفين وفيه سؤال وهو انه لم قال مرضت دون أمرضني وجوابه من وجوه (الاول) ان كثيرا من أسباب المرض يحدث بتفريط من الانسان في مطاعمه ومشاربه وغير ذلك ومن ثم قالت الحكماء لو قيل لاكثر الموتى ما سبب اجالكم لقالوا التخم (الثاني) أن المرض انما يحدث باستيلاء بعض الاخلاط على بعض وذلك الاستيلاء انما يحصل بسبب ما بينها من التنافر الطبيعي اما الصحة فهي انما تحصل عند بقاء الاخلاط على اعتدالها و بقاؤها على اعتدالها انما يكون بسبب قاهر يقهرها على الاجتماع وعودها الى الصحة انما يكون أيضا بسبب قاهر يقهرها على العود الى الاجتماع والاعتدال بعد ان كانت بطباعها مشتاقة الى التفرق والنزاع فلهذا السبب أضاف الشفاء اليه سبحانه وتعالى وما أضاف المرض اليه (وثالثها) وهو ان الشفاء محبوب وهو من اصول النعم والمرض مكروه وليس من النعم وكان مقصود ابراهيم عليه السلام تعديد النعم والم يكن المرض من النعم لاجرم لم يضفه اليه تعالى فان قضته بالاماتة فجوابه ان الموت ليس بضرر لان شرط كونه ضررا وقوع الاحساس به وحال حصول الموت لا يقع الاحساس به انما الضرر في مقدماته وذلك هو عين المرض وأيضا فلا شك قد عرفت أن الارواح اذا كملت في العلوم والاخلاق كان بقاؤها في هذه الاجساد عين الضرر وخلاصها عنها عين السعادة بخلاف المرض (ورابعها) قوله والذي يميتني ثم يحيين والمراد منه الاماتة في الدنيا والتخلص عن آفاتها وعقوباتها والمراد من الاحياء المجازاة (وخامسها) قوله والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين فهو اشارة الى ما هو مطلوب كل عاقل من الخلاص عن العذاب والفوز بالثواب واعلم ان ابراهيم عليه السلام جمع في هذه الالفاظ جميع نعم الله تعالى من أول الخلق الى آخر الابد في الدار الآخرة ثم ههنا أسئلة (السؤال الاول) لم قال والذي أطمع والطمع عبارة عن الظن والرجاء وانه عليه السلام كان قاطعا بذلك جوابه أن هذا الكلام لا يستقيم الا على مذهبنا حيث قلنا انه لا يجب على الله لاحد شئ وانه يحسن منه كل شئ ولا اعتراض لاحد عليه في فعله وأجاب الجبائي عنه من وجهين (الاول) أن قوله والذي أطمع ان يغفر لي خطيئتي أراد به سائر المؤمنين لانهم الذين يطمعون ولا يقطعون به (الثاني) المراد من الطمع اليقين وهو مروي عن الحسن واجاب صاحب الكشاف بأنه انما ذكره على هذا الوجه تعليما منه لامته كيفية الدعاء (واعلم) أن هذه الوجوه ضعيفة

مقام مؤامرتهم ومشاورتهم بعد ما كان مستقلا في الرأي والتدبير وأظهر استشعار الخوف من استيلائه على ملكه ونسبة الاخراج والارض اليهم لتنفيرهم عن موسى عليه السلام (قالوا أرجه وأخاه) أخر أمرهما وقيل احبسهما (وابعث في المدائن حاشرين) أي شرطا يحشرون السحرة (يأتوك) أي الحاشرون (بكل سحار عليم) فائق في فن السحر وقرئ بكل ساحر (فجمع السحرة لميقات يوم معلوم) هو ما عينه موسى عليه السلام بقوله موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى (وقيل للناس هل أنتم مجتمعون) قيل لهم ذلك استبطاء لهم في الاجتماع وحثا لهم على المبادرة اليه (لعلنا نتبع السحرة ان كانوا هم الغالبين) أي نتبعهم في دينهم ان كانوا هم الغالبين لموسى عليه السلام وليس مرادهم بذلك أن يتبعوا دينهم حقيقة وانما هو أن لا يتبعوا موسى عليه السلام لكنهم ساقوا كلامهم مساق الكناية حملا لهم ﴿ أما ﴾ على الاهتمام والجد في المغالبة (فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لاجرا) أي أجرا عظيما (ان كنا نحن

الغالبين) لاموسى عليه السلام (قال نعم) لكم ذلك (وانكم) مع ذلك (اذا لمن المقربين) عندى قيل قال لهم تكونون أول من يدخل على وآخر من يخرج عنى وقرئ نعم بكسر العين وهما لغتان (قال لهم موسى) أى بعد ما قال له السحرة اما أن تلقى وأما أن نكون أول من ألقى (ألقوا ما أنتم ملقون) ولم يرد به الامر بالسحر والتمويه بل الاذن فى تقديم ما هم فاعلوه البتة توسلا به الى اظهار الحق وابطال الباطل (فالقوا حبالهم وعصيهم وقالوا) أى وقد قالوا عند الالقاء (بعزة فرعون انا لنحن الغالبون) قالوا ذلك لفرط اعتقادهم فى أنفسهم واتيانهم باقصى ما يمكن أن يؤتى به من السحر (فألقى موسى عصاه فاذا هى تلقف) أى تبتلع بسرعة وقرئ تلقف بحذف احدى التاءين من تتلقف (ما يأفكون) أى ما يقلبونه من وجهه وصورته بتمويههم وتزويرهم فيخيلون حبالهم وعصيهم أنها حيات تسعى أو افكهم تسمية للمأفوك به مبالغة (فالقى السحرة ساجدين) أى اثر ما شاهدوا ذلك من غير تلعثم وتردد غير متمالكين كأن ملقيا القاهم لعلمهم بان مثل ذلك خارج عن حدود السحر وانه أمر الهى قد ظهر على يده عليه الصلاة والسلام لتصديقه فيه دليل على ان قصارى ما ينتهى اليه هم السحرة هو التمويه والتزوير وتخييل شئ لا حقيقة له (قالوا آمنا برب العالمين) بدل اشتمال من الى اوحال باضمار قد وقوله تعالى (رب موسى

أما الاول فلأن الله تعالى حكى عنه الثناء أولا والدعاء ثانيا ومن أول المدح الى آخر الدعاء كلام ابراهيم عليه السلام فجعل الشئ الواحد وهو قوله والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين كلام غيره مما يبطل نظم الكلام و يفسده وأما الثانى وهو ان الطمع هو اليقين فهذا على خلاف اللغة وأما الثالث وهو ان الغرض منه تعليم الامة فباطل أيضا لان حاصله يرجع الى انه كذب على نفسه لغرض تعليم الامة وهو باطل قطعا (السؤال الثانى) لم أسند الى نفسه الخطيئة مع ان الانبياء منزهون عن الخطايا قطعا وفى جوابه ثلاثة وجوه (أحدها) انه محمول على كذب ابراهيم عليه السلام فى قوله فعله كبيرهم وقوله انى سقيم وقوله لسارة انها أختى وهو ضعيف لان نسبة الكذب اليه غير جائز (وثانيها) انه ذكره على سبيل التواضع وهضم النفس وهذا ضعيف لانه ان كان صادقا فى هذا التواضع فقد لزم الاشكال و ان كان كاذبا فحينئذ يرجع حاصل الجواب الى الحاق المعصية به لاجل تنزيهه عن المعصية (وثالثها) وهو الجواب الصحيح أن يحمل ذلك على ترك الاولى وقد يسمى ذلك خطأ فان من ملك جوهرة وأمكنه أن يبيعها بالف ألف دينار فان باعها بدينار قيل انه أخطأ وترك الاولى على الانبياء جائز (السؤال الثالث) لم علق مغفرة الخطيئة بيوم الدين وانما تغفر فى الدنيا جوابه لان اثرها يظهر يوم الدين وهو الآن خفى لا يعلم (السؤال الرابع) ما فائدة لى فى قوله يغفر لى خطيئتى جوابه من وجوه (أحدها) ان الاب اذا عفا عن ولده والسيد عن عبده والزوج عن زوجته فذلك فى أكثر الامر انما يكون طلبا للثواب وهربا عن العقاب أو طلبا لحسن الثناء والمحمدة أو دفعا للالم الحاصل من الرقة الجنسية. واذا كان كذلك لم يكن المقصود من ذلك العفو رعاية جانب المعفو عنه بل رعاية جانب نفسه اما لتحصيل ما ينبغى أو لدفع ما لا ينبغى أما الاله سبحانه فانه كامل لذاته فيستحيل أن تحدث له صفات كمال لم تكن أو يزول عنه نقصان كان واذا كان كذلك لم يكن عفوه الا رعاية لجانب المعفو عنه فقوله والذى أطمع أن يغفر لى يعنى هو الذى اذا غفر كان غفرانه لى ولاجلى لا لاجل أمر عائد اليه البتة (وثانيها) كأنه قال خلقتنى لا لى فانك حين خلقتنى ما كنت موجودا واذ لم أكن موجودا استحال تحصيل شئ لاجلى ثم مع هذا فأنت خلقتنى اما لو عفوت كان ذلك العفو لاجلى فلما خلقتنى أولا مع انى ما كنت محتاجا الى ذلك الخلق فلان تغفر لى وتعفو عنى حال ما أكون فى أشد الحاجة الى العفو والمغفرة كان أولى (وثالثها) ان ابراهيم عليه السلام كان لشدة استغراقه فى بحر المعرفة شديد الفرار عن الالتفات الى الوسائط ولذلك لما قال له جبريل عليه السلام ألك حاجة قال أما اليك فلا فهم ما قال أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين أى لمجرد عبوديتى لك واحتياجى اليك تغفر لى خطيئتى لا ان تغفرها لى بواسطة شفاعة شافع *قوله تعالى (رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين واجعل لى لسان صدق فى الآخرين واجعلنى من ورثة جنة النعيم واغفر لابى انه كان من الضالين ولا تخزنى يوم

وهرون) بدل من رب العالمين للتوضيح ودفع توهم ارادة فرعون حيث كان قومه الجهلة يسمونه بذلك والاشعار بان الموجب لايمانهم به تعالى ما أجراه على أيديهما من

أن آذن لكم) أى بغير أن آذن لكم كما فى قوله تعالى لتفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى لأن الاذن منه ممكن أو متوقع (انه لكبيركم الذى علمكم السحر) فتواطأتم على ما فعلتم او علمكم شيئا دون شئ فلذلك غلبكم اراد بذلك التلبيس على قومه كى لا يعتقدوا انهم آمنوا عن بصيرة وظهور حق وقرئ أآمنتم بهمزتين (فلسوف تعلمون) اى وبال ما فعلتم وقوله (لاقطعن ايديكم وارجلكم من خلاف ولاصلبنكم اجمعين) بيان لما اوعدهم به (قالوا) اى السحرة (لاضير) لاضرر فيه علينا وقوله تعالى (انا الى ربنا منقلبون) تعليل لعدم الضير اى لاضير فى ذلك بل لنا فيه نفع عظيم لما يحصل لنا فى الصبر عليه لوجه الله تعالى من تكفير الخطايا والثواب العظيم او لاضير علينا فيما توعدنا به من القتل انه لابد لنا من الانقلاب الى ربنا بسبب من اسباب الموت والقتل أهونها وارجاها وقوله تعالى (انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا ان كنا) اى لأن كنا (اول المؤمنين) اى من اتباع فرعون او من اهل المشهد ﴿ الخارجية ﴾ تعليل ثان لنفى الضير اى لاضير علينا فى قتلك انا نطمع ان يغفر لنا ربنا خطايانا لكوننا اول المؤمنين

يبعثون يوم لا ينفع مال ولا بنون الامن أتى الله بقلب سليم) اعلم أن الله تعالى لما حكى عن ابراهيم عليه السلام ثناءه على الله تعالى ذكر بعد ذلك دعاءه ومسئلته وذلك تنبيه على أن تقديم الثناء على الدعاء من المهمات وتحقيق الكلام فيه أن هذه الارواح البشرية من جنس الملائكة فكلما كان اشتغالها بمعرفة الله تعالى ومحبته والانجذاب الى عالم الروحانيات أشد كانت مشاكلتها للملائكة اتم فكانت أقوى على التصرف فى أجسام هذا العالم وكلما كان اشتغالها بلذات هذا العالم واستغراقها فى ظلمات هذه الجسمانيات أشد كانت مشاكلتها للبهائم أشد فكانت أكثر عجزا وضعفا وأقل تأثيرا فى هذا العالم فمن أراد أن يشتغل بالدعاء يجب أن يقدم عليه ثناء الله تعالى وذكر عظمته وكبريائه حتى انه بسبب ذلك الذكر يصير مستغرقا فى معرفة الله ومحبته ويصير قريب المشاكلة من الملائكة فيحصل له بسبب تلك المشاكلة قوة الهية سماوية فيصير مبدأ لحدوث ذلك الشئ الذى هو المطلوب بالدعاء فهذا هو الكشف عن ماهية الدعاء وظهر أن تقديم الثناء على الدعاء من الواجبات وظهر به نكتة فى قوله عليه السلام حكاية عن الله تعالى من شغله ذكرى عن مسئلتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ثم قال قائل لهم يقصر ابراهيم عليه السلام على الثناء بل يروى عنه أيضا انه قال حسبى من سؤالى علمه بحالى (فان قيل) انه عليه السلام انما ذكر ذلك حين كان مشتغلا بدعوة الخلق الى الحق ألا ترى انه قال فانهم عدو لى الا رب العالمين ثم ذكر الثناء ثم ذكر الدعاء لان الشارع لا بد له من تعليم الشرع فما حين ما خلا بنفسه ولم يكن غرضه تعليم الشرع كان يقتصر على قوله حسبى من سؤالى علمه بحالى (البحث الثانى) فى الامور التى طلبها فى الدعاء وهى مطالب (المطلوب الاول) قوله رب هب لى حكما وألحقنى بالصالحين وقد أجابه الله تعالى حيث قال وانه فى الآخرة لمن الصالحين وفيه مطالب أحدها انه لا يجوز تفسير الحكم بالنبوة لان النبوة كانت حاصلة فلو طلب النبوة لكانت النبوة المطلوبة اما عين النبوة الحاصلة أو غيرها والاول محال لان تحصيل الحاصل محال والثانى محال لانه يمتنع أن يكون الشخص الواحد نبيا مرتين بل المراد من الحكم ما هو كمال القوة النظرية وذلك بادراك الحق ومن قوله وألحقنى بالصالحين كمال القوة العملية وذلك بان يكون عاملا بالخير فان كمال الانسان أن يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل به وانما قدم قوله رب هب لى حكما على قوله وألحقنى بالصالحين لما ان القوة النظرية مقدمة على القوة العملية بالشرف وبالذات وأيضا فانه يمكنه أن يعلم الحق وان لم يعمل بالخير وعكسه غير ممكن ولان العلم صفة الروح والعمل صفة البدن ولما كان الروح أشرف من البدن كان العلم أفضل من العمل وانما فسرنا معرفة الاشياء بالحكم وذلك لان الانسان لا يعرف حقائق الاشياء الا اذا استحضر فى ذهنه صور الماهيات ثم نسب بعضها الى بعض بالنفى أو بالاثبات وتلك النسبة هى الحكم ثم ان كانت النسب الذهنية مطابقة للنسب

وقرئ أن كنا على الشرط لهضم النفس وعدم الثقة بالخاتمة او على طريقة قول المدل بأمره كقول العامل لمستأجر أخر أجرته ان كنت عملت لك فوفني حقي (وأوحينا الى موسى أن أسر بعبادي) وذلك بعد بضع سنين أقام بين أظهرهم يدعوهم الى الحق ويظهر لهم الآيات فلم ﴿ ٥٢٩ ﴾ يزيدوا الا عتوا وعنادا حسبما فصل في سورة الاعراف قوله

الخارجة كانت النسب الذهنية ممتنعة التغير فكانت مستحكمة قوية فمثل هذا الادراك يسمى حكمة وحكما وهو المراد من قوله عليه السلام ارنا الاشياء كما هي وأما الصلاح فهو كون القوة العاقلة متوسطة بين رذيلتي الافراط والتفريط وذلك لان الافراط في أحد الجانبين تفريط في الجانب الآخر وبالعكس فالصلاح لا يحصل الا بالاعتدال ولما كان الاعتدال الحقيقي شيئا واحدا لا يقبل القسمة البتة والافكار البشرية في هذا العالم قاصرة عن ادراك أمثال هذه الاشياء لا جرم لا ينفك البشر عن الخروج عن ذلك الحد وان قل الا أن خروج المقربين عنه يكون في القلة بحيث لا يحس به وخروج العصاة عنه يكون متفاحشا جدا فقد ظهر من هذا تحقيق ما قيل حسنات الابرار سيئات المقربين وظهر احتياج ابراهيم عليه السلام الى أن يقول وألحقني بالصالحين (المطلب الثاني) لما ثبت أن المراد من الحكم العلم ثبت أنه عليه السلام طلب من الله أن يعطيه العلم بالله تعالى وبصفاته وهذا يدل على أن معرفة الله تعالى لا تحصل في قلب العبد الا بخلق الله تعالى وقوله وألحقني بالصالحين يدل على ان كون العبد صالحا ليس الا بخلق الله تعالى وحمل هذه الاشياء على الالطاف بعيد لان عند الخصم كل ما في قدرة الله تعالى من الالطاف فقد فعله فلو صرفنا الدعاء اليه لكان ذلك طلبا لتحصيل الحاصل وهو فاسد (المطلب الثالث) أن الحكم المطلوب في الدعاء اما أن يكون هو العلم بالله أو بغيره والثاني باطل لان الانسان حال كونه مستحضرا للعلم بالشيء لا يمكنه أن يكون مستحضرا للعلم بشيء آخر فلو كان المطلوب بهذا الدعاء العلم بغير الله تعالى والعلم بغير الله تعالى شاغل عن الاستغراق في العلم بالله كان هذا السؤال طلبا لما يشغله عن الاستغراق في العلم بالله تعالى وذلك غير جائز لانه لا كمال فوق ذلك الاستغراق فاذن المطلوب بهذا الدعاء هو العلم بالله ثم ان ذلك العلم اما ان يكون هو العلم بالله تعالى الذي هو شرط صحة الايمان أو غيره والاول باطل لانا لما وجب أن يكون حاصلا لكل من المؤمنين وكيف لا يكون حاصلا عند ابراهيم عليه السلام واذا كان حاصلا عنده امتنع طلب تحصيله فثبت أن المطلوب بهذا الدعاء درجات في معرفة الله تعالى أزيد من العلم بوجوده وبانه ليس بمتحيز ولا حال في المتحيز وبانه عالم قادر حي وماذاك الا الوقوف على صفات الجلال أو الوقوف على حقيقة الذات أو ظهور نور تلك المعرفة في القلب ثم هناك أحوال لا يعبر عنها المقال ولا يشرحها الخيال ومن أراد أن يصل اليها فليكن من الواصلين دون السامعين للاثر (المطلوب الثاني) قوله واجعل لي لسان صدق في الآخرين وفيه ثلاث تأويلات (التأويل الاول) انه عليه السلام ابتدأ بطلب ما هو الكمال الذاتي للانسان في الدنيا والآخرة وهو طلب الحكم الذي هو العلم ثم طلب بعده كمالات الدنيا وبعد ذلك طلب كمالات الآخرة فاما كمالات الدنيا فبعضها داخلية وبعضها خارجية اما الداخلية فهي الخلق الظاهر والخلق الباطن

تعالى ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين الآيات وقرئ بكسر النون ووصل الالف من سرى وقرئ أن سر من السير (انكم متبعون) تعليل للامر بالاسراء أي يتبعكم فرعون وجنوده مصبحين وأسر بمن معك حتى لا يدركوكم قبل الوصول الى البحر فيد خلوا ادا خلكم فأطبقه عليهم فأغرقهم (فأرسل فرعون) حين أخبر بمسيرهم (في المدائن حاشرين) جامعين للعساكر ليتبعوهم (ان هؤلاء) يريد بني اسرائيل (لشرذمة قليلون) استقلالهم وهم ستمائة ألف وسبعون ألفا بالنسبة الى جنوده اذ روي انه أرسل في اثرهم ألف ألف وخمسمائة ملك مسور مع كل ملك ألف وخرج فرعون في جمع عظيم وكانت مقدمته سبعمائة ألف رجل على حصان وعلى رأسه بيضة وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما خرج فرعون في ألف

ف حصان سوى ﴿ ٦٧ ﴾ س الاناث (وانهم لنا لغائظون) أي فاعلون ما يغيظنا (وانا لجميع حاذرون) يريد بهم لقلتهم لا يبالي بهم ولا يتوقع غلبتهم وعلوهم ولكنهم يفعلون أفعالا تغيظنا وتضيق صدورنا ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحضور واستعمال الحزم في الامور فاذا خرج علينا خارج سارعنا الى اطفاء نائرة فساده وهذه معاذير اعتذر بها

الى أهل المدائن لئلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطانه وقرئ حذرون فالاول دال على التجدد والثانى على الثبات وقيل الحاذر المؤدى فى السلاح وقرئ حادرون بالدال المهملة أى أقوياء واشداء وقيل مدججون فى السلاح فدكسبهم ذلك حدارة فى أجسامهم (فأخرجناهم) بأن خلقنا فيهم ﴿ ٥٣٠ ﴾ داعية الخروج بهذا السبب فحملهم عليه (من

جنات وعيون وكنوز ومقام كريم) كانت لهم جملة ذلك (كذلك) اما مصدر تشبيهى لاخرجنا أى مثل ذلك الاخراج العجيب أخرجناهم أو صفة لمقام كريم أى من مقام كريم كائن كذلك (وأورثناها بنى اسرائيل) أى ملكناها اياها على طريقة تمليك مال المورث للوارث كأنهم ملكوها من حين خروج أربابها منها قبل أن يقبضوها ويتسلموها (فأتبعوهم) أى فلحقوهم وقرئ فاتبعوهم (مشرقين) داخلين فى وقت شروق الشمس أى طلوعها (فلما تراءى الجمعان) تقاربا بحيث رأى كل واحد منهما الآخر وقرئ تراءت الفئتان (قال أصحاب موسى انا لمدركون) جاؤا بالجملة الاسمية مؤكدة بحرف التأكيد للدلالة على تحقق الادراك واللحاق وتنجز عما وقرئ المدركون بتشديد الدال من ادرك الشئ اذا تتابع ففنى أى المتتابعون فى الهلاك على أيديهم (قال كلا) ارتدعوا عن ذلك فانهم لا يدركونكم (ان معى ربى) بالنصرة ﴿ انه ﴾ والهداية (سيهدين) البتة الى طريق النجاة منهم بالكلية روى أن يوشع عليه السلام قال يا كليم الله أين أمرت فقد غشينا فرعون والبحر أمامنا

والخلق الظاهر أشد جسمانية والخلق الباطن أشد روحانية فترك ابراهيم عليه السلام الامر الجسمانى وهو الخلق الظاهر وطلب الامر الروحانى وهو الخلق الباطن وهو المراد بقوله والحقنى بالصالحين واما الخارجية فهى المال والجاه والمال أشد جسمانية والجاه أشد روحانية فترك ابراهيم عليه السلام الامر الجسمانى وهو المال وطلب الامر الروحانى وهو الجاه والذكر الجميل الباقى على وجه الدهر وهو المراد بقوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين قال ابن عباس رضى الله عنهما وقد اعطاه الله ذلك بقوله وتركنا عليه فى الآخرين فان قيل وأى غرض له فى أن يثنى عليه ويمدح جوابه من جهين (الاول) وهو على لسان الحكمة أن الارواح البشرية قد بينا أنها موثرة فى الجملة الا أن بعضها قد يكون ضعيفا فيعجز عن التاثير فاذا اجتمعت طائفة منها فربما قوى مجموعها على ما عجزت الآحاد عنه وهذا المعنى مشاهد فى المؤثرات الجسمانية اذا ثبت هذا فالانسان الواحد اذا كان بحيث يثنى عليه الجمع العظيم ويمدحونه ويعظمونه فربما صار انصراف هممهم عند الاجتماع اليه سببا لحصول زيادة كمال له (الثانى) وهو على لسان الكمال أن من صار ممدوحا فيما بين الناس بسبب ما عنده من الفضائل فانه يصير ذلك المدح وتلك الشهرة داعيا لغيره الى اكتساب مثل تلك الفضائل (الاويل الثانى) انه سأل ربه أن يجعل من ذريته فى آخر الزمان من يكون داعيا الى الله تعالى وذلك هو محمد صلى الله عليه وسلم فالمراد من قوله واجعل لى لسان صدق فى الآخرين بعثة محمد صلى الله عليه وسلم (التأويل الثالث) قال بعضهم المراد اتفاق أهل الاديان على حبه ثم ان الله تعالى أعطاه ذلك لانك لا ترى أهل دين الا ويتولون ابراهيم عليه السلام ومدح بعضهم فيه بانه لا تقوى الرغبة فى مدح الكافر وجوابه أنه ليس المقصود مدح الكافر من حيث هو كافر بل المقصود أن يكون ممدوح كل انسان ومحبوب كل قلب (المطلوب الثالث) قوله واجعلنى من ورثة جنة النعيم اعلم انه لما طلب سعادة الدين طلب بعدها سعادة الآخرة وهى جنة النعيم وشبهها بالميراث لانها لذى يغتنم فى الدنيا فشبه تغنيمه لآخره بتغنيم الميراث (المطلوب الرابع) قوله واغفر لابى انه كان من الضالين واعلم انه لما فرغ عن طلب السعادات الدنيوية والاخروية لنفسه طلبها لاشد الناس التصاقا به وهو أبوه فقال واغفر لابى ثم فيه وجوه (الاول) أن المغفرة مشروطة بالاسلام وطلب المشروط متضمن لطلب الشرط فقوله واغفر لابى يرجع حاصله الى انه دعا لابيه بالاسلام (الثانى) ان اباه وعده الاسلام كما قال تعالى وما كان استغفار ابراهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه فدعا له لهذا الشرط ولا يمتنع الدعاء للكافر على هذا الشرط فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه وهذا ضعيف لان الدعاء بهذا الشرط جائز للكافر فلو كان دعاؤه مشروطا لما منعه الله عنه (الثالث) أن اباه قال له انه على دينه باطنا وعلى دين نمرود ظاهرا تقية وخوفا فدعا له لاعتقاده ان الامر كذلك فلما تبين له خلاف ذلك تبرأ منه وكذلك قال فى دعائه انه كان من الضالين فلولا اعتقاده فيه

قال عليه السلام ههنا فخاض يوشع عليه السلام الماء وضرب موسى عليه السلام بعصاه البحر فكان ماكان وروى أن رجلا مؤمنا من آل فرعون كان بين يدي موسى عليه السلام فقال أين أمرت فهذا البحر أمامك وقد غشيك آل فرعون قال عليه السلام أمرت بالبحر ولعلي أومر ﴿ ٥٣١ ﴾ بما أصنع وأمر بما أمر به وذلك قوله تعالى (فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر) اللزم او النيل (فانفلق) الفاء فصيحة أي فضرب فانفلق فصار اثني عشر فرقا بعدد الاسباط بينهن مسالك (فكان كل فرق) حاصل بالانفلاق (كالطود العظيم) كالجبل المنيف الثابت في مقره فدخلوا في شعابها كل سبط في شعب منها (وأزلفنا) أي قربنا (ثم الآخرين) أي فرعون وقومه حتى دخلوا على اثرهم مداخلهم (وأنجينا موسى ومن معه أجمعين) بحفظ البحر على تلك الهيئة الى أن عبروا الى البر (ثم أغرقنا الآخرين) باطباقه عليهم (ان في ذلك) أي في جميع ما فصل مما صدر عن موسى عليه السلام وظهر على يديه من المعجزات القاهرة وما فعل فرعون وقومه من الاقوال والافعال وما فعل بهم من العذاب والنكال وما في اسم الاشارة من معنى البعد لتهويل أمر المشار اليه وتفظيعه

انه في الحال ليس بضال لما قال ذلك (المطلوب الخامس) قوله ولا تخزني يوم يبعثون قال صاحب الكشاف الاخزاء من الخزي وهو الهوان أو من الخزاية وهي الحياء وهنا أبحاث (أحدها) ان قوله ولا تخزني يدل على انه لا يجب على الله تعالى شئ على ما بيناه في قوله والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين (وثانيها) ان لقائل أن يقول لما قال أولا واجعلني من ورثة جنة النعيم ومتى حصلت الجنة امتنع حصول الخزي فكيف قال بعده ولا تخزني يوم يبعثون وأيضا قد قال تعالى ان الخزي اليوم والسوء على الكافرين فما كان نصيب الكفار فقط فكيف يخافه المعصوم جوابه كما ان حسنات الابرار سيئات المقربين فكذا درجات الابرار دركات المقربين وخزي كل واحد بما يليق به (وثالثها) قال صاحب الكشاف في يبعثون ضميرا لعباد لانه معلوم أو ضمير الضالين اما قوله الا من اتى الله بقلب سليم فاعلم انه تعالى اكرمه بهذا الوصف حيث قال وان من شيعته لابراهيم اذ جاء ربه بقلب سليم * ثم في هذا الاستثناء وجوه (أحدها) انه اذا قيل لك هل لزيد مال وبنون فتقول ماله وبنوه سلامة قلبه تريد نفي المال والبنين عنه واثبات سلامة القلب له بدلا عن ذلك فكذا في هذه الآية (وثانيها) أن نحمل الكلام على المعنى ونجعل المال والبنين في معنى الغنى كأنه قيل يوم لا ينفع غنى الا غنى من أتى الله بقلب سليم لان غنى الرجل في دينه بسلامة قلبه كما ان غناه في دنياه بماله وبنيه (وثالثها) ان نجعل من مفعولا لينفع أي لا ينفع مال ولا بنون الا رجلا سلم قلبه مع ماله حيث انفقه في طاعة الله تعالى ومع بنيه حيث أرشدهم الى الدين ويجوز على هذا الامن اتى الله بقلب سليم من فتنة المال والبنين أما السليم ففيه ثلاثة أوجه (الاول) وهو الاصح أن المراد منه سلامة القلب عن الجهل والاخلاق الرذيلة وذلك لانه كما أن صحة البدن وسلامته عبارة عن حصول ما ينبغي من المزاج والتركيب والاتصال ومرضه عبارة عن زوال احد تلك الامور فكذلك سلامة القلب عبارة عن حصول ما ينبغي له وهو العلم والخلق الفاضل ومرضه عبارة عن زوال أحدهما فقوله الا من اتى الله بقلب سليم أي يكون خاليا عن العقائد الفاسدة والميل الى شهوات الدنيا ولذاتها قال قيل فظاهر هذه الآية يقتضي أن من سلم قلبه كان ناجيا وانه لا حاجة فيه الى سلامة اللسان واليد جوابه أن القلب مؤثر واللسان والجوارح تبع فلو كان القلب سليما لكانا سليمين لامحالة وحيث لم يسلما ثبت عدم سلامة القلب (الثاني) ان السليم هو الذي سلم من خشية الله تعالى (الثالث) ان السليم هو الذي سلم واسلم وسالم واستسلم والله أعلم * قوله تعالى (وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين وقيل لهم أينما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود ابليس أجمعون قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفي ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا الا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم

لتكثير الآية في قوله تعالى (لآية) أي أية آية أو آية عظيمة لا تكاد توصف موجبة لأن يعتبر بها المعتبرون ويقيسوا شأن النبي عليه الصلاة والسلام بشأن موسى عليه السلام وحال أنفسهم بحال أولئك المهلكين ويجتنبوا من تعاطي ما كانوا يتعاطونه من الكفر والمعاصي ومخالفة الرسول ويؤمنوا بالله تعالى ويطيعوا

رسوله كيلا يحل بهم مثل ما حل بأولئك أو ان فيما فصل من القصة من حيث حكايته عليه الصلاة والسلام اياها على ما هي عليه من غير أن يسمعها من أحد لآية عظيمة دالة على أن ذلك بطريق الوحي الصادق موجبة للايمان بالله تعالى وحده وطاعة رسوله عليه السلام (وما كان أكثرهم) أي اكثر هؤلاء ﴿ ٥٣٢ ﴾ الذين سمعوا قصتهم منه عليه الصلاة والسلام (مؤمنين) لانأبى يقيسوا شانه بشأن موسى عليهما السلام وحال انفسهم بحال أولئك المكذبين المهلكين ولا بأن يتدبروا في حكايته عليه الصلاة والسلام لقصتهم من غير أن يسمعها من أحد مع كون كل من الطريقين مما يؤدي الى الايمان قطعا ومعنى ما كان اكثرهم مؤمنين وما أكثرهم مؤمنين على أن كان زائدة كما هو رأي سيبويه فيكون كقوله تعالى وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين وهو اخبار منه تعالى بما سيكون من المشركين بعد ما سمعوا الآيات الناطقة بالقصة تقرير الما مر من قوله تعالى وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا الخ وايثار الجملة الاسمية للدلالة على استقرارهم على عدم الايمان واستمرارهم عليه ويجوز أن يجعل كان بمعنى صار كما فعل ذلك في قوله تعالى وكان من الكافرين فالمعنى وما صار أكثرهم مؤمنين مع ما سمعوا من الآية العظيمة الموجبة له بما ذكر من الطريقين فيكون الاخبار ﴿ من ﴾ بعدم الصيرورة قبل الحدوث للدلالة على كمال تحققه وتقرره كقوله تعالى أتى أمر الله الآية (وان ربك لهو العزيز) الغالب على كل ما يريده

اعلم أن ابراهيم عليه السلام ذكر في وصف هذا اليوم أمورا (أحدها) قوله وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين والمعنى أن الجنة قد تكون قريبة من موقف السعداء ينظرون اليها ويفرحون بانهم المحشورون اليها والنار تكون بارزة مكشوفة للاشقياء بمرأى منهم يتحسرون على انهم المسوقون اليها قال الله تعالى في صفة أهل الثواب وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد وقال في صفة أهل العقاب فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وانما يفعل الله تعالى ذلك ليكون سرورا معجلا للمؤمنين وغما عظيما للكافرين (وثانيها) قوله وقيل لهم أينما كنتم الى قوله وجنود بليس أجمعون والمعنى أين آلهتكم هل ينفعونكم بنصرتهم لكم أو هل ينفعون أنفسهم بانتصارهم لانهم وآلهتهم وقود النار وهو قوله فكبكبوا فيها هم والغاوون أي الآلهة وعبدتهم الذين برزت لهم الجحيم والتكبكب تكرير الكب جعل التكرير في اللفظ دليلا على التكرير في المعنى كأنه اذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها وجنود ابليس متبعوه من عصاة الانس والجن (وثالثها) قوله قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفي ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين * واعلم ان ظاهر ذلك ان من عبد ما عصم المعبود وخاطبه بهذا الكلام فليس يخلو حال الاصنام من وجهين اما ان يخلقها الله تعالى في الآخرة جمادا يعذب بها اهل النار فحينئذ لا يصح ان تخاطب ويجب حمل قولهم اذ نسويكم برب العالمين على انه ليس بخطاب لهم او يقال انه تعالى يحييها في النار وذلك ايضا غير جائز لانه لا فائدة لها بأن يعذبها غيرها فالاقرب انهم ذكروا ذلك للمرأوا سورها على وجه الاعتراف بالخطأ العظيم وعلى وجه الندامة لا على سبيل المخاطبة والذي يحمل على أنه خطاب في الحقيقة قولهم وما أضلنا الا المجرمون وأرادوا بذلك من دعاهم الى عبادة الاصنام من الجن والانس وهو كقولهم ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا فاما قولهم فالنا من شافعين كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين ولا صديق كما نرى لهم أصدقاء لانه لا يتصادق في الآخرة الا المؤمنون واما اهل النار فبينهم التعادي والتباغض قال تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين أو فالنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء واصدقاء لانهم كانوا يعتقدون في اصنامهم انهم شفعاؤهم عند الله تعالى وكان لهم اصدقاء من شياطين الانس اوارادوا انهم ان وقعوا في مهلكة علموا أن الشفعاء والاصدقاء لا ينفعونهم ولا يدفعون عنهم فقصدوا بنفيهم نفي ما تعلق بهم من النفع لان مالا ينفع فحكمه حكم المعدوم والحميم من الاحتمام وهو الاهتمام وهو الذي يهمه ما يهمك او من الحامة بمعنى الخاصة وهو الصديق الخالص وانما جمع الشفعاء ووحد الصديق لكثرة الشفعاء في العادة وقلة الصديق فان الرجل المتحن بارهاق ظالم قد ينهض جماعة وافرة من أهل بلده لشفاعته رحمة له وأما الصديق وهو الصادق في وداده فاعز من بيض الانوق ويجوز أن يريد بالصديق الجمع ثم حكى تعالى عنهم قولهم فلو أن لنا كرة فنكون

من الامور التى من جملتها الانتقام من المكذبين (الرحيم) المبالغ فى الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يعجل عقوبتهم بعدم ايمانهم بعد مشاهدة هذه الآية العظيمة بطريق الوحى مع كمال استحقاقهم لذلك هذا هو الذى يقتضيه جزالة النظم الكريم من مطلع السورة الكريمة ﴿ ٥٣٣ ﴾ الى آخر القصص السبع بل الى آخر السورة الكريمة اقتضاء بينا لا ريب فيه واما ما قيل من أن ضمير أكثرهم لاهل عصر فرعون من القبط وغيرهم وأن المعنى وما كان أكثر أهل مصر مؤمنين حيث لم يؤمن منهم الا آسية وحزقيل ومريم ابنة ياموشا التى دلت على تابوت يوسف عليه السلام وبنوا اسرائيل بعد ما نجوا سألوا بقرة يعبدونها واتخذوا العجل وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فبمعزل من التحقيق كيف لا ومساق كل قصة من القصص الواردة فى السورة الكريمة سوى قصة ابراهيم عليه السلام انما هو لبيان حال طائفة معينة قد عتوا عن أمر ربهم وعصوا رسله عليهم الصلاة والسلام كما يفصح عنه تصدير القصص بتكذيبهم المرسلين بعد ما شاهدوا بايديهم من الآيات العظام ما يوجب عليهم الايمان ويزجرهم عن الكفر والعصيان وأصروا على ما هم عليه من التكذيب فعاقبهم الله تعالى لذلك بالعقوبة الدنيوية وقطع دابرهم بالكلية فكيف يمكن أن يخبر عنهم بعدم ايمان أكثرهم لا سيما بعد الاخبار باهلاكهم وعد المؤمنين من جملتهم أولا واخراجهم منها آخرا مع عدم مشاركتهم لهم فى شئ مما حكى عنهم من الجنايات أصلا مما يوجب تنزيه التنزيل عن أمثاله فتدبر (وانل عليهم) عطف على المضمر المقدر

من المؤمنين وانهم تمنوا الرجعة الى الدنيا ولو فى مثل هذا الموضع فى معنى التمنى كانه قيل فليت لنا كرة وذلك لما بين معنى لو وليت من التلاقى فى التقدير و يجوز أن تكون على أصلها و يحذف الجواب وهو لفعلنا كيت وكيت (قال) الجبائى ان قولهم فنكون من المؤمنين ليس بخبر عن ايمانهم لكنه خبر عن عزمهم لانه لو كان خبرا عن ايمانهم لوجب أن يكون صدقا لان الكذب لا يقع من أهل الآخرة وقد أخبر الله تعالى بخلاف ذلك فى قوله ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وقد تقدم فى سورة الانعام بيان فساد هذا الكلام ثم بين سبحانه أن فيما ذكره من قصة ابراهيم عليه السلام لآية لمن يريد أن يستدل بذلك ثم قال وما كان أكثرهم مؤمنين والاكثرون من المفسرين حملوه على قوم ابراهيم ثم بين تعالى أن مع كل هذه الدلائل فاكثر قومه لم يؤمنوا به فيكون هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم فيما يجده من تكذيب قومه فاما قوله وان ربك لهو العزيز الرحيم فمعناه أنه قادر على تعجيل الانتقام لكنه رحيم بالامهال لكى يؤمنوا ﴿ (القصة الثالثة) قصة نوح عليه السلام قوله تعالى (كذبت قوم نوح المرسلين اذ قال لهم اخوهم نوح الا تتقون انى لكم رسول امين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين فاتقوا الله وأطيعون قالوا أنؤمن لك واتبعك الارذلون قال وما علمى بما كانوا يعملون ان حسابهم الا على ربى لو تشعرون وما أنا بطارد المؤمنين ان أنا الا نذير مبين قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين قال رب ان قومى كذبون فافتح بينى و بينهم فتحا ونجنى ومن معى من المؤمنين فانجيناه ومن معه فى الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) اعلم انه تعالى لما قص على محمد صلى الله عليه وسلم خبر موسى وابراهيم تسلية له فيما يلقاه من قومه قص عليه أيضا نبأ نوح عليه السلام فقد كان نبؤه أعظم من نبأ غيره لانه كان يدعوهم ألف سنة الا خمسين عاما ومع ذلك كذبه قومه فقال كذبت قوم نوح وانما قال كذبت لان القوم مؤنث وتصغيرها قويمة انما حكى عنهم أنهم كذبوا المرسلين لوجهين (أحدهما) انهم وان كذبوا نوحا لكن تكذيبه فى المعنى يتضمن تكذيب غيره لان طريقة معرفة الرسل لا تختلف فمن حيث المعنى حكى عنهم انهم كذبوا المرسلين (وثانيهما) أن قوم نوح كذبوا بجميع رسل الله تعالى اما لانهم كانوا من الزنادقة أو من البراهمة وأما قوله أخوهم فلانه كان منهم من قول العرب يا أخا بنى تميم يريدون يا واحدا منهم ثم انه سبحانه حكى عن نوح عليه السلام انه أولا خوفهم وثانيا أنه وصف نفسه اما التخويف فهو قوله ألا تتقون واعلم أن القوم انما قبلوا تلك الاديان للتقليد والمقلد اذا خوف خاف ومالم يحصل الخوف فى قلبه لا يشتغل بالاستدلال فلهذا السبب قدم على جميع كلماته قوله ألا تتقون ﴿ وأما وصف نفسه فذاك بأمرين (أحدهما) قوله انى لكم رسول امين وذلك لانه كان فيهم مشهورا بالامانة كمحمد صلى الله عليه وسلم فى قريش فكانه قال كنت امينا من قبل فكيف تتهمونى اليوم

عاملا لاذنادى الخ أى واتل على المشركين (نبأ ابراهيم) أى خبره العظيم الشان حسبما اوحى اليك لتقف على ماذكر من عدم ايمانهم بماياتيهم من الآيات باحد الطريقين (اذقال) منصوب اماعلى الظرفية للنبأ اى نبأه وقت قوله (لأبيه وقومه) أوعلى المفعولية لاتل ﴿ ٥٣٤ ﴾ على أنه بدل من نبأ أى واتل عليهم وقت قوله لهم (ماتعبدون) على أن المتلو ماقاله لهم فى ذلك الوقت سألهم عليه الصلاة والسلام عن ذلك ليبنى على جوابهم أن مايعبدونه بمعزل من استحقاق العبادة بالكلية (قالوا نعبد اصناما فنظل لها عاكفين) لم يقتصروا على الجواب الكافى بان يقولوا أصناما كما فى قوله تعالى ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو وقوله تعالى ماذا أنزل ربكم قالوا الحق ونظائر هما بل اطنبوا فيه باظهار الفعل وعطف دوام عكوفهم على أصنامهم قصدا الى ابراز مافى نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بذلك والمراد بالظلول الدوام وقيل كانوا يعبدونها بالنهار دون الليل وصلة العكوف كلمة على وايراد اللام لافادة معنى زائد كانهم قالوا فنظل لاجلها مقبلين على عبادتها اومستديرين حولها وهذا ايضا من جملة اطنابهم (قال) استيناف مبنى على سؤال نشأ من تفصيل جوابهم (هل يسمعونكم) أى هل يسمعون دعاءكم على حذف المضاف ﴿ يقال ﴾ أويسمعونكم حين تدعون كقولك سمعت زيدا يقول كيت وكيت فحذف لدلالة قوله تعالى (اذتدعون) عليه وقرئ هل يسمعونكم من الاسماع اى هل يسمعونكم شيأ من الاشياء أو الجواب عن دعاءكم وهل يقدرون على ذلك

(وثانيهما) قوله وما أسألكم عليه من أجر أى على ماانا فيه من ادعاء الرسالة لئلا يظن به أنه دعاهم للرغبة (فان قيل) ولماذا كرر الامر بالتقوى جوابه لانه فى الاول اراد ألا تتقون مخالفتى وانا رسول الله وفى الثانى ألا تتقون مخالفتى ولست آخذا منكم أجرا فهو فى المعنى مختلف ولا تكرار فيه وقد يقول الرجل لغيره الا تتقى الله فى عقوقى وقد ربيتك صغيرا ألا تتقى الله فى عقوقى وقد علمتك كبيرا وانما قدم الامر بتقوى الله تعالى على الامر باطاعته لان تقوى الله علة لطاعته فقدم العلة على المعلول ثم ان نوحا عليه السلام لما قال لهم ذلك أجابوه بقولهم انؤمن لك واتبعك الارذلون (قال صاحب الكشاف) وقرئ وأتباعك الارذلون جمع تابع كشاهد واشهاد او جمع تبع كبطل وابطال والواو للحال وحقها ان يضمر بعدها قد فى واتبعك وقد جمع ارذال على الصحة وعلى التكسير فى قولهم الذين هم اراذلنا والرذالة الخسة وانما استرذلوهم لاتضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا وقيل كانوا من أهل الصناعات الخسيسة كالحياكة والحجامة واعلم ان هذه الشبهة فى نهاية الركاكة لان نوحا عليه السلام بعث الى الخلق كافة فلا يختلف الحال فى ذلك بسبب الفقر والغنى وشرف المكاسب ودناءتها فاجابهم نوح عليه السلام بالجواب الحق وهو قوله وماعلمى بما كانوا يعملون وهذا الكلام يدل على انهم نسبوه مع ذلك الى انهم لم يؤمنوا عن نظر و بصيرة وانما آمنوا بالهوى والطمع كما حكى الله تعالى عنهم فى قوله الذين هم اراذلنا بادى الرأى ثم قال ان حسابهم الا على ربى معناه لا تعتبر الا الظاهر من امرهم دون ما يخفى ولما قال ان حسابهم الا على ربى وكانوا لا يصدقون بذلك اردفه بقوله لو تشعرون ثم قال وما انا بطارد المؤمنين وذلك كالدلالة على ان القوم سألوه ابعادهم لكى يتبعوه أوليكونوا أقرب الى ذلك فبين أن الذى يمنعه عن طردهم أنهم آمنوا به ثم بين أن غرضه بما حمل من الرسالة يمنع من ذلك بقوله ان أنا الا نذير مبين والمراد انى أخوف من كذبنى ولم يقبل منى فمن قبل فهو القريب ومن رد فهو البعيد ثم ان نوحا عليه السلام لما تم هذا الجواب لم يكن منهم الا التهديد فقالوا لئن لم تنته يانوح لتكونن من المرجومين والمعنى انهم خوفوه بان يقتل بالحجارة فعند ذلك حصل اليأس لنوح عليه السلام من فلاحهم وقال رب ان قومى كذبونى فافتح بينى و بينهم فتحا وليس الغرض منه اخبار الله تعالى بالتكذيب لعلمه أن علام الغيب والشهادة اعلم ولكنه أراد انى لا أدعوك عليهم لما آذونى وانما أدعوك لاجلك ولاجل دينك ولانهم كذبونى فى وحيك ورسالتك فافتح بينى و بينهم أى فاحكم بينى و بينهم والفتاحة الحكومة والفتاح الحاكم لانه يفتح المستغلق والمراد من هذا الحكم انزال العقوبة عليهم لانه قال عقبه ونجنى ولولا أن المراد انزال العقوبة لما كان لذكر النجاة بعده معنى وقد تقدم القول فى قصته مشروحا فى سورة الاعراف وسورة هود * ثم قال تعالى فانجيناه ومن معه فى الفلك المشحون (قال صاحب الكشاف) الفلك السفينة وجمعه وتذكيره قال تعالى وترى الفلك فيه مواخر فالواحد يوزن قفل والجمع يوزن أسد و المشحون المملوء

وصيغة المضارع مع اذ هنا على حكاية الحال الماضية لاستحضار صورتها كأنه قيل لهم استحضروا الاحوال الماضية التي كنتم تدعونها فيها واجيبوا هل سمعوا اواسمعوا قط (او ينفعونكم) بسبب عبادتكم لها (أو يضرون) أي يضرونكم بتركها لعبادتها اذ بد للعبادة ✻ ٥٣٥ ✻ لاسيما عند كونها على ما وصفتم من المبالغة فيها

يقال شحنها عليهم خيلا ورجلا فدل ذلك على أن الذين نجوا معه كان فيهم كثرة وأن الفلك امتلأ بهم وبما صحبهم وبين تعالى انه بعد أن انجاهم اغرق الباقين وأن اغراقه لهم كان كالمتأخر عن نجاتهم *(القصة الرابعة) قصة هود عليه السلام قوله تعالى (كذبت عاد المرسلين اذ قال لهم اخوهم هود ألا تتقون اني لكم رسول امين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجري الا على رب العالمين أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذي امدكم بما تعلمون أمدكم بانعام وبنين وجنات وعيون اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ان هذا الا خلق الاولين وما نحن بمعذبين فكذبوه فاهلكناهم ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) اعلم أن فاتحة هذه القصة وفاتحة قصة نوح عليه السلام واحدة فلا فائدة في اعادة التفسير ثم انه تعالى ذكر الامور التي تكلم فيها هود عليه السلام معهم وهي ثلاثة (فاولها) قوله أتبنون بكل ريع آية تعبثون قرئ بكل ريع بالكسر والفتح وهو المكان المرتفع ومنه قوله كم ريع أرضك وهو ارتفاعها والآية العلم ثم فيه وجوه أحدها عن ابن عباس أنهم كانوا يبنون بكل ريع علما يعبثون فيه بمن يمر في الطريق الى هود عليه السلام والثاني أنهم كانوا يبنون في الاماكن المرتفعة ليعرف بذلك غناهم تفاخرا فنهوا عنه ونسبوا الى العبث والثالث انهم كانوا ممن يهتدون بالنجوم في أسفارهم فاتخذوا في طريقهم اعلاما طوالا فكان ذلك عبثا لانهم كانوا مستغنين عنها بالنجوم الرابع بنوا بكل ريع بروج الحمام (وثانيها) قوله وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون المصانع مأخذ الماء وقيل القصور المشيدة والحصون لعلكم تخلدون ترجون الخلد في الدنيا أو يشبه حالكم حال من يخلد وفي مصحف أبي كأنكم وقرئ تخلدون بضم التاء تخففا ومشددا واعلم أن الاول انما صار مذموما لدلالته اما على السرف أو على الخيلاء والثاني انما صار مذموما لدلالته على الامل الطويل والغفلة عن أن الدنيا دار ممر لا دار مقر (وثالثها) قوله واذا بطشتم بطشتم جبارين بين انهم مع ذلك السرف والحرص فان معاملتهم مع غيرهم معاملة الجبارين وقد بينا في غير هذا الموضع ان هذا الوصف في العباد ذم وان كان في وصف الله تعالى مدحا فكل من يقدم على الغير لا على طريق الحق ولكن على طريق الاستعلاء يوصف بان بطشه بطش جبار وحاصل الامر في هذه الامور الثلاثة ان اتخاذ الابنية العالية يدل على حب العلو واتخاذ المصانع يدل على حب البقاء والجبارية تدل على حب التفرد بالعلو فيرجع الحاصل الى انهم أحبوا العلو وبقاء العلو والتفرد بالعلو وهذه صفات الالهية وهي ممتنعة الحصول للعبد فدل ذلك على أن حب الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه وخرجوا عن حد العبودية وحاموا حول ادعاء الربوبية وكل ذلك ينبه على أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وعنوان

من جلب نفع او دفع ضر (قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون) اعترفوا بانها بمعزل مما ذكر من السمع والمنفعة والمضرة بالمرة واضطروا الى اظهار أن لا سند لهم سوى التقليد اي ما علمنا او ما رأينا منهم ما ذكر من الامور بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون اي مثل عبادتنا يعبدون فاقتدينا بهم (قال افرأيتم ما كنتم تعبدون) اي أنظرتم فابصرتم أو أتأملتم فعلمتم ما كنتم تعبدونه (انتم وآباؤكم الاقدمون) حق الابصار او حق العلم وقوله (فانهم عدو لي) بيان لحال ما يعبدونه بعد التنبيه على عدم علمهم بذلك اي فاعلموا انهم اعداء لعابديهم الذين يحبونهم كحب الله تعالى لما انهم يتضررون من جهتهم فوق ما يتضرر الرجل من جهة عدوه اولان من يغريهم على عبادته ويحملهم عليها هو الشيطان الذي هو اعدى عدو الانسان

لكنه عليه الصلاة والسلام صور الامر في نفسه تعريضا بهم فانه انتفع في النصيحة من التصريح واشعارا بانها نصيحة بدأ بها نفسه ليكون ادعى الى القبول والعدو والصديق يجيئان في معنى الواحد والجمع ومنه قوله تعالى وهم لكم عدو شبها بالمصادر للموازنة كالقبول والولوع والحنين والصهيل

(الارب العالمين) استثناء منقطع اى لكن رب العالمين ليس كذلك بل هو ولى فى الدنيا والآخرة لايزال يتفضل على بمنافعهما حسبما يعرب عنه ماوصفه تعالى به من احكام الولاية وقيل متصل وهو قول الزجاج على ان الضمير لكل معبود وكان من آبائهم من عبد الله تعالى وقوله تعالى (الذى خلقنى) ﴿ ٥٣٦ ﴾ صفة لرب العالمين وجعله مبتدأ ومابعده

كل كفر ومعصية ثم لما ذكر هود عليه السلام هذه الاشياء قال فاتقوا الله وأطيعون زيادة فى دعائهم الى الآخرة وزجرا لهم عن حب الدنيا والاشتغال بالسرف والحرص والتجبر ثم وصل بهذا الوعظ مايؤكد القبول وهو التنبيه على نعم الله تعالى عليهم بالاجمال أولا ثم التفصيل ثانيا فايقظهم عن سنة غفلتهم عنها حيث قال امدكم بما تعلمون ثم فصلها من بعد بقوله أمدكم بانعام وبنين وجنات وعيون انى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم فبلغ فى دعائهم بالوعظ والترغيب والتخويف والبيان النهاية فكان جوابهم سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين اظهروا قلة اكتراثهم بكلامه واستخفافهم بما أورده فان قيل لو قال أوعظت أم لم تعظ كان أخصر والمعنى واحد جوابه ليس المعنى بواحد لان المراد سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذى هو الوعظ أم لم تكن أصلا من أهله ومباشرته فهو أبلغ فى قلة اعتدادهم بوعظه من قولك أم لم تعظ ثم احتجوا على قلة اكتراثهم بكلامه بقولهم ان هذا الاخلق الاولين فى رأخلق الاولين بالفتح فمعناه ان ماجئت به اختلاق الاولين وتخرصهم كما قالوا أساطير الاولين اما خلقنا هذا الاخلق القرون الخالية حى كحيا تهم ونموت كمماتهم ولا بعث ولا حساب ومن قرأ خلق بضمتين وبواحدة فمعناه ماهذا الذى نحن عليه من الدين الا خلق الاولين وعاداتهم كانوا به يدينون ونحن بهم مقتدون او ماهذا الذى نحن عليه من الحياة والموت الا عادة من يزل عليها الناس فى قديم الدهر أوماهذا الذى جئت به من الكتب الا عادة الاولين كانوا يلفقون مثله ويسطرونه ثم قالوا وما نحن بمعذبين أظهروا بذلك تقوية نفوسهم فيما تمسكوا به من انكار المعاد فعند هذا بين الله تعالى انه اهلكهم وقد سبق شرح كيفية اهلاكهم فى سائر السور والله أعلم ﴿ (القصة الخامسة) وقصة صالح عليه السلام قوله تعالى (كذبت ثمود المرسلين اذقال لهم أخوهم صالح الا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله واطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين اتتركون فيما ههنا آمنين فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين فاتقوا الله واطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين الذين يفسدون فى الارض ولا يصلحون قالوا انما أنت من المسحرين ما أنت الا بشر مثلنا فأت بآية ان كنت من الصادقين قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم فعقروها فاصبحوا نادمين فأخذهم العذاب ان فى ذلك لآية وماكان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) اعلم أن صالحا عليه السلام خاطب قومه بامور (أحدها) قوله أتتركون فيما ههنا آمنين اى اتظنون انكم تتركون فى دياركم آمنين وتطمعون فى ذلك وان لا دار للمجازاة وقوله فيما ههنا آمنين فى الذى استقر فى هذا المكان من النعيم ثم فسره بقوله فى جنات وعيون وهذا أيضا اجمال ثم تفصيل فان قيل لم قال ونخل بعد قوله فى جنات والجنة تتناول النخل جوابه من وجهين (الاول) انه خص النخل بافراده بعد دخوله فى جملة سائر الشجر تنبيها على فضله

خبرا غير حقيق بجرالة التنزيل وانما وصفه تعالى بذلك وبما عطفه عليه مع اندراج الكل تحت ربوبيته تعالى للعالمين تصريحا بالنعم الخاصة به عليه الصلاة والسلام وتفصيلا لها لكونها ادخل فى اقتضاء تخصيص العبادة به تعالى وقصر الاتجاه فى جلب المنافع الدينية والدنيوية ودفع الضار العاجلة والآجلة عليه تعالى (فهو يهدين) أى هو يهدينى وحده الى كل مايرضى ويصلحنى من امور الدين والدنيا هداية متصلة حين الخلق ونفخ الروح فيجددها على الاستمرار كما ينبئ عنه الفاء وصيغة المضارع فانه تعالى يهدى كل ما خلقه لما خلق له من امور المعاش والمعاد هداية متدرجة من مبدأ ايجاده الى منتهى اجله يتمكن بها من جلب منافعه ودفع مضاره اما طبعا واما اختيارا مبدؤها بالنسبة الى الانسان هداية الجنين لامتصاص دم الطمث ومنتهاها الهداية الى طريق الجنة والتنعم بنعيمها المقيم (والذى هو يطعمنى ويسقين) ﴿ على عطف على الصفة الاولى وتكرير الموصول فى المواقع الثلاثة مع كفاية عطف

على سائر الاشجار (الثانى) أن يراد بالجنات غيرها من الشجر لان اللفظ يصلح لذلك ثم يعطف عليها النخل والطلع هو الذى يطلع من النخلة كنصل السيف فى جوفه شماريخ والهضيم اللطيف أيضا من قولهم كشح هضيم وقيل الهضيم اللين النضيج كأنه قال ونخل قد أرطب ثمره (وثانيها) قوله تعالى وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين قرأ الحسن وتنحتون بفتح الحاء وقرئ فرهين وفارهين والفراهة الكيس والنشاط فقوله فارهين حال عن الناحتين (واعلم) أن ظاهر هذه الآيات يدل أن الغالب على قوم هود هو اللذات الحالية وهى طلب الاستعلاء والبقاء والتفرد والتجبر والغالب على قوم صالح هو اللذات الحسية وهى طلب المأكول والمشروب والمساكن الطيبة الحصينة (وثالثها) قوله تعالى ولا تطيعوا أمر المسرفين وهذا اشارة الى انه يجب الاكتفاء من الدنيا بقدر الكفاف ولا يجوز التوسع فى طلبها والاستكثار من لذاتها وشهواتها فان قيل ما فائدة قوله ولا يصلحون جوابه فائدته بيان أن فسادهم فساد خالص ليس معه شئ من الصلاح كما يكون حال بعض المفسدين مخلوطة بعض الصلاح ثم ان القوم أجابوه من وجهين (أحدهما) قولهم انما أنت من المسحرين وفيه وجوه احدها المسحر هو الذى سحر كثيرا حتى غلب على عقله وثانيها من المسحرين أى من له سحر وكل دابة تأكل فهى مسحرة والسحر أعلى البطن وعن الفراء المسحر من له جوف أراد أنك تأكل الطعام وتشرب الشراب وثالثها عن المؤرج المسحر هو المخلوق بلغة بجيلة (وثانيهما) قولهم ما انت الا بشر مثلنا فأت بآية ان كنت من الصادقين وهذا يحتمل امرين الاول انك بشر مثلنا فكيف تكون نبيا وهذا بمنزلة ما كانوا يذكرون فى الانبياء انهم لو كانوا صادقين لكانوا من جنس الملائكة الثانى أن يكون مرادهم انك بشر مثلنا فلا يدلنا فى اثبات نبوتك من الدليل فقال صالح عليه السلام هذه ناقة لها شرب وقرئ بالضم روى أنهم قالوا نريد ناقة عشراء نخرج من هذه الصخرة فتلد سقبا فقعد صالح يتفكر فقال له جبريل عليه السلام صل ركعتين وسل ربك الناقة ففعل فخرجت الناقة وبركت بين أيديهم وحصل لها سقب مثلها فى العظم ووصاهم صالح عليه السلام بامرين الاول قوله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم قال قتادة اذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله وشربهم فى اليوم الذى لا تشرب هى والثانى قوله ولا تمسوها بسوء أى بضرب أو عقر او غيرهما فيأخذكم عذاب يوم عظيم عظم اليوم لحلول العذاب فيه او وصف اليوم به أبلغ من وصف العذاب لان الوقت اذا عظم بسببه كان موقعه من العظم أشد ثم ان الله تعالى حكى عنهم انهم عقروها روى أن مصدعا أجأها الى مضيق فرماها بسهم فسقطت ثم ضربها قدار فان قيل لم أخذهم العذاب وقد ندموا جوابه من وجهين الاول انه لم يكن ندمهم ندم التائبين لكن ندم الخائفين من العذاب العاجل الثانى أن الندم وان كان ندم التائبين ولكن كان ذلك فى غير وقت التوبة بل عند معاينة العذاب وقال تعالى وليست التوبة للذين يعملون السيئات الآية واللام فى

فهو يشفين) عطف على يطعمنى ويسقين نظم معهما فى سلك الصلة لموصول واحد لما أن الصحة والمرض من متفرعات الاكل والشرب غالبا ونسبة المرض الى نفسه والشفاء الى الله تعالى مع أنهما منه تعالى لمراعات حسن الادب كما قال الخضر عليه السلام فاردت أن أعيبها وقال فاراد ربك أن يبلغا أشدهما وأما الاماتة فحيث كانت من معظم خصائصه تعالى كالاحياء بدأ واعادة وقد نيطت أمور الآخرة جميعا بها وبما بعدها من البعث نظمهما فى سمط واحد فى قوله تعالى (والذى يميتنى ثم يحيين) على أن الموت لكونه ذريعة الى نيله عليه الصلاة والسلام للحياة الابدية بمعزل من أن يكون غير مطموع عنده عليه الصلاة والسلام (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) ذكره عليه الصلاة والسلام هضما لنفسه

بانهم عليه الصلاة والسلام من الصغائر وتنبيها لابيه وقومه على أن يتأملوا فى أمرهم فيقفوا على أنهم من سوء تعالى وسوء رتبة لا تقادر قدرها فان حاله عليه الصلاة والسلام مع فى كونه طاعة

العذاب اشارة الى عذاب يوم عظيم ❊ (القصة السادسة) قصة لوط عليه السلام ❊ قوله تعالى (كذبت قوم لوط المرسلين اذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما اسئلكم عليه من اجر ان أجرى الا على رب العالمين أتاتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين قال انى لعملكم من القالين رب نجنى وأهلى مما يعملون فنجيناه وأهله أجمعين الا عجوزا فى الغابرين ثم دمرنا الآخرين وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) أما قوله تعالى أتاتون الذكران من العالمين فيحتمل عوده الى الآتى أى أنتم من جملة العالمين صرتم مخصوصين بهذه الصفة وهى اتيان الذكران ويحتمل عوده الى المأتى أى أنتم اخترتم الذكران من العالمين لا الاناث منهم وأما قوله تعالى من أزواجكم فيصلح أن يكون تبيينا للمخلوق وان يكون للتبعيض ويراد بما خلق العضو المباح منهن وكأنهم كانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم والعادى هو المتعدى فى ظلمه ومعناه أتريكبون هذه المعصية على عظمها بل أنتم قوم عادون فى جميع المعاصى فهذا من جملة ذاك أو بل أنتم قوم أخفاء بان توصفوا بالعدوان حيث ارتكبتم مثل هذه الفاحشة فقالوا له عليه السلام لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين أى لتكونن من جملة من أخرجناه من بلدنا ولعلهم كانوا يخرجون من أخرجوه على اسوء الاحوال فقال لهم لوط عليه السلام انى لعملكم من القالين أقلى البغض الشديد كأنه بغض يقلى الفؤاد والكبد وقوله من القالين أبلغ من أن يقول انى لعملكم قال كما يقال فلان من العلماء فهو أبلغ من قولك فلان عالم ويجوز أن يراد من الكاملين فى قلاكم ثم قال تعالى فنجيناه وأهله والمراد فنجيناه واهله من عقوبة عملهم الا عجوزا فى الغابرين فان قيل فى الغابرين صفة لها كأنه قيل الا عجوزا غابرة ولم يكن الغبور صفتها وقت تنجيتهم جوابه معناه الا عجوزا مقدرا غبورها فيل انها هلكت مع من خرج من القرية بما أمطر عليهم من الحجارة قال القاضى عبد الجبار فى تفسيره فى قوله تعالى وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم دلالة على بطلان الجبر من جهات (أحدها) انه لا يقال تذرون الا مع القدرة على خلافه ولذلك لا يقال للمرعوم تذر الصعود الى السماء كما يقال له لم تذر الدخول والخروج (وثانيها) انه قال ما خلق لكم ولو كان خلق الفعل لله تعالى لكان الذى خلق لهم ما خلقه فيهم واوجبه لا ما لم يفعلوه (وثالثها) قوله تعالى بل أنتم قوم عادون فان كان تعالى خلق فيهم ما كانوا يعملون فكيف ينسبون الى أنهم تعدوا وهل يقال للاسود انك متعد فى لونك فنقول حاصل هذه الوجوه يرجع الى أن العبد لو لم يكن موجدا لافعال نفسه لما توجه المدح والذم والامر والنهى عليه ولهذه الآية فى هذا المعنى خاصية أزيد مما ورد من الامر والنهى والمدح والذم فى قصة موسى عليه السلام وابراهيم ونوح وسائر القصص فكيف خص هذه القصة بهذه الوجوه دون سائر القصص [illegible] البيت

اليه لانها مع كونها معاريض لا من قبيل الخطايا المفتقرة الى الاستغفار انما صدرت عنه عليه الصلاة والسلام بعد هذه المقالة الجارية بينه وبين قومه أما الثالثة فظاهرة لوقوعها بعد مهاجرته عليه الصلاة والسلام الى الشام وأما الاوليان فلانهما وقعتا مكتفتين بكسر الاصنام ومن البين جريان هذه المقالات فيما بينهم كان فى مبادى الامر وتعليق مغفرة الخطيئة يوم الدين مع أنها انما تغفر فى الدنيا لان اثرها يومئذ يتبين ولان فى ذلك تهويلا له واشارة الى وقوع الجزاء فيه ان لم تغفر (رب هب لى حكما) بعد ما ذكر عليه الصلاة والسلام لهم فنون الالطاف الفائضة عليه من الله عز وجل من مبدأ خلقه الى يوم بعثه حمله ذلك على مناجاته تعالى ودعائه لربط العتيد وجلب المزيد والحكم الحكمة التى هى الكمال فى العمل بحيث يتمكن به من خلافة الحق ورياسة الخلق (وألحقنى بالصالحين) ووفقنى من العلوم ❊ بطلان والاعمال والملكات لما يرشحنى للانتظام فى زمرة الكاملين الراسخين فى الصلاح المنزهين عن كبائر الذنوب وصغائر أو واجمع بينى وبينهم فى الجنة ولقد أجابه تعالى حيث قال وانه فى

الآخرة لمن الصالحين (واجعل لى لسان صدق فى الآخرين) أى جاها وحسن صيت فى الدنيا بحيث يبقى أثره الى يوم الدين ولذلك لا ترى أمة من الامم الا وهى محبة له ﴿ ٥٣٩ ﴾ ومثنية عليه أو صادقا من ذريتى يجد أصل دينى و يدعو الناس الى ما كنت أدعوهم اليه من التوحيد وهو النبى صلى الله عليه وسلم ولذلك قال عليه الصلاة والسلام أنا دعوة ابراهيم (واجعلنى) فى الآخرة (من ورثة جنة النعيم) وقدم معنى الوراثة فى سورة مريم (واغفر لابى) بالهداية والتوفيق للايمان كما يلوح به تعليله بقوله (انه كان من الضالين) أى من طريق الحق وقد مر تحقيق المقام فى تفسير سورة التوبة وسورة مريم بما لامزيد عليه (ولا تخزنى) بما تبتى على ما فرطت أو بنقص رتبتى عن بعض الوراث أو بتعذيبى لخفاء العاقبة وجواز التعذيب عقلا كل ذلك مبنى على هضم النفس منه عليه الصلاة والسلام أو بتعذيب والدى أو ببعثه فى عداد الضالين بعدم توفيقه للايمان وهو من الخزى بمعنى الهوان أو من الخزاية بمعنى الحياء (يوم يبعثون) أى الناس كافة والاضمار قبل الذكر لما

بطلان هذه الوجوه بقى ذلك الوجه المشهور فنحن نجيب عنها بالجوابين المشهورين (الاول) ان الله تعالى لما علم وقوع هذه الاشياء فعدمها محال لان عدمها يستلزم انقلاب العلم جهلا وهو محال والمفضى الى المحال محال واذا كان عدمها محالا كان التكليف بالترك تكليفا بالمحال (الثانى) أن القادر لما كان قادرا على الضدين امتنع أن يترجح أحد المقدورين على الآخر الا لمرجح وهو الداعى أو الارادة وذلك المرجح محدث فله مؤثر وذلك المؤثر ان كان هو العبد لزم التسلسل وهو محال وان كان هو الله تعالى فذلك هو الجبر على قولك فثبت بهذين البرهانين القاطعين سقوط ما قاله والله أعلم * (القصة السابعة) قصة شعيب عليه السلام * قوله تعالى (كذب أصحاب الايكة المرسلين اذ قال لهم شعيب ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجران أجرى الا على رب العالمين أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الارض مفسدين واتقوا الذى خلقكم والجبلة الاولين قالوا انما أنت من المسحرين وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين فأسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين قال ربى أعلم بما تعملون فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) قرئ أصحاب الايكة بالهمزة وبتخفيفها و بالجر على الاضافة وهو الوجه ومن قرأ بالنصب و زعم ان أيكة بوزن ليلة اسم بلد يعرف فتوهم قاد اليه خط المصحف حيث وجدت مكتوبة فى هذه السورة وسورة ص بغير ألف لكن قد كتبت فى سائر القرآن على الاصل والقصة واحدة على أن ايكة اسم لا يعرف روى ان اصحاب الايكة كانوا أصحاب شجر ملتف وتلك الشجر هى التى حملها المقل فان قيل هلا قال أخوهم شعيب كما فى سائر المواضع جوابه أن شعيبا لم يكن من أصحاب الايكة وفى الحديث ان شعيبا أخا مدين أرسل اليهم والى أصحاب الايكة ثم ان شعيبا عليه السلام أمرهم باشياء (أحدها) قوله أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين وذلك لان الكيل على ثلاثة اضرب واف وطفيف و زائد فامر بالواجب الذى هو الايفاء بقوله أوفوا الكيل ونهى عن المحرم الذى هو التطفيف بقوله ولا تكونوا من المخسرين ولم يذكر الزائد لانه بحيث ان فعله فقد أحسن وان لم يفعله فلا اثم عليه ثم انه لما أمر بالايفاء بين انه كيف يفعل فقال و زنوا بالقسطاس المستقيم قرئ بالقسطاس مضموما ومكسورا وهو الميزان وقيل القرسطون (وثانيها) قوله تعالى ولا تبخسوا الناس أشياءهم يقال بخسه حقه أذ نقصه اياه وهذا عام فى كل حق يثبت لاحد أن لا يهضم وفى كل ملك أن لا يغصب عليه مالكه ولا يتصرف فيه الا باذنه تصرفا شرعيا (وثالثها) قوله تعالى ولا تعثوا فى الارض مفسدين يقال عثا فى الارض وعنى وعاث وذلك نحو قطع الطريق والغارة واهلاك الزرع وكانوا يفعلون ذلك مع توليتهم أنواع الفساد فنهوا عن ذلك (ورابعها) قوله تعالى واتقوا الذى

عموم البعث من الشهرة الفاشية المغنية عنه وتخصيصه بالضالين مما يخيل بتهويل اليوم (يوم لا ينفع مال ولا بنون) بدل من يوم يبعثون جىء به تأكيدا للتهويل وتمهيد ما يعقبه من الاستثناء وهو من أعم المفاعيل أى لا ينفع مال وان كان مصروفا الى وجوه البر والخيرات ولا بنون

وان كانوا صلحاء مستأهلين للشفاعة أحدا (الامن أتى الله بقلب سليم) أى عن مرض الكفر والنفاق ضرورة اشتراط نفع كل منهما بالايمان وفيه تأييد لكون استغفاره عليه الصلاة والسلام لابيه طلبا لهدايته الى الايمان لاستحالة طلب مغفرته بعد موته كافرا مع علمه عليه الصلاة والسلام بعدم نفعه لانه من باب الشفاعة وقيل هو استثناء من فاعل ينفع بتقدير المضاف أى الاموال من أو بنو من أتى الله الآية وقيل المضاف المحذوف ليس من جنس المستثنى منه حقيقة بل بضرب من الاعتبار كما فى قوله تحية بينهم ضرب وجيع أى الاحوال من أتى الله بقلب سليم عبارة عن سلامة القلب كأنه قيل الا سلامة قلب من أتى الله الآية وقيل المضاف المحذوف مادل عليه المال والبنون من الغنى وهو المستثنى منه كأنه قيل يوم لاينفع غنى الاغنى من أتى الله الاية لان غنى المرء فى دينه بسلامة قلبه وقيل الاستثناء منقطع والمعنى لكن سلامة قلبه تنفعه (وأزلفت الجنة للمتقين) عطف على لاينفع وصيغة الماضى وفيه وفيما بعده من الجمل المنتظمة معه فى سلك العطف للدلالة على تحقق الوقوع وتقرره كما أن صيغة المضارع فى المعطوف عليه للدلالة على استمرار ﴿ باطل ﴾ انتفاء النفع ودوامه حسبما يقتضيه مقام التهويل والتفظيع أى قربت الجنة للمتقين عن الكفر والمعاصى بحيث يشاهدونها من الموقف ويقفون على مافيها من فنون

خلقكم والجبلة الاولين وقرئ الجبلة بوزن الابلة والجبلة بوزن الخلقة ومعناهن واحد أى ذوى الجبلة والمراد انه المتفضل بخلقهم وخلق من تقدمهم ممن لولاخلقهم لما كانوا مخلوقين فلم يكن للقوم جواب الا ماالوتركوه لكان أولى بهم وهو من وجهين (الاول) قولهم انما أنت من المسحرين وما أنت الا بشر مثلنا فان قيل هل اختلف المعنى بادخال الواو وههنا وتركها فى قصة ثمود جوابه اذا دخلت الواو فقد قصد معنيان كلاهما مناف للرسالة عندهم السحر والبشرية واذا تركت الواو فلم يقصدوا الا معنى واحدا وهو كونه مسحرا ثم قرره بكونه بشرا مثلهم (الثانى) قولهم وان نظنك لمن الكاذبين ومعناه ظاهر ثم ان شعيبا عليه السلام كان يتوعدهم بالعذاب ان استمروا على التكذيب فقالوا فأسقط علينا كسفا من السماء قرئ كسفا بالسكون والحركة وكلاهما جمع كسفة وهى القطعة والسماء السحاب أو الظلة وهم انما طلبوا ذلك لاستبعادهم وقوعه فظنوا أنه اذا لم يقع ظهر كذبه فعند ذلك شعيب عليه السلام ربى اعلم بما تعملون فلم يدع عليهم بل فوض الامر فيه الى الله تعالى فلما استمروا على التكذيب انزل الله عليهم العذاب على نحو ما اقترحوا من عذاب الظلة ان ارادوا بالسماء السحاب وان ارادوا الظلة فقد خالف بهم عن مقترحهم يروى انه حبس عنهم الريح سبعا وسلط عليهم الرمل وأخذ بانفاسهم لاينفعهم ظل ولاماء فاضطروا الى أن خرجوا الى البرية فاظلتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما فاجتمعوا تحتها فامطرت عليهم نارا فاحترقوا وروى ان شعيبا بعث الى أمتين أصحاب مدين وأصحاب الايكة فأهلكت مدين بصيحة جبريل عليه السلام وأصحاب الايكة بعذاب يوم الظلة وههنا آخر الكلام فى هذه القصص السبع التى ذكرها الله تعالى فى هذه السورة تسلية لمحمد صلى الله عليه وسلم فيما ناله من الغم الشديد بقى ههنا سؤالان (السؤال الاول) لم لايجوز ان يقال ان العذاب النازل بعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ماكان ذلك بسبب كفرهم وعنادهم بل كان ذلك بسبب قرانات الكواكب واتصالاتها على ما اتفق عليه أهل النجوم واذا قام هذا الاحتمال لم يحصل الاعتبار بهذه القصص لان الاعتبار انما يحصل ان لو علمنا أن نزول هذا العذاب كان بسبب كفرهم وعنادهم (الثانى) ان الله تعالى قد ينزل العذاب محنة للمكلفين وابتلاء لهم على ماقال ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ولانه تعالى قد ابتلى المؤمنين بالبلاء العظيم فى مواضع كثيرة واذا كان كذلك لم يدل نزول البلاء بهم على كونهم مبطلين والجواب ان الله تعالى أنزل هذه القصص على محمد صلى الله عليه وسلم تسلية له وازالة للحزن عن قلبه فلما أخبر الله تعالى محمدا انه هو الذى أنزل العذاب عليهم وانه انما انزله عليهم جزاء على كفرهم علم محمد صلى الله عليه وسلم ان الامر كذلك فحينئذ يحصل به التسلى والفرح له عليه السلام واحتج بعض الناس على القدح فى علم الاحكام بان قال المؤثر فى هذه الاشياء اما الكواكب أو البروج او كون الكوكب فى البرج المعين والاول باطل والا لحصلت هذه الآثار أين حصل الكوكب والثانى أيضا

المحاسن فيبتهجون بانهم المحشورون اليها (و برزت الجحيم للغاوين) الضالين عن طريق الحق الذى هو الايمان والتقوى اى جعلت بارزة لهم بحيث يرونها مع مافيها من أنواع الاحوال الهائلة و يوقنون بانهم مواقعوها ولايجدون عنها مصرفا (وقيل لهم أينما كنتم) ﴿ ٥٤١ ﴾ فى الدنيا (تعبدون من دون الله) أى أين آلهتكم الذين كنتم تزعمون فى الدنيا أنهم شفعاؤكم فى هذا الموقف (هل ينصرونكم) بدفع العذاب عنكم (أو ينتصرون) بدفعه عن أنفسهم وهذا سؤال تقريع وتبكيت لايتوقع له جواب ولذلك قيل (فكبكبوا فيها) أى ألقوا فى الجحيم على وجوههم مرة بعد أخرى الى أن يستقروا فى قعرها (هم) أى آلهتهم (والغاوون) الذين كانوا يعبدونهم وفى تأخير ذكرهم عن ذكر آلهتكم رمز الى أنهم يؤخرون عنها فى الكبكبة ليشاهدوا سوء حالها فيزدادوا غما الى غمهم (وجنود ابليس) أى شياطينه الذين كانوا يغوونهم و يوسوسون اليهم و يسولون لهم ماهم عليه من عبادة الاصنام وسائر فنون الكفر والمعاصى ليجتمعوا فى العذاب حسبما كانوا مجتمعين فيما يوجبه وقيل متبعوه من عصاة الثقلين والاول هو الوجه (أجمعون) تأكيد للضمير وماعطف عليه وقوله تعالى (قالوا) الخ استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية حالهم كأنه قيل ماذا قالوا حين فعل بهم مافعل فقيل قال العبدة (وهم فيها يختصمون) أى قالوا مغترفين بخطائهم فى انهما كهم فى الضلالة

باطل والازم دوام الاثر بدوام البرج والثالث أيضا باطل لان الفلك على قولهم بسيط لامركب فيكون طبع كل برج مساويا لطبع البرج الآخر فى تمام الماهية فيكون حال الكوكب وهو فى برجه كحاله وهو فى برج آخر فيلزم أن يدوم ذلك الاثر بدوام الكوكب وللقوم أن يقولوا لم لايجوز أن يكون صدور الاثر عن الكوكب المعين موقوفا على كونه مساميا مسامتة مخصوصة لكوكب آخر فاذا فقدت تلك المسامتة فقد شرط التاثير فلا يحصل التاثير ولهم أن يقولوا هذه الدلالة انما تدل على انها ليست مؤثرة بحسب ذواتها وطبائعها ولكنها لاتدل على انها ليست مؤثرة بحسب جرى العادة فاذا أجرى الله تعالى عادته بحصول تاثيرات مخصوصة عقيب اتصالات الكواكب وقراناتها وادوارها لم يلزم من حصول هذه الآثار القطع بان الله تعالى انما خلقها لاجل زجر الكفار بل لعله تعالى خلقها تكريرا لتلك العادات والله أعلم * القول فيما ذكره الله تعالى من أحوال محمد عليه الصلاة والسلام * قوله تعالى (وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين وانه لفى زبر الاولين) اعلم انه تعالى لما ختم ماقصه من خبر الانبياء ذكر بعد ذلك مايدل على نبوته وهو من وجهين (الاول) قوله وانه لتنزيل رب العالمين وذلك لانه لفصاحته معجز فيكون ذلك من رب العالمين اولانه اخبار عن القصص الماضية من غير تعليم البتة فلا يكون ذلك الا بوحى من الله تعالى وقوله بعده وانه لفى زبر الاولين كأنه مؤكد لهذا الاحتمال وذلك لانه عليه السلام لما ذكر هذه القصص السبع على ماهى موجودة فى زبر الاولين من غير تفاوت أصلا مع انه لم يشتغل بالتعلم والاستعداد دل ذلك على انه ليس الا من عند الله تعالى فهذا هو المقصود من الآية فاما قوله تعالى وانه لتنزيل رب العالمين فالمراد بالتنزيل المنزل ثم قد كان يجوز فى القرآن وهذه القصص أن يكون تنزيلا من الله تعالى الى محمد صلى الله عليه وسلم بلا واسطة فقال نزل به الروح الامين والباء فى قوله نزل به الروح ونزل به الروح على القراءتين للتعدية ومعنى نزل به الروح جعل الله الروح نازلا به على قلبك أى فهمك اياه واثبته فى قلبك اثبات مالاينسى كقوله تعالى سنقرئك فلا تنسى والروح الامين جبريل عليه السلام وسماه روحا من حيث خلق من الروح وقيل لانه نجاة الخلق فى باب الدين فهو كالروح الذى تثبت معه الحياة وقيل لانه روح كله لاكالناس الذين فى أبدانهم روح وسماه امينا لانه موتمن على مايؤديه الى الانبياء عليهم السلام والى غيرهم واما قوله على قلبك ففيه قولان (الاول) انه انما قال على قلبك وان كان انما انزله عليه ليؤكد به أن ذلك المنزل محفوظ للرسول متمكن فى قلبه لايجوز عليه التغير فيوثق بالانذار الواقع منه الذى بين الله تعالى أنه هو المقصود ولذلك قال لتكون من المنذرين (الثانى) أن القلب هو المخاطب فى الحقيقة لانه موضع التمييز والاختيار وأما سائر الاعضاء فمسخرة له والدليل عليه القرآن والحديث والمعقول (أما القرآن) فآيات احداها قوله تعالى فى سورة البقرة فانه نزله على قلبك

متحسرين معيرين لانفسهم والحال انهم فى الجحيم بصدد الاختصام مع من معهم من المذكورين مخاطبين لمعبوديهم على ان الله تعالى يجعل الاصنام صالحة للاختصام بان يعطيها القدرة على الفهم والنطق (تالله ان كنا لفى ضلال مبين) ان مخففة من الثقيلة قد حذف اسمها الذى ﴿ ٥٤٢ ﴾ هو ضمير الشان واللام فارقة بينها وبين النافية أى ان الشأن

كنا فى ضلال واضح لاخفاء فيه ووصفهم له بالوضوح للاشباع فى اظهار ندمهم وتحسرهم وبيان عظم خطائهم فى رأيهم مع وضوح الحق كما ينبئ عنه تصدير قسمهم بحرف التاء المشعرة بالتعجب وقوله تعالى (اذ نسويكم برب العالمين) ظرف لكونهم فى ضلال مبين وقيل لما دل عليه الكلام أى ضللنا وقيل للضلال المذكور وان كان فيه ضعف صناعى من حيث ان المصدر الموصوف لايعمل بعد الوصف وقيل ظرف لمبين وصيغة المضارع لاستحضار الصورة الماضية أى تالله لقد كنا فى غاية الضلال الفاحش وقت تسويتنا اياكم أيها الاصنام فى استحقاق العبادة برب العالمين الذى أنتم أدنى مخلوقاته واذلهم وأعجزهم وقولهم (وما أضلنا الا المجرمون) بيان لسبب ضلالهم بعد اعترافهم بصدوره عنهم لكن لا على معنى قصر الاضلال على المجرمين دون من عداهم بل على معنى قصر ضلالهم على كونه بسبب ضلالهم ﴿ لهم ﴾ من غير أن يستقلوا فى تحققه أو يكون بسبب اضلال الغير كأنه قيل وماصدر عنا ذلك الضلال الفاحش الا بسبب اضلالهم والمراد بالمجرمين الذين أضلوهم رؤساؤهم وكبراؤهم كما فى قوله تعالى ربنا انا أطعنا

وقال ههنا نزل به الروح الامين على قلبك وقال ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب (وثانيها) انه ذكر ان استحقاق الجزاء ليس الا على مافى القلب من المساعى فقال لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم وقال لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم والتقوى فى القلب لانه تعالى قال أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى وقال تعالى وحصل مافى الصدور (وثالثها) قوله حكاية عن أهل النار لو كنا نسمع أو نعقل. اكنا فى أصحاب السعير ومعلوم أن العقل فى القلب والسمع منفذ اليه وقال ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤلا ومعلوم ان السمع والبصر لايستفاد منهما الا مايؤديانه الى القلب فكان السؤال عنهما فى الحقيقة سؤالا عن القلب وقال تعالى يعلم خائنة الاعين ومافى تخفى الصدور ولم تخف الاعين الا بما تضمر القلوب عند التحديق بها (ورابعها) قوله وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ماتشكرون فخص هذه الثلاثة بالزام الحجة منها واستدعاء الشكر عليها وقد علمنا لاطائل فى السمع والابصار الا بما يؤديان الى القلب ليكون القلب هو القاضى فيه والمتحكم عليه وقال تعالى ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شئ فجعل هذه الثلاثة تمام ماألزمهم من حجته والمقصود من ذلك هو الفؤاد القاضى فيما يؤدى اليه السمع والبصر (وخامسها) قوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فجعل العذاب لازما على هذه الثلاثة وقال لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها وجه الدلالة انه قصد الى نفى العلم عنهم رأسا فلو ثبت العلم فى غير القلب كالبصر فى القلب لم يتم الغرض فهذه الآيات وماشاكلها ناطقة بأجمعها ان القلب هو المقصود بالزام الحجة وقد بينا ان ماقرن بذكره من ذكر السمع والبصر فذلك لانهما آلتان للقلب فى تادية صور المحسوسات والمسموعات (وأما الحديث) فاروى النعمان بن بشير قال سمعته عليه السلام يقول ألا وان فى الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب (وأما المعقول) فوجوه (احدها) ان القلب اذا غشى عليه فلو قطع سائر الاعضاء لم يحصل الشعور به واذا أفاق القلب فانه يشعر بجميع مايزل بالاعضاء من الآفات فدل ذلك على أن سائر الاعضاء تبع للقلب ولذلك فان القلب اذا فرح أو حزن فانه يتغير حال الاعضاء عند ذلك وكذا القول فى سائر الاغراض النفسانية (وثانيها) ان القلب منبع المشاق الباعثة على الافعال الصادرة من سائر الاعضاء واذا كانت المشاق مبادى للافعال ومنبعها هو القلب كان الآمر المطلق هو القلب (وثالثها) ان معدن العقل هو القلب واذا كان كذلك كان الآمر المطلق هو القلب (أما المقدمة الاولى) ففيها النزاع فان طائفة من القدماء ذهبوا الى أن معدن العقل هو الدماغ والذى يدل على قولنا وجوه (الاول) قوله تعالى أولم يسيروا فى الارض فتكون

سادتنا وكبراءنا فاضلونا السبيلا وعن السدى رحمه الله الاولون الذين اقتدوا بهم وأيا ما كان ففيه اوفر نصيب من التعريض للذين قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون وعن ابن جريج ابليس وابن آدم القاتل لانه أول من سن القتل وأنواع المعاصى (فالنا من شافعين) ﴿ ٥٤٣ ﴾ كالمؤمنين من الملائكة والانبياء عليهم الصلاة والسلام

لهم قلوب يعقلون بها وقوله لهم قلوب لا يفقهون بها وقوله ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أى عقل أطلق عليه اسم القلب لما انه معدنه (الثانى) انه تعالى أضاف اضداد العلم الى القلب وقال فى قلوبهم مرض ختم الله على قلوبهم وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم يقولون بالسنتهم ما ليس فى قلوبهم كلا بل ران على قلوبهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور فدلت هذه الآيات على أن موضع الجهل والغفلة هو القلب فوجب أن يكون موضع العقل والفهم أيضا هو القلب (الثالث) وهو أنا اذا جربنا انفسنا وجدنا علومنا حاصلة فى ناحية القلب ولذلك فان الواحد منا اذا أمعن فى الفكر وأكثر منه أحس من قلبه ضيقا وضجرا حتى كأنه يتألم بذلك وكل ذلك يدل على أن موضع العقل هو القلب واذا ثبت ذلك وجب أن يكون المكلف هو القلب لان التكليف مشروط بالعقل والفهم (الرابع) وهو ان القلب اول الاعضاء تكونا وآخرها موتا وقد ثبت ذلك بالتشريح ولانه متمكن فى الصدر الذى هو أوسط الجسد ومن شأن الملوك المحتاجين الى الخدم أن يكونوا فى وسط المملكة لتكتنفهم الحواشى من الجوانب فيكونوا ابعد من الآفات واحتج من قال العقل فى الدماغ بامور (أحدها) ان الحواس التى هى الآلات للادراك نافذة الى الدماغ دون القلب (وثانيها) ان الاعصاب التى هى الآلات فى الحركات الاختيارية نافذة من الدماغ دون القلب (وثالثها) ان الآفة اذا حلت فى الدماغ اختل العقل (ورابعها) ان فى العرف كل من أريد وصفه بقلة العقل قيل انه خفيف الدماغ خفيف الرأس (وخامسها) ان العقل أشرف فيكون مكانه أشرف والاعلى هو الاشرف وذلك هو الدماغ لا القلب فوجب أن يكون محل العقل هو الدماغ (والجواب عن الاول) لم لا يجوز أن يقال الحواس تؤدى آثارها الى الدماغ ثم ان الدماغ يؤدى تلك الآثار الى القلب فالدماغ آلة قريبة للقلب والحواس آلات بعيدة فالحس يخدم الدماغ ثم الدماغ يخدم القلب وتحقيقه انا ندرك من أنفسنا انا اذا عقلنا ان الامر الفلانى يجب فعله أو يجب تركه فان الاعضاء تتحرك عند ذلك ونحن نجد التعقلات من جانب القلب لا من جانب الدماغ (وعن الثانى) انه لا يبعد ان يتأدى الاثر من القلب الى الدماغ ثم الدماغ يحرك الاعضاء بواسطة الاعصاب النابتة منه (وعن الثالث) لا يبعد أن يكون سلامة الدماغ شرطا لوصول تاثير القلب الى سائر الاعضاء (وعن الرابع) ان ذلك العرف انما كان لان القلب انما يعتدل مزاجه بما يستمده من الدماغ من برودته فاذا لحق الدماغ خروج عن الاعتدال خرج القلب عن الاعتدال أيضا اما لازدياد حرارته عن القدر الواجب أو لنقصان حرارته عن ذلك القدر فحينئذ يختل العقل (وعن الخامس) انه لو صح ما قالوه لوجب أن يكون موضع العقل هو القحف ولما بطل ذلك ثبت فساد قولهم والله أعلم (فرع) اعلم ان المعانى التى بينا كونها مختصة بالقلوب قد تضاف

(ولا صديق حميم) كما نرى لهم أصدقاء أو فالنا من شافعين ولا صديق حميم من الذين كنا نعدهم شفعاء وأصدقاء على أن عدمهما كناية عن عدواتهما كما أن عدم المحبة فى مثل قوله تعالى والله لا يحب الفساد كناية عن البغض حسبما ينبئ عنه قوله تعالى الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين أو وقعنا فى مهلكة لا يخلصنا منها شافع ولا صديق على أن المراد بعدمهما عدم اثرهما وجمع الشافع لكثرة الشفعاء عادة كما أن افراد الصديق لقلته أو لصحة اطلاقه على الجمع كالعدو تشبيها بالمصادر كالحنين والقبول وكلمة لو فى قوله تعالى (فلو أن لنا كرة) للتمنى كليت لما أن بين معنيهما تلاقيا فى معنى الفرض والتقدير كأنه قيل فليت لنا كرة أى رجعة الى الدنيا وقيل هى على أصلها من الشرط وجوابه محذوف كأنه

قيل فلو أن لنا كرة لفعلنا من الخيرات كيت وكيت و يأباه قوله تعالى (فنكون من المؤمنين) لتحتم كونه جوابا للتمنى لتقييد الترتب ايمانهم على وقوع الكرة البتة بلا تخلف كما هو مقتضى حالهم وعطفه على كرة على طريقة ﴿ للبس عباءة وتقر عينى ﴾ كما يستدعيه كون لو على أصلها انما يفيد تحقق مضمون الجواب على تقدير تحقق كرتهم

وايمانهم معا من غير دلالة على استلزام الكرة للايمان أصلا مع أنه مقصود حتما (ان فى ذلك) أى فيما ذكر من نبأ ابرهيم عليه السلام المشتمل على بيان بطلان ماكان عليه اهل مكة من عبادة الاصنام وتفصيل مايؤل اليه أمر عبدتها يوم القيامة من اعترافهم بخطئهم الفاحش وندمهم ﴿ وتحسرهم على مافاتهم من الايمان وتمنيهم الرجعة الى

الدنيا ليكونوا من المؤمنين عند مشاهدتهم لما أزلفت لهم جنات النعيم وبرزت لانفسهم الجحيم وغشيهم ماغشيهم من ألوان العذاب وأنواع العقاب (لآية) أى آية عظيمة لايقادر قدرها موجبة على عبدة الاصنام كافة لاسيما على أهل مكة الذين يدعون أنهم على ملة ابراهيم عليه السلام أن يجتنبوا كل الاجتناب ماكانوا عليه من عبادتها خوفا أن يحيق بهم مثل ماحاق بأولئك من العذاب بحكم الاشراك فيما يوجبه أو ان فى ذكر نبئه وتلاوته عليهم على ماهو عليه من غير أن تسمعه من أحد لآية عظيمة دالة على أن ماتلوه عليهم وحى صادق نازل من جهة الله تعالى موجبة للايمان به قطعا و(ما كان أكثرهم مؤمنين) اى اكثر هؤلاء الذين تتلو عليهم النبأ مؤمنين بل هم مصرون على ماكانوا عليه من الكفر والضلال وامان ضمير اكثرهم لقوم ابراهيم عليه السلام كما توهموا فمما لاسبيل اليه اصلا لظهور انهم مازادوا بما ﴿ فتنتهم ﴾ سمعوا منه عليه الصلاة والسلام الاطغيانا وكفرا حتى

الى الصدر تارة والى الفؤاد أخرى أما الصدر فقوله تعالى وحصل مافى الصدور وقوله وليبتلى الله مافى صدوركم وقوله تعالى انه عليم بذات الصدور وان تخفوا مافى صدوركم أو تبدوه وأما الفؤاد فقوله وتقلب أفئدتهم وأبصارهم ومن الناس من فرق بين القلب والفؤاد فقال القلب هو العلقة السوداء فى جوف الفؤاد دون مايكتنفها من اللحم والشحم ومجموع ذلك هو الفؤاد ومنهم من قال القلب والفؤاد لفظان مترادفان وكيف كان فيجب أن يعلم أن من جملة العضو المسمى قلبا وفؤادا موضعا هو الموضع فى الحقيقة للعقل والاختيار وان معظم جرم هذا العضو مسخر لذلك الموضع كما ان سائر الاعضاء مسخرة للقلب فان العضو قد تزيد اجزاؤه من غير ازدياد المعانى المنسوبة اليه اعنى العقل والفرح والحزن وقد ينقص من غير نقصان فى تلك المعانى فيشبه أن يكون اسم القلب اسما للاجزاء التى تحل فيها هذه المعانى بالحقيقة واسم الفؤاد يكون اسما لمجموع العضو فهذا هو الكلام فى هذا الباب والله الموفق للصواب واما قوله تعالى لتكون من المنذرين فيدخل تحت الانذار الدعاء الى كل واجب من علم وعمل والمنع من كل قبيح لان فى الوجهين جميعا يدخل الخوف من العقاب واما قوله تعالى بلسان عربى مبين فالباء اما أن تتعلق بالمنذرين فيكون المعنى لتكون من الذين انذروا بهذا اللسان وهم خمسة هود وصالح وشعيب واسمعيل ومحمد عليهم السلام واما ان تتعلق بمنزل فيكون المعنى نزله باللسان العربى لينذر به لانه لو نزله باللسان الاعجمى لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمى وعربى فيتعذر الانذار به وفى هذا الوجه ان تنزيله بالعربية التى هى لسانك ولسان قومك تنزيل له على قلبك لانك تفهمه ويفهمه قومك ولو كان أعجميا لكان نازلا على سمعك دون قلبك لانك تسمع اجراس حروف لاتفهم معانيها وأما قوله تعالى وانه لفى زبر الاولين فيحتمل هذه الاخبار خاصة ويحتمل أن يكون المراد صفة القرآن ويحتمل صفة محمد صلى الله عليه وسلم ويحتمل أن يكون المراد وجوه التخويف لان ذكر هذه الاشياء باسرها قد تقدم ✿ قوله تعالى (اولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بنى اسرائيل ولو نزلناه على بعض الاعجمين فقرأه عليهم ماكانوا به مؤمنين كذلك سلكناه فى قلوب المجرمين لايؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم فيأتيهم بغتة وهم لايشعرون فيقولوا هل نحن منظرون) اعلم ان قوله تعالى أولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بنى اسرائيل المراد منه ذكر الحجة الثانية على نبوته عليه السلام وصدقه وتقريره ان جماعة من علماء بنى اسرائيل أسلموا ونصوا على مواضع فى التوراة والانجيل ذكر فيها الرسول عليه الصلاة والسلام بصفته ونعته وقد كان مشركو قريش يذهبون الى اليهود ويتعرفون منهم هذا الخبر وهذا يدل دلالة ظاهرة على نبوته لان تطابق الكتب الالهية على نعته ووصفه يدل قطعا على نبوته واعلم انه قرئ يكن بالتذكير وآية بالنصب على انها خبره وأن يعلمه هو الاسم وقرئ تكن بالتأنيث وجعلت آية اسما وأن يعلمه خبرا وليست كالاولى لوقوع النكرة اسما والمعرفة خبرا ويجوز مع نصب الآية تأنيث يكن كقوله ثم لم تكن

اجترؤا على تلك العظيمة التي فعلوها به عليه الصلاة والسلام فكيف يعبر عنهم بعدم ايمان اكثرهم وانما آمن له لوط فتجاهما الله عز وجل الى الشام وقدمر بقية الكلام ﴿ ٥٤٥ ﴾ في آخر قصة موسى عليه السلام (وان ربك لهو العزيز الرحيم) أي هو القادر على تعجيل العقوبة لقومك ولكنه يمهلهم بحكم رحمته الواسعة ليؤمن بعض منهم أو من ذرياتهم (كذبت قوم نوح المرسلين) القوم مؤنث ولذلك يصغر على قويمة وقيل القوم بمعنى الامة وتكذيبهم للمرسلين اما باعتبار اجماع الكل على التوحيد وأصول الشرائع التي لا تختلف باختلاف الازمنة والاعصار واما لان المراد بالجمع الواحد كما يقال فلان يركب الدواب ويلبس البرود وماله الا دابة وبردة واذ في قوله تعالى (اذ قال لهم) ظرف للتكذيب على أنه عبارة عن زمان مديد وقع فيه ما وقع من الجانبين الى تمام الامر كأن تكذيبهم عبارة عما صدر عنهم من حين ابتداء دعوته عليه الصلاة والسلام الى انتهائها (أخوهم) أي نسيبهم (نوح الا تتقون) الله حيث تعبدون غيره (اني لكم رسول) من جهته تعالى (أمين) مشهور بالامانة فيما بينكم ﴿ ٦٩ ﴾ س (فاتقوا الله وأطيعون) فيما آمركم به من التوحيد والطاعة لله تعالى (وما سئلكم عليه) أي على ما أنا متصد له من الدعاء والنصح (من أجر) أصلا (ان أجري) فيما أتولاه (الا على رب العالمين) والفاء في قوله تعالى

فتنتهم الأرقالوا وأما قوله ولو نزلناه على بعض الاعجمين فاعلم انه تعالى لما بين بالدليلين المذكورين نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق لهجته بين بعد ذلك ان هؤلاء الكفار لا تنفعهم الدلائل ولا البراهين فقال ولو نزلناه على بعض الاعجمين يعني انا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربه بلسان عربي مبين فسمعوه وفهموه وعرفوا فصاحته وانه معجز لا يعارض بكلام مثله وانضم الى ذلك بشارة كتب الله السالفة به فلم يؤمنوا به وجحدوه وسموه شعرا تارة وسحرا أخرى فلو نزلناه على بعض الاعجمين الذي لا يحسن العربية لكفروا به أيضا ولتحملوا الجحود هذرا ثم قال كذلك سلكناه في قلوب المجرمين أي مثل هذا السلك سلكناه في قلوبهم وهكذا مكناه وقررناه فيها وكيفما فعل بهم فلا سبيل الى ان يتغيروا عما هم عليه من الجحود والانكار وهذا أيضا مما يفيد تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم لانه اذا عرف رسول الله اصرارهم على الكفر وانه قد جرى القضاء الازلي بذلك حصل اليأس وفي المثل اليأس احدى الراحتين (المسئلة الرابعة) قوله كذلك سلكناه في قلوب المجرمين يدل على ان الكل بقضاء الله وخلقه قال صاحب الكشاف أراد به انه صار ذلك التكذيب متمكنا في قلوبهم اشد التمكن فصار ذلك كالشئ الجبلي والجواب انه اما أن يكون قد فعل الله فيهم ما يقتضي رجحان التكذيب على التصديق او ما فعل ذلك فيهم فان كان الاول فقد دللنا في سورة الانعام على ان الترجيح لا يتحقق ما لم ينته الى حد الوجوب وحينئذ يحصل المقصود فان لم يفعل فيهم ما يقتضي الترجيح البتة امتنع قولنا كذلك سلكناه كما ان طيران الطائر لما لم يكن له تعلق بكفرهم امتنع اسناد الكفر الى ذلك الطيران (المسئلة الخامسة) قال صاحب الكشاف فان قلت ما موقع لا يؤمنون به من قوله سلكناه في قلوب المجرمين قلت موقعه منه موقع الموضح للمبين لانه سوق لبيانه مؤكد للجحود في قلوبهم فانه يقرر هذا المعنى وهو انهم يزالون على التكذيب به حتى يعاينوا الوعيد ﴿ وقوله تعالى ﴾ (فيقولوا هل نحن منظرون أفبعذابنا يستعجلون أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون وما أهلكنا من قرية الا لها منذرون ذكرى وما كنا ظالمين) اعلم انه تعالى لما بين انهم لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم وانه يأتيهم العذاب بغتة اتبعه بما يكون منهم عند ذلك على وجه الحسرة فقال فيقولوا هل نحن منظرون كما يستغيث المرء عند تعذر الخلاص لانهم يعلمون في الآخرة ان لا ملجأ لهم يذكرون ذلك استرواحا فاما قوله تعالى أفبعذابنا يستعجلون فالمراد انه تعالى بين انهم كانوا في الدنيا يستعجلون العذاب مع ان حالهم عند نزول العذاب طلب النظرة ليعرف تفاوت الطريقين فيعتبر به ثم بين تعالى ان استعجال العذاب على وجه التكذيب انما يقع منهم ليتمتعوا في الدنيا الا ان ذلك جهل وذلك لان مدة التمتع في الدنيا متناهية قليلة ومدة العذاب الذي يحصل بعد ذلك غير متناهية وليس في العقل ترجيح الذات متناهية قليلة على آلام غير متناهية وعن ميمون بن

(فاتقوا الله وأطيعون) لترتيب مابعدها على ماقبلها من تنزهه عليه الصلاة السلام عن الطمع كما أن نظيرتها السابقة لترتيب مابعدها على أمانته والتكرير للتأكيد والتنبيه ﴿ ٥٤٦ ﴾ على أن كلا منهما مستقل فى ايجاب التقوى والطاعة

مهران انه لقى الحسن فى الطواف فقال له عظنى فلم يزد على تلاوة هذه الآية فقال ميمون لقد وعظت فابلغت وقرئ يمتعون بالتخفيف ثم بين انه لم يهلك قرية الا وهناك نذير يقيم عليهم الحجة أما قوله تعالى ذكرى فقال صاحب الكشاف ذكرى منصوبة بمعنى تذكرة اما لان أنذر وذكر متقاربان فكانه قيل مذكرون تذكرة واما لانها حال من الضمير فى منذرون أى ينذرونهم ذوى تذكرة واما لانها مفعول له على معنى انهم ينذرون لاجل الموعظة والتذكرة أو مرفوعة على انها خبر مبتدأ محذوف بمعنى هذه ذكرى والجملة اعتراضية أو صفة بمعنى منذرون ذكرى وجعلوا ذكرى لامعانهم فى التذكرة واطنابا بهم فيها ووجه آخر وهو أن يكون ذكرى متعلقة باهلكنا مفعولا له والمعنى وما أهلكنا من أهل قرية ظالمين الا بعد ما ألزمناهم الحجة بارسال المنذرين اليهم ليكون اهلاكهم تذكرة وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم وما كنا ظالمين فنهلك قوما غير ظالمين وهذا الوجه عليه المعول فان قلت كيف عرت الواو عن الجملة بعد الاولم تعر عنها فى قوله وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم قلت الاصل عدم الواو لان الجملة صفة لقرية واذا زيدت فلتأكيد وصل الصفة بالموصوف ﴿ قوله تعالى (وما تنزلت به الشياطين وما ينبغى لهم وما يستطيعون انهم عن السمع لمعزولون فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين) اعلم انه تعالى لما احتج على صدق محمد صلى الله عليه وسلم بكون القرآن تنزيل رب العالمين وانما يعرف ذلك بوقوعه من الفصاحة فى النهاية القصوى ولانه مشتمل على قصص المتقدمين من غير تفاوت مع انه عليه السلام لم يشتغل بالتعلم والاستفادة فكان الكفار يقولون لم لا يجوز أن يكون هذا من القاء الجن والشياطين كسائر ما ينزل على الكهنة فاجاب الله تعالى عنه بان ذلك لا يليق بالشياطين لانهم مرجومون بالشهب معزولون عن استماع كلام أهل السماء وقائل أن يقول العلم بكون الشياطين ممنوعين عن ذلك لا يحصل الا بواسطة خبر النبى الصادق فاذا ثبتنا كون محمد صلى الله عليه وسلم صادقا بفصاحة القرآن واخباره عن الغيب ولا يمكن اثبات كون الفصاحة والاخبار عن الغيب معجزا الا اذا ثبت كون الشياطين ممنوعين عن ذلك لزم الدور وهو باطل وجوابه لانسلم ان العلم بكون الشياطين ممنوعين عن ذلك لا يستفاد الا من قول النبى وذلك لانا نعلم بالضرورة ان الاهتمام بشان الصديق أقوى من الاهتمام بشان العدو ونعلم بالضرورة ان محمدا صلى الله عليه وسلم كان يلعن الشياطين ويأمر الناس بلعنهم كان هذا العلم انما حصل من القاء الشياطين لكان الكفار أولى بان يحصل لهم مثل هذا العلم فكان يجب أن يكون اقتدار الكفار على مثله أولى فلما لم يكن كذلك علمنا ان الشياطين ممنوعون عن ذلك وانهم معزولون عن تعرف الغيوب ثم انه تعالى لما ذكر هذا الجواب ابتدأ بخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال فلا تدع مع الله آلها آخر وذلك فى الحقيقة خطاب لغيره لان من شان الحكيم اذا أراد ان يؤكد خطاب الغير ان يوجهه الى الرؤساء فى الظاهر وان كان المقصود بذلك هم الاتباع ولانه تعالى أراد ان يتبعه ما يليق بذلك فلهذه العلة

فكيف اذا اجتمعا وقرئ ان أجرى بسكون الياء (قالوا انؤمن لك واتبعك الارذلون) أى الاقلون جاها وماجمع الارذل على الصحة فانه بالغلبة صار جاريا مجرى الاسم كالاكبر والاكابر وقيل جمع رذل كأكالب وأكلب وكلب وقرئ وأتباعك وهو جمع تابع كشاهد وأشهاد أو جمع تبع كبطل وأبطال يعنون أنه لا عبرة باتباعهم لك اذ ليس لهم رزانة عقل ولا اصابة رأى وقد كان ذلك منهم فى بادئ الرأى كما ذكر فى موضع آخر وهذا من كمال سخافة عقولهم وقصر نظرهم أنهم ارهم على حطام الدنيا وكون الاشرى عندهم من هو الغنى بها حظا والارذل من حرم وجهلهم بأنها لا تزن عند الله تعالى جناح بعوضة وان النعيم هو نعيم الآخرة والاشرف من فاز به والارذل من حرمه (قال وما علمى بما كانوا يعملون) جواب عما أشير اليه من قولهم انهم لم يؤمنوا عن نظر وبصيرة أى ما وظيفتى الا اعتبار الظواهر وبناء الاحكام عليها دون التفتيش عن بواطنهم ﴿ افرده ﴾ والشق عن قلوبهم (ان حسابهم) أى ما محاسبة أعمالهم والتنقير عن كيفياتها البارزة والكامنة (الا على ربى) فانه

المطلع على السرائر والضمائر (لو تشعرون) أى بشئ من الاشياء أو لو كنتم من أهل الشعور لعلمتم ذلك ولكنكم لستم كذلك فتقولون ما تقولون (ما أنا بطارد المؤمنين) جواب عما أوهمه كلامهم من استدعاء طردهم وتعليق ايمانهم بذلك حيث جعلوا اتباعهم مانعا عنه وقوله (ان أنا الا نذير ﴿ ٥٤٧ ﴾ مبين) كالعلة له أى ما أنا الا رسول مبعوث لانذار الكافرين أطرده بالمخاطبة * قوله تعالى (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فان عصوك فقل انى برئ مما تعملون وتوكل على العزيز الرحيم الذى يراك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين انه هو السميع العليم) اعلم انه سبحانه لما بالغ فى تسلية رسوله أولا ثم أقام الحجة على نبوته ثانيا ثم أورد سؤال المنكرين وأجاب عنه ثالثا أمره بعد ذلك بما يتعلق بباب التبليغ والرسالة وهو ههنا أمور ثلاثة (الاول) قوله وأنذر عشيرتك الاقربين وذلك لانه تعالى بدأ بالرسول فتوعده ان دعا مع الله الها آخر ثم أمره بدعوة الاقرب فالاقرب وذلك لانه اذا تشدد على نفسه أولا ثم بالاقرب فالاقرب ثانيا لم يكن لاحد فيه طعن البتة وكان قوله انفع وكلامه انجع وروى انه لما نزلت هذه الآية صعد الصفا فنادى الاقرب فالاقرب وقال يا بنى عبد المطلب يا بنى هاشم يا بنى عبد مناف يا عباس عم محمد يا صفية عمة محمد انى لا أملك لكم من الله شيئا سلونى من المال ما شئتم وروى انه جمع بنى عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلا على رجل شاة وصاع من لبن وكان الرجل منهم يأكل الجذعة ويشرب العس فاكلوا وشربوا ثم قال يا بنى عبد المطلب لو أخبرتكم ان بسفح هذا الجبل خيلا أكنتم مصدقى قالوا نعم فقال انى نذير لكم بين يدى عذاب شديد (الثانى) قوله واخفض جناحك واعلم ان الطائر اذا أراد ان يحط للوقوع كسر جناحه وخفضه واذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلا فى التواضع ولين الجانب فان قيل المتبعون للرسول هم المؤمنون وبالعكس فلم قال لمن اتبعك من المؤمنين جوابه لانسلم ان المتبعين للرسول هم المؤمنون فان كثيرا منهم كانوا يتبعونه للقرابة والنسب لا للدين فاما قوله فان عصوك فقل انى برئ مما تعملون فمعناه ظاهر قال الجبائى هذا يدل على انه عليه السلام كان بريئا من معاصيهم وذلك يوجب أن الله تعالى أيضا برئ من عملهم كالرسول والا كان مخالفا لله كما لو رضى عمن سخط الله عليه لكان كذلك واذا كان تعالى بريئا من عملهم فكيف يكون فاعلا له ومريدا له الجواب انه تعالى برئ من المعاصى بمعنى انه ما أمر بها بل نهى عنها فاما بمعنى انه لا يريدها فلا نسلم والدليل عليه انه علم وقوعها وعلم ان ما هو معلوم الوقوع فهو واجب الوقوع والا انقلب علمه جهلا وهو محال والمفضى الى المحال محال وعلم أن ما هو واجب الوقوع فانه لا يراد عدم وقوعه فثبت ما قلناه (والثالث) قوله وتوكل والتوكل عبارة عن تفويض الرجل أمره الى من يملك أمره ويقدر على نفعه وضره وقوله على العزيز الرحيم أى على الذى يقهر اعداءك بعزته وينصرك عليهم برحمته ثم اتبع كونه رحيما على رسوله ما هو كالسبب لتلك الرحمة وهو قيامه وتقلبه فى الساجدين وفيه وجوه (أحدها) المراد ما كان يفعله فى جوف الليل من قيامه للتهجد وتقلبه فى تصفح أحوال المجتهدين ليطلع على اسرارهم كما يحكى انه حين نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون لحرصه على ما يوجد منهم من طاعات فوجدها كبيوت الزنابير لما يسمع منها من دندنتهم

وزجرهم عن الكفر والمعاصى سواء كانوا من الاعزاء أو الاذلاء فكيف ينسب لى طرد الفقراء لاستتباع الاغنياء أو بناء على الايثار كم بالابرهان أو اضح وقد فعلت ما على استرضاء بعضكم بطرد الآخرين (قالوا ائن لم تنته يا نوح) عما تقول (لتكونن من المرجومين) من المشتومين أو المرميين بالحجارة قالوا وقاتلهم الله تعالى فى أواخر الامر ومعنى قوله تعالى (قال رب ان قومى كذبون) تمردا على تكذيبى وأصروا على ذلك بعد ما دعوتهم هذه الازمنة المتطاولة ولم يزدهم دعائى الا فرارا كما يعرب عنه دعاؤه بقوله (فافتح بينى وبينهم فتحا) أى احكم بيننا بما يستحقه كل واحد منا وهذه حكاية اجمالية لدعائه المفصل فى سورة نوح عليه السلام (ونجنى ومن معى من المؤمنين) أى من قصدهم أو من شؤم أعمالهم (فانجيناه ومن معه) حسب دعائه (فى الفلك المشحون) أى المملوء بهم وبما لابد لهم منه (ثم أغرقنا) بعد انجائهم (الباقين) أى من قومه (ان فى ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو

العزيز الرحيم) الكلام فيه كالذي مر خلا ان حمل اكثرهم على اكثر قوم نوح أبعد من السداد وأبعد (كذبت عاد المرسلين) انث عادا باعتبار القبيلة وهو اسم أبيهم الاقصى (اذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون) الكلام في أن المراد بتكذيبهم و بما وقع فيه من الزمان ما ذا كما مر في صدر قصة نوح عليه السلام أي ﴿ ٥٤٨ ﴾ ألا تتقون الله فتفعلون ما تفعلون (اني لكم

بذكر الله تعالى والمراد بالساجدين المصلين (وثانيها) المعنى يراك حين تقوم للصلاة بالناس جماعة وتقلبه في الساجدين تصرفه فيما بينهم بقيامهم وركوعهم وسجودهم وقعودهم اذ كان اماما لهم (وثالثها) انه لا يخفى عليه حالك كما قمت وتقلبت مع الساجدين في كفاية أمور الدين (ورابعها) المراد تقلب بصره فيمن يصلي خلفه من قوله صلى الله عليه وسلم أتموا الركوع والسجود فوالله اني لأراكم من خلفي ثم قال انه هو السميع أي لما تقوله العليم أي بما تنوي بموتعمله وهذا يدل على ان كونه سميعا أمر معاير لعلمه بالمسموعات والا كان لفظ العليم بعيدا عائدته واعلم انه مر ي وتقلبك واعلم ان الرافضة ذهبوا الى ان آباء النبي صلى الله عليه وسلم كانوا مؤمنين وتمسكوا في ذلك بهذه الآية وبالخبر أما هذه الآية فقالوا قوله تعالى وتقلبك في الساجدين يحتمل الوجوه التي ذكرتم ويحتمل أن يكون المراد أن الله تعالى ينقل روحه من ساجد الى ساجد كما قوله نحن واذا حمل كل هذه الوجوه وجب حمل الآية على الكل ضرورة انه لا منافاة ولا رجحان وأما الخبر فقوله عليه السلام لم أزل أنقل من اصلاب الطاهرين الى ارحام الطاهرات وكل من كان كافرا فهو نجس لقوله تعالى انما المشركون نجس قالوا فان تمسكتم على فساد هذا المذهب بقوله تعالى واذ قال ابراهيم لابيه آزر قلنا الجواب عنه ان لفظ الاب قد يطلق على العم كما قال أبناء يعقوب له نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق فسموا اسمعيل اباله مع انه كان عمه وقال عليه السلام ردوا علي أبي يعني العباس ويحتمل أيضا أن يكون متخذا الاصنام أبا له فان هذا قد يقال له الاب قال تعالى ومن ذريته داود وسليمان الى قوله وعيسى فجعل عيسى من ذرية ابراهيم مع ان ابراهيم كان جده من قبل الام واعلم انا تمسكنا بقوله تعالى لأبيه آزر وما ذكروه صرف اللفظ عن ظاهره وأما حمل قوله وتقلبك في الساجدين على جميع الوجوه فغير جائز لما بينا أن حمل المشترك على كل معانيه غير جائز وأما الحديث فهو خبر واحد فلا يعارض القرآن ✲ قوله تعالى (هل انبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل افاك اثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) اعلم ان الله تعالى اعاد الشبهة المتقدمة وأجاب عنها من وجهين (الاول) قوله تنزل على كل افاك اثيم وذلك هو الذي قررناه فيما تقدم ان الكفار يدعون الى طاعة الشيطان ومحمد عليه السلام كان يدعو الى الله الشيطان والبراءة عنه (والثاني) قوله يلقون السمع وأكثرهم كاذبون والمراد انهم كانوا يقيسون حال النبي صلى الله عليه وسلم على حال سائر الكهنة فكأنه قيل لهم ان كان الامر على ما ذكرتم فكما ان الغالب على سائر الكهنة الكذب فيجب أن يكون حال الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك أيضا فلما لم يظهر في اخبار الرسول صلى الله عليه وسلم عن المغيبات الا الصدق علمنا ان حاله بخلاف حال الكهنة ثم ان المفسرين ذكروا في الآية وجوها أحدها انهم الشياطين روى انهم كانوا قبل ان حجبوا بالرجم يسمعون الى الملأ الاعلى فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب ثم يوحون به

يسمعون ربيع الارض لارتفاعها (آية) علما للمارة (تعبثون) أي ببنائها اذ كانوا يهتدون بالنجوم في أسفارهم فلا يحتاجون اليها او بروج الحمام أو بنيانا يجتمعون اليه ليعبثوا بمن مر عليهم أو قصورا عالية يفتخرون بها (وتتخذون مصانع) أي مآخذ الماء وقيل قصورا مشيدة وحصونا (لعلكم تخلدون) أي راجين أن تخلدوا في الدنيا أي عاملين ﴿ الى ﴾ عمل من يرجو ذلك فلذلك تحكمون

رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجري الا على رب العالمين) الكلام فيه كالذي مر

تصدير الآيات به للتنبيه على أن مبنى الدين هو الدعاء الى معرفة الحق والطاعة فيما يقرب المدعو الى الثواب ويبعده من العقاب وأن الانبياء عليهم الصلاة والسلام مجمعون على ذلك وان اختلفوا في بعض فروع الشرائع المختلفة باختلاف الازمنة والاعصار وأنهم منزهون عن المطامع الدنية والاغراض الدنيوية بالكلية (اتبنون بكل ريع)

بنيانها) واذا بطشتم) بسوط أوسيف (بطشتم جبارين) متسلطين غاشمين بلا رأفة ولا قصد تأديب ولا نظر فى العاقبة (فاتقوا الله) واتركوا هذه الافعال (واطيعون) فيما أدعوكم اليه فانه أنفع لكم (واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون) من أنواع النعماء وأصناف الآلاء ❊ ٥٤٩ ❊ اجملها أولا ثم فصلها بقوله (أمدكم بانعام و بنين)

الى أوليائهم وأكثرهم كاذبون فيما يوحى به اليهم لانهم يسمعونهم مالم يسمعوا وثانيها يلقون الى أوليائهم السمع أى المسموع من الملائكة وثالثها الافاكون يلقون السمع الى الشياطين فيلقون وحيهم اليهم ورابعها يلقون المسموع من الشياطين الى الناس وأكثر الافاكين كاذبون يفترون على الشياطين مالم يوحوا اليهم فان قلت بم يتعلق ماتحله قلت يجوز أن يكون فى محل النصب على الحال أى تنزل ملقين السمع وفى محل الجر صفة لكل افاك لانه فى معنى الجمع وأن لايكون له محل بان يستأنف كأنه قيل هل تنزل على الافاكين فقيل يفعلون كيت وكيت فان قلت كيف قال وأكثرهم كاذبون بعد ماقضى عليهم ان كل واحد منهم افاك قلت الافاكون هم الذين يكثرون الكذب لأنهم الذين لاينطقون الا بالكذب فاراد ان هؤلاء الافاكين كل من يصدق منهم فيما يحكى عن الجن وأكثرهم يفترى عليهم ❊ قوله تعالى (والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وانهم يقولون مالايفعلون الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ماظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) اعلم ان الكفار لما قالوا لم لايجوز أن يقال ان الشياطين تنزل بالقرآن على محمد كما انهم ينزلون بالكهانة على الكهنة وبالشعر على الشعراء ثم انه سبحانه فرق بين محمد صلى الله عليه وسلم وبين الكهنة فذكر ههنا مايدل على الفرق بينه عليه السلام وبين الشعراء وذلك هو أن الشعراء يتبعهم الغاوون أى الضالون ثم بين تلك الغواية بامرين (الاول) انهم فى كل واد يهيمون والمراد منه الطرق المختلفة كقولك اتانى وادوأنت فى واد وذلك لانهم قد يمدحون الشئ بعد أن ذموه و بالعكس وقد يعظمونه بعد ان استحقروه و بالعكس وذلك يدل على انهم لايطابون بشعرهم الحق ولا الصدق بخلاف أمر محمد صلى الله عليه وسلم فانه من أول أمره الى آخره بقى على طريق واحد وهو الدعوة الى الله تعالى والترغيب فى الآخرة والاعراض عن الدنيا (الثانى) انهم يقولون مالايفعلون وذلك أيضا من علامات الغواة فانهم يرغبون فى الجود و يرغبون عنه و ينفرون عن البخل و يصرون عليه و يقدحون فى الناس بادنى شئ صدر عن واحد من أسلافهم ثم انهم لايرتكبون الا الفواحش وذلك يدل على الغواية والضلالة وأما محمد صلى الله عليه وسلم فانه بدأ بنفسه حيث قال الله تعالى له فلاتدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين ثم بالاقرب فالاقرب حيث قال الله تعالى له وأنذر عشيرتك الاقربين وكل ذلك على خلاف طريقة الشعراء فقد ظهر بهذا الذى بيناه ان حال محمد صلى الله عليه وسلم ماكان يشبه حال الشعراء ثم ان الله تعالى لما وصف الشعراء بهذه الاوصاف الذميمة بيانا لهذا الفرق استثنى عنهم الموصوفين بامور اربعة (أحدها) الايمان وهو قوله الا الذين آمنوا (وثانيها) العمل الصالح وهو قوله وعملوا الصالحات (وثالثها) أن يكون شعرهم فى التوحيد والنبوة ودعوة الخلق الى الحق وهو قوله وذكروا الله كثيرا (ورابعها) أن لايذكروا هجو أحد

باعادة الفعل لزيادة التقرير فان التفصيل بعد الاجمال والتفسير اثر الابهام أدخل فى ذلك (وجنات وعيون انى أخاف عليكم) ان لم تقوموا بشكر هذه النعم (عذاب يوم عظيم) فى الدنيا والآخرة فان كفران النعمة مستتبع للعذاب كما أن شكرها مستلزم لزيادتها قال تعالى لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد (قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) فانا ان نرعوى عما نحن عليه وتغيير الشق الثانى عن مقابله للمبالغة فى بيان قلة اعتدادهم بوعظه كأنهم قالوا أم لم تكن من أهل الوعظ ومباشريه أصلا (ان هذا) ماهذا الذى جئتنا به (الاخلق الاولين) أى عادتهم كانوا يلفقون مثله و يسطرونه أوماهذا الذى نحن عليه من الدين الاخلق الاولين وعادتهم ونحن بهم

مقتدون أوماهذا الذى نحن عليه من الموت والحياة الاعادة قديمة لم يزل الناس عليها وقرئ خلق الاولين بفتح الخاء أى اختلاق الاولين كما قالوا أساطير الاولين أوماخلقنا هذا الا خلقهم نحيا كما حيوا ونموت كما ماتوا ولا بعث ولا حساب

(ومانحن بمعذبين) على مانحن عليه من الاعمال (فكذبوه) اى اصروا على ذلك (فاهلكناهم) بسببه بريح صرصر (ان فى ذلك لآية وماكان اكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم كذبت ثمود المرسلين اذقال لهم أخوهم صالح ألاتتقون) الله تعالى (انى لكم رسول أمين فاتقوا الله ﴿ ٥٥٠ ﴾ وأطيعون وماأسألكم عليه من أجران أجرى الا على

رب العالمين أتتركون فيما ههنا آمنين) انكار ونفى لأن يتركوا فيما هم فيه من النعمة أو تذكير للنعمة فى تخليته تعالى اياهم وأسباب تنعمهم آمنين وقوله تعالى (فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم) تفسير لما قبله من المبهم والهضيم اللطيف اللين للطف الثمر أولان النخل أنثى وطلع الاناث أضعف وهو مايطلع منها كنصل السيف فى جوفه كمغارج القنو أومتدل متكسر من كثرة الحمل وافراد النخل لفضله على سائر أشجار الجنات أولان المراد بها غيرها من الاشجار (وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين) بطرين أوحاذقين من الفراهة وهى النشاط فان الحاذق يعمل بنشاط وطيب قلب وقرئ فرهين وهو أبلغ (فاتقوا الله وأطيعون ولا تطيعوا أمر المسرفين) استعير الطاعة التى هى انقياد الآمر لامتثال الامر وارتسامه أو نسب حكم الآمر الى امره مجازا (الذين يفسدون فى الارض) وصف موضح لاسرافهم ولذلك ﴿ بالهدى ﴾ عطف (ولا يصلحون) على يفسدون لبيان خلوص افسادهم عن مخالطة الاصلاح (قالوا انما أنت من المسحرين) أى الذين سحروا حتى غلب على عقولهم أومن ذوى السحر أى الرئة

الاعلى سبيل الانتصار ممن هجوهم وهو قوله واستصروا من بعد ماظلموا قال الله تعالى لايحب الله الجهر بالسوء من القول الامن ظلم ثم ان الشرط فيه ترك الاعتداء لقوله تعالى فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم وقيل المراد بهذا الاستثناء عبدالله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير لانهم كانوا يهجون قريشا وعن كعب بن مالك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له اهجهم فوالذى نفسى بيده لهو اشد عليهم من رشق النبل وكان يقول لحسان بن ثابت قل وروح القدس معك وأما قوله تعالى وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون فالذى عندى فيه والله اعلم انه تعالى لما ذكر فى هذه السورة مايزيل الحزن عن قلب رسوله صلى الله عليه وسلم من الدلائل العقلية ومن أخبار الانبياء المتقدمين ثم ذكر الدلائل على نبوته عليه السلام ثم ذكر سوء حال المشركين فى تسميتهم محمدا صلى الله عليه وسلم تارة بالكاهن وتارة بالشاعر ثم انه تعالى بين الفرق بينه وبين الكاهن أولا ثم بين الفرق بينه وبين الشاعر ثانيا ختم السورة بهذا التهديد العظيم يعنى ان الذين ظلموا أنفسهم وأعرضوا عن تدبر هذه الآيات والتأمل فى هذه البينات فانهم سيعلمون بعد ذلك أى منقلب ينقلبون وقال الجمهور المراد منه الزجر عن الطريقة التى وصف الله بها هؤلاء الشعراء والاول أقرب الى نظم السورة من أولها الى آخرها والله أعلم والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد النبى الامى وآله وصحبه أجمعين وعلى أزواجه امهات المؤمنين وعلى التابعين لهم باحسان الى يوم الدين

* (سورة النمل تسعون وثلاث اواربع اوخمس آيات مكية) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين هدى وبشرى للمؤمنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) اعلم ان قوله تلك اشارة الى آيات السورة والكتاب المبين هو اللوح المحفوظ وانما نكره انه قد خط فيه كل ماهو كائن فالملائكة الناظرون فيه يبينون الكائنات وانما نكر الكتاب المبين ليصير مبهما بالتنكير فيكون افخم له كقوله فى مقعد صدق عند مليك مقتدر وقرأ ابن أبى عبلة وكتاب مبين بالرفع على تقدير وآيات كتاب مبين فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه فان قلت ماالفرق بين هذا وبين قوله الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين قلت لافرق لان واو العطف لاتقتضى الترتيب أما قوله هدى وبشرى للمؤمنين فهو فى محل النصب أو الرفع فالنصب على الحال أى هادية ومبشرة والعامل فيها مافى تلك من معنى الاشارة والرفع على ثلاثة أوجه على معنى هى هدى وبشرى وعلى البدل من الآيات وعلى أن يكون خبرا بعد خبر أى جمعت آياتها آيات الكتاب وانها هدى وبشرى واختلفوا فى وجه تخصيص الهدى بالمؤمنين على وجهين (الاول) المراد أن يهديهم الى الجنة وبشرى لهم كقوله تعالى فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما فلهذا اختص به المؤمنون (الثانى) المراد

أى من الانس فيكون قوله تعالى (ما أنت الا بشر مثلنا) تاكيدا له (فأت بآية ان كنت من الصادقين) أى فى دعواك (قال هذه ناقة) أى بعد ما أخرجها الله تعالى من الصخرة بدعائه عليه الصلاة والسلام حسبما مر تفصيله فى سورة الاعراف وسورة هود (لها شرب) ﴿ ٥٥١ ﴾ أى نصيب من الماء كالسقى والقيت للحط من السقى والقوت وقرئ بالضم (ولكم شرب يوم معلوم) فاقتنعوا بشربكم ولا تزاحموا على شربها (ولا تمسوها بسوء) كضرب وعقر (فيأخذكم عذاب يوم عظيم) وصف اليوم بالعظم لعظم ما يحل فيه وهو أبلغ من تعظيم العذاب (فعقروها) أسند العقر الى كلهم لما أن عاقرها عقرها برأيهم ولذلك عمهم العذاب (فأصبحوا نادمين) خوفا من حلول العذاب لا توبة أو عند معاينتهم لباديه ولذلك لم ينفعهم الندم وان كان بطريق التوبة (فأخذهم العذاب) أى العذاب الموعود (ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) قيل فى نفى الايمان عن أكثرهم فى هذا المعرض ايماء الى أنه لو آمن أكثرهم أو شطرهم لما أخذوا بالعذاب وان قريشا انما عصموا من مثله ببركة من آمن منهم وأنت خبير بأن قريشا هم المشهورون

بالهدى الدلالة ثم ذكروا فى تخصيصه بالمؤمنين وجوها (أحدها) انه انما خصه بالمؤمنين لانه ذكر مع الهدى البشرى والبشرى انما تكون للمؤمنين (وثانيها) ان وجه الاختصاص انهم تمسكوا به فخصهم بالذكر كقوله انما أنت منذر من يخشاها (وثالثها) المراد من كونها هدى للمؤمنين انها زائدة فى هداهم قال تعالى ويزيد الله الذين اهتدوا زادهم هدى أما قوله الذين يقيمون الصلاة فالاقرب انها الصلوات الخمس لان التعريف بالالف واللام يقتضى ذلك واقامة الصلاة أن يوتى بها بشرائطها وكذا القول فى الزكاة فانها هى الواجبة واقامتها وضعها فى حقها اما قوله وهم بالآخرة هم يوقنون ففيه سؤال وهو ان المؤمنين الذين يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة لابد وأن يكونوا متيقنين بالآخرة فما الوجه فى ذكره مرة أخرى جوابه من وجهين (الاول) أن يكون من جملة صلة الموصول ثم فيه وجهان الاول أن كمال الانسان فى أن يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل به وأما عرفان الحق فاقسام كثيرة لكن الذى يستفاد منه طريق النجاة معرفة المبدأ ومعرفة المعاد واما الخير الذى يعمل به فاقسام كثيرة واشرفها قسمان الطاعة بالنفس والطاعة بالمال فقوله للمؤمنين اشارة الى معرفة المبدأ وقوله يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة اشارة الى الطاعة بالنفس والمال وقوله وهم بالآخرة هم يوقنون اشارة الى علم المعاد فكأنه سبحانه وتعالى جعل معرفة المبدأ طرفا اولا ومعرفة المعاد طرفا أخيرا وجعل الطاعة بالنفس والمال متوسطا بينهما الثانى ان المؤمنين الذين يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة منهم من هو جازم بالحشر والنشر ومنهم من يكون شاكا فيه الا أنه يأتى بهذه الطاعات للاحتياط فيقول ان كنت مصيبا فيها فقد فزت بالسعادة وان كنت مخطئا فيها فهى تفنى الاخيرات قليلة فى هذه المدة اليسيرة فلن يأتى بالصلاة والزكاة على هذا الوجه لم يكن فى الحقيقة معتديا باقرآن أما من كان جازما بالآخرة كان مهتديا به فلهذا السبب ذكر هذا القيد (الثانى) ان يجعل قوله وهم بالآخرة هم يوقنون جملة اعتراضية كأنه قيل وهؤلاء الذين يؤمنون و يعملون الصالحات من اقامة الصلاة وايتاء الزكاة هم الموقنون بالآخرة وهذا هو الاقرب و يدل عليه انه عقد جملة ابتدائية وكرر فيها المبتدأ الذى هو هم حتى صار معناها ومايوقن بالآخرة حق الايقان الا هؤلاء الجامعون بين الايمان والعمل الصالح لان خوف العاقبة يحملهم على تحمل المشاق * قوله تعالى (ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم فى الآخرة هم الاخسرون) اعلم انه تعالى لما بين ما للمؤمنين من البشرى أتبعه بما على الكفار من سوء العذاب فقال ان الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم واختلف الناس فى انه كيف اسند تزيين أعمالهم الى ذاته مع أنه أسنده الى الشيطان فى قوله فزين لهم الشيطان اعمالهم فاما اصحابنا فقد أجروا الآية على ظاهرها وذلك لان الانسان لا يفعل البتة الا اذا دعاه الداعى الى الفعل والمعقول من الداعى هو

عدم ايمان أكثرهم (كذبت قوم لوط المرسلين اذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون انى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين) أى أتأتون من بين من عداكم من العالمين الذكران لا يشاركهم فيه غيركم أو أتأتون الذكران من أولاد آدم مع كثرتهم

وغلبة النساء فيهم مع كونهن اليق بالاستمتاع فالمراد بالعالمين على الاول كل ما ينكح من الحيوان وعلى الثانى الناس (وتذرون ما خلق لكم ربكم) لاجل استمتاعكم وكلمة من فى قوله تعالى (من أزواجكم) للبيان ان اريد بما جنس الاناث وهو الظاهر وللتبعيض ان أريد بها العضو المباح منهن تعريضا بأنهم ﴿ ٥٥٢ ﴾ كانوا يفعلون ذلك بنسائهم أيضا (بل أنتم قوم عادون) متعدون متجاوزون الحد فى جميع المعاصى وهذا من جملتها وقيل متجاوزون عن حد الشهوة حيث زادوا على سائر الناس بل الحيوانات (قالوا لئن لم تنته يا لوط) أى عن تقبيح أمرنا أو نهينا عنه او عن دعوى النبوة التى من جملة أحكامها التعرض لنا (لتكونن من المخرجين) أى من المنفيين من قريتنا وكانهم كانوا يخرجون من أخرجوه من بينهم على عنف وسوء حال (قال انى لعملكم من القالين) أى من المبغضين غاية البغض كما يقلى الفؤاد والكبد لشدته وهو أبلغ من ان يقال فى لعملكم قالون دلالة على انه عليه الصلاة والسلام من زمرة الراسخين فى بغضه الشهوتين فى قلبه وله عليه الصلاة والسلام أراد اظهار الكراهة فى مساكنتهم والرغبة فى الخلاص من سوء جوارهم ولذلك اعرض عن محاورتهم وتوجه الى الله تعالى قائلا (رب نجنى وأهلى مما يعملون) أى من شؤم عملهم وغائلته (فنجيناه وأهله أجمعين) اى اهل بيته ومن ﴿ فان ﴾ اتبعه فى الدين باخراجهم من بينهم عنده مشارفة حلول العذاب بهم (الا عجوزا) هى امرأة لوط استثنيت

العلم والاعتقاد والظن يكون الفعل مشتملا على منفعة وهذا الداعى لابد وان يكون من فعل الله تعالى لوجهين (الاول) انه لو كان من فعل العبد لافتقر فيه الى داع آخر ويلزم التسلسل وهو محال (الثانى) وهو ان العلم اما أن يكون ضروريا أو كسبيا فان كان ضروريا فلا بد فيه من تصورين والتصور يمتنع أن يكون مكتسبا لان المكتسب ان كان شاعرا به فهو متصور له وتحصيل الحاصل محال وان لم يكن شاعرا به كان غافلا عنه والغافل عن الشئ يمتنع أن يكون طالبا له فان قلت هو مشعور به من وجه دون وجه قلت فالمشعور به غير ما هو مشعور به فيعود التقسيم المتقدم فى كل واحد من هذين الوجهين واذا ثبت ان التصور غير مكتسب البتة والعلم الضرورى هو الذى يكون حضور كل واحد من تصوريه كافيا فى حصول التصديق فالتصورات غير كسبية وهى مستلزمة للتصديقات فاذن متى حصلت التصورات حصل التصديق لامحالة ومتى لم تحصل لم يحصل التصديق البتة فحصول هذه التصديقات البديهية ليس بالكسب ثم ان تلك التصديقات البديهية ان كانت مستلزمة للتصديقات النظرية لم تكن التصديقات النظرية كسبية لان اللازم الضرورى ضرورى وان لم تكن مستلزمة لها لم تكن تلك الاشياء التى فرضناها علوما نظرية كذلك بل هى اعتقادات تقليدية لانه لامعنى لاعتقاد المقلد الا اعتقاد تحسين بفعله استبدادا من غير أن يكون له موجب فثبت بهذا أن العلوم بأسرها ضرورية وثبت ان مبادى الافعال هى العلوم فافعال العباد بأسرها ضرورية والانسان مضطر فى صورة مختار فثبت أن الله تعالى هو الذى زين لكل عامل عمله والمراد من التزيين هو ان يخلق فى قلبه العلم بما فيه من المنافع واللذات ولا يخلق فى قلبه العلم بما فيه من المضار والآفات وقد ثبت بهذه الدلائل القاطعة العقلية وجوب اجراء هذه الآية على ظاهرها أما المعتزلة فانهم ذكروا فى تأويلها وجوها (أحدها) ان المراد بيناله أمر الدين وما يلزمهم أن يفعلوه وزينا له بان بينا حسنه وما لهم فيه من الثواب لان التزيين من الله تعالى ليس الا توصيفه بانه حسن وواجب وحميد العاقبة وهو المراد من قوله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم ومعنى فهم يعمهون يدل على ذلك لان المراد فهم يعدلون ويصرفون عما زينا من أعمالهم (ثانيها) انه تعالى لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق جعلوا انعام الله تعالى بذلك عليهم ذريعة الى اتباع شهواتهم وعدم الانقياد لما يلزمهم من التكاليف فكانه تعالى زين بذلك أعمالهم واليه اشارة الملائكة عليهم السلام فى قولهم ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر (وثالثها) ان امهاله الشيطان وتخليته حتى يزين لهم ملابسة ظاهرة للتزيين فاسند اليه والجواب عن الاول أن قوله تعالى أعمالهم صيغة عموم توجب أن يكون الله تعالى قد زين لهم كل أعمالهم حسنا كان العمل أو قبيحا ومعنى التزيين قد قدمناه وعن الثانى ان الله تعالى لما متعهم بطول العمر وسعة الرزق فهل لهذه الامور اثر فى ترجيح فاعلية المعصية على تركها أو ليس لها فيه أثر

من أهله فلا يضره كونها كافرة لان لها شركة فى الاهلية بحق الزواج (فى الغابرين) اى مقدرا كونها من الباقين فى العذاب لانها كانت مائلة الى القوم راضية بفعلهم وقد أصابها الحجر فى الطريق فأهلكها كما مر فى سورة الحجر وسورة هود وقيل كانت فيمن بقى فى القرية ولم تخرج مع لوط عليه السلام (ثم دمرنا الآخرين) أهلكناهم أشد اهلاك

فان كان الاول فقد دل للتأمل على ان الترجيح متى حصل فلا بد وان ينتهى الى حد الاستلزام وحينئذ يحصل الغرض وان لم يكن فيه اثر صارت هذه الاشياء بالنسبة الى أعمالهم كصرير الباب ونعيق الغراب وذلك يمنع من استناد فعلهم اليها وهذا بعينه هو الجواب عن التأويل الثالث الذى ذكروه والله أعلم (أما قوله تعالى فهم يعمهون فالعمه التحير والتردد كما يكون حال الضال عن الطريق (أما قوله أولئك الذين لهم سوء العذاب ففيه وجهان (الاول) انه القتل والاسر يوم بدر (والثانى) عطف العذاب سواء كان فى الدنيا أو فى الآخرة والمراد بالسوء شدته وعظمه وأما قوله هم الاخسرون ففيه وجهان (الاول) انه لا خسران أعظم من أن يخسر المرء نفسه بان يسبب عدم الصحة والسلامة فى الدنيا او يسلم فى الآخرة الى العذاب العظيم (الثانى) المراد انهم خسروا وامتازوا لهم فى الجنة لو أطاعوا فانه لا مكلف الا وعين له منزل فى الجنة لو أطاع فاذا عصى عمل به الى غيره فيكون قد خسر ذلك المنزل * قوله تعالى (وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم اذ قال موسى لاهله انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر أو آتيكم بشهاب قبس لعلكم تصطلون فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين يا موسى انه أنا الله العزيز الحكيم) أما قوله وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم فمعناه لتؤتاه وتلقاه من عند أى حكيم وأى عليم وهذا معنى مجيئهما نكرتين وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الاقاصيص واذ منصوب بمضمر وهو اذكر كأنه قال على أثر ذلك خذ من آثار حكمته وعلمه قصة موسى ويجوز أن ينتصب بعليم فان قيل الحكمة اما أن تكون نفس العلم واما أن يكون العلم داخلا فيها فلما ذكر الحكمة فلم ذكر العلم جوابه الحكمة هى العلم بالامور العملية فقط والعلم أعم منه لان العلم قد يكون عمليا وقد يكون نظريا والعلوم النظرية أشرف من العلوم العملية فذكر الحكمة المشتملة على العلوم العملية ثم ذكر العليم وهو البالغ فى كمال العلم وكمال العلم يحصل من جهات ثلاثة وحدته وعموم تعلقه بكل المعلومات وبقاؤه مصونا عن كل التغيرات وما حصلت هذه الكمالات الثلاثة الا فى علمه سبحانه وتعالى واعلم أن الله تعالى ذكر فى هذه السورة أنواعا من القصص (القصة الاولى) قصة موسى عليه الصلاة والسلام أما قوله اذ قال موسى لاهله فيدل على انه لم يكن مع موسى عليه السلام غير امرأته ابنة شعيب عليه السلام وقد كنى الله تعالى عنها بالاهل فتبع ذلك ورود الخطاب على لفظ الجمع وهو قوله امكثوا أما قوله انى آنست نارا فالمعنى انهما كانا يسيران ليلا وقد اشتبه الطريق عليهما والوقت وقت برد وفى مثل هذا الحال تقوى النفس بمشاهدة نار من بعد مما يرجى فيها من زوال الحيرة فى أمر الطريق ومن الانتفاع بالنار للاصطلاء فلذلك بشرها فقال انى آنست نارا وقد اختلفوا فقال بعضهم المراد أبصرت ورأيت وقال آخرون بل المراد صادفت ووجدت فآنست به والاول أقرب لانهم لا يفرقون بين

وأقطعه (وأمطرنا عليهم مطرا) اى مطرا غير معهود قيل أمطر الله تعالى على شذاذ القوم حجارة فأهلكتهم (فساء مطر المنذرين) اللام فيه للجنس وساء تستعمل وقوع المضاف اليه فاعل ساء والمخصوص بالذم محذوف وهو مطرهم (ان فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم كذب أصحاب ليكة المرسلين) الأيكة الغيضة التى تنبت ناعم الشجر وهى غيضة بقرب مدين يسكنها طائفة وكانوا ممن بعث اليهم شعيب عليه السلام وكان أجنبيا منهم ولذلك قيل (اذ قال لهم شعيب الا تتقون) ولم يقل أخوهم وقيل الأيكة الشجر الملتف وكان شجرهم الدوم وهو المقل وقرئ بحذف الهمزة والقاء حركتها على اللام وقرئت كذلك مفتوحة على أنها ليكة وهى اسم بلدهم وانما كتبت ههنا واو فى ص

بغير ألف اتباعا للفظ * ٧٠ * س اللافظ (اى لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون وما أسألكم عليه من أجر ان أجرى الا على رب العالمين أوفوا الكيل) اى أتموه (ولا تكونوا من المخسرين) اى حقوق الناس بالتطفيف (وزنوا) اى الموزونات (بالقسطاس المستقيم) بالميزان السوى وهو ان كان عربيا فان كان من القسط

فعلاس بتكرير العين والافعلال وقرئ بضم القاف (ولا تبخسوا الناس اشياءهم) اى لا تنقصوا شيأ من حقوقهم اى حق كان وهذا تعميم بعد تخصيص بعض المواد بالذكر لغاية انهماكهم فيها (ولا تعثوا فى الارض مفسدين) بالقتل والغارة وقطع الطريق (واتقوا الذى خلقكم والجبلة ﴿ ٥٥٤ ﴾ الاولين) اى وذوى الجبلة الاولين وهم من تقدمهم من الخلائق وقرئ بضم الجيم والباء وبكسر الجيم وسكون الباء كالخلقة (قالوا انما أنت من المسحرين وما أنت الا بشر مثلنا) ادخال الواو بين الجملتين للدلالة على أن كلا من التسحير والبشرية مناف للرسالة مبالغة فى التكذيب (وان نظنك لمن الكاذبين) اى فيما تدعيه من النبوة (فاسقط علينا كسفا من السماء) اى قطعا وقرئ بسكون السين وهو أيضا جمع كسفة وقرئ الكسف والكسفة كالريع والريعة وهى القطعة والمراد بالسماء اما السحاب أو المظلة وهذا جواب لما أشعر به الامر بالتقوى من انهم يدعون أن كنت من الصادقين فى دعواك ولم يكن طلبهم ذلك الا لتصميمهم على الجحود والتكذيب والا لما أخطروه ببالهم فضلا أن يطلبوه (قال ربى أعلم بما تعملون) من الكفر والمعاصى وبما تستحقون بسببه من العذاب فسينزله عليكم فى وقته المقدر له لا محالة (فكذبوه) اى فتمادوا على تكذيبه وأصروا عليه (فأخذهم عذاب يوم الظلة) حسبما اقترحوا ﴿ الوحى ﴾

قول القائل انست ببصرى ورأيت ببصرى أما قوله سآتيكم منها بخبر فالخبر ما يخبر به عن حال الطريق لانه كان قد ضل ثم فى الكلام حذف وهو انه لما أبصر النار توجه اليها وقال سآتيكم منها بخبر يعرف به الطريق أما قوله أو آتيكم بشهاب قبس فالشهاب الشعلة والقبس النار المقبوسة وأضاف الشهاب الى القبس لانه يكون قبسا وغير قبس ومن قرأ بالتنوين جعل القبس بدلا أو صفة لما فيه من معنى القبس ثم ههنا أسئلة (السؤال الاول) سآتيكم منها بخبر ولعلى آتيكم منها بخبر كالمتردد فعين لان احدهما ترج والآخر تيقن نقول جوابه قد يقول الراجى اذا قوى رجاؤه سافعل كذا وسيكون كذا مع تجويزه الخيبة (السؤال الثانى) كيف جاء بسين التسويف جوابه عدة منه لاهله انه يأتيهم به وان أبطأ أو كانت المسافة بعيدة (السؤال الثالث) لماذا أدخل أو بين الامرين وهلا جمع بينهما لحاجته اليهما معا جوابه بنى الرجاء على انه ان لم يظفر بهذين المقصودين ظفر باحدهما اما هداية الطريق واما اقتباس النار ثقة بعادة الله تعالى لانه لا يكاد يجمع بين حرمانين على عبده وأما قوله تعالى لعلكم تصطلون فلمعنى لكى تصطلوا وذلك يدل على حاجة بهم الى الاصطلاء وحينئذ يكون كذلك الا فى حال برد ✻ أما قوله تعالى نودى أن بورك من فى النار ومن حولها وسبحان الله رب العالمين ففيه ابحاث (البحث الاول) أن أن هى المفسرة لان النداء فيه معنى القول والمعنى قيل له بورك (البحث الثانى) اختلفوا فيمن فى النار على وجوه (أحدها) أن بورك بمعنى تبارك والنار بمعنى النور والمعنى تبارك من فى النور وذلك هو الله سبحانه ومن حولها يعنى الملائكة وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما وان صح فالمراد بان هذه الرواية موضوعة مختلقة (وثانيها) من فى النار هو نور الله ومن حولها الملائكة وهو مروى عن قتادة والزجاج (وثالثها) ان الله تعالى تكلم بكلام سمعه من الشجرة فى البقعة المباركة فكانت الشجرة محلا للكلام والله هو المتكلم لا انه حل فيه دخل الشجرة ثم ان الشجرة كانت فى النار ومن حولها الملائكة فكذلك قال بورك من فى النار ومن حولها وهو قول الجبائى (ورابعها) من فى النار هو موسى عليه السلام والقرب منها ومن حولها يعنى الملائكة وهذا أقرب لان القريب من الشئ قد يقال انه فيه (وخامسها) هو قول صاحب الكشاف بورك من فى النار اى فى من مكان النار ومن حول مكانها ومكانها هى البقعة التى حصلت فيها وهى البقعة المباركة المذكورة فى قوله تعالى من شاطئ الوادى الايمن فى البقعة المباركة ويدل عليه قراءة أبى تباركت الارض ومن حولها وعنه أيضا بوركت النار (البحث الثالث) السبب الذى لاجله بوركت البقعة وبورك من فيها وحواليها حدوث هذا الامر العظيم فيها وهو تكليم الله موسى عليه السلام وجعله رسولا واظهار المعجزات عليه ولهذا جعل الله أرض الشام موسومة بالبركات فى قوله ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين وحقت أن تكون كذلك فهى مبعث الانبياء صلوات الله عليهم ومهبط الوحى

أما ان أرادوا بالسماء السحاب فظاهر وأما ان ارادوا المظلة فلان نزول العذاب من جهتها وفى اضافة العذاب الى يوم الظلة دون نفسها ايذان بان لهم يومئذ عذابا آخر غير عذاب الظلة

وذلك بان سلط الله عليهم الحر سبعة أيام ولياليها فاخذ بانفاسهم لا ينفعهم ظل ولا ماء ولا شراب فاضطروا الى أن خرجوا الى البرية فأظلتهم سحابة وجدوا لها بردا ونسيما فاجتمعوا تحتها فامطرت عليهم نارا فاحترقوا جميعا وروى أن شعيبا عليه السلام بعث الى أمتين أصحاب مدين وأصحاب ﴿ ooo ﴾ الأيكة فأهلكت مدين بالصيحة والرجفة وأصحاب الأيكة

الوحي وكفاتهم أحياء وأمواتا (البحث الرابع) انه سبحانه جعل هذا القول مقدمة لاجابة موسى عليه السلام فقوله بورك من في النار ومن حولها يدل على أنه قد قضى أمر عظيم تتشرف الملائكة منذ خلق الله السماوات والارض كلها بسماعه وقوله وسبحان الله رب العالمين فيه فائدتان (احداهما) انه سبحانه نزه نفسه عما لا يليق به في ذاته وكمنه يكون ذلك مقدمة في صحة رسالته موسى عليه السلام (الثانية) أن يكون ذلك ايذانا بان ذلك الامر مريده ومكونه رب العالمين تنبيها على أن الكائن من جلائل الامور وعظائم الوقائع أما قوله انه أنا الله العزيز الحكيم فقال صاحب الكشاف الهاء في انه يجوز أن يكون ضمير الشان وأنا الله مبتدأ وخبر والعزيز الحكيم صفتان للخبر وأن يكون راجعا الى ما دل عليه ما قبله يعني ان مكلمك أنا والله بيان لانا والعزيز الحكيم صفتان للتعيين وهذا تمهيد لما أراد أن يظهره على يده من المعجزة يريد أنا القوي القادر على ما يعد من الاوهام كقلب العصا حية الفاعل ما أفعله بحكمة وتدبير فان قيل هذا النداء يجوز أن يكون من عند غير الله تعالى فكيف علم موسى عليه السلام انه من الله جوابه لاهل السنة فيه طريقان (الاول) انه سمع الكلام المنزه عن مشابهة الحرف والاصوات فعلم بالضرورة انه صفة الله تعالى (الثاني) قول أئمتنا وراء النهر وهو انه عليه السلام سمع الصوت من الشجرة فقول العاقل يعرف ان ذلك من الله تعالى لامور (أحدها) ان النداء اذا حصل في النار أو الشجرة علم انه من قبل الله تعالى لان أحدا منا لا يقدر عليه وهو ضعيف لاحتمال أن يقال الشيطان دخل في النار والشجرة ثم نادى (وثانيها) يجوز في نفس النداء أن يكون قد بلغ في العظم مبلغا لا يكون الا معجزا وهو أيضا ضعيف لانا لا نعرف مقادير قوى الملائكة والشياطين فلا قدر الا ويجوز صدوره منهم (وثالثها) انه قد اقترن به معجز دل على ذلك فقيل ان النار كانت مشتعلة في شجرة خضراء لم تحترق فصار ذلك كالمعجز وهذا هو الاصح والله أعلم * قوله تعالى (وألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب ياموسى لا تخف اني لا يخاف لدي المرسلون الا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فاني غفور رحيم وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات الى فرعون وقومه انهم كانوا قوما فاسقين فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) اعلم أن أكثر ما في هذا الآيات قد مر شرحه ولنذكر ما هو من خواص هذا الموضع يقال علام عطف قوله وألق عصاك جوابه على بورك لان المعنى نودي ان بورك من في النار وان ألق عصاك كلاهما تفسير لنودي أما قوله كانها جان فالجان الحية الصغيرة سميت جانا لانها تستتر عن الناس وقرأ الحسن جان على لغة من يهرب من التقاء الساكنين فيقول شابة ودابة أما قوله ولم يعقب معناه لم يرجع يقال عقب المقاتل اذا مر بعد الفرار وانما خاف لظنه ان ذلك لامر أريد به ويدل عليه اني لا يخاف لدي المرسلون وقال بعضهم المراد اني اذا

بعذاب يوم الظلة (انه كان عذاب يوم عظيم) اي في الشدة والهول وفظاعة ما وقع فيه من الطامة والداهية التامة (ان في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وان ربك لهو العزيز الرحيم) هذا آخر القصص السبع التي أوحيت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لصرفه عليه الصلاة والسلام عن الحرص على اسلام قومه وقطع رجائه عنه ودفع تحسره على فواته تحقيقا لمضمون ما مر في مطلع السورة الكريمة من قوله تعالى وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث الا كانوا عنه معرضين فقد كذبوا بالحق الآية فان كل واحدة من هذه القصص ذكر مستقل متجدد النزول قد أتاهم من جهته تعالى بموجب رحمته الواسعة وما كان أكثرهم مؤمنين بعد ما سمعوها على التفصيل قصة بعد قصة لابان يتدبروا فيها ويعتبروا بما في كل واحدة منها من الدواعي الى الايمان والزواجر عن الكفر والطغيان ولابان يتاملوا في شان الآيات الكريمة الناطقة بتلك القصص على ما هي عليه مع علمهم بانه عليه الصلاة والسلام لم يسمع شيئا منها من أحد أصلا واستمروا على ما كانوا عليه من الكفر والضلال كأن لم يسمعوا شيئا يزجرهم عن ذلك قطعا كما حقق

فى خاتمة قصة موسى عليه السلام (وانه) اى ماذكر من الآيات الكريمة الناطقة بالقصص المحكية أو القرآن الذى هى من جملته (لتنزيل رب العالمين) اى منزل من جهته تعالى سمى به مبالغة ووصفه تعالى بربوبية العالمين للايذان بان تنزيله من أحكام تربيته تعالى ورأفته للكل كقوله تعالى وما أرسلناك الا رحمة للعالمين (نزل به) اى أنزله (الروح الامين) اى جبريل عليه السلام فانه أمين وحيه تعالى وموصله الى أنبيائه عليهم الصلاة والسلام وقرئ بتشديد الزاى ونصب الروح والامين اى جعل الله تعالى الروح الامين نازلا به (على قلبك) اى روحك وان أريد به العضو فتخصيصه به لان المعانى الروحانية تنزل أولا على الروح ثم تنتقل منه الى القلب لما بينهما من التعلق ثم تتصعد الى الدماغ فتنقش بها الروح المتخيلة (لتكون من المنذرين) متعلق بنزل به اى أنزله لتنذرهم بما فى تضاعيفه من العقوبات الهائلة وايثار ما لسه النظم الكريم للدلالة على انتظامه عليه الصلاة والسلام فى سلك أولئك المنذرين المشهورين فى حقية الرسالة وتقرر وقوع العذاب المنذر (بلسان عربى مبين) واضح المعنى ظاهر المدلول لئلا يبقى لهم عذر ما وهو أيضا متعلق بنزل به وتاخيره للاعتناء بامر الانذار وللايماء الى أن مدار كونه من جملة المنذرين المذكورين عليهم السلام ﴿ المؤمنين ﴾ مجرد انزاله عليه عليه الصلاة والسلام لا انزاله باللسان العربى وجعله متعلقا بالمنذرين كما جوزه الجمهور ويؤدى أن غاية الانزال كونه عليه الصلاة والسلام من جملة المنذرين باللغة العربية فقط

أمرتهم باظهار معجز فينبغى أن لا يخافوا فيما يتعلق باظهار ذلك والا فالمرسل قد يخاف لا محالة أما قوله تعالى الا من ظلم معناه لكن من ظلم وهو محمول على ما يصدر من الانبياء من ترك الافضل أو الصغيرة ويحتمل أن يكون المقصود منه التعريض بما وجد من موسى وهو من التعريضات اللطيفة قال الحسن رحمه الله كان والله موسى ممن ظلم يقتل القبطى ثم بدل فانه عليه السلام قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى وقرئ الا من ظلم بحرف التنبيه أما قوله تعالى ثم بدل حسنا بعد سوء فالمراد حسن التوبة وسوء الذنب وعن أبى بكر فى رواية عاصم حسنا أما قوله فى تسع آيات فهو كلام مستأنف وحرف الجر فيه يتعلق بمحذوف والمعنى اذهب فى تسع آيات الى فرعون وقائل أن يقول كانت الآيات احدى عشرة ثنتان منها اليد والعصا والتسع الفلق والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمسة والجدب فى بواديهم والنقصان فى مزارعهم أما قوله فلما جاءتهم آياتنا مبصرة فقد جعل الابصار لها وهو فى الحقيقة لمتأملها وذلك بسبب نظرهم وتفكرهم فيها او جعلت كانها الظهورها تبصرة هدى وقرأ على بن الحسين وقتادة مبصرة وهو نحو محبنة ومبخلة اى مكان يكثر فيه التبصر أما قوله واستيقنتها أنفسهم فالواو فيها واو الحال وقد بعدها مضمرة وزيدة ذكر الانفس انهم جحدوها بألسنتهم واستقنوها فى قلوبهم وصمائرهم والاستيقان أبلغ من الايقان أما له ظلما وعلوا فأى ظلم أفحش من ظلمهم باستيقنوا انها آيات بينة من عند الله تعالى ثم كابروا بتسميتها سحرا مبينا وأما العلو فهو الكبر والترفع عن الايمان بما جاء به موسى كقوله فاستكبروا وكانوا قوما عالين وقرئ عليا وعليا بالضم والكسر كما قرئ عتيا وعتيا والله أعلم (القصة الثانية) فضل داود وسليمان عليهما الصلاة والسلام ☆ قوله تعالى (ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شئ ان هذا لهو الفضل المبين وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون حتى اذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) أما قوله تعالى علما فالمراد طائفة من العلم أو علما سنيا عزيزا فان قيل أليس هذا موضع الفاء دون الواو كقولك أعطيته فشكر جوابه ان الشكر باللسان انما يحسن موقعه اذا كان مسبوقا بعمل القلب وهو العزم على فعل الطاعة وترك المعصية وبعمل الجوارح وهو الاشتغال بالطاعات ولما كان الشكر باللسان يجب كونه مسبوقا بهما فلا جرم صار كأنه قال ولقد آتيناهما علما فعملا به قلبا وقالبا وقالا باللسان الحمد لله الذى فعل كذا وكذا وأما قوله تعالى الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده

من هود وصالح وشعيب عليهم السلام ولا يخفى فساده كيف لا والطامة الكبرى في باب الانذار ما أنذره نوح وموسى عليهما السلام وأشد الزواجر تأثيرا في قلوب المشركين ما أنذره ابراهيم عليه السلام لاتمائهم اليه وادعائهم أنهم على ملته عليه الصلاة والسلام (وانه لفي زبر ﴿ ٥٥٧ ﴾ الاولين) اى وان ذكره أو معناه في الكتب المتقدمة فان

المؤمنين ففيه ابحاث (احدها) ان الكثير المفضل عليه هو من لم يؤت علما أو من لم يؤت مثل علمهما وفيه انهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير (وثانيها) في الآية دليل على علو مرتبة العلم لانهما أوتيا من الملك ما لم يؤت غيرهما فلم يكن شكرهما على الملك كشكرهما على العلم (وثالثها) أنهم لم يفضلوا أنفسهم على الكل وذلك يدل على حسن التواضع (ورابعها) ان الظاهر يقتضي أن تلك الفضيلة ليست الا ذلك العلم ثم العلم بالله وبصفاته أشرف من غيره فوجب أن يكون هذا الشكر ليس الا على هذا العلم ثم ان هذا العلم حاصل لجميع المؤمنين فيستحيل أن يكون ذلك سببا لفضيلتهم على المؤمنين فاذن الفضيلة هو أن يصير العلم بالله وبصفاته جليا بحيث يصير المرء مستغرقا فيه بحيث لا يخطر بباله شئ من الشبهات ولا يغفل القلب عنه في حين من الاحيان ولا ساعة من الساعات أما قوله تعالى وورث سليمان داود فقد اختلفوا فيه فقال الحسن المال لان النبوة عطية مبتدأة ولا تورث وقال غيره بل النبوة وقال آخرون بل الملك والسياسة ولو تأمل الحسن علم أن المال اذا ورثه الولد فهو أيضا عطية مبتدأة من الله تعالى وكذلك يرث الولد اذا كان مؤمنا ولا يرث اذا كان كافرا أو قاتلا لكن الله تعالى جعل سبب الارث فيمن يرث الموت على شرائط وليس كذلك النبوة لان الموت لا يكون سببا لنبوة أحد فمن هذا الوجه يفترقان وذلك لا يمنع من أن يوصف بأنه ورث النبوة لما ظهر به عند موته كما يرث الولد المال اذا قام به عند موته وما بينا ما قلناه ان الله تعالى لو فصل فقال ووورث سليمان داود ماله لم يكن لقوله وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير معنى واذا قلنا ورث مقامه من النبوة والملك حسن ذلك لان تعليم منطق الطير يكون داخلا في جملة ما ورثه وكذلك قوله تعالى وأوتينا من كل شئ لان وارث الملك يجمع ذلك ويورث المال لا يجمعه وقوله ان هذا لهو الفضل المبين لا يليق أيضا الا بما ذكرنا دون المال الذي قد يحصل للكامل والناقص وما ذكره الله تعالى من جنود سليمان بعده لا يليق الا بما ذكرناه فبطل بما ذكرنا قول من زعم انه ما ورث الا المال فاما اذا قيل ورث المال والملك معا فهذا لا يبطل بالوجوه التي ذكرنا سابقا بظاهر قوله عليه السلام نحن معاشر الانبياء لا نورث وأما قوله يا أيها الناس فالمقصود منه تشهير نعمة الله تعالى والتنويه بها ودعاء الناس الى التصديق بذكر المعجزة التي هي علم منطق الطير قال صاحب الكشاف المنطق كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد وقد ترجم يعقوب كتابه باسلاح المنطق وما أصلح فيه الا مفردات الكلم وقالت العرب نطقت الحمامة فالذي علم سليمان عليه السلام من منطق الطير هو ما يفهم بعضه من بعض من مقاصده وأغراضه وأما قوله تعالى وأوتينا من كل شئ فالمراد كثرة ما أوتي وذلك لان الكل والبعض الكثير يشتركان في صفة الكثرة والمشاركة سبب لجواز الاستعارة فلا جرم يطلق لفظ الكل على الكثير ومثله قوله وأوتيت من كل شئ أما قوله ان هذا لهو الفضل المبين فهو تقرير لقوله الحمد لله الذي فضلنا والمقصود منه الشكر

أحكامه التي لا تحتمل النسخ والتبديل بحسب تبدل الاعصار من التوحيد وسائر ما يتعلق بالذات والصفات مسطورة فيها وكذا ما في تضاعيفه من المواعظ والقصص وقيل الضمير لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بواضح (أولم يكن لهم آية) الهمزة للانكار والنفي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام كأنه قيل أغفلوا عن ذلك ولم يكن لهم آية دالة على أنه تنزيل من رب العالمين وأنه في زبر الاولين على أن لهم متعلق بالكون قدم على اسمه وخبره للاهتمام به أو بمحذوف هو حال من آية قدمت عليها لكونها نكرة وآية خبر للكون قدم على اسمه الذي هو قوله تعالى (أن يعلمه علماء بني اسرائيل) لما مر مرارا من الاعتناء بالمقدم والتشويق الى المؤخر اى أن يعرفوه بنعوته المذكورة في كتبهم ويعرفوا من انزل عليه وقرئ تكن بالتانيث وجعلت آية اسما وأن يعلمه خبرا وفيه ضعف حيث وقع النكرة اسما والمعرفة خبرا وقد قيل في تكن ضمير القصة وآية أن يعلمه جملة واقعة موقع الخبر ويجوز أن يكون لهم آية هي جملة الشان وأن يعلمه بدلا من آية ويجوز مع نصب آية تأنيث تكن كما في قوله تعالى ثم لم تكن فتنتهم الا أن

قالوا وقرئ نعلمه بالتاء (ولو نزلناه) كما هو بنظمه الرائق المعجز (على بعض الاعجمين) الذين لا يقدرون على التكلم بالعربية وهو جمع أعجمي على التخفيف ولذلك جمع ﴿ ٥٥٨ ﴾ جمع السلامة وقرئ الاعجميين وفي نغطالبعض اشاره الى كون ذلك واحدا من عرض تلك الطائفة كائنا من كان (فقرأه عليهم) قراءة صحيحة خارقة للعادات (ما كانوا به مؤمنين) مع انضمام اعجاز القراءة الى اعجاز المقروء لفرط عنادهم وشدة شكيمتهم في المكابرة وقيل المعنى ولو نزلناه على بعض الاعجمين بلغة العجم فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين لعدم فهمهم واستنكافهم من اتباع العجم وليس بذاك فانه بمعزل من المناسبة لمقام بيان تماديهم في المكابرة والعناد (كذلك سلكناه) اى مثل ذلك السلك البديع المذكور سلكناه اى أدخلنا القرآن (في قلوب المجرمين) ففهموا معانيه وعرفوا فصاحته وأنه خارج عن القوى البشرية من حيث النظم المعجز ومن حيث الاخبار عن الغيب وقد انضم اليه اتفاق علماء أهل الكتب المنزلة قبله على تضمنها للبشارة بانزاله وبعثة من أنزل عليه باوصافه فقوله تعالى (لا يؤمنون) جملة مستأنفة مسوقة لبيان انهم لا يتأثرون بامثال تلك الامور ﴿ في بعض ﴾ الداعية الى الايمان به بل يستمرون على ما هم عليه (حتى يروا العذاب الاليم) المجئ الى الايمان به حين لا ينفعهم الايمان (فيأتيهم بغتة) اى فجأة في الدنيا والآخرة (وهم لا يشعرون)

والمحمدة كما قال عليه السلام أنا سيد ولد آدم ولا فخر فان قيل كيف قال علما وأوتينا وهو من كلام الكبرين جوابه من وجهين الاول أن يريد نفسه رأيا والثاني أن هذه الامور يقال انها نوال الواحد المطاع وكان ملكا مطاعا وقد يتعاق بتعظيم الملك مصالح لا تحصر فيصير ذلك التعظيم واجبا وأما قوله وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فالحشر هو الاحضار والجمع من الاماكن المختلفة والمعنى انه جعل الله تعالى كل هذه الاصناف جنوده ولا يكون كذلك الا بأن يتصرف على مراده ولا يكون كذلك الا مع العقل الذي يصح معه التكليف أو يكون بمنزلة الراهق الذي قد قارب حد التكليف فلذلك قلنا ان الله تعالى جعل الطير في أيامه عاقلا وليس كذلك حال الطيور في أيامنا وأما كل فيها ما قد أنهمه الله تعالى الدقائق التي خصت بالحاجة اليها أو خصها الله بها لمنافع العباد كالنحل وغيره وأما قوله تعالى فهم يوزعون معناه يحبسون وهذا لا يكون الا اذا كان في كل قبيل منها وازع ويكون له تسلط على من يرده ويكفه ويصرفه فالظاهر يشهد بهذا القدر والذي جاء في الخبر من انهم كانوا يمنعون من يتقدم ليكون مسيره مع جنوده على ترتيب وغير ممتنع * أما قوله تعالى حتى اذا أتوا على وادي النمل فقيل هو وادي الشام كثير النمل ويقال لم يعد أتوا بعلى فجوابه من وجهين (الاول) انا نجد العرب كلهم مر فوق وأتى بحرف الاستعلاء (والثاني) أن يراد قطع الوادي وبلوغ آخره من قولهم أتى على الشئ اذا بلغ آخره كأنهم أرادوا أن ينزلوا عند منقطع الوادي وقرئ نملة يا أيها النمل بضم الميم وبضم النون والميم وكان الاصل النمل بوزن الرجل والنمل الذي عليه الاستعمال تخفيف عنه أما قوله تعالى قالت نملة فالمعنى انها تكلمت بذلك وهذا غير مستبعد فان الله تعالى قادر على أن يخلق فيها العقل والنطق وعن قتادة انه دخل الكوفة فالتف عليه الناس فقال سلوا عما شئتم وكان أبو حنيفة رحمه الله حاضرا وهو غلام حدث فقال سلوه عن نملة سليمان أكانت ذكرا أم أنثى فسألوه فأفحم فقال أبو حنيفة رضي الله عنه كانت أنثى فقيل له من أين عرفت فقال من كتاب الله تعالى وهو قوله قالت نملة ولو كان ذكرا لقال قال نملة وذلك لان النملة مثل الحمامة والشاة في وقوعها على الذكر والانثى فميز بينهما بعلامة نحو قولهم حمامة ذكر وحمامة أنثى وهو وهي * أما قوله تعالى ادخلوا مساكنكم فاعلم أن النملة لما قاربت حد العقل لاجرم ذكرت بما يذكر به العقلاء فلذلك قال تعالى ادخلوا مساكنكم فان قلت لا يحطمنكم ما هو قلت يحتمل أن يكون جوابا للامر وأن يكون نهيا بدلا من الامر والمعنى لا تكونوا حيث أنتم فيحطمنكم على طريقة الا أرينك ههنا * وفي هذه الآية تنبيه على أمور (أحدها) ان من يسير في الطريق لا يلزمه التحرز وانما يلزم من في الطريق التحرز (وثانيها) ان النملة قالت وهم لا يشعرون كأنها عرفت ان النبي معصوم فلا يقع منه قتل هذه الحيوانات الا على سبيل السهو وهذا تنبيه عظيم على وجوب الجزم بعصمة الانبياء عليهم السلام (وثالثها) ما رأيت

بانبانه (فيقولوا هل نحن منظرون) تحسرا على مافات من الايمان وتمنيا للامهال لتلافى مافرطوه وقيل معنى كذلك سلكناه مثل تلك الحالة وتلك الصفة من الكفر به ❊ والتكذيب له ووضعناه فى قلوبهم وقوله تعالى لايؤمنون به

فى موقع الايضاح والتلخيص له أوفى موقع الحال اى سلكناه فيها غير مؤمن به والاول هو الانسب بمقام بيان غاية عنادهم ومكابرتهم مع تعاضد أدلة الايمان وتآخذ مبادى الهداية والارشاد وانقطاع أعذارهم بالكلية وقيل ضمير سلكناه للكفر المدلول عليه بما قبله من قوله تعالى ماكانوا به مؤمنين ونقل عن ابن عباس رضى الله عنهما والحسن ومجاهد رحمهما الله تعالى أدخلنا الشرك والتكذيب فى قلوب المجرمين (أفبعذابنا يستعجلون) بقولهم أمطر علينا حجارة من السماء أوائتنا بعذاب اليم وقولهم وأتنا بما تعدنا ونحوهما وحالهم عند نزول العذاب كما وصف من طلب الانذار فالفاء للعطف على مقدر يقتضيه المقام اى أيكون حالهم كما ذكر من الاستنظار عند نزول العذاب الاليم فيستعجلون بعذابنا وبينهما من التنافى مالايخفى على أحد

فى بعض الكتب ان تلك النملة انما أمرت غيرها بالدخول لانها خافت على قومها انهم اذا رأت سليمان فى جلالته فربما وقعت فى كفران نعمة الله تعالى وهذا هو المراد بقوله لايحطمنكم سليمان فأمرتها بالدخول فى مساكنها لتلا ترى تلك النعم فلا تقع فى كفران نعمة الله تعالى وهذا تنبيه على أن مجالسة أرباب الدنيا محذورة (ورابعها) قرئ مسكنكم ولايحطمنكم بتخفيف النون وقرئ لايحطمنكم بفتح الطاء وكسرها وأصلها يحتطمنكم ❊ أما قوله تعالى فتبسم ضاحكا من قولها يعنى تبسم شارعا فى الضحك بمعنى انه قد تجاوز حد التبسم الى الضحك وانما ضحك لامرين أحدهما اعجابه بما دل من قولها على ظهور رحمته ورحمة جنوده وعلى شمولها حاله وحالهم فى باب التقوى وذلك قولها وهم لايشعرون والثانى سروره بما آتاه الله مما لم يؤت أحدا من سماعه لكلام النملة واحاطته بمعناه أما قوله تعالى أوزعنى فقال صاحب الكشاف حقيقة أوزعنى اجعلنى أزع شكر نعمتك عندى واكفه عن أن ينقلب عنى حتى أكون شاكرا لك أبدا وهذا يدل على مذهبنا فان عند المعتزلة كل ما أمكن فعله من الالطاف فقد صارت مفعولة وطلب تحصيل الحاصل عبث وأما قوله تعالى وعلى والدى فذلك لانه عد نعم الله تعالى على والديه نعمة عليه ومعنى قوله وأن أعمل صالحا ترضاه طلب الاعانة فى الشكر وفى العمل الصالح ثم قال وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين فلما طلب فى الدنيا الاعانة على الخيرات طلب أن يجعل فى الآخرة من الصالحين وقوله برحمتك يدل على أن دخول الجنة برحمته وفضله لابالاستحقاق من جانب العبد (واعلم) أن سليمان عليه السلام طلب ما يكون وسيلة الى ثواب الآخرة أولا ثم طلب ثواب الآخرة ثانيا أما وسيلة الثواب فهى أمران أحدهما شكر النعمة السالفة والثانى الاشتغال بسائر أنواع الخدمة أما الاشتغال بشكر النعمة السالفة فهى قوله تعالى رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على ولما كان الانعام على الآباء انعاما على الابناء لان النسب الابنائى أب شريف نعمة من الله تعالى على الابن لاجرم اشتغل بشكر نعم الله على الآباء بقوله وعلى والدى وأما الاشتغال بسائر أنواع الخدمة فقوله وأن أعمل صالحا ترضاه وأما طلب ثواب الآخرة فقوله وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين فان قيل درجات الانبياء أعظم من درجات الاولياء والصالحين فما السبب فى ان الانبياء يطلبون جعلهم من الصالحين فقال يوسف توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين وقال سليمان أدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين جوابه الصالح الكامل هو الذى لايعصى الله تعالى ولا يهم بمعصية وهذه درجة عالية والله اعلم ❊ قوله تعالى (وتفقد الطير فقال مالى لاأرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبنه عذابا شديدا أولأذبحنه أولياتينى بسلطان مبين فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم

وأيغفلون عن ذلك مع تحققه وتقرره فيستعجلون الخ وانما قدم الجار والمجرور للايذان بان مصب الانكار والتوبيخ كون المستعجل به عذابه تعالى مع مافيه من رعاية الفواصل (أفرأيت) لما كانت الرؤيا من أقوى أسباب

الاخبار بالشئ وأشهرها شاع استعمال أرأيت فى معنى أخبرنى والخطاب لكل من يصلح له كائنا من كان والفاء لترتيب الاستخبار على قولهم هل نحن منظرون وما بينهما اعتراض للتوبيخ والتبكيت وهى متقدمة فى المعنى على الهمزة وتاخيرها عنها صورة لاقتضاء الهمزة الصدارة كما هو رأى الجمهور أى فاخبرنى (ان متعناهم سنين) متطاولة بطول الاعمار وطيب المعايش (ثم جاءهم ما كانوا يوعدون) من العذاب (ما أغنى عنهم) اى شئ أو أى اغناء أغنى عنهم (ما كانوا يتمتعون) اى كونهم ممتعين ذلك التمتيع المديد على أن ما مصدرية أو ما كانوا يتمتعون به من متاع الحياة الدنيا على أنها موصولة حذف عائدها وأيا ما كان فالاستفهام للانكار والنفى وقيل ما نافية اى لم يغن عنهم تمتعهم المتطاول فى دفع العذاب وتخفيفه والاول هو الاولى لكونه أوفق لصورة الاستخبار وأدل على انتفاء الاغناء على ابلغ وجه وآكده كأن كل من من شأنه الخطاب قد كلف أن يخبر بان تمتيعهم ماذا أفادهم واى شئ أغنى عنهم فلم يقدر أحد على أن يخبر بشئ من ذلك أصلا وقرئ يمتعون من الامتاع

لا يهتدون) اعلم أن سليمان عليه السلام لما تفقد الطير أوهم ذلك انه انما تفقده لامر يختص به ذلك الطير واختلفوا فيما لاجله تفقده على وجوه (احدها) قول وهب انه أخل بالنوبة ان كان ينوبها فلذلك تفقده (وثانيها) انه تفقده لان مقاييس الماء كانت اليه وكان يعرف الفصل بين قريبه وبعيده فلحاجة سليمان الى ذلك طلبه وتفقده (وثالثها) انه كان يظله من الشمس فلما فقد ذلك تفقده أما قوله فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين فأم هى المنقطعة نظرا الى مكان الهدهد فلم يبصره فقال ما لى لا أراه على معنى انه لا يراه وهو حاضر لسانر ستره أو غير ذلك ثم لاح له انه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول أهو غائب كأنه يسأل عن صحة ما لاح له ومثله قوله ما لها لا ترى أم شاء أما تولنه لاعذبنه عذابا شديدا أو لاذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين فهذا لا يجوز أن يقوله الا فيمن هو مكلف أو فيمن قارب العقل فيصلح ان يؤدب ثم اختلفوا فى قوله لاعذبنه فقال ابن عباس انه نتف الريش والقاه فى الشمس وقيل أن يعلى بالقطران يشمس وقيل أن يلقى للنمل يأكله وقيل ابداعه القفص وقيل التفريق بينه وبين الفه وقيل لازمنه صحبة الاضداد وعن بعضهم أضيق السجون معاشرة الاضداد وقيل لازمنه خدمة أقرانه أما قوله فمكث فقد قرئ بفتح الكاف وضمها غير بعيد غير زمان بعيد كقولك عن قريب ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على اسراعه خوفا من سليمان وليعلم كيف كان الطير مسخرا له أما قوله أحطت بما لم تحط به ففيه تنبيه لسليمان على ان فى ادنى خلق الله تعالى من أحاط علما بما لم يحط به فيكون ذلك لطفا له فى ترك الاعجاب والاحاطة بالشئ علما أن يعلم من جميع جهاته أما قوله وجئتك من سبا بنبإ يقين فاعلم ان سبا قرئ بالصرف ومنعه وقد روى بسكون الباء وعن ابن كثير فى رواية سبايا الف كقولهم ذهبوا أيدى سبا وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان فمن جعله اسما للقبيلة لم يصرف ومن جعله اسما للحى أو الاب الاكبر صرف ثم سميت مدينة مأرب بسبا وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام والنبأ الخبر الذى له شأن وقوله من سبا نبإ من محاسن الكلام الذى يتعلق باللفظ وشرط حسنه صحة المعنى ولقد جاء ههنا زائدا على الصحة فحسن لفظا ومعنى ألا ترى انه لو وضع مكان نبإ الخبر لكان المعنى صحيحا ولكن لفظ النبإ أولى لما فيه من الزيادة التى يطابقها وصف الحال أما قوله انى وجدت امرأة تملكهم فالمرأة بلقيس بنت شراحيل وكان ابوها ملك ارض اليمن وكانت هى وقومها مجوسا يعبدون الشمس والضمير فى تملكهم راجع الى سبا فان أريد به القوم فالامر ظاهر وان أريد المدينة فمعناه تملك أهلها وأما قوله وأوتيت من كل شئ ففيه سؤال وهو انه كيف قال وأوتيت من كل شئ مع قول سليمان وأوتينا من كل شئ فكان الهدهد سوى بينهما جوابه أن قول سليمان عليه السلام يرجع الى ما أوتى من النبوة والحكمة ثم الى الملك وأسباب الدنيا وأما قول الهدهد فلم يكن الا الى ما يتعلق بالدنيا وأما قوله ولها عرش عظيم ففيه سؤال وهو انه كيف استعظم الهدهد عرشها مع ما كان يرى ملك سليمان

﴿ وايضا ﴾

لفعل هو صفة لمنذرون أي الا لها منذرون يذكرونهم ذكرى أو الرفع على أنها صفة منذرون باضمار ذوو أو بجعلهم ذكرى لامعانهم في التذكرة أو خبر مبتدا محذوف والجملة اعتراضية وضميرها للقرى المدلول عليها بمفردها الواقع في حيز النفي على معنى أن للكل منذرين أعم من أن يكون لكل قرية منها منذر واحد أو أكثر (وما كنا ظالمين) فنهلك غير الظالمين بعد الانذار والتعبير عن ذلك بنفي الظالمية مع ان اهلاكهم قبل الانذار ايضا ظلم بعلم اصلا على ما تقرر من قاعدة اهل السنة لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك بتصويره بصورة ما يستحيل صدوره عنه تعالى من الظلم وقد مر في سورة آل عمران عند قوله تعالى وان الله ليس بظلام للعبيد (وما تنزلت به الشياطين) رد لما زعمه الكفرة في حق القرآن الكريم من أنه من قبيل ما يلقيه الشيطان على الكهنة بعد تحقيق الحق ﴿ ٧١ ﴾ س ببيان أنه نزل به الروح الامين (وما ينبغي لهم) أي وما يصح وما يستقيم لهم ذلك (وما يستطيعون) ذلك أصلا (انهم عن السمع) لكلام الملائكة (لمعزولون) لانتفاء المشاركة بينهم وبين الملائكة في صفاء الذوات

وايضا فكيف سوى بين عرش بلقيس وعرش الله تعالى في الوصف بالعظيم (والجواب) عن الاول يجوز أن يستصغر حالها الى حال سليمان فاستعظم لها ذلك العرش ويجوز أن لا يكون لسليمان مع جلالته مثله كما قد يتفق لبعض الامراء شئ لا يكون مثله عند السلطان وعن الثاني ان وصف عرشها بالعظم تعظيم له بالاضافة الى عروش ابناء جنسها من الملوك ووصف عرش الله بالعظم تعظيم له بالنسبة الى سائر ما خلق من السموات والارض * واعلم ان ههنا بحثين (البحث الاول) أن الملحدة طعنت في هذه القصة من وجوه (أحدها) ان هذه الآيات اشتملت على أن النملة والهدهد تكلما بالكلام لا يصدر ذلك الكلام الا من العقلاء وذلك يجر الى السفسطة فانا الوجوزنا ذلك لما امنا في النملة التي نشاهدها في زماننا هذا ان تكون اعلم بالهندسة من اوقليدس وبالنحو من سيبويه وكذا القول في النملة والصبيان ويجوز أن يكون فيهم الانبياء والتكاليف والمعجزات ومعلوم ان من جوز ذلك كان الى الجنون اقرب (وثانيها) ان سليمان عليه السلام كان بالشام فكيف طار الهدهد في تلك اللحظة اللطيفة من الشام الى اليمن ثم رجع اليه (وثالثها) كيف خفي على سليمان عليه السلام حال مثل تلك الملكة العظيمة مع ما يقال ان الجن والانس كانوا في طاعة سليمان وانه عليه السلام كان ملك الدنيا بالكلية وكان تحت راية بلقيس على ما يقال اثنا عشر ألف ملك تحت راية كل واحد منهم مائة ألف ومع انه يقال انه لم يكن بين سليمان وبين بلدة بلقيس مسافة طيران الهدهد الا مسيرة ثلاثة ايام (ورابعها) من اين حصل للهدهد معرفة الله تعالى ووجوب السجود له وانكار سجودهم للشمس واضافته الى الشيطان وتزيينه والجواب عن الاول ان ذلك لاحتمال قام في أول العقل وانما يدفع ذلك بالاجماع وعن الثاني ان الايمان بأقدار العالم الى القادر المختار يزيل هذه الشكوك (البحث الثاني) قالت المعتزلة قوله يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم يدل على ان فعل العبد من جهته لانه تعالى اضاف ذلك الى الشيطان بعد اضافته اليهم ولانه اورده مورد الذم ولانه بين انهم لا يهتدون والجواب من وجوه (أحدها) ان هذا قول الهدهد فلا يكون حجة (وثانيها) انه متروك الظاهر فانه قال فصدهم عن السبيل وعندهم الشيطان ما صد الكافر عن السبيل اذ لو كان مصدودا ممنوعا لسقط عنه التكليف فلم يبق ههنا الا التمسك بفصل المدح والذم والجواب قد تقدم عنه مرارا فلا فائدة في الاعادة والله أعلم * قوله تعالى (ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والارض ويعلم ما يخفون وما يعلنون الله لا اله الا هو رب العرش العظيم قال سننظر اصدقت أم كنت من الكاذبين اذهب بكتابي هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اعلم أن في قوله تعالى ألا يسجدوا قراآت احداها قراءة من قرأ بالتخفيف ألا للتنبيه ويا حرف النداء ومناداه محذوف كما حذفه من قال * ألا يا اسلمي يا دارمي على البلى * وثانيها بالتشديد أراد

حول القرآن الكريم المنطوى على الحقائق الرائقة الغيبية التى لا يمكن تلقيها الا من الملائكة عليهم الصلاة والسلام (فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعذبين) خوطب به النبى عليه الصلاة والسلام مع ظهور استحالة صدور المنهى عنه عنه عليه الصلاة والسلام تهييجا وحثا على ازدياد الاخلاص وتحذيرا لسائر المكلفين ببيان أن الاشراك من القبح والسوء بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه فكيف بمن عداه (والنذر) العذاب الذى يستتبعه الشرك والمعاصى (عشيرتك الاقربين) الاقرب منهم فالاقرب فان الاهتمام بشأنهم أهم روى أنه لما نزلت صعد الصفا ونادا هم فخذا فخذا حتى اجتمعوا اليه فقال لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلا أكنتم مصدقى قالوا نعم قال فانى نذير لكم بين يدى عذاب شديد وروى أنه قال يا بنى عبد المطلب يا بنى هاشم يا بنى عبد مناف افتدوا أنفسكم من النار فانى لا أغنى عنكم شيئا ثم قال ۞ الارض ۞ يا عائشة بنت أبى بكر ويا حفصة بنت عمر ويا فاطمة بنت محمد ويا صفية عمة محمد اشترين أنفسكن من النار فانى لا أغنى عنكن شيأ (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين)

فصدهم عن السبيل لئلا يسجدوا فحذف الجار مع أن ويجوز أن تكون لا مزيدة ويكون المعنى فهم لا يهتدون الى أن يسجدوا (وثالثها) وهى حرف عبد الله وقراءة الاعمش هلا بقلب الهمزة هاء وعن عبد الله هلا تسجدون بمعنى الا تسجدون على الخطاب (ورابعها) قراءة أبى ألا يسجدون لله الذى يخرج الخبء فى السموات والارض ويعلم سركم وما تعلنون (المسئلة الثانية) قال أهل التحقيق قوله ألا يسجدوا يجب أن يكون بمعنى الامر لانه لو كان بمعنى المنع من السجدة لم يمكن لوصفه تعالى بما يوجب أن يكون السجود له وهو كونه قادرا على اخراج الخبء عالما بالاسرار معنى (المسئلة الثالثة) الآية دلت على وصف الله تعالى بالقدرة والعلم اما القدرة فقوله يخرج الخبء فى السموات والارض وسمى المخبوء بالمصدر وهو يتناول جميع أنواع الارزاق والاموال واخراجه من السماء بالغيث ومن الارض بالنبات واما العلم فقوله ويعلم ما تخفون وما تعلنون واعلم أن المقصود من هذا الكلام الرد على من يعبد الشمس وتحرير الدلالة هكذا الاله يجب أن يكون قادرا على اخراج الخبء عالما بالخفيات والشمس ليست كذلك فهى لا تكون الها واذا لم تكن الها لم يجز السجود لها اما انه سبحانه وتعالى يجب أن يكون قادرا عالما على الوجه المذكور فلما انه واجب لذاته فلا تختص قادريته وعالميته ببعض المقدورات والمعلومات دون البعض وأما ان الشمس ليست كذلك فلانها جسم متناه وكل ما كان متناهيا فى الذات كان متناهيا فى الصفات واذا كان كذلك فحينئذ لا يعلم كونها قادرة على اخراج الخبء عالمة بالخفيات فاذا لم يعلم من حالها ذلك لم يعلم من حالها كونها قادرة على جلب المنافع ودفع المضار فرجع حاصل الدلالة الى ما ذكره ابراهيم عليه السلام فى قوله لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا وفى قوله لله الذى يخرج الخبء فى السموات والارض وجه آخر وهو ان هذا اشارة الى ما استدل به ابراهيم عليه السلام فى قوله ربى الذى يحيى ويميت وفى قوله ان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب وذلك لانه سبحانه وتعالى هو الذى يخرج الشمس من المشرق بعد افولها فى المغرب فهذا هو اخراج الخبء فى السموات وهو المراد من قول ابراهيم عليه السلام لا أحب الآفلين ومن قوله فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ومن قول موسى عليه السلام رب المشرق والمغرب وحاصله يرجع الى أن أفول الشمس وطلوعها يدلان على كونها تحت تدبير مدبر قاهر فكانت العبادة لقاهرها والمتصرف فيها أولى وأما اخراج الخبء من الارض فهو يتناول اخراج النطفة من الصلب والترائب وتكوين الجنين منه فان قيل ان ابراهيم وموسى عليهما السلام قدما دلالة الانفس على دلالة الآفاق فان ابراهيم قال ربى الذى يحيى ويميت ثم قال فان الله يأتى بالشمس من المشرق وموسى عليه السلام قال ربكم ورب آبائكم الاولين ثم قال رب المشرق والمغرب فلم كان الامر ههنا بالعكس فقدم خبء السموات على خبء

الارض جوابه ان ابراهيم وموسى عليهما السلام ناظرا من ادعى الهية البشر فلا جرم ابتدآ بابطال الهية البشر ثم انتقلا الى ابطال الهية السموات وههنا المناظرة مع من ادعى الهية الشمس لقوله وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله فلاجرم ابتدأ بذكر السماويات ثم بالارضيات اما قوله الله لا اله الا هو رب العرش العظيم فالمراد منه انه سبحانه لما بين افتقار السموات والارض وما بينهما الى المدبر ذكر بعد ذلك ان ما هو أعظم الاجسام فهى مخلوقة ومربوبة وذلك يدل على انه سبحانه هو المنتهى فى القدرة والربوبية الى ما لا مزيد عليه والله أعلم (المسئلة الرابعة) قيل من أحطت انى العظيم كلام الهدهد وقيل كلام رب العزة (المسئلة الخامسة) الحق أن سجدة التلاوة واجبة فى القراءتين جميعا وهو قول الشافعى وأبى حنيفة رحمة الله عليهما لانهم أجمعوا على أن سجدات القرآن أربع عشرة سجدة وهذا واحد منها ولان مواضع السجدة اما امر بها أو مدح لمن أتى بها أو ذم لمن تركها واحدى القراءتين أمر بالسجود والاخرى ذم لتاركه فثبت ان الذى ذكره الزجاج من وجوب السجدة مع التخفيف دون التشديد غير ملتفت اليه (المسئلة السادسة) يقال ها يفرق الواقف بين القراءتين جوابه نعم اذا خفف وقف على فهم لا يهتدون ثم ابتدأ بألا يسجدوا وان شاء وقف على ألا يا ثم ابتدأ اسجدوا واذا شدد لم يقف الا على العرش العظيم أما قوله سننظر فى النظر الذى هو التأمل وأراد صدقت أم كذبت الا أن أم كنت من الكاذبين ابلغ لانه اذا كان معروفا بالكذب كان متهما بالكذب فيما أخبر به فلم يوثق به وانما قال فألقه اليهم على لفظ الجمع لانه قال وجدتها وقومها يسجدون للشمس فقال فألقه اليهم الى الذين هذا دينهم أما قوله ثم تول عنهم أى تنح عنهم الى مكان قريب تتوارى فيه ليكون ما يقولونه بمسمع منك ويرجعون من قوله تعالى يرجع بعضهم الى بعض القول ويقال دخل عليها من كوة وألقى اليها الكتاب وتوارى فى الكوة ﴿ قوله تعالى (قالت يا أيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتونى مسلمين قالت يا أيها الملأ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والامر اليك فانظرى ماذا تأمرين) اعلم ان قوله قالت يا أيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم يحتمل أن يقال ان الهدهد ألقى اليها الكتاب فهو محذوف كأنه ثابت روى انها كانت اذا رقدت غلقت الابواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهى مستلقية وقيل نقرها فانتبهت فزعة ﴿ اما قوله كتاب كريم ففيه ثلاثة اوجه (أحدها) حسن مضمونه وما فيه (وثانيها) وصفه بالكريم لانه من عند ملك كريم (وثالثها) ان الكتاب كان مختوما وقال عليه السلام كرم الكتاب ختمه وكان عليه السلام يكتب الى العجم فقيل له انهم لا يقبلون الا كتابا عليه خاتم فاتخذ لنفسه خاتما اما قوله انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم ففيه ابحاث (البحث

فحسب (فان عصوك) ولم يتبعوك (فقل انى برئ مما تعملون) أى مما تعملونه أو من أعمالكم (وتوكل على العزيز الرحيم) الذى يقدر على قهر أعدائه ونصر أوليائه يكفك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم وقرئ فتوكل على انه بدل من جواب الشرط (الذى يراك حين تقوم) أى الى التهجد (وتقلبك فى الساجدين) وتردد ك فى تصفح أحوال المتهجدين كما روى أنه لما نسخ فرض قيام الليل طاف عليه الصلاة والسلام تلك الليلة ببيوت أصحابه لينظر ما يصنعون حرصا على كثرة طاعتهم فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع منها من دندنتهم بذكر الله تعالى والتلاوة أو تصرفك فيما بين المصلين بالقيام والركوع والسجود والقعود اذا أممتهم وانما وصف الله تعالى ذاته بعلمه بحاله عليه الصلاة والسلام التى بها يستأهل ولايته بعد ان عبر عنه بما ينبئ عن قهر أعدائه ونصر أوليائه ومن وصفى العزيز الرحيم تحقيقا للتوكل وتوطينا لقلبه عليه (انه هو السميع) لما تقوله (العليم) بما تنويه وتعمله (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين) أى تتنزل بحذف احدى التاءين وهو استئناف مسوق لبيان استحالة تنزل الشياطين على رسول الله

كما حذف من هل والاصل أهل وقوله تعالى (تنزل على كل أفاك أثيم) قصر تنزلهم على كل من اتصف بالافك الكثير والاثم الكبير من الكهنة والمتنبئة وتخصيصهم بحيث لا يتخطاهم الى غيرهم وحيث كانت ساحة رسول الله صلى الله عليه وسلم منزهة عن أن يحوم حولها اشائبة شيء من تلك الاوصاف اتضح استحالة تنزلهم عليه عليه الصلاة والسلام (يلقون) أي الافاكون (السمع) الى الشياطين فيتلقون منهم أو هما وأما رات لنقصان علمهم فيضمون اليها بحسب تخيلاتهم الباطلة خرافات لا يطابق اكثرها الواقع وذلك قوله تعالى (وأكثرهم كاذبون) أي فيما قالوه من الاقاويل وقد ورد في الحديث الكلمة يخطفها الجني فيقرها في اذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة أو يلقون السمع أي المسموع من الشياطين الى الناس وأكثرهم كاذبون يفترون على الشياطين ما لم يوحوا اليهم والاظهر أن الاكثرية * ولتخرجنهم * باعتبار أقوالهم على معنى أن هؤلاء قلما يصدقون فيما يحكون عن الجني وأما في أكثرهم فهم كاذبون وما له وأكثر أقوالهم كاذبة لا باعتبار ذواتهم حتى يلزم من نسبة الكذب الى أكثرهم كون أقلهم صادقين

الاول) انه استئناف وتبيين لما ألقى اليها كأنها لما قالت اني ألقي الى كتاب كريم قيل لها ممن هو وما هو فقالت انه من سليمان وانه كيت وكيت وقرأ عبد الله وانه من سليمان وانه بسم الله عطفا على اني وقرئ انه من سليمان وانه بالفتح وفيه وجهان (أحدهما) انه بدل من كتاب كأنه قيل ألقي الى انه من سليمان (وثانيهما) ان يريد انه من سليمان ولانه بسم الله كأنها علات كرمه بكونه من سليمان وتصديره بسم الله وقرأ ابي ان من سليمان وان بسم الله على ان المفسرة وان في ان لا تعلوا مفسره ايضا ومعنى لا تعلوا لا تتكبروا كما تفعل الملوك وقرأ ابن عباس بالغين معجمة من الغلو وهي مجاوزة الحد (البحث الثاني) يقال لم وصف سليمان اسمه على قوله بسم الله الرحمن الرحيم (جوابه) حاشاه من ذلك بل ابتداء و بسم الله الرحمن الرحيم واذا ذكرت بلقيس ان هذا الكتاب من سليمان ثم حكت ما في الكتاب والله تعالى حكى ذلك على ما هو به واقع في الحكاية (البحث الثالث) ان الانبياء عليهم السلام لا يصيلون بل يقتصرون على المقصود وهذا الكتاب مشتمل على تمام المقصود وذلك لان المطلوب من الخلق اما العلم أو العمل والعلم مقدم على العمل فقوله بسم الله الرحمن الرحيم مشتمل على اثبات الصانع سبحانه وتعالى واثبات كونه عالما قادرا حيا مريدا حكيما رحيما وأما قوله ألا تعلوا على فيه ونهي عن الانقياد لطاعة النفس والهوى والتكبر وأما قوله وأتوني مسلمين فالمراد من المسلم اما المنقاد أو المؤمن فثبت أن هذا الكتاب على وجازته يحوي كل ما لابد منه في الدين والدنيا فان قيل النهي عن الاستعلاء والامر بالانقياد قبل اقامة الدلالة على كونه رسولا حقا يدل على الاكتفاء بالتقليد جوابه معاذ الله أن يكون هناك تقليد وذلك لان رسول سليمان الى بلقيس كان الهدهد ورسالة الهدهد معجز والمعجز يدل على وجود الصانع وعلى صفاته ويدل على صدق المدعي فلما كانت تلك الرسالة دلالة تامة على التوحيد والنبوة لا جرم لم يذكر في الكتاب دليلا آخر وأما قوله يا أيها الملأ أفتوني في أمري فالفتوى هي الجواب في الحادثة اشتقت على طريق الاستعارة من الفتى في السن أو أجيبوني في الامر الفتي وقصدت بالانقطاع اليهم واستطلاع رأيهم تطييب قلوبهم ما كنت قاطعة أمرا الا بحضرتكم * وأما قوله قالوا نحن أولوا قوة فالمراد قوة الاجسام وقوة الآلات والمراد بالبأس النجدة واثبات في الحرب وحاصل الجواب ان القوم ذكروا أمرين أحدهما اظهار القوة الذاتية والعرضية ليظهر انها ان ارادتهم للدفع والحرب وجدتهم بحيث تريد والآخر قولهم والامر اليك فانظري ماذا تأمرين وفي ذلك اظهار الطاعة لها ان ارادت التسلم ولا يمكن ذكر جواب أحسن من هذا والله أعلم * قوله تعالى (قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون واني مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون فلما جاء سليمان قال أتمدونن بمال فما آتاني الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها

على الاطلاق وليس معنى الافاك من لا ينطق الا بالافك حتى يمتنع منه الصدق بل من يكثر الافك فلا ينافيه أن يصدق نادرا
فى بعض الاحايين وقيل الضمير الشياطين أى يلقون السمع أى المسموع من الملاء الاعلى قبل أن رجموا من بعض المغيبات
الى أوليائهم وأكثرهم كاذبون فيما يوحون ﴿٥٦٥﴾ به اليهم اذ لا يسمعونهم على نحو ما تكلمت به الملائكة لشرارتهم
أو لقصور فهمهم أو ضبطهم أو افهامهم ولا سبيل الى حمل القاء السمع على تسمعهم وانصاتهم الى الملا الاعلى قبل الرجم كما جوزه الجمهور لما أن يلقون كما صرحوا به اما حال من ضمير تنزل مفيدة لمقارنة التنزل للالقاء أو استئناف مبين للغرض من التنزل مبنى على السؤال عنه ولا ريب فى ان القاء السمع الى الملا الاعلى يعزل من احتمال أن يقارن التنزل أو يكون غرضا منه لتقدمه عليه قطعا وانما المحتمل لهما الالقاء بالمعنى الاول فالمعنى على تقدير كونه حالا تنزل الشياطين على الافاكين ملقين اليهم ما سمعوه من الملا الاعلى وعلى تقدير كونه جوابا عن سؤال من قال لم تنزل عليهم وماذا يفعلون بهم يلقون اليهم ما سمعوه وحمله على استئناف الاخبار كما فعله بعضهم غير سديد لان ذكر حالهم السابقة على تنزلهم المذكور قبله غير خليق بجزالة التنزيل وأما على تقدير كون ضمير يلقون للافاكين فهو صفة لكل أفاك لانه فى معنى الجمع سواء أريد بالقاء السمع الاصغاء الى الشياطين أو القاء المسموع الى الناس ويجوز أن يكون استئناف اخبار بحالهم على كلا التقديرين لما أن كلا من تلقيهم من

ولنخرجهن منها اذلة وهم صاغرون) اعلم انها لما عرضت الواقعة على أكابر قومها وقالوا ما تقدم اظهرت رأيها وهو ان الملوك اذا دخلوا قرية بالقهر افسدوها اى خربوها واذلوا اعزتها فذكرت لهم عاقبة الحرب واما قوله وكذلك يفعلون فقد اختلفوا أهو من كلامها او من كلام الله تعالى كالتصويب لها والاقرب انه من كلامها وانها ذكرته تأكيدا لما وصفته من حال الملوك فاما الكلام فى صفة الهدية فالناس اكثروا فيها لكن لا ذكر لها فى الكتاب وقولها فناظرة بم يرجع المرسلون فيه دلالة على انها لم تثق بالقبول وجوزت الرد وارادت بذلك أن يتكشف لها غرض سليمان ولما وصلت الهدايا الى سليمان عليه السلام ذكر أمرين الاول قوله أتمدونن بمال فأظهر بهذا الكلام قلة الاكتراث بذلك المال اما قوله بل أنتم بهديتكم تفرحون ففيه ثلاثة أوجه (أحدها) ان الهدية اسم للمهدى كما ان العطية اسم للمعطى فتضاف الى المهدى والى المهدى له والمضاف اليه ههنا هو المهدى اليه والمعنى ان الله تعالى آتانى الدين الذى هو السعادة القصوى وآتانى من الدنيا ما لا مزيد عليه فكيف يستقل مثلى بمثل هذه الهدية بل أنتم تفرحون بما يهدى اليكم لكن حالى خلاف حالكم (وثانيها) بل انتم بهديتكم هذه التى تعتقدونها تفرحون من حيث انكم قدرتم على اهداء مثلها (وثالثها) كأنه قال بل أنتم من حقكم ان تأخذوا هديتكم وتفرحوا بها (الثانى) قوله ارجع اليهم فقيل ارجع خطاب للرسول، قيل للهدهد محملا كتابا آخر اما قوله تعالى لا قبل أى لا طاقة وحقيقة القبل المقاومة والمقابلة أى لا يقدرون ان يقابلوهم وقرأ ابن مسعود لا قبل لهم بهم والضمير فى منها سبا والذل ان يذهب عنهم ما كان عندهم من العز والملك والصغار أن يقعوا فى اسر واستعباد ولا يقصر بهم على أن يرجعوا صوفة بعد ان كانوا ملوكا * قوله تعالى (قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وانى عليه لقوى أمين قال الذى عنده علم من الكتاب انا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم) اعلم ان فى قوله تعالى قال يا أيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها دلالة على انها عزمت على الخروج بسليمان ودلالة على ان امر ذلك العرش كان مشهورا فأحب ان يحصل عنده قبل حضورها واختلفوا فى غرض سليمان عليه السلام من احضار ذلك العرش على وجوه (احدها) ان المراد ان يكون ذلك دلالة لبلقيس على قدرة الله تعالى وعلى نبوة سليمان عليه السلام حتى تنضم هذه الدلالة الى سائر الدلائل التى سلفت (وثانيها) اراد ان يؤتى بذلك العرش فيغير وينكر ثم يعرض عليها حتى انها هل تعرفه أو تنكره والمقصود اختبار عقلها وقوله تعالى قال نكروا لها عرشها ننظر اتهتدى كالدلالة على ذلك (وثالثها) قال قتادة اراد ان يأخذه قبل اسلامها لعلمه انها اذا اسلمت لم يحل له اخذ مالها

الشياطين والقائهم الى الناس يكون بعد التنزيل وأن يكون استئنافا مبنيا على السؤال على التقدير الاول فقط كأنه قيل مايفعلون عند تنزل الشياطين عليهم فقيل يلقون اليهم أسماعهم ليحفظوا ما يوحون به اليهم وقوله تعالى وأكثرهم كاذبون على التقدير الاول استئناف فقط وعلى الثاني يحتمل الحالية من ضمير ﴿٥٦٦﴾ يلقون أي يلقون ماسمعوه من الشياطين الى الناس والحال انهم في اكثر أقوالهم كاذبون فتدبر (والشعراء يتبعهم الغاوون) استئناف مسوق لابطال ماقالوا في حق القرآن العظيم من أنه من قبيل الشعر وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشعراء ببيان حال الشعراء المنافية لحاله عليه الصلاة والسلام بعد ابطال ماقالوا انه من قبيل مايلقي الشياطين على الكهنة من الاباطيل بمامر من بيان أحوالهم المضادة لاحواله عليه الصلاة والسلام والمعنى أن الشعراء يتبعهم أي يجاريهم ويسلك مسلكهم ويكون من جملتهم الغاوون الضالون عن السنن الحائرون فيما يأتون وما يذرون لايستقرون على وتيرة واحدة في الافعال والاقوال والاحوال لاغيرهم من أهل الرشد المهتدين الى طريق الحق الثابتين عليه وقوله تعالى (ألم تر انهم في كل واد يهيمون) استشهاد على أن الشعراء انما يتبعهم الغاوون وتقريره والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية للقصد الى أن حالهم من الجلاء والظهور بحيث لاتختص برؤية قوم دون قوم ﴿ظاهره﴾ أي ألم تر أن الشعراء في كل واد من أودية القيل والقال وفي كل شعب من شعاب الوهم والخيال وفي كل

(ورابعها) ان العرش سرير المملكة فأراد ان يعرف مقدار ملكتها قبل وصولها اليه اما قوله قال عفريت من الجن فالعفريت من الرجال الخبيث المنكر الذي يعفر اقرانه ومن الشياطين الخبيث المارد اما قوله قبل ان تقوم من مقامك فالمعنى من مجلسك ولابد فيه من عادة معلومة حتى يصح ان يوقت فقيل المراد مجلس الحكم بين الناس وقيل انوقت الذي يخطب فيه الناس وقيل الى انتصاف النهار وأما قوله لقوي اي على حمله امين آتي به كما هو لاختزن منه شيئا * أما قوله قال الذي عنده علم من الكتاب ففيه بحثان (الاول) اختلفوا في ذلك الشخص على قولين قيل كان من الملائكة وقيل كان من الانس فمن قال بالاول اختلفوا قيل هو جبريل عليه السلام وقيل هو ملك أيد الله تعالى به سليمان عليه السلام ومن قال بالثاني اختلفوا على وجوه (أحدها) قول ابن مسعود انه الخضر عليه السلام (وثانيها) وهو المشهور من قول ابن عباس انه آصف بن برخيا وزير سليمان وكان صديقا يعلم الاسم الاعظم اذا دعا به أجيب (وثالثها) قول قتادة رجل من الانس كان يعلم اسم الله الاعظم (ورابعها) قول ابن زيد كان رجلا صالحا وجزيرة في البحر خرج ذلك اليوم ينظر الى سليمان (وخامسها) بل هو سليمان نفسه والخاطر هو العفريت الذي كله واراد سليمان عليه السلام اظهار معجزة فحداهم أو لانه بين للعفريت انه يأتي له من سرعة الاتيان بالعرش ما لايتهيأ للعفريت وهذا القول أقرب لوجوه (أحدها) ان لفظة الذي موضوعة في اللغة للاشارة الى شخص معين عند محاولة تعريفه بقصة معلومة والشخص المعروف بأنه عنده علم الكتاب هو سليمان عليه السلام فوجب انصراف اليه أقصى مافي الباب أن يقال كان آصف كذلك أيضا لكنا نقول ان سليمان عليه السلام كان أعرف بالكتاب منه لانه هو النبي فكان صرف هذا اللفظ الى سليمان عليه السلام أولى (الثاني) أن احضار العرش في تلك الساعة اللطيفة درجة عالية فلو حصلت لآصف دون سليمان لاقتضى ذلك تفضيل آصف على سليمان عليه السلام وانه غير جائز (الثالث) أن سليمان عليه السلام لو افتقر في ذلك الى آصف لاقتضى ذلك قصور حال سليمان في أعين الخلق (الرابع) أن سليمان قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر وظاهره يقتضي أن يكون ذلك المعجز قد أظهره الله تعالى بدعاء سليمان (البحث الثاني) اختلفوا في الكتاب فقيل اللوح المحفوظ والذي عنده علم منه جبريل عليه السلام وقيل كتاب سليمان أو كتاب بعض الانبياء ومعلوم في الجملة ان ذلك مدح وان لهذا الوصف تأثيرا في نقل ذلك العرش فلذلك قالوا انه الاسم الاعظم وان عنده وقعت الاجابة من الله تعالى في أسرع الاوقات * اما قوله تعالى انا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك ففيه بحثان (الاول) آتيك في الموضعين يجوز أن يكون فعلا واسم فاعل (الثاني) اختلفوا في قوله قبل أن يرتد اليك طرفك على وجهين الاول انه أراد المبالغة في السرعة كما تقول لصاحبك افعل ذلك في لحظة وهذا قول مجاهد الثاني أن تجريه على

ظاهره والطرف تحريك الاجفان عند النظر فاذا فتحت الجفن فقديتوهم أن نور العين امتد الى المرئي واذا غمضت الجفن فقديتوهم أن ذلك النور ارتد الى العين فهذا هو المراد من ارتداد الطرف (وههنا سؤال) وهو انه كيف يجوز والمسافة بعيدة ان ينقل العرش في هذا القدر من الزمان وهذا يقتضي اما القول بالطفرة أو حصول الجسم الواحد دفعة واحدة في مكانين (جوابه) ان المهندسين قالوا كرة الشمس مثل كرة الارض مائة وار بعة وستين مرة ثم ان زمان طلوعها زمان قصير فاذا قسمنا زمان طلوع تمام القرص على زمان القدر الذي بين الشام واليمن كانت اللمحة كثيرة فلما ثبت عقلا امكان وجود هذه الحركة السريعة وثبت انه تعالى قادر على كل الممكنات زال السؤال ثم انه عليه السلام لما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر والكلام في تفسير الابتلاء قدمر غير مرة ثم انه عليه السلام بين أن نفع الشكر عائد الى الشاكر لا الى الله تعالى اما انه عائد الى الشاكر فلوجوه (أحدها) انه يخرج عن عهدة ما وجب عليه من الشكر (وثانيها) انه يستدعي به المزيد على ما قال لئن شكرتم لازيدنكم (وثالثها) أن المشتغل بالشكر مشتغل بالمنعم والمعرض عن الشكر مشتغل باللذات الحسية وفرق ما بينهما كفرق ما بين المنعم والنعمة في الشرف ثم قال ومن كفر فان ربي غني كريم غني عن شكره لا يضره كفر انه كريم لا يقطع عنه نعمه بسبب اعراضه عن الشكر * قوله تعالى (قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين وصدها ما كانت تعبد من دون الله انها كانت من قوم كافرين) اعلم ان قوله نكروا معناه اجعلوا العرش منكرا مغيرا عن شكله كما يتنكر الرجل للناس لئلا يعرفوه وذلك لانه لو ترك على ما كان لعرفته لامحالة وكان لا تدل معرفتها به على ثبات عقلها اذا فقدت مرتبتها أو توقفها فيه على فضل عقل ولا يمتنع صحة ما قيل ان سليمان عليه السلام التي اليه ان في عقلها نقصان عقل لكي لا يتزوجها أو لا تحظى عنده على وجه الحسد فأراد بما ذكرنا اختبار عقلها اما قوله تنظر فقرئ بالجزم على الجواب وبالرفع على الاستئناف واختلفوا في أنها هل اهتدت على وجهين أحدهما انها عرفت انه عرشها ام لا كما قدمنا (الثاني) انها عرفت به نبوة سليمان أم لا ولذلك قال أم تكون من الذين لا يهتدون وذلك لان الذم لا يليق الا بطريقة الدلالة فكأنه عليه السلام أحب أن تنظر فتعرف به نبوته من حيث صار منتقلا من المكان البعيد الى هناك وذلك يدل على قدرة الله تعالى وعلى صدق سليمان عليه السلام ويعرف بذلك أيضا فضل عقلها لاغراض كانت له عند ذلك سألتها أما قوله أهكذا عرشك فاعلم ان هكذا ثلاث كلمات حرف التنبيه وكاف التشبيه واسم الاشارة ولم يقل أهذا عرشك ولكن أمثل هذا عرشك لئلا يكون تلقينا فقالت كأنه هو ولم تقل هو هو ولا ليس به وذلك من كمال عقلها حيث توقفت في محل التوقف أما قوله وأوتينا العلم من قبلها ففيه

والهجاء (وانهم يقولون مالا يفعلون) من الافاعيل غير مبالين بما يستتبعه من اللوائم فكيف يتوهم أن يتبعهم في مسلكهم ذلك ويلتحق بهم وينتظم في سلكهم من تنزهت ساحته عن أن يحوم حولها شائبة الاتصاف بشيء من الامور المذكورة واتصف بمحاسن الصفات الجميلة وتخلق بمكارم الاخلاق الجميلة وحاز جميع الكمالات القدسية وفاز بجملة الملكات الانسية مستقرا على المنهاج القويم مستمرا على الصراط المستقيم ناطقا بكل أمر رشيد داعيا الى صراط العزيز الحميد مؤيدا بمعجزات قاهرة وآيات ظاهرة مشحونة بفنون الحكم الباهرة وصنوف المعارف الزاهرة مستقلة بنظم رائق يعجز كل منطيق ماهر ويبكت كل مفلق ساحر هذا وقد قيل في تنزيهه عليه الصلاة والسلام عن أن يكون من الشعراء أن أتباع الشعراء الغاوون

واتباع محمد صلى الله عليه وسلم ليسوا كذلك ولا ريب في أن تعليل عدم كونه عليه الصلاة والسلام منهم بكون أتباعه عليه الصلاة والسلام غير غاوين مما لا يليق بشأنه العالي وقيل الغاوون الراوون وقيل الشياطين وقيل هم شعراء قريش عبد الله بن الزبعرى وهبيرة بن أبي وهب المخزومي ومسافع

ابن عبد مناف وابو عزة الجمحي ومن ثقيف أمية بن أبي الصلت قالوا نحن نقول مثل قول محمد صلى الله عليه وسلم وقرئ والشعراء بالنصب على اضمار فعل يفسره الظاهر وقرئ يتبعهم على التخفيف وينبعهم بسكون العين تشبيها لبعه بعضد (الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ ٥٦٨ ﴾ وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ماظلموا) استثناء للشعراء المؤمنين الصالحين الذين يكثرون ذكر الله عزوجل ويكون أكثر أشعارهم في التوحيد والثناء على الله تعالى والحث على طاعته والحكمة والموعظة والزهد في الدنيا والترغيب عن الركون اليها والزجر عن الاغترار بزخارفها والافتنان بملاذها الفانية ووقوع منهم بعض الاوقات هجو وقع ذلك منهم بطريق الانتصار من هجاهم وقيل المراد بالمستثنين عبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وكعب بن مالك وكعب بن زهير بن ابي سلمى والذين كانوا يناضلون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكافحون هجاة قريش وعن كعب ابن مالك رضي الله تعالى عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له اهجهم فوالذي نفسي بيده لهو اشد عليهم من النبل وكان يقول لحسان قل وروح القدس معك (وسيعلم الذين ظلموا اى منقلب ينقلبون) تهديد شديد ووعيد أكيد لما في سيعلم من تهويل متعلقه وفي الذين ظلموا من الاطلاق والتعميم ﴿ صرح ﴾ وفي اى منقلب ينقلبون من الابهام والتهويل وقد قاله ابو بكر لعمر رضي الله عنهما حين عهد اليه وقرئ اى منقلت ينقلبون من الانقلات بمعنى النجاة والمعنى ان الظالمين يطمعون ان ينفلتوا من عذاب الله تعالى وسيعلمون ان ليس لهم وجه من وجوه الانفلات * عن النبي عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الشعراء

سؤالان وهو ان هذا الكلام كلام من وأيضا فعلى أي شئ عطف هذا الكلام وعنه جوابان (الاول) أنه كلام سليمان وقومه وذلك لان بلقيس لما سئلت عن عرشها ثم انها اجابت بقولها كأنه هو فالظاهر ان سليمان وقومه قالوا انها قد اصابت في جوابها وهي عاقلة لبيبة وقد رزقت الاسلام ثم عطفوا على ذلك قولهم واوتينا نحن العلم بالله وبقدرته قبل علمها او يكون غرضهم من ذلك شكر الله تعالى في ان خصهم بمزية التقدم في الاسلام (الثاني) انه من كلام بلقيس موصولا بقولها كأنه هو والمعنى وأوتينا العلم بالله وبصحة نبوة سليمان قبل هذه المعجزة أو قبل هذه الحالة ثم ان قوله وصدها ما كانت تعبد من دون الله الى آخر الآية يكون من كلام رب العزة * أما قوله تعالى وصدها ما كانت تعبد من دون الله ففيه وجهان (الاول) المراد وصدها عبادتها لغير الله عن الايمان (الثاني) وصدها الله أو سليمان عما كانت تعبد بتقدير حذف الجار وايصال الفعل وقرئ أنها بالفتح على انه بدل من فاعل صدها بمعنى لانها واحتجت المعتزلة بهذه الآية فقالوا لو كان تعالى خلق الكفر فيها لم يكن الصادلها كفرها المتقدم ولا كونها من جملة الكفار بل كان يكون الصادلها عن الايمان تجدد خلق الله الكفر فيها والجواب أما على التأويل الثاني فلا سلك في سقوط الاستدلال وأما على الاول فجوابنا أن كونها من جملة الكفار سار سببا لحصول الداعية المستلزمة للكفر وحينئذ يبقى ظاهر الآية موافقا لقولنا والله أعلم * قوله تعالى (قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال انه صرح ممرد من قوارير قالت رب اني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) اعلم انه تعالى لما حكى اقامتها على الكفر مع كل ما تقدم من الدلائل ذكر أن سليمان عليه السلام أظهر من الامر ما صار داعيا لها الى الاسلام وهو قوله قيل لها ادخلي الصرح والصرح القصر كقولهم صرح ممرد وقيل صحن الدار وقرأ ابن كثير عن ساقيها بالهمز ووجهه أنه سمع سوقا فأجرى عليه الواحد والمرد الملس روى أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج أبيض كالماء بياضا ثم أرسل الماء تحته وألقى فيه السمك وغيره ووضع سريره في صدره فجلس عليه وعكف عليه الانس والجن والطير وانما فعل ذلك ليزيدها استعظاما لامره وتحققا لنبوته وزعموا ان الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضي اليه باسرارهم لانها كانت بنت جنية وقيل خافوا أن يولد له منها ولد فيجتمع له فطنة الجن والانس فيخرجون من ملك سليمان الى ملك هو اشد فقالوا ان في عقلها نقصانا وانها شعراء الساقين ورجلها كحافر حمار فاختبر سليمان عقلها بتنكير العرش واتخذ الصرح ليتعرف ساقها ومعلوم من حال الزجاج الصافي انه يكون كالماء فلما أبصرت ذلك ظنته ماء راكدا فكشفت عن ساقيها لتخوضه فاذا هي أحسن الناس ساقا وقدما وهذا على طريقة من يقول تزوجها وقال آخرون كان المقصود من الصرح تهويل المجلس وتعظيمه وحصل كشف الساق على سبيل التبع فلما قيل لها هو

الرحمن الرحيم) ✻ (طس) بالتفخيم وقرئ بالامالة والكلام فيه كالذي مر في نظائره من الفواتح الشريفة ومحله على تقدير كونه اسما للسورة وهو الاظهر الاشهر الرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف أي هذا طس أي مسمى به والاشارة اليه قبل ذكره ودمي وجهها في فاتحة سورة يونس وغيرها ورفعه بالابتداء على أن ما بعده خبره ضعيف ذكرهناك (تلك) اشارة الى نفس السورة لانها التي نوهت بذكر اسمها لا الى آياتها لعدم ذكرها صريحا ولان اضافتها اليها تأبى اضافتها الى القرآن كما سيأتي وما في اسم الاشارة من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان ببعد منزلته في الفضل والشرف ومحله الرفع على الابتداء خبره (آيات القرآن) والجملة مستأنفة مقررة لما أفاده التسمية من نباهة شأن المسمى والقرآن عبارة عن الكل أو عن الجميع

صرح مرد من قوارير استرت وعجبت من ذلك واستدلت به على التوحيد والنبوة فقالت رب اني ظلمت نفسي فيما تقدم بالاشراك على الكفر ثم قالت وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين وقيل حسبت ان سليمان عليه السلام يغرقها في اللجة فقالت ظلمت نفسي بسوء ظني بسليمان واختلفوا في انه هل تزوجها أم لا وانه تزوجها في هذه الحال أو قبل ان كشفت عن ساقيها والاظهر في كلام الناس انه تزوجها وليس لذلك ذكر في الكتاب ولا في خبر مقطوع بصحته ويروى عن ابن عباس انها لما أسلمت قال لها اختاري من قومك من أتزوجك منه فقالت مثلي لا ينكح الرجال مع سلطاني فقال النكاح من الاسلام فقالت ان كان كذلك فزوجني ذا تبع ملك همدان فزوجها اياه ثم ردهما الى اليمن ولم يزل بها ملكا والله أعلم ✻ (القصة الثالثة) قصة صالح عليه السلام قوله تعالى ﴿ولقد أرسلنا الى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فاذا هم فريقان يختصمون﴾ قال ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الارض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وانا لصادقون ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ان في ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) قرئ أن اعبدوا الله بالضم على اتباع النون الباء اما قوله فاذا هم فريقان ففيه قولان أحدهما المراد فريق مؤمن وفريق كافر الثاني المراد قوم صالح قبل أن يؤمن منهم أحد أما قوله يختصمون فالمعنى ان الذين آمنوا انما آمنوا لانهم نظروا في حجته فعرفوا صحتها واذا كان كذلك فلابد وأن يكون خصما لمن لم يقبلها واذا كان هذا الاختصام في باب الدين دل ذلك على ان الجدال في باب الدين حق وفيه ابطال التقليد أما قوله ياقوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ففيه بحثان (الاول) في تفسير استعجال السيئة قبل الحسنة وجهان أحدهما ان الذين كذبوا صالحا عليه السلام لما لم ينفعهم الحجاج توعدهم صالح عليه السلام بالعذاب فقالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين على وجه الاستهزاء فعنده قال صالح لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة والمراد أن الله تعالى قد مكنكم من التوصل الى رحمة الله تعالى وثوابه فلماذا تعدلون عنه الى استعجال عذابه وثانيهما انهم كانوا يقولون لجهلهم ان العقوبة التي يعدها صالح ان وقعت على زعمه تبنا حينئذ واستغفرنا فحينئذ يقبل الله توبتنا ويدفع العذاب عنا فخاطبهم صالح على حسب اعتقادهم وقال هلا تستغفرون الله قبل نزول العذاب فان استعجال الخير أولى من استعجال الشر (البحث الثاني) أن المراد بالسيئة العقاب وبالحسنة الثواب فاما وصف العذاب بانه سيئة فهو مجاز وسبب هذا التجويز اما لان العقاب من لوازمه أو لانه

المنزل عند نزول السورة حسبما ✻ ٧٢ ✻ س ذكر في فاتحة الكتاب أي تلك السورة آيات القرآن المعروف بعلو الشأن أو بعض منه مترجم مستقل باسم خاص (وكتاب) أي كتاب عظيم الشأن (مبين) مظهر لما في تضاعيفه من الحكم والاحكام واحوال الآخرة التي من جملتها الثواب والعقاب

أو لسبيل الرشد والغي أو فارق بين الحق والباطل والحلال والحرام أو ظاهر الاعجاز على أنه من أبان بمعنى بان ولقد فخم شأنه الجليل بما جمع فيه من وصف القرآنية المنبئة عن كونه بديعا ﴿٥٧٠﴾ في بابه ممتازا عن غيره بالنظم المعجز كما يعرب عنه

قوله تعالى قرآنا عربيا غير ذي عوج ووصف الكتابية المعربة عن اشتماله على صفات كمال الكتب الالهية فكأنه كلها وقدم الوصف الاول ههنا نظرا الى تقدم حال القرآنية على حال الكتابية وعكس في سورة الحجر نظرا الى ماذكر هناك من الوجه وماقيل من أن الكتاب هو اللوح المحفوظ وابانته أنه خط فيه ماهو كائن فهو بينه للناظرين فيه لاساعده اضافة الآيات اليه اذ لا عهد بها شتماله على الآيات ولا وصفه بالهداية والبشارة اذهما باعتبار ابانته فلا بد من اعتبارهما بالنسبة الى الناس الذين من جملتهم المؤمنون لا الى الناظرين فيه وقرئ وكتاب بالرفع على حذف المضاف واقامة المضاف اليه مقامه اى وآيات كتاب مبين (هدى وبشرى للمؤمنين) في حيز النصب على الحالية من الآيات على أنهما مصدران أقيما مقام الفاعل للمبالغة كأنهما نفس الهدى والبشارة والعامل معنى الاشارة أى هادية ومبشرة ﴿ والمحذوف ﴾ والرفع على أنهما بدلان من الآيات أو خبران آخران لتلك أو لمبتدأ محذوف ومعنى هدايتها لهم وهم مهتدون أنها أيدهم هدى قال تعالى فاما الذين آمنوا فزادتهم ايمانا وهم يستبشرون

يشبه من كونه عكروها واما وصف الرحمة بانها حسنة فمنهم من قال انه حقيقة ومنهم من قال انه مجاز والقول أعرب ثم ان صالحا عليه السلام لما قرر هذا الكلام الحق أجابوه بكلام فاسد هو قولهم اطيرنا بك اى تشاءمنا بك لان الذي يصيبنا من شدة وقحط فهو بشؤمك وبشؤم من معك قال صاحب الكشاف كان الرجل يخرج مسافرا فيمر بطائر فيزجره فان مر سانحا تيمن وان مر بارحا تشأم فلما نسبوا الخير والشر الى الطائر استعير لما كان للخير والشر وهو قدر الله وقسمه فاجاب صالح عليه السلام بقوله طائركم عند الله أى السبب الذي منه يجيء خيركم وشركم عند الله وهو قضاؤه وقدره ان شاء رزقكم وان شاء أحرمكم وقيل بل المراد ان جزاء الطيرة منكم عند الله وهو العقاب والاقرب الوجه الاول لان القوم أشاروا الى الامر الحاصل فيجب في جوابه أن يكون فيه لا في غيره ثم بين أن هذا جهل منهم بقوله بل أنتم قوم تفتنون فيحتمل ان غيرهم دعاهم الى هذا القول ويحتمل أن يكون المراد ان الشيطان يفتنكم بوسوسته ثم انه سبحانه قال وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الارض ولا يصلحون والاقرب أن يكون المراد تسعة جمع اذ الظاهر من الرهط الجماعة لا الواحد ثم يحتمل أنهم كانوا قبائل ويحتمل انهم دخلوا تحت العدد لاختلاف صفتهم وأحوالهم لا لاختلاف السبب فبين تعالى أنهم يفسدون في الارض ولا يفعلون ذلك الفساد بشيء من الاصلاح وبهذا قال يفسدون في الارض ولا يصلحون ثم بين تعالى أن من جملة ذلك ماهموا به من أمر صالح عليه السلام أما قوله تقاسموا بالله فيحتمل ان يكون أمرا أو خبرا في محل الحال باضمار قد أى قالوا متقاسمين والبيات متابعة العدو ليلا أما قوله ثم لنقولن وليه ما شهدنا مهلك أهله يعني لو انهم نافوه حلفنا لهم أنا لم نحضر وقرئ مهلك بفتح الميم واللام وكسرهما من هلك ومهلك بضم الميم من أهلك ويحتمل المصدر والمكان والزمان ثم انه سبحانه قال ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون وقد اختلفوا في مكر الله تعالى على وجوه (أحدها) أن مكر الله اهلاكهم من حيث لا يشعرون شبه بمكر الماكر على سبيل الاستعارة روي انه كان لصالح عليه السلام مسجد في الحجر في شعب يصلي فيه فتناوأوه فقال صالح أنه يفرغ منا الى ثلاث فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث فخرجوا الى الشعب وقالوا اذا جاء يصلي فثلثناه ثم رجعنا الى أهله فقتلناهم فبعث الله تعالى صخرة فطبقت الصخرة عليهم فم الشعب فهلكوا وهلك الباقون بالصيحة (وثانيها) جاؤا ليلا شاهرين سيوفهم وقد أرسل الله تعالى الملائكة فملأ دار صالح فدمغوهم بالحجارة يرون الاحجار ولا يرون راميا (وثالثها) أن الله تعالى أخبر صالحا بمكرهم فحرز عنهم فذلك مكر الله تعالى في حقهم أما قوله أنا دمرناهم استئناف ومن قرأ بالفتح رفعه بدلا من العاقبة أو خبر مبتدا محذوف تقديره هي تدمرهم أو نصبه على معنى لانا أو على انه خبر كان أى كان عاقبة مكرهم الدمار اما قوله خاوية فهو حال عمل فيها ما دل عليه تلك وقرأ عيسى بن عمر خاوية بالرفع على خبر المبتدا

وأما معنى تبشيرها اياهم فظاهر لانها تبشرهم برحمة من الله ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم وقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) صفة مادحة لهم وتخصيصهما بالذكر لانهما قرينتا الايمان وقطرا العبادات البدنية والمالية مستتبعان لسائر الاعمال الصالحة وقوله تعالى (وهم بالآخرة هم يوقنون) جملة اعتراضية كأنه قيل وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالاخرة حق الايقان لا من عداهم لان تحمل مشاق العبادات لخوف العقاب ورجاء الثواب أو هو من تمة الصلة والواو حالية أو عاطفة له على الصلة الاولى وتغيير نظمه للدلالة على قوة يقينهم وثباته وأنهم أوحديون فيه (ان الذين لا يؤمنون بالآخرة) بيان لاحوال الكفرة بعد بيان أحوال المؤمنين أي لا يؤمنون بها وبما فيها من الثواب على الاعمال الصالحة والعقاب على السيئات حسبما ينطق به القرآن (زينا لهم أعمالهم) القبيحة حيث جعلناها مشتهاة للطبع محبوبة للنفس كما ينبئ عنه قوله عليه الصلاة والسلام حفت النار بالشهوات أو الاعمال الحسنة ببيان حسنها في انفسها حالا واستتباعها لفنون المنافع مآلا واضافتها اليهم باعتبار امرهم بها وايجابها عليهم (فهم يعمهون) يتحيرون ويترددون على التجدد والاستمرار في الاشتغال بها والانهماك فيها من غير ملاحظة لما يتبعها من نفع وضر أو في الضلال والاعراض عنها والفاء على الاول لترتيب المسبب على

المحذوف والله اعلم * (القصة الرابعة) قصة لوط عليه السلام قوله تعالى (ولوطا اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون فأنجيناه وأهله الا امرأته قدرناها من الغابرين وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين) قال صاحب الكشاف واذكر لوطا أو أرسلنا لوطا بدلالة ولقد أرسلنا عليه واذ بدل على الاول ظرف على الثاني أما قوله أتأتون الفاحشة فهو على وجه التنكير وان كان بلفظ الاستفهام وربما كان التوبيخ بمثل هذا اللفظ ابلغ اما قوله وأنتم تبصرون ففيه وجوه (أحدها) انهم كانوا لا يتحاشون من اظهار ذلك على وجه الخلاعة ولا يتكاتمون وذلك أحد ما لاجله عظم ذلك الفعل منهم فذكر في توبيخهم له ما له عظم ذلك الفعل (وثانيها) ان المراد بصر القلب أي تعلمون انها فاحشة لم تسبقوا اليها وان الله تعالى لم يخلق الذكر للذكر فهي مضادة لله في حكمته (وثالثها) تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم فان قلت فسرت تبصرون بالعلم ثم بعده بل أنتم قوم تجهلون فكيف يكونون علماء وجهلاء قلت أراد تفعلون فعل الجاهلين بانها فاحشة مع علمكم بذلك أو تجهلون العاقبة أو أراد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها ثم انه تعالى بين جهلهم بان حكى عنهم انهم اجابوا عن هذا الكلام بما لا يصلح ان يكون جوابا له تعالى فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون فجعلوا الذي لاجله يخرجون انهم يتطهرون من هذا الصنيع الفاحش وهذا بأن يوجب تعييرهم وتعظيمهم أولى لكن في المفسرين من قال انما قالوا ذلك على وجه الهزؤ ثم بين تعالى أنه نجاه واهله الا امرأته واهلك الباقين وقد تقدم كل ذلك مشروحا والله اعلم وههنا آخر القصص في هذه السورة والله اعلم * القول في خطاب الله عز وجل مع محمد صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى آلله خير أما يشركون) في هذه الآية قولان (الاول) انه متعلق بما قبله من القصص والمعنى الحمد لله على اهلاكهم وسلام على عباده الذين اصطفى بأن أرسلهم ونجاهم (الثاني) أنه مبتدأ فانه تعالى لما ذكر أحوال الانبياء عليهم السلام وكل محمد صلى الله عليه وسلم كالمخالف لمن قبله في أمر العذاب لان عذاب الاستئصال مرتفع عن قومه أمره تعالى بأن يشكر ربه على ما خصه بهذه النعم وبان يسلم على الانبياء عليهم السلام الذين صبروا على مشاق الرسالة فاما قوله آلله خير أما يشركون فهو تبكيت للمشركين وتهكم بحالهم وذلك أنهم آثروا عبادة الاصنام على عبادة الله تعالى ولا يؤثر عاقل شيأ على شيء الا لزيادة خير ومنفعة فقيل لهم هذا الكلام تنبيها على نهاية ضلالهم وجهلهم وقرئ يشركون بالياء والتاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انه كان اذا قرأها قال بل الله خير وأبقى وأجل وأكرم ثم اعلم أنه سبحانه وتعالى تكلم بعد ذلك في عدة فصول (الفصل الاول) في الرد على عبدة

السبب وعلى الثانى لترتيب ضد السبب على السبب كما فى قولك وعظته فلم يتعظ وفيه ايذان بكمال عتوهم ومكابرتهم وتعكيسهم فى الامور (أولئك) اشارة الى المذكورين وهو مبتدأ خبره الموصول بعده اى أولئك الموصوفون بالكفر والعمه (الذين لهم سوء العذاب) أى فى الدنيا ﴿ ٥٧٢ ﴾ كالقتل والاسر يوم بدر (وهم فى الاخرة هم الاخسرون) أى أشد الناس خسرانا لفوات الثواب واستحقاق العقاب (وانك لتلقى القرآن) كلام مستأنف قد سبق بعد بيان بعض شؤن القرآن الكريم تمهيدا لما يعقبه من الاقاصيص وتصديره بحرف التأكيد لابراز كمال العناية بمضمونه أى لتؤتاه بطريق الملقنة والتلقين (من لدن حكيم عليم) أى أتى حكيم وأى عليم وفى تفخيمهما تفخيم شأن القرآن وتنصيص على علو طبقته عليه الصلاة والسلام فى معرفته والاحاطة بما فيه من الجلائل والدقائق فان من تلقى العلوم والحكم من مثل ذلك الحكيم العليم يكون علما فى رصانة العلم والحكمة والجمع بينهما مع دخول العلم فى الحكمة لعموم العلم ودلالة الحكمة على اتقان الفعل وللاشعار بان ما فى القرآن من العلوم منها ما هو حكمة كالعقائد والشرائع ومنها ما ليس كذلك كالقصص والاخبار الغيبية وقوله تعالى ﴿ الحيوانات ﴾ (اذ قال موسى لاهله) منصوب على المفعولية باضمر خوطب به النبى صلى الله عليه وسلم وأمر بتلاوة بعض من القرآن الذى يلقاه عليه

الاوثان ومدار هذا الفصل على بيان أنه سبحانه وتعالى هو الخالق لاصول النعم وفروعها فكيف تحسن عبادة ما لا منفعة منه البتة ثم أنه سبحانه وتعالى ذكر أنواعا * (النوع الاول) ما يتعلق بالسموات قوله تعالى (أمن خلق السموات والارض وانزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أاله مع الله بل هم قوم يعدلون) وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال صاحب الكشاف الفرق بين أم وأم فى أما يشركون وأمن خلق ان الاولى متصلة لان المعنى أيهما خير وهذه منقطعة بمعنى بل والهمزة لانكار ما بعدها من الاحداق وهو الاحاطة وقيل ذات لان المعنى جماعة حدائق ذات بهجة كما يقال النساء ذهبت وبهجة الحسن لان الناظر يبتهج به أاله مع الله أغيره يقرن به ويجعل شريكا له وفى أئنهم مع الله بمعنى تدعون أو تشركون (المسئلة الثانية) انه تعالى بين انه الذى اختص بان خلق السموات والارض وجعل السماء مكانا للماء والارض منبتا لذكر أعظم النعم وهى الحدائق ذات البهجة ونبه تعالى على أن هذا الانبات فى الحدائق لا يقدر عليه الا الله تعالى لان أحدنا وقدر عليه لما احتاج الى غرس ومصابرة على طهور الثمرة وذا كان تعالى هو المختص بهذا الانعام وجب أن يخص بالعبادة ثم بين أن هؤلاء قوم يعدلون وقد اختلفوا فيه فقيل يعدلون عن هذا الحق الظاهر وقيل يعدلون بالله سواه ونظير هذه الآية أول سورة الانعام (المسئلة الثالثة) يقال ما حكمة الالتفات فى قوله فأنبتنا جوابه انه لا شبهة للعاقل فى أن خالق السموات والارض ومنزل الماء من السماء ليس الا الله تعالى وربما عرضت الشبهة فى ان هذه الشجرة هو الانسان فان الانسان يقول أنا الذى أنبت البذر فى الارض الخراب أسقيه الماء وأسعى فى تربيتها وقاعدة سبب فعل السبب فان أنا انبت الشجرة فلما كان هذا الاحتمال قائما لا جرم أزال هذا الاحتمال فرجع من لفظ الغيبة الى قوله فأنبتنا وقال ما كان لكم أن تنبتوا شجرها لان الانسان قد يأتى بالبذر والسقى والكرب والتشميس ثم لا يأتى على وفق مراده والذى يقع على وفق مراده فانه يكون جاهلا بطبيعته ومقداره وكيفيته فكيف يكون فاعلا لها فلهذه النكتة حسن الالتفات ههنا * (النوع الثانى) ما يتعلق بالارض قوله (أمن جعل الارض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أاله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون) قال صاحب الكشاف أمن جعل ومابعده بدل من أمن خلق فكان حكمها حكمه واعلم انه تعالى ذكر من منافع الارض أمورا أربعة (المنفعة الاولى) كونها قرارا وذلك لوجوه (الاول) انه دحاها وسواها للاستقرار (الثانى) انه تعالى جعلها متوسطة فى الصلابة والرخاوة فليست فى الصلابة كالحجر الذى يتألم الانسان بالاضطجاع عليه وليست فى الرخاوة كالماء الذى يغوص فيه (الثالث) انه تعالى جعلها كثيفة غبراء ليستقر عليها النور ولو كانت لطيفة لما استقر النور عليها ولو لم يستقر النور عليها لصارت من شدة بردها بحيث تموت

الصلاة والسلام من لدنه عز وجل تقريرا لما قبله وتحقيقا له أي اذكر لهم وقت قوله عليه الصلاة والسلام لاهله في وادي طوى وقد غشيتهم ظلمة الليل وقدح فاصلد زندا فبداله من جانب الطور نار (اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر) أي عن حال الطريق وقد كانوا ﴿ ٥٧٣ ﴾ ضلوه والسين للدلالة على نوع بعد في المسافة وتأكيد الوعد والجمع أن صح أنه لم يكن معه عليه الصلاة والسلام الا امرأته أو للتعظيم مبالغة في التسلية (او آتيكم بشهاب قبس) بتنوينهما على أن الثاني بدل من الاول أو صفة له لانه بمعنى مقبوس أي بشعلة نار مقبوسة أي مأخوذة من أصلها وقرئ بالاضافة وعلى التقديرين فالمراد تعيين المقصود الذي هو القبس الجامع لنفعي الضياء والاصطلاء لا من النار ما ليس بقبس كالجمر وكلتا العدتين منه عليه الصلاة والسلام بطريق الظن كما يفصح عن ذلك ما في سورة طه من صيغة الترجي والترديد اللايذان بأنه ان لم يظفر بهما لم يعدم أحدهما بناء على ظاهر الامر وثقة بسنة الله تعالى فانه تعالى لا يكاد يجمع على عبده حرمانين (لعلكم تصطلون) رجاء أن تستدفئوا بها والصلاء النار العظيمة (فلما جاءها نودي) من جانب الطور (أن بورك) معناه أي بورك على أن أن مفسرة لما في النداء من معنى القول أو بأن بورك على أنها مصدرية حذف عنها الجار جريا على القاعدة المستمرة وقيل مخففة من الثقيلة ولا ضير في فقدان التعويض بلا أو قد أو السين أو سوف لما أن

الحيوانات (الرابع) انه سبحانه جعل الشمس بسبب ميل مدارها عن مدار منطقة الكل بحيث تبعد تارة وتقرب أخرى من سمت الرأس ولولا ذلك لما اختلفت الفصول ولما حصلت المنافع (الخامس) أنه سبحانه وتعالى جعلها ساكنة فانها لو كانت متحركة لكانت اما متحركة على الاستقامة أو على الاستدارة وعلى التقديرين لا يحصل الانتفاع بالساكن على الارض (السادس) انه سبحانه جعلها كفاتا للاحياء والاموات وانه يطرح عليها كل قبيح ويخرج منها كل مليح (المنفعة الثانية للارض) قوله وجعل خلالها أنهارا فاعلم ان أقسام المياه المتبعثة عن الارض أربعة (الاول) مياه العيون السيالة وهي تنبعث من ابخرة كثيرة المادة قوية الاندفاع تفجر الارض بقوة ثم لا يزال يستتبع جرمها جرأ (الثاني) ماء العين الراكدة وهي تحدث من ابخرة بلغت من قوتها أن اندفعت الى وجه الارض ولم تبلغ من قوتها وكثرة مادتها ان يطرد تاليا ساقتها (الثالث) مياه القنى والانهار وهي متولدة عن ابخرة ناقصة القوة عن ان تشق الارض فاذا أزيل عن وجهها ثقل التراب صادفت حينئذ تلك الابخرة منفذا تندفع اليه بأدنى حركة (الرابع) مياه الآبار وهي تبعية كمياه الانهار الا انه لم يجعل له ميل الى موضع يسيل اليه ونسبة القنى الى الآبار نسبة العيون السيالة الى العيون الراكدة فقد ظهر أنه لولا اصلاد الارض لما اجتمعت تلك الابخرة في باطنها ولولا اجتماعها في باطنها لما حدثت هذه العيون في ظاهرها (المنفعة الثانية للارض) قوله وجعل لها رواسي والمراد منها الجبال فنقول أكثر العيون والسحب والمعدنيات انما تكون في الجبال أو فيما يقرب منها أما العيون فلان الارض اذا كانت رخوة نشفت الابخرة عنها فلا يجتمع منها شيء بل يعدمها فاذن هذه الابخرة لا تجتمع الا في الارض الصلبة والجبال أصلب الارض فلا جرم كانت أقوى على حبس هذا البخار حتى يجتمع ما يصلح أن يكون مادة لعيون ويشبه أن يكون مستقر الجبال من رأسها ويكون الجبل في حفنه الابخرة مثل الانبيق الصلب المعد للتقصير لا يدع شيأ من البخار يتخلل ونفس الارض التي تحته كالقرعة والعيون كالاذناب والبخار كالقوابل ولذلك فان أكثر العيون انما تتفجر من الجبال وأقلها في البراري وذلك الاول لا يكون الا اذا كانت الارض صلبة وأما أن أكثر السحب تكون في الجبال فلوجوه ثلاثة (أحدها) أن في باطن الجبال من النداوات ما لا يكون في باطن الارضين الرخوة (وثانيها) أن الجبال بسبب ارتفاعها أبرد فلا جرم يبقى على ظاهرها من الاندا ومن الثلوج ما لا يبقى على ظهر سائر الارضين (وثالثها) أن الابخرة الصاعدة تكون محبوسة بالجبال فلا تتفرق ولا تتحلل واذا ثبت ذلك ظهر أن أسباب كثرة السحب في الجبال أكثر لان المادة فيها ظاهرا وباطنا أكثر والاحتقان أشد والسبب المحلل وهو الحر أقل فلذلك كانت السحب في الجبال أكثر وأما المعدنيات المحتاجة الى أبخرة يكون اختلاطها بالارضية أكثر والى بقاء مدة طويلة يتم النضج فيها فلا شيء لها في هذا

الدعاء يخالف غيره فى كثير من الاحكام (من فى النار ومن حولها) أى من فى مكان النار وهى البقعة المباركة المذكورة فى قوله سبحانه نودى من شاطئ الوادى الايمن فى البقعة المباركة ومن حول مكانها وقرئ تبارك من فى الارض ومن حولها والظاهر عمومه لكل من فى ذلك الوادى وحواليه من ارض ﴿ الشام الموسومة بالبركات لكونها مبعث الانبياء عليهم الصلاة والسلام وكفاتهم أحياء وأمواتا ولاسيما تلك البقعة التى كلم الله تعالى فيها موسى وقيل المراد موسى والملائكة الحاضرون وتصدير الخطاب بذلك بشارة بأنه قد قضى له أمر عظيم دينى تنتشر بركاته فى أقطار الشام وهو تكليمه تعالى اياه عليه الصلاة السلام واستنباؤه له واظهار المعجزات على يديه عليه الصلاة والسلام (وسبحان الله رب العالمين) تعجيب لموسى عليه الصلاة والسلام من ذلك وايذان بأن ذلك مريده ومكونه رب العالمين تنبيها على أن المكان من جملة الامور الرابعة للارض ومن أحكام تربيته تعالى للعالمين (يا موسى انه أنا الله) استئناف مسوق لبيان آثار البركة المذكورة والضمير اما للشأن وأنا الله جملة مفسرة له واما راجع الى المتكلم وأنا خبره والله بيان له وقوله تعالى (العزيز الحكيم) صفتان لله تعالى ممهدتان لما أريد اظهاره على يده من المعجزات ﴿ الادغام ﴾ أى أنا القوى القادر على ما تنالة الاوهام من الامور العظام التى من جملتها أمر العصا واليد الفاعل كل ما أفعله

المعى كالجبال (المنفعة الرابعة للارض) قوله وجعل بين البحرين حاجزا فالمقصود منه أن لا يفسد العذب بالاختلاط وأيضا فلينتفع بذلك الحاجز وأيضا المؤمن فى قلبه بحران بحر الايمان والحكمة وبحر الطغيان والشهوة وهو بتوفيقه جعل بينهما حاجزا لكى لا يفسد أحدهما بالآخر وقال بعض الحكماء فى قوله مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان قال عند عدم البغى يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان فعند عدم البغى فى القلب يخرج الدين والايمان بالشكر فان قيل ولم جعل البحر ملحا قلنا لو لا ملوحته لأجن وانتشر فساد أجونته فى الارض وأحدث الوباء العام واعلم ان اختصاص البحر بجانب من الارض دون جانب أمر غير واجب بل الحق ان البحر ينقل فى مدد لا تضبطها التواريخ المنقولة من قرن الى قرن لان استمداد البحر فى الاكثر من الانهار والانهار تستمد فى الاكثر من العيون وأما مياه السماء فان حدوثها فى فصل بعينه دون فصل ثم لا العيون ولا مياه السماء يجب ان يتشابه أحوالها فى بقاع واحدة باعيانها تشابها مستمرا فان كثيرا من العيون يغور وكثيرا ما تقحط السماء فلا بد حينئذ من نصوب الاودية والانهار فيعرض بسبب ذلك نصوب البحار واذا حدثت العيون من جانب آخر حدثت الانهار هناك فحصلت البحار من ذلك الجانب ثم انه سبحانه لما بين انه هو المختص بالقدرة على خلق الارض التى فيها هذه المنافع الجليلة وجب أن يكون هو المختص بالالهية ونبه بقوله تعالى بل أكثرهم لا يعقلون على عظيم جهلهم بالذهاب عن هذا التفكر ﴿ (النوع الثالث) مايتعلق باحتياج الخلق اليه سبحانه وهو قوله تعالى (أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض أإله مع الله قليلا ما يذكرون) اعلم انه سبحانه نبه فى هذه الآية على أمرين (أحدهما) قوله أمن يجيب المضطر اذا دعاه قال صاحب الكشاف الضرورة الحالة المحوجة الى الالتجاء والاضطرار افتعال منها يقال اضطره الى كذا والفاعل والمفعول مضطر واعلم ان المضطر هو الذى أحوجه مرض أو فقر أو مازلة من نوازل الدهر الى التضرع الى الله تعالى وعن السدى الذى لا حول له ولا قوة وقيل المذنب اذا استغفر ﴿ فان قيل قد عم المضطرين بقوله أمن يجيب المضطر اذا دعاه وكم من مضطر يدعو فلا يجاب ﴿ جوابه قد بينا فى أصول الفقه ان المفرد المعرف لا يفيد العموم وانما يفيد الماهية فقط والحكم المثبت للماهية يكفى فى صدقه ثبوته فى فرد واحد من أفراد الماهية وأيضا فانه تعالى وعد بالاستجابة ولم يذكر انه يستجيب فى الحال وتمام البيان فى شرائط الدعاء والاجابة مذكور فى قوله تعالى وقال ربكم ادعونى أستجب لكم فاما قوله تعالى ويكشف السوء فهو كالتفسير للاستجابة فانه لا يقدر أحد على كشف ما دفع اليه من فقر الى غنى ومرض الى صحة وضيق الى سعة الا القادر الذى لا يعجز والقاهر الذى لا ينازع (وثانيهما) قوله ويجعلكم خلفاء الارض فالمراد توارثهم مكانها والتصرف فيها قرنا بعد قرن وأراد بالخلافة الملك والتسلط وقرئ يذكرون بالياء مع

بحكمة بالغة وتدبير وصين (والق) عطف على يورك منتظم معه فى سلك تفسير النداء أى نودى أن بورك وأن ألق (عصاك) حسبما نطق به قوله تعالى وأن ألق عصاك بتكرير حرف التفسير كما تقول كتبت اليه أن حج وأن اعتمر وان شئت أن حج واعتمر والقاء ﴿ ٥٧٥ ﴾ فى قوله تعالى (فلما رآها تهتز) فصيحة تفصح عن جملة قد حذفت ثقة بظهورها ودلالة على سرعة وقوع مضمونها كما فى قوله تعالى فلما رأينه أكبرنه بعد قوله تعالى اخرج عليهن كأنه قيل فألقاها فانقلبت حية تسعى فأبصرها فلما أبصرها متحركة بسرعة واضطراب وقوله تعالى (كأنها جان) أى حية خفيفة سريعة الحركة جملة حالية اما من مفعول رأى مثل تهتز كما أشير اليه أو ضمير تهتز على طريقة التداخل وقرئ جان على لغة من جد فى الهرب من الثقلاء الساكنين (ولى مدبرا) من الخوف (ولم يعقب) أى لم يرجع على عقبه من عقب المقاتل اذا كر بعد الفر وانما اعتراه الرعب لظنه أن ذلك لامر أريد به كما ينبئ عنه قوله تعالى (ياموسى لاتخف) أى من غيرى ثقة بى أو مطلقا لقوله تعالى (انى لايخاف لدى المرسلون) فانه

الادغام و بالتاء مع الادغام و بالحذف مع زيادة أى يذكرون تذكرا قليلا والمعنى نفى التذكر والقلة تستعمل فى معنى النفى * (النوع الرابع) مايتعلق أيضا باحتياج الخلق ولكنه حاجة خاصة فى وقت خاص قوله تعالى (أمن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته أ له مع الله تعالى الله عما يشركون) اعلم انه تعالى نبه فى هذه الآية على امرين (الاول) قوله أمن يهديكم والمراد يهديكم بالنجوم فى السماء والعلامات فى الارض اذا جن الليل عليكم مسافرين فى البر والبحر (الثانى) قوله ومن يرسل الرياح فانه سبحانه هو الذى يحرك الرياح فتثير السحاب ثم تسوقه الى حيث يشاء فان قيل لانسلم انه تعالى هو الذى يحرك الرياح فان الفلاسفة قالت الرياح انما تتولد عن الدخان وليس الدخان كله هو الجسم الاسود المرتفع مما احترق بالنار بل كل جسم أرضى يرتفع بتصعيد الحرارة سواء كانت الحرارة حرارة النار أو حرارة الشمس فهو دخان قالوا وتولد الرياح من الادخنة على وجهين أحدهما أكثرى والآخر أقلى أما الاكثرى فهو انه اذا صعدت أدخنة كثيرة الى فوق فعند وصولها الى الطبقة الباردة اما أن ينكسر حرها ببرد ذلك الهواء أو لاينكسر فان انكسر فلا محالة يثقل و ينزل فيحصل من نزولها تموج الهواء فتحدث الريح وان لم تنكسر حرها ببرد ذلك الهواء فلابد وأن يتصاعد الى أن يصل الى كرة النار المتحركة بحركة الفلك وحينئذ لايمكن من الصعود بسبب حركة النار فترجع تلك الادخنة وتصير ريحا لايقال لو كان اندفاع هذه الادخنة بسبب حركة الهواء العالى لما كانت حركتها الى أسفل بل الى جهة حركة الهواء العالى لانا نقول الجواب من وجهين (أحدهما) انه ربما أوجبت هيئة صعود تلك الادخنة وهيئة لحوق المادة بها أن يتحرك الى خلاف جهة المتحرك المانع كالسهم يصيب جسما متحركا فيعطفه تارة الى جهته ان كان الحابس كما يقدر على صرف المتحرك عن متوجهه يقدر أيضا على صرفه الى جهة حركة نفسه وتارة الى خلاف تلك الجهة اذا كان المفارق يقدر على الحبس ولايقدر على الصرف (الثانى) انه ربما كان صعود بعض الادخنة من تحت مانعا للادخنة النازلة من فوق الى أن يتسفل ذلك فلاجل هذا السبب يتحرك الى سائر الجوانب واعلم ان لاهل الاسلام ههنا مقامين (الاول) أن يقيم الدلالة على فساد هذه العلة و بيانه من وجهين (الاول) ان الاجزاء الدخانية أرضية فهى أثقل من الاجزاء البخارية المائية ثم ان البخار لما يبرد ينزل على الخط المستقيم مطرا فالدخان لما برد فلماذا لم ينزل على الخط المستقيم بل ذهب يمنة و يسرة (الثانى) ان حركة تلك الاجزاء الى أسفل طبيعية وحركتها يمنة و يسرة عرضية والطبيعية أقوى من العرضية واذا لم يكن أقوى فلا أقل من المساواة ثم ان الريح عند حركتها يمنة و يسرة ربما تقوى على قلع الاشجار ورمى الجدار بل الجبال فتلك الاجزاء الدخانية عند ما تحركت حركتها الطبيعية التى لها وهى الحركة الى السفل وجب أن تهدم السقف

ولكنا نرى الغبار الكثير ينزل من الهواء ويسقط على السقف ولا يحس بنزوله فضلا عن أن يهدمه فثبت فساد ما ذكروه (المقام الثانى) هب ان الامر كما ذكروه ولكن الاسباب الفاعلية والقابلية لها مخلوقة لله سبحانه وتعالى فانه لولا الشمس وتأثيرها فى تصعيد الابخرة والادخنة ولولا طبقات الهواء والا لما حدثت هذه الامور ومعلوم ان من وضع أسبابا وأدته الى منافع عجيبة وحكم بالغة فذلك الواضع هو الذى فعل تلك المنافع فعلى جميع الاحوال لابد من شهادة هذه الامور على مدبر حكيم واجب لذاته قطعا للسلسلة الحاجات * (النوع الخامس) المتعلق بالحشر المذكور قوله تعالى (أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض أاله مع الله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) اعلم انه تعالى لما عدد نعم الدنيا أتبع ذلك بنعم الآخرة بقوله أمن يبدأ الخلق ثم يعيده لان نعم الآخرة ما توال لانتم الا بالاعادة بعد الابتداء والابلاغ الى حد التكليف فقد تضمن الكلام كل هذا نعم ومعلوم انها لاتتم الا بالارزاق فلذلك قال ومن يرزقكم من السماء والارض ثم قال أاله مع الله منكرا لما هم عليه ثم بين بقوله قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين أن لا برهان لكم فاذن هم مبطلون وهذا يدل على انه لابد فى الدعوى من البرهان وعلى فساد التقليد * فان قيل كيف قيل لهم أم من يبدأ الخلق ثم يعيده وهم منكرون للاعادة * جوابه كانوا معترفين بالابتداء ودلالة الابتداء على الاعادة دلالة ظاهرة قوية فلما كان الكلام مقرونا بالدلالة الظاهرة صاروا كأنهم لم يبق لهم عذر فى الانكار وههنا آخر الدلائل المذكورة على كمال قدرة الله تعالى * قوله تعالى (قل لا يعلم من فى السموات والارض الغيب الا الله وما يشعرون أيان يبعثون بل أدارك علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها بل هم منها عمون) اعلم انه تعالى لما بين انه المختص بالقدرة فكذلك بين انه المختص بعلم الغيب واذا ثبت ذلك ثبت انه هو الاله المعبود لان الاله هو الذى يصح منه مجازاة من يستحق الثواب على وجه لا يلتبس بأهل العقاب * فان قيل الاستثناء حكمه اخراج ما لولاه لوجب أو لصح دخوله تحت المستثنى منه ودلت الآية ههنا على استثناء الله سبحانه وتعالى عن من فى السموات والارض فوجب كونه ممن فى السموات والارض وذلك يوجب كونه تعالى فى المكان * والجواب هذه الآية متروكة الظاهر لان من قال انه تعالى فى المكان زعم انه فوق السموات ومن قال انه ليس فى مكان فقد نزهه عن كل الامكنة فثبت بالاجماع انه تعالى ليس فى السموات والارض فاذن وجب تأويله فنقول انه تعالى ممن فى السموات والارض كما يقول المتكلمون الله تعالى فى كل مكان على معنى ان علمه فى الاماكن كلها * لا يقال ان كونه فى السموات والارض مجاز وكونهم فيهن حقيقة وارادة المتكلم بعبارة واحدة حقيقة ومجازا غير جائزة لانا نقول كونهم فى السموات والارض كما أنه حاصل حقيقة وهو حصول ذواتهم فى تلك الاحياز فكذلك حاصل مجازا وهو كونهم عالمين بتلك الامكنة فاذا حملنا هذه الغيبة

(مبصرة) بينة اسم فاعل أطلق على المفعول اشعارا بانها لفرط وضوحها وانارتها كأنها تبصر نفسها لو كانت مما يبصر أو ذات تبصر من حيث انها تهدي والعمى لا تهتدي فضلا عن الهداية أو مبصرة كل من ينظر اليها ويتأمل فيها وقرئ مبصرة أي مكانا يكثر فيه الابصار (فالوا هذا * ٥٧٧ * سحر مبين) واضح سحريته (وجحدوا بها) أي كذبوا بها (واستيقنتها أنفسهم) الواو للحال أي وقد استيقنتها أي علمتها أنفسهم علما يقينيا (ظلما) أي للآيات كقوله تعالى بما كانوا بآياتنا يظلمون وقد ظلموا بها أي ظلم حيث حطوها عن رتبتها العالية وسموها سحرا وقيل ظلما لانفسهم وليس بذاك (وعلوا) أي استكبارا عن الايمان بها كقوله تعالى والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها وانتصابهما اما على العلة من جحدوا بها أو على الحالية من فاعله أي جحدوا بها ظالمين لها مستكبرين عنها (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) من الاغراق على الوجه الهائل الذي هو عبرة للعالمين وانما لم يذكر تنبيها على أنه عرض لكل ناظر مشهور فيما بين كل باد وحاضر (ولقد آتينا داود وسليمان علما) كلام مستأنف مسوق لتقرير ما سبق من أنه عليه الصلاة والسلام يلقى القرآن من لدن حكيم عليم فان قصتهما عليهما الصلاة * ٧٣ * س والسلام من جملة القرآن الكريم لقيه عليه الصلاة والسلام من لدنه تعالى كقصة موسى عليه السلام وتصديره بالقسم لاظهار كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه أي آتينا كل واحد منهما طائفة من العلم لائقة به من العلم الشرائع والاحكام وغير ذلك مما يختص بكل منهما كصنعة

على المعنى المجازي وهو الكون فيها بمعنى العلم دخل الرب سبحانه وتعالى والعبيد فيه فصح الاستثناء أما قوله ومايشعرون فهو صفة لاهل السموات والارض نفى أن يكون لهم علم الغيب وذكر في جملة الغيب متى البعث بقوله أيان يبعثون فأيان بمعنى متى وهي كلمة مركبة من أي والآن وهو الوقت وقرئ ايان بكسر الهمزة أما قوله بل أدارك علمهم في الآخرة فاعلم ان كلام صاحب الكشاف فيه مرتب على ثلاثة ابحاث (البحث الاول) فيه اثنتا عشرة قراءة بل ادرك بل ادرك بل ادارك بل تدارك بل أأدرك بهمزتين بل آأدرك بألف بينهما بل آدرك بالتخفيف والنقل بل ادرك بفتح اللام وتشديد الدال وأصله بل أدرك على الاستفهام بلى ادرك بلى أأدرك أم تدارك أم أدرك (البحث الثاني) ادارك أصله تدارك فأدغمت التاء في الدال وادرك افتعل (البحث الثالث) معنى أدرك علمهم انتهى وتكامل وادرك تتابع واستحكم ثم فيه وجوه (أحدها) ان أسباب استحكام العلم وتكامله بان القيامة كائنة لاريب فيها قد حصلت لهم ومكنوا من معرفتها وهم شاكون جاهلون وذلك قوله بل هم في شك منها بل هم منها عمون يريد المشركين ممن في السموات والارض لانهم لما كانوا من جملتهم نسب فعلهم الى الجميع كما يقال بنو فلان فعلوا كذا وانما فعله ناس منهم * فان قيل الآية سيقت لاختصاص الله تعالى بعلم الغيب وان العباد لا علم لهم بشئ منه وان وقت بعثهم ونشورهم من جملة الغيب وهم لا يشعرون به فكيف تناسب هذا المعنى وصف المشركين بانكارهم البعث مع استحكام أسباب العلم والتمكن من المعرفة * والجواب كأنه سبحانه قال كيف يعلمون الغيب مع انهم شكوا في ثبوت الآخرة التي دلت الدلائل الظاهرة القاهرة عليها فمن غفل عن هذا الشئ الظاهر كيف يعلم الغيب الذي هو أخفى الاشياء (الوجه الثاني) ان وصفهم باستحكام العلم تهكم بهم كما تقول لأجهل الناس ما أعلمك على سبيل الهزء وذلك حيث شكوا في اثبات ما الطريق اليه واضح ظاهر (الوجه الثالث) أن يكون أدرك بمعنى انتهى وفني من قولك أدركت الثمرة لان تلك غايتها التي عندها تتم وقد فسره الحسن بتضمحل علمهم وتدارك من تدارك بنو فلان اذا تتابعوا في الهلاك أما وجه قراءة من قرأ بل أأدرك على الاستفهام فهو انه استفهام على وجه الانكار لادراك علمهم وكذا من قرأ أم أدرك وأم تدارك لانها أم هي التي بمعنى بل والهمزة وأما من قرأ بلى أدرك فانه لما جاء ببلى بعد قوله ومايشعرون كان معناه بلى يشعرون ثم فسر الشعور بقوله أدرك علمهم في الآخرة على سبيل التهكم الذي معناه المبالغة في نفي العلم فكأنه قال شعورهم بوقت الآخرة انهم لا يعلمون كونها فيرجع الى نفي الشعور على أبلغ ما يكون وأما من قرأ بلى أدرك على الاستفهام فمعناه بلى شعروا متى يبعثون ثم أنكر علمهم بكونها واذا أنكر علمهم بكونها لم يتحصل لهم شعور بوقت كونها * فان قلت هذه الاضرابات الثلاثة ما معناها قلت ما هي الا بيان درجاتهم وصفهم أولا بانهم لا يشعرون وقت البعث ثم انهم لا يعلمون ان

لبوس ومنطق الطير أو علما سنيا غزيرا (وقالا) أى قال كل واحد منهما شكرا لما أوتيه من العلم (الحمد لله الذى فضلنا) بما آتانا من العلم (على كثير من عباده المؤمنين) على ان عبارة كل منهما فضائى الا أنه عبر عنهما عند الحكاية بصيغة المتكلم مع الغير ايجازا فان حكاية الاقوال المتعددة سواء ﴿ ٥٧٨ ﴾ كانت صادرة عن المتكلم أو عن غيره بعبارة

القيامة كائنة ثم بانهم يخبطون فى شك ومرية ثم بما هو أسوأ حالا وهو العمى وفيه نكتة وهى انه تعالى جعل الآخرة مبدأ عماهم فلذلك عداه بمن دون عن لان الكفر بالعاقبة والجزاء هو الذى جعلهم كالبهائم * قوله تعالى (وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ان هذا الا أساطير الاولين قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون وان ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون وان ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وما من غائبة فى السماء والارض الا فى كتاب مبين) اعلم أنه سبحانه لما تكلم فى حال المبدأ تكلم بعده فى حال المعاد وذلك لان الشك فى المعاد لا ينشأ الا من الشك فى كمال القدرة أو فى كمال العلم فاذا ثبت كونه تعالى قادرا على كل الممكنات وعالما بكل المعلومات ثبت انه تعالى يمكنه تمييز اجزاء بدن كل واحد من المكلفين عن اجزاء بدن غيره وثبت انه قادر على أن يعيد التركيب والحياة اليها واذا ثبت امكان ذلك ثبت صحة القول بالحشر فلما بين الله تعالى هذين الاصلين فيما قبل هذه الآية لا جرم لم يحكه فى هذه الآية فحكى عنهم انهم تعجبوا من اخراجهم أحياء وقد صاروا ترابا وطعنوا فيه من وجهين (الاول) قولهم لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا اى هذا كلام كاذب لانا قد قيل لمن قبلنا ولم يظهر له أثر فهو اذن من أساطير الاولين يريدون ما لا يصح من الاخبار * فان قيل ذكرهنا لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا وفى آية أخرى لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا فما الفرق قلنا التقديم دليل على ان المقدم هو المقصود الاصلى وان الكلام سيق لاجله ثم انه سبحانه لما كان قد بين الدلالة على هذين الاصلين ومن الظاهر ان كل من أحاط بهما فقد عرف صحة الحشر والنشر ثبت انهم أعرضوا عنها ولم يتأملوها وكان سبب ذلك الاعراض حب الدنيا وحب الرياسة والجاه وعدم الانقياد للغير لا جرم اقتصر على بيان ان الدنيا فانية زائلة فقال قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين وفيه سؤالان (السؤال الاول) لم لم يقل كيف كانت عاقبة المجرمين جوابه لان تأنيثها غير حقيقى ولان المعنى كيف كان آخر أمرهم (السؤال الثانى) لم لم يقل عاقبة الكافرين جوابه الغرض ان يحصل التخويف لكل العصاة ثم انه تعالى صبر رسوله على ما يناله من هؤلاء الكفار فقال ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون فجمع بين ازالة الغم عنه بكفرهم وبين ازالة الخوف من جانبهم وصار ذلك كالتكفل بنصرته عليهم وقوله ولا تكن فى ضيق أى فى حرج قلب يقال ضاق الشئ ضيقا وضيقا بالفتح والكسر والضيق تخفيف الضيق ويجوز ان يراد فى امر ضيق من مكرهم (الوجه الثانى) للكفار قولهم متى هذا الوعد وقوله ان كنتم صادقين دل على انهم ذكروا ذلك على سبيل السخرية

جامعة للكل مما ليس بعزيز من الارل قوله تعالى يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا وقد مر فى سورة قد أفلح المؤمنون وهذا ظهر حسن موقع العطف بالواو واذ المتبادر من العطف بالفاء ترتب حمد كل منهما على ايتاء ما أوتى كل منهما لا على ايتاء ما أوتى نفسه فقط وقيل فى العطف بالواو اشعار بأن ما قاله بعض ما أحدث فيهما ايتاء العلم وشئ من مواجبه وأضمر ذلك ثم عطف عليه التحميد كأنه قيل ولقد آتيناهما علما فعملا به واعلماه وعرفا حق النعمة فيه وقالا الحمد لله الآية فتأمل والكثير المفضل عليه من لم يؤت مثل علمهما وقيل من لم يؤت علما وبأباه تبيين الكثير بالمؤمنين فان خلوهم من العلم بالمرة مما لا يمكن وفى تخصيصهما الاكثر بالذكر رمز الى أن البعض مفضلون عليهما وفيه أوضح دليل على فضل العلم وشرف اهله حيث شكرا على العلم وجعلاه أساس الفضل ولم يعتبرا دونه ما أوتيا ﴿ فاجاب ﴾ من الملك الذى لم يؤته غيرهما وتحريض للعلماء على أن يحمدوا الله تعالى على ما آتاهم من فضله

ويتواضعوا ويعتقدوا أنهم وان فضلوا على كثير فقد فضل عليهم كثير وفوق كل ذي علم عليم ونعم ما قال أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه كل الناس أفقه من عمر (وورث سليمان داود) أي النبوة والعلم أو الملك بأن قام مقامه في ذلك دون سائر بنيه وكانوا تسعة عشر ❊ ٥٧٩ ❊ (وقال) تشهيرا لنعمة الله تعالى وتنويها بها ودعاء

فأجاب الله تعالى بقوله عسى ان يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون وهو عذاب يوم بدر فزيدت اللام للتاكيد كالباء في ولا تلقوا بأيديكم او ضمن معنى فعل يتعدى باللام نحو دنا لكم وازف لكم ومعناه تبعكم ولحقكم وقرأ الاعرج ردف لكم بوزن ذهب وهما لغتان والكسر افصح وههنا بحثان (البحث الاول) ان عسى ولعل في وعد الملوك ووعيدهم يدلان على صدق الامر وانما يعنون بذلك اظهار وقارهم وانهم لا يعجلون بالانتقام لوثوقهم بان عدوهم لا يفوتهم فعلى ذلك جرى وعد الله ووعيده (الثاني) انه قد ثبت بالدلائل العقلية ان عذاب الحجاب أشد من عذاب النار ولذلك قال كلا انهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم انهم لصالوا الجحيم فقدم الحجاب على الجحيم ثم انهم كانوا محجوبين في الحال فكان سبب العذاب بكماله حاصلا الان الاشتغال بالدنيا ولذاتها كالعائق عن ادراك ذلك الالم كما ان العضو الخدر اذا مسته النار فان سبب الالم حاصل في الحال لكنه لا يحصل الشعور بذلك الالم لقيام العائق فاذا زال العائق عظم البلاء فكذا ههنا اذا زال البدن عظم عذاب الحجاب فقوله سبحانه عسى ان يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون يعني المقتضي له والمؤثر فيه حاصل وتمامه انما يحصل بعد الموت ثم انه سبحانه بين السبب في ترك تعجيل العذاب فقال وان ربك لذو فضل على الناس والفضل الافضال ومعناه انه متفضل عليهم بتأخير العقوبة واكثرهم لا يعرفون هذه النعمة ولا يشكرونها وهذه الآية تبطل قول من قال انه لا نعمة لله على الكفار ثم بين سبحانه انه مطلع على ما في قلوبهم فقال وان ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون وههنا بحث عقلي وهو انه قد ما تكنه صدورهم على ما يعلنون من العلم ❊ والسبب ان ما تكنه صدورهم هو الدواعي والقصود وهي اسباب لما يعلنون وهي افعال الجوارح والعلم بالعلة علة للعلم بالمعلول فهذا هو السبب في ذلك التقديم قرئ تكن يقال كننت الشيء واكننته اذا سترته واخفيته يعني انه تعالى يعلم ما يخفون وما يعلنون من عداوة الرسول ومكايدهم اما بوله ومن غائبة فقال صاحب الكشاف سمي الشيء الذي يغيب ويخفى غائبة وخافية فكانت التاء فيهما بمنزلتها في العاقبة والعافية والنطيحة والذبيحة والرمية في انها اسماء غير صفات ويجوز ان يكونا صفتين وتاؤهما للمبالغة كالراوية في قولهم ويل للشاعر من رواية السوء كانه تعالى قال وما من شيء شديد الغيبوبة والخفاء الا وقد علمه الله تعالى واحاط به وأثبته في اللوح المحفوظ والمبين الظاهر البين لمن ينظر فيه من الملائكة ❊ قوله تعالى (ان هذا القرآن يقص على بني اسرائيل اكثر الذي هم فيه يختلفون وانه لهدى ورحمة للمؤمنين ان ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم فتوكل على الله انك على الحق المبين انك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما انت بهاد العمي عن ضلالتهم ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) اعلم انه سبحانه لما تم الكلام في اثبات المبدأ

للناس الى التصديق بذكر المعجزات الباهرة التي أوتيها (يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شيء) المنطق في المتعارف كل لفظ يعبر به عما في الضمير مفردا كان أو مركبا وقد يطلق على كل ما يصوت به من المفرد والمؤلف المفيد وغير المفيد يقال نطقت الحمامة وكل صنف من أصناف الطير يتفاهم أصواته والذي علمه سليمان عليه السلام من منطق الطير هو ما يفهم بعضه من بعض من معانيه وأغراضه ويحكى أنه مر على بلبل في شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لاصحابه أتدرون ما يقول قالوا الله ونبيه أعلم قال يقول اذا أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء وصاحت فاخته فأخبر أنها تقول ليت الخلق فلم يخلقوا وصاح طاوس فقال يقول كما تدين تدان وصاح هدهد فقال يقول استغفروا الله يا مذنبين وصاح طيطوى فقال يقول كل حي ميت وكل جديد بال وصاح خطاف فقال يقول قدموا خيرا تجدوه وصاح قرى فاخبر أنه يقول سبحان ربي الأعلى وصاحت رخمة فقال تقول سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه وقال الهدهد

تقول كل شئ هالك الا الله والقطاة تقول من سكت سلم والببغاء تقول ويل لمن الدنيا همه والديك يقول اذكروا الله يا غافلين والنسر يقول يا ابن آدم عش ماشئت اخرك الموت والعقاب تقول فى البعد عن الناس أنس والضفدع يقول سبحان ربى القدوس وأراد عليه الصلاة والسلام ﴿ ٥٨٠ ﴾ بقوله علمنا وأوتينا بالنون التى يقال لها نون الواحد المطاع بيان لما وصف به من كونه ملكا مطاعا لكن لا جبارا وتكبرا بل تمهيدا لما أراد منهم من حسن الطاعة والانقياد له فى أوامره ونواهيه حيث كان على عزيمة المسير وبقوله من كل شئ كثرة ما أوتيه كما يقال فلان يقصده أحد ويعلم كل شئ ويراد به كثرة قصاده وغزارة علمه ومثل قوله تعالى وأوتيت من كل شئ وقال ابن عباس رضى الله عنهما كل ما يهمه من امر الدنيا والآخرة وقال مقاتل يعنى النبوة والملك وتسخير الجن والانس والشياطين والريح (ان هذا) اشارة الى ما ذكر من التعليم والايتاء (لهو الفضل) والاحسان من الله تعالى (المبين) الواضح الذى لا يخفى على أحد أو ان هذا الفضل الذى أوتيه لهو الفضل المبين على أنه عليه الصلاة والسلام قاله على سبيل الشكر والمحمدة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا سيد ولد آدم ولا فخر أى أقول هذا القول شكرا لا فخرا ولعله عليه ﴿ فالمعنى ﴾ الصلاة والسلام رتب على كلامه ذلك دعوة الناس الى الغزو فان أخبارهم بايتاء كل شئ من الاشياء التى

ولما عاد ذكر به ذلك ما يتعلق بالنبوة ولما كانت العمدة الكبرى فى اثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم هو القرآن لاجرم بين الله تعالى أولا كونه معجزة من وجوه (أحدها) ان الاقاصيص المذكورة فى القرآن موافقة لما كانت مذكورة فى التوراة والانجيل مع العلم بانه عليه الصلاة والسلام كان أميا وانه لم يخالط أحدا من العلماء ولم يشتغل قط بالاستفادة والتعلم فاذن لا يكون ذلك الا من قبل الله تعالى واختلفوا فقال بعضهم أراد به ما اختلفوا فيه وتباينوا وقال آخرون أراد به ما حرفه بعضهم وقال بعضهم بل أراد به اخبار الانبياء والاول أقرب (وثانيها) قوله وانه لهدى ورحمة للمؤمنين وذلك لان بعض الناس قال انا لما تأملنا القرآن فوجدنا فيه من الدلائل العقلية على التوحيد والحشر والنبوة وشرح صفات الله تعالى وبيان نعوت جلاله ما لم نجده فى شئ من الكتب ووجدنا ما فيه من الشرائع مطابقة للعقول موافقة لها ووجدناه مبرأ عن التناقض والتهافت فكان هدى ورحمة من هذه الجهات ووجدنا القوى البشرية قاصرة عن جمع كتاب على هذا الوجه فعلمنا انه ليس الا من عند الله تعالى فكان القرآن معجزا من هذه الجهة (وثالثها) انه هدى ورحمة للمؤمنين لبلوغه فى الفصاحة الى حيث عجزوا عن معارضته وذلك معجز ثم انه تعالى لما بين كونه معجزا دالا على الرسالة ذكر بعده أمرين (الاول) قوله ان ربك يقضى بينهم بحكمه وهو العزيز العليم والمراد ان القرآن وان كان يقص على بنى اسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون لكن لا تكن أنت فى قيدهم فان ربك هو الذى يقضى بينهم أى بين المصيب والمخطئ منهم وذلك كالزجر للكفار فلذلك قال وهو العزيز أى القادر الذى لا يمنع العليم بما يحكم فلا يكون الا الحق فان قيل القضاء والحكم شئ واحد فقوله يقضى بحكمه كقوله يقضى بقضائه ويحكم بحكمه * والجواب معنى قوله بحكمه أى بما يحكم به وهو عدله لانه لا يقضى الا بالعدل أو أراد بحكمه ويدل عليه قراءة من قرأ بحكمه جمع حكمة (الثانى) انه تعالى أمره بعد ظهور حجة رسالته بان يتوكل على الله ولا يلتفت الى أعداء الله ويشرع فى تمشية مهمات الرسالة بقلب قوى فقال فتوكل على الله ثم علل ذلك بأمرين (أحدهما) قوله انك على الحق المبين وفيه بيان ان المحق حقيق بنصرة الله تعالى وانه لا يخذل (وثانيهما) قوله انك لا تسمع الموتى وانما حسن جعله سببا للامر بالتوكل وذلك لان الانسان مادام يطمع فى أحد أن يأخذ منه شيأ فانه لا يقوى قلبه على اظهار مخالفته فاذا قطع طمعه عنه قوى قلبه على اظهار مخالفته فالله سبحانه وتعالى قطع محمدا صلى الله عليه وسلم عنهم بان بين له انهم كالموتى وكالصم والعمى فلا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون ولا يلتفتون الى شئ من الدلائل وهذا سبب لقوة قلبه عليه الصلاة والسلام على اظهار الدين كما ينبغى فان قيل ما معنى قوله اذا ولوا مدبرين جوابه هو تأكيد لحال الاصم لانه اذا تباعد عن الداعى بان تولى عنه مدبرا كان أبعد عن ادراك صوته أما قوله تعالى ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا

من جملتها آلات الحرب وأسباب الغزو مما ينبئ عن ذلك فعنى قوله تعالى (وحشر لسليمان جنوده) جمع له عساكره (من الجن والانس والطير) بمباشرة مخاطبيه فانهم كانوا ﴿ ٥٨١ ﴾ رؤساء مملكته وعظماء دولته من الثقلين وغيرهم بتعميم الناس للكل تغليبا وتقديم الجن على الانس فى البيان للسارعة الى الايذان بكمال قوة ملكه وعزة سلطانه من أول الامر لما أن الجن طائفة عاتية وقبيلة طاغية مارده بعيدة من الحشر والتسخير (فهم يوزعون) أى يحبس أوائلهم على أواخرهم أى يوقف سلاف العسكر حتى يلحقهم التوالى فيكونوا مجتمعين لا يتخلف منهم أحد وذلك للكثرة العظيمة ويجوز أن يكون ذلك لترتيب الصفوف كما هو المعتاد فى العساكر وفيه اشعار بكمال مسارعتهم الى السير وتخصيص حبس أوائلهم بالذكر دون سوق أواخرهم مع أن التلاحق يحصل بذلك أيضا لما أن أواخرهم غير قادرين على ما يقدر عليه أوائلهم من السير السريع وهذا اذا لم يكن سيرهم بتسيير الريح فى الجو روى أن معسكره عليه الصلاة والسلام كان مائة فرسخ فى مائة فرسخ وخمسة وعشرون للجن وخمسة وعشرون للانس والطير وكان له عليه الصلاة والسلام ألف بيت من قوارير على الخشب فيها ثلثمائة منكوحة وسبعمائة سرية وقد نسجت له الجن بساطا من ذهب وابريسم فرسخا فى فرسخ وكان يوضع منبره فى وسطه وهو من ذهب فيقعد عليه وحوله ستمائة ألف كرسى

فانهن ما يجتمى اسماعك الا الذين علم الله انهم يؤمنون بآياته أى يصدقون بها فهم مسلمون أى مخلصون من قوله بلى من أسلم وجهه لله يعنى جعله سالما لله تعالى خالصا لله والله أعلم * قوله تعالى (واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الارض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ويوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون حتى اذا جاؤا قال أكذبتم بآياتى ولم تحيطوا بها علما أماذا كنتم تعملون ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) اعلم أن الله تعالى بين بالدلائل القاهرة كمال القدرة وكمال العلم ثم فرع عليهما القول بامكان الحشر ثم بين الوجه فى كون القرآن معجزا ثم فرع عليه نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ثم تكلم الآن فى مقدمات قيام القيامة وانما أخر تعالى الكلام فى هذا الباب عن اثبات النبوة لما ان هذه الاشياء لا يمكن معرفتها الا بقول النبى الصادق وهذا هو النهاية فى جودة الترتيب واعلم أنه تعالى ذكر تارة ما يكون كالعلامة لقيام القيامة وتارة الامور التى تقع عند قيام القيامة فذكر أولا من علامات القيامة دابة الارض والناس تكلموا فيها من وجوه (احدها) فى مقدار جسمهما وفى الحديث ان طولها ستون ذراعا وروى أيضا ان رأسها تبلغ السحاب وعن أبى هريرة ما بين قرنيها فرسخ للراكب (وثانيها) فى كيفية خلقتها فروى انها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان وعن ابن جريج فى وصفها رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن أيل وصدر أسد ولون نمر وخاصرة بقر وذنب كبش وخف بعير (وثالثها) فى كيفية خروجها عن على عليه السلام انها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج الا ثلثها وعن الحسن لا يتم خروجها الا بعد ثلاثة أيام (ورابعها) فى موضع خروجها سئل النبى صلى الله عليه وسلم من أين تخرج الدابة فقال من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى المسجد الحرام وقيل تخرج من الصفا فتكلمهم بالعربية (وخامسها) فى عدد خروجها فروى انها تخرج ثلاث مرات تخرج باقصى اليمن ثم تكمن ثم تخرج بالبادية ثم تكمن دهرا طويلا وبين الناس فى أعظم المساجد حرمة وأكرمها على الله فبينما هم كذلك اذ خرجت من بين الركن حذاء دار بنى مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهربون وقوم يقفون (واعلم) انه لا دلالة فى الكتاب على شئ من هذه الامور فان صح الخبر فيه عن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل والا لم يلتفت اليه أما قوله تعالى واذا وقع القول عليهم فالمراد من القول متعلقه وهو ما وعدوا به من قيام الساعة ووقوعه حصوله والمراد مشارفة الساعة وظهور أشراطها أما دابة الارض فقد عرفتها وأما قوله تكلمهم فقرئ تكلمهم من الكلم وهو الجرح روى ان الدابة تخرج من الصفا ومعها عصى موسى عليه السلام وخاتم سليمان فتضرب المؤمن بين عينيه بعصى موسى عليه السلام فتنكت

فتسير به مسيرة شهر ويروى أنه كان يأمر الريح العاصف تحمله ويأمر الرخاء تسيره فأوحى الله تعالى اليه وهو يسير بين السماء والارض الى قد زدت فى ملكك لا يتكلم أحد بشئ الا ألقته الريح فى سمعك فيحكى أنه مر بحراث فقال لقد أوتى آل داود ملكا عظيما فألقته الريح فى أذنه فنزل ومشى الى الحراث وقال انما مشيت اليك لتلا تتمنى ما لا تقدر عليه ثم قال تسبيحة واحدة يقبلها الله تعالى خير مما أوتى آل داود (حتى اذا أتوا على وادى النمل) حتى هى التى يبتدأ بها الكلام ومع ذلك هى غاية لما قبلها كالتى فى قوله تعالى حتى اذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل الآية وهى ههنا غاية لما ينبئ عنه قوله تعالى فهم يوزعون من السير كأنه قيل فساروا حتى اذا أتوا الخ ووادى النمل واد بالشام كثير النمل على ما قاله مقاتل رضى الله عنه وبالطائف على ما قاله كعب رضى الله عنه وقيل هو واد تسكنه الجن والنمل مراكبهم وتعدية الفعل اليه بكلمة على اما ﴿ لتسكنوا ﴾ لان اتيانهم كان من فوق واما لان المراد بالاتيان عليه قطعه من قولهم اتى على الشئ اذا أنفده وبلغ آخره ولعلهم ارادوا أن ينزلوا عند

نكتة بيضاء فتفشو تلك النكتة فى وجهه حتى يضئ لها وجهه وتنكت الكافر فى أنفه فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه واعلم انه يجوز أن يكون تكلمهم من الكلم أيضا على معنى التكثير يقال فلان مكلم أى مجرح وقرأ أبى تنبئهم وقرأ ابن مسعود تكلمهم بان الناس والقراءة بان مكسورة حكاية القول الدابة ذلك أو هى حكاية لقول الله تعالى بين به انه أخرج الدابة لهذه العلة * فان قيل اذا كانت حكاية لقول الدابة فكيف يقول بآياتنا * جوابه ان قولها حكاية لقول الله تعالى او على معنى بآيات ربنا أو لاختصاصها بالله تعالى اضافت آيات الله الى نفسها كما يقول بعض خاصة الملك خيلنا و بلادنا وانما هى خيل مولاه و بلاده ومن قرأ بالفتح فعلى حذف الجار اى تكلمهم بان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون * واما قوله و يوم نحشر من كل امة فوجا ممن يكذب بآياتنا فاعلم ان هذا من الامور الواقعة بعد قيام القيامة فالفرق بين من الاولى والثانية ان الاولى للتبعيض والثانية للتبيين كقوله من الاوثان اما قوله فهم يوزعون معناه يحبس اولهم على اخرهم حتى يجتمعوا فيكبكبوا فى النار وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد اطرافه كما وصفت جنود سليمان بذلك وقوله حتى اذا جاؤا قال أكذبتم بآياتى فهذا وان احتمل معجزات الرسل كما قاله بعضهم فالمراد كل الآيات فيدخل فيه سائر الكفار الذين كذبوا بآيات الله اجمع او بشئ منها اما قوله ولم تحيطوا بها علما فلوا والمعنى كأنه قال أكذبتم بها بادى الرأى من غير فكر ولا نظر يؤدى الى احاطة العلم بكنهها اما قوله أماذا كنتم تعملون فالمراد لماذا تشتغلوا بذلك العمل انهم فاى شئ كنتم تعملونه بعد ذلك كأنه قال كل عمل سواه فكأنه ليس بعمل ثم قال ووقع القول عليهم يريد ان العذاب الموعود يغشاهم بسبب تكذيبهم بآيات الله فيشغلهم عن النطق والاعتذار كقوله هذا يوم لا ينطقون ثم انه سبحانه بعد ان خوفهم باحوال القيامة ذكر كلما يصلح أن يكون دليلا على التوحيد وعلى الحشر وعلى النبوة مبالغة فى الارشاد الى الايمان والمنع من الكفر فقال الم يروا انا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا اما وجه دلالته على التوحيد فلما ظهر فى العقول ان التقليب من النور الى الظلمة ومن الظلمة الى النور لا يحصل الا بقدرة قاهرة عالية واما وجه دلالته على الحشر فلانه لما ثبتت قدرته تعالى فى هذه الصورة على القلب من النور الى الظلمة و بالعكس فأى امتناع فى ثبوت قدرته على القلب من الحياة الى الموت مرة ومن الموت الى الحياة أخرى وأما وجه دلالته على النبوة فلانه تعالى يقلب الليل والنهار لمنافع المكلفين وفى بعثة الانبياء والرسل الى الخلق منافع عظيمة فالمانع من بعثتهم الى الخلق لاجل تحصيل تلك المنافع فقد ثبت ان هذه الكلمة الواحدة كافية فى اقامة الدلالة على تصحيح الاصول الثلاثة التى منها منشأ كفرهم واستحقاقهم العذاب ثم فى الآية سؤالان (السؤال الاول) ما السبب فى ان جعل الابصار للنهار وهو لاهله جوابه تنبيها على كمال هذه الصفة فيه (السؤال الثانى) لما قال جعل لكم الليل

منتهى الوادى اذ حينئذ يخالفهم ما فى الارض لاعند سيرهم فى الهواء وقوله تعالى (قالت نملة) جواب اذا كأنها لما رأتهم متوجهين الى الوادى فرت منهم فصاحت صيحة تنبهت بها ما بحضرتها من النمل لمرادها فتبعها فى الفرار فشبه ذلك بمخاطبة العقلاء ومناصحتهم فاجروا مجراهم ﴿٥٨٣﴾ حيث جعلت هى قائلة وما عداها من النمل مقولا لهم حيث قيل (يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) مع أنه لا يمتنع ان يخلق الله تعالى فيها النطق وفيما عداها العقل والفهم وقرئ نملة يا أيها النمل بضم الميم وهو الاصل كارجل وتسكين الميم تخفيف منه كالسبع فى السبع وقرئ بضم النون والميم قيل كانت نملة عرجاء تمشى وهى تتكاوس فنادت بما قالت فسمع سليمان عليه السلام كلامها من ثلاثة أميال وقيل كان اسمها طاخية وقرئ مسكنكم وقوله تعالى (لا يحطمنكم سليمان وجنوده) نهى فى الحقيقة للنمل عن التأخر فى دخول مساكنهم وان كان بحسب الظاهر نهيا له عليه الصلاة والسلام ولجنوده عن الحطم كقولهم لا أرينك ههنا فهو استئناف أو بدل من الامر كقول من قال فقلت له ارحل لا تقيمن عندنا لا جواب له فان النون لا تدخله فى السعة وقرئ لا يحطمنكم بالنون الخفيفة وقرئ لا يحطمنكم بفتح الحاء وكسرها وأصله لا يحتطمنكم وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) حال من فاعل يحطمنكم مفيدة لتقييد الحطم بحال عدم شعورهم بمكانهم حتى لو شعروا بذلك لم يحطموا وأرادت بذلك الايذان بانها عارفة بشؤن سليمان وسائر الانبياء عليهم الصلاة والسلام

لتسكنوا فيه فلم يقل والنهار لتبصروا فيه جوابه لان السكون فى الليل هو المقصود من الليل وأما الابصار فى النهار فليس هو المقصود بل وسيلة الى جلب المنافع الدينية والدنيوية واما قوله ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون خص المؤمنين بالذكر وان كانت الادلة للكل من حيث اختصوا بالقبول والانتفاع على ما تقدم فى نظائره * قوله تعالى (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله وكل أتوه داخرين) اعلم ان هذا هو العلامة الثانية لقيام القيامة أما قوله ويوم ينفخ فى الصور ففيه وجوه (أحدها) انه شئ شبيه بالقرن وان اسرافيل عليه السلام ينفخ فيه باذن الله تعالى فاذا سمع الناس ذلك الصوت وهو فى الشدة بحيث لا يحتمله طبائعهم يفزعون عنده ويصعقون ويموتون وهو كقوله تعالى فاذا نقر فى الناقور وهذا قول الاكثرين (وثانيها) يجوز أن يكون تمثيلا لدعاء الموتى فان خروجهم من قبورهم كخروج الجيش عند سماع صوت الآلة (وثالثها) ان الصور جمع الصور وجعلوا النفخ فيها نفخ الروح والاول أقرب لدلالة الظاهر عليه ولا مانع يمنع منه أما قوله ففزع من فى السموات ومن فى الارض فاعلم انه انما قال ففزع ولم يقل فيفزع للاشعار بتحقيق الفزع وثبوته وانه كائن لا محالة لان الفعل الماضى يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به والمراد من فزعهم عند النفخة الاولى أما قوله الا من شاء الله فالمراد الا من ثبت الله قلبه من الملائكة فاولهم جبريل وميكائيل واسرافيل وملك الموت وقيل الشهداء وعن الضحاك الحور وخزنة النار وحملة العرش وعن جابر موسى منهم لانه صعق مرة ومثله قوله تعالى ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله وليس فيه خبر مقطوع والكتاب انما يدل على الجملة أما قوله وكل أتوه داخرين فقرئ أتوه وأتاوه داخرين وداخرين فالجمع على المعنى والتوحيد على اللفظ والداخر والدخر الصاغر وقيل معنى الاتيان حضورهم الموقف بعد النفخة الثانية ويجوز أن يراد رجوعهم الى أمر الله وانقيادهم له * قوله تعالى (وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شئ انه خبير بما يفعلون) اعلم ان هذا هو العلامة الثالثة لقيام القيامة وهى تسيير الجبال والوجه فى حسبانهم انها جامدة فلان الاجسام الكبار اذا تحركت حركة سريعة على نهج واحد فى السمت والكيفية ظن الناظر اليها انها واقفة مع أنها تمر مرا حثيثا أما قوله صنع الله فهو من المصادر المؤكدة كقوله وعد الله وصبغة الله الا أن مؤكده محذوف وهو الناصب ليوم ينفخ والمعنى انه لما قدم ذكر هذه الامور التى لا يقدر عليها سواه جعل هذا الصنع من جملة الاشياء التى أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب قال القاضى عبد الجبار فيه دلالة على ان القبائح ليست من خلقه والاوجب وصفها بانها متقنة ولكن الاجماع مانع منه والجواب ان الاتقان لا يحصل الا فى المركبات فيمتنع وصف الاعراض بها والله أعلم * قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون

من عصمتهم عن الظلم والايذاء وقيل هو استئناف أي فهم سليمان مقالته والقوم لا يشعرون بذلك (فتبسم ضاحكا من قولها) تعجبا من حذرها واهتدائها الى تدبير مصالحها ومصالح بني نوعها وسر ر بإشهرة حاله وحال جنوده في باب التقوى والشفقة فيما بين أصناف الخ وقالت التي هي أبعدها * ٥٨٤ * من ادراك أمثال هذه الامور وإنما جاز

ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون الا ما كنتم تعملون) اعلم انه تعالى لما تكلم في علامات القيامة شرح بعد ذلك أحوال المكلفين بعد قيام القيامة والمكلف اما أن يكون مطيعا أو عاصيا أما المطيع فهو الذي جاء بالحسنة وله أمران (أحدهما) ان له ما هو خير منها وذلك هو الثواب * فان قيل الحسنة التي جاء العبد بها يدخل فيها معرفة الله تعالى والاخلاص في الطاعات والثواب انما هو الاكل والشرب فكيف يجوز ان يقال الاكل والشرب خير من معرفة الله جوابه من وجوه (أحدها) ان ثواب المعرفة النظرية الحاصلة في الدنيا هي المعرفة الضرورية الحاصلة في الآخرة ولذة النظر الى وجهه الكريم سبحانه وتعالى وقد دلت الدلائل على أن أشرف السعادات هي هذه اللذة ولو لم تحمل الآية على ذلك لزم أن يكون الاكل والشرب خيرا من معرفة الله تعالى وانه باطل (وثانيها) ان الثواب خير من العمل من حيث ان الثواب دائم والعمل منقض ولان العمل فعل العبد والثواب فعل الله تعالى (وثالثها) فله خير منها أي له خير حاصل من جهتها وهو الجنة (السؤال الثاني) الحسنة لفظة مفردة معرفة وقد ثبت انها لا تفيد العموم بل يكفي في تحققها حصول فرد واذا كان كذلك فلتحملها على أكمل الحسنات شأنا وأعلاها درجة وهو الايمان فلهذا قال ابن عباس من افراد الحسنة كلمة الشهادة وهذا يوجب القطع بان لا يعاقب أهل الايمان * جوابه ذلك الخير هو ان لا يكون عقابه مخلدا (الامر الثاني) للمطيع هو انهم آمنون من كل فزع لا كما قال بعضهم ان أهوال القيامة تعم المؤمن والكافر فان قيل أليس انه تعالى قال في أول الآية ففزع من في السموات ومن في الارض فكيف نفى الفزع ههنا جوابه ان الفزع الاول هو ما لا يخلو منه أحد عند الاحساس لشدة تقع وهول يفجأ من رعب وهيبة وان كان المحسن يأمن وصول ذلك الضرر اليه كما قيل يدحر الرجل بصدر هياب وقلب وجاب وان كانت ساعة اعزاز وتكرمة وأما الثاني فالخوف من العذاب * أما قراءة من قرأ من فزع بالتنوين فهي تحتمل معنيين من فزع واحد وهو خوف العقاب وأما يلحق الانسان من الهيبة والرعب عند مشاهدة الاهوال فلا ينفك منه أحد وفي الاخبار ما يدل عليه ومن فزع شديد مفرط الشدة لا يكتنهه الوصف وهو خوف النار وأمن يعدى بالجار وبنفسه كقوله تعالى أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله فهذا شرح حال المطيعين اما شرح حال العصاة فهو قوله ومن جاء بالسيئة قيل السيئة الاشراك وقوله فكبت وجوههم في النار فاعلم انه يعبر عن الجملة بالوجه والرأس والرقبة كما انه قيل فكبوا في النار كقوله فكبكبوا ويجوز ان يكون ذكر الوجوه ايذانا بانهم يلقون على وجوههم فيها مكبوبين اما قوله هل تجزون الا ما كنتم تعملون فيجوز فيه الالتفات وحكاية ما يقال لهم عند ذلك باضمار القول * قوله تعالى (انما أمرت ان أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين وأن أتلو القرآن

خصه الله تعالى به من ادراك همسها وفهم مرادها روي أنها أحست بصوت الجنود ولا تعلم أنهم في الهواء فأمر سليمان عليه السلام الريح فوقفت ثلاثة أذرع حتى دخلن مساكنهن (وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك) أي اجعلني ازع شكر نعمتك عندي واكفه وأرتبطه بحيث لا ينقلب عني حتى لا أنفك عن شكرك أصلا وقرئ بفتح ياء أوزعني (التي أنعمت علي وعلى والدي) أدرج فيه ذكرهما تكثيرا للنعمة فان الانعام عليهما انعام عليه مستوجب للشكر (وأن أعمل صالحا ترضاه) انما ما للشكر واستدامة للنعمة (وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) في جملتهم الجنة التي هي دار الصالحين (وتفقد الطير) أي تعرف أحوال الطير فلم ير الهدهد فيما بينها (فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين) كأنه قال أولا مالي لا أراه أم هو من الغائبين أراه ساترا سربه أو لسبب آخر ثم بدا له أنه غائب فأضرب عنه وأخذ يقول أهو غائب (لأعذبنه عذابا شديدا) قيل كان تعذيبه للطير * في اعتدى * بنتف ريشه وتشميسه وقيل بجعله مع ضده في قفص وقيل بالتفريق بينه وبين الفه (أو لأذبحنه) ليعتبر به أبناء جنسه (أو ليأتيني بسلطان مبين) بحجة تبين عذره والحلف في الحقيقة على أحد الاولين على تقدير عدم الثالث وقرئ بإيأتيني بنونين أولاهما مفتوحة مشددة

قيل انه عليه الصلاة والسلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج بحشره فوافى الحرم وأقام به ماشاء وكان يقرب كل يوم طول مقامه خمسة آلاف ناقة وخمسة آلاف بقرة وعشرين ألف شاة ثم عزم على السير الى اليمن فخرج من مكة صباحا يؤم سهيلا فوافى صنعاء وقت الزوال وذلك مسيرة شهر فرأى أرضا حسناء أعجبته خضرتها فنزل ليتغدى به يصلى فلم يجد الماء وكان الهدهد قناقنه وكان يرى الماء من تحت الارض كما يرى ﴿ ٥٨٥ ﴾ الماء فى الزجاجة فيجىء الشياطين فيستخرجونها كما يستخ

فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل انما أنا من المنذرين وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون) اعلم انه سبحانه وتعالى لما بين المبدأ والمعاد والنبوة ومقدمات القيامة وصفة أهل القيامة من الثواب والعقاب وذلك كمال ما يتعلق ببيان أصول الدين ختم الكلام بهذه الخاتمة اللطيفة فقال قل يا محمد انى أمرت بأشياء (الاول) انى أمرت أن اخص الله وحده بالعبادة ولا اتخذ له شريكا وان الله تعالى لما قدم دلائل التوحيد فكأنه أمر محمدا بان يقول لهم هذه الدلائل التي ذكرتها لكم ان لم تفد لكم القول بالتوحيد فقد أفادت لى ذلك فسواء قبلتم هذه الدعوة أو أعرضتم عنها فانى مصر عليها غير مرتاب فيها ثم انه وصف الله تعالى بأمرين (أحدهما) انه رب هذه البلدة والمراد مكة وانما اختصها من بين سائر البلاد باضافة اسمه اليها لانها أحب بلاده اليه وأكرمها عليه وأشار اليها اشارة تعظيم لها اذ الاعلى انها موطن نبيه ومهبط وحيه أما قوله الذى حرمها فقرئ التى حرمها وانما وصفها بالتحريم لوجوه (احدها) انه حرم فيها أشياء على من يحج (وثانيها) أن اللاجئ اليها آمن (وثالثها) لا ينتهك حرمتها الا ظالم ولا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها وانما ذكر ذلك لان العرب كانوا معترفين بكون مكة محرمة وعلموا ان تلك الفضيلة ليست من الاصنام بل من الله تعالى فكأنه قال لما علمت وعلمتم انه سبحانه هو المتولى لهذه النعم وجب على ان أخصه بالعبادة (وثانيهما) وصف الله تعالى بقوله وله كل شئ وهذا اشارة الى ما تقدم من الدلائل المذكورة فى هذه السورة على التوحيد من كونه تعالى خالقا لجميع النعم فاجمل ههنا تلك المفصلات وهذا كمن أراد صفة بعض الملوك بالقوة فيعد تلك التفاصيل ثم بعد التطويل يقول ان كل العالم له وكل الناس فى طاعته (الثانى) أمر بان يكون من المسلمين (الثالث) أمر بان يتلو القرآن عليهم لقد قام بكل ذلك صلوات الله عليه أتم قيام فمن اهتدى فى هذه المسائل الثلاث المتقدمة وهى التوحيد والحشر والنبوة فانما يهتدى لنفسه أى منفعة اهتدائه راجعة اليه ومن ضل فلا على وما أنا الا رسول منذر ثم انه سبحانه ختم هذه الخاتمة فى نهاية الحسن وهى قوله وقل الحمد لله على ما اعطانى من نعمة العلم والحكمة والنبوة أو على ما وفقنى من القيام باداء الرسالة و بالانذار سيريكم آياته القاهرة فتعرفونها لكن حين لا ينفعكم الايمان وما ربك بغافل عما تعملون لانه من وراء جزاء العاملين * والله أعلم * تم تفسير السورة والحمد لله رب العالمين * وصلاته على سيدنا محمد النبى الامى وعلى آله وصحبه أجمعين وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين * والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين

(سورة القصص مكية كلها الا قوله الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون الى قوله لا نبتغى الجاهلين وقيل الآية وهى ان الذى فرض عليك القرآن الآية وهى سبع أو ثمان وثمانون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الاهاب ويستخرجون الماء فتفقده لذلك وقد كان حين نزل سليمان عليه السلام حلق الهدهد فرأى هدهدا واقعا فانحط اليه فوصف له ملك سليمان عليه السلام وما سخر له من كل شئ وذكر له صاحبه ملك بلقيس وأن تحت يدها اثنى عشر ألف قائد تحت يد كل قائد مائة ألف وذهب معه لينظر فارجع الا بعد العصر وذلك قوله تعالى (فمكث غير بعيد) أى زمانا غير مديد وقرئ بضم الكاف وذكر أنه وقعت نفحة من الشمس على رأس سليمان عليه السلام فنظر فاذا موضع الهدهد خال فدعا عريف الطير وهو النسر فسأله عنه فلم يجد عنده علمه ثم قال لسيد الطير وهو العقاب على به فارتفعت فنظرت فاذا هو مقبل فقصدته فناشدها الله وقال بحق الله الذى قواك وأقدرك

على الارتقاء فتركته ﴿ ٧٤ ﴾ س وقالت ثكلتك أمك ان نبى الله قد حلف ليعذبنك قال وما استثنى قالت بلى قال وليأتينى بعذر مبين فلما قرب من سليمان عليه السلام أرخى ذنبه وجناحيه يجرها على الارض تواضعا له فلما دنا منه أخذ عليه السلام برأسه فمده اليه فقال يا نبى الله اذكر وقوفك بين يدى الله

تعالى فارتعد سليمان عليه السلام وعفا عنه ثم سأله (فقال احطت بما لم تحط به) اى علما ومعرفة وحفظته من جميع جهاته
وقرئ أحطت بادغام الطاء فى التاء باطباق وبغير اطباق ولاخفاء فى أنه لم يرد بما ادعى الاحاطة به ماهو من حقائق العلوم
ودقائق المعارف التى تكون معرفتها والاحاطة بها من وظائف أرباب العلم والحكمة لتوقفها على علم رصين وفضل مبين
حتى يكون اثباتها لنفسه بين يدى نبى الله سليمان عليه ✿ ٥٨٦ ✿ السلام تعديا عن طوره وتجاوزا عن دائرة قدره ونفيها
عنه عليه الصلاة السلام جناية على جناية فيحتاج الى الاعتذار عنه بأن ذلك كان منه بطريق الالهام فكان فعله عليه الصلاة والسلام بذلك مع ما أوتى عليه الصلاة والسلام من فضل النبوة والحكمة والعلوم الجمة والاحاطة بالمعلومات الكثيرة بالنسبة اليه عليه الصلاة والسلام فى علمه نبيها على أن فى أدنى خلقه تعالى وأضعفهم من أحاط علما بما يحتاج اليه فى تحافر نفسه وتصاغر فى علمه ويكون لطفا له فى ترك العجب الذى هو فتنة العلماء بل أراد به ماهو من الامور المحسوسة التى لا تعد الاحاطة بها فضيلة ولا الغفلة عنها نقيصة لعدم توقف ادراكها الا على مجرد احساس يستوى فيه العقلاء وغيرهم وقد علم أنه عليه الصلاة والسلام لم يشاهده ولم يسمع خبره من غيره قطعا فعبر عنه بما ذكر لترويج كلامه عنده عليه الصلاة والسلام وترغيبه فى الاصغاء الى اعتذاره واستمالة قلبه نحو قبوله فان النفس للاعتذار ✿ النجوم ✿ المنبئ عن أمر بديع أقبل والى تلقى مالا تعلمه أميل ثم أيده بقوله (وجئتك من سبأ بنبأ يقين) حيث فسر ابهامه نوع تفسير وأراد

(طسم تلك آيات الكتاب المبين نتلوا عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون
ان فرعون علا فى الارض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيى
نساءهم انه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم
أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم فى الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم
ما كانوا يحذرون) اعلم ان قوله تعالى طسم كسائر الفواتح وقد تقدم القول فيها وتلك
اشارة الى آيات السورة والكتاب المبين هو اما اللوح واما الكتاب الذى وعد الله انزاله
على محمد صلى الله عليه وسلم فبين أن آيات هذه السورة هى آيات ذلك الكتاب ووصفه بأنه
مبين لانه بين فيه الحلال والحرام أو لانه بين فصاحته أنه من كلام الله دون كلام العباد
أو لانه يبين صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أو لانه يبين خبر الاولين والآخرين أو لانه
يبين كيفية التخلص من شبهات أهل الضلال أما قوله تعالى نتلو عليك أى على لسان
جبريل عليه السلام لانه كان يتلو على محمد صلى الله عليه وسلم حتى يحفظه وقوله من نبأ موسى وفرعون نكرة
مفعول نتلو عليك أى نتلو عليك بعض خبرهما بالحق متعلق بنتلو وقوله تبت بالحق ومعناه
لقوم يؤمنون فيه وجهان (أحدهما) انه تعالى قد أراد بذلك من لا يؤمن أيضا لكنه
خص المؤمنين بالذكر لانهم قبلوا وانتفعوا فهو كقوله هدى للمتقين (والثانى) يحتمل انه
تعالى علم أن الصلاح فى تلاوته هو ايمانهم وتكون ارادته لمن لا يؤمن كالتبع قوله تعالى
ان فرعون علا فى الارض قرئ فرعون بضم الفاء وكسرها والكسر أحسن وهو
كقمطاس واقمطاس علا استكبر وتجبر وتعظم ويعنى بما المراد به قوة الملك والعلو فى
الارض يعنى أرض مملكته ثم فصل الله تعالى بعض ذلك بقوله وجعل أهلها شيعا أى فرقا
يشيعونه على ما يريد ويطيعونه لا يمتنع أحدهم منه لخساسته أو يشيع بعضهم بعضا
فى استخدامه أو اصنافا فى استخدامه أو فرقا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة ليكونوا له
اطوع أو المراد ما فسره بقوله يستضعف طائفة منهم أى يستخدمهم ويذبح أبناءهم
ويستحيى نساءهم فهذا هو المراد بالشيع ✿ قوله يستضعف طائفة منهم تلك الطائفة بنو
اسرائيل وفى سبب ذبح الابناء وجوه (أحدها) ان كاهنا قال له يولد مولود فى بنى
اسرائيل فى ليلة كذا يذهب ملكك على يده فولد تلك الليلة اثنا عشر غلاما فقتلهم وعند
أكثر المفسرين بقى هذا العذاب فى بنى اسرائيل سنين كثيرة قال وهب قتل القبط فى طلب
موسى عليه السلام تسعين ألفا من بنى اسرائيل قال بعضهم فى هذا دليل على حمق فرعون
فانه ان صدق الكاهن لم يدفع القتل الكائن وان كذب فما وجه القتل وهذا السؤال
قد يذكر فى تزييف علم الاحكام من علم النجوم ونظيره ما يقوله نفاة التكليف ان كان زيد
فى علم الله وفى قضائه من السعداء فلا حاجة الى الطاعة وان كان من الاشقياء فلا فائدة
فى الطاعة وأيضا فهذا السؤال لو صح لبطل علم التعبير ومنفعته وأيضا فجواب المنجم ان

كان بصدد أقامة خدمة مهمة له حيث عبر عما جاء به بالنبا الذي هو الخبر الخطير والشان الكبير ووصفه بما وصفه والا فاذا صدر عنه عليه الصلاة والسلام مع ما حكى عنه ما حكى من الحمد والشكر واستدعاء الايزاع حتى يليق بالحكمة الالهية تنبيهه عليه الصلاة والسلام على تركه وسبأ منصرف على أنه اسم لحي سموا باسم أبيهم الاكبر وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ﴿٥٨٧﴾ قالوا اسمه عبد شمس لقب به لكونه أول من سبي وقرئ بفتح الهمزة غير منصرف على أنه اسم للقبيلة ثم سميت مدينة مأرب بسبأ وبينها وبين صنعاء مسيرة ثلاث وعلى هذه القراءة يجوز أن يراد به القبيلة والمدينة وأما على القراءة الاولى فالمراد هو الحي لا غير وعدم وقوف سليمان عليه السلام على نبئهم قبل انباء الهدهد ليس بامر يدعو لابداله من حكمة داعية اليه البتة وان استحال خلو أفعاله تعالى من الحكم والمصالح لما أن المسافة بين محطه عليه الصلاة والسلام وبين مأرب وان كانت قصيرة لكن مدة مابين نزوله عليه الصلاة والسلام هناك وبين مجيء الهدهد بالخبر أيضا قصيرة نعم اختصاص الهدهد بذلك مع كون الجن أقوى منه مبني على حكم بالغة يستأثر بها علام الغيوب وقوله تعالى (انى وجدت امرأة تملكهم) استئناف ببيان ما جاء به من النبا وتفصيل له اثر الاجمال وهي بلقيس بنت شراحيل بن الملك بن ريان وكان أبوها ملك أرض اليمن كلها ورث الملك من أربعين أبا ولم يكن له ولد غيرها فغلبت بعده على الملك ودانت لها الامة وكانت هي وقومها مجوسا يعبدون الشمس وايثار وجدت على رأيت لما أشير اليه من الايذان بكونه عنه غيبة بصدد خدمته عليه الصلاة والسلام بايراز

النجوم دلت على انه يولد ولد لو لم يقتل لصار كذا وكذا وعلى هذا التقدير لا يكون السعي في قتله عبثا واعلم ان هذا الوجه ضعيف لان اسناد مثل هذا الخبر الى الكاهن اعتراف بأنه قد يخبر عن الغيب على سبيل التفصيل ولوجوزناه لبطلت دلالة الاخبار عن الغيب على صدق الرسل وهو باجماع المسلمين باطل (وثانيها) وهو قول السدي ان فرعون رأى في منامه ان نارا أقبلت من بيت المقدس واشتملت على مصر فاحرقت القبط دون بني اسرائيل فسأل عن رؤياه فقالوا يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو اسرائيل منه رجل يكون على يده هلاك مصر فأمر بقتل الذكور (وثالثها) ان الانبياء الذين كانوا قبل موسى عليه السلام بشروا بمجيئه وفرعون كان قد سمع ذلك فلهذا كان يذبح أبناء بني اسرائيل وهذا الوجه هو الاولى بالقبول قال صاحب الكشاف يستضعف حال من الضمير في وجعل أو صفة لشيعا أو للام مستأنف و يذبح بدل من يستضعف وقوله انه كان من المفسدين يدل على ان ذلك القتل ما حصل منه الا الفساد وأنه لا أثر له في دفع قضاء الله تعالى اما قوله ونريد أن نمن فهو جملة معطوفة على قوله ان فرعون علا في الارض لانها نظيرة تلك في وقوعها تفسيرا لنبأ موسى عليه السلام وفرعون واقتصاصاله واللفظ في قوله ونريد للاستقبال ولكن أريد به حكاية حال ماضية ويجوز أن يكون حالا من يستضعف أي يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم فان قيل كيف يجتمع استضعافهم وارادة الله تعالى المن عليهم واذا أراد الله شيأ كان ولم يتوقف الى وقت آخر قلنا لما كانت منة الله عليهم بخلاصهم من فرعون قريبة الوقوع جعلت ارادة وقوعها كأنها مقارنة لاستضعافهم أما قوله وجعلهم أئمة أي متقدمين في الدين والدين وعبر بجعلهم عداه الى الخير وعن قتادة ولاة كقوله وجعلكم ملوكا ونجعلهم الوارثين يعني الملك فرعون وأرضه وما في يده اما قوله ونمكن لهم في الارض فاعلم انه يقال مكن له اذا جعل له مكانا يتمكن عليه فيه أو يهيئه ونصيره أرضا له ومعنى التمكين لهم في الارض وهي أرض مصر والشام ان ينفذ أمرهم ويطلق أيديهم وقوله ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون قرئ ويرى فرعون وهامان وجنودهما أي يرون منهم ما كانوا خائفين منه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود بني اسرائيل * وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين وقالت امرأت فرعون قرت عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا او نتخذه ولدا وهم لا يشعرون) اعلم انه تعالى لما قال ونريد أن نمن على الذين ابتدأ بذكر أوائل نعمه في هذا الباب بقوله وأوحينا الى ام موسى والكلام في هذا الوحي ذكرناه في سورة طه في قوله ولقد مننا عليك مرة أخرى اذ أوحينا الى أمك ما يوحى وقوله أن أرضعيه

نفسه فى معرض من يتفقد أحوالها و يتعرفها كأنها طلبته وضالته ليعرضها على سليمان عليه السلام وضمير تملكهم لسبا على أنه اسم الحى أولاهلها المدلول عليهم بذكر مدينتهم على أنه اسم لها (وأوتيت من كل شئ) اى من الاشياء التى يحتاج اليها الملوك (ولها عرش عظيم) قيل كان ثمانين ذراعا فى ثلاثين عرضا وسمكا وقيل ثمانين فى ثمانين من ذهب وفضة مكللا بالجواهر وكانت قوائمه ﴿ ٥٨٨ ﴾ من ياقوت أحمر وأخضر ودر وزمرد وعليه سبعة أبيات على كل بيت باب مغلق واستعظام الهدهد لعرشها مع ماكان يشاهده من ملك سليمان عليه السلام اما بالنسبة الى حالها أوالى عروش أمثالها من الملوك وقد جوز أن لا يكون لسليمان عليه السلام مثله وأياما كان فوصفه بذلك بين يديه عليه الصلاة والسلام لما مر من ترغيبه عليه الصلاة والسلام فى الاصغاء الى حديثه وتوجيه عزيمته عليه الصلاة والسلام نحو تسخيرها ولذلك عقبه بما يوجب غزوها من كفرها وكفر قومها حيث قال (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) أى يعبدونها متجاوزين عبادة الله تعالى (وزين لهم الشيطان أعمالهم) التى هى عبادة الشمس وأضرابها من اصناف الكفر والمعاصى (فصدهم) بسبب ذلك (عن السبيل) اى سبيل الحق والصواب فان تزيين أعمالهم لا تتصور بدون تقويم طرق كفرهم وضلالتهم ومن ضرورته نسبة طريق الحق الى العوج (فهم) بسبب ذلك (لا يهتدون) اليه وقوله تعالى (الا يسجدوا لله) مفعول له اما للصد أو لتزيين على حذف

كالدلالة على انها أرضعته وليس فى القرآن حد ذلك فاذا خفت عليه أن يفطن به جيرانك ويسمعون صوته عند البكاء فألقيه فى اليم قال ابن جريج ان بعد أربعة أشهر صاح وأتى فى اليم والمراد باليم ههنا النيل ولا تخافى ولا تحزنى والخوف غم يحصل بسبب مكروه يتوقع حصوله فى المستقبل والحزن غم يلحقه بسبب مكروه حصل فى الماضى فكأنه قيل ولا تخافى من هلاكه ولا تحزنى بسبب فراقه فانا رادوه اليك لتكونى أنت المرضعة له وجاعلوه من المرسلين الى أهل مصر والشام وقصة الالقاء فى اليم قد تقدمت فى سورة طه وقال ابن عباس ان أم موسى عليه السلام لما تقارب ولادها كانت قابلة من القوابل التى وكلهن فرعون بالحبالى مصافية لام موسى عليه السلام فلما حست بالطلق أرسلت اليها وقالت لها قد نزل بى ما نزل ولينفعنى اليوم حبك اياى فجلست القابلة فلما وقع موسى عليه السلام الى الارض هالها نور بين عينيه فارتعش كل مفصل منها ودخل حب موسى عليه السلام قلبها فقالت ياهذه ما جئتك الا لقتل مولودك ولكنى وجدت لابنك هذا حبا شديدا فاحتفظى بابنك فانى أراه عدونا فلما خرجت القابلة من عندها أبصرها بعض العيون فجاء الى بابها ليدخل على أم موسى فقالت أخته يا أماه هذا الحرس فلفته ووضعته فى تنور مسجور فطاش عقلها فلم تعقل ما تصنع فدخلوا فاذا التنور مسجور ورأوا أم موسى لم يتغير لها لون ولم يظهر لها بن فقالوا لم دخلت القابلة عليك قالت انها حيتنى لى دخلت للزيارة فخرجوا من عندها ورجع اليها عقلها فقالت لاخت موسى أين الصبى قالت لا أدرى فسمعت بكاء فى التنور فانصلقت اليه وقد جعل الله النار عليه بردا وسلاما وأخذته ثم ان أم موسى عليه السلام لما رأت فرعون جد فى طلب الولدان خافت على ابنها فقذف الله فى قلبها أن تتخذ له تابوتا ثم تقذف التابوت فى النيل فذهبت الى نجار من أهل مصر فاشترت منه تابوتا فقال لها ما تصنعين به فقالت ابن لى أخشى عليه كيد فرعون اخبؤه فيه وما عرفت انه يفشى ذلك الخبر فلما انصرفت ذهب النجار ليخبر به الذباحين فلما جاءهم أمسك الله لسانه وجعل يشير بيده فضربوه وطردوه فلما عاد الى موضعه رد الله عليه نطقه فذهب مرة أخرى ليخبرهم به فضربوه وطردوه فلما عاد الى موضعه رد الله عليه نطقه فذهب مرة أخرى ليخبرهم به فضربوه وطردوه فأخذ الله بصره ولسانه فجعل لله تعالى انه ان رد عليه بصره ولسانه فانه لا يدلهم عليه فعلم الله تعالى منه الصدق فرد عليه بصره ولسانه وانطلقت أم موسى وأتته فى الليل وكان لفرعون بنت لم يكن له ولد غيرها وكان لها كل يوم ثلاث حاجات ترفعها الى أبيها وكان بها برص شديد وكان فرعون قد شاور الاطباء والسحرة فى أمرها فقالوا أيها الملك لا نرى لها هذا الا من قبل البحر يوجد منه شبه الانسان فيؤخذ من ريقه فيلطخ به برصها فتبرأ من ذلك وذلك فى يوم كذا فى شهر كذا حين تشرق الشمس فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون الى مجلس كان له على شفير النيل وبعثه آسية بنت مزاحم وأقبلت بنت فرعون فى جواريها حتى جلست على الشاطئ فاذا التابوت

اللام منه أى فصدهم لان لا يسجدوا لله تعالى أو زين لهم اعمالهم لأن لا يسجدوا أو يدل على حاله من أعمالهم وما بينهما اعتراض أى زين لهم أن لا يسجدوا وقيل هو فى موقع المفعول ليهتدون باسقاط الخافض ولا مزيدة كما فى قوله تعالى لئلا يعلم أهل الكتاب والمعنى فهم لا يهتدون ﴿ ٥٨٩ ﴾ الى أن يسجدوا لله تعالى وقرئ الا يا اسجدوا على التنبيه والنداء

والمنادى محذوف اى ألا يا قوم اسجدوا كما فى قوله * الا يا اسلمى يا دارمى على البلى * ونظائره وعلى هذا يحتمل أن يكون استئنافا من جهة الله عز وجل أو من سليمان عليه السلام ويوقف على لا يهتدون ويكون امرا بالسجود وعلى الوجوه المتقدمة ذما على تركه وأيا ما كان فالسجود واجب وقرئ هلا وهلا بقلب الهمزتين هاء وقرئ هلا تسجدون بمعنى الا تسجدون على الخطاب (الذى يخرج الخبء فى السموات والارض) أى يظهر ما هو مخبوء ومخفى فيهما كائنا ما كان وتخصيص هذا الوصف بالذكر بصدد بيان تفرده تعالى باستحقاق السجود له من بين سائر أوصافه الموجبة لذلك لما أنه أرسخ فى معرفته والاحاطة بأحكامه بمشاهدة آثاره التى من جملتها ما أودعه الله تعالى فى نفسه من القدرة على معرفة الماء تحت

الارض وأشار بعطف قوله (ويعلم ما تخفون وما تعلنون) على يخرج الى أنه تعالى يخرج ما فى العالم الانسانى من الخفايا كما يخرج ما فى العالم

الخيل بتابوت تضربه الامواج وتعلق بشجرة فقال فرعون ائتونى به فابتدروه بالسفن من كل جانب حتى وضعوه بين يديه فعالجوا فتح الباب فلم يقدروا عليه وعالجوا كسره فلم يقدروا عليه فنظرت آسية فرأت نورا فى جوف التابوت لم يره غيرها فعالجته وفتحته فاذا هى بصبى صغير فى المهد واذا النور بين عينيه فألقى الله محبته فى قلوب القوم وعمدت ابنة فرعون الى ريقه فلطخت به برصها فبرئت وضمته الى صدرها فقالت القوابلة من قوم فرعون انا نظن ان هذا هو الذى نحذر منه رمى فى البحر فرقا منك فهم فرعون بقتله فاستوهبته امرأة فرعون وتبنته فتلك قتله اما قوله فالتقطه آل فرعون فالالتقاط اصابة الشئ من غير طلب والمراد بآل فرعون جواريه اما قوله ليكون لهم عدوا وحزنا فالمشهور ان هذه اللام يراد بها العاقبة قالوا والا نقض قوله وقالت امرأت فرعون قرت عين لى ولك ونقض قوله وألقيت عليك محبة منى ونظير هذه اللام قوله تعالى ولقد ذرأنا لجهنم وقول الشاعر * لدوا للموت وابنوا للخراب * واعلم أن التحقيق ما ذكره صاحب الكشاف وهو ان هذه اللام هى لام التعليل على سبيل المجاز وذلك لان مقصود الشئ وغرضه يؤل اليه أمره فاستعملوا هذه اللام فيما يؤل اليه الشئ على سبيل التشبيه كاطلاق لفظ الاسد على الشجاع والبليد على الحمار فقرأ حمزة والكسائى حزنا بضم الحاء وسكون الزاى والباقون بالفتح وهما لغتان مثل السقم والسقم اما قوله كانوا خاطئين ففيه وجهان (أحدهما) قال الحسن معناه كانوا خاطئين ليس من الخطيئة بل المعنى وهم لا يشعرون انه الذى يذهب بملكهم وأما جمهور المفسرين فقالوا معناه كانوا خاطئين فيما كانوا عليه من الكفر والظلم فعاقبهم الله تعالى بأن ربى عدوهم ومن هو سبب هلاكهم على أيديهم وقرئ خاطين تخفيف خاطئين أى خاطين الصواب الى الخطا وبين تعالى انها التقطته ليكون قرة عين لها وله جميعا قال ابن اسحق ان الله تعالى ألقى محبته فى قلبها لانه كان فى وجهه ملاحة كل من رآه أحبه ولانها حين فتحت التابوت رأت النور ولانها لما فتحت التابوت رأته يمتص أصبعه ولان ابنة فرعون لما لطخت برصها بريقه زال برصها ويقال ما كان لها ولد فأحبته قال ابن عباس لما قالت قرة عين لى ولك فقال فرعون يكون لك وأما انا فلا حاجة لى فيه فقال عليه السلام والذى يحلف به لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت لهداه الله تعالى كما هداها قال صاحب الكشاف قرة عين خبر مبتدا محذوف ولا يقوى أن يجعل مبتدأ و لا تقتلوه خبرا ولو نصب لكان أقوى وقراءة ابن مسعود دليل على انه خبر قرأ لا تقتلوه قرة عين لى ولك وذلك لتقديم لا تقتلوه ثم قالت المرأة عسى أن ينفعنا فنصيب منه خيرا ونتخذه ولدا لانه أهل للنبى أما قوله وهم لا يشعرون فأكثر المفسرين على انه ابتداء كلام من الله تعالى أى لا يشعرون ان هلاكهم بسببه وعلى يده وهذا قول مجاهد وقتادة والضحاك ومقاتل وقال ابن عباس يريد لا يشعرون الى ما يصير أمر موسى عليه السلام وقال آخرون

الكثير من الخبايا لما أن المراد يظهر ما تخفونه من الاحوال فيجازيكم بها وذكر ما تعلنون لتوسيع دائرة العلم أو للتنبيه على تساويهما بالنسبة الى العلم الالهي وقرئ ما يخفون وما يعلنون على صيغة الغيبة بلا التفات واخراج الخب يعم اشراق الكواكب واظهارها من آفاقها ﴿ ٥٩٠ ﴾ بعد استتارها وراءها وانزال الامطار وانبات النبات بل الانشاء الذي هو اخراج ما في الشئ بالقوة الى الفعل والابداع الذي هو اخراج ما في الامكان والعدم الى الوجود وغير ذلك من غيوبه عز وجل وقرئ الخب بتخفيف الهمزة بالحذف وقرئ الخبا بتخفيفها بالقلب وقرئ الا تسجدون لله الذي يخرج الخب من السماء والارض ويعلم سركم وما تعلنون (الله لا اله الا هو رب العرش العظيم) الذي هو أوسع الاجرام وأعظمها وقرئ العظيم بالرفع على أنه صفة الرب واعلم أن ما حكى من الهدهد من قوله الذي يخرج الخب الى آخره ليس داخلا تحت قوله احطت بما لم تحط به وانما هو من العلوم والمعارف التي اقتبسها من سليمان عليه السلام أو رده بيانا لما هو عليه واظهارا لتصلبه في الدين وكل ذلك لتوجيه قلبه عليه الصلاة والسلام نحو قبول كلامه وصرف عنان عزيمته عليه السلام الى غزوها وتسخير ولايتها (قال) استئناف ﴿ عنهما ﴾ وقع جوابا عن سؤال نشأ من حكاية كلام

هذا من تمام كلام المرأة أي لا يشعر بنو اسرائيل وأهل مصرنا التقطناه وهذا قول الكلبي * قوله تعالى (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا ان كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين وقالت لاخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون) ذكر وافي قوله فؤاد أم موسى فارغا وجوها (أحدها) قال الحسن فارغا من كل هم الا من هم موسى عليه السلام (وثانيها) قال أبو مسلم فراغ الفؤاد هو الخوف والاشفاق كقوله وأفئدتهم هواء (وثالثها) قال صاحب الكشاف فارغا صفرا من العقل والمعنى انها حين سمعت بوقوعه في يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والخوف (ورابعها) قال الحسن ومحمد بن اسحق فارغا من الوحي الذي أوحينا اليها أن ألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني انا رادوه اليك فجاءها الشيطان فقال لها كرهت ان يقتل فرعون ولدك فيكون لك أجر فتولت اهلاكه ولما أتاها خبر موسى عليه السلام انه وقع في يد فرعون فأنساها عظم البلاء ما كان من عهد الله اليها (وخامسها) قال أبو عبيدة فارغا من الحزن لعلمها بانه لا يقتل اعتمادا على تكفل الله بمصلحته قال ابن قتيبة وهذا من العجائب كيف يكون فؤادها فارغا من الحزن والله تعالى يقول لولا أن ربطنا على قلبها ولعل ربط الاعلى غاب الجازع المحزون وعكن أن يجاب عنه بأنه لا يعتم انها الشدة ثقتها بوعد الله بل تخاف عند اظهارها امره وأيقنت انها ان أظهرت فانه يتم لاجل ذلك الوعد الا انه كان في العلوم ان الاظهار يضر فربط الله على قلبها ولم يحتمل قوله ان كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها ما وحي ما مضى وزال عن قلبها الحزن فعلى هذا الوجه يصح ان يقال على أن قلبها لم يزل عن الحزن على موسى أصلا وفي رجحانات وهو انها لما سمعت ان امرأة فرعون عطفت عليه وتبنته ان كادت لتبدي بأنه ولدها لو لم نربط على قلبها فورطها بما سمعت ولولا ان سكنا ما بها من شدة الفرح والا بتهاج لتكون من المؤمنين الواثقين بوعد الله تعالى لا بتبني امرأة فرعون اياه بعطفها وقرئ فرغا أي خلا من قولهم اعوذ بالله من صفر الاناء وقرغ القناة وفرغا من هولهم دعاؤهم بالويل يعني يجز بها من شدة ما ورد عليها أما قوله ان كادت لتبدي به فاعلم ان من فسر الفراغ بالزائل من الحزن وقد ذكرنا تفسيره فله ان كادت لتبدي وأما على قول من فسر الفراغ بالحاصل الخوف فذكروا وجوها (أحدها) قال ابن عباس كادت تخبر بأن الذي وجدتموه ابني وقال في رواية عكرمة كادت تقول وا ابناه من شدة وجدها به وذلك حين رأت الموج يرفع و يضع وقال الكلبي ذلك حين سمعت الناس يقولون انه ابن فرعون وقال السدي لما أخذ ابنها كادت تقول هو ابني فعصمها الله تعالى ثم قال لولا أن ربطنا على قلبها بالهام الصبر كما يربط على الشئ المتفلت ليستقر و يطمئن لتكون من المؤمنين من المصدقين بوعد الله وهو قوله انا رادوه اليك أما قوله وقالت لأخته قصيه أي اتبعي أثره وانظري الى أين وقع والى من صار وكانت أخته لابيه وأمه واسمها مريم فبصرت به قال ابن عباس رضي الله

الهدهد كأنه قيل فاذا فعل سليمان عليه السلام عند ذلك فقيل قال (سننظر) اى فيما ذكرته من النظر بمعنى التأمل والسين للتأكيد أى سنتعرف بالتجربة البتة (أصدقت أم كنت من الكاذبين) كان مقتضى الظاهر أم كذبت وايثار ما عليه النظم الكريم للايذان بأن كذبه فى هذه المادة يستلزم انتظامه فى سلك الموسومين بالكذب الراسخين فيه فان مساق هذه الاقاويل الملفقة على ترتيب انيق يستميل قلوب السامعين نحو قبولها من غير أن تكون لها مصداق أصلا سيما بين يدى نبى عظيم الشان لا يكاد يصدر الا عمن له قدم راسخ فى الكذب والافك وقوله تعالى (اذهب بكتابى هذا فالقه اليهم) استئناف مبين لكيفية النظر الذى وعده عليه الصلاة والسلام وقد قاله عليه الصلاة والسلام بعد ما كتب كتابه فى ذلك المجلس او بعده وتخصيصه عليه الصلاة والسلام اياه بالرسالة دون سائر ما تحت ملكه من أمناء الجن الاقوياء على التصرف والتعرف لما عاين فيه من مخايل العلم والحكمة وصحة الفراسة ولئلا يبقى له عذر أصلا (ثم تول عنهم) أى تنح الى مكان قريب تتوارى فيه (فانظر) أى تأمل وتعرف (ماذا يرجعون) أى ماذا يرجع بعضهم الى بعض من القول وجمع الضمائر لما ان مضمون الكتاب الكريم دعوة الكل الى الاسلام

(قالت) أى بعد ما ذهب الهدهد بالكتاب فألقاه اليهم وتنحى عنهم حسبما أمر به

عنهما أبصرته قال المبرد أبصرته و بصرت به بمعنى واحد وقوله عن جنب أى عن بعد وقرئ عن جانب وعن جنب والجنب الجانب اى نظرت نظرة مزورة متجانبة وهم لا يشعرون بحالها غير منتبهة ﴿ قوله تعالى (وحرمنا عليه المراضع من قبل) حالت ها أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فرددناه الى امه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم ان وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون) اعلم ان قوله وحرمنا عليه المراضع من قبل يقتضى تحريمها من قبله فاذا لم يصح التعيد والنهى لتعذر التمييز فلا بد من فعل سوء وذلك الفعل يحتمل انه تعالى مع حاجته الى اللبن أحدث فيه نفار الطبع عن لبن سائر النساء فلذلك لم يرضع أو أحدث فى لبنهن من الطعم ما نفر عنه طبعه أو وضع فى لبن أمه لذة فلما تعودها الاجرم كان يكره لبن غيرها وعن الضحاك كانت أمه قد أرضعته ثلثة أشهر حتى عرف ريحها والمراضع جمع مرضع وهى المرأة التى ترضع او جمع مرضع وهو موضع الرضاع أى الثدى أو الرضاع وقوله من قبل أى من قبل ان رددناه الى أمه ومن قبل متعلق بأخت موسى عليه السلام ومن قبل ولادته فى حكمنا وقضائنا فعند ذلك قالت أخته هل ادلكم على اهل بيت يكفلونه لكم اى يضمنون رضاعه والقيام بمصالحه وهم له ناصحون لا يمنعونه ما ينفعه فى تربيته واغذائه ولا يخونونكم فيه والنصح اخلاص العمل من شائبة الفساد وقال السدى انها لما قالت وهم له ناصحون دل ظاهر ذلك على ان اهل البيت يعرفونه فقال لها هامان قد عرفت هذا الغلام فدلينا على اهله فقالت ما اعرفه ولكنى انما قلت هم للملك ناصحون لنزول شغل قلبه وكل ما روى فى هذا الباب يدل على ان فرعون كان بمنزلة آسية فى شدة محبته لموسى عليه السلام لا على ما قال من زعم انها كانت مختصة بذلك فقط ثم قال تعالى فرددناه الى امه بهذا الضرب من اللطف كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم ان وعد الله حق اى فيما كان وعدها من انه يرده اليها ولقد كانت عالمة بذلك ولكن ليس الخبر كالعيان فتحققت بوجود الموعود ولكن اكثرهم لا يعلمون فيه وجوه اربعة (احدها) ولكن اكثر الناس فى ذلك العهد و بعهده لا يعلمون لاعراضهم عن النظر فى آيات الله (وثانيها) قال الضحاك ومقاتل يعنى اهل مصر لا يعلمون ان الله وعدها رده اليها (وثالثها) هذا كالتعريض بما فرط منها حين سمعت بخبر موسى عليه السلام فجزعت وأصبح فؤادها فارغا (ورابعها) ان يكون المعنى انا انما رددناه اليها لتعلم ان وعد الله حق والمقصود الاصلى من ذلك الرد هذا الغرض الدينى ولكن الاكثر لا يعلمون ان هذا هو الغرض الاصلى وان ما سواه من قرة العين وذهاب الحزن تبع قال الضحاك لما قبل ثديها قال هامان انك لامه قالت لا قال فابالك قبل ثديك من بين النسوة قالت ايها الملك انى امرأة طيبة الريح حلوة اللبن ما شم ريحى صبى الا اقبل على ثديى قالوا صدقت فلم يبق احد من آل فرعون الا اهدى اليها وتحفها بالذهب والجواهر ﴿ قوله

وانماطوى ذكره ايذانا بكمال مسارعته الى اقامة ما أمر به من الخدمة واشعارا باستغنائه عن التصريح به لغاية ظهوره روى أنه عليه الصلاة والسلام كتب كتابه وطبعه بالمسك ﴿ ٥٩٢ ﴾ وختمه بخاتمه ودفعه الى الهدهد فوجدها

الهدهد راقدة فى قصرها بمأرب وكانت اذا رقدت غلقت الابواب ووضعت المفاتيح تحت رأسها فدخل من كوة وطرح الكتاب على نحرها وهى مستلقية وقيل نقرها فانتبهت فزعة وقيل أتاها والقادة والجنود حواليها فرفرف ساعة والناس ينظرون حتى رفعت رأسها فألقى الكتاب فى حجرها وكانت قارئة كاتبة عربية من نسل تبع الحميرى كامرئ فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت فعند ذلك قالت لاشراف قومها (يأيها الملأ انى ألقى الى كتاب كريم) وصفته بالكرم لكرم مضمونه اولكونه من عند ملك كريم اولكونه مختوما اوالغرابة شأنه ووصوله اليها على منهاج غير معتاد (انه من سليمان) استئناف وقع جوابا لسؤال مقدر كأنه قيل ممن هو وماذا مضمونه فقالت انه من سليمان (وانه) اى مضمونه أو المكتوب فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) وفيه اشارة الى سبب وصفها اياه بالكرم وقرئ أنه وأنه بالفتح على حذف ﴿ اللام كأنها علت كرمه بكونه من سليمان وبكونه مصدرا باسم الله تعالى وقيل على انه بدل من كتاب

تعالى (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين ودخل المدينة على حين غفلة من اهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين قال رب انى ظلمت نفسى فاغفر لى فغفر له انه هو الغفور الرحيم قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين) اعلم أن فى قوله بلغ أشده واستوى قولين (أحدهما) انهما بمعنى واحد وهو استكمال القوة واعتدال المزاج والبنية (والثانى) وهو الاصح انهما معنيان متغايران ثم اختلفوا على وجوه (أحدها) وهو الاقرب ان الاشد عبارة عن كمال القوة الجسمانية البدنية والاستواء عبارة عن كمال القوة العقلية (وثانيها) الاشد عبارة عن كمال القوة والاستواء عبارة عن كمال البنية والخلقة (وثالثها) الاشد عبارة عن البلوغ والاستواء عبارة عن كمال الخلقة (ورابعها) قال ابن عباس الاشد ما بين الثمانية عشر سنة الى الثلاثين ثم من الثلاثين سنة الى الاربعين يبقى سواء من غير زيادة ولا نقصان ومن الاربعين يأخذ فى النقصان وهذا الذى قاله ابن عباس رضى الله عنهما حق لان الانسان يكون فى أول العمر فى النمو والتزايد ثم يبقى من غير زيادة ولا نقصان ثم يأخذ فى الانتقاص فنهاية مدة الازدياد من أول العمر الى العشرين ومن العشرين الى الثلاثين يكون التزايد قليلا والقوة قوية جدا ثم من الثلاثين الى الاربعين يقف فلا يزداد ولا ينقص ومن الاربعين الى الستين يأخذ فى الانتقاص الخفى ومن الستين الى آخر العمر يأخذ فى الانتقاص البين الظاهر ويروى انه لم يبعث نبى الا على رأس أربعين سنة والحكمة فيه ظاهرة لان الانسان يكون الى رأس الاربعين قواه الجسمانية من الشهوة والغضب والحس قوية مستكملة فيكون الانسان منجذبا اليها فاذا انتهى الى الاربعين أخذت القوى الجسمانية فى الانتقاص والقوة العقلية فى الازدياد فهناك يكون الرجل أكمل ما يكون فلهذا السر اختار الله تعالى هذا السن للوحى (المسئلة الثانية) اختلفوا فى واحد الاشد قال الفراء الاشد واحدها شد فى القياس ولم يسمع لها بواحد وقال أبو الهيثم واحدة الاشد شدة كما ان واحدة الانعم نعمة والشدة القوة والجلادة أما قوله آتيناه حكما وعلما ففيه وجهان (الاول) انها النبوة وما يقرن بها من العلوم والاخلاق وعلى هذا التقدير ليس فى الآية دلال على ان هذه النبوة كانت قبل قتل القبطى أو بعده لان الواو فى قوله ودخل المدينة لا تفيد الترتيب (الثانى) آتيناه الحكمة والعلم قال تعالى واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة وهذا القول أولى لوجوه (أحدها) ان النبوة أعلى الدرجات البشرية فلا بد وان تكون مسبوقة بالكمال فى العلم والسيرة المرضية التى هى أخلاق الكبراء والحكماء (وثانيها) ان قوله وكذلك نجزى المحسنين يدل على انه انما اعطاه الحكم والعلم مجازاة على احسانه والنبوة لا تكون جزاء على العمل (وثالثها) ان المراد بالحكم والعلم ان كان هو

وقرئ أن من سليمان وأن بسم الله الرحمن الرحيم على أن ان المفسرة (أن لا تعلوا علي) أن مفسرة ولا ناهية اى لا تتكبروا كما يفعل جبابرة الملوك وقيل مصدرية ناصبة للفعل ولا نافية محلها الرفع على انها بدل من كتاب أو خبر لمبتدا مضمر يليق بالمقام اى مضمونه ان لا تعلوا أو النصب ﴿ ٥٩٣ ﴾ باسقاط الخافض اى بأن لا تعلوا علي وقرئ ان لا تغلوا بالغين المعجمة اى لا تجاوزوا حدكم (وائتونى مسلمين) اى مؤمنين وقيل منقادين والاول هو اللايق بشأن النبى عليه الصلاة والسلام على أن الايمان مستتبع للانقياد حتما روى أن نسخة الكتاب من عبد الله سليمان ابن داود الى بلقيس ملكة سبا السلام على من اتبع الهدى أما بعد فلا تعلوا على وائتونى مسلمين وليس الامر فيه بالاسلام قبل اقامة الحجة على رسالته حتى يتوهم كونه استدعاء للتقليد فان القاء الكتاب اليها على تلك الحالة معجزة باهرة دالة على رسالة مرسلها دلالة بينة (قالت) كررت حكاية قولها للايذان بغاية اعتنائها بما فى حيزه من قولها (يا ايها الملأ أفتونى فى أمرى) اى أجيبونى فى أمرى الذى حز بنى وذكرت لكم خلاصته وعبرت عن الجواب بالفتوى التى هى الجواب فى الحوادث المشكلة غالبا تهويلا للامر ورفعا لمحلهم بالاشعار بأنهم قادرون على حل ﴿ ٧٥ س ﴾ المشكلات الملمة وقولها (ما كنت قاطعة أمرا) اى من الامور المتعلقة بالملك (حتى تشهدون) اى الا بحضوركم وبموجب آرائكم استعطافا لهم واستمالة لقلوبهم لئلا يخالفوها فى الرأى

النبوة لوجب حصول النبوة لكل من كان من المحسنين لقوله وكذلك نجزى المحسنين لان قوله وكذلك اشارة الى ما تقدم ذكره من الحكم والعلم بين انعامه عليه قبل قتل القبطى وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى المدينة فالجمهور على انها هى المدينة التى كان يسكنها فرعون وهى قرية على رأس فرسخين من مصر وقال الضحاك هى عين شمس (المسئلة الثانية) اختلفوا فى معنى قوله على حين غفلة من أهلها على اقوال (فالقول الاول) ان موسى عليه السلام لما بلغ أشده واستوى وآتاه الله الحكم والعلم فى دينه ودين آبائه علم ان فرعون وقومه على الباطل فتكلم بالحق وعاب دينهم واشتهر ذلك منه حتى آل الامر الى ان أخافوه وخافهم وكان له من بنى اسرائيل شيعة يقتدون به ويسمعون منه وبلغ فى الخوف بحيث ما كان يدخل مدينة فرعون الا خائفا فدخلها يوما على حين غفلة من أهلها ثم الاكثرون على انه عليه السلام دخلها نصف النهار وقت ما هم قائلون وعن ابن عباس يريد بين المغرب والعشاء والاول أولى لانه تعالى أضاف الغفلة الى أهلها واذا دخل المرء مستترا لاجل خوف لا تضاف الغفلة الى القوم (القول الثانى) قال السدى ان موسى عليه السلام حين كبر كان يركب مراكب فرعون ويلبس مثل ما يلبس ويدعى موسى ابن فرعون فركب يوما فى أثره فأدركه المقيل فى موضع فدخلها نصف النهار وقد خلت الطرق فهو قوله على حين غفلة (القول الثالث) قال ابن زيد ليس المراد من قوله على حين غفلة من أهلها حصول الغفلة فى تلك الساعة بل المراد الغفلة من ذكر موسى وأمره فان موسى حين كان صغيرا ضرب رأس فرعون بالعصا ونتف لحيته وأراد فرعون قتله فجىء بالجمر فأخذه وطرحه فى فيه فتعقدت لسانه فقال فرعون لا أقتله ولكن أخرجوه عن الدار والبلد فأخرج ولم يدخل عليهم حتى كبر والقوم نسوا ذكره وذلك قوله على حين غفلة ولا مطمع فى ترجيح بعض هذه الروايات على بعض لانه ليس فى القرآن ما يدل على شىء منها اه (المسئلة الثالثة) قال تعالى فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه قال الزجاج قال هذا وهذا وهما غائبان على وجه الحكاية أى وجد فيها رجلين يقتتلان اذا نظر الناظر اليهما قال هذا من شيعته وهذا من عدوه ثم اختلفوا فقال مقاتل الرجلان كانا كافرين الا أن أحدهما من بنى اسرائيل والآخر من القبط واحتج عليه بأن موسى عليه السلام قال له فى اليوم الثانى انك لغوى مبين والمشهور أن الذى من شيعته كان مسلما لانه لا يقال فيمن يخالف الرجل فى دينه وطريقه انه من شيعته وقيل ان القبطى الذى سخر الاسرائيلى كان طباخ فرعون استسخره لحمل الحطب الى مطبخه وقيل الرجلان المقتتلان أحدهما السامرى وهو الذى من شيعته والآخر طباخ فرعون والله أعلم بكيفية الحال فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه أى سأله أن يخلصه منه واستنصره عليه فوكزه موسى عليه السلام الوكز الدفع بأطراف الاصابع وقيل بجمع الكف وقرأ ابن مسعود فلكزه موسى وقال بعضهم الوكز فى

والتدبير (قالوا) استئناف مبنى على سؤال نشأ من حكاية قولها كأنه قيل فماذا قالوا فى جوابها فقيل قالوا (نحن أولوقوة) فى الاجساد والآلات والعدد (وأولو بأس شديد) اى نجدة وشجاعة مفرطة و بلاء فى الحرب (والامر اليك) اى هو موكول اليك (فانظرى ماذا تامرين) ونحن ﴿ ٥٩٤ ﴾ مطيعون لك فر بنا بأمرك نمتثل به ونتبع رأيك نؤازرك ونحن من أبناء الحرب لامز أبناء الرأى والمشورة واليك الرأى والتدبير فانظرى ماذا ترين نكن فى الخدمة فلما أحست منهم الميل الى الحراب والعدول عن سنن الصواب شرعت فى تزييف مقالتهم المبنية على الغفلة عن شأن سليمان عليه السلام وذلك قوله تعالى (قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية) من القرى على منهاج المقاتلة والحراب (أفسدوها) بتخريب عمارتها واتلاف مافيها من الاموال (وجعلوا اعزة أهلها اذلة) بالقتل والاسر والاجلاء وغير ذلك من فنون الاهانة والاذلال (وكذلك يفعلون) تأكيد لما وصفت من حالهم بطريق الاعتراض التذييلى وتقريره بأن ذلك عادتهم المستمرة وقيل تصديق لها من جهة الله تعالى على طريقة قوله تعالى ولو جئنا بمثله مددا أثر قوله تعالى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى (وانى مرسلة اليهم بهدية) تقرير لرأيها بعد ما زيفت آراءهم وأتت بالجملة الاسمية الدالة على الثبات ﴿ الاولى ﴾ المصدرة بحرف التحقيق للايذان بأنها مزمعة على رأيها لايلويها عنه صارف

الصدر والوكر فى الشهر وكان عليه السلام شديد البطش وقال بعض المفسرين فوكزه بعصاه فقال الفضل هذا غلط لانه لايقال وكزه بعصا فقضى عليه أى أماته وقتله (المسئلة الرابعة) احتج بهذه الآية من طعن فى عصمة الانبياء عليهم السلام من وجوه (أحدها) ان ذلك القبطى اما ان يقال انه كان مستحق القتل أولم يكن كذلك فان كان الاول فلم قال هذا من عمل الشيطان ولم قال رب انى ظلمت نفسى فاغفرلى فغفرله ولم قال فى سورة أخرى فعلتها اذا وأنا من الضالين وان كان الثانى وهو ان ذلك القبطى لم يكن مستحق القتل كان قتله معصية وذنبا (وثانيها) ان قوله وهذا من عدوه يدل على انه كان كافرا حربيا فكان دمه مباحا فلم استغفر عنه والاستغفار عن الفعل المباح غير جائز لانه يوهم فى المباح كونه حراما (وثالثها) ان الوكز لايقصد به القتل ظاهرا فكان ذلك القتل قتل خطا فلم استغفر منه والجواب عن الاول لم لايجوز أن يقال انه كان لكفره مباح الدم اما قوله هذا من عمل الشيطان ففيه وجوه (أحدها) لعل الله تعالى وان أباح قتل الكافر الا انه قال الاولى تأخير قتلهم الى زمان آخر فلما قتل فقد ترك ذلك المندوب فقوله هذا من عمل الشيطان معناه اقدامى على ترك المندوب من عمل الشيطان (وثانيها) ان قوله هذا اشارة الى عمل المقتول لاالى عمل نفسه فقوله هذا من عمل الشيطان أى عمل هذا المقتول من عمل الشيطان المراد منه بيان كونه مخالفا لله تعالى مستحقا للقتل (وثالثها) ان يكون قوله هذا اشارة الى المقتول يعنى أنه من جند الشيطان وحزبه يقال فلان من عمل الشيطان أى من أحزابه اما قوله رب أنى ظلمت نفسى فاغفرلى وعلى نهج قول آدم عليه السلام ربنا ظلمنا أنفسنا والمراد أحد وجهين اما على سبيل الانقطاع الى الله تعالى والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه وان لم يكن هناك ذنب قط أو من حيث حرم نفسه الثواب بترك المندوب أما قوله فاغفرلى أى فاغفرلى ترك هذا المندوب وفيه وجه آخر وهو ان يكون المراد رب انى ظلمت نفسى حيث قتلت هذا اللعين فان فرعون لو عرف ذلك لقتلنى به فاغفرلى أى فاسترعلى ولاتوصل خبره الى فرعون فغفرله أى ستره عن الوصول الى فرعون و يدل على هذا التأويل انه على عقبه قال رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين ولو كانت اعانة المؤمن ههنا سببا للمعصية لما قال ذلك وأما قوله فعلتها اذا وأنا من الضالين فلم يقل انى صرت بذلك ضالا ولكن فرعون لما ادعى انه كان كافرا فى حال القتل نفى عن نفسه كونه كافرا فى ذلك الوقت واعترف بأنه كان ضالا أى متحيرا لايدرى ما يجب عليه أن يفعله مما يدرء به فى ذلك أمره فوجدان كل كافر حربيا فلم استغفر عن قتله قلنا كون الكافر مباح الدم أمر يختلف باختلاف الشرائع فلعل قتلهم كان حراما فى ذلك الوقت أوان كان مباحا لكن الاولى تركه على ماقررناه قوله ذلك القتل كان قتل خطا قلنا لانسلم فلعل الرجل كان ضعيفا وموسى عليه السلام كان فى نهاية الشدة فوكزه كل قاتلا قطعا ثم ان سلمنا ذلك ولكن لعله عليه السلام كان يمكنه أن يخلص الاسرائيلى من يده بدون ذلك الوكز الذى كان

ولايثنيها عاطف أى وانى مرسلة اليهم رسلا بهدية عظيمة (فناظرة بم يرجع المرسلون) حتى أعمل بمايقتضيه الحال روى أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجوارى وحليهن الاساور والاطواق والفرطة راكبى خيل غشاة بالديباج محلاة باللجم والسروج بالذهب المرصع بالجوهر ٥٩٥ وخمسمائة جارية على رمالك زى الغلمان وألف لبنة من ذهب ووضة وتاجا مكللا بالدر والياقوت المرتفع والمسك والعنبر وحقا فيه درة عذراء وجزعة معوجة الثقب وبعثت رجلا من أشراف قومها المنذر بن عمرو وآخر ذا رأى وعقل وقالت ان كان نبيا ميز بين الغلمان والجوارى وثقب الدرة ثقبا مستويا وسلك فى الخرزة خيطا ثم قالت للمنذر ان نظر اليك نظر غضبان فهو ملك فلا يهولنك وان رأيته بشاشا لطيفا فهو نبى فأقبل الهدهد فأخبر سليمان عليه السلام بذلك فأمر الجن فضربوا لبن الذهب والفضة وفرشوه فى ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ وجعلوا حول الميدان حائطا شرفاته من الذهب والفضة وأمر بأحسن الدواب فى البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان وشماله على اللبن وأمر قائدا من الجن ومعه خلق كثير فقاموا على اليمين واليسار ثم قعد على سريره والكراسى من جانبيه واصطفت الشياطين صفوفا فراسخ والانس صفوفا فراسخ والوحش والسباع والطيور والهوام كذلك فلما دنا القوم ونظروا بهتوا ورأوا الدواب تروث على اللبن فتقاصرت اليهم نفوسهم ورموا بما معهم

الاولى تركه فبهذا أقسم على الاستغفار على أنا بينا سقما دلالة هذه الآية على وقوع المعصية لكنا بينا أدلة بينة على انه كان سهوا وذلك وقت فيكون ذلك صادرا منه قبل النبوة وذلك لا نزاع فيه (المسئلة الخامسة) قالت المعتزلة الآية دلت على بطلان قول من نسب المعاصى الى الله تعالى لانه عليه السلام قال هذا من عمل الشيطان فنسب المعصية الى الشيطان فلو كانت بخلق الله تعالى لكانت من الله لا من الشيطان وهو كقول يوسف عليه السلام من بعد ان نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى وقول صاحب موسى عليه السلام وما أنسانيه الا الشيطان وقوله تعالى لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة اما قوله رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيرا للمجرمين ففيه وجوه (احدها) ان ظاهره يدل على انه قال انك لما أنعمت على بهذا الانعام فانى لا أكون معاونا لاحد من المجرمين بل أكون معاونا للمسلمين وهذا يدل على أن ما أقدم عليه من اعانة الاسرائيلى على القبطى كان طاعة لا معصية اذ لو كانت معصية لزل الكلام منزلة ما اذا قيل انك لما أنعمت على بقبول توبتى عن تلك المعصية فانى أكون مواظبا على مثل تلك المعصية (وثانيها) قال الفعال كأنه أقسم بما أنعم الله عليه أن لا يظاهر مجرما والباء للقسم أى بنعمتك على (وثالثها) قال الكسائى والفراء انه خبر ومعناه الدعاء كأنه قال فلا تجعلنى ظهيرا قال الفراء وفى حرف عبد الله فلا تجعلنى ظهيرا واعلم أن فى الآية دلالة على انه لا يجوز معاونة الظلمة والفسقة وقال ابن عباس لم يستثن ولم يقل فلن أكون ظهيرا ان شاء الله فابتلى به فى اليوم الثانى وهذا ضعيف لانه فى اليوم الثانى ترك الاعانة وانما خاف منه ذلك العدو فقال ان تريد الا أن تكون جبارا فى الارض لا انه وقع منه * قوله تعالى (فأصبح فى المدينة خائفا يترقب فاذا الذى استنصره بالامس يستصرخه قال له موسى انك لغوى مبين فلما ان أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالامس ان تريد الا أن تكون جبارا فى الارض وما تريد أن تكون من المصلحين وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج انى لك من الناصحين فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين) أعلم ان عند موت ذلك الرجل من الوكز أصبح موسى عليه السلام من غد ذلك اليوم خائفا من أن يظهر انه هو القاتل فيطلب به وخرج على استتار فاذا الذى استنصره وهو الاسرائيلى بالامس يستصرخه بطلب نصرته بصياح وصراخ قال له موسى انك لغوى مبين قال أهل اللغة الغوى يجوز أن يكون فعيلا بمعنى مفعل أى انك لغوا لومى فانى وقعت بالامس فيما وقعت فيه بسببك ويجوز أن يكون بمعنى الغاوى واحتج به من قدح فى عصمة الانبياء عليهم السلام فقال كيف يجوز لموسى عليه السلام أن يقول لرجل من شيعته يستصرخه انك لغوى مبين والجواب من وجهين (الاول) ان قوم موسى عليه السلام كانوا على ملة فالاولى فى قولهم بعد مشاهدة الآيات اجعل لنا الها كما لهم أنها تحمل على الغوى المبين

ولما وقفوا بين يديه نظر اليهم بوجه طلق وقال ماوراءكم وقال أبين الحق وأخبره جبريل عليهما السلام بما فيه فقال لهم ان فيه كذا وكذا ثم أمر بالارضة فأخذت شعرة ونفذت في الدرة فجعل رزقها في الشجرة وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها ونفذت في الجزعة فجعل رزقها في الفواكه ﴿ ٥٩٦ ﴾ ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله في الاخرى ثم تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ثم رد الهدية وذلك قوله تعالى (فلما جاء سليمان) اى الرسول (قال) اى مخاطبا للرسول والمرسل تغليبا للحاضر على الغائب وقيل للرسول ومن معه ويؤيده انه قرئ فلما جاؤا والاول أولى لما فيه من تشديد الانكار والتوبيخ وتعميمهما لبلقيس وقومها ويؤيده الافراد في قوله تعالى ارجع اليهم (أتمدونني بمال) وهو انكار لامدادهم اياه عليه الصلاة والسلام بالمال مع علو شانه وسعة سلطانه وتوبيخ لهم بذلك وتنكير مال للتحقير وقوله تعالى (فما آتاني الله) اى مما رأيتم آثاره من النبوة والملك الذي لا غاية وراءه (خير مما آتاكم) اى من المال الذي من جملته ما جئتم به فلا حاجة لي الى هديتكم ولا وقع لها عندي تعليل للانكار ولعله عليه الصلاة والسلام انما قال لهم هذه المقالة الى آخرها بعد ما جرى ﴿ لما ﴾ بينه وبينهم مما حكي من قصة الحق وغيرها كما أشير اليه لا انه عليه الصلاة والسلام خاطبهم بها أول ما جاؤه كما يفهم من ظاهر قوله تعالى

ذلك (الثاني) انه عليه السلام انما سماه غولا لان من شأنه المخاصمة على وجه يتعذر عليه دفع خصمه عما يروم من ضرره يكون خلاف طريقة الرشد واختلفوا في قوله تعالى قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت أمس نفسا من كلام الاسرائيلي أو القبطي فقال بعضهم لما خاطب موسى الاسرائيلي بانه غوي ورآه على غضب ظن لما هم بالبطش أنه يريده فقال هذا القول وزعموا انه لم يعرف قبله بالامس للرجل الا هو وصار ذلك سببا لظهور القتل ومزيد الخوف وقال آخرون بل هو قول القبطي وقد كان عرف القصة من الاسرائيلي الساعة هذا هو الوجه لانه تعالى قال فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدو لهما قال يا موسى فهذا القول اذن منه لا من غيره وأيضا فقوله ان تريد الا أن تكون جبارا في الارض لا يليق الا بأن يكون قول الكافر واعلم ان الجبار الذي يفعل ما يريد من الضرب والقتل بالظلم لا ينظر في العواقب ولا يدفع بالتي هي أحسن وقيل المتعظم الذي لا يتواضع لامر أحد ولما وقعت هذه الواقعة انتشر الحديث في المدينة وانتهى الى فرعون وهموا بقتله اما قوله وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال صاحب الكشاف يسعى يجوز ارتفاعه وصفا لرجل وانتصابه حالا عنه لانه قد تخصص بقوله من أقصى المدينة والاظهر انتشار يقال لرجلان يأتمران لان كل واحد منهما يأمر صاحبه بشئ أو يشير عليه بأمر والمعنى يتشاورون بسببك وأكثر المفسرين على ان هذا الرجل مؤمن آل فرعون فعلى وجه الاشفاق أسرع اليه ليخوفه بأن الملاء يأتمرون بك ليقتلوك أما قوله فخرج منها خائفا يترقب أي خائفا على نفسه من آل فرعون ينتظر هل يلحقه طلب فيؤخذ ثم التجأ الى الله تعالى لعلمه بأنه لا ملجأ سواه فقال رب نجني من القوم الظالمين وهذا يدل على ان قتله لذلك القبطي لم يكن ذنبا والا لكان هو الظالم لهم وما كانوا ظالمين له بسبب طلبهم اياه ليقتلوه قصاصا ﴿ قوله تعالى (ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ولما وردماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب اني لما أنزلت الي من خير فقير فجاءته احداهما تمشي على استحياء قالت ان أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين قالت احداهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوي الامين قال اني أريد أن أنكحك احدى ابنتي هاتين على أن تأجرني ثماني حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدني ان شاء الله من الصالحين قال ذلك بيني وبينك أيما الاجلين قضيت فلا عدوان علي والله على ما نقول وكيل) اعلم أن الناس اختلفوا في قوله ولما توجه تلقاء مدين فقال بعضهم انه خرج وما قصد مدين ولكنه سلم نفسه الى الله تعالى وأخذ يمشي من غير معرفة فأوصله الله تعالى الى مدين وهذا قول ابن عباس وقال آخرون

جاءا الخ وقرئ أتمدونى بالادغام وبنون واحدة وبنونين وحذف الياء وقوله تعالى (بل انتم بهديتكم تفرحون) اضراب عما ذكر من انكار الامداد بالمال الى التوبيخ بفرحهم بهديتهم التى اهدوها اليه عليه الصلاة والسلام فرح افتخار وامتنان واعتداد بها كما ينبئ عنه * ٥٩٧ * ماذكر من حديث الحق والجزعة وتعيير زى الغلمان والجوارى وغير ذلك

لما خرج قصد مدين لانه وقع فى نفسه أن بينهم وبينه قرابة لانهم من ولد مدين بن ابراهيم عليه السلام وهو كان من بنى اسرائيل لكن لم يكن له علم بالطريق بل اعتمد على فضل الله تعالى ومن الناس من قال بل جاءه جبريل عليه السلام وعلمه الطريق وذكر ابن جرير عن السدى لما اخذ موسى عليه السلام فى المسير جاءه ملك على فرس فسجد له موسى من افرح فقال لا تفعل واتبعنى فاتبعه نحو مدين واحتج من قال انه خرج وما قصد مدين بأمرين (أحدهما) قوله ولما توجه تلقاء مدين ولو كان قاصدا الذهاب الى مدين لكان ولما توجه الى مدين فلما لم يقل ذلك بل قال توجه تلقاء مدين علمنا انه لم يتوجه الا الى ذلك الجانب من غير أن يعلم أن ذلك الجانب الى أين ينتهى (والثانى) قوله عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل وهذا كلام شاك لا عالم والاقرب أن يقال انه قصد الذهاب الى مدين وما كان عالما بالطريق ثم انه كان يسأل الناس عن كيفية الطريق لانه يبعد من موسى عليه السلام فى عقله وذكائه أن لا يسأل ثم قال ابن اسحق خرج من مصر الى مدين بغير زاد ولا ظهر وبينهما مسيرة ثمانية أيام ولم يكن له طعام الا ورق الشجر أما قوله عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل فهو نظير قول جده ابراهيم عليه السلام انى ذاهب الى ربى سيهدين وموسى عليه السلام قلما يذكر كلاما فى الاستدلال والجواب والدعاء والتضرع الا ما ذكره ابراهيم عليه السلام وهكذا الخلف الصدق للسلف الصالح صلوات الله عليهم وعلى جميع الطيبين المطهرين ولما ورد ماء مدين وهو الماء الذى يسقون منه وكان بئرا فيما روى وورود محيئه والوصول اليه وجد عليه اى فوق شفيره ومستقاه أمة جماعة كثيرة العدد من الناس من اناس مختلفين ووجد من دونهم فى مكان أسفل من مكانهم امرأتين تذودان والذود الدفع والطرد فقوله تذودان أى تحبسان ثم فيه اقوال (الاول) تحبسان أغنامهما واختلفوا فى علة ذلك الحبس على وجوه (أحدها) قال الزجاج لان على الماء من كان أقوى منهما فلا يتمكنان من السقى (وثانيها) كانتا تكرهان المزاحمة على الماء (وثالثها) لئلا تختلط أغنامهما باغنامهم (ورابعها) لئلا تختلطا بالرجال (القول الثانى) كانتا تذودان عن وجوههما نظر الناظر ليراهما (والقول الثالث) تذودان الناس عن غنمهما (القول الرابع) قال الفراء تحبسانها عن أن تتفرق وتتسرب قال ما خطبكما أى ما شأنكما وحقيقته ما مخطوبكما أى مطلوبكما من الذياد فسمى المخطوب خطبا كما يسمى المشؤن شأنا فى قولك ما شأنك فقالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير وذلك يدل على ضعفهما عن السقى من وجوه (أحدها) ان العادة فى السقى للرجال والنساء يضعفن عن ذلك (وثانيها) ما ظهر من ذودهما الماشية على طريق التأخير (وثالثها) قولهما حتى يصدر الرعاء (ورابعها) انتظارهما لما يبقى من القوم من الماء (وخامسها) قولهما وأبونا شيخ كبير ودلالة ذلك على انه لو كان قويا حاضرا لم يتأخر السقى فعند ذلك سقى لهما قبل صدر الرعاء وعادتا الى أبيهما قبل الوقت المعتاد

وفائدة الاضراب التنبيه على ان امداده عليه الصلاة والسلام بالمال منكر قبيح وعد ذلك مع انه لا قدر له عنده عليه الصلاة والسلام مما يتنافس فيه المتنافسون قبيح والتوبيخ به ادخل وقيل المضاف اليه المهدى اليه والمعنى بل أنتم بما يهدى اليكم تفرحون حبا لزيادة المال لما أنكم لا تعلمون الا ظاهرا من الحياة الدنيا (ارجع) أفرد الضمير ههنا بعد جمع الضمائر الخمسة فيما سبق لاختصاص الرجوع بالرسول وعموم الامداد ونحوه للكل اى ارجع أيها الرسول (اليهم) اى الى بلقيس وقومها (فلنأتينهم) اى فوالله لنأتينهم (بجنود لا قبل لهم بها) أى لا طاقة لهم بمقاومتها ولا قدرة لهم على مقابلتها وقرئ بهم (ولنخرجنهم) عطف على جواب القسم (منها) من سبا (اذلة) اى حال كونهم اذلة بعد ما كانوا فيه من العز والتمكين وفى جمع القلة تأكيد لذلتهم وقوله تعالى (وهم صاغرون) اى أسارى مهانون حال اخرى مفيدة لكون اخراجهم بطريق الاسر لا بطريق الاجلاء وعدم وقوع جواب القسم لانه

كان معلقا بشرط قد حذف عند الحكاية ثقة بدلالة الحال عليه كأنه قيل ارجع اليهم فلياتوا مسلمين والا فلنا تينهم الخ
(قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها) قاله عليه الصلاة والسلام لما دنا مجئ رسل بلقيس اليه عليه الصلاة والسلام يروى
أنه لما رجعت رسلها اليها بما حكى من خبر سليمان عليه السلام قامت ۞ ٥٩٨ ۞ فدعلت والله ما هذا بملك ولا بنائه

من طاقة و بعثت الى سليمان عليه السلام انى قادمة اليك بملوك قومى حتى أنظر ما أمرك وما تدعوا اليه من دينك ثم آذنت بالرحيل الى سليمان عليه السلام فشخصت اليه فى اثنى عشر ألف قيل تحت كل قيل ألوف و يروى انها أمرت فجعل عرشها فى آخر سبعة أبيات بعضها فى بعض فى آخر قصر من قصور سبعة لها وغلقت الابواب ووكلت بحرسها يحفظونه واعله أوحى الى سليمان عليه السلام باستيثاقها من عرشها فأراد أن يريها بعض ما خصه الله عز سلطانه به من اجراء التعاجيب على يده مع اطلاعها على عظيم قدرته تعالى وصحة نبوته عليه الصلاة والسلام و يختبر عقلها بأن ينكر عرشها فينظر أتعرفه ام لا وتقييد الاتيان به بقوله تعالى (قبل ان يأتونى مسلمين) لما ان ذلك ابدع واغرب وابعد من الوقوع عادة وادل على عظم قدرة الله تعالى وصحة نبوته عليه الصلاة والسلام وليكون اختبارها واطلاعها ۞ بحال ۞ على بدائع المعجزات فى اول مجيئها وقيل لانها اذا اتت مسلمة لم يحل له اخذ مالها بغير رضاها (قال عفريت) اى مارد خبيث (من الجن) بيان له

قرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم بفتح الياء وضم الدال وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الدال فالمعنى فى القراءة الاولى حتى ينصرفوا عن الماء و يرجعوا عن سقيهم وصدر ضد ورد ومر و أبضم الياء فالمعنى فى القراءة حتى يصدر القوم مواشيهم اما قوله فسقى لهما أى سقى غنمهما لاجلهما وفى كيفية السقى أقوال (أحدها) انه عليه السلام سأل القوم أن يسقوا فسقوا (وثانيها) قال قوم عمد الى بئر على رأسه صخرة لا يقلها الا عشرة وقيل أربعون وقيل مائة فقلعها بنفسه واستقى الماء من ذلك البئر (وثالثها) أن القوم لما زاحمهم موسى عليه السلام تعمدوا القاء ذلك الحجر على رأس البئر فهو عليه السلام رمى ذلك الحجر وسقى لهما وليس بيان ذلك فى القرآن والله أعلم بالصحيح منه لكن المرأة وصفت موسى عليه السلام بالقوة فدل ذلك على انها شاهدت منه ما يدل على فضل قوته وقال تعالى ثم تولى الى الظل وفيه دلالة على انه سقى لهما فى شمس وحر وفيه دلالة أيضا على كمال قوة موسى عليه السلام قالوا كلبى أتى موسى أهل الماء فسألهم دلوا من ماء فقالوا له ان شئت ائت الدلو فاستق لها قال نعم وكان يجتمع على الدلو أربعون رجلا حتى يخرجوه من البئر فاخذ موسى عليه السلام الدلو فاستقى به وحده وصب فى الحوض ودعا بالبركة ثم قرب غنمهما فشربت حتى رويت ثم سرحهما مع غنمهما فان قيل كيف ساغ لنبى الله الذى هو شعيب أن يرعى لابنيه بسقى الماشية قلنا ليس فى القرآن ما يدل على ان أباهما كان شعيبا والناس يختلفون فيه فقال ابن عباس رضى الله عنهما ان أباهما هو يثرون ابن أخى شعيب وشعيب مات بعد ما عمى وهو اختيار أبى عبيد (وقال) الحسن انه رجل مسلم قبل الدين عن شعيب على أنا وان سلمنا انه كان شعيبا عليه السلام لكن لا مفسدة فيه لان الدين لا ياباه واما المروءة فالناس فيها مختلفون وأحوال أهل البادية غير احوال أهل الحضر لا سيما اذا كانت الحالة حالة الضرورة واما قوله قال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير فالمعنى انى لاى شئ أنزلت الى من خير قليل أو كثير غث أو سمين لفقير وانما عدى فقيرا باللام لانه ضمن معنى سائل وطالب (واعلم) أن هذا الكلام يدل على الحاجة اما الى الطعام أو الى غيره الا أن المفسرين حملوه على الطعام قال ابن عباس يريد طعاما يأكله وقال الضحاك مكث سبعة أيام لم يذق فيها طعاما الا بقل الارض وروى أن موسى عليه السلام لما قال ذلك رفع صوته ليسمع المرأتين ذلك فان قيل انه عليه السلام لما بقى معه من القوة ما قدر بها على حمل ذلك الدلو العظيم فكيف يليق بهمته العالية أن يطلب الطعام أليس انه عليه السلام قال لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى قوة سوى قلنا اما رفع الصوت بذلك لاسماع المرأتين وطلب الطعام فذلك لا يليق بموسى عليه السلام البتة فلا تقبل تلك الرواية ولكن لعله عليه السلام قال ذلك فى نفسه مع ربه تعالى وفى الآية وجه آخر كأنه قال رب انى بسبب ما أنزلت الى من خير الدين صرت فقيرا فى الدنيا لانه كان عند فرعون فى ملك وثروة فقال ذلك رضا بهذا البدل وفرحا به وشكرا له وهذا أولى لأليق

اذ يقال للرجل الخبيث المنكر المعفر لاقرانه وكان اسمه ذكوان أو صخرا (انا آتيك به) بعرشها (قبل أن تقوم من مقامك) أي من مجلسك للمحكومة وكان يجلس الى نصف النهار وآتيك اما صيغة المضارع أو الفاعل وهو الانسب لمقام ادعاء الاتيان به لاحالة وأوفق لما عطف عليه من الجملة ﴿ ٥٩٩ ﴾ الاسمية اى انا آت به فى تلك المدة البتة (وانى عليه) أى على الاتيان به (قوى) لا يشتمل على حمله (أمين) لا اختزل منه شيئا ولا أبدله (قال الذى عنده علم من الكتاب) فصل عما قبله للايذان بما بين القائلين ومقاليهما وكيفيتى قدرتهما على الاتيان به من كمال التباين اولاسقاط الاول عن درجة الاعتبار قيل هو آصف بن برخيا وزير سليمان عليه السلام وقيل رجل كان عنده اسم الله الاعظم الذى اذا سئل به اجاب وقيل الخضر اوجبريل اوملك ايده الله عز وجل به عليهم السلام وقيل هو سليمان نفسه عليه السلام وفيه بعد لا يخفى والمراد بالكتاب الجنس المنتظم لجميع الكتب المنزلة أو اللوح وتنكير علم للتفخيم والرمز الى أنه علم غير معهود ومن ابتدائية (انا آتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك) الطرف تحريك الاجفان وفتحها للنظر الى شئ وارتداده انضمامها ولكونه امرا طبيعيا غير منوط بالقصد اوثر الارتداد على الرد ولم يكن بين هذا الوعد وانجازه مدة ما كما فى وعد العفريت استغنى عن التأكيد وطوى عند الحكاية ذكر الاتيان به للايذان بأنه امر

بحمل موسى عليه السلام اما قوله تعالى فجاءته احداهما تمشى على استحياء فقوله على استحياء فى موضع الحال اى مستحيية قال عمر بن الخطاب قد استترت بكم قميصها وقيل ماشيتها على بعد مائلة من الرجال (وقال) عبد العزيز بن أبى حازم على اجلاله ومنهم من يقف على قوله تمشى ثم يبتدئ فيقول على استحياء قالت ان أبى يدعوك يعنى انها على الاستحياء قالت هذا القول لان الكريم اذا دعا غيره الى الضيافة يستحيى لاسيما المرأة وفى ذلك دلالة على أن شعيبا لم يكن له معين سواهما وروى انهما لما رجعتا الى ابيهما قبل الناس قال لهما ما أعجلكما فاتا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا فقال لاحداهما اذهبى فادعيه لى اما الاختلاف فى أن ذلك الشيخ كان شعيبا عليه السلام اوغيره فقد تقدم والاكثرون على انه شعيب وقال محمد بن اسحق فى البنتين اسم الكبرى صفورا والصغرى ليا وقال غيره صفرا وصفيرا وقال الضحاك صافورا والتى جاءت الى موسى عليه السلام هى الكبرى على قول الاكثرين وقال الكلبى هى الصغرى وليس فى القرآن دلالة على شئ من هذه التفاصيل اما قوله قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا ففيه اشكالان (أحدهما) كيف ساغ لموسى عليه السلام أن يعمل بقول امرأة وأن يمشى معها وهى أجنبية فان ذلك يورث التهمة العظيمة وقال عليه السلام اتقوا مواضع التهم (وثانيهما) انه سقى أغنامهما تقربا الى الله تعالى فكيف يليق به أخذ الاجرة عليه فان ذلك غير جائز فى المروءة ولا فى الشريعة (وثالثهما) انه عرف فقرهن وفقر أبيهن وعجزهم وانه عليه السلام كان فى نهاية القوة بحيث كان يمكنه الكسب الكثير بأقل سعى فكيف يليق بمروءة مثله طلب الاجرة على ذلك القدر من السقى من الشيخ الفقير والمرأة الفقيرة (ورابعها) كيف يليق بشعيب النبى عليه السلام أن يبعث ابنته الشابة الى رجل شاب قبل العلم بكون ذلك الرجل عفيفا أو فاسقا (والجواب) عن الاول أن نقول اما العمل بقول امرأة فكما نعمل بقول الواحد حرا كان أو عبدا ذكرا كان أو أنثى فى الاخبار وما كانت الاخبرة عن أبيها وأما المشى مع المرأة فلا بأس به مع الاحتياط والتورع والجواب عن الثانى ان المرأة وان قالت ذلك فلعل موسى عليه السلام ما ذهب اليهم طلبا للاجرة بل التبرك برؤية ذلك الشيخ وروى انها لما قالت ليجزيك كره ذلك ولما قدم اليه الطعام امتنع وقال أنا أهل بيت لا نبيع ديننا بدنيانا ولا نأخذ على المعروف ثمنا حتى قال شعيب عليه السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا وأيضا فليس بمنكر أن الجوع قد بلغ الى حيث ما كان يطيق تحمله فقبل ذلك على سبيل الاضطرار وهذا هو الجواب عن الثالث فان الضرورات تبيح المحظورات والجواب عن الرابع لعله عليه السلام كان قد علم بالوحى طهارتها وبراءتها فكان يعتمد عليها أما قوله فلما جاءه فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقام يمشى والجارية امامه فهبت الريح فكشفت عنها فقال موسى عليه السلام انى من عنصر ابراهيم عليه السلام فكونى من خلفى حتى لا ترفع الريح ثيابك فأرى ما لا يحل لى

متحقق غنى عن الاخبار به وجئ بالفاء الفصيحة لاداخلة على جملة معطوفة على جملة مقدرة دالة على تحققه فقط كما فى قوله عز وجل فقلنا اضرب بعصاك البحر فانفلق ونظائره بل داخلة على الشرطية حيث قيل (فلما رآه مستقرا عنده) اى رأى العرش حاضرا لديه كما فى قوله عز وجل فلما رأينه اكبرنه للدلالة على ﴿ ٦٠٠ ﴾ كمال ظهور ماذكر من تحققه واستغنائه

عن الاخبار به ببيان ظهور مايترتب عليه من رؤية سليمان عليه السلام اياه واستغنائه أيضا عن التصريح به اذ التقدير فاتاه به فرآه فلما رآه الخ فحذف ماحذف للاذكر وللايذان بكمال سرعة الاتيان به كأنه لم يقع بين الوعد به وبين رؤيته عليه الصلاة والسلام اياه شئ ما أصلا وفى تقييد رؤيته بما استقر اره عنده عليه الصلاة والسلام تأكيد لهذا المعنى لانها مما انه لم يتوسط بينهما ابتداء الاتيان ايضا كأنه لم يزل موجودا عنده مع مافيه من الدلالة على دوام قراره عنده متفضلا فى ملك ملكه (قال) اى سليمان عليه السلام تلقيا للنعمة بالشكر جريا على سنن أبنائه جنسه من أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام وخلص عباده (هذا) اى حضور العرش بين يديه فى هذه المدة القصيرة او التمكن من احضاره بالواسطة أو بالذات كما قيل (من فضل ربى) اى تفضله على من غير استحقاق له من قبلى (ليبلونى أأشكر) بأن أراه محض فضله تعالى من غير حول من جهتى ولا قوة ﴿ شق ﴾ وأقوم بحقه (أم اكفر) بأن أجد لنفسى مدخلا فى البين أو أقصر فى اقامة مواجبه كما هو شان سائر النعم الفائضة على العباد (ومن شكر فانما يشكر لنفسه)

فلما دخل على شعيب فاذا الطعام موضوع فقال شعيب تناول يافتى فقال موسى عليه السلام أعوذ بالله قال شعيب ولم قال لانا من أهل بيت لانبيع ديننا بملء الارض ذهبا فقال شعيب ولكن عادتى وعادة آبائى اطعام الضيف فجلس موسى عليه السلام فأكل وانما كره أكل الطعام خشية أن يكون ذلك أجرة له على عمله ولم يكره ذلك مع الخضر حين قال لو شئت لاتخذت عليه أجرا والفرق أن أخذ الاجرة على الصدقة لايجوز أما الاستئجار ابتداء فغير مكروه أما قوله وقص عليه القصص فالقصص مصدر كالعلل سمى به المقصوص قال الضحاك لما دخل عليه قال له من أنت ياعبد الله فقال انا موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب وذكر له جميع أمره من لدن ولادته وأمر القوابل والمراضع والقذف فى اليم وقتل القبطى وانهم يطلبونه ليقتلوه فقال شعيب لاتخف نجوت من القوم الظالمين أى لاسلطان له بأرضنا فلسنا فى مملكته وليس فى الآية دلالة على انه قال ذلك عن الوحى أو على مايقتضيه العادة فان قيل المفسرون قالوا ان فرعون يوم ركب خلف موسى عليه السلام ركب فى ألف ألف وستمائة ألف فالملك الذى هذا شأنه كيف يحتمل أن لايكون فى ملكه قرية على بعد ثمانية أيام من دار مملكته قلنا هذا وان كان نادرا الا انه ليس بمحال أما قوله قالت احداهما ياأبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الامين ففيه مسائل (الاولى) وصفته بالقوة لما شاهدت من كيفية السقى وبالامانة لما حكيا من غض بصره حال ذودهما الماشية وحال سقيه لهما وحال مشيه بين يديها الى أبيها (المسئلة الثانية) انما جعل خبر من استأجرت اسما والقوى الامين خبرا مع ان العكس أولى لان العناية هى سبب التقديم (المسئلة الثالثة) القوة والامانة لايكفيان فى حصول المقصود مالم ينضم اليهما الفطنة والكياسة فلم أهمل أمر الكياسة ويمكن أن يقال انها داخلة فى الامانة عن ابن مسعود رضى الله عنه أفرس الناس ثلاثة بنت شعيب وصاحب يوسف وأبو بكر فى عمر أما قوله قال انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين فلاشبهة فى أن هذا اللفظ وان كان على التردد لكنه عند التزويج عين ولا شبهة فى أن العقد وقع على أحد الاجلين فكانت الزيادة كالتبرع والفقهاء ربما استدلوا به على أن العمل قد يكون مهرا كالمال وعلى أن الحاق الزيادة بالثمن والمثمن جائز ولكنه شرع من قبلنا فلا يلزمنا ويدل على انه قد كان جائزا فى تلك الشريعة ان بشرط اللبن منفعة وعلى انه كان جائزا فى تلك الشريعة نكاح المرأة بغير بدل تستحقه المرأة وعلى أن عقد النكاح لاتفسده الشروط التى لايوجبها العقد ثم قال على ان تأجرنى ثمانى حجج تأجرنى من أجرته اذا كنت له أجيرا وثمانى حجج ظرف أو من أجرته كذا اذا أثبته اياه ومنه أجركم الله ورحكم وثمانى حجج مفعول به ومعناه رعية ثمانى حجج ثم قال وما أريد ان اشق عليك وفيه وجهان (الاول) لاأريد أن أشق عليك بالزام أتم الاجلين فان قيل ماحقيقة قولهم شققت عليه وشق عليه الامر قلنا حقيقته ان الامر اذا تعاظمك فكأنه

لانه يرتبط به عقيدها ويستجلب به مزيدها ويحط به عن ذمته عبء الواجب ويتخلص عن وصمة الكفران (ومن كفر) اى لم يشكر (فان ربي غني) عن شكره (كريم) بترك تعجيل العقوبة والانعام مع عدم الشكر أيضا (قال) أي سليمان عليه السلام كررت الحكاية مع كون المحكي سابقا ولاحقا من كلامه ﴿ ٦٠١ ﴾ عليه الصلاة والسلام تنبيها على مابين السابق واللاحق من المخالفة لما أن الاول من باب الشكر لله تعالى والثاني أمر لخدمه (نكروا لها عرشها) أي غيروا هيئته بوجه من الوجوه (ننظر) بالجزم على أنه جواب الامر وقرئ بالرفع على الاستئناف (أتهتدي) الى معرفته أو الى الجواب اللائق بالمقام وقيل الى الايمان بالله تعالى ورسوله عند رؤيتها لتقدم عرشها من مسافة طويلة في مدة قليلة وقد خلقته مغلقة عليه الابواب موكلة عليه الحراس والحجاب وبأياه تعليق النظر المتعلق بالاهتداء بالتنكير فان ذلك مما لادخل فيه للتنكير (أم تكون) أي بالنسبة الى علمنا (من الذين لا يهتدون) أي الى ماذكر من معرفة عرشها أو الجواب الصواب فان كونها نفس الامر منهم وان كان أمرا مستمرا لكن كونها منهم عند سليمان عليه السلام وقومه أمر حادث يظهر بالاختبار (فلما جاءت)

شق عليك ذلك باثنين تقون تارة اطيقه وتارة لااطيقه (الثاني) لاأريد ان اشق عليك في الرعي ولكني اساهلك فيها واسامحك بقدر الامكان ولا كلفك الاحتياط الشديد في كيفية الرعي وهكذا كان الانبياء عليهم السلام آخذين بالاسمح في معاملات الناس ومنه الحديث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم شريكي فكان خير شريك لايداري ولايشاري ولايماري ثم قال ستجدني ان شاء الله من الصالحين فيه وجهان (الاول) يريد بالصلاح حسن المعاملة ولين الجانب (والثاني) يريد الصلاح على العموم ويدخل تحته حسن المعاملة وانما قال ان شاء الله لاتكال على توفيقه ومعونته * فان قيل فالعقد كيف ينعقد مع هذا الشرط فلك لم قلت امرأتي طالق ان شاء الله لاانه لايقع * قلنا هذا مما يختلف باختلاف الصيغ اما قوله تعالى قال ذلك بيني وبينك فاعلم ان ذلك مبتدأ وبيني وبينك خبره وهو اشارة الى ماعاهده عليه شعيب عليه السلام يريد ذلك الذي قلته وعاهدتني عليه قائم بيننا جميعا لايخرج كلانا منه لاأنا عما شرطت علي ولاانت عما شرطت على نفسك ثم قال أيما الاجلين قضيت من الاجلين أطولهما الذي هو العشر أو أقصرهما الذي هو الثمان فلا عدوان علي أي لايعتدى علي في طلب الزيادة أراد بذلك تقرير أمر الخيار يعني ان شاء هذا وان شاء هذا ويكون اختيار الاجل الزائد موكولا الى رأيه من غير أن يكون لاحد عليه اجبار ثم قال والله على مانقول وكيل والوكيل هو الذي وكل اليه الامر ولما استعمل الوكيل في معنى الشاهد عدي بعلى لهذا السبب * قوله تعالى (فلما قضى موسى الاجل وسار باهله آنس من جانب الطور نارا قال لاهله امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الايمن في البقعة المباركة من الشجرة ان ياموسى اني انا الله رب العالمين وان ألق عصاك فلما رآها تهتز كانها جان ولى مدبرا ولم يعقب ياموسى أقبل ولاتخف انك من الآمنين اسلك يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء واضمم اليك جناحك من الرهب فذانك برهانان من ربك الى فرعون وملائه انهم كانوا قوما فاسقين) اعلم انه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تزوج صغراهما وقضى أوفاهما أي قضى أوفى الاجلين وقال مجاهد قضى الاجل عشر سنين ومكث بعد ذلك عنده عشر سنين وقوله فلما قضى موسى الاجل وسار بأهله آنس يدل على ان ذلك الايناس حصل عقيب مجموع الامرين ولا يدل على انه حصل عقيب أحدهما وهو قضاء الاجل فبطل ماقاله القاضي من ان ذلك يدل على انه لم يزد عليه وقوله وسار باهله ليس فيه دلالة على انه خرج منفردا معها وقوله امكثوا فيه دلالة على الجمع أما قوله اني آنست نارا فقد مر تفسيره في سورة طه وسورة النمل أما قوله لعلي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ففيه ابحاث (الاول) قال صاحب الكشاف الجذوة باللغات الثلاث وقد قرئ بهن جميعا وهو العود الغليظ كانت في رأسه نارا ولم تكن قال الزجاج الجذوة القطعة الغليظة من الحطب (الثاني) قد حكينا في سورة طه انه أظلم عليه الليل في

شروع في حكاية التجربة التي ﴿ ٧٦ ﴾ س قصدها سليمان عليه السلام أي فلما جاءت بلقيس سليمان عليه السلام وقد كان العرش بين يديه (أي من جهة

سليمان عليه السلام بالذات أو بالواسطة (أهكذا عرشك) لم يقل أهذا عرشك لئلا يكون تلقينا لها فيفوت ما هو المقصود من الامر بالتنكير من ابراز العرش في معرض الاشكال والاشتباه حتى يتبين حالها وقد ذكرت عنده عليه الصلاة والسلام بسخافة العقل (قالت كأنه هو) وأنبأت عن كمال رجاحة ﴿ ٦٠٢ ﴾ عقلها حيث لم تقل هو وهو مع علمها بحقيقة الحال

تلويحا بما اعتراه باتكير من نوع مغايرة في الصفات مع اتحاد الذات ومراعاة لحسن الادب في محاورته عليه الصلاة والسلام (وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين) من تتمة كلامها كأنها ظنت أنه عليه الصلاة والسلام أراد بذلك اختبار عقلها واظهار معجزة لها فقالت أوتينا العلم بكمال قدرة الله تعالى وصحة نبوتك من قبل هذه المعجزة التي شاهدناها بما سمعناه من المنذر من الآيات الدالة على ذلك وكنا مسلمين من ذلك الوقت وفيه من الدلالة على كمال رزانة رأيها ورصانة فكرها ما لا يخفى وقوله تعالى (وصدها ما كانت تعبد من دون الله) بيان من جهته تعالى لما كان يمنعها من اظهار ما ادعته من الاسلام الى الآن أي صدها عن ذلك عبادتها القديمة للشمس وقوله تعالى (انها كانت من قوم كافرين) تعليل لسبب عبادتها المذكورة للصد أي انها كانت من قوم راسخين في الكفر ولذلك لم تكن قادرة على اظهار اسلامها وهي بين ﴿ لا يكون ﴾ ظهرانيهم الى أن دخلت تحت ملكة سليمان عليه السلام وقرئ أنها بالفتح على البدلية من

الصحراء وهبت ريح شديدة فرقت ماشيته وضل وأصابهم مطر فوجدوا بردا شديدا فعند ابصر نارا بعيدة فسار اليها يطلب من يدله على الطريق وهو قوله آتيكم منها بخبر أو آتيكم من هذه النار بجذوة من الحطب لعلكم تصطلون وفي قوله لعلي آتيكم منها بخبر دلالة على انه ضل وفي قوله لعلكم تصطلون دلالة على البرد أما قوله فلما اتاها نودي من شاطئ الواد الايمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى اني انا الله رب العالمين فاعلم ان شاطئ الوادي جانبه وجاء النداء عن يمين موسى من شاطئ الوادي من قبل الشجرة وقوله من الشجرة بدل من قوله من شاطئ الوادي بدل الاشتمال لان الشجرة كانت نابتة على الشاطئ كقوله لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم وانما وصف البقعة بكونها مباركة لانه حصل فيها ابتداء الرسالة وتكليم الله تعالى اياه وههنا مسائل (المسئلة الاولى) احتجت المعتزلة على قولهم ان الله تعالى متكلم بكلام يخلقه في جسم بقوله من الشجرة فان هذا صريح في أن موسى عليه السلام سمع النداء من الشجرة والمتكلم بذلك النداء هو الله سبحانه وهو تعالى منزه أن يكون في جسم فثبت انه تعالى انما يتكلم بخلق الكلام في جسم (اجاب) القائلون بقدم الكلام فقالوا والناصر لهان (الاول) قول أبي منصور الماتريدي وائمة ماوراء النهر وهو ان الكلام القديم القائم بذات الله تعالى غير مسموع انما المسموع هو الصوت والحروف وذلك كان مخلوقا في الشجرة ومسموعا منها وعلى هذا التقدير زال السؤال (الثاني) قول أبي الحسن الاشعري وهو ان الكلام الذي ليس بحرف ولا صوت يمكن ان يكون مسموعا كما ان الذات التي ليست بجسم ولا عرض يمكن أن تكون مرئية فعلى هذا القول لا يعد انه سمع الحرف والصوت من الشجرة وسمع الكلام القديم من الله تعالى لان الشجرة فلا منافاة بين الامرين واحتج أهل السنة بأن محل قوله اني انا الله رب العالمين لو كان هو الشجرة لكان قد قالت الشجرة اني انا الله والمعتزلة أجابوا بأن هذا انما يلزم لو كان المتكلم بالكلام هو محل الكلام لا فاعله وهذا هو أصل المسئلة أيضا واحتج أهل السنة بأن الذراع المسموم قال لا تأكل مني فاني مسموم ففاعل ذلك الكلام هو الله تعالى فان كان المتكلم بالكلام هو فاعل ذلك الكلام لزم أن يكون الله قد قال لا تأكل مني فاني مسموم وهذا باطل وان كان المتكلم هو محل الكلام لزم أن تكون الشجرة قد قالت اني انا الله وكل ذلك باطل (المسئلة الثانية) يحتمل أن يقال انه تعالى خلق فيه علما ضروريا بأن ذلك الكلام كلام الله والمعتزلة لا يرضون بذلك قالوا لانه لو علم بالضرورة أن ذلك الكلام كلام الله لوجب أن يعلم بالضرورة وجود الله تعالى لانه يستحيل أن تكون الصفة معلومة بالضرورة والذات معلومة بالنظر ولو علم موسى انه الله تعالى بالضرورة لزال التكليف ويحتمل أن يقال انه تعالى لما أسمعه الكلام الذي ليس بحرف ولا صوت عرف ان مثل ذلك الكلام لا يمكن أن يكون كلام الخلق ويحتمل أن يقال ان ظهور الكلام من الشجرة كظهور التسبيح من الحصى في انه يعلم ان مثل ذلك

فاعل صدأ وعلى التعليل بحذف اللام هذا وأما ما قيل من أن قوله تعالى وأوتينا العلم الى قوله تعالى من قوم كافرين من كلام سليمان عليه السلام وملائه كأنهم لما سمعوا قولها كأنه هو تفطنوا للاسلام فقالوا اسحسانا لشأنها أصابت فى الجواب وعلمت قدرة الله تعالى وصحة النبوة بما سمعت ﴿ ٦٠٣ ﴾ من المنذر من الآيات المتقدمة وبما عاينت من هذه الآية الباهرة من أمر عرشها ورزقت الاسلام فعطفوا على ذلك قولهم وأوتينا العلم الخ أى وأوتينا نحن العلم بالله تعالى وبقدرته وبصحة ما جاء من عنده قيل علمها ولم تزل على دين الاسلام شكرا لله تعالى على فضلهم عليها وسبقهم الى العلم بالله تعالى والاسلام قبلها وصدها عن التقدم الى الاسلام عبادة الشمس ونشؤها بين ظهراني الكفرة فعما لا يخفى ما فيه من البعد والتعسف (قيل لها ادخلى الصرح) الصرح القصر وقيل صحن الدار روى أن سليمان عليه السلام أمر قبل قدومها فبنى له على طريقها قصر من زجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه من دواب البحر السمك وغيره ووضع سريره فى صدره فجلس عليه وعكف عليه الطير والجن والانس وانما فعل ذلك ليزيدها استعظاما لامره وتحققا لنبوته وثباتا على الدين وزعموا أن الجن كرهوا أن يتزوجها فتفضى اليه بأسرارهم لانها كانت بنت جنية وقيل خافوا أن يولد له منها ولد يجتمع له فطنة الجن والانس فيخرجون من ملك سليمان عليه السلام الى ملك

لا يكون الا من الله تعالى ويحتمل أن يكون المعجز هو انه رأى النار فى الشجرة الرطبة فعلم انه لا يقدر على الجمع بين النار وبين خضرة الشجرة الا الله تعالى ويحتمل أن يصح ما يروى ان ابليس لما قال له كيف عرفت أنه نداء الله تعالى قال لانى سمعته بجميع أجزائى فلما وجد حس السمع من جميع الاجزاء علم ان ذلك مما لا يقدر عليه أحد سوى الله تعالى وهذا انما يصح على مذهبنا حيث قلنا البنية ليست شرطا (المسئلة الثالثة) قال فى سورة النمل نودى ان بورك من فى النار ومن حولها وقال ههنا نودى انى أنا الله رب العالمين وقال فى طه نودى انى أنا ربك ولا منافاة بين هذه الاشياء فهو تعالى ذكر الكل الا أنه حكى فى كل سورة بعض ما اشتمل عليه ذلك النداء (المسئلة الرابعة) قال الحسن ان موسى عليه السلام نودى نداء الوحى لا نداء الكلام والدليل عليه قوله تعالى فاستمع لما يوحى قال الجمهور ان الله تعالى كلمه من غير واسطة والدليل عليه قوله تعالى وكلم الله موسى تكليما وسائر الآيات وأما الذى تمسك به الحسن فضعيف لان قوله فاستمع لما يوحى لم يكن بالوحى لانه لو كان ذلك أيضا بالوحى لانتهى آخر الامر الى كلام يسمعه المكلف لا بالوحى والا لزم التسلسل بل المراد من قوله فاستمع لما يوحى وصيته بأن يتشدد فى الامور التى تصل اليه فى مستقبل الزمان بالوحى أما قوله وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب يا موسى أقبل ولا تخف انك من الآمنين فقد تقدم تفسير كل ذلك وقوله كأنها جان صريح فى انه تعالى شبهها بالجان ولم يقل انه فى نفسه جان فلا يكون هذا مناقضا لكونه ثعبانا بل شبهها بالجان من حيث الاهتزاز والحركة لا من حيث المقدار وقد تقدم الكلام فى خوفه ومعنى لم يعقب لم يرجع يقال عقب المقاتل اذا كر بعد الفر وقال وهب انها لم تدع شجرة ولا صخرة الا ابتلعتها حتى سمع موسى عليه السلام صريرا سنانها وسمع قعقعة الصخر فى جوفها فحينئذ ولى واختلفوا فى العصا على وجوه (أحدها) قالوا ان شعيبا كانت عنده عصى الانبياء عليهم السلام فقال لموسى بالليل اذا دخلت ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصى فأخذ عصا هبط بها آدم عليه السلام من الجنة ولم تزل الانبياء تتوارثها حتى وقعت الى شعيب عليه السلام فقال أرنى العصا فلمسها وكان مكفوفا فضن بها فقال خذ غيرها فما وقع فى يده الا هى سبع مرات فعلم ان له شأنا (وروى) أيضا ان شعيبا عليه السلام أمر ابنته أن تأتى بعصا لاجل موسى عليه السلام فدخلت البيت وأخذت العصا وأتته بها فلما رآها الشيخ قال ائتيه بغيرها فألقتها وأرادت ان تأخذ غيرها فلم يقع فى يدها غيرها فلما رأى الشيخ ذلك رضى به ثم ندم بعد ذلك وخرج يطلب موسى عليه السلام فلما لقيه قال أعطنى العصا قال موسى هى عصاى فأبى ان يعطيه اياها فاختصما ثم توافقا على أن يجعلا بينهما أول رجل يلقاهما فأتاهما ملك يمشى فقضى بينهما فقال ضعوها على الارض فمن حملها فهى له فعالجها الشيخ فلم يطق وأخذها موسى عليه السلام بسهولة فتركها الشيخ له ورعى له عشر سنين (وثانيها) روى ابن صالح عن ابن عباس قال

هو أشد وأفظع فقالوا ان فى عقلها شيئا وهى شعراء الساقين و رجلها كحافر الحمار فاختبر عقلها بتنكير العرش واتخذ الصرح ليتعرف ساقها و رجلها (فلما رأته) وهو [illegible] يديها كما يعرب عنه الامر بدخولها وأحاطت بتفاصيل أحواله خبرا (حسبته لجة وكشفت ﴿ ٦٠٤ ﴾ عن ساقيها) وتشمرت لئلا تبتل أذيالها فاذا هى أحسن

الناس ساقا وقدما خلا أنها شعراء قيل هى السبب فى اتخاذ النورة أمر بها الشياطين فاتخذوها واستكحها عليه الصلاة والسلام وأمر الجن فبنوا لها سيلحين وغمدان وكان يزورها فى الشهر مرة ويقيم عندها ثلاثة أيام وقيل بل زوجها ذا تبع ملك همدان وسلطه على اليمن وأمر زوبعة أمير جن اليمن أن يطيعه فبنى له الصنم وقرئ سأوريها حملا للمفرد على الجمع فى سؤق وأسوق (قال) عليه الصلاة والسلام حين رأى ما اعتراها من الدهشة والرعب (انه) أى ما تولهت منه ماء (صرح ممرد) أى ملس (من قوارير) من الزجاج (قالت) حين عاينت تلك المعجزة أيضا (رب انى ظلمت نفسى) بما كنت عليه الى الآن من عبادة الشمس وقيل بظنى بسليمان حيث ظننت أنه يريد اغراقها فى اللجة وهو بعيد (وأسلمت مع سليمان) تابعة له مقتدية به ومانى قوله تعالى (لله رب العالمين) من الالتفات الى الاسم الجليل ووصفه ﴿ صاحب ﴾ بربوبية العالمين لاظهار معرفتها بألوهيته تعالى وتفرده باستحقاق العبادة وربوبيته لجميع الموجودات التى من

كل فى دار بيرون ابن أخى شعيب بيت لا يدخله الا بيرون وابنته التى زوجها من موسى عليه السلام وانها كانت تكنسه وتنظفه وكان فى ذلك البيت ثلاثة عشر عصا وكان لبيرون أحد عشر ولدا من الذكور فكلما أدرك منهم ولد أمره بدخول البيت واخراج عصا من تلك العصى فرجع موسى ذات يوم الى منزله فلم يجد أهله واحتاج الى عصا رعيه فدخل ذلك البيت وأخذ عصا من تلك العصى وخرج بها فلما علمت المرأة ذلك انطلقت الى ابيها وأخبرته بذلك فسر بذلك بيرون وقال لها ان زوجك هذا نبى وان له مع هذه العصا لشأنا (وثالثها) فى بعض الاخبار أن موسى عليه السلام لما عقد العقد مع شعيب وأصبح من الغد وأراد الرعى قال له شعيب عليه السلام اذهب بهذه الاغنام فاذا بلغت مفرق الطريق فخذ على يسارك ولا تأخذ على يمينك وان كان الكلأ بها أكثر فان بها تنينا عظيما فأخشى عليك وعلى الاغنام منه فذهب موسى بالاغنام فلما بلغ مفرق الطريق أخذت الاغنام ذات اليمين فاجتهد موسى على أن يردها فلم يقدر فسار على أثرها فرأى عصا كثيرا ثم ان موسى عليه السلام نام والاغنام ترعى واذا بالتنين قد جاء فقامت عصا موسى عند السماء بقدر حتى قتله وعادت الى جنب موسى وهى دامية فلما استيقظ موسى عليه السلام رأى العصا دامية واتبع مقفوة فاستراح لذلك وعلم ان الله تعالى قد قتل التنين بتلك العصا المقدرة وآية وعاد الى شعيب عليه السلام وكان ضريرا فمس الاغنام فاذا هى أحسن حالا مما كانت فسأله عن ذلك فأخبره موسى عليه السلام بالقصة ففرح بذلك وعلم ان لموسى عليه السلام وعصاه شأنا أراد أن يجازى موسى عليه السلام على حسن رعيه اكراما وصله لابنته فقال انى وهبت لك من الغنم كل أبقع و بقاء فأوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام ان ضرب بعصاك الماء الذى تسقى الغنم منه فقعل ثم سقى الاغنام منه فما خطت واحدة منها الا وضعت حملها ما بين أبقع و بقاء فسلم شعيب لموسى ذلك رزق ساقه الله تعالى الى موسى عليه السلام وامرأته ووفى له شرطه (وراعيها) قال بعضهم تلك العصا هى عصا آدم عليه السلام وان جبريل عليه السلام أخذ تلك العصا بعد موت آدم عليه السلام فكانت معه حتى لقى بها موسى عليه السلام ليلا (وخامسها) قال الحسن ما كانت الا عصا من الشجر اعترضها اعتراضا أى أخذها من عرض الشجر يقال اعترض اذا لم يختر وعن الكلبى لشجرة التى منها نودى شجرة العوسج ومنها كانت عصاه ولا مطمع فى ترجيح بعض هذه الوجوه على بعض لانه ليس فى القرآن ما يدل عليها والاخبار متعارضة والله أعلم بها أما قوله تعالى اسلك يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء فاعلم ان الله تعالى قد عبر عن هذا المعنى بثلاث عبارات (أحدها) هذه (وثانيها) قوله فى طه واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء (وثالثها) قوله فى النمل وأدخل يدك فى جيبك قال العزيزى فى غريب القرآن اسلك يدك فى جيبك أدخلها فيه أما قوله واضمم اليك جناحك من الرهب فأحسن الناس كلاما فيه

جلتها ما كانت تعبده قبل ذلك من الشمس (ولقد أرسلنا) عطف على قوله تعالى ولقد آتينا داود وسليمان علما مسوق لما سبق هوله من تقرير أنه عليه الصلاة والسلام يلقى القرآن من لدن حكيم عليم فان هذه القصة أيضا من جملة القرآن الكريم الذى لقيه عليه ﴿ ٦٠٥ ﴾ الصلاة والسلام واللام جواب قسم محذوف أى و بالله لقد أرسلنا (الى ثمود أخاهم صالحا) وأن فى قوله تعالى (أن اعبدوا الله) مفسرة لما فى الارسال من معنى القول أو مصدرية حذف عنها الباء وقرئ بضم النون اتباعا لها للباء (فاذا هم فريقان يختصمون) ففاجؤا التفرق والاختصام فآمن فريق وكفر فريق والواو لمجموع الفريقين (قال) عليه الصلاة والسلام للفريق الكافر منهم بعد ما شاهد منهم ما شاهد من نهاية العتو والعناد حتى بلغوا من الكابرة الى أن قالوا له عليه الصلاة والسلام يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين (يا قوم لم تستعجلون بالسيئة) أى بالعقوبة السيئة (قبل الحسنة) أى التوبة فتؤخرونها الى حين نزولها حيث كانوا من جهلهم وغوايتهم يقولون ان وقع ايعاده تبنا حينئذ والافنحن على ما كنا عليه (لولا تستغفرون الله) هلا تستغفرونه تعالى قبل نزولها (لعلكم ترحمون) بقبولها اذ لا امكان للقبول عند النزول (قالوا اطيرنا) أصله تطيرنا والتطير التشاؤم عبر عنه بذلك لما أنهم كانوا اذا خرجوا مسافرين فيمرون بطائر يزجرونه فان مر سانحا تيمنوا وان مر بارحا تشاءموا

صاحب الكشاف قال فيه معنيان (أحدهما) أن موسى عليه السلام لما قلب الله له العصا حية فزع واضطرب فاتقاها بيده كما يفعل الخائف من الشئ فقيل له ان اتقاءك بيدك فيه غضاضة عند الاعداء فاذا ألقيتها فكما تنقلب حية فأدخل يدك تحت عضدك مكان اتقائك بها ثم أخرجها بيضاء ليحصل الامران اجتناب ما هو غضاضة عليك واظهار معجزة أخرى والمراد بالجناح اليد لان يدى الانسان بمنزلة جناحى الطائر واذا أدخل يده اليمنى تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه اليه (الثانى) أن يراد بضم جناحه اليه تجلده وضبطه نفسه وتشدده عند انقلاب العصا حية حتى لا يضطرب ولا يرهب استعارة من فعل الطائر لانه اذا خاف نشر جناحيه وأرخاهما والا فجناحاه مضمومان اليه مشمران ومعنى قوله من الرهب من أجل الرهب أى اذا أصابك الرهب عند رؤية الحية فاضمم اليك جناحك وقوله اسلك يدك فى جيبك على أحد التفسيرين واحد ولكن خولف بين العبارتين وانما كرر المعنى الواحد لاختلاف الغرضين وذلك ان الغرض فى أحدهما خروج اليد بيضاء وفى الثانى اخفاء الرهب فان قيل قد جعل الجناح وهو اليد فى أحد الموضعين مضموما وفى الآخر مضموما اليه وذلك قوله واضمم اليك جناحك وقوله واضمم يدك الى جناحك فما الفرق بينهما قلنا المراد بالجناح المضموم هو اليد اليمنى و بالمضموم اليه اليد اليسرى وكل واحدة من يمنى اليدين و يسراهما جناح هذا كله كلام صاحب الكشاف وهو فى نهاية الحسن أما قوله تعالى فذانك قرئ مخففا ومشددا فالمخفف شاذ والمشدد مثنى ذان قوله برهانان من ربك حجتان نيرتان على صدقه فى النبوة وصحة ما دعاهم اليه من التوحيد وظاهر الكلام يقتضى انه تعالى أمره بذلك قبل اتيانه فرعون حتى عرف ما الذى يظهره عنده من المعجزات لانه تعالى حكى بعد ذلك عن موسى عليه السلام انه قال انى قتلت منهم نفسا فاخاف ان يقتلون قال القاضى واذا كان كذلك فيجب أن يكون فى حال ظهور البرهانين هناك من دعاه الى رسالته من أهله أو غيرهم اذ المعجزات انما تظهر عند ارسال الرسل فى حال الارسال لا قبله و انما تظهر لكى يستدل بها غيرهم على الرسالة وهذا ضعيف لانه ثبت انه لابد فى اظهار المعجزة من حكمة ولا حكمة أعظم من أن يستدل بها الغير على صدق المدعى وأما كونه لا حكمة ههنا فلا نسلم فلعل هناك أنواعا من الحكم والمقاصد سوى ذلك لاسيما وهذه الآيات متطابقة على انه لم يكن هناك مع موسى عليه السلام أحد ﴿ قوله تعالى (قال رب انى قتلت منهم نفسا فاخاف ان يقتلون واخى هرون هو افصح منى لسانا فأرسله معى ردا يصدقنى انى اخاف ان يكذبون قال سنشد عضدك باخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما بآياتنا انتما ومن اتبعكما الغالبون فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا الا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الاولين وقال موسى ربى اعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار انه لا يفلح الظالمون) اعلم انه تعالى لما قال فذانك برهانان من ربك الى فرعون

فلما نسبوا الخير والشر الى الطائر استعير لما كان سببا لهما من قدر الله تعالى وقسمته أو من عمل العبد أى تشاءمنا (بك وبمن معك) فى دينك حيث تتابعت علينا الشدائد وقد كانوا قحطوا أو لم نزل فى اختلاف وافتراق مذ اخترعتم دينكم (قال طائركم) أى سببكم الذى منه يأتيكم ما يأتيكم ﴿ ٦٠٦ ﴾ من الشر (عند الله) وهو قدره أو علمكم المكتوب عنده وقوله تعالى (بل أنتم قوم تفتنون) أى تختبرون بتعاقب السراء والضراء أو تعذبون أو يفتنكم الشيطان بوسوسته اليكم الطيرة اضراب من بيان طائرهم الذى هو مبدأ ما لحق بهم الى ذكر ما هو الداعى اليه (وكان فى المدينة) وهى الحجر (تسعة رهط) أى اشخاص وبهذا الاعتبار وقع تمييز التسعة لا باعتبار لفظه والفرق بينه وبين النفر أنه من الثلاثة أو من السبعة الى العشرة والنفر من الثلاثة الى التسعة وأسماؤهم حسبما نقل عن وهب الهذيل بن عبد رب وغنم ابن غنم ورئاب بن مهرج ومصدع بن مهرج وعمير بن كردية وعاصم ابن مخرمة وسبيط بن صدقة وشمعان ابن صفى وقدار بن سالف وهم الذين سعوا فى عقر الناقة وكانوا عتاة قوم صالح وكانوا من أبناء أشرافهم (يفسدون فى الارض) لا فى المدينة فقط افسادا بحتا لا يخالطه شئ ما من الاصلاح كما ينطق به قوله تعالى (ولا يصلحون) أى ﴿ فالمقصود ﴾ لا يفعلون شيئا من الاصلاح أو لا يصلحون شيئا من الاشياء (قالوا) استئناف ببيان ما فعلوا من الفساد

وسلنه تضمن ذلك أن يذهب موسى بهذين البرهانين الى فرعون وقومه فعند ذلك طلب من الله تعالى ما يقوى قلبه [illegible] فقال رب انى قتلت منهم نفسا فاخاف أن يقتلون وأخى هرون هو أفصح منى لسانا لانه كان فى لسانه حبسة اما فى أصل الخلقة واما لاجل انه وضع الجمرة فى فيه عند ما التقف لحية فرعون أما قوله فأرسله معى ردأ يصدقنى ففيه لجاج (البحث الاول) الردء اسم ما يستعان به فعل بمعنى مفعول به كأن الدفء اسم لما يدفأ به فما ردأت الحائط اردؤه اذا دعمته بخشب أو غيره لئلا يسقط (البحث الثانى) قرأ نافع ردا بغير همز والباقون بالهمز وقرأ عاصم وحمزة يصدقنى برفع القاف و يروى ذلك أيضا عن أبى عمرو والباقون بجزم القاف وهو المشهور عن أبى عمرو فمن رفع فالتقدير ردأ مصدقا لى ومن جزم كان على معنى الجزاء يعنى ان أرسلته صدقنى ونظيره قوله فهب لى من لدنك وليا يرثنى بجزم الثاء من يرثنى وروى السدى عن بعض شيوخه ردأ كيما يصدقنى (البحث الثالث) الجمهور على ان التصديق لهرون وقال مقاتل المعنى كى يصدقنى فرعون والمعنى أرسل معى أخى حتى يعاضدنى على اظهار الحجة والبيان فعند اجتماع البرهانين ربما حصل المقصود من تصديق فرعون (البحث الرابع) ليس الغرض بتصديق هرون أن يقول له صدقت أو يقول للناس صدق موسى وانما هو أن يلخص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل و يجيب عن الشبهات و يجادل به الكفار فهذا هو التصديق المفيد ألا ترى الى قوله وأخى هرون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى وفائدة الفصاحة انما تظهر فيما ذكرناه لا فى مجرد قوله صدقت (البحث الخامس) قال الجبائى انما سأل موسى عليه السلام أن يرسل هرون بأمر الله تعالى والا كان لا يدرى هل يصلح هرون للبعثة أم لا فلم يكن ليسأل مالا يأمن أن يجاب أو لا يكون حكمة ويحتمل أيضا أن يقال انه سأله لا مطلقا بل مشروطا على معنى ان اقتضت الحكمة ذلك كما يقوله الداعى فى دعائه (البحث السادس) قال السدى ان نبيين وآيتين أقوى من نبى واحد وآية واحدة * قال القاضى والذى قاله من جهة العادة أقوى فأما من حيث الدلالة فلا فرق بين معجزة ومعجزتين ونبى ونبيين لان المبعوث اليه ان نظر فى أيهما كان علم وان لم ينظر فالحالة واحدة هذا اذا كانت طريقة الدلالة فى المعجزتين واحدة فأما اذا اختلفت وأمكن فى احداهما ازالة الشبهة ما لا يمكن فى الاخرى فغير ممتنع أن يختلفا ويصلح عند ذلك أن يقال انهما بمجموعهما أقوى من احداهما على ما قاله السدى لكن ذلك لا يتأتى فى موسى وهرون عليهما السلام لان معجزتهما كانت واحدة لامغايرة أما قوله سنشد عضدك بأخيك فاعلم ان العضد قوام اليد و بشدتها تشتد يقال فى دعاء الخير شد الله عضدك وفى ضده فت الله فى عضدك ومعنى سنشد عضدك بأخيك سنقويك به فاما أن يكون ذلك لان اليد تشتد لشدة العضد والجملة تقوى بشدة اليد على مزاولة الامور واما لان الرجل شبه باليد فى اشتدادها باشتداد العضد فجعل كأنه يد مشتدة بعضد شديدة أما قوله ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون اليكما

أي قال بعضهم لبعض في أثناء المشاورة في أمر صالح عليه الصلاة والسلام وكان ذلك عقب ما أنذرهم بالعذاب وقوله تمتعوا في داركم ثلاثة أيام الخ (تقاسموا بالله) اما أمر مقول لقالوا أو ماض وقع بدلا منه أو حالا من فاعله بإضمار قد وقوله تعالى (لنبيتنه وأهله) أي لنباغتن صالحا وأهله ليلا ونقتلنهم وقرئ بالتاء على خطاب بعضهم لبعض وقرئ بياء الغيبة وضم التاء على أن تقاسموا فعل ماض (ثم لنقولن لوليه) أي لولي صالح وقرئ بالتاء والياء كما قبله (ما شهدنا مهلك أهله) أي ما حضرنا هلاكهم أو وقت هلاكهم أو مكان هلاكهم فضلا أن نتولى اهلاكهم وقرئ مهلك بفتح اللام فيكون مصدرا (وانا لصادقون) من تمام القول أو حال أي نقول ما نقول والحال انا لصادقون في ذلك لان الشاهد للشئ غير المباشر له عرفا أو لانا ما شاهدنا مهلكهم وحده بل مهلكه ومهلكهم جميعا كقولك ما رأيت ثمة رجلا بل رجلين (ومكروا مكرا) بهذه المواضعة (ومكرنا مكرا) أي أهلكناهم اهلاكا غير معهود (وهم لا يشعرون) أو جازيناهم مكرهم من حيث لا يحتسبون (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم) شروع في بيان ما ترتب على ما باشروه من المكر وكيف معلقة لفعل النظر ومحل الجملة النصب بنزع الخافض أي فنظر في أنه كيف كان عاقبة مكرهم وقوله تعالى (انا دمرناهم) اما بدل من عاقبة مكرهم على أنه فاعل كان وهي تامة وكيف حال أي فانظر كيف

المقصود أن الله تعالى آمنه مما كان يحذر فان قيل بين تعالى ان السلطان هو بالآيات فكيف لا يصلون اليهما لاجل الآيات أوليس فرعون قد وصل الى صلب السحرة وان كانت هذه الآيات ظاهرة قلنا ان الآية التي هي قلب العصا حية كما أنها معجزة فهي ايضا تمنع من وصول ضرر فرعون الى موسى وهرون عليهما السلام لانهم اذا علموا انه متى ألقاها صارت حية عظيمة وان أراد ارسالها عليهم أهلكتهم زجرهم ذلك عن الاقدام عليهما فصارت مانعة من الوصول اليهما بالقتل وغيره وصارت آية ومعجزة فجمعت بين الامرين وأما صلب السحرة ففيه خلاف فمنهم من قال ما صلبوا وليس في القرآن ما يدل عليه وان سلمنا ذلك ولكنه تعالى قال فلا يصلون اليكما فالمنصوص انهم لا يقدرون على ايصال الضرر اليهما وايصال الضرر الى غيرهما لا يقدح فيه ثم قال أنتما ومن اتبعكما الغالبون والمراد اما الغلبة بالحجة والبرهان في الحال أو الغلبة في الدولة والمملكة في ثاني الحال والاول أقرب الى اللفظ أما قوله فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات فقد بينا في سورة طه أنه كيف أطلق لفظ الآيات وهو جمع على العصا واليد أما قوله قالوا ما هذا الا سحر مفترى فقد اختلفوا في مفترى فقال بعضهم المراد انه اذا كان سحرا وفاعله يوهم خلافه فهو المفترى وقال الجبائي المراد انه منسوب الى الله تعالى وهو من قبله فكانهم قالوا هو كذب من هذا الوجه ثم ضموا اليه ما يدل على جهلهم وهو قولهم وما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين أي ما حدثنا بكونه فيهم ولا يخلو من أن يكونوا كاذبين في ذلك وقد سمعوا مثله أو يريدوا انهم لم يسمعوا بمثله في فظاعته أو ما كان الكهان يخبرون بظهور موسى عليه السلام ومجيئه بما جاء به واعلم ان هذه الشبهة ساقطة لان حاصلها يرجع الى التقليد ولان حال الاولين لا يخلو من وجهين اما أن لا يورد عليهم بمثل هذه الحجة فحينئذ الفرق ظاهر أو أورد عليهم فدفعوه فحينئذ لا يجوز جعل جهلهم وخطئهم حجة فعند ذلك قال موسى عليه السلام وقد عرف منهم العناد ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار فان من أظهر الحجة ولم يجد من الخصم اعتراضا عليها وانما وجد منه العناد صح أن يقول ربي أعلم بمن معه الهدى والحجة متتابعا ومن هو على الباطل ويضم اليه طريقة الوعيد والتخويف وهو قوله ومن تكون له عاقبة الدار من نوالي على تمسكه بالحق أو من عقاب وعاقبة الدار هي العاقبة المحمودة والدليل عليه قوله تعالى أولئك لهم عقبى الدار جنات عدن وقوله وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار والمراد بالدار الدنيا وعاقبتها وحقيقتها أن يختم للعبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى عند الموت فان قيل العاقبة المحمودة والمذمومة كلتاهما يصح أن تسمى عاقبة الدار لان الدنيا قد تكون خاتمتها بخير في حق البعض وبشر في حق البعض الآخر فلم اختصت خاتمتها بالخير بهذه التسمية دون خاتمتها بالشر قلنا انه قد وضع الله سبحانه الدنيا مجازا الى الآخرة وأمر عباده أن لا يعملوا فيها الا الخير ليبلغوا خاتمة الخير وعاقبة الصدق فمن عمل فيها خلاف ما وضعها الله له فقد حرف

حصل اى على أى وجه حدث تدميرنا اياهم واما خبر لمبتدا محذوف والجملة مبنية لما فى عاقبة مكرهم من الابهام أى هى تدميرنا اياهم (وقومهم) الذين لم يكونوا معهم فى مباشرة التبيت (أجمعين) بحيث لم يشذ منهم شاذ واما تعليل لما ينبئ عنه الامر بالنظر فى كيفية عاقبه مكرهم من غاية ﴿ ٦٠٨ ﴾ الهول والفظاعة بحذف الجار

فاذن عاقبتها الاصلية هى عاقبة الخير، أما عاقبه السوء فلا عتدادها لانها من نتائج تحريف الفجار ثم انه عليه السلام أكد ذلك بقوله انه لايفلح الظالمون والمراد انهم لايظفرون بالفوز والنجاة والمنافع بل يحصلون على ضد ذلك، هذا نهاية فى زجرهم عن العناد الذى ظهر منهم ﴿ قوله تعالى (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى فاوقدلى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى وانى لاظنه من الكاذبين واستكبر هو وجنوده فى الارض بغير الحق وظنوا أنهم الينا لايرجعون فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين وجعلناهم أئمة يدعون الى النار ويوم القيامة لاينصرون وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الاولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون) اعلم ان فرعون كانت عادته فى ظهور حجة موسى ان يتعلق فى دفع تلك الحجة بشبهة يروجها على أغمار قومه وذكرهنا شبهتين (الاولى) قوله ما علمت لكم من اله غيرى وهذا فى الحقيقة يشتمل على كلامين (أحدهما) نفى الغير (والثانى) اثبات الهية نفسه فاما الاول فقد كان اعتماده على أن ما لادليل عليه لم يجز اثباته أما انه لادليل عليه فلان هذه الكواكب والافلاك كانية فى اختلاف أحوال هذا العالم السفلى فلا حاجة الى اثبات صانع وأما أن ما لادليل عليه لم يجز اثباته فالامر فيه ظاهر واعلم ان المقدمة الاولى كاذبة فانا لانسلم انه لادليل على وجود الصانع وذلك لانا اذا عرفنا بالدليل حدوث الاجسام عرفنا حدوث الافلاك والكواكب وعرفنا بالضرورة ان المحدث لابد له من محدث فحينئذ نعرف بالدليل ان هذا العالم له صانع والعجب ان جماعة اعتمدوا نفى كثير من الاشياء على أن قالوا لادليل عليه فوجب نفيه قالوا وانما قلنا انه لادليل عليه لانا بحثنا وسبرنا فلم نجد عليه دليلا فرجع حاصل كلامهم بعد التحقيق الى أن كل ما لايعرف عليه دليل وجب نفيه وان فرعون لم يقطع بالنفى بل قال لادليل عليه فلا أثبته بل أظنه كاذبا فى دعواه ففرعون على نهاية جهله أحسن حالا من هذا المستدل أما الثانى وهو اثباته الهية نفسه فاعلم انه ليس المراد منه انه كان يدعى كونه خالقا للسموات والارض والبحار والجبال وخالقا لذوات الناس وصفاتهم فان العلم بامتناع ذلك من أوائل العقول فالشك فيه يقتضى زوال العقل بل الاله هو المعبود فالرجل كان ينفى الصانع ويقول لاتكليف على الناس الآن يطيعوا ملكهم وينقادوا لامره فهذا هو المراد من ادعائه الالهية لاماظنه الجمهور من ادعائه كونه خالقا للسماء والارض لاسيما وقد دللنا فى سورة طه فى تفسير قوله فمن ربكما يا موسى على أنه كان عارفا بالله تعالى وانه كان يقول ذلك ترويجا على الاغمار من الناس (الشبهة الثانية) قوله فاوقدلى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى أطلع الى اله موسى وانى لاظنه من الكاذبين وههنا ابحاث (الاول) تعلقت المشبهة بهذه الآية فى أن الله تعالى فى السماء

أى لانا دمرناهم الخ وقيل كان ناوصة اسمها عاقبة مكرهم خبرها كيف كان حالا لوجه حينئذ أن يكون قوله تعالى انا دمرناهم الخ تعليلا لما ذكر وقرئ انا دمرناهم الخ بالكسر على الاستئناف رومى أنه كان لصالح عليه السلام مسجد فى الحجر فى شعب يصلى فيه فقالوا زعم صالح أنه يفرغ منا الى ثلث فنحن نفرغ منه ومن أهله قبل الثلث فخرجوا الى الشعب وقالوا اذا جاء يصلى قتلناه ثم رجعنا الى أهله فقتلناهم فبعث الله تعالى صخرة من الهضب حيالهم فبادروا فطبقت الصخرة عليهم فى الشعب فلم يدر قومهم أين هم ولم يدروا ما فعل بقومهم وعذب الله تعالى كلا منهم فى مكانه ونجى صالحا ومن معه وقيل جاؤا بالليل شاهرى سيوفهم وقد أرسل الله تعالى الملائكة ملء دار صالح فدمغوهم بالحجارة يرون الحجارة ولايرون راميا (فتلك بيوتهم) جملة مقررة لما قبلها وقوله تعالى (خاوية) أى خالية أو ساقطة منهدمة ﴿ قالوا ﴾ (بما ظلموا) أى بسبب ظلمهم المذكور حال من بيوتهم .

والعامل معنى الاشارة وقرئ خاوية بالرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف (ان فى ذلك) أى فيما ذكر من التدمير العجيب بظلمهم (لآية) لعبرة عظيمة (لقوم يعلمون) أى ما من شأنه ان يعلم من الاشياء او لقوم يتصفون بالعلم (وأنجينا الذين آمنوا) صالحا ومن معه من المؤمنين (وكانوا يتقون) أى الكفر والمعاصى اتقاء مستمرا فلذلك خصوا بالنجاة (ولوطا)

قالوا لولا أن موسى عليه السلام دعاه الى ذلك لما قال فرعون هذا القول والجواب ان موسى عليه السلام دل فرعون بقوله رب السموات والارض ولم يقل هو الذى فى السماء دون الارض فأوهم فرعون انه يقول ان الهه فى السماء وذلك أيضا من خبث فرعون ومكره ودهائه (الثانى) اختلفوا فى ان فرعون هل بنى هذا الصرح فقال قوم انه بناه قالوا انه لما أمر ببناء الصرح جمع هامان العمال حتى اجتمع خمسون الف بناء سوى الاتباع والاجراء وامر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير فشيدوه حتى بلغ مالم يبلغه بنيان احد من الخلق فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع قطعة وقعت على عسكر فرعون فقتلت ألف الف رجل وقطعة وقعت فى البحر وقطعة فى المغرب ولم يبق أحد من عماله الا وقد هلك ويروى فى هذه القصة ان فرعون ارتقى فوقه ورمى بنشابة نحو السماء فعاد اليه ملطخا بالدم فردت اليهم وهى ملطوخة بالدم فقال قد قتلت اله موسى فعند ذلك بعث الله تعالى جبريل عليه السلام لهدمه ومن الناس من قال انه لم يبن ذلك الصرح لانه يبعد من العقلاء أن يظنوا انهم بصعود الصرح يقربون من السماء مع علمهم بأن مرمى أعلى الجبال المشاهقة يرى السماء كما كان يراها حين كان على قرار الارض ومن شك فى ذلك خرج عن حد العقل وهكذا القول فيما يقال من رمى السهم الى السماء ورجوعه متلطخا بالدم فان كل من كان كامل العقل يعلم انه لا يمكنه ايصال السهم الى السماء وان من حاول ذلك كان من المجانين فلا يليق بالعقل والدين حمل القصة التى حكاها الله تعالى فى القرآن على محمل يعرف فساده بضرورة العقل فيصير ذلك مشرعا وبابا لمن أحب الطعن فى القرآن فالاقرب انه كان اوهم البناء ولم يبن او كان هذا من تمة قوله ما علمت لكم من اله غيرى يعنى لا سبيل الى اثباته بالدليل فان حركات الكواكب كافية فى تغير هذا العالم ولا سبيل الى اثباته بالحس فان الاحساس به لا يمكن الا بعد صعود السماء وذلك مما لا سبيل اليه ثم قال عند ذلك لهامان ابن لى صرحا ابلغ به اسباب السموات وانما قال ذلك على سبيل التهكم فبمجموع هذه الاشياء قرر انه لا دليل على الصانع ثم انه رتب النتيجة عليه فقال وانى لاظنه من الكاذبين فهذا التأويل اولى مما عداه (الثالث) انما قال اوقد لى يا هامان على الطين ولم يقل اطبخ لى الآجر واتخذه لانه أول من عمل الآجر فهو بعلمه الصنعة ولان هذه العبارة اليق بفصاحة القرآن وأشبه بكلام الجبابرة وامر هامان وهو وزيره بالايقاد على الطين منادى باسمه يأتى وسط الكلام دليل التعظيم والتجبر والطلوع والاطلاع الصعود يقال طلع الجبل واطلع بمعنى واحد اما قوله واستكبر هو وجنوده فى الارض بغير الحق فاعلم ان الاستكبار بالحق انما هو لله تعالى وهو المتكبر فى الحقيقة أى المبالغ فى كبرياء الشان قال عليه السلام فيما حكى عن ربه الكبرياء ردائى والعظمة ازارى فمن نازعنى واحدا منهما القيته فى النار وكل مستكبر سواه فاستكباره

منصوب بمضمر معطوف على أرسلنا فى صدر قصة صالح داخل معه فى حيز القسم أى وارسلنا لوطا وقوله تعالى (اذ قال لقومه) ظرف للارسال على أن المراد به أمر ممتد وقع فيه الارسال وما جرى بينه وبين قومه من الاقوال والاحوال وقيل انتصاب لوطا باضمار اذكر واذ بدل منه وقيل بالعطف على الذين آمنوا أى وأنجينا لوطا وهو بعيد (أتأتون الفاحشة) أى الفعلة المتناهية فى القبح والسماجة وقوله تعالى (وأنتم تبصرون) جملة حالية من فاعل تأتون مفيدة لتأكيد الانكار وتشديد التوبيخ فان تعاطى القبيح من العالم بقبحه أقبح وأشنع وتبصرون من بصر القلب اى أتفعلونها والحال انكم تعلمون علما يقينيا بكونها كذلك وقيل يبصر بعضكم من بعض لما كانوا يعلنون بها (أئنكم لتأتون الرجال شهوة) تثنية الانكار وتكرير للتوبيخ وبيان لما يأتونه من الفاحشة بطريق التصريح وتحلية الجملة بحرفى التأكيد الايذان بان مضمونها مما لا يصدق وقوعه احد لكمال

بعده من العقل وايراد المفعول بعنوان الرجولية لتربية التقبيح وتحقيق المباينة بينها وبين الشهوة التي هلل بها الاتيان (من دون النساء) متجاوزين النساء اللاتي من محل الشهوة (بل أنتم قوم تجهلون) تفعلون فعل الجاهلين بقبحه او تجهلون العاقبة أو الجهل بمعنى السفاهة والمجون أي بل ﴿ ٦١٠ ﴾ أنتم قوم سفهاء ماجنون والتاء فيه مع كونه صفة لقوم لكونهم في حيز الخطاب (فما كان جواب قومه الا أن قالوا اخرجوا آل لوط من قريتكم انهم أناس يتطهرون) يتنزهون عن افعالنا وعن الاقذار ويعدون فعلنا قذرا وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما انه استهزاء وقدم في سورة الذي الاعراف ان هذا الجواب هو صدر عنهم في المرة الاخيرة من مرات مواعظ لوط عليه السلام بالامر والنهي لانه لم يصدر عنهم كلزم اخر غيره (وأنجيناه واهله الا امرأته قدرناها) أي قدرنا أنها (من الغابرين) أي الباقين في العذاب (وأمطرنا عليهم مطرا) غير معهود (فساء مطر المنذرين) قدم بيان كيفية ما جرى عليهم من العذاب غير مرة (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) اثر ما قص الله تعالى على رسوله عليه الصلاة والسلام قصص الانبياء المذكورين عليهم الصلاة والسلام وأخبارهم الناطقة بكمال قدرته تعالى وعظم شأنه وبما خصهم به من الآيات القاهرة ﴿ كل ﴾ والمعجزات الباهرة الدالة على جلالة أقدارهم وصحة أخبارهم وبين على ألسنتهم حقيقة الاسلام والتوحيد وبطلان

بغير الحق (المسئلة الثانية) قال الجبائي الآية تدل على انه تعالى ما أعطاه الملك والاكثار ذلك بحق ومكنا كل متغلب لا كما ادعى ملوك بني امية عند تغلبهم ان ملكهم من الله تعالى فان الله تعالى قد بين في كل غاصب لحكم الله انه أخذ ذلك بغير حق واعلم ان هذا ضعيف لان وصول ذلك الملك اليه اما ان يكون منه او من الله تعالى أو لا منه ولا من الله تعالى فان كان منه فلم لم يقدر عليه غيره فربما كان العاجز أقوى واعقل بكثير من المتولي الامر وان كان من الله تعالى فقد صح الغرض وان كان من سائر الناس فلم اجتمعت دواعي الناس على نصرة أحدهما وخذلان الآخر واعلم ان هذا اظهر من ان يرتاب فيه العاقل أما قوله وظنوا أنهم الينا لا يرجعون فهذا يدل على أنهم كانوا عارفين بالله تعالى الا انهم كانوا ينكرون البعث فلاجل ذلك تمردوا وطغوا اما قوله فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم من الكلام المفخم الذي دل به على عظم شأنه وكبرياء سلطانه شبههم استحقارا لهم واستقلالا لعددهم وان كانوا الكثير الكثير والجم الغفير بحصيات اخذهن آخذ في كفه فصرحهن في البحر ونحو ذلك قوله والقينا فيها رواسي شامخات وحملت الارض والجبال فدكتا دكة واحدة وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى وليس الغرض منه الا تصوير ان كل مقدور وان عظم فهو حقير بالاضافة الى قدرته ما قوله وجعلناهم أئمة يدعون الى النار فقد تمسك به الاصحاب في كونه تعالى خالقا للكفر والشر قال الجبائي المراد بقوله وجعلناهم أي بينا ذلك من حالهم وعينا هم به ومنه قوله وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا وتقول أهل اللغة في تفسير فسقه و بخله جعله فاسقا و بخيلا لانه خذلهم أئمة لانهم حال خلقته لهم كانوا اطفالا (قال الكعبي) انما قال وجعلناهم أئمة من حيث خلى بينهم و بين ما فعلوه ولم يعاجل بامانته ومن حيث كفروا وابتغوهم بالقسر وذلك كقوله زادتهم رجسا الى رجسهم وانما صيرهم الله تعالى أئمة في هذا الباب لانهم بلغوا في هذا الباب أقصى النهايات ومن كان كذلك استحق أن يكون اماما يقتدى به في ذلك الباب ثم بين تعالى ان ذلك العقاب سينزل بهم على وجه لا يمكن التخلص منه وهو معنى قوله و يوم القيامة لا ينصرون او يكون معناه و يوم القيامة لا ينصرون كما ينصر الائمة الدعاة الى الجنة اما قوله واتبعوا في هذه الدنيا لعنة معناه لعنة الله والملائكة لهم وامره تعالى بذلك فيها للمؤمنين و بين انهم يوم القيامة من المقبوحين اى المبعدين الملعونين والقبح هو الابعاد قال الليث يقال قبحه الله اى نحاه عن

الكفر والاشراك وأن من اقتدى بهم فقد اهتدى ومن أعرض عنهم فقد تردى في مهاوي الردى وشرح صدره عليه الصلاة والسلام بما في تضاعيف تلك القصص من فنون المعارف الربانية ونور قلبه بانوار الملكات السبحانية الفائضة من عالم القدس وقرر بذلك فحوى ما نطق به قوله عز وجل ﴿ ٦١١ ﴾ وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم أمره عليه الصلاة والسلام بان يحمده تعالى على ما أفاض عليه من تلك النعم التي لا مطمع وراءها لطامع ولا مطمح من دونها لطامح ويسلم على كافة الانبياء الذين من جملتهم الذين قصت عليه أخبارهم التي هي من جملة المعارف التي أوحيت اليه عليه الصلاة والسلام أداء لحق تقدمهم واجتهادهم في الدين وقيل هو أمر للوط عليه السلام بان يحمده تعالى على اهلاك كفرة قومه ويسلم على من اصطفاه بالعصمة عن الفواحش والنجاة عن الهلاك ولا يخفى بعده (آلله خير أم ما يشركون) اى آلله الذي ذكرت شؤنه العظيمة خير أم ما يشركونه به تعالى من الاصنام ومرجع الترديد الى التعريض بتبكيت الكفرة من جهته تعالى وتسفيه آرائهم الركيكة والتهكم بهم اذ من البين ان ليس فيما اشركوه به تعالى شائبة خير ما حتى يمكن أن يوازن بينه وبين من لا خير الا منه ولا خير في غيره وقرئ تشركون بالتاء الفوقانية بطريق تلوين الخطاب وتوجيهه الى الكفرة وهو الاليق بما بعده من سياق النظم الكريم المبني على خطابهم وجملة من جملة القول المأمور به باباه

كل خير وقال ابن عباس رضي الله عنهما من المشوهين بسواد الوجه وزرقة العين وعلى الجملة فالاولون حملوا القبح على القبح الروحاني وهو الطرد والابعاد من رحمة الله تعالى والباقون حملوه على القبح في الصور وقيل فيه انه تعالى يقبح صورهم ويقبح عليهم عملهم ويجمع بين الفضيحتين ثم بين تعالى ان الذي يجب التمسك به ما جاء به موسى عليه السلام فقال ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما اهلكنا القرون الاولى والكتاب هو التوراة ووصفه تعالى بأنه بصائر للناس من حيث يستبصر به في باب الدين وهدى من حيث يستدل به ومن حيث ان المتمسك به يفوز بطائفة من الثواب ووصفه بانه رحمة لانه من نعم الله تعالى على من تعبد به وروى ابو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما اهلك الله تعالى قرنا من القرون بعذاب من السماء ولا من الارض منذ انزل التوراة غير اهل القرية التي مسخها قردة اما قوله لعلهم يتذكرون فالمراد لكي يتذكروا قال القاضي وذلك يدل على ارادة التذكر من كل مكلف سواء اختار ذلك او لم يختره ففيه ابطال مذهب المجبرة الذين يقولون ما أراد التذكر الا ممن يتذكر فاما من لا يتذكر فقد ذكره ذلك منه ونص القرآن دافع لهذا القول قد اليس اركم حملتم قوله تعالى وقد ذرأنا لجهنم على المعاقبة فلم لا يجوز حمله ههنا على المعاقبة فان عاقبه بكل حصول هذا التذكر له وذلك في الآخرة * قوله تعالى (وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين) اعلم ان في الآية سؤالات (السؤال الاول) الجانب موصوف والغربي صفة فكيف اضاف الموصوف الى الصفة الجواب هذه مسئلة خلافية بين النحويين فعند البصريين لا يجوز اضافة الموصوف الى الصفة الا بشرط خاص سنذكره وعند الكوفيين يجوز ذلك مطلقا حجة البصريين ان اضافة الموصوف الى الصفة تقتضي اضافة الشيء الى نفسه وهذا غير جائز فذاك أيضا غير جائز بيان الملازمة انك اذا قلت جاءني زيد الظريف ولفظ الظريف يدل على شيء معين في نفسه مجهول بحسب هذا اللفظ حصلت له الظرافة فاذا نصصت على زيد عرفنا ان ذلك الشيء الذي حصلت له الظرافة هو زيد اذا ثبت هذا فلو أضفت زيدا الى الظريف كنت قد أضفت زيدا الى زيد واضافة الشيء الى نفسه غير جائزة فاضافة الموصوف الى صفته وجب أن لا تجوز الا انه جاء على خلاف هذه القاعدة ألفاظ وهي قوله تعالى في هذا الآية وما كنت بجانب الغربي وقوله وذلك دين القيمة وقوله حق اليقين ولدار الآخرة ويقال صلاة الاولى ومسجد الجامع وبقلة الحمقاء فقالوا التأويل فيه جانب المكان الغربي ودين الملة القيمة وحق الشيء اليقين ودار الساعة الآخرة وصلاة الساعة الاولى ومسجد

قوله تعالى فأنبتنا الخ فانه صريح فى أن التبكيت من قبله عز وجل بالذات وحمله على انه حكاية منه عليه الصلاة والسلام لما أمر به بعبارته كما فى قوله تعالى قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم تعسف ظاهر من غير داع اليه وأم فى قوله تعالى (أم من خلق السموات والارض) منقطعة ومافيها ﴿ ٦١٢ ﴾ من كلمة بل على القراءة الاولى للاضراب والانتقال من التبكيت تعريضا الى التصريح به خطابا على وجه أظهر منه لمزيد التأكيد والتشديد واما على القراءة الثانية فللتنبيه التبكيت وتكرير الالزام كنظائرها الآتية والهمزة لتقريرهم اى حملهم على الاقرار بالحق على وجه الاضطرار فانه لايتمالك احد ممن له ادنى تمييز ولايقدر على ان لايعترف بخيرية من خلق جميع المخلوقات وافاض على كل منها مايليق به من منافعه من اخس تلك المخلوقات وأدناها بل بأن لاخيرية فيه بوجه من الوجوه قطعا ومن مبتدأ خبره محذوف مع ام المعادلة للهمزة تعويلا على ماسبق فى الاستفهام الاول خلا ان تشركون ههنا بتاء الخطاب على القرائتين معا وهكذا فى المواضع الاربعة الآتية والمعنى بل امن خلق فطرى العالم الجسمانى ومبدأ

المكان الجامع و بقلة الحية الحمقاء ثم قالوا فى هذه المواضع المضاف اليه ليس هو النعت بل المنعوت الا انه حذف المنعوت واقيم النعت مقامه فههنا ينظر ان كان ذلك النعت كالمتعين لذلك المنعوت حسن ذلك والافلا الا ترى انه ليس لك أن تقول عندى جيد على معنى عندى درهم جيد و يجوز مررت بالفقيه على معنى مررت بالرجل الفقيه لان الفقيه يعلم انه لايكون الامن الناس والجيد قد يكون درهما وقد يكون غيره واذا كان كذلك حسن قوله جانب الغربى لان الشئ الموصوف بالغربى الذى يضاف اليه الجانب لايكون الامكانا أومايشبهه فلاجرم حسنت هذه الاضافة وكذا القول فى البواقى والله أعلم (السؤال الثانى) مامعنى قوله اذ قضينا الى موسى الامر (الجواب) الجانب الغربى هو المكان الواقع فى شق الغرب وهو المكان الذى وقع فيه ميقات موسى عليه السلام من الطور وكتب الله له فى الالواح والامر المقضى الى موسى عليه السلام الوحى الذى أوحى اليه والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم يقول وماكنت حاضرا المكان الذى أوحينا فيه الى موسى عليه السلام ولاكنت من جملة الشاهدين للوحى اليه أوعلى الموحى اليه وهى لان الشاهد لابد وان يكون حاضرا وهم نقباؤه الذين اختارهم للميقات (السؤال الثالث) لما قال وماكنت بجانب الغربى ثبت انه لم يكن شاهدا لان الشاهد لابد أن يكون حاضرا فما الفائدة فى اعادة قوله وماكنت من الشاهدين (الجواب) قال ابن عباس رضى الله عنهما التقدير لم تحضر ذلك الموضع ولو حضرت فما شاهدت تلك الوقائع لانه يجوز أن يكون هناك ولايشهد ولا يرى (السؤال الرابع) كيف يتصل قوله ولكنا انشأنا قرونا بهذا الكلام ومن اى وجه يكون استدراكا له الجواب معنى الآية ولكنا انشأنا بعد عهد موسى عليه السلام الى عهدك قرونا كثيرة فطال عليهم العمر وهو القرن الذى أنت فيه فتدارست العلوم فوجب ارسالنا اليهم فارسلناك وعرفناك احوال الانبياء واحوال موسى فالحاصل كأنه قال وماكنت شاهدا لموسى وماجرى عليه ولكنا اوحيناه اليك فذكر سبب الوحى الذى هو اطالة الفترة ودل به على المسبب فاذن هذا الاستدراك شبيه الاستدراكين بعده واعلم أن هذا تنبيه على المعجز كأنه قال ان فى اخبارك عن هذه الاشياء من غير حضور ولامشاهدة ولا تعلم من أهله دلالة ظاهرة على نبوتك كما قال أولم تأتهم بينة مافى الصحف الاولى اما قوله وماكنت ثاويا فى أهل مدين فالمعنى ماكنت مقيما فيه واما قوله تتلوا عليهم آياتنا ففيه وجهان (الاول) قال مقاتل يقول لم تشهد اهل مدين فتقرأ على اهل مكة خبرهم ولكنا كنا مرسلين أى ارسلناك الى اهل مكة وأنزلنا عليك هذه الاخبار ولولا ذلك لما علمتها (الثانى) قال الضحاك يقول انك يامحمد لم تكن الرسول الى اهل مدين تتلوا عليهم الكتاب وانما كان غيرك ولكنا كنا مرسلين فى كل زمان رسولا فأرسلنا الى اهل مدين شعيبا وارسلناك الى العرب لتكون خاتم الانبياء أما قوله وماكنت بجانب الطور اذ نادينا يريد مناداة موسى ليلة المناجاة وتكليمه ولكن

منافع مابينهما (وانزل لكم) التفات الى خطاب الكفرة على القراءة الاولى لتشديد التبكيت ﴿ رحمة ﴾ والالزام اى انزل لاجلكم ومنفعتكم (من السماء ماء) اى نوعا منه هو المطر (فأنبتنا به حدائق) اى بساتين محدقة ومحاطة بالحوائط (ذات بهجة) اى ذات حسن ورونق يبتهج به

النظار (ماكان لكم) أي ماصح وما أمكن لكم (أن تنبتوا شجرها) فضلا عن ثمرها وسائر صفاتها البديعة خير أم ماتشركون وقرئ أمن بالتخفيف على أنه بدل من الله وتقديم صلتي الانزال على مفعوله لما مر مرارا من التشويق الى المؤخر والالتفات الى التكلم في قوله تعالى فانبتنا التأكيد ﴿ اختصاص الفعل بذاته تعالى والايذان بان انبات تلك الحدائق المختلفة الاصناف والاوصاف والالوان والطعوم والروائح والاشكال مع مالها من الحسن البارع والبهاء الرائع بماء واحد مما لايكاد يقدر عليه الاهو وحده حسبما ينبئ عنه تقييدها بقوله تعالى ماكان لكم الخ سواء كانت صفة لها أو حالا وتوحيد وصفها الاول أعني ذات بهجة لما أن المعنى جماعة حدائق ذات بهجة على نهج قولهم النساء ذهبت وكذا الحال في ضمير شجرها (أإله مع الله) أي أإله آخر كائن مع الله الذي ذكر بعض أفعاله التي لايكاد يقدر عليها غيره حتى يتوهم جعله شريكا له تعالى في العبادة وهذا تبكيت لهم بنفي الالوهية عما يشركونه به تعالى في ضمن النفي الكلي على الطريقة البرهانية بعد تبكيتهم بنفي الخيرية عنه بما ذكر من الترديد فان أحدا ممن له تمييز في الجملة كما لا يقدر على انكار انتفاء الخيرية عنه بالمرة لايكاد يقدر على انكار انتفاء الالوهية عنه رأسا لاسيما بعد ملاحظة انتفاء أحكامها عما سواه تعالى وهكذا الحال في المواقع الاربعة الآتية وقيل المراد نفي أن يكون معه تعالى اله آخر فيما ذكر من الخلق وما عطف

رحمة من ربك اى علمناك رحمة وقرأ عيسى بن عمر بالرفع اى هى رحمة وذكر المفسرون في قوله اذ نادينا وجوها اخر (احدها) اذ نادينا أي قلنا لموسى ورحمتي وسعت كل شئ الى قوله أولئك هم المفلحون (وثانيها) قال ابن عباس اذ نادينا امتك في اصلاب ابائهم يا امة محمد اجبتكم قبل ان تدعوني واعطيتكم قبل ان تسألوني وغفرت لكم قبل ان تستغفروني قال وانما قال الله تعالى ذلك حين اختار موسى عليه السلام سبعين رجلا لميقات ربه (وثالثها) قال وهب لما ذكر الله لموسى فضل امة محمد صلى الله عليه وسلم قال رب ارينيهم قال انك لن تدركهم وان شئت اسمعتك اصواتهم قال بلى يارب فقال سبحانه يا امة محمد فأجابوه من اصلاب آبائهم فاسمعه الله تعالى اصواتهم ثم قال اجبتكم قبل ان تدعوني الحديث كما ذكره ابن عباس (ورابعها) روى سهل بن سعد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله وما كنت بجانب الطور اذ نادينا قال كتب الله كتابا قبل ان يخلق الخلق بالفي عام ثم وضعه على العرش ثم نادى يا امة محمد ان رحمتي سبقت غضبي اعطيتكم قبل ان تسألوني وغفرت لكم قبل أن تستغفروني من لقيني منكم يشهد أن لا اله الا الله وان محمدا عبده ورسوله ادخلته الجنة اما قوله لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك فالانذار هو التخويف بالعقاب على المعصية (واعلم) انه تعالى لما بين قصة موسى عليه السلام قال لرسوله وما كنت بجانب الغربي وما كنت ثاويا في أهل مدين وما كنت بجانب الطور فجمع تعالى بين كل ذلك لان هذه الثلاثة هي الاحوال العظيمة التي اتفقت لموسى عليه السلام اذ المراد بقوله اذ قضينا الى موسى الامر انزال التوراة عليه بكمال دينه والشرع والمراد بقوله وما كنت ثاويا اول امره والمراد اذ نادينا ه وسط امره وهو ليلة المناجاة ولما بين تعالى انه عليه السلام لم يكن في هذه الاحوال حاضرا بين تعالى انه بعثه وعرفه هذه الاحوال رحمة للعالمين ثم فسر تلك الرحمة بأن قال لتنذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك واختلفوا فيه فقال بعضهم لم يبعث اليهم نذير منهم (وقال بعضهم) بعثة الانبياء كانت قائمة عليهم ولكنه ما بعث اليهم من يجدد تلك الحجة عليهم وقال بعضهم لايبعد وقوع الفترة في التكاليف فبعثه الله تعالى تقريرا للتكاليف وازالة لتلك الفترة اما قوله ولولا أن تصيبهم مصيبة الآية فقال صاحب الكشاف لولا الاولى امتناعية وجوابها محذوف والثانية تحضيضية والفاء في قوله فيقولوا للعطف وفي قوله فنتبع جواب لولا لكونها في حكم الامر من قبل ان الامر باعث على الفعل والباعث والمحضض من واد واحد والمعنى ولولا انهم قائلون اذا عوقبوا بما قدموا من الشرك والمعاصي هلا ارسلت الينا رسولا محتجين علينا بذلك لما ارسلنا اليهم يعني انما ارسلنا الرسول ازالة لهذا العذر وهو كقوله لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ان تقولوا ماجاءنا من بشير ولا نذير ولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك واعلم انه تعالى لم يقل ولولا أن يقولوا هذا العذر لما ارسلنا بل قال ولولا أن تصيبهم مصيبة فيقولوا هذا العذر لما ارسلنا وانما قال ذلك لنكتة وهي انهم لو لم

عليه لكن لا على أن التبكيت بنفس ذلك النفي فقط كيف لا وهم لا ينكرونه حسبما ينطق به قوله تعالى ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله بل على أن إشراكهم به تعالى في العبادة مما يعترفون بعدم مشاركته له تعالى فيما ذكر من لوازم الألوهية كأنه قيل ألهة آخر مع الله في خواص الألوهية حتى يجعل ﴿ ٦١٤ ﴾ شريكا له تعالى في العبادة وقيل المعنى أغبره يقرن به ويجعل له شريكا في العبادة مع تفرده تعالى بالخلق والتكوين فالانكار للتوبيخ والتبكيت مع تحقق المنكر دون النفي كما في الوجهين السابقين والأول هو الأظهر الموافق لقوله ومن كان معه من إله والأولى بحمل التمام لإفادته نفي وجود إله آخر معه تعالى رأسا دون نفي معيته في الخلق وفروعه فقط وقرئ آلهة بتوسيط مدة بين الهمزتين وبإخراج الثانية بين بين وقرئ ألهتا بإضمار فعل يناسب المقام مثل أتدعون أو أتشركون (بل هم قوم يعدلون) إضراب وانتقال من تبكيتهم بطريق الخطاب إلى بيان سوء حالهم وحكايته لغيرهم أي بل هم قوم عادتهم العدول عن طريق الحق بالكلية والانحراف عن الاستقامة في كل أمر من الأمور فلذلك يفعلون ما يفعلون من العدول عن الحق الواضح الذي هو التوحيد والعكوف على الباطل المبين الذي هو الاشراك وقيل يعدلون به تعالى غيره وهو بعيد ﴿ أوتي ﴾ مثال عن الافادة (أم من جعل الأرض قرارا) قيل هو بدل من أم من خلق السموات الخ وقد مر بعيد من الجمل الثلاث

يعاقبوا مثلا وقد عرفوا بطلان دينهم لما فاتوا ذلك بل انما يقولون ذلك اذا نالهم العقاب فيدل ذلك على انهم لم يذكروا هذا العذر تأسفا على كفرهم بل لانهم ما اطاقوا العذاب وفيه تنبيه على استحكام كفرهم ورسوخه فيهم كقوله ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) احتج الجبائي على وجوب فعل اللطف قال لو لم يجب ذلك لم يكن لهم أن يقولوا هلا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك اذ من الجائز أن لا يبعث اليهم وان كانوا لا يختارون الايمان الا عند قول من خالف في وجوب اللطف كما من أن الجائز ذا كان في المعلوم أن خلق له لم يكن الأولى أن يفعل ذلك (المسئلة الثانية) احتج الكعبي به على ان الله تعالى يقبل حجة العباد وليس الأمر كما يقوله أهل السنة من انه تعالى لا يقبل الحجة وظهر بهذا انه ليس المراد من قوله لا يسأل عما يفعل ما يظنه اهل السنة واذا ثبت انه يقبل الحجة وجب أن لا يكون فعل العبد بخلق الله تعالى والا كان لكافر عظم حجة على الله تعالى (المسئلة الثالثة) قال القاضي في ابطال القول بالجبر من جهات (احداها) ان اتباعهم وايمانهم موقوف على ان يخلق الله ذلك فيهم سواء ارسل الرسول اليهم أم لا (وثانيتها) انه اذا خلق القدرة على ذلك فيهم وجب سواء ارسل الرسول أم لا (وثالثتها) اذا اراد ذلك وجب ارسال الرسول اليهم أم لا فأي فائدة في اقوالهم هذا وكانت معالمهم خلقا لله تعالى فيقال للقاضي هب انك نازعت في الخلق والارادة ولكنك وافقت في العلم فاذا علم الكفر منهم فهل يجب أم لا فان لم يجب أمكن أن لا يوجد الكفر مع حصول العلم بالكفر وذلك جمع بين الضدين وان وجب لزمك ما أوردته علينا واعلم ان الكلام وان كان قويا حسنا الا انه اذا توجه عليه النقض الذي لا محيص عنه فكيف يرضى العاقل بان يعول عليه ✲ قوله تعالى (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا انا بكل كافرون قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ان كنتم صادقين فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدي القوم الظالمين ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون اجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا اعمالنا ولكم اعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين) اعلم انه تعالى لما حكى عنهم أنهم عند الخوف قالوا هلا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك بين ايضا انه بعد الارسال الى أهل مكة قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى فهؤلاء قبل البعثة يتعلقون بشبهة وبعد البعثة يتعلقون باخرى فظهر أنه لا مقصود لهم سوى الزيغ والعناد اما قوله فلما جاءهم الحق من عندنا أي جاءهم الرسول المصدق بالكتاب المعجز مع سائر المعجزات قالوا لولا

وحكم الكل واحد والاظهر أن كل واحدة منها اضراب وانتقال من التبكيت بما قبلها الى التبكيت بوجه آخر ادخل فى الالزام بجهة من الجهات أى جعلها بحيث يستقر عليها الانسان والدواب بابداء بعضها من الماء ودحوها وتسويتها حسبما تدور عليه منافعهم (وجعل خلالها) أوساطها (أنهارا) جارية ينتفعون بها (وجعل لها رواسى) أى جبالا ثوابت تمنعها أن تميد بأهلها و يتكون فيها المعادن و ينبع فى حضيضها الينابيع و يتعلق بها من المصالح مالا يحصى (وجعل بين البحرين) أى العذب والملح أو خليجى فارس والروم (حاجزا) برزخا مانعا من الممازجة وقد مر فى سورة الفرقان والجعل فى المواقع الثلاثة الاخيرة ابداعى وتأخير مفعوله عن الظرف لما مر مرارا من التشويق (أإله مع الله) فى الوجود أوفى ايجاد هذه البدائع على ما مر (بل أكثرهم لا يعلمون) أى شيئا من الاشياء ولذلك لا يفهمون بطلان ما هم عليه من الشرك مع كمال ظهوره (أم من يجيب المضطر اذا دعاه) وهو الذى أحوجته شدة من الشدائد والجأته الى اللجأ والضراعة الى الله عز وجل اسم مفعول من الاضطرار الذى هو افتعال من الضرورة وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هو المجهود وعن السدى

أوتى مثل ما أوتى موسى من الكتاب المنزل جملة واحدة ومن سائر المعجزات كقلب العصا حية واليد البيضاء وفلق البحر وتظليل الغمام وانفجار الحجر بالماء والمن والسلوى ومن ان الله كلمه وكتب له فى الالواح وغيرها من الآيات فجاؤا بالاقتراحات المبنية على التعنت والعناد كما قالوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك وما اشبه ذلك (واعلم) ان الذى اقترحوه غير لازم لانه لا يجب فى معجزات الانبياء عليهم السلام أن تكون واحدة ولا فيما ينزل اليهم من الكتب أن يكون على وجه واحد اذ الصلاح قد يكون فى انزاله مجموعا كالتوراة ومفرقا كالقرآن ثم انه تعالى أجاب عن هذه الشبهة بقوله أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل واختلفوا فى أن الضمير فى قوله أولم يكفروا الى من يعود وذكروا وجوها (احدها) ان اليهود أمروا قريشا أن يسألوا محمدا ان يؤتى مثل ما أوتى موسى عليه السلام فقال تعالى أولم يكفروا بما أوتى موسى يعنى اولم تكفروا باهؤلاء اليهود الذين استخرجوا هذا السؤال بموسى عليه السلام مع تلك الآيات الباهرة (وثانيها) ان الذين اوردوا هذا الاقتراح كفار مكة والذين كفروا بموسى هم الذين كانوا فى زمان موسى عليه السلام الا انه تعالى جعلهم كالشئ الواحد لانهم فى الكفر والتعنت كالشئ الواحد (وثالثها) قال الكلبى ان مشركى مكة بعثوا رهطا الى يهود المدينة ليسألهم عن محمد وشانه فقالوا انا نجد فى التوراة نعته وصفته فلما رجع الرهط اليهم واخبروهم بقول اليهود قالوا انه كان ساحرا كان محمد ساحرا فقال تعالى فى حقهم أولم يكفروا بما أوتى موسى (ورابعها) قال الحسن قد كان العرب أصروا فى ايام موسى عليه السلام فعناه على هذا أولم يكفر آباؤهم بان قالوا فى موسى وهرون ساحران (وخامسها) قال قتادة أولم يكفر اليهود فى عصر محمد بما أوتى موسى من قبل من البشارة بعيسى ومحمد عليهما السلام فقالوا ساحران (وسادسها) وهو الاظهر عندى ان كفار قريش ومكة كانوا منكرين لجميع النبوات ثم انهم لما طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم معجزات موسى عليه السلام قال الله تعالى أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل لما أوتى جميع الانبياء من قبل فعلمنا انه لا غرض لكم من هذا الاقتراح الا التعنت ثم انه تعالى حكى كيفية كفرهم بما أوتى موسى من وجهين (الاول) قولهم ساحران تظاهرا (اى تعاونا وقرئ أظهرا على الادغام وسحران بمعنى ذوى سحر وجعلوهما سحرين مبالغة فى وصفهما بالسحر وكثير من المفسرين فسروا قوله سحران بان المراد هو القرآن والتوراة واختار أبو عبيدة القراءة بالالف لان المظاهرة بالناس وأفعالهم أشبه منها بالكتب وجوابه انا بينا أن قوله سحران يمكن حمله على الرجلين و بتقدير أن يكون المراد الكتابين لكن لما كان كل واحد من الكتابين يقوى الآخر لم يبعد أن يقال على سبيل المجاز تعاونا كما تقول تظاهرت الاخبار وهذه التأويلات انما تصح اذا حملنا قوله

رحمه الله تعالى من لا حول له ولا قوة وقيل المذنب اذا استغفر واللام للجنس لا للاستغراق حتى يلزم اجابة كل مضطر (و يكشف السوء) وهو الذى يعترى الانسان مما يسوءه (و يجعلكم خلفاء الارض) أى خلفاء فيها بان

ورثكم سكناها والتصرف فيها من قبلكم من الامم وقيل المراد بالخلافة الملك والتسلط (أإله مع الله) الذي يفيض على كافة الانام هذه النعم الجسام (قليلا ما تذكرون) أي تذكرا قليلا أو زمانا قليلا تتذكرون وما مزيدة لتأكيد معنى القلة التي اريد بها العدم أو ما يجري مجراه في الحقارة وعدم الجدوى وفي تذييل الكلام ﴿٦١٦﴾ بنفي التذكر عنهم ايذان بان مضمونه

أولم يكفروا بما أوتي موسى اما على كفار مكة أو على الكفار الذين كانوا في زمان موسى عليه السلام ولا شك ان ذلك ايق بسياق الآية (الثاني) قولهم انا بكل كافرون أي بما انزل على محمد وموسى وسائر الانبياء عليهم السلام ومعلوم أن هذا الكلام لا يليق الا بالمشركين لا باليهود وذلك مبالغة في انهم مع كثرة آيات موسى عليه السلام كذبوها فالذي يمنع من مثله في محمد صلى الله عليه وسلم وقد ظهرت حجته ولما أجاب الله تعالى عن شبههم ذكر الحجة الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم فقال قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه وهذا تنبيه على عجزهم عن الاتيان بمثله قال الزجاج ائتوني به بالجزم على الشرط ومن قرأ ائتوني به بالرفع فالتقدير ائتوني به ثم قال فلم يستجيبوا لك قال ابن عباس يريد فان لم يؤمنوا بما جئت به من الحجج وقال مقاتل فان لم يمكنهم أن يأتوا بكتاب افضل منهما وهذا شبيه بالآية قال القاضي الاستجابة تقتضي دعاء وأين الدعاء ههنا فنقول قوله فأتوا بكتاب أمر بالامر دعاء الى الفعل ثم قال فاعلم انما يتبعون أهواءهم يعني قد صاروا ملزمين وابين لهم شيأ الا اتباع الهوى ثم زيف طريقتهم بقوله ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله وهذا من أظهر الدلائل على فساد التقليد وانه لا بد من الحجة والاستدلال ان الله لا يهدي القوم الظالمين وهو عام يتناول الكافر فقوله ان الشرك لظلم عظيم واحتج اصحابنا به في ان هداية الله تعالى مختصة بالمؤمنين (وقالت المعتزلة) الالطاف منها ما يحسن فعلها مطلقا ومنها ما يحسن لا بعد البيان والدليل عليه قوله والذين اهتدوا زادهم هدى فقوله ان الله لا يهدي القوم الظالمين محمول على القسم الثاني ولا يجوز حمله على القسم الاول لانه تعالى لما بين في الآية المتقدمة ان عدم بعثة الرسول جار مجرى العذر لهم فبان يكون عدم الهداية عذرا لهم أولى ولما بين تعالى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بهذه الدلالة قال وقد وصلنا لهم القول وتوصيل القول هو اتيان بيان بعد بيان وهو من وصل البعض بالبعض وهذا القول الموصل يحتمل ان يكون المراد منه انا انزلنا القرآن منجما مفرقا يتصل بعضه ببعض ليكون ذلك اقرب الى التذكير والتنبيه فانهم كل يوم يطلعون على حكمة أخرى وفائدة زائدة فيكونون عند ذلك أقرب الى التذكر وعلى هذا التقدير يكون هذا جوابا عن قولهم هلا أوتي محمد كتابه دفعة واحدة كما أوتي موسى كتابه كذلك ويحتمل أن يكون المراد وصلنا اخبار الانبياء بعضها ببعض واخبار الكفار في كيفية هلاكهم بتكثير المواضع الاتعاظ والازدجار ويحتمل أن يكون المراد بينا الدلالة على كون هذا القرآن معجزا مرة بعد أخرى لعلهم يتذكرون ثم انه تعالى لما اقام الدلالة على النبوة أكد ذلك بأن قال الذين آتيناهم الكتاب من قبله أي من قبل القرآن اسلموا بمحمد فمن لا يعرف الكتب أولى بذلك واختلفوا في المراد بقوله الذين آتيناهم الكتاب وذكروا فيه وجوها (احدها) قال قتادة انها نزلت في اناس من اهل الكتاب كانوا على شريعة حقة يتمسكون بها فلما بعث الله تعالى محمدا آمنوا به من جملتهم سلمان وعبد

مركوز في ذهن كل ذكي وغبي وأنه من الوضوح بحيث لا يتوقف الا على التوجه اليه وتذكره وقرئ تتذكرون على الاصل ويذكرون وتذكرون بالتاء والياء مع الادغام (أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر) أي في ظلمات البر والبحر فهما على أن الاضافة ملابسة أو في مشتبهات الطرق يقال طريق ظلمة وعمياء للتي لا منار بها (ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته) وهي المطر وعن صح أن اسباب الاكثر في تكون الريح معاودة الادخنة الصاعدة من الطبقة الباردة لانكسار حرها وتموجها للهواء فلا ريب في أن الاسباب الفاعلية والقابلية لذلك كله من خلق الله عز وجل والفاعل للسبب فاعل للمسبب قطعا (أإله مع الله) نفي لأن يكون معه اله اخر وقوله تعالى (تعالى عما يشركون) تقرير وتحقيق له واظهار الاسم الجليل في موقع الاضمار للاشعار بعلة الحكم أي تعالى وتنزه بذاته المنفردة بالالوهية المستتبعة لجميع صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال المقتضية ﴿الله﴾ لكون كل المخلوقات مقهورة تحت قدرته مما يشركون أي عن وجود ما يشركونه به تعالى لا مطلقا

فان وجوده مما لا مرد له بل عن وجوده بعنوان كونه الها وشريكا له تعالى أو عن اشراكهم (أمن يبدأ الخلق ثم يعيده) أي بل أمن يبدأ الخلق ثم يعيده بعد الموت بالبعث (ومن يرزقكم من السماء والارض) أي باسباب سماوية وأرضية قدرتها على ترتيب بديع تقتضيه الحكمة التي ﴿ ٦١٧ ﴾ عليها بنى أمر التكوين خير أم ما تشركونه به في العبادة

الله بن سلام (وثانيها) قال مقاتل نزلت في اربعين رجلا من أهل الانجيل وهم أصحاب السفينة جاؤا من الحبشة مع جعفر (وثالثها) قال رفاعة بن قرظة نزلت في عشرة انا احدهم وقد عرفت ان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فكل من حصل في حقه تلك الصفة كان داخلا في الآية ثم حكى عنهم ما يدل على تأكيد ايمانهم وهو قولهم امنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين فقوله انه الحق من ربنا يدل على التعليل يعني أن كونه حقا من عند الله يوجب الايمان به وقوله انا كنا من قبله مسلمين بيان لقوله آمنا به لانه يحتمل أن يكون ايمانا غريب العهد و بعيده فاخبروا أن ايمانهم به متقادم وذلك لما وجدوه في كتب الانبياء عليهم السلام المتقدمين من البشارة بمقدمه ثم انه تعالى لما مدحهم بهذا المدح العظيم قال أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا وذكروا فيه وجوها (أحدها) انهم يؤتون أجرهم مرتين بايمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل بعثته و بعد بعثته وهذا هو الاقرب لانه تعالى لما بين انهم آمنوا به بعد البعثة وبين ايضا انهم كانوا مؤمنين به قبل البعثة ثم اثبت الاجر مرتين وجب أن ينصرف الى ذلك (وثانيها) يؤتون الاجر مرة بايمانهم بالانبياء الذين كانوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم ومرة أخرى بايمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم (وثالثها) قال مقاتل هؤلاء لما آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم شتمهم المشركون فصفحوا عنهم فلهم اجران أجر على الصفح وأجر على الايمان يروى انهم لما أسلموا لعنهم أبو جهل فسكتوا عنه قال السدي اليهود عابوا عبد الله بن سلام وشتموه وهو يقول سلام عليكم ثم قال و يدرؤن بالحسنة السيئة والمعنى بالطاعة المعصية المتقدمة ويحتمل أن يكون المراد دفعوا بالعفو والصفح الاذى ويحتمل أن يكون المراد من الحسنة امتناعهم من المعاصي لان نفس الامتناع حسنة و يدفع به ما لولاه لكان سيئة ويحتمل التوبة والانابة والاستقرار عليها ثم قال ومما رزقناهم ينفقون واعلم انه تعالى مدحهم اولا بالايمان ثم بالطاعات البدنية في قوله ويدرؤن بالحسنة السيئة ثم بالطاعات المالية في قوله ومما رزقناهم ينفقون (قال) القاضي دل هذا المدح على أن الحرام لا يكون رزقا جوابه ان كلمة من للتبعيض فدل على انهم استحقوا المدح بانفاق بعض ما كان رزقا وعلى هذا التقدير يسقط استدلاله ثم لما بين كيفية اشتغالهم بالطاعات والافعال الحسنة بين كيفية اعراضهم عن الجهال فقال واذا سمعوا اللغو اعرضوا عنه واللغو ما حقه أن يلغى و يترك من العبث وغيره وكانوا يسمعون ذلك فلا يخوضون فيه بل يعرضون عنه اعراضا جميلا فلذلك قال تعالى وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم وما أحسن ما قال الحسن رحمه الله في أن هذه الكلمة تحية بين المؤمنين وعلامة الاحتمال من الجاهلين ونظير هذه الآية قوله تعالى وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ثم أكد تعالى ذلك بقوله حاكيا عنهم لا نبتغي الجاهلين والمراد لا نجازيهم بالباطل على باطلهم قال قوم نسخ ذلك

من جماد لا يتوهم قدرته على شئ ما أصلا (أإله) آخر موجود (مع الله) حتى يجعل شريكا له في العبادة وقوله تعالى (قل هاتوا برهانكم) أمر له عليه الصلاة والسلام بتبكيتهم اثر تبكيت أي هاتوا برهانا عقليا أو نقليا يدل على أن معه تعالى الها لا على أن غيره تعالى يقدر على شئ مما ذكر من أفعاله تعالى كما قيل فانهم لا يدعونه صريحا ولا يلتزمون كونه من لوازم الالوهية وان كان منها في الحقيقة فطالبتهم بالبرهان عليه لا على صريح دعواهم مما لا وجه له وفي اضافة البرهان الى ضميرهم تهكم بهم لما فيها من ايهام أن لهم برهانا وأنى لهم ذلك (ان كنتم صادقين) أي في تلك الدعوى (قل لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله) بعد ما حقق تفرده تعالى بالالوهية ببيان اختصاصه بالقدرة الكاملة التامة

والرحمة الشاملة ﴿ ٧٨ ﴾ س العامة عقبه بذكر ما هو من لوازمه وهو اختصاصه بعلم الغيب تكميلا لما قبله وتمهيدا لما بعده من أمر البعث والاستثناء منقطع ورفع المستثنى على اللغة التميمية للدلالة على استحالة علم الغيب من أهل

السموات والارض بتعليته بكونه سبحانه وتعالى منهم كأنه قيل ان كان الله تعالى ممن فيهما فهو منهم من يعلم الغيب او متصل على أن المراد بمن في السموات والارض من تعلق علمه بهما واطلع عليهما اطلاع الحاضر فيهما فان ذلك معنى مجازي عام لله تعالى والاولى العلم من خلقه ومن موصوفا وموسوفة ﴿ ٦١٨ ﴾ (وما يشعرون أيان يبعثون) أي متى ينشرون من القبور مع كونه مما لا بد لهم منه ومن أهم الامور عندهم وأيان مركبة من أي وآن وقرئ بكسر الهمزة والضمير للكفرة وان كان عدم الشعور بما ذكر عاما لا يلزم التشكيك بينه وبين ما سيأتي من الضمائر الخاصة بهم قطعا وقيل الكل لان واسناد خواص الكفرة الى الجميع من قبيل قولهم بنو فلان فعلوا كذا والفاعل بعض منهم (بل ادارك علمهم في الآخرة) لما نفى عنهم علم الغيب وأكد ذلك بنفي شعورهم بوقت ما هو مصيرهم نجاة بواح في تأكيده وتقريره بأن أضرب عنه وبين أنهم في جهل أفحش من جهلهم بوقت بعثهم حيث لا يعلمون أحوال الآخرة مطلقا مع تعاضد أسباب معرفتها على أن معنى ادراك علمهم في الآخرة تدارك وتتابع علمهم في شأن الآخرة التي ما ذكر من البعث حال من أحوالها حتى انقطع ولم يبق لهم علم بشئ مما سيكون فيها قطعا لكن لا على معنى أنه كان لهم علم بذلك على الحقيقة ثم انتفى شيئا فشيأ بل على طريقة ﴿ هذا ﴾ المجاز بتنزيل أسباب العلم ومباديه من الدلائل العقلية

بالامر بالقتال وهو بعيد لان ترك المسافهة مندوب وان كان القتال واجبا ﴿ قوله تعالى (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى اليه ثمرات كل شئ رزقا من لدنا ولكن اكثرهم لا يعلمون) اعلم أن في قوله تعالى انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء مسائل (المسئلة الاولى) هذه الآية لا دلالة في ظاهرها على كفر أبي طالب ثم قال الزجاج أجمع المسلمون على انها نزلت في أبي طالب وذلك أن ابا طالب قال عند موته يا معشر بني عبد مناف أطيعوا محمدا وصدقوه تفلحوا وترشدوا فقال عليه السلام يا عم أمرهم بالنصح لانفسهم وتدعها لنفسك قال فما تريد يا ابن أخي قال أريد منك كلمة واحدة عالمك في آخر يوم من أيام الدنيا أن تقول لا اله الا الله أشهد لك بها عند الله تعالى فقال يا ابن أخي قد علمت انك صادق ولكني أكره ان يقال خرع عند الموت ولولا ان يكون عليك وعلى بني أبيك غضاضة ومسبة بعدي لقلتها ولاقررت بها عينك عند الفراق لما أرى من شدة وجدك ونصحك ولكني سوف أموت على ملة الاشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف (المسئلة الثانية) انه تعالى قال في هذه الآية انك لا تهدي من أحببت وقال في اية أخرى وانك لتهدي الى صراط مستقيم ولا تنافي بينهما فان الذي اثبته وأضافه اليه الدعوة والبيان والذي نفى عنه هداية التوفيق وشرح الصدر وهو نور يقذف في القلب فيحيا به القلب كما قال سبحانه أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا الآية (المسئلة الثالثة) احتج الاصحاب بهذه الآية في مسئلة الهدى والضلال فقالوا قوله انك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء يقتضي ان تكون الهداية في الموضعين بمعنى واحد لانه لو كان المراد من الهداية في قوله انك لا تهدي شيئا وفي قوله ولكن الله يهدي من يشاء شيئا آخر لاختل النظم ثم اما أن يكون المراد من الهداية بيان الدلالة او الدعوة الى الجنة او تعريف طريق الجنة أو خلق المعرفة في القلوب على سبيل الالجاء او خلق المعرفة في القلوب لا على سبيل الالجاء لا جائز ان يكون المراد بيان الادلة لانه عليه السلام هدى الكل بهذا المعنى فهي غير الهداية التي نفى الله عمومها وكذا القول في الهداية بمعنى الدعوة الى الجنة واما الهداية بمعنى تعريف طريق الجنة فهي ايضا غير مرادة من الآية لانه تعالى علق هذه الهداية على المشيئة وتعريف طريق الجنة غير معلق على المشيئة لانه واجب على الله تعالى والواجب لا يكون معلقا على الشيئة فوجب عليه اداء عشرة دنانير لا يجوز ان يقول اني اعطي عشرة دنانير ان شئت واما الهداية بمعنى الالجاء والقسر فغير جائز لان ذلك عندهم قبيح من الله تعالى في حق المكلف وفعل القبيح مستلزم للجهل او الحاجة وهما محالان ومستلزم المحال محال فذلك محال من الله تعالى والمحال لا يجوز تعليقه على المشيئة ولما بطلت الاقسام لم يبق الا ان المراد انه تعالى يخص البعض بخلق الهداية والمعرفة ويمنع البعض منها ولا يسأل عما يفعل ومتى اوردت الكلام على

والسمعية منزلة نفسه واجراء تساقطها عن درجة اعتبارهم كما الاحظوها مجرى تنابعها الى الانقطاع ثم أضرب وانتقل عن بيان عدم علمهم بها الى بيان ماهو أسوأ منه وهو حيرتهم في ذلك حيث قيل (بل هم في شك منها) أي في شك مريب من نفس الآخرة وتحققها لكن تحير في أمر لا يجد عليه دليلا فضلا عن الامور التي ستقع فيها ثم أضرب عن ذلك الى بيان أن ماهم فيه أشد وافظع من الشك حيث قيل (بل هم منها عمون) بحيث لا يكادون يدركون دلائلها لاختلال بصائرهم بالكلية وقرئ بل أدرك علمهم بمعنى انتهى وفني وقد فسره الحسن البصري بأضمحل علمهم وقيل كلتا الصيغتين على معناهما الظاهر أي تكامل واستحكم أو تم أسباب علمهم بأن القيامة كائنة لا محالة من الآيات القاطعة والحجج الساطعة وتمكنوا من المعرفة فضل تمكن وهم جاهلون في ذلك وقوله تعالى بل هم في شك منها اضراب وانتقال من وصفهم بمطلق الجهل الى وصفهم بالشك وقوله تعالى بل هم منها عمون اضراب من وصفهم بالشك الى وصفهم بما هو أشد منه وأفظع من العمى وأنت خبير بأن تنزيل أسباب العلم منزلة العلم سنن مسلوك

هذا الوجه سقط كل ما أورده القاضي عذرا عن ذلك اما قوله وهو أعلم بالمهتدين فالمعنى انه المختص بعلم الغيب فيعلم من يهتدي بعد ومن لا يهتدي ثم انه سبحانه بعد ان ذكر شبههم وأجاب عنها بالاجوبة الواضحة وبين أن وضوح الدلائل لا يكفي ما لم ينضم اليه هداية الله تعالى حكى عنهم شبهة أخرى متعلقة باحوال الدنيا وهي قولهم ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا قال المبرد الخطف الانتزاع بسرعة روى أن الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انا لنعلم ان الذي تقوله حق ولكن يمنعنا من ذلك تخطفنا من أرضنا أي يجتمعون على محاربتنا ويخرجوننا من ارضنا فاجاب الله سبحانه وتعالى عنها من وجوه (الاول) قوله أولم نمكن لهم حرما آمنا اى أعطينا كم مسكنا لا خوف لكم فيه اما الان العرب كانوا يحترمون الحرم وما كانوا يتعرضون البتة لسكانه فانه يروى ان العرب خارج الحرم كانوا مشتغلين بالنهب والغارة وما كانوا يتعرضون البتة لسكان الحرم أو لقوله تعالى ومن دخله كان آمنا اما قوله يجبى اليه ثمرات كل شئ فهو تعالى كما بين كون ذلك الموضع خاليا عن المخاوف والافات بين كثرة النعم فيه ومعنى يجبى يجمع من قولهم جبيت الماء في الحوض اذا جمعته قرأ أهل المدينة تجبى بالتاء وأهل الكوفة وأبو عمرو بالياء وذلك ان تأنيث الثمرات تأنيث جمع وليس بتأنيث حقيقي فيجوز تأنيثه على اللفظ وتذكيره على المعنى ومعنى الكلية الكثرة كقوله وأوتيت من كل شئ وحاصل الجواب انه تعالى لما جعل الحرم آمنا واكثر فيه الرزق حال كونهم معرضين عن عبادة الله تعالى مقبلين على عبادة الاوثان فلو آمنوا لكان بقاء هذه الحالة أولى قال القاضي ولو أن الرسول قال لهم ان الذي ذكرتم من التخطف لو كان حقا لم يكن عذرا لكم في ان لا تؤمنوا وقد ظهرت الحجة لانقطعوا أو قال لهم ان تخطفهم لكم بالقتل وغيره وقد آمنتم كالشهادة لكم فهو نفع عائد عليكم لانقطعوا أيضا أو قال لهم ما قدر مصرة التخطف في جنب العقاب الدائم الذي اخوفكم منه ان بقيتم على كفركم لانقطعوا لكنه تعالى احتج بما هو أقوى من حيث بين كذبهم في انهم يخطفون من حيث عرفوا من حال البنية بالعادة ان ذلك لا يجري ان آمنوا ومثل ذلك اذا أمكن بيانه للخصم فهو أولى من سائر ما ذكرنا فلذلك قدمه الله تعالى والآية دالة على صحة الحجاج الذي يتوصل به الى ازالة شبهة المبطلين بقي ههنا بحثان (الاول) قال صاحب الكشاف في انتصاب رزقا ان جعلته مصدرا جاز أن ينتصب بمعنى ما قبله لان معنى يجبى اليه ثمرات كل شئ و يرزق ثمرات كل شئ واحد وان يكون مفعولا له وان جعلته بمعنى مرزوق كان حالا من الثمرات لتخصيصها بالاضافة كما ينتصب عن النكرة المخصصة بالصفة (الثاني) احتج الاصحاب بقوله رزقا من لدنا في أن فعل العبد خلق الله تعالى و بيانه أن تلك الارزاق انما كانت تصل اليهم لان الناس كانوا يحملونها اليهم فلو لم يكن فعل العبد خلقا لله تعالى لما صحت تلك الاضافة فان قيل سبب تلك الاضافة انه تعالى هو الذي ألقى تلك الدواعي في قلوب من ذهب بتلك

لكن دلالة النظم الكريم على جهلهم حينئذ ليست بواضحة وقيل المراد بوصفهم باستحكام العلم وتكامله التهكم بهم فيكون وصفهم بالجهل مبالغة والاضراب على ما ذكر وأصل ادارك تدارك و به قرأ أبي

فابدلت التاء دالا وسكنت فتعذر الابتداء فاجتلبت همزة الوصل فصار ادارك وقرئ بل ادرك وأصله افتعل و بل أأدرك بهمزتين و بل آأدرك بألف بينهما و بل ادرك بالتخفيف والنقل و بل ادرك بفتح اللام وتشديد الدال وأصله بل أدرك على الاستفهام و بلى ادرك و بلى أأدرك وأم تدارك ﴿ ٦٢٠ ﴾ وأم أدرك فهذه ثنتا عشرة قراءة فيه استفهام

الارزاق اليهم قلنا تلك الدواعي ان اقتضت الرجحان فقد بينا في غير موضع انه متى حصل الرجحان فقد حصل الوجوب وحينئذ يحصل المقصود وان لم يحصل الرجحان انقطعت الاضافة بالكلية واعلم انه تعالى انما بين أن تلك الارزاق ما وصلت اليهم الا من الله تعالى لاجل انهم متى علموا ذلك صار بحيث لا يخافون أحدا سوى الله تعالى ولا يرجون أحدا غير الله تعالى فيبقى نظرهم منقطعا عن الخلق متعلقا بالخالق وذلك يوجب كمال الايمان والاعراض بالكلية عن غير الله تعالى والاقبال بالكلية على طاعة الله تعالى * قوله تعالى (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى الا وأهلها ظالمون) اعلم أن هذا هو الجواب الثاني عن تلك الشبهة وذلك لانه تعالى لما بين لاهل مكة ما خصوا به من النعم اتبعه بما نزله الله تعالى بالامم الماضية الذين كانوا في نعم الدنيا فلما كذبوا الرسل أزال الله عنهم تلك النعم والمقصود أن الكفار لما قالوا انا لا نؤمن خوفا من زوال نعمة الدنيا فالله تعالى بين لهم أن الاصرار على عدم قبول الايمان هو الذي يزيل هذه النعم لا الاقدام على الايمان قال صاحب الكشاف البطر سوء احتمال الغنى وهو ان لا يحفظ حق الله تعالى فيه وانتصبت معيشتها اما بحذف الجار وايصال الفعل كقوله واختار موسى قومه أو بتقدير حذف الزمان المضاف وأصله بطرت أيام معيشتها واما تضمين بطرت معنى كفرت فاما قوله فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا ففي هذا الاستثناء وجوه (أحدها) قال ابن عباس رضي الله عنهما لم يسكنها الا المسافر وما رأى الطريق يوما وساعة (وثانيها) يحتمل ان شؤم معاصي المهلكين بقي أثره في ديارهم فكل من سكنها من اعقابهم لم يبق فيها الا قليلا وكنا نحن الوارثين لها بعد هلاك اهلها واذا لم يبق للشئ مالك معين قيل انه ميراث لله لانه الباقي بعد فناء خلقه ثم انه سبحانه لما ذكر انه اهلك تلك القرى بسبب بطر اهلها فكان سائلا اورد السؤال من وجهين (الاول) لماذا ما اهلك الله الكفار قبل محمد صلى الله عليه وسلم مع انهم كانوا مستغرقين في الكفر والعناد (الثاني) لماذا ما اهلكهم بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم مع تمادي القوم في الكفر بالله تعالى والتكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم فأجاب عن السؤال الاول بقوله وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في امها رسولا يتلو عليهم آياتنا وحاصل الجواب انه تعالى قدم بيان ان عدم البعثة يجري مجرى العذر للقوم فوجب ان لا يجوز اهلاكهم الا بعد البعثة ثم ذكر المفسرون وجهين (احدهما) وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في امها رسولا أي في القرية التي هي أمها وأصلها وقصبتها التي اعمالها وتوابعها رسولا لالزام الحجة وقطع المعذرة (الثاني) وما كان ربك مهلك القرى التي في الارض حتى يبعث في أم القرى يعني مكة رسولا وهو محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء ومعنى يتلو عليهم آياتنا يؤدي و يبلغ وأجاب عن السؤال الثاني

صريح او مضمن من ذلك فهو انكار ونفي وما فيه بلى فاثبات لشعورهم وتفسيره بالادراك على وجه انتهكم الذي هو ابلغ وحو النفي والانكار وما بعده اضراب عن التقرير مبالغة في النفي ودلالة على أن شعورهم بها أنهم شاكون فيها بل أنهم منها عمون اورد وانكار لشعورهم (وقال الذين كفروا) بيان لجهلهم بالآخرة وعمههم منها بحكاية انكارهم للبعث ووضع الموصول موضع ضميرهم لذمهم بما في حيز صلته والاشعار بعلة حكمهم الباطل في قولهم (أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون) أي أنخرج من القبور اذا كنا ترابا كما ينبئ عنه مخرجون ولا مساغ لان يكون هو العامل في اذا لاجتماع موانع لو تفرد واحد منها لكفى في المنع وتقييد الاخراج بوقت كونهم ترابا ليس لتخصيص الانكار بالاخراج حينئذ فقط فانهم منكرون للاحياء بعد الموت مطلقا وان كان البدن على حاله بل لتقوية الانكار بتوجيهه الى الاخراج في حالة منافيه له وقوله تعالى ﴿ بقوله ﴾ وآباؤنا عطف على اسم كان وقام الفصل

مع الخبر مقام الفصل بالتاكيد وتكرير الهمزة فى أثنائه للمبالغة والتشديد فى الانكار وتحلية الجملة بان واللام لتاكيد الانكار لا الانكار التأكيد كما يوهمه ظاهر النظم فان تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة كما فى قوله تعالى أفلا تعقلون ونظائره على رأى الجمهور فان المعنى ﴿ ٦٢١ ﴾ عندهم تعقب الانكار لا انكار التعقيب كما هو المشهور وقرئ

بقوله وما كنا مهلكى القرى الا وأهلها ظالمون أنفسهم بالشرك وأهل مكة ليسوا كذلك فان بعضهم قد آمن وبعضهم علم الله منهم انهم سيؤمنون وبعض آخرون علم الله انهم وان لم يؤمنوا لكنه يخرج من نسلهم من يكون مؤمنا * قوله تعالى (وما اوتيتم من شئ فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وابقى أفلا تعقلون افمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين) اعلم ان هذا هو الجواب الثالث عن تلك الشبهة لان حاصل شبهتهم ان قالوا ترك الدين لئلا تفوتنا الدنيا فبين تعالى ان ذلك خطأ عظيم لان ما عند الله خير وابقى أما انه خير فلوجهين (أحدهما) ان المنافع هناك اعظم (وثانيهما) انها خالصة عن الشوائب ومنافع الدنيا مشوبة بالمضار بل المضار فيها أكثر واما انها أبقى فلانها دائمة غير منقطعة ومنافع الدنيا منقطعة ومتى قوبل المتناهى بغير المتناهى كان عدما فكيف ونصيب كل أحد بالقياس الى منافع الدنيا كلها كالذرة بالقياس الى البحر فظهر من هذا ان منافع الدنيا لا نسبة لها الى منافع الآخرة البتة فكان من الجهل العظيم ترك منافع الآخرة لاستبقاء منافع الدنيا ولما نبه سبحانه على ذلك قال افلا تعقلون يعنى ان من لا يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا كأنه يكون خارجا عن حد العقل ورحم الله الشافعى حيث قال من اوصى بثلاث ماله لاعقل الناس صرف ذلك الثلث الى المشتغلين بطاعة الله تعالى لان أعقل الناس من اعطى القليل واخذ الكثير وما هم الا المشتغلون بالطاعة فكأنه رحمه الله انما اخذه من هذه الآية ثم انه تعالى أكد هذا الترجيح من وجه آخر وهو انا لو قدرنا أن نعم الله كانت تنتهى الى الانقطاع والفناء وما كانت تتصل بالعذاب الدائم لكان صريح العقل يقتضى ترجيح نعم الآخرة على نعم الدنيا فكيف اذا اتصلت نعم الدنيا بعقاب الآخرة فأى عقل يرتاب فى ان نعم الآخرة راجحة عليها وهذا هو المراد بقوله أفمن وعدناه وعدا حسنا فهو لاقيه فهو يكون كما اعطاه الله قدرا قليلا من متاع الدنيا ثم يكون فى الآخرة من المحضرين للعذاب والمقصود انهم لما قالوا ترك الدين للدنيا فقال الله لهم اولم يحصل عقيب دنياكم مضرة العقاب لكان العقل يقتضى ترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا فكيف وهذه الدنيا يحصل بعدها العقاب الدائم وأورد هذا الكلام على لفظ الاستفهام ليكون أبلغ فى الاعتراف بالترجيح وتخصيص لفظ المحضرين بالذين أحضروا للعذاب أمر عرف من القرآن قال تعالى لكنت من المحضرين فانهم لمحضرون وفى لفظه اشعار به لان الاحضار مشعر بالتكليف والالزام وذلك لا يليق بمجالس اللذة انما يليق بمجالس الضرر والمكاره * قوله تعالى (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبرأنا اليك ما كانوا ايانا يعبدون وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين فعميت عليهم الانباء يومئذ

اذا كتبا بهمزة واحدة مكسورة وقرئ انا لمخرجون على الخبر (لقد وعدنا هذا) أى الاخراج (نحن وآباؤنا من قبل) أى من قبل وعده عليه الصلاة والسلام وتقديم الموعود على نحن لانه المقصود بالذكر وحيث أخر قصد به المبعوث والجملة استئناف مسوق لتقرير الانكار وتصديرها بالقسم لمزيد التاكيد وقوله تعالى (ان هذا الا اساطير الاولين) تقرير لاثر تقرير (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) بسبب تكذيبهم للرسل عليهم الصلاة والسلام فيما دعوهم اليه من الايمان بالله عزوجل وحده وباليوم الآخر الذى تنكرونه فان فى مشاهدة عاقبتهم ما فيه كفاية لاولى الابصار وفى التعبير عن المكذبين بالمجرمين لطف بالمؤمنين فى ترك الجرائم (ولا تحزن عليهم) لاصرارهم على الكفر والتكذيب

(ولا تكن فى ضيق) فى حرج صدر (مما يمكرون) من مكرهم فان الله تعالى يعصمك من الناس وقرئ بكسر الضاد وهو أيضا مصدر ويجوز أن يكون المفتوح مخففا من ضيق وقد قرئ كذلك اى

لاتكن فى أمر ضيق (و يقولون متى هذا الوعد) اى العذاب العاجل الموعود (ان كنتم صادقين) فى اخباركم باتيانه والجمع باعتبار شركة المؤمنين فى الاخبار بذلك (قل عسى أن يكون ردف لكم) أى تبعكم ولحقكم واللام مزيدة للتأكيد كالباء فى قوله تعالى ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة ﴿ ٦٢٢ ﴾ أو الفعل مضمن معنى فعل يعدى باللام وقرئ بفتح الدال وهى لغة فيه (بعض الذى تستعجلون) وهو عذاب يوم بدر وعسى ولعل وسوف فى مواعيد الملوك بمنزلة الجزم بها وانما يطلقونها اظهارا للوقار واشعارا بأن الرمز من امثالهم كالتصريح ممن عداهم وعلى ذلك مجرى وعد الله تعالى ووعيده وايثار ما عليه النظم الكريم على أن يقال عسى أن يردفكم الخ لكونه أدل على تحقيق الوعد (وان ربك لذو فضل على الناس) أى لذو افضال وانعام على كافة الناس ومن جملة انعاماته تأخير عقوبة هؤلاء على ما يرتكبونه من المعاصى التى من جملتها استعجال العذاب (ولكن اكثرهم لا يشكرون) لا يعرفون حق النعمة فلا يشكرونه بل يستعجلون بجهلهم وقوعه تكذيبا لهؤلاء (وان ربك ليعلم ما تكن صدورهم) أى ما تخفيه وقرئ بفتح التاء من كننت الشئ اذا سترته (وما يعلنون) من الافعال والاقوال التى من جملتها ما حكى عنهم من استعجال العذاب وفيه ايذان بان لهم ﴿ خاطبهم ﴾ قبائح غير ما يظهرونه وأنه تعالى يجازيهم على الكل وتقديم السر على العلن قد مر سره فى سورة البقرة عند قوله تعالى أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون

فهم لا يتساءلون) اعلم انه سبحانه وتعالى ذكر فى هذه الآية انه يسأل الكفار يوم القيامة عن ثلاثة أشياء (أحدها) قوله و يوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون لما ثبت أن الكفار يوم القيامة قد عرفوا بطلان ما كانوا عليه وعرفوا صحة التوحيد والنبوة بالضرورة فيقول لهم أين ما كنتم تعبدونه وتجعلونه شريكا فى العبادة وتزعمون انه يشفع أين هو لينصركم و يخلصكم من هذا الذى نزل بكم ثم بين تعالى ما يقوله من حق عليه القول والمراد من القول هو قوله لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ومعنى حق عليه القول أى حق عليه مقتضاه واختلفوا فى أن الذين حق عليهم هذا القول من هم فقال بعضهم الرؤساء الدعاة الى الضلال وقال بعضهم الشياطين قوله ربنا هؤلاء الذين أغوينا هؤلاء مبتدأ والذين اغوينا صفته والراجع الى الموصوف محذوف وأغويناهم الخبر والكاف صفة مصدر محذوف تقديره اغويناهم فغووا غيا مثل ما غوينا والمراد كما ان غينا باختيارنا فكذا غيهم باختيارهم يعنى ان اغواءنا لهم ما الجأهم الى الغواية بل كانوا مختارين بالاقدام على تلك العقائد والاعمال وهذا معنى ما حكاه الله عن الشيطان انه قال ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا انفسكم وقال تعالى لابليس ان عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين فقوله الا من اتبعك يدل على ان ذلك الاتباع لهم من قبل أنفسهم لا من قبل الجاء الشيطان الى ذلك ثم قال تبرأنا اليك منهم ومن عقائدهم وأعمالهم ما كانوا ايانا يعبدون انما كانوا يعبدون أهواءهم والحاصل انهم يتبرؤن منهم كما قال تعالى اذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا وأيضا فلا يمتنع فى قوله تعالى أين شركائى ان يريد به هؤلاء الرؤساء والشياطين فانهم لما أطاعوهم فقد صيرهم لهم كالشركاء بمنزلة الشركاء لله تعالى واذا حمل الكلام على هذا الوجه كان جوابهم أن يقولوا الهنا هؤلاء ما عبدونا انما عبدنا أهواءهم الفاسدة (وثانيها) قوله تعالى وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم والاقرب أن هذا على سبيل التقريع لانهم يعلمون انه لا فائدة فى دعائهم لهم فلا أقل انهم لو دعوهم لم يوجد منهم اجابة فى النصرة وأن العذاب ثابت فيهم وكل ذلك على وجه التوبيخ وفى ذكره ردع وزجر فى دار الدنيا فاما قوله تعالى لو أنهم كانوا يهتدون فكثير من المفسرين زعموا أن جواب لو محذوف وذكروا فيه وجوها (أحدها) قال الضحاك ومقاتل يعنى المشركين لو اهتدوا فى الدنيا لرأوا العذاب ولو أنهم رأوا العذاب لاهتدوا (وثانيها) لو أنهم كانوا مهتدين فى الدنيا لعلموا أن العذاب حق (وثالثها) ودوا حين رأوا العذاب لو كانوا فى الدنيا يهتدون (ورابعها) لو كانوا يهتدون لوجه من وجوه الحيل لدفعوا به العذاب (وخامسها) ودوا أن لهم أن يهتدوا لو أنهم كانوا يهتدون اذا رأوا العذاب و يؤكد ذلك قوله تعالى لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الاليم وعندى أن الجواب غير محذوف وفى تقريره وجوه (احدها) ان الله تعالى اذا

(ومامن غائبة فى السماء والارض) أى من خافية فيهما وهما من الصفات الغالبة والتاء للمبالغة كما فى الرواية او اسمان لما يغيب ويخفى والتاء للنقل الى الاسمية (الا فى كتاب مبين) أى بين أو مبين لما فيه لمن يطالعه وهو اللوح المحفوظ وقيل هو القضاء العدل بطريق الاستعارة ﴿ ٦٢٣ ﴾ (ان هذا القرآن يقص على بنى اسرائيل اكثر الذى هم فيه يختلفون) من جملته ما اختلفوا فى شان المسيح وتحزبوا فيه أحزابا وركبوا متن العتو والغلو فى الافراط والتفريط والتشبيه والتنزيه ووقع بينهم التناكد فى أشياء حتى بلغ المشاقة الى حيث لعن بعضهم بعضا وقد نزل القرآن الكريم ببيان كنه الامر لو كانوا فى حيز الانصاف (وانه لهدى ورحمة للمؤمنين) على الاطلاق فيدخل فيهم من آمن من بنى اسرائيل دخولا اوليا (ان ربك يقضى بينهم) أى بين بنى اسرائيل (بحكمه) بما يحكم به وهو الحق او بحكمة ويؤيده أنه قرئ بحكمة (وهو العزيز) فلا يرد حكمه وقضاؤه (العليم) بجميع الاشياء التى من جملتها ما يقضى به والفاء فى قوله تعالى (فتوكل على الله) لترتيب الامر على ماذكر من شؤنه عز وجل فانها موجبة للتوكل عليه وداعية الى الامر به أى فتوكل على الله الذى هذا شانه فانه موجب على كل أحد أن يتوكل عليه ويفوض جميع أموره اليه وقوله تعالى (انك على الحق المبين) تعليل صريح لتوكل عليه تعالى بكونه عليه الصلاة والسلام على الحق البين او الفاصل بينه وبين الباطل او بين المحق والمبطل فان كونه عليه الصلاة والسلام كذلك مما يوجب الوثوق بحفظه تعالى

خاطبهم بقوله ادعوا شركاءكم فههنا يشتد الخوف عليهم ويلحقهم شئ كالدر والدوار ويصيرون بحيث لا يبصرون شيأ فقال تعالى ورأوا العذاب لو انهم كانوا يهتدون شيأ اما لما صاروا من شدة الخوف بحيث لا يبصرون شيأ لاجرم مارأوا العذاب (وثانيها) انه تعالى لما ذكر من الشركاء وهى الاصنام انهم لا يجيبون الذين دعوهم قال فى حقهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون أى هذه الاصنام كانوا يشاهدون العذاب لو كانوا من الاحياء انهتدين ولكنها ليست كذلك فلاجرم مارأت العذاب فان قيل قوله ورأوا العذاب ضمير لا يليق الا بالعقلاء فكيف يصح عوده الى الاصنام قلنا هذا كقوله فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وانما ورد ذلك على حسب اعتقاد القوم فكذا ههنا (وثالثها) أن يكون المراد من الرؤية رؤية القلب أى والكفار علموا حقيقة هذا العذاب فى الدنيا لو كانوا يهتدون وهذه الوجوه عندى خير من الوجوه المبنية على أن جواب لو محذوف فان ذلك يقتضى تفكيك النظم من الآية (الامر الثالث) من الامور التى يسأل الله الكفار عنها قوله ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين فعميت عليهم الانباء أى فصارت الانباء كالعمى عليهم جميعا لا تهتدى اليهم فهم لا يتساءلون لا يسأل بعضهم بعضا كما يتساءل الناس فى المشكلات لانهم يتساوون جميعا فى عمى الانباء عليهم والعجز عن الجواب وقرئ فعميت واذا كانت الانبياء لهول ذلك يتعنون فى الجواب عن مثل هذا السؤال ويفوضون الامر الى علم الله تعالى وذلك قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا انك انت علام الغيوب فما ظنك بهؤلاء الضلال (قال) القاضى هذه الآية تدل على بطلان القول بالجبر لان فعلهم لو كان خلقا من الله تعالى ويجب وقوعه بالقدرة والارادة لما عميت عليهم الانباء ولقالوا انما اتينا فى تكذيب الرسل من جهتك فبينا تكذيبهم والقدرة الموجبة لذلك فكانت حجتهم على الله تعالى ظاهرة وقولكم يبطل القول فيما تقدم لان الشيطان كان له أن يقول انما اغويت بخلقك فى الغواية وانما قبل من دعوته لمثل ذلك فتكون الحجة لهم فى ذلك قوية والعذر ظاهرا (والجواب) ان القاضى لا يترك آية من الآيات المشتملة على المدح والذم والثواب والعقاب الا ويعيد استدلاله بها وكما أن وجه استدلاله فى الكل هذا الحرف فكذا وجه جوابنا حرف واحد وهو ان علم الله تعالى بعدم الايمان مع وقوع الايمان متنافيان لذاتيهما مع العلم بعدم الايمان اذا أمر بادخال الايمان فى الوجود فقد أمر بالجمع بين الضدين والذى اعتمد القاضى عليه فى دفع هذا الحرف فى كتبه الكلامية قوله خطأ قول من يقول انه يمكن وخطأ قول من يقول انه لا يمكن بل الواجب السكوت ولو أورد الكافر هذا السؤال على ربه لما كان لربه عنه جواب الا السكوت فتكون حجة الكافر قوية وعذره ظاهرا فثبت أن الاشكال مشترك والله أعلم * قوله تعالى (فاما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى ان يكون من المفلحين وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى

ونصرته وتأييده لامحالة وقوله تعالى (انك لاتسمع الموتى) الخ تعليل آخر للتوكل الذى هو عبارة عن التبتل الى الله تعالى وتفويض الامر اليه والاعراض عن التشبث بماسواه وقد علل أولا بما يوجبه من جهته تعالى أعنى قضاء بالحق وعزته وعلمه تعالى وثانيا بما يوجبه من جهته عليه الصلاة والسلام على أحد الوجهين أعنى كونه عليه الصلاة والسلام على الحق ومن جهته تعالى على الوجه الآخر أعنى اعانته تعالى ﴿٦٢٤﴾ وتأييده للحق ثم علل ثالثا بما يوجبه

لكن لا بالذات بل بواسطة ايجابه للاعراض عن التشبث بماسواه تعالى فان كونهم كالموتى والصم والعمى موجب لقطع الطمع عن متابعتهم ومعاضدتهم رأسا وداع الى تخصيص الاعتضاد به تعالى وهو المعنى بالتوكل عليه تعالى وانما شبهوا بالموتى لعدم تأثرهم بما يتلى عليهم من القوارع واطلاق الاسماع عن المفعول لبيان عدم سماعهم لشئ من المسموعات وعلل لمزيد تشبيه قلوبهم بالموتى فيما ذكر من عدم الشعور فان القلب مشعر من المشاعر أشير الى بطلانه بالمرة ثم بين بطلان مشعرى الاذن والعين كما فى قوله تعالى لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها والافبعد تشبيه أنفسهم بالموتى لايظهر تشبيههم بالصم والعمى مزيد مزية (ولاتسمع الصم الدعاء) أى الدعوة الى أمر من الامور وتقييد النفى بقوله تعالى (اذا ولوا مدبرين) ﴿الحمد﴾ لتكميل التشبيه وتأكيد النفى فانهم مع صممهم عن الدعاء الى الحق معرضون عن الداعى مولون على أدبارهم ولاريب فى أن الاصم لايسمع الدعاء مع كون الداعى بمقابلة صماخه قريبا منه فكيف اذا كان خلفه بعيدا منه

عما يشركون وربك يعلم ماتكن صدورهم وما يعلنون وهو الله لااله الاهو له الحمد فى الاولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون) اعلم انه تعالى لما بين حال المعذبين من الكفار وما يجرى عليهم من التوبيخ اتبعه بذكر من يتوب منهم فى الدنيا ترغيبا فى التوبة وزجرا عن الثبات على الكفر فقال فاما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين وفى عسى وجوه (أحدها) انه من الكرام تحقيق والله أكرم الاكرمين (وثانيها) ان يراد ترجى التائب وطمعه كأنه قال فليطمع فى الفلاح (وثالثها) عسى أن يكونوا كذلك ان داموا على التوبة والايمان لجواز ان لايدوموا واعلم أن القوم كانوا يذكرون شبهة اخرى ويقولون لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم يعنون الوليد بن المغيرة أو أبا مسعود الثقفى فأجاب الله تعالى عنه بقوله وربك يخلق مايشاء ويختار والمراد انه المالك المطلق وهو منزه عن النفع والضر فله أن يخص من شاء بما شاء لااعتراض عليه البتة وعلى طريق المعتزلة لما ثبت انه حكيم مطلق علم انه كل ما فعله كان حكمة وصوابا فليس لاحد أن يعترض عليه وقوله ماكان لهم الخيرة والخيرة اسم من الاختيار قام مقام المصدر والخيرة أيضا اسم للمختار يقال محمد خيرة الله فى خلقه اذا عرفت هذا فنقول فى الآية وجهان (الاول) وهو الاحسن أن يكون تمام الوقف على قوله ويختار ويكون مانافيا والمعنى وربك يخلق مايشاء ويختار ليس لهم الخيرة اذ ليس لهم ان يختاروا على الله أن يفعل (والثانى) أن يكون ما بمعنى الذى فيكون الوقف عند قوله وربك يخلق مايشاء ثم يقول ويختار ما كان لهم الخيرة (قال) أبو القاسم الانصارى وهذا متعلق المعتزلة فى ايجاب الصلاح والاصلح عليه وأى صلاح فى تكليف من علم انه لايؤمن ولولم يكلفه لاستحق الجنة والنعيم من فضل الله فان قيل لما كلفه استوجب على الله ماهو الافضل لان المستحق أفضل من المتفضل به قلنا اذا علم قطعا انه لايحصل ذلك الافضل بحكم وعده فى العقاب الابدى لايكون رعاية للمصلحة ثم قولهم المستحق خير من المتفضل ادعوا أول لان ذلك التفاوت انما يحصل فى حق من يستكف من تفضله اما الذى ماحصل الذات والصفات الا بخلقه وبفضله واحسانه فكيف يستكف من تفضله ثم قال سبحان الله وتعالى عما يشركون والمقصود أن يعلم أن الخلق والاختيار والاعزاز والاذلال مفوض اليه ليس لاحد فيه شركة ومنازعة ثم أكد ذلك بأنه يعلم ماتكن صدورهم من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يعلنون من مطاوعتهم فيه وقولهم هلا اختير غيره فى النبوة ولما بين علمه بما هم عليه من الغل والحسد والسفاهة قال وهو الله لااله الاهو وفيه تنبيه على كونه قادرا على كل الممكنات عالما بكل المعلومات منزها عن النقائص والآفات يجازى المحسنين على طاعتهم ويعاقب العصاة على عصيانهم وفيه نهاية الزجر والردع للعصاة ونهاية تقوية القلب للمطيعين ويحتمل أيضا انه لما بين فساد طريق المشركين من قوله ويوم يناديهم فيقول أين شركائى ختم الكلام فى ذلك باظهار هذا التوحيد وبيان ان

وقرئ ولا يسمع الصم الدعاء (وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم) هداية موصلة الى المطلوب كما فى قوله تعالى انك لا تهدى من أحببت فان الاهتداء منوط بالبصر وعن متعلقة بالهداية باعتبار تضمنه معنى الصرف وقيل بالعمى يقال عمى عن كذا وفيه بعد وايراد الجملة الاسمية ﴿ ٦٢٥ ﴾ للمبالغة فى نفى الهداية وقرئ وما أنت تهدى العمى (ان تسمع)

الحمد والثناء لا يليق الا به اما قوله له الحمد فى الاولى والآخرة فهو ظاهر على قولنا لان الثواب غير واجب عليه بل هو سبحانه يعطيه فضلا واحسانا فله الحمد فى الاولى والآخرة ويؤكد ذلك قول أهل الجنة الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن الحمد لله الذى صدقنا وعده وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين اما المعتزلة فعندهم الثواب مستحق فلا يستحق الحمد بفعله أهل الجنة واما أهل النار فما انعم عليهم حتى يستحق الحمد منهم قال القاضى انه يستحق الحمد والشكر من أهل النار أيضا بما فعله بهم فى الدنيا من التمكين والتيسير والالطاف وسائر النعم لانهم بإساءتهم لا يخرج ما أنعم الله عليهم من أن يوجب الشكر وهذا فيه نظر لان أهل الآخرة مضطرون الى معرفة الحق فاذا علموا بالضرورة ان التوبة عن القبائح يجب على الله قبولها وعلموا بالضرورة ان الاشتغال بالشكر الواجب عليهم يوجب على الله الثواب وهم قادرون على ذلك وعالمون بأن ذلك مما يخلصهم عن العذاب ويدخلهم فى استحقاق الثواب أفترى أن الانسان مع العلم بذلك والقدرة عليه يترك هذه التوبة كلا بل لا بد أن يتوبوا وان يشتغلوا بالشكر ومتى فعلوا ذلك فقد بطل العقاب اما قوله وله الحكم فهو اما فى الدنيا أو فى الآخرة فاما فى الدنيا فحكم كل أحد سواه انما نفذ بحكمه فلو لا حكمه لما نفذ على العبد حكم سيده ولا على الزوجة حكم زوجها ولا على الابن حكم أبيه ولا على الرعية حكم سلطانهم ولا على الامة حكم الرسول فهو الحاكم فى الحقيقة واما فى الآخرة فلا شك انه هو الحاكم لانه الذى يتولى الحكم بين العباد فى الآخرة فينتصف للمظلومين من الظالمين اما قوله واليه ترجعون فالمعنى والى محل حكمه وقضائه ترجعون فان كلكم الى انتهاء الغاية وهو تعالى منزه عن المكان والجهة ﴿ قوله تعالى

(قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) اعلم أنه تعالى لما بين من قبل استحقاقه للحمد على وجه الاجمال بقوله وهو الله لا اله الا هو له الحمد فى الاولى والآخرة وله الحكم واليه ترجعون فصل عقيب ذلك ببعض ما يجب عليه مما لا يقدر عليه سواه فقال لرسوله قل أرأيتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الى يوم القيامة فنبه على أن الوجه فى كون الليل والنهار نعمتان يتعاقبان على الزمان لان المرء فى الدنيا وفى حال التكليف مدفوع الى أن يتعب لتحصيل ما يحتاج اليه ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار ولاجله يحصل الاجتماع فيمكن المعاملات ومعلوم أن ذلك لا يتم لولا الراحة والسكون بالليل فلا بد منهما والحالة هذه فاما فى الجنة فلا نصب ولا تعب فلا حاجة بهم الى الليل فلذلك يدوم لهم الضياء واللذات فبين تعالى انه لا قادر على ذلك الا الله تعالى وانما قال أفلا تسمعون أفلا تبصرون لان الغرض من ذلك الانتفاع بما يسمعون ويبصرون من جهة التدبر فلما لم ينتفعوا

اى ما تسمع سماعا يجدى السامع نفعا (الا من يؤمن بآياتنا) اى من من شأنهم الايمان بها وايراد الاسماع فى النفى والاثبات دون الهداية مع قرنها بان يقال ان تهدى الا من يؤمن الخ لما أن طريق الهداية هو اسماع الآيات التنزيلية (فهم مسلمون) تعليل لايمانهم بها كأنه قيل فانهم منقادون للحق وقيل مخلصون لله تعالى من قوله تعالى بلى من أسلم وجهه لله (واذا وقع القول عليهم) بيان لما أشير اليه بقوله تعالى بعض الذى تستعجلون من بقية ما يستعجلونه من الساعة ومباديها والمراد بالقول ما نطق من الآيات الكريمة بمجئ الساعة وما فيها من فنون الاهوال التى كانوا يستعجلونها وبوقوعه قيامها وحصولها عبر عن ذلك به للايذان بشدة وقوعها وتأثيرها واسناده الى القول لما أن المراد بيان وقوعها من حيث انها مصداق للقول الناطق بمجيئها وقد

أريد بالوقوع دنوه واقترابه ﴿ ٧٩ س ﴾ كما فى قوله تعالى أتى أمر الله اى اذا دنا وقوع مدلول القول المذكور الذى لا يكادون يسمعونه ومصداقه (اخرجنا لهم دابة من الارض) وهى الجساسة وفى التعبير عنها باسم الجنس وتأكيدها بهامه بالتنوين التفخيمى

من الدلالة على غرابة شانها وخروج أوصافها عن طور البيان مالا يخفى وقد ورد فى الحديث أن طولها ستون ذراعا لا يدركها طالب ولا يفوتها مارب وروى أن لها أربع قوائم ولها زغب وريش وجناحان وعن ابن جريج فى وصفها رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن أيل وعنق نعامة وصدر أسد ﴿ ٦٢٦ ﴾ ولون نمر وخاصرة هرة وذنب كبش وخف بعير وما بين المفصلين اثنا عشر ذراعا بذراع آدم عليه السلام وقال وهب وجهها وجه الرجل وباقى خلقها خلق الطير وروى عن على رضى الله عنه أنه قال ليس بدابة لها ذنب ولكن لها لحية كأنه يشير الى أنه رجل والمشهور أنها دابة وروى لا تخرج الا رأسها رأسها يبلغ عنان السماء أو يبلغ السحاب وعن ابى هريرة رضى الله تعالى عنه وجهها كل ون ما بين قرنيها فرسخ للراكب وعن الحسن رضى الله عنه لا يتم خروجها الا بعد ثلاثة أيام وعن على رضى الله عنه أنها تخرج ثلاثة أيام والناس ينظرون فلا يخرج كل يوم الا ثلثها وعن النبى عليه الصلاة والسلام أنه سئل من أين تخرج الدابة فقال من أعظم المساجد حرمة على الله تعالى يعنى المسجد الحرام وروى انها تخرج ثلاث خرجات تخرج باقصى اليمن ثم تكمن ثم تخرج بالبادية ثم تكمن دهرا طويلا فبينا الناس

نزلوا منزلة من لا يسمع ولا يبصر قال الكلبى قوله افلا تسمعون معناه أفلا تطيعون من يفعل ذلك وقوله أفلا تبصرون معناه أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطا والضلال قال صاحب الكشاف السرمد الدائم المتصل من السرد وهو المتابعة ومنه قولهم فى الاشهر الحرم ثلاثة سرد وواحد فرد فان قيل هلا قال بنهار تبصرون فيه كما قيل بليل تسكنون فيه قلنا ذكر الضياء وهو ضوء الشمس لانه المنافع التى تتعلق به متكاثرة ليس التصرف فى المعاش وحده والظلام ليس بتلك المنزلة والتفاوت بالضياء أفلا تسمعون لان السمع يدرك ما لا يدركه البصر من درك منافعه ووصف فوائده وقرن بالليل أفلا تبصرون لان غيرك يدرك من منفعة الظلام ما تبصره أنت من السكون ونحوه ومن رحمته زواج بين الليل والنهار لاغراض ثلاثة تسكنوا فى أحدهما وهو الليل وتبتغوا من فضله فى الآخر وهو النهار ولعلكم تشكرون على النعمتين معا اعلم انه وان كان تسكنون فى النهار ممكنا وابتغاء فضل الله بالليل ممكنا الا أن الاليق بكل واحد منهما ما ذكره الله تعالى به فلهذا خصه به ﴿ قوله تعالى ﴾ (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ونزعنا من كل أمة شهيدا فقلنا هاتوا برهانكم فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون) اعلم أنه سبحانه لما هجن طريقة المشركين أولا بذكر التوحيد ودلائله ثانيا عاد الى تهجين طريقتهم مرة أخرى وشرح حالهم فى الآخرة فقال ويوم يناديهم اى فى القيامة فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون والمعنى أين الذين ادعيتم الهيتهم لتخلصكم أو أين قولكم تقربنا الى الله زلفى وقد علموا أن لا اله الا الله فيكون ذلك زائدا فى غمهم اذا خوطبوا بهذا القول أما قوله تعالى ونزعنا من كل أمة شهيدا فالمراد منزعنا واحدا ليشهد عليهم ثم قال بعضهم هم الانبياء يشهدون بانهم بلغوا القوم الدلائل وبلغوا فى ايضاحها كل غاية ليعلم أن التقصير منهم فيكون ذلك زائدا فى غمهم وقال آخرون بل هم الشهداء الذين يشهدون على الناس فى كل زمان ويدخل فى جملتهم الانبياء وهذا أقرب لانه تعالى عم كل أمة وكل جماعة بان ينزع منهم الشهيد فيدخل فيه الاحوال التى لم يوجد فيها النبى وهى أزمنة الفترات والازمنة التى حصلت بعد محمد صلى الله عليه وسلم فعلموا حينئذ أن الحق لله ولرسله وضل عنهم غاب عنهم غيبة النبى الضائع ما كانوا يفترون من الباطل والكذب ﴿ قوله تعالى ﴾ (ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة اذ قال له قومه لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الارض ان الله لا يحب المفسدين قال انما أوتيته على علم عندى أولم يعلم ان الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) اعلم أن نص القرآن يدل على أن قارون كان من قوم

فى أعظم المساجد حرمة على الله تعالى واكرمها فيهولهم الا خروجها من بين الركن حذاء دار بنى ﴿ موسى ﴾ مخزوم عن يمين الخارج من المسجد فقوم يهربون وقوم يقفون نظارة وقيل يخرج من الصفا وروى ان عيسى عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون اذ تضطرب

الارض تحتهم تحرك القنديل وينشق الصفا مما يلي المسعى فتخرج الدابة من الصفا ومعها عصا موسى وخاتم سليمان عليهما السلام فتضرب المؤمن في مسجده بالعصا فتكت نكتة بيضاء فتفشو حتى يضيء لها وجهه وتكتب بين عينيه مؤمن وتنكت الكافر بالخاتم في أنفه فتفشو النكتة حتى يسود لها وجهه وتكتب بين عينيه كافر ثم تقول لهم أنت يا فلان من أهل الجنة وأنت يا فلان من أهل النار وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرع الصفا بعصاه وهو محرم وقال ان الدابة لتسمع قرع عصاي هذه وروى أبو هريرة عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال بئس الشعب شعب أجياد مرتين أو ثلاثا قيل ولم ذاك يا رسول الله قال تخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات يسمعها من بين الخافقين فتتكلم بالعربية بلسان ذلق وله تعالى (تكلمهم ان الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون) اي تكلمهم بانهم كانوا لا يوقنون بآيات الله تعالى الناطقة بمجيء الساعة ومباديها أو بجميع آياته التي من جملتها تلك الآيات وقيل بآياته التي من جملتها خروجها بين يدي الساعة والاول هو الحق كما ستحيط به علما وقرئ بان الناس

موسى عليه السلام وظاهر ذلك يدل على انه كان ممن قد آمن به ولا يبعد أيضا حمله على القرابة قال الكلبي انه كان ابن عم موسى عليه السلام لانه كان قارون بن يصهر بن قاهث ابن لاوى وموسى بن عمران بن قاهث بن لاوى وقال محمد بن اسحق انه كان عم موسى عليه السلام لان موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث وقارون بن يصهر بن قاهث وعن ابن عباس انه كان ابن خالته ثم قيل انه كان يسمى المنور لحسن صورته وكان اقرأ بني اسرائيل للتوراة الا انه نافق كما نافق السامري ❊ أما قوله فبغى عليهم ففيه وجوه (أحدها) انه بغى بسبب ماله وبغيه أنه استخف بالفقراء ولم يرع لهم حق الايمان ولا عظمهم مع كثرة أمواله (والثاني) انه من الظلم قيل ملكه فرعون على بني اسرائيل فظلمهم (الثالث) قال القفال بغى عليهم اي طلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت يده (الرابع) قال الضحاك طغى عليهم واستطال عليهم فلم يوافقهم في أمر (الخامس) قال ابن عباس تجبر وتكبر عليهم وسخط عليهم (السادس) قال شهر بن حوشب بغيه عليهم انه زاد عليهم في الثياب شبرا وهذا يعود الى التكبر (السابع) قال الكلبي بغيه عليهم انه حسد هرون على الحبورة يروى ان موسى عليه السلام لما قطع البحر وأغرق الله تعالى فرعون جعل الحبورة لهرون فحصلت له النبوة والحبورة وكان صاحب القربان والمذبح وكان لموسى الرسالة فوجد قارون من ذلك في نفسه فقال يا موسى لك الرسالة ولهرون الحبورة ولست في شيء ولا أصبر على هذا فقال موسى عليه السلام والله ما صنعت ذلك لهرون ولكن الله جعله له فقال والله لا أصدقك أبدا حتى تأتيني بآية أعرف بها ان الله جعل ذلك لهرون قال فامر موسى عليه السلام رؤساء بني اسرائيل أن يجيء كل رجل منهم بعصاه فجاؤا بها وألقاها موسى عليه السلام في قبته وكان ذلك بأمر الله تعالى فدعا ربه أن يريهم بيان ذلك وكانوا يحرسون عصيهم فأصبحت عصا هرون تهتز لها ورق أخضر وكانت من شجر اللوز فقال موسى يا قارون أما ترى ما صنع الله لهرون فقال والله ما هذا بأعجب مما تصنع من السحر فاعتزل قارون ومعه ناس كثير وولي هرون الحبورة والمذبح والقربان فكان بنو اسرائيل يأتون بهداياهم الى هرون فيعضها في المذبح وتنزل النار من السماء فتأكلها واعتزل قارون بأتباعه وكان كثير المال والنعم من بني اسرائيل فكان يأتي موسى عليه السلام ولا يجالسه وروى أبو امامة الباهلي عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال كان قارون من السبعين المختارة الذين سمعوا كلام الله تعالى ❊ أما قوله وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ففيه ابحاث (الاول) قال الكعبي ألستم تقولون ان الله لا يعطي الحرام فكيف أضاف الله مال قارون الى نفسه بقوله وآتيناه وأجاب بأنه لا حجة في انه كان حراما ويجوز أن من تقدمه من الملوك جمعوا وكنزوا فظفر قارون بذلك وكان هذا الظفر طريق التملك أو وصل اليه بالارث من جهات ثم بالتكسب من جهة المضاربات وغيرها وكان الكل محتملا (البحث الثاني) المفاتح جمع مفتح بكسر الميم وهو

الآية واضافة الآيات الى نون العظمة لانها حكاية منه تعالى لمعنى قولها لا لعين عبارتها وقيل لانها حكاية منها لقول الله عز وجل وقيل لاختصاصها به تعالى واثرتها عنده كما يقول بعض خواص الملك خيلنا وبلادنا وانما الخيل والبلاد لمولاه وقيل هناك مضاف محذوف اي بآيات ربنا ووصفهم بعدم الايقان بها مع أنهم كانوا جاحدين بها للايذان بانه كان من حقهم أن يوقنوا بها

و يقطعوا بصحتها وقد اتصفوا بنقيضه وقرئ ان الناس بالكسر على اضمار القول أو اجراء الكلام مجراه والكلام في الاضافة كالذي سبق وقيل هو استئناف مسوق من جهته تعالى لتعليل اخراجها أو تكليمها ويرده الجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل فانه صريح في كونه حكاية لعدم ايقانهم السابق في الدنيا والمراد بالناس اما الكفرة على الاطلاق أو مشركو مكة وقد روى عن وهب أنها تخبر كل من تراه ان أهل مكة كانوا بمحمد والقرآن لا يوقنون وقرئ تكلمهم من الكلم الذي هو الجرح والمراد به ما نقل من الوسم بالعصا والخاتم وقد جوز كون القراءة المشهورة أيضا منه لمعنى التكثير ولا يخفى بعده (ويوم نحشر من كل امة فوجا) اجمالي خاص بالمكذبين عند قيام الساعة بعد بيان بعض مباديها ويوم منصوب بمضمر خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام والمراد بهذا الحشر هو الحشر للعذاب بعد الحشر الكلي الشامل لكافة الخلق وتوجيه الامر بالذكر الى الوقت مع أن المقصود تذكير ما وقع فيه من الحوادث قد مر بيان سره مرارا أي واذكر لهم وقت حشرنا اي جمعنا من كل امة من أمم الانبياء عليهم الصلاة والسلام أو من أهل كل قرن من القرون جماعة كثيرة فمن تبعيضية لان كل امة منقسمة ﴿ للتنعم ﴾ الى مصدق ومكذب قوله تعالى) ممن يكذب بآياتنا (بيان للفوج أي فوجا مكذبين بها (فهم يوزعون) اي يحبس أولهم على آخرهم حتى يتلاحقوا ويجتمعوا في موقف التوبيخ والمناقشة وفيه من الدلالة على كثرة عددهم وتباعد اطرافهم ما لا يخفى

ما يفتح به وقيل هي الخزائن وقياس واحدها مفتح بفتح الميم ويقال ناء به الحمل اذا أثقله حتى أماله والعصبة الجماعة الكثيرة والعصابة مثلها فالعشرة عصبة بدليل قوله تعالى في اخوة يوسف عليه السلام ونحن عصبة وكانوا عشرة لان يوسف وأخاه لم يكونا معهم * اذا عرفت معنى الالفاظ فنقول ههنا قولان أحدهما ان المراد بالمفاتح المفاتيح وهي التي يفتح بها الباب قالوا كانت مفاتيحه من جلود الابل وكل مفتاح مثل اصبع وكان لكل خزانة مفتاح وكان اذا ركب قارون حملت المفاتيح على ستين بغلا ومن الناس من طعن في هذا القول من وجهين (الاول) ان مال الرجل الواحد لا يبلغ هذا المبلغ ولو انا قدرنا بلدة مملوءة من الذهب والجواهر لكفاها اعداد قليلة من المفاتيح فأي حاجة الى تكثير هذه المفاتيح (الثاني) أن الكنوز هي الاموال المدخرة في الارض فلا يجوز أن يكون لها مفاتيح والجواب عن الاول ان المال اذا كان من جنس العروض لا من جنس النقد جاز أن يبلغ في الكثرة الى هذا الحد وأيضا فهذا الذي يقال ان تلك المفاتيح بلغت ستين جملا ليس مذكورا في القرآن فلا تقبل هذه الرواية وتفسير القرآن أن تلك المفاتيح كانت كثيرة وكان كل واحد منها مميزا بشيء آخر فكان يدل على العصبة ضبطها ومعرفتها بسبب كثرتها وعلى هذا الوجه يزول الاستبعاد وعن الثاني أن ظاهر الكنز وان كان من جهة العرف ما قالوا فقد يقع على المال المجموع في المواضع التي عليها أغلاق (القول الثاني) وهو اختيار ابن عباس والحسن أن تحمل المفاتح على نفس المال وهذا أبين وعن الشعبي أيضا قال ابن عباس كانت خزائنه تحملها أربعون رجلا أقوياء وكانت خزائنه أربعة آلاف فيحمل كل رجل عشرة آلاف (القول الثالث) وهو اختيار ابي مسلم أن المراد من المفاتح العلم والاساطة كقوله وعنده مفاتح الغيب والمراد آتيناه من الكنوز ما أن حفظها والاطلاع عليها يثقل على العصبة أولي القوة والهداية اي هذه الكنوز لكثرتها واختلاف أصنافها تتعب حفظتها والقائمين عليها أن يحفظوها وهائم انه تعالى بين انه كان في قومه من وعظه بأمور (احدها) قوله لا تفرح ان الله لا يحب الفرحين والمراد لا يلهنك من نظر واقبال الدنيا ما يلهيه عن أمر الآخرة أصلا وقال بعضهم انه لا يفرح بالدنيا الا من رضي بها واطمأن اليها وما من عاقل يعلم انه سيفارق الدنيا عن قريب لم يفرح بها وما أحسن ما قال المتنبي

أشد الغم عندي في سرور * تيقن عنه صاحبه انتقالا

وأحسن وأوجز منه ما قال تعالى لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم قال ابن عباس كان فرحه ذلك شركا لانه ما كان يخاف معه عقوبة الله تعالى (وثانيها) قوله وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة والظاهر انه كان مقرا بالآخرة والمراد أن يصرف المال الى ما يؤديه الى الجنة ويسلك طريقة التواضع (وثالثها) قوله ولا تنس نصيبك من الدنيا وفيه وجوه (احدها) لعله كان مستغرق الهم في طلب الدنيا فلاجل ذلك ما كان يتفرغ

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أبو جهل والوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة يساقون بين يدى أهل مكة وهكذا يحشر قادة سائر الامم بين أيديهم الى النار (حتى اذا جاؤا) الى موقف السؤال والجواب والمناقشة والحساب (قال) اى الله عز وجل موبخا لهم على التكذيب والالتفات ﴿ ٦٢٩ ﴾ لتربية المهابة (أكذبتم بآياتى) الناطقة بلقاء يومكم هذا وقوله تعالى (ولم تحيطوا بها علما) جملة حالية مفيدة لزيادة شناعة التكذيب وغاية قبحه ومؤكدة للانكار والتوبيخ اى أكذبتم بها بادى الرأى غير ناظرين فيها نظرا يؤدى الى العلم بكنهها وأنها حقيقة بالتصديق حتما وهذا نص فى أن المراد بالآيات فيما سلف فى الموضعين هى الآيات القرآنية لانها المنطوية على دلائل الصحة وشواهد الصدق التى لم يحيطوا بها علما مع وجوب أن يتأملوا ويتدبروا فيها لانفس الساعة وما فيها وقيل هو معطوف على كذبتم اى أجمعتم بين التكذيب وعدم التدبر فيها (أم ماذا كنتم تعملون) اى أم أى شئ كنتم تعملون بها أو أم أى شئ كنتم تعملون غير ذلك بمعنى انه لم يكن لهم عمل غير ذلك كأنهم لم يخلقوا الا للكفر والمعاصى مع أنهم ما خلقوا الا للايمان والطاعة

للتنعم والالتذاذ فنهاه الواعظ عن ذلك (وثانيها) لما أمره الواعظ بصرف المال الى الاخرة بين له بهذا الكلام انه لا بأس بالتمتع بالوجوه المباحة (وثالثها) المراد منه الانفاق فى طاعة الله فان ذلك هو نصيب المرء من الدنيا دون الذى يأكل ويشرب قال عليه السلام فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحياة قبل الموت فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا دار الا الجنة والنار (ورابعها) قوله وأحسن كما أحسن الله اليك لما أمره بالاحسان بالمال أمره بالاحسان مطلقا ويدخل فيه الاعانة بالمال والجاه وطلاقة الوجه وحسن اللقاء وحسن الذكر وانما قال كما أحسن الله اليك تنبيها على قوله ولئن شكرتم لأزيدنكم (وخامسها) قوله ولا تبغ الفساد فى الارض والمراد ما كان عليه من الظلم والبغى وقيل ان هذا القائل هو موسى عليه السلام وقال آخرون بل مؤمن قومه وكيف كان فقد جمع فى هذا الوعظ ما لو قبل لم يكن عليه مزيد لكنه أبى أن يقبل بل زاد عليه بكفر النعمة فقال انما أوتيته على علم عندى وفيه وجوه (أحدها) قال قتادة ومقاتل والكلبى كان قارون اقرأ بنى اسرائيل للتوراة فقال انما أوتيته لفضل علمى واستحقاقى لذلك (وثانيها) قال سعيد بن المسيب والضحاك كان موسى عليه السلام أنزل عليه علم الكيمياء من السماء فعلم قارون ثلث العلم ويوشع ثلثه وكالب ثلثه فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما الى علمه فكان يأخذ الرصاص فيجعله فضة والنحاس فيجعله ذهبا (وثالثها) أراد به علمه بوجوه المكاسب والتجارات (ورابعها) ان يكون قوله انما أوتيته على علم عندى اى الله أعطانى ذلك مع كونه عالما بى وبأحوالى فلو لم يكن ذلك مصلحة لما فعل وقوله عندى اى عندى ان الامر كذلك كما يقول المفتى عندى ان الامر كذلك اى مذهبى واعتقادى ذلك ثم أجاب الله تعالى عن كلامه بقوله أولم يعلم أن الله قد اهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا وفيه وجهان (الاول) يجوز أن يكون هذا اثباتا لعلمه بأن الله تعالى قد أهلك قبله من القرون من هو أقوى منه وأغنى لانه قد قرأه فى التوراة وأخبر به موسى عليه السلام وسمعه من خفاظ التواريخ كأنه قيل له أولم يعلم فى جملة ما عنده من العلم هذا حتى لا يغتر بكثرة ماله وقوته (الثانى) يجوز أن يكون نفيا لعلمه بذلك كأنه لما قال أوتيته على علم عندى فتصلف بالعلم وتعظم به قيل اعنده مثل ذلك العلم الذى ادعاه ورأى نفسه به مستوجبة لكل نعمة ولم يعلم هذا العلم النافع حتى بقى به نفسه مصارع الهالكين أما قوله وأكثر جمعا فالمعنى انا أكثر جمعا للمال أو أكثر جماعة وعددا وحاصل الجواب أن اغتراره بماله وقوته وجموعه من الخطأ العظيم وانه تعالى اذا أراد اهلاكه لم ينفعه ذلك ولا يمتنع بدعليه اضعافا فاما قوله ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون فالمراد ان الله تعالى اذا عاقب المجرمين فلا حاجة به الى أن يسألهم عن كيفية ذنوبهم وكميتها لانه تعالى عالم بكل المعلومات فلا حاجة به الى السؤال فان قيل كيف الجمع بينه وبين قوله

يخاطبون بذلك تبكيتا ثم يكبون فى النار وذلك قوله تعالى (ووقع القول عليهم) اى حل بهم العذاب الذى هو مدلول القول الناطق بحلوله ونزوله (بما ظلموا).

بسبب ظلمهم الذى هو تكذيبهم بآيات الله (فهم لا ينطقون) لانقطاعهم عن الجواب بالكلية وابتلائهم بشغل شاغل من العذاب الاليم (ألم يروا انا جعلنا الليل ليسكنوا فيه) الرؤية قلبية لا بصرية لان نفس الليل والنهار وان كانا من المبصرات لكن جعلهما كذا ذكر من قبيل المعقولات اى ألم يعلموا أنا ﴿ ٦٣٠ ﴾ جعلنا الليل بما فيه من الاظلام ليستريحوا فيه بالنوم والقرار (والنهار مبصرا) اى ليبصروا بما فيه من الاضاءة طرق التقلب فى أمور المعاش فبولغ فيه حيث جعل الابصار الذى هو حال الناس حالا له ووصفا من أوصافه التى جعل عليها بحيث لا ينفك عنها ولم يرد بذلك فى الليل هذا المسلك لما أن تأثير ظلام الليل فى السكون ليس بمثابة تأثير ضوء النهار فى الابصار (أن فى ذلك) اى فى جعلهما كما وصفنا وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للاشعار ببعد درجته فى الفضل (لآيات) اى عظيمة كثيرة (لقوم يؤمنون) دالة على صحة البعث وصدق الآيات الناطقة به دلالة واضحة كيف لا وان من تأمل فى تعاقب الليل والنهار واختلافهما على وجوه بديعة على حكم رائقة تحار فى فهمها العقول ولا يحيط بها الا الله عز وجل وشاهد فى الآفاق تبدل ظلمة الليل المحاكية للموت بضياء النهار المضاهى للحياة وعاين فى نفسه تبدل النوم الذى هو أخو الموت بالانتباه ﴿ رجعنا ﴾ الذى هو مثل الحياة قضى بان الساعة آتية لا ريب فيها

فوربك لنسألنهم أجمعين فلنا يحمل ذلك على وقتين على ما قررناه وذكر أبو مسلم وجها آخر فقال السؤال قد يكون للمحاسبة وقد يكون للتقرير والتبكيت وقد يكون للاستعتاب وأليق الوجوه بهذه الآية الاستعتاب لقوله ثم لا يؤذن للذين كفروا ولا هم يستعتبون هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون * قوله تعالى (فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحيوة الدنيا يالیت لنا مثل ما أوتى قارون انه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها الا الصابرون فخسفنا به وبداره الارض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين) أما قوله فخرج على قومه فى زينته فيدل على انه خرج باظهر زينة وأكملها وليس فى القرآن الا هذا القدر الا ان الناس ذكروا وجوها مختلفة فى كيفية تلك الزينة قال مقاتل خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف فارس على الخيول وعليها الثياب الارجوانية ومعه ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلى والثياب الحمر على البغال الشهب وقال بعضهم بل خرج فى تسعين ألفا هكذا وقال آخرون بل فى ثمانية والاولى ترك هذه التقديرات لانها متعارضة ثم ان الناس لما رأوه على تلك الزينة قال من كان منهم يرغب فى الدنيا يالیت لنا مثل ما أوتى قارون من هذه الامور والاموال والراغبون يحتمل أن يكونوا من الكفار وأن يكونوا من المسلمين الذين يحبون الدنيا ومن جهلة أهل الدين فقالوا للذين تمنوا هذا ويلكم ثواب الله خير من هذه النعم لان الثواب منافع عظيمة وخالصة عن شوائب المضار دائمة وهذه النعم عاجلة على الضد من هذه الصفات الثلاث قال صاحب الكشاف ويل أصله الدعاء بالهلاك ثم استعمل فى الزجر والردع والبعث على ترك ما لا يرتضى اما قوله ولا يلقاها الا الصابرون فقال المفسرون لا يوفق لها ولا يلقنها الى ما يعود فيه وجهان (احدهما) الى ما دل عليه فعله آمن وعمل صالحا يعنى هذه الاعمال لا يوتاها الا الصابرون (والثانى) قال الزجاج يعنى ولا يلقى هذه الكلمة وهى قولهم ثواب الله خير الا الصابرون على أداء الطاعات والاحتراز عن المحرمات وعلى الرضا بقضاء الله فى كل ما يسلم من المنافع والمضار وأما قوله فخسفنا به وبداره الارض ففيه وجهان (احدهما) انه لما أشر وبطر وعتا خسف الله به وبداره الارض جزاء على عتوه وبطره والفاء تدل على ذلك لان الفاء تشعر بالعلية (وثانيها) قيل ان قارون كان يؤذى نبى الله موسى عليه السلام كل وقت وهو يداريه للقرابة التى بينهما حتى نزلت الزكاة فصالحه عن كل ألف دينار على دينار وعن كل ألف درهم على درهم فحسبه فاستكثره فثحت نفسه فجمع بنى اسرائيل وقال ان موسى يريد أن يأخذ أموالكم فقالوا أنت سيدنا وكبيرنا فمرنا بما شئت قال نبرطل فلانة البغى حتى تنسبه الى نفسها فيرفضه بنو اسرائيل فجعل لها طشتا من ذهب مملوأ ذهبا فلما كان يوم عيد قام موسى فقال يا بنى اسرائيل من سرق قطعناه ومن زنى وهو غير محصن جلدناه وان أحصن

وأن الله يبعث من في القبور قضاء متناوجزم بانه تعالى قد جعل هذا انموذجا له ودليلا يستدل به على تحققه وأن الآيات الناطقة به و يكون حال الليل والنهار برهانا عليه وسائر الآيات كلها حق نازل من عند الله تعالى (و يوم ينفخ في الصور) اما معطوف على يوم نحشر منصوب بناصبه ﴿ ٦٣١ ﴾ أو بمضمر معطوف عليه والصور هو القرن الذي ينفخ فيه

رجعناه فقال قارون وان كنت أنت قال وان كنت أنا قال فان بني اسرائيل يقولون انك فجرت بفلانة فاحضرت فناشدها موسى بالله الذي فلق البحر وأنزل التوراة أن تصدق فتدارك الله تعالى فقالت كذبوا بل جعل لي قارون جعلا على أن أفتك بنفسي فخر موسى ساجدا يبكي وقال يارب ان كنت رسولك فاغضب لي فاوحى الله عز وجل اليه أني مر الارض بما شئت فانها مطيعة لك فقال يابني اسرائيل ان الله بعثني الى قارون كما بعثني الى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معي فليعتزل فاعتزلوا جميعا غير رجلين ثم قال يا أرض خذيهم فاخذتهم الى الركب ثم قال خذيهم فاخذتهم الى الاوساط ثم قال خذيهم فاخذتهم الى الاعناق وقارون وأصحابه يتضرعون الى موسى عليه السلام و يناشدونه بالله والرحم وموسى لا يلتفت اليهم لشدة غضبه ثم قال خذيهم فانطبقت الارض عليهم فاوحى الله تعالى الى موسى عليه السلام ما أفظك استغاثوا بك مرارا فلم ترحمهم اما وعزتي لو دعوني مرة واحدة لوجدوني قريبا فاصبحت بنو اسرائيل يتناجون بينهم انما دعا موسى على قارون ليستبد بداره وكنوزه فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله ثم ان قارون يخسف به كل يوم مرة فمرة قال القاضي اذا هلك بالخسف فسواء نزل عن ظاهر الارض الى الارضين السابعة أو دون ذلك فانه لا يمتنع ما روى على وجه المبالغة في الزجر واما قولهم انه تعالى قال لو استغاث بي لاغثته فان صح حمل على استغاثته مقرونة بالتوبة فاما وهو ثابت على ما هو عليه مع انه تعالى هو الذي حكم بذلك الخسف لان موسى عليه السلام ما فعله الا عن أمره فبعيد وقولهم انه يتجلجل في الارض أبدا فبعيد لانه لا بد له من نهاية وكذا القول فيما ذكر من عدد اقامات والذي عندي في أمثال هذه الحكايات انها قليلة الفائدة لانها من باب اخبار الآحاد فلا تفيد اليقين وليست المسئلة مسئلة عملية حتى يكتفى فيها بالظن ثم انها في أكثر الامر متعارضة مضطربة فالاولى طرحها والاكتفاء بما دل عليه نص القرآن وتفويض سائر التفاصيل الى عالم الغيب اما قوله وما كان من المنتصرين فالمراد من المنتقمين من موسى أو من الممتنعين من عذاب الله تعالى يقال نصره من عدوه فانتصر أي منعه منه فامتنع ﴿ قوله تعالى (واصبح الذين تمنوا مكانه بالامس يقولون و يكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر لولا ان من الله علينا لخسف بنا و يكأنه لا يفلح الكافرون تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين) اعلم أن القوم الذين شاهدوا قارون في زينته لما شاهدوا ما نزل به من الخسف صار ذلك زاجرا لهم عن حب الدنيا ومخالفة موسى عليه السلام وداعيا الى الرضاء بقضاء الله تعالى وقسمته والى اظهار الطاعة والانقياد لانبياء الله ورسله اما قوله و يكأن الله فاعلم ان وى كلمة مفصولة عن كأن وهي كلمة مستعملة عند التنبه للخطأ واظهار التندم فلما قالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون ثم شاهدوا الخسف تنبهوا لخطائهم فقالوا وى ثم قالوا كأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده بحسب

اسرافيل عليه السلام عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما فرغ الله تعالى من خلق السموات والارض خلق الصور فأعطاه اسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره الى العرش متى يؤمر قال قلت يا رسول الله ما الصور قال القرن قال قلت كيف هو قال عظيم والذي نفسي بيده ان عظم دارة فيه كعرض السماء والارض فيؤمر بالنفخ فيه فينفخ نفخة لا يبقى عندها في الحياة أحد غير من شاء الله تعالى وذلك قوله تعالى ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض الا من شاء الله ثم يؤمر بأخرى فينفخ نفخة لا يبقى معها ميت الا بعث وقام وذلك قوله تعالى ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون والذي يستدعيه سباق النظم الكريم وسياقه أن المراد بالنفخ ههنا هي النفخة الثانية و بالفزع في قوله تعالى (ففزع من في السموات ومن في الارض) ما يعتري الكل عند البعث والنشور بمشاهدة الامور الهائلة الخارقة للعادات في الانفس

والآفاق من الرعب والتهيب الضرورين الجبليين وايراد صيغة الماضي مع كون المعطوف عليه أعني ينفخ مضارعا للدلالة على تحقق وقوعه اثر النفخ ولعل تأخير بيان الاحوال الواقعة عند ابتداء النفخة عن بيان مايقع بعدها من حشر المكذبين من كل أمة لتثنية التهويل بتكرير التذكير ايذانا بان كل واحد منهما

بالتذكير على حيالها ولو روعي الترتيب الوقوعي لربما توهم أن اكل داهية واحدة وقد أمر بذكرها كما مر في قصة البقرة (الا من شاء الله) اى أن لا يفزع قيل هم جبريل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل عليهم السلام وقيل الحور والخزنة وحملة العرش (وكل) اى كل واحد من المبعوثين عند النفخة (أتوه) حضروا الموقف بين يدي رب العزة جل جلاله السؤال والجواب والمناقشة والحساب وقرئ أتاه باعتبار لفظ الكل كما أن القراءة الاولى باعتبار معناه وقرئ آتوه اى حاضروه (داخرين) اى صاغرين وقرئ دخرين وقوله تعالى (وترى الجبال) عطف على ينفخ داخل في حكم التذكير وقوله عز وجل (تحسبها جامدة) اى ثابتة في أماكنها اما بدل منه أو حال من ضمير ترى أو من مفعوله وقوله تعالى (وهي تمر مر السحاب) حال من ضمير الجبال في تحسبها أو في جامدة اى تراها رأى العين ساكنة والحال أنها تمر مر السحاب التي تسيرها الرياح سيرا حثيثا وذلك أن ﴿ تبغيض ﴾ الاجرام العظام اذا تحركت نحو سمت لا تكاد تتبين حركتها وعليه قول من قال

مشيئته وحكمته لا لكرامته عليه و يضيق على من يشاء لا لهوان من يضيق عليه بل لحكمته وقضائه ابتلاء وفتنة (قال سيبويه) سألت الخليل عن هذا الحرف فقال ان وى مفصولة من كأن وان القوم تنبهوا وقالوا متندمين على ماسلف منهم وى وذكر الفراء وجهين (احدهما) ان المعنى ويلك فحذف اللام وانما جاز هذا الحذف لكثرتها في الكلام وجعل أن مفتوحة بفعل مضمر كأنه قال ويلك اعلم أن الله وهذا قول قطرب حكاه عن يونس (الثاني) وى منفصلة من كأن وهو للتعجب يقول الرجل لغيره وى أما ترى ما بين يديك فقال الله وى ثم استأنف كأن الله يبسط فالله تعالى انما ذكرها تعجيبا لخلقه قال الواحدي وهذا وجه مستقيم غير أن العرب لم تكتبها مفصلة ولو كان على ماقالوه لكتبوها منفصلة وأجاب الاولون بان خط المصحف لا يقاس عليه ثم قالوا والولا ان من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون وهذا تأكيد لما قبله أما قوله تلك الدار الآخرة فتعظيم لها وتفخيم لشأنها يعني تلك التي سمعت بذكرها و بلغك وصفها ولم يعلق الوعد بترك العلو والفساد ولكن بترك ارادتهما وميل القلب اليهما وعن علي عليه السلام ان الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها قال صاحب الكشاف والضمائر من يجعل العلو لفرعون لقوله ان فرعون علا في الارض والفساد لقارون لقوله ولا تبغ الفساد في الارض يقول من لم يكن مثل فرعون وقارون فله تلك الدار الآخرة ولا يتدبر قوله والعاقبة للمتقين كما تدبره علي بن أبي طالب عليه السلام ﴿ قوله تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد قل ربي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين ولا يصدنك عن آيات الله بعد اذ انزلت اليك وادع الى ربك ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله الها آخر لا اله الا هو كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون) اعلم أنه تعالى لما بين ان الدار الآخرة ليست لمن يريد علوا في الارض ولا فسادا بل هي للمتقين بين بعد ذلك ما يحصل لهم فقال من جاء بالحسنة فله خير منها وفيه وجوه (احدها) المعنى من جاء بالحسنة حصل له من تلك الكلمة خير (وثانيها) حصل له شيء هو أفضل من تلك الحسنة ومعناه انهم يزادون على ثوابهم وقدمر تفسيره في آخر النمل واما قوله ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات الا ما كانوا يعملون فظاهره أن لا يزادوا على ما يستحقون واذا صح ذلك في السيئات دل على ان المراد في الحسنات بما هو خير منها ماذكرناه من مزيد الفضل على الثواب قال صاحب الكشاف تقدير الآية ومن جاء بالسيئة فلا يجزون الا ما كانوا يعملون لكنه كرر ذلك لان في اسناد عمل السيئة اليهم مكررا فضل تهجين لحالهم وزيادة

بارعن مثل الطود تحسب أنهم وقوف لحاج والركاب تهملج وقد ادمج فى هذا التشبيه تشبيه حال الجبال بحال السحاب فى تخلخل الاجزاء وانتفاشها كما فى قوله تعالى وتكون الجبال كالعهن المنفوش وهذا أيضا مما يقع بعد النفخة الثانية عند حشر الخلق يبدل الله عز وجل الارض غير الارض ﴿ ٦٣٣ ﴾ و بغيرها آتها و يسير الجبال عن مقارها على ماذكر من الهيئة

تبغيض للسيئة الى قلوب السامعين وهذا من فضله العظيم انه لا يجزى بالسيئة الا مثلها و يجزى بالحسنة عشر أمثالها وههنا سؤالان (السؤال الاول) قال تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وان أسأتم فلها كرر ذلك الاحسان واكتفى بذكر الاساءة مرة واحدة وفى هذه الآية كرر ذكر الاساءة مرتين واكتفى فى ذكر الاحسان مرة واحدة فالسبب الجواب لان هذا المقام مقام الترغيب فى الدار الآخرة فكانت المبالغة فى الزجر عن المعصية لائقة بهذا الباب لان المبالغة فى الزجر عن المعصية مبالغة فى الدعوة الى الآخرة واما الآية الاخرى فهى شرح حالهم فكانت المبالغة فى ذكر محاسنهم اولى (السؤال الثانى) كيف قال لا تجزى السيئة الا بمثلها مع ان المتكلم بكلمة الكفر اذا مات فى الحال عذب أبد الآباد والجواب لانه كان على عزم انه لو عاش أبدا لقال ذلك فهو مؤاخذ بمقتضى عزمه (قال الجبائى) وهذا يدل على بطلان مذهب من يجوز على الله تعالى أن يعذب الاطفال عذابا دائما بغير جرم قلنا لا يجوز أن يفعله وليس فى الآية ما يدل عليه ثم انه سبحانه لما شرح لرسوله أمر القيامة واستقصى فى ذلك شرح له ما يتصل بأحواله فقال ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد قال أبو على الذى فرض عليك أحكامه وتلاوته لرادك بعد الموت الى معاد وتنكير المعاد لتعظيمه كأنه قيل الى معاد وأى معاد أو ليس لعمرك من الشرف ما يقبل المراد به مكة ووجهه أن يريد به ما وعده اياها يوم الفتح ووجه تنكيره انها كانت فى ذلك اليوم معادا له شأن عظيم لاستيلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها وقهره لاهلها واظهاره عز الاسلام واذلال حزب الكفر والشرك مكة فكان الله تعالى وعده هو بلده فى اذى وغلبة من أهلها أنه يخرجه منها و يعيده اليها ظاهرا ظافرا وقال مقاتل انه عليه السلام خرج من الغار وسار على غير الطريق مخافة الطلب فلما أمن رجع الى الطريق ونزل بالجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق الى مكة واشتاق اليها وذكر مولده ومولد آبائه فنزل جبريل عليه السلام وقال تشتاق الى بلدك ومولدك فقال عليه السلام نعم فقال جبريل عليه السلام فان الله تعالى يقول ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد يعنى الى مكة ظاهرا عليهم وهذا أقرب لان ظاهر المعاد انه كان فيه وفارقه وحصل العود وذلك لا يليق الا بمكة وان كان سائر الوجوه محتملا لكن ذلك أقرب قال أهل التحقيق وهذا أحد ما يدل على نبوته لانه اخبر عن الغيب ووقع كما أخبر فيكون معجزا ثم قال قل ربى أعلم من جاء بالهدى ومن هو فى ضلال مبين ووجه تعلقه بما قبله ان الله تعالى لما وعد رسوله الرد الى معاد قال قل للمشركين ربى أعلم من جاء بالهدى يعنى نفسه وما يستحقه من الثواب فى المعاد والاعزاز بالاعادة الى مكة ومن هو فى ضلال مبين يعنيهم وما يستحقون من العقاب فى معادهم ثم قال لرسوله وما كنت ترجو ان يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك ففى كلمة الاوجهان (أحدهما) انها للاستثناء ثم قال صاحب الكشاف هذا كلام محمول على

الهائلة ليشاهدها أهل المحشر وهى وان اندكت وتصدعت عند النفخة الاولى لكن تسييرها وتسوية الارض انما يكونان بعد النفخة الثانية كما نطق به قوله تعالى و يسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا فيذرها قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا يومئذ يتبعون الداعى وقوله تعالى يوم تبدل الارض غير الارض والسموات و برزوا لله الواحد القهار فان قيل الداعى الذى هو اسرافيل عليه السلام و بروز الخلق لله تعالى لا يكون الا بعد النفخة الثانية وقد قالوا فى تفسير قوله تعالى و يوم نسير الجبال وترى الارض بارزة وحشرناهم ان صيغة الماضى فى المعطوف مع كون المعطوف عليه مستقبلا للدلالة على تقدم الحشر على التسيير والرؤية كأنه قيل وحشرناهم قبل ذلك هذا وقد قيل ان المراد هى النفخة الاولى والفزع هو الذى يستتبع الموت

نهاية شدة الهول كما فى قوله تعالى ﴿ ٨٠ س ﴾ فصعق من فى السموات ومن فى الارض الآية فيختص أثرها بمن

نحيا عند وقوعها دون من مات قبل ذلك من الامم وجوز ان يراد بالاتيان داخرين

رجوعهم الى أمره تعالى وانقيادهم له ولا ريب فى أن ذلك مما ينبغى أن ينزه ساحة التنزيل عن أمثاله وابعد من هذا ما قيل ان المراد بهذه النفخة نفخة الفزع التى تكون قبل نفخة الصعق وهى التى أريدت بقوله تعالى ما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة مالها من فواق فيسير الله تعالى عندها الجبال فتمر ﴿ ٦٣٤ ﴾ مر السحاب فتكون سرابا وترج الارض بأهلها رجا فتكون كالسفينة الوثقة فى البحر أو كالقنديل المعلق ترجه الارواح فانه مما لا ارتباط له بالمقام قضعا والحق الذى لا محيد عنه ما قدمناه ومما هو نص فى الباب ما سيأتى من قوله تعالى وهم من فزع يومئذ آمنون (صنع الله) مصدر مؤكد لمضمون ما قبله أى صنع الله ذلك صنعا على أنه عبارة عن ذكر من النفخ فى الصور وما ترتب عليه جميعا فصدره بالتنبيه على عظم شأن ما ذكر بعد وتهويل أمر هذا الايذان بأنها ليست بطريق اخلال نظام العالم وافساد أحوال الاكوان بالكلية من غير أن يدعو اليها داعية أو يكون لها غاية بل هى من قبيل بدائع صنع الله تعالى المبنية على أساس الحكمة المستتبعة لغايات جميلة التى لاجلها رتبت مقدمات الخلق ومبادى الابداع على الوجه المتين والنهج الرصين كما يعرب عنه قوله تعالى (الذى اتقن كل شئ) أى أحكم خلقه وسواه على ما تقتضيه الحكمة وقوله تعالى (انه خبير بما يفعلون) تعليل ﴿ لقوله ﴾ لكون ما ذكر صنعا محكما له تعالى ببيان أن علمه تعالى بظواهر

المعنى كأنه قيل وما ألقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك ويمكن أيضا اجراؤه على ظاهره أى وما كنت ترجوا الا أن يرحمك الله برحمة فينعم عليك بذلك أى ما كنت ترجو الا على هذا (والوجه الثانى) ان الا بمعنى لكن للاستدراك أى ولكن رحمة من ربك ألقى اليك ونظيره قوله وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك خصصك به ثم انه كلفه بأمور (أحدها) كلفه بأن لا يكون مظاهرا للكفار فقال فلا تكونن ظهيرا للكافرين (وثانيها) ان قال ولا يصدنك عن آيات الله بعد اذ أنزلت اليك المبل الى المشركين قال الصحاك وذلك حين دعوه الى دين آبائه ليرجوع ويقاسموه شطر اموالهم أى لا تلتفت الى هؤلاء ولا تركن الى قولهم فيصدونك عن اتباع آيات الله (وثالثها) قوله وادع الى ربك أى الى دين ربك واراد التشديد فى دعاء الكفار والمشركين فلذلك قال ولا تكونن من المشركين ثم ذكر رضى بعض تقتهم أو ما ان اليهم كان منهم (ورابعها) قوله ولا تدع مع الله الها آخر وهذا وان كان واجبا على الكل الا أنه تعالى خاطبه به خصوصا لاجل التعظيم قال قيل الرسول كان معلوما منه أن لا يفعل شيئا من ذلك البتة فما فائدة هذا النهى وجوابه الخ ... وكل لمراد غيره وجوزا أن يكون المعنى لا تعتقد على غير الله ولا تحدث نفسك بأن ... ورك فاعلن نفى غير الله تعالى فكأنه لم يكمل سر يته فى التوحيد ثم بين انه لا الاله أى لا نافع ولا ضار ولا معطى ولا مانع الا هو كقوله رب المشرق والمغرب لا اله الا هو فاتخذه وكيلا فلا يجوز اتخاذ الله سواه ثم قال كل شئ هالك الا وجهه وفيه مسائل (المسئلة الاولى) اختلفوا فى قوله كل شئ هالك فمن الناس من فسر الهلاك بالعدم والمعنى ان الله تعالى حكم على كل شئ سواه وانهم من فسر الهلاك بالخروج عن كونه منتفعا به مايا ما أو بتفريق الاجزاء وان كانت اجزاؤه باقية فانه يقال هلك ثوبه وهلك الطباخ والمريدون به ما ذكرنا أنه بل خروجه عن كونه منتفعا به ومنهم من قال معنى كونه هالكا كونه قابلا للهلاك فى ذاته فان كل ما عداه ممكن الوجود لذاته وكل ما كان ممكن الوجود كان قابلا للعدم وكان قابلا للهلاك وأطلق عليه اسم الهلاك نظرا الى هذا الوجه واعلم ان المتكلمين لما أرادوا اقامة الدلالة على ان كل شئ سوى الله تعالى يقبل العدم والهلاك قالوا ثبت ان العالم محدث وكل ما كان محدثا فان حقيقته قابلة للعدم والوجود وكل ما كان كذلك وجب أن يبقى على هذه الحالة أبدا لان الامكان من لوازم الماهية ولازم الماهية لا يزول قط الا انا لما نظرنا فى هذه الدلالة ما وجدناها وافية بهذا الغرض لانهم انما أقاموا الدلالة على حدوث الاجسام والاعراض فلو قدروا على اقامة الدلالة على ان ماسوى الله تعالى اما متحيز أو قائم بالمتحيز لتم غرضهم الا أن الخصم يثبت موجودات لا متحيزة ولا قائمة بالمتحيز فالدليل الذى يبين حدوث المتحيز والقائم بالمتحيز لا يبين حدوث كل ماسوى الله تعالى الا بعد قيام الدلالة على نفى ذلك القسم الثالث ولهم فى نفى هذا القسم الثالث طريقان (أحدهما)

أفعال المكلفين و بواطنها مما يدعوا الى اظهارها و بيان كيفياتها على ماهي عليه من الحسن والسوء وترتيب اجزيتها عليها بعد بعثهم وحشرهم وجعل السموات والارض والجبال على وفق ما نطق به التنزيل ليتحققوا بمشاهدة ذلك أن وعد الله حق لا ريب فيه وقرئ خبير بما يفعلون ﴿ ٦٣٥ ﴾ وقوله تعالى (من جاء بالحسنة فله خير منها) بيان

فولهم لا دليل عليه فوجب نفيه وهذه طريقة ركيكة بيناسقوطها في الكتب الكلامية (والثاني) قولهم لو وجد موجود هكذا لكان مشاركا لله تعالى في نفي المكان والزمان والامكان ولو كان كذلك لصار مثلا لله تعالى وهو ضعيف لاحتمال أن يقال انهما وان اشتركا في هذا السلب الا أنه يتميز كل واحد منهما عن الآخر بماهية وحقيقة واذا كان كذلك ظهر أن دليلهم العقلي لا ينفي باثبات اكثر شئ هالك الا وجهه والذي يعتمد عليه في هذا الباب ان نقول ثبت ان صانع العالم واجب الوجود لذاته فيستحيل وجود موجود آخر واجب لذاته والا لاشتركا في الوجوب وامتاز كل واحد منهما عن الآخر بخصوصيته وما به المشاركة غير ما به الممايزة فيكون كل واحد منهما مركبا عما به المشاركة وعما به الممايز وكل مركب ممكن مفتقر الى جزئه ثم ان الجزأين ان كانا واجبين كانا مشتركين في الوجوب ومتمايزين باعتبار آخر فيلزم تركب كل واحد منهما أيضا ويلزم التسلسل وهو محال وان لم يكونا واجبين فالمركب عنهما افتقارهما أولى أن لا يكون واجبا فثبت ان واجب الوجود واحد وان كل ما عداه فهو ممكن وكل ممكن فلابد له من مرجح فافتقاره الى المرجح اما حال عدمه أو حال وجوده فان كان الاول ثبت انه محدث وان كان الثاني فافتقار الوجود الى المؤثر اما حال حدوثه أو حال بقائه والثاني باطل لانه يلزم ايجاد الموجود وهو محال فثبت ان الافتقار لا ينفصل الا حال الحدوث وثبت ان كل ما سوى الله تعالى محدث سواء كان متحيزا أو قائما بالمتحيز أو لا متحيز ولا قائما بالمتحيز بل نقضت هذه الدلالة بذات الله وصفاته فاعلم ان هناك فرقا فانه لو اذا ثبت حدوث كل ما سواه وثبت ان كل ما كان محدثا كان قابلا للعدم ثبت بهذا البرهان ان كل شئ هالك الا وجهه بمعنى كونه قابلا للهلاك والعدم ثم ان الذين فسروا الآية بذلك قالوا هذا أولى وذلك لانه سبحانه حكم بكونها هالكة في الحال وعلى ما قلناه فهي هالكة في الحال وعلى ما قلتموه انها ستهلك لانها هالكة في الحال فكان قولنا أولى وأيضا فالممكن اذا وجد من حيث هو هو لم يكن مستحقا لا للوجود ولا للعدم من ذاته فهذه الاستحقاقية مستحقة له من ذاته وأما الوجود فوارد عليه من الخارج فالوجود له كالثوب المستعار له وهو من حيث هو هو كالانسان الفقير الذي استعار ثوبا من رجل غني فان الفقير لا يخرج بسبب ذلك عن كونه فقيرا كذا الممكنات عارية عن الوجود من حيث هي هي وانما الوجود ثوب حصل لها بالعارية فصح انها ابدا هالكة من حيث هي هي أما الذين حملوه على انها ستعدم فقد احتجوا بان قالوا الهلاك في اللغة له معنيان أحدهما خروج الشئ عن ان يكون منتفعا به والثاني الفناء والعدم لا يجوز حمل اللفظ على الاول لان هلاكها بمعنى خروجها عن حد الانتفاع محال لانها وان تفرقت اجزاؤها فانها منتفع بها لان النفع المطلوب كونها بحيث يمكن ان يستدل بها على وجود الصانع القديم وهذه المنفعة باقية سواء بقيت متفرقة أو مجتمعة وسواء بقيت موجودة أو صارت معدومة واذا تعذر حمل الهلاك

لما أشير اليه باحاطة علمه تعالى بأفعالهم من ترتيب أجزيتها عليها أي من جاء منكم أو من أولئك الذين أتوه تعالى بالحسنة فله من الجزاء ما هو خير منها اما باعتبار أنه أضعافها واما باعتبار دوامه وانقضائها وقيل فله خير حاصل من جهتها وهو الجنة وعن ابن عباس رضي الله عنهما الحسنة كلمة الشهادة (وهم) أي الذين جاؤا بالحسنات (من فزع) أي عظيم هائل لا يقادر قدره وهو الفزع الحاصل من مشاهدة العذاب بعد تمام المحاسبة وظهور الحسنات والسيآت وهو الذي في قوله تعالى لا يحزنهم الفزع الاكبر وعن الحسن رحمه الله تعالى حين يؤمر بالعبد الى النار وقال ابن جريج حين يذبح الموت وينادي المنادي يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت (يومئذ) أي يوم اذ ينفخ في الصور (آمنون) لا يعتريهم ذلك الفزع الهائل ولا يلحقهم ضرره أصلا وأما الفزع الذي يعتري كل من في السموات ومن في الارض غير من استثناه الله تعالى فانما هو التهيب والرعب الحاصل في ابتداء النفخة من معاينة فنون الدواهي والاهوال ولا يكاد يخلو منه أحد بحكم الجبلة وان كان

آمنا من لحوق الضرر والامن يستعمل بالجار وبدونه كما في قوله تعالى أفامنوا مكر الله وقرئ من فزع يومئذ بالاضافة مع كسر الميم وفتحها أيضا والمراد هو الفزع المذكور في القراءة الاولى لاجميع الافزاع الحاصلة يومئذ ومدار الاضافة كونه أعم الافزاع وأكبرها كأن ما عداه ليس ﴿ ففزع بالنسبة اليه (ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار) أي ألقيت فيها على وجوههم منكوسين أو كبت فيها أنفسهم على طريقة وقالوا بايديكم الى التهلكة (هل تجزون الا ما كنتم تعملون) على ان القول للتشديد أو على اضمار القول أي فيقال لهم هذا القول (أمرت) أمر من جهته تعالى (أن أعبد رب هذه البلدة) أي أن أقول بالسنتي وأعتقد بقلبي وأعمل بجوارحي (الذي حرمها) أمر من جهته تعالى أيضا (وله كل شيء) خلقا وملكا وتصرفا (وأمرت أن أكون من المسلمين) أي المنقادين لما أمرني به (وأن أتلو القرآن) أي المعجز المتلو بالالسنة المكتوب في المصاحف المنزل على قلبي المعظم (فمن اهتدى) بما أمرت به من التوحيد والاسلام (فانما يهتدي لنفسه) أن يفوز بالثواب (ومن ضل) عن ذلك (فقل انما أنا من المنذرين) أي من الذين وظيفتهم الانذار وقد فعلت ما علي وليس علي من ضلالهم شيء (وقل الحمد لله) على ما أنعم علي من النبوة وغيرها (سيريكم آياته فتعرفونها) أي آياته التي من جملتها ما ذكر من أحوال القيامة تلبيها لهم على أنه قد أتم أمر الدعوة بما لا مزيد عليه ولم يبق له عليه الصلاة والسلام بعد ذلك شأن سوى الاشتغال بعبادة الله عز وجل والاستغراق في مراقبته غير مبال بهم صلحوا أم فسدوا رشدوا أم غووا ليحملهم ذلك على أن يهتموا بامور أنفسهم ولا يتوهموا من شدة اعتنائه عليه الصلاة والسلام بامر دعوتهم أنه عليه الصلاة والسلام يئس من ايمانهم مايحملهم الى الايمان لامحالة ويشغلوا بتدارك أحوالهم ويتوجهوا ﴿ سورة ﴾ نحو التدبر فيما شاهدوه من الآيات الباهرة والبلدة هي مكة المعظمة وتخصيصها بالاضافة لتفخيم شأنها واجلال

على هذا الوجه وجب حمله على الفناء أجاب من حمل الهلاك على التفرق قال هلاك الشيء خروجه عن المنفعة التي يكون الشيء مطلوبا لاجلها فاذا مات الانسان قيل هلك لان الصفة المطلوبة منه حياته وعقله واذا تمزق الثوب قيل هلك لان المقصود منه صلاحيته للبس فاذا تفرقت اجزاء العالم خرجت السموات والكواكب والجبال والبحار عن صفاتها التي لاجلها كانت منتفعا بها انتفاعا خاصا فلا جرم صح اطلاق اسم الهلاك عليها فاما صحة الاستدلال بها على الصانع سبحانه فهذه المنفعة ليست منفعة خاصة بل هي من حيث هي شمس وقمر وفلك فلم يلزم من بقائها أن لا يطلق عليها اسم الهلاك ثم احتجوا على بقاء اجزاء العالم بقوله يوم تبدل الارض غير الارض وهذا ضعيف لان بقاء اجزاء العالم لا ينافي كونها متصفة بصفة أخرى فهذا ما في هذا الوضع (المسألة الثانية) احتج أهل التوحيد بهذه الآية على ان الله تعالى شيء قالوا لانه تعالى من قوله كل شيء هالك خرج ما لا نهاية له من الموجودات أو لصح دخوله تحت هذا العموم فوجب كونه سبحانه مذكورا في سورة الانعام وهو قوله قل أي شيء أكبر شهادة قل الله واحتجوا بهذه الآية على انه ليس شيء يصح كونه معلوما الا تقدير الآية ليس مثل الله شيء ومثل مثله هو الله فوجب أن يكون الله شيئا جوابه ان الكاف صلة زائدة (المسألة الثالثة) استدلت المجسمة بهذه الآية على ان الله تعالى جسم من وجهين الاول قالوا الآية صريحة في اثبات الوجه بذلك يقتضي الجسمية والثاني قوله واليه ترجعون وكل ما انتهى اما عليه وذلك لا يعقل الا في الاجسام والجواب لو صح هذا الكلام للزم ان يفنى جميع اعضائه وان لا يبقى منه الا الوجه وقد التزم ذلك بعض المشبهة من الرافضة وهو باطل بالاجماع وذلك لا يقول به عاقل ثم من الناس من قال الوجه هو الوجود والحقيقة يقال وجه هذا الامر كذا أي حقيقته ومنهم من قال الوجه صلة والمراد كل شيء هالك الا هو وأما الآية الثانية فالمعنى والى موضع حكمه وقضائه يرجعون (المسألة الرابعة) استدلت المعتزلة به على ان الجنة والنار غير مخلوقين قالوا لان الآية تقتضي فناء الكل فلو كانتا مخلوقتين لفنيتا وهذا يناقض قوله تعالى في صفة الجنة أكلها دائم والجواب هذا معارض بقوله تعالى في صفة الجنة أعدت للمتقين وفي صفة النار وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ثم اما أن يحمل قوله كل شيء هالك على الاكثر لقوله وأوتيت من كل شيء أو يحمل قوله أكلها دائم على ارزمان فنائهما لما كان قليلا بالنسبة الى زمان بقائهما لا جرم أطلق لفظ الدوام عليه (المسألة الخامسة) قوله كل شيء هالك يدل على ان الذات ذات بالفعل لانه حكم بالهلاك على الشيء فدل على ان الشيء في كونه شيئا قابل للهلاك فوجب أن لا يكون المعدوم شيئا والله أعلم والحمد لله رب العالمين

مكانها والتعرض لتحريمه تعالى اياها تشريف لها بعد تشريف وتعظيم اثر تعظيم مع مافيه من الاشعار بعلة الامر وموجب الامتثال به كما فى قوله تعالى فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ومن الرمز الى غاية شناعة مافعلوا فيها ألا ترى أنهم مع كونها ﴿ ٦٣٧ ﴾ محرمة من أن تنتهك حرمتها باختلاء خلاها وعضد شجرها وتنفير صيدها وارادة الالحاد فيها بوجه من الوجوه قد استمروا فيها على تعاطى أفجر أفراد الفجور وأشنع آحاد الالحاد حيث تركوا عبادة ربها ونصبوا فيها الاوثان وعكفوا على عبادتها فاتلهم الله أنى يؤفكون وقرئ حرمها بالتخفيف وقوله تعالى (وله كل شئ) أى خلقا وملكا وتصرفا من غير أن يشاركه شئ فى شئ من ذلك تحقيق للحق وتبيد على أن افراد مكة بالاضافة لما ذكر من التفخيم والتشريف مع عموم الربوبية لجميع الموجودات (وأمرت أن أكون من المسلمين) أى أثبت على ما كنت عليه من كونى من جملة الثابتين على ملة الاسلام والتوحيد أى الذين أسلموا وجوههم لله خالصة من قوله تعالى ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله (وأن أتلو القرآن) أى أواظب على تلاوته لتنكشف لى حقائقه الرائعة المخزونة فى تضاعيفه شيأ فشيأ أو على تلاوته على الناس بطريق تكرير الدعوة وتثنية الارشاد فيكون ذلك تنبيها على كفايته فى الهداية والارشاد من غير حاجة الى اظهار معجزة أخرى فمعنى قوله تعالى (فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه) حينئذ فمن اهتدى بالايمان به

سورة العنكبوت مكية وقيل مدنية وقيل نزلت من أولها الى رأس عشر بمكة وباقيها بالمدينة أو نزل الى آخر العشر بالمدينة
وباقيها بمكة بالعكس وهى سبعون أو تسع وستون آية

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم أحسب الناس ان يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) فى تفسير الآية وفيما يتعلق بالتفسير مسائل (المسئلة الاولى) فى تعلق أول هذه السورة بما قبلها وفيه وجوه (الاول) لما قال الله تعالى قبل هذه السورة ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد وكان المراد منه أن يرده الى مكة ظاهرا غالبا على الكفار ظافرا طالبا بالثار وكان فيه احتمال مشاق القتال صعب على البعض ذلك فقال الله تعالى الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا ولا يؤمروا بالجهاد (الوجه الثانى) هو انه تعالى لما قال فى أواخر السورة المتقدمة وادع الى ربك وكان فى الدعاء الى الطعان والحراب والضراب لان النبى عليه السلام وأصحابه كانوا مأمورين بالجهاد لم يؤمن الكفار بمجرد الدعاء فشق على البعض ذلك فقال أحسب الناس ان يتركوا (الوجه الثالث) هو أنه تعالى لما قال فى آخر السورة المتقدمة كل شئ هالك الا وجهه ذكر بعده ما يبطل قول المنكرين للحشر فقال له الحكم واليه ترجعون يعنى ليس كل شئ هالكا من غير رجوع بل كل هالك ولد رجوع الى الله اذا تبين هذا فاعلم ان منكرى الحشر يقولون لا فائدة فى التكاليف فانها مشاق فى الحال ولا فائدة لها فى المآل اذ لا مآل ولا مرجع بعد الهلاك والزوال فلا فائدة فيها فلما بين الله انهم اليه يرجعون بين ان الامر ليس على ما حسبوه بل حسن التكليف ليثيب الشكور ويعذب الكفور فقال أحسب الناس ان يتركوا غير مكلفين من غير عمل يرجعون به الى ربهم (المسئلة الثانية) فى حكمة افتتاح هذه السورة بحروف من التهجى والتقدم عليه كلاما كليا فى افتتاح السور بالحروف فنقول الحكيم اذا خاطب من يكون محل الغفلة أو من يكون مشغول البال بشغل من الاشغال يقدم على الكلام المقصود شيأ غيره ليلتفت المخاطب بسببه اليه ويقبل بقلبه عليه ثم يشرع فى المقصود اذا ثبت هذا فنقول ذلك المقدم على المقصود قد يكون كلاما له معنى مفهوم كقول القائل اسمع واجعل بالك الى وكن لى وقد يكون شيأ هو فى معنى الكلام المفهوم كقول القائل ازيدو يازيد والا يازيد وقد يكون ذلك المقدم على المقصود صوتا غير مفهوم كمن يصفر خلف انسان ليلتفت اليه وقد يكون ذلك الصوت بغير الفم كما يصفق الانسان بيديه ليقبل السامع عليه ثم ان موقع الغفلة كلما كان أتم والكلام المقصود كان أهم كان المقدم على المقصود اكثر ولهذا ينادى القريب بالهمزة فيقال أزيد والبعيد بيا فيقال يازيد والغافل ينبه أولا فيقال الا يازيد اذا ثبت هذا فنقول ان النبى صلى الله عليه وسلم وان كان يقظان الجنان لكنه انسان يشغله شأن عن شان فكان يحسن من الحكيم ان يقدم

والعمل بما فيه من الشرائع والاحكام وعلى الاول فمن اهتدى باتباعه اياى فيماذكر من العبادة والاسلام وتلاوة القرآن فانما منافع اهتدائه عائدة اليه لا الى (ومن ضل) بالكفر به والاعراض عن العمل بما فيه أو بمخالفتى فيماذكر (فقل) فى حقه (انما أنا من المنذرين) وقد خرجت عن عهدة ﴿ ٦٣٨ ﴾ الانذار فليس على من وبال ضلاله شئ

وانما هو عليه فقط (وقل الحمد لله) أى على ما أفاض على من نعمائه التى أجلها نعمة النبوة المستتبعة لفنون النعم الدينية والدنيوية ووفقنى لتحمل أعبائها وتتبع أحكامها الى كافة الورى بالآيات البينة والبراهين الثيرة وقوله تعالى (سيريكم آياته) من جملة الكلام المأمور به أى سيريكم آياته الباهرة التى تنطق بها القرآن كخروج الدابة وسائر الاشراط وقد عد منها وقعة بدر وإياه قوله تعالى (فتعرفونها) أى فتعرفون أنها آيات الله تعالى حين لاتنفعكم المعرفة لانهم لايعترفون بكون وقعة بدر كذلك وقيل سيريكم فى الآخرة وقوله تعالى (وماربك بغافل عما تعملون) كلام مسوق من جهته تعالى بطريق التذييل مقرر لما قبله متضمن للوعد والوعيد كما ينبئ عنه اضافة الرب الى ضمير النبى عليه الصلاة والسلام وتخصيص الخطاب أولا به عليه الصلاة والسلام وتعميمه ثانيا ﴿ فكان ﴾ للكفرة تغليبا أى وماربك بغافل عما تعملون من الحسنات وما تعملون أنتم أيها الكفرة من السيآت فيجازى كلا منكم بعمله لامحالة وقرئ عما يعملون على الغيبة فهو وعيد محض

على الكلام المقصود حروفا هى كالمنبهات ثم ان تلك الحروف اذا لم تكن بحيث يفهم معناها تكون أتم فى افادة المقصود الذى هو التنبيه من تقديم الحرف التى لها معنى لان تقديم الحروف اذا كان لاقبال السامع على المتكلم لسماع مابعد ذلك فاذا كان ذلك المقدم كلاما منظوما وقولا مفهوما فاذا سمعه السامع ربما يظن انه كل المقصود ولا كلام له بعد ذلك فيقطع الالتفات عنه أما اذا سمع منه صوتا بلا معنى يقبل عليه ولا يقطع انتظاره عنه ثم اذا سمع غير ما سمعه يعلم ان ماسمعه ليس هو المقصود فان تقديم الحروف التى لامعنى لها فى الوضع على الكلام المقصود فيه حكمة بالغة فان قائل فما الحكمة فى اختصاص بعض السور بهذه الحروف وهو ل عقل البشر عن ادراك الاشياء الجزئية على تفاصيلها عاجز والله أعلم بجميع الاشياء لكن نذكر مايفتح الله به فنقول كل سورة فى أوائلها حروف التهجى فهى فى أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كقوله تعالى الم ذلك الكتاب لاريب فيه الم الله لا اله الا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق كتاب أنزل اليك الم تنزيل الكتاب لاريب فيه حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير الر تلك آيات الكتاب المبين حم والكتاب المبين انا أنزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذرين شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير الر كتاب أنزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين المص كتاب أنزل اليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين المص كتاب أنزل اليك يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين تنزيل العزيز الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم حم والكتاب المبين انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون حم عسق كذلك يوحى اليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم فى افتتاح السور التى بها القرآن أو التنزيل أو الكتاب بالحروف هى بالقرآن عظيم والانزال له ثقيل والكتاب حاكم كما قال تعالى انا سنلقى عليك قولا ثقيلا وعلى كل سورة أولها ذكر القرآن والكتاب والتنزيل قدم عليها منبها بوجه ثبات لحسب لاستماعه لايقال كل سورة قرآن فلا فائدة لاستماع القرآن سواء كان فيها ذكر القرآن لفظا أو لم يكن فكان الواجب أن يلتزم فى أوائل كل سورة منبها أيضا فقد وردت سور فيها ذكر الانزال والكتاب ولم يذكر فيها حروف كقوله تعالى الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب وقوله سورة أنزلناها وقوله تبارك الذى نزل الفرقان وقوله انا أنزلناه فى ليلة القدر لانا نقول جوابا عن الاول لاريب فى ان كل سورة من القرآن لكن السورة التى فيها ذكر القرآن والكتاب مع أنها من القرآن تنبه على كل القرآن فان قوله تعالى طه ما أنزلنا عليك القرآن مع انها بعض القرآن فيها ذكر جميع القرآن فيصير مثاله مثال كتاب يرد من ملك على مملوكه فيه شغل ما وكتاب آخر يرد منه عليه فيه أنا كتبنا اليك كتابا فيها أوامرنا فامتثالها لاشك ان عبء الكتاب الآخر أكثر من ثقل الاول وعن الثانى ان قوله الحمد لله وتبارك الذى تسبيحات مقصودة وتسبيح الله لايغفل عنه العبد فلا يحتاج الى منبه بخلاف الاوامر والنواهى وأما ذكر الكتاب فيها فلبيان وصف عظمة من له التسبيح وسورة أنزلناها قد بينا انها بعض من القرآن فيها ذكر انزالها وفى السورة التى ذكرناها ذكر جميع القرآن فهو أعظم فى النفس وأثقل وأما قوله تعالى انا أنزلناه فنقول هذا ليس واردا على مشغول القلب بشئ غيره بدليل انه ذكر الكناية فيها وهى ترجع الى مذكور سابق أو معلوم وقوله انا أنزلناه الهاء راجع الى معلوم عند النبى صلى الله عليه وسلم

والمعنى ومار بك بغافل عن أعمالهم فسيعذبهم البتة فلا يحسبوا أن تأخير عذابهم لغفلته تعالى عن أعمالهم الموجبة له والله تعالى أعلم * عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة طس كان له من الاجر عشر حسنات بعدد من صدق بسليمان وهود وصالح وابراهيم وشعيب عليهم الصلاة والسلام ﴿٦٣٩﴾ ومن كذب بهم ويخرج من قبره وهو ينادي لا اله الا الله

* (سورة القصص مكية وقيل الا قوله الذين آتيناهم الكتاب الى قوله الجاهلين وهي ثمان وثمانون آية) *

* بسم الله الرحمن الرحيم *

(طسم تلك آيات الكتاب المبين) قدم ما يتعلق به من الكلام بالاجمال والتفصيل في أشباهه (نتلو عليك) أي نقرأ بواسطة جبريل عليه السلام ويجوز أن تكون التلاوة مجازا من التنزيل (من نبأ موسى وفرعون) مفعول نتلو أي بعض نبئهما (بالحق) متعلق بالمحذوف هو حال من فاعل نتلو أو من مفعوله أو صفة لمصدره أي نتلوا عليك بعض نبئهما ملتبسين أو ملتبسا بالحق أو تلاوة ملتبسة بالحق (لقوم يؤمنون) متعلق بنتلو وتخصيصهم بذلك مع عموم الدعوة والبيان للكل لانهم المنتفعون به (ان فرعون علا في الارض) استئناف جار مجرى التفسير للمجمل الموعود وتصديره بحرف التأكيد للاعتناء بتحقق

فكان متنبها له فلم ينبه واعلم ان التنبيه قد حصل في القرآن بغير الحروف التي لا يفهم معناها كما في قوله تعالى يا أيها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة الساعة شئ عظيم وقوله يا أيها النبي اتق الله و يا أيها النبي لم تحرم لانها أشياء هائلة عظيمة فان تقوى الله حق تقاته أمر عظيم فقدم عليها النداء الذي يكون للبعيد الغافل عنها تنبيها وأما هذه السورة افتتحت بالحروف وليس فيها الابتداء بالكتاب والقرآن وذلك لان القرآن ثقله وعبؤه بما فيه من التكاليف والمعاني وهذه السورة فيها ذكر جمع التكاليف حيث قال أحسب الناس ان يتركوا أن يقولوا آمنا يعني لا يتركون بمجرد ذلك بل يؤمرون بأنواع من التكاليف فوجد المعنى الذي في السور التي فيها ذكر القرآن المشتمل على الاوامر والنواهي فان قيل مثل هذا الكلام وفي معناه ورد في سورة التوبة وهو قوله تعالى أم حسبتم ان تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يقدم عليه حروف التهجي فنقول الجواب عنه في غاية الظهور وهو ان هذا ابتداء كلام ولهذا وقع الاستفهام بالهمزة فقال أحسب وذلك وسط كلام يدل وقوع الاستفهام بأم والتنبيه يكون في أول الكلام لا في أثنائه وأما لم غلبت الروم فسيجئ في موضعه ان شاء الله تعالى هذا تمام الكلام في الحروف (المسئلة الثالثة) في اعراب الم وقد ذكرنا تمام ذلك في سورة البقرة مع الوجوه المتولة في تفسيره ونزيد ههنا على ما ذكرناه ان الحروف لا اعراب لها لانها جارية مجرى الاصوات المشبهة (المسئلة الرابعة) في سبب نزول هذه الآيات وفيه أقوال الاول انها نزلت في عمار بن ياسر وعياش بن أبي ربيعة والوليد بن الوليد وسلمة بن هشام . كانوا يعذبون بمكة الثاني انها نزلت في أقوام بمكة هاجروا وتبعهم الكفار فاستشهد بعضهم ونجا الباقون الثالث انها نزلت في مهجع بن عبد الله قتل يوم بدر (المسئلة الخامسة) في التفسير قوله أحسب الناس ان يتركوا يعني ظنوا انهم يتركون بمجرد قولهم آمنا وهم لا يفتنون لا يبتلون بالفرائض البدنية والمالية واختلف أئمة النحو في قوله أن يقولوا فقال بعضهم ان يتركوا بأن يقولوا وقال بعضهم أن يتركوا يقولون آمنا ، مقتضى ظاهر هذا انهم يمنعون من قولهم آمنا كما يفهم من قول القائل تظن انك تترك أن تضرب زيدا أي تمنع من ذلك وهذا بعيد فان الله لا يمنع أحدا من أن يقول آمنت ولكن مراد هذا المفسر هو أنهم لا يتركون يقولون آمنا من غير ابتلاء فيمنعون من هذا المجموع بايجاب الفرائض عليهم (المسئلة السادسة) في الفوائد المعنوية وهي ان المقصود الاقصى من الخلق العبادة والمقصد الاعلى في العبادة حصول محبة الله كما ورد في الخبر لا يزال العبد يتقرب الى بالعبادة حتى أحبه وكل من كان قلبه أشد امتلاء من محبة الله فهو أعظم درجة عند الله لكن للقلب ترجمان وهو اللسان واللسان مصدقات هي الاعضاء ولهذه المصدقات مزكيات فاذا قال الانسان آمنت باللسان فقد ادعى محبة لله في الجنان فلا بد له من شهود فاذا استعمل الاركان في الاتيان بما عليه بنيان

مضمون ما بعده أي انه تجبر وطغا في أرض مصر وجاوز الحدود المعهودة في الظلم والعدوان (وجعل أهلها شيعا) أي فرقا يشيعونه في كل ما يريده من الشر والفساد

أو يشيع بعضهم بعضا في طاعته أو أصنافا في استخدامه يستعمل كل صنف في عمل ويسخره فيه من بناء وحرث وحفر وغير ذلك من الاعمال الشاقة ومن لم يستعمله ضرب عليه الجزية أو فرقا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة والبغضاء ثلاثا تتفق كلمتهم (يستضعف طائفة منهم) وهم بنو اسرائيل والجملة اما حال من فاعل ﴿٦٤٠﴾ جعل أو صفة لشيعا أو استئناف وقوله

الايمان حصل له على دعواه شهود مصدقات فاذا بذل في سبيل الله نفسه وماله وزكى بترك ماسواه أعماله زكى شهوده الذين صدقوه فيما قاله فيحرر في جرائد المحبين اسمه ويقرر في أقسام المقربين قسمه واليه الاشارة بقوله أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا يعني أظنوا أن تقبل منهم دعواهم بلا شهود وشهودهم بلا مزكين بل لابد من ذلك جميعه ليكونوا من المحبين * (فائدة ثانية) * وهي ان أدنى درجات العبد أن يكون مسلما فان مادونه دركات الكفر فالاسلام أول درجة تحصل للعبد فاذا حصل له هذه المرتبة كتب اسمه وأثبت قسمه لكن المستخدمين عند الملوك على أقسام منهم من يكون ناهضا في شغله ماضيا في فعله فينقل من خدمة الى خدمة أعلى منها مرتبة ومنهم من يكون كسلانا متخلفا فينقل من خدمة الى خدمة أدنى منها ومنهم من يترك على شغله من غير تغيير ومنهم من يقطع رسمه ويمحى عن الجرائد اسمه فكذلك عباد الله قد يكون المسلم عابدا مقبلا على العبادة مقبولا للسعادة فينقل من مرتبة المؤمنين الى درجة الموقنين وهي درجة المقربين ومنهم من يكون قليل الطاعة متثاقلا بالخلاعة فينزل الى مرتبة دونه وهي مرتبة العصاة ومنزلة القساة وقد يستصغر العيوب ويكثر الذنوب فيخرج من العباد محروما ويلحق بأهل الفساد مرجوما ومنهم من بقي في أم درجة لجدوهم اليه فقال الله بشارة للعظيم الناهض أحسب الناس أن يتركوا يعني أظنوا انهم يتركون في أول المقامات لايلبثون الى أعلى الدرجات كما قال تعالى والذين أوتوا العلم درجات فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة * وقال بعضهم للكسلان أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا يعني لاأظن امنت وتخلف بالمعاصي ينزل ورضي منك بالبقاء الى مقام أدنى وهو مقام العصي أو الكافر * ثم قال تعالى ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) ذكر الله مايوجب تسليتهم وقال كذلك فعل الله بمن قبلكم ولم يتركهم بمجرد قولهم آمنا بل فرض عليهم الطاعات وأوجب عليهم العبادات وفي قوله فليعلمن الله الذين صدقوا وجوه (الاول) قول مقاتل فليرين الله الناس فيميز بهم ان الله الثالث فليميزن الله فالحاصل على هذا هو أن المفسرين ظنوا أن حمل الآية على ظاهرها يوجب تجدد علم لله والله عالم بالصادق والكاذب قبل الامتحان فكيف يمكن أن يقال يعلم عند الامتحان فنقول الآية محمولة على ظاهرها وذلك ان علم الله صفة يظهر فيها كل ماهو واقع ثم هو واقع فقبل التكليف كان الله يعلم ان زيدا مثلا سيطيع وعمرا سيعصي ثم وقت التكليف والاتيان يعلم أنه مطيع والآخر عاص وبعد الاتيان يعلم أنه أطاع والآخر عصى ولايتغير علمه في شئ من الاحوال وانما المتغير المعلوم وبين هذا بمثال من المحسوسات ولله المثل الاعلى وهو ان المرآة الصافية الصقيلة اذا علقت من موضع وقوبل بوجهها جهة ولم تحرك ثم عبر عليها زيد لابسا ثوبا أبيض ظهر فيها زيد في ثوب أبيض واذا عبر عليها عمرو في لباس أصفر يظهر فيها

تعالى (يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم) بدل منها وكان ذلك لما أن كاهنا قال له يولد في بني اسرائيل مولود يذهب ملكك على يده وماذاك الالغاية حمقه اذ لو صدق فما فائدة القتل وان كذب فما وجهه (انه كان من المفسدين) أي الراسخين في الافساد ولذلك اجترأ على مثل تلك العظيمة من قتل المعصومين من أولاد الانبياء عليهم الصلاة والسلام ونريد أن نمن) أي نتفضل (على الذين استضعفوا في الارض) على الوجه المذكور بأخبارهم بأنه وصيغة المضارع في نريد حكاية لحال ماضية وهو معطوف على نمكن فرعون علا الخ اعتراض مسوق في الوقوع في خبر التفسير للنبأ أو حال من يستضعف بتقدير المبتدأ أي يستضعفهم فرعون ونحن نريد أن نمن عليهم وليس من ضرورة مقارنة الارادة الاستضعاف مقارنة المراد له لما أن تعلق الارادة للمن تعلق استقبالي على أن منة الله تعالى عليهم بالخلاص لما كانت في شرف الوقوع جازأ جراؤها مجرى الواقع ﴿كذلك﴾ المقارن له ووضع الموصول موضع الضمير لابانة قدر النعمة في المنة بذكر

حالتهم السابقة المباينة لها (ونجعلهم أئمة) يقتدى بهم فى أمور الدين بعد ان كانوا أتباعا مسخرين لآخرين (ونجعلهم الوارثين) لجميع ما كان منتظما فى سلك ملك فرعون وقومه وراثة معهودة فيما بينهم كما ينبئ عنه تعريف الوارثين وتأخير ذكر وراثتهم له عن ذكر جعلهم أئمة مع تقدمها عليه زمانا لانحطاط رتبتها عن الامامة ولئلا ينفصل عنه ما بعده

كذلك فهل يقع فى ذهن أحد ان المرآة فى كونها حديدا تغيرت أو يقع له انها فى تدويرها تبدلت أو يذهب فهمه الى انها فى صفاتها اختلفت أو يخطر بباله انها عن مكانها انتقلت لا يقع لاحد شئ من هذه الاشياء و يقطع بان المتغير الخارجات فاذنهم علم الله من هذا المثال بل اعلى من هذا المثال فان المرآة ممكنة التغير وعلم الله غير ممكن عليه ذلك فتوا فليعلن الله الذين صدقوا يعنى يقع من يعلم الله أن يطيع الطاعة فيعلم أنه مطيع بذلك العلم وليعلن الكاذبين يعنى من قال أنا مؤمن وكان صادقا عند فرض العبادات يظهر منه ذلك و يعلم ومن قال ذلك وكان منافقا كذلك يبين وفى قوله الذين صدقوا بصيغة الفعل وقوله الكاذبين باسم الفاعل فائدة مع ان الاختلاف فى اللفظ أدل على الفصاحة وهى ان اسم الفاعل يدل فى كثير من المواضع على ثبوت المصدر فى الفاعل ورسوخه فيه والفعل الماضى لا يدل عليه كما يقال فلان شرب الخمر وفلان شارب الخمر وفلان نفذ أمره وفلان نافذ الامر فانه لا يفهم من صيغة الفعل التكرار والرسوخ ومن اسم الفاعل يفهم ذلك اذا ثبت هذا فنقول وقت نزول الآية كانت الحكاية عن قوم قريبى العهد بالاسلام فى أوائل ايجاب التكاليف وعن قوم مستديمين الكفر مستمرين عليه فقال فى حق المؤمنين الذين صدقوا بصيغة الفعل أى وجد منهم الصدق وقال فى حق الكافر الكاذبين بالصيغة المنبئة عن الثبات والدوام ولهذا قال يوم ينفع الصادقين صدقهم بلفظ اسم الفاعل وذلك لان فى اليوم المذكور الصدق قد رسخ فى قلب المؤمن وهو اليوم الآخر ولا كذلك فى أوائل الاسلام . ثم قال تعالى (أم حسب الذين يعملون السيآت أن يسبقونا ساء ما يحكمون) لما بين حسن التكليف بقوله احسب الناس ان يتركوا بين ان من كلف بشئ ولم يأت به يعذب وان لم يعذب فى الحال فيعذب فى الاستقبال ولا يفوت الله شئ فى الحال ولا فى المآل وهذا ابطال مذهب من يقول التكاليف ارشادات والايعاد عليه ترغيب وترهيب ولا يوجد من الله تعذيب ولو كل يعذب ما كان عاجزا عن العذاب عاجلا فلم كان يؤخر العقاب فقال تعالى أم حسب الذين يعملون السيآت أن يسبقونا يعنى ليس كما قالوا بل يعذب من يعذب و يثيب من يثيب بحكم الوعد والايعاد والله لا يخلف الميعاد وأما الامهال فلا يفضى الى الاهمال والتعجيل فى جزاء الاعمال شغل من يخاف الفوت ولولا الاستعجال ثم قال تعالى ساء ما يحكمون يعنى حكمهم بأنهم يعصون و يخالفون أمر الله ولا يعاقبون حكم شئ فان الحكم الحسن لا يكون الا حكم العقل أو حكم الشرع والعقل لا يحكم على الله بذلك فان الله له أن يفعل ما يريد والشرع حكمه بخلاف ما قالوه فحكمهم حكم فى غاية السوء والرداءة * ثم قال (من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت وهو السميع العليم) لما بين بقوله أحسب الناس أن العبد لا يترك فى الدنيا سدى و بين فى قوله أم حسب الذين يعملون السيآت ان من ترك ما كلف به يعذب كذا بين أن من يعترف بالآخرة و يعمل لها لا يضيع عمله ولا يخيب أمله

مع كونه من روادفه أعنى قوله تعالى (ونمكن لهم فى الارض) الخ أى نسلطهم على مصر والشام ينصرفون فيهما كيف ما يشاؤن وأصل التمكين أن تجعل للشئ مكانا يتمكن فيه (ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم) أى من أولئك المستضعفين (ما كانوا يحذرون) و يجتهدون فى دفعه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود منهم وقرئ يرى بالياء ورفع ما بعده على الفاعلية (وأوحينا الى أم موسى) بالهام أو رؤيا (أن ارضعيه) ما أمكنك اخفاؤه (فاذا خفت عليه) بان يحس به الجيران عند بكائه و يغوا عليه (فألقيه فى اليم) فى البحر وهو النيل (ولا تخافى) عليه ضيعة بالغرق ولا شدة (ولا تحزنى انا رادوه اليك) عن قريب بحيث تامنين عليه (وجاعلوه من المرسلين) والجملة تعليل للنهى عن الخوف والحزن وايثار الجملة الاسمية وتصديرها بحرف التحقيق للاعتناء بتحقق مضمونها أى انا فاعلون لرده ﴿ ٨١ س ﴾ وجعله من المرسلين لا محالة روى أن بعض القوابل الموكلات من قبل فرعون بحبالى بنى اسرائيل كانت مصافية لام موسى عليه السلام فقالت لها لينفعنى

حبك اليوم فعالجتها فلما وقع الى الارض هالها نور بين عينيه وارتعش كل مفصل منها ودخل حبه فى قلبها ثم قالت ماجئتك الا لاقبل مولودك وأخبر فرعون ولكنى وجدت لابنك فى قلبى محبة ماوجدت مثلها لاحد فاحفظيه فلما خرجت جاء عيون فرعون فالتقطه فى خرقة ألقته فى تنور مسجور لم تعلم ﴿ ٦٤٢ ﴾ ماتصنع لتطيش من عقلها فطلبوا فلم يلقوا شيئا فخرجوا وهى لاتدرى مكانه فسمعت بكاءه من التنور فانطلقت اليه وقد جعل الله تعالى النار عليه بردا وسلاما فلما ألح فرعون فى طلب الولدان أوحى الله تعالى اليها ما أوحى وقد روى انها أرضعته ثلاثة أشهر فى تابوت من بردى مطلى بالقار من داخله والقاه فى قوله تعالى (فالتقطه آل فرعون) فصيحة مفصحة عن عطفه على جملة مترتبة على ماقبلها من الامر بالالقاء قد حذفت تعويلا على دلالة الحال وايذانا بكمال سرعة الامتثال أى فالقته فى اليم بعد ماجعلته فى التابوت حسبما أمرت به فالتقطه آل فرعون أى أخذوه أخذ اعتناء به وصيانة له عن الضياع قال ابن عباس رضى الله عنهما وغيره كان لفرعون يومئذ بنت لم يكن له ولد غيرها وكانت من اكرم الناس اليه وكان بها برص شديد عجزت الاطباء عن علاجه فقالوا لاتبرأ الا من قبل البحر يؤخذ منه شبه الانس يوم كذا وساعة كذا من شهر كذا حين تشرق الشمس فيؤخذ من ريقه فيلطخ به ﴿ وجوارحه ﴾ برصها فتبرأ فلما كان ذلك اليوم غدا فرعون فى مجلس له على شفير النيل ومعه امرأته آسية بنت مزاحم

وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) اناذكرنا فى مواضع ان الاصول الثلاثة وهى الاول وهو الله تعالى ومحدثاته والاصل الآخر وهو اليوم الآخر والاصل المتوسط وهو النبى المرسل من الاول الموصل الى الآخر لايكاد ينفصل فى الذكر الالهى بعضها عن بعض فقوله أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا فيه اشاره الى الاصل الاول يعنى أظنوا أنه يكفى الاصل الاول وقوله وهم لايفتنون وقد فتنا الذين من قبلهم يعنى بارسال الرسل وايضاح السبل فيه اشارة الى الاصل الثانى وقوله أم حسب الذين يعملون السيئات مع قوله من كان يرجو لقاء الله فيه اشاره الى الاصل الثالث وهو الآخر (المسئلة الثانية) ذكر بعض المفسرين فى تفسير لقاء الله انه الرؤية وهو ضعيف قال اللقاء والملاقاة بمعنى وهو فى اللغة بمعنى الوصول حتى ان جسمين اذا تواصلا فقد لاقى أحدهما الآخر (المسئلة الثالثة) قال بعض المفسرين المراد من الرجاء الخوف والمعنى من قوله من كان يرجو لقاء الله من كان يخاف الله وهو أيضا ضعيف قال المشهور فى الرجاء هو توقع الخير لاغير ولانا أجمعنا على ان الرجاء ورد بهذا المعنى يقال أرجو فضل الله ولا يفهم منه أخاف فضل الله واذا كان واردا بهذا لايكون لغيره دفعا للاشتراك (المسئلة الرابعة) يمكن أن يكون المراد بأجل الله الموت ويمكن أن يكون هو الحياة الثانية بالحشر فان كان هو الموت فهذا ينبئ عن بقاء النفوس بعد الموت كما ورد فى الاخبار وذلك لان القائل اذا قال من كان يرجو الخير فان السلطان واصل يفهم منه ان متصلا بوصول السلطان يكون هو الخير حتى انه اووصل هو وتأخر الخير يصح أن يقال للقائل أما قلت ماقلت ووصل السلطان ولم يظهر الخير فلولم يحصل اللقاء عند الموت لما حسن ذلك كما ذكرنا فى المثال واذا تبين هذا فلولا البقاء لما حصل اللقاء (المسئلة الخامسة) قوله من كان يرجو شرط وجزاؤه قال أجل الله لآت والمعلق بالشرط عدم عند عدم الشرط فمن لايرجو لقاء الله لايكون أجل الله آتيا له وهذا باطل فالجواب عنه نقول المراد من ذكر اتيان الاجل وعد المطيع بمايعده من الثواب يعنى من كان يرجو لقاء الله فان أجل الله لآت بثواب الله يثاب على طاعته عنده ولاشك ان من لايرجوه لايكون أجل الله آتيا على وجه يثاب هو (المسئلة السادسة) قال وهو السميع العليم ولم يذكر صفة غيرهما كالعزيز الحكيم وغيرهما وذلك لانه سبق القول فى قوله أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا وسبق الفعل بقوله وهم لايفتنون وبقوله فليعلمن الله الذين صدقوا وبقوله أم حسب الذين يعملون السيئات ولاشك ان القول يدرك بالسمع والعمل منه ماء يدرك بالبصر ومنه مايدرك به كالقصود والعلم يشملهما فقال وهو السميع يسمع ماقالوه وهو العليم يعلم من صدق فيما قال ممن كذب وأيضا عليم يعلم مايعمل فيثيب ويعاقب وههنا لطيفة وهى ان العبد له ثلاثة أمور هى أصناف حسناته أحدها عمل قلبه وهو التصديق وهو لايرى ولايسمع وانما يعلم وعمل لسانه وهو يسمع وعمل أعضائه

ابن عبيد بن الريان بن الوليد الذى كان فرعون مصر فى زمن يوسف الصديق عليه السلام وقيل كانت من بنى اسرائيل من سبط موسى عليه الصلاة والسلام وقيل كانت عمته حكاه السهيلى وأقبلت بنت فرعون فى جواريها حتى جلست على شاطئ النيل فاذا بتابوت فى النيل تضربه الامواج ﴿٦٤٣﴾ فتعلق بشجرة فقال فرعون ائتونى به فابتدروا

وجوارحه وهو يرى ماذا أتى بهذه الاشياء يجعل الله لمسموعه مالا أذن سمعت ولمرئيه مالا عين رأت ولعمل قلبه مالا خطر على قلب أحد كما وصف فى الخبر فى وصف الجنة ﴿ثم قال تعالى (ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ان الله لغنى عن العالمين) لما بين ان التكليف حسن واقع وان عليه وعدا وايعادا ليس لهما دافع بين ان طلب الله ذلك من المكلف ليس لنفع يعود اليه فانه غنى مطلقا ليس شئ غيره يتوقف كماله عليه ومثل هذا كثير فى القرآن كقوله تعالى من عمل صالحا فلنفسه وقوله تعالى ان أحسنتم أحسنتم لانفسكم وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) الآية السابقة مع هذه الآية يوجبان اكثار العبد من العمل الصالح واتقانه له وذلك لان من يفعل فعلا لاجل ملك و يعلم ان الملك يراه و يبصره يحسن العمل و يتقنه واذا علم ان نفعه له مقدر بقدر عمله يكثر منه فاذ قال الله انه سميع عليم فالعبد يتقن عمله و يخلصه له واذا قال بأن جهاده لنفسه يكثر منه (المسئلة الثانية) لقائل أن يقول هذا يدل على ان الجزاء على العمل لان الله تعالى لما قال من جاهد فانما يجاهد لنفسه فهم منه أن من جاهد ربح بجهاده ما ولاه لما ربح فنقول هو كذلك ولكن بحكم الوعد لا بالاستحقاق و بيانه هو ان الله تعالى لما بين ان المكلف اذا جاهد بثبيه فاذا أتى به هو يكون جهادا بافعاله ولا نزاع فيه وانما النزاع فى ان الله يجب عليه أن يثيب على العمل لولا الوعد ولا يجوز أن يحسن الى أحد الا بالعمل ولا دلالة للآية عليه (المسئلة الثالثة) قوله فانما يقتضى الحصر فينبغى أن يكون جهاد المرء لنفسه فحسب وينتفع به غيره وليس كذلك فان من جاهد ينتفع به ومن يريد هو نفعه حتى ان الوالد والولد يبركة المجاهد وجهاده ينتفعان فنقول ذلك نفعه له فان انتفاع الولد انتفاع الوالد والحصر ههنا معناه ان جهاد لا يصل الى الله منتفع به يدل عليه قوله تعالى ان الله لغنى عن العالمين وفيه مسائل (الاولى) تدل الآية على ان رعايه الاصلح لا يجب على الله لانه بار صلح لا يستفيد فائدة واذا كان مستكملا بتلك الفائدة وهى غيره وهى من العالم فيكون مستكملا بغيره فيكون محتاجا اليه وهو غنى عن العالمين وأيضا أفعاله غير معللة لما بينا (المسئلة الثانية) تدل الآية على انه ليس فى مكان وليس على العرش على الخصوص فانه من العالم والله غنى عنه والمستغنى عن المكان لا يكون دخوله فى مكان لان الداخل فى المكان يشار اليه بانه ههنا أو هناك على سبيل الاستقلال وما يشار اليه بأنه ههنا أو هناك يستحيل ان لا يوجد لا ههنا ولا هناك والا لجواز العقل ادراك جسم لا فى مكان وانه محال (المسئلة الثالثة) لو قال قائل ليست قادريته بقدرة ولا عالميته بعلم وأما المكان هو فى قادريته محتاجا الى قدرة هى غيره وكل ما هو غيره فهو من العالم فيكون محتاجا وهو غنى نقول لم قلتم ان قدرته من العالم وهذا لان العالم كل موجود سوى الله بصفاته أى كل موجود هو خارج عن مفهوم الاله الحى القادر المريد العالم السميع البصير المتكلم والقدرة ليست خارجة عن مفهوم القادر والعلم ليس خارجا عن مفهوم العالم (المسئلة

بالسفن فأحضروه بين يديه فعالجوا فتحه فلم يقدروا عليه وقصدوا كسره فاعياهم فنظرت آسية فرأت نورا فى جوف التابوت لم يره غيرها فعالجته ففتحته فاذا هى بصبى صغير فى مهده واذا نور بين عينيه وهو يمص ابهامه لبنا فالقى الله تعالى محبته فى قلوب القوم وعمدت ابنة فرعون الى ريقه فلطخت به برصها فبرأت من ساعته وقيل لما نظرت الى وجهه برأت فقالت الغواة من قوم فرعون انا نظن أن هذا هو الذى نحذر منه رمى فى البحر رقامنك لا تقتله فهم فرعون بقتله فاستوهبته آسية فتركه كما سيأتى واللام فى قوله تعالى (ليكون لهم عدوا وحزنا) لام العاقبة ابرز مدخولها فى معرض العلة لالتقاطهم تشبيها له فى الترتب عليه بالغرض الحامل عليه وقرئ حزنا وهما لغتان كالسقم

والسقم جعل عليه الصلاة والسلام نفس الحزن ايذانا بقوة سببيته لحزنهم ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) أى فى كل ما يأتون وما يذرون فلا غرو فى أن قتلوا لاجله ألوفا ثم آخذوه يربونه ليكبر و يفعل بهم ما كانوا يحذرون روى أنه ذبح على فى طلبه عليه الصلاة والسلام تسعون ألف ولد أو كانوا

مذنبين فعاقبهم الله تعالى بأنواع من العذاب على أيديهم فالجملة اعتراضية لتأكيد خطئهم اولبيان الموجب لما ابتلوا به وقرئ خاطئين على انه تخفيف خاطئين أو على انه بمعنى متعدين الصواب الى الخطا (وقالت امرأة فرعون) أى لفرعون حين أخرجته من التابوت (قرة عين لى ولك) أى هو قرة ❊ ٦٤٤ ❊ عين لنا لما رأياه أحباه اولما ذكر من براءته من البرص بريقه وفى الحديث انه قال لك لا لى ولو قال لى كما هو لك لهداه الله تعالى كما هداها (لا تقتلوه) خاطبته بلفظ الجمع تعظيما ليساعدها فيما تريده (عسى أن ينفعنا) فان فيه مخايل اليمن ودلائل النجابة وذلك لما رأت فيه من العلامات المذكورة (أو نتخذه ولدا) أى نتبناه فانه خليق بذلك (وهم لا يشعرون) حال من آل فرعون والتقدير فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا وقالت امرأته آسية بنت مزاحم وهم لا يشعرون بانهم على خطأ عظيم فيما صنعوا من الالتقاط ورجاء النفع منه والتبنى له وقوله تعالى ان فرعون الآية اعتراض وقع بين المعطوفين لبيان تمادى خطئهم وقيل حال من أحد ضميرى نتخذه على أن الضمير للناس أى وهم لا يعلمون انه لغيرنا وقد تبينا (واصبح فؤاد أم موسى فارغا) صفرا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون كقوله تعالى وأفئدتهم هواء ❊ بنفسه ❊ أى خلاء لا عقول فيها وبعضده أنه قرئ فرغا من قولهم دماؤهم بينهم فرغ أن هدر وقيل فارغا من الهم والحزن لغاية وثوقها بوعد الله تعالى اولسماعها ان فرعون

الرابعة) الآية فيها بشارة فيها انذار اما الانذار فلان الله اذا كان غنيا عن العالمين فلو أهلك عباده بعذابه فلا شئ عليه لغناه عنهم وهذا يوجب الخوف العظيم واما البشارة فلانه اذا كان غنيا فلو أعطى جميع ما خلقه لعبد من عباده لا شئ عليه لاستغنائه عنه وهذا يوجب الرجاء التام ❊ ثم قال تعالى (والذين امنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذين كانوا يعملون) لما بين اجمالا أن من يعمل صالحا فلنفسه بين مفصلا بعض التفصيل ان جزاء المطيع الصالح عمله فقال والذين آمنوا وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) انها تدل على أن الاعمال مغايرة للايمان لان العطف يوجب التغاير (المسئلة الثانية) انها تدل على أن الاعمال داخلة فيما هو المقصود من الايمان لان تكفير السيئات والجزاء بالاحسن معلق عليهما وهى ثمرة الايمان ومثال هذا شجرة مثمرة لاشك فى أن عروقها وأغصانها منها والماء الذى يجرى عليها والتراب الذى حواليها غير داخل فيها لكن الثمرة لا تحصل الا بذلك الماء والتراب الخارج فكذلك العمل الصالح مع الايمان وأيضا الشجرة لو احتفت بها الحشائش المفسدة والاشواك المضرة ينقص ثمرة الشجرة وان غلبتها عدمت الثمرة بالكلية وفسدت فكذلك الذنوب تفعل بالايمان (المسئلة الثالثة) الايمان هو التصديق كما قال وما أنت بمؤمن لنا أى بمصدق واختص فى استعمال الشرع بالتصديق بجميع ما قال الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التفصيل ان علم مفصلا انه قول الله أو قول الرسول أو على سبيل الاجمال فيما لم يعلم والعمل الصالح عندنا كل ما أمر الله به صار صالحا بأمره وانما حسن لما كان صالحا فليس الصلاح والفساد من لوازم الفعل فى نفسه وقالت المعتزلة ذاك من صفات الفعل يترتب عليه الامر والنهى فالعبد فى عمل صالح فى نفسه وبأمر الله به ذلك فعندنا الصلاح والفساد والحسن والقبح يترتب على الامر والنهى وعندهم الامر والنهى يترتب على الحسن والقبح والمسئلة بطولها فى الاصول (المسئلة الرابعة) العمل الصالح بقى لان الصالح فى مقابلة الفاسد والفاسد هو الهالك التالف يقال فسدت اللبن اذا هلكت أو خرجت عن درجة الانتفاع ويقال هى بعد صالحة أى باقية تعلى ما ينبغى لدوامها فقولنا العمل الصالح يبقى بنفسه لانه عرض ولا يبقى بعامل أيضا لانه هالك كما قال تعالى كل شئ هالك ببقاء الله لابد من أن يكون بشئ باق لكن الباقى هو وجه الله لقوله كل شئ هالك الا وجهه فينبغى أن يكون العمل لوجه الله حتى يبقى فيكون صالحا وما لا يكون لوجهه لا يبقى لا بنفسه ولا بالعامل ولا بالمعمول له فلا يكون صالحا فالعمل الصالح هو الذى أتى به المكلف مخلصا لله (المسئلة الخامسة) هذا يقتضى أن تكون النية شرطا فى الصالحات من الاعمال وهى قصد الانتفاع لله ويندرج فيها النية فى الصوم خلافا لزفر وفى الوضوء خلافا لابى حنيفة رحمه الله (المسئلة السادسة) العمل الصالح مرفوع لقوله تعالى والعمل الصالح يرفعه لكنه لا يرتفع الا بكلم الطيب فانه يصعد

عطف عليه وتبناه وقرئ موسى بالنصب اجراء للضمة في جارة الواو مجرى ضمتها فنصبت كما في جوه (ان كادت لتبدي به) أي انها كادت لتظهر بموسى أي بأمره وقصته من فرط الحيرة والدهشة أو الفرح بتبنيه (لولا أن ربطنا على قلبها) بالصبر واثبات (لتكون من المؤمنين) ﴿ ٦٤٥ ﴾ أي المصدقين بوعد الله تعالى أو من الواثقين بحفظه لا بتبني

بنفسه كما قال تعالى اليه يصعد الكلم الطيب وهو يرفع العمل فالعمل من غير المؤمن لا يقبل ولهذا قدم الايمان على العمل وههنا لطيفة وهي ان أعمال المكلف ثلاثة عمل قلبه وهو فكره واعتقاده وتصديقه وعمل لسانه وهو ذكره وشهادته وعمل جوارحه وهو طاعته وعبادته فالعبادة البدنية لا ترتفع بنفسها وانما ترتفع بغيرها والقول الصادق يرتفع بنفسه كما بين في الآية وعمل القلب وهو الفكر ينزل اليه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ان الله ينزل الى السماء الدنيا ويقول هل من تائب والتائب النادم بقلبه وكذلك قوله عليه السلام يقول الله عز وجل انا عند المنكسرة قلوبهم يعني بالفكرة في عجزه وقدرتي وحقارته وعظمتي ومن حيث العقل من تفكر في آلاء الله وجد الله وحضر في ذهنه فعلم ان لعمل القلب يأتي الله وعمل اللسان يذهب الى الله وعمل الاعضاء يوصل الى الله وهذا تنبيه على فضل عمل القلب (المسئلة السابعة) ذكر الله من أعمال العبد نوعين الايمان والعمل الصالح وذكر في مقابلتهما من أفعال الله أمرين تكفير السيآت والجزاء بالاحسن حيث قال لنكفرن عنهم سيآتهم ولنجزينهم أحسن فتكفير السيآت في مقابلة الايمان والجزاء بالاحسن في مقابلة العمل الصالح وهذا يقتضي أمورا (الاول) المؤمن لا يخلد في النار لان بايمانه تكفر سيآته فلا يخلد في العذاب (الثاني) الجزاء الاحسن المذكور ههنا غير الجنة وذلك لان المؤمن بايمانه يدخل الجنة اذ تكفر سيآته ومن كفرت سيآته أدخل الجنة فالجزاء الاحسن يكون غير الجنة وهو ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولا يبعد أن يكون هو الرؤية (الامر الثالث) هو ان الايمان يستوجب الثواب في الدنيا ويسر الله صاحبه في الآخرة والعمل الصالح يحسن حال الصالح في الدنيا فيزيده الله الجزاء الاحسن في العقبى فالايمان اذن لا يبعده العصيان بل هو يغلب المعاصي ويسترها ويحمل صاحبها على التوبة والله أعلم (المسئلة الثامنة) قوله لنكفرن عنهم سيآتهم يستدعي وجود السيآت حتى تكفر والذين آمنوا وعملوا الصالحات بأسرها من أين يكون لهم سيئة فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان وعد الجميع بأشياء لا يستدعي وعد كل واحد بكل واحد من تلك الاشياء مثاله اذا قال الملك لاهل بلد اذا اطعتموني أكرم آباءكم وأحترم أبناءكم وأنعم عليكم وأحسن اليكم لا يقتضي هذا انه يكرم آباء من توفي أبوه أو يحترم ابن من لم يولد له ولد بل مفهومه انه يكرم أب من له أب ويحترم ابن من له ابن فكذلك يكفر سيئة من له سيئة (الجواب الثاني) ما من مكلف الا وله سيئة أما غير الانبياء فظاهر وأما الانبياء فلان ترك الافضل منهم كالسيئة من غيرهم ولهذا قال تعالى عفا الله عنك لم أذنت لهم (المسئلة التاسعة) قوله ولنجزينهم أحسن يحتمل وجهين (أحدهما) لنجزينهم بأحسن أعمالهم (وثانيهما) لنجزينهم أحسن من أعمالهم وعلى الوجه الاول معناه نقدر أعمالهم أحسن ما تكون ونجزيهم عليها لا أنه يختار منها أحسنها ويجزي عليه ويترك الباقي وعلى الوجه

فرعون وتعطفه وهو علة الربط وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه (وقالت لاخته) مريم والتعبير عنها باخوته عليه الصلاة والسلام دون ان يقال ابنتها للتصريح بمدار المحبة الموجبة للامتثال بالامر (قصيه) اى اتبعي أثره وتتبعي خبره (فبصرت به) أي ابصرته (عن جنب) عن بعد وقرئ بسكون النون وعن جانب والكل بمعنى (وهم لا يشعرون) انها تقصه وتتعرف حاله وانها أخته (وحرمنا عليه المراضع) اى منعناه أن يرتضع من المرضعات والمراضع جمع مرضع وهي المرأة التي ترضع أو مرضع وهو لرضاع أو موضعه أي الثدي (من قبل) أي من قبل قصها أثره (فقالت) عند رؤيتها لعدم قبوله الثدي واعتناء فرعون بامره وطلبهم من يقبل ثديها (هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم) اى لاجلكم (وهم له ناصحون) لا يقصرون في ارضاعه وتربيته روي ان هامان لما سمعه منها قال انها تعرفه وأهله فخذوها حتى تخبر بحاله فقالت انما أردت وهم للملك ناصحون فأمرها فرعون بان تأتي بمن يكفله فأتت بامه وموسى على يد فرعون يبكي وهو يعلله

فدفعه اليها فلما وجد ريحها استانس والتقم ثديها فقال من أنت منه فوالله أبى كل ثدى الا ثديك فقالت انى امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أوتى بصبى الا قبلنى فقرره فى يدها واجرى عليها فرجعت به الى بيتها من يومها وذلك قوله تعالى (فرددناه الى أمه كى تقر عينها) بوصول ولدها اليها (ولا تحزن) ﴿ ٦٤٦ ﴾ بفراقه (ولتعلم ان وعد الله) اى جميع ماوعده من رده وجعله من المرسلين (حق) لاخلف فيه بمشاهدة بعضه وقياس بعضه عليه (ولكن اكثرهم لا يعلمون) ان الامر كذلك فيرتابون فيه أو أن الغرض الاصلى من الرد علمها بذلك وماسواه تبع وفيه تعريض بمافرط منها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون (ولما بلغ اشده) اى المبلغ الذى لا يزيد عليه نشؤه وذلك من ثلاثين الى أربعين سنة فان العقل يكمل حينئذ وروى انه لم يبعث نبى الا على رأس اربعين (واستوى) اى اعتدل قده او عقله (آتيناه حكما) اى نبوة (وعلما) بالدين أو علم الحكماء وأعلمهم قبل استنبائه فلا يقول ولا يفعل مايستجهل فيه وهو أوفق لنظم القصة لانه تعالى استنباه بعد الهجرة فى المراجعة (وكذلك) ومثل ذلك الذى فعلنا بموسى وامه (نجزى المحسنين) على احسانهم (ودخل المدينة) أى مصر من قصر فرعون وقيل منف اوحابين أوعين شمس ﴿ عنكم ﴾ من نواحيها (على حين غفلة من اهلها) فى وقت لا يعتاد دخولها اولا يتوقعونه فيه قيل كان وقت القيلولة وقيل بين العشاءين (فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته) اى ممن

الثانى معناه قريب من معنى قوله تعالى من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وقوله فله خير منها (المسئلة العاشرة) ذكر حال المسئ مجملا بقوله أم حسب الذين يعملون السيئات ان يسبقونا اشارة الى التعذيب مجملا وذكر حال المحسن مجملا بقوله ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه ومفصلا بهذه الآية ليكون ذلك اشارة الى ان رحمته أتم من غضبه وفضله أعم من عدله ﴿ ثم قال تعالى (ووصينا الانسان بوالديه حسنا وان جاهداك لتشرك بى مالبس لك به علم فلا تطعهما الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) وفى الآية مسائل (الاولى) ماوجه تعلق الآية بما قبلها نقول لما بين الله حسن التكاليف ووقوعها وبين ثواب من حقق التكاليف اصولها وفروعها تحريضا للمكلف على الطاعة ذكر المانع ومنعه من أن يختار اتباعه فقال الانسان ان انقاد لاحد ينبغى أن ينقاد لابويه ومع هذا لو أمراه بالمعصية لا يجوز اتباعهما فضلا عن غيرهما فلا يمنعن أحدكم نهى من طاعة الله ولا يتبعن أحد من يأمر بمعصية الله (المسئلة الثانية) فى القراءة قرئ حسنا واحسانا وحسنا أظهرها هنا ومن قرأ احسانا فمن قوله تعالى وبالوالدين احسانا والتفسير على القراءة المشهورة هو ان الله تعالى وصى الانسان بأن يفعل مع والديه حسن التأتى بالفعل والقول وذكر حسنا ليدل على الكمال كما يقال ان لزيد مالا (المسئلة الثالثة) فى قوله ووصينا الانسان بوالديه حسنا دليل على أن متابعتهم فى الكفر لا تجوز وذلك لان الاحسان بالوالدين وجب بأمر الله تعالى فلو ترك العبد عبادة الله تعالى بقول الوالدين لترك طاعة الله تعالى فلا ينقاد لما وصاه به فلا يحسن الى الوالدين فاتباع العبد أبويه فى مثل الاحسان يهما يفضى الى ترك الاحسان اليهما ومايفضى وجوده الى عدمه باطل فاتباعهما باطل فاذا امتنع من الشرك بقى على الطاعة والاحسان اليهما من الطاعة فيأتى به وترك هذا الاحسان صورة يفضى الى الاحسان حقيقة (المسئلة الرابعة) الاحسان بالوالدين مأمور به لانهما سبب وجود الولد ولادة وسبب بقائه بالتربية المعادة فهما سبب مجازا والله تعالى سبب له فى الحقيقة بالارادة وسبب بقائه بالاعادة للسعادة ولو توفى بأن يحسن العبد حاله معهما ثم قال تعالى وان جاهداك لتشرك بى مالبس لك به علم فلا تطعهما فقوله مالبس لك به علم يعنى التقليد فى الايمان ليس بحجة فلا تقلد فى الكفر فاذا امتنع الانسان من التقليد فيه ولا يتبع غير العلم لا يطيعهما أصلا لان العلم بصحة قولهما محال الحصول فاذا لم يشرك تقليدا ويستحيل الشرك مع العلم فالشرك لا يحصل منه قط ثم قال تعالى الى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون يعنى عاقبتكم وما آلكم الى وان كان اليوم مخالطتكم ومجالستكم مع الآباء والاولاد والاقارب والعشائر ولاشك ان من يعلم أن مجالسته مع واحد خالية منقطعة وحضوره بين يدى غيره دائم غير منقطع لا يترك مراضى من تدوم معه صحبته لرضا من يتركه فى زمان آخر ثم قوله تعالى فأنبئكم فيه لطيفة وهى ان الله تعالى يقول لا تضنوا الى غائب

شايعه على دينه وهم بنو اسرائيل (وهذا من عدوه) أى من مخالفيه دينا وهم القبط والاشارة على الحكاية (فاستغاثه الذى من شيعته) اى سأله ان يغيثه بالاعانة * كما نبئ عنه تعديته بعلى دون استعانه (على الذى من عدوه فوكزه موسى) أى ضرب القبطى بجمع كفه وقرئ فلكزه اى فضرب بكفه صدره (فقضى عليه) فقتله وأصله انهى حياته من قوله تعالى وقضينا اليه ذلك الامر (قال هذا من عمل الشيطان) لانه لم يكن مامورا بقتل الكفار أو لانه كان مأمونا فيما بينهم فلم يكن له اغتيالهم ولا يقدح ذلك فى عصمته لكونه خطا وانما عده من عمل الشيطان وسماه ظلما واستغفر منه جريا على سنن المقربين فى استعظام مافرط منهم ولو كان من محقرات الصغائر (انه عدو مضل مبين) ظاهر العداوة والاضلال (قال) توسيطه بين كلاميه عليه الصلاة والسلام لابانة مابينهما من المخالفة من حيث انه مناجاة ودعاء بخلاف الاول (رب انى ظلمت نفسى) أى بقتله (فاغفرلى) ذنبى (فغفرله) ذلك (انه هو الغفور الرحيم) أى المبالغ فى مغفرة ذنوب عباده ورحمتهم (قال رب بما انعمت على) اما قسم محذوف الجواب اى اقسم بانعامك على بالمغفرة لاتوبن (فلن اكون) بعد هذا أبدا (ظهيرا للمجرمين) واما استعطاف

عنكم وآباؤكم حاضرون فتوافقون الحاضرين فى الحال اعتمادا على غيبتى وعدم علمى بمخالفتكم اياى فانى حاضر معكم أعلم ماتفعلون ولا أنسى وأنبئكم بجميعه * ثم قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) الفائدة فى اعادة الذين آمنوا وعملوا الصالحات مرة أخرى نقول الله تعالى ذكر من الكافرين قسمين مهتديا ومضلا بقوله فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين وذكر حال الضال مجملا وحال المهتدى مفصلا بقوله والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون ثم ذكر قسمين آخرين هاديا ومضلا فقوله ووصينا الانسان بوالديه حسنا يقتضى أن يهتدى بهما وقوله وان جاهداك لتشرك بيان اضلالهما وقوله الى مرجعكم فأنبئكم بطريق الاجمال تهديد المضل وقوله والذين آمنوا على سبيل التفصيل وعد الهادى فذكر الذين آمنوا وعملوا الصالحات مرة لبيان حال المهتدى ومرة أخرى لبيان حال الهادى والذى يدل عليه هو أنه قال أولا لنكفرن عنهم سيئاتهم وقال ثانيا لندخلنهم فى الصالحين والصالحون هم الهداية لانه مرتبة الانبياء ولهذا قال كثير من الانبياء ألحقنى بالصالحين (المسئلة الثانية) قد ذكرنا أن الصالح باق والصالحون باقون وبقاؤهم ليس بأنفسهم بل بأعمالهم الباقية فأعمالهم باقية والمعمول له وهو وجه الله باق والعاملون باقون ببقاء أعمالهم وهذا على خلاف الامور الدنيوية فان فى الدنيا بقاء الفعل بالفاعل وفى الآخرة بقاء الفاعل بالفعل (المسئلة الثالثة) قيل فى معنى قوله لندخلنهم فى الصالحين لندخلنهم فى مقام الصالحين أى دار الصالحين والاولى ان يقال لا حاجة الى الاضمار بل يدخلهم فى الصالحين أى يجعلهم منهم ويدخلهم فى عدادهم كما يقال الفقيه داخل فى العلماء (المسئلة الرابعة) قال الحكماء عالم العناصر عالم الكون والفساد ومافيه يتطرق اليه الفساد فان الماء يخرج عن كونه ماء ويفسد ويتكون منه هواء وعالم السموات لا كون فيه ولا فساد بل يوجد من عدم ولا يعدم ولا يصير الملك ترابا بخلاف الانسان فانه يصير ترابا أو شيئا آخر وعلى هذا فالعالم العلوى ليس بفاسد فهو صالح فقوله تعالى لندخلنهم فى الصالحين أى فى المجردين الذين لا فساد لهم * ثم قال تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) نقول أقسام المكلفين ثلاثة مؤمن ظاهر بحسن اعتقاده * وكافر مجاهر بكفره وعناده * ومذبذب بينهما يظهر الايمان بلسانه ويضمر الكفر فى فؤاده * والله تعالى لما بين القسمين بقوله تعالى فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين وبين أحوالهما بقوله أم حسب الذين يعملون السيئات الى قوله والذين آمنوا وعملوا الصالحات بين القسم الثالث وقال ومن الناس من يقول آمنا بالله وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال ومن الناس من يقول آمنا ولم يقل آمنت

أى بحق انعامك على اعصمنى فلن اكون معينا لمن تؤدى معاونته الى الجرم وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انه عليه الصلاة والسلام لم يستثن فأتتلى به سرة أخرى وهذا يؤيد الاول وقيل معناه بما أنعمت على من القوة أعين أولياءك فلن استعملها فى مظاهرة أعدائك (فاصبح فى المدينة خائفا يترقب) يترصد الاستغاثة او الاخبار (فاذا الذى استنصره بالامس يستصرخه) أى يستغيثه برفع العوت من الصراخ (قال له موسى انك لغوى مبين) اى بين الغواية تسببت لقتل رجل وتقاتل آخر (فلما ان أراد) موسى (ان يبطش بالذى هو عدو لهما) أى لموسى وللاسرائيلى اذ لم يكن على دينهما ولان القبط كانوا اعداء لبنى اسرائيل على الاطلاق وقرئ يبطش بضم التاء (قال) أى الاسرائيلى ظانا انه عليه الصلاة والسلام يبطش به حسبما يوهمه تسميته اياه غويا (يا موسى اتريد ان تقتلنى كما قتلت نفسا بالامس) قالوا لما سمع القبطى قول الاسرائيلى علم ان موسى هو الذى قتل ذلك القبطى فانطلق الى فرعون فاخبره بذلك وأمر فرعون بقتل موسى عليه السلام وقيل قاله القبطى (ان تريد) أى ما تريد

مع انه وحد الافعال التى بعده كقوله تعالى فاذا أوذى فى الله وقوله جعل فتنة الناس وذلك لان المنافق كان يشبه نفسه بالمؤمن و يقول ايمانى كايمانك فقال آمنا يعنى أنا والمؤمن حقا آمنا اشعارا بان ايمانه كايمانه وهذا كما ان الجبان الضعيف اذا خرج مع الابطال فى القتال وهزموا خلفه وهم يقول الجبان خرجنا وقاتلناهم وهزمناهم فيصح من الناظم الكلام ان يقول وماذا كنت أنت فيهم حتى تقول خرجنا وقاتلنا وهذا الرد يدل على انه يفهم من كلامه ان خروجه وقتاله كخروجهم وقتالهم لانه لا يصح الانكار عليه فى دعوى نفس الخروج والقتال وكذا قول القائل انا والملك أنفينا فلانا واستقبلنا ينكر لان المفهوم منه المساواة فهم لما أرادوا اظهار كون ايمانهم كايمان المحقين كان الواحد يقول آمنا أى أنا والمحق (المسئلة الثانية) قوله فاذا أوذى فى الله هو فى معنى قوله وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى غير ان المراد بتلك الآية الصابرون على أذية الكافرين والمراد ههنا لم يصبروا عليها فقال هناك أوذوا فى سبيلى وقال ههنا أوذى فى الله ولم يقل فى سبيل الله واللطيفة فيه ان الله أراد بيان شرف المؤمن الصابر وخسة المنافق الكافر فقال هناك أوذى المؤمن فى سبيل الله ليترك سبيله ولم يتركه وأوذى المنافق الكافر فترك الله بنفسه وكان يمكنه ان يظهر موافقتهم ان بلغ الايذاء الى حد الاكراه و يكون قلبه مطمئنا بالايمان فلا يترك الله ومع هذا لم يفعله بل ترك الله بالكلية والمؤمن أوذى ولم يترك سبيل الله بل أظهر كلمتى الشهادة وصبر على الطاعة والعبادة (المسئلة الثالثة) قوله جعل فتنة الناس كعذاب الله قال الزمخشرى جعل فتنة الناس صارفة عن الايمان كما ان عذاب الله صارف عن الكفر وقبل جزعوا من عذاب الناس كما جزعوا من عذاب الله و بالجملة معناه انهم جعلوا فتنة الناس مع ضعفها وانقطاعها كعذاب الله الاليم الدائم حتى ترددوا فى الامر وقالوا ان آمنا نتعرض للأذى من الناس وان تركنا الايمان نتعرض لما توعدنا به محمد عليه الصلاة والسلام واختاروا الاحتراز عن التأذى العاجل ولا يكون التردد الا عند التساوى ومن أين الى أين تعذيب الناس لا يكون شديدا ولا يكون مديدا لان العذاب ان كان شديدا كعذاب النار وغيره يموت الانسان فى الحال ولا يدوم التعذيب وان كان مديدا كالحبس والحصر لا يكون شديدا وعذاب الله شديد وزمانه مديد وأيضا عذاب الناس له دافع وعذاب الله ماله من دافع وأيضا عذاب الناس عليه ثواب عظيم وعذاب الله بعده عذاب أليم والمشقة اذا كانت مستعقبة للراحة العظيمة تطيب ولا تعد عذابا كما تقطع السلعة المؤذية ولا تعد عذابا (المسئلة الرابعة) قال فتنة الناس ولم يقل عذاب الناس لان فعل العبد ابتلاء وامتحانا من الله وفتنه تسليط بعض الناس على من أظهر كلمة الايمان ليؤذيه فتبين منزلته كما جعل التكاليف ابتلاء وامتحانا وهذا اشارة الى أن الصبر على البلية الصادرة ابتلاء وامتحانا من الانسان كالصبر على العبادات (المسئلة الخامسة) لو قال قائل هذا يقتضى منع

(الا أن تكون جبارا فى الارض) وهو الذى يفعل كل ما يريده من الضرب والقتل ولا ينظر فى العواقب وقيل المتعظم الذى لا يتواضع لامر الله تعالى (وما تريد أن تكون من المصلحين) بين الناس بالقول والفعل (وجاء رجل من أقصى المدينة) أى كائن من آخرها أو جاء من آخرها (يسعى) أى يسرع صفة لرجل أو حال منه على أن الجار والمجرور صفة له لامتعلق بجاء فان تخصصه بالمعارف قيل هو مؤمن آل فرعون واسمه حزقيل ﴿ ٦٤٩ ﴾ وقيل شمعون وقيل شمعان (قال يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك) أى يتشاورون بسببك فان كلا من المتشاورين يأمر الآخرين ويأتمر (فاخرج) أى من المدينة (انى لك من الناصحين) اللام للبيان لما أن معمول الصلة لا يتقدم عليها (فخرج منها) أى من المدينة (خائفا يترقب) لحوق الطالبين (قال رب نجنى من القوم الظالمين) خلصنى منهم واحفظنى من لحوقهم (ولما توجه تلقاء مدين) أى نحو مدين وهى قرية شعيب عليه السلام سميت باسم مدين بن ابراهيم ولم تكن تحت سلطان فرعون وكان بينها وبين مصر مسيرة ثمانية أيام (قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) توكلا على الله تعالى وثقة بحسن توفيقه وكان لا يعرف الطرق سمع له ثلاث طرائق فاخذ فى الوسطى وهى أطلاب فشرع فى الاخرين وقيل خرج حافيا لا يعيش الا بورق الشجر فما وصل حتى سقط خف قدميه وقيل جاء ملك على فرس وبيده عنزة فانطلق به الى مدين (ولما ورد ماء مدين) أى وصل اليه وهو بئر كانوا يسقون منها (وجد عليه) اى ﴿ ٨٢ ﴾ س فوق شفيرها (أمة) جماعة كثيفة (من الناس يسقون) أى مواشيهم (ووجد من دونهم) أى فى موضع أسفل منهم (امرأتين تذودان) أى تمنعان ما معهما من الاغنام عن التقدم الى البئر كيلا تختلط باغنامهم مع عدم الفائدة فى التقدم (قال

المؤمن من اظهار كلمة الكفر بالاكراه لان من أظهر كلمة الكفر بالاكراه احترازا عن التعذيب العاجل يكون قد جعل فتنة الناس كعذاب الله فنقول ليس كذلك لان من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالايمان لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله لان عذاب الله يوجب ترك ما يعذب عليه ظاهرا وباطنا وهذا المؤمن المكره لم يجعل فتنة الناس كعذاب الله بحيث يترك ما يعذب عليه ظاهرا وباطنا بل فى باطنه الايمان ثم قال تعالى ولئن جاء نصر من ربك ليقولن انا كنا معكم يعنى دأب المنافق انه ان رأى اليد للكافر هو أضر وأظهر المعية وادعى التبعية وفيه فوائد نذكرها فى مسائل (الاولى) قال ولئن جاء نصر من ربك ولم يقل من الله مع ان ما تقدم كان كله بذكر الله كقوله أوذى فى الله وقوله كعذاب الله وذلك لان الرب اسم مدلوله الخاص به الشفقة والرحمة والله اسم مدلوله الهيبة والعظمة فعند النصر ذكر اللفظ الدال على الرحمة والعطفة وعند العذاب ذكر اللفظ الدال على العظمة (المسئلة الثانية) لم يقل ولئن جاءكم او جاءك بل قال ولئن جاء نصر من ربك والنصر لو جاءهم ما كانوا يقولون انا كنا معكم وهذا يقتضى ان يكونوا قائلين انا معكم اذا جاء نصر سواء جاءهم أو جاء المؤمنين فنقول هذا الكلام يقتضى أن يكونوا قائلين انا معكم اذا جاء النصر لكن النصر لا يجئ الا للمؤمن كما قال تعالى وكان حقا علينا نصر المؤمنين ولان غلبة الكافر على المسلم لم تنصر لان النصر ما يكون عاقبته سليمة بدليل ان أحد الجيشين اذا نهزم فى الحال ثم كر المنهزم كرة اخرى وهزموا الغالبين لا يسمى اسم النصر الاعلى من كان له العاقبة فكانت الغلبة ان كانت فى الحال فالعاقبة للمتقين هو النصر لهم فى الحقيقة (المسئلة الثالثة) فى بيان ان احدهما القى حبه على قلوب من يقول آمنا فمن الناس من يقول آمنا اذا أوذى يعد ذلك القول واذا جاء النصر يقولون انا كنا معكم ولا يعدها الضر على الجمع عند القول فى الجحيم الذين يعلم الله منهم ان لو ردوا لعادوا كانوا جامعتهم بين الله تعالى انهم لكاذبون ولا يصح ذلك منهم من الكافر الذى يكون عند ما يخالف القول العمل فانه مع بيان الامر على قوله ولا يدرى ما فى قلبه فيلبس الامر عليه وأما الله تعالى فهو عليم بذات الصدور وهو أعلم بما فى صدر الانسان من الايمان فلا يلتبس عليه الامر وعند هذا اشار الى أن الايمان باق فى قلب المنافق الذى يظهر الايمان وضمير يكفر كافر المؤمن الذى يضمر الكفر ويظهر الايمان مؤمن والله أعلم بما فى صدور العالمين وبين انه أعلم بما فى صدور العالمين بين العلم المؤمن بحق وان لم يتكلم والمنافق وان تكلم فقال وليعلم الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين وقد سبق تفسيره ذكر فيه مسئلة واحدة وهى ان الله قال هناك ليعلمن الذين صدقوا وقال هيهنا وليعلمن الله الذى آمنوا فنقول لما كان الذكر هناك للمؤمن ما الكافر والكافر فى قوله كاذب فانه يقول الله أكثر من واحد والمؤمن فى قوله صادق فانه كما يقول الله واحد ولم يكن هناك ذكر من يضمر خلاف ما يظهر فكان الحاصل هناك قسمين صادق وكاذب

عليه السلام لهما حين رآهما على ما هما عليه من التأخر والذود (ما خطبكما) ما شأنكما فيما أنتما عليه من التأخر والذود ولا تسقيان (قالتا لا نسقي) حتى يصدر الرعاء (أي عادتنا أن لا نسقي حتى يصرف الرعاء مواشيهم بعد ريها عن الماء تحرزا عن مزاحمة الرجال وأنا لا نسقي اليوم إلى تلك الغاية وحذف مفعول نسقي والذود والاصدار لما أن الغرض معلوم من تلك الأفعال أنفسها الذهبي الوردعت موسى عليه ٦٥ السلام إلى ما صنع في حقهما من المعروف فانه

ركا هنا للناهية صادق وقوله ما كان تترك الله واحد فاعتبر أمر النفس في المنافق فعال راعل المنافقين واعتبر أمر النفس في الوزر رمز التصديق فقال تعالى الله الذين آمنوا ✻ ثم قال تعالى (وقال الذين كفروا للذين امنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء انهم لكاذبون) لما بين الله تعالى الفرق الثلاثة وأحوالهم وذكر أن الكافر يدعون من يقول آمنت إلى الكفر بالفتنة وبين ان عذاب الله فوقها ذكر ان الكافر يقول للمؤمن تصيبنا الذل وعلى الايذاء لاي شيء ولم لا تدفع عن نفسك العذاب بمتابعتنا فكا جواب المؤمن ان يقول فوقها عذاب الله على حضيضهم فقالوا لا خطيئة لنا ما كان فيه خطيئة فعاينا وفي الآية مسائل (المسألة الاولى) ولنحمل صيغة أمر والمأمور غير الآمر فكيف يصح أمر النفس من الشخص فنقول الصيغة أمر والمعنى شرط وجزاء أي ان اتبعونا حملنا خطاياكم قال صاحب الكشاف هو في معنى قول من يريد اجتماع أمرين في الوجود فيقول ليكن منك العطاء ويكون مني الدعاء فقوله ولنحمل أي ليكن منا الحمل وليس هو في الحقيقة أمر طلب وايجاب (المسألة الثانية) قال وما هم بحاملين من خطاياهم وقال بعد هذا وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم فهناك نفى الحمل وههنا اثبت الحمل فكيف الجمع بينهما فنقول قول القائل فلان حمل عن فلان يفيد ان حمل فلان خف واذا لم يخف حمله فلا يكون قد حمل منه شيئا فكذلك ههنا ما هم بحاملين من خطاياهم يعني لا يرفعون عنهم خطيئة وهم يحملون أوزارا بسبب اضلالهم ويحملون أوزارا بسبب ضلالتهم كما قال النبي عليه السلام من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شيء (المسألة الثالثة) الصيغة أمر والامر لا يدخله التصديق والتكذيب فكيف يفهم قوله انهم لكاذبون نقول قد تبين ان معناه شرط وجزاء وكأنهم قالوا ان تتبعونا نحمل خطاياكم وهم كذبوا في هذا فانهم لا يحملون شيئا ✻ ثم قال تعالى (وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون) في الذي كانوا يفترونه يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) كل قولهم ولنحمل خطاياكم صادرا لاعتقادهم أن لا خطيئة في الكفر ثم يوم القيامة يظهر لهم خلاف ذلك فيسألون عن ذلك الافتراء (وثانيها) ان قولهم ولنحمل خطاياكم كان عن اعتقاد أن لا حشر فاذا جاء يوم القيامة ظهر لهم خلاف ذلك فيسئلون ويقال لهم أما قلتم أن لا حشر (وثالثها) انهم لما قالوا ان تتبعونا نحمل يوم القيامة خطاياكم يقال لهم فاحملوها خطاياهم فلا يحملون فيسئلون ويقال لهم لم افتريتم ✻ ثم قال تعالى (ولقد ارسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما) وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما بين التكليف وذكر أقسام المكلفين ووعد المؤمن الصادق بالثواب العظيم وأوعد الكافر والمنافق بالعذاب الأليم وكان قد ذكر أن هذا التكليف ليس مختصا بالنبي وأصحابه أمته حتى صعب عليهم ذلك بل

رحمهما لكونهما على الأبد للعجز والعفة وكونهم على السقي غريبين بهما ومارحمهما لكون مذودهما غنما وسقيهما إبلا ومذودي لا نسقي حتى يصدر من الصدور والرعاء بضم الراء وهو اسم جمع كالرخال وأما الرعاء بالفتح فجمع قياسي كصيام وقيام وقوله تعالى (وأبونا شيخ كبير) إبلاء منهما للعذر اليه عليه السلام في توليهما للسقي بأنفسهما كأنهما قالا انا امرأتان ضعيفتان مستورتان لا تقدر على مساجلة الرجال ومزاحمتهم وما لنا رجل يقوم بذلك وأبونا شيخ كبير السن قد أضعفه الكبر فلا بد لنا من تأخير السقي الى أن يقضي الناس أوطارهم من الماء (فسقى لهما) رحمة عليهما والكلام في حذف مفعوله كما مر آنفا وروي أن الرعاة كانوا يضعون على رأس البئر حجرا لا يقله الا سبعة رجال وقيل عشرة وقيل أربعون وقيل مائة فاقله وحده مع ما كان به من الوصب والجراحة والجوع وانما عليه الصلاة والسلام رحمهم في السقي لهما فوضعوا الحجر على البئر فعجز عليه الصلاة ✻ قيله ✻ والسلام عن ذلك فان الظاهر أنه عليه الصلاة والسلام غب ما شاهد حالهما سارع الى السقي لهما وقد روى أنه دفعهم عن الماء الى أن سقى لهما وقيل كانت هناك بئر أخرى عليها الصخرة المذكورة وروى أنه عليه

الصلاة والسلام سالهم دلوا من ماء فاعطوه دلوهم وقالوا استق بها وكان لا يزعها الآربعون فاستق بها وصبها في الحوض ودعا بالبركة وروى غمهما وأصدرهما (ثم تولى الى الظل) الذي كان هناك (فقال رب اني لما أنزلت الي) أي أي شيء أنزلته الي (من خير) جل أو قل وحمله الاكثرون على الطعام بمعونة المقام (فقير) أي محتاج ولتضمنه معنى السؤال والطلب جيء بلام الدعامة لتقوية العمل وقيل المعنى لما انزلت ﴿ ٦٥١ ﴾ الي من خير عظيم هو خير الدارين صرت فقيرا في الدنيا لانه

قبله كان كذلك كما قال تعالى ولقد فتنا الذين من قبلهم ذكر من جملة من كلف جماعة منهم نوح النبي عليه السلام وقومه ومنهم ابراهيم عليه السلام وغيرهما ثم قال تعالى فلبث فيهم الف سنة الا خمسين عاما وفي الآية مسائل (الاولى) ما الفائدة في ذكر مدة لبثه بقول كان النبي عليه السلام يضيق صدره بسبب عدم دخول الكفار في الاسلام واصرارهم على الكفر فقال ان نوحا لبث ألف سنة تقريبا في الدعاء ولم يؤمن من قومه الا قليل وصبر وما ضجر وأنت أولى بالصبر لقلة مدة لبثك وكثرة عدد أمتك وأيضا كان الكفار يقترحون بتأخير العذاب عنهم أكثر ومع ذلك ما نجوا فيهذا المقدار من التأخير لا ينبغي أن يغتروا فان العذاب يلحقهم (المسئلة الثانية) قال بعض العلماء الاستثناء في العدد تكلم بالباقي فاذا قال القائل لفلان علي عشرة الا ثلاثة فكأنه قال علي سبعة اذا علم هذا فقوله ألف سنة الا خمسين عاما كقوله تسعمائة وخمسين سنة فما الفائدة في العدول عن هذه العبارة الى غيرها فنقول قال الزمخشري فيه فائدتان (احداهما) ان الاستثناء يدل على التحقيق وتركه قد يظن به التقريب فان من قال عاش فلان ألف سنة يمكن أن يتوهم أن يقول ألف سنة تقريبا لا تحقيقا فاذا قال الا شهرا أو الا سنة يزول ذلك التوهم ويفهم منه التحقيق (الثانية) هي ان ذكر لبث نوح عليه السلام في قومه كان لبيان انه صبر كثيرا فالنبي عليه السلام أولى بالصبر مع قصر مدة دعائه واذا كان كذلك فذكر العدد الذي في أعلى مراتب الاعداد التي لها اسم مفرد وضوع فان مراتب الاعداد هي الآحاد الى العشرة والعشرات الى المائة والمئات الى الالف ثم بعد ذلك يكون التكثير بالتكرير فيقال عشرة آلاف ومائة ألف وألف ألف (المسئلة الثالثة) قال بعض الاطباء العمر الانساني لا يزيد على مائة وعشرين سنة والآية تدل على خلاف قولهم والعقل يوافقها فان البقاء على التركيب الذي في الانسان ممكن لذاته والا لما بقي ودوام تاثير المؤثر فيه ممكن لان المؤثر فيه ان كان واجب الوجود فظاهر الدوام وان كان غيره فله مؤثر وينتهي الى الواجب وهو دائم فتأثيره يجوز أن يكون دائما فاذا البقاء ممكن في ذاته فان لم يكن فلعارض لكن العارض ممكن العدم والا لما بقي هذا المقدار لوجوب وجود العارض المانع فظهر أن كلامهم على خلاف العقل والنقل (ثم نقول) نزاعنا بيننا وبينهم لانهم يقولون العمر الطبيعي لا يكون أكثر من مائة وعشرين سنة ونحن نقول هذا العمر ليس طبيعيا بل هو عطاء الهي وأما العمر الطبيعي فلا يدوم عندنا على الخط فضلا عن مائة أو أكثر (قوله تعالى) (فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) فيه اشارة الى لطيفة وهي ان الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم والا لعذب من ظلم وتاب فان الظلم وجد منه والله يعذب على الاصرار على الظلم فقوله وهم ظالمون يعني أهلكهم وهم على ظلمهم ولو كانوا تركوه ولما أهلكهم * قوله تعالى (فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين) في الراجع اليه الهاء في قوله جعلناها وجهان (أحدهما) انها راجعة الى السفينة المذكورة وعلى هذا ففي كونها آية وجوه (أحدها) انها اتخذت قبل

كان في سعة من العيش عند فرعون قاله عليه الصلاة والسلام اظهارا للتعجب والشكر على ذلك (فجاءته احداهما) قيل هي كبراهما واسمها صفوراء او صفراء وقيل صغراهما واسمها صفيراء أي جاءته عقيب مارجعتا الى أبيهما روى أنهما لما رجعتا الى أبيهما قبل الناس وأغنامهما حفل بطان قال لهما ما أعجلكما قالتا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا فقال لاحدهما اذهبي فادعيه لي وقوله تعالى (تمشي) حال من فاعل جاءت وقوله تعالى (على استحياء) متعلق بمحذوف هو حال من ضمير تمشي أي جاءته تمشي كائنة على استحياء فمعناه انها كانت على استحياء حالتي المشي والمجيء معا لا عند المجيء فقط وتنكير استحياء للتفخيم قيل جاءته متخفرة اي شديدة الحياء وقيل قد استترت بكم درعها (قالت) استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية مجيئها اياه عليه الصلاة والسلام كأنه قيل فاذا قالت له عليه الصلاة والسلام فقيل قالت (ان أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) اي جزاء سقيك لنا أسندت الدعوة الى أبيها وعلتها بالجزاء لئلا يوهم كلامها ريبة وفيه من الدلالة على كمال العقل والحياء والعفة ما لا يخفى روى انه عليه الصلاة والسلام أجابها فانطلقا وهي امامه فارتفت الريح ثوبها فجسدها فوصفته فقال لها امشي خلفي وانعتي لي الطريق ففعلت حتى أتيا دار شعيب عليهما

السلام (فلما) جاءه وقص عليه القصص) أي ما جرى عليه من الخبر المقصوص فانه مصدر سمي به المفعول كالخلق (قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين) الذي يلوح من ظاهر النظم الكريم أن موسى عليه السلام انما أجاب المستدعية من غير تلعثم ليتبرك برؤية شعيب عليه السلام ويستظهر برأيه لا لأنه أحنبه وفد أجر احسبه صرحت به الأيدي الى ماوراءه أن شعيبا لما قرب اليه طعاما قال انا أهل بيت لا نبيع طعامنا بملء الارض ذهبا ولا أشد ﴿ ٦٥٢ ﴾ على الله في ثنا ولم يتناول حتى قال شعيب

عليه السلام هذه عادتنا مع كل من ينزل بنا فتناول بعد ذلك على سبيل التقبل المعروف مبتدأ كيف لا وقد قص عليه قصصه وعرفه أنه من بيت تنبو عن أبوابه الضيفان فحقيق بأن يضيف ويكرم لاسيما في دارني من أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام وقيل ليس بمستنكر منه عليه الصلاة والسلام أن يقبل الاجر لاضطراره الى القوت وانقطاعه وقد روي عن عطاء بن السائب أنه عليه السلام رفع صوته بدعائه ليسمعها ولذلك قيل له يجزيك الخ ولعله عليه السلام انما فعله ليكون ذريعة الى استدعائه لا الى استيفاء الاجر (قالت احداهما) وهي التي استدعته الى أبيها وهي التي زوجها من موسى عليهما السلام (يا أبت استأجره) أي لرعي الغنم والقيام بأمرها (ان خير من استأجرت القوي الامين) تعليل جار مجرى الدليل على أنه حقيق بالاستئجار وللمبالغة في ذلك جعل خبر ان مجموع الامرين وذكر الفعل على صيغة الماضي للدلالة على أنه أمين مجرب روي أن شعيبا عليه السلام قال لها وما أعلمك بقوته وأمانته فذكرت ما شاهدت ﴿ وقال ﴾ منه عليه السلام من اقلال الحجر ونزع الدلو وانه صوب رأسه حين بلغه رسالته وأمرها بالمشي خلفه (قال اني أريد أن أنكحك احدى ابنتي هاتين على أن تأجرني) أي تكون أجيرا لي وتثيبني من أجرت كذا اذا

ظهور المعجزة على يده عليه السلام لله تعالى ثناؤه وايانا به لما اشتغل بهذا المقدار من الحاجة (ورأيها ان تولي أمرا يأخذ قوما بعد ورفعة من الثروة والخير العظيم ويفوتهم أحد ضدين ان لم تغتنم قبل تقاربه وتزايد ولاذت الحاجة بمن يقضي الله على يديه السعيد (وثانيهما) ان الله تعالى كتب سلامة السفينة عن الرياح العاصفة والحر بالمرأة الولاية ولاذت لما حصلت النجاة والثاني) بأن راجعته الرياح الواقعة والنجاة أي فعلت لواقعة أو النجاة آية للعالمين * ثم قال تعالى (ولو براهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) الفارغ عن الاشارة الى حكاية نوح ذكر حكاية ابراهيم وابن ابراهيم وجهان من اقترانهما أحدهما النصب والمشهور والثاني الرفع على معنى ومن المرسلين ابراهيم والاول فيه وجهان أحدهما انه منصوب بفعل غير مذكور وهو معنى اذكر ابراهيم والثاني انه منصوب بمذكور وهو قوله ولقد أرسلنا فيكون كأنه قال وأرسلنا ابراهيم وعلى هذا في الآية مسائل (الاولى) قوله اذ قال لقومه ظرف أرسلنا أي أرسلنا ابراهيم اذ قال لقومه لكن قوله لقومه اعبدوا الله دعوة والارسال يكون قبل الدعوة فكيف يفهم قوله وأرسلنا ابراهيم حين قال لقومه مع أنه يكون مرسلا قبله نقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان الارسال أمر يمتد فهو حال قوله لقومه اعبدوا الله كان مرسلا وهذا كما نقول لقائل وقفت للامير اذ خرج من الدار وقد يكون الوقوف قبل الخروج لكن لما كان الوقوف ممتدا الى ذلك الوقت صح ذلك (والوجه الثاني) هو ان ابراهيم بمجرد هداية الله تعالى له كان عالما فساد قول المشركين وكان يهدي بهم الى الرشاد قبل الارسال ولما كان هو مشتغلا بالدعاء الى الاسلام أرسله الله تعالى وقوله اعبدوا الله واتقوه اشارة الى التوحيد لان التوحيد اثبات الاله ونفي غيره فقوله اعبدوا الله اشارة الى الاثبات وقوله واتقوه اشارة الى نفي العمل الا من يشرك مع الملك غيره في ملكه يكون قد أتى بأعظم الجرائم يمكن أن يقال اعبدوا الله اشارة الى الاتيان بالواجبات وقوله واتقوه اشارة الى الامتناع عن المحرمات ويدخل في الاول الاعتراف بالله وفي الثاني الامتناع من الشرك ثم قوله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون يعني عبادة الله وتقواه خير والامر كذلك لان خلاف عبادة الله تعالى تعطيل وخلاف تقواه تشريك وكلاهما شر عقلا واعتبارا أما عقلا فلان الممكن لا بد له من مؤثر لا يكون ممكنا فطما للتسلسل وهو واجب الوجود فلا تعطيل اذ لنا الله واما التشريك فبطلانه عقلا وكون خلافه خيرا هو أن شريك الواجب ان لم يكن واجبا فكيف يكون شريكا وان كان واجبا لزم وجود واجبين فيشتركان في الوجوب ويتباينان في الالهية وما به الاشتراك غير ما به الامتياز فيلزم التركيب فيهما فلا يكونان واجبين لكونهما مركبين فيلزم التعطيل واما اعتبارا فلان الشرف لا يكون ملكا او قريب ملك لكن الانسان لا يكون ملكا للسموات والارضين وأعلى درجاته أن يكون قريب الملك لكن العبادة كما قال تعالى واسجد واقترب

أثبته اياه فقوله تعالى (ثماني حجج) على الاول ظرف وعلى الثاني مفعول به على تقدير مضاف أي رعية ثماني حجج ونقل عن المبرد انه قال أجرت داري ومملوكي غير محمد واجرت محمدا والاول أكثر فعلى هذا يكون المفعول الثاني محذوفا والمعنى على أن تأجرني نفسك وقوله تعالى ثماني حجج ظرف كما وجه الاول (فان اتممت عشرا) في الخدمة بالعمل (فمن عندك) أي فهو من عندك بطريق

الفضل لامن عندي بطريق الالزام عليك وهذا

وقال لن يتقرب المتقربون الى بمثل ادائي ما افترضت عليهم وقال لا يزال العبد يتقرب بالعبادة الى فاجعل عملك لله ولا تجعل لنفسك فيه شيئا فلا مرتبة له صلا واما الشريك فلان من يكون سيده لا لغيره يكون أعلى رتبة ممن يكون مستعملا شركاء خسسة فاذن هو يقول ان ربي لا يريد شيئا أعلى مرتبة من قول سيدي نعم منحت عاجز مثلي بشيت أن عبادة الله تعالى هو خيركم أم خير الناس ؟ كما مر تعلم ماذكرناه من الدلائل والاعتبارات * ثم قال تعالى (انما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون افكا) ذكر بطلان مذهبهم بأبلغ الوجوه وذلك لان المعبود اما يعبد لاحد أمور اما لكونه مستحقا للعبادة بذاته كالعبد يخدم سيده الذي اشتراه سواء أطعمه من الجوع أو منعه من الهجوع واما لكونه نافعا في الحال كمن يخدم غيره لخير يوصله اليه كالمستخدم باجره واما لكونه نافعا في المستقبل كمن يخدم غيره توقعا منه أمرا في المستقبل واما لكونه خائفا منه فقال ابراهيم انما تعبدون من دون الله أوثانا اشارة الى انها لا تستحق العبادة لذاتها لكونها أوثانا لا شرف لها * قوله تعالى (ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له اليه ترجعون) اشارة الى عدم المنفعة في الحال وفي المآل وهذا لان النفع اما في الوجود واما في البقاء لكن ليس منهم نفع في الوجود لان وجودهم منكم حيث تخلقونها وتنحتونها ولا نفع في البقاء لان ذلك بالرزق وليس منهم ذلك ثم بين ان ذلك كله حاصل من الله فقال فابتغوا عند الله الرزق فقوله الله اشارة الى استحقاق عبوديته لذاته وقوله الرزق اشارة الى حصول النفع منه عاجلا وآجلا وفي الآية مسائل (الاولى) قال لا يملكون لكم رزقا نكرة وقال فابتغوا عند الله الرزق معرفا لفائدة فنقول قال الزمخشري قال لا يملكون لكم رزقا نكرة في معرض النفي أي لا رزق عندهم أصلا وقال معرفة عند الاثبات عند الله أي كل الرزق عنده فاطلبوه منه وفيه وجه آخر وهو ان الرزق من الله معروف بقوله ومامن دابة في الارض الا على الله رزقها والرزق من الاوثان غير معلوم فقال لا يملكون لكم رزقا لعدم حصول العلم به وقال فابتغوا عند الله الرزق الموعود به ثم قال فاعبدوه أي اعبدوه لكونه مستحقا للعبادة لذاته واشكروا له أي لكونه سابق النعم بالخلق وواصلها بالرزق واليه ترجعون أي اعبدوه لكونه مرجعا منه يتوقع الخير لا غير * ثم قال تعالى (وان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول الا البلاغ المبين) لما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد فقال وان تكذبوا وفي المخاطب في هذه الآية وجهان (أحدهما) انه قوم ابراهيم والآية حكاية عن قوم ابراهيم كأن ابراهيم قال لقومه ان تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وأنا أتيت بما على من التبليغ فما على الرسول ليس عليه الا البلاغ والبيان (والثاني) انه خطاب مع قوم محمد عليه السلام ووجهه ان الحكايات أكثرها انما تكون لمقاصد لكنها تنسى أطيب الحكاية ولهذا كثيرا ما يقول الحاكي

من شعيب عرض رأيه على موسى عليهما السلام واستسماه عقد الانشاء وتحقيق الفعل (يا أبت استأجره أن أشق عليك) بالزام تمام العشر أو المناقشة في مراعاة الاوقات واستيفاء الاعمال واشاق المشقة من الشق فان ما يصعب عليك يشق عليك اعتقادك في اطاقته ويوزع رأيك في مزاولته (ستجدني ان شاء الله من الصالحين) في حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالعهد ومراده عليه الصلاة والسلام بالاستثناء التبرك به وتفويض أمره الى توفيقه تعالى لا تعليق صلاحه بمشيئته تعالى (قال ذلك بيني وبينك) مبتدأ وخبر أي ذلك الذي قلته وعاهدتني فيه وشارطتني عليه قائم وثابت بيننا جميعا لا يخرج عنه واحد منا لا أنا عما شرطت على ولا أنت عما شرطت على نفسك وقوله تعالى (أيما الاجلين) أي أكثرهما واقصرهما (قضيت) أي وفيته كله بأداء الخدمة فيه (فلا عدوان علي) تصريح بالمراد وتقرير لامر الخيرة

ي لا عدوان علي بطلب الزيادة على ما وضيته من الاجلين وتحتم انتفاء العدوان لكلا الاجلين بصدد المشارطة مع عدم تحقق العدوان في أكثرهما رأسا للقصد الى التسوية بينهما في الانتفاء أي كما لا أطالب بالزيادة على العشر أطالب بالزيادة على الثمان أو ايما الاجلين قضيت فلا اثم علي بعني كما لا اثم علي في قضاء الاكثر لا اثم علي في

قضاء الاقصر فقط وقرئ أى الاجلين ماقضيت فما مزيدة لتاكيد القضاء كأنها فى القراءة الاولى مزيدة لتاكيد ابهام أى وشياعها وقرئ ايما بسكون الياء كقول من قال تنظرت نصرا والسماكين أيهما * على من الغيث استهلت مواطره (والله على ماتقول) من الشروط الجارية بيننا (وكيل) شاهد وحفيظ فلاسبيل لاحد منا الى الخروج عنه أصلا وليس ماحكى عنهما عليهما الصلاة والسلام تمام ﴿ ٦٥٤ ﴾ ﴿ ماجرى بينهما من الكلام فى انشاء عقد النكاح وعند الاجارة وايقاعهما بل هو بيان لما عزما عليه واتفقا على ايقاعه حسبما يتوقف عليه مساق القصة اجمالا من غير تعرض لبيان مواجب العقدين فى تلك الشريعة تفصيلا روى أنهما لما أتما العقد قال شعيب لموسى عليهما السلام ادخل ذلك البيت فخذ عصا من تلك العصى وكانت عنده عصى الانبياء عليهم الصلاة والسلام فأخذ عصا هبط بها آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة ولم يزل الانبياء يتوارثونها حتى وقعت الى شعيب عليه السلام فسها وكان قد أعد فضلها لقتال خاطفى غنمها فاوقع فى يده الاولى سبع مرات فعلم أنه لشأنا وقبل أخذها جبريل عليه السلام بعد موت آدم عليه السلام فكانت معه حتى لقى بها موسى عليه السلام ليلا وقيل أودعها شعيبا ملك فى صورة رجل فأمر بدفعها أول طالع فأتاهما الملك فقال باظهار * ألقياها فمن رفعها فهى له فعالجها الشيخ فلم يطقها ورفعها موسى عليه السلام وعن الحسن رضى الله تعالى عنه ما كانت الا عصا من الشجر اعترضها اعتراضا وعن الكلبى رحمه الله الشجرة التى منها نودى شجرة العوسج ومنها كانت عصاه ولما أصبح ثم ندم لانها وديعة فتبعه فاختصما فيها ورضيا أن يحكم بينهما أول طالع فأتاهما الملك فقال

لاى شئ حكيت هذه الحكاية فالنبى عليه السلام كان مقصوده تذكير قومه بحال من مضى حتى يمتنعوا من التكذيب و يرتدعوا خوفا من التعذيب فقال فى اثناء حكايتهم ياقوم ان تكذبوا فقد كذب قبلكم أقوام وأهلكوا فان كذبتم أخاف عليكم ماجاء على غيركم وعلى الوجه الاول فى الآية مسائل (الاولى) ان قوله فقد كذب أمم كيف يفهم مع ان ابراهيم لم يسبقه الا قوم نوح وعم امة واحدة والجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان قبل نوح كان أقوام كقوم ادريس وقوم شيث وآدم (والثانى) ان نوحا عاش ألفا وأكثر وكان القرن يموت و يجئ أولاده والآباء يوصون الابناء بالامتناع عن الاتباع فكفى بقوم نوح أمما (المسئلة الثانية) ما البلاغ وما المبين فنقول البلاغ هو ذكر المسائل والابانة هى اقامة البرهان عليه (المسئلة الثالثة) الآية تدل على ان تاخير البيان عن وقت الحاجة لايجوز لان الرسول اذا بلغ شيأ ولم يبينه فانه لم يأت بالبلاغ المبين فلا يكون آتيا بما عليه * ثم قال تعالى (أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ان ذلك على الله يسير) لما بين الاصل الاول وهو التوحيد وأشار الى الاصل الثانى وهو الرسالة بقوله وما على الرسول الا البلاغ المبين شرع فى بيان الاصل الثالث وهو الحشر وقد ذكرنا مرارا ان الاصول الثلاثة لايكاد ينفصل بعضها عن بعض فى الذكر الالهى فانه يذكر الله تعالى منها اثنين بذكر الثالث وفى الآية مسائل (الاولى) الانسان متى رأى بدء الخلق حتى يقال أولم يروا كيف يبدأ الله فنقول المراد العلم الواضح الذى كالرؤية والعاقل يعلم أن البدء من الله لان الخلق الاول لايكون من مخلوق والا كان خلق الخلق خلقا أو فهموا من الله هذا وقلنا ان المراد اثبات نفس الخلق والبدء فنقول المراد بالبدء خلق الآدمى أولا وبالاعادة خلقه ثانيا فنقول العاقل لايخفى عليه ان خالق الشئ قادر حكيم اما صور الاولاد فى الارحام و يخلقه من نطفة ومن علقة ومن غير ذلك الا الحكيم الذى خلق أولا معلوم طاهر فاطلق على ذلك العلم الضرورى رؤية وقال أولم يروا أى ألم يعلموا علما ظاهرا واضحا كيف يبدئ الله الخلق يخلقه من تراب جسده وكذلك يجمع أجزائه من التراب ينفع فيه روحه بل هو أسهل بالنسبة اليكم فان من يخلق حيوانات مختلفة الصور والاشكال من شئ واحد وهو الماء يخلق من شئ واحد وهو التربة أسهل من على من الحيوانات مختلفة معلوم ان آية واحدة منها تصلح لان تكون عجيبة لاخرى وعلى هذا المنهج خرج كلام الله فى قوله وهو أهون عليه الاشارة بقوله ان ذلك على الله يسير (المسئلة الثانية) قال أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق علق الرؤية بالكيفية دون الخلق وما قال أولم يروا ان الله خلق أو بدأ الخلق والكيفية غير معلومة فنقول هذا القدر من الكيفية معلوم وهو انه خلقه ولم يك شيأ مذكورا وانه خلقه من نطفة هى من غذاء هو من ماء وتراب وهذا القدر كاف فى حصول العلم بامكان الاعادة فان الاعادة مثله (المسئلة الثالثة) لم قال ثم يعيده ان ذلك على الله يسير فاخبر اسمه مرة أخرى ولم يقل ان ذلك عليه يسير كما قال ثم يعيده من غير اخبار نقول مع اقامة البرهان على انه يسير فاكده

قال له شعيب صلوات الله وسلامه عليهما اذا بلغت مفرق الطريق فلا تأخذ على يمينك فان الكلا وان كان بها اكثر الا أن فيها تنينا اخشاه عليك وعلى الغنم فأخذت الغنم ذات اليمين فلم يقدر على كفها ومشى على اثرها فاذا عشب وريف لم ير مثله فنام فاذا بالتنين قد أقبل فخار بته العصا حتى قتلته وعادت الى جنب موسى عليه السلام دامية فلما أبصرها دامية والتنين مقتولا ارتاح لذلك ولما رجع الى شعيب ﴿ ٦٥٥ ﴾ عليهما السلام مس الغنم فوجدها ملأى البطون غزيرة اللبن فأخبره موسى عليه السلام باشان ففرح وعلم أن لموسى والعصا شأنا وقال له انى وهبت لك من نتاج غنمى هذا العام كل أدرع ودرعاء فاوحى اليه في المنام أن اضرب بعصاك ما بقى الغنم ففعل ثم قسم فما الحطمات واحدة الا وضعت أدرع ودرعاء فوفى له بشرطه والباء فى قوله تعالى (فلما قضى موسى الاجل) فصيحة أى فعقدا العقدين وباشر موسى ما التزمه فلما أتم الاجل (وسار بأهله) نحو مصر باذن من شعيب عليهما السلام روى أنه عليه الصلاة والسلام قضى أبعد الاجلين ومكث عنده بعد ذلك عشر سنين ثم عزم على العود الى مصر فاستأذنه فى ذلك فأذن له فخرج بأهله (آنس من جانب الطور) أى أبصر من الجهة التى تلى الطور (نارا قال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بخبر) أى بخبر الطريق وقد كانوا ضلوه (أو جذوة) أى عود غليظ سواء كانت فى رأسه نار أو لا قال قائلهم

* بنت حواطب ليلى يلتمس لها جزل الجذى غير خوار ولا دعر وقال والق على قبس من النار جذوة * شديدا عليها حرها والتهابها والذلك بين بقوله تعالى (من النار) وقرئ بكسر الجيم وبضمها وكلها لغات (لعلكم تصطلون) أى تستدفئون (فلما أتاها) أى النار التى آنسها (نودى من شاطئ الوادى الايمن) أى اتاه النداء

باظهار اسمه تعالى يوجب المعرفة أيضا لكون ذلك بيانا لان الانسان اذا سمع بصفة لله وهم بعقله انه الحى القادر بقدرة كاملة لا يعجزه شئ العالم بعلم محيط بذرات كل جسم نافذ الارادة لا رادة أراده بقطع بجواز الاعادة * ثم قال تعالى (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ان الله على كل شئ قدير) الآية المتقدمة كانت اشارة الى العلم الحدسى وهو الحاصل من غير طلب فقال أولم يروا على سبيل الاستفهام بمعنى استبعاد عدمه وقال فى هذه الآية ان لم يحصل لكم هذا العلم فتفكروا فى اقطار الارض لتحصلوا بالعلم الفكرى وهذا لان الانسان له مراتب فى الادراك فقد يدرك شيأ من غير تعب ولا اقامة برهان وربما يتفكر ويتعب ويقيم البرهان فيعلمه فقيل ان لم تتعبوا أنفسكم بالتفكر فسيروا فى الارض أى سيروا بفكركم فى الارض وأجيلوا أذهانكم فى الحوادث الخارجة عن أنفسكم لتعلموا بدء الخلق وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال فى الآية الاولى بلفظ الرؤية وفى هذه بلفظ النظر ما الحكمة فيه نقول العلم الحدسى أتم من العلم الفكرى كما تبين والرؤية اتم من النظر لان النظر يفضى الى الرؤية يقال نظرت فرأيت والمفضى الى الشئ دون ذلك الشئ فقال فى الاول أما حصلت لكم الرؤية فانظروا فى الارض لتحصل لكم الرؤية (المسئلة الثانية) ذكر هذه الآية بصيغة الامر وفى الآية الاولى بصيغة الاستفهام لان العلم الحدسى ان حصل فالامر به تحصيل الحاصل وان لم يحصل فلا يحصل الا بالطلب لان بالطلب يصير الحاصل فكريا فيكون الامر به تكليف ما لا يطاق واما العلم الفكرى فهو مقدور فورد الامر به (المسئلة الثالثة) أبرز اسم الله فى الآية الاولى عند البدء حيث قال كيف بدأ الله وأضمره عند الاعادة وفى هذه الآية أضمره عند البدء وأبرزه عند الاعادة حيث قال ثم الله ينشئ لان فى الآية الاولى لم يسبق ذكر الله بفعل حتى يسند اليه البدء فقال كيف بدأ الله ثم قال ثم يعيده كما يقول القائل ضرب زيد عمرا ثم ضرب بكرا ولا يحتاج الى اظهار اسم زيد اكتفاء بالاول وفى الآية الثانية كان ذكر البدء مسندا الى الله فاكتفى به ولم يبرزه كقول القائل اما علمت كيف خرج زيد اسمع منى كيف خرج ولا يظهر اسم زيد واما اظهاره عند انشاء ثانيا حيث قال ثم الله ينشئ مع انه كان يكفى أن يقول ثم ينشئ النشأة الآخرة فلحكمة بالغة وهى ما ذكرنا ان مع اقامة البرهان على امكان الاعادة أظهر اسما من يفهم المسمى به بصفات كماله ونعوت جلاله يقطع بجواز الاعادة فقال الله مظهرا مبرزا ليقع فى ذهن الانسان من اسمه كمال قدرته وشمول علمه ونفوذ ارادته ويعترف بوقوع بدنه وجواز اعادته فان قيل فلم يقل ثم الله يعيده لعين ما ذكرت من الحكمة والفائدة نقول لوجهين أحدهما ان الله كان مظهرا مبرزا بقرب منه وهو فى قوله كيف يبدئ الله الخلق ولم يكرر بينهما الا لفظ الخلق واما ههنا فلم يكن مذكورا عند البدء فاظهره وثانيهما ان الدليل ههنا قائم على جواز الاعادة لان الدلائل منحصرة فى الآفاق وفى الانفس كما قال تعالى سنريهم آياتنا فى

من الشاطئ الايمن بالنسبة الى موسى عليه السلام (فى البقعة المباركة) متصل بالشاطئ أو صلة لنودى (من الشجرة) بدل اشتمال من شاطئ لانها كانت نابتة على الشاطئ (أن ياموسى انى انا الله رب العالمين) وهذا وان خالف لفظا لما فى طه والنمل لكنه موافق له فى المعنى المراد (وأن ألق عصاك) عطف على أن ياموسى وكلاهما مفسر لنودى والفاء فى قوله تعالى (فلما رآها تهتز) فصيحة مفصحة عن جمل قد حذفت ﴿٦٥٦﴾ تعويلا على دلالة الحال عليها واشعارا بغاية سرعة تحقق مدلولاتها أى فالقاها فصارت ثعبانا فاهتزت فلما رآها تهتز (كانها جان) أى فى سرعة الحركة مع غاية عظم جثتها (ولى مدبرا) أى منهزما من الخوف (ولم يعقب) أى لم يرجع (ياموسى) أى قيل ياموسى (أقبل ولا تخف انك من الآمنين) من المخاوف فانه لا يخاف لدى المرسلون (اسلك يدك فى جيبك) أى أدخلها فيه (تخرج بيضاء من غير سوء) أى عيب (واضمم اليك جناحك) أى يدك بسوطى شقى الصدر كما حذف الفرج فى قوله

الآفاق وفى انفسهم وفى الآية الاولى اشار الى الدليل النفسى الحاصل لهذا الانسان من نفسه وفى الآية الثانية اشار الى الدليل الحاصل من الآفاق بقوله قل سيروا فى الارض وعندهما تم الدليلان فاكده باظهار اسمه وأما الدليل الاول فاكده بالدليل الثانى فلم يقل ثم الله يعيده (المسئلة الرابعة) فى الآية الاولى ذكر بلفظ المستقبل فقال اولم يروا كيف يبدئ وههنا قال بلفظ الماضى فقال فانظروا كيف بدأ ولم يقل كيف يبدأ فنقول الدليل الاول هو الدليل النفسى الموجب للعلم الحدسى وهو فى كل حال يوجب العلم ببدء الخلق فقال ان كان ليس لكم علم بان الله فى كل حال يبدأ خلقا فانظروا الى الاشياء المخلوقة ليحصل لكم علم بان الله بدأ خلقا وتحصل المطلوب من هذا القدر فانه ينشئ كما بدأ ذلك (المسئلة الخامسة) قال فى هذه الآية ان الله على كل شئ قدير وقال فى الآية الاولى ان ذلك على الله يسير وفيه فائدتان (احداهما) ان الدليل الاول هو الدليل النفسى وهو وان كان موجبا للعلم الحدسى التام ولكن عند انضمام دليل الآفاق اليه يحصل العلم العام لانه بالنظر فى نفسه علم نفسه وحاجته الى الله ووجوده منه وبالنظر الى الآفاق علم حاجة غيره اليه ووجوده منه فتم علمه بان كل شئ من الله فقال عند تمام ذكر الدليلين ان الله على كل شئ قدير وقال عند الدليل الواحد ان ذلك وهو اعادته على الله يسير (الثانية) هى انا بينا ان العلم الاول أتم وان كان الثانى أعم وكون الامر يسيرا على الفاعل أتم من كونه مقدورا له بدليل أن الناس يقدرون فى حق من تحمل مائة من انه قادر عليه ولا يقولون انه سهل عليه فذاك عدم سهوله عنه أخبر أولا بقوله ان ذلك عليه يسير فقول قال الله تعالى ... لحصول العلم التام به ثم قال ... سيروا فى الارض لتعلموا ... ونفس كونه مقدورا له فى الكل ... ثم قال ... يشاء ويرحم من يشاء ... تقلبون ... معجزين فى الارض ... ما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) لما ذكر الشبهة الآخرة ذكر ما يستحق به وهو تعذيب أهل الكفر ... وكلف ... أعم الاثابة وفضلا وجوده وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ... تعذيب فى الدنيا على الرحمة مع ان رحمته سابقة فقال عليه السلام ... رحمتى غلبت غضبى فنقول ذلك لوجهين أحدهما ان الباقى ذكرناه فقد ذكر العذاب الذى ذكر ... بحكم ... وتقييد بالرحمة بل كل ... الاصل الاول هو التوحيد ... ذكر بعد اثبات الاصل الآخر ... ذكر التعذيب وذكر الرحمة وقع تبعا لئلا يكون العذاب مذكورا وحده وهذا يحقق قوله سبقت رحمتى غضبى وذلك لان الله حيث كان المقصود ذكر العذاب لم يحضره ... ذكر بل ذكر الرحمة معه (المسئلة الثانية) اذا كان ذكر هذا تخويف العاصى وترجيح المؤمن فلو قال يعذب الكافر ويرحم المؤمن لكان أدخل فى تحصيل المقصود وهو يعذب من يشاء لا يزجر الكافر فالجواب أن يقول المعنى

الآفاق وفى انفسهم وفى الآية الاولى اشار الى الدليل النفسى الحاصل لهذا الانسان من نفسه وفى الآية الثانية اشار الى الدليل الحاصل من الآفاق بقوله قل سيروا فى الارض وعندهما تم الدليلان فاكده باظهار اسمه وأما الدليل الاول فاكده بالدليل الثانى فلم يقل ثم الله يعيده (المسئلة الرابعة) فى الآية الاولى ذكر بلفظ المستقبل فقال اولم يروا كيف يبدئ وههنا قال بلفظ الماضى فقال فانظروا كيف بدأ ولم يقل كيف يبدأ فنقول الدليل الاول هو الدليل النفسى الموجب للعلم الحدسى وهو فى كل حال يوجب العلم ببدء الخلق فقال ان كان ليس لكم علم بان الله فى كل حال يبدأ خلقا فانظروا الى الاشياء المخلوقة ليحصل لكم علم بان الله بدأ خلقا وتحصل المطلوب من هذا القدر فانه ينشئ كما بدأ ذلك (المسئلة الخامسة) قال فى هذه الآية ان الله على كل شئ قدير وقال فى الآية الاولى ان ذلك على الله يسير وفيه فائدتان (احداهما) ان الدليل الاول هو الدليل النفسى وهو وان كان موجبا للعلم الحدسى التام ولكن عند انضمام دليل الآفاق اليه يحصل العلم العام لانه بالنظر فى نفسه علم نفسه وحاجته الى الله ووجوده منه وبالنظر الى الآفاق علم حاجة غيره اليه ووجوده منه فتم علمه بان كل شئ من الله فقال عند تمام ذكر الدليلين ان الله على كل شئ قدير وقال عند الدليل الواحد ان ذلك وهو اعادته على الله يسير (الثانية) هى انا بينا ان العلم الاول أتم وان كان الثانى أعم وكون الامر يسيرا على الفاعل أتم من كونه مقدورا له بدليل أن الناس يقدرون فى حق من تحمل مائة من انه قادر عليه ولا يقولون انه سهل عليه فذاك عدم سهوله عنه أخبر أولا بقوله ان ذلك عليه يسير فقول قال الله تعالى ... لحصول العلم التام به ثم قال ... سيروا فى الارض لتعلموا ... ونفس كونه مقدورا له فى الكل ... ثم قال ... يشاء ويرحم من يشاء ... تقلبون ... معجزين فى الارض ... ما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) لما ذكر الشبهة الآخرة ذكر ما يستحق به وهو تعذيب أهل الكفر ... وكلف ... أعم الاثابة وفضلا وجوده وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ... تعذيب فى الدنيا على الرحمة مع ان رحمته سابقة فقال عليه السلام ... رحمتى غلبت غضبى فنقول ذلك لوجهين أحدهما ان الباقى ذكرناه فقد ذكر العذاب الذى ذكر ... بحكم ... وتقييد بالرحمة بل كل ... الاصل الاول هو التوحيد ... ذكر بعد اثبات الاصل الآخر ... ذكر التعذيب وذكر الرحمة وقع تبعا لئلا يكون العذاب مذكورا وحده وهذا يحقق قوله سبقت رحمتى غضبى وذلك لان الله حيث كان المقصود ذكر العذاب لم يحضره ... ذكر بل ذكر الرحمة معه (المسئلة الثانية) اذا كان ذكر هذا تخويف العاصى وترجيح المؤمن فلو قال يعذب الكافر ويرحم المؤمن لكان أدخل فى تحصيل المقصود وهو يعذب من يشاء لا يزجر الكافر فالجواب أن يقول المعنى

ان يراد بانضم الجلد وانشمت عند انقلاب العصا ثعبانا استعارة من حال الضارع فانه اذا خاف نشر ﴿لا أكون﴾ جناحه واذا أمن واطمأن ضمهما اليه (من الرهب) أى من أجل الرهب اى اذا عراك الخوف فافعل ذلك تجلدا وضبطا لنفسك وقرئ بضم الراء وسكون الهاء وبضمهما والكل لغات (فذانك) اشارة الى العصا واليد وقرئ بتشديد النون فالمخفف مثنى ذاك والمشددة مثنى ذلك

(برهانان) حجتان نيرتان وبرهان فعلان لقولهم أبره الرجل اذا جاء بالبرهان من قولهم بره الرجل اذا ابيض ويقال للمرأة البيضاء برهاء وبرهرهة ونظير تسمية الحجة سلطانا من السليط وهو الزيت لانارتها وقيل هو فعلان لقولهم برهن ومن في قوله تعالى (من ربك) متعلقة بمحذوف هو صفة لبرهانان أي كائنان منه تعالى (الى فرعون وملائه) واسلان ومنتهيان اليهم (انهم كانوا قوما فاسقين) خارجين عن حدود الظلم والعدوان ﴿ ٦٥٧ ﴾ فكانوا أحقاء بأن ترسلك اليهم بهاتين المعجزتين الباهرتين (قال رب اني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون) بمقابلتها (وأخي هرون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردأ) اي معينا وهو في الاصل اسم مايعان به كالدف وقرئ ردا بالتخفيف (يصدقني) بتلخيص الحق وتقرير الحجة بتوضيحها وتزييف الشبهة (اني أخاف أن يكذبون) ولساني لايطاوعني عند المحاجة وقيل المراد تصديق القوم اياه بتوضيحه لكنه أسند اليه اسناد الفعل الى السبب وقرئ يصدقني بالجزم على أنه جواب الامر (قال سنشد عضدك باخيك) أي سنقويك به فان قوة الشخص بشدة اليد على مزاولة الامور ولذلك يعبر عنه باليد وشدتها بشدة العضد (ونجعل لكما سلطانا) أي تسلطا وغلبة وقيل حجة وليس بذاك (فلا يصلون اليكما) باستيلاء أو محاجة (بآياتنا) متعلق بمحذوف قد صرح به في مواضع أخر أي اذهبا بآياتنا أو بنجعل أي نسلطكما بآياتنا أو بمعنى لايصلون أي تمتنعون منهم بها وقيل هو قسم وجوابه ﴿ ٨٣ ﴾ س لايصلون وقيل هو بيان للغالبون في قوله تعالى (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) بمعنى أنه صلة لما يبينه اوصلة له على أن اللام للتعريف لابمعنى الذي (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات) أي واضحات الدلالة على صحة رسالة موسى عليه السلام منه تعالى والمراد بها العصا واليد اذ هما اللتان أظهرهما

لا أكون ممن يشاء الله عذابه فنقول هذا أبلغ في التخويف وذلك لان الله أثبت بهذا انفاذ مشيئته اذا أراد تعذيب شخص فلا يمنعه منه مانع ثم كان من المعلوم للعباد بحكم الوعد والايعاد انه شاء تعذيب أهل العناد فلزم منه الخوف التام بخلاف مالو قال يعذب العاصي فانه لايدل على كمال مشيئته لانه لايفيد انه لو شاء عذاب المؤمن لعذبه فاذا لم يفد هذا فنقول الكافر اذا لم يحصل مراده في تلك الصورة يمكن أن يحصل في صورة أخرى ولنضرب له مثلا فنقول اذا قيل ان الملك يقدر على ضرب كل من في بلاده وقال من خالفني أضربه يحصل الخوف التام لمن يخالفه واذا قيل انه قادر على ضرب المخالفين ولا يقدر على ضرب المطيعين فاذا قال من خالفني أضربه يقع في وهم المخالف انه لا يقدر على ضرب فلان المطيع فلا يقدر علي أيضا فيكون مثله وفي هذا فائدة أخرى وهو الخوف التام والرجاء التام لان الامن الكلي من الله يوجب الجراءة فيفضي الى صيرورة المطيع عاصيا (المسئلة الثالثة) قال ثم اليه تقلبون مع أن هذه المسئلة قد سبق اثباتها وتقريرها فلم أعادها فنقول لما ذكر الله التعذيب والرحمة وهما سيكونان عاجلين فقال تعالى فان تأخر عنكم ذلك فلا تضنوا انه فات فانا اليه اليابكم وعليه حسابكم وعنده ادخرنا ثوابكم وعقابكم ولهذا قال بعدها وما أنتم بمعجزين يعني لاتفوتون الله بل الانقلاب اليه ولا يمكن الانفلات منه وفي تفسير هذه الآية لطائف (احدها) هي انجاز المعذب عن التعذيب اما بالهرب منه أو باثبات له والمقاومة معه للدفع ، ذكر الله القسمين فقال وما أنتم بمعجزين في الارض ولا في السماء يعني بالهرب لو صعدتم الى محل السمك في السماء أو هبطتم الى موضع السمك في الماء لاتخرجون من قبضة قدرة الله ولا مطمع في الانجاز بالهرب وأما بالاثبات فكذلك لان الانجاز اما أن يكون بالاستناد الى ركن شديد يشفع ولا يمكن للمعذب مخالفته فيفوته المعذب ويعجز عنه أو بالانتصار بقوم يقوم معه بالدفع وكلاهما محال فانكم مالكم من دون الله ولي يشفع ولا نصير يدفع فلا انجاز لا بالهروب ولا بالاثبات (الثانية) قال ما أنتم بمعجزين ولم يقل لاتعجزون بصيغة الفعل وذلك لان نفي الفعل لايدل على نفي الصلاحية فان من قال ان فلانا لا يخيط لايدل على مايدل عليه قوله انه ليس بخياط (الثالثة) قدم الارض على السماء والولي على النصير لان هربهم الممكن في الارض فان كان يقع منهم هرب يكون في الارض ثم ان فرضنا لهم قدرة غير ذلك فيكون لهم صعود في السما وأما الدفع فان العاقل ما أمكنه الدفع باجمل الطرق فلا يرتقي الى غيره والشفاعة أجل ولازما من أحد في الشاهد الا ويكون له شفيع يتكلم في حقه عند ملك ولا يكون كل أحد له ناصر يعادي الملك لاجله ﴿ ثم قال تعالى (والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي واولئك لهم عذاب أليم) لما بين الاصلين التوحيد والاعادة وقررهما بالبرهان وهدد من خالفه على سبيل التفصيل فقال والذين كفروا بآيات الله ولقائه اشارة الى الكفار

موسى عليه السلام اذذاك والتعبير عنهما بصيغة الجمع قدمر سره في سورة طه (قالوا ماهذا الاسحر مفترى) اى سحر مختلق لم يفعل قبل هذا مثله او سحر تعمله ثم تفتريه على الله تعالى او سحر موصوف بالافتراء كسائر أصناف السحر (وما سمعنا بهذا) أى السحر او ادعاء النبوة (فى ابائنا الاولين) أى وما وقعا فى أيامهم (وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده) بر يديه نفسه وقرئ قال بغير واو لانه جواب عن مقالتهم ووجه العطف أن الاد

بالله فلله فى كل شئ آية دالة على وحدانيته فاذا أشرك كفر بآيات الله واشارة الى المنكر للحشر فان من انكره كفر بلقاء الله فقال أولئك يئسوا من رحمتى لما أشركوا أخرجوا أنفسهم عن محل الرحمة لان من يكون له جهة واحدة تدفع حاجته لاغير يرحم واذا كان له جهات متعددة لايبقى محلا للرحمة فاذا جعلوا لهم آلهة لم يعترفوا بالحاجة الى طريق متعين فيأسوا من رحمة الله ولما أنكروا الحشر وقالوا لاعذاب فناسب تعذيبهم تحقيقا للامر عليهم وهذا كما ان الملك اذا قال أعذب من يخالفنى فأنكره بعيد عنه وقال هو لايصل الى فاذا أحضره بين يديه يحسن منه أن يعذبه و يقول هل قدرت وهل عذبت أم لا فاذن تبين أن عدم الرحمة يناسب الاشراك والعذاب الاليم يناسب انكار الحشر ثم ان فى الآية فوائد (احداها) قوله أولئك يئسوا حتى يكون منبئا عن حصر الناس فيهم وقال أيضا وأولئك لهم عذاب أليم لذلك ولو قال اولئك الذين كفروا بآيات الله ولقائه يئسوا من رحمتى ولهم عذاب أليم ما كان يحصل هذه الفائدة فان قال قائل لو اكتفى بقوله أولئك مرة واحدة كان يكفى فى افادة ماذكرتم فنقول لا وذلك لانه لو قال أولئك يئسوا ولهم عذاب كان يذهب وهم أحد الى أن هذا المجموع محصر فيهم فلا يوجد المجموع الا فيهم ولكن واحد منهما وحده يمكن ان يوجد فى غيرهم فاذا قال أولئك يئسوا واولئك لهم عذاب افاد ان كل واحد لا يوجد الا فيهم (الثانية) عند ذكر الرحمة اضافها الى نفسه فقال رحمتى وعند العذاب لم يضف اسبق رحمته واعلا مما عباده بعمومها لهم ولزومها له (الثالثة) أضاف اليأس اليهم بقوله أولئك يئسوا فحرمها عليهم واوطمعوا لاباحها لهم فلو قال قائل ماذكرت من مقابلة الامرين وهما اليأس والعذاب بأمرين وهما الكفر بالآيات والكفر باللقاء يقتضى أن لايكون العذاب الاليم لمن كفر بالله واعترف بالحشر أو لايكون اليأس لمن كفر بالحشر وآمن بالله فنقول معنى الآية انهم يئسوا ولهم عذاب أليم زائد بسبب كفرهم بالحشر ولاشك أن التعذيب بسبب الكفر بالحشر لايكون الا للكافر بالحشر واما الآخر فانه كافر بالحشر لايكون مؤمنا بالله لان الايمان به لايصح الا اذا صدقه فى قوله والحشر من جملة ذلك ثم قال تعالى (فما كان جواب قومه الا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) لما أتى ابرهيم عليه السلام ببيان الاصول الثلاثة وأقام البرهان عليه بقى الامر من جانبهم اما الاجابة أما الاتيان بما يصلح أن يكون جوابا فلما رأوا الا يقولوا لهم اقتلوه أو حرقوه وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) كيف سمى قولهم اقتلوه جوابا مع انه ليس بجواب فنقول الجواب عند من وجهين (أحدهما) أنه خرج منهم مخرج كلام المتكبر كما يقول الملك لرسول خصمه جوابكم السيف مع أن السيف ليس بجواب وانما معناه لاقابله بالجواب وانما أقابله بالسيف فكذلك قالوا لانجيبه عن براهينه وافتنوه أو حرقوه (الثانى) هو ان الله أراد بيان ضلالتهم وهوانهم ذكروا فى معرض الجواب هذا مع انه ليس بجواب فتبين انهم

صحيحهما من الفاسد (ومن تكون له عاقبة الدار) أى العاقبة المحمودة فى الدار وهى الدنيا وعاقبتها الاصلية هى الجنة لانها خلقت مجازا الى الآخرة ومزرعة لها والمقصود بالذات منها الثواب وأما العقاب فمن نتائج أعمال العصاة وسيآت الغواة وقرئ يكون بالياء التحتانية (انه لايفلح الظالمون) أى لايفوزون بمطلوب ولاينجون عن محذور (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى) قاله للعين بعدما جمع السحرة وتصدى للمعارضة فكان من أمرهم ماكان (فأوقد لى ياهامان على الطين) أى اصنع آجرا (فاجعل لى) منه (صرحا) أى قصرا رفيعا (لعلى اطلع الى اله موسى) كأنه توهم أنه تعالى كالكل جسماني السماء يمكن الرقى اليه ثم قال (واني لاظنه من الكاذبين) أو أراد أن يبني له رصدا يترصد منه أوضاع الكواكب فيرى هل فيها مايدل على بعثة رسول وتبدل دولته وقيل المراد بنفى العلم نفى المعلوم كما فى قوله تعالى قل أتنبئون الله بما لايعلم فى السموات ولا فى الارض فان معناه بما ليس ﴿ لم ﴾ فيهن وهذا من خواص العلوم الفعلية فانها لازمة لتحقق معلوماتها فيلزم انتفاؤها انتفاء معلوماتها ولاكذلك العلوم الانفعالية قيل أول من اتخذ الآجر فرعون ولذلك أمر باتخاذه

على وجه يتضمن تعليم الصنعة مع مافيه من تعظيم ولذلك نادى هامان باسمه بيانى وسط الكلام (واستكبر هو وجنوده في الارض) أرض مصر (بغير الحق بغير استحقاق (وظنوا انهم الينا لا يرجعون) بالبعث للجزاء وقرئ بفتح الياء وكسر الجيم من رجع جوعا والمعنى من رجع رجعنا وهو الانسب بما قبله (فاخذناه وجنوده) عقيب ما بلغوا من الكبر والعتو أقصى الغايات (فنبذناهم في اليم) وسبق تفصيله ۞ ٦٥٩ ۞ وفيه من تفخيم شأن الاخذ وتهويله واختيار التأخوذين النبوذين

لم يكن لهم جواب أصلا وذلك لان من لا يجيب غيره ويسكت لا يعلم انه لا يقدر على الجواب لجواز أن يكون سكوته لعدم الالتفات اما اذا أجاب بجواب فاسد علم أنه قصد الجواب وما قدر عليه (المسئلة الثانية) القائلة الذين قالوا اقتلوه هم قوم فرعون والآمرون بقولهم لملئهم أيضا هم فيكون الآمر نفس المأمور وقوله الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان كل واحد منهم قال لمن عداه اقتله فجعل الامر من كل واحد صار أمرا من كل واحد ولا أحاد لان كل واحد أمر غيره (وثانيهما) هو ان الجواب لا يكون الا من الاكابر والرؤساء فاذا قال اعيان بلد كلاما يقال اتفق أهل البلدة على هذا ولا يلتفت الى عدم قول العبيد والارذال فكان جواب قومه وهم الرؤساء ان قالوا لاتباعهم وأعوانهم اقتلوه لان الجواب لا يباشره الا الاكابر والقتل لا يباشره الا الاتباع (المسئلة الثالثة) أويذكر بين أمرين الثاني منهما ينفك عن الاول كما يقال زوج أو فرد ويقال هذا انسان او حيوان يعني ان لم يكن انسانا فهو حيوان ولا يصح ان يقال هذا حيوان أو انسان اذ يفهم منه أنه يقول هو حيوان فان لم يكن حيوانا فهو انسان وهو محال لكن التحريق مشتمل على القتل فقوله اقتلوه أو حرقوه كقول القائل حيوان أو انسان الجواب عنه من وجهين (أحدهما) ان الاستعمال على خلاف ما ذكرتم شائع ويكون أو مستعملا في موضع بل كما يقول القائل أعطيته دينارا او دينارين وكما يقول القائل اعطه دينارا بل دينارين قال الله تعالى قم الليل الا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه فكذلك ههنا اقتلوه أو زيد واعملوا القتل وحرقوه (الجواب الثاني) هو انا نسلم ما ذكرتم والامر ههنا كذلك لان التحريق فعل مفض الى القتل وقد يتخلف عنه القتل فان من ألقى غيره في النار حتى احترق جلده بأسره وأخرج منها حيا يصح أن يقال احترق فلان وأحرقه فلان ومات فكذلك ههنا قالوا اقتلوه ولا تعجلوا قتله وعذبوه بالنار وان ترك مقاتلته فخذوا سبيله وان أصر فخذوا في النار مقبله ثم قال تعالى فأنجاه الله من النار اختلف العقلاء في كيفية الانجاء بعضهم قال برد النار وهو الاصح الموافق لقوله تعالى يا نار كوني بردا وبعضهم قال خلق في ابراهيم كيفية استبرد منها النار وقال بعضهم ترك ابراهيم على ما هو عليه والنار على ما كانت عليه ومنع اذى النار عنه والكل ممكن والله قادر عليه وأنكر بعض الاطباء الكل أما سلب الحرارة عن النار قالوا الحرارة في النار ذاتية كالزوجية في الاربعة لا يمكن أن تفارقها وأما خلق كيفية تستبرد النار فلان المزاج الانساني له طرفان تفريط وافراط فلو خرج عنهما لا يبقى انسانا ولا يعيش مثلا المزاج اذا كان الماء فيه عشرة أجزاء يكون انسانا فان صار أحد عشر لا يكون انسانا وان صارت الاجزاء الباردة خمسة بقي انسانا فاذا صارت أربعة لا يبقى انسانا لكن البرودة التي يستبرد معها النار مزاج السمندل فلو حصل في الانسان لمات أو لكان ذلك فان النفس تابعة للمزاج واما الثالث فمحال أن تكون القضية في النار والنار كما هي والقضية كما هي ولا تحترق فنقول الآية

ما يخفى كأنه تعالى أخذهم مع كثرتهم في كف وطرحهم في البحر نضيه قوله تعالى وما قدروا الله حق قدره والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه (فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) وبينها الناس ليعتبروا بها (وجعلناهم) أي صيرناهم في عهدهم (أئمة يدعون) الناس (الى النار) الى ما يؤدي اليها من الكفر والمعاصي أي قدوة يقتدى بهم أهل الضلال لما صرفوا اختيارهم الى تحصيل تلك الحالة وقيل سميناهم أئمة دعاة الى النار كما في قوله تعالى وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا فالانسب حينئذ أن يكون الجعل بعدهم فيما بين الامم وتكون الدعوة الى نفس النار وقيل معنى الجعل منع الالطاف الصارفة عن ذلك (ويوم القيامة لا ينصرون) بدفع العذاب عنهم بوجه من الوجوه (وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة) طردا وابعادا من الرحمة ولعنا من اللاعنين حيث لا يزال يلعنهم الملائكة

عليهم الصلاة والسلام والمؤمنون حتى عن سائف (ويوم القيامة هم من المقبوحين) من المطرودين المبعدين وقيل من الموسومين بعلامة منكرة كزرقة العيون وسوادالوجه قال ابن عباس رضي الله عنهما يقال قبحه الله وقبحه اذا جعله قبيحا وقال أبو عبيدة من المقبوحين من المهلكين ويوم القيامة اما متعلق بالمقبوحين على أن اللام للتعريف

لا بمعنى الذى أو بمحذوف يفسره ذلك كأنه قيل وقبحوا يوم القيامة نحو لعملكم من القالين (ولقد آتينا موسى الكتاب) أى التوراة (من بعد ما اهلكنا القرن الاولى) هم أقوام نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام والتعرض لبيان كون ايتائها بعد اهلاكهم للاشعار بمساس الحاجة الداعية اليه تمهيدا لما يعقبه من بيان الحاجة الداعية الى انزال القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فان اهلاك القرون الاولى من موجبات ﴿ ٦٦٠ ﴾ الدراس معالم الشرائع والطماس آثارها وأحكامها

المؤدين الى اختلال نظام العالم وفساد أحوال الامم المستدعيين للتشريع الجديد بتقرير الاصول الباقية على مر الدهور وترتيب الفروع المتبدلة بتبدل العصور وتذكير أحوال الامم الخالية المحسنة باعتبار كأنه حاضر (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما اهلكنا القرون الاولى بصائر للناس) أى أنوارا تتبصر بها القلوب وتميز بين الحق والباطل حيث كانت عمياء عن الفهوم لذلك بالكلية من البصيرة نور القلب الذى به تبصر كما ان البصر نور العين الذى به تبصر (وهدى) أى هداية الى الشرائع والاحكام التى هى سبل الله تعالى (ورحمة) حيث ينال من عمل به رحمة الله تعالى وانتصاب الكل على الحالية من الكتاب على أنه نفس البصائر والهدى والرحمة أو على حذف المضاف اى ذا بصائر الخ وقيل على العلة أى آتيناه الكتاب للبصائر والهدى والرحمة (لعلهم يتذكرون) ليكونوا على حال يرجى منه التذكر

ردعليهم والعقل موافق للنقل اما الاول فلوجهين (أحدهما) أن الحرارة فى النار تقبل الاشتداد والضعف فان النار فى الفحم اذا نفخ فيه يشتد حتى يذيب الحديد وان لم ينفخ لا يشتد لكن الضعف هو عدم بعض من الحرارة كانت فى النار فاذا أمكن عدم البعض جاز عدم بعض اخر من ذلك عليها الى أن ينتهى الى حد لا يؤذى الانسان ولا كذلك الزوجية فانها لا تشتد ولا تضعف (والثانى) وهو ان فى أصول الطب ذكر أن النار لها كيفية حارة كما ان الماء له كيفية باردة لكن رأينا أن الماء تزول عنه البرودة وهو ماء وكذلك النار تزول عنها الحرارة وتبقى نارا وهو نور غير محرق واما الثانى وأيضا ممكن وقولهم ممنوع من وجهين (أحدهما) منع أصله من كون النمرود تابعا لملك بل الله تعالى يرسل على أى مخلوق شاء الامراض التى تهلكه مثل رياح الحمى (والثانى) سلمنا أصل الحكم لكن لم لا يجوز أن يكون من الكيفية التى ذكرها الفلاسفة فى ظاهر الجلد كالاجزاء الرئوية حارة ولا يأتى الى القلب والاعضاء الرئيسة ألا ترى ان الانسان اذا مس الجمد زمانا ما من جمرة نار لم تؤثر النار فى احراق يده مثل ما تؤثر فى احراق يد من اخرج يده من جيبه واذا احترقت يده قيل يده هذا اذا جاز وجود كيفية فى ظاهر جلد الانسان تمنع تأثير النار فيه بالاحراق زمانا ما فلم لا يجوز أن يجعل الله تلك الكيفية لخليله حتى لا تحرقه واما الثالث فجوابه بالمعارضة بجسم الشيطان وحينئذ فلا فرق بين معجزة المجوز بنفى أن يكون خارقا بعده ثم قال تعالى ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون يعنى فى انجائه من النار لآيات وهذا ظاهر (المسئلة الثانية) قال فى نوح واصحاب السفينة جعلناها آية وقال ههنا لآيات ولم يقع الاتفاق بالسفينة حتى تسلم الا مؤمنون فلم يكن فيه من الآية الا السبب اعلام الله اياه بالاتخاذ وقت الحاجة فانه لولاه لما اتخذه لعدم حصول علمه بمافى الغيب وبسبب ان لنجاة السفينة عن المهلكات كالرياح العاصفة وأما الانجاء من النار فعجيب وقال فيه آيات (المسئلة الثالثة) قال هناك آية للعالمين وقال ههنا لقوم يؤمنون حصر الآيات بالمؤمنين لان السفينة بقيت اعواما حتى مر عليها الناس ورأوها فحصل العلم بها للكل أحد واما تبريد النار لم يبق فلم يظهر لمن بعده الا بطريق الايمان به والتصديق وفيه لطيفة وهى ان الله لما برد النار على ابراهيم بسبب اهتدائه فى نفسه وهدايته لابناء جنسه وقد قال الله للمؤمنين بأن لهم اسوة حسنة فى ابراهيم فحصل للمؤمنين بشارة بأن الله يبرد عليهم النار يوم القيامة فقال ان فى ذلك التبريد لآيات لقوم يؤمنون (المسئلة الثالثة) قال هناك جعلناها وقال ههنا جعلناه لان السفينة ما صارت آية فى نفسها ولو لا خلق الله الطوفان لبقى فعل نوح سفها فالله تعالى جعل السفينة بعد وجودها آية وأما تبريد النار فهو فى نفسه آية اذا وجدت لا يحتاج الى أمر آخر كخلق الطوفان حتى يصير آية ﴿ ثم قال تعالى (وقال انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم

وقدمر تحقيق القول فى ذلك عند قوله تعالى لعلكم تتقون من سورة البقرة وقوله تعالى (وما كنت بجانب ﴿ النار ﴾ الغربى) شروع فى بيان أن انزال القرآن الكريم أيضا واقع فى زمان شدة مساس الحاجة اليه واقتضاء الحكمة له البتة وقد صدر بتحقيق كونه وحيا صادقا من عند الله

عز وجل ببيان أن الوقوف على ما فصل من الاحوال لا ينبغي الا بالمشاهدة او التعلم ممن شاهدها وحيث انتفى كلاهما تبين أنه بوحي من علام الغيوب لامحالة على طريقة قوله تعالى وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم الآية أي وما كنت بجانب الجبل الغربي او المكان الغربي الذي وقع فيه الميقات على حذف الموصوف واقامة الصفة مقامه او الجانب الغربي على اضافة الموصوف ﴿ ٦٦١ ﴾ الى الصفة كمسجد الجامع (اذ قضينا الى موسى الامر)

النار ومالكم من ناصرين) لما خرج ابراهيم من النار عاد الى عذل الكفار و بيان فساد ما هم عليه وقال اذا بينت لكم فساد مذهبكم وما كان لكم جواب ولا ترجعون عنه وليس هذا الا تقليدا فان بين بعضكم و بعض مودة فلا يريد أحدكم ان يفارقه صاحبه في السيرة والطريقة أو بينكم و بين آبائكم مودة فورثتموهم وأخذتم مقالتهم ولزمتم ضلالتهم وجهالتهم فقوله انما اتخذتم مودة بينكم يعني ليس بدليل أصلا وفيه وجه آخر وهو تحقيق دقيق وهو ان يقال قوله انما اتخذتم مودة بينكم أي مودة بين الاوثان و بين عبدتها وتلك المودة هي ان الانسان مشتمل على جسم وعقل و لجسمه لذات جسمانية ولعقله لذات عقلية ثم ان من غلبت عليه الجسمية لا يلتفت الى اللذات العقلية و من غلبت عليه العقلية لا يلتفت الى اللذات الجسمانية كالطيور اذا احتاج الى قضاء حاجته من أكل أو شرب أو راقة ماء وهو بين قوم من الناس يجتمع الفضل وفيه لذة جسمه من الاكل وراقة الماء وغيرهما ولا يلتفت الى اللذة العقلية بين حسن السيرة وحمد الاوصاف ومكارم الاخلاق والعاقل يحمل الالم الجسماني و يحصل اللذة العقلية حتى لو غلبت قوته الدافعة على قوته الماسكة وخرج منه ريح أو صرة ماء يكاد يموت من الخجالة والالم العقلي اذا ثبت هذا فنقول كانوا قد غلبت الجسمية عليهم فلم يتبع عقلهم لعبود لا يكون قوتهم ولا تحتهم ولا يسمع ولا يبصر ولا يسارهم ولا قدامهم ولا وراءهم ولا يكون جسما من الاجسام ولا شيأ حال في الاوهام وأما الاجسام المناسبة لما عندهم مزينة بتوهم وجودها فاتخذهم الاوثان كان مودة بينهم و بين الاوثان ثم قال تعالى ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض يعني يوم يزول عمى القلوب وتتبين الامور للبيب والغفول يكفر بعضكم ببعض و يعلم فساد ما كان عليه فيقول العابد ما هذا معبودي و يقول المعبود ما هؤلاء عبدتي و يلعن بعضكم بعضا و يقول هذا لذلك أنت أوقعتني في العذاب حيث عبدتني و يقول ذاك لهذا أنت أوقعتني فيه حيث أضللتني بعبادتك و يريد كل واحد أن يبعد صاحبه باللعن ولا يتباعدون بل هم مجتمعون في النار كما كانوا مجتمعين في هذه الدار كما قال تعالى ومأواكم النار ثم قال تعالى ومالكم من ناصرين يعني ليس تلك النار مثل نار كم التي أنجى الله منها ابراهيم ونصره فأنتم في النار ولا ناصر لكم وههنا مسائل (المسئلة الاولى) قال قبل هذا ومالكم من دون الله من ولي ولا نصير على لفظ الواحد وقال ههنا على لفظ الجمع ومالكم من ناصرين والحكمة فيه انهم لما أرادوا احراق ابراهيم عليه السلام قالوا نحن ننصر الهتنا كما حكى الله تعالى عنهم حرقوه وانصروا آلهتكم فقال انتم ادعيتم ان لهؤلاء ناصرين فالكم ولهم اي الاوثان وعبدتها من ناصرين واما هناك ما سبق منهم دعوى الناصرين فنفى الجنس بقوله ولا نصير (المسئلة الثانية) قال هناك مالكم من دون الله من ولي ولا نصير وما ذكر الولي ههنا فنقول قد بينا ان المراد باولي الشفيع يعني ليس لكم شافع ولا نصير دافع وههنا لما كان الخطاب دخل فيه الاوثان أي مالكم

أي عهدنا اليه وأحكمنا أمر نبوته بالوحي وايتاء التوراة (وما كنت من الشاهدين) أي من جملة الشاهدين للوحي وهم السبعون المختارون للميقات حتى تشاهد ما جرى من أمر موسى في مناجاته وكتبة التوراة له في الالواح فتخبر الناس (ولكنا انشأنا قرونا) أي ولكنا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونا كثيرة (فتطاول عليهم العمر) وتمادى الامد فغيرت الشرائع والاحكام وعميت عليهم الانباء ولم يكونوا على آثارهم فاقتضى الحال تشريع الجديد وتحريف أيك فحذف المستدرك اكتفاء بذكر ما يوجبه و يدل عليه وقوله تعالى (وما كنت ثاويا في أهل مدين) نفى لاحتمال كون معرفته عليه الصلاة والسلام للقصة بالسماع ممن شاهدها أي وما كنت مقيما في أهل مدين من شعيب والمؤمنين به وقوله تعالى (تتلو عليهم) أي تقرأ على أهل مدين بطريق التعلم منهم (آياتنا) الناطقة بالقصة اما حال من المستكن في ثاويا او خبر ثان لكنت (ولكنا كنا مرسلين) اياك وموحين اليك تلك الآيات ونظائرها (وما كنت بجانب الطور اذ نادينا) أي وقت ندائنا موسى أن الله رب العالمين واستنبأنا اياه وارسلناه الى فرعون (ولكن رحمة من ربك) أي ولكن أرسلناك بالقرآن الناطق بذكره وبغيره لرحمة عظيمة كائنة منا لك وللناس وقيل علمناك وقيل عرفناك ذلك وليس بذاك كما ستعرفه

والالتفات الى اسم الرب للاشعار بعلة الرحمة وتشريفه عليه الصلاة والسلام بالاضافة وقد اكتفى عن ذكر المستدرك هٰهنا بذكر ما يوجب سرجهه تعالى كما اكتفى عنه فى الاول بذكر ما يوجب سرجهة الناس وصرح هٰهنا بما تضمنا على ما هو المصور والمشعار بأنه المراد فيهما أيضا والله تعالى اعلم بحقائق كتابه العزيز وقوله تعالى (لتنذر قوما) متعلق بالفعل المعلل بالرحمة فهو مذكر ما سيق لاجله عليه الصلاة ﴿ ٦٦٢ ﴾ والسلام بالاقرار حتما لانه المعلل بالانذار لا تعليم

ماذكر وقرئ رحمة بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف وقوله تعالى (ما أتاهم من نذير من قبلك) صفة لقوما أى لم يأتهم نذير لوقوعهم فى فترة بينك وبين عيسى وهى خمسمائة وخمسون سنة او بينك وبين اسمعيل بناء على أن دعوة موسى وعيسى عليهما السلام كانت مختصة ببنى اسرائيل (لعلهم يتذكرون) أى يتعظون بانذارك وتغيير الترتيب الوقوعى بين قضاء الامر والنواء فى أهل مدين والنداء للتنبيه على أن كلا من ذلك برهان مستقل على أن حكايته عليه الصلاة والسلام للقصة بطريق الوحى الالهى ولو ذكر أولا نفى نوائه عليه الصلاة والسلام فى أهل مدين ثم نفى حضوره عليه الصلاة والسلام عند النداء ثم نفى حضوره عند قضاء الامر كما هو الموافق للترتيب الوقوعى لربما توهم أن الكل دليل واحد على ماذكر كما مر فى قصة النفرة (ولولا أن تصيبهم مصيبة) أى عقوبة (بما قدمت أيديهم) أى بسبب ما اقترفوا من الكفر والمعاصى (فيقولوا) عطف على تصيبهم داخل فى حيز لولا الامتناعية على أن مدار انتفاء ما يجاب به ﴿ العذاب ﴾ هو امتناعه لامتناع معطوف عليه ومذكور فى حيزها للانذار بأنه السبب المجيء بهم الى قولهم (ربنا لولا أرسلت الينا رسولا) أى هلا أرسلت الينا رسولا مؤيدا من عندك بآيات (فنتبع آياتك) الظاهرة على يده وهو جواب لولا الثانية (ونكون من المؤمنين) بها وجواب لولا الاولى محذوف ثقة بدلالة الحال

كلكم لم يقل شفيع لانهم كانوا معترفين ان كلهم ليس لهم شافع لانهم كانوا يدعون ان آلهتهم شفعاء كما قال تعالى عنهم هؤلاء شفعاؤنا والشفيع لا يكون له شفيع فنفى عنهم الشفيع لعدم الحجة التى نفيه لاعتقادهم له واما هناك فكما الكلام معهم وهم كانوا يدعون ان لانفسهم شفعاء وفى (المسئلة الثانية) قوله تعالى ما لكم من دونه فذكر على معنى الاستثناء فيفهم أن لهم ناصرا وما هو الله وليس لهم غيره ولى ولا ناصر فقال ههنا ما لكم من ناصرين من غير استثناء فنقول كل ذلك واردا على انهم فى الدنيا فقال انهم فى الدنيا الا تظنوا انكم تعجزون الله فما لكم أحد ينصركم بل الله تعالى ينصركم ان تبتم فهو ناصر معدلكم متى أردتم استنصرتموه بالتوبة وهذا يوم القيامة كما قال تعالى ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض وعدم الناصر عام لان التوبة فى ذلك اليوم لا تقبل فسواء تابوا أو لم يتوبوا لا ينصرهم الله ولا ناصر لهم غيره فلا ناصر لهم مطلقا ثم قال تعالى (فآمن له لوط) يعنى لما رأى لوط معجزته آمن (وقال) ابراهيم (انى مهاجر الى ربى) أى الى حيث أمرنى بالتوجه اليه (انه هو العزيز الحكيم) عزيز يمنع أعدائى عن ايذائى بعزته وحكيم لا يأمرنى الا بما يوافق لكما حكمته وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله آمن له لوط أى بعد ما رأى منه المعجز القاهر درجة لوط كانت عالية وبقاؤه الى هذا الوقت مما ينقص من الدرجة ألا ترى ان أبا بكر لما قبل دين محمد صلى الله عليه وسلم وكان نيرا قلب قبله قبل الكل من غير سماع تكلم الحصى ولا رؤية انشقاق القمر فنقول ان لوطا لما رأى معجزته آمن برسالته واما بالوحدانية فآمن حيث سمع حسن مقالته واليه اشار بقوله فآمن له لوط وما قال فآمن لوط (المسئلة الثانية) ما تعلق قوله وقال انى مهاجر الى ربى بما تقدم فنقول لما بالغ ابراهيم فى الارشاد ولم يهتد قومه وحصل اليأس الكلى حيث رأى القوم الآية الكبرى ولم يؤمنوا وجبت المهاجرة لان الهادى اذا هدى قومه ولم ينتفعوا فبقاؤه فيهم مفسدة لانه ان دام على الارشاد كان اشغالا بما لا ينتفع به مع علمه فيصير كمن يقول للمعجز صدق وهو عبث أو يسكت والسكوت دليل الرضا فيقال بأنه صار مناورضى بأفعالنا واذا لم يبق للاقامة وجه وجبت المهاجرة (المسئلة الثالثة) قال مهاجر الى ربى ولم يقل مهاجرا الى حيث أمرنى ربى مع أن المهاجرة الى الرب توهم الجهة فنقول قوله مهاجر الى حيث امرنى ربى ليس فى الاخلاص كقوله الى ربى لان الملك اذا صدر منه أمر برواح الاجناد الى الموضع الفلانى ثم ان واحدا منهم سافر اليه لغرض نفسه يصيبه فقد هاجر الى حيث أمره الملك ولكن لا مخلصا لوجهه فقال مهاجر الى ربى يعنى توجهى الى الجهة المأمور الهجرة اليها ليس طلبا للجهة انما هو طلب لله ﴿ ثم قال تعالى ﴾ ووهبنا له اسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين) فسنذكر ما فى تفسير قوله تعالى لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم ان أثر رحمة الله فى أمرين فى الامان من سوء

عليه والمعنى لولا قولهم هذا عند اصابة عقوبة جناياتهم التى قدموها ما أرسلناك لكن لما كان قولهم ذلك محققا لا محيد عنه أرسلناك قطعا لمعاذيرهم بالكلية (فلما جاءهم) اى أهل مكة (الحق من عندنا) وهو القرآن المنزل عليه عليه الصلاة والسلام (قالوا) تعنتا وافتراحا (لولا أوتى) يعنون عليه الصلاة والسلام (مثل ما أوتى موسى) من الكتاب المنزل جملة وأما اليد والعصا فلا تعلق لهما بالمقام كسائر معجزاته عليه الصلاة والسلام وقوله تعالى

العذاب والامتنان بحسن الثواب وهو واصل الى المؤمن فى الدار الاخرة قطعا بحكم وعد الله نفى العذاب عنه لنفيه الشرك واثبات الثواب لاثباته الواحد ولكن هذا ليس بواجب الحصول فى الدنيا فان كثيرا ما يكون الكافر فى رغد والمؤمن جائع فى يومه متفكرا فى أمر غده لكنهما مصلوبان فى الدنيا اما دفع العذاب العاجل فلانه ورد فى دعاء النبى صلى الله عليه وسلم قوله وقنا عذاب القبر والنار فعذاب القبر اشارة الى دفع العذاب العاجل واما الثواب العاجل ففى قوله ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الاخرة حسنة اذا علم هذا فنقول ان ابراهيم عليه السلام لما أتى ببيان التوحيد أولا دفع الله عنه عذاب الدنيا وهو عذاب النار ولما أتى به مرة بعد مرة مع اصرار القوم على التكذيب واضرارهم به بالتعذيب أعطاه الجزاء الآخر وهو الثواب العاجل وعدده عليه بقوله ووهبنا له اسحق و يعقوب وفى الآية لطيفة وهى ان الله بدل جميع أحوال ابراهيم فى الدنيا باضدادها لما أراد القوم تعذيبه بالنار وكان وحيدا فريدا فبدل وحدته بالكثرة حتى ملأ الدنيا من ذريته ولما كان أولا قومه وأقاربه القريبة ضالين مضلين من جملتهم آزر بدل الله أقاربه باقارب مهتدين هادين وهم ذريته الذين جعل فيهم النبوة والكتاب وكان اولا لاجاه له ولا مال وهما غاية اللذة الدنيوية أتاه الله أجره من المال والجاه فكثر ماله حتى كان له من المواشى ما علم الله عدده حتى قيل انه كان له اثنا عشر ألف كلب حارس باطواق ذهب واما الجاه فصار بحيث يقرن الصلاة عليه بالصلاة على سائر الانبياء الى يوم القيامة فصار معروفا بشيخ المرسلين بعد ان كان خاملا حتى قال قائلهم سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم وهذا الكلام لا يقال الا فى مجهول بين الناس ثم ان الله تعالى قال وانه فى الآخرة لمن الصالحين يعنى ليس له هذا فى الدنيا فحسب كما يكون لمن وسع له ثواب حسناته أو أملى له استدراجا بكثرة سيئاته بل هذا له عجالة وله فى الآخرة ثواب الدلالة والرسالة وهو كونه من الصالحين فان كون العبد صالحا أعلى مراتبه لما بينا أن الصالح هو الباقى على ما ينبغى يقال الصمام بعد صالح اى هو باق على ما ينبغى ومن بقى على ما ينبغى لا يكون فى عذاب و يكون له كل ما يريد من حسن ثواب وفى الآية مسئلتان (احداهما) ان اسمعيل كان من اولاده الصالحين وكان قد اسلم لامر الله بالذبح فلقد حكم الله فلم لم يذكر فيمن هو مذكور فى قوله وجعلنا فى ذريته النبوة ولكن لم يصرح باسمه لانه كان غرضه تبيين فضله عليه بهبة الاولاد والاحفاد فذكر من الاولاد واحدا وهو الاكبر ومن الاحفاد واحدا وهو الاظهر كما يقول القائل ان السلطان فى خدمته الملوك والامراء الملك الفلانى والامير الفلانى ولا يعدد الى لان ذكر ذلك الواحد لبيان الجنس لا لخصوصيته ولو ذكر غيره لفهم منه التعديد واستيعاب الكل بالذكر فيظن انه ليس معه غيره الذكر من المسئلة الثانية) ان الله تعالى جعل فى ذريته النبوة اجابة لدعائه والوالد يستحب منه أن يسوى

(أولم يكفروا بما أوتى موسى من قبل) رد عليهم واظهار لكون ما قالوه تعنتا محضا لا طلبا لما يرشدهم الى الحق أى ألم يكفروا من قبل هذا القول بما أوتى موسى من الكتاب كما كفروا بهذا الحق وقوله تعالى (قالوا) استئناف مسوق لتقرير كفرهم المستفاد من الانكار السابق و بيان كيفيته وقوله تعالى (سحران) خبر لمبتدأ محذوف أى هما يعنون ما أوتى محمد وما أوتى موسى عليهما السلام سحران (تظاهرا) أى تعاونا بتصديق كل واحد منهما الآخر وذلك أنهم بعثوا رهطا منهم الى رؤساء اليهود فى عيصلهم فسألوهم عن شأنه عليه الصلاة والسلام فقالوا انا نجد نعته وصفته فى التوراة بعثه وصفته فلما رجع الرهط وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا ذلك وقوله تعالى (وقالوا انا بكل) اى بكل واحد من الكتابين (كافرون) تصريح بكفرهم بهما وتأكيد لكفرهم المفهوم من تسميتهما سحرا وذلك لغاية عتوهم وتماديهم فى الكفر والطغيان وقرئ ساحران تظاهرا يعنون موسى ومحمدا صلى الله عليهما وسلم هذا هو الذى تستدعيه جزالة النظم الجليل فتأمل ودع عنك ما قيل وقيل ألا ترى الى قوله تعالى (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما) مما أوتياه من التوراة والقرآن وسميتموهما سحرين

فانه نص فيما ذكر وقوله تعالى (اتبعه) جواب للامر أي ان تأتوا به اتبعه ومثل هذا الشرط مما يأتي به من يدل بوضوح حجته وسنوح محجته لان الاتيان بما هو اهدى من الكتابين امر بين الاستحالة فيوسم دائرة الكلام للتبكيت والافحام (ان كنتم صادقين) اي في انهما سحران مختلفان وفي ايراد كلمة ان مع امتناع صدقهم نوع تهكم بهم (فان لم يستجيبوا لك) أي فان لم يفعلوا ما كلفتهم من الاتيان بكتاب اهدى منهما ﴿٦٦٤﴾ كقوله تعالى فان لم تفعلوا وانما عبر عنه بالاستجابة ايذانا بأنه عليه الصلاة والسلام على كمال أمن من أمره كأن امره عليه الصلاة والسلام لهم بالاتيان بما ذكر دعاء لهم الى أمر يريد وقوعه والاستجابة تستعمل في الدعاء بنفسه والمدعى بالام فيحذف في الدعاء عند ذلك غالبا لانه يقال استجاب الله له دعاءه (فاعلم أنما يتبعون اهواءهم) الزائغة من غير ان يكون لهم متمسك ما اذ لو كان لهم ذلك لاتوا به (ومن اضل ممن اتبع هواه) استفهام انكاري للنفي اي لا اضل ممن اتبع هواه (بغير هدى من الله) اي هو اضل من كل ضال وان كان ظاهر السبك انفي الاضل لانفي المساوي كما مر في نظائره مرارا وتقييد اتباع الهوى بعدم الهدى من الله تعالى لزيادة التقريع والاشباع في التشنيع والتضليل والاحتقارته لهدايته تعالى بينة الاستحالة (ان الله لا يهدي القوم الظالمين) الذين ظلموا انفسهم بالانهماك في اتباع ﴿عنه﴾ الهوى والاعراض عن الآيات الهادية الى الحق المبين (ولقد وصلنا لهم القول) وقرئ بالتخفيف اي انزلنا القرآن عليهم متواصلا بعضه اثر بعض حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة اومتتابعا وعدا ووعيدا قصصا وعبرا ومواعظ ونصائح (لعلهم يتذكرون) فيؤمنون بما فيه (الذين آتيناهم الكتاب من قبله)

بين ولديه فكيف صارت النبوة في اولاد اسحق أكثر من النبوة في اولاد اسمعيل فنقول الله تعالى قسم الزمان من وقت ابراهيم الى القيامة قسمين والناس جمعين فالقسم الاول من الزمان بعث الله فيه انبياء فيهم فضائل جمة وجاؤا تترى واحدا بعد واحد ومجتمعين في عصر واحد كلهم من ورثة اسحق عليه السلام ثم في القسم الثاني من الزمان أخرج من ذرية ولده الآخر وهو اسمعيل واحدا جمع فيه ما كان فيهم وأرسله الى كافة الخلق وهو محمد صلى الله عليه وسلم وجعله خاتم النبيين وقدام الخلق على دين اولاد اسحق أكثر من أربعة آلاف سنة فلا بعد أن يبقى الخلق على دين ذريه اسمعيل مثل ذلك المقدار ثم قال تعالى (ولوطا اذ قال لقومه انكم لأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين انكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فكان جواب قومه الا ان قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين قال رب انصرني على القوم المفسدين) اعراب لوط والتفسير كاذكرنا في قومه وابراهيم اذ قال لقومه وههنا مسائل (الاولى) قال ابراهيم لقومه اعبدوا الله وقال لوط ههنا انه قال لقومه أتأتون الفاحشة فنقول اذا ذكر الله وطاعته ذكر ابراهيم وكان لوط في زمان ابراهيم لم يذكر عند لوط انه امر قومه بالتوحيد مع ان الرسول لابد من أن يقول ذلك فنقول يمكن ان لوطا وغيره اما هذبوا كما امر الله عن سبيل الاختصار فاقتصر على ما اختص به لوط وهو النهي عن الفاحشة ولم يذكر عند الامر بالتوحيد ما كان قاله في موضع آخر حيث قال اعبدوا الله ما لكم من اله غيره لان ذلك كان قد أتى به ابراهيم وسبقه فاختصر كالمختص به لوط بنهي ذلك عن ابراهيم وأما المنع من عمل قوم لوط كل مخاصا بلوط فان ابراهيم لم ينههم ذلك ولم ينههم منه فذكر كل واحد المختص به وسبق به غيره (المسئلة الثانية) لم سمى ذلك الفعل فاحشة فنقول الفاحشة هو القبيح الظاهر قبحه ثم ان الشهوة والغضب صفتا قبح ولا مصلحة ما كان خلقهما الله في الانسان فمصلحة الشهوة الغريزية هي بقاء النوع بتوليد الشخص وهذه المصلحة لا تحصل الا بوجود الولد وبقائه بعد الاب فانه لو وجد ومات قبل الاب كان يفني النوع بفناء القرن الاول لكن الزنا قضاء شهوة ولا يفضي الى بقاء النوع لانا بينا ان البقاء بالوجود و بقاء الولد بعد الاب لكن الزنا وان كان يفضي الى وجود الولد ولكن لا يفضي الى بقائه لان المياه اذا اشتبهت لا يعرف الوالد ولده فلا يقوم بتربيته والانفاق عليه فيضيع و يهلك فلا يحصل مصلحة البقاء فاذا الزنا شهوة قبيحه خالية عن المصلحة التي لاجلها خلقت فهو قبيح ظاهر قبحه حيث لا تستره المصلحة فهو فاحشة واذا كان الزنا فاحشة مع انه يفضي الى وجود الولد ولكن لا يفضي الى بقائه فاللواطة التي لا تفضي الى وجوده اولى بان تكون فاحشة (المسئلة الثالثة) الآية دالة على وجوب الحد في اللواطة لانها مع الزنا اشتركت في كونهما فاحشة حيث قال الله تعالى ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة واشتراكهما في الفاحشة يناسب الزجر

أي من قبل إيتاء القرآن (هم به يؤمنون) وهم مؤمنو أهل الكتاب وقيل أربعون من أهل الإنجيل اثنان وثلاثون جاؤا مع جعفر من الحبشة وثمانية من الشام (وإذا يتلى) أي القرآن (عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا) أي الحق الذي كنا نعرف حقيته وهو استئناف لبيان ما أوجب إيمانهم وقوله تعالى (إنا كنا من قبله) أي من قبل نزوله (مسلمين) بيان لكون إيمانهم به أمرا متقادم العهد لما شاهدوا ذكره في الكتب المتقدمة وأنهم على دين الإسلام قبل نزول القرآن (أولئك) المنعوتون بما ذكر من النعوت (يؤتون أجرهم مرتين) مرة على إيمانهم بكتابهم ومرة على إيمانهم بالقرآن (بما صبروا) بصبرهم وثباتهم على الإيمانين أو على الإيمان بالقرآن قبل النزول وبعده أو على أذى من هاجرهم من أهل دينهم ومن المشركين (ويدرؤن بالحسنة السيئة) أي يدفعون بالطاعة المعصية لقوله عليه الصلاة والسلام وأتبع السيئة الحسنة تمحها (ومما رزقناهم ينفقون) في سبيل الخير (وإذا سمعوا اللغو) من اللاغين (أعرضوا عنه) أي عن اللغو تكرما كقوله تعالى وإذا مروا باللغو مروا كراما (وقالوا) لهم (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم) بطريق المتاركة والتوديع (لا نبتغي الجاهلين) لا نطلب صحبتهم ولا نريد مخالطتهم (إنك لا تهدي) هداية موصلة إلى البغية لا محالة (من أحببت) من الناس ولا تقدر على أن تدخله في الإسلام وإن بذلت فيه غاية المجهود وجاوزت في السعي كل حد معهود (ولكن الله يهدي من يشاء) أن يهديه فيدخله في الإسلام (وهو أعلم بالمهتدين) بالمستعدين لذلك والجمهور على أنها نزلت في أبي طالب فإنه لما احتضر جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج بها لك عند الله قال له يا ابن أخي قد علمت أنك لصادق ولكني أكره أن يقال

عنه فاشرع زاجرا هناك يشرع زاجرا هيهنا وهذا وإن كان قياسا الأن جامعه مستفاد من الآية ووجه آخر وهو أن الله جعل عذاب من أتى بها إمطار الحجارة حيث أمطر عليهم حجارة عاجلا فوجب أن يعذب من أتى به بإمطار الحجارة به عاجلا وهو الرجم قوله ما سبقكم بها من أحد يحتمل وجهين أحدهما أن فعلهم لم يأت أحد بهذا القبيح وهذا ظاهر والثاني أن قبلهم من أتى به واحد في الندرة لكنهم بالغوا فيه حتى قيل لهم ما سبقكم بها من أحد كما قال ارفقا ما سبق البخلاء بخير وسبق اللئام في اللؤم إذ زاد عليهم ثم قال تعالى أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل يا نا لما ذكر ما يعني تقضون الشهوة بالرجال مع قطع السبيل المعتاد مع النساء المشتمل على المصلحة التي هي بقاء النوع حتى يظهر أنه قبيح لم يستر قبحه مصلحة وحينئذ يصير هذا كقوله تعالى أتأتون الرجال شهوة من دون النساء يعني إتيان النساء شهوة قبيحة مستترة بالمصلحة فلكم دفع لحاجتكم لا فاحشة فيه وتتركونه وتأتون الرجال شهوة مع الفاحشة وقوله وتأتون في ناديكم المنكر يعني ما تفعلون كم قبح فعلكم حتى تضمون إليه قبح الإظهار وقوله فما كان جواب قومه في التفسير كقوله في قصة إبراهيم وما كان جواب قومه وفي الآية مسائل (الأول) قال قوم إبراهيم اقتلوه أو حرقوه وقال قوم لوط ائتنا بعذاب الله وما هددوه مع أن إبراهيم كان أعظم من لوط فإن لوطا كان من قومه فنقول إن إبراهيم كان يقدح في دينهم ويشتم آلهتهم بتعديد صفات نقصهم بقوله لا يسمع ولا يبصر ولا يغني والقدح في الدين صعب فجعلوا جزاءه القتل والتحريق ولوط كان ينكر عليهم فعلهم وينسبهم إلى ارتكاب المحرم وهم ما كانوا يقولون إن هذا واجب من الدين فلم يصعب عليهم مثل ما صعب على قوم إبراهيم قول إبراهيم فقالوا إنك تقول إن هذا حرام والله يعذب عليه ونحن نقول لا يعذب فإن كنت صادقا فأتنا بالعذاب فإن قيل إن الله تعالى قال في موضع آخر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم وقال ههنا فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا وكيف الجمع فنقول لوط كان ثابتا على الإرشاد مكررا عليهم النهي والنهي والوعيد فقالوا أولا ائتنا ثم لما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا أخرجوا ثم إن لوطا لما يئس منهم طلب النصرة من الله وذكرهم بما لا يحب الله فقال انصرني على القوم المفسدين فإن الله لا يحب المفسدين حتى يجوز النصر واعلم أن نبيا من الأنبياء ما طلب هلاك قوم إلا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم كما قال نوح إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا يعني المصلحة ما فيهم حالا أو بسببهم ما لا ولا مصلحة فيهم فإنهم يضلون في الحال وفي المآل فإنهم يوصون الأولاد من صغرهم بالامتناع من الاتباع فكذلك لوط لما رأى أنهم يفسدون في الحال واشتغلوا بما لا يرجى معه منهم ولد صالح يعبد الله بطلت المصلحة حالا وما لا فعدمهم صار خيرا فطلب العذاب * ثم قال تعالى (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين قال

خرج عند الموت ولولا أن يكون عليك وعلى بني ابيك غضاضة بعدي لقلتها ولا قررت بها عينك عند الفراق لما أرى من شدة وجدك ونصيحتك ولكني سوف أموت على ملة الاشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف (وقالوا ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) نزلت في الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف حيث أتى النبي عليه الصلاة والسلام فقال نحن نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف ان اتبعناك وخالفنا العرب قاطبة ان يتخطفونا ﴿٦٦٦﴾ من أرضنا فرد عليهم بقوله تعالى (أولم نمكن لهم حرما آمنا) أي ألم نعصمهم ولم نجعل مكانهم حرما فكيف يخافون أن يتخطفوا من أمن حرمة البيت الحرام الذي تتناحر العرب حوله وهم آمنون (يجبى اليه) وقرئ تجبى أي يجمع ويحمل اليه (ثمرات كل شئ) من كل أوب والجملة صفة أخرى لحرما دافعة لما عسى يتوهم من تضررهم بانقطاع الميرة (رزقا من لدنا) فما ذا كان حالهم اذ كروهم عبدة أصنام وكيف يخافون التخطف اذا ضموا الى حرمة البيت حرمة التوحيد (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أي جهلة لا يتفطنون له ولا يتفكرون ليعلموا ذلك وقيل هو متعلق بقوله تعالى من لدنا أي قليل منهم يتدبرون فيعلمون أن ذلك رزق من عند الله تعالى اذا لو علموا لما خافوا غيره وانتصاب رزقا على أنه مصدر مؤكد لمعنى يجبى أو حال من ثمرات على أنه بمعنى مرزوق لتخصصها بالاضافة ثم بين أن الامر بالعكس وأنهم أحقاء بأن يخافوا بأس الله تعالى بقوله (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها) أي وكثيرا من أهل قرية كانت حالهم كحال هؤلاء في الامن وخفض العيش والدعة حتى أشروا فدمرنا عليهم وخربنا ديارهم (فتلك مساكنهم) ﴿لم تسكن﴾ خاوية بما ظلموا (لم تسكن من بعدهم) من بعد تدميرهم (الا قليلا) أي الا زمانا قليلا اذ لا يسكنها الا المارة يوما أو بعض يوم أو لم يبق من يسكنها الا قليلا من شؤم معاصيهم (وكنا نحن الوارثين)

ان فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين) لما دعا لوط على قومه بقوله رب انصرني استجاب الله دعاءه وأمر ملائكته باهلاكهم وأرسلهم مبشرين ومنذرين فجاؤا ابراهيم وبشروه بذرية طيبة وقالوا انا مهلكوا أهل هذه القرية يعنون أهل سدوم وفي الآية لطيفتان (احداهما) ان الله جعلهم مبشرين ومنذرين ذكر البشارة أثر الرحمة والانذار بالهلاك أثر الغضب ورحمته تغلب غضبه وقدم البشارة على الانذار وقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ثم قال انا مهلكو (الثانية) حين ذكروا البشرى ما طلبوا وقالوا انا بشرناك لانك رسول أو لانك مؤمن أو لانك عادل وحين ذكروا الاهلاك عللوا وقالوا ان أهلها كانوا ظالمين لان ذا الفضل لا يكون فضله بعوض والمدين لا يكون عذابه الا على جرم وفيه مسئلتان (احداهما) لو قال قائل أي تعلق لهذه البشرى بهذا الانذار نقول لما أراد الله اهلاك قوم وكان فيه اخلاء الارض عن العباد قدم على ذلك اعلام ابراهيم بأنه تعالى يملأ الارض من العباد الصالحين حتى يتأسف على اهلاك قوم من أبنائه جنسه (والثانية) قال في قوم نوح فأخذهم الطوفان وقد قيد ذلك اشارة الى انهم كانوا على ظلمهم حين أخذهم ولم يقل فأخذهم وكانوا ظالمين وههنا قال ان أهلها كانوا ظالمين ولم يقل وانهم ظالمون فنقول لا فرق في الموصوفين في كونهم مهلكين وهم مصرون على الظلم لكن هناك الاخبار من الله وعن الماضي حيث قال فأخذهم وكانوا ظالمين فقال أخذهم وهم عند الوقوع في العذاب ظالمون وههنا الاخبار من الملائكة وعن المستقبل حيث قالوا انا مهلكو فالملائكة ذكروا ما يحتاجون اليه في اية حسن الامر من الله بالاهلاك فقالوا انا مهلكو هم لان الله أمرنا وحال ما أمرنا به كانوا ظالمين فحسن أمر الله عند كل أحد وأما نحن فلا نخبر بما لا حاجة لنا اليه فان الكلام عن الملك بغير اذنه سوء أدب فنحن ما احتجنا الا الى هذا القدر وهو انهم كانوا ظالمين حيث أمرنا الله باهلاكهم بيانا لحسن الامر وأما أنهم ظالمون في وقتنا هذا أو يقون كذلك فلا حاجة لنا اليه ثم ان ابراهيم لما سمع قولهم قال لهم ان فيها لوطا اشفاقا عليه ليعلم حاله أو لان الملائكة لما قالوا انا مهلكو وكان ابراهيم يعلم ان الله لا يهلك قوما وفيهم رسوله فقال تعجبا ان فيهم لوطا فكيف يهلكون فقالت الملائكة نحن أعلم بمن فيها يعني نعلم ان فيهم لوطا فننجيه وأهله ونهلك الباقين وههنا لطيفة وهو ان الجماعة كانوا أهل الخير أعني ابراهيم والملائكة وكل واحد كان يزيد على صاحبه في كونه خيرا أما ابراهيم فلما سمع قول الملائكة انا مهلكو أظهر الاشفاق على لوط ونسي نفسه وما بشروه ولم يظهر بها فرحا وقال ان فيها لوطا ثم ان الملائكة لما رأوا ذلك منه زادوا عليه وقالوا انك ذكرت لوطا وحده ونحن ننجيه ونجعل معه أهله ثم استثنوا من الاهل امرأته وقالوا الا امرأته كانت من الغابرين أي من المهلكين وفي استعمال الغابر في المهلك وجهان وذلك لان الغابر

أنهم اقلم يخلفهم أحد يتصرفهم فى ديارهم وسائر ذات ايديهم وانتصاب معيشتها بنزع الخافض أو بجعلها ظرفا بنفسها كقولك يدظى مقيم أو باضمار زمان مضاف اليه أو بجعله مفعولا لبطرت بتضمين معنى كفرت (وماكان ربك مهلك القرى بيان لغاية الربانية أثر بيان اهلاك القرى المذكورة اى وماصح ومااستقام بل استحال فى سنته المبنية على الحكم البالغة أوماكان فى حكمه الماضى وقضائه السابق أن يهلك القرى قبل الانذار بل كانت عادته أن لا يهلكها (حتى يبعث فى أمها)

لفظ مشترك فى الماضى وفى الباقى يقال فيما غبر من الزمان أى فيما مضى و يقال الفعل ماض وغابر أى باق وعلى الوجه الاول نقول ان ذكر الظالمين سبق فى قولهم انا مهلكو أهل هذه القرية ان أهلها كانوا ظالمين ثم جرى ذكر لوط بتذكير ابراهيم وجواب الملائكة فقالت الملائكة انها من الغابرين أى الماضى ذكرهم لا من الذين تبجى منهم أو نقول المهلك يفنى و يمضى زمانه والناجى هو الباقى فقالوا انها من الغابرين أى من الرائحين الماضين لا من الباقين المستمرين وأما على الوجه الثانى فنقول لما قضى الله على القوم بالاهلاك كان الكل فى الهلاك الا من تنجى منه فقالوا انا ننجى لوطا وأهله واما امرأته فهى من الباقين فى الهلاك * ثم قال تعالى (ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن انا منجوك واهلك الا امرأتك كانت من الغابرين انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون) ثم انهم جاؤا من عند ابراهيم الى لوط على صورة البشر فظنهم بشرا فخاف عليهم من قومه لانهم كانوا على أحسن صورة خلق الله والقوم كما عرف حالهم فسىء بهم أى ساءه ماساء وخاف عجز عن تدبيرهم فحزن وضاق بهم ذرعا كناية عن العجز فى تدبيرهم قال الزمخشرى يقال ضاق ذرعه وذراعه القادر وضاق بعاجز وذلك لان من نال ذراعه يصل الى مالا يصل اليه غير الذراع والاستعمال يحتمل وجها معقولا غير ذلك وهو أن الخوف والحزن يوجبان انقباض الروح و يتبعه اشتمال القلب عليه فينقبض هواء القلب هو المعتبر من الانسان بكل الانسان انقبض وانجمع وما يكون كذلك يقل ذرعه ومساحته فيضيق و يقل فى الحزين ضاق ذرعه والفرح يوجبان انبساط الروح فيبسط مكانه وهو القلب و يتسع فيقال اتسع ذرعه ثم ان الملائكة لما رأوا خوفه فى أول الامر وحزنه بسبب تدبيرهم فى ثانى الامر قالوا لا تخف علينا ولا تحزن بسبب التفكر فى أمرنا ثم ذكروا ما يوجب زوال خوفه وحزنه فان مجرد قولنا لا تخف لا يوجب زوال الخوف فقالوا معرضين بحالهم انا منجوك وأهلك وانا منزلون عليهم العذاب حتى تدين انهم الملائكة فيهون عليه ذرعه و يزول خوفه وفى الآية مسائل (احداها) انه تعالى قال فى موضع ولما جاءت رسلنا ابراهيم وقال ههنا ولما أن جاءت رسلنا فما الحكمة فيه ونقول حكمته بالغة وهى ان الواقع فى وقت المجىء هناك قول الملائكة انا مهلكو وهو لم يكن متصلا بمجيئهم لانهم بشروا أولا ولبثوا ثم قالوا انا مهلكو وأيضا فالتأنى والمكث بعد المجىء ثم الاخبار بالاهلاك حسن فان من جاء ومعه خبر هائل يحسن منه أن لا يفاجىء به والواقع ههنا هو خوف لوط عليهم والمؤمن حين ما يشعر بمضرة تصل لغيره من الجناية ينبغى أن يحزن و يخاف عليه من غير تأخير اذا علم هذا فقوله ههنا ولما أن جاءت رسلنا يفيد الاتصال يعنى خاف حين المجىء فان قلت هذا باطل بما ان هذه الحكاية جاءت فى سورة هود وقال ولما جاءت رسلنا لوطا من غير أن

أى فى أصلها وقصبتها التى هى أعمالها وتوابعها لكون أهلها أفطن وأنبل (رسولا يتلوا عليه آياتنا) الناطقة بالحق ويدعوهم اليه بالترغيب والترهيب وذلك لالزام الحجة وقطع المعذرة بان يقولوا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك والالتفات الى نون المعظمة لتربية المهابة وادخال الروعة وقوله تعالى (وما كنا مهلكى القرى) عطف على ما كان ربك وقوله تعالى (الا وأهلها ظالمون) استثناء مفرغ من أعم الاحوال أى وما كنا مهلكين لاهل القرى بعد ما بعثنا فى أمهارسولا يدعوهم الى الحق و يرشدهم اليه فى حال من الاحوال الاحال كونهم ظالمين بتكذيب رسولنا والكفر بآياتنا فالمعنى غاية لعدم صحة الاهلاك بموجب السنة الالهية لا لعدم وقوعه حتى يلزم تحقق الاهلاك عقيب البعث وقدمر تحقيقه فى سورة بنى اسرائيل (وما أوتيتم من شىء) من أمور الدنيا (فمتاع الحياة الدنيا وزينتها) أى فهو شىء شأنه أن يتمتع به يتزين به أياما قلائل (وما عند الله) وهو الثواب (خير) من نفسه من ذلك لانه لذة خالصة عن شوائب الالم و بهجة كاملة عارية عن سمة الهم (وأبقى) لانه أبدى (أفلا تعقلون) أ لا تتفكرون فلا تعقلون هذا الامر الواضح فتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير وقرىء بالياء على الالتفات المبنى على اقتضاء سوء صنيعهم

الاعراض عن مخاطبتهم (أفمن وعدناه وعدا حسنا) أى وعدا بالجنة فان حسن الوعد بحسن الموعود (فهو لاقيه) أى مدركه لامحالة لاستحالة الخلف فى وعده تعالى ولذلك جئ بالجملة الاسمية المفيدة لتحققه البتة وعطف بالفاء المنبئة عن معنى السببية (كمن متعناه متاع الحياة الدنيا) الذى هو مشوب بالآلام منغص بالاكدار مستتبع للتحسر على الانقطاع ومعنى الفاء الاولى ترتيب انكار التشابه بين أهل الدنيا وأهل الآخرة على ماقبلها من ظهور التفاوت بين متاع الحياة الدنيا وبين ماعند الله تعالى أى أبعد هذا التفاوت الظاهر يستوى بين الفريقين وقوله تعالى (ثم هو يوم القيامة من المحضرين) عطف على متعناه داخل معه فى حيز الصلة مؤكد لانكار التشابه ومقرر له كأنه قيل كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم نحضره أو أحضرناه يوم القيامة النار أو العذاب وايثار الجملة الاسمية للدلالة على التحقق حتما وفى جعله من جملة المحضرين من التهويل مالا يخفى ثم التراخى فى الزمان أو فى الرتبة وقرئ ثم هو بسكون الهاء تشبيها للمنفصل بالمتصل (ويوم ينادهم) منصوب بالعطف على يوم القيامة لاختلافهما عنوانا وان اتحدا ذاتا أو باضمار اذكر (فيقول) تفسير للنداء (أين شركائى الذين كنتم تزعمون) أو الذين كنتم تزعمونهم شركائى فحذف المفعولان معا ثقة بدلالة الكلام عليهما (قال) استئناف مبنى على حكاية السؤال كأنه قيل فاذا صدر عنهم حينئذ فقيل قال (الذين حق عليهم القول) وهم شركاؤهم من الشياطين أو رؤساؤهم الذين اتخذوهم أربابا من دون الله تعالى بان أطاعوهم فى كل ما أمروهم به ونهوا عنه ومعنى حق عليهم القول أنه ثبت مقتضاه وتحقق مؤداه وهو قوله تعالى لاملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين وغيره من آيات الوعيد وتخصيصهم بهذا الحكم مع شموله

فنقول هناك جاءت حكاية ابراهيم بصيغة أخرى حيث قال هناك ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى فقوله هنالك ولقد جاءت لايدل على ان قولهم انا أرسلنا كان فى وقت المجئ وقوله ولما جاءت رسلنا لوطا سئ بهم دل على ان حزنه كان وقت المجئ اذا علم هذا فنقول هناك قد حصل ماذكرنا من المقصود بقوله فى حكاية ابراهيم ولقد جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى ثم جرى أمور من الكلام وتقديم الطعام ثم قالوا لاتخف ولاتحزن انا أرسلنا الى قوم لوط فحصل تأخير الانذار و بقوله فى حكاية لوط ولما جاءت رسلنا حصل بيان تعجيل الحزن وأما هنا لما قال فى قصة ابراهيم ولما جاءت قال فى حكاية لوط ولما أن جاءت لما ذكرنا من الفائدة (المسئلة الثانية) قال هنا انا منجوك وأهلك وقال لابراهيم لننجينه بصيغة الفعل فهل فيه فائدة قلنا ما من حرف ولا حركة فى القرآن الا وفيه فائدة ثم ان العقول البشرية تدرك بعضها ولا تصل الى أكثرها وما أوتى البشر من العلم الا قليلا والذى يظهر لعقلى الضعيف ان هناك لما قال لهم ابراهيم ان فيها لوطا وعدوه بالتنجية ووعد الكريم حتم وهنا لما قالوا للوط وكان ذلك بعد سبق الوعد مرة أخرى قالوا انا منجوك أى ذلك واقع منا كقوله تعالى انك ميت بضرورة وفاءه (المسئلة الثالثة) قولهم لاتخف ولاتحزن لايناسبه انا منجوك لان خوفه ماكان على نفسه فقول بينهما مناسبة فى غاية الحسن ومعنى ان لوطا خاف عليهم وحزن لاجلهم فقالوا له لاتخف علينا ولاتحزن لاجلنا انا منجوك أنت وأهلك فقالوا لوط حمت علينا وحزنت لاجلنا فى مقابلة خوفك وحزنك لانخاف نزيل خوفك ولانحزن نزيل حزنك وانما تركك لتتفجع فى أهلك فقالوا انا منجوك وأهلك (المسئلة الرابعة) التوم عللوا سبب ماصدر منهم من الفاحشة وأمرأته لم يصدر منها تلك وكيف كانت من الغابرين معهم فنقول الدال على الشركة نصيب كفاعل الشر كان الدال على الخير كفاعله وهى كانت تدل القوم على ضيوف لوط حتى كانوا يقصدونهم فبالدلالة صارت واحدة منهم ثم انهم بعد بشارة لوط بالتنجية ذكروا انهم منزلون على أهل هذه القرية العذاب فقالوا انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء واختلفوا فى ذلك فقال بعضهم حجارة وقيل نار وقيل خسف وعلى هذا فلا يكون عينه من السماء وانما يكون هو الامر بالخسف من السماء أو القضاء به من السماء ثم اعلم ان كلام الملائكة مع لوط جرى على نمط كلامهم مع ابراهيم قدموا البشارة على الانذار حيث قالوا انا منجوك ثم قالوا انا منزلون على أهل هذه القرية ولم يعللوا التنجية فقالوا انا منجوك لانك نبى أو عابد وعللوا الاهلاك بقولهم بما كانوا يفسقون وقالوا بما كانوا كما قالوا هناك ان أهلها كانوا ظالمين ثم قال تعالى ولقد تركنا منها آية بينة قوم يعقلون أى من القرية فان القرية معلومة وفيها الماء الاسود وهى بين البحر والبحيرة وفيها مسائل (احداها) جعل الله الآية فى نوح وابراهيم بالنجاة حيث قال وأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية وقال هنا انجاء الله من النار ان فى ذلك لآيات

للاتباع ايضا لاضلالهم في الكفر واستحقاق العذاب حسبما يشعر به قوله تعالى لاملأن جهنم منك وممن تبعك منهم ومسارعتهم الى الجواب مع كون السؤال للعبدة اما للتغطية عنهم لاستحضارهم وتوبيخهم بالاضلال وجزمهم بان العبدة سيقولون هؤلاء أضلونا واما لان العبدة قد قالوه اعتذارا وهؤلاء انما قالوا ما قالوا ردا لقولهم الا أنه لم يحك قول العبدة ايجازا لظهوره (ربنا هؤلاء الذين أغوينا) ﴿ ٦٦٩ ﴾ أي هم الذين أغويناهم فحذف الراجع الى الموصول ومرادهم بالاشارة بيان أنهم يقولون ما يقولون بمحضر منهم وأنهم غير قادرين على انكاره وردوه وقوله تعالى (أغويناهم كما غوينا) هو الجواب حقيقة وما قبله تمهيد له أي ما أكرهناهم على الغي وانما أغويناهم بطريق الوسوسة والتسويل لا بالقسر والالجاء فغووا باختيارهم غيا مثل غينا باختيارنا ويجوز أن يكون الذين صفة لاسم الاشارة وأغويناهم الخبر (تبرأنا اليك) منهم ومما اختاروه من الكفر والمعاصي هوى منهم وهو تقرير لما قبله ولذلك لم يعطف عليه وكذا قوله تعالى (ما كانوا ايانا يعبدون) أي ما كانوا يعبدوننا وانما كانوا يعبدون أهواءهم وغيرها مصدرية متصلة بقوله تعالى تبرأنا أي تبرأنا من عبادتهم ايانا وقيل ادعوا شركاءكم أما تهكما بهم أو تبكيتا لهم (فدعوهم) لفرط الحيرة (فلم يستجيبوا لهم) لضرورة عدم قدرتهم على الاستجابة والنصرة (ورأوا العذاب) فدخشيهم (لو أنهم كانوا يهتدون) لوجه من وجوه الحيل يدفعون به العذاب

وجعل ههنا الهلاك آية فهل عندك فيه شئ نقول نعم اما ابراهيم فلأن الآية كانت في النجاة لان في ذلك الوقت لم يكن اهلاك وأما في نوح فلان الانجاء من الطوفان الذي علا الجبال بأسرها أمر عجيب الهي ومابه النجاة وهو السفينة كان باقيا والغرق لم يبق لمن بعده أثره فجعل الباقي آية وأما ههنا فنجاة لوط لم يكن بأمر يبقى أثره للحس والهلاك أثره محسوس في البلاد فجعل الآية الامر الباقي وهو ههنا البلاد وهناك السفينة وههنا لطيفة وهي ان الله تعالى آية قدرته موجوده في الانجاء والاهلاك فذكر من كل باب آية وقدم آيات الانجاء لانها أثر الرحمة وأخر آيات الاهلاك لانها أثر الغضب ورحمته سابقة (المسئلة الثانية) قال في السفينة وجعلناها آية ولم يقل بينة وقال ههنا آية بينة نقول لان الانجاء بالسفينة أمر يسع له كل عقل وقد يقع في وهم جاهل ان الانجاء بالسفينة لا يفتقر الى أمر آخر وأما الآية ههنا الخسف وجعل ديارهم معمورة عاليها سافلها وهو ليس بمعتاد وانما ذلك بارادة قادر يخصصه بمكان دون مكان وفي زمان دون زمان فهي بينة لا يمكن لجاهل أن يقول هذا أمر يكون كذلك وكان له أن يقول في السفينة النجاة بها أمر يكون كذلك الى أن يقال له فمن أين علم انه يحتاج اليها ولو دام الماء حتى ينفد زادهم كيف كان يحصل لهم النجاة ولو سلم الله عليهم الريح العاصفة كيف يكون أحوالهم (المسئلة الثالثة) قال هناك للعالمين وقال ههنا لقوم يعقلون قلنا لان السفينة موجودة في جميع اقطار العالم فعند كل قوم مثال سفينة نوح يتذكرون بها حاله واذا ركبوها يظنون من الله النجاة ولا يثق أحد بمجرد السفينة بل يكون دائما مرتجف القلب متضرعا الى الله تعالى طلبا للنجاة وأما اثر الهلاك في بلاد لوط ففي موضع مخصوص لا يطلع عليه الا من يمر بها ويصل اليها ويكون له عقل يعلم ان ذلك من الله لا بد بسبب اختصاصه بمكان دون مكان ووجوده في زمان بعد زمان * ثم قال تعالى (والى مدين أخاهم شعيبا فقال ياقوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الارض مفسدين فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) لما أتم الحكاية الثانية على وجه الاختصار لفائدة الاعتبار شرع في الثالثة وقال والى مدين أخاهم واختلف النحويون في مدين فقال بعضهم انه اسم رجل في الاصل ومنه قرية فاشتهرت القبيلة كتميم وقيس وغيرهما وقال بعضهم اسم ماء نسب القوم اليه واشتهر في القوم والاول كأنه أصح وذلك لان الله أضاف الماء الى مدين حيث قال ولما ورد ماء مدين ولو كان اسما للماء لكانت الاضافة غير صحيحة أو غير حقيقة والاصل في الاضافة الغاير حقيقة وقوله أخاهم قيل لان شعيبا كان منهم نسبا وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال الله تعالى في نوح ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فقدم نوحا في الذكر وعرف القوم بالاضافة اليه وكذلك في ابراهيم ولوط وههنا ذكر القوم أولا وأضاف اليهم أخاهم شعيبا فنقول الاصل في جميع المواضع أن يذكر القوم ثم يذكر رسولهم لان المرسل لا يبعث رسولا الى غير معين وانما أولى الحق لما قالوا وقيل لولتمي أي تمنوا وأنهم كانوا مهتدين (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) عطف على ما قبله سئلوا أولا عن اشراكهم وثانيا عن جوابهم للرسل الذين نهوهم عن ذلك (فعميت عليهم الانباء يومئذ) أي صارت كالعمي عنهم لا تهتدي اليهم وأصله فعموا عن الانباء وقد عكس

للمبالغة والتنبيه على ان ما يحضر الذهن يفيض عليه و يصل اليه من خارج فاذا أخطا يكن له حيلة الى استحضاره وتعدية الفعل بعلى لتضمنه معنى الخفاء والاشتباه والمراد بالانباء اما ما طلب منهم مما أجابوا به الرسل أو جميع الانباء وهى داخلة فيه دخولا أوليا واذا كانت الرسل عليهم الصلاة والسلام يفوضون العلم فى ذلك المقام الهائل الى علام الغيوب مع نزاهتهم عن غائلة المسؤل فاظنك بأولئك الضلال من الامم (فهم لا يتساءلون) ﴿ ٦٧٠ ﴾ لا يسأل بعضهم بعضا عن الجواب لفرط الدهشة أو العلم بأن الكل سواء فى الجهل (فاما من تاب) من الشرك (وآمن وعمل صالحا) أى جمع بين الايمان والعمل الصالح (فعسى أن يكون من المفلحين) أى الفائزين بالمطلوب عنده تعالى الناجين عن المهروب وعسى للتحقيق على عادة الكرام أو للترجى من قبل التائب بمعنى فليتوقع الافلاح (وربك يخلق ما يشاء) أن يخلقه (ويختار) ما يشاء اختياره من غير ايجاب عليه ولا منع له أصلا (ما كان لهم الخيرة) أى الخيرة كاسبة بمعنى التطير والمراد نفى الاختيار المؤثر عنهم وذلك مما لا ريب فيه وقيل المراد أنه ليس لاحد من خلقه أن يختار عليه وذلك خلاف العاطف وأيده ما روى أنه نزل فى قول الوليد بن المغيرة لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم والمعنى لا يبعث الله تعالى الرسل باختيار المرسل اليهم وقيل معناه ويختار الذى كان لهم فيه الخير والصلاح (سبحان الله) أى تنزه بذاته تنزها خاصا به من أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره اختيار (وتعالى عما يشركون) عن اشراكهم ﴿ ذكرهم ﴾ أو عن مشاركة ما يشركونه به (وربك يعلم ما تكن صدورهم) كعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحقده (وما يعلنون) كالطعن فيه (وهو الله) أى المستحق للعبادة (لا اله الا هو) لا أحد يستحقها الا هو

يحصل قوم أو شخص يحتاجون الى أنباء من المرسل فيرسل اليهم من يختاره غير أن قوم نوح وابراهيم ولوط لم يكن لهم اسم خاص ولا نسبة مخصوصة يعرفون بها فعرفوا بالنبى فقيل قوم نوح وقوم لوط وأما قوم شعيب وهود وصالح فكان لهم نسب معلوم اشتهروا به عند الناس فجرى الكلام على أصله وقال الله والى مدين أخاهم شعيبا وقال والى عاد أخاهم هودا (المسئلة الثانية) لم يذكر عن لوط انه أمر قومه بالعبادة والتوحيد وذكر عن شعيب ذلك قلنا قد ذكرنا ان لوطا كان له قوم وهو كان من قوم ابراهيم وفى زمانه وابراهيم سبقه بذلك واجتهد فيه حتى اشتهر الامر بالتوحيد عند الخلق من ابراهيم فلم يذكره عن لوط وانما ذكر منه ما اختص به من المنع عن الفاحشة وغيرها وان كان هو أيضا يأمر بالتوحيد اذ ما من رسول الا ويكون أكثر كلامه فى التوحيد وأما شعيب فكان بعد انقراض القوم فكان هو أصلا أيضا فى التوحيد فبدأ به وقال اعبدوا الله (المسئلة الثالثة) الايمان لا يتم الا بالتوحيد والامر بالعبادة لا يفيد لان من يعبد الله ويعبد غيره فهو مشرك فكيف الصبر على قول اعبدوا الله فنقول هذا الامر يفيد التوحيد وذلك لان من رأى غيره يخدم زيدا وعمرا وهو يعلم أن بكرا وهو سيد زيد فاذا قال له الخادم عن نفسه منعا له بأمره بصرف الخدمة اليه وكذا اذا كان لواحد دينار واحد وهو يريد ان يعطيه زيدا فاذا قيل له امنع عمرا نفسه منه لانه عبد زيد فان قول هم كان لو امتنع من عبادة غير الله والله ما ذلك الغير فقال لغير شعيب اعبدوا الله فقهموا منه ترك عبادة غيره أو نقول كل واحد نفس واحدة وربا وضعها فى عبادة غير الله فقال لهم شعيب ضعوها فى موضعها وهو عبادة الله فقهم منه التوحيد ثم قال وارجوا اليوم الآخر قال الزمخشرى معناه افعلوا فعل من يكون عاملا لاجل اليوم الآخر فيه وهو ان يكون العمل عمل من يكون عاملا لاجل اليوم الآخر فيه مسائل (المسئلة الاولى) هذا يدل على صحة مذهبنا ان عندنا من عصى الله طول عمره يشبه الله تعالى فضلا ولا يجب عليه ذلك لان الذى يعمل له من النعم ما وزاد على ما أتى به لا يخرج عن عهدة الشكر ومن شكر النعم على نعمت لا يلزم المنعم أن يزيده بل زاده يكون احسانا منه فاذا علما عليه فقوله وارجوا اليوم الآخر بعد قوله اعبدوا الله يدل على ان المحسن لا على الوجوب فاضل يرجى واجب من العادل يقطع به (المسئلة الثانية) قال وارجوا اليوم الآخر ولم يقل وخافوه مع ان ذلك اليوم مخوف عند الكل وغير مرجو عند كثير من الناس لقسمه وفجوره ومحبته الدنيا ولا يرجوه الا القليل من عباده فنقول لما ذكر التوحيد بطريق الاثبات قال اعبدوا ولم يذكره بطريق النفى وما قال ولا تعبدوا غيره قال يلفظ الرجاء لان عبادة الله يرجى منها الخير فى الدارين وهو وجه آخر وهو ان الله حكى فى حكاية ابراهيم انه قال انكم اتخذتم الاوثان مودة بينكم فى الحياة الدنيا وأما فى الاخرة فتكفرون بها قال ههنا لا تكونوا كالذين سبق

(له الحمد في الاولى والآخرة) لانه المولى للنعم كلها عاجلها وآجلها على الخلق كافة يحمده المؤمنون في الآخرة كما حمدوه في الدنيا فقولهم الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن الحمد لله الذي صدقنا وعده اثبتها جابفضله والتذاذا بحمده (وله الحكم) أي القضاء النافذ في كل شيء من غير مشاركة فيه لغيره (واليه ترجعون) بالبعث لا الى غيره (قل) تقرير للمذكر (أرأيتم) أي أخبروني (ان جعل الله عليكم الليل سرمدا) دائما من السرد وهو المتابعة والاطراد والميم مزيدة كما في دلامص من الدلاص يقال درع دلاص أي ملساء لينة (الى يوم القيامة) باسكان الشمس تحت الارض أو تحريكها حول الافق الغائر (من اله غير الله) صفة للاله (يأتيكم بضياء) بسفعة احرى له عليها بدور أمر التبكيت والالزام كما في قوله تعالى قل من يرزقكم من السماء والارض وقوله تعالى فمن يأتيكم بماء معين ونظائرهما جلا أنه قصد بيان انتفاء الموصوف بانتفاء الصفة ولم يقل هل اله الخ لايراد التبكيت والالزام على زعمهم وقرئ بضئاء بهمزتين (أفلا تسمعون) هذا الكلام الحق سماع تدبر واستبصار حتى تذعنوا له وتعملوا بموجبه (قل أرأيتم ان جعل الله عليكم النهار سرمدا الى يوم القيامة) باسكانها في وسط السماء أو تحريكها على مدار فوق الافق (من اله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه) استراحة من متاعب الاشغال ولعل تجريد الضياء عن ذكر منافعه لكونه مقصودا بذاته ظاهر الاستتباع لما نيط به من المنافع (أفلا تبصرون) هذه المنفعة الظاهرة التي لاتخفى على مثله

ذكرهم لم يرجوا اليوم الآخر فاقتصروا على مودة الحياة الدنيا وارجوا اليوم الآخر واعملوا له ثم قال ولا تعثوا في الارض مفسدين يمكن أن يقال نصب مفسدين على المصدر كما يقال قم قائما أي قياما ويكون قوله ولا تعثوا في الارض مفسدين كقول القائل اجلس قعودا لان العث والفساد بمعنى وجمع الاوامر والنواهي في قوله اعبدوا الله وقوله ولا تعثوا ثم ان قومه كذبوه بعد ما بين لهم فحكى الله عنهم ذلك بقوله فكذبوه فأخذتهم الرجفة فصبحوا في دارهم جاثمين * وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) احكى عن شعيب أمر ونهي ولامر لايصدق ويكذب فان من قال لغيره قم يصح أن يقول له كذبت فقول كان شعيب يقول الله واحد فكذبوه والحشر كائن فاروه والفساد محرم فلا تقربوه وهذه الاشياء فيها اخبارات فكذبوه فيما أخبرهم به (المسئلة الثانية) قال ههنا في الاعراف فأخذتهم الرجفة وقال في هود فأخذتهم الصيحة والحكاية واحدة تقول ، تعارض بينهما فان الصيحة كانت سببا للرجفة ما رجفة الارض اذا قيل ان جبريل صاح فتزلزلت الارض من صيحته واما الرجفة الرؤية فان قلوبهم رجفت منها والاضافة الى السبب لاتنافي الاضافة الى سبب السبب اذ يصح أن يقال روى فقوى وان يقال شرب فقوى في صورة واحدة (المسئلة الثالثة) حيث قال فأخذتهم الصيحة قال في ديارهم وحيث قال فأخذتهم الرجفة قال في دارهم فنقول المراد من الدار هو الديار والاضافة الى الجمع يجوز أن تكون بلفظ الجمع وأن تكون بلفظ الواحد اذا أمن الالتباس وانما اختلف اللفظ للطيفة وهي ان الرجفة هائلة في نفسها فلم يحتج الى مهول وأما الصيحة فغير هائلة في نفسها لكن تلك الصيحة لما كانت عظيمة حتى أحدثت الزلزلة في الارض ذكر الديار بلفظ الجمع حتى تعلم هيبتها والرجفة بمعنى الزلزلة عظيمة عند كل أحد فلم يحتج الى معظم لامرها وقيل ان الصيحة كانت أعم حيث عمت الارض والجو والزلزلة لم تكن الا في الارض فذكر الديار هناك غير ان هذا ضعيف لان الدار والديار موضع الجثوم لا موضع الصيحة والرجفة فهم ما أصبحوا جاثمين الا في ديارهم * ثم قال تعالى (وعادا وثمود) أي وأهلكنا عادا وثمود لان قوله تعالى فأخذتهم الرجفة دل على الاهلاك (وقد تبين لكم من مساكنهم) الامر وما تعتبرون منه ثم بين سبب ما جرى عليهم فقال (وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل) فقوله وزين لهم الشيطان أعمالهم يعني عبادتهم لغير الله وصدهم عن السبيل يعني عبادة الله (وكانوا مستبصرين) يعني بواسطة الرسل يعني فلم يكن لهم في ذلك عذر فان الرسل أوضحوا السبيل ثم قال تعالى (وقارون وفرعون وهامان) عطفا عليهم أي وأهلكنا قارون وفرعون وهامان ثم قال تعالى (ولقد جاءهم موسى بالبينات) كما قال في عاد وثمود وكانوا مستبصرين أي بالرسل ثم قال تعالى (فاستكبروا) أي عن عبادة الله وقوله (في الارض) اشارة الى ما يوضح قلة عقلهم في استكبارهم وذلك لان من في الارض أضعف أقسام المكلفين ومن

(ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه) أي في الليل (ولتبتغوا من فضله) في النهار بأنواع المكاسب (ولعلكم تشكرون) ولكي تشكروا نعمته تعالى فعل ما فعل أو لكي تعرفوا نعمته تعالى وتشكروه عليها (ويوم يناديهم) منصوب باذكر فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون) تقريع اثر

تفريع للاشعار بأنه لاشئ أجلب لغضب الله عز وجل من الاشراك كالاشئ أدخل فى مرضاته من توحيده سبحانه وقوله تعالى (ونزعنا) عطف على يناديهم وصيغة الماضى للدلالة على التحقق او حال من فاعله باضمار قد والالتفات الى نون العظمة لابراز كمال الاعتناء بشأن النزع وهو نزع الله أى أخرجنا (من كل أمة) من الامم (شهيدا) نبيا شهد عليهم بما كانوا عليه كقوله تعالى فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد (وقلنا) لكل أمة من تلك الامم (هاتوا) ﴿ ٦٧٢ ﴾ برهانكم) على صحة ما كنتم تدينون به

(فعلموا) يومئذ (أن الحق لله) فى الالهية لايشاركه فيها أحد (وضل عنهم) أى غاب عنهم غيبة الضائع (ما كانوا يفترون) فى الدنيا من الباطل (إن قارون كان من قوم موسى) كان ابن عم موسى بن قاهث بن لاوى بن يعقوب عليه السلام وموسى عليه السلام ابن عمران بن قاهث وقيل كان موسى عليه السلام ابن أخيه وكان يسمى المنور لحسن صورته وقيل كان أقرأ بنى اسرائيل للتوراة ولكنه نافق كما نافق السامرى وقال اذا كانت النبوة لموسى والمذبح والقربان لهرون فمالى وروى انه لما جاوز بهم موسى عليه السلام البحر وصارت الرسالة والحبورة والقربان لهرون وجد قارون فى نفسه وحسدهما فقال لموسى الامر لكما ولست على شئ الى متى أصبر قال موسى عليه السلام هذا صنع الله تعالى قال لاأصدقك حتى تأتى بآية فأمر رؤساء بنى اسرائيل أن يجئ كل واحد بعصاه فجمعها والقاها فى القبة التى كان الوحى ينزل اليه فيها فكانوا يحرسون عصيهم بالليل فأصبحوا فاذا بعصا هرون تهتز ولها ورق أخضر فقال قارون ماهو بأعجب مما تصنع ﴿ الشمس ﴾

فى السماء أفواههم ثم ان من فى السماء لايستكبر على الله وعن عبادته فكيف من فى الارض ثم قال تعالى (وما كانوا سابقين) أى ما كانوا يفوتون الله لانا بينا فى قوله تعالى وما أنتم بمعجزين فى الارض ان المراد ان أقطار الارض فى قبضة قدرة الله * ثم قال تعالى (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) ذكر الله أربعة أشياء العذاب بالحاصب وقيل انه كان بحجارة مجماة يقع على واحد منهم ويفذ من الجانب الآخر وفيه اشارة الى النار والعذاب بالصيحة وهو هواء متموج فان الصوت قيل سببه تموج الهواء ووصوله الى الغشاء الذى على منفذ الاذن وهو الصماخ فيفزعه فيحس والعذاب بالخسف وهو الغمر فى التراب والعذاب بالاغراق وهو بالماء فحصر العذاب بالعناصر الاربعة والانسان مركب منها وبها قوامه وبسببها بقاؤه ودوامه فاذا أراد الله هلاك الانسان جعل مامنه وجوده سببا لعدمه ومابه بقاؤه سببا لفنائه * ثم قال تعالى وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون يعنى لم يظلمهم بالهلاك وانما هم ظلموا أنفسهم بالاشراك وفيه وجه آخر ألطف وهو أن الله ما كان يظلمهم أى ما كان يضعهم فى غير موضعهم فان موضعهم الكرامة كما قال تعالى ولقد كرمنا بنى آدم لكنهم ظلموا أنفسهم حيث وضعوها مع شرفهم فى عبادة الوثن مع خسته * ثم قال تعالى (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) لما بين الله تعالى انه أهلك من أشرك عاجلا وعذب من كذب آجلا ولم ينفعه فى الدارين معبوده ولم يدفع ذلك عنه ركوعه وسجوده مثل اتخاذه ذلك معبودا باتخاذ العنكبوت بيتا لايجبر أويا ولايريح ثاويا وفى الآية لطائف نذكرها فى مسائل (المسئلة الاولى) ما الحكمة فى اختيار هذا المثل من بين سائر الامثال فنقول فيه وجوه (الاول) ان البيت ينبغى أن يكون له أمور حائط حائل وسقف مظل وباب يغلق وأمور ينتفع بها ويرتفق وان لم يكن كذلك فلابد من أحد أمرين اما حائط حائل يمنع من البرد واما سقف مظل يدفع عنه الحر فان لم يحصل منهما شئ فهو كالبيداء ليس ببيت لكن بيت العنكبوت لايجنها ولايكنها وكذلك المعبود ينبغى أن يكون منه الخلق والرزق وجر المنافع وبه دفع المضار فان لم تجتمع هذه الامور فلا أقل من دفع ضر أو جر نفع فان من لايكون كذلك فهو والمعدوم بالنسبة اليه سواء فاذا كالم يحصر للعنكبوت باتخاذ ذلك البيت من معانى البيت شئ كذلك الكافر لم يحصل له باتخاذ الاوثان أولياء من معانى الاولياء شئ (الثانى) هو أن أقل درجات البيت أن يكون للظل فان البيت من الحجر يفيد الاستظلال ويدفع أيضا الهواء والماء والنار والتراب والبيت من الخشب يفيد الاستظلال ويدفع الحر والبرد ولايدفع الهواء القوى ولاالماء ولاالنار والخباء الذى هو بيت من الشعر أو الخيمة التى هى من توب ان كان لايدفع شيئا يظل ويدفع حر الشمس لكن بيت العنكبوت لايظل فان من السحر وذلك قوله تعالى

عليهم) فطلب الفضل عليهم وان يكونوا تحت أمره أو ظلمهم قيل وذلك حين ملكه فرعون على بني اسرائيل وقيل
هم وذلك ماذكر منه في حق موسى وهرون عليهما السلام (وآتيناه من الكنوز) اى الاموال المدخرة (ما ان مفاتحه)
مفاتح صناديقه وهو جمع مفتح بالكسر وهو ما يفتح به وقيل خزائنه وقياس واحدها المفتح بالفتح (لتنوء بالعصبة أولى
وة) خبران والجملة صلة ما هو ثانى مفعولى أتى وناء به ﴿ ٦٧٣ ﴾ الحمل اذا أثقله حتى أماله والعصبة والعصابة الجماعة

الشمس بشعاعها تنفذ فيه فكذلك المعبود أعلى درجاته أن يكون نافذ الامر فى الغير
فان لم يكن كذلك فيكون نافذ الامر فى العابد فان لم يكن فلا أقل من أن لا ينفذ أمر العابد
لكن معبودهم تحت تسخيرهم ان أرادوا أجلوه وان أحبوا أذلوه (الثالث) أدنى
اتب البيت انه ان لم يكن سبب ثبات وارتفاق لا يصير سبب شتات وافتراق لكن
ت العنكبوت يصير سبب انزعاج العنكبوت فان العنكبوت لو دام فى زاوية مدة يقصد
يخرج منها فاذا نسج على نفسه واتخذ بيتا يتبعه صاحب الملك بتنظيف البيت منه
المسح بالمسوح الخشنة المؤذية لجسم العنكبوت فكذلك العابد بسبب العبادة ينبغى أن
ستحق الثواب فان لم يستحقه فلا أقل من أن لا يستحق بسببها العذاب والكافر يستحق
سبب العبادة العذاب (المسئلة الثانية) مثل الله اتخاذهم الاوثان أولياء باتخاذ
عنكبوت نسجه بيتا ولم يمثله بنسجه وذلك لوجهين (أحدهما) ان نسجه فيه فائدة له لولاه
ا حصل وهو اصطيادها الذباب به من غير أن يفوته ما هو أعظم منه واتخاذهم الاوثان
وان كان يفيدهم ما هو أقل من الذباب من متاع الدنيا لكن يفوتهم ما هو أعظم منها وهو
الدار الآخرة التى هى خير وأبقى فليس اتخاذهم كنسج العنكبوت (الوجه الثانى) هو أن
نسجه مفيد لكن اتخاذها ذلك بيتا أمر باطل فكذلك هم لو اتخذوا الاوثان دلائل على
جود الله وصفات كماله وبراهين على نعوت اكرامه وأوصاف جلاله لكان حكمة
لكنهم اتخذوها أولياء لجعل العنكبوت النسج بيتا وكلاهما باطل (المسئلة الثالثة)
ان هذا المثل صحيح فى الاول فهو صحيح فى الآخر فان بيت العنكبوت اذا هبت ريح
يرى منه عين ولا أثر بل يصير هباء منثورا فكذلك أعمالهم الاوثان كما قال تعالى
قدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا (المسئلة الرابعة) قال مثل الذين اتخذوا
من دون الله أولياء ولم يقل آلهة اشارة الى ابطال الشرك الخفى أيضا فان من عبد الله
بالغيره فقد اتخذ وليا غيره فمثله مثل العنكبوت يتخذ نسجه بيتا ﴿ ثم انه تعالى قال
لو ان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) اشارة الى ما بينا ان كل بيت ففيه اما
فائدة الاستظلال أو غير ذلك وبيته يضعف عن افادة ذلك لانه يخرب بأدنى شئ ولا يبقى منه
عين ولا أثر وكذلك عبدتهم لو كانوا يعلمون ﴿ ثم قال تعالى (ان الله يعلم ما يدعون من دونه
من شئ وهو العزيز الحكيم) قال الزمخشرى هذا زيادة توبيخ على التمثيل حيث انهم
لا يدعون من دونه من شئ بمعنى ما يدعون ليس بشئ وهو عزيز حكيم وكيف يجوز للعاقل
أن يترك القادر الحكيم ويشتغل بعبادة ما ليس بشئ أصلا وعند بعضهم انه جعل ما نافية
وهو صحيح والعلم يتعلق بالجملة كما يقول القائل انى أعلم ان الله واحد حتى يعنى أعلم
هذه الجملة وان كنا نجعل ما خبرية فيكون معناه ما يدعون من شئ فالله يعلمه وهو العزيز
الحكيم قادر على اعدامه واهلاكهم لكنه حكيم بهم لكون الهلاك عن بينة والحياة
عن بينة ومن ههنا يكون الخصام مع أمة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى هذا وقار قائل

الكثيرة وقرئ لتنوء باليا على اعطاء المضاف حكم المضاف اليه كما مر فى قوله تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين (اذ قال له قومه) منصوب بتنوء وقيل ببغى ورد بأن البغى ليس مقيدا بذلك الوقت وقيل بآتيناه ورد بأن الايتاء أيضا غير مقيد به وقيل بمضمر قيل هو اذكر وقيل هو أظهر الفرح ويجوز أن يكون منصوبا بما بعده من قوله تعالى قال انما أوتيته وتكون الجملة مقررة لبغيه (لا تفرح) أى لا تبطر والفرح فى الدنيا مذموم مطلقا لانه نتيجة حبها والرضا بها والذهول عن ذكرها فان العلم بأن ما فيها من اللذة مفارقة لا محالة يوجب الترح حتما ولذلك قال تعالى ولا تفرحوا بما آتاكم وعلل النهى ههنا بكونه مانعا من محبته عز وعلا فقيل (ان الله لا يحب الفرحين) أى بزخارف الدنيا (وابتغ) وقرئ واتبع (فيما آتاك الله) من الغنى (الدار الآخرة) أى ثواب الله تعالى فيها بصرف ما يكون وسيلة اليه (ولا تنس) أى لا تترك

نصيبك ﴿ ٨٥ ﴾ من الدنيا) وهو أن تحصل بها آخرتك وتأخذ منها ما يكفيك (وأحسن) أى الى
الله تعالى (كما أحسن الله اليك) فيما أنعم به عليك وقيل أحسن بالشكر والطاعة كما أحسن الله اليك بالنعم (ولا تبغ الفساد فى
الارض) نهى عما كان عليه من الظلم والبغى (ان الله لا يحب المفسدين) لسوء أعمالهم (قال) مجيبا له صحيحا (انما أوتيته على علم
عندى) كأنه يريد به الرد على قولهم كما أحسن الله اليك لانبائه عن أنه تعالى أنعم عليه بتلك الاموال والذخائر من غير سبب

واستحقاق من قبله أي فضلت به على الناس واستوجبت به التفوق عليهم بالمال والجاه وعلى علم في موقع الحال وهو علم التوراة وكان أعلمهم بها وقيل علم الكيمياء وقيل علم التجارة والدهقنة وسائر المكاسب وقيل علم فتح الكنوز والدفائن وعندي صفة له أو متعلق بأوتيته كقولك جاز هذا عندي أو في ظني ورأيي (أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا) توبيخ له من جهة الله تعالى على اغتراره بقوته وكثرة ماله مع ﴿ ٦٧٤ ﴾ علمه بذلك قراءة في التوراة وتلقيا من موسى عليه السلام وسماعا من حفاظ التواريخ وتعجب منه فالمعنى ألم يقرأ التوراة ولم يعلم ما فعل الله تعالى بأضرابه من أهل القرون السابقة حتى لا يغتر بما اغتر به أو رد لادعائه العلم وتعظمه به يعني هذا العلم منه فلعمي أعلم ما ادعاه ولم يعلم هذا حق به نقد مصارع المهلكين (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) سؤال استعلام يعذبون بها بغتة كأن قارون شاهد بدارهم هلاك من قبله من كان أقوى منه وأغنى أكد ذلك بأن بين أن ذلك لم يزل معلوما عند الله تعالى مطلع على ذنوب كافة المجرمين يعاقبهم عليها بغتة (فخرج على قومه) عطف على قال وما بينهما اعتراض وقوله تعالى في زينته (اما متعلق بخرج أو بمحذوف هو حال من فاعله أي فخرج عليهم كائنا في زينته قيل خرج على بغلة شهباء عليه الارجوان وعليها سرج من ذهب ومعه أربعة آلاف على زيه وقيل عليهم وعلى خيولهم الديباج الاحمر وعن يمينه ثلثمائة غلام وعن يساره ثلثمائة جارية بيض عليهن الحلي والديباج وقيل في تسعين ألفا عليهم المعصفرات وهو أول يوم رئي ﴿ تعالى ﴾ فيه المعصفر (قال الذين يريدون الحيوة الدنيا) من المؤمنين جريا على سنن الجبلة البشرية من الرغبة في السعة واليسار (يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون) وعن قتادة أنهم تمنوه ليتقربوا به الى الله تعالى وينفقوه في سبل الخير وقيل كان المتمنون قوما كفارا (انه لذو حظ عظيم) تعليل لتمنيهم وتأكيد له (وقال الذين أوتوا العلم) أي بأحوال الدنيا والآخرة كما

ماوجه تعلق هذه الآية بالتمثيل السابق فنقول لما قال ان مثلهم كمثل العنكبوت فكان للكافر أن يقول أنا لا أعبد هذه الاوثان التي اتخذها وهي تحت تسخيري وانما هي صورة كوكب أنا تحت تسخيره ومنه نفعي وضري وخيري وشري ووجودي ودوامي فله سجودي واعظامي فقال الله تعالى ان الله يعلم ان كل ما يعبدون من دون الله هو مثل بيت العنكبوت لان الكوكب والملك وكل ما عدا الله لا ينفع ولا يضر الا باذن الله فعبادتكم اياه كعبادتكم للحائط ولا معبود الا الله ولا الهة سواه ﴿ ثم قال تعالى ﴾ وتلك الامثال نضربها للناس (قال الكافر من كيف يضرب خالق الارض والسموات الامثال بالهوام والحشرات كالبعوض والذباب والعنكبوت فيقال الامثال تضرب للناس ان لم تكونوا كالانعام تحصيل لكم مناط ذلك ما وجه تفكركم مما أنتم فيه وذلك من التشبيه أوثر في النفس تأثيرا مثل تأثير الدليل وقال الحكيم لمن يغتاب انك بالغيبة كأنك تأكل لحم ميت لذلك وصفت هذا الرجل وغائب لا يفهم ما تقول ولا يسمع حتى يجب كل يقم في بيت أكل منه وهو لا يعلم ما يفعله ولا يقدر على دفعه ان كان يعلما فيتفرط عنه كما ينفر اذا قال له انه يوجب العذاب ويورث المتاب ﴿ ثم قال تعالى ﴾ (وما يعقلها الا العالمون) يعني حقيقتها وكون الامر كذلك لا يعلمه الا من حصل له العلم بالدلائل ما سمى الله وفسا عبادة ما عداه وفي معنى حكمي وهو ان العلم الحدسي يعلمه العاقل والعلم الكسبي الدقيق يعلمه العالم وذلك لان العاقل اذا عرض عليه أمر فالغير أدركه كما هو بكنهه لكون المدرك ظاهرا وكون المدرك عاقلا لا يحتاج الى كونه عالما بأشياء قبله وأما الدقيق فيحتاج الى علم سابق فلا يدرك العالم انه قد يكون دقيق وغايته ان يقف فيدركه بتعلمه بعقله وان كان عالما اذا علم هذا فقوله وما يعقلها الا العالمون يعني هو ضرب الناس أمثالا وحقيقته وما ينبغي ان يضرب الا العالمون ﴿ ثم الله تعالى لما أمر الخلق بالايمان وظهر الحق بالبرهان ولم يأت الكفار بأمرهم به وقص عليهم قصص من قبلهم عبرة وأنذرهم على كفرهم بأهلاك من غبر وبين ضعف دلائلهم بالتمثيل ولم يهتدوا بذلك الى سواء السبيل وحصل يأس الناس عنهم على المؤمنين ﴿ بقوله (خلق الله السموات والارض بالحق ان في ذلك لآية للمؤمنين) يعني ان لم يؤمنوا هم لا يورث كفرهم شكا في صحة دينكم ولا يؤثر شكهم في قوة يقينكم فان خلق الله السموات والارض بالحق للمؤمنين بيان ظاهر وبرهان باهر وان لم يؤمن به على وجد الارض كافر ﴿ وفي الآية مسئلة يتبين بها تفسير الآية وهي أن الله تعالى كيف خص الآية في خلق السموات والارض بالمؤمنين مع ان في خلقهما آية لكل عاقل كما قال الله تعالى وان سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وقال الله تعالى ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار الى أن قال لآيات لقوم يعقلون فنقول خلق السموات والارض آية لكل عاقل وخلقهما بالحق آية للمؤمنين لخمس وبانه من حيث النقل والعقل أما النقل فقوله

ى وانما لم يوصفوا بارادة ثواب الآخرة تنبيها على أن العلم باحوال النشأتين يقتضى الاعراض عن الاولى والاقبال على
انية حتما وأن تمنى المتمنين ليس الالعدم علمهم بهما كما ينبغى (ويلكم) دعاء بالهلاك شاع استعماله فى الزجر عما لا يرتضى
واب الله) فى الآخرة (خير) مما تتمنونه (لمن آمن وعمل صالحا) فلا يليق بكم أن تتمنوه غير مكتفين بثوابه تعالى (ولا يلقاها)
ى هذه الكلمة التى تكلم بها العلماء والثواب فانه بمعنى المثوبة أو الجنة أو الايمان والعمل الصالح فانهما

تعالى ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون أخرج أكثر الناس عن العلم بكون
خلقهما بالحق مع انه أثبت علم الكل بأنه خلقهما حيث قال ولئن سألتهم من خلق السموات
والارض ليقولن الله وأما العقل فهو ان العاقل أول ما ينظر الى خلق السموات والارض
ويعلم أن لهما خالقا وهو الله ثم من يهديه الله لا يقطع النظر عنهما عند مجرد ذلك بل يقول
انه خلقهما متقنا محكما وهو المراد بقوله بالحق لان ما لا يكون على وجه الاحكام يفسد
ويبطل فيكون باطلا واذا علم انه خلقهما متقنا يقول انه قادر كامل حيث خلق وعالم علمه
شامل حيث اتقن فيقول لا يعزب عن علمه أجزاء الموجودات فى الارض ولا فى السموات
ولا يعجز عن جمعها كما جمع اجزاء الكائنات والمبتدعات فيجوز بعث من فى القبور وبعثة
الرسول بعد العلم بوحدانيته لانه لو كان أكثر من واحد لفسدتا ولبطلتا وهما بالحق
موجودان فيحصل له الايمان بقيامه * من خلق ما خلقه على أحسن نظامه * ثم ان الله
تعالى لما مهد للمؤمنين بهذه الآية سلى رسوله * بقوله تعالى (اتل ما أوحى اليك من الكتاب
وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) يعنى ان كنت تأسف على كفرهم فاتل
ما أوحى اليك لتعلم أن نوحا ولوطا وغيرهما كانوا على ما أنت عليه بلغوا الرسالة وبالغوا فى
اقامة الدلالة ولم ينقد قومهم من الضلالة والجهالة فما عليك الا تلاوة ما أنزل عليهم لان
التلاوة ما كانت بعد اليأس منهم الا تسلية قلب محمد عليه الصلاة والسلام وفى الآية
مسائل (المسئلة الاولى) ان الرسول اذا كان معه كتاب وقرأ كتابه مرة ولم يسمع لم يبق له فائدة
فى قراءته نفسه فنزول الكتاب المنزل مع النبى المرسل ليس كذلك فان الكتب المسيرة مع
الرسل على قسمين قسم يكون فيه سلام وكلام * مع واحد يحصل بقراءته مرة تمام المرام *
وقسم يكون فيه قانون كلى تحتاج اليه الرعية فى جميع الاوقات كما اذا كتب الملك كتابا فيه
انا رفعنا عنكم البدعة الفلانية ووضعنا فيكم السنة الفلانية وبعثنا اليكم هذا الكتاب فيه
جميع ذلك فليكن ذلك كتابا يتسجح عليه وال بعد وال * فان هذا الكتاب لا يقرأ ويترك
بل يعلق من مكان عال * وكثيرا ما تكتب نسخته على لوح ويثبت فوق المحاريب ويكون
نصب الاعين فكذلك كتاب الله مع رسوله محمد قانون كلى فيه شفاء العالمين فوجب تلاوته
مرة بعد مرة ليبلغ الى حد التواتر وينقله الى قرن ويأخذ قوم من قوم ويثبت فى
الصدور على مر الدهور (الوجه الثانى) هو ان الكتب على ثلاثة أقسام كتاب لا تكرر
قراءته الا للغير كالقصص فان من قرأ حكاية مرة لا يقرؤها مرة أخرى الا لغيره ثم اذا سمعه
ذلك الغير لا يقرؤها الا الآخر لم يسمعه ولو قرأ عليه اسم ومل وكتاب لا يكرر عليه الا للنفس
كالنحو والفقه وغيرهما وكتاب يتلى مرة بعد مرة للنفس وللغير كالمواعظ الحسنة فانها تكرر
للغير وكلما سمعها يتلذذ بها ويرق لها قلبه ويستعيدها وكلما تدخل السمع يخرج الوسواس
مع الدمع وتكرر أيضا لنفس المتكلم فان كثيرا ما يلتذ المتكلم بكلمة طيبة وكلما يعيدها
يكون أطيب وألذ وأثبت فى القلب وأنفذ حتى يكاد يبكى من رقته دما ولو أورثه البكاء عمى

فى معنى السيرة والطريقة
(الا الصابرون) أى على
الطاعات وعن الشهوات
(فخسفنا به وبداره الارض)
روى انه كان يؤذى موسى
عليه السلام كل وقت وهو
يداريه لقرابته حتى نزلت
الزكاة فصالحه عن كل ألف
على واحد فحسده فاستكثره
فعمد الى أن يفضح موسى
عليه السلام بين بنى اسرائيل
فجعل لبغى من بغايا اسرائيل
ألف دينار وقيل طشتا من
ذهب مملوءة ذهبا فلما كان يوم
عيد قام موسى عليه السلام
خطيبا فقال من سرق
قطعناه ومن زنى غير محصن
جلدناه ومن زنى محصنا رجمناه
فقال قارون ولو كنت قال
ولو كنت قال ان بنى اسرائيل
يزعمون أنك فجرت بفلانة
فاحضرت فناشدها عليه
السلام أن تصدق فقالت
جعل لى قارون جعلا على
أن أرميك بنفسى فخر موسى
ساجدا لربه يبكى ويقول يارب
ان كنت رسولك فاغضب لى
فاوحى اليه أنى مر الارض بما
شئت فانها مطيعة لك فقال
يابنى اسرائيل ان الله بعثنى الى
قارون كما بعثنى الى فرعون فمن كان معه فليلزم مكانه ومن كان معى فليعتزل عنه فاعتزلوا جميعا غير رجلين ثم قال يا أرض
خذيهم فأخذتهم الى الركب ثم قال خذيهم فأخذتهم الى الاوساط ثم قال خذيهم فأخذتهم الى الاعناق وهم يناشدونه عليه
الصلاة والسلام بالله تعالى وبالرحم وهو لا يلتفت اليهم لشدة غيظه ثم قال خذيهم فانطبقت عليهم فأصبحت بنو اسرائيل يتناجون
بينهم انما دعا عليه موسى عليه الصلاة والسلام ليستبد بداره وكنوزه فدعا الله تعالى حتى خسف بداره وأمواله (فما

كان له من فئة) جماعة مشفقة (ينصرونه من دون الله) بدفع العذاب عنه (وما كان من المنتصرين) أي الممتنعين منه بوجه من الوجوه بقهر ناصره من عداوه فانتصر أي منعه فامتنع (وأصبح الذين تمنوا مكانه) منزلته (بالامس) منذ زمان قريب (يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) أي يضيق كل واحد من البسط والقدر بمحض مشيئته لا لكرامة توجب البسط ولا لهوان يقتضي القبض وويكأن عند ٦٧٦ البصريين مركب من وي للتعجب وكان للتشبيه

والمعنى ما أشبه الامر أن الله يبسط الخ وعند الكوفيين من ويك بمعنى ويلك وأن وتقديره ويك اعلم أن الله وانما يستعمل عند التنبيه على الخطا والتندم والمعنى انهم قد تنبهوا على خطئهم في تمنيهم وتندموا على ذلك (ولولا أن من الله علينا) بعدم اعطائه اياانا ما تمنيناه واعطائنا مثل ما أعطاه اياه وقرئ لولا من الله علينا (لخسف بنا) كما خسف به وقرئ لخسف بنا على البناء للمفعول وبنا هو القائم مقام الفاعل وقرئ لانخسف بنا كقولك انقطع به وقرئ لتخسف بنا (ويكأنه لا يفلح الكافرون) لنعمة الله تعالى أو المكذبون برسله وما وعدوا من ثواب الآخرة (تلك الدار الآخرة) اشارة تعظيم وتفخيم كأنه قيل تلك التي سمعت خبرها وبلغك وصفها (نجعلها للذين لا يريدون علوا في الارض) أي غلبة وتسلطا (ولا فسادا) أي ظلما وعدوانا على العباد كدأب فرعون وقارون وفي تعليق الوعد بترك ارادتهم لا بترك أنفسهم مزيد تحذير منهما وعن علي رضي الله عنه ان الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها (والعاقبة) الحميدة (للمتقين) أي الذين ٭ الله ٭ يتقون ما لا يرضاه الله تعالى من الافعال والاقوال (من جاء بالحسنة فله) بمقابلتها (خير منها) ذاتا ووصفا وقدرا (ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات) وضع فيه الموصول والظاهر موضع الضمير لتهجين حالهم بتكرير اسناد السيئة اليهم (الا ما كانوا يعملون) أي الا مثل ما كانوا يعملون فحذف المثل وأقيم مقامه

اذا علم هذا فاقرأ من السبيل الثالث مع أن فيه القصص والفقه والنحو فكان في تلاوته في كل زمان فائدة (المسئلة الثانية) لما خصص الامر بهذين الشيئين تلاوة الكتاب واقامة الصلاة فنقول لوجهين (أحدهما) ان الله لما أراد تسلية قلب محمد عليه السلام قال له الرسول واسطة بين طرفين من الله الى الخلق فاذا اتصل به الطرف الواحد ولم يقبلوه فالطرف الآخر متصل أفلا ترى ان الرسول اذا لم تقبل رسالته توجه نحو مرسله فاذا تلوت كتابك ولم يقبلوك فوجه وجهك الى وأقم الصلاة لوجهي (الوجه الثاني) هو ان العبادات المختصة بالعبد ثلاث قلبية وهي الاعتقاد الحق وسانية وهي الذكر الحسن وبدنية خارجية وهي العمل الصالح لكن الاعتقاد لا يتكرر فان من اعتقد شيأ لا يمكنه أن يعتقد مرة أخرى بل ذلك يدوم مستمرا والنبي عليه السلام كان ذلك حاصلا له عن عيان أكمل مما يحصل عن بيان فلم يؤمر به لعدم امكان تكراره لكن الذكر يمكن التكرار والعبادة البدنية كذلك فأمر بهما فقال اتل الكتاب وأقم الصلاة (المسئلة الثالثة) كيف تنهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر نقول قال بعض المفسرين المراد من الصلاة القرآن وهو ينهى أي فيه النهي عنهما وهو بعيد لان ارادة القرآن من الصلاة في هذا الموضع الذي قال قبله اتل ما أوحي اليك بعيد من الفهم وقال بعضهم أراد به نفس الصلاة وهي تنهى عنهما مادام العبد في الصلاة لانه لا يمكنه الاشتغال بشيء منهما فنقول هذا كذلك لكن ليس المراد هذا والا لا يكون مدحا كاملا للصلاة لان غيرها من الاشتغال كثيرا ما يكون كذلك كالنوم في وقته وغيره فنقول المراد ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر مطلقا وعلى هذا قال بعض المفسرين الصلاة هي التي تكون مع الحضور وهي تنهى حتى نقل عنه صلى الله عليه وسلم من لم تنهه صلاته عن المعاصي لم يزدد بها الا بعدا وعن نقول الصلاة الصحيحة شرعا تنهى عن الامرين مطلقا وهي التي اتى بها المكلف لله حتى لو قصد بها الرياء لا تصح صلاته شرعا وتجب عليه الاعادة وهذا ظاهر فان من نوى بوضوئه الصلاة والتبرد قبل لا يصح فكيف من نوى بصلاته الله وغيره اذا ثبت هذا فنقول الصلاة تنهى من وجوه (الاول) هو ان من كان يخدم ملكا عظيم الشأن كثير الاحسان ويكون عنده بمنزلة وري عبدا من عباده فقد طرده طردا لا يتصور قبوله * وفاته الخير بحيث لا يرجى حصوله * يستحيل من ذلك المقرب عرفا ان يترك خدمة الملك ويدخل في طاعة ذلك المطرود فكذلك العبد اذا صلى لله صار عبدا لله وحصل له منزلة المصلي يناجي ربه فيستحيل منه أن يترك عبادة الله ويدخل تحت طاعة الشيطان المطرود لكن مرتكب الفحشاء والمنكر تحت طاعة الشيطان فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر (الثاني) هو أن من يباشر الفاذورات كالزبال والكناس يكون له لباس نظيف اذا لبسه لا يباشر معه الفاذورات وكلما كان ثوبه أرفع يكون امتناعه وهو لابسه عن الفاذورات أكثر فاذا لبس واحد منهم ثوب ديباج مذهب يستحيل منه مباشرة تلك الاشياء عرفا وكذلك العبد اذا صلى لبس لباس التقوى لانه واقف بين يدي

ماكانوا يعملون مبالغة فى المماثلة (ان الذى فرض عليك القران) اوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل به (لرادك الى معاد) أى معاد مما تعتاد اليه أعناق الهمم وترتوى اليه أحداق الامم وهو المقام المحمود الذى وعدك أن يبعثك فيه وقيل هو مكة المعظمة على أنه تعالى قد وعده وهو بمكة فى أذية وشدة من أهلها أنه مهاجر به منها ثم يعيده اليها بعز ظاهر وسلطان قاهر وقيل نزلت عليه حين بلغ الجحفة فى مهاجره ﴿ ٦٧٧ ﴾ وقد اشتاق الى مولده ومولد آبائه وحرم ابراهيم عليه السلام

الله واضعا يمينه على شماله على هيئة من يقف بمرأى ملك ذى هيبة ولباس القوى خير لباس يكون نسبته الى القلب أعلى من نسبة الديباج المذهب الى الجسم فاذن من لبس هذا اللباس يستحيل منه مباشرة فاذورات الفحشاء والمنكر ثم ان الصلوات متكررة واحدة بعد واحدة فيدوم هذا اللبس فيدوم الامتناع (الثالث) من يكون أمر نفسه بجلس حيث يريد فاذا دخل فى خدمة ملك وأعطاه منصبا له مقام خاص لا يجلس صاحب ذلك المنصب الا فى ذلك الموضع فلو أراد أن يجلس فى صف النعال لا يترك فكذلك العبد اذا صلى دخل فى طاعة الله ولم يبق بحكم نفسه وصار له مقام معين اذ صار من أصحاب اليمين فلو أراد أن يقف فى غير موضعه وهو موقف أصحاب الشمال لا يترك لكن مرتكب الفحشاء والمنكر من أصحاب الشمال وهذا الوجه اشارة الى عصمة الله يعنى من صلى عصمه الله عن الفحشاء والمنكر (الرابع) وهو موافق لما وردت به الاخبار وهو ان من يكون بعيدا عن الملك كالسوقى والمتادى والمتعيش لا يبالى بما فعل من الافعال يأكل فى دكان القصاب والرواس و يجلس مع أحياش الناس فاذا صارت له قربة يسيرة من الملك كما اذا صار واحدا من الجندارية والقراد والسواس عند الملك لا تمنعه تلك القربة من تعاطى ما كان يفعله فاذا زادت قربته وارتفعت منزلته حتى صار أميرا حينئذ تمنعه هذه المنزلة عن الاكل فى ذلك المكان والجلوس مع أولئك الخلان كذلك العبد اذا صلى وسجد صار له قربة ما لقوله تعالى واسجد واقترب فاذا كان ذلك القدر من القربة يمنعه من المعاصى والمناهى فبتكرار الصلاة والسجود تزداد مكانته حتى يرى على نفسه من آثار الكرامة ما يستقذر معه من نفسه الصغائر فضلا عن الكبائر وفى الآية وجه اخر معقول يؤكده المنقول وهو ان المراد من قوله ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر هو انها تنهى عن التعطيل والاشراك والتعطيل هو انكار وجود الله والاشراك اثبات الوهية لغير الله فقول التعطيل عقيدة فحشاء لان الفاحش هو القبيح الظاهر القبح لكن وجود الله أظهر من الشمس وما من شئ الا وفيه آية على الله ظاهرة وانكار الظاهر ظاهر الانكار فالقول بأن لا اله قبيح والاشراك منكر وذلك لان الله تعالى لما أطلق اسم المنكر على من نسب نفسا الى غير لو الدم جاز أن يكون له ولد حيث قال ان أمهاتهم الا اللائى ولدنهم وانهم ليقولون منكرا من القول فالمشرك الذى يقول الملائكة بنات الله و ينسب الى من لم يلد ولا يجوز أن يكون له ولدا كيف لا يكون قوله منكرا فالصلاة تنهى عن هذه الفحشاء وهذا المنكر وذلك لان العبد أول ما يشرع فى الصلاة يقول الله أكبر فقوله الله ينفى التعطيل و بقوله أكبر ينفى التشريك لان الشريك لا يكون أكبر من الشريك الآخر فيما فيه الاشتراك هذا فان بسم الله نفى التعطيل و اذا قال الرحمن الرحيم نفى الاشراك لان الرحمن من يعطى الوجود بالخلق بالرحمة والرحيم من يعطى البقاء بالرزق بالرحمة فاذا قال الحمد لله رب العالمين اثبت بقوله الحمد لله خلاف التعطيل و بقوله رب العالمين خلاف

فنزل جبريل عليه السلام فقال له أتشتاق الى مكة قال نعم فأوحاها اليه (قل ربى أعلم من جاء بالهدى) وما يستحقه من الثواب والنصر ومن منتصب بفعل يدل عليه أعلم أى يعلم وقيل بأعلم على أنه بمعنى عالم (ومن هو فى ضلال مبين) وما استحقه من العذاب والاذلال يعنى بذلك نفسه والمشركين وهو تقرير للوعيد السابق وكذا قوله تعالى (وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب) أى سيردك الى معادك كما ألقى اليك الكتاب وما كنت ترجوه (الا رحمة من ربك) ولكن ألقى اليك رحمة منه ويجوز أن يكون استثناء محمولا على المعنى كأنه قيل وما ألقى اليك الكتاب الا رحمة أى لاجل الترحم (فلا تكونن ظهيرا للكافرين) بمداراتهم و التحمل عنهم والاجابة الى طلبتهم (ولا يصدنك) أى الكافرون (عن آيات الله) أى عن قراءتها والعمل بها (بعد اذ أنزلت اليك) وفرضت عليك وقرئ يصدنك من أصد

لقول من صد اللازم (وادع) الناس (الى ربك) الى عبادته وتوحيده (ولا تكونن من المشركين) بمساعدتهم فى الامور (ولا تدع مع الله الها آخر) هذا وما قبله للتهييج و الالهاب وقطع أطماع المشركين عن مساعدته عليه الصلاة السلام لهم واظهار أن المنهى عنه فى القبح والشرية بحيث ينهى عنه من لا يمكن صدوره عنه أصلا

(لااله الاهو) وحده (كل شئ هالك الاوجهه) الاذاته فان ماعداه كائنا ماكان ممكن فى حد ذاته عرضة للهلاك والعدم (له الحكم) أى القضاء النافذ فى الخلق (واليه ترجعون) عند البعث للجزاء بالحق والعدل * عن النبى صلى الله عليه وسلم من قرأ طسم القصص كان له من الاجر بعدد من صدق موسى وكذب ولم يبق ملك فى السموات والارض الاشهد له يوم القيامة أنه كان صادقا * (سورة ٦٧٨ العنكبوت مكية وهى تسع وستون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم) الكلام فيه كالذى مر مرارا فى نظائره من الفواتح الكريمة خلا أن مابعده لايحتمل أن يتعلق به تعلقا اعرابيا (أحسب الناس) ونظائره لايتعلق بها المقدار بل يقتضيان بالحرى المقصد الثبوت شئ لشئ أو انتفاء شئ عن شئ بحيث يتحصل منهما مفهوم ما بالفعل كإفادة المواقع وأما بنوع تصرف فهما كالجمل المصدرة بأو والواقعة صلة للموصول الاسمى أو الحرفى فان كلا منها صالحة لان يسبك منها مفعول لان قوله تعالى احسب الناس (أن يتركوا ان يقولوا امنا وهم لايفتنون) فى قوة أن يقال أحسبوا أنفسهم متروكين بلافتنة بمجرد أن يقولوا آمنا أو أن يقال أحسبوا تركهم غير مفتونين بقولهم آمنا حاصلا متحققا والمعنى انكار الحسبان المذكور واستبعاده وتحقيق أنه تعالى يمتحنهم بشاق التكاليف كالهاجرة والمجاهدة ورفض ماتشتهيه النفس ووظائف الطاعات وفنون المصائب فى الانفس والاموال ليتميز المخلص من المنافق والراسخ فى الدين * وحصل * من المتزلزل فيه ويجازيهم بحسب مراتب أعمالهم فان مجرد الايمان وان كان عن خلوص لايقتضى غير الخلاص من الخلود فى النار روى أنها نزلت فى ناس من الصحابة

الاشراك فاذا قال اياك نعبد بتقديم اياك نفى التعطيل والاشراك وكذا بقوله واياك نستعين فاذا قال اهدنا الصراط نفى التعطيل لان طالب الصراط له مقصد والمعطل لامقصد له وبقوله المستقيم نفى الاشراك لان المستقيم هو الاقرب والمشرك يعبد الاصنام حتى يعبد صورة صورها الله العالمين ويظنون انهم يشفعون لهم وعبادة الله من غير واسطة أقرب وعلى هذا الى آخر الصلاة يقول فيها أشهد أن لااله الا الله فينفى الاشراك والتعطيل (وههنا لطيفة) وهى ان الصلاة أولها الفاظ الله وآخرها الفاظ الله فى قوله أشهد أن لااله الا الله فبعد الصلى الله على آل صلاة الى آخرها مع الله ثم قال قائل فتدبق من الصلاة قوله وأشهد أن محمدا رسول الله والصلاة على الرسول والتعظيم فتقول هذه الاشياء فى آخرها دخلت لتعلق نجاح هذه الصلاة وذلك لان الصلاة ذكر الله لاغرو لكل العبد اذا سئل بالصلاة الى الله وخص مع الله ويقوم فى قلبه انه لم يتقرب واستدعى عن الرسول كمن تقرب من الملك فيفتقر بذلك ولا يلتفت الى الباب والحجاب يقول أنت فى هذه المنزلة الرفيعة بباب محمد صلى الله عليه وسلم وغير مستغن عنه بل مع ذكرى محمد رسول الله ثم اذا علمت ان هذا كله به الله هدايته فذكر احسانه بالصلاة عليه ثم انظر جعت وتقدمت الى آخرها فسلم عليهم وبلغهم سلامى كما هو ترتيب المسافرين وسلم هيئة الصلاة هيئة فاعرفها أولها وقوف بين يدى الله ووقوف الملوك بين يدى السلطان ثم ان آخرها جثو بين يدى الله كما جثو بين يدى السلطان من أكرمه بالجلوس كان العبد للوقوف وأثنى على الله أكرمه الله أجلسه فجثا وفى هذا الجثو اشارة وهى ان من جثا فى الدنيا بين يدى ربه هذا الجثو لايكون له جثو فى الآخرة ولايكون من الذين قال الله فى حقهم ونذر الظالمين فيها جثيا * ثم قال تعالى (والذكر الله أكبر والله يعلم ماتصنعون) لما ذكر أمرين وهما تلاوة الكتاب واقامة الصلاة بين مايوجب أن يكون الاتيان بهما على أبلغ وجوه التعظيم فقال ولذكر الله أكبر وأنتم اذا ذكرتم آباءكم بما فيهم من الصفات الحسنة تنبثوا اذا ذكروهم بل أفواهكم وقلوبكم لكن ذكر الله أكبر فينبغى أن يكون على أبلغ وجوه التعظيم وأما الصلاة فكذلك لان الله يعلم ماتصنعون وهذا أحسن صنعكم فينبغى أن يكون على وجه التعظيم وفى قوله ولذكر الله أكبر مع حذف بيان ماهو أكبر منه لطيفة وهى ان الله لم قال أكبر من ذكر فلان لان مانسب الى غيره بالكبر فله اليه نسبة اذ لايقال الجبل أكبر من خردلة وانما يقال هذا الجبل أكبر من ذلك الجبل فأسقط المنسوب كأنه قال ولذكر الله له الكبر لالغيره وهذا كما قال فى الصلاة الله أكبر أى له الكبر لالغيره * ثم قال تعالى (ولاتجادلوا أهل الكتاب الابالتى هى أحسن الا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون وكذلك أنزلنا اليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا الا الكافرون) لما بين الله طريقة ارشاد المشركين ونفع من انتفع

رضوان الله تعالى عليهم اجمعين جرعوا من اذية المشركين وقيل فى عمار قد عذب فى الله وقيل فى مهجع مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنهما رماه عامر بن الحضرمى بسهم يوم بدر فقتله فجزع عليه أبواه وامرأته وهو أول من استشهد يومئذ من المسلمين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الشهداء مهجع وهو أول من يدعى الى باب الجنة من هذه الامة (ولقد فتنا الذين من قبلهم) متصل بقوله تعالى أحسب أو بقوله تعالى لا يفتنون ﴿ ٦٧٩ ﴾ والمعنى ان ذلك سنة قديمة مبنية على الحكم البالغة جارية

وحصل اليأس ممن امتنع بين طريقة ارشاد أهل الكتاب فقال ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتى هى أحسن قال بعض المفسرين المراد منه لا تجادلوهم بالسيف وان لم يؤمنوا الا اذا ظلموا وحاربوا أى اذا ظلموا زائدا على كفرهم وفيه معنى أطف منه وهو ان المشرك جاء بالمنكر على ما بيناه فكان اللائق أن يجادل بالاخشن و يبالغ فى تهجين مذهبه وتوهين شبهه ولهذا قال تعالى فى حقهم صم بكم عمى وقال لهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها الى غير ذلك وأما أهل الكتاب فجاؤا بكل حسن الا الاعتراف بانبى عليه السلام فوجب أن يجادلوا بالاحسن من الكتب وارسال الرسل والحشر فلمقابلة احسانهم بمثله أولا بالاحسن ولا تستخف آراؤهم ولا ينسب الى الضلال آباؤهم بخلاف المشرك ثم معنى هذا قوله الا الذين ظلموا تبين له حسن آخر وهو أن يكون المراد الا الذين أشركوا منهم باثبات الولد لله والقول بثالث ثلاثة فانهم ضاهوهم فى القول المنكر فهم الضالون لان الشرك ظلم عظيم فيجادلون بالاخشن من تهجين مقالتهم وتبيين جهالتهم ثم ان تعالى بين ذلك الاحسن فقدم محاسنهم بقوله وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا وأنزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون ويلزمنا اتباعه فانه لكتابه من رسالتى فى كتبكم فهو دليل صدقى ثم بعد ذلك ذكر دليلا خاصا فقال وكذلك أنزلنا اليك الكتاب يعنى كما أنزلنا على من تقدمك أنزلنا اليك وحيا وقرآنا ثم قال فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به لوجود النص ومن هؤلاء ذلك واختلف المفسرون فقال بعضهم المراد بالذين آتيناهم الكتاب من آمن بنبينا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره بقوله ومن هؤلاء أى من أهل مكة وقال بعضهم المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الذين عاينوا محمدا صلى الله عليه وسلم وآمنوا من أهل الكتاب ومن هؤلاء الذين هم فى زمان محمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب وهذا أقرب فان قوله هؤلاء يصرف الى أهل الكتاب أولى لان الكلام فيهم ولا ذكر للمشركين ههنا اذ كان هذا الكلام بعد الفراغ من ذكرهم والاعراض عنهم لاصرارهم على الكفر وههنا وجه آخر أولى وأقرب الى العقل والنقل وأقرب الى الاحسن من الجدال المأمور به وهو ان نقول المراد بالذين آتيناهم الكتاب هم الانبياء بقوله ومن هؤلاء أى من أهل الكتاب وهو أقرب لان الذين آتاهم الكتاب فى الحقيقة هم الانبياء فان الله ما آتى الكتاب الا للانبياء كما قال تعالى أولئك الذين آتيناهم الكتاب وقال وآتينا داود زبورا وقال وآتانى الكتاب واذا حملنا الكلام على هذا لا يدخله التخصيص لان كل الانبياء آمنوا بكل الانبياء واذا قلنا بما قالوا به يكون المراد من الذين آتيناهم الكتاب عبد الله بن سلام واثنين أو ثلاثة معه أو عددا قليلا ويكون المراد بقوله ومن هؤلاء غير المذكورين وعلى ما ذكرنا يكون مخرج الكلام كأنه قسم القوم قسمين أحدهما المشركون وتكلم فيهم وفرغ منهم والثانى أهل الكتاب وهو بعد فى بيان أمرهم والوقت وقت جريان ذكرهم فاذا قال هؤلاء يكون منصرفا الى أهل الكتاب الذين هو فى وصفهم واذا قال أولئك يكون

فيما بين الامم كلها فلا ينبغى أن يتوقع خلافها والمعنى أن الامم الماضية قد أصابهم من ضروب الفتن والمحن ما هو اشد مما أصاب هؤلاء فصبروا كما يعرب عنه قوله تعالى وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا الآيات عن النبى عليه الصلاة والسلام فكان من قبلكم يؤخذ ويوضع المشرك على رأسه فيفرق فرقين ما يصرفه ذلك عن دينه و يمشط بأمشاط الحديد دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه (فليعلمن الله الذين صدقوا) أى فى قولهم آمنا (وليعلمن الكاذبين) فى ذلك والفاء للترتيب ما بعدها على ما يفصح عنه ما قبلها من وقوع الامتحان واللام جواب القسم والالتفات الى الاسم الجليل لادخال الروعة وتربية المهابة وتكرير الجواب لزيادة التأكيد والتقرير أى فوالله ليتعلقن علمه بالامتحان تعلقا خاصا يتميز به الذين

صدقوا فى إيمان الذى أظهروه والذين هم كاذبون فيه مستمرون على الكذب و يترتب عليه

منصرفا الى المشركين الذين سبق ذكرهم وتحقق أمرهم وعلى هذا التفسير يكون الجدال على أحسن الوجوه وذلك لان الخلاف فى الانبياء والائمة قريب من الخلاف فى فضيلة الرؤساء والملوك فاذا اختلف حزبان فى فضيلة ملكين أو رئيسين وأدى الاختلاف الى الاقتتال يكون أقوى كلام يصلح بينهم أن يقال لهم هذان الملكان متوافقان متصادقان فلا معنى لنزاعكم فكذلك ههنا قال النبى صلى الله عليه وسلم نحن آمنا بالانبياء وهم آمنوا بى فلا معنى لتعصبكم لهم وكذلك أكابركم وعلماؤكم آمنوا ثم قال تعالى وما يجحد بآياتنا الا الكافرون تنفيرا لهم عما هم عليه يعنى انكم امنتم بكل شئ وامتنعتم عن المشركين بكل فضيلة الا هذه المسئلة الواحدة و بانكارها تلتحقون بهم وتبطلون مزاياكم فان الجاحد بآية يكون كافرا * ثم قال تعالى (وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) هذه درجة أخرى بعد ما تقدم على الترتيب وذلك لان المجادل اذا ذكر مسئلة مختلفا فيها كقول القائل الزكاة تجب فى مال الصغير فاذا قيل له لم فيقول كما تجب النفقة فى ماله ولا يذكر أولا الجامع بينهما فان فهم الطالب بمجرد التشبيه و يدرك من نفسه الجامع وذاك وان لم يدرك أو لم يقنع بيدى الجامع فيقول كلاهما مال فضل عن الحاجة فيجب فكذلك ههنا ذكر أولا التمثيل بقوله وكذلك أنزلنا اليك ثم ذكر الجامع وهو المعجزة فقال ما علم كون تلك الكتب منزلة الا بالمعجزة وهذا القرآن ممن لم يكتب ولم يقرأ عين المعجزة فيعرف كونه منزلا * وقوله تعالى (اذا لارتاب المبطلون) فيه معنى لطيف وهو ان النبى اذا كان قارئا كاتبا ما كان يوجب كون هذا الكلام للامة فان جميع كتبة الارض وقرائها لا يقدرون عليه لكن على ذلك التقدير يكون للمبطل وجه ارتياب وعلى ما هو عليه لا وجه لارتيابه فهو أدخل فى الابطال وهذا كقوله تعالى وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله أى من مثل محمد عليه السلام وكقوله لا ريب فيه * ثم قال تعالى (بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم) قوله فى صدور الذين أوتوا العلم اشارة الى انه ليس من مخترعات الآدميين لان من يكون هذا الكلام مخترعا يقول هذا من قلبى وخاطرى وذاك حفظه من غيره يقول انه فى قلبى وصدرى فاذا قال فى صدور الذين أوتوا العلم لا يكون من صدر أحد منهم والماهر يستحيل منه ذلك فلا ظهور له الا صدور يلتحقون عند هذا الامر بالمشركين وهم * ورسول الله * ثم قال تعالى (وما يجحد آياتنا الا الظالمون) قال ههنا الصالحون ومن قبل قال الكافرون من هم ان الكافر ظالم ولا تنافى بين الكلامين وفيه فائدة وهى انهم قبل بيان المعجزة قيل لهم ان لكم مزايا فلا تتبطلوها بانكاركم محمدا فتكونوا كفرة فجوره كافر هناك كاف بالغ يمنعهم من ذلك لاستنكافهم عن الكفر ثم بعد بيان المعجزة قال لهم ان جحدتم هذه الآية لزمكم انكار ارسال الرسل فتلتحقون فى أول الامر بالمشركين حاكمنا وتلتحقون عند هذه الآية بالمشركين حسية فتكونوا ظالمين أى مشركين كما بينا ان الشرك ظلم عظيم وهذا اللفظ ههنا أبلغ وذلك لانه هناك أبلغ * ثم قال تعالى

وليعرفنهم الناس أو ليسمنهم بسمة يعرفون بها يوم القيامة كبياض الوجوه وسوادها (أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا) أى يفوتونا فلا نقدر على مجازاتهم بمساوى أعمالهم وهو سادمسد مفعولى حسب لاشتماله على مسند ومسند اليه وأم منقطعة وما فيها من معنى بل للاضراب والانتقال عن التوبيخ بانكار حسبانهم متروكين غير مفتونين الى التوبيخ بانكار ما هو أبطل من الحسبان الاول وهو حسبانهم أن لا يجازوا بسيئاتهم وهم وان لم يحسبوا أنهم يفوتونه تعالى ولم يحدثوا نفوسهم بذلك لكنهم حيث أصروا على المعاصى ولم يتفكروا فى العاقبة نزلوا منزلة من يطمع فى ذلك كما فى قوله تعالى يحسب أن ماله أخلده (ساء ما يحكمون) أى بئس الذى يحكمونه حكمهم ذلك أو بئس حكما يحكمونه حكمهم ذلك (من كان يرجو لقاء الله) أى يتوقع ملاقاة جزائه ثوابا أو عقابا أو ملاقاة حكمه يوم القيامة وقيل

﴿ وقالوا ﴾

يرجو لقاء الله عز وجل في الجنة وقيل يرجو ثوابه وقيل يخاف عقابه وقيل لقاؤه تعالى عبارة عن الوصول الى العاقبة من تلقى ملك الموت والبعث والحساب والجزاء على تمثيل تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل وقد علم مولاه بجميع ما كان يأتي ويذر فاما يلقاه بشر وكرامة لما رضي من أفعاله أو بضده لما سخطه (فان أجل الله) الاجل عبارة عن غاية زمان ممتد عينت لامر من الامور وقد يطلق على كل ذلك الزمان ﴿ ٦٨١ ﴾ والاول هو الاشهر في الاستعمال أي فان الوقت الذي عينه تعالى لذلك

(وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين) لما فرغ من ذكر دليل من جانب النبي عليه السلام ذكر شبههم وهي بذكر الفرق بين المقيس عليه والمقيس فقالوا انك تقول انه أنزل اليك كتاب كما أنزل الى موسى وعيسى وليس كذلك لان موسى أوتي تسع آيات علم بها كون الكتاب من عند الله وأنت ما أوتيت شيئا منها ثم ان الله تعالى أرشد نبيه الى أجوبة هذه الشبهة منها قوله انما الآيات عند الله ووجهه ان النبي صلى الله عليه وسلم ادعى الرسالة وليس من شرط الرسالة الآية المعجزة لان الرسول يرسل أولا ويدعو الى الله ثم ان توقف الخلق في قبوله أو طلبوا منه دليلا فالله ان رحمهم بين رسالته وان لم يرحمهم لا يبين فقال انا الساعة رسول وأما الآية فالله ان أراد ينزلها وان لم يرد لا ينزلها وهذا لان ما هو من ضرورات الشيء اذا خلق الله الشيء لا بد من أن يخلقها كالمكان من ضرورات الانسان فلا يخلق الله انسانا الا ويكون قد خلق مكانا أو يخلقه معه لكن الرسالة والمعجزة ليستا كذلك فالله اذا خلق رسولا وجعله رسولا ليس من ضروراته ان تعلم له معجزة ولهذا علم وجود رسل كشيث وادريس وشعيب ولم تعلم لهم معجزة فان قيل علم رسالتهم تقول من ثبت رسالته بلا معجزة فنبينا كذلك لا حاجة له الى معجزة لان رسالته علمت بقول موسى وعيسى فتبين بطلان قولهم لم لم ينزل عليه آية وهذا انهم طلبوا سبق الآية وليست شرطا حتى نسبقها بلى ان كان لهم سؤال فطريقه ان يقولوا يا أيها المدعي نحن لا نكذبك ولا نصدقك لكنا نريد أن يبين الله لنا آية تخلصنا من تصديق المتنبي وتكذيب النبي ونعلم بها كونك نبيا ونؤمن بك فبعد ذلك ما كان يبعد من رحمة الله ان ينزل آية * ثم قوله وانما أنا نذير مبين معناه ان الآية عند الله ينزلها أو لا ينزلها لا تتعلق بي مأمورا الا نذير وليس لي عليه حكم بشيء ثم انه بعد بيان فساد شبههم من وجه بين فسادها من وجه آخر وقال هب ان انزال الآية شرط لكنه وجد وهو في نفس الكتاب * فقال تعالى (أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) يعني ان كان انزال الآية شرطا فلا يشترط الانزال آية وقد أنزل وهو القرآن فانه معجزة ظاهرة باقية وقوله أولم يكفهم عبارة تنبئ عن كون القرآن آية فوق الكفاية وذلك لان القائل اذا قال اما يكفي للصبي ان لا يضرب حتى يتوقع الاكرام ينبئ عن ان ترك الضرب في حقه كثير فكذلك قوله أولم يكفهم انا أنزلنا عليك الكتاب وهذا لان القرآن معجزة أتم من كل معجزة تقدمها الوجوه (أحدها) ان تلك المعجزات وجد وما دامت فان قلب العصا ثعبانا واحياء الميت لم يبق لنا منه أثر فلو لم يكن واحد يؤمن بكتاب الله ويكذب بوجود هذه الاشياء لا يمكن اثباتها معه بدون الكتاب واما القرآن فهو باق لو أنكره واحد فنقول له فأت بآية من مثله (الثاني) هو ان قلب العصا ثعبانا كان في مكان واحد ولم يره من لم يكن في ذلك المكان واما القرآن فقد وصل الى المشرق والمغرب وسمعه كل واحد وههنا لطيفة وهي ان آيات النبي عليه السلام كانت اشياء لا تختص بمكان دون مكان لان جملتها انشقاق القمر وهو بعد الارض لان

(الآت) لا محالة من غير صارف يلويه ولا عاطف يثنيه لان اجزاء الزمان على التقضي والتصرم دائما فلا بد من اتيان ذلك الجزء أيضا البتة واتيان وقته موجب لاتيان اللقاء حتما والجواب محذوف أي فليجتهد من الاعمال ما يؤدي الى حسن الثواب وليحذر ما يسوقه الى سوء العذاب كما في قوله تعالى فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا وفيه من الوعد والوعيد ما لا يخفى وقيل فليبادر ما يحقق أمله ويصدق رجاءه أو ما يوجب القربة والزلفى (وهو السميع) لاقوال العباد (العليم) بأحوالهم من الاعمال الطاهرة والعقائد (ومن جاهد) في طاعة الله عز وجل (فانما يجاهد لنفسه) لعود منفعتها اليها (ان الله لغني عن العالمين) فلا حاجة له الى طاعتهم وانما أمرهم بها تعريضا لهم للثواب بموجب رحمته (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم) الكفر بالايمان والمعاصي بما يتبعها من الطاعات (ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون) أي أحسن جزاء أعمالهم لاجزاء أحسن أعمالهم ﴿ ٨٦ س ﴾ فقط (ووصينا الانسان بوالديه حسنا) أي بايتاء والديه وايلائهما فعلا ذا حسن أو ما هو في حد ذاته حسن لفرط حسنه كقوله تعالى وقولوا للناس حسنا ووصى يجري مجرى أمر أو معنى وتصريفا غير

أنه يستعمل فيما كان في المأمور به نفع عائد الى المأمور أو غيره وقيل هو بمعنى قال فالمعنى وقلنا احسن بوالديك حسنا وقيل انتصاب حسنا بمضمر على تقدير قول مفسر للتوصية أي وقلنا أو بسنا أو افعل بهما حسنا وهو أوفق لما بعده وعليه يحسن الوقف على بوالديه وقرئ حسنا حسنا (إن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم) أي بالالهية عبر عنها بنفيها لان العلم بها الايذان بأن ما لا يعلم صحته لا يجوز اتباعه وان لم يعلم بطلانه فكيف بما علم بطلانه ✿ ٦٨٢ ✿ (فلا تطعهما) في ذلك لانه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ولا بد من اضمار القول ان لم يضمر فيما قبل وفي تعليق النهي عن طاعتهما بمجاهدتهما في الكافر اشعار بل موجب النهي فيما دونها من الكليف ثابت بطريق الاولوية (الي مرجعكم) أي مرجع من آمن منكم ومن أشرك ومن بر بوالديه ومن عق (فأنبئكم بما كنتم تعملون) بأن أجازي كلا منكم بعمله ان خيرا فخير وان شرا فشر والآية نزلت في سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه عند اسلامه حيث حلفت أمه حمنة بنت ابي سفيان بن أمية أن لا تتقل من الضح الى الظل ولا تطعم ولا تشرب حتى يرتد فلبثت ثلاثة أيام كذلك وكذا التي في سورة لقمان وسورة الاحقاف وقيل نزلت في عياش ابن أبي ربيعة المخزومي وذلك أنه هاجر مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه حتى نزلا المدينة فخرج أبو جهل والحرث أخواه لامه اسماء فمنعا عياشا وقالا له ان من دين محمد صلى الله عليه وسلم صلة الارحام و بر الوالدين وقد تركت أمك لا تطعم ولا تشرب ولا تاوي بيتا حتى تراك فاخرج معناه وقلا منه في الدروع والغدر واستشار عمر رضي الله عنه فقال هم يخدعانك والله على ✿ فيكون ✿ أن أقسم مالي بيني و بينك فخرج اليه حتى أطعمهما وعصى عمر رضي الله عنه فقال له عمر رضي الله عنه أما اذا عصيتني فخذ نافي فليس في الدنيا

الخسوف اذا وقع وذلك ان نبوته كانت عامة لا تختص بقطر دون قطر وغاصت بحيرة ساوه في وقت وسقط ايوان كسرى في قصره فانهدت الكنيسة بالروم في وقت آخر اعلاما بانه يكون أمر عام (الثالث) هو ان غرض هذه المعجزة الكافر العاند قولوا انه سحر عمن بدواء والاظهر أن لا يكون هذا القول فيه ثم انه تعالى قال (الى وذكرى رحمة) اشارة الى انا جعلناه معجزة رحمة على العباد ليعلموا بها صادق وهذا لانا بينا أن اظهار المعجزة على يد الصادق رحمة من الله وكان له أن لا يظهر فيبقى الخلق في ورطة تكذيب الصادق أو تصديق الكاذب لان النبي لا يتميز عن المتنبي لولا المعجزة لكن الله له ذلك يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد وقوله (وذكرى) اشارة الى انه معجزة باقية يتذكر بها كل من يكون ما بقي الزمان ثم قال تعالى (لقوم يؤمنون) يعني هذه الرحمة مخصصة بالمؤمنين لان المعجزة كانت غضبا على الكافرين لانها قطعت أعذارهم وعاملت انكارهم ثم قال تعالى (قل كفى بالله بيني و بينكم شهيدا) لما ظهرت رسالته و بهرت دلالته ولم يؤمن به المعاندون من أهل الكتاب قال لهم يقول الصادق اذا كذب وأتى بكل ما يدل على صدقه ولم يصدق الله يعلم صدقي وتكذيبك أيها المعاند وهو على ما أقول شهيد بحكم بيني و بينكم كل ذلك انذار وتهديد يفيد تقريرا وتأكيدا لما بين كونه كافيا بكونه عالما بجميع الاشياء ✿ وقال (يعلم ما في السموات والارض) وههنا مسئلة وهي ان الله تعالى قال في آخر الرعد و يقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بيني و بينكم ومن عنده علم الكتاب فأخر شهادة أهل الكتاب وفي هذه السورة قدمها حيث قال فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به أي من أهل الكتاب فتقول الكلام هناك مع المشركين فاستدل بإيمانهم شهادة غيرهم ثم ان شهادة الله أقوى في الزامهم من شهادة غير الله وههنا الكلام مع أهل الكتاب وشهادة المرء على نفسه هو اقراره وهو أقوى الحجج عليه فقدم ما هو الزم عليهم ✿ ثم انه تعالى لما بين الطريقين في ارشاد الفريقين المشركين واهل الكتاب عاد الى الكلام الشامل لهذا والانذار العام فقال تعالى (والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله اولئك هم الخاسرون) أي الذين آمنوا بماسوى الله لان ماسوى الله باطل لانه هالك بقوله كل شيء هالك الا وجهه وكل ما هلك فقط بطل فكل هالك باطل وكل ماسوى الله باطل فمن آمن بماسوى الله فقد آمن بالباطل وفيه مسائل (الاولى) قوله أولئك هم الخاسرون يقتضي الحصر أي من أتى الايمان بالباطل والكفر بالله فهو خاسر فمن يأتي بأحدهما دون الآخر ينبغي أن لا يكون خاسرا فنقول يستحيل أن يكون الآتي بأحدهما لا يكون آتيا بالآخر اما الآتي بالايمان بماسوى الله فلانه أشرك بالله فجعل غير الله مثله فجعل الله مثل غيره لكن غيره عاجز جاهل ممكن باطل فيكون الله كذلك فيكون انكارا لله وكفرا به واما من كفر به وأنكره فيكون قائلا بان العالم ليس له موجد فوجود العالم من نفسه فيكون قائلا بأن العالم واجب والواجب اله

بعير يلحقها فان رأيك منهما زيب فارجع فلما انتهوا الى البيداء قال أبو جهل ان ناقتي قد كلت فاحملني معك فنزل ليوطئ لنفسه وله فأخذاه فشداه وثاقا وجلده كل واحد مائة جلدة وذهبا به الى أمه فقالت لا تزال في عذاب حتى ترجع عن دين محمد (والذين امنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين) أي في زمرة الراسخين في الصلاح بالكمال في الصلاح منتهى درجات المؤمنين وغاية مأمول أنبياء الله المرسلين قال الله تعالى ﴿ ٦٨٣ ﴾ حكاية عن سليمان عليه السلام وأدخلني برحمتك

فيكون قائلا بأن غير الله اله فيكون اثباتا لغير الله وايمانا به (المسئلة الثانية) اذا كان الايمان بما سوى الله كفرا به فيكون كل من آمن بالباطل فقد كفر بالله فهل لهذا العطف فائدة غير التأكيد الذي هو في قول القائل قم لا تقعد واقرب مني ولا تبعد نقول نعم فيه فائدة غيرها وهو أنه ذكر الثاني لبيان قبح الاول كقول العاقل أتقول الباطل وتترك الحق لبيان أن القول بالباطل قبيح (المسئلة الثالثة) هل يتناول هذا أهل الكتاب أي هل هم آمنوا بالباطل وكفروا بالله نقول نعم لانهم لما صح عندهم أن معجزة النبي من عند الله وقطعوا بها وعاندوا وقالوا انها من عند غير الله يكون كمن رأى شخصا رمى حجارة فقال ان رامي الحجارة زيد يقطع بأنه قائل بأن هذا الشخص زيد حتى لو سئل عن عين ذلك الشخص وقيل له من هذا الرجل يقول زيد فكذلك هم لما قطعوا بان مظهر المعجزة هو الله وقالوا بان محمدا مظهر هذا يلزمهم أن يقولوا محمد هو الله تعالى فيكون ايمانا بالباطل واذا قالوا بان من أظهر المعجزة ليس بالله مع انهم قطعوا بخصوص مظهر المعجزة يكونوا قائلين بارتفاع ذلك المخصوص الذي هو الله ليس بالله فيكون كفرا به وهذا لا يرد علينا فان من يقول فلان العبد مخلوق لله تعالى أو مخلوق العبد فانه أيضا ينسب فعل الله الى الغير كما أن المعجزة فعل الله وهم نسبوها الى غيره لان هذا القائل جهل النسبة كمن يرى حجارة رميت ولم ير عين رامي فظن أن رامي هذا زيد فيقول زيد هو رامي هذه الحجارة ثم اذا رأى رامي بعينه ويكون غير زيد لا يقطع بان يقول هو زيد واما اذا رأى عينه ورميه للحجارة وقال رامي الحجارة زيد يقطع بانه يقول هذا الرجل زيد فظهر الفرق من حيث انهم كانوا معاندين عالمين بان الله مظهر تلك المعجزة ويقولون بانها من عند غير الله ثم قوله هم الخاسرون كذلك بأتم وجوه الخسران وهذا لان من يخسر رأس المال ولا تركبه ديون يطالب بها دون من يخسر رأس المال وتركبه تلك الديون فهم لما عبدوا غير الله أتوا العمر ولم يحصل لهم في مقابلته شيء أصلا من المنافع واجتمع عليهم ديون ترك الواجبات يطالبون بها حيث لا طاعة لهم بها * ثم قال تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب) لما أنذرهم الله بالخسران وهو أتم وجوه الانذار لان من يخسر لا يحصل له في مقابلة قدر الخسران شيء من المنافع وان كان الخسران ذلك القدر يزيد دونه مثله اذا خسر واحد من العشرة دراهم ينبغي أن يحصل له في مقابلة الدراهم ما يساوي نصف درهم والا لا يكون الخسران درهما بل نصف درهم فان هؤلاء لما خسروا أعمارهم لم يحصل لهم منفعة تخفيف عذاب وان يكون ذلك القدر من العمر له منفعة يكون للخاسر عذاب أليم فقوله وأولئك هم الخاسرون تهديد عظيم فقالوا ان كان علينا عذاب وأتانا اظهارا لتطمعهم بعدم العذاب ثم انه أجاب بان العذاب لا يأتيكم بسوء اختياركم ولا يعجل باستعجالكم لانه أجله لله للحكمة ورحمة فلكونه حكيما لا يكون متغير المذاهب ولكونه رحيما لا يكون غضوبا متعجلا ولولا ذلك الاجل المسمى الذي اقتضته حكمته وارتضته رحمته لما كان له رحمة

في عبادك الصالحين وقال في حق ابراهيم عليه السلام وانه في الآخرة لمن الصالحين أو في مدخل الصالحين وهو الجنة (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذي في الله) أي في شأنه تعالى بأن عذبهم الكفرة على الايمان (جعل فتنة الناس) أي ما يصيبه من أذيتهم (كعذاب الله) في الشدة والهول فيرتد عن الدين مع أنه لا قدر لها عند نفحة من عذابه تعالى أصلا (ولئن جاء نصر من ربك) أي فتح وغنيمة (ليقولن) بضم اللام نظرا الى معنى من كما أن الافراد فيما سبق بالنظر الى لفظها وقرئ بالفتح (انا كنا معكم) أي مشايعين لكم في الدين فاشركونا في المغنم وهم ناس من ضعفة المسلمين كانوا اذا مسهم اذى من الكفار وافتتنوهم كانوا يكتمونه من المسلمين فرد عليهم ذلك بقوله تعالى (أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين) أي بأعلم منهم بما في صدورهم من الاخلاص والنفاق حتى يفعلوا ما يفعلون من الارتداد والاخفاء عن

المسلمين وادعاء كونهم معهم لنيل الغنيمة وهذا هو الاوفق لما سبق ولما لحق من قوله تعالى (وليعلمن الله الذين آمنوا) أي بما في خلاص (وليعلمن المنافقين) سواء كان كفرهم باذية الكفرة أو لا أي ليجزينهم بما لهم من الايمان والنفاق (وقال الذين كفروا للذين آمنوا) بيان لجهلهم للمؤمنين على الكفر بالاستمالة بعد بيان

حملهم لهم عليه بالاذية والوعيد ووصفهم بالكفر هنا دون ماسبق لما أن مساق الكلام لبيان جنايتهم وفيما سبق لبيان جناية من أضلوه واللام للتبليغ أى قالوا لمخاطبين لهم (اتبعوا سبيلنا) أى اسلكوا طريقتنا التى نسلكها فى الدين عبر عن ذلك بالاتباع الذى هو المشى خلف ماش آخر تنزيلا للمسلك منزلة السالك فيه أو اتبعونا فى طريقتنا (وليحمل خطاياكم) أى ان كان ذلك خطيئة يؤاخذ عليها بالبعث كما تقولون وانما أمروا أنفسهم بالحمل عاطفين له ﴿ ٦٨٤ ﴾ على أمرهم بالاتباع للمبالغة فى تعليق الحمل بالاتباع والوعد بتخفيف الاوزار عنهم وان كان ثمة وزر فرد عليهم بقوله تعالى (وماهم بحاملين من خطاياهم من شئ) وقرئ من خطياتهم أى وماهم بحاملين شيئا من خطاياهم التى التزموا أن يحملوا كلها سوى أن من الاولى للتبيين والثانية مزيدة للاستغراق والجملة اعتراض أو حال (انهم لكاذبون) حيث أخبروا فى ضمن وعدهم بالحمل بأنهم قادرون على انجاز ماوعدوا فان الكذب كما يتطرق الى الكلام باعتبار منطوقه يتطرق اليه باعتبار مايلزم مدلوله كما مر فى قوله تعالى أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين (وليحملن أثقالهم) بيان لما يستتبعه قولهم ذلك فى الآخرة من المضرة لانفسهم بعد بيان عدم منفعته لمخاطبيهم أصلا والتعبير عن الخطايا بالاثقال للايذان بغاية ثقلها وكونها قادحة واللام جواب قسم مضمر أى وبالله ليحملن أثقال أنفسهم كاملة (وأثقالا) أخر (مع أثقالهم) لما تسببوا بالاضلال والحمل على الكفر والمعاصى من غير أن ينقص من أثقال من أضلوه شئ ما أصلا (وليسئلن يوم القيامة) ﴿ الذين ﴾ سؤال تقريع وتبكيت (عما كانوا يفترون) أى يختلقونه فى الدنيا من الاكاذيب والاباطيل التى من جملتها كذبهم هذا (ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاما) شروع

وحكمة فيكون غضبه منقلبا فيأثر باستعجالكم ويتغير من سؤالكم فيعجل وليس كذلك فلا يأتيكم بالعذاب وأنتم تسألونه ولا يدفع عنكم العذاب حين تستعيذون به منه كما قال تعالى كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها * ثم قال تعالى (وليأتينهم بغتة) اختلف المفسرون فيه فقال بعضهم ليأتينهم العذاب بغتة لان العذاب أقرب المذكورين ولان سؤالهم كان العذاب فقال انه ليأتينهم وقال بعضهم ليأتينهم بغتة اى الاجل لان الآتى بغتة هو الاجل وأما العذاب بعد الاجل يكون معاينة وقد ذكرنا ان فى كون العذاب أو الاجل آتيا بغتة حكمة وهى انه وكان وقته معلوما لكان كل أحد يتكل على بعده وعلى وقته فيفسق ويفجر معتمدا على التوبة فى الوقت * وقوله تعالى (وهم لا يشعرون) يحتمل وجهين (أحدهما) تأكيد معنى قوله بغتة كما يقول القائل أتيته على غفلة منه بحيث لم يدر فقوله بحيث لم يدر أكد معنى الغفلة (والثانى) هو كلام يفيد فائدة مستقلة وهى ان العذاب يأتيهم بغتة وهم لا يشعرون هذا الامر ويظنون ان العذاب لا يأتيهم أصلا * ثم قال تعالى (يستعجلونك بالعذاب وان جهنم لمحيطة بالكافرين) ذكر هذا للتعجب وهذا لان من توعد بأمر فيه ضرر يسير كلطمة أو لسعة تجرى من نفسه الجلد ويقول بسم الله هات واما من توعد باغراق أو احراق ويقطع بان المتوعد قادر لا يخلف ايعاده يخطر ببال العاقل ان يقول له هات ما وعدتنى به فقال هم يستعجلونك بالعذاب والعذاب نار جهنم المحيطة بهم فقوله ويستعجلونك أولا اشارة الى تعجبهم منهم * ثم ذكر كيفية احاطة جهنم فقال تعالى (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم) وفيه مسئلتان (الاولى) لم خص الجانبين بالذكر ولم يذكر اليمين والشمال وخلف وقدام فنقول لان المقصود ذكر ما تتميز به نار جهنم عن نار الدنيا ونار الدنيا تحيط بالجوانب الاربع فان من دخلها تكون الشعلة خلفه وقدامه ويمينه ويساره وأما النار من فوق فلا تنزل وانما تصعد من أسفل فى العادة العاجلة وتحت الاقدام لا تبقى الشعلة بل تنطفئ الشعلة التى تحت القدم ونار جهنم تنزل من فوق ولا تنطفئ بالدوس موضع القدم (المسئلة الثانية) قال من فوقهم ومن تحت أرجلهم ولم يقل من فوق رؤسهم ولا قال من فوقهم ومن تحتهم بل ذكر المضاف اليه عند ذكر تحت ولم يذكره عند ذكر فوق فنقول لان نزول النار من فوق سواء كان من سمت الرؤس وسواء كان من موضع آخر عجيب فلهذا لم يخصه بالرأس واما بقاء النار تحت القدم فحسب عجيب والاغن جوانب القدم فى الدنيا يكون شعل وهى تحت فذكر العجيب وهو ما تحت الارجل حيث لم ينطف بالدوس وما فوق على الاطلاق * ثم قال تعالى (ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون) لما بين عذاب أرواحهم وهوان يقال لهم على سبيل التنكيل والاهانة ذوقوا عذاب ما كنتم تعملون وجعل ذلك عين ما كانوا يعملون للمبالغة بطريق اطلاق اسم المسبب على السبب فان عملهم كان سببا لجعل الله اياه سببا لعذابهم وهذا كثير النظير فى الاستعمال * ثم قال تعالى (ياعبادى

سنة ولعل ما عليه النظم الكريم للدلالة على كمال العدد فان تسعمائة وخمسين فد يطلق على ما يقرب منه وللمافي ذكر الالف من تخييل طول المدة فان المقصود من القصة تسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم وتثبيته على ما كان عليه من مكابدة ما يناله من الكفرة واظهار ركاكة رأي الذين يحسبون أنهم يتركون بلا ابتلاء والخلاف لمجرد التغاير من نوع بينهما (فأخذهم الطوفان) أي عقب تمام المدة المذكورة والطوفان اطلاق على كل ما يطوف باشئ على كثرة وشدة من السيل والريح والظلام وقد غلب على طوفان الماء (وهم ظالمون) أي والحال أنهم مستمرون على الظلم لم يتأثروا بما سمعوا من نوح عليه السلام من الآيات ولم يرعووا عما هم عليه من الكفر والمعاصي هذه المدة المتمادية (فأنجيناه) أي نوحا عليه السلام (وأصحاب السفينة) أي ومن ركب فيها معه من أولاده وأتباعه وكانوا ثمانين وقيل ثمانية وسبعين وقيل عشرة وقيل ثمانية نصفهم ذكور ونصفهم أناث (وجعلناها) أي السفينة أو الحادثة والقصة (آية للعالمين) يعتبرون بها (وابراهيم) نصب بالعطف على نوحا وقيل باضمار اذكر وقرئ بالرفع على تقدير ومن المرسلين ابراهيم (اذ قال لقومه) على الاول ظرف للارسال أي أرسلناه حين تكامل عقله وقدر على النظر والاستدلال وترقى من رتبة الكمال الى

الذين آمنوا) وجه التعلق هو ان الله تعالى لما ذكر حال المشركين على حدة وحال أهل الكتاب على حدة وجمعهما في الانذار وجعلهما من أهل النار اشتد عنادهم وزاد فسادهم وسعوا في ايذاء المؤمنين ومنعوهم من العبادة فقال مخاطبا للمؤمنين ياعبادي الذين آمنوا (ان ارضي واسعة فاياي فاعبدون) ان تعذرت العبادة عليكم في بعضها فهاجروا ولا تتركوا عبادتي بحال وبهذا علم ان الجلوس في دار الحرب حرام والخروج منها واجب حتى لو حلف بالطلاق انه لا يخرج لزمه الخروج ودع حتى يقع الطلاق ثم في الآية مسائل (احداها) ياعبادي لم يرد الا المخاطبة مع المؤمنين مع أن الكافر داخل في قوله ياعبادي نقول لفظ داخلا في قوله ياعبادي نقول لفظ داخل فيه لوجوه (أحدها) أن من قال في حقه عبادي ليس الشيطان عليهم سلطان بدليل قوله تعالى ان عبادي ليس لك عليهم سلطان والكافر تحت سلطة الشيطان فلا يكون داخلا في قوله يا عبادي (الثاني) هو ان الخطاب بعبادي أشرف منازل المكلف وذلك لان الله تعالى لما علم آدم أباه اسما عظيما وهو اسم الخلافة كما قال تعالى اني جاعل في الارض خليفة والخليفة أعظم الناس مقدارا وأنتم ذوي الباس اقتداركم ان ابليس لم يرهب من هذا الاسم ولم يتهيب بل أقدم عليه بسببه وعاداه وغايه كما قال تعالى فازلهما الشيطان ثم ان من أولاد الصالحين من سمى بعبادي فاختلس عنهم الشيطان وقال كما قال تعالى ان عبادي ليس لك عليهم سلطان وقال هو بلسانه لاغوينهم أجمعين الا عبادك فعلم أن المكلف اذا كان عبد الله يكون أعلى درجة مما اذا كان خليفة وجه الارض ولعل آدم كداود الذي قال الله تعالى في حقه انا جعلناك خليفة في الارض ليخلص من يد الشيطان الا وقت ما قال الله تعالى في حقه عبدي وعندما ناداه بقوله ربنا ظلمنا أنفسنا واجتباه بهذا النداء كما قال في حق داود واذكر عبدنا داود ذا الايد اذا علم هذا فالكافر لا يصلح للخلافة فكيف يصلح لما هو أعظم من الخلافة فلا يدخل في قوله ياعبادي الا المؤمن (الثالث) هو ان هذا الخطاب حصل للمؤمن بسعيه بتوفيق الله وذلك لان الله تعالى قال ادعوني أستجب لكم فالمؤمن دعا ربه بقوله ربنا انا سمعنا منادي ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا فاجابه الله تعالى بقوله ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله فالاضافة بين الله وبين العبد بقول العبد الهي وقول الله عبدي تأكدت بدعاء العبد لكن الكافر لم يدع فلم يجب فلا يتناول ياعبادي غير المؤمنين (المسئلة الثانية) اذا كان عبادي لا يتناول الا المؤمنين فما الفائدة في قوله الذين آمنوا مع ان الوصف انما يذكر لتمييز الموصوف كما يقال يأيها المكلفون المؤمنون ويأيها الرجال العقلاء تمييزا عن الكافرين والجهال فنقول الوصف يذكر لا للتمييز بل لمجرد بيان ان فيه الوصف كما يقال الانبياء المكرمون والملائكة المطهرون مع ان كل نبي مكرم وكل ملك مطهر وانما يقال لبيان ان فيهم الاكرام والطهارة ومثل هذا قولنا الله العظيم وزيد الطويل فههنا ذكر

درجة الكمال حيث تصدى لارشاد الخلق الى طريق الحق وعلى الثانى بدل اشتمال من ابراهيم (اعبدوا الله) اى وحده (واتقوه) أن تشركوا به شيئا (ذلكم) أى ماذكر من العبادة والتقوى (خير لكم) أى مما أنتم عليه ومعنى التفضيل مع انه لاخيرية فيه قطعا باعتبار زعمهم الباطل (ان كنتم تعلمون) أى الخير والشر وتميزون أحدهما من الآخر أو ان كنتم تعلمون شيئا من الاشياء بوجه من الوجوه فان ذلك كاف فى الحكم بخيرية ماذكر من العبادة والتقوى (انما ﴿٦٨٦﴾ تعبدون من دون الله أوثانا) بيان لبطلان دينهم وشريته فى نفسه بعد بيان شريته بالنسبة الى الدين الحق أى انما تعبدون من دونه تعالى أوثانا هى فى نفسها تماثيل مصنوعة لكم ليس فيها وصف غير ذلك (وتخلقون افكا) أى وتكذبون كذبا حيث تسمونها آلهة وتدعون أنها شفعاؤكم عند الله او تعملونها وتنحتونها للافك وقرئ تخلقون بالتشديد للتكثير فى الخلق بمعنى الكذب والافتراء وتخلقون بحذف احدى التاءين من تخلق بمعنى تكذب وتخرص وقرئ افكا على انه مصدر كالكذب واللعب أو نعت بمعنى خلقا ذا افك (ان الذين تعبدون من دون الله) بيان اشرية مايعبدونه من حيث انه لايكاد يجديهم نفعا (لايملكون لكم رزقا) أى لايقدرون على أن يرزقوكم شيئا من الرزق (فابتغوا عند الله الرزق) كله فانه هو الرازق ذو القوة المتين (واعبدوه) وحده (واشكروا له) على نعمائه الموصلين الى مثاباتكم بعبادته مقيدين بالشكر للعبد مستحقين للمزيد (اليه ترجعون) أى بالموت ثم البعث لا الى غيره فافعلوا ما أمركم به قرئ ترجعون من رجع رجوعا (وان تكذبوا) أى تكذبونى فيما أخبركم به من ﴿ان﴾ أن أمركم اليه ترجعون بالبعث (فقد كذب أمم من قبلكم) تعليل للجواب أى فلا تضرونى بتكذيبكم فان من قبلكم من الامم

لبيان انهم مؤمنون (المسئلة الثالثة) اذ قال ياعبادى فهم يكونون عابدين فما الفائدة فى الامر بالعبادة بقوله فاعبدون فنقول فيه فائدتان (احداهما) المداومة أى يامن عبدتونى فى الماضى اعبدونى فى المستقبل (الثانية) الاخلاص أى يامن تعبدنى أخلص العمل لى ولاتعبد غيرى (المسئلة الرابعة) الفاء فى قوله فاياى تدل على انه جواب لشرط فاذلك فنقول قوله ان أرضى واسعة اشارة الى عدم المانع من عبادته فكأنه قال اذ كان لامانع من عبادتى فاعبدونى وأما الفاء فى قوله تعالى فاعبدون فهو لترتيب المقتضى على المقتضى كما يقال هذا عالم فاكرموه فكذلك ههنا لما أعلم نفسه بقوله فاياى وهو لنفسه يستحق العبادة قال فاعبدون (المسئلة الخامسة) قال العبد مثل هذا فى قوله اياك نعبد وقال عقيبه واياك نستعين والله تعالى وافقه فى قوله فاياى فاعبدون ولم يذكر الاعانة نقول بل هى مذكورة فى قوله ياعبادى لان المذكور لما كان الشيطان مسدود السبيل عليه مسدود القبول عنه كان فى غاية الاعانة (المسئلة السادسة) قدم الله الاعانة وأخر العبد الاستعانة قلنا لان العبد فعله لغرض وكل فعل لغرض فان الغرض سابق على الفعل فى الادراك وذلك لان من بنى بيتا للسكنى يدخل فى ذهنه أولا فائدة السكنى فيحمله على البناء لكن الغرض فى الوجود لايكون الا بعد فعل الواسطة فنقول الاستعانة من العبد لغرض العبادة فهى سابقة فى ادراكه واما الله تعالى فليس فعله لغرض فراعى ترتيب الوجود فان الاعانة قبل العبادة ﴿ثم قال تعالى (كل نفس ذائقة الموت ثم الينا ترجعون) لما أمر الله تعالى المؤمنين بالمهاجرة صعب عليهم ترك الاوطان ومفارقة الاخوان فقال لهم ان ماتكرهون لابد من وقوعه فان كل نفس ذائقة الموت والموت مفرق الاحباب فالاولى أن يكون ذلك فى سبيل الله فيجازيكم عليه فان الى الله مرجعكم وفيه وجه أرق وأدق وهو ان الله تعالى قال كل نفس اذا كانت غير متعلقة بغيرها فهى للموت ثم الى الله ترجع فلا تموت كما قال تعالى لايذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى فاذا ثبت هذا فمن يريد ان لايذوق الموت لايبقى معه فان نفس ذائقه بل يتعلق بغيره وذلك الغير ان كان غير الله فهو ذائق الموت ومعرود الهالك بقوله كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام وان كان الله يرجع من الموت فيقال تعالى فاعبدون أى تعلقوا بى ولا تتعلقوا بالنفس فانها ذائقة الموت ثم الينا ترجعون أى ان تعلقتم بى فهو يكم رجوع الى ولا يبقى بموت كما قال تعالى ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء وقال عليه السلام المؤمنون لايموتون بل ينقلون من دار الى دار ومعنى هذا الوجه أيضا يتبين وجه التعلق ﴿ثم قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها نعم أجر العاملين) يريد ما يكون للمؤمنين وقت الرجوع اليه كما بين من قبل ما يكون للكافرين بقوله وان جهنم لمحيطة بالكافرين وبين أن للمؤمنين الجنان فى مقابلة ما ان للكافرين النيران وبين أن فيها غرفا تجرى من تحتها الانهار فى مقابلة مابين

قد كذبوا من قبلهم من الرسل وهم ثمود وعاد وفرعون ونوح عليهم السلام فلم يضرهم تكذيبهم شيأ وانما ضر أنفسهم حيث تسبب لما حل بهم من العذاب فكذا تكذيبهم (وما على الرسول الا البلاغ المبين) أى التبليغ الذى يبقى معه شك وما عليه أن يصدقه قومه البتة وقد خرجت عن عهدته بتبليغ ما أمرت به فلا يضرنى تكذيبكم بعد ذلك أصلا (ألم يروا كيف يبدئ الله الخلق) الام مسألف مسوق من جهته ﷻ ٦٨٧ ﷺ تعالى الانكار على تكذيبهم بالبعث مع وضوح دليله وسنوح سبيله

ان تحت الكافرين النار وبين أرذلك أجر عاملهم بقوله تعالى نعم أجر العاملين فى مقابلة ما بين أن ماتقدم جزاء عمل الكفار بقوله ذوقوا ما كنتم تعملون ثم فى الآيتين اختلافات فيها لطائف منها انه تعالى ذكر فى العذاب أنذوقوهم عذابا أى نارا ولم يذكر ههنا فوقهم شيئا وانما ذكر ما فوق من غير اضافة وهو الغرف وذلك لان المذكور فى الموضعين العقاب والثواب الجسمانيان لكن الكافر فى الدرك الاسفل من النار فيكون فوقه طبقات من النار فاما المؤمنون فيكونون فى أعلى عليين فلم يذكر فوقهم شيأ اشارة الى علو مرتبتهم وارتفاع منزلتهم وأما قوله تعالى لهم غرف من فوقها غرف لا ينافى لان الغرف فوق الغرف لافوقهم والنار فوق النار وهى فوقهم ومنها ان هناك ذكر من تحت أرجلهم النار وههنا ذكر من تحت غرفهم الماء وذلك لان النار لاتؤلم أذا كانت تحت مطلقا مالم تكن فى مسامتة الاقدام ومتصلة بها اما اذا كان الشعلة مائلة عن سمت القدم وان كانت تحتها أو تكون مسامتة ولكن تكون غير ملاصقة بل تكون أسفل فى وهدة لاتؤلم والماء اذا كان تحت الغرفة فى أى وجه كان وعلى أى بعد كان يكون ملتذا به فقال فى النار من تحت أرجلهم ليحصل الالم بها وقال ههنا من تحت الغرف لحصول اللذة به كيف كان ومنها ان هناك قال ذوقوا لايلام قلوبهم بلفظ الامر وقال ههنا نعم أجر العاملين لتفريح قلوبهم لا بصيغة الامر وذلك لان لفظ الامر يدل على انقطاع التعلق بعده فان من قال لاجيره خذ أجرتك يفهم منه ان بذلك ينقطع تعلقه عنه وأما اذا قال ما أنا أجرتك عندى أو نعم مالك من الاجر يفهم منه ان ذلك عنده ولم يقل ههنا خذوا أجركم أيها العاملون وقال هناك ذوقوا ما كنتم تعملون فان قال قائل ذوقوا اذا كان يفهم منه الانقطاع فعذاب الكافر ينقطع قلنا ليس كذلك لان الله اذا قال ذوقوا دل على انه أعطاهم جزاءهم وانقطع ما بينه وبينهم لكن يبقى عليهم ذلك دائما ولا ينقص ولا يزداد وأما المؤمن اذا أعطاه شيأ ولا يتركه مع ما أعطاه بل يزيد له كل يوم فى النعم واليه الاشارة بقوله للذين أحسنوا الحسنى وزيادة أى الذى يصل الى الكافر يدوم من غير زيادة والذى يصل الى المؤمن يزداد على الدوام وأما الخلود وان لم يذكره فى حق الكافر لكن ذلك معلوم بغيره من النصوص ﷺ ثم قال تعالى (الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) ذكر امرين الصبر والتوكل لان الزمان ماض وحاضر ومستقبل لكن الماضى لاتدارك له ولا يؤمر العبد فيه بشئ بقى الحاضر واللائق به الصبر والمستقبل واللائق به التوكل فيصبر على ما يصيبه من الاذى فى الحال ويتوكل فيما يحتاج اليه فى الاستقبال واعلم أن الصبر والتوكل صفتان لا يحصلان الا مع العلم بالله واعلم بما سوى الله فمن علم ما سواه علم انه زائل فيهون عليه الصبر اذ الصبر على الزائل هين واذا علم الله علم انه باق يأتيه بارزاق فلا يفاته شئ فانه يتوكل على حى باق وذكر الصبر والتوكل ههنا مناسب فان قوله ياعبادى كان لبيان انه لامانع من العبادة ومن يؤذى فى بقعة فليخرج منها فحصل التأس على

والهمزة لانكار عدم رؤيتهم المرجب لتقريرها والواو للعطف على مقدر أى ألم ينظروا ولم يعلموا علما جاريا مجرى الرؤية فى الجلاء والظهور كيفية خلق الله تعالى الخلق ابتداء من مادة ومن غير مادة أى قد علموا ذلك وقرئ بصيغة الخطاب لتشديد الانكار وتأكيده وقرئ يبدا وقوله تعالى (ثم يعيده) عطف على أولم يروا لاعلى يبدئ لعدم وقوع الرؤية عليه فهو اخبار بأنه تعالى يعيد الخلق قياسا على الابتداء وقد جوز العطف على يبدأ بتأويل الاعادة بانشائه تعالى كل سنة مثل ما أنشأه فى السنة السابقة من النبات والثمار وغيرهما فان ذلك مما يستدل به على صحة البعث ووقوعه من غير ريب (ان ذلك) أى ما ذكر من الاعادة (على الله يسير) اذ لا يفتقر فعله الى شئ أصلا (قل سيروا فى الارض) أمر لابراهيم عليه السلام أن يقول لهم ذلك أى سيروا

بها (فانظروا كيف بدأ الخلق) أى كيف خلقهم ابتداء على أطوار مختلفة وطبائع متغايرة باخلاق شتى فان ترتيب النظر على السير فى الارض مؤذن بتتبع أحوال أصناف الخلق الناطقين فى أقطارها (ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) هى النشأة الاولى

التى شاهدتموها والتعبير عن الاعادة التى هى محل النزاع بالنشاة الآخرة المشعرة بكون البدء نشأة أولى للتنبيه على أنهما شأن واحد من شؤن الله تعالى حقيقة واسما من حيث ان كلا منهما اختراع واخراج من العدم الى الوجود ولافرق بينهما الا بالاولية والاخرية وقرئ النشاءة بالمد وهما لغتان كالرأفة والرآفة ومحلها النصب على انها مصدر مؤكد لينشئ بحذف الزوائد والاصل الانشاءة أو بحذف العامل ﴿٦٨٨﴾ أى ينشئ فينشئون النشاة الآخرة كما فى قوله تعالى وأنبتها نباتا حسنا والجملة معطوفة على جملة سيروا فى الارض داخلة معها فى حيز القول واظهار الاسم الجليل وايقاعه مبتدأ مع اضماره فى بدأ الابراز مزيد الاعتناء ببيان تحقق الاعادة بالاشارة الى علة الحكم وتكرير الاسند وقوله تعالى (ان الله على كل شئ قدير) تعليل لما قبله بطريق التحقيق فان من علم قدرته تعالى على جميع الاشياء التى من جملتها الاعادة لايتصور أن يتردد فى قدرته عليها ولا فى وقوعها بعد ما أخبر به (يعذب) أى بعد النشأة الآخرة (من يشاء) ان يعذبه وهم المنكرون لها حتما (ويرحم من يشاء) أن يرحمه وهم المصدقون بها والجملة تكملة لما قبلها وتقديم التعذيب لما ان الترهيب أنسب بالمقام من الترغيب (واليه تقلبون) عند ذلك لا الى غيره فيفعل بكم مايشاء من التعذيب والرحمة (وما انتم بمعجزين) له تعالى عن اجراء حكمه وقضائه عليكم (فى الارض ولا فى السماء) أى بالتوارى فى الارض أو الهبوط فى مهاويها ولا بالتحصن بالحاجة فى السماء التى هى أفسح منها لو استطعتم الرقى فيها كما فى قوله تعالى ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات

قسيم قادر على الخروج وهو متوكل على ربه يترك الاوطان ويفارق الاخوان وعاجز وهو صابر على تحمل الاذى ومواظب على عبادة الله تعالى ﴿ ثم قال تعالى (وكأين من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها واياكم وهو السميع العليم) اذكر الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ذكر مايعين على التوكل وهو بيان حال الدواب التى لاتدخر شيئا لغد ﴿ وبأنها كل يوم يرزق رغد ﴿ وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى كأين لغات أربع غير هذه كاين على وزن راع وكأين على وزن ريع وكى على رع ولم يقرأ الا كاين وكأى قراءة ابن كثير (المسئلة الثانية) كأين كلمة مركبة من كاف التشبيه وأى التى تستعمل استعمال مر ومار كبتا وجعل المركب بمعنى كم ولم تكتب الالف والنون ليفصل بين المركب وغير المركب لان كأى يستعمل غير مركب كما يقول القائل رأيت رجلا لا كأى رجل يكون فقد حذف المضاف اليه ويقال رأيت رجلا لا كأى رجل وحينئذ لايكون كأى مركبا فاذا كان كأى ههنا مركبا كتبت بالنون للتمييز بينها وبين غير المركب وبعلمك موصولا للفرق وكما كتبت ثمة ما بعد ما بعد ما بينها وبين (المسئلة الثالثة) كاين بمعنى كم تستعمل مع من الاستفهامية كم تستعمل كثيرا من غير من يقال كم رجلا وكم من رجل وذلك لما بينا من الفرق بين كاين بمعنى كم وكأى التى ليست مركبة ذلك لان كأى اذا لم تكن مركبة لايجوز ادخال من بعدها الا فى قولك رأيت رجلا لا كأى من رجل والمركبة بمعنى كم يجوز ذلك فيها لانتفاء الفرق ﴿ قوله تعالى (لاتحمل رزقها) قيل لاتحمل اضغفها وقيل هى كالنمل والبعوض لا تدخر قوتا ولا غيرها وقيل لاتدخر (الله يرزقها وياكم) بضم ياء العباس أى ينشئ لها ولكم رزقها لانها لو كانت ترزق نفسها لماتت جوعا فتوكلوا أيها الناس على الله يرزقكم كما يرزق الدواب بل النبات فى الصحراء مثلها والحيوان يسعى اليه ويرعى فتقول الدابة عليه من ثلاثة أوجه نظر الى الرزق والى المرتزق والى مجموع الرزق والمرتزق أما بالنظر الى الرزق فلان الله تعالى لو لم يخلق النبات لم يكن للحيوان رزق وأما بالنظر الى المرتزق فلان الاعضاء ليس بمجرد الابتلاع بل لابد من تشبثه بالاعضاء حتى يصير الحشيش عظما ولحما وشحما وذلك لايحكمة الله تعالى حيث خلق فيه جاذبة وماسكة وهاضمة ودافعة وغيرها من القوى وبمحض قدرة الله وارادته فهو الذى يرزقها وأما بالنظر الى المرتزق والرزق فلان الله لو لم يهد الحيوان الى الغذاء ليعرفه من الشم ماكان يحصل له اغتذاء الا ترى أن من الحيوان مالايعرف نوعا من أنواع الغذاء حتى يوضع فى فمه بالشدة ليذوق فيأكله بعد ذلك فان كثيرا مايكون البعير لايعرف الخمير ولا الشعير حتى يلقم مرتين أو ثلاثة فيعرفه فياكله بعد ذلك فان قال قائل كيف يصح قياس الانسان على الحيوان فيما يوجب التوكل والحيوان رزقه لايتعرض اليه اذا اكل منه اليوم شيأ وترك بقية يجدها غدا مادام اليه أحد يدا والانسان ان لم يأخذ اليوم لايبقى له غدا شئ وأيضا حاجات الانسان كثيرة فانه يحتاج الى أجناس اللباس وأنواع الاطعمة ولا كذلك الحيوان وأيضا قوت الحيوان مهيا وقوت الانسان يحتاج الى كلف كالزرع والحصاد والطحن والخبز فلو لم يجمعه قبل

الارض فانفذوا أو القلاع الذاهبة فيها وقيل فى السماء صفة لمحذوف معطوف على أنتم أى ولا من فى السماء (ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير) يحرسكم مما يصيبكم من بلاء يظهر من الارض أو ينزل من السماء ويدفعه عنكم (والذين كفروا بآيات الله) أى بدلائله التكوينية والتنزيلية الدالة على عظم ذاته وصفاته وأفعاله فيدخل فيها البتة الاولى الدالة على تحقق البعث دخولا أوليا وتخصيصها ﴿ ٦٨٩ ﴾ بدلائل وحدانيته تعالى لابناسب المقام (ولقائه) الذى تنطق به تلك

الآيات (أولئك) الموصوفون بما ذكر من الكفر بآياته تعالى ولقائه (يئسوا من رحمتى) أى ييأسون منها يوم القيامة وصيغة الماضى للدلالة على تحققه أو ئسوا منها فى الدنيا لانكارهم البعث والجزاء (وأولئك لهم عذاب أليم) وفى تكرير اسم الاشارة وتكرير الاسناد وتنكير العذاب ووصفه بالاليم من الدلالة على كمال فظاعة حالهم مالا يخفى أى أولئك الموصوفون بالكفر بآيات الله تعالى ولقائه وباليأس من رحمته الممتازون بذلك عن سائر الكفرة لهم بسبب تلك الاوصاف القبيحة عذاب لا يقادر قدره فى الشدة والايلام (فما كان جواب قومه) بالنصب على أنه خبر كان واسمها قوله تعالى (إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه) وقرئ بالرفع على العكس وقدم ما فيه فى نظائره وليس المراد أنه لم يصدر عنهم بصدد الجواب عن حجج ابراهيم عليه السلام الا هذه المقالة الشنيعة كما هو المتبادر من ظاهر النظم الكريم بل ان ذلك هو الذى استقر عليه جوابهم بعد التيا

الحاجة ما كان يجده وقت الحاجة فنقول نحن لا نقول ان الجمع يقدح فى التوكل بل قد يكون الزراع الحاصد متوكلا والراكم الساجد غير متوكل لان من يزرع يكون اعتماده على الله واعتقاده فى الله انه ان كان يريد يرزق من غير زرع وان كان يريد لا يرزق من ذلك الزرع فيعمل وقلبه مع الله هو متوكل حق التوكل ومن يصلى وقلبه مع ما فى يديه وعمرو هو غير متوكل وأما قوله حاجات الانسان كثيرة فنقول مكاسبه كثيرة أيضا فانه يكتسب بيده كالخياط والنساج وبرجله كالساعى وغيره وبعينه كالناظر وبلسانه كالحادى والمنادى وبفهمه كالمهندس والتاجر وبعلمه كالطبيب والفقيه وبقوة جسمه كالعتال والحمال والحيوان لا مكاسب له فالرغيف الذى يحتاج اليه الانسان غدا أو بعد غد بعيد أن لا يرزقه الله مع هذه المكاسب فهو أولى بالتوكل وأيضا الله تعالى خلق الانسان بحيث يأتيه الرزق وأسبابه فان الله ملك الانسان عمائر الدنيا وجعلها بحيث تدخل فى ملكه شاء أم أبى حتى ان نتاج الانعام وثمار الاشجار تدخل فى الملك وان لم يرده مالك النعم والشجر واذا مات فرس ينتقل ذلك الى فرس آخر فهرا شاؤا أم أبوا وليس كذلك حال الحيوان اصلا فان الحيوان ان لم يأت الرزق لا يأتيه رزقه فاذن الانسان لو توكل كان أقرب الى العقل من توكل الحيوان ثم قال وهو السميع العليم سميع اذ طلبتم الرزق يسمع ويحصى عليم ان سكتم لا يخفى عليه حاجتكم ومقدار حاجتكم ثم قال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فانى يؤفكون) نقول لما بين الله الامر للمشرك مخاطبا معه ولم ينتفع به وأعرض عنه وخاطب المؤمن بقوله ياعبادى الذين آمنوا وأتم الكلام معه ذكر معه ما يكون ارشادا للمشرك بحيث يسمعه وهذا طريق فى غاية الحسن فان السيد اذا كان له عبدان أو ولد اذا كان له ولدان وأحدهما رشيد والآخر مفسد ينصح أو لا المفسد فان لم يسمع يقول معرضا عنه ملتفتا الى الرشيد ان هذا لا يستحى الخطاب فاسمع أنت ولا تكن مثل هذا المفسد فيتضمن هذا الكلام نصيحة المصلح وزجر المفسد على قوله هذا لا يستحى الخطاب يوجب نكاية فى قلبه ثم اذا ذكر مع المصلح فى أثناء الكلام والمفسد يسمعه ازداد اشتعال العجب منه انه يسمع قوله ولا يعرف الفساد من الصلاح وبين الرشد والفلاح وبتأمل يضمحل ويكون هذا الكلام أيضا دعاء له الى سبيل الرشاد ما فعله من ذلك الفساد وكذلك الله تعالى فانه مع المؤمن العجب منهم انهم ان سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله ثم لا يؤمنون وفى الآية لطائف (احداها) ذكر فى السموات والارض الخلق وفى الشمس والقمر التسخير وذلك لان مجرد خلق الشمس والقمر ليس بحكمة فان الشمس لو كانت مخلوقة بحيث تكون فى موضع واحد لا تتحرك ما حصل الليل والنهار ولا الصيف والشتاء فاذا الحكمة فى تحريكهما وتسخيرهما (الثانية) فى لفظ التسخير وذلك لان التحريك يدل على محرك الحركة وليس محرك الحركة كالحركة

فى نشرة الاخيرة واه فقد صدر ﴿ ٨٧ س ﴾ عنهم من الخرقات والاباطيل ما لا يحصى انتهى قلت الله من النار الفناء صيحة أى فألقوه فى النار فأنجاه الله تعالى منها بأن جعلها عليه الصلاة والسلام بردا وسلاما حسبما بين فى موضع آخر من هذه السورة الانبياء بيان كيفية

الغائه عليه الصلاة والسلام فيها والتجائه تعالى اياه تفصيلا قيل لم ينتفع يومئذ بالنار في موضع أصلا (ان في ذلك) أي في الجائه منها (لآيات) بينة عجيبة هي حفظه تعالى اياه من حرها واخمادها في زمان يسير وانشاء روض في مكانها (لقوم يؤمنون) وأما من عداهم فهم عن احلائها غافلون ومن الفوز بمغانم آثارها محرومون (وقال) اي أبراهيم عليه السلام مخاطبا لهم (انما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم في الحياة الدنيا) أي تتوادون [illegible] وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها وائتلافكم وثاني

معمولي اتخذتم محذوف أي أوثانا آلهة ويجوز أن يكون مودة هو المفعول بتقدير المضاف او يأول بنفسها للمودودة أو يجعلها نفس المودة مبالغة أي اتخذتم اوثانا سبب المودة بينكم او مودودة ونفس المودة وقرئ مودة منونة منصوبة تابعة الظرف وقرئت بالرفع والاضافة على أنها خبر مبتدا محذوف أي هي مودة او نفس المودة او سبب مودة بينكم والجملة صفة أوثانا أو خبران على أن ما مصدرية أو موصولة قد حذف عائدها وهو المفعول الاول وقرئت مرفوعة منونة ومضافة بفتح بينكم كما قرئ لقد تقطع منكم على أحد الوجهين وقرئ انما مودة بينكم والمعنى أن اتخاذكم اياها مودة بينكم ليس الا في الحياة وقد أجر يتم أحكامه حيث فعلتم بي ما فعلتم لاجل مودتكم لها انتصارا مني كما ينبئ عنه قوله تعالى وانصروا آلهتكم (ثم يوم القيامة) تنقلب الامور و يتبدل التوادد تباغضا والتلاطف تلاعنا حيث (يكفر بعضكم) وهم العبدة (ببعض وهم الاوثان (و يلعن بعضكم بعضا) أي يلعن كل فريق منكم ومن الاوثان حيث ينطقها الله تعالى الفريق الآخر (ومأواكم النار) أي هي منزلكم الذي تأوون اليه ولا ترحمون * ولا * منه أبدا (ومالكم من ناصرين) يخلصونكم منها كما خلصني ربي من النار التي

لانها لو كانت تتحرك مثل حركتنا لما كانت تقطع الفلك بألوف من السنين فالحكمة في تسخيرهما تحركهما في قدر ما يتنفس الانسان آلافا من الفراسخ ثم لم يجعل لهما حركة واحدة بل حركات احداها حركتهما من المشرق الى المغرب في كل يوم وليلة مرة والاخرى حركتهما من المغرب الى المشرق والدليل عليها ان الهلال يرى في جانب المغرب على بعد مخصوص من الشمس ثم يبعد منه الى جانب الشرق حتى يرى القمر في نصف الشهر في مقابلة الشمس والشمس على افق المغرب والقمر على أفق المشرق وحركة اخرى حركة الاوج وحركة المائل والتدوير في القمر ولولا الحركة التي من المغرب الى المشرق لما حصلت الفصول ثم اعلم ان أصحاب الهيئة قالوا الشمس في الفلك مركوزة والفلك يديرها بدورانه وأنكره المفسرون الظاهريون ونحن نقول لا بعد في ذلك ان لم يقولوا بالطبيعة فان الله تعالى فاعل مختار ان أراد أن يحركهما في الفلك والفلك ساكن يجوز وان اراد أن يحركهما بحركة الفلك وهما ساكنان يجوز ولم يرد فيه نص قاطع أو ظاهر وسنذكر تمام البحث في قوله تعالى وكل في فلك يسبحون (الثالثة) ذكر أمرين أحدهما خلق السموات والارض والآخر تسخير الشمس والقمر لان الايجاد قد يكون للذوات وقد يكون للصفات فخلق السموات والارض اشارة الى ايجاد الذوات وتسخير الشمس والقمر اشارة الى ايجاد الصفات وهي الحركة وغيرها وكأنه ذكر من القبيلين مثالين ثم قال تعالى وأنى يؤفكون يعني هم يعتقدون هذا فكيف يصرفون عن عبادة الله مع أن من علمت عظمته وجبت خدمته ولا عظمة فوق عظمة خالق السموات والارض ولا حقارة فوق حقارة الجماد لان الجماد دون الحيوان والحيوان دون الانسان والانسان دون سكان السموات فكيف يتركون عبادة أعظم الموجودات و يشتغلون بعبادات أخس الموجودات * ثم قال تعالى (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده) لما بين الخلق ذكر الرزق لان كمال الخالق ببقائه و بقاء الانسان بالرزق فقال المعبود اما ان يعبد لاستحقاقه العبادة وهذه الاصنام ليست كذلك والله مستحقها واما لكونه على الشأن والله الذي خلق السموات على الشأن جلي البرهان فله العبادة واما لكونه ولي الاحسان والله يرزق الخلق فله الطول والاحسان والفضل والامتنان فله العبادة من هذا الوجه أيضا وقوله لمن يشاء اشارة الى كمال الاحسان وذلك لان الملك اذا أمر الخازن باعطاء شخص شيئا فاذا أعطاه يكون له منة ما يسيرة حقيرة لان الآخذ يقول هذا ليس بارادته وانما هو بأمر الملك واما ان كان مختارا بأن يقال له الملك ان شئت فأعطه وان شئت فلا تعطه فان اعطاه يكون له منة جليلة لا قليلة فقال الله تعالى الرزق منه و بمشيئته فهو احسان تام يستوجب شكرا تاما * وقوله تعالى (و يقدر له) أي يضيق له ان أراد * ثم قال تعالى (ان الله بكل شئ عليم) أي يعلم مقادير الحاجات ومقادير الارزاق وفي اثبات العلم ههنا لطائف (احدها) أن الرزاق الذي هو كامل المشيئة اذا رأى عبده محتاجا وعلم جوعه لا يؤخر عنه الرزق

العيتوني فيها وجمع الناصر لوقوعه في مقابلة الجمع اي مالاحد منكم من ناصر اصلا (فآمن له لوط) اي صدقه في جميع مقالاته لانه نبوته ومادعا اليه من التوحيد فقط فانه كان بمنزلها عن الكفر وماقيل انه آمن له حين رأى النار لم تحرقه ينبغي أن يحمل على ماذكرنا او على أن يراد بالايمان الرتبة العالية منها وهي التي لا يرتقي اليها الا هم الافراد الكمل ولوط هو ابن اخيه عليهما السلام (وقال اني مهاجر) أي من قومي ۞ ٦٩١ ۞ (الى ربي) الى حيث أمرني ربي (انه هو العزيز) الغالب على أمره فيمنعني من اعدائي (الحكيم) الذي لا يفعل فعلا الا وفيه حكمة ومصلحة فلا يأمرني الا بما فيه صلاحي روي أنه هاجر من كوثى سواد الكوفة مع لوط وسارة ابنة عمه الى حران ثم منها الى الشام فنزل فلسطين ونزل لوط سدوم (ووهبنا له اسحق ويعقوب) ولدا ونافلة حين ايس من عجوز عاقر (وجعلنا في ذريته النبوة) فكثر منهم الانبياء (والكتاب) أي جنس الكتاب المتناول للكتب الاربعة (آتيناه أجره) بمقابلة هجرته اليها (في الدنيا) باعطاء الولد والذرية الطيبة واستمرار النبوة فيهم وانتماء أهل الملل اليه والثناء والصلاة عليه الى آخر الدهر (وانه في الآخرة لمن الصالحين) أي الكاملين في الصلاح (ولوطا) منصوب اما بالعطف على نوحا او على ابراهيم والكلام في قوله تعالى (اذ قال لقومه) كالذي مر في قصة ابراهيم عليه السلام (انكم لتأتون الفاحشة) أي الفعلة المتناهية في القبح وقرئ أئنكم (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) استئناف مقرر لكمال قبحها فان اجماع جميع أفراد العالمين على التحاشي عنها ليس الا لكونها مما تشمئز منه الطباع وتنفر منه النفوس (أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل) وتتعرضون للسابلة أي بالفاحشة حيث روي أنهم كانوا كثيرا ما يفعلونها بالغرباء وقيل تقطعون سبيل النساء بالاعراض عن

ولا يؤخر الرازق الرزق الا لنقصان في نفوذ مشيئته كالملك اذا أراد الاطعام والطعام لا يكون بعد فاستوى أو لعدم علمه بجوع العبيد (الثانية) وهي أن الله باثبات العلم استوعب ذكر الصفات التي هي صفات الاله ومن أنكرها كفر وهي أربعة الحياة والقدرة والارادة والعلم واما السمع والبصر والكلام القائم به من ينكرها يكون مبتدعا لا كافرا وقد استوفى الاربع لان قوله خلق السموات والارض اشارة الى كمال القدرة وقوله يبسط الرزق لمن يشاء اشارة الى نفوذ مشيئته وارادته وقوله ان الله بكل شيء عليم اشارة الى شمول علمه والقادر المريد العالم لا يتصور الا حيا ثم انه تعالى لما قال الله يبسط الرزق ذكر اعترافهم بذلك ۞ فقال (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الارض من بعد موتها ليقولن الله) يعني هذا سبب الرزق وموجد السبب موجد المسبب فالرزق من الله ۞ ثم قال تعالى (قل الحمد لله) وهو يحتمل وجوها (أحدها) أن يكون كلاما معترضا في اثناء كلام كأنه قال فأحيا به الارض من بعد موتها (بل أكثرهم لا يعقلون) فذكر في اثناء هذا الكلام الحمد لذكر النعمة كما قال القائل

ان الثمانين وبلغتها * قد أحوجت سمعي الى ترجمان

(الثاني) أن يكون المراد منه كلاما متصلا وهو انهم يعرفون بأن ذلك من الله ويعترفون ولا يعملون بما يعلمون وأنت تعلم وتعمل فكذلك المؤمنون فقل الحمد لله وأكثرهم لا يعقلون أن الحمد كله لله فيحمدون غير الله على نعمة هي من الله (الثالث) أن يكون المراد انهم يقولون انه من الله ويقولون بالهية غير الله فيظهر تناقض كلامهم وتهافت مذهبهم فقل الحمد لله على ظهور تناقضهم وأكثرهم لا يعقلون هذا التناقض او فساد هذا التناقض ۞ ثم قال تعالى (وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون) لما بين انهم يعترفون بكون الله هو الخالق وكونه هو الرزاق وهم يتركون عبادته ولا يتركونها الا لزينة الحياة الدنيا بين أن ما يميلون اليه ليس بشيء بقوله وما هذه الحياة الدنيا الا لهو وفي الآية مسائل (الاولى) ما الفرق بين اللهو واللعب حتى يصح عطف أحدهما على الآخر فنقول الفرق من وجهين (أحدهما) ان كل شغل يفرض فان المكلف اذا اقبل عليه لزمه الاعراض عن غيره ومن لا يشغله شأن من شأن هو الله تعالى فالذي يقبل على الباطل للذة يسيرة زائلة فيه يلزمه الاعراض عن الحق فالاقبال على الباطل لعب والاعراض عن الحق لهو فالدنيا لعب أي اقبال على الباطل ولهو اي اعراض عن الحق (الثاني) هو ان المشتغل بشيء يرجح ذلك الشيء على غيره لا محالة حتى يشتغل به فاما ان يكون ذلك الترجيح على وجه التقديم بأن يقول أقدم هذا وذلك الآخر آتي به بعده أو يكون على وجه الاستغراق فيه والاعراض عن غيره بالكلية فالاول لعب والثاني لهو والدليل عليه هو ان الشطرنج والحمام وغيرهما مما يقرب منهما لا تسمى آلات الملاهي في العرف والعود وغيره من الاوتار تسمى آلات الملاهي لانها

الحرث واتيان مالس محرث وقيل تقطعون السبيل بالقتل وأخذ المال (وتأتون فى ناديكم) أى تفعلون فى مجلسكم الجامع لاصحابكم (المنكر) كالجماع والضراط وحل الازار وغيرها مما لاخير فيه من الافاعيل المنكرة وعن ابن عباس رضى الله عنهما هو الخذف بالحصى والرمى بالبندق والفرقعة ومضغ العلك والسواك بين الناس وحل الازار وانسلاب والفحش فى المزاح وقيل السخرية بمن مر بهم وقيل المجاهرة فى نادى بسبهم بذلك العمل (فما كان ﴿ ٦٩٢ ﴾ جواب قومه الا) قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين) أى فما كان جوابا من جهتهم شئ من الاشياء الا هذه الكلمة الشنيعة أى لم يصدر عنهم فى هذه المرة من مرات مواعظ لوط عليه السلام وقد كان أوعدهم فيها بالعذاب وأما ما فى سورة الاعراف من قوله تعالى وما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم الآية وما فى سورة النمل من قوله تعالى فما كان جواب قومه الا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم الآية فهو الذى صدر عنهم بعد هذه المرة وهى المرة الاخيرة من مرات المحاولات الجارية بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام وقد مر تحقيقه فى سورة الاعراف (قال رب انصرنى) أى بانزال العذاب الموعود (على القوم المفسدين) بابتداع الفاحشة وسنها فيمن بعدهم والاصرار عليها واستعجال العذاب بطريق الاستهزاء واتما وصفهم بذلك مبالغة فى استنزال العذاب عليهم (ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى) أى بالبشارة بالولد والنافلة (قالوا) أى لابراهيم عليه السلام فى تضاعيف الكلام حسبما فصل فى سورة هود وسورة الحجر (انا مهلكو ﴿ الى ﴾ أهل هذه القرية) أى قرية سدوم والاضافة لفضية لان المعنى على الاستقبال (ان أهلها كانوا ظالمين) تعليل للاهلاك باصرارهم على الظلم وتماديهم فى فنون الفساد وأنواع المعاصى

تلهى الانسان عن غيرها لما فيها من اللذة الحالية فالدنيا للبعض لعب يشتغل به و يقول بعد هذا الشغل أشتغل بالعبادة والآخرة وللبعض لهو يشتغل به و ينسى الآخرة بالكلية (المسئلة الثانية) قال الله تعالى فى سورة الانعام وما الحياة الدنيا الا لعب ولهو وما هذه الحياة وقال ههنا وان هذه فنقول لان المذكور من قبل ههنا أمر الدنيا حيث قال تعالى وأحيا به الارض من بعد موتها فقال هذه والمذكور قبلها هناك الآخرة حيث قال يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم فلم تكن الدنيا فى ذلك الوقت فى خاطرهم فقال وما الحياة الدنيا (المسئلة الثالثة) قال هناك الاعب واللهو وقال ههنا الا لهو ولعب فنقول لما كان المذكور هناك من قبل الآخرة واظهارهم للحسرة ففى ذلك الوقت يبعد الاستغراق فى الدنيا بالتفس الاشتغال بها فأخر الابعد وأما ههنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهى خداعة تدعو النفوس الى الاقبال عليها والاستغراق فيها اللهم الا المانع يمنعه من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها والعاصم يعصمه فلا يشتغل بها أصلا فكان ههنا الاستغراق أقرب من عدمه فقدم اللهو (المسئلة الرابعة) قال هناك والدار الآخرة خير وقال ههنا وان الدار الآخرة لهى الحيوان فنقول لما كان الحال هناك حال اظهار الحسرة ما كان المكلف يحتاج الى رادع قوى فقال الآخرة خير ولما كان ههنا الحال حال الاشتغال بالدنيا احتاج الى رادع قوى فقال لاحياة الا حياة الآخرة وهذا كما أن العاقل اذا عرض عليه شيآن وقال فى أحدهما هذا خير من ذلك يكون هذا ترجيحا فحسب واو قال هذا جيد وهذا الآخر ليس بشئ يكون ترجيحا مع المبالغة وكذلك ههنا بالغ لكون المكلف متوغلا فيها (المسئلة الخامسة) قال هناك خير للذين يتقون ولم يقل ههنا للاهى الحيوان لان الآخرة خير للمتقى فحسب أى المتقى غير المشرك واما الكافر فالدنيا جنته فهى خيره من الآخرة واما كون الآخرة باقية فيها الحياة الدائمة فلا يختص بقوم دون قوم (المسئلة السادسة) كيف أطلق الحيوان على الدار الآخرة مع أن الحيوان نام مدرك فنقول الحيوان مصدر حى كالحياة لكن فيها مبالغة ليست فى الحياة والمراد بالدار الآخرة هى الحياة الثانية فكانه قال الحياة الثانية هى الحياة المعتبرة أو نقول لما كانت الآخرة فيها الزيادة والنمو كما قال تعالى للذين أحسنوا الحسنى وزيادة وكانت هى محل لادراك التام الحق كما قال تعالى يوم تبلى السرائر أطلق عليها الاسم المستعمل فى التامى المدرك (المسئلة السابعة) قال فى سورة الانعام افلا تعقلون وقال ههنا لو كانوا يعلمون وذلك لان المثبت هناك كون الآخرة خيرا وأنه ظاهر لا يتوقف الا على العقل والمثبت ههنا أن لا حياة الا حياة الآخرة وهذا دقيق لا يعرف الا بعلم ثاقب ✻ ثم قال تعالى (فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون) اشارة الى أن المانع من التوحيد هو الحياة الدنيا وبيان ذلك هو انهم اذا انقطع رجاؤهم عن الدنيا رجعوا

(قال ان فيها لوطا) فكيف تهلكونها (قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله) ارادوا أنهم غير غافلين عن مكان لوط عليه السلام فيما بل عز لم يتعرض لابراهيم عليه السلام من أتباعه المؤمنين وأنهم ممتنون بشأنهم لتم اعتناء حسبما ينبئ عنه تصدير الوعد بالتنجية بالقسم أي والله لننجينه وأهله (الا امرأته كانت من الغابرين) أي الباقين في العذاب او القرية (فلما جاء رسلنا) المذكورون بعد مفارقتهم ابراهيم عليه السلام ﴿ ٦٩٣ ﴾ (الطاسي ٢٠) اعتراه لسببهم مخافة أن يتعرض لقومه

الى الفطرة الشاهدة بالتوحيد ووحدوا وأخلصوا وأخذ أبجاهم وارجاهم عادوا الى ما كانوا عليه من حب الدنيا وأشركوا * ثم قال تعالى (ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون) وفيه وجهان (أحدهما) ان اللام لام كي أي يشركون ليكون اشراكهم كفرا بنعمة الانجاء وليتمتعوا بسبب الشرك فسوف يعلمون بوبال عملهم حين زوال أملهم (والثاني) أن تكون اللام لام الامر ويكون المعنى ليكفروا على التهديد كما قال تعالى اعملوا ما شئتم وكما قال اعملوا على مكانتكم اني عامل فسوف تعلمون فساد ما تعملون * ثم قال تعالى (أولم يروا انا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم افبالباطل يؤمنون وبنعمت الله يكفرون) التفسير ظاهر وانما الدقيق وجه تعلق الآية بما قبلها فنقول الانسان في البحر يكون على أخوف ما يكون وفي بيته يكون على آمن ما يكون لاسيما اذا كان بيته في بلد حصين فلما ذكر الله المشركين حالهم عند الخوف الشديد ورأوا أنفسهم في تلك الحالة راجعة الى الله تعالى ذكرهم حالهم عند الامن العظيم وهي كونهم في مكة فانها لمدينتهم وبلدهم وفيها سكناهم ومولدهم وهي حصين بحصن الله حيث كل من حولها يمتنع من قتال من حصل فيها والحصول فيها يدفع الشر ورعز النفوس ويكفها يعني انكم في أخوف ما كنتم دعوتم الله وفي آمن ما حصلتم عليه كفرتم بالله وهذا متناقض لارد عاكم في ذلك الوقت على سبيل الاخلاص ما كان الا لقطعكم بأن النعمة من الله لا غير فهذه النعمة العظيمة التي حصلت وقد اعترفتم بأنها لا تكون الا من الله كيف تكفرون بها والاصنام التي قطعتم في حال الخوف ان لا امن منها كيف آمنتم بها في حال الامن * ثم قال تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا او كذب بالحق لما جاءه اليس في جهنم مثوى للكافرين) لما بين الله الامور على الوجه المذكور ولم يؤمن به أحد بين انهم أظلم من يكون لان الظلم على ما بين وضع الشئ في غير موضعه فاذا وضع واحد شيئا في موضع ليس هو موضعه يكون ظالما فاذا وضعه في موضع لا يمكن أن يكون ذلك موضعه يكون أظلم لان عدم الامكان أقوى من عدم الحصول لان كل ما لا يمكن لا يحصل وليس كل ما لا يحصل لا يمكن فالله تعالى لا يمكن أن يكون له شريك وجعلوا له شريكا فلو كان ذلك في حق ملك مستقل في الملك لكان ظلما يستحق به الملك العقاب الاليم فكيف اذا جعل اشريك لمن لا يمكن أن يكون له شريك وأيضا من كذب صادقا يجوز عليه الكذب يكون ظالما فمن يكذب صادقا لا يجوز عليه الكذب كيف يكون حاله فاذا ليس أظلم ممن يكذب على الله بالشرك ويكذب الله في تصديق نبيه النبي في رسالة ربه والقرآن المنزل من الله الى الرسول والعجب من المشركين انهم قبلوا المتخذ من خشب محبوب بالالهية ولم يقبلوا اذا حسب منعوت مبعوث بالرسالة والآية تحتمل وجها آخر وهو ان الله تعالى لما بين التوحيد والرسالة والحشر وقرره ووعظ وزجر قال لنبيه ليقول للناس ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أي انى جئت بالرسالة وقلت انها من الله

يسوءه وكلمة أن صلة تأكيدا بين الفعلين من الاتصال (وضاق بهم ذرعا) أي ضاق بشأنهم وتدبير أمرهم ذرعه أي طاقته كقولهم ضاقت يده وبازائه رحب ذرعه بكذا اذا كان مطيقا به قادرا عليه وذلك أن طويل الذراع ينال مالا يناله قصير الذراع (وقالوا) ربما شاهدوا فيه مخايل التضجر من جهتهم وعاينوا أنه قد عجز عن مدافعة قومه بعدده وقوته التي حتى آلت به الحال الى أن قال لو أن لي بكم قوة أو آوي الى ركن شديد (لا تخف) اي من قومك علينا (ولا تحزن) اي على شئ وقيل باهلاكنا اياهم (انا منجوك وأهلك) مما يصيبهم من العذاب (الا امرأتك كانت من الغابرين) وقرئ ننجيك ومنجوك من الانجاء وأياما كان فمحل الكاف الجر على المختار ونصب أهلك باضمار فعل او بالعطف على محلها باعتبار الاصل (انا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء) استئناف مسوق لبيان ما أشير اليه بوعد التنجية من نزول العذاب عليهم والرجز العذاب الذي

يلحق المعذب اي يزعجه من قولهم ارتجز اذا ارتجس واضطرب وقرئ منزلون بالتشديد (بما كانوا يفسقون) بسبب فسقهم المستمر (ولقد تركنا منها) اى من القرية (آية بينة) هي قصتها العجيبة وآثار ديارها الخربة وهي الحجارة الممطورة فانها بقيت باقية بعدها وقيل الماء الاسود على وجه الارض

(لقوم يعقلون) يستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار وهو متعلق اما بتركنا او ببينة (والى مدين أخاهم شعيبا) متعلق بمضمر معطوف على أرسلنا في قصة نوح عليه السلام أي وأرسلنا الى مدين شعيبا (فقال ياقوم اعبدوا الله) وحدوه (وارجوا اليوم الآخر) أي توقعوه وما سيقع فيه من فنون الاهوال واعملوا اليوم من الاعمال ما تأمنون غائلته وقيل وارجوا ثوابه بطريق اقامة المسبب مقام السبب وقيل الرجاء بمعنى الخوف (ولا تعثوا في الارض مفسدين ﴿٦٩٤﴾ فكذبوه فاخذتهم الرجفة) أي الزلزلة الشديدة وفي سورة هود وأخذت الذين ظلموا الصيحة أي صيحة جبريل عليه السلام فانها الموجبة للرجفة بسبب تموجها للهواء وما يجاورها من الارض (فاصبحوا في دارهم) أي بلدهم ومنازلهم والافراد لامن اللبس (جاثمين) باركين على الركب ميتين (وعادا وثمود) منصوبان باضمار فعل ينبئ عنه ما قبله اي أهلكنا وقرئ ثمود بتأويل الحي (وقد تبين لكم من مساكنهم) أي وقد ظهر لكم اهلاكنا اياهم من جهة مساكنهم بالنظر اليها عند اجتيازكم بها ذاهبا بالى الشام وياباننه (وزين لهم الشيطان أعمالهم) من فنون الكفر والمعاصي (فصدهم عن السبيل) السوي الموصل الى الحق (وكانوا مستبصرين) متمكنين من النظر والاستدلال ولكنهم لم يفعلوا ذلك او متبينين أن العذاب لاحق بهم باخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام لهم ولكنهم لجوا حتى لقوا ما لقوا (وقارون وفرعون وهامان) معطوف على عادا قيل تقديم قارون لشرف نسبه (ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الارض وما كانوا سابقين) مفلتين فائتين من قولهم ﴿وتركوا﴾ سبق طالبه اذا فاته ولم يدركه وقد أدركهم امر الله عز وجل اى ادراك فتداركوا نحو الدمار والهلاك (فكلا) تفسير لما ينبئ عنه عدم سبقهم بطريق الابهام

وهذا كلام الله وأنتم كذبتموني فالحال دائر بين أمرين اما انا مفتر متنبئ ان كان هذا من عند غير الله أو أنتم مكذبون بالحق ان كان من عنده لكني معترف بالعذاب الدائم عارف به فلا اقدم على الافتراء لان جهنم مثوى للكافرين والمتنبئ كافر وأنتم كذبتموني فجهنم مثواكم اذ هي مثوى للكافرين وهذا حينئذ يكون كقوله تعالى وأنا أو اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴿ ثم قال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين) لما فرغ من التقرير والتقريع وايئس من الكفار سلى قلوب المؤمنين بقوله والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا أي من جاهد بالطاعة هداه سبل الجنة وان الله لمع المحسنين اشارة الى ما قال للذين أحسنوا الحسنى وزيادة فقوله لنهدينهم اشارة الى الحسنى وقوله وان الله لمع المحسنين اشارة الى المعية والقربة التي تكون للمحسن زيادة على حسناته وفيه وجه آخر حكمي وهو أن يكون المعنى والذين جاهدوا فينا أي الذين نظروا في دلائلنا لنهدينهم سبلنا أي لنحصل فيهم العلم بنا ولنبين هذا فضل بيان فنقول أصحابنا المتكلمون قالوا ان النظر كاف شرط للعلم الاستدلالي والله خلق في الناظر علما عقيب نظره ووافقهم الفلاسفة على ذلك في المعنى وقالوا النظر معد لنفس لقبول الصورة المعقولة واذا استعدت النفس حصل لها العلم من فيض واهب الصور الجسمانية والعقلية وعلى هذا يكون الترتيب حسنا أيضا وذلك لان الله تعالى لما ذكر الدلائل ولم تفدهم العلم والايمان قال انهم لم ينظروا فلم يهتدوا وانا هو هدى للمتقين الذين يتقون التعصب والعناد فينظرون فنهديهم وقوله وان الله لمع المحسنين اشارة الى درجة أعلى من الاستدلال كأنه تعالى قال من الناس من يكون بعيدا لا يتقرب وهم الكفار ومنهم من يتقرب بالنظر والسلوك فنهديهم ونقربهم ومنهم من يكون الله معه ويكون قريبا منه يعلم الاشياء منه ولا يعلمه من الاشياء ومن يكون مع الشئ كيف يغلبه فقوله ومن أظلم اشارة الى الاول وقوله والذين جاهدوا فينا اشارة الى الثاني وقوله وان الله لمع المحسنين اشارة الى الثالث والله أعلم باسرار كتابه والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيدنا محمد النبي وآله وصحبه أجمعين

(سورة الروم ستون آية مكية)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) وجه تعلق أول هذه السورة بما قبلها يتبين منه سبب النزول فنقول لما قال الله تعالى في السورة المتقدمة ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي أحسن وكان يجادل المشركين بنسبتهم الى عدم العقل كما في قوله صم بكم عمي فهم لا يعقلون وكان أهل الكتاب يوافقون النبي في الاله كما قال والهنا والهكم واحد وكانوا يؤمنون بكثير مما يقوله بل كثير منهم كانوا مؤمنين به كما قال والذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به أي أبغض المشركون أهل الكتاب

اى فكلا وبعضا من المذكورين (اخذنا بذنبه) اى عاقبناه بجنايته لا بعضة دون بعض كما يشعر به تقديم المفعول (فمنهم من ارسلنا عليه حاصبا) تفصيل للاخذ اى ريحا عاصفا فيها حصباء وقيل ملكا رماهم بها وهم قوم لوط (ومنهم من اخذته الصيحة) كمدين وثمود (ومنهم من خسفنا به الارض) كقارون (ومنهم من أغرقنا) كقوم نوح وفرعون وقومه (وما كان الله ليظلمهم) بما فعل بهم فان ذلك محال من ﴿٦٩٥﴾ جهته تعالى (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بالاستمرار على مباشرة ما يوجب ذلك من أنواع الكفر والمعاصى (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) اى فيما اتخذوه معتمدا ومتكلا (كمثل العنكبوت اتخذت بيتا) فيما نسجته فى الوهن والخور بل ذلك اوهن من هذا لان له حقيقة وانتفاعا فى الجملة اومثلهم بالاضافة الى الموحد كمثله بالاضافة الى رجل بنى بيتا من حجر وحص والعنكبوت يقع على الواحد والجمع والمذكر والمؤنث والغالب فى الاستعمال التأنيث وتاؤه كتاء طاغوت ويجمع على عناكب وعنكبوتات وأما العكاب والعكب والاعكب فاسماء الجموع (وان اوهن البيوت لبيت العنكبوت) حيث لا يرى شئ يدانيه فى الوهن والوهى (لو كانوا يعلمون) اى شيأ من الاشياء لجزموا ان هذا مثلهم اوان دينهم اوهى من ذلك ويجوز ان يجعل بيت العنكبوت عبارة عن دينهم تحقيقا للتمثيل فالمعنى وان اوهن ما يعتقد به فى الدين دينهم (ان الله يعلم ما يدعون من

وتركوا مرأجعتهم وكانوا من قبل يراجعونهم فى الامور فلما وقعت الكرة عليهم حين قاتلهم الفرس المجوس فرح المشركون بذلك فانزل الله تعالى هذه الآيات لبيان أن الغلبة لا تدل على الحق بل الله تعالى قد يريد مزيد ثواب فى المحب فيبتليه ويسلط عليه الاعادى وقد يختار تعجيل العذاب الادنى دون العذاب الاكبر قبل يوم المعاد للمعادى وفى الآية مسائل (الاولى) ما الحكمة فى افتتاح هذه السورة بحروف التهجى فنقول قد سبق منا أن كل سورة افتتحت بحروف التهجى فان فى أوائلها ذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن كما فى قوله تعالى الم ذلك الكتاب المص كتاب طه ما أنزلنا عليك القرآن الم تنزيل الكتاب حم تنزيل من الرحمن الرحيم يس والقرآن ص والقرآن الا هذه السورة وسورتين اخريين ذكرناهما فى العنكبوت وقد ذكرنا ما الحكمة فيهما فى موضعهما فنقول ما يتعلق بهذه السور وهو ان السورة التى فى أوائلها التنزيل والكتاب والقرآن فى أوائلها ذكر ما هو معجزة فقدمت عليها الحروف على ما قدم بيانه فى العنكبوت وهذه ذكر فى اولها ما هو معجزة وهو الاخبار عن الغيب فقدمت الحروف التى لا يعلم معناها لينتبه السامع فيقبل بقلبه على الاستماع ثم ترد عليه المعجزة وتقرع الاسماع (المسئلة الثانية) قوله تعالى فى أدنى الارض اى أرض العرب لان الالف واللام للتعريف والمعهود عندهم أرضهم * وقوله تعالى (وهم من بعد غلبهم) أية فائدة فى ذكره مع أن قوله (سيغلبون) بعده وله غلبت الروم لا يكون الا من بعد الغلبة فنقول الفائدة فيه اظهار القدرة وبيان أن ذلك بامر الله لان من غلب بعد غلبه لا يكون الا ضعيفا فلو كان غلبتهم لشوكتهم لكان الواجب أن يغلبوا قبل غلبهم فاذا غلبوا بعد ما غلبوا دل على أن ذلك بأمر الله فذكر من بعد غلبهم ليتفكروا فى ضعفهم ويتذكروا انه ليس بزحفهم وانما ذلك بأمر الله تعالى وقوله فى أدنى الارض لبيان شدة ضعفهم أى انتهى ضعفهم الى أن وصل عدوهم الى طريق الحجاز وكسروهم وهم فى بلادهم ثم غلبوا حتى وصلوا الى المدائن وبنوا هناك الرومية لبيان أن هذه الغلبة العظيمة بعد ذلك الضعف العظيم باذن الله (المسئلة الثالثة) قال تعالى (فى بضع سنين) قيل هى ما بين الثلاثة والعشرة أنهم الوقت مع أن المعجزة فى تعيين الوقت أتم فنقول السنة والشهر واليوم والساعة كلها معلومة عند الله تعالى وبينها لنبيه وما أذن فى اظهارها لان الكفار كانوا معاندين والامور التى تقع فى البلاد النائية تكون معلومة الوقوع بحيث لا يمكن انكارها لكن وقتها يمكن الاختلاف فيه فالمعاند كان يتمكن من أن يرجف بوقوع الواقعة قبل الوقوع ليحصل الخلف فى كلامه ولما وردت الآية ذكر ابو بكر رضى الله عنه أن الروم ستغلب وانكره أبى بن خلف وغيره وناحبوا أبا بكر أى خاطروه على عشرة قلائص الى ثلاث سنين فقال عليه السلام لابى بكر البضع ما بين الثلاثة والعشرة فزايده فى الابل وماده فى الاجل فجعلا القلائص مائة والاجل سبعا وهذا يدل على علم النبى عليه السلام بوقت الغلبة * ثم

دونه من شئ) على اضمار القول اى قل للكفرة ان الله الخ وما استفهامية منصوبة بيدعون معلقة ليعلم ومن للتبيين او نافية ومن مزيدة وشئ مفعول يدعون او مصدرية وشئ عبارة عن المصدر او موصولة مفعول ليعلم ومفعول يدعون عائده المحذوف وقرئ تدعون بالتاء والكلام على الاولين تجهيل لهم وتأكيد للمثل وعلى الاخيرين وعيد لهم (وهو العزيز الحكيم) تعليل على المعنيين فان اشراك ما لا يعد

شيأ بمن هذا شأنه من فرط الغباوة وان الجماد بالنسبة الى القادر القاهر على كل شئ البالغ فى العلم واتقان الفعل الى

الغاية القاصية كالمعدوم البحت وان من هذه صفاته قادر على مجازاتهم (وتلك الامثال) اى هذا

المثل وامثاله (نضربها للناس) تقريبا لما بعد من أفهامهم (وما يعقلها) على ما هى عليه من الحسن واستتباع الفوائد (الا العالمون) الراسخون فى العلم المتدبرون فى الاشياء على ما ينبغى وعنه عليه الصلاة والسلام انه تلا هذه فقال العالم من عقل عن الله تعالى وعمل بطاعته واجتنب سخطه (خلق الله السموات والارض بالحق) اى محقا مراعيا للحكم والمصالح على انه حال من فاعل خلق او ملتبسة بالحق الذى لا محيد عنه مستتبعة للمنافع الدينية والدنيوية على انه حال من مفعوله فانها مع اشتمالها على جميع ما يتعلق به معاشهم شواهد دالة على شؤنه تعالى المتعلقة بذاته وصفاته كما يفصح عنه قوله تعالى (ان فى ذلك لآية للمؤمنين) دالة لهم على ما له من شؤنه سبحانه وتخصيص المؤمنين بالذكر مع عموم الهداية والارشاد فى خلقهما للكل لانهم المنتفعون ﴿ اتل ﴾ بذلك (اتل ما اوحى اليك من الكتاب) تقربا الى الله تعالى بقراءته وتذكرا لما فى تضاعيفه من المعانى وتذكيرا للناس وحملا لهم على العمل بما فيه من الاحكام ومحاسن الآداب

قال تعالى (لله الامر من قبل ومن بعد) أى من قبل الغلبة ومن بعدها او من قبل هذه المدة ومن بعدها يعنى ان أراد غلبهم غلبهم قبل بضع سنين وان أراد غلبهم غلبهم بعدها وما قدر هذه المدة لعجز وانما هى ارادة نافذة وبنيا على الضم لما قطعا عن الاضافة لان غير الضمة من الفتحة والكسرة يشتبه بما يدخل عليهما وهو النصب والجر اما النصب ففى قولك جئت قبله أو بعده واما الجر ففى قولك من قبله ومن بعده فبنيا على الضم لعدم دخول مثلهما عليه فى الاعراب وهو الرفع ❊ (ويومئذ يفرح المؤمنون) قيل يفرحون بغلبة الروم على الفرس كما فرح المشركون بغلبة الفرس على الروم والاصح انهم يفرحون بغلبتهم المشركين وذلك لان غلبة الروم كانت يوم غلبة المسلمين المشركين ببدر ولو كان المراد ما ذكروه لما صح لان فى ذلك اليوم بعينه لم يصل اليهم خبر الكسر ولا يكون فرحهم يومئذ بل الفرح يحصل بعده ❊ ثم قال تعالى (ينصر الله ينصر من يشاء) قدم المصدر على الفعل حيث قال بنصر الله ينصر وقدم الفعل على المصدر فى قوله وايدك بنصره وذلك لان المقصود ههنا بيان ان النصرة بيد الله ان أراد نصره وان لم يرد لا ينصره وليس المقصود النصرة ووقوعها والمقصود هناك اظهار النعمة عليه بانه نصره فالمقصود هناك الفعل ووقوعه فقدم هناك الفعل ثم بين ان ذلك الفعل مصدره عند الله والمقصود ههنا كون المصدر عند الله ان أراد فعل فقدم المصدر ❊ ثم قال تعالى (وهو العزيز الرحيم) ذكر من اسمائه هذين الاسمين لانه ان لم ينصر المحب بل سلط العدو عليه فذلك لعزته وعدم افتقاره وان نصر المحب فذلك لرحمته او نقول ان نصر الله المحب فلعزته واستغنائه عن العدو ورحمته على المحب وان لم ينصر المحب فلعزته واستغنائه عن المحب ورحمته فى الآخرة واصل له الثواب ❊ ثم قال تعالى (وعد الله لا يخلف الله وعده) يعنى سيغلبون وعدهم الله وعدا ووعد الله لا خلف فيه ❊ قوله تعالى (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى لا يعلمون وعده وانه لا خلف فى وعده ❊ ثم قال تعالى (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا) يعنى علمهم منحصر فى الدنيا وأيضا لا يعلمون الدنيا كما هى انما يعلمون ظاهرها وهى ملاذها وملاعبها ولا يعلمون باطنها وهى مضارها ومتاعبها او يعلمون وجودها الظاهر ولا يعلمون فناءها (وهم عن الآخرة هم غافلون) [illegible] الآخرة غافلون وذكرت [illegible] تأكيد لتعدد الغفلة [illegible] الا باب [illegible] كما يقول القائل غير غفلت عن أمرى فاذا قال هو شغلنى فلان فيقول ما شغلك ولكن انت اشتغلت ❊ ثم قال تعالى (أولم يتفكروا فى أنفسهم) لما ذكر من الكفار الانكار بالله عند انكار وعد الله وعدم الخلف فيه كما قال تعالى ولكن أكثر الناس لا يعلمون والانكار بالحشر كما قال تعالى وهم عن الآخرة هم غافلون [illegible] وبين [illegible] بتقدير الله [illegible] [illegible] وهو نفسهم او تفكروا [illegible] لعلموا وحدانية الله [illegible] الحشر اما [illegible] فلان لله حلاقهم على احسن تقويم [illegible]

مكارم الاخلاق (وأقم الصلوة) أى داوم على اقامتها وحيث كانت الصلاة منتظمة للصلوات المكتوبة المؤداة بالجماعة وكان
ر عليه الصلاة والسلام باقامتها متضمنا لامر الامة بها اعال بقوله تعالى (ان الصلوة تنهى عن الفحشاء والمنكر) كأنه قيل
وسل بهم ان الصلاة تنهاهم عن الفحشاء والمنكر من غير اعتبار أنها سبب للانتهاء عنها لانها مأمور بها لله تعالى لا بد
أن تكون مع قبول تام على طاعته واعراض ﴿ ٦٩ ﴾ كلى عن معاصيه قال ابن مسعود وابن عباس رضى الله تعالى

أف جزء وهو ان الله تعالى خلق للانسان معدة فيها ينهضم غذاؤه لتقوى به اعضاؤه ولها منفذان أحدهما لدخول الطعام فيه والآخر لخروج الطعام منه فاذا دخل الطعام فيها انطبق المنفذ الآخر بعضه على بعض بحيث لا يخرج منه ذرة ولا بالرشح وتمسكه الماسكة الى أن ينضج نضجا صالحا ثم يخرج من المنفذ الآخر وخلق تحت المعدة عروقا دقاقا صلابا كالصفاة التى يصفى بها الشيء فينزل منها الصافى الى الكبد وخلق الثقل الى معى يسمى تحت المعدة مستقيم متوجه الى الخروج وما يدخل فى الكبد من العروق المذكورة يسمى الماسارقا بالعبرانية والعبرية عربية مفسودة فى الاكثر قال لموسى منشا والالة نيل الى غير ذلك فالماسارقا معناها ماسارقا اشتمل عليه الكبد والمضجع نضجا آخر ويكون مع الغذاء المتوجه من المعدة الى الكبد فضل ماء مشروب يرقق ويندرق فى العروق الدقاق المذكورة وفى الكبد يستغنى عن ذلك الماء فيتميز عنه ذلك الماء وينصب من جانب حدبة الكبد الى الكلية ومعه دم يسير تغذى به الكليه وغيرها ويخرج الدم الخالص من الكبد فى عرق كبير ثم ينشعب ذلك النهر الى جداول والجداول الى سواق والسواقى الى رواضع ويصل فيها الى جميع البدن فهذه حكمة واحدة فى خلق الانسان وهذه كفاية فى معرفة كون الله فاعلا مختارا قادرا كاملا عالما شاملا علمه ومن يكون كذلك يكون واحدا والا لكان عاجزا عند ارادة شريكه ضد مأ أراده واما دلالة الانسان على الحشر فلذلك لانه اذا تفكر فى نفسه يرى قواه عائرة الى الزوال واجزاءه مائلة الى الانحلال وله بقاء ضرورى فلو لم يكن له حياة أخرى لكان خلقه على هذا الوجه للفناء عبثا واليه اشار بقوله افحسبتم أنما خلقناكم عبثا وهذا ظاهر لان من يفعل شيئا للعبث فلو بالغ فى احكامه واتقانه يضحك منه فاذا خلقه للبقاء ولا بقاء دون اللقاء فالآخرة لا بد منها ثم انه تعالى ذكر بعد دليل انفس دليل الآفاق فقال (ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى) فقوله الا بالحق اشارة الى وجه دلالتها على الوحدانية وقد بينا ذلك فى قوله خلق الله السموات والارض بالحق ان فى ذلك لآية للمؤمنين ونعيده فان التكرير فى الذهن يفيد التقرير لدى الذهن فنقول اذا كان بالحق لا يكون فيها بطلان فلا يكون فيها فساد لان كل فاسد باطل واذا لم يكن فيها فساد لا تكون آلهة والا لكان فيها فساد كما قال تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وقوله وأجل مسمى يذكر بالاصل الآخر الذى انكروه * ثم قال تعالى (وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون) يعنى لا يعلمون انه لا بد بعد هذه الحياة من لقاء وبقاء اما فى اسعاد واشقاء وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قدم ههنا دلائل الانفس على دلائل الآفاق وفى قوله تعالى سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم قدم دلائل الآفاق وذلك لان المفيد اذا أفاد فائدة يذكرها على وجه جيد يختاره فان فهمه السامع المستفيد فذلك والا يذكرها على وجه أبين منه وينزل درجة فدرجة واما المستفيد فانه يفهم اولا

ومن زجر عن معاصى الله تعالى فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ولم تنهه عن المنكر لم يزدد بصلاته من الله تعالى الا بعدا وقال الحسن وقتادة من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فصلاته وبال عليه وروى أنس رضى الله عنه أن فتى من الانصار كان يصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدع شيئا من الفواحش الا ارتكبه فوصف له عليه الصلاة والسلام حاله فقال ان صلاته ستنهاه فلم يلبث أن تاب وحسن حاله (ولذكر الله أكبر) أى والصلاة أكبر من سائر الطاعات وانما عبر عنها به كما فى قوله تعالى فاسعوا الى ذكر الله الا يذان بأن ما فيها من ذكر الله تعالى هو العمدة فى كونها مفضلة على الحسنات ناهية عن السيآت وقيل ولذكر الله تعالى عند الفحشاء والمنكر وذكر نهيه عنهما ووعيده عليهما أكبر فى الزجر عنهما وقيل ولذكر الله اياكم برحمته أكبر من ذكركم اياه بطاعته (والله يعلم ما تصنعون) منه ومن سائر الطاعات فيجازيكم بها أحسن المجازاة (ولا

جادلوا أهل الكتاب) من اليهود ﴿ ٨٨ س ﴾ والنصارى (الا بالتى هى أحسن) أى بالخصلة التى هى أحسن كمقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم والمشاغبة بالنصح والسورة بالاناءة على وجه لا يدل على الضعف ولا يؤدى الى اعطاء الدنية وقيل منسوخ بآية السيف (الا الذين

ظلموا منهم) بالافراط فى الاعتداء والعناد أو باثبات الولد وقولهم بدالله مغلولة ونحو ذلك فانه يجب حينئذ المدافعة بما يليق بحالهم (وقولوا آمنا بالذى أنزل الينا) من القرآن (وأنزل اليكم) أى وبالذى أنزل اليكم من التوراة والانجيل وقدم تحقيق كيفية الايمان بهما فى خاتمة سورة البقرة وعن النبى عليه الصلاة والسلام لاتصدقوا أهل الكتاب ولاتكذبوهم وقولوا آمنا بالله وبكتبه ورسله فان قالوا باطلا لم تصدقوهم وان قالوا حقا لم تكذبوهم ۞ ٦٩٨ ۞ (والهنا وإلهكم واحد) لاشريك له فى الالوهية

(ونحن له مسلمون) مطيعون خاصة وفيه تعريض بحال الفريقين حيث اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله (وكذلك) تجريد للخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك اشارة الى مصدر الفعل الذى يعبر به فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلة المشار اليه فى الفضل أى مثل ذلك الانزال البديع الموافق لانزال سائر الكتب (أنزلنا اليك الكتاب) أى القرآن الذى من جملته هذه الآية الناطقة بما ذكر من المجادلة بالحسنى (فالذين آتيناهم الكتاب) من الطائفتين (يؤمنون به) أريد بهم عبد الله بن سلام وأضرابه من أهل الكتابين خاصة كان من عداهم لم يؤتوا الكتاب حيث لم يعملوا بما فيه أو من تقدم عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم حيث كانوا مصدقين بنزوله حسبما شاهدوا فى كتابيهما وتخصيصهم بايتاء الكتاب للايذان بان من بعدهم من معاصرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزع عنهم الكتاب بالنسخ فلم يؤتوه

الايمان ثم يرتقى الى فهم ذلك الا فى الذى لم يكن فهمه فيفهمه بعد فهم الايمان المذكور آخرا فالمذكور من المفيد آخرا مفهوم عند السامع أولا اذا علم هنا فنقول ههنا الفعل كان منسوبا الى السامع حيث قال أولم يتفكروا فى أنفسهم يعنى فيما فهموه أولا ولم يرتقوا الى ما فهموه ثانيا واما فى قوله سنريهم الامر منسوب الى المفيد المسمع فذكر أولا الآفاق فان لم يفهموه فالانفس لان دلائل الانفس لاذهول للانسان عنها وهذا الترتيب مراعى فى قوله تعالى الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم أى يعلمون الله بدلائل الانفس فى سائر الاحوال ثم يتفكرون فى خلق السموات والارض بدلائل الآفاق (المسئلة الثانية) وجه دلالة الخلق على الوحدانية ظاهر واما وجه دلالته على الحشر فكيف هو فنقول وقوع تخريب السموات وعدمها لايعلم بالعقل الا امكانه واما وقوعه فلا يعلم لانا نسمع ان الله قادر على ابقاء الحادث أبدا كما انه يبقى الجنة والنار بعد احداثهما أبدا والخلق دليل امكان العدم لان المخلوق لم يجب له القدم فجاز عليه العدم فاذا أخبر الصادق عن أمر له امكان وجب على العاقل التصديق والاذعان ولان العالم لما كان خلقه بالحق فينبغى أن يكون بعد هذه الحياة حياة أخرى باقية لان هذه الحياة ليست الا لعبا ولهوا كما بين بقوله تعالى وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وخلق السموات والارض للهو واللعب عيب والعبث ليس بحق وخلق السموات والارض بالحق فلا بد من حياة بعد هذه (المسئلة الثالثة) قال ههنا كثيرا من الناس وقال من قبل ولكن أكثر الناس وذلك لان من قبل لم يذكر دليلا على الاصلين وههنا قد ذكر الدلائل الواضحة والبراهين اللائحة ولاشك فى أن الايمان بعد الدليل أكثر من الايمان قبل الدليل فبعد الدلائل لابد من أن يؤمن من ذلك الاكثر جمع فلا يبقى الاكثر كما هو فقال بعد اقامة الدليل وان كثيرا وقبله ولكن أكثرهم ثم بعد الدليل الذى لا يمكن الذهول عنه والدليل الذى لا يقع الذهول عنه وان أمكن هو السموات والارض لان من البعيد أن يذهل الانسان عن السماء التى فوقه والارض التى تحته ذكر ما يقع الذهول عنه وهو أمر امثالهم وحكاية اشكالهم ۞ فقال تعالى (أولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الارض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) وقال فى الدليلين المتقدمين أولم يروا ولم يقل أولم يسيروا اذ لاحاجة هناك الى السير بحضور النفس والسماء والارض وقال ههنا اولم يسيروا فينظروا ذكرهم بحال أمثالهم وويال اشكالهم ثم ذكر أنهم أولى بالهلاك لان من تقدم من عاد وثمود كانوا أشد منهم قوة ولم ينفعهم قواهم وكانوا أكثر مالا وعمارة ولم يمنع عنهم الهلاك أموالهم وحصونهم واعلم ان اعتماد الانسان على ثلاثة أشياء قوة جسمية فيه أو فى أعوانه اذبها المباشرة وقوة مالية اذبها التأهب للمباشرة وقوة ظهرية يستند اليها عند الضعف والفتور وهى

والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فان ايمانهم به مترتب على انزاله على الوجه المذكور (ومن هؤلاء) أى ومن العرب أو أهل مكة على الاول أو ممن فى عصره عليه الصلاة والسلام على الثانى (من يؤمن به) أى بالقرآن (وما يجحد بآياتنا) عبر عن الكتاب بالآيات للتنبيه على ظهور دلالتها على معانيها وعلى كونها من عند الله تعالى وأضيفت الى نون

ظلمة لزيد تعنيفها وغاية تشنيع من يحدثها (الا الكافرون) المتوغلون في الكفر المصممون عليه فان ذلك يصدهم عن
تأمل فيما يؤديهم الى معرفة حقيقتها وقيل هم كعب بن الاشرف وأصحابه (وما كنت تتلوا من قبله) أي ما كنت قبل انزلنا
ك الكتاب تقدر على أن تتلوا شيأ (من كتاب ولا تخطه) أي ولا تقدر على أن تخطه (بيمينك) حسبما هو المعتاد أو ما كانت
تك أن تتلوه ولا أن تخطه (اذا لارتاب المبطلون) أي لو كنت ممن تقدر على التلاوة والخط أو ممن يعتادهما

لارتابوا وقالوا لعله التقطه من كتب الاوائل وحيث لم تكن كذلك لم يبق في شأنك منشأ ريب أصلا وتسميتهم مبطلين في ارتيابهم على التقدير المفروض لكونهم مبطلين في اتباعهم للاحتمال المذكور مع ظهور نزاهته عليه الصلاة والسلام عن ذلك (بل هو) أي القرآن (آيات بينات) واضحات ثابتة راسخة (في صدور الذين أوتوا العلم) من غير أن يلتقط من كتاب يحفظونه بحيث لا يقدر أحد على تحريفه (وما يجحد بآياتنا) مع كونها كما ذكر (الا الظالمون) المتجاوزون للحدود في الشر والمكابرة والفساد (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه) مثل ناقة صالح وعصا موسى ومائدة عيسى عليهم السلام وقرئ آية (قل انما الآيات عند الله) ينزلها حسبما تشاء من غير دخل لاحد في ذلك قطعا (وانما انا نذير مبين) ليس من شأني الا الانذار بما أوتيت من الآيات (أولم يكفهم كلام مستأنف وارد من جهته تعالى ردا على

الحصون والعمائر فقال تعالى كانوا أشد منهم قوة في الجسم وأكثر منهم مالا لانهم أثاروا
الارض أي حرثوها ومنه بقرة تثير الارض وقيل منه سمي ثورا وأنتم لا حراثة لكم فحالهم
كانت اكثر وعمارتهم كانت أكثر لان أبنيتهم كانت رفيعة وحصونهم منيعة وعمارة أهل
مكة كانت بسيرة ثم هؤلاء جاءتهم رسلهم بالبينات وأمروهم ونهوهم فلما كذبوا أهلكوا
فكيف أنتم وقوله فما كان الله ليظلمهم يعني لم يظلمهم بالتكليف فان التكليف شريف
لا يؤثر له الا محل شريف ولكن هم ظلموا أنفسهم بوضعها في موضع خسيس وهو عبادة
الاصنام واتباع ابليس فكان الله بالتكليف وضعهم فيما خلقوله وهو الربح لانه تعالى
لما خلقكم لتربحوا على الاربح عليكم والوضع في موضع كان الخلق له ليس بظلم
وإما هم فوضعوا أنفسهم في مواضع الخسران ولم يكونوا خلقوا الا الاربح فهم كانوا ظالمين
وهذا الكلام منا وان كان في الظاهر يشبه كلام المعتزلة لكن العاقل يعلم كيف يقوله
أهل السنة وهو ان هذا الوضع كان بمشيئة الله وارادته لكنه كان منهم ومضافا اليهم*
ثم قال تعالى (ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن)
كما قال للذين أحسنوا الحسنى وقوله تعالى ان كذبوا قيل معناه بأن كذبوا أي كان عاقبتهم
ذلك بسبب انهم كذبوا وقيل معناه أساؤا وكذبوا فكذبوا يكون تفسير الاساؤا وفي هذه
الآية لطائف (احداها) قال في حق الذين أحسنوا الذين أحسنوا الحسنى وقال في حق
من أساء ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى اشارة الى أن الجنة لهم من ابتداء الامر فان
الحسنى اسم الجنة والسوأى اسم النار فاذا كانت الجنة لهم من الابتداء وهي له شيأ
فشيأ ازداد وتزويه فهو له لان ملك الشيء اما حصل بوجب ملك الثمرة فالجنة من حيث خلقت
تربو وتنمو للمحسنين واما الذين أساؤا فالسوأى هي جهنم في العاقبة مصيرهم اليها
(الثانية) ذكر الزيادة في حق المحسن ولم يذكر الزيادة في حق المسيء لان جزاء سيئة سيئة
مثلها (الثالثة) لم يذكر في المحسن أن له الحسنى بأنه صدق وذكر في المسيء أن له السوأى
بأنه كذب لان الحسنى للمحسنين فضل والمتفضل لو لم يكن تفضله لسبب يكون أبلغ وأما
السوأى للمسيء عدل والعادل اذا لم يكن تعذيبه لسبب لا يكون عدلا فذكر السبب
في التعذيب وهو الاصرار على التكذيب ولم يذكر السبب في الثواب* ثم قال تعالى
(الله يبدؤ الخلق ثم يعيده ثم اليه ترجعون) لما ذكر أن عاقبتهم الى الجحيم وكان في ذلك
اشارة الى الاعادة والحشر لم يترك دعوى بلا بينة فقال يبدؤ الخلق يعني من خلق بالقدرة
والارادة لا يعجز عن الرجعة والاعادة فاليه ترجعون ثم بين ما يكون وقت الرجوع اليه
* فقال (و يوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا
بشركائهم كافرين) في ذلك اليوم يتبين افلاسهم ويتحقق ابلاسهم والابلاس يأس مع
حيرة يعني يوم تقوم الساعة يكون للمجرم يأس محير لا يأس هو احدى الراحتين وهذا
لان الطمع اذا انقطع باليأس فاذا كان المرجو أمرا غير ضروري يستريح الطامع من

فتراحمهم وبيانا لبطلانه والهمزة للانكار والنفي والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام أي أقصر ولم يكفهم اية مغنية
عن سائر الآيات (انا انزلنا عليك الكتاب) الناطق بالحق المصدق لما بين يديه من الكتب السماوية وأنت بمعزل عن مدارستها
ومزاولتها (يتلى عليهم) في كل زمان ومكان فلا يزال معهم آية ثابتة لا تزول ولا تضمحل كما تزول كل آية بعد كونها وتكون في مكان

دون مكان او يتلى على اليهود بتحقيق ما في ايديهم من نعتك ونعت دينك (ان في ذلك) الكتاب العظيم الشان الباقي على مر الدهور (لرحمة) أي نعمة عظيمة (وذكرى) أي تذكرة (لقوم يؤمنون) أي لقوم هممهم الايمان لا التعنت كأولئك المقترحين وقيل ان ناسا من المؤمنين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتف فيها بعض ما يقوله اليهود فقال كفى بها ضلالة قوم أن يرغبوا عما جاء به نبيهم الى ما جاء به غير نبيهم فنزلت (قل كفى بالله ﴿٧٠٠﴾ بيني وبينكم شهيدا) بما صدر عني وعنكم (يعلم ما في السموات والارض) أي من الامور التي من جملتها شاني وشأنكم فهو تقرير لما قبله من كفايته تعالى شهيدا (والذين آمنوا بالباطل) وهو ما يعبد من دون الله تعالى (وكفروا بالله) مع تعاضد موجبات الايمان به (اولئك هم الخاسرون) المغبونون في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالايمان بأن ضيعوا الفطرة الاصلية والادلة السمعية الموجبة للايمان والآية من قبيل المجادلة بالتي هي أحسن حيث لم يصرح بنسبة الايمان بالباطل والكفر بالله والخسران اليهم بل ذكر على سبيل الابهام كما في قوله تعالى وانا او اياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ويستعجلونك بالعذاب على طريقة الاستهزاء بقولهم متى هذا الوعد وقولهم امطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب ونحو ذلك (ولولا أجل مسمى) قد ضربه الله تعالى لعذابهم وبينه في اللوح (لجاءهم العذاب) المعين لهم حسبما

الانتظار وان كان ضروريا لا بقاءله بدونه ينفطر فؤاده اشد انفطار ومثل هذا اليأس هو الابلاس ولنبين حال المجرم وابلاسه بمثال وهو ان نقول مثله مثل من يكون في بستان وحواليه الملاعب والملاهي * ولديه ما يفتخر به ويباهي * فيخبره صادق بمجيء عدو لا يرده راد * ولا يصده صاد * اذا جاءه لا يبلعه ريقا * ولا يترك له الى الخلاص طريقا * فيحتم عليه الاشتغال بسلوك طريق الخلاص فيقول له طفل أو مجنون ان هذه الشجرة التي أنت تحتها لها من الخواص دفع الاعادي عمن يكون تحتها فيقبل ذلك الغافل على استيفاء ملاذه معتمدا على الشجرة بقول ذلك الصبي فيجيئه العدو ويحيط به فأول ما يريه من الاهوال قلع تلك الشجرة فيبقى متحيرا آيسا * مفتقرا بائسا * فكذلك المجرم في دار الدنيا أقبل على استيفاء اللذات وأخبره النبي الصادق بان الله يجزيه * ويأتيه عذاب يخزيه * وقال له الشيطان والنفس الامارة بالسوء ان هذه الاخشاب التي هي الاوثان دافعة عنك كل باس * وشافعة لك عند خمود الحواس * فاشتغل بما هو فيه واستمر على غيه حتى اذا جاءته الطامة الكبرى وأول ما أراته افناء الاصنام في النار فلا يجد الى الخلاص من طريق * ويحيق عليه عذاب الحريق * فيبلس حينئذ أي ايأس * ويبلس أشد ابلاس * والضمير الاشارة بقوله تعالى ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين يعني يكفرون بهم ذلك اليوم * ثم قال تعالى (ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) ثم بين أمرا آخر يكون في ذلك اليوم وهو الافتراق كما قال تعالى في آية أخرى وامتازوا اليوم ايها المجرمون فكأنه تعالى رتب هذه الحالة مترتبة على الابلاس فكأنه أولا يبلس ثم يميز بعضهم عن بعض فريق في الجنة وفريق في السعير وأعاد قوله ويوم تقوم الساعة لان ايراد الساعة أمر هائل مكرر تأكيدا للتخويف ومنه اعتياد الخطباء تكرير يوم القيامة في الخطب لتذكير أهوالها * ثم بين كيفية التفرق فقال تعالى (فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون) أي في جنة يسرون بكل مسرة (واما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك في العذاب محضرون) يعني لا غيبة لهم عنه ولا قبول له عنهم كما قال تعالى كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقال لا يستفتر عنهم العذاب وفي الآيتين مسائل فيها الطائف (المسئلة الاولى) بدأ بذكر حال الذين آمنوا مع أن الموضع موضع ذكر المجرمين وذلك لان المؤمن يوصل اليه الثواب قبل أن يوصل الى الكافر العقاب حتى يرى ويتحقق أن المؤمن وصل الى الثواب فيكون ذلك ولو أدخل الكافر النار أولا لكان يظن أن الكل في العذاب مشتركون فقدم ذلك زيادة في ايلامهم (المسئلة الثانية) ذكر في المؤمن العمل الصالح ولم يذكر في الكافر العمل السيئ لان العمل الصالح معتبر مع الايمان فان الايمان المجرد مفيد للنجاة دون رفع الدرجات ولا يبلغ المؤمن الدرجة العالية الا بايمانه وعمله الصالح وأما الكافر فهو في الدركات بمجرد كفره فلو قال والذين كفروا وعملوا السيئات في العذاب محضرون لكان العذاب لمن

استعجلوا به قيل المراد بالاجل يوم القيامة لما روى أنه تعالى وعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يعذب قومه * يصدر * بعذاب الاستئصال وأن يؤخر عذابهم الى يوم القيامة وقيل يوم بدر وقيل وقت فنائهم بآجالهم وفيه بعد ظاهر لما انهم ما كانوا يوعدون بفنائهم الطبيعي ولا كانوا يستعجلون به (وليأتينهم) جملة مستأنفة مبنية لما أشير اليه في الجملة السابقة من مجيء العذاب عند محل الاجل أي وبالله ليأتينهم العذاب الذي عينا لهم عنه

حلول الاجل (بغتة) أى فجأة (وهم لايشعرون) أى باتيانه ولعل المراد باتيانه كذلك أنه لايأتيهم بطريق التعجيل عند استعجالهم والاجابة الى مسؤلهم فان ذلك اتيان برأيهم وشعورهم لانه يأتيهم وهم غافلون امنون لايخطرونه بالبال كدأب بعض العقوبات النازلة على بعض الامم بياتا وهم نائمون أو ضحى وهم يلعبون لما أن اتيان عذاب الآخرة وعذاب يوم بدر ليس من هذا القبيل (يستعجلونك بالعذاب ﴿٧٠١﴾ وان جهنم لمحيطة بالكافرين) استئناف مسوق لغاية تجهيلهم وركاكة رأيهم

يصدر منه المجموع فان قيل فريؤمن ويعمل السيآت غير مذكور فى القسمين فنقول له منزلة بين المنزلتين لاعلى مايقوله المعتزلة بل هو فى الاول فى العذاب ولكن ليس من المحضرين دوام الحضور وفى الآخرة هو فى الرياض ولكنه ليس من المحبورين غاية الحبور كل ذلك بحكم الوعد (المسئلة الثالثة) قال فى الاول فى روضة على التنكير وقال فى الآخر فى العذاب على التعريف لتعظيم الروضة بالتنكير كما يقال لفلان مال وجاه أى كثير وعظيم (المسئلة الرابعة) قال فى الاول يحبرون بصيغة الفعل ولم يقل محبورون وقال فى الآخر محضرون بصيغة الاسم ولم يقل يحضرون لان الفعل ينبئ عن التجدد والاسم لايدل عليه فقوله يحبرون يعنى يأتيهم كل ساعة أمر يسرون به واما الكفار فهم اذا دخلوا العذاب يبقون فيه محضرين ﴿ ثم قال تعالى (فسبحان الله حين

تمسون وحين تصبحون وله الحمد فى السموات والارض وعشيا وحين تظهرون يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحى الارض بعد موتها وكذلك تخرجون) لما بين الله تعالى عظمته فى الابتداء بقوله ماخلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق وعظمته فى الانتهاء وهو حين تقوم الساعة ويفترق الناس فريقين ويحكم على البعض بأن هؤلاء للجنة ولا أبالى وهؤلاء للنار ولا أبالى أمر يتنزه عن كل سوء ويحمده على كل حال فقال فسبحان الله أى سبحوا الله تسبيحا وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) فى معنى سبحان الله ولفظه امالفظة فعلان اسم لمصدره الذى هو التسبيح سمى التسبيح بسبحان وجعل علما له وامالمعنى فقال بعض المفسرين المراد منه الصلاة أى صلوا لله وقالوا انه اشارة الى الصلوات الخمس وقال بعضهم أراد به التنزيه أى نزهوه عن صفات النقص وصفوه بصفات الكمال وهذا أقوى والمصير اليه أولى لانه يتضمن الاول وذلك لان التنزيه المأمور به يتناول التنزيه بالقلب وهو الاعتقاد الجازم وباللسان مع ذلك وهو الذكر الحسن وبالاركان معهما جميعا وهو العمل الصالح والاول هو الاصل والثانى ثمرة الاول والثالث ثمرة الثانى وذلك لان الانسان اذا اعتقد شيأ ظهر من قلبه على لسانه واذا قال ظهر صدقه فى مقاله من أحواله وافعاله واللسان ترجمان الجنان والاركان برهان اللسان لكن الصلاة أفضل أعمال الاركان وهى مشتملة على الذكر باللسان والقصد بالجنان وهو تنزيه فى التحقيق فاذا قيل تنزهوني وهذا نوع من أنواع التنزيه والامر المطلق لايختص بنوع دون نوع فيجب حمله على كل ماهو تنزيه فيكون أيضا هذا أمرا بالصلاة ثم ان قولنا يناسب ماتقدم وذلك لان الله تعالى لما بين أن المقام الاعلى والجزاء الاوفى لمن آمن وعمل الصالحات حيث قال فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون قال اذا علمتم أن ذلك المقام لمن آمن وعمل الصالحات والايمان تنزيه بالجنان وتوحيد باللسان والعمل الصالح استعمال الاركان والكل تنزيهات وتحميدات فسبحان الله أى فأتوا بذلك الذى هو الموصل الى الحبور فى

وفيه دلالة على أن ما استعجلوه عذاب الآخرة أى يستعجلونك بالعذاب والحال أن محل العذاب الذى لاعذاب فوقه محيط بهم كأنه قيل يستعجلونك بالعذاب وان العذاب لمحيط بهم أى سيحيط بهم وانما جئ بالجملة الاسمية دلالة على تحقيق الاحاطة واستمرارها أو تنزيلا لحال السبب منزلة حال المسبب فان الكفر والمعاصى الموجبة لدخول جهنم محيطة بهم وقيل ان الكفر والمعاصى هى النار فى الحقيقة لكنها ظهرت فى هذه النشأة بهذه الصورة وقد مر تفصيله فى سورة الاعراف عند قوله تعالى والوزن يومئذ الحق ولام الكافرين اما للعهد ووضع الظاهر موضع المضمر للاشعار بعلة الحكم وللجنس وهم داخلون فيه دخولا أوليا (يوم يغشاهم العذاب) ظرف لمضمر قد طوى ذكره ايذانا بغاية كثرته وفظاعته كأنه قيل يوم يغشاهم العذاب الذى أشير اليه باحاطة جهنم بهم يكون من الاحوال والاهوال

مالايفى به المقال وقيل ظرف للاحاطة (من فوقهم ومن تحت أرجلهم) أى من جميع جهاتهم (ويقول) أى الله عزوجل أو يعضده القراءة بنون العظمة أو بعض ملائكته بأمره (ذوقوا ماكنتم تعملون) أى جزاء ماكنتم تعملونه فى الدنيا على الاستمرار

من النيشات التي من جملتها الاستعجال بالعذاب (ياعبادالذين آمنوا) خطاب تشريف لبعض المؤمنين الذي لايتمكنون من اقامة أمور الدين كما ينبغي لممانعة من جهة الكفرة وارشاد لهم الى الطريق الاسلم (ان أرضي واسعة فاياي فاعبدون) أي اذا لم يتسهل لكم العبادة في بلد ولم يتيسر لكم اظهار دينكم فهاجروا الى حيث يتسنى لكم ذلك وعنه عليه الصلاة والسلام من فر بدينه من أرض الى أرض ولو كان شبرا استوجب الجنة وكان رفيق ﴿ ٧٠٢ ﴾ ابراهيم ومحمد عليهما السلام والفاء جواب شرط محذوف اذا المعنى ان أرضي واسعة ان لم تخلصوا العبادة لي في أرض فأخلصوها في غيرها ثم حذف الشرط وعوض عنه تقديم المفعول مع افادة تقديمه معنى الاختصاص والاخلاص (كل نفس ذائقة الموت ثم الينا ترجعون) جملة مستأنفة جيء بها حثا على المسارعة في الامتثال بالامر أي كل نفس من النفوس واجدة مرارة الموت وكربه فراجعة الى حكمنا وحرائنا بحسب أعمالها فمن كانت هذه عاقبته فحري له بدمر التزود والاستعداد لها وقرئ يرجعون (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنثوينهم) لننزلنهم (من الجنة غرفا) أي علالي وهو مفعول ثاني لنثوينهم وقرئ لنثوينهم من الثواء بمعنى الاقامة فانتصاب غرفا حينئذ اما بالحرائه مجرى لننزلنهم أو بنزع الخافض أو بتشبيه الظرف المؤقت بالمبهم كما في قوله تعالى لاقعدن لهم صراطك المستقيم (تجري من تحتها الانهار) صفة لغرفا (خالدين فيها) أي في الغرف أو في الجنة (نعم أجر العاملين) أي الاعمال الصالحة والمخصوص بالمدح محذوف ثقة بدلالة ﴿ ووسطه ﴾ ماقبله عليه وقرئ فنعم (الذين صبروا) اما صفة للعاملين أو نصب على المدح أي صبروا على أذية المشركين وشدائد المهاجرة وغير ذلك من المحن والمشاق (وعلى ربهم يتوكلون)

الرياض والحضور على الحياض (المسئلة الثانية) خص بعض الاوقات بالامر بالتسبيح وذلك لان أفضل الاعمال أدومها لكن أفضل الملائكة ملازمون للتسبيح على الدوام كما قال تعالى يسبحون الليل والنهار لايفترون والانسان مادام في الدنيا لايمكنه أن يصرف جميع أوقاته الى التسبيح لكونه محتاجا الى أكل وشرب وتحصيل ماكول ومشروب وملبوس ومركوب فأشار الله تعالى الى أوقات اذا أتى العبد بتسبيح الله فيها يكون كأنه لم يفتر وهي الاول والآخر والوسط أول النهار وآخره ووسطه فأمر بالتسبيح في أول الليل ووسطه ولم يأمر بالتسبيح في آخر الليل لان النوم فيه غالب والله من على عباده بالاستراحة بالنوم كما قال ومن آياته منامكم بالليل فاذا صلى في أول النهار وتسبيحتين وهما ركعتان حسب له صرف ساعتين الى التسبيح ثم اذا صلى أربع ركعات وقت الظهر حسب له صرف أربع ساعات أخر فصارت ست ساعات واذا صلى أربعا في أواخر النهار وهو العصر حسب له أربع أخرى فصارت عشر ساعات فاذا صلى المغرب والعشاء سبع ركعات أخر حصل له صرف سبع عشرة ساعة الى التسبيح وبقي من الليل والنهار سبع ساعات وهي مابين نصف الليل وثلثيه لان ثلثيه ثمان ساعات ونصفه ست ساعات ومابينهما السبع وهذا القدر لو نام الانسان فيه لكان كثيرا واليه اشار تعالى بقوله قم الليل الا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه وزيادة القليل على النصف هي ساعة فيصير سبع ساعات مصروفة الى النوم والنائم مرفوع عنه القلم وقول الله عبدي صرف جميع أوقات تكليفه في تسبيحي فلم يبق لكم أيها الملائكة عليهم الزيادة التي ادعيتم بقولكم نحن نسبح بحمدك ونقدس لك على سبيل الافتخار بل هم مثلكم فمقامهم مثل مقامكم في أعلى عليين واعلم ان في وضع الصلاة في أوقاتها وعدد ركعاتها واختلاف هيئاتها حكمة بالغة أما في عدد الركعات فلتقدم من كون الانسان يقضي في سبع عشرة ساعة مفروض عليه سبع عشرة ركعة وأما على مذهب أبي حنيفة حيث قال بوجوب الوتر ثلاث ركعات وهو أقرب للتوى وتقول هو مأخوذ من ان الانسان ينبغي أن يقلل نومه فلا ينام الا ثلث الليل مأخوذا من قوله تعالى ان ربك يعلم انك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه ويفهم من هذا ان قيام ثلثي الليل مستحسن مستحب مؤكد استحباب وبهذا قال عقيبه علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ذكر بلفظ التوبة واذا كان كذلك يكون الانسان يقظان في عشرين ساعة فأمر بعشرين ركعة وأما النبي عليه السلام فلما كان من شأنه ان لاينام أصلا كما قال تنام عيناي ولا ينام قلبي جعل له كل الليل كالنهار فزيد له التهجد فأمر به والى هذا أشار تعالى في قوله ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا أي كل الليل لك للتسبيح فصار هو في أربع وعشرين ساعة مسبحا فصار من الذين لايفترون طرفة عين وأما في أوقاته فما تقدم أيضا ان الاول والآخر والوسط هو المعتبر فشرع التسبيح في أول النهار وآخره وأما الليل فاعتبر اوله

أى ولم يتوهموا مجيا تون و يدرون الا على الله تعالى (وكاين من دابة لا تحمل رزقها) روى أن النبى عليه الصلاة والسلام لما أمر المؤمنين الذين كانوا بمكة بالهجرة الى المدينة قالوا كيف نقدم بلدة ليس لنا فيها معيشة فنزلت أى وكم من دابة لا تطيق حمل رزقها لضعفها أو لاتدخره و لا تصبح ولا معيشة عندها (الله يرزقها وإياكم) ثم انها مع ضعفها توكلها إياكم مع قوتكم واجتهادكم سواء فى أنه لا يرزقها وإياكم الا الله ﴿ ٧٠٣ ﴾ تعالى لان رزق الكل باسباب هو المسبب لها وحده فلا تخافوا

ووسطه كما اعتبر أول النهار ووسطه وذلك لان الظاهر وقت نصف النهار والليل وقته نصف الليل لانا بينا أن الذى هو المعتبر هو المقدار الذى يكون الانسان فيه عاصيا وهو مقدار خمس ساعات فجعل وقته فى نصف هذا القدر وهو الثلاث من الليل وأما أبو حنيفة لما رأى وجوب الوتر كان زمان النوم عنده أربع ساعات وزمان اليقظة بالليل ثمان ساعات وأخر وقت العشاء الآخرة الى الرابعة والخامسة ليكون فى وسط الليل المعتبر كما أن الظهر فى وسط النهار وأما النبى صلى الله عليه وسلم لما كان ليله نهارا وتوهم انتباهها قال لولا ان أشق على أمتى لاخرتهم بالسواك وتأخير العشاء الى نصف الليل ليكون الاربع فى نصف الليل كما ان الاربع فى نصف النهار وأما التفصيل فالذى يتبين لى أن لنهارنا اثنتا عشرة ساعة زمانية والصلاة المؤداة فيها عشر ركعات فيبقى على المكلف ركعتان يؤديهما فى أول الليل و يؤدى ركعة من صلاة الليل ليكون ابتداء الليل بالتسبيح كما كان ابتداء النهار بالتسبيح ولما كان المؤدى من تسبيح النهار فى أوله ركعتين كان المؤدى من تسبيح الليل فى أوله ركعة لان سبح النهار طويل فمثل ضعف سبح الليل لان المؤدى فى النهار عشرة والمؤدى فى الليل من تسبيح الليل خمس (المسئلة الثالثة) فى فضيلة السبحة والحمدلة فى المساء والصباح ولنذكرها من حيث النقل والعقل أما النقل فأخبرنى الشيخ الورع الحافظ الاستاذ عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان بحلب مسندا عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال لبعض اصحابه انجز عن أن تأتى وقت النوم بألف حسنة فتوقف فقال النبى عليه السلام قل سبحان الله والحمد لله والله أكبر مائة مرة يكتب لك بها ألف حسنة وسمعته يقول رحمه الله مسندا من قال خلف كل صلاة مكتوبة عشر مرات سبحان الله وعشر مرات الحمد لله وعشر مرات الله أكبر أدخل الجنة وأما العقل فهو ان الله تعالى له صفات لازمة لامن فعله وصفات ثابتة له من فعله أما الاول فهى صفات كمال وجلال خلافها نقص فاذا أدرك المكلف الله بانه لا يجوز أن يخفى عليه شئ لكونه عالما بكل شئ فقد نزهه عن الجهل ووصفه بضده واذا عرفه بانه لا يعجز عن شئ لكونه قادرا على كل شئ فقد نزهه عن العجز واذا علم انه لا يجرى فى ملكه الا ما يشاء لكونه مريد الكل كائن فقد وصفه ونزهه واذا ظهر له انه لا يجوز عليه الفناء لكونه واجب البقاء فقد نزهه واذا بان له انه لا يسبقه العدم لاتصافه بالقدم فقد نزهه واذا لاح له انه لا يجوز أن يكون عرضا أو جسما أو فى مكان لكونه واجبا بريئا عن جهات الامكان فقد نزهه لكن صفاته السلبية الاضافية لا يعدها عاد ولو اشتغل بها واحدا فى فى عمره ولا يدرك كنهها فاذا قال قائل مستحضرا بقلبه سبحان الله منبها لما يقوله من كونه منزها له عن كل نقص فاتيانه بالتسبيح على هذا الوجه من الاجمال يقوم مقام اتيانه به على سبيل التفصيل لكن لا ريب فى ان من أتى بالتسبيح عن كل واحد على حدة مما لا يجوز على الله يكون قد أتى بما لا تفى به الاعمار فيقول هذا العبد أتى بتسبيحى طول عمره ومدة بقائه فاجازيه بان أطهره عن

نفقة بالمهاجرة (وهو السميع) المبالغ فى السمع فيسمع قولكم هذا (العليم) المبالغ فى العلم فيعلم ضمائركم (ولئن سألتهم) أى أهل مكة (من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله) اذ لا سبيل لهم الى انكاره ولا الى التردد فيه (فأنى يؤفكون) انكار واستبعاد من جهتهم تعالى لتركهم العمل بموجبه أى فكيف يصرفون عن الاقرار بتفرده تعالى فى الالهية مع اقرارهم بتفرده تعالى فيما ذكر من الخلق والتسخير (الله يبسط الرزق لمن يشاء) أن يبسط له (من عباده و يقدر له) أى يقدر لمن يشاء أن يقدر له منهم كائنا من كان على أن الضمير مبهم حسب ابهام مرجعه أو يقدر لمن يبسطه له على التعاقب (ان الله بكل شئ عليم) فيعلم من يليق ببسط الرزق فيبسطه له ومن يليق بقدره له فيقدره له أو فيعلم ان كلا من البسط والقدر فى أى وقت يوافق الحكمة والمصلحة فيفعل كلا منهما فى وقته (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيى به الارض

بعد موتها ليقولن الله) معترفين بانه الموجد للممكنات باسرها أصولها وفروعها ثم انهم يشركون به بعض مخلوقاته الذى كاد يتوهم منه القدرة على شئ ما أصلا (قل الحمد لله) على

ان جعل الحق بحيث لا يجترئ المبطلون على بحوده وانه أظهر حجتك عليهم وقبل على ان عصمك من أمثال هذه الضلالات ولا يخفى بعده (بل اكثرهم لا يعقلون) أى شيئا من الاشياء فلذلك لا يعملون بمقتضى قولهم هذا فيشركون به سبحانه أخس مخلوقاته وقيل لا يعقلون ما تريد بتحميدك عند مقالهم ذلك (وما هذه الحيوة الدنيا) اشارة تحقير وازدراء للدنيا وكيف لا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ﴿ ٧٠٤ ﴾ ما سقى الكافر منها شربة ماء

(الا لهو ولعب) أى الا كما يلهى ويلعب به الصبيان يجتمعون عليه ويتهجمون بساعة ثم يتفرقون عنه (وان الدار الآخرة لهى الحيوان) أى لهى دار الحياة الحقيقة لامتناع طريان الموت واعناء عليها أو هى فى ذاتها حيا للمبالغة والحيوان مصدر حى سمى به ذو الحياة وأصله حيوان فقلبت ياء الثانية واوا لما فى بنائه فعلان من معنى الحركة والاضطراب اللازم للحيوان ولذلك اختير على الحياة فى هذا المقام المقتضى للمبالغة (لو كانوا يعلمون) أى لما آثروا عليها الدنيا التى صلبها عدم الحياة ثم ما يحدث فيها من الحياة عارضة سريعة الزوال وشيكة الاضمحلال (فاذا ركبوا فى الفلك) متصل بمادل عليه شرح حالهم والركوب هو الاستعلاء على الشئ المتحرك وهو متعد بنفسه كما فى قوله تعالى والخيل والبغال والحمير لتركبوها واستعماله ههنا وفى أمثاله بكلمة فى للايذان بان المركوب فى نفسه من قبيل الامكنة وحركته قسرية غير ارادية كما مر فى سورة هود والمعنى انهم

كل ذنب وأزينه بحلى الكرامة وأنزله بدار المقامة مدة لا انتهاء لها وكما أن العبد يزينه الله فى أول النهار وآخره ووسطه فان الله تعالى يطهره فى أوله وهو دنياه وفى آخره وهو عقباه * وفى وسطه وهو حالة كونه فى قبره الذى يحوبه الى أوان حشره وهو مغناه * وأما الثانية وهو صفات الفعل فالانسان اذا نظر الى خلق الله السموات يعلم انها نعمة وكرامة فيقول الحمد لله فاذا رأى الشمس فيها بازغة فيعلم انها نعمة وكرامة فيقول الحمد لله وكذلك القمر كل كوكب والارض كل نبات كل حيوان يقول الحمد لله لكن الانسان لو حمد الله على كل شئ على حدة لا يفى عمره به وقد استحضر هذه النعم التى لا تعد كما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ويقول الحمد لله على ذلك فهذا الحمد على وجه اجمال يقوم منه مقام الحمد على سبيل التفصيل ويقول عمرى استغرق عمرى حمدى وأنا وعدت الشاكر بالزيادة فيه على حسنة التسبيح الحسنى وله على حمده الزيادة ثم ان الانسان اذا استغرق فى صفات الله فيدعوه عقله الى التفكر فى الله تعالى بعد التفكر فى آلاء الله فكل ما يقع فى عقله من حقيقته فعجز أن يقول الله أكبر مما أدركه لان المدركات وجهات الادراكات لا نهاية لها فان أراد أن يقول على سبيل التفصيل الله أكبر من هذا الذى أدركته من هذا الوجه وأكبر مما أدركته من ذلك الوجه وأكبر مما أدرك من وجه آخر يفنى عمره ولا يفى بادراك جميع الوجوه التى يظن الظان انه مدرك لله بذلك الوجه فاذا قال مع نفسه الله أكبر أى من كل ما أتصوره بقوة عقلى وطاقة ادراكى يكون متوغلا فى العرفان واليه الاشارة بقوله العجز عن درك الادراك ادراك فقول القائل المستفيد سبحان الله والحمد لله والله أكبر مفيد لهذه الفوائد لكن شرطه أن يكون كلاما معتبرا وهو الذى يكون من صميم القلب لا الذى يكون من طرف اللسان (المسئلة الرابعة) قوله وعشيا عطف على حين أى سبحوه حين تمسون وحين تصبحون وعشيا وقوله وله الحمد فى السموات والارض كلام معترض بين المعطوف والمعطوف عليه وفيه لطيفة وهو ان الله تعالى لما أمر العباد بالتسبيح كأنه بين لهم أن تسبيحهم الله لنفعهم لا لنفع يعود على الله فعليهم أن يحمدوا الله اذا سبحوه وهذا كما فى قوله تعالى يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان (المسئلة الخامسة) قدم الامساء على الاصباح ههنا وأخره فى قوله وسبحوه بكرة وأصيلا وذلك لان ههنا أول الكلام ذكر الحشر والاعادة من قوله الله يبدأ الخلق ثم يعيده الى قوله فأولئك فى العذاب محضرون وآخر هذه الآية أيضا ذكر الحشر والاعادة بقوله وكذلك تخرجون والامساء آخر فذكر الآخر ليذكر الآخرة (المسئلة السادسة) فى تعلق اخراج الحى من الميت والميت من الحى بما تقدم عليه هوان عند الاصباح يخرج الانسان من شبه الموت وهو النوم الى شبه الوجود وهو اليقظة وعند العشاء يخرج الانسان من اليقظة الى النوم واختلف المفسرون فى قوله يخرج الحى من الميت فقال أكثرهم يخرج الدجاجة من البيضة

والبيضة ﴿

ى ما وصفوا من الاشراك فاذا ركبوا في البحر ولقوا شدة (دعوا الله مخلصين له الدين) أى كائنين على صورة المخلصين لدينهم المؤمنين حيث لا يدعون غير الله تعالى لعلمهم بأنه لا يكشف الشدائد عنهم الا هو (فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون) أى فاجؤا معاودة الى الشرك (ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا) أى نفاجؤهن الاشراك ليكونوا كافرين بما آتيناهم من نعمة الانجاء التى حقها ان يشكروها (فسوف يعلمون) أى عاقبة ذلك وغائلته ﴿ ٧٠٥ ﴾ حين يرون العذاب (أولم يروا) أى ألم ينظروا ولم يشاهدوا

والبيضة من الدجاجة وكذلك الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان وقال بعضهم المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ويمكن ان يقال المراد بخروج الحى من الميت أى اليقظان من النائم والنائم من اليقظان وهذا يكون قد ذكره للتمثيل أى احياء الميت عنده واماتة الحى كتنبيه النائم وتنويم المتنبه ثم قال تعالى ويحيى الارض بعد موتها وكذلك تخرجون وفى هذا معنى لطيف وهو ان الانسان بالموت تبطل حيوانيته وأما نفسه الناطقة فتفارقه وتبقى بعده كما قال تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل الحيوان تام متحرك حساس لكن النائم لا يتحرك ولا يحس والارض الميتة لا يكون فيها نماء ثم ان النائم بالانتباه يتحرك ويحس والارض الميتة بعد موتها تنمو نباتها فكما أن تحريك ذلك الساكن وانماء هذا الواقف سهل على الله تعالى كذلك احياء الميت سهل عليه الى هذا أشار بقوله وكذلك تخرجون ﴿ ثم قال تعالى (ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون) لما أمر الله تعالى بالتسبيح عن الاسوء وذكر ان الحمد له على خلق جميع الاشياء وبين قدرته على الاماتة والاحياء بقوله فسبحان الله الى قوله وكذلك تخرجون ذكر ما هو حجة ظاهرة وآية باهرة على ذلك ومن جملتها خلق الانسان من تراب وتقريره هو ان التراب أبعد الاشياء عن درجة الاحياء وذلك من حيث كيفيته فانه بارد يابس والحياة بالحرارة والرطوبة ومن حيث انه فانه كدر والروح نير ومن حيث فعله فانه ثقيل والارواح التى بها الحياة خفيفة ومن حيث السكون فانه بعيد عن الحركة والحيوان يتحرك يمنة ويسرة والى خلف والى قدام والى فوق والى اسفل وفى الجملة فالتراب أبعد من قبول الحياة عن سائر الاجسام لان العناصر أبعد من المركبات لان المركب بالتركيب أقرب درجة من الحيوان والعناصر أبعدها التراب لان الماء فيه الصفاء والرطوبة والحركة وكلها على طبع الارواح والنار أقرب لانها كالحرارة الغريزية منضجة جامعة مفرقة ثم المركبات وأول مراتبها المعدن فانه ممتزج وله مراتب أعلاها الذهب وهو قريب من أدنى مراتب النبات وهى مرتبة النبات التى ينبت فى الارض ولا يبرز ولا يرتفع ثم النبات وأعلى مراتبها وهى مرتبة الاشجار التى تقبل التعظيم ويكون لثمرها حب يؤخذ منه مثل تلك الشجرة كالبيضة من الدجاجة والبيضة قريبة من أدنى مراتب الحيوانات وهى مرتبة الحشرات التى ليس لها دم سائل ولا هى الى المنافع الجليلة وسائل النباتات ثم الحيوان وأعلى مراتبها قريبة من مرتبة الانسان فان الانعام ولا سيما الفرس تشبه العتال والحمال والساعى ثم الانسان وأعلى مراتب الانسان قريبة من مرتبة الملائكة المسبحين لله الحامدين له فالله الذى خلق من أبعد الاشياء عن مرتبة الاحياء حيا هو فى أعلى المراتب لا يكون الا منزها عن العجز والجهل ويكون له الحمد على دوام الحياة ويكون له كمال القدرة ونفوذ الارادة فيجوز منه الابداء والاعادة وفى الآية لطيفتان (احداهما) قوله اذا وهى للمفاجأة يقال خرجت فاذا أسد بالباب وهو اشارة

(أنا جعلنا) أى بلدهم (حرما آمنا) مصونا من النهب والنعدى سالما أهله من كل سوء (ويتخطف الناس من حولهم) أى والحال أنهم يختلسون من حولهم قتلا وسبيا اذ كانت العرب حوله فى تغاور وتناهب (أفبالباطل يؤمنون) أى أبعد ظهور الحق الذى لا ريب فيه بالباطل خاسة يؤمنون دون الحق (وبنعمة الله يكفرون) وهى المستوجبة للشكر حيث يشركون به غيره وتقديم الصلة فى الموضعين لاظهار كمال شناعة ما فعلوا (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بان زعم أن له شريكا أى هو اظلم من ظالم وان كان سبك النظم دالا على نفى الاظلم من غير تعرض لنفى المساوى وقد مر مرارا (أو كذب بالحق لما جاءه) أى بالرسول او بالقرآن وفى لما تسفيه لهم بانهم لم يتوقفوا ولم يتأملوا حين جاءهم بل سارعوا الى التكذيب آثر فى أثير (أليس فى جهنم مثوى للكافرين) تقرير لثوائهم فيها كقول من قال ﴿ ألستم خير من ركب المطايا ﴾ أى

ستوجبون الثواء فيها وقد ﴿ ٨٩ ﴾ س فعلوا ما فعلوا من الافتراء على الله تعالى والتكذيب بالحق الصريح أو انكار تبعاد لاجترائهم على ما ذكر من الافتراء والتكذيب مع علمهم بحال الكفرة أى ألم يعلموا أن فى جهنم مثوى للكافرين حتى يؤاخذهم بهذه الجراءة

شوكة الآخر وفى ذلك قوة وعن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه أنه وافق ذلك يوم بدر وفيه من نصر الله العزيز للمؤمنين وفرحهم بذلك مالا يخفى والاول هو الانسب لقوله تعالى (ينصر من يشاء) أى من يشاء أن ينصره من عباده على عدوه ويغلبه عليه فانه استئناف مقرر لمضمون قوله تعالى لله الامر من قبل ومن بعد (وهو العزيز) المبالغ فى العزة والغلبة فلا يعجزه من يشاء أن ينصر عليه كائنا من كان (الرحيم) المبالغ فى الرحمة فينصر ✽ ٧٠٨ ✽ من يشاء أن ينصره أى فريق كان والمراد

(المسئلة الرابعة) قوله وجعل بينكم مودة و رحمة فيه أقوال قال بعضهم مودة بالمجامعة ورحمة بالولد تمسكا بقوله تعالى ذكر رحمة ربك عبده زكريا وقال بعضهم محبة حالة حاجة نفسه و رحمة حالة حاجة صاحبه اليه وهذا لان الانسان يحب مثلا ولده فاذا رأى عدوه فى شدة من جوع وألم قد يأخذ من ولده ويصلح به حال ذلك وما ذلك لسبب المحبة وانما هو لسبب الرحمة و يمكن أن يقال ذكر من قبل أمرين أحدهما كون الزوج من جنسه والثانى ما تفضى اليه الجنسية وهو السكون اليه فالجنسية توجب السكون وذكر ههنا أمرين أحدهما يفضى الى الآخر فالمودة تكون اولا ثم انها تفضى الى الرحمة ولهذا فان الزوجة قد تخرج عن محل الشهوة بكبر أو مرض و يبقى قيام الزوج بها و بالعكس وقوله ان فى ذلك يحتمل أن يقال المراد فى خلق الازواج لآيات و يحتمل أن يقال فى جعل المودة بينهم آيات (اما الاول) فلا بد له من فكر لان خلق الانسان من الوالدين يدل على كمال القدرة ونفوذ الارادة وشمول العلم لمن يتفكر ولو فى خروج الولد من بطن الام فان دون ذلك لو كان من غير الله لأفضى الى هلاك الام وهلاك الولد أيضا لان الولد لو سل من موضع ضيق بغير اعانة الله لمات (واما الثانى) فكذلك لان الانسان يجد بين القريبين من التراحم ما لا يجده بين ذوى الارحام وليس ذلك بمجرد الشهوة فانها قد تنتفى وتبقى الرحمة فعلم ان الله لو كان يريد بخلقه مجرد الشهوة والغضب كثيرا الوقوع وهو سبحانه للشهوة والشهوة غير دائمة فى نفسها فكان كل ساعة بينهما فراق وطلاق بالرحمة التى بها يدفع الانسان المكاره عن حريم حرمه هى من عند الله ولا يعلم ذلك الا بفكر * ثم قال تعالى (ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان فى ذلك لآيات للعالمين) لما بين دلائل الانفس ذكر دلائل الآفاق وأظهرها خلق السموات والارض فان بعض الكفار يقول فى خلق البشر وغيره من المركبات انه بسبب ما فى العناصر من الكيفيات وما فى السموات من الحركات وما بينهما من الاتصالات فاذا قيل له فالسماء والارض لم تكن لامتزاج العناصر ولا تصالات الكواكب فلا بد بدا من أن يقول ذلك بقدرة الله وارادته ثم أشار الى دلائل الانفس والآفاق ذكر ما هو من صفات الانفس بالاختلاف الذى بين أبوين الانسان فان واحدا منهم مع كثرة عددهم وصغر جرم خدودهم وقدودهم لا يشتبه بغيره والسموات مع كبرها وقلة عددها مشتبهات فى الصورة والثانى اختلاف كلامهم فان عربيين هما اخوان اذا تكلما بلغة واحدة يعرف أحدهما من الآخر حتى أن من يكون محجوبا عنهما لا يبصرهما يقول هذا صوت فلان وهذا صوت فلان الآخر وفيه حكمة بالغة وذلك لان الانسان يحتاج الى التمييز بين الاشخاص ليعرف صاحب الحق من غيره والعدو من الصديق ليحترز قبل وصول العدو اليه وليقبل على الصديق قبل أن يفوته الاقبال عليه وذلك قد يكون بالبصر فخلق اختلاف الصور وقد يكون بالسمع فخلق اختلاف الاصوات وأما اللمس والشم والذوق

بالرحمة هى الدنيوية أما على القراءة المشهورة فظاهر لما ان كلا الفريقين لا يستحق الرحمة الاخروية واما على القراءة الاخيرة فلان المسلمين وان كانوا مستحقين لها لكن المراد ههنا نصرهم الذى هو من آثار الرحمة الدنيوية وتقديم وصف العزة لتقدمه فى الاعتبار (وعد الله) مصدر مؤكد لنفسه لان ما قبله فى معنى الوعد كأنه قيل وعدهم الله وعدا (لا يخلف الله وعده) أى وعدكل ما يتعلق بالدنيا والآخرة لاستحالة الكذب عليه سبحانه واظهار الاسم الجليل فى موقع الاضمار لتعليل الحكم وتفخيمه والجملة استئناف مقرر لمعنى المصدر وقد جوز أن تكون حالا منه فيكون كالمصدر الموصوف كأنه قيل وعدا غير مخلف (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أى ما سبق من شؤنه تعالى (يعلمون ظاهرا من الحيوة الدنيا) وهو ما يشاهدونه من زخارفها وملاذها وسائر أحوالها الموافقة لشهواتهم الملائمة لاهوائهم المستدعية لانهماكهم فيها وعليها وعكوفهم عليها الامتهم بزخارفها وتنعمهم بملاذها كما قيل فانها لسامٍ علوه منها بل من أفعالهم المترتبة ✽ فلا على علومهم وتكبر ظاهرا للتحقير والتخسيس دون الوحدة كأنهم أى يعلمون ظاهرا حقيرا خسيسا من الدنيا (وهم عن الآخرة) التى هى الغاية القصوى والمطلب الاسنى (هم غافلون) يخطرونها بالبال ولا يدركون من الدنيا ما يؤدى

الى معرفتها من أحوالها ولا يتفكرون فيها كما سيأتي والجملة معطوفة على يعلمون وايرادها اسمية للدلالة على استمرار غفلتهم ودوامها وهم الثانية تكرير للاولى أو مبتدأ وغافلون خبره والجملة خبر للاولى وهو على الوجهين مناد على تمكن غفلتهم عن الآخرة المحققة لمقتضى الجملة المتقدمة تقريرا لجهالتهم وتشبيها لهم بالبهائم المقصور ادراكها من الدنيا على ظواهرها الحسية دون أحوالها التي هي مبادي العلم ﴿ ٧٠٩ ﴾ بأمور الآخرة واشعارا بان العلم المذكور وعدم العلم رأسا سيان

فلا يفيد فائدة في معرفة العدو والصديق فلا يقع بها التميز ومن الناس من قال المراد اختلاف اللغة كالعربية والفارسية والرومية وغيرها والاول أصح ثم قال تعالى لآيات للعالمين لما كان خلق السموات والارض لم يحتمل الا احتمالات البعيدة التي يقولها أصحاب الطبائع واختلاف الالوان كذلك واختلاف الاصوات كذلك قال للعالمين لعموم العلم بذلك * ثم قال تعالى (ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ان في ذلك لآيات لقوم يسمعون) لما ذكر بعض العرضيات اللازمة وهو الاختلاف ذكر الاعراض المفارقة ومن جملتها النوم بالليل والحركة طلبا للرزق بالنهار فذكر من اللوازم أمرين ومن المفارقة أمرين وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله منامكم بالليل والنهار قيل أراد به النوم بالليل والنوم بالنهار وهي القيلولة ثم قال وابتغاؤكم أي فيهما فان كثيرا ما يكتسب الانسان بالليل وقيل أراد منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار فلف البعض بالبعض ويدل عليه آيات أخر منها قوله تعالى وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا وقوله وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا ويكون هكذا ومن آياته منامكم وابتغاؤكم بالليل والنهار من فضله وآخر الابتغاء موقرنه في اللفظ بالفعل اشارة الى أن العبد ينبغي أن لا يرى الرزق من كسبه ويجذمه بل يرى كل ذلك من فضل ربه ولهذا قرن الابتغاء بالفضل في كثير من المواضع منها قوله تعالى فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله وقوله وابتغوا من فضله (المسئلة الثانية) قدم المنام بالليل على الابتغاء بالنهار في الذكر لان الاستراحة مطلوبة لذاتها والطلب لا يكون الا لحاجة فلا يتعب الاحتياج في الحال أو خائف من المآل (المسئلة الثالثة) قال آيات لقوم يسمعون وقال من قبل لقوم يتفكرون وقال للعالمين فقول المنام بالليل والابتغاء من فضله يظن الجاهل أو الغافل انهما يقتضيه طبع الحيوان فلا يظهر لكل أحد كونهما من الله فلم يقل آيات للعالمين ولان الامرين الاولين وهو اختلاف الالسنة والالوان من اللوازم والمنام والابتغاء من الامور المفارقة فالنظر اليهما لا يدوما لزومهما لبعض الاوقات ولا كذلك اختلاف الالسنة والالوان فانهما يدومان بدوام الانسان فجعلهما آيات عامة وأما قوله لقوم يتفكرون فاعلم أن من الاشياء ما يعلم من غير تفكر ومنها ما يكفي فيه مجرد الفكرة ومنها ما لا يخرج بالفكر بل يحتاج الى موقف يوقف عليه ومرشد يرشد اليه فيفهمه اذا سمعه من ذلك المرشد ومنها ما يحتاج الى بعض التأمل في تفهيمه الى أمثلة حسية كالاشكال الهندسية لكن خلق الازواج لا يقع لاحد أنه بالطبع الا اذا كان جامد الفكر خامد الذكر فاذا تفكر علم كون ذلك الخلق آية وأما المنام والابتغاء فقد يقع لكثير أنهما من أفعال العباد وقد يحتاج الى مرشد بغير فكر فقال لقوم يسمعون ويجعلون بالهم الى كلام المرشد * ثم قال تعالى (ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيي به الارض بعد موتها ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون) لما ذكر

(أولم يتفكروا) انكار واستقباح لقصر نظرهم على ما ذكر من ظاهر الحياة الدنيا مع الغفلة عن الآخرة والواو للعطف على مقدر يقتضيه المقام وقوله تعالى (في أنفسهم) ظرف للتفكر وذكره مع ظهور استحالة كونه في غيرها لتحقيق أمره وتصوير حال المتفكرين وقوله تعالى (ما خلق الله السموات والارض وما بينهما) الخ متعلق اما بالعلم الذي يؤدي اليه التفكر ويدل عليه أو بالقول الذي يترتب عليه كما في قوله تعالى ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا أي أعلموا ظاهر الحياة الدنيا فقط أو أقصروا النظر عليه ولم يحدثوا التفكر في قلوبهم فيعلموا أنه تعالى ما خلقهما وما بينهما من المخلوقات التي هم من جملتها محتسبة بشيء من الاشياء * (الا) ملتبسة (بالحق) أو يقولوا هذا القول معترفين بمضمونه اثر ما علموه والمراد بالحق الثابت الذي يحق أن يثبت لامحالة لابتنائه على الحكمة البالغة والغرض الصحيح الذي هو استشهاد المكلفين بذاتها وصفاتها وأحوالها المتغيرة على وجود صانعها عز وجل ووحدته وعلمه وقدرته وحكمته واختصاصه بالعبودية وصحة أخباره التي من جملتها احياؤهم

بعد الفناء بالحياة الابدية ومجازاتهم بحسب اعمالهم غب ما تبين المحسن من المسيء وامتازت درجات أفراد كل من الفريقين حسب امتياز طبقات علومهم واعتقاداتهم المترتبة على أنظارهم فيما نصب في المصنوعات من الآيات والدلائل والامارات والمخايل كما نطق به قوله تعالى وهو الذي خلق السموات والارض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا فان العمل غير مختص بعمل الجوارح ﴿ ٧١٠ ﴾ ولذلك فسره عليه الصلاة والسلام بقوله

أيكم أحسن عقلا وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله وقدم تحقيقه في أوائل سورة هود عليه السلام وقوله تعالى (وأجل مسمى) عطف على الحق أي وباجل معين قدره الله تعالى لبقائها لابد لها من أن تنتهي اليه لامحالة وهو وقت قيام الساعة هذا وقد يجوز أن يكون قوله تعالى في أنفسهم صلة للتفكر على معنى أولم يتفكروا في أنفسهم التي هي أقرب المخلوقات اليهم وهم أعلم بشؤنها وأخبر بأحوالها منهم بأحوال ما عداها فيتدبروا ما أودعها الله تعالى ظاهرا وباطنا من غرائب الحكم الدالة على التدبير دون الاهمال وأنه لابد لها من انتهاء الى وقت يجازى فيه الحكيم الذي دبر أمرها على الاحسان احسانا وعلى الاساءة مثلها حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها جار على الحكمة والتدبير وأنه لابد لها من الانتهاء الى ذلك الوقت وأنت خبير بان أمر معاد الانسان ومجازاته بما عمل من الاساءة والاحسان هو المقصود بالذات والمحتاج الى الاثبات ﴿ الاوهام ﴾ فجعله ذريعة الى اثبات معادما عداه مع كونه بمعزل من الجزاء تعكيس للامر فتدبر وقوله تعالى (وان كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون) تذييل

العرضيات التي للانفس اللازمة والمفارقة ذكر العرضيات التي للآفاق وقال يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء وفي الآية مسائل (احداها) لما قدم دلائل الانفس ههنا قدم العرضيات التي للانفس وأخر العرضيات التي للآفاق كما أخر دلائل الآفاق بقوله ومن آياته خلق السموات والارض (المسئلة الثانية) قدم لوازم الانفس على العوارض المفارقة حيث ذكر أولا اختلاف الالسنة والالوان ثم المنام والابتغاء وقدم في الآفاق العوارض المفارقة على اللوازم حيث قال يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل وذلك لان الانسان متغير الحال والعوارض له غير بعيدة واما اللوازم فيه فقريبة واما السموات والارض فقليلة التغير فالعوارض فيها أغرب من اللوازم فقدم ماهو أعجب لكونه أدخل في كونه آية وتزيده بيانا فقول الانسان يتغير حاله بالكبر والصغر والصحة والسقم وله صوت يعرف به لايتغير له لون يتميز عن غيره وهو يتغير في الاحوال وذلك لا يتغير وهو آية عجيبة والسماء والارض كذلك ينتقلان ثم يتغيران في بعض الاحوال فاظهارها طلعة وبروق هائلة والسماء كما كانت والارض كذلك فهو آية دالة على فاعل مختار يديم أمرا مع تغير المحل وينزل أمرا مع ثبات المحل (المسئلة الثالثة) كما قدم السماء على الارض قدم ماهو من السماء وهو البرق والمطر على ما هو من الارض وهو الاثبات والاحياء (المسئلة الرابعة) كما ان في انزال المطر واثبات الشجر منافع كذلك في تقدم البرق والرعد على المطر منفعة وذلك لان البرق اذا لاح والذي لايكون تحت كن يخاف الاغتيال فيستعده والذي له صهريج أو مصنع يحتاج الى الماء أو زرع يستوى مجاري الماء وأيضا العرب من أهل البوادي فلا يعلون البلاد لعدم القرار لم يكونوا قد رأوا البروق اللائحة من جانب دون جانب واعلم أن هو ان البرق ما لم تظهر للمقيمين البلاد في ظاهره للبادين ولهذا جعل تقديم البرق على تنزيل الماء من السماء نعم وآية وأما كونه آية فظاهر فان في السحاب ليس الا ماء وهواء وخروج النار منهما بحيث تحرق الجبال في غاية البعد فلا بد له من خالق هو الله قالت الفلاسفة السحاب فيه كثافة ولطافة فالنسبة الى الهواء والماء فالهواء ألطف منه والماء أكثف فاذا هبت ريح قوية تخرق السحاب بعنف فيحدث صوت الرعد ويخرج منه نار كما يكاس جسم جسما بعنف وهذا كما ان النار تخرج من وقوع الحجر على الحديد فان قال قائل الحجر والحديد جسمان صلبان والسحاب والريح جسمان رطبان ويقولون لكن حركة الانسان ضعيفة وحركة الريح قوية تقلع الاشجار فنقول لهم البرق والرعد أمران حادثان لابد لهما من سبب وقد علم بالبرهان كون كل حادث من الله فهما من الله ثم انا نقول هب ان الامر كما تقولون فهبوب تلك الريح القوية من الامور الحادثة العجيبة لابد له من سبب وينتهي الى واجب الوجود فهو آية للعاقل على قدرة الله كيفما فرضتم ذلك (المسئلة الخامسة) قال ههنا قوم يعقلون لما كان حدوث الولد من الوالد أمرا عاديا مطردا قليل الاختلاف كان يتعلق الى

مقرر لما نبه بيان أن أكثرهم غير مقتصرين على ماذكر من الغفلة عن أحوال الآخرة والاعراض عن التفكر فيما يرشدهم الى معرفتها خلق السموات والارض وما بينهما من المصنوعات بل هم منكرون جاحدون بلقاء حسابه تعالى وجزائه بالبعث (أولم يسيروا) توبيخ لهم بعدم اتعاظهم بمشاهدة أحوال أمثالهم الدالة على عاقبتهم ومآلهم والهمزة لتقرير النفي والواو للعطف على مقدر ﴿ ٧١١ ﴾ يقتضيه المقام أى أقعدوا فى أماكنهم ولم يسيروا (فى الارض) وقوله تعالى (فينظروا) عطف على يسيروا داخل فى حكم التقرير والتوبيخ والمعنى انهم قد ساروا فى أقطار الارض وشاهدوا (كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) من الامم المهلكة كعاد وثمود وقوله تعالى (كانوا أشد منهم قوة) الخ بيان لمبدأ احوالهم ومآلها يعنى أنهم كانوا أقدر منهم على التمتع بالحياة حيث كانوا أشد منهم قوة (وأثاروا الارض) أى قلبوها للزراعة والحرث وقيل لاستنباط المياه واستخراج المعادن وغير ذلك (وعمروها) أى عمرها أولئك بفنون العمارات من الزراعة والغرس والبناء وغيرها مما يعد عمارة لها (أكثر مما عمروها) أى عمارة أكثر كما وكيفا وزمانا من عمارة هؤلاء اياها كيف لا وهم أهل واد غير ذى زرع لا تبسط لهم فى غيره وفيه تهكم بهم حيث كانوا مغترين بالبسطة مفتخرين بمتاعها مع سخف حالهم وضيق عطنهم اذ مدار أمرها على التبسط فى البلاد والتسلط على العباد والتقلب فى اكناف الارض

الاوهام العامية أن ذلك بالطبيعة لان المطر أقرب الى الطبيعة من المختلف لكن البرق والمطر ليس أمرا مطردا غير مختلف اذ هم ببلدة دون بلدة وفى وقت دون وقت وتارة تكون قويته وتارة تكون ضعيفة فهو أظهر فى العقل دلالة على الفاعل المختار فقال هو آية لمن له عقل أن لم يتفكر تفكرا تاما * ثم قال تعالى (ومن آياته أن تقوم السماء والارض بأمره ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا انتم تخرجون) لما ذكر من العوارض التى للسماء والارض بعضها ذكر من لوازمها البعض وهى قيامها فان الارض لثقلها يتعجب العقل من قيامها وعدم نزولها وكون السماء يتعجب من علوها وثباتها من غير عمد وهذا من لوازم فان الارض لا تخرج عن مكانها الذى هى فيه والسماء كذلك لا تخرج عن مكانها الذى هى فيه فان قيل انها تتحرك فى مكانها كالرحى ولكن اتفق العقلاء على انها فى مكانها لا تخرج عنه وهذه آية ظاهرة لان كونهما فى الموضع الذى هما فيه وعلى الموضع الذى هما عليه من الامور الممكنة وكونهما فى غير ذلك الموضع جائز لكان يمكن أن يخرجا منه فاذا خرجا كان ذلك ترجيحا للجائز على غيره وذلك لا يكون الا بفاعل مختار والفلاسفة قالوا كون الارض فى المكان الذى هى فيه طبيعى لها لانها أثقل الاشياء والثقيل يطلب المركز والخفيف يطلب المحيط والسماء كونها فى مكانها ان كانت ذات مكان فلذاتها فقيامهما فيهما بطبعهما فنقول قد تقدم مرارا ان القول بالطبيعة باطل والذى نزيده ههنا انكم وافقتمونا بأن ما جاز على احد المثلين جاز على المثل الآخر لكن مقعر الفلك لا يخالف محدبه فى الطبع فيجوز حصول مقعره فى موضع محدبه وذلك بالخروج والزوال فاذن الزوال عن المكان ممكن لاسيما على السماء الدنيا فانها محددة للجهات على مذهبكم أيضا والارض كانت تجوز عليها الحركة الدورية كما تقولون على السماء فعدمها وسكونها ليس الا بفاعل مختار وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) ذكر الله من كل باب أمرين أما من الانفس فقوله خلق لكم استدل بخلق الزوجين ومن الآفاق السماء والارض فى قوله خلق السموات والارض ومن لوازم الانسان اختلاف اللسان واختلاف الالوان ومن عوارضه المنام والابتغاء ومن عوارض الآفاق البروق والامطار ومن لوازمها قيام السماء وقيام الارض لان الواحد يكفى للاقرار بالحق الثانى يفيد الاستقرار بالحق ومن هذا اعتبر شهادة شاهدين فان قول احدهما يفيد ظنا وقول الآخر يفيد تأكيده وبهذا قال ابراهيم عليه السلام ولكن ليطمئن قلبى (المسئلة الثانية) قوله بأمره أى بقوله قوما أو بارادته قيامهما وذلك لان الامر عند المعتزلة موافق للارادة وعندنا ليس كذلك ولكن النزاع فى الامر الذى للتكليف لا فى الامر الذى للتكوين فانا لا ننازعهم فى أن قوله كن وكونوا ويا نار كونى موافق للارادة (المسئلة الثالثة) قال ههنا ومن آياته أن تقوم وقال قبله ومن آياته يريكم ولم يقل ان يريكم وان قال بعض المفسرين ان أن مضمر هناك معناه من آياته إن يريكم ليصير

ناف التصرفات وهم ضعفة ملجؤن الى واد لا نفع فيه يخافون أن يتخطفهم الناس (وجاءتهم رسلهم بالبينات) ات أو الآيات الواضحات (فما كان الله ليظلمهم) أى فكذبوهم فاهلكهم فما كان الله ليهلكهم

من غير جرم يستدعيه من قبلهم والتعبير عن ذلك بالظلم مع أن هلاكه تعالى اياهم بلا جرم ليس من الظلم في شيء على ما تقرر من قاعدة أهل السنة لاظهار كمال نزاهته تعالى عن ذلك بايراده في معرض ما يستحيل صدوره عنه تعالى وقدم في سورة الانفال وسورة آل عمران (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بان اجترؤا على اقتراف ما يوجبه من المعاصي العظيمة (ثم كان عاقبة الذين أساؤا) أي عملوا السيئات وضع الموصول موضع ضميرهم ﴿ ٧١٢ ﴾ للتسجيل عليهم بالاساءة والاشعار بعلة الحكم (السوأى) أي العقوبة التي هي أسوأ العقوبات وأفظعها التي هي النار فانها تأنيث الاسوأ كالحسنى تأنيث الاحسن او مصدر كالبشرى وصف به العقوبة مبالغة كانها نفس السوأى وهي مرفوعة على انها اسم كان وخبرها عاقبة وقرئ على العكس وهو أدخل في الجزالة وقوله تعالى (أن كذبوا بآيات الله) علة لما أشير اليه من تعذيبهم الدنيوي والاخروي أي لأن كذبوا أو بان كذبوا بآيات الله المنزلة على رسله عليهم الصلاة والسلام ومعجزاته الظاهرة على أيديهم وقوله تعالى (وكانوا بها يستهزؤن) عطف على كذبوا داخل معه في حكم العلية وايراد الاستهزاء بصيغة المضارع للدلالة على استمراره وتجدده هذا هو اللائق بجزالة النظم الجليل وقد قيل وقيل (الله يبدؤا الخلق) أي ينشئهم (ثم يعيده) بعد الموت بالبعث (ثم اليه ترجعون) الى موقف الحساب والجزاء والالتفات للمبالغة في الترهيب وقرئ بالياء (ويوم تقوم الساعة) ﴿ من ﴾ التي هي وقت اعادة الخلق ورجعهم اليه (يبلس المجرمون) أي يسكتون متحيرين لا ينبسون يقال ناظرته فابلس اذا سكت وأيس من أن يحتج وقرئ

كالصدر بأن ذلك لان القيام لما كان غير متغير أخرج الفعل بأن عن الفعل المستقبل وجعله مصدرا لان المستقبل ينبئ عن التجدد وفي البرق لما كان ذلك من الامور التي تتجدد في زمان دون زمان ذكر بلفظ المستقبل ولم يذكر معه شيئا من الحروف المصدرية (المسئلة الرابعة) ذكر ستة دلائل وذكر في أربعة منها ان في ذلك الآيات ولم يذكر في الاول وهو قوله ومن آياته أن خلقكم من تراب ولا في الآخر وهو قوله ومن آياته أن تقوم السماء والارض ما في الاول فلان قوله بعده ومن آياته أن خلق لكم أيضا دليل الانفس فخلق الانفس وخلق الازواج من نفس واحد على ما بينا غير آيته تعالى ذكر من كل باب مرتين للتغيير والتكرير فاذا قال ان في ذلك لآيات كان عائدا اليهما واما في قيام السماء والارض فنقول في الآيات السماوية ذكر انها آيات للعالمين ولقوله يعقلون لظهورها فانها كانت في أول الامر ظاهرا ففي آخر الامر بعد سرد الدلائل يكون أظهر فلم يمز أحدا عن أحد في ذلك وذكر هو مدلوله وهو قدرته على الاعادة وقال ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا أنتم تخرجون وفيها مسائل (المسئلة الاولى) ما وجه العطف بثم وهم تعلق ثم فقول معناه والله أعلم انه تعالى اذا بين لكم كمال قدرته بهذه الآيات بعد ذلك يخبركم ويعلمكم انه اذا قال للعظام الرميمة اخرجوا من الاجداث يخرجون أحياء (المسئلة الثانية) قول القائل دعا فلان فلانا من الجبل يحتمل أن يكون الدعاء من الجبل كما يقول القائل يا فلان اصعد الى الجبل فيقال دعاه من الجبل ويحتمل أن يكون المدعو يدعى من الجبل كما يقول القائل يا فلان انزل من الجبل فيقال دعاه من الجبل ولا يخفى على العاقل أن الدعاء لا يكون من الارض اذا كان الداعي هو الله فالمدعو يدعى من الارض يعني أنتم تكونون في الارض فيدعوكم منها فتخرجون (المسئلة الثالثة) قوله تعالى اذا أنتم فدل بتا انه للمفاجأة يعني يكون ذلك بكن فيكون (المسئلة الرابعة) قال ههنا اذا أنتم تخرجون وقال في خلق الانسان أولا ثم اذا أنتم بشر تنتشرون فنقول هناك يكون خلق وتقدير وتدريج وتراخ حتى يصير التراب قابلا للحياة فنفخ فيه روحه فاذا هو بشر وأما في الاعادة لا يكون تدريج وتراخ بل يكون نداء وخروج فلم يقل ههنا ثم ﴿ ثم قال تعالى (وله من في السموات والارض كل له قانتون) لما ذكر الآيات وكان مدلولها القدرة على الحشر التي هي الاصل الآخر والوحدانية التي هي الاصل الاول أشار اليها بقوله وله من في السموات والارض يعني لا شريك له أصلا لان كل من في السموات وكل من في الارض ونفس السموات والارض له وملكه فكل له منقادون قانتون والشريك يكون منازعا مماثلا فلا شريك له أصلا ثم ذكر المدلول الآخر فقال تعالى (وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) أي في نظركم الاعادة أهون من الابداء لان من يفعل فعلا أولا يصعب عليه ثم اذا فعل بعد ذلك يكون اهون وقيل المراد هو هين عليه كما قيل في قول القائل الله أكبر اي كبير وقيل المراد هو أهون عليه أي الاعادة أهون على الخالق

بفتح اللام من أبلسه اذا أفحمه وأسكته (ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء) يجيرونهم من عذاب الله تعالى كما كانوا يزعمونه وصيغة الجمع لوقوعها في مقابلة الجمع اى لم يكن لواحد منهم شفيع اصلا (وكانوا بشركائهم كافرين) اى بالهيتهم وشركتهم لله سبحانه حيث وقفوا على كنه أمرهم وصيغة الماضي للدلالة على تحققه وقيل كانوا في الدنيا كافرين بسببهم وليس بذاك اذ ليس في الاخبار به فائدة يعتد بها (ويوم تقوم ❁ ٧١٣ ❁ الساعة) أعيدت تهويله وتفظيع ما يقع فيه وقوله تعالى (يومئذ يتفرقون)

من الابداء لان في البدء يكون علقة ثم مضغة ثم لحما ثم عظما ثم ينخلق بشرا ثم يخرج طفلا يترعرع الى غير ذلك فيصعب عليه ذلك كله واما في الاعادة فيخرج بشرا سويا بكن فيكون أهون عليه والوجه الاول أصح وعليه تكلم فنقول هو أهون يحتمل أن يكون ذلك لان في البدء خلق الاجزاء وتأليفها والاعادة تأليف ولا شك أن الامر الواحد أهون من أمرين ولا يلزم من هذا أن يكون غيره فيه صعوبة ولنبين هذا فنقول الهين هو ما لا يتعب فيه الفاعل والاهون ما لا يتعب فيه الفاعل بالطريق الاولى فاذا قال قائل ان الرجل القوى لا يتعب من نقل شعيرة من موضع الى موضع وسلم السامع له ذلك فاذا قال فكونه لا يتعب من نقل خردلة يكون أولى يكون ذلك كلاما معقولا مبقى على حقيقته ❁ ثم قال تعالى (وله المثل الاعلى في السموات والارض وهو العزيز الحكيم) أى قولنا هو أهون عليه يفهم منه أمران (أحدهما) هو ما يكون في الآخر تعب كما يقال ان نقل الخفيف أهون من نقل الثقيل (والآخر) هو ما ذكرنا من الاولوية من غير لزوم تعب في الآخر فقوله وله المثل الاعلى اشارة الى أن كونه أهون بالمعنى الثاني لا يفهم منه الاول وههنا فائدة ذكرها صاحب الكشاف وهي ان الله تعالى قال في موضع آخر هو على هين وقال ههنا وهو أهون عليه فقدم هناك كلمة على وأخرها هنا وذلك لان المعنى الذي قال هناك انه هين هو خلق الولد من العجوز وانه صعب على غيره وليس بهين الا عليه فقال هو على هين يعني لا على غيري واما ههنا المعنى الذي ذكرنا انه أهون هو الاعادة والاعادة على كل مبدئ أهون فقال وهو أهون عليه لا على سبيل الحصر فالتقديم هناك كان للحصر وقوله تعالى وله المثل الاعلى في السموات والارض على الوجه الاول وهو قولنا أهون عليه بالنسبة الكم له معنى وعلى الوجه الذي ذكرناه له معنى اما على الوجه الاول فلما قال وله المثل الاعلى وكان ذلك مثلا مضروبا لمن في الارض من الناس فيفيد ذلك أن له المثل الاعلى من أمثلة الناس وهم أهل الارض ولا يفيد أن له المثل الاعلى من أمثلة الملائكة فقال وله المثل الاعلى في السموات والارض يعني هذا مثل مضروب لكم وله المثل الاعلى من هذا المثل ومن كل مثل يضرب في السموات واما على الوجه الثاني فمعناه أن له المثل الاعلى أى فعله وان شبهه بفعلكم ومثله به لكن ذاته ليس كمثله شئ فله المثل الاعلى وهو مقول عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقيل المثل الاعلى أى الصفة العليا وهي لا اله الا الله وقوله تعالى وهو العزيز الحكيم أى كامل القدرة على الممكنات شامل العلم بجميع الموجودات فيعلم الاجزاء في الامكنة و يقدر على جمعها و تأليفها ❁ ثم قال تعالى (ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت ايمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) لما بين الاعادة والقدرة عليها بالمثل بعد الدليل بين الوحدانية أيضا بالمثل بعد الدليل ومعناه أن من يكون له مملوك فيكون شريكا له في ماله بل يكون له حرمة مثل حرمة سيده فكيف يجوز أن يكون عباد

تهويل له أو تهويل وفيه رمز الى أن التفرق يقع في بعض منه وضمير يتفرقون لجميع الخلق المدلول عليهم بما تقدم من بدئهم واعادتهم ورجعهم لا المجرمون خاصة وليس المراد بتفرقهم افتراق كل فرد منهم عن الآخر بل تفرقهم الى فريق المؤمنين والكافرين كما في قوله تعالى فريق في الجنة وفريق في السعير وذلك بعد تمام الحساب وقوله تعالى (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة يحبرون) تفصيل و بيان لاحوال ذينك الفريقين والروضة كل أرض ذات نبات وماء ورونق ونضارة وتنكيرها للتفخيم والمراد بها الجنة والحبور السرور يقال حبره اذا سره سرورا تهلل له وجهه وقيل الحبرة كل نعمة حسنة والتحبير التحسين واختلفت فيه الاقاويل لاحتماله وجوه جميع المسار فعن ابن عباس ومجاهد يكرمون وعن قتادة ينعمون وعن ابن كيسان يحبرون وعن بكر ابن عياش التيجان على رؤسهم وعن وكيع السماع في الجنة وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر الجنة وما فيها من النعيم ❁ ٩٠ س ❁ وفي آخر انه قام اعرابي فقال يا رسول الله هل في الجنة من سماع قال عليه الصلاة والسلام يا أعرابي ان في الجنة لنهرا حافتاه الابكار من كل بيضاء خوصاء يتغنين بأصوات لم يسمع الخلائق مثلها قط فذلك أفضل نعيم الجنة قال الراوي فسألت

أبا الدرداء رضي الله عنه بم يتغنين قال بالتسبيح وروى ان في الجنة لاشجارا عليها أجراس من فضة فاذا أراد أهل الجنة السماع بعث الله تعالى ريحا من تحت العرش فتقع في تلك الاشجار فتحرك تلك الاجراس بأصوات لو سمعها أهل الدنيا لماتوا طربا (وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا) الآية من جملتها هذه الآيات الناطقة بما فصل (ولقاء الآخرة) صرح بذلك مع اندراجه في تكذيب الآيات للاعتناء بأمره وقوله تعالى ﴿ ٧١٤ ﴾ (فاولئك) اشارة الى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة من الكفر والتكذيب بآياته وبلقاء الآخرة للايذان بكمال تميزهم بذلك عن غيرهم وانتظامهم في سلك المشاهدات وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للاشعار ببعد منزلتهم في الشر أي أولئك الموصوفون بما فصل من القبائح (في العذاب محضرون) على الدوام لا يغيبون عنه أبدا (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السموات والارض وعشيا وحين تظهرون) اثر ما بين حال فريقي المؤمنين العاملين للصالحات والكافرين المكذبين بالآيات وما لهما من الثواب والعذاب أمر وايمايجيء من الثاني ويفضي الى الاول من تنزيه الله عز وجل عن كل ما لا يليق بشأنه سبحانه ومن حمده تعالى على نعمه العظام وتقديم الاول على الثاني لما أن التخلية متقدمة على التحلية والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها اي اذا علمتم ذلك فسبحوا الله تعالى أي نزهوه عما ذكر سبحانه أي تسبيحه اللائق به في هذه الاوقات وأحدثوه ﴿ أضلهم ﴾ فان الاخبار بثبوت الحمد له تعالى ووجوبه على المميزين من أهل السموات والارض في معنى الامر به على أبلغ وجه وآكده وتوسيطه بين أوقات التسبيح للاعتناء بشأنه والاشعار بان حقهما أن يجمع بينهما كما ينبيء عنه قوله تعالى ونحن نسبح بحمدك وقوله تعالى فسبح بحمد ربك وقوله صلى الله

الله شركاء له وكيف يجوز أن يكون لهم عظمة مثل عظمة الله تعالى حتى يعبدوا وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) ينبغي أن يكون بين المثل والممثل به مشابهة ما ثم ان كان بينهما مخالفة فقد يكون مؤكدا لمعنى المثل وقد يكون موهنا له وههنا وجه المشابهة معلوم واما المخالفة فموجودة أيضا وهي مؤكدة وذلك من وجوه (أحدها) قوله من أنفسكم يعني ضرب لكم مثلا من أنفسكم مع حقارتها ونقصانها وعجزها وفاس نفسه عليكم مع عظمها وكمالها وقدرتها (وثانيها) قوله مما ملكت ايمانكم يعني عبيدكم لكم عليهم ملك اليد وهو طارق قابل للنقل والزوال اما النفل فبالبيع وغيره والزوال بالعتق ومملوك الله لا خروج له من ملك الله بوجه من الوجوه فاذا لم يجز أن يكون مملوك بعضكم شريكا لكم مع انه يجوز أن يصير مثلكم من جميع الوجوه بل هو في الحال مثلكم في الآدمية حتى انكم ليس لكم تصرف في روحه وآدميته بقتل وقطع وليس لكم منعهم من العبادة وقضاء الحاجة فكيف يجوز أن يكون مملوك الله الذي هو مملوكه من جميع الوجوه شريكا له (وثالثها) قوله من شركاء فيما رزقناكم يعني الذي لكم هو في الحقيقة ليس لكم بل هو من الله ومن رزقه والذي من الله فهو في الحقيقة له فاذا لم يجز أن يكون لكم شريك في مالكم من حيث الاسم فكيف يجوز أن يكون له شريك فيماله من حيث الحقيقة وقوله فأنتم فيه سواء اي هل أنتم ومماليككم في شيء مما ملكون سواء ليس كذلك فلا يكون لله شريك في شيء مما ملكه لكن كل شيء فهو لله فتدعون الهيته لا يملك شيئا أصلا ولا مثقال ذرة من خردل فلا يعبد لعظمته ولا لمنفعة تصل اليكم منه واما قولكم هؤلاء شفعاؤنا فليس كذلك لان المملوك هل له عندكم حرمة كحرمة الاحرار واذا لم يكن للمملوك مع مساواته اياكم في الحقيقة والصفة عندكم حرمة فكيف يكون حال المماليك الذين لا مساواة بينهم وبين المالك بوجه من الوجوه والى هذا أشار بقوله تخافونهم كخيفتكم أنفسكم (المسئلة الثانية) بهذا نفى جميع وجوه حسن العبادة عن الغير لان الاغيار اذا لم يصلحوا للشركة فليس لهم ملك ولا ملك فلا عظمة لهم حتى يعبدوا لعظمتهم ولا ترجى منهم منفعة لعدم ملكهم حتى يعبدوا لنفع وليس لهم قوة ولا قدرة لانهم عبيد والعبد المملوك لا يقدر على شيء فلا تخافوهم كما تخافون أنفسكم فكيف تخافونهم خوفا أكثر من خوفكم بعضا من بعض حتى تعبدوهم للخوف ثم قال تعالى كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون اي بينهما بالدلائل والبراهين القطعية والامثلة والمحاكيات الاقناعية لقوم يعقلون يعني لا يخفى الامر بعد ذلك الا على من لا يكون له عقل * ثم قال تعالى (بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين) اي لا يجوز أن يشرك بالملك مملوكه ولكن الذين أشركوا اتبعوا أهواءهم من غير علم وأثبتوا شركاء من غير دليل ثم بين أن ذلك بارادة الله بقوله فمن يهدي من أضل الله اي هؤلاء

عليه وسلم من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياه وان كانت مثل زبد البحر وقوله عليه الصلاة والسلام من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بافضل مما جاء به الا أحد قال مثل ماقال أو زاد عليه وقوله عليه الصلاة والسلام كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وغير ذلك مما لا يحصى من الآيات والاحاديث * ٧١٥ * وتخصيصهما تلك الاوقات لا لعلة على أن ما يحدث فيها من آيات

أضلهم الله فلا هادي لهم فينبغي أن لا يحزنك قولهم وههنا لطيفة وهي ان قوله فمن يهدي من أضل الله معلوم لما تقدم وذلك لانه لما قال لان الله لا شريك له بوجه ما ثم قال تعالى بل المشركون يشركون من غير علم يقال فيه أنت أثبت لهم تصرفا على خلاف رضاه والسيد العزيز هو الذي لا يقدر عبده على تصرف يخالف رضاه فقال ان ذلك ليس باستقلال بل بارادة الله ومالهم من ناصرين لما تركوا الله تركهم الله ومن أخذوه لا يغني عنهم شيئا فلا ناصر لهم * ثم قال تعالى (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) اي اذا تبين الامر وظهرت الوحدانية ولم يهتد المشرك فلا تلتفت أنت اليهم وأقم وجهك للدين وقوله فأقم وجهك للدين اي أقبل بكلك على الدين عبر عن الذات بالوجه كما قال تعالى كل شئ هالك الا وجهه اي ذاته بصفاته وقوله حنيفا اي مائلا عن كل ما عداه اي أقبل على الدين وملء عن كل شئ أي لا يكون في قلبك شئ آخر فتعود اليه وهذا قريب من معنى قوله ولا تكونوا من المشركين ثم قال تعالى فطرت الله اي الزم فطرة الله وهي التوحيد فان الله فطر الناس عليه حيث أخذهم من ظهر آدم وسألهم ألست بربكم فقالوا بلى وقوله تعالى لا تبديل لخلق الله فيه وجوه قال بعض المفسرين هذه تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم عن الحزن حيث لم يؤمن قومه فقال هم خلقوا للشقاوة ومن كتب شقيا لا يسعد وقيل لا تبديل لخلق الله اي الوحدانية مترسخة فيهم لا تغير لها حتى ان سألتهم من خلق السموات والارض يقولون الله لكن الايمان الفطري غير كاف ويحتمل أن يقال خلق الله الخلق لعبادته وهم كلهم عبيده لا تبديل لخلق الله اي ليس كونهم عبيدا مثل كون المملوك عبد الانسان فانه ينتقل عنه الى غيره ويخرج عن ملكه بالعتق بل لا خروج للخلق عن العبادة والعبودية وهذا البيان فساد قول من يقول العبادة لتحصيل الكمال والعبد يكمل بالعبادة فلا يبقى عليه تكليف وقول المشركين ان الناقص لا يصلح لعبادة الله وانما الانسان عبد الكواكب والكواكب عبيد الله وقول النصارى ان عيسى كان يحل الله فيه وصارا لها فقال لا تبديل لخلق الله بل كلهم عبيد لا خروج لهم عن ذلك * ثم قال تعالى (ذلك الدين القيم) الذي لا عوج فيه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أي ذلك هو الدين المستقيم ثم قال تعالى (منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون) لما قال حنيفا أي مائلا عن غيره قال منيبين اليه اي مقبلين عليه والخطاب في قوله فأقم وجهك مع النبي والمراد جميع المؤمنين وقوله واتقوه يعني اذا أقبلتم عليه وتركتم الدنيا فلا تأمنوا فتتركوا عبادته بل خافوه وداوموا على العبادة وأقيموا الصلاة اي كونوا عابدين عند حصول القربة كما كنتم قبل ذلك ثم انه تعالى قال ولا تكونوا من المشركين قال المفسرون يعني ولا تشركوا بعد الايمان اي ولا تقصدوا بذلك غير الله وههنا وجه آخر وهو ان الله بقوله منيبين أثبت التوحيد الذي هو مخرج عن الاشراك

قدرته وأحكام رحمته ونعمته شواهد ناطقة بتنزهه تعالى واستحقاقه الحمد وموجبة للتسبيح وتحميده حتما وقوله تعالى وعشيا عطف على حين تمسون وتقديمه على حين تظهرون لمراعاة الفواصل وتغيير الاسلوب لما أنه لا يجئ منه الفعل بمعنى الدخول في العشي كالمساء والصباح والظهيرة ولعل السر في ذلك أنه ليس من الاوقات التي تختلف فيها أحوال الناس وتتغير تغيرا ظاهرا معتدا لوصفهم بالخروج عما قبلها والدخول فيها كالاوقات المذكورة فان كلا منها وقت تتغير فيه الاحوال تغيرا ظاهرا اما في المساء والصباح فظاهر وأما في الظهيرة فلانها وقت يعتاد فيه التجرد عن الثياب للقيلولة كما مر في سورة النور وقيل المراد بالتسبيح والحمد الصلاة لاشتمالها عليهما وقد روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن الآية جامعة للصلوات الخمس تمسون صلاتا المغرب والعشاء وتصبحون صلاة الفجر وعشيا صلاة العصر وتظهرون صلاة الظهر ولذلك ذهب الحسن الى أنها مدنية اذ كان يقول ان الواجب بمكة ركعتان في اي وقت اتفقتا وانما فرضت الخمس بالمدينة والجمهور على أنها فرضت بمكة وهو الحق لحديث المعراج وفي آخره هن خمس صلوات كل يوم وليلة * عن النبي صلى الله عليه وسلم من سره أن يكال له بالقفيز الاوفى فليقل فسبحان الله حين تمسون وحين

تصبحون الآية وعنه عليه الصلاة والسلام من قال حين يصبح فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون الى قوله تعالى وكذلك تخرجون أدرك ما فاته في يومه ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته وقرئ حينا تمسون وحينا تصبحون اى تمسون فيه وتصبحون فيه (يخرج الحي من الميت) كالانسان من النطفة والطير من البيضة (ويخرج الميت من الحي) النطفة والبيضة من الحيوان (ويحيي الارض بالنبات (بعد موتها) يبسها (وكذلك) ومثل ﴿٧١٦﴾ ذلك الاخراج (تخرجون) من قبوركم

وقرئ تخرجون بفتح التاء وضم الراء وهذا نوع تفصيل لقوله تعالى الله يبدأ الخلق ثم يعيد (ومن آياته) الباهرة الدالة على أنكم تبعثون دلالة أوضح مما سبق فان دلالة بدء خلقهم على اعادتهم أظهر من دلالة اخراج الحي من الميت واخراج الميت من الحي ومن دلالة احياء الارض بعد موتها عليها (أن خلقكم) اى في ضمن خلق آدم عليه السلام لما مر مرارا من أن خلقه عليه الصلاة والسلام منطو على خلق ذرياته اجماليا (من تراب) لم يشم رائحة الحياة قط ولا مناسبة بينه وبين ما أنتم عليه في ذاتكم وصفاتكم (ثم اذا أنتم بشر تنتشرون) اى فاجأتم بعد ذلك وقت كونكم بشرا تنتشرون في الارض وهذا مجمل ما فصل في قوله تعالى يا أيها الناس ان كنتم في ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ثم من نطفة الآية (ومن آياته) الدالة على ما ذكر من البعث وما بعده من الجزاء (أن خلق لكم) اى لاجلكم (من أنفسكم أزواجا) فان خلق أصل أزواجكم حواء من ضلع آدم عليه السلام متضمن لخلقهن من أنفسكم على ما عرفته من التحقيق ﴿ فريق ﴾ أو من جنسكم لا من جنس اخر هو الاوفق لقوله تعالى (لتسكنوا اليها) اى لتألفوها وتميلوا اليها وتطمئنوا بها فان المجانسة من دواعي التضام والتعارف كما أن المخالفة من

الظاهر وبقوله ولا تكونوا من المشركين أراد اخراج العبد عن الشرك الخفي اى لا تقصدوا بعملكم الا وجه الله ولا تطلبوا به الا رضاء الله فان الدنيا والآخرة تحصل وان لم تطلبوها اذا حصل رضا الله وعلى هذا فقوله من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا يعني لم يجتمعوا على الاسلام وذهب كل أحد الى مذهب ويحتمل أن يقال وكانوا شيعا يعني بعضهم عبد الله للدنيا وبعضهم للجنة وبعضهم للخلاص من النار وكل واحد بما في نظره فرح وأما المخلص فلا يفرح بما يكون لديه وانما يكون فرحه بان يحصل عند الله ويقف بين يديه وذلك لان كل ما عندنا نافد لقوله تعالى ما عندكم ينفد وما عند الله باق فلا مطلوب لكم فيما لديكم حتى تفرحوا به وانما المطلوب ما لدى الله وبه الفرح كما قال تعالى بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله جعلهم فرحين بكونهم عند ربهم ويكون ما آتوا من فضله الذي لا نفاد له ولذلك قال تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا لا بما عندهم فان كل ما عند العبد فهو نافد أما في الدنيا فظاهر وأما في الآخرة فلان ما وصل الى العبد من الالتذاذ بالأكول والمشروب فهو يزول ولكن الله يجدد له مثله الى الابد من فضله الذي لا نفاد له فالذي لا نفاد له هو فضله ﴿ ثم قال تعالى (واذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه ثم اذا أذاقهم منه رحمة اذا فريق منهم بربهم يشركون) لما بين التوحيد بالدليل وبالمثل بين ان لهم حالة يعرفون بها وان كانوا ينكرونها في وقت وهي حالة الشدة فان عند انقطاع رجائه عن الكل يرجع الى الله ويجد نفسه محتاجة الى شيء ليس كهذه الاشياء طالبة به النجاة ثم اذا أذاقهم منه رحمة اذا فريق منهم بربهم يشركون يعني اذا خلصناه يشرك بربه ويقول تخلصت بسبب اتصال الكوكب الفلاني بفلان وبسبب الصنم الفلاني لا بل ينبغي أن لا يعتقد انه تخلص بسبب فلان اذا كان طاهرا فانه شرك خفي مثاله رجل في بحر أدركه الغرق فيهيء الله له لوحا يسوقه اليه ريح فيتعلق به وينجو فيقول تخلصت بلوح أو رجل قبل عليه سبع فيرسل الله اليه رجلا فيعينه فيقول خلصني زيد فهذا اذا كان عن اعتقاد فهو شرك خفي وان كان يعني ان الله خلصني على يد زيد فهو أخفى وفيه مسائل (الاولى) قوله تعالى أذاقهم فيه لطيفة وذلك لان الذوق يقال في القليل فان في العرف من أكل مأكولا كثيرا لا يقول ذقت ويقال في النفي ما ذقت في بيتنا طعاما نفيا للقليل يلزم نفي الكثير بالاولى ثم ان تلك الرحمة لما كانت خالية منقطعة ولم تكن مستمرة في الآخرة اذلهم في الآخرة عذاب قال أذاقهم ولهذا قال في العذاب ذوقوا مس سقر ذوقوا ما كنتم تعملون ذق انك أنت العزيز الكريم لان عذاب الله الواصل الى العبد بالنسبة الى الرحمة الواصلة الى عبيد آخرين في غاية القلة (المسئلة الثانية) قوله تعالى منهم من الضرر في هذا التخصيص ما ذكرناه الفائدة وهي ان الرحمة غير مطلقة لهم انما هي عن ذلك الضر وحده واما الضر الموخر فلا يذوقون منه رحمة (المسئلة الثالثة) قال هنا اذا فريق منهم وقال في العنكبوت فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون وما يقل

أسباب التفرق والتنافر (وجعل بينكم) اى بين الازواج اما على تغليب الرجال على النساء فى الخطاب أو على حذف ظرف معطوف على الظرف المذكور اى جعل بينكم وبينهن كما سر فى قوله تعالى لانفرق بين أحد من رسله وقيل أو بين أفراد الجنس اى بين الرجال والنساء وبايا ه قوله تعالى (مودة ورحمة) فان المراد بهما ما كان منهما بعصمة الزواج قصدا اى جعل بينكم بالزواج الذى شرعه لكم توادا ﴿ ٧١٧ ﴾ وتراحما من غير أن يكون بينكم سابقة معرفة ولا رابطة مصححة للتعاطف

فريق وذلك لان المذكور هناك ضر معين وهو ما يكون من هول البحر والمتخلص منه بالنسبة الى الخلق قليل والذى لا يشرك به بعد الخلاص فرقة منهم فى غاية القلة فلم يجعل المشركين فريقا لقلة من خرج من المشركين واما المذكور ههنا الضر مطلقا فيتناول ضر البر والبحر والامراض والاهوال والمتخلص من أنواع الضر خلق كثير بل جميع الناس يكونون قد وقعوا فى ضر ما وتخلصوا منه والذى لا يبقى بعد الخلاص مشركا من جميع الانواع اذا جمع فهو خلق عظيم وهو جميع المسلمين فانهم تخلصوا من ضر ولم يبقوا مشركين واما المسلمون فلم يتخلصوا من ضر البحر باجمعهم فلما كان الناجى من الضر من المؤمنين جما كثيرا جعل الباقى فريقا * ثم قال تعالى (ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون) وقد تقدم تفسيره فى العنكبوت بقى بيان فائدة الخطاب ههنا فى قوله فتمتعوا وعدمه هناك فى قوله وليتمتعوا فسوف يعلمون فنقول لما كان الضر المذكور هناك ضرا واحدا جاز أن لا يكون فى ذلك الموضع من المخلصين من ذلك الضر أحد فلم يخاطب ولما كان المذكور ههنا بإطلاق الضر ويخلو موضع من المخلصين عن الضر فالحاضر يصح خطابه بانه منهم فخاطب * ثم قال تعالى (أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) لما سبق قوله تعالى بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم اى المشركون يقولون ما لا علم لهم به بل هم عالمون بخلافه فانهم وقت الضر يرجعون الى الله حقق ذلك بالاستفهام بمعنى الانكار اى ما أنزلنا بما يقولون سلطانا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) أم للاستفهام ولا يقع الا متوسطا كما قال قائلهم

أياظبية الوعساء بين جلاجل * وبين النقا آنت أم أم سالم

فالاستفهام الذى قبله فنقول تقديره اذا ظهرت هذه الحجج على عنادهم فاذا تقول أهم يتبعون الاهواء من غير علم أم لهم دليل على ما يقولون وليس الثانى فيتعين الاول (المسئلة الثانية) قوله فهو يتكلم مجاز كما يقال ان كتابه لينطق بكذا وفيه معنى لطيف وهو ان المتكلم بغير دليل كأنه لا كلام له لان الكلام هو المسموع وما لا يقبل فكأنه لم يسمع فكان المتكلم لم يتكلم به وما لا دليل عليه لا يقبل فاذا جاز سلب الكلام عن المتكلم عند عدم الدليل وحسن جاز ثبات التكلم للدليل وحسن * ثم قال تعالى (وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها) لما بين حال المشرك الظاهر شركه بين حال المشرك الذى دونه وهو من تكون عبادته لله للدنيا فاذا آتاه رضى واذا منعه سخط وقنط ولا ينبغى أن يكون العبد كذلك بل ينبغى أن يعبد الله فى الشدة والرخاء فمن الناس من يعبد الله فى الشدة كما قال تعالى واذا مس الناس ضر دعوا ربهم ومن الناس من يعبد اذا آتاه نعمة كما قال تعالى واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها والاول كالذى يخدم ملكا مخافة العذاب والثانى كالذى يخدم أجيرا لتوقع الاجر وكلاهما لا يكونان من المثبتين فى ديوان المرتبين فى الجرائد الذين يأخذون رزقهم سواء كان هناك شغل أو لم يكن فكذلك القسمان لا يكونان من

من قرابة أو رحم قيل المودة والرحمة من قبل الله تعالى والفرك من الشيطان وعن الحسن رحمه الله المودة كناية عن الجماع والرحمة عن الولد كما قال تعالى ورحمة منا (ان فى ذلك) اى فيما ذكر من خلقهم من تراب وخلق أزواجهم من أنفسهم والقاء المودة والرحمة بينهم وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للاشعار ببعد منزلته (لآيات) عظيمة لا يكتنه كنهها كثيرة لا يقادر قدرها (لقوم يتفكرون) فى تضاعيف تلك الافاعيل المتينة المبنية على الحكم البالغة والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله مع التنبيه على أن ما ذكر ليس بآية فذة كما ينبئ عنه قوله تعالى ومن آياته بل هى مشتملة على آيات شتى (ومن آياته) الدالة على ما ذكر من أمر البعث وما يتلوه من الجزاء (خلق السموات والارض) اما من حيث ان القادر على خلقهما بما فيهما من المخلوقات بلا مادة مستعدة لها أظهر قدرة على اعادة ما كان حاقبل ذلك واما من حيث ان خلقهما وما فيهما انس الانعاش البشر وسعاده كما يفصح عنه قوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا وقوله تعالى وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا (واختلاف ألسنتكم) اى لغاتكم بان علم كل صنف لغته وألهمه وضعها وأقدره عليها أو أجناس

نطقكم وأشكالكه فانك لاتكاد تسمع منطقين متساويين فى الكيفية من كل وجه (وألوانكم) ببياض الجلد وسواده وتوسطه فيما بينهما أو تخطيطات الاعضاء وهيآتها وألوانها وحلاها بحيث وقع بها التمايز بين الاشخاص حتى ان التوأمين مع توافق مواد هما وأسبابهما والامور الملابسة لهما التخليقى يختلفان فى شئ من ذلك لامحالة وان كانا فى غاية التشابه وانما نظم هذا فى سلك الآيات الآفاقية من خلق السموات والارض مع كونه من الآيات ﴿ ٧١٨ ﴾ الانفسية بالانتظام فى سلك ماسبق من خلق

أنفسهم وأزواجهم لايذان باستقلاله والاحتراز عن توهم كونه من تتمات خلقهم (ان فى ذلك) اى فيما ذكر من خلق السموات والارض واختلاف الالسنة والالوان (لآيات) عظيمة فى أنفسها كثيرة فى عددها (للعالمين) اى المتصفين بالعلم كما فى قوله تعالى ومايعقلها الا العالمون وقرئ بفتح اللام وفيه دلالة على كمال وضوح الآيات وعدم خفائها على أحد من الخلق كافة (ومن آياته منامكم بالليل والنهار لاستراحة القوى النفسانية وتقوى القوى الطبيعية (وابتغاؤكم من فضله) فيهما فان كلا من المنام وابتغاء الفضل يقع فى الملوين وان كان الاغلب وقوع الاول فى الاول والثانى فى الثانى أو منامكم بالليل وابتغاؤكم بالنهار كما هو المعتاد والموافق لسائر الآيات الواردة فى ذلك خلا أنه فصل بين القرينين الاولين بالقرينين الاخيرين لانهما زمان والزمان مع ما وقع فيه كشئ واحد مع اعانة اللف على الاتحاد (ان فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) اى شأنهم أن يسمعوا الكلام سماع تفهم واستبصار حيث يتأملون فى تضاعيف ﴿ بلغ ﴾ هذا البيان ويستدلون بذلك على شؤنه تعالى (ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا) اما مقدر بان كما فى قول من قال * الا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى * اى أن أحضر أو منزل منزلة المصدر

المؤمنين الذين لهم رزق عندربهم وفيه مسئلة وهى أن قوله تعالى فرحوا بها اشارة الى دنو همتهم وقصور نظرهم فان فرحهم يكون بما وصل اليهم لا بمن وصل منه اليهم فان قال قائل الفرح بالرحمة مأمور به فى قوله تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا وههنا ذمهم على الفرح بالرحمة فكيف ذلك فنقول هناك قال فرحوا برحمة الله من حيث انها مضافة الى الله تعالى وههنا فرحوا بنفس الرحمة حتى لو كان المطر من غير الله لكان فرحهم به مثل فرحهم بما اذا كان من الله وهو كما ان الملك لو خط عند أمير رغيفا على البساط أو أمر الغلمان بان يحطوا عنده زبدية طعام يفرح ذلك الامير به ولو أعطى الملك فقيرا غير ملتفت اليه رغيفا أو زبدية طعام أيضا يفرح لكن فرح الامير يكون ذلك من الملك وفرح الفقير يكون ذلك رغيفا وزبدية ثم قال تعالى وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم لم يذكر عند النعمة سببا لها تفضله بها وذكر عند العذاب سببا لان الاول يزيد فى الاحسان والثانى يحقق العدل * قوله اذا هم يقنطون اذا للمفاجأة أى لايصبرون على ذلك قليلا لعل الله يفرج عنهم وانه يذكرهم به * ثم قال تعالى (أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) اى لم يعلموا أن الكل من الله فالمحقق ينبغى أن لايكون نظره على مايوجد بل الى من يوجد وهو الله فلا يكون له تبدل حال وانما يكون عنده الفرح الدائم ولكن ذلك مرتبة المؤمن الموحد المحقق ولذلك قال ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون * ثم قال تعالى (فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون) وجه تعلق الآية بما قبلها هو ان الله تعالى لما بين أن العبادة لاينبغى أن تكون مقصورة على حالة الشدة بقوله واذا مس الناس ضر دعوا ربهم ولا أن تكون مقصورة على حالة أخذ شئ من الدنيا كما هو عادة المدوكر المتسلس يعبد الله اذا كان فى الخوانق والرباطات للرغيف والزبدية واذا خلا بنفسه لايذكر الله بقوله واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وبين أنه ينبغى أن يكون فى حالة بسط الرزق وقدره عليه نظره على الله الخالق الرازق ليحصل الارشاد الى تعظيم الله والايمان فحصل تعظيم لامر الله وشفقة على خلق الله فقال بعد ذلك فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل وفيه وجه آخر هو ان الله تعالى لما بين ان الله يبسط الرزق ويقدر فلا ينبغى أن يتوقف الانسان فى الاحسان فان الله بسط الرزق لاينقص بالانفاق واذا قدر لايزداد بالامساك وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى تخصيص الاقسام الثلاثة بالذكر دون غيرهم مع أن الله ذكر الاصناف الثمانية فى الصدقات فنقول أراد ههنا بيان من يجب الاحسان اليه على كل من له مال سواء كان زكويا أو لم يكن وسواء كان بعد الحول أو قبله لان المقصود ههنا الشفقة العامة وهؤلاء الثلاثة يجب الاحسان اليهم وان لم يكن للمحسن مال زائد أما القريب فتجب نفقته وان كان لم تجب عليه زكاة كعقار أو مال لم يحل عليه الحول والمسكين كذلك فان من لاشئ له اذا بقى فى ورطة الحاجة حتى

وبه فسر المثل المشهور تسمع بالمعيدي خير من أن تراه أو هو على حاله صفة لمحذوف اى آية يريكم بها البرق كقول من قال وما الدهر الا تارتان فمنهما * أموت وأخرى أبتغي العيش أكدح * أى فمنهما تارة أموت فيها وأخرى ابتغي فيها أو ومن آياته شئ أو سحاب يريكم البرق (خوفا) من الصاعقة أو للمسافر (وطمعا) فى الغيث أو للمقيم ونصبهما على العلة لفعل يستلزمه المذكور فان أراءتهم البرق مستلزمة لرؤيتهم اياه او للمذكور نفسه * ٧١٩ * على تقدير مضاف نحو اراءة خوف وطمع أو على تأويل

بلغ الشدة يجب على من له مقدرة دفع حاجته وان لم يكون عليه زكاة وكذلك من انقطع فى مفازة ومع آخر دابة يمكنه بها ايصاله الى مأمن يلزمه ذلك وان لم تكن عليه زكاة والفقير داخل فى المسكين لان من أوصى للمساكين شيئا يصرف الى الفقراء ايضا واذا نظرت الى الباقين من الاصناف رأيتهم لا يجب صرف المال اليهم الا على الذين وجبت الزكاة عليهم واعتبر ذلك فى العامل والمكاتب والمؤلفة والمديون ثم اعلم أن على مذهب أبى حنيفة رحمه الله حيث قال المسكين من له شئ ما فنقول وان كان الامر كذلك لكن لا نزاع فى أن اطلاق المسكين على من لا شئ له جائز فيكون الاطلاق ههنا بذلك الوجه والفقير يدخل فى ذلك بالطريق الاولى (المسئلة الثانية) فى تقدم البعض على البعض فنقول لما كان دفع حاجة القريب واجبا سواء كان فى شدة ومخمصة أو لم يكن كان مقدما على من لا يجب دفع حاجته من غير مال الزكاة الا اذا كان فى شدة ولما كان المسكين حاجته ليست مختصة بموضع كان مقدما على من حاجته مختصة بموضع دون موضع (المسئلة الثالثة) ذكر الاقارب فى جميع المواضع كذا اللفظ وهو ذو القربى ولم يذكر المسكين بلفظ ذى المسكنة وذلك لان القرابة لا تجرد فيها شئ ثابت وذو كذا لا يقال الا فى الثابت فان من صدر منه رأى صائب مرة أو حصل له جاه يوما واحدا أو وجد منه فضل فى وقت لا يقال ذو رأى ذو جاه وذو فضل واذا دام ذلك له أو وجد منه ذلك كثيرا يقال له ذو الرأى وذو الفضل فقال ذا القربى اشارة الى أن هذا حق متأكد ثابت وأما المسكنة فتطرأ وتزول ولهذا المعنى قال مسكينا ذا متربة فان المسكين يدوم له كونه ذا متربة ما دامت مسكنته أو يكون كذلك فى أكثر الامر (المسئلة الرابعة) قال فآت ذا القربى حقه ثم عطف المسكين وابن السبيل ولم يقل فآت ذا القربى والمسكين وابن السبيل حقهم لان العبارة الثانية لكون صدور الكلام أولا للتشريك والاولى لكون التشريك واردا على الكلام كأنه يقول أعط ذا القربى حقه ثم بذكر المسكين وابن السبيل بالتبعية ولهذا المعنى اذا قال الملك خل فلانا يدخل وفلانا أيضا يكون فى التعظيم فوق ما اذا قال خل فلانا وفلانا يدخلان والى هذا أشار النبى عليه الصلاة والسلام بقوله بئس خطيب القوم أنت حيث قال الرجل من أطاع الله ورسوله فقد اهتدى ومن عصاهما فقد غوى ولم يقل ومن عصى الله ورسوله (المسئلة الخامسة) قوله ذلك خير يمكن أن يكون معناه ذلك خير من غيره ويمكن أن يقال ذلك خير فى نفسه وان لم يقس الى غيره قوله تعالى وافعلوا الخير فاستيفوا الخيرات والثانى أولى لعدم احتياجه الى اضمار ولكونه اكثر فائدة لان الخير من الغير قد يكون نازل الدرجة عند نزول درجة ما يقاس اليه كما يقال السكوت خير من الكذب وما هو خير فى نفسه فهو حسن ينفع وفعل صالح ينفع (المسئلة السادسة) قوله تعالى للذين يريدون وجه الله اشارة الى أن الاعتبار بالقصد لا بنفس الفعل فان من أنفق جميع أمواله رياء الناس لا ينال درجة من يتصدق بربع ماله لله وقوله

الخوف والطمع بالاخافة والاطماع كقولك فعلته رغما للشيطان أو على الحال نحو كلمته شفاها (و ينزل من السماء ماء) وقرئ بالتخفيف (فيحيى به الارض) بالنبات (بعد موتها) يبسها (ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون فانها من الظهور بحيث يكفى ادراكها مجرد العقل عند استعماله فى استنباط أسبابها وكيفية تكونها (ومن آياته ان تقوم السماء والارض بأمره) اى بارادته تعالى لقيامهما والتعبير عنها بالامر للدلالة على كمال القدرة والغنى عن المبادى والاسباب وليس المراد باقامتهما انشاءهما لانه قد بين حاله بقوله تعالى ومن آياته خلق السموات والارض ولا اقامتهما بغير مقيم محسوس كما قيل فان ذلك من تتمات انشائهما وان لم يصرح به تعويلا على ما ذكر فى غير موضع من قوله تعالى خلق السموات بغير عمد ترونها الآية بل هو امساكهما واستمرارهما على ما هما عليه الى أجلهما الذى تنتهى به قوله تعالى فيما قبل ما خلق الله السموات والارض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى وحيث كانت هذه الآية متأخرة عن سائر الآيات الممدودة متصلة بالبعث فى الوجود أخرت عنهن وجعلت متصلة به فى الذكر

ايضا فقيل (ثم اذا دعاكم دعوة من الارض اذا انتم تخرجون) فانه كلام مسوق للاخبار بوقوع البعث ووجوده بعد انقضاء أجل قيامهما مترتب على تعداد آياته الدالة عليه غير منتظم في سلكها كما هو حقه ومن آياته قيام السموات والارض على هيآتهما بأمره تعالى الى اجل مسمى وقد ره الله تعالى لانعدامهما ثم اذا دعاكم دعوة بعد انقضاء الاجل من الارض وأنتم في قبوركم دعوة واحدة يأ رقال أيها الموتى اخرجوا فاجأتم الخروج منها وذلك ﴿ ٧٢٠ ﴾ قوله تعالى يوم يسمعون الصيحة يوم الخروج متعلق بدعاكم اذ يكفي في ذلك كون المدعو فيها يقال دعوته من أسفل الوادي فصلع الى الا بخرجون لان مابعد اذا لا يعمل فيما قبلها (وله) خاصة (من في السموات والارض) من الملائكة والثقلين خلقا وملكا وتصرفا ليس لغيره شركة في ذلك بوجه من الوجوه (كل له قانتون) اى منقادون لفعله لا يمتنعون عليه في شأن من شؤنه تعالى (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده) بعد موتهم وتكريره لزيادة التقرير والتمهيد لما بعده من قوله تعالى (وهو أهون عليه) اى بالاضافة اى قدركم والقياس على أصولكم والافهما عليه سواء وقيل أهون بمعنى هين وتذكير الضمير مع رجوعه الى الاعادة لما أنها مؤولة بان يعيد وقيل هو راجع الى الخلق وليس بذاك وأما ماقيل من أن اعادة بعض بني الفضل الذي يخبر فيه الفاعل بين الفعل والترك والاعادة من قبيل الواجب الذي لابد من فعله حتما فكان أقرب الى الحصول من الانشاء المتردد بين الحصول وعدمه فيمنزل من التحصيل اذليس المراد بأهونية الفعل أقربيته الى الوجود باعتبار كثرة الامور الداعية للفاعل الى ايجاده وقوة اقتضائها لتعلق قدرته به

وجه الله اى يكون عطاؤه لله لاغير فان أعطى للجنة لم يرد به وجه الله وانما أراد مخلوق الله (المسئلة السابعة) كيف قال وأولئك هم المفلحون مع ان للافلاح شرائط أخر وهي المذكورة في قوله قد افلح المؤمنون فنقول كل وصف مذكور هناك يفيد الافلاح فقوله والذين هم للزكاة فاعلون وقوله والذين هم لامانا تهم وعهدهم راعون اى غير ذلك عطف على المفلح اى هذا مفلح وذاك مفلح ولذلك الآخر مفلح لا يقال لم يحصل الافلاح لمن يتصدق ولا يصلي فنقول هذا كقول القائل العالم مكرم اى نظرا الى علمه ثم اذا حد في الزنا على سبيل النكال وقطعت يده في السرقة لا يبطل ذلك القول حتى يقول القائل انما كان ذلك لانه أتى بالفسق فكذلك ايتاء المال لوجه الله يفيد الافلاح اللهم الا اذا وجد مانع من ارتكاب محظور أو ترك واجب (المسئلة الثامنة) لم يذكر غيره من الافعال كالصلاة وغيرها فنقول الصلاة مذكورة من قبل لان الخطاب ههنا بقوله قالت مع النبي صلى الله عليه وسلم وغيره تبع وقد قال له من قبل فأقم وجهك للدين حنيفا وقال منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة (المسئلة التاسعة) قوله تعالى وأولئك هم المفلحون يفهم منه الحصر وقد قال في أول سورة البقرة وأولئك هم المفلحون اشارة الى من أقام الصلاة وآتى الزكاة وآمن بما أنزل على رسوله وبما أنزل من قبله وبالآخرة فلو كان المفلح منحصرا في أولئك المذكورين في سورة البقرة فهذا خارج عنهم فكيف يكون مفلحا فنقول هذا هو ذاك لانا بينا أن قوله فأقم وجهك للدين متصل بهذا الكلام فاذا أتى بالصلاة وآتى المال وأراد وجه الله فقد ثبت انه مؤمن يقيم الصلاة مؤت للزكاة معترف بالآخرة فصار مثل المذكور في البقرة * ثم قال تعالى (وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله) ذكر هذا تحريضا لهم أنكم اذا طلب منكم واحد بالتين ترغبون فيه وتؤتونه وذلك لا يربو عند الله والزكاة تربو عند الله كما أخبر النبي عليه الصلاة والسلام ان الصدقة تقع في يد الرحمن فتربو حتى تصير مثل الجبل فينبغي أن يكون اقدامكم على الزكاة اكثر * وقوله تعالى (وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) اى أولئك ذو والاضعاف كالموسر الذي اليسار وأقر ذلك عشرة أضعاف كل مثل لما أتى وكونه حسنة لا في المقدار فلا يفهم أن من أعطى رغيفا يعطيه الله عشرة أرغفة بل معناه أن ما يقتضيه فعله من الثواب على وجه الرحمة يضاعفه الله عشر مرات على وجه التفضل فبالرغيف الواحد يكوله قصر في الجنة فيه من كل شئ ثوابا نظرا الى الرحمة وعشر قصور مثله نظرا الى الفضل مثاله في الشاهد ملك عظيم قبل من عبده هدية قيمتها درهم لو وزنه بعشر دراهم لا يكون كرما بل اذا جازاه عما تمناه يعطي على عشر ذلك ألفا فاذا أعطى عشر آلاف فقد ضاعف له الثواب * ثم قال تعالى (الله الذي خلقكم) اى أوجدكم لا من شئ (ثم رزقكم) وأبقاكم فان العرض مخلوق وليس بمبقى (ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ) جمع في هذه الآية بين اثبات الاصول

بل اسهلية ثانية وصدوره عنه بعد تعلق قدرته بوجوده وكونه واجبا بالغير ولا تفاوت في ذلك بين أن يكون ذلك التعلق بطريق الايجاب أو بطريق الاختيار (وله المثل الاعلى) أي الوصف الاعلى العجيب الشان من القدرة العامة والحكمة التامة وسائر صفات الكمال التي ليس لغيره ما يدانيها فضلا عما يساويها ومن فسره بقول لا اله الا الله أراد به الوصف بالوحدانية (في السموات والارض) متعلق بمضمون الجملة ﴿ ٧٢١ ﴾ المتقدمة على معنى انه تعالى قد وصف به وعرف فيهما على ألسنة

الحشر والتوحيد اما الحشر فبقوله ثم يحييكم والدليل قدرته على الخلق ابتداء وأما التوحيد فبقوله هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء * ثم قال تعالى (سبحانه وتعالى عما يشركون) فقوله سبحانه اى سبحوه تسبيحا اى نزهوه ولا تصفوه بالاشراك وقوله وتعالى أى لا يجوز عليه ذلك وهذا لان من لا يتصف بشيء قد يجوز عليه فان قال سبحوه اى لا تصفوه بالاشراك واذا قال وتعالى فكأنه قال ولا يجوز عليه ذلك * ثم انه تعالى قال (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) وجه تعلق هذه الآية بما قبلها هو ان الشرك سبب الفساد كما قال تعالى لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا واذا كان الشرك سببه جعل الله اظهارهم الشرك موروثا لظهور الفساد ولو فعل بهم ما يقتضيه قولهم لفسدت السموات والارض كما قال تعالى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا والى هذا أشار بقوله تعالى ليذيقهم بعض الذي عملوا واختلفت الاقوال في قوله في البر والبحر فقال بعض المفسرين المراد خوف الطوفان في البر والبحر وقال بعضهم عدم انبات بعض الاراضي والواحة مياه البحار وقال آخرون المراد من البحر المدن فان العرب تسمي المدائن بحورا لكون مبنى عمارتها على الماء ويمكن أن يقال ان ظهور الفساد في البحر قلة مياه العيون فانها من البحار واعلم أن كل فساد يكون فهو بسبب الشرك لكن الشرك قد يكون في العمل دون القول والاعتقاد فيسمى فسقا وعصيانا وذلك لان المعصية فعل لا يكون لله بل يكون للنفس ما لفاسق مشرك لله بفعله غاية ما في الباب ان الشرك بالفعل لا يوجب الخلود لان أصل المرء قلبه ولسانه فاذا لم يوجد منهما الا التوحيد يزول الشرك البدني بسببهما وقوله تعالى ليذيقهم بعض الذي عملوا قد ذكرنا ان ليس تمام جزائهم وكل موجب اعتزائهم وقوله لعلهم يرجعون يعني كما يفعله الموقع رجؤه عهم مع أن الله يعلم أن من أصله لا يرجع لكن الناس يظنون أنه لو فعل بهم شيء من ذلك لكان يوجد منهم الرجوع كما ان السيد اذا علم من عبده أنه لا يرتدع بالكلام فيقول القائل لما ذا لا تؤدبه بالكلام فاذا قال لا ينفع ربما يقع في وهمه انه لا يبعد عن نفع فاذا زجره ولم يرتدع يظهر له صدق كلام السيد ويطمئن قلبه * ثم قال تعالى (قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) لما بين حالهم بظهور الفساد في أحوالهم بسبب فساد أقوالهم بين لهم هلاك أمثالهم وأشكالهم الذين كانت أفعالهم كأفعالهم فقال قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل اى قوم نوح وعاد وثمود هذا ترتيب في غاية الحسن وذلك لانه في وقت الامتنان والاحسان قال الله الذي خلقكم ثم رزقكم اى آتاكم الوجود ثم البقاء ووقت الخذلان بالطغيان قال ظهر الفساد في البر والبحر أي قلل رزقكم ثم قال تعالى سيروا في الارض أي هو أعدمكم كما أعدم من قبلكم فكأنه قال أعطاكم الوجود والبقاء و يسلب منكم الوجود و البقاء أما سلب البقاء فباظهار الفساد

الخلائق وألسنة الدلائل وقيل متعلق بالاعلى وقيل بمحذوف هو حال منه أو من المثل أو من ضميره في الاعلى (وهو العزيز) القادر الذي لا يعجز عن بدء ممكن واعادته (الحكيم) الذي يجري الافعال على سنن الحكمة والمصلحة (ضرب لكم مثلا) يتبين به بطلان الشرك (من أنفسكم) أي منتزعا من أحوالها التي هي أقرب الامور اليكم وأعرفها عندكم وأظهرها دلالة على ما ذكر من بطلان الشرك لكونها بطريق الاولوية وقوله تعالى (هل لكم) الخ تصوير للمثل أي هل لكم (مما ملكت أيمانكم) من العبيد والاماء (من شركاء فيما رزقناكم) من الاموال وما يجري مجراها مما تتصرفون فيها فمن الاولى ابتدائية و الثانية تبعيضية والثالثة مزيدة لتأكيد النفي المستفاد من الاستفهام فقوله تعالى (فأنتم فيه سواء) تحقيق لمعنى الشركة وبيان لكونهم وشركائهم متساوين في التصرف فيما ذكر من غير مزية لهم عليها على أن

هناك محذوفا معطوفا ﴿ ٩١ ﴾ س على أنتم لأنه عام للفريقين بطريق التغليب أي هل ترضون لانفسكم والحال أن عبيدكم أمثالكم في البشرية وأحكامها أن يشاركوكم فيما رزقناكم وهو مستعار لكم فأنتم وهم فيه سواء شرع يتصرفون فيه كتصرفكم من غير فرق بينكم وبينهم (تخافونهم) خبر آخر.

لانتم أوحال من ضمير الفاعل فى سواء أى تتابون أن تستبدوا بالتصرف فيه بدون رأيهم (كخيفتكم أنفسكم) أى خيفة كائنة مثل خيفتكم من الاحرار المساهمين لكم فيما ذكر والمعنى نفى مضمون ما فصل من الجملة الاستفهامية أى لا ترضون بأن يشاركيكم فيما هو معار لكم مما لبكم وهم أمثالكم فى البشرية غير مخلوقين لكم بل لله تعالى فكيف تشركون به سبحانه فى المعبودية التى هى من خصائصه الذاتية مخلوقه بل ﴿ ٧٢٢ ﴾ مصنوع مخلوقة حيث تصنعونه بأيديكم ثم تعبدونه

(كذلك) أى مثل ذلك التفصيل الواضح (نفصل الآيات) أى نبينها ونوضحها لانفصيلا أدنى منه فان التمثيل تصوير للمعانى المعقولة بصورة المحسوس وابراز لأوابد المدركات على هيئة المانوس فيكون فى غاية الايضاح والبيان (لقوم يعقلون) أى يستعملون عقولهم فى تدبير الامور وتخصيصه بالذكر لرجع عموم تفصيل الآيات لكل الناس لانهم المنتفعون بها (بل اتبع الذين ظلموا) اعراض عن مخاطبتهم ومحاولة ارشادهم الى الحق بضرب المثل وتفصيل الآيات واستعمال المقدمات الحقة المعقولة وبيان لاستحالة تبعيتهم للحق كأنه قيل لم يعقلوا شيئا من الآيات المفصلة بل اتبعوا (اهواءهم) الزائغة ووضع الموصول موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بأنهم فى ذلك الاتباع ظالمون واضعون للشئ فى غير موضعه أو ظالمون لانفسهم بتعريضها للعذاب الخالد (بغير علم) أى جاهلين ببطلان ما أتوا مكبين عليه لايلويهم عنه

وأما سلب الوجود فبالاهلاك وعند الاعطاء قدم الوجود على البقاء لان الوجود أولا ثم البقاء وعند السلب قدم البقاء وهو الاستمرار ثم الوجود * وقوله (كان أكثرهم مشركين) يحتمل وجوها ثلاثة (أحدها) ان الهلاك فى الاكثر كان بسبب الشرك الظاهر وان كان بغيره أيضا كالاهلاك بالفسق والمخالفة كما كان على أصحاب السبت (الثانى) أن كل كافر أهلك لم يكن مشركا بل منهم من كان معطلا ناويا لكنهم قليلون وأكثر الكفار مشركون (الثالث) أن العذاب العاجل لم يختص بالمشركين حين أتى كما قال تعالى واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة بل كان عاما للصغار والمجانين ولكن أكثرهم كانوا مشركين * ثم قال تعالى (وأقم وجهك للدين القيم) لما نهى الكافر عما هو عليه أمر المؤمن بما هو عليه وخاطب النبى عليه السلام ليعلم المؤمن فضيلة ما هو مكلف به فانه أمر به أشرف الانبياء والمؤمنين فى التكاليف بمقام الانبياء كما قال عليه الصلاة والسلام ان الله أمر عباده المؤمنين بما أمر به عباده المرسلين وقد ذكرنا معناه * وقوله (من قبل أن يأتى يوم مرده من الله) يحتمل وجهين الاول أن يكون قوله من الله متعلقا بقوله يأتى والثانى أن يكون المراد لا مرد له من الله أى الله لا يرد وغيره عاجز عن رده فلا بد من وقوعه (يومئذ يصدعون) أى يتفرقون ثم اشار الى التفرق قوله (من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلنفسه يمهدون) وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا ولم يقل ومن آمن وذلك لان العمل الصالح به يكمل الايمان فذكره تحريضا للمكلف عليه واما الكفر فاذا جاء فلا زينة للعمل معه ووجه آخر وهو ان الكفر قسمان (أحدهما) فعل وهو الاشراك والقول به (والثانى) ترك وهو عدم النظر والاعتقاد فالعاقل البالغ اذا كان فى مدينة الرسول ولم يأت بالايمان فهو كافر سواء قال بالشرك أو لم يقل لكن الايمان لابد له من العمل الصالح فان اعتقاد الحق عمل القلب وقول لا اله الا الله عمل اللسان وشئ منه لابد منه (المسئلة الثانية) قال فعليه فوحد الكناية وقال فلانفسهم جمعها اشارة الى أن الرحمة أعم من الغضب فتشمله وأهله وذريته اما الغضب فمسوق بالرحمة لازم لمن أساء (المسئلة الثالثة) قال فعليه كفره ولم يبين وقال فى المؤمن فلانفسهم يمهدون تحقيقا لكمال الرحمة فانه عند الحربين وفصل بشارة وعند غيره اشار اليها اشارة * ثم قال تعالى (ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله) ذكر زيادة تفصيل لما يمهده المؤمن لفعله الخير وعمله الصالح وهو الجزاء الذى يجازيه به الله والملك اذا كان كبيرا كريما ووعد عبدا من عباده بأنى أجازيك يصل اليه منه أكثر مما يتوقعه ثم أكده بقوله من فضله يعنى أنا المجازى فكيف يكون الجزاء ثم انى لا أجازيك من العدل وانما أجازيك من الفضل فيزداد الرجاء * ثم قال تعالى (انه لا يحب الكافرين) أوعدهم بوعيد ولم يفصله لما بينا وان كان عند المحقق هذا الاجمال فيه كالتفصيل فان عدم المحبة من الله غاية العذاب وافهم ذلك ممن يكون له معشوق فانه اذا أخبر العاشق

صارف حسبما يصرف العالم اذا اتبع الباطل عليه ببطلانه (فمن يهدى من أضل الله) أى خلق فيه الضلال ﴿ بانه ﴾ بصرف اختياره الى كسبه أى لا يقدر على هدايته أحد (وما لهم) أى لمن أضله الله تعالى والجمع باعتبار المعنى (من ناصرين) يخلصونهم من الضلال ويحفظونهم من

بأنه وعدك بالدراهم والدنانير كيف تكون مسرته واذا قيل له انه قال انى أحب فلانا كيف يكون سروره وفيه لطيفة وهى أن الله عندما أسند الكفر والايمان الى العبد قدم الكافر فقال من كفر فعليه كفره وعندما أسند الجزاء الى نفسه قدم المؤمن فقال ليجزى الذين آمنوا ثم قال تعالى انه لا يحب الكافرين لان قوله من كفر فى الحقيقة لمنع الكافر عن الكفر بالوعيد ونهيه عن فعله بالتهديد وقوله من عمل صالحا تحريض المؤمن فالنهى كالايعاد والتحريض للتقرير والايعاد مقدم عند الحكيم الرحيم واما عند ما ذكر الجزاء بدأ بالاحسان اظهارا للكرم والرحمة فان قال قائل هذا انما يصح أن لو كان الذكر فى كل موضع كذلك وليس كذلك فان الله فى كثير من المواضع قدم ايمان المؤمن على كفر الكافر وقدم التعذيب على الاثابة فنقول ان كان الله يوفقنا لبيان ذلك تبين ما اقتضى تقديمه ونحن نقول بأن كل كلمة وردت فى القرآن فهى لمعنى وكل ترتيب وجد فهو لحكمة وماذكر على خلافه لا يكون فى درجة ما ورد به القرآن فالمبين من جملته مثالا وهو قوله تعالى يومئذ يتفرقون فاما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة قدم المؤمن على الكافر وههنا ذكر مثل ذلك المعنى فى قوله يومئذ يصدعون أى يتفرقون فقدم الكافر على المؤمن فنقول هناك أيضا قدم الكافر فى الذكر لانه قال من قبل ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون فذكر الكافر والملاسه ثم قال تعالى ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون فكان ذكر المؤمن وحده لابد منه ليبين كيفية التفرق بمجموع قوله يبلس المجرمون وقوله فى حق المؤمن فى روضة يحبرون لكن الله تعالى أعاد ذكر المجرمين مرة أخرى للتفصيل فقال واما الذين كفروا ثم قال تعالى (ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات) لما ذكر أن ظهور الفساد والهلاك بسبب الشرك ذكر ظهور الصلاح ولم يذكر انه بسبب العمل الصالح لما ذكرنا غير مرة ان الكريم لا يذكر لاحسانه عوضا ويذكر لاضراره سببا لئلا يتوهم به الظلم فقال يرسل الرياح مبشرات قيل بالمطر كما قال تعالى بشرا بين يدى رحمته أى قبل المطر ويمكن أن يقال مبشرات بصلاح الاهوية والاحوال فان الرياح اذا لم تهب اظهر الوباء والفساد * ثم قال تعالى (وليذيقكم من رحمته) عطف على ما ذكرنا أى ليبشركم بصلاح الهواء وصحة الابدان وليذيقكم من رحمته بالمطر وقد ذكرنا أن الاذاقة تقال فى القليل ولما كان أمر الدنيا قليلا وراحتها نزر قال وليذيقكم وأما فى الآخرة فيرزقهم ويوسع عليهم ويديم لهم (ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) لما أسند الفعل الى الفلك عقبه بقوله بأمره أى الفعل ظاهرا عليه ولكنه بأمر الله ولذلك لما قال ولتبتغوا مسندا الى العباد ذكر بعده من فضله أى لا استقلال لشئ بشئ وفى الآية مسائل (الاول) فى الترتيب فنقول فى الرياح فوائد منها اصلاح الهواء ومنها اثارة السحاب ومنها اجريان الفلك بها فقال مبشرات باصلاح الهواء فان اصلاح الهواء يوجد من نفس الهبوب ثم الامطار بعده

قوله تعالى منيبين والافراد فى أقم لما أن الرسول عليه الصلاة والسلام امام الامة فأمره عليه السلام مستتبع لامرهم والمراد بلزومها الجريان على موجبها وعدم الاخلال به باتباع الهوى وتسويل الشياطين وقيل على المصدر أى فطر الله فطرة وقوله تعالى (التى فطر الناس عليها) صفة لفطرة الله مؤكدة لوجوب الامتثال بالامر فان خلق الله الناس على فطرته التى هى عبارة عن قبولهم للحق وتمكنهم من ادراكه أو من ملة الاسلام من موجبات لزومها والتمسك بها فطعامانهم لو خلوا وما خلقوا عليه أدى بهم اليها وما اختاروا عليها دينا آخر ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الانس والجن ومنه قوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن رب العزة كل عبادى خلقت حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم وأمروهم ان يشركوا بى غيرى وقوله عليه الصلاة والسلام كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون ابواه هما اللذان يهودانه وينصرانه وقوله تعالى (لا تبديل لخلق الله) تعليل للامر بلزوم فطرته تعالى أو لوجوب الامتثال به أى لا صحة ولا استقامة لتبديله بالاخلال بوجبه وعدم ترتيب مقتضاه عليه باتباع الهوى وقبول وسوسة الشيطان وقيل لا يقدر أحد على أن يغيره فلا بد حينئذ من حمل التبديل على تبديل نفس

الفطرة بازالة آثارها أساء ووضع فطرة أخرى مكانها غير محصنة لقبول الحق والمتمكن من ادراكه ضرورة أن التبديل بالمعنى الاول مقدور بل واقع قطعا فالتعليل حينئذ من جهة أن سلامة الفطرة متحققة في كل أحد فلا بد من لزومها بترتيب مقتضاها عليها وعدم الاخلال به بما ذكر من اتباع الهوى وخطوات الشيطان (ذلك) اشارة الى الدين المأمور باقامة الوجه له أو الى لزوم فطرة الله المستفاد من الاغراء أو الى الفطرة ان فسرت بالملة والتذكير ﴿ ٧٢٤ ﴾ بتأويل المذكور أو باعتبار الخبر (الدين القيم) المستوى الذي لا عوج فيه (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك فيصدون عنه صدودا (منيبين اليه) حال من الضمير في الناصب المقدر لفطرة الله أو في أقم لعمومه للامة حسبما أشير اليه وما بينهما اعتراض أي راجعين اليه من أناب اذا رجع مرة بعد أخرى وقوله تعالى (واتقوه) أي من مخالفة أمره عطف على المقدر المذكور وكذا قوله تعالى (وأقيموا الصلوة ولا تكونوا من المشركين) المبدلين لفطرة الله تعالى تبديلا (من الذين فرقوا دينهم) بدل من المشركين باعادة الجار وتغريقهم لدينهم اختلافهم فيما يعبدونه على اختلاف أهوائهم وفائدة الابدال التحذير عن الانتماء الى حزب من أحزاب المشركين ببيان أن الكل على الضلال المبين وقرئ فارقوا أي تركوا دينهم الذي أمروا به (وكانوا شيعا) أي فرقا تشايع كل منها امامها الذي أضلها (كل حزب بما لديهم) من الدين المعوج المؤسس على الرأي الزائغ والزعم الباطل (فرحون) مسرورون ظنا منهم أنه حق وأتى له ذلك فالجملة اعتراض مقرر لمضمون ما قبله ﴿ البشارة ﴾ من تفريق دينهم وكونهم شيعا وقد جوز أن يكون فرحون صفة لكل على أن الخبر هو الظرف المقدم أعني من الذين فرقوا ولا يخفى بعده (واذا مس الناس ضر) أي شدة (دعوا ربهم

ثم جريان الفلك فانه موقوف على اختيار من الآدمي باصلاح السفن والقائها على البحر ثم ابتغاء الفضل بركوبها (المسئلة الثانية) قال في قوله تعالى ظهر الفساد ليذيقهم بعض الذي عملوا وقال ههنا وليذيقكم من رحمته فخاطب ههنا تشعر بقلة ولان رحمته قريب من المحسنين فالمحسن قريب فيخاطب والمسيء بعيد فلم يخاطبهم وأيضا قال هناك بعض الذي عملوا وقال ههنا من رحمته وأضاف ما أصابهم الى أنفسهم وأضاف ما أصاب المؤمن الى رحمته وفيه معنيان (أحدهما) ما ذكرنا ان الكريم لا يذكر لاحسانه ورحمته عوضا وان وجد فلا يقول أعطيتك لانك فعلت كذا بل يقول هذا لك مني وأما ما فعلت من الحسنة فجزاؤه بعد عندي (وثانيهما) ان ما يكون بسبب فعل العبد قليل فلو قال أرسلت الرياح بسبب فعلكم لا يكون بشارة عظيمة وأما اذا قال من رحمته كان غايته البشارة ومعنى ثالث وهو انه لو قال بما فعلتم لكان ذلك موهما النقصان ثوابهم في الآخرة وأما في حق الكفار فان بما فعلتم ينبئ عن نقصان عقابهم وهو كذلك (المسئلة الثالثة) قال هناك لعلهم يرجعون وقال ههنا ولعلكم تشكرون قالوا واشارة الى أن توفيقهم للشكر من النعم فعطف على النعم (المسئلة الرابعة) انما أخر هذه الآية لان في الآيات التي قد سبق ذكرها قلنا انه ذكر من كل باب آيتين فذكر من المنذرات يريكم البرق والحادث في الجو في أكثر الامر مطر وريح فذكر الرياح ههنا تذكيرا وتقريرا للدلائل ولما كانت الريح فيها فائدة غير المطر وليس في البرق فائدة ان لم يكن مطر ذكر هناك خوفا وطمعا أي قد يكون وقد لا يكون وذكر ههنا مبشرات لان تعديل الهواء أو تصفيته بالريح أمر لازم وحكمه به حكم جازم ﴿ ثم قال تعالى (ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاؤهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين) لما بين الاصلين بيراهين ذكر الاصل الثالث وهو النبوة فقال ولقد أرسلنا من قبلك رسلا أي ارسالهم دليل رسالتك فانهم لم يكن لهم شغل غير شغلك ولم يظهر عليهم غير ما ظهر عليك ومن كذبهم أصابهم البوار ومن آمن بهم كان لهم الانتصار وله وجه آخر بين تعلق الآية بما قبلها وهو ان الله لما بين البراهين ولم ينتفع بها الكفار سلى قلب النبي صلى الله عليه وسلم وقال حال من تقدمك كان كذلك وجاؤا أيضا بالبينات وكان في قومهم كافر ومؤمن كما في قومك فانتقمنا من الكافرين ونصرنا المؤمنين وفي قوله تعالى وكان حقا وجهان (أحدهما) فانتقمنا وكان الانتقام حقا واستأنف وقال علينا نصر المؤمنين وعلى هذا يكون هذا بشارة للمؤمنين الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم أي علينا نصركم أيها المؤمنون (والوجه الثاني) وكان حقا علينا أي نصر المؤمنين كان حقا علينا وعلى الاول لطيفة وعلى الآخر أخرى أما على الاول فهو انه لما قال فانتقمنا بين انه لم يكن ظلما وانما كان عدلا حقا وذلك لان الانتقام لم يكن الا بعد كون بقائهم غير مفيد الا زيادة الاثم وولادة الكافر الفاجر وكان عدمهم خيرا من وجودهم الخبث وعلى الثاني تأكيد

منيبين اليه) راجعين اليه من دعاء غيره (ثم اذا أذاقهم منه رحمة) خلاصا من تلك الشدة (اذا فريق منهم بربهم) الذى كانوا دعوه منيبين اليه (يشركون) أى فاجأ فريق منهم الاشراك وتخصيص هذا الفعل ببعضهم لما أن بعضهم ليسوا كذلك كما فى قوله تعالى فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد أى مقيم على الطريق القصد أو متوسط فى الكفر لانزجاره فى الجملة (ليكفروا بما آتيناهم) اللام فيه للعاقبة ﴿ ٧٢٥ ﴾ وقيل للامر التهديدى كقوله تعالى (فتمتعوا) غير أنه التفت فيه للمبالغة وقرئ وليتمتعوا (فسوف تعلمون) عاقبة تمتعكم وقرئ بالياء على أن تمتعوا ماض والالتفات الى الغيبة فى قوله تعالى (أم أنزلنا عليهم) للايذان بالاعراض عنهم وتعديد جناياتهم لغيرهم بطريق المباثة (سلطانا) أى حجة واضحة وقيل ذا سلطان أى ملكا معه برهان (فهو يتكلم) تكلم دلالة كما فى قوله تعالى هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق أو تكلم نطق (بما كانوا به يشركون) باشراكهم به تعالى أو بالامر الذى بسببه يشركون (واذا أذقنا الناس رحمة) أى نعمة من صحة وسعة (فرحوا بها) بطرا وأشرا لاحدا وشكرا (وان تصبهم سيئة) شدة (بما قدمت أيديهم) بشؤم معاصيهم (اذا هم يقنطون) فاجؤا القنوط من رحمته تعالى وقرئ بكسر النون (أولم يروا) أى ألم ينظروا ولم يشاهدوا (ان الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) فالهم لم يشكروا ولم يحتسبوا فى السراء والضراء كالمؤمنين (ان فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) يستدلون بها على كمال القدرة والحكمة (فآت ذا القربى حقه) من الصلة والصدقة وسائر المبرات (والمسكين وابن السبيل) مايستحقانه والخطاب للنبى عليه الصلاة والسلام أولمن بسط له كما تؤذن به الفاء (ذلك خير للذين يريدون وجه الله) ذاته وجهته ويقصدون بمعروفهم اياه تعالى خالصا أو جهة التقرب اليه لاجهة أخرى (وأولئك هم

البشارة لان كلمة على تفيد معنى اللزوم يقال على فلان كذا يئ عن اللزوم فاذا قال حقا أكد ذلك المعنى وقد ذكرنا ان النصر هو الغلبة التى لا تكون عاقبتها وخيمة فان احدى الطائفتين اذا انهزمت أولا ثم عادت آخرا لا يكون النصر الا للمنهزم وكذلك موسى وقومه لما انهزموا من فرعون ثم أدركه الغرق لم يكن انهزامهم الا نصرة فالكافر ان هزم المسلم فى بعض الاوقات لا يكون ذلك نصرة اذ لا عاقبة له * ثم قال تعالى (الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فاذا أصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر الى آثار رحمت الله كيف يحيى الارض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شئ قدير) بين دلائل الرياح على التفصيل الاول فى ارسالها قدرة وحكمة اما القدرة فظاهرة فان الهواء اللطيف الذى يشقه البق يصير بحيث يقلع الشجر وهو ليس بذاته كذلك فهو بفعل فاعل مختار واما الحكمة ففى نفس الهبوب فيما يفضى اليه من اثارة السحب ثم ذكر أنواع السحب فمنه ما يكون متصلا ومنه ما يكون منقطعا ثم المطر يخرج منه والماء فى الهواء أعجب علامة للقدرة وما يفضى اليه من اثبات الزرع وادرار الضرع حكمة بالغة ثم انه لا يعم بل يختص به قوم دون قوم وهو علامة المشيئة وقوله تعالى وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله اختلف المفسرون فيه فقال بعضهم هو تأكيد كما فى قوله تعالى وكان عاقبتهما أنهما فى النار خالدين فيها وقال بعضهم من قبل التنزيل من قبلى المطر والاولى ان يقال من قبل أن ينزل عليهم من قبله أى من قبل ارسال الرياح وذلك لان بعد ارسال يعرف الخبير أن الريح فيها مطر أو لبس فقبل المطر اذا هبت الريح لا يكون مبلسا فلما قال من قبل أن ينزل عليهم لم يقل انهم كانوا مبلسين لان من قبله قد يكون راجيا غالبا على ظنه المطر برؤية السحب وهبوب الرياح فقال من قبله أى من قبل ما ذكرنا من ارسال الريح وبسط السحاب ثم لما فصل قال فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيى الارض بعد موتها ان ذلك لمحيى الموتى لما ذكر الدلائل قال لمحيى باللام المؤكدة وباسم الفاعل فان الانسان اذا قال ان الملك يعطيك لا يفيد ما يفيد قوله أنه معطيك لان الثانى يفيد انه أعطاك فكان وهو معط متصفا بالعطاء والاول يفيد انه سيتصف به ويتبين هذا بقوله انك ميت فانه آكد من قوله انك تموت وهو على كل شئ قدير تأكيدا لنفى الاسراف * ثم قال تعالى (ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم) لما بين انهم عند توقف الخير يكونون مبلسين آيسين وعند ظهوره يكونون مستبشرين بين ان تلك الحالة أيضا لا يدومون عليها بل لو أصاب زرعهم ريح مصفر لكفروا فهم منقلبون غير ثابتين لنظرهم الى الحال لا الى المآل وفى الآية مسائل (المسئلة الاولى) قال فى الآية الاولى يرسل الرياح على طريقة الاخبار

المغبونون) حيث حصلوا بمايسخط لهم النعيم المقيم (وما آتيتم من ربا) زيادة خالية عن العوض عند المعاملة وقرئ أتيتم بالقصر أى عشيتموه أو رهقتموه من اعطاء ربا (ليربو فى أموال الناس) أى ليصير بزكو فى أموالهم (فلا يربو عند الله) أى لا يبارك فيه وقرئ لتربوا أى لتزيدوا أو لتصيروا ذوى ربا (وما آتيتم من زكوة تريدون وجه الله) أى تبتغون به وجهه تعالى خالصا (فأولئك هم المضعفون) أى ذوو الاضعاف من الثواب ونظير ﴿ ٧٢٦ ﴾ المضعف المقوى والموسر لذى القوة واليسار أو الذين ضعفوا ثوابهم وأموالهم بالبركة وقرئ بفتح العين وفى تغيير النظم الكريم والالتفات من الجزالة مالا يخفى (الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شئ) أثبت له تعالى لوازم الالوهية وخواصها ونفاها رأسا عما اتخذوه شركاء له تعالى من الاصنام وغيرها مؤكدا بالانكار على ما دل عليه البرهان والعيان ووقع عليه الوفاق ثم استنتج منه تنزهه عن الشركاء بقوله تعالى (سبحانه وتعالى عما يشركون) وقد جوز أن يكون الموصول صفة والخبر هل من شركائكم والرابط قوله تعالى من ذلكم لانه بمعنى من أفعاله ومن الاولى والثانية تفيدان شيوع الحكم فى جنس الشركاء والافعال والثالثة مزيدة لتعميم النفى وكل منها مستقلة بالتأكيد وقرئ تشركون بصيغة الخطاب (ظهر الفساد فى البر والبحر) كالجدب والموتان وكثرة الحرق والغرق واخفاق الغاصة ومحق البركات وكثرة المضار أو الضلالة والظلم ﴿ فانه ﴾ وقيل المراد بالبحر قرى السواحل وقرى البحور (بما كسبت أيدى الناس) بشؤم معاصيهم أو بكسبهم اياها وقيل ظهر الفساد فى البر بقتل قابيل أخاه هابيل وفى البحر بأن جلندى كان يأخذ كل سفينة غصبا (ليذيقهم بعض الذى عملوا) أى بعض جزائه فان تمامه فى الآخرة

عن الارسال وقال ههنا ولئن أرسلنا لا على طريقة الاخبار عن الارسال لان الرياح من رحمته وهى متواترة والريح من عذابه وهو تعالى رؤف بالعباد يمسكها ولذلك نرى الرياح النافعة تهب فى الليالى والايام فى البرارى والآكام وريح السموم لا تهب الا فى بعض الازمنة وفى بعض الامكنة (المسئلة الثانية) سمى النافعة رياحا والضارة ريحا لوجوه (أحدها) النافعة كثيرة الانواع كثيرة الافراد فجمعها فان كل يوم وليلة تهب نفحات من الرياح النافعة ولا تهب الريح الضارة فى أعوام بل الضارة فى الغالب لا تهب فى الدهور (الثانى) هو ان النافعة لا تكون الا رياحا فان ما هبت مرة واحدة لا يصلح الهواء ولا ينشئ السحاب ولا يجرى السفن وأما الضارة فنفحة واحدة تقتل كريح السموم (الثالث) هو ان الريح المضرة اما أن تضر بكيفيتها أو بكميتها اما الكيفية فهى اذا كانت حارة أو متكيفة بكيفية سم وهذا لا يكون للريح فى هبوبها وانما يكون بسبب ان الهواء الساكن فى بقعة فيها حشائش رديئة أو فى موضع غار وهو حار جدا أو تكون متكونة فى أول تكونها كذلك وكيفما كان فيكون واحدة لان ذلك الهواء الساكن اذا سخن ثم ورد عليه ريح تحركه وتخرجه من ذلك المكان فتهب على مواضع كما هبت ثم ما يخرج بعد ذلك من ذلك المكان لا يكون حارا ولا متكيفا لان المكث الطويل شرط التكيف الا ترى انك لو أدخلت اصبعك فى نار واخرجتها بسرعة لا تتأثر والحديد اذا مكث فيها يذوب فاذا تحرك ذلك الساكن وتفرق لا يوجد فى ذلك الوقت غيره من جنسه وأما المتولد كذلك فقادر وموضع ندرتها واحد وأما الكمية فالرياح اذا اجتمعت وصارت واحدة صارت كالجيش ومياه العيون اذا اجتمعت تصير نهرا عظيما لا تسده السدود ولا يرده الجنود ولا شك ان فى ذلك تكون واحدة مجتمعة من كثير فبهذا قال فى المضرة ريح وفى النافعة رياح ﴿ ثم انه تعالى لما علم رسوله أنواع الادلة وأصناف الامثلة ووعد وأوعد ولم يزدهم دعاؤه الا فرارا وانباؤه الا كفرا واصرارا قال له فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين وفيه مسائل (المسئلة الاولى) فى الترتيب فنقول ارشاد الميت محال والمحال أبعد من الممكن ثم ارشاد الاصم صعب فانه لا يسمع الكلام وانما يفهم ما يفهم بالاشارة لا غير والافهام بالاشارة صعب ثم ارشاد الاعمى أيضا صعب فانك اذا قلت له اطرق على يمينك يدور الى يمينه لكنه لا يبقى عليه بل يحيد عن قريب وارشاد الاصم أصعب فلهذا تكون المعاشرة مع الاعمى أسهل من المعاشرة مع الاصم الذى لا يسمع شيئا لا غاية الافهام بالكلام فان ما لا يفهم بالاشارة يفهم بالكلام وليس كل ما يفهم بالكلام يفهم بالاشارة فان المعدوم والغائب لا اشارة اليهما فقال أولا لا تسمع الموتى ثم قال ولا الاصم ولا تهدى الاعمى الذى دون الاصم (المسئلة الثانية) قال فى الاصم اذا ولوا مدبرين ليكون ادخل فى الامتناع وذلك لان الاصم وان كان يفهم فانما يفهم بالاشارة فاذا ولى ولا يكون نظره الى المشير

واللام للعلة أو للعاقبة وقرئ لننذيقهم بالنون (لعلهم يرجعون) عما كانوا عليه (قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل) ليشاهدوا آثارهم (كان أكثرهم مشركين) استئناف للدلالة على أن ما أصابهم لفشو الشرك فيما بينهم أو كان الشرك وأكثرهم وما دونه من المعاصي في قليل منهم (فأقم وجهك للدين القيم) اى المبلغ الاستقامة (من قبل أن يأتي يوم لا مرد له) لا يقدر أحد على رده (من الله متعلق بيأتي) * ٧٢٧ * أو بمرد لانه مصدر والمعنى لا يرده الله تعالى لتعلق ارادته القديمة

فانه يسمع ولا يفهم (المسئلة الثالثة) قال في الاصم لا تسمع الصم الدعاء ولم يقل في الموتى ذلك لان الاصم قد يسمع الصوت الهائل كصوت الرعد القوي ولكن صوت الداعي لا يبلغ ذلك الحد فقال انك داع لست بمجيء الى الايمان والداعي لا يسمع الاصم الدعاء (المسئلة الرابعة) قال وما أنت بهادي العمي أي ليس شغلك هداية العميان كما يقول القائل فلان ليس بشاعر وانما يخصم بيتا و بيتين أي ليس شغله ذلك فقوله انك لا تسمع الموتى نفى ذلك عنه وقوله وما أنت بهادي العمي يعني ليس شغلك ذلك وما أرسلت له * ثم قال تعالى (ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) لما نفى اسماع الميت والاصم وأثبت اسماع المؤمن بآياته لزم أن يكون المؤمن حيا سميعا وهو كذلك لان المؤمن ترد على قلبه أمطار البراهين فتثبت في قلبه العقائد الحقة ويسمع زواجر الوعظ فتطهر منه الافعال الحسنة وهذا يدل على خلاف مذهب المعتزلة فانهم قالوا الله يريد من الكل الايمان غير ان بعضهم يخالف ارادة الله وقوله ان تسمع الا من يؤمن دليل على انه يؤمن فيسمعه النبي صلى الله عليه وسلم ما يجب أن يفعل فهم مسلمون مطيعون كما قال تعالى عنهم قالوا سمعنا واطعنا * ثم قال تعالى (الله الذي خلقكم من ضعف) لما أعاد من الدلائل التي هدمت دليلا من دلائل الآفاق وهو قوله الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا وذكر أحوال الريح من أوله الى آخره أعاد دليلا من دلائل الانفس وهو خلق الآدمي وذكر أحواله فقال خلقكم من ضعف أي مبتدئا خلقكم على الضعف كما قال تعالى خلق الانسان من عجل ومن ههنا كما تكون في قول القائل فلان زين فلانا من فقره وجعله غنيا أي من حالة فقره * ثم قال تعالى (ثم جعل من بعد ضعف قوة) فقوله من ضعف اشارة الى حالة كان فيها جنينا وطفلا مولودا رضيعا ومفطوما فهذه أحوال غاية الضعف وقوله ثم جعل من بعد ضعف قوة اشارة الى حالة بلوغه وانتقاله وشبابه واكتهاله وقوله (ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) اشارة الى ما يكون بعد الكهولة من ظهور النقصان والشيبة هي تمام الضعف ثم بين بقوله يخلق ما يشاء ان هذا ليس طبعا بل هو بمشيئة الله تعالى كما قال تعالى في دلائل الآفاق فيبسطه في السماء كيف يشاء وقوله وهو العليم القدير لم قدم العلم على القدرة وقال من قبل وهو العزيز الحكيم فالعزة اشارة الى تمام القدرة والحكمة الى العلم فقدم القدرة هناك وقدم العلم على القدرة ههنا فنقول هناك المذكور الاعادة بقوله وهو أهون عليه وله المثل الاعلى في السموات والارض وهو العزيز الحكيم لان الاعادة تكون بكن فيكون فالقدرة هناك أظهر وههنا المذكور الابداء وهو أطوار وأحوال والعلم بكل حال حاصل فالعلم ههنا أظهر ثم ان قوله تعالى وهو العليم القدير تبشير وانذار لانه اذا كان عالما بأعمال الخلق كان عالما بأحوال المخلوقات فان عملوا خيرا علمه وان عملوا شرا علمه ثم اذا كان قادرا فاذا علم الخير أثاب واذا علم الشر عاقب ولما كان العلم بالاحوال قبل الاثابة

بمجيئه (يومئذ يصدعون) أصله يتصدعون أي يتفرقون فريق في الجنة وفريق في السعير (من كفر فعليه كفره) أي وبال كفره وهو النار المؤبدة (ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون) أي يسوون منزلا في الجنة وتقديم الظرف في الموضعين للدلالة على الاختصاص (ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله) متعلق بيصدعون وقيل بيمهدون أي يتفرقون بتفريق الله تعالى فريقين ليجزي كلا منهما بحسب أعمالهم وحيث كان جزاء المؤمنين هو المقصود بالذات أبرز ذلك في معرض الغاية وعبر عنه بالفضل لما أن الاثابة بطريق التفضل لا الوجوب وأشير الى جزاء الفريق الآخر بقوله تعالى (انه لا يحب الكافرين) فان عدم محبته تعالى كناية عن بغضه الموجب لغضبه المستتبع للعقوبة لا محالة (ومن آياته أن يرسل الرياح) أي الشمال والصبا والجنوب فانها رياح الرحمة وأما الدبور فريح العذاب ومنه قوله عليه الصلاة والسلام اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا وقرئ الريح على ارادة الجنس (مبشرات) بالمطر (وليذيقكم من رحمته) وهي المنافع التابعة لها وقيل الخصب التابع لنزول المطر المسبب عنها أو الروح الذي هو مع هبوبها واللام متعلقة بيرسل والجملة معطوفة على مبشرات على المعنى كأنه قيل

ليبشركم بها وليذيقكم أو بمحذوف يفهم من ذكر الارسال تقديره وليذيقكم وليكون كذا وكذا يرسلها الا لامر آخر لا تعلق له بمنافعكم (ولتجرى الفلك) بسوقها (بأمره ولتبتغوا من فضله) بتجارة البحر (ولعلكم تشكرون) ولتشكروا نعمة الله فيما ذكر من الغايات الجليلة (ولقد ارسلنا من قبلك رسلا الى قومهم) كما أرسلناك الى قومك (فجاؤهم بالبينات) اى جاء كل رسول قومه بما يخصه من البينات كما جئت قومك ببيناتك والفاء فى قوله تعالى ﴿ ٧٢٨ ﴾ (فانتقمنا من الذين أجرموا) فصيحة أى فكذبوهم فانتقمنا منهم وانما وضع موضع ضميرهم الموصول للتنبيه على مكان المحذوف ولاشعار بكونه علة للانتقام وفى قوله تعالى (وكان حقا علينا نصر المؤمنين) مزيد تشريف وتكرمة للمؤمنين حيث جعلوا مستحقين على الله تعالى أن ينصرهم واشعار بأن الانتقام من الكفرة لاجلهم وقد يوقف على حقا على أنه متعلق بالانتقام ولعل توسيط الآية الكريمة بطريق الاعتراض بين ماسبق وما لحق من أحوال الرياح وأحكامها الانذار الكفرة وتحذيرهم عن الاخلال بموجب الشكر المطلوب بقوله تعالى لعلكم تشكرون بمقابلة النعم المعدودة المنوطة بارسالها كيلا يحل بهم مثل ماحل بأولئك الامم من الانتقام (الله الذى يرسل الرياح) استئناف مسوق لبيان ما أجمل فيما سبق من أحوال الرياح (فتثير سحابا فيبسطه) متصلا تارة (فى السماء) فى جوها (كيف يشاء) سائرا وواقفا مطبقا وغير مطبق من جانب دون جانب الى غير ذلك (ويجعله كسفا) تارة أخرى أى قطعا وقرئ بسكون السين على أنه مخفف جمع ﴿ والثالث ﴾ كسفة أو مصدر وصف به (فترى الودق) المطر (يخرج من خلاله) فى النارتين (فاذا أصاب به من يشاء من عباده) أى بلادهم وأراضيهم

والعقاب اللذين هما بالقدرة قدم العلم وأما فى الآخرة فالعلم بتلك الاحوال مع العقاب فقال وهو العليم الحكيم والى مثل هذا أشار فى قوله فتبارك الله أحسن الخالقين عقيب خلق الانسان فنقول أحسن اشارة الى العلم لان حسن الخلق بالعلم والخلق المفهوم من قوله الخالقين اشارة الى القدرة ثم نا بين ذكر الابداء والاعادة كالابداء ذكره بذكر أحوالها وأوقاتها ﴿ فقال تعالى (ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة) قيل مالبثوا فى الدنيا غير ساعة وقيل مالبثوا فى القبور وقيل مالبثوا من وقت فناء الدنيا الى وقت النشور (كذلك كانوا يؤفكون) يصرفون من الحق الى الباطل ومن الصدق الى الكذب (وقال الذين أوتوا العلم والايمان) من الملائكة وغيرهم (لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث) ونحن نبين ماهو المعنى اللطيف فى هاتين الآيتين فنقول الموعود بوعدا ضرب له اجل يستكثر اجله ويريد تعجيله والموعد بوعيد اذا ضرب له أجل يستقل المدة ويريد تأخيرها لكن المجرم اذا حشر علم ان مصيره الى النار فيستقل مدة اللبث ويختار تأخير الحشر والابقاء فى القبر والمؤمن اذا حشر علم ان مصيره الى الجنة يستكثر المدة ولا يريد التأخير فيختلف الفريقان ويقول أحدهما ان مدة لبثنا قليل واليه الاشارة بقوله يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة ويقول الآخر لبثنا مديدا واليه الاشارة بقوله تعالى وقال الذين أوتوا العلم والايمان لقد لبثتم فى كتاب الله الى يوم البعث يعنى كان فى كتاب الله ضرب الاجل الى يوم البعث ونحن صبرنا الى يوم البعث (فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون) يعنى طلبكم التأخير لانكم كنتم لا تعلمون البعث ولا تعترفون به فصار مصيركم الى النار فتطلبون التأخير ﴿ ثم قال تعالى (فيومئذ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون) أى لا يطلب منهم الاعتتاب وهو ازالة العتب يعنى التوبة التى تزيل آثار الجريمة لا تطلب منهم لانها لا تقبل منهم ﴿ ثم قال تعالى (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) اشارة الى ازالة الاعذار والاتيان بما فوق الكفاية من الانذار والى انه لم يبق من جانب الرسول تقصير فان طلبوا شيأ آخر فذلك عناد ومن هان عليه تكذيب دليل لا يصعب عليه تكذيب الدلائل بل لا يجور للمستدل أن يشرع فى دليل آخر بعد ماذكر دليلا جيدا مستقيما ظاهرا لاغبار عليه وعانده الخصم لانه اما أن يعترف بور ود سؤال الخصم عليه أو لا يعترف فان اعترف يكون انقطاعا وهو يقدح فى الدليل أو المستدل اما بأن الدليل فاسد واما بان المستدل جاهل بوجه الدلالة والاستدلال وكلاهما لا يجوز الاعتراف به من العالم فكيف من النبى عليه الصلاة والسلام وان لم يعترف يكون الشروع فى غيره موهما ان الخصم ليس معاندا فيكون اجتراؤه على العناد فى الثانى أكثر لانه يقول العناد افاد فى الاول حيث التزم ذكر دليل آخر فان قيل فالانبياء عليهم السلام ذكروا أنواعا من الدلائل نقول سردوها سردا ثم قرروها فردا فردا كمن يقول الدليل عليه من وجوه الاول كذا والثانى كذا

(اذاهم يستبشرون) فاجؤا الاستبشار بمجيء الخصب (وان كانوا) ان مخففة من ان وضمير الشان الذى هو اسمها محذوف أى وان الشان كانوا (من قبل أن ينزل عليهم) أى المطر (من قبله) تكرير للتأكيد والايذان بطول عهدهم بالمطر واستحكام يأسهم منه وقيل الضمير للمطر أو السحاب أو الارسال وقيل للكسف على القراءة بالسكون وليس بواضح وأقرب من ذلك أن يكون الضمير ﴿ ٧٢٩ ﴾ للاستبشار ومن متعلقة بينزل لتفيد سرعة تقلب قلوبهم من اليأس الى الاستبشار بالاشارة الى غاية تقارب زمانيهما ببيان اتصال اليأس بالتنزيل المتصل بالاستبشار بشهادة اذا الفجائية (لمبلسين) خبر كانوا واللام فارقة أى آيسين (فانظر الى آثار رحمة الله) المترتبة على تنزيل المطر من النبات والاشجار وأنواع الثمار والفاء للدلالة على سرعة ترتبها عليه وقرئ أثر بالتوحيد وقوله تعالى (كيف يحيى) أى الله تعالى (الارض بعد موتها) فى حيز النصب بنزع الخافض وكيف معلق لانظر أى فانظر الى احيائه البديع للارض بعد موتها وقيل على الحالية بالتأويل وأيا ما كان فالمراد بالامر بالنظر التنبيه على عظم قدرته تعالى وسعة رحمته مع ما فيه من التمهيد لما يعقبه من أمر البعث وقرئ تحيى بالتأنيث على الاسناد الى ضمير الرحمة (ان ذلك) العظيم الشان الذى ذكر من شؤنه (لمحيى الموتى) لقادر ﴿ ٩٢ ﴾ س على احيائهم فانه احداث لمثل ماكان فى موادابدانهم من القوى الحيوانية كما أن احياء الارض احداث لمثل ماكان فيها من القوى النباتية أو لمحييهم البتة وقوله تعالى (وهو على كل شئ قدير) تذييل مقرر لمضمون ماقبله أى مبالغ فى القدرة على جميع الاشياء التى من جملتها احياؤهم لما ان نسبة ذاته الى الكل سواء

والثالث كذا وفى مثل هذا الواجب عدم الالتفات الى عناد المعاند لانه يزيد بعناده حتى يضيع الوقت فلا يتمكن المستدل من الاتيان بجميع ماوعد من الدلائل فتنحط درجته فاذن لكل مكان مقال ﴿ والى هذا وقعت الاشارة بقوله تعالى (ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا ان أنتم الا مبطلون) وفى توحيد الخطاب بقوله جئتهم والجمع فى قوله ان أنتم لطيفة وهى أن الله تعالى قال ولئن جئتهم بكل آية جاءت بها الرسل يمكن أن يجاء بها يقولون أنتم كلكم ايها المدعون للرسالة مبطلون ﴿ ثم بين تعالى ان ذلك بطبع الله على قلوبهم بقوله (كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون) فان قيل من لا يعلم شيأ أية فائدة فى الاخبار عن الطبع على قلبه يقول المعنى هو ان من لا يعلم الآن فقد طبع الله على قلبه من قبل ﴿ ثم انه تعالى سلى قلب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله (فاصبر ان وعد الله حق) أى ان صدقك بين وقوله (ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) اشارة الى وجوب مداومة النبى عليه الصلاة والسلام على الدعاء الى الايمان فانه لو سكت لقال الكافر انه متقلب الرأى لاثبات له والله أعلم بالصواب ﴿ واليه المرجع والمآب ﴿ والحمد لله رب العالمين ﴿ وصلاته على سيد المرسلين ﴿ وآله وصحبه أجمعين

﴿(سورة لقمان عليه السلام مكية كلها الا آيتين نزلتا بالمدينة وهما ولو أن ما فى الارض من شجرة الآيتين اوالا آية نزلت بالمدينة وهى الذين يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاة لان الصلاة والزكاة نزلتا بالمدينة وهى ثلاث وقيل أربع وثلاثون آية)﴾

﴿(بسم الله الرحمن الرحيم)﴾

(الم تلك آيات الكتاب الحكيم) وجه ارتباط اول هذه السورة بآخر ماقبلها هو ان الله تعالى لما قال ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل اشارة الى كونه معجزة وقال ولئن جئتهم بآية اشارة الى انهم يكفرون بالآيات بين ذلك بقوله الم تلك آيات الكتاب الحكيم أى هذه آيات ولم يؤمنوا بها والى هذا أشار بعد هذا بقوله واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا ﴿ وقوله (هدى ورحمة للمحسنين الذين يقيمون الصلوة و يؤتون الزكوة وهم بالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) فقوله هدى أى بيانا وفرقانا وأما التفسير فمثل تفسير قوله تعالى الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى وكما قيل هناك ان المعنى بذلك هذا كذلك قيل بأن المراد بتلك هذه ويمكن ان يقال كما قلنا هناك ان تلك اشارة الى الغائب معناها آيات القرآن آيات الكتاب الحكيم وعند انزال هذه الآيات التى نزلت مع الم تلك آيات الكتاب الحكيم لم تكن جميع الآيات نزلت فقال تلك اشارة الى الكل أى آيات القرآن تلك آيات وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قال فى سورة البقرة ذلك الكتاب ولم يقل الحكيم وههنا قال الحكيم فما زاد ذكر وصف الكتاب زاد ذكر أمر فى أحواله فقال هدى ورحمة وقال هناك هدى للمتقين فقوله هدى فى مقابلة قوله الكتاب وقوله ورحمة فى مقابلة قوله الحكيم ووصف الكتاب بالحكيم على

(ولئن أرسلنا ريحا فرأوه) أي الاثر المدلول عليه بالآثار أو الثبات المعبر عنه بالآثار فانه اسم جنس يعم القليل والكثير (مصفرا) بعد خضرته وقد جوز أن يكون الضمير للسحاب لانه اذا كان مصفرا لم يمطر ولا يخفى بعده واللام في لئن موطئة للقسم دخلت على حرف الشرط والفاء في فرأوه فصيحة واللام في قوله تعالى (لظلوا) لام جواب القسم السادمسد الجوابين أي وبالله لئن أرسلنا ريحا حارة أو باردة فضربت زرعهم بالصفار ﴿ ٧٣٠ ﴾ فرأوه مصفر الظلن (من بعد يكفرون) من غير تلعثم وفيه من ذمهم بعد تثبيتهم وسرعة تزلزلهم بين طرفي الافراط والتفريط مالا يخفى حيث كان الواجب عليهم أن يتوكلوا على الله تعالى في كل حال و يلجؤا اليه بالاستغفار اذا احتبس عنهم القطر ولا ييأسوا من روح الله تعالى و يبادروا الى الشكر بالطاعة اذا أصابهم برحمته ولا يفرطوا في الاستبشار وأن يصبروا على بلائه اذا اعترى زرعهم آفة ولا يكفروا بنعمائه فعكسوا الامر وأبوا مايجديهم وأتوا بما يرديهم (فانك لا تسمع الموتى) لما انهم مثلهم لانسداد مشاعرهم عن الحق (ولا تسمع الصم الدعاء اذا ولوا مدبرين) تقييد الحكم بما ذكر لبيان كمال سوء حال الكفرة والتنبيه على أنهم جامعون لخصلتي السوء نبو أسماعهم عن الحق واعتراضهم عن الاصغاء اليه ولو كان فيهم احداهما لكفاهم ذلك فكيف وقد جمعوهما فان الاصم المقبل الى المتكلم ربما يفطن من أوضاعه وحركاته لشئ من كلامه وان لم يسمعه أصلا وأما اذا كان ﴿ قوله ﴾ معرضا عنه فلا يكاد يفهم منه شيئا وقرئ بالباء المفتوحة ورفع الصم (وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم) سموا عميا لفقدهم المقصود الحقيق من الابصار أو لعمى قلوبهم وقرئ تهدي العمي (ان تسمع) أي ما تسمع (الا من يؤمن

معنى ذي الحكمة كقوله تعالى في عيشة راضية أي ذات رضا (المسئلة الثانية) قال هناك للمتقين وقال ههنا للمحسنين لانه لما ذكر انه هدى ولم يذكر شيئا آخر قال للمتقين أي يهتدي به من يتقي الشرك والعناد والتعصب و ينظر فيه من غير عناد ولما زاد ههنا رحمة قال للمحسنين أي المتقين الشرك والعناد الآتين بكلمة الاحسان فالمحسن هو الآتي بالايمان والمتقي هو التارك للكفر كما قال تعالى ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ومن جانب الكفر كان متقيا وله الجنة ومن أتى بحقيقة الايمان كان محسنا وله الزيادة لقوله تعالى للذين أحسنوا الحسنى و زيادة ولانه لما ذكر انه رحمة قال للمحسنين لان رحمة الله قريب من المحسنين (المسئلة الثالثة) قال هناك الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وقال ههنا الذين يقيمون الصلاة ولم يقل يؤمنون لما بينا ان المتقي هو التارك للكفر و يلزمه أن يكون مؤمنا والمحسن هو الآتي بحق الايمان يلزمه ان لا يكون كافرا فلما كان المتقي دالا على المؤمن في الالتزام صرح بالايمان هناك تبينا ولما كان المحسن دالا على الايمان بالتنصيص لم يصرح بالايمان وقوله تعالى الذين يقيمون الصلاة قد ذكرنا ما في الصلاة واقامتها مرارا وما في الزكاة والقيام بها وذكرنا في تفسير الانفال في أوائلها ان الصلاة ترك التشبه بالسيد فانها عبادة صورة وحقيقة والله تعالى تجب له العبادة ولا تجوز عليه العبادة وترك التشبه لازم على العبد أيضا في أمور فلا يجلس عند جلوسه ولا يتكئ عند اتكائه والزكاة تشبه بالسيد فانها دفع حاجة الغير والله دافع الحاجات والتشبه لازم على العبد أيضا في أمور كما ان عبدا عالما لا يتلبس بلباس الاجناد وعبد الجندي لا يتلبس بلباس الزهاد و بهما تتم العبودية * ثم قال تعالى (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين) لما بين أن القرآن كتاب حكيم يشتمل على آيات حكمية بين من حال الكفار انهم يتركون ذلك و يشتغلون بغيره ثم ان فيه ما يبين سوء صنيعهم من وجوه (الاول) ان ترك الحكمة والاشتغال بحديث آخر قبيح (الثاني) هو ان الحديث اذا كان لهوا لا فائدة فيه كان أقبح (الثالث) هو ان اللهو قد يقصد به الاحماض كما ينقل عن ابن عباس انه قال أحمضوا ونقل عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم انه قال روحوا القلوب ساعة فساعة رواه الديلمي عن أنس مرفوعا و يشهد له ما في مسلم حنظلة ساعة وساعة والعوام يفهمون منه الامر بما يجوز من المطايبة والخواص يقولون هو أمر بالنظر الى جانب الحق فان الترويح به لا غير فلما لم يكن قصدهم الا الاضلال لقوله ليضل عن سبيل الله كان فعله أدخل في القبح ثم قوله تعالى بغير علم عائد الى الشراء أي يشتري بغير علم ويتخذها أي يتخذ السبيل هزوا أولئك لهم عذاب مهين قوله مهين اشارة الى أمر يفهم منه الدوام وذلك لان الملك اذا أمر بتعذيب عبد من عبيده فالجلاد ان علم انه ممن يعود الى خدمة الملك ولا يتركه الملك في الحبس يكرمه و يخفف من تعذيبه وان علم انه لا يعود الى ما كان عليه وأمره قد انقضى فانه لا يكرمه

ياتنا) فان ايمانهم يدعوهم الى التدبر فيها وتلقيها بالقبول أو الامن بشارف الايمان بها ويقبل عليها اقبالا لائقا (فهم مستكبرون) منقادون لما تامرهم به من الحق (الله الذى خلقكم من ضعف) مبتدأ وخبر أى ابتدأ خلقكم ضعفاء وجعل الضعف اساس أمركم كقوله تعالى وخلق الانسان ضعيفا أى خلقكم من أصل ضعيف هو النطفة (ثم جعل من بعد ضعف قوة) ذلك عند بلوغكم الحلم أو تعلق الروح بابدانكم (ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) اذا أخذ منكم السن وقرئ بضم الضاد فى الكل وهو أقوى لقول ابن عمر رضى الله عنهما قرأنها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقرأنى من ضعف وهما لغتان كالفقر والفقر والتكبير مع التكرير لان المتقدم غير المتاخر (يخلق مايشاء) من الاشياء التى من جملتها ماذكر من الضعف والقوة والشيبة (وهو العليم القدير) المبالغ فى العلم والقدرة فان التردد فيما ذكر من الاطوار المختلفة من أوضح دلائل العلم والقدرة (ويوم تقوم الساعة) أى القيامة سميت بها لانها تقوم فى آخر ساعة من ساعات الدنيا أو لانها تقع بغتة وصارت علما لها كالنجم للثريا والكوكب للزهرة (يقسم المجرمون مالبثوا) أى فى القبور أو فى الدنيا والاول هو الاظهر لان لبثهم مغيى بيوم البعث كما سيأتى وليس لبثهم فى الدنيا كذلك وقيل فيما بين فناء الدنيا والبعث وانقطاع عذابهم وفى الحديث مابين فناء الدنيا والبعث أربعون

فقوله عذاب مهين اشارة الى هذا وبه يفرق بين عذاب المؤمن وعذاب الكافر فان عذاب المؤمن ليطهر فهو غير مهين * ثم قال تعالى (واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا) أى يشترى الحديث الباطل والحق الصراح يأتيه مجانا يعرض عنه واذا نظرت فيه فهمت حسن هذا الكلام من حيث ان المشترى يطلب المشترى مع انه يطلبه ببذل الثمن ومن يأتيه الشئ لايطلبه ولايبذل شيأ ثم ان الواجب أن يطلب العاقل الحكمة باى شئ يجده ويشتريها وهم ماكانوا يطلبونها واذا جاءتهم مجانا ماكانوا يسمعونها ثم ان فيه أيضا مراتب (الاولى) التولية عن الحكمة وهو قبيح (والثانى) الاستكبار ومن يشترى حكاية رستم وبهرام ويحتاج اليها كيف يكون مستغنيا عن الحكمة حتى يستكبر عنها وانما يستكبر الشخص عن الكلام اذا كان يقول انا أقول مثله فمن لايقدر بصنع مثل تلك الحكايات الباطلة كيف يستكبر على الحكمة البالغة التى من عند الله (الثالث) قوله تعالى كأن لم يسمعها شغل المتكبر الذى لايلتفت الى الكلام ويجعل نفسه كأنها غافلة (الرابع) قوله كان فى اذنيه وقرا أدخل فى الاعراض * ثم قال تعالى (فبشره بعذاب أليم) أى له عذاب مهين فبشره انت به وأوعده أو يقال اذا كان حاله هذا فبشره بعذاب أليم * وقوله تعالى (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعد الله حقا وهو العزيز الحكيم) لما بين حال من اذا تتلى عليه الآيات ولى بين حال من يقبل على تلك الآيات يقبلها وكما ان ذلك له مراتب من التولية والاستكبار فهذا له مراتب من الاقبال والقبول والعمل به فان من سمع شيأ وقبله قد لايعمل به فلا تكون درجته مثل من يسمع ويطيع ثم ان هذا له جنات النعيم ولذلك عذاب مهين وفيه لطائف (احداها) توحيد العذاب وجمع الجنات اشارة الى أن الرحمة واسعة أكثر من الغضب (الثانية) تنكير العذاب وتعريف الجنة بالاضافة الى المعرف اشارة الى أن الرحيم يبين النعمة ويعرفها ايصالا للراحة الى القلب ولا يبين النقمة وانما ينبه عليها تنبيها (الثالثة) قال عذاب ولم يصرح بأنهم فيه خالدون وانما أشار الى الخلود بقوله مهين وصرح فى الثواب بالخلود بقوله خالدين فيها (الرابعة) أكد ذلك بقوله وعد الله حقا ولم يذكره هناك (الخامسة) قال هناك لغيره وبشره بعذاب وقال ههنا بنفسه وعد الله ثم لم يقل أبشركم به لان البشارة لاتكون الا باعظم مايكون لكن الجنة دون مايكون للصالحين بشارة من الله وانما تكون بشارتهم منه برحمته ورضوانه كما قال تعالى يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ولولا قوله منه لما عظمت البشارة ولو كانت منه مقرونة بامر دون الجنة لكان ذلك فوق الجنة من غير اضافة فان قيل فقد بشر بنفس الجنة بقوله وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون نقول البشارة هناك لم تكن بالجنة وحدها بل بها وبما ذكر بعدها الى قوله تعالى نزلا من غفور رحيم والنزل مايهيأ عند النزول والاكرام العظيم بعده وهو العزيز الحكيم كامل

هو محتمل للساعة والايام والاعوام وقيل لايعلم أهى أربعون سنة أو أربعون ألف سنة (غير ساعة) استقلوا مدة لبثهم ايمانا أو كذبا أو تخمينا (كذلك كانوا يؤفكون) مثل ذلك الصرف كانوا يصرفون فى الدنيا عن الحق والصدق (وقال الذين أوتوا العلم والايمان) فى الدنيا من الملائكة والانس

(لقد لبثتم فى كتاب الله) فى علمه او قضائه وما كتبه وعينه اوفى اللوح او القرآن وهو قوله تعالى ومن ورائهم برزخ (الى يوم البعث) ردوا بذلك ماقالوه وأبدوه باليمين كأنهم من فرط حيرتهم لم يدروا أن ذلك هو البعث الموعود الذى كانوا ينكرونه وكانوا يسمعون أنه يكون بعد فناء الخلق كافة و يقدرون لذلك زمانا مديدا وان لم يعتقدوا تحققه فردالعالمون مقالتهم وبهتوهم على أنهم لبثوا الى غاية بعيدة كانوا يسمعونها ﴿٧٣٢﴾ و ينكرونها و يكتوهم بالاخبار بوقوعها حيث قالوا (فهذا يوم البعث) الذى كنتم توعدون فى الدنيا (ولكنكم كنتم لاتعلمون) أنه حق فتستعجلون به استهزاء والقاء جواب شرط محذوف كما فى قول من قال * قالوا خراسان أقصى مايراد بنا * ثم القفول فقد جئنا خراسانا (فيومئذ لاينفع الذين ظلموا معذرتهم) أى عذرهم وقرئ تنفع بالتاء محافظة على ظاهر اللفظ وان توسط بينهما فاصل (ولاهم يستعتبون) لايدعون الى مايقتضى اعتابهم أى ازالة عتبهم من التوبة والطاعة كما دعوا اليه فى الدنيا من قولهم استعتبنى فلان فاعتبته أى استرضانى فارضيته (ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) أى و بالله لقد بينا لهم كل حال ووصفنا لهم كل صفة كأنها فى غرابتها مثل وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشان كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم ومايقولون ومايقال لهم و يفعل بهم من رد اعتذارهم (ولئن جئتهم بآية) من آيات القرآن الناطقة بامثال ذلك (ليقولن الذين كفروا) لفرط عنوهم وعنادهم وقساوة ﴿الالتفات﴾ قلوبهم مخاطبين للنبى عليه الصلاة والسلام والمؤمنين (ان أنتم الا مبطلون) أى مزورون (كذلك) مثل ذلك الطبع الفظيع (يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون) لايطلبون العلم ولايتحرون الحق بل

القدرة يعذب المعرض و يثيب المقبل كامل العلم يفعل الافعال كما ينبغى فلايعذب من يؤمن ولايثيب من يكفر * ثم قال تعالى (خلق السموات بغير عمد ترونها) بين عزته وحكمته بقوله خلق السموات بغير عمد اختلف قول العلماء فى السموات فمنهم من قال انها مبسوطة كصحيفة مستوية وهو قول أكثر المفسرين ومنهم من قال انها مستديرة وهو قول جميع المهندسين والغزالى رحمه الله قال نحن نوافقهم فى ذلك فان لهم عليها دليلا من المحسوسات ومخالفة الحس لاتجوز وان كان فى الباب خبر نؤوله بما يحتمله فضلا من أن ليس فى القرآن والخبر مايدل على ذلك صريحا بل فيه مايدل على الاستدارة كما قال تعالى كل فى فلك يسبحون والفلك اسم لشئ مستدير بل الواجب ان يقال بأن السموات سواء كانت مستديرة أو مصفحة فهى مخلوقة بقدرة الله لاموجودة بايجاب وطبع واذا علم هذا فقول السماء فى مكان وهو فضاء والفضاء لانهاية له وكون السماء فى بعضه دون بعض ليس الا بقدرة مختار واليه الاشارة بقوله بغير عمد أى ليس على شئ يمنعها الزوال من موضعها وهى لاتزول الا بقدرة الله تعالى وقال بعضهم المعنى ان السموات باسرها ومجموعها لامكان لها لان المكان مايعتمد عليه مافيه فيكون ممكنا والحيز مايشار الى مافيه بسببه يقال ههنا وهناك وعلى هذا قالوا ان من يقع من شاهق جبل فهو فى الهواء فى حيز اذ يقال له هو ههنا وهناك وليس فى مكان اذ لايعتمد على شئ فاذا حصل على الارض حصل فى مكان اذا علم هذا فالسموات ليست فى مكان تعتمد عليه فلا عمد لها وقوله ترونها فيه وجهان (أحدهما) انه راجع الى السموات أى ليست هى بعمد وأنتم ترونها كذلك بغير عمد (والثانى) انه راجع الى العمد أى بغير عمد مرئية وان كان هناك عمد غير مرئية فهى قدرة الله وارادته * ثم قال تعالى (وألقى فى الارض رواسى ان تميد بكم وبث فيها من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فانبتنا فيها من كل زوج كريم) أى جبالا راسية ثابتة ان تميد أى كراهية ان تميد وقيل المعنى أن لاتميد واعلم ان الارض ثباتها بسبب ثقلها والا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح ولو خلقها مثل الرمل لما كانت تثبت للزراعة كما نرى الاراضى الرملة بل قليل الرمل الذى فيها من موضع الى موضع ثم قال تعالى و بث فيها من كل دابة أى سكون الارض فيه مصلحة حركة الدواب ساكنا الارض وحركتا الدواب ولو كانت الارض متزلزلة و بعض الاراضى يناسب بعض الحيوانات لكانت الدابة التى لاتعيش فى موضع تقع فى ذلك الموضع فيكون فيه هلاك الدواب اما اذا كانت الارض ساكنة والحيوانات متحركة تتحرك فى المواضع التى تناسبها وترعى فيها وتعيش فيها ثم قال تعالى وانزلنا من السماء ماء هذه نعمة أخرى أنعمها الله على عباده وتمامها بسكون الارض لان البذر اذا لم يثبت الى ان ينبت لم يكن يحصل الزرع ولو كانت أجزاء الارض متحركة كالرمل لما حصل الثبات ولما كمل النبات والعدول من الغيبة الى النفس فيه فصاحة وحكمة اما الفصاحة فمذكورة فى باب

يصرون على خرافات اعتقدوها وترهات ابتدعوها فان الجهل المركب يمنع ادراك الحق ويوجب تكذيب المحق (فاصبر) على ما تشاهد منهم من الاقوال الباطلة والافعال السيئة (ان وعد الله حق) وقد وعدك بالنصرة وظهار الدين واعلاء كلمة الحق ولابد من انجازه وايفائه لامحالة (ولا يستخفنك) لا يحملنك على الخفة والقلق (الذين لا يوقنون) بما تتلو عليهم من الآيات البينة بتكذيبهم اياها وايذائهم لك بأباطيلهم التي

من أعجاز وايهامه لامحالة

الاسفات من ان السامع اذا سمع كلاما طويلا من نمط واحد ثم ورد عليه نمط آخر يستطيبه الا ترى انك اذا قلت قال زيد كذا وكذا وقال خالد كذا وكذا وقال عمر وكذا ثم ان بكرا قال قولا حسنا يستطاب لما قد تكرر القول مرارا واما الحكمة فمن وجهين (أحدهما) أن خلق الارض ثقيلا والسماء في غير امكان قد يقع لجاهل انه بالطبع وبث الدواب يقع لبعضهم انه باختيار الدابة لان لها اختيارا فنقول الاول طبيعي والآخر اختياري للحيوان ولكن لا يشك أحد في أن الماء في الهواء من جهة فوق ليس طبعا فان الماء لا يكون بطبعه فوق ولا اختيارا اذ الماء لا اختيار له فهو بارادة الله تعالى فقال وأنزلنا من السماء (الثاني) هو ان انزال الماء نعمة ظاهرة متكررة في كل زمان متكثرة في كل مكان فأسنده الى نفسه صريحا ليتنبه الانسان لشكر نعمته فيزيده من رحمته وقوله تعالى فأنبتنا فيها من كل زوج أي من كل جنس وكل جنس فتحته زوجان لان النبات اما أن يكون شجرا واما ان يكون غير شجر والذي هو الشجر اما أن يكون مثمرا واما أن يكون غير مثمر والمثمر كذلك ينقسم قسمين وقوله تعالى كريم أي ذي كرم لانه يأتي كثيرا من غير حساب أو مكرم مثل بغيض للمبغض * ثم قال تعالى (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه) يعني الله خالق وغيره ليس بخالق فكيف تتركون عبادة الخالق وتشتغلون بعبادة المخلوق * ثم قال تعالى (بل الظالمون في ضلال مبين) أي بين أو مبين للعاقل انه ضلال وهذا لان ترك الطريق والحيد عنه ضلال ثم ان كان الحيد يمنة أو يسرة فهو لا يبعد عن الطريق المستقيم مثل ما يكون المقصد الى وراء فانه يكون غاية الضلال فالمقصد هو الله تعالى فمن يطلبه ويلتفت الى غيره من الدنيا وغيرها فهو ضال لكن من وجهه الى الله قد يصل الى المقصود ولكن بعد تعب وطول مدة ومن يطلبه ولا يلتفت الى ما سواه يكون كالذي على الطريق المستقيم يصل عن قريب من غير تعب واما الذي تولى لا يصل الى المقصود أصلا وان دام في السفر والمراد بالظالمين المشركون الواضعون لعبادتهم في غير موضعها او الواضعون أنفسهم في عبادة غير الله * ثم قال تعالى (ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله) لما بين الله فساد اعتقادهم بسبب عنادهم باشراكهم لا يخلق شيئا بمن خلق كل شيء بقوله هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه وبين أن المشرك ظالم ضال ذكر ما يدل على ان ضلالهم وظلمهم بمقتضى الحكمة وان لم يكن هناك نبوة وهذا اشارة الى معنى وهو ان اتباع النبي عليه السلام لازم فيما لا تعقل معناه اظهارا للتعبد فكيف ما لا يختص بالنبوة بل يدرك بالعقل معناه وما جاء به النبي عليه السلام مدرك بالحكمة وذكر حكاية لقمان وانه أدركه بالحكمة وقوله ولقد آتينا لقمان الحكمة عبارة عن توفيق العمل بالعلم فكل من أوتي توفيق العمل بالعلم فقد أوتي الحكمة وان أردنا تحديدها بما يدخل فيه حكمة الله تعالى فنقول حصول العمل على وفق العلوم والذي يدل على ما ذكرنا ان من تعلم شيئا ولا يعلم مصالحه ومفاسده لا يسمى حكيما وانما

منهم أمثال ذلك وقرئ بالنون المخففة وقرئ ولا يستخفنك من الاستخفاق أي لا يفتننك فيملكوك ويكونوا أحق بك من المؤمنين وأياما كان فظاهر النظم الكريم وان كان نهيا للكفرة عن استخفافه لكنه في الحقيقة نهي له عليه السلام عن التأثر من استخفافهم والافتتان بفتنتهم على طريق الكناية كما في قوله تعالى ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة الروم كان له من الاجر عشر حسنات بعدد كل ملك يسبح الله تعالى بين السماء والارض وأدرك ما ضيع في يومه وليلته

(سورة لقمان مكية وقيل الا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة فان وجوبهما بالمدينة وهو ضعيف لانه ينافي شرعيتهما بمكة وقيل الا ثلاثا من قوله ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام وهي أربع أو ثلاث وثلاثون آية)

* بسم الله الرحمن الرحيم *

(الم تلك آيات الكتاب) سلف بيانه في نظائره (الحكيم) ذي الحكمة لاشتماله عليها أو هو وصف له بنعته تعالى أو أصله الحكيم منزله او قائله فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه فانقلب مرفوعا فاستكن في الصفة المشبهة وقيل الحكيم فعيل

بمعنى مفعل كما قالوا أعقدت اللبن فهو عقيد أى معقد وهو قليل وقيل بمعنى فاعل (هدى ورحمة) بالنصب على الحالية من الآيات والعامل فيهما معنى الاشارة وقرئا بالرفع على انهما خبران آخران لاسم الاشارة أو لمبتدا محذوف (للمحسنين) أى العاملين للحسنات فان أريد بها مشاهيرها المعهودة فى الدين فقوله تعالى (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) بيان لما عملوها من الحسنات على طريقة قوله * الالمعي ﴿ ٧٣٤ ﴾ الذى يظن بك الظن * كأن قد رأى وقد سمعا *

وان أريد بها جميع الحسنات فهو تخصيص لهذه الثلاث بالذكر من بين سائر شعبها لاظهار فضلها او انافتها على غيرها وتخصيص الوجه الاول بصورة كون الموصول صفة للمحسنين والوجه الاخير بصورة كونه مبتدأ مما الوجه له (اولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) الفائزون بكل مطلوب والناجون من كل مهروب لحيازتهم عطرى العلم والعمل وقدم ما فيه من المقال فى مطلع سورة البقرة بما لا مزيد عليه (ومن الناس) محله الرفع على الابتداء باعتبار مضمونه او بتقدير الموصوف ومن فى قوله تعالى (من يشترى لهو الحديث) موصولة أو موصوفة محلها الرفع على الخبرية والمعنى وبعض الناس أو وبعض من الناس الذى يشترى أو فريق يشترى على أن مناط الافادة والمقصود بالاصالة هو اتصافهم بما فى حيز الصلة أو الصفة لا كونهم ذوات أولئك المذكورين كما مر فى قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر الآيات ولهو الحديث ما يلهى عما يعنى من المهمات كالاحاديث التى لا أصل لها والاساطير التى ﴿ مرتبته ﴾ لاعتداد بها والمضاحك وسائر ما لا خير فيه من فضول الكلام والافاضة بمعنى من التبيينية ان

يكون مبخوتا الا ترى ان من بلق نفسه من مكان عال ووقع على موضع فانخسف به وظهر له كنز وسلم لا يقال انه حكيم وان ظهر لفعله مصلحة وخلو عن مفسدة لعدم علمه به أولا ومن يعلم ان الالقاء فيه اهلاك النفس ويلقى نفسه من ذلك المكان ويتكسر أعضاؤه لا يقال انه حكيم وان علم ما يكون فى فعله ثم الذى يدل على ما ذكرنا قوله تعالى أن اشكر لله فان أن فى مثل هذا تسمى المفسرة ففسر الله ايتاء الحكمة بقوله أن اشكر لله وهو كذلك لان من جملة ما يقال ان العمل موافق للعلم لان الانسان اذا علم أمرين أحدهما أهم من الآخر فان اشتغل بالاهم كان عمله موافقا لعلمه وكان حكيما وان أهمل الاهم كان مخالفا للعلم ولم يكن من الحكمة فى شئ لكن شكر الله أهم الاشياء فالحكمة أول ما تقتضى ذلك ثم ان الله تعالى بين أن بالشكر لا ينتفع الا الشاكر * بقوله (ومن يشكر فانما يشكر لنفسه) وبين أن بالكفران لا يتضرر غير الكافر بقوله (ومن كفر فان الله غنى حميد) أى الله غير محتاج الى شكر حتى يتضرر بكفران الكافر وهو فى نفسه محمود سواء شكره الناس او لم يشكروه وفى الآية مسائل واطائف (الاولى) فسر الله ايتاء الحكمة بالامر بالشكر لكن الكافر والجاهل مأمورون بالشكر فينبغى ان يكون قد أوتى الحكمة والجواب ان قوله تعالى ان اشكر لله أمر بتكوين معناه آتيناه الحكمة بان جعلناه من الشاكرين وفى الكافر الامر بالشكر أمر بتكليف (المسئلة الثانية) قال فى الشكر ومن يشكر بصيغة المستقبل وفى الكفران ومن كفر فان الله غنى وان كان الشرط يجعل الماضى والمستقبل فى معنى واحد كقول القائل من دخل دارى فهو حر ومن يدخل دارى فهو حر فنقول فى الاشارة الى معنى وارشاد الى أمر وهو ان الشكر ينبغى أن يتكرر فى كل وقت لتكرر النعمة فمن شكر ينبغى أن يكرر والكفر ينبغى ان ينقطع فمن كفر ينبغى ان يترك الكفران ولان الشكر من الشاكر لا يقع بكماله بل أبدا يكون منه شئ فى العدم يريد الشاكر ادخاله فى الوجود كما قال رب اوزعنى أن أشكر نعمتك وكما قال تعالى وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فأشار اليه بصيغة المستقبل تنبيها على ان الشكر بكماله لم يوجد واما الكفران فكل جزء يقع منه تام فقال بصيغة الماضى (المسئلة الثالثة) قال تعالى هنا ومن يشكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر بتقديم الشكر على الكفران وقال فى سورة الروم ومن كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلانفسهم يمهدون فنقول هناك كان الذكر للترهيب لقوله تعالى من قبل فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون وههنا الذكر للترغيب لان وعظ الاب للابن يكون بطريق اللطف والوعد وقوله ومن عمل صالحا يحقق ما ذكرنا اولا لان المذكور فى سورة الروم لما كان بعد اليوم الذى لا مرد له تكون الاعمال قد سبقت فقال بلفظ الماضى ومن عمل وههنا لما كان المذكور فى الابتداء قال ومن يشكر بلفظ المستقبل وقوله ومن كفر فان الله غنى عن حمد الحامدين حميد فى ذاته من غير حمدهم وانما الحامد ترتقم

أريد بالحديث المنكر ويعني التعصبة ان أريد به الاعم من ذلك وقيل نزلت الآية في النضر بن الحرث اشترى كتب الاعاجم وكان يحدث بها قريشا ويقول ان كان محمد عليه الصلاة والسلام يحدثكم بحديث عاد وثمود فانا احدثكم بحديث رستم واسفنديار والاكاسرة وقيل كان يشتري القيان ويحملهن على معاشرة من أراد الاسلام ومنعه عنه (ليضل عن سبيل الله) أي دينه الحق الموصل اليه تعالى أو عن قراءة ﴿ ٧٣٥ ﴾ كتابه الهادي اليه تعالى وقرئ ليضل بفتح الياء أي ليثبت ويستمر

مرتبته بكونه حامدا لله تعالى * ثم قال تعالى (واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابني لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم) عطف على معنى ما سبق وتقدير وآتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكرا في نفسه وحين جعلناه واعظا لغيره وهذا لان علو مرتبة الانسان بان يكون كاملا في نفسه ومكملا لغيره فقوله أن اشكر اشارة الى الكمال وقوله واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه اشارة الى التكميل وفي هذا لطيفة وهي ان الله ذكر لقمان وشكر سعيه حيث ارشد ابنه ليعلم منه فضيلة النبي عليه السلام الذي أرشد الاجانب والاقارب فان ارشاد الولد امر معتاد واما تحمل المشقة في تعليم الاباعد فلا تم انه في الوعظ بدأ بالاهم وهو المنع من الاشراك وقال ان الشرك لظلم عظيم اما انه ظلم فلانه وضع للنفس الشريف المكرم بقوله تعالى ولقد كرمنا بني آدم في عبادة الخسيس اولانه وضع العبادة في غير موضعها وهي غير وجه الله وسبيله واما انه عظيم فلانه وضع في وضع ليس موضعه ويجوز أن يكون موضعه وهذا لان من يأخذ مال زيد ويعطي عمرا يكون ظالما من حيث انه وضع مال زيد في يد عمرو ولكن جائز أن يكون ذلك ملك عمرو أو يصير ملكه بيع سابق أو تمليك لاحق واما الاشراك فوضع المعبودية في غير الله تعالى ولا يجوز أن يكون غيره معبودا أصلا * ثم قال تعالى (ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين ان اشكر لي ولوالديك الى المصير) لما منعه من العبادة لغير الله والخدمة قريبة منها في الصورة بين انها غير ممتنعة بل هي واجبة لغير الله في بعض الصور مثل خدمة الابوين ثم بين السبب فقال حملته أمه يعني لله در العبيد نعمة الايجاد ابتداء بالخلق ونعمة الابقاء بالرزق وجعل بفضله لام ماله صورة ذلك وان لم يكن لها حقيقة فان الحمل به يظهر الوجود وبالرضع تحصل التربية والبقاء فقال حملته أمه أي صارت بقدرة الله سببا وجوده وفصاله في عامين أي صارت بقدرته أيضا سببا بقائه فاذا كان منهما له صورة الوجود والبقاء وجب عليه له شبه العبادة من الخدمة فان الخدمة لها صورة العبادة فان قال قائل وصى الله بالوالدين وذكر السبب في حق الام فنقول خص اللام بالذكر وفي الاب ما وجد في الام فان الاب حمله في صلبه سنين ورباه بكسبه سنين فهو ابلغ وقوله أن اشكر لي ولوالديك لما كان الله تعالى بفضله جعل من الوالدين صورة ما من الله فان الوجود في الحقيقة من الله وفي الصورة يظهر من الوالدين جعل الشكر بينهما فقال أن اشكر لي ولوالديك ثم بين الفرق وقال الى المصير يعني نعمتهما مختصة بالدنيا ونعمتي في الدنيا والآخرة فان لي المصير او نقول لما أمر بالشكر لنفسه وللوالدين قال الجزاء على وفق المصير الى * ثم قال تعالى (وان جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الي ثم الي مرجعكم فانبئكم بما كنتم تعملون) يعني ان خدمتهما واجبة وطاعتهما لازمة ما لم يكن فيها ترك طاعة الله اما اذا أفضى اليه فلا تطعهما وقد

على ضلاله أو ليزداد فيه (بغير علم) أي بحال ما يشتريه أو بالتجارة حيث استبدل الشر البحت بالخير المحض (ويتخذها) بالنصب عطفا على يضل والضمير للسبيل فانه مما يذكر ويؤنث هو دين الاسلام أو القرآن أي ويتخذها (هزوا) مهزوا به وقرئ ويتخذها بالرفع عطفا على يشتري وقوله تعالى (أولئك) اشارة الى من والجمع باعتبار معناها كما أن الافراد في الفعلين باعتبار لفظها وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بذكر المشار اليه لايذان ببعد منزلتهم في الشرارة أي أولئك الموصوفون بما ذكر من الاشتراء للاضلال (لهم عذاب مهين) لما اتصفوا به من اهانتهم الحق باثار الباطل عليه وترغيب الناس فيه (واذا تتلى عليه) أي على المشتري أفراد الضمير فيه وفيما بعده كالضمائر الثلاثة الاول باعتبار لفظة من بعد ما جمع فيما بينهما باعتبار معناها (آياتنا) التي هي آيات الكتاب الحكيم هدى ورحمة للمحسنين (ولى) أعرض عنها غير معتد بها (مستكبرا) مبالغا في التكبر (كأن لم يسمعها) حال من ضمير ولى أو من ضمير مستكبرا والاصل كأنه فحذف ضمير الشان وخففت المثقلة أي مشبها حاله حال من لم يسمعها وهو سامع وفيه رمز الى أن من سمعها لا يتصور منه التولية

والاستكبار لما فيها من الامور الموجبة للاقبال عليها والخضوع لها على طريقة قول من قال * كانك لم تجزع على ابن طريف *
(كان في اذنيه وقرا) حال من ضمير لم يسمعها أي مشبها حاله حال من في أذنيه ثقل مانع من السماع ويجوز ان يكونا استئنافين وقرئ
في أذنيه بسكون الذال (فبشره بعذاب أليم) أي فأعلمه بان العذاب المقرط في الايلام لاحق به لامحالة وذكر البشارة للتهكم
(ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات) بيان لحال المؤمنين بآياته تعالى اثر بيان ﴿٧٣٦﴾ حال الكافرين بها أي الذين آمنوا بآياته

ذكرنا تفسير الآية في العنكبوت وقال ههنا واتبع سبيل من اناب الي يعني صاحبهما بجسمك فالزحقهما على جسمك واتبع سبيل النبي عليه السلام بعقلك فانه مربي عقلك كما ان الوالد مربي جسمك * ثم قال تعالى (يابني انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة اوفي السموات أوفي الارض يأت بها الله ان الله لطيف خبير) لما قال فانبئكم بما كنتم تعملون وقع لابنه ان مايفعل في خفية يخفى فقال يابني انها أي الحسنة والسيئة ان كانت في الصغر مثل حبة خردل وتكون مع ذلك الصغر في موضع حريز كالصخرة لاتخفى على الله وفيه مسائل (المسئلة الاولى) قوله فتكن بالفاء لافادة الاجتماع يعني ان كانت صغيرة ومع صغرها تكون خفية في موضع حريز كالصخرة لاتخفى على الله لان الفاء للاتصال بالتعقيب (المسئلة الثانية) لوقيل الصخرة لابد من ان تكون في السموات اوفي الارض فما الفائدة في ذكرها ولان القائل اوقال هذا رجل أوامرأة او ابن عمرو لايصح هذا الكلام لكون ابن عمرو داخلا في أحد القسمين فكيف يفهم هذا فقول الجواب عنه من أوجه (أحدها) ماقاله بعض المفسرين وهو ان المراد بالصخرة صخرة عليها الثور وهي لافي الارض ولافي السماء (والثاني) ماقاله الزمخشري وهو ان فيه اضمارا تقديره فتكن في صخرة أوفي موضع آخر في السموات أوفي الارض (والثالث) أن نقول تقديم الخاص وتأخير العام في مثل هذا التقسيم جائز وتقديم العام وتأخير الخاص غير جائز اما الثاني فلما بينتم ان من قال هذا في دار زيد أوفي غيرها اوفي دار عمرو لايصح لكون دار عمرو داخلة في قوله اوفي غيرها واما الاول فلان قول القائل هذا في دار زيد اوفي دار عمرو اوفي غيرها صحيح غير قبيح وكذلك ههنا وعدم الاخص اونقول خفاء الشئ يكون بطرق منها ان يكون في غاية الصغر ومنها ان يكون بعيدا ومنها ان يكون في ظلمة ومنها ان يكون من وراء حجاب فان التفت الامور باسرها بان يكون كبيرا قريبا في ضوء من غير حجاب فلا يخفى في العادة فاثبت الله الرؤية والعلم مع انتفاء الشرائط فقوله انها ان تك مثقال حبة اشارة الى الصغر وقوله فتكن في صخرة اشارة الى الحجاب وقوله اوفي السموات اشارة الى البعد فانها ابعد الابعاد وقوله اوفي الارض اشارة الى الظلمات فان جوف الارض اظلم الاماكن وقوله يات بها الله الخ من قول القائل يعلمها الله لان من اظهر له الشئ ولم يقدر على اظهاره غيره يكون حاله في العلم دون حال من يظهر له الشئ ويظهره لغيره فقوله يات بها الله اي يظهرها الله للاشهاد وقوله ان الله لطيف أي نافذ القدرة خبير اي عالم بمواطن الامور * ثم قال تعالى (يابني اقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما اصابك ان ذلك من عزم الامور) لما منعه من الشرك وخوفه بعلم الله وقدرته امره بما يلزم من التوحيد وهو الصلاة وهي العبادة اوجه الله مخصوصة وبهذا يعلم ان الصلاة كانت في سائر الملل غير ان هيئتها اختلفت ثم قال تعالى وأمر بالمعروف وانه عن المنكر اي اذا كنت انت في نفسك بعبادة الله فكمل أمر الاشراك وتبكيت أهله والعزم جمع عزمة كاهب جمع اهبة وهو مايعزم به أي يستدبقال عزمت الحائك اذا دعته ﴿غيرك﴾
أو بغير دعائم على ان الجمع لتعدد السموات وقوله تعالى (ترونها) استئناف جئ به للاستشهاد على ماذكر من خلقه تعالى لها غير معمودة بمشاهدتهم لها كذلك اوصفة لعمد أي خلقها

غيرك فان شغل الانبياء و ورثتهم من العلماء هو ان يكملوا في انفسهم و يكملوا غيرهم فان قال قائل كيف قدم في وصيته لابنه الامر بالمعروف على النهي عن المنكر وقبل قدم النهي عن المنكر على الامر بالمعروف فانه اول ما قال يابني لاتشرك ثم قال يابني اقم الصلاة فنقول هو كان يعلم من ابنه انه معترف بوجود الله فامره بهذا المعروف ونهاه عن المنكر الذي يترتب على هذا المعروف فان المشرك بالله لايكون ناجيا لله في الاعتقاد وان كان يلزمه نفيه بالدليل فكان كل معروف في مقابلته منكر و المعرف في معرفة الله عناد وجحود و المنكر اعتقاد وجود غيره معه فلم يأمره بذلك المعروف لحصوله ونهاه عن المنكر لانه ورد في التفسير ان ابنه كان مشركا فوعظه ولم يزل يعظه حتى اسلم اما ههنا فامره امرا مطلقا والمعروف مقدم على المنكر ثم قال تعالى واصبر على ما اصابك يعني ان من يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر يؤذى فامر بالصبر عليه وقوله ان ذلك من عزم الامور أي من الامور الواجبة المعزومة أي المقطوعة و يكون المصدر بمعنى المفعول كما تقول أكلي في النهار ثلث حبز أي ما اكولى * ثم قال تعالى (ولاتصعر خدك للناس ولاتمش في الارض مرحا ان الله لايحب كل مختال فخور) فامره ان يكون كاملا في نفسه مكملا لغيره ثم كان تخشى بعدهما من أمرين (احدهما) التكبر على الغير بسبب كونه مكملا له (والثاني) التخترق الغير بسبب كونه كاملا في نفسه فقال ولاتصعر خدك للناس ولاتكبر ولاتمش في الارض مرحا تختزا ان الله لايحب كل مختال يعني من يكون به حولاء وهو الذي يرى الناس بعظمة نفسه وهو التكبر فخور يعني من يكون مفتخرا بنفسه وهو الذي يرى عظمة لنفسه في عينه وفي الآية لطيفة وهو أن الله تعالى قدم الكمال على التكميل حيث قال اقم الصلاة ثم قال وامر بالمعروف وفي النهي قدم ماتورثه التكميل على ماتورثه التكميل حيث قال ولاتصعر خدك ثم قال ولاتمش في الارض مرحا فان قيل ان في طرف الاثبات من لايكون كاملا لايمكن أن يصير مكملا فقدم الكمال وفي طرف النفي من يكون متكبرا على غيره يكون متبخترا لانه لايتكبر على الغير الا عند اعتقاده انه اكبر منه من وجوه اما من يكون متبخترا في نفسه قد لايتكبر و يتوهم انه يتواضع للناس فقدم نفي التكبر ثم نفى التبختر لانه لو قدم نفي التبختر لازم منه نفي التكبر فلا يحتاج الى النهي عنه ومثاله انه لايجوز أن يقال لاتفطر ولاتأكل لان من لايفطر لايأكل و يجوز أن يقال لاتأكل ولاتفطر لان من لايأكل قد يقصر بغير الاكل ولقائل أن يقول ان مثل هذا الكلام يكون للتفسير فيقول لاتفطر ولاتأكل أي لاتفطر بان تأكل ولايكون نهيين بل واحدا * ثم قال تعالى (واقصد في مشيك واغضض من صوتك ان أنكر الاصوات لصوت الحمير) فقال ولاتمش في الارض مرحا وعدم ذلك قد يكون بضده وهو الذي يخالف غاية الاختلاف وهو مشي المتماوت الذي يرى من نفسه الضعف تزهدا فقال واقصد في مشيك اي كن وسطا بين الطرفين المذمومين وفي الآية مسائل (الاولى) هل للامر بالغض من الصوت مناسبة مع

ماء) هو المطر (فانبتنا فيها) بسبب ذلك الماء (من كل زوج كريم) من كل صنف كثير المنافع والالتفات الى نون العظمة في الفعلين لابراز مزيد الاعتناء بامرها (هذا) أي ماذكر من السموات والارض وماتعلق بهما من الامور المعدودة (خلق الله) أي مخلوقه (فأروني ماذا خلق الذين من دونه) مما تخذتموهم شركاءه سبحانه في العبادة حتى استحقوا به الالوهية وهذا نصب بخلق او بمحذوف تقديره انظروا ماذا خلقوا وأروني متعلق به وقوله تعالى (بل الظالمون في ضلال مبين) اضراب عن تبكيتهم بما ذكر الى التسجيل عليهم بالضلال البين المستدعى للاعراض عن مخاطبتهم بالمقدمات المعقولة لاستحالة أن ينفعوا منها شيئا فيهتدوا به الى العلم ببطلان ماهم عليه أو يتأثروا من الالزام والتبكيت فينزجروا عنه ووضع الظاهر موضع ضميرهم للدلالة على أنهم باشراكهم واضعون للشئ في غير موضعه ومتعدون

ن الحدود ظالمون لانفسهم * ﴿ ٩٣ ﴾ س تعريضها للعذاب الخالد (ولقد آتينا لقمان الحكمة) كلام مستأنف مسوق بيان بطلان الشرك وهو لقمان بن باعورا من اولاد آزر ابن أخت أيوب عليه السلام أو خالته وعاش حتى ادرك داود عليه سلام وأخذ عنه العلم وكان يفتي قبل

مبعثه وقبل كان قاضيا في بني اسرائيل والجمهور على أنه كان حكيما ولم يكن نبيا والحكمة في عرف العلماء استكمال النفس الانسانية باقتباس العلوم النظرية واكتساب الملكة التامة على الافعال الفاضلة على قدر طاقتها ومن حكمته أنه صحب داود عليه السلام شهورا وان يسأله عنها فلما أتمها لبسها وقال نعم لبوس الحرب أنت فقال الصمت حكمة وقليل فاعله فقال له داود عليه السلام بحق ماسميت حكيما وأن داود ﴿ ٧٣٨ ﴾ عليه السلام قال له يوما كيف أصبحت

فقال أصبحت في يدي غيري فتفكر داود فيه فصعق صعقة وأنه أمره مولاه بان يذبح شاة ويأتي باطيب مضغتين منها فاتى باللسان والقلب ثم بعد أيام أمره بان يأتي باخبث مضغتين منها فاتى بهما أيضا فساله عن ذلك فقال هما أطيب شئ اذا طابا وأخبث شئ اذا خبثا ومعنى (أن اشكر لله) ان اشكر له تعالى على أن ان مفسرة فان اتيان الحكمة في معنى القول وقوله تعالى (ومن يشكر) الخ استئناف مقرر لمضمون ما قبله موجب للامتثال بالامر أي ومن يشكر له تعالى فانما يشكر لنفسه لان منفعة

الامر بالقصد في المشي فنقول نعم سواء علمناها نحن أولم نعلمها وفي كلام الله من الفوائد ما لا يحصره حد ولا يحصيه عد ولا يعلمه واحد والذي يظهر وجوه (الاول) هو ان الانسان لما كان شريفا تكون مطالبه شريفة فيكون فواتها خطرا فاقدر الله الانسان على تحصيلها بالمشي فان عجز عن ادراك مقصوده ينادي مطلوبه فيقف له او يأتيه مشيا اليه فان عجز عن ابلاغ كلامه اليه يكتب اليه وبعض الحيوانات يشارك الانسان في تحصيل المطلوب بالصوت كما ان الغنم تطلب السخلة والبقرة العجل والناقة الفصيل بالثغاء والخوار والرغاء ولكن لا تتعدى الى غيرها والانسان يعبر البعض عن البعض فاذا كان المشي والصوت مفضيين الى مقصود واحد لما أرشده الى احدهما أرشده الى الآخر (الثاني) هو ان الانسان له ثلاثة أشياء عمل بالجوارح يشارك فيه الحيوانات وهو حركة وسكون وقول باللسان ولا يشاركه فيه غيره وعزم بالقلب وهو الاطلاع عليه الله وقد اشار الله بقوله انها ان تك مثقال حبة من خردل أي اصلح ضميرك فان الله خبير بالامر ان يقال واقصد في مشيك واغضض من صوتك اشارة الى التوسط في الافعال والاقوال (الثالث) هو ان عمان أراد ارشاد ابنه الى السداد في الاوصاف الانسانية والاوصاف التي هي للملك الذي هو أعلى مرتبة منه والاوصاف التي للحيوان الذي هو أدنى مرتبة منه فقوله يأمر بالمعروف وانه عن المنكر اشارة الى المكارم المختصة بالانسان فان الملك لا يأمر ملكا آخر بشئ وينهاه عن شئ وقوله ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الارض مرحا الذي هو اشارة الى حسم الكبر والتخنز اشارة الى المكارم التي هي صفة الملائكة عليهم السلام عن الكبر والتخنز صفة الحيوان فقصد

لم يغمض من صفات الملائكة التي هي صفة الحيوان ثم قال تعالى أنكر الاصوات لصوت الحمير وفيه مسائل (الاولى) لما ذكر النعم من رمي الصفات وليذكر المنعم من سرعة المشي نقول اما على قولنا ان المشي والصوت كلاهما موصلان الى شخص مطلوب ان أدركه المشي به وذاك الا فوقه بالنداء فنقول رفع الصوت يؤذي السامع يقرع الصماخ بقوة وربما يخرق الغشاء الذي داخل الاذن واما السرعة في المشي فلا تؤذي وان كانت تؤذي فلا تؤذي غيره في طريقه والصوت يبلغ من على اليمين واليسار ولان المشي يؤذي آلة المشي والصوت يؤذي آلة السمع وآلة السمع عن باب القلب فان الكلام ينقل من السمع الى القلب ولا كذلك المشي واما على قولنا الاشارة بالمشي والصوت الى الافعال والاقوال فلان القول قبيحه أقبح من قبيح الفعل وحسنه أحسن لان اللسان ترجمان القلب والاعتبار يصحح الدعوى (المسئلة الثانية) كيف يفهم كونه انكر مع أن مس المنشار بالمبرد وحت النحاس بالحديد اشد تنفيرا فنقول الجواب عنه من وجهين أحدهما ان المراد ان انكر أصوات الحيوانات صوت الحمير فلا يرد ما ذكرتم وما ذكرتم في أنكر الامر لمصلحة وعبارة فلا ينكر بخلاف صوت الحمير وهذا هو

الشكر لنفسه لان منفعة

الشكر له تعالى عائدة

الى الشاكر لا اليه تعالى

عن ذلك علوا كبيرا

وتنكير صوت للتعميم

أو للتحقير والمعنى

ان كل صوت من

الاصوات مهما كان

فهو منكر وقبيح

ومذموم عند الله

ومن كفر فان الله غني

عن كل شئ فلا يحتاج

الشكر ليتضرر بكفر من كفر

(الحمد) حقيقي بالحمد وان

لم يحمده أحد أو محمودا بالفعل

ينطق بحمده جميع المخلوقات

بلسان الحال وعدم التعرض

لكونه تعالى مشكورا لما أن

الحمد متضمن للشكر بل

هو رأسه كما قال عليه الصلاة

والسلام الحمد رأس الشكر لم

يشكر الله عبد لم يحمده فاثبات له تعالى اثبات للشكر له وطعه (وهو يعظه يا بني) تصغير انعطاف وقرئ يابني باسكان الياء وبكسرها (لا تشرك بالله) في كل ابنه كافرا فلم يزل به حتى أسلم ومن وقف على لا تشرك جعل بالله قسما (ان الشرك لظلم عظيم) تعليل للنهي أو للانتهاء عن الشرك

ووصينا الانسان بوالديه) الخ كلام مستأنف اعترض به على نهج الاستطراد فى أثناء وصية لقمان تأكيدا لما فيها من النهى عن شرك وقوله تعالى (حملته أمه) الى قوله فى عامين اعتراض بين المفسر والمفسر وقوله تعالى (وهنا) حال من أمه أى ذات وهن أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال أى تهن وهنا وقوله تعالى (على وهن) صفة للمصدر أى كائنا على وهن أى تضعف ضعفا فوق ضعف فانها لا تزال يتضاعف ضعفها وقرئ ﴿٧٣٩﴾ وهنا على وهن بالتحريك يقال وهن يهن وهنا ووهن يوهن وهنا

الجواب الثانى (المسئلة الثالثة) أنكر هو أفعل التفضيل فمن أى باب هو نقول يحتمل ان يكون من باب أطوع له من بنانه بمعنى أشد طاعة فان افعل لا يجئ فى مفعل ولا فى مفعول ولا فى باب العيوب الا ماشذ كقولهم أطوع له من كذا للتفضيل على المطيع وأشغل من ذات النحيين للتفضيل على المشغول وأحمق من فلان من باب العيوب وعلى هذا فهو فى باب أفعل كأشغل فى باب مفعول فيكون للتفضيل على المنكر او نقول هو من باب اشغل ماخوذا من نكر الشئ فهو منكر وهذا انكر منه وعلى هذا فله معنى لطيف وهو أن كل حيوان قد يفهم من صوته بأنه يصيح من ثقل أو تعب كالبعير وغير ذلك والحمار له نهيق نكر يصيح والوطواط لا يصيح وفى بعض أوقات عدم الحاجة يصيح وبهذا فصوته منكور وعلى هذا يقال هو من نكير كاجدر من حدر * ثم قال تعالى (الم تروا ان الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الارض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) لما استدل بقوله تعالى خلق السموات بغير عمد على الوحدانية وبين بحكاية لقمان ان معرفة ذلك غير مختصة بالنبوة بل ذلك موافق لحكم العقل بالنبى عليه السلام من توحيد والصلاة ومكارم الاخلاق كل ما حكمة بالغة ولو كان تعبدا محضا لزم قبوله فضلا عن انه على وفق الحكمة استدل على الوحدانية بالنعمة لان الناس اذا ان الملك يخدم لعظمته وان لم ينعم ويخدم لنعمته أيضا فبين انه المعبود لعظمته بخلقه السموات بلا عمد والارض الرواسى وذكر بعض النعم بقوله وأنزلنا من السماء ماء ثم ذكر بعده عامة النعم فقال سخر لكم ما فى السموات أى سخر لاجلكم ما فى السموات فان الشمس والقمر والنجوم مسخرات بامر الله وفيها فوائد لعباده وسخر ما فى الارض لاجل عباده وقوله وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وهى ما فى الاعضاء من السلامة وباطنة وهى ما فى القوى فان العضو ظاهر وفيه قوة باطنة ألا ترى أن العين والاذن شحم وغضروف ظاهر واللسان والانف لحم وعظم ظاهر وفى كل واحد معنى باطن من الابصار والسمع والذوق والشم وكذلك كل عضو وقد تبطل القوة وتبقى العضو قائما وهذا أحسن مما قيل فان على هذا الوجه يكون الاستدلال بنعمة الآفاق وبنعمة الانفس فقوله ما فى السموات وما فى الارض يكون اشارة الى النعم الآفاقية وقوله وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة يكون اشارة الى النعم الانفسية وفيهما أقوال كثيرة مذكورة فى جميع التفاسير ولا يبعد أن يكون ما ذكرناه مقولا منقولا وان لم يكن فلا يخرج من أن يكون سائغا معقولا * ثم قال تعالى (ومن الناس من يجادل فى الله) يعنى لما ثبتت الوحدانية بالخلق والانعام فمن الناس من يجادل فى الله ويثبت غيره اما الها أو منعما (بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) هذه أمور ثلاثة مرتبة العلم والهدى والكتاب والعلم أعلى من الهدى والهدى من الكتاب وبيانه هو ان العلم تدخل فيه الاشياء الواضحة اللائحة التى تعلم من غير هداية هاد ثم الهدى يدخل فيه الذى يكون

(وفصاله فى عامين) اى فطامه فى تمام عامين وهى مدة الرضاع عند الشافعى وعند ابى حنيفة رحمهما الله تعالى هى ثلاثون شهرا وقد بين وجهه فى موضعه وقرئ وفصله (أن اشكر لى ولوالديك) تفسير لوصينا وما بينهما اعتراض مؤكد للوصية فى حقها خاصة ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لمن قال لى من أبر امك ثم امك ثم امك ثم قال بعد ذلك ثم ابيك (الى المصير) تعليل لوجوب الامتثال اى الى الرجوع لا الى غيرى فاجازيك على ما صدر عنك من الشكر والكفر (وان جاهداك على ان تشرك بى ما ليس لك به) أى بشركته له تعالى فى استحقاق العبادة (علم فلا تطعهما) فى ذلك (وصاحبهما فى الدنيا معروفا) أى صحابا معروفا يرتضيه الشرع وتقتضيه المروءة (واتبع سبيل من أناب الى) بالتوحيد والاخلاص فى الطاعة (ثم الى مرجعكم) أى مرجعك ومرجعهما ومرجع من أناب الى (فانبئكم) عند رجوعكم (بما كنتم تعملون) بان أجازى كلا منكم بما صدر عنه من الخير الشر وقوله تعالى (يابنى) الخ شروع فى حكايه بقية وصايا لقمان اثر تقرير ما فى مطلعها من النهى عن الشرك وتأكيده لاعتراض (انها ان تك مثقال حبة من خردل) أى ان الخصلة من الاساءة والاحسان ان تك مثلا فى الصغر كحبة الخردل وقرئ برفع مثقال

على ان الضمير للقصة وكان تامة والتأنيث لاضافة المثقال الى الحبة كما في قول من قال * كما شرقت صدر القناة من الدم * أولا المراد به الحسنة أو السيئة (فتكن في صخرة او في السموات أو في الارض) اي فتكن مع كونها في أقصى غايات الصغر والقماءة في أخفى مكان وأحرز كجوف الصخرة وحيث كانت في العالم العلوي او السفلي (يأت بها الله) أي يحضرها ويحاسب عليها (ان الله لطيف) يصل علمه الى كل خفي (خبير) بكنهه وبعد ما أمر بالتوحيد ﴿٧٤٠﴾ الذي هو أول ما يجب على الانسان في ضمن النهي عن الشرك ونبهه على كمال علم الله تعالى وقدرته أمره بالصلاة التي هي أكمل العبادات تكميلا له من حيث العمل بعد تكميله من حيث الاعتقاد فقال مستأنفا (يا بني اقم الصلاة) تكميلا لنفسك (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) تكميلا لغيرك (واصبر على ما أصابك) من الشدائد والمحن لا سيما فيما أمرت به (ان ذلك) اشارة الى كل ما ذكر وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه مرارا من الاشعار ببعد منزلته في الفضل (من عزم الامور) أي مما عزمه الله تعالى وقدمه على عباده من الامور لمزيد مزيتها مصدر أطلق على المفعول وقد جوز أن يكون بمعنى الفاعل من قوله تعالى فاذا عزم الامر أي جد والجملة تعليل لوجوب الامتثال بما سبق من الامر والنهي وايذان بأن ما بعدها ليس بمثابته (ولا تصعر خدك للناس) أي لا تملهما ولا تولهم صفحة وجهك كما هو دين المتكبرين من الصعر وهو الصيد وهو داء يصيب البعير فيلوى منه عنقه وقرئ ولا تصاعر وقرئ ولا تصعر من الافعال والكل بمعنى مثل علا وعالا وأعلاه (ولا تمش في الارض مرحا) * والوجه اي فرحا مصدر وقع موقع الحال أو مصدر مؤكد لفعل هو الحال أي تمرح مرحا ولا تجل

في كتاب والذي يكون من الهام ووحي فقال تعالى يجادل ذلك المجادل لا من علم واضح ولا من هدى أتاه من هاد ولا من كتاب وكأن الاول اشارة الى من أوتي من لدنه علما كما قال تعالى وعلمك ما لم تكن تعلم (الثاني) اشارة الى مرتبة من هدي الى صراط مستقيم بواسطة كما قال زنه لى علما شديدا القوى (والثالث) اشارة الى مرتبة من اهتدى بواسطتين ولهذا قال تعالى الم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين وقال في هذه السورة هدى ورحمة للمحسنين وقال في السجدة ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني اسرائيل فالكتاب هدى لهم الا ان النبي عليه السلام وانبي هداه من الله تعالى من غير واسطة أو بواسطة الروح الامين فقال تعالى يجادل من يجادل فيه بعلم آتيناه من لدنا كشفا ولا يهدي أرسلناه اليه وحيا ولا بكتاب يتلى عليه وعظا ثم فيه لطيفة أخرى وهو انه تعالى قال في الكتاب ولا كتاب منير لان المجادل فيه من كان يجادل عن كتاب ولكن محرف مثل التوراة بعد التحريف فاو قال ولا كتاب لكان لقائل ان يقول لا يجادل من لم يكن له كتاب فلما بعض ما تولوا فيسوون كتابهم لان المجوس والنصارى يقولون بالتثليث عن كتابهم فيه ولو كتاب منير ذلك الكتاب معلم ولم تحتمل في المرتبة الاولى والثانية التحريف والتبديل لم يقل بغير علم ولا هدى منير ولا حق أو غير ذلك * ثم قال تعالى (واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) بين أن مجادلتهم مع كونها من غير علم هدى في غاية القبح فان النبي عليه السلام يدعوهم الى كلام الله وهم يأخذون بكلام آبائهم وبين كلام الله تعالى وكلام العلماء بون عظيم وكيف ما بين كلام الله وكلام الجهلاء ثم ان ههنا شيئا آخر وهو انهم قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا يعني ترك القول النازل من الله وتتبع الفعل والقول أدل من الفعل لان الفعل يحتمل أن يكون جائزا ويحتمل أن يكون حراما فهم يعاطونه ويحتمل أن يكون واجبا في اعتقادهم والقول بين الدلالة فتوسمنا قول قائل افعل ورأينا فعله يدل على خلاف قوله بكل الواجب الاخذ بالقول وكيف والقول من الله والفعل من الجهال * ثم قال تعالى (أولو كان الشيطان يدعوهم الى عذاب السعير) استفهام على سبيل التعجب في الانكار يعني الشيطان يدعوهم الى العذاب والله يدعو الى الثواب وهم مع هذا يتبعون الشيطان ثم قال تعالى (ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الامور) لما بين حال المشرك والمجادل في الله بين حال المسلم المستسلم لامر الله فقوله ومن يسلم وجهه الى الله اشارة الى الايمان وقوله وهو محسن اشارة الى العمل الصالح فكون الآية في معنى قوله تعالى من آمن وعمل صالحا وقوله فقد استمسك بالعروة الوثقى ان تمسك بحبل لا انقطاع له وترقى بسببه الى أعلى المقامات وفي الآية مسائل (الاولى) قال ههنا ومن يسلم وجهه الى الله وقال في سورة البقرة بلى من أسلم وجهه لله فعدى ههنا بالى وهناك باللام قال الزمخشري معنى قوله اسلم لله أي جعل نفسه لله سالما أي خالصا

المراح والبطر (ان الله لا يحب كل مختال فخور) تعليل للنهي او موجبه وتاخير الفخور مع كونه بمقابلة المصعر خده عن المختال وهو بمقابلة الماشي مرحا رعاية الفواصل (واقصد في مشيك) بعد الاجتناب عن المرح فيه أي توسط بين الدبيب والاسراع وعنه عليه الصلاة والسلام سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن وقول عائشة في عمر رضي الله عنهما كان اذا مشى أسرع فالمراد به مافوق دبيب المتماوت وقرئ تقصد من القصد ﴿ ٧٤١ ﴾ من أقصد الرامي اذا سدد سهمه نحو الرمية (واغضض من صوتك) وانقص منه واقصر (ان أنكر الاصوات) أي أوحشها (لصوت الحمير) تعليل للامر على أبلغ وجه وآكده مبني على تشبيه الرافعين أصواتهم بالحمير وتمثيل أصواتهم بالنهاق وافراط في التحذير عن رفع الصوت والتنفير عنه وافراد الصوت مع اضافته الى الجمع لما ان المراد ليس بيان حال صوت كل واحد من آحاد هذا الجنس حتى يجمع بل بيان حال صوت هذا الجنس من بين أصوات سائر الاجناس وقوله تعالى (ألم تروا ان الله سخر لكم ما في السموات وما في الارض) رجوع الى سنن ما سلف قبل قصة لقمان من خطاب المشركين وتوبيخهم على اصرارهم على ما هم عليه مع مشاهدتهم لدلائل التوحيد والمراد بالتسخير اما جعل المسخر بحيث ينفع المسخر له اعم من أن يكون منقادا له يتصرف فيه كيف يشاء ويستعمله حسبما يريد كعامة ما في الارض من الاشياء المسخرة للانسان المستعملة له من الجماد والحيوان أو لا يكون كذلك بل يكون سببا لحصول مراده من غير أن يكون له دخل في استعماله كجميع ما في السموات من اشياء التي نيطت بها مصالح العباد معاشا أو معادا واما جعله منقادا للامر مذللا على أن معنى لكم لاجلكم فان جميع ما في السموات والارض من الكائنات مسخرة

والوجه بمعنى النفس والذات ومعنى قوله يسلم وجهه الى الله يسلم نفسه الى الله كما يسلم واحد منا الى غيره ولم يزد على هذا ويمكن أن يزاد عليه ويقال من أسلم لله أعلى درجة ممن يسلم الى الله لان الى للغاية واللام للاختصاص يقول القائل أسلمت وجهي اليك أي توجهت نحوك وينبئ هذا عن عدم الوصول لان التوجه الى الشئ قبل الوصول وقوله أسلمت وجهي لك يفيد الاختصاص ولا ينبئ عن الغاية التي تدل على المسافة وقطعها للوصول اذا علم هذا فنقول في آية البقرة قالت اليهود والنصارى لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى فقال الله ردا عليهم تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم ثم بين فساد قولهم بقوله تعالى بلى من أسلم وجهه لله أي أنتم مع اتيكم تفترون الله الدنيا وتولون عنه للباطل وتشترون بآياته ثمنا قليلا تدخلون ومن كان بكليته لله لا يدخلها هذا كلام باطل فأورد عليهم من أسلم لله ولا شك أن النقض بالصورة التي هي ألزم أولى فأورد عليهم الخلاص الذي ليس له أمر الا الله وقال أنتم تدخلون الجنة وهذا لا يدخلها ثم بين كذبهم وقال بلى وبين أن له حق جنة درجة وهي العندية بقوله فله أجره عند ربه واما ههنا أراد من عند المحسن بقوله وهو وصول الى الدرجة العالية فوعده من دخوله ليدخل فيه من هو فوقه بالطريق الاولى وبعم الوعد وهذا من الفوائد الجليلة ﴿ ثم قال تعالى (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أي تمسك بحبل الله لان كل ما عداه هالك منقطع وهو باق لا انقطاع له ثم قال تعالى (والى الله عاقبة الامور) يعني استمسك بعروة توصله الى الله وكل شئ عاقبته الى الله فالمتمسك بالحبل الذي يوصله الى عاقبته تكون عاقبته في غاية الحسن وذلك لان من يسلم أموره الى واحد ثم يقدم اليه الهدايا قبل الوصول اليه يجد فائدة هداياه عليه والى هذا وقعت الاشارة بقوله وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله ثم قال تعالى (ومن كفر فلا يحزنك كفره) اعلم أن الناس جهلتهم بما عملوا ان الله عليم بذات الصدور تتعهم قليلا ثم نضطرهم الى عذاب غليظ) لما بين حال المسلم رجع الى بيان حال الكافر فقال ومن كفر فلا يحزنك أي لا تحزن اذ ما كان من ربك وهو فاعلم أن صدوره ينبئ عن ريب لا يحزن بل قد يورث التكذيب على الزيادة في التكذيب فالمنكر من البداءة يكون التكذيب من العناد ليخجله غاية الخجل واما اذا كان لا يرجو ظهور صدق ما يلزمه التكذيب فقال فلا يحزنك كفره فان المرجع الى فاعليهم بما عملوا فيخجلون وقوله ان الله عليم بذات الصدور أي لا يخفى عليه سرهم وعلانيتهم فينبئهم بما أضمرته صدورهم وذات الصدور هي المهلك ثم ان الله تعالى لما ذكر ما ذكر ناوقال نمتعهم قليلا أي بقاؤهم مدة قليلة ثم بين لهم وبال تكذيبهم وكفرهم بقوله ثم نضطرهم أي نسلط عليهم أغلاظ عذاب حتى يدخلوا بانفسهم عذابا غليظا فيضطرون الى عذاب النار فرارا من الملائكة الغلاظ الشداد الذين يعذبونهم بمقامع من نار وفيه وجه آخر لطيف وهو انهم لما كذبوا الرسل ثم تبين لهم الامر وقع عليهم من الخجالة ما يدخلون النار ولا يختارون الوقوف بين يدي ربهم بمحضر الانبياء

لله تعالى مستتبعة لمنافع الخلق وما يستعمله الانسان جميعها سواء كان مسخرا له بحسب الظاهر فهو في الحقيقة مسخر له تعالى (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) محسوسة ومعقولة معروفة لكم وغير معروفة وقدم شرح النعمة وتفصيلها في الفاتحة وقرئ أصبغ بالصاد وهو جار في كل سين قارنت الغين او الخاء او القاف كما تقول في سلخ صلخ وفي سقر صقر وفي سالغ وصالغ قرئ نعمه (ومن الناس من يجادل في الله) في توحيده وصفاته ﴿ ٧٤٢ ﴾ (بغير علم) مستفاد من دليل (ولا هدى) من جهة الرسول عليه الصلاة والسلام (ولا كتاب منير) أنزله الله سبحانه بل بمجرد التقليد (واذا قيل لهم) أي لمن يجادل والجمع باعتبار المعنى (اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) يريدون به عبادة الاصنام (أو لو كان الشيطان يدعوهم) أي آباءهم لا أنفسهم كما قيل فان مدار الانكار اتباع استبعاد كون المتبوعين تابعين للشيطان لا كون أنفسهم كذلك أي اتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم فيما هم عليه من الشرك الى عذاب السعير) فهم متوجهون اليه حسب دعوته والجملة في حيز النصب على الحالية وقدر تحقيقه في قوله تعالى أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيأ ولا يهتدون من سورة البقرة بما مر مزيدا عليه (ومن يسلم وجهه الى الله) بأن فوض اليه مجامع أموره واقبل عليه بكليته وحيث عدى باللام قصد معنى الاختصاص وقرئ بالتشديد (وهو محسن) أي في اعماله أن بها جامعة بين الحسن الذاتي والوصفي وقدر في آخر سورة النحل (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أي تعلق أوثق ما يتعلق به من الاسباب وهو تمثيل محال المتوكل المشتغل بالطاعة بحال من أراد أن يرقى الى شاهق جبل فمسك بأوثق عرى الحبل المتدلى منه (والى الله)

وهو يحقق بقوله تعالى فلا يحزنك كفره البتة مرجعهم فننبئهم بما عملوا ثم قال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) الآية متعلقة بما قبلها من وجهين (أحدهما) انه تعالى لما استدل بخلق السموات بغير عمد وبنعمه الظاهرة والباطنة بين انهم معترفون بذلك غير منكرين له وهذا يقتضي أن يكون الحمد كله لله لان خالق السموات والارض يحتاج اليه كل ما في السموات والارض ويكون الحمد كله لله يقتضي ان لا يعبد غيره لكنهم لا يعلمون هذا (والثاني) ان الله تعالى لما سلى قلب النبي صلى الله عليه وسلم بقوله فلا يحزنك كفرهم البتة مرجعهم فننبئهم أي لا تحزن على تكذيبهم فانك صادق وتكذيبهم يتبين عن قريب عند رجوعهم اليه حال وليس لا يتبين الآن اليوم بل هو يتبين قبل يوم القيامة لانهم معترفون بان خالق السموات والارض هو الله وهذا يصدقك في دعوى النبوة يتبين كذبهم في الاشراك فقل الحمد لله على ظهور صدقك وكذب تكذيبك بل أكثرهم لا يعلمون أي ليس لهم علم ينفعهم من تكذيبك مع اعترافهم بما يوجب تصديقك وعلى هذا لا يعلمون استعمال الفعل مع الطمع عن المفعول بالكلية كما يقول القائل فلان يعطي ويمنع ولا يكون في ضمره من يعطي ولا يريد له شيأ ونحو ذلك هذا قال لا يعلمون أي ليس لهم علم وعلى الاول يكون لا يعلمون مفعول معلوم وهو انهم لا يعلمون ان الحمد كله لله والثاني أبلغ لان قول القائل فلان لا علم له يكاد من يقول لا علم له كذا قوله فلان لا ينفع ولا يضر يكاد من يقول قوله فلان لا يضر ولا ينفع ﴿ ثم قال تعالى (لله ما في السموات والارض ان الله هو الغني الحميد) ذكر بما يلزم منه وهو أنه يكون له ما فيهما والامر كذلك عقلا وشرعا اما عقلا فلان ما في السموات المخلوقة مخلوق واضافة خلقه الى من منه خلق السموات والارض لازم عقلا لانها ممكنة والممكن لا ينفع ولا يوجد الا بواجب من غير واسطة كما هو مذهب اهل السنة او بواسطة كما قوله غيرهم وكيفما فرض فكله من الله لان سبب السبب سبب واما شرعا فلان من يملك أرضا وحصل منها شيء ما يكون ذلك لمالك الارض فكذلك كل ما في السموات والارض حاصل فيهما ومنهما فهو لمالك السموات والارض واذا كان الامر كذلك تحقق ان الحمد كله لله ثم قوله تعالى ان الله هو الغني الحميد فيه معان لطيفة (أحدها) ان الكل لله وهو غير محتاج اليه غير منتفع به وفيها منافع فهي لكم خلقها فهو غني لعدم حاجته حميد شكور لدفعه حوائجكم بها (وثانيها) أن بعد ذكر الدلائل على ان الحمد كله لله ولا تصلح العبادة الا لله افترق الكافرون فريقين مؤمن وكافر والكافر لم يحمد الله والمؤمن حمده فقال انه غني عن حمد الحامدين فلا يلحقه نقص بسبب كفر الكافرين وحميد في نفسه فيتبين به اصابة المؤمنين وتكمل بحمده الحامدون (وثالثها) هو أن السموات والارض وما فيهما اذا كانت لله ومخلوقة له فالكل محتاجون فلا غني الا الله فهو الغني المطلق وكل محتاج فهو حامد لاحتياجه الى من يدفع حاجته فلا يكون

لا الى أحد غيره (عاقبة الامور) فيجازيه احسن الجزاء (ومن كفر فلا يحزنك كفره) فانه لا يضرك في الدنيا ولا في الآخرة وقرئ فلا يحزنك من احزن المنقول من حزن بكسر الزاي وليس بمستفيض (الينا مرجعهم) لا الى غيرنا (فننبئهم بما عملوا) في الدنيا من الكفر والمعاصي بالعذاب والعقاب والجمع في الضمائر الثلاثة باعتبار معنى من كما ان الافراد في الاول باعتبار لفظها (ان الله عليم بذات ۞ ٧٤٣ ۞ الصدور) تعليل للنبئة المعبر بها عن التعذيب (نتعهم قليلا) تمتيعا أو زمانا قليلا فان مايزول وان كان بعد أمد طويل بالنسبة الى مايدوم قليل (ثم نضطرهم الى عذاب غليظ) يثقل عليهم ثقل الاجرام الغلاظ أو يضم الى الاحراق الضغط والتضييق (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله) غاية وضوح الامر بحيث اضطروا الى الاعتراف به (قل الحمد لله) على ان جعل دلائل التوحيد بحيث لا يكاد ينكرها المكابرون أيضا (بل أكثرهم لا يعلمون) شيئا من الاشياء لذلك لا يعلمون مقتضى اعترافهم وقيل لا يعلمون أن ذلك يلزمهم (لله ما في السموات والارض) فلا يستحق العبادة فيهما غيره (ان الله هو الغني) عن المكونين (الحميد) المستحق للحمد ونعم يحمده أحد أو نحمود بالفعل يحمده كل مخلوق بلسان الحال (ولو أن ما في الارض من شجرة أقلام) أي لو أن الاشجار اقلام وتوحيد الشجرة لان المراد تفصيل الآحاد (والبحر يمده من بعده) اي من بعد نفاده (سبعة ابحر) اي والحال أن البحر المحيط بسعته يمده الا بحر السبعة مدا لا ينقطع ابدا وكتبت تلك الاقلام وبذلك المداد كلمات الله (ما نفدت كلمات الله) ونفدت تلك الاقلام والمداد كما في قوله تعالى لنفد البحر قبل ان تنفد كلمات ربي وقرئ يمده من الامداد بالياء والتاء واسناد المد الى الابحر السبعة دون البحر المحيط مع كونه اعظم مياهها واطمها لانتهاء المجاورة للجبال ومنابع المياه الجارية

الحميد المطلق الا الغني المطلق فهو الحميد وعلى هذا الحميد بمعنى المحمود والله اذا قيل له الحميد لا يكون معناه الا الواصف أي وصف نفسه او عباده باوصاف حميدة والعبد اذا قيل له حامد يحتمل ذلك المعنى ويحتمل كونه عابدا شاكرا له ۞ ثم قال تعالى (ولو أن ما في الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله) لما قال تعالى لله ما في السموات والارض وكان ذلك موهما انتهاء ملكه لانحصار ما في السموات وما في الارض فيهما وحكم العقل الصريح بتناهيهما بين أن في قدرته وعلمه عجائب لا نهاية لها فقال ولو أن ما في الارض من شجر اقلام ويكتب بها والابحر مداد لا تفنى عجائب صنع الله وعلى هذا فالكلمة مفسرة بالعجيبة ووجهها ان العجائب بقوله كن ويكن كلمة واطلاق اسم السبب على المسبب جائز يقول الشجاع لمن يبارزه أنا موتك ويقال للدواء في حين المرض هذا شفاؤك ودليل صحة هذا هو أن الله تعالى سمى المسيح كلمة لانه كان امرا عجيبا وصنعا غريبا لوجوده من غير أب فان قال فاول الآية وارد في اليهود حيث قالوا الله ذكر كل شيء في التوراة ولم يبق شيء لم يذكره فقال الذي في التوراة بالنسبة الى كلام الله تعالى ليس الا مطرة من بحار وأنزل هذه الآية وقيل أيضا انها نزلت في واحد قال لنبي عليه السلام انك تقول وما أوتيتم من العلم الا قليلا وتقول ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا فنزلت الآية دالة على انه خير كثير بالنسبة الى العباد وبالنسبة الى الله وجوده قليل وقيل ايضا أنها نزلت ردا على الكفرة حيث قالوا بان ما يورده محمد سينفد فقال انه كلام الله وهو لا ينفد وما ذكرتم من اسباب النزول ينافي ما ذكرتموه من التفسير لانها تدل على أن المراد الكلام فنقول ما ذكرتم من اختلاف الاقوال فيه يدل على جواز ما ذكرنا لانا ما ذكرنا صلح جوابا لهذه الاسئلة التي ذكرتموها وهي متباينة فعلم انها غامة وما ذكرنا لا يفيد وهذا لان كلام الله بحيث لا يقدر أحد على الاتيان بمثله واذا قلنا بان عجائب الله لا نهاية لها دخل فيها كلامه ۞ لا يقال انك جعلت الكلام مخلوقا لانا نقول المخلوق هو الحرف والتركيب وهو عجيب واما الكلمات فهي من صفات الله تعالى واعلم ان الآية وان كانت نازلة على ترتيب غير الذي هو مكتوب ولكن الترتيب المكتوب عليه القرآن بأمر الله فانه بأمر الرسول كتب كذلك بأمر الرسول من أمر الله وذلك محقق متيقن من سنن الترتيب الذي فيه ثم ان الآية دلت الصوت الاولى اقل ولو ان ما في الارض من شجرة اقلام وحد الشجرة وجمع الاقلام ولم يقل ولو أن ما في الارض من الاشجار اقلام ولا قال ولو أن ما في الارض من شجرة فلم اشارة الى التكثير يعني ولو ان بعدد كل شجرة اقلاما (الثانية) قوله والبحر يمده تعريف البحر باللام لاستغراق الجنس وكل بحر مداد ثم قوله يمده من بعده سبعة أبحر اشارة الى بحار غيره موجودة يعني لو مدت البحار الموجودة بسبعة أبحر اخر وقوله سبعة ليس لانحصارها في سبعة وانما الاشارة الى المدد والكثرة ولو بألف بحر والسبعة خصصت بالذكر من بين الاعداد لانها عدد كثير يحصر للمعدودات في العادة

واليها تنصب الانهار العظام اولا ومنها تنصب الى البحر المحيط ثانيا وايثار جمع القلة في الكلمات الاربعة مما ذكر لايبقى بالقليل منها فكيف بالكثير (ان الله عزيز) يعجز شيء (حكيم) لايخرج عن علمه وحكمه امر فلانة كلا ولا وسعه عليهم (ماخلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة) اي الا كخلقها وبعثها في سهولة التأتي فانه يشغله شأن عن شأن لارتباط وجود الكل تعلق ارادته الواحدة مع قدرته الذاتية ﴿ ٧٤٤ ﴾ حسبما يفصح عنه قوله تعالى انما امرنا

شيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون (ان الله سميع) يسمع كل مسموع (بصير) يبصر كل مبصر لاتشغله مسموعية بعض عن مسموعية بعض كذلك الخلق والبعث (الم تر) الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل عام لكل احد ممن يصلح للخطاب وهو الاوفق للسياق والمناسب (الم تعلم علما قويا جاريا مجرى الرؤية (أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل) أي يدخل كل واحد منهما في الآخر ويضيفه اليه فيتفاوت بذلك حاله زيادة ونقصانا (وسخر الشمس والقمر) عطف على يولج والاختلاف بينهما صيغة لمان يلاحظ أحد الملوين في الآخر متجددة في كل حين واما تسخيرالنيرين فأمر لاتعدد فيه ولاتجدد وانما التعدد والتجدد في آثاره وقد أشير الى ذلك حيث قيل (كل يجري) أي بحسب حركته الخاصة وحركته القسرية على المدارات اليومية المتخالفة المتعددة حسب

والذي يدل عليه وجوه (الاول) هو ان ماهو معلوم عند كل أحد لحاجته اليه هو الزمان والمكان لان المكان فيه الاجسام والزمان فيه الافعال لكن المكان منحصر في سبعة أقاليم والزمان في سبعة أيام ولان الكواكب السيارة سبعة وكان المنجمون ينسبون اليها أمور فصاروا السبعة كالعدد الحاصر لكثرات الواقعة في العادة فاستعمت في كل كثير (الثاني) هو أن الآحاد الى العشرة وهي العقد الاول ومابعده يبدأ من الواحد من الجديد فيقال أحد عشر واثنا عشر ثم الثلث من العشرات الى الف ومن المئات الى الالف هذا فنقول أول مايلزم منه أكثر المعدودات هو الثلثة لانه يحتاج الى طرفين وواسط وهي وسط وبهذا يقال اثنى مايكون الاسم الفاصل منه هو ثلثة أحرف اذ كانت الثلثة هو القسم الاول من العشرة التي هو اعدد اسم تبقى السبعة قسم الاكثر فاذا أريد بيان الكثرة ذكرت السبعة وبهذا قلنا ان المعدودات في العبادات من التسبيحات في التقالات في الصلوات ثلثة والمراد في الوضوء ثلثة تيسيرا للامر على المكلف اكتفاء بالقسم الاول اذا ثبت هذا فنقول قوله عليه السلام المؤمن يأكل في معى والكافر يأكل في سبعة امعاء اشارة الى قلة الاكل وكثرته من غير اعتبار السبعة بخصوصها ويحتمل أن يقال ان لجهنم سبعة أبواب بهذا النص ثم هي هاوية والهاوية ثمانية أبواب اشارة الى زيادتها فان فيها الحسي وزيادة فلها أبواب كثيرة وزائدة على ثمانية فهما والذي يدل على ماذكرنا في السبعة ان العرب عند الثامن يزيدون واوا يقول القراء انها واو الثمانية وليس ذلك الا للاستئناف لان العدد بالسبعة يتم في العرف ثم بالثامن يستأنف جديد (الطيفة الثالثة) لم يقل في الاقلام المداد لوجهين (أحدهما) هو ان قوله ولو ان مافي الارض من شجرة اقلام بيان المراد منه هو أن يكون بعدد كل شجرة موجودة اقلام فتكون الاقلام أكثر من الاشجار الموجودة وقوله في البحر والبحر يمده سبعة أبحر اشارة الى ان البحر لو كان أكثر من الموجود لاسنوى القلم والبحر في المعنى (والثاني) هو ان النقصان بالكتابة يلحق المداد اكثر مما نه هو الناقد والقلم الواحد يمكن ان يكتب به كتب كثيرة فذكر المداد في البحر الذي هو كالمداد ثم قال تعالى (ان الله عزيز حكيم) لما ذكر ان ملكوته كثير اشار الى مايحقق ذلك فقال انه عزيز حكيم أي كامل القدرة فيكون له مقدورات لانهاية لها والا لانتهت القدرة الى حيث لاتصلح الايجاد وهو حكيم كامل العلم في علمه بالانهاية له فتحقق ان البحر لو كان مدادا لما نفد مافي علمه وقدرته ثم قال تعالى (ماخلقكم ولا بعثكم الا كنفس واحدة) لما بين كمال قدرته وعلمه ذكر مايبطل استبعادهم للحشر وقال ماخلقكم وبعثكم الا كنفس واحدة ومن لانفاد لكلماته يقول للموتى كونوا فيكونوا ثم قال تعالى (ان الله سميع بصير) سميع لما يقولون بصير بما يعملون فاذا كونه قادرا على البعث ومحيطا بالاقوال والافعال يوجب ذلك الاحتراز التام والاحتراز الكامل ثم قال تعالى (ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في

تعبد الايام جريا مستمرا (الى اجل مسمى) قدره الله تعالى لجريهما هو يوم القيامة كما روي عن الحسن ﴿ الليل ﴾ رحمه الله فانه لاينقطع جريهما الا حينئذ والجملة على تقدير عموم الخطاب اعتراض بين المعطوفين لبيان ان الواقع بطريق الاستطراد وعلى تقدير

اختصاصه به عليه الصلاة والسلام يجوز أن يكون حالا من الشمس والقمر فإن جريانهما الى يوم القيامة من جملة ما في حيز رؤيته عليه الصلاة والسلام هذا وقد جعل جريانهما عبارة عن حركتهما الخاصة بهما في فلكيهما الاجل المسمى عن منتهى دورتهما وجعل مدة الجريان للشمس سنة وللقمر شهرا فالجملة حقيقة بيان لحكم تسخيرهما وتنبيه على كيفية ايلاج أحد الملوين في الآخر وكون ذلك بحسب اختلاف جريان الشمس ﴿ ٧٤٥ ﴾ على مداراتها البوعيدية كلما كان جريانها متوجها الى سمت

الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري الى أجل مسمى وأن الله بما تعملون خبير) يحتمل أن يقال ان وجه الترتيب هو ان الله تعالى لما قال ألم تر أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الارض على وجه العموم ذكر منها بعض ما هو فيهما على وجه الخصوص بقوله يولج الليل في النهار وقوله وسخر الشمس والقمر اشارة الى ما في السموات وقوله بعد هذا ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله اشارة الى ما في الارض ويحتمل أن يقال ان وجهه هو أن الله تعالى لما ذكر البعث وكان من الناس من يقول وما يهلكنا الا الدهر والدهر هو بالليالي والايام قال الله تعالى هذه الليالي والايام التي تنسبون اليها الموت والحياة هي بقدرة الله تعالى فقال ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ثم ان قائلا لو قال ان ذلك اختلاف مسير الشمس تارة تكون النفوس التي هي فوق الارض أكثر من التي تحت الارض فيكون الليل أقصر وللنهار أطول وتارة تكون بالعكس فيكون بالعكس وتارة يتساويان فيتساويان فقال تعالى وسخر الشمس والقمر يعني ان كنتم لا تعترفون بأن هذه الاشياء كلها في أوائلها من الله فلا بد من الاعتراف بأنها بأسرها عائدة الى الله تعالى فالآجال ان كانت بالمدد والمدد بسير الكواكب فسير الكواكب ليس الا بالله وقدرته

وفي الآية مسائل (الاولى) ايلاج الليل في النهار يحتمل وجهين (أحدهما) أن يقال المراد بايلاج الليل في زمان النهار أي يجعل في زمان الذي كان فيه النهار الليل وذلك لان الليل اذا كان مثلا اثنتي عشرة ساعة ثم يقول يصير الليل موجودا في زمان كان فيه النهار (وثانيهما) أن يقال المراد ايلاج زمان الليل في النهار ان يجعل زمان الليل في النهار وذلك لان الليل اذا كان كما ذكرنا اثنتي عشرة ساعة اذا قصر صار زمان الليل موجودا في النهار ولا يمكن غير هذا لان ايلاج الليل في النهار محال الوجود فاذكرنا من الاضمار لا بد منه لكن الاول أولى لان الليل والنهار أفعال والافعال في الازمنة لان الزمان ظرف فقولنا الليل في زمان النهار أقرب من قولنا زمان الليل في النهار لان الثاني يجعل الظرف مظروفا اذا ثبت هذا فنقول قوله تعالى يولج الليل في النهار أي يوجده في وقت كان فيه النهار والله تعالى قدم ايجاد الليل على ايجاد النهار في كثير من المواضع كما في قوله تعالى وجعلنا الليل والنهار آيتين وقوله وجعل الظلمات والنور وقوله واختلاف الليل والنهار ومن جنسه قوله خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهذا اشارة الى مسئلة حكمية وهي أن الظلمة قد يظن بها انها عدم النور والليل عدم النهار والحياة عدم الموت وليس كذلك اذ في الازل لم يكن نهار ولا نور ولا حياة لممكن ولا يمكن أن يقال كان فيه موت أو ظلمة أو ليل فهذه الامور كالاعمى والاصم فالاعمى والصمم ليس مجرد عدم البصر وعدم السمع اذ الحجر والشجر لا يصر لها ولا يسمع ولا يقال لشيء منهما انه أصم أو أعمى اذا علم هذا فنقول يحتمل فيه العمى والصمم لا بد من أن يكون فيه اقتضاء الخلافهما والا لما كان يقال له أعمى وأصم وما يكون فيه اقتضاء شيء يترتب عليه مقتضاه لا تطلب

الرأس تزداد القوس التي هي فوق الارض كبرا فيزداد النهار طولا بانضمام بعض أجزاء الليل اليه الى أن يبلغ المدار الذي هو أقرب المدارات الى سمت الرأس وذلك عند بلوغها الى رأس السرطان ثم ترجع متوجهة الى التباعد عن سمت الرأس فلا تزال القسي التي هي أفوق لارض تزداد صغرا فيزداد النهار قصرا بانضمام بعض أجزائه الى الليل الى أن يبلغ المدار الذي هو أبعد المدارات البوعية عن سمت الرأس وذلك عند بلوغها برج الجدي وقوله تعالى (وأن الله بما تعملون خبير) عطف على أن الله يولج الخ داخل معه في حيز الرؤية على تقديري خصوص الخطاب وعمومه فان من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق والتدبير الفائق لا يكاد يغفل عن كون صانعه عز وجل محيطا بجلائل أعماله ودقائقها (ذلك) اشارة الى ما تلي من الآيات الكريمة وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد منزلتها في الفضل وهو مبتدأ خبره قوله تعالى (بأن الله هو الحق) أي بسبب بيان أنه

تعالى هو الحق لذاته فقط ولاجله ﴿ ٩٤ س ﴾ لكونها ناطقة بحقية التوحيد (وأن ما يدعون من دونه الباطل) أي ولاجل بيان بطلان الهية ما يدعونه من دونه تعالى لكونها بذلك شهادة بينة لا ريب فيها وقرئ بالتاء شاهدة للتصريح بذلك مع أن الدلالة على اختصاص حقية الالهية به تعالى مستتبعة

للدلالة على بطلان الهية ماعداه لابراز كمال الاعتناء بامر التوحيد وللايذان بان الدلالة على بطلان ماذكر ليست بطريق الاستقلال فقط بل بطريق الاستدلال أيضا (وأن الله هو العلي الكبير) أي وبيان أنه تعالى هو المترفع عن كل شئ المتسلط عليه عما فيه تضعيف الايات الكريمة مبين لاختصاص العلو والكبرياء به تعالى أي بيان هذا وقيل ذلك أي ماذكر من سعة العلم وشمول القدرة وعجائب الصنع واختصاص الباري تعالى به بسبب أنه الثابت ﴿ ٧٤٦ ﴾ في ذاته الواجب من جميع جهاته أو الثابت

الميتة وأنت خبير بأن حقيته تعالى وعلوه وكبرياءه وان كانت صالحة لمناطية ماذكر من الاحكام المعدودة لكن بطلان الهية الاصنام لا دخل له في المناطية قطعا فلا مساغ لنظمه في ذلك الاسباب بل عدم تعكيس الامر ضروري أن الاحكام المذكورة هي المقتضية لبطلانها لا أن بطلانها يقتضيها (ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله) باجرائه في تهيئة أسبابه وهو استشهاد آخر على ما هو قدرته وغايته حكمته وشمول انعامه والباء متعلقة بتجري أو بمقدر هو حال من فاعله أي ملتبسة بنعمته تعالى وقرئ الفلك بضم اللام وبنعمات الله وعين فعلات يجوز فيه الكسر والفتح والسكون (ليريكم من آياته) أي بعض دلائل وحدته وعلمه وقدرته وقوله تعالى (ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور) تعليل لما قبله أي ان فيما ذكر لآيات عظيمة في ذاتها كثيرة في عددها لكل من يبالغ في الصبر على المشاق فيتعب نفسه في التفكر في الانفس والآفاق ويبالغ في الشكر على نعمائه وهما صفتا المؤمن فكأنه قيل لكل مؤمن (واذا غشيهم) أي علاهم وأحاط بهم (موج كالظال) كما يفعل من جهل ﴿ قالوا ﴾ أو سحاب أو غيرهما وقرئ كالظلال جمع ظلة كقلة وقلال (دعوا الله مخلصين له الدين) لزوال ما بينا من الفطرة من الهوى

الناس يسعى للمعاش في السوق فيقول لم دخل السوق وبثيب على خلاف مقتضى تصلب النفس له سببا كمن يرى ملكا في السوق يقول لم دخل السوق فاذن سبب العمى والصمم يطلبه كل واحد فيقول لم صار فلان أعمى ولا يقول لم صار فلان بصيرا واذا كان كذلك قدم الله تعالى ما تعلق النفس بسببه وهو الليل الذي هو على وزان العمى والظلمة والموت ليكون كل واحد طالبا سببه ثم ذكر بعده الامر الآخر (المسئلة الثانية) قال يولج بصيغة المستقبل وقال في الشمس والقمر سخر بصيغة الماضي لان الايلاج أمر يتجدد كل وقت وكل يوم وتسخير الشمس والقمر أمر مستمر كما قال تعالى حتى عاد كالعرجون القديم (المسئلة الثالثة) قدم الشمس على القمر وقد تقدم الليل الذي هو للقمر على النهار الذي هو للشمس لما بينا ان تقدم الليل كان لتقدم أسبابه ثم ان تلك الاسباب لما كانت أكبر وأتم كان أعجب والتفاوت لما كان بسبب أمر هو أعجب كان أكثر فلما كان سبب الليل أكثر وأتم كان أعجب وأكمل فلا جرم كان تقدمه أكمل وأكثر (المسئلة الرابعة) ما تعلق قوله تعالى وان الله بما تعملون خبير بما تقدم تقول الاكثار الليل والنهار من الافعال بين أن ما فيهما من هذين الزمانين اللذين هما تصرف الله لا يخفى على الله (المسئلة الخامسة) قوله تعالى ألم تر يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون الخطاب مع النبي صلى الله عليه وسلم وعليه الاكثرون وكأنه ترك الخطاب مع غيره لان من هو غيره من الكفار لا فائدة للخطاب معهم لاصرارهم ومن هو غيره من المؤمنين فهم مؤتمرون بأمر النبي عليه الصلاة والسلام ناظرون اليه (الوجه الثاني) أن يقال المراد منه الوعظ والواعظ يخاطب ولا يعين أحدا فيقول لجمع عظيم يا مسكين الى الله مصيرك فلم تصيرك ولماذا تفصيرك بقوله ألم تر يكون خطابا من ذلك القبيل أي يا أيها العاقل ألم تر هذا الامر الواضح ﴿ ثم قال تعالى (ذلك بأن الله هو الحق وان ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير) ولما ذكر تعالى أوصاف الكمال بقوله ألم تر الله هو الغني الحميد وقوله ان الله عزيز حكيم وقوله ان الله سميع بصير وأشار الى الارادة والكمال بقوله ما نفدت كلمات الله وبقوله يولج الليل في النهار وعلى الجملة فقوله هو الغني اشارة الى كل صفة سابية فانه اذا كان غنيا لا يكون عرضا محتاجا الى الجوهر في القوام ولا جسما محتاجا الى الحيز في الدوام ولا شيئا من الممكنات المحتاجة الى الموجد وذكر بعده جميع الاوصاف الثبوتية صريحا وتضمنا فان الحياة في ضمن العلم والقدرة قال ذلك بأن الله هو الحق أي ذلك الاتصاف بانه هو الحق والحق والثبوت والثابت الله وهو اشارة الى المطلق الذي لا زوال له وهو الثبوت فان المذهب الصحيح ان وجوده غير حقيقته فكل ما عداه فله زوال نظرا اليه والله له الثبوت والوجود نظرا اليه فهو الحق وما عداه الباطل لان الباطل هو الزائل يقال بطل ظله اذا زال واذا كان له الثبوت من كل وجه يكون تاما لا نقص فيه ثم اعلم ان الحكماء

والتقليد بمادهاهم من الدواهي والشدائد (فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد) أي مقيم على القصد السوي الذي هو التوحيد أو متوسط في الكفر لا تزجاره بالجملة (وما يجحد بآياتنا الا كل ختار) غدار فانه نقض للعهد الفطري أو رفض لما كان في البحر والختر أشد الغدر وأقبحه (كفور) مبالغ في كفران نعم الله تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده) أي لا يقضي عنه وقرئ لا يجزي من أجزأ ✿ ٧٤٧ ✿ اذا أغنى والعائد الموصوف محذوف أي لا يجزي فيه (ولا مولود) عطف على والد أو هو مبتدأ خبره (هو جاز عن والده شيأ) وتغيير النظم للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يجزي وقطع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافر في الآخرة (ان وعد الله) بالثواب والعقاب (حق) لا يمكن اخلافه أصلا (فلا تغرنكم الحيوة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) أي الشيطان المبالغ في الغرور بأن يحملكم على المعاصي بتزيينها لكم وترجيكم التوبة والمغفرة (ان الله عنده علم الساعة) علم وقت قيامها لما روي ان الحرث بن عمرو أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال متى الساعة وانى قد القيت حباتى في الارض فمتى السماء تمطر وحملت امرأتي ذكرا أم أنثى وما أعمل غدا وأين أموت فنزلت وعنده عليه الصلاة والسلام مفاتح الغيب خمس وتلا هذه الآية (وينزل الغيث) في أيانه الذي قدره والى محله الذي عينه في علمه وقرئ ينزل من الانزال (ويعلم ما في الارحام) من ذكر او انثى تام أو ناقص (وما تدري نفس) من النفوس (ماذا تكسب غدا) من خير أو شر وبر عما تعزم على شئ منهما فتفعل خلافه (وما تدري نفس بأي ارض تموت) كما لا تدري في أي وقت وت روى أن ملك الموت مر على سليمان عليهما السلام فجعل ينظر الى رجل من جلسائه يديم النظر اليه فقال الرجل ن هذا قال ملك الموت فقال كأنه يريدني فمر الريح ان تحملني وتلقيني

قالوا الله تام وفوق التمام وجعلوا الاشياء على أربعة أقسام ناقص ومكتف وتام وفوق التمام (فالناقص ما ليس له ما ينبغي أن يكون له كالصبي والمريض والاعمى (والمكتفي) وهو الذي أعطى ما يدفع به حاجته في وقته كالانسان والحيوان الذي له من الآلات ما يدفع به حاجته في وقتها لكنها تعتل وتزول (والتام) ما حصل له كل ما جاز له وان لم يحتج اليه كالملائكة المقربين لهم درجات لا تزداد ولا تنقص الله منها لهم شيأ كما قال جبريل عليه السلام لو دنوت انملة لاحترقت انوار الله تعالى وما منا الا له مقام معلوم (وفوق التمام) هو الذي حصل له ما جاز له وحصل لما عداه ما جاز له أو احتاج اليه لكن الله تعالى حاصل له كل ما يجوز له من صفات الكمال ونعوت الجلال فهو تام وحصل لغيره كل ما جاز له أو احتاج اليه فهو فوق التمام اذا ثبت هذا فمقول قوله هو الخلق اشارة الى التمام وقوله وأن الله هو العلي الكبير أي فوق التمام وقوله وهو العلي أي في صفاته وقوله الكبير أي في ذاته وذلك ينافي أن يكون جسما في مكان لانه يكون حينئذ جسما مقدرا بمقدار فيمكن فرض ما هو أكبر منه فيكون صغيرا بالنسبة الى المفروض لكنه كبير مطلقا أكبر من كل ما يتصور ✿ ثم قال تعالى (ألم تر ان الفلك تجري في البحر بنعمت الله ليريكم من آياته) لما ذكر آيد سماوية قوله ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر وأشار الى السبب والمسبب ذكر آية أرضية وأشار الى السبب والمسبب فقوله الفلك تجري اشارة الى السبب وقوله بنعمت الله اشارة الى السبب أي الى الريح التي هي بأمر الله لكم من آياته ليريكم باجرائها بنعمته من آياته أي بعض آياته ✿ ثم قال تعالى (ان في ذلك لآيات لكل صبار شكور) صبار في شدة شكور في الرخاء وذلك لان المؤمن متذكر عند الشدة والبلاء وعند النعم والآلاء فيصبر اذا أصابته نقمة ويشكر اذا أتته نعمة وورد في كلام النبي صلى الله عليه وسلم الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر اشارة الى ان التكاليف أفعال وتروك والترك صبر عن المأوف كما قال عليه الصلاة والسلام الصوم صبر والافعال شكر على المعروف ✿ ثم قال تعالى (واذا غشيهم موج كالظل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور) لما ذكر الله ان في ذلك لآيات ذكر ان الكل مستقرون به غير ان البصير يدركه أولا وهو في بصيرته ضعيف لا يدركه أولا فاذا غشيه موج ووقع في شدة اعترف بأن الكل من الله ودعاه مخلصا أي يترك كل من عداه وينسى جميع ما سواه فاذا نجاه من تلك الشدة وبقي على تلك الحالة وهو المراد بقوله فمنهم مقتصد وقد يعود الى المشرك وهو المراد بقوله ما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور وفي الآية مسائل (المسئلة الاولى) قوله موج كالاظلة وحد الموج وجمع الظلل وقيل في معناه كالجبال وقيل كالسحاب اشارة الى عظم الموج ويمكن أن يقال الموج الواحد العظيم يرى فيه طلوع ونزول واذا نظرت في الجزيرة الواحدة

ببلاد الهند ففعل ثم قال الملك لسليمان عليهما السلام كان دوام نظري اليه بحيث منه حيث كنت أمرت بان اقبض روحه بالهند وهو عندك ونسبة العلم الى الله تعالى والدراية الى العبد للايذان بأنه ان أعمل جيله و بذل فى التعرف وسعه لم يعرف ماهو لاحق به من كنهه وعاقبته فكيف بغيره ممالم ينصب له دليل عليه وقرئ بأية أرض وشبه سيبويه بأينما بأنيت كل فى كلتهن (ان الله عليم) مبالغ فى العلم فلا يعزب عن علمه شئ من الاشياء التى ﴿ ٧٤٨ ﴾ من جملتها ماذكر (خبير) بعلم بواطنها

كما يعلم ظواهرها * عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة لقمان كان له لقمان رفيقا يوم القيامة وأعطى من الحسنات عشرا بعدد من عمل بالمعروف ونهى عن المنكر

* (سورة السجدة مكية وهى ثلاثون آية وقيل تسع وعشرون) *

* (بسم الله الرحمن الرحيم) *

(الم) اما اسم للسورة فمحله الرفع على أنه خبر لمبتدا محذوف أى هذا مسمى بالم والاشارة اليها قبل جريان ذكرها قد عرفت سرها واما مسرود على نمط التعديد فلا محل له من الاعراب وقوله تعالى (تنزيل الكتاب) على الاول خبر بعد خبر على أنه مصدر أطلق على المفعول مبالغة وعلى الثانى خبر لمبتدا محذوف أى المؤلف من جنس ماذكر تنزيل الكتاب وقيل خبر لالم أى المسمى به تنزيل الكتاب وقد مر مرارا أن ما يجعل عنوانا للموضوع حقه أن يكون قبل ذلك معلوما الانتساب اليه واذ لا عهد بالتسمية قبل فحتها الاخبار بها

من النهر العظيم تبين لك ذلك فيكون ذلك كالجبال المتلاصقة (المسئلة الثانية) قال فى العنكبوت فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله ثم قال فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون وقال ههنا فلما نجاهم الى البر فمنهم مقتصد فنقول لما ذكر ههنا أمرا عظيما وهو الموج الذى كالجبال بقى أثر ذلك فى قلوبهم فخرج منهم مقتصد أى فى الكفر وهو الذى انزجر بعض الانزجار أو مقتصد فى الاخلاص فبقى معه شئ منه ولم يبق على ماكان عليه من الاخلاص وهو الكل بذكر مع ركوب البحر معانقة مثل ذلك الامر فذكر اشراكهم حيث لم يبق عنده أثر (المسئلة الثالثة) قوله وما يجحد بآياتنا فى مقابلة قوله تعالى ان فى ذلك لآيات يعنى يعترف بها الصبار الشكور ولا يجحدها الختار الكفور والصبار فى موازنة الختار فظا ومعنى والكفور فى موازنة الشكور أما لفظا فظاهر وأما معنى فلان الختار هو الغدار الكثير الغدر أو الشديد الغدر والغدر لا يكون الا من قلة الصبر لان الصبور لا يظلم ولا يهضم أحدا لا يهضم منه الاضطرارا فانه يصبر ويفوض الامر الى الله وأما الغدار فيهضم ولا يصبر على العهد فيفتضح وأما ان الكفور فى مقابلة الشكور معنى فظاهر * ثم قال تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا) لما ذكر الدلائل من أول السورة الى آخرها وعظ بالتقوى لانه تعالى لما كان واحدا أوجب التقوى البالغة فان من يعلم ان الامر بيد اثنين لا يخاف أحدهما مثل ما يخاف لو كان الامر بيد أحدهما لا غير ثم أكد الخوف بذكر اليوم الذى يحكم الله فيه بين العباد وذلك لان الملك اذا كان واحدا ويعهد منه انه لا يعلم شيأ ولا يستعرض عباده لا يخاف منه مثل ما يخاف اذا علم ان له يوم استعراض واستكشاف ثم أكده بقوله لا يجزى والد عن ولده وذلك لان المجرم اذا علم أن له عند الملك من يتكلم فى حقه و يقضى ما يخرج عليه بل قد يعفو عن كبيره يخاف مثل ما يخاف اذا علم انه ليس له من يقضى عنه ما يخرج عليه ثم ذكر شخصين فى غاية الشفقة والمحبة وهما الوالد والولد ليستدل بالادنى على الاعلى وذكر الولد والوالد جميعا فيه لطيفة وهى ان من الامور ما يبادر الاب الى التحمل عن الولد كدفع المال وتحمل الآلام والولد لا يبادر الى تحمله عن الوالد مثل ما يبادر الولد الى تحمله عن الولد ومنها ما يبادر الولد الى تحمله عن الوالد ولا يبادر الوالد الى تحمله عن الولد كالاهانة فان من يريد احضار والد أحد عند وال أو قاض يهون على الابن أن يدفع الاهانة عن والده ويحضر هو بدله فاذا انتهى الامر الى الايلام يهون على الاب أن يدفع الايلام عن ابنه ويتحمله هو بنفسه فقوله لا يجزى والد عن ولده فى دفع الآلام ولا مولود هو جاز عن والده شيأ فى دفع الاهانة وفى قوله لا يجزى وقوله ولا مولود هو جاز صيغة أخرى وهى اذا ذكرنا ان الفعل يأتى وان كان ممن لا ينبغى و يكون من شأنه لان الملك اذا كان يخيط شيأ يقال انه يخيط ولا يقال هو خياط وكذلك من يحيك شيأ ولا يكون ذلك صنعته يقال هو يحيك ولا يقال هو حائك اذا علمت هذا فنقول

وقوله تعالى (لا ريب فيه) خبر ثالث على الوجه الاول وثان على الاخيرين وقيل خبر لتنزيل الكتاب فقوله ﴿ الاين ﴾ تعالى (من رب العالمين) متعلق بمضمر هو حال من الضمير المجرور أى كائنا منه تعالى لا بتنزيل لان المصدر لا يعمل فيما بعد الخبر والاوجه حينئذ أنه الخبر ولا ريب فيه حال من الكتاب أو اعتراض والضمير

في فيه راجع الى مضمون الجملة كأنه قيل لاريب في ذلك أي في كونه منزلا من رب العالمين ويؤيده قوله تعالى (ام يقولون افتراه) فان قولهم هذا انكار منهم لكونه من رب العالمين فلا بد أن يكون مورده حكما مقصود الافادة لا قيد المحكوم فيه في الريب عنه وقد رد عليهم ذلك وأبطل حيث جيء بأم المنقطعة لانكاره وتعجيبا منه غاية ظهور بطلانه واستحالة كونه مفترى ثم أضرب عنه الى بيان حقيقة ما انكروه ﴿٧٤٩﴾ حيث قيل (بل هو الحق من ربك) باضافة اسم الرب الى ضميره عليه الصلاة والسلام بعد اضافته فيما سبق الى العالمين تشريفا له عليه الصلاة والسلام ثم أيد ذلك ببيان غايته حيث قيل (لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون) فان بيان غاية الشيء وحكمته سيما عند كونها غاية جيدة مستتبعة لمنافع جليلة في وقت شدة الحاجة اليها مما يقرر وجود الشيء ويؤكده لامحالة ولقد كانت قريش أضل الناس وأحوجهم الى الهداية بارسال الرسول وتنزيل الكتاب حيث لم يبعث اليهم من رسول قبله عليه الصلاة والسلام أي ما أتاهم من نذير من قبل انذارك أو من قبل زمانك وانتزجي معتبه من جهته عليه الصلاة والسلام أي لتنذرهم راجيا لاهدائهم أو لرجاء اهتدائهم واعلم أن ما ذكر من التأييد انما ينبغي على ما ذكر من كون تنزيل الكتاب مبتدأ وأما على سائر الوجوه فلا تأييد أصلا لان قوله تعالى من رب العالمين خبر رابع على الوجه الاول وخبر ثالث على الوجهين الاخيرين وأيا ما كان فكونه من رب العالمين حكم مقصود الافادة لا قيد لحكم آخر فتدبر (الله الذي خلق السموات والارض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش) مر بيانه فيما سلف (ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع) أي ما لكم إذا جاوزتم رضاه تعالى أحد ينصركم ويشفع لكم ويجيركم من بأسه أي ما لكم سواه ولي ولا شفيع بل هو الذي يتولى

الابن من شأنه أن يكون جازيا عن والده لما له عليه من الحقوق والوالد يجزي لما فيه من الشفقة وليس يواجب عليه ذلك فقال في الوالد لا يجزي وقال في الولد ولا مولود هو جاز * ثم قال تعالى (ان وعد الله حق) وهو يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تحقيقا لما يوم يعني اخشوا يوما هذا شأنه وهو كائن لوعد الله به ووعده حق (والثاني) ان يكون تحقيقا لعدم الجزاء يعني لا يجزي والد عن ولده لان الله وعد بأن لا تزر وازرة وزر أخرى ووعد الله حق فلا يجزي والاول أحسن وأظهر * ثم قال تعالى (فلا تغرنكم الحياة الدنيا) يعني اذا كان الامر كذلك فلا تغتروا بالدنيا فانها زائلة لوقوع اليوم المذكور بالوعد الحق * ثم قال تعالى (ولا يغرنكم بالله الغرور) يعني الدنيا لا ينبغي أن تغركم بنفسها ولا ينبغي أن تغتروا وان حملكم على محبتها غار من نفس أماره أو شيطان فكان الناس على أقسام منهم من تدعوه الدنيا الى نفسها فيميل اليها ومنهم من يوسوس في صدوره الشيطان ويزين في عينه الدنيا ويؤمله ويقول انك تحصل بها الآخرة وتلتذ بها ثم تتوب فيجمع لك الدنيا والآخرة فنهاهم عن الامرين وقال كونوا قسما ثالثا وهم الذين لا يلتفتون الى الدنيا ولا الى من يحسن الدنيا في الدين * ثم قال تعالى (ان الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الارحام وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت ان الله عليم خبير) يقول بعض المفسرين ان الله تعالى نفى علم أمور خمسة بهذه الآية عن غيره وهو كذلك لكن المقصود ليس ذلك لان الله يعلم الجوهر الفرد الذي كان في كثيب رمل في زمان الطوفان ونقله الريح من المشرق الى المغرب كم مر قبه يعلم انه أين هو ولا يعلمه غيره ولانه يعلم انه يوجد بعد هذه السنين ذرة في بريه لا يسلكها أحد ولا يعلمه غيره فلا وجه لاختصاص هذه الاشياء بالذكر وانما الحق فيه ان نقول انه قال الله اخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده وذكر انه كأنه يقول له ان وعد الله حق كان قائلا قال فمتى يكون هذا اليوم فأجيب بأن هذا العلم مما لم يحصل لغير الله ولكن هو كائن ثم ذكر الدليلين اللذين ذكرناهما مرارا على البعث (أحدهما) احياء الارض بعد موتها كما قال تعالى وان كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الارض بعد موتها ان ذلك لمحيي الموتى وقال تعالى ويحيي الارض بعد موتها وكذلك تخرجون وقال ههنا يا أيها السائل انك وان لم تعلم وقتها ولكنها كائنة والله قادر عليها كما هو قادر على احياء الارض حيث قال وهو الذي ينزل الغيث وقال ويحيي الارض (وثانيهما) الخلق ابتداء كما قال وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وقال تعالى قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة الى غير ذلك فقال ههنا وان لم تعلم ما في الارحام اشارة الى ان الساعة وان كنت لا تعلمها لكنها كائنة والله قادر عليها وكما هو قادر على الخلق في الارحام كذلك يقدر على الخلق من الرحام ثم قال لذلك الطالب علمه يا أيها السائل انك تسأل عن الساعة أيان مرساها فلك أشياء أهم منها لا تعلمها فانك

مصالحكم وينصركم فى مواطن النصر على أن الشفيع عبارة عن الناصر مجازا فاذا خذلكم لم يبق لكم ولى ولا نصير (أفلا تتذكرون) أى ألا تستمعون هذه المواعظ فلا تتذكرون بها أو أنستمعونها فلا تتذكرون فالانكار على الاول متوجه الى عدم السماع وعدم التذكر معا وعلى الثانى على عدم التذكر مع تحقق ما يوجبه من السماع (يدبر الامر من السماء الى الارض) قيل يدبر أمر الدنيا بأسباب سماوية من الملائكة وغيرها نازلة آثاره ﴿٧٥٠﴾ وأحكامه الى الارض (ثم يعرج اليه) أى يثبت فى علمه موجودا بالفعل (فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) أى فى برهة من الزمان متطاولة والمراد بيان طول امتدادها مابين تدبير الحوادث وحدوثها من الزمان وقيل يدبر أمر الحوادث اليومية بآثارها فى اللوح المحفوظ فينزل بها الملائكة ثم تعرج اليه فى زمان هو كألف سنة مما تعدون فان مابين السماء والارض مسيرة خمسمائة عام وقد قضى قضية ألف سنة فينزل ذلك ثم يعرج بعد الالف الاخر وقيل يدبر أمر الدنيا جميعا الى قيام الساعة ثم يعرج اليه الامر كله عند قيامها وقيل يدبر الأمور به من العطايا ينزلها من السماء الى الارض بالوحى ثم لا يعرج اليه خالصا الا فى مدة متطاولة لتخصيص الاعمال الخالصة لاتقتضى بطء عروجها الى السماء بل فلقة وقرئ يعدون بالياء (ذلك) اشارة الى الله عز وجل باعتبار اتصافه بما ذكر من خلق السموات والارض والاستواء على العرش وانحصار الولاية والنصرة فيه وتدبير أمر الكائنات ﴿أى﴾ على ماذكر من الوجه البديع وهو مبتدأ خبره مابعده أى ذلك العظيم الشان (عالم الغيب والشهادة) فيدبر أمرهما حسبما تقتضيه الحكمة (العزيز) الغالب على أمره (الرحيم) على عباده وهما خبران آخران وفيه ايماء

لا تعلم معاشك ومعادك ولا تعلم ماذا تكسب غدا مع انه فعلك وزمانك ولا تعلم أين تموت مع انه شغلك ومكانك فكيف تعلم قيام الساعة متى تكون فالله ما أعملك كسب غدك مع ان لك فيه فوائد تبنى عليها الامور من يومك ولا أعملك أين تموت مع ان لك فيه اغراضا تهيئ أمورك بسبب ذلك العلم وانما لم يعلمك لتكون فى كل وقت بسبب الرزق راجعا الى الله تعالى متوكلا عليه وأعلمك الارض التى تموت فيها لتأمن الموت وأنت فى غيرها فاذا لم يعلمك ما تحتاج اليه كيف يعلمك ما لا حاجة لك اليه وهى الساعة وانما الحاجة الى العلم بأنها تكون وقد أعلمك الله على لسان أنبيائه ثم قال تعالى ان الله عليم خبير لما خص أو علمه بالاشياء المذكورة بقوله ان الله عنده علم الساعة ذكر أن علمه غير مختص بما ذكر بل هو عليم بكل شئ وليس علمه كعلمنا بل يشاهد الاشياء فحسب بل هو خبير علمه واصل الى بواطن الاشياء والله أعلم بالصواب

﴿سورة السجدة وتسمى سورة المضاجع مكية عند أكثرهم وهى ثلاث وثلاثون آية﴾

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

(الم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) لما ذكر الله تعالى فى السورة المتقدمة أمر الهداية ذكر فى هذه السورة الاخرى وهو الحشر وختم السورة بهما لبيان الرسالة فى هذه السورة وقال الم تنزيل الكتاب على ترتيب وقد علم ما فى قوله الم من قوله الم الر فيما مر من السورة البتة لغيرها غير هو قال من رب العالمين وقال من قبل هدى ورحمة للمحسنين وقال فى البقرة هدى للمتقين وذلك لان من يرى كتابا لغيره فأول ما تصير النفس طالبة لطالب الكتاب فيقول ما هذا الكتاب فاذا قيل هذا فلان أتفسير فيقول بعد ذلك تصنيف من هو ولا يقبل أو لا هذا الكتاب تصنيف من هو يقول فيما اذا هو ذاك سلم هذا قبل أو لا هذا الكتاب هدى ورحمة قال هينا هو كتاب الله تعالى وذكره بلفظ رب العالمين لان كتاب من يكون رب العالمين يكون فيه عجائب العالمين فتدعوا النفس الى مطالعته ﴿ثم قال تعالى (أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون) يعنى أتعترفون به أم تقولون هو مفترى ثم أجاب وبين ان الحق أنه حق من ربه ثم بين فائدة النزول وهو الانذار وفيه مسائل (المسئلة الاولى) كيف قال لتنذر قوما ما أتاهم من نذير مع أن النذر سبقوه الجواب من وجهين (احدهما) معقول والآخر منقول أما المنقول فهو أن قريشا كانت امة أميين لم يأتهم نذير قبل محمد صلى الله عليه وسلم وهو بعيد فانهم كانوا من أولاد ابراهيم وجميع أبناء بنى اسرائيل من أولاد أعمامهم وكيف كان لله يترك قوما من وقت آدم الى زمان محمد بلا دين ولا شرع وان كنت تقول بأنهم ما جاءهم رسول بخصوصهم يعنى ذلك القرن فلم يكن ذلك مختصا بالعرب بل أهل الكتاب أيضا لم يكن ذلك القرن قد أتاهم رسول وانما

الى أنه تعالى متفضل فى جميع ماذكر فاعل بالاحسان (الذى أحسن كل شئ خلقه) خبر آخر أونصب على المدح أى حسن كل مخلوق خلقه اذما من مخلوق خلقه الاوهو مرتب على مايقتضيه الحكمة وأوجبته لمصلحة فجميع المخلوقات حسنة وان تفاوتت الى حسن وأحسن كما قال تعالى لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم وقيل علم كيف يخلقه من قوله فيم المرء مايحسن أى يحسن معرفته أى يعرفه ﴿ ٧٥١ ﴾ معرفة حسنة بتحقيق ويقال وغرى خلقه على أنه بدل اشتمال من كل شئ والضمير لما بدل منه أى حسن خلق كل شئ وقيل بدل الكل على أن الضمير لله تعالى والخلق بمعنى المخلوق أى حسن كل مخلوقاته وقيل هو مفعول ثان لاحسن على تضمينه معنى أعطى أى أعطى كل شئ خلقه اللائق به بطريق الاحسان والتفضل وقيل هو مفعوله الاول وكل شئ مفعوله الثانى والخلق بمعنى المخلوق وضمير لله سبحانه على تضمين الاحسان معنى الالهام والتعريف والمعنى ألهم خلقه كل شئ مما يحتاجون اليه وقال أبو البقاء عرف مخلوقاته كل شئ يحتاجون اليه فيؤل الى معنى قوله تعالى الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى (وبدأ خلق الانسان) من بين جميع المخلوقات (من طين) على وجه بديع تحار العقول فى فهمه حيث برأ آدم عليه السلام على فطرة عجيبة منطوية على فطرة سائر أفراد الجنس انطواء اجماليا مستتبعا لخروج كل فرد منهم من القوة الى الفعل بحسب استعداداتها المتفاوتة قربا وبعدا كما ينبئ عنه قوله تعالى (ثم جعل نسله) الخ أى ذريته سميت بذلك لانها تنسل وتنفصل منه (من سلالة من ماء مهين) هو المنى المحتقر (ثم سواه) أى عدله بتكميل أعضائه فى الرحم وتصويرها على ينبغى (ونفخ فيه من روحه) اضافه اليه تعالى تشريفا له وايذانا بأنه خلق عجيب وصنع بديع وأن له شأنا له مناسبة الى حضرة الربوبية وأن اقصى منتهى اليه العقول

أتى الرسل آباءهم وكذلك العرب أى الرسل آباءهم كيف والذى عليه الاكثرون ان آباء محمد عليه الصلاة والسلام كانوا كفارا ولان النبى أوعدهم وأوعد آباءهم بالعذاب قال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وأما المعقول وهو ان الله تعالى أجرى عادته على ارأهم عصرا ذا ضلوا ابا كليا ولم يبق فيهم من يهديهم يلطف بعباده ويرسل رسولا ثم انه اذا أراد طهرهم بازالة الشرك بالكفر من قلوبهم وان أراد طهر وجه الارض باهلاكهم ثم اهل العصر ضلوا بعد الرسل حتى لم يبق على وجه الارض عالم عاد يدعو بهدايته فوجب أن يقولوا علم ذلك سنين منطاولة لم يأتهم رسول قبل محمد عليه الصلاة والسلام بقال لتنذر قوما ما أتاهم أى بعد اضلال الذى كان بعد الهدايه لم يأتهم نذير (المسئلة الثانية) لو قال قائل التخصيص بالذكر يدل على نفى ماعداه فقوله لتنذر قوما ما أتاهم يوجب أن يكون انذاره مختصا بمن لم يأته نذير لكن أهل الكتاب قد أتاهم نذير فلا يكون الكتاب منزلا الى الرسول لينذر أهل الكتاب فلا يكون رسولا اليهم نقول هذا ساقط من وجوه (أحدها) ان التخصيص لا يوجب نفى ماعداه (وثانيها) انه ورد فى قائل لكنه وافق غيره فى أن التخصيص ان كان له سبب خاص نفى ماعداه لا يوجب نفى ماعداه وههنا وجد ذلك لان انذارهم كان أولى لانا نرى أنه تعالى قال وأنذر عشيرتك الاقربين ولم يفهم منه انه لا ينذر غيرهم أو لم يؤمر بانذار غيرهم وانذار الاقربين كان اولى من انذارهم كان بالتوحيد والحشر وأهل الكتاب لم ينذروا لا لانهم انكروا الرسالة فكانوا أولى بالذكر فوقع التخصيص لاجل ذلك (والثالث) هو على ماذكرنا لا يرد ما ذكره أصلا لان أهل الكتاب كانوا قد ضلوا ولم يأتهم نذير من قبل محمد بعد ضلالهم فلزم أن يكون محمد مرسلا الى الكل على درجة سواء وبهذا يتبين حسن ما اخترناه وقوله لعلهم يهتدون يعنى تنذرهم راجيا أنت اهتداءهم * ثم قال تعالى (الله الذى خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة أيام) لما ذكر الرسالة بين ما على الرسول من الدعاء الى التوحيد واقامة الدليل فقال الله الذى خلق السموات والارض الله مبتدأ وخبر الذى خلق يعنى الله هو الذى خلق السموات والارض ولم يخلقهما الا واحد فلا اله الا واحد وقد ذكرنا ان قوله تعالى فى ستة أيام اشارة الى ستة أحوال فى نظر الناظرين وذلك لان السموات والارض وما بينهما ثلاثة أشياء وكل واحد منها ذات وصفة فنظر الى خلقه ذات السموات حالة ونظرا الى خلقه صفاتها أخرى ونظرا الى ذات الارض والى صفاتها كذلك ونظرا الى ذوات ما بينهما والى صفاتها كذلك فهى ستة أشياء فى ستة أحوال وانما ذكر الايام لان الانسان اذا نظر الى الخلق رآه فعلا والفعل ظرفه الزمان والايام أشهر الازمنة والا فقبل السموات لم يكن ليل ولا نهار وهذا مثل ما يقول القائل لغيره ان يوما ولدت فيه * كان يوما مباركا وقد يجوز أن يكون ذلك قد ولد ليلا ولا يخرج عن مراده لان المراد هو الزمان الذى هو ظرف ولده * ثم قال تعالى (ثم استوى على

البشرية من معرفته هذا القدر الذى نعرفه تارة بالاضافة اليه تعالى واخرى بالنسبة الى أمره تعالى كما فى قوله تعالى ١٢
قل الروح من أمر ربى (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة) الجعل ابداعى واللام متعلقة به والتقديم على المفعول
الصريح لما مر مرات من الاهتمام بالمقدم والتشويق الى المؤخر مع ما فيه من نوع طول يخل تقدمه بجزالة النظم الكريم
أى خلق لمنفعتكم تلك المشاعر لتعرفوا انها مع كونها فى انفسها نعما ﴿ ٧٥٢ ﴾ جليلة لا يقادر قدرها وسائل الى التمتع

بسائر النعم الدينية والدنيوية الفائضة عليكم وتشكروه بأن تصرفوا كلا منها الى ما خلق هو له فتدركوا بسمعكم الآيات التنزيلية الناطقة بالتوحيد والبعث وبأبصاركم الآيات التكوينية الشاهدة بهما وتستدلوا بأفئدتكم على حقيتهما وقوله تعالى (قليلا ما تشكرون) بيان لكفرهم بتلك النعم بطريق الاعتراض التذييلى على ان القلة بمعنى النفى كما ينبئ عنه ما بعده اى شكرا قليلا او زمانا قليلا تشكرون وفى حكاية احوال الانسان من مبدأ فطرته الى نفخ الروح فيه بطريق الغيبة وحكاية احواله بعد ذلك بطريق الخطاب المنبئ عن استعداده للفهم وصلاحيته له من الجزالة مالا غاية وراءه (وقالوا) كلام مستأنف مسوق لبيان اباطيلهم بطريق الالتفات ايذانا بأن ما ذكر من عدم شكرهم بتلك النعم موجب للاعراض عنهم وتعديد جنايتهم لغيرهم بطريق

العرش) اعلم أن مذهب العلماء فى هذه الآية وأمثالها على وجهين (أحدهما) ترك التعرض الى بيان المراد (وثانيهما) التعرض اليه والاول أسلم والى الحكمة أقرب أما انه أسلم فذلك لان من قال أنا لا أتعرض الى بيان هذا أولا أعرف المراد من هذا لا يكون حاله الا حال من لا يتكلم عند عدم وجوب الكلام أو لا يعلم شيئا لم يجب عليه أن يعلم وذلك لان الاصول ثلثة التوحيد والقول بالحشر والاعتراف بالرسل لكن الحشر أيضا واتفقنا ان العلم به واجب والعلم تفصيلا بمعنى يكون غير واجب ولهذا قال تعالى فى آخر السورة المتقدمة ان الله عنده علم الساعة فكذلك الله يجب معرفة وجوده ووحدانيته واتصافه بصفات الجلال ونعوت الكمال على سبيل الاجمال وتعالبه عن سمات الامكان وصفات النقصان ولا يجب أن يعلم جميع صفاته كما هى ، صفة الاستواء ما لا يجب العلم بها فمن ترك التعرض اليه لم يترك واجبا وأما من تعرض اليه فقد يخطئ فيه فيعتقد خلاف ما هو عليه فالاول غاية ما يلزمه انه لا يعلم والثانى يكاد أن يقع فى أن يكون جاهلا مركبا وعدم العلم والجهل المركب كالسكوت والكذب ولا يشك أحد فى ان السكوت خير من الكذب وأما انه أقرب الى الحكمة فذلك لان من سمع كتابا مصنفه انسان وكتب له شرحا والشارح من المصنفين فالظاهر انه لا يأتى على جميع ما أتى عليه المصنف ولهذا كثيرا ما نرى ان الانسان يورد الاشكالات على المصنف المتقدم ثم يجئ من ينصر كلامه ويقول لم يرد المصنف هذا وانما أراد كذا وكذا واذا كان حال الكتب الحادثة التى تكتب عن علم قاصر كذلك فاظنك بالكتاب العزيز الذى فيه كل حكمة يجوز أن يدعى جاهل انى علمت كل سر فى هذا الكتاب وكيف ولو ادعى عالم انى علمت كل سر وكل فائدة يشتمل عليه الكتاب الفلانى يستقبح منه ذلك فكيف من يدعى انه لم كل ما فى كتاب الله ثم ليس لقائل أن يقول بأن الله تعالى بين كل ما أنزله لان تأخير البيان الى وقت الحاجة جائز ولعل فى القرآن ما لا يحتاج اليه أحد غير نبيه فبينه لا لغيره اذ ثبت هذا علم أن فى القرآن ما لا يعلم وهذا أقرب الى ذلك الذى لا يعلم التشابه البالغ الذى فيه لكن هذا المذهب له شرط وهو أن ينفى بعض ما يعلمه قطعا انه ليس بمراد وهذا لا قليلا ما قال ان هذه الايام أيام قروء ونعلم انه لا يريد أن هذه الايام أيام بيوت فلانة ولا يريد أن هذه الايام أيام سفر فلانة وانما المراد محصورة الصفة أو الحيض فكذلك ههنا يعلم أن المراد ليس ما يوجب نقصا فى ذاته لاستحالة ذلك والجلوس والاستقرار المكانى من ذلك الباب فيجب القطع بنفى ذلك الوقوف فيما يجوز بعده (والمذهب الثانى) خطر ومن يذهب اليه فريقان (أحدهما) من يقول المراد ظاهره وهو القيام والانتصاب أو الاستقرار المكانى (وثانيهما) من يقول المراد الاستيلاء والاول جهل محض والثانى يجوز أن يكون جهلا والاول مع كونه جهلا هو بدعة وكاد يكون كفرا والثانى ان كان جهلا فليس بجهل يورث بدعة وهذا كما ان واحدا اذا اعتقد أن الله يرحم الكفار

المبنى (أئذا ضللنا فى الارض) أى صرنا ترابا مخلوطا بترابها بحيث لا تميز منه او غبنا فيها بالدفن ﴿ ولا ﴾
وقرئ ضللنا بكسر اللام من باب علم وضللنا بالصاد المهملة من صل اللحم اذا أنتن وصل من الصلة وهى الارض
أى صرنا من جنس الصلة

ولايعاقب أحدا منهم يكون جهلا وبدعة وكفرا واذا اعتقد انه يرحم زيدا الذي هو مستور الحال لايكون بدعة مايكون انه اعتقاد غير مطابق (ومما قيل فيه) ان المراد منه استوى على ملكه والعرش يعبر به عن الملك يقال الملك فعد على سرير لملكه بالبيدة الفلانية وان لم يدخلها وهذا مثل قوله تعالى وقالت اليهود يد الله مغلولة اشارة الى البخل مع انهم لم يقولوا بأن على يد الله غلا على طريق الحقيقة ولو كان مراد الله ذلك لكان كذبا بحسب كلام الله عنه ثم لهذا فضل تقرير وهو ان الملوك على درجات فمن يملك مدينة صغيرة أو بلادا يسيرة ماجرت العادة بأن يجلس أول مايجلس على سرير ومن يكون سلطانا يملك البلاد الشاسعة والديار الواسعة وتكون الملوك في خدمته يكون سرير يجلس عليه وقدامه كرسي يجلس عليه وزيره فالعرش والكرسي في العادة لايكون الا عند عظيم المملكة فلما كان ملك السموات والارض في غاية العصمة عبر بما ينبئ في العرف عن العظمة ومما ينبهك لهذا قوله تعالى انا خلقنا وانا زينا ونحن أقرب ونحن نزلنا فيضعن أو يشك مسلم في أن المراد ظاهره من الشريك وهل يجدله مجملا غير ان العظيم في العرف لايكون واحدا وانما يكون معه غيره وكذلك الملك العظيم في العرف لايكون الا اذا سرير يستوي عليه فاستعمل ذلك مريدا به عظمة ومما يؤيد هذا ان المقهور المغلوب المهزوم يقال له ضاقت به الارض حتى لم يبق له مكان أيضا انهم يريدون به انه صار لامكان له وكيف يتصور الجسم بلا مكان ولاسيما من يقول بان الله في مكان كيف يخرج الانسان من المكان وكما يقال للمقهور الهارب لم يبق له مكان مع أن المكان واجب له يقال للقادر الظاهر هو متمكن وله عرش وان كان التنزه عن المكان واجبا له وعلى هذا كلمة ثم في خلق السموات والارض ثم لقصة انه استوى على الملك وهذا كما يقول القائل فلان كرمي وانعم علي مرارا ويحكي عنه أشياء ثم يقول انه ماكان يعرفني ولا كنت فعلت معه مايجازى بهذا فتقول ثم للحكاية لا للتعقيب (الوجه الآخر) قيل استوى جاء بمعنى استولى على العرش واستوى جاء بمعنى استولى نقلا واستعمالا أما النقل فكثير مذكور في كتب اللغة منها ديوان الادب وغيره مما يعتبر النقل عنه واما الاستعمال فقول القائل

قد استوى بشر على العراق ✻ من غير سيف ودم مهراق

على هذا فكلمة ثم معناها ماذكرنا كانه قال خلق السموات والارض ثم ههنا ماهو أعظم منه استوى على العرش فانه أعظم من الكرسي والكرسي وسع السموات والارض (والوجه الثالث) قيل ان المراد الاستقرار وهذا القول ظاهر ولايفيد انه في مكان وذلك لان العرب تقول استقر رأي فلان على الخروج ولاشك أحدا انه لايريد ان الرأي في مكان وهو الخروج لما أن الرأي لايجوز فيه أن يقال انه متمكن أو هو لايدخل في مكان اذا علم هذا فنقول فهم التمكن عند استعمال كلمة الاستقرار مشروط بجواز التمكن حتى اذا قال قائل لم نفهم زيد على الفلك أو على النخت يفهم

ماهو أبلغ واشنع منه وهو كفرهم بالوصول الى العاقبة ومايلقونه فيها من الاحوال والاهوال جميعا (قل) بيانا للحق ورد اعلى زعمهم الباطل (يتوفاكم ملك الموت) لاكما تزعمون أن الموت من الاحوال الطبيعية العارضة للحيوان بموجب الجبلة أي يقبض أرواحكم بحيث لايدع فيكم شيئا أولا يترك منكم أحدا على أشد مايكون من الوجوه وأفظعها من ضرب وجوهكم وأدباركم (الذي وكل بكم) أي بقبض أرواحكم وحصاء آجالكم (ثم الى ربكم ترجعون) بالبعث للحساب والجزاء (ولو ترى اذ المجرمون) الخ الظالمون أنفسهم في الاية أو جنس المجرمين وهم من جملتهم (ناكسو رؤسهم عند ربهم) من الحياء والخزي عند ظهور فضائحهم التي اقترفوها في الدنيا (ربنا) الخ يقولون ربنا (أبصرنا وسمعنا) أي صرنا ممن يبصر ويسمع وحصل لنا الاستعداد لادراك الآيات المبصرة والآيات المسموعة

لنا من قبل عميا وصما ندرك شيئا ✻ ٩٥ ✻ س (فارجعنا) الى الدنيا (نعمل) عملا (صالحا) حسبما تقتضيه تلك الآيات وقوله تعالى (انا موقنون) ادعاء منهم لصحة الافئدة والاقتدار على فهم معاني الآيات والعمل بموجبها لذا ماعلله ادعاء لصحة مشعري البصر والسمع كأنهم قالوا وأينا وكنا من قبل لانعقل شيئا أصلا وانما

قيل القائل أبي بن خلف ورضاهم بقوله أسند القول الى الكل والعامل في اذا مايدل عليه قوله تعالى (أئنا في خلق جديد) وهو نبعث أو يجدد خلقنا والهمزة لتذكير الانكار السابق وتأكيده ومرئ انا على الخبر وأيا ما كان فالمعنى على تأكيد الانكار لا انكار التأكيد كما مر والتغاير من تقدير الهمزة على ان فاعلها مؤخرة عنها في الاعتبار وانما تقدمها عليها لاقتضائها الصدارة (بل هم ✻ ٧٥٤ ✻ بلقاء ربهم كافرون) اضراب وانتقال من بيان كفرهم بالبعث الى بيان

عدلوا فى الجملة الاسمية المؤكدة اظهارا لثباتهم على الايقان وكمال رغبتهم فيه وكل ذلك للجد فى الاستدعاء طمعا فى الاجابة الى ماسألوه من الرجعة وأبى بهم ذلك ، ويجوز ان يقدر اكل من الفعلين مفعول مناسب له مما يبصرونه ويسمعونه فانهم حينئذ يشاهدون الكفر والعاصى على صور منكرة هائلة يخبرهم الملائكة بأن مصيرهم الى النار لامحالة فالمعنى ابصرنا قبح أعمالنا وكنا نراها فى الدنيا حسنة وسمعنا ان مردنا الى النار ﴿ ٧٥٤ ﴾ وهو الانسب لما بعده من الوعد بالعمل الصالح هذا وقد قيل المعنى وسمعنا منك تصديق رسلك وأنت خبير بأن تصديقه تعالى لهم حينئذ يكون باظهار مدلول ما أخبروا به من الوعد والوعيد لا بالاخبار بانهم صادقون حتى يسمعوه قبل وسمعناهم الرسل أى سمعناه سمع طاعة وانقياد ولا يقدر لترى مفعول اذ المعنى اولو كون منك رؤية فى ذلك الوقت أو يقدر ما ينبئ عنه صلة اذ والمضى فيها وفى لو باعتبار أن الثابت فى علم الله تعالى بمنزلة الواقع وجواب لو محذوف أى لرأيت أمرا فظيعا لا يقادر قدره والخطاب لكل أحد ممن يصلح له كائنا من كان اذ المراد بيان كمال سوء حالهم وبلوغهم من الفظاعة الى حيث لا يختص استغرابها واستفظاعها براء دون راء ممن اعتاد مشاهدة الامور البديعة والدواهى الفظيعة بل كل من يتأتى منه الرؤية يتعجب من هولها وفظاعتها هذا ومن عمل عموم الخطاب بالقصد الى بيان أن حالهم قد بلغت من الظهور الى حيث يمتنع خفاؤها البتة فلا تختص رؤية براء دون راء بل كل من يتأتى منه الرؤية فله مدخل ﴿ السموات ﴾ فى هذا الخطاب فقد رأى عن تحقيق الحق ذهن المقصود بيان كمال فظاعة حالهم كما يفصح عنه الجواب المحذوف لا بيان ظهورها فانه مسوق مساق المسلمات فتدبر (ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها) مقدر يقول معطوف على ما قبل قوله تعالى ربنا

منه التمكن وهيهات كونه فى مكان واذا قال قائل استقر الملك على فلان لا يفهم أن الملك فى فلان فقول القائل الله استقر على العرش لا ينبغى أن يفهم كونه فى مكان مالم يعلم انه مما يجوز عليه أن يكون فى مكان أو لا يجوز فاذن وفهم كونه فى مكان من هذه اللفظة مشروط بجواز أن يكون فى مكان فجواز كونه فى مكان ان استفيد من هذه اللفظة يلزم تقدم الشئ على نفسه وهو محال ثم الذى يدل على انه لا يجوز أن يكون على العرش بمعنى كونه العرش بكماله وجوه من العرآن (أحدها) قوله تعالى والله الغنى وهذا يقضى أن يكون غنيا على الاطلاق وكل ما هو فى مكان فهو فى بقائه محتاج الى مكان لان بديهة العقل حاكمة بان الحيز ان لم يكن لا يكون المحيز باقيا فالمتحيز فى عند انتفاء الحيز وكل ما يفنى عند انتفاء غيره فهو محتاج اليه فى استمرار فالمقول باستمراره يوجب احتياجه فى استمراره وهو غنى بالنص (الثانى) قوله تعالى كل شئ هالك الا وجهه فالعرش يهلك وكذلك كل مكان فلا يبقى وهو يبقى فاذن لا يكون فى ذلك الوقت فى مكان فيجب عليه أن لا يكون فى مكان وما جاز له من الصفات وجب له فيجب أن لا يكون فى مكان (الثالث) قوله تعالى وهو معكم ووجه التمسك به هو ان على اذا استعمل فى المكان يفهم كونه عليه بالذات كقولنا فلان على السطح وكلما اذا استعملت فى متمكن يفهم منها افتقارهم بالذات كقولنا زيد مع عمرو واذا استعمل هذا فاما كان الله فى مكان وهو متمكن فقوله ان الله معنا وقوله وهو معكم كل ينبغى أن يكون للاختراع وليس كذلك فان قيل كلمة مع تستعمل لكون له الله وعلمه معه أنصرته يقال الملك الفلانى مع الفلك الفلانى أى باعانة وانصر فضول كلمة معنى تستعمل لكون حكمه على الغير يقول القائل لولا فلان على فلان لاشرف فى الهلاك وأشرف على الهلاك وكذلك يقال لولا فلان على املاك فلان أو على أرضه لما حصر له شئ منها ولا أكل حاصلها بمعنى الاشراف والنظر وكف لا نقول فى استوى على العرش انه استوى عليه بحكمه كما نقول هو معنا بعلمه (الرابع) قوله تعالى لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار ولو كان فى مكان لاحاط به المكان وحينئذ فاما أن يرى واما أن لا يرى لا سبيل الى الثانى بالاتفاق لان القول بأنه فى مكان ولا يرى باطل بالاجماع وان كان يرى فيرى فى مكان أحاط به فتدركه الابصار وأما اذا لم يكن فى مكان فسواء يرى أو لا يرى يلزم أن تدركه الابصار اما اذا لم ير فظاهر وأما اذا رؤى فلان البصر لا يحيط به فلا يدركه وانما قلنا ان البصر لا يحيط به لان كل ما أحاط به البصر فله مكان يكون فيه وقد فرضنا عدم المكان وتدبر الانسان القرآن لوجده مملوا من عدم جواز كونه فى مكان كيف وهذا الذى يتمسك به هذا القائل يدل على انه ليس على العرش بمعنى كونه فى المكان وذلك لان كلمة ثم للتراخى فلو كان عليه بمعنى المكان لكان قد حصل عليه بعد ما لم يكن حاله قبله اما أن يكون فى مكان أولا يكون فان كان يلزم محالان (أحدهما) كون المكان أزليا ثم ان هذا القائل يدعى مضادة الفلسفى وهو فلسفيا يقول بقدم سماء من

بصرنا الخ اى ونقول لو شئنا أى لو تعلقت مشيئتنا تعلقا فعليا بان نعطى كل نفس من النفوس البرة والفاجرة ما تهتدى به الى الايمان والعمل الصالح لاعطيناها اياه فى الدنيا التى هى دار الكسب وما أخرناه الى دار الجزاء (ولكن حق القول منى) أى سبق كلمتى حيث قلت * لاملأن جهنم منهم أجمعين * (منى) متعلق بحق (لاملأن جهنم) من الجنة والناس أجمعين) كما يلوح * تقديم الجنة على الناس فيوجب ذلك القول لم نشأ اعطاء الهدى على العموم بل منعناه من اتباع ابليس الذين أنتم من جملتهم حيث صرفتم اختياركم الى الغى باغوائه ومشيئة الافعال العباد منوطة باختيارهم اياها فلما لم تختاروا الهدى واخترتم الضلالة لم نشأ اعطاءه لكم وانما اعطيناه الذين اختاروه من النفوس البرة وهم المعنيون بما سيأتى من قوله تعالى انما يؤمن بآياتنا الآية فيكون مناط عدم مشيئة اعطاء الهدى فى الحقيقة سوء اختيارهم لا تحقق القول وانما قيدنا المشيئة بما مر من التعلق الفعلى بافعال العباد عند حدوثها لان المشيئة الازلية من حيث تعلقها بما سيكون من أفعالهم اجمالا متقدمة على تحقق كلمة العذاب فلا يكون عدمها منوطا بتحققها وانما مناطه علمه تعالى ازلا بصرف اختيارهم فيما سيأتى الى الغى وايثارهم له على الهدى فلو اريدت هى من تلك الحيثية لاستدرك بعدمها ونيط ذلك بما ذكر من المناط على منهاج قوله تعالى ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم فمن توهم أن المعنى ولو شئنا لاعطينا كل نفس ما عندنا من الالطاف الذى لو كان منهم اختياره لاهتدوا ولكن لم نعطهم لما علمنا منهم اختيار الكفر وايثاره فقد اشتبه عليه الشؤن وافاء فى قوله تعالى (فذوقوا) لترتيب الامر بالذوق على ما يعرب عنه ما قبله من نفى الرجع الى الدنيا وعلى التوبيخ المحكى والباء فى قوله

السموات (والثانى) جواز الحركة والانتقال على الله تعالى وهو يفضى الى حدوث البارى أو يبطل دلائل حدوث الاجسام وان لم يكن مكان وما حصل فى مكان يحيل العقل وجوده بلا مكان ولو جاز لما أمكن أن يقال بأن الجسم لو كان أزليا لما أمكن أن يكون فى الازل ساكنا أو متحركا لانهما فرعا الحصول فى مكان واذا كان كذلك فيلزمه القول بحدوث الله أو عدم القول بحدوث العالم لانه ان سلم انه قبل المكان لا يكون فهو القول بحدوث الله تعالى وان لم يسلم فيجوز أن يكون الجسم فى الازل لم يكن فى مكان ثم حصل فى مكان فلا يتم دليله فى حدوث العالم فيلزمه أن لا يقول بحدوثه ثم ان هذا القائل يقول انك تشبه الله بالمعدوم فانه ليس فى مكان ولا يعلم انه جعله معدوما حيث أوجه الى مكان وكل محتاج نظرا الى عدم ما احتاج اليه معدوم ولو كتبنا ما فيها لطال الكلام * ثم قال تعالى (مالكم من دونه من ولى ولا شفيع أفلا تتذكرون) لما ذكر أن الله خالق السموات والارض قال بعضهم نحن معترفون بأن خالق السموات والارض واحد هو اله السموات وهذه الاصنام صور الكواكب منها نصرتنا وقوتنا وقال آخرون هذه صور الملائكة عند الله هم شفعاؤنا فقال الله تعالى لا اله غير الله ولا نصيرة من غير الله ولا شفاعة الا باذن الله فعبادتكم لهذه الاصنام باطلة ضائعة لا هم خالقوكم ولا ناصروكم ولا شفعاؤكم ثم قال تعالى أفلا تتذكرون ما علموه من انه خالق السموات والارض وخالق هذه الاجسام العظام لا يقدر عليه مثل هذه الاصنام حتى تنصركم والملك العظيم لا يكون عنده لهذه الاشياء الحقيرة احترام وعظمة حتى تكون لها شفاعة * ثم قال تعالى (يدبر الامر من السماء الى الارض) لما بين الله تعالى الخلق بين الامر قال تعالى ألا له الخلق والامر والعظمة تتبين بهما فان من يملك ممالك كثيرين عظماء تكون له عظمة ثم اذا كان أمره نافذا فيهم يزداد فى أعين الخلق وان لم يكن له نفاذ أمر ينقص من عظمته وقوله تعالى (ثم يعرج اليه) معناه والله أعلم ان أمره ينزل من السماء على عباده وتعرج اليه اعمالهم الصالحة الصادرة على موافقة ذلك الامر فان العمل اثر الامر * وقوله تعالى (فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون) فيه وجوه (أحدها) ان نزول الامر وعروج العمل فى مسافة ألف سنة مما تعدون وهو فى يوم فان بين السماء والارض مسيرة خمسمائة سنة فينزل فى مسيرة خمسمائة سنة ويعرج فى مسيرة خمسمائة سنة فهو مقدار ألف سنة (ثانيها) هو ان ذلك اشارة الى امتداد نفاذ الامر وذلك لان من نفذ أمره غاية النفاذ فى يوم أو يومين وانقطع لا يكون مثل من ينفذ أمره فى سنين متطاولة فقوله تعالى فى يوم كان مقداره ألف سنة يعنى يدبر الامر فى زمان يوم منه ألف سنة فكم يكون شهر منه وكم تكون سنة منه كم يكون دهر منه وعلى هذا الوجه لا فرق بين هذا وبين قوله مقداره خمسين ألف سنة لان تلك اذا كانت اشارة الى دوام نفاذ الامر فسواء يعبر بالالف أو بالخمسين ألفا لا يتفاوت الا ان المبالغة تكون فى الخمسين أكثر وبين فائدتها فى موضعها ان شاء الله

تعالى (بما نسيتم لقاء يومكم هذا) للايذان بان تعذيبهم ليس لمجرد سبق الوعيد به فقط بل هو وسبق الوعيد أيضا بسبب موجب له من قبلهم كأنه قيل لا يرحم لكم الى الدنيا أو حتى وعيدى فذوقوا بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم الهائل وتركتكم التفكر فيه والاستعداد له ما لكم (نسيناكم) أى تركناكم فى العذاب ترك المنسى بالكلية * وقوله تعالى (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) تكرير تأكيد وتشديد وتعيين للمفعول المطوى للذوق. الاشعار ﴿٧٥٦﴾ بأن سببه ليس مجرد ما ذكر من النسيان بل له أسباب أخر من فنون الكفر والمعاصى التى كانوا مستمرين عليها فى الدنيا وعدم نظم الكل فى سلك واحد للتنبيه على استقلال كل منها فى استيجاب العذاب وفى ابهام المذوق أولا وبيانه ثانيا تكرير الامر بتوسيط الاستئناف المنبئ عن كمال السخط بينهما من الدلالة على غاية التشديد فى الانتقام منهم مالا يخفى وقوله تعالى (انما يؤمن بآياتنا) استئناف مسوق لتقرير عدم استحقاقهم لايتاء الهدى والاشعار بعدم ايمانهم لو أوتوه بتعيين من يستحقه بطريق القصر كأنه قيل انكم لا تؤمنون بآياتنا ولا تعملون بموجبها عملا صالحا لو وعظتم بها كما تدعون حسبما ينطق به قوله تعالى ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وانما يؤمن بها (الذين اذا ذكروا بها) أى وعظوا (خروا سجدا) أى خروا سجدا (وسبحوا بحمد ربهم) أى ونزهوه عند ذلك عن كل ما لا يليق به من الامور التى من جملتها العجز عن البعث ملتبسين بحمده تعالى على نعمائه التى أجلها الهداية بآياته الآيات ﴿صحيح﴾ والتوفيق للاهتداء بها والتعرض لعنوان الربوبية بطريق الالتفات مع الاضافة الى ضميرهم للاشعار بعلة التسبيح والتحميد وبانهم يفعلونهما بملاحظة تربيته تعالى اياهم (وهم لا يستكبرون) أى والحال أنهم خاضعون له تعالى

تعالى (وفى هذه لطيفة) هو ان الله ذكر فى الآية المتقدمة عالم الاجسام والخلق وأشار الى عظمة الملك وذكر فى هذه الآية عالم الارواح والامر بقوله يدبر الامر والروح من عالم الامر كما قال تعالى ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وأشار الى دوامه بلفظ يوم لزمان والمراد دوام البناء كما يقال فى العرف طال زمان فلان والزمان لا يطول وانما الواقع فى الزمان يمتد فيوجد فى أزمنة كثيرة فيطول ذلك فيأخذ أزمنة كثيرة فأشار هناك الى عظمة الملك بالمكان وأشار الى دوامه ههنا بالزمان فالمكان من خلقه وملكه والزمان بحكمه وأمره (واعلم) ان ظاهر قوله يدبر الامر فى يوم يقتضى أن يكون أمره فى يوم واليوم له ابتداء وانتهاء فيكون أمره فى زمان حادث فيكون حادثا وبعض من يقول بأن الله على العرش استوى يقول بأن أمره قديم حتى الحروف وكلما كان فكيف فهم من كلمة على كونه فى مكان ولم يفهم من كلمة فى كون أمره فى زمان ثم بين ان هذا الملك العظيم النافذ الامر غير غافل فان الملك اذا كان آمرا ناهيا يطاع فى أمره ونهيه ولكن يكون غافلا لا يكون مهيبا عظيما كما يكون مع ذلك خبيرا يفطن لا يخفى عليه أمور المماليك فى المملكة فقال (ذلك عالم الغيب والشهادة) ولما ذكر من قبل عالم الاشباح بقوله خلق السموات وعالم الارواح بقوله يدبر الامر من السماء الى الارض قال عالم الغيب يعلم ما فى الارواح والشهادة يعلم ما فى الاجسام أو نقول قال عالم الغيب اشارة الى عالم لم يكن بعد والشهادة اشارة الى ما وجد وكان وقدم العلم بالغيب لانه أقوى وأشد انباء عن كمال العلم * ثم قال تعالى (العزيز الرحيم) لما بين انه عالم ذكر انه عزيز قادر على الانتقام من الكفرة رحيم واسع الرحمة على البررة * ثم قال تعالى (الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين) لما بين الدليل الدال على الوحدانية من الآفاق بقوله خلق السموات والارض وما بينهما وأتمه بتوابعه ومكملاته ذكر الدليل الدال عليهما من الانفس بقوله الذى أحسن كل شئ يعنى أحسن كل شئ مما ذكره وبين ان الذى بين السموات والارض خلقه وهو كذلك لانك اذا نظرت الاشياء أيها على ما ينبغى سلامة الارض للنبات والنبات وسلامة الهواء للاستنشاق وقبول الانشقاق لسهولة الاختراق وسيلان الماء لاستمراره فى كل موضع وحركة النار الى فوق لانها لو كانت مثل الماء تتحرك يمنة ويسرة لاحترق الدار فحركت طالبة لجهة فوق حيث لا شئ هناك يقبل الاحتراق وقوله وبدأ خلق الانسان من طين قيل المراد آدم عليه السلام فانه خلق من طين ويمكن أن يقال بأن الطين ماء وتراب مجتمعان والآدمى أصله منى والمنى أصله غذاء والاغذية اما حيوانية واما نباتية والحيوانية بالآخرة ترجع الى النباتية والنبات وجوده بالماء والتراب الذى هو طين * وقوله تعالى (ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) على التفسير الاول ظاهر لان آدم كان من طين ونسله من سلالة من ماء مهين هو النطفة وعلى التفسير الثانى هو ان أصله من الطين ثم يوجد من ذلك الاصل سلالة هى من ماء مهين فان قال ناقش التفسير الثانى غير

لايستكبرون عما فعلوا من الخروج والتسبيح والتحميد (تتجافى جنوبهم) أى تنبو وتتنحى (عن المضاجع) أى الفرش ومواضع المنام والجملة مستأنفة لبيان بقية محاسنهم وهم المتهجدون بالليل قال أنس رضى الله عنه نزلت فينا معاشر الانصار كنا نصلى المغرب فلا نرجع الى رحالنا حتى نصلى العشاء مع النبى عليه الصلاة والسلام وعن أنس أيضا رضى الله عنه انه قال نزلت فى أناس من أصحاب النبى عليه الصلاة ﴿ ٧٥٧ ﴾ والسلام كانوا يصلون من صلاة المغرب الى صلاة العشاء وهى صلاة الاوابين

وهو قول أبى حازم ومحمد بن المكندر وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما وقال علماؤهم الذين لاينامون حتى يصلوا العشاء الآخرة والفجر فى جماعة والمشهور أن المراد منه صلاة الليل وهو قول الحسن ومجاهد ومالك والاوزاعى وجماعة لقوله عليه الصلاة والسلام أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل وعن النبى عليه الصلاة والسلام فى تفسيرها قيام العبد من الليل وعنه عليه الصلاة والسلام اذا جمع الله الاولين والآخرين جاء منادى يصوت يسمع الخلائق كلهم سيعلم أهل الجمع اليوم من أولى بالكرم ثم يرجع فينادى ليقم الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل ثم يرجع فينادى ليقم الذين كانوا يحمدون الله فى السراء والضراء فيقومون وهم قليل فيسرحون جميعا الى الجنة ثم يحاسب سائر الناس وقوله تعالى (يدعون ربهم) حال

صحيح لان قوله بدأ خلق الانسان ثم جعل نسله دليل على أن جعل النسل بعد خلق الانسان من طين فنقول لابل التفسير الثانى أقرب الى الترتيب اللفظى فانه تعالى بدأ بذكر الامر من الابتداء فى خلق الانسان فقال بدأه من طين ثم جعله سلالة ثم سواه ونفخ فيه من روحه وعلى ماذكرتم يبعد أن يقال (ثم سواه ونفخ فيه من روحه) عائدا الى آدم أيضا لان كلمة ثم للتراخى فتكون التسوية بعد جعل النسل من سلالة وذلك بعد خلق آدم واعلم ان دلائل الآفاق أدل على كمال القدرة كما قال تعالى لخلق السموات والارض أكبر ودلائل الانفس أدل على نفاذ الارادة قال الغيرات فيها كثيرة واليه الاشارة بقوله ثم جعل نسله ثم سواه أى كان طينا فجعله منيا ثم جعله بشرا سويا وقوله تعالى ونفخ فيه من روحه اضافة الروح الى نفسه كاضافة البيت اليه للتشريف واعلم ان النصارى يفترون على الله الكذب و يقولون بان عيسى كان روح الله فهو ابن ولايعلمون ان كل أحد روحه روح الله بقوله ونفخ فيه من روحه أى الروح التى هى ملكه كما يقول القائل الدار دارى وعبدى ولم يقل أعضاء من جسمه لان التشريف بالروح وأضاف الروح دون الجسم على مايترتب على نفخ الروح من السمع والبصر والعلم فقال تعالى (وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ماتشكرون) وفيه مسائل (الاولى) قال وجعل لكم مخاطبا ولم يخاطب من قبل وذلك لان الخطاب يكون مع الحى فلما قال ونفخ فيه من روحه خاطبه من بعده وقال جعل لكم قال قيل الخصام واقع قبل ذلك كما فى قوله تعالى ومن آياته أن خلقكم من تراب فنقول هناك لم يذكر الامور المرتبة وانما أشار الى تمام الخلق وههنا ذكر الامور المرتبة وهى كون الانسان طينا ثم مهينا ثم خلقا سويا أنواع القوى فخاطب فى بعض المراتب دون البعض (المسئلة الثانية) الترتيب فى السمع والابصار والافئدة على مقتضى الحكمة وذلك لان الانسان يسمع أولا من الابوين أو الناس أمورا فيفهمها ثم يحصل له بسبب ذلك بصيرة فيبصر الامور ويجربها ثم يحصل له بسبب ذلك ادراك تام وذهن كامل فيستخرج الاشياء من قلبه ومثاله شخص يسمع من استاذ شيئا ثم يبصره أهلة بخطه الكتب وبصر ما فيها ثم يصير له أصبع الصنائع فيكتب من قلبه كتابا وكذلك الانسان يسمع ثم يعلم صحائف الموجودات ثم يعلم الامور الخفية (المسئلة الثالثة) ذكر فى السمع المصدر وفى البصر والفؤاد الاسم ولهذا جمع الابصار والافئدة ولم يجمع السمع لان المصدر لايجمع وذلك لحكمة وهو أن السمع قوة واحدة وبها فعل واحد فان الانسان لايضبط فى زمان واحد كلامين والاذن محله ولااختيار لها فيه فان الصوت من أى جانب كان يصل اليه ولاقدرة لها على تخصيص القوة بادراك البعض دون البعض واما الابصار فمحله العين ولها فيه شبه اختيار فانها تتحرك الى جانب مرئى دون آخر وكذلك الفؤاد محل الادراك وله نوع اختيار يلتفت الى مايريد دون غيره واذا كان

ضمير جنوبهم أى داعين له تعالى على الاستمرار (خوفا) من سخطه وعذابه وعدم قبول عبادته (وطمعا) فى رحمته (ومما رزقناهم) من المال (ينفقون) فى وجوه البر والحسنات (فلاتعلم نفس) من النفوس لاملك مقرب ولانبى مرسل فضلا عداهم (ماأخفى لهم) أى لأولئك الذين عددت نعوتهم الجليلة (من قرة أعين) مما تقر به أعينهم

وعنه عليه الصلاة والسلام يقول الله عز وجل أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر بله ما اطلعتم عليه اقرؤا ان شئتم فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين وقرئ ما أخفي لهم وما نخفي لهم وما أخفيت لهم على صيغة المتكلم وما أخفي لهم على البناء للفاعل وهو الله سبحانه وقرئ قرات أعين لاختلاف أنواعها والعلم بعد المعرفة وما موصولة أو استفهامية علق عنها الفعل (جزاء بما كانوا يعملون) أي جزوا ﴿ ٧٥٨ ﴾ جزاء أو أخفي لهم للجزاء بما كانوا يعملونه في الدنيا من الاعمال الصالحة قيل هؤلاء القوم أخفوا أعمالهم فأخفى الله تعالى ثوابهم (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا) أي ابعد ظهور ما بينهما من التباين البين يتوهم كون المؤمن الذي حكيت اوصافه الفاضلة كالفاسق الذي ذكرت احواله (لا يستوون) التصريح به مع افادة الانكار التفي المشابهة بالمرة على ابلغ وجه وآكده لبناء التفصيل الآتي عليه والجمع باعتبار معنى من كما ان الافراد فيما سبق باعتبار لفظها وقوله تعالى (ما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى) تفصيل لمراتب الفريقين في الآخرة بعد ذكر أحوالهما في الدنيا وأضيفت الجنة الى المأوى لانها المأوى الحقيقي وانما الدنيا منزل مرتحل عنه لامحالة وقيل المأوى جنة من الجنات وأياما كان فلا يبعد أن يكون فيه رمز الى ما ذكر من تجافيهم عن مضاجعهم التي هي مأواهم في الدنيا (نزلا) اي ثوابا وهو في الاصل ما يعد للنازل من الطعام والشراب وانتصابه على الحالية (بما كانوا يعملون) في الدنيا من الاعمال الصالحة او بأعمالهم (وأما الذين فسقوا) اي خرجوا عن الطاعة (فمأواهم) اي ملجؤهم ومنزلهم (النار) مكان جنات المأوى للمؤمنين (كلما ارادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها) استئناف لبيان كيفية كون النار مأواهم يروى

كذلك فلم يكن للمحل في السمع تأثير والقوة مستبدة فذكر القوة في الاذن وفي العين والفؤاد للمحل نوع اختيار فذكر المحل لان الفعل يسند الى المختار ألا ترى انك تقول سمع زيد ورأى عمرو ولا تقول سمع أذن زيد ولا رأى عين عمرو الا نادرا لما بينا ان المختار هو الاصل وغير الة فالسمع أصل دون محله لعدم الاختيار له والعين كالاصل وقوة الابصار آلتها والفؤاد كذلك وقوتاهما آلتهم فذكر في السمع المصدر الذي هو القوة وفي الابصار والافئدة الاسم الذي هو محل القوة ولان السمع له قوة واحدة ولهذا لا يسمع الانسان في زمان واحد كلامين على وجه يضبطهما ويدركهما في زمان واحد صورتين أو أكثر ويستبينهما (المسئلة الرابعة) لم قدم السمع ههنا والقلب في قوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم فنقول ذلك يحقق ما ذكرنا وذلك لان عند الاعضاء ذكر الادنى وأرقى الى الاعلى فقال أعطاكم السمع ثم أعطاكم ما هو أشرف منه وهو القلب وعند السلب قال ليس لهم قلب يدركون به ولا ما هو دونه وهو السمع الذي يسمعون به ثم له قلب يفهم الحقائق ويستخرجها وقد ذكرنا هناك ما هو السبب في تأخير الابصار مع أنها في الوسط فيما ذكرنا من الترتيب وهو أن القلب والسمع سلب قوتهما بالطبع فجمع بينهما وسلب قوة البصر بجعل الغشاوة عليه فذكرهما متأخرة * ثم قال تعالى (وقالوا أئذا ضللنا في الارض) اتانا قليلا ما تشكرون وبين عدم شكرهم باتيانهم بضده وهو الكفر وانكار قدرته على احياء الموتى وقد ذكرنا ان الله تعالى في كلامه القديم كلما ذكر أصلين من الاصول الثلاثة لم يترك الاصل الثالث وههنا كذلك لما ذكر الرسالة بقوله تنزيل الكتاب الى قوله لتنذر قوما ما اتاهم من نذير قبلك وذكر الوحدانية بقوله الله الذي خلق الى قوله وجعل لكم السمع والابصار ذكر الاصل الثالث وهو الحشر بقوله تعالى وقالوا أئذا ضللنا في الارض وفيه مسائل (المسئلة الاولى) الواو للعطف على ما سبق منهم فانهم قالوا محمد ليس برسول والله ليس بواحد وقالوا والحشر ليس بممكن (المسئلة الثانية) ان الله تعالى قال في تكذيبهم الرسول في الرسالة أم يقولون بلفظ المستقبل وقال في تكذيبهم اياه في الحشر قالوا بلفظ الماضي وذلك لان تكذيبهم اياه في رسالته لم يكن قبل وجوده وانما كان ذلك حالة الوجود فقال يقولون يعني هم فيه وأما انكارهم للحشر كان سابقا صادرا منهم ومن آبائهم فقال وقالوا (المسئلة الثالثة) انه تعالى صرح بذكر قولهم في الرسالة حيث قال أم يقولون وفي الحشر حيث قال وقالوا أئذا ولم يصرح بذكر قولهم في الوحدانية وذلك لانهم كانوا مصرين في جميع الاحوال على انكار الحشر والرسول واما الوحدانية فكانوا يعترفون بها في المعنى ألا ترى ان الله تعالى قال ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله فلم يقل قالوا ان الله ليس بواحد وان كانوا قالوه في الظاهر (المسئلة الرابعة) لو قال قائل لما ذكر الرسالة ذكر من قبل دليلها وهو التنزيل الذي لا ريب فيه ولما ذكر الوحدانية ذكر دليلها وهو خلق السموات والارض وخلق الانسان

انه يضرب بهم لهب النار فيرتفعون الى طبقاتها حتى اذا قربوا من بابها وأرادوا ان يخرجوا منها يضربهم اللهب فيهوون الى قعرها وهكذا يفعل بهم أبد ركله فى للدلالة على انهم مستقرون فيها وانما الاعادة من بعض طبقاتها الى بعض (وميل اسم) تشديدا عليهم وزيادة فى عيطهم (ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به) اى بعذاب النار (تكذبون) على الاستمرار فى الدنيا (ولنذيقنهم من العذاب الادنى) أى عذاب ٭ ٧٥٩ ٭ الدنيا وهو ما اصابهم به من السنة سبع سنين والقتل والاسر

من طين ولما ذكر انكارهم الحشر لم يذكر الدليل نقول فى الجواب ذكر دليله أيضا وذلك لان خلق الانسان ابتداء دليل على قدرته على اعادته ولهذا استدل الله على امكان الحشر بالخلق الاول كما قال ثم يعيده وهو أهون عليه وقوله قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وكذلك خلق السموات كما قال تعالى أوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى ٭ وقوله تعالى (أئنا لفى خلق جديد) أى أئنا كائنون فى خلق جديد أو واقعون فيه (بل هم بلقاء ربهم كافرون) اضراب عن الاول يعنى ليس انكارهم لمجرد الخلق ثانيا بل يكفرون بجميع أحوال الآخرة حتى لو صدقوا بالخلق الثانى لما اعترفوا بالعذاب والثواب أو نقول معناه لم ينكروا البعث نفسه بل لكفرهم وانهم أنكروه وانكروا المفضى اليه ثم بين ما يكون لهم من الموت الى العذاب ٭ فقال تعالى (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم) يعنى لابد من الموت ثم من الحياة بعده واليه الاشارة بقوله (ثم الى ربكم ترجعون) وقوله الذى وكل بكم اشارة الى انه لا يغفل عنكم واذا جاء أجلكم لا يؤخركم اذ لا شغل له الا هذا وقوله يتوفاكم ملك الموت ينبئ عن بقاء الارواح فان التوفى الاستيفاء والقبض هو الاخذ والاعدام المحض ليس بأخذ ثم ان الروح الزكى الطاهر يبقى عند الملائكة مثل الشخص بين أهله المناسبين له والخبيث الفاجر يبقى عندهم كأسير بين قوم لا يعرفهم ولا يعرف اسمائهم والاول ينمو ويزيد ويزداد سفوفه وقوته والآخر يذبل ويضعف ويزداد شقاؤه وكدورته والحكماء يقولون ان الارواح الطاهرة تتعلق بجسم سماوى خير من بدنها وتكمل به والارواح الفاجرة لا كمال لها بعد التعلق الثانى فان أردوا ما ذكرنا فقد وافقونا والا فيتغير النظر فى ذلك بحسب ارادتهم فقد يكون قولهم حقا وقد يكون غير حق فان قيل هم أنكروا الاحياء والله ذكر الموت وبينهما مباينة نقول فيه وجهان (أحدهما) ان ذلك دليل الاحياء ودفع استبعاد ذلك فانهم لما رأوا ما عدم بالكلية كيف يكون الموجود عين ذلك فقال الملك يقبض الروح والاجزاء تتفرق فجمع الاجزاء لا بعد فيه وأمر الملك رد ما قبضه لا صعوبة فيه أيضا فقد له يتوفاكم ملك الموت أى الارواح معلومة فترد الى أجسادها ٭ ثم قال تعالى (ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحا انا موقنون) لما ذكر أنهم يرجعون الى ربهم بين ما يكون عند الرجوع على سبيل الاجمال بقوله ولو ترى اذ المجرمون ناكسو رؤسهم يعنى ولو ترى حالهم وتشاهد سخنانهم لترى عجبا وقوله ترى يحتمل أن يكون خطابا مع الرسول صلى الله عليه وسلم تشفيا لصدره فانهم كانوا يؤذونه بالتكذيب ويحتمل أن يكون عاما مع كل أحد كما يقول القائل ان فلانا كريم ان خدمته ولو لحظة يحسن اليك طول عمرك ولا يريد به خاصا وقوله عند ربهم لبيان شدة الجهالة لان الرب اذا أساء اليه المربوب ثم وقف بين يديه يكون فى غاية الجهالة ٭ ثم قال تعالى ربنا أبصرنا وسمعنا يعنى يقولون أوقاتين ربنا أبصرنا وحذف يقولون

(دون العذاب الاكبر) لذى هو عذاب الآخرة (لعلهم) لعل الذين يشاهدونه وهم فى الحياة (يرجعون) يتوبون عن الكفر روى ان الوليد بن عقبة فاخر عليا رضى الله عنه يوم بدر فنزلت هذه الآيات (ومن اظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم اعرض عنها) بيان اجمالى لحال من قابل آيات الله تعالى بالاعراض بعد بيان حال من قابلها بالسجود والتسبيح والتحميد كلما ثم لاستبعاد الاعراض عنها عقلا مع غاية وضوحها وارشادها الى سعادة الدارين كما فى بيت الحماسة ٭ ولا يكشف الغماء الا ابن حرة ٭ يرى غمرات الموت ثم يزورها ٭ أى هو اظلم من كل ظالم وان كان سبك التركيب على نفى الاظلم من غير تعرض لنفى المساوى وقد مر مرارا (انا من المجرمين) اى من كل من اتصف بالاجرام وان هانت جريمته (منتقمون) فكيف ممن هو أظلم من كل ظالم واشد جرما من كل مجرم (ولقد آتينا موسى الكتاب)

والتوراة عبر عنها باسم الجنس لتحقق المجانسة بينها وبين الفرقان والتنبيه على ان اتيانه ورسول الله صلى الله عليه وسلم اتيانها لموسى عليه السلام (فلا تكن فى مرية من لقائه) من لقاء الكتاب الذى هو الفرقان كونه وانك تلقى القرآن والمعنى آتينا موسى مثل ما آتيناك من الكتاب ولقيناه من الوحى مثل ما لقيناك من الوحى فلا تكن فى شك من أنك لقيت

مثله ونظيره وقيل من لقاء موسى الكتاب أو من لقائك موسى وعنه عليه الصلاة والسلام رأيت ليلة أسرى بي موسى رجلا آدم طوالا جعدا كأنه من رجال شنوءة (وجعلناه) أي الكتاب الذي آتيناه موسى (هدى لبني اسرائيل) فلم يهتدوا بما في التوراة ولما سمعيل (وجعلنا منهم أئمة يهدون) بقتهم بما في تضاعيف الكتاب من الحكم والاحكام الى طريق الحق او يهدونهم الى ما فيه من دين الله وشرائعه (بأمرنا) ياهرنا بذلك او بتوفيقنا له ﴿١٦٠﴾ (لما صبروا) هي لما التي فيها معنى الجزاء نحو أحسنت اليك لما جئتني والضمير للائمة تقدير لما صبروا جعلناهم أئمة او هي ظرف بمعنى حين اي جعلناهم أئمة حين صبروا والمراد صبرهم على مشاق الطاعات ومقاساة الشدائد في نصرة الدين اوصبرهم عن الدنيا وقرئ لما صبروا اي لصبرهم (وكانوا بآياتنا) التي في تضاعيف الكتاب (يوقنون) لامعانهم فيها النظر والمعنى كذلك لنجعلن الكتاب الذي آتيناه كه هدى لامتك ولنجعلن منهم أئمة يهدون مثل تلك الهداية (ان ربك هو يفصل) اي يقضي (بينهم) قبل بين الانبياء وامهم وقيل بين المشركين (يوم القيامة) فيميز بين المحق والمبطل (فيما كانوا فيه يختلفون) من امر الدين (اولم يهد لهم) الهمزة للانكار والواو للعطف على منوي يقتضيه المقام وفعل الهداية امامر قبيل ولا يعطى في ان المراد ايقاع نفس الفعل بلا حاجة للمفعول واما بمعنى التبين والفعول محذوف والفاعل ما دل عليه قوله تعالى (كم اهلكنا) اي أغفلوا ولم يفعل ابهدايتهم اولم يتبين لهم ما آل امرهم مرة اهلاكنا ﴿ التاجر ﴾ (من قبلهم من القرن) مثل عاد وثمود وقوم لوط وقرئ نهد بهم بنون العظمة وقد جوز أن يكون الفاعل على القراءة الاولى ايضا ضميره تعالى فيكون قوله تعالى كم اهلكنا الخ استئنافا مبينا لكيفية هدايته تعالى

اشارة الى غاية خجالتهم لان الحبل العظيم الحجالة لا يكلم وقوله ربنا أبصرنا وسمعنا أي أبصرنا الحشر وسمعنا قول الرسول فارجعنا الى الدنيا نعمل صالحا وقولهم انا موقنون معناه انا في الحال امنا ولكن النافع الايمان والعمل الصالح ولكن العمل الصالح لا يكون الا عند التكليف وهو في الدنيا فارجعنا للعمل وهذا باطل منهم فان الايمان لا يقبل في الآخرة كالعمل الصالح أو نقول المراد منه انهم يذكرون الشرك كما قالوا وما كنا مشركين فقالوا ان هذا الذي جرى علينا ما جرى الا بسبب ترك العمل الصالح وأما الايمان فانا موقنون وما أشركنا ﴿ ثم قال تعالى (ولو شئنا لاتينا كل نفس هداها) جوابا عن قولهم ربنا ابصرنا وسمعنا فارجعنا وبيانه هو أنه تعالى قال اني لو أرجعتكم الى الايمان لهديتكم في الدنيا ولملأ جهنم منكم أجمعين وما شئت لاتيناكم فلا أرجعكم وقوله ولو شئنا لاتينا صريح في ان مذهبنا صحيح حيث نقول ان الله ما أراد ايمان من الكافر ما شاء منه الا الكفر ﴿ ثم قال تعالى (ولكن حق القول مني لاملأن جهنم) أي وقع القول وهو قوله تعالى لابليس لاملأن جهنم منك وممن تبعك هذا من حيث النقل وله وجه في العقل وهو ان الله تعالى لم يفعل فعلا خاليا عن حكمه وهذا متفق عليه والخلاف في انه هل وصف الفعل للحكمة أو فعل الفعل ولزمته الحكمة لا بحث تحمله تلك الحكمة على الفعل واذا علم أنه فعله لا يخلو عن الحكمة فقال الحكماء حكمة افعاله بأسرها تدرك على سبيل التفصيل لكن تدرك على سبيل الاجمال فكل ضرب يكون في العالم وفساد فحكمة تخرج من تقسيم عقلي وهو ان الفعل اما أن يكون خيرا محضا أو شرا محضا وخيرا مشوبا بشر وهذا اقسم على ثلاثة أقسام قسم خيره غالب وقسم شره غالب وقسم خيره وشره متلازمان اذا علم هذا فخلق الله عالما فيه الخير المحض وهو عالم الملائكة وهو عالم العلوي وخلق عالما فيه خير وشر وهو عالمنا وهو عالم السفلي ولم يخلق عالما فيه شر محض ثم ان العالم السفلي الذي هو عالمنا وان كان الخير والشر موجودين فيه لكنه من القسم الاول الذي خيره غالب فانك اذا قابلت المنافع بالمضار والنافع بالضار تجد المنافع أكثر واذا قابلت الشر بالخير تجد الخير أكثر وكيف لا والمؤمن يقابله الكافر ولكن المؤمن قد يمكن وجوده بحيث لا يكون فيه شر أصلا من أول عمره الى آخره كالانبياء عليهم السلام والاولياء والكافر لا يمكن وجوده بحيث لا يكون فيه خير أصلا غاية ما في الباب ان الكافر يحبط خيره ولا نفعه أما بستحيل شرا الى العاقبة أن يوجد كافر لا يسقي العطشان شربة ماء ولا يطعم الجائع لقمة خبز ولا يذكر ربه في عمره وكيف لا وهو في زمن صباه كان مخلوقا على الفطرة المقتضية للخير اذا ثبت هذا فنقول قالوا لو ذا الشر في هذا العالم لكانت مخلوقات الله تعالى منحصرة في الخير المحض ولا يكون قد خلق القسم الذي فيه الخير الغالب والشر القليل ثم ان ترك خلق هذا القسم لما كان لما فيه من الشر يترك الخير الكثير لاجل الشر القليل لا شك ان هذا يبطل الحكمة الا ترى أن

(يمشون في مساكنهم) اي يمرون في مياجرهم على ديارهم ولاد هم ويشاهدون آثارهلاكهم والجملة حال من ضميرلهم وقرئ يمشون التكثير (ان في ذلك) اي فيما ذكر من كثرة اهلاكنا للامم الخالية العاتية أو في مساكنهم (لآيات) عظيمة في أنفسها كثيرة في عددها (أفلا يسمعون) هذه الآيات سماع تدبر واتعاظ (أولم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجرز) اى التي جرزت نباتها اى قطع وأزيل بالمرة وقيل هو اسم موضع باليمن ﴿ ٧٦١ ﴾ (فنخرج به) من تلك الارض (زرعا تأكل منه) اى من ذلك الزرع (انعامهم) كالتبن والفصيل والورق وبعض الحبوب المخصوصة بها وقرئ يأكل بالياء (وأنفسهم) كالحبوب التي يقتاتها الانسان والثمار (أفلا يبصرون) اى الا ينظرون فلا يبصرون ذلك فيستدلوا به على كمال قدرته تعالى وفضله (ويقولون) كل المسلمين يقولون ان الله سيفتح لنا على المشركين أو يفصل بيننا وبينهم وكان أهل مكة اذا سمعوه يقولون بضرب من الاستعجال تكذيبا واستهزاء (متى هذا الفتح) اي النصر أو الفصل بالحكومة (ان كنتم صادقين) في أن الله تعالى ينصركم أو يفصل بيننا وبينكم (قل) تبكيتا لهم وتحقيقا للحق (يوم الفتح) الذي (لا ينفع الذين كفروا ايمانهم ولا هم ينظرون) يوم الفتح يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ويوم نصرهم عليهم وقيل هو يوم بدر وهو مجاهد والحسن يوم فتح مكة والعدول عن تطبيق الجواب على ظاهر سؤالهم للتنبيه على أنه ليس مما ينبغي أن تسأل عنه

التاجر اذا طلب منه درهم بدينار فلو امتنع وقال في هذا شر وهو زوال الدرهم عن ملكي فيقال له لكن في مقابلته خير كثير وهو حصول الدينار في ملكك وكذلك الانسان لو ترك الحركة لليسيرة لما فيها من المشقة مع علمه بأنه تحصل له راحة مستمرة ينسب الى مخالفة الحكمة فاذا نظر الى الحكمة كان وقوع الخير الكثير المشوب بالشر القليل من اللطف فخالق العالم الذي يقع فيه الشر وإلى هذا أشار بقوله اني جاعل في الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس ك قال الله تعالى في جوابهم اني أعلم ما لا تعلمون أي أعلم أن هذا القسم يناسب الحكمة لان الخير فيه كثير ثم بين لهم خيره بالتعليم كما قال تعالى وعلم آدم الأسماء كلها يعني أيها الملائكة خلق الشر المحض والشر الغالب والشر المساوي لا يناسب الحكمة وأما الخير الكثير المشوب بالشر القليل مناسب فقوله تعالى أتجعل فيها من يفسد فيها اشارة الى الشر وأجابهم الله بما فيه من الخير بقوله وعلم آدم الاسماء فان قيل فالله تعالى قادر على تخليص هذا القسم من الشر بحيث لا يوجد فيه شر فيقال له ما قاله الله تعالى ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها يعني وشئنا لخلصنا الخير من الشر لكن حينئذ لا يكون الله تعالى خلق الخير الكثير المشوب بالشر القليل وهو قسم معقول فحاكم يجوز تركه للشر القليل وهو لا يناسب الحكمة لان ترك الخير الكثير للشر القليل غير مناسب للحكمة وان كان لا كذلك فلا مانع من خلقه فيخلقه لما فيه من الخير الكثير وهذا الكلام يعبر عنه من يقول برعاية المصالح ان الخير في القضاء والشر في اقدار فالله قضى بالخير ووقع الشر في القدر بفعله المنزه عن القبح والجهل * وقوله لأملأن جهنم منك وممن تبعك وهذا اشارة الى أن النار لبني آدم في العالم السفلي والدين في العالم العلوي مبرؤن عن دخول النار وهم الملائكة وهذا يقتضي أن لا يكون ابليس من الملائكة وهو الصحيح * وقوله (أجمعين) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون تأييدا وهو الظاهر (الثاني) أن يكون حالا أي مجموعين فان قيل كيف جعل جميع الانس والجن مما يملأ بهم النار نقول هذا ابيان الجنس أي جهنم تملأ من الجن والانس لا غير أما الملائكة ولا يقتضي ذلك دخول الكل كما يقول القائل ملأت الكيس من الدراهم لا يلزم أن لا يبقى درهم خارج الكيس فان قيل فهذا يقتضي أن تكون جهنم ضيقة تملأ ببعض الخلق نقول هو كذلك وإما الواسع الجنة التي هي من الرحمة الواسعة والله أعلم ولما بين الله تعالى بقوله ولو شئنا لآتينا انهم لا رجوع لهم قال لهم اذ علمتم انكم لا رجوع لكم (فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا انا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) وفي تفسير الآية مسائل (المسألة الاولى) قوله فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا يحتمل أن يكون منصوبا بالذوقوا أي ذوقوا العذاب بسبب نسيانكم وعلى هذا يحتمل أن يكون المنسي هو الميثاق الذي أخذ منهم بقوله ألست بربكم قالوا بلى أو نسيانا في الفطرة من كونه أمرا بينا غنيا عن ﴿ ٩٦ ﴾ من الاخبار به وكذا ايمانهم واستظرارهم يوم نشدوا نا لمحتاج الى البيان عدم دفع ذلك الايمان وعدم الانظار كأنه قيل لا تستعجلوا فكأني بكم قد آمنتم فلم ينفعكم واستنظرتم فلم تنظروا وهذا على الوجه الاول ظاهر واما على الاخيرين فالموصول عبارة عن

المقتولين يومئذ لاعن كافة الكفرة كما فى الوجه الاول كيف لاوقد نفع الايمان الطلقاء يوم الفتح وناسا آمنوا يوم بدر (فاعرض عنهم) ولاتبال بتكذيبكم (وانتظر) النصرة عليهم وهلاكهم (انهم منتظرون) قبل اى الغلبة عليكم كقوله تعالى فتربصوا انا معكم متربصون والاظهر أن يقال انهم منتظرون هلاكهم كما فى قوله تعالى هل ينظرون الا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام الآية ويقرب منه ماقيل وانتظر عذابنا انهم منتظرون وقال استعجالهم ﴿ ١٦٢ ﴾ المذكور وعكوفهم على ماهم عليه من الكفر والمعاصى فى حكم انتظارهم العذاب المترتب عليه لامحالة وقرئ على صيغة المفعول على معنى أنهم أحقاء بأن ينتظر هلاكهم أوفان الملائكة ينتظرونه * عن النبى عليه الصلاة والسلام من قرأ الم تنزيل تبارك الذى بيده الملك أعطى من الاجر كأنما أحيا ليلة القدر وعنه عليه الصلاة والسلام من قرأ الم تنزيل فى بيته لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام

(سورة الاحزاب مدنية وهى ثلاث وسبعون آية)

(بسم الله الرحمن الرحيم) (يا أيها النبى اتق الله) فى ندائه عليه الصلاة والسلام بعنوان النبوة تنويه بشأنه وتنبيه على سمو مكانه والمراد بالتقوى المأمور به الثبات عليه والازدياد منه فان له بابا واسعا وغرضا عريضا لاينال مداه (ولاتطع الكافرين) اى المجاهرين بالكفر (والمنافقين) المضمرين له اى فيما يعود بوهن فى الدين واعطاء دنية فيما بين المسلمين روى أن أباسفيان بن حرب وعكرمة بن أبى جهل وأبا الاعور السلمى قدموا عليه عليه الصلاة والسلام فى الموادعة التى كانت بينه عليه السلام وبينهم وقام معهم عبد الله بن أبى ومعتب بن قشير والجد بن قيس فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ارفض ذكر آلهتنا وقل انها تشفع وتنفع وندعك وربك فشق

الوحدانية فنسى بالاقبال على الدنيا والاشتغال بها ويحتمل أن يكون منصوبا بقوله نسيتم اى بما نسيتم لقاء هذا اليوم ذوقوا وعلى هذا لوقال قائل النسيان لايكون الا فى المعلوم أولا فاذا جعل آخرا تقول لما ظهرت براهينه فكأنه ظهر وعلم ولما تركوه بعد الظهور ذكر بلفظ النسيان اشارة الى كونهم منكرين لامر ظاهر كمن ينكر أمرا كان قد علمه (المسئلة الثانية) قوله تعالى هذا يحتمل ثلاثة أوجه (أحدها) أن يكون اشارة الى اليوم اى فذوقوا بما نسيتم لقاء هذا اليوم (وثانيها) أن يكون اشارة الى اللقاء اى ذوقوا بما نسيتم هذا اللقاء (وثالثها) أن يكون اشارة الى العذاب اى فذوقوا هذا العذاب بما نسيتم لقاء يومكم ثم قال انا نسيناكم اى تركناكم بالكلية غير ملتفت اليكم كما يفعله الناسى فصار جزاؤكم من ذات جنس ما يلزم من تركه ياهم كما يترك الناسى وهو خلود العذاب لان من يخلصه الله ويخلاص له فقال ذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون * ثم قال تعالى (انما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لايستكبرون) اشارة الى أن الايمان بالآيات كالحاصل وانما ينسلخ البعض فاذا ذكر بها خر ساجدا له يعنى انقادت أعضاؤه وسبح بحمده يعنى ويعرف لشانه يتنزيهه عن الشرك وهم لايستكبرون يعنى وكان قلبه خاشعا لايتكبر ومن لايستكبر عن عبادته فهو المؤمن حقا * ثم قال تعالى (تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون) يعنى بالليل قليلا ما يجعون وقوله يدعون ربهم اى يصلون فان الدعاء والصلاة من باب واحد فى المعنى أو يطلبونه وهذا لايناقى الاول لان الطلب قد يكون بالصلاة والحمل على الاول أولى لانه قال بعده ومما رزقناهم ينفقون وفى أكثر المواضع التى ذكر فيها الزكاة ذكر الصلاة قبلها كقوله تعالى ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون وقوله خوفا وطمعا يحتمل أن يكون مفعولا له ويحتمل أن يكون حالا اى خائفين طامعين كقولك جاؤنى زورا أى زائرين وكان فى الآية الاولى اشارة الى المرتبة العالية وهى العبادة لوجه الله تعالى مع الذهول عن الخوف والطمع بدليل قوله تعالى اذا ذكروا بها خروا وهذا يدل على ان عند مجرد الذكر يوجد منهم السجود وان لم يكن خوف وطمع وفى الآية الثانية اشارة الى المرتبتين الاخيرتين وهى العبادة خوفا كمن يخدم الملك الجبار مخافة سطوته أو يخدم الملك الجواد طمعا فى بره ثم بين مايكون لهم جزاء فعلهم * فقال (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) يعنى مما تقر العين عنده ولاتلتفت الى غيره يقال ان هذا لايدخل فى عينى يعنى عينى تطلع الى غيره فاذا لم يبق تطلع للعين الى شئ آخر لم يبق للعين مسرح الى غيره فتقر جزاء بحكم الوعد وهذا فائدة اضافة وهى ان من العبد شيئا وهو العمل الصالح ومن الله أشياء سابقة من الخلق والرزق وغيرهما وأشياء لاتنتهى من الثواب والاكرام لله تعالى أن يقول جزاء الاحسان احسان وأنا أحسنت أولا والعبد أحسن فى مقابلته فاثبات تفضل وصحة من غير عوض وله أن

ذلك على النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين وهموا بقتلهم فنزلت اي اتق الله في نقض العهد ونبذ الموادعة ولا تساعد الكافرين من أهل مكة والمنافقين من أهل المدينة فيما طلبوا اليك (ان الله كان عليما حكيما) مبالغا في العلم والحكمة فيعلم جميع الاشياء من المصالح والمفاسد فلا يأمرك الا بما فيه مصلحة ولا ينهاك الا عما فيه مفسدة ولا يحكم الا بما تقتضيه الحكمة البالغة فالجملة تعليل للامر والنهي مؤكد لوجوب ﴿ ٧٦٣ ﴾ الامتثال بهما (واتبع) اى في كل ما تأتي وتذر من أمور الدين

(ما يوحى اليك من ربك) من الآيات التي من جملتها هذه الآية الآمرة بتقوى الله الناهية عن مساعدة الكفرة والمنافقين والتعرض لعنوان الربوبية لتأكيد وجوب الامتثال بالامر (ان الله كان بما تعملون خبيرا) قيل الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام والجمع للتعظيم وقيل له عليه الصلاة والسلام وللمؤمنين وقيل للغائبين بطريق الالتفات ولا يخفى بعده نعم يجوز أن يكون للكل على ضرب من التغليب وأيا ما كان فالجملة تعليل للامر وتأكيد لوجوبه أما على الوجهين الاولين فبطريق الترغيب والترهيب كأنه قيل ان الله خبير بما تعملونه من الامتثال وتركه فيرتب على كل منهما جزاءه ثوابا وعقابا وأما على الوجه الاخير فبطريق الترغيب فقط كأنه قيل ان الله خبير بما يعمله كلا الفريقين فيرشدك الى ما فيه صلاح حالك وانتظام أمرك ويطلعك على ما يعملونه من المكايد والمفاسد ويأمرك بما ينبغي لك أن تعمله في دفعها

يقول جعلت الاول تفضلا لا أطلب عليه جزاء فاذا أتى العبد بالعمل الصالح فليس عليه شيء لاني أريد أنه مما عليه من النعم فكان هو آتيا بالحسنة ابتداء وجزاء الاحسان احسان فاجعل اثواب جزاء كلاهما جائز لكن غاية الكرم أن يجعل الاول هبة و يجعل الثاني مقابلا وعوضا لان العبد ضعيف لو قيل له بأن فعلك جزاء فلا تستحق جزاء وانما الله يتفضل يثق ولكن لا يطمئن قلبه واذا قيل له الاول غير محسوب عليك والذي أتيت به أنت به بادئ عليه استحق ثواب يثق و يطمئن ثم اذا عرف ان هذا من فضل الله فالواجب من جانب العبد أن يقول فعلي جزاء نعم الله السابقة ولا استحق به جزاء فاذا أثابه الله تعالى يقول الذي أتيت به كان جزاء وهذا ابتداء احسان من الله تعالى يستحق حمدا وشكرا فأتى بحسنة فيقول الله اني أحسنت اليه جزاء فعله الاول وما فعلت أولا لأطلب له جزاء فيجازيه ثالثا فيشكر العبد ثالثا فيجازيه رابعا وعلى هذا لا تنقطع المعاملة بين العبد والرب ومثله في الشاهد اثنان تحابا فأهدى أحدهما الى الآخر هدية ونسيها والمهدى اليه يتذكرها فأهدى الى المهدي عوضا فرآه المهدي الاول ابتداء لنسيانه ما أهداه اليه فجازاه بهدية فقال المحب الآخر ما أهديته كان جزاء لهديته السابقة وهذه هدية ما عوضتها فيعوض و يعوض منه المحب الآخر و يتسلسل الامر بينهما ولا ينقطع التهادي والتحاب بخلاف من أرسل الى واحد هدية وهو يتذكرها فاذا بعث اليه المهدي اليه عوضا يقول المهدي هذا عوض ما أهديت اليه فسكت و يترك الاهداء فينقطع واعلم أن التكاليف يوم القيامة واذا ارتفعت لكن الذكر والشكر والعبادة لا ترتفع بل العبد يعبد ربه في الجنة أكثر مما يعبده في الدنيا وكيف لا وقد صار حاله مثل حال الملائكة الذين قال في حقهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون غاية ما في الباب ان العبادة ليست عليهم بتكليف بل هي مقتضى طبع ومن جملة الاسباب الموجبة لدوام نعيم الجنة هذا وكيف لا وخدمة الملوك لذة وشرف فلا تترك واذا قرر العبد منه بل تزداد لذتها * ثم قال تعالى (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلا بما كانوا يعملون واما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون) لما بين حال المجرم والمؤمن قال للعاقل هل يستوي الفريقان ثم بين انهما لا يستويان ثم بين عدم الاستواء على سبيل التفصيل فقال أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى اشارة الى ما ذكرنا أن الله أحسن ابتداء لا لعوض أو غرض فلما آمن العبد وعمل صالحا قبله منه كأنه ابتداء فجازاه بأن أعطاه الجنة ثم قال تعالى نزلا اشارة الى أربعة أشياء لان النزل ما يعطى الملك النازل وقت نزوله قبل أن يجعل له راتبا أو يكتب له خبزا وقوله بما كانوا يعملون يحقق ما ذكرنا وقوله تعالى وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها اشارة الى حال الكافر وقد ذكرنا مرارا ان

ورد ها فلا بد من اتباع الوحي والعمل بمقتضاه حتما (وتوكل على الله) اى فوض جميع أمورك اليه (وكفى بالله وكيلا) حافظا موكولا اليه كل الامور (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) شروع في القاء الوحي الذي أمر عليه الصلاة والسلام باتباعه وهذا مثل ضربه الله تعالى تمهيدا لما يعقبه من قوله

تعالى (وما جعل ازواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم) وتنبيها على أن كون المظاهر منها أما وكون الدعى ابنا اى بمنزلة الام والابن فى الآثار والاحكام المعهودة فيما بينهم فى الاستحالة بمنزلة اجتماع قلبين فى جوف واحد وقيل هو رد لما كانت العرب تزعم من أن الطبيب الاريب له قلبان ولذلك قيل لابى معمر أو لجميل بن أسد الفهرى ذو القلبين اى ما جمع الله تعالى قلبين فى رجل وذكر الجوف لزيادة التقرير كما فى قوله ﴿ ٧٦٤ ﴾ تعالى ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور

ولا زوجية ولا امومة فى امرأة ولا دعوة وبنوة فى شخص لكن لا بمعنى نفى الجمع بين حقيقة الزوجية والامومة ونفى الجمع بين حقيقة الدعوة والبنوة كما فى القلب ولا بمعنى نفى الجمع بين أحكام الزوجية وأحكام الامومة ونفى الجمع بين أحكام الدعوة وأحكام البنوة على الاطلاق بل بمعنى نفى الجمع بين حقيقة الزوجية وأحكام الامومة ونفى الجمع بين حقيقة الدعوة وأحكام البنوة لابطال ما كانوا عليه من اجراء احكام الامومة على المظاهر منها واجراء أحكام البنوة على الدعى ومعنى الظهار أن يقول لزوجته أنت على كظهر أمى مأخوذ من الظهر باعتبار اللفظ كالتلبية من لبيك وتعديته بمن لتضمنه معنى التجنب لانه كان طلاقا فى الجاهلية وهو فى الاسلام يقتضى الطلاق أو الحرمة الى أداء الكفارة كما عدين اليها وهو يمين حلف وذكر الظهار للكناية عن البطن الذى هو عموده فان ذكره قريب من ذكر الفرج أو للتغليظ فى التحريم فانهم كانوا يحرمون اتيان الزوجة وظهرها الى السماء وقرئ اللاى وقرئ اللاء وقرئ تظاهرون بحذف احدى ﴿ أمران ﴾ التاءين من تتظاهرون وتظاهرون بادغام التاء الثانية فى الطاء وتظهرون من اظهر بمعنى تظهر وتظهرون من ظهر بمعنى ظاهر كعقد بمعنى عاقد

العمل الصالح له مع الايمان اثرا ما الكفر اذا جاء فلا التفات الى الاعمال فلم يقل واما الذين فسقوا وعملوا السيآت لان المراد من فسقوا كفروا ولو جعل العقاب فى مقابلة الكفر والعمل ظن أن مجرد الكفر لاعتاب عليه وقوله فى حق المؤمنين لهم بلام التمليك زيادة اكرام لانه من قال لغيره اسكن هذه الدار يكون ذلك محمولا على العارية وله استرداده واذا قال هذه الدار لك يكون ذلك محمولا على نسبة الملكية اليه وليس له استرداده بحكم قوله وكذلك فى قوله لهم جنات ألا ترى انه تعالى لما أسكن آدم الجنة كما فى علمه انه يخرجه منها قال اسكن أنت وزوجك الجنة ولم يقل لكما الجنة وفى الآخرة لما لم يكن للمؤمنين خروج عنها قال لكم الجنة ولهم جنات وقوله كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا اشارة الى معنى حكمى وهو ان المؤلم اذا تمكن والالم اذا استحكم يبقى به شعور تام ولهذا قال الاطباء ان حرارة حمى الدق اشد من حرارة الحمى البلغمية نسبة النار الى الماء المسخن ثم ان المدقوق لا يحس من الحرارة بما يحس به من به الحمى البلغمية لتمكن الدق وقوب عهد بطبعه وحرارة الحمى البلغمية وكذلك الانسان اذا وضع يده فى ماء بارد يتألم من البرد فاذا صبر زمانا طويلا تثلج يده ويبطل عنه ذلك الالم الشديد وفساد مزاجه اذا علمت هذا فقوله كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها اشارة الى أن الالم لا يسكن عنهم بل يرد عليهم فى كل حال أمر مؤلم يجدد وقوله ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون يقرر ما ذكرنا ومعناه انهم فى الدنيا كانوا يكذبون بعذاب النار فلما ذاقوه كان أشد ايلاما لان من لا يتوقع شيئا فيصيبه يكون أشد تأثرا ثم انهم فى الآخرة كانوا فى الدنيا يجزمون أن لا عذاب الا وقد وصل اليهم ولا يتوقعون شيئا آخر من العذاب فيرد عليهم عذاب أشد من الاول وكانوا يكذبون به بقولهم لا عذاب فوق ما نحن فيه فاذن معنى قوله تعالى ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون ليس مقتصرا على تكذيبهم الذى كان فى الدنيا بل كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذابا كذبتم به من قبل اما فى الدنيا بقولكم لا عذاب فى الآخرة واما فى الآخرة فبقولكم لا عذاب فوق ما نحن فيه ﴿ ثم لما هددهم قال تعالى (ولنذيقنهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر لعلهم يرجعون) يعنى قبل عذاب الآخرة نذيقهم عذاب الدنيا فان عذاب الدنيا لا نسبة له الى عذاب الآخرة لان عذاب الدنيا لا يكون شديدا ولا يكون مديدا فان العذاب الشديد فى الدنيا يهلك فيفوت العذب ويستريح منه فلا يمتد وان أراد العذب أن يمتد عذاب العذب لا يعذبه بعذاب فى غاية الشدة وأما عذاب الآخرة فشديد ومديد وفى الآية مسئلتان (احداهما) قوله تعالى ولنذيقنهم من العذاب الادنى العذاب الادنى فى مقابلته العذاب الاقصى والعذاب الاكبر فى مقابلته العذاب الاصغر فما الحكمة فى مقابلة الادنى بالاكبر فنقول يحصل فى عذاب الدنيا أمران أحدهما انه قريب والآخر انه قليل صغير وحصل فى عذاب الآخرة أيضا ﴿ أمران ﴾

وتظهرون من ظهر ظهورا وأدعياء جمع دعي وهو الذي يدعى لدا على الشذوذ لاختصاص أفعلاء بفعيل بمعنى فاعل كتقي واتقياء كأنه شبه به في الافراط فجمع جمعه كغلام وسراة (ذاكم) اشارة الى ما يفهم مما ذكر من الظهار والدعاء أو الى الاخير الذي هو المنصوص من مساق الكلام اى دعاؤكم بقولكم هذا ابني (قولكم بأفواهكم) فقط من غير أن يكون له مصداق وحقيقة في الاعيان فانه هو بمعزل من استتباع أحكام * ٧٦٥ * البنوة كما زعمتم (والله يقول الحق) المطابق للواقع (وهو يهدي السبيل) اى

أمران أحدهما انه بعيد والآخر انه عظيم كثير لكن القرب في عذاب الدنيا هو الذي يصلح للتخويف به فان العذاب العاجل وان كان قليلا قد يحترز منه بعض الناس أكثر مما يحترز من العذاب الشديد اذا كان آجلا وكذا الثواب العاجل قد يرغب فيه بعض الناس ويستهد الثواب العظيم الآجل واما في عذاب الآخرة فالذي يصلح للتخويف به هو العظيم والكبير لا البعيد لما بينا فقال في عذاب الدنيا العذاب الادنى ليحترز العقل عنه ولو قل ليتذيقنهم من العذاب الاصغر ما كان يحترز عنه لصغره وعدم فهم كونه عاجلا وقال في عذاب الآخرة الاكبر لذلك المعنى وايقال دون العذاب الابعد الاقصى لما حصل التخويف به مثل ما يحصل بوصفه بالكبر وبالجملة فقد اختار الله تعالى في العذابين الوصف الذي هو أصلح للتخويف من الوصفين الآخرين فيهما لحكمة بالغة (المسئلة الثانية) قوله تعالى لعلهم يرجعون لعل هذه للترجي والله تعالى محال ذلك عليه فما الحكمة فيه نقول فيه وجهان (احدهما) معناه لنذيقنهم اذاقة الراجين كقوله تعالى انا نسيناكم يعني تركناكم كما يترك الناسي حيث لا يلتفت اليهم أصلا فكذلك ههنا نذيقهم على الوجه الذي يفعل بالراجي من التدريج (وثانيهما) معناه نذيقهم العذاب اذاقة يقول القائل لعلهم يرجعون بسببه ونزيد وجها آخر من عندنا وهو ان كل فعل يتلو أمرا مطلوبا من ذلك الفعل يصح تعليل ذلك الفعل بذلك الامر كما يقال فلان اتجر ربح ثم ان هذا التعليل ان كان في موضع لا يحصل الجزم بحصول الامر من الفعل نظرا الى نفس الفعل وان حصل الجزم والعلم بناء على أمر من خارج فانه يصح أن يقال يفعل كذا رجاء كذا كما يقال يتجر رجاء أن يربح وان حصل للتاجر جزم بالربح لا يقدح ذلك في صحة قولنا يرجو لما أن الجزم غير حاصل نظرا الى التجار وان كان الجزم حاصلا نظرا الى الفعل لا يصح أن يقال يرجو وان كان ذلك الجزم يحتمل خلافه كقول القائل فلان حرز قبذ عدوه رجاء أن يموت لا يصح لحصوله الجزم الموت عقيب الحرز نظرا اليه وان أمكن أن لا يموت نظرا الى قدرة الله تعالى ويصح قولنا قوله تعالى في حق ابراهيم والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي مع انه كان عالما بالمغفرة لكن لما لم يكن الجزم حاصلا من نفس الفعل أطلق عليه الطمع وكذلك قوله تعالى وارجوا اليوم الآخر مع أن الجزم به لازم اذا علم ما ذكرنا ونقول في كل صورة قال الله تعالى لعلهم فان نظرنا الى الفعل لا يلزم الجزم فان من التعذيب لا يلزم الرجوع لزوما بينا فصح قولنا يرجو وان كان علمه حاصلا بما يكون غاية ما في الباب ان الرجاء في أمر الامر استعمل فيما لا يكون الامر معلوما وأوهم أن لا يجوز الاطلاق في حق الله تعالى وليس كذلك بل الترجي يجوز في حق الله تعالى ولا يلزم منه عدم العلم وانما يلزم عدم الجزم بناء على ذلك الفعل وعلم الله ليس مستفادا من الفعل فيصح حقيقة الترجي في حقه على ما ذكرنا من المعنى * ثم قال تعالى (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها) يعني لنذيقنهم ولا يرجعون فيكونون قد ذكروا بآيات الله من

سبيل الحق لا غير فدعوا اقوالكم وخذوا بقوله عز وجل (ادعوهم لآبائهم) اى انسبوهم اليهم وخصوهم بهم وقوله تعالى (هو أقسط عند الله) تعليل له والضمير لمصدر ادعوا كما في قوله تعالى اعدلوا هو أقرب للتقوى وأقسط أفعل تفضيل قصد به الزيادة مطلقا من القسط بمعنى العدل اى الدعاء لآبائهم بالغ في العدل والصدق في حكم الله تعالى وقضائه (فان لم تعلموا آباءهم) فتنسبوهم اليهم (فاخوانكم) فهو اخوانكم (في الدين ومواليكم) وأولياؤكم فيه اى فادعوهم بالاخوة الدينية والمسولوية (وليس عليكم جناح) اى اثم (فيما أخطأتم) اى في فعلتموه من ذلك مخطئين بالسهو والنسيان أو سبق اللسان (ولكن ما تعمدت قلوبكم) اى ولكن الجناح فيما تعمدت قلوبكم بعد النهي او ما تعمدت قلوبكم فيه الجناح وكان الله غفورا رحيما) لعفوه عن الخطأ وحكمه النبي بقوله هو ابني اذا كان عبد القائل الصغير على كل حال ولا يثبت نسبه منه الا اذا كان مجهول النسب وكان بحيث يولد مثله لمثل المتبني ولم يقر قبله بنسبه من غيره (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) اى في كل أمر من أمور الدين والدنيا كما يشهد به الاطلاق فيجب عليهم أن يكون عليه الصلاة والسلام

أحب اليهم من أنفسهم وحكمه أنفذ عليهم من حكمها وحقه آثر لديهم من حقوقها وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها روى أنه عليه الصلاة والسلام أراد غزوة تبوك فأمر الناس بالخروج فقال ناس نستأذن آباءنا وأمهاتنا فنزلت ﴿ قرئ وهو أب لهم اى فى الدين فان كل نبى أب لامته من حيث انه أسس فيما به الحياة الابدية ولذلك صار المؤمنون اخوة ﴿ وأزواجه أمهاتهم ﴾ اى منزلات منزلة الامهات فى التحريم واستحقاق التعظيم ﴿ ٧٦٦ ﴾ وأما فيما عدا ذلك فهن كالاجنبيات ولذلك قالت عائشة رضى الله عنها لسنا أمهات النساء (وأولوا الارحام) اى ذوو القرابات (بعضهم أولى ببعض) فى التوارث وهو نسخ لما كان فى صدر الاسلام من التوارث بالهجرة والموالاة فى الدين (فى كتاب الله) فى اللوح أو فيما أنزله وهو هذه الآية أو آية المواريث أو فيما فرض الله تعالى (من المؤمنين والمهاجرين) بيان لاولى الارحام أو صلة لاولى اى أولو الارحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين بحق الدين ومن المهاجرين بحق الهجرة (الا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفا) استثناء من أعم ما تقدر الاولوية فيه من النفع والبر اى الا أن تفعلوا بهم بفعل المعروف التوصية أو منفعة (كان ذلك فى الكتاب مسطورا) اى كان ما ذكر من الآيتين ثابتا فى اللوح أو القرآن وقيل فى التوراة (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم) اى اذكر وقت أخذنا من النبيين كافة عهودهم بتبليغ الرسالة والدعاء الى الدين الحق (ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم) وتخصيصهم بالذكر مع اندراجهم فى النبيين اندراج

النعم أولا وانتقم ثانيا ولم يؤمنوا فلا أظلم منهم أحد لان من يكفر بالله ظالما فان الله ذوى البصائر ظاهر لا يحتاج المستبصر الباطل الى شاهد يشهد عليه بل هو شهيد على كل شئ كما قال تعالى أولم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد اى دليلك الله ، تحتاج يا منير الباطن الى دليل على الله ولهذا قال بعض العارفين رأيت الله قبل كل شئ فمن لم يكفه الله فسائر الموجودات سواء كان فيها نفع أو ضر كاف فى معرفة الله كما قال تعالى سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم فان لم يكفهم ذلك فبسخه عليهم نعمه ظاهرة وباطنة فالاول الذى لا يحتاج الى غير الله هو عدل والثانى الذى يحتاج الى دليل فهو متوسط والثالث الذى لم يكفه الآفاق ظالم والرابع الذى لم تقدر أنعم أظلم من ذلك الظالم وقد يكون أظلم منه آخر وهو الذى اذا أذيق العذاب لا يرجع عن ضلالته فان الاكثر كان من صفتهم انهم اذا مسهم ضر عوار بهم منيبين اليه فهذا لما عذب ولم يرجع فلا أظلم منه أصلا فقال ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ﴿ ثم قال تعالى (انا من المجرمين منتقمون) اى لما لم ينفعهم العذاب الادنى فانا منتقم منهم بالعذاب الاكبر ﴿ ثم قال تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) لما قرر الاصول الثلاثة على ما ينبغى عاد الى الاصل الذى بدأ به وهو الرسالة المذكورة فى قوله لتنذر قوما ما أتاهم من نذير وقال قل ما كنت بدعا من الرسل بل كان قبلك رسل مثلك واختار من بينهم موسى لقربه من النبى صلى الله عليه وسلم ولوجود من كان على دينه الزاما لهم والمالم يختر عيسى عليه السلام للكفر والاستدلال لان اليهود ما كانوا يوافقون على نبوته واما النصارى فكانوا يعترفون بنبوة موسى عليه السلام فتمسك بالمجمع عليه ﴿ وقوله (فلا تكن فى مرية من لقائه) قيل معناه فلا تكن فى شك من لقاء موسى ذلك تراه ونلقاه وقيل بأنه رآه ليلة المعراج وقيل معناه فلا تكن فى شك من لقاء الكتاب اياك نلقاه كما فى موسى الكتاب ويحتمل أن تكون الآية واردة لا لتقرير بل لتسلية النبى عليه السلام فانه أتى بكل آية وذكر بها وأعرض عنها قومه حزن عليهم فقيل له تذكر حال موسى ولا تحزن فانه بقى ما لقيت وأوذى كما أوذيت وعلى هذا فاختيار موسى عليه السلام لحكمة وهى أن أحدا من الانبياء لم يؤذ قومه الا الذين لم يؤمنوا به وأما الذين آمنوا به فلم يخالفوه غير قومه موسى فان من لم يؤمن به آذاه مثل فرعون وغيره ومن آمن به من بنى اسرائيل أيضا آذاه بالمخالفة وطلب أشياء منه مثل طلب رؤية الله جهرة وقولهم اذهب انت وربك فقاتلا ثم بين له ان هدايته غير خالية عن المنفعة كما انه لم تخل هداية موسى ﴿ فقال (وجعلناه هدى لبنى اسرائيل وجعلنا منهم أئمة يهتدون بامرنا) فحيث جعل الله كتاب موسى هدى وجعل منهم أئمة يهدون كذلك يجعل كتابك هدى ويجعل من أمتك صحابة يهدون كما قال عليه السلام أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ثم بين ان ذلك يحصل بالصبر ﴿ فقال (لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون) وكذلك اصبروا وآمنوا بأن وعد الله حق ﴿ ثم قال تعالى (ان ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة

بيننا للايذان بمزيتهم وفضلهم وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع وأساطين أولى العزم من الرسل وتقديم ﴿ فيما ﴾

أومؤكدا باليمين وهذا هو الميثاق الاول بعينه وأخذه هو أخذه والعطف مبنى على تنزيل التغاير العنواني منزلة التغاير الذاتي تفخيما لشانه كما في قوله تعالى ونجيناهم من عذاب غليظ اثر قوله تعالى فلما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا وقوله تعالى (ليسأل الصادقين عن صدقهم) متعلق بمضمر مستأنف سيق بيانا لما هو المقصود من ذكر أخذ الميثاق وغايته لا بأخذنا فان المقصود تذكير ﴿ ٧٦٧ ﴾ نفس الميثاق ثم بيان الغرض منه بيانا قصديا كما ينبئ عنه تغيير

فيما كانوا فيه يختلفون) هذا يصلح جوابا لسؤال وهو انه لما قال تعالى وجعلنا منهم أئمة يهدون كان لقائل أن يقول كيف كانوا يهدون وهم اختلفوا وصاروا فرقا وسبيل الحق واحد فقال فيهم هذا والله بين المبتدع من المتبع كما بين المؤمن من الكافر يوم القيامة وفيه وجه آخر وهو ان الله تعالى بين انه يفصل بين المختلفين من أمة واحدة كما يفصل بين المختلفين من الامم فينبغي أن لا يأمن من آمن وان لم يجتهد فان المبتدع معذب كالكافر غاية ما في الباب ان عذاب الكافر أشد وآلم وأمد وأدوم * ثم قال تعالى (ألم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون) قد ذكرنا ان قوله تعالى ولقد آتينا موسى الكتاب تقرير لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم وعاد البيان ما سبق في قوله لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك ولما أعاد ذكر الرسالة أعاد ذكر التوحيد فقال تعالى ألم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم * وقوله (يمشون في مساكنهم) زيادة ايانة اى مساكن المهلكين دالة على حالهم وأنتم تمشون فيها وتبصرونها * وقوله تعالى (ان في ذلك لآيات أفلا يسمعون) اعتبر فيه السمع لانهم ما كان لهم قوة الادراك بأنفسهم والاستنباط بعقولهم فقال أفلا يسمعون يعني ليس لهم درجة المتعلم الذي يسمع الشئ ويفهمه * ثم قال تعالى (ألم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجرز) لما بين الاهلاك وهو الامانة بين الاحياء ليكون اشارة الى ان الضر والنفع بيد الله والجرز الارض اليابسة التي لا نبات فيها والجرز هو القطع وكأنها مقطوع عنها الماء والنبات * ثم قال تعالى (فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم) قدم الانعام على الانفس في الاكل لوجوه (أحدها) ان الزرع أول ما ينبت يصلح للدواب ولا يصلح للانسان (والثاني) وهو ان الزرع غذاء الدواب وهو لا بد منه وأما غذاء الانسان فقد يحصل من الحيوان فكأن الحيوان يأكل الزرع ثم الانسان يأكل من الحيوان (الثالث) اشارة الى أن الاكل من ذوات الدواب والانسان يأكل بحيوانيته أو بما فيه من القوة العقلية فكماله بالعبادة * ثم قال تعالى (أفلا يبصرون) لان الامر يرى بخلاف حال الماضين فانها كانت مسموعة ثم لما بين الرسالة والتوحيد بين الحشر بقوله تعالى (ويقولون متى هذا الفتح ان كنتم صادقين) الى آخر السورة فصار ترتيب آخر السورة كترتيب أولها حيث ذكر الرسالة في أولها بقوله لتنذر قوما وفي آخرها بقوله وقد آتينا موسى الكتاب وذكر التوحيد بقوله الذي خلق السموات والارض وقوله الذي أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلق الانسان من طين وفي آخر السورة ذكره بقوله أولم يهد لهم وقوله أولم يروا انا نسوق وذكر الحشر في أولها بقوله وقالوا أئذا ضللنا في الارض وفي آخرها بقوله ويقولون متى هذا الفتح * وقوله تعالى (قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا ايمانهم ولا هم ينظرون) اى لا يقبل ايمانهم في تلك الحالة لان الايمان المقبول هو الذي يكون في دار الدنيا ولا ينظرون اى لا يمهلون بالاعادة الى الدنيا ليؤمنوا فيقبل ايمانهم ثم لما بين المسائل واتقن الدلائل ولم ينفعهم * قال تعالى (فأعرض عنهم)

الاسلوب بالالتفات الى الغيبة أي فعل الله ذلك ليسأل يوم القيامة الانبياء وضع الصادقين موضع ضميرهم للايذان من أول الامر بانهم صادقون فيما سئلوا عنه وانما السؤال لحكمة تقتضيه اى ليسأل الانبياء الذين صدقوا عهودهم عما قالوه لقومهم أو عن تصديقهم اياهم تبكيتا لهم كما في قوله تعالى يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم أو المصدقين لهم عن تصديقهم فان مصدق الصادق صادق وتصديقه صدق واما ما قيل من أن المعنى ليسأل المؤمنين الذين صدقوا عهدهم حين أشهدهم على أنفسهم عن صدقهم عهدهم فباباه مقام تذكير ميثاق النبيين وقوله تعالى (وأعد للكافرين عذابا أليما) عطف على ما ذكر من المضمر لا على أخذنا كما قيل والترجيه بان بعثة الرسل وأخذ الميثاق منهم لاثابة المؤمنين او بان المعنى إن الله تعالى أكد على الانبياء الدعوة الى دينه لاجل اثابة المؤمنين تعسف ظاهر مع أنه مفض الى كون بيان اعداد العذاب الاليم للكافرين غير مقصود بالذات نعم يجوز عطفه على ما دل عليه قوله تعالى ليسأل الصادقين كأنه قيل فأثاب المؤمنين وأعد للكافرين الآية (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم) ان جعل النعمة مصدرا فالجار متعلق بها والا فهو متعلق بمحذوف هو حال منها اي كائنة عليكم

(اذ جاءتكم جنود) ظرف لنفس النعمة اما لثبوتها لهم وقت منصوب باذكروا على انه بدل اشتمال من نعمة الله والمراد بالجنود الاحزاب وهم قريش وغطفان ويهود قريظة والنضير وكانوا زهاء اثني عشر الفا فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بابطالهم ضرب الخندق على المدينة باشارة سلمان الفارسي ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب معسكره بالخندق بينه وبين القوم وأمر بالذراري والنساء ﴿ ٧٦٨ ﴾ فرفعوا في الآطام واشتد الخطب وظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق في المنافقين حتى قال معتب بن قشير كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر ولا نقدر أن نذهب الى الغائط ومضى على الفريقين قريب من شهر لا حرب بينهم الا أن فوارس من قريش منهم عمرو بن عبدود وعكرمة بن أبي جهل وهبيرة بن ابي وهب ونوفل بن عبد الله وضرار بن الخطاب ومرداس أخو بني محارب قد ركبوا خيولهم وتيمموا من الخندق مكانا مضيقا فضربوا خيولهم واقتحموا فجالت بهم في السبخة بين الخندق وسلع فخرج علي بن ابي طالب رضي الله عنه في نفر من المسلمين حتى أخذ عليهم الثغرة التي اقتحموا منها فأقبلت الفرسان نحوهم وكان عمرو معلما ليرى مكانه فقال له علي رضي الله عنه يا عمرو اني أدعوك الى الله ورسوله والاسلام قال لا حاجة لي اليه فاني أدعوك الى النزال قال لم يا ابن أخي والله لا أحب أن أقتلك قال علي لكني والله أحب أن أقتلك فحمي عمرو عند ذلك وكان فيورا مشهورا بالشجاعة وقحم عن فرسه وعقره أو ضرب وجهه ثم أقبل ﴿ استوى ﴾ على علي فتناولا وتجاولا فضربه علي رضي الله عنه ضربة ذهبت فيها نفسه فلما قتله انهزمت خيله حتى اقتحمت من الخندق هاربة وقتل مع عمرو رجلان منبه بن عثمان بن عبد الدار ونوفل بن عبد الله بن المغيرة المخزومي قتله أيضا علي رضي الله عنه وقيل لم يكن بينهم

اي لا تنتظرهم بعد ذلك وانما الصريخ بعد هذا القتال * وقوله (وانتظر انهم منتظرون) بحتم وحوها (أحدها) وانتظر هلاكهم فانهم ينتظرون هلاكك وعلى هذا فرق بين الانتظارين لان انتظار النبي صلى الله عليه وسلم أمر الله تعالى بعد وعده وانتظارهم بنفسه بل أنفسهم والتعويل على الشيطان (وثانيها) وانتظر النصر من الله فانهم ينتظرون النصر من آلهتهم وفرق بين الانتظارين (وثالثها) وانتظر عذابهم بقتلك اياهم يذعرونه بالقطيع استهزاء كما قالوا فأتنا بما تعدنا قالوا متى هذا الوعد ان كنتم صادقين لي غير ذلك والله أعلم بالصواب واليه المرجع والمآب والحمد لله رب العالمين وصلاته على سيد المرسلين محمد النبي وآله وصحبه أجمعين وعلى أزواجه المطهرات أمهات المؤمنين

* (سورة الاحزاب سبعون وثلاث آية مكية وهي مدنية باجماع) *

(بسم الله الرحمن الرحيم)

قوله تعالى (يا ايها النبي اتق الله) في تفسير الآية مسائل (الاولى) في الفرق بين النداء للمنادى بقوله يا رجل و يا أيها الرجل وقد قيل فيه ما قيل ونحن نقول قول القائل يا رجل يدل على النداء وقوله يا أيها الرجل يدل على ذلك أيضا وينبئ عن خطر خطب المنادى له أو غفلة المنادى (اما الثاني) فمذكور (واما الاول) فلان قوله يا اي جعل المنادى غير معلوم أولا فيكون كل سامع متطلعا الى المنادى فاذا خص واحدا كان في ذلك تنبيه لكل لتطلعهم اليه واذا قال يا زيد أو يا رجل لا يلتفت الى جانب المنادى الا المذكور اذا علم هذا فنقول يا ايها لا يجوز حمله على غفلة النبي لان قوله النبي ينافي الغفلة لان النبي عليه السلام خبير فلا يكون غافلا فيجب حمله على خطر الخطب (المسئلة الثانية) الامر بالشئ لا يكون الا عند عدم اشتغال المأمور بالمأمور به اذ لا يصلح أن يقال للجالس اجلس وللساكت اسكت والنبي عليه السلام كان متقيا فالوجه فيه نقول فيه وجهان (أحدهما) منقول وهو انه أمر بالمداومة فانه يصح أن يقول القائل للجالس اجلس ههنا الى أن أجيئك و يقول القائل للساكت قد أصبت فاسكت تسلم اي دم على ما أنت عليه (والثاني) وهو معقول لطيف وهو ان الملك يتقى منه عباده على ثلاثة أوجه بعضهم يخاف من عقابه و بعضهم يخاف ان قطع ثوابه وثالث يخاف من احتجابه فانبي لم يؤمر بالتقوى بالمعنى الاول ولا بالمعنى الثاني واما الثالث فالمخلص منه ما دام في الدنيا وكيف والامور الدنيوية شغلة والآخرة في الدنيا تارة مع الله وأخرى مقبل على ما لا بد منه وان كان مع الله ولهذا أشار بقوله انما أنا بشر مثلكم يوحى الي يعني برفع الحجاب عني وقت الوحي ثم أعود اليكم كاني منكم فالامر بالتقوى يوجب استدامة الحضور (الوجه الثاني) هو ان النبي عليه الصلاة والسلام كل لحظة كان يزداد عمله ومرتبته حتى كان حاله فيما مضى بالنسبة الى ما هو فيه تركا للافضل بكماله في كل ساعة تقوى متجددة فقوله اتق الله على هذا أمر بما ليس فيه والى هذا أشار عليه الصلاة والسلام بقوله من

الترامي بالنبل والحجارة حتى ازل الله تعالى النصر وذلك قوله تعالى (فارسلنا عليهم ريحا) عطف على جاءتكم مسوق لبيان بعضه اجمالا وسيأتي تفصيلها في آخر القصة (وجنودا لم تروها) وهم الملائكة عليهم السلام وكانوا الفا بعث الله عليهم صبابا في ليلة شاتية فحصرتهم وسفت التراب في وجوههم وأمر الملائكة فقلعت الاوتاد وقصعت الاطناب واطفأت النيران وكفأت القدور وماجت الخيل بعضها ﴿ ٧٦٩ ﴾ في بعض وقذف في قلوبهم الرعب وكبرت الملائكة في جوانب

استوى يوناه فهو مغبون لانه طلب مزيدا به بامر الله اياه به زيادة العلم حيث قال وقل رب زدني علما وأيضا الى هذا وقعت الاشارة بقوله عليه الصلاة والسلام انه ليغان على قلبي فاستغفر الله في اليوم سبعين مرة يعني يحجب له مقام يقول الدى أتيت به من الشكر والعبادة لم يكن شيئا اذا علم هذا فالنبي صلى الله عليه وسلم بحكم انه أكرم مشكم كان قد رفع له خوف ما يسير من جهة ألسنة الكفار والمنافقين ومن أيديهم بدليل قوله تعالى وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فامره الله بتقوى أخرى فوق ما يتقيه بحيث تنسيه الخلق ولا يريد الا الحق وزاد الله به درجة فكان ذلك اشارة له اى يا أيها النبي أنت ما بقيت في الدرجة التي يقنع منك بتقوى مثل تقوى الآحاد أو تقوى الاوتاد بل لا يقنع منك الا بتقوى تنسيك نفسك ألا ترى ان الانسان اذا كان يخاف فوت مال ان هجم عليه غاشم بقصد قتله يذهل عن المال ويهرب ويتركه فكذلك النبي عليه الصلاة والسلام أمر بمثل هذه التقوى ومع هذه التقوى لا يبقى الخوف من أحد غير الله وخرج هذا مخرج قول القائل لمن يخاف زيدا وعمرا اخف عمرا ان زيدا لا يقدر عليك اذا كان عمرو معك فلا يكون ذلك أمرا بالخوف من عمرو فانه يخافه وانما يكون ذلك نهيا عن الخوف من زيد في ضمن الامر بزيادة الخوف من عمرو حتى ينسيه زيدا * ثم قوله تعالى (ولا تطع الكافرين والمنافقين) يقرر قولنا اى اتق الله تمنعك من طاعتهم (المسئلة الثالثة) لم خص الكافرين والمنافقين بالذكر مع ان النبي صلى الله عليه وسلم ينبغي أن لا يطيع أحدا غير الله تقول وجهين (أحدهما) ان ذكر غير لحاجة اليه لان غيرهما لا يطلب من النبي عليه الصلاة والسلام الاتباع ولا يتوقع أن يصير النبي عليه الصلاة والسلام مطيعا له بل يقصد اتباعه ولا يكون عنده الا مطاعا (والثاني) هو أنه تعالى لما قال ولا تطع الكافرين والمنافقين منعه من طاعة الكل لان كل من طلب من النبي عليه الصلاة والسلام طاعته فهو كافر أو منافق لان من يأمر النبي عليه الصلاة والسلام بامر أمر ايجاب معتقدا على انه لو لم يفعله يعاقبه بحق يكون كافرا * ثم قال تعالى (ان الله كان عليما حكيما) اشارة الى أن التقوى ينبغي أن تكون عن صميم قلبك لا تخفي في نفسك تقوى غير الله كما يفعله الذي يرى من نفسه الشجاعة حيث يخاف في نفسه ويجلد فان التقوى من الله وهو عليم وقوله حكيما اشارة الى دفع وهم متوهم وهو أن متوهما لو قال اذا قال الله شيئا وقال جمع الكافرين والمنافقين مع انهم أقارب النبي عليه الصلاة والسلام شيئا آخر ورأوا المصلحة فيه وذكروا وجها معقولا فاتباعهم لا يكون الا مصلحة وقال الله تعالى انه حكيم ولا تكون المصلحة الا في قول الحكيم فاذا أمرك الله بشيء فاتبعه ولو منعك أهل العالم عنه * وقوله تعالى (واتبع ما يوحى اليك من ربك) يقرر ما ذكرنا من انه حكيم فاتباعه هو الواجب * ثم قال تعالى (ان الله كان بما تعملون خبيرا) اما قال انه عليم بما في قلوب العباد بين انه عالم خبير بأعمالكم فسووا قلوبكم وأصلحوا أعمالكم * ثم قال تعالى

عسكرهم فقال طليحة بن خويلد الاسدي اما محمد فقد بدأكم بالسحر فتجاء التجاء فانهزموا من غير قتال (وكان الله بما تعملون) من حفر الخندق وترتيب مبادي الحرب وقيل من انجاءكم اليه ورجائكم من فضله وقرئ بالياء أي بما يعمله الكفار أي من التحرز والمحاربة أو من الكفر والمعاصي (بصيرا) ولذلك فعل ما فعل من نصركم عليهم والجملة اعتراض مقرر لما قبله (اذ جاؤكم) بدل من اذ جاءتكم (من فوقكم) من أعلى الوادي من جهة المشرق وهم بنو غطفان ومن تابعهم من اهل نجد قائدهم عيينة بن حصن وعامر بن الطفيل في هوازن وضامتهم اليهود من قريظة والنضير (ومن أسفل منكم) اى من اسفل الوادي من قبل المغرب وهم قريش ومن شايعهم من الاحابيش وبني كنانة وأهل تهامة وقائدهم أبو سفيان وكانوا عشرة آلاف (واذ زاغت الابصار) عطف على ما قبله داخل معه في حكم التذكير أي حين مالت عن سننها

حرفت عن مستوى نظرها حيرة ﴿ ٩٧ ﴾ من وشخوصا وقيل عدلت عن كل شيء فلم تلتفت الا الى عدوها شدة الروع (وبلغت القلوب الحناجر) لان الرئة تنتفخ من شدة الفزع فيرتفع القلب بارتفاعها الى رأس الحنجرة التي منتهى الحلقوم وقيل هو مثل في اضطراب القلوب

ووجيبها وان لم تبلغ الحناجر حقيقة والخطاب فى قوله تعالى (وتظنون بالله الظنونا) لمن يظهر الايمان على الاطلاق أى تظنون بالله تعالى أنواع الظنون المختلفة حيث ظن المخلصون أن الله تعالى ينجز وعده فى اعلاء دينه كما يعرب عنه ما سيحكى عنهم من قولهم هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله الآية وأن متعتهم تخاذلوا الزلل وضعف الاحتمال وانصداف القلوب والمنافقون ما حكى عنهم مما لا خير فيه الجملة معطوفة على زاغت ﴿ ٧٧ ﴾ وصيغة المضارع لاستحضار الصورة ودلالته على الاستمرار وقرئ الظنون بغير ألف وهو القياس وزيادتها لمراعاة الفواصل كما تزاد فى القوافى (هنالك) ظرف زمان أو ظرف مكان نابعده أى فى ذلك الزمان الهائل أو المكان الدحض (ابتلى المؤمنون) أى عوملوا معاملة من يختبر فظهر المخلص من المنافق والراسخ من المتزلزل (وزلزلوا زلزالا شديدا) من الهول والفزع وقرئ بفتح الزاى (واذ يقول المنافقون) عطف على اذ زاغت وصيغة المضارع لما مر من الدلالة على استمرار القول واستحضار صورته (والذين فى قلوبهم مرض) أى ضعف اعتقاد (ما وعدنا الله ورسوله) من اعلاء الدين والظفر (الا غرورا) أى وعد غرور وقيل قولا باطلا والقائل معتب بن قشير وأضرابه راضون به قائل بعدنا محمد بفتح كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقا مما هذا الوعد غرور (واذ قالت طائفة منهم)

(وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) يعنى اتق الله وان توهمت من أحد فتوكل على الله فانه كفى به دافعا نافعا ولا يضر معه شئ وان ضر لا ينفع معه شئ * ثم قال تعالى (ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه) قال بعض المفسرين الآية نزلت فى أبى معمر كان يقول لى قلبان اعقل وافهم بأحدهما أكثر مما يفهم محمد فرد الله عليه بقوله ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه * قال الزمخشرى قوله (وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم) أى ما جمعن فى حكم ما جمع رجل أمين قلبين و لا ابنين أبوين و لا هما ضعيف بل الحق أن يقال ان الله تعالى لما أمر النبى عليه الصلاة والسلام بالتقوى بقوله يا أيها النبى اتق الله فكان ذلك أمرا له بتقوى لا يكون فوقها تقوى ومن يتقى و يخاف شيئا خوفا شديدا لم يدخل فى قلبه شئ آخر لأترى ان الخائف الشديد الخوف ينسى مهماته حالة الخوف فكأن الله تعالى قال يا أيها النبى اتق الله حق تقاته ومن حقها ان لا يكون فى قلبك تقوى غير الله فان المرء ليس له قلبان حتى يتقى بأحدهما الله و بالآخر غيره فان اتقى غيره فلا يكون ذلك الا بصرف القلب عن جهة الله الى غيره وذلك لا يليق بالمتقى الذى يدعى انه يتقى الله حق تقاته ثم ذكر للنبى عليه الصلاة والسلام انه لا ينبغى أن يتقى أحدا ولا مثل ما اتفق فى حكاية زينب زوجة زيد حيث قال الله تعالى وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه يعنى مثل تلك التقوى لا ينبغى أن تدخل فى قلبك ثم لما ذكر النبى عليه الصلاة والسلام بتلك الحالة ذكر ما يدفع عنه السوء * فقال (وما جعل ادعياءكم أبناءكم) أى وما جعل الله دعى المرء ابنه ثم قدم عليه ما هو دليل قوى على اندفاع القبح وهو قوله وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم أى انكم اذا قلتم لا زواجكم أنت على كظهر أمى فلا تصير هى اما باجماع الكل اما فى الاسلام فلانه ظهار لا يحرم الوطء واما فى الجاهلية فلانه كان طلاقا حتى كان يجوز للزوج أن يتزوج بها من جديد فاذا كان قول القائل لزوجته أنت أمى أو كظهر أمى لا يوجب صيرورة الزوجة اما كذلك قول القائل للدعى أنت ابنى لا يوجب كونه ابنا فلا تصير زوجته زوجة الابن فلم يكن لاحد أن يقول فى ذلك شيئا فلم يكن حرج من الناس له وجه كيف ولو كان أمرا محذورا فكان يجوز أن تخاف غير الله أو ليس ان قلبان وقلبك مشغول بتقوى الله فما كان ينبغى أن تخاف أحدا * ثم قوله تعالى (ذلكم قولكم بأفواهكم) فيه لطيفة وهو ان الكلام المعتبر على قسمين (أحدهما) كلام يكون عن شئ كما قيل (والثانى) كلام يقال فيكون كما قيل والاول كلام الصادقين الذين يقولون ما يكون والآخر كلام الصديقين الذين اذا قالوا شيئا جعله الله كما قالوه وكلاهما صادر عن قلب والكلام الذى يكون بالفم فحسب هو مثل نهيق الحمار أو نباح الكلب لان الكلام المعتبر هو الذى يعتمد عليه والذى لا يكون عن قلب وروية لا اعتماد عليه والله تعالى لما كرم ابن آدم وفضله على سائر الحيوانات ينبغى أن يحترز عن التخلق باخلاقها فقول القائل هذا ابن

هم أوس ابن قيظى وأتباعه وقيل عبد الله بن أبى واشياعه (يا أهل يثرب) هو اسم المدينة المشرفة وقيل اسم ﴿ فلان بقعة فعمت المدينة فى ناحية منها وقد نهى النبى عليه الصلاة والسلام أن تسمى بها كراهة لها وقال هى طيبة أو طابة كذكرها بذلك الاسم مخالفة له عليه الصلاة والسلام ونداؤهم اياهم بعنوان اهينيتهم لها ترشيح لما بعده من الم

بالرجوع اليها (لامقام لكم) لاموضع اقامة لكم اولااقامة لكم ههنا يريدون المعسكر وقرئ بفتح الميم أى لاقيام اولاموضع قيام لكم (فارجعوا) اى الى منازلكم بالمدينة مرادهم الامر بالفرار لكنهم عبروا عنه بالرجوع توهيجا لمقالتهم وايذانا بأنه ليس من قبيل الفرار المذموم وقيل المعنى لاقيام لكم فى دين محمد عليه الصلاة والسلام فارجعوا الى ماكنتم عليه من الشرك أوفارجعوا ﴿ ٧٧١ ﴾ عمابعثتموه عليه وأسلموه الى أعدائه أولا مقام لكم فى يثرب فارجعوا كفارا ليتسنى لكم المقام بها والاول هوالانسب لمابعده فان قوله تعالى (ويستأذن فريق منهم النبى) معطوف على قالت وصيغة المضارع لماضمر من استحضار الصورة وهم بنوحارثة و بنو سلمة استأذنوه عليه الصلاة والسلام فى الرجوع ممتثلين بأمرهم وقوله تعالى (يقولون) بدل من يستأذن أوحال من فاعله أواستئناف مبنى على السؤال عن كيفية الاستئذان (ان بيوتنا عورة) أى غير محصنة معرضة للعدو والسراق فأذن لنا حتى نحصنها ثم نرجع الى العسكر والعورة فى الاصل الخلل اطلقت على المختل مبالغة وقد يجوز أن تكون تخفيف عورة من عورت الدار اذا اختلت وقد قرئ بها والاول هو الانسب بمقام الاعتذار كما يفصح عنه تصدير مقالهم بحرف التحقيق (وماهى بعورة) والحال انها ليست كذلك (ان يريدون) ما يريدون بالاستئذان (الا فرارا) من القتال (ولو دخلت عليهم) أسند الدخول الى بيوتهم مع علمهم بأن المراد فرض دخولها وهم فيها لافرض دخولها مطلقا كما هو المفهوم ولم يذكر الجار والمجرور فرض الدخول عليهم مطلقا كما هو المفهوم أوأسند الى الجار والمجرور (من أقطارها) أى من جميع جوانبها لامن بعض دون بعض فالمعنى لوكانت بيوتهم محتلة بالكلية ودخلها كل من أراد من أهل الدعارة والفساد (ثم سئلوا)

فلان مع انه ليس ابنه ليس كلاما فان الكلام فى الفؤاد وهذا فى الفم لاغيروالاطبقة هى ان الله تعالى ههنا فان ذلكم قولكم بأفواهكم وقال فى قوله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يعنى نسبة الشخص الى غير الاب قول لاحقيقة له ولايخرج من قلب ولايدخل أيضا فى قلب فهو قول بالفم مثل أصوات البهائم * ثم قال تعالى (والله يقول الحق) اشارة الى معنى لطيف وهو ان العاقل ينبغى ان يكون قوله اما عن عقل أوعن شرع فاذا قال فلان ابن فلان ينبغى أن يكون عن حقيقة أو يكون عن شرع بأن يكون ابنه شرعا وان لم يعلم الحقيقة كمن تزوج بامرأة فولدت لستة أشهر ولدا وكانت الزوجة من قبل زوجة شخص آخر يحتمل أن يكون الولد منه فانا نلحقه بالزوج الثانى لقيام الفراش ونقول انه ابنه وفى الدعى لم توجد الحقيقة ولاورد الشرع به لانه لايقول الاالحق وهذا خلاف الحق لان أباه مشهور ظاهر ووجه آخر فيه وهو انهم قالوا هذه زوجة الابن فحرم وقال الله تعالى هى لك حلال وقولهم لااعتبار به فانه بأفواههم كأصوات البهائم وقول الله حق فيجب اتباعه وقوله وهو يهدى السبيل يؤكد قوله والله يقول الحق يعنى يجب اتباعه لكونه حقا ولكونه هاديا وقوله تعالى ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق فيه لطيفة وهو ان الكلام الذى بالفم فحسب يشبه صوت البهائم الذى يوجد لاعن قلب ثم ان الكلام الذى بالقلب قد يكون حقا وقد يكون باطلا لان من يقول شيأ عن اعتقاد قد يكون مطابقا فيكون حقا وقد لايكون فيكون باطلا فالقول الذى بالقلب وهو المعتبر من أقوالكم قد يكون حقا وقد يكون باطلا لانه يتبع الوجود وقول الله حق لانه يتبعه الوجود فانه يقول عما كان أو يقول فيكون فاذن قول الله خير من أقوالكم التى عن قلوبكم فكيف تكون نسبته الى أقوالكم التى بأفواهكم فاذن لايجوز أن تأخذوا بقولكم الكاذب الماضى وتتركوا قول الله الحق فمن يقول أن تزوج النبى عليه الصلاة والسلام زينب لم يكن حسنا يكون قد ترك قول الله الحق وأخذ بقول خرج عن الفم * ثم قال تعالى (وهو يهدى السبيل) اشارة الى أن اتباع ما أنزل الله خير من الاخذ بقول الغير * ثم بين هداية وقال (ادعوهم لآبائهم) أى ادعوهم منسوبين لآبائهم (هو أقسط عند الله) أى أعدل فانه وضع الشئ فى موضعه وهو يحتمل وجهين (أحدهما) ان يكون ترك الاضافة للعموم أى أعدل كل كلام كقول القائل الله أكبر (وثانيهما) ان يكون ماتقدم منوبا كأنه قال ذلك أقسط من قولكم هو ابن فلان * ثم تم الارشاد وقال (فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم) يعنى قولوا لهم اخواننا وأخو فلان فان كانوا محررين فقولوا مولى فلان * ثم قال تعالى (وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به) يعنى قول القائل لغيره يابنى بطريق الشفقة وقول القائل لغيره يا أبى بطريق التعظيم فانه مثل الخطإ لاترى ان اللغو فى اليمين مثل الخطا وسبق اللسان فكذلك سبق اللسان فى قول القائل ابنى والسهو فى قوله ابنى من غير قصد

من جهة طائفة أخرى عند تلك النازلة والرجفة الهائلة (الفتنة) أي الردة والرجعة الى الكفر فكان ما سئلوا الآن من الايمان والطاعة (لآتوها) لاعطوها غير مبالين بما دهاهم من الداهية الدهياء والغارة الشعواء وقرئ لاتوهما بالقصر أي لفعلوها وجاؤها (وما تلبثوا بها) بالفتنة أي ما ألبثوها وما أخروها (الا يسيرا) ريثما يسع السؤال والجواب من الزمان فضلا عن التعليل باختلال البيوت مع ﴿ ٧٧٢ ﴾ سلامتها كما فعلوا الآن وقيل ما لبثوا بالمدينة بعد الارتداد الا يسيرا والاول هو اللائق بالمقام هذا وأما تخصيص فرض الدخول بتلك العساكر المتحزبة مع منافاته للعموم المستفاد من تجريد الدخول عن الفاعل ففيه ضرب من فساد الوضع لما عرفت من أن مساق النظم الكريم لبيان أنهم اذا دعوا الى الحق تعللوا بشئ يسير وان دعوا الى الباطل سارعوا اليه آثروه أثير من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم ففرض الدخول عليهم من جهة العساكر المذكورة واسناد سؤال الفتنة والدعوة الى الكفر الى طائفة أخرى مع أن العساكر هم المعروفون بعداوة الدين المباشرون لقتال المؤمنين المصرون على الاعراض عن الحق المجبون في الدعاء الى الكفر والضلال بمعزل من التقرير (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار) فان بني حارثة عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حين فشلوا أن لا يعودوا لمثله وقيل هم قوم غابوا عن وقعة بدر ورأوا ما أعطى الله أهل بدر من الكرامة والفضيلة فقالوا لئن أشهدنا الله قتالا لنقاتلن (وكان ﴿ وسلم عهد الله مسئولا) مطلوبا بمقتضى حتى يوفى به وقيل مسئولا عن الوفاء به ومجازى عليه (قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت والقتل) فانه لابد لكل شخص من حتف أنف أو قتل سيف في وقت معين سبق به القضاء وجرى عليه

الى اثبات النسب سواء * وقوله (ولكن ما تعمدت قلوبكم) مبتدأ خبره محذوف يدل عليه ما سبق وهو الجناح يعني ما تعمدت قلوبكم فيه جناح (وكان الله غفورا رحيما) يغفر الذنوب ويرحم المذنب وقد ذكرنا كلاما شافيا في المغفرة والرحمة في مواضع ونعيد بعضها ههنا فنقول المغفرة هو أن يستر القادر القبيح الصادر ممن تحت قدرته حتى ان العبد اذا استرعيب سيده مخافة عقابه لا يقال انه غفر له والرحمة هو ان يميل اليه بالاحسان لعجز المرحوم اليه لا لعوض فان من مال الى انسان قادر كالسلطان لا يقال رحمه وكذا من أحسن الى غيره رجاء في خيره أو عوضا عما صدر منه آنفا من الاحسان لا يقال رحمه اذا علم هذا فالمغفرة اذا ذكرت قبل الرحمة يكون معناها انه سترعيبه ثم رآه مفلسا عاجزا فرحمه وأعطاه ما كفاه واذا ذكرت المغفرة بعد الرحمة وهو قليل يكون معناها أنه مال اليه لعجزه فترك عتابه ولم يقتصر عليه بل ستر ذنوبه * ثم قال تعالى (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) تقرير لرحمة ما صدر منه عليه الصلاة والسلام من التزوج بزينب وكان هذا جواب عن سؤال وهو ان قائلا لو قال هب ان الانبياء ليسوا بأبناء كما قلت لكن من سمع غيبة ابنه اذا كان المدعى شيئا حسنا لا يليق بمروءته أن يأخذه منه ويطعن فيه عرفا فقال الله تعالى النبي أولى بالمؤمنين جوابا عن ذلك السؤال وتقريره هو ان دفع الحاجات على مراتب دفع حاجة الاجانب ثم دفع حاجة الاقارب الذين على حواشي النسب ثم دفع حاجة الاصول والفصول ثم دفع حاجة النفس والاول معروف والثاني دون الثاني وكذلك شرعا فان العاقلة تتحمل الدية عنهم ولا تتحملها عن الاجانب والثاني دون الثالث أيضا وهو ظاهر بدليل النفقة والثالث دون الرابع فان النفس تقدم على الغير وانيه أشار النبي عليه الصلاة والسلام بقوله ابدأ بنفسك ثم بمن تعول اذا علمت هذا فالانسان اذا كان معه ما يعطي به احدى الرجلين أو يدفع حاجة عن أحد شقي بدنه فلو أخذ الغطاء من أحدهما وغطى به الآخر لم يكن لاحد أن يقول له لم فعلت فضلا من أن تقول بشئ ما فعلت اللهم الا أن يكون أحد العضوين أشرف من الآخر مثل ما اذا وقى الانسان عينه بيده ويدفع البرد عن رأسه الذي هو معدن حواسه ويترك رجله تبرد فانه الواجب عقلا بعكس الامر بقال له لم فعلت واذا تبين هذا فالنبي صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمن من نفسه فلو دفع المؤمن حاجة نفسه دون حاجة نبيه يكون مثله مثل من يدهن شعره ويكشف رأسه في برد مفرط فاحتد به تربية شعره ولا لعلم انه يؤذي رأسه الذي لانبات لشعره الا منه فكذلك دفع حاجة النفس لفراغها الى عبادة الله تعالى ولا علم بكيفية العبادة الا من الرسول عليه الصلاة والسلام فلو دفع الانسان حاجته للعبادة فهو يدفعا للحاجة لان دفع الحاجة ما هو فوق تحصيل المصلحة وهذا ليس فيه مصلحة فضلا عن أن يكون حاجة واذ كان للعبادة فترك النبي الذي منه يتعلم كيفية العبادة في احتياج ودفع حاجة النفس مثل تربية الشعر مع اهمال أمر الرأس فتبين أن النبي صلى الله عليه

القلم (واذن لاتمتعون الاقليلا) أى وان نفعكم الفرار مثلا فتمتعتم بالتأخير لم يكن ذلك التمتيع الا تمتيعا قليلا اوزمانا قليلا (قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان أراد بكم سوأ أو أراد بكم رحمة) أى أو يصيبكم بسوء ان أراد بكم رحمة فاختصر الكلام أو حمل الثانى على الاول لما فى العصمة من معنى المنع (ولا يجدون لهم من دون الله وليا) ينفعهم (ولا نصيرا) يدفع عنهم الضرر (قد يعلم الله المعوقين منكم) أى المثبطين الناس عن رسول الله ﴿٧٧٣﴾ صلى الله عليه وسلم وهم المنافقون (والقائلين لاخوانهم) من منافقى المدينة (هلم الينا) وهو صوت سمى به فعل متعد نحو احضر أو قرب ويستوى فيه الواحد والجماعة على لغة أهل الحجاز وأما بنو تميم فيقولون هلم يا رجل وهلموا يا رجال أى قربوا أنفسكم الينا وهذا يدل على أنهم عند هذا القول خارجون من المعسكر متوجهون نحو المدينة (ولا يأتون البأس) أى الحرب والقتال (الا قليلا) أى اتيانا أو زمانا أو بأسا قليلا فانهم يعتذرون ويثبطون ما أمكن لهم ويخرجون مع المؤمنين يوهمونهم أنهم معهم ولا تراهم يبارزون ويقاتلون الا شيئا قليلا اذا اضطروا اليه كقوله تعالى ما قاتلوا الا قليلا وقيل انه من تتمة كلامهم معناه ولا يأتى أصحاب محمد حرب الاحزاب ولا يقاومونهم الا قليلا (أشحة عليكم) أى بخلاء عليكم بالمعاونة أو النفقة فى سبيل الله أو الصفر والغنيمة جمع شحيح وانتصابه على الحالية من فاعل يأتون أو من المعوقين أو على الذم (فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم) فى أحداقهم (كالذى يغشى عليه من الموت) صفة لمصدر ينظرون أو حال من فاعله أو لمصدر تدور أو حال من أعينهم أى ينظرون نظرا كائنا كنظر المغشى عليه من معالجة سكرات الموت حذرا وخورا ولواذا بك أو ينظرون كائنين كالذى الخ أو تدور أعينهم دورانا كائنا

وسلم اذا أراد شيئا حرم على الامة التعرض اليه فى الحكمة الواضحة * ثم قال تعالى (وأزواجه أمهاتهم) تنزيرا آخر وذلك لان زوجة النبى صلى الله عليه وسلم ما جعلها الله تعالى فى حكم الام الا لقطع نظر الامة عما تعلق به غرض النبى عليه الصلاة والسلام فاذا تعلق خاطره بامرأة شاركت الزوجات فى العلق فحرمت مثل ما حرمت أزواجه على غيره فلو قال قائل كيف قال وأزواجه أمهاتهم وقال من قبل وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم اشارة الى أن غير من ولدت لا تصير أما بوجه ولذلك قال تعالى فى موضع آخر ان امهاتهم الا اللائى ولدنهم فنقول قوله تعالى فى الآية المتقدمة والله يقول الحق وهو يهدى السبيل جواب عن هذا معناه ان الشرع مثل الحقيقة ولهذا يرجع العاقل عند تعذر اعتبار الحقيقة الى الشريعة كما ان امرأتين اذا ادعت كل واحدة ولدا بعينه ولم يكن لهما بينة وحلفت احداهما دون الاخرى حكم لها بالولد وان تبين ان التى حلفت دون البلوغ أو بكر بينة لا يحكم لها بالولد فعلم ان عند عدم الوصول الى الحقيقة يرجع الى الشرع لا بل فى بعض المواضع على الدور تغلب الشريعة الحقيقة فان الزانى لا يجعل أبا بالولد الزنا اذا ثبت هذا فالشارع له الحكم فقول القائل هذه امى قول نفهم لا من حقيقة ولا يترتب عليه حقيقة وأما قول الشارع حق والذى يؤيده هو أن الشارع به الحقائق حقائق فله أن يتصرف فيها الا ترى ان الام ما صارت اما الا بخلق الله الولد فى رحمها ولو خلقه فى جوف غيرها لكانت الام غيرها فاذا كان هو الذى جعل الام الحقيقية اما فله أن يسمى امرأة أما ويعطيها حكم الامومة والمعقول فى جعل أزواجه أمهاتنا هو ان الله تعالى جعل زوجة الاب محرمة على الابن لان الزوجة محل العبرة والتنازع فيها فلو تزوج الابن من كانت تحت الاب يفضى ذلك الى قطع الرحم والعقوق لكن النبى عليه الصلاة والسلام أشرف وأعلى درجة من الاب وأولى بالارضاء فان الاب يربى فى الدنيا فحسب والنبى عليه الصلاة والسلام يربى فى الدنيا والآخرة فوجب أن تكون زوجاته مثل زوجات الآباء فان قال قائل فلم لم يقل ان النبى أبوكم ويحصل هذا المعنى أولم لم يقل ان أزواجه أزواج أبيكم فنقول الحكمة وهى ان النبى لما بينا أنه اذا أراد زوجة واحد من الامة وجب عليه تركها ليتزوج بها النبى عليه الصلاة والسلام فلو قال أنت أبوهم لحرم عليه زوجات المؤمنين على التأبيد ولانه لما جعله أولى بهم من أنفسهم والنفس مقدم على الاب لقوله عليه الصلاة والسلام ابدأ بنفسك ثم برتعول ولذلك قال لمحتاج الى القوت لا يجب عليه صرفه الى الاب ويجب عليه صرفه الى النبى عليه الصلاة والسلام ثم ان أزواجه لهم حكم زوجات الاب حتى لا تحرم أولادهن على المؤمنين ولا اخواتهن ولا امهاتهن وان كان الكل يحرمن فى الام الحقيقية والرضاعية * ثم قال تعالى (وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين الا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفا كان ذلك فى الكتاب

كدوران عينه أو تدور أعينهم كائنة كعينه (فاذا ذهب الخوف) وحيزت الغنائم (سلقوكم) ضربوكم (بالسنة حداد) وقالوا وفروا قسمتنا فانا قد شاهدنا كم قاتلنا معكم وبكنا غلتم عدوكم وبنا نصرتم عليه والسلق البسط بقهر باليد أو باللسان وقرئ صلقوكم (اشحة على الخير) انصب على الحالية أو الذم ويؤيده القراءة بالرفع (أولئك) المرصوفون بما ذكر من صفات السوء (لم يؤمنوا) بالاخلاص (فاحبط الله اعمالهم) أى اظهر بطلانها اذلم يثبت ﴿٧٧٤﴾ لهم اعمال فتبطل أو ابطل تصنعهم ونفاقهم فلم يبق مستتبعا للمنفعة دنيوية أصلا (وكان ذلك) الاحباط (على الله يسيرا) هينا وتخصيص يسره بالذكر مع أن كل شئ عليه تعالى يسير لبيان أن أعمالهم حقيقة بأن يظهر حبوطها بالكمال تعاضد الدواعى وعدم الصوارف بالكلية (يحسبون الاحزاب لم يذهبوا) أى هؤلاء لجبنهم يظنون أن الاحزاب لم ينهزموا ففروا الى داخل المدينة (وان يأت الاحزاب) كرة ثانية (يودوا لو أنهم بادون فى الاعراب) تمنوا أنهم خارجون الى البدو حاصلون بين الاعراب وقرئ بدى جمع بادكغازوغزى (يسألون) كل قادم من جانب المدينة وقرئ يساءلون أى يتساءلون ومعناه يقول بعضهم لبعض ماذا سمعت ماذا بلغك أو يتساءلون الاعراب كما يقال رأيت الهلال وراءياه فان صيغة التفاعل قد تجرد عن معنى كون ما أسندت اليه فاعلا من وجه ومفعولا من وجه ويكتفى بتعدد الفاعل كما فى المثال المذكور ونظائره (عن أنبائكم) عما جرى عليكم (ولو كانوا فيكم) هذه الكرة ولم يرجعوا الى المدينة وكان قتال (ما قاتلوا الا قليلا) رياء وخوفا من التعيير (لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة) ﴿عيسى﴾ خصلة حسنة حقها أن يؤتسى بها كالثبات فى الحرب ومقاساة الشدائد أو هو فى نفسه قدوة يحق التأسى به كقولك فى البيضة عشرون مناحديدا أى هى فى نفسها هذا القدر

مسطورا) اشارة الى الميراث وقوله الا أن تفعلوا الى أوليائكم معروفا اشارة الى الوصية يعنى ان أوصيتم لغير الوارثين أولى وان لم توصوا فالوارثون أولى بميراثكم وبما تركتم فان قيل فعلى هذا أى تعلق للميراث والوصية بما ذكرت تقول تعلق قوى خفى لا يتبين الا لمن هداه الله بنوره وهو ان غير النبى عليه الصلاة والسلام فى حال حياته لا يصير له مال الغير وبعد وفاته لا يصير ماله لغير ورثته والنبى عليه الصلاة والسلام فى حال حياته كان يصير له مال الغير اذا أراده ولا يصير ماله لورثته بعد وفاته كأن الله تعالى عوض النبى عليه الصلاة والسلام عن قطع ميراثه بقدرته على تملك ان الغير وعوض المؤمنين بأن ماتركه يرجع اليهم حتى لا يكون حرج على المؤمنين فى ان النبى صلى الله عليه وسلم اذا أراد شيئا يصير له ثم يموت ويبقى لورثته فيفوت عليهم ولا يرجع اليهم فقال تعالى وأولوا الارحام بعضهم أولى ببعض بعد بينكم التوارث فيصير مال أحدكم لغيره بالارث والنبى لا توارث بينه وبين أقاربه فينبغى أن يكون له بدل هذا أنه أولى فى حياته بما فى أيديكم (الثانى) هو ان الله تعالى ذكر دليلا على ان النبى عليه الصلاة والسلام أولى بالمؤمنين وهو ان أولى الارحام بعضهم أولى ببعضهم ثم اذا أراد أحدا برا مع صديق فيوصى له بشئ فيصير أولى من قريبه وكأنه بالوصية قطع الارث وقال هذا مالى لا ينتقل عنى الا الى من أريده فكذلك الله تعالى جعل لصديقه من الدنيا ما أراده ثم ما يفضل منه يكون لغيره وقوله كان ذلك فى الكتاب مسطورا فيه وجهان (أحدهما) فى القرآن وهو آية المواريث والوصية (والثانى) فى اللوح المحفوظ * ثم قال تعالى (واذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى بن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا) وجه تعلق الآية بما قبلها هو ان الله تعالى لما أمر النبى عليه الصلاة والسلام بالاتقاء بقوله يا أيها النبى اتق الله وأكده بالحكاية التى خشى فيها الناس كى لا يخشى فيها أحدا غير ربه بين أنه لم يرتكب أمرا يوجب الخشية بقوله النبى أولى بالمؤمنين من نفسهم أكده بوجه آخر وقال واذ أخذنا من النبيين كأنه قال اتق الله ولا تخف أحدا واذكر أن الله أخذ ميثاق النبيين فى أنهم يبلغون رسالات الله ولا يمنعهم من ذلك خوف ولا طمع وفيه مسائل (المسئلة الاولى) المراد من الميثاق المأخوذ من النبيين ارسالهم وأمرهم بالتبليغ (المسئلة الثانية) خص بالذكر أربعة من الانبياء وهم نوح وابراهيم وموسى وعيسى لان موسى وعيسى كان لهما فى زمان نبينا قوم وأمة فذكرهما احتجاجا على قومهما وابراهيم كان العرب يقولون بفضله وكانوا يدعونه فى اشعارهم بعضها ونوحا لانه كان أصلا ثانيا للناس حيث وجد الخلق منه بعد الطوفان وعلى هذا لو قال قائل فآدم كان أولى بالذكر من نوح فنقول خلق آدم كان للعمارة ونبوته كانت مثل الارشاد للاولاد ولهذا لم يكن فى زمانه اهلاك قوم ولا تعذيب وأما نوح فكان مخلوقا للنبوة وأرسل للانذار ولهذا أهلك قومه وأغرقوا (المسئلة الثالثة) فى كثير من المواضع يقول الله

من الحديد وقرئ بكسر الهمزة وهي لغة فيها (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) اى ثواب الله اولقاءه او ايام الله واليوم الآخر خصوصا وقيل هو مثل قولك أرجو زيدا وفضله فان اليوم الآخر من أيام الله تعالى وان كان صلة لحسنة أو صفة لها وقيل بدل من لكم والاكثرون على أن ضمير الخطاب لا يدل منه (وذكر الله) أي وقرن بالرجاء ذكر الله (كثيرا) أو ذكرا كثيرا أو زمانا كثيرا فان المثابرة على ذكره تعالى تؤدي الى

ملازمة الطاعة وفيها يتحقق الائتساء برسول الله صلى الله عليه وسلم

عيسى بن مريم والمسيح بن مريم اشارة الى أنه لا أب له ذنوكار لوقع التعريف به وقوله وأخذنا منهم ميثاقا غليظا خذ الميثاق هو سوقهم عما فعلوا في الارسال كما قال تعالى ولنسئلن المرسلين وهذا لان الملك اذا أرسل رسولا وأمره بشئ وقبله فهو ميثاق فاذا أعمله بأنه يسأل عن رسالته في أفعاله وأقواله يكون ذلك تغليظا للميثاق عليه حتى لا يزيد ولا ينقص في الرسالة وعلى هذا يمكن أن يقال بأن المراد من قوله تعالى وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذ منكم ميثاقا غليظا هو الاخبار بأنهم مسؤلون عنها كما قال النبي عليه الصلاة والسلام كلكم راع وكلكم مسؤل وكما ان الله تعالى جعل الرجال قوامين على النساء جعل الانبياء قائمين بأمورأتهم وارشادهم الى سبيل الرشاد * ثم قال تعالى (ليسئل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما) يعني أرسل الرسل وعاقبة المكلفين اما حساب واما عذاب لان الصادق يحاسب والكافر يعذب وهذا كما قال علي عليه السلام الدنيا حلالها حساب وحرامها عذاب وهذا مما يوجب الخوف العام فيتأكد قوله يا أيها النبي اتق الله ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا

اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فارسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا) تحقيقا لما سبق من الامر بتقوى الله بحيث لا يبقى معه خوف من أحد وذلك لان في واقعة اجتماع الاحزاب واشتداد الامر على الاصحاب حيث اجتمع المشركون بأسرهم واليهود بأجمعهم ونزلوا على المدينة وعمل النبي عليه السلام الخندق كان الامر في غاية الشدة والخوف بالغا الى النهاية والله دفع القوم عنهم من غير قتال وآمنهم من الخوف فينبغي ان لا يخاف العبد غير ربه فانه كاف أمره ولا يأمن مكره فانه قادر على كل ممكن فكان قادرا على أن يقهر المسلمين بالكفار مع انهم كانوا ضعفاء كما قهر الكافرين بالمؤمنين مع قوتهم وشوكتهم وقوله فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها اشارة الى ما فعل الله بهم من ارسال ريح باردة عليهم في ليلة شاتية وارسال الملائكة وقذف الرعب في قلوبهم حتى كانا بعض ينتزن بالبعض من خوف الخيل في جوف الليل والحكاية مشهورة وقوله وكان الله بما تعملون بصيرا اشارة الى ان الله علم التجاءكم اليه ورياءكم فنصركم على الاعداء عند الاستغناء وهذا تقرير لوجوب الخوف وعدم جواز الخوف من غير الله فان قوله فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها أي الله يقضي حاجتكم وأنتم لا ترون فان كان لا يظهر لكم وجه الأمر فلا تلتفتوا الى عدم ظهوره لكم لانكم لا ترون الاشياء فلا تخافون غير الله والله بصير بما تعملون فلا تقولوا بأنا نفعل شيئا وهو لا يبصره فانه بكل شئ بصير وقوله اذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم بيان لشدة الامر وغايه الخوف وقيل من فوقكم أي من جانب الشرق ومن أسفل منكم من جانب الغرب وهم أهل مكة وزاغت الابصار أي مالت عن سننها

(ولما رأى المؤمنون الاحزاب) بيان لما صدر عن خلص المؤمنين عند اشتباه الشؤن واختلاط الظنون بعد حكاية ما صدر عن غيرهم أي لما شاهد وهم حسبما وصفوا لهم (قالوا هذا) اشير الى ما شاهدوه من حيث هو من غير ان يخطر ببالهم لفظ يدل عليه فضلا عن تذكيره وتأنيثه فانهما من أحكام اللفظ كما مر في قوله تعالى فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي وجعله اشارة الى الخطب أو البلاء من نتائج النظر الجليل فتدبر نعم يجوز التذكير باعتبار الخبر الذي هو (ما وعدنا الله ورسوله) فان ذلك العنوان أول ما يخطر ببالهم عند المشاهدة ومرادهم بذلك ما وعدوه بقوله تعالى أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء الى قوله تعالى ألا ان نصر الله قريب وقوله عليه الصلاة والسلام سيشتد الامر باجتماع الاحزاب عليكم وأن العاقبة لكم عليهم وقوله

عليه الصلاة والسلام ان الاحزاب سائرون اليكم بعد تسع ليال أو عشر وقرئ بكسر الراء وفتح الهمزة (وصدق الله ورسوله) أي ظهر صدق خبر الله تعالى ورسوله أو صدقا في النصرة والثواب كما صدقا في ابلاء وظهار الاسم للتفخيم (وما زادهم) أي ما رأوه (الا ايمانا) بالله تعالى وبمواعيده (وتسليما) لاوامره ومقاديره (من المؤمنين) أي المؤمنين بالاخلاص مصدقا لا الذين حكيت مجاسنهم

خاصة (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) من الثبات مع الرسول عليه الصلاة والسلام والمقاتلة لاعداء الدين وهم رجال من الصحابة رضي الله عنهم نذروا انهم اذا لقوا حربا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا وهم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ومعنى صدقوا أتوا بالصدق من صدقني اذا قال ﴿ص ٧٦﴾ ان الصدق ومحل ما عاهدوا النصب اما بطرح الخافض عنه وايصال الفعل اليه كما في قولهم صدقني سن بكره أي في سنه واما بجعل المعاهدة عليه مصدوقا على المجاز كأنهم خاطبوه خطاب من قال لكوماته نحرتني الاعداء ان لم تحرى * وقالوا له سنوفي بك وحيث وفوا به فقد صدقوه ولو كانوا نكثوه لكذبوه وانكار مكذوبا (فمنهم من قضى نحبه) تفصيل لحال الصادقين وتقسيم لهم الى قسمين والنحب النذر وهو أن يلتزم الانسان شيأ من أعماله ويوجبه على نفسه وقضاؤه الفراغ منه والوفاء به ومحل الجار والمجرور الرفع على الابتداء على أحد الوجهين المذكورين في قوله تعالى ومن الناس من يقول آمنا بالله الآية أي فبعضهم أو فبعض منهم من خرج عن العهدة كحمزة ومصعب بن عمير وأنس بن النضر عم أنس بن مالك وغيرهم رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فانهم قد قضوا نذورهم سواء كان النذر على حقيقته بأن يكون ما نذروه أفعالهم الاختيارية التي هي القتلة الخاصة بما ليس منها ولا بد منها تحت الله روهو لمن شهد أو كان مستعدا للالتزام على ما سأتي ﴿ أتباعه ﴾ ومنهم) أي ومن بعضهم أو بعض منهم (من ينتظر) أي قضاء نحبه لكونه مؤديا كعثمان وطلحة وغيرهم ممن استشهد بعد ذلك رضوان الله تعالى عليهم أجمعين فانهم مستمرون على نذرهم قد قضوا بعضها وهو الثبات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقتال الى

فلم تلتفت الى العدو لكثرته وبلغت القلوب الحناجر كناية عن غاية الشدة وذلك لان القلب عند الغضب يندفع وعند الخوف يحتمع فيتناقص فلتصعد بالحنجرة وقد يفضي الى أن يسد مجرى النفس فلا يقدر المرء يتنفس ويموت من الخوف ومثله قوله تعالى حتى اذا بلغت الحناجر وقوله وتظنون بالله الظنونا الالف واللام يمكن أن يكونا بمعنى الاشراق سياقة يعني تظنون كل ظن لان عند الامر العظيم كل أحد يظن شيئا ويمكن أن يكون المراد ظنوهم المعهود لان المعهود من المؤمن ظن الخير بالله كما قال عليه السلام ظنوا بالله خيرا ومن الكافر الظن السوء كما قال تعالى ذلك ظن الذين كفروا وقوله ان يتبعون الا الظن فان قلت فائل المصدر يجمع فما الفائدة في جمع الظنون وهو لا شك في انه منصوب على المصدر ولكن الاسم قد يجمع مصدرا كما يقال ضربته سياطا وأدبته سرارا فكأنه قال ظننتم ظنونا بعد ظن أي ما ظننتم شتى ظن فالفائدة هي ان الله تعالى وقال تظنون ظنونا جاز أن يكونوا مصيبين عادا قال ظنونا تبين ان فيهم من كان ظنه كاذبا لان الظنون قد تكذب كلها وقد يكذب بعضها اذ كانت في أمر واحد مثاله اذا رأى جمع من بعيد جسما وظن بعضهم أنه زيد وآخرون انه عمرو وقوم ثالثة بكر ثم ظهر لهم الحق قد يكون الكل مخطئين والمرئي شجرا أو حجرا وقد يكون أحدهم مصيبا ولا يمكن ان يكونوا كلهم مصيبين فقوله الظنونا أعاد ان فيهم من أخطأ الظن ولو قال تظنون بالله ظنا ما كان يفيد هذا * ثم قال تعالى (هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا) أي عند ذلك امتحن الله المؤمنين فتميز الصادق عن المنافق والامعن من الله ليس لاستبانة الامر له بل لحكمة أخرى وهي أن الله تعالى عالم بما هم عليه لكنه اراد أظهر الامر لغيره من الملائكة والانبياء كأن السيد اذا علم من عبده المخالفة وعزم على معاقبته على مخالفته وعنده غيره من العبيد وغيرهم فيأمره بأمر عالما بأنه يخالفه فيبين الامر عند الغير فتقع المعاقبة على أحسن الوجوه حيث لا يقع لاحد أنها بظلم أو من قلة حلم وقوله وزلزلوا أي ازعجوا وحركوا فرئيت منهم كان من الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا ذكر الله تطمئن مرة أخرى وهم المؤمنون حقا * ثم قال تعالى (واذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون ان بيوتنا عورة وما هي بعورة ان يريدون الا فرارا) عبر الظنون وبينها فظن المنافقون ان ما قال الله ورسوله كان زورا ووعدهما كان غرورا حيث قطعوا بأن الغلبة واقعة وقوله واذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم أي لا وجه لاقامتكم مع محمد كما يقال لا اقامة على الدل والهوان أي لا وجه لهما ويثرب اسم للبقعة التي هي المدينة فارجعوا أي عن محمد واتفقوا مع الاحزاب تخرجوا من الاحزان ثم الساموا عزموا على الرجوع واستأذنوه وتعللوا بأن بيوتنا عورة أي فيها خلل لا يأمن صاحبها السارق على متاعه والعدو على

حين نزول الآية الكريمة ومنتظرون لقضاء بعضها الباقي وهو القتال الى الموت شهيدا هذا ويجوز أن يكون النحب مستعارا لالتزام الموت شهيدا اما بتزيل التزام أسبابه التي هي أفعال اختيارية منزلة التزامه نفسه واما بتنزيل نفسه بمنزلة أسبابه وإرادة الالتزام عليه وهو الانسب بمقام المدح وأيا ما كان ففي وصفهم بالاتصاف بما ذكر من الرغبة في المنتظر شهادة حقة بكمال اشتياقهم الى الشهادة واما ما قيل من ﴿ ٧٧٧ ﴾ ان النحب استعير للموت لانه نذر لازم في رقبة كل حيوان فمبني على الاستعارة

اتباعه ثم بين الله كذبهم بقوله وما عاهدوا الله من قبل الخ وبين قصدهم مما قبله بقوله وما زادهم الا فرارا بسبب الخوف ثم قال تعالى (ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها الا يسيرا) اشارة الى أن ذلك الفرار والرجوع ليس لحفظ البيوت لان من يفعل فعلا لغرض فاذا فاته الغرض لا يفعله كمن يبذل المال لكي لا يؤخذ منه بيته فاذا أخذ منه البيت لا يبذل له فقال الله تعالى لهم قالوا بأن رجوعنا عنك لحفظ بيوتنا لو دخلها الاحزاب وأخذوها منهم لرجعوا أيضا وليس رجوعهم عنك لا بسبب كفرهم وحبهم الفتنة وقوله ولو دخلت عليهم احتمل أن يكون المراد المدينة واحتمل أن يكون البيوت قوله وما تلبثوا بها يحتمل أن يكون المراد الفتنة الا يسيرا فانها تزول وتكون العاقبة للمتقين ويحتمل أن يكون المراد المدينة أو البيوت أي ما لبثوا بالمدينة الا يسيرا فان المؤمنين يخرجونهم ثم قال تعالى (ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار وكان عهد الله مسؤلا قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل) بيانا لفساد سريرتهم وقبح سيرتهم لنقضهم العهود فانهم قبل ذلك تخلفوا واظهروا عذرا واندما وذكروا ان القتال لا يزال ايسم قدما ثم هددهم بقوله وكان عهد الله مسؤلا وقوله قل لن ينفعكم الفرار ان فررتم من الموت أو القتل اشارة الى ان الامور مقدرة لا يمكن الفرار مما وقع عليه الفرار وما قدره الله كائن فمن أمر بشئ اذا خافه بقي في ورطة العقاب آجلا ولا ينفع بالمخافة عاجلا ثم قال تعالى (واذا لا تمتعون الا قليلا) كأنه يقول ولو فررتم منه في يومكم مع انه خير ممكن لما دمتم بل لا تمتعون الا قليلا فالعاقل لا يرغب في شئ قليل مع لذة يفوت بعده شئا كثيرا ولا فراركم ولو كان لما امتعتم بعد الفرار الا قليلا ثم قال تعالى (قل

ومذهاب بروحها واخراج للنظم الكريم عن مقتضى المقام بالكلية (وما بدلوا) عطف على صدقوا وفاعله فاعله أي وما بدلوا عهدهم وما غيروه (تبديلا) أي تبديلا مالا أصلا ولا وفاء بل ثبتوا عليه باغين فيه مراعين لحقوقه على أحسن ما يكون أما الذين قضوا فظاهر وأما الباقون فيشهد به انتظارهم أصدق شهادة وتعميم عدم التبديل للفريق الاول مع ظهور حالهم للايذان بمساواة الفريق الثاني لهم في الحكم ويجوز أن يكون ضمير بدلوا للمنتظرين خاصة بناء على أن المحتاج الى بيان حالهم وقد روى أن طلحة رضي الله عنه ثبت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد حتى أصيبت يده فقال عليه الصلاة والسلام أوجب طلحة الجنة وفي رواية أوجب طلحة وعنه عليه الصلاة والسلام في رواية جابر رضي الله عنه من سره أن ينظر الى شهيد يمشي على الارض فلينظر الى طلحة وعن عائشة رضي الله عنها من سره أن ينظر الى شهيد يمشي على الارض وقد قضى نحبه فلينظر الى طلحة وهذا يشير الى أنه من الاولين حكما (ليجزي الله الصادقين بصدقهم) متعلق بمضمر مستأنف سيق بطريق التعليل لبيان ما هو داع الى وقوع ما حكي من الاحوال والاوال على التفصيل وغايته كما مر في قوله

ذا الذي يعصمكم من الله ان أراد بكم سوأ أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) بيانا لما تقدم من قوله لن ينفعكم الفرار وقوله ولا يجدون لهم من دون الله تقرير لقوله من ذا الذي يعصمكم أي ليس لكم ولي يشفع لمحبته اياكم ولا نصير ينصركم ويدفع عنكم السوء اذا أتاكم ثم قال تعالى (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس الا قليلا أشحة عليكم) اي الذين يثبطون المسلمين ويقولون تعالوا الينا ولا تقاتلوا مع محمد صلى الله عليه وسلم وفيهم وجهان (أحدهما) انهم المنافقون الذين كانوا يقولون للانصار لا تقاتلوا واسلموا محمدا الى قريش (وثانيهما) اليهود الذين كانوا يقولون لاهل المدينة تعالوا الينا ولوموا معنا وهلم يعني تعال أو احضر ولا يجمع في لغة الحجاز وتجمع في غيرها فيقال للجماعة هلموا وللنساء هلممن وقوله ولا يأتون البأس الا قليلا يؤيد الوجه الاول وهو ان المراد منهم المنافقون وهو يحتمل وجهين (أحدهما) لا يأتون البأس بمعنى يتخلفون عنكم ولا يخرجون معكم وحينئذ فقوله تعالى أشحة عليكم أي بخلاء حيث لا ينفقون في سبيل الله شيئا (وثانيهما) لا يأتون البأس بمعنى لا يقاتلون معكم تعللين عنه بالاشتغال بالقتال وقت

تعالى ليسأل الصادقين عن صدقهم كأنه قيل وقع جميع ماوقع ليجزي الله الصادقين بما صدر عنهم من الصدق والوفاء قولا وفعلا (ويعذب المنافقين) بما صدر عنهم من الاعمال والاقوال المحكية (ان شاء) تعذيبهم (أو يتوب عليهم) ان تابوا وقيل متعلق بما قبله من نفي التبديل المنطوق واثباته المعرض به كأن المنافقين قصدوا بالتبديل عاقبة السوء كما قصد المخلصون بالثبات والوفاء العاقبة الحسنى وقيل تعليل لصدقوا ﴿ ٧٧٨ ﴾ وقيل لما يفهم من قوله تعالى ومازادهم الايمانا وتسليما وقيل لما يستفاد من قوله تعالى ولما رأى المؤمنون الاحزاب كأنه قيل ابتلاهم الله تعالى برؤية ذلك الخطب ليجزي الآية فتأمل وبالله التوفيق (ان الله كان غفورا رحيما) أي لمن تاب وهو اعتراض فيه بعث الى التوبة وقوله تعالى (وردالله الذين كفروا) رجوع الى حكاية بقية القصة وتفصيل تتمة النعمة المشار اليها اجمالا بقوله تعالى فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها معطوف اما على المضمر المقدر قبل قوله تعالى ليجزي الله كأنه قيل اثر حكاية الامور المذكورة وقع ماوقع من الحوادث وردالله الخ واما على أرسلنا وقد وسط بينهما بيان كون ما نزل بهم واقعة طامة تحيرت بها العقول والافهام وداهية تامة تحاكت منها الركب وزلت الاقدام وتفصل ما صدر عن فريقي أهل الايمان واهل الكفر والنفاق من الاحوال والاقوال لاظهار عظم النعمة وابانة خطرها الجليل ببيان وصولها اليهم عند غاية احتياجهم اليها أي فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وردد نا بذلك الذين كفروا والالتفات الى الاسم الجليل لتربية المهابة وادخال الروعة ﴿ وقد ﴾ وقوله تعالى (بغيظهم) حال من الموصول أي ملتبسين به وكذا قوله تعالى (لم ينالوا خيرا) بتداخل أو تعاقب أي غير ظافرين بخير والثانية بيان للاولى أو استئناف (وكفى الله المؤمنين القتال) بما ذكر من ارسال الريح والجنود (وكان

الحضور معكم وقوله أشحة عليكم أي بانفسهم وأبدانهم ثم قال تعالى (فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير) اشارة الى غاية جبنهم ونهاية روعهم واعلم ان البخل شبيه الجبن فلما ذكر البخل بين سببه وهو الجبن والذي يدل عليه هو ان الجبان يبخل بماله ولا ينفقه في سبيل الله لانه لا يتوقع الظفر فلا يرجو اغنمه فيقول هذا انفاق لا بدل له فيتوقف فيه وأما الشجاع فيتيقن الظفر والاغتنام ويهون عليه اخراج المال في القتال طمعا فيما هو اضعاف ذلك واما بالنفس وايدن فكذلك فان الجبان يخاف فرته ويتصور القتل فيجبن ويترك الاقدام واما الشجاع فيحكم بالغلبة والنصر فيقدم وقوله تعالى فاذا ذهب الخوف سلقوكم أي عابوكم بالسنة وآذوكم بكلامهم يقولون نحن الذين قاتلنا وبنا انتصرتم وكسرتم العدو وقهرتم وغلبوكم بالقسم الاوفر من الغنيمة وكانوا من قبل راضين من الغنيمة بالباب وقوله أشحة على الخير قيل الخير المال ويمكن ان يقال معناه انهم قليلو الخير في الحالين كثيرو الشر في الوقتين في الاول يبخلون وفي الآخر كذلك ثم قال تعالى (أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا) يعني لم يؤمنوا حقيقة وان أظهروا الايمان لفظا فأحبط الله أعمالهم التي كانوا يأتون بها مع المسلمين قوله وكان ذلك على الله يسيرا اشارة الى ما يكون في نظر الناظر كما في قوله تعالى وهو أهون عليه وذلك لان الاحباط اعدام واهدار واعدام الاجسام اذا نظر الناظر يقول الجسم اعدامه بتفريق اجزائه فان من أحرق شيئا يبقى منه رماد وذلك لان الرماد من فرقته الريح يبقى منه ذرات وهذا مذهب بعض الناس والحق هو ان الله بعد الاجسام وبعد ما يشاء منها وأما العمل فهو في العين معدوم ان كان يبقى يبقى بحكمه وآثاره فاذا لم يكن له فائدة واعتبار فهو معدوم حقيقة وحكما فالعمل اذا لم يعتبر فهو معدوم في الحقيقة بخلاف الجسم ثم قال تعالى (يحسبون الاحزاب لم يذهبوا وان يأت الاحزاب يودوا لو انهم بادون في الاعراب يسئلون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا) ثم قال تعالى (ولما رأى المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا ايمانا وتسليما) لما بين حال المنافقين ذكر حال المؤمنين وهو انهم قالوا هذا ما وعدنا الله من الابتلاء ثم قالوا وصدق الله ورسوله في مقابلة قولهم ما وعدنا الله ورسوله الا غرورا وفي قولهم وصدق الله ورسوله ليس اشارة الى ما وقع فانهم كانوا يعرفون صدق الله قبل الوقوع وانما هي اشارة الى بشارة وهو انهم قالوا هذا ما وعدنا الله

الله قويا) على احداث كل ما يريد (عزيزا) غالبا على كل شئ (وأنزل الذين ظاهروهم) اى عاونوا الاحزاب المردودة (من أهل الكتاب) وهم بنو قريظة (من صياصيهم) من حصونهم جمع صيصية وهى ما يتحصن به ولذلك يقال لقرن الثور والظبى وشوكة الديك (وقذف فى قلوبهم الرعب) الخوف الشديد بحيث أسلموا أنفسهم للقتل وأهليهم وأولادهم للاسر حسبما ينطق به قوله تعالى (فريقا تقتلون وتأسرون ٭ ٧٧٩ ٭ فريقا) من غير أن يكون من جهتهم حراك فضلا عن المخالفة والاستعصاء

وقد وقع وصدق الله فى جميع ما وعد فيقع الكل مثل فتح مكة وفتح الروم وفارس وقوله ما زادهم الا ايمانا بوقوعه وتسليما عند وجوده * ثم قال تعالى (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين ان شاء أو يتوب عليهم ان الله كان غفورا رحيما ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا) اشارة الى وفائهم بعهدهم الذى عاهدوا الله انهم لا يفارقون نبيه الا بالموت فمنهم من قضى نحبه أى فاز حتى قتل فوفى بنذره وانتحب النذر ومنهم من هو بعد فى القتال ينتظر الشهادة وفاء بالعهد وما بدلوا تبديلا بخلاف المنافقين فانهم قالوا لا تولى الادبار فبدلوا قولهم وولوا أدبارهم وقوله ليجزى الله الصادقين بصدقهم أى بصدق ما وعدهم فى الدنيا والآخرة كما صدقوا مواعيدهم ويعذب المنافقين الذين كذبوا واخلفوا وقوله ان شاء ذلك فيمنعهم من الايمان أو يتوب عليهم ان أراد وانما قال ذلك حيث لم يكن قد حصل يأس النبى عليه السلام عن ايمانهم وآمن بعد ذلك ناس منهم وقوله وكان الله غفورا رحيما سيتوب عليهم ويرحمهم حيث رحمهم ورزقهم الايمان فيكون هذا تعميما لمن آمن بعده أو قبول وبعذب المنافقين مع انه كان غفورا رحيما لكثرة ذنبهم وقوة جرمهم ولو كان دون ذلك لغفر لهم ثم بين بعض ما جازاهم الله به على صدقهم فقال ورد الله الذين كفروا بغيظهم أى مع غيظهم لم يشفوا صدرا ولم يحققوا أمرا وكفى الله المؤمنين القتال اذ لم يحوجهم الى قتال وكان الله قويا غير محتاج الى قتالهم عزيزا قادرا على استئصال الكفار واذلالهم * ثم قال تعالى (وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا) اى عاونوهم من أهل الكتاب وهم بنو قريظة من صياصيهم من ملاعبهم وقذف فى قلوبهم الرعب حتى سلموا أنفسهم للقتل وأولادهم ونساءهم للسبى فريقا تقتلون وهم الرجال وتأسرون فريقا وهم الصبيان والنسوان فان قيل هل فى تقديم المفعول حيث قال فريقا تقتلون وتأخيره حيث قال وتأسرون فريقا فائدة قلت قد أجبنا ان ما من شئ من القرآن الا وله فوائد منها ما يظهر ومنها ما لا يظهر والذى يظهر من عند الله أعلم ان القائل يبدأ بالاهم فالاهم والاعرف فالاعرف والاقرب فالاقرب والرجال كانوا مشهورين فكان القتل وارد اعليهم والاسرى كانوا هم النساء والصغار ولم يكونوا مشهورين والسبى والاسر أظهر من القتل لانه يبقى فيظهر لكل أحد انه أسير فقدم من المحلين ما هو اشهر على الفعل القائم به وما هو أشهر من الفعلين قدمه على المحل الاخفى وان شئنا نقول بعبارة توافق المسائل النحوية فنقول قوله فريقا تقتلون فعل ومفعول والاصل فى الجمل الفعلية تقديم الفعل على المفعول والفاعل اما انها جملة فعلية فلانها لو كانت اسمية لكان الواجب فى فريق الرفع وكان يقول فريق منهم تقتلونهم فلما نصب كان ذلك بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره تقتلون فريقا تقتلون

روى أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم صبيحة الليلة التى انهزم فيها الاحزاب ورجع المسلمون الى المدينة ووضعوا السلاح فقال أتنزع لأمتك والملائكة ما وضعوا السلاح ان الله يأمرك أن تسير الى بنى قريظة وانا عامد اليهم فاذن فى الناس أن لا يصلوا العصر الا ببنى قريظة فحاصروهم احدى وعشرين أو خمسا وعشرين ليلة حتى جهدهم الحصار فقال لهم تنزلون على حكمى فأبوا فقال على حكم سعد بن معاذ فرضوا به فحكم سعد بقتل مقاتليهم وسبى ذراريهم ونسائهم فكبر النبى عليه الصلاة والسلام وقال لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة فقتل منهم ستمائة مقاتل وقيل من ثمانمائة الى تسعمائة وأسر سبعمائة وقرئ تأسرون بضم السين كما قرئ الرعب بضم العين ولعل تأخير المفعول فى الجملة الثانية مع أن مساق الكلام لتفصيله وتقسيمه كما فى قوله تعالى ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون وقوله تعالى فريقا

كذبوا وفريقا يقتلون لمراعاة الفواصل (وأورثكم أرضهم وديارهم) أى حصونهم (وأموالهم) نقودهم وأثاثهم ومواشيهم روى أن رسول الله عليه وسلم جعل عقارهم للمهاجرين دون الانصار فقالت الانصار فى ذلك فقال عليه الصلاة والسلام انكم فى منازلكم فقال عمر رضى الله عنه أما تخمس كما خمست يوم

بدر فقال عليه الصلاة والسلام لا انما جعلت هذه لي طعمة دون الناس فقالوا رضينا بما صنع الله ورسوله (وأرضا لم تطؤها) أي أورثكم في علمه وتقديره أرضا لم تقبضوها بعد كفارس والروم وقيل كل أرض تفتح الى يوم القيامة وقيل خيبر (وكان الله على كل شيء قديرا) فقد شاهدتم بعض مقدوراته من ايراث الارض التي تسلمتموها فتقبسوا عليها ما بعدها (يا أيها النبي قل لازواجك ان كنتن تردن الحيوة الدنيا) أي السعة والتنعم فيها (وزينتها) وزخارفها ✽ ٧٨٠ ✽ (فتعالين) أي أقبلن بارادتكن واختياركن

والحامل على مثل هذا الكلام شدة الاهتمام ببيان المفضول وههنا كذلك لانه تعالى لما ذكر حال الذين ظاهروهم وانه قذف في قلوبهم الرعب فلو قال تقتلون الى أن يسمع السامع مفعول تقتلون يكون زمان وقد يمنعه مانع فيفوته فلا يعلم انهم هم المقتولون فأما اذا قال فريقا مع سبق في قلوبهم الرعب الى سمعه يستمع الى اتمام الكلام واذا كان الاول فعلا ومفعولا قدم المفعول لفائدة عطف الجملة الثانية عليها على الاصل فعدم تقديم الفعل لزوال موجب التقديم اذا عرف حالهم وما يجيء بعده يكون مصروفا اليهم ولو قال بعد ذلك وفريقا تأسرون فمن سمع فريقا ربما يظن ان يقال فيهم يطلقون أو يتقدرون عليهم فكان تقديم الفعل ههنا أولى وكذلك الكلام في قوله وأنزل الذين ظاهروهم وقوله وقذف فانا قذف الرعب قبل الانزال لان الرعب صار سببا للانزال ولكن لما كان الفرح في انزالهم أكثر قدم الانزال على قذف الرعب والله أعلم ✽ ثم قال تعالى (وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤها وكان الله على كل شيء قديرا) هذا ترتيب على ما كان فان المؤمنين أولا ملكوا أرضهم بالنزول فيها والاستيلاء عليها ثم ملكوا ديارهم بالدخول عليهم وأخذ ما عجزوا عنه ثم أموالهم التي كانت في بيوتهم وقوله وأرضا لم تطؤها قال المراد اقلاع وقيل المراد الروم وأرض فارس وقيل كل ما يؤخذ الى يوم القيامة وكان الله على كل شيء قديرا هذا يؤكد قول من قال ان المراد من قولهم وأرضا لم تطؤها هو ما يؤخذ بمدبير فرظة ووجهه هو ان الله تعالى لما ملكهم تلك البلاد وعدهم بغيرها مع استبعاد من لا يكون قوي الاتكال على الله تعالى وقال ألبس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ثم قال هنا ان الله على كل شيء قدير فملككم غيرها ✽ ثم قال تعالى (يا أيها النبي قل لازواجك ان كنتن تردن الحيوة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما)

وجه التعلق هو ان مكارم الاخلاق منحصرة في شيئين التعظيم لامر الله والشفقة على خلق الله والى هذا أشار عليه السلام بقوله الصلاة وما ملكت أيمانكم ثم ان الله تعالى لما أرشد نبيه الى ما يتعين بجانب التعظيم لله بقوله يا أيها النبي اتق الله ذكر ما يتعلق بجانب الشفقة وبدأ بالزوجات منهن أولى الناس بالشفقة وابتدأ قدمهن النفقة وفي الآية مسائل فقهية منها ان التخيير هل كان واجبا على النبي عليه السلام أم لا فنقول التخيير ما كان واجبا من غير شك لانه ابلاغ الرسالة لان الله تعالى لما قال له قل لهم صار من الرسالة وأما التخيير معنى فهو على ان الامر للوجوب أم لا والظاهر انه للوجوب ومنها ان واحدة منهن لو اختارت الفراق كان يصير اختيارها فراقا والظاهر انه لا يصير فراقا والدليل عليه ما بانه من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ومنها ان واحدة منهن ان اختارت نفسها وقلنا بأنها لا تبين الا بابانة من جهة النبي عليه السلام فهل كان يجب على النبي عليه

لاحدى الخصلتين كما يقال أقبل يخاصمني وذهب يكلمني وقام يهددني (أمتعكن) بالجزم جوابا للامر وكذا (وأسرحكن) أي أعطكن المتعة وأطلقكن (سراحا جميلا) طلاقا من غير ضرار وقرئ بالرفع على الاستئناف روي أنهن سألنه عليه الصلاة والسلام ثياب الزينة وزيادة النفقة فنزلت فبدأ بعائشة فخيرها فاختارت الله ورسوله والدار الآخرة ثم اختارت الباقيات اختيارها فشكر لهن الله ذلك فنزل لا يحل لك النساء من بعد واختلف في أن هذا التخيير هل كان تفويض الطلاق اليهن حتى يقع الطلاق بنفس الاختيار أو لا فذهب الحسن وقتادة وأكثر أهل العلم الى أنه كان تفويض الطلاق وانه كان تخييرا بين الارادتين على أنهن ان أردن الدنيا فارقهن على ما بين عليه الصلاة والسلام كما ينبئ عنه قوله تعالى فتعالين أمتعكن وأسرحكن وذهب آخرون الى أنه كان تفويضا لطلاق اليهن حتى لو أنهن اخترن أنفسهن كان ذلك طلاقا وكذا اختلف في حكم التخيير فقال ابن عمر وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم اذا خير رجل امرأته فاختارت زوجها لا يقع شيء أصلا ولو اختارت نفسها وقعت طلقة بائنة عندنا ورجعية عند الشافعي وهو قول عمر بن عبد العزيز وابن أبي ليلى وسفيان وروي

عن زيد بن ثابت أنها ان اختارت زوجها يقع طلقة واحدة وان اختارت نفسها يقع ثلاث طلقات وهو قول الحسن ورواية عن مالك وروى عن علي رضي الله عنه أنها ان اختارت زوجها فواحدة رجعية وان اختارت نفسها فواحدة بائنة وروى عنه أيضا أنها ان اختارت زوجها لا يقع شيء اصلا وعليه اجماع فقهاء الامصار وقد روى عن عائشة رضي الله عنها خيرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاخترناه ولم يعد ذلك طلاقا تقديم التمتيع ﴿ ٧٨١ ﴾ على التسريح من باب الكرم وفيه قطع لمعاذيرهن من أول

السلام الطلاق أم لا الظاهر نظرا الى منصب النبي عليه السلام انه كان يجب لان الخلف في الوعد من النبي غير جائز بخلاف واحد منا فانه لا يلزمه شرعا الوفاء بما يعد ومنها ان المخاترة بعد البينونة هل كانت تحرم على غيره أم لا والظاهر انها لا تحرم والا لا يكون التخيير ممكنا لها من التمتع بزينة الدنيا ومنها ان من اختارت الله ورسوله كان يحرم على النبي عليه الصلاة والسلام طلاقها أم لا الظاهر الحرمة نظرا الى منصب الرسول عليه الصلاة والسلام على معنى ان النبي عليه السلام لا يباشرة أصلا بمعنى انه لا يأتي به لعو قب أو عوتب وفيها لطائف لفظية منها تقديم اختيار الدنيا اشارة الى ان النبي عليه الصلاة والسلام غير ملتفت الى جانبهن غاية الالتفات وكيف وهو مشغول بعبادة ربه ومنها قوله عليه السلام أسرحكن سراحا جميلا اشارة الى ما ذكرنا فان السراح الجميل مع التأذي القوي لا يجتمع في العادة فعلم ان النبي عليه الصلاة والسلام ما كان يتأثر من اختيارهن فراقه دليل ان التسريح الجميل منه ومنها قوله وان كنتن تردن الله اعلاما لهن بأن في اختيار النبي عليه السلام اختيار الله ورسوله والدار الآخرة وهذه الثلاثة هي الدين وقوله أعد للمحسنات منكن أي لمن عمل صالحا منكن وقوله تردن الله ورسوله والدار الآخرة فيه معنى الايمان وقوله للمحسنات لبيان الاحسان حتى تكون الآية في المعنى كقوله تعالى ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن وقوله تعالى من آمن وعمل صالحا وقوله الذين آمنوا وعملوا الصالحات والاجر العظيم الكبير في الذات الحسن في الصفات لما في الاجرات وذلك لان العظم في الاجسام لا يطلق الا على الزائد في الطول وفي عرض وفي العمق حتى لو كان زائدا في الطول يقال له طويل ولو كان زائدا في العرض يقال له عريض ولو كان العمق هذا وجدت الامور الثلاثة فيه عظيم فيقال جبل عظيم ذكان عاليا ممتدا في الجهات وان كان مرتفعا فحسب يقال جبل عال اذا عرف هذا وأجر الدنيا في ذاته قليل وفي صفاته غير خال عن جهة قبح لما في مآكوله من الضرر والثقل وكذلك في مشروبه وغيره من اللذات وغير دائم واجر الآخرة كثير خال عن جهات القبح دائم فهو عظيم ثم قال تعالى (يانساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا) لما خيرهن النبي صلى الله عليه وسلم واخترن الله ورسوله أدبهن الله وهددهن للتوقي عما يسوء النبي عليه السلام بما يقبح منهن من الفاحشة التي هي أشد على الزوج من كل ما يأتي به زوجته واوعدهن بتضعيف العذاب فيه بحكمتين احداهما ان زوجة النبي تعذب على الزنا بسبب ما في الزنا من المعاسد وزوجة النبي تعذب ان أتت به لذلك ولايذاء قلبه والازراء بمنصبه وعلى هذا بنات النبي عليه السلام كذلك ولان امرأة لو كانت تحت النبي صلى الله عليه وسلم واتت بفاحشة تكون قد اختارت غير النبي عليه السلام ويكون ذلك الغير خيرا عندها من النبي وأولى والنبي أولى من النفس التي هي أولى من الغير فقد نزلت منصب النبي مرتبتين فتعذب من العذاب

الامر والمتعة في المطلقة التي لم يدخل بها ولم يفرض لها صداق عندنا عقد واجبة عندنا وفيما عداهن مستحبة وهي درع وخمار وملحفة بحسب السعة والاقتار الا أن يكون نصف مهرها أقل من ذلك فحينئذ يجب لها الاقل منهما ولا ينقص عن خمسة دراهم (وان كنتن تردن الله ورسوله) أي تردن رسوله وذكر الله عز وجل للايذان بجلالة محله عليه الصلاة والسلام عنده تعالى (والدار الآخرة) أي نعيمها الذي لا قدر عنده للدنيا وما فيها جميعا (فان الله أعد للمحسنات منكن) بمقابلة احسانهن (أجرا عظيما) لا يقادر قدره ولا يبلغ غايته ومن للتبيين لان كلهن محسنات وتجريد الشرطية الاولى عن الوعيد للمبالغة في تحقيق معنى التخيير والاحتراز عن شائبة الاكراه ونحوه والسر فيما ذكر من تقديم التمتيع على التسريح وفي وصف السراح بالجميل (يانساء النبي) تلوين للخطاب وتوجيه له اليهن لاظهار الاعتناء بنصحهن وندائهن هيهنا وفيما بعده بالاضافة اليه

عليه الصلاة والسلام لانها التي يدور عليها ما يرد عليهن من الاحكام (من يأت منكن بفاحشة) بكبيرة (مبينة) ظاهرة قبحها مر بين بمعنى تبين وقرئ بفتح الياء والمراد بها كل ما افترض من الكبائر وقيل هي عصيانهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونشوزهن وطلبهن منه ما يشق عليه

أو ما يضيق به ذرعه و يغتم لاجله وقرئ تأت بالفوقانية (يضاعف لها العذاب ضعفين) أى يعذبن ضعفى عذاب غيرهن أى مثلية لان الذنب منهن أقبح فان زيادة قبحه تابعة لزيادة فضل المذنب والنعمة عليه ولذلك جعل حد الحر ضعف حد الرقيق وعوتب الانبياء عليهم الصلاة والسلام بما لا يعاتب به الامم وقرئ يضعف على البناء للمفعول يضاعف ونضعف بنون العظمة على البناء للفاعل ونصب العذاب (وكان ذلك على الله يسيرا) ﴿ ٧٨٢ ﴾ لا يمنعه عن التضعيف كونهن نساء النبى عليه الصلاة والسلام بل يدعوه اليه لمراعاة حقه (ومن يقنت منكن) وقرئ بالتاء أى ومن يدم على الطاعة (لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين) مرة على الطاعة والتقوى وأخرى على طلبهن رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقناعة وحسن المعاشرة وقرئ يعمل بالياء حملا على لفظ من ويؤتها على ان فيه ضمير اسم الله تعالى (وأعتدنا لها) فى الجنة زيادة على أجرها المضاعف (رزقا كريما) مرضيا (يا نساء النبى لستن كأحد من النساء) أصل أحد وحد بمعنى الواحد ثم وضع فى النفى مستويا فيه الذكر والمؤنث والواحد والكثير والمعنى لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء فى الفضل والشرف (ان اتقيتن) مخالفة حكم الله تعالى ورضا رسوله أو ان نصفتن بالتقوى كما هو اللائق بحالكن (فلا تخضعن بالقول) عند محاطبة الناس اى لا تجبن بقبيل لكن خاضعا لينا عن سنن قول المريبات والمومسات (فيطمع الذى فى قلبه مرض) أى فجور وريبة وقرئ بالجزم عطفا على محل فعل النهى على أنه نهى لمريض القلب عن الطمع عقيب نهيهن عن الاطماع بالقول ﴿ تخضعن ﴾ الخاضع كأنه قيل فلا تخضعن بالقول فلا يطمع مريض القلب (وقلن قولا معروفا) بعيدا عن الريبة والاطماع مجد وخشونة من غير تخنيث أو قولا حسنا مع كونه خشنا (وقرن فى

ضعفين (ثمانيتهما) ان هذا اشارة الى شرفهن لان الحرة عذابها ضعف عذاب الامة اظهارا لشرفها ونسبة النبى الى غيره من الرجال نسبة السادات الى العبيد لكونه أولى بهم من أنفسهم فكذلك زوجاته وقرائبه اللاتى هن امهات المؤمنين وام الشخص امرأة حاكمة عليه واجبة الطاعة وزوجته مأمورة محكومة له ووصف طاعته فصارت زوجة الغير بالنسبة الى زوجة النبى عليه السلام كالامة بالنسبة الى الحرة واعلم أن قول القائل من يفعل ذلك فى قوة قوله لئن أشركت ليحبطن عملك من حيث ان ذلك ممكن الوقوع فى اول النظر ولا يقع فى بعض الصور جزما وفى بعض يقع جزما من مات فقد استراح وفى البعض يتردد السامع بين الامرين فقوله تعالى من يأت منكن بفاحشة عدنا من القبيل الاول فان الانبياء يصان الله زوجاتهم عن الفاحشة وقوله تعالى وكان ذلك على الله يسيرا أى ليس كونكن تحت النبى عليه السلام وكونكن شريفات جليلات مما يدفع العذاب عنكن وليس أمر الله كأمر الخلق حيث يتقى عليهم تعذيب الاعزة بسبب كثرة أوليائهم واعوانهم أو شفعائهم واخوانهم ﴿ ثم قال تعالى ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما) فان زيادة ثوابهن كما بين زيادة عقابهن (نؤتها أجرها مرتين) فى مقابلة قوله تعالى يضاعف لها العذاب ضعفين مع لطيفة وهى ان عند ايتاء الاجر ذكر المؤتى وهو الله وعند العذاب لم يصرح بالمعذب فقال يضاعف اشارة الى كمال الرحمة والكرم كما ان الكريم اذا عنى النفع اظهر نفسه وفعله وعند الضر لا يذكر نفسه وقوله تعالى (وأعتدنا لها رزقا كريما) وصف رزق الآخرة بكونه كريما مع أن الكريم لا يكون الا وصفا للرازق اشارة الى معنى لطيف وهو ان الرزق فى الدنيا مقدر على أيدى الناس الساخر يسترزق من السوقة والمعاملين والصناع من المستعملين والملوك من الرعية والرعية منهم والرزق فى الدنيا لا يأتى بنفسه وانما هو مسخر لغيره يسوقه ويرسله الى الاغيار واما فى الآخرة فلا يكون له مرسل ومسبب فى الظاهر فهو الذى يأتى بنفسه فلاجل هذا لا يوصف فى الدنيا بالكريم الا الرازق وفى الآخرة يوصف بالكريم نفس الرزق ﴿ ثم قال تعالى (يا نساء النبى لستن كأحد من النساء) لما ذكر أن عذابهن ضعف عذاب غيرهن وأجرهن مثلا اجر غيرهن صرن كالحرائر بالنسبة الى الاماء فقال لستن كأحد ومعنى قول القائل ليس فلان كآحاد الناس يعنى ليس فيه مجرد كونه انسانا بل وصف أخص موجود فيه وهو كونه عالما وعاملا أو نسيبا أو حسيبا فان الوصف الاخص اذا وجد لا يبقى التعريف بالاعم فان من عرف رجلا ولم يعرف منه غير كونه رجلا يقول رأيت رجلا فان عرف علما يقول رأيت زيدا او عمرا فكذلك قوله تعالى لستن كأحد من النساء يعنى فيكن غير ذلك أمر لا يوجد فى غيركن وهو كونكن أمهات جميع المؤمنين وزوجات خير المرسلين وكما ان محمدا عليه السلام ليس كأحد من الرجال كما قال عليه السلام لست كأحدكم كذلك قرائبه اللاتى بشر من به و بين الزوجين نوع من الكفاءة ﴿ ثم قال تعالى (ان اتقيتن فلا

بيوتكن) أمر من قر يقر من باب علم وأصله اقررن فحذفت الراء الاولى وألقيت فتحتها على ماقبلها كما في قولك ظلن اومن قار يقار اذا اجتمع وقرئ بكسر القاف من وقر يقر وقارا اذا ثبت واستقر وأصله اوقرن ففعل به مافعل بعدن من وعد آومن قر يقر حذفت احدى رائى اقررن ونقلت كسرتها الى القاف كما تقول ظلن (ولاتبرجن) أى لاتتبخترن في مشيكن (تبرج الجاهلية الاولى) ﴿ ٧٨٣ ﴾ أى تبرجا مثل تبرج النساء في الجاهلية القديمة وهي مابين آدم ونوح وقيل مابين ادريس ونوح عليهما السلام وقيل الزمان الذي ولد فيه ابراهيم عليه السلام كانت المرأة تلبس درعا من اللؤلؤ فتمشي وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال وقيل زمن داود وسليمان عليهما السلام والجاهلية الاخرى مابين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وقيل الجاهلية الاولى جاهلية الكفر والجاهلية الاخرى الفسوق في الاسلام ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام لابي الدرداء ان فيك جاهلية قال جاهلية كفر أو جاهلية اسلام قال بل جاهلية كفر (وأقمن الصلوة وآتين الزكوة) أمرن بهما لانهما على خيرهما وكونهما أصلى الطاعات البدنية والمالية (وأطعن الله ورسوله) أى في كل ماتأتين وماتذرن لاسيما فيما أمرتن به ونهيتن عنه (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس) أى الذنب المدنس لعرضكم وهو تعليل لامرهن ونهيهن على الاستئناف وكذلك عم الحكم تعميم

تخضعن بالقول) يحتمل وجهين (أحدهما) أن يكون متعلقا بما قبله على معنى لستن كأحد ان اتقيتن فان الاكرم عند الله هو الاتقى (وثانيهما) أن يكون متعلقا بما بعده على معنى ان اتقيتن فلا تخضعن والله تعالى لما منعهن من الفاحشة وهي الفعل القبيح منعهن من مقدماتها وهي المحادثة مع الرجال والانقياد في الكلام للفاسق * وقوله تعالى (فيطمع الذي في قلبه مرض) أى فسق وقوله تعالى (وقلن قولا معروفا) أى ذكر الله وما يحتجن اليه من الكلام والله تعالى لما قال ولا تخضعن بالقول ذكر بعده وقلن اشارة الى أن ذلك ليس أمرا بالايذاء والمنكر بل القول المعروف عند الحاجة هو المأمور به لاغيره * ثم قال تعالى (وقرن في بيوتكن) من القرار واسقاط أحد حرفي التضعيف كما قال تعالى فظلتم تفكهون وقيل بأنه من الوقار كما قال وعد يعدعد بقوله (ولاتبرجن تبرج الجاهلية الاولى) فيه معناه لاتتكسرن ولاتتغنجن يحتمل أن يكون المراد لاتظهرن زينتكن وقوله تعالى الجاهلية الاولى فيه وجهان (أحدهما) ان المراد ممن كان في زمن نوح الجاهلية الاخرى ممن كان بعده (وثانيهما) ان هذه ليست أولى تقتضي أخرى بل معناه تبرج الجاهلية القديمة كقول القائل أين الاكاسرة الجبابرة الاولى * قال تعالى (وأقمن الصلوة وآتين الزكوة وأطعن الله ورسوله) يعني ليس التكليف في النهي فقط بل يحصل قوله تعالى تخضعن بل فيه وفي الاوامر فأقمن الصلاة التي هي ترك التشبه بالجبار المتكبر وآتين الزكاة التي هي تشبه بالكريم الرحيم وأطعن الله أى ليس التكليف منحصرا في المذكور بل كل ما أمر الله به فأتين به وكل ما نهى الله عنه فانتهين عنه * ثم قال تعالى (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) يعني ليس المقصود بتكليفكم هو الله ولا تنفعن الله فيما تأتين به وانما نفعه لكم وأمره تعالى اياكن لمصلحكن وقوله تعالى ليذهب عنكم الرجس يطهركم به لطيفة وهي ان الرجس قد يزول عينا ولا يطهر المحل فقوله تعالى ليذهب عنكم الرجس أى يزيل عنكم الذنوب ويطهركم أى يلبسكم خلع الكرامة ثم ان الله تعالى ترك خطاب المؤنثات وخاطب بخطاب المذكرين بقوله ليذهب عنكم الرجس ليدخل فيه نساء اهل بيته ورجالهم واختلف الاقوال في اهل البيت والاولى ان يقال هم اولاده وأزواجه والحسن والحسين منهم وعلي منهم لانه كان من أهل بيته بسبب معاشرته بنت النبي عليه السلام وملازمته للنبي * ثم قال تعالى (واذكرن مايتلى في بيوتكن من آيات الله) أى القرآن (والحكمة) أى كلمات النبي عليه السلام اشارة الى ما ذكرنا من ان التكاليف غير منحصرة في الصلاة والزكاة وبعد ذكر الله في هذه الآية فقال واذكرن مايتلى ليعلمن الواجبات كلها فيأتين بها والمحرمات باسرها فينتهين عنها (ان الله كان لطيفا خبيرا) اشارة الى انه خبير بالبواطن لطيف فعله يصل الى كل شئ ومنه اللطف الذي يدخل في المسام الضيقة ويخرج من المسالك المسدودة * ثم قال تعالى (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين

خطاب لغيرهن وصرح بالمقصود حيث قيل بطريق النداء أو المدح (أهل البيت) مرادا بهم من حواهم بيت السكنى (يطهركم) من اوضار الاوزار والمعاصي (تطهيرا) بليغا واستعارة الرجس للمعصية والترشيح بالتطهير لمزيد التنفير بأوهنه كما ترى آية بينة وحجة نيرة على كون نساء النبي عليه الصلاة والسلام من أهل بيته قاضية ببطلان رأي الشيعة تخصيصهم أهلية البيت بفاطمة وعلي وابنيهما رضوان الله عليهم وأما

ما تمسكوا به من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات غدوة تعلبة مرط مرحل من شعر أسود وجلس فاطمة فادخلها فيه ثم جاء علي فأدخله فيه ثم جاء الحسن والحسين فأدخلهما فيه قال اما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت فانما دل على كونهم من أهل البيت لاعلى أن من عداهم ليسوا كذلك ولو فرض دلالته على ذلك لما اعتد به لكونها في مقابلة النص (واذكرن ما يتلى في بيوتكن) أي اذكرن للناس بعد يق ✽ ٧٨٤ ✽ الخطاب والتذكير ما تتلى في بيوتكن (من آيات الله والحكمة) من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله البينة الدالة على صدق النبوة بنظمه المعجز وكونه حكمة منطوية على فنون العلوم والشرائع، هو تذكير بأنعم عليهن حيث جعلهن أهل بيت النبوة ومهبط الوحي وما شاهدن من برهان الوحي مما يوجب قوة الايمان والحرص على الصالحة حثا على الانتهاء والائتمار فيما كلفنه والتعرض للتلاوة في البيوت دون النزول فيهم أنه الانسب لكونها مهبط الوحي لعمومها لجميع الآيات ووقوعها في كل البيوت وتكررها الموجب لتمكنهن من الذكر والتذكير بخلاف النزول وعدم تعين التالي لهم تلاوة جبريل وتلاوة النبي عليهم الصلاة والسلام وتلاوتهن وتلاوة غيرهن تعليما وتعلما (ان الله كان لطيفا خبيرا) يعلم ويدبر ما يصلح في الدين والذلك فعل ما فعل من الامر والنهي أو يعلم من يصلح شؤونه ومن يسأهل أن يكون أهل بيته (ان المسلمين والمسلمات) أي الداخلين في السلم المنقادين لحكم الله تعالى من الذكور والاناث ✽ فيقال (والمؤمنين والمؤمنات) المصدقين بما يجب أن يصدق به من الفريقين (والقانتين والقانتات) المداومين على الطاعات القائمين بها (والصادقين والصادقات) في القول والعمل (والصابرين والصابرات) على الطاعات وعن المعاصي (والخاشعين والخاشعات) المتواضعين لله بقلوبهم وجوارحهم (والمتصدقين

والمؤمنات) لما أمرهن ونهاهن بين ما يكون لهن وذكر لهن عشر مراتب الاولى الاسلام والانقياد لامر الله والثانية الايمان بما يرد به أمر الله قال المكلف أو لا يقول كل ما تقوله فيه فهذا اسلام فاذا قال الله شيئا وقبله صدق به الله وصحح اعتقاده فهو ايمان ثم اعتقاده يدعوه الى الفعل الحسن والعمل الصالح فيقنت ويعبد وهو المرتبة الثالثة المذكورة بقوله (والقانتين والقانتات) ثم اذا آمن وعمل الخير كمل فيكمل غيره ويأمر بالمعروف وينصح اخاه فيصدق في كلامه عند انصحه وهو المراد بقوله (والصادقين والصادقات) ثم يصبر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فسيأتي في تفسير عليه كما قال تعالى (والصابرين والصابرات) ثم انه اذا تكمل وكمل غيره فيخشع نفسه ويتعبد بعبادته فنعه منه بقوله (والخاشعين والخاشعات) أو نقول لما ذكر هذه الحسنات اشار الى ما يمنع منها هو اما حب الجاه أو حب المال من الامور الخارجة أو الشهوة من الامور الداخلة والغضب منهما يكون لانه يكون بسبب نقص جاه أو فوت مال أو منع من أمر تشتهي فقوله والخاشعين والخاشعات أي المتواضعين الذين لا يمنعهم الجاه عن العبادة ✽ ثم قال تعالى (والمتصدقين والمتصدقات) أي البذلين الاموال الذين لا يكنزونها لشدة محبتهم اياها ✽ ثم قال تعالى (والصائمين والصائمات) اشارة الى الذين لا تمنعهم الشهوة البطنية من عبادة الله ✽ ثم قال تعالى (والحافظين فروجهم والحافظات) أي الذين لا تمنعهم الشهوة الفرجية ✽ ثم قال تعالى (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) يعني هم في جميع هذه الاحوال يذكرون الله ويكون اسلامهم وايمانهم وقنوتهم وصدقهم وصبرهم وخشوعهم وصدقتهم وصومهم بنية صادقة لله واعلم أن الله تعالى في أكثر المواضع حيث ذكر الذكر قرنه بالكثرة ههنا وفي قول موسى هذا يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا وقال من قبل لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا لان الاكثار من الافعال البدنية غير ممكن أو عسر فان الانسان أكل وشرب وتحصيل ما يأكوله ومشروبه يمنعه من أن يشتغل دائما بالصلاة ولكن لا مانع له من أن يذكر الله تعالى وهو آكل ويذكره وهو شارب أو ماش أو نائم أو شار والى هذا اشار بقوله تعالى الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم لان جميع الاحوال صحتها بذكر الله تعالى وهي اشية ✽ ثم قال تعالى (أعد الله لهم مغفرة) تحوذنوبهم وقوله (وأجرا عظيما) ذكرناه فيما تقدم ✽ ثم قال تعالى (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا ان يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) فيها الآية نزلت في زينب حيث أراد النبي صلى الله عليه وسلم تزويجها من زيد بن حارثة فكرهت الا النبي عليه السلام وكذلك أخوها فانتظم فنزلت الآية فرضيا به والوجه أن يقال ان الله تعالى لما أمر نبيه بأن يقول لزوجاته انهن مخيرات فهم منها النبي صلى الله عليه وسلم لا يريد الا الخير فكان يجب أن يكون النبي عليه السلام من ذلك بحيث لا يترك النبي عليه السلام حتى يفارقها

والمتصدقات) بما وجب في مالهم (والصائمين والصائمات) الصوم المفروض (والحافظين فروجهم والحافظات) عن الحرام (والذاكرين الله كثيرا والذاكرات) بقلوبهم وألسنتهم (أعد الله لهم) بسبب ما عملوا من الحسنات المذكورة (مغفرة) لما اقترفوا من الصغائر لأنهن مكفرات بما عملوا من الاعمال الصالحة (وأجرا عظيما) على ما صدر عنهم من الطاعات والآية وعد لهن ولا مثالهن على الطاعة والتدرع بهذه الخصال ﴿٧٨٥﴾ الحميدة روى أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ورضي عنهن قلن

قال في هذه الآية لا ينبغي أن يظن ظان أن هوى نفسه متبعه وأن زمام الاختيار بيد الانسان كما في الزجاجات بل ليس لمؤمن ولا مؤمنة أن يكون له اختيار عند حكم الله ورسوله فأمر الله هو المتبع وما أراده النبي هو الحق ومن خالفهما في شيء فقد ضل ضلالا مبينا لان الله هو المقصد والنبي هو الهادي الموصل فمن ترك المقصد ولم يسمع قول الهادي فهو ضال قطعا * ثم قال تعالى (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه) وهو زيد أنعم الله عليه بالاسلام (وأنعمت عليه) بالتحرير والاعتاق (أمسك عليك زوجك) هم زيد بطلاق زينب فقال له النبي أمسك أي لا تطلقها (واتق الله) قيل في الطلاق. قيل في الشكوى من زينب فان زيدا قال فيها انها تتكبر علي بسبب النسب وعدم الكفاءة (وتخفي في نفسك ما الله مبديه) من أنك تريد التزوج بزينب (وتخشى الناس) من أن يقولوا أخذ زوجة ابنه أو الابن (والله أحق أن تخشاه) يس اشارة الى ان النبي خشي الناس ولم يخش الله بل المعنى الله أحق أن تخشاه وحده ولا تخش أحدا معه وانت تخشاه وتخشى الناس أيضا فاجعل الخشية له وحده كما قال تعالى الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا الا الله * ثم قال تعالى (فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها) أي لما طلقها زيد وانقضت عدتها وذلك لان الزوجة مادامت في نكاح الزوج فهي تدفع حاجته وهو محتاج اليها فلم يقض منها الوطر بالكلية ولم يستغن وكذلك اذا كان في العدة له بها تعلق لامكان شغل الرحم فلم يقض منها بعد وطره واما اذا طلق وانقضت عدتها استغنى عنها ولم يبق له معها تعلق فقد قضى منها الوطر وهذا موافق لما في الشرع لان التزوج بزوجة الغير أو بمعتدته لا يجوز فلهذا قال فلما قضى وكذلك قوله (لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا) اي اذا طلقوهن وانقضت عدتهن وفيه اشارة الى أن التزوج من النبي عليه السلام لم يكن لقضاء شهوة النبي عليه السلام بل لبيان الشريعة به له فان الشرع مستفاد من فعل النبي وقوله (وكان أمر الله مفعولا) أي متضمنا ما قضاه كان من أن تزوجه عليه السلام بها مع انه كان مبنيا لشرع مشتمل على فائدة كان خاليا عن المفاسد فقال (ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل) يعني كما شرع من تقدمه كذلك كان يتزوج الانبياء بنسوة كثيرة ابكارا ومطلقات الغير (وكان أمر الله قدرا مقدورا) أي كل شيء يقضاء وقدروا القدر التقدير وبين المفعول والمقدور فرق مقول بين القضاء والقدر فالقضاء ما كان مقصودا في الاصل والقدر ما يكون تابعا له مثاله من كان يقصد مدينة فنزل بطريق تلك المدينة بخان أو قرية يصح منه في العرف أن يقول في جواب من يقول لم جئت الى هذه القرية اني ما جئت الى هذه القرية وانما قصدت المدينة الفلانية وهذه وقعت في طريقي وان كان قد جاءها ودخلها اذا عرفت هذا فان الخير كله قضاء وما في العالم من الضرر يقدره الله تعالى خلق الكلب بحيث يشتهي وينضب ليكون اجتهاده في تغليب العقل والدين

يا رسول الله ذكر الله الرجال في القرآن بخير فما فينا خير نذكر به انا نخاف أن لا تقبل مناطاعة فنزلت وقيل السائلة أم سلمة وروي أنه لما نزل في نساء النبي عليه الصلاة والسلام ما نزل قال نساء المؤمنين فانزل فينا شيء فنزلت وعطف الاناث على الذكور لاختلاف الجنسين وهو ضروري وأما عطف الزوجين على الزوجين فلتغاير الوصفين فلا يكون ضروريا ولذلك ترك في قوله تعالى مسلمات مؤمنات وفائدته الدلالة على أن مدار اعداد ما أعد لهم جمعهم بين هذه النعوت الجميلة (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة) أي ما صح وما استقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين والمؤمنات (اذا قضى الله ورسوله أمرا) أي اذا قضى رسول الله وذكر الله تعالى لتعظيم أمره عليه الصلاة والسلام أو للاشعار بان قضاءه عليه الصلاة والسلام قضاء الله عز وجل لانه نزل في زينب بنت جحش بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة فأبت هي وأخوها

عبد الله وقيل في أم كلثوم بنت عقبة بن ﴿٩٩﴾ راجع أبي معيط وهبت نفسها للنبي عليه الصلاة والسلام فزوجها من زيد فسخطت هي وأخوها وقالا انما أردنا رسول الله فزوجنا عبده (أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) أن يختاروا من أمرهم ما شاؤا بل يجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعا لرأيه عليه الصلاة والسلام

واختيارهم تلو الاختيار وجمع الضميرين لعموم مؤمن ومؤمنة لوقوعهما في سياق النفي وقيل الضمير الثاني للرسول عليه الصلاة والسلام والجمع للتعظيم وقرئ تكون بالتاء (ومن يعص الله ورسوله) في أمر من الامور ويعمل فيه برأيه (فقد ضل) طريق الحق (ضلالا مبينا) أي بين الانحراف عن سنن الصواب (واذ تقول) أي واذكر وقت قولك (الذي أنعم الله عليه) بتوفيقه للاسلام وتوفيقك لحسن تربيته ومراعاته (وأنعمت عليه) بما عمل بما وفقك الله له من

فنون الاحسان التي من جملتها تحريره وهو زيد بن حارثة وايراده بالعنوان المذكور لبيان منافاة حاله لما صدر عنه عليه الصلاة والسلام من اظهار خلاف ما في ضميره اذ هو انما يقع عند الاستحياء أو الاحتشام وكلاهما مما لا يتصور في حق زيد (أمسك عليك زوجك) أي زينب وذلك أنه عليه الصلاة والسلام أبصرها بعد ما انكحها اياه فوقعت في نفسه حالة جبلية لا يكاد يسلم منها البشر فقال سبحان الله مقلب القلوب وسمعت زينب بالتسبيحة فذكرتها لزيد ففطن لذلك ووقع في نفسه كراهة صحبتها فأتى النبي عليه الصلاة والسلام وقال أريد أن أفارق صاحبتي فقال مالك أرابك منها شيء قال لا والله ما رأيت منها الا خيرا ولكنها تشرفني وتعظم علي فقال له أمسك عليك زوجك (واتق الله) في أمرها فلا تطلقها اضرارا وتعللا بتكبرها (وتخفي في نفسك ما الله مبديه) وهو نكاحها ان طلقها زيد أو ارادة طلاقها (وتخشى الناس) تعييرهم اياك به (والله أحق أن تخشاه) ان كان فيه ما يخشى والواو للحال وليست للعاطفة على الاخفاء وحده بل على الاخفاء مخافة قالة الناس واظهار ما يناقي ضماره فان الاولى في امثال ذلك أن يصمت ﴿بعده﴾ أو يفوض الامر الى ربه (فلما قضى زيد منها وطرا) بحيث لم يبق له فيها حاجة وطلقها وانقضت عدتها وقبل قضاء الوطر كناية عن الطلاق مثل لا حاجة لي

عليهما مثابا عليه بأبلغ وجه فاقتضى ذلك في البعض الى أن زنى وقتل فالله لم يخلقهما فيه مقصودا منه القتل والزنا وان كان ذلك بقدر الله اذا علمت هذا فني قوله تعالى أولا وكان أمر الله مفعولا وقوله ثانيا وكان أمر الله قدرا مقدورا لطيفة وهي انه تعالى لما قال زوجناكها قال وكان أمر الله مفعولا أي تزويجنا زينب اياك كان مقصودا متبوعا مقضيا مراعى ولما قال سنة الله في الذين خلوا اشارة الى قصة داود عليه السلام حيث افتتن بامرأة أوريا قال وكان أمر الله قدرا مقدورا أي كان ذلك حكما تبعيا فلو قال قائل هذا قول المعتزلة بالتوليد والفلاسفة بوجوب كون الاشياء على وجوه مثل كون النار تحرق حيث قالوا الله تعالى أراد ان يخلق ما ينضج الاشياء وهو لا يكون الا محرقا بالطبع فخلق النار للنفع فوقع اتفاقا في أسباب أوجبت احتراق دار زيد أو دار عمرو فنقول معاذ الله أن نقول بأن الله غير مختار في أفعاله أو يقع شيء لا باختياره ولكن أهل السنة يقولون أجرى الله عادته بكذا أي وله أن يخلق النار بحيث عند حاجة انضاج اللحم تنضج وعند مماس ثوب العجوز لا تحرق ألا ترى انها لم تحرق ابراهيم عليه السلام مع قوتها وكثرتها لكن خلقها على غير ذلك الوجه بمحض ارادته أو لحكمة خفية ولا يسأل عما يفعل فنقول ما كان في مجرى عادته تعالى على وجه تدركه العقول البشرية نقول بقضاء ومايكون على وجه يقع لخلل قاصر أن يقول لم كان ولو لم يكن على خلافه نقول بقدر ثم بين الذين خلوا بقوله (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه) يعني كانوا هم أيضا مثلك رسلا ثم ذكر بحالهم انهم جردوا الخشية ووحدوها بقوله (ولا يخشون أحدا الا الله) فصار كقوله فبهداهم اقتده وقوله (وكفى بالله حسيبا) أي محاسبا فلا تخش غيره ومحاسبا فلا تلتفت الى غيره ولا تجعله في حسابك ✻ ثم قال تعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) لما بين الله ما في تزوج النبي عليه السلام بزينب من الفوائد بين انه كان خاليا من وجوه المفاسد وذلك لان ما كان يتوهم من المفسدة كان منحصرا في التزوج بزوجة الابن فانه غير جائز فقال الله تعالى ان زيدا لم يكن ابنا له لان أحد من الرجال لم يكن ابن محمد فان قال قائل النبي كان أبا أحد من الرجال لان الرجل اسم الذكر من أولاد آدم قال تعالى وان كانوا اخوة رجالا ونساء والصبي داخل فيه فنقول الجواب عنه من وجهين (أحدهما) أن الرجل في الاستعمال يدخل في مفهومه الكبر والبلوغ ولم يكن للنبي عليه السلام ابن كبير يقال انه رجل (والثاني) هو انه تعالى قال من رجالكم ووقت الخطاب لم يكن له ولد ثم انه تعالى لما نفى كونه أبا عقبه بما يدل على ثبوت ما هو في حكم الابوة من بعض الوجوه فقال (ولكن رسول الله) فان رسول الله كالاب للامة في الشفقة مرجانبه وفي التعظيم من طرفهم بل أقوى فان النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم والاب ليس كذلك ثم بين ما يفيد زيادة الشفقة من جانبه والتعظيم من جهتهم بقوله (وخاتم النبيين) وذلك لان النبي الذي يكون بعده نبي ان ترك شيئا من النصيحة والبيان يستدركه من يأتي بعده واما من لا نبي

فيك (زوجناكها) وقرئ زوجنكها والمراد الامر بتزويجها منه عليه الصلاة والسلام وقيل جعلها زوجته بلا واسطة عقد ويؤيده أنها كانت تقول لسائر نساء النبي عليه الصلاة والسلام ان الله تعالى تولى نكاحي وأنتن زوجكن أولياؤكن وقيل كان زيد السفير في خطبتها وذلك ابتلاء عظيم وشاهد عدل بقوة ايمانه (لكيلا يكون على المؤمنين حرج) ضيق ومشقة (في أزواج أدعيائهم) أي في حق تزوجهن (اذا قضوا منهن وطرا) فال لهم في رسول الله اسوة حسنة وفيه

بعده يكون أشفق على أمته وأهدى لهم وأجدى اذ هو كوالد لولده الذي ليس له غيره من أحد وقوله (وكان الله بكل شئ عليما) يعني عمله بكل شئ دخل فيه أن لا نبي بعده فعلم أن من الحكمة كمال شرع محمد صلى الله عليه وسلم بتزوجه بزوجة دعيه تكميلا للشرع وذلك من حيث ان قول النبي صلى الله عليه وسلم يفيد شرعا لكن اذا امتنع هو عنه يبقى في بعض النفوس نفرة الا ترى انه ذكر بقوله ما فهم منه جل أكل الضب ثم لما لم يأكله بقي في النفوس شئ ولما أكل لحم الجمل طاب أكله مع انه في بعض الملل لا يؤكل وكذلك الارنب * ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) وجه تعلق الآية بما قبلها هو ان السورة أصلها ومبناها على تأديب النبي صلى الله عليه وسلم وقد ذكرنا أن الله تعالى بدأ بذكر ما ينبغي أن يكون عليه النبي عليه السلام مع الله وهو التقوى وذكر ما ينبغي أن يكون عليه النبي عليه السلام مع أهله أقاربه بقوله يا أيها النبي قل لازواجك والله تعالى يأمر عباده المؤمنين بما يأمر به أنبياءه المرسلين فارشد عباده كما أدب نبيه وبدأ بما يتعلق بجانبه من التعظيم فقال يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا كما قال لنبيه يا أيها النبي اتق الله (ثم ههنا لطيفة) وهي ان المؤمن قد ينسى ذكر الله فامر بدوام الذكر اما النبي لكونه من المقربين لا ينسى ولكن قد يغتر المقرب من الملك بقربه منه فيقل خوفه فقال اتق الله فان المخلص على خطر عظيم وحسنة الاولياء سيئة الانبياء وقوله ذكرا كثيرا قد ذكرنا ان الله في كثير من المواضع لما ذكر الذكر وصفه بالكثرة اذ لا مانع من الذكر على ما بينا وقوله تعالى (وسبحوه بكرة وأصيلا) أي اذا ذكرتموه فينبغي أن يكون ذكركم اياه على وجه العظيم والتنزيه عن كل سوء وهو المراد بالتسبيح وقيل المراد منه الصلاة وقيل للصلاة تسبيحه بكرة وأصيلا اشارة الى المداومة وذلك لان مريد العموم قد يذكر الطرفين ويفهم منهما الوسط كقوله عليه السلام لوأن أولكم وآخركم لم يذكر وسطكم ففهم منه المبالغة في العموم ثم قال تعالى (هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما) يعني هو يصلي عليكم ويرحمكم وانتم لا تذكرونه فذكر صلاته تحريضا للمؤمنين على الذكر والتسبيح ليخرجكم من الظلمات الى النور يعني يهديكم برحمته والصلاة من الله رحمة ومن الملائكة استغفار فقيل بان اللفظ المشترك يجوز استعماله في معنييه معا وكذلك الجمع بين الحقيقة والمجاز في لفظ جائز وينسب هذا القول الى الشافعي رضي الله عنه وهو غير بعيد فان أريد تقريبه بحيث يصير في غاية القرب نقول الرحمة والاستغفار يشتركان في العناية بحال المرحوم والمستغفر له والمراد هو القدر المشترك فتكون الدلالة تضمنية لكون العناية جزأ منهما وكان بالمؤمنين رحيما بشارة لجمع المؤمنين واشارة الى أن قوله يصلي عليكم غير مختص بالسامعين وقت الوحي * ثم قال تعالى (تحيتهم يوم يلقونه سلام) لما بين الله عنايته في الاولى بين عنايته في الآخرة وذكر السلام لانه هو الدليل على الخيرات فان من رأى غيره وسلم عليه دل على

دلالة على أن حكمه عليه الصلاة والسلام وحكم الامة سواء الا ما خصه الدليل (وكان أمر الله) أي ما يريد تكوينه من الامور وأموره الحاصل بكن (مفعولا) مكونا لا محالة اعتراض تذييلي مقرر لما قبله (ما كان على النبي من حرج) أي ما صح وما استقام في الحكمة أن يكون له ضيق (فيما فرض الله له) أي قسم له وقدر من قولهم فرض له في الديوان كذا ومنه فروض العساكر لاعطياتهم (سنة الله) اسم موضوع موضع المصدر كقولهم تربا وجندلا مؤكد لما قبله من نفي الحرج أي سن الله ذلك سنة (في الذين خلوا) مضوا (من قبل) من الانبياء عليهم الصلاة والسلام حيث وسع عليهم في باب النكاح وغيره ولقد كانت لداود عليه السلام مائة امرأة وثلثمائة سرية ولسليمان عليه السلام ثلثمائة امرأة وستمائة سرية وقوله تعالى (وكان أمر الله قدرا مقدورا) أي قضاء مقضيا وحكما مبتوتا اعتراض وسط بين الموصولين الجاريين

بحرى الواحد للمبالغة الى تقرير نفي الحرج وتحقيقه (الذين يبلغون رسالات الله) صفة للذين خلوا أو مدح لهم بالنصب أو بالرفع وقرئ رسالة الله (ويخشونه) في كل ما يأتون ويذرون لاسيما في أمر تبليغ الرسالة حيث لا يخرمون منها حرفا ولا تأخذهم في ذلك لومة لائم (ولا يخشون أحدا الا الله) في وصفهم بقصرهم

الخشية على الله تعالى تعريض بما صدر عنه عليه الصلاة والسلام من الاحتراز عن لائمة الخلق بعد التصريح فى قوله تعالى وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه (وكفى بالله حسيبا) كافيا للمخاوف فينبغى أن يخشى غيره أو محاسبا على الصغيرة والكبيرة فيجب أن يكون حق الخشية منه تعالى (ما كان محمد أبا أحد من رجالكم) أى على الحقيقة حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الوالد وولده من حرمة المصاهرة وغيرها ولا ينقض عمومه بكونه ﴿ ٧٨٨ ﴾ عليه الصلاة والسلام أبا الطاهر والقاسم وابراهيم لانهم لم يبلغوا الحلم واو بلغوا لكانوا رجالا له عليه الصلاة والسلام لانهم (ولكن رسول الله) أى كان رسولا لله وكل رسول أبو أمته لكن لا حقيقة بل بمعنى أنه شفيق ناصح لهم وسبب لحياتهم الابدية ومازيد الا واحد من رجالكم الذين لاولاد بينهم وبينه عليه الصلاة والسلام فحكمه حكمهم وليس للتبنى والادعاء حكم سوى التقريب والاختصاص (وخاتم النبيين) أى كان آخرهم الذى ختموا به وقرئ بكسر التاء أى كان ختامهم ويؤيده قراءة ابن مسعود ولكن نبيا ختم النبيين وأيا ما كان فلو كان له ابن بالغ لكان نبيا ولم يكن هو عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين كما يروى أنه قال فى ابراهيم حين توفى اولو عاش لكان نبيا ولا يقدح فيه نزول عيسى بعده عليهما السلام لان معنى كونه خاتم النبيين أنه لا ينبأ أحد بعده وعيسى ممن نبئ قبله وحين ينزل انما ينزل عاملا على شريعة محمد صلى الله عليه وسلم مصليا الى قبلته كأنه بعض أمته (وكان الله بكل شئ عليما) ومن جملة هذه الاحكام ﴿ وهو ﴾ والحكم التى بينها لكم وكنتم منها فى شك مريب (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله) بما هو أهله من التهليل والتحميد والتقديس (ذكرا كثيرا) يعم الاوقات والاحوال (وسبحوه) ونزهوه عما لا يليق به (بكرة وأصيلا) أى أول النهار وآخره على أن تخصيصه بما بالذكر ليس

المصافاة بينهما وان لم يسلم دل على المنافاة وقوله يوم يلقونه أى يوم القيامة وذلك لان الانسان فى دنياه غير مقبل بكليته على الله وكيف وهو حالة نومه غافل عنه وفى أكثر أوقاته مشغول بتحصيل رزقه واما فى الآخرة فلا شغل لاحد يلهيه عن ذكر الله فهو حقيقة اللقاء * ثم قال تعالى (وأعد لهم أجرا كريما) لو قال قائل الاعداد انما يكون ممن لا يقدر عند الحاجة الى الشئ عليه واما الله تعالى فلا حاجة ولا عجز فحيث يلقاه الله يؤتيه ما يرضى به وزيادة فما معنى الاعداد من قبل فنقول الاعداد للاكرام لا للحاجة وهذا كما أن الملك اذا قيل له فلان واصل فاذا أراد اكرامه يهيئ له بيتا وانواعا من الاكرام ولا يقول بأنه اذا وصل نفتح باب الخزانة ونؤتيه ما يرضيه وتملك الله لكمال الاكرام أعد للذاكر أجرا كريما ولكرمه عند ذكره فى الرزق أى أعد له أجرا يأتيه من غير طلبه بخلاف الدنيا فانه يملك الرزق ألف مرة ولا يأتيه الا بقدر وقوله تحيتهم يوم يلقونه سلام مناسب لحالهم لانهم لما ذكروا الله فى دنياهم حصل لهم معرفة ولما سبحوه تأكدت المعرفة حيث عرفه كما ينبغى بصفات الجلال ونعوت الكمال والله يعلم حالهم فى الدنيا فاحسن اليهم بالرحمة كما قال تعالى هو الذى يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما والمتعارفان اذا التقيا وكان أحدهما شفيقا والآخر معظما له غاية التعظيم لا يتحقق بينهما الا السلام وأنواع الاكرام * ثم قال تعالى (يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا) قد ذكرنا أن السورة فيها تأديب للنبى عليه السلام من ربه فقوله فى ابتدائها يا أيها النبى اتق الله اشارة الى ما ينبغى أن يكون عليه مع ربه وقوله يا أيها النبى قل لازواجك اشارة الى ما ينبغى أن يكون عليه مع أهله وقوله يا أيها النبى انا أرسلناك اشارة الى ما ينبغى أن يكون عليه مع عامة الخلق وقوله تعالى شاهدا يحتمل وجوها (أحدها) انه شاهد على الخلق يوم القيامة كما قال تعالى ويكون الرسول عليكم شهيدا وعلى هذا فالنبى بعث شاهدا أى متحملا للشهادة ويكون فى الآخرة شهيدا أى مؤديا لما تحمله (ثانيها) انه شاهد أن لا اله الا الله (وعلى هذا الطيفة) وهو ان الله جعل النبى شاهدا على الوحدانية والشاهد لا يكون مدعيا فالله تعالى لم يجعل النبى فى مسئلة الوحدانية مدعيا لها لان المدعى من يقول شيئا على خلاف الظاهر والوحدانية اظهر من الشمس والنبى عليه السلام كما ادعى النبوة فجعل الله نفسه شاهدا له فى مجازاة كونه شاهدا لله فقال تعالى والله يشهد انك لرسوله (وثالثها) انه شاهد فى الدنيا بأحوال الآخرة من الجنة والنار والميزان والصراط وشاهد فى الآخرة باحوال الدنيا بالاطاعة والمعصية والصلاح والفساد وقوله ومبشرا ونذيرا وداعيا فيه ترتيب حسن وذلك من حيث ان النبى عليه السلام أرسل شاهدا بقول لا اله الا الله ويرغب فى ذلك بالبشارة فان لم يكف ذلك يرهب بالانذار ثم لا يكتفى بقولهم لا اله الا الله بل يدعوهم الى سبيل الله كما قال تعالى ادع الى سبيل ربك وقوله وسراجا منيرا أى مبرهنا على ما يقول مظهرا له اوضح الحجج

لقصر التسبيح عليهما دون سائر الاوقات بل لابانة فضلهما على سائر الاوقات لكونهما مشهودين كافراد التسبيح من بين الاذكار مع اندراجه فيها لكونه العمدة فيها وقيل كلا الفعلين متوجه اليهما كقولك صم وصل يوم الجمعة وقيل المراد بالتسبيح الصلاة (هو الذى يصلى عليكم) الخ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله من الامرين فان صلاته تعالى عليهم مع عدم استحقاقهم ﴿ ٧٨٩ ﴾ لها وغناه عن العالمين مما يوجب عليهم المداومة على ما يستوجبه

وهو المراد بقوله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة (وفيه لطائف احداها) قوله تعالى وداعيا الى الله باذنه حيث لم يقل وشاهدا باذنه ومبشرا باذنه وعند الدعاء قال وداعيا باذنه وذلك لان من يقول عن ملك انه ملك الدنيا لاغير لا يحتاج فيه الى اذن منه فانه وصفه بما فيه وكذلك اذا قال من يطيعه يسعد ومن يعصه يشقى يكون مبشرا ونذيرا ولا يحتاج الى اذن من الملك فى ذلك وأما اذا قال تعالوا الى سماطه واحضروا على خوانه يحتاج فيه الى اذنه فقال تعالى وداعيا الى الله باذنه ووجه آخر وهو أن النبى يقول انى أدعو الى الله والولى يدعو الى الله والاول لا فرق فيه من أحد والثانى مأذون من جهة النبى عليه السلام كما قال تعالى قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وقال عليه الصلاة والسلام رحم الله عبدا سمع مقالتى فاداها كما سمعها والنبى عليه السلام هو المأذون من الله فى الدعاء اليه من غير واسطة (اللطيفة الثانية) قال فى حق النبى عليه السلام سراجا ولم يقل انه شمس مع انه أشد اضاءة من السراج لفوائد منها ان الشمس نورها لا يؤخذ منه شئ والسراج يؤخذ منه أنوار كثيرة فاذا انطفأ الاول يبقى الذى أخذ منه وكذلك ان غاب والنبى عليه السلام كان كذلك اذ كل صحابى اخذ منه نور الهداية كما قال عليه السلام أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم وفى الخبر ضعيف وان كانت ليست من التفسير ولكن الكلام يجر الكلام وهى ان النبى عليه السلام لم يجعل أصحابه كالسرج وجعلهم كالنجوم لان النجم لا يؤخذ منه نور بل له فى نفسه نور اذ غرب هو لا يبقى نور مستفاد منه وكذلك الصحابى اذا مات فالتابعى يستنير بنور النبى عليه السلام وان يأخذ منه الاول النبى عليه السلام وفعله فانور المجتهدين كلهم من النبى عليه السلام ولو جعلهم كالسرج والنبى عليه السلام أيضا سراج كان للمجتهد أن يستنير بمن أراد منهم ويأخذ النور ممن اختار وليس كذلك فان مع نص النبى عليه السلام لا يعمل بقول الصحابى فيؤخذ من النبى النور ولا يؤخذ من الصحابى فلم يجعله سراجا وهذا يوجب ضعفا فى حديث سراج الامة والمحدثون ذكروه وفى تفسير السراج وجه آخر وهو أن المراد منه القرآن وتقديره انا أرسلناك وسراجا منيرا عطفا على محل الكاف أى وأرسلنا سراجا منيرا وعلى قولنا انه عطف على مبشرا ونذيرا يكون معناه وذا سراج لان الحال لا يكون الا وصفا للفاعل أو المفعول والسراج ليس وصفا لان النبى عليه السلام لم يكن سراجا حقيقة أو يكون كقول القائل رأيته أسدا أى شجاعا وقوله سراجا أى هاديا مبينا كالسراج يرى الطريق وبين الامر وقوله تعالى (وبشر المؤمنين) عطف على مفهوم تقديره انا أرسلناك شاهدا ومبشرا فاشهد وبشر ولم يذكر فاشهد الاستغناء عنه وأما البشارة فانها ذكرت آنفا للكرم ولانها غير واجبة اولا الامر وقوله تعالى (بأن لهم من الله فضلا كبيرا) هو مثل قوله وأعدلهم أجرا عظيما فالعظيم والكبير متقاربان وكونه من الله كبيرا فكيف اذا كان مع ذلك كبارة أخرى وقوله تعالى (ولا تطع الكافرين والمنافقين)

تعالى عليهم من ذكره تعالى وتسبيحه وقوله تعالى (وملائكته) عطف على المستكن فى يصلى لمكان الفصل المغنى عن التأكيد بالمنفصل لكن لا على أن يراد بالصلاة الرحمة أولا والاستغفار ثانيا فان استعمال اللفظ الواحد فى معنيين متغايرين مما لا مساغ له بل على أن يراد بهما معنى مجازى عام يكون كلا المعنيين فردا حقيقيا له وهو الاعتناء بما فيه خيرهم وصلاح أمرهم فان كلا من الرحمة والاستغفار فرد حقيقى له أو الترحم والانعطاف المعنوى المأخوذ من الصلاة المشتملة على الانعطاف الصورى الذى هو الركوع والسجود ولا ريب فى أن استغفار الملائكة ودعاءهم للمؤمنين ترحم عليهم وأما أن ذلك سبب للرحمة لكونهم مجابى الدعوة كما قيل فاعتباره يؤدى الى الجمع بين المعنيين المتغايرين فتدبر (ليخرجكم من الظلمات الى النور) متعلق بيصلى أى يعتنى بامركم هو وملائكته ليخرجكم بذلك من ظلمات المعصية الى نور الطاعة وقوله تعالى (وكان بالمؤمنين رحيما) اعتراض مقرر لمضمون ما قبله أى كان بكافة المؤمنين الذين أنتم من زمرتهم رحيما ولذلك يفعل بكم ما يفعل من الاعتناء باصلاحكم بالذات وبالواسطة وبهديكم الى الايمان والطاعة أو كان بكم رحيما على أن المؤمنين مظهر وضع موضع المضمر لمدحهم وتأشيرا بعلة الرحمة وقوله تعالى (تحيتهم يوم يلقونه سلام) بيان للاحكام الآجلة

رحمة الله تعالى بهم بعد بيان آثارها العاجلة التي هي الاعتناء بأمرهم وهدايتهم الى الطاعة أي ما يحيون به على أنه مصدر أضيف الى مفعوله يوم لقائه عند الموت أو عند ابعث من القبور أو عند دخول الجنة تسليم عليهم من الله عز وجل تعظيما لهم أو من الملائكة بشارة لهم بالجنة أو تكرمة لهم ﴿ ٧٩٠ ﴾ كما في قوله تعالى والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم أو اخبار بالسلامة عن كل مكروه وآفة وقوله تعالى (وأعد لهم أجرا كريما) بيان لآثار رحمته الفائضة عليهم بعد دخول الجنة عقب بيان آثار رحمته الواصلة اليهم قبل ذلك ولعل ايثار الجملة الفعلية على الاسمية المناسبة لما قبلها بأن يقال مثلا وأجرهم أجر كريم أو ولهم أجر كريم للمبالغة في الترغيب والتشويق الى الموعود ببيان أن الاجر الذي هو المقصد الاقصى من بين سائر آثار الرحمة موجود بالفعل مهيأ لهم مع ما فيه من مراعاة الفواصل (يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا) على من بعثت اليهم تراقب أحوالهم وتشاهد أعمالهم وتحمل منهم الشهادة بما صدر عنهم من التصديق والتكذيب وسائر ما هم عليه من الهدى والضلال تؤديها يوم القيامة أداء مقبولا فيما لهم وما عليهم وهو حال مقدرة (ومبشرا ونذيرا) تبشر المؤمنين بالجنة وتنذر الكافرين بالنار (وداعيا الى الله) أي الى الاقرار به وبوحدانيته وبسائر ما يجب الايمان به من صفاته وأفعاله (باذنه) أي بتيسيره أعلق عليه مجاز لما أنه من أسبابه وقيد به الدعوة ايذانا بأنها ﴿ ان ﴾ أمر صعب المنال وحطب في غاية الاعضال لا يتأتى الا باسعاد من جناب قدسه كيف لا وهو صرف للوجوه عن القبل المعبودة وادخال للاحشاء في قلادة تعبد معبودة (وسراجا منيرا) يستضاء به

اشارة الى الانذار يعني خافهم ورد عليهم وعلى هذا فعوله تعالى (ودع أذاهم) أي دعه الى الله فانه يعذبهم بأيديكم وبالنار وبين هذا قوله تعالى (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) أي الله كاف عبده قال بعض المعتزلة لا يجوز تسمية الله بالوكيل لان الوكيل أدون من الموكل وقوله تعالى وكفى بالله وكيلا حجة عليه وشبهته واهية من حيث ان الوكيل قد يوكل المرفوع وقد يوكل للعجز والله وكيل عباده لعجزهم عن التصرف وقوله تعالى وكفى بالله وكيلا يتبين اذا نظرت في الامور التي لاجلها لا يكفي التوكيل الواحد منها أن لا يكون قويا قادرا على العمل كالملك الكثير الاشغال يحتاج الى وكلاء لعجز الواحد عن القيام بجميع أشغاله ومنها أن لا يكون عالما بما فيه التوكيل منها أن لا يكون عنا والله تعالى عالم قادر غير محتاج فيكفي وكيلا ﴿ ثم قال تعالى ﴾ يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا) وجه تعلق الآية بما قبلها هو ان الله تعالى في هذه السورة ذكر مكارم الاخلاق وأدب نبيه على ما ذكرناه لكن الله تعالى أمر عباد المؤمنين بما أمر به نبيه الرسل فكلما ذكر للنبي مكرمة وعلمه أدبا ذكر للمؤمنين ما يناسبه فكما بدأ الله في تأديب النبي عليه الصلاة والسلام بذكر ما يتعلق بجانب الله بقوله يا أيها النبي اتق الله وثنى بما يتعلق بجانب من تحت يده من أزواجه بقوله بعد يا أيها النبي قل لازواجك وثلث بما يتعلق بجانب العامة بقوله يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا كذلك بدأ في ارشاد المؤمنين بما يتعلق بجانب الله فقال يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ثم ثنى بما يتعلق بجانب من تحت أيديهم بقوله يا أيها الذين آمنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم كالثلث في تأديب النبي بجانب الامة ثلث في حق المؤمنين بما يتعلق بجانب نبيهم فقال بعد هذا يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي ربقوله يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وفي الآية مسائل (احداها) اذا كان الامر على ما ذكرت من ان هذا ارشاد الى ما يتعلق بجانب من هو من خواص المرء فلم خص المطلقات اللاتي طلقن قبل المسيس بالذكر فنقول هذا ارشاد الى أعلى درجات المكرمات ليعلم منها ما دونها وبيانه هو ان المرأة اذا طلقت قبل المسيس لم يحصل بينهما تأكد العهد ولهذا قال الله تعالى في حق الممسوسة وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا واذا أمر الله بالتمتع والاحسان مع من لا مودة بينه وبينها فذلك بمن حصلت المودة بالنسبة اليها بالاولى أو حصل تأكدها بحصول الولد بينهما والقرآن في الحجم صغير ولكن لو استنبطت معانيه لاتى بها الاقلام ولا تكفي لها الاوراق وهذا مثل قوله تعالى فلا تقل لهما أف لو قال لا تضربهما أو لا تشتمهما علم انه حرام لمعنى مختص بالضرب أو الشتم اما اذا قال لا تقل لهما أف علم منه معان كثيرة وكذلك ههنا لما أمر بالاحسان مع من لا مودة معها علم منه الاحسان مع الممسوسة ومن لم تطلق بعد ومن ولدت عنده منه وقوله اذا نكحتم المؤمنات التخصيص بالذكر ارشاد الى

في ظلمات الجهل والغواية ويهتدي بأنواره الى مناهج الرشد والهداية (وبشر المؤمنين) عطف على مقدر يقتضيه المقام ويشتد عليه النظام كأنه قيل فبالغ أحوال الناس وبشر المؤمنين منهم (بأن لهم من الله فضلا كبيرا) أي على مؤمني سائر الامم في الرتبة والشرف أو زيادة على أجور أعمالهم بطريق التفضل والاحسان (ولا تطع الكافرين والمنافقين) نهي عن مداراتهم في أمر الدعوة واستعمال ﴿ ٧٩١ ﴾ لين الجانب في التبليغ والمسامحة في الانذار كني عن ذلك بالنهي

ان المؤمن ينبغي أن ينكح المؤمنة فانها أشد تحصينا لدينه وقوله ثم طلقتموهن يمكن التمسك به في ان تعليق الطلاق بالنكاح لا يصح لان التطليق حينئذ لا يكون الا بعد النكاح والله تعالى ذكره بكلمة ثم وهي للتراخي وقوله فما لكم عليهن من عدة بين ان العدة حق الزوج فيها غالب وان كان لا يسقط باسقاطه لما فيه من حق الله تعالى وقوله تعدونها أي تستوفون أنتم عددها فتعوهن قيل بانه مختص بالفويضة التي لم يسم لها اذا طلقت قبل المسيس وجب لها المتعة وقيل بأنه عام وعلى هذا فهو أمر وجوب أو أمر ندب اختلف العلماء فيه فمنهم من قال للوجوب فيجب مع نصف المهر المتعة ايضا ومنهم من قال للاستحباب فيستحب أن يمتعها مع الصداق بشيء وقوله تعالى وسرحوهن سراحا جميلا الجمال في التسريح أن يطالبها بما آتاها * ثم قال تعالى (يا أيها النبي انا أحللنا لك ازواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي ان أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما) ذكر للنبي عليه السلام ما هو الاولى فان الزوجة التي أوتيت مهرها أطيب قلبا من التي لم تؤت والمملوكة التي سباها الرجل بنفسه أطهر من التي اشتراها الرجل لانها لا يدري كيف حالها ومن هاجرت من أقارب النبي عليه السلام معه أشرف ممن لم تهاجر ومن الناس من قال بأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يجب عليه اعطاء المهر أو لا وذلك لان المرأة لها الامتناع الى أن تأخذ مهرها والنبي عليه السلام ما كان يستوفي ما لا يجب له والوطء قبل ايتاء الصداق غير مستحق وان كان حلالا لنا وكيف والنبي عليه السلام اذا طلب شيأ حرم الامتناع على المطلوب والظاهر ان الطالب في المرة الاولى انما يكون هو الرجل لحياء المرأة فلو طلب النبي عليه السلام من المرأة التمكين قبل المهر للزم ان يجب وأن لا يجب وهذا محال ولا كذلك احدنا وقال وبؤكد هذا قوله تعالى وامرأة مؤمنة ان وهبت نفسها للنبي يعني حينئذ لا يبقى لها صداق فتصير كالمستوفية مهرها وقوله تعالى ان اراد النبي أن يستنكحها اشارة الى الهبة فانها لا بد معها من قبول وقوله تعالى خالصة لك من دون المؤمنين قال الشافعي رضي الله عنه معناه اباحة الوطء بالهبة وحصول التزوج بلفظها من خواصك وقال ابو حنيفة تلك المرأة صارت خالصة لك زوجة ومن أمهات المؤمنين لا تحل لغيرك أبدا والترجيح يمكن أن يقال بان على هذا فالتخصيص بالواهبة لا فائدة فيه فان ازواجه كلهن خالصات له وعلى ما ذكرنا يتبين للتخصيص فائدة وقوله قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم معناه ان ما ذكرنا فرضك وحكمك مع نسائك واما حكم امتك بعد ما علمته ونبينه لهم وانما ذكر هذا لئلا يحمل واحد من المؤمنين نفسه على ما كان للنبي عليه الصلاة والسلام فان له في النكاح خصائص ليست

عن طاعتهم بالغه في الزجر والتنفير عن المنهي عنه بنظمه في سلكها وتصويره بصورتها ومن حمل النهي على التهييج والالهاب فقد أبعد عن التحقيق بمراحل (ودع أذاهم) أي لا تبال باذيتهم لك بسبب تصلبك في الدعوة والانذار (وتوكل على الله) في كل ما تاتي وما تذر من الشؤن التي من جملتها هذا الشأن فانه تعالى يكفيكهم (وكفى بالله وكيلا) موكولا اليه الامور في كل الاحوال واظهار الاسم الجليل في موضع الاضمار لتعليل الحكم وتاكيد استقلال الاعتراض التذييلي ولما وصف عليه الصلاة والسلام بنعوت خمسة قوبل كل منها بخطاب ينا سبه خلا أنه لم يذكر مقابل الشاهد صبرا وهو الامر بالمراقبة ثقة بفطنة السامع ودلالة مقابل المبشر عليه وهو الامر بالتبشير جميعا ذكر آنفا وقوبل النذير بالنهي عن مداراة الكفار والمنافقين

المسامحة في انذارهم كما تحققته وقوبل الداعي الى الله باذنه بالامر بالتوكل عليه من حيث انه عبارة عن الاستمداد منه تعالى والاستعانة به وقوبل السراج المنير بالاكتفاء به تعالى فان من يؤيده الله تعالى بالقوة القدسية ورشحه للنبوة وجعله هاديا نيرا يهدي الخلق من ظلمات

الغير الى نور الرشاد حقيق بان يكتفى به عن كل ماسواه (يا ايها الذين امنوا اذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) أى تجامعوهن وقرئ تماسوهن بضم التاء (فما لكم عليهن من عدة) بايام يتربص فيها بانفسهن (تعتدونها) تستوفون عددها من عددت الدراهم فاعتدها وحقيقته عددها لنفسه وكذلك كلته فاكتاله والاسناد الى الرجال للدلالة على أن العدة حق الازواج كما أشعر به قوله تعالى فما لكم وقرئ تعتدونها على ابدال (احصى اندا بين بالتاء أو على أنه من الاعتداء بمعنى تعتدون فيها والخلوة الصحيحة فى حكم المس وتخصيص المؤمنات مع عموم الحكم للكتابيات للتنبيه على أن المؤمن من شانه أن يتخير لنطفته ولا ينكح الا مؤمنة وفائدته ثم ازاحة ماعسى يتوهم أن تراخى الطلاق ربما يمكن الاصابة يؤثر فى العدة كما يؤثر فى النسب (فمتعوهن) أى ان لم يكن مفروضا لها فى العقد فان الواجب للمفوض لها نصف المفروض دون المتعة فانها مستحبة عندنا وفى رواية وفى أخرى غير مستحبة (وسرحوهن) أخرجوهن من منازلكم اذ ليس لكم عليهن عدة (سراحا جميلا) من غير ضرار ولا مع حق ولا مساغ لتفسيره بالطلاق السنى لانه انما يتاتى فى المدخول بهن (يا أيها النبى انا أحللنا لك أزواجك اللاتى اتيت أجورهن) أى مهورهن فانها أجور الابضاع وايتاؤها اما اعطاؤها معجلة أو تسميتها فى العقد وأياما كان فتعميم الاحلال له عليه الصلاة والسلام به ليس لتوقف الحل عليه ضرورة أنه يصح العقد بلا تسمية ويجب مهر المثل أو المتعة على تقدير الدخول وعدمه بل لايثار الافضل والاولى له عليه الصلاة والسلام كتقييد احلال المملوكة بكونها مسبية فى قوله تعالى (وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) فان المتسراة لا يتحقق بدء امرها وما جرى عليها وكتقييد الترائب بكونهن مهاجرات منه فى قوله تعالى (وبنات عمك وبنات عماتك

لغيره وكذلك فى السراوى وقوله تعالى لكيلا يكون عليك حرج أى تكون فى فسحة من الامر فلا يبقى لك شغل قلب فينزل الروح الامين بالآيات على قلبك الفارغ تبلغ رسالات ربك بجدك واجتهادك وقوله تعالى وكان الله غفورا رحيما يغفر الذنوب جميعا ويرحم العبيد * ثم قال تعالى (ترجى من تشاء منهن وتؤوى اليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) لما بين انه أحل له ماذكر من الازواج بين انه أحل له وجوه المعاشرة بهن حتى يجتمع كيف يشاء ولا يجب عليه القسم بذلك لان النبى عليه السلام بالنسبة الى أمته نسبة السيد المطاع الى الرجل وان لم يكن بينا فالزوجة فى ملك نكاحه والنكاح علاوة وكيف زوجات النبى عليه السلام بالنسبة اليه هاذه هن كالمملوكات له ولا يجب القسم بين المملوكات والارجاء التاخير والايواء الضم وابتغيت ممن عزلت يعنى اذا طابت من كنت تركتها فلا جناح عليك فى شئ من ذلك ومن قال بأن القسم كان واجبا مع انه ضعيف بالنسبة الى المفهوم من الآية قال المراد ترجى من تشاء أى توخرهن ان شئت اذ لا يجب القسم فى الاول وللزوج أن لا ينام عند أحد منهن وان ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك فابدأ من شئت وثنى من شئت والاول أقوى * ثم قال تعالى (ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتهن كلهن) يعنى اذا لم يجب عليك القسم أنت وتركك القسم قد أعينهن تسويتك بينهن ولا يحزن بخلاف ما لو وجب عليك ذلك فانه تكون عند احداهن تقول جاء الهوى فيه اعجابا فى امر الله وايجابه عليه ويرضين بما آتيته من الايثار بالقسم (والله يعلم ما فى قلوبكم وكان الله عليما حليما) أى ان أضمرن خلاف ما أظهرن فانه يعلم ضمائر القلوب فانه عليم فلم يعاتبهن فى الحال فلا تغترن فانه حليم لا يعجل * ثم قال تعالى (لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن) لما بين وجوب القسم بين أمره بتخييرهن فاخترن الله ورسوله ذكر لهن ما جازاهن به من تحريم غيرهن على النبى عليه السلام ومنعه من طلاقهن فقوله ولا أن تبدل بهن وقعت مسائل (المسئلة الاولى) قوله لا تحل لك النساء من بعد قال المفسرون من بعدهن والاولى أن يقال لا تحل لك النساء من بعد اختيارهن الله ورسوله ورضاهن بما يؤتيهن من الوصل والهجران والقص والحرمان (المسئلة الثانية) قوله ولا أن تبدل بهن يفيد حرمة طلاقهن اذ لو كان جائزا جاز أن يطلق الكل بعدهن اما ان يتزوج بغيرهن او لا يتزوج فان لم يتزوج يدخل فى غمرة العزاب والنكاح فضيلة لا يتركها النبى وكيف وهو يقول النكاح سنتى وان تزوج بغيرهن يكون قد تبدل بهن وهو ممنوع من التبدل (المسئلة الثالثة) من المفسرين من قال بأن الآية ليس فيها تحريم غيرهن ولا المنع من طلاقهن بل المعنى أن لا يحل لك النساء غير اللاتى ذكرنا لك من المؤمنات المهاجرات منه بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك واما غيرهن من الكتابيات فلا يحل لك التزوج بهن وقوله ولا أن

وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك) ويحتمل تقييد الحل بذلك فى حقه عليه الصلاة والسلام خاصة ويعضده قول أم هانئ بنت أبى طالب خطبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعتذرت اليه فعذرنى ثم أنزل الله هذه الآية فلم أحل له لانى لم أهاجر معه كنت من الطلقاء (وامرأة مؤمنة) بالنصب عطفا على مفعول أحللنا اذ ليس معناه انشاء الاحلال التاجز بل اعلام مطلق الاحلال المنتظم لما سبق ولحق ✽ ٧٩٣ ✽ وقرئ بالرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف أى أحللناها لك أيضا (ان وهبت نفسها للنبى) أى ملكته بضعها بأى عبارة كانت بلا مهر ان اتفق ذلك كما ينبئ عنه تنكيرها لكن لا مطلقا بل عند ارادته عليه الصلاة والسلام استنكاحها كما نطق به قوله عز وجل (ان أراد النبى أن يستنكحها) أى أن يتملك بضعها كذلك أى بلا مهر فان ذلك جار منه عليه الصلاة والسلام مجرى القبول وحيث لم يكن هذا نصا فى كون تمليكها بلفظ الهبة لم يصلح أن يكون مناطا للخلاف فى انعقاد النكاح بلفظ الهبة ايجابا أو سلبا واختلف فى اتفاق هذا العقد فعن ابن عباس رضى الله عنهما لم يكن عنده عليه الصلاة والسلام أحد منهن بالهبة وقيل الموهوبات أربع ميمونة بنت الحرث وزينب بنت خزيمة الانصارية وأم شريك بنت جابر وخولة بنت حكيم وايراده عليه الصلاة والسلام فى الموضعين بعنوان النبوة بطريق الالتفات للتكرمة والايذان بانها المناط لثبوت الحكم فيختص به عليه الصلاة والسلام حسب اختصاصها به كما ينطق به ✽ ١٠٠ ✽ س قوله تعالى (خالصة لك) أى خلص لك احلالها خالصة أى خلوصا فان الفاعلة فى المصادر غير عزيز كالعافية والكاذبة أو خلص لك احلال ما أحللنا لك من المذكورات على القيود المذكورة خالصة ومعنى قوله تعالى (من دون المؤمنين) على الاول أن الاحلال المذكور فى المدة المعهودة غير متحقق فى حقهم وانما

تبدل بهن منع من شغل الجاهلية فانهم كانوا يتبادلون زوجة بزوجة فينزل أحدهم عن زوجته ويأخذ زوجة صديقه ويعطيه زوجته وعلى التفسيرين وقع خلاف فى مسئلتين احداهما حرمة طلاق زوجاته والثانية حرمة تزوجه بالكتابيات فمن فسر على الاول حرم الطلاق ومن فسر على الثانى حرم التزوج بالكتابيات (المسئلة الرابعة) قوله ولو أعجبك بحسنهن أى حسن النساء قال الزمخشرى قوله ولو أعجبك فى معنى الحال ولا يجوز أن يكون ذو الحال قوله من أزواج لغاية التنكير فيه ولكون ذى الحال لا يحسن أن يكون نكرة فاذن هو النبى عليه السلام يعنى لا تحل لك النساء ولا أن تبدل بهن من أزواج وأنت معجب بحسنهن (المسئلة الخامسة) ظاهر هذا ناسخ لما كان قد ثبت له عليه السلام من انه اذا رأى واحدة فوقعت فى قلبه موقعا كانت تحرم على الزوج ويجب عليه طلاقها وهذه المسئلة حكمية وهى ان النبى عليه السلام وسائر الانبياء فى أول النبوة تشتد عليهم برحاء الوحى ثم يستأنسون به فينزل عليهم وهم يتحدثون مع أصحابهم لا يمنعهم من ذلك مانع ففى أول الامر أحل الله من وقع فى قلبه تقربا لغلبه وتوسيعا لصدره لئلا يكون مشغول القلب بغير الله ثم لما استأنس بالوحى وبمن على لسانه الوحى نسخ ذلك اما لقوته عليه السلام للجمع بين الامرين واما انه بدوام الانزال لم يبق له مألوف من أمور الدنيا فلم يبق له التفات الى غير الله فلم يبق له حاجة الى احلال التزوج بمن وقع بصره عليها (المسئلة السادسة) اختلف العلماء فى أن تحريم النساء عليه هل نسخ أم لا فقال الشافعى نسخ وقد قالت عائشة ما مات النبى الا وأحل له النساء وعلى هذا فالناسخ قوله يا ايها النبى انا أحللنا لك أزواجك الى أن قال وبنات عمك وقال وامرأة مؤمنة على قول من يقول لا يجوز نسخ الكتاب بخبر الواحد اذ الناسخ غير متواتر ان كان خبرا ✽ ثم قال تعالى (الا ما ملكت يمينك) لم يحرم عليه المملوكات لان الايذاء لا يحصل بالمملوكة ولهذا لم يجز للرجل أن يجمع بين ضرتين فى بيت لحصول التسوية بينهما وامكان المخاصمة ويجوز أن يجمع زوجة وجمعا من المملوكات لعدم التساوى بينهن ولهذا لا قسم لهن على أحد ✽ ثم قال تعالى (وكان الله على كل شئ رقيبا) أى حافظا عالما بكل شئ قادرا عليه لان الحفظ لا يحصل الا بهما ✽ ثم قال تعالى (يا ايها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى الا أن يؤذن لكم الى طعام غير ناظرين اناه) لما ذكر الله تعالى فى النداء الثالث يا أيها النبى انا أرسلناك شاهدا بينا لحاله مع أمته العامة قال للمؤمنين فى هذا النداء لا تدخلوا ارشادا لهم وبيانا لحالهم مع النبى عليه السلام من الاحترام ثم ان حاله الامة مع النبى على وجهين (أحدهما) فى حال الخلوة والواجب هناك عدم ازعاجه وبين ذلك بقوله لا تدخلوا بيوت النبى (وثانيهما) فى الملأ والواجب هناك اظهار التعظيم كما قال تعالى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما وقوله الى طعام غير ناظرين اناه أى لا تدخلوا بيوت النبى الى طعام الا أن يؤذن لكم ✽ ثم قال تعالى (وإذا دعيتم فادخلوا فاذا طعمتم فانتشروا

المتحقق هناك الاحلال بمهر المثل وعلى الثاني أن احلال الجميع على العهود المذكورة غير متحقق في حقهم بل المتحقق فيه احلال البعض المعدود على الوجه المعهود وقرئ خالصة بالرفع على أنه خبر مبتدا محذوف أي ذلك خلوص لك وخصوص أو هي أي تلك المرأة أو الهبة خالصة لك لا تتجاوز المؤمنين حيث لا تحل لهم بغير مهر ولا تصح الهبة بل يجب مهر المثل وقوله تعالى (قد علمنا ما فرضنا عليهم) أي على ﴿ ٧٩٤ ﴾ المؤمنين (في أزواجهم) أي في حقهن اعتراض مقرر لما قبله من خلوص الاحلال المذكور لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعدم تجاوزه للمؤمنين ببيان أنه قد فرض عليهم من شرائط العقد وحقوقه ما لم يفرض عليه عليه السلام والسلام تكرمة له وتوسعة عليه أي قد علمنا ما ينبغي أن يفرض عليهم في حق أزواجهم (وما ملكت أيمانهم) وعلى أي حد أي صفة يحق أن يفرض عليهم ففرضنا ما فرضنا على ذلك الوجه وخصصناك ببعض الخصائص (لكيلا يكون عليك حرج) أي ضيق واللام متعلقة بخالصة باعتبار ما فيها من معنى ثبوت الاحلال وحصوله له عليه الصلاة والسلام لا باعتبار اختصاصه به عليه الصلاة والسلام لان مدار انتفاء الحرج هو الاول لا الثاني الذي هو عبارة عن عدم ثبوته لغيره (وكان الله غفورا) لما يعسر التحرز عنه (رحيما) ولذلك وسع الامر في مواقع الحرج (ترجي من تشاء منهن) أي تؤخرها وتترك مضاجعتها (وتؤوي اليك من تشاء) وتضم اليك من تشاء منهن وتضاجعها او تطلق من تشاء منهن وتمسك من تشاء وقرئ ترجئ ﴿ جاز ﴾ بالهمزة والمعنى واحد (ومن ابتغيت) أي طلبت (ممن عزلت) طلقت بالرجعة (فلا جناح عليك) في شيء مما ذكر وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض لانه اما ان يطلق او يمسك فاذا امسك ضاجع او ترك وقسم اربع يقسم واذا طلق فاما أن يخلي المعزول

ولا مستأنسين لحديث ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق واذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا ان ذلكم كان عند الله عظيما) لما بين من حال النبي انه داع الى الله بقوله وداعيا الى الله قال ههنا لا تدخلوا الا اذا دعيتم يعني كما انكم ما دخلتم الدين الا بدعائه فكذلك لا تدخلوا عليه الا بعد دعائه وقوله غير ناظرين منصوب على الحال والعامل فيه على ما قاله الزمخشري لا تدخلوا قال وتقديره لا تدخلوا بيوت النبي الا مأذونين غير ناظرين وفي الآية مسائل (الاولى) قوله الا أن يؤذن لكم الى طعام اما أن يكون فيه تقديم وتأخير تقديره ولا تدخلوا الى طعام الا أن يؤذن لكم فلا يكون منعا من الدخول في غير وقت الطعام بغير الاذن واما أن لا يكون فيه تقديم وتأخير فيكون معناه ولا تدخلوا الا أن يؤذن لكم الى طعام فيكون الاذن مشروطا بكونه الى الطعام فان لم يؤذن لكم الى طعام فلا يجوز الدخول فلو أذن لواحد في الدخول لاستماع كلام لا لاكل طعام لا يجوز لقول المراد هو الثاني لبعد النهي عن الدخول وأما قوله فلا يجوز الا بالاذن الذي الى طعام لقول قال الزمخشري الخطاب مع قوم كانوا يجيئون حين الطعام ويدخلون من غير اذن فنهوا من الدخول في وقته بغير اذن والاولى أن يقال المراد هو الثاني لان التقديم والتأخير خلاف الاصل وقوله الى طعام من باب التخصيص بالذكر فلا يدل على نفي ما عداه لا سيما اذا علم أن غيره مثله فان من جاز دخول بيته باذنه الى طعامه جاز دخوله الى غير طعامه باذنه فان غير الطعام ممكن وجوده مع الطعام فان من الجائز أن يتكلم معه وقد يدعوه الى طعام ويقتضيه في حوائجه ويعلمه مما عنده من العلوم مع زيادة الاطعام فاذا رضي بالكل فرضاه ببعض أقرب الى الفعل فيصير من باب لا تقل لهما أف وقوله غير ناظرين يعني أنتم لا تنتظروا وقت الطعام فانه ربما لا يتهيأ (المسئلة الثانية) قوله تعالى ولكن اذا دعيتم فادخلوا فيه لطيفة وهي أن في العادة اذا قيل لمن كان يعتاد دخول دار من غير اذن لا تدخلها الا باذن يتأذى وينقطع بحيث لا يدخلها أصلا ولا بالدعاء فقال لا تفعلوا مثل ما يفعله المستكفون بل كونوا طائعين سامعين اذا قيل لكم لا تدخلوا لا تدخلوا واذا قيل لكم ادخلوا فادخلوا وانا نقيل وقته وقيل استواؤه وقوله الا أن يؤذن يفيد الجواز وقوله ولكن اذا دعيتم فادخلوا يفيد الوجوب فقوله ولكن اذا دعيتم ليس تأكيدا بل هو يفيد فائدة جديدة (المسئلة الثالثة) لا يشترط في الاذن التصريح به بل اذا حصل العلم بالرضا جاز الدخول ولهذا قال الا أن يؤذن من غير بيان فاعل فالاذن ان كان الله أو النبي أو العقل المؤيد بالدليل جاز والنقل دال عليه حيث قال تعالى أو صديقكم وحد الصداقة لما ذكرنا فلو جاء أبو بكر وعلم أن لا مانع في بيت عائشة من بيوت النبي عليه السلام من تكشف أو حضور غير محرم عندها أو علم خلو الدار من الاهل أو هي محتاجة الى اطفاء حريق فيها أو غير ذلك

جاز الدخول (المسئلة الرابعة) قوله فاذا طعمتم فانتشروا كان بعض الصحابة أطال المكث يوم وليمة النبي عليه السلام في عرس زينب والنبي عليه السلام لم يقل له شيئا فوردت الآية جامعة لآداب منها المنع من اطالة المكث في بيوت الناس وفي معنى البيت موضع مباح اختاره شخص لعبادته أو اشتغاله بشغل فيلتبه أحد و يطيل المكث عنده وقوله ولا مستأنسين لحديث قال الزمخشري هو عطف على غير ناظرين مجرور و يحتمل أن يكون منصوبا عطفا على المعنى فان معنى قوله تعالى لا تدخلوا بيوت النبي الا ان يؤذن لكم لا تدخلوها هاجمين فعطف عليه ولا مستأنسين ثم ان الله تعالى بين كون ذلك أدبا وكون النبي حليما بقوله ان ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحيي من الحق اشارة الى أن ذلك حق وأدب وقوله كان اشارة الى تحمل النبي عليه السلام ثم ذكر الله أدبا آخر وهو قوله واذا سألتموهن متاعا فاسئلوهن من وراء حجاب لما منع الله الناس من دخول بيوت النبي عليه السلام وكان في ذلك تعذر الوصول الى الماعون بين ان ذلك غير ممنوع منه فليسأل وليطلب من وراء حجاب وقوله ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن يعني اعين رزينة القلب فاذا لم تر العين لا يشتهي القلب أما ان رأت العين فقد يشتهي القلب وقد لا يشتهي فالقلب عند عدم الرؤية أطهر وعدم الفتنة حينئذ أظهر ثم ان الله تعالى لما علم المؤمنين الادب أكده بما يحملهم على محافظته فقال وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله وكل ما منعتم عنه مؤذ فامتنعوا عنه وقوله تعالى ولا أن تنكحوا ازواجه من بعده أبدا قيل سبب نزوله ان بعض الناس قيل هو طلحة ابن عبيد الله قال لئن عشت بعد محمد لانكحن عائشة وقد ذكرنا أن اللفظ العام لا يغير معناه سبب النزول قال المراد أن ايذاء الرسول حرام والتعرض لنسائه في حياته ايذاء فلا يجوز ثم قال لا بل ذلك غير جائز مطلقا ثم أكده بقوله ان ذلكم كان عند الله عظيما أي ايذاء الرسول * ثم قال تعالى (ان تبدوا شيئا أو تخفوه فان الله كان بكل شئ عليما) يعني ان كنتم لا تؤذونه في الحال وتعزمون على ايذائه أو نكاح أزواجه بعده فالله عليم بذات الصدور * ثم ان الله تعالى لما أنزل الحجاب استثنى المحارم بقوله (لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا اخوانهن ولا أبناء اخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن) وفي الآية مسائل (الاولى) في الحجاب أوجب السؤال من وراء الحجاب على الرجال فلما استثنى الرجال عن الجناح ولم يقل لا جناح على آبائهن فقول قوله تعالى فاسئلوهن من وراء حجاب امر بسدل الستر عليهن وذلك لا يكون الا بكونهن مستورات محجوبات وكان الحجاب واجب عليهن ثم أمر الرجال بتركهن كذلك ونهوا عن هتك أستارهن فاستثنين عند الآباء والابناء (وفيه لطيفة) وهي ان عند الحجاب أمر الله الرجل بالسؤال من وراء حجاب و يفهم منه كون المرأة محجوبة عن الرجل بالطريق الاولى وعند الاستثناء قال تعالى لا جناح عليهن عند رفع الحجاب عنهن فالرجال أولى بذلك

حكم كلهن فيه سواء ثم ان رأيت بينهن وجدن ذلك تفضلا منك وان رجحت بعضهن علمن انه بحكم الله فتطمئن به نفوسهن وقرئ تقر بضم التاء ونصب اعينهن وتقر على البناء للمفعول وكلهن تأكيد لنون ترضين وقرئ بالنصب على أنه تأكيد لهن (والله يعلم ما في قلوبكم) من الضمائر والخواطر فاجتهدوا في احسانها (وكان الله عليما) مبالغا في العلم فيعلم كل ما تبدونه وتخفونه (حليما) لا يعاجل بالعقوبة فلا تغتروا بتأخيرها فانه امهال لا اهمال (لا يحل لك النساء) بالياء لان تأنيث الجمع غير حقيقي ولوجود الفصل وقرئ بالتاء (من بعد) اي من بعد التسع وهو في حقه كالاربع في حقنا وقال ابن عباس وقتادة من بعد هؤلاء التسع اللاتي خيرتهن فاخترتك وقيل من بعد اختيارهن الله ورسوله ورضاهن بما تو بينهن من الوصل والهجران (ولا ان تبدل) أي تبدل بحذف احدى التاءين (بهن) أي بهؤلاء التسع (من أزواج)

بأن تطلق واحدة منهن وتنكح مكانها اخرى ومن مزيدة لتأكيد الاستغراق أراد الله تعالى لهن كرامة وجزاء على ما اخترن ورضين فقصر رسوله عليهن وهن التسع اللاتي توفي عليه الصلاة والسلام عنهن وهن عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر وام حبيبة بنت أبي سفيان وسودة بنت زمعة وأم سلمة بنت أبي

امية وصفية بنت حيي الخيبرية وميمونة بنت الحرث الهلالية وزينب بنت جحش الاسدية وجويرية بنت الحرث المصطلقية وقال عكرمة المعنى لايحل لك النساء من بعد الاجناس الاربعة اللاتي احللناهن لك بالصفة التي تقدم ذكرها من الاعرابيات والغرائب أو من الكتابيات أو من الاماء بالنكاح ويأباه قوله تعالى ولا أن تبدل بهن فان معنى احلال الاجناس المذكورة احلال نكاحهن فلابد أن يكون معنى التبدل بهن احلال نكاح غيرهن بدل احلال نكاحهن وذلك انما يتصور بالنسخ الذي

ليس من الوظائف البشرية (ولو أعجبك حسنهن) أي حسن الازواج المستبدلة وهو حال من فاعل تبدل لا من مفعوله وهو من أزواج لتوغله في التنكير قيل تقديره مفروضا اعجابك بهن وقدم تخفيفه في قوله تعالى ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم وقيل هي أسماء بنت عميس الخثعمية امرأة جعفر ابن أبي طالب أي هي ممن أعجبه عليه الصلاة والسلام حسنهن واختلف في أن الآية محكمة أو منسوخة قيل بقوله تعالى ترجي من تشاء منهن وتؤوي اليك من تشاء وقيل بقوله تعالى انا أحللنا لك وترتيب النزول ليس على ترتيب المصحف وقيل بالسنة وعن عائشة رضي الله عنها ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحل له النساء وقال أنس رضي الله عنه مات عليه الصلاة والسلام على التحريم (الا ما ملكت يمينك) استثناء لانه يتناول الازواج والاماء وقيل منقطع (وكان الله على كل شيء رقيبا) حافظا مهيمنا فاحذروا مجاوزة حدوده وتخطي حلاله الى حرامه (يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي) شروع في بيان ما يجب مراعاته على الناس من حقوق نساء النبي عليه الصلاة والسلام اثر بيان ما يجب مراعاته عليه عليه الصلاة والسلام من الحقوق المتعلقة بهن وقوله تعالى

(المسئلة الثانية) قدم الآباء لان اطلاعهم على بناتهم أكثر وكيف وهم قد رأوا جميع بدن البنات في حال صغرهن ثم الابناء ثم الاخوة وذلك ظاهر انما الكلام في بني الاخوة حيث قدمهم الله تعالى على بني الاخوات لان بني الاخوات آباؤهم ليسوا بمحارم انما هم أزواج خالات أبنائهم وبنو الاخوة آباؤهم محارم أيضا ففي بني الاخوات مفسدة ما وهي ان الابن ربما يحكي خالته عند أبيه وهو ليس بمحرم ولا كذلك بنو الاخوة (المسئلة الثالثة) لم يذكر الله من المحارم الاعمام والاخوال فلم يقل ولا أعمامهن ولا أخوالهن لوجهين أحدهما أن ذلك علم من بني الاخوة وبني الاخوات لان من علم ان بني الاخ للعمات محارم علم أن بنات الاخ للاعمام محارم وكذلك الحال في أمر الخال ثانيهما أن الاعمام ربما يذكرون بنات الاخ عند أبنائهم وهم غير محارم وكذلك الحال في ابن الخال (المسئلة الرابعة) ولا نسائهن مضافة الى المؤمنات حتى لا يجوز التكشف للكافرات في وجه (المسئلة الخامسة) ولا ما ملكت أيمانهن هذا بعد الكل فان المفسدة في التكشف لهم ظاهرة ومن الائمة من قال المراد من كان دون البلوغ * ثم قوله تعالى (واتقين الله) عند المماليك دليل على أن التكشف لهم مشروط بشرط السلامة والعلم بعدم المحذور وقوله (ان الله كان على كل شيء شهيدا) في غاية الحسن في هذا الموضع وذلك لان ما سبق اشارة الى جواز الخلوة بهم والتكشف لهم فقال ان الله شاهد عند اختلاء بعضكم ببعض فخلوتكم مثل ملئكم بشهادة الله تعالى فاتقوا * ثم قال تعالى (ان الله وملائكته يصلون على النبي) لما أمر الله المؤمنين بالاستئذان عدم النظر الى وجوه نسائه احتراما لكمين بيان حرمته وذلك لان حالة منحصرة في اثنين حالة الخلوة وذكر ما يدل على احترامه في تلك الحالة بقوله لا تدخلوا بيوت النبي وحالة يكون في ملأ والملأ اما الملأ الاعلى واما الملأ الادنى أما في الملأ الاعلى فهو محترم فان الله وملائكته يصلون عليه وأما في الملأ الادنى فذلك واجب الاحترام بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وفي الآية مسائل (الاولى) الصلاة الدعاء يقال في اللغة صلى عليه أي دعا له هذا المعنى غير معقول في حق الله تعالى فانه لا يدعو له لان الدعاء للغير طلب نفعه من ثالث فقال الشافعي رضي الله عنه استعمل اللفظ بمعان وقد تقدم في تفسير قوله هو الذي يصلي عليكم وملائكته والذي نزيده ههنا هو أن الله تعالى قال هناك هو الذي يصلي عليكم وملائكته فجعل الصلاة لله وعطف الملائكة على الله وههنا جمع نفسه وملائكته وأسند الصلاة اليهم فقال يصلون وفيه تعظيم النبي عليه الصلاة والسلام وهذا لان افراد الواحد بالذكر وعطف الغير عليه يوجب تفضيلا للمذكور على المعطوف كما ان الملك اذا قال يدخل فلان وفلان أيضا يفهم منه تقديم لا يفهم لو قال فلان وفلان يدخلان اذا علمت هذا فقال في حق النبي عليه السلام انهم يصلون اشارة الى أنه في الصلاة على النبي عليه السلام كالاصل وفي الصلاة على المؤمنين الله ربهم ثم ان الملائكة يوافقونه فهم

(الا أن يؤذن لكم) استثناء مفرغ من أعم الاحوال أى لا تدخلوها فى حال من الاحوال الا حال كونكم مأذونا لكم وقيل من أعم الاوقات أى لا تدخلوها فى وقت من الاوقات الا وقت أن يؤذن لكم ورد عليه بأن النحاة نصوا على أن الوقوع موقع الظرف مختص بالمصدر الصريح دون المؤول لا يقال آتيك أن يصيح الديك وانما يقال آتيك صياح الديك وقوله تعالى (الى طعام) متعلق بيؤذن بتضمين معنى الدعاء للاشعار بأنه لا ينبغى ﴿ ٧٩٧ ﴾ أن يدخلوا على الطعام بغير دعوة وان تحقق الاذن كما يشعر به قوله

فى الصلاة على النبى عليه السلام يصلون بالاضافة كأنها واجبة عليهم أو مندوبة سواء صلى الله عليه أو لم يصل وفى المؤمنين ليس كذلك (المسئلة الثانية) هذا دليل على مذهب الشافعى لان الامر للوجوب فتجب الصلاة على النبى عليه السلام ولا تجب فى غير التشهد فتجب فى التشهد (المسئلة الثالثة) سئل النبى عليه السلام كيف نصلى عليك يا رسول الله فقال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد (المسئلة الرابعة) اذا صلى الله وملائكته عليه فاى حاجة الى صلاتنا نقول الصلاة عليه ليس لحاجته اليها والا فلا حاجة الى صلاة الملائكة مع صلاة الله عليه وانما هو لاظهار تعظيمه كما ان الله تعالى أوجب علينا ذكر نفسه ولا حاجة له اليه وانما هو لاظهار تعظيمه منا شفقة علينا لينالنا عليه ولهذا قال عليه السلام من صلى على مرة صلى الله عليه عشرا (المسئلة الخامسة) لم يترك الله النبى عليه السلام تحت منة أمته بالصلاة حتى عوضهم منه بأمره بالصلاة على الامة حيث قال وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم وقوله وسلموا تسليما أمر فيجب ولم يجب فى غير الصلاة فيجب فيها وهو قول الشافعى عليك أيها النبى فى التشهد وهو حجة على من قال بعدم وجوبه وذكر المصدر للتأكيد ليكمل السلام عليه ولم يؤكد الصلاة بهذا التأكيد لانها كانت مؤكدة بقوله ان الله وملائكته يصلون على النبى ﴿ ثم قال تعالى (ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا) فصل الاشياء بتبيين بعض اضدادها فبين حال مؤذى النبى ليبين فضيلة المسلم عليه باللعن أشد المحذورات لان البعد من الله لا يرجى معه خير بخلاف التعذيب بالنار وغيره ألا ترى أن الملك اذا نفر عن مملوك ان كان تأذيه غير قوى يزجره ولا يطرده ولو خير المجرم أن يضرب أو يطرد عند مليكون الملك فى غاية العظمة والكرم يختار الضرب على الطرد ولا سيما اذا لم يكن فى الدنيا ملك غير سيده وقوله فى الدنيا والآخرة اشارة الى بعد لارجاء للقرب معه لان البعد فى الدنيا يرجو القربة فى الآخرة فاذا أبعد فى الآخرة فقد خاب وخسر لان الله اذا أبعده وطرده فمن الذى يقربه يوم القيامة ثم انه تعالى لم يحصر جزاءه فى الابعاد بل أوعده باللعن بقوله وأعد لهم عذابا مهينا وفيه مسائل (المسئلة الاولى) ذكر ايذاء الله وايذاء الرسول وذكر عقيبه أحد نوعى اللعن والتعذيب فاللعن جزاء ايذاء الله لان من آذى الملك يبعده عن بابه اذا كان لا يأمر بعذابه والتعذيب جزاء ايذاء الرسول لان الملك اذا آذى بعض عبيده كبير يستوفى منه قصاصه لا يقال فعلى هذا من يؤذى الله ولا يؤذى الرسول لا يعذب لأنا نقول انفكاك أحدهما على هذا الوجه عن الآخر محال لان من آذى الله فقد آذى الرسول وأما على الوجه الآخر وهو ان من يؤذى النبى عليه السلام ولا يؤذى الله لكن يعصى من غير اشراك كمن فسق أو فجر من غير ارتداد وكفر فقد آذى النبى عليه السلام غير ان الله تعالى صبور غفور رحيم فيجزيه بالعذاب ولا يلعنه

تعالى (غير ناظرين اناه) أى غير منتظرين وقته أو ادراكه وهو حال من فاعل لا تدخلوا على أن الاستثناء واقع على الوقت والحال معا عند من يجوزه أو من المجرور فى لكم وقرئ بالجر صفة لطعام فيكون جارا ومجرورا على غير من هو له بلا ابراز الضمير ولا مساغ له عند البصريين وقرئ بالامالة لانه مصدر أنى الطعام أى أدرك (ولكن اذا دعيتم فادخلوا) استدراك من النهى عن الدخول بغير اذن وفيه دلالة بينة على أن المراد بالاذن الى الطعام هو الدعوة اليه (فاذا طعمتم فانتشروا) فتفرقوا ولا تلبثوا لانه خطاب لقوم كانوا يتحينون طعام النبى عليه الصلاة والسلام فيدخلون ويقعدون منتظرين ادراكه مخصوصة بهم وبأمثالهم والا فلا يجوز لاحد أن يدخل بيوته عليه الصلاة والسلام باذن لغير الطعام ولا اللبث بعد الطعام لامر مهم (ولا مستأنسين لحديث) أى لحديث بعضكم بعضا أو لحديث أهل البيت بالتسمع له عطف على ناظرين أو مقدر

بفعل أى ولا تدخلوا أو لا تمكثوا مستأنسين الخ (ان ذلكم) أى الاستئناس الذى كنتم تفعلونه من قبل (كان يؤذى النبى) لتضييق المنزل عليه وعلى أهله وايجابه للاشتغال بما لا يعنيه وصده عن الاشتغال بما يعنيه (فيستحيى منكم) أى من اخراجكم لقوله تعالى (والله لا يستحيى من الحق) فانه يستدعى

أن يكون المستحيا منه امر احتاما متعلقا بهم لا انفسهم وماذا الاخراجهم فينبغي أن لا يترك حياء وللملك لم يتركه تعالى وأمركم بالخروج والتعبير عنه بعدم الاستحياء للمشاكلة وقرئ لا يستحي بحذف الياء الاولى والقاء حركتها الى ماقبلها (واذا سألتموهن) الضمير لنساء النبي المدلول عليهن بذكر بيوته عليه الصلاة والسلام (متاعا) أي شيئا يتمتع به من الماعون وغيره (فاسألوهن) أي المتاع (من وراء حجاب) أي ستر روي أن عمر رضي الله عنه قال يارسول الله ﴿ ٧٩٨ ﴾ يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فنزلت وقيل انه عليه الصلاة والسلام كان يطعم ومعه بعض أصحابه فاصابت يد رجل منهم يد عائشة رضي الله عنها فكره النبي ذلك فنزلت (ذلكم) أي ماذكر من عدم الدخول بغير اذن وعدم الاستئناس بالحديث عند الدخول وسؤال المتاع من وراء حجاب (أطهر لقلوبكم وقلوبهن) أي أكثر تطهيرا من الخواطر الشيطانية (وما كان لكم) أي وما صح وما استقام لكم (ان تؤذوا رسول الله) أي ان تفعلوا في حياته فعلا يكرهه ويتأذى به (ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا) أي من بعد وفاته أو فراقه (ان ذلكم) اشارة الى ماذكر من ايذائه عليه الصلاة والسلام ونكاح أزواجه من بعده وما فيه من معنى البعد لتباين البعد منزلته في الشر والفساد (كان عند الله عظيما) أي أمرا عظيما وخطبا هائلا لا يقادر قدره وفيه من تعظيمه تعالى لشان رسوله صلى الله عليه وسلم وايجاب حرمته حيا وميتا مالا يخفى ولذلك بالغ تعالى في الوعيد حيث قال (ان تبدوا شيئا) مما لا خير فيه كنكاح هن على ألسنتكم (أو تخفوه) في صدوركم (فان الله كان بكل شيء عليما) ﴿ القول ﴾ فيجازيكم بما صدر عنكم من المعاصي البادية والخافية لا محالة وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل وتشديد ومبالغة في الوعيد

بكونه بعده عن الباب (المسئلة الثانية) أكد العذاب بكونه مهينا لان من تأذى من عبده وأمر بحبسه وضرب به فان أمر بحبسه في موضع مميز أو أمر بضرب به رجلا كبيرا يدل على ان الامرين وان أمر بضرب به على ملأ وحبسه بين الملا دين ينبئ عن شدة الامر في آذى الله ورسوله من المخلدين في النار فيعذب عذابا مهينا وقوله أعدلهم للتأبيد لان السيد اذا عذب عبده حالة الغضب من غير اعداد يكون دون ماذا أعده فيداوم غلمان الاول يمكن أن يقال هذا أثر الغضب فاذا سكت الغضب يزول ولا كذلك الثاني ثم قال تعالى (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا) لما كان الله تعالى مصليا على نبيه لم ينفك ايذاء الله عن ايذائه فمن آذى الله فقد آذى الرسول فبين الله للمؤمنين انكم ان أتيتم بما أمرتكم وصليتم على النبي كما صليت عليه لا ينفك ايذاؤكم عن ايذاء الرسول فأنتم من يؤذيكم لكون ايذائكم ايذاء الرسول كما ان ايذائي ايذاؤه وبالجملة لما حصلت الصلاة من الله والملائكة والرسول والمؤمنين صار لا يكاد ينفك ايذاء أحدهم عن ايذاء الآخر كما يكون حال الاصدقاء الصادقين في الصداقة وقوله بغير ما اكتسبوا احتراز عن الامر الذي وقف من غير عنف زائد فان من جلد مائة على شرب الخمر أو حد أربعين على لعب النرد آذى بغير ما اكتسب أيضا ومن جلد على زنا أو حد على الشرب لم يؤذ بغير ما اكتسب ويمكن ان يقال لم يؤذ أصلا لان ذلك اصلاح حال المضروب وقوله فقد احتملوا بهتانا البهتان هو الزور وهو لا يكون الا في القول والايذاء قد يكون بغير القول فمن آذى مؤمنا بالضرب أو أخذ ماله لا يكون قد احتمل بهتانا فنقول المراد والذين يؤذون المؤمنين بالقول وهذا لان الله تعالى أراد اظهار شرف المؤمن فلما ذكر أن من آذى الله ورسوله لعن وايذاء الله بأن ينكر وجوده الله بعد معرفة دلائل وجوده أو يشرك به من لا يبصر ولا يسمع أو من لا يقدر ولا يعلم أو من هو محتاج في وجوده الى مرجد وهو قول ذكر ايذاء المؤمن بالقول وعلى هذا خص الايذاء بالقولي بالذكر لانه أعم وأتم وذلك لان الانسان لا يقدر ان يؤذي الله بما يؤلمه من ضرب أو أخذ مال يحتاج اليه فيؤذيه بالقول ولان الفقير الغائب لا يمكن ايذاؤه بالفعل ويمكن ايذاؤه بالقول بان يقول فيه ما يصل اليه فيتأذى والوجه الثاني في الجواب هو أن نقول قوله بعد ذلك واثما مبينا مستدرك فكأنه قال احتمل بهتانا ان كان بالقول واثما مبينا كيفما كان لايذاء وكيفما كان فان الله خص الايذاء القولي بالذكر لما بينا انه أعم ولانه أتم لانه يصل الى القلب فان الكلام يخرج من القلب واللسان دليله ويدخل في القلب والاكان سبيله ثم قال تعالى (يا أيها النبي قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) لما ذكر أن من يؤذي المؤمنين يحتمل بهتانا وكان فيه منع المكلف عن ايذاء المؤمن أمر المؤمن باجتناب المواضع التي فيها التهم الموجبة للتأذي لئلا يحصل الايذاء الممنوع منه ولما كان الايذاء القولي مختصا بالذكر اختص بالذكر ماهو سبب الايذاء

(لاجناح عليهن فى آبائهن ولا أبنائهن ولا اخوانهن ولا ابناء اخوانهن ولا ابناء أخواتهن) استئناف لبيان من لايجب الاحتجاب عنهم روى أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والابناء والاقارب يارسول الله أونكلمهن أيضا من وراء الحجاب فنزلت وانما لم يذكر العم والخال لانهما بمنزلة الوالدين ولذلك سمى العم أبا فى قوله تعالى واله آبائك ابراهيم واسمعيل واسحق أولانه اكتفى عن ذكرهما بذكر أبناء الاخوة وأبناء الاخوات فان مناط عدم لزوم ﴿ ٧٩٩ ﴾ الاحتجاب بينهن وبين الفريقين عين ما بينهن وبين العم والخال من العمومة والخؤلة لما انهن عمات لابناء الاخوة وخالات لابناء الاخوات وقيل لانه كره ترك الاحتجاب منهما مخافة أن يصفاهن لابنائهما (ولانسائهن) أى نساء المؤمنات (ولا ماملكت أيمانهن) من العبيد والاماء وقيل من الاماء خاصة وقدم فى سورة النور (واتقين الله) فى كل ما تأتين وما تذرن لاسيما فيما أمرتن به ونهيتن عنه (ان الله كان على كل شئ شهيدا) لاتخفى عليه خافية ولاتتفاوت فى علمه الاحوال (ان الله وملائكته) وقرئ وملائكته بالرفع عطفا على محل ان واسمها عند الكوفيين وحملا على حذف الخبر لدلالة مابعده عليه على رأى البصريين (يصلون على النبى) قيل الصلاة من الله تعالى الرحمة ومن الملائكة الاستغفار وقال ابن عباس رضى الله عنهما أراد أن الله يرحمه والملائكة يدعون له وعنه أيضا يصلون يبركون وقال أبو العالية صلاة الله تعالى عليه ثناؤه عليه عند الملائكة وصلاتهم دعاؤهم له فينبغى أن يراد بها فى يصلون معنى مجازى عام يكون كل واحد من المعانى المذكورة فردا حقيقيا له أى يعتنون بما فيه خيره وصلاح أمره ويبالغون باظهار شرفه وتعظيم شأنه وذلك من الله سبحانه بالرحمة ومن الملائكة بالدعاء والاستغفار (يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه) اعتنوا أنتم أيضا بذلك فانكم أولى به (وسلموا تسليما) قائلين اللهم صل على محمد وسلم أو نحو ذلك

القولى وهو النساء فان ذكرهن بالسوء يؤذى الرجال والنساء بخلاف ذكر الرجال فان من ذكر امرأة بالسوء تأذت وتأذى أقاربها أكثر من تأذيها ومن ذكر رجلا بالسوء تأذى ولا يتأذى نساؤه وكان فى الجاهلية تخرج الحرة والامة مكشوفات يتبعهن الزناة ويقع التهم فامر الله الحرائر بالتجلبب * وقوله (ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) قيل يعرفن أنهن حرائر فلا يتعرض لهن ويمكن ان يقال المراد يعرفن انهن لايزنين لان من تستروجهها مع أنه ليس بعورة لايطمع فيها أن تهتك عورتها فيعرفن انهن مستورات لايمكن طلب الزنا منهن * وقوله (وكان الله غفورا رحيما) يغفر لكم ماقد سلف برحمته ويتيكم على ماتأتون به راجعا عليكم * وقوله تعالى (لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لايجاورونك فيها الا قليلا) لما ذكر حال المشرك الذى يؤذى الله ورسوله والمجاهر الذى يؤذى المؤمنين ذكر حال المسر الذى يظهر الحق ويضمر الباطل وهو المنافق ولما كان المذكور من قبل اقواما ثلاثة نظر الى اعتبار أمور ثلاثة وهم المؤذون الله والمؤذون الرسول والمؤذون المؤمنين ذكر من المشركين ثلاثة نظرا الى اعتبار أمور ثلاثة (أحدها) المنافق الذى يؤذى الله سرا (والثانى) الذى فى قلبه مرض الذى يؤذى المؤمن باتباع نسائه (والثالث) المرجف الذى يؤذى النبى عليه السلام بالارجاف بقوله غلب محمد وسيخرج من المدينة وسيؤخذ وهؤلاء وان كانوا قوما واحدا الا أن لهم ثلاث اعتبارات وهذا فى مقابلة قوله تعالى ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات حيث ذكر أصنافا عشرة وكلهم يوجد فى واحد فهم واحد بالشخص كثير بالاعتبار وقوله لنغرينك بهم أى لنسلطنك عليهم لتخرجهم من المدينة ثم لايجاورونك وتخلو المدينة منهم بالموت او الاخراج ويحتمل أن يكون المراد لنغرينك بهم فاذا أغريناك لايجاورونك * والاول مكتون القائل يخرج فلان ويقر أشارة الى أمرين والثانى كقوله يخرج فلان ويدخل السرق ففى الاول يقر وان لم يخرج وفى الثانى لايدخل الا اذا خرج والاستثناء فيه لطيفة وهى ان الله تعالى وعد النبى عليه السلام انه يخرج أعداءه من المدينة وينفيهم على يده اظهارا لشوكته ولو كان النفى بارادة الله من غير واسطة النبى لاخلى المدينة عنهم فى الطرف آن كن فيكون ولكن لما أراد الله أن يكون على يد النبى لايقع ذلك الا بزمان وان اطف فقال ثم لايجاورونك فيها الا قليلا وهو أن يتهيؤا ويتأهبوا للخروج * ثم قال تعالى (ملعونين اينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا) أى فى ذلك القليل الذى يجاورونك فيه يكونون ملعونين مطرودين من باب الله وبابك واذا خرجوا لاينفكون عن المذلة ولايجدون ملجأ بل أينما يكونون يطلبون ويؤخذون ويقتلون * ثم قال تعالى (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) يعنى هذا ليس ببدعا بكم بل هو سنة جارية وعادة مستمرة تفعل بالمكذبين ولن تجد لسنة الله تبديلا أى ليست هذه الصفة مثل الحكم الذى يبدل وينسخ فان النسخ يكون فى

وقيل المراد بالتسليم انقياد أمره والآية دليل على وجوب الصلاة والسلام عليه مطلقا من غير تعرض لوجوب التكرار وعدمه وقيل يجب ذلك كما جرى ذكره لقوله عليه الصلاة والسلام رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل علي وقوله عليه الصلاة والسلام من ذكرت عنده فلم يصل علي فدخل النار أبعده الله ويروى أنه عليه الصلاة والسلام قال وكل الله تعالى بي ملكين فلا أذكر عند مسلم فيصلي علي الا قال ذانك الملكان غفر الله لك وقال الله ﴿ ٨٠٠ ﴾ تعالى وملائكته جوابا لذينك الملكين آمين ومنهم من قال يجب في كل مرة وان تكرر ذكره عليه الصلاة والسلام كما قيل في آية السجدة وتشميت العاطس وكذلك في كل دعاء في أوله وآخره ومنهم من قال بالوجوب في العمر مرة وكذا قال في اظهار الشهادتين والذي يقتضيه الاحتياط ويتدعيه معرفة علو شانه عليه الصلاة والسلام أن يصلي عليه كما جرى ذكره الرفيع وأما الصلاة عليه في الصلاة بان يقال اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد فليست بشرط في جواز الصلاة عندنا وعن ابراهيم النخعي رحمه الله ان الصحابة كانوا يكتفون عن ذلك بما في التشهد وهو السلام عليك أيها النبي وأما الشافعي رحمه الله فقد جعلها شرطا واما الصلاة على غير الانبياء عليهم الصلاة والسلام فتجوز تبعا وتكره استقلالا لانه في العرف شعار ذكر الرسل والملائكة وهو أن يقال محمد عز وجل مع كونه ﴿ بقولهم ﴾ عز وجليلا (ان الذين يؤذون الله ورسوله) أريد بالايذاء ما فعل ما يكرهانه من الكفر والمعاصي مجازا لاستحالة حقيقة التأذي في حقه تعالى وقيل في ايذائه تعالى هو قول اليهود والنصارى والمشركين

الاحكام اما الافعال والاخبار فلا تنسخ * ثم قال تعالى (يسئلك الناس عن الساعة قل انما علمها عند الله) لما بين حالهم في الدنيا انهم يلعنون ويعانون ويقتلون أراد أن يبين حالهم في الآخرة فذكرهم بالقيامة وذكر ما يكون لهم فيها فقال يسئلك الناس عن الساعة أي عن وقت القيامة قل انما علمها عند الله لا يتبين لكم فان الله أخفاها لحكمة هي امتناع المكلف عن الاجتراء وخوفهم منها في كل وقت * ثم قال تعالى (وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا) اشارة الى التخويف وذلك لان قول القائل الله يعلم متى يكون الامر انما يفيد عن ابطاء الامر الا ترى أن من يطالب مديونا بحقه فان استمهله شهرا أو شهرين ربما يصبر ذلك وان قال له اصبر الى أن يقدم فلان من سفره يقول الله يعلم متى يجيء فلان ويمكن أن يكون مجيء فلان قبل انقضاء تلك المدة فقال ههنا وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا يعني هي في علم الله فلا تستبطؤها فربما تقع عن قريب والقريب فعيل يستوي فيه المذكر والمؤنث قال تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين وانما قال لعل الساعة تكون قريبة * ثم قال تعالى (ان الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيرا خالدين فيها أبدا) يعني كما انهم ملعونون في الدنيا عند كم كذلك ملعونون عند الله وأعد لهم سعيرا كما قال تعالى لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذابا مهينا خالدين فيها أبدا ماطلين المكث فيها مستمرين لا أمد لخروجهم * وقوله (لا يجدون وليا ولا نصيرا) لما ذكر خلودهم بين تحقيقه وذلك لان المعذب لا يخلصه من العذاب الا صديق يشفع له أو ناصر يدفع عنه ولا ولي لهم يشفع ولا نصير يدفع * ثم قال تعالى (يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا وقالوا ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كثيرا) لما بين انه لا شفيع لهم يدفع عنهم العذاب بين ان بعض أعضائهم أيضا لا يدفع العذاب عن البعض بخلاف عذاب الدنيا فان الانسان يدفع عن وجهه الضربة اتقاء بيده فان من يقصد رأسه ووجهه تجده يجعل يده جنة أو يطأطئ رأسه كي لا يصيب وجهه وفي الآخرة تقلب وجوههم في النار فاظنك بسائر اعضائهم التي تجعل جنة للوجه ووقاية له يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا فيتحسرون ويندمون حيث لا تغنيهم الندامة والحسرة لحصول علمهم بأن الخلاص ليس الا للمطيع ثم يقولون انا أطعنا ساداتنا وكبراءنا يعني بدل طاعة الله تعالى أطعنا السادة وبدل طاعة الرسول أطعنا الكبراء ترکنا طاعة سيد السادات وأكبر الاكابر فبدلنا الخير بالشر فلا جرم فاتنا خير الجنان وأوتينا شر النيران ثم انهم يطلبون بعض التشفي بتعذيب المضلين ويقولون ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كثيرا أي بسبب ضلالهم واضلالهم وفي قوله تعالى ضعفين ولعنا كثيرا معنى لطيف وهو ان الدعاء لا يكون الا عند عدم حصول الامر المدعو به والعذاب كان حاصلا لهم واللعن كذلك فطلبوا ما ليس بحاصل وهو زيادة العذاب بقولهم ضعفين وزيادة اللعن

يد الله مغلولة وثالث ثلاثة والمسيح ابن الله والملائكة بنات الله والاصنام شركاؤه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا وقيل قول الذين يلحدون في آياته (في ايذاء الرسول عليه الصلاة والسلام هو قولهم شاعر ساحر كاهن مجنون وقيل هو كسر رباعيته وشج وجهه الكريم يوم أحد وقيل طعنهم في نكاح صفية والحق هو العموم فيهما وايذاؤه عليه الصلوة السلام خاصة بطريق الحقيقة وذكر الله عزوجل لتعظيمه والايذان بجلالة مقداره عنده تعالى وأن ايذاءه عليه الصلاة والسلام ايذاء له سبحانه (لعنهم الله) طردهم وأبعدهم من رحمته (في الدنيا والآخرة) بحيث لا يكادون ينالون فيهما شيئا منها (وأعدلهم) مع ذلك (عذابا مهينا) يصيبهم في الآخرة خاصة ﴿ ٨٠١ ﴾ (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات) يفعلون بهم ما يتأذون به من قول أو فعل وتقييده بقوله تعالى (بغير ما اكتسبوا) أي بغير جناية يستحقون بها الاذية بعد اطلاقه فيما قبله للايذان بان اذى الله ورسوله لا يكون الا غير حق وأما أذى هؤلاء فمنه (فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا) أي ظاهرا بينا قيل انها نزلت في منافقين كانوا يؤذون عليه رضي الله عنه ويسمعونه ما لا خير فيه وقيل في أهل الافك وقال الضحاك والكلبي في زناة يتبعون النساء اذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن وكانوا لا يتعرضون الا للاماء ولكن ربما كان يقع منهم التعرض للحرائر أيضا جهلا أو تجاهلا لاتحاد الكل في الزي واللباس والظاهر عمومه لكل ما ذكر ولما سيأتي من أوامر حيف المرجفين (يا أيها النبي) بعدما بين سوء حال المؤذين زجرا لهم عن الايذاء أمر النبي عليه الصلاة والسلام بأن يأمر بعض ﴿ ٨٠١ ﴾ من المتأذين منهم بما يدفع ايذاءهم في الجملة من الستر والتمييز عن مواقع الايذاء فقيل (قل لازواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) الجلباب ثوب أوسع من الخمار ودون الرداء تلويه المرأة على رأسها وتبقى منه ما ترسله على صدرها وقيل هي الملحفة وكل ما يستر به أي يغطين بها وجوههن وأبدانهن اذا برزن لداعية من الدواعي ومن للتبعيض لما مر من أن المعهود التلفع ببعضها وارخاء بعضها وعن السدي تغطي احداهن عينها وجبهتها والشق الآخر الا العين (ذلك) أي ما ذكر من التغطي (أدنى) أقرب (أن يعرفن) ويميزن عن الاماء والقيناف اللاتي

يقولهم لعنا كثيرا * ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا) لما بين الله تعالى ان من يؤذي الله ورسوله يلعن ويعذب وكان ذلك اشارة الى ايذاء هو كفر أرشد المؤمنين الى الامتناع من ايذاء هو دونه وهو لا يورث كفرا وذلك مثل من لم يرض بقسمة النبي عليه السلام وبحكمه بالبعض وغير ذلك فقال يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى وحديث ايذاء موسى مختلف فيه قال بعضهم هو ايذاؤهم اياه بنسبته الى عيب في بدنه وقال بعضهم قارون قرر مع امرأة فاحشة حتى تقول عند بني اسرائيل ان موسى زنى بي فلما جمع قارون القوم وأتى المرأة حاضرة ألقى الله في قلبها انها صدقت ولم تقل ما قلت بل بالجملة الايذاء المذكور في القرآن كاف وهو انهم قالوا له اذهب انت وربك فقاتلا وقولهم لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة وقولهم لن نصبر على طعام واحد الى غير ذلك فقال للمؤمنين لا تكونوا أمثالهم اذا طلبكم الرسول الى القتال اي لا تقولوا اذهب أنت وربك فقاتلا ولا تسألوا ما لم يؤذن لكم فيه واذا أمركم الرسول بشيء فأتوا منه ما استطعتم وقوله فبرأه الله مما قالوا على الاول ظاهر لانه أبرز جسمه لقومه فرأوه وعلموا فساد اعتقادهم ونطقت المرأة بالحق وأمر الملائكة حتى غيروا بهرون عليهم فرأوه غير مجروح فعلموا براءة موسى عليه السلام عن قتله الذي رموه به وعلى ما ذكرنا فبرأه الله مما قالوا أي أخرجه عن عهدة ما طلبوا باعطائه البعض اياهم واظهاره عدم جواز البعض وبالجملة قطع الله حجتهم ثم ضرب عليهم الذلة والمسكنة وغضب عليهم * وقوله (وكان عند الله وجيها) أي ذا وجاهة ومعرفة والوجيه هو الرجل الذي يكون له وجه أي يكون معروفا بالخير وكل أحد وان كان عند الله معروفا لكن المعرفة المجردة لا تكفي في الوجاهة فان من عرف غيره لكونه خادما له وأجيرا عنده لا يقال هو وجيه عند فلان وانما الوجيه من يكون له خصال حميدة تجعل من شأنه أن يعرف ولا ينكر وكان كذلك * ثم قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم) أرشدهم الى ما ينبغي أن يصدر منهم من الافعال والاقوال. اما الافعال فالخير واما الاقوال فالحق لان من اتى بالخير وترك الشر فقد اتقى

عن مواقع تعرضهم وايذائهم (فلا يؤذين) من جهة أهل الريبة بالتعرض لهن (وكان الله غفورا) لما سلف منهن من التفريط (رحيما) بعباده حيث يراعى من مصالحهم أمثال هاتيك الجزئيات (لئن لم ينته المنافقون) عما هم عليه من النفاق وأحكامه الموجبة للايذاء (والذين فى قلوبهم مرض) عما هم عليه من التزلزل ومايستتبعه مما لاخير فيه (والمرجفون فى المدينة) من الفريقين عما هم عليه من نشر أخبار السوء عن سرايا المسلمين وغير ذلك من الاراجيف الملفقة المستتبعة للاذية وأصل الارجاف التحريك من الرجفة التى هى الزلزلة وصفت به الاخبار الكاذبة لكونها متزلزلة غير ثابتة (لنغرينك بهم) لنأمرنك بقتالهم واجلائهم او بايضطارهم الى الجلاء ولنحرضنك ﴿ ٨٠٢ ﴾ على ذلك (ثم لايجاورونك) عطف على جواب القسم وثم للدلالة على أن الجلاء ومفارقة جوار الرسول عليه الصلاة والسلام أعظم مايصيبهم (فيها) اى فى المدينة (الا قليلا) زمانا او جورا قليلا ريثما يتبين حالهم من الانتهاء وعدمه (ملعونين) نصب على الشتم او الحال على أن الاستثناء وارد عليه أيضا على رأى من يجوزه كما مر فى قوله تعالى غير ناظرين اناه ولا سبيل الى انتصابه عن قوله تعالى (اينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا) لان ما بعد كلمة الشرط لايعمل فيما قبلها (سنة الله فى الذين خلوا من قبل) أى سن الله ذلك فى الامم الماضية سنة وهى أن يقتل الذين نافقوا الانبياء عليهم الصلاة والسلام وسعوا فى توهين أمرهم بالارجاف ونحوه أينما ثقفوا (ولن تجد لسنة الله تبديلا) أصلا لابتنائها على أساس الحكمة التى عليها يدور فلك التشريع (يسألك الناس عن الساعة) أى عن وقت قيامها كما ان المشركون ﴿ يسألونه عليه الصلاة والسلام عن ذلك استعجالا بطريق الاستهزاء واليهود امتحانا لما أن الله تعالى عمى وقتها فى التوراة وسائر الكتب (قل انما علمها عند الله) لايطلع عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا وقوله تعالى (وما يدريك) خطاب مستقل له عليه الصلاة والسلام غير داخل تحت الامر مسوق لبيان أنها مع كونها غير معلومة للخلق مرجوة المجئ عن قريب أى اى شئ يعلمك بوقت قيامها أى لايعلمك به شئ أصلا (لعل الساعة تكون قريبا) اى شيئا قريبا أو تكون الساعة فى وقت قريب وانتصابه على الظرفية ويجوز أن يكون

الله ومن قال الصدق قال قولا سديدا ثم وعدهم على الامرين بأمرين على الخيرات باصلاح الاعمال فان بتقوى الله يصلح العمل والعمل الصالح يرفع ويبقى فيبقى فاعله خالدا فى الجنة وعلى القول السديد يغفر الذنوب * ثم قال تعالى (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) فطاعة الله هى طاعة الرسول ولكن جمع بينهما للبيان شرف فعل المطيع فانه بفعله الواحد اتخذ عند الله عهدا وعند الرسول يدا وقوله فقد فاز فوزا عظيما جعله عظيما من وجهين (احدهما) انه من عذاب عظيم والنجاة من العذاب تعظيم بعظم العذاب حتى ان من أراد أن يضرب غيره سوطا ثم نجا منه لايقال فاز فوزا عظيما لان العذاب الذى نجا منه لو وقع ما كان يتفاوت الامر تفاوتا كثيرا (والثانى) انه وصل الى ثواب كثير وهو الثواب الدائم الابدى * ثم قال تعالى (انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا) لما أرشد الله المؤمنين الى مكارم الاخلاق وأدب النبى عليه السلام بأحسن الآداب بين أن التكليف الذى وجهه الله الى الانسان أمر عظيم فقال انا عرضنا الامانة أى التكليف هو الامر بخلاف مافى الطبيعة واعلم أن هذا النوع من التكليف ليس فى السموات ولا فى الارض لان الارض والجبل والسماء كلها على ماخلقت عليه الجبل لايطلب منه السير والارض لايطلب منها الصعود ولا من السماء الهبوط ولا فى الملائكة لان الملائكة وان كانوا مأمورين منهيين عن أشياء لكن ذلك لهم كالاكل والشرب لنا فيسبحون الليل والنهار لايفترون كما يشتغل الانسان بأمر موافق لطبعه وفى الآية مسائل (الاولى) فى الامانة وجوه كثيرة منها من قال هو التكليف وسمى أمانة لان من قصر فيه فعليه الغرامة ومن وفر فله الكرامة ومنهم من قال هو قول لا اله الا الله وهو بعيد فان السموات والارض والجبال بأسرها طائفة بأن الله واحد لا اله الا هو ومنهم من قال الاعضاء فالعين أمانة ينبغى أن يحفظها والاذن كذلك واليد كذلك والرجل والفرج واللسان ومنهم من قال معرفة الله بما فيها والله أعلم (المسئلة الثانية) فى العرض وجوه منهم من قال المراد العرض ومنهم من قال الحشر ومنهم من قال المقابلة أى تأبينا الامانة

التذكير باعتبار أن الساعة في معنى اليوم أو الوقت وفيه تهديد للمستعجلين وتبكيت للمنعتين والاظهار في حيز الاضمار للتهويل وزيادة التقرير وتأكيد استقلال الجملة كما أشير اليه (ان الله لعن الكافرين) عنى الاطلاق أي طردهم وأبعدهم من رحمته العاجلة والآجلة (وأعدلهم) مع ذلك (سعيرا) نارا شديدة الاتقاد يقاسونها في الآخرة (خالدين فيها أبدا لا يجدون وليا) يحفظهم (ولا نصيرا) يخلصهم منها (يوم تقلب وجوههم في النار) ظرف لعدم الوجدان وقيل لخالدين وقيل لنصيرا وقيل مفعول لاذكر أي يوم تصرف وجوههم فيها من جهة الى جهة كلحم يشوى في النار أو يطبخ في القدر فيدور به الغليان من جهة الى جهة أو من حال الى حال ﴿٨٠٣﴾ أو يطرحون فيها مقلوبين منكوسين وقرئ تقلب بحذف احدى التاءين من تتقلب وتقلب باسناد الفعل الى نون العظمة ونصب وجوههم وتقلب باسناده الى السعير وتخصيص الوجوه بالذكر لما أنها أكرم الاعضاء ففيه مزيد تفظيع للامر وتهويل للخطب ويجوز أن تكون عبارة عن كل الجسد فقوله تعالى (يقولون) استئناف مبني على سؤال نشأ من حكاية حالهم الفظيعة كأنه قيل فماذا يصنعون عند ذلك فقيل يقولون متحسرين على ما فاتهم (يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) فلا نبتلى بهذا العذاب أو حال من ضمير وجوههم أو من نفسها أو هو العامل في يوم (وقالوا) عطف على يقولون والعدول الى صيغة الماضي للايذان بان قولهم هذا ليس مستأنفا كقولهم السابق بل هو ضرب اعتذار أرادوا به ضربا من التشفي بمضاعفة عذاب الذين أغووهم في تلك الورطة وان علموا عدم قبوله في حق خلاصهم منها (ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا) يعنون قادتهم الذين اغتروهم الكفر وقرئ ساداتنا للدلالة على الكثرة والتعبير عنهم بعنوان السيادة والكبر لتقوية الاعتذار والاشعار في مقام التحقير والاهانة (فاضلونا السبيلا) بما زينوا لنا من الاباطيل والالف للاطلاق كما في وأطعنا الرسولا (ربنا آتهم ضعفين من العذاب) اي مثلي العذاب الذي آتيتناه لانهم ضلوا وأضلوا (والعنهم لعنا كبيرا) أي شديدا عظيما وقرئ كثيرا وتصدير الدعاء بالنداء مكرر للمبالغة في الجؤار واستدعاء الاجابة (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى) قيل نزلت

على السموات فرجحت الامانة على أهل السموات والارض (المسئلة الثالثة) في السموات والارض وجهان (أحدهما) أن المراد هي بأعيانها (والثاني) المراد أهلوها ففيه اضمار تقديره انا عرضنا الامانة على أهل السموات والارض (المسئلة الرابعة) قوله فابين أن يحملنها لم يكن ابوءا عن كاباء ابليس في قوله تعالى فأبى أن يكون مع الساجدين من وجهين (أحدهما) ان هناك السجود كان فرضا وههنا الامانة كانت عرضا (وثانيهما) ان الاباء كان هناك استكبارا وههنا استصغارا استصغرن أنفسهن بدليل قوله وأشفقن منها (المسئلة الخامسة) ما سبب الاشفاق نقول الامانة لا تقبل لوجوه (أحدها) أن يكون عزيزا صعب الحفظ كالاواني من الجواهر التي تكون عزيزة سريعة الانكسار فان العاقل يمتنع عن قبولها ولو كانت من الذهب والفضة لقبلها ولو كانت من الزجاج لقبلها في الاول لامانه من هلاكها وفي الثاني لكونها غير عزيزة الوجود والتكليف كذلك (والثاني) أن يكون الوقت زمان نهب وغارة فلا يقبل العاقل في ذلك الوقت الودائع والامر كان كذلك لان الشيطان وجنوده كانوا في قصد المكلفين اذا العرض كان بعد خروج آدم من الجنة (الثالث) مراعاة الامانة والاتيان بما يجب كايداع الحيوانات التي تحتاج الى العلف والسقي موضع مخصوص يكون برسمها فان العاقل يمتنع من قبولها بخلاف متاع يوضع في صندوق أو في زاوية بيت والتكليف كذلك فانه يحتاج الى تربية وتنمية (المسئلة السادسة) كيف حملها الانسان ولم تحملها هذه الاشياء فيه جوابان (أحدهما) بسبب جهله بما فيها وعلمهن ولهذا قال تعالى انه كان ظلوما جهولا (والثاني) ان الاشياء نظرت الى أنفسهن فرأين ضعفهن فامتنعن والانسان نظر الى جانب المكلف وقال المودع عالم قادر لا يعرض الامانة الا على أهلها واذا أودع لا يتركها بل يحفظها بعينه وعونه فقبلها وقال اياك نعبد واياك نستعين (المسئلة السابعة) قوله تعالى انه كان ظلوما جهولا فيه وجوه (أحدها) ان المراد منه آدم ظلم نفسه بالمخالفة ولم يعلم ما يعاقب عليه من الاخراج من الجنة (ثانيها) المراد الانسان يظلم بالعصيان ويجهل ما عليه من العقاب (ثالثها) انه كان ظلوما جهولا أي كان من شأنه الظلم والجهل يقال

فى شان زيد وزينب وما سمع فيه من قالة الناس (فبرأه الله مما قالوا) أى فاظهر براءته عليه الصلاة والسلام مما قالوا فى حقه أى من مضمونه ومؤداه الذى هو الامر المعيب وذلك أن قارون أغرى مومسة على قذفه عليه الصلاة والسلام بنفسها بان دفع اليها مالا عظيما فاظهر الله تعالى نزاهته عليه الصلاة والسلام عن ذلك بان أقرت المومسة بالصانعة الجارية بينها وبين قارون وفعل بقارون ما فعل كما فصل فى سورة القصص وقيل اتهمه ناس بقتل هرون عند خروجه معه الى الطور فمات هناك فحملته الملائكة ومروا به حتى رأوه غير مقتول وقيل احياه الله تعالى فاخبرهم ببراءته وقيل قذفوه بعيب فى بدنه من برص أو ادرة لفرط تستره حياء فاطلعهم الله تعالى على براءته بان فر الحجر بثوبه حين ﴿ ٨٠٤ ﴾ وضعه عليه عند اغتساله والقصة مشهورة (وكان عند الله وجيها) ذا قربة ووجاهة وقرئ وكان عبد الله وجيها (يا ايها الذين آمنوا اتقوا الله) اى فى كل ما تأتون وما تذرون لاسيما فى ارتكاب ما يكرهه فضلا عما يؤذى رسوله عليه الصلاة والسلام (وقولوا) فى كل شان من الشؤن (قولا سديدا) قاصدا الى الحق من سدد سدادا يقال سدد اسهمه نحو رمية اذا لم يعدل به عن سمتها والمراد نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب الجائر عن العدل والقصد (يصلح لكم أعمالكم) يوفقكم للاعمال الصالحة او يصلحها بالقبول والاثابة عليها (ويغفر لكم ذنوبكم) ويجعلها مكفرة باستقامتكم فى القول والعمل (ومن يطع الله ورسوله) فى الاوامر والنواهى التى من جملتها هذه التكليفات (فقد فاز) فى الدارين (فوزا عظيما) لا يبلغ قدره ولا يبلغ غايته (انا عرضنا الامانة على السموات والارض والجبال ﴿ فابين أن يحملنها وأشفقن منها) مابين عظم شان طاعة الله ورسوله ببيان ما آل الخارجين عنها من العذاب الاليم ومثل المراعين لها من الفوز العظيم عقب ذلك ببيان عظم شان ما يوجبها من التكاليف الشرعية وصعوبة أمرها بطريق التمثيل مع الايذان بان ما صدر عنهم من الطاعة وتركها صدر عنهم بعد القبول والالتزام وعبر عنها بالامانة تنبيها على أنها حقوق مرعية أودعها الله تعالى المكلفين وائتمنهم عليها وأوجب عليهم تلقيها بحسن الطاعة والانقياد وأمرهم برعايتها

فرس شموس وداية جموع ومايطور أى من شأنه ذلك فكذلك الانسان من شأنه الظلم والجهل فما أودع الامانة بقى بعضهم على ما كان عليه وبعضهم ترك الظلم كما قال تعالى الذين امنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم وترك الجهل كما قال تعالى فى حق آدم عليه السلام وعلم آدم الاسماء كلها وقال فى حق المؤمنين عامة والراسخون فى العلم يقولون آمنا به وقال تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء (رابعها) انه كان ظلوما جهولا فى ظن الملائكة حيث قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها و بين علمه عندهم حيث قال تعالى أنبئونى بأسماء هؤلاء وقال بعضهم فى تفسير الآية ان المخلوق على قسمين مدرك وغير مدرك والمدرك منه من يدرك الكلى والجزئى مثل الآدمى ومنه من يدرك الجزئى كالبهائم تدرك الشعير الذى تأكله ولا تتفكر فى عواقب الامور ولا تنظر فى الدلائل والبراهين ومنه من يدرك الكلى ولا يدرك الجزئى كالملك يدرك الكليات ولا يدرك لذة الجماع والاكل قالوا والى هذا اشار الله تعالى بقوله ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء فاعترفوا بعدم علمهم بتلك الجزئيات والتكليف لم يكن الاعلى مدرك الامرين اذ له لذات بأمور جزئية فمنع منها لتحصيل لذات حقيقتها هى مثل لذة الملائكة بعبادة الله ومعرفته واما غيره فان كان مكلفا يكون مكلفا لا بمعنى الامر بما فيه عليهم كلفة ومشقة بل بمعنى الخطاب فان المخاطب يسمى مكلفا لما ان التكليف مخاطب فسمى المخاطب مكلفا . فى الآية لطائف (الاولى) الامانة كان عرضها على آدم فقبلها فكان أمينا عليها والقوى قول الامين فهو فاز بقى أولاده أخذوا الامانة منه والآخذ من الامين ليس بمؤتمن ولهذا وارث المودع لا يكون القول قوله ولم يكن له بد من تجديد عهد وائتمان فالمؤمن اتخذ عند الله عهدا فصار أمينا من الله فصار القول قوله فكان له ما كان لآدم من الفوز ولهذا قال تعالى ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات أى كما تاب على آدم فى قوله تعالى فتاب عليه والكافر صار اخذا الامانة من المؤتمن فبقى فى ضمانه ثم ان المؤمن اذا أصاب الامانة فى يده شئ بقضاء الله وقدره كان ذلك من غير تقصير منه والامين لا يضمن ما فات بغير تقصير والكافر اذا أصاب الامانة فى يده شئ ضمن وان كان بقضاء الله وقدره لانه يضمن ما فات وان

والمحافظة عليها وأدائها من غير اخلال بشئ من حقوقها وعبر عن اعتبارها بالنسبة الى استعداد ماذكر من السموات وغيرها بالعرض عليهن لاظهار مزيد الاعتناء بامرها والرغبة فى قبولهن اياها وعن عدم استعدادهن لقبولها بالاباء والاشفاق منها تهويل أمرها وتربية فخامتها وعن قبولها بالحمل لتحقيق معنى الصعوبة المعتبرة فيها بجعلها من قبيل الاجسام الثقيلة التى يستعمل فيها القوى الجسمانية التى أشدها وأعظمها مافيهن من القوة والشدة والمعنى ان تلك الامانة فى عظم الشان بحيث لو كلفت هاتيك الاجرام العظام التى هى مثل فى القوة والشدة مراعاتها وكانت ذات شعور وادراك لأبين قبولها وأشفقن ﴿ ٨٠٥ ﴾ منها ولكن صرف الكلام عن سننه بتصوير المفروض بصورة المحقق ورؤما لزيادة تحقيق المعنى المقصود بالتمثيل وتوضيحه (وحملها الانسان) أى عند عرضها عليه اما باعتبارها بالاضافة الى استعداده أو بتكليفه اياها يوم الميثاق أى تكلفها والتزامها مافيه من ضعف بالبنية ورخاوة القوة وهو اما عبارة عن قبوله لها بموجب استعداده الفطرى أو عن اعترافه بقوله بلى وقوله تعالى (انه كان ظلوما جهولا) اعتراض وسط بين الحمل وغايته للايذان من أول الامر بعدم وفائه بما عهد وتحمله أى انه كان مفرطا فى الظلم مبالغا فى الجهل أى بحسب غالب أفراده الذين لم يعملوا بموجب فطرتهم السنية أو اعترافهم السابق دون من عداهم من الذين ما بدلوا فطرة الله تبديلا والى الفريق الاول أشير بقوله عز وجل (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) أى حملها الانسان ليعذب بعض الله أفراده الذين لم يراعوها ولم يقابلوها بالطاعة على أن اللام للعاقبة فان التعذيب وان لم يكن غرضا له من الحمل لكن لما ترتب عليه بالنسبة الى بعض أفراده ترتب الاغراض على الافعال المعللة بها أبرز فى معرض الغرض اى كان عاقبة حمل الانسان لها أن يعذب الله تعالى هؤلاء من افراده لخيانتهم الامانة وخروجهم عن الطاعة بالكلية والى الفريق الثانى اشير بقوله تعالى (ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) اى كان عاقبة حمله لها ان يتوب الله تعالى على هؤلاء من افراده اى يقبل توبتهم لعدم خلعهم ربقة الطاعة عن رقابهم بالمرة وتلافيهم لما فرط منهم من فرطات فما يخلو عنها الانسان بحكم جبلته وتداركهم لها

لم يكن بتقصير (اللطيفة الثانية) خص الاشياء الثلاثة بالذكر لانها أشد الامور وأثقلها بالاثقال اما السموات فلقوله تعالى وخلقنا فوقكم سبعا شدادا والارض والجبال لاتخفى شدتها وصلابتها ثم ان هذه الاشياء لما كانت لها شدة وصلابة عرض الله تعالى الامانة عليها واكتفى بشدتهم وقوتهن فامتنعن من ان كن اقوياء انها أمانة الله تعالى فوق قوتهن وحملها الانسان مع ضعفه الذى قال الله تعالى فيه وخلق الانسان ضعيفا ولكن وعده بالاعانة على حفظ الامانة بقوله ومن يتوكل على الله فهو حسبه فان قيل فالذى يعينه الله تعالى كيف يعذب فلم يعذب الكافر نقول قال الله تعالى انا أعين من يعينني ويتوكل على والكافر لم يرجع الى الله تعالى فتركه مع نفسه فبقى فى عهدة الامانة (اللطيفة الثالثة) قوله تعالى فأبين أن يحملنها وقوله تعالى وحملها الانسان اشارة الى أن فيه مشقة بخلاف ما لو قال فأبين أن يقبلنها وقبلها الانسان ومن قال لغيره افعل هذا الفعل فان لم يكن فى الفعل تعب يقابل بأجرة فان فعله لايستحق أجرة فقال تعالى وحملها اشارة الى انه مما يستحق الاجر عليه أى على مجرد حمل الامانة واما على رعايتها حق رعايتها فيستحق الزيادة فان قيل فالكل حملوها غاية مافى الباب ان الكافر لم يأت بشئ يزاد على الحمل فينبغى أن يستحق الاجر على الحمل فنقول الفعل اذا كان على وفق الاذن من المالك الآمر يستحق الفاعل الاجرة الا ترى انه لو قال احمل هذا الى الضيعة التى على الشمال فحمل ونقلها الى الضيعة التى على الجنوب لايستحق الاجرة وبانه ردها الى الموضع الذى كان فيه كذلك الكافر حملها على غير وجه الاذن فغرم وزالت حسناته التى تحملها بسببه ﴿ ثم قال تعالى (ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) أى حملها الانسان ليقع تعذيب المنافق والمشرك فان قال قائل لم قدم التعذيب على التوبة نقول لما سمى التكليف امانة والامانة من حكمها اللازم ان الخائن يضمن وليس من حكمها اللازم ان الامين الباذل جهده يستفيد أجرة فكان التعذيب على الخيانة كاللازم والاجر على الحفظ احسان والعدل قبل الاحسان وفيه مسئلتان (المسئلة الاولى) لم عطف المشرك على المنافق ولم يعد اسمه

المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات) أى حملها الانسان ليعذب بعض الله أفراده الذين لم يراعوها ولم يقابلوها بالطاعة على أن اللام للعاقبة فان التعذيب وان لم يكن غرضا له من الحمل لكن لما ترتب عليه بالنسبة الى بعض أفراده ترتب الاغراض على الافعال المعللة بها أبرز فى معرض الغرض اى كان عاقبة حمل الانسان لها أن يعذب الله تعالى هؤلاء من افراده لخيانتهم الامانة وخروجهم عن الطاعة بالكلية والى الفريق الثانى اشير بقوله تعالى (ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) اى كان عاقبة حمله لها ان يتوب الله تعالى على هؤلاء من افراده اى يقبل توبتهم لعدم خلعهم ربقة الطاعة عن رقابهم بالمرة وتلافيهم لما فرط منهم من فرطات فما يخلو عنها الانسان بحكم جبلته وتداركهم لها

بالتوبة والانابة والالتفات الى الاسم الجليل اولا تهويل الخطب وتربية المهابة والاظهار في موقع الاضمار ثانيا لابراز مزيد الاعتناء بامر المؤمنين توفية لكل من مقامي الوعيد والوعد حقه والله تعالى اعلم وبجعل الامانة التي شأنها ان تكون من جهته تعالى عبارة عن الطاعة التي هي من أفعال المكلفين اتابعة للتكليف بمعزل من التقريب وحمل الكلام على تقرير الوعد الكريم الذي يلي عند قوله تعالى ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما بجعل تعظيم شأن الطاعة ذريعة الى ذلك بان من قام بحقوق مثل هذا الامر العظيم الشان وراعاها فهو جدير بان يفوز بخير الدارين يأباه وصفه بالظلم والجهل أولا وتعليل الحمل بتعذيب فريق والتوبة على فريق ﴿ ٨٠٦ ﴾ ثانيا وقيل المراد بالامانة مطلق الانقياد الشامل للطبيعي والاختياري وبعرضها استدعاؤها الذي يعم طلب الفعل من المختار وارادة صدوره من غيره ويحملها الخيانة فيها والامتناع عن ادائها فيكون الاباء امتناعا عن الخيانة واتيانا بالمراد فالمعنى ان هذه الاجرام مع عظمها وقوتها أبين الخيانة لامانتها واتين بما أمرنا هن به كقوله تعالى أتينا طائعين وخانها الانسان حيث لم يأت بما أمرناه به انه كان ظلوما جهولا وقيل انه تعالى لما خلق هذه الاجرام خلق فيها فهما وقال لها اني فرضت فريضة وخلقت جنة لمن اطاعني فيها ونارا لمن عصاني فقلن نحن مسخرات لما خلقتنا لانحتمل فريضة ولا نبغي ثوابا ولا عقابا ولما خلق آدم عليه السلام عرض عليه مثل ذلك فحمله وكان ظلوما لنفسه بحمله مايشق عليه جهولا بوخامة عاقبته وقيل المراد بالامانة العقل او التكليف وبعرضها عليهن اعتبارها بالاضافة الى استعدادهن وبإبائهن الاباء الطبيعي الذي هو عدم اللياقة والاستعداد لها وبحمل الانسان قابليته واستعداده لها وكونه ظلوما جهولا لما غلبت عليه من القوة الغضبية والشهوية هذا قريب من التحقيق فتأمل والله الموفق وقرئ ويتوب الله على الاستئناف (وكان الله غفورا رحيما) مبالغا في المغفرة والرحمة حيث تاب عليهم وغفر لهم فرطاتهم وثاب بالغفران على ظلمهم * قال عليه الصلاة والسلام من قرأ سورة الاحزاب وعلمها اهله وما ملكت يمينه اعطي الامان من عذاب القبر والله اعلم

تعالى فلم يقل ويعذب الله المشركين وعند التوبة أعاد اسمه وقال ويتوب الله ولو قال ويتوب على المؤمنين كان المعنى حاصلا بقول أراد تفضيل المؤمن على المنافق فجعله كالكلام المستأنف ويجوز ذكر الفاعل فقال ويتوب الله ويحقق هذا قراءة من قرأ ويتوب الله بالرفع (المسئلة السبعون) ذكر الله في الانسان وصفين الظلوم والجهول وذكر من أوصافه وصفين فقال (وكان الله غفورا رحيما) اى كان عفورا للظلوم رحيما على الجهول وذلك لان الله تعالى وعد عباده بانه يغفر الظلم جميعه الا الظلم العظيم الذي هو الشرك كما قال تعالى ان الشرك لظلم عظيم واما الوعد فقوله تعالى ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء واما الرحمة على الجهل فلان الجهل محل الرحمة ولذلك يعتذر المسيء بقوله ماعلمت (ههنا لطيفة) وهي ان الله تعالى اعلم عبده بأنه غفور رحيم وبصره بنفسه فرآه ظلوما جهولا ثم عرض عليه الامانة فقبلها مع ظلمه وجهله لعله فيما يجبرها من الغفران والرحمة والله اعلم

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد النبي الامي وآله

﴿ تم الجزء السادس ويليه الجزء السابع أوله سورة سبأ ﴾